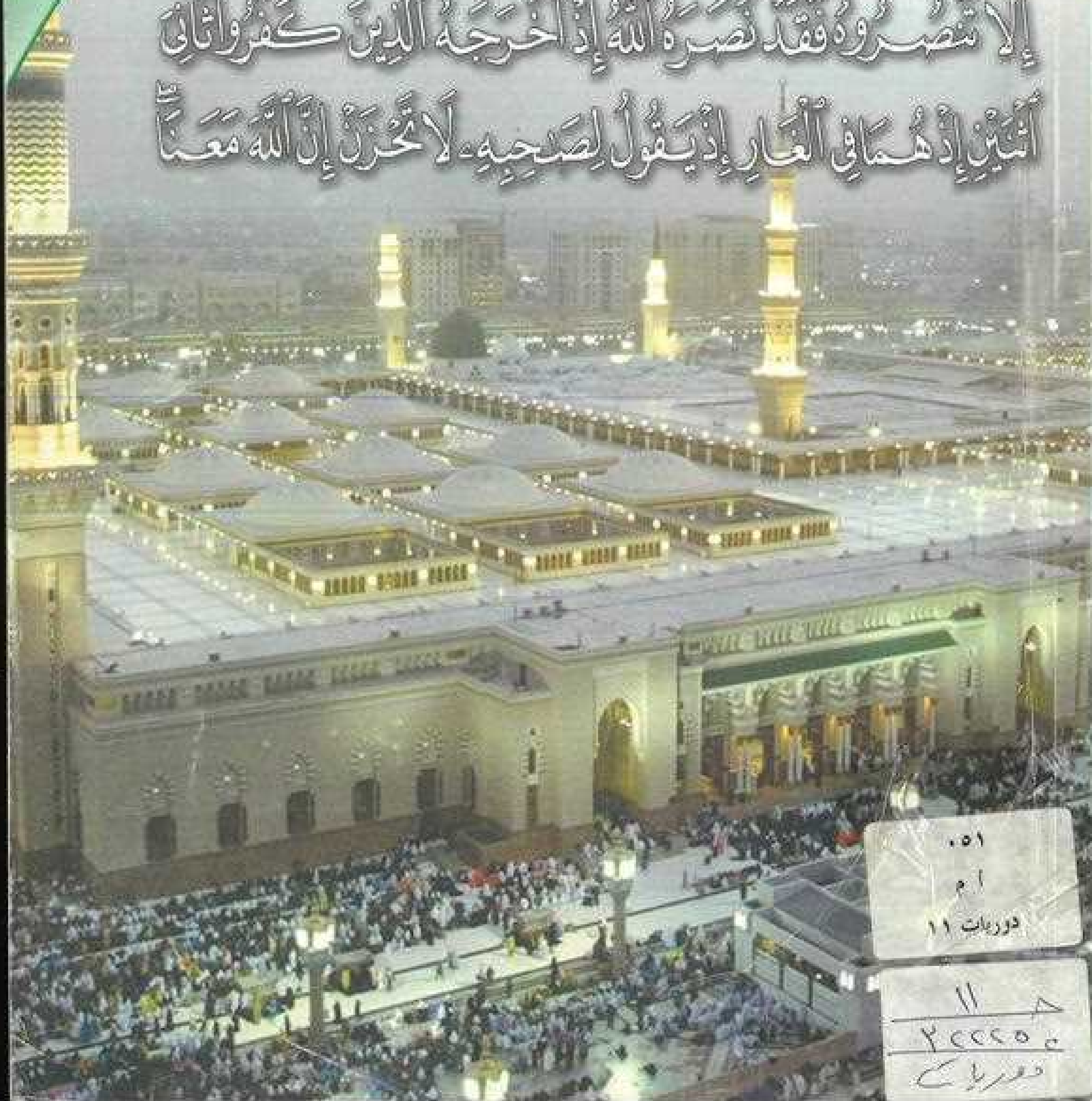
الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية

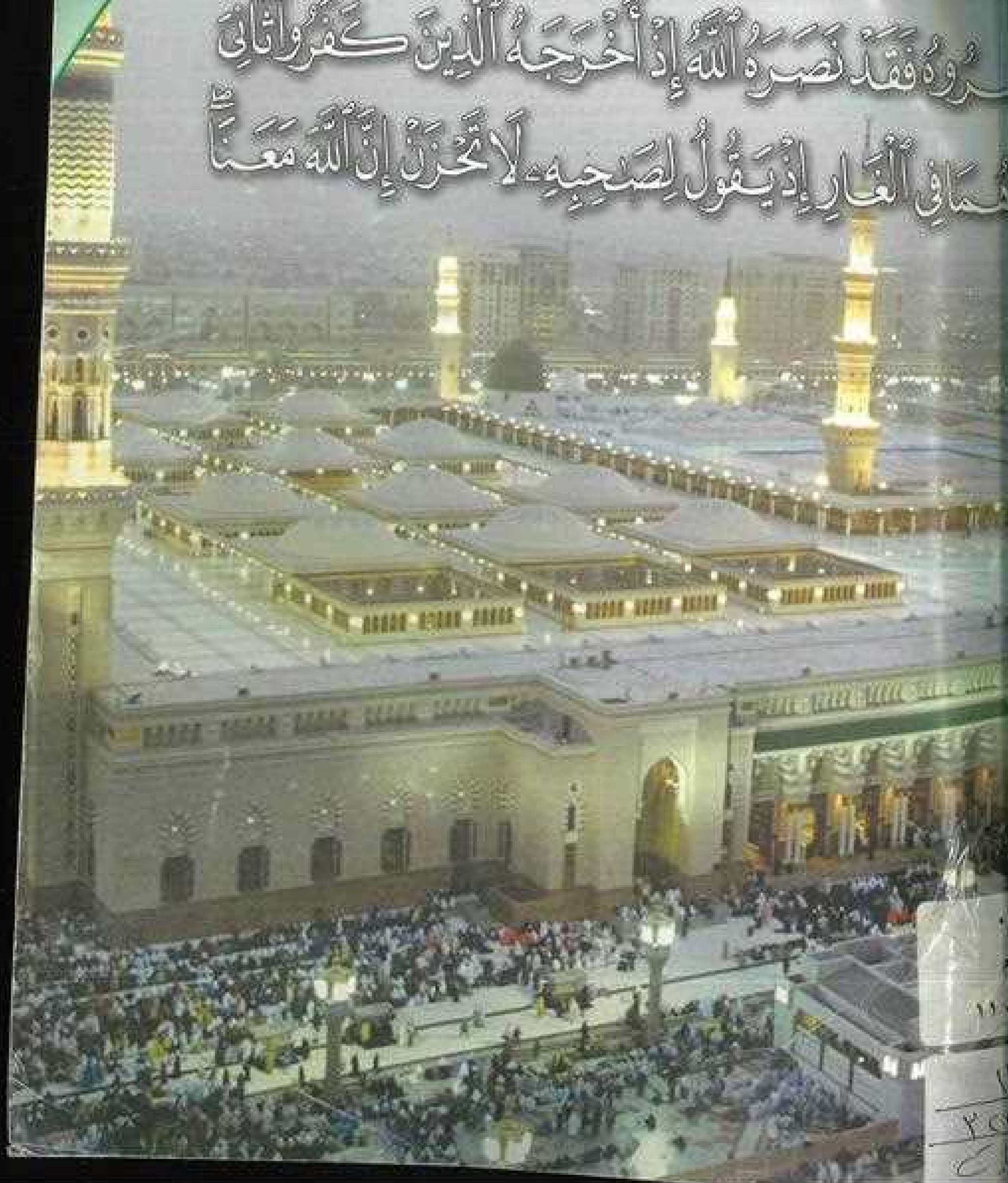
هدية العدد

ما يقال عن الإسلام

(الجزء الأول)



هدية العدد
ما يُقال عن الإسلام
(الجزء الأول)

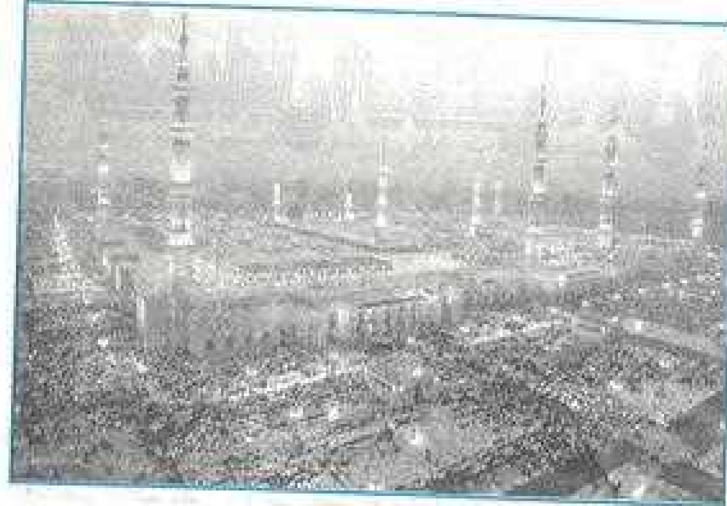


AL AZHAR MAGAZINE

Al-Muharram, 1432 A.H. Dec. 2010,
Vol. 84, Part I.

بسم الله الرحمن الرحيم

داخل العدد





الأزهر

مجلة شهرية جامعة
يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف فى مطلع كل شهر عربى
تأسست عام ١٣٤٩هـ - ١٩٣١م

رئيس التحرير
أ.د. محمد رجب البيومى

مدير التحرير
عادل رفاعى خفاجة

سكرتير التحرير
أحمد السيد تقى الدين

الاشتراك السنوى
داخل مصر ١٨ جنيهاً مصرياً -
الدول العربية ٥٠ دولاراً أمريكيا
أوربا وأمريكا ٨٥ دولاراً أمريكيا -
اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولاراً أمريكيا
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٥٧٨٦٢٠٠

المراسلات باسم: مدير التحرير:
مجمع البحوث الإسلامية - م. نصر
ت: ٢٢٦٣٨٥٩٩

افتتاحية العدد

الفضائل الخلقية من أصول الإسلام

قرأت فى كتاب (رحلة إلى الهند) فصولا جيدة تصف مشاهدات أديب دقيق النظر، واسع الخبرة، حسن الاستنتاج، يتمتع بأسلوب جذاب يحمل قارئه على متابعته فى شوق وإمتاع، وقد وصف الكاتب طوائف البوذيين وصفاً دقيقاً، ويظهر أنه خالطهم مخالطة تامة، فعرف اتجاهاتهم النفسية، وشمائلهم الخلقية، وتحدث عنهم بروح العطف الخالص، وهو ما نؤيد منحاه لدى كل رحالة، لأن الكاتب المقتدر لا يؤدى رسالته فى وصف ما يعرض له إذا كان ينظر إلى الموصوف من بعد، وإذا كان يقيم الحواجز العقلية والنفسية بينه وبين من يتحدث عنهم، إذ يصبح فى هذه الحالة غريبا عن موضوعه، يكتفى بالظواهر دون الغوص على الخوالج والبواعث، وأحرى به حينئذ أن يكون مراسل جريدة لا أديبا صاحب يراع.

وقد وقفت طويلا عند حديثه عن نفر من المسلمين يجاورون البوذيين إقليمياً، ويشعرون نحوهم بالحب والتعاطف، وهذا غير مستغرب، لأن الإسلام يدعو إلى المودة والتراحم والبر، لا بين أبنائه فحسب، بل بين الناس جميعا إن لم يكونوا أولى عدوان على المسلمين، وكلنا نقرأ قول الله عز وجل:

﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾

(الممتحنة: ٨)

فالمودة بين المسلمين وجيرانهم المسالمين شئ طبيعى، بل خضوع ممتثل لأمر الله.

أقول: وقفت طويلا عند حديث الكاتب، حين قال عن هؤلاء المسلمين: إنهم تأثروا بتعاليم البوذية فى الرحمة والرفق، والبعد عن الإيذاء ومقابلة السيئة بالحسنة، والزهد فى الملذات، حتى لتحسبهم - لولا قيامهم بشعائرهم الخاصة صلاة وصياماً - بوذيين!

هذا ما قاله الكاتب الفاضل، ولا أدرى كيف غاب عنه أن هذه الفضائل التى أشار إليها محبذاً مستجيداً من صميم الأخلاق الإسلامية، ولن ينقلها المسلم من جيرانه إذا اتصفوا بها، لأن الرحمة والرفق والبعد عن الإيذاء ومقابلة السيئة بالحسنة تجد سندها الصحيح فى كتاب الله تعالى وفى سُنة الرسول ﷺ، وفيما عرف من تاريخ المسلمين ذوى الحرص على تعاليم دينهم حين ضربوا أروع المثل فى الوفاء والإيثار والبذل، وحين أمروا بالمعروف، ونهوا عن الرذائل، وفيهم من بات على الطوى ليشبع ضيفه، ومن اكتفى بالأسمال البالية ليكسو آمله بالجديد الطريف من الثياب! أما الزهد الورع فمن صميم تعاليم الإسلام، ونحن نعرف أن هذا الدين قد أحل الطيبات ولم يحرم زينة الله التى أخرج لعباده، ولكنه جعل التقشف والاخشيشان من وسائل الرجولة الحق، كما جعل الزهد الورع سبيل الارتقاء النفسى، إذ ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه، وإذ الاكتفاء بالموجود خير من التطلع إلى المفقود:

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾

(طه: ١٣١)

نعلم ذلك، ويعرفه كل من قرأ اليسير من تعاليم الإسلام، فكيف يكون تمسك المسلمين بفضائلهم القرآنية أثراً من آثار الاتصال الودى بالبوذيين؟! وأيهما أقرب للإنسان؟ أن يتأثر بنبيه، وكتاب ربه، أو أن يتأثر بمصلح فاضل لا ينتمى إليه من قريب أو بعيد؟!

لقد دأب كتبة الاستشراق على أن يقرنوا أحكام القرآن بما سبقها من أحكام أهل الكتاب، ويرون فى ذلك تأثراً منزعوماً! وذلك لأنهم لا يؤمنون بنبوة رسول الله، ويعدونه ناقلا عن سواه! وقد فند المحققون باطلهم المفترى بالحجج الدامغة، فإذا رأينا اليوم من يريد أن يرجع بأخلاق المسلمين إلى التأثر بجيرانهم البوذيين، فذلك ممن يجهل نصوص القرآن وأحاديث السُنة المطهرة، بل يجهل أن دين الفطرة يماشى كل فضيلة، ويحاشى كل رذيلة! فإذا اتفقت الفضائل فى الأديان السماوية الصحيحة فلأنها من عند الله، وإذا نادى مصلح بمثل ما جاءت به هذه الأديان فقد رجع إلى الفطرة الصافية إن لم يكن علم شيئا من آثار من تقدموه من الأنبياء.

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

(فاطر: ٢٤)

ونحن نعلم أن بوذا لم يدون كتاباً ،وإنما نقل تلاميذه أقواله، وتتابعت هذه النقول مسهبة في شروح كثيرة، حسبت بمرور الأيام من أقوال بوذا نفسه، مع أن الثابت أنه كان داعية فضيلة فحسب، ولم يتكلم عن خالق السموات والأرض، ولا عن الحساب والجزاء، ولم يكلف أتباعه بأي عبادة من العبادات، كما نادى بالمساواة، وحطم الفوارق التي أكدتها البراهمية بين طبقات الشعب، إذ جعلت الكهنة في الرأس، والجند في الذراعين، وأرباب الحرف في الساقين، والأرقاء في القدم، فجاء بوذا ليؤكد أن الجميع سواء، وهذا ما يحسب له في ميدان الإصلاح.

وحين نرجع لمن كتبوا عن تعاليم بوذا لضبط النفس وتربيتها، نجدهم يجعلون أول هذه التعاليم هو التجرد من سلطان اللذة، ورياضة النفس على تركها، والسعي إلى المعرفة الحقيقية، لأن الجهل سبيل الضلال والانحدار، وكل المصلحين الصادقين يتجهون وجهة بوذا الإصلاحية، وقد كان للرجل من ظروف حياته ما هداه إلى سبيله الموفق، حيث نشأ في أسرة حاكمة، بعيداً عن منغصات الحياة، وتم زواجه في حفل شاركت فيه جميع طوائف البلاد، ولكنه كان يخلو بنفسه كثيراً، فيرى من صنوف البؤس والحرمان ما ينغص عليه لذة النعيم، وبهجة السيطرة، وقد شاهد احتضار مريض تآكل جسمه وشاه مرآه فأورثه ذلك تمام الحسرة، وعلم أن المصير واحد، فصمم على الرحلة، وترك أبهة الرسالة، وأصبح داعية للخير، وانجذب نحوه الآلاف ممن لمسوا طهارة نيته، وأصبحوا دعاة لمذهبه، مذهبه الذي تقدم بنفسه لتحقيقه حين هجر اللذة، وحارب الشهوات.

ولم يكن الرجل وحيدا في اعتزال الأبهة المسيطرة، والحكم المهيمن، فقد روى التاريخ أمثلة شتى لأناس فضلوا التقشف على الترف، وتركوا التاج والصولجان ليصبحوا كسائر الأنام! وهي حالة نفسية تعتاد ذوي الدعوات الإصلاحية على مر الأجيال، ولعلنا نذكر النعمان الأكبر صاحب الخورنق، وقد حكم الحيرة ثلاثين عاماً، ورأى من حوادث الدهر ما أزعج خاطره، فآثر الزهد والانزواء، ولبس المسوح وتاه في الأرض فلم يعلم أحد أين سار، وفيه يقول عدي بن زيد:

وتذكر رب الخورنق إذ فكر
يوماً وللهدى تفكير
سره ماله وكثرة ما يملك
والبحر معرضاً والسدير
فارعوى غيه فقال وما غبطة
حي إلى الممات يصير
ثم ساروا كأنهم ورق جف
فألوت به الصبا والدبور

ونظيره في الإسلام إبراهيم بن أدهم، فقد كان أميراً من أعرق بيوت الرئاسة في بلخ، لا يسير إلا في موكب من الحراس والحاشية، وقد دفعه شبابه إلى اللهو الصاخب، فاشتغل بالصيد والسكر والمنادمة وجمع حوله حاشية ترى رأيه وتلهو لهوه، ولكن تتابع اللذات قد أفقدها كل بهجة، فصارت بالتكرار شيئاً تافهاً لا قيمة له، وعادت الصحوة لإبراهيم حين ذهب في بعض أيام الجمعة إلى الصيد، متصدراً موكبه الحافل، وسمع نداء الصلاة عن بعد، ورأى الناس ينهضون حول ركبه إلى المسجد، فتساءل عن مصيره وقد ترك كل فريضة، وأدركته الخشية، فرجع إلى داره، وهان عليه ما أغرق فيه من النعيم فاعتزل ماضيه، واستقبل حاضراً زاهداً نقياً، ثم ختم حياته بالشهادة غازياً في جنود الرباط.

فليس بوذا إذن بواحد في منحاه، بل له نظراء كثيرون.

وإذا كنا نعرف أن التوراة قد انتشرت لعهده، وأن الوصايا العشر كانت متعارفة متعالمة. فإننا نعرف أن بوذا قد ترك وصايا عشراً تنهى عن القتل والزنا والسرقة والكذب والاغتصاب، والتنعم بالطيب والزهر والفراش الوثير وشرب المسكر وشهادة الزور والشغف بالذهب والفضة، وقد جاء الإسلام بتحريم الكذب والسرقة وقتل النفس دون حق، كما حرم تناول المسكر وشهادة الزور، ولكنه أباح الطيبات من المآكل، وأحل لحم الحيوان والطير، وقد حرمهما بوذا، وحبب الطيب والزينة المحتشمة! ولا شك أن المسلمين في كل مكان يعرفون الأصول الأخلاقية في الإسلام، ويصدرون عنه في كل اتجاه فإذا اتفقوا مع جيرانهم البوذيين في بعض الفضائل فقد التزموا بشريعتهم السماوية قبل كل شيء.

ولسنا في حاجة إلى أن نذكر لصاحب «رحلة إلى الهند» أنه أخطأ حين جعل التواد والرحمة والتآلف من سمات البوذية التي انتقلت إلى جيرانهم المسلمين، فلو لم تكن الرحمة خلقاًإسلامياً لكانت خلقاً فطرياً تنجذب إليه النفوس الصافية في كل مكان، وهي من صفات الله التي يذكرها المسلم مرات في صلاته، وفي كل ركعة، وحسبه أن يبتدئ كل أمر ذي بال ببسم الله الرحمن الرحيم.. أما الذين يتحدون الفطرة الإنسانية فقد نشزوا عن الهدى، وخالفوا شرع الله الحق منذ آدم أبي البشر إلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

د./ محمد رجب البيومي

تفسير سورة النساء

لفضيلة/ الأستاذ الدكتور
محمد سيد طنطاوى
رحمه الله

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا
مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا
عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ
اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا
﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ
وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٠﴾ ﴾

(الآيات: ٤٧ - ٥٠)

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى اليهود أمرهم فيه باتباع طريق الحق، وأنذرهم بسوء المصير إذا لم يستمعوا إلى هذا النداء فقال - تعالى -:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: كلم رسول الله ﷺ رؤساء من أحبار يهود. منهم عبدالله بن صوريا، وكعب بن أسد فقال لهم: يا معشر يهود: اتقوا الله وأسلموا.

فوالله إنكم لتعلمون أن الذى جئتكم به الحق. فقالوا: ما نعرف ذلك يا محمد، وجحدوا ما عرفوا وأصروا على الكفر. فأنزل الله فيهم:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ﴾

الآية[1].

وفى ندائهم بقولهم:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا ﴾

تحريض لهم على الإيمان، لأن أعطاءهم علم الكتاب من شأنه أن يحملهم على المسارعة إلى تلبية دعوة النبى ﷺ وألا تأخذهم العصبية الدينية كما أخذت أهل مكة العصبية الجاهلية، ولأن هذا الإيمان الذى يدعون إليه هو التصديق بما أنزله الله على نبيه ﷺ من قرآن، إذ هو يطابق - فى جوهره - ما أنزله - سبحانه - على الأنبياء السابقين الذين يزعم أهل الكتاب أنهم يؤمنون بهم. إذا فوحدة المنزل توجب عليهم أن يؤمنوا بجميع ما أنزله الله.

ووصفهم هنا بأنهم أوتوا الكتاب، مع أنه وصفهم قبل ذلك بأنهم أوتوا نصيبا من الكتاب؛ لأن وصفهم هنا بذلك المقصود منه حضهم على الإيمان وترغيبهم فيه، وإثارة هممهم للانقياد لتعاليم كتابهم الذى بشرهم بمبعث النبى ﷺ وأمرهم بالإيمان به. أما وصفهم فيما سبق بأنهم أوتوا نصيباً من الكتاب فالمقصود منه التعجيب من أحوالهم، والتهوين من شأنهم.

والمعنى: يا معشر اليهود الذى آتاهم الله التوراة لتكون هداية لهم، آمنوا إيماناً حقاً ﴿ بِمَا نَزَّلْنَا ﴾ من قرآن على محمد ﷺ فإن هذا القرآن قد نزل ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ﴾ وموافقاً للتوراة التى بين أيديكم فى الدعوة إلى وحدانية الله - تعالى - وإلى مكارم الأخلاق، وفى النهى عن الفواحش والمعاصى، ومؤيدا لها فيما ذكرته من صفات تتعلق بمحمد ﷺ ومن آيات تدعو إلى تصديقه والإيمان به.

وعبر عن القرآن بقوله: ﴿ بِمَا نَزَّلْنَا ﴾؛ لأن فى هذا التعبير تذكير بعظم شأن القرآن وأنه منزل بأمر الله وحفظه، وعبر عن التوراة بقوله ﴿ لِمَا مَعَكُمْ ﴾ لأن فى هذا التعبير تسجيلا عليهم بأن التوراة كتاب مستصحب عندهم وقريب من أيديهم، وشهادته بصدق النبى ﷺ ظاهرة جلية، فإذا ما تركوا شهادته مع وضوحها ومع استصحابهم له كان مثلهم

﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾

(الجمعة: ٥)

ثم أنذرهم - سبحانه - بعد ذلك بسوء العاقبة إذا ما أعرضوا عن الإيمان بدعوة الإسلام فقال - تعالى -:

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٥ ص١٢٤.

﴿ مِن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾

والطمس إزالة الأثر بالمحو. قال الله ـ تعالى ـ:

﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾

(المرسلات: ٨)

أى: زالت ومحيت. ويقال: طمست الريح الأثر إذا محته وأزالته. وللمفسرين فى المراد من معنى الطمس هنا اتجاهان:

أما الاتجاه الأول فيرى أصحابه حمل اللفظ على حقيقته بمعنى إزالة ما فى الوجه من أعضاء ومحو أثرها. فيكون المعنى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا ﴾

أى نمحو تخطيط صورها من عين وأنف وفم وحاجب

﴿ فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾

أى فنجعلها على هيئة أدبارها وهى الأقفاء بحيث تكون الوجوه مطموسة مثل الأقفاء. وإلى هذا المعنى ذهب ابن عباس وقتادة وغيرهما.

قال الإمام الرازى: وهذا المعنى إنما جعله الله عقوبة لما فيه من التشويه فى الخلقة والمثلة والفضيحة؛ لأن عند ذلك يعظم الغم والحسرة....»[٢].

ومن المفسرين الذين رجحوا حمل اللفظ على حقيقته الإمام ابن جرير لقد قال: «وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب» قول من قال: معنى قوله:

﴿ مِن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا ﴾

من قبل أن نطمس أبصارها، ونمحو آثارها، فنسويها كالأقفاء. فنردها على أدبارها، فنجعل أبصارها فى أدبارها، يعنى بذلك: فنجعل الوجوه فى أدبار الوجوه. فيكون معناه: فنحول الوجوه أقفاء، والأقفاء وجوها، فيمشوا القهقرى، كما قال ابن عباس ومن قال بذلك»[٣].

وأصحاب هذا الاتجاه منهم من يرى أن هذه العقوبة تكون فى آخر الزمان ومنهم من يرى هذه العقوبة تكون فى الآخرة. ومنهم من قال أن هذه العقوبة مقيدة بعدم إيمان أحد منهم، وقد آمن بعضهم كعبد الله بن سلام وغيره.

وأما الاتجاه الثانى فيرى أصحابه حمل اللفظ على مجازه، بمعنى أن المراد بالطمس الطمس المعنوى.

فيكون المعنى: آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن تقسو قلوبكم، ونطبع عليها بسبب تمسكها بالضلال، وتماديها فى العناد.

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١٠ ص١٢١ طبعة عبدالرحمن محمد.

(٣) تفسير ابن جرير جـ٥ ص١٢٢ طبعة الحلبى.

قال ابن كثير مؤيداً هذا الاتجاه: هذا مثل ضربه الله لهم فى صرفهم عن الحق وردهم، إلى الباطل، ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبيل الضلال يهرعون ويمشون القهقرى على أدبارهم. وهذا كما قال بعضهم فى قوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾

(يس: ٩)

أى هذا مثل سوء ضربه الله لهم فى ضلالهم ومنعهم عن الهدى.

قال مجاهد: من قبل أن نطمس وجوها أى عن صراط الحق: فنردها على أدبارها أى فى الضلال. وقال السدى: معناه: فنعميها عن الحق ونرجعها كفاراً...[٤].

وقال الفخر الرازى ـ بعد أن بين معنى الآية على القول الأول ـ: أما القول الثانى: فهو أن المراد من طمس الوجوه مجازه ثم ذكروا فيه وجوها.

الأول: قال الحسن: نطمسها عن الهدى فنردها على أدبارها أى على ضلالتها والمقصود بيان إلقائها فى أنواع الخذلان وظلمات الضلالات.

الثانى: يحتمل أن يكون المراد بالطمس القلب والتغيير. وبالوجوه: رؤساؤهم ووجهاؤهم.

والمعنى: من قبل أن نغير أحوال وجهائهم فنسلب منهم الإقبال والوجاهة ونكسوهم الصغار والإدبار والمذلة.

الثالث: قال عبدالرحمن بن زيد: هذا الوعيد قد لحق اليهود ومضى. وتأول ذلك فى إجلاء قريظة والنضير إلى الشام، فرد الله وجوههم على أدبارهم حين عادوا إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام.. فيكون المراد بطمس الوجوه على هذا الرأى: إزالة آثارهم عن بلاد العرب ومحو أحوالهم عنها».

وقد مال الفخرى الرازى إلى القول الثانى ووصفه بأنه لا إشكال معه البتة..[٥].

وقال بعض العلماء: إن الذى يبدو لنا من ظاهر النص وهو قوله ـ تعالى ـ:

﴿ مِن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾

أنه يراد به سحقهم فى القتال، وحملهم على أن يولوا الأدبار، فتكون وجوههم غير بادية بصورها، بعد أن كانوا مقبلين بها، فأزالها السيف والخوف، وجعل صورتها مختفية، وأقفيتهم هى البادية الواضحة، فكأن صورة الوجوه قد زالت وحلت محلها صورة الأدبار.

وعلى ذلك يكون المعنى: إنكم استرسلتم فى غيكم وضلالكم. ومع ذلك نطالبكم بالهداية والإيمان قبل أن ينزل بكم غضب

(٤) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٠٨.

(٥) تفسير الفخر الرازى جـ١٠ ص١٢١. بتصرف يسير.

الله - تعالى - فى الدنيا وذلك بتسليط المؤمنين بالحق عليكم، فيذيقونكم بأس القتال فتفرون، وتختفى وجوهكم..»(٦).

هذه بعض الوجوه التى قالها من يرى أن المراد بالطمس الطمس المعنوى وأن اللفظ محمول على المجاز، ولعل هذا الاتجاه أقرب إلى الصواب لسلامته من الاعتراضات والاشكالات التى أوردها بعض المفسرين - كالرازى والآلوسى - عند تفسيرهما للآية الكريمة.

وقوله:

﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ﴾

بيان لعقوبة أخرى سوى العقوبة السابقة.

واللعن: هو الطرد من رحمة الله - تعالى -.

فالآية الكريمة دعوة لليهود إلى الإيمان بما جاء به محمد ﷺ من قبل أن يطبع الله - تعالى - على قلوبهم ويذهب بنورها فلا تتجه إلى الحق ولا تميل إليه. أو من قبل أن يلعنهم ويطردهم من رحمته ويجعلهم عبرة للمعتبرين.

وأصحاب السبت هم قوم من اليهود حرم الله عليهم الصيد فى يوم السبت، فتحايلوا على استحلال ما حرمه الله بحيل قبيحة، فأنزل الله عليهم عذابه، ومسخهم قردة..

وقد ذكر الله قصتهم بشىء من التفصيل فى سورة الأعراف (٧).

وكلمة ﴿أَوْ﴾ فى الآية الكريمة لمنع الخلو. فيجوز أن يعاقب الله طائفة منهم بعقوبة من هاتين العقوبتين، ويعاقب طائفة أخرى منهم بالعقوبة الثانية إن هم استمروا فى ضلالهم وطغيانهم. والضمير المنصوب فى قوله ﴿نلعنهم﴾ يعود لأصحاب الوجوه، أو للذين أوتوا الكتاب على طريقة الالتفات.

وقوله:

﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾

أى كان ومازال جميع ما أمر الله به وقضاه نافذا لا محالة؛ لأنه - سبحانه - لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

والجملة الكريمة تذييل قصد به تهديد هؤلاء الضالين المعاندين حتى يثوبوا إلى رشدهم، ويدخلوا فى صفوف المؤمنين.

وقوله:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾

استئناف مسوق لتقرير ما قبله من الوعيد، ولتأكيد وجوب امتثال الأمر بالإيمان، لأنه لا مغفرة إذا انتفى الإيمان. والمراد بالشرك هنا: مطلق الكفر، فيدخل فيه كفر اليهود دخولاً أولياً.

والمعنى: إن الله لا يغفر لكافر مات على كفره، ويغفر ما دون الكفر من الذنوب والمعاصى لمن يشاء أن يغفر له إذا مات من غير توبة. فمن مات من المسلمين بدون توبة من

(٦) تفسير الآية الكريمة لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة بمجلة لواء الإسلام السنة الخامسة عشرة، العدد الأول.

(٧) راجع كتابنا (بنو إسرائيل فى القرآن والسنة) جـ٢ من ص٥٢ - ٦٠.

الذنوب التى اقترفها فأمره مفوض إلى الله، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه ثم أدخله الجنة، وقوله:

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾

استئناف مشعر بتعليل عدم غفران الشرك، وزيادة فى تشنيع حال المشرك.

أى: ومن يشرك بالله فى عبادته غيره من خلقه، فقد ارتكب من الآثام ما لا تتعلق به المغفرة؛ لأنه بهذا الإشراك قد افترى الكذب العظيم على الله، واقترف الإفك المبين، وفعل أعظم ذنب فى الوجود:

قال القرطبى: قوله - تعالى - :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾

روى أن النبى ﷺ تلا:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾

(الزمر: ٥٣)

فقال له رجل: يا رسول الله والشرك!! فنزل:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾

الآية. وهذا من المحكم المتفق عليه الذى لا اختلاف فيه بين الأمة.

وقوله:

﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾

من المتشابه الذى قد تكلم العلماء فيه.

فقال ابن جرير الطبرى: قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة فهو فى مشيئة الله إن شاء عفا عنه ذنبه، وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرته شركا بالله - تعالى -»(٨).

وقد أورد ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية الكريمة ثلاثة عشر حديثا تتعلق بها.

ومن هذه الأحاديث ما رواه الحافظ أبو يعلى فى مسنده عن جابر أن النبى ﷺ قال: لاتزال المغفرة على العبد ما لم يقع فى الحجاب، قيل يا نبى الله وما الحجاب؟ قال: الإشراك بالله. ثم قرأ:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾

الآية.

وروى ابن أبى حاتم وابن جرير عن ابن عمر قال: كنا معشر أصحاب النبى ﷺ لا نشك فى قاتل النفس، وآكل مال اليتيم، وشاهد الزور، وقاطع الرحم، حتى نزلت هذه الآية:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾

وفى رواية لابن أبى حاتم: فلما سمعناها

(٨) تفسير القرطبى جـ٥ ص٢٤٥.

كففنا عن الشهادة وأرجينا الأمور إلى الله - تعالى -»(٩).

وقال الآلوسي: ثم إن هذه الآية كما يرد بها على المعتزلة - الذين يسوون بين الإشراك بالله وبين ارتكاب الكبيرة بدون توبة - يرد بها أيضاً - على الخوارج الذين زعموا أن كل ذنب شرك وأن صاحبه مخلد في النار. وذكر الجلال أن فيها رداً أيضا على المرجئة القائلين: إن أصحاب الكبائر من المسلمين لا يعذبون.

وأخرج ابن الضريس وابن عدى بسند صحيح عن ابن عمر قال: كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا من نبينا ﷺ قوله - تعالى- :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾

وقال:

«إني ادخرت دعوتي وشفاعتي لأهل الكبائر من أمتي فأمسكنا عن كثير مما كان في أنفسنا ثم نطقنا ورجونا»

وقد استبشر الصحابة بهذه الآية حتى قال على بن أبى طالب: أحب آية إلى في القرآن(١٠):

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾

ثم حكى - سبحانه - لونا آخر من قبائح اليهود فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩) انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾

روى المفسرون في سبب نزول هاتين الآيتين أن رجالا من اليهود أتوا النبي ﷺ بأطفالهم فقالوا: يا محمد هل على هؤلاء ذنب؟ فقال: لا. فقالوا: والله ما نحن إلا كهيئتهم. ما عملناه بالنهار كفر عنا بالليل، وما عملنا بالليل كفر عنا بالنهار»(١١).

ولقد حكى القرآن عن اليهود أنهم قالوا:

﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾

(البقرة: ٨٠)

وحكى عنهم أنهم كانوا:

﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾

(الأعراف: ١٦٩)

وحكى عنهم وعن النصارى أنهم قالوا:

﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾

(المائدة: ١٨)

والاستفهام في قوله - تعالى - ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ للتعجب من أحوالهم، والتهوين من شأنهم

(٩) تفسير ابن كثير جـ١ ص:٥١٠.

(١٠) تفسير الآلوسي جـ٥ ص:٥٢.

(١١) تفسير الكشاف جـ١ ص:٥٢٠.

حيث بالغوا في مدح أنفسهم مع أنهم كاذبون في ذلك.

وقوله ﴿ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ﴾ من التزكية بمعنى التطهير والتنزيه عن القبيح. والمراد بهذا التعبير هنا: أنهم يصفون أنفسهم بالأفعال الحسنة، ويمدحونها مدحا كثيرا، مع أنهم لا يستحقون إلا الذم بسبب سوء أقوالهم وأفعالهم.

والمعنى: ألم ينته علمك يا محمد إلى حال هؤلاء اليهود الذين يمدحون أنفسهم ويثنون عليها مختالين متفاخرين مع ما هم عليه من الكفر وسوء الأخلاق؟ إن كنت لم تعلم أحوالهم أو لم تنظر إليهم فها نحن نكشف لك عن خباياهم لتتعجب من سوء أعمالهم، وليتعجب منهم كل عاقل.

وقوله:

﴿ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾

إبطال لمعتقدهم بإثبات ضده، وهو أن التزكية شهادة من الله ولا ينفع أحدا أن يزكي نفسه، وإعلام منه - سبحانه - بأن تزكيته هي التي يعتد بها لا تزكية غيره، فإنه هو العالم بما ينطوي عليه الإنسان من حسن وقبح، وخير وشر.

وقوله ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ بيان لكمال عدله - سبحانه - وأنه لا يظلم أحدا من خلقه لا قليلا ولا كثيرا.

والفتيل: هو الخيط الذى يكون في شق النواة. وكثيراً ما يضرب به المثل في القلة والحقارة.

أى أن هؤلاء الذين يزكون أنفسهم بغير حق يعاقبون على هذا الكذب بما يستحقون من عقاب عادل لا ظلم معه؛ لأنه - سبحانه - لا يظلم أحداً من عباده شيئاً بل يجازى كل إنسان بما هو أهل له من خير أو شر.

ثم أكد - سبحانه - التعجيب من أحوالهم فقال:

﴿ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾

أى: انظر أيها العاقل كيف يفترى هؤلاء اليهود على الله الكذب في تزكيتهم لأنفسهم مع كفرهم وعنادهم وارتكابهم الأفعال القبيحة التي تجعلهم أهلا لكل مذمة وسوء عاقبة.

وقد جعل - سبحانه - افتراءهم الكذب لشدة تحقق وقوعه، كأنه أمر مرئى يراه الناس بأعينهم، ويشاهدونه بأبصارهم.

وقوله:

﴿ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾

أى: وكفى بافترائهم الكذب على الله إثما ظاهرا بينا يستحقون بسببه أشد العقوبات، وأغلظ الإهانات.

***

كلمات ينفع الله بهن

لفضيلة الشيخ/ إبراهيم عطا الفيومى

عن ابن عباس رضى الله عنه قال: «كنت خلف رسول ﷺ فقال: (يا غلام، إنى أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

- رواه الإمام الترمذى وقال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه العلامة الألبانى.

التعريف بالراوى

أبو العباس عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف بن قصى القرشى الهاشمى. ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، وكان ابن ثلاث عشرة سنة إذ توفى رسول الله ﷺ، وقال مجاهد عن ابن عباس: رأيت جبريل عند النبى ﷺ مرتين، ودعا لى رسول الله ﷺ بالحكمة مرتين، لذا صار حبر هذه الأمة وعالمها لأنه قد دعا له النبى بالحكمة والفقه والتأويل.

وكان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يحبه ويدنيه ويقربه ويشاوره مع أجلة الصحابة، وكان يقول: ابن عباس فتى الكهول، له لسان قئول وقلب عقول. وقال طاوس: أدركت نحو خمسمائة من أصحاب النبى ﷺ إذا ذاكروا ابن عباس فخالفوه لم يزل يقررهم حتى ينتهوا إلى قوله، وكف بصره فى آخر عمره.

ومات بالطائف سنة ثمان وستين فى أيام ابن الزبير وهو ابن إحدى وسبعين

سنة، وصلى عليه محمد ابن الحنفية وكبر عليه أربعاً وقال: اليوم مات ربانى هذه الأمة، وضرب على قبره فسطاطاً. وروى عن خلق كثير من الصحابة والتابعين.

اللغويات

(كنت خلف رسول الله ﷺ): فيه إشعار بكمال حفظه وإحسانه واستحضار لفظه وإتقانه.. ومعنى (خلفه): رديفه، وقيل: المعنى أمشى خلفه، لا أنه راكب رديفه وهو مردود لما روى عن ابن عباس أن كسرى أهدى إلى النبى ﷺ بغلة، فركبها بحبل من شعر ثم أردفنى خلفه وسار بى ميلاً ثم التفت...

(احفظ الله يحفظك): أى: احفظ الله فى أمره ونهيه وحدوده وحقوقه يحفظك الله فى الدنيا من الآفات والمكروهات وفى الآخرة من أنواع العقاب والدركات. واعلم أن من حفظ أوامر الله عز وجل فى صحته حفظه الله فى شدته ألا ترى أن يونس عليه السلام لما وقع فى تلك الشدة وكانت له أعمال صالحة متقدمة أخذت بيده فنجا ولما لم يكن لفرعون عمل خير لم يجد متعلقاً وقت الشدة.

(احفظ الله تجده تجاهك)، أى: راع حق الله وتحرَّ رضاه تجده تجاهك، أى: مقابلك وحذاءك، والمعنى: احفظ حق الله تعالى حتى يحفظك الله من مكاره الدنيا والآخرة.

(إذا سألت فاسأل الله)، أى: إذا أردت السؤال فسل الله وحده.

(وإذا استعنت)، أى: إذا أردت الاستعانة فى الطاعة وغيرها من أمور الدنيا والآخرة - فاستعن بالله، فإنه المستعان وعليه التكلان فى كل زمان ومكان.

(واعلم): فيه زيادة حث على التوجه إليه والتقرب بالاستفادة لديه.

(أن الأمة)، أى: جميع الخلق من الخاصة والعامة والأنبياء والأولياء وسائر الأمة.

(لو اجتمعت)، أى: اتفقت فرضاً وتقديراً.

(على أن ينفعوك بشىء)، أى: فى أمر دينك أو دنياك.

(لم ينفعوك)، أى: لم يقدروا أن ينفعوك.

(إلا بشىء قد كتبه الله لك)، أى: قدره وأثبته فى الذكر وفرغ منه وقد أذنهم فى ذلك.

(رفعت الأقلام وجفت الصحف)، أى: كتب فى اللوح المحفوظ ما كتب من التقديرات ولا يكتب بعد الفراغ منه شىء آخر، فعبر عن سبق القضاء والقدر برفع القلم وجفاف الصحيفة تشبيهاً بفراغ الكاتب من كتابته.

الشرح والبيان

يتضمن هذا الحديث النبوى الشريف وصايا عظيمة وقواعد كلية من أهم أمور الدين، حتى قال بعض العلماء: تدبرت هذا الحديث فأدهشنى وكدت أطيش، وقال عبدالقادر الجيلانى: ينبغى لكل مؤمن أن

يجعل هذا الحديث مرآة قلبه وشعاره ودثاره وحديثه، فيعمل به في جميع حركاته وسكناته حتى يسلم في الدنيا والآخرة ويجد العزة فيهما برحمة الله تعالى).

وأول ما يوجه النبي ﷺ ابن عباس - والأمة كلها - يوجهه إلى أساس كل خير ومنبع كل فضل (احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك)، وإنما يكون حفظك ربك بالوقوف عند أوامره تعالى بالامتثال، وعند نواهيه بالاجتناب، وعند حدوده فلا يتجاوز ما أمر به وأذن فيه إلى ما نهى عنه، فمن فعل ذلك فهو من الحافظين لحدود الله الذين مدحهم الله في كتابه، قال عز وجل:

﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾

(ق: ٣٢، ٣٣)

وفسر الحفيظ هنا بالحافظ لأوامر الله وبالحافظ لذنوبه ليتوب منها، ومن ذلك حفظ الرأس وما وعى (ويدخل فيه حفظ السمع والبصر واللسان من المحرمات)، وحفظ البطن وما حوى (ويتضمن حفظ القلب على الإصرار على ما حرم الله).

وقد بين النبي ﷺ أن من حفظ حدود الله وراعى حقوقه - حفظه الله، فإن الجزاء من جنس العمل، كما قال تعالى:

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾

(البقرة: ٤٠)

وحفظ الله لعبده يدخل فيه نوعان: أحدهما حفظه له في مصالح دنياه كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله، قال الله تعالى:

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾

(الرعد: ١١)

قال ابن عباس: هم الملائكة يحفظونه بأمر الله فإذا جاء القدر خلوا عنه، وخرّج الإمام أحمد وأبوداود والنسائي من حديث ابن عمر قال: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح، (اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي).

ومن حفظ الله في صباه وقوته حفظه الله في حال كبره وضعف قوته، ومتعه بسمعه وبصره وحوله وقوته وعقله، وكان بعض علماء سلفنا الصالح قد جاوز مائة سنة وهو ممتع بقوته وعقله فوثب يوماً وثبة شديدة فعوتب في ذلك، فقال: هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، ورأى بعض السلف شيخاً يسأل الناس، فقال: (إن هذا ضعيف ضيع الله في صغره فضيعه الله في كبره)، فمن حفظ الله حفظه الله من كل أذى، قال بعض السلف: من اتقى الله فقد حفظ نفسه ومن ضيع تقواه فقد ضيع نفسه والله غني عنه.

إن لله عبـــاداً فطنا
تركوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا
أنها ليست لأحد وطنا
جعلوها لجة واتخذوا
صالح الأعمال فيها سفنا

وقد يحفظ الله العبد بصلاحه بعد موته في ذريته، كما قيل في تفسير قوله تعالى:

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾

(الكهف: ٨٢)

إنهما حُفظا بصلاح أبيهما، وكان التابعي الجليل سعيد بن المسيب يقول لابنه: لأزيدن في صلاتي من أجلك رجاء أن أحفظ فيك ثم تلا:

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾

وقال الخليفة الخامس عمر بن عبدالعزيز: (ما من مؤمن يموت إلا حفظه الله في عقبه وعقب عقبه).

والنوع الآخر من الحفظ - وهو أشرف النوعين - حفظ الله للعبد في دينه وإيمانه فيحفظه في حياته من الشبهات المضلة، ومن الشهوات المحرمة، ويحفظ عليه دينه عند موته فيتوفاه على الإيمان، قال بعض السلف: (إذا حضر الرجل الموت يقال للملك: شم رأسه - قال أجد في رأسه القرآن، قال: شم قلبه - قال: أجد في قلبه الصيام، قال: شم قدميه - قال: أجد في قدميه القيام، قال: حفظ نفسه فحفظه الله)، وفي الصحيحين عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه أمره أن يقول عند منامه: (إن قبضت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين)، فالله عز وجل يحفظ المؤمن الحافظ لحدود دينه ويحول بينه وبين ما يفسد عليه دينه بأنواع من الحفظ، وقد لا يشعر العبد ببعضها، وقد يكون كارها له كما قال في حق يوسف عليه السلام:

﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾

(يوسف: ٢٤)

وفسر حبر الأمة عبدالله بن عباس - رضي الله عنه - قوله تعالى:

﴿ أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾

(الأنفال: ٢٤)

بقوله: (يحول بين المؤمن والمعصية التي تجره إلى النار)، وذكر الحسن أهل المعاصي فقال: (هانوا عليه فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم).

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى
ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على ألا تكون كمثله
وأنك لم ترصد لما كان أرصدا

فمن حفظ حدود الله وراعى حقوقه

وجد الله معه في كل أحواله، يحوطه حيث توجه وينصره ويحفظه ويوفقه ويسدده.

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾

(النحل: ١٢٨)

قال قتادة: (من يتق الله يكن معه، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل)، بل كتب بعض السلف إلى أخ له: (أما بعد، فإن كان الله معك فمن تخاف وإن كان عليك فمن ترجو).

ثم يوجه المصطفى ﷺ أمته والدنيا بأسرها في شخص ذلكم الغلام اليافع، يوجهنا إلى حسن التوكل على الله، فإياه وحده نسأل، وبه وحده نستعين (إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله)، والسؤال هو دعاؤه والرغبة إليه، والدعاء هو العبادة قال تعالى:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾

(غافر: ٦٠)

وفي النهي عن مسألة المخلوقين أحاديث كثيرة صحيحة، وقد بايع النبي ﷺ جماعة من أصحابه على ألا يسألوا الناس شيئا، منهم أبو بكر الصديق وأبو ذر وثوبان، وكان أحدهم يسقط السوط أو خطام ناقته فلا يسأل أحدا أن يناوله إياه.

ولنعلم أن سؤال الله عز وجل دون خلقه هو المتعين، لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار، وفيه الاعتراف بقدرة المسئول على رفع هذا الضر ونيل المطلوب وجلب المنافع ودرء المضار، ولا يصلح الذل والافتقار إلا لله وحده، لأنه حقيقة العبادة، وكان الإمام أحمد يدعو ويقول: (اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك فصنه عن المسألة لغيرك، ولا يقدر على كشف الضر وجلب النفع سواك) قال تعالى:

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾

(يونس: ١٠٧)

والله سبحانه يحب أن يسأل ويرغب إليه في الحوائج ويلح في سؤاله ودعائه ويغضب على من لا يسأله ويستدعي من عباده سؤاله وهو قادر على إعطاء خلقه كلهم سؤلهم من غير أن ينقص من ملكه شيء، والمخلوق بخلاف ذلك يكره أن يسأل ويحب ألا يسأل لعجزه وفقره وحاجته، ولهذا قال طاوس لعطاء: (إياك أن تطلب حوائجك إلى من أغلق بابه دونك ويجعل دونها حجابه، وعليك بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة، أمرك أن تسأله ووعدك أن يجيبك).

الله يغضب إن تركت سؤاله
وبني آدم حين يسأل يغضب

وأما الاستعانة بالله عز وجل دون غيره من الخلق فلأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضاره ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل، فمن أعانه الله فهو المعان ومن خذله فهو المخذول، وهذا تحقيق معنى قولنا: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، فإن المعنى: لا تحول للعبد من حال إلى حال ولا قوة له على ذلك إلا بالله، وهذه كلمة عظيمة وهي كنز من كنوز الجنة، فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات وترك المحظورات والصبر على المقدورات كلها في الدنيا وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله عز وجل فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه. ومن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره وكله الله إلى من استعان به فصار مخذولا، كتب الحسن البصري إلى عمر بن العزيز: (لا تستعن بغير الله، فيكلك الله إليه)، ومن كلام بعض السلف: (يارب عجبت لمن يعرفك كيف يرجو غيرك، وعجبت لمن يعرفك كيف يستعين بغيرك!).

نعم والله فلا يقدر العبد أن يقدم في رزقه أو يؤخر، أو يزيد أو ينقص؟! (رفعت الأقلام وجفت الصحف)، وهذا من أحسن الكنايات وأبلغها، لقد كتبت المقادير كلها وفرغ منها منذ أمد بعيد، فإن الكتاب إذا فرغ من كتابته ورفعت الأقلام عنه وطال عهده فقد رفعت عنه الأقلام وجفت الأقلام التي كتب بها من مدادها وجفت الصحف التي كتب فيها بالمداد المكتوب به فيها.

وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: (إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة)، وفيه أيضا عن جابر أن رجلا قال: يا رسول الله، ففيم العمل اليوم، أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما يستقبل؟ قال: (لا بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير)، قال: ففيم العمل؟ قال: (اعملوا فكل ميسر لما خلق له).

فلو أن الخلق جميعا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه.

فإذا علم العبد أن لن يصيبه إلا ما كتب الله له من خير وشر ونفع وضر، وأن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة ـ علم حينئذ أن الله وحده هو الضار النافع المعطي فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه عز وجل، وإفراده بالطاعة وحفظ حدوده، وإفراده بالخوف والرجاء والمحبة والسؤال والتضرع والدعاء، وتقديم طاعته على طاعة الخلق جميعا.

فاللهم إنا نسألك العافية في الدنيا والآخرة، ونسألك اللهم العفو والعافية في ديننا ودنيانا وأهلنا وأموالنا، اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا وعن يميننا وعن شمالنا ومن فوقنا، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا.

الهجرة

أسبابها ودواعيها

للأستاذ الدكتور/ محمد فتحى فرج
جامعة المنوفية

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: كان النبى ﷺ بمكة فأمر بالهجرة إلى المدينة، فأنزل الله - تعالى - عليه قوله:

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٠)

يقول الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق - رحمه الله: لقد كان النبى ﷺ يعلم أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل الله تعالى - كما علمه - سلطانا نصيرا فأعطاه إياه.

فمكة المكرمة كانت موطن الرسول ﷺ، والمحضن الأول لرسالة الإسلام، فقد شهدت مولده وبداياته الأولى، وجهاد النبى ﷺ والفئة القليلة المؤمنة التى اتبعته لنشره بين الناس، فقوبلوا بمقاومة وعناد ،ورفض من معظم القبائل فى مكة وما حولها - أقول على الرغم من كل ذلك، لم يكن من السهل على النبى وصحابته الأطهار أن يتركوها إلا بأمر من الله تعالى، لنشر دينه لكى تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى. وعلى هذا لم يلجأ النبى والمسلمون إلى الهجرة من مكة إلا لهذه الأسباب القوية، فلم يجدوا مندوحة عنها، فمكة المكرمة التى اختارها الله لبيته الحرام هى أحب بلاد الله إلى الله وإلى رسوله وإلى من اتبعه من المسلمين، ولولا أنهم أجبروا على تركها ما تركوها، وفى هذا يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٤٠)

جاد الحق على جاد الحق

وعلى الجانب الآخر، فقد كانت المدينة المنورة هى - بحق - القاعدة القوية التى انطلق منها نور الإسلام الغامر، ورفرفت راياته عالية خفاقة، فشهدت مولد دولة الإسلام لأول مرة فى التاريخ الإنسانى، وما هى إلا بضع عشرات من السنين حتى خضعت له أعتى امبراطوريتين فى العالم فى ذلك الوقت، وهما الامبراطورية الفارسية والامبراطورية الرومانية.

ولقد كرَّم الله تعالى المهاجرين فى سبيله ونصرة دينه ونبيه ﷺ كما كرَّم الله تعالى مستقبليهم من الأنصار الذين وفدوا إليهم، فاكرموا وفادتهم، ونصروهم بكل ما أوتوا من قوة، ورضى الله تعالى عن المهاجرين والأنصار، وأعد لهم فى الآخرة الجنان، التى تجرى من تحتها الأنهار، فقال عز من قائل:

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة: ١٠٠)

من دواعى الهجرة

للهجرة أسباب كثيرة ودواعى متباينة، تختلف باختلاف طبيعة المهاجرين ومقاصدهم، وربما أيضا أحوال أوطانهم الاقتصادية، فقد تكون بحثا عن المال والأعمال، حينما لا يجد البعض فرصة العمل المناسبة، التى تكفل لهم حياة كريمة لهم ولذويهم فى وطنهم الأصلى، وفى هذا يقول الله تعالى فى مقام الحث على الهجرة تحت هذه الظروف:

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء: ١٠٠)

وهناك أيضا من الدواعى ما تفرضه الظروف السياسية، فتكون الهجرة فى هذه الحالة فرارا من القهر والاضطهاد والتسلط السياسى. والهجرة من هذه الأرض فى مثل هذه الظروف تصبح للقادر عليها فريضة، أما بالنسبة للضعفاء وغير القادرين، فالعفو الغفور يمكن أن يعفو عنهم ويغفر لهم عدم قدرتهم عليها، أما المتقاعسون عنها من القادرين عليها فيصبحون من الذين ظلموا أنفسهم وينطبق عليهم قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ (النساء: ٩٧-٩٩)

وقد نتوسع فنقول: إن هناك من الأسباب العلمية ما يدعو إلى الهجرة أيضا، وهى تلك التى

يطلق عليها البعض «هجرة العقول أو الأدمغة»، وذلك حينما لا يجد العلماء أنفسهم فى أوطانهم، ويفتقدون المناخ المناسب الذى يمكنهم من ممارسة أعمالهم والاهتمام بابتكاراتهم وكشوفهم العلمية، وفضلا عن ذلك فلا أحد يعترف بمكانتهم أو يقدرهم حق قدرهم، أو حتى يمنحهم فرصة الانطلاق فى بحوثهم ودراساتهم من خلال التمويل الملائم لدعم هذه البحوث والدراسات، وتنمية مبتكراتهم وإلقاء الضوء على مكتشفاتهم، ولو بقدر ضئيل مما يتم ونراه واضحا فى مجالى الرياضة والفن!

وقد تكون الهجرة للخروج من أرض موبوءة بمرض إلى أخرى سليمة؛ إذ أن الرسول ﷺ أذن للرعاة حين استوخموا المدينة «أن يخرجوا إلى أن يصحوا».

وإذا كان الله تعالى قد كرم الإنسان حينما قال جل وعلا:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾

(الإسراء: ٧٠)

ووصف المؤمنين أيضاً بالعزة حينما قال جل شأنه:

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(المنافقون: ٨)

فعليه أن يترك هذه الأرض ليبحث عن أرض أخرى يجد فيها نفسه وكرامته وعيشه الكريم، لأنه من المهانة له أن يهين نفسه التى ستكون بالقطع على الناس أهون، كما قال الشاعر الحكيم:

إذا أنت لم تعرف لنفسك قدرها
هوانا بها كانت على الناس أهونا

وفى المقابل، فقد عرفت أرض فلسطين الطاهرة المقدسة هجرة ظالمة إليها تمثلت فى توافد يهود العالم من كل هجع وصقع، للتجمع على هيئة دولة مصطنعة بعد اغتصاب والتهام دولة عربية هى دولة فلسطين، ومن ناحية أخرى، فقد كانت هجرة الفلسطينيين تحت وابل الرصاص هرباً من التعسف والقهر والموت على أيدى يهود إسرائيل الذين أتوا من الشتات، ليشتتوا أهل البلاد، ويحلوا محلهم!

كما عرفت مدن القناة الهجرة المؤقتة (التى أطلق عليها التهجير)، بعد حرب ١٩٦٧ المشئومة، وقبل حرب العاشر من رمضان / السادس من أكتوبر ١٩٧٣ الميمونة، بهدف توفير الظروف المناسبة لتحرير الأرض، وتلقين العدو الصهيونى الغادر درساً لا ينسى.

وقد أشار النبى ﷺ إلى أنواع أخرى من الهجرة، فقد ورد فى الحديث النبوى الشهير: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»، رواه البخارى فى كتاب الإيمان.

وقد تبارى الكتّاب والأدباء والشعراء - قديماً وحديثاً - فى رصد أسباب الهجرة وتسجيل دوافعها، فى معرض نفيهم لكراهيتهم لأوطانهم على الرغم من نزوحهم منها، فها هو المتنبى يعلل لتنقله فى بلاد الله، وهجرته إليها بقوله:

يقولون لى: ما أنت فى كل بلدة
وما تبتغى؟ ما أبتغى جلّ أن يُسمى

أما أبو تمام الطائى فيقول:

بالشام أهلى، وبغداد الهوى
وأنا بالرقتين وبالفسطاط إخوانى
وما أظن النوى ترضى بما صنعت
حتى تطوح بى أقصى خراسان

الهجرة المباركة

وهى هجرة النبى وصحابته فهى انتقال الرسول - صلوات ربى وسلامه عليه - هو وصحابته بإذن من الله تعالى، من مكة إلى المدينة المنورة، فراراً بالعقيدة وتمكينا للدعوة، وبناء للدولة الجديدة، التى طالما انتظرها العالم لتنشر النور والعدل والهدى فى جنبات العالم وأرجائه شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، ومن ثم فقد كانت واجباً على كل مسلم ومسلمة.

يقول الشيخ عبدالرحمن تاج، شيخ الجامع الأزهر الأسبق -رحمه الله-: حادث الهجرة كله عبرة خالدة، ودروس نافعة، فقد كانت جهاداً عظيماً، وكفاحاً قوياً، وتضحية أعظم تضحية، فى سبيل المبدأ والعقيدة، إنها تدبير حسن حكيم، وعمل جيد رشيد، لنصرة الحق والعدل على الشرك والضلال والباطل، ثم هى أيضا منهج عظيم للدعوة، والتعليم والتربية، والهدى والإرشاد، وتمكين لأسباب العزة والقوة، وتقوية لروابط الألفة والمحبة.

ولله در كاتبنا وأديبنا الكبير الأستاذ أحمد حسن الزيات - رحمه الله - حينما قال: لولا الهجرة لما كانت النصرة، ولولا النصرة لما كانت بدر، ولولا بدر لما كان فتح مكة، ولولا فتح مكة لما فتحنا القادسية واليرموك، ولولا فتح القادسية واليرموك لما ورثنا ملكى كسرى وقيصر، ولولا الفتوح التى تلت ذلك لما غيّر القدر مجرى التاريخ وعدل وجهة الدنيا، وجعل من البادية الجديبة والعروبة الشتيتة عمراناً طبق الأرض بالخير وملكاً نظم الدنيا بالعدل، وديناً ألف القلوب بالرحمة، ومكن للعرب فى دورهم أن يبلغوا رسالة الله، ويؤدوا أمانة الحضارة، ويصلوا ما انقطع من سلسلة العلم.

الهجرة باقية

وهذا النوع الأخير من الهجرة، أى الهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، هو الذى عناه الرسول ﷺ بقوله، حينما سُئل عنها: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استُنفرتم فانفروا»، رواه الإمام أحمد وأبوداود والبخارى، بألفاظ متقاربة، ويعلق على هذا الإمام الأكبر الشيخ عبدالرحمن تاج قائلا: يفيد هذا الحديث انقضاء حكم الهجرة من مكة إلى المدينة بعد فتح مكة، وهو ظاهر، فإن مكة قد صارت منذ الفتح دار إسلام وصارت هى والمدينة على سواء، فلم يكن ثمة موجب للهجرة منها، ولكن ليس معنى هذا أن الهجرة قد انقطعت وارتفع حكمها بإطلاق، فإنه إذا عرض لشخص ما يقتضى هجرته من بلد إلى آخر، وكان هذا العارض أمراً صحيحاً شرعيا، فإنه تجب عليه الهجرة من غير شك، لا يخالف فى هذا أحد العلماء، وهو ما يفيده قول الرسول ﷺ فيما جاء فى «زاد المعاد»: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»، وبهذا يتبين أن الهجرة التى انقطعت وانتهى حكمها هى الهجرة المخصوصة من مكة إلى المدينة المنورة.

«أيامُ الله»

للأستاذ/ صديق عيطة

قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾

هذه الآيات المباركات من سورة «إبراهيم» عليه السلام، جاءت لتصور مشهدا عجيبا وفريدا، لا نظير له في بنائه الفني، وعناصر تكوينه التي ركب منها.

مشهد عجيب، اختصر فيه عامل الزمان وعامل المكان؛ من بدء الرسالات وحتى زمن موسى عليه السلام؛ حتى تلاشى تماما، لتقف الحقائق خالدة، شاخصة.. وجها لوجه، شاهدة.. ناطقة وبأعلى صوت معلنة أن رسالات السماء: واحدة في حقيقتها، واحدة في منبعها، واحدة في مبادئها. واحدة في أهدافها القريبة والبعيدة. وأن موقف البشرية من هذه الدعوات واحد. لا تعدد فيه ولا اختلاف، وإن بدت بعض الظواهر المختلفات هنا أو هناك في هذه الأمة أو تلك:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾

(الشورى ١٣)

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

(النساء ١٦٣ - ١٦٥)

وسورة إبراهيم - بشكل عام - سورة القضايا الكبيرة،، التي تمتد فوق حدود الزمان والمكان.

فهي حينما تتحدث عن الرسالات،، إنما تتحدث عن الجانب العام فيها، الذي يحكم الرسالات السماوية كلها،، ولا يتوقف عند رسالة بعينها:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾

(إبراهيم: ٤)

أو تتحدث عن الحقائق الخالدة الباقية، في مبادئها، وأهدافها وفي موقف الرسل من أقوامهم، وموقف أقوامهم منهم، ونهاية المطاف في هذه الدعوات كما هو ثابت في آيات المشهد الذي معنا.

وهي حينما تتحدث عن الأعمال الصالحة، المقبولة عند الله؛ عندما تقيم لها معيارا سماويا ثابتا، لا تختص به رسالة دون أخرى:

﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾

(إبراهيم: ١٨)

وهي حينما ترسم صورة من صور العذاب، إنما تختار زاوية يرى فيها العاملون في كل عصر، وفي كل مكان، وهم يتلاحون ويتلاومون في نار جهنم.

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(إبراهيم: ٢١: ٢٢)

ثم تتحدث عن الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة، وهي قضية كل عصر وكل مكان

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾

(إبراهيم: ٢٤-٢٦)

وهى حينما تذكر قصة إبراهيم عليه السلام، إنما تختار منها لقطة لها أبعادها التى تتخطى حدود الزمان والمكان، وهى لقطة اختيار الله تعالى هذا البلد الحرام الذى شاء الله سبحانه وتعالى أن ينشأ فيه إسماعيل عليه السلام؛ ليكون مقصد الحجيج على مر التاريخ، وقد أمر الله نبيه إبراهيم أن يؤذن فى الناس بالحج، هذا الأذان انطلق هو الآخر من عقال الزمان والمكان

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾

(الحج: ٢٧)

قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾

(إبراهيم: ٣٥)

ثم تختتم السورة فى نهاية المطاف بهذا الإعلان العام، الذى لا يعرف حدود الزمان أو المكان:

﴿ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

(إبراهيم: ٥٢)

وهكذا نرى هذا التناسق الفنى، الذى يشيع بين آفاق قضايا السورة المباركة، ومنها قضية المشهد الذى نعالجه الآن.

وآيات المشهد الذى معنا، جاءت على لسان موسى عليه السلام وهو يدعو قومه، وهو واحد من أنبياء الله تعالى ورسله أولى العزم، الذين واجهوا عناد المعاندين، وغطرسة المتغطرسين، فكان لابد من أن يذكّر قومه «بأيام الله»:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾

(إبراهيم: ٥)

«أيام الله» التى مازالت محفورة فى ذاكرة التاريخ.. «أيام الله» التى طبعت بحكمه فى هذه القضية الكبرى ـ قضية الرسالات ـ كما يبدو من خلال هذا الاستعراض الفريد، الذى يقف فيه الحق التاريخى فى جانب، والباطل التاريخى فى الجانب المقابل، برغم عوامل الزمان والمكان.

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾

(إبراهيم: ٩)

ألم يأتكم هذا النبأ؟!! بلى جاءهم، وعرفوه، فهم ليسوا فى عماية من الأمر، ولكنهم فى غواية من أهوائهم، فهو استفهام تقريرى، مبطن بالتقريع والزجر والتخويف.

«هذا التذكير من قول موسى، ولكن السياق منذ الآن يجعل موسى يتوارى،

ليستمر فى عرض قصة الرسل والرسالات فى جميع أزمانها، قصة الرسل والرسالات، وحقيقتها فى مواجهة الجاهلية، وعاقبة المكذبين بها على اختلاف الزمان والمكان..

وكان موسى «راوية» يبدأ بالإشارة إلى أحداث الرواية الكبرى، ثم يدع أبطالها يتحدثون بعد ذلك ويتصرفون.. وهى طريقة من طرق العرض للقصة فى القرآن، تحول القصة المحكية إلى رواية حية.. وهنا نشهد الرسل الكرام، فى موكب الإيمان، يواجهون البشرية متجمعة فى جاهليتها؛ حيث تتوارى الفواصل بين أجيالها وأقوامها، وتبرز الحقائق الكبرى متجردة عن الزمان والمكان، كما هى فى حقيقة الوجود خلف حواجز الزمان والمكان».

إن قصص الأنبياء فى القرآن الكريم معروفة، وقد وردت فى كثير من سوره المباركات ـ أو ورد منها ما شاء الله أن يرد، حيث لا يعلم حقيقة عددهم وأسمائهم إلا الله تبارك وتعالى ـ وردت هذه القصص فرادى وجماعات. وإن شئت فاقرأ سورة الأعراف، وسورة الأنبياء؛ ففى كل منهما كوكبة مباركة من هؤلاء الرسل الكرام. وفى كثير من سوره الأخرى ذكر بعض الأنبياء، وقد ذكر فى كل سورة ما ناسبها من اللقطات. ولن ندخل هنا فيما إذا كان هناك تكرار فى عرض قصص الأنبياء أولا.. فتلك قضية أخرى.

غير أنه مما يجدر ذكره هنا أن قصة كل رسول، كانت تأتى لتقص نبأ رسول واحد، إلى قوم مخصوصين، وفى زمن محدود.. فيما عدا آخرهم وزعيمهم محمد ﷺ، الذى أرسل إلى قومه، ومن جاءوا بعدهم إلى آخر الزمان؛ ولا يخرج عن هذه القاعدة موسى عليه السلام، وقد أرسل معه أخوه هارون؛ فقد كان وزيراً له، يتحمل عنه بعض أعباء الرسالة.

فالرسالة واحدة والرسول واحد؛ أما قوله تعالى:

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

(طه: ٤٧)

فلا يدل على تعدد الرسل فى هذه الرسالة.

يؤكد هذا قوله تعالى فى سورة الشعراء:

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

(الشعراء: ١٦)

فهما رسول واحد لرسالة واحدة. وإن كانا شخصين بإذن من الله تعالى، تلبية لطلب موسى من ربه عندما قال:

﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) ﴾

(طه: ٢٩-٣٥)

الموافقة على أن يكون معه وزير يدعو بدعوته ويأتمر بأمره، وينتهى بنهيه.

فلو كان هارون عليه السلام رسولا، لما جره موسى من لحيته ورأسه؛ حتى استعطفه هذا المسكين وطلب منه الرحمة، كما حكى ذلك القرآن فى أكثر من موضع. اقرأ إن شئت قوله تعالى:

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(الأعراف: ١٥٠)

وقوله تعالى:

﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾

(طه: ٩٢ ـ ٩٤)

ولن نستطرد فى تفصيل هذه القضية أكثر من هذا، وحسبنا أن قد عرفنا أن الرسالات كانت فرادى، وأن الرسل كانوا أيضا فرادى، وإن كانت الأغراض التى تستقى من ذكرهم متشابهة، فالدين كله واحد وهو من عند الله تبارك وتعالى، ووسائل الأنبياء فى الدعوة كانت واحدة..

واستقبال قومهم لهم متشابهة.

والله ينصر أنبياءه فى نهاية المطاف ويهلك أعداءه.

***

فلنعد الآن إلى تأمل الصورة الفنية التى عرضتها السورة لهذه الجولة التى نشبت بين الحق والباطل.

أمامنا الآن فريقان: فريق الأنبياء والمرسلين الداعين، وهم يحملون آيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته واستحقاقه وحده تعالى للعبادة والألوهية دون سواه. هذه الأدلة الواضحة، التى توشك ـ لقوتها، ووضوحها، واتساق مدلولها مع مقتضيات الفطرة السليمة، التى لم تشبها شائبة من العناد والمكابرة ـ أن تنتزع من الفريق الثانى الاعتراف بربوبيته ووحدانيته تعالى.

وفريق المدعوين، وهم أقوام الأنبياء والمرسلين من لدن قوم نوح عليه السلام حتى قبيل رسالة موسى عليه السلام.

فريقان قائمان.. كتلتان من البشر تمثلان حركة التاريخ من بدايته، وتصوران موجات الأحداث بين شاطئ الحق الأبدى، والباطل الأبدى، وتشهدان بصدق على أن هذه هى سنة الله فى خلقه.

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

(الأحزاب: ٦٢)

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

(فاطر: ٤٣)

ولن تخرج أمة من الأمم، أو رسالة من الرسالات ـ أيا كان موقعهما على امتداد الأرض، وأيا كان زمانهما على مر التاريخ ـ عما تنتهى إليه هذه الصورة العامة، التى يعرضها هذا المشهد العجيب.

صورة فريدة، ومشهد لا يتكرر، يقف فيه الحق والباطل وجها لوجه، وتسقط من حسابه

كل فواصل الزمان والمكان، لتلتحم فيه الحقائق الخالدة الثابتة، وتكتمل معالم الحق والباطل، وليحشد كل منهما أسباب انتصاره على الفريق الآخر، وعوامل فوزه فى هذه الجولة. فماذا نرى؟ وماذا نسمع؟.

فريق الأنبياء الداعين يعرض فى وضوح أدلة صدقه فى دعوته، وبراهين قضيته التى جاء من أجلها.. الأدلة واضحة.. الدعوة صحيحة.. تتناسب والفطرة السليمة.. وتتفق مع دواعى الصدق مع النفس؛ فماذا يمنع من الاعتراف إذن؟ ها هو ذا الفريق الثانى يكاد ينطق معترفا بصدق هذه الرسالات، ويعلن انصياعه للرسل ويسلس لهم قياده.. ولكن عناصر الشر التى ركبت فيه تتحرك فى اللحظة المناسبة، وتسد الطريق أمام هذا الاعتراف، الذى سينزلهم من صفوف الزعماء والرؤساء والقادة، إلى صفوف الأتباع والعامة والسوقة، لأن هذه الديانات إنما جاءت لتجعل الناس جميعهم سواسية كأسنان المشط.. فإذا بأكفهم ترتد مسرعة إلى أفواههم لتمنع هذه الكلمة ـ كلمة الحق ـ التى توشك أن تنطلق؛ إذا هى تركت بلا عقال يحد من حركتها. ماذا حدث؟! ماذا يمنع من الاعتراف والانقياد؟! إنه العناد والمكابرة اللذين يدفعانهم لأن يقولوا:

﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾

(إبراهيم: ٩)

يا سبحان الله، لا حول ولا قوة إلا بالله!! ألا. ليت هذه الأيدى لم ترد فى الأفواه!! بل. ليتها شلت فلم ترفع بعد ذلك أصلا!! فقد حبست كلمة الحق من أن تنطلق، وتنساح فى الأرض لتنشر الخير والبركة. وأطلقت جماح الباطل بصوته المنكر، ووجهه القبيح، ويده الشوهاء ليعيث فى الأرض فسادا!! ولكن لا بأس. مازلنا فى بداية الجولة

﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا ﴾

(التوبة: ٨٢)

وهنا يتعجب فريق الأنبياء ويستنكر هذا الموقف المشين من فريق هؤلاء الأقوام

﴿ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾

(إبراهيم: ١٠)

إنه الذى خلق السماوات والأرض،، وهو يدعوكم للإيمان به ليغفر لكم من ذنوبكم، فدعوته تعالى لكم لغفران ذنوبكم!! فهل هذا يليق بمن يرون آلاء الله تحيط بهم من كل جانب؟!

ونعمه تغمرهم من شتى نواحيهم بما فى ذلك غفران ذنوبهم إن هم أجابوا داعى الله؟! وعدم التعجيل بعذابهم ليترك لهم فرصة التوبة إليه؟! إنه موقف غريب مشين لا يرتضيه عاقل، ولا يسيغه واع!!

وإلى هنا، وفى نهاية هذه الجولة فى معركة الحق والباطل، نتوقف مضطرين.

التأمل فى آيات الله تعالى

الدكتور/ السيد محمد الذيب
الأستاذ بكلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

تتواصل آيات القرآن فى سورة الفرقان عن ذكر صفات عباد الرحمن، التى تكتمل منها ومن آيات أخرى، الصورة التامة لكل المؤمنين الصادقين، الذين يأخذون من الدنيا ويعطونها، ويتوجهون فى إقبالهم على الله نحو التأمل المزهر، والتفكير المثمر، الذى تنعكس آثاره على سلوك الإنسان، وعمله للدين والحياة.

قال رب العزة سبحانه وتعالى:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾

(الفرقان: ٧٣)

والمراد من التذكير فى الآية هو التنبيه والتأمل والإدراك قال تعالى:

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(الذاريات: ٥٥)

إن معنى كلمة آية وجمعها آيات فى هذا النص القرآنى هى جملة أو مجموعة من الجمل يُؤثر الوقف فى نهايتها غالباً، ويطلق ذلك على مجموع آيات القرآن الكريم، وإن كان المعنى عموماً يتجاوز هذا المراد إلى إطلاقات أخرى مثل العلامة والأمارة، أو العبرة أو المعجزة[1].

ومعنى:

﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا ﴾

أى: لم يكبوا عليها، والخرور فى أصل معناه: السقوط على غير نظام وترتيب، كأن الذى يخر ساجداً لله لا يكون معنياً بهيئة ونظام، وإنما يكون مشغولاً بخضوع وخشوع لله رب العالمين[2] والمعنى فى الآية منصرف إلى وصف عباد الرحمن، كما جاء فى تفسير القرطبى:

(١) أنظر المعجم الوسيط جـ ١ صـ ٣٥.

(٢) قال تعالى: ﴿يخرون للأذقان سجداً﴾ الإسراء: ١٠٧، وقال: ﴿ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾ الإسراء: ١٠٩.

أى إذا تليت عليهم آيات الله وجلت قلوبهم، فخروا سجداً وبكياً، أى ولم يخروا عليها صما وعميانا[3].

وإيضاح ذلك فى شأن الآية، أن الكفار هم الذين يعرضون عن آيات الله، ويخرون عليها صماً وعمياناً، وتلك دلالة على إعراضهم وغرورهم وسقوطهم على غير نظام وترتيب، كأن الآية كما يقول بعض المفسرين: «تعريض للمشركين الذين ينكبون على آلهتهم وعقائدهم وأباطيلهم كالصم والعميان، لا يسمعون ولا يبصرون، ولا يتطلعون إلى هدى أو نور وحركة الانكباب على الوجوه بلا سمع ولا بصر ولا تدبر حركة تصور الغفلة والانطماس، والتعصب الأعمى.

فأما عباد الرحمن، فهم يدركون إدراكاً واعياً بصيراً ما فى عقيدتهم من حق، وما في آيات الله من صدق، فيؤمنون إيماناً واعياً بصيراً، لا تعصباً أعمى، ولا انكباباً على الوجوه! فإذا تحمسوا لعقيدتهم فإنما هى حماسة العالم المدرك البصير».

أى: أن التأمل في آيات الله ينبغى أن يكون مصحوباً بفكر ووعي وبصر وإدراك مصاحب لحركة الانكباب، والتعرف على ما فى آيات الله من دواعى الترقي فى درجات الإيمان والسعى إلى الحق واليقين.

ويكون التفكر فى آيات الله بكثرة التأمل فيها، وزيادة الفهم والاستيعاب لها، ومراعاة الخضوع والخشوع معها، وتنصرف هذه الآيات، بالدرجة الأولى إلى كلام الله تعالى فى آيات القرآن الكريم، ويتحقق التأمل والتفكر أيضاً فى الآيات الكونية المتجسدة فى المرئيات الطبيعية الماثلة أمام النظر الإنسانى، ويكون كذلك فى المغيبات غير الملموسة بالحواس البشرية، وعلى كل فتلك المشاهدات المكتوبة أو المصورة ينبغى أن يرقى الإنسان المؤمن بها إلى درجات عليا من المعرفة والتقوى، وأن يستثمرها فى تكوين علاقات متنوعة ومتميزة مع بنى البشر، أو لصيانة الاقتراب من الله تعالى والسجود له، وهو درجة عليا من الخضوع والشفافية والنقاء.

والتفكر أى إعمال النظر فى الأشياء بفهم وإدراك، كأن ذلك التوجيه الشرعى ينصرف إلى حتمية نظر المؤمن إلى الأشياء؛ للعبرة والاتعاظ.

إن آيات الله على تنوعها وكثرتها منها ما هو ظاهر لا يحتاج إلى بيان كالمشاهد الطبيعية مثلاً، ومنها ما يحتاج إلى تفهم وتفكر وإدراك كما فى بعض آيات القرآن الكريم.

قال تعالى:

(٣) تفسير القرطبى جـ ١٣ صـ ٨١.

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾

(البقرة: ٢٦٦)

وقال عز من قائل:

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

(النمل: ٩٣)

وقال:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾

(فصلت: ٣٧)

وهكذا تتجلى الدعوة إلى التأمل والتفكر في سائر آيات الله ومخلوقاته ببواعث إيمانية دافعة على إعمال الفكر في مظاهر العظمة الإلهية في الأرض والسماء.

وقال ابن عباس (رضي الله عنهما): (إن قوماً تفكروا في الله عزوجل، فقال النبي ﷺ: «تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله، فإنكم لن تقدروا قدره»[4].

إن التأمل والتفكر ينطلق الإنسان بهما إلى ما في أعماقه ودواخل نفسه، وإلى ما في خلق الله في السماوات والأرض وما بينهما، وكل ذلك بهدف الانتقال بالإنسان المؤمن من الدائرة المادية الضيقة والنظرة السطحية الساذجة إلى درجة من العمق للفهم والتأمل والرؤية الإيمانية المتوهجة لدواعي العظمة والاعتبار.

وقد جاءت في القرآن الكريم عشرات الآيات التي تدعو الإنسان إلى السير في الأرض والتأمل في الكون؛ للبحث عن أسباب الخلق، وحتمية الحركة، وضرورة التفكر، بهدف إزالة الكراهية والحمق من النفوس، قال تعالى:

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴾

(الغاشية: ١٧ - ٢٢)

وتعددت الدعوة إلى السير في الأرض، والتأمل، والتفكر، في العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

إن المواقف الخاصة بالتأمل في حياة الرسول وأصحابه كثيرة ومتنوعة تتعلق بالنص القرآني، وبالمشهد الطبيعي، والتفسير الغيبي لما لم يشاهده الإنسان بحواسه التي لا تستطيع الإدراك والتعرف إلا على قليل من المواقف والمشاهدات التي يتحتم أن ينطلق منها الإنسان إلى عالم رحب فسيح.

وهذا موقف من مواقف العظة والعبرة التي أوردها أبو حامد الغزالي في الإحياء قال: «وعن عطاء قال: انطلقت يوماً أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها، فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب، فقالت: يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا؟ قال: قول رسول الله ﷺ: زُرغباً تزدد حباً، قال: فبكت وقالت: كل أمره كان عجباً، آتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي، ثم قال: ذريني أتعبد بربي عز وجل، فقام إلى القربة، فتوضأ منها، ثم قام يصلي، فبكى حتى بل لحيته، ثم سجد حتى بل الأرض، ثم اضطجع على جنبه، حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، فقال: يا رسول الله ما يبكيك، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي، وقد أنزل الله علي في هذه الليلة:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

(آل عمران: ١٩٠)

ثم قال: ويل لمن قرأها، ولم يتفكر فيها»[5].

ويتصل بالآية المذكورة من سورة آل عمران قول الله تعالى:

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

(آل عمران: ١٩١)

تلك هي واحدة من صفات عباد الرحمن التي تعرض لقيمة التأمل والتفكر في آيات الله، وانعكاس ذلك على سلوكيات الفرد في حياته مع ربه ومع الناس جميعاً.

❁❁❁

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية، والأصبهاني في الترغيب والترهيب، والطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشعب بدرجات تتارجح بين الضعف والصحة.

(٥) إحياء علوم الدين جـ ٤ صـ ٤١٠، والحديث في صحيح ابن حبان من رواية عبدالملك بن أبي سليمان عن عطاء.

التجديد فى المقاصد

يخطىء من يظن أن نصوص القرآن والسنة فى شأن الإنسان والحياة قاصرة عن ملاحقة أو مواجهة توالى العصور، وتعاقب الأجيال، واختلاف الأجناس والأديان والأحوال وعادات الأمم والشعوب مرد ذلك الآفاق الرحبة التى صيغت بها النصوص، والمعانى أو المناهج التى تحتويها، والمنطلقات التى ترتكز عليها، والغايات والمرامى التى تستهدفها وتضعها نصب عينيها، طبيعة الإنسان فى علاقته بالله تعالى، أو فى علاقته بالإنسان فردا أو جماعة فى وطنه ومجتمعه، أو فى العلاقات بين الأمم والشعوب.

للأستاذ الدكتور/ محمد الشحات الجندى
الأمين عام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

وقد وعى العلماء والفقهاء فى العصر الإسلامى الأول عمق المنظومة الفكرية والأصولية والفقهية، والشمول الذى زخرت به هذه النصوص:

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾

(الأنعام: ٣٨)

واحتفاء الإسلام بالتفكر والتدبر وإعمال العقل، وحثه على الاجتهاد، وطلبه تحقيق مصالح وحاجات الناس لمواجهة متطلبات الحياة، والاجتماع الإنسانى الرشيد، بما يضمن سعادة البشر فى الدين والدنيا.

وسجل العقل المسلم بهذا الاجتهاد المتبصر بحقائق الشريعة والحياة نجاحات فكرية وتشريعية مكنته من قيادة الأمم، واستيعاب منتج الحضارات، ومواكبة التطورات عبر الزمان والمكان طوال فترة ازدهار الدولة الإسلامية، واستطاع أن يمد الاجتماع البشرى بمطالبه الحياتية، ومصالحه الدنيوية جنبا إلى جنب مع قيامه بواجباته الدينية فى ظل توازن خلاق، أضاف به الإسلام حضارة راقية للبشرية بكل المقاييس.

وأدى الاجتهاد فى المقاصد والسياسة الشرعية دوراً محورياً وبناء فى التعبير عن هوية الإسلام فى عقيدته وشريعته وأخلاقه وحضارته، ضمن به الحفاظ على الهوية الإسلامية، والثوابت الإيمانية والعملية، مما مكن للفرد والمجتمع والأمة أن تتابع مسيرة التقدم الروحى والمادى على السواء، وأن تقود الأمم وتحرز السبق والريادة على غيرها من الأمم والشعوب، وأن تجعل الإسلام والمسلمين القوة العالمية الأولى، فى العصر الأول.

وكان من بين أسس هذه النهضة الفقهية والأصولية انتهاج النظر المقاصدى، والاجتهاد فى تنزيله على الواقع المعيش، وإدارة نظام الدولة وتسيير شئون المجتمع على هدى من الكليات الخمس، فى حفظ الدين، والنفس، والمال، والعقل، والعرض، فحقق هدف الإسلام فى تجديد الدين، ونهضة الدنيا.

فقد اعتمدوا على استقراء أصول الشريعة، وتعمقوا نصوصها وفقهوا دلالتها الجامعة، ومجالاتها العريضة، من جوانبها المتنوعة، جانب غايات التشريع فى جلب المصالح ودرء المفاسد.

أهمية التجديد المقاصدى

ظل الارتباط بين الإحياء الدينى والتقدم المجتمعى قائما فى الدولة الإسلامية، حتى أتى عليه حين من الدهر، تراجع فيه العقل المسلم عن الفقه المقاصدى، وانسحب من الحياة فانحصر فى فروع جزئية ومسائل فردية، تخندق فيها وحولها إلى مماحكات لفظية ودوران فى فلك المتون والحواشى، مما أثر سلبا على الدين والنظام والواقع الذى يعيشه المسلم فردا أو جماعة أو أمة.

وكان من الطبيعى أن يكون مردود هذا الجفاف لمنابع الفكر المقاصدى فى أهم مجالاته وهو السياسة الشرعية -وهى القيام على ما يصلح الخلق فى أمور دينهم ودنياهم- فقدان المسلم أهم عناصر تفوقه فى الدين والحياة، بما أسفر عنه من الجمود فى فهم النصوص، والتخلف فى معترك الحياة بأبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وإدراكا لقيمة المنهج المقاصدى، والمداومة على تجديده وتعميق مغزاه فى فقه العبادات والمعاملات، وفى شئون العقيدة والتشريع، ولج الأصوليون هذا الباب، وأرسوا قواعده، وأنزلوها على واقع الناس وفقا لدلالات النصوص، وأصول الشريعة.

اتجاه العلماء فى النظر للمقاصد

وحقيق على من يتفهم هذا النظر المقاصدى أن يقرر باطمئنان وثقة كما يقول الشاطبى[1]: أن الشارع قد قصد بالتشريع إقامة المصالح الأخروية والدنيوية، وذلك على وجه لا يختل لها به نظام لا بحسب الكل ولا بحسب الجزء وسواء فى ذلك ما كان من قبيل الضروريات أو الحاجيات أو التحسينيات، فإنها لو كانت موضوعة بحيث يمكن أن يختل نظامها أو تضطرب أحكامها لم يكن التشريع موضوعا

(١) الموافقات فى أصول الأحكام، جـ ٢، ص ٢٥، دار الفكر.

لها، إذ ليس كونها مصالح إذ ذاك بأولى من كونها مفاسد، لكن الشارع قصد بها أن تكون مصالح على الإطلاق، فلابد أن يكون وضعها على ذلك الوجه أبدياً وكلياً وعاماً في جميع أنواع التكليف والمكلفين وجميع الأحوال.

وبهذا يكون التوجه إلى المقاصد الكلية أو العامة أصلا من أصول الفقه القاعدى، يقوم على إدراك وتبصر المعانى والحكم والغايات التى أرادها الشارع من وراء تشريعه للأحكام وتوصيفه كفريضة دينية وحتمية دنيوية لتقرير وإثبات صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان ووفائها بحاجات الناس فى غير إفراط ولا تفريط إلى جانب التوجه إلى المقاصد الخاصة الذى يعنى ببيان ما تهدف إليه الشريعة فى مجال أو قطاع بعينه يتضمن نشاطا يتغياه الشارع كالنشاط المتعلق بالمال والثروة أو الأسرة أو العقوبات أو القضاء وغيرها.

وبالإضافة إلى هذا وذاك، لجأوا إلى المقاصد الجزئية أى مقصد الشريعة من كل حكم على حدة أو كما يقول علال الفاسى: الأسرار التى وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها[٢].

هذا الأفق الرحب للمقاصد أتى بثماره فى تجديد القواعد الأصولية، والأحكام الفقهية، وقدم إبداعا فى المجال الأصولى لمصادر أخرى غير القطبين الأساسيين: القرآن والسنة، فانبثق عنهما الإجماع الذى يعتد بالإرادة الجمعية لمجتهدى الأمة، والقياس الذى يتعمق فى فهم علة النص، وينقل الحكم المنصوص عليه إلى واقعة جديدة لم يرد بها النص، ومن ثم يكون تلمس الحل من بنية النص، وفى نطاق الشريعة.

وامتد هذا الفكر المقاصدى لإثراء الشرع الإسلامى، على مستوى قوانين الاستنباط وأدلة الأحكام ومصادر التشريع، فأنتج العقل المسلم المصالح المرسلة وسد الذرائع والاستحسان والاستصحاب والعرف، وهى أصول فى بابها، ومناهج فى استدلالاتها، فهى مقاصدية من جهة تعبيرها عن غايات التشريع وأهدافه، وتبنيها لحكمه ومعانيه التى توخاها الشارع تيسيرا على المكلفين، وانفتاحا على مجالات وآفاق جديدة.

وليس هذا الاتجاه الاجتهادى الموسع لمصادر الشرع الإسلامى بدعا من الشرع، إن هو إلا اتباع لنصوص قطعية وسوابق أصولية وفقهية نطق بها القرآن الكريم كمنظومة حاكمة للدين والدنيا:

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾

(النحل: ٨٩)

واستلهاما لحديث الرسول ﷺ: «أنتم أعلم بشئون دنياكم»[٣] وفيما جاء عنه ﷺ: «إذا

(٢) الشيخ/ احمد زكي يماني: فقه المقاصد وفقه النصوص، ص ٢٥ بحث ضمن كتاب مقاصد الشريعة الإسلامية دراسات فى قضايا المنهج ومجالات التطبيق، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مركز دراسات مقاصد الشريعة الإسلامية.

(٣) صحيح مسلم ٧/٩٥ حديث رقم ٦٢٢٧.

اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد»[٤].

واقتفاء لاجتهادات الصحابة، وعمل الخلفاء الراشدين فى إدارة الحكم وتصريف شئون الدولة بالسياسة الشرعية، وما دل عليه صنيع أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم فى اجتهاداتهم فى الشورى وجمع القرآن الكريم، والتقويم الهجرى، والدواوين، والعشور ـ الرسوم الجمركية ـ وعدم تقسيم أرض السواد ـ العراق ـ بين الفاتحين، والتقاط ضوال الإبل، وتضمين الصناع.. وغيرها من خطط الحكم الرشيد وهى اجتهادات مقاصدية فى الحكم والإدارة والمال والاقتصاد والتشريعات الاجتماعية.

إن قيمة هذه الاجتهادات السديدة فى احتكامها إلى كليات الشرع، ومقاصده العليا، ينبع من حرص هؤلاء الخلفاء على القيام بمهام الإمامة، وخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا[٥]، والتزامهم بنصوص الشرع ومبادئه العامة، وتحكيم المصلحة العامة فى أمور الاجتماع البشرى.

وحيث إنهم نهضوا بهذه المهام على أكمل الوجوه، فقد استحقوا الاقتداء بهم، والسير على طريقتهم، من صاحب الرسالة فيما روى عنه: «عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى، عضوا عليها بالنواجذ»[٦].

والمغزى الذى تدل عليه هذه الاجتهادات أهمية إعمال الفكر المقاصدى فى تسيير حركة الحياة، وجعل الشريعة محققة لمصالح الناس قائمة على حاجاتهم، وترسيخ مبدأ صلاحيتها لكل زمان ومكان، ومدها بأسباب الخصوبة والثراء الدينى والدنيوى.

المقاصد فى ميدان السياسة الشرعية

السياسة الشرعية باب واسع وخصب لتحكيم مقاصد الشريعة، بحسبان أنها تتطلب من القائم عليها معرفة النصوص وأصول الشرع وإدارة شئون الاجتماع البشرى على سند من العلم بكلياته وجزئياته أو عمومه وخصوصه يتأسس على أفق واسع ومعرفة بعلم الرواية والدراية، بحيث ينفذ إلى عمق النص ويحيط بمغزاه وجوهره، لا يقف عند رسمه ووسمه وإنما يتغلغل إلى غايته ومنتهاه.

ذلك أنه يعرض للحاكم والقائمين على أمر الرعية أمور وشئون تتطلب تصريفها وإدارة مقاليدها، إذ تتعلق بمصالح الفرد ومطالبه المتجددة، فيما يعرض له فى معاشه وحياته، ومعضلات الوطن والمجتمع، وهموم الأمة كلها، وهى هموم وشئون ليست نمطية ولا تجرى على نسق واحد، وإنما هى متشعبة وكثيرة على قدر تعقد الحياة وتشابك الحاجات وتنوع المطالب، وهو ما يتطلب من القائمين على أمرها التعامل معها بما يحقق المصلحة ويوفى بالحاجة، وينأى بالناس عن الإضرار بهم أو إفساد حياتهم.

يقول ابن عقيل[٧]: السياسة ما كان فعلا

(٤) المنتقى لابن الجارود ٣/٧٧.

(٥) الماوردي، الاحكام السلطانية، والولايات الدينية، ص ٥، ١٩٧٣م، مطبعة الحلبي.

(٦) شرح مشكل الآثار للطحاوي ٣/٢٢٣.

يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد وإن لم يضعه الرسول ﷺ ولا نطق به وحى.

فإن أردت بقولك إلا ما وافق الشرع أى لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح، وإن أردت لا سياسة إلا ما نطق به الشرع فغلط وتغليط للصحابة، فقد جرى من الخلفاء الراشدين من القتل والتمثيل ما لا يجحده عالم بالسنن، ولو لم يكن إلا تحريق عثمان المصاحف، فإنه كان رأيا اعتمدوا فيه على مصلحة الأمة، وتحريق على رضى الله عنه الزنادقة فى الأخاديد ونفى عمر لنصر بن حجاج.

والسبب فى الإقدام على هذه الأعمال، رغم ما قد يبدو فيها من قتل وتحريق وتقييد للحريات، منع مفسدة أعظم، وصيانة مصلحة أعلى، والحيلولة دون الإضرار بحق الجماعة والأمة، واستقرار المجتمع، ووأد الفتنة وقطع دابر الخلاف، فهى تستهدف صالح الدين وانتظام أحوال الجماعة، ودرء المفسدة عنها.

ولا يقدر على القيام بهذه المسئولية إلا من أوتى ملكة الاجتهاد المقاصدى وقدر على تحمل المسئولية، وفقه الوقوف على دلالة النصوص، وواقع الناس بنظر سديد يوازن بين المصالح والمفاسد فى كل عمل أو تصرف، ليس بمنطق الهوى، وإنما بالانصياع للحق والعدل، ذلك أن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة كما يقول ابن تيمية(8): فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها، وإلا اجتهد رأيه لمعرفة الأشباه والنظائر، وقل أن تعوز النصوص من يكون خبيرا بها وبدلالتها على الأحكام.

وليس من قبيل المصادفة أن تتشدد الشريعة فى ضرورة الإتيان بهذه المصالح أو تحقيق السياسة الرشيدة لتحرى احتياجات الناس والوفاء بمطلب الاجتماع الرشيد والآمن، فإن الشريعة تهدف إلى مصلحة الاجتماع الإنسانى، والتمكين للدين، والحفاظ على أمن وأمان واستقرار البلاد والعباد.

ولا حاجة لإيراد الدليل على ضرورة المصالح، ومنع المفاسد فى كل مجتمع وأمة، لأنه من الوضوح بما لا يحتاج إلى مزيد بيان، ويكفى تصور حالة المجتمع الذى تهدر فيه المصالح المشار إليها، وهى قطعا من جنس المصالح الضرورية.

فالمصلحة الأساسية هى التى تكون الأمة وهى جماع الوطن والشعب والحكم بمجموعها وآحادها فى ضرورة إلى تحصيلها بحيث لا يستقيم النظام باختلالها، وبحيث إذا انحرفت تؤول حالة الإنسان إلى فساد وتلاشى.. اختلال نظام الأمة.. أعنى به أن تصير أحوال الأمة شبيهة بأحوال الأنعام.. وترجع هذه المصلحة إلى ما يقيم النظام الأصلى لنوع الإنسان وذلك هو الكليات الخمس ومكملاتها(9).

«يتبع»

---

(7) ابن قيم الجوزية، الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية، ص ١٦، ١٧، مكتبة المدنى.

(8) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ص ٢٦، المكتبة القيمة.

(9) محمد الطاهر بن عاشور، حاشية التوضيح، جـ ٢، ص ١٦١، مطبعة النهضة.

الحضارات الإنسانية بين القطيعة والتقليد

للأستاذ الدكتور/ محمد عمارة
عضو مجمع البحوث الإسلامية

فى النظرة الإسلامية، تتأسس التعددية فى الحضارات الإنسانية على "سنة التعددية"، التى هى واحدة من سنن الله فى الخلق المادى والاجتماع البشرى وهى سنة لا تبديل لها ولا تحويل فتعدد "المناهج" الذى شاءه الله، سبحانه وتعالى للأمم والشعوب هو القانون الذى تتأسس عليه التعددية فى الحضارات..

وهذه التعددية فى الحضارات الإنسانية، لاتعنى "قطيعة التضاد"، كما أنها لا تعنى "تماثل التبعية" و"تطابق-التقليد" وإنما هى "تميُّز" يقف بين «الواحدية الحضارية» وبين "التضاد المطلق بين الحضارات"، إنه "تميُّز" يقوم على ساقين اثنتين ساق "العموم" القائم فيما هو مشترك إنسانى عام فى حقائق وقوانين العلوم الموضوعية والطبيعية والمحايدة، التى لاتتغاير حقائقها وقوانينها بتغاير عقائد وحضارات الباحثين فيها، وذلك لثبات موضوعات هذه العلوم، وتماثل ثمرات تجاربها، مهما تعددت، وتغيرت هويات القائمين بها.

ففى هذه الميادين نكون بإزاء "مشترك إنسانى عام" يمثل رصيداً "للعموم" الجامع بين مختلف الحضارات الإنسانية، عبر الزمان والمكان.

أما الساق الثانية التى يقوم عليها "تميُّز العموم والخصوص بين الحضارات، فهى ساق الخصوصيات الحضارية فى الهويات والثقافات والفلسفات وميادين هذه الخصوصيات هى العلوم الإنسانية، التى تتغاير بتغاير موضوعاتها -النفوس الإنسانية- التى تتلون وفق المواريث والعقائد والفلسفات والعادات والأعراف والتقاليد.

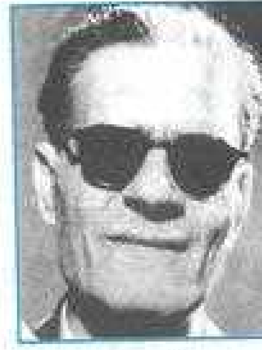
وإذا كانت التجارب المادية تتكرر على "المادة" فتثمر ذات الحقيقة ونفس القانون، رغم التكرار، ورغم تغاير هويات القائمين على هذه التجارب لثبات وحياد "المادة" موضوع التجارب؛ فإن التجربة الفنية أو الشعرية أو الروحية - وكذلك الاجتهاد فى العلوم الإنسانية -يستحيل

التماثل فيها عند تكرارها حتى لدى الإنسان الواحد، لأن موضوعاتها -النفس الإنسانية- ليس لها ثبات ولا حياد «المادة» الصماء!.

فعلى "العموم" الذى يمثل نطاق المشترك الإنسانى العام فى الفكر الإنسانى وعلى "الخصوص" -الذى يمثل التعددية فى الهويات والثقافات والإنسانيات- يقوم "التمايز" الممثل لرؤية الإسلام لمعيار "التعارف" بين الحضارات المتعددة للأمم والشعوب..

نماذج شاهدة

وإذا كان الناس لايختلفون على عموم الحقائق والقوانين التى تمثل ثمرات الإبداع الإنسانى فى ميادين العلوم الطبيعية والموضوعية والمحايدة من طب وهندسة وطبيعة وكيمياء وفلك ورياضيات ونبات وحيوان وفى ميادين التجارب الإنسانية التى هى أقرب إلى الآليات والأوعية والمؤسسات، التى توظف فى خدمة المقاصد والفلسفات والغايات.. فإن خلافاً كبيراً يقوم بين تيارات فكرية متعددة حول التمايز الحضارى فى ميادين الثقافات والهويات والإنسانيات -آدابا وفنونا وسياسة.. واجتماعا.. واقتصادا.. وعقائد.. ورؤى لمكانة الإنسان فى الكون، وعلاقته بالأغيار، وفلسفته فى حكمة الوجود، وقصة البدء، والمسيرة، والمصير.. إلخ.. إلخ.. فمن الناس من يرى موضوعات العلوم الإنسانية، كموضوعات العلوم الطبيعية، محايدة، وصالحة للدرس بالمناهج الموحدة، كما هو الحال فى مناهج دراسة موضوعات العلوم الطبيعية، الأمر الذى يثمر حقائق وقوانين واحدة، تجعل ميادين هذه العلوم الإنسانية مما هو "مشترك إنسانى



طه حسين

عام" لاتغاير فيه ولا تمايز الحضارات وهؤلاء هم دعاة الواحدية الحضارية.. الذين عبر عن فكرهم الدكتور طه حسين (١٣٠٦-١٣٩٣هـ ١٨٨٩-١٩٧٣م).. فى مرحلة انبهاره بالحضارة الغربية- فقال بواحدية "العقل" بين الشرق والغرب لأن العقل الشرقى هو- كالعقل الأوربى - مرده إلى عناصر ثلاثة:

«- حضارة اليونان ومافيها من أدب وفلسفة وفن.

- وحضارة الرومان وما فيها من سياسة وفقه.

- والمسيحية وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على الإحسان».

وبعد أن أنكر تمايز الحضارات فى الإنسانيات، وزعم وحدتها فى الأدب والفلسفة والفن والسياسة والفقه والشرائع.. رتب على ذلك واحدية العقل الشرقى والعقل الأوروبى، فقال:

"لقد كانت مصر دائما جزءا من أوروبا، فى كل مايتصل بالحياة العقلية والثقافية على اختلاف فروعها وألوانها.."

ثم مضى فرفض أن يكون ظهور الإسلام ونزول القرآن قد أحدثا تميزا للعقل الإسلامى الشرقى عن العقل النصرانى الغربى، فقال: وكما لم يغير الإنجيل من الطابع اليونانى للعقل الأوروبى.. فكذلك القرآن، لم يغير من الطابع

اليونانى للعقل الشرقى لأن القرآن "إنما جاء متمما ومصدقا لما فى الإنجيل"؟!

المنكرين للتعددية الحضارية!!

ثم انطلق من ميدان الحكم على الماضى والتراث، ليعمم هذا القول على الحاضر والمستقبل، فدعا الناس إلى أن يسلكوا فى النهضة ويختاروا للتقدم نفس الخيار الغربى، زاعما أنه خيار وحيد، وسبيل واحدة لاتعدد فيها ولا تمايز.. فقال: «إن السبيل واضحة بينة مستقيمة لا لبس فيها ولا عوج ولا التواء، وهى واحدة فذة ليس لها تعدد، وهى: أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم، لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركاء فى الحضارة- خيرها وشرها، حلوها ومرها، ما يحب منها وما يكره، ما يحمد منها وما يعاب"؟!(1)

ذلك هو مذهب المنكرين للتعددية الحضارية، القائلين بالوحدة الحضارية فى الإنسانيات كما فى الطبيعيات، وعندهم أن التمايز قائم فى درجات ارتقاء الأمم على السلم الواحد للحضارة الواحدة.. وليس تمايزاً فى الهويات والخصوصيات بين حضارات إنسانية متعددة ومتمايزة..

ولأن هذه القضية فيها هذا الخلاف.. ولأن القول بهذه "الواحدية الحضارية" يؤدى فى رأينا.. ليس فقط إلى الخروج عن ما جعله القرآن الكريم آية من آيات الله، سبحانه وتعالى- فى اختلاف الناس فى الشرائع والمناهج، ومن ثم فى الحضارات.. بل وإلى الخروج على حقائق الفكر التى تبلغ مرتبة البدهيات.. وأيضا المعاندة والإنكار لواقع تاريخ الحضارات..

الرؤية الإسلامية

لما كان هذا هو الرأى فى دعوى القائلين بواحدية الحضارة"..حق علينا أن نضرب الأمثال الشاهدة على صدق الرؤية الإسلامية، المؤسسة على وجود "تعددية التمايز" بين الحضارات، كموقف وسطى بين دعاة "تغاير- التضاد" بين الحضارات وبين دعاة "تماثل-الوحدة" فيما يسمونها الحضارة "العالمية والإنسانية" الواحدة..

ومن بين الأمثال الكثيرة الشاهدة على صدق هذه الرؤية الإسلامية، للتعددية الحضارية نختار بعضها.. من مثل:

١-الاشتراك فى "الإيمان بالخالق" ..والخصوصية فى «آفاق تدبيره»:

فى كل الحضارات التاريخية منها والمعاصرة- وإذا نحن استثنينا القلة المادية المنكرة وجود خالق لهذا الوجود-هناك اشتراك بين جميع أمم تلك الحضارات فى الإيمان بخالق لهذا الوجود.. ومع هذا الاشتراك هناك خصوصيات حضارية فى تصور كل حضارة من الحضارات لنطاق وآفاق عمل وفعل وتدبير الذات الإلهية الخالقة لهذا الوجود..

أ- فالتصور الوثنى الجاهلى، لم ينكر وجود خالق لهذا الوجود، ولكنه وقف- فى تصوره

(١) (مستقبل الثقافة فى مصر) جـ١ ص٤١-٤٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م.

لعمل هذا الخالق- عند حدود "الخلق" ثم أشرك معه شركاء آخرين زعم أنهم الوسائط المدبرة لشئون الحياة الدنيا، يفزع إليهم الإنسان الجاهلى عند الملمات..

التصور الجاهلى

ولذلك، لم ينع القرآن على التصور الجاهلى إنكار الخالق للوجود.. وإنما نعى عليه الوقوف بعمل هذا الخالق عند حدود "الخلق" دون آفاق التدبير فى كل ميادين الوجود وسائر شئون العمران.. لقد أقرهم على «نطاق الاشتراك» الإيمان بخالق للوجود-.. ونعى عليهم الإيمان بالشركاء الذين زعموا اختصاصهم، دون الله، بالتدبير لشئون هذه الحياة..

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون (٦١) الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شىء عليم ﴾

(العنكبوت: ٦١، ٦٢)

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون (٢٥) لله ما فى السموات والأرض إن الله هو الغنى الحميد ﴾

(لقمان: ٢٥، ٢٦)

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل أفرءيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾

(الزمر: ٣٨)

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم (٩) الذى جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون (١٠) والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون (١١) والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون (١٢) لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين (١٣) وإنا إلى ربنا لمنقلبون (١٤) وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين ﴾

(الزخرف: ٩ - ١٥)

ففى هذا التصور الجاهلى للذات الإلهية: اشتراك مع التصورات الأخرى فى الإيمان بخالق لهذا الوجود وخصوصية جاهلية، تقف بفعل الخالق عند حدود الخلق، وتشرك معه الشركاء فى التدبير والتلبية لحاجات الإنسان فى هذا الوجود!

ب- وفى التصور الأرسطى اليونانى للذات الإلهية شبه من هذا التصور الوثنى الجاهلى.. فالله هو الخالق لهذا العالم.. لكنه خلقه ثم تركه يعمل بالأسباب المادية الذاتية المركبة فيه.. فعلاقة الخالق بالوجود "علاقة منطقية" كعلاقة المقدمة بالنتيجة.. وليست علاقة

الراعى المدبر لشئون هذا الوجود!.

فهنا- فى هذا التصور الأرسطى للذات الإلهية- اشتراك مع التصورات الأخرى فى الإيمان بخالق للكون.. وتميز فى علاقة الخالق بالخلق، وفى نطاق عمل وتدبير الله فى المخلوقات..

ج- وشبيه بهذه التصورات لنطاق عمل الذات الإلهية، التصور النصرانى، الذى يدع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله؟!.. لأنه يحبس تدبير الذات الإلهية عن العمران البشرى، ويحصره فى شئون مملكة السماء!..

د- بل إننا نستطيع أن نسلك التصور العلمانى فى إطار هذه التصورات.. فهو- عند أغلب العلمانيين- لاينكر الله كخالق للكون، ولا الدين كعقيدة وشعائر وعبادات.. ولكنه يحرر العمران الإنسانى- فى السياسة والاجتماع والاقتصاد ومناهج البحث- من «الشريعة الإلهية» وضوابط التدبير الإلهى لهذه الميادين.

ففى كل هذه التصورات "اشتراك".. و"عموم" مع التصور الدينى الحق، الذى تفرد به القرآن الكريم.. وفيها «تميز وخصوصية» فارقة بينها وبين التصور الإسلامى لنطاق عمل وفعل وتدبير الذات الإلهية فى هذا الوجود..

هـ- يتميز التصور القرآنى لنطاق عمل وفعل وتدبير الذات الإلهية، عندما لايقف بهذا النطاق عند حدود "الخلق" فقط لهذا الوجود، وإنما يجعل الله، سبحانه وتعالى، الراعى والمدبر والحاكم- بقضائه وشرعه- لكل شئون الحياة، وسائر ميادين العمران..

فهو "الخالق" وهو "مدبر الأمر"..

﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون ﴾

(يونس: ٣)

وله، سبحانه وتعالى "الخلق" و"الأمر" -أى التدبير-

﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾

(الأعراف: ٥٤)

وهو باسط الرزق ومقدره..

﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شىء عليم ﴾

(العنكبوت: ٦٢)

وهو الذى "خلق".. وهو الذى "هدى"

﴿ قال فمن ربكما يا موسى (٤٩) قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ﴾

(طه: ٤٩، ٥٠)

وهكذا، تشترك الحضارات فى "عموم" الإيمان بخالق لهذا الوجود.. فى ذات الوقت الذى تتمايز فيه تصوراتها فى «خصوصية» نطاق وآفاق عمل وتدبير الخالق فى هذا الوجود.. الأمر الذى يؤكد حقيقة التمايز الحضارى والخصوصية الحضارية.. والتعددية فى الحضارات..

كتاب أدب الإملاء والاستملاء للسمعانى وقيمته التربوية

للأستاذ الدكتور / مصطفى رجب
الأستاذ بكلية التربية - جامعة سوهاج



يحتوى هذا الكتاب على أهم الأفكار التربوية للسمعانى وقد طبع هذا الكتاب لأول مرة بعناية المستشرق ماكس فايسفايلر سنة ١٩٥٢، ثم أعادت طبعه دار الكتب العلمية ببيروت ١٩٨١ عن الطبعة الأولى نفسها، وقد اعتمد ماكس فايسفايلر فى إعداده للكتاب قبل طبعه على مؤلفات (٢٩) تسعة وعشرين مؤلفاً من مشاهير العرب فى شتى التخصصات مثل: أحمد بن حنبل - البخارى - ابن الأثير - الترمذى - ابن خلكان - السيوطى - ابن حجر العسقلانى.. وغيرهم، إلا أن لنا مآخذ على ما قام به المستشرق هى:

(١) أنه لم يشر إلى الأصول المخطوطة التى اعتمد عليها، وهذا يفقد عمله جزءاً كبيراً من الأهمية ففى مرات كثيرة يشير فى الهوامش إلى تعديلات قام بها فى النص ويقول «تشويه فى الأصل» ولم يضع فى المقدمة أى إشارة إلى مكان وجود النسخة الأصلية التى اعتمد عليها هذه.

(٢) أن عمله فى نشر الكتاب انحصر فى الآتى:

(أ) تخريج الآيات القرآنية «أى ذكر رقم السورة ورقم الآية».

(ب) الإشارة الى أماكن وجود أسماء البلدان فى المصادر الأخرى وبخاصة تلك المهتمة بالجغرافية مثل معجم البلدان لياقوت الحموى.

(جـ) ضبط أسماء الأعلام مستعيناً فى ذلك بمصادر أخرى من بينها كتاب الأنساب للسمعانى وغيره.

(د) تخريج الأحاديث النبوية الشريفة تخريجاً ناقصاً طبقاً لقواعد علم التخريج.

(٣) أن تخريجه للأحاديث اقتصر على الإشارة إلى موضع ورود الحديث فى مصادر أخرى أحياناً تكون أصلية، وأحيانا يكتفى بتحديد مكان الحديث في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى «تحرير المستشرق فنسنك» وهو معجم تقتصر خدماته على تحديد أماكن وجود الحديث.

ومعروف فى علم التخريج أن التخريج الكامل يقتضى موازنة الروايات نقصاً وزيادة.. وموازنة طرق الإسناد، والحكم على درجة الحديث صحة وضعفاً وهذا ما لم يلتزم به ماكس فايسفايلر.

(٤) لم يقم بشرح بعض الكلمات الصعبة التى تحتاج إلى شرح والتى يستعصى فهمها على القارئ -بل وربما خاصة القراء أيضا - مما أفقد عمله أيضا جزءاً من التقدير.

والخلاصة: أن الكتاب طبقاً لنشرة ماكس فايسفايلر ليس كاملاً ولا يعتبر مفيداً للقارئ الذى لا يستطيع التعامل مباشرة مع نص مملوء بالعنعنة وكل ما قام به الناشر هو ضبط النص وحتى هذه الميزة تفقد قيمتها فى ضوء إغفاله لمصادره المخطوطة التى اعتمد عليها.

ونخلص من ذلك إلى أن الكتاب بحاجة إلى تحقيق جديد يتلافى جوانب هذا النقص.

القيمة التربوية للكتاب

يتميز كتاب أدب الإملاء والاستملاء للسمعانى بعدة مزايا تجعله ذا قيمة تربوية تستحق الدراسة منها:

(١) أنه كتاب كامل مكدس لبحث قضايا التعليم فقط، وليس من تلك الكتب الموسوعية التى تضم التعليم بين طياتها بوصفه تكملة لموضوع ما، أو استطراداً لحديث ما.

(٢) أنه تناول قضايا تعليمية متعددة منها:

(أ) أخلاقيات التعليم كمهنة.

(ب) موضوعات التعليم.

(جـ) التفاعل اللفظى بين المعلم والمتعلم.

(د) صفات المعلم الناجح.

(هـ) واجبات المتعلم.

(٣) أنه يحتوى على مادة علمية تقدم لنا صورة تاريخية للتعليم فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى من حيث:

(أ) أدوات التعليم ووسائله.

(ب) طرق التدريس.

(جـ) الإطار الدينى للممارسات التعليمية.

(٤) أن المؤلف ينتمى إلى مدرسة المحدثين التى وضعت لنفسها منهجاً بحثياً خاصاً فى توثيق المادة التاريخية، وقد استخدم المؤلف هذا المنهج فى عرضه لكل جزئية من جزئيات كتابه.

(٥) أن الكتاب يعد واحداً من المصادر التى تؤرخ لمرحلة تعليمية متقدمة يمكن اعتبارها مرحلة التعليم العالى التى كانت تضم:

- الأستاذ / «المملى».
- مساعد الأستاذ «المعيد أو المستملى».
- الدارس.

وقد أشار كثير من مؤرخي التربية الإسلامية إلى هذه المرحلة على أنها الصورة القديمة للتعليم العالي في البيئة العربية.

نموذج من الكتاب

أخلاقيات مهنة التعليم كما يراها السمعاني:

يجعل السمعاني «التخلق بالأخلاق السنية والاقتداء بالسنن النبوية» هو الهدف الأساسي لعمليتي التعليم والتعلم «الإملاء والاستملاء» ويوضح في بداية الكتاب أنه وضع كتابه خصيصاً لتحديد ما يراه واجباً من هذه الآداب التي يجب أن يتحلى بها المملي والمستملي فيقول:

«واقتصرت «أي في الكتاب» على إيراد ما لابد منه ولا يستغني عنه المحدث الألمعي والطالب الذكي، ويحتاج إليه غيرهما ممن يريد معرفة آداب النفس واستعمالها في الخلوة والمجالس».

وهكذا يتضح الاهتمام الخلقي للسمعاني من أول سطور كتابه ويتبع ذلك بالاستشهاد بحديث الرسول ﷺ «إن الله أدبني وأحسن أدبي ثم أمرني بمكارم الأخلاق».(1)

فقال:

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾

«الأعراف: ١٩٩»

ثم يضيف آثاراً أخرى تربط بين العلم والأدب «والأدب هنا بمعنى الخلق الحسن فقط» كقول الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في تفسير قوله تعالى:

﴿ قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾

«التحريم: ٦»

أي: علموهم وأدبوهم.

ثم يرى أن من أهم أخلاقيات المعلم إذا كان محدثاً أن يهتم بإسناد الحديث أي بذكر سلسلة رواته، ويشدد على إنكار رواية الحديث بغير إسناد مستشهداً على ذلك بأقوال كثير من العلماء مثل الزهري وابن سيرين وسفيان الثوري وغيرهم.

ثم يخصص بعد هذا المدخل فصلاً لآداب المملي ويمكن أن نستخلص من تحليلنا لهذا الفصل أن أهم أخلاقيات مهنة التعليم عنده ما يأتي:

(١) أن يراعي المعلم وضعيته الاجتماعية خارج مكان التعليم:

ونستنتج ذلك من الآداب التالية:

١ / أ: أن يقتصد في مشيه وهو في طريقه إلى المجلس «مكان التعليم» ويروي في ذلك حديثاً نبوياً عن أنس بن مالك عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «سرعة المشي تذهب بهاء الوجه»(2).

١ / ب: أن يبدأ غيره بالسلام.

(1) كشف الخفا.
(2) كنز العمال ٤١٦٢١.

١ / جـ: أن يعم بالسلام كل من يلقاه حتى الصبيان.

١ / د: ألا يخرج من بيته إلا بعد النظر في المرآة والتأكد من إصلاح هيئته وأخذ زينته.

(٢) أن يتمتع باللطف واللياقة والخلق الحسن عامة:

ونستنتج ذلك من الآداب التالية:

٢ / أ: إذا وصل المجلس أن يمنع من كان جالساً من القيام له فإن السكون إلى ذلك من آفات النفس.

٢ / ب: أن يكون لطيف الخطاب مع أصحابه.

٢ / جـ: أن يحسن خلقه مع أصحابه وأهل حلقته.

٢ / د: أن يترحم على شيوخه الذين تعلم عليهم.

(٣) احترام مواعيد العمل:

ونستنتج ذلك من قوله:

٣ / أ: ينبغي للمملي أن يعين لأصحابه يوم المجلس «يوم الإملاء أو التدريس» لئلا ينقطعوا عن أشغالهم، وليستعدوا لإتيانه ويعد بعضهم بعضاً.

٣ / ب: وإذا عين لهم اليوم ووعدهم الإملاء فيه فلا ينبغي له إخلاف موعده إلا أن يقتطعه «يمنعه» عن ذلك أمر يقوم عذره به «أي يواجهه أمر يكون عذره مقبولاً إذا اعتذر به».

(٤) التزام الأمانة العلمية:

ونستنتج ذلك من الآداب التالية:

٤ / أ: أن يذكر لطلابه مصادر المعرفة التي يقدمها إليهم، يذكر لهم اسم شيخه أو أسماء شيوخه الذين يروي عنهم».

٤ / ب: ألا يروي عن شيخ واحد بل يروي عن جماعة من شيوخه «تعدد مصادر المعرفة».

٤ / جـ: ألا يروي إلا عن الثقات.

٤ / د: أن يجتنب الرواية عن الضعفاء والمخالفين «في علم الحديث بصفة خاصة».

٤ / هـ: أن يسكت عما لا يعرفه.

(٥) مراعاة أهداف التعليم:

ومن أخلاقيات المهنة ألا يغفل المعلم عن الهدف إلا الأهداف الرئيسة لعملية التعليم وقد أشار السمعاني إلى ذلك بوضوح حيث اشترط أن يراعي المعلم «المملي» الربط بين ما يقوم بإملائه وتدريسه وبين القيمة النفعية لهذا المعلم في حياة المتعلم، ويمكن استنتاج ذلك من الآداب التالية:

٥ / أ: من أنفع ما يملي الأحاديث الفقهية التي تفيد معرفة الأحكام الشرعية من العبادات وما تعلق بحقوق المعاملات.

٥ / ب: ويستحب إملاء أحاديث الترغيب في فضائل الأعمال، وما يحث على الخير والذكر ويزهد في الدنيا.

٥ / جـ: أن يتخذ من الوسائل ما يراه كفيلاً بتحقيق أهداف التعليم مثل اتخاذ مساعد له يعينه في عمله.

من قادة الفكر الإسلامى المعاصر

محمد فريد وجدى



الأستاذ محمد فريد وجدى

رجل مثل عليا



للأستاذ الدكتور: السيد أحمد فرج

الأستاذ بكلية التربية - جامعة المنصورة

كان لمحمد فريد وجدى أهداف نبيلة فى اتجاهاته الدينية والوطنية والمعرفية، وفى معاملاته الإنسانية ولاسيما مع الذين أحاطوا به، وكان عالماً مجتهداً متسلحاً بسلاحين أولهما: غيرته الدينية، وأنه كان يرى أن عليه فرضاً أن يدافع عن الإسلام ويصد عنه التيارات المادية التى يراها الغرب من سمات النظم الديمقراطية العلمانية التى صد بها الفكر الكنسى الجامد الذى سيطر على العقل الغربى لأكثر من ألف سنة فتسبب فى تخلف أوروبا، وهذا الأمر غير موجود فى الإسلام الذى يرفع شأن العقل، ويجعله مناط تكليف المسلم فى كل تشريعاته الدينية وشئونه الدنيوية.

الثانى: إيمان محمد فريد وجدى اليقينى بأن سعادة البشرية إنما تكون باتباع قواعد الإسلام وتعاليمه، فهو الدين الخاتم الذى ارتضاه الله سبحانه وتعالى رحمة للعالمين، ومن هذه الخاتمية كان يؤمن بأن على المسلم العالم بأمور دينه أن يبين للناس ما يتضمنه الإسلام من تشريعات عالية فى الدين، وأهداف سامية فى مقاصده وما يحمله من مثل عليا فى العمران ووسائل الأمن والأمان.

ومن هنا كتب محمد فريد وجدى يبين مقاصد الإسلام، وقد نذر نفسه له، دونما طمع فى شهرة أو منصب فكتب فى المجالات الآتية:

١ - الإسلاميات مثل كتبه: «مدنية الإسلام» و«مهمة الإسلام فى العالم» و«من سيرة الرسول ﷺ» و«ردود ومناقشات» و«الإسلام فى عصر العلم».

ولقد أراد فيها أن يبين أنه لا منقذ للإنسان المعاصر إلا الإسلام، كما أخذ يثبت بالأدلة اليقينية القاطعة أن مبادئ الإسلام تصلح حياة الناس كافة لأنها قائمة على حقائق إلهية خالدة، ولأنها تتفق مع الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وهى فى الوقت نفسه تقوم على العقل والعلم، وتحترم ماديات الكون مادامت فى إصلاح حياة الإنسان، ولا تستخدم فى تدمير الكون.

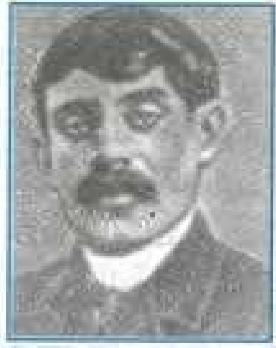
وكان الأستاذ محمد فريد وجدى يرى فى كتاباته الإسلامية أن الإسلام الذى قام على العقل والعلم وآخى بين القلب والعقل، مؤد يقينا إلى الإجماع البشرى على الحق، وعلى التقدم المدنى والعلمى الطبيعى.

وفى كتاب «ردود ومناقشات» بين أن الإسلام تعرض لشبهات أعدائه من المستشرقين بالافتراء والتشكيك، لأنهم عجزوا عن فهم الإسلام الفهم الصحيح.

٢ - كتب المعرفة: وفى مقدمتها «دائرة معارف القرن العشرين» وقد نهض به فى عشرة أعوام، فى عشر مجلدات ضخمة، قدم فيها للقارئ العربى زاداً حافلا بشتى المعارف الإنسانية من كل العصور. قال العقاد وهو يتحدث عن أهمية هذا العمل الفذ الفريد فى بابه، ولا سيما أن الذى قام به



رجب البيومى



قاسم امين

رجل واحد: «كان محمد فريد وجدى أكثر كتاب عصره انفراداً بجهوده فى مؤلفاته، فلانعرف أحداً منهم توفر وحده على تأليف دائرة معارف كاملة» (رجال عرفتهم ص١٦١) مع أنه بجانب ذلك قام بتفسير وجيز للقرآن الكريم، وبعض معجمات اللغة والعلم بجانب إصداره صحيفة يومية، فكأنه ناسك فى ميدان الكتابة لايدخر جزءاً من وقته لغيرها.

٣ - المجال الصحافى: فقد أنشأ صحيفة الدستور اليومية، لتكون اللسان الثانى للحزب الوطنى الذى يترأسه مصطفى كامل بعد صحيفة اللواء، ليشارك بها فى هموم الوطن فى سنة ١٩٠٧م واستمر صدورها إلى سنة ١٩١٠م وقد توقفت عن الصدور بسبب ضائقة مالية، وقد أشارت عليه بعض الجهات بأن تمده بالأموال التى تضمن استمرار إصدارها، إذاوافق على تغيير بعض مبادئه السياسية ولكنه رفض أن يساوم بشأنها، فقد كان مثال الصحافى الجاد الأمين على مبادئه ومثله العليا.

٤ - تيسير التفسير، فقد رأى أن المكتبة الإسلامية - قد توفر لها من كتب التفسير الموسوعي الكثير الذى يفيد الخاصة من العلماء فى ميادين علوم: اللغة والفقه وأصوله وغيرها من العلوم البحتة التى تنأى عن فهم القارئ متوسط الثقافة، فألف المصحف المفسر، وهو تفسير موجز، لا يعجز قارئه ولا يدخله فى لجة العلوم المتخصصة، كما هو الحال فى التفاسير الموسوعية، وقد تلقاه الناس بالقبول.

قال هو نفسه فى هذا التفسير: «حاولت فى سنة ١٣٢٣هـ أن أقرأ القرآن قراءة تدبر وفهم، كما أمر به موحيه، سبحانه وتعالى، فأعوزنى أن أجد من التفسير ما يبلغنى أمنيتى من أقرب الطرق وأسهلها. وكان مرادى تفسيراً يعطى الألفاظ العربية حقها من البيان ويعرض المعنى بعبارة خالية من المسائل الفنية، مع بيان أسباب النزول ليتجلى للقارئ المعنى بكل جلاله، فأخذت أضع لنفسى تفسيراً وشرعت أكتبه على هامش مصحف لأتخذه عمدة فى تلاوتى للقرآن. وقد طبع هذا التفسير الوجيز بعنوان «المصحف المفسر».

وههنا يجب أن نشير إلى موقف الأستاذ محمد فريد وجدى مما أثير من جدل حول ترجمة القرآن الكريم. وكان رأيه الذى لم يحد عنه أن الإعجاز القرآنى إنما هو فى نظمه بالعربية التى لها خصائص لا تتوفر فى غيرها من


سعد زغلول


مصطفى كامل

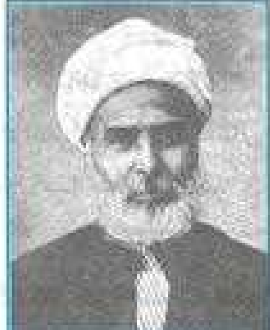
اللغات الأخرى التى يراد أن يترجم إليها نص القرآن الكريم، وانتهى إلى جواز ترجمة معانى القرآن، وليس نصه.

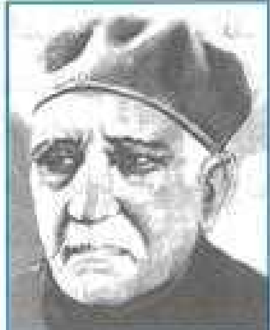
٥ - موقفه من المرأة المسلمة: كان قاسم أمين جهر برأيه فى أحوال المرأة وما يجب أن تكون عليه فى كتاب تحرير المرأة، وقد وجد هذا الكتاب دعماً من سعد زغلول، وتأييداً من أحمد لطفى السيد، ومباركة من الشيخ محمد عبده، وكان منه المقبول مما يوافق الشريعة الإسلامية، ومنه ما يمكن النظر فيه بتحفظ، ثم جهر قاسم أمين بكتاب آخر هو «المرأة الجديدة»، وفيه أراد للمرأة المسلمة صيرورة تكون فيها كنظيرتها الغربية دونما اعتبار لفروق الثقافة والبيئة.

فرد عليه الأستاذ محمد فريد وجدى بكتاب «المرأة المسلمة» بين فيه أنه يريد أن تأخذ المرأة المسلمة حظها من التعليم ومن كل الحقوق التى أعطاها الإسلام لها، ولكنه بين فى الوقت نفسه عمق الاختلاف بين الثقافتين: الإسلامية والغربية، ومما يتولد عن كل منهما من

خلاف فى المنازع الاجتماعية والاقتصادية والإنسانية. إذ أن ثقافة الغرب قد جعلت المرأة الغربية حرة بدون قيود، وجعلتها تمتهن الأعمال القاسية فى المصانع والمناجم. الأمر الذى لم يقبله الإسلام للمرأة، التى كرمها وأنزل الله تعالى لها سورة عظمى فى القرآن هى سورة النساء، بينت كيف حفظ الإسلام لها حقوقها وشرف مكانتها، وصان كرامتها، وأمر بتنمية ملكاتها العقلية والعلمية والاجتماعية وساوى بينها وبين الرجل فى دائرة التشريع الإسلامى وتعاليمه. أما «إذا أريد بالمساواة بين الرجل والمرأة أن يلقى حبلها على غاربها، وأن تتبرج تبرج الجاهلية الأولى، طائفة الشوارع، وغاشية الأسواق لفتنة الرجال، فإن الإسلام لا يسمح لها بذلك، ولا يعده من الإكبار لها، بل إنه قد حرم ذلك على الرجال أيضا»(١).

٦ - فصول من سيرة الرسول ﷺ، وهو من أعظم ما كتب فى سيرة الرسول فهو لم يكتب السيرة كما كتبها السابقون من كبار كتاب المسلمين الذين توفرت لهم المعلومات عن الإسلام ونبيه سرداً تاريخياً للسيرة، ولكنه قصد أن يظهر ما بلغته السيرة من المنزلة الرفيعة فى جميع دروب النشاط الدينى


محمد عبده


العقاد

والاجتماعى والعلمى والعملى، وكل ما أودع فى السيرة النبوية من ضروب المنازعات الدينية والأدبية والمادية، تلك التى قام بها رجل واحد هو النبى محمد ﷺ، الذى قيم الوجود للناس كافة من الناحية الدينية بما أتى به من أصول دينية وتشريعية وتعاليم. وبما أعطاه للوجود من قيم علمية مادية ساعدت على تقدم العمران البشرى.

٧ - عمله السياسى الذى أقامه على المثل العليا، يوم أن اشتغل بالصحافة اليومية، وقد كانت الصحافة فى زمنه تقوم على التآمر بين الأحزاب بعضها البعض، أو مع القصر الحاكم أو الإنجليز أصحاب النفوذ فى البلاد.

كان محمد فريد وجدى - فى هذا الزحام الصحافى فريد عصره فى النزاهة واحترام الكلمة، وحرية الرأى، وسلامة المبدأ، حتى أفقده ذلك ماله وأغلقت

---

(١) محمد فريد وجدى: من معالم الإسلام ص٣٢٣ - ٣٢٤ جمعه وراجع أصوله وقدم له دكتور محمد رجب البيومى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٤٢٤هـ - ١٩٩٤م.

الصحيفة، واضطر إلى بيع كتبه ليأكل بثمنها، ويسدد أجور العاملين معه. مع أن القصر الحاكم راوده على أن يمده بالمال فى مقابل أن يتنازل عن صلابته فى الرأى فأبى.

قال العقاد، وكان حاضراً هذه الضائقة: «كانت أزمة صحيفة الدستور أثرا من آثار تمسكه بالمبدأ الذى لا ينحرف عنه قيد شعرة، وهو الجهر بالرأى الحر، ولو خالف القوة والكثرة، وخالف أحب الناس إليه، فقد حدث أن كسدت صحيفة الدستور، وعجزت عن النهوض بتكاليفها، ولم يقبل صاحبها أن يقبل معونة من القصر الحاكم لأنه لم يكن على سياسته، وهى أن يرفع من صدر صحيفته عبارة «لسان حال الجامعة الإسلامية» فرفض الرجل هذه المعونة، ورفض أن يجعل صحيفته لساناً ناطقاً بغير ما يؤمن به، فأغلقت الصحيفة أبوابها، كما رفض بحسب رواية الأستاذ العقاد فى أحرج أيام الأزمة معونة كبيرة عرضت عليه من جماعة تركيا الفتاة، يبذلونها لصحيفة الدستور مشاهرة، لتكون لساناً عربياً لحركتهم المناهضة للجامعة الإسلامية (العقاد: رجال عرفتهم ص١٦٠).

والأستاذ فريد وجدى حقق ههنا مقولة العلامة ابن خلدون فى مقدمته عندما قرر أن العلماء لا يخضعون لصاحب جاه أو سلطة لشعورهم بشرف صنائعهم، فلا يبذلون أنفسهم لأهل الدنيا.

ولقد ترأس الأستاذ محمد فريد وجدى تحرير مجلة الأزهر الشريف لمدة ثمانية عشر سنة، فجدد فيها بإفساح المجال لنشر الأبحاث التى ترد على شبهات المستشرقين بما يقطع الشك باليقين.

وكان من مقالاته الضافية التى جمعها الأستاذ الدكتورمحمد رجب البيومى فى كتب ظهرت بعد وفاته ضمن مؤلفاته وهى:

١ - مهمة الإسلام فى العالم.
٢ - من معالم الإسلام.
٣ - فصول من سيرة الرسول ﷺ.
٤ - مناقشات وردود.
٥ - الإسلام والمدنية.
٦ - الإسلام فى عصر العلم.
٧ - الروح الإسلامية وتأثيرها فى العالم.
٨ - المرأة المسلمة.
٩ - نقد كتاب فى الشعر الجاهلى.
١٠ - ترجمة القرآن.
١١ - الوجديات.
١٢ - الحديقة الفكرية.
١٣ - دائرة معارف القرن العشرين.
١٤ - المصحف المفسر للقرآن الكريم.

وهذه الكتب والمباحث ذكرها الدكتور محمد رجب البيومى فى ترجمته للأستاذ محمد فريد وجدى - فى ترجمته له فى

موسوعة أعلام الفكر الإسلامى - عدا معجم من تأليفه: هو كنز العلوم واللغة ذكره الأستاذ العقاد فى كتاب: «رجال عرفتهم ص١٦١».

وإصدار صحيفة الدستور اليومية لسان حالة الجامعة الإسلامية.

والكتابة فى مجلة الرسالة التى كان يصدرها الأستاذ أحمد حسن الزيات. ومجلة الهلال عن دار الهلال، ومجلة المقتطف التى كان يصدرها يعقوب صروف، ومجلة «المعرفة»، وصحف: «اللواء، والمؤيد» وغيرهما.

ولقد ترجمت كتبه إلى الفرنسية والفارسية والتركية والأردية، ولاقت مؤلفاته قبولا من مسلمى العالم، إذ كشفت عن عمق دراساته، وبصره بالمنازع البشرية فى الشرق والغرب.

صفاته:

كان مهذب النفس، دمث الأخلاق، دمثا فى نقده لا ينال من خصومه، وهو يفند كتاباتهم لدرجة أنه ألجأ الدكتور زكى مبارك - وكان فى خصومة معه أن يقول: «لا يسعنى إلا إسداء الثناء للأستاذ فريد وجدى على أسلوبه فى الجدل، ذلك الأسلوب المهذب من شوائب الغرض والعناد، وتلك سجية عرفناها له منذ أمد بعيد».

أما ما قاله الدكتور رجب البيومى - وهو من درر المنشور - فى حديثه عنه وعن كتبه ومقالاته ومباحثه، أو فى دراسات عن كتب جمعها له من متفرقات - فإن المقام هنا يعجز عن ذكرها ويقصر.

ونختم مقالنا فى الأستاذ محمد فريد وجدى بقول للأستاذ العقاد، الذى كان يحفظ له حق أستاذيته عليه قال: «رحم الله ذلك القلب الطهور، وذلك الروح الكريم، وذلك الخلق الفريد، إن لم يكن اليوم لا يذكر حق ذكراه، فما هو بالخمول، ولاهو بالقصور عن حق الخلود، ولكنه يعيش فى عزلة من التاريخ، كما عاش أيامه فى عزلة من دنيا الحياة» (رجال عرفتهم ص١٦٨).

وانتقل الأستاذ محمد فريد وجدى إلى عليين بإذن الله تعالى فى سنة ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م رحمه الله تعالى فى الأولين والآخرين.



ابن خلدون نبتة حضارته.. وليس ثمرة عصره فقط

للأستاذ الدكتور/ عبدالحليم عويس

كان عبدالرحمن بن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ) (١٣٣٢-١٤٠٦م)، شخصية غير متوقعة، بالنسبة لعصره، ذلك العصر الذى بلغ تفكك العالم الإسلامى فيه مبلغه بين دويلات طائفية، بعد أن كانت دولة الموحدين، قد سقطت فى المغرب والأندلس، فى منتصف القرن السابع الهجرى، وحوصر المسلمون فى غرناطة، ووادى آش، فيما يعرف باسم دولة بنى الأحمر فى غرناطة، أو مملكة بنى نصر الغرناطية (٦٣٠-٨٩٧هـ)، بينما سقطت الوحدة المغربية، فانقسم المغرب إلى دويلات صغيرة على رأسها دولة بنى مرين، التى قامت فى المغرب الأقصى رسميا سنة ٦٦٨هـ ودولة بنى زيان الزناتية (عبد الواد) التى قامت فى المغرب الأوسط (الجزائر) سنة ٧٢٣هـ على يد يغمراسن بن زيان، ودولة بنى حفص فى المغرب الأدنى (تونس) التى أسسها أبو حفص زعيم هنتاتة، وأعلن استقلالها عن الموحدين حفيده أبو زكريا سنة (٧٢٤هـ-١٣٢٣م).

كان المناخ السياسى فى المغرب مضطربا بدرجة كبيرة، فكانت الفتن كثيرة الوقوع بين الدويلات الطائفية، بل كثيرة الوقوع بين أبناء البيت الواحد فى الدولة الواحدة، ولا ننسى أن هذه الدويلات قامت على أكتاف خيانة الموحدين، وكما عانت دولة بنى عبدالواد الزناتية من المصائب والويلات من بنى حفص جارتهم التونسية، فكذلك عانى الحفصيون وبنو عبدالواد من نزعة بنى مرين المستمرة للسيطرة على المغرب كله، وقد نجحوا فعلا فى

أواخر عهد السلطان أبى الحسن الذى تولى عرش فاس سنة ٧٣١هـ فى انتزاع أجزاء كبيرة من الدولتين السابقتين!! وبالجملة فقد كانت كل واحدة من هذه الدول عدوة لجارتها المباشرة، حليفة للتى بعدها، مما جعلها تعيش فى حروب لا تقف ولا تهدأ، وقد بقى الصراع بعد انقراض الموحدين، قائما على أشده بين المرينيين وبنى عبدالواد من جهة، وبين هؤلاء والحفصيين من جهة أخرى وقد قوى هذا الصراع، وزاد من تفاقم الأوضاع، قيام إمارات فى كل من بجاية وقسطينة، واستقلال القبائل الكبرى، وعدم استقرار ولائها لهذا الجانب أو ذاك.

ففى هذه الظروف السيئة، نشأ وعاش ابن خلدون، المولود فى مدينة تونس، فى غرة رمضان ٧٣٢هـ، فى عائلة نبيلة تباهى بنسبها العربى، الذى يرجع إلى أصل يمنى حضرمى، وبنسبها الإسلامى الذى يرجع إلى وائل بن حجر الصحابى المعروف، الذى دعا له النبى ﷺ بالبركة يوم وفد عليه فى عام الوفود، معلنا إسلامه، كما تفاخر بتاريخها السياسى والاجتماعى فى كل من إشبيلية وتونس.

وكانت الأسرة الخلدونية -لتاريخها- مندفعة للدخول فى حمأة هذه الصراعات، كما كانت شخصية ابن خلدون -بالإضافة لتاريخ أسرته، وظروف عصره- دافعا قويا لدخول هذا المعترك.

وفى مثل هذه الظروف السياسية القاسية، فى المغرب والأندلس، سيطرت المناهج التربوية الخاضعة للمنهج التقليدى، الذى لا يسمح إلا قليلا بالابتكار والإبداع، وحسب هذه الطريقة، التى بسطها ابن خلدون فى سيرته الذاتية، التى كتبها لنفسه، أن تحقق الانتماء إلى الإسلام والحضارة الإسلامية والعربية.

فعندما بلغ عبدالرحمن سن التعلم، بدأ بحفظ القرآن وتجويده، حسب المنهج الذى كان متبعا حينئذ فى كثير من البلاد الإسلامية، وكانت المساجد حينئذ أهم مواطن التعليم. ففيها كان يحفظ القرآن ويجوده بالقراءات على حفظته ومجوديه، وفيها كان يتلقى العلم على المشيخة. ولايزال أهل تونس يعرفون إلى الآن المسجد الذى كان يختلف إليه ابن خلدون فى فاتحة دراسته، ويعرف بمسجد القبة، وقد درس ابن خلدون العلوم الشرعية، من تفسير، وحديث، وفقه على المذهب المالكى، وأصول، وتوحيد، والعلوم اللسانية، من لغة، ونحو، وصرف وأدب، ثم درس المنطق والفلسفة، والعلوم الطبيعية، والرياضيات.

وكان ابن خلدون وفيا لأساتذته بدءا من والده «معلمه الأول»، فـفصل الحديث فى ترجمته لنفسه، فى كتابه: «التعريف بابن خلدون، ورحلته غربا وشرقا» عن حياة كل منهم، وعن الفروع التى تعلمها على أيديهم، وحدد الكتب التى درسها عليهم، كاللامية فى القراءات، والرائية فى رسم المصحف للشاطبى، والتسهيل فى النحو لابن مالك، والمعلقات، وبعض شعر أبى تمام والمتنبى، وصحيح مسلم، وموطأ مالك، وعلوم الحديث لابن الصلاح، والتهذيب للبرادعى، ومختصر المدونة لسُحنون فى الفقه المالكى، ومختصر ابن الحاجب فى الفقه والأصول وغيرها من

الكتب.

لكن المهم في الأمر، أن عقل ابن خلدون، كان يتحرك من خلال هذه الدراسات، مستوعبا وناقدا، ومستنبطا للخصائص الكلية، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إن قراءة ابن خلدون لكتاب مثل «الأغاني»، وحفظه لكثير من أشعاره، قد أحدث رد فعل عنده، على خلاف ردود الأفعال، التي تكون عند الآخرين.. لقد تعامل مع الكتاب، على أنه كتاب أدب، فاستعان به بطريقة انتقائية، فأخذ منه ما يخدم المنهج التاريخي السليم، وتقبله وقائع العمران، ورفض ما سوى ذلك، بدليل أن تصوير صاحب الأغاني للحياة السياسية والاجتماعية في العصر الأموي يختلف تماما عن تصوير ابن خلدون.

وهذه القدرة النقدية في مواجهة كتاب الأغاني، والتي مكنت ابن خلدون من رفض كثير من آراء الأصفهاني، وإنصاف الدولتين الأموية والعباسية، سياسيا واجتماعيا، لم يستطع أن يفهمها الدكتور طه حسين، فأنكر اطلاع ابن خلدون على كتاب «الأغاني»، ووقع بذلك في سقطة شنيعة، من سقطاته الكثيرة، التي احتشدت بها رسالته بالفرنسية عن (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية).

وكما يقول أستاذنا الدكتور علي عبدالواحد وافي، رحمه الله، فإن «ابن خلدون» لم يقرأ كتاب (الأغاني) فحسب، بل حفظ كثيرا من أشعاره، ونقل كثيرا من نصوصه في المقدمة، وفي العبر، بل خص في مقدمته نفسها موضوع هذا الكتاب ومسائله وطريقته، ونقل عنه عبارات بنفسها، ومدحه ككتاب أدب ولغة، ولكنه رفضه ككتاب تاريخ بصفة إجمالية.

كان ابن خلدون ابن الثقافة الإسلامية الشرعية اللغوية، وكان عميقا في قراءته للقرآن، واعتماده عليه، وانطلاقه منه، وقد حرص وهو يبسط نظريته في العمران، على تدعيم كلامه بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والمأثور عن الصحابة، أو التابعين، ومن ناحية أخرى، حرص على أن يختم كل فصل من فصول المقدمة بآية قرآنية أو أكثر، أو بحديث نبوي، أو ابتهال إلى الله، وقد تتبع أستاذنا الدكتور مصطفى الشكعة نهايات فصول المقدمة، وأورد المأثورات التي وردت فيها.

وهذا يدل على جذور ثقافة ابن خلدون وأفكاره، لكن هذا لا يعني أن ابن خلدون كان ابن بيئته، وحصاد مجتمعه، الذي عاش فيه.

لقد كان عصره عصر تقليد وجمود، لكن ابن خلدون أحسن القفز إلى المصادر الأصلية، بعيدا عن ضغط الواقع الجامد، وعن وطأة اللحظة التاريخية بكل أثقالها السياسية والاجتماعية والثقافية، وأحسن الاتصال المباشر بالقيم والأفكار الدائمة الحياة في القرآن، والسيرة، والسنة، وعصور الألق، والازدهار، والتجارب الوضيئة والمستمرة بدرجة ما في كل العصور.

والحق أننا بدون تصور هذا القفز بعيدا عن ضغط الواقع، والاتصال المباشر بمصادر الإسلام، والتجارب التي تمثل حقائقه، وتنطلق منها، لا نجد تفسيرا صحيحا، لظهور عباقرة الإسلام، ومجددي حقائقه في النفوس أفرادا كانوا أو جماعات.

وهكذا فإن ابن خلدون لم يكن رجلا يستسلم للفكر الساكن أو للواقع الجامد، كما لم يكن رجلا يقف متفلسفا أمام الوقائع، أو مسجلا لها وحسب، بل كان رجلا من صناع التاريخ، يغوص فيه، مهما كانت الأوحال والأخطاء، ويتقلب يمينا ويسارا، لعله يجد ضالته، تماما كما كان سلفه العظيم (علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، المتوفى سنة ٤٥٦هـ)، يتقلب بين ملوك الطوائف، لعله يجد فيهم راشدا، أو لعله يستطيع أن ينفخ في جذوة الدولة الأموية الأندلسية المنطفئة.

وقد ذاق الرجلان السجن والتشريد، ويئسا من الناس، ومالا إلى العزلة.. هذا في «منت ليشم» قريبا من لبلة بغرب الأندلس، وصاحبنا ابن خلدون في قلعة بني سلامة، قريب من فرندة بولاية وهران (ولاية تاهرت في التنظيم الحديث بالجمهورية الجزائرية)!! فكلاهما كان في توتره وتفاعله، وفي تعامله الثقافي، حتى مع اللامية والرائية، والمدونة، وشرح المدونة، عقلا كبيرا قادرا على التفاعل الخلاق، ليس بالثورة، ولا بالخيانة للتراث، ولا بالاستعلاء عليه، ولا برميه بالماضوية، والجمود، والتاريخية الجامدة، ولكن ببعث الروح فيه، والانطلاق من قاعدته، كما ينطلق الصاروخ إلى الآفاق، من قاعدة صلبة مثبتة بالأرض!!

لا يمكن لأي باحث في سيرة ابن خلدون، أن يتجاهل سنة (٧٤٩هـ) التي تمثل السنة السابعة عشرة من عمره، ففيها حدث الطاعون الجارف، الذي عم العالم الإسلامي من سمرقند إلى الأندلس، والذي سماه ابن خلدون: «الفناء الكبير»، أو (الطاعون الجارف)، وفيه هلك أبواه، وأكثر من كان يأخذ عنهم العلم من مشيخته، وعكف ابن خلدون على طلب العلم، حتى استدعاه بعد ثلاث سنوات الوزير أبو محمد ابن فزاكين، المستبد بتونس، لكتابة العلامة عن سلطانه أبي إسحاق، أي وضع عبارة: «الحمد لله، والشكر لله» والديباجة في المخاطبات الرسمية.

وفي سنة ٧٥٥هـ، وقيل ٧٥٦، استدعاه إلى فاس، السلطان أبو عنان المريني بعد سعي ابن خلدون فأمضى هناك تسع سنوات مستمرا في عمله، ضمن الكتاب الموقعين، وهو عمل رأى ابن خلدون نفسه فوقه، فعمل على الانشغال بتثقيف نفسه، متعرضا للاتهامات بالتآمر، ودخول السجن بين الحين والحين، والتقلب في المواقع المختلفة.

ويقول ابن خلدون عن هذه الفترة: «وعاد السلطان أبو عنان إلى فاس، وجمع أهل العلم للتحليق بمجلسه، وجرى ذكري عنده، وهو ينتقي طلب العلم للمذاكرة في ذلك المجلس، فأخبره الذين لقيتهم بتونس عني، ووصفوني له، فكتب إلى الحاجب يستقدمني، فقدمت عليه، سنة خمس وخمسين، ونظمني في أهل مجلسه العلمي، وألزمني شهود الصلوات معه، ثم استعملني في كتابته، والتوقيع بين يديه، على كره مني إذ كنت لم أعهد مثله لسلفي، وعكفت على النظر والقراءة، ولقاء المشيخة من أهل المغرب، ومن أهل الأندلس، الوافدين في غرض السفارة، وحصلت من

الإفادة منهم على البغية».

«ولهذا وطد ابن خلدون العزم على خوض غمار الدسائس السياسية، ليحقق مطامحه وآماله، فلم تمض سوى سنتين على التحاق ابن خلدون ببلاط السلطان أبى عنان المرينى، حتى تآمر عليه هو والأمير أبو عبدالرحمن محمد الحفصى صاحب بجاية المخلوع، وكان أسيرا بفاس، فاتفق ابن خلدون مع هذا الأمير المخلوع على تدبير مؤامرة لتحريره، واسترداد ملكه على أن يوليه منصب الحجابة، متى تم له الأمر، فبلغ أبا عنان خبر هذه المؤامرة فقبض على ابن خلدون، وعلى الأمير المخلوع، وأودعهما سجنه، وذلك سنة ٧٥٨ هـ».

وبين سنتى ٧٦٤ و٧٦٦ كان اليأس قد دب إلى نفس ابن خلدون، من المعترك السياسى فى المغرب، فرحل إلى الأندلس متوجها أولا إلى السلطان أبى عبدالله محمد ابن يوسف بن نصر، ثالث ملوك بنى الأحمر، وبانى مسجد الحمراء فى غرناطة، ومكلفا ثانيا من السلطان نفسه، بالسفارة عنه إلى «بدرو»، الطاغية ملك قشتالة، فارتحل إلى إشبيلية ولقى الطاغية، وأبرم الصلح وعاين آثار أجداده بإشبيلية، وعرض عليه الطاغية الإقامة عنده، وأن يرد عليه تراث آبائه بإشبيلية فاعتذر.

«وقد طابت له الحياة فى الأندلس، واستقدم أهله، وهيأ لهم جميع أسباب الراحة، إلا أن أمد هذه السعادة لم يطل، إذ يبدو أن ابن الخطيب قد داخلته الغيرة بسبب الحظوة التى نالها ابن خلدون عند السلطان، فأخذ يسعى به لدى السلطان ابن الأحمر، حتى تكدر صفو العلاقات بينهما، وحدثت الجفوة بين الرجلين، فأدرك ابن خلدون أنه لم يبق له مقام فى الأندلس، وأن لا مناص من الرحيل عنها».

ولعشر سنوات تالية «٧٦٦هـ - ٧٧٦هـ» انغمس ابن خلدون فى الحياة السياسية، متقلبا فى أتون الفتن، التى وقعت بين أصحاب بجاية، وقسنطينة، تلمسان، من بنى مرين، وبنى زيان، وقد راودته نفسه غير مرة بالاعتزال، فاعتزل ببسكرة طورا، وبرباط الشيخ الولى أبى مرين طورا آخر، وبفاس طورا ثالثا، وأعتقد أن هذه السنوات كانت من أسوأ فترات حياة ابن خلدون.

«ولم تكن تنتهى هذه السنوات العشر، حتى وجد ابن خلدون، أن الأبواب قد سدت فى وجهه، وأصبح موضع ريبة من جميع أمراء المغرب، فخلف أسرته بفاس وجاز إلى الأندلس ثانية، فى ربيع سنة ٧٧٦هـ، لينزل ضيفا على سلطان غرناطة ابن الأحمر، لكن بلاط فاس توجس خيفة من إقامته بالأندلس، وخشى من دسائسه، فمنع عائلته من الالتحاق به، وفاوض سلطان غرناطة بتسليمه إليهم، فطلبوا إليه إبعاده إلى تلمسان، فأجابهم لذلك».

وكان هذا السلوك ثمرة من ثمرات هذه التجارب السياسية المرة التى وضع ابن خلدون نفسه فيها.

وعندما عاد ابن خلدون إلى المغرب بعد رحلة فاشلة إلى الأندلس، حاول أمراء المغرب المتحاربون تسخيره لخدمتهم لكنه كان قد اتخذ قرارا باعتزال هذه الفتن كلها، ولهذا لجأ إلى أحياء أولاد عريف فى قلعة «جبل كزول» فانزلوه بعد أن استقدموا له أهله من تلمسان، فى قلعة بنى سلامة، الواقعة قريبا من فرندة، وقريبا من تاهرت فى الجزائر «المغرب الأوسط»، وفى هذه القلعة أقام ابن خلدون أربع سنوات كتب المقدمة فى خمسة أشهر منها، خلال سنة ٧٧٩ هـ متخليا عن الشواغل كلها: «وشرعت فى تأليف هذا الكتاب، وأنا مقيم بها، وأكملت المقدمة منه على هذا النحو الغريب، الذى اهتديت إليه فى تلك الخلوة، فسالت فيها شآبيب الكلام، والمعانى، على الفكر، حتى امتخضت زبدتها، وتآلفت نتائجها». ومن ثم بدأ ابن خلدون فى كتابة تاريخه الموسوم بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى ديوان العرب والعجم والبربر، معتمدا على الكثير من حفظه وعلى قوة ذاكرته.

لكن ابن خلدون اكتشف أن مشروعه الفكرى من العمق والسعة، بحيث لا يصلح معه هذا الاعتزال، وما يقتضيه من ابتعاد عن مصادر المعرفة والمعلومات، ولهذا رأى من الضرورى أن يعمل على العودة إلى تونس. ليستعين بما فى خزائن آثارها من مخطوطات وكتب، على إتمام مشروعه، وقد مهد لتلك العودة بالكتابة إلى السلطان أبى العباس، ملتمسا منه أن يسمح له بالعودة، وأن يعفو عنه، فتحقق له ما أراد.

وفى أواسط سنة ٧٨٠ هـ رجع ابن خلدون إلى تونس، راغبا فى اعتزال المناصب، والعكوف على مشروعه العلمى، لكن خصومه لم يتركوه، فسرعان ما كثرت ضده الوشايات، يقودها الفقيه المعروف محمد بن عرفة، ومع أنها لم تنجح، لثبات السلطان أبى العباس على حمايته، وأمره له بالإكباب على تأليف كتاب العبر، إلا أن ابن خلدون بعد أن أمضى أربع سنوات فى تونس، سأم مكابدة الأحقاد، فتوسل إلى السلطان فى تخلية سبيله، لقضاء فريضة الحج، حتى أذن له، فركب البحر إلى الاسكندرية، فوصلها فى شوال ٧٨٤ هـ، وودع المغرب والأندلس إلى غير رجعة.

وفى الفترة المصرية التى امتدت حوالى ربع قرن، تألق عبدالرحمن بن خلدون، وأعاد تنقيح «المقدمة» و«العبر»، فى ظلال القاهرة، التى كانت يومئذ «حاضرة الدنيا»، «وبستان العالم»، و«محشر الأمم»، و«مدرج الذر من البشر»، «وإيوان الإسلام»، «وكرسى الملك» قدرس بأزهرها الشريف.

ثم تولى التدريس فى مدرسة القمحية، التى كانت بجوار جامع عمرو بن العاص ثم قضاء المالكية بمجلس الحكم بالمدرسة الصالحية، ملتزما بشريعة الله، محاربا الفساد الذى كان من قدر مصر، فى ذلك العصر، وكان درها فى عهود أخرى كثيرة، عرفناها من كتب التاريخ.

ومع ذلك لم تسكت حوادث الدهر عن ابن خلدون، ففجعته فى أولاده جميعا، فقد غرقت السفينة التى قدموا فيها من تونس، فمات أهله وولده «وذهب الموجود والسكن والمولود، فعظم المصاب، والجزع، ورجع الزهد» وطلب الإعفاء من منصبه، وعزم على الحج، وقضى فريضته، وذهب لزيارة بيت المقدس سنة ٨٠٢ هـ، والتقى بتيمورلنك سنة ٨٠٣ هـ، فى دمشق ثم عاد إلى القاهرة فأعيد إلى منصبه

للقضاء على مذهب المالكية، وظل يتقلب فيه بين تولية وعزل، حتى لقى الله «غفر الله له» فى الخامس والعشرين من رمضان سنة ٨٠٨ هـ.

هذه الحياة القلقة المتوترة، فى هذه الظروف السياسية والقبلية المعقدة، لم تكن قادرة بحد ذاتها على إفراز رجل من طراز عبدالرحمن بن خلدون لو لم يكن هناك ما يقف ابن خلدون فوقه، غير هذه الأرضية الهشة.. ولم يكن هذا الذى وقف ابن خلدون فوقه، غير هذه الحضارة الإسلامية، وتراثها العظيم، وأصولها الثابتة القوية.

هذا الرجل الكبير، صاحب هذا العقل الموسوعى، الرجل الذى ينغمس فى الأحداث، لكنه يبقى وثيق الصلة بالفكر والتراث، يحلم بلحظة الاعتزال ليبحث - لمغربه وأمته - عن حل جذرى يمتد إلى أعماق الرؤية الحضارية، ويتجاوز اللعبة السياسية الظاهرة.

هذا الرجل، كان يختزن تراثه، ويعرف إمكانات أمته الحضارية فى الانبعاث، ويدرك أن الواقع نتاج خطأ فى الرؤية، وفقر فى الفكر، وضباب فى الوعى الحضارى.

لقد كان ابن خلدون، قد يئس من الإصلاح عن طريق السياسة، ولعله وهو يحقق طموحه المشروع، المنطلق بشعوره بفوقيته وعبقريته، كان يحاول، وهو يتقلب فى المناصب، أن يجد مكانا ملائما، يستطيع التغيير من خلاله، لكنه وجد هذا الطريق السياسى مغلقا، فالحكام المتصارعون «الطائفيون» فى المغرب والأندلس ينظرون إلى أى منصب فى دولتهم الطائفية، حتى لو كان منصب الحاجب «أو رئيس الوزراء»، على أنه منصب تنفيذى وعلى صاحبه أن يكون مترجما لهوى الحاكم، وألا يحاول أن يكون عقلا مستقلا، يضاف إلى عقل الحاكم، بل عليه أن يكون - لكى يبقى وينجح - جزءا من عقل الحاكم، يبرر له ما يريده، أو شارحا للمتن، الذى يمليه عليه الحاكم المعصوم!!

وقد لا تكون شخصية «الحاجب» أو «الوزير» ملغاة تماما، لكن من المؤكد أن القرارات الكبرى، التى تتصل بالسيادة والحفاظ على «الدولة» وطموحات صاحبها، تبقى فى فترة كالتى عاش فيها ابن خلدون، غير قابلة للاجتهاد، أو التعدد فى الرأى، وبالتالى فأقصى ما يستطيعه السياسى التنفيذى من تغيير، يبقى فى مستوى الجزئيات المعاشية الاجتماعية والاقتصادية وليس فى البناء العام!

كان الإصلاح عن طريق الفكر هو المتاح، بل المطلوب، حتى ولو تأخر الزمان بعض الوقت، فذلك خير من الاستسلام اليائس، وكان ابن خلدون مدركا أن هذا هو حصاد تراكمات سياسية، ونفسية، وعقلية، سيطرت على المغرب والأندلس، بعد سقوط الموحدين فى موقعة الأراك ٦٠٩ هـ، وظهور الدول الوارثة المتطاحنة فى المغرب وسقوط المدن الأندلسية، وانحسار الإسلام فى الأندلس فى غرناطة ووادى آش تحت إمرة بنى نصر القحطانيين.

إن هذا الواقع المريض لم يكن يملك

الدواء، لكنه يملك عوامل الإثارة التى تدفع الطبيب للبحث عن الدواء.

إن هذا الواقع السياسى والمعاشى، وما يكتنفه من أمراض وعوارض قدرية من الله «كالطاعون الأسود» أو الخلافات السياسية القبلية، التى أفرزها خروج قطار المجتمع عن قضبانه الصحيحة.

كان هذا الواقع بأوزاره، يقوم بعملية الشحن الكبيرة، لابن خلدون، وبخاصة أنه عاش هذا الواقع فى أسوأ مستوياته، وكان تراث ابن خلدون الموسوعى، ورصيده فى الفقه الحضارى الإسلامى، والوعى التاريخى، يشدانه إلى العكوف على تقعيد وسائل الخروج من هذا الواقع، إنه فقيه ومفتى، وهذا يقتضى استيعابه الكبير للمعطيات القرآنية، التى قدمت رصيداً كبيراً، لأحوال الأمم السابقة، صعودا وانكسارا.

ويقتضى استيعابه للسيرة النبوية الشريفة، والنموذج الأعلى، الذى قدمه الرسول ﷺ وصحابته فى دولة المدينة الراشدة، ثم تجارب الأمويين والعباسيين السياسية والحضارية، كما أن ثقافته الشرعية تقتضى إلماما كبيرا بأصول الفقه، وهو علم المنطق الإسلامى.

كل هذه العناصر المكونة لثقافته، لا يمكن إغفال نصيبها فى فكره وفى إبداعه، لاسيما وأنه ظل موصولا بها، ولم ينقطع عنها، أو يعلن ثورته عليها، بل بقى يتقلب فى مناصب القضاء، والإفتاء على الفقه المالكى، حتى أواخر أيام حياته فى القاهرة!

«لم يكن محيط ابن خلدون - الذى هو الواقع - عاجزا عجزا كليا، بحيث إنه لم يجد فى هذا المحيط أى تراث منهجى، أو مفهومى يسعفه فى تسمية وتحليل الواقع الماثل أمامه».. فهذا الخلاء أو «الفراغ» غير ممكن فى واقع ينتمى إلى حضارة عظيمة، ذات مصادر ثابتة حاضرة دائما كالحضارة الإسلامية!

إن سيادة الفوضى، وضعف الفاعلية، وغياب العقل، وسطحية الارتباط بالمصادر لدى العامة والصفوة، هى العوامل التى تشل الواقع، وتجهض محاولات بعثه، حتى لو كان المجتمع مكدسا بالتراث الثرى، والمفاهيم الفاعلة.

إن «الإرسال» موجود وقوى، لكن «الاستقبال» ضعيف وراكد!!

وكانت أكبر العوائق، التى يواجهها ابن خلدون، تتمثل فى ضغط هذا الواقع، وكان فى حاجة ماسة إلى الفرصة التى يستطيع فيها الخروج من هذا الواقع وتجاوزه، وبالتالى رصده بطريقة منهجية تنظيرية فى ضوء رصيده الثقافى، وثوابته الحضارية، ومعطيات الواقع أيضا.

وعندما جاد الله عليه بالعزلة فى قلعة بنى سلامة، وجدت الأفكار المختزنة فرصتها للبروز، فكان أن ولدت «مقدمة ابن خلدون» كاملة الأعضاء، واضحة القسمات.. إنها لم تكن ثمرة هذه البيئة الراكدة، بل كانت نبتة شرعية لمصادر عظيمة وموروث ثقافى، وحضارى كبير!!

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور

علـى جمعـة

مفتى جمهورية مصر العربية

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى اله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهي:

حكم الاجتماع فى ميعاد وفاة متوفى

• السؤال من: ش.م.ع:

ماحكم الاجتماع فى ميعاد وفاة متوفى فى كل سنة لقراءة القرآن كاملاً على روحه ثم القراءة بصفة جماعية جهرية لسورة ورد فى فضلها نصوص خاصة كالفاتحة ويس وتبارك.. فهل هذا العمل بدعة أم لا؟

•• الجواب: لا مانع من ذلك شرعاً، وليس هذا العمل بدعة، بشرط ألا يكون فى ذلك إقامة المآتم أو إعادة العزاء أو استجرار الأحزان، وبشرط ألا يكون من مال القصر أو بغرض التباهى والتفاخر.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

حكم فى إقامة العزاء

• السؤال من أ.ن.ع:

١ - ما الحكم فى إقامة العزاء ثلاثة أيام مع قراءة القرآن جهراً فى العزاء؟

٢ - ما حكم التصدق على الميت بذبيحة فى اليوم الثالث فى العزاء أو الأول أو الثانى؟

•• الجواب: أولا: الدين الإسلامى الحنيف هو دين المودة والرحمة والترابط والتواصل والمواساة، لقول النبى ﷺ: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» متفق عليه من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنهما، وقد حث الإسلام أتباعه على مواساة المصاب منهم حتى يخففوا آلام المصيبة عنه، ووعد ﷺ المعزى بثواب عظيم فقال فى حديثه الشريف: «من عزى مصابا فله مثل أجره» رواه الترمذى وابن ماجه، وقال صلوات الله عليه وتسليماته: «ما من مؤمن يعزى أخاه بمصيبة إلا كساه الله سبحانه من حلل الكرامة يوم القيامة» رواه ابن ماجه، ويستحب تعزية أهل الميت جميعاً، ولا يكون العزاء بعد ثلاثة أيام إلا لمن كان غائباً عن المكان أو لم يعلم فإنه يعزى حين يحضر أو يعلم.

وإقامة المآتم والسرادقات لقبول العزاء من العادات التى جرى بها العرف بما لا يخالف الشرع الشريف، إذ هى فى حقيقتها وسيلة تساعد على تنفيذ الأمر الشرعى بتعزية المصاب، ومن المقرر شرعاً أن الوسائل تأخذ أحكام المقاصد مالم تكن الوسائل محرمة فى نفسها، فإذا تمت إقامة هذه السرادقات بطريقة لا إسراف فيها ولا مباهاة ولا تفاخر وكان القصد منها استيعاب أعداد المعزين الذين لا تسعهم البيوت والدور فلا بأس من ذلك.

وكذلك الحال فى إحضار القراء لقراءة القرآن، هو فى أصله جائز ولا شيء فيه، وأجر القارئ جائز ولا شئ فيه، لأنه أجر احتباس وليس أجراً على قراءة القرآن، فنحن نعطى القارئ أجراً مقابل انقطاعه للقراءة وانشغاله بها عن مصالحه ومعيشته، بشرط أن لا يكون ذلك من تركة الميت، وأن لا يكون المقصود به المباهاة والتفاخر، وعلى الناس أن يستمعوا وينصتوا لتلاوة القرآن الكريم.

أما إذا كان ذلك من أجل المباهاة والتفاخر - كما يحصل كثيراً - فهو إسراف محرم شرعاً، وتشتد الحرمة إذا كان قد حمل القصر من أهل الميت نصيباً فى ذلك، أو كان أهل الميت فى حاجة إليها، ولا يجوز أن ينفق أحد فى ذلك كله من تركة الميت أو مال غيره إلا عن طيب نفس منه، ولا يحمل القصر ولا من لم تطب نفسه بذلك شيئاً منه.

ولاشك أن أهل الميت يكونون فى أمس الحاجة إلى من يخفف عنهم ويواسيهم بالقول وبإعداد الطعام لهم وبالمال إذا كانوا فى حاجة إلى ذلك، لانشغالهم وإرهاقهم بمصابهم

وتجهيزاته، وهذا معنى قول رسول الله ﷺ «اصنعوا لآل جعفر طعاماً، فقد جاءهم ما يشغلهم» رواه أبوداود وابن ماجه والبيهقى من حديث عبدالله بن جعفر رضى الله عنهما، بل قد يجب الجلوس لتلقى المعزين كما إذا غلب على ظن المعزَّى أنه لو لم يجلس لنسبه المعزون إلى كراهته لهم حيث لم يجلس لتلقيهم، كما أشار إلى ذلك الشروانى فى حاشيته على تحفة المحتاج بشرح المنهاج لابن حجر الهيتمى.

وعليه وفى واقعة السؤال: فإن إقامة السرادقات وإحضار القراء للقراءة من الأمور المباحة فى أصلها ما لم يقترن بها إسراف أو مباهاة وتفاخر أو أكل أموال الناس بالباطل أو تكون من أموال القصر.

ثانيا: التصدق على الميت بالذبح عنه فى اليوم الأول أو الثانى أو الثالث لموته أمر جائز لا مانع منه شرعاً، بشرط أن لا يكون فى ذلك تجديد للأحزان، وأن لا يكون ذلك من مال القصر، فإن كان ذلك مما يشق على أهل الميت أو يجدد أحزانهم فهو مكروه، وإن كان من مال القصر فهو حرام.

ومع أن جماعة من متأخرى الحنفية يذهبون إلى القول بالكراهة، إلا أن العلامة الطحطاوى الحنفى حقق أن ذلك جائز ولا شىء فيه، ونقل ذلك عن محققى الحنفية، فيقول فى «حاشيته على مراقى الفلاح شرح نور الإيضاح (٣٣٩ - ٣٤٠)»: «(قوله: وتكره الضيافة من أهل الميت إلخ) قال فى البزازية: يكره اتخاذ الطعام فى اليوم الأول والثالث، وبعد الأسبوع، ونقل الطعام إلى المقبرة فى المواسم، واتخاذ الدعوة بقراءة القرآن، وجمع الصلحاء والقراء للختم أو لقراءة سورة الأنعام أو الإخلاص اهـ. قال البرهان الحلبى: ولا يخلو عن نظر؛ لأنه دليل على الكراهة إلا حديث جرير المتقدم، وهو مارواه الإمام أحمد وابن ماجه بإسناد صحيح عن جرير ابن عبدالله: كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت وصنعهم الطعام من النياحة اهـ يعنى وهو فعل الجاهلية، وإنما يدل على كراهة ذلك عند الموت فقط، على أنه قد عارضه ما رواه الإمام أحمد أيضا بسند صحيح وأبو داود عن عاصم بن كليب عن أبيه عن رجل من الأنصار وقال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة، فلما رجع استقبله داعى امرأته فجاء، وجئ بالطعام، فوضع يده ووضع القوم فأكلوا ورسول الله ﷺ يلوك اللقمة فى فيه.. الحديث، فهذا يدل على إباحة صنع أهل الميت الطعام والدعوة إليه، بل ذكر فى البزازية أيضا من كتاب الاستحسان: وإن اتخذ طعاماً للفقراء كان حسناً اهـ وفى استحسان الخانية: وإن اتخذ ولى الميت طعاماً للفقراء كان حسناً، إلا أن يكون فى الورثة صغير فلا يتخذ ذلك من التركة اهـ وقد علمت ما ذكره صاحب الشرعة اهـ يشير إلى ما نقله قبل ذلك (٣٣٩) عن صاحب «شرعة الإسلام والسنة» من قوله: «والسنة أن يتصدق ولى الميت له قبل مضى الليلة الأولى بشىء مما تيسر له، فإن لم يجد شيئاً فليصل ركعتين ثم يهد ثوابهما له»، قال: «ويستحب أن يتصدق على الميت بعد الدفن إلى سبعة أيام كل يوم بشىء مما تيسر» اهـ.

وبناء على ذلك: فلا مانع من الذبح عن الميت صدقة عليه.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

زكاة الأموال المودعة فى البنوك

● السؤال من ى. ج.س:

تابعت مؤخراً أحد البرامج التليفزيونية لفضيلتكم حيث أشرتم إلى موافقتكم على رأى الشيخ عبدالله المشد فيما يتعلق بزكاة الأموال المودعة فى البنوك من حيث اعتبار هذه الزكاة كزكاة الأرض واحتساب الزكاة على العائد فقط وبنسبة ١٠٪ وذلك منعا لتآكل الأصل أرجو التكرم بموافاتى بنص هذه الفتوى بالكامل.

●● الجواب: الأموال المودعة بالبنوك والتى تدر عائداً بمعدل ثابت فيها الزكاة إذا حال عليها الحول القمرى، ومقدار الزكاة الواجبة فيها هو ربع العشر (أى: اثنان ونصف بالمائة) من أصل المال.

وأما ما يقال من أن الزكاة تُستحق على العوائد فقط: فهذا اجتهاد لبعض أهل العلم مبناه على اعتبار المال المودع فى البنك كالأرض التى تجب الزكاة فيما تخرجه من نتاجها، بجامع أن كلا منهما أصل ثابت يدر دخلا يتعيش منه صاحبه، ويضره الانتقاص من أصله، وليس ذلك عاما فى كل أنواع الاستثمار؛ لأن من الاستثمار ما لا زكاة فيه أصلا بالغا ما بلغ الدخل أو العائد فيه، وحينئذ فالأصل أن الزكاة تخرج ربع عشر المال المودع، فإن كان ذلك المال بالنسبة لصاحبه كالأرض بالنسبة لصاحبها فى تعيُّشه منها وتضرره من انتقاص أصلها فله أن يكتفى بإخراج عشر أرباحه منه، ويكون ذلك مجزئاً عن زكاة هذا المال المودع وذلك على رأى بعض أهل العلم.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

البسملة فى الصلاة الجهرية

● السؤال من خ.د.ر:

هل قول بسم الله الرحمن الرحيم ممنوعة فى الفاتحة وما بعدها فى الصلاة الجهرية؟

●● الجواب: مسألة الجهر بالبسملة من المسائل المختلف فيها بين العلماء، فالشافعية يرون مشروعية الجهر بها، وغيرهم من العلماء يرون أن الإسرار بها هو الأفضل، وهذا الأمر معدود من هيئات الصلاة التى لا ترقى إلى درجة السنن المؤكدة، فالخلاف فيه قريب والشأن فيه واسع، ومن المقرر شرعاً أنه إنما ينكر ترك المتفق على فعله أو فعل المتفق على تركه، ولا ينكر المختلف فيه، فمن جهر بالبسملة فهو حسن ومن أسر بها فهو حسن، ولا يجوز أن تكون أمثال هذه المسائل الخلافية مثار فتنة ونزاع وفرقة بين المسلمين، بل يسعنا فيها ما وسع سلفنا الصالح من أدب الخلاف الذى كانوا يتحلون به فى خلافاتهم الفقهية واختياراتهم الاجتهادية.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

حكم قضاء الصوم عن الميت

• السؤال من ل.ص.ز:

هل يجوز قضاء الصوم عن الميت؟

•• الجواب: إذا أفطر الصائم بعذر واستمر العذر إلى الموت فقد اتفق الفقهاء على أنه لا يصام عنه ولا فدية عليه، لعدم تقصيره، ولا يلحقه اثم؛ لأنه فرض لم يتمكن من فعله إلى الموت فسقط حكمه، كالحج.

أما إذا زال العذر وتمكن من القضاء ولكنه لم يقض حتى مات فللفقهاء فيه قولان:

فالجمهور من الحنفية والمالكية والجديد من مذهب الشافعية وهو المذهب عند الحنابلة يرون أنه لا يصام عنه بعد مماته بل يطعم عنه عن كل يوم مد؛ لأن الصوم لا تدخله النيابة فى الحياة فكذلك بعد الوفاة كالصلاة.

وذهب أصحاب الحديث وجماعة من السلف كطاوس والحسن البصرى والزهرى وقتادة وأبوثور، والإمام الشافعى فى القديم - وهو معتمد المذهب الشافعى والمختار عند الإمام النووى، وقول أبى الخطاب من الحنابلة: إلى أنه يجوز لوليه أن يصوم عنه، زاد الشافعية: ويجزئه ذلك عن الإطعام وتبرأ به ذمة الميت، ولا يلزم الولى الصوم بل هو إلى اختياره وإن كان أولى من الإطعام، لما رواه البخارى ومسلم من حديث عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ «من مات وعليه صيام صام عنه وليه»، ورويا أيضا من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يارسول الله، إن أمى ماتت وعليها صوم شهر، أفأقضيه عنها؟ فقال: «لو كان على أمك دين أكنت قاضيه عنها؟»، قال: نعم، قال: «فدين الله أحق أن يقضى».

أما الإمام أحمد والليث وإسحاق وأبوعبيد فقالوا: لا يصام عن الميت إلا النذر فقط، حملا للعموم فى حديث أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها على خصوص حديث ابن عباس رضى الله عنهما الذى بينت رواياته أنه صوم نذر.

والمراد بالولى الذى له أن يصوم عن الميت: القريب مطلقاً، ويجوز للأجنبى عن الميت أن يصوم عنه بإذن وليه.

قال الإمام النووى فى «شرح مسلم»: «وهذا القول - يعنى جواز قضاء الصوم الواجب عن الميت مطلقاً - وهو الصحيح المختار الذى نعتقده، وهو الذى صححه محققو أصحابنا الجامعون بين الفقه والحديث لهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة. وأما الحديث الوارد «من مات وعليه صيام أطعم عنه» فليس بثابت، ولو ثبت أمكن الجمع بينه وبين هذه الأحاديث بأن يحمل على جواز الأمرين، فإن من يقول بالصيام يجوز عنده الإطعام، فثبت أن الصواب المتعين تجويز الصيام وتجويز الإطعام، والولى مخير بينهما، والمراد بالولى: القريب سواء كان عصبة أو وارثا أو غيرهما، وقيل: المراد الوارث وقيل: العصبة، والصحيح الأول، ولو صام عنه أجنبى إن كان بإذن الولى صح وإلا فلا فى الأصح، ولا يجب على الولى الصوم عنه، لكن يستحب» اهـ.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

تأملات فى السيرة النبوية

لفضيلة الشيخ/ الطاهر الحامدى

ذكرت لك فى نهاية مقالى السابق قصة المطعم بن عدى الذى دخل النبى ﷺ فى جواره بعد عودته من الطائف وأن رسول الله ﷺ حفظ له هذا الموقف النبيل وفاء له وليس طمعا فى نوال، أو جزاء، لأنه بعد أن هاجر النبى ﷺ إلى المدينة وكانت وقعة بدر الكبرى والتى انتصر فيها المسلمون نصرا مؤزرا وأسروا فيها سبعين رجلا غير الذين قتلوا من المشركين، وبرغم أن المطعم بن عدى قد مات فقد قال النبى ﷺ: «لو كان المطعم بن عدى حيا وكلمنى فى هؤلاء النتنى - يعنى أسارى بدر - لأطلقتهم له».

هذا موقف من النبى ﷺ نبيل لأنه ليس فيه شائبة مجاملة أو طلب نوال فالنبى ﷺ ترك مكة كلها وأمن المسلمون وانتصروا فى موقعة حربية نصرا ما كان أحد يتوقعه وقد قتلوا صناديد قريش وأسروا سبعين، فلا شبهة فى التزلف والملق، كما أن المطعم بن عدى مات فلا ضرورة ولا شبهة فى نفاق أو طمع، إنما هو الوفاء المصفى والاعتراف بالجميل حتى وإن مات صانعه كذلك هو النبل المحمدى الذى نود أن يتعلمه المسلمون فضلاً عن غيرهم ممن تعمدوا أن يشوهوا الإسلام ويكيدوا للمسلمين، فالحق أنى لا أستطيع أن أنسى أو أتناسى أو أغض الطرف عما يفعله الغرب عموماً وأمريكا بالمسلمين فهذا الغدر الجشع والطمع الحاقد الذى يمارسونه ويتمادون فيه بلا حياء أو خجل، فلم يكفهم ما فعلوا بالعرب والمسلمين، وأضاليلهم وخداعهم فى غزو العراق ونهبه، وها هى مذكرات الرئيس الأشر دبليو بوش تفضح الرجل وتفضح أمريكا وتعرى كذبهم سافراً للعالم كله وحجج السلام والديمقراطية وحقوق الإنسان، كما أنهم يتنمرون ويراوغون روغان الثعالب حول السودان، يزعمون أنهم يطلبون استفتاء نزيهاً وهم بيتوا النية على إفشال العملية كلها، لا أقول لإيجاد ذريعة للانقضاض على ثروات المتطاحنين السذج، ولكن لشغلهم بأنفسهم حتى تستسلم الفريسة لهؤلاء الأشرار.

إن ما أسموه وثائق «ويلكيليكس» التى أذاعوها لم يخجلوا مما فيها من كشف النقاب عن وجههم الكالح

القبيح، لكني أرى أنها ملهاة يقصدون بها شغل العالم الإسلامي بنفسه حيث إن السذج من بني جلدتنا تصوروا أن أمريكا ستخجل مما فيها من كذب وبهتان وتضليل كما أن ما زعموه وما أشاعوه من طرود ملغومة مصدرها اليمن أرى أنها مؤامرة تحاك خيوطها للإيقاع باليمن المسكين!!! وإمعاناً في التضليل وإثارة الدخان حتى يعم الظلام وينقضون على فريستهم أعلنوا أنهم قدموا إعانات مادية لليمن فاقت المليون للمساعدة في كشف وبيان مصادر الطرود، وأرى أنه طعم سام أسأل الله أن يسلم اليمن من ابتلاعه - يا رب.

لأن ابتلاعه يعني هلاك، فهو سم قاتل، قارن هذا التسلط الشرس من سدنة الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان بموقف النبي ﷺ أو ببعضه «لو كان المطعم حياً ثم كلمني في هؤلاء النتنى لأطلقتهم له» كم تلقينا عهوداً وكم عقدنا من اتفاقيات بل كم تلقت القضية الفلسطينية من عهود.. لا بل طعنات من زعيمة الحرية طوال الستين عاماً من عمر النكبة الفلسطينية ومازالت تعطى عهوداً ومازلنا نصدق وياليتنا نسأم من العهود أو نمل الجلوس إلى عقد مفاوضات!!

نمضي مع موقف آخر للنبي ﷺ مع رجل من زبيدة وصاحب له، ابتاع أبو جهل إبلهما وأبى أن يعطيهما الثمن فوقف الرجل في ناحية المسجد الحرام لما يئس من أبي جهل وقال بأعلى صوته «يا معشر قريش.. أما من رجل يعينني على أبي الحكم عمرو بن هشام، فإني غريب وابن سبيل، وقد غلبني على حقي» فقال له أهل المجلس جلساء الحرم من طغاة قريش وهم يشيرون إلى رسول الله ﷺ في سخرية بليدة وبلا حياء من فرط الطمع والفجور: هل ترى ذلك الرجل، اذهب إليه فهو يعينك عليه، فأقبل الرجل الى رسول الله ﷺ وذكر له حاجته، فقال جمع الطغيان الفاجر لرجل منهم اذهب فاتبعه وانظر ماذا يصنع!! فخرج رسول الله ﷺ حتى جاء باب أبي جهل وطرق الباب فقال أبو جهل: من بالباب؟ قال: محمد، فاخرج إليَّ (يا لقوة الحق وجبن الباطل ومهما تكن القوة فإن الظلم جبان لكن من يصدع بالحق!! آه لو عرف العرب قيمة أنفسهم في هذا العالم!! وجهروا بالحق أمام الطغيان ووقفوا سداً يؤمن بالعدل ويموت ولا يرضى الهوان!! آه لو قالوا لا للظلم وللطغيان وتعلموا درس العزة ونصرة الفضيلة!! لكن وآه من لكن، لقد قال رسول الله ﷺ وأخبر «سيصيبكم الوهن - حب الدنيا وكراهية الموت» جعجعة وصراخ طول الوقت، شجب واستنكار لا أكثر أما الفعل فلا. حب الدنيا قيد ترسف فيه أقدام الرجال وكراهية الموت كسرت سيوفاً من الخشب المتهالك) ما أن قال رسول الله ﷺ اخرج إليَّ حتى خرج اليه أبو جهل قد انتقع[١] لونه، فقال رسول الله ﷺ اعطه حقه، فقال

(١) انتقع بمعنى تغير لونه، ويقال امتقع، انظر لسان العرب وشرح مسلم للنووى حديث الإسراء والمعراج.

أبو جهل: نعم لا تبرح حتى أعطى هذا حقه وقام أبو جهل على الفور وبلا تردد كأنه فأر مذعور، فدخل ثم خرج إليه بحقه ثم دفعه اليه، فعاد الرجل الي مجلس قريش وهو يقول: جزاه الله خيراً، فقد أخذ لي حقي، وعاد الرجل الذي بعثت به قريش خلف رسول الله ﷺ وقالوا له: ويحك ماذا رأيت؟ قال: رأيت عجباً من العجب والله ما هو إلا أن ضرب على أبي جهل بابه حتى خرج إليه وهو ممتقع، فقال: أعطه حقه، فقال: نعم لا تبرح حتى أعطيه الذي له فدخل فخرج إليه بحقه وأعطاه إياه، ثم لم يلبث أبوجهل أن جاء مجلس قريش فقالوا له ويلك؟ والله ما رأينا مثل ما صنعت قط؟ قال: والله ما هو إلا أن ضرب على بابي فسمعت صوته فملئت رعباً ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا أنيابه، لفحل قط والله لو أبيت لأكلني!!

وانهار الباطل في لحظة، وأود أن أطرح سؤالاً على الإنسان المسلم الذي يمر بمرحلة من تغييب العقل وأصبح يفسر بها التاريخ الإسلامي وبخاصة وقائع السيرة النبوية، وهو بذلك يبغي تبرير العجز والكسل والتواكل!! وأنا لا أريد هذا وأرفضه تماماً فمثلاً سيطرح العقل البليد سؤالاً فيقول: ما هو تفسير ما حدث مع أبي جهل في ضوء ما وقع عند دخول النبي ﷺ مكة حين عودته من الطائف وأبى أن يدخل مكة حتى يكون في جوار يأمن به غائلة قريش؟ أليس هو النبي الذي يدخل في جوار المطعم بن عدى؟! وهو نفسه النبي الذي يرتعد منه أبو جهل؟ بلى. ويعود العقل العربي المغيب الذي يبحث عن تبرير لغيابه يسأل: أليس ما حدث مع أبي جهل معجز؟ فلماذا لم يُحدث الله تعالى معجزة للنبي ﷺ مثلها لما دخل مكة مستجيرا؟ وفي مواقف أخرى وما أكثرها كان موقفه ﷺ ظاهره عدم التكافؤ الذي يصل إلى حد القهر؟ فما قولك فيما حدث؟ أقول لك:

ان تصوري للمعجزة للنبي ﷺ والكرامة للولي. أنها ليست عبثا ولا هي عمل سحرة مهرة أو حواة للتفكه بها إنما هو عمل خارق لنواميس وسنن الكون يجريها الله طمأنة لأنبيائه أو عباده الصالحين وتأييداً لهم، دلالة على نبوة النبي وتأييداً لأوليائه وأصفيائه. وليس عملا عينيا دون هدف مقصود ولا هي ملهاة ينشغل أو يتلهى بها الناس.!!

قال: لماذا تكون أو تقع المعجزة في موضع فلا تكون في موضع؟ قلت: إنها تكون أو تقع في موضع الضرورة أولا. ولا تكون في موضع يلزم فيه الجهاد والمدافعة من المؤمنين حتى يتعلم المؤمنون المقاومة ويمارسوا العمل ويناهضوا الباطل ويدفعوا القهر والظلم ويتعودوا مواقف النهوض. أما لو كان في كل المواقف معجزات وفي كل خطوة تعطيل الأسباب والنواميس لأخلد المسلمون إلى الدعة والكسل!! وهكذا هم يريدون وأيضاً هم يودون أن يفسروا وقائع التاريخ تفسيراً يؤيد أو يدفع إلى الكسل والخمول.

وإلى لقاء آخر إن شاء الله



من دروس الهجـــرة

للأستاذ الدكتور/ محمد سيد طنطاوى
رحمـه اللـه

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له هو الأول والآخر، والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم.. ونشهد أن سيدنا وشفيعنا محمدا عبده ورسوله، وهو الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، والسراج المنير، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا.

يا أتباع النبى ﷺ.

تدور الأيام، وتمضى الشهور، وتتقلب الأعوام، وكلما أقبل شهر المحرم من كل عام، تذكر المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها، هجرة النبى ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.

والعاقل من الناس هو الذى يتعظ بتقلبات الليل والنهار، ويعمر أوقات حياته بالإيمان الصادق، وبالعمل الصالح، وبالسلوك الحميد...

العاقل من الناس هو الذى يجتهد فى أن يكون من الذين يبنون ولا يهدمون، ويصلحون ولا يفسدون، ويجمعون ولا يفرقون، ويتعاونون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.. ومن الوصايا الحكيمة، والتوجيهات القويمة، قول النبى ﷺ: «أيها الناس، إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، إن العبد بين مخافتين: أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه، وأجل باق لا يدرى ما الله قاض فيه، فليأخذ العبد من دنياه لآخرته، ومن الحياة قبل الممات، فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار، سوى الجنة أو النار».

ومن أقوال الحكماء: من أمضى يومه فى غير حق قضاه، أو فرض أداه، أو مجد أثله، أو خير أسسه، أو حمد حصله، أو علم اقتبسه، فقد عق يومه وظلمه.

وهجرة النبى ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، زاخرة بالدروس النافعة، وبالمعانى السامية، ومن هذه الدروس أنها من سنن الرسل -عليهم الصلاة والسلام-.

فهذا سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ يهاجر من بلاد العراق إلى بلاد الشام، ثم إلى مصر، ثم إلى مكة المكرمة، لا من أجل متعة فانية، ولا من أجل شهوة عارضة، وإنما من أجل دعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ وحده، وإلى التحلى بمكارم الأخلاق.

وكان من بين الذين آمنوا بما جاء به سيدنا إبراهيم من عند ربه، سيدنا لوط ـ عليه السلام ـ الذى اشترك معه فى الهجرة وفى دعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار، وإلى التحلى بمكارم الأخلاق.

قال ـ تعالى ـ:

﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

(العنكبوت: ٢٦)

أى: فصدق لوط ـ عليه السلام ـ نبى الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقال إبراهيم: إنى مهاجر إلى الجهة التى أمرنى ربى بالهجرة إليها لأبلغ دعوته،

إنه - سبحانه - هو العزيز الذى لا يغلبه غالب، الحكيم فى تدبيره، فهو لم يهاجر من أجل منفعة دنيوية، وإنما هاجر من أجل تبليغ أمر ربه، وإعلاء كلمته.

وقد ذم الله - تعالى - الذين يرضون أن يعيشوا فى الذلة والهوان مع قدرتهم على ترك الأماكن التى لا ينالون فيها حريتهم وكرامتهم، وتوعدهم - سبحانه - بسوء المصير فقال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾

(النساء: ٩٧)

ومن الدروس التى نتعلمها من الهجرة النبوية الشريفة، أن العقلاء من الناس هم الذين يختارون لهجرتهم الأماكن التى يتمكنون فيها من نشر كلمة الحق، ومن إعلاء دين الله - تعالى - ومن إحياء الفضائل وإماتة الرذائل، وهذا ما فعله ﷺ عندما جعل هجرته إلى المدينة المنورة، لأنه ﷺ وجد فيها البيئة التى فتحت قلبها للحق، فبعض أهلها بايعوا النبى ﷺ على الإيمان به وبدعوته قبل أن يهاجر إليهم، وانتشر الإسلام فى المدينة المنورة عن طريق هؤلاء المؤمنين الصادقين، وعن طريق «مصعب بن عمير» - رضى الله عنه - ذلك الصحابى الجليل الذى أرسله الرسول ﷺ إلى المدينة لكى يعلم أهلها أحكام الإسلام، فاستقبله معظم أهلها استقبالا كريما..

ولقد كان استقبال أهل المدينة للرسول - ﷺ - عند هجرته إليهم، استقبالا يدل على صفاء نفوسهم، وعلى طهارة قلوبهم، وعلى إيمانهم الصادق بما جاء به ﷺ من عند ربه من هدايات أخرجتهم من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام.

كذلك من الدروس التى نتعلمها من هجرته ﷺ:

درس أداء الأمانة حتى مع الأعداء فقد كان ﷺ يلقب بالصادق الأمين، وكان من أعدائه من يضع عنده الأشياء الثمينة ليحفظها له إلى حين طلبها منه، فلما أذن الله - تعالى - لنبيه بالهجرة إلى المدينة المنورة، كلف ﷺ ابن عمه على ابن أبى طالب - رضى الله عنه - برد الأمانات إلى أهلها حتى ولو كانوا من أعدى أعدائه، لأن الأمانة ترد إلى البار والفاجر.

وهكذا ضرب النبى ﷺ أروع الأمثال فى أداء الأمانة، وفى نبذ الخيانة، وفى العمل بقوله - تعالى -:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾

(النساء: ٥٨)

كذلك من الدروس التى نتعلمها من حادث الهجرة: درس إيثار الإيمان على محبة الأوطان، فلقد عاش النبى ﷺ فى أم القرى أكثر من خمسين سنة، بها ولد، وعلى ترابها نما، وفى أرجائها تنقل، ومن هوائها استنشق، وفوق أرضها قضى شبابه وكهولته، وأحبها كما يحب العقلاء أوطانهم، ومع كل ذلك عندما أذن الله - تعالى - له بالهجرة - لم يتردد فى مفارقتها من أجل خدمة دينه وعقيدته، ومن أجل إعلاء كلمة الحق.

ولقد التفت ﷺ إلى مكة وهو يغادرها وقال: «يا مكة والله لأنت أحب بلاد الله إلىّ ولولا أن أهلك أخرجونى ما خرجت».

***

يا أتباع النبى ﷺ:

ألا وإن من أهم الدروس التى نتعلمها من حادث الهجرة النبوية الشريفة: درس أن النصر فى النهاية لابد أن يكون للمؤمنين الصادقين، ومن أوضح الأدلة على ذلك أن الرسول ﷺ قد هاجر من مكة وليس معه سوى سيدنا أبى بكر الصديق، ثم عاد إليها بعد ثمانى سنوات ومن حوله أكثر من عشرة آلاف من المجاهدين المخلصين، ودخلها ﷺ دون قتال يذكر، دخلها وهو يتلو قوله - تعالى -:

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

(الإسراء: ٨١)

نسأل الله - تعالى - أن يجعل عامنا هذا خيرا من سلفه وأن يجعل خلفه خيرا منه..

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم..

ظاهرة الثأر.. وموقف الإسلام منها

للأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم

عضو مجمع البحوث الإسلامية

إن ظاهرة الثأر من أبشع الجرائم وأشنعها، ومن أسوأ الظواهر وأخطرها، إذا تفشت في مجتمع أو انتشرت في بيئة أوردت أهلها موارد الهلاك. إنها تفتح أبواب الشر، وتحول حياة الناس إلى صراعات لا تنتهي إلا بترميل النساء، ويتم الأبناء، والقضاء على الروابط الإنسانية، وتحويل الحياة إلى سلسلة من الاغتيالات على مذابح الأضغان العائلية، فيظهر في كل يوم دم من هنا ودم من هناك.

وظاهرة الثأر من العادات السيئة، ومن بقايا الجاهلية التى كانت منتشرة فى الناس قبل الإسلام، فلما أشرق الإسلام بتعاليمه السمحة قضى على هذه الظاهرة وشرع القصاص، حيث يُطبق بالعدل، ويقوم به ولى الأمر، وليس آحاد الناس حتى لا تكون الحياة فوضى.

وما يجرى فى صعيد مصر من قتل لعدد كبير، شيء خطير، وشر مستطير، يندى له الجبين؛ لأنه يحدث فى عصر وصلت فيه الثقافة المستنيرة، والحضارة الإسلامية قمتها، ويحدث فى أحد بلاد مصر الأزهر الشريف والحضارة العريقة.

ومن أجل ذلك كان من واجب كل قطاعات المجتمع وهيئاته، الدينية منها والأمنية، والعلمية، والثقافية، والإعلامية وغيرها أن تؤدى الدور المنوط بها لمناهضة هذه الظاهرة، حتى لا تتكرر، فإن الإسلام قد طوى رسوله سيدنا محمد ﷺ صفحة هذه الظاهرة حين أعلن فى حجة الوداع، وفى حُشُود المسلمين وضع دم الثأر وإنهاء هذه الظاهرة إلى غير رجعة، وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع.

كما أعلن ـ يومها أيضًا ـ حُرمة الدماء والأموال والأعراض حين قال ﷺ: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحُرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا، ألا هل بلغت، اللهم فاشهد»(1).

وقرّر القرآن الكريم مشروعية القصاص، وليس الثأر، وجعله بيد الحاكم أو ولى الأمر وليس بيد أفراد المجتمع؛ صيانة للحرمات وحقنًا للدماء، وتطبيقًا للعدالة، ونشرًا للاستقرار والأمن بين ربوع الأمة.

قال ـ تعالى ـ:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (178) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(البقرة: ١٧٨ - ١٧٩)

وكان فى الجاهلية حيّان من العرب اقتتلوا قبل الإسلام بقليل، فكان بينهم قتل وجراحات حتى قتلوا العبيد والنساء فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا، فكان أحد الحيّين يتطاول على الآخر فى العدة والأموال، فحلفوا ألا يرضوا حتى يقتل بالعبد منا الحر منهم، والمرأة منا الرجل منهم، فنزل فيهم:

﴿ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى ﴾

ومذهب الجمهور والأئمة الأربعة أن الجماعة يقتلون بالواحد، وقال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فى غلام قتله سبعة، فقتلهم وقال: «لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم».

وحُكى عن الإمام أحمد رواية أن الجماعة لا يقتلون بالواحد، ولا يقتل بالنفس إلا نفس واحدة.

وقد شرع القصاص لحكمة دقيقة وعظيمة وهى حياة النفوس؛ لأن القاتل حين يعلم أنه لو قتل سيُقتل قصاصًا منه ينكفّ عن القتل، وينزجر فيكون فى كفه حياةٌ لمن كان سيقتله، وحياة لنفسه التى كانت ستُقتل قصاصًا منه.

ولقد عقّب القرآن الكريم على أول جريمة قتل حدثت فى الدنيا حين قتل أحد ابنى آدم أخاه ببيان حرمة النفس الإنسانية وأن العدوان على نفس بغير حق عدوان على الإنسانية جمعاء، وأن الحفاظ على حياتها حفاظ على حياة الإنسانية، حيث قال الله ـ تعالى ـ:

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

(المائدة: ٣٢)

ولابد من التعرف على أسباب ظاهرة الثأر لإنهائها ومنعها وعدم تكرارها:

فمن أسباب هذه الظاهرة: «ضعف

(1) صحيح البخارى، كتاب الفتن.

الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره»، ولا شك أن ضعف الإيمان يكون بسبب ضعف الأعمال الصالحة وقلتها، وأن قوة الإيمان وزيادته تكون بزيادة الطاعات والقرب من الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ لأن الإيمان يزيد وينقص، فيزيد بزيادة الأعمال الصالحة وينقص بنقصها، فمن سمات المؤمنين الكاملين ما ذكره الله ـ تعالى ـ في قوله في وصف الكاملين في إيمانهم:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

(الأنفال: ٢ - ٤)

فأصحاب الإيمان الكامل قلوبهم وجلة عند ذكر الله ـ تعالى ـ ويزدادون إيمانا على إيمانهم حين تُتلى عليهم آياته ويتوكلون على ربهم ويفوضون الأمر إليه، ويوثقون صلتهم بالله عن طريق الصلاة ويوثقون صلتهم بالمجتمع فينفقون مما رزقهم الله.

فحيث وجد الإيمان، وُجدت قيمُهُ ومبادئه، وأخلاقه التي يتحلى بها المؤمنون، حيث يصبح بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويتواصون بالحق والصبر، ويتحلون بالخلق الفاضل والصفح والتسامح والعفو والمحبة.

● ومن أسباب ظاهرة «الثأر»: رواسب الحقد والضغائن وحب التشفي والانتقام من الغير، والتباغض والتقاطع والتدابر، وقد نهى الإسلام عن هذه الرذائل التي تشعل نار البغضاء والانتقام، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث» رواه البخاري ومسلم.

إن الشحناء التي تندلع في نفوس بعض الناس هي التي تؤجج نار الثأر عند بعض الناس، ولذا كان الوعيد الشديد لأهل الشحناء، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «تُفتح أبواب الجنة يوم الإثنين ويوم الخميس فيُغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئا إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيُقال: أَنظِروا هذين حتى يصطلحا، أَنظِروا هذين حتى يصطلحا» رواه مسلم، ومعنى «أنظروا» أمهلوا.

● ومن أسباب «ظاهرة الثأر»: التحريش بين النفوس، والإفساد وتغيير القلوب عندما يستجيب أصحابها لوساوس الشيطان، عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم» رواه مسلم، والتحريش هو: الإفساد وتغيير قلوبهم وتقاطعهم.

وقد تبدأ «ظاهرة الثأر» في بعض

قطاعات الحياة، وبعض دوائر الأعمال بين أفراد الناس ومن يتقلدون بعض الأعمال فلا ينسى بعضهم حقده على الغير، فيبدو منه ما يُعرف عند البعض بتصفية الحسابات، فإن كان أخوه قد أساء إليه في شيء يسير يكيل له الصاع صاعين، ويثأر للماضي، ويسلك سبيل التشفي والظلم والعدوان.

وتتشكل «ظاهرة الثأر» وتتلون في كل بيئة أو موقع حسب أحوال الناس وعقولهم ونشأتهم، وما طُبعوا عليه من الخلال والصفات.

● ومن أسباب «ظاهرة الثأر» العصبية البغيضة، وهذه العصبية القديمة التي كانت تتفجر بين الأوس والخزرج، إنها من بقايا الجاهلية ومن رواسب الماضي السحيق.

لقد كان بين الأوس والخزرج حروب كثيرة في الجاهلية وعداوة شديدة، وثارات وإحن، وضغائن وفتن، فكان بينهم قتال شديد، ووقائع كثيرة، حتى جاء الإسلام فدخلوا فيه، فأصبحوا بنعمة الله إخوانا.

وبعد أن أصلح الإسلام شأنهم وأصبحوا متحدين متعاونين مرَّ رجل من اليهود بملأ من الأوس والخزرج، فساءه ما هم عليه من الألفة والتعاون والوفاق، فبعث رجلاً معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكرهم ما كان من حروبهم يوم بعاث، وتلك الحروب، ففعل فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوسهم وغضب بعضهم على بعض وتشاوروا، ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم وتواعدوا إلى الحَرَّة، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأتاهم فجعل يسكنهم ويقول: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟!»[٢].. وتلا عليهم هذه الآية:

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

(آل عمران: ١٠٣)

فعندما تلا عليهم الرسول ﷺ هذه الآية، ندموا على ما كان منهم، وتصالحوا وتعانقوا، وألقوا السلاح.

وهكذا نرى أن الإسلام قضى على تلك العصبية البغيضة، وقضى على الفرقة والشحناء، والحقد والبغضاء، وأسباب الصراعات التي يكون الثأر أحد نتائجها السيئة.

ومن عجب أن تطل الظاهرة البغيضة برأسها في بعض مجتمعاتنا الإسلامية وهي أبعد ما يكون عن الإسلام، وأصحابها في إيمانهم ضعف، إنهم لم يتحلّوا بفضائل الإسلام التي تدعو إلى العفو والتسامح، وإلى الأمن والاستقرار.

ولقد صفّى الإسلام نفوس المسلمين منها تماما، حتى في حروبهم مع أعدائهم،

(٢) تفسير الطبري.

وجـه الإسـلام إلى العـدل والصـبـر والتسامح، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسـول الله ﷺ وقف على حمـزة ـ رضي الله عنه ـ حين استشهد، وقد مُثِّل به، فـقـال: «لأمثلن بسبعين منهم مكانك»[3]، فنزل جبريل والنبي ﷺ واقفٌ بخواتيم سورة النحل:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾

(النحل: ١٢٦ - ١٢٨)

فكَفَّ رسـول الله ﷺ وأمسك عما أراد».. رواه الحاكم والبيهقي في الدلائل والبزار.

إنني أدعو الذين تحدثهم أنفسهم الأمّارة بالسوء إلى البعد عن ظاهرة الثأر، أدعوهم إلى أن يتوبوا إلي الله ـ تعالى ـ حتى لا يموتوا على شُعبة من شُعب النفاق وضعف الإيمان؛ لأن «ظاهرة الثأر» تُخرج صاحبها من حظيرة الإيمان، وتلعب برأسه وساوس الشيطان وهواجس النفس الأمّارة بالسوء، وأدعو الذين يتورطون في هذه الظاهرة فيما دون القتل أن يحافظوا على أنفسهم، فهذه الظاهرة قد تبدأ بما دون القتل من نحو اختلاف في الرأي، أو غضب من بعض الناس أو كراهية أو تنافس في أمور الدنيا إلى آخر تلك الأسباب التي تجعل بعض النفوس القاسية تُضمر الشر ولا تنسى ما لم يعجبها من الغير، فتلجأ إلى بعض وسائل الانتقام للنفس ولا تعفوا عن الغير.. وهذه صورة مصغرة لـ«ظاهرة الثأر» البغيضة في مهدها.. ولننظر إلى رسولنا ﷺ وهو القدوة الحسنة، ما انتقم لنفسه قط، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط إلا أن تُنتهك حُرمة الله، فينتقم لله ـ تعالى ـ» رواه البخاري ومسلم.

كما أدعو الدعاة والمفكرين والكُتّاب والمسئولين وجميع أهل العلم والخير والإصلاح أن يقوموا بدورهم في تصفية جيوب هذه الظاهرة، وأن تنهض الأسرة بواجبها ورسالتها، وبدل أن تُورِّث أبناءها «ظاهرة الثأر» التي فيها مقت الله وغضبه، تُورِّث الأبناء مكارم الأخلاق وكظم الغيظ، والعفو والتعاون على البر والتقوى، وعلى جميع قطاعات المجتمع تنقية المجتمع من شوائب الشر والرذائل، فإن وقاية المجتمع من الظواهر السلبية من أهم أسباب الأمن والاستقرار، وعلى الإعلام بكل وسائله أن يؤدي أشرف دور إيجابي في الدعوة إلى الله وإلي الحق، والله الهادي إلى سواء السبيل.

(٣) المعجم الكبير ٢٩٣٧.

قصة العدد

عن أبي بكر الشبلي

للدكتور / أبي حسام

قام أبو الفرج بن الجوزي بعد صلاة العصر متكئا علي عصاه، سائراً نحو كرسي الوعظ، وأراد أن يُعبر عن ضعفه الجسمي فأنشد قول أبي العتاهية:

ألا ليت الشباب يعود يوماً
فأخبره بما صنع المشيبُ

ثم قال: لم يصدق أبو العتاهية إلا في بكائه علي الشباب، أما ما ادعاه من الزهد فهو كذب لا معنى له غير اصطياد الأموال من ممدوحه، إن الزاهد الحقيقي هو أبو بكر الشبلي تاج العارفين! لقد كان عارفاً بربه، وكان زاهداً، وكان شاعراً من طراز رفيع.

فتطلّع إليه المستمعون، وقال أحدهم: لا نعرف الكثير عن تاج العارفين أبي بكر الشبلي، ومن أجدر من الإمام ابن الجوزي بالحديث عن زاهد كبير؟ وشاعر قدير؟

فأطرق أبو الفرج إطراقة من يفكر بجد، ثم قال: ليس الزهد يا أبنائي كلمةً تقال في خطبة، أو أبياتاً تُنظم في قصيدة، إن الزهد عملٌ يصدر عن نفس راضية قنوع! والزاهد الحقيقي لا يقول إني زاهد، ولا يشعر أحداً بسلوكه الروحي، إنما يلمسه الناس في تصرفه الشخصي، وسلوكه العملي، وهذا ما لمسه الناس عن الشبلي!

قال نفر من المستمعين في صوت واحد: وما الدليل على زهد الشبلي حتى نقتدي به؟

فقال ابن الجوزي: أما الدليلُ فواضح للعيان لا يمترى فيه أحدٌ ممن صاحَبه في حياته، أو كتب عنه بعد مماته، أما اقتداؤكم به فما أظنه مما يتحقق!.

لقد كانَ والد أبي بكر من كبار رجال السياسة في قصر الخلافة على عهد المعتمد وكانَ ابنه أبو بكر يحذو حذوه، حتى ولِي أموره السياسية في حياته، وصار أميراً كبيراً على إقليم من أقاليم خراسان، له الأمر والنهي وملك المال والضياع والقصور، وزادت مكانته رسوخاً في قصر الخلافة بعد

وفاة أبيه، وفي هذا المجد الباهر، والثراء الوافر، والجاه المنيع، قرر اعتزال الإمارة وتنازل عن جميع ممتلكاته، ووزع الأرض والمنازل والأموال على فقراء المدينة، ونزع الثياب الحلاة بالذهب وأسلاك الفضة، وارتدى جبة صوفية هي ملبس الزهاد من الفقراء في عصره، ثم توجه إلى بغداد لا ليدخل قصر الخلافة كما كان من قبل، بل ليسأل عن المسجد الذي يقيم فيه الصوفي الزاهد خير النسّاج شيخ أصحاب الطريق في المدينة، وجلس بين يديه يتوسّل ويتضرع!

عجب القوم مما سمعوه، وقال قائلهم كالمستفهم: لابد لذلك من سبب قاهر دعاه إلى الهجرة الروحية من زينة الحياة؟ فهل لدى أستاذنا ما يكشف عنه النقاب؟

قال أبو الفرج: فكرت في أمره ما فكرت، ودرست أحوال عصره، كما درست حقيقة نفسه، كما لاحت لي من أقواله وأفعاله فاهتديت إلى ما يكون قد صرفه عن النعيم إلى التقشف والحرمان!

لقد عاش أبو بكر في فتن سياسية لا ترحم، فالخليفة أمير المؤمنين قد يكون في يوم سيد الأمة وصاحب الحظوة ثم لا يأتي المساء حتى يُخلع ويُطرد، ويساق إلى السجن فيلقى أشد صنوف العذاب حتى يلفظ روحه وقد ينكل به دون انتظار فيلقى حتفه السريع، وتُرمى جثته في العراء فلا تجد من يحملها إلى قبره خيفة خصومه المنتصرين.. وأمر الوزراء والأمراء والولاة أقسى وأشد من أمر الخليفة ففي يوم وليلة يعزلون ويسجنون وتصادر أموالهم وبيوتهم وضيعاتهم، ثم ينكل بهم وبمن يجمعهم به نسب أو مصاهرة! وقد يلاقون الموت فوراً دون انتظار، وينقلب الناس عليهم، لأن الدنيا قد ولّت، فلا نفع يرتجى لديهم، بل قد يصير صديق الأمس عدو اليوم يختلق الاتهامات ويشيع الأراجيف! كل هذا يحدث بمرأى أبي بكر، بل إنه قد يؤمر باغتيال خليفة بعد سقوطه وعزله كما أمر بعض الولاة باغتيال المستعين فلم يستطع الاعتراض، فكيف يكون الأمر معه إذا جاءه طلب الخلافة باغتيال خليفة معزول، وجيء به بدعوى أنه سيسجن في بلد ناء وقد دبر له الاغتيال! لقد فزع أبو بكر من هذه الأهوال وآثر الاعتزال.

هذا بعض ما يقال عن هذا العصر الكئيب الفاجر! أما ما يقال عن نفسية أبي بكر فقد رزق شعوراً رقيقاً، ونفساً مؤمنة تثور على الظلم، وتعده من أقسى الجرائم.

وهو شاعر أديب، يحمل عاطفة نبيلة، فأخذت نفسه تنازعه وتثور عليه، لأنه يضع نفسه موضعاً لا تحمد عقباه! وغيره ممن لا يحملون مثل عاطفته النبيلة، لا يهمهم أن يسيروا في ركب الضلال، بل يسارعون إلى تنفيذ إرادة الحاكم الأعلى مغتبطين، ومتعلقين بأنهم أدوات تنفيذ فحسب، أما أبو بكر فقد صمم وعزم، ورأى أن ينجو من خزي الدنيا، ومن عذاب الآخرة، فتنازل عن كل ما يملك ولبس الخرقة، واتجه إلى الله!

هذا هو الزاهد الحقيقي الذي رفض الجاه والمال والسلطان، أما الشاعر الذي يمدح الزهد، ويحرص على التسوّل ملحفاً في تناول ما بأيدي الناس، فكيف يوازي بمثل أبي بكر إن كان له أمثال!

سكت أبو الفرج لحظة يستجمع أفكاره، ثم قال: لقد كان من مشيئة الله أن يتوجه أبو بكر إلى مجلس خير النساج، فيجده في حلقته ومؤيدون من حوله يستمعون إلى وعظه الخاشع صامتين لا يفوتهم شيء مما يقول، وأنصت مهتماً إلى قوله:

«يا قوم لا نسب أشرف من نسب آدم - عليه السلام - لأن الله - تعالى - خلقه بيده، ولا علم أشرف من علم آدم - عليه السلام - لأن الله - تعالى - هو الذي علّمه الأسماء كلها. فلم يمنعه النسب والعلم من مخالفة أمر ربه حين أكل من الشجرة، فاحذروا ما تأتون من المخالفات. ثم ها هو ذا إبليس، عبدالله أتم عبادته في السموات، وصار موضع الإجلال من الملائكة. ثم استمع إلى باطل وهمه فعصا الله، وطرد من رحمة الرحمن».

يا قوم لقد استراح من أسقط من قلبه محبة الدنيا، ومن رزق ثلاثة أشياء مع ثلاثة أشياء، فقد نجا من الآفات. بطن خال مع قلب قانع، وفقر دائم مع زهد حاضر، وصبر شاف مع ذكر دائم.

وإن هذه المعاني قد تطرق سمع اللاهي الغافل فلا تترك أثرها المرجو، أما الشبلي فقد أصغى بكل جوارحه، فهزته هذه المعاني هزة الشجر المترنح في مهب الرياح، وأخذ يعيدها في خلوته فانفسحت عن أفكار ممتدة، كانت باعثة التصميم الأكيد على زهده وتصوفه وقد رويت عنه غرائب تدل على قوة الإحساس بل تدل على ما لا يمكن أن يخطر على أنفس الكثيرين ممن يشاهدون ما شاهد، ولم يصلوا الي ما وصل! وهي نوادر سجلتها كتب الصديقين!! فارتفعت الأصوات طالبة سماع هذه النوادر، أو المختار منها، فقد يكون فيها موضع الاعتبار، ومكمن الأسوة.

وكان أبو الفرج يعرف أنهم سيطلبون ما أشار إليه، فأراد أن يوقظ الغافل بتمهيده السالف، فلما اتجهت العيون إليه طفق يقول:

«مر أبو بكر الشبلي ذات يوم بشارع اللحامين ببغداد، ومعه صديق يؤثره بالتجوال، فرأى لحاما، يضع خروفاً مذبوحاً في النار، وقد بلغ النضج المهيئ للطعام، فوقف ينظر إلى الحيوان المذبوح، ولا تتحرك قدمه إلى الأمام أو الوراء، فظن صاحبه أن اللحم المشوي قد أعجب أبا بكر، وأنه يريد بعضه، فقال له: يا سيدي معي ثمن اللحم، وسأشتري بعضه لنأكله معاً!

فنظر إليه الشبلي، وقال في هدوء: يا أخي لست أفكر في الطعام، ولكنني قلت في نفسي، هذا حيوان يتعذب بالنار بعد أن مات، فلا يحس شيئاً، ونحن سندخل النار أحياء، ونتعذب فيها أحياء! فماذا يكون إحساسنا في هذا اللهيب!

قال أبو الفرج: هذا الشعور الذي تلبس أبا بكر عند رؤيته الحيوان، لن يطرق إحساس

إنسان آخر غيره، وهو أكبر دال على شدة مراقبته لربه الآمر، ولنفسه المأمورة، فمن يصل إلى هذا الإحساس؟

وعندى ثانية وثالثة:

أما الثانية: فإنه كان فى المسجد الجامع يستمع إلى قارئ يتلو سورة الجن، وقد خشعت الأصوات للذكر الحكيم، فلما انتهى القارئ من تلاوة الآيات الكريمة:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾

(الجن: ٢٠ - ٢٢)

فوجئ الحاضرون بصرخة عالية يرسلها أبو بكر، ثم نهض واقفاً يقول: يا عباد الله إن محمداً ﷺ الذى نشر الإسلام، وأدى الأمانة، وكان سيد الخلق وأكرمهم لدى الله يقول:

﴿ لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾

(الجن: ٢٢)

فماذا نصنع نحن يوم القيامة، وكلنا خطاءون!

وأما الثالثة، فقد غلب على أبى بكر إحساسه الناقم على ظلم الحكام، وعسف الأمراء، والولاة فى مصادرة الأموال، وقتل الأبرياء، وتعذيب المسجونين، فنطق بقولة الحق فى تجريم ما يأثمون، وتقبيح ما يفعلون، وذهب رواة السوء إلى رجل الشرطة فأعلنوه بما قال، وزادوا عليه بما يأفكون، فبادر باستدعائه مخفوراً، وهنا تصنع أبو بكر الجنون، وأبدى حركات المجانين وأقوالهم، فأمر بإيداعه فى المارستان، إذ هو المكان الطبيعى لمثله، ومضت عليه أيام وأسابيع بين المجانين من فاقدى العقول، واشتاق إليه نفر من أصحابه، فذهبوا لزيارته بالسجن فى يومه المحدد فى الأسبوع، وقالوا له: يا أبا بكر إنا نحبك، ونأسى على فراقك فجاء بحفنة من تراب ورماها على ثيابهم، ففروا مبتعدين، ونظروا إلى أبى بكر فوجدوه يضحك فى سخرية، واستمعوا إليه يقول: يا كذابون، لو صدقت محبتكم ما هربتهم، أتفرون من حفنة تراب، ثم تقولون نحن نحبك يا أبا بكر؟!

هذه بعض طرائف أبى بكر، فهل تفهمون؟

وبان على أبى فرج أنه لا يريد أن يسترسل، وأنه سيقطع الحديث، فقال له أحد مريديه، سيدى، نريد أن نسمع بعض أشعاره، كما سمعنا بعض نوادره، لقد قلت إنه كان شاعراً فشوقتنا إلى شعره.

ابتسم ابن الجوزى، وبدا على وجهه أنه سعيد بما وجهه إليه من سؤال، فقال: «تنتظرون من أبى بكر أن يكون مثل شعراء المديح كالبحترى، وأبى تمام، وابن الرومى؟ لقد نأى بشعره عن مجاملة الرؤساء، واتجه إلى خواطره النفسية يصوغها فى بيتين أو ثلاثة أبيات أو أربعة، وقلما يزيد، وكان يقول الشعر ولا يحرص على تدوينه ولولا أن عشاق أدبه قد جمعوا الطرائف منه ما روت الكتب عنه شيئاً، بل كان يقول المقطوعة ثم يسأل عنها، فيقول: إنها ذهبت لساعتها دون أن تعيها الذاكرة، وقد يوجد فى شعره ما يظن بعض المتسرعين أنه متناقض، ولكن ذلك لم يكن فى وقت واحد حتى نرميه بالتناقض، فقد يكون سعيداً بحاله مع نفسه فينطق بما يدل على الإعجاب، وقد يكون فى وقت آخر شقيا بلواعجه وأشواقه فينطق بما يدل على الأسى والحزن، وهو هو لم يكذب فى الحالين بل كان متناغماً مع نفسه، ينطق عنها بما تُكن دون مواربة أو استخفاء!

لقد صفت نفسه فى إحدى لحظات الوجد، فتخيل أنه بحبه لربه قد أحرز أعلى المقامات، وبلغ أرقى الدرجات، فقال سعيداً:

أبا مجنون عامر بهواه
وكتمت الهوى ففزت بوجدى
فإذا كان فى القيامة نودى
أين أهل الهوى تقدمت وحدى!

وكدرت نفسه فى وقت آخر لما قاسى من لهب الوجد، وما شعر به من الوحشة الداجية والفراغ الكئيب فقال:

ترى المحبين صرعى فى ديارهم
كفتية الكهف لا يدرون ما لبثوا
والله لو حلف العشاق أنهمو
صرعى من الشوق يوم البين ما حنثوا

والذى يفتخر بأنه سيحمل لواء أهل الهوى يوم القيامة وسيتقدمهم وحده لأنه كتم حبه عن الناس، ولم يعرفه غير قيوم الأرض والسماوات، هذا المفتخر المباهى يكون فى موقف آخر كئيب النفس، موزع الخاطر، يعتقد أنه هان على أحبابه فنبذوه، ولهم الحق فى نبذه فقد انحدر إلى مستوى غير لائق بعزتهم، فهو يأنف من نفسه أن ترتفع إلى درجتهم الرفيعة قبل أن يأنفوا هم من نفسه! تلك خواطر حزينة صاغها الشاعر حين قال:

يقولون زرنا واقض واجب حقنا
وقد أسقطت حالى حقوقهم عنى
إذا أبصروا حالى ولم يأنفوا لها
ولم يأنفوا منها أنفت لهم منى

على أن له الأبيات السائرة مثل قوله:

لا تقل دارها بشرقى نجد
كل نجد للعامرية دار

وقوله:

إذا عاتبته أو عاتبوه
شكا صنعى وعدد سيئاتى
أيا من دهره غضب وسخط
أما أحسنت يوماً فى حياتى

وهى معان تحتاج إلى وقفات ومثلها كثير!

ونهض أبو الفرج متجهاً إلى محرابه، فأخذ المستمعون يراجع بعضهم بعضاً، وفيهم من استطاع أن يدون الشعر الجميل الذى رواه الأستاذ، فهبوا يتناقلونه فى صحفهم، ومنهم من بادر بحفظه، وكلهم مجمعون على أنه طراز نادر من الأدب الرفيع، ومنهم من تعهد أن يطالع كتب التراجم الصوفية فقد يظفر بمثل هذا التراث الأصيل.

قصيدة العدد

الغبطة فكرة

للشاعر المهجرى إيليا أبى ماضى

أقبل العيد، ولكن ليس فى الناس المسرة
لا أرى إلا وجوها كالحات مكفهرة
كالركايا لم تدع فيها يد الماتح قطرة
أو كمثل الروض لم تترك به النكباء زهرة
وعيونا دنقت فيها الأمانى المستحرة
فهى حيرى ذاهلات فى الذى تهوى وتكره
وخدودا باهتات قد كساها الهم صفرة
وشفاها تحذر الضحك كأن الضحك جمرة
ليس للقوم حديث غير شكوى مستمرة
قد تساوى عندهم لليأس نفع ومضرة
لا تسل ماذا عراهم كلهم يجهل أمره
حائر كالطائر الخائف قد ضيع وكره
فوقه البازى، والأشراك فى نجد وحفرة

فهو إن حط إلى الغبراء شك السهم صدره
وإذا ما طار لاقى قشعم الجو وصقره
كلهم يبكى على الأمس ويخشى شر بكره
فهم مثل عجوز فقدت فى البحر إبره
أيها الشاكى الليالى إنما الغبطة فكره
ربما استوطنت الكوخ وما فى الكوخ كسره
وخلت منها القصور العاليات المشمخره
تلمس الغصن المعرى فإذا فى الغصن نضره
وإذا رفت على القفر استوى ماء وخضره
وإذا مست حصاة صقلتها فهى دره
لك، ما دامت لك، الأرض وما فوق المجره
فإذا ضيعتها فالكون لا يعدل ذره
أيها الباكى رويدا لا يسد الدمع ثغره
أيها العابس لن تعطى على التقطيب أجره
لا تكن مرا ولا تجعل حياة الغير مره
إن من يبكى له حول على الضحك وقدره
فتهلل وترنم، فالفتى العابس صخره
سكن الدهر وحانت غفلة منه وغره
إنه العيد ... وإن العيد مثل العرس مره

حاجة البشرية إلى الإسلام

للدكتور / حمدى فتوح والى

ما أحوج البشرية اليوم إلى وقفة تصحيح تكتشف بها ذاتها، وتعرف رسالتها وتدرك غايتها، لكى تحسن السير بالأرض نحو هدف رشيد، يستحق العيش من أجله، والموت فى سبيله، والسعى الدءوب لتحقيقه والوصول إليه.

وبرغم الحاجة الشديدة إلى هذه الوقفة، فإننى أرى انشغال البشر عنها والاندفاع الأحمق لإرضاء الشهوات والنزوات، والانهزام المهين أمام سلطان الجسد وحضارة المخلب والناب، وأصبحت مصائر الأمم والشعوب فى كثير من الأحيان رهينة برضا دولة بعينها، أو مجموعة دول تعد على أصابع اليد الواحدة، لهم وحدهم حق الاعتراض على أى قرارات تصدرها منظمة الأمم حتى ولو كانت هى «العدالة» التى لا يختلف عليها اثنان لا لشىء إلا لأن هذه الدولة أو تلك تملك القوة القاهرة التى تستطيع بها أن ترهب الناس وتكتم الأنفاس.

ولك أن تتصور مدى الشقاء الذى يعانيه العالم عندما يقع تحت سلطان الرجل الغربى الذى خص نفسه بهذا الحق، والذى لا يعرف الحياة إلا قوة وبطشا.

إن حضارة الرجل الأبيض قد استنفدت أغراضها، ولم يعد لديها ما تعطيه للبشرية من مبادئ وأفكار تسمح للحياة بنمو جديد، وتطور جديد؛ وكل حضارة إنما تعيش بمقدار ما تملك أن تعطيه للبشرية من رصيد فى قيم إدراك الحياة، وبمقدار ما يسمح هذا الرصيد للحياة بالامتداد والنمو والترقى..

وأمام هذا السعار المجنون، والتنافس المحموم نحو سباق التسلح وامتلاك أسباب القوة والقهر، كان لابد أن تضيع قيم الإيثار والسماحة والتضحية والتعب من أجل الآخرين؛ تلك القيم التى لم تعرفها البشرية فى تاريخها كله إلا للفاتح المسلم الذى تعب ليريح البشرية، وشقى ليسعد الآخرين.

الآفة الكبرى

وتكمن الآفة الكبرى فى طبيعة فهم الحياة لدى الرجل الغربى، وفى كيفية التعامل مع الآخر.. وقبل البحث عن كيفية التعامل الذى هو ثمرة من ثمرات العقيدة والثقافة؛ كان لابد أن نعرف كيف يفكر هذا الصنف من الناس؟!

وكيف ينظرون إلى الآخر الذى يساكنهم هذا الكون، ويشاركهم العيش فيه، ولنبدأ بشهادة علم من أعلامهم، ورمز من رموز ثقافتهم وهو الفيلسوف: «ج.هـ. دينسون» فقد كتب فى كتابه: «العواطف كأساس للحضارة» يصف القوة التى سبقت بعثة رسول الله ﷺ يقول:

«فى القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جُرف هار من الفوضى، لأن العقائد التى كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت، ولم يكُ ثَمَّ ما يُعتد به مما يقوم مقامها، وكان يبدو أن المدنية الكبرى التى تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة، مشرفة على التفكك والانحلال، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية؛ إذ القبائل تتناحر وتتناحر، لا قانون ولا نظام.. أما النظم التى خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلاً من الاتحاد والنظام، وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله، واقفة تترنح وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب.. وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحّد العالم جميعه».

الانفلات من العقيدة

وها هى البشرية اليوم تعيش حالة من القلق والاضطراب وغياب الأمن، واشتعال الحروب، نتيجة اختلال المعايير وفساد التصور، وموت الضمير، إذ لم يعد هناك يقين فى شىء حتى يجد الضمير البشرى فى ظله الهدوء والراحة والاستقرار، أو يطمئن إلى عقيدة أو مبدأ أو وضع أو نظام؛ فلقد نفضت أوروبا وأمريكا عنها كل مقدساتها وعقائدها منذ بدايات القرن السادس عشر، واتخذت لنفسها إلهاً جديداً هو «العلم»، وقد بلغ هذا الإله الجديد ذروة قداسته خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، قبل أن يفقد قداسته ويهتز عرشه قبل أن ينتصف القرن العشرون، بعد أن بدا واضحاً أن مقرراته كلها قابلة للنقض، وأنه هو الذى ينقضها بيديه يوماً بعد يوم، بل لقد بدا هذا الإله ذاته ضائعاً بين تصوراته وأدواته ومقاييسه بعد أن أصبح هو يحطم سائر المقاييس التى ظنها الناس غير قابلة للتعديل والتبديل.

ولما كانت أوروبا وأمريكا قد انفلتت من قيود العقيدة الدينية، وأعلنت الثورة الفرنسية شعارها المعروف «اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس».

ورأت أن إلهها الجديد صار وهماً لا يثبت على حال، فبينما يقول هذا الإله «العلم» إن كل ما عدا المادة وهم لا يستحق البحث عنه ولا النظر فيه، إذ هو ينتهى -بعد تحطيم الذرة على يديه- إلى أن المادة كما تصورها شىء لا وجود له، فأصبح العلم هو أول من يكذب نفسه، ويكفر بذاته.

وكان لابد أن تبحث أوروبا وأمريكا عن حل لأزمتها، وأن تجد لها إلهاً تتجه إليه وتتعبد له

وتعتمد عليه، فكان لها ما أرادت واتخذت لها آلهة ثلاثة هى: الإنتاج.. والمال.. واللذة. ورأى الرجل الأبيض على الضفة الأخرى فى روسيا بعد أن كفر بالله الواحد الأحد أن يتخذ له آلهة ثلاثة أخرى هى: الاقتصاد والمادة وكارل ماركس. ولقد رأت الدنيا كلها كيف ضاقت النفس البشرية بهذا العبء الثقيل وكيف تمردت على هذا القيد الغليظ، واستطاعت الفطرة أمام ثورة الإحساس بالخواء الروحى، والظمأ الإيمانى، أن تنفض عنها هذا الثقل الرعيب، وهو الكابوس الرهيب، وأن يسقط الاتحاد السوفيتى رسمياً فى بداية العقد الأخير من القرن الماضى أمام صورة الفطرة التى لم تطق الصبر على هذا السجن الرهيب.

برهان على عظمة الإسلام!!

أما أوروبا وأمريكا فقد انقلبت عليها آلهتها، وأصبحت اليوم وقد ألبسها الله ثياب الجوع والخوف، فإذا المصانع قد توقفت، والبنوك قد أفلست، والأسعار قد ارتفعت حتى اضطرت دول كاملة إلى طلب العون ليجد أهلها ما يأكلون كما رأينا فى اليونان وغيرها. وإذا كان هذا ما ظهر للناس مما تناقلته وسائل الإعلام، وما أعلنت عنه البطون الجائعة، والأجساد العارية، والأجواف الفارغة فى مظاهرات عارمة وهياج عصبى أوشك أن يحرق الأخضر واليابس لتعلن للدنيا إن كانت تعى أو تعقل أن للفطرة السليمة منطقاً ينبغى أن يحترم وسلطاناً ينبغى أن يهاب. وهذه الحال التى وصلت إليها حضارة المادة بشقيها الشيوعى والرأسمالى، وأصبحت تقدم للبشرية أعظم برهان على عظمة الإسلام، وما كان المسلمون ليستطيعوا إقناع العالم بعظمة الإسلام، بعد أن أوصلهم الكيد الأوروبى الحديث على يد جحافل الجيوش الجرارة، وأساليب الغزو الفكرى المدعومة بأجنحة المكر الثلاثة: الاستعمار، والاستشراق، والتبشير. ما كان باستطاعته وقد تآمر عليه جنود الشيطان أن يظهر للبشرية عظمة مايحمله من وحى إلهى، جاء لإنقاذ الفطرة البشرية من شهوات النفس، ومكائد الشيطان وضلالات الأهواء، وبعد أن كان الإسلام يطمح إلى الإنقاذ، أصبح غاية أمله ألا تجرفه موجة الإلحاد الشيوعى، وطغيان السعار الرأسمالى، وصارت أعظم طموحاته أن يحتفظ بما تبقى لديه من رصيد الفطرة ورصيد التجربة، وأصالة الحس الدينى الذى تجذر فى أعماق الناس عقيدة وممارسة وهوية، وتحول إلى منظومة تعامل يومى نتيجة سيطرته على الحياة على مدى ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان.

البركان المدمر!!

وإذا كانت حضارة المادة قد بلغت فى مجتمعات الغرب الأوروبى بشقيه الشيوعى والرأسمالى حداً من القوة المادية جعلهم يتنافسون فى قدرتهم على إفناء البشرية وتدمير الأرض بضعة مرات، فإن ذلك وحده لم يكن كافياً لإسعادهم، بل إن هذا التنافس المحموم فى هذا المضمار، كان هو البركان الذى أشعلوا ناره لينفجر عاصفاً ومدمراً لكل من غذوه وأشعلوه.

إن إفلاس حضارة المادة، وإخفاق الإله الوهمى المسمى بالعلم، وانقلابه على نفسه وعلى كهنته وسدنته، أصبح يمثل اليوم أعظم برهان على عظمة الإسلام الذى ادخره الله ـ سبحانه وتعالى ـ إنقاذاً للبشرية كلها عندما تصل بها تجاربها الشيطانية إلى هذه الحال من الإفلاس والإخفاق والدمار. وليضيف إلى أحقية الأمة الإسلامية بوراثة المهمة دليلاً جديداً يضاف إلى ثوابت القرآن، وثوابت السُّنة، وشهادة العلماء والحكماء من المسلمين ومن أهل الغرب أنفسهم، الذين أدركوا أن الغرب بشقيه متجه إلى هذا الموت المحقق وإلى هذا المصير الرهيب.

يقول الفيلسوف الإنجليزى «جود»[1] فى كتابه: «Guide To Modern Wickedness»

«إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلهة، ولكننا نستعملها بعقل الأطفال والوحوش».

ويقول: «انظر إلى الطائرة التى تحلق فى السماء يخيل إليك أن صانعيها كانوا فى علمهم ولباقتهم وصناعتهم فوق البشر، والذين طاروا عليها أولاً لا شك أنهم كانوا فى علو همتهم وعزمهم، وجرأتهم أبطالاً مغاوير، ولكن انظر الآن إلى المقاصد التى استعملت لها الطيارة، وتستعمل فى المستقبل، إنما هى قذف القنابل، وتمزيق جثث الإنسان، وخنق الأحياء وإحراق الأجساد، وإلقاء الغازات السامة، وتقطيع المستضعفين الذين لا عاصم لهم من هذا الشر إرباً إرباً، وهذه إما مقاصد الحمقى أو الشياطين»[2].

ويقول اليكس كارليل فى كتابه: (الإنسان ذلك المجهول): «يظهر أن الحضارة العصرية لا تستطيع أن تنتج رجالاً يملكون الابتكار والذكاء والجرأة، وفى كل قطر تقريباً يرى الإنسان فى الطبقة التى تباشر إدارة الأمور، وتملك زمام البلاد انحطاطاً فى الاستعداد الفكرى والخلقى»

تلك كانت شهادة حكمائهم، وهى غيض من فيض.

أين نحن؟!

أما هذه الحضارة وتلك الممارسات فى نظر الإسلام، فيكفى أن ننظر إليها وإلى ما آلت إليه من إخفاق وإفلاس، ثم نقرأ قول الخالق الحكيم سبحانه:

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾

(الكهف: ١٠٣ - ١٠٦)

ثم نعود إلى أنفسنا فننظر: أين نحن من أداء واجب التقدم إلى البشرية بالإنقاذ كما فعل آباؤنا من قبل؟ وهل نحن حقاً جاهزون لأداء هذا الدور؟ أم نحن أشد احتياجاً إلى من يمد إلينا حبل الله لنمسك به فننجوا، مستجيبين لقول ربنا سبحانه

﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾

(الزخرف: ٤٣، ٤٤)

(١) أستاذ ورئيس قسم الفلسفة وعلم النفس بجامعة لندن «سابقاً».
(٢) GUIDE TO MODERN WICKEDNESS P, 262

بين الصحف و المجلات

إعداد

أ/ محمد جمعة

أ/ علا عبدالرحمن

استمرار الاستيطان الإسرائيلي ومأزق المفاوضات

تحت هذا العنوان كتب صائب عريقات كبير المفاوضين الفلسطينيين مقالا نشرته مجلة الأهرام العربي الصادرة في ٦/١١/٢٠١٠م عن صحيفة واشنطن بوست جاء فيه:

لعله لم يعد من المستغرب اليوم وبعد الدرس الذي تعلمه الفلسطينيون من تجربتهم التفاوضية الطويلة مع إسرائيل التي قاربت على عقدين من المفاوضات الثنائية وصول المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية إلى طريق مسدود. لقد توصل الفلسطينيون بالفعل بعد هذه التجربة التفاوضية الطويلة إلى أن المحادثات المباشرة لا تكفي بحد ذاتها لضمان التوصل إلى السلام، بل يتطلب الأمر التزاما دوليا قائما على مبادئ ثابتة لا تتزحزح.

يحدد القانون الدولي المعايير الواجبة للتوصل إلى سلام عادل وهو يكفل معاملة الفلسطينيين والإسرائيليين على قدم المساواة. كما يرسم هذا القانون المسار الذي يقود إلى إبرام مصالحة دائمة تقوم في أصولها وجذورها على ثقافة الحقوق والاحترام المتبادل.

ناهيك عن العنف المؤسس الذي يواجهه الفلسطينيون تحت نير الاحتلال يأتي إصرار إسرائيل على مواصلة بناء المستوطنات الإسرائيلية من بين أخطر الانتهاكات التي تمس حقوق المواطنين الفلسطينيين في الأراضي الفلسطينية المحتلة وتستهدف المستوطنات الإسرائيلية والمبنية على الأراضي الفلسطينية المحتلة الاستيلاء على أراضي الفلسطينيين ومياههم دون وجه حق حيث يعتبر الاستيطان من صميم نظام الفصل العنصري الذي تنفذه إسرائيل فهي تقوم بعمل شبكة الطرق الالتفافية المخصصة لهذه المستوطنات والأسيجة الشائكة والجدران الأسمنتية المحيطة بها، ونظام التصاريح المرتبطة بها، والحواجز العسكرية التي تقيمها القوات الإسرائيلية في المناطق القريبة منها على ترسيخ التمييز الممنهج ضد المواطنين الفلسطينيين.

تعقد المستوطنات الإسرائيلية إمكانية إقامة الدولة الفلسطينية القابلة للحياة وتجعلها أمرا مستحيلا فالمستوطنات تبتلع المساحات الضئيلة التي تبقت من الأراضي الفلسطينية كما أنها تشكل أعظم تهديد لحل الدولتين وحقيقة أنه دون تجميد النشاطات الاستيطانية بصورة فورية وشاملة، فلن يبقى للفلسطينيين دولة يفاوضون على إقامتها ولن يظل حل الدولتين قائما كي نتحدث بشأنه.

الإسلام.. ذلك المجهول في الغرب

تحت هذا العنوان كتب د/ جعفر عبدالسلام مقالاً في جريدة اللواء الإسلامي الصادرة في ١١/١١/٢٠١٠م يقول:

كتاب «الإسلام.. ذلك المجهول في الغرب» هو مواجهة تقدمها الكاتبة الإيطالية المعروفة «ريتا دي ميليو» وهي من المفكرين الغربيين المحايدين الذين يواجهون ما ينشر من مفاهيم مغلوطة عن الإسلام في الغرب.

هذا الكتاب جدير بالاهتمام، لأنه ينطوي على شهادة محايدة للإسلام ومحاسنه تقدمها مؤلفته التي درست بالمعهد الشرقي في نابولي بإيطاليا ونالت منه شهادتها الجامعية في علوم الشرق الأوسط وحصلت على الدكتوراة في تاريخ الشرق الأوسط والأدنى، ثم عينت أستاذا بنفس المعهد، وإلى جانب ذلك عملت خبيرة بوزارة الخارجية الإيطالية، مما أتاح لها الإطلاع على التراث الإسلامي والتأمل في مبادئ الدين الحنيف وتحليلها.

وقد قامت الكاتبة في مسيرتها البحثية بمخالطة المسلمين عن قرب في أوروبا وكذا في البلدان العربية مثل المملكة العربية السعودية ومصر وليبيا، حيث قضت بهذه الدول سنوات كثيرة من حياتها، وهي تعيش حاليا في «إريتريا» حيث تقوم ببحوث تاريخية وأعمال خيرية.. وكانت صداقاتها الراسخة مع المسلمين في الشرق والغرب مفتاحا لمعرفتهم عن قرب. وقد اقتربت من الإسلام من خلالهم، وكذا من خلال ما يسر الله لها من الإطلاع والبحث، فنشرت باللغة الإيطالية العديد من الأبحاث والكتب القيمة عن الإسلام من أهمها: العرب ملاحون وتجار نشروا الدين الإسلامي، والتجارة العربية مع إندونيسيا وشبة جزيرة مالايو، والتجارة العربية مع الهند منذ الجاهلية وحتى القرن الخامس عشر، والتعاون الإيطالي في التنمية الاجتماعية والاقتصادية بالمملكة العربية السعودية، والمرأة في السعودية، والإسلام صان كرامة المرأة ورفع مقامها، والمخطوطات المسيحية العربية بالمكتبة الوطنية بنابولي.

وقد قامت الكاتبة بتقديم رؤيتها للإسلام عارضة معرفتها بأخلاق الرسول محمد ﷺ وسيرته العطرة وبالقرآن الكريم والسنة الشريفة وعرضت كذلك لمفهوم الاجتهاد ولجوانب مختلفة من الفقة الإسلامي

ولعقيدة المسلم والتصوف والجهاد وتاريخ الصراع العربى الإسرائيلي وكل ذلك فى أسلوب راق يليق بمكانتها الثقافية العالية.

ومن أجل ذلك كانت الكاتبة فى شخصها وفكرها جديرة بالاحترام والتبجيل، وكان كتابها جديرا بالطباعة والنشر كأنموذج للحوار المهذب بين ثقافتين وحضارتين تضيق مع الزمان فجوة الاختلاف بينهما حول الإسلام باعتباره دينا خاتما أنزله الله «سبحانه وتعالى» حرصا على مصالح البشرية جمعاء.

الغارات الإسرائيلية

تحت هذا العنوان كتب/ عربى أصيل بجريدة المساء الصادرة فى ٢٠١٠/١١/٢٢م يقول:

مع الغارات الإسرائيلية الأخيرة على قطاع غزة والتى زادت حدتها فى عيد الأضحى المبارك وسقط فيها عدد من الشهداء، عاد الحديث ليتجدد عن جدوى الصواريخ التى تطلقها المقاومة الفلسطينية على جنوب الأراضى الفلسطينية المحتلة عام ١٩٤٨، والتى تتخذها إسرائيل مبررا لغاراتها الوحشية على القطاع، وكالعادة يسارع البعض ويلقى باللوم على المقاومة بسبب استخدامها هذه الصواريخ التى يصفونها بالعبثية والتى تعطى إسرائيل الحجة لشن غاراتها.

نحن بالطبع لا ننتظر من هذه الصواريخ أن تساعد الشعب الفلسطيني على تحقيق نصر حاسم، ولا أن تلحق بإسرائيل أية خسائر، لكن فى الوقت نفسه لا تستطيع أن تطلب من المقاومة الفلسطينية أن تقف مكتوفة الأيدى تجاه الجرائم الإسرائيلية، ومن حقها الرد على الاحتلال بأى وسيلة مهما كانت بسيطة.

دعونا من ترديد المنطق الفاسد الذى يقول: إن هذه الصواريخ تطلق على أهداف مدنية، فما نظن أن هؤلاء المستعمرين الذين يأتون من كل أطراف الأرض ليقيموا فى فلسطين على حساب صاحب الأرض يمكن أن يكونوا أهدافاً مدنية، ولو كانوا كذلك فعلا، فإن حكومتهم هى التى تتحمل المسئولية وليس شعبا يدافع عن أرضه.

علينا أن نذكر أن الضفة الغربية التى لا تنطلق منها صواريخ أو عمليات فدائية، يعانى مواطنوها أضعاف ما يعانى أبناء القطاع ويعيشون تحت رحمة الحواجز والاقتحامات والاعتقالات وقطعان المستعمرين التى تنهب أراضيهم فى حراسة قوات الاحتلال.

«ويكى ليكس»..

الموقع الذى فضح أمريكا!!

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ/محمود نافع بجريدة الجمهورية الصادرة فى ٢٠١٠/١١/١١م يقول:

إن هذا الموقع ينشر مئات الألوف من الوثائق السرية التى تكشف الجرائم

الأمريكية والتعذيب وكل ما يخطر على البال فى أفغانستان والعراق.

معنى هذا أن الموقع نزع القناع عن الوجه الحقيقى للولايات المتحدة، وهى التى تدعى بأنها الحامية للحريات والحارسة للعدالة والوكيل الوحيد المعتمد لحقوق الإنسان فى الكون.

عرفنا ذلك بالملاحظة والمراقبة والمتابعة اليومية لما يحدث، لكن موقع «ويكى ليكس» فضح الجرائم وكشف المستور بالوقائع والوثائق الدامغة.. البداية فى شهر أبريل حيث قام الموقع بنشر مقطع للفيديو جعل شهرته تدوى فى الآفاق.

الفيديو عبارة عن حادثة قديمة وقعت عام ٢٠٠٧ فى العراق، ويقوم فيه مجندون أمريكيون بفتح النار من مروحيتهم على مواطن عراقى أعزل متسببين فى مقتل ٩ أشخاص، وكانت تلك واحدة من ضمن ثلاث عمليات أجراها الجيش الأمريكى عن طريق المروحيات لاقتناص أهداف محددة على أرض المعركة.

وبعد مرور أقل من عام منذ إطلاق الموقع للوثيقة الأولى التى جعلت شهرته تدوى، أعلن موقع «ويكى ليكس» أنه يمتلك أكثر من ١.٢ مليون وثيقة تفضح كل المستور وتنزع كل أوراق التوت، وهذه الوثائق موجودة فى قاعدة البيانات الخاصة به وسيكشف عنها تباعا، وبالفعل راح الموقع يكثف من النشر، حتى نشر مئات الألوف منها مؤكدا أن القادم مذهل وفاضح.

هنا أصاب القلق الإدارة الأمريكية،.. فهذا من شأنه أن يفضحها ويفضح أتباعها فى العراق وأفغانستان ويرى الناس سوأة المتاجرين بالحريات وحقوق الإنسان.

الطريف أن المسئولين الأمريكيين وبدلا من أن يندموا على ما فعلوا وعلى ما فعله الأتباع هنا وهناك انصب اهتمامهم على كيفية الوصول إلى طرق حماية أكبر للوثائق الموجودة حتى لا تقع فى أيدى تلك المواقع.. فقد قالت وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون): إنها تعتقد أن موقع ويكى ليكس لديه وثائق سرية لم ينشرها حتى الآن مشيرة الى أنها تدرس حاليا الاستعانة بنظم حماية مثل تلك التى تستعمل فى بطاقات الائتمان لمنع تسرب أى معلومات حساسة مستقبلا.

وأكد مسئول بوزارة الدفاع الأمريكية أن تسريب قرابة ٤٠٠ ألف تقرير ميدانى سرى أمريكى يتعلق بالحرب تسبب فى مأزق للجيش الأمريكى، فنشر الوثائق للعموم يعرض حياة الجنود الأمريكيين للخطر.

والموقع لم يهتم بكل هذا، واستمر فى النشر والفضح، مؤكدا أن نشر الوثائق السرية يساهم فى تسليط الضوء على جوانب كانت خفية فى الحرب على العراق، ومنها حالات التعذيب التى قامت بها القوات العراقية نفسها إضافة إلى اكتشاف ١٥ ألف قتيل عراقى لم تكن تقارير الجيش الأمريكى قد أشارت إليهم..

في الوقت نفسه كشفت الوثائق معلومات عن حالات غير معلنة قتلت فيها القوات الأمريكية مدنيين عند الحواجز أو خلال العمليات العسكرية.

هنا قامت الدنيا ولم تقعد.. أمريكا انفضح أمرها أمام الشعب الأمريكي وأمام كل منظمات حقوق الإنسان بها فتمت المطالبة بالتحقيق الفوري والعاجل فيما نشر، والإفادة الصريحة بأنه واقع أم كذب وافتراء.

ونفس الشيء بالنسبة للمنظمات العالمية.. على سبيل المثال دعت المفوضية العليا لحقوق الإنسان السلطات الأمريكية للتحقيق فيما نشر، وإحالة المسئولين عن عمليات القتل والتعذيب والتصفيات والانتهاكات المختلفة إلى القضاء.

وهكذا أقام موقع «ويكي ليكس» الدنيا على أمريكا ولم يقعدها، لدرجة أن هناك خوفا حقيقيا من الفضيحة إذا أثبتت التحقيقات صحة ما جاء في مئات الألوف من الوثائق السرية الفاضحة.

والبديهي أن تقلق أمريكا وتخاف على معاونيها في العراق وأفغانستان باعتبارهم مشاركين في الكارثة.. ولذلك طالب خبراء استخبارات أمريكيون وزارة الدفاع بضرورة تنبيه العملاء والمتعاونين العراقيين إلى احتمال الكشف عن أسمائهم وهوياتهم الحقيقية في الوثائق السرية التي نشرها الموقع الذي ألغى كلمة سرية من القاموس وجعل كل شيء علنيا.

أما رئيس تحرير الموقع فهو جوليان أسانج أسترالي عمره ٣٩ عاما، ويعمل معه في إدارة الموقع ٥ أشخاص فقط هم من يعملون بدوام كامل لصالح الموقع، بالإضافة إلى ٨٠٠ شخص آخرين يعملون بشكل تطوعي غير منتظم ويقومون بتزويد الموقع بالوثائق والمستندات.

تخيلوا.. شخص واحد ومعه «٥» يفعلون كل هذا.. وعندهم في الجراب المزيد والمزيد.

السودان الموحد.. وألغام الانفصال

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ/صبري عفيفي بجريدة المساء الصادرة في ١١/١١/٢٠١٠م يقول:

وسط التشنجات والتقلبات السياسية التي اجتاحت ساحة الشرق الأوسط في الآونة الأخيرة مع كثرة الرحلات والجولات المكوكية لكبار الساسة والاستخبارات الغربية وما يصاحبها من إشعال الفتن الطائفية والمذهبية وتسويق الفوضى الهدامة وتقسيم المقسم وتجزيء المجزأ وتفتيت المفتت من أجل التمهيد للخروج الآمن من مستنقعات العراق وأفغانستان وتسريب خارطة الطريق ونقل الغطاء النامي إلى دولة السودان الشقيق واستغلال فرصة الاستفتاء بين الشمال والجنوب للتعجيل بتحقيق الانفصال بين الشطرين وزيادة جرعة تشجيع الجنوبيين بمنحهم الموافقات السريعة لافتتاح مكاتب اتصال مع أوروبا وأمريكا إضافة إلى المساهمة في إنشاء بنك مركزي وتأسيس وكالة أنباء وإذاعة وتليفزيون وخدمات تليفونية وتغيير مناهج التعليم وتدريسها باللغة الإنجليزية بدلا من العربية.

من هنا يبدأ الخطر ويبرز السؤال الأكبر هل بعد كل هذا سيتحقق الانفصال أم أن السودان سيبقى موحدا وقادرا على مواجهة كل العواصف الشيطانية التي تروج لها أجهزة الإعلام الغربية رغم الجهود التي تبذلها الحكومة المركزية للنهوض بمشروعات التنمية وتوفير الخدمات بقدر استطاعتها إلى جانب تشجيع دخول الاستثمارات وتأمينها، علاوة على أن الشعب السوداني في الشمال والجنوب مجمع على الحفاظ على بقاء السودان موحدا إيمانا منه بأن انفراط عقده سيؤدي إلى حدوث كوارث جديدة في الشرق الأوسط والغرب كما أنه سيقطع كل نقط التماس مع معظم دول القارة.

يذكر أن جيران السودان يرون في انفصال الجنوب نكسة كبرى وإعادة لفتح الطريق على مصراعيه للعودة إلى أيام عهود الاستعمار القديمة ويسهل مهمة التسلل الإسرائيلي إلى قلب القارة السمراء تحت عباءة الاستعمار الجديد ويشل حركة التحرر ويوقف مشروعات التنمية واللحاق بركب التقدم العلمي والتكنولوجي ويساعد في الوقت نفسه على تحويل دول القارة إلى مجرد دويلات رقمية تقاتل بعضها البعض وتعظم القضايا الفرعية وتنسى قاطرات التنمية الاقتصادية والبشرية وهذه كلها علامات ضعف لا تخطئها العين.

من أجل هذا فإننا نناشد أهل الشمال والجنوب ضرورة الحفاظ على وحدة الأرض والشعب وإفشال المخططات الخارجية.

الصفقة والاستيطان لإسرائيل والمفاوضات جائزة الفلسطينيين

تحت هذا العنوان كتب محرر الجمهورية تقول بجريدة الجمهورية الصادرة في ٢٢/١١/٢٠١٠م يقول:

أطلقت الحكومة الإسرائيلية العنصرية المتطرفة حملة قوامها قطعان المستوطنين اليهود المعارضين لتجميد الاستيطان غير الشرعي على الأراضي التي سرقوها من الشعب الفلسطيني في مناورة مكشوفة من الحكومة التي يقودها ثلاثي التطرف: نتنياهو - ليبرمان - باراك تستهدف مضاعفة بنود الصفقة الأمريكية الهادفة لإعلان تجميد مؤقت وجزئي وأخير لعملية الاستيطان، حتى تقبل السلطة الفلسطينية استئناف المفاوضات المباشرة مع إسرائيل وكأن هذه المفاوضات في حد ذاتها هدف لا وسيلة للتوصل إلى تسوية سلمية للصراع الفلسطيني - الإسرائيلي تعطي الأرض للفلسطينيين والأمن للإسرائيليين.

إن الولايات المتحدة الأمريكية وهي تقدم لإسرائيل هذه الصفقة غير المسبوقة التي تتضمن تجميدا أخيرا للاستيطان مدته ثلاثة أشهر لا يشمل القدس العربية المحتلة،

لم تقدم فى المقابل للسلطة الفلسطينية إلا استئناف المفاوضات التى صورتها جائزة يحصل عليها الشعب الفلسطينى بتضحيات أمريكية عسكرية واقتصادية وأمنية ودون أية ضمانات لنجاح هذه المفاوضات أو حتى تقدمها فى الفترة المحددة لتجميد الاستيطان مما يعنى إطلاق يد إسرائيل فى الاستيطان بعد هذه الفترة بموافقة السلطة الفلسطينية ذاتها.. مجانا !!

السؤال التاريخى.. والسلاح «المؤتمن»

تحت هذا العنوان كتب د.محمد السعيد إدريس بجريدة الأهرام الصادرة فى ٢٠١٠/١١/٩م يقول:

كان لافتا للغاية أن يحرص الإسرائيليون، ضمن مراجعاتهم هذا العام لتجربتهم العسكرية المريرة فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ «حرب يوم الغفران» على فتح ملفات أهم وأخطر أسرارهم العسكرية وبالذات ذلك السر الذى ظل كثير من الكتاب والمفكرين والباحثين العرب ينكرونه، أو على الأقل يستبعدونه، المتعلق بالتفكير الإسرائيلى الجاد فى استخدام السلاح النووى ضد القوات المصرية بأمر من وزير الدفاع حينئذ موشى دايان.

فقد كشف أبرز المؤرخين للمشروع النووى الإسرائيلى «أفنير كوهين» أن إسرائيل أعلنت خلال «حرب يوم الغفران» (حرب أكتوبر ١٩٧٣) حالة «تأهب نووى» ثلاث مرات، وأن وزير الدفاع موشى دايان طلب مناقشة احتمال اللجوء إلى «الخيار النووى» داخل الحكومة الأمنية المصغرة، إلا أن رئيسة الحكومة جولدا مائير ووزراء آخرين رفضوا اقتراحه.

دلالات كثيرة تفصح عنها هذه الاعترافات: أولاها، أن وضع إسرائيل فى الأسبوع الأول من الحرب، وقبل الدعم الأمريكى عبر الجسر الجوى الذى أقامته الإدارة الأمريكية، كان شديد السوء، لدرجة التفكير فى استخدام سلاح شديد الخطورة ربما ليس فقط على القوات المصرية، بل وأيضا القوات الإسرائيلية، وهذه الدلالة تدحض أكاذيب كل من يحاولون طمس عظمة الانتصار العسكرى المصرى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣.

ثانية هذه الدلالات هى تعرية سياسة «الغموض النووى» الإسرائيلية من أباطيلها وكشف حقيقة امتلاك إسرائيل للسلاح النووى.

أما الدلالة الثالثة وربما تكون الأهم فهى أن إسرائيل «غير مبرأة» وغير «معصومة» من خطيئة احتمال اللجوء إلى استخدام السلاح النووى، وأنها، وكما يزعمون كدولة ديمقراطية لن تلجأ إلى استخدام هذا السلاح، أو أنها «تريد فقط أن تعيش» كما يروج دعاتها. فالسلاح النووى الإسرائيلى «سلاح قابل للاستخدام» وهنا مكمن الخطر والتهديد الحقيقى الذى يجب على العقل الاستراتيجى المصرى خاصة، والعربى عامة، أن يأخذه فى الاعتبار.

هذه الدلالات المهمة تفرض الكثير من الأسئلة أبرزها وأهمها يتعلق بالعلاقة بين التحدى الإسرائيلى للمجتمع الدولى، المدعوم أمريكيا، الخاص برفض الامتثال إلى ضرورة التوقيع على معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية ودعم الجهود الدولية الرامية إلى جعل الشرق الأوسط إقليما خاليا من أسلحة الدمار الشامل.

لكن ما هو أخطر هو أنه انتشار أحادى أى انتشار يقتصر على امتلاك دولة واحدة فى المنطقة هذا السلاح وهى إسرائيل وأن أى دولة أخرى محظور عليها ذلك فى ظل أمرين:

أولهما: أن كل دول المنطقة، وخاصة الدول العربية، وإيران- هى دول سبق أن وقعت وصدقت على معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية.

وثانيهما: أن أى دولة من دول المنطقة تفكر فى أن تتحول إلى دولة مالكة للسلاح النووى سوف تتعرض لضغوط هائلة تحول دون ذلك من بينها التهديد المباشر باستخدام القوة، بل وربما الاستخدام المباشر للقوة، وقد التزمت إسرائيل بهذا الأمر حيث نفذته مرتين الأولى ضد المنشآت النووية العراقية عام ١٩٨١، والثانية عام ٢٠٠٧ ضد منشأة نووية سورية حديثة، والآن تتعرض إيران لعقوبات دولية مشددة ولاستعدادت إسرائيلية وتهديدات أمريكية باللجوء إلى الخيار العسكرى، لفرض أمر واقع هو أن إسرائيل وحدها هى القوة النووية الوحيدة فى المنطقة.

إسرائيل ليست حريصة فقط على أن تنفرد بامتلاك السلاح النووى ولكنها حريصة أيضا على الدفاع عن هذا السلاح.

وإذا كان وزير الخارجية الإسرائيلى أفيجدور ليبرمان قد أمر واضعى الاستراتيجيات فى وزارته بوضع مسودة خطة عن «ماذا نفعل إذا استيقظنا واكتشفنا أن الإيرانيين يملكون سلاحا نوويا» فإن مصر كلها، مطالبة بالإجابة عن سؤال، أحسبه سؤالا تاريخيا ومصيريا هو: ماذا سنفعل إذا استيقظنا واكتشفنا أن إسرائيل تعلن نفسها دولة أمر واقع نووية، أى دولة نووية بالأمر الواقع، بكل ما يعنيه هذا من إنهاء فعلى لسياسة منع الانتشار النووى فى المنطقة؟

السؤال تزداد خطورته عندما نتذكر أن الإسرائيليين شنوا على مصر عدوانا عام ١٩٦٧ لمنعها من تهديد منشآتهم النووية، وأنهم فكروا فعلا فى استخدام هذا السلاح ضد القوات المصرية عام ١٩٧٣ لولا التدخل الأمريكى بتوفير البديل العسكرى لمنع سقوط إسرائيل، وأن هذا كله يعنى أن استخدام هذا السلاح مازال محتملا إن لم يكن مؤكدا، رغم كل أكاذيب من يوالون إسرائيل، التى تزعم أن إسرائيل دولة ديمقراطية، وأن سلاحها النووى «سلاح مؤتمن».

طرائف.. ومواقف

لفضيلة الشيخ/ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

كلمات لأمراء المؤمنين

كتب عمر بن عبدالعزيز إلى عامله بن أرطاة: أما بعد فقد أمكنتك القدرة على المخلوق، فاذكر قدرة الخالق عليك، واعلم أن ما لك عند الله مثل ما للرعية عندك.

وقال المنصور لولده المهدى، وقد تولى الخلافة بعده: لا ترم أمراً حتى تفكر فيه، فإن فكرة العاقل مرآته تريه حسناته وسيئاته. واعلم أن الخليفة لا يصلحه إلا التقوى، والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة، والرعية لا يصلحها إلا العدل، وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وأنقص الناس عقلا من ظلم من هو دونه.

عدل الولاة

قال ابن أبى الزناد عن هشام بن عروة قال: استعمل ابن عامر عمرو بن عروة أصبغ على الأهواز، فلما عزله قال له: ماجئت به؟ قال له: مامعى إلا مائة درهم وأثواب. قال ابن عامر: كيف ذلك؟ قال أصبغ: أرسلتني إلى بلد أهله رجلان: رجل له مالى وعليه ما على، ورجل له ذمة الله ورسوله. فوالله ماذريت أين أضع يدى. فأعطاه ابن عامر عشرين ألفاً مكافأة له على أمانته.

وقال معاوية: إنى لأستحى أن أظلم من لايجد على ناصرا إلا الله.

وقال النبى ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة».

الجاهل

قيل: «الجاهل يظلم من خالطه، ويعتدى على من هو دونه، ويتطاول على من هو فوقه، ويتكلم بغير تمييز، وإن رأى كريمة أعرض عنها، وإن عرضت فتنة أردته وتهور فيها».

نقول: الجهل هنا بمعنى السفاهة كما قال الشاعر:

ألا لا يجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا

كم فاقة مستورة

كم فاقة مستورة بمروءة
وضرورة قد غطيت بتجمل
وكم ابتسام تحته قلب شجى
قد خامرته لوعة ماتنجلى
لو سود الهم الملابس لم تجد
بيض الثياب على امرىء فى محفل

«الشافعى»

طلب الحوائج

قال خالد بن صفوان: لاتطلبوا الحوائج فى غير حينها، ولا تطلبوها من غير أهلها، فإن الحوائج تطلب بالرجاء، وتدرك بالقضاء.

وقال: مفتاح نجح الحاجة الصبر على طول المدة، ومغلاقها اعتراض الكسل دونها. وقد جاء ذلك فى الشعر فقال الشاعر:

إنى رأيت وفى الأيام تجربة
للصبر عاقبة محمودة الأثر
وقل من جد فى أمر يحاوله
فاستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

وقال حكيم: لاتطلب حاجتك من كذاب، فإنه يقربها بالقول ويبعدها بالفعل؛ ولا من أحمق فإنه يريد نفعك فيضرك.

وقال شبيب بن شبة: إنى لأعرف أمرا لايتلاقى به إنسانان إلا وجب به النجح بينهما. فقيل له: وماذاك؟ قال: العقل، فإن العاقل لايسأل مالايمكن، ولا يرد عما يمكن.

من مساوىء الحجّاب

وقف أبو العتاهية إلى باب بعض الهاشميين فطلب الإذن، فقيل له: تكون لك عودة. فقال:

لئن عدت بعد اليوم إنى لظالم
سأصرف وجهى حيث تبغى المكارم
متى يظفر الغادى إليك بحاجة
ونصفك محجوب ونصفك نائم

ومثله للعتابى:

قد أتيناك للسلام مرارا
غير من منا بذاك المزار
فإذا أنت فى استتارك بالليـ
ـل على مثل حالنا بالنهار

بديهة موفقة

أقبل أعرابى إلى داود بن المهلب فقال له: إنى مدحتك فاستمع، قال: على رسلك، ثم دخل بيته وتقلد سيفه وخرج فقال: قل، فإن أحسنت حكمناك، وإن أسأت قتلناك، فأنشأ يقول:

أمنت بداود وجود يمينه
من الحدث المخشى والبؤس والفقر
فأصبحت لا أخشى بداود نبوة
من الحدثان إذ شددت به أزرى
له حكم لقمان وصورة يوسف
وحكم سليمان وعدل أبى بكر
فتى تفرق الأموال من جود كفه
كما يفرق الشيطان من ليلة القدر

فقال له داود: قد حكمناك فإن شئت على قدرك، وإن شئت على قدرى.

قال الأعرابى: بل على قدرى، فأعطاه خمسين ألف درهم، فقال له بعض الجلساء: هلا احتكمت على قدر الأمير؟ قال: لم يك فى ماله ما يفى بقدره!.. قال له داود: أنت فى هذه أشعر منك فى شعرك.. وأمر له بمثل ما أعطاه.

«من شعر الخلفاء الراشدين»

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوم فتح مكة:

ألم تر أن الله أظهر دينه
على كل دين قبل ذلك حائد
وأسلبه من أهل مكة بعدما
تداعوا إلى أمر من الغىّ فاسد
غداة أجال الخيل فى عرصاتها
مسومة بين الزبير وخالد
فأمسى رسول الله قد عز نصره
وأمسى عداه من قتيل وشارد

«من حكم أبى حازم»

طلب عبدالملك بن مروان أبا حازم، فلما دخل عليه قال: تكلم يا أبا حازم.

قال: فيم أتكلم يا أمير المؤمنين؟

قال: فى المخرج من هذا الأمر قال: يسير إن أنت فعلته، قال: وما ذاك؟ قال: لا تأخذ الأشياء من غير حلها، ولا تضعها إلا فى أهلها، قال: ومن يقوى على ذلك؟ قال: من قلده الله من أمر الرعية ما قلدك.

قال: عظنى يا أبا حازم، قال: اعلم أن هذا الأمر لم يصر إليك إلا بموت من كان قبلك، وهو خارج من يديك بمثل ما صار إليك، قال: يا أبا حازم أشر علىّ. قال: إنما أنت سوق فما نفق عندك حمل إليك من خير أو شر فاختر أيهما.

«دعـــاء»

اللهم إنى أسألك بالمكنون من أسمائك، وما وراء الحجب من آلائك، وباسمك العظيم الأعظم بسم الله الرحمن الرحيم أن تجعلنى ممن فوض أمره إليك، وتوكل فى كل أموره عليك وجعل حوائجه كلها بين يديك.

الأهمية العصرية المتجددة للوقف

للمستشار / حسن حسن منصور
نائب رئيس محكمة النقض

من المعلوم أن الوقف الخيرى، لا تقتصر أهميته على جوانب نشر الدعوة الإسلامية، والتعليم والتدريب وحفظ القرآن الكريم، والرعاية والمساعدات الإنسانية والاجتماعية، بل أصبح الوقف فى العصر الحديث، يقوم بوظيفة على درجة كبيرة من الأهمية، ولاسيما فى الجوانب الاقتصادية والتنموية فى المجتمع.

وبنظرة متأنية فاحصة لواقع الوقف، فيما آل إليه من حال فى أيامنا المعاصرة، يتضح أن هناك بعض السلبيات، التى لحقت به من جراء التدخلات التشريعية المتلاحقة، فى حقبة ما بعد ثورة يوليو ١٩٥٢، وإلغاء نظام الوقف الأهلى، ونقل نظارة الأوقاف الخيرية، من نظار الوقف المختارين من قبل الواقفين إلى وزارة الأوقاف، وإسناد الإشراف على أعيان الأوقاف لهيئة الأوقاف المصرية، الأمر يتطلب البحث عن الحلول المناسبة، للتخلص من هذه السلبيات، وهذا ما نحاول أن نعرض له، على النحو التالى: ـ

أولا: بعض السلبيات والمعوقات التى أصابت الوقف

واقع حال الأوقاف المصرية، يشير إلى قيام العديد من السلبيات فى التطبيق، بما يعجز الوقف عن الوصول إلى أهدافه المرجوة، ومن هذه السلبيات على سبيل المثال لا الحصر، الأمور الآتية: ـ

١ ـ وقوع العديد من الاعتداءات على أموال الأوقاف، سواء كانت الأراضى الزراعية، أو المبانى المؤجرة، وتداول الكثير من الدعاوى القضائية، المتعلقة بهذه الأنزعة، أمام جهات القضاء المختلفة،

ومما يقلل من فرص كسب هذه الدعاوى تطاول الزمن على المستندات، التى تثبت هذه الأوقاف، فقد البعض منها، أثناء التنقل بين الجهات القائمة على حفظها من المحاكم الشرعية إلى مصلحة الشهر العقارى ومصلحة المساحة، وغير ذلك.

وتشير إلى أحد أنواع هذه الاعتداءات، على أرض ما يسمى بوقف الحرمين، بإحدى المدن الساحلية المهمة، حيث قام الأهالى بوضع اليد والبناء العشوائى على هذه الأرض، دون أن يبقى للحرمين، غير اسم الحى العشوائى المقام على أرض هذا الوقف.

٢ ـ الإهمال فى حفظ وصيانة أموال الأوقاف، مما أدى إلى تخريب بعض الأعيان المعمورة، وبوار بعض الأراضى المنزرعة، الأمر الذى جعل تكاليف صيانتها، أكبر بكثير من إيراداتها.

٣ ـ ذكر أهل التخصص من رجال الاقتصاد، أن العائد الذى تحققه الأوقاف ضئيل جداً، بالمقارنة لعائد استثمار الأموال المماثلة فى قطاعات أخرى غير الأوقاف، حتى قيل إن هذا العائد لا يتجاوز ٢٪ فى السنة، وهى نسبة لا تذكر بالمقارنة بأقل عائد للتوفير لدى أى بنك، الذى قد يصل إلى ١٠٪ أو أكثر فى السنة.

٤ ـ ضعف الوعى الكامل بأهمية الوقف لدى المسلمين، الخاصة قبل العامة منهم، لتقاعس العلماء عن التركيز على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية للوقف، فى حياة المسلمين فى الدنيا والآخرة، فعلى سبيل المثال: ليس هناك من أئمة المساجد، من يتحدث عن هذه الجوانب، سواء فى الدروس الدينية أو الخطب المنبرية، مع أن الوقف لا يقل أهمية فى حياة المسلم فى الدنيا والآخرة، من العبادات الدينية الرئيسية كالصلاة والصوم والحج وغيرها.

٥ ـ التعارض بين بعض شروط الواقف، وبعض اللوائح الحاكمة لنظام العاملين فى الوقف، فعلى سبيل المثال: نظام المعاش لهؤلاء العاملين، قد يتضمن كتاب الوقف شرطا من الوقف، بمنح أحدهم قدراً معيناً، فى حين أصبح هذا النظام يخضع للوائح العاملين فى الدولة بصفة عامة، وهى مختلفة تماماً عن شروط الوقف، وإعمال هذه الشروط، ومع وجود هذه اللوائح مايؤدى إلى الازدواج، فى الحصول على المعاش، بما يجعل العامل فى شئون الوقف، أحسن حالا من غيره من العمال، الذى يخضع لهذه اللوائح، بما يلحق الضرر بالوقف.

وهذا الأمر كان من المشكلات العملية، التى أفرزها الواقع العملى، وعرضت على جهات القضاء، وذلك عندما أحيل بعض العاملين على الأوقاف الخيرية إلى التقاعد، فحصلوا على معاشهم الحكومى من وزارة التأمينات الاجتماعية، وطالبوا وزارة الأوقاف وهيئة الأوقاف، بمعاش من الوقف، إعمالاً لشرط الواقف، ومع صراحة هذا الشرط، فى حجة بعض الأوقاف، فقد أصدرت بعض المحاكم، أحكاما ابتدائية واستئنافية، بأحقية بعض هؤلاء العاملين، بالمعاش من أموال الوقف، إلا أن محكمة النقض انتهت فى العديد من أحكامها، واستقر قضاؤها على خلاف ذلك، وهو عدم الجمع بين هذين المعاشين، وقصر الاستحقاق على المعاش، الذى تنظمه اللوائح الحكومية، وفى تأصيل ذلك تقول: «بأنه ـ من المقرر فى قضاء هذه المحكمة ـ أن المادة العاشرة من القانون رقم ٤٨ لسنة ١٩٤٦ بأحكام الوقف لم ترسم طريقاً لاستظهار المعنى الذى أراده الواقف من كلامه، وأطلقت للقاضى فهم غرض الواقف من عباراته على ألا يخرج بشرط الواقف عن معناه الظاهر إلى معنى آخر يخالف، وكان المراد من كلام الواقف مجموع كلامه فى كتاب وقفه لا خصوص كلمة بعينها أو عبارة بذاتها، بل ينظر إلى ما تضمنه كتابه كله كوحدة متكاملة، ويعمل به على أنه إرادة منه واتجه إليه مقصوده، باعتبار أن شرط الواقف كنص الشارع فى الفهم والدلالة لما كان ذلك، وكان الثابت من حجة الوقف أن الواقف قرر معاشاً من ريع الوقف للقائمين بمهامه وإدارة أشغاله ومن قام بخدمة الوقف وفقاً للشروط الواردة بحجته، مما مفاده أن مناط استحقاق المعاش على النحو المتقدم وجود علاقة عمل تربط المستحق بالوقف بحيث يلزم تحقق تبعية قانونية للقائم على شئون الوقف، والتى تعنى خضوعه فى أداء عمله لإدارة وإشراف وسلطة من يتولى تصريف العمل بالوقف، ويقابل ذلك تمتع الأخير بحق توجيهه ومراقبته وتوقيع الجزاء عليه حال مخالفة أوامره، لما كان ذلك، وكان الثابت من تقرير الخبير المقدم فى الدعوى أن المطعون ضده يعمل بهيئة الأوقاف المصرية بفرعها بطنطا ومن مسئوليته الإشراف على وقف المرحوم/ .... وغيره، بما مؤداه أنه لم يرتبط بالوقف بعلاقة عمل تجعله تابعاً له، إذ أنه يرتبط بهيئة الأوقاف المصرية بعلاقة تنظيمية لائحية، ومن ثم فإنه لا يستحق معاشاً طبقاً لشرط الواقف على نحو ما سلف، وإذ خالف الحكم الابتدائى المؤيد بالحكم المطعون فيه لأسبابه هذا النظر بقضائه باستحقاق المطعون ضده لمعاش من ريع الوقف على سند من أنه عمل فى خدمة الوقف، فإنه إذ خرج بشرط الواقف إلى ما لا يؤدى إليه مدلوله، يكون قد أخطأ فى تطبيق القانون، بما يوجب نقضه دون حاجة لبحث باقى أسباب الطعن.

وحيث إن الموضوع صالح للفصل فيه، فإنه يتعين القضاء فى موضوع الاستئناف رقم ...... لسنة ..... ق. طنطا بإلغاء الحكم المستأنف ورفض الدعوى (الطعن رقم ١٧٨ لسنة ٧٠ ق «أحوال شخصية» ـ جلسة ٢٥ / ١٢ / ٢٠٠٠.

٦ ـ وقد ساعد تراكم هذه السلبيات

فى نظام وتطبيقات الوقف فى وجود غابة متشابكة من التشريعات المختلفة، سواء من القوانين أو القرارات الجمهورية أو اللوائح التنظيمية، يصعب إن لم يستحيل حصرها، أو متابعة تسلسل صدورها، وقد يطرأ على التشريع الواحد منها، التعديلات المتلاحقة، بما ينسى بعضها بعضا، وقد حاولت الدخول فى هذه الغابة، فعجزت عن الوصول، إلا إلى القليل من هذه التشريعات، والتى قاربت الثلاثين من القوانين فقط، دون القرارات الجمهورية واللوائح التى مازالت مجهولة على الباحثين فى هذا المجال.

ومما يزيد من صعوبة الأمر، تلاحق التعديلات التشريعية على قوانين الوقف، إلى درجة أن يصدر فى العام الواحد أكثر من خمسة قوانين، فعلى سبيل المثال: التعديلات القانونية الصادرة عام ١٩٥٣، بالقانون رقم ٣٤٢ لسنة ١٩٥٢، بتعديل بعض أحكام القانون السابق، والقانون رقم ٢٤٧ لسنة ١٩٥٣، بشأن النظر على الأوقاف الخيرية، وتعديل مصارفها على جهات البر، والقانون رقم ٣٩٩ لسنة ١٩٥٣ بتعديل بعض أحكام القانون رقم ١٨٠ لسنة ١٩٥٢ والقانون رقم ٥٤٧ لسنة ١٩٥٣ بتعديل بعض أحكام القانون ٢٤٧ لسنة ١٩٥٢ والقانون رقم ٦٥٧ لسنة ١٩٥٣ بتعديل بعض أحكام القانون رقم ١٢١ لسنة ١٩٤٧، بشأن إيجارات الأماكن، وتنظيم العلاقة بين المؤجرين والمستأجرين.

ثانياً - مقترحات ببعض الحلول لمواجهة هذه السلبيات

فإذا كانت هذه السلبيات متعددة المصدر، فإنه يصعب على المتخصص فى مجال واحد، أن يجد لها الحلول المتكاملة، ولكن حسبه أن يشارك أصحاب التخصص الآخرين، فى البحث عن هذه الحلول، وهذا ما نحاوله، فيما يتعلق بالجانب التشريعي والقانوني، ومما نرى اقتراحه فى هذا الشأن، على سبيل المثال الآتى:

١ - إعادة النظر فى تلك الغابة المتشابكة من التشريعات والقوانين المتعلقة بالوقف، والتى صدرت متعاقبة خلال سنوات قليلة فى ظل ظروف ونظم اقتصادية مغايرة لما نحن عليه فى أيامنا المعاصرة، ويجب على المشرع أن يلتزم بنظام التقنين المستقر فى كل دول العالم، والقائم على جمع شتات القوانين الصادرة فى مجال واحد، وجعلها فى مدونة قانونية واحدة، منعا للتناقض والتضارب بين النصوص فى الموضوع الواحد، مع الأخذ فى الاعتبار لما يطالب به، الخبراء فى مجال الوقف من الناحية القانونية والاقتصادية، من تعديلات مهمة، فى شأن العودة لنظام الوقف الأهلى بالشروط التى تتفق مع مقتضيات التطور الاقتصادى فى الأيام المعاصرة، وأيضا فيما يتعلق بالنظر على الوقف، والاستحقاق والاستبدال فى

الوقف، وغير ذلك.

٢ - إذا كانت هناك جهات رسمية لها أدوار رئيسية فى الحياة، ولاسيما فى مجال خدمة الأديان، وسبق أن أوقف عليها أهل الخير الكثير من الأوقاف، ومن ذلك الأزهر الشريف، ونقابة الأشراف، وبعض الطرق الصوفية، وبعض الجمعيات الخيرية، وبعض المساجد والأضرحة، ومكاتب تحفيظ القرآن الكريم، وغيرها، إلا أن إخضاع هذه الأوقاف لإشراف هيئة الأوقاف المصرية، ما يعوق هذه الجهات، عن القيام بما لها من دور فى مجالها، وإذا كانت الدولة قد بادرت وأعادت إلى هيئة الأوقاف القبطية، مالها من أوقاف خاصة بها، فإنه بالتوازى مع ذلك، ولنفس الغرض والغاية، يجب معاملة الهيئات الإسلامية سالفة الذكر بذات المعاملة، وخاصة بعد تزايد الأعباء الملقاة على عاتق هذه الهيئات، وذلك بإعادة الأعيان الموقوفة عليها إليها لإدارتها.

٣ - إنشاء محكمة مختصة بشئون الوقف، على غرار المحاكم الاقتصادية حديثة الإنشاء فى النظام القضائى المصرى، وهذا من الأهمية بمكان، بعد إلغاء المحاكم الشرعية، التى كانت تتولى تسجيل الأوقاف، وتختص بنظر الدعاوى المتعلقة بها، وخاصة بعد أن أخرج القانون رقم ١٠ لسنة ٢٠٠٤ بإنشاء محكمة الأسرة، الاختصاص بنظر هذه الدعاوى من دائرة اختصاص هذه المحكمة، كما هو الشأن فى الدعاوى الأخرى المتعلقة بمسائل الأحوال الشخصية، وإسناد الاختصاص بنظر الدعاوى المتعلقة بالوقف للمحاكم المدنية العادية.

٤ - إذا كانت الدولة قد وضعت من القوانين ما يجعل لها السيطرة الكاملة على الأوقاف القائمة منذ أمد بعيد فإننا نرى أن ذلك مبرراً، لإحجام الناس عن القيام بالوقف على الخيرات، وهناك من الأفراد فى الأيام المعاصرة من قام بعمل وقفيات، على معاهد العلم بصفة عامة، وعلوم الدين بصفة خاصة، أو على الجمعيات الخيرية، وغير ذلك من الأنشطة الاجتماعية المختلفة، ومن النماذج الواضحة على ذلك ما قام به المرحوم المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى، الوكيل السابق لمجلس الدولة، والرئيس الحالى للجمعية الخيرية الإسلامية، بعمل العديد من الوقفيات الخيرية، ومن أمثلتها، وقفيات على طلبة العلم بالأزهر الشريف، وبعض جامعات مصر، كجامعة القاهرة، ووقفيات على بعض الجمعيات الخيرية كالجمعية الخيرية الإسلامية، بما يجعل للأفراد إمكانية القيام بالوقف، على بعض جهات البر العامة، التى يمكن أن يستفيد منها أبناء المجتمع، فى صورة خدمات مباشرة، قد تكون فى أمس حاجاتهم اليومية، فى حاضرهم ومستقبلهم، دون حاجة لانتظار تدخل الدولة، بسن المزيد من التشريعات التى تطلب منهم ممارسة هذا النشاط.

والله تعالى ولى التوفيق

لتعظيم التعاون والتضامن بين المسلمين

رابطة العالم الإسلامى تعقد مؤتمرها الحادى عشر بمكة المكرمة لبحث:

مواجهة التحديات الإعلامية فى عصر العولمة

متابعة الأستاذ / عاطف مصطفى

فى كل عام وقبيل أداء مناسك الحج مباشرة استنت رابطة العالم الإسلامى سنة حميدة أسسها الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود - طيب الله ثراه - والتزمها أبناؤه من بعده، مبتهلا فرصة هذا الجمع السنوى الحاشد للمسلمين بدعوتهم لبحث وسائل تعظيم التعاون والتضامن فيما بينهم ومدارسة مشكلاتهم وطرح الحلول المناسبة لها.

من هذا المنطلق تحرص الرابطة ومن خلال تواجد العشرات من العلماء المسلمين الذين تدعوهم لأداء الحج أن يشاركوا فى مؤتمر يهدف إلى تسليط الضوء على قضية مهمة، الهدف منها خدمة قضايا المسلمين فى كل أنحاء العالم وتفعيلا لدورها النشط، والذى بدأته منذ خمسين عاما فى خدمة قضايا المسلمين.

إنسانية الإسلام

من هذا المنطلق عقدت رابطة العالم الإسلامى مؤتمر مكة الحادى عشر بعنوان «التحديات الإعلامية فى عصر العولمة» برعاية كريمة من خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبد العزيز آل سعود فى الفترة من ٥ - ٧ ذى الحجة ١٤٣١هـ التى يوافقها ١١ - ١٣ نوفمبر ٢٠١٠م وقد افتتح المؤتمر نيابة عن خادم الحرمين الشريفين، صاحب السمو الملكى الأمير خالد الفيصل أمير منطقة مكة المكرمة والذى قال فى بداية كلمته: إدراكا لمسئولية المملكة تجاه الأمة الإسلامية فإنها تعمل جاهدة على نصرة قضايا الأمة، والدفاع عنها فى كل المحافل الدولية، وتبرهن على إنسانية الإسلام ببذل دعوتها للقضايا الإنسانية دون تمييز، وتحرص على جمع الكلمة، وتصفية النزاعات، وتوحيد الصف الإسلامى امتثالا لقوله تعالى:

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ (آل عمران: ١٠٣)

وأشار إلى أنه سعيد لما فعلته رابطة العالم الإسلامى، إذ طرحت التحديات التى تواجهها أمتنا أمام هذا المؤتمر بهدف التوصل إلى آليات ووسائل متجددة، تناسب طبيعة هذه التحديات، مبينا أنه بفعل التطور الهائل فى وسائل الاتصال، أصبحت للإعلام سطوة عالمية لا تخفى على أحد حتى أصبح من أمضى الأسلحة الحديثة سلبا وإيجابا، وأبعدها أثرا وتأثيرا فى ترسيخ المفاهيم العامة.

المهمة الأولى للإعلام الإسلامى

وأوضح الفيصل أن أمتنا الإسلامية طالها الكثير من سهامه ظلما وعدوانا، وبهذا تصبح المهمة الأولى لإعلامنا الإسلامى مواجهة هذا التحدى الخطر بأن يعرض من آليات رصينة ووسائل مدروسة تبين منهج الاعتدال والوسطية فى الإسلام، وصبغته الحقيقية السمحة البريئة من وصمة الغلو الذى حذرنا منه الرسول ﷺ بقوله: «إياكم والغلو فى الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو فى الدين»[1].

والتأكيد على أن الإسلام قادر على حل مشكلات الإنسان ومؤصل لقيم الحق والعدل والسلام الذى تتطلع إليه البشرية.

الحصن المنيع لحماية الأمة



د. عبدالله تركى

وأكد الأمير خالد الفيصل أنه يجب على إعلامنا أن يمثل على الجانب الآخر الحصن المنيع لحماية الأمة من الفوضى الفكرية التى تتعرض لها نتيجة للانفتاح على عالم بلا حدود من الأفكار والثقافات وأن يولى عناية خاصة بالشباب لحمايتهم من السقوط فى شراك الفكر المنحرف، وتجنيب الأمة المزيد من التشرذم والضعف والاضطراب ومصادرة حجج أعدائها ومبرراتهم للنيل منها ومن دينها وبين فى ختام كلمته أن هذه المهام العظام المنوطة بالإعلام الإسلامى يتوقف نجاحه فيها على مدى التنسيق والتعاون بين مؤسساته المعنية فى الدول الإسلامية، وترسيخ ميثاق الشرف الإعلامى والتزامه فى تعامله البينى والعالمى.

ووجه شكره للقائمين على الرابطة وهذا المؤتمر لجهودهم المتميزة فى خدمة الإسلام وقضايا الأمة والتحديات التى تواجهها.

وفى كلمته فى الجلسة الافتتاحية أكد معالى الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركى الأمين العام لرابطة العالم الإسلامى استشعار الرابطة أهمية عقد هذا المؤتمر لمتابعة التطورات الإعلامية فى عصر العولمة، والوقوف على ما

(١) سنن النسائى، كتاب مناسك الحج.

تتيحه من فرص فريدة أمام البشرية نتيجة التطور المعرفى، واتساع حدود الانتشار، قائلا: إن أهم ما يتسم به عصر العولمة ما يسمى بعصر المعلومات، ذلك أن وسائل الاتصال اندمجت مع وسائل الإعلام فى تكوين شبكة عالمية تعتمد على التقنية الرقمية والإرسال الفضائى، يتواصل الناس بواسطتها ويتبادلون المعلومات بشتى صورها المكتوبة والمرئية.

وأوضح أنه لا مرية فى أن التقنية العالمية التى تخدم الاتصال وتطور وسائله أحدثت تغيرا عميقا فى العلاقات والتعامل وجعلت الاتصال فى صميم حياة الناس، حتى أصبحوا يعتمدون عليه فى كثير من شئونهم وأعمالهم، لاسيما فى أعمال الترجمة التى تزيل الحواجز اللغوية.

تنسيق الجهود

على مستوى العالم الإسلامى

وكان الدكتور التركى حريصا على عقد مؤتمر صحفى قبل المؤتمر أكد فيه -معاليه- أن الأمة الإسلامية بحاجة ماسة لنهوض الإسلام وهو يحتاج إلى الكفاءات المتخصصة بالإعلام، وذلك من مهام وزارات الإعلام ومؤسساتها، مضيفا بأن رابطة العالم الإسلامى ستتابع تكوين الهيئة العالمية للإعلام من جديد، وذلك بما يتناسب مع المرحلة الراهنة.

وأشار إلى أن قضايا الإعلام والاتصال تدخل فى صلب اهتمامات الرابطة منذ إنشائها، انطلاقا من الأهداف التى رسمت لها ومنها رفع مستوى الوسائل الإعلامية والدعوية والثقافية لدى المسلمين.

وأوضح الدكتور عبدالله التركى أن أهمية هذا المؤتمر تتلخص فى إتاحة فرص اللقاء والحوار، وتبادل المعارف والخبرات، سعيا إلى تنسيق جهود الإعلاميين فى العالم الإسلامى، وتدارس الواقع الإعلامى لدى المجتمعات المسلمة، مقارنة بما وصل إليه التطور العالمى اليوم، للإفادة من الفرص، والتعرف على طبيعة التحديات والإسهام بتوجيه المسار الإعلامى فهما وممارسة نحو القيم والأخلاق والقيم المثلى، لما فيه خير العالم وصلاحه، وتحقيق المساندة الإعلامية المنظمة لمهام العلماء وبرامج المنظمات الإسلامية، تجاه الحملات والافتراءات المغرضة ضد الإسلام والمسلمين، فضلا عن إيجاد صيغ عملية للتعاون مع مؤسسات العمل الإعلامى فى الدفاع عن قضايا المسلمين، وإرساء قواعد التفاهم والحوار بين شعوب العالم.

التصدى للسلبيات التى تنتج عن العولمة

وقد تضمنت أعمال المؤتمر على مدى أيامه الثلاثة أربعة محاور:

● المحور الأول: الواقع الإعلامى فى عصر العولمة، شارك فيه الدكتور الصادق الفقيه المستشار فى وزارة الخارجية بدولة قطر ببحث عنوانه: الإعلام الدولى وتوجهاته.

وشارك الدكتور عباس مصطفى صادق المستشار بتليفزيون أبو ظبى ببحث بعنوان: الإعلام الجديد «فرص وتحديات».

كما شارك الدكتور عبدالله بن محمد الرفاعى أستاذ الإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ببحث مماثل.

● أما المحور الثانى: فجاء عنوانه: الأسرة والمجتمع والتحديات الإعلامية واشتمل على ثلاثة بحوث كان أولها: بحث بعنوان الأسرة والإعلام الاليكترونى للدكتور صابر محمد الأستاذ المشارك فى قسم الإعلام بجامعة سوهاج، وثانيها: ظاهرة العنف والانحلال الأخلاقى فى الإعلام المعاصر للدكتور محيى الدين عبدالحليم أستاذ الصحافة والإعلام بجامعة الأزهر، والبحث الثالث عنوانه: المجتمع والغزو الثقافى للدكتور محمد العادل رئيس مجلس إدارة الجمعية التركية العربية للعلوم والثقافة فى أنقرة.

● وتناول المحور الثالث: واقع الأمة المسلمة والتحديات الإعلامية، وقد رأس الجلسة الدكتور عبدالله بن صالح العبيد عضو المجلس التأسيسى للرابطة ونوقشت خلالها بحوث بعنوان: «صورة الإسلام والمسلمين فى الإعلام الدولى» - «المسلمون والتقنية الإعلامية»، «الإعلام فى العالم الإسلامى بين الأصالة والتبعية».

● أما المحور الرابع: فقد ناقش «الرؤى العملية لمواجهة التحديات» ممثلة فى ثلاثة بحوث: الأول بعنوان «الإعلام الإسلامى (قواعد وضوابط)» للدكتور أسامة بن صالح الحريرى أستاذ الإعلام المساعد فى جامعة أم القرى بمكة.

والثانى بعنوان: إعلام المنظمات الإسلامية (تنسيق وتكامل) للدكتور عثمان أبو زيد رئيس تحرير مجلة الرابطة - أما البحث الثالث فكان عن «الإعلام والحوار الحضارى» للدكتور أسعد السحمرانى أستاذ العقائد والأديان بجامعة الإمام الأوزاعى بلبنان.

وأكد المشاركون فى المؤتمر خلال مناقشاتهم وحواراتهم على أهمية التصدى للسلبيات التى تنتج عن العولمة وآثارها الضارة التى تتنافى مع القيم الدينية والهوية الثقافية للأمة الإسلامية وخطورة الرسائل الإعلامية المشوهة، والمعلومات المضللة وغير الدقيقة للأحداث العالمية، لما لها من تأثير سلبى على الشعوب الإسلامية وبخاصة الأجيال الشابة التى تتطلع إلى الاستفادة من قدراتها، وتسخيرها بما يطور العطاء الإسلامى للمسلمين ويفتح آفاقا جديدة فى مجال التقنية الإعلامية.

أولويات الأمة الإسلامية

أيضا أكد العلماء والمفكرون المشاركون فى المؤتمر على ضرورة مراجعة السياسات الاتصالية والإعلامية، ووضع الخطط التى تركز على أولويات الأمة الاستراتيجية، وتتعامل مع التغيرات الواسعة فى تقنيات الاتصال، مما يفرز إعلاما يسعى فى بث الكراهية والبغضاء، وإثارة الغرائز والشهوات، واتخاذ فنون الإثارة سلعة إعلامية.

كما ناقش المؤتمرون خلال الجلسات - بقلق شديد - استمرار الهجمات الإعلامية على الإسلام والمسلمين، وأن المسلمين ضحية تدفق إعلامى غير متوازن، واضعين فى الاعتبار تخوفهم الشديد من إمكانية التعرض لأضرار أكبر فى حالة توجيه التقنيات إلى أغراض تتنافى مع السلام والأمن والتفاهم مثل القرصنة وعمليات الاحتيال والحرب الالكترونية.

تأسيس الإعلام

على أصولنا الدينية وقيمنا

وطالب المشاركون في المؤتمر رابطة العالم الإسلامي بضرورة إعداد ميثاق شرف جديد للإعلام الإسلامي، يتضمن خلاصة التوصيات التي توصل إليها المؤتمر، تتجدد فيه المبادئ التي تضمنتها المواثيق السابقة التي صدرت عن الرابطة وغيرها من الجهات الإسلامية الحكومية والشعبية.

كما أكدوا في حواراتهم على أهمية تأسيس الإعلام نظرياً وتطبيقياً على أصولنا الدينية وقيمنا وتراثنا، وإنشاء مؤسسات إعلامية ذات هوية إسلامية، تضمن الاستقلال والحرية والاستمرار والاعتماد على النفس، والتعاون مع الآخرين من منطلق الندية والحرص على المصالح المشتركة.

توصيات نتمنى تفعيلها

وككل المؤتمرات التي نتناولها هنا في مجلة الأزهر العريقة تجئ التوصيات والتي نتمنى أن يتحقق منها الكثير لمصلحة مجتمعاتنا الإسلامية، ولتحقيق المردود الإيجابي من هذا الجهد العلمي الكبير والذي بذله علماء المسلمين وجاءت هذه التوصيات في ختام المؤتمر:

- السعي إلى تنشيط حراك المسلمين في مجتمع المعرفة للدفاع عن أنفسهم، وتصحيح الصورة المغلوطة عن الإسلام والمسلمين وتقديم صورة حقيقية عن الثقافة والحضارة الإسلامية في شتى مجالاتها وضروبها.
- رصد الحملات الإعلامية على الإسلام وتحليلها وبحث دوافعها ومراميها ووضع استراتيجيات مناسبة للتصدي لها.
- تشجيع المسلمين على استخدام تقنيات الاتصال بأنواعها، لما لها من تأثيرات عميقة في الرأي العام العالمي، مع ضرورة التنسيق بين المؤسسات والمنظمات الإسلامية الإعلامية وفق استراتيجية محددة وموحدة.
- الدعوة إلى إنشاء اتحادات وجمعيات ينضوي في إطارها العاملون في مجال الإعلام، بقصد التعاون والتواصل بينهم وتبادل الخبرات والمعلومات.
- تنشيط الهيئة الإسلامية العالمية للإعلام التابعة لرابطة العالم الإسلامي للقيام بمهامها، وفي مقدمتها تنسيق الجهود ووضع برامج وخطط للعمل المشترك.
- دعم وتشجيع المجتمعات الإسلامية في الغرب على إنشاء صحف ومجلات وقنوات فضائية باللغات الأجنبية لتحسين صورة الإسلام والتعريف بمبادئه وقيمه والدعوة إليه، والرد على محاولات التشويه.
- ربط قنوات الاتصال مع الصحفيين والمفكرين والأساتذة الجامعيين المقيمين في الغرب، وحثهم على توظيف منابرهم الإعلامية في خدمة قضايا الأمة الإسلامية.
- دعم الكفايات المسلمة في الغرب إلى تعميق جذور الحوار الثقافي والحضاري مع المؤسسات الإعلامية والثقافية الغربية، بما يمكن من ترسيخ قيم مشتركة للتفاهم والتعايش والاحترام المتبادل.

- دعوة المؤسسات الإعلامية في العالم الإسلامي إلى حصر ما في المكتبات ودور الوثائق والأرشيف ونقلها وتحويلها إلى أرشيف رقمي، وإيداعها في سياق الشبكات والمكتبات والمواقع الالكترونية، لإتاحتها لمن يريد الاطلاع عليها مع الاهتمام بترجمة الوثائق المهمة.
- حث المؤسسات الإعلامية على العناية بالإنتاج البرامجي، وخاصة فيما يتعلق بالأطفال والشباب والمرأة وربطه بالقيم الوسطية للإسلام.
- العمل على البناء المعرفي والتربوي للقائمين على الإعلام، باعتبار أن التطور الذي يشهده العالم في التقنية الإعلامية، لابد أن يسانده تطور في القوى الإعلامية التي تستطيع استيعاب التقنية وتطبيقها في الممارسة اليومية وفي الوسائط المتعددة وهذا يقتضي:

أ- استمرار التدريب والتطوير في المؤسسات الصحفية والإعلامية وتزويدها بالأجهزة والمعدات الجديدة التي تمكنها من القيام بأعبائها.

ب- إنشاء مراكز ومعاهد التدريب، وأن نركز على الجانب العملي والتطبيقي مع ضرورة مسايرة التقدم التقني المطرد في وسائل الإعلام والاتصال لتأهيل نخب إعلامية مسلمة تقوم بواجبها الدعوي من خلال الإعلام.

- الارتقاء بوعي الأسرة وترشيد التعامل مع وسائل الإعلام والاهتمام بإجراء بحوث علمية حديثة، تعني بفرز استخدامات الأسرة لشبكة الإنترنت.
- إعادة النظر في مناهج كليات الإعلام وأقسام الدراسات الإعلامية في العالم الإسلامي، بما يتجاوز فلك المدارس القديمة للإعلام.
- إدخال مادة التربية الإعلامية في المناهج الدراسية في التعليم ما قبل الجامعي، تتضمن برامج ومشروعات موازية، تهتم بترقية التحصين الذاتي للطلاب، وتحسين العلاقات الأسرية والتفاعل السوي بين الأفراد وتطوير علاقات الثقة بين الأبناء وذويهم.
- التأكيد على حق العالم الإسلامي في الفضاء الخارجي.
- الدعوة إلى عقد لقاءات مباشرة مع الجهات الإعلامية ذات الثقل والنفوذ في البلاد الغربية، بهدف إيضاح حقائق الإسلام والسعي إلى تغيير وتعديل الصورة النمطية عن الإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي.
- إنتاج مواد وبرامج إعلامية تعريفية للمناسك والفرائض وبالقيم الناظمة لمسار المجتمع وحراكه الحضاري وللتعريف بالمقدسات والحض على الحفاظ عليها.

وفي سبيل ذلك طالبت التوصيات بضرورة السعي إلى توطين التقنية الإعلامية باستقطاب العلماء المسلمين وتوفير بيئة البحث العلمي في الجامعات والمعاهد التقنية ومراكز البحث العلمي وكذلك إقامة المصانع المنتجة لأدوات ووسائل التقنية الإعلامية بالشراكة مع الدول المتقدمة.

- السعي لإنشاء مؤسسات للصناعة الإعلامية المتقدمة كالأقمار الصناعية.
- التعاون بين رابطة العالم الإسلامي ووزارات الإعلام والثقافة في العالم الإسلامي:

تكنولوجيا المستقبل.. بين النانو والفمتو

٢

للأستاذ الدكتور/ أحمد فؤاد باشا

من أسرار المادة فى عالم النانو

تعتمد الدراسات العلمية التى يجريها العلماء على المادة فى حالتها الصلبة اعتماداً رئيسياً على طريقة ترتيب الذرات والجزيئات المكونة لها، وعلى مدى دقة النظام الهندسى لهذا الترتيب، وهو ما يعرف بخاصية التركيب البناء البلورى CRYSTAL STRUCTURE للمادة، ولكى نقف على أهمية هذه الخاصية فى عالم النانو، أي في عالم المتناهيات في الصغر الي جزء من ألف مليون جزء من وحدة القياس، نعتبر ذرات الكربون التى يؤدى اختلاف ترتيبها فى مواد معينة، كالفحم والجرافيت والألماس.. إلى اختلاف كبير بين خصائص هذه المواد.

فذرات الكربون بترتيب معين تكون مادة الجرافيت السوداء الناعمة، والخفيفة الهشة التى يصنع منها أقلام الجرافيت المعروفة باسم أقلام الرصاص، فينطبع أثرها على الورق نتيجة الاحتكاك عند الكتابة، أو الرسم عليه، حيث يلتصق الجرافيت بالورق مكونا حروفاً أو أشكالاً.

وذرات الكربون نفسها، بترتيب معين «تركيب بلورى» آخر، تكون مادة الألماس التى يخطف لمعانها الأبصار، ويحرص الأثرياء وأصحاب الجاه على اقتنائها والتزين بها، وهى مادة عالية الشفافية والكثافة، فضلا عن أنها تعد من أصلب المواد الجامدة، ولا يمكن خدشها بأى مادة أخرى لأنها تمثل الدرجة العليا على مقياس الصلابة، كما أن الألماس، على عكس الجرافيت، مادة

عازلة كهربياً، أى أنها غير موصلة للتيار الكهربى.

ومادام الأصل فى المادتين - كما رأينا - من الناحية الكيميائية هو ذرة الكربون، فلم لا نعيد ترتيب هذه الذرات فى الجرافيت ليتحول إلى ألماس؟!

كان هذا هو ما سعى الباحثون إلى تحقيقه حديثا، واستطاعوا تحضير الألماس الصناعى من الجرافيت باستخدام ضغوط ودرجات حرارة عالية، وأمكن إضافة بعض الشوائب التى تتخذ لها مكاناً فى البنية البلورية للألماس، فتكسبه ألواناً جذابة، مما يجعل البعض يفضلون الألماس الصناعى على الألماس الطبيعى، وبطبيعة الحال، لم يفطن الصناع إلى أنهم بهذا يمارسون تكنولوجيا نانوية على مستوى الذرات من دون أن يروها.

ولهذا، فإن الجديد فى تكنولوجيا النانو حاليا هو التعامل مع الذرات والجزيئات والمفردة وتحريكها وتشكيلها لبناء مادة نانوية ذات أبعاد أقل من مائة نانو متر.

كربون الفوللرين وعائلته

اكتشف العلماء حديثا صورة رابعة متبلورة لعنصر الكربون تختلف عن الأشكال الثلاثة المعروفة، وهى الفحم والجرافيت والألماس، وقد اكتشف هذه الصورة الجديدة بعض علماء الفلك، عندما وجدوا قمماً موجية غريبة فى طيف الضوء الصادر من بعض أجرام السماء، ولم يعرف أحد دلالتها فى ذلك الحين، ولكن العالم البريطانى كروتو والعالمين الأمريكيين كيرل وسمولى تمكنوا فى عام ١٩٨٥م من تحضير جزئ جديد للكربون لم يكن معروفاً من قبل، ويختلف عن كل من الألماس والجرافيت.. وكان هذا الجزئ الجديد يتكون من ستين ذرة من ذرات الكربون توجد على هيئة كرة مجوفة على سطحها ذرات الكربون التى تتصل معاً على هيئة ١٢ حلقة خماسية و٢٠ حلقة سداسية، وقد أطلق على هذا الجزئ الكربونى الجديد اسم الفوللرين FULLERENE، نسبة إلى المهندس المعمارى الأمريكى بكمنستر فوللر BUCKMINISTER FULLER الذى ابتكر القبة المستديرة المجوفة التى تشبه فى مظهرها الكربون - ٦٠ مما يجعلها خفيفة ومتينة.

وكان البعض قد رأى شبهاً كبيراً بين السطح الخارجى لجزئ الفوللرين، والشكل الخارجى لكرة القدم، فاقترح تسمية هذا الجزئ باسم فوتبولين نسبة إلى كرة القدم FOOT BALL، ولكن هذه التسمية لم تلق قبولاً وأهملت، ويستخدم بدلاً من ذلك أحياناً مصطلح كرات باكى BUCKY BALLS، على سبيل التدليل لاسم المهندس والمخترع الأمريكى مصمم ومنفذ أول قبة كروية الشكل.

وقد تحقق العلماء بعد ذلك من تركيب

هذا الجزئ باستخدام الميكروسكوب الإلكتروني وطيف الرنين النووى المغناطيسي NMR، ووجدوا طريقة مناسبة لتحضيره بالتسامى المحكوم للجرافيت بواسطة التيار الكهربى.

وتجدر الإشارة إلى أن جزئ الفوللرين ليس ترتيباً واحداً لذرات الكربون، ولكن هناك مجموعة أو «عائلة الفوللرينات» ذات الترتيبات المختلفة لذرات الكربون النقى، وتتخذ أشكالاً متنوعة من تجاويف كروية وبيضاوية وأنبوبية بحسب ما إذا كان العدد الزوجى لذرات الكربون فيها أكبر أو أقل من ٦٠ ذرة.. فجزئ الفوللرين المتكون من ٧٠ ذرة كربون - مثلاً - له خصائص أخرى تميزه عن غيره من عائلة الفوللرينات، فهو بيضاوى الشكل، ويمكن ترسيبه على هيئة طبقة رقيقة جداً فوق سطوح الفلزات وغيرها، مما يجعله صالحاً للاستخدام فى الصناعات الإلكترونية.

وقد اكتشف مؤخراً أن هناك صورة أخرى للفوللرين توجد على هيئة أنابيب رفيعة جداً يتغطى سطحها بحلقات خماسية أو سداسية من ذرات الكربون، وتقفل أطرافها بكرة من الفوللرين، وأطلق على هذه الأنابيب اسم أنابيب النانو، NANOTUBES، ولا يزيد قطر هذه الأنابيب على ٢,٥ نانو متر.

كذلك أمكن تحضير مشتقات جديدة من الفوللرين مثل مشتق اللانثانوم ومشتق البورون ومشتق النتروجين، وغيرها، وتوجد الذرة المخالفة فى داخل كرة الفوللرين.

ومع تزايد اكتشاف أفراد جديدة فى عائلة الفوللرينات، زاد اهتمام الباحثين بالكشف عما تمتلكه هذه الجزيئات العضوية من صفات فيزيائية وكيميائية فريدة ترشحها لتطبيقات جديدة فى الطب والصيدلة والصناعة وغيرها.. فعلى سبيل المثال، تبين أن الفوللرين يصبح موصلاً جيداً للتيار الكهربى عند تعرضه لبخار البوتاسيوم، لأن الإلكترون الخارجى فى ذرة البوتاسيوم ينتقل إلى جزيئات الفوللرين ويصبح حراً فى الحركة، كذلك وجد أن جزيئات الفوللرين يمكنها أن تمتص جزءاً من الضوء الواقع عليها، وهذا يؤهلها لأن تعمل كمرشحات للضوء للحد من شدته، كما نجحت بعض التجارب حديثاً فى تحويل الفوللرين إلى ألماس صناعى، وتهتم بعض الشركات العالمية حالياً بإنتاج مركبات الفوللرين بكميات تجارية.

كربون الجرافين وقلم «الرصاص» النانوى:

أحدث عجائب الكربون فى عالم النانو هى صفيحة الجرافين GRAPHINE المفردة بسُمك ذرة واحدة من ذرات الكربون، وعندما تتكدس مع غيرها من الصفائح المماثلة تعطى الجرافيت الذى تصنع منه مادة قلم الرصاص، وهذا يعنى أن كل ما يسطر بقلم الرصاص يتضمن كميات صغيرة جدا من الجرافين الذى يمثل إحدى المواد النانوية الجديدة الأكثر إثارة فى دنيا العلم والتكنولوجيا.

يشتق الجرافين من الجرافيت الذى يتكون من طبقات محددة من ذرات الكربون، بعضها فوق بعض، وتتألف صفيحة الجرافين من ذرات كربون مترابطة معاً فى شبكة من سداسيات متكررة فى مستوى سُمك ذرة واحدة، ومرت عملية فصل هذه الصفيحة النانوية من الجرافين بمحاولات عديدة، يتم فيها فصل بلورات الجرافيت إلى رقاقات يتناقص سمكها باطراد، وذلك بكشط هذه البلورات، أو حكها على سطح آخر.. وفى عام ٢٠٠٠ م استطاع فيليب كيم PH. KIM - وكان حينذاك طالب دراسات عليا فى جامعة كولومبيا - أن يحصل على نسخة ذات تقنية عالية من قلم رصاص نانوى NANOPENCIL تعطى الكتابة به شرائح من الجرافيت لا يزيد سمكها على بضع عشرات من الطبقات الذرية، ونلاحظ هنا أن النتيجة ظلت تتمثل فى أن ما حصل عليه كيم ما يزال رقاقة جرافيت وليست صفيحة جرافين.

وفى عام ٢٠٠٤ م قام أندريه جايم، أستاذ الفيزياء فى جامعة مانشستر بإنجلترا، بمحاولة صنع عينات من الجرافيت أقل سُمكاً إلى أن توصل إلى جذاذات جرافين ذات نوعية بلورية عالية الجودة ومستقرة كيميائياً حتى فى درجة حرارة الغرفة، وقد أدى الاكتشاف التجريبى للجرافين إلى اهتمام بحثى دولى عارم، فالمادة النانوية الجديدة، الجرافين، ليست فقط هى الأكثر رقة بين المواد المعروفة جميعها، لأنها بسُمك ذرة واحدة فقط، بل هى أيضاً شديدة القوة والقساوة، والأهم من ذلك أنها بشكلها النقى أسرع موصلية للإلكترونيات «فائقة التوصيل» فى درجة حرارة الغرفة من أى مادة أخرى.. ويقوم حالياً المهندسون فى جميع مختبرات العالم بإجراء دراسات معمقة لهذه المادة لمعرفة إمكان تصنيعها فى منتجات لها قدرة تحمل فائقة، وفى وسائط عرض ذكية، وترانزستورات فائقة السرعة[1].

قصة الجرافيت مع قلم «رصاص»

يقول الفيزيائيان أندريه جايم، وفيليب كيم فى مقال لهما بعنوان «عالم عجائب الكربون» فى مجلة العلوم الأمريكية «أكتوبر/ نوفمبر ٢٠٠٨م»: «ربما يكون مفاجئنا أن تعرف «أيها

(١) استحق العالم الإنجليزى من أصل روسى «أندريه جايم» أن يحصل على جائزة نوبل فى الفيزياء لهذا العام ٢٠١٠م.

القارئ أن أداة الكتابة الشائعة - قلم الرصاص المتواضع - قد تصدرت في وقت من الأوقات قائمة الضرورات ذات التقنية العالية، ففي الواقع كان قلم الرصاص البسيط هذا بمثابة عتاد استراتيجي يمنع تصديره، وربما تستغرب أكثر ما يقال من إنه كلما سطر شخص سطرا بقلم الرصاص، ترك أثراً يتضمن شذرات من المادة الجديدة الأكثر إثارة في الفيزياء والتقنية النانوى، ألا وهي الجرافين.

ويلخص هذان العالمان، المتخصصان في مجال الخواص النانوية للمواد المتبلورة الثنائية البعد والتي يبلغ سُمكها ذرة واحدة، قصة الجرافيت مع قلم الرصاص وعائلة الفولرينات، فيذكر أن الجرافيت النقي لم يعرف إلا في القرن السادس عشر الميلادي حيث اكتشف الإنجليز مكامن كبيرة منه وأطلق عليه يوم ذاك اسم بلومباجو PLUMBA-GO، تعني باللاتينية فلز الرصاص، وقد اتضح في الحال إمكان استعماله في الخط والكتابة عوضا عن الحبر وسرعان ما أصبح قلم الرصاص أداة الكتابة والرسم السائدة في أوساط المثقفين الأوروبيين.

ولكن لم يتضح أن البلومباجو هو كربون وليس رصاصاً، إلا في عام ١٧٧٩م على يد الكيميائي السويدي «شيليه»، وبعد ذلك بنحو عقد من الزمان اقترح الجيولوجي الألماني فيرنر أن إطلاق اسم جرافيت على هذه المادة يكون أنسب لأنه مشتق من كلمة يونانية تعني «يكتب»، وفي الوقت ذاته اكتشف مصنعوا العتاد العسكري استخداماً آخر لهذه المادة الهشة.. لقد وجدوا أنها تشكل بطانة مثالية لقوالب صب قذائف المدافع، وأصبح هذا الاستعمال من الأسرار العسكرية الشديدة الكتمان، فعلى سبيل المثال، قام التاج البريطاني أثناء حروب نابليون بحظر تصدير الجرافيت وأقلام الرصاص إلى فرنسا.

وفي العقود الحديثة استعاد الجرافيت بعضاً من مكانته التقنية الرفيعة الشأن، عندما اكتشف الباحثون الخواص والتطبيقات المختلفة والواعدة للأشكال الجديدة في عالم الكربون، رغم أنها كانت في متناول اليد على الدوام، فهي موجودة على سبيل المثال، في السناج «الهباب» الذي يكسوا أغلفة أجهزة الشواء، وإن كانت بكميات صغيرة جداً، وبالطريقة ذاتها، فإن بعض الجرافين لابد وأن يكون موجوداً في كل أثر خطه قلم رصاص، على الرغم من أن ذلك لم يلحظ عبر أزمان مديدة.

***

قراءة في كتاب

صلة الإسلام بإصلاح المسيحية



أمين الخولي

للأستاذ / عادل خفاجة

الحوار بين الأديان موضوع بالغ الأهمية، ويتطلب تبادل الاحترام بين الأطراف المتحاورة وحسن الإنصات، وإبداء الآراء في جو تسوده الأخوة الإنسانية، إذ الهدف الأسمى للحوار الوصول إلى الحق وإظهاره، وأن لا يبالي أي من المتحاورين على لسان من يظهر الحق.

والحوار وسيلة من وسائل الدعوة الإسلامية، لقوله تعالى:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

(آل عمران / ٦٤)

وإذا كان الهدف الأسمى للحوار هو عرض قضية التوحيد فإن من ثمارها - أيضا - تبادل الاحترام مع رفيق الحياة، ليفهم كلُ الآخر.

وفي واحد من المؤتمرات التي تعنى بتقارب الأديان كان هذا البحث الفذ الذي أعده العالم الكبير الشيخ أمين الخولي وألقاه في مؤتمر تاريخ الأديان الدولي السادس المنعقد في بروكسل في ١٦: ٢٠ سبتمبر من عام ١٩٣٥م شعبان ١٣٥٤هـ. وهو موضوع هذا الكتاب «صلة الإسلام بإصلاح المسيحية» الذي نتناوله بالعرض.

مؤلف الكتاب: هو الشيخ أمين إبراهيم عبد الباقي عامر إسماعيل يوسف الخولي ولد في ١ مايو ١٨٩٥ بقرية شوشاي - مركز أشمون - محافظة المنوفية.

وكان «أمين الخولي» ابن قرية (شوشاي) وابن مدرسة القضاء الشرعي مصرياً أصيلاً معادياً للاحتلال الإنجليزي مطالباً باستقلال الوطن ومؤمنا بوحدة الشعب العظيم، يقول عنه المفكر الكبير الدكتور محمد عمارة: «رأيت عقلا أحسبه من أكبر العقول في جيل الأساتذة العظام الذين أنجبتهم مصر في النصف الأول من القرن العشرين - وهو جيل ما زلنا نباهي بأعلامه الأمم والحضارات.. رأيت فلاحاً مصرياً، يعيش دقائق وتفاصيل حياة الفلاح المصري - التي أعرفها كفلاح - ويحمل حكمة هذا الفلاح، الضاربة في أعمق أعماق تاريخ الحضارات.. مع أفق حضاري عالمي. استوعب بالفكر - كصناعة ثقيلة - وبالثقافة المنفتحة على مختلف الثقافات - استوعب مواريث الإنسانية، في مختلف الحضارات والديانات والفلسفات.. مع وعي سياسي جعل صاحبه يتحدث عن التيارات السياسية العالمية، والمذاهب الأيديولوجية الكونية، والمصالح القومية والدولية، وكأنه صورة معاصرة لجمال الدين الأفغاني.

كتب عن (مالك بن أنس) و (المجددون في الإسلام) و (الأزهر في القرن العشرين) و (الجندية في الإسلام) و (من هدى الرسول) و (في أموالهم) و (صلة الإسلام بإصلاح المسيحية).


محمد عمارة


أمين الخولي

الكتاب: يقع الكتاب في مائة وثمان وعشرين صفحة من مقاس ١٥×٢٢سم صدر عن دار «سنا الفاروق للنشر» بالمملكة العربية السعودية - جدة.

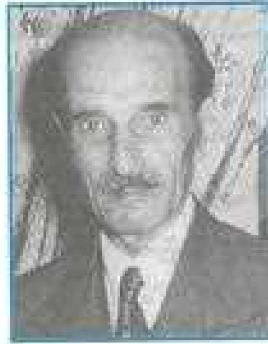
استهل الكتاب بتقديم من الدكتور عمر ابن حسين الموجان الأستاذ بجامعة الملك عبدالعزيز آل سعود الذي أحسن حين قال: «وبعد سبعين سنة من صدور هذا البحث القيم نجد أن هذه الدراسة الواعية تستشرف المستقبل. فاليوم نحن في أمس الحاجة إلى هذا المنهج الحواري الذي جاء في هذا العمل المتميز الذي قام به الأستاذ الخولي، فهو جهد دارس متعمق يستحق أن ينال حقه من الذيوع والانتشار خاصة وأن مؤلفه قد حالفه التوفيق في اختيار موضوع البحث بعدما اختلطت شعوب الأرض التي تدين بديانات مختلفة وأصبح لزاما إيضاح الحق للناس فهو أمانة يحملها من آتاهم الله العلم وسلكوا طريقه».

وقد وفق حين اختار هذه الكلمة لميخائيل نعيمة التي يصف فيها اتصال الشرق بالغرب إذ يقول:

«إذا ما قلت لكم إن الشرق هو بصيرة العالم وإن الغرب هو بصره، فما إخالكم تسيئون فهم ما أقول، فتحسبون أن الشرق كله بصيرة ولا بصر، وأن الغرب كله بصر ولا بصيرة. ذاك يعني تجريدكم الشرق عن كلّ حسٍّ خارجي، وتجريدكم الغرب عن كل شعور باطني، وهو غير الواقع وغير المعقول. وجل ما أرمي إليه هو القول بأن زبدة الشرق في بصيرته وزبدة الغرب في بصره.

لقد اتبع الشرقُ هدى البصيرة، واتبع الغربُ هدى البصر؛ فأنجب الأول الأنبياء وأنجب الثاني العلماء.

تبع هذا التقديم كلمة للأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي بعنوان: «أمين الخولي في بحوثه العلمية» أشار فيها إلى نشأته الأزهرية ومخالطته علماء الغرب في كل من إيطاليا وألمانيا وأنه درس مناهج الاستشراق ليدافع عن رأيه، لا لينقاد إلى آرائهم ثم عدّ بعضا من آثاره وخلص إلى أحسنها الذي أبدع فيه كل الإبداع إنما هو ما كتبه عن تأثير الإسلام في المسيحية، لذلك أولاه شيئا من التفصيل ويقول فضيلته: «إذا كان الأزهر قد طبعه منذ نصف قرن طبعة متواضعة، وأذاعه في حيز محدود فمن حق الباحثين عن الحقيقة أن يكتبوا عنه في كتبهم الموضوعية، ومن واجب الناشرين أن يرحبوا بإذاعته على أوسع نطاق»(١).


ميخائيل نعيمة

إصلاح المسيحية بالإسلام

هذا البحث يقع في ثلاثة فصول استهله المؤلف الكبير بفاتحة شديدة التركيز أوضح فيها أن:

- البحث العلمي النزيه، عن اتصال الأديان وآثار ذلك الاتصال خطوة صالحة في سبيل السلام العالمي، والأخوة الإنسانية.
- الاتصال بين المسيحية والإسلام في الشرق كان موضوع دراسات كثيرة، لم يكن ذلك الاتصال - غير القصير - بينهما في الغرب، موضوعاً لمثل تلك الدراسات.
- الإصلاح البروتستانتي أكبر حادث متأخر في حياة المسيحية بعامة، وأكبر حادث في حياتها الأوروبية بخاصة ومن أجل ذلك تسهل ملاحظة هذا الاتصال وآثاره فيه.
- أنه يقصد الإسلام من حيث هو عقيدة لمعتقديه، ثم أعمال ومظاهر دينية في حياتهم، وكذلك من حيث هو فكر وآراء عند دارسيه من المتكلمين، وفلاسفة المسلمين فلكل ناحية من هذه النواحي آثارها.

(١) جدير بالذكر أن الكتاب نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٣، كما نشرته نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع في طبعته الأولى سنة ٢٠٠٦.

• كما أنه قصد بالإصلاح المسيحى تلك الأعمال المادية والعقلية، التى بذلت فى سبيل تغيير نظام الكنيسة الرومانية خلال قرون طويلة حتى جاء «مارتن لوثر» الذى صير الإصلاح حقيقة واقعة.

الاتصال المادى بين الدينين

فى هذا الفصل الأول من بحثه يؤكد المؤلف أن أظهر مظاهر الاتصال بين الدينين كانت تلك المواجهة الحربية التى سعى فيها الشرق حينا إلى الغرب والغرب آنا إلى الشرق.

هذه الحروب المتداولة وذاك الاستعمار من الشرق للغرب ومن الغرب للشرق، قد تهيأت به فرص عملية للاتصال بين الدينين.

فكانت تؤخذ الأسرى من الجانبين، فيطول مقامهم أحياناً إلى أن يُفدوا ويعودوا إلى بلادهم ألسنة تعريف بما رأوا وسمعوا، بل بما تأثروا به من المؤثرات الفكرية والدينية والعملية للأمم التى خالطوها، وضرب مثلاً بذلك الأسير الذى أسره القراصنة ودعوه «ليون الأفريقى» وما هو إلا أبو على الحسن بن محمد الوزان الغرناطى الفاسى وهناك كتب كتبا كثيرة منها كتابه «القانون والعقيدة الإسلامية» وما ذكره المؤلف إلا لبيان ما قد يكون من التأثر والتأثير الدينى بالأسرى.

كما يشير المؤلف إلى أن صفوفاً من المسيحيين الأوروبيين كانوا يقاتلون تحت اللواء الإسلامى: إما عن طريق جعل الأسارى المسيحيين وسبيهم جنودا وإما عن طريق تقدمهم لتلك الخدمة عن طيب خاطر.

وكانت جيوش ملوك الإفرنج أيضاً قد تنظم جنداً من المسلمين: إما عن طريق الغلبة وإما على سبيل الاستعانة بهم كما يروى أن فردريك الثانى «هو هنشتاو فن» قد اتخذ فى جيشه الجند المسلمين، فكانت صفوف الجند فى الغرب مجالاً لالتقاء أهل الدينين ومخالطتهما، سواء فى ذلك الجيوش الإسلامية والجيوش المسيحية.

كما يشير المؤلف إلى أهمية الدعاية السياسية التى تمس النواحى الدينية، كنشرات الدعاية الموهنة للقوة المعنوية ويشير إلى أنها كانت تكتب باللغة العربية وأنها فى بعض الأحيان كانت تكتب شعراً.

وكانت تضم إلى جانب السياسة أموراً دينية ثم يقول: وتلك الصلات الحربية والسياسية تحوج إلى تبادل الوفود بين الجيوش والحكومات لعقد الهدنة وتقرير الصلح، وتوطيد العلاقات، وفى هذه الوفود نرى نزوعاً خاصاً من المسلمين والمسيحيين، إلى اختيار رجال دين يصمدون للمناقشات والمجادلات الاعتقادية التى كانت تجرى عند التقابل، حتى فى الحفل الرسمى الذى يقام لاستقبال السفير الوافد.

كما يشير إلى أنه من آثار ذلك الاتصال المادى أن الاستعمار الإسلامى إذا ما انحسر عن الأقطار الغربية، ترك فلولاً، بل جموعاً، تطويها اللجة الغامرة من الغلبة السياسية والحربية، فتدخلها فى المسيحية الغربية، عناصر تلقيح وطرق تعريف بالإسلام.

ويشير المؤلف أنه من آثار ذلك أن وجدنا

أقليات إسلامية فى أنحاء مختلفة من أوروبا، وشهدت بذلك آثار غربية محفوظة.

كما أشار المؤلف -أيضا- إلى أثر التزاوج بين الجانبين واستشهد بزواج بعض أولى الأمر فى الأندلس بأميرات غربيات مثل: عبدالعزيز بن موسى بن نصير الذى تزوج أرملة الملك لزريق، وزواج زياد بن النابغة التميمى الذى تزوج إحدى بنات ملوك الأندلس.. فكان فى هذه الصلات وأشباهها مما كثر، ما يعرف كل صاحب دين بصاحبه فى الغرب تعريفاً قوياً..

بالإضافة إلى ما تركته التجارة من أثر فى هذا الاتصال بالإضافة إلى رحلات أخرى لغير أغراض التجارة.

وينهى هذا الفصل بقوله:

فتعاون تلك العوامل الجمة على تعريف الغرب بالكثير من آراء الإسلام وعقائده، تعريفا لابد أن يكون له أثره بفعل النواميس الكونية فى حياة الأفكار والآراء والعقائد، من حيث تأثير بعضها فى بعض.

الاتصال المعنوى بين الدينين

أما الفصل الثانى الذى خصصه المؤلف للحديث عن الاتصال المعنوى والذى يبدو فيه الإصلاح أكثر وضوحاً فقد استهله المؤلف بقوله:

• «فى الوقت الذى كانت تجنح فيه الأمة الإسلامية إلى الاستقرار لتقوم بنصيبها فى خدمة المدنية الإنسانية شرقاً وغرباً.. خلال المدة من القرن الثامن إلى الثالث عشر الميلادى، فى ذلك الوقت كانت الحياة الاجتماعية والعقلية بل الدينية فى الغرب غافلة هامدة».

• وكان الأشراف فيه جهلاء، أميون حتى ليوقعون الوثائق والقوانين المهمة، بصورة صليب، هى كل ما يعرفونه من الإمضاء.

• وكان أعظم قضاة الدولة أمياً لا يكتب.

• وكان الدين المسيحى قد صار إلى بدع بربرية وأكثر رجاله جهلة لا يستطيعون التوقيع على القوانين التى تصدرها المجامع.

ثم يقول: «وإذا كان يُستكثر إطلاق القول بأستاذية العرب التامة للغرب فى كل شىء، وأن كل العلماء المعروفين من جميع الأمم إلى القرن الثالث عشر أو الخامس عشر إنما كان كل عملهم هو تقليد العرب، فلامفر من القول بأن الثقافة الإسلامية قامت بدور المرشد الأمين، وأمدت متعلمى القرون الوسطى بمادة كثيرة لدراستهم.. ويصل إلى هدفه مباشرة عندما يقول:

«وإذا كان يُشك فى أن البابا سلفستر الثانى نفسه «سنة ٩٩٩م» قد تعلم على العرب فى بلادهم، فلن يُشك أبداً فى أن كثيرين غيره قد تعلموا فى هذه البلاد».

ثم يجمل القول عندما يسجل أن الثقافة الإسلامية كانت منتشرة فى جميع أنحاء أوروبا فى القرن الثالث عشر الميلادى.

ويتناول المؤلف فى هذا الفصل توضيح ثلاث نقاط ـ بشىء من التفصيل ـ هى:

(١) معرفة الأوروبيين للغة العربية، لغة المعارف الإسلامية والدين الإسلامى.

(٢) الاتصال الفلسفى بين أوروبا والأمم الإسلامية، لما كان هناك من صلة قوية بين الفلسفة والحياة الدينية فى تلك الأزمنة.

(٣) معرفة الأوروبيين للعلوم الدينية الإسلامية.

ثم يلفت النظر إلى ذلك الاتصال بين الشرق والغرب ودينيهما فى البيئة الألمانية بخاصة إذ هى التى كانت ميدان معارك الإصلاح العملى للمسيحية فى دوره التنفيذى إذ يقول:

«ففى حركة نقل العلم الإسلامى إلى أوروبا، قد رأينا أن ناصرها الأكبر إنما هو الإمبراطور الملحد فريدريك الثانى هوهنشتاوفن الألمانى الذى يعرف تاريخ الكنيسة أثر صراعه وصراع أسرته، وما لحق البابوية بسبب ذلك من أضرار.. وميوله -الإمبراطور- الشرقية العربية، بل الإسلامية، كانت مثلاً غريباً فى أوروبا فى العصور الوسطى بل فى هذه العصور الحديثة أيضاً.

فلقد آثر الثقافة العربية على الثقافة اليونانية، وظهر التأثير العربى فى تربيته وفى ميوله الشخصية، ولعظم ذلك التأثير العربى عليه كان يلقب «السلطان المعمد» ومنذ أعوامه الأولى كان يحيا على أسلوب عربى، ويألف العادات العربية، وقد أنشأ من عهد زواجه الأول مقاصير للسيدات -يسميها الكتاب الغربيون حريماً- وعلاقاته الودية مع الشرق مما يلذ تتبع بحثه، ويكشف عن درجة تغلغل روح الشرق فى أوروبا خلال العصور الوسطى.

من نتائج الاتصال

ينتقل المؤلف فى هذا الفصل الثالث والأخير إلى توضيح النتائج التى أفرزها هذا الاتصال وأنها تمثلت فى الغض من سلطة الكنيسة والإقلال من سيطرتها على أفئدتهم.

● وأن من نتائجها -أيضا- تحرير العقل.

ثم هو يقول قبل هذا السرد «إننا حين نفسر هذا الاتصال لا نزعم أنه هو وحده الذى خلق حركة الإصلاح المسيحى وأنه سببها الأول والأخير، بل نقدّر ما هنالك من أسباب وعوامل اجتماعية ودينية وغيرها قد عملت عملها، وتركت أثرها ودفعت الحياة إلى ذلك الاتجاه، فلفتتها إلى النواحى العقلية والدينية التى قربها لها وقدمها بين يديها ذلك الاتصال السالف بالشرق الإسلامى.

ولم يترك القلم حتى تكلم عن الآثار الخاصة فى مبادئ الإصلاح البروتستانتى نفسها، فساق كلام لوثر فى هذا الشأن «إنه يكفى للنجاة تصحيح العقيدة فالنجاة منحة من الله يتلقاها كل إنسان من ربه رأساً بواسطة العقيدة دون العمل التوسطى للكنيسة فى ذلك، إذ لا وساطة للكنيسة بين الله والناس». وهو ما يبدو فيه الأثر الإسلامى دون أدنى شك.

ومنها -أيضا-: (أن كلمة الله هى الضابط الوحيد، فالسلطة إنما هى للكتاب المقدس وحده وينبذ كل ما هو خارج عنه من آراء المجمع والآباء والتقاليد).

ويتبع المؤلف هذه المقولة ويقدم الأثر الإسلامى فيها.

ثم يقدم نصا للأستاذ ألفريد جيوم بعدما تحدث عن تراث الإسلام يقول فيه: (وسوف نرى عندما تخرج إلى النور الكنوز المودعة فى دور الكتب الأوروبية أن تأثير العرب الخالد فى حضارة العصور الوسطى كان أجل شأناً وأكبر خطراً مما عرفناه حتى الآن). ثم ينهى المؤلف بحثه بالتعقيب على ذلك قائلاً: سوف نرى عندما تتجه الرغبة العلمية إلى درس هذه الصلة بين الدينين فى نزاهة وإخلاص أن أثر الإسلام فى حياة أوروبا الدينية لا يقل أبداً عن أثره فى حياتها الفلسفية والعلمية والفنية.

ولقد حظى البحث بمقدمة مستفيضة من الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى المراغى شيخ الأزهر آنذاك، كما حظى الكتاب فى طبعته الحديثة بكلمة للأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى تحت عنوان «أمين الخولى فى بحوثه العلمية».

أما فضيلة الأستاذ الأكبر فقد أثنى على البحث وصاحبه، حيث قال: إنه موضوع طريف وبكر -فيما أظن- ويبدو كأنه غريب، لكن الأستاذ الخولى بما منح من رجاحة العقل ودقة البحث وسعة الاطلاع، استطاع أن يزيل هذه الغرابة، وأن يمهد الطريق للوصول إلى رأى صائب فى الموضوع، ثم قدم الأستاذ الأكبر خلاصة مستفيضة لهذا البحث القيم، ويتوقف عند قوله «إننا حين نفسر هذا الاتصال وذلك التأثير، لا نزعم أنه هو وحده الذى خلق حركة الإصلاح المسيحى وأنه سببها الأول والأخير.. إلخ.


المراغى

فيصف هذه العبارة بالحكمة وأنها صادرة عن نزاهة فى البحث وعن اعتدال فى تقدير الأشياء تدفع ما قد يظن أنه يوجه إلى البحث من نقد، فالأستاذ لا يدعى أن الإصلاح المسيحى ثمرة مباشرة للمعارف الإسلامية، تفردت تلك المعارف بإيجادها ولولاها لما وجد الإصلاح، بل يصرح بأن الإصلاح كان نتيجة لعوامل كثيرة اجتماعية ودينية وغيرها، وغاية الأمر أن المعارف الإسلامية كانت تحمل العناصر التى يمكن أن تصاغ منها أمنية المصلحين، وأنها جذبت الأبصار إليها، ووجهت العقول نحوها، وخلقت مزاجاً أعانهم على ما اختاروه.

وينهى الأستاذ الأكبر مناقشته لنتائج البحث بقوله: والأستاذ الخولى رجل يحب الجدل ولا يقتنع إلا حيث يصح الاقتناع وهذا الشأن منه هو الذى حبب إلىّ منازعته فى الرأى.

ثم يقول فى موضع آخر:

«وهذه الدراسة التى حاولها الأستاذ فى هذه المسألة، خليقة بأن يقتدى بها علماء الدين فى دراسة الأديان، دراسة مقارنة فهى تعين على أداء رسالة الإسلام وتوسع أفق

العالم المتدين وتزيده بصيرة في دينه، وتقديرا لعلماء السلف من المسلمين.

أما الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي في كلمته عن بحوث أمين الخولي العلمية فقد استوقفه هذا البحث على وجه الخصوص فقال عنه: «إن أحسن أثر -في رأيي الخاص- أبدع فيه الأستاذ أمين الخولي كل الإبداع هو ما كتبه عن تأثير الإسلام في إصلاح المسيحية، وهو عمل رائع مخلص لم يسبق إليه سابق من قبله، وقد دعم بالحجج الرائعة».

ويقول عنه -أيضا-: «هذا البحث الفذ يحتاج إلى فصل خاص به، وهو بحث أصيل على رقة حجمه وهو يعطي مثلا للذين يكتبون مئات الصفحات وحقها ألا تتجاوز المئة، لأنه مبرأ من الحشو والفضول وقد جهر الأستاذ بهذا البحث الجرئ في مؤتمر الأديان العالمي السادس، إذن فالأستاذ يجابه الآساد في عرينها بأقوى سلاح أعده في معركة الحجاج.

وبعد أن أشار الأستاذ الدكتور رجب البيومي إلى رءوس مسائل البحث ليجعل منها نقاط كاشفة نجده يعرض للمقدمة الرصينة للأستاذ الأكبر التي ورد بها: «إن من الممكن جدا أن يكون الإسلام قد أحدث هذا التأثير، كما بينه الأستاذ الخولي في كتابه، مع احتمال آخر هو أن يكون الرجوع إلى المسيحية الأولى قد أحدث هذا التأثير، ولكن ما الذي لفت النظر إلى الرجوع للمسيحية الأولى، بعد أن شوهت معالمها؟ إنه ما قدم الإسلام من علم ومعرفة حملت المصلحين إلى الرجوع للأصول الأولى».


د. رجب البيومي

ويعقب الدكتور البيومي على ذلك بقوله:

فالإسلام سبب مباشر في رأى الأستاذ الخولي، وقد يكون سببا مباشرا لدى الأستاذ الأكبر مع احتمال أن يكون سببا غير مباشر.

ومؤرخ الأديان من حقه أن يلحظ الصلة وأن تقوى عنده سببية ما قدم الإسلام... إلخ وبعد..

فإذا كان الكتاب قد حظي بكل هذا الاهتمام من كل من فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي وفضيلة الدكتور رجب البيومي.

وإذا لم تبق زيادة لمستزيد، فإنه يجب الإشارة إلى أن المؤلف قد اعتمد في أغلب ما أثاره من قضايا على كتابات الغربيين وقد ساعده على ذلك تمكنه من اللغتين الإيطالية والألمانية، مما جعل الكتاب يعد إضافة حقيقية متميزة للمكتبة العربية لا غنى للباحثين عن الحقيقة من اقتنائه لمسايرة البحث واستكمال ما أشار المؤلف الكبير إلى ضرورة استكماله.

وعلى الله قصد السبيل

بين المجلة و القارئ

إعداد وتقديم

أحمد السيد تقي الدين

الهجرة .. وصناعة الأمل

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الشيخ/ مصطفى الأزهري - خطيب مسجد سوق الحمام - السيدة عائشة - القاهرة:

لم تكن دعوة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه في مكة وعظ روحي أو تعليم لهمهمات يرددها اللسان، أو تعليم لبعض الفضائل الأخلاقية والاجتماعية لمحاربة بعض الرذائل التي طفح بها مجتمع مكة آنذاك، كلا، بل كانت دعوة الرسول زلزالا هدم أركان الباطل ودعائمه ليشيد بدلا منه أركان دولة الحق وتجلى ذلك في صرخة النبي ﷺ من فوق جبل الصفا حين دعا عشيرته فاجتمعوا لسماعه حيث قال: «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» نعم هو العذاب الشديد الذى حرص الرسول الرحيم ﷺ على أن يدفع قومه بعيدا عنه وإلا فما جزاء عابدي الأصنام وسدنة الأوثان والظالمين؟!

سنة الله تعالى يقررها ويؤكدها ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ منذ لحظات البعثة الأولى حين اصطحبته خديجة رضي الله عنها إليه ليقص عليه قصة ما حدث له -عليه السلام- في غار ثور حين ظهر له جبريل في أول لقاء يتلقى فيه معلم البشرية ﷺ الوحي من جبريل عليه السلام، فقال له ورقة بن نوفل: «ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي» وقال: «ليتني أكون معك إذ يخرجك قومك» ومرت الأيام والسنوات واشتد اضطهاد كفار قريش للنبي ﷺ والذين آمنوا معه واتبعوه حتى أذن الله لرسوله الأمين ﷺ بالهجرة لبلد آخر لاستقبال ماء الدعوة الطهور.

لم نعد ونحن نحتفل في هذه الايام بعام هجري جديد في حاجة أن نشنف أسماعنا بأحداث الهجرة النبوية الشريفة، وما ألفته آذاننا في مثل هذه المناسبة من كل عام؛ بل أصبح

من أهم واجبات وقتنا الحاضر أن نستلهم من أحداث الهجرة النبوية بكل خطواتها المشرقة معاني الأمل التي تبعث في حياة المسلم اليومية روحا جديدة تنطلق من روح الإسلام ودعوته وتنقله من حالة الإحباط التي تفرضها أحداث كثيرة تمر بها الأمة، وأن نفهم بعمق المعنى المراد من تحويل أحداث الاستضعاف والقهر التي واجهها النبي ﷺ وصحبه الأطهار إلى نصر وتمكين وذلك بالتأمل في قوله تعالى:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾

(التوبة: ٤٠)

هجرات الأنبياء وعظمة حادث الهجرة المحمدية فى حياة المسلمين

تحت هذا العنوان جاءت رسالة إبراهيم مسلم إبراهيم النجار - مدير عام تنظيم وإدارة سابق - سندنهور - قليوبية:

إن التاريخ يحكي لنا الكثير عن هجرات الأنبياء عليهم السلام.. فالكثير منهم اضطر إلى الهجرة من أرضه ليستوطن أرضاً أخرى طاعة لله سبحانه وتعالى.. ومنهم:

- آدم عليه السلام: فقد أمره الله بالهجرة من سمائه تعالى إلى الأرض.
- إدريس عليه السلام: هاجر ومن معه ممن آمنوا به من «بابل» إلى وادي النيل.
- نوح عليه السلام: دعا على قومه فحدث الطوفان واستقر بالسفينة على «الجودي».
- هود عليه السلام: أرسل إلى قومه عاد بالأحقاف فعصوه فهاجر ومن معه إلى «حضرموت».
- يونس عليه السلام: أرسل في نينوى بالعراق وهاجر دون إذن ربه فالتقمه الحوت وأعاده إلى الشاطئ وعاد إلى قومه.
- صالح عليه السلام: أرسله الله إلى «ثمود» فعصوه فهاجر هو ومن معه إلى فلسطين.
- إبراهيم عليه السلام: هاجر من بلد إلى بلد ومنها مكة المكرمة حتى استقر في الخليل بفلسطين.
- موسى عليه السلام: غادر مصر وقومه إلى سيناء ثم فلسطين وقد سبق أن هاجر إلى مدين من قبل.
- يعقوب عليه السلام: هاجر هو وأبناؤه إلى مصر.
- عيسى عليه السلام: هجرته إلى مصر.
- محمد عليه السلام: من مكة إلى «يثرب» (المدينة المنورة).

وكما كانت أحداث الهجرة في حياة الأنبياء عليهم السلام بهذه الأهمية فقد كانت أيضاً هجرة المصطفى محمد «ﷺ» من مكة بعد معاناة ثلاثة عشر عاماً من الألم والعذاب له ولأصحابه «رضي الله عنهم» فكانت هي لحظة الخلاص للانطلاق إلى «يثرب» دار الأمن والأمان والسلام.

وقد هاجر «عليه السلام» وجبريل يبشره بالعودة عما قريب فاتحا منتصرا حيث يقول تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾

(القصص: ٨٥)

ومن المدينة المنورة بعد أن استقر له المقام بدأ النبي «ﷺ» في فتح طريق الجهاد لنشر الدعوة في سائر بقاع الأرض تنفيذاً لتكليف الله تعالى له بقوله:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾

«سبأ: ٢٨»

ومن المدينة المنورة ولأهمية حادث الهجرة المحمدية في حياة الإسلام والمسلمين أثيرت في عهد الخليفة العظيم عمر بن الخطاب «رضي الله عنه» فكرة وضع بداية التقويم الهجري الإسلامي فاستنبط الصحابة «رضوان الله عليهم» وعلى رأسهم الإمام علي «كرم الله وجهه» توقيت تاريخهم بالهجرة استناداً إلى قوله تعالى:

﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ﴾

(التوبة: ١٠٨)

فاستبان الصحابة من قوله تعالى:

﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾

أن ذلك يعني أن يوم تأسيس أول مسجد ينبغي أن يكون هو أول أيام التاريخ الإسلامي هو يوم هجرة النبي «ﷺ».. فقال عمر «رضي الله عنه»: (نؤرخ لمهاجر رسول الله فإن مهاجره فرق بين الحق والباطل).

وقد اقترح عثمان بن عفان «رضي الله عنه» أن يكون المحرم هو مبتدأ التاريخ الإسلامي وقد كان المحرم هو أول السنة العربية في الجاهلية قبل الإسلام وبهذا كان حادث الهجرة أعظم حدث في تاريخ الإسلام والمسلمين.

دروس من الهجرة النبوية المشرفة

وتحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ/ عبدالواحد عبدالعزيز عبدالواحد محمد ـ مدرس أول لغة عربية بإدارة كفر شكر التعليمية ـ كفر الولجا ـ مركز كفر شكر ـ قليوبية:

ستظل هجرة الرسول «ﷺ» علامة مميزة لانتصار الإسلام والمسلمين وهى علامة فريدة ومضيئة فى تاريخ المسلمين، ولذا ألهم الله فاروق هذه الأمة عمر بن الخطاب بأن جعل هذا الحدث الجلل بداية للتقويم الهجرى وهى ليست فراراً ولا جُبناً، بل انتصاراً.

ولنا فى هجرة المصطفى «ﷺ» العظة والعبرة حتى تكون نبراساً لنا فى الحياة حيثُ وضعت الهجرة ـ كما يقول الدكتور على جمعة مفتى الجمهورية ـ الأساس لبناء أمة عظيمة ستظل باقية إلى يوم القيامة.

والحق أن هجرة الرسول «ﷺ» تستلهم منها الكثير والكثير من العبر والدروس العظيمة ومنها:

١ ـ إن لكل شىء سبباً، فالنجاح له أسباب والفشل له أسباب، ورسول الله «ﷺ» قد اتخذ كُلَّ الأسباب الموصلة إلى النجاح فتمت الهجرة بنجاح منقطع النظير.

٢ ـ الفدائية والتضحية من أجل نصرة الإسلام ونصرة رسول الإسلام «ﷺ» وستظل فدائية وشجاعة علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه وكرّم الله وجهه) موضع فخر واعتزاز لكل مسلم حيثُ ينام مكان النبى «ﷺ» وهو يعلم أن الموت محيط به وصدق الله العظيم حيث يقول:

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾

(الأحزاب: ٢٣)

٣ ـ الصداقة الحقيقية تتضمن معنى البذل والتضحية، وقد تجلّت الصداقة فى أروع صورها فى الصديق أبى بكر الذى ضحّى بكل ما يملك من أجل صحبة الرسول «ﷺ» فى هجرته، وهذه الصداقة باركتها السماء وزكاها الحق ـ جلا وعلا ـ فى قوله:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾

(التوبة: ٤٠)

٤ ـ حب الوطن من الإيمان والدفاع عنه واجب مقدس، لقد ضرب لنا رسول الله «ﷺ» أروع المثل فى حب الوطن حيث خرج من مكة وهو يودعها بكلمات عذبة مرهفات قائلاً: (والله لأنك أحب بلاد الله إلى الله وأحب بلاد الله إلى قلبى ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت).

٥ ـ أداء الأمانات إلى أهلها، حيث يُبقى رسول الله «ﷺ» عليا حتى يؤدى الودائع إلى أهل مكة وهو المطارد من أهلها.

حقاً ما أعدلك وما أعظمك يا رسول الله!!

٦ ـ قدرة الله المطلقة التى حفظت النبى الكريم «ﷺ» وأيدته طوال رحلته المباركة ولذا يقول الله تعالى:

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾

(الأنفال: ٣٠)

٧ ـ أن نهجر المعاصى والذنوب ونحن فى عام هجرى جديد وأن نهجر أسباب التخلف والتعصب حتى تتقدم أمتنا الإسلامية خير أمة أخرجت للناس.

من أعلام الإسلام فى التاريخ

ابن عبدالحكم

وتحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ/ فرج مجاهد عبدالوهاب ـ عضو اتحاد كتاب مصر ـ شربين ـ دقهلية:

هو عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالحكم بن أعين بن ليث المصرى أبوالقاسم.. ولد حوالى سنة ١٨٧ هـ وتوفى فى مصر فى مدينة الفسطاط عام ٢٥٧هـ ودفن بالقرب من ضريح الإمام الشافعى، وقد عاش ابن عبدالحكم فى ظل بيئة متفقهة بالدين والعلوم، فكان والده عبدالله المتوفى سنة ٢١٤هـ من الفقهاء المحدثين وله مؤلفات فى الفقه والحديث، وكان صاحب جاه، وكلمته مسموعة لدى القضاة فى تزكية الشهود.

وكان ابن عبدالحكم عالمًا بالتاريخ والحديث وكان عاقلاً حكيمًا فقيهًا صديقًا للإمام الشافعى، أصيبت أسرته بنكبة فى عهد الخليفة العباسى الواثق بالله الذى اشتهر عهده بالاضطراب الدينى ولا سيما فتنة خلق القرآن، كما رفض ابن عبدالحكم واخوته الاعتراف بمذهب خلق القرآن كما رفض غيرهم من المتمسكين بالأصول وكان عقابهم جميعًا السجن والتعذيب، وقد توفى ابن عبدالحكم فى السجن بعد تعذيبه بالسوط والتدخين عليه بالكبريت، ثم صادرت الدولة عام ٢٣٧هـ جانبًا كبيرًا من أملاك أسرته.

ويعتبر كتاب ابن عبدالحكم «فتوح مصر والمغرب» من أقدم وأهم المصادر التاريخية العربية التى تتحدث عن تاريخ فتح المسلمين لمصر والمغرب العربى، ومما يدل على اهتمام المؤرخين القدامى بما جاء فيه من أخبار فاعتبروه مصدرًا أوليًا لدراستهم ومؤلفاتهم الخاصة بتاريخ مصر والمغرب ومن بين هؤلاء الكندى المتوفى سنة ٣٥٠هـ، والقضاعى المتوفى سنة ٤٥٤هـ، وابن دقماق

المتوفى سنة ٨٠٩هـ، والمقريزى، والسيوطى، وغيرهم.

كما أن المستشرقين الأجانب اعتمدوا عليه فى تأريخهم لمصر والمغرب.

ويضم كتاب ابن عبدالحكم قسمًا تاريخيًا، وقسمًا يتضمن معلومات عن القُضاة والمحدثين. ونجد فى القسم التاريخى معلومات هامة عن تاريخ مصر وتاريخ الأقباط، وخروج بنى إسرائيل منها، وتاريخ الروم والفرس وبناء الإسكندرية، وسبب دخول المسلمين مصر، ونجد وصفًا للخطط والمدن المصرية مثل الفسطاط والجيزة والإسكندرية.

الرضا أدب مطلوب

وتحت هذا العنوان جاءت رسالة الشيخ/إبراهيم احمد جاد الكريم ـ واعظ دشنا ـ فرشوط ـ قنا:

أدب الرضا من الآداب المطلوبة، ومن الأخلاق المرغوبة، لأن الرضا يُعد علاجًا اجتماعيًا لمشكلاتنا الحياتية.

فإن نسبة السخط من الناس قد ازدادت بصورة ملحوظة، وهذا مؤشر لضعف الإيمان ولكى يقوى الإيمان فى قلوبنا.. فلابد من الرضا بالله ـ تعالى ـ وبدينه، وبنبيه ﷺ... أخرج الإمام مسلم فى صحيحه، عن العباس بن عبدالمطلب ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا»

كذلك الرضا يتطلب عدة أمور:

■ أولاً: الرضا بما قسمه الله ـ تعالى: أخرج الإمام الترمذى بسند حسن.. عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من يأخذ عنى هؤلاء الكلمات فيعمل بهن أو يُعلم من يعمل بهن؟.. فقال أبوهريرة ـ رضى الله عنه ـ فقلت: أنا يا رسول الله. فأخذ بيدى فعدَّ خمسًا وقال: ـ اتق المحارم تكن أعبد الناس.. وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس.. وأحسن إلى جارك تكن مؤمنًا.. وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلمًا.. ولا تُكثر من الضحك فإن كثرة الضحك تُميت القلب»... وارض بما قسم الله لك.

■ ثانياً: الرضا بقضاء الله وقدره: فهذا صحابى من صحابة رسول الله ﷺ كُفَّ بصره فرضى بقضاء الله ـ تعالى ـ إنه سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ قد كُفَّ بصره وكان مُستجاب الدعوة، فقيل له: هلا دعوت لنفسك ليردَّ عليك بصرك؟.. فقال: قضاء الله عندى أحسن من بصرى.. إنه الرضا بقضاء الله وقدره.

■ ثالثًا: الرضا بما أمر الله به.. وبما نهى الله عنه: وهذا يُعد استجابة لله وللرسول ﷺ، وبالاستجابة لله وللرسول ﷺ يحيا الإنسان من موت الجهل والضلال..

فمن حقق الرضا نال عدة فوائد.. منها: «كمال الإيمان» وحسن الإسلام» وتعميق حسن الظن بالله ـ تعالى ـ والرضا طريق لرضا الله ـ تعالى ـ عن عبده» وهو سبب لدخول الجنة.

(جعلنا الله ـ تعالى ـ من المتادبين بأدب الرضا).

أنباء مكتب الإمام الأكبر

للأستاذ/أحمد إبراهيم توفيق
مدير عام الإعلام بمكتب الإمام الأكبر

الإمام الأكبر يهنئ فخامة رئيس الجمهورية بمناسبة عيد الأضحى



أرسل فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور/ أحمد محمد الطيب ـ شيخ الأزهر الشريف ـ ببرقية تهنئة للسيد الرئيس/ محمد حسنى مبارك ـ رئيس جمهورية مصر العربية ـ بمناسبة عيد الأضحى المبارك هذا نصها:

فخامة الرئيس/ محمد حسنى مبارك حفظه الله

رئيس الجمهورية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .... وبعد

فبمناسبة عيد الأضحى المبارك أتقدم لسيادتكم بخالص التهنئة القلبية وأدعو الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يعيد على سيادتكم أمثال هذه الأيام المباركة بالخير والبركات، وأن ينعم عليكم بموفور الصحة والعافية كما أدعوه ـ سبحانه وتعالى ـ أن ينعم على مصرنا العزيزة وعلى الأمة العربية والإسلامية بمزيد من الخير والأمن والسلام.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

شيخ الأزهر الشريف

أ.د/ أحمد محمد الطيب

تهنئة من شيخ الأزهر إلى البابا شنودة الثالث

أرسل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور / أحمد محمد الطيب ـ شيخ الأزهر الشريف ـ ببرقية تهنئة إلى البابا شنودة الثالث بمناسبة جلوسه التاسع والثلاثين علي كرسي البابوية وعودته سالمًا إلي أرض الوطن وهذا نصها:



د. أحمد الطيب

قداسة البابا شنودة الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

تحية طيبة ومودة صادقة ... وبعد

فإنني ليطيب لي وللأزهر الشريف أن نضاعف التهنئة مرتين، مرة لعيد جلوسكم التاسع والثلاثين علي كرسي البابوية، ومرة لعودتكم سالمين إلي أرض الوطن الحبيب متمتعين بكامل الصحة والعافية لتظلوا علي قمة الكنيسة المصرية القبطية الأرثوذكسية تقودونها في الطريق الصحيح دائماً متوجهين بها إلي بر الأمان متمسكين معنا بمبادئ الأخوة الدائمة والأصالة والوحدة لشعب مصر كله، في ظل قيادته الرشيدة.

وتفضلوا بقبول عاطر التحية وصادق المودة.

اجتماع لجنة الحوار بالأزهر الشريف والكنيسة الأسقفية «الأنجليكانية»

عقدت لجنة الحوار بين الأزهر والكنيسة الأسقفية «الأنجليكانية» بمبني مشيخة الأزهر الشريف.

وقد أعلن في الاجتماع تأسيس مركز الحوار بالأزهر الشريف لدراسة مراحل تطور الحوار السابقة بسلبياتها وإيجابياتها وذلك لتوسيع دائرة الحوار مع أهل المذاهب والأديان المختلفة في الشرق والغرب علي السواء مؤكداً أن الحوار قائم علي الاحترام المتبادل والموضوعية والحكمة والموعظة الحسنة وعلي عدم المساس بالعقيدة وتقوية العلاقات بين المجتمعين المسلم والمسيحي.

وكان موضوع النقاش هذا العام حول أهمية استخدام القادة الدينيين لنفوذهم ليكون لهم دور إيجابي خاصة في الدول التي بها تعدد ديني.

اتفق الأعضاء علي أهمية الاحتفاظ بقنوات اتصال مستمرة ودائمة علي مدي العام وتشجيع اللقاءات الإضافية بصفة غير دورية والتي تفيد في مناقشة القضايا المختلفة والعاجلة التي تحتاج إلي تدخل فوري.

بيان من الأزهر الشريف

حول حادث الاعتداء على كنيسة سيدة النجاة فى بغداد

صرح السفير محمد رفاعة الطهطاوى المتحدث الرسمى باسم الأزهر الشريف بأن فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب قد تلقى بأسف بالغ وانزعاج شديد نبأ العدوان الآثم من جانب بعض المسلحين على بيت من بيوت العبادة للإخوة المسيحيين فى العراق، وقد أكد فضيلته أن الإسلام يكفل حرية العبادة ويحرم العدوان على كنائس المسيحيين ودور عبادتهم وأن هذا أمر مقرر شرعًا وثابت عملاً منذ الفتح الإسلامى وطيلة التاريخ، وأدان فضيلته العدوان الذى تعرض له إخوة كرام وأدى إلى سقوط عدد كبير من الضحايا الأبرياء بلا ذنب ولا جريرة، وأكد فضيلته أن الإسلام والمسلمين براء من مثل هذه الأعمال التى تسيء للمسلمين وتخالف أحكام الشرع الإسلامى الذى يصون حقوق الناس كافة ولا يقبل بالأعمال الإجرامية التى تستهدف الأبرياء بغير تمييز.

أما عن التهديد باستهداف كنائس مصرية فقد أكد فضيلة الإمام الأكبر أن هذا أمر مرفوض ومدان بكل شدة، وهو لا يخدم إلا أولئك الذين يريدون إشعال الفتنة وضرب الوحدة الوطنية تحقيقاً لمخططات خبيثة، وأعرب فضيلته عن ثقته فى أن هذه التهديدات لن تؤثر على أمن مصر وأن أمن المسيحيين وكنائسهم وأديرتهم مكفول ومُصان، وكل من يحاول الاعتداء بأى شكل من الأشكال على الإخوة المسيحيين وكنائسهم وأديرتهم يأثم شرعًا باعتباره مفسدًا فى الأرض، ولقد نزل الذكر الحكيم مؤكداً حرمة دور العبادة فى مختلف الأديان، حيث قال ـ سبحانه وتعالى ـ فى كتابه العزيز:

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾

(الحج : ٤٠)

ويهيب فضيلة الإمام الأكبر بكافة أبناء الأمة العربية والإسلامية فى مختلف أوطانهم أن يقفوا معًا فى مواجهة هذه المخططات التى تستهدف أمن واستقرار أوطاننا وإذكاء الفتنة بين أبناء الأمة الواحدة والشعب الواحد.



الإمام الأكبر يستقبل الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامى

استقبل فضيلة الإمام الأكبر أحمد محمد الطيب ـ شيخ الأزهر الشريف ـ بمكتبه صباح الأحد الموافق ٢٨/١١/٢٠١٠ الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو ـ أمين عام منظمة المؤتمر الإسلامى ـ.

وقد تناول البحث سبل تعزيز التقارب بين المسلمين من أصحاب المذاهب الإسلامية المختلفة، وقيام الأزهر باعتباره المنظمة الإسلامية الكبرى بالإطلاع بدور الريادة فى هذا المضمار ـ خاصة على ضوء تولى السيد الرئيس محمد حسنى مبارك ـ رئاسة منظمة المؤتمر الإسلامى اعتباراً من انعقاد القمة الإسلامية المقبلة فى مارس ٢٠١١م فى شرم الشيخ.

كما تناول البحث موضوع الحوار مع أبناء الديانات الأخرى على أساس من الاحترام المتبادل وإعادة دراسة التاريخ لإزالة ما قد يكون موجوداً من فهم غير صحيح للعلاقات بين أبناء الديانات السماوية.

>> كما استقبل فضيلته سفير المملكة المتحدة (بريطانيا) وتناول الحديث الدعوة الموجهة من كبير أساقفة كانتربيرى لفضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب لزيارة

بريطانيا فى العام القادم.

كما تناول البحث الجهود التى يمكن أن تزيد التفاهم والتعاون وإزالة الأفكار السلبية بين المسلمين وشركائهم فى الغرب.

اجتماع المجلس الأعلى للأزهر

وافق المجلس الأعلى للأزهر برئاسة فضيلة الإمام الأكبر الدكتور ـ أحمد الطيب شيخ الأزهر على تشكيل لجنة لدراسة القواعد الخاصة بترقية الأساتذة والأساتذة المساعدين بجامعة الأزهر وعرضها على المجلس لإقراره وكذلك موافقة المجلس على المذكرة المقدمة من الدكتور عبدالدايم نصير مستشار شيخ الأزهر للتعليم والعلاقات الثقافية بخصوص تشغيل مركز تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها وكذلك سياسة القبول للطلاب بالمركز.

كما وافق المجلس على مشروع تعديل اللائحة المالية لمركز الطب النفسى للمرأة والطفل والمراهق بمستشفى الزهراء الجامعى بجامعة الأزهر وحدة ذات طابع خاص.

كما وافق المجلس على معادلة بعض الدرجات العلمية الحاصل عليها عدد من الأساتذة بالشهادات التى تمنحها الجامعات المصرية فى التخصصات المناظرة وكذلك الموافقة على قبول عدد من التبرعات العينية المقدمة لكليات جامعة الأزهر والمناطق الأزهرية ومدينة البعوث الإسلامية.



أنباء مجمع البحوث الإسلامية

للأستاذين: عبدالموجود أمين - يحيى سليمان

قرارات مجمع البحوث الإسلامية

وافق مجلس مجمع البحوث الإسلامية برئاسة فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر فى جلسته المنعقدة يوم الخميس الموافق ٢٨ / ١٠ / ٢٠١٠م على:



د. محمود حمدى زقزوق — د. محمد عمارة

■ ترشيح الأستاذ الدكتور محمد عمارة لجائزة الملك فيصل ١٤٣٢هـ/ ٢٠١٢م فى الدراسات الإسلامية لحقوق الإنسان فى الإسلام.

■ ترشيح الأستاذ الدكتور محمود حمدى زقزوق للجائزة الخاصة بخدمة الإسلام.

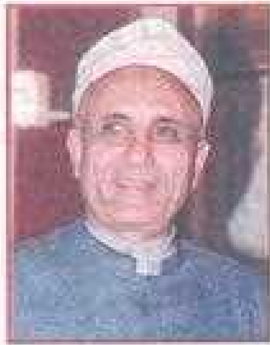
■ تدارس المجمع بشكل معمق تفعيل دور مجمع البحوث الإسلامية فى ضوء المستجدات الحديثة وتعدد مجالات المعرفة فى مواجهة التحديات التى يواجهها الإسلام داخل وخارج البلاد الإسلامية.

■ وبحث مجلس المجمع الاستعانة بخبراء متخصصين لا يشترط أن يكونوا أعضاء فى المجمع، وإنما يوكل إليهم إسناد بعض الأمور لإنزال الحكم الشرعى عليها بحكم تخصصهم، مع الأخذ فى الاعتبار المتغيرات العصرية.

■ بحث مذكرة الاستعانة وتعزيز الدور العالمى للمجمع بعلماء من بلاد إسلامية مختلفة، وطرح عدد من الكتب التى تعبر عن منهج الإسلام، ووسطيته، وإتاحتها بأقل الأسعار.. وذلك لمواجهة الأفكار المتطرفة.

صرح بذلك فضيلة الشيخ/ قاسم محمد قاسم مدير عام شئون مجلس المجمع ولجانه.

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية يستقبل وفدا أفغانيا



على عبدالباقى

استقبل فضيلة الشيخ/ على عبدالباقى شحاتة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية وفدا من جمهورية أفغانستان يمثله: الأستاذ/ قاسم الحليمى مستشار وزير التعليم الأفغانى، والقنصل الأفغانى بالقاهرة.

.. وبعد أن قدم الوفد الشكر للأزهر الشريف قبلة المسلمين فى العالم وممثل الوسطية والاعتدال، شكر الوفد الأزهر الشريف لإرساله (٤٠) مبعوثا لدولة أفغانستان والذين أحدثوا فيها تغييرا كبيرا.

كما أوضح الوفد أن مصر هى الدولة الوحيدة التى لها وجود فعلى شعبى فى أفغانستان بخلاف سائر الدول الأخرى التى لها تمثيل دبلوماسى سياسى فقط.

ومن جانبه أوضح فضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية أن الأزهر يقوم بدوره فى العالم حسبة لله ـ تعالى ـ لا لأى أغراض أو أهداف أخرى.

ثم قدم الوفد مفردات منهج المدارس الشرعية بالتعليم الأفغانى وكذلك مفردات ومنهج العلوم الشرعية وطلب معادلة هذه المناهج مع مناهج الأزهر فى المرحلتين الإعدادية والثانوية بالنسبة لطلاب القسم الأدبى، أما القسم العلمى فأوضح فضيلة الأمين العام أنه يجوز لهم الالتحاق بالكليات العلمية دون المعادلة وذلك استثناء لطلبة أفغانستان من القسم العلمى فقط.. ثم ختم اللقاء بتقديم الوفد الشكر للأزهر الشريف ولمجمع البحوث الإسلامية لقيامهما على خدمة الإسلام والمسلمين وعلى حسن الاستقبال والتعاون.

ويستقبل وفدا من سلطنة بروناى

استقبل فضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية وفد سلطنة بروناى المكون من:

■ الأستاذ/ حاج إسماعيل، نائب الأمين العام لوزارة الشئون الدينية، رئيس الوفد.

■ الأستاذ/ حاج سهر الدين، مدير المدارس العربية الثانوية.

■ الأستاذ/ حاج عبدالرشيد، مدير معاهد تحفيظ القرآن الكريم.

■ الأستاذ/ حاج عاز مان، المستشار الثقافى والتعليمى بالسفارة بالقاهرة.

■ الأستاذة/ مدام حجيجة، مدير الامتحانات للدراسات الإسلامية.

■ الأستاذة/ مدام حميدة، مدير تطوير المناهج للدراسات الإسلامية.

.. وبعد أن قدم الوفد الشكر للأزهر الشريف ومجمع البحوث الإسلامية لرعايتهما الطلبة الوافدين والاهتمام بشئونهم تناول الوفد سُبل معادلة شهادات المدارس العربية ببروناى بالشهادة الأزهرية وبخاصة الشهادة العالية وذلك بعد التغييرات التى تمت فى مناهج هذه المدارس.

.. وقد طلب الوفد من فضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية تزويده بالمناهج والمقررات والكتب الدراسية الأزهرية للمرحلتين الإعدادية والثانوية، وكذلك كتب ومناهج معهد الدراسات الخاصة لغير الناطقين باللغة العربية لجميع المستويات، حتى يتم تدريسها وتطبيقها فى المدارس العربية ببروناى.

وقد أوضح فضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية أن الأمر يحتاج إلى صياغة اتفاقية أو بروتوكول تعاون بين الأزهر ووزارة الشئون الدينية ببروناى فى هذا الشأن.

كما أضاف فضيلة الأمين العام أن فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر كان قد قرر عدم قصر المنح على الكليات النظرية الشرعية، وإنما يُضاف إليها الكليات العلمية أو العملية كالطب والهندسة والصيدلة.... إلخ.

وفى نهاية المقابلة قدَّم الوفد الشكر للأزهر الشريف ولفضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية على حُسْن الرعاية والتعاون.

امتحانات الطلاب الوافدين

صرح الأستاذ/ سامى عزالدين ـ القائم بأعمال مدير عام إدارة الطلاب الوافدين ـ بأنه قد تم خلال شهرى أكتوبر ونوفمبر ٢٠١٠م من هذا العام عقد امتحان للطلاب الوافدين، وذلك طبقا للقواعد المنظمة لأعمال امتحانات مسابقة قبول الطلاب الوافدين للالتحاق بالمعاهد الأزهرية وذلك طبقًا للائحة الداخلية لقرار مجلس الوزراء رقم ٥٤ لسنة ١٩٩٩م.

فعُقد الامتحان الشفهى وفور إعلان النتيجة سيبدأ إلحاق الطالب الحاصل على (٢٠ إلى ٤٠) درجة بالصف الأول الإعدادى.

والطالب الحاصل على (٤٠ إلى ٧٠) درجة بالصف الثانى الإعدادى.

والطالب الحاصل على (٧٠ إلى ١٠٠) درجة بالصف الثالث أو يؤدى الطالب الامتحان التحريرى لدخول المرحلة الثانوية حسب رغبته.

أما بالنسبة للطلاب الذين سوف يلتحقون بالمرحلة الثانوية.. فقد أعلنت نتيجة الامتحان الشفهى لمواد: «الفقه - السيرة - التوحيد - الحديث - التفسير - النحو

والصرف- الأدب والبلاغة».

وقد بدأ الامتحان التحريرى فى الفترة من ٢٨/ ١١/ ٢٠١٠م.

وفور إعلان النتيجة سوف يوزع الطلاب على صفوف المرحلة الثانوية حسب المجموع الذى حصل عليه كل طالب:

■ الصف الأول الطالب الذى حصل على مجموع من (٢٠ إلى ٤٠) درجة.

■ الصف الثانى الطالب الذى حصل على مجموع من (٤٠ إلى ٦٠) درجة.

■ الصف الثالث الطالب الذى حصل على مجموع من (٦٠ إلى ١٠٠) درجة.

وفى نفس الفترة تم عقد امتحان القراءات للطلاب الوافدين فى علوم القرآن الكريم والعلوم الشرعية والعربية والمواد الثقافية ومجموع درجاتها ٣٠٠ درجة.

■ الطالب الحاصل على ١٤٠ درجة من المجموع الكلى يلحق بالصف الأول بمرحلة التجويد.

■ الطالب الحاصل على ٢٠٠ درجة من المجموع الكلى يلحق بالصف الثانى بمرحلة التجويد.

وإذا حصل الطالب على أكثر من ٢٠٠ درجة يتقدم للامتحان التحريرى لعالية القراءات.

وعند إعلان النتيجة يتم إلحاق الطلاب فى الصفوف المختلفة حسب المجموع الذى يحصل عليه:

■ الصف الأول من (١٥٠ إلى ٢٠٠).

■ الصف الثانى من (٢٠٠ إلى ٢٥٠).

■ الصف الثالث من (٢٥٠ إلى ٣٠٠) درجة للمجموع الكلى.

مسابقة وقف المستشار الدكتور/ محمد شوقى الفنجرى

أعلن وقف المستشار الدكتور/ محمد شوقى الفنجرى -رحمه الله- عن تخصيص مبلغ مقداره ٤٠٠٠٠ جم «أربعون ألف جنيه» جوائز أصلية لأحسن البحوث فى أحد الموضوعات التالية:

١- التسامح والإخاء الإنسانى فى الإسلام.

٢- الإسلام وتنمية المجتمع.

وذلك بحد أدنى ٢٠٠٠ جم «ألفا جنيه» لكل فائز.

وتخصيص مبلغ مقداره ٢٠٠٠٠ جم «عشرون ألف جنيه» جوائز تشجيعية للبحوث الجيدة غير الفائزة بالجوائز الأصلية فى أحد الموضوعين سالفى الذكر، وذلك فى حدود مبلغ ١٠٠٠ جم «ألف جنيه» كحد أدنى لكل فائز.

ويقدم البحث بموجب إيصال فى ميعاد غايته ٣١ مارس عام ٢٠١١، إلى مكتب ناظر الوقف الأستاذ المستشار رئيس هيئة قضايا الدولة بالدور العاشر بمجمع التحرير بالقاهرة، وذلك من عدد ثلاث نسخ بما لا يقل عن مائة صفحة ولا يتجاوز مائتين، مع ملخص له من عدد ٣ ثلاث نسخ بما لا يقل عن عشر صفحات ولا يتجاوز عشرين صفحة.

ويشترط فى البحث أن يكون معداً للمسابقة ولم يسبق نشره أو تقديمه لأية جهة أخرى، وأن يكون متميزاً ويتضمن إضافات واجتهادات جديدة تنفع الإسلام والمسلمين، وألا يكون صاحبه قد سبق له الحصول على جائزة أصلية فى المسابقة خلال ثلاث سنوات سابقة لإتاحة الفرصة لغيره، وللجنة شئون الوقف طبع أى بحث فائز متى قدرت ذلك دون أى حق قبلها.

وسيقام حفل توزيع كالمعتاد بالنادى النهرى لهيئة قضايا الدولة بشارع أبوالفدا بالزمالك يوم الخميس الأخير من شهر يونيو من كل عام.

وكان فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب شيخ الأزهر قد وافق على الإعلان عن مسابقة عالمية عن «الإعجاز التربوى فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة» وفقاً للشروط والضوابط التى وضعتها لجنة الإعجاز العلمى للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بمجمع البحوث الإسلامية وهى:

أولاً: أن يكون البحث بإحدى اللغتين العربية أو الإنجليزية.

ثانياً: ألا يكون البحث المقدم للمسابقة مقدماً لدرجة علمية أو منح به جائزة أخرى.

ثالثاً: أن يكشف البحث عن حقيقة علمية سبق بها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

رابعاً: أن يكتب البحث على الحاسب الآلى بما لا يقل عن مائة صفحة ولا يتجاوز مائتى صفحة من القطع الكبير مصحوبا بملخص مستقل عن البحث بما لا يقل عن عشر صفحات ولا يتجاوز العشرين صفحة.

خامساً: أن يقدم البحث وملخصه مصحوباً بسيرة ذاتية للمتسابق من ثلاث نسخ إلى لجنة الإعجاز العلمى للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بمجمع البحوث

الإسلامية بمدينة نصر فى موعد أقصاه آخر مايو ٢٠١١ ويعطى المتقدم إيصالاً معتمداً بذلك.

سادساً: تمنح جوائز مالية قيمتها خمسة وخمسون ألف جنيه «٥٥٠٠٠» لعدد «٢٣» ثلاثة وعشرين متسابقاً على الوجه الآتى:

١- ١٥٠٠٠ جنيه «خمسة عشر ألف جنيه» للفائز الأول.

٢- ١٠٠٠٠ جنيه «عشرة آلاف جنيه» للفائز الثانى.

٣- ٥٠٠٠ جنيه «خمسة آلاف جنيه» للفائز الثالث.

٤- كما تمنح عدد «٥» خمس جوائز تشجيعية بواقع «٢٠٠٠» ألفا جنيه.

٥- «١٥» خمس عشرة جائزة تشجيعية أخرى بواقع «١٠٠٠» ألف جنيه.

سابعاً: يخطر المتقدمون للمسابقة بموعد ومكان حفل توزيع الجوائز.

ثامناً: لا يجوز رد البحوث الفائزة لأصحابها، حيث سيتم حفظها لدى مكتبة اللجنة الخاصة بمبنى مكتبة الأزهر الشريف، أما البحوث غير الفائزة، فلأصحابها استردادها خلال شهرين من تاريخ حفل توزيع الجوائز.

تاسعاً: لناظر الوقف طبع ونشر ما يراه من البحوث الفائزة، وذلك على حساب الوقفية دون إذن أو حق للفائز قبله.

عاشراً: يعمم هذا الإعلان على جميع الجامعات والمراكز العلمية والصحافة وينشر - كخبر غير مدفوع الأجر - بمختلف الصحف والمجلات.

تفعيل الأرشيف الالكترونى وبناء قاعدة بيانات لمستحقى الزكاة

صرح فضيلة الأستاذ/ مهدى شلتوت الأمين العام المساعد لمكتبة الأزهر بأنه تم بالفعل فى إطار اللجنة العليا للتطوير الإلكترونى بالأزهر الشريف تفعيل الأرشيف الالكترونى بمكتب صاحب الفضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر ومكتب صاحب الفضيلة وكيل الأزهر الدكتور/ محمد عبدالعزيز واصل، وصاحب الفضيلة الأمين العام للمجلس الأعلى للأزهر اعتباراً من ٣١/١٠/٢٠١٠م، وذلك بالتعاون مع وزارة التنمية الإدارية.

كما صرح فضيلة الأستاذ/ مهدى شلتوت أنه قد تم بناء قاعدة بيانات لمستحقى الزكاة التى يقوم الأزهر بتوزيعها، وذلك بالتعاون مع مركز المعلومات والوحدة الحسابية الخاصة بالأزهر بناء على توجيهات السيد صاحب الفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر، وذلك تسهيلاً لتوزيع أموال الزكاة الخاصة على مستحقيها من المحتاجين.



الصين تختار جامعة الأزهر للتعاون معها


أ.د. عبدالله الحسينى

اختارت الحكومة الصينية جامعة الأزهر من بين الجامعات المصرية لتوقيع اتفاقية تعاون معها فى المجالات العلمية والثقافية.

وقد حضر توقيع الاتفاقية الأستاذ الدكتور عبدالله الحسينى رئيس الجامعة، ووفد من الجانب الصينى برئاسة د. وانغ زاهاو رئيس جامعة بكين للتكنولوجيا الكيميائية.

وأوضح الوفد الصينى أن أسس الاختيار جاءت بناء على عراقة جامعة الأزهر وتاريخها والتطور السريع الذى تشهده فى مجالات العلوم الحديثة والتراثية، ومجالات التنمية البشرية، وتنقية العقائد من الشوائب التى تتعرض لها.

١٣ جامعة فى جنوب إفريقيا تقاطع إسرائيل

فى بادرة هى الأولى من نوعها فى جنوب إفريقيا تعهد أكثر من ٢٠٠ أكاديمى من ١٣ جامعة دعم مبادرة جامعة جوهانسبرج لإنهاء التعاون مع الاحتلال الإسرائيلى، وقد وقعوا على عريضة أكاديمية فى صورة بيان يدعو إلى وقف اتفاق للتعاون بين جامعة جوهانسبرج وجامعة بن جوريون فى مدينة النقب الإسرائيلية، ومع بروز أصوات مؤثرة من أشهرها القس ديزموند توتو الحائز على جائزة نوبل للسلام فى عام ١٩٨٤، بالإضافة إلى عشرات الشخصيات الرائدة فى جنوب إفريقيا تقوى الدعوة لمقاطعة إسرائيل فى البلاد.

وأوضح البيان أن جامعات إسرائيل ليست مستهدفة بسبب هويتها العرقية أو الدينية وإنما لتواطؤها مع نظام الفصل العنصرى الإسرائيلى، وتحديداً جامعة بن جوريون التى تحتفظ بصلات فعلية بأعمال الاحتلال الإسرائيلى، وهى بشكل مباشر أو غير مباشر تؤيد الهجمات الإسرائيلية ضد الفلسطينيين وقتلهم عبر المنح المتميزة والمزايا المالية السخية والمغرية للطلاب الإسرائيليين الذين يخدمون فى الوحدات القتالية النشطة بالجيش الإسرائيلى والمنح الخاصة للطلاب المدرجين فى خدمة الاحتياط ورعاية الأبحاث العلمية التى تسخر لصالح تكنولوجيا التسلح وإنتاج بعض الأسلحة الخطورة التى يستخدمها الجيش الإسرائيلى ضد الفلسطينيين.

إدانة عربية وإسلامية لقيام إسرائيل بهدم أحد مساجد النقب

أدانت الكثير من المنظمات العربية والإسلامية الخطوة الهمجية العنصرية والتى أقدمت عليها إسرائيل بهدم مسجد الصحوة بمدينة رهط بمنطقة النقب الفلسطينية.. ونددت منظمة المؤتمر الإسلامى والجامعة العربية ورابطة العالم الإسلامى والمنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم ـ بهذه الجريمة مطالبين المجتمع الدول بمعاقبة إسرائيل على جرائمها بحق دور العبادة.

وقد اندلعت مواجهات عنيفة بين شرطة الاحتلال والفلسطينيين فى النقب المحتل، إثر هدم المسجد حيث استخدمت سلطات الاحتلال قنابل الغاز المسيل للدموع، مما أدى لإصابة عدد منهم واعتقال عدد آخر.

واستنكرت مؤسسة الأقصى للوقف والتراث هدم المسجد ووصفته بالجريمة النكراء، والتى تندرج فى سياق الاضطهاد الدينى والتمييز العنصرى لأهل الداخل الفلسطينى، واعتبرت حركة «حماس» عمل الاحتلال سلوكاً عنصرياً معادياً للشرائع السماوية وحرية العبادة، فى وقت تسمح فيه للمتطرفين اليهود بالاعتداء على المسجد الأقصى ومساجد الضفة الغربية.

واستنكر النائب العربى فى الكنيست الإسرائيلى، عن الحركة الإسلامية، مسعود غنايم.. هدم المسجد واصفاً هذا العمل بأنه عمل جبان يستهدف حقنا الأساسى فى إقامة دور العبادة.

مشروعات إسلامية لتنمية دارفور

أعلنت منظمة المؤتمر الإسلامى أنها قررت توقيع عدد من اتفاقيات التعاون مع عدد من المنظمات الدولية التابعة لهيئة الأمم المتحدة لدعم مشروعات التنمية فى إقليم دارفور بالسودان.

وأوضح السفير عطاء المنان بخيت الأمين العام المساعد للشئون الإنسانية فى المنظمة، أن إدارة الشئون الإنسانية تستعد حالياً لتوقيع اتفاقية مع مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشئون الإنسانية، لدعم مجالات الإنذار المبكر، وحشد وإعداد وبناء القدرات، وتنسيق الشئون الإنسانية، خاصة أن لدى المكتب فروعاً فى مختلف أنحاء العالم..

وقال: إن من شأن هذه الاتفاقية أن توفر لمنظمة المؤتمر الإسلامى الخبرة اللازمة فى مجالات التنسيق الميدانى، والقدرة على العمل على الأرض.

وأكد المنان أن المنظمة تكثف من تعاونها مع المنظمات الدولية التابعة للأمم المتحدة لخدمة الدول الإسلامية، ففى الثلاثين من أكتوبر الماضى توجه فريق مشترك من منظمة المؤتمر الإسلامى، وبرنامج التنمية التابع للأمم المتحدة إلى باكستان لمتابعة الأوضاع فى المناطق المنكوبة جراء الفيضانات التى ضربت البلاد فى يوليو وأغسطس الماضيين.. مشيرا إلى أن منظمة المؤتمر الإسلامى بدأت فى اليمن التعاون الأول من نوعه مع «منظمة أطباء بلا حدود».

إنتاج أول ساعة تعمل بالتقويم الهجرى

أنتجت شركة ساعات سويسرية أول ساعة من نوعها فى العالم تعمل بالتقويم الهجرى وذلك بميكانيكية عالية الجودة ودقة متناهية لاحتساب الوقت وفق التقويم الإسلامى ونقلت وكالة الأنباء القطرية ما قالته الشركة المنتجة: «إن تصنيع تلك الساعات كان نتاج سنوات عديدة من البحث والدراسة لتقديم الوقت من خلال دورة قمرية تستمر لمدة ٣٠ يوماً وتبدل السنوات الـ١٩ البسيطة بأيامها الـ٣٥٤ بـ١١ سنة كبيسة بـ٣٥٥ يوماً».

وحسب المخترع فإن مستخدم الساعة لا يحتاج إلى التدخل لتعديل أو تغيير الوقت لأنه تم تصميم الساعة ليضبط التقويم المستمر لمدة ٣٠ عاماً نفسه آلياً على الدورة القمرية.

ومن أجل ذلك تتبع المخترع ميشال برمجياني التقويم الهجرى بالتاريخ الإسلامى وقرأ طيلة أكثر من ١٥ عاماً ترجمات الكتب الإسلامية التى أشارت إلى أن العرب كانوا قبل الإسلام يستخدمون التوقيت القمرى.

وذكر بيان أن المخترع السويسرى يريد من خلال ذلك الإنجاز أن يترك إرثاً عظيماً فى عالم الساعات الفاخرة وبصمة مهمة لتظل باقية فى ذاكرة التاريخ وتستطيع تلك الساعة الاحتفاظ بالطاقة لمدة ٣٠ يوماً وتعرض الساعات والدقائق والتاريخ بأرقام عربية واليوم والشهر بالخط العربى والسنوات الكبيسة بأرقام عربية والسنوات البسيطة فى شكل مؤشرات.

يهودى أمريكى شهير يتعاطف مع المسلمين

اختار نموذج مصغر عن سكان الولايات المتحدة مكون من نصف مليون أمريكى من مختلف الطبقات والميول والولايات الكوميدى الأمريكى جون ستيوارت الشخصية الأكثر تأثيرا فى حياة الأمريكيين بين ٤٩ من مشاهيرهم الكبار طبقا لنتيجة استطلاع أجراه موقع «اسكمان» وفيه احتل باراك أوباما الدرجة ٢١ بعد أن كان فى الخامسة باستطلاع العام الماضى أما جون ستيوارت البالغ من العمر ٤٨ سنة وهو يهودى معروف بحياديته إلى حد كبير مع إسرائيل بل يميل نوعا ما لمعاداتها حتى أنهم يصفونه بالمتعاطف مع العرب والمسلمين.

جدير بالذكر أن جون ستيوارت كانت له وقفة وصل صداها إلى البيت الأبيض عبر برنامجه فى منتصف سبتمبر الماضى حين ظل أكثر من ربع ساعة يسخر من القس تيرى جون الذى أعلن عن نيته

بحرق نسخ من المصحف الشريف، فقال: إن جزءا من تمويل كنيسة «هذا التاجر» يأتى من الحكومة الأمريكية لذلك فهى مسئولة عما سيفعل هذا القسيس الداعى إلى العنف وفق تعبيره.

بل إنه دافع عن إقامة مسجد فى موقع هجمات ١١ سبتمبر بنيويورك وسخر من المقارنة بين بنائه هناك ورغبة القسيس بحرق نسخ من القرآن.

اليونسكو تقر بإسلامية الحرم الإبراهيمى ومسجد بلال

رفض اجتماع لمنظمة الثقافة والتعليم «اليونسكو» التابعة للأمم المتحدة المزاعم الإسرائيلية التى ضمت مسجد بلال بن رباح إلى التراث اليهودى تحت زعم أنه «قبة راحيل» وأن الحرم الإبراهيمى للمسلمين فقط.

وأوضح المشاركون فى الاجتماع أن أى عمل تقوم به سلطات الاحتلال فى الأماكن الأثرية والتاريخية الفلسطينية مخالف للقانون الدولى، كما تقرر إرسال خبراء اليونسكو إلى القدس لإعداد تقارير حول الانتهاكات الصهيونية فى المسجد الأقصى.

وجدير بالذكر أنه فى فبراير الماضى قررت الحكومة الصهيونية ضم المسجد الإبراهيمى فى الخليل ومسجد بلال بن رباح فى مدينة بيت لحم إلى ما أسمته «لائحة المواقع الأثرية التاريخية اليهودية» وهو الأمر الذى واجه غضبا فلسطينيا وعربيا وإسلاميا.

بان كى مون يحذر من معاداة مسلمى أوروبا

حذر بان كى مون الأمين العام للأمم المتحدة من توجه خطير يتمثل فى معاداة المهاجرين المسلمين فى أوروبا وذلك فى خطاب له أمام البرلمان الأوروبى فى ستراسبورج.

وقال بان كى مون: إن هناك اتجاهاً خطيراً أخذ فى الظهور وهو عبارة عن سياسة جديدة من الاستقطاب حيث يستغل البعض مخاوف الناس ويتهمون المهاجرين المسلمين بانتهاك القيم الأوروبية ولكن فى كثير من الأحيان فإن الذين يوجهون الاتهامات هم من يخربون هذه القيم وبالتالى تخريب معنى أن يكون المرء مواطنا فى الاتحاد الأوروبى.

مخطط صهيونى لتهويد محيط الأقصى

حذرت لجنة القدس بوزارة الأوقاف والشئون الدينية بغزة من مخططات الاحتلال المتصاعدة فى مدينة القدس والتى كان آخرها الكشف عن مشروع كامل تنفذه بلدية الاحتلال فى القدس يهدف إلى تهويد منطقة حائط البراق ووادى حلوة وباب المغاربة والقصور الأموية وحارة الشرف وكلها تقع قرب المسجد الأقصى المبارك وأشار رأى اللجنة إلى أن الاحتلال قام بوضع مخططات من إنتاج ماتسمى بلجنة التخطيط اللوائية والتى أشرفت على مشاريع تهويدية فوق الأرض وتحتها طالت زوايا وإحياء عدة فى القدس موضحة أن المشروع يشتمل على عدة مراحل تهويدية تتركز المرحلة الآنية

الأولى من المشروع في منطقة البراق.

واعتبرت لجنة القدس هذه المخططات الصهيونية بمثابة تكريس لسياسة التهويد وزرع الاستيطان في المنطقة وذلك على حساب المقدسات والمعالم الأثرية بهدف طمسها وتغيير جذورها محذرة من خطورة هذه السياسة التهويدية المتشبعة بأفكار ومعتقدات بالية تنم عن مدى حقدهم وعنصريتهم ضد الفلسطينيين عموماً والمقدسين على وجه الخصوص.

شقيقة زوجة بلير: تعاطفت مع الإسلام قبل أن أعتنقه

قالت لورين بوث ٤٣ عاماً وهي تعمل صحفية بقناة برس تي في الإخبارية الإيرانية التي تبث بالإنجليزية وهي في الوقت نفسه شقيقة زوجة رئيس الوزراء البريطاني السابق توني بلير والتي اعتنقت الإسلام مؤخراً أنها ترتدي حاليا الحجاب وتصلي خمس مرات في اليوم وتزور المساجد كلما أمكن.

وأوضحت أنها قررت اعتناق الإسلام قبل عدة أسابيع. وذلك بعد زيارة ضريح فاطمة المعصومة بمدينة قم الإيرانية.

وتروي لورين ماشعرت به فتقول في تلك الليلة. شعرت بأن نفحة روحانية أصابتني.. والآن لا أتناول لحوم الخنازير وأقرأ القرآن كل يوم. ومضت تقول: إنني منذ قررت اعتناق الإسلام لم تحدثني نفسي بالاقتراب من الكحوليات، وتتعجب من نفسها قائلة: وأنا من كنت أشرب زجاجة أو زجاجتين يوميا.

تجدر الإشارة إلى أنه حتى قبل اعتناقها الإسلام. كانت (بوث) متعاطفة مع الإسلام وقضت فترة طويلة تعمل في الأراضي الفلسطينية وتقول عن الإسلام: كنت دائماً معجبة بتلك القوة والراحة التي يوفرها.

الحبس شهرا لفرنسية اعتدت على إماراتية ترتدي النقاب

عاقبت محكمة جنح باريس معلمة فرنسية على المعاش بالسجن لمدة شهر مع إيقاف التنفيذ لقيامها بالاعتداء على شابة إماراتية ترتدي النقاب داخل أحد المحال التجارية.

وقررت المحكمة أيضا معاقبة السيدة الفرنسية بدفع غرامة قدرها ٢٠٠ يورو لقيامها بالتعدي على صديقة الضحية التي كانت معها آنذاك وكانت النيابة تطالب بمعاقبة المتهمة بالحبس شهرين مع إيقاف التنفيذ ودفع غرامة قدرها ٧٥٠ يورو لقيامها باستخدام العنف المتعمد ضد شخص آخر بسبب انتمائه الديني.

جدير بالذكر أن هذه الواقعة ترجع إلى شهر فبراير ٢٠١٠ عندما قامت المدرسة الفرنسية التي عملت لفترة طويلة في المغرب والسعودية بمحاولة نزع النقاب من الإماراتية الشابة أثناء قيامها بالتسوق داخل أحد المحال بباريس.

مؤتمر مكانة الإسلام في أوروبا يدعو إلى تعزيز القيم المشتركة بين الأديان

أكد المشاركون في المؤتمر الدولي حول «مكانة الإسلام في أوروبا الجديدة» الذي استضافته جامعة مدينة انفيرس البلجيكية في أوائل الشهر الماضي على ضرورة تضافر جهود الجمعيات والمؤسسات الأكاديمية الإعلامية من أجل تجاوز التوتر الثقافي والخلافات الدينية وتحقيق التلاقي البناء.

كما أكدوا في البيان الختامي للمؤتمر الذي عقد بالتعاون بين المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «إيسيسكو» وجامعة انفيرس في بلجيكا ومعهد ابن سينا للعلوم الإنسانية الذي يوجد مقره في مدينة «ليل» الفرنسية والمؤتمر الإسلامي الأوروبي، وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية ومركز الدراسات المغربية المتوسطية على أهمية إبراز القيم الإنسانية بين الأديان السماوية مع التركيز على القواسم المشتركة في صياغة المواثيق والقوانين بإشراك خبراء وعلماء متخصصين في العلوم الإسلامية وقضايا المسلمين في الغرب.

ودعا المشاركون إلى تجديد إدانة ظاهرة الإسلاموفوبيا والتشويه المتعمد للإسلام.. موضحين أن ترويج هذه الظاهرة في المجتمعات الأوروبية لا يخدم الاندماج للأقليات المسلمة فيها.. بقدر ما يؤدي إلى الإساءة إلى شريحة من المجتمع الأوروبي.

ورحبوا بالمبادرة التي تبنتها الجمعية العامة للأمم المتحدة بإقامة أسبوع عالمي للوئام بين الأديان ودعوا إلى الاستحضار الدائم لمبدأ الثقة المتبادلة بين أوروبا والإسلام والعمل على نشره بين مختلف الشرائح الاجتماعية عن طريق مؤسسات المجتمع المدني والمساجد والمدارس والوسائل الإعلامية.

كما دعوا إلى تبني خطة المجلس الأوروبي الداعية إلى رد الاعتبار إلى الكيان الإسلامي في المجتمعات الأوروبية عن طريق الحد من حملات الإساءة التي يتعرض إليها الإسلام والمسلمون كقانون منع الحجاب ومنع الأذان في سويسرا والإساءة إلى المقدسات والرموز الدينية.

عودة جرائم تفجير المساجد بباكستان

عاودت الجرائم الإرهابية لتفجير المساجد الباكستانية عملها الإجرامي مرة أخرى وذلك الشهر الماضي عبر تفجيرين لمسجدين شمال غرب البلاد وراح ضحيتها نحو ١٠٠ قتيل ومئات المصابين في مسجدين شمال غرب باكستان، وفي الهجوم الأول قال مسئولون حكوميون إن انتحارياً فجر نفسه فور انتهاء صلاة الجمعة مما أسفر عن مقتل أكثر من ٧٠ شخصا على الأقل ووقع الانفجار في ضاحية درة آدم خيل وهو أكبر هجوم في باكستان منذ سبتمبر الماضي وأوقع نحو ٣٠ قتيلا.. وقال مسئولو الإقليم إن حوالي ٣٠٠ شخص كانوا متجمعين بعد أن فرغوا من الصلاة عندما دخل المهاجم القاعة الرئيسية لمسجد وفجر نفسه.. الهجوم الثاني ألقيت فيه قنابل يدوية على مسجد في ضواحي بيشاور أثناء صلاة المغرب مما أسفر عن مقتل نحو ٣٠ شخصا، يذكر أن هجوما انتحاريا وقع في سبتمبر الماضي على موكب شيعي بمدينة كويتا بجنوبي غربي البلاد وأسفر عن سقوط ٥٤ قتيلا.

Then, Allah commands the Muslims to resort to peace if their enemies resort to it and reveal their tendency to it, as the objective is securing the Da'wah. Peace can do it. Allah (Glory be to Him) says:

{But if they incline to peace, you (also) incline to it, and (put your) trust in Allâh. Verily, He is the All-Hearer, the All-Knower. And if they intend to deceive you, then verily, Allâh is All-Sufficient for you. He it is Who has supported you with His Help and with the believers.}

[Al-Anfal (The Spoils) 61-62]

Islam went further than this, as the disbelievers who do not fight the Muslims anymore, and meet them with peace, the Muslims should not fight them. Allah (Glory be to Him) says:

{So if they withdraw from you, and fight not against you, and offer you peace, then Allâh has opened no way for you against them.}

[Al-Nisa' (Women): 90]

If they do not really incline to peace, and they are hypocrites, the Muslims should fight them until they wipe them out, and eradicate sedition.

Allah (Glory be to Him) says in this regard:

{You will find others that wish to have security from you and security from their people. Every time they are sent back to temptation, they yield thereto. If they withdraw not from you, nor offer you peace, nor restrain their hands, take (hold of) them and kill them wherever you find them. In their case, We have provided you with a clear warrant against them.}

[Al-Nisa' (Women): 91]

1- When fighting exceeded Quraysh and the Jews in Medina to the Arab tribes who allied with each other to fight the Muslims, Allah commanded the Muslims to fight all of the disbelievers with all of their tribes.

Allah (Glory be to Him) says:

{and fight against the Mushrikûn (polytheists, pagans, idolaters, disbelievers in the Oneness of Allâh) collectively as they fight against you collectively.}

[At-Tawbah (Repentance): 36]

2- When the Jews of Medina and of the surrounding area revealed their evil and aggression and did not abide by the creeds and treaties that the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) concluded with them, the Messenger fought them, and the Jews were defeated due to their alliance with the disbelievers. Allah let some of them escape and the others perished.

Allah (Glory be to Him) says:

{And those of the people of the Scripture who backed them (the disbelievers), Allâh brought them down from their forts and cast terror into their hearts, (so that) a group (of them) you killed, and a group (of them) you made captives.}

[Al-Ahzab (The Allied Parties): 26]

Except for the cases we previously mentioned, Islam is known for its tolerance, which includes the other religions. Also, it is known for its benevolence towards the people belonging to other religions as long as they are peaceful.

Allah (Glory be to Him) says in this regard:

{Allâh does not forbid you to deal justly and kindly with those who fought not against you on account of religion nor drove you out of your homes. Verily, Allâh loves those who deal with equity. It is only as regards those who fought against you on account of religion, and have driven you out of your homes, and helped to drive you out, that Allâh forbids you to befriend them. And whosoever will befriend them, then such are the Zâlimûn (wrong-doers or those who disobey Allâh).}

[Al-Mumtahanah (She that is to be examined): 8-9]

This is the Islamic nation that Allah wants and the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) set its bases upon his Hijirah from Mecca to Medina since fourteen centuries. This nation as well as its divine bases will never be missed. The Holy Book is still with us, and the Muslims should only resort to Allah (Glory be to Him) to get His Mercy, and to restore their previous glory, which they lost. Humanity nowadays is in dire need for Islam to build the recent civilization on the basis of Truth and good. This is the nature of truthfulness in the creed and jusitice. Allah (Glory be to Him) says:

{And the Word of your Lord has been fulfilled in truth and in justice. None can change His Words. And He is the All-Hearer, the All-Knower.}

[Al-An'am (The Cattle): 115]

(emigrants from Makkah), except that you do kindness to those brothers (when the Prophet peace be upon him joined them in brotherhood ties). This has been written in the (Allâh's Book of Divine) Decrees? (Al-Lauhul Al-Mahfûz). }

[Al-Ahzab (The allied parties): 6]

This verse cancelled inheriting depending on fraternity, and attributing it to the relatives only.[5]

With regard to this relation, the Messenger of Allah (Glory be to Him) urged the Muslims, following the Commands of Allah (Glory be to Him), to be tolerant and merciful at a time full of fanaticism and exaggeration. Islam did not accept banishment and confiscation.

For example, the treaty, concluded between the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) and the Jews, included:

1- Freedom of religion is guaranteed.

2- The Jews should ally with the believers in the state of war, and should not ally with or help the disbelievers of Mecca.

3- The Muslims agree with the Jews on advocating the oppressed, protecting neighbors, protecting private and public rights.

4- Participating in defending Medina if attacked by any enemy.

5- Guaranteeing the freedom of coming out of Medina, if anyone wants to leave it, and staying in it in case of maintaining its sanctity.[6]

The methodology of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) was to refine and guide this fanaticism to the right and straightforward path. He changed the national trend of the pre-Islamic era to a sublime objective: advocating the Truth even if by fighting the family and sons. Thus, this fanaticism was directed to maintaining the dignity of Islam and the religious fraternity. The awful tribal competition turned into rational competition aiming at construction not destruction. The members of the tribes and all of the Muslims compete in the Cause of Allah to raise the Word of Allah and the banner of Islam.

When the Messenger of Allah (may the blessing and peace of Allah be upon him) immigrated to Medina, he and the Muslims were directing their faces during Prayer to the Furthest Mosque for 16 months. However, he longed for directing his face during Prayer to the Inviolable Mosque in Mecca, because the Inviolable Home was more ancient. It was the Qiblah of Ibrahim (may peace of Allah be upon him) and the Arabs' object of pride, as the people regarded as it secure place, for visit and circumambulation.

Allah (Glory be to Him) says:

{Verily, We have seen the turning of your (Muhammad's peace be upon him) face towards the heaven. Surely, We shall turn you to a Qiblah (prayer direction) that shall please you, so turn your face in the direction of Al-Masjid-Al-Harâm (the sanctuary at Makkah). And wheresoever you people are, turn your faces (in prayer) in that direction.

---

[5] Fiqh Al-Sirah by Shaykh Muhammad Al-Ghazaly.

[6] The previous refernce.

Certainly, the people who were given the Scripture (i.e. Jews and the Christians) know well that, that (your turning towards the direction of the Ka'bah at Makkah in prayers) is the truth from their Lord. And Allâh is not unaware of what they do.}

[Al-Baqarah (The Cow): 144]

When the Qiblah was moved to the Inviolable Mosque, the unique personality of the Islamic nation manifested itself, far from Jewish personality and the Chritian one which emerged from it. Also, this revealed the Muslims' relation to their father Ibrahim and Ismail (may peace of Allah be upon them). This helped to the Muslims to love Islam, until the Arabian Peninsula was let by it and its light spread outside it, carrying out its aim.

After the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) set the bases of the new Islamic society, as we mentioned before, he realized the importance of defending and strengthening this religion to refute the vicious enemies.

1- By defending themselves and refuting oppression and aggression.

Allah (Glory be to Him) says:

{Permission to fight (against disbelievers) is given to those (believers) who are fought against, because they have been wronged; and surely, Allâh is Able to give them (believers) victory. Those who have been expelled from their homes unjustly only because they said: "Our Lord is Allâh."}

[Al-Hajj (Pilgrimage): 39-40]

2- Defending the Islamic Da'wah if its enemies attempted to:

a) Affecting negatively the believers.

b) Hindering the persons who want to embrace Islam from doing so.

c) Preventing the preachers from spreading the Da'wah.

Allah (Glory be to Him) says:

"And fight in the Way of Allâh those who fight you, but transgress not the limits. Truly, Allâh likes not the transgressors". [This Verse is the first one that was revealed in connection with Jihâd, but it was supplemented by another]. "And kill them wherever you find them, and turn them out from where they have turned you out. And Al-Fitnah (The temptation) is worse than killing. And fight not with them at Al-Masjid-Al-Harâm (the sanctuary at Makkah), unless they (first) fight you there. But if they attack you, then kill them. Such is the recompense of the disbelievers".

[Al-Baqarah (The Cow): 190-191]

1- Emphasizing the liberty of creed and getting away from astray objectives to complete the suitable atmosphere to include every person under its banner without fearing oppression or sedition.

Allah (Glory be to Him) says:

And fight them until there is no more Fitnah (disbelief and worshipping of others along with Allâh) and (all and every kind of) worship is for Allâh (Alone). But if they cease, let there be no transgression except against Az-Zâlimûn (the polytheists, and wrong-doers) [Al-Baqarah (The Cow): 193]

The Islamic Nation is Based on Hijrah...![1]

(Alal-Hejrati Qamat Dawlatul-Islam)

By: Consultant Muhammad Ezzat At-Tahtawy

The Muslims are chosen among all of the nations, as it is the nation responsible for the religious heritage of the Prophet. Thus, there are great consequences for this sublime choice and the holy book, which Allah sent to the last Messenger. Also, the nation was entitled to protect it. Allah (Glory be to Him) said:

{And verily, this (the Qur'ân) is indeed a Reminder for you (O Muhammad peace be upon him) and your people (Quraysh people, or your followers), and you will be questioned (about it).}

[Az-Zukhruf (Decoration): 44]

The Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) immigrated to Medina. There were certain pillars the Prophet had to establish to carry out the following matters:

1- The relation between the members of this nation and Allah.

2- The relation among the members of this nation.

3- The relation between the members of this nation and the non-Muslims.

1- Transforming the tribal fanaticism between the members of this nation and Al-Aws and Al-Khazraj to a more sublime humane relation.

2- Changing the Qiblah from the Furthest Mosque to the Inviolable Mosque.

3- Guiding the Muslims to fight to defend themselves first, then to prevent the evil powers from reaching the people around the world.

4- Setting the basis upon which the new nation is based.[2]

To achieve this aim, the Messenger (may the blessings and peace of Allah be upon him) tended to build his mosque immediately after reaching Media to offer Prayer, which is one of the pillars of Islam. These rituals were fought by the disbelievers, while they constitute the link between the Muslims and their Lord, and purify their hearts from insinuation of life. The Messenger (may the blessings and peace of Allah be upon him) participated in building this mosque by carrying the stones on his shoulder. The mosque was modestly and simply furnished.[3]

This modest building brought up the earlier generation of Muslims, who were the angels of the human beings, and the people who taught the kings and emperors lessons.

---

[1] An article published (in Arabic) at Al-Azhar Magazine.

[2] See a book on the Biography of the Messenger (may the blessings and peace of Allah be upon him) by Dr. Muhammad At-Tayeb Al-Najjar, published by the library of Al-Azhar University.

[3] Nihayat Al-Irab fi Funun Al-Adab by Shihab Ad-Din Ahmed Al-Nuwairy – part 16.

This means that mosque in the Islamic society is the source of spiritual and materialistic guidance.

Prayer was connected to morals and traditions which were the core of Isalm. In spite of this, Prayer is not limited to mosques only, as the whole earth can be regarded as a mosque, and when its time comes, the Muslim should offer it.

Allah (Glory be to Him) says:

{Verily, As-Salât (the prayer) prevents from Al-Fahshâ' (i.e. great sins of every kind, unlawful sexual intercourse) and Al-Munkar (i.e. disbelief, polytheism, and every kind of evil wicked deed)}

[Al-`Ankabut (The Spider): 45]

Allah (Glory be to Him) says:

{The Mosques of Allâh shall be maintained only by those who believe in Allâh and the Last Day, perform As-Salât (Iqâmat-as-Salât), and give Zakât and fear none but Allâh. It is they who are on true guidance.}

[At-Tawbah (Repentance): 18]

The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "The whole earth is made a mosque for me. Thus, whenever the time for prayer is due, a person may offer it in any place."[4] There is no value for the civilization that gets away from Allah, renounced the Day of Judgment, and does not remember Allah, the Lord of the World.

This relation was set up by the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) on the basis of fraternity between the immigrants and the advocators, who inhabited Medina. In this way, the fanaticism of the pre-Islamic era melt and the jealousy for Islam only emerged. Consequently, the differences of color and place of birth were of no importance, and the only thing that distinguishes a person is his piety and kindness.

The feelings of condolence, altruism, and kindness were mixed with fraternity and spread in the Islamic society. Also, there were many wonderful examples, and this is not amazing because the Messenger of Allah is the perfect pattern and elder brother of this group.

Allah (Glory be to Him) says:

{And He has united their (i.e. believers') hearts. If you had spent all that is in the earth, you could not have united their hearts, but Allâh has united them. Certainly, He is All-Mighty, All-Wise.}

[Al-Anfal (The Spoils): 63]

The rights of fraternity took priority over the rights of kinship in inheriting until the Battle of Badr, as the saying of Allah (Glory be to Him) was sent down:

{And blood relations among each other have closer personal ties in the Decree of Allâh (regarding inheritance) than (the brotherhood of) the believers and the Muhâjirûn

---

[4] A Hadith related by Al-Bukhari, chapter on Taymmum, part 1.

There is another Hadith which indicates that the soundness of the heart is the matter that Allah considers. The Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Allah does not look at the outward appearance or wealth of any one of you, but He looks at your hearts and deeds."

The Messenger of Allah backs some of the perverted behaviors of some people to depravity of heart and disorder of belief. The person who commits adultery does not do that while being a believer, the thief does not steal while being a believer, and the person who drinks intoxicants does not do that while being a believer.

The Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) looked at a person who moved a lot while offering Prayer. He commented on this situation saying a saying that deserves consideration: "If the heart is focused then the limbs will be still."

In the earlier period of Islam spent in Mecca, Quraysh tormented extremely those who embraced Islam. One of the persons who was tormented came to the Messenger (may the blessings and peace of Allah be upon him) in a state of panic and worry, not due to torture, but due to a bad word, which he was forced to say. The Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) asked him a certain question: "How do you find your heart?" He said: "My heart is reassured due to belief." He knew that there is nothing wrong with him. Then, the saying of Allah (Glory be to Him) was sent down:

{Whoever disbelieved in Allah after his belief, except who is forced thereto and whose heart is at rest with Faith but such as open their breasts to disbelief, on them is wrath from Allah, and theirs will be a great torment.}

[An-Nahl (The Bees): 106]

This is due to the importance of the soundness of the intention, which is a condition in the worships. Every type of worship should be preceded by truthful and sound intention. It is obligatory in offering Prayer, ablution, rithual bath, or dry ablution with clean earth. Also, it is a condition for Fast, Zakah (obligatory charity), Hajj, 'Umrah, and all of the other acts that draws the person closer to Allah. The intention should precede any act of worship to emphasize the resolution in performing the act of worship.

The Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) clarified the way of accounting for the intentions in the Day of Judgment. This is clarified in the Hadith: "Whoever thinks of doing a good deed then does not do it, Allah will write it down as one complete good deed. If he thinks of doing a good deed and then does it, Allah [may He be glorified and exalted] will write it down between ten and seven hundred fold, or many more. If he thinks of doing a bad deed then he does not do it, Allah will write it down as one complete good deed, and if he thinks of it then does it, Allah will write it down as one bad deed."

The Holy Qur'an mentions many of the good deeds performed by the disbelievers. Allah (Glory be to Him) says:

{The example of those who disbelieve in their Lord is [that] their deeds are like ashes which the wind blows forcefully on a stormy day; they are unable [to keep] from what they earned a [single] thing. That is what is extreme error.

[Ibrahim (Abraham): 18]

Also, Allah says:

{As for those who disbelieve, their deeds are like a mirage in a desert. The thirsty one thinks it to be water, until he comes up to it, he finds it to be nothing, but he finds Allah with him, Who will pay him his due (Hell). And Allah is Swift in taking account.}

[An-Nur (The Light): 39]

The two examples are from the greatest Qur'anic examples, which reveal the tragic destiny of the deeds of people whose hearts were spoiled and void of belief. They

considered goodness as a mere behavior that they liked in their life, and sought praise or hidden gaining behind it.

Upon revealing this fact, there is the third example, as Allah (Glory be to Him) says:

[O you who believe! Do not render in vain your Sadaqah (charity) by reminders of your generosity or by injury, like him who spends his wealth to be seen of men, and he does not believe in Allah, nor in the Last Day. His likeness is the likeness of a smooth rock on which is a little dust; on it falls heavy rain which leaves it bare. They are not able to do anything with what they have earned. And Allah does not guide the disbelieving people.]

[Al-Baqarah (The Cow): 264]

There are many indications and evidences in the Hijirah to Yathrib, as it was one of the greatest acts that revealed the belief of the believers, who lived in the calamity and suffering of the earlier period of Islam spent in Mecca. They were asked, besides the torture they suffered from, to leave their nation, seeking Allah's rewards and Great Pleasure and advocating His religion. It is a significant sacrifice. As for the inhabitants of Mecca, it has a greater importance for their belonging to the Inviolable Mosque. In spite of this, they immigrated.

A crowd of the believers from the inhabitants of Mecca traveled in the Cause of Allah, while being truthful to Him. Thus, they deserved the rank Allah, the Lord of the two worlds, granted them. Allah (Glory be to Him) says:

{See you not (O Muhammad) that Allah, He is Whom glorify whosoever is in the heavens and the earth, and the birds with wings out-spread (in their flight). Of each one He (Allah) knows indeed his Salat (prayer) and his glorification, [or everyone knows his Salat (prayer) and his glorification], and Allah is All-Aware of what they do.}

[An-Nur (The Light): 41]

One of the believers who immigrated to Medina is Suhayb Al-Rumy, who left his money and trade to support the honorable Prophet and the emerging nation. Some of the Companions were amazed for his act and blamed him for leaving his money. The Prophet said in support of the act of Suhayb: "By Allah, Suhayb won Allah's reward."

Besides this bright example, there were people, who sought delusion, slipped among the immigrants with bad intention and deluded aim. One of these people is the immigrant seeking Um Qays. He immigrated with the immigrants not to advocate the religion of Allah, or to raise the Word of Allah, or to support the emerging nation, but to follow Um Qays and the brisk markets of Medina. He sought gains, profits, and money.

Definitely, the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) uncovered the evil intentions of those people when he presented to the Muslims general issues, forming the basis of the rational religiousness. This is revealed in his Hadith: "The reward of deeds depends upon the intentions and every person will get the reward according to what he has intended. So whoever emigrated for worldly benefits or for a woman to marry, his emigration was for what he emigrated for."

In this way, Hijirah was a great and eminent event in the Islamic history. It was a great field for the people of strong resolutions, and those who sought goodness exerting for its sake every precious matter. Also, there were people with deluded intentions who slipped among the Muslims.

holding sharp swords. Any human estimation other than this may be considered as an illusion.

However, the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) accompanied Ali ibn Abu Taleb when he went to bed, and ordered him to sleep in his bed. Then, he came out of the house deluding the disbelievers, in the manner a human being, who puts his trust on Allah does. The Messenger (may the blessings and peace of Allah be upon him) came out of the house grasping a handful of dust, which he dispersed over the disbelievers, saying: "The faces look, but the eyes are blind." Thus, no one of the disbeliever felt that he came out of his house. The Divine Protection is responsible for that and caused the plots of the disbelievers to fail.

This Divine Protection can take the Messenger (may the blessings and peace of Allah be upon him) from Mecca to Medina in lightening speed, in the manner it did at the Night Journey. But, Providence wills to give examples for the people, and to show them that the person who follows the Path of Allah, Allah protects him, thwarts the plans of his enemies, and makes them unable to expect correctly.

Abu Bakr prepared the camels on which they would ride to travel to Medina, and prepared for the person who would bring them the provisions on their way and help to hide them, so that Quraysh could not reach them. They settled in Thawr Cave to delude Quraysh. When the disbelievers of Quraysh were disappointed for killing him, they traced him on his way to Medina. They called for intelligent followers of tracks to follow his tracks. Whatever the traces are hidden, the intelligent follower of track can see and track with his sharp vision some of his traces. The end of the traces was at Thawr Cave.

All of the evidence indicated that the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) hide inside the cave, and the traces end at its opening. However, Providence let a spider weave its spreads blocking the door of the cave along with two pigeons, which laid eggs at the mouth of the cave, and a tree, whose branches lean towards the door of the cave. All of these things signify that there is no one in the cave, as they need much time to make these coverings.

Abu Bakr was extremely worried when the disbelievers of Quraysh were talking with each other at the opening of the cave. Abu Bakr (may Allah be pleased with him) told the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him): "If anyone of them looks under his feet, he will see us." But, the Messenger of Allah looks under his feet said: "Abu Bakr, what do you think about two persons who are protected by Allah." The disbelievers of Quraysh left the cave without seeing them. Providence willed that everything goes as it was.

The Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) and Abu Bakr (may Allah be pleased with him) immigrated without any weapon, sword, or spear to defend themselves if they encountered fighting on their way. They were protected by Providence from any evil or adversity.

The disbelievers of Mecca could not calm down, as they lost two chances for killing the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him): in his house, and when his traces end at the cave. Thus, there should be a new plot. They announced to grant any person who would bring Muhammad either alive or dead a hundred camels. If he wanted to increase the number of the camels, they would give him.

Suraqah Ibn Malek heard their announcement, rode his horse, and held his sword and quiver of arrows. H came out to trace the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) to bring him to Quraysh either alive or dead to win the prize. He rode the horse quickly until he saw the unarmed immigrant and approached him.

All of the indications signify the success of the mission of Suraqah, and that he would undoubtedly kill the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him), as he holds a weapon, while the Prophet is unarmed. However, his horse stumbled all of a

sudden, and Suraqah tried to awaken it, and it stood and ran. In the third time, the horse terribly stumbled, and its front legs sank in the sand.

Then, Suraqah was disappointed and found out that the Prophet was protected. He called out to the Prophet and Abu Bakr. He told them to look at him, as he would not hurt them. At that moment, the situation changed from asking for safety for the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) to asking for safety for anyone who would track them. The Prophet promised him not to hurt him, and Suraqah came back without winning any prize.

They continued on their way until they reached Medina by the Protection of Allah. The scholars become amazed at this Hijirah. The materialistic researchers render the success of the Hijirah to the human preparation, and cancel the role of Providence which protected the Prophet and his Companion from evil, at a time when all the evidences signify the occurrence of this evil. Those who slacken say that Providence only kept the Prophet and his Companion from harm. If they did not take precautions, they would be rescued undoubtedly.

In fact, the matters differs from both groups say, as any person who is about to do a certain action, he should prepare himself and take precautions along with putting his trust on Allah, Who cause the matter to be executed. Whatever the mentality is, it will be of no use without the Allah's Will. Hijirah from Mecca to Medina proves this opinion clearly.

The Muslims should reflect on this story while being in calamities in this age. There are many calamities in the field of economy, politics, social structures, and in many parts of their nation. They are tyrannized and killed, and their wealth is plundered. They will not be rescued except by followed the methodology of Hijirah. They should make plans and put their trust on Allah, who carries out their demand.

"The reward of deeds depends upon the intentions." This is a great Prophetic saying, that was frequently narrated on the authority of the Messenger (may the blessings and peace of Allah be upon him). It suffices that it is narrated by `Umar Ibn Al-Khattab (may Allah be pleased with him) who did not narrate much Hadiths. Also, he urged the narrators of the Hadiths to resort to authentication.

The greatness of this saying lies in its revealing one of the results of the Islamic methodology in regarding the human being. It establishes in his soul the good intention and straightforwardness of the objective. Also, it urges the Muslim to depend on these basics in encountering certain behaviors and experiments as well as the forms of dealing with live and the living creatures.

This matter is known in the Qur'an with the wholesome heart: the heart which is not afflicted with the diseases of disbelief, delusion, and spoiled trends. Thus, it urges the person to his good and that of his society. The description of the wholesomeness of heart in two positions in the Qur'an. Both of them are about Ibrahim (may peace of Allah be upon him), the first of which is in the context of his worshipping of Allah. Allah says:

{And do not disgrace me on the Day they are [all] resurrected – The Day when neither many nor sons will profit (anyone) - But only one who comes to Allah with a sound heart."} [Al-Shu`ara' (The Poets): 87-89]

The other one is in the context of speaking about the message of Ibrahim. Allah (Glory be to Him) says: {And indeed, among his kind was Abraham. When he came to his Lord with a sound heart}

[As-Saffat (Those who set the Ranks): 83-84]

The agreed upon Hadith emphasized what is mentioned in the Holy Qur'an, as the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "In the body there is a piece of flesh which, if it is sound, the entire body will be sound, and if it is corrupt, the entire body will be corrupt. It is the heart."

AL-AZHAR MAGAZINE

Al-Muharram, 1432 A. H.

ENGLISH SECTION

December. 2010



﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."

(Al A'raf 43)

EDITOR : Dr. IBRAHIM AL-ASSIL,

Professor at the Faculty of Languages and Translation

Al-Azhar University

The noble Hijrah of the Prophet is Putting Trust in Allah and Strife...!

(Al hejratun-nabaweyyatush-shareefatu tawakkulun wa nedal)

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

It is not correct to think that the human preparation for Hijirah is only reason for its success, as the human beings may prepare plans and conduct estimations, but the results may contradict with their estimations and expectations, because the Providence does not support them. This matter considerably differs from the Hijirah of the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) from Mecca to Medina.

The Prophetic Hijirah did not occur out of the choice of the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him). Rather, it was Allah's Command to His Prophet, who carried out the mission, in the way and Allah (Glorified be He) want. When Allah wills a matter to occur, it occurs certainly, whatever the counter circumstances are. "If He wills a thing, is only to say": "Be!" - And it is. "Ya-sin: 82"

The Divine Mandate does not mean that a person relaxes letting matters go as they are. Rather, he should be alert and cautious. Also, he chooses what he does not to mix putting trust on Allah along with exerting efforts and slackening without exerting any effort.

The night of Hijirah was extremely glorified by history, as all of the indications refer to a certain result, and the Divine Will revealed to the human being that his resolution only is worthless without Allah's Help, even if he made all of the preparations.

The disbelievers of Mecca expected that Hijirah would take place at the very night in which it occurred. According to these expectations, they prepared themselves to kill the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him). They thought to take a strong young man, attributed with courage from every tribe. They gave everyone of them a sharp sword to kill the Prophet immediately when he was to stab him.

The young men gathered around the house of the Messenger (may the blessings and peace of Allah be upon him) to stab him when he was to come out of his house so that no certain tribe would become responsible solely for his murder, and there would be no punishment. Thus, Bani Hashim would accept the blood money, which is a hundred camels. This blood money is considered easy in return for getting rid of the Prophet, whom they regarded as an enemy. They were not able to silence him or to prevent the believers from increasing constantly around him.

The Arabs, who are known for their courage, heroism, and volunteering, with which they boast in their poetry and prose, renounced all of these values at this night. Heroism would be if they fought each other, and the winner would be the courageous hero. The conspiracy hatched by the disbelievers of Quraysh does not signify any heroism or courage. It is an armed gathering against one person. Also, it would take place at a time when no weak person could seek help.

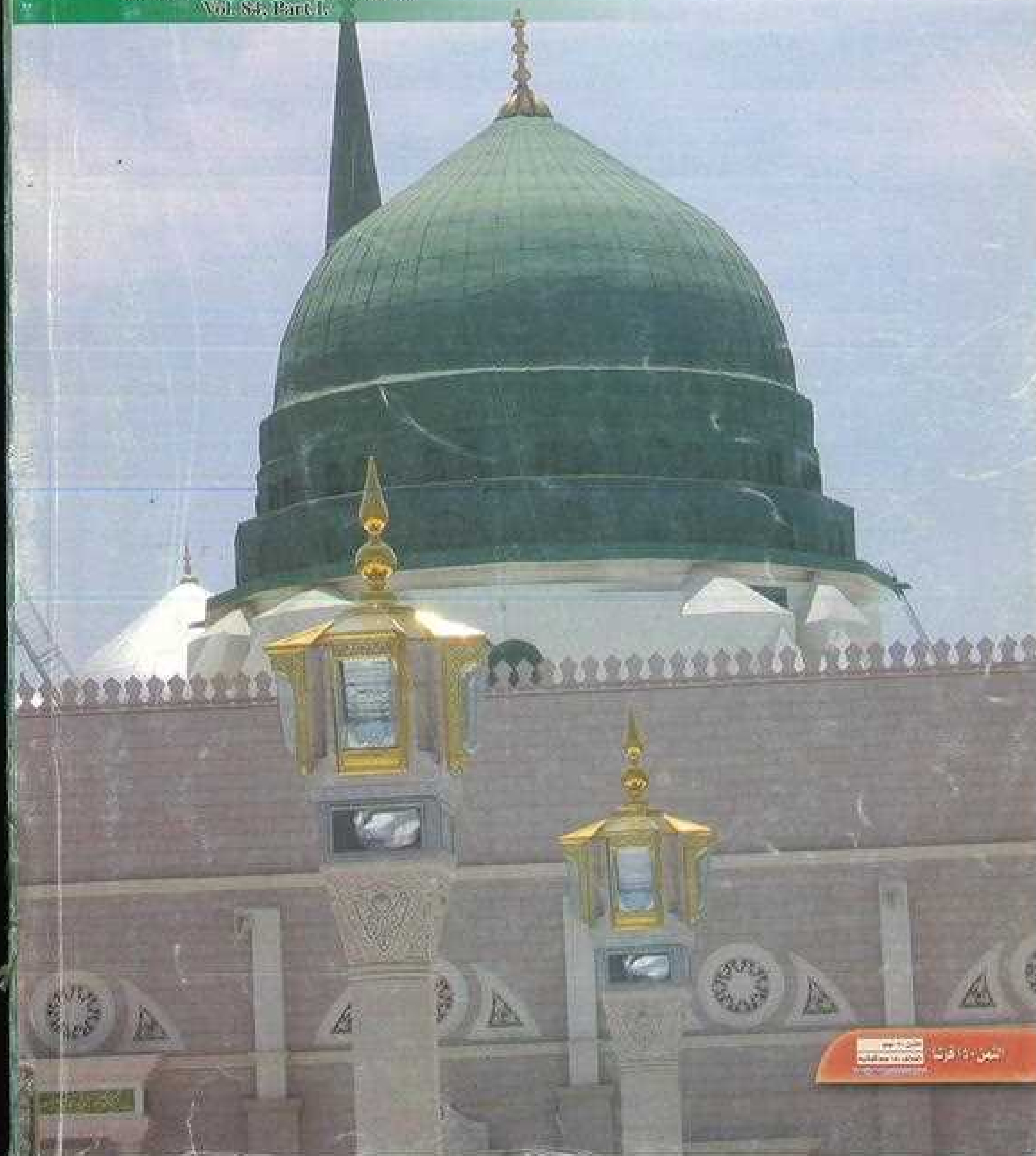
All the indications reveal that the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) would be killed undoubtedly, as the strong young men were lurking and

الفهـــرس

AL AZHAR

MAGAZINE

Al-Muharram, 1432 A.H. Dec, 2010,
Vol. 84, Part I.



هدية العدد
ما يقال عن الإسلام
(الجزء الثاني)

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
صفر ١٤٣٢هـ يناير ٢٠١١م - الجزء «٢» السنة «٨٤»

إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ



مبارك: دماء أبنائنا لن تضيع وسنقطع يد الإرهاب والمتربصين بأمن مصر

مصر كلها يد واحدة

الرئيس مبارك يوجه بيانًا إلى الأمة



أكد الرئيس حسنى مبارك أنه لن يسمح لأحد بالاستخفاف بأمن مصر وأنه سيتم تعقب المخططين والمتورطين فى حادث الإسكندرية قائلا: «دماء أبنائنا لن تضيع وسنقطع يد الإرهاب والمتربصين بأمن مصر».

جاء ذلك فى كلمة وجهها الرئيس مبارك مساء السبت ٢٦ من المحرم سنة ١٤٣٢هـ الموافق الأول من يناير سنة ٢٠١١م إلى الأمة بعد ساعات من وقوع حادث الإسكندرية.

وفيما يلى نص كلمة الرئيس حسنى مبارك التى وجهها إلى الشعب المصرى بشأن الحادث الانتحارى الذى استهدف كنيسة القديسين بالإسكندرية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الإخوة المواطنون أتحدث إليكم بعد ساعات من تعرض مصر لعمل إرهابى آثم استهدف الوطن بأقباطه ومسلميه ووجه ضربته الإجرامية ونحن نحتفل مع العالم بأعياد الميلاد والعام الجديد.

لقد هز هذا العمل الإرهابى ضمير الوطن.. صدم مشاعرنا وأوجع قلوب المصريين مسلميهم وأقباطهم، امتزجت دماء شهدائهم وجراحهم على أرض الإسكندرية لتقول لنا جميعا إن مصر برمتها هى المستهدفة وأن الإرهاب الأعمى لا يفرق بين قبطى ومسلم.

لايزال الإرهاب متربصا بمصر وشعبها ويطل علينا بوجهه القبيح يروع الآمنين ويهدد أبناء شعبنا فى أرواحهم وأرزاقهم لقد طالت يد الارهاب ليلة أمس ضحايا أبرياء بعملية إرهابية غريبة علينا وعلى مجتمعنا بإرهاب لا يعرف وطنا ولا دينا، عملية إرهابية تحمل فى طياتها دلائل تورط أصابع خارجية تريد أن تجعل من مصر ساحة لما تراه من شرور الإرهاب بمنطقتنا وخارجها.

إننى أؤكد وإلى جانبى كل المصريين أن قوى الإرهاب لن تنجح فى مخططاتها وستفشل فى زعزعة استقرار مصر أو النيل من آمال شعبها ووحدة مسلميها وأقباطها.. إن أمن مصر القومى هو مسئوليتى الأولى لا أفرط فيه أبدا ولا أسمح لأحد أيا كان بالمساس به أو الاستخفاف بأرواح أو مقدرات شعبنا.

الأخوة المواطنون..

لقد تلقيت ـ ولا أزال ـ تقارير عديدة من أجهزة الدولة على مدار ساعات الليلة الماضية وأقول بكل الثقة.. إننا سنتعقب المخططين لهذا العمل الإرهابى ومرتكبيه وسنلاحق المتورطين فى التعاون معهم ممن يندسون بيننا.

إننى أتقدم بخالص عزائى ومواساتى لأسر الضحايا والمصابين أقباطا ومسلمين.. وأقول لهم إن دماء أبنائنا لن تضيع هدرا.. وسنقطع يد الإرهاب المتربص بنا.. أقول لهؤلاء المتربصين.. لقد كسبنا معركتنا مع الإرهاب فى سنوات التسعينيات.. وتخطئون خطأ فادحا إن ظننتم أنكم بمنأى عن عقاب المصريين.

إن هذا العمل الآثم هو حلقة من حلقات الوقيعة بين الأقباط والمسلمين.. لكن الله رد كيد الكائدين فى نحورهم.. فلقد أكد من جديد إننا جميعا فى خندق واحد.. وأننا جميعا سنقطع رأس الأفعى.. ونتصدى للإرهاب ونهزمه.

ربنا اجعل هذا البلد آمنا.. وانصرنا على كل من يريد به الشر والسوء.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فضيلة الإمام الأكبر يدين الحادث الإرهابى



أعرب فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر عن بالغ أسفه وألمه للحادث الإجرامى الذى تعرضت له كنيسة القديسين فى الإسكندرية، ووجه فضيلته صادق التعازى لأسر الضحايا داعيا الله أن يمن على الجرحى بالشفاء العاجل.

وأكد فضيلته أنه من موقع العلم الشرعى والمسئولية الوطنية يؤكد أن هذا العمل الإجرامى عمل آثم محرم شرعا، لأن الإسلام أوجب على المسلمين حماية الكنائس كما يحمون المساجد، وأوضح فضيلته أن هذا العمل الإجرامى الأثيم الذى استهدف مواطنين أبرياء يستعدون لاستقبال عام جديد، لا يمكن أن يصدر من مسلم يعرف دينه وأن الإسلام والمسلمين منه براء، وأن المستهدفين بهذا العمل ليسوا هم المسيحيين وحدهم بل المستهدفون هم المصريون جميعا، وأن الذى يضرب الكنيسة يضرب المسجد.

وأعرب فضيلته عن اقتناعه التام بأن الذين يقفون من وراء هذا العمل الأثيم إنما يريدون ضرب الوحدة الوطنية والتماسك الاجتماعى والأمن القومى لمصر، تنفيذا لمخططات خبيثة تعمل على زعزعة الاستقرار والأمن وإثارة الفتن الطائفية والمذهبية فى المنطقة كلها.

وأهاب الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب بالمصريين جميعا، أن يرتفعوا فوق آلامهم، وأن يدركوا أن اليد المجرمة التى امتدت بالعدوان ليست يدا مصرية، وأن الإخاء الذى جمعهم على مدى القرون لا يمكن أن يؤثر فيه عمل مجرم جبان ارتكبه أعداء الوطن والأمة.

***

وزارة الأوقـــــاف
تديـن الحــادث الإرهابــى بالإسكندرية



كما أصدرت وزارة الأوقاف المصرية البيان التالى:

وزارة الأوقاف إذ تشعر بالصدمة للحادث الإرهابى البشع أمام كنيسة القديسين بالإسكندرية فإنها تدين هذا العبث الإجرامى بأمن الوطن والمواطنين وتقدم خالص العزاء لأسر الضحايا من الأقباط والمسلمين وتؤكد لإخواننا الأقباط أن الاعتداء على الكنائس يعد اعتداء على المساجد فكل مكان يذكر فيه اسم الله له حرمته وقدسيته، وأن أى اعتداء على الأقباط هو اعتداء على كل المصريين وتهديد لوحدة الوطن وأمنه واستقراره وأن الجميع مطالبون بالوقوف صفا واحدا ضد أى عدوان يقع على أى مواطن مسلما كان أم مسيحيا.

فكلنا مصريون تجمعنا المواطنة الحقيقية التى عرفتها مصر منذ أن عرفت الإسلام.

ووزارة الأوقاف إذ ترفض هذه الممارسات الإرهابية فإنها تؤكد أن الإسلام، الذى يحرص على حرمة النفس الإنسانية والحفاظ على كرامتها، برئ من هذه الممارسات ومن أصحابها.. ولن يفلت القتلة من العقاب:

﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾

***

بيـــان دار الإفتـــاء المصـــرية



كما أدانت دار الإفتاء المصرية عملية تفجير سيارة مفخخة أمام كنيسة القديسين بالإسكندرية وأسفرت عن قتل وإصابة العشرات من المواطنين المصريين.

وقال فضيلة الأستاذ الدكتور على جمعة، مفتى الجمهورية، فى البيان الصادر عن دار الإفتاء المصرية فور وقوع الحادث الإرهابى والدموى المؤسف: إن ذلك العمل الإجرامى هو «عمل إرهابى مذموم» مؤكدا أنه غير طائفى، وأن الإسلام والمسلمين منه براء مؤكدا أن هذا الفعل لا يمكن أن يصدر عن مسلم يعلم حقيقة الإسلام وما يأمر به مرجحا تورط جهات خارجية فيه تريد الوقيعة وضرب الوحدة الوطنية.

ودعا الدكتور على جمعة مفتى الجمهورية جميع المصريين إلى التعقل وعدم الانسياق وراء الشائعات والترابط والتماسك ودحر الفتنة حتى لا يصل المغرضون إلى غايتهم بالوقيعة بين أبناء الشعب المصرى الواحد.

وأشار البيان إلى مواساة مفتى الجمهورية وعلماء دار الإفتاء لأسر الضحايا والمصابين متمنين للجرحى الشفاء العاجل ولمصر وشعبها العظيم دوام الأمن والاستقرار.

وذكر البيان أن مفتى الجمهورية وجميع علماء دار الإفتاء إذ يدينون ويستنكرون بشدة هذا العمل الإجرامى الذى استهدف المواطنين الأبرياء والآمنين من المسيحيين والمسلمين فى محاولة خسيسة منهم لإشعال نار الفتنة بين أبناء هذا الوطن يطالبون فى نفس الوقت جميع المصريين بالتكاتف والوحدة والتآلف لمواجهة هؤلاء العابثين بأمن مصر ووحدة شعبها.

***

بيـــان من رئيـس جامعـــة الأزهـــر



كما أصدرت جامعة الأزهر البيان التالي:

تلقت أسرة جامعة الأزهر بألم بالغ وحزن شديد نبأ الاعتداء الأثيم على كنيسة القديسين بالإسكندرية الذى راح ضحيته عدد كبير من الأقباط والمسلمين.

وتعرب أسرة الجامعة عن إدانتها الكاملة واستنكارها البالغ لهذا الحادث الإجرامى الذى استهدف الكنيسة وحاول النيل من الوحدة الوطنية واغتيال فرحة إخواننا الأقباط بأعياد الميلاد.

وتقدم أسرة الجامعة خالص العزاء وعظيم المواساة لأسرة الضحايا وتهيب بأبناء الوطن أن يفوتوا الفرصة على أعدائهم، وأن يقفوا صفا واحدا فى مواجهة قوى التطرف والإرهاب، وأن يتصدوا بكل حزم لأى محاولة للنيل من أمن الوطن واستقراره ووحدة أبنائه.

حفظ الله مصر من كل شر ووقاها من كل مكروه، إنه ولى ذلك والقادر عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

أ.د. عبدالله الحسينى شحاتة

رئيس جامعة الأزهر

***

بسم الله الرحمن الرحيم



الأزهر

مجلة شهرية جامعة
يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف فى مطلع كل شهر عربى
تأسست عام ١٣٤٩هـ - ١٩٣١م

الاشتراك السنوى

داخل مصر ١٨ جنيها مصريا -
الدول العربية ٥٠ دولارا أمريكيا
أوربا وأمريكا ٨٥ دولارا أمريكيا -
اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولارا أمريكيا
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٥٧٨٦٢٠٠

المراسلات باسم: مدير التحرير -
مجمع البحوث الإسلامية - م. نصر
☎: ٢٢٦٢٨٥٩٩

داخل العدد

صفـــر ١٤٣٢هـ - ينايـــر ٢٠١١م - الجزء الثـــانى - الســـنة الرابعـــة والثمانـــون

تلاميذنا بين الترف والجريمة

كثرت وقائع الأحداث من التلاميذ على نحو يدعو إلى الإشفاق فمنهم من يسرق السيارات، ويحل أجزاءها ليبيعها متفرقة في أماكن مختلفة لا تثير الشبهات، ومنهم من يصعد إلى الشقق العالية بالمنازل المرتفعة متسلقًا مواسير المياه فيقتحم النوافذ، ويجمع ما يشاء في غسق الليل ثم يفر بالمسروقات قبل أن ينتشر ضوء النهار، ومنهم من ينقل الكميات المتوالية من المخدرات إلى أمكنة مختلفة، في تستر لا يوجب الالتفات، وله صلاته القوية بالتجار والمشترين معًا، فأولئك وهؤلاء يعرفونه جيدًا، ويطمئنون لمسلكه المريب، ومنهم من برع في كسر الأقفال الحديدية بمتاجر الذهب والأدوات الصحية، والمقتنيات الكهربائية، لينهب ما بداخلها عن خطة مرسومة ودراية تامة بأماكن التوزيع، ومنتهزي الفرص الدنيئة للكسب السريع.

نقرأ ذلك كل يوم ونعجب لتواليه على نحو متتابع، حتى جاءت حوادث الشغب فدلت على أن الشارع المصري مليء بهؤلاء، وأنهم أصبحوا ذوي وجود فعلي له دوره اليومي، ومسلسله الإجرامي دون انقطاع، ولابد أن ينهض الباحثون من رجال التربية والاجتماع والقانون لدراسة ما ظهر للعيان من تضخم هذه الظاهرة المريعة، وإنها لمريعة حقًا، ومحاولة الاستخفاف بها، تنتهي إلى شر وبيل.

بين الأمس واليوم

كان الأحداث المنحرفون بالأمس في أغلبيتهم الكثيرة من ذوي الحاجة الضرورية التي تلجئهم إلى الانحراف حين لايجدون ما ينفقون، لأسباب ترجع إلى فقر الأسرة، وموت العائل، وفقد النصير، ولكننا نرى اليوم أبناء الميسورين وذوي

الثراء البارز يشاركون زملاءهم الفقراء، بل يتفوقون عليهم في إحكام الجريمة، وخدعة الناظرين، وأكثر هؤلاء من طلاب المدارس الثانوية والفنية، الذين يتركون الدراسة عن عمد، ليؤلفوا جماعات يشجع بعضها بعضًا على العدوان، وترى في ذلك مظهرًا من مظاهر الرجولة ذات الكسب السريع.

وقد ساعد رخاء الوالد على الانحراف إذ يهيئ لأولاده الدروس الخصوصية في كل مادة، فيصبح الطالب غير محتاج للمدرسة في شيء، ومنهم من يكره التلمذة، وتتعدد مرات رسوبه، وبدلا من أن يبحث له والده عن عمل تجاري أو صناعي يحفظ له مستقبله، فإنه يرغمه إرغامًا على الانتظام بالمدرسة، ويراها وحدها باب المستقبل الوحيد، والولد بشعوره العدائي نحو التعليم يظهر الخضوع، ولا يكاد يفارق المنزل في الصباح حتى يجتمع بمن على شاكلته، ليؤلفوا عصائب الإفساد، وجو المدرسة في أكثر أحواله لايساعد على الانتظام بها كالأمس، فالحجرات مزدحمة والدروس العلمية تتوالى في غير شوق لامتلاء جدول المدارس وإرهاقه بأكثر مما يتحمل، وقد أغفلت التربية الرياضية أو كادت، لضيق المكان، وتضاءلت فرص النشاط المدرسي التي تسمح بإبراز المواهب، ويرى فيها التلميذ مجالا للعمل المتميز والظهور الحسن بين النظراء.

هذا عن قصور المدرسة، أما خارجها بالنسبة إلى الطالب فإن والد اليوم غير والد الأمس، كان ولي الأمر يجد من وقته وهدوئه ما يسمح بمراقبة ولده، والأخذ بيده، وكانت الوالدة تحصر همها في تهيئة المنزل المريح مجلسًا ومأكلا وملبسًا، واستقرارًا، بحيث كانت خدمة الأبناء هي كل شيء في حياتها، أما الآن فالوالد مرهق بالعمل الرسمي صباحًا والإضافي مساء، والوالدة موظفة تخرج لعملها، فإذا تفرغت للمنزل فلقضاء الحاجات المعيشية، دون اتساع للمراقبة والتوعية، وقد يكون الأب خارج البلاد في عمل يعود عليه بالتوسعة فيما بعد، وتكون الأم متحملة أعباء اغترابه، فهي والدة ووالد معًا! والابن ضائق بالمدرسة من ناحية، وبعيد عن الرقابة المنزلية من ناحية ثانية، فلابد أن يجد سعادته في الفضاء الطلق مع رفقاء السوء، ولابد أن يفكر في شيء ما يجعله ذا كسب سريع، ويشعره

بأهمية وجوده، ويبرر مسلكه فى الانقطاع عن الدراسة، وإذا تواطأ مع غيره فى هذا السبيل فقد وجد المشجع والمعين، وهنا تكثر الجرائم، وتتعدد كبوات الأحداث!.

فإذا تركنا طلاب المدرسة لغيرهم من المتشردين، فإننا نجد سيلا قذفت به القرى إلى المدن، حيث هرع كثير من الفقراء بعائلاتهم إلى القاهرة وعواصم المحافظات، طمعاً فى الهناءة المتوهمة، وهؤلاء يتكدسون فى منازل أشبه بالمقابر، وفى أكواخ تتجمع فى أماكن، نجد أمثالها فى بولاق وإمبابة وباب الشعرية وعين الصيرة ومقابر الإمام الشافعي، وقد تكون الشقة الواحدة فى المنزل المتداعى جامعة لأربع عائلات حيث تتكدس العائلة بأفرادها ذكوراً وإناثاً فى حجرة واحدة، وتجمع أصحابها فى المساء فقط، أما فى الصباح فيتشرد الأولاد فى الشوارع، وقليل منهم من يتلمس الرزق من طريق مشروع فى مخبز أو متجر أو مصنع، أما الكثير فيتلقفهم الكبار من أصحاب السوابق، ليتدربوا على النشل والسرقة واختطاف السلاسل الذهبية، والحقائب الثمينة، ومنهم من يعرف منازل المدمنين ليفد عليهم بالمخدر كما علمه رئيسه المحنك، وقد يكون الوالد طريح الفراش فى المنزل المتداعى، ولا يجد رزقه من غير انحراف الابن، فهو ينتظره كل مساء ليجد منه ما ينفق.

وأذكر أن بعض الجرائد اليومية نقلت إحصائية مذهلة عن هؤلاء المنحرفين من الأحداث، فذكرت نزوحهم الاضطرارى عن القرية طمعاً فى الكسب العاجل، وسجلت من أقوالهم ما يدل على أن المنحرف من هؤلاء قد يكسب فى اليوم الواحد مائة جنيه، تأتيه فى حركة سريعة، وإنه ليتباهى بذلك، ويعلن ترفعه عن العمل الطبيعى الذى يستغرق يومه ثم لا يجنى منه غير خمسة جنيهات، وله شركاء يشاركونه احترافه، ويرسمون معاً خطط السلب، وأفانين الانحراف، وقد يقع أحدهم فى أيدى الشرطة، ويلاقى جزاءه، ثم لا يمنعه ذلك من معاودة الانحراف، لأنه الطريق الوحيد للعيش - كما تعلم - ولأنه يجد التشجيع من أم أرملة أو والد مريض، أو أخ مستهتر يريد ألا يبذل شيئاً لأمه وأبيه، وحسبهم المنحرف الصغير.

حلول معقولة

ليست المشكلة مع هؤلاء الأحداث مما يتعاصى على الحل، بل إن الضرورة الملزمة تدعو إلى العلاج الحاسم فى مثل هذه السن الصغيرة، لأن الحدث الناشئ يستطيع أن يتخلص من مساوئه إذا وجد التوجيه الصحيح، وليس كذلك الشاب المتمرس والكهل المحنك، لأن الجريمة ليست أصلا ثابتا فى النفس، بل هى مما يطرأ بفعل البيئة المعوجة، والمجتمع الناشز، فالفطرة الإنسانية خيرة فى حد ذاتها، وقد هيئت لتتلقى البذرة الصالحة لتنمو فى أرضها الخصبة أطيب نماء، والذين يفاجأون بالنبات المر، والثمرة المعطوبة، قد أساءوا اختيار البذرة حين أضلوا سبيل التربية الصحيحة، وسواء الصراط المستقيم، وإذا كان من الفلاسفة القدماء من ذهبوا إلى أن الإنسان شر بطبيعته، وأن التربية لن تجديه نفعاً مهما بالغ المربى فى التوعية والتوجيه، فهم ينكرون المشاهد الملموس من الحقائق الصارخة، لأننا وجدنا التربية تفيد أكبر فائدة فى تهذيب الحيوان الأعجم، فالمدرب الماهر يجعل الأسد طائعاً يمشى أمامنا فى «السيرك» وكأنه حيوان أنيس، فإذا كان أشد الحيوانات ضراوة، وأشرها افتراساً يسلس قياده بالسياسة المرنة، فكيف لا تفيد التربية مع الطفل الغض إذا وجد المربى العاقل، والبيئة الصالحة، وسعد بمن يكافئه المكافأة الطيبة حين يأتى الفضيلة متحمساً مبتدراً، فيصر على سلوكه إصراراً يجعله موضع الأسوة بين الأتراب.

كما لابد من أن تتغير نظرة الآباء إلى العمل الحر، فلا يجبر الوالد ابنه على دراسة لم يتهيأ لها، بل يرحب بما يختاره من عمل يدوى نافع يكون مجال تفوقه وسبقه، لاسيما وواقع الحال لدينا يقدم العظة البالغة حين نرى الأجر اليومى للعامل، يبلغ أضعاف ما يأخذ ذو الدرجة العلمية فى وظيفته المحدودة، أما الهجرة المتتالية إلى المدن فلابد أن تخضع لشروط ملزمة، بحيث لا تقبل العواصم الكبرى غير من تستفيد منه، وقد وجد السكن المريح، والعمل الرابح، بحيث لا يكون عالة على غيره من الأقرباء!

لقد كانت القرية قديماً تشكو رحيل الأغنياء من ذوى اليسار، فصارت شكواها اليوم من رحيل العمال والفلاحين الذين يغريهم السراب الخادع حتى إذا جاءوه لم يجدوا شيئاً، فإذا رجع هؤلاء إلى أماكنهم الأولى فقد تخلصت المدينة من أوضارهم. وانتفعت القرية بجهودهم.

آفـــة الثـــراء

ونحن لا ننكر أن الثراء نعمة مرغوبة، منّ الله بها على عباده، كما لا ننكر أن التلميذ الذى يضىء به حظه إلى ظل من نعمة والده أحسن وضعًا ممن يعانى شظف العيش، ولكننا نجد أبناء الكثرة المترفة من التلاميذ لا ينهضون بأعبائهم العلمية، بل ينظرون إلى المدرسة وكأنها سجن محتوم قد ابتلوا به. ولا يغيب عنهم ضآلة ماسيكسبونه من الأجر الحكومى إذا بلغوا الشاطئ، لذلك كان التلميذ الفقير أحرص على الاستفادة، إذ يلمس جهد والده فى تهيئة وسائل الراحة له، كما يدرك ما تعانيه أسرته حين تحرم وتشقى لتوفر له الضرورى الملزم، فهو فى الفصل الدراسى مفتوح العين لكل إشارة تصدر من المدرس، متيقظ السمع لكل كلمة تقال، فإذا رجع إلى منزله المتواضع، انزوى فى ركن ضئيل ليستذكر كل ما أخذ، ومن هنا كان الفقر مدرسة العصاميين.

هذه ناحية، أما الأخرى فإن المدرسة تتحدث عن مواد كثيرة بعضها غير ضرورى، على حين تغفل مادة مثلى هى مادة السلوك الإنسانى، فالذين ملأوا الجدول الدراسى باللغات والرياضيات والاجتماعيات لم يفسحوا المجال لدرس يومى يخص الأخلاق الإسلامية التى يجب الاعتصام بها، ولا أنكر أن دروس الدين الإسلامى تقدم شذورًا من آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول وسير الأبطال، ولكن هذا شىء وما أريده شىء آخر، أريد أن تكون هناك مادة مستقلة بالأخلاق الإسلامية تقدم النموذج الحى للشاب المسلم، إذ أن المعايير قد اضطربت وأدوات اللهو فى الإذاعة والتليفزيون والفيديو قد ساعدت على إنماء مثل غريبة عن حقل الإسلام، بل إنها تقدم فى أحيان كثيرة ما يقف من تعاليم الإسلام موقف النقيض من النقيض، وقد أصبح التلميذ مدمنًا حقيقيًا لبعض هذه الأدوات اللاهية، وأصبح نجوم الكرة والسينما والمسرح والغناء هم وحدهم مجال الاحتذاء فى منطقه الضئيل، ولن يصد هذا البلاء النازل غير درس يومى فى الأخلاق الدينية يوضح ما يجب أن تكون عليه الشبيبة الإسلامية من خلال قرآنية تعصم من الزلل، وتقود السفينة إلى بر النجاة، يجب أن يكون درس الأخلاق اليومى فنًا تربويًا ينشئ جيلا واعيًا يهيم بالبطولة ويفخر بالحرية والعزة، وتتسع جوانبه لتشمل المنفرجات الفسيحة من الآمال العالية، التى ترتكز على الكفاح الدائب، والسعى البصير، والتى تترفع عن ملذات الخاملين ممن أنهكهم الترف، فملأ جسومهم بالمرض، وهبط بأرواحهم إلى أرض ذات انحدار، بدل أن تحلق إلى أرفع السموات! ليس بكثير على دروس الأخلاق أن تبدع للمسلم طريقًا صحيحًا، فأخلاق الإسلام وجدت تطبيقها العملى فى العصر الأول، فتقدمت بالمسلمين إلى حيث عمروا فى قرن واحد ما ملكته الدولة الرومانية فى عشرة قرون! وتاريخ البطولة فى هذا العهد الزاهر كفيل بأن يخلق من الشبيبة الإسلامية من يتلقفون الراية، لو نزعوا عن أرواحهم أغشية الخمول، ولو علموا أن الحياة عقيدة وجهادًا.

إعـــلام صـــارخ

نحن فى حاجة إلى إعلام صارخ يوقظ النائمين، فيؤكد للتلاميذ أن الثراء ذو أجل موقوت، وأن مجانى العلم وفوائده لا حد لها، وأن من يستخف بالدراسة المدرسية أو الجامعية اليوم سيعض بنان الندم فى الغد، لأن البقاء للأصلح، ولن يكون الترف ذا معنى راق إلا إذا ساندته الحكمة البصيرة، والدراسة الشاملة، كما نهيب بأولياء الأمور أن يتذكروا أمسهم البعيد، حين كانوا يبذلون فى الكفاح اليومى ما جعلهم اليوم ذوى جاه ونعيم، ولن يكون أبناؤهم سعداء فى مستقبلهم إلا إذا عرفوا معنى الجد، وخلعوا عن أبدانهم ثياب الترف، فكدحوا فى الدركات الواطئة ليتسنموا الدرجات العالية عن حنكة واختبار، وليس الغاية أن يحرزوا المال عن طريق الميراث بل الغاية أن يبنوا كما بنى السابقون، وأول الخطوات فى هذا المجال أن يطرحوا أردية الترف، وأن يخشوشنوا، لأن النعم لا تدوم، وللمدرسة عبئها الشاق فى إذكاء هذه الأحاسيس، فباستطاعتها أن تراقب مظاهر الارتفاع والهبوط بين التلاميذ، فتشجع من يسيرون على السنن الحميد، وتوجه من ينحرفون عن الجادة، مستعينة بأولياء الأمور حين تدعوهم بين الفينة والفينة، ليعرفوا ما عليه أبناؤهم، وإلى أى غاية ينتهون!

د./ محمد رجب البيومى

تفسير سورة النساء

لفضيلة/ الأستاذ الدكتور
محمد سيد طنطاوى
رحمه الله

قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥) ﴾

(الآيات: ٥١-٥٥)

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك لونا آخر من رذائلهم وقبائحهم التى تدعو إلى مزيد من التعجيب من أحوالهم. والتحقير من شأنهم فقال - تعالى -:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾

روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها: ما جاء عن ابن عباس أن حيى بن أخطب وكعب بن الأشرف خرجا إلى مكة فى جمع من اليهود ليحالفوا قريشا على حرب النبى ﷺ. فنزل كعب على أبى سفيان فأحسن مثواه، ونزلت اليهود فى دور قريش. فقال أهل مكة لليهود: إنكم أهل كتاب ومحمد ﷺ صاحب كتاب فلا نأمن أن يكون هذا مكراً منكم. فإن أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا لهذين الصنمين وآمنوا بهما ففعلوا. ثم قال كعب: يا أهل مكة ليجيء منا ثلاثون ومنكم ثلاثون فنلزق أكبادنا بالكعبة فنعاهد رب البيت على قتال محمد ﷺ ففعلوا ذلك. فلما فرغوا قال أبو سفيان لكعب: إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم، ونحن أميون لا نعلم فأينا أهدى طريقا وأقرب إلى الحق نحن أم محمد؟ قال كعب: اعرضوا على دينكم.

فقال أبو سفيان: نحن ننحر للحجيج الكرماء، ونسقيهم اللبن، ونقرى الضيف، ونفك العانى، ونصل الرحم، ونعمر بيت ربنا ونطوف به، ونحن أهل الحرم، ومحمد ﷺ فارق دين آبائه وقطع الرحم وفارق الحرم، وديننا القديم ودين محمد الحديث.

فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلا مما عليه محمد ﷺ فأنزل الله الآية [1].

و«الجبت» فى الأصل: اسم صنم ثم استعمل فى كل معبود سوى الله - تعالى.

والطاغوت: يطلق على كل باطل وعلى كل ما عبد من دون الله، أو كل من دعا إلى ضلالة.

أى: يصدقون بأنهما آلهة ويشركونهما فى العبادة مع الله - تعالى - أو يطيعونهما فى الباطل.

قال ابن جرير: والصواب من القول فى تأويل:

﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾

أن يقال:

يصدقون بمعبودين من دون الله، ويتخذونهما إلهين، وذلك أن الجبت والطاغوت اسمان لكل معظم بعبادة من دون الله أو طاعة أو خضوع له، كائنا ما كان ذلك المعظم من حجر أو إنسان أو شيطان»[2].

وقوله:

﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

بيان لما نطقوا به من زور وبهتان. أى: ويقولون إرضاء للذين كفروا وهم مشركو مكة. هؤلاء فى شركهم وعبادتهم للجبت والطاغوت:

﴿ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾

(١) تفسير الآلوسى جـ٥ ص٥٥.

(٢) تفسير ابن جرير جـ٥ ص١٣٣.

أى أقوم طريقا، وأحسن دينا من أتباع محمد ﷺ.

واللام فى قوله: ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لام العلة. أى: يقولون لأجل الذين كفروا..

والإشارة بقوله: ﴿ هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ ﴾ إلى الذين كفروا.

وإيراد النبى ﷺ وأصحابه بعنوان الإيمان، ليس من قبل القائلين، بل من جهة الله تعالى، تعريفا لهم بالوصف الجميل، وتحقيرا لمن رجح عليهم المتصفين بأقبح الصفات.

ثم بين - سبحانه - مصيرهم السئ بسبب انحرافهم عن الحق فقال - تعالى -:

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾

أى: أولئك الذين استحوذ عليهم الشيطان، فأيدوا المشركين بالقول والعمل وسجدوا لأصنامهم، وزكوا أفعالهم.. أولئك الذين هذه صفاتهم ﴿ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ أى: أبعدهم عن رحمته وطردهم وأخزاهم بسبب كذبهم فى حقدهم وإيثارهم عبادة الشيطان على طاعة الرحمن.

﴿ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾

أى ومن يلعنه الله ويبعده عن رحمته فلن تجد له ناصرا ينصره، أو شفيعا يشفع له.

واسم الإشارة ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ مبتدأ. والموصول وصلته خبر. والجملة مستأنفة لبيان حالهم. وإظهار سوء مآلهم.

والإتيان باسم الإشارة هنا فى نهاية البلاغة؛ لأن من بلغ وصف حاله هذا المبلغ صار جديرا بأن يشار إليه بكل ازدراء واحتقار.

وفى قوله:

﴿ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾

بيان لحرمانهم ثمرة استنصارهم بمشركى قريش، وإيماء إلى وعد المؤمنين بأنهم المنصورون، لأنهم هم المقربون عند الله، ومن يقربه الله فلن تجد له خاذلا.

هذا، وتحالف أولئك اليهود مع المشركين، وتفضيلهم إياهم على المؤمنين - كما حكته الآية الكريمة - قد شهد بقبحه واحد من اليهود هو الدكتور إسرائيل ولفنسون، فقد قال فى كتابه «تاريخ اليهود فى جزيرة العرب» معلقا على هذه القصة:

«وكان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا فى هذا الخطأ الفاحش، وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامى، ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم، لأن بنى إسرائيل الذين كانوا لمدة قرون حاملى راية التوحيد فى العالم

بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين، والذين نكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد فى عصور شتى من الأدوار التاريخية.. كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم وكل عزيز عليهم فى سبيل أن يخذلوا المشركين، هذا فضلا عن أنهم بالتجائهم إلى عبدة الأوثان، إنما كانوا يحاربون أنفسهم، ويناقضون تعاليم التوراة التى توصيهم بالنفور من عبدة الأصنام، والوقوف منهم موقف الخصومة»(٣).

ثم انتقل - سبحانه - من توبيخهم على تزكيتهم لأنفسهم بالباطل وعلى تفضيلهم عبادة الأوثان على عبادة الرحمن، إلى توبيخهم على البخل والأثرة فقال - تعالى -:

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾

و﴿ أَمْ ﴾ هنا منقطعة بمعنى بل فهى للإضراب والانتقال، والهمزة للاستفهام الإنكارى أى: لإنكار أن يكون لهم نصيب من الملك، وإبطال زعمهم من أن الملك يعود إليهم فى آخر الزمان. والفاء فى قوله ﴿ فَإِذًا ﴾ للسببية الجزائية لشرط محذوف.

والنقير: النكتة التى تكون فى ظهر النواة ويضرب به المثل فى القلة والحقارة.

والمعنى: إن هؤلاء اليهود ليس لهم نصيب من الملك البتة. لأنهم لا يستحقونه، ولأنهم لو أوتوا نصيبا منه على سبيل الفرض فإنهم لشدة حرصهم وبخلهم وأثرتهم لا يعطون أحدا غيرهم منه أقل القليل. وقد كنى عن أقل القليل هذا بالنقير.

فأنت ترى أن الآية الكريمة ترد على ما يزعمه اليهود من أن الملك لهم، وأنهم لا يليق بهم أن يتبعوا غيرهم، وتصفهم بأنهم أبخل الناس وأبعدهم عن العدل والقسط ومن كانت هذه صفاته، فقد اقتضت حكمة الله أن يحرمه نعمة الملك والسلطان.

ثم انتقل - سبحانه - من تبكيتهم على البخل وغيره مما سبق إلى تقريعهم على رذيلة الحسد التى استولت عليهم فأضلتهم وجعلتهم يتألمون لما يصيب الناس من خير ويتمنون زواله فقال - تعالى -:

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾

و﴿ أَمْ ﴾ هنا منقطعة أيضا كسابقتها، والاستفهام المقدر بعدها لإنكار الواقع وهو حسدهم لغيرهم.

والمراد من الناس: النبى ﷺ أو هو

(٣) تاريخ اليهود فى جزيرة العرب لإسرائيل ولفنسون.

والمؤمنون معه. وقيل المقصود من الناس: العرب عامة.

قال الفخر الرازى: والمراد من الناس – عند الأكثرين – أنه محمد ﷺ. وإنما جاز أن يقع عليه لفظ الجمع وهو واحد؛ لأنه اجتمع عنده من خصال الخير ما لا يحصل إلا متفرقا فى الجمع العظيم أو المراد بهم: الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين، لأن لفظ الناس جمع فحمله على الجمع أولى من حمله على المفرد. وحسن لفظ إطلاق الناس عليهم لأنهم القائمون بالعبودية الحقة لله – تعالى – فكأنهم كل الناس..»(٤).

والمراد بالفضل فى قوله:

﴿ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾

النبوة والهدى والإيمان.

والمعنى: إن هؤلاء اليهود ليسوا بخلاء فقط بل إن فيهم من الصفات ما هو أقبح من البخل وهو الحسد، فقد حسدوا النبى ﷺ لأن الله منحه النبوة وهو رجل عربى ليس منهم، وحسدوا أتباعه لأنهم آمنوا به وصدقوه والتفوا من حوله يؤازرونه ويفتدونه بأرواحهم وأموالهم.

وقوله:

﴿ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴾

توبيخ لهم على حسدهم، وإلزام لهم بما هو مسلم عندهم.

والمعنى: إنكم بحسدكم للنبى ﷺ على ما آتاه الله من فضله، تكونون قد ضللتم وسرتم فى طريق الشيطان، لأنكم لو كنتم عقلاء لما فعلتم ذلك، إذ أنتم تعلمون علم اليقين أن الله – تعالى – قد أعطى ﴿ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ أى: قرابته القريبة من ذريته كإسماعيل – وهو جد العرب – وإسحاق ويعقوب وغيرهم.. أعطاهم ﴿ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ أى: جنس الكتب السماوية فيشمل ذلك التوراة والإنجيل والزبور وغيرها، وأعطاهم ﴿ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ أى العلم النافع مع العمل به. وأعطاهم ﴿ مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴾ أى سلطانا واسعا وبسطة فى الأرض.

ومع ذلك فأنتم لم تحسدوا هؤلاء على ما أعطاهم الله من كتاب وحكمة وملك عظيم، فلماذا تحسدون محمدا ﷺ على ما آتاه الله من فضله مع أنه من نسل إبراهيم – عليه السلام –؟

فالجملة الكريمة توبيخ لهم على أنانيتهم وحسدهم، وإلزام لهم بما يعرفونه من واقع كتبهم، وكشف للناس عن أن أحقادهم مرجعها إلى انطماس بصيرتهم، وخبث نفوسهم.

ثم بين – سبحانه – عاقبة كل من المحسن والمسئ فقال:

(٤) تفسير الفخر الرازى جـ١٠ ص١٣٢.

﴿ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾

أى: فمن جنس هؤلاء الحاسدين وآبائهم من آمن وصدق بما أعطاه الله لآل إبراهيم من كتاب وحكمة، ومنهم من كفر به وأعرض عنه وسعى فى صد الناس عنه. فالضمير فى ﴿ بِهِۦ ﴾ و﴿ عَنۡهُ ﴾ يعود إلى ما أوتى آل إبراهيم.

ويرى بعضهم أن الضمير يعود إلى إبراهيم – عليه السلام. فيكون المعنى: فمن آل إبراهيم من آمن بإبراهيم ومنهم من أعرض عنه ولم يتبع تعاليمه.

وفى هذه الآية الكريمة تسلية للنبى ﷺ عما لقيه من اليهود من أذى.

فكأنه – سبحانه – يقول له: إن هؤلاء الحاسدين لك قد اختلفوا على من هم منهم، وأنت يا محمد لست منهم، فكيف تنتظر منهم أن يسالموك أو يتبعوك؟

وقوله:

﴿ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾

بيان لما أعده – سبحانه – للكافرين من عذاب.

أى: وكفى بجهنم نارا مسعرة أى: موقدة إيقادا شديدا يعذبون بها على كفرهم وعنادهم وصدودهم عن الحق. يقال: سعر النار – كمنع – وسعرها وأسعرها أى: أوقدها.

وكفى فعل ماض. وقوله ﴿ بِجَهَنَّمَ ﴾ فاعله على زيادة الباء فيه.

وقوله ﴿ سَعِيرًا ﴾ تمييز أو حال.

وبهذا نرى أن هذه الآيات الكريمة من قوله – تعالى –:

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾

إلى قوله:

﴿ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾

قد وبخت اليهود على بيعهم دينهم بدنياهم، وتحريفهم الكلم عن مواضعه واستهزائهم بدعوة الحق، وتزكيتهم لأنفسهم بالباطل، وافترائهم على الله الكذب، وتفضيلهم عبادة الأوثان على عبادة الله، وعلى بخلهم وحسدهم للنبى ﷺ على ما آتاه الله من فضله.

وقد توعدتهم على هذه الصفات الذميمة، والمسالك الخبيثة بأشد أنواع العذاب، وحذرت المؤمنين من شرورهم ومفاسدهم.

***

إياكم وشهادة الزور

لفضيلة الشيخ/ إبراهيم عطا الفيومي

روى البخاري، رحمه الله، عن عبدالرحمن بن أبي بكرة عن أبيه رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر (ثلاثًا)، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»، وجلس وكان متكئًا فقال: «ألا وقول الزور»، قال: فمازال يكررها حتى قلنا: ليته سكت!

التعريف بالراوي

أبو بكرة: نفيع بن الحارث (ويقال مسروح) أبو بكرة الثقفي البصري، أخو زياد ابن أبي سفيان لأمه «سمية»: أسلم يوم الطائف وكناه النبي ﷺ أبا بكرة لنزوله من الطائف في بكرة، وأعتقه، فهو معدود في مواليه، وكان أبو بكرة يقول: «أنا من إخوانكم في الدين وأنا مولى رسول الله ﷺ وإن أبى الناس إلا أن ينسبوني فأنا نفيع بن مسروح» وكان كثير العبادة، من فضلاء الصحابة وصالحيهم، وكان أولاده أشرافًا في البصرة بكثرة المال والعلم والولايات، وهو ممن اعتزل الفتنة يوم «الجمل» وأيام «صفين». وتوفي أبو بكرة بالبصرة سنة إحدى أو اثنتين وخمسين. وأوصى أن يصلي عليه أبو برزة الأسلمي. قال الحسن: لم ينزل البصرة من الصحابة ممن سكنها أفضل من عمران بن حصين وأبي بكرة.

روى عن النبي ﷺ وروى عنه أولاده، ومنهم: أبو بحر «ويقال أبو حاتم» عبدالرحمن بن أبي بكرة الثقفي: أول مولود ولد في الإسلام بالبصرة «سنة أربع عشرة». من أعيان التابعين ومن رجال الحديث الثقات. روى له الجماعة ومات سنة ست وتسعين.

اللغويات

● ألا: أداة عرض استفتح بها النبي ﷺ كلامه للتنبيه، تنبيه المخاطب إلى أمر ذي شأن، وليدل على تحقق ما بعدها.

● ألا أنبئكم، أي: ألا أخبركم.

● الكبائر: جمع الكبيرة، وهي السيئة العظيمة التي خطيئتها في نفسها كبيرة وعقوبة فاعلها عظيمة بالنسبة إلى معصية ليست بكبيرة، وقيل: الكبيرة ما أوعد عليه الشارع بخصوصه، وقيل: النسبة إضافية فقد يكون الذنب كبيرة بالنسبة لما دونه، صغيرة بالنسبة إلى ما فوقه وقد يتفاوت باعتبار الأشخاص والأحوال. ومن أحسن ما حُدت به الكبيرة ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله: الكبيرة ما فيه حد في الدنيا، أو وعيد في الآخرة، أو ختم بلعنة أو غضب أو نفي إيمان أو دخول جنة.

● ثلاثًا، أي: قال لهم «ألا أنبئكم» ثلاث مرات، وإنما كرره تأكيدا؛ ليتنبه السامعون ويشتاقوا إليه فيعلق بأذهانهم، وكانت عادته ﷺ إعادة حديثه ثلاثًا ليفهم عنه.

● وعقوق الوالدين: يقال: عق والده يعقه عقوقًا إذا آذاه وعصاه وخرج عليه، وأصله من العق وهو الشق والقطع، والمراد به: صدور ما يتأذى به الوالد من ولده من قول أو فعل إلا في شرك أو معصية ما لم يتعنت الوالد.

● وقول الزور: الزور تحسين الشيء ووصفه بخلاف صفته حتى يخيل إلى من سمعه أو رآه بخلاف ما هو به، فهو تمويه الباطل بما يوهم أنه حق. وقول الزور: هو كل قول جانب الحق، وأعلاه شهادة الزور.

● حتى قلنا ليته سكت: قالوه وتمنوه شفقة على رسول الله ﷺ وكراهة لما يزعجه ويغضبه، وفيه ما كانوا عليه من كثرة الأدب معه ﷺ والمحبة له والشفقة عليه.

الشرح والبيان

في هذا الحديث النبوي الشريف يبين لنا النبي ﷺ أن الذنوب صغائر وكبائر، وأن الكبائر تنقسم في عظمها إلى كبير وأكبر وذلك بحسب تفاوت مفاسدها، ولا يلزم من كون هذه أكبر الكبائر استواء رتبها أيضا في نفسها، فإن الإشراك بالله أعظم كبيرة من كل ما عداه من الذنوب.

يعظ المصطفى ﷺ أصحابه وأمته مبينًا لهم مهلكات الذنوب وموبقات المعاصي فيستهل كلامه بأداة تنبيه؛ ليستعدوا لتلقي العلم وتتفتح أسماعهم، وليستشعر كل مسلم أهمية الكلام، حرصا منه ﷺ على نجاة أمته، فقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟»، يعني: بأمور من أكبر الكبائر، فأجاب الصحب الكرام: (بلى يارسول الله)، يعني: نبئنا بها يارسول الله، لنجتنبها فننعم بوعد الله:

﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما﴾

(النساء: ٣١)

قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين».

فابتدأ بأعظم الذنوب وأشدها خطرا، وهو

الشرك بمن أسبغ عليك أنواع النعم ودفع عنك أصناف النقم. فهل جزاؤه أن يشرك معه فى عبادته غيره؟! فمن أشرك فجزاؤه الخلود فى النار وبئس القرار.

الشرك الأكبر

والشرك إما أكبر، وهو إثبات الشريك لله تعالى، وإما أصغر وهو مراعاة غير الله فى بعض الأمور، والشرك الأكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة منه: وهو أن يتخذ من دون الله ندا يحبه كما يحب الله، وهو الشرك الذى تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين. مع إقرارهم بأن الله وحده خالق كل شىء وربه ومليكه، وأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق، ولا تحيى ولا تميت. وإنما كانت هذه التسوية فى المحبة والتعظيم والعبادة كما هو حال أكثر مشركى العالم، بل كلهم يحبون معبوداتهم ويعظمونها ويوالونها من دون الله. ويدخل تحت هذا النوع (الشرك الأكبر) السجود لغير الله والركوع، والنذر، والخوف، والتوكل على غيره، والعمل لغيره، والإنابة والخضوع والذل لغير الله، وابتغاء الرزق من عند غيره، واعتقاد أن يكون فى الكون ما لا يشاؤه، وطلب الحوائج التى لا يقدر عليها إلا هو من غيره، والاستغاثة بهم، وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله، واتخذ الله وحده وليه وإلهه ومعبوده فجرد حبه لله، ورجاءه لله، وذله لله، وتوكله على الله، واستعانته بالله، وأخلص قصده لله متبعا لأمره، متطلبا لمرضاته. إذا سأل سأل الله، وإذا استعان استعان بالله.

الشرك الأصغر

وأما الشرك الأصغر: فمنه يسير الرياء، والتصنع للخلق، والحلف بغير الله، سمع ابن عمر رجلا يحلف «لا والكعبة»، فقال له ابن عمر إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حلف بغير الله فقد أشرك»(1)، لذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه: «لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلى من أن أحلف بغيره صادقا»، ومن المعلوم أن الحلف بالله كاذبا كبيرة من الكبائر، لكن الشرك- وإن كان أصغر- أكبر من الكبائر، فإذا كان هذا حال الشرك الأصغر فكيف بالشرك الأكبر الموجب للخلود فى النار؟!

والإشراك بالله أعظم الظلم وأكبر الكبائر وأشد الذنوب عقوبة؛ لأن من يشرك بالله فإن الله قد حرم عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار.

كذلك أجمع العلماء على أن عقوق الوالدين أو أحدهما «أى: قطع برهما» من الكبائر، بل من أكبر الكبائر، ولا غرو! فهما أعظم الناس عليك منة، وأكبرهم حقا، وهما اللذان جعلهما الله السبب فى وجودك فى هذه الحياة، وأولياك من البر والعطف واللطف فى ضعفك وصغرك مالا تقدر على مكافأته. فمن أكبر الكبائر وأعظم الذنوب- جحد حقهما

(1) سنن أبى داوود.

وتناسى فضلهما، ومقابلة هذا الإحسان الكبير بالعقوق والكفران.

وانظر كيف قرن الإساءة إليهما وعدم البر بهما والإحسان إليهما بالإشراك! وقد جاء فى السنة من التأكيد على ذلك ما لا تحصى كثرته ولا تحد غايته. فالعقوق كبيرة تبعد عن رضوان الله، وتوجب العقوبة فى يوم الجزاء. والواجب على الإنسان أن يبر بهما، وأن يخدمهما بقدر ما يستطيع وأن يطيعهما إلا ما فيه ضرر أو معصية لله عز وجل.

يحدث المصطفى ﷺ أصحابه بهذه المواعظ متكئا «والاتكاء: أن يتمايل الإنسان على أحد جانبيه وأحد شقيه على جدار أو وسادة يجعلها تحت مرفقه وجنبه». فلما أراد أن يحذرهم من شهادة الزور- اهتم وتحفز، فاعتدل فى جلسته لعظم الأمر وجلل الخطب فجلس اهتماما بأمر شهادة الزور أو قول الزور وأتى بحرف التنبيه وكرر الإخبار حتى اشتد به الأمر وتمنى الصحابة أن يسكت، لما حصل عنده من التأثر والتحمس عند ذكرها لتأكيد تحريمها وعظم قبحها، وإنما كانت من أكبر الكبائر، لما فى هذه الشهادة الآثمة من الأضرار الكثيرة والمفاسد الكبيرة؛ لأنها يتوصل بها إلى إتلاف النفوس والأموال، وتحليل ما حرم الله تعالى، وتحريم ما أحل، وتضليل الحكام عن صواب الحكم، وقطع حق المحق، وإدخال الظلم على المبطل، والكذب عند القضاة فى مقام الحكم، إلى غير ذلك من المفاسد التى يطول عدها، ولا يمكن حصرها. نسأل الله العافية منها. فلا شىء من الكبائر أعظم ضررا ولا أكثر فسادا منها بعد الشرك، فضلا عن أن مفسدتها أيسر وقوعا؛ ذلك أن الحوامل على قول الزور كثيرة كالعداوة وغيرها فاحتيج إلى الاهتمام بتعظيمها.

وشهادة الزور: أن يشهد بما يعلم أن الأمر بخلافه، أو يشهد بما لا يعلم أن الأمر بخلافه أو بوفاقه، أو يشهد بما يعلم أن الأمر على وفاقه لكنه على صفة غير الواقع، فهى شهادة بالكذب والباطل، هذه ثلاثة أحوال وكلها حرام، لا يحل لإنسان أن يشهد إلا بما علم على الوجه الذى علمه، فإن شهد بما يعلم أن الأمر بخلافه مثل ما يفعله بعض الناس عند الحكومة يشهد بأن فلانا له عائلة عدد أفرادها كذا وكذا وهو يعلم أنه كاذب والأمثلة على هذا كثيرة، ويظن هذا المسكين الذى شهد بشهادة الزور، يظن أنه نافع لأخيه وأنه بار به، والواقع أنه ظالم لنفسه وظالم لأخيه، أما كونه ظالما لنفسه فظاهر؛ لأنه آثم وأتى كبيرة من كبائر الذنوب، وأما كونه ظالما لأخيه فلأنه أعطاه ما لا يستحقه وجعله يأخذ المال بالباطل.

قال الله تعالى:

﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾

(الحج: ٣٠)

وأول ما يدخل فى قول الزور شهادة الزور، وقد جعل الله تعالى ذلك مع الرجس من الأوثان أى مع الشرك فدل هذا على عظم شهادة الزور، فأعظم بشىء هو عدل الشرك! قال ابن العربى: شهادة الزور كبيرة عظمى ومصيبة فى

الإسلام كبرى لم تحدث حتى مات الخلفاء الثلاثة وضربت الفتنة سرادقها فاستظل بها أهل الباطل وتقولوا على الله ورسوله ما لم يكن، وقد عدلت شهادة الزور في الحديث الإشراك بالله وتوعد عليهما رسوله حتى قال الصحب: ليته سكت، وقد جعلها عدل القتل في حديث أنس رضي الله عنه عند الشيخين: (قال: سئل رسول الله ﷺ عن الكبائر قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، وشهادة الزور»؛ لأنه قد يكون بها القتل الذي بغير حق ويكون بها الفساد في الأرض وهو عديل للشرك.

وقد امتدح الله عباده المؤمنين فقال:

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾

(الفرقان: ٧٢)

(أي: لا يحضرونه، وقيل: لا يشهدون به، وبكل حال فهذا دليل على عظم الكلمة)، وإذا كان هؤلاء مدحوا بعدم شهود الزور فأولى أن يمدحوا إذا لم يقولوا الزور، وإذا كان عدم شهادة الزور مدحا دل ذلك على أن شهادة الزور أو القول بالزور قدح وضرر، وحكى بعضهم الإجماع على أن شهادة الزور كبيرة، ولا فرق بين أن يكون المشهود به قليلاً أو كثيراً فضلاً عن هذه المفسدة القبيحة الشنيعة جداً.

ذلك أن شهادة الزور تطمس معالم العدل والإنصاف، حيث تضيع حقوق الناس، وتعين الظالم على ظلمه، فتمتلئ القلوب بالأحقاد والضغائن، فيضيع الأمن ويتزعزع الاستقرار ويفسد المجتمع، ولهذا ونحوه كانت شهادة الزور سبباً لسخط الجبار ودخول النار، يقول الذهبي: شاهد الزور قد ارتكب كبائر، إحداها: الكذب والافتراء، والله يقول:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾

(غافر: ٢٨)

وثانيها: أنه ظلم من شهد عليه حتى أخذ بشهادته ماله أو عرضه أو روحه، وآخرها ظلم من شهد له بأن ساق إليه الحرام فأخذه بشهادته فلذلك استحق النار.

بالشهادة تصان الأموال والأعراض

إن من حفظ الشريعة الإسلامية للحقوق بأنواعها أن جعلت لها بينات ودلائل، ومن أوضحها الشهادات، فبالشهادة تصان الأموال والأعراض وما إلى ذلك، ولقد بين الشارع فضل الإتيان بالشهادة قبل أن يسألها من له الحق إذا كان لا يعلم بها، بحيث تكون هذه الشهادة سبباً في إرجاع الحقوق إلى أهلها، وبالمقابل حذر الشارع من إعانة المبطل على باطله، وكذلك حذر من شهادة الزور أشد التحذير، وقرنها في الكتاب والسنة بالشرك.

وشهادة الزور هي الشهادة عند القاضي ونحوه كذباً وزوراً وإثماً، جعلها النبي ﷺ من أكبر الكبائر، وما ذاك إلا لأنه يترتب عليها مظالم؛ فإن القاضي يبني على شهادة الشاهدين، فيحكم بما شهدا به، ومتى كانا كاذبين تحملا ذلك الإثم، فإذا اقتطع من هذا حقاً بموجب شاهدين كاذبين فهما الظالمان وهما الآثمان، وعليهما جرم ذلك الظلم، لا على القاضي؛ لأنه بنى على شهادة غيره، ولهذا روى عن شريح القاضي أنه أوصى بعض القضاة بقوله: إن القضاء جمرة فاجعل بينك وبينها عودين يقيانك منها، فسئل: ما العودان اللذان نأخذ بهما الجمرة؟ فقال: الشاهدان، فهما اللذان يقبضان هذه الجمرة، فإذا كنت تريد أن تقضي فكأنك تقطع جمرة من هذا لهذا، فلا تمسها، ولكن دع الذي يمسها غيرك، وهما الشاهدان، فإذا كانا كاذبين فهما الآثمان.

وقد تساهل الناس في هذه الأزمنة بشهادة الزور- ولا حول ولا قوة إلا بالله- فصاروا يشهدون حمية، يشهد أحدهم حمية لقريبه أو تعصباً أو نحو ذلك، ويشهد بعضهم لمصلحة كأن يبذل المشهود له مالاً حتى يشهد له، فيأخذ مالاً دنيا زائلاً مقابل أن يبيع دينه، ويستوجب عذاب الله، وشر الناس من ظلم الناس للناس، لا ينتفع بهذا بل ينفع غيره ويضر نفسه، فلو فكر في أنه يوصم بأنه كاذب، ويوصم بأنه آثم، ويوصم بأنه مزور، وهذه وصمات كبيرة، وهي بعض ما يستحقه، فيشتهر بعد ذلك أنه شاهد زور، ويجب أن يشهر أمره إذا علم أنه شاهد زور، وذهب بعض العلماء إلى أنه يطاف به في الأسواق وفي الطرق، ويشهر ويقال: هذا شاهد الزور، هذا شاهد الزور؛ حتى يتجنبه الناس ويعرفوا كذبه، وأنه قد تعمد الكذب، فيرتدع الناس حتى لا يشهدوا مثل شهادته مخافة الفضيحة، وكذلك يعرفونه فلا يقبلون قوله، ولا يقبلون معاملته، فيبوء بعد ذلك بالذل والهوان، فقال أحمد وإسحاق: يقام للناس ويعذر ويؤدب، وعن عبدالملك بن يعلى قاضي البصرة أنه أمر بحلق أنصاف رءوسهم وتسخم وجوههم ويطاف بهم في الأسواق، وعند أبي حنيفة أن شاهد الزور يبعث به إلى محلته أو سوقه فيقال لهم: إنا وجدنا هذا شاهد زور فاحذروه.

وروى عن الإمام مالك -رحمه الله- أنه لا تقبل شهادة شاهد الزور أبداً وإن تاب وحسنت توبته، واختلف هل يؤدب إذا أقر، فروى عن شريح أنه ضرب شاهد زور عشرين سوطاً، وعن عمر بن عبدالعزيز أنه اتهم قوماً على هلال رمضان فضربهم سبعين سوطاً وأبطل شهادتهم، وقال الشعبي: يضرب ما دون الأربعين خمسة وثلاثين أو سبعة وثلاثين سوطاً، وعند صاحبي أبي حنيفة «أبي يوسف ومحمد» أنه يضرب ويحبس إن لم يحدث توبة؛ لأنه ارتكب محظوراً فيعزر.

فيجب على المسلم أن يتثبت فلا يشهد إلا بما استيقنه، فلا يشهد وهو شاك أو متوهم، وحكى الله عن إخوة يوسف أنهم قالوا:

﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾

(يوسف: ٨١)

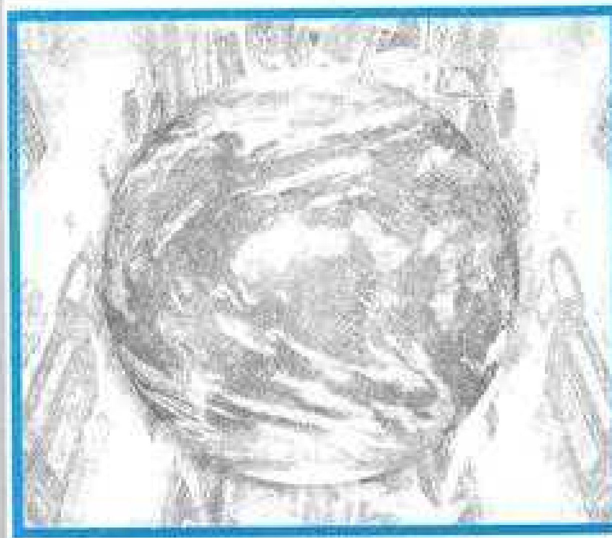
فذكروا أن شهادتهم إنما هي بما وصلت إليه معرفتهم، وبما رأوه دون أن يعلموا حقائق الأمور، فالشاهد يشهد بما ظهر له، فإن كان متيقناً أقدم، وإلا أحجم.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

إن رسالة الإنسان على ظهر هذا الكوكب ليست شيئا هينا ويسيرا، ولكنها استخلاف فى الحياة وقيام بمهام لها أصول ثابتة ومحكومة بقانون إلهى عادل؛ لا يستخلف فى الأرض إلا من كان صادق الإيمان مخلصا فى عقيدته، جادا فى عمل الصالحات على هدى ونور كما قال ـ تعالى ـ:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾

(النور: ٥٥)



من ركائز التمكين فى الأرض

للأستاذ الدكتور / أحمد عمر هاشم

عضو مجمع البحوث الإسلامية

يوضح القرآن الكريم ركائز التمكين فى الأرض فى قوله سبحانه وتعالى ـ:

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾

(الحج: ٤١)

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبوالربيع الزهرانى، حدثنا حماد بن زيد عن أيوب وهشام وعن محمد قال: قال عثمان بن عفان: فينا نزلت:

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾

(الحج: ٤١)

فأخرجنا من ديارنا بغير حق إلا أن قلنا ربنا الله، ثم مكنا فى الأرض فأقمنا الصلاة وآتينا الزكاة وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور، فهى لى ولأصحابى. وقال أبوالعالية: هم أصحاب محمد ﷺ، وقال عمر بن عبدالعزيز: ألا إنها ليست على الوالى وحده ولكنها على الوالى والمولى عليه: «ألا أنبئكم بما لكم على الوالى من ذلكم وبما للوالى عليكم منه، إن لكم على الوالى من ذلكم أن يؤاخذكم بحقوق الله عليكم وأن يأخذ لبعضكم من بعض وأن يهديكم للتى هى أقوم ما استطاع، وأن عليكم من ذلك الطاعة غير المبزورة ولا المستكره بها ولا المخالف سرها علانيتها» أ.هـ.

إن ركائز هذا التمكين إنما تكون بتوثيق الصلة بين الخلق وخالقهم، وإقامة الصلة الدائمة بينهم وبين الله ـ تبارك وتعالى ـ فى كل يوم خمس مرات بأداء الصلاة التى هى عماد الدين، من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين.. وبالصلاة تنتفى الفحشاء ويختفى المنكر عن الإنسان ويصبح نقى السلوك والمسيرة.

إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فإذا اختفت المعصية من المجتمع وتعالت نداءات الحق ودوت كلمة التوحيد بين أرجاء البلاد، وأصبحت أصوات المآذن متلاقية على كلمة الحق «الله أكبر» وتجمع الناس حول هذا الشعار فلا شك أنهم بهذا يتوحدون ويتجمعون على الخير ويصبحون يدا واحدة لا تخاف عدوا، ولا ترهب بأسا ولا تخشى فى الحق لومة لائم.

ثم من ركائز هذا التمكين إيتاء الزكاة وفى إيتائها تطهير المال من حق الفقير الذى وجب فيه، وتطهير لنفس الغنى من آفة الشح ورذيلة البخل، وتطهير لنفس الفقير من الحقد والكراهية:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾

(التوبة: ١٠٣)

وحقيقة كل من الصلاة والزكاة كعنوان لصلة العبد بربه فى القيام بما وجب على المسلم من الفرائض وعنوان صلته بالمجتمع الإسلامى تكافلا وتضامنا.

وفى هاتين الفريضتين عنوان للطاعة لله سبحانه وتعالى والإصلاح فى المجتمع والبعد عن الرذائل ومحاولة إزاحة كل فساد فيه، وربط الإنسان بربه فى صلة دائمة مستمرة لا تنقطع فى كل يوم وليلة، وصلة دائمة مستمرة لا تنقطع كلما أفاء الله على عباده من خير ورزق، ثم من ركائز التمكين أيضا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

قال الله ـ تعالى ـ:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ

﴿ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

(آل عمران: ١٠٤-١٠٧)

ويبرز القرآن الكريم حقيقة هذه الأمة ومكانتها في الإسلام كخير أمة أخرجت للناس وأنها لم تؤت هذه الخيرية إلا لتمسكها بدينها، ولحملها راية التوحيد في الأرض وبقية الإيمان فيها دعوة بالخير والحق وتثبيتا لأصول الإيمان الصحيح بالله الواحد الأحد أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر وإقامة للدين وحراسة لحدوده وذودا عن حماه.. قال سبحانه:

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

(آل عمران: ١١٠)

وقد توعد الله ـ تعالى ـ الذين يتخلون عن إقامة دينه ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، فقال سبحانه:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾

(طه: ١٢٤: ١٢٦)

وعن عبدالله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده... فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض»، ثم قال:

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ۝ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

(المائدة: ٧٨-٨١)

ثم قال: كلا والله لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا (أى لتعطفه على الحق) ولتقسرنه على الحق قسرا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم.

وقد بين الله ـ تعالى ـ أن ظهور الفساد واستشراء وانقطاع الخير عن العباد بسبب ما اكتسبته أيديهم، قال سبحانه:

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾

(الروم: ٤١)

فمما يحدث من القحط وقلة الزرع والضرع والنبات والخيرات. وشدة الحاجة بين الناس بسبب ما اقترفوه من المعاصى.. وفى ترك الشر والمعصية ومقاومة الأشرار والأخذ على أيدى العصاة إصلاح للمجتمع، فى كل هذا مع الطاعة والإقبال على الله زيادة فى الخير والرزق، وما كان سببا فى ترك المعاصى، وكف الناس عن الجرائم والشرور كإقامة الحدود وتطبيق الشريعة الإسلامية وتنفيذ أحكام الدين، هو فى الحقيقة خير يعود على البلاد والعباد.

يقول الرسول ﷺ: «لحدٌّ يقام فى الأرض أحب إلى أهلها من أن يمطروا أربعين صباحا».. وهذا الذى يحدث، ما الذى يترتب عليه؟!

يقول الله ـ تعالى ـ:

﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

(الروم: ٤١)

فهو جزاء على ما صنعوا وما ارتكبوا، وهو ابتلاء من الله ـ تعالى ـ لهم.. إنه ابتلاء فى الأموال والأنفس والثمرات، لعلهم يهتدون ويرجعون عن المعاصى..

وقد وجه القرآن الكريم أنظار الناس إلى السير فى الأرض والنظر فيها بعين الاعتبار ليعرفوا ماذا حدث للذين من قبلهم:

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴾

(الروم: ٤٢)

وهذا الذى حل بهم من هلاك وابتلاء حتى كانت بيوتهم خاوية.. كان ذلك بسبب تكذيبهم وكفرهم بالنعم التى أنعم الله بها عليهم.

وإذا كان ربط الصلة بالله على أساس متين، وربط الصلة بالمجتمع، والدعوة إلى الخير من ركائز التمكين فى الأرض.. فإن هناك أسسا أخرى لا تقوم سعادة الفرد أو الجماعة، ولا الذكر ولا الأنثى، ولا الأسرة أو البيئة أو المجتمع أو الأمة إلا على أساسها.

وقد حددها القرآن الكريم وجعل منها نظاما إلهيا يربط بها سعادة الفرد والجماعة، قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(النحل: ٩٧)

وهكذا نرى أن الله ـ تعالى ـ يوفر لعباده أسباب الحياة الطيبة وهى السعادة والاستقرار والأمن والتمكين هذا فى الدنيا، وأما فى الآخرة، فإن لهم جزاء وافرا على ما كانوا عليه من إيمان واستقامة، وهذا الجزء ليس مقدار ما كانوا يعملون ولا أوسط ما كانوا يعملون ولا أدنى ما كانوا يعملون، وإنما هو جزاء:

﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(النحل: ٩٧)

ومن أهم أسباب السعادة والتمكين ما تحدث عنه القرآن فى قول الله ـ تعالى ـ:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴾

(الليل: ٥-١١)

وهكذا نرى كيف سعى الناس فى الحياة، فمنهم من يتجه إلى ما فيه الخير فيزداد بالخير والحسنى، ومنهم من يتجه إلى غير الخير فيتردى فى العسرى، ويؤكد القرآن الكريم الوعد الحق بالحياة الطيبة وبالسعادة والتمكين، وبالرغد فى العيش لمن استقاموا على الجادة وساروا على هدى الله ونوره بأن الله سبحانه يزيل عنهم كل أزمة أو ضائقة، ويدفع عنهم كل بلاء أو كارثة ويأتيهم بالرزق من كل مكان وينزل عليهم بركات من السماء والأرض. قال سبحانه:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

(الأعراف: ٩٦)

وقال ـ تعالى ـ:

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾

(الطلاق: ٢-٣)

وتكشف السُّنة الشريفة مع كتاب الله ـ تعالى ـ عن أسباب الكوارث والضائقة المالية أو الضائقة النفسية، وما يصيب الإنسان.. وأن لذلك سببا مباشرا وهو: عصيان الله، وعدم الاستقامة على منهج الحق وذلك بارتكاب الذنوب، يقول الرسول ﷺ: «والذى نفس محمد بيده ما من خدش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر».. ويقول الله سبحانه وتعالى ـ:

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾

(الشورى: ٣٠)

وتتفاوت الكوارث تبعا للذنوب وكثرتها، وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض الحالات التى ينتشر فيها الذنب ويتكرر حتى تحيط الخطيئة بالقلب عندما

تنتقل كل معصية إلى أخرى، قال الله ـ تعالى ـ:

﴿ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

(البقرة: ٨١)

ويقول الله ـ تعالى ـ:

﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

(المطففين: ١٤)

وقد ضرب الله الأمثلة فى القرآن الكريم بتلك الأمم التى ظلمت وكفرت، فذهبت وزالت وأصبحت أثرا بعد عين، وذلك بما ظلموا وبما جحدوا وكفروا وظلموا أنفسهم بأيديهم وما ربك بظلام للعبيد...

فنبه كل الظالمين بهذه العبرة ليكون لهم فى ذلك ما يوضح لهم حقيقة الأمر فى الحياة، وأن الله لا يغفل عما يعمل الظالمون..

قال الله ـ تعالى ـ:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ۝ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ۝ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ۝ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾

(ابراهيم: ٤٢-٤٥)

وبالجملة.. فإن القرآن الكريم يركز كل أسباب السعادة والتمكين والنصر والاستقرار فى الحكم بما أنزل الله، وأن من لم يطبق شريعة الله فهم الظالمون والفاسقون والكافرون.

﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

(المائدة: ٤٤)

﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

(المائدة ٤٥)

﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

(المائدة: ٤٧)

ويقول سبحانه:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

(النساء: ٦٥)

يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ

للأستاذ الدكتور/ محمد سيد طنطاوي
رحمه الله

الحمد لله الحكيم العليم، اللطيف الخبير، القائم على كل نفس بما كسبت، والمجازى لها بما عملت، نشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين، ونشهد أن سيدنا وشفيعنا محمداً عبده ورسوله، سيد الداعين إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه، الذين آمنوا وكانوا يتقون.

عباد الله، أوصيكم ونفسى بتقوى الله، فإن تقوى الله هى خير وسيلة نتقدم بها إلى خالقنا يوم القيامة، يوم لاينفع مال ولابنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

يا أتباع النبى ﷺ..

من الصفات الكريمة، والمناقب الحميدة، التى أمرتنا شريعة الإسلام بالتحلى بها، وبالحرص عليها: صفة الحكمة، التى معناها: أن يفعل الإنسان ماينبغى، على الوجه الذى يليق بهذا الفعل، وفى الوقت المناسب له، وأن ينطق بالكلمة الطيبة التى مدح الله ـ تعالى ـ أصحابها بقوله:

﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ ﴾

(الحج: الآية ٢٤)

وأن يمتنع عن الحماقة والجهالة وسوء التصرف فى القول أو العمل فالإنسان الحكيم، هو الإنسان الذى يضع الأمور فى مواضعها الصحيحة، فهو يقدم إذا كان الإقدام عزما، ويحجم إذا كان الإحجام حزما، ولايقول قولاً ويندم عليه فى الغد، ولايفعل فى حاضره فعلا، لايرضى عنه فى مستقبل حياته.

والذى يتدبر القرآن الكريم، يرى أن كلمة «الحكمة» قد وردت بمعان متعددة. تارة تأتى بمعنى الموعظة، كما فى قوله ـ سبحانه ـ:

﴿ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ﴾

(القمر: ٥)

وتارة تأتى بمعنى الفهم السليم للأمور كما فى قوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ ﴾

(لقمان: ١٢)

وتارة تأتى بمعنى النبوة كما فى قوله ـ تعالى ـ فى شأن داود ـ عليه السلام ـ:

﴿ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴾

(ص: ٢٠)

ومن أسماء الله ـ عز وجل ـ ومن صفاته: «الحكيم»، أى: الذى كل شىء عنده بمقدار، وقد ورد ذلك فى عشرات الآيات القرآنية، وهذا الوصف تارة يأتى مقترناً بالعلم، كما فى قوله ـ عز وجل ـ:

﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

(البقرة: ٣٢)

وتارة يأتى مقترنا بالعزة، كما فى قوله ـ سبحانه ـ:

﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

(المائدة: ١١٨)

وتارة يأتى مقترناً بقبول التوبة كما فى قوله:

﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾

(النور: ١٠)

وتارة يأتى مقترناً بالحمد، كما فى قوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾

(فصلت: ٤١، ٤٢)

وصفة الحكمة من الصفات الجليلة التى مدح الله ـ تعالى ـ بها الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، فقد قال ـ سبحانه ـ فى شأن يوسف عليه السلام ـ:

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

(يوسف: ٢٢)

والمعنى: وحين بلغ يوسف ـ عليه السلام ـ منتهى شدته وقوته، أعطيناه بفضلنا وإحساننا حكمة تجعله موفقاً فى قوله وعمله، وأعطيناه فقهاً فى الدين،

وفهماً سليماً لشئون الدنيا، ومثل هذا العطاء نعطى المحسنين.

وقال – سبحانه – فى شأن موسى – عليه السلام –:

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾

(القصص: ١٤)

وقال – سبحانه – فى شأن عيسى – عليه السلام –:

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴾

(آل عمران: ٤٨)

وقال – تعالى – فى شأن الصالحين من ذرية إبراهيم:

﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾

(النساء: ٥٤)

وقال – عز وجل – فى شأن رسوله محمد ﷺ:

﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾

(النساء: ١١٣)

وبين – سبحانه – أن من الدعوات التى تضرع بها سيدنا إبراهيم – عليه السلام – إلى خالقه: أن يبعث الله فى هذه الأمة رسولا من جنسهم، يقرأ عليهم القرآن الكريم، ويعلمهم أحكامه، ويعلمهم الحكمة التى هى السداد فى القول والعمل، ويطهرهم من أرجاس الشرك، فقال – تعالى –:

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

(البقرة: ١٢٩)

كما بين – سبحانه – أن الإنسان الذى يعطيه الله – تعالى – الحكمة، يكون قد أعطى الخير الكثير، والعلم الوفير، فقال:

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

(البقرة: ٢٦٩)

أى: يعطى – سبحانه – الحكمة التى من معانيها: إصابة الحق فى القول وفى العمل، لمن يشاء من عباده، ومن يعطى هذه الحكمة يكون قد أعطى خيراً كثيراً، ومايتعظ بهذه التوجيهات إلا أصحاب العقول السليمة.

وكما مدح الله – تعالى – عباده الأخيار؛ لأنه منحهم الحكمة، مدح قرآنه العظيم، وكتابه الكريم، بهذه الصفة، فقال:

﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾

(آل عمران: ٥٨)

وقال سبحانه:

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾

(يونس: ١)

وقال – عز وجل:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝ ﴾

(الزخرف: ٣، ٤)

ولقد أمر الله – تعالى – العلماء الذين يهدون الناس إلى الطريق المستقيم، أن يسلكوا فى دعوتهم الطريق الحكيم، والأسلوب القويم، وكان هذا الأمر فى صورة خطاب موجه إلى الرسول ﷺ فقال تعالى:

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

(النحل: ١٢٥)

أى: عليك – أيها العاقل – أن تدعو الناس إلى دين ربك وإلى اتباع شريعته، بالقول المحكم الصحيح الموضح للحق، المزيل للباطل، الواقع فى النفس أجمل موقع.

وعليك أن تسلك مع بعضهم وهم الذين لم ينالوا القسط الأوفر من العلم، أن تسلك فى دعوتك لهم، الموعظة الحسنة، عن طريق الأقوال المشتملة على العظات والعبر التى ترقق القلوب، وتهذب النفوس، وترغبهم فى الطاعة، وترهبهم من المعصية، بأسلوب يقنع العواطف والعقول.

وعليك أن تجادل المعاندين من الناس بالطريقة التى هى أحسن الطرق وأجملها، بأن تكون مجادلتك لهم مبنية على البراهين الساطعة، وعلى الأدلة التى تحق الحق وتبطل الباطل.

فالآية الكريمة تأمر الدعاة والعلماء بأن يخاطبوا كل طائفة بالأسلوب الذى يناسبها، فمن لم يقنعه القول المحكم، قد تقنعه الموعظة الحسنة، ومن لم تقنعه الموعظة الحسنة قد يقنعه الجدال بالتى هى أحسن.

يا أتباع النبى ﷺ.

لقد بين لنا الخالق – عز وجل – أنه يعطى الحكمة بمعنى السداد والتوفيق فى القول وفى العمل، لمن يشاء من عباده، وأن الذى يعطى هذه الحكمة يكون قد أعطى الخير الكثير، والعلم الوفير، والأجر الجزيل.

وبين لنا الرسول ﷺ أن الذين يستحقون أن يتمنى العاقل أن يكون منهم هم صنفان من الناس:

● أولهما: الذين يبذلون أموالهم لإعلاء كلمة الحق.

● وثانيهما: الذين أعطاهم الله الحكمة.

فقال ﷺ: «لاحسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها».

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم.

من الإعجاز الفنى فى القرآن الكريم

أيام الله



٢

للأستاذ/ صديق بكر عيطة

فى العدد السابق عشنا مع أحداث الجولة الأولى فى معركة الحق والباطل الأزليّين من خلال ما عرضته سورة «إبراهيم» المباركة وهى تستعرض «أيام الله» وقد انتهت هذه الجولة بأن ركب الباطل رأس العناد والمكابرة، وصدف عن الاعتراف بالحق الأبلج، الذى لا مرية فيه، بعد أن كاد ينطق معترفا به، مطأطئا له رأسه:

﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب ۞ قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾

(إبراهيم: ٩-١٠)

الرسل قضية بشرية

ويستمر الحوار!!.. وتمتد اللجاجة!!.. فإذا بفريق المدعوين يثير قضية بشرية الرسل؛ ليتخذ منها متكأ للتشكيك فى صحة هذه الرسالة، وبدلاً من أن يشكروا الله على أن كرّم بشريتهم بها قالوا:

﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ﴾

(إبراهيم: ١٠)

ونحن نرى أنكم غير صادقين فى دعواكم الرسالة:

﴿ فأتونا بسلطان مبين ﴾

(إبراهيم: ١٠)

وبرهان واضح على صدقكم إن كنتم صادقين فى دعواكم!!

وهنا يرد عليهم الرسل مبينين لهم موضع جهلهم بحقيقة القضية، حيث إنها ليست فى بشريتهم، أو فى غير بشريتهم، وإنما هى فى هذه المنّة العُظمى التى يمُنّ الله بها على عباده الذين اصطفاهم، لحمل هذه الرسالة، وتأييد هذه القضية:

﴿ إن نحن إلا بشر مثلكم ﴾

(إبراهيم: ١١)

هذا صحيح!!.. فلن ننكر بشريتنا، فهى تكريم لنا ولكم.. وكان من الواجب أن تسعدوا باختيار الله رسله من جنسكم، ومن بين أظهركم:

﴿ ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ﴾

(إبراهيم: ١١)

بالوحى وتكليفه بالرسالة.

أما ما طلبتموه من السلطان المبين والبرهان الواضح، فلا يحق لنا ولا يحق لكم أن نقترحه على الله ـ تعالى ـ وليس بمقدورنا أن نأتيكم بشىء منه إلا ما شاء الله أن يجريه على أيدينا؛ فهو وحده المتصرف فى شئوننا وشئونكم، وعليه وحده يتوكل المؤمنون، فهو صاحب العون وصاحب الحول والطول:

﴿ وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾

(إبراهيم: ١٢)

ويضيق صدر المشركين، لما يرونه من ثبات رسل الله على طريق الدعوة، ويرون أن الأرض تميد من تحت أقدامهم، وأن الحق يعلو وتسمق شجرته يوماً بعد يوم؛ حتى لتكاد أغصانها تلتف من حول أعناقهم لتكتم أنفاسهم، وهنا تشتد حرارة المعركة، وتصل درجة الغليان إلى ذروتها؛ فالموقف الآن لم يعُد يحتمل أن يعيش الطرفان جنباً إلى جنب فى أرضٍ واحدة، فها هو ذا الحق قد أبدى من صلابة الإيمان والثبات على المبدأ، ما أذهل الباطل، وها هو ذا الباطل، قد أبدى من مظاهر العناد والمكابرة، ودلائل الكفر والطغيان، ما لم يعُد معه أمل واحد فى لمسة خير تُلتمس فيه أو حوله. وهنا نرى الباطل وقد كشّر عن أنيابه، مهدداً متوعداً بهذه اللهجة التى تطفح بالحقد الأسود، وتؤكد على ما يملأ قلوبهم من غلٍّ مكتوم:

﴿ لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا ﴾

(إبراهيم: ١٣)

يا سبحان الله!!.. تقسيم للمصائر فى لهجة غادرة باطشة، آثمة، وهجمة أخيرة، لا يهدأ غبارها إلا وأحد العسكرين مُجدّل على الأرض، صريع يتخبط فى دمائه:

﴿ لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا ﴾

(إبراهيم: ١٣)

خيار بين احتمالين.. لا ثالث لهما.. ولا فكاك من أحدهما؛ إما هذا.. وإما ذاك!!.. وهنا يكون الرد المناسب.. القوي.. يكون الرد بهذا الوحي النازل من قبل الرب - تبارك وتعالى - على قلب الرسل؛ ليثبتهم ويحمي ظهورهم، ويطلعهم على اللقطة الأخيرة، التي ستئول إليها المصائر؛ ففيها وحدها كل أسباب الثبات، أمام هذه الهجمة الشرسة:

﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾

(إبراهيم: ١٣، ١٤)

أهذا هو المصير؟!.. وتلك هي النهاية؟!.. لينتصرن الحق على الباطل.. وليرثن الحق أرض الباطل؟!.. بعد أن يستأصل شأفته!.. أهذا هو المصير، وقد أخبر به الحق - الأعلى - الذي يملك الأسباب والمسببات والنتائج والمصائر؟!!!

إذن.. فلتكن الهجمة ما تكون، وقبل الوثبة الأخيرة، وقف كل من الطرفين يعد جنده ويهيئ لنفسه أسباب النصر على عدوه.

«وهكذا تلتقي القوة الصغيرة الهزيلة - قوة الطغاة الظالمين - بالقوة الجبارة الطامة - قوة الجبار المهيمن المتكبر - فقد انتهت مهمة الرسل عند البلاغ المبين، والمفاصلة التي تميز المؤمنين من المكذبين».

«وقف الطغاة المتجبرون بقوتهم الهزيلة الضئيلة في صف، ووقف الرسل الداعون المتواضعون ومعهم قوة الله - سبحانه - في صف، ودعا كلاهما بالنصر والفتح.. وكانت العاقبة كما يجب أن تكون».

﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾

(إبراهيم: ١٥ - ١٧)

«والمشهد هنا عجيب، إنه مشهد الخيبة لكل جبار عنيد، مشهد الخيبة في هذه الأرض، ولكنه يقف هذا الموقف، ومن ورائه تخايل جهنم وصورته فيها، وهو يسقى من الصديد السائل من الجسوم.. يسقاه بعنف فيتجرعه غصبا وكرها، ولا يكاد يسيغه، لقذارته ومرارته، والتقزز والتكره باديان نكاد نلمحهما من خلال الكلمات!. ويأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان، ولكنه لا يموت، ليستكمل عذابه، ومن ورائه عذاب غليظ...».

«إنه مشهد عجيب، يرسم الجبار الخائب المهزوم ووراءه مصيره يخايل له على هذا النحو المروع الفظيع.. وتشترك كلمة «غليظ» في تفظيع المشهد، تنسيقا له مع القوة الغاشمة التي كانوا يهددون بها دعاة الحق والخير والصلاح واليقين».

***

إن من يتأمل هذه الصورة الفنية الفريدة ليروعه فيها عدة قضايا، كلها تصل إلى حد الإعجاز، في قوة التأثير. للبلوغ إلى الهدف.

دقة التصوير وجمال العرض

■ أولا: دقة التصوير، وجمال العرض.. والتنسيق بين أجزاء اللوحة الفنية، التي تصور معركة الحق والباطل؛ مما يُشعر القارئ أنه أمام معركة حقيقية، تتوالى فيها الهجمات، وتُستخدم الأسلحة المختلفة، كلٌّ فيما يناسبه من مراحل المعركة.

فالمعركة بين الحق والباطل، لم تسر على نمط واحد من الهجمات، وإنما تعددت أنماطها بين الفعل ورد الفعل.. والمحاجة المنطقية والرد عليها.. وأخيرا الصراع الذي لا يهدأ غباره إلا بعد أن يخر أحد العسكرين صريعا.

فها هم أولاء رسل الله يحملون في أيديهم رسالة ربهم، ومعهم أدلتهم الواضحة التي تنضح بالصدق، وتنطق بالحق؛ حتى لتكاد تنتزع الاعتراف من بين أنياب من أرسلت إليهم الرسل، وها هم أولاء أقوامهم يوشكون أن يعترفوا ويذعنوا معلنين انصياعهم للحق، واتباعهم للرسل، ولكن أيديهم ترد إلى أفواههم لتسد الطريق أمام هذه المبادهة القوية، حتى لا تؤتي ثمارها، هذه هي الهجمة الأولى.

ثم تأتي الهجمة الثانية، المحاجة المنطقية.. فالكافرون يعلنون كفرهم بهذه الرسالات وشكهم في صدق ما جاءت به الرسل، فيرد عليهم الرسل مبكتين مؤنبين:

﴿ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(إبراهيم: ١٠)

فيثير المشركون قضية بشرية الرسل، ويرد عليهم الرسل بأن بشريتهم، إنما كانت سببا من أسباب الفخر والاعتزاز، ويجب أن تؤدي إلى شكر الله - عز وجل - لأنها منة ونعمة، ويقترح المشركون على الرسل أن يأتوا ببرهان واضح على صدقهم، فيرد عليهم الرسل بأن البرهان إنما يكون بإرادة الله، وليس من مقترحاتكم أنتم ولا من مقترحاتنا نحن.. ويضيق صدر المشركين، ويكشرون عن أنيابهم. هنا تأتي الهجمة الثالثة والأخيرة، التي لا تنجلي إلا عن مصرع أحد العسكرين: تهديد ووعيد بالطرد.. أو العودة إلى دين الآباء والأجداد، ليكون جزاؤهم الهلاك والدمار، وليرث عباد الله الأرض من بعدهم.، ويدخل الكافرون النار!!.. وهكذا تنتهي الهجمة الأخيرة في معركة الحق مع الباطل بانتصار رسل الله الذين يحملون رسالاته.. واندحار أعداء الله ليجدوا نار جهنم في انتظارهم، ليسقوا فيها من ماء صديد.

■ ثانيا: الجمع بين البعد الفني الجمالي، الذي يُشبع لدى القارئ متعة

الفنية الأدبية.. والبعد الديني، الذي يؤدي بالقصة القرآنية إلى بلوغ الهدف، الذي جاءت من أجله. ولكي تتضح للقارئ آفاق هذه الرؤية نقول: من عناصر القصة في الآداب العامة، وحدة الزمان.. ووحدة المكان. وهما يُعدان وعاء للأحداث ويُحكمان الرؤية النقدية والتحليلية للعمل القصصي.. ووحدة الأحداث، ونعني بها تشابكها، وتتابعها، في إطار من حركة الحياة العامة ـ والقصة تصور شطراً منها، أو يفترض فيها أنها كذلك ـ.. ووحدة الشخوص، ونعني بها هذا التلاحم الذي ينشأ بينهم، ويؤدي إلى الصراع، حينما تتصادم الأهداف، أو تتعاون.. وكذلك الفكرة، التي تكمن وراء العمل الفني القصصي، وتُعد الهدف الأعلى، الذي يرمي إلى تحقيقه الكاتب.. فأين تقع هذه العناصر في القصة التي معنا؟!.. وما نصيبها من الواقع التاريخي؟!

والقصة في القرآن الكريم كما قلنا تتمتع بهذين البعدين الكبيرين، وتدور في فلكهما في روعة تامة وإعجاز منقطع النظير: البعد الديني الوعظي، المتمثل في خدمة الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ.. والبعد الفني الذي يجعل الجمال الفني، أداة مقصودة للتأثير الوجداني، فتخاطب حاسة الوجدان الدينية، بلغة الجمال الفنية، كما قال سيد قطب في كتابه «التصوير الفني في القرآن».

والمتأمل في القصة التي معنا يرى فيها هذين البعدين الكبيرين باديين لكل قارئ: ففيها إثبات الوحي والرسالة.. وبيان أن الدين عند الله واحد، من لدن نوح إلى محمد ـ عليهما السلام ـ وأنه موحد الأساس.. وأن وسائل الأنبياء في الدعوة إلى الله واحدة، وأن الله ينصر أنبياءه، ويخذل أعداءه.. إلخ. ولن نتوقف طويلاً عند هذه الأغراض؛ فهي واضحة جلية.

الجمال الفني

● أما البعد الثاني، الجمال الفني، فيتمثل في عناصر القصة المشار إليها آنفا. ولكنها هنا في حاجة لأن تُفهم في إطار الأهداف الدينية، وليس بمعزل عنها؛ لأن قارئ الآيات لابد له من أن يعلو فوق مفهوم الزمان والمكان المحدودين، ويُحلق برؤيته فوق آفاق التاريخ البشري من بدايته وحتى آخر الرسالات، وكذلك لا يسلط أضواء الرؤية على مكان دون آخر؛ وإنما يرى الأرض كلها مسرحا للأحداث. هذا هو ما يجب أن تُفهم على ضوئه وحدة الزمان ووحدة المكان في مثل هذه القصة الفريدة.

وأما وحدة الحدث، فتبدو من خلال هذا التشابه الكبير الذي يصل إلى حد التطابق في كثير من الأحيان بين قصص الأنبياء جميعا منذ نوح ـ عليه السلام ـ ومرورا بعاد وثمود والذين من بعدهم. إنها قصة واحدة، ذات أحداث واحدة، وتطوراتها كانت ذات طابع واحد، ونهاياتها كانت أيضا واحدة؛ وإن اختلفت وسيلة العقاب لدى كل قوم بما يناسب جرمهم.

فكل أنبياء الله ورسله دعوا إلى الله:

﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾

(الأعراف: ٥٩)

وكل أقوامهم اتهموهم بأنهم:

﴿ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

(الأعراف: ٦٠)

أو في «سفاهة»، وكل أنبياء الله ردوا عليهم:

﴿ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ﴾

(الأعراف: ٦١)

أو:

﴿ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ ﴾

(الأعراف: ٦٧)..

إلى آخر هذه الحوارات المتشابهة أو المتطابقة بين رسل الله وأقوامهم.. وكذلك تلك النهايات التي آلت إليها قصتهم جميعا، وإن اختلفت الوسيلة حسب جرم كل قبيل:

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(العنكبوت: ٤٠)

وهكذا.. كانت قصة الرسل مع أقوامهم قصة واحدة.. قصة التاريخ كله.. قصة «أيام الله»، وحينما أمر موسى عليه السلام أن يُذكّر قومه، وهو يدعوهم إلى عبادة الله ـ تعالى ـ كان التذكير:

﴿ بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾

(إبراهيم: ٥)

فأيام الله هي التي تُحكى، وليس فترة من التاريخ، أو قصة نبي واحد، وإنما قصة النبوات والرسالات وما آل إليه أمرها. التاريخ كله باعتباره وحدة واحدة، أو قصة واحدة، أسقط منه فواصل الزمان والمكان؛ فضمت الأقوال إلى الأقوال، والأفعال إلى الأفعال، والمعارك إلى المعارك، والنهايات إلى النهايات، والشخوص من الفريقين كل إلى شيعته.. فكانت هذه الصورة الفريدة:

﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾

(إبراهيم: ٩)

هكذا دفعة واحدة: في المجيء.. والرد:

﴿ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ ﴾

(إبراهيم: ٩)

هكذا بضمير الجمع على الجانبين.. ويستمر الحال هكذا حتى آخر لقطة:

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ﴾

(إبراهيم: ١٤)

بصيغة جمع الرسل أيضا، وهو ما حدث فعلاً مع كل نبي ورسول.

الإعجاز الأدبى فى سورة يوسف

قد يبدو مصطلح (أحسن القصص) الذى ارتبط (بسورة يوسف) فى القرآن راجعا إلى أنها القصة ذات الموضوع الواحد، وذات الحبكة الفنية التى يقوم عليها بناء القصة

- وربما كان ذلك واحدا من الأسباب؛ لكنّ هناك أسبابا أخرى كثيرة تتفرد بها سورة يوسف فى القرآن، فهى مع - وحدتها الموضوعية وحبكتها الفنية - تتنوع فيها الأساليب الجمالية، والمضامين التربوية؛ المستفادة من مجموع المواقف التى عرضت لها القصة، وكذلك من تنوع العلوم والمعارف، التى وجهتها القصة وجهة فنية تربوية؛ دون أن تحتاج فى ذلك كله إلى عنصر الخيال؛ الذى يرتبط بالقصة التاريخية، ويلون الأحداث بغير ألوانها الحقيقية، وذلك لإثارة الانتباه، وإلهاب العواطف، وتجديد الرغبات والإيقاعات؛ لتتمكن الأحداث الواردة من تحقيق الرياضة النفسية - على مختلف المستويات - بحيث تحصن الفرد - من جانب - وتقود الأمم والجماعات إلى النهضة - من جانب آخر -

لكن سورة يوسف بخاصة، وقصص القرآن بعامة؛ تعتمد على سحر البيان بديلا عن الخيال، كما تعتمد على الدقة، والصدق فى تصويرها؛ لتفاعل الأشخاص مع الأحداث(1).

للأستاذ الدكتور
عبد الحليم عويس

والفيصل هنا بين قصة يوسف وبين قصص القرآن الأخرى أنها - مع اعتمادها على كل ذلك - قدّمت قصة كاملة فى بناء درامى واحد، يبدأ بمجرد رؤيا، ثم تمضى الوقائع لتنتهى بتفسير هذه الرؤيا على أرض الواقع، ولعل من أهم ما يشار إليه من الإعجاز الأدبى فى قصة يوسف - كما وردت فى القرآن - أنها تقوم على هذه الرؤيا التى رآها غلام فى نحو ثلاثة عشر عاماً من عمره، وأن الوقائع جاءت بعد ذلك لتفسير هذه الرؤيا، فكأنّ للسورة جناحين: (الرؤية ثم تفسيرها).

وهنا يمكن أن يقال: إن هذا القدْر من حقائق القصة متفق عليه بين ما ورد فى (سفر التكوين) فى (التوراة)، وما ورد فى (القرآن).. لكننا نرد على هذا بأنّ كثيراً من القصص قد تلتقى فى هذا الإطار الفنى العام؛ لكنّ بناء القصة من الداخل، سواء فى الأسلوب، أم فى بناء الأحداث، أم فى توظيف الوقائع؛ لتحقيق أهداف عليا سامية، توجه الفرد والجماعة إلى أساليب الصناعة الحقيقية للإنسان فى صراعه مع قوى الشر الداخلية

(1) د. نواف الحليسى: النهج الاقتصادى فى التخطيط لنبى الله يوسف، ص: ٥٤.

الموجودة فى كيانه، والخارجية الموجود فى المجتمع... - هو ما تفضل به قصة على أخرى - وهذا ما تفردت به سورة يوسف.

التطبيق العلمى للرؤيا

لقد تفردت قصة يوسف ببنائها الداخلى وحركة الأحداث، مع تنوع الأفكار والمعطيات.

إنّ وقائع القصة تأتى منسجمة لتحقق التطبيق العملى للرؤيا، وبالتالى تتحدد الأدوار حسب مقتضيات (الحبكة الفنية)؛ التى تتصل (بالحكمة الإلهية)؛ فليعقوب الأب (عليه السلام) دوره؛ الذى يمكن أن يوصف بأنه دور سلبى، يقتصر فى معظمه على الحزن، والبكاء، إلا أنه هنا فى نطاق الحكمة والإعجاز يتحول إلى (بكاء إيجابى)، وإلى (موقف)؛ بل إلى (سياط) يجلد يعقوب بها معنوياً ضمائر أبنائه المتآمرين.. هؤلاء الأبناء؛ الذين يعيشون فى كل يوم معه، ويأكلون معه، مما يؤكد لنا أنّ هذا (البكاء الإيجابى) أحبط الهدف الذى سعى إليه المتآمرون عندما قالوا:

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾

(يوسف: ٩)

فما خلا لهم وجه أبيهم؛ بل كان يوسف يعيش مع مشاعر أبيه أكثر مما يعيشون هم معه، وأصبح يوسف يمثل (الشعور)، بينما انزوى أخوته المتآمرون فى دائرة (اللاشعور) بالنسبة لمشاعر أبيهم.

ثم إنهم ما كانوا بعد التخلص من يوسف (قوما صالحين) كما وهموا؛ بل ظلوا موضع شك واتهام من أبيهم، وهو شك مقرون بالخوف من أبيهم على (بنيامين) شقيق يوسف، ويتجلى ذلك عندما طلبوا من أبيهم أن يذهب (بنيامين) معهم لطلب الميرة من مصر، ففى هذا الموقف أظهر الأب المقهور الخائف من أبنائه ما كان يخفيه من مشاعر نحوهم، وشكوك فيهم قائلا:

﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾

(يوسف: ٦٤)

وقد عهدنا فى قصص القرآن - وفى القصة بوجه عام - أن تتعلق الرؤيا بموقف بسيط، أو بمواقف محددة، حتى فى القصص التى وردت شبه كاملة، مثل قصص هود، وصالح، وشعيب، فإنها جاءت مجملة موجزة كل الإيجاز.. فكأنها مجرد موقف أو مواقف للعظة والعبرة، أما قصة يوسف فإن الرؤيا فيها مركبة تختزل الأحداث كلها، وتوحى بالأمرين المتناقضين معاً، وهما ما سيكابده يوسف فى حياته، وهو الأمر الذى تنبأ به أبوه، الذى استشرف آفاق الغيب، فقال لابنه:

﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾

(يوسف: ٥)

بكل ما تحمله من دلالة درامية، ثم النهاية السعيدة؛ التى تتمثل فى قول يعقوب ليوسف بعد انتهاء مراحل الصراع (الدراما):

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ ﴾

(يوسف: ٦)

والقصة تقدم بين هاتين الشارتين (البداية والنهاية) تفاصيل دقيقة، تاريخية، ونفسية، وتربوية مع الاحتفاظ بالحبكة الفنية.

وكلمة (يجتبيك) تعنى (الاصطفاء)، والاصطفاء يعنى النبوة، أو إعلاء الدرجة وتعظيم المرتبة بصفة عامة، وهو ما يندرج أيضاً تحت النبوة التى هى قمة العظمة الإنسانية.

أما جملة:

﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ ﴾

فتعنى معرفة الغيب الذى يمن الله به عليه، كما تعنى تفسير الرؤى تفسيراً يأتى مطابقاً للواقع.

ـ ونحن نعجب من وضوح الإعجاز؛ عندما تدخل الرؤيا عالم الواقع بهذه التفصيلات الدقيقة، وذلك ـ أولاً ـ فى تحديد يعقوب (للخطوة الأولى) من خطوات المؤامرة؛ التى دبرها أبناؤه؛ بل ووسيلتها الكاذبة وهى (الذئب)... ثم فى السياق المتدرج نفسه ـ ثانياً ـ وأخيراً فى تحديد نتائج المؤامرة؛ التى دبرها إخوة يوسف وهى (تمام النعمة على يوسف واصطفاء الله له).

وبين هذين الإعجازين تتحرك الوقائع فى سورة يوسف (أحسن القصص)..

أحسن القصص !!

إن العرض القرآنى لقصة يوسف يؤكد أنها (أحسن القصص)، ليس لمجرد الإعجاز الأدبى، أو الغيبى؛ الذى قام على أساس تطبيق واضح لرؤيا يوسف فحسب؛ بل هى (أحسن القصص)؛ لأنها تجمع كثيراً من العلوم؛ التى لا تجتمع فى شخص واحد، ولا فى عمل فنى واحد... ففيها تجد علوم الاقتصاد، والإدارة، وإدارة الأزمات، والتخطيط، والرؤى، والأرواح، وتحليل النفس البشرية (علم النفس)، وفيها كثير من القيم التربوية، والأخلاقية؛ المستفادة من سير الملوك والممالك، وحسن السياسة، وتدبير الملك، وإقامة العدل، ونظام الدولة، ومكر النساء، والاصطبار على الأذى، والعفو، والتجاوز عن هفوات الأقارب.

ومن جانب آخر تتجلى مكانة القصة فى أنها (أحسن القصص) لأمر عجيب نادر الوقوع فى (القصص)، وفى (الواقع)... ففى البداية يخيم على القصة جو من التآمر الجماعى، والحزن؛ إذ أن إخوة يوسف كانوا مشبعين بالحقد، والحسد، والخيانة، والتواطؤ، والكذب... وقد عانى يوسف الكثير خلال هذه الفترة، وكان أبوهم يواصل الأحزان، ويعانى الاكتئاب، والشعور بالمؤامرة.. ويخيل إلىّ أن الإخوة لم يكونوا سعداء بعد المؤامرة.. فهم لم يكسبوا شيئاً منها... بل خيم نوع من الشك والحزن على الجميع...!!

ـ ومن العجيب الذى يبصره أصحاب الرؤية الداخلية لوقائع العمل الأدبى؛ حركة الأحداث بعد ذلك بين أحزان ومسرات ومشاعر تبدو متناقضة...

ـ فيعقوب: لم ييأس؛ بل كان يشعر بريح يوسف..

ـ ويوسف: يصبح سيد بيت عزيز مصر؛ المؤتمن على ماله، وعرضه، وقصره... بعد أن تعرض لمؤامرة يدخل السجن بسببها..

ومن الإعجاز القرآنى هنا؛ ما تحدث به القران عن هذه اللحظات التى يدخل فيها يوسف بيت عزيز مصر (خادماً)، ورقيقاً، ثم سيداً للخدم... إنه يسميها (تمكيناً)... مع أن يوسف دخل رقيقاً خادماً، وكان فى الثالثة عشرة من عمره ـ حسب ترجيحنا ـ يقول الله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ ﴾

(يوسف: ٢١)

.. فأى تمكين هذا؟ إنه الخطوة الأولى فى طريق التمكين، وهو ـ أيضاً ـ النقلة الكبيرة... من الجب إلى القصر... لقد وضع يوسف فى أرض المعركة... معركة اختبار معدنه ليصقل، ثم ليمكن التمكين الثانى والأخير... التمكين الذى يتبوأ فيه ما يشاء من أرض مصر...

إن هذه الآية فى هذه المرحلة (بداية مرحلة الاسترقاق) إعجاز ربانى.... إنها تكشف مرحلة غيبية من مراحل التخطيط الإلهى... لكى تؤمن ـ راضين ـ بهذا التخطيط الذى يقلب المحن إلى منح...

ـ وأما إخوة يوسف ـ على الشاطئ الآخر للأحداث ـ فيواصلون التمثيلية؛ التى لم تواتهم الشجاعة، ولا صحوة الضمير للإفصاح لأبيهم عن حقيقة فعلهم الشنيع!

ـ والحكمة الإلهية هى ـ وحدها ـ الفاعلة القادرة على توجيه الأحداث، فتتربص امرأة العزيز بيوسف، ثم يتحول السجن إلى مطلب عزيز ليوسف، لدرجة أنه يحبه، ويتمناه قائلاً:

﴿ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ ﴾

(يوسف: ٣٣)

حتى يحميه السجن من الوقوع فيما يدعونه إليه.

ـ وليس ما يدعونه إليه إلا المجد الزائف القائم على الخداع، والانحطاط؛ الذى يسعى إليه كثير من ذوى النفوس المريضة، والأخلاق الوضيعة عبر كل العصور!!

الرجل الأول فى مصر!!

ـ ومع هذا تتحرك الأحداث متدرجة بدون قفزات إلى أن تظهر (رؤيا أخرى) يتم الله بها أمره، ويتحول بها مسار حياة يوسف... من عبد وسجين إلى الرجل الأول فى مصر بعد الملك... فيكاد يسيطر على أهم الوزارات، ويحمل لقباً يضاهى لقب (رئيس الوزراء) فى عصرنا.. ويصبح (ملك مصر) مجرد رمز يملك، ولا يحكم...

ـ وفى نهاية الأحداث تقع مفاجأة ليس من المبالغة القول: إنها ـ بحد ذاتها ـ تمثل

إعجازاً فوق طاقة البشر...

- إن كل الشخصيات المشتركة في الأحداث قد فازت بنهاية سعيدة... الجاني، والمجني عليه...

- لقد نجا يوسف من البشر، والإثم، والسجن، وسوء السمعة، وتبوأ عرش مصر - من الناحية العملية - والتقى بأبويه، وسجد الجميع له كما ورد في الرؤيا..

- إن يوسف يعترف بهذا التخطيط الرباني المحكم... فيقول لأبيه:

﴿ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

(يوسف: ١٠٠)

- وانفرجت أزمة يعقوب، وردّ الله إليه بصره، وانتهت الأحزان، والآلام، ودخل مصر والداً لرئيس الوزراء...

- وقد عولجت قلوب إخوة يوسف - إلى حد كبير - من الحقد، والحسد... وطلبوا من أبيهم المغفرة... ومن يوسف التجاوز عن خطئهم... فعفا عنهم، وقال لهم:

﴿ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

(يوسف: ٩٢)

وكذلك أنقذت امرأة العزيز - والنسوة - من العار، الذي كان قد اقترب منهن، ومن الحب الحرام، واعترفن بالحقيقة... فبرئت ساحتهن، وشهدن في يوسف شهادة حق وصدق:

﴿ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ ﴾

(يوسف: ٥١)

واعترفت امرأة العزيز بالحقيقة بأقوى بيان قائلة:

﴿ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

(يوسف: ٥١)

بل إن أبناء مصر كلها [٢] - ومن كانوا يعيشون حولها - قد أصابتهم الخيرات، وأنقذهم الله من الفوضى، والموت جوعاً.. بسبب يوسف.. وبسبب ظهور يوسف على مسرح الأحداث في تلك الفترة من الزمان...

***

تتميز قصة يوسف بطولها النسبي - بالنسبة للقصة القصيرة - وباستيعابها لعناصر القصة الأساسية.. بيد أن طولها لا يبعدها عن حقل القصة القصيرة (أو الوسط) بين القصة القصيرة والطويلة، وتكاد حركة الأحداث فيها تصل بها من الناحية الكيفية، والتأثيرية إلى مستوى الرواية... وإن لم تصل لمساحة الرواية كمّياً...

(٢) محمد رشدي عبيد: قصة يوسف في القرآن الكريم، دراسة أدبية، ص: ٤٦، ٤٧ (بتصرف)، دار العبيكان، وانظر عمرو خالد: يوسف (عليه السلام)، ص: ٥١، ٥٢، ط/ ١، أريج للنشر والتوزيع، القاهرة.

التأثير الفني والتربوي لقصة يوسف

والسؤال هنا: لماذا لا يكون لنا تقسيم خاص مستمد من تراثنا ومفاهيمنا للقصة..؟! إن قصة يوسف تقدم نموذجاً معجزاً في جمعه بين الكم المحدد؛ الذي تقف آياته عند (١١١ آية)..... لكن تأثيره الفني، والتربوي يتجاوز تأثير الرواية الطويلة...

إننا نرى قصة يوسف تنقسم إلى حلقات، وكل حلقة تضم عدداً من المشاهد... وبين المشاهد توجد فضاءات متروكة لوعي القارئ يسعى من خلالها إلى إدراك التفصيلات الكثيرة الصغيرة؛ التي لا يرى البناء الفني، والحكمة الربانية فائدة من الوقوف عندها... ومن جانب آخر تدريباً للوعي - وجداناً وعقلاً - كي يتحرك فيها.

إننا لا ينبغي علينا أن نلزم إبداعنا بالمواصفات، والأطر نفسها؛ التي يلتزم بها غيرنا... وحسبنا أن نلتقي في الشروط الأساس: شكلاً، ومضموناً، وحبكة فنية.

ومن الجدير بالتنويه - ابتداءً - أن قصة يوسف عمل فني، تتكامل فيه مراحل الحدث الثلاث من بداية، إلى وسط، إلى نهاية، وتقوم بين هذه الأجزاء الثلاثة خيوط واضحة؛ تسمى أحياناً بالعلاقة العضوية.

كما تتوافر في هذا العمل الفني (قصة يوسف) مقومات القصة؛ من شخصيات متعددة، وأحداث متساوقة بشكل طبيعي، وحوار موضوعي، وتدفق، وسلاسة، كما تتحقق فيها الخصائص الفنية الضرورية؛ مثل السرد، والوصف، وعدم الاستطراد، والتشويق [٣].

وتأخذ الشخصيات حجمها الطبيعي، فيوسف (البطل) بعالميه الداخلي والخارجي يأخذ المساحة الأكبر اللائقة به... إنه - في داخله - ملك كريم، يكاد يخرج من نطاق البشرية، كما أنه - في خارجه - شريف لم يعلم عنه سوء، أو فحشاء؛ بل هو مصطفى من الله.

وتأخذ الشخصيات الثانوية حجمها من علاقتها بالبطل؛ فمنهم من يظهر في موقف واحد، أو موقفين، ومنهم - مثل آل يعقوب - من يأخذون مساحة أكبر لعلاقتهم المصيرية بالبطل.

- ولم تخل القصة - لإعجازها - من أحداث غريبة على بعض العقول المرتهنة بمحصلة البشر المحدودة من العلم في ظرف من الزمان، أو المكان، لكنْ قدرة الله - سبحانه - غير إمكانات الإنسان... وهكذا كان، فقد شم يعقوب النبي ريح يوسف من قميصه، واستعاد به بصره بعد إلقائه على وجهه [٤].

(٣) عبيد: المرجع السابق (بتصرف)، ص: ٢٥.

(٤) المرجع السابق، ص: ٣٦.

لقد كانت مقومات الحبكة الفنية ـ فى اختيارها للأحداث، وفى إنمائها، أو تجسيدها، وما فيها من إثارة، وصراعات ـ حبكة ناجحة بداية بحالة التوازن الداخلى، وتوسطاً بكسر التوازن بطريقة مباشرة، وأخيراً بتأزم الموقف وبلوغه الذروة، وكسر حدة الصراع وصولاً إلى انفراج الأزمة الداخلية والخارجية.

ـ وكل ذلك يمضى فى تدرج صاعد نحو ذروة الأزمة، أو بتدرج هابط نحو الانفراج، كما يقول الدكتور / محمد الزير فى كتابه عن (القصص فى الحديث النبوى).

ولم تخل القصة من تشويق يُعمِّق الحبكة فى كل مراحل القصة، ولعل بدايات القصة ونهاياتها من أكثر المراحل تشويقاً وجاذبية.

كما لم تخل من بعض الغموض المعتمد على الغيبيات فى أكثر الأحايين، وهى ـ ببعض الغيبيات الواردة فيها ـ تضفى روحاً إيمانية على الأحداث، وتقدم توازناً بين فعل الله ـ سبحانه ـ وفعل الإنسان فى حدود مسئوليته.

قصة خالدة!!

ومن الجدير بالذكر أن قصة يوسف فى القرآن تقدم نموذجاً لقصة لا تبلى كلماتها ولا دلالاتها؛ بل هى خالدة خلود القرآن ـ وهذا إعجاز فى حد ذاته ـ إذ أن القصص البشرى يرتبط بالزمان والمكان ارتباطاً إلزامياً تفصيلياً... بحيث تشم فيها رائحة زمان الأحداث ومكانها.... دون أية روائح إضافية... لكن سورة يوسف لم تلتزم بهذا الاستغراق التفصيلى فى الزمان والمكان... بل أشارت إليهما، ثم عبرتهما عبوراً يشعرك إجمالاً بالزمان والمكان؛ لكنه لا يجعلك أسيراً لهما... إنه إعجاز أدبى فريد؛ بل هو توجيه للأديب المسلم ألا تشغله التفصيلات الدقيقة للزمان والمكان عن الدلالات المستوحاة، وعن القيم التى يمكن أن تستخلص... فليس الأديب المسلم ـ وهو يصور الأبعاد الزمانية والمكانية ـ صاحب (كاميرا فوتوغرافية)؛ بل هو انتقائى يأخذ من ملامح الزمان، ومعالم المكان ما يفيده فى تحريك الوقائع المادية، واستخلاص قيم الجمال والكمال!!

ـ إن الزمان يعانق الأحداث فى قصة يوسف وفاقاً لهذه المنطقية الفنية، وبالتالى تترتب فيها النتائج على المقدمات، أو تنتقل الشخصيات من حال إلى حال بدافع من أسباب سابقة، عبر تسلسل زمنى له أثره فى السير بالأحداث إلى النهاية فى حركات مضبوطة وخطو منتظم، مع ملاحظة اهتمام القصة الرئيسى بزمن البطل.

أما أزمان الشخصيات الثانوية الأخرى فقد كانت تظهر فى لحظة من حياة البطل الزمنية؛ لتؤدى دورها، وتغيب نهائياً، أو تعود؛ لإكمال ذلك الدور بعد حين.

أمّا الزمن ـ باعتباره ظرفاً تحدث فيه وقائع القصة التفصيلية ـ فلم تحدده القصة دائماً؛ إنما ذكرت الأزمان الضرورىَّ ذكرُها فى البناء القصصى مثل قوله تعالى:

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴾

(يوسف: ١٦)

لما لهذا الوقت من دلالة، وأهمية فى محاولتهم إخفاء بكائهم المصطنع على وجوههم عن أبيهم...

ولا يختلف تناول القصة للمكان عن تناولها للزمان، إذ تذكر أسماء الأماكن التى يجدر ذكرها؛ لإعانة القارئ على تحليل الأحداث الواقعة فيها، وفهمها حق الفهم، ولا يخفى ما لبيئة الأحداث من أهمية فى وقوعها بالشكل الذى وقعت به... لقد أوردت القصة أن يوسف بيع فى مصر:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ ﴾

(يوسف: ٢١)

ليعلم القارئ أن الأحداث التى مرت ببطل القصة إنما كان مسرحها (مصر) كما تشير إحدى حوارات يوسف مع أهله بأنهم كانوا يسكنون البادية:

﴿ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ ﴾

بل إن القصة أشارت إلى (البئر)؛ التى ألقى فيها يوسف، و(بيت العزيز)؛ الذى نشأ فيه، و(السجن)؛ الذى امتحن به، و(العرش)؛ الذى رُفع إليه، فأضفت ـ بإشاراتها تلك إلى الأمكنة ـ أجواء من الجدّية، والحيوية، والواقعية على البنية القصصية [٥].

واقعية القصص القرآنى

لقد قدمت لنا قصة يوسف ـ كما جاءت فى القرآن ـ معجزة فى جمعها ـ وهى قصة تاريخية واقعية ـ بين مجموعة من الآفاق، والدلالات، فهى وقائع تاريخية صادقة تماماً، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يصطنع قصصاً غير واقعية لتعليم البشر، كما يقول (محمد خلف الله) صاحب كتاب (الفن القصصى فى القرآن)، وأمثاله: «والله ـ حاشاه ـ لا يحتاج إلى تلفيق قصص على النحو البشرى وهو العليم المحيط».

ومع تحقق الإعجاز التاريخى فى هذه السورة؛ فإنها تقدم لنا (قصة واقعية) تتوافر فيها شروط القصة ـ دون حاجة إلى الخيال، أو التلفيق ـ مستعيضة عن ذلك بالمزج بين العناية الإلهية، وعالم الغيب، وفعل الإنسان، والعبر المستخلصة؛ التى تتناثر عبر القصة.

لكن هذه الواقعية الفنية الإسلامية... لا تعتمد الكذب أو الخيال، ففى الواقع ما يغنى عن الكذب.. ثم إن الواقعية ـ كما نلمسها فى سورة يوسف ـ ترفع

(٥) عبيد: قصة يوسف (عليه السلام) فى القرآن، دراسة أدبية، ص: ٣٩- ٤٢ (بتصرف).

هذه الواقعيـة إلى آفـاق السـمـو الإنسـانى... فلا تترك الواقعيـة تقتل القيم أو إنسانية الإنسان، وبالتالى تهبط باسم الواقعية إلى المستوى الحيوانى - عرضاً وإغراء - كأن الإنسانية تعيش فى حظائر، وليست فى مجتمعات إنسانية... وحتى الواقعية الجنسية الممثلة فى سلوك امرأة العزيز والنسوة اللائى أظهرن - بوضوح واقعى - رغبتهن فى يوسف، وتغزلهن فيه بطريقة سافرة... حتى هذه الواقعية تبقى فى إطار المستوى الإنسانى البعيد عن الهدم، وعن الهبوط بالقيمة الإنسانية... حتى وهى تتحدث عن الجنس؛ فإنها تتحدث عنه بحيث يبقى فى المحيط الإنسانى.

ولعلمُ الله - سبحانه - بحديث الإفك؛ الذى سيرتكبه بعض المنحرفين، حين يزعمون أن القصص القرآنى لا يقوم على الصدق الواقعى، وإنما يقوم على الصدق الفنى وحده - ردّ الله على هؤلاء فى آخر القصة قائلاً للرسول محمد - ولنا جميعاً:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

(يوسف: ١١١)

مؤكداً بهذا إمكانية الجمع بين الصدق الواقعى، والصدق الفنى، والعناية الإلهية، وفعل الإنسان فى التاريخ... وهذا (المركب) فى حد ذاته يجعل من قصة يوسف (معجزة) فى المجال الأدبى، والفنى؛ الذى يجب أن يسترشد به الأدباء المسلمون.

لكن هذه السورة - إلى جانب الإعجاز التاريخى والقصصى - قد حفلت بالحديث عن آفاق اقتصادية، واجتماعية، ونفسية، وطبية، وتربوية... إلى غير ذلك من العلوم؛ التى ألمّ إليها هذا البحث...

يوسف.. قمة فى الجمال والعبقرية!!

وقد دخلت هذه الآفاق فى النسيج الأدبى والبيانى للقصة، فكأنها - وهى علوم ومعارف - بعض إيقاعات، أو ضرورات العمل الأدبى، وليست نشازاً فيه.

ومن (الإعجاز) أن يقدم القرآن شخصية يوسف (البطل) - عليه السلام - على هذا النحو؛ الذى يمثل القمة فى الجمال البشرى، وفى العبقرية؛ التى يمتلك صاحبها كثيراً من هذه العلوم؛ التى امتلكها يوسف... وفى الكمال النفسى والخلقى والإيمانى.

لقد قدمت سورة يوسف شخصية يوسف على أنه (معجزة) خلقها الله؛ لتبقى نموذجاً فى الجمع بين الجمال، والعفة، ومقاومة الإغراءات، والعبقرية، والرضا بالرخاء والشدة... والصبر والتقوى:

﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(يوسف: ٩٠)

تشهد الكرة الأرضية على صغرها فى ميزان الله صراعات لا تهدأ، واضطرابات لا تتوقف، ومعارك لا تنام، وذلك كله راجع إلى غياب الهدف الواحد، والفهم المشترك، والوعى بالغاية العليا من الحياة.

سُنة الله فى التغيير

للأستاذ الدكتور/ حمدى فتوح والى

وبسبب اختلاف التصورات، وتباين الاتجاهات كان لابد من أن تتصادم الإرادات، فيقع فى الأرض ما نراه اليوم من الحروب والصراعات، وبرغم اعتبار هذه الحال غير سوية وغير مرضية فى نظر كثير من الناس، فإنها فى نظر الإسلام تعد ضرورة لكى تستمر الحياة.. وهذا ما نفهمه من قول ربنا - سبحانه -:

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

(البقرة: ٢٥١)

ويظهر هذا الفضل واضحاً عندما نقرأ قوله - تعالى -:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

(هود: ١١٨، ١١٩)

فالتفاوت فى المفاهيم والأفكار والتصورات والمواهب جدير بأن يحدث فى حياة الناس اختلافاً، وهذا الاختلاف هو موضع النعمة والمنّة: «ولو شاء الله لخلق الناس كلهم على نسق واحد، وباستعداد واحد.. نسخاً مكرورة لا تفاوت بينها، ولا تنويع فيها.. وهذه ليست طبيعة هذه الحياة المقدرة على الأرض، وليست طبيعة هذا المخلوق البشرى الذى استخلفه الله فى الأرض، شاء الله ألا يكون الناس أمة واحدة، فكان من مُقتضى هذا أن يكونوا مختلفين. وأن

يبلغ هذا الاختلاف أن يكون فى أصول العقيدة، - إلا الذين أدركتهم رحمة الله - الذين اهتدوا إلى الحق - والحق لا يتعدد - فاتفقوا عليه وهذا لا ينفى أنهم مختلفون مع أهل الضلال»[1]. وبسبب هذا الاختلاف يقع التدافع الذى ينتج عنه التمايز والتمحيص:

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

(المائدة: ٤٨)

وهذا الابتلاء هو المعيار الذى يقيس به المولى - تبارك وتعالى - صدق الصادقين، وكذب المدعين:

﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾

(الأنفال: ٣٧)

وهذا ما نجده فى قول الحق - سبحانه وتعالى -:

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾

(العنكبوت: ٢، ٣)

إنه التدافع الذى يقود إلى الابتلاء وبه يميز الله الخبيث من الطيب، ويعلم الصادق من الكاذب، ويصطفى الصادقين من عباده، وقد تواترت الآيات والشواهد من كتاب الله وسُنة نبيه ﷺ ومن حوادث التاريخ بما يؤكد أن الابتلاء سُنة كونية، وضرورة بشرية فى حياة الأفراد والجماعات والأمم، ولقد شاءت إرادة الله - تبارك وتعالى - أن يبقى هذا القانون سائدًا وصالحًا فى كل زمان ومكان، فمن كان أكثر صدقًا وولاء وتفانيا وفداء، كان هو الأولى بالتمكين والإعزاز، ومن قعدت به همته، وخذله صدقه وغاب عنه فداؤه وعطاؤه فمثل هذا ليس أهلاً للنصرة والإعزاز والتمكين، وعندها سيعالج بالتمحيص والاختبار، حتى يسلم معدنه من الشوائب، ويخلص كاملاً لمولاه، فلا يبقى فى كيانه كله غير الله، وهذا ما يرشدنا إليه ربنا - سبحانه - فى قوله:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾

(محمد: ٣١)

ولعل سائلاً يقول: أو ليس المؤمن أقرب وأحب إلى الله من الكافر.. فلماذا لا يُنصر المؤمنون من أول الأمر ويُخذل الكافرون؟!.. ولا يخفى ما فى هذا السؤال من سطحية وسذاجة، لأن أيلولة

(١) فى ظلال القرآن ط٧ ص ١٩٣٣.

الملك والسلطان إلى النفوس الضعيفة والعزائم الخاوية تضييع لهذا الملك وإفساد لهذا السلطان، وهو من جانب آخر إقرار من الله - سبحانه وتعالى - لهذا الخلل العظيم، والله - سبحانه وتعالى - لا يحب الفساد، ولا يُصلح عمل المفسدين، وهو - سبحانه - أغير على دينه من أن يضعه فى يد ضعيفة لا تطيق حمله، ولا تؤتمن على حراسته. ومثل هؤلاء الذين يأتيهم النصر غنيمة باردة بغير جهاد ولا مشقة هم أسرع الناس تفريطا فيه وتضييعًا له، لأنهم لم يتحملوا المشقة ولم يتجشموا الصدمات، وقديماً قيل:

ومن أخذ البلاد بغير حرب
يهون عليه تسليم البلاد

أما إجابة القرآن عن هذا التساؤل فتأتى واضحة بينة فى قول الحق - سبحانه وتعالى -:

﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾

(محمد: ٤ - ٦)

وكأننا نلمح فى قول الخالق - سبحانه وتعالى -:

﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾

(محمد: ٤)

إجابة لهاجس نفسى يقول: «وما ذنب المخلصين الصادقين.. الذين قاتلوا بصدق وإخلاص لكن الراية لم تكن خالصة، والقيادة لم تكن صالحة.. والذين أداروا المعارك لم يكونوا صادقين؟!.. فكان هذا هو الجواب:

﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾

(محمد: ٤ - ٦)

أن الأمم والشعوب كالأفراد فى حاجتها إلى التربية - سواء بسواء - وحتى ينضج كيانها، ويسلس قيادها، وتستقيم أخلاقها - كان لابد لها من التأديب والتهذيب، والتمهيد والتعبيد - حتى يخلص الكيان كله لله، ولا يبقى فيه شىء لسواه:

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾

(البينة: ٥)

ومن يتأمل حكمة الله فى مشروعية العبادات وفرض الفرائض سيجد الوصول بكيان الإنسان إلى التقوى وصدق الانقياد لله هو أساس هذه الفرائض جميعا، فالصلاة لاتُقبل إلا فى أوقاتها وبأركانها وشروطها:

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾

(النساء: ١٠٣)

وهى لا تثمر الفلاح والفوز إلا بتحقيق الخشوع فيها:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾

(المؤمنون: ١، ٢)

وقد حفز الله - تبارك وتعالى - همة المؤمنين الصادقين إلى فعل الخير بتذكيرهم بالوصول إلى الفلاح بقوله:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(الحج: ٧٧)

وجعل الصيام تدريبا للنفس على تحمل المشاق ومنعا للغرائز أن تجمح بصاحبها، كما تريد، حتى إذا انقادت تلك الغرائز لمشيئة الله، وتركت الحلال وهى فى أشد الحاجة إليه حبا لله وطلبا لرضاه، عند ذلك تكون قد حققت مراد الله - سبحانه وتعالى - بقوله:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(البقرة: ١٨٣)

وجعل الحق - تبارك وتعالى - فريضة الحج غسلا كاملا لكيان الإنسان ومن قسوة القلب وغفلته ومن الشح، حيث يجود بالمال والنفقة والهدى:

﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾

(الحج: ٣٢)

وبدوام التلبية والإقبال على الله يتحقق الزاد الحقيقى فى طريق السير إلى الله:

﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

(البقرة: ١٩٧)

كما فرض الحق - تبارك وتعالى - فريضة الزكاة تطهيرا للنفس وعلاجا لها من الشح والبخل والكنود، وبهذا كان أثرها على المعطى أعظم بركة وأشد أثرا من الآخذ، وهذا ما نجده فى قول ربنا - سبحانه -:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾

(التوبة: ١٠٣)

ومن يتأمل فريضة الجهاد يجد الحق - تبارك وتعالى - قد جعلها فى ذروة سنام الإسلام، لأن الإنسان لا يجود بنفسه وروحه لله إلا بعد مرحلة طويلة من الأنس والحب والمعية والقرب، جعلته يشتاق بقوة إلى لقاء الله، ويذهل عن كل ألم يصيبه فى سبيل مولاه، ولهذا فهو يعفى من فتنة القبر، فقد شهد الله له بالصدق

عند لقائه وشهد له الرسول ﷺ بقوله معللا إعفاءه من فتنة القبر: «كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة»(٢).

إن من يتأمل حقيقة المنظومة الإسلامية فى إحداث التغيير يدرك أن مدارها يقوم على تخليص القلب من كل ما سوى الله وربطه بالله وحده فى حالة من الانقياد الكامل والحب الخالص:

﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾

(الزمر: ٢، ٣)

ويأتى القرآن فى طوره المكى ليحدث فى قلب المتلقى انقلابا كاملا، فهو يركز على النشأة الأولى للإنسان والأحياء من نبات وحيوان، وعلى مشاهد هذا الكون وآياته فى كتابه المفتوح، وعلى مشاهد القيامة العنيفة، الطامة، الصاخة، القارعة، الغاشية، الحاقة، ومشاهد الحساب والجزاء من نعيم وعذاب فى صور تقرع وتذهل وتزلزل، كمشاهد القيامة الكونية فى ضخامتها وهولها.. واتخاذها جميعا دلائل على الخلق والتدبير والنشأة الأخرى، وموازينها الحاسمة، مع التقريع بها والتخويف منها والتحذير من مواقفها.. وأحيانا تصاحبها صور من مصارع الغابرين من المكذبين.

وهذه البداية الإلهية فى التعامل مع النفس البشرية، هى المدخل الوحيد القادر على إحداث هذا الانقلاب فيها:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾

(الرعد: ١١)

إن لهذه الأمة حقا على علمائها وعلى خبراء التربية فيها، أن يبدءوا مع أبنائها من حيث أمرهم الله، فلا يتجاوزوا القرآن المكى إلى المدنى حتى يطمئنوا تماما إلى صحة العقيدة، واطمئنان القلب بالله عن حب ويقين، وبعدها ينتقلون بالقلب إلى مرحلة الولاء، ثم يزينونه بالتكاليف الشرعية من عبادات ومعاملات وأخلاق وسلوك، وهذا ما نجده فى قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾

(الأحزاب: ١، ٢، ٣)

تلك هى سنة الله فى تغيير النفوس وتطهيرها:

﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

(فاطر: ٤٣)

(٢) رواه النسائى بسند صحيح

التجديد فى المقاصد

للأستاذ الدكتور/ محمد الشحات الجندى
الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية

٢

نموذج لأهمية المصلحة فى الوقت الراهن

يتعاظم شأن هذه المصلحة فى حماية الجبهة الداخلية للمجتمعات الإسلامية المعاصرة فيما يرى ويلمس من بث الفرقة وإشاعة الفتنة فى نسيج المجتمعات الإسلامية، إلى حد أن صار الأخ يقتل أخاه ويتربص به مما نتج عنه الشقاق والصراع بين أبناء الدين الواحد والوطن المشترك، وهو انتهاك لما أمرت به النصوص القطعية فى قوله تعالى:

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾

(آل عمران: ١٠٣)

ويناقض قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

(الأنفال: ٤٦)

وقد تفاقم هذا الخلل، واخترق بنيان العديد من المجتمعات الإسلامية، وأدى إلى إراقة دماء معصومة، وأرواح بريئة، وأخل بمقصد حفظ النفس، وأهدر حق الحياة، للمسلم وغير المسلم شاهد ذلك ما حدث ويحدث بين العديد من الأفراد والجماعات داخل الأوطان الإسلامية على امتداد العالم الإسلامى، الأمر الذى يضعف كيان المجتمع والأمة، ويفرقها شيعاً، بفعل أفهام ضيقة للدين وعصبيات مقيتة، وسلوكيات متطرفة تناقض صحيح الإسلام، وتتبنى الفهم الخاطىء والمغلوط للنصوص، وتمكن للأعداء أن يضربوا الوطن والأمة فى مقتل، ويفرق جمعها ويضرب وحدتها الوطنية مما ينتج عنه مفاسد كثيرة.

١.إهدار حق الحياة وحفظ النفس

ومما يثير الأسى والأسف أن يعم هذا البلاء فى دول ومجتمعات إسلامية تمثل قلب وعقل الأمة والعالم الإسلامى، شاهد ذلك ما حدث فى مصر بين نفر من المسلمين والأقباط، وفى لبنان بين المسلمين والموارنة المسيحيين، وبعض السنة

والشيعة، وما يجرى فى السودان فى دارفور بين الشمال والجنوب، وعلى أرض فلسطين بين حماس وفتح، وفى السعودية واليمن مع المتمردين الحوثيين، وفى العراق بين السنة والشيعة، وفى أفغانستان بين جماعة طالبان والحكومة، وفى الصومال بين الحكومة والمحاكم الإسلامية، وفى باكستان بين القاعدة وطالبان والحكومة، وحسب هؤلاء جرما أنهم يشعلون نار الفتنة، ويمزقون وحدة الوطن، أنهم يقترفون هذا المنكر باسم الدين والإسلام منه برىء:

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾

(الكهف: ٥)

فما بالهم أنهم يغتالون الوطن كله.

بل إن مسلكهم على النقيض مما نهى عنه الإسلام من القتل والصراع والتحزب:

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾

(النساء: ٩٣)

فما بالهم أنهم يغتالون الوطن كله.

والإسلام بنصوصه القطعية ومقاصده الشرعية يأمر بقتال الخارجين على الجماعة، المؤججين لنار الفتنة، فهم معتدون باغون إذ الفتنة أشد من القتل، يجب الضرب على أيديهم، وكف عدوانهم.

ففى الحديث الشريف: «من أتاكم وأمركم جميع على قلب رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاضربوه بالسيف كائنا من كان»[1] وهو ما تقتضيه وحدة الجماعة، ودرء المفسدة عنها، ولم شمل أبناء الوطن فإن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة.

فلا شك أن إزهاق الأرواح من أكبر الحرمات، وإذا كان هذا الجرم كبيرة وجناية فى حق الفرد فهو فى حق الجماعة أولى، وفيه إخلال بمقصد حفظ النفس، أو الحق فى الحياة.

وقد بلغ من رعاية الشارع لحفظ حق الحياة أن قدمها على عبادة الخالق سبحانه، يقول العز بن عبدالسلام[2]: «الضرب الثانى: مشقة تنفك عنها العبادات غالبا، وهى أنواع:

النوع الأول: مشقة عظيمة فادحة كمشقة الخوف على النفوس والأطراف ومنافع الأطراف، فهذه مشقة موجبة للتخفيف والترخيص؛ لأن حفظ المهج والأطراف لإقامة مصالح الدارين أولى من تعرضها للفوات فى عبادة أو عبادات ثم تفوت أمثالها»، وهو احتياط شديد لعدم الإخلال بحق النفس وسلامة البدن، وحفظ حق الحياة.

٢ـ الإخلال بمقصد حفظ المال وحق الملكية:

ومن مساوئ هذا الاقتتال بين بنى الدين والوطن كذلك الاعتداء على المال، وحق الملكية، للفرد والمجتمع، بسبب ما يقترن بهذا الاعتداء

(١) التبريزى، مشكاة المصابيح، جـ ٢، ص ٣٦٩، صحيح مسلم، جـ ٦، ص ٢٢.

(٢) قواعد الأحكام فى مصالح الأنام، جـ ٢، ص ١٠، دار الجيل.

على النفس من تصفية المعتدى عليه وصولا للغرض الآثم وهو الانتقام والثأر بغير موجب، فلا يميز هذا العدوان بين نفس ومال، فهو يزيل كل ما يجد فى طريقه من ممتلكات ومعدات، حتى يتلف ذلك العدوان ليس فقط مال المجنى عليه، وإنما المال العام المملوك للجماعة كلها، وقد يتضمن ذلك الإتلاف والإحراق كل مال فى طريق المعتدى دون تمييز ولا اكتراث بحرمة المال الخاص والعام، وهو جرم كبير.

إن حفظ المال، وحماية حق الملكية مقصود للشارع لا يجوز الاعتداء عليها بأية حال، وعلى أية صورة من الصور، ذلك أن المال من مقومات الحياة، وضرورته لكل إنسان واضحة جلية لا غنى له عنه، إذ عليه تقوم حياته، وتسد احتياجاته من الطعام والملبس والمسكن والعلاج والتعليم، ولا غرو إذا قلنا: إنه لازم لصحة الأبدان والأديان، ومقوم التنمية والعمران فهو من الضرورات الخمس فى الشرع الإسلامى.

يقول الشاطبى[3]: «مصالح الدين والدنيا مبنية على الأمور الخمسة ـ بقصد حفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل ـ فإذا اعتبر قيام هذا الوجود الدنيوى مبنيا عليها حتى إذا انحرفت لم يبق للدنيا وجود أعنى ما هو خاص بالمكلفين والتكليف، وكذلك الأمور الأخروية لا قيام لها إلا بذلك.. فلو عدم المال لم يبق عيش، وأعنى بالمال ما يقع عليه الملك ويستبد به المالك عن غيره إذا أخذه من وجهه، ويستوى فى ذلك الطعام والشراب واللباس على اختلافها وما يؤدى إليها من جميع المتمولات، فلو ارتفع ذلك لم يكن بقاء وهذا كله معلوم لا يرتاب فيه من عرف ترتيب أحوال الدنيا وأنها زاد للآخرة».

ومتى كان ذلك، فإن صون المال عن التلف والملكية عن الاعتداء عليها أمر يتطلبه حفظ الحياة وضمان لبقاء الاجتماع الإنسانى واستمراره لمسيس الحاجة إلى المال والتملك، وتعظم أهمية المال إلى حد أنه لا تستقيم بدونه حياة الفرد والجماعة، ولا يتسنى للدولة ولا للأمة أن تنهض بأعبائها أو تقوم بمرافق عمرانها بدونه، لذلك كان تحصيل المال والسعى للحصول عليه سبيلا للتنافس والتسابق بل والصراع والغلب حتى يجعل الفرد والدولة تضحى من أجله بالدم طلبا لأسباب اكتسابه، وذودا ودفاعا عنه فإن المال عديل الروح.

وقد تقرر فى الشرع أن المال لا يجوز أخذه أو حرمان صاحبه منه دون إذنه وموافقته، بقوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾

(النساء: ٢٩)

ويقول الرسول ﷺ: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه»[4].

فثبت من هذا أن حرمة المال من حرمة النفس، وأن الحرص على المال عديل لحفظ الحياة أو تال لها، مما يحرم معه التعدى على المال أو المساس بحق الملكية فى أى شكل من الأشكال.

حرمة مال غير المسلم كحرمة مال المسلم

ولا فرق فى حتمية الحماية للمال بين إنسان وإنسان، لأن أهمية المال وحق الملكية سواء لكل فرد بغض النظر عن اختلاف الدين أو الجنس أو اللون أو الهيئة الاجتماعية، ومن ثم فإن الحفاظ على مال غير المسلم أو المرأة أو الفقير واجب لا يجوز الاعتداء على ذلك المال أو الانتقاص منه بأية حال.

أساس ذلك أن واجب الحاكم وكل مسلم ألا يؤذى غير المسلم ولا يظلمه ولا يعتدى على ماله ولا يكلفه فوق طاقته، وكما يقول أبو يوسف صاحب أبى حنيفة: ولا يؤخذ شىء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم فقد روى رسول الله ﷺ أنه قال: من ظلم معاهدا أو انتقصه حقه أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه، وكان فيما تكلم به عمر عند وفاته: أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم[5].

وفى الحديث المرفوع إلى النبى ﷺ: «ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه، فأنا حجيجه يوم القيامة»[6]

والمؤمن الحق فى نظر الإسلام من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم لقول الرسول ﷺ وتأسيسا على ذلك، فإن الفقه الصحيح فى الإسلام، يتأتى فى حفظ دماء غير المسلمين وأموالهم، ومعاقبة أو مجازاة كل من يعتدى على حرمة أنفس غير المسلمين وأموالهم.

كيفية تجديد المقاصد

مقاصد الشريعة الإسلامية دائمة بدوام الشريعة تعكس فلسفتها وتعبر عن رؤيتها فى الدين والمجتمع، وتكشف عن أهدافها وغاياتها وهى تقنين لأوضاع الدين والحياة، وما يجب على الفرد والدولة أن يحرص عليه ويلتزم به فى الأمور الدينية والدنيوية.

وعلى قدر تفعيل المقاصد والاجتهاد فى المفاهيم المتعلقة، والتعرف على مضامينها فى المنهج والتنظير وتقنين الواقع، والقدرة على التعامل معه، وتتجلى صلاحية الشريعة فى الزمان والمكان والحداثة والأشخاص.

ويلزم لذلك التقيد باشتراطات والوقوف عند ضوابط لصحة إنزال المقاصد على واقع الحياة ومستجدات القضايا، مما يتعين معه:

١ - الالتزام بالثوابت الإسلامية والدلالات القطعية للنصوص التى تعالج متطلبات الناس، وأحوال المجتمع ومصلحة الوطن، وقضايا الأمة.

٢ - استهداف المصالح العامة للدين والوطن والمجتمع والأمة والعمل على تحقيقها وتحرى الظروف والواقع الذى تعيشه الأمة ورسم الحلول للمشكلات التى تواجه الناس بما يكفل إعزاز

(٣) الموافقات فى أصول الأحكام، جـ ٢، مرجع سابق، ص ٨، ٩.

(٤) سنن البيهقى الكبرى: ٦/١٠٠ حديث رقم ١١٣٢٥.

(٥) كتاب الخراج، ص ١٣٥، المطبعة السلفية ومكتبتها.

(٦) سنن ابن ماجه ٥/٨٦ ـ كتاب الإيمان، باب ما جاء فى أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ـ حديث رقم ٢٩٣٤.

الدين ورفعة الوطن وإحراز التقدم للفرد والمجتمع بين الأمم جميعا.

اتجاه الأصوليين فى تجديد المقاصد

معالجة المقاصد بحسب استمدادها من أصول الشرع ونصوصه القطعية مما يختلف فيها أنظار الأصوليين أو المقاصديين حولها، فيما إذا كانت محددة بالكليات الخمس على سبيل الحصر والقطع فلا مجال للإضافة إليها أو إعادة قراءتها قراءة معمقة تعى أبعادها وتستبطن روح ومراد الشرع منها، اعتمادا على تأصيل أبائها الأولين وروادها المقاصديين كالشاطبى والغزالى وإمام الحرمين الجوينى والعز بن عبدالسلام ومن سار على دربهم، فليس فى الإمكان إلا الوقوف عند ما قرره هؤلاء الأعلام.

أم أن المقاصد بأصولها الخمسة، إنما جاءت كنموذج ومثال تقبل التوسع فيها، وعدم انحصارها فى هذه المقاصد، فإن فقه النصوص يتسع لتعديلها والإضافة إليها فإن النص حمال أوجه، وفيه الدلالة القطعية والدلالة الظنية التى تسمح بتعدد الأنظار واختلاف الرؤى، ورعاية ما يطرأ من مصالح ونوازل تحدث للجماعة والوطن والأمة.. وفى السياق ذاته فإن العقلية المسلمة مطالبة عند ذلك الفريق بالاجتهاد فى المقاصد والعمل على التجديد فيها، وبعث حركتها، وإحياء ما اندرس منها، أن تدور فى نطاق الهوية الإسلامية للمجتمع والدولة والأمة ولا يتأتى ذلك إلا بوجود دور إيجابى ملموس لفقه الأمة والأولويات يتمتع بالحيوية القادرة على استيعاب المقومات المادية والحقوق الإنسانية والقيم والمعانى الحضارية على مر العصور وقبول التعددية الدينية والقومية والفكرية.

ويتطلب ذلك العلم بالأصول التى يتأسس عليها التجديد فى المقاصد، وأنها تختلف فى العبادات عنها فى المعاملات، ذلك أن الأصل فى العبادات: التعبد والتزام النص، إذ العبادات أمور توقيفية يلتزم المسلم بالنسبة لها الوقوف عند ما جاء به الشارع ونص عليه، وليس له أن يبتدع أو يجتهد فيها، فإن الأصل فيها الاتباع لا الابتداع.

ورأس العبادة الإخلاص:

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾

(البينة: ٥)

والإخلاص أن يفعل المكلف الطاعة خالصا لله وحده لا يريد بها تعظيما من الناس ولا توقيرا ولا جلب نفع دينى ولا دفع ضرر دنيوى (٧) ففيها الانقياد والانصياع لحق الله تعالى بموجب أنها تخص العلاقة بين الرب والعبد، وعبادة الله تعالى لا تكون إلا وفق وحيه وشرعه، لأنه أمر لا يعرف إلا من جهته بما يتناسب مع مقام الربوبية وجلال الذات العلية، بينما الأصل فى المعاملات ملاحظة المعانى، والبحث عن أسرار الشرع فيها والعلل القائمة عليها، والحكم المقصودة منها، وهو مجال واسع وخصب للعقل المسلم أن يجتهد ويستنبط، للوقوف على العلة أو الحكمة، ليبنى عليها ما يفيد العباد فى أحوالهم

(٧) العز بن عبدالسلام، قواعد الأحكام فى مصالح الانام، ج١، ص ١٤٦.

ومعايشهم، بما يلبى ضرورياتهم ويسد حاجاتهم، ويدفع عنهم الضرر، استنادا لقاعدة: جلب المصالح ودفع المضار، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح وهو باب واسع من أبواب التجديد والاجتهاد، تعظم الحاجة إليه، لأن الفرد والمجتمع والأمة فى أمس الحاجة إليه فى كل عصر.

يقتضى التجديد كذلك الملاءمة بين الثوابت والمتغيرات، وتنزيل الأمور الحادثة على الأصول الكلية، والمصادر العامة، وتطبيق النصوص والمقاصد على الفروع والمسائل والوقائع إذ النصوص متناهية والوقائع والحوادث مما لا تتناهى، والمقاصد توابع للنصوص تدور فى فلكها وتعكس مغزاها ومعناها، بما يجاوز الألفاظ والمبانى إلى الغايات والمعانى.

ويبدو أن على فقيه المقاصد لبلوغ هدفه فى التعامل مع النوازل والمستجدات أن يحيط علما بأسباب نزول النص وظروفه من حيث الزمان والمكان والأشخاص والعلة التى انبنى عليها، والغاية التى يستهدفها والنطاق الذى يطبق فيه، فبذلك ينفتح له الطريق لتوسيع مجال تطبيق النص، وتجديد العمل به، وحكم المصالح الحادثة.

وإن واقع المجتمعات والأمة الإسلامية ينبىء عن غياب الفقه المقاصدى كوسيلة لتجديد الخطاب الإسلامى، وبعث رسالته فى الكون والوجود الذى أصبح فيه المسلمون قوة مغمورة، ليس لها دور مؤثر فى تشكيل النظام العالمى، ولا صنع مصيره أو المشاركة الإيجابية فى أحداثه، بل إنهم عالة على غيرهم فى الشئون العلمية والمجتمعية، وفى أمورهم الخاصة وقضاياهم المصيرية.

ويفرض هذا الوضع المتدنى لحال الأمة على العقلية المسلمة أن تنهض بالرؤى والتطبيقات الفقهية والتشريعية وتجدد فهم النصوص وتبدع آليات للعمل وتغير سلوكيات المسلم فى العصر الراهن، وتقف على المصلحة الإسلامية النابعة من بنية المقاصد والكليات العامة.

ومن المهم أن يستهدف تجديد المقاصد إلى رؤى تكتشف الواقع، وترقى إلى المعالجة السديدة لأوضاعه، وذلك برعاية أمور منها:

متطلبات المقاصد فى الاجتماع البشرى

١ ـ حتمية استيعاب المستجدات:

إن استقراء النصوص، والتعمق فى الأدلة، على ما اعتمد عليه آباء المقاصد، فى تعداد المقاصد وحصرها، هذا الفكر والنظر يتيح بذاته الفرصة لتوسعة المقاصد، وانفتاح النصوص على مستجدات العصر وواقع المسلمين الراهن بالكشف عن النصوص، يشهد على رعاية نوعية من المصالح فرضتها أحوال الأمة ومتطلبات العصر، يحرم على الأمة أن تهملها أو تتجاهلها.

وسواء اتبعنا نصاعة الفكر المقاصدى عند الغزالى والشاطبى الذى أقام عُمد النظرية المقاصدية فى عمومها وفى تحديدها فى حفظ النفس، والدين، والمال، والعرض، والعقل، أم أخذنا بالنظر القائل بالتوسع فيها لمواجهة القضايا والمستجدات التى فرضت نفسها على الساحة الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها، فإن التجديد فى المقاصد يظل مطلبا لا بديل عنه

لحكم الواقع واستشراف المستقبل، وتلمس الحلول من بنية المنظومة الإسلامية لا من خارجها.

وعلى هدى النظر القائل بالتجديد، أضيف مقصد الحرية الذى أدخله الطاهر بن عاشور وغيره من المعاصرين فى مقاصد الشريعة العامة، وهو مصطلح نحت حديثاً، نظراً لأن تشوف الشارع إلى مقصد الحرية الذى ذكره الفقهاء إنما ذكروه فى سياق الحرية بمعنى العتق وليس بالمعنى المعاصر الذى كتب عنه ابن عاشور، وضرب مثالاً له حرية الاعتقادات [8]، وهو مفهوم أدرج فى العصر الحاضر، ضمن أصول الحقوق الإنسانية، والنظام الدولى المعاصر.

ولم يقف الاهتمام بهذه الحرية عند الاكتفاء بإدراجها ضمن الوثيقة الدولية، وإنما ضمنه الإعلان العالمى لحقوق الإنسان.

ولو أن الأمر وقف عند ذلك لكان إنجازاً يحسب للمدنية الحديثة، لكن تخطاه إلى إيراد مفاهيم جديدة لمصطلح حرية الاعتقاد، تمس الأديان السماوية، مع ما قد يترتب على ازدرائها، وتجاوز خصوصية المجال الذى يدور فيه حرية العقيدة فى مفهوم الأديان السماوية، الإسلام والمسيحية واليهودية، وإنما انطلق إلى المدى الذى يخل بحرمة الأديان، ولم يعبأ بقدسية المعتقد الإسلامى وشدة خصوصيته بالنسبة للمسلم، على أساس أنه يمس فى المقام الأول جوهر الدين، وأخص خصوصيات الإنسان، فإن الإسلام فى شموله يرسخ فى معتقد المسلم الإيمان بالدين المسيحى واليهودى، ويطلب من المسلم الإيمان بالأنبياء إبراهيم وموسى وعيسى، والأنبياء جميعاً.

٢ ـ منع وإزالة المفاسد ودفع المضار:

هو مطلب ضرورى من مطالب الإسلام فى الدين والحياة، قرره فى أصوله العقدية والتشريعية والأخلاقية والحضارية، وبنى عليه نظامه وأرساه فى اجتماعه الإنسانى، لم يتخلف فى ناحية من هذه النواحى، وذلك لما فى الإخلال به من اضطراب وفوضى وصراع وتقاتل.

وسبب عناية الشارع بمنع المفسدة ودرء الضرر أنها معقل الذنوب والشهوات والمعاصى، والشرور، وأن فى تورط الفرد فيها إفساداً لكل نظام، وانتهاكاً لحمى الدين، واجتراء على حرماته، وتخريباً للاجتماع البشرى، وهو عكس مقصود الشارع، فإنه أراد تثبيت الإيمان، وانضباط نظام الاجتماع، واجتثاث الفساد.

من أجل ذلك طلب الشارع الاحتراز عن الضرر، ومنع المفسدة فى الشئون العامة والخاصة، وفى أمور العبادات والمعاملات، وجعل المتلبس بها مرتكباً لمحظور شرعى، فى صورة جريمة حد أو قصاص أو تعزير، وفرض لمرتكبها عقوبة تختلف بحسب جسامة الضرر الناشىء عنها، فهناك عقوبة حدية، وعقوبة للقصاص، وثالثة تعزيرية.

وقد تمثلت عناية الشارع فى دفع المفاسد والأضرار درجة قصوى، على المستوى العام،

(٨) جاسر عودة، مدخل مقاصدى للاجتهاد، بحث فى كتاب مقاصد الشريعة وقضايا العصر، ص ٤١، مرجع سابق.

فيما جعل الكف عنها، من خصال خيرية الأمة وعنوان تحضرها:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

(آل عمران: ١١٠)

وقد نعت القرآن مجتمع المؤمنين بهذه الأوصاف الجامعة للخير النائية عن الشر والإثم فى قوله تعالى:

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾

(التوبة: ٧١)

وكرر هذا الأصل فى غير موضع، مما يؤكد على أن الإسلام شيد مجتمعه على فعل الصلاح واجتناب الفساد.

وتمضى المسيرة الإسلامية، فى النهى عن المنكر والضرر بحسبانه رأس كل فساد أو شر دينى أو مجتمعى، يقول الرسول ﷺ: (لا ضرر ولا ضرار) [9]، والضرر هو المبادرة إلى ارتكاب ما فيه الضرر، والضرار مقابلة الضرر بالضرر.

ولكون الفساد والضرر قرين الظلم والتخريب والآثام والفواحش، فقد تنوع النهى عنه وأوجب الشرع على المسلم الكف عنه فى العديد من الآيات والأحاديث مما لا محل لذكره هنا.

درء الفساد وإزالة الضرر مطلب عام

نكتفى بإيراد بعض المجالات فى مجال الأحوال الشخصية، والحفاظ على العلاقات الأسرية فى قوله تعالى:

﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾

(الطلاق: ٦)

وفى قوله:

﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ﴾

(البقرة: ٢٣١)

وفى الميراث بقوله عز وجل:

﴿ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ﴾

(النساء: ١٢)

وبالنسبة لحرمة الفرد، والحفاظ على حقوقه: قول الرسول ﷺ: [كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه] [10].

وفى قوله ﷺ: [المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده] [11]. ويمتد ذلك إلى غير المسلم، فينبغى أن نكف عنه الأذى باليد أو اللسان.

ولأهمية الحفاظ على وحدة الأوطان والجماعة الإسلامية، وحمايتها من مأزق التمزق والشقاق، تبرز حقيقة هذه المفسدة وما يترتب عليها من الضعف والهوان والتمكين للعدو.

(٩) سنن ابن ماجه ٣/ ٤٣٠ ـ كتاب الأحكام ـ باب من بنى فى حقه ما يضر بجاره ـ حديث رقم ٢٣٤٠.

(١٠) صحيح مسلم ٨/ ١٠.

(١١) صحيح البخارى ٨/ ١٢٦ ـ باب الانتهاء عن المعاصى رقم ٦٤٨٤.

٣ـ التكاتف للحيلولة دون الاقتتال والصراع بين المسلمين:

من صور الخطأ والخطيئة التى تفشت وأصابت الجسد الإسلامى بالأوجاع والضعف، انقسام الصف، وتفتت المسلمين وتفرقهم فى أمور الدين، وعرض الدنيا فى الزمن الحاضر، إلى الحد الذى صار يزلزل الكيان الإسلامى، ويقوض بناء المجتمعات والأوطان المسلمة، وجعلها لقمة سائغة فى فم عدوها.

ففى أمور العقيدة والدين وهى الأسس والجوهر أطلت الفتنة المذهبية والطائفية على الأوطان المسلمة، وبرزت على ساحة العالم الإسلامى، وتفاقم أثرها وشاع ضررها فى التلاسن ورمى الفريق المخالف بالتكفير والضلال، والخروج على صحيح الدين والملة الإسلامية، مما يأباه الإسلام ويرفضه فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

(الأنعام: ١٥٩)

وهى صورة قاتمة تبعث على الأسى، فى قدس الأقداس، ووحدة الوطن، من مطالب الإسلام الذى جاء ليجمع الناس على كلمة الله النابعة من القرآن والسنة، وبدلاً من الاعتصام حول هذه الحنيفية السمحة والمحجة البيضاء، تفرق المسلمون إلى سنة وشيعة وسلفيين وصوفية وجماعات ما أنزل الله بها من سلطان كالإسماعيلية، والبهائية، والدروز، وغيرهم ممن يدعون بدعاوى طائفية وفرقة مذهبية.

وفى عرض الدنيا، والمغانم الزائلة، برزت النعرات الحزبية، والصراعات السياسية، وتفشى الصراع والتقاتل، مما ضرب الوحدة وكرس التشرذم حتى تعمق الجرح وأصبح المسلمون عوالم شتى، ودار القتال فى العديد من بلاد الإسلام هنا وهناك مما ينذر بالأخطار المحدقة، ويجلب الكوارث على أمة التوحيد والموحدين.

والغريب أن يحدث هذا والنصوص متضافرة حول نبذ الفرقة والصراع، والدعوة إلى عصمة النفس المسلمة وتوحد الكلمة، والصف والوعيد لمن ينتهك ذلك بالعذاب والمصير الأليم فى مثل قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(آل عمران: ١٠٥)

وفى قوله:

﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

(الأنفال: ٤٦)

وفى قول الرسول ﷺ: [إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار] (١٢).

وهذا يشعر بأن منع الاقتتال ونبذ التحزب والطائفية والصراعات المذهبية هى من المقاصد الكبرى لهذا الدين، كونها تتعلق بالحفاظ على سلامة الأبدان، وحفظ النفوس للفرد والجماعة، وهى مصدر عافية الإسلام والمسلمين، وأثرها فاعل ومؤثر فى الحفاظ على الدين والنفس، والأمن النفسى والمجتمعى.

بل يضحى دفع هذه المفسدة وكبح جماحها لاستعادة صحة وسلامة المجتمع والوطن، مسألة بالغة الأهمية، تتعاظم إلى درجة الفريضة، لكنها فريضة غائبة أو مغيبة فى عالم المسلمين المعاصر.

ومما يبرهن على فرضية منع هذه المفاسد، وتجنب ما يوصل إليها من الوسائل، ما يترتب عليها من الأذى والإضرار بالنفوس والأوطان فتكون ذريعة للفساد ووسيلة إليه، وسد الذرائع مما قالت به المذاهب الفقهية، كما ينقل القرافى(١٣): «ولذلك يقولون سد الذرائع ومعناه حسم مادة وسائل الفساد دفعاً لها. فمتى كان الفعل السالم عن المفسدة وسيلة للمفسدة منع مالك من ذلك الفعل فى كثير من الصور، وليس سد الذرائع من خواص مذهب مالك كما يتوهمه كثير من المالكية».

ومؤدى ذلك أن ما ابتليت به الأمة فى هذا العصر من دعاوى العصبية والنعرات الضيقة، والتقاتل وطلب الشهرة والتغلب واحتكار التحدث باسم الإسلام وإثارة الفتنة والخروج عن الصف وممالأة العدو هو مما يرفضه الشرع، لأنه وسيلة إلى الفساد، ومنشأ كل ضرر بالدين والوطن والأمة، ومن ثم يتعين سده، ومنع كل ما يوصل إليه، عملاً بقاعدة الوسيلة إلى الحرام محرمة.

ولا يكتفى الشرع بمنع ذلك، وإنما يطلب إلى المسلمين حماية وحدة الصف الإسلامى، واتخاذ موقف إيجابى لتحقيق الأمن الإسلامى الجماعى بنص قرآنى:

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

(الحجرات: ٩)

هذا النص يجعل من حماية الأمة والأوطان الإسلامية مقصداً شرعياً ما أشد حاجتنا إليه، بسبب ما أصاب الإسلام والمسلمين من بلاء وكوارث وفتن تفتت العالم الإسلامى وتضربه فى مقتل.

ويفرض ذلك على المنظمات الإسلامية وأصحاب القرار وكل المسلمين واجباً يقع على أكتافهم جميعاً، ويظل هذا الواجب قائماً على الدوام حتى تندفع الفتنة وينتهى التشرذم والاقتتال والصراع، والالتفات عن المصالح الضيقة، استناداً إلى قاعدة: [درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة].

«يتبع»

(١٢) السنن الكبرى للبيهقى ١٩٠/٨ حديث رقم ١٧٢٤٢.

(١٣) الفروق وبهامشه تهذيب الفروق والقواعد السنية، جـ ٢، ص ٣٢.

مفهوم الحوار عند جارودى



جارودى

للأستاذ الدكتور: محمد عمارة

عضو مجمع البحوث الإسلامية

فى كتاب المفكر الفرنسى المسلم روجيه جارودى عن «الأصوليات المعاصرة»، قضايا كثيرة يجب أن تكون مادة للحوار الموضوعى بين علماء الإسلام وبين جارودى.. فالرجل قيمة فكرية كبرى، ومنبر لقضايا المسلمين العادلة، يجيد التعامل مع العقل الغربى، وبذات منطق الغربيين.. ومن هذه القضايا التى يحسن محاورته فيها مفهومه للحوار..

لقد رفع الرجل ـ فى هذا الكتاب ـ شعارا لا يختلف حوله أحد من العقلاء، «الحوار.. بدلا من الدمار»، مؤكدا على أن الحوار هو البديل للتدمير المتبادل بين ألوان الأصوليات المعاصرة، الغربية منها والإسلامية.

وإذا كنا قد أفردنا دراسات متخصصة لمحاورته فى مفهومه لـ«الأصولية»، وتعميمه لمضمونها الغربى على الحركات الإسلامية، ودعوته إلى تطبيق «التاريخية.. والتاريخانية» على أحكام وتشريعات القرآن الكريم.. فإن مفهوم الرجل للحوار، هو الآخر فى حاجة إلى حوار!

ذلك لأن الرجل إنما يتحدث عن حوار مستحيل!!.. وإلا فمن ذا الذى يطمع فى أن يجعل أهل ديانة التوحيد يعيدون النظر فى التوحيد.. وكذلك الحال مع أهل عقيدة التثليث.. وأيضا اليهودية.. والبوذية.. إلى آخر العقائد التى كونت وتكون أمما تتعبد بهذه المعتقدات؟!..

إن تعليق الحوار على إعادة فرقائه النظر فى معتقداتهم هو وضع للشروط المستحيلة التحقيق أمام هذا الحوار!.. وهذا الشرط الغريب، الذى وضعه جارودى، وثيق الصلة بتصوراته للمقاصد المرجوة من وراء هذا الحوار.. فصورة العالم الذى «يحلم» به جارودى، هو عالم الدين الواحد والأمة الواحدة والعقيدة الواحدة.. وهى صورة لحلم مستحيل التحقيق، لا بسبب إغراقه فى «الطوباوية» فحسب، وإنما لأنه التصور النقيض لسنن الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى الاجتماع الدينى والفكرى والبشرى.. فسنن الله، فى هذه الاجتماعيات هى «التعددية» و«التمايز» و«الاختصاص»، وليست

الواحدية والأحدية والاندماج والذوبان.. فالواحدية والأحدية للذات الإلهية وحدها، وما عدا الذات الإلهية، فى كل العوالم ـ جمادا، وحيوانا، وإنسانا، وفكرا ـ قائمة على التعددية، والازدواج، والتدافع، والارتفاق..

شروط الحوار عند جارودى

لكن جارودى لا يتصور، أو لا يريد حوارا بين فرقاء، وديانات، ومذاهب.. وإنما يريد حوارا بين الذين أعلنوا اتفاقهم فى عقائدهم، وأصبحوا أبناء دين واحد، حتى ليطلب من المتحاورين أن يفهم كل منهم الآخر، ليس باعتباره «آخر»، وإنما كجزء من «الذات»!!.. ولم يقل لنا: ما الداعى للحوار إذا لم يكن هناك «آخر» يدور معه الحوار؟!.. وهل يسمى الحديث إلى النفس، وإلى «جزء من الذات» حوارا، بالمستوى الذى يكون فيه هو البديل عن «الدمار»؟!..

يبدو أن «حلم» الرجل هو أن يصب العالم والبشرية ـ بدياناته ومذاهبها، وفلسفاتها ـ فى تصوره عن «الإبراهيمية»، التى أقام لها، فى «غرناطة»، ناديا!!.. فهو يريد حوارا تنتصر به على «الخصوصيات»، وليس لتعايش الخصوصيات.. حوارا يحل به «التوافق» محل اعتقاد «التفوق».. مع أن عقيدة «التفوق» إذا ضبطت حرارتها عند درجة «التدافع»، ولم تنطلق غرائزها إلى ساحات «الصراع»، هى حافز التقدم، ودافع الاستباق بين الأمم والشعوب والحضارات والديانات على طريق الخير والصلاح والإصلاح..

تلك هى «شروط» الحوار عند جارودى.. وهذه هى تصوراته لمقاصد وغايات وثمرات هذا الحوار.. وعن هذا التصور كتب يقول: «فى عصرنا.. لم يعد أمامنا خيار إلا بين: (تدمير متبادل مضمون) وبين الحوار... لكن، لن يكون هناك حوار حقيقى ما لم يقتنع كل منا بأن عليه أن يتعلم شيئا من الآخر، وبالتالى ما لم يكن مستعدا لإعادة النظر فى معتقداته الخاصة به.. فى هذا المستوى لا يكون الحوار ندوة لمتخصصين فى تاريخ الأديان المقارن، ولا حتى لقاء بين لاهوتيين من مذاهب مختلفة. إنه اجتماع أصحاب دين يتقبلون الخاطرة القائلة: إن عقيدة الآخرين يمكنها إغناء عقيدتهم الخاصة، وتجعلهم يكتشفون فى ذواتهم أبعادا تكون مغيبة أحيانا. وهذا يفترض السعى إلى فهم الآخر ليس كموضوع خارجى، بل داخل ذاته.. إن انتصار المستقبل على الماضى، انتصار الواحد والكل على الخصوصيات القديمة، انتصار الحوار على الأصولية، والتوافق على التفوق، سيكون انتصارا للروح..»[1].

فالمطلوب من هذا الحوار ـ كما تصوره جارودى ـ انتصار «الواحد والكل» على «الخصوصيات القديمة»، وبذلك تنهزم الأصوليات السرطانية...

(١) [الأصوليات المعاصرة] ص ١٣٥، ١٣٦، طبعة باريس ـ العربية سنة ١٩٩٢م ترجمة خليل أحمد خليل.

ونحن نُذكّر بأن جارودى، عندما أراد إجمال وتكثيف تعريفه لـ«الأصولية الجمودية المرذولة»، قال: «إنها، بكلمة: نقيض العلمانية»!.. فهل الحوار الذى يريده، لهزيمة الأصوليات، هو الحوار الذى ينتصر فيه «الواحد والكل العلمانى» على «الخصوصيات الأصولية»؟!..

التعددية والاختلاف والتنوع

إننا لا نريد الاسترسال فى الاستنتاجات، حتى لا نُحمّل فكر الرجل ما لا يكون من مقاصده، ونُفضّل، بدلاً من ذلك، تقديم ملاحظاتنا على هذا التصور الذى قدمه جارودى للحوار المنشود، وعلى المقاصد التى يتغياها من وراء هذا الحوار.. وهى ملاحظات تطمح للإجابة على سؤال من شقين:

■ هل تصور المستقبل «كُلاً واحداً متوافقاً» يحل محل «الخصوصيات»، هو تصور ـ من حيث المبدأ ـ صحيح وحق، إسلاميا؟

■ وهل السعى إلى تحقيق هذا التصور ـ على فرض إمكانه ـ مفيد حضاريًا؟!..

● إن القاعدة، والأصل، والسُّنّة، والقانون ـ فى التصور الإسلامى ـ هى «التعددية.. والاختلاف.. والتنوع» فى سائر ميادين الخلق الإلهى، فما عدا الذات الإلهية قائم على الأزدواج والتزاوج والتعدد والاختلاف.. تلك هى سُنّة الله فى الخلق، التى لا تبديل لها ولا تحويل..

تعددية فى الشعوب والقبائل، ليكون هناك تعارف وتدافع بين الأمم والشعوب:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

(الحجرات: ١٣)

وتعددية فى القوميات ـ التى تحدد اللغات دوائر انتمائها ـ وفى الأجناس، لتتمايز وتتدافع وتتعارف القوميات والأجناس، كفرقاء تميزهم الخصوصيات، وليس «ككل واحد»:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾

(الروم: ٢٢)

فالتعددية هنا، والخصوصيات التى تقوم عليها هذه التعددية، هى آية من آيات الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى تعدد وتمايز اللغات والألوان..

وتعددية فى الديانات:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾

(هود: ١١٨، ١١٩)

فالتعددية هى الأصل والقاعدة والسُّنّة والقانون.. حتى لقد قال المفسرون للقرآن، وهم يفسرون هذه الآية: إن المعنى: «وللاختلاف خلقهم»(٢).. أى أن علة الخلق والاجتماع هى الاختلاف، للابتلاء والاستباق على طريق الخير والخلق والصلاح والإصلاح..

وفى الشرائع الإلهية، وكذلك فى المناهج ـ أى الحضارات ـ تعددية كذلك:

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

(المائدة: ٤٨)

فالتعددية، المؤسسة على التمايز والخصوصية، هى القاعدة، وهى الحق والصواب، فى الرؤية الإسلامية.. وحتى التصور الإسلامى لظهور الإسلام على الدين كله:

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾

(الفتح: ٢٨)

فإنه ظهور «الحلول» التى يقدمها الإسلام، وتبنيها حتى من قبل الذين لا يعتنقون عقائده ولا يتدينون به، ذلك أن السُّنّة والقانون هى بقاء الناس مختلفين ومتعددين فى الديانات والشرائع:

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

(يوسف: ١٠٣)

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(غافر: ٥٩)

فالحلم بانفراد دين واحد بالبشرية، واجتماعها عليه، نقيض لسُنّة الله فى الاجتماع الدينى.. وكذلك الحال فى تعددية الإنسانية إلى: ذكر وأنثى.. وأمم وشعوب وقبائل.. وقوميات وأجناس وشرائع ومناهج وحضارات..

المصلحة فى التعددية

● وإذا كان الحق والصواب ـ إسلاميًا ـ هو فى التنوع، ومع التعددية، المؤسسة على الخصوصيات.. فإن المنفعة والمصلحة، أيضًا، هى فى التعددية، وليس فى «الواحدية.. والاندماج»..

وإذا كان «الصراع» بين الفرقاء المتعددين، هو السبيل إلى أن يُفنى طرفٌ الطرف الآخر، فيُفضى ذلك الصراع إلى «الواحدية» التى تنفى التعددية.. وهو الوضع المدمر والضار للاجتماع الإنسانى... فإن استبدال «الواحدية» بالتعددية، وإحلال «الوحدة» محل «الخصوصيات»، هو الطريق إلى ذبول حوافز التدافع والاستباق بين الأمم والشعوب والحضارات.. فسيادة الحضارة الواحدة، وعموم النسق الاعتقادى الواحد،

(٢) القرطبى [الجامع لأحكام القرآن] جـ٩ ص ١١٤، ١١٥. طبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة.

وهيمنة الفكر المتحد، كلها عوامل تزكى الكسل العقلى، وتنمى مساحات المحاكاة والتقليد، ومن ثم الجمود، فى ميادين الاجتماع الإنسانى..

التدافع الفكرى والحضارى

وإذا وقفت علاقات الفرقاء المتعددين عند درجة «التدافع الفكرى والحضارى»، الذى هو «حراك ـ وسط» بين «سكون الوحدة» و«سعير الصراع» كانت التعددية حافزاً للتدافع الذى يسوق فرقاءه إلى الاستباق على طرق الخير والصلاح والإصلاح دائماً وأبداً، وفى كل الميادين.. وتلك هى الرؤية الإسلامية لسنة التدافع بين الفرقاء المتعددين:

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾

(الحج: ٤٠)

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

(البقرة: ٢٥١)

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾

(فصلت: ٣٤)

تلك هى وسطية الإسلام فى «التعددية»، المؤسسة على «الخصوصيات».. وسط بين «موات الوحدة» وبين «دمار الصراع».. فالبديل «للدمار» ليس «الوحدة التى تتجاوز الخصوصيات»، كما أراد جارودى، وإنما التعددية، التى لا تتجاوز «التدافع» و«التعايش» إلى «الصراع.. والدمار»..

تكريس الهيمنة!!

وإذا كانت الغاية من حوارنا هذا مع فيلسوفنا جارودى، هى المراجعة للأفكار.. وإذا كنا لا يراودنا أدنى شك فى إخلاص الرجل لقضايا الأمة الإسلامية، التى يدافع عن العديد منها بنبل وبسالة، ومنها نقده لهيمنة الغرب والشمال على حضارات الجنوب ـ وفيها المسلمون وحضارتهم ـ.. فإننا نلح على أن الاعتقاد بالوحدة، فى المعتقد والحضارة، فى ظروف التوازنات الراهنة لموازين القوى ـ وهى شديدة الاختلال بين الحضارة الغربية والحضارات الأخرى ـ سيؤدى إلى المزيد من تكريس هيمنة «المركز الغربى» على «الأطراف».. وإلى مزيد من تقليد «الأطراف» «للمركز»، بدلاً من الاجتهاد والإبداع، اللذين لا سبيل لهما ولا طريق إليهما إذا تخلف الإيمان بتميز النموذج الحضارى، الذى يستدعى اجتهاداً متميزاً..

كما أن الاعتقاد «بالتفوق» لا يتنافى مع «التوافق»، و«التعايش» طالما لا ينكر طرف على الأطراف الآخرين تميزهم وخصوصياتهم بل واعتقادهم «بتفوق» نموذجهم هم أيضا على الآخرين.. فالخطر هو فى عقائد التفوق فى الخصوصيات اللصيقة التى لا يمكن أن يكتسبها

الآخرون، مثل التفوق العرقى والجنسى وفى اللون مثلاً، أما الاعتقاد فى تفوق المعتقد أو الثقافة أو القيم، فهو اعتقاد يعرض أصحابه ما لديهم من خير ليشاركهم فيه الآخرون، فإذا انتفى القهر والإكراه فى علاقات التبادل الفكرى والتفاعل الحضارى، أصبحت التعددية مصدراً للغنى والثراء، ووقف الاعتقاد بالتفوق عند حدود الحافز على التقدم، دون أن يتعدى حدود «الكبرياء المشروع» إلى نطاق «التكبر» على الآخرين، فضلاً عن القهر والإكراه والعدوان.

إن فارقاً كبيراً، نوعياً وكيفياً، بين أن نعتقد، نحن المسلمين أننا:

﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

(آل عمران: ١١٠)

طالما تأسس هذا الاعتقاد على تحقيقنا شروط هذه الخيرية:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

(ال عمران: ١١٠)

لأن باب الخيرية، عندئذ، سيظل مفتوحاً لكل إنسان تتوفر فيه شروطها، أو لديه الرغبة والعزم على امتلاك هذه الشروط.. لكن الخطأ والخطر والجمودية والانغلاق والعنصرية والتعصب المقيت، تأتى إذا كان الاعتقاد بالتفوق والخيرية مؤسساً على العرق أو اللون أو الجنس أو أى صفة من الصفات اللصيقة التى لا يمكن للآخرين امتلاكها ولا تحصيلها، كأن يكون المولودون من أمهات يهوديات، مثلاً، هم وحدهم شعب الله المختار وأبناء الله وأحباؤه، حتى ولو كانوا ثمرة للسفاح والخنا؟!، وحتى لو كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه:

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾

(المائدة: ١٨)

مع أنهم:

﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

(المائدة: ٧٩)

إن اعتقاد المسلمين خيرية أمتهم هو اعتقاد مشروط بتحقيقهم شروط الخيرية، وهى شروط لا يعتقدون احتكارهم لها، بل هم أول الداعين إلى إشاعتها وتعميمها بين الناس؛ بل هم مأمورون بتعميم العدل حتى على الأعداء ومن يكرهون:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

(المائدة: ٨)

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

(المائدة: ٢)

.. بينما كانت عقيدة «التفوق - العنصرى» دافعًا لليهود كى يحتكروا كل تطبيقات القيم والأخلاق داخل عنصرهم وحدهم، مُستحلين فعل المحرمات مع الغير:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

(آل عمران: ٧٥)

فالاعتقاد بالتفوق والخيرية والأفضلية، إذا تأسس على صفات خيّرة واعتقادات أكثر صدقًا وإنسانية، وغير محتكرة لجنس أو عرق أو لون، فإنه يكون حافزًا للتقدم والاستباق على طريق الخيرية والصلاح والإصلاح، وفى ذلك أسباب ودوافع وحوافز للحيوية والغنى والثراء لرصيد الإنسانية من أسباب الخير ومقومات الصلاح وعوامل الإصلاح.

أما الدعوة إلى التركيز على «الأشباه والنظائر» - فى مقومات العقائد والثقافات والحضارات - دون «الفروق» - بين هذه العقائد والثقافات والحضارات - سعيا إلى «الوحدة» التى تحل محل «التعددية»، المؤسَّسة على الخصوصيات، فإنه - فضلاً عن خطئه - مستحيل، لمعاندته سنن وقوانين الله فى الاجتماع.. وثمرته الممكنة التحقيق، وخاصة فى ظل اختلال موازين القوى بين حضارات عالمنا الراهن، هى ثمرة مُرّة، لأنها ستزيد من هيمنة الأقوياء على المستضعفين، وستتصاعد باجتياح الغرب لمقومات وخصوصيات أمم وشعوب حضارات الجنوب..

بين جارودى وابن عربى

ولقد شهد تاريخ أمتنا، إبان الاجتياح الصليبى [٤٨٩ - ٦٩٠هـ ١٠٩٦ - ١٢٩١م] لوطننا دعوة تشبهها هذه الدعوة التى يدعو إليها جارودى، وذلك عندما دعا فيلسوف الصوفية محيى الدين بن عربى [٥٦٠ - ٦٣٨هـ ١١٦٥ - ١٢٤٠م] إلى تمييع الحدود وإزالة الفروق وفتح القلوب لكل المعتقدات، بل وإلى الدين الواحد المؤسس على الاعتقاد الواحد - الجامع لمختلف المعتقدات - وصاغ - ابن عربى - تلك الدعوة شعراً قال فيه:

عقد الخلائق فى الإله عقائدا
وأنا اعتقدت جميع ما عقدوه!

وقال أيضًا:

قد كُنتُ قبل اليوم أنكر صاحبى
إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى
وقد صار قلبى قابلاً كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان!
وبيت لأوثان وكعبة طائف
وألواح توراة ومصحف قرآن!
أدين بدين الحب أنى توجهت
ركائبه، فالحب دينى وإيمانى!

ومع أننا لا نتهم ابن عربى بالتساهل مع الاجتياح الصليبى لوطن الأمة، لأنه قد طلب من السلاجقة الجهاد ضد الصليبيين ولا ندعو إلى الوقوف، مع كتابات ابن عربى، عند ظواهر دلالات الألفاظ، فمقاصد الرجل فى أغلب الأحيان تتجاوز المتعارف عليه من معانى المصطلحات والكلمات.. لكننا نقول: إن جماهير الأمة لو أخذت بالمفهوم المتعارف عليه من مذهب ابن عربى هذا لضعفت مناعتها وانفتحت فى حصون مقاومتها العقدية والفكرية والحضارية الثغرات والثغرات.. لذلك كان ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨م] — وليس ابن عربى - هو «رجل المرحلة»، الذى حمل سيفه مجاهداً بالسنان، وحمل قلمه ليرفع شعارات البحث عن «الفروق» بيننا وبين قوى وجحافل الاجتياح الصليبى والتترى، حتى لقد جعل من ذلك عنوانا لأحد كُتُبه فسَمّاه: «اقتضاء الصراط المستقيم: مخالفة أهل الجحيم»!!..

فالتعددية، المؤسسة على الخصوصيات، هى الأصل والقاعدة والقانون.. وفى حقب الاستضعاف، وفى مواجهة جحافل الاجتياح يجب الاهتمام «بالفروق» أكثر من «الأشباه والنظائر» فى العلاقة بين القاهرين والمقهورين المستضعفين..

أما فتح العقول والقلوب والحمى الفكرى لمذاهب الغزاة وخصوصيات الآخرين، بدعوى وحدة العقائد، وانتفاء تفوقنا العقدى، فإنه المقدمة للهزيمة النفسية، المكرسة للهزائم الأخرى.. فالاعتقاد فى التفوق العقدى - فضلاً عن أنه هو الحق الذى نؤمن به - هو أفعل حوافز الأمة إلى الجهاد والاستشهاد!..

وفى عصرنا الحديث، وأمام إعصار الاجتياح الغربى لعالم الإسلام - احتلالا للعقل، والأرض، ونهبا للثروة - نبه جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] إلى هذه الحقيقة من حقائق التدافع الحضارى، وأشار إلى دور عقيدة التفوق العقدى فى السعى إلى التقدم، وفى استخلاص الأرض والهوية إذا عدا عليهما العادون.. فكتب يقول: «لقد أكسب الدين عقول البشر ثلاث عقائد.. كل منها ركن لوجود الأمم وعماد لبناء هيئتها الاجتماعية وأساس محكم لمدنيتها، وفى كل منها سائق يحث الشعوب والقبائل على التقدم لغايات الكمال والرقى إلى ذُرى السعادة..



الأفغانى

■ العقيدة الأولى: التصديق بأن الإنسان مَلك أرضى وهو أشرف المخلوقات.

■ والثانية: يقين كل ذى دين بأن أمته أشرف الأمم، وكل مخالف له على ضلال وباطل.

■ والثالثة: جزمه بأن الإنسان إنما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوى...».

ثم يضيف الأفغانى، متحدثًا عن دور «يقين كل ذى دين بأن أمته أشرف الأمم، وكل مخالف له فعلى ضلال، من أجل

مكاثره الأمم فى مفاخرها، ومساماتها فى مجدها، ومسابقتها فى شرائف الأمور وفضائل الصفات، وأن يتفق جميعها على الرغبة فى فوت جميع الأمم والتقدم عليها فى المزايا الإنسانية، عقلية كانت أو نفسية، ومعاشية كانت أو معادية، وتأبى نفس كل واحد عن إعطاء الدنية، والرضا بالضيم لنفسه أو لأحد من بنى أمته، ولا يسره أن يرى شيئًا من العزة أو مقامًا من الشرف لقوم من الأقوام حتى يطلب لأمته أفضله وأعلاه، ذلك أنه بهذا الاعتقاد يرى أبناء قومه أليق وأجدر بكل ما يعد شرفًا إنسانيًا.

فإن جارت صروف الدهر على قوم فاضرعتهم ـ(أذلتهم)ـ أو ثملت مجدهم أو سلبتهم مزية من مزايا الفضل، لم تستقر له راحة، ولم تفتر له حمية، ولم يسكن له جيشان، فهو يمضى حياته فى علاج ما ألمَّ بقومه حتى يأسوه أو يموت فى أسوه!.

فهذه العقيدة أقوى دافع للأمم إلى التسابق لغايات المدنية، وأمضى الأسباب بها إلى طلب العلوم والتوسع فى الفنون والإبداع فى الصنائع، وإنها لأبلغ فى سوق الأمم إلى منازل العلاء ومقاوم الشرف من غالب قاسر ومستبد قاهر عادل...»[٣].

ولذلك رأى الأفغانى فى دعاة التقليد للتمدن الغربى، بدعوى وحدة الحضارة والمدنية، طلائع للاجتياح الغربى، يفتحون فى جدار مقاومتنا الوطنية والقومية والحضارية الثغرات للاجتياح الغربى والغزوة الغربية، ثم يُثَبِّتُون فى بلادنا أقدام هؤلاء الغزاة.

حقائق التدافع والمواجهات

فالتمدن، برأى الأفغانى، متعدد، وليس تمدنًا واحدًا.. و«التمدن الغربى، هو فى الحقيقة تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى.. والمقلدون له ينفون ثروتهم إلى غير بلادهم، ويميتون أرباب الصنائع من قومهم. وهذا جدْع لأنف الأمة، يشوه وجهها، ويحط بشأنها!.. فلقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها.. وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبل، ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم...»!![٤].

موسى وفرعون وأصحاب الأخدود!!

تلك هى حقائق التدافع والمواجهات فى تاريخنا الحضارى.. بل إنها هى حقائق التدافع والمواجهات عبر تاريخنا الحضارى وإلا، فلماذا كانت بسالة واستشهاد الذين أدركوا الحق فآمنوا بموسى، متحدين بذلك جبروت فرعون لعنه الله، بامتلاكهم «الحقيقة المطلقة» دون فرعون، فكان المشهد الذى تحدث عنه القرآن الكريم:

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾

(الأعراف: ١٢٣-١٢٦)

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾

(طه: ٧١-٧٣)

والاعتقاد بالتفوق، والإيمان «بالحقيقة المطلقة» دون الآخرين ـ مع نسبية ما ندركه منها ـ هو الذى دفع «أصحاب الأخدود» إلى ملحمة الاستشهاد فى سبيل الاعتقاد:

﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾

(البروج: ٤-٩)

وهو الذى صنع ملاحم الصمود ونماذج الاستشهاد التى تحدث عنها رسول الله ﷺ عندما قال: «والله لقد كان من قبلكم يؤخذ، فيُحفر له فى الأرض، فيُجاء بالمنشار على رأسه فيُجعل بنصفين، فما يصده ذلك عن دينه. ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب، لا يصرفه عن دينه شىء»[٥].

وهو ـ الاعتقاد بتفوق العقيدة والإيمان «بالحقيقة المطلقة» ـ هو الذى كتب تاريخ المسيحية والإسلام بدماء الشهداء!.. وبدون هذا الاعتقاد تُمسخ «اللاأدرية» تمايز العقائد، وتسلبها حوافز البطولة والصمود فى مواجهة التحديات!.. فالخطر ليس فى اعتقاد امتلاك «الحقيقة المطلقة» والإيمان بها والانحياز لها، وإنما الخطر هو فى الاعتقاد «بإطلاق» إدراكنا للمطلق، أو إنكارنا على الآخرين مثل هذا الاعتقاد.

❊❊❊

(٣) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ١٤١ - ١٤٣. دراسة وتحقيق د محمد عمارة، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

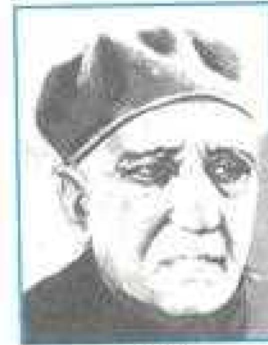
(٤) المصدر السابق ص١٩٥، ١٩٦.

(٥) رواه البخارى وأبوداود والإمام أحمد.

محمد فريد وجدى وعباس محمود العقاد

للأستاذ الدكتور/ السيد أحمد فرج
الأستاذ بكلية التربية - جامعة المنصورة


محمد فريد وجدى


العقاد

كان محمد فريد وجدى أهم الرجال من حملة القلم فى حياة عباس محمود العقاد، ولن نغالى إذا قلنا: إن الأستاذ محمد فريد وجدى كان أستاذ العقاد الأول والأخير. نعم كان أهم الرجال الذين التقاهم العقاد فى دروب العلم والفكر، مع أنه كان لكل منهما من الصفات الذاتية، ما يباين صفات الآخر.

فالأول نشأ فى أسرة تنعم باليسر وطيب العيش ورغده فى مدينة ظلها ظليل ونسيمها عليل فى أقصى شمال مصر هى مدينة الإسكندرية عروس البحر الأبيض المتوسط.

ونشأ الثانى فى أقصى جنوب مصر تحت وهج شمس أسوان المحرقة، وكان الأول هادئ الطباع والسمت، والثانى هادر فيهما، والأول كان يتأنى فى عطائه ومأخذه، والثانى يتعاطهما مغالبة، وفي خصاله عنف، والأول يحب العزلة مستهاما بها صبا، والثانى على النقيض يحب الجهارة فى القول والفعل مستهاما بها صبا. الأول نباتى المأكل تعاف نفسه أكل اللحوم، والثانى يحب أكل كل الطيبات التى تملأ نفسه وروحه لذة ونشوة، ولهذا التقيا التقاء قطبين سالب وموجب وأثمر التقاؤهما، مع ما كان من الاختلاف الذى لم يعدما بسببه الائتلاف والالتقاء على المثل العليا، والاتفاق فى عصامية كل منهما، وإن كانت عند الأول اختياراً، وعند الثانى اضطراراً، فبينما ترك الأول التعليم المنتظم بالمدارس التى ترعاها الدولة، واختار أن يتجول بين الكتب مختلفة الموضوعات والفنون فى قراءات حرة، أعانه عليها مكتبة والده، وما تذخر به من كتب نافعة، وإجادته اللغة الفرنسية التى أهلته لأن يطلع على ثقافة الغرب، ترك الثانى التعليم المنتظم مضطراً لضيق حال الأسرة، وأخذ ينهل من الكتب التى كانت فى أسوان - فى فترة فتوته وشبابه المبكر، التى جلبتها الجالية الإنجليزية فى مختلف المعارف والفنون، ولاسيما أنه كان قد تعلم اللغة الإنجليزية وأجادها، وصارت نافذته إلى الثقافة الغربية.

الفريد فى عزلته!!

وصف الأستاذ العقاد أستاذه محمد فريد بأنه كان «الفريد حتى فى عزلته»؛ لأنه كان فى عزلة النساك والرهبان، عليماً غاية العلم بالتحليل والتحريم. بدأ حياته الفكرية على مبدأ لم يخالفه قط فى أيام رخاء، ولا فى أيام عسرة، فقصر طعامه على النبات، وانفرد بهذا الطعام بين أهل بيته، واجتنب الولائم التى يدعى فيها إلى طعام غير طعامه، وأخذ نفسه بسمت الأولين من عباد الله الصالحين، فتورع عن كل بدعة من بدع الضلالة أو الجهالة ينكرها الدين.

وكان صاحب مبدأ، وصاحب رأى، ولكنه كان يأبى أن يحجر على رأى غيره وافقه أم خالفه، أى أنه كان دائما يؤذن بأهمية أن يستمع إلى محدثه وأن يستمع إليه محدثه، وإن اختلفا فى الرأى، وهذه الحالة من المثل الأخلاقية العليا وصفها العقاد فأجاد الوصف فقال: «وأشرف ما يكون صاحب المبدأ إذا كان استقلاله برأيه لايأبى عليه أن يعرف لغيره حقهم فى الاستقلال بما يرون» وكان العقاد يقصد بهذا الوصف نفسه عند أول التقاء بالأستاذ الفريد فقال: «وكنت يوم اشتغلت بتحرير (صحيفة الدستور) كاتباً ناشئاً خامل الذكر، ليس لى بحق الشهرة أن يكون لى رأى مستقل مسموع، وكنت أخالفه فى بعض آرائه، بل فى مبادئه السياسية (إذ كان الأستاذ من حزب مصطفى كامل، داعيا إلى سياسة الجامعة العثمانية الإسلامية، وكان العقاد محباً لسعد زغلول، ويرفع شعار قومية مصر، وأن مصر للمصريين) وكنت أخالفه فى بعض معتقداته فيما وراء المادة، ورأيه فى تحضير الأرواح (إذ كان العقاد متأثرا فى هذا الوقت بالثقافة الإنجليزية التى تغلب عليها النظرة المادية، كما كان متأثراً بالنظرة الألمانية الاستعلائية عند شوبنهور، ونتشه).

المتشابهات من العقائد والأحكام

ومع هذا الخلاف الظاهر بين الأستاذ العقاد، ولاسيما فى أمر المتشابهات من العقائد والأحكام فإنه لم يغير من نظرته إلى العقاد - ابن الثامنة عشرة يوم تعرف به - وفي ذلك قال العقاد: «صارحته غاية الصراحة فى أمر المتشابهات من العقائد والأحكام، فلا أذكر أننى لحت منه عند أشد المخالفة، نظرة غير نظرته حيث تقترب الأفكار والآراء.

كان الأستاذ عباس محمود العقاد فى هذه الفترة من حياته - قد التحق بالعمل فى صحيفة الدستور التى يمتلكها الأستاذ محمد فريد وجدى فى الثامنة عشرة من عمره فى سنة ١٩٠٧م وكان أول عمل من أعمال القلم والرأى يلتحق به العقاد، وكان فى حاجة إلى أن يثبت أقدامه فى عمل يحقق فيه ذاته فى هذه السن كما كان فى حاجة إلى المال، وغيره فى مثل حاله قد يضطر إلى المداهنة أو المداراة،

ولكن طبعه الغلاب في التحدى غلبه، فكان يخالف صاحب الصحيفة الرأى، وينشر في بعض الأحيان الرأى المخالف لرأى الصحيفة في الصحيفة نفسها، بل بلغ به الأمر أن نشر حديثا مع سعد زغلول وفيه ما يخالف سياسة صحيفة الدستور. ولكنه كان في ذلك ذو حظ حسن، فقد كان يعمل مع رجل صاحب أخلاق سامية ومثل عليا يؤمن باستقلال الرأى عنده، وعند غيره وإن خالفه مهما كانت شدة المخالفة، كما هو الحال مع العقاد، الذى ركب فيه رفض الرأى الآخر ولو كان صواباً، والذى عرف بأنه صليب الرأى لايلين لرأى غيره، ولا يقبله، منذ أن كان كاتباً ناشئاً وكان من دأبه أن يختار السير في الطريق الصعب الشاق لكي يظهر فيه رأيه، فكأنه كان يتحدى نفسه قبل أن يتحدى مخالفيه، لكي يظهر برأيه قدراته الفذة في الجدل والحوار، قال فيه الأديب النقادة الأستاذ حسن الزيات: «ربما كان الحق عنده، غير الحق الذى يعتقده الناس، والمنطق الذى يراه غير المنطق الذى يصححه القياس. ولكنه كان لايقول إلا ما يعتقده، ولا يعتقد إلا ما صح في رأيه، وكان صليب الرأى يعيك أن تحمله على مالا يريد»[1].

وهكذا وصف العقاد سماحة الأستاذ، ووصف الأستاذ أحمد حسن الزيات صلابة الرأى عند العقاد. رحم الله تعالى الرجال الثلاثة فقد كان فيهم خير.

المنهج الفكرى العقلانى


الزيات

كان الأستاذ العقاد رحمه الله تعالى صاحب استقلالية في الرأى، احترمها فيه الأستاذ محمد فريد وجدى وأيده فيها وباركها، وأعلى من شأنها من أول يوم عمل فيه بصحيفة الدستور، رغم أن العقاد كان يمضى في استقلاليته فيما لا تهوى نفس الأستاذ، وهنا يجب أن نتوقف عند نقطة هامة في حياة العقاد الشاب، وهى أن العقاد – وكان لايزال في أسوان لم يغادرها إلى القاهرة كان قد تعرف على الأستاذ في كتاباته قبل أن يلتقيه بنفسه، فقد كان الأستاذ قريبا من شباب جيل العقاد، وكان أشد قرباً من فتى نهم في القراءة في شتى فنون المعارف، وكان في الوقت نفسه يحلم بأن يكون كاتباً وهو لايزال بمدينة أسوان لم يغادرها إلى مدينة القاهرة، وفي ذلك الوقت من شبابه المبكر كان محبا لفريد الذى كانت كتاباته تنشر الثقافة الإسلامية التى تجنح إلى المنهج الفكرى العقلانى، الذى يهواه الفتى الأسوانى، وتتباعد عن طريقة كتاب العصر الذين غلبت عليهم في طرق الكتابة طريقة القدماء في معالجة الشئون الدينية، ومشاكل المسلمين المعاصرين. ولقد قرأ له العقاد قبل أن يلتقيه كتابات راقية يرد بها على كتاب الغرب، وأغلبهم من المستشرقين الذين يضمرون العداوة للإسلام وأهله، ويثيرون الشبهات المغرضة حول الإسلام في مجالى العقيدة والشريعة. كما كان يرد على أتباع المستشرقين من كتاب عرب ومصريين وصفوا أنفسهم بالحريين (الليبراليين) الذين تابعوهم في التشكيك في عقيدة الإسلام، فضلا عن التشكيك في فضائله ومناقبه، وكان في ردوده -رحمه الله- تعالى يبين فضل الإسلام على العالمين، وليس على المسلمين وحدهم، ولقد أعانه على ذلك اطلاعه على ثقافة العصر الحديث وفهمه لها، ولهذه الأسباب كان الأستاذ العقاد محبا مريداً له معجباً بكتاباته، قبل أن يلتقيه، لكن العقاد مع ذلك الحب والإعجاب كان يختلف معه في قضايا كثيرة منها قضايا السياسة الحزبية، واختلاف النظر في بعض القضايا الدينية. ولكن ذلك الخلاف كان يذوب وينمحى أمام حرية الفكر والرأى لدى الأستاذ وقوة حجته وتسامحه وسماعه لرأى العقاد الشاب، واحترامه له مهما كانت المخالفة.

الاختلاف بين الأستاذ والتلميذ!!

كان الأستاذ والتلميذ مختلفين في السياسة فبينما كان الأستاذ على إيمان يقينى بالجامعة الإسلامية في ظل الخلافة العثمانية، كان العقاد على مبدأ مصر للمصريين الذى كان يدعو إليه حزب الأمة بقيادة أحمد لطفى السيد باشا، ويباركه سعد زغلول باشا، وفي ذات الوقت فقد كانت سياسة الحزب الوطنى الذى يترأسه مصطفى كامل باشا، وينتمى إليه فريد وجدى، ويدعو إلى اتباع سياسته في صحيفة الدستور لسان الحزب الوطنى الثانى بعد صحيفة اللواء – لاتروق للعقاد الشاب المتحمس لسياسة سعد زغلول – وسياسة مصر للمصريين، وليس للعثمانيين.

ثمة اختلاف آخر، فقد كان فريد وجدى يغالى في محاربة الاختلاط بين الذكور والإناث، وفي الوقت ذاته كان العقاد لا يمانع في اختلاط الجنسين، وهنا يجب أن ننبه إلى حقيقة هى أن الأستاذ فريد وجدى – في كتاباته عن المرأة – كان رفيقاً بها، ويثق في قدراتها، وكان العقاد في الوقت ذاته متأثراً بنظرة بعض الفلاسفة الألمان – خاصة شوبنهور ونيتشه اللذين كانا يريان قصور المرأة عن الرجل في كل شئون الحياة[2]. وكان معاصرو العقاد من كبار الكتاب يعرفون عنه ذلك، وتشهد مقالات الدكتورة عائشة عبدالرحمن في ردها على كتاب: «المرأة في القرآن»، عقب صدور الطبعة الأولى، كما يشهد ما كتبه الدكتور زكي مبارك عن رأى العقاد في المرأة في عبارة قصيرة قال فيها: «إن العقاد كان يرى المرأة دائما دون الرجل في جميع الأحوال، وأن الرجل هو الذى يقودها على هواه، ويتخيلها كائناً حياً له مآرب وأغراض، وهى أمام العقل دمية مصنوعة لاتفصح ولا تبين»[3].

١. مجلة الرسالة افتتاحية العدد ١٠٥٢ في يوم ١٩/٣/١٩٦٤ وكانت في رثاء الأستاذ العقاد رحمه الله.

٢. راجع العقاد: رجال عرفتهم - فصل رجال حول مي - وكتاب: الفلسفة القرآنية ص٥ - ٥٢، وكتاب الهلال، مارس ١٩٧٠م، وكتاب المرأة في القرآن ص١١ وما بعدها، مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٨٠، وانظر صورتها في عقله في رواية «سارة».

٣. كريمة زكي مبارك: زكي مبارك ناقداً ص ١٠٢، مطبوعات دار الشعب، ١٩٧٨م.

وكلام الدكتور زكى مبارك لم يخرج عن قول العقاد نفسه فى المرأة فى كتاب «المرأة فى القرآن ص١٤» إذ قال: «إن الرجل هو الذى يملك زمام الحياة للجنسين بحكم الطبيعة والتكوين».

ومع هذه المخالفات - وهى من المخالفات غير الهينة التى من شأنها أن تفسد روابط المودة والمحبة، إلا عند المتسامحين من أمثال الأستاذ محمد فريد وجدى - الذى لم يلمس منه العقاد عند أشد المخالفات نظرة غير نظرته حيث تقترب الأفكار والآراء، كما أنه مع هذه المخالفات قد سمح الأستاذ صاحب صحيفة الدستور، بأن يكتب العقاد فى صحيفته كل ما يريده، ولو خالف سياستها الحزبية، وهو الأمر الذى لا يتسامح فيه خاصة عند الحزبيين، ويتجلى تسامح الأستاذ عندما لم يعترض على أن يكتب العقاد - الشاب الذى كان يخطو خطواته الأولى فى درب الصحافة الحزبية - حديثاً لسعد زغلول باشا الذى كان العقاد يحبه ويحب سياسته التى تضاد سياسة صحيفة الدستور.

كان العقاد - قد حدد لكتاباته بصحيفة الدستور حداً، وجعله شرطاً للعمل بها وهو: أنه لا يكتب حرفاً عن الحزب الوطنى ورئيسه مصطفى كامل، وألزم العقاد نفسه بذلك، لدرجة أنه أحجم عن رثاء مصطفى كامل يوم وفاته، وكاشف الأستاذ بذلك فقال له -رحمه الله: إنه يفهم هذا الحرج، وإنه يقول عنه بما لا يرضاه، وكتب رثاء صحيفة الدستور لمصطفى كامل بنفسه(٤).


سعد زغلول

أما عاقبة تسامح الأستاذ مع العقاد، فقد عبر عنه العقاد بعد موت الأستاذ الفريد فى سنة ١٩٥٤م - وهذا لقبه الذى لقبه به العقاد - بقوله بعد عشرين سنة من وفاته: «هو فريد عصره غير مدافع، وتلك كلمة طالت ألفتها حتى رثت وبليت، وأصبحت حروفاً بغير معنى ولطالما قيلت من عشرات من حملة الأقلام فى عصر واحد من جماعة تعد بالعشرات، فلا معنى لها فى باب العدد، ولا فى باب الصفات، ولاسيما صفات الرجحان والامتياز، إلا أننا نقولها اليوم عن محمد فريد وجدى لنعيد إليها معناها الذى يصدق على الصفة حرفاً حرفاً، ولاينحرف عنها كثيراً ولا قليلا، فقد عرفنا فى عصره طائفة من حملة الأقلام، ورجال الحياة العامة فلم نعرف أحداً منهم يماثله فى طابعه الذى تفرد به فى حياته الخاصة أو العامة، وفى خلقه وفى تفكيره، وفى معيشته اليومية أو معيشته الروحية، وأوجز ما يقال عنه فى هذه الحالات جميعاً أنه لم يخلق فى عصره من يتقارب المثل الأعلى والواقع المشهود فى سيرته، كما يتقاربان فى سيرة هذا الرجل الفريد. رحم الله الرجل الفريد».

ورحم الله تعالى العقاد.

---

٤. راجع العقاد: حياة قلم صـ ٦٥ , ٩٥ كتاب الهلال ديسمبر ١٩٦٤م، والعقاد أيضا كتاب: رجال عرفتهم، فصل محمد فريد وجدي، وفصل مصطفى كامل، كتاب الهلال سنة ١٩٦٣م.

قصيدة العدد

إلى أبناء الشرق



للشاعر الكبير/ على محمود طه

[هزت قضية فلسطين أقطار الشرق العربى وأثارت مواجد العالم الإسلامى. وهذه القصيدة دعوة الحق يهتف بها الشاعر وهو فى سرير مرضه، منبهاً الشرق إلى واجبه، حافزاً قواه إلى الكفاح والنضال فى سبيل قضيته وقضية الشعوب العربية فى فلسطين وشمال أفريقيا فى هذا الوقت الذى تقرر فيه مصائر الشعوب].

دَعُوهَا مُنى واتركُوهُ خيالاً ... فما يعرفُ الحقُّ إلا النضالا

بنى الشرقِ! ماذا وراءَ الوعودِ ... نُطلُّ يميناً ونرنو شمالا

وما حكمةُ الصمتِ فى عالمٍ ... تضجُّ المطامعُ فيه اقتتالا

زمانُكُمُو جارحٌ لا يعفُّ ... رأيتُ الضعيفَ به لا يُوالى

ويومُكُمُو نهزةُ العاملين ... ومضيعةُ الخاملين الكسالى

خطا العلمُ فيه خُطى صائدٍ ... تُوقَّى المقادرُ منهُ الحبالا

توغَّلَ فى ملكوتِ الشعاعِ ... وصادَ الكهاربَ فيه اغتيالا

وحزَّبها فهىَ فى بعضِها ... تُحطِّمُ بعضاً وتلقى نكالا

رمى «دولةَ الشمسِ» فى أوجِها ... فخرَّتْ سماءً ودُكَّتْ جبالا

مدائنُ كانتْ وراءَ الظنونِ ... ترى النجمَ أقربَ منها منالا

كَانَ «سليمان» أخلى القماقم ... أو فكَّ عن جنهن اعتقالا
وأومَا إليها فطاروا بها ... مدى اللمح ثم تلاشت خبالا
ففيم وفيكمو تنظرون ... غبار المجلّى يشق المجالا
وحتام نشكو سواد الحظوظ ... ومن أفقنا كل فجر تلالا!
ألسنا بنى الشرق من يعرب ... أصولاً سمت وجباها تعالى؟!
أجئنا نسائل عطف الحليف ... ونرقب منه الندى والنوالا؟!
نصرناه بالأمس فى محنة ... تمادى الجبابر فيها صيالا
سبحنا إليه على لجة ... من النار لم نذك منها ذبالا
فكيف تناسى حواريه ... غداة السلام وأغضى ومالا؟!
أرد الحقوق لأربابها؟! ... وأعفاهمو من طلاب سؤالا؟!
ورفت على الأرض حرية ... تألق نورا وتندى ظلالا؟!
نبى الحقيقة، كم قلت لى ... برنك قل لى وزدنى مقالا
رأيتك أندى وأحنى يدا ... على أمم جشمتك النزالا
فما لك تقسو على أمة ... سقتك الوداد مصفى زلالا
وعدت الشعوب بحق المصير ... فما لك تقضى وتملى ارتجالا
أتغصب من أهلها أرضهم ... وتسلم للغير نهبا حلالا؟!
أليست لهم أرضهم حرة ... يسودون فيها الدهور الطوالا؟!
«فلسطين» ما لى أرى جرحها ... يسيل ويأبى الغداة اندمالا
تنازعها خيرة الزاهدين ... وتنهشها شهوات تقالى
أعزت أساتك أدواؤها؟! ... هو الحق! ما كان داء عضالا!
هو الحق إن رمتمو عالما ... يشف صفاء ويزكو جمالا
أقيموا عليه مودتكم ... وإلا فقد رمتموه محالا
فيا للبرية ماذا جنت ... فتحمل ما لا يطاق احتمالا

هى الشرق، بل هى من قلبه ... وشائج ماض تأبى انفصالا
وتاريخ دنيا وأمجادها ... بنى ركنها «خالد» ثم عالى
وعى الحق «للمصطفى» دعوة ... لنصرتها والعوادى توالى
تبارى لها المسلمون احتشادا ... وهب النصارى إليها احتفالا
من الشام والأرز والرافدين ... وأقصى الجزيرة صحبا وآلا
و«إفريقيا» ما لإسلامها ... يسام عبودية واحتلالا؟!
على «تونس» و«بمراكش» ... تروح السيوف وتغدو اختيالا
ألم تخب فى الأرض نار الحروب ... ويلق الطغاة عليها وبالا؟!
ألم يتغير بها الحاكمون؟! ... ألم تتبدل من الحال حالا
هم الغرب الصيد لا تحسبن ... بهم ضعفة أو ضنى أو كلالا
نماهم على البأس آباؤهم ... قساورة وسيوفا صقالا
بناة الحضارة فى المشرقين ... ذرى يخشع الغرب منها جلالا
ألا أيها الشامخ المطمئن ... رويدا فإن الليالى حبالى
وما لك تنسى على الأمس يوما ... به كاد ملكك يلقى زوالا
فتقذف بالنار «سورية» ... وترمى «بلبنان» حربا سجالا
شباب «أمية» طوبى لكم ... أقمتم لكل فداء مثالا
دعتكم «دمشق» فما استنفرت ... سوى عاصف يتخطى الجبالا
وفى ذمة المجد من شيبكم ... دم فوق أروقة الحق سالا!
بنى الشرق كونوا لأوطانكم ... قوى تتحدى الهوى والضلالا
أقيموا صدوركمو للخطوب ... فما شط طالب حق وغالى
فزعت لكم من وراء السقام ... وقد جلل الشيب رأسى اشتعالا
وما إن بكيت الهوى والشباب ... ولكن ذكرت العلا والرجالا!!

متى يكون للنشر ضوابط علمية وأخلاقية؟

للأستاذ الدكتور/ أحمد محمد حنطور
كلية اللغة العربية - المنصورة

يستطيع المثقف العربي أن يقتنع نفسه بحميمية العلاقة بين النظرة الاقتصادية والرؤية السياسية وامتزاج كل منهما بالآخر وتحقيق لعبة المصالح ثمرتها في دنيا المال والاقتصاد، ولكنه يجد من الصعوبة بمكان أن يرى وجها للارتباط المثرى بين الاقتصاد والأدب، وكيف يقتنع نفسه به وقد وقر في نفسه ما تردد في كتب التراث من مقولة «أدركته حرفة الأدب» ودلالتها على أن الأدب قد يجلب لصاحبه من المتاعب والشقاء أضعاف ما يأتي به من الراحة والثراء.

ويبدو أن تلك المقولة لم يعد لها نبض إلا في واقع أصحاب المثل العليا والمبادئ السامية في دنيا الكتابة، لكنها نُقضت - فيما نرى - من جهتين.

أولاهما: بعض ذوى الأقلام التي دأب أصحابها على الترخص بالنفس وامتهان كرامة الكلمة، والتكسب بالأدب وعرضه على موائد المروجين للاتجاهات المرذولة والدعوات الهدامة استجابة لضغوط ومغريات الحياة، وقد نسيت أن الأدب تعبير عن النفس الإنسانية في صفاء جوهرها وصراعها ضد عوامل الضياع.

والثانية: طائفة الناشرين الذين منى الأدب والفكر الإنساني على أيديهم بأدواء وآفات ترجع في جملتها إلى الرغبة في الكسب السريع، وتعود نتائجها بالسلبيات العديدة على الحياة الثقافية، والحيرة الملبسة للباحث عن الحقيقة فيما يجرى ومايقال، ومن ثم تعددت آفات النشر لدى المتأمل في هذا الميدان.

آفات النشر

١- فمن آفات النشر القيام بطبع أبواب من كتب التراث ووضع الناشرين لها عناوين من عند أنفسهم؛ بما يوهم أنه مؤلف مستقل وضعه صاحبه في هذا الإطار وليس اجتزاء لبعض كتاب وتمزيقاً لأوصال مؤلف وادعاء بما ليس له ظل في الحقيقة. وبهذا رأينا الكتاب يطبع على أنه كتب متعددة وضعت في أحجام أكثر صيرورة وإن أدى ذلك إلى الالتباس لدى القراء والباحثين في تراث أهل العلم والمترجمين لأصحاب تلك الكتب التي تفرقت أيادى سبا بفعل الناشرين. ومن ذلك - على سبيل التمثيل - «جماع أبواب ذكر أزواجه ﷺ»، وهو جزء من كتاب «سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد» لمحمد بن يوسف الصالحي، فقد نشرته دار ابن كثير بدمشق وبيروت تحت عنوان: «كتاب أزواج النبي ﷺ اللاتي دخل بهن أو عقد عليهن أو خطبهن». تصنيف الإمام محمد بن يوسف الصالحي. تحقيق محمد نظام الدين الفتيح. وكان على الناشر والمحقق - إن رأيا في نشر هذا الجزء ضرورة - أن ينشراه على أنه تحقيق لجزء من كتاب الصالحي الأم لا أن يدعيا أن له مصنفاً بهذا العنوان.

التغيير

٢- ومن آفاته التغيير في عنوان الكتاب، بما يوهم القارئ أنه أمام كتاب جديد للمؤلف يحتاج إلى قراءته ويقبل على شرائه إكمالا لمعارفه عنه، فإذا هو أمام كتاب جديد قديم من جهة، ومخالفة صريحة لحق مؤلفه في بقاء العنوان الذى أطلقه على وليده من ناحية أخرى. ومن أمثلة ذلك كتاب: البرهان في توجيه متشابه القرآن لتاج القراء محمود بن حمزة الكرماني، فقد نشره عبدالقادر أحمد عطا تحت عنوان: «أسرار التكرار في القرآن»، وعلل لذلك بأن العنوان الذى أطلقه عليه هو المناسب لموضوعه عما أطلقه عليه مؤلفه!! وكأنه أدرى بالكتاب وظروف إطلاق التسمية عليه منه، ومثل ذلك فعله مع كتاب «تناسق الدرر في تناسب السور» للإمام السيوطى الذى نشره المحقق بعنوان: «أسرار ترتيب القرآن». وهلم جرا من هذا الصنيع الذى جعل التراث كلأ مباحاً أمام المحققين والناشرين.

حذف بعض المباحث

٣- ومن آفات النشر حذف بعض المباحث من الكتب لأسباب أخلاقية واقتصادية، ونحن بذلك لا ندعو إلى نشر ما يشيع الفاحشة، بل ندعو إلى الحفاظ على حق المؤلف في أن ينقل عنه ما سطره ويحاسب عليه ما دمنا قد احتفظنا له بالعنوان، فإذا ما وجد في ذلك خروج نريد أن ننحى القراء عنه ففي التهذيب والتجريد ما ينهض بتلك المهمة أو بعضها دون أن نقوم بتشويه الكتاب وحذف بعض أجزائه - ونلبس على الدارس ببقاء عنوانه - تحت أية دعوى أو تعليل. ومن أمثلة ذلك في الجانب الأخلاقي كتاب «المختار من شعر بشار» للخالدين بشرح إسماعيل بن أحمد التجيبي، فقد قامت لجنة التأليف والترجمة والنشر بحذف الصفحات: ٢٠١ - ٢٥٤ (نشر مطبعة الاعتماد بالقاهرة) وذكرت الترقيم متتابعا دون إشارة إلى الحذف لما فيها من بذاءة وفحش، وكأنها لم تنتبه إلى ذلك فأسقطت أرقام الصفحات (٢٦٤-٣١٩) مع اتصال المادة الأدبية في الكتاب، وكان جدير بها أن تقوم بتهذيب المختار والنص على ذلك، لا أن تقدمه على أنه نشر للتراث وقد أضرت بهوية الكتاب

والصورة التى أراد أن يقدمها عن عهد بشار، ومن عجب أن مكتبة الثقافة الدينية نشرته عام ٢٠٠٥م مصورا عن طبعة اللجنة كاملا دون حذف همزة أو إشارة أو تصويب للأخطاء متابعة فى ذلك نشرة دار المدينة للطباعة والنشر ببيروت.

وفى الجانب الاقتصادى ما يفعله القائمون على نشر الكتب المختارة فى السلاسل الأدبية، حيث يقومون بحذف بعض الأجزاء بدعوى المواءمة بين حجم السلسلة وتكاليف النشر، دون أن يتنبهوا إلى أن ذلك تشويه للكتاب وإضرار بما يحتاجه القارئ منه على حد سواء، وذلك مثل كتاب «فن كتابة المسرحية» تأليف لاجوس آجرى وترجمة الأستاذ دريني خشبة، فقد نشر كاملا فى مكتبة الأنجلو المصرية، ثم نشر ثانيا فى مكتبة الأسرة بعد حذف الملاحق والتذييلات التى تتجاوز الخمسين صفحة مع مالها من أهمية فى إعطاء فكرة متكاملة عما يحمله الكتاب من رؤى وما يدعو إليه من مقومات وأفكار.

المراجعة العلمية

٤- ومن آفاته عدم المراجعة العلمية للمادة المنشورة أو إسناد القيام بها إلى ذوى النظر المتعجل فى الأشياء اعتمادا على ما لأسمائهم من صوت وصدى فى عالم القراءة والكتابة. ومن ذلك ما وقفت عليه فى «ديوان» الأعمال المتكاملة للشاعر إبراهيم عيسى، فقد نشر فيه ص ٨٤٦ قصيدة «الحرية التى مطلعها»:

يا قوم لاتتكلموا
إن الكلام محرم

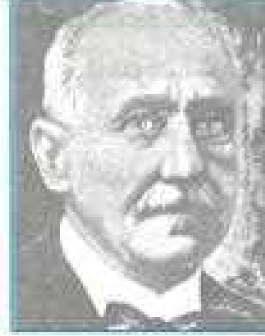

إبراهيم ناجى

على أنها من شعر إبراهيم عيسى، ونسبتها من الشهرة بمكان فى أدبنا العربى الحديث إلى صاحبها الحقيقى وهو الشاعر معروف الرصافى، وقد نظمها عام ١٩٢٢ فى الثورة على الاحتلال قبل أن يولد إبراهيم عيسى، ونشرت فى ديوان معروف الرصافى فى شرح وتحقيق مصطفى السقا عام ١٩٤٩ ص ٤٥٠، وجاءت فى كتاب أدب الرصافى لمصطفى على الذى نشر عام ١٩٤٧ ص٧٧ وفيما تلاه من الكتب عن الرصافى والشعر العراقى الحديث. ولست أدرى كيف فات ذلك على الشاعر الأستاذ أحمد سويلم الذى عهدت إليه الهيئة المصرية العامة للكتاب بالإشراف على طبع هذه الأعمال وهو الشاعر الناقد الذى لاتغيب عنه صحة نسبة القصيدة إلى الرصافى وما تحمله من روح الرصافى الثائرة الهادرة لا روح إبراهيم عيسى الرومانسية المتدفقة. ولايغيب عنا فى ذلك قصة نشر بعض قصائد الشاعر كمال نشأت ضمن ديوان إبراهيم ناجى الصادر عن وزارة الثقافة عام ١٩٦١ م والمعركة التى دارت حولها والتى ذكر الشاعر كمال نشأت طرفا منها فى الجزء الثانى من الأعمال الشعرية الكاملة التى نشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب.

التغيير بالحذف والإضافة

٥- ومن آفات النشر التغيير بالحذف والإضافة فى الأعمال الأدبية تبعا لرؤية الناشر أو المحقق دون مراعاة لحق المؤلف والقارئ فيما حذف أو أضيف إلى طبعات الكتاب، ومن أمثلته ديوان أحمد شوقى. فقد نشر عام ١٩١١م تحت عنوان «الشوقيات» بمقدمة لأحمد شوقى كاشفة عن حياته ورؤيته للشعر واتجاهه فيه. ثم نشر بأجزائه الأربعة تحت هذا العنوان من عام ١٩٢٦-١٩٤٣م بمقدمة ضافية عن شوقى وشعره للدكتور محمد حسين هيكل وإسقاط مقدمة شوقى لديوانه، ثم نشره الدكتور أحمد الحوفى عام ١٩٧٩م فى مجلدين تحت عنوان «ديوان شوقى» (دار نهضة مصر للطبع والنشر) بتبويب جديد لشعر الديوان وتغيير بعض عناوين قصائده، وإضافة قصائد أخرى إليه لم تنشر فى الشوقيات مع حذف مقدمة شوقى ومقدمة الدكتور هيكل من الديوان، ثم قام الدكتور على عبدالمنعم عبدالحميد بنشره فى دار لونجمان للنشر وأعاد إليه مسماه الأول الشوقيات ومقدمتا شوقى وهيكل، وأضاف إليه قصائد أخرى من شعر شوقى بما يجعله قريبا من صورته التى نشر فيها بأجزائه الأربعة بيد أنه أتى به فى مجلد واحد وجمع قصائده فى القصر فى مكان واحد من الديوان.

٦- ومن آفاته إعادة نشر الكتاب مصورا عن طبعات سابقة دون إشارة إلى الطبعة الأصل، بما يوهم أن الكتاب من نشر الدار أول مرة لظهوره فى الوجود ويضر بالتوثيق العلمى وتخريج


احمد شوقى


هيكل

النصوص، وذلك نجده كثيرا فى الموقف الذى تقفه بعض دور النشر اللبنانية من دور النشر المصرية التى وجدنا كتبها تنداح فى أعمال دور النشر البيروتية دون نص على أنها مصورة عن الطبعة المصرية، مما يجعل الباحث المبتدئ فى حيرة من أمره أمام تلك الطبعات دون أن يعرف الطبعة الحقيقية للكتاب.

ومن ذلك - على سبيل التمثيل لا الحصر- كتاب «الأمالى لأبى على القالى»، فقد كتب على طبعته البيروتية: مراجعة لجنة إحياء التراث العربى بدار الآفاق الجديدة، دون أن نقف على نتيجة تلك المراجعة وما أضافته على طبعة دار الكتب المصرية، بل ودون مقدمة للدار تكشف عن مظان تلك المراجعة المدعاة وقد اكتفى فى ذلك بمقدمة محقق الكتاب الحقيقى، وبتصوير الكتاب دون أدنى تصرف فى التحقيق.

٧- ومن آفة النشر إعادة المؤلف نشر بعض أعماله الكتابية بعناوين متعددة متغايرة والمادة واحدة، بما يبعث التساؤل فى هذا الصنيع: هل هو تحايل على القارئ لإيصال الفكرة إليه بأى سبيل، أو لبيع الكتاب بأية وسيلة، أو لتضخيم ببليوجرافيا أعماله دون

حق؟؟ قد يكون الدافع ذلك كله، ولكن ما ذنب القارئ، حين يأخذه ألق العنوان الجديد فيقبل على شراء الكتاب وعندما يأخذ في قراءة صفحاته يجد أنها ذات الصفحات التي قرأها تحت العنوان السابق، وقد يكون قرأها مرة ثالثة في مجلة أو جريدة لذات المؤلف فيرى أن كاتبه الأثير لم يعد له من هم في الكتابة إلا أن يبدئ ويعيد، وأنه يباري في صنيعه قيام بعض دور النشر بإعادة نشر كتب التراث بدعوى التحقيق لها والإفادة منها وإن تعارضت مع رسالتها الأخلاقية، دون إضافة علمية، من منطلق أن يكون لها قائمتها الممتدة من تلك الكتب التي تطبعها وتسوقها لحسابها، فما دام كل يعمل في هذا الحقل فإن الأرزاق مقدمة على الأخلاق.

الدراسات الأدبية

٨- ومن آفاته إعادة نشر الدراسات الأدبية مع تغيير نسبتها إلى أصحابها أو إهمال تلك النسبة، بما يوقع في اللبس عند نسبة النقول من تلك الدراسات ويسهم في ذيوع السرقات الأدبية. ومن ذلك كتاب الأدب العربي وتاريخه للأستاذ محمد هاشم عطية (مطبعة الحلبي ط٣-١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م)، فقد ذكر الدكتور محمد رجب البيومي في كتابه «دراسات أدبية» (مطبعة السعادة جـ١ ص٢٨٨) قصة قيام إحدى دور النشر اللبنانية بنشره منسوبا إلى المستشرق الإنجليزي ج.هيوارث دون، وقدم الأدلة العديدة على سرقة الكتاب وصحة نسبته إلى الأستاذ محمد هاشم عطية لا إلى المستشرق الإنجليزي، ومثل ذلك ما وقفنا عليه في دراسة الدكتور السيد محمد ديب عن: امرؤ القيس بين القدماء والمحدثين، فقد ذهب إلى أن كتاب: أمير الشعر في العصر القديم لمحمد صالح سمك الذي نشر أول مرة عام ١٩٣٢م، لكنه أعاد طبعه عام ١٩٧٤م وأضاف إليه فصولاً أخذها سطواً من كتاب: امرؤ القيس حياته وشعره للدكتور الطاهر أحمد مكي الذي صدر عام ١٩٦٨م دون إشارة إلى ذلك.

التنسيق العملي

٩- ومن آفة النشر غياب التنسيق العملي بين الأفراد والهيئات والدور في هذا المجال، سواء أتى هذا الغياب عن قصد أو قصور أو افتقاد لسبل التواصل بين القائمين على أمر النشر، وبخاصة في جانب نشر التراث وتحقيقه، وبهذا وجدنا كثيراً من كتب التراث يعاد نشرها وتحقيقها أو ادعاء تحقيقها في أكثر من دار: لأنها تجد قبولاً لدى القراء ولا بأس من ركوب الموج الذي يدر أخلاف الرزق ويفتح أبواب الكسب، أو لأن الناشر والمحقق لا يريدان أن يقفا على معرفة نشر الكتاب قبل ذلك من عدمه والبحث عن نشر كتاب جديد مفيد في بابه خدمة للتراث مع مايتطلعان إليه من كسب ونفع، أو لأن كلا منهما لايملك الوسائل التي تعينه على الإلمام بما نشر وحقق من التراث ومالم يتم له الحظوة بالظهور إلى عالم النور والوصول إلى أيدي القراء المفترى عليهم.

ومن يتابع أعداد مجلة العرب في عامها

الأخير (١٤٣٠هـ) - على سبيل المثال - يجد المحاورات التي تخطت حدودها إلى المصاولة والمهارشة حول ما نشر وما يعاد نشره دون إضافة في المادة العلمية والتوثيق المنهجي، بما يعد إضاعة للمال والجهد فيما لايفيد القارئ والتراث، وإن توهم كلا من الناشر والمحقق أنه بالنسبة لهما جد مفيد وعين جديد.

١٠- ومن آفاته الإقبال على نشر أعمال المؤلفين الذين ذاعت شهرتهم لدى القراء بعوامل حقيقية أو غير حقيقية، والدأب على نشر كل ما ينسب إليهم حتى وإن كان مما كتب في مرحلة البدء أو أتى على سبيل الاجترار أو يحتاج إلى مراجعة، والإعراض عن نشر أعمال ذوي الأقلام الجادة الذين لم يبلغوا في الشهرة شأو السابقين بدعوى عدم المجازفة بنشر كتابات لا يتيقنون من نفادها سريعاً من سوق القراءة الراكدة بما يعود عليهم بالخسارة، وبهذا يجد أصحاب هذه الأقلام أنفسهم بين مطرقة النشر على حسابهم مع قلة ذات اليد، وسندان الناشر الذي يجحف في شروطه «تحسباً للظروف»، ويجد القارئ نفسه أمام أقلام فرضت عليه دون أن يعثر على طلبته في الجديد المفيد، وكأن الأمة قد عقمت وعجزت أن تكون مثل الليالي «حبالى. مثقلات يلدن كل عجيب»، وتجد المعرفة ذاتها تدور في حلقات ثابتة مكررة، وقد حجب عنها ما يرفدها بماء التطور ودماء التجديد.

ورحم الله عصر المدارس الأدبية والفكرية التي كانت تحرص على تنمية غرسها وتقديمه للشادين، وويل للمعرفة من عصر الصراعات الأدبية والهيمنة الفكرية الذي يسعى إلى فرض سيطرة ذوي النفوذ على ساحة الكتابة، والتعتيم على من يخالفهم أو يزاحمهم بكل سبيل. ودعك من مقولة تشجيع المواهب والوقوف بجانب الأقلام الجديدة، فإنها تصدق - فيما نرى - على ذوي الاتجاهات والصلات دون أصحاب الموضوعية والاعتداد بالنفس الذين يعتصمون بقول القاضي الجرجاني:

أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة
إذا فاتباع الجهل قد كان أحزما؟!

تلك بعض الآفات التي وقفت عليها في رحلتي مع القراءة والبحث، وهي تجعل المرء يتساءل عن مصير الثوابت التي كانت تسير عليها الأمة في سبيل الحفاظ على مبادئها وتراثها وموقف ذوي الأقلام من هذا المصير!! وعن العوامل التي دفعت المؤلفين والناشرين إلى اتخاذ الكلمة وسبل نشرها مشروعا تجارياً يستوي في الكسب المادي مع غيره من المشروعات دون أن يدركوا قيمة هذه الكلمة في نشر الخير والجمال والحق والفضيلة!! وعن الأمل في عودة المبادئ النبيلة التي تحمل صاحبها على الأكل بالمعروف من وراء ما يكتب وما ينشر احتسابا لثواب أفضل وذخر أبقى عند الله والناس!! إننا نرجو أن تعود للنشر ضوابطه العلمية والأخلاقية قبل أن يختلط الحابل بالنابل وتضطرب الأنساب في دنيا الكتابة، ويجد القارئ نفسه مضطرا إلى الانصراف عن الكتاب إلى غيره من نوافذ المعرفة التي أخذت تزاحمه وتحاول أن تغري القارئ ببريقها وتشده بعيداً عن الكتاب، فهل من مجيب؟!

طرائف.. ومواقف

لفضيلة الشيخ/ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

حكمة عمر

● توفى رجل بجوار أبى ذر الغفارى، وكان مسرفاً على نفسه، فتحامى الناس جنازته، وبلغ ذلك عمر، فأمر أهله أن يُعلموه متى فرغوا من تجهيزه، ففعلوا، فشهد جنازته والناس معه، فلما دفن وقف على قبره وقال: رحمك الله أبا فلان، فلقد صحبت عمرك بالتوحيد، وعفرت لله وجهك بالسجود، فإن قالوا مذنب وذو خطايا، فمن منا غير مذنب وذى خطايا؟

● وأحسن ما قيل فى الرجاء هذا البيت:

وإنى لأرجو الله حتى كأننى
أرى بجميل الظن ما الله صانع

بلاغة الاستعطاف

لما ظفر المأمون بإبراهيم بن المهدى ومثل بين يديه، قال إبراهيم: كل ذنب دون عفوك، فإن صفحت فبكرمك، وإن أخذت فبحقك.

ثم قال: يا أمير المؤمنين: إنه وإن كان جرمى يبلغ سفك دمى، فحلم أمير المؤمنين وتفضله يبلغانى عفوه، ولى بعدهما شفعة الإقرار بالذنب، وحرمة الأب بعد الأب..

فقال المأمون: لو لم يكن فى حق نسبك ما يبلغ الصفح عن زلتك، لبلغك إليه حسن توصلك، ولطيف تنصلك.

إبراهيم هذا كان عماً للمأمون، خرج عليه وقاتله ليغتصب الخلافة منه.

من نصح الآباء للأبناء

● مما قاله لقمان الحكيم لابنه: يا بنى لا تضحك من غير عجب، ولا تمش فى غير أرب، ولا تسأل عما لا يعنيك.

يا بنى لا تضيع مالك وتصلح مال غيرك؛ فإن مالك ما قدمت، ومال غيرك ما تركت.

يا بنى إنه من يرحم يُرحم، ومن يصمت يسلم، ومن يقل الخير يغنم، ومن يقل الباطل يأثم، ومن لا يملك لسانه يندم.

يا بنى زاحم العلماء بركبتيك، وأنصت إليهم بأذنيك، فإن القلب يحيا بنور العلماء، كما تحيا الأرض الميتة بماء السماء.

● وقال أعرابى لابنه: يا بنى إنه قد أسمعك الداعى، وأعذر إليك الطالب، وانتهى الأمر فيك إلى حده، ولا أعرف أعظم رزية ممن ضيع اليقين وأخطأ الأمل.

● وقال على بن الحسين لابنه: يا بنى اصبر على النوائب، ولا تتعرض للحتوف ولا تجب أخاك من الأمر إلى ما مضرته عليك أكثر من منفعته لك.

من محاسن الحكم

● قال شاعر حكيم:

ما استقامت قناة رأيى إلا
بعد أن عوج المشيبُ قناتى

● وقال الأشعث بن قيس يوماً لقومه:

«إنما أنا رجل منكم، ليس لى فضل عليكم، لكننى أبسط لكم وجهى، وأبذل لكم مالى، وأقضى حقوقكم، وأحوط حريمكم، فمن فعل مثل فعلى، فهو مثلى، ومن زاد علىّ فهو خير منى».

أمثال سائرة

لابن عبدربه مؤلف: «العقد الفريد» شعر جيد منه ما جعل فى كل بيت منه مثلاً أو مثلين، مثل قوله:

قالوا شبابك قد ولى فقلت لهم
هل من جديد على كر الجديدين
صل من هويت وإن أبدى معاتبة
فأطيب العيش وصل بين إلفين
فاقطع حبائل خل لا تلائمه
فربما ضاقت الدنيا باثنين
فكرت فيك أبحر أنت أم قمر
فقد تحير فكرى بين هذين
إن قلت بحراً وجدت البحر منحسراً
وبحر جودك ممتد العبابين
أو قلت بدراً رأيت البدر منتقصاً
فقلت شتان ما بين اليزيدين

إيمان

● قال الحسن والحسين لعبدالله بن جعفر: إنك قد أسرفت فى بذل المال.

فأجابهما: بأبى وأمى أنتما إن الله قد عودنى أن يتفضل علىّ وعودته أن أتفضل على عباده، فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عنى.

● وقال المأمون لمحمد بن عبادة المهلبى: أنت متلاف. فأجابه: منع الجود سوء الظن بالمعبود. يقول الله عز وجل:

﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾

(سورة سبأ: ٣٩)

• وقال النبى ﷺ : «أنفق بلالاً، ولا تخش من ذى العرش إقلالاً»

استعطاف

كتب النابغة الذبيانى للنعمان بن المنذر ملك الحيرة بالعراق فى الجاهلية يتنصل إليه مما بلغه من أبيات:

فإن أك مظلوماً فعبد ظلمته
وإن تك ذا عتب فمثلك يعتب
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة
وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بُلغت عنى جناية
لمبلغك الواشى أغش وأكذب
ألم تر أن الله أعطاك صورة
ترى كل ملك دونها يتذبذب
فإنك شمس والملوك كواكب
إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

الصديق

• قال حكيم: الإخاء جوهرة رقيقة وهى ما لم ترقها وتحرسها معرضة للآفات، فرض الأبى بالحداء له حتى تصل إلى قربه، وبالكظم حتى يعتذر إليك من ظلمك، وبالرضا حتى لا تستكثر من نفسك بالفضل، ولا من أخيك بالتقصير.

• قال عبدالصمد بن المعدل:

من لم يردك ولم ترده
لم يستفدك ولم تفده
فرب صديقك ما نأى
وزد التقارب واستزده
وإذا وهت أركانه
ومن أخى ثقة فسده

• وقال أبو حازم:

إن ساءنى صاحبى احتملت وإن
سر فإنى أخوه شاكره
أصفح عن ذنبه وإن طلب العذ
ر فإنى عليه عاذره

دعاء

يارب تظاهرت علىّ منك النعم، وتداركت منى الذنوب، فلك الحمد على النعم التى تظاهرت واستغفرك الذنوب التى تداركت.

يارب أمسيت عن عذابى غنيا، وأصبحت إلى رحمتك فقيرا..

اللهم إنى أسألك نجاح الأمل عند انقطاع الأجل.

اللهم اجعل خير عملى ما ولى أجلى.

اللهم اجعلنى من الذين إذا أعطيتهم شكروا، وإذا ابتليتهم صبروا، وإذا ذكرتهم ذكروا.

***

نورجهان

للدكتور / أبى حسام

توافد الحجاج على بئر زمزم، يحاول كل حاج أن ينهل جرعة تروى ظمأه، وتشفى جسمه، ولكن رجلاً أسمر الوجه، واسع العينين، أسود اللحية، كان يحمل معه ثوباً من القماش الحريرى الأبيض، وهو لا ينى يأخذ من ماء زمزم، وينضح عليه، فعجب الناس من أمره، ومضت مدة طويلة، والرجل ينتهز فرصة انقضاء الزحام ليواصل رش الثوب الحريرى الأبيض بالماء، حتى غسله غسلاً، جعل الماء يتساقط منه فى كل ناحية، والثوب جديد قشيب لايستدعى التنظيف ولو كان فى حاجة إلى الماء لكان فى غير زمزم مايغنى، فهى للشرب لا للغسل فتقدم إليه حاج يستخبره عن صنيعه، فقال له: ما اسمك ومن أى البلاد؟

•• فأجاب الرجل: أنا منصور الهندى.

• إذن أنت من الهند.

•• نعم..

• فقال الحاج: وماذا تصنع بهذا الثوب؟

•• فتفرس فيه منصور متطلعاً، وقال له: إذا أردت أن تعرف ما أصنع، فدعنى أسألك: أتعرف الإمبراطورة نورجهان؟

• فقال الحاج: إمبراطورة الهند السابقة! أى الناس لايعرفها، وقد سار ذكرها فى كل مكان!

•• قال منصور: هذا الثوب الحريرى ثوبها، وقد اعتزمت أن تغسله من ماء زمزم ليكون كفنها يوم تموت! وأرسلتنى لأغسل الثوب أولاً، ثم أحج ثانياً، ولولا أنها تكفلت بنفقات الحج مااستطعت زيارة البيت الحرام!

• قال الحاج: وماذا يصنع ماء زمزم إذا غسل به الكفن، لن ينفع الميت غير عمله.

•• فجعل منصور يقول: هى تعرف ذلك، فقد جالست العلماء، وحفظت القرآن، وروت الحديث الشريف، ونظمت الشعر، وناقشت الفقهاء فى أدق مسائل التشريع،

ولكن عاطفتها أوحت لها بهذا الصنيع؟

● قال الحاج: تقول إنها نظمت الشعر؟ إن فكرتها هذه التى بعثت بك لتغسل الثوب بماء زمزم فكرة شاعرة ذات إحساس! وليست فكرة عالمة فقيهة تحفظ القرآن وتروى الحديث.

●● قال منصور: وقد فعلت فعلاً آخر مشابهاً.

● فقال الحاج: أخبرنى عن الطرفة الأخرى، إذ لابد أن تكون من هذا الطراز!

●● فرد منصور: بعثت هندياً آخر إلى العراق ليأتى بكمية من تراب كربلاء.

● فصاح الحاج: ويلى وويلها! وماذا ستصنع بالتراب؟

●● قال منصور: أوصت أن يفرش به لحدها، ليكون التراب شفيعاً، مع الكفن!

● فضرب الحاج كفاً بكف، وقال: فكرة شاعرة أيضاً، أكل حياتها شعر؟!

●● وهنا قال منصور: لقد ذكرت أن حديثها قد سار فى كل مكان، وإذن فالناس يعرفون أنها كانت إمبراطورة تملك الأمر والنهى، وتدير شئون البلاد، وتناقش الولاة والوزراء، وتضع قوانين الدولة، وفق الظروف والملابسات، ومثل هذه السيدة الحازمة المتيقظة لن تكون كل حياتها شعراً.

● قال الحاج: شوقتنى لحديثها، فهل أدعوك لتناول الغداء فى خيمتى لأسمع عن أخبارها مايمتع ويروق! هيا هيا.

وانطلق الرجلان إلى مكان الخيمة القريبة.

●● ولم يمهل منصور صاحبه، إذ بدأ يقول فى اهتمام: إن الإمبراطورة لم تخترنى دون تجربة، فقد خدمت فى قصرها عشر سنوات، وعرفت لدىَّ أمانة القول والفعل، وكان آخر حديث لها معى أن قالت: لن أئتمن سواك على غسل الثوب من ماء زمزم، فقد عرفت أمانتك، وأخشى أن أبعث غيرك فيغسل الثوب بماء آخر.

● فقال الحاج: وإذا كنت قد خدمت فى القصر عشر سنوات، فأنت تعرف من تاريخ نورجهان، ووقائعها المعلومة والمجهولة، ما لا يعرف الناس، وسنتناول الطعام الآن مع من يرافقنى فى الرحلة، إذ جئنا من سمرقند، لنسعد بزيارة بيت الله.

ثم مالبث أن دخل الخيمة حاجان يلبسان ملابس الإحرام، فصاح صاحب الخيمة: ها هما ذا رفيقاى، والتفت إلى منصور وقال: وهذا ضيفى من الهند فأعدا الطعام لنأكل ثم نسعد بحديثه وإنه لظريف!

●● وفى لحظات قدمت المائدة حافلة بالطعام، ورأى منصور من حفاوة القوم به ما آنس نفسه، وأمتع وجدانه، إذ حرص كل من الثلاثة أن يختار له أحسن ما أمامه، حتى تراكم الطعام دونه، فصاح بهم: رفقاً رفقاً، فأنا واحد وما أمامى من الطعام كاف لعشرة من المنهومين.

● فقال الحاج: كل يا أخى كى لاتتعب من حديث نورجهان! إذ تسرى العافية فى جسمك فينطلق اللسان!

●● قال منصور: نحن ضيوف الله فى هذا المكان، وقد أنست بكم أنساً كاد ينسينى أهلى، وليست المائدة هى التى سببت فرحتى بكم، ولكن سماحة الوجوه وبشاشة الثغور، وصدق المروءة، وكريم النخوة، مما جعلنى أتأكد أن الزمن لايزال عامراً بالكرام!

● قال الحاج: نريد أن تتحدث عن نورجهان لا أن تتحدث عنا!

●● فبادر منصور يقول: وهل أجيد غير الحديث عن مليكتى نورجهان! ثم التفت إلى الرفيقين القادمين سائلاً: هل تعلمان عنها مايعلم أخوكما؟

● فقال الحاج: دعك منهما وتحدث!

●● فقال منصور: لا أدرى بماذا أبدأ، فقد حفلت سيرتها بغرائب الأحداث، وأول ما أعرف من أمرها، أن والدها كان من وزراء فارس الكبار، ثم غضب عليه مولاه، فهاجر إلى الهند معدماً لا يحمل معه غير ملابسه، مع أسرة تتكون من زوجة وولدين، وفى الطريق ولدت له طفلة رائعة الطلعة، وبعض الناس يقولون: إنه تركها فى الطريق ليأخذها من يستطيع أن يقوم بتربيتها؛ لأنه معدم لايملك قوت يومه، ثم جاء من حملها، وتقدم سائراً إلى خيمة كبيرة يجلس بها بعض المسافرين، فصاح بهم: هل فيكم من ترضع هذه الطفلة بأجر معلوم؟ فهاجت عاطفة الأمومة فى نفس والدتها، فصاحت: هى ابنتى، فقال الرجل ـ وكان تاجراً كبيراً ـ: ولم تركتيها فى الصحراء هكذا؟ فبكت الأم، وتدخل الوالد فقال فى رنة أسف: إنه خرج من بلده مهاجراً لايملك درهماً واحداً، ومعه امرأته وابناه، فولدت هذه فى الطريق، فقلنا: لعل الله يبعث إليها من يستطيع الإنفاق عليها من القادرين!

فتعجب السمرقنديون الثلاثة، وكان أحدهم ذا مظهر يدل على ثقافة واطلاع واسمه يونس، أما الآخران فهما عثمان ومحمود.

● قال يونس: يخيل إلىَّ أن هذه الرواية مكذوبة حاكها خصوم الإمبراطورة تحقيراً لشأنها، إذ لايعقل أن رجلا كان يتولى الوزارة يخرج من فارس إلى الهند مع أسرته دون أن يكون معه درهم واحد، ثم لايعقل أن يقدم أبوان على ترك وليدتهما فى العراء انتظاراً لمن يتقدم لرعايتها! إن الحيوان المفترس يقاتل دون مايلد، فهل يحدث هذا الشذوذ الأحمق من ذى مستوى رفيع.

●● تطلع منصور إلى يونس، وقال: كلامك معقول ياسيدى، ولكنى سمعت ماورويت، كما سمعت من يقول: إن الوزير قدم إلى الهند بتوصية من أحد الكبراء فى فارس قدمها للإمبراطور «أكبر»، فعينه كاتباً فى قصره، واختبره عن كثب فرأى لديه من دلائل الحنكة وعلائم الإخلاص ما أعجبه، فارتفع به إلى درجة ضابط بالقصر الإمبراطورى فى دلهى، وعين زوجته مدرسة تختص بتعليم إحدى الأميرات فى القصر!

● قال يونس: تلك هى الرواية المعقولة، فماذا جد بعد ذلك للطفلة الصغيرة؟

●● قال منصور: لقد سماها أبوها «مهر النساء»، وباشر تثقيفها بنفسه، فحفظت

القرآن، ودرست العربية والفارسية والأوردية، ونبغت في الآداب الفارسية حيث درست دواوين المشهورين من شعراء فارس العظام، وأعجب ما في اتجاهها أنها حذقت أساليب الفروسية، فأتقنت ركوب الخيل، وطعن الرماح، وامتشاق السيوف، ورمي النبال، أما جمال صورتها فكان أول أسباب ارتقائها السريع حيث ملكت كل لب!، وكان منصب والدها يتيح لوالدتها أن تحضر حفلات القصر مع ابنتها ذات الصبا الفينان، والروعة الخالبة!

وكانت نفسها الشاعرة تدفع بها إلى الانفراد في حديقة القصر الإمبراطوري تاركة من يسمرن من السيدات في المقاصر والردهات، لتتأمل جمال الزهر، ونضرة الشجر، وترقرق الماء في الغدران، وتصغي إلى الطيور المغردة، وتستنشق الأريج العاطر، وبيدها كتابها، حتى إذا رأت مايدل على انتهاء الحفل سارعت إلى والدتها لتصحبها عائدة، كما رافقتها قادمة!

وفي أصيل يوم ما، نزل الأمير سليم أكبر أولاد الإمبراطور إلى الحديقة يرتادها منفردا، فرأى «مهر النساء» تقرأ في كتابها، وقد خلع الجمال عليها من الفتنة ما لا مثيل له فيمن شاهده، فتسمرت قدماه مأخوذا بما يرى، ثم تقدم يسألها عن اسمها؟ ومن جاء بها إلى حديقة القصر، وأطال السؤال، فوجد من دقة الإجابة، وحلاوة التعبير، وأدب الخطاب ماملك لبه، فرق صوته، وقال كأنه يتوسل: لي رجاء واحد لديك يا أميرتي!

فاستدركت تقول: لست أميرة يامولاي، ولكنني بعض رعيتك المخلصة.

قال الأمير: لي رجاء واحد هو أن تحضري كل احتفال يقام في القصر، ويكون مجلسك تحت هذه الشجرة!

وأدرك حرج موقفها، فتركها في شوق، وانطلق إلى والدته مهموما يكتم من أمره ما يخاف أن يظهر، فيلحق الفتاة وأباها ما يسوء؛ لأنه يعرف حزم والده الإمبراطور، ولن يسمح له بالزواج إلا من ابنة ملك في الخارج، أو كريمة أحد أعمامه من أمراء البيت الإمبراطوري، فأين من هاتين ابنة غريب وافد من فارس ليعمل ضابطا بالقصر!

ثم لم يستطع مغالبة وجده، فكان ينتظر حفلات القصر في لهف زائد، وقد أدرك من حرص الفتاة على لقائه، وعدم تخلفها عن موعده، أنها تضمر له من الحب ما يعلن لها، دون أن تفصح بلفظها عن مكنون قلبها؛ لأنها مع سنها الصغيرة عاقلة أريبة، تدرك أنها أمام ولي العهد، وتعرف وضعها من مثله! ولكن جمالها الصارخ كان يأخذ عليه سبيله، وليس جمال الصورة فحسب، ولكن جمال المحادثة، ورقة الحوار وشفافية النظرة، مع كمال السمت، ورزانة السلوك.

ولابد للعطر أن يفوح، فقد أدركت والدة الأمير اشتغال فكره، وأعدت من يراقب حركاته عن بعد، حتى جاءها النبأ، فعرفت خطورة مسلكه، وبادرت بإعلان الأمر لوالده الإمبراطور «أكبر» مؤكدة أن الفتاة المسكينة لا ذنب لها، فالأمير يلاحقها دون أن تستطيع الخلاص، وأمها وأبوها لا يدريان من أمر الأمير شيئا، ولو دريا ما استطاعا أن يتفوها أمامه بلفظ!

قالت الأم ذلك؛ لأنها تعرف بطش زوجها وعنفه، فقد يهم بعقاب الأسرة جميعها، أو بما هو أقسى من العقاب، وهو الاستئصال كما يفعل بأعدائه!

ولم يهدأ «أكبر» إذ كان في نيته أن يعقد للأمير على أميرة من بيته، وكان يعجب بضابط فارسي من ضباط القصر بشجاعته النادرة، فمنحه لقب «شير أفكن» أي «مصارع الأسد» وعينه واليا على محافظة «بردوان» على أن يتزوج «مهر النساء» لفوره ويرحل بها إلى ولايته البعيدة عن دلهي من الغد، وأسرع فنادى «غياث الدين» والد الفتاة لينفذ الأمر لساعته، فقد اختار لابنته أقرب ضباط القصر إلى نفسه وجعله حاكما على محافظة كبيرة! وهل لمثل «مهر النساء» أن تطمع في أكثر من حاكم إقليم!!

وتم الأمر الفوري، وتحطم قلبان!

● قال عثمان: الحق أني أقدر مسلك الإمبراطورة الأم؛ لأنها حين أرادت أن تحول بين الأمير ومن تعتقد أنها دونه في مرتبته، أكدت للزوج الباطش أن الفتاة لا ذنب لها، وأن ولدها هو الذي يتعقبها، ولو كانت الإمبراطورة ذات رعونة حمقاء! لبرأت ابنها، وألقت بالتبعة على الفتاة زاعمة أنها أغرته بما تملك من جمال! ولا عليها أن تمتحن الفتاة وأسرتها أشق امتحان على يد متسلط جبار!

فرد يونس يقول: هذا صحيح لا شك فيه، ولكن لا يغيب عنا أيضا شرف المسلك الذي انتهجه الإمبراطور، فقد كان في وسعه بعد أن عرف أن الفتاة لا ذنب لها أن يأمر بطردها مع أسرتها في أقل من طرفة عين دون أن يستشعر أدنى خطأ، وحسب الأسرة أن نجت من عقابه، ولكنه اختار للفتاة زوجا كفئا، هو أشجع فرسانه، وجعله حاكم ولاية كبيرة، ولم يكن والدا الفتاة يحلمان لها بمثل هذا الزوج، إلى أضيف الإعجاب بالإمبراطور إلى الإعجاب بالإمبراطورة فكلاهما في موقفه الحاسم عاقل رزين!

● قال محمود لمنصور: ثم ماذا! أتمم حديثك فنحن مشوقون!

●● قال منصور: تعاقبت الأحداث، ومات الإمبراطور «أكبر» وخلفه «سليم» متسميا باسم «جهانجير» فلم يفتر عنه شوقه إلى «مهر النساء»، وأخذ يعمل الحيلة في الاقتران بها بعد أن زالت عقبة أبيه، وأمثال هذه الحيل الخفية لا تعلم كما وقعت؛ لذلك يتكهن الناس حولها، فتختلف الروايات، وتتناقض المسائل ولا يستطيع أحد أن يجزم بشيء على وجه قاطع.

● فرد يونس: اذكر لنا بعض ما قيل، وربما يمكننا أن نرجح.

●● فقال منصور: قيل إن «جهانجير» حاول أن يسترضي الزوج «شير أفكن» فمناه بمنصب كبير إذا بادر بطلاقها، وأرسل إليه حاكم البنغال قطب الدين كي يلين قناته دون ثورة منه يتعالمها الناس، ولكن الزوج فوجئ بما لم يتوقع، وأراد قطب الدين ملاينته، فتطور الحديث إلى مناقشة غاضبة صارخة من الزوج، ثم رفع سيفه وهوى به على رأس قطب

الدين، وكان معه حراسه وحاشيته، فسارعوا بالانتقام العاجل، فهوت رقبة الزوج أيضا، وخلا المكان.

● قال يونس: هذه رواية، فما الرواية الأخرى؟

●● فقال منصور: لما مات «أكبر» لم يخلص العرش لسليم بسهولة، حيث عارضه إخوته، كل يطمع أن يكون إمبراطورا، ودارت معارك أهلية بين الإخوة المتصارعين، وقد انضم «شير أفكن» إلى غير سليم، وبعث بجنود ولايته لتقف مع خصومه، فلما انجلت المعارك عن انتصار سليم، نكّل بخصومه جميعا، ومنهم «شير أفكن» وبذلك خلا المكان.

● فهز يونس رأسه قائلا: أى هذه الرواية أقرب إلى الصواب؛ إذ لو صحت الرواية الأولى لغضبت «مهر النساء» كرامة لوالديها من «شير أفكن» وما قبلت أن يعرف الناس أن زوجها راح ضحيتها هى؛ لأن الإشاعات ستشركها فى المؤامرة، وتجعلها غادرة بمن صانها، وتمسك بها حبا وإخلاصا.

● وهنا سأل محمود: وهل زفت «مهر النساء» إلى الإمبراطور سريعا بعد انقضاء العدة!

●● فقال منصور: كلا، مكثت أربع سنوات دون اقتران، وجهانجير يراسلها متوسلا ضارعا دون يأس، حتى أجابت بعد إباء.

● فرد يونس: فى هذا ما يبرئ ذمتها من المشاركة فى دم قرينها، إذ لو كان الأمر عن اتفاق ما طالت مدة ترملها هكذا، ثم هى معذورة حين استجابت للإمبراطور بعد أربع سنوات، إذ لم تكن تستطيع أن تنجو من شره إذا عاندت، وفى مكنة الإمبراطور أن يعلن موافقتها دون أن ترضى، ويعقد القران، ويقيم حفلات الزواج، فتصبح أمام الأمر الواقع، ولا تجد بدا من الاستسلام، لا سيما إذا كان بينهما هوى لم ينقطع، همدت ناره فوق السطح عندها، ولم يزل الجمر تحت الرماد، أما هواه فلم يهمد فوق السطح وتحت الرماد.

●● وانتقل الحديث إلى منصور فقال: لقد بهرت «مهر النساء» الدولة بذكائها المفرط؛ لأنها حين أصبحت الإمبراطورة لم تركن إلى الانزواء فى حجرات القصر، كمن سلفها من الزوجات، ولكنها شاركت مشاركة حقيقية فى أعباء الحكم، فكانت المستشار الأول لولى الأمر، ودرست شئون الدولة جندا ومالا وإدارة، وعرفت كل ذوى المناصب العليا، وعقدت معهم الاجتماعات، وضربت النقود باسمها على إحدى الوجهتين، والوجهة الثانية باسم «جهانجير»، وما تم ذلك لإمبراطورة فى الهند، وقد أراد الإمبراطور أن يمنحها لقب «نورجهان» تقديرا لمنزلتها، ومعناها «نور العالم» بأجمعه، وكانت الزوجات السابقات للأباطرة يمنحن لقب «نور محل بيجوم» أى نور القصر، وأين القصر المحدود من الدنيا جميعها؟!

وقد وقع الإمبراطور فى محن سياسية دامية، فكانت «نورجهان» صاحبة الموقف الأول فى إنقاذه، تعرض مرة للأسر على يد

عدوه «محبط خان» إذ قبض عليه وهو فى حاشية صغيرة لم تستطع حمايته، وعلمت «نورجهان» فقادت الجيش لإنقاذ الإمبراطور، وأرادت عبور النهر، فوجدت «محبط خان» قد أزال الجسور ليقف النهر الواسع حائلا دون الصدام، حتى تنضم إليه جيوش المعارضين من أعداء «جهانجير» وفوجئت «نورجهان» بالواقع الصعب، فأصرت على أن يركب الجنود الفيلة لتعبر بهم إلى الجانب الثانى، وتقدمتهم جميعا، فركبت فيلها المدرب، وشقت عباب النهر وجعلت السهام تسلط عليها من جيش «محبط خان» حتى أصيب حشد كبير من جيشها، ونفرت الفيلة، وغرق من غرق، وأصيبت «نورجهان» بسهم فى ذراعها، فلم تكترث بالدم المنزوف، وصممت على الوصول، وتشجع من حولها بإقدامها، فزحفت الفيلة وراءها إلى الشاطئ، فلما بلغته كان الإنهاك قد بلغ منها أعظم مبلغ، كما كان الجند فى اضطراب وبلبلة، فلم يستطيعوا المقاومة، ورأت أن تستسلم لمحبط خان الذى كان قائد الجيش الإمبراطورى من قبل، فرأى أن يضمها إلى زوجها، ولكن تحت ملاحظته، فأظهرت الاقتناع، ثم دبرت أمرا خطيرا، حين أظهرت شقاقها لزوجها، وجعلت تنتقده علانية، حتى ظن «محبط خان» أنها ستفارقه مطلقة، فأخذ يتودد إليها فى لباقة، وهى تزداد فى نفورها الظاهرى من «جهانجير» فبسط لها من النفوذ، وجعل الضباط والقادة تحت إشارتها، تترأسهم كما كانت فى قصر دلهى، وبدهائها استطاعت أن تؤلبهم على القائد المغتصب، فثاروا به فجاءة لم يتوقعها، ونجا الإمبراطور الأسير، وعاد إلى مقر حكمه ظافرا منتصرا بمكيدة «نورجهان».

عادت «نورجهان» إلى دلهى أكثر ما تكون بأسا، وأعز سلطانا، ففضلت أن تصرف بعض وقتها فى المسائل الخيرية ذات المغزى الإنسانى، فأنشأت جماعة لرعاية الأيتام، وجماعة ثانية للإشراف على تجهيز الفتيات الفقيرات عند الزواج، وجماعة ثالثة لتعليم بنات جنسها مسائل الاقتصاد، والدربة على الحياكة والتطريز.. وما يخص المنزل من مهام.

وقد ذهبت مع زوجها وجنوده فى رحلة صيد بالغابة، راكبة فرسها النشيط، ففوجئ القوم بأربعة آساد يبرزن أمامهم فجأة، فذعروا ذعرا شديدا، ولم يتماسك بعض جنود الحرس فولوا الفرار، ولكن «نورجهان» أعدت سهامها لتصوبها فى براعة إلى عيون الآساد، وسددت السهام فى جأش رابط، حتى أصابت مرماها، وصرعت الآساد الأربعة أسدا بعد أسد، فاجتمع حولها الحرس مندهشين بروعة ما أبدت، إذ فاقت بجهدها الخارق أشجع الرجال.

وكان ما لابد أن يكون، فقد مات زوجها «جهانجير» وورث العرش نجله الأكبر من غير أولادها، فآثرت الاعتزال راضية، وتفرغت للأعمال الخيرية والقراءة الثقافية، ثم بنت لنفسها مقبرة تقرأ أمامها القرآن كل يوم، وأرسلتنى لأغسل الكفن المنتظر بماء زمزم، فيا لها من امرأة!

ودوى صوت المؤذن، فهرع الحجاج إلى بيت الله ملبين مهللين.

حقوق كفلها الإسلام للمرأة

القوانين المعمول بها فى نظام الدولة الحديثة، من حيث مصدرها نوعان هما:

الأول: القوانين الوضعية، التى قام بتشريعها البشر بعضهم لبعض.

والثانى: القوانين الدينية، وهى التى مصدرها الأديان، سواء كانت سماوية أو وضعية، وأهم صورها فى مصر القوانين المستمدة من الشريعة الإسلامية.

ومن المعلوم أن القانون الواجب التطبيق على مسائل الأحوال الشخصية، هى الشريعة الإسلامية بصفة عامة بالنسبة للمسلمين من المصريين، وبالنسبة لغير المسلمين من المصريين إذا اختلفوا فى الديانة أو الملة أو الطائفة. أما إذا كانوا متحدين فى هذه الأمور، فتنطبق شريعتهم الملية الخاصة بهم.

للمستشار / حسن حسن منصور

نائب رئيس محكمة النقض

وتطبيق الشريعة الإسلامية على هذه المسائل، لا يخرج عن إحدى صورتين هما:

الأولى: أحكام الشريعة المقننة فى نصوص تشريعية، كالقوانين المستمدة من أحكام الشريعة فى بعض مسائل الأحوال الشخصية، كالزواج والطلاق والنفقة والحضانة وغيرها، كالمرسوم بالقانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٠ ببعض أحكام النفقة، والمرسوم بالقانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ ببعض مسائل الزواج والطلاق والحضانة والمهر وغير ذلك..

والثانية: أحكام الشريعة الإسلامية الفقهية غير المقننة، والتى يرجع إليها إذا خلت القوانين سالفة الذكر من نص يطبق على المسألة المعروضة على القاضى، ونظراً لاتساع المذاهب الفقهية فى الشريعة الغراء، وكان فى الرجوع إليها جميعاً إرهاقاً للقاضى والمتقاضى، فاختار المشرع من بينهما الرأى الراجح فى المذهب الحنفى، ليطبق فى هذه الحالة، وذلك عملاً بالفقرة الأولى من المادة الثالثة، من مواد إصدار القانون رقم (١) لسنة ٢٠٠٠ بإجراءات التقاضى فى مسائل الأحوال الشخصية.

وجميع هذه القوانين، أياً كان مصدرها، فى خطابها الخاضعين لها، لم تتضمن أى نوع من التفرقة بين الرجل والمرأة، بل إن القوانين ذات المصدر الدينى، ولاسيما الشريعة الغراء، أوردت من الأحكام ما يؤكد النظرة المنصفة للمرأة، والتى تعانى من عكسها فى بعض النظم القانونية الأخرى، وهناك كثير من الأدلة، التى تبرز المكانة المرموقة للمرأة، وأنه فى مركز دائرة اهتمام القانون، ومن نماذج هذه الأدلة الآتى:-

تمتع المرأة بالحقوق العامة

إذا كانت بعض الدول فى عالمنا المعاصر، تتفاخر أن دستورها أعطى المرأة بعض الحقوق السياسية، بدعوى مساواتها بالرجل، كحق الإدلاء بالأصوات فى الانتخابات العامة، وحق الترشيح للمجالس النيابية، أو المحلية، أو النقابات العامة، أو الجمعيات الأهلية والخيرية، وحق التعبير عن الرأى والرأى الآخر وغير ذلك، فإن الإسلام كان أكثر سبقاً من أى دستور فى الدنيا كلها، عندما منح هذه الحقوق لكل من الرجل والمرأة معاً، على حد سواء، دونما تفرقة بينهما فى ذلك، ومنها على سبيل المثال الآتى:-

أ- حق الترشيح والانتخاب:-

هناك خطأ شائع يتردد حتى على ألسنة أهل التخصص من رجال القانون، مؤداه أن المرأة فى مصر تحصل لأول مرة على حق الترشيح والانتخاب بصدور القانون رقم ٧٣ لسنة ١٩٥٦ بتنظيم مباشرة الحقوق السياسية، ولكن القول الصواب هو أن هذه المرأة فى ظل الإسلام تتمتع بهذا الحق وغيره من الحقوق السياسية، ولكن لم يسمح لها باستعماله إلا بعد صدور هذا القانون، لأن الفرق شاسع بين تقرير الحق كمبدأ، ومباشرته فى التطبيق العملى.

ومن مقتضى حق الترشيح، أن يتقدم الشخص الذى يأنس فى نفسه القدرة على تمثيل غيره، فى الجهة العامة التى تنوب عن مجموع أفراد المجتمع، كالبرلمان أو المجلس المحلى أو النقابة أو غير ذلك، ويبين مظاهر هذه القدرة، حتى يحظى بموافقة هؤلاء الأفراد على نيل شرف تمثيلهم فى هذه الجهة.. ومن مقتضى حق الانتخاب أن يقوم كل فرد، له أهلية التصويت كما يحددها القانون، بالإدلاء بصوته لاختيار هذا المرشح.

وهذان الحقان قررهما الإسلام لكل من الرجل والمرأة على حد سواء، ولم يقتصر تطبيقهما على الرجل وحده، بل باشرتهما المرأة واقعاً ملموساً على عهد رسول الله «ﷺ»، فقد روى البزار والطبرانى عن ابن عباس «رضى الله عنهما» قال: جاءت امرأة - ذكرت بعض الروايات أنها أسماء بنت يزيد رضى الله عنها - إلى النبى «ﷺ» فقالت: «يا رسول الله أنا وافدة (وفى رواية) رسول النساء إليك (أى أنها رشحت نفسها لهذه المهمة، والنساء اخترنها نائبة عنهن فى القيام بها)، وما منهن امرأة علمت أو لم تعلم إلا وهى تهوى مخرجى إليك، الله رب الرجال والنساء، وأنت رسول الله إلى الرجال والنساء، كتب الله الجهاد على الرجال، فإن أصابوا أثروا، وإن استشهدوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون، فما يعدل ذلك من أعمالهم من الطاعة (وفى رواية ونحن معشر النساء فما لنا من ذلك)،

فقال «ﷺ» أبلغي من لقيت من النساء: «أن طاعة الزوج واعترافا بحقه يعدل ذلك، وقليل منكن من يفعله».

ب ـ حق المرأة فى إبداء الرأى:-

حظيت المرأة من شريعة الإسلام بالقسط الوافر من حرية إبداء الرأى، سواء من طرف واحد، أو من أطراف متعددة، أو فى صورة حوار مع طرف آخر أو أطراف أخرى، ومن أوضح مثال على ذلك، الحوار القرآنى العظيم، الوارد فى قول الحق تعالى:

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾

«المجادلة: ١»

وأطراف هذا الحوار هم: الزوجة الشاكية وهى: خولة بنت ثعلبة، والرسول «ﷺ» يرد على شكواها، والله تعالى يسمع الحوار الدائر بينهما، وموضوع الحوار يمين الظهار الصادر من أوس بن الصامت زوج الشاكية، وما يترتب عليه من الفرقة الزوجية بينهما. وهذا الحوار يعد من أعظم أوجه تكريم الإسلام للمرأة.

ج ـ المرأة فى مقعد المعارضة:-

روى البخارى ومسلم والترمذى عن ابن عباس «رضى الله عنهما»، أن امرأة كانت تدعي بريرة وهى أمة اشترتها السيدة عائشة «رضى الله عنها» واعتقتها، وظل زوجها ويدعى مغيثاً عبداً رقيقاً، وكان يهيم بها حباً، لدرجة أن رسول الله «ﷺ» قال لعمه العباس «رضى الله عنه»: «يا عباس: ألا تعجب من حب مغيث بريرة، ومن بغض بريرة مغيثا؟»، وكان من حبه لها سيره فى طرقات المدينة يلهج لسانه بذكرها بعد افتراقهما، إذ لا يجوز للحرة أن تكون زوجة للعبد الرقيق إلا إذا اختارت هى البقاء معه، حتى بلغ أمره إلى رسول الله «ﷺ»، فأرسل إليها وقال لها: «إنه زوجك وأبو ولدك»، فقالت بذكاء المرأة العربية المسلمة التى حصلت على حريتها منذ قليل: يا رسول الله أتأمرنى بذلك؟ (فتجب عليها الطاعة)، قال: «لا، إنما أنا شافع»، فقالت: فلا حاجة لى فيه، فقال لها: «إن قربك فلا خيار لك»، وأمرها أن تعتد، وتُصدق عليها بلحم، فأهدته لعائشة -رضى الله عنها- فأكل منه «ﷺ» وقال: «هو عليها صدقة ولنا هدية».

وقد حرص الخلفاء الراشدون على تأكيد حق المرأة فى المعارضة، ولو كانت لولى الأمر الأعلى ذاته، فهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب «رضى الله عنه»، يقف خطيباً على المنبر، ويقترح تحديد المهور للقضاء على ظاهرة المغالاة فيها، فتقف امرأة من بين صفوف النساء، وتقول: كيف ذلك يا أمير المؤمنين؟، والله تعالى يقول:

﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴾

«النساء: ٢٠»

فقال عمر قولته المشهورة: «أصابت

امرأة، وأخطأ عمر».

حق المرأة فى إنهاء العلاقة الزوجية

وذلك عن طريق استعمال حقها فى الخلع، وهو وإن كان فى الأصل حق يقوم على التراضى بين الزوجين، حتى اعتبره بعض الفقهاء أنه عقد بين طرفين، هما الزوجان، إلا أن للمرأة مطلق الحرية فى استعمال هذا الحق، وقد وضع القانون القواعد الإجرائية المنظمة لاستعماله، استمدادا من المبادئ العامة للشريعة الغراء.. والأصل فيها هو حوار امرأة ثابت بن قيس مع رسول الله «ﷺ» الذى رواه البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما من أن هذه المرأة أتت النبى ﷺ فقالت: يا رسول الله، زوجى ثابت لا أعتب عليه فى خلق ولا دين، ولكن لا أطيقه، فقال الرسول «ﷺ»: «أتردين عليه حديقته؟» قالت: نعم، فقال النبى لثابت: «خذ الحديقة، وطلقها تطليقة»، فكان الخلع فى الإسلام.

الحق فى شهادة النساء وحدهن

وليس صحيحا أن الإسلام، انتقص من حق المرأة فى الشهادة على الحقوق، فلا خلاف بين فقهاء الشريعة الغراء فى قبول شهادة النساء منفردات، فيما لا يطلع عليه الرجال عادة من شئون النساء، مثل الولادة والاستهلال، وعيوب ما تحت الثياب، كالرتق والقرن والبكارة والثيوبة والحيض والحمل، وما أشبه ذلك، سواء أكانت المشهود عليها حرة أو أمة، لقول الزهرى فيما رواه ابن أبى شيبة عنه: «مضت السنة أنه تجوز شهادة النساء فيما لا يطلع عليه غيرهن»، وما روى عن ابن عمر، أنه قال: «لا تجوز شهادة النساء وحدهن، إلا على ما لا يطلع عليه غيرهن من عورات النساء وحملهن وحيضهن» ويقول الشافعية: «إن كل شيء يقبل فيه قول النساء منفردات، يقبل فيه كذلك شهادة رجلين أو رجل أو امرأتين».

وقد اختلف الفقهاء فى توقف ما تقبل فيه شهادة النساء منفردات على عددهن، ولكن الرأى الراجح ما ذهب إليه الحنفية، من أنه لا يشترط العدد فى شهادة النساء على عورات النساء، لأن العدد شرط فيما يطلع عليه الرجال بالنص، أما ما لا يطلع عليه الرجال، فكما صحت شهادة الرجل منفرداً للضرورة، كذلك تصح شهادة المرأة للضرورة أيضا.

كما تقبل شهادة بعض النساء على بعض، فيما يقع بينهن من القتل والجراح، فإذا تشاجر النساء فى أماكن تواجدهن وحدهن، كما فى الحمامات الخاصة بالنساء، والأفراح والمآتم أو مساكن الطالبات ومدارس البنات، وغير ذلك من صور الحياة المعاصرة.. ويجوز القضاء بشهادة المرأتين ويمين صاحب الحق، فيما تقبل به شهادة الرجل الواحد ويمين صاحب الحق، وهو المال أو ما يئول إلى المال، وذلك: بقياس المرأتين فى الشهادة على الرجل.

حق الزوجة فى إنفاق الزوج عليها

حيث يقع على عاتق الزوج عبء الإنفاق على زوجته، وذلك لقوله تعالى:

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾

«الطلاق: ٧».

ويراد بنفقة الزوجية: كل ما تحتاج إليه الزوجة لمعيشتها من طعام وكسوة ومسكن وخدمة، وما يلزمها من فرش وغطاء، وسائر أدوات البيت، بحسب المتعارفين عليه بين الناس، وهى باتفاق الفقهاء واجبة شرعاً على الزوج.. ولو كان فقيراً وكانت الزوجة غنية؛ لأنها تكون فى مقابل حقه فى طاعته؛ لأنها تكون محتبسة عليه، بمقتضى عقد الزواج، وقد أمر الله عز وجل الأزواج بالنفقة على الزوجات، فى قوله تعالى:

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾

«الطلاق: ٦».

وهذا الحق يمتد إلى ما بعد انتهاء رابطة الزوجية، سواء بالطلاق أو الوفاة، وذلك بتقرير نفقة العدة للمرأة طوال مدة العدة.

وقد استمد المشرع القانونى من الفقه الإسلامى، الأحكام التى تنظم النفقة الزوجية، وصاغها فى المادة الأولى من المرسوم بقانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٠، المعدلة بالقانون رقم ١٠٠ لسنة ١٩٨٥، والتى تنص على أنه: «تجب النفقة للزوجة على زوجها من تاريخ العقد الصحيح، إذا سلمت نفسها إليه ولو حكماً، حتى لو كانت موسرة، أو مختلفة معه فى الدين.. ولا يمنع مرض الزوجة من استحقاقها النفقة.. وتشمل النفقة: الغذاء والكسوة والمسكن ومصاريف العلاج وغير ذلك بما يقضى به الشرع.. ولا تجب النفقة للزوجة إذا ارتدت، أو امتنعت مختارة عن تسليم نفسها دون حق، أو اضطرت إلى ذلك بسبب ليس من قبل الزوج، أو خرجت دون إذن زوجها.. ولا يعتبر سبباً لسقوط نفقة الزوجة خروجها من مسكن الزوجية، دون إذن زوجها، فى الأحوال التى يباح فيها ذلك بحكم الشرع ومما ورد به نص أو جرى به عرف، أو قضت به ضرورة، ولا خروجها للعمل المشروع، ما لم يظهر أن استعمالها لهذا الحق المشروط، مشوب بإساءة استعمال الحق، أو مناف لمصلحة الأسرة، وطلب منها الزوج الامتناع عنه.. وتعتبر نفقة الزوجة ديناً على الزوج من تاريخ امتناعه عن الإنفاق مع وجوبه، ولا تسقط إلا بالأداء أو الإبراء.. ولا تسمع دعوى النفقة عن مدة ماضية لأكثر من سنة نهايتها تاريخ رفع الدعوى.. ولا يقبل من الزوج التمسك بالمقاصة بين نفقة الزوجة، وبين دين له عليها، إلا فيما يزيد على ما يفى بحاجتها الضرورية.. ويكون لدين نفقة الزوجة امتياز على جميع أموال الزوج، ويتقدم فى مرتبته على ديون النفقة الأخرى».

حق الزوجة فى الاعتراض على الطاعة الزوجية

من المقرر أن عقد الزواج تترتب عليه كثير من الحقوق والواجبات المتبادلة بين الزوجين، ومنها حق الزوج فى قرار زوجته بمنزل الزوجية، وهو ما يعرف بحق الطاعة، وهو واجب شرعاً على الزوجة، إذا أوفاها الزوج عاجل صداقها وهيأ لها المسكن الشرعى المناسب لهما، وطلبها إلى هذا المسكن ولم يوجد مانع شرعى.

والأصل فى الطاعة فى شريعة الإسلام، أنها حسن عشرة ولين جانب، من كل من الزوجين لمواجهة تبعات الحياة داخل الأسرة، ويترتب على عدم قيام الزوجة بهذا الحق، وذلك بامتناعها، دون حق، عن طاعة زوجها، كانت ناشزاً، ولكن إذا كانت قد طلبت منه أن ينقلها إلى منزله، أو يستأجر لها منزلاً آخر، لاحتياجاتها لمنزلها لأى سبب، فلا تعتبر ناشزاً، وإذا وقع هذا النشوز، فإنه يترتب عليه سقوط نفقة الزوجة فقط.

ولكن كما تقرر المادة ١١ مكرر (ثانياً) من المرسوم بقانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ المضافة بالقانون رقم ١٠٠ لسنة ١٩٨٥، على أنه: «إذا امتنعت الزوجة عن طاعة الزوج دون حق، توقف نفقة الزوجة من تاريخ الامتناع، وتعتبر ممتنعة دون حق إذا لم تعد لمنزل الزوجية، بعد دعوة الزوج إياها للعودة بإعلان على يد محضر أو من ينوب عنها، وعليه أن يبين فى هذا الإعلان المسكن، وللزوجة الاعتراض على هذا أمام المحكمة الابتدائية خلال ثلاثين يوماً، من تاريخ هذا الإعلان»، ويجوز للزوجة أثناء نظر دعوى الاعتراض على هذا الإنذار، أن تطلب من القاضى أن يطلقها على زوجها.

ومن المقرر فى الفقه الإسلامى، أن المقصود ببيت الطاعة، هو أن تكون الزوجة فى محل تأمن فيه على نفسها ومالها، وتستطيع الاستمتاع فيه بزوجها، وهذا يتحقق فى بيت له غلق، وأن يكون بين جيران صالحين، وخالياً من سكن أهل الزوجين، رعاية لهما فى العشرة وكمالها، وأن الزوج لو أراد إسكان زوجته مع ضرتها أو إحمائها كأمه أو أبيه، وأبت عليه ذلك، فإنه يجبر على إسكانها فى منزل خاص بها دونهم؛ لأن إباءها دليل على تضررها من ذلك.

ومن أوجه العظمة فى شريعة الإسلام، فى تكريم المرأة، أنه إذا كان منزل الطاعة فى مكان موحش، أو بعيداً عن العمران، أو تعيش فيه الزوجة بمفردها، فإن الزوج يكون ملزماً، بإحضار مؤنسة تقيم مع الزوجة فى فترة غيابه عنها، وإلا فقد هذا المنزل أحد شرائطه الشرعية، ويبرر للزوجة رفض الانتقال إليه، بل وطلب التطليق على الزوج، إذا لحقها ضرر من جراء ذلك.

والله تعالى ولى التوفيق..



يشكل الطير أهمية كبيرة فى حياة المسلم لاعتبارات كثيرة بما ينبغى مراعاته دوما وألا ينصرف ذهنه عن هجرة الطير واستقراره وحركته فى الأرض والسماء، بحثا عن غذائه وحفظ نوعه بما يوجب التأمل والاعتبار لهذه الكائنات التى تعتمد على أجنحتها وأصواتها التى تسبح بها للواحد القهار آناء الليل وأطراف النهار.

التأمل فى حركة الطير بالأرض والسماء

الأستاذ الدكتور/ السيد محمد الديب
كلية اللغة العربية - الزقازيق

١. تسخير الله للطير فى الأرض والسماء:

لقد قال الله سبحانه وتعالى:

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

(النحل: ٧٩)

وتبدأ الآية بدعوة المسلمين إلى الرؤية بأبصارهم وبصائرهم لحركة الطير فى السماء بما سخره الله لها من أجنحة تعتمد عليها فى طيرانها من خلال الهواء المنتشر بين الأرض والسماء، وأن ذلك خاضع لإرادة الحق سبحانه وتعالى فى تأمين الطير من السقوط، واستمرار التواصل بين الأسراب المرتحلة بحثا عن الغذاء أو الدفء والتكاثر والعودة - أحيانا - ببعض الفائض لإطعام المواليد الجديدة فى أوكارهن بأعالى الأشجار وفى الأماكن الأخرى التى لا تتوه فيها الأمهات عن صغارهن المنتظرات لما يصل إلى أحشائها عن طريق مناقير الأمهات فهذه الدلائل الإيمانية لابد أن تضيف إلى ذخائر المؤمن دعامات جديدة يقوى بها إيمانه خاصة إذا انصرف عن مستلزمات عقيدته لذلك كان ختام الآية قول الله تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

وهى تحمل من الدلائل الكثير بحيث تستثمر فى مزيد من التعرف والتأمل والاعتبار لوحدانية الله سبحانه وتعالى وقدرته وعظمته التى تتجلى بدرجات متفاوتة عن البشر.

وتأتى إلى آية ثانية فى هذا الشأن يقول الواحد القهار فيها:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾

(الأنعام: ٣٨)

ويكون التأمل فى الآية لحركة الدواب بشكل عام، وكذلك فى حركة الطائر الذى يطير بجناحيه فى الهواء، فى تشكيلات منظمة تخضع فى جزء من أسبابها إلى بعض الأصوات المعروفة لدى جماعات كل نوع من الطير، وهى تماثل الإنسان فى كثير من الأمور، التى تستدعى التأمل والاعتبار، والمقصود من ذلك الدلالة على كمال قدرة الله، وشمول علمه سبحانه وتعالى وسعة تدبيره، فملكه واسع وخلقه عظيم لا يحصى ولا يعد، وخاضع للترتيب الإلهى المعجز، وما فى حياة الطير من نظام وتفاهم وتكاثر وتوزيع للمهام وفق المعطيات الإلهية لكل نوع، فهذا يغرد بنغمات جميلة مشجية.

ونوع ثان يمنح البشر أروع الأغذية التى جعل الله فيها الشفاء من الكثير من الأمراض، وثالث يستثمر ريشه فى أغراض شتى، أو بيضه الذى يكون فى أعماقه فى وقت طويل إلى أن يقدم إلى الإنسان فيستطعمه فى دقيقة واحدة، أو يذبح فيكون طعاما شهيا يستفيد به جسم الإنسان إلى غير ذلك من الفوائد الأخرى.

والطيور بشكل عام تتوافق فى خلقها بالأجنحة، وتتناسل عن طريق البيض، ومعظمها يطير وهذه الأحوال وغيرها مدعاة لمزيد من التأمل والاعتبار فى هذه الكائنات التى تتحرك على الأرض وفوق الماء، وفى عنان السماء.

٢. تسبيح الطيور:

يُشبه الطير الإنسان فى أمور كثيرة فهما من مخلوقات الله تعالى والطير تسبح كلها لله تعالى قال:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾

(الإسراء: ٤٤)

وقد ذكرت سورة النور أن التسبيح لله تعالى من كل من فى الأرض والسماء ثم كان التخصيص للطير التى يتجلى فيها بديع الصنع الإلهى، فهى تطير فى السماء، وتسير على الأرض، وتسبح فوق الماء كثيرا وتحته قليلا، ثم فى حركتها فى الهواء وقد أعطاها الله أسباب الحياة فأتاح لها بسط الأجنحة وقبضها، وتصطف دون أن تهوى على الأرض، وفى كل الأحوال لا يغيب وعيها عن التسبيح لله تعالى الذى قال:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

(النور: ٤١)

ونأتى إلى آية أخرى فيما يتصل بتسبيح الطير يقول الحق فيها:

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾

(الأنبياء: ٧٩)

ذلك أن قدرة الله لا حدود لها، فقد سخر الله سبحانه وتعالى لداود عليه السلام الجبال والطير تسبح بمعرفته لله تعالى، خاصة أنه على دراية بلغة الطير، وتلك إحدى معجزاته أمام البشر، مما يستدعى مزيداً من الاعتبار والتأمل فى صنائع الله من الكائنات الحية والجمادات التى لا يعلم محتوياتها إلا الله وحده علام الغيوب.

٢- طيور مفردة ومجمعة:

لقد حفل القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين بالعديد من النماذج المتميزة، التى تقدم للبشر مزيدا من العظة والاعتبار وأول ما ينبغى السعى إلى الاتعاظ به لحوم الطير التى هى من أغذية أهل الجنة، فضلاً عن قيمتها الغذائية للإنسان على سطح الأرض قال تعالى:

﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾

(الواقعة: ٢١)

وأن الله سبحانه وتعالى قد أتاح لداود وسليمان بعض المعجزات التى أهلتهما من خلال البعث النبوى للبشر أن ينهضا برسالتيهما فى التعامل مع الطير بمنطقه، وقد كانت الطيور بعض جيوش سليمان قال تعالى:

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾

(النمل: ١٧)[1]

(١) معنى يوزعون: يقسمون وينظمون، والوازع الذى يتقدم الصف فيصلحه ويقدم ويؤخر، وأوزعنى - ألهمنى.

وانتقل من مجموع الجيش إلى أحد أفراده، وهو الهدهد الذى لم يشاهده عندما تفقد الطير إلى أن أقبل الهدهد وكشف عن سر غيابه وقال بنص القرآن الكريم:

﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾

(النمل: ٢٢)

وأخذ يحدث نبى الله سليمان عما شاهده فى مملكة سبأ من عجائب الأديان والحياة.

ولا يفوتنا ما يعطى الحمام من دلالات راسخة على المحبة والسلام وبعث الطمأنينة والأمان فقد باضت حمامتان فى أسفل غار ثور، والرسول وأبو بكر بداخله، فعن أبى مصعب المكى قال: «سمعت أنس بن مالك وغيره أن النبى ﷺ ليلة الغار أمر الله تعالى صخرة فنبتت فى وجه النبى ﷺ فسترته، وأمر العنكبوت فنسجت فى وجهه فسترته، وأمر حمامتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار»[2].

وأن حمام الحمى يشكل بقدرة الله منظومة رائعة من الجمال والإجلال، وكلها بواعث قوية للتأمل فى بديع صنع الله سبحانه وتعالى، خاصة والمشاهد يلحظها تلتقط فى رونق رائع، وجمال بديع حبات البذور القريبة من الكعبة، وهى رموز قوية بل دلائل واضحة فى نشر الأمن والأمان فى بيت الله الحرام.

أما الجماعات من الطيور التى كانت سبباً قوياً فى حماية بيت الله من خلال حملة أبرهة الحبشى عندما سار بجيشه قاصداً هدم الكعبة فكانت الطير الأبابيل قاذفة لحجارة صغيرة مطبوخة بنار حامية، فكانت الحماية الإلهية والتسخير الربانى لهذه الجماعات المتفرقة من الطيور السوداء التى جاءت من قبل البحر أفواجاً أفواجا ترمى الجيش بما تحمله، فكانت النكبة كبيرة على جيش أبرهة القادم من اليمن مما أسفر عن حماية إلهية لبيت الله كانت الطيور فيها من أسباب هذا النصر المبين.

وللطيور سلوكيات مجملة واستعمالات متعددة خاصة مع ابنى آدم، ومع سيدنا إبراهيم فى الطيور الأربعة، وغير ذلك مما كان يدور فى حيازة المنطقة التى استقبلت دعوة داود وسليمان، وكلها تدعو إلى التأمل والتفكير فى كل الكائنات.



(٢) أخرجه البزار عن طريق عوف بن عمرو من هامش تفسير البيضاوى جزء ٢ ص٤٢٩.

بين الصحف والمجلات

إعداد

أ/ محمد جمعة

أ/ علاء عبد الرحمن

بيان مجمع البحوث الإسلامية وعودة الأزهر..!!

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ مجدى سالم بجريدة «عقيدتى» الصادرة فى ٢٠١٠/١٢/١٤م يقول:

منذ تولى فضيلة الدكتور أحمد الطيب إمامة الأزهر الشريف وأنا أشعر بالتفاؤل والأمل فى أن يستعيد الأزهر دوره ومكانته .. هذا الكلام لا يعنى أن من سبقه كان مقصرا فى المحافظة على الأزهر ومكانته ولكن لكل مرحلة رجالها وقد تمكن الدكتور طنطاوى رحمه الله من أن يقود الأزهر فى ظل فترة عصيبة تعرض فيها الإسلام والمسلمون لكثير من الهجمات والمصاعب من بعض أبنائه وبعض المنتمين للإسلام ومن غيرهم واستطاع أن يخرج بالأزهر من كثير من الأعاصير.

استطاع الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب أن يحقق الكثير، ولكن المحبين للأزهر والمنتمين إليه بل وكل المسلمين ما زالوا فى انتظار الكثير أيضا ليعود الأزهر قبلة ومنارة المسلمين فى العالم كله كمؤسسة علمية تعليمية أنارت العالم من قبل وتولت حماية وسطية الإسلام على مر العصور.

منذ عرفنا الأزهر وهو يتولى مهمة الدفاع عن الإسلام والمسلمين ضد كل من يكيد له ولهم ودائما كان الأزهر هو حصن الدفاع الأول عن الإسلام والمسلمين وأيضا عن مصر وشعبها وكثيرا ما وقف الأزهر والأزهريون فى أول صفوف مواجهة الغزاة والمستعمرين.

لذلك كانت سعادتى كبيرة وعظيمة وأنا أقرأ بيان مجمع البحوث الإسلامية الذى صدر للرد على تقرير لجنة الحريات الدينية الأمريكى والادعاءات المغرضة التى حملها هذا التقرير.

أهم ما يميز هذا البيان أنه كان بيانا علميا وموضوعيا يرد على كل كلمة حواها التقرير الأمريكى ويفند الادعاءات التى جاءت به .. لم يكن تقرير مجمع البحوث الإسلامية بيانا خطابيا أو ردًا سياسيا بل كان ردا موضوعيا يفند الاتهامات ويرد عليها ثم يبين ما وراء هذه الاتهامات من أهداف وأغراض .. والأكثر من ذلك أن البيان وجه الكثير من الاتهامات إلى أصحاب تقرير الحريات الأمريكية حول الحريات الدينية فى بلادهم التى يضطهد فيها الأقليات ليلا ونهارا.

بقيت نقطة أخيرة أتمنى أن يتنبه القائمون على الأزهر لها وهى أنه إذا كان بيان مجمع البحوث الإسلامية قد أثلج صدر المسلمين الذين يعلمون جيدا حقيقة الإسلام فإن الأمر لا يجب أن يتوقف عند صدور هذا البيان وإنما يجب ترجمة نص البيان والعمل على نشره بمختلف اللغات حتى يحقق البيان نتيجة فعالة فى الرد على كل من يشيع عن الإسلام ما ليس فيه ويعرف من لا يعرف فى الغرب الحقيقة ولنخرس أصوات الكثيرين.

أين ضمير العالم والمحكمة الجنائية..

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ السيد العزاوى مقاله المنشور فى جريدة المساء بعددها الصادر فى ٢٠١٠/١٢/١٨م يقول فيه:

سوف تظل الفظائع والجرائم التى ارتكبها جنود الاحتلال الإسرائيلى فى قطاع غزة عام ٢٠٠٨ وصمة عار فى جبين هذا العالم الذى يتستر على ممارستها التى لم نر مثيلاً لها إلا على يد النازى، ورغم أن هؤلاء الصهاينة يقيمون الدنيا وتتعالى صرخاتهم ضد محرقة «الهولوكوست» إلا أنهم أشد بشاعة فى حرب الإبادة التى ارتكبوها فى قطاع غزة ومدن وقرى فلسطين.

وها هى الجرائم يرويها جنود الاحتلال فى بجاحة منقطعة النظير، فى الكتاب الصادر عن منظمة «كسر الصمت» فى إسرائيل الذى يكشف الجوانب البشعة فى مذابح هؤلاء الجنود وكيف تبلدت مشاعرهم وهم يرون أشلاء أم تتناثر على جدران بيتها بينما يتمايلون طربا وضحكاتهم الهستيرية تنطلق فى بلاهة وبلادة تؤكد أن هؤلاء الجنود بلا مشاعر إنسانية. ولا غرو فحاخاماتهم قد أصدروا الفتاوى بإبادة أى بشر وكل من يقوم بالهجوم على هؤلاء الصهاينة، أى دين يبيح ذلك؟

روايات تقشعر لها الأبدان.. وأعمال بربرية تؤكد أن غطرسة الإسرائيليين قد تجاوزت كل الخطوط وهدمت كل القوانين والأعراف الإنسانية، ومن بين القصص الدامية.. التى أدلى الجنود بشهادتهم حولها.. أنهم قالوا: إنهم فى أحد الأيام طرقوا باب أحد المنازل، فلم يسمعوا أى جواب. فقاموا بوضع قنبلة تستخدم فى العادة لدك الأبواب وتسهيل مهمة دخولهم، لكن فى اللحظة التى كان سيتم فيها تفجير القنبلة، فتحت سيدة الباب فانفجرت فى وجهها تلك القنبلة مما أدى إلى تطاير أجزاء من جسمها والتصقت أشلاؤها بجدران المنزل، وقال جندى: إن زملاءه واصلوا سرد القصة، حيث قال أحدهم: إن أطفالاً خرجوا عبر الباب بعد الانفجار ليشاهدوا أشلاء والدتهم إلا أن أحد الجنود أدلى بتعليق، هو أن ذلك الحدث كان أمرا مضحكا، وأعقب تلك الكلمات بضحكة عالية.. مأساة ومذبحة أمام ابنة هذه السيدة واسمها سميرة وتبلغ من العمر ١٣ عاما وأختها التى تبلغ ٤ أعوام. فظائع وبشاعة حطمت جدران القلوب وحاولت الطفلتان تغطية أشلاء جثمان الأم التى كانت تعمل فى مدرسة تابعة

للأمم المتحدة، فهل هناك بشاعة أكثر من تلك الجريمة، والكتاب مليء بالتفاصيل المذهلة التي تجرد الصهاينة من كل العواطف أمام العالم.

إن ما يجرى فى تلك البقعة المباركة يطرح سؤالاً: أين هؤلاء الذين يطاردون الذين يرتكبون جرائم لا تساوى شيئا بالنسبة لتلك الإبادات الجماعية، كما أن ما يجرى فى الأقصى من أعمال تخريب وهدم تحت سمع وبصر العالم يؤكد أن الصهاينة لا يريدون سلاما. ثم يختم الكاتب بقوله: ـ لكن السؤال الذى يدق الرءوس بعنف أين عالمنا العربى من تلك الجرائم وتلك الممارسات؟ ومتى يستيقظ المارد العربى من سباته؟ كنفانا تباكيا وانطواء وتجاهلا، إن ما حدث فى غزة لا يتورع الصهاينة عن ارتكابه ضد أى بلد عربى، إنهم لا يريدون سلاماً، يا ترى ماذا أنتم فاعلون أيها العرب؟!

الطريق إلى الجنة

كتب الأستاذ عصام حشيش فى عموده «على الله» بجريدة الأخبار الصادرة فى ٢٠١٠/١٢/٤ يقول:

فى فرنسا يتحدثون عن فتاتين دخلتا فى الإسلام على يد الداعية الإسلامى الدكتور طارق رمضان وارتديتا الحجاب رغم أنهما من أصل يهودى وقد أجرت القناة الأولى فى التليفزيون الفرنسى حواراً مع الفتاتين فرويا تجربتهما وأعلنتا بكل وضوح أن هناك تفاوتا بين الإسلام وكثير من المسلمين وأن ما عرفتاه من سيرة الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم وتعاليمه نقلا عن الدكتور طارق رمضان الأستاذ بجامعة جنيف كان كفيلا بإقناعهما بالإسلام والدخول فيه والتمسك به بل ودعوة الناس إليه.. وقد سأل المذيع والد الفتاتين عن موقفه فأكد أنه لم يجبرهما على شيء وقد سمح لهما بزيارة القاهرة للاقتراب أكثر من حياة المسلمين.. وما حدث للفتاتين بتوفيق الله حدث لآخرين لا يمكن إحصاؤهم ثم جهود الدعاة المخلصين الذين يتحدثون لغات أهل هذه البلاد بطلاقة تامة ومثلما يتحدث الناس عن طارق رمضان وما يتم على يديه ودخول الأوروبيين إلى الإسلام فرادى وجماعات يتحدثون أيضا عن شقيقه هانى رمضان رئيس المجمع الإسلامى بجنيف، وكيف يشد كثيرا من الراغبين فى معرفة الإسلام إليه ليعرف أكثر عن هذا الدين الخاتم وما إن يسمعوه حتى يبدوا رغبتهم فى الدخول للإسلام.. وقد دخل د.طارق وشقيقه سعيد فى مناظرات اهتم بها الإعلام الأوروبى مع الفلاسفة اليهود ومنهم آلان جريش رئيس تحرير جريدة لوموند ديلوماتيك وكان من نتيجة هذه المناظرة أن أصدر رئيس التحرير كتابا اسمه أسئلة فى الإسلام تكشف زيف كثير من الادعاءات على المسلمين وفساد عقائد غير المسلمين الذين يعادونه ويعتبرونه خطرا على نفوذهم.

نعم.. الإسلام بخير وهو يكبر ويزداد عدد المؤمنين به رغم عشرات القنوات الفضائية التى تحاول النيل منه، بل إن هذه القنوات نفسها وما تبثه من أحقاد واضحة ساعدت كثيرا من الشباب فى أوروبا على الدخول فى الإسلام والتمسك به ويا سبحان الله.. كأن الناس هناك ينتظرون من يحدثهم عن الدين ويأخذ بيدهم إليه.. حتى يمضوا معه فى الطريق إلى الجنة.

البشير ودارفور.. التحقيق المضاد

تحت هذا العنوان جاءت كلمة الأستاذ حازم فودة المنشورة فى جريدة «الأهرام» بعددها الصادر فى ٢٠١٠/١٢/١١م يقول:

تهديدات للسودان، وحقائق وأسرار تكتشف لأول مرة عن المدعى أوكامبو بالمحكمة الدولية.. كتاب صدر أخيرا فى باريس للكاتب الصحفى شارل أونانا.. يتناول فيه التلاعب الدولى والأصابع الخفية التى تتحرك لزعزعة استقرار هذا البلد الإفريقى العربى والذى يواجه هذه الأيام أكبر اختبار يمر به فى تاريخه منذ الاستقلال، اختبار الاستفتاء على استقلال الجنوب؟! وتقسيم السودان؟!.

كتاب «البشير ودارفور.. التحقيق المضاد» يسعى إلى كشف الكثير من الأسرار وإلى تفسير الحملة الدولية المكثفة حول دارفور وحول المسئوليات المنسوبة إلى الرئيس السودانى عمر حسن البشير! فى صراع يحظى بتركيز غريب ومغالطات فى كثير من الأحيان من جانب الأجهزة الإعلامية منذ سنوات.

يأتى ذلك فى وقت مصيرى وحاسم بالنسبة للسودان ووحدته وسلامة أراضيه ويشهد تلاعبا فى مياه النيل.

الكتاب يسعى لتوضيح وتفسير الحملة التى توحى بالاعتقاد أن دارفور والرئيس البشير هما من أكبر الأخطار التى تواجه هذا الكون وأنه قد بات من الملح التصدى لهذا الخطر على الصعيد العالمى مما يتطلب تعبئة دولية من أجل دارفور.

فى لقاء مع شارل أونانا تناول الكاتب دور إسرائيل فى إفريقيا الذى يعود إلى بداية الستينيات فترة حصول هذه البلدان على الاستقلال، ويرى الكاتب أن إسرائيل فى مواجهة المسألة الفلسطينية وفى مواجهة دول المغرب التى لديها حساسية خاصة للملف الفلسطينى نظرا لثقافتها العربية الإسلامية، فإن إسرائيل لديها من الشكوك ما يجعلها تسعى إلى تحويل هذا الالتزام من جانب دول شمال إفريقيا وتشرع تدريجيا فى الوجود فى بلدان إفريقيا جنوب الصحراء وفى إقامة علاقات تعاون معها ويرى الكاتب أن الحدث الذى كشف ذلك هو حرب الأيام الستة يونيو ١٩٦٧.

ويستطرد الكاتب ليوضح فكرته فى أن مجئ الرئيس البشير إلى السلطة قد غير كثيرا فى السياسة الخارجية للسودان مما جعل إسرائيل تمارس ضغوطا على هذا البلد عبر الضغوط الدولية وخاصة الأمريكية.

وواصلت إسرائيل دعم التمرد فى جنوب السودان وفى اللحظة التى بدأنا نشهد فيها خروج السودان من حرب أهلية طويلة فى ٢٠٠٣ نجد حربا أخرى فى دارفور، ونجد الكثيرين من لاجئى دارفور يرحلون إلى إسرائيل.. إن سياسة إسرائيل فى المنطقة.. وبصفة خاصة فى السودان تقوم على استغلال السياسة الخارجية الأمريكية من أجل زعزعة استقرار خصومها، فى نفس الوقت الذى تحاول فيه الظهور باعتبارها الدولة التى تخفف معاناة السودانيين وأبناء دارفور.

«أونانا» يوضح لنا أيضا كيف أن إسرائيل

تساند سياسة الدول الإفريقية المناوئة لمصر، وتسعى لضرب مصالح مصر وخاصة عبر مياه النيل.

وفى اعتراف صريح بتلاعب أصابع إسرائيل فى السودان ،يقول اللواء عاموس يادلين الرئيس السابق للاستخبارات الحربية الإسرائيلية: «إننا أنجزنا عملا عظيما للغاية فى السودان ! نظمنا خط إيصال السلاح للقوى الانفصالية فى جنوبه، ودربنا العديد منها، ونشرنا فى الجنوب ودارفور شبكات رائعة قادرة على الاستمرار بالعمل الى ما لا نهاية. ونشرف حاليا على تنظيم الحركة الشعبية هناك ،وشكلنا لهم جهازا أمنيا استخباراتيا».

الكتاب يخصص فصلا كاملا للحديث عن أوكامبو وسلوكه وانحرافه، ويروى كيف أنه ليس فوق مستوى الشبهات وكيف أنه ربما كان موجودا لإنجاز المهمة التى يريدون إنجازها وهى ملاحقة الرئيس البشير.

الكاتب يوضح أيضا كيف أن أوكامبو يعمل لحساب مؤسسات أمريكية، ويعمل بتعاون وثيق مع فيليب هيمان الأستاذ بجامعة هارفارد، وهو المحامى العام السابق فى عهد كلينتون وانخرط فى قضية جاسوسية لحساب إسرائيل، ومن بين أصدقائه ستيفين برايان الذى قدم وثائق خاصة بالحكومة الأمريكية الى الموساد.

أى أن أوكامبو ،والمحيطين به مهنيا هم دائما على علاقة بتمويل المؤسسات الأمريكية، وبشخصيات موالية لإسرائيل، ومعادية لنظام البشير.

شخص ليس فوق الشبهات، لايمكن أن يكون تحركه ضد البشير تحركا محايدا، أو موضوعيا، أو قضائيا صرفا؟!

فمن الذى يسمع؟! ومن الذى يسعى؟!

إصرار على الفشل

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ مسعود الحناوى مقاله المنشور بجريدة «الأهرام» بعددها الصادر فى ٢٠١٠/١٢/١٥م يقول فيه:

بجرأة وشجاعة حسدناه عليها- أعلن الرئيس الأمريكى باراك أوباما بعد مرور عام على دخوله البيت الأبيض فشله فى إحداث تقدم فى عملية السلام بالشرق الأوسط.. واعترافه بأنه لم يكن يظن أن الملف بهذا التعقيد!!

وبنفس الجرأة والشجاعة نطالبه بأن يعلن تخليه عن هذا الملف المعقد بعد فشله المخزى فى إقناع-أو إجبار-إسرائيل على اتخاذ قرار بمد تجميد البناء فى المستوطنات لمدة ٩٠ يوما فقط بالرغم من حزمة الحوافز والوعود والامتيازات التى قدمها لهم!!

لكن أن تصر الولايات المتحدة على احتكار ملف السلام.. والاستئثار بالإشراف والوساطة عليه دون غيرها رغم كل هذا الفشل فهذا ما لا يمكننا فهمه أو استيعابه أو قبوله!!

فماذا يعنى رفض نيتانياهو تجميد الاستيطان وإصراره على ابتلاع الأراضى وفى نفس الوقت على إجراء مفاوضات مباشرة مع الفلسطينيين؟؟!

وماذا يعنى إذعان الولايات المتحدة للرغبة الإسرائيلية «المتناقضة» رغم رفضها المسبق.. ورغم بعدها عن كل مبادئ المنطق والحق والعدالة؟!

كفانا عبثا ولهوا وتدليسا.. المعادلة سهلة وبسيطة وواضحة.. إسرائيل لا تريد سلاما.. وأمريكا- باعترافها- لا يمكنها فرض سلام على إسرائيل.. والعرب هم «اللقمة الطرية» التى يضغطون عليها فى كل مرة!! والحل أيضا ليس صعبا ولا معقدا ولا عسيرا فلتترك أمريكا هذا الملف الذى احتكرته أعواما طويلة وفشلت فيه مرارا وتكرارا لغيرها.. ولتدع إسرائيل تواجه المجتمع الدولى بكل ممارستها غير الأخلاقية وتعنتها واستكبارها وخروجها عن الشرعية الدولية!! لتدع واشنطن تل أبيب لقوى دولية محايدة دون تدخل منها.. وتتراجع عن مواقفها المتشددة تجاه المستوطنات والقدس واللاجئين والمياه.. وغيرها ولكن ما الذى يدفعها الآن إلى هذا التراجع وهى تضمن الحماية والرعاية والدلال الأمريكى الذى يبعد عنها أى أذية دولية أوإقليمية أومحلية!! أعتقد أن الكرة الآن فى الملعب العربى.. وبالتحديد فى ملعب لجنة مبادرة السلام العربية التى ستجتمع لتقول كلمتها بعد التراجع الأمريكى الأخير..

لابد أن يكون لدينا الشجاعة والقدرة على إعلان هذا الموقف بقوة وجرأة قبل أن نجد أنفسنا نباع فى سوق النخاسة بثمن بخس!!

وبدون هذا الموقف يجب ألا نلومن إلا أنفسنا.. ولا نبحث لنا بعد اليوم عن ثمن أو كرامة أو كينونة!!

عار أمريكا

تحت هذا العنوان جاءت افتتاحية «الأهرام العربى» الصادرة بتاريخ ٢٠١٠/١٢/٤م تتضمن ما يلى:

إنها فضيحة أكبر من فضيحة ووترجيت التى أطاحت بالرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون وأخطر من فضيحة عملاء أمريكا فى فيتنام التى تركتهم للثوار فى سايجون.

أمريكا عارية أمام حلفائها وأعدائها فقد نشر موقع ويكيليكس وثائق تكشف أن السفراء العاملين فى سفارات أمريكا فى كل عواصم العالم مجرد جواسيس وليسوا دبلوماسيين يراقبون البلاد والزعماء ويزرعون أجهزة التنصت ويحذرون من الحكومات بعض الرموز كما حدث فى ألمانيا الحليفة والشريكة فى حلف الناتو.

بريطانيا - فرنسا - تركيا - إيطاليا هذه البلاد هى القطار الغربى الذى تقوده أمريكا بحلف الناتو، ومع ذلك تجسست عليهم وفضحت ما خلف الكواليس لقادة هذه البلاد.

وقد قال وزير خارجية إيطاليا فرانكوفارتينى إن تسريب الوثائق يشبه «١١ سبتمبر دبلوماسى» وبدا كأنه يقول إن ١١ سبتمبر ٢٠٠١ حادث مصنوع تماما لتسريب الوثائق.

أما العرب فلا عزاء لهم فهم خائفون على استقرار بلادهم ويعتقدون أن العم سام الأمريكى قادر على حمايتهم سواء من إسرائيل أم إيران، ولكنهم مع الأسف واهمون، فأمريكا تتجسس على الحلفاء قبل الأعداء.

مؤتمر دولى تعقده رابطة الجامعات الإسلامية فى هولندا لبحث:

المشتركات الثقافية بين الأديان

للأستاذ / عاطف مصطفى

«الحوار الإسلامى المسيحى» كان عنوان المؤتمر الدولى الذى عقد بالجامعة الحرة بأمستردام وكلية الإلهيات والعلوم الأخلاقية ومركز الدراسات الإسلامية بالجامعة بهولندا.. هذا المؤتمر نظمته رابطة الجامعات الإسلامية متمثلة فى أمينها العام الدكتور جعفر عبدالسلام بالتعاون مع مركز الدراسات الإسلامية بالجامعة الحرة ويمثله الدكتور هنك فروم وذلك فى الفترة من ٢٢ ـ ٢٥ نوفمبر ٢٠١٠م.

وقد مثل الوفد الإسلامى فى المؤتمر نخبة متميزة من علماء مصر فى مقدمتهم الدكتور ابراهيم بدران وزير الصحة الأسبق وعضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وعلماء وباحثين من جامعة الأزهر منهم الدكتور نبيل السمالوطى أستاذ علم الاجتماع والدكتور مصطفى سالم أستاذ القانون الدولى والدكتور أحمد عبدالحميد رجب الأستاذ بالمركز الإسلامى الدولى للدراسات والبحوث الديموجرافية والدكتور مصطفى حجاب بكلية الطب، فضلاً عن عدد من الأساتذة من المسلمين بالجامعة الحرة ومن جامعة دار السلام كونتور من إندونيسيا.

ويعد هذا هو المؤتمر الدولى الثالث، حيث كان المؤتمر الماضى من خلال تعاون الرابطة مع هذه الجامعة الهولندية عن الحرية الدينية بين أهل الأديان. كما خصص المؤتمر الأول لدراسة طبيعة العلاقات الإسلامية الغربية.

إبراز القسمات والملامح المشتركة

ومن خلال الإعداد الجيد للمؤتمر والذى استمر لعدة شهور استقر الرأى على مناقشة عدد من القضايا الأساسية، تتم مناقشتها من وجهة النظر الإسلامية والمسيحية، لإبراز القسمات والملامح المشتركة ووجهات نظر العلماء من المسلمين ومن المسيحيين فى نقاش أكاديمى كل فى مجال تخصصه،

بهدف إقامة حوار علمى موضوعى حول قضايا طبية واجتماعية يدلى فيها كل عالم فى تخصصه بأمرين أساسيين:

الأول: رأى العلم فى القضية المطروحة.

والثانى: حكم الدين والشرع فى هذه القضية «الدين الإسلامى والدين المسيحى».

وقد انقسم المؤتمر إلى جلستين، الأولى تناقش فيها القضايا الطبية والبيولوجية والثانية تناقش فيها القضايا الاجتماعية والتربوية، وكل جلسة يلقى فيها بحثان من متخصصين أحدهما مسلم والآخر مسيحى، ثم يقوم الباحثان بمناقشة لبعضهما البعض أمام جمهور من العلماء المشاركين فى المؤتمر وطلاب العلم، وبعد ذلك يفتح الباب أمام الجمهور لطرح تساؤلاتهم ومداخلاتهم.

تعليم الدين

المؤتمر تضمن ثلاثة محاور أولها العلوم الطبية والوراثة فى الإسلام وعلاقتها بالسلوكيات فى التصرفات الطبية الحديثة، وثانيها تعليم الدين مع التركيز على دور المسلمين فى تعليم الدين فى المسجد وفى المدرسة وفى المنزل والمسيحيون يعلمون الدين فى البيت وفى الكنيسة.

كذلك تم التركيز على بعض المستحدثات الطبية، وقد تحدث باستفاضة فى هذا المحور الدكتور إبراهيم بدران بما لديه من ثقافة طبية عالية وخبرات خلال عمله كوزير للصحة فى مصر، وواحد من المسلمين المستنيرين، ومعه علماء وأساتذة من جامعة



أ.د. جعفر عبدالسلام



أ.د. إبراهيم بدران

الأزهر قدموا أوراقا ومناقشات فى غاية الأهمية استقبلها الهولنديون بالإعجاب على الرغم من أنهم استعدوا تماماً للمؤتمر من خلال حشد عدد كبير من أساتذة وعلماء الجامعة الحرة بأمستردام ومن ألمانيا وبلجيكا.

الإسلام وقضايا الطب الحديثة

من خلال لقائى بالدكتور إبراهيم بدران لأتعرف منه على ما تناوله المؤتمر، وكيف بين وجهة نظر الإسلام فى مواجهة ما يحدث الآن فى كثير من القضايا الطبية، ومن أبرزها قتل الرحمة وتأجير الأرحام والتلقيح الصناعى ونقل البويضات.

وقد أشار إلى أنه ومن خلال جلسات المؤتمر تم التركيز على بعض المستجدات الطبية التى جاءت مع التطورات التكنولوجية الحديثة وزيادة أعمار الناس، جعل مشكلات الشيخوخة تكثر بشكل لافت للنظر وبالتالى زادت الأمراض فى هذه السن المتقدمة من العمر، خصوصاً الأمراض السرطانية والنفسية والذهنية والعقلية بالإضافة إلى أمراض المفاصل والشرايين.

كل هذا جعل شريحة نحيها من الناس تتألم آلاماً شديدة، وبالتالي ظهر في الغرب ما يسمى بقتل الرحمة!

ففي هولندا وبلجيكا وبعض الولايات في أمريكا واستراليا، وبعض بلدان شرق آسيا المتحدة، وافقوا على ما يسمى بموت الرحمة والإسلام يرفض ذلك تماماً.

مراحل القتل الرحيم في الغرب!

والسؤال الذي نطرحه.. كيف يتم هذا القتل الرحيم عندهم والذي وافقت عليه بعض الكنائس؟!

يتم.. إما بوقف العلاج الذي يقدم إلى المريض بالكامل، ويظل المرض يستفحل ويستمر حتى يموت هذا المريض!

أو تكون هناك آلام شديدة ومبرحة، ونترك المريض يعاني منها، دون النظر إلى هذه المعاناة وهذا في واقع الأمر تصرف إنساني خاطئ!

أو قد يعطى المريض أدوية من بينها كمية معينة من الكيماويات والهرمونات التي تقضي عليه تماما!

أو يوضع من حوله كيس بلاستيكي وبعد فترة يستهلك الأوكسجين فيموت المريض!

أو يتم استعمال غازات الهليوم، يستنشقها فيموت المريض على إثرها!

والإسلام يرفض كل ذلك تماماً، بل ويحارب هذه الظواهر التي هي ضد إرادة الله خالق الإنسان.

الله هو الذي يحيي ويميت

ولقد تصدى المشاركون من وفد رابطة الجامعات الإسلامية لهذا النوع من قتل الإنسان بثلاث ركائز: ركيزة أخلاقية وركيزة قانونية وركيزة دينية.

كما تم الاستشهاد من خلال أحد تلامذة الدكتور إبراهيم بدران من المسيحيين المشاركين في المؤتمر ببعض آيات من الإنجيل بتحريم قتل النفس.

وإسلامنا الحنيف يوضح أن الله يحيي ويميت وأن القتل في الإسلام غير مصرح به، مهما كان الإنسان مريضا لأن هذه إرادة الله.. كما ورد في هذه الآيات من الذكر الحكيم:

﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

«سورة الحديد: ٢»

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

«التوبة: ١١٦»

﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

«سورة غافر: ٦٨»

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

«المؤمنون: ٨٠»

إحداث المنفعة ومنع الضر

ومن الناحية القانونية فلا يسمح أي قانون في الدنيا بقتل النفس مهما كانت الحالة التي يشعر بها المريض، ومن ناحية السلوك فإن قواعد السلوك في الدنيا هي إحداث المنفعة ومنع الضر، وذلك يعد أهم الأساسيات الطبية في العالم بأسره، والمطلوب هو احترام إنسانية الإنسان، فأن يقوموا بموته، فذلك فيه إهدار لإنسانيته.

فالاعتزاز بكرامة الإنسان ضروري وكذلك حقه في العلاج الذي يحتاج إليه والشخص الذي يقوم عليه.

الغريب في الأمر أنهم في الغرب يوافقون على ما يسمونه بالقتل الرحيم لأن تكاليف العلاج في دولهم الغنية أصبح أكثر من قدرة المريض برغم غناه أن يظل في غرفة العناية المركزة لمدة طويلة ولا يموت وبالتالي لا تستطيع أسرته أن تتحمل تكاليف العلاج، وقد ظهر الاتجاه العلماني بأنه درءا لهذه التكاليف الباهظة وتخفيفا لآلام المريض أن يقوموا بما يسمى عندهم بالقتل الرحيم.

وهذا كما ذكرنا ونؤكد عليه مرفوض في الإسلام شرعا وأخلاقا وقانونا فليس لدينا في الإسلام قانون يسمح بذلك، فضلا عن أن السلوكيات الطبية لا تسمح بذلك، وكما ذكرنا فالقرآن الكريم يتضمن الكثير من الآيات التي تمنع قتل النفس وتنهى وتحرم ذلك، ومن يقتل النفس التي حرم الله فجزاؤه جهنم.

موقف الإسلام من تأجير الأرحام

وأيضا حرص المؤتمر على مناقشة المستجدات التي تشهدها مهنة الطب حاليا بسبب التكنولوجيا التي تتقدم بشكل متسارع، في وقت تقاعست فيه العلوم الإنسانية في مواجهة هذا التقدم، ولم تستطع أن تساير هذا التقدم ومن هنا كان التأكيد على أن الإسلام يتخذ موقفا من تلك التغيرات التي تحدث وبما لا يتعارض مع الشرع والسلوك والقانون.

ومن مثل ذلك تأجير الرحم، فتم التأكيد في المؤتمر على أن الإسلام يرفض تأجير الرحم خاصة الذي يتدخل فيه طرف ثالث بنقل البويضة. لكن الإسلام يصرح بتلقيح البويضة من الزوج وتنجح الآن حوالي ٣٠٪ من حالات التلقيح، إنما لو تدخل طرف ثالث أخذنا منه حيوانا منويا، لقح بويضة غريبة في بوتقة، ثم نقل إلى رحم الزوجة، فهذا ممنوع في الإسلام، ويرفضه تماما خشية اختلاط الأنساب! كذلك تمت مناقشة الإيجابيات والسلبيات لزواج الأقارب من المنظور التطور الطبي والديني والأخلاقي، كما ناقش المؤتمر موضوع التبني والفحص قبل الزواج، والقرابة في الرضاعة، والتشوهات الجنينية وما يمكن للعلم أن يقدمه في هذا الشأن، وكذلك نقل الأعضاء تبرعا أو بيعا ورأي الدين في الإسلام والمسيحية.

ومن خلال الحوار الإسلامي المسيحي حول هذه الموضوعات الطبية والقانونية والشرعية خلال المؤتمر، اتضح أن هناك اتفاقا مشتركا حول أغلب القضايا، خاصة وأننا نعبد جميعا إلها واحدا،

ونؤمن بكتب الله التى أنزلها على رسله.

وأوضح علماء وأساتذة وفد رابطة الجامعات الإسلامية فى مواجهة وفد الجامعة الحرة بأمستردام وغيرهم من العلماء من أوروبا ومن خلال المناقشات فى الجلسات المتعددة للمؤتمر أن المسلم لا يصح إيمانه إلا بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله جميعا لا نفرق بين أحد من رسله.

التربية والتنشئة الدينية

وكان من بين الجلسات المتوازية فى المؤتمر، تلك التى ناقشت القضايا التى ترتبط بالتربية والتنشئة الدينية فى المجتمعات التقليدية والتعددية، وطرح الدور الذى تقوم به مؤسسات التنشئة الاجتماعية وجماعات الأصدقاء أو النظراء فى التشكيل الدينى لشخصية النشء والمراهقين والشباب.

وقد تم ذلك من خلال بحوث علمية متعمقة تتعلق بإعداد الإنسان وبناء شخصيته كي يعيش بسلام وأمن فى المجتمع متعدد الأديان، ومتعدد التوجهات ومتعدد القيم.

حيث نوقشت فى هذا الإطار قضايا تدور حول التربية والتنشئة الدينية فى البيت والمدرسة والمؤسسات الدينية كالمسجد والكنيسة، ونمو الشخصية من الجوانب الدينية والاجتماعية والشخصية.

ومناقشة هذه القضايا استغرقت جلستين قدم فى كل منهما بحثان حيث خصصت إحدى الجلسات للتربية الإسلامية، والأخرى للتربية المسيحية، كما قدم فى جلسة أخرى بحث حول أثر تدريس ديانات متعددة داخل المدارس، كما خصصت جلسة لمناقشة أثر جماعات الأصدقاء أو النظراء، وقدم فى هذا الإطار بحث من المنظور الإسلامى والمنظور المسيحى.

وخصصت كذلك جلسة لمناقشة أثر التعليم الدينى المتعدد والتحولات فى القيم والمعايير الدينية والأخلاقية، فضلا عن مناقشة قضية تربوية واجتماعية مهمة حول التعليم الدينى داخل مجتمع علمانى متعدد الثقافات والتوجهات الفكرية والاجتماعية والدينية، وذلك من خلال الأبحاث التى تضمنت عدة نماذج من المجتمعات كالمجتمع التركى والمجتمع الهولندى.

كان أيضا من بين البحوث المهمة التى تضمنها مؤتمر الحوار الإسلامى المسيحى بهولندا تلك التى دارت حول التعليم الدينى وارتباطه بثقافة التسامح والسلام.

تشكيل السلوك الدينى

قدم الدكتور نبيل السمالوطى للمؤتمر بحثا مهما حول دور الأصدقاء فى تشكيل السلوك الدينى لبعضهم البعض سواء فى الاتجاه السوى أو الاتجاه الانحرافى.. حيث أوضح فيه أهمية الدور الذى يلعبه الأصدقاء فى مرحلة الطفولة المتأخرة حتى سن ١٢ سنة ومرحلة المراهقة التى تمتد إلى سن ١٨ سنة.

وهذه المرحلة لها خصائصها المتميزة والتى تتمثل فى الاستقلال عن السلطة الأسرية والتمرد على كل الضغوط المجتمعية، ومحاولة إثبات الذات والاستقلال وإشباع الحاجة إلى الانتماء من خلال جماعات نظراء أو أصدقاء أو جماعات سن متماثلة وأثر هذه الجماعات فى تشكيل السلوك الدينى يتوقف على نوع التربية الأسرية، وجرعة التربية الدينية التى يتلقاها الفرد فى الأسرة.. وشكل القدوة التى عايشها الطفل.. فهل كان أبوه وأمه قدوة صالحة أمامه.. وهل كانا حريصين على غرس منظومة القيم والعقيدة الصحيحة فى نفسه.. وهل يلعبان دورا مؤثرا فى إرشاد الطفل والمراهق والاستماع إليه وإزالة الحواجز المصطنعة التى قد تحول دون إفضاء الطفل أو المراهق بأسراره للأم والأب، وهل يقوم الآباء بأدوارهم التربوية والإرشادية وهل يقومون بدور الرقابة التربوية الهادفة المتزنة على الأبناء.. الرقابة على القراءة وعلى الصداقة وعلى المشاهدة فى القنوات الفضائية وعلى التعامل مع الانترنت.. إلخ.

كل هذا يحدد قدرة جماعة الأصدقاء على التأثير فى بقية أفراد الجماعة فإذا كان هناك خلل فى التربية الأسرية فى أى جانب من الجوانب زادت الفرصة أمام جماعة الأصدقاء للتأثير بعضها فى بعض، بحيث يكون هذا التأثير فى الاتجاه السوى، أو الاتجاه المنحرف حسب طبيعة ونوعية أعضاء هذه الجماعة.

وقال د. السمالوطى: لقد استخدمت فى تفسير انحراف بعض المراهقين بسبب انقيادهم لبعض جماعات الأصدقاء المنحرفة، بعض النظريات مثل نظريات علم الإجرام وعلم الاجتماع الجنائى، وفى مقدمتها نظرية المخالطة الفارقة لصاحبها «إدوين سوذرلاند» خاصة وأن الباحث اختبر هذه النظرية سنة ٢٠٠١م بالتطبيق على مجموعة من الجناح المودعين بإحدى مؤسسات التربية الاجتماعية فى مصر.

ومن خلال المناقشات مع المسيحيين والجمهور أوضح الباحث أننا نربى أبناءنا المسلمين على التسامح وقبول الآخر وعلى احترام حرياتهم فى الاختيار، وعلى عدم ازدراء أى دين، وعلى عدم الإساءة إلى أى إله يعبده أبناء دين آخر وقد تم فى هذا الاستشهاد بالكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة.

وخلص البحث إلى أهمية التربية الدينية والرقابة الحكيمة على نوعية الصداقات التى يتعامل معها أبناؤنا، ويكون هناك اقتراب نفسى وروحى وانفعالى واجتماعى بين الآباء وأبنائهم وأن يحرص الآباء على تحصين أبنائهم بالعقيدة الصحيحة والقيم الدينية الأصيلة.

الجوانب المشرقة فى إسلامنا الحنيف

لقد أثبت هذا المؤتمر أهمية الحوار من خلال المناقشات والحوار العلمى البناء خاصة وأن الكثير من علماء اللاهوت وأساتذة التربية والاجتماع والإنسانيات الذين حضروا وشاركوا ببحوثهم كانوا فى أمس الحاجة لمعرفة الجوانب المشرقة من ديننا الإسلامى الحنيف، والفهم الصحيح لإسلامنا فى وسطيته، بما نأمل أن ينعكس إيجابيا فى تصحيح صورة الإسلام فى مناهجهم الدراسية وفى أجهزة الإعلام والبعد عن التعصب الأعمى.

ومن إيجابيات هذا المؤتمر أن الهولنديين استقبلوا آراء العلماء المسلمين بكل الإعجاب، وأحدث ذلك نوعا من تقارب الآراء والتعرف على ديننا الإسلامى السمح والتركيز على المشتركات الثقافية بين جميع الأديان والكتب السماوية.

ونؤمن بكتب الله التى أنزلها على رسله.

وأوضح علماء وأساتذة وفد رابطة الجامعات الإسلامية فى مواجهة وفد الجامعة الحرة بأمستردام وغيرهم من العلماء من أوروبا ومن خلال المناقشات فى الجلسات المتعددة للمؤتمر أن المسلم لا يصح إيمانه إلا بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله جميعا لا تفرق بين أحد من رسله.

التربية والتنشئة الدينية

وكان من بين الجلسات المتوازية فى المؤتمر، تلك التى ناقشت القضايا التى ترتبط بالتربية والتنشئة الدينية فى المجتمعات التقليدية والتعددية، وطرح الدور الذى تقوم به مؤسسات التنشئة الاجتماعية وجماعات الأصدقاء أو النظراء فى التشكيل الدينى لشخصية النشء والمراهقين والشباب.

وقد تم ذلك من خلال بحوث علمية متعمقة تتعلق بإعداد الإنسان وبناء شخصيته كى يعيش بسلام وأمن فى المجتمع متعدد الأديان، ومتعدد التوجهات ومتعدد القيم.

حيث نوقشت فى هذا الإطار قضايا تدور حول التربية والتنشئة الدينية فى البيت والمدرسة والمؤسسات الدينية كالمسجد والكنيسة، ونمو الشخصية من الجوانب الدينية والاجتماعية والشخصية.

ومناقشة هذه القضايا استغرقت جلستين قدم فى كل منهما بحثان حيث خصصت إحدى الجلسات للتربية الإسلامية، والأخرى للتربية المسيحية، كما قدم فى جلسة أخرى بحث حول أثر تدريس ديانات متعددة داخل المدارس، كما خصصت جلسة لمناقشة أثر جماعات الأصدقاء أو النظراء، وقدم فى هذا الإطار بحث من المنظور الإسلامى والمنظور المسيحى.

وخصصت كذلك جلسة لمناقشة أثر التعليم الدينى المتعدد والتحولات فى القيم والمعايير الدينية والأخلاقية، فضلا عن مناقشة قضية تربوية واجتماعية مهمة حول التعليم الدينى داخل مجتمع علمانى متعدد الثقافات والتوجهات الفكرية والاجتماعية والدينية، وذلك من خلال الأبحاث التى تضمنت عدة نماذج من المجتمعات كالمجتمع التركى والمجتمع الهولندى.

كان أيضا من بين البحوث المهمة التى تضمنها مؤتمر الحوار الإسلامى المسيحى بهولندا تلك التى دارت حول التعليم الدينى وارتباطه بثقافة التسامح والسلام.

تشكيل السلوك الدينى

قدم الدكتور نبيل السمالوطى للمؤتمر بحثا مهما حول دور الأصدقاء فى تشكيل السلوك الدينى لبعضهم البعض سواء فى الاتجاه السوى أو الاتجاه الانحرافى.. حيث أوضح فيه أهمية الدور الذى يلعبه الأصدقاء فى مرحلة الطفولة المتأخرة حتى سن ١٢ سنة ومرحلة المراهقة التى تمتد إلى سن ١٨ سنة.

وهذه المرحلة لها خصائصها المتميزة والتى تتمثل فى الاستقلال عن السلطة الأسرية والتمرد على كل الضغوط المجتمعية، ومحاولة إثبات الذات والاستقلال وإشباع الحاجة إلى الانتماء من خلال جماعات نظراء أو أصدقاء أو جماعات سن متماثلة وأثر هذه الجماعات فى

تشكيل السلوك الدينى يتوقف على نوع التربية الأسرية، وجرعة التربية الدينية التى يتلقاها الفرد فى الأسرة.. وشكل القدوة التى عايشها الطفل.. فهل كان أبوه وأمه قدوة صالحة أمامه.. وهل كانا حريصين على غرس منظومة القيم والعقيدة الصحيحة فى نفسه.. وهل يلعبان دورا مؤثرا فى إرشاد الطفل والمراهق والاستماع إليه وإزالة الحواجز المصطنعة التى قد تحول دون إفضاء الطفل أو المراهق بأسراره للأم والأب، وهل يقوم الآباء بأدوارهم التربوية والإرشادية وهل يقومون بدور الرقابة التربوية الهادفة المتزنة على الأبناء.. الرقابة على القراءة وعلى الصداقة وعلى المشاهدة فى القنوات الفضائية وعلى التعامل مع الانترنت.. إلخ.

كل هذا يحدد قدرة جماعة الأصدقاء على التأثير فى بقية أفراد الجماعة فإذا كان هناك خلل فى التربية الأسرية فى أى جانب من الجوانب زادت الفرصة أمام جماعة الأصدقاء للتأثير بعضها فى بعض، بحيث يكون هذا التأثير فى الاتجاه السوى، أو الاتجاه المنحرف حسب طبيعة ونوعية أعضاء هذه الجماعة.

وقال د. السمالوطى: لقد استخدمت فى تفسير انحراف بعض المراهقين بسبب انقيادهم لبعض جماعات الأصدقاء المنحرفة، بعض النظريات مثل نظريات علم الإجرام وعلم الاجتماع الجنائى، وفى مقدمتها نظرية المخالطة الفارقة لصاحبها «إدوين سوذرلاند» خاصة وأن الباحث اختبر هذه النظرية سنة ٢٠٠١م بالتطبيق على مجموعة من الجناح المودعين بإحدى مؤسسات التربية الاجتماعية فى مصر.

ومن خلال المناقشات مع المسيحيين والجمهور أوضح الباحث أننا نربى أبناءنا المسلمين على التسامح وقبول الآخر وعلى احترام حرياتهم فى الاختيار، وعلى عدم ازدراء أى دين، وعلى عدم الإساءة إلى أى إله يعبده أبناء دين آخر وقد تم فى هذا الاستشهاد بالكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة.

وخلص البحث إلى أهمية التربية الدينية والرقابة الحكيمة على نوعية الصداقات التى يتعامل معها أبناؤنا، ويكون هناك اقتراب نفسى وروحى وانفعالى واجتماعى بين الآباء وأبنائهم وأن يحرص الآباء على تحصين أبنائهم بالعقيدة الصحيحة والقيم الدينية الأصيلة.

الجوانب المشرقة فى إسلامنا الحنيف

لقد أثبت هذا المؤتمر أهمية الحوار من خلال المناقشات والحوار العلمى البناء خاصة وأن الكثير من علماء اللاهوت وأساتذة التربية والاجتماع والإنسانيات الذين حضروا وشاركوا ببحوثهم كانوا فى أمس الحاجة لمعرفة الجوانب المشرقة من ديننا الإسلامى الحنيف، والفهم الصحيح لإسلامنا فى وسطيته، بما نأمل أن ينعكس إيجابيا فى تصحيح صورة الإسلام فى مناهجهم الدراسية وفى أجهزة الإعلام والبعد عن التعصب الأعمى.

ومن إيجابيات هذا المؤتمر أن الهولنديين استقبلوا آراء العلماء المسلمين بكل الإعجاب، وأحدث ذلك نوعا من تقارب الآراء والتعرف على ديننا الإسلامى السمح والتركيز على المشتركات الثقافية بين جميع الأديان والكتب السماوية.

﴿ فَسْئَلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور
علي جمعة
مفتي جمهورية مصر العربية

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لهذا السؤال:

قراءة القرآن للميت

● **هل يصل ثواب قراءة القرآن للميت وهل تفيده أم لا؟ وهل يجوز قراءة الفاتحة والصمدية على الميت في المسجد؟**

● الجواب: جاء الأمر الشرعي بقراءة القرآن الكريم على جهة الإطلاق، ومن المقرر أن الأمر المطلق يقتضي عموم الأمكنة والأزمنة والأشخاص والأحوال؛ فلا يجوز تقييد هذا الإطلاق إلا بدليل، وإلا كان ذلك ابتداعاً في الدين بتضييق ما وسعه الله ورسوله ﷺ.

وعلى ذلك فقراءة القرآن الكريم في المسجد وعند القبر قبل الدفن وأثناءه وبعده مشروعة ابتداء بعموم النصوص الدالة على مشروعية قراءة القرآن الكريم، بالإضافة إلى ورود أحاديث عن النبي ﷺ وآثار كثيرة عن السلف الصالح في خصوص ذلك ذكرها الإمام أبو بكر الخلال الحنبلي (ت ٣١١هـ) في جزء «القراءة على القبور» من كتاب «الجامع» ومثله الحافظ شمس الدين بن عبدالواحد المقدسي الحنبلي في جزء ألفه في هذه المسألة، والإمام القرطبي المالكي (٦٧١هـ) في كتابه «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة»، والحافظ السيوطي الشافعي (ت ٩١١هـ) في «شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور»، والحافظ السيد عبدالله بن الصديق الغماري (ت١٤١٣هـ) في كتاب «توضيح البيان لوصول ثواب القرآن»، وغيرهم ممن صنف في هذه المسألة.

١ - فمن الأحاديث الصحيحة الصريحة في ذلك:

ما رواه عبدالرحمن بن العلاء بن اللجلاج، عن أبيه قال: قال لي أبي - اللجلاج أبو خالد -: يا بني! إذا أنا مت فألحدني، فإذا وضعتني في لحدي فقل: بسم الله، وعلى ملة رسول الله، ثم سن على التراب سناً - أي ضعه وضعاً سهلا - ثم اقرأ عند رأسي بفاتحة البقرة وخاتمتها، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك. أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، قال الهيثمي: ورجاله موثوقون.

وقد روى هذا الحديث موقوفاً على ابن عمر رضي الله عنهما. كما أخرجه الخلال في جزء «القراءة على القبور» والبيهقي في «السنن الكبرى» وغيرهما، وحسنه النووي وابن حجر.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا مات أحدكم فلا تحبسوه، وأسرعوا به إلى قبره، وليُقرأ عند رأسه بفاتحة الكتاب، وعند رجليه بخاتمة سورة البقرة في قبره» أخرجه الطبراني والبيهقي في شعب الإيمان وإسناده حسن كما قال الحافظ في الفتح، وفي رواية «بفاتحة البقرة» بدلا من «فاتحة الكتاب».

وفي المسألة أحاديث أخرى، لكنها واهية الأسانيد:

منها حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه عن النبي ﷺ قال: «من مر على المقابر، وقرأ (قل هو الله أحد) إحدى عشرة مرة، ثم وهب أجره للأموات، أعطي من الأجر بعدد الأموات» اخرجه الخلال في «القراءة على القبور» والسمرقندي في «فضائل قل هو الله أحد» والسلفي. ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من دخل المقابر ثم قرأ فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد وألهاكم التكاثر ثم قال: اللهم إني قد جعلت ثواب ما قرأت من كلامك لأهل المقابر من المؤمنين والمؤمنات، كانوا شفعاء له إلى الله تعالى» خرجه أبو القاسم الزنجاني في «فوائده». ومنها حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من دخل المقابر، فقرأ سورة يس، خفف الله عنهم، وكان له بعدد من فيها حسنات» خرّجه عبدالعزيز صاحب الخلال.

قال الحافظ شمس الدين بن عبدالواحد المقدسي الحنبلي في جزئه الذي ألفه في هذه المسألة: «وهذه الأحاديث وإن كانت ضعيفة، فمجموعها يدل على أن لذلك أصلا، وأن المسلمين مازالوا في كل مصر وعصر يجتمعون ويقرءون لموتاهم من غير نكير، فكان إجماعاً» اهـ.

٢ - وجاءت السنة بقراءة سورة (يس) على

الموتى، في حديث معقل بن يسار رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اقرءوا (يس) على موتاكم» رواه أحمد وأبوداود ابن ماجه وصححه ابن حبان والحاكم.

قال القرطبي في «التذكرة»: «وهذا يحتمل أن تكون هذه القراءة عند الميت في حال موته، ويحتمل أن تكون عند قبره» أهـ.

قال الحافظ السيوطي في «شرح الصدور»: «وبالأول قال الجمهور كما تقدم في أول الكتاب، وبالثاني قال ابن عبدالواحد المقدسي في الجزء الذي تقدمت الإشارة إليه، وبالتعميم في الحالتين قال المحب الطبري من متأخري أصحابنا» أهـ.

وقال ابن حجر الهيتمي في «الفتاوى»: «أخذ ابن الرفعة وغيره بظاهر الخبر، وتبع هؤلاء الزركشي فقال: لا يبعد – على القول باستعمال اللفظ في حقيقته ومجازه – أنه يُندب قراءتها في الموضعين» أهـ.

٣ – كما جاء الشرع الشريف بقراءة سورة الفاتحة على الجنازة،؛ وذلك لأن فيها من الخصوصية في نفع الميت وطلب الرحمة والمغفرة له ماليس في غيرها، كما في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أم القرآن عوض عن غيرها، وليس غيرها عوضاً عنها» رواه الدار قطني وصححه الحاكم، وبوّب لذلك الإمام البخاري في صحيحه بقوله (باب قراءة فاتحة الكتاب على الجنازة)، وهذا أعم من أن يكون في صلاة الجنازة أو خارجها: فمن الأحاديث ما يدل على أنها تقرأ في صلاة الجنازة، ومنها ما يدل على أنها تقرأ عند الدفن أو بعده كحديث ابن عمر السابق عند الطبراني وغيره، ومنها ما يدل بإطلاقه على كلا الأمرين؛ كحديث أم عفيف النهدية رضي الله عنها قالت: «بايعنا رسول الله ﷺ حين بايع النساء؛ فأخذ عليهن أن لا تحدثن الرجل إلا محرما، وأمرنا أن نقرأ على ميتنا بفاتحة الكتاب» رواه الطبراني في المعجم الكبير، وحديث أم شريك رضي الله عنها قالت: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نقرأ على الجنازة بفاتحة الكتاب» رواه ابن ماجه.

٤ – واستدل العلماء على قراءة القرآن عند القبر أيضا بحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مر النبي ﷺ على قبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان من كبير» ثم قال: «بلى، أما أحدهما فكان يسعى بالنميمة، وأما أحدهما فكان لا يستتر من بوله» قال: ثم أخذ عوداً رطبا فكسره باثنتين ثم غرز كل واحد منهما على قبر، ثم قال: «لعله يخفف عنهما مالم ييبسا» متفق عليه.

قال الخطابي: «فيه دليل على استحباب تلاوة الكتاب العزيز على القبور، لأنه إذا كان يرجى عن الميت التخفيف بتسبيح الشجر، فتلاوة القرآن العظيم أكبر رجاء وبركة» أهـ.

وقال القرطبي في «التذكرة»: «وقد استدل بعض علمائنا على قراءة القرآن على القبر بحديث العسيب الرطب الذي شقه النبي ﷺ باثنين.. قالوا: ويستفاد من هذا غرس الأشجار وقراءة القرآن على القبور، وإذا خفف عنهم بالأشجار فكيف بقراءة الرجل المؤمن القرآن». قال: «ولهذا استحب العلماء زيارة القبور، لأن القراءة تحفة الميت من زائره» أهـ.

وقال النووي في «شرح مسلم»: واستحب العلماء قراءة القرآن عند القبر لهذا الحديث؛ لأنه إذا كان يرجى التخفيف بتسبيح الجريد فتلاوة القرآن

أولى، والله أعلم» أهـ.

٥ – وقد صلى النبي ﷺ صلاة الجنازة على القبر غير مرة كما جاء في الصحيحين وغيرهما والصلاة مشتملة على قراءة الفاتحة والصلاة على النبي ﷺ والذكر والدعاء، وما جاز كله جاز بعضه.

كما أخذ العلماء وصول ثواب القراءة إلى الميت من جواز الحج عنه ووصول ثوابه إليه؛ لأن الحج يشتمل على الصلاة، والصلاة تقرأ فيها الفاتحة وغيرها، وما وصل كله وصل بعضه، وهذا المعنى الأخير وإن نازع فيه بعضهم إلا أن أحدا من العلماء لم يختلف في أن القارئ إذا دعا الله تعالى أن يهب للميت مثل ثواب قراءته فإن ذلك يصل إليه بإذن الله، لأن الكريم إذا سئل أعطى وإذا دعي أجاب.

وعلى ذلك جرى عمل المسلمين جيلا بعد جيل وخلفا عن سلف من غير نكير، وهذا هو المعتمد عند أصحاب المذاهب المتبوعة، حتى نقل الحافظ شمس الدين بن عبدالواحد المقدسي الحنبلي الإجماع على ذلك – كما سبق – ونقله أيضا الشيخ العثماني في كتابه «رحمة الأمة في اختلاف الأئمة»، ونص عبارته في ذلك: «وأجمعوا على أن الاستغفار والدعاء والصدقة والحج والعتق تنفع الميت ويصل إليه ثوابه، وقراءة القرآن عند القبر مستحبة» أهـ.

٦ – ومن الآثار في ذلك عن السلف الصالح:

ما أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» عن الإمام الشعبي رحمه الله قال: «كانت الأنصار يقرءون عند الميت بسورة البقرة» وأخرجه الخلال في «القراءة على القبور» بلفظ «كانت الأنصار إذا مات لهم ميت اختلفوا إلى قبره يقرءون عنده القرآن».

وأخرج الخلال عن إبراهيم النخعي رحمه الله قال: «لا بأس بقراءة القرآن في المقابر» وأخرج أيضا عن الحسن بن الصباح الزعفراني قال: «سألت الشافعي عن القراءة عند القبور فقال: «لا بأس بها».

وأخرج أيضا عن علي بن موسى الحداد قال: «كنت مع أحمد بن حنبل ومحمد بن قدامة الجوهري في جنازة، فلما دفن الميت جلس رجل ضرير يقرأ عند القبر، فقال له أحمد: يا هذا! إن القراءة عند القبر بدعة، فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد بن حنبل: يا أبا عبدالله! ما تقول في مبشر الحلبي؟ قال: ثقة، قال: – يعني أحمد – كتبت عنه شيئا؟ قال: نعم؛ أخبرني مبشر عن عبدالرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه: أنه أوصى إذا دفن أن يُقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة وخاتمتها، وقال: سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يوصي بذلك. فقال له أحمد: فارجع وقل للرجل يقرأ.

وأخرج أيضا عن العباس بن محمد الدوري أنه سأل يحيى بن معين عن القراءة على القبر، فحدثه بهذا الحديث.

٧ – وقد نص أصحاب المذاهب المتبوعة على ذلك:

– فجاء في «الفتاوى الهندية» على مذهب السادة الحنفية: «ويستحب إذا دفن الميت أن يجلسوا ساعة عند القبر بعد الفراغ بقدر ما ينحر جزور ويقسم لحمها؛ يتلون، ويدعون للميت أهـ، وذكر أن ذلك قول الإمام محمد بن الحسن رحمه الله، وأن مشايخ الحنفية أخذوا به.

– وأما السادة المالكية: فالمعتمد عندهم استحباب ذلك؛ ففي حاشية الدسوقي على «الشرح الكبير»: «ذهب ابن حبيب إلى الاستحباب وتأول

ما في السماع من الكراهة قائلا: إنما كره ذلك مالك إذا فعل ذلك استنانا، نقله عنه ابن رشد، وقال أيضا ابن يونس، واقتصر اللخمي على استحباب القراءة ولم يعول على السماع، وظاهر «الرسالة» أن ابن حبيب يستحب قراءة يس، وظاهر كلام غيرهما أنه استحب القراءة مطلقا أهـ.

وجاء في «النوازل الصغرى» لشيخ الجماعة سيدى المهدى الوزاني المالكي: «وأما القراءة على القبر: فنص ابن رشد في «الأجوبة»، وابن العربي في «أحكام القرآن» له، والقرطبي في «التذكرة» على أنه ينتفع بالقراءة، أعني الميت، سواء قرأ في القبر أو قرأ في البيت» اهـ ونقله عن كثيرين من أئمة المالكية؛ كأبي سعيد بن لب، وابن حبيب، وابن الحاجب، واللخمي، وابن عرفة، وابن المواق، وغيرهم.

– أما السادة الشافعية: فقد قال الإمام النووي في «المجموع»: قال أصحابنا: ويستحب للزائر أن يسلم على المقابر، ويدعو لمن يزوره ولجميع أهل المقبرة، والأفضل أن يكون السلام والدعاء بما يثبت في الحديث، ويستحب أن يقرأ من القرآن ما تيسر ويدعو لهم عقبها، نص عليه الشافعي، واتفق عليه الأصحاب» أهـ.

وقال في «الأذكار»: «ويستحب أن يقعد عنده بعد الفراغ ساعة قدر ما ينحر جزور ويقسم لحمها، ويشتغل القاعدون بتلاوة القرآن، والدعاء للميت، والوعظ، وحكايات أهل الخير، وأحوال الصالحين. قال الشافعي والأصحاب: يستحب أن يقرءوا عنده شيئاً من القرآن؛ قالوا: فإن ختموا القرآن كله كان حسنا» أهـ.

وقال في «رياض الصالحين»: «قال الشافعي – رحمه الله – ويستحب أن يقرأ عنده شئ من القرآن، وإن ختموا القرآن عنده كان حسنا» أ.هـ.

– وكذلك السادة الحنابلة؛ صرحوا بجواز ذلك.

قال العلامة المرداوي في «الإنصاف»: «قوله (ولا تكره القراءة على القبر في أصح الروايتين) وهذا المذهب، قاله في «الفروع»، ونص عليه – يعني الإمام أحمد –، قال الشارح: هذا المشهور عن أحمد، قال الخلال وصاحبه: المذهب رواية واحدة: لا تكره، وعليه أكثر الأصحاب؛ منهم القاضي، وجزم به في «الوجيز» وغيره، وقدمه في «الفروع»، و«المغني» و«الشرح» وابن تميم، و«الفائق»، وغيرهم» أهـ.

٨ والمتصفح لكتب السير والتراجم والتواريخ يرى عمل السلف على ذلك وتتابع الأمة عليه من غير نكير، بما في ذلك السادة الحنابلة وأصحاب الحديث، ويكفينا في ذلك ما ذكره الحافظ الذهبي في «سير أعلام النبلاء» في ترجمة أبي جعفر الهاشمي الحنبلي (ت ٤٧٠هـ) شيخ الحنابلة في عصره، قال: «ودفن إلى جانب قبر الإمام أحمد، ولزم الناس قبره مدة حتى قيل: ختم على قبره عشرة آلاف ختمة» أهـ.

حتى إن الشيخ ابن تيمية رحمة الله تعالى – وهو الذي ادعى أن قراءة القرآن على القبر بدعة مخالفا بذلك ما عليه عمل السلف والخلف – قد ذكر أهل السير في ترجمته أن الناس اجتمعوا لختم القرآن له على قبره وفي بيوتهم كما ذكره ابن عبد الهادي الحنبلي وغيره، والتاريخ محنة المذاهب كما يقولون.

والله سبحانه وتعالى أعلم

قراءة في كتاب

د/ محمد عبد الله دراز

الميزان بين السنة والبدعة

إعداد وتحقيق الشيخ أحمد مصطفى طهطه

للأستاذ/ عادل خفاجة

تمر الأيام وتتجدد العصور، ويأتي العلم بكل جديد يزيد من أنشطة الناس فتحدث أقضية يحارون فيها، هل فعلها من قبيل الابتداع المنهي عنه في الدين؟! ويزيد من حيرتهم هؤلاء المفتونون بالعقل، وبخاصة إذا اقترن بهذه الفتنة – بالعقل وإنجازاته – جهل بأحكام الشرع الذي ينتظم حياة المسلم ومعاملاته.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ قوله: «كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار».[1]

ويقول ﷺ: «... وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة قالوا ومن هي يا رسول الله قال: ما أنا عليه وأصحابي».[2]

وبين تحذيره ﷺ أمته من اتباع البدع وبين تصريحه بأن أهل الفرقة الناجية هم الذين يتبعون «سنته ﷺ وما عليه صحابته ـ رضوان الله عليهم ـ وجب على أهل العلم أن يوضحوا لعامة المسلمين كل سلوك جديد أو تعامل ليس له قياس من أعمال رسول الله وصحابته الكرام».

وحتى لا يخرج المفتونون بالعلم من الدين ويطالبون بذلك! أو يطالب المتنطعون بإلزام الناس بما فوق طاقاتهم بحجة التأسي برسول الله ﷺ، وهو الذي قال: «إني لست مثلكم، إني أظل عند ربي فيطعمني ويسقيني»[3] وذلك عندما علم بعض الناس أن النبي ﷺ واصل في رمضان

«١» سنن النسائي: كيف الخطبة.
«٢» سنة الترمذي. باب ما جاء في افتراق هذه الأمة.
«٣» مصنف ابن أبي شيبة.

فواصلوا مثله، وما فعلوا ذلك إلا تأسيًا وحبًا للرسول ﷺ لكنه ﷺ نهاهم.

من أجل ذلك وجب على العلماء توضيح السبيل وإظهار أعماله ﷺ على وجه تفصيلي، لا لبس فيه، فيُعلم ما يكون من فعله خاصًا به ﷺ كزواجه بأكثر من أربع، وما يكون من فعله واجب الاتباع من سائر المسلمين.

من أجل ذلك كان هذا «الميزان»، نعني: كتاب «الميزان بين السنة والبدعة» لمؤلفه الأستاذ الدكتور محمد عبدالله دراز.

تاريخ الكتاب

هذا البحث «الميزان بين السنة والبدعة» كان يمليه الشيخ - رحمه الله - على طلابه في أول العقد الرابع من القرن العشرين وريقات معدودة، وشاء الله أن يسافر الشيخ في بعثة علمية لفرنسا في مطلع عام ١٩٣٦ ومكث بها أحد عشر عامًا وأنيطت به عدة وظائف بعد عودته إلى مصر، حتى انتقل إلى جوار ربه سنة ١٩٥٨م، فظن تلاميذه أنه لم يكمل ذلك البحث القيم الذي أملاهم بعضه وكانوا يتمنون أن يروه كتابًا بين أيديهم.

حتى أذن الله لفضيلة الشيخ أحمد مصطفى فضلية أن يحمل على عاتقه مهمة البحث عن تراث الشيخ، وتكرم الأبناء وفتحوا له مكتبة والدهم فكان من بين ما وجد هذا البحث الهام «الميزان بين السنة والبدعة» فقام بتحقيقه مع ثلاثة كتب أخرى من تراث الشيخ هي: «دراسات إسلامية» و«حصاد قلم» و«الصوم تربية وجهاد» ويبقى أربعة كتب ستخرجها دار القلم بالكويت تباعًا وهي:



د. محمد عبدالله دراز

الشيخ احمد فضلية

١- «رسائل لها تاريخ» ويشمل رسائل الشيخ إلى إخوانه العلماء وتلاميذه ورسائلهم إليه.

٢- «زاد المسلم في الدين والحياة» وتضم أحاديثه الإذاعية.

٣- «حول رسالة دستور الأخلاق في القرآن» وهي دراسة عن أطروحته للدكتوراة.

٤- «محمد عبدالله دراز سيرة وفكر».

محقق الكتاب

قام بتحقيق هذا الكتاب فضيلة الشيخ أحمد مصطفى فضلية المولود بقرية محلة دياى - التي ولد بها العالم الكبير الدكتور محمد عبدالله دراز صاحب هذا الكتاب.

وكان الشيخ فضلية أحد العشرة الأوائل على معهد شبراخيت الثانوي الأزهري، ثم حصل على العالمية «تخصص تاريخ» وهو الآن شيخ معهد محلة دياى الأزهري، وله عدد من المؤلفات نذكر منها:

- محمد الغزالي وشهادة التاريخ.
- ملحمة فلسطين. - الصوم والأخلاق.

وله سلسلة تراجم العلماء المعاصرين صدر منها:

- محمد عبد الله دراز سيرة وفكر.
- عبدالعظيم المطعني - حياته وجهاده في خدمة السنة.
- وله العديد من المقالات والمشاركات الإذاعية المسموعة والمرئية.

وقد نشط الشيخ فضلية منذ عام ١٩٨٩م لخدمة التراث جمعًا ونشرًا وتحقيقا، فأصبحت له حصيلة طيبة من الكتب لكوكبة من أعلام الأزهر منهم الشيخ: محمد محمد المدني، والدكتور محمد محمد أبو شهبة، والشيخ معوض عوض إبراهيم، والدكتور محمد عبدالله دراز صاحب هذا الكتاب الذي نتناوله بالقراءة في هذا العدد.

يقع الكتاب في مائة واثنين وسبعين صفحة من مقاس ١٧ × ٢٤ سم، وصدر عن دار القلم - بالكويت.

جاءت الصفحات الأربعون الأولى تضم تقديمًا للكتاب بقلم فضيلة الدكتور محمد محمد أبو سيد أحمد مدرس الفقه العام بكلية الشريعة والقانون، ثم مقدمة بقلم الشيخ أحمد فضلية محقق الكتاب، ثم ترجمة المؤلف وختمت هذه الصفحات بكلمة ضافية لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي عضو مجمع البحوث الإسلامية ورئيس تحرير مجلة الأزهر عن الشيخ دراز وأعماله.

معنى البدعة والسنة

يبدأ الكتاب بالتعريف اللغوي لكل من البدعة والسنة، ثم استعمال الشرع لهما، ويفرق المؤلف بين استعمال علماء الشريعة في الصدر الأولى لها، واستعمال علماء الشريعة بعد الصدر الأول.

وهذه التفرقة لابد أن تكون محل الاعتبار، حتى لا تختلط المفاهيم.

ثم يطرح المؤلف سؤالين هما من الأهمية بمكان:

- الأول: هل كل مخالفة للشرع تسمى بدعة؟
- والآخر: هل تختص البدع بقسم العبادات من الشريعة؟

وعن السؤال الأول يجيب قائلاً:

ليس كل مخالفة للشرع تسمى بدعة، وإنما البدعة جعل هذه المخالفة دينًا، فمن تمحل لمعصية حتى صبغها بصبغة الدين وأدخلها في حدود الشريعة فقد ابتدع.

وعن السؤال الآخر يقول: «سواء أكان هذا العمل من قسم العبادات: كالصلاة والصوم، أم من قسم العادات: كالبيوع والأنكحة والأطعمة والأشربة، فكلاهما قد حددت له الشريعة حدودًا واسعة أو ضيقة، لا يحل لأحد تغييرها ولا تبديلها ولا جرم إذًا أن كل تغيير يُستحدث في هذا القسم أو ذاك يكون داخلاً في حقيقة الابتداع في الدين متى ثبت تغيير لتلك الحدود.

ولا نعني بالتغيير مجرد المخالفة العملية، فقد علمت أن هذا وحده لا يسمى ابتداعا، وإنما نعني به التغيير في التشريع بجعل غير المشروع مشروعا، والمشروع غير مشروع، أو التغيير في العمل مع اعتقاد مشروعية ذلك وارتكابه باسم الدين نفسه، هذا هو ما نسميه ابتداعا ولا يسع أحد أن يخالف في تسميته بذلك.

منزلة السنة

وفي بحثه الجاد عن الميزان وعن التحديد الفارق يقول المؤلف:

«إذا كانت السنة هي الطريقة التي رسمها لنا النبي ﷺ لنسلكها في عقائدنا، وفي أخلاقنا، وفي أقوالنا وأعمالنا في مصالح دنيانا وآخرتنا، وكانت البدعة هي إحداث طريقة مخالفة لها في نوع من هذه الأنواع مع جعلها دينا بدل ذلك الدين الذي شرعه الله على لسان رسوله، كان العلم بالسنة والبدعة هو علم الدين بجملته، أصوله، وفروعه ظاهره وباطنه، وإن كان أكثر الخائضين في السنة والبدعة الآن لا يجاوزون بهما دائرة ضيقة من الأعمال الفرعية الظاهرية، العبادية.

صعوبة تطبيق حدى السنة والبدعة واشتباه الأمر بينهما على كثير من الناس

بعد أن وضع المؤلف هذا التعريف الكلي لكل من السنة والبدعة، وأوضح أنه لا خلاف حول هذا المعنى بين أي من المسلمين، وإنما الخلاف أو النزاع يكون في المقدمات الجزئية التي تثبت لنا في كل أمر من الأمور المحدثة انطباق موضوع هذا القانون عليه أو عدم انطباقه، حتى إذا ثبت لنا أن هذا المحدث أو ذاك ليس من الدين، وضعنا عليه وسم البدعة، فباء بإثمها، وإلا أدخلناه في حظيرة السنة وأجرينا عليه حكمها».

ثم يتساءل: ترى ما الميزان الذي تعرف به ما يعد من الدين وما لا يعد منه؟

ويجيب عن هذا التساؤل قائلا:

«إن كل ما فعله النبي ﷺ أو فُعل في عصره وأقره فهو السنة المطلوبة وما لم يفعله فهو البدعة المردودة كائنا ما كان «لو كان ذلك كذلك» إذا لهان الفصل في القضية حقا واستبان فيها الخيط الأبيض من الخيط الأسود لأول نظرة في السيرة النبوية الكريمة.

ثم يزيد الأمر وضوحا حين يقول:

«ولكن الأمر ليس كذلك.. فليس كل ما فعله النبي ﷺ يكون في حقنا مأمورا به أو مأذونا في فعله، ولكل ما تركه يكون بالنسبة لنا منهيا عنه أو مأذونا في تركه، بل لذلك تفصيل معروف في محله، وكذلك ليست كل الأفعال التي وقعت في زمن النبي ﷺ وأقرها كافية لنا في تحديد السنة المطلوبة، فهناك صورة الحياة العربية وأسلوب المعيشة التي كان عليها العرب زمن النبوة في ألوان طعامهم وشرابهم، وأشكال ملابسهم ومساكنهم وأنواع صناعتهم ومرافقهم أفنعد كل من خالف عوائد العرب في ذلك الزمان مبتدعا؟ حتى فيما

لم يرد أمرٌ به ولا نهي عن خلافه؟

ثم يجيب المؤلف عن هذه التساؤلات قائلا:

إن ذلك يفضي بنا - كما قال الشاطبي - إلى شناعة شديدة جدا، فإن إلزام العالم كله عادة واحدة وصورة واحدة مناف لما نعلمه قطعا من قواعد الشريعة وأنها قد روعي فيها اختلاف الطبائع البشرية واختلاف العوائد في الأزمان والأقطار والأشخاص.

ثم هو مناقض لنصوص الشريعة التي تأبى التضييق والحرج.

وبعد أن عرض المؤلف للعديد من المسائل التي يبدو فيها الحرج يقول:

«.. إن الله ندبنا إلى التدبر في معاني كتابه، وأخبرنا أن الميزان يعتبر بما فيه من مواضع العبرة، ثم أجرى سننه التشريعية على وجه يمهد لنا الطريق فيها إلى ذلك الاعتبار، إذ وضع بجانب أكثر الأحكام عللها وغاياتها، لنتخذ منها أصولا ومقاييس نرد إليها أشباهها ونظائرها..».

ثم يواصل المؤلف بيانه للميزان فيقول في موضع آخر:

«على أن نزول الأحكام الشرعية مقترنة بأسبابها من الوقائع والنوازل كان من شأنه أن يرشد إلى الاتجاه الذي يسير فيه التشريع، وأنه يبني الحكم في كل مسألة وفق مصلحة معينة يرمي إلى تحقيقها من وراء ذلك الحكم».

ثم يقول: «ولم يقف الأمر عند هذا الحد أو ذاك، بل إن النبي ﷺ أخذ يرسم لأصحابه طريق النظر في مقاصد التشريع، ويدربهم بأسلوب عملي حكيم على استنباط الأحكام منها، فكان يستشيرهم في المسائل التي لم ينزل عليه وحي فيها ويدعهم يتشاورون بين يديه، فيدلي كل برأيه وحجته، ويريهم وجه القبول لما يقبله والرد لما يرده.

كما فعل في مسألة الإعلام بوقت الصلاة قبل الأذان وفي مسألة الأسرى.. وغيرها من شئون الحرب.

وما دام في المسألة تشاور وإعمال عقل، فلم يشأ المؤلف أن يترك هذا الجانب دون أن يوضح حدوده وحدود العقل فيتساءل:

«غير أن الشريعة حين أطلقت العقل من عقاله، وفتحت له الباب للبحث والنظر.. هل نقول إنها بذلك ألقت له حبله على غاربه، وجعلت له القواعد العامة حاكمة أبدا على جزئياتها، والغايات المصلحية كفيلة دائما بتبرير واسطتها، وخولته حق إهدار النصوص في سبيل الأخذ بتلك الكليات والمقاصد؟.

ثم يجيب عن هذا التساؤل بأن الأمر لو استقام على ذلك لوسع من أنواع الضلالة ما لا يقف عند حد، وحسبك من فساد هذا المقياس أنه هو الأساس الذي قامت عليه حجة المشركين في عبادتهم الأصنام إذ قالوا:

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾

الزمر / ٣

ويقف المؤلف ينظر في أمر السنة والبدعة.

فلا يستطيع أن يحبس نظره على خصوص النصوص وصور الوقائع العينية، وإلا بقيت الشريعة ناقصة محتاجة إلى تكميل أو وقفت جامدة لا لين فيها، وقتية لا بقاء لها.

ولا يستطيع أن يعتمد على الكليات والمقاصد وحدها، وإلا لخرج بها إلى اللين الذى لا عزيمة فيه، والسعة التى لا حدود لها حتى تصبح وضعًا عقليًا لا هديا سماويا.

ولا يستطيع أن يأخذ بأى هذين النظرين شاء وإلا لتناقضت الأنظار وكانت الفوضى والاضطراب فى التشريع.

ثم يصل المؤلف إلى القول بضرورة الأخذ بهما معاً فيقول:

«نعم لابد من الجمع بين هذين الطرفين على وجه تتحقق به تلك المرونة التشريعية التى هى خاصة الدين الإسلامى كما وصفه مبلغه الأمين حيث يقول ﷺ: «إن هذا الدين يسر»(٤) و«إن هذا الدين متين»(٥).

لأن ذلك هو الوسط الذى لا إفراط فيه ولا تفريط وهو الصراط المستقيم وهو السنة التى كان عليها النبى الكريم ﷺ.

وما أن يصل القارئ مع المؤلف إلى نقطة اتفاق حتى يفاجئه بسؤال وآخر فيقول:

ولكن ما هى حدود ذلك الوسط الجامع بين متانة المحافظة على النصوص والخصوصيات من جانب وبين سهولة الانقياد للكليات والعلل والتأويلات من جانب آخر؟

وما هى النسبة التى على حسبها فى كل مطلب يتركب ذلك المزيج الآخذ من كلا العنصرين بطرف قاصد؟

وهكذا يجد القارئ نفسه ـ فجأة وعن طيب خاطر ـ قد أدخله المؤلف إلى معمل لتركيب الدواء، ولابد من التزام المقادير المنضبطة للوصول إلى الدواء الناجع.

ويقر المؤلف بصعوبة الوضع، وأن المسألة تحتاج إلى دقة فيقول: «إن ها هنا موضع الصعوبة والدقة كلها، إذ ليس فى العقول ولا فى النقول ميزان منضبط متفق عليه فى تحديد القدر الذى يعد فى هذه المسألة أو تلك توسطًا واقتصادًا، والقدر الذى يعد فيها غلوًا وميلاً إلى أحد الجانبين، ولو كان لسهل الأمر، ولما رأينا اختلافاً بين علماء الإسلام فى شىء من أصول الدين ولا فى شىء من فروعه، ذلك لأنهم جميعًا ينشدون الوسط».

ثم يتساءل: فلماذا نراهم مختلفين فى الأحكام مع اتفاقهم على مصادرها وموازينها العامة؟

ويجيب المؤلف عن هذا التساؤل بأن الاختلاف فى طريقة استعمال الميزان، وتعيين موضع القسط أو الانحراف عنه فى كل مسألة.

ويزيد المؤلف المسألة إيضاحا فيقول:

(٤) رواه البخارى.
(٥) رواه الإمام أحمد.

لأن الحقائق القطعية لا تتناقض ولا تتعارض، إلا أنه بعد الاتفاق على صحة كل منها فى ذاتها وقطعيتها فى بابها، قد يقع الخلاف بعد ذلك فى رد المسألة المطلوبة إليها، إذ ليس كل حكم يؤخذ من كل موضع، بل لابد من الرجوع فى كل مسألة إلى مظانها المناسبة لها من الكتاب والسنة.

وها هنا ربما اختلف النظار فى الاهتداء إلى بعض تلك المظان، أو ربما اختلفت أنظارهم فى هذه المظان أيها أشبه وأحرى أن تؤخذ منه المسألة.

ويضرب عدداً من الأمثلة التى تؤيد وتوضح هذا القول، فذكر مسألة منع التحكيم التى ذهب إليها الخوارج أخذاً من عموم النص فى قوله تعالى:

﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ (يوسف ـ ٤٠)

غافلين عن النصوص القرآنية الأخرى التى استندت إليها الجماعة، وهى النصوص القاضية بجواز التحكيم فى بعض الجزئيات كالأبضاع وغيرها، فلما ناظرهم بها عبدالله بن عباس رجع منهم من رجع وأصر منهم من أصر.

ويعلق المؤلف على موقف الفريقين بالمعية نادرة إذ يقول: «فكان رجوع الراجعين دليلاً على أن منشأ مخالفتهم ليس هو الإعراض عن الدليل الشرعى بعد علمه، وإنما هو الغفلة عن المأخذ المناسب لهذا الحكم من بين الأدلة».

كما أن إصرار الباقين منهم لا يمكن ـ أيضًا ـ أن يكون تفريقًا بين آيات الكتاب، بل له محملان:

أحدهما: أنهم لم تبلغهم تفاصيل تلك المناظرة ودلائلها.

والثانى: أن تكون بلغتهم ولكنها لم تكن كافية لاقناعهم بخطأ مذهبهم ولا مزحزحة لهم عن الطمأنينة إلى مأخذهم، إذ لم يجدوا مسألتهم منصوصة بعينها فى تلك الجزئيات الجائزة، فدار الأمر بين أن تلحق بالعام كما فهموا فتبقى على أصلها من امتناع التحكيم فيها كما يمتنع التحكيم فى أوضاع العبادات، وبين أن تلحق بتلك الجزئيات فيجوز التحكيم فيها بالأولى.

هكذا كان لكل واحد من الفريقين مستنده من النصوص، إما فى العموم وإما فى الخصوص مع اعترافهما بصحة كل من النصين فى بابه.

وبهذا القدر من الإمتاع الذى نعيشه مع تساؤلات المؤلف وإجاباته عليها ينتقل بنا من الاختلافات النظرية إلى الاختلافات العملية فذكر حديث النبى ﷺ: «لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة».

ليتكلم عن تردد نظر المجتهدين بين النص والمعنى.

وبعد وضعه للفروض اللازمة ومناقشتها، يخلص المؤلف إلى أن الآراء الإسلامية تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- صواب مقبول هو حقيقة السنة.

٢- خطأ مردود هو عين البدعة.

٣- قسم ثالث له من البدعة وصفها وهو المخالفة لحكم الله فى الواقع.

وله من السنة حكمها وهو القبول وعدم التأثير؛ لأن صاحبه قاصد للسنة وسالك إليها

طريقًا وباذل جهده في طلبها، وإن أخطأ الحكم الواقعي، وله في خطئه كل العذر، والسنة تتسع لمذهبه في ظاهر الأمر.

ثم يواجه المؤلف هذا الإشكال على وجه الإجمال بالجواب عن سؤالين:

أحدهما: ما الحد الذي يفصل بين خلاف المبتدعين وخلاف المجتهدين؟

والآخر: ما الحد الذي يفصل بين خطأ المجتهدين وصوابهم؟

ويهدف من الإجابة عن السؤال الأول أن نستبين ما هو خارج عن السنة جزمًا، وسبيل ما هو منها أو حائم حولها.

ويهدف من السؤال الآخر أن نستبين حقيقة السنة ناصعة من بين خلافهم.

وعلى هذه الوتيرة يواصل المؤلف عرض أفكاره وطرح أسئلته ومناقشتها في إمتاع حتى نهاية الكتاب.

وبعد.. فكم هي ممتعة قراءة هذا الكتاب، وكم به من قضايا مهد المؤلف لها ذهن القارئ تمهيدًا حتى وصل إلى بغيته من تسليم القارئ لما يلقى عليه ولكن ما أصعب تلخيص هذا الكتاب لكي نقدم كل ما فيه إلى القراء، فهو ذو طبيعة خاصة لا يسمح إلا بعرض البعض.

ويخطئ من يظن أنه يقدم خلاصة دقيقة لأي من كتب الشيخ دراز، فكتاباته شديدة الاتصال والتماسك، يأخذ بعضها بحجز بعض، بل إن مقالاً لدى الدكتور دراز لا يلخصه مقال آخر.



د. رجب البيومي

وهذا ما ذهب إليه الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي في معرض كلامه عن تفسير لسورة الفاتحة كتبه الدكتور دراز، إذ يقول: وفاتحة الكتاب معروفة مشروحة وقد فسرها آلاف الشارحين في القديم والحديث ولكن الرجل المبتكر يلقى نظرة وراء السطوح الخارجية، ليرى في اللفائف المستكنة ما غاب عن سواه، حين نظر للسورة الكريمة من جهة مقاصدها ومن جهة خطابها، لأن الفاتحة في رأيه توجز المقاصد الأساسية التي عناها القرآن.

ثم يقول بعد أن قدم خلاصة المقال-: «هذه خلاصة غير دقيقة لا تغني عن صفحات رائعة كتبها الدكتور في تفسير الفاتحة، لأن مقالاً علميًا للدكتور دراز يتضمن تفسير الفاتحة لا يقوم باحتوائه تلخيص ما، فالمقال العلمي لدى الكاتب البصير لبنات يسند بعضها بعضا، وتقديم بعض اللبنات دون بعض عرض للنوع فقط، وهو عرض لا يفي بالأصل المقصود، وهبك قرأت قصة فنية في صفحات، أتستطيع تلخيصها دون أن تخل ببنائها الفني؟!

كذلك المقال العلمي التحليلي لا يلخص إلا ليدل على المثال، لا يعبر عن حقيقة المقال».

فإذا كان هذا هو الحال في مقال من مقالات الدكتور دراز فما بالنا بكتاب مثل «الميزان»؟

فالحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

بيان مجمع البحوث الإسلامية بشأن التقرير الأمريكي الخاص بالحريات الدينية في مصر



ناقش مجمع البحوث الإسلامية ـ بالأزهر الشريف ـ في جلسته الخامسة «الطارئة» والمنعقدة بتاريخ ٣٠ من ذى الحجة سنة ١٤٣١هـ الموافق ٦ من ديسمبر سنة ٢٠١٠م برئاسة فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر رئيس المجمع تقرير وزارة الخارجية الأمريكية الخاص بالحريات الدينية ـ في مصر ـ عن سنة ٢٠١٠م.

وبعد مناقشات واسعة ومستفيضة من السادة الأعضاء أصدر البيان التالي:

لقد لاحظ المجمع وجود العديد من المغالطات الصارخة فى هذا التقرير.. بعضها مرجعه الجهل بحقائق الإسلام.. وبحقائق أوضاع الأقليات فى مصر وبعضها الآخر مصدره سوء النية والرغبة في التدخل بشئون مصر الداخلية، وانتهاك سيادتها الوطنية.

وفى مواجهة هذه المغالطات، يقدم المجمع ـ للرأى العام المحلى والعالمى.. وللدوائر الأمريكية التى أعدت هذا التقرير وأصدرته.. وأيضا للأفراد والجماعات التى أمدت الإدارة الأمريكية بهذه المغالطات ـ يقدم المجمع لكل هؤلاء الحقائق التى تصحح الأكاذيب على النحو التالي:

١ ـ ليس صحيحا أن مصر تقيد حرية الاعتقاد، ولا الممارسات الدينية.. ذلك أن بناء دور العبادة ـ فى مصر ينظمه القانون.. ولبناء المساجد شروط تسعة تفوق ـ فى الضوابط ـ نظيراتها فى بناء الكنائس.

وإن نسبة عدد الكنائس.. فى مصر.. إلى عدد المواطنين المسيحيين ـ الذين يعيش كثيرون منهم فى المهاجر ـ مقاربة لنظيراتها فى المساجد المخصصة للمسلمين، وكنائس مصر وأديرتها مفتوحة الأبواب على مدار الليل والنهار.. ومنابرها حرة لا رقيب عليها.. ولا دخل للحكومة فى تعيين القيادات الدينية المسيحية على اختلاف درجاتها، بينما يتم شغل كل الوظائف الدينية الإسلامية بالتعيين من قبل الحكومة.

ومنذ عام ١٩٥٢م ضمت الحكومة الأوقاف الإسلامية، بينما ظلت الأوقاف المسيحية قائمة، تديرها الكنيسة وتحقق الحرية والاستقلال المالى للكنائس والأديرة والأنشطة الدينية المسيحية.

ولقد شاركت الدولة فى نفقات إقامة كاتدرائية الأقباط الأرثوذكس ـ بالقاهرة والتى تعد أكبر كاتدرائيات الشرق على الإطلاق.

وتقوم وزارة الثقافة ـ في مصر ـ وعلى نفقة الدولة ـ برعاية الآثار الدينية المسيحية واليهودية، مثلها مثل الآثار الإسلامية سواء بسواء.

٢ ـ أما النص الدستوري على أن دين الدولة في مصر هو الإسلام.. وأن مبادئ الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيس للتشريع، وأن اللغة العربية هي اللغة القومية لمصر.. فهو جزء أصيل من تاريخ مصر الإسلامية، الذي مضى عليه أكثر من أربعة عشر قرنا.. وهو تعبير عن هوية الدولة والمجتمع والأمة ـ مثلما تعبر العلمانية عن هوية بعض المجتمعات.. وتعبر الليبرالية عن هوية مجتمعات أخرى.. وفي هذه المجتمعات العلمانية والليبرالية تعيش أقليات إسلامية، لا تعترض على هويات المجتمعات التي تعيش فيها.

ثم إن هذه الهوية العربية الإسلامية لمصر، قد اختارتها وأقرتها اللجنة التي وضعت الدستور المصري سنة ١٩٢٣م بإجماع أعضائها، بمن فيهم القيادات الدينية المسيحية واليهودية.. ولقد صادقت الأمة على هذا الاختيار في كل التعديلات التي أجريت على هذا الدسور على امتداد عقود القرن العشرين فهي تعبير حر عن إرادة الأمة، على اختلاف أديانها وليست أمرا مفروضا على غير المسلمين.

ثم إن التشريعات الإسلامية لا تجوز على الخصوصيات الدينية للمواطنين غير المسلمين، الذين أمرت الشريعة الإسلامية «أن يتركوا وما يدينون» وعلاوة على ذلك فإن القانون الإسلامي ليس بديلا لقانون مسيحي، إذ المسيحية تدع ما لقيصر لقيصر، وإنما هو بديل للغزو القانوني الاستعماري، الذي أراد الاستعمار فرضه على بلادنا في ظل الاحتلال.. فهو قانون وطني، يعبر عن هوية المصريين والخصوصية الحضارية للشرقيين.

٣ ـ أما دعوى منع الحكومة المصرية حرية التبشير بالمسيحية، فإنها دعوى مجانبة للحق والصواب..ذلك أن لكل صاحب دين سماوي ـ في مصر ـ حرية عرض دينه، والدفاع عنه، والدعوة إليه.. أما الممنوع فهو التنصير الذي تمارسه دوائر أجنبية غربية.. والذي جاء إلى بلادنا مع الغزو الاستعماري منذ القرن التاسع عشر.

ويشهد على هذه الحقيقة أن المنصرين الأمريكيين ـ من غلاة اليمين الديني ـ قد دخلوا إلى العراق سنة ٢٠٠٣م على دبابات الغزو الأمريكي.. وهم يمارسون نشاطهم التنصيري في العراق ـ وفي أفغانستان ـ تحت حماية جيوش الاحتلال.

لذلك فإن هذا التنصير هو أمر مختلف عن حرية الدعوة إلى المسيحية، وداخل في إطار الغزو الفكري، الذي يقوم على ازدراء دين الأغلبية ـ الإسلام ـ ومنعه هو جزء من الحفاظ على الاستقلال الحضاري، والحفاظ على الأمن الاجتماعي، ومنع الفتن

الطائفية.. وليس تعصبا إسلاميا ضد المسيحية، التي يعترف بها الإسلام، ويحترم رموزها، ويحمي مقدساتها على النحو الذي يعرفه الجميع.

بل إن هذا التنصير الأجنبي الممنوع، طالما مثل خطرا على الكنائس المسيحية القومية، التي عانت منه كثيرا.. فهو لا يعترف لا بالإسلام ولا بالمذاهب المسيحية الشرقية.

٤ ـ أما إباحة الشريعة الإسلامية زواج المسلم بالمسيحية واليهودية، ومنعها زواج المسلمة من غير المسلم، فلا علاقة له بالتمييز السلبي، ولا بالتعصب الديني.. وإنما مرجعه أن المسلم ـ بحكم عقيدته ـ يعترف بالمسيحية واليهودية ديانات سماوية، ويحترم ويعظم رموزهما.. وينص قرآنه الكريم على أن «في التوراة هدى ونور» و«في الإنجيل هدى ونور».. ومن ثم فالمسلم مؤتمن على عقيدة زوجته المسيحية واليهودية، ومطالب ـ دينيا ـ باحترام عقيدتها، وتمكينها من أداء شعائرها.. بينما غير المسلم لا يعترف بالإسلام دينا ـ سماويا ـ ولا يقدس رموزه.. ومن ثم فإنه غير مطالب ـ دينيا ـ باحترام عقيدة المسلمة، الأمر الذي يشكل مخاوف حقيقية على عقيدتها وحريتها الدينية وإيذاء لمشاعرها إذا هي اقترنت بمن لا يعترف بدينها ولا يعظم رموز هذا الدين.. فالقضية أقرب إلى الكفاءة بين الأزواج، منها إلى التعصب أو التسامح الديني.

٥ ـ أما مطالبة التقرير الأمريكي مصر بأن تسمح بالزواج بين المسلمين وأهل الديانات الوضعية ـ غير السماوية ـ فإنها تكشف عن جهل وافتراء.. فمصر ليس بها ديانات غير سماوية.

ثم إن الخلاف مع التقرير الأمريكي ـ هنا.. وفي كثير من القضايا ـ ليس مرده الخلاف حول «درجة الحرية والحقوق» وإنما حول «مفهوم الحرية والحقوق».. فالمرجعية الوضعية الغربية ـ تحل الشذوذ الجنسي، وزواج المثليين ـ مثلا ـ من الحرية وحقوق الإنسان، بينما المرجعية الدينية ـ في الديانات السماوية الثلاث تنكر ذلك كل الإنكار.. فالخلاف هو في «مفهوم الحرية»، وليس في «درجة الحرية».

والغريب والخطير هو محاولة الغرب ـ الذي يمثل ٢٠٪ من البشرية ـ فرض مفاهيمه اللادينية في الحريات والحقوق على الأمم والحضارات الجنوبية ـ التي تمثل ٨٠٪ من البشرية، والتي تؤمن بأن حقوق الإنسان يجب أن تكون محكومة بحقوق الله، وبالقيم التي جاءت بها ديانات السماء.

وفوق ذلك، فإن الغرب ـ وخاصة أمريكا ـ عندما تعمل على فرض مفاهيمها على الآخرين، إنما تخون الليبرالية التي تتشدق بها والتي تقوم على تنوع الثقافات والحضارات، وتدعو لاحترام هذا التنوع في الثقافات الوطنية.

٦ ـ كما يعبر حديث التقرير الأمريكي عن ظلم الإسلام للمرأة في الميراث.. يعبر عن جهل مركب بفلسفة الإسلام في الميراث.

فالأنثى ـ في الشريعة الإسلامية ـ ترث مثل الذكر، أو أكثر من الذكر، أو ترث ولا يرث الذكر في أكثر من ثلاثين حالة من حالات الميراث، بينما ترث نصف نصيب الذكر في أربع حالات، هي التي يكون العبء المالي فيها ملقى على الذكور دون الإناث،

والذين يعرفون القواعد الشرعية للميراث يعرفون أن الإسلام يقدم الإناث على الذكور عندما يجعل أنصبتهن في «الفروض» بينما يؤخر الذكور عندما يضع أنصبتهم في «التعصيب» أي فيما بقي بعد «الفروض».

ولكنه الجهل المركب الذي انطلق منه الذين أعدوا هذا التقرير الأمريكي!

٧- كما يتم حديث التقرير الأمريكي عن أوضاع المتحولين من الإسلام أو إليه عن جهل بالقيم الثقافية التي يتفق فيها الشرقيون، على اختلاف دياناتهم..

ففي المجتمعات الشرقية لا ينظر إلى الدين كشأن فردي وشخصي يتم تغييره دون مشكلات.. بل إنه يعبر عن هوية اجتماعية يماثل «العرض والشرف» وقد يعلو عليه.. ومن ثم فإن الانسلاخ عنه والتحول منه إنما يمثل مشكلة عائلية واجتماعية.. وفي هذا يتفق الشرقيون جميعا.. وربما كان موقف الأوساط المسيحية - في مصر - من هذه القضية أكثر تشددا..

والقانون - في أي مجتمع من المجتمعات - إنما يعبر عن الواقع الاجتماعي، ليضبط حركة هذا الواقع الاجتماعي.. ودون مراعاة هذه العادات والتقاليد والقيم الدينية والاجتماعية السائدة لا يمكن للقانون أن يحقق السلام الاجتماعي.

٨- وفي قضية الحجاب.. يتجاهل التقرير الأمريكي أن واقع مصر والأغلبية الساحقة فيها تعتبر قضية الزى ضمن الحريات الشخصية.. وإذا كان الغرب يعتبر حرية المرأة، في الزى، مقصورة على «العرى».. فإن الإسلام والمسيحية واليهودية تدعو إلى الحشمة، دون أن تفرض هذه الحشمة، وإنما فقط تحبذها وترغب فيها..

وفي مصر تتفق الأسر المصرية، على اختلاف دياناتها، في الريف، الذي يمثل ٨٥٪ من السكان.. وفي الأحياء الشعبية بالمدن.. وفي البادية، يتفقون على الحشمة التي يسميها البعض «الحجاب».

٩- وفي حديث التقرير الأمريكي عن ولاية الأزهر ومجمع البحوث الإسلامية على الشأن الديني.. وعن منعه للكتب والمطبوعات.. في هذا الحديث جهل كبير وافتراء

شديد.. ذلك أن الأزهر مؤسسة من مؤسسات الدولة، تستشيره الدولة في الشأن الديني، كما تستشير أي مؤسسة من مؤسسات المجتمع فيما تختص به وتتخصص فيه من خبرات.. وليس من سلطة الأزهر ومجمع البحوث الإسلامية منع أي كتاب من الكتب أو أي مصنف من المصنفات الفنية.. فقط يبدي رأيه الاستشاري.. أما منع الكتب والمصنفات الفنية في مصر، فهو شأن من شئون القضاء وحده، يطبق فيه القانون الوضعي، الذي سنته المؤسسة التشريعية المنتخبة، والممثلة للشعب، على اختلاف دياناته وتيارات الفكر فيه.

١٠- أما إنفاق وزارة الأوقاف المصرية على المساجد دون الكنائس، فليس فيه أي تمييز سلبي.. ذلك أن وزارة الأوقاف إنما تنفق على المساجد من عائدات الأوقاف الإسلامية التي تم ضمها للدولة، والتي أصبحت الوزارة ناظرة عليها.. بينما ظلت أوقاف الكنائس والأديرة والمؤسسات الدينية المسيحية قائمة تديرها الكنيسة، وتنفق من عائداتها، وتحقق لها الاستقلال المالي عن الدولة.

١١- وليس أبلغ في الجهل والافتراء من حديث التقرير الأمريكي عن القيود التي يفرضها «الخط الهمايوني» العثماني الصادر سنة ١٨٥٦م على بناء الكنائس بمصر.. فهذا الخط الهمايوني العثماني لم يكن في يوم من الأيام قانوناً حاكماً ومطبقاً في مصر، حتى عندما كانت مصر ولايه عثمانية ممتازة.. فلقد تمتعت مصر باستقلال في التشريع منذ عهد محمد علي باشا الكبير، في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وكل القوانين واللوائح التي نظمت عمل الطوائف المسيحية وبناء كنائسها.. ومثلها اللوائح المنظمة لعمل المعاهد الدينية الإسلامية، جميعاً، منذ فجر الحياة النيابية المصرية، تشريعات وتقنينات مصرية، ولم يكن من بينها الخط الهمايوني، والذي صدر عن الدولة العثمانية، كإعلان للحقوق، ضمن الإصلاحات الخيرية التقدمية التي ساوت بين غير المسلمين والمسلمين في عهد السلطان العثماني عبدالمجيد خان «١٨٢٢ - ١٨٦١م» والتي ضمنت للأقليات غير المسلمة، عن طريق «نظام الملل»، حريات دينية واجتماعية لم يعرفها الغرب للأقليات حتى ذلك التاريخ.. بل وتفتقر إليها كثير من الأقليات في الغرب حتى هذه اللحظات!..

١٢- وإذا كانت نسبة غير المسلمين في مصر إلى سكانها وفق إحصاء مركز «بيو» الأمريكي هي ٥,٤٪، أي أربعة ملايين ونصف المليون فكيف يطلب التقرير الأمريكي زيادة عدد المسيحيين في المجلس القومي لحقوق الإنسان عن ٥ من ٢٥ هم أعضاء هذا المجلس؟!..

إن نسبتهم في هذا المجلس هي ٢٠٪ بينما نسبتهم في السكان هي ٥,٤٪.. ومع ذلك لا يرضى الأمريكان!..

١٣- وبخصوص قصر الدراسة بجامعة الأزهر على الطلاب المسلمين، فإن السبب فى ذلك لا علاقة له بأى لون من ألوان التمييز السلبى ضد غير المسلمين، أو التعصب الدينى، فمناهج الدراسة فى جامعة الأزهر، بما فيها الكليات العملية، هى مناهج دينية إسلامية، ومما ينافى حرية الضمير والاعتقاد فرض دراسة الدين الإسلامى، فى هذه الجامعة، على غير المسلمين، وخاصة فى المراحل العمرية الأولى.. كما أن هذا هو الوضع السائر والمتعارف عليه فى معاهد اللاهوت والكليات الأمريكية المسيحية، لا تفرض دراسة مناهجها الدينية على غير المسيحيين. علماً بأن جامعة الأزهر لا تقبل إلا الحاصلين على الثانوية الأزهرية وترفض قبول الثانوية العامة ولو كان الحاصل عليها مسلماً.

١٤- أما عن ضعف مشاركة المسيحيين فى الانتخابات النيابية، فإنه جزء من السلبية العامة، التى أفرزتها عوامل سياسية لا علاقة لها بالتميز السلبى ضد غير المسلمين.. كما أنها فى الجانب المسيحى راجعة إلى توجه المسيحيين المصريين إلى الأنشطة المالية والاقتصادية التى يمثلون فيها ثقلاً ونفوذاً وثراء يفوق نسبتهم العددية أضعافاً مضاعفة.

١٥- أما حديث التقرير الأمريكى عن ذبح الخنازير، تفادياً لانتشار مرض أنفلونزا الخنازير، واعتبار ذلك تمييزاً واضطهاداً للمسيحيين!.. فإنه لون من ألوان الهزل، الذى يثير السخرية.. فهذه مسألة صحية، لها علاقة بالصحة العامة.. والخنازير ليس لها دين حتى يدخل ذبحها فى التمييز ضد المسيحيين!.

١٦- ثم إن حديث التقرير الأمريكى عن تدخل الإدارة الأمريكية، وأعضاء الكونجرس الأمريكى، والسفارة الأمريكية بالقاهرة فى الشأن الداخلى المصرى، والتمويل والاتصالات والعلاقات الأمريكية مع بعض المسيحيين.. والبهائيين.. والشيعة.. وشهود يهوه.. والقرآنيين.. والأحباش.. وحتى النوبيين.. إنما هو اعتراف صريح بممارسة أمريكا لسياسات تفكيك النسيج الوطنى والاجتماعى والثقافى للمجتمع المصرى، وذلك تحقيقاً للمخطط الأمريكى المعلن: «الفوضى الخلاقة»، الرامية إلى تحويل المجتمع إلى طوائف يسهل اختراقها.. وهو مخطط سبق ودعا إليه المستشرق الصهيونى الأمريكى «برنارد لويس»، الذى دعا إلى تحويل المجتمعات العربية والإسلامية إلى «فسيفساء ورقية»، ليتحقق الأمن والتفوق الإسرائيلى.

وأخيراً. فإن مجمع البحوث الإسلامية يتساءل:

- لماذا لا تكون متابعة شئون حقوق الإنسان وحرياته، عالمياً، وإصدار التقارير السنوية عنها، شأناً من شئون الشرعية الدولية والنظام الدولى، الممثل فى المجلس الأممى لحقوق الإنسان، التابع للأمم المتحدة؟!

ولماذا تغتصب الإدارة الأمريكية اختصاصات الشرعية الدولية فى هذا الميدان؟

يوم مع شعبة العلوم الإسلامية

للأستاذين/ عبدالموجود أمين - يحيى سليمان



نبتة صغيرة وضعت داخل أروقة الأزهر.. نبتة صغيرة لعالم الغد الأزهرى وضعت فى عشر محافظات مصرية.. تجربة يدخل بها الأزهر عالم الغد لإعداد دعاة متميزين يحملون رسالة الأزهر السامية متزودين بما تركه لنا السلف الصالح من علم قديم حديث.

إنه تراث الأجداد العظماء.. إنه نهر خضم لن ينضب أبد الدهر.

فى عشر محافظات وضعت اللبنة الأولى لهؤلاء العلماء.

مجموعة من أبنائنا بالأزهر على مستوى عال من التفوق العلمى حملة الشهادة الاعدادية الأزهرية تم اختيارهم بعناية فائقة وفق اختبارات تحدثنا عنها من قبل فى عدد سابق فكان لابد لنا من متابعة التجربة والوقوف على مدى نجاحها أو فشلها لا قدر الله.

ذهبنا فى أول الأمر إلى معهد فؤاد محيى الدين الأزهرى تفقدنا المنشآت والإعدادات التى استقبلت هؤلاء الطلاب، وجدنا استعدادات تسابق الزمن للانتهاء منها حتى يكون هذا الطالب فى أتم الراحة والتفرغ لما أعد له فى المعهد من دراسة وإعاشة كاملة، وكأى تجربة فى بدء الأمر وجدنا بعض المعوقات لدى الطلاب والشكوى من إدارة المعهد أيضاً.

وضعنا ما سمعناه أمام إدارة المجلة، فكان الرأى بالتروى والانتظار حتى يتعود الطالب الذى كان بالأمس فى كنف والديه ثم انتقل بين عشية وضحاها إلى عالم آخر غير ما تعود عليه، عالم جديد فيه الاعتماد على الذات أولاً، والانضباط ثانياً، والتفرغ للعلم ثالثاً، وقد كان الرأى وانتظرنا إلى أن قارب الترم الأول على الانتهاء وكان لنا معهم اللقاء الثانى بمصاحبة فضيلة الشيخ الطاهر الحامدى مقرر لجنة التعليم بالأزهر الشريف.

بعد مرور ما يقرب من ثلاثة أشهر على التجربة فى نهاية شهر ديسمبر شاهدنا النتائج التى تبشر بالخير ونجاح التجربة.

شاهدنا الخطيب المتميز رغم صغر سنه ـ حوالى ١٥ عاماً ـ يقف على المنبر فجال وصال فى خطبة قصيرة أمامنا جذبت انتباهنا إليه وسرت افئدتنا به.

وكذلك المنشد الصغير الذى أطرب أسماعنا بإنشاده العذب.. إنهم بحق: علماء الغد.

أكاد أرى هؤلاء الصغار يتبوأون الأماكن الأمامية فى المحافل الدولية الإسلامية وهم يحملون رسالة الأزهر فوق أعناقهم.


الشيخ ايمن

إنه التفوق والإعداد الجيد لهذا العالم الصغير لغد مشرق. مجموعة من المدرسين والإداريين مسخرين لمثل هذا العمل الجليل ومجموعة من علماء الأزهر يحاولون أن يسهلوا الصعاب التى تقابل المعاهد التى بها تلك الفصول.. الجميع وضع نصب عينيه قول رسولنا الكريم: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه).

مستشارة الثقافة بالمعهد البريطانى!!

عند مناقشتنا لإدارة المعهد والطلاب للمرة الثانية فى شكواهم، وجدنا أن حوالى ٩٠٪ من تلك المعوقات والمشاكل قد تم حلها والباقى فى الطريق للحل إن شاء الله.

فى بداية الزيارة أطلعنا شيخ المعهد الشيخ أيمن عبدالغنى على كلمة السيدة مستشارة الثقافة بالمعهد البريطانى والتى دونتها فى سجل الزيارات:

«زرت فصلين، واللغة الانجليزية للطلاب جيدة جدا، والأولاد لديهم القدرة على إلقاء الأسئلة ويستطيعون أن يسألوا بعض الأسئلة الصعبة ويستطيعون الإجابة عن الأسئلة».

س ١: ما هو رأيك فى التجربة ومدى النجاح المتوقع لها؟

جـ: التجربة فى ذاتها تعتبر تجربة رائدة ومفيدة جداً حيث تم اختيار مجموعة متفوقة



علمياً ووضعت لها اختبارات من قبل خبراء متخصصين للنهوض بمستوى الطالب الأزهرى، وخلق جيل جديد يمتاز بالمعرفة والاطلاع على التراث الإسلامى، الذى تركه علماء أجلاء فى مختلف العلوم الإسلامية، كالفقه بمذاهبه المختلفة والتفسير والحديث والنحو والصرف والتوحيد وغيرها من العلوم الإسلامية مما يتيح للعالم الأزهرى أن ينهل من الإرث العظيم الذى تركه علماؤنا الأفاضل مع مسايرة العصر فى العلوم الحديثة وأهمها اللغات الأجنبية وغيرها. مما يساعدهم على نشر الإسلام وتوصيله لمختلف الناطقين باللغات الأخرى.. أيضا دراسة أمهات الكتب يساعد هؤلاء فى الوقوف ضد الأفكار الهدامة والتصدى لأصحاب الدعوات التى تسيء للإسلام والمسلمين.

ومن المعروف للعالم أجمع، أن الدراسة بالأزهر تعبر عن الوسطية فى الإسلام بعيداً عن التشدد والتطرف، كما أن التجربة فى حد ذاتها تجربة ممتازة ونحن نسعد باختيار المعهد ليكون أحد المعاهد الرائدة لتحقيق النجاح والتوفيق لتلك التجربة الرائدة.

نأمل إن شاء الله أن نكون ممن يساعدون على نجاح تلك التجربة بتضافر جميع الجهود بين المشيخة والمنطقة والمعاهد التى بها فصول الشعبة الإسلامية.

أما النجاح المتوقع لها، فنحن متفائلون جدا بنجاح تلك التجربة ونتمنى أن تعم الجمهورية كلها ولا تكون فى عشر محافظات فقط.

س ٢: هل قابلك بعض ما قد يقف عقبة فى طريق نجاحها؟

جـ: لكن واقعيين كل تجربة جديدة على الرغم من دراستها والتحضير لها التحضير الجيد كل ذلك نظريا وعلى الورق أما عند التطبيق على أرض

الواقع فهناك يكتشف العاملون عليها تلك المعوقات سواء في التطبيق أو التعامل مع الطلاب.

على سبيل المثال لا الحصر:

المعهد لم يكن به أى تجهيزات للمطبخ؛ ولأننا ليس لنا خبرة في بيوت الشباب فقد واجهتنا بعض المشكلات في التجهيزات في بداية الأمر ومع مرور الوقت استطعنا أن نتغلب عليها بفضل التعاون بين المشيخة والمنطقة وإدارة المعهد، حيث إن هناك مواصفات معينة ذات معايير يجب مراعاتها ـ بقدر المستطاع.

أيضا تواجهنا مشكلة العمال حيث إن العمال في المعهد ليسوا بالعدد الكافي لخدمة الطلاب جميعا فما بالنا بطلاب الشعبة طوال الأسبوع، أيضا هناك مشكلة رجل الأمن، مازال المعهد في حاجة ملحة إلى تواجد أمنى وخاصة بعد انتهاء اليوم الدراسي وبداية الفترة المسائية، تلك الفترة التي يخلو فيها المعهد من الطلاب والمدرسين مما نضطر للاستعانة بعامل نوبتجي يكون متواجد دائما.

أيضا توفير أمين للمكتبة فترة ما بعد اليوم الدراسي لطلاب الشعبة مع توفير الكتب المتنوعة التي تناسب طلاب الشعبة..

هناك ضرورة ملحة لإصلاح الملاعب وفناء المعهد بتوفير النشاط الرياضي للطلاب. هذه هي بعض المشكلات التي لم نكن على علم بها إلا بعد الاحتكاك اليومي بالطالب ومتطلباته، فكما قلت التجربة على الورق ونظريا شيء والواقع الملموس شيء آخر. أيضا هناك مشكلة مهمة جدا، فلا ننسى أننا نتعامل مع طالب في مرحلة المراهقة له متطلبات.

وفي تلك الفترة (المراهقة) يحب دائما المعارضة وإثبات الذات، حتى ولو كان في داخله مقتنع بعكس ما يفعله، وهناك من يقوم بعمل بعض التصرفات التي قد تسيء إلى الطالب نفسه أولا وزملائه ثانيا ولمدرسه ثالثا وهنا تكمن المشكلة.

لذا فمن الضروري الاستعانة بأخصائي اجتماعي دائم التواجد مع هؤلاء الطلاب للعمل على حل مشاكلهم والتقويم مع الاستعانة بأولياء الأمور في بعض الأحيان وقد حدث هذا بالفعل.

في النهاية يجب الإشادة بالتجربة وأهميتها خاصة في تلك الأوقات الملحة التي يمر بها العالم الإسلامي حيث إن الأزهر ذو سمعة طيبة وبعيد كل البعد عن التطرف والتشدد وإعداد هؤلاء الطلاب الإعداد الأمثل ـ إن شاء الله ـ سوف يكون أحد دعائم ترسيخ وسطية الإسلام في العالم أجمع.

لقاء الطلاب

س: ما المشكلات التي تواجهكم أثناء تواجدكم في المعهد؟

أجمع الطلاب جميعا على قصر فترة الدراسة حيث لم تبدأ الدراسة في الشعبة مع رفقائهم من الطلاب الآخرين.

وأن المدرسين يضغطون المنهج بشرح أكثر من موضوع في الحصة الواحدة مما يزيد من العبء الدراسي عليهم.

س: هل تشعر بالتميز فور خروج زملائك من المعهد وبقاؤك فيه؟

جـ: نعم نشعر بالتميز وليس السبب التفوق ولكنه لأننا ندرس أمهات الكتب بتوسع عن باقي زملائنا.

س: هل تشعر بالتقيد والملل لبقائك داخل المعهد بعد انتهاء اليوم الدراسي؟

جـ: لا بل نشعر بقصر الوقت بسبب دخولنا متأخرين عن باقي زملائنا.

وتحدث شيخ المعهد وبعض المدرسين وعللوا ذلك: بأن الشعبة بدأت الدراسة فيها متأخرة، أيضا المنهج الموضوع ـ من قبل المنطقة ـ قد جاء متأخرا.

والمطلوب هو الانتهاء من منهج الترم الأول والاستعداد للامتحانات؛ لذلك كان لابد للمدرس أن يضغط المنهج في الشرح، حتى يتسنى له الانتهاء منه، وهنا طمأن فضيلة الشيخ الطاهر الحامدي الطلاب، بأن من يضع أسئلة الامتحان سوف يراعي ذلك هذا العام. وعند بداية الترم الثاني، سوف تنتهي هذه المشكلة إن شاء الله.

ـ كما طالب الطلاب في الزيارة الأولى بتوفير رحلات لهم أسوة بزملائهم في المعاهد الأخرى وعند ذلك وعد فضيلة الشيخ أيمن بعمل رحلات ترفيهية وثقافية لهم.

ولقد دعانا شيخ المعهد لمرافقة الطلاب خلال الرحلة التثقيفية إلى البانوراما وكان كل اهتمامنا متابعة سلوك الطلاب خاصة أنهم يرتدون الزي الأزهري.

وعند نزول الطلاب من الحافلة كانوا محل انتباه الجميع فرغم صغر السن إلا انهم يرتدون الزي الأزهري الذي شد انتباه الجميع ولقد كانوا بحق على وعي ودراية بكل صغيرة وكبيرة في تلك الرحلة ومحل إعجاب الجميع لحسن السير والسلوك حتى إن العسكريين العاملين في البانوراما أثنوا على سلوكهم أثناء تجولهم.

وفي نهاية اللقاء دار حديث أبوي بين فضيلة الشيخ الطاهر والطلاب استمر حتى أذان العصر وأم فضيلته أبناء الشعبة في صلاة العصر.

وانتهت زيارتنا لأبنائنا داعين الله عز وجل لهم بالتوفيق.



شعبة العلوم الإسلامية بالأزهر الشريف

تجربة رائعة تحتاج إلى عمل مخلص وجهد شاق

للأستاذ / أحمد السيد تقى الدين

تجربة ولاشك رائعة ورائدة فى بابها.. وهى تنمية قدرات الطلاب الموهوبين ورعايتهم بشكل متميز يؤدى فى النهاية إلى تخريج جيل متميز من العلماء.

شاهدت طلاب المعهد الثانوى الأزهرى للمتفوقين الملحق بمعهد الدكتور فؤاد محيى الدين الأزهرى ببهتيم.

٤٢ طالباً تشع وجوههم بنور العلم والإيمان.. عبدالله حسانين - محمد أيمن - محمد محمود صديق - عمر خالد - أنس جلال - يحيى خالد - محمود أحمد السيد - حامد يوسف - محمد عبدالمقصود - سلمان المسير.. الخ.

بريق الأمل نحو المستقبل المشرق يملأ الوجوه..

إنهم حقا النخبة المختارة من أبناء الأزهر الشريف لحمل الراية.. راية الدعوة الإسلامية التى ترتفع وستظل مرتفعة عالية خفاقة بفضل جهود المخلصين من أبناء الأزهر الشريف.. المرجعية الإسلامية الأولى للمسلمين السنة فى العالم.

وستمر السنوات تباعا - إن شاء الله - لنرى هذه الوجوه الضاحكة المستبشرة تتبوأ أرفع المناصب.. فمنهم سيكون شيخ الأزهر، ومنهم سيكون مفتى الديار المصرية، ومنهم سيكون خيرة علماء الأمة.

سعادة حقيقية غمرتنى وأنا أتحدث مع هذه البراعم الفواحة، المفعمة بالأمل، الحاملة لمشاعل العلم.. السائرة فى الطريق نحو مستقبل أفضل لهم ولمصر وللأمة الإسلامية كلها.

ومع احترامى الكامل للجهد المبذول فى رعايتهم ولكننى أعتقد أن هؤلاء الطلاب يستحقون ما هو أفضل بكثير مما تم توفيره لهم.

الطالب الموهوب له احتياجات تعليمية مختلفة إلى حد ما عن بقية أقرانه، وعلى هذا الأساس فإن المنهج الدراسى المقدم له يجب أن يحتوى على برامج تخدم هذه الاحتياجات.. فهناك احتياجات شخصية واجتماعية وتفكيرية، احتياجات كثيرة ومتنوعة يدركها جيداً رجال التربية وعلم النفس ووضعت فيها بحوث ومؤلفات ودراسات متعمقة ومتخصصة.

فالطالب الموهوب هو قائد المستقبل وبتهيئته بصورة جيدة يضمن المجتمع نوعية متميزة من القادة.

وأولى ملاحظاتى على ما شاهدته أن هؤلاء الطلاب فى حاجة إلى مدرس متخصص فى التعامل مع الطلاب الموهوبين، فالتلميذ الموهوب بحاجة إلى رعاية خاصة من قبل معلم متخصص يتفهم احتياجات التلميذ الموهوب، وهى لا تقف عند مجرد شرح المنهج المقرر، بل الأمر يتجاوز هذا المفهوم بكثير، إذ يفترض أن التلميذ الموهوب يحتاج إلى مدرس يعاونه على تنمية قدراته العقلية والمعرفية، ويقدم له إرشادات اجتماعية ونفسية وهذا المعلم لابد أن يكون لديه ملف متابعة لكل طالب منذ بدء العملية التعليمية بالمرحلة الدراسية لتسليمه إلى معلم المرحلة الدراسية الأعلى.

ليست لى دراية كاملة بالمواصفات التى يجب أن تتوفر فى معلم رعاية الموهوبين فأنا لست من رجال التربية وعلم النفس، ولكننى اعتقد أن جامعة الأزهر بأساتذتها وكلياتها المنتشرة فى شتى محافظات الجمهورية من الممكن أن تكون نقطة بداية قوية لإنجاح هذا المشروع الذى أصبح حاجة ملحة، بل وضرورة قومية، مع الأخذ فى الاعتبار ضرورة البدء فى مشروع مواز وهو إعداد مدرسين متخصصين فى التعامل مع الطلاب الموهوبين.



الطالب الموهوب
عبدالله حسانين

أعود فأقول إن قاعات الدراسة بكليات جامعة الأزهر (الشريعة - اللغة العربية - أصول الدين - الدعوة) من الممكن أن تتسع لأبنائنا الموهوبين طلاب شعبة العلوم الإسلامية، واعتقد أن هذه النقلة المكانية الهائلة تعد حافزاً جباراً لهؤلاء الطلاب الذى سيشعرون أنهم حصلوا على مكافأة مجزية بوجودهم داخل إحدى قاعات الدراسة بجامعة الأزهر يتلقون فيها علومهم الأزهرية على يد نخبة مختارة من أساتذة جامعة الأزهر فى الفقه والتفسير والحديث والنحو والصرف والأدب والبلاغة والتاريخ، وصدقونى سينبهر الطرفان.. الطلاب سينبهرون بالمكان الذى لا يمكن أن يُقارن على الإطلاق بأى معهد أزهرى.

والأساتذة سينبهرون من اجتماع هذه الكوكبة المتميزة من طلاب العلم الذين



يمثلون الأمل كل الأمل فى مستقبل مشرق للأزهر الشريف، بل ومن الممكن أن تنعقد الحصص الدراسية لهؤلاء الطلاب بقاعات الجامع الأزهر نفسه مما يزيد من حجم الدفعة المعنوية للطلاب.

واعتقد أن هذا الجو التعليمى سيعطى دفعة هائلة للفكرة الرائعة.. فكرة إعداد جيل متميز يقود المسيرة العلمية للأزهر الشريف.

إلى جانب ذلك لابد أن يكون لأساتذة كليات التربية دور فى إعداد مناهج خاصة لهؤلاء الطلاب فى اللغات الأجنبية والرياضيات والعلوم وغيرها، فالطالب الموهوب يحتاج لمناهج يشعر من خلالها بتميزه على أقرانه، وأيضاً لابد إعداد كوادر تعليمية كاملة تغطى كافة جوانب العملية التعليمية من مدرسين وإخصائيين اجتماعيين ونفسيين.. كوادر تعليمية متخصصة فى التعامل مع الطلاب الموهوبين.

كما أننى لا أفهم الهدف من وراء مبيت الطلاب وإقامتهم بالمعهد بعيداً عن أسرهم التى تعهدتهم بالرعاية منذ الطفولة المبكرة فصاروا بفضلها موهوبين وأنا اعتقد أن الرعاية الأسرية جزء هام مكمل للعملية التعليمية والشعب المصرى يميل بطبيعته للحياة الأسرية الدافئة.

قد تبدو الأمور فى المعهد الثانوى الأزهرى للمتفوقين بنين الملحق بمعهد الدكتور فؤاد محيى الدين الأزهرى ببهتيم جيدة أو جيدة جداً أو حتى ممتازة، ولكن وجود مركز شباب بهتيم الرياضى بما ينظمه من أفراح شعبية صاخبة يتعارض مع الجو التربوى المفترض توفيره لطلاب يقيمون بالمعهد بصفة دائمة.

أنباء مكتب الإمام الأكبر

* للأستاذ/ أحمد إبراهيم توفيق
مدير عام الإعلام بمكتب الإمام الأكبر

الإمام الأكبر يهنئ البابا شنودة

بمناسبة عيد الميلاد وفى إطار تواصل الأخوة والمحبة بين المسلمين وأصحاب الطوائف المسيحية وتأكيداً لروح الترابط بين أبناء الشعب الواحد أرسل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور/ أحمد الطيب- شيخ الأزهر الشريف برقية تهنئة لقداسة البابا شنودة الثالث- بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية- هذا نصها:

قداسة البابا/ شنودة الثالث
بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

تحية طيبة.. وبعد

فأتقدم لقداستكم وللإخوة المسيحيين بخالص التهنئة بمناسبة عيد الميلاد المجيد وندعو المولى عز وجل أن يمتعكم بالصحة والعافية، وأن يعيد عليكم وعلى مصرنا الحبيبة أمثال هذه الأيام المباركة بمزيد من الإخاء والمحبة والترابط تحت القيادة الرشيدة للسيد الرئيس/ محمد حسنى مبارك

وكل عام وأنتم بخير

شيخ الأزهر الشريف
(أ.د. أحمد الطيب)

● كما أرسل فضيلته برقيات تهنئة مماثلة للسادة الوزراء المهندس/ ماجد جورج وزير البيئة والدكتور/ يوسف بطرس غالى وزير المالية، والدكتور/ منير حنا- مطران الكنيسة الأسقفية بمصر وشمال أفريقيا، والسيد المطران/ كريكور أوغسطينوس كوسا- أسقف الإسكندرية رئيس طائفة الأرمن الكاثوليك.



الإمام الأكبر يستقبل نائب رئيس جمهورية كينيا

استقبل فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف نائب رئيس جمهورية كينيا : كالونزو يوم الثلاثاء الموافق ٢٨ / ١٠ / ٢٠١٠ بمشيخة الأزهر الشريف وبصحبته وزير التجارة الكينى والوفد المرافق له. وتم التباحث حول كيفية تدعيم العلاقات بين الأزهر الشريف وبين الجامعات الكينية وقدم نائب رئيس الجمهورية الشكر لفضيلة الإمام الأكبر على المنح التى قدمها الأزهر للطلبة الكينيين. كما تم بحث الأوضاع السياسية فى شرق أفريقيا والدور الكينى فى هذه المنطقة.

وجه السيد كالونزو نائب رئيس الجمهورية الدعوة إلى فضيلة الإمام الأكبر لزيارة دولة كينيا الصديقة خاصة وأن ٢٠٪ من سكان كينيا مسلمون.

ويستقبل نائب الرئيس البوروندى

كما استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد محمد الطيب - شيخ الأزهر الشريف نائب الرئيس البورندى جير فيه روفكيرى.

وقد أوضح فضيلة الإمام الأكبر اهتمام الأزهر البالغ بتعزيز العلاقات مع دولة بوروندى باعتبارها دولة أفريقية شقيقة من دول حوض النيل.

وتم الاتفاق على تعزيز التعاون الثقافى والدينى بين الأزهر الشريف وحكومة بوروندى وإنشا مركز ثقافى لتدريس اللغة العربية فى جامعة بوروندى.



ومن جانبه أشار نائب الرئيس البوروندى إلى لقائه بالسيد الرئيس محمد حسنى مبارك، ورئيس مجلس الوزراء الدكتور أحمد نظيف، وأنه سعيد بالمشاريع والدعم الذى تقوم به الحكومة المصرية فى بوروندى.

وفى ختام اللقاء وجه فضيلة الإمام الأكبر الشكر لحكومة بوروندى على موقفها الإيجابى تجاه موقف مصر فى إطار تجمع دول حوض النيل.

ويستقبل الدكتور يوسف القرضاوى



القرضاوى

استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد محمد الطيب شيخ الأزهر الدكتور يوسف القرضاوى رئيس الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين.

وأكد فضيلة الإمام الأكبر أن علاقته بالدكتور القرضاوى ممتدة منذ عام ١٩٨١ وأن الفترة القادمة ستشهد تواصلا مع جميع العلماء الأزهريين من أجل دعم مسيرة الإصلاح والتجديد الذى يشهده الأزهر الشريف ومن هؤلاء العلماء الدكتور يوسف القرضاوى.

ومن جانبه قال الدكتور يوسف القرضاوى: إن فضيلة الإمام الأكبر يحمل راية الإصلاح والتجديد وأنه جاء لزيارة الأزهر الشريف لمؤازرته والتأكيد على مواقفه الإصلاحية.

وطالب الدكتور القرضاوى من وسائل الإعلام دعم المسيرة الإصلاحية التى يقودها الإمام الأكبر فى الأزهر الشريف والتى سينعكس أثرها على الأمة الإسلامية.



وكيل الأزهر يشهد حفل تخريج أئمة ووعاظ العالم الإسلامي

تحت رعاية فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد محمد الطيب شيخ الأزهر شهد فضيلة الدكتور محمد عبدالعزيز واصل - وكيل الأزهر الشريف احتفال اللجنة العليا للدعوة الإسلامية لتخريج أئمة ووعاظ العالم الإسلامي المشاركين فى الدورة رقم (٨٧) من دول (السودان ونيجيريا والهند وباكستان وروسيا والسويد) وعددهم ٢٢ إماماً وواعظاً.

وقد ألقى فضيلة وكيل الأزهر كلمة هنأ فيها الخريجين أوضح خلالها أن العلماء هم ورثة الأنبياء وقدرهم عند الله أكبر وأعظم، وأن الإمام والواعظ يجاهدان فى كل الجبهات لما لهم من قوة وحجة وبرهان بعلمهم الذى تعلموه من كتاب الله وسنة رسوله فهم القدوة وهم القادة. وأشار إلى أن هذه اللقاءات والدورات ذات فائدة عظيمة تجمعنا على طاعة الله، نتدارس فيها العلم ونتحاور ويستمع بعضنا إلى بعض، نتناقش فى أمور الدين والدنيا، ونتحاور فى العقائد والمعاملات، فرسالتنا كدعاة هى الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، نبين للناس وجه الإسلام السمح الذى يأمر أتباعه بأن يبنوا ولا يهدموا، يعمروا ولا يخربوا، يصلحوا ولا يفسدوا يعملوا من أجل خدمة دينهم وأمتهم وينشروا مبادئ الإسلام السمحة على الناس، وأن يدافعوا عن الحق ويقفوا فى وجه الباطل، فوظيفتنا أن نبين ما هو حق وندعو إليه ونحذر الناس من الباطل ونجتنبه. وطالبهم بضرورة مواصلة العلم والعمل بكتاب الله وسنة رسوله وأن

يبسروا ولا يعسروا وأن يكونوا القدوة لأنهم رسل الإسلام ورسل الأزهر إلى المسلمين فى أنحاء العالم.

وفى ختام الاحتفال قام وكيل الأزهر بتوزيع شهادات التخرج على المكرمين وأعطى موافقته على بدء الدورة الثامنة والثمانون للأئمة والوعاظ من دول (السودان والجزائر واليمن ونيجيريا) لعدد ١٩ واعظاً وإماماً.

شهد الاحتفال الشيخ عبدالمنعم فودة مستشار شيخ الأزهر لمدن البعوث، والشيخ عمر سطوحى الأمين العام للجنة العليا للدعوة الإسلامية.

الإمام الأكبر يستقبل وفداً تركيا

استقبل فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب - شيخ الأزهر الشريف بمكتبه يوم الاثنين الموافق ٢٠ / ١٢ / ٢٠١٠ وفداً تركياً رفيع المستوى - يرأسه السيد / حمزة القطان - رئيس المجلس الأعلى للشئون الدينية بتركيا.

وقد تناول الحديث العلاقات الأخوية والتاريخية بين البلدين الشقيقين باعتبار أنهما على مدى التاريخ ركنان أساسيان للحضارة الإسلامية.

كما تطرق الحديث إلى دعوة الأزهر لعقد لقاء علمي يضم علماء أهل السنة والجماعة وفى مقدمتهم علماء تركيا تمهيداً لاجراء حوار بين علماء السنة والشيعة





يهدف إلى إزالة أسباب الفتن والتوتر، كذلك تطرق الحديث إلى التعاون فى مجال حوار الحضارات.

وقد أبدى فضيلة الإمام الأكبر تقديره للجهود التى يقوم بها رئيس الوزراء التركى رجب طيب أردوغان فى هذا المجال، كما تناول الحديث أهمية إعادة اعتراف السلطات التركية التعليمية بالشهادات الصادرة من الأزهر الشريف، وقد اتفق الجانبان على إعداد بروتوكول للتعاون سيتم التشاور بشأنه وتوقيعه فى أقرب وقت ممكن.

..ويستقبل مفتى أهل السنة بالعراق

كما استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد محمد الطيب شيخ الأزهر الشريف الشيخ رافع الرفاعى مفتى أهل السنة بالعراق الذى عرض على فضيلة الإمام الأوضاع الحالية بالعراق وما يستشعره المسلمون، من حاجة ماسة لدعم الأزهر وخاصة فى المجال العلمى.

وقد استجاب فضيلة الإمام استجابة فورية وحدد بصفة مبدئية ٥٠ منحة للأخوة العراقيين للدراسة فى المرحلة الجامعية و ١٠ منح للدراسات العليا. وفى ختام اللقاء قدم مفتى أهل السنة بعض مؤلفاته والقصائد الشعرية من تأليفه لفضيلة الإمام الأكبر وتم الاتفاق على استمرار التواصل.

أنباء العالم الإسلامى



إعداد الأستاذين:
محمود الفشنى - أحمد رضوان

خطة لتصحيح صورة الإسلام فى الغرب

أكد المشاركون فى الاجتماع الذى عُقد أخيراً فى قرطبة بإسبانيا حول موضوع تغيير الصور النمطية عن الإسلام والمسلمين فى الغرب، على أهمية التمسك بثقافة الحوار والتعارف بين الشعوب، انطلاقاً من المبادئ السامية والقيم الإنسانية المشتركة.

ودعوا فى البيان الصادر فى ختام الاجتماع الذى عُقد بالتعاون بين جامعة غرناطة والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية والمؤسسة الأوروبية العربية للدراسات العليا إلى إبراز القيم الإنسانية الأخلاقية المشتركة فى نبذ العنف والتطرف والتعصب ورفض منطق الاتهام الجماعى والإدانة الجماعية والعقاب الجماعى وإدانة كل مظاهر استغلال الدين. كما دعوا المؤسسات الجماعية ومراكز البحث فى الدول الغربية إلى تقديم الصورة الحقيقية للإسلام من خلال الرجوع إلى المصادر الإسلامية الأصلية فى دراسة القضايا الإسلامية، والتعاون مع الجامعات ومراكز البحوث فى العالمين العربى والإسلامى فى هذا الإطار، ودعوا إلى عقد ندوات وأنشطة ثقافية مشتركة بين الجامعات ومراكز البحث العلمى فى الدول الغربية ونظيراتها فى الدول العربية والإسلامية، وتنظيم أيام ثقافية بصفة دورية حول الإسلام والمسلمين فى الجامعات الأوروبية للتعريف بالحضارة الإسلامية والاستعانة بالخبراء والباحثين المسلمين والغربيين المتخصصين من أقسام الدراسات العربية عند تنظيم الأنشطة الثقافية ذات الصلة بالقضايا الإسلامية.

ودعوا الجامعات الأوروبية بالعمل على إقناع القائمين على إعداد الكتب المدرسية فى الدول الأوروبية وتدريس الإسلام بموضوعية، وإشراك المؤسسات العلمية والثقافية الإسلامية فى إعداد تلك الكتب بما سيضمن تشجيع الحوار بين العالم الإسلامى والغرب ويعزز السلم الاجتماعى فى أوروبا.

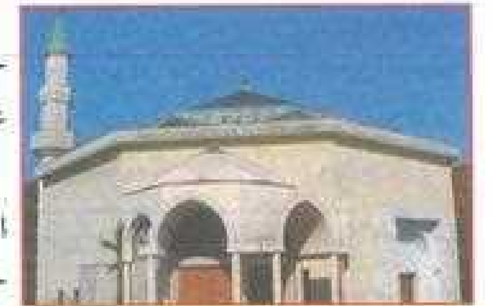
رابطة علماء فلسطين: الأقصى على وشك الانهيار



حذرت رابطة علماء فلسطين الأمة العربية والإسلامية من خطورة تصاعد أعمال الهدم والاستيطان والتهويد فى مدينة القدس المحتلة، وخاصة فى محيط المسجد الأقصى المبارك وأكدت فى بيان لها، أن الاحتلال بدأ بشكل فعلى بمخططاته لهدم قبلة المسلمين الأولى وما يحيط بأسوار المسجد الأقصى.

وقالت: يجب وقف تمادى الاحتلال ومخاطره المستمرة بحق القدس ويجب على الأمة الاستيقاظ والنهوض من غفلتها لأن عدونا لا يعرف إلا لغة المواجهة والقوة. وأضافت أن: الأقصى على وشك الانهيار.. ومتى نثور ونغضب إذا لم يغضبنا أو يثيرنا هدم أقصانا المبارك؟!.

منظمة إسلامية تسعى لإلغاء حظر المآذن فى سويسرا



قررت منظمة إسلامية إطلاق مبادرة شعبية تستهدف إلغاء حظر بناء المآذن فى سويسرا عبر تصويت جديد، وذلك بعد عام من التصويت على حظرها.

وستقدم المنظمة نص مشروع المبادرة إلى الحكومة الاتحادية السويسرية، غير أن الجماعات المناوئة للمآذن قد نشطت فى حملة جديدة لقطع الطريق على المبادرة فى اليوم نفسه الذى تم الإعلان عنها.

وقالت منظمة «الشورى الإسلامية المركزية فى سويسرا» (تمثل ٣١ منظمة إسلامية): إنها تجرى حاليا اتصالات مع مختلف الأوساط السياسية والثقافية فى البلاد لدعم المبادرة، وإنها ستنشىء من الآن لجنة تضم أكبر تمثيل ممكن لهذه التيارات، وأضافت أنه إذا ما أردنا إلغاء الحظر على المآذن، فينبغى اتباع نفس الأسلوب الذى اعتمد لإقرار الحظر.

وفى شرح خطوتها قالت المنظمة: إن حظر المآذن قد استهدف المسلمين فى البلاد حصراً، وهو أمر يتعارض مع الدستور الذى ضمن المساواة فى الحقوق وعدم التمييز مما أساء لسمعة سويسرا فى الخارج.

وأضافت: إن الهدف من المبادرة هو إعادة الحقوق الدستورية التى تضمن المساواة بين كافة المواطنين باختلاف عقائدهم الدينية.

«مسلم تى فى» منبر جديد لمسلمى ألمانيا

أنشأت مجموعة من الصحفيين المسلمين موقع «مسلم تى فى» التليفزيونى على شبكة الإنترنت فى ألمانيا، ليصبح منبراً جديداً للمسلمين فى ألمانيا حيث يستضيف عدداً من الدعاة المشاهير، إلى جانب مواطنين مسلمين عاديين. وتتنوع موضوعات الموقع بين القضايا الاجتماعية والمقالات ذات المحتوى الدينى، ويسعى الموقع إلى تغطية النقص الإعلامى عن حياة المسلمين وإبراز التنوع الكبير فى حياتهم، وفتح المجال للحديث عن شتى المشاكل دون زج بعضها فى زاوية المحرمات ويسعى الموقع إلى تقديم المسلمين فى صورتهم الحقيقية كمواطنين يساهمون ويشاركون منذ زمن طويل فى بناء المجتمع لكن دون أن يلاحظهم أحد.

منظمة المؤتمر الإسلامى تدين أنشطة الاستيطان الإسرائيلية

أدانت منظمة المؤتمر الإسلامى فى بيانها الصادر بالأمم المتحدة استمرار أنشطة الاستيطان فى القدس الشرقية وهو ما يمثل خرقاً للالتزام القانونى بموجب اتفاقية جنيف الرابعة وقرارات الأمم المتحدة ذات العلاقة بمحكمة العدل الدولية الصادرة فى يوليو ٢٠٠٩م، كما أعربت منظمة المؤتمر الإسلامى عن قلقها البالغ إزاء الوضع الحرج فى الأراضى الفلسطينية المحتلة بسبب السياسات الإسرائيلية وممارساتها غير القانونية التى من شأنها تقويض الجهود الدولية والإقليمية الرامية إلى استئناف المفاوضات بين الجانبين.

كما علق البيان أيضا على جميع التدابير غير القانونية الهادفة إلى تغيير التركيبة الديموغرافية ووضع الأراضى الفلسطينية المحتلة بما فيها القدس الشرقية.

وأدانت المنظمة استمرار إسرائيل فى بناء الجدار ومصادرة الأراضى الفلسطينية وهدم المنازل وطرد العائلات الفلسطينية، وإلغاء حقوق الإقامة للفلسطينيين وخاصة فى القدس الشرقية، بالإضافة إلى الحفريات الجارية قرب وتحت المسجد الأقصى.

تركيا تعرض ترميم المساجد التاريخية والأثرية فى مصر

أبدت تركيا استعدادها لتحمل تكاليف ترميم بعض المساجد التاريخية والأثرية فى مصر، وتقوم وزارة الأوقاف حالياً بحصر المساجد التاريخية والأثرية التى تحتاج إلى ترميم تمهيداً لتحديد قائمة بها لتقديمها إلى الجانب التركى. جاء ذلك خلال لقاء الدكتور حمدى زقزوق وزير الأوقاف بوفد تركيا برئاسة الدكتور حمزة أقطان رئيس الهيئة العليا للشئون الدينية التركى. تضمن اللقاء بحث سبل التعاون فى مجال الدعوة لتصحيح صورة الإسلام فى الداخل والخارج وأبدى رئيس هيئة الشئون الدينية التركى إعجابه بالمخطوطات الإسلامية الملحقة بمسجد السيدة زينب وقد تم الاتفاق بين الطرفين على إعداد بروتوكول تعاون مشترك بين البلدين كما أهدى «زقزوق» نسخاً من إصدارات الوزارة بالإضافة إلى ترجمات لمعانى القرآن الكريم إلى «٧» لغات للوفد التركى. وقام الوفد التركى بتوجيه الدعوة إلى وزير الأوقاف لزيارة تركيا ووعده بتلبيتها فى بداية العام الجديد.

إنشاء أول مجلس إسلامي للسياحة

وافق مجلس إدارة الغرفة الإسلامية للتجارة والصناعة على إنشاء المجلس الإسلامى للسياحة كأول مؤسسة للدول الأعضاء بمنظمة المؤتمر الإسلامى وتنبثق تحت مظلة الغرفة.

وقرر المجلس تشكيل هيئة من الدول الأعضاء تكون مسئولة عن متابعة أعمال المجلس الجديد.

كان مجلس إدارة الغرفة الإسلامية فى اجتماعه الأخير بمدينة الإسكندرية برئاسة الشيخ صالح كامل قد وافق على المقترح المقدم من الدكتور حاتم يمانى والذى أكد فيه على أهمية السياحة فى الناتج المحلى الإجمالى ومعدلات النمو الاقتصادى.

وأعرب يمانى عن رغبته فى الاستفادة من الترويج للسياحة البينية فى العالم الإسلامى عبر مظلة الغرف الإسلامية.

دعوة لتأسيس أكاديمية عربية للعلماء

دعا الأمير الحسن بن طلال رئيس المجلس الأعلى للعلوم والتكنولوجيا بالأردن إلى تأسيس أكاديمية عربية للعلماء تعمل على ربط المعرفة العلمية العربية والباحثين العرب بالمعطيات الإقليمية والعالمية المعاصرة. وقال الأمير الحسن خلال رعايته افتتاح معرض الإنجازات لمشروع دعم مبادرات واستراتيجيات البحث والتطوير التكنولوجى والإبداع فى الأردن: إنه لابد من رؤية عربية تكنولوجية متكاملة تأخذ فى الحسبان تطوير حزم متكاملة من المعرفة العلمية والتقنية مشيراً إلى أنه آن الأوان لدراسة كيفية إحداث التغيير فى هذا السياق والعمل على تكامل مختلف الآراء والمشروعات العلمية العربية، والإنتاج النوعى للأفكار ودعا إلى عقد مؤتمر للقدرة الاحتمالية للمنطقة يناقش حالة المصادر الإنسانية يتم اعتمادها فى تطوير مختلف المشروعات العلمية والتكنولوجية موضحاً أن الإقليم سيصبح عقيماً إذا استمر استهلاك المصادر دون النظر فى قدرته الاحتمالية.

٦٢٥ وحدة سكنية يهودية فى القدس الشرقية

كشف موقع «واى نت» الإخبارى، أن وزارة الداخلية الإسرائيلية وافقت على بناء ٦٢٥ وحدة سكنية جديدة فى مستوطنة بيزغات زئيف فى القدس الشرقية.

وقال مسئولون فى الوزارة: إن هذه الخطة تمت مناقشتها قبل عامين على مستوى لجنة محلية وتم تعليقها حتى جرت معالجة النواقص انسجاما مع مطالب اللجنة.

وقبل ذلك سمحت بلدية القدس ببناء ١٣٠ وحدة سكنية جديدة فى مستوطنة جيلو فى القدس الشرقية.

بمناسبة احتفالات بلاده باليوم الوطنى

سفير كازاخستان بالقاهرة: نعتمد على مصر الأزهر فى تخريج الأئمة والدعاة

أكد السفير بختيار تاسيموف سفير كازاخستان بالقاهرة أن بلاده تعتمد على مصر وعلماء الأزهر الشريف في تخريج أجيال جديدة من الدعاة لخدمة أبناء شعب كازاخستان.

وقال تاسيموف بمناسبة الاحتفال باليوم الوطنى التاسع عشر لبلاده: إنه بهذه المناسبة يتوجه بالشكر لمصر حكومة وشعباً على التعاون الكبير الذى قدمته مصر لبلاده فى شتى المجالات وعلى رأسها إعداد الدعاة والعلماء من خلال الصرح العلمى والتعليمى الذى أنشأته مصر فى مدينة المآتى بكازاخستان وهو جامعة نور مبارك والتى أصبحت صرحاً علمياً نتباهى به.

وكذلك من خلال استقبال أبناء كازاخستان للدراسة فى الأزهر الشريف بالقاهرة مشيراً إلى عمق العلاقات بين البلدين فى ظل قيادة زعيمى البلدين الرئيس مبارك والرئيس نور سلمان نزاربابييف..

وقال تاسيموف: إن بلاده قبل ١٩ عاما لم يكن بها سوى ١٧ مسجداً فقط فقد أصبح بها الآن أكثر من ٢٥٠٠ مسجداً مما يعكس تلك الرغبة الجارفة لدى أبناء كازاخستان للعودة إلى جذورهم وتراثهم ومعين ثقافتهم الأساسى وهو الإسلام فى تجربة فريدة من أجواء التسامح التى صهرت ١٣٠ قومية تعيش على أرض كازاخستان ٧٥٪ منهم من المسلمين والبقية من المسيحيين ونسبة قليلة من البوذيين.

وأكد السفير الكازاخى أن بلاده متعطشة إلى عمقها الإسلامى الذى ترتبط به برابطة الدين الإسلامى الحنيف، وبالتاريخ المشترك الذى أسسه القادة والعلماء أمثال الفارابى وابن سينا والظاهر بيبرس الذى نعتبره حداً مشتركاً بيننا وبين المصريين.

مشيراً إلى أن الرئيس نزارباييف سوف يشارك فى أعمال القمة الإسلامية التى تستضيفها مصر فى السابع عشر من مارس القادم.

***

{Falsehood cannot come to it from before it or behind it: (it is) sent down by the All-Wise, Worthy of all praise (Allâh Exalted and Sublime).}

[Fussilat (Explained in Detail): 42]

Also, Allah says that it is the best nation created, thus, it should not disdain itself, forget its role, betray its message, losses its attributes, and consent to be humiliated although it is delegated by its Creator (Glory be to Him) to lead humanity and guide the people.

Egypt continued to resort to Islam as a source of legislation. This is from the time it embraced it and regarded it as a message, civilization, and life style. Islam remained its protective shield and entity against all of the coming trends that aim at breaking this shield and causing mischief to the country and the people.

The whole world witnessed what our Messenger predicted. He said: "If Allah wills that you liberate Egypt, then you should take many soldiers from it, as its soldiers are the best ones on earth". Abu Bakr asked him: "Why, Messenger of Allah?" He said: "Because they and their spouses will be coherent until the Day of Judgment." (Kanz Al-`Ummal)

This is proved by the Egyuptians' ability to confront the wars that sought their land starting from the Hyksos, passing through the Crusaders and the Mongols, and finally the European occupation in the modern age. In spite of the defeat of these malicious people and the victory of the Islamic will, the malicious enemy should have thought of another way that enables him to reach his aim: defeating and dispersing the nation. Thus, he targets the most precious thing that the Islamic nation has: its religion and history, and civilization. This is the reason for the battle of intellectual invasion and struggle for entity.

"As for us, Muslims, religion is not only a guarantee for our Hereafter only, but it is the basis of our life and existence."[3]

The enemies of Islam realized this matter thoroughly. Thus, they prepared themselves well to get rid of this religion and to corrupt the creed of the Muslims. They managed to attain, by means of plots and cunning what they failed to get in the fields of fighting. There are three aspects for craftiness: imperialism, orientalism, and missionary.

If imperialism managed to provide a kind of protection, preparation of the atmosphere for orientalism and missionary, orientalism provided the European civilization the best services when it took upon itself the mission of interpreting the Qur'an in the suitable way from their point of view, distorting its meaning. Also, they use it in a way that suits the plan of imperialism in taming the Muslim reason, and subjecting it to its ideas, morals, and rulings throughout these malicious fallacies that are not known except by the deep-rooted scholars. When they want to hinder Islam and empty it of its purport, turning it to heritage void of life bases.

To reach this target, they do not attack and dispraise Islam, but they praise it, describing it as the greatest liberating revolution witnessed by earth. It emerged while the earth was swarming with idols worship, but it called the people to worship Allah Alone, and engaged in many battle to attain this goal until it eliminated the worship of

[3] Hasad Al-Ghurur by Shaykh Muhammad Al-Ghazaly, p.9, Dar Al-Shuruq.

idols. In this way, it carried out its mission, and paved the way for the western civilization to proceed its way towards progress and earth leadership.

In this way, the Muslim feels only throughout this praise and flatter of Islam that they praise Islam, and does not realize that they stab it to death, and regarded it as a dated thing. This is what they do in their interpretation of the Qur'anic verses and the Hadiths of the Messenger of Allah (peace be upon him) as well as the battles of the Islamic invasion. They divide themselves each to the section he understands well and which he can spoil.

Some of them seek the Qur'anic studies, some study the Sunnah, and others study history and the Islamic civilization. There is another group that major language and literature. You may imagine what a fanatic Christian about the Prophet Muhammad (May the blessings and peace of Allah be upon him) and the Islamic history.

If you want to know what he says, you may read that which Jorjy Zidan wrote in his novels, which handle the Islamic history. He managed to make use of his literary proficiency and the plot in spreading his poisonous ideas throughout his magnificent novelistic technique, which is loved by the youth and the public of the Islamic nation along with its cultured class. When you start to read one of his novels, you find yourself attracted to its events.

I read a novel written by this novelist about Tareq Ibn Ziad" or it is entitled "The Conquest of Andalusia". What remains in my mind is after reading the novels is that Tareq Ibn Ziad would no have invaded Anadausia except after causing the daughter of Rudrick, the king of Spanish Goths to fall in love with him, then she told him the secrets of her father. In this way, he managed to invade Anadalusia. As for the Muslim troops, greatness of Islam and the strife of the believers and Mujahids (Muslim strugglers in the Cause of Allah) do not exist in the events of the novel.

In this way, he steals history and forges its facts. They only bring to our children what they want throughout their press, which was so active at the time of the Maronites of the Levant such as the family of Sarrouf, the family of Sarkis, the family of Zidan, and the family of Taqla.

In the field of the Arabic language and literature, we find Filip Hatty and Jorjy Zidan, and in the field of the social studies, there were Shebly Michel, Salamah Mosa. Moreover, Ya`qub Sarruf devoted his newspaper to circulate the western culture and to defend the imperialism. In the field of intellectuality, there were Farah Anton, Selim Al-Naqqash, who held the banner of racism and the slogan "Egypt for the Egyptians", which is amazing as he was no Egyptian. In the field of attacking Islam and the Islamic Caliphate, there were Selim Sarkis, Sabongy, and others."[4]

Whereas the imperialism, orientalism, and press tried hard to stand between the Muslim personality and its original sources: the Book of Allah and the Sunnah, targeting the public and the elite of the nation, education was targeting the youth of the nation, and its curricula were prepared by a religious English person called Danlop. It is not amazing to find that the outcome of this perfect planning and malicious preparation throughout the twentieth century is what we see nowadays such as lack of loyalty and belonging, deep fascination with the West, scandalous ignorance of Islam.

[4] Enlightened Pages from the Islamic Heritage – Anwar Al-Jindy – Dr Al-I'tisam, p. 375.

and satisfaction from the side of the two spouses; rather, it stipulated it in concluding a marriage contract. Also, it did not consider the satisfaction of the person responsible for the woman as important as long as any of the two parties of the marriage contract is not actually content.

Also, Sharī'ah does not consider the opinion of the betrothed only, as marriage is a matter of consultation. The person responsible for the girl should consult with the girl and her mother, who is the best person to know the state of her daughter. It is authentically reported that the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: "If a woman gets married without the permission of the person responsible for her, her marriage is nullified, and her repeated this thrice."

Also, he said regarding the girl that if she is asked and she becomes ashamed and keeps silent, then the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon them) said: "Her silence stands for her content." It was reported on the authority of Ibn 'Umar (may Allah be pleased with him) that the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Consult women concerning the affairs of their daughter."

In this way, Sharī'ah maintains the authority of the father, protects the shyness and morals of the girl along with enabling her to express her desire. In this manner, we do not see the father exploits his authority in forcing his daughter to marry without her consent. Also, we can not find a girl that neglects the authority of her parents and marries a person, about whom they know nothing. Both of the two matters may lead to unlimited problems, about which we read in the newspapers and magazines.

4- One of the methods about which Sharī'ah cared is efficeincy. Sharī'ah is not limited to getting acquainted, choosing, and consent to establish a family. Also, it attached importance to another matter, which causes intimacy, good companionship, consultation, persuasion, and acceptance.

This matter is that a person should be equal in virtues appreciated by people in their social life. This matter is beneficial to both of the husband and the wife. No doubt that if the husband is socially less than his wife, she will disdain him, and she will be criticized by the people. Thus, she will refuse to obey him.

Also, he regards himself as her husband, and is entitled to the rights of the husbands. However, he is humiliated by her and she does not give him this right. This matter should be cared about before concluding the marriage contract and the matter ends in the courts.

5- Dowry:

Sharī'ah imposed a gift given for her shyness, and is presented by the husband to express her desire in concluding the marriage. It is known as dowry. Also, Sharī'ah urged the people not to exaggerate in its value, as it said: "It is a blessing to hurry in causing a woman to marry quickly and not to exaggerate in her dowry."

In fact, exaggeration in the dowry is not beneficial to the girls, especially after the rise of the number of the unmarried girls, as many of the girls do not marry. This is considered as a kind of hindering Allah's Command to His creatures.

These are the methods that Sharī'ah presents to us and that should be considered before proceeding to marry. This is to conclude the marriage contract on strong bases to cause the marital intimacy to continue, and to provide a happy life for the spouses based on intimacy and mercy.

May Allah grant us success.

Bridges of Westernizing[2]...!

By: Dr. Hamdy Fattouh Waly

Earth witnesses, according to Allah's Scale, non-resting struggles and non-stopping battles due to the absence of single goal, common understanding, and right awareness of the most important purpose of this life. Owing to the difference of concepts and attitudes, desires should have struggled, and wars and struggles should have occurred.

Although many people regard this state as improper and abnormal, Islam regards it as necessary for the continuation of life. This is what we can understand from the Saying of the Ever-Wise Creator (Glory be to Him):

{And if Allâh did not check one set of people by means of another, the earth would indeed be full of mischief. But Allâh is full of bounty to the 'Alamîn (mankind, jinn and all that exists)}

[Al-Baqarah (The Cow): 251]

Thus, it is a grace that Allah granted to His Slaves, as they differ, check things, and get benefits.

{Then, as for the foam it passes away as scum upon the banks, while that which is for the good of mankind remains in the earth. Thus Allâh sets forth parables (for the truth and falsehood, i.e. Belief and disbelief).}

[Al-Ra'd (The Thunder): 17]

Allah (Glory be to Him) willed to create this difference among the nations, and made it one of the reasons for their existence and creation. This is manifested in the Saying of Allah (Glory be to Him):

{And if your Lord had so willed, He could surely have made mankind one Ummah [nation or community (following one religion i.e. Islâm)], but they will not cease to disagree. Except him on whom your Lord has bestowed His Mercy (the follower of truth? Islâmic Monotheism) and for that did He create them.}

[Hud: 118-119]

Allah revealed the wisdom behind this, which is clarified in the Saying of Allah (Glory be to Him):

{ If Allâh had willed, He would have made you one nation, but that (He) may test you in what He has given you; so compete in good deeds. The return of you (all) is to Allâh; then He will inform you about that in which you used to differ.}

[Al-Ma'idah (The Table): 48]

From this point we deduce that difference is a Divine Will, universal necessity, and human fact, because struggle results in a winner and a loser. In this struggle, every group needed to prepare themselves and pull themselves together, and the first degree of strength is the strength of creed and belief, followed by the strength of unity and coherence, then the strength of weapon. No nation is regarded strong without having all of these concepts. It is not suitable for a nation that Allah describes it as good and has the last Message and the Glorious Book:

[2] An article published in (Arabic) at Al-Azhar Magazine.

The Islamic Methodology in Establishing the Family[1]...!

By :The honorable Sheikh Omar Ad-Deib

Member of the Islamic Research Academy

Islam stressed the importance of abiding by and complying with the contracts, the most important of which is marriage contract. Allah describes it as a strong covenant in His Saying: "and they have taken from you a firm and strong covenant?". [Al-Nisa' (Women): 21]

Allah makes it the basis of offspring including children and grandchildren and the first cell from which the family and mankind tree ramify forming peoples and tribes. They get acquainted to each other and cooperate, forming the ideal nation that propagates virtue and prevents vice. Also, it glorifies and honors the human being, causing him to be the successor on earth, the mission for which he was created.

Islam attached importance to the methods which, if observed, maintain the strength of the marital life, protect it from deterioration, and disintegration. One of the methods is that which should be cared about at the time of deciding to marry. Also, there are matters that should be cared about after concluding the marriage contract and the beginning of the marital life. Moreover, there are things that should be cared about at the time of feeling disturbed to calm the soul down and to keep the marital life instead of being drifted to anger and disintegration. Thus, the following are the matters that should be kept into consideration before proceeding to marriage:

1-Getting Acquainted:

The two persons get acquainted to each other and do not leave matters for mere chance, as Islam recommends choosing the religious and righteous person. It is reported that the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: " If there comes to you one with whose religious commitment and character you are pleased, then marry (your female relative under your care) to him, for if you do not do that there will be tribulation in the land and great mischief."

He (May the blessings and peace of Allah be upon him) manifested the attributes of the woman who many be married saying: "A woman may be married for four matters: her money, her beauty, her lineage, and her religious commitment. Choose the religiously committed one, and your hands will be rubbed with dust (i.e. you will prosper."

Islam warns against depending on beauty, lineage, or money only, assuring that religiously committed and good-mannered person can appreciate this bond and maintain the rights of his partner. In the past, it was said: "If a man married a woman and asked about her properties, you should know that he is a thief that came to steal her, not to marry her.

One of the magnificent instructions in this regard is that which the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Whoever marries a woman for her honor, Allah increases only his humiliation, whoever marries a woman for her money, Allah increases only his poverty, whoever marries a woman for her lineage, Allah increases only his meanness, and whoever marries a woman for the sake of lowering his gaze and protecting himself, Allah bless her for him and bless him for her."

[1] An article published (in Arabic) in Al-Azhar Magazine.

This Hadith does not mean neglecting the aspect of beauty, as it is one of the incentives of love and intimacy. The intention here is that the person should not choose his spouse focusing only on beauty, money, or lineage even if it is accompanied by bad morals, because it eliminates undoubtedly good, and stirs doubt. At this point, neither money nor beauty counts in setting this honorable bond.

2- Choice:

If the two spouses got introduced to each other and become reassured to the good morals of each other, as the good morals is the basis of kind treatment and protection of the bond, Islam recommends engagement. It is considered as the phase of choice by senses such as seeing and listening. By this choice, each of the spouses gets introduced to the physical, vocal, and intellectual characteristics of the other. At this point, the desire grows and the attitudes of hearts and souls become known. It was said that they are like soldiers who may be intimate to one another or get detached from each other.

It is important to refer to some traditions of the villagers who refuse that the two spouses see each other, as the dignity and honor of the families do not permit so. Thus, they do not permit getting acquainted throughout description of the neighbor or the relative of the fiancée or the betrothed.

Many people, who imitate the West, think that the basis of civilization and urbanization is long companionship and exaggerated intermingling, as each of the spouses get introduced to the other and understands his personality and morals deeply. I believe that both of the attitudes are far from righteousness, because they are exaggerated. In the first attitude, when the spouses do no see or get introduced to each other, their marital life become liable to disintegration, as the hearts may be detached from each other, the matter that may lead to the ruin of the family from the very beginning.

As for the second attitude, it involves great evil, as it causes the problems that occur between the engaged persons. The main reason behind these problems is their staying alone with each other in gardens and elsewhere. This way may lead to many bad effects that causes the dignity of the family to be lost, and the betrothed gains only dishonor and regret.

Thus, what is the best way by which a person can choose his/her fiancé?

We say that if the virtue is a medium state between two parties of vice, and the pure and delicious milk comes out through blood and excretions, then the fairest opinion in engagement is what the Islamic Sharī'ah came up with including the instructions of the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him.

It states that the engaged persons may see each other and speak to each other. Also, there is nothing wrong in their meeting amidst the family and relatives. This may happen without preventing the engaged persons from seeing each other, and without giving absolute freedom to them. It was authentically reported that Al-Mughirah Ibn Shu'bah engaged a woman and the Prophet told him: "Look at her, as this may cause you to feel intimate to each other."

There are many Hadiths that permits the fiancé to see his betrothed in Al-Sahah books, and they may relieve the jealousy of some people not to leave their daughters to live in darkness. Also, they may limit the freedom and exaggeration of some people, not to let them feel ashamed and humiliated at the end.

3- The Islamic Sharī'ah is not limited in the methods of establishing a family and a marital life to getting acquainted and choosing. However, it enjoined absolute content

"So whosoever receives an admonition from his Lord and stops eating Ribâ (usury) shall not be punished for the past; his case is for Allâh (to judge); but whoever returns [to Ribâ (usury)], such are the dwellers of the Fire - they will abide therein forever".[Al-Baqarah (The Cow): 275]

Second: Mortgage in which the customer buys a house or a real estate and the bank pays its price to the owner, and considers what he pays as a debt that is paid in installments with usury interests. Form the Islamic point of view, the method of this transaction is not legally permissible. The decision of the Islamic Fiqh Academy in 1999 state: "The method adopted by the mortgage banks in which they lend money with an interest either much or few is legally prohibited because it involves usury. The question is: What are the alternative legal methods in these cases?

The answer: There are many legal methods such as the bank may buy the house or the real estate from the original owner and owns it completely, then sells it in the price which they agree upon on installment and without interests.

Third: Securitization, in which the bank presents loans to a number of customers, regarding them as debts. Then, it sells these debts to a company specialized for this purpose with a sum less than its real value, which it receives immediately in return for the company's gaining the debts on its due time. Then, the company issues old bonds with the value of the debts and sells them to the individuals and gains its value immediately. The individuals keep these bonds until the due date and restore its value. Throughout this period, they gain the interests of these debts for them. This process is legally prohibited for the following reasons:

1- The banks sells the debt to the securitization company with an urgent sum less than its real value at the time of paying in on the due date. This means that the company pays more and gains less, which is considered as usury.

2- The bonds purchased by the individuals give its owner the right to gain the interests of the loans. This is considered as actual usury.

It was mentioned in the decision of the Islamic Fiqh Academy in November 1988 the following:

It is not permissible to sell the deferred debt in return for urgent money from its type or nor because it is a form of usury.

In January 2003, the Academy decided the following: It is not permissible to deal in the usury bonds in the manner of issuance, exchange, or sale because they include usury interests.

Fourth: The short-term speculations such as purchasing with margin.

It is manifested in a person expecting the rise of the price of a certain stock, wanting to buy a great number of it to sell it after the rise of its price, gaining profit out of purchasing it while he does not possess the enough money. Then, he asks a broker to purchase for him the number he wants to buy, pays him the money he possesses on the condition that the difference represents a loan from the broker in return for an interest, and he keeps the stocks purchased as a guarantee for the loan. If the prices of the stocks rise, the broker sells them to the person with the new price, restores the loan and gives him the rest. In this way, the person pays the debt and gains the increase of the stock price. On the other hand, if the contrary occurs and the value of the stocks decreases, the person bears the loss. In both profit and loss, the broker gains his commission.

This way of purchasing is not legally permissible for the following reasons:

1- The purchaser, by adopting this method, wants to achieve quick profit without exerting effort or producing something useful to the people.

2- Selling and buying the stocks depending on the increase or decrease of stock price is called speculation, which occurs throughout people who are not capable of studying the market. Also, it is considered as a kind of deception, which is forbidden by the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) and involves ignorance and risk. Also, this method of selling and purchasing is like gambling and involves wish for achieving quick profitability.

Fifth: The inflation of the financial economy at the account of the concrete economy. The only role of the financial economy is to serve the concrete economy throughout financing factories, production projects, and improving the economic institutions. Supposedly, the financial flows in the financial economy are directed towards the concrete economy to grow together and inflate in parallel.

Money is locked up in the financial economy in form of stocks and bonds trade and other forms of money trade, and they no more finance and serve the concrete economy, which started to collapse. This is what happened in the financial crisis which occurred to the Western economy lately.

In the Islamic economy, any financial flow should correspond to true production flow in an accurate coherence. Islam prohibits gaining profits and collecting interests throughout financial transactions only throughout lending and borrowing, lest they are affected by usury.

Sixth: The moral bases are the main reason for the financial crises in the West due to practicing some deviated moral behaviors such as grudge, spoilage of information, delusion, and lying. In Shari'ah we find most of the Qur'anic verses, prophetic Hadith, which handle the rulings on the financial and economic transactions, which obligate abiding by good morals such as faithfulness, justice, honesty, and prohibit the malicious vices such as deception, oppression, lying, and betrayal. In this regard, Allah (Glory be to Him) says:

"Verily, Allâh commands that you should render back the trusts to those to whom they are due; and that when you judge between men, you judge with justice. Verily, how excellent is the teaching which He (Allâh) gives you! Truly, Allâh is Ever All-Hearer, All-Seer".

[Al-Nisa' (Women): 58]

The Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Whoever cheats us does not belong to Islam."

increase its customers since then to 3 millions, and the amount of its transactions reached 4 billion Pound in 2007.

Regarding France, the French Senate called lately for including the Islamic bank system to its French system, describing it as profitable to all.

What is the status and importance of controlling and organizing the financial transactions in the Islamic Sharî'ah?

Allah, the Ever Knower who created mankind, knows everything that reforms and corrupts the life of mankind. Money is one of the adornments of life like the children, and struggling over it leads only to strife and hatred, until fight. Thus, Islam paid all due attention to organizing the financial transactions amidst people to keep rights, to maintain and to protect relations among people from corruption. The evidences indicating that are:

1- The Noble Qur'an described in detail the financial transactions. Although the explanations of the rulings on acts of worship were mentioned in general such as the Saying of Allah (Glory be to Him): "Perform As-Salât (Iqâmat-as-Salât), and give Zakât". [Al-Nisa'a (Women): 77]

"Observing As-Saum (the fast) is prescribed for you as it was prescribed for those before you". [Al-Baqarah (The Cow): 183]

"And Hajj (pilgrimage to Makkah) to the House (Ka'bah) is a duty that mankind owes to Allâh". [Al-Imran (The Household of Imran): 97]

Speech about money is mentioned in detail such as the verse of inheriting, which determined the rights of the heirs in the wealth of the dead. Also, the categories of the Zakah (obligatory charity) and recipients were mentioned in detail. Allah (Glory be to Him) says:

"As-Sadaqât (here it means Zakât) are only for the Fuqarâ' (poor), and Al-Masâkin (the needy), and those employed to collect (the funds); and to attract the hearts of those who have been inclined (towards Islâm); and to free the captives; and for those in debt; and for Allâh's Cause (i.e. for Mujâhidûn, those fighting in a holy battle), and for the wayfarer (a traveller who is cut off from everything); a duty imposed by Allâh. And Allâh is All-Knower, All-Wise". [Al-Tawbah (Repentance): 60]

2- The longest verse in Sura Al-Baqarah, verse 282, does not treat the acts of worship, but it treated debt, as it described in detail, the way of its writing, witness on it, and everything related to it accurately and in detail.

3- Allah (Glory be to Him) sent one of His honorable Prophets, Shu'aib (may peace of Allah be upon him) to call the people for abandoning cheating in weight and causing the rights of the people to be lost.

"Give full measure, and cause no loss (to others). And weigh with the true and straight balance". [Al-Shu'araa (The Poets): 181-183]

It is worth mentioning that Qistas is the most accurate scale. Allah send down a Surah named Al-Mutaffefin (Defauders), in which Allah extremely warns against defrauding in weighting. Allah (Glory be to Him) says: "Woe to Al-Mutaffifûn (those who give less in measure and weight). Those who, when they have to receive by measure from men, demand full measure, And when they have to give by measure or weight to (other) men, give less than due. Do they not think that they will be resurrected (for reckoning), 'On a Great Day? The Day when (all) mankind will stand

before the Lord of the 'Alamîn (mankind, jinn and all that exists)".[Al-Mutaffefin (Defrauders): 1-6]

4- Allah (Glory be to Him) set many controls and rules to stress the inviolability of money and the obligation of keeping it including the Saying of Allah (Glory be to Him):

"O you who believe! Eat not up your property among yourselves unjustly except it be a trade amongst you, by mutual consent. And do not kill yourselves (nor kill one another). Surely, Allâh is Most Merciful to you. And whoever commits that through aggression and injustice, We shall cast him into the Fire, and that is easy for Allâh". [Al-Nisa' (Women): 29-30]

Allah (Glory be to Him) says: "And (as for) the male thief and the female thief, cut off (from the wrist joint) their (right) hands". [Al-Ma'idah (The Table): 83]

One of the matters that indicate the inviolability of money is that Allah (Glory be to Him) does not accept the repentance of a person who repents to Him except after giving the dues back to their owners. Also, the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) said in the Farewell speech: "O People, your blood and money are inviolable just like the inviolability of this day in this month in this country until you are resurrected."

These financial transactions in the capitalist economic system contradict extremely with the Islamic transactions. The following are some of the contradictions in the transactions:

Usury interests, mortgage, securitization, short term speculations such as buying with a certain margin, the inflation of the financial economy at the account of the concrete economy and the moral sides in economy according to the following:

First: The usury interests from loans, which mortgage banks present to their customers to buy houses and real estate in return for agreed upon and fixed yearly interests. This is the very usury, which is prohibited by the Qur'an and the Sunnah. It was prohibited by Allah, as He says: "whereas Allâh has permitted trading and forbidden Ribâ (usury)". [Al-Baqarah (The Cow): 275]

He warned the person who deals in usury against the vanishing of blessing from his money. Allah (Glory be to Him) says: "Allâh will destroy Ribâ (usury) and will give increase for Sadaqât (deeds of charity, alms, etc.)". [Al-Baqarah (The Cow): 276]

Allah threats those people that they will suffer from nervous breakdown, psychological diseases, and social catastrophes. Allah (Glory be to Him) says:

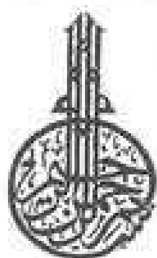
"Those who eat Ribâ (usury) will not stand (on the Day of Resurrection) except like the standing of a person beaten by Shaitân (Satan) leading him to insanity".[Al-Baqarah (The Cow): 275]

"O you who believe! Be afraid of Allâh and give up what remains (due to you) from Ribâ (usury) (from now onward), if you are (really) believers. And if you do not do it, then take a notice of war from Allâh and His Messenger (peace be upon him) but if you repent, you shall have your capital sums. Deal not unjustly (by asking more than your capital sums), and you shall not be dealt with unjustly (by receiving less than your capital sums)". [Al-Baqarah (The Cow): 278]

At the end, Allah (Glory be to Him) threatens those to whom the lesson comes, such as the financial crisis and does not return back to Allah that they will eternally stay in Hellfire.

AL-AZHAR MAGAZINE

Safar, 1432 A. H.



ENGLISH SECTION

Jan, 2011

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."

(Al A'raf 43)

EDITOR : Dr. IBRAHIM AL-ASSIL,

Professor at the Faculty of Languages and Translation

Al-Azhar University



When will the Politicians and Economists in the West Realize that the Islamic Economic System can Rescue their Financial Crises and Economic Hardships?...!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

The Islamic economic system depends upon important bases that contradict completely with the bases of capitalist system. Here are some of these bases:

1- Prohibiting usury. Allah (Glory be to Him) says: "O you who believe! Be afraid of Allâh and give up what remains (due to you) from Ribâ (usury) (from now onward), if you are (really) believers. And if you do not do it, then take a notice of war from Allâh and His Messenger (peace be upon him) but if you repent, you shall have your capital sums. Deal not unjustly (by asking more than your capital sums), and you shall not be dealt with unjustly (by receiving less than your capital". [Al-Baqarah (The Cow): 278-279]

2- Urging the people to keep away from debt. For this sake, the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) asked refuge with Allah from debt. He said: "I ask refuge with Allah from debt and men's coercion." In the earlier period of Islam, whenever the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) was asked to join funeral Prayer, he asked whether this dead was indebted or not." If he was not indebted, he attends the Prayer. If he was indebted, he told them to perform Prayer upon this dead person.

3- Prohibiting monopolism, as the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Whoever tries to raise the prices for the Muslims, Allah will resurrect him On the Day of Judgment by throwing him into the bottom of the fire."

4- Prohibiting certain kinds of sales such as fraudulent sale in which details about the sold items are not known as well as the short-term transactions such as buying with a cetian margin, and prohibiting producing and selling the items prohibited by Allah such as intoxicants and pigs. Also, Allah prohibited gambling.

5- Stipulating exchange with regard to securities, as it should be delivered and received at the same time. The Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Gold should be exchanged with gold, silver should be exchanged with silver, wheat should be exchanged with wheat, barely should be exchanged with barely, salt should be exchanged with salt in equal quantity. Whoever increases the amount commits usury."

6- Abiding by the religious principles and moral rules, which are regarded the greatest bases of the Islamic transaction. These principles include abiding by truthfulness, justice, honesty, prohibiting deception, and injustice.

It is worth mentioning that there are more than three hundred Islamic banks in 75 countries, the first of which is Malaysia, Gulf and other Persian countries. The wealth of these banks reaches 2800 billion USD. In Britain, the British Islamic Bank is the only bank which dealt in the Islamic transactions and modes since 2004. It managed to

الفهـــرس

AL AZHAR

MAGAZINE

Safar . 1432 A.H. Jan, 2011
Vol. 84, Part II.



الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية

هدية العدد

رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا



بيان السيد رئيس الجمهورية



أعلن السيد الرئيس محمد حسني مبارك أنه لن يترشح في الانتخابات الرئاسية المقبلة.. مؤكداً أنه سيعمل خلال الأشهر المتبقية من ولايته الحالية على اتخاذ التدابير والإجراءات المحققة للانتقال السلمي للسلطة بموجب ما يخوله له الدستور من صلاحيات.

ودعا الرئيس مبارك البرلمان الحالي بمجلسيه الشعب والشورى إلى مناقشة تعديل المادتين «٧٦» و«٧٧» من الدستور بما يعدل شروط الترشيح لرئاسة الجمهورية، ويعتمد فترات محددة للرئاسة.

وفيما يلي نص الكلمة:

الإخوة المواطنون..

أتحدث إليكم في أوقات صعبة.. تمتحن مصر وشعبها.. وتكاد أن تنجرف بها وبهم.. إلى المجهول.

يتعرض الوطن لأحداث عصيبة.. واختبارات قاسية.. بدأت بشباب ومواطنين شرفاء.. مارسوا حقهم في التظاهر السلمي.. تعبيراً عن همومهم وتطلعاتهم.. سرعان ما استغلهم.. من سعى لإشاعة الفوضى.. واللجوء إلى العنف والمواجهة.. وللقفز على الشرعية الدستورية والانقضاض عليها.

تحولت تلك التظاهرات.. من مظهر راق ومتحضر لممارسة حرية الرأي والتعبير.. إلى مواجهات مؤسفة.. تحركها وتهيمن عليها قوى سياسية.. سعت إلى التصعيد وصب

الزيت على النار.. واستهدفت أمن الوطن واستقراره.. بأعمال إثارة وتحريض .. وسلب ونهب.. وإشعال للحرائق.. وقطع للطرقات.. واعتداء على مرافق الدولة والممتلكات العامة والخاصة.. واقتحام لبعض البعثات الدبلوماسية على أرض مصر.

نعيش معاً أياماً مؤلمة.. وأكثر ما يوجع قلوبنا.. هو الخوف الذى انتاب الأغلبية الكاسحة من المصريين.. وما ساورهم من انزعاج وقلق وهواجس.. حول ما سيأتى به الغد.. لهم ولذويهم وعائلاتهم.. ومستقبل ومصير بلدهم.

إن أحداث الأيام القليلة الماضية.. تفرض علينا جميعاً.. شعباً وقيادة.. الاختيار ما بين الفوضى والاستقرار.. وتطرح أمامنا ظروفاً جديدة.. وواقعاً مصرياً مغايراً.. يتعين أن يتعامل معه الشعب وقواته المسلحة.. بأقصى قدر من الحكمة والحرص على مصالح مصر وأبنائها.

الإخوة المواطنون..

لقد بادرت بتشكيل حكومة جديدة بأولويات وتكليفات جديدة.. تتجاوب مع مطالب شبابنا ورسالتهم.. وكلفت نائب رئيس الجمهورية بالحوار مع كافة القوى السياسية.. حول كافة القضايا المثارة للإصلاح السياسى والديمقراطى.. وما يتطلبه من تعديلات دستورية وتشريعية.. من أجل تحقيق هذه المطالب المشروعة.. واستعادة الهدوء والأمن والاستقرار، لكن هناك من القوى السياسية من رفض هذه الدعوة للحوار.. تمسكاً بأجنداتهم الخاصة.. ودون مراعاة للظرف الدقيق الراهن لمصر وشعبها.

وبالنظر لهذا الرفض لدعوتى للحوار.. وهى دعوة لاتزال قائمة.. فإننى أتوجه بحديثى اليوم مباشرة لأبناء الشعب.. بفلاحيه وعماله.. مسلميه وأقباطه.. شيوخه وشبابه.. ولكل مصرى ومصرية.. فى ريف الوطن ومدنه على اتساع أرضه ومحافظاته.

إننى لم أكن يوماً طالب سلطة أو جاه.. ويعلم الشعب الظروف العصيبة التى تحملت فيها المسئولية.. وما قدمته للوطن حرباً وسلاماً، كما أننى رجل من أبناء قواتنا المسلحة.. وليس من طبعى خيانة الأمانة.. أو التخلى عن الواجب والمسئولية.

إن مسئوليتى الأولى الآن.. هى استعادة أمن واستقرار الوطن.. لتحقيق الانتقال السلمى للسلطة.. فى أجواء تحمى مصر والمصريين.. وتتيح تسلم المسئولية لمن يختاره الشعب.. فى الانتخابات الرئاسية المقبلة.

وأقول بكل الصدق.. وبصرف النظر عن الظرف الراهن.. إننى لم أكن أنوى الترشح لفترة رئاسية جديدة.. فقد قضيت ما يكفى من العمر فى خدمة مصر وشعبها.. لكننى الآن حريص كل الحرص على أن أختتم عملى من أجل الوطن.. بما يضمن تسليم أمانته ورايته.. ومصر عزيزة آمنة مستقرة.. وبما يحفظ الشرعية ويحترم الدستور.

أقول بعبارات واضحة.. إننى سأعمل خلال الأشهر المتبقية من ولايتى الحالية.. كى يتم اتخاذ التدابير والإجراءات المحققة للانتقال السلمى للسلطة.. بموجب ما يخوله لى الدستور من صلاحيات.

إننى أدعو البرلمان بمجلسيه.. إلى مناقشة تعديل المادتين «٧٦» و«٧٧» من الدستور.. بما يعدل شروط الترشيح لرئاسة الجمهورية.. ويعتمد فترات محددة للرئاسة.

ولكى يتمكن البرلمان الحالى بمجلسيه من مناقشة هذه التعديلات الدستورية.. وما يرتبط بها من تعديلات تشريعية للقوانين المكملة للدستور.. وضماناً لمشاركة كافة القوى السياسية فى هذه المناقشات.. فإننى أطالب البرلمان بالالتزام بكلمة القضاء وأحكامه.. فى الطعون على الانتخابات التشريعية الأخيرة.. دون إبطاء.

سوف أوالى متابعة تنفيذ الحكومة الجديدة بتكليفاتها.. على نحو يحقق المطالب المشروعة للشعب.. وأن يأتى أداؤها معبراً عن الشعب وتطلعه للإصلاح السياسى والاقتصادى والاجتماعى.. ولإتاحة فرص العمل ومكافحة الفقر وتحقيق العدالة الاجتماعية.

وفى ذات السياق.. فإننى أكلف جهاز الشرطة بالاضطلاع بدوره فى خدمة الشعب.. وحماية المواطنين بنزاهة وشرف وأمانة.. وبالاحترام الكامل لحقوقهم وحرياتهم وكرامتهم.

كما أننى أطالب السلطات الرقابية والقضائية.. بأن تتخذ على الفور ما يلزم من إجراءات.. لمواصلة ملاحقة الفاسدين.. والتحقيق مع المتسببين فيما شهدته مصر من انفلات أمنى.. ومن قاموا بأعمال السلب والنهب وإشعال النيران وترويع الآمنين.

ذلك هو عهدى للشعب خلال الأشهر المتبقية من ولايتى الحالية.. أدعو الله أن يوفقنى فى الوفاء به.. كى أختتم عطائى لمصر وشعبها بما يرضى الله والوطن وأبناءه.

الإخوة المواطنون..

ستخرج مصر من الظروف الراهنة.. أقوى مما كانت عليه قبلها.. وأكثر ثقة وتماسكاً واستقراراً.

سيخرج منها شعبنا.. وهو أكثر وعياً بما يحقق مصالحه.. وأكثر حرصاً على عدم التفريط فى مصيره ومستقبله.

إن حسنى مبارك الذى يتحدث إليكم اليوم.. يعتز بما قضاه من سنين طويلة فى خدمة مصر وشعبها.. إن هذا الوطن العزيز هو وطنى.. مثلما هو وطن كل مصرى ومصرية.. فيه عشت.. وحاربت من أجله.. ودافعت عن أرضه وسيادته ومصالحه.. وعلى أرضه أموت.. وسيحكم التاريخ علىّ وعلى غيرى.. بما لنا أو علينا.

إن الوطن باق والأشخاص زائلون.. ومصر العريقة هى الخالدة أبداً.. تنتقل رايتها وأمانتها بين سواعد أبنائها.. وعلينا أن نضمن تحقيق ذلك بعزة ورفعة وكرامة.. جيلاً بعد جيل.

حفظ الله هذا الوطن وشعبه..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

الإمام الأكبر يناشد أبناء مصر الحفاظ على أمن ومقدرات البلاد



طالب فضيلة الإمام الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، الشباب المحتجين بانتخاب مجموعة تمثلهم ودعاهم للقائه شخصياً بمقر مشيخة الأزهر للاتفاق على كلمة سواء تعيد إلى مصر أمنها واستقرارها.

كما طالب شيخ الأزهر ـ فى كلمة وجهها عبر التليفزيون المصرى ـ الشباب المحتج فى ميدان التحرير وفى المناطق الأخرى بالعودة إلى منازلهم والتوقف عن تلك المواجهة المحزنة التى تقع بين أبناء الشعب الواحد.

ونبه شيخ الأزهر إلى أن هذه الأحداث تفتت وحدة الأمة، محذراً من تصفية الحسابات التى يستغلها البعض من أجل الإضرار بمصلحة الوطن، وطالبهم بالالتزام بما يقره الدين الإسلامى والتمسك بطبيعة الشعب المصرى الكريم التى ترفض العنف والاقتتال والتمسك بما يوحد صفهم وأن يعلو صوت العقل والمسئولية.

هذا وقد أصدر فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر عدة نداءات لأبناء مصر للحفاظ على أمن بلادنا منها :

يا شباب مصر ويا أملها فى مستقبل واعدٍ مشرق بإذن الله ـ أحييكم وأشد على أيديكم وأوجه لكم تحية محبة وإكبار واعتزاز وتقدير وأحيى فيكم مصريتكم ووطنيتكم وموقفكم النبيل الذى وقفتموه إلى جانب إخوتكم من أبناء القوات المسلحة المصرية الشجاعة تحافظون على الأمن وتحمون الممتلكات وتتصدون لعبث العابثين وإجرام المجرمين الذين حاولوا انتهاز هذه الظروف لترويع الآمنين وللعدوان على الأرواح والممتلكات العامة والخاصة وانطلاقاً من الإعجاب بوطنيتكم الجادة ودوركم الرائع فى الزود عن الوطن يشرفنى أيها الشباب المؤمن الملتزم باسمى وباسم الأزهر الشريف أن نكون دائماً معكم وإلى جواركم نبارك جهودكم فى حفظ الأمن والاستقرار ومصالح المواطنين وحقوقهم وأؤكد لكم يا شباب مصر ومواطنيها أن مصر ستبقى محروسة بفضل الله تعالى وبفضل شبابها وبفضل المخلصين الصادقين من أبنائها رجالاً ونساء شيباً وشباناً وإننى لعلى ثقة ويقين أن هذه السحابة السوداء العارضة فى سماء مصر ستنقشع وإلى الأبد عما قريب إن شاء الله وستبقى مصر مرفوعة أعلامها بالقوة والمجد وستبقى كنانة لله فى أرضه لا يرومها عدو بسوء إلا قصمه الله وأهلكه ورد كيده فى نحره أكرر تحية الأزهر للقوات المسلحة المصرية الباسلة وكفاها شرفاً أن نبى الإسلام ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصف رجالها منذ أربعة عشر قرناً من الزمان بأنهم خير أجناد الأرض.

شكراً لشبابنا ولقواتنا المسلحة الباسلة ووفق الله الجميع إلى ما فيه خير مصر وعزها ومجدها.

ومنها:

يا شباب مصر ويا أمل المستقبل

أحييكم وأؤكد لكم أن مكانكم فى قلوبنا وأنكم عدتنا وعتادنا فى تحقيق مجتمع العدل والتقدم والحرية إنكم يا شباب سلاحنا فى مواجهة الأعداء المتربصين بهذا الوطن وأذكركم وأعيد على مسامعكم أن الإسلام يكفل حرية الرأى ويرى قول الحق واجبا على كل مواطن ومن حق من جاءه أمر أن يعبر عن رأيه وعن موقفه شرط أن يتم هذا التعبير فى إطار الحفاظ على المصالح العليا للوطن وتجنب كل ما من يمكن أن يكون سبيلا إلى الفوضى والفتنة، أن الحفاظ على أمن الوطن وسلامته أيها الشاب فرض دينى وواجب شرعى قبل أن يكون واجبا وطنيا، إن كل مصرى ومصرية مسئول أمام الله تعالى يوم القيامة على أمن هذا البلد الطيب وسلامته، إننى أدعو المصريين جميعا رجالا ونساء شيبا وشبانا إلى اليقظة والوعى والعقل والتدبر جيدا فى عواقب الاندفاع والصدام وإشعال الفتن وأوجه التحية إلى قواتنا المسلحة اليقظة وأشيد بموقفها الشهم الذى أعلنت فيه أنها لن تستعمل العنف فى مقاومة الشعب وأؤكد لكم أيها المصريون أن أية قطرة دم من دماء المصريين حرام وأن حرمة الأموال والأعراض فى الدين كحرمة الدماء سواء بسواء وأن الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها وأن الفتنة أشد من القتل، وإنى لأهيب بالمسئولين فى هذه الفترة الحرجة أن يكونوا على تواصل دائم مع جماهيرنا العزيزة يستمعون إليها ويسمعونها صوتهم ويتواصلون معها بغير انقطاع ولا إبطاء حتى نستطيع أن نتجنب هذه الفتنة العمياء وانطلاقا من هذا الظرف المؤلم وبصوت الأزهر الشريف الذى هو بيت المصريين جميعا بغير تفرقة ولا تمييز أدعو كل أصحاب الرأى وقادة الفكر والسياسة والمسئولين إلى البدء فى حوار متكافئ وأذكر أصحاب الرأى بأنه لا يجوز لصاحب رأى إذا ما دعى إلى خطبة فيها رأب للصدع وقطع لذرائع الفتنة أن يتقاعس عنها أو يرفضها والحوار كما يؤمن الأزهر ليس مصادرة على أحد فى رأيه ولا فى موقفه ولكنه وسيلة مقررة شرعا ودينا وعقلا وحضارة وبخاصة إذا ما كان وسيلة إلى واجب التوافق الوطنى والأزهر الشريف إذ يدعو جميع المخلصين من أبناء هذا الوطن إلى الاستجابة لدعوة الحوار فإنه لا ينحاز إلى الوطن وأمنه ابتغاء لمرضاة الله تعالى.

الله الله فى مصر

والله الله فى المواطنين

والله الله فى سمعة مصر الغالية

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بيان من مجمع البحوث الإسلامية

اجتمع مجمع البحوث الإسلامية فى جلسة طارئة يوم الأربعاء ٢٩ من صفر سنة ١٤٣٢ هـ الموافق ٢ من فبراير ٢٠١١م، لمتابعة المرحلة الدقيقة الحرجة التى يمر بها الوطن.

والمجمع إذ يؤكد أن الإسلام يقرر الحقوق ويحمى الحريات ويرفض الظلم ويقف إلى جانب الشعوب فى مطالبها المشروعة فى العدل والحرية والعيش الكريم، فإنه يؤكد أن المصلحة الوطنية والحفاظ على أمن الوطن وسلامته مقصد أساسى من مقاصد الشريعة يقدم على ما سواه، ومن هنا فإن التعبير عن الرأى يجب أن يظل محكوماً بالمصالح العليا للوطن وفى مقدمتها الأمن.

ويشيد المجمع بالدور الوطنى للقوات المسلحة المصرية، والتى أثبتت حرصها على أمن الوطن والتزامها بالدفاع عنه فى مواجهة كل الأخطار، وأكدت فى هذه الظروف العصيبة التحامها بجماهير الشعب وتأكيدها أنها لن تكون فى مواجهة مع الشعب، كما يقدر الجهود المشكورة التى بذلها أبناء مصر من الشباب وغيرهم لحماية الأنفس والأموال والأعراض، والتصدى بحزم للعناصر الخارجة على القانون والعناصر التى اندست بين الشباب لجر الأمة إلى فتنة خطيرة لا يعلم مداها إلا الله، هذا وإن المجمع ليؤكد على حرمة الدم المصرى وعلى أن أى عمل أو تصرف يؤدى إلى إراقة الدماء أو إثارة الفتنة عمل محرم شرعاً ومجرم أمام الله وأمام الناس.

وانطلاقاً من المسئولية الشرعية وتواصلاً مع البيان الأخير للسيد رئيس الجمهورية، والذى استجاب فيه للمطالب المشروعة للشباب ودعا فيه للحوار الذى يبقى الباب مفتوحاً، وأزال التناقض بين إجراء التعديلات الدستورية المطلوبة وبين مطلب حل مجلس الشعب، بحيث لا يصادر أحدهما على الآخر، ويحقق التوافق بين المطلبين دون تصادم أو تعارض.

فإن مجمع البحوث الإسلامية يطالب المواطنين:

- بأن يلتزم الجميع بالتعقل والهدوء والبعد عن أى صدام أو عنف، وبخاصة فى هذا الظرف الذى تمر به الأمة.
- كما يطالب باجتماع سائر القوى السياسية دون إقصاء لأحد لحوار فورى يهدف إلى احتواء الأزمة ورأب الصدع والحفاظ على الأمن وقطع السبيل أمام محاولات التدخل الأجنبى.

وأخيراً يؤكد الأزهر للجميع أن مجمع البحوث الإسلامية هو المعبر الوحيد عن رأى علماء الأزهر والناطق باسمهم.

نسأل الله تعالى أن يكشف هذه الأمة وأن يعين المخلصين من أبناء الوطن على تحقيق سلامة الوطن وأمن المواطنين.

أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا

للأستاذ / أحمد تقى الدين

فجعت مصرنا الغالية بفتنة لا يعلم أحد متى وكيف ستكون نهايتها !!

الخسائر جسيمة والآثار مُفجعة.

المؤكد أنه لن يكون هناك فائز على الإطلاق.

الكل خاسر.

والخاسر الأكبر هو مصر وشعبها.

أيام من الأسى والفزع والرعب عاشتها مصرنا الحبيبة.

خرج أبناء مصر وقد روعتهم الكارثة ينظمون لجانا شعبية للدفاع عن حياتهم وأموالهم وأعراضهم بعد أن غاب الأمن تماماً، وعاث المفسدون فى الأرض فساداً ومضوا يقتلون وينهبون ويروعون الآمنين بغير وازع من دين أو ضمير فى مشهد لم تشهده مصر على الإطلاق عبر تاريخها كله، وبيد من؟ بيد حفنة من أبنائها على اختلاف أطيافهم وانتماءاتهم تعرضوا جميعاً لخداع وتضليل من قوى سعت ومازالت تسعى للسيطرة على بلادنا عن طريق صناعة الفوضى بها وقد نجحوا فى مسعاهم.

سقطت مصر فريسة لفوضى صنعها دعاة الفتنة وقادتها الذين اندفعوا برعونة وحماقة وقد ظنوا أنهم يصلحون !!

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾

(البقرة: ١٢)

لا أقول هذا الكلام لطرف واحد وإنما أقوله للجميع، ولكل من صنع هذه الفتنة التى لم تشهد لها البلاد مثيلا من قبل:

﴿ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾

(التوبة: ٤٩)

وكيف لا وقد روعوا العباد وأحرقوا البلاد وكانوا سببا فى انتهاك الأعراض والحرمات

﴿ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾

الكل يبحث عن الزعامة وبريقها ومكاسبها بغض النظر عن الضحايا !!

لا أدافع عن النظام وخطاياه ولا ألتمس له العذر فقد طغوا وبغوا وسلبوا ونهبوا وهربوا ما فى ذلك شك.

ولكن الكل اندفع برعونة وحماقة ونسى أننا لنا خصوصيتنا النابعة من ديننا الحنيف فى قرآننا وسنة نبينا

الله سبحانه وتعالى قال فى محكم كتابه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

(الأنفال: ٢٤، ٢٥)

عندما وعظ خطيب الجمعة المصلين وخاطبهم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ستكون فتن الجالس فيها خير من الواقف والواقف فيها خير من الساعى..» سخر منه أحد المصلين واتهمه بالنفاق ودعا المصلين إلى «جمعة الغضب» وهو شعار بالغ القبح فمن قال بأن يوم الجمعة ينسب إليه الغضب والله سبحانه وتعالى كرم هذا اليوم بأن ذكره فى كتابه بقوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾

(الجمعة: ٩)

فى حين سعى الكثيرون من المخدوعين لذكر الغضب ونسوا ذكر الله، ونسوا أن رسولنا الكريم أمرنا بألا نغضب.

سقط المئات من أبناء الشعب ما بين قتيل وجريح فى حين وقف من يدعون لأنفسهم أنهم زعماء المعارضة ومنهم من يرفع شعار الإسلام والإسلام منهم براء يرفضون إطفاء النيران ويرفضون وقف حمامات الدم ورفضوا كل دعوة للحوار وصار هدفهم الانتقام والتشفى والسخرية من رئيس الدولة فانقسم الشعب على نفسه ما بين مؤيد ومعارض ووقعت كارثة لا يعلم مداها إلا الله.

الثورة أشعلها شباب كانت أهدافهم نبيلة كان هدفهم صالح هذا الشعب ولكن وجد من قفز على الأحداث لأهداف كثيرة بعضها استعمارية هدفها تركيع مصر وشعبها وسلب استقلالها والبعض الآخر يتعلق بتطلع من يسمون أنفسهم زعماء المعارضة من المتطلعين للزعامة فوق أشلاء الضحايا من أبناء هذا الشعب المنكوب بهم بحثا عن مكاسب لن يجنوا من ورائها إلا الحسرة والندم:

﴿ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾

يا هؤلاء تذكروا أن مصر قلب العروبة النابض وقلعة الإسلام الحصينة وينبغى أن تبقى كذلك وتظل

﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾

(الشعراء: ٢٢٧)

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾

(الانفطار: ١٩)

مصر..

للشاعر الكبير/ على محمود طه

قصيدة قالها الشاعر من وحى الأسى والألم وقد رأت إدارة التحرير إعادته نشرها فى إطار تبصير الشباب بالدور الملقى على عاتقهم لحماية الوطن.

هوىً لك فيه كلُّ ردىً يُحَبُّ ... فديتُك هل وراء الموت حُبُّ
فديتُك مصرُ كلُّ فتىً مشوقٌ ... إليك وكلُّ شيخٍ فيك صَبُّ
ويحلُمُ بالفدى طفلٌ فطيمٌ ... وكلُّ رضيعةٍ فى المهد تحْبو
أراك وأينما وليتُ وجهى ... أرى مُهَجاً لوجهك تشرئبُّ
وأرواحاً عليك محوِّماتٍ ... لها فوق الضفاف خُطىً ووثْبُ
عليها من دم الفادين غارٌ ... له بيديك تضفيرٌ وعَصْبُ
حمتك صدورُها يوم التنادى ... ورقَّتك الليالى وهى حَرْبُ
إذا رامتك عاديةٌ وشقَّتْ ... فضاءك غيلةً ورماك خَطْبُ
دعتْ بالنهر فهو لظىً ووقْدٌ ... وبالنسمات فهى حصىً وحصْبُ
وبالشجر المنوَّر فهو غيلٌ ... وكلُّ غصونه ظُفرٌ وخِلْبُ
حقائقُ عن يد الإيمان ترمى ... صواعق ومضُها رُجُمٌ وشُهْبُ
لها فى مهجة الجبّار فتكٌ ... وفى عينيه إيماضٌ وسكْبُ

صنائعُ كالغانيات يشدو ... بها شرقٌ ويُلقى السمعَ غربُ
ويبعثُ فى الحياة على صداها ... فراعنُ أو حواريُّون عُرْبُ
أهلُّوا بالصباح فثمَّ ركبٌ ... تموجُ به الضفافُ وثمَّ ركْبُ
بأرواحٍ مجنحةٍ نشاوى ... إليك بكلِّ جارحةٍ تدِبُّ
لقد بُعثتْ من الأحقاب مصرٌ ... أجل بُعثتْ وهبَّ اليوم شعْبُ
توحّدَ فى الزعامة فهو فردٌ ... وأفردَ بالأمانة فهو صُلْبُ
فيا لك مصرُ ما لجلال أمسٍ ... علته غبرةٌ وطوته حُجْبُ
وأبهمَ فهو رجعُ صدىً وطيفٌ ... بعيدٌ ليس يستجليه قُرْبُ
دوت ربّاً ملامحه وحالتْ ... مناقبُه فهنّ أذىً وثلْبُ
أكان دمُ الفدائيين صدقاً ... وأصبح وهو بعد الأمس كِذْبُ
فيُهدمُ ما بنى ويقالُ شادوا ... وتُصدعُ وحدةٌ ويُقال رأْبُ
علامَ إذنْ أريقَ بكلِّ وادٍ ... فأورقَ مجدبٌ وأنارَ خصْبُ
وجاد به شبابٌ عبقرىٌّ ... وولدانٌ كفرخ الطير زُغْبُ
أحقاً ما يُقال شيوخُ جيلٍ ... على أحقادهم فيه أكبّوا
وكانوا الأمس أرسخَ من جبالٍ ... إذا ما زُلزلتْ قممٌ وهضْبُ
فما الهمُّ وهتْ منهم حلومٌ ... لها بيد الهوى دفعٌ وجذْبُ
الأرحامُ مقطّعةٌ وأرضٌ ... تعادى فوقها أهلٌ وصحْبُ
وأسواقٌ تُباع بها وتُشرى ... ضمائرُ هُنّ للأهواء نهْبُ
يطوف بها النفاقُ وفى يديه ... صحائفُ أفعمتْ زوراً وكِذْبُ

يكاد الليلُ أن يَنسى دُجاهُ ... إذا نُشِرت ويأخذ منه رُعْبُ
تعالوا يا بنى قومى تعالوا ... إلى حقٍّ وخِصْبُ الشعبِ خِصْبُ
هو الدستور منه جَنى قطفنا ... ونهرُ حياتنا ملآنُ عَذْبُ
فما للشُّرْب والجانين ثاروا ... عليه بعد ما طعموا وعَبُّوا
فأهْدِرَ مرَّةً وأُبيحَ أخرى ... وعيبَ وما له عيبٌ وذنبُ
إذا ما الأكثريةُ فيه فازتْ ... تحركتِ الدسائسُ وهى إلْبُ
وإن هى حوربتْ عنه وذيدتْ ... تحدَّثَ باسمه فردٌ وحزبُ
عجائب لم تقعْ إلاَّ بمصر ... وأحداثٌ لهن يطيش لُبُّ
تَعالوا يا بنى قومى إليه ... فما فى حُكمه قَسْرٌ وغَصْبُ
وما هو أسْطُرٌ كُتِبتْ ولكن ... معانٍ فى القلوب لهنَّ غَلْبُ
تحررت الشعوبُ فكلُّ شعب ... طليقٌ والمجال اليوم رَحْبُ
وهبَّتْ فى نواحى الأرضِ دُنيا ... لحقٍّ يُجتبى ومُنى تُلَبُّ
أنلعبُ والزمانُ يقول جِدُّوا ... ونرقدُ والحياةُ تصيحُ هُبُّوا
فلا تقفوا بحرياتِ شَعْبٍ ... وآمالٌ له للمجد تصبو
فما تثنى خُطى شعبٍ طموح ... زعازعُ فى ظلام الليل نُكْبُ
إذا عصفتْ تلقَّاها بصدرٍ ... وراء ضلوعه نارٌ تُشَبُّ
سألتكمو اليمينَ وحُبَّ مصرٍ ... ألم يخفقْ لكم بالحب قلبُ

***

بسم الله الرحمن الرحيم



الأزهر
مجلة شهرية جامعة
يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف فى مطلع كل شهر عربى
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١ م

رئيس التحرير
أ.د. محمد رجب البيومى

مدير التحرير
عادل رفاعى خفاجة

سكرتير التحرير
أحمد السيد تقى الدين

الاشتراك السنوى
داخل مصر ١٨ جنيها مصريا -
الدول العربية ٥٠ دولارا أمريكيا
أوربا وأمريكا ٨٥ دولارا أمريكيا -
اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولارا أمريكيا
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٥٧٨٦٢٠٠

المراسلات باسم: مدير التحرير -
مجمع البحوث الإسلامية - م. نصر
ت: ٢٢٦٣٨٥٩٩

داخل العدد

ربيع الأول ١٤٣٢هـ - فبراير ٢٠١١م - الجزء الثالث - السنة الرابعة والثمانون

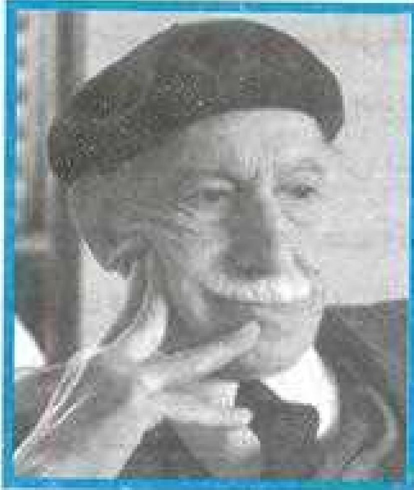
في ذكرى المولد النبوي

محمد صلى الله عليه وسلم

لتوفيق الحكيم



قرأت عن كتاب «محمد» للأستاذ توفيق الحكيم مقالات نقدية لكبار الكتاب في العالم العربي ترفع من قدره، وتعده عملاً ممتازاً قوي الأثر، قرأت هذه المقالات قبل أن يقع في يدي الكتاب، فأخذت عنه فكرة مشرقة رفعته في عيني إلى مرتبة يستحقها الأستاذ توفيق الحكيم، فهو من كبار أدباء العربية في هذا العصر، وهو رائد الأدب التمثيلي الذي بدأه على سننه القويم، فاختط طريقاً واضحاً لمن جاء بعده، ومثله في ألمعيته الأصيلة جدير بما يساق إليه من الثناء الحفيل، لذلك أقبلت على قراءة كتابه عن (محمد) ﷺ، وفي نفسي أنني سأجد أبدع ما يمكن أن تتمخض عنه قريحة كاتب موهوب، قرأ السيرة النبوية، وتعمق أحداثها، ثم صاغ منها مسرحية أدبية تليق بمستواه، وأنا أعلم أن بعض الكتاب المرموقين في المجال الروائي - وإن لم يكن تمثيليا - قد وفقوا في كتابة السيرة النبوية في قالب قصصي فني، فصوروا أحداث الدعوة الإسلامية الكريمة وتاريخ نبيها المصطفى تصويراً روائياً يستعين بالخيال لخدمة الواقع التاريخي دون أن يمس الشخصية النبوية بزيادة لم تثبت! فجاء ما كتبوه دليلاً على أن الفن الروائي المتصل لا يتحيف السيرة المطهرة إذا اتجه إليه كاتب أصيل، كما جاء ما


توفيق الحكيم

كتبوه دليلاً على أن الخيال الأدبي يجيء لتوضيح الواقع وتسليط الأضواء على الحقيقة لتظهر في أسطع بريق، فإذا أضاف الروائي شخصية خيالية لأبطاله الحقيقيين فإنه يتخذ منها أداة كشف صادق لما استتر من الخلجات، وأداة تنفيذ لأحداث علمت دون أن تنسب إلى فاعل معين، ومن الذين أبدعوا في هذا المجال الأستاذ إبراهيم رمزي صاحب رواية (باب القمر)، والأستاذ معروف الأرناءوط صاحب رواية (سيد قريش)، فكلا الكاتبين الكبيرين قد أفرد روايته الطويلة الممتدة للحديث عن نبي الإسلام ورسالته الخالدة، مصوراً ما قابل من العقبات في أداء رسالته، ومبرزاً جهده الممتاز في إنقاذ البشر من الظلمات إلى النور، وكلاهما قد كتب روايته كتابة فنية محكمة، ذات حلقات متماسكة، وذات أدوار متعاقبة، تتابع دون نشاز وتنسجم في اطرادها انسجاماً عضوياً لا تفكك فيه! وكان المنتظر في رأيي من رائد كبير كالأستاذ توفيق الحكيم أن يكون ألطف تهدياً، وأحكم صوغاً من سابقيه، وأوفى براعة في الانسجام الفني، والتماسك العضوي بحيث يكون أبطال المسرحية ذوي فصول تتعاقب لتؤدي أدوارها الطبيعية دون انفصام، هكذا خيّل لي قبل أن أقرأ رواية الأستاذ توفيق، وبعد أن قرأت كثيراً مما كتب في تقريظها، ولا أكتم القارئ أن كبار المقرظين قد أشاروا إلى انفصال المشاهد، وتلاحق الأدوار دون تماسك، وعللوا لذلك بما اقتنعوا به من تبريرات، ولكنني لم أكن لأتصور أن هذا الانفصال من الخطر بحيث يمنع التلاحم العضوي وهو ما برع فيه المؤلف فيما قدم من آثار جياد غير ما كتبه عن سيرة النبي المختار.

والمسرحية التي أدرسها الآن تقع في مقدمة وخاتمة وبينهما ثلاثة فصول، في الفصل الأول ستة وثلاثون مشهداً تدور حول السيرة النبوية المطهرة منذ البعثة إلى الهجرة، وفي الفصل الثاني عشرون مشهداً تمثل ما وقع من الأحداث في الفترة الأولى من مقامه ﷺ

بالمدينة حتى موقعة (بنى قريظة) بعد معركة (الأحزاب)، وفى الفصل الثالث ثلاثة وعشرون مشهداً تبتدئ من حادث الإفك وتنتهى بالفتح الأعظم لمكة، أما المقدمة فخاصة بالإرهاصات قبل النبوة، وأما الخاتمة فتتحدث عما بين حجة الوداع ووفاة النبى ﷺ!

وبديهى أن الفصل الذى يضم أكثر من ثلاثين مشهداً تختلف أشخاص ممثليه بحيث يتعاقبون دون رابط وكذلك ما يضم العشرين أو أكثر من العشرين، هذه الفصول ذات المشاهد المتلاحقة التى لا تعهد من قبل أو من بعد فى إنتاج الحكيم المسرحى أو سواه تمنع الاتصال المتسلسل الذى هو من مؤكدات الإتقان فى العمل المسرحى وإذا كان مما يشق على القارئ الكريم أن نلخص له أحداث فصل من الفصول ذات المشاهد المتلاحقة، فإننا سنعمد إلى المقدمة المسرحية وهى فى ثمانية مشاهد متلاحقة جاءت فى حيز ضئيل بالنسبة إلى حيز الكتاب، لتصور طريقة المؤلف فى نهجه المسرحى: فعلى منوالها سار فى بقية الكتاب.

يبتدئ[1] المنظر الأول من المقدمة بمشهد قصير يصور حواراً بين يهودى وجماعة من قومه بالمدينة، يصرخ اليهودى بأعلى صوته: يا معشر يهود، فتقبل عليه جماعة من أهله يسألونه ما لك؟ فيقول اليهودى: انظروا، انظروا فتتطلع الجماعة للسماء، ويسألون: ماذا، فيجيب اليهودى: طلع نجم أحمد!

هذا كل ما جاء فى المشهد الأول بالمدينة، ويعقبه المشهد الثانى فى مكة وهو يتحدث عن عبدالمطلب جالساً بجوار الكعبة، وقد جاءت إليه امرأة تقول له: أبشر، فيسأل عن السبب فتقول: إن آمنة رزقت ولداً وأنها نظرت إليه ساعة ولد فخرج منها نور رأت به قصور بُصرى فى الشام، فيفرح عبدالمطلب ويقول: إنها الرؤيا التى رأيت فتسأله المرأة عن رؤياه، فيذكر أنه رأى سلسلة من فضة خرجت من ظهره وامتد طرفاها بين الشرق والغرب ثم عادت كأنها ورقة شجرة على كل ورقة منها نور، فقالت المرأة: نسم المولود محمداً فوافق عبدالمطلب! وإذا كان الأستاذ توفيق يتقيد بأقوال التاريخ فكان عليه أن

(١) تلخيصات من المقدمة

ينسب التسمية لعبدالمطلب نفسه لا للمرأة التى بشرته، فهذا ما كان!

ثم يجيىء المنظر الثالث فيتحدث عن حليمة ومقدمها إلى مكة واهتدائها إلى الطفل السعيد، وحديثها عن بركته الميمونة، ثم عرضها إياه على عراف من هذيل يراه فيعرف أنه النبى المختار فيصيح بمن حوله: اقتلوه.. اقتلوه!

أما المشهد الرابع فيتحدث عن بحيرى وبشارته لأبى طالب بنبوة رسول الله ﷺ حين رحل مع عمه إلى الشام، وقد طال هذا المشهد بالنسبة إلى ما سبق حيث كانت بعض المشاهد لا تتجاوز أخذا ورداً مرتين اثنتين كما فى أول مشهد.

أما المشهد الخامس فيتحدث عن خلاف قريش حول من يضع الحجر الأسود فى مكانه يوم بناء الكعبة، وكيف أنقذهم الأمين الصادق من الخلاف حين بسط ثوباً ووضع عليه الحجر لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب فيرفعوا الحجر جميعاً.

وفى المشهد السادس حوار قصير بين رسول الله ﷺ وعمه أبى طالب حين دعاه إلى الخروج فى تجارة خديجة كى يسهل الله له الرزق.

وجاء المشهد السابع ليتحدث عن إعجاب خديجة -رضى الله عنها- بأمانة محمد ﷺ ورغبتها فى الاقتران به، وتلاه المشهد الثامن والأخير من المقدمة ليعلن هذا الاقتران المبارك السعيد!

تلك هى مشاهد المقدمة، وهى صورة مما تلاها من المشاهد! وقد تنوعت أماكن الأحداث بين المدينة ومكة.

وتوالت الوقائع توالياً لا يقف عند شخصيات معينة تتبادل الحديث وتقوم بالأفعال، فتحقق الوحدة الفنية، فى العمل، ولكن المؤلف تعرض فى مشاهد شبيهة بالسرد ليهودى بالمدينة، ولعبدالمطلب، ولحليمة، ولعراف هذيل ولرحلة الشام الأولى وحديث بحيرى، ولنزاع قريش يوم بناء الكعبة، ولحديث الرحلة الثانية إلى الشام فى تجارة خديجة، وثناء ميسرة على محمد ﷺ ثم إلى إعجاب السيدة بالأمين الصادق وإتمام الزواج به! وقد رأى الكاتب فى هذا النمط السردىّ، ما يقدم حقائق السيرة دون أن

يزيد!! كنت أوثر أن تقدَّم هذه الحقائق فى ظل تماسك فنى يتحد فيه المكان والأشخاص فيدور الفصل كله على أناس يظهرون فى كل مشاهده ليصوّروا هذه الأحداث، وإذا كانت المسرحية للقراءة فقط لا للتمثيل المسرحى أمام النظارة فلا يضيرنا أن يظهر الصحابة فى الكتاب ليتحدثوا بما قالوه فعلاً منقولاً عن صحف التاريخ، ما دامت المسرحية للقراءة وحدها لا للتمثيل إجلالاً لشخصيات هؤلاء العظام أن يقوم بتمثيلها مَن لا يرتفع إلى مستواهم الكريم، أقول: إذا كانت المسرحية للقراءة فقط فما الذى يعوق أن يتحد المكان والأشخاص وأن يدور الحديث بحيث يشمل كل ما يريد الكاتب، فإذا تعذر أن يحتشد أناس كثيرون ففى بعضهم ما يغنى عن بعض إذ فى الحديث الحوارى عن الغائبين ما يدل على أعمالهم وأقوالهم إذا تطلبها الموقف!! وقد يكون الكاتب الكبير يرى أن هذه الوحدة فى هذا النطاق المحدد مما يتعذر، وقد يكون من قرظوا الرواية ممن وافقوه على اتجاهه، ولكنى أرى أن الطاقة الفنية لدى المؤلف الممتاز كانت تتسع لأكثر مما صنع، ولكنه تعجل بالتأليف أو آثر التخفف من العناء!

مهما يكن من شىء فإننا نحمد للمؤلف كل الحمد اتجاهه إلى الالتزام المطلق بالمأثور من أقوال السابقين حتى لا يضيف إليهم ما لا يأتون من الأفعال أو ينطقون به من الأقوال، وهو حرص يصدر عن إيمان واثق بمكانة نبى الإسلام العظيم، وصحابته الأبرار، وهذا ما دعاه إلى أن يقول فى هامش ص١٣ ما يأتى: «يلاحظ أن الكلام الذى يجرى على لسان النبى ﷺ فى هذا الكتاب هو كلام تاريخى وردت نصوصه فى كتب معتمدة هى على سبيل الحصر: (سيرة ابن هشام وتفسيرها للسهيلى)، و(طبقات ابن سعد)، و(الإصابة لابن حجر)، و(أسد الغابة لابن الأثير)، و(تاريخ الطبرى)، و(صحيح البخارى)، و(تيسير الوصول)، و(الشمائل للترمذى)، و(تفسير الباجورى)، كذلك الوقائع الواردة فى هذا الكتاب كلها صحيحة مروية فى الكتب السابق ذكرها، على أن ترتيب هذه الوقائع وتنسيقها لم يتبع فيه النظام الزمنى المعروف فى كتب التاريخ، لما هو مفهوم أن هذا الكتاب ليس عملاً تاريخياً ولا علمياً وإنما هو عمل فنى».

هذا الحرص على التقيد بالمأثور دون زيادة هو الذى دعا الكاتب الإسلامى الكبير الأستاذ

مصطفى صادق الرافعى أن يقول عن هذا العمل الدقيق (٢):



الرافعى

«عمل الأستاذ توفيق الحكيم فى تصنيف هذا الكتاب أشبه شىء بعمل (كريستوفر كولمبس) فى الكشف عن أمريكا وإظهارها من الدنيا للدنيا، لم يخلق وجودها، ولكنه أوجدها فى التاريخ البشرى، وذهب إليها فقيل جاء بها إلى العالم، وكانت معجزته أنه رآها بالعين التى فى عقله ثم وضع بينه وبينها الصبر والمعاناة والحذق والعلم حتى انتهى إليها حقيقة ماثلة.

قرأ الأستاذ كتب السيرة وما تناولها من كتب التاريخ والطبقات والشمائل بقريحة غير قريحة المؤرخ، وفكرة غير فكرة الفقيه، وطريقة غير طريقة المحدث، وخيال غير خيال القاص، وعقل غير عقل الزندقة، وطبيعة غير طبيعة الرأى، وقصد غير قصد الجدل، فخلص له الفن الجميل الذى فيها إذ قرأها بقريحته الفنية المشبوبة، وأمرّها على إحساسه الشاعر المتوثب، واستلها من التاريخ بهذه القريحة وهذا الإحساس كما هى فى طبيعتها السامية متجهة إلى غرضها الإلهى، محققة عجائبها الروحانية المعجزة».

هذا ما قاله الرافعى، وإخاله قنع من الأستاذ بما وقف عنده من العرض المتنوع ملتمسا بينه وبين نفسه للكاتب عذرا فى ترك ما كنا نتصوره إذ أنه أهدى السبيلين إلى الأمان، ولست أتعصب لرأيى حين أقرر أنى كنت أطمع فى مقدرة الكاتب أن تراعى التناسق الفنى، مع المحافظة كل المحافظة على ما عناه من الصدق الدقيق، فهذا مطلب أول يهون بجانبه كل تقصير سواه، كما كنت أوثر أن لا يقفز القارئ من مشهد قريب إلى مشهد بعيد ليكمل له جانب الإمتاع مضافا إلى ما فى المسرحية من قوة الإقناع.

يتبع

د. / محمد رجب البيومى

(٢) مجلة الرسالة العدد (١٣٦) ٣/٢، ١٩٣٦.

تفسير سورة النساء

لفضيلة/ الأستاذ الدكتور
محمد سيد طنطاوى
رحمه الله

قال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ
جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا
أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ
أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن
تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا
بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي
الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

الآيات (٥٦ - ٥٩)

والمراد بالذين كفروا هنا: كل كافر سواء أكان من بنى إسرائيل أم من غيرهم.

وقوله: ﴿ نُصْلِيهِمْ ﴾ من الإصلاء وهو إيقاد النار. والمراد هنا إدخالهم فيها

وقوله: ﴿ نَضِجَتْ ﴾ من النضج وهو بلوغ نهاية الشىء. يقال: نضج الثمر واللحم ينضج نضجاً إذا أدرك وبلغ نهايته. والمراد هنا: احتراق الجلود

احتراقاً تاماً.

والمعنى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا ﴾

الدالة على أن الله وحده هو المستحق للعبادة والخضوع.

﴿ سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا ﴾

أى: سوف ندخلهم ناراً هائلة عظيمة وسوف هنا - كما قال سيبويه - للتهديد وتأكيد العذاب المقبل ولو مع التراخى وتراخى العذاب مع تأكيده يجعل النفس فى فزع دائم، وخوف مستمر حتى يقع.

وقوله:

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾

بيان لشدة العذاب ودوامه أى: كلما احترقت جلودهم وتلاشت أعطيناهم بدل الجلود المحترقة جلوداً غير محترقة مغايرة للمحترقة.

فالتبديل على هذا تبديل حقيقى مادى، بمعنى أن يخلق الله - تعالى - مكان الجلود المحترقة جلوداً أخرى جديدة مغايرة للمحترقة.

ويرى بعضهم أن الجملة الكريمة كناية عن دوام العذاب لهم. وقد ذكر هذا الرأى الفخر الرازى فقال: ويمكن أن يقال: هذا استعارة عن الدوام وعدم الانقطاع. كما يقال لمن يراد وصفه بالدوام: كلما انتهى فقد ابتدأ. وكلما وصل إلى آخره فقد ابتدأ من أوله. فكذا قوله:

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾

يعنى: كلما ظنوا أنهم نضجوا واحترقوا وانتهوا إلى الهلاك، أعطيناهم قوة جديدة من الحياة فيكون المقصود بيان دوام العذاب وعدمه انقطاعه[1].

والذى نراه أن حمل التبديل على حقيقته أولى؛ لأنه ليس لنا أن نعدل فى كلام الله عن الحقيقة إلى المجاز، إلا عند الضرورة. وهنا لا ضرورة لذلك، لأن تبديل الجلود داخل تحت قدرة الله - تعالى - ولأن هذا المعنى الذى ذكره الإمام الرازى يتأتى مع حمل اللفظ على حقيقته إذ كلمة «كل» تدل على دوام العذاب وعدم انقطاعه، ولأن كثيراً من السلف قد فسروا الآية على الوجه الأول، فقد روى عن ابن عمر أنه قال: تلا رجل عند عمر هذه الآية قال: فقال عمر: أعدها علىّ. فأعادها. فقال معاذ بن جبل: عندى تفسيرها: تبدل جلودهم فى كل ساعة مائة مرة. فقال عمر: هكذا سمعت من رسول الله ﷺ.

وقوله:

﴿ لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾

(١) الفخر الرازى جـ١٠ ص١٣٥.

جملة تعليلية لقوله ﴿ بَدَّلْنَٰهُمْ ﴾ أى بدلناهم جلوداً غيرها ليقاسوا شدة العذاب، وليحسوا به فى كل مرة كما يحس الذائق للشيء الذى يذوقه.

وقوله :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

تذييل قصد به تأكيد التهديد والوعيد الذى اشتملت عليه الآية الكريمة.

أى: أن الله - تعالى - كان ومازال عزيزاً لا يغلبه غالب، ولا يمنع عقابه مانع ﴿ حَكِيمًا ﴾ فى تدبيره وتقديره وتعذيب من يعذبه وإثابة من يثيبه.

وقوله :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾

بيان لحسن الثواب الذى وعد الله به عباده المؤمنين فى مقابلة بيان العقاب الذى أعده للكافرين.

وتلك عادة القرآن فى تربية النفوس، إنه يسوق عاقبة الكافرين ثم يتبعها بحسن عاقبة المؤمنين أو العكس، ليحمل العقلاء على الابتعاد عن طريق الكفر والعصيان، وليغريهم بالسير فى طريق الطاعة والإيمان.

أى: والذين آمنوا إيماناً حقاً، وعملوا في دنياهم الأعمال الطيبات الصالحات ﴿ سَنُدْخِلُهُمْ ﴾ يوم القيامة:

﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾

أى من تحت شجرها وقصورها :

﴿ ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾

أى: أكرمناهم إكراماً عظيماً بأن جعلناهم مقيمين فى الجنة لايموتون ولا يخرجون منها.

﴿ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾

أى لهم فيها نساء بريئات ومنزهات من جميع الأدناس الحسية والمعنوية. وقوله:

﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾

أى: ظلا وارفا جميلا لايصيب صاحبه حر ولا سموم. والظل: أثر لمايحجب الشمس وحرارتها. والظليل: صفة مشتقة من الظل للتأكيد على حد قولهم: ليل أليل أى ظلا بلغ الغاية فى جنسه.

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال: ﴿ ظَلِيلًا ﴾ صفة مشتقة من لفظ الظل لتأكيد معناه.

كما يقال: ليل أليل. ويوم أيوم وما أشبه ذلك. وهو ما كان فينا - أى طويلا ممتدا - لا حوب فيه - أى لا خرق ولا قطع فيه - ودائما لا تنسخه الشمس. وسجسجا - أى متوسطاً - لا حر فيه ولا برد. وليس ذلك إلا ظل الجنة. رزقنا الله بتوفيقه لما يزلف إليه التفيؤ تحت ذلك الظل[2].

(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص٥٢٢.

وبعد هذا الحديث الجامع عن أحوال أهل الكتاب من اليهود، وجه القرآن جملة من الأوامر الحكيمة إلى المؤمنين، فقال - تعالى -:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

قال ابن كثير - عند تفسيره للآية الأولى -: ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى شأن عثمان بن طلحة بن أبى طلحة وهو ابن عم شيبة بن عثمان بن أبى طلحة الذى صارت الحجابة فى نسله إلى اليوم. وسبب نزولها فيه: حين أخذ رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة منه يوم الفتح ثم رده عليه.

ثم قال: قال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن جعفر عن عبيد الله بن أبى ثور عن صفية بنت شيبة أن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة واطمأن الناس، خرج حتى أتى إلى البيت فطاف به سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن فى يده. فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ مفتاح الكعبة منه ففتحت له فدخلها.

ثم قام على باب الكعبة فقال: لاإله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين: إلا سدانة البيت وسقاية الحاج.

ثم قال رسول الله ﷺ: أين عثمان بن طلحة؟ فدعى له. فقال: هاك مفتاحك ياعثمان!! اليوم يوم بر ووفاء[3].

هذا ونزول الآية الكريمة فى هذا السبب الخاص لا يمنع عمومها، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

والأمانات: جمع أمانة وهى مصدر سمى به المفعول. فهى بمعنى ما يؤتمن الإنسان عليه.

والمعنى: إن الله -تعالى- يأمركم - أيها المؤمنون - أن تؤدوا ما اؤتمنتم عليه من الحقوق سواء أكانت هذه الحقوق لله - تعالى - أم للعباد. وسواء أكانت فعلية أم قولية أم اعتقادية.

وقد أسند - سبحانه - الأمر إليه مع تأكيده، اهتماماً بالمأمور به، وحضا للناس على أداء ما يؤتمنون عليه من علم ومال، وودائع، وأسرار، وغير ذلك مما يقع فى دائرة الائتمان، وتنبغى المحافظة عليه.

(٣) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥١٥ - بتصرف وتلخيص.

ومعنى أدائها إلى أهلها: توصيلها إلى أصحابها كما هي من غير بخس أو تطفيف أو تحريف أو غير ذلك مما يتنافى مع أدائها بالطريقة التي ترضي الله - تعالى -.

ومن الآيات القرآنية التي نوهت بشأن الأمانة وأمرت بأدائها وحفظها قوله - تعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ﴾

(الأحزاب: ٧٢).

وقوله - تعالى - :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾

(سورة المعارج: ٣٢ - ٣٥).

وأما الأحاديث فمنها ما رواه الترمذى والنسائى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم».

وروى الترمذى وأبوداود عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك».

وقوله:

﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾

أمر بإيصال الحقوق المتعلقة بذمم الغير إلى أصحابها إثر الأمر بإيصال الحقوق المتعلقة بذممهم.

وقوله ﴿ حَكَمْتُم ﴾ من الحكم ومعناه الفصل بين المتنازعين وإظهار الحق لصاحبه.

وقوله ﴿ بِالْعَدْلِ ﴾ أى بالحق الذى أوجبه الله عليكم. وأصل العدل: التسوية. يقال: عدل كذا بكذا أى سواه به.

وقال الجمل وقوله:

﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم ﴾

إذا معمول لمقدر على مذهب البصريين من أن ما بعد أن المصدرية لا يعمل فيما قبلها والتقدير: وأن تحكموا بالعدل إذا حكمتم بين الناس. أو معمول للمذكور على مذهب الكوفيين من إجازة عمل ما بعد أن فيما قبلها[٤].

والمعنى: وكما أمركم الله - تعالى - أيها المؤمنون بأداء الأمانات إلى أهلها، فإنه يأمركم - أيضا - إذا حكمتم بين الناس أن تجعلوا حكمكم قائماً على الحق والعدل، فإن الله - تعالى - ما أقام ملكه

(٤) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص٣٩٤.

إلا عليهما، ولأن الأحكام إذا صاحبها الجور والظلم أدت إلى شقاء الأفراد والجماعات.

قال بعض العلماء: يرى بعضهم: أن الخطاب فى هذا النص موجه إلى الذين يحكمون، وهم الحكام من ولاة وقضاة وغيرهم ممن يلون الحاكم. ولا مانع عندنا من أن يكون الخطاب موجهاً إلى الأمة كلها، لأن الأمة العزيزة التى تتولى أمور نفسها من غير تحكم من ملك أو طاغ قاهر، هى محكومة ومحكمة. فهى التى تختار حاكمها وهى فى هذا محكمة، مطلوب منها العدل، فلا تختار لهوى أو لعطاء أو لمصلحة شخصية أيا كان نوعها. وهى محكمة فى حاكمها فلا تقول فيه إلا حقا، ولا تطالبه إلا بما هو حق لاجور فيه، ولا تشتط فى نقده، ولا تسكن عن نصيحته، فإن النبى ﷺ يقول: الدين النصيحة: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم[٥].

وحديث القرآن عن وجوب إقامة العدل ودفع الظلم حديث مستفيض. قال تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾

(سورة النحل: ٩٠).

قال - تعالى:

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ ﴾

(ص: ٢٦).

وقال - تعالى -:

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾

(الأنعام: ١٥٢).

وقال - تعالى -:

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾

(المائدة: ٨).

وأما حديث السنة النبوية عن ذلك فهو أيضا مستفيض. ومن الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى ما رواه الإمام مسلم فى صحيحه عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن. وكلتا يديه يمين. الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وماولوا».

وقوله:

﴿ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ﴾

جملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها، متضمنة لمزيد اللطف بالمخاطبين، وحسن استدعائهم إلى الامتثال لما أمروا به.

وقوله: ﴿ نِعِمَّا ﴾

(٥) تفسير الآية الكريمة للأستاذ الشيخ محمد أبوزهرة. مجلة لواء الإسلام السنة ١٥ العدد الرابع.

أصله (نعم ما) فركبت نعم مع ما بعد طرح حركة الميم الأولى وتنزيلها منزلة الكلمة الواحدة ثم أدغمت الميمان وحركت العين الساكنة بالكسر للتخلص من التقاء الساكنين.

و(ما) إما منصوبة موصوفة بقوله: ﴿ يَعِظُكُم ﴾ فكأنه قيل: نعم شيئا يعظكم به.

وإما مرفوعة موصولة فكأنه قيل: نعم الشيء الذى يعظكم به.

والمخصوص بالمدح محذوف وهو أداء الأمانة إلى أهلها والحكم بين الناس بالعدل.

والوعظ: التذكير بالخير، والتحذير من الشر، بأسلوب يرق له القلب. والمعنى: أن الله - تعالى - قد أمركم - يا معشر المؤمنين- بأداء الأمانة، وبالحكم بالعدل، ولنعماهما شيئا جليلا يذكركم به، ويدعوكم إليه.

وقوله - تعالى -:

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾

وعد للطائعين ووعيد للعاصين.

أى: إن الله - تعالى - كان سميعا لأقوالكم فى الأحكام وفى غيرها. ﴿ بَصِيرًا ﴾ بكل أحوالكم وتصرفاتكم. وسيجازيكم بما تفعلونه من خير أو شر.

وبعد أن أمر - سبحانه بأداء الأمانة وبالحكم بالعدل عقب ذلك يأمر المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله وولاة أمورهم فقال - تعالى -:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾

وطاعة الله ورسوله متلازمتان. قال - تعالى -:

﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾

(النساء: ٨٠)

ومعنى طاعتهما: التزام أوامرهما، واجتناب نواهيهما.

والمراد بأولى الأمر - على الراجح - الحكام. وطاعتهم إنما تكون فى غير معصية الله، فإذا أمروا بما يتنافى مع تعاليم الدين فلا سمع لهم على الأمة ولا طاعة.

وإنما أمرنا الله - تعالى - بطاعتهم فى غير معصية، لأنهم هم المنفذون لتعاليم الشريعة، وهم الذين بيدهم مقاليد الأمة التى يقومون على رعاية مصالحها، ولأن عدم طاعتهم يؤدى إلى اضطراب أحوال الأمة وفسادها.

قال صاحب الكشاف: والمراد بـ:

﴿ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾

أمراء الحق، لأن - أمراء الجور - الله ورسوله بريئان منهم، فلا يعطفون على الله ورسوله بوجوب الطاعة لهم. وإنما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهما فى إيثار العدل واختيار الحق والأمر بهما. والنهى عن أضدادهما كالخلفاء الراشدين ومن تبعهم بإحسان. وكان الخلفاء يقولون: أطيعونى ما عدلت فيكم. فإن خالفت فلا طاعة لى عليكم، وعن أبى حازم أن مسلمة بن عبدالملك قال له: ألستم أمرتم بطاعتنا فى قوله:

﴿ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾

فقال له: أليس قد نزعت عنكم إذا خالفتم الحق بقوله:

﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾

وقيل هم العلماء الدينيون الذين يعلمون الناس ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر[٦].

وأعاد - سبحانه - الفعل ﴿ أَطِيعُوا ﴾ مع الرسول فقال:

﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾

ولم يعده مع أولى الأمر، للإشارة إلى استقلال الرسول ﷺ بالطاعة حتى ولو كان ما يأمر به ليس منصوصاً عليه فى القرآن، لأنه لا ينطق عن الهوى، وللإيذان بأن طاعة الرسول ﷺ أعلى من طاعة أولى الأمر.

وقوله ﴿ مِنكُمْ ﴾ فى محل نصب على الحال من أولى الأمر أى: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر حالة كونهم كائنين منكم أى من دينكم وملتكم.

وفى ذلك إشارة إلى أنه لا طاعة لمن يتحكمون فى شئون المسلمين ممن ليسوا على ملتهم.

وقوله:

﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾

بيان لما يجب على المؤمنين أن يفعلوه إذا ما حدث بينهم اختلاف فى أمر من الأمور الدينية والمراد بالتنازع هنا: الاختلاف والجدال مأخوذ من النزع بمعنى الجذب. فكأن كل واحد من المختلفين يجذب من غيره الحجة لدليله.

ومنه قول النبى ﷺ:

«مالى أنازع القرآن»

أى ينازعنى غيرى ويجاذبنى فى القراءة. وذلك أن بعض المأمومين جهر خلفه فنازعه قراءته فشغله، فنهاه عن الجهر بالقراءة فى الصلاة خلفه[٧].

والمعنى: فإن تنازعتم واختلفتم أيها المؤمنون أنتم وأولو الأمر منكم فى أمر من أمور الدين:

﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾

أى فردوا ذلك الحكم أو الأمر الذى اختلفتم فيه إلى كتاب الله وإلى رسوله ﷺ بأن تسألوه عنه فى حياته، وترجعوا إلى سنته بعد مماته.

---

(٦) تفسير الكشاف جـ١ ص٥٢٤.

(٧) هامش تفسير القرطبى جـ٥ ص٢٦١.

قال القرطبى: «قوله:

﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِى شَىۡءٖ ﴾

أى تجادلتم واختلفتم فى شىء من أمور دينكم.

﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾

أى ردوا ذلك الحكم إلى كتاب الله أو إلى رسوله بالسؤال فى حياته، أو بالنظر فى سنته بعد وفاته. وهذا قول مجاهد والأعمش وقتادة. وهو الصحيح.

ومن لم ير هذا اختل إيمانه، لقوله - تعالى:

﴿ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ﴾

وفى قوله:

﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾

دليل على أن سنته ﷺ يعمل بها ويمتثل مافيها.

قال ﷺ: «مانهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم. فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم». أخرجه مسلم.

وروى أبوداود عن أبى رافع عن النبى ﷺ قال: «لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته، يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا ندرى ما وجدناه فى كتاب الله اتبعناه».

وعن العرباض بن سارية أنه حضر رسول الله ﷺ يخطب الناس وهو يقول: «أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته قد يظن أن الله لم يحرم شيئاً إلا مافى هذا القرآن ألا وإنى والله قد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر»(8).

وقوله:

﴿ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ﴾

شرط جوابه محذوف عند جمهور البصريين اكتفاء بدلالة المذكور عليه.

أى: إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر حق الإيمان فارجعوا فيما تنازعتم فيه من أمور دينية إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

والجملة الكريمة تحريض للمؤمنين على الامتثال لتعاليم الإسلام وآدابه، لأن الإيمان الحق يقتضى ذلك.

واسم الإشارة فى قوله:

﴿ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾

يعود إلى الرد إلى الكتاب والسنة

وقوله ﴿ تَأۡوِيلًا ﴾ من آل هذا الأمر إلى كذا أى رجع إليه، فيكون المعنى: ذلك الذى أمرتكم به من رد ما اختلفتم فيه إلى الكتاب والسنة خير لكم وأحمد مغبة، وأجمل عاقبة.

(8) تفسير القرطبى جـ5 ص262 - بتصرف وتلخيص.

ويجوز أن يكون قوله ﴿ تأويلا ﴾ بمعنى التفسير والتوضيح فيكون المعنى: ذلك أى الرد إلى الكتاب والسنة خير لكم وأحسن تأويلا وتفسيراً من تأويلكم أنتم إياه، من غير رد إلى أصل من الكتاب والسنة. والأول أنسب لسياق الآية الكريمة.

قال ابن كثير: قوله:

﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِى شَىۡءٖ فَرُدُّوهُ ﴾

هذا أمر من الله - تعالى - بأن كل شىء تنازع فيه الناس من أصول الدين وفروعه، أن يردوا التنازع فى ذلك إلى الكتاب والسنة كما قال - تعالى -:

﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَىۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ﴾

(الشورى الآية: 10)

فما حكم به القرآن والسنة وشهد له بالصحة فهو الحق. وماذا بعد الحق إلا الضلال. ولهذا قال - تعالى-:

﴿ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ﴾

أى ردوا الخصومات إلى كتاب الله وسنة رسوله فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر. فدل على أن من لم يتحاكم فى محل النزاع إلى الكتاب والسنة، ولا يرجع إليهما فى ذلك، فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر(9).

وقال بعض العلماء: قد يؤخذ من الآية التى معنا أن أدلة الأحكام الشرعية أربعة. وهى: الكتاب والسنة والإجماع والقياس.. لأن الأحكام إما منصوصة فى الكتاب أو السنة وذلك قوله:

﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾

وإما مجمع عليها من أولى الأمر بعد استنادهم إلى دليل علموه. وذلك قوله:

﴿ وَأُوْلِى ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾

وإما غير المنصوصة ولا مجمع عليها وهذه سبيلها الاجتهاد والرد إلى الله والرسول وذلك هو القياس.

فما أثبته الفقهاء والأصوليون غير هذه الأربعة كالاستحسان الذى يراه الأحناف دليلا وإثبات الأحكام الشرعية تمشياً مع المصالح المرسلة الذى يقول به المالكية، والاستصحاب الذى يقول به الشافعية، كل ذلك إن كان غير هذه الأربعة فمردود بظاهر هذه الآية، وإن كان راجعا إليها فقد ثبت أن الأدلة أربعة(10).

(9) تفسير ابن كثير جـ1 ص518.

(10) تفسير آيات الأحكام جـ2 ص119، للشيخ محمد السايس.

دبر العيش بالقليل ليبقى

لفضيلة الشيخ / ابراهيم عطا الفيومى
رحمـه اللـه

روى الإمام مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال».

اللغويات

ثلاثاً: أى من الخصال.. قال العلامة النووى: (أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا).. هاتان ثنتان وعندى أنهما واحدة، والثالثة قوله: (وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا)، وقال غيره: الثلاثة المرضية إحداها: أن يعبدوه والثانية: ألا يشركوا به شيئاً والأخيرة: أن يعتصموا بحبل الله ولايتفرقوا.

حبل الله: المراد به كتاب الله عز وجل، أو الجماعة، والمعنيان متقاربان؛ لأن كتاب الله يأمر بالألفة وينهى عن الفرقة قال تعالى:

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا ﴾

(آل عمران: ١٠٥)

وقال:

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾

(آل عمران: ١٠٣)

قيل وقال: أى: قيل كذا، وقال فلان كذا؛ مما يتحدث به من فضول الكلام.

كثرة السؤال: عن أحوال الناس أو عما لايعنى، أو سؤالهم من أموالهم.

إضاعة المال: صرفه فى غير حله وبذله فى غير وجهه المأذون فيه شرعاً (دينياً كان أو دنيوياً) أو السرف فى إنفاقه أو تعريضه للفساد.

الشرح والبيان

من رحمة الله عز وجل بنا أن أرسل إلينا رسولاً رحيماً بنا رءوفاً حريصاً علينا؛ يبين لنا أسباب السعادة والهناء لنحرص عليها، ويوضح لنا أسباب التعاسة والشقاء لنتجنبها، وفى هذا الحديث النبوى الشريف ينبه النبى ﷺ أمته إلى ماتستجلب به رضا ربها، وتتجنب به غضبه وسخطه، وقد قال العلماء: الرضا والسخط والكراهة من الله تعالى المراد بها أمره ونهيه أو ثوابه وعقابه؛ إذ الرضا عن الشىء يستلزم الأمر به والأمر به يستلزم الرضا به.

وأول مايرضى ربنا الإخلاص فى عبادته فى التوحيد وسائر الأعمال التى يعبد بها، وفى الإخلاص طرح الرياء كله؛ لأن الرياء شرك أو ضرب من الشرك، ويدخل فى الإخلاص أيضاً التوكل على الله وأنه لايضر ولاينفع ولايعطى ولايمنع على الحقيقة غيره؛ لأنه لامانع لما أعطى ولامعطى لما منع لاشريك له.

وحض النبى ﷺ أمته على الاعتصام والتمسك بحبل الله وعهده فى حال اجتماع وائتلاف، وعلى اتباع كتابه ولزوم جماعة المسلمين، فالله - عز وجل - قد كرّه إلينا الفرقة وحذرنا منها ونهانا عنها، ورضى لنا السمع والطاعة والألفة والجماعة فلنرض لأنفسنا بما رضى الله؛ روى أحمد والترمذى عن الحارث الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «آمركم بخمس: بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد فى سبيل الله، وإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع». (أراد بربقة الإسلام: عقد الإسلام، وأصله: أن الرِّبق: حبل فيه عدة عرى تُشد بها الغنم، والعروة الواحدة تسمى ربقة)، قال تعالى:

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾

(آل عمران: ١٠٣)

وخطب ابن مسعود يوماً فقال: (أيها الناس، اتقوا الله وعليكم بالطاعة والجماعة؛ فإنهما حبل الله الذى أمر به وأن ماتكرهون فى الجماعة خير مما تحبون فى الفرقة).

ثم نهى رسول الله ﷺ عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال، والمراد بقوله «قيل وقال»: الخوض فى أخبار الناس وحكايات مالايعنى من أحوالهم وتصرفاتهم، ونبه به على وجوب تجنب

التبرع بنقل الأخبار؛ لما فيه من هتك الأستار وكشف الأسرار، وذلك ليس من دأب الأخيار، فمن حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه والله سبحانه ستير والستر لايحصل مع كثرة نقل الأخبار، فضلاً عن أن مثل هذا إضاعة للوقت فيما لايفيد أو ينفع.

والمراد بكثرة السؤال المنهىّ عنه: الإكثار من السؤال عما لم يقع ولاتدعو إليه الحاجة، أو سؤال الناس أموالهم وما في أيديهم وترك الاقتصار فيه على قدر الحاجة، وقيل: المراد كثرة سؤال الإنسان عن حاله وتفاصيل أمره أو عما لايعنى فربما كره المسئول الجواب فيؤدى لسكوته فيجر للحقد والضغائن أو يلجئه إلى الكذب، وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة بالنهى عن هذا وذاك.

وأما قوله (وإضاعة المال): فللعلماء في تأويل معناه أقوال، منها: أن إضاعة المال ترك إصلاحه والنظر فيه وكسبه، واحتج من قال هذا بقول قيس بن عاصم لبنيه حين حضرته الوفاة: (يابنى عليكم بالمال واصطناعه؛ فإن فيه منبهة للكريم ويستغنى به عن اللئيم).. والراجح أن إضاعة المال: إنفاقه في غير حقه من الباطل والإسراف والمعاصى أما إنفاقه فى طاعة فعبادة، كما قيل: لاسرف في الخير.

وكل شيء ينفقه المسلم في غير طاعة الله ومرضاته فهو سرف وإضاعة، سأل رجل سعيد بن جبير عن إضاعة المال، فقال: (أن يرزقك الله فتنفقه فيما حرم الله عليك)؛ لأن ذلك إفساد والله لايحب الفساد، ولأنه إذا ضاع ماله تعرض لما فى أيدى الناس:

قليل المال تصلحه فيبقى
ولا يبقى الكثير مع الفساد

إنّ من نعم الله العظيمة نعمة المال الذى جعله الله تعالى قياماً لمصالح العباد، وكسبُ المال من حلّه نعمةٌ، وإنفاقه في وجهه الشرعى نعمة. والمال لمن وفقه الله ـ عون على الدين؛ يتقرب به إلى الرب، وتوصل به الرحم، ويُصان به العرض، ويتألف به الإخوان.. يعطى الله تعالى عبده المال، ويبسط له الرزق، فإن أحسن فيه اكتساباً وإنفاقاً ـ سعد فى الدارين، وصار ماله ذلك متاعاً طيباً ورخاء، رغداً فى الدنيا، وزاداً فى الآخرة. وإن تكن الأخرى صار ماله مثار قلق وخوف، ومثار حسد وبغض، يشقى بجمعه في الدنيا ويحاسب على سوء صنيعه فى الآخرة.. فالأول: شكر الله على هذه النعمة وأدى حقه فيها ـ فهو إلى بركة وزيادة.. والآخر: كفر هذه النعمة فلم يراع حكم الله فى الاكتساب ولا فى الإنفاق ـ فهو إلى محق وزوال.

وشكر نعمة المال يظهر فى حسن التصرف ومراعاة الشرع فى الكسب والإنفاق، فالمال مال الله، والعبد عبدالله. فكيف يتصرف عبد في مال سيده بما لا يرضاه؟!

وهل من شكر نعمة المال مايعيشه كثير من الموسرين من حياة الترف والإسراف؟! إسراف فى البناء، إسراف فى المركب، إسراف فى الأثاث، إسراف فى اللباس، إسراف فى المآكل والمشرب، يبذل المال للنساء والأولاد بلا روية ولا حساب.

إن الإسراف أمر يكرهه الإسلام، وهو سوء تصرف ينبيء عن الأثرة والأنانية، لايبالى صاحبه إن اجتاحت المجتمع فاقة مادام يرتع فى الثروة والغنى. ولايبالى إن هلك المجتمع جوعاً مادام قد أغفلته التخمة. ولايحس إن عرى الناس مادام متابعاً لأحدث السيارات والأثاث واللباس.

إن الإسراف محرم حتى فى المآكل والمشرب والملبس والمركب والمنزل متى تجاوز الإنسان الحد؛ لقوله تعالى:

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

(الأعراف: ٣١).

فمجاوزة الحد إسراف، وهى محرمة وعرضة لأن يكره الله تعالى فاعلها، وإذا قلنا إن الإسراف مجاوزة الحد تبين لنا أن إنفاق المال يختلف؛ فالغنى مثلاً قد يؤسس بيته أو يشترى سيارة أو يلبس الثياب التى لاتعد فى حقه إسرافاً؛ لأنه لم يتجاوز بها حد الغنى لكن لو أن فقيراً فعل مثل فعله قلنا إن هذا إسراف وإنه حرام، وللأسف يتكلف كثير من الناس الآن من الفقراء ومتوسطى الحال أن يلحقوا أنفسهم بالأغنياء فى المآكل والمشرب والملبس والمنكح والمركب والمسكن، وهذا غلط وخطأ وهو سفه وحرام أيضاً لايحل للإنسان، وفى كثير من قرانا يخطىء بعض الناس أكثر من هذا فيذهب الآباء يستدينون ويرهقون أنفسهم بدين من أجل أن تذهب ابنته إلى زوجها كما تذهب ابنة أغنى رجل فى القرية ولاحول ولا قوة إلا بالله.

وقد أدب الله عباده أحسن الأدب فقال:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾

(الفرقان: ٦٧)

فخيار الأمور أوسطها، فإذا وجد العبد المال أنفقه فى وجوه المعروف بالتى هى أحسن ويكون بما عند الله أوثق منه بما هو لديه. فإذا أثرى الإنسان وامتلك الملايين والمليارات فلا يجوز له أن يسرف فيه ويفسده، بل يصرفه فى وجوهه التى يؤجر عليها، فإنه سوف يجد من يتقبله من الفقراء، وسوف يجد مشاريع خيرية ينفق فيها هذا الزائد الذى ليس بحاجة إليه، وبذلك يخرج من قوله تعالى:

﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾

(الإسراء: ٢٧).

دبر العيش بالقليل ليبقى
فبقاء القليل بالتدبير
لاتبذر وإن ملكت كثيراً
فزوال الكثير بالتبذير

وللإسراف أسباب وبواعث توقع فيه

وتؤدى إليه، منها النشأة الأولى التى تقلب فيها المرء. وقد يكون سبب الإسراف السعة بعد الضيق أو اليسر بعد العسر؛ ذلك أن كثيراً من الناس قد يعيشون فى ضيق أو حرمان وهم صابرون محتسبون، ويحدث أن تتبدل الأحوال من سعة بعد ضيق ويسر بعد عسر، وحينئذ يصعب على هذا الصنف من الناس التوسط أو الاعتدال فينقلب على النقيض تماماً فيكون الإسراف أو التبذير. وقد تكون علة الإسراف إنما هى صحبة المسرفين ومخالطتهم، وربما يكون السبب فى الإسراف الزوجة والولد؛ ظناً منه أن سماحه بإضاعة المال والسرف فى إنفاقه دليل حب ومودة. وقد يكون سبب الإسراف الغفلة عن طبيعة الحياة الدنيا التى لاتستقر على حال واحدة، بل هى متقلبة تكون لك اليوم وعليك غداً:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾

(آل عمران: ١٤٠)

وقد يؤدى إلى الإسراف التهاون مع النفس؛ ذلك أن النفس البشرية تتمرد وتتطلع إلى الشهوات وتلح فى الانغماس فيها بالتهاون واللين، وعليه فإن المسلم إذا تهاون مع نفسه ولبى كل مطالبها أوقعته لا محالة فى الإسراف:

﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾

(الشمس: ٩ - ١٠).

وقد ينشأ الإسراف نتيجة للغفلة عن الواقع الذى تحياه البشرية عموماً والمسلمون على وجه الخصوص الذين صاروا إلى حال من الذل والهوان يرثى لها ويتحسر عليها، فمن استحضر هذا الواقع وكان متبلد الحس ميت العاطفة، أصيب بالترف والإسراف والركون إلى زهرة الدنيا وزينتها.

هذا وإنما حرم الإسلام الإسراف؛ لما له من آثار ضارة وعواقب مهلكة، منها قسوة القلب، وحين يقسو القلب أو يجمد فإن صاحبه ينقطع عن البر والطاعات.

ومن آثار الإسراف تحريك دواعى الشر والإثم فى النفس، وحينئذ لايؤمن على المسلم الوقوع فى الإثم والمعصية إلا من رحم الله.. ومن آثاره الانهيار فى ساعات المحن والشدائد؛ ذلك أن المسرف قضى حياته فى الاسترخاء والترف فلم يألف المحن والشدائد فيضعف وينهار.

كذلك يؤدى الإسراف إلى عدم الرعاية أو الاهتمام بالآخرين؛ ذلك أن الإنسان لايرعى الآخرين ولايهتم غالباً إلا إذا أضناه التعب وعصبته الحاجة، كما أثر عن يوسف -عليه السلام- أنه لما صار على خزائن الأرض ما كان يشبع أبداً، فلما سئل عن ذلك قال: (أخاف إن شبعت أن أنسى الجياع).. والأثر الخطير المترتب على الإسراف إنما هو المساءلة غداً بين يدى الله كما قال سبحانه:

﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾

(التكاثر: ٨)

وحسبك فى الإسراف قوله تعالى:

﴿ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

(الأعراف: ٣١)

حيث علل الإسراف بعدم محبة الله تعالى، ولاشىء أقبح مما يمنع محبة الله تعالى؛ إذ الإسراف يحرم من محبة الله سبحانه.

ومادامت هذه آثار الإسراف وعواقبه وتلك أسبابه وبواعثه فإن طريق العلاج تتلخص فى: التفكر فى آثاره وعواقبه، فإن ذلك من شأنه أن يحمل على تدارك الأمر والتخلص من الإسراف قبل فوات الأوان.. ولابد من الحزم مع النفس وذلك بفطمها عن شهواتها ومطالبها وحملها على الأخذ بكل ماينفع والكف عما يضر.. أيضاً من سبل الوقاية والعلاج - دوام النظر فى سنة النبى ﷺ وسيرته، وفى سيرة سلف هذه الأمة من الصحابة المجاهدين والعلماء العاملين - فإنها مليئة بالتحذير من الإسراف بل ومليئة بمجاهدة النفس والأهل. دخل عمر بن الخطاب على ابنه عبدالله رضى الله تعالى عنهما. فرأى عنده لحماً، فقال: ماهذا اللحم؟ قال: أشتهيه، قال: (وكلما اشتهيت شيئاً أكلته؟! كفى بالمرء سرفاً أن يأكل كل ما اشتهاه). فالمسلم الحق حين يقف على مثل هذا يطرح الترف والسرف وينقطع عن صحبة المسرفين، مع الارتماء فى أحضان ذوى الهمم العالية والنفوس الكبيرة، ويهتم ببناء شخصية الزوجة والولد على أسس قويمة.. كذلك من طرق الوقاية والعلاج لآفة الإسراف - دوام التفكر فى الواقع الذى تحياه البشرية عموماً والمسلمون على وجه الخصوص، ومما يساعد أيضاً على التخلص من كل مظاهر الإسراف - دوام التفكر فى الموت ومابعده من شدائد وأهوال..

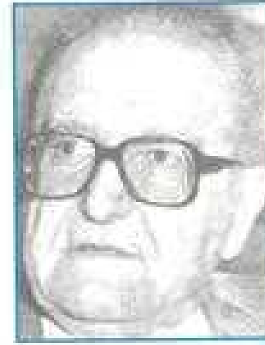
نسأل الله ألا يجعلنا ممن يستعين بنعمه على معاصيه.



﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾

تنعى أسرة مجلة الأزهر فقيدها الراحل فضيلة الشيخ إبراهيم عطا الفيومى الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية السابق، كاتب هذا المقال وتشكر له جهاده فى سبيل نشر السنة فيما قدمه من مقالات. تغمد الله الفقيد بواسع رحمته وأسكنه فسيح جناته.

جارودى وتاريخية أحكام القرآن الكريم



جارودى

للأستاذ الدكتور/ محمد عمارة

عضو مجمع البحوث الإسلامية

«التاريخية.. والتاريخانية» هي نفى الخلود عن معانى وأحكام النصوص الدينية، والادعاء بأنها «نسبية»، لامست زمان نزولها، فلما تطور الواقع، طويت صفحاتها مع طى صفحات التاريخ.. ولقد عممت الوضعية الغربية هذه النزعة «التاريخية» على كل النصوص الدينية، دونما تمييز بين نصوص المبادئ والقواعد والأحكام التى جاءت فى الثوابت، وبين تلك التى جاءت فى «الفقه» ـ علم الفروع لمتغيرات المعاملات الدنيوية!.. أى دونما تمييز بين الوحى الإلهى وبين الاجتهاد البشرى!..

ولقد تبنى جارودى هذه النزعة التاريخانية.. بل وهاجم الحركات الإسلامية ـ أو الأصولية الإسلامية، بتعبيره ـ لأنها رفضت «تاريخية.. وتاريخانية» أحكام القرآن الكريم!..

وهذا الموقف، هو ـ فى تقديرى ـ من أهم ما يجب أن يحاور فيه جارودى..

يقول جارودى: «إن الله، فى القرآن كما فى التوراة والأناجيل، يكلم الإنسان فى التاريخ،

إن كبار المفسرين الأوائل للقرآن، كالطبرى، يذكّرون بالظروف التاريخية التى نزلت فيها كل آية والمقصود دائما هو جواب عينى من الله عن مسألة كانت أمة النبى تطرحها عليه. إن هذه «التاريخانية» لا تنقص شيئاً من قيمة الرسالة الشمولية والأبدية. فكل تنزيل من تنزيلات الأزلى فى التاريخ، يتضمن مبدأ عمل صالح لكل الشعوب وكل العصور، لكنه يرتدى شكلا خاصا، مرتبطا بظروف هذا العصر وهذا البلد..

إن كل آية من القرآن هى جواب إلهى عن مسألة ملموسة.. وهذا لا يلقى الشك إطلاقاً على الطابع الإلهى للتنزيل هذا، بل يضعه فى عصر من تاريخ شعب ومن ثقافته وحياته. فجواب مسألة تاريخية هو من وحى إلهى، هو «قدوة» وليس مادة فى قانون مجرد، لا يستلزم سوى استنتاج النتائج. إنه نقيض القانون الرومانى..

ولذلك، فالخليفة عمر بن الخطاب.. لم يتردد فى التصرف خلافا لآيات القرآن المحكمة، عندما يمكن لتطبيقها الحرفى أن يسير فى عكس روحية الكتاب ـ وذلك فى موضوع المؤلفة قلوبهم ـ.. وبالروحية ذاتها، حظر على المقاتلة، عندما ساد بلاد الشام، تطبيق الآية القرآنية حول تقاسم الفىء بين الغالبين:

﴿ مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

(الحشر: ٧)

ودائما بالروحية ذاتها، علّق عمر حد قطع يد السارق فى زمن المجاعة (١):

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(المائدة: ٣٨)

تلك هى نصوص جارودى، حول دعوى «تاريخية.. وتاريخانية» الوحى الإلهى والأحكام والتشريع فى القرآن الكريم، وهى الدعوى التى ترى «وقتية» الأحكام، واستمرار «القدوة» المستخلصة منها، لكن فى أشكال مغايرة بأحكام متجددة، استنادا إلى «التاريخية» التى تنفى «الإطلاق»، وبدعوى أن هذه الأحكام، بل وجميع آيات القرآن إنما نزلت «جوابا معينا» عن مسألة تاريخية معينة، فلهذه الآيات ـ وخاصة أحكامها ـ تاريخية المسائل والوقائع والظروف التاريخية التى نزلت جوابا عنها واستجابة لها..

ونحن، إذ نرفض هذه التطبيقات للمنهج التاريخى والتاريخانى ـ الذى هو صادق وخاص بـ «النسبى ـ البشرى» ـ على «المطلق ـ الإلهى»، ننبه على عدد من النقاط التى توجز حيثيات اعتراضنا على هذه التاريخانية ورفضنا لها..

١ ـ فالجانب التشريعى فى القرآن الكريم، عندما جاء بالأحكام فى الأمور الثوابت.. ووقف فى المتغيرات عند الأطر والكليات وفلسفات التشريع، ومبادئ وقواعد ومقاصد التشريع، قد نأى بنفسه عن المجالات التى تستدعى التاريخية والتاريخانية، كحل لتناقض «التغير» مع «الثبات».. لقد فصّل التشريع القرآنى فى الثوابت، وفتح باب الفقه المتجدد فى المتغيرات، مع وضع هذا الفقه فى الإطار الإسلامى، عندما يلتزم مبادئ وقواعد ومقاصد التشريع فى القرآن الكريم.. فليست هناك حاجة، أصلا، تستدعى التاريخية والتاريخانية إلى الجانب التشريعى فى القرآن الكريم.. أما الجانب العقدى، فلا أظن أن مؤمنا يتوهم خضوعه لهذه التاريخية، التى تنفى الثبات عن عقائد مثل الألوهية والتوحيد والنبوة والرسالة والغيب والحساب والجزاء.. إلخ.. إلخ..

٢ ـ ثم إن القاعدة الأصولية التى اعتمدها

(١) (الأصوليات المعاصرة) ص ٨٨، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤. طبعة باريس العربية.

وأجمع عليها أئمة الإسلام، والقائلة عن ألفاظ القرآن وآياته وأحكامه:

«إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب».. قد جمعت بين «العموم والإطلاق» اللذين تفيدهما معانى الألفاظ، مع مراعاة «التاريخية» التى تفيدها ملابسات أسباب نزول الآيات - التى روى لها سبب نزول -.. فهى - القاعدة - لا تهدر «التاريخية» بتجاهل دلالات أسباب النزول، ولا تجعل هذه «التاريخية» إلغاء للعموم والإطلاق بتخصيص الحكم العام بسبب النزول دون سواه.. ومن ثم فهى تنفى، بهذا الجمع بين «العموم» وبين «التاريخية» - بهذا المعنى الخاص للتاريخية - جعلهما نقيضين وضدين، ومن ثم يتسق هذا الجمع مع طبيعة النص القرآنى، كشريعة خاتمة، ومن ثم خالدة، وكمصدر دائم للتشريع فى المستجدات والمتغيرات..

٣ - إن التطبيقات النبوية للأحكام التى كان لآياتها أسباب نزول، شاهدة على صدق هذا المنهاج الإسلامى الجامع بين «عموم اللفظ» وبين «دلالات سبب النزول»، «فالسبب» هو مناسبة لنزول الحكم، وليس علة له حتى يدور الحكم معه وجودا وعدما.. والتطبيقات النبوية للأحكام التى رويت لآياتها أسباب نزول عممت هذه الأحكام فى الأمة، ولم تخصصها بالأشخاص الذين نزلت فيهم ولهم هذه الآيات.. والأحاديث النبوية، التى روت هذه السنة العملية والتطبيقات النبوية لهذه الأحكام القرآنية كثيرة وشهيرة.. ولقد أوردنا فى كتابنا (سقوط الغلو العلمانى) - فى معرض الرد على من قال مثل هذا الذى يقول به جارودى - عشرات التطبيقات العامة لأحكام كان لآياتها أسباب نزول [٢]..

علم أسباب النزول

وهذه الحقيقة من حقائق التشريع الإسلامى، هى التى جعلت العلماء الذين بلوروا، فى تراثنا، «علم أسباب النزول»، هم أنفسهم الذين تحدثوا عن هذه «الأسباب» باعتبارها «مناسبات النزول» و«أزمان النزول»، وليس باعتبارها «علة التشريع للأحكام».. وبعبارة الزركشى (٧٤٥ - ٧٩٤ هـ ١٣٤٤ - ١٣٩٢م) فإنه «قد عُرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية فى كذا، فإنه يريد بذلك: أنها تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان سبب نزولها».. وبعبارة السيوطى (٨٤٩ - ٩١١ هـ ١٤٤٥ - ١٥٠٥م):

«.. والذى يتحرر فى سبب النزول: أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه..» [٣].. وبعبارة ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨م): فإن القائلين بأسباب النزول «لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان - الذين نزلت فيهم - دون غيرهم، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق.. فلم يقل أحد: إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين، وإنما غاية ما يقال: إنها تختص بنوع ذلك الشخص، فتعم ما يشبهه..» [٤].

٤ - إن حديث جارودى عن وجود «ظروف تاريخية نزلت فيها كل آية» من آيات القرآن.. وعن «أن كل آية من القرآن هى جواب إلهى عن مسألة ملموسة.. وهى جواب عينى من الله عن مسألة كانت أمة النبى تطرحها عليه» هو حديث غريب، وادعاء لا علاقة له بالعلم بأسباب النزول فى القرآن الكريم..

فمن قال: إن كل آيات القرآن لها أسباب نزول؟.. وأن جميع الآيات هى أجوبة عينية عن أسئلة طرحتها الأمة على النبى؟!..

إن السيوطى، الذى توسع «فجمع» كل الروايات فى أسباب النزول - وجميعها أحاديث آحاد! قد بلغت الآيات التى روى فيها سبب نزول عنده ٨٨٨ آية، من جملة آيات القرآن، البالغة ٦٢٣٦ آية.. أى أن نسبتها إلى آيات القرآن لا تتعدى ١٤٪.

أما الواحدى النيسابورى (٤٦٨ هـ ١٠٧٥م) - وهو الذى تحرى فى رواية أحاديث أسباب النزول - فإن عدد الآيات التى ثبت عنده أن لها أسباب نزول هى ٤٧٢ آية.. أى ٧,٥٪ من جملة آيات القرآن الكريم!..

فادعاء جارودى عن وجود سبب نزول لكل آية.. وأن كل آية قد جاءت جواباً معيناً لسؤال مطروح، هو ادعاء غريب على مفكر وفيلسوف مثل جارودى.. وأغلب الظن أن «علم» الرجل هو ضحية للنقل عن غير العلماء!..

اجتهاد عمر بن الخطاب

٥ - وهذا الذى صنعه عمر بن الخطاب - مع سهم المؤلفة قلوبهم، وتوزيع أرض الشام ومصر والعراق، وحد السرقة فى عام المجاعة - لم يخالف فيه وبه آيات القرآن المحكمة، كما قال جارودى..

فعمر «أوقف» تطبيق الحكم عندما فقه الواقع فلم يجد شروط تطبيق الحكم وإعماله متوفرة فى هذا الواقع.. وظل الحكم خالدا ودائما، ككل تشريع إلهى، مع تعلق تطبيقه أو وقف تطبيقه بتوفر شروط التطبيق فى الواقع أو تخلفها..

فعمر، أوقف إعمال وتطبيق حكم سهم المؤلفة قلوبهم، عندما خلا الواقع من علة التأليف للقلوب، بعد أن قوى الإسلام وانتصر المسلمون.. لكن هذا الحكم ظل تشريعا إلهيا خالدا، فى مصارف الزكاة، طبقه المسلمون - بعد عصر عمر - فى ظروف ضعف الدولة بسبب المنازعات الداخلية، على عهد عبدالملك بن مروان (٢٦ - ٨٦ هـ ٦٤٦ - ٧٠٥م) فى العلاقة بالدولة البيزنطية.. وتكرر تطبيقه فى معاهدات ومعاملات إسلامية مع شعوب ومدن جاورت الدولة البيزنطية إبان الصراع

(٢) د. محمد عمارة (سقوط الغلو العلمانى) ص ٢٣٦ - ٢٤٦. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥م.

(٣) السيوطى (أسباب النزول) ص ٤ طبعة القاهرة سنة ١٣٨٢ هـ. و(الإتقان فى علوم القرآن) جـ ١ ص ٣١ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٥م.

(٤) (الإتقان فى علوم القرآن) جـ ١ ص ٣٠.

بينهما . .

وهو أوقف إعمال وتطبيق حد السرقة، فى عام الرمادة، وإزاء ملابسات واقعية محددة، وفى جزء بعينه من البلاد – حيث عمت واشتدت المجاعة- لكن حكم حد السرقة بقى قائما، يطبق فى البلاد التى لم تصبها المجاعة – حتى فى عام الرمادة – وفى سائر البلاد بعد انقشاع ضائقة المجاعة، وعلى مر تاريخ الإسلام . .

أما إشارة جارودى إلى اجتهاد عمر بن الخطاب فى جعل الأرض المفتوحة – بالعراق والشام ومصر – وقفا على الأمة، ورفضه توزيع أربعة أخماسها على الجند الفاتحين، كما فعل رسول الله ﷺ مع أرض «خيبر» . . وتوهمه – مع الذين نقل عنهم – مخالفة اجتهاد عمر لنص الآية القرآنية :

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

(الحشر : ٧)

فهو وهم، لا علاقة له بفقه النص القرآنى، ولا بفقه وقائع التاريخ ! . .

فعمر لم يخالف النص القرآنى، لأن الآية تتحدث عن قسمة الفىء على النحو الذى لا يؤدى إلى أن يصبح المال دولة بين الأغنياء، فيتركز الغنى فى جانب والفقر فى جانب آخر . . ولقد قسم رسول الله ﷺ أرض خيبر على النحو الذى حقق مقاصد التشريع فى قسمة الفىء، فلما كان فتح أرض أودية الأنهار الكبرى – النيل . . ودجلة والفرات . . وبردى – وأراد نفر من الفاتحين أن توزع عليهم هذه الأرض كما وزعت أرض خيبر على فاتحيها، رفض عمر ذلك . . وكان فى رفضه هذا منحازا للنص القرآنى . . فأنصار توزيع أربعة أخماس هذه الأرض على الفاتحين لم تكن حجتهم الآية القرآنية، وإنما كانوا يقيسون أرض العراق والشام ومصر على أرض «خيبر»، بينما رأى عمر أن هذه الأرض، التى تمثل معظم مصادر الثروة فى الدولة الإسلامية، إذا أعطيت لقلة من الجند الفاتحين، كان فى ذلك جعل المال – معظم المال – دولة بين قلة من الأغنياء، وهو ما تنهى عنه الآية، وتعتبره المحظور فى أى تعاملات فى قضية الفىء:

﴿ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾

(الحشر : ٧)

.. فخصوم عمر كانوا مع «القياس على سنة نبوية»، هى من «تصرفات الإمام» فى المتغيرات الدنيوية، أى أنها ليست بلاغا قرآنيا و دينا متبعا . . بينما كان عمر مع البلاغ القرآنى، الذى يحذر من أن يصبح المال دولة بين الأغنياء دون الفقراء . . ولذلك قال عمر وهو يحاور أنصار توزيع الأرض على الفاتحين : «ما هذا برأى . . ولست أرى ذلك . . والله لا يُفتح بعدى بلد يكون فيه كبير نيل – (أى كبير نفع) – بل عسى أن يكون كَلاً – (عبئا) – على

المسلمين، فإذا قُسمت أرض العراق بعلوجها – (فلاحيها) – وأرض الشام بعلوجها، فما يُسد به الثغور؟ وما يكون للذرية والأرامل بهذه البلد وبغيره من أرض الشام والعراق؟

لقد أشرك الله الذين يأتون من بعدكم فى هذا الفىء:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾

(الحشر : ١٠)

فلو قسمته لم يبق لمن بعدكم شىء . . ولو قسمته بينكم إذن أترك من بعدكم من المسلمين لا شىء لهم . . فكيف أقسمه لكم، وأدع من يأتى بغير قسم؟! . . لولا آخر الناس ما فُتحت قرية إلا قسمتها كما قسم رسول الله خيبر!» (٥) . .

فعمر كان مع النص القرآنى، الذى يحظر – فى كل المعاملات المالية – أن يصبح المال دولة بين الأغنياء . . ومع النص القرآنى الذى يجعل الأمة، بأجيالها المتعاقبة، مستخلفة فى مال الله وأرض الله:

﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾

(الحديد : ٧)

﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾

(الرحمن : ١٠) . .

ولم يكن، كما قال جارودى، مخالفا لحكم آيات القرآن . .

فالشريعة الإسلامية – أحكاما ومبادئ وقواعد ومقاصد – هى المصدر لكل التقنيات الفقهية والتطبيقات الحقوقية، كفلت ذلك على مر تاريخها . . وهى جديرة به اليوم وغدا، طالما هيأ الله لها العقول المجددة والمجتهدة، التى تفقه الأحكام وتفقه الواقع، وتعقد القران بينهما . . وإذا كان «للتاريخية» و«التاريخانية» مكان – وهو قائم – فإن مكانها هو فى فقه الواقع التاريخى المتجدد، وليس فى تجاوز ثوابت التنزيل . . فمتغيرات الواقع التاريخى قد تقتضى «إيقاف إعمال الحكم»، عندما لا تتوفر شروط إعماله، لكنها لا «تعدم الحكم» ولا «تتجاوزه»، وإنما يظل الحكم الشرعى قائما، يعود إلى العمل والإعمال عندما تتوفر له شروط التطبيق . . فالتاريخية واردة فى «فقه الواقع»، وليست واردة فى «ثوابت أحكام الشريعة»، ناهيك عن القواعد والمبادئ والمقاصد، التى هى المساحة الأعظم فى شريعة الإسلام.

تلك هى حقائق الموقف الإسلامى من السنة النبوية . . ومن علاقة الشريعة الإلهية بالفقه والقانون . . ومن تاريخية وتاريخانية الأحكام . . وهى حقائق أخطأ فى فهمها جارودى، ولم يخطئ فيها أو يختلف عليها أحد من الإسلاميين!.

(٥) راجع وقائع هذا النزاع فى ابى يوسف (كتاب الخراج) ص ٢٣ – ٢٧ طبعة القاهرة سنة ١٣٩٢ هـ. وأبى عبيد القاسم بن سلام (كتاب الأموال) ص ١٣٤ – ١٣٨. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩م.

الإعجاز التربوى فى سورة يوسف

من خلال قصة يوسف فى القرآن الكريم تنساب عشرات القيم التربوية؛ بحيث نجدها مبثوثة عبر كل المراحل فى البداية، وفى الوسط (العقدة)، وفى النهاية..

للأستاذ الدكتور/ عبد الحليم عويس

وإن أية محاولة لقراءة هذه السورة لاستخلاص القيم التربوية العملية المرتبطة بالروح وبالإيمان، وبالأخلاق الزكية، تجعل هذا القارئ المتعمق يشعر فعلاً بما يسميه بعضهم (المدرسة اليوسفية)، أو (الجامعة اليوسفية)، فالسورة - بحق - من خلال (البطل) يوسف، وأبيه يعقوب، والشخصيات المتناثرة، التى تقدم الجناح الآخر للصراع بين الخير والشر، كلها تجعلك تشعر بأخلاق النبيين العظيمين (يوسف وأبيه يعقوب)، وتشعر - أيضاً - بمدى الطبيعة اليهودية؛ حين تتخلى عن قيادة الإيمان لها، كما حدث من إخوة يوسف، وتشعر - ثالثاً - بمواقف الآخرين الوثنيين، وخضوعهم لغرائز الدنيا مع وجود بعض أخلاق الفطرة عندهم، واستعداد بعضهم للرجوع إلى الحق.

وابتداءً نقرر أن القرآن - وحده - من بين الكتب السماوية هو الذى ينفرد بوجود قصة حقيقية حول يوسف لها بداية، وعقدة، ونهاية، فحتى فى التوراة؛ التى تعدُّ أقرب الكتب السماوية إلى القرآن فى هذا الموضوع بخاصة، لم تورد قصة يوسف على هذا النحو العضوى، أو الأدبى ذى الحبكة المتماسكة، وإنما أوردتها من خلال (أربعة عشر إصحاحاً) من سفر التكوين (٣٧ - ٥٠) [١]، سرداً خالياً من أى ومضات روحية أو قيم تربوية؛ بل لعل فيها من الوقائع ما يشوه بيت يعقوب على العكس من القصة القرآنية ومعطياتها.

والمعجز أنه خلال هذه القصة تنساب قيم تربوية واقعية، تراها حيَّة متحركة على مسرح الأحداث لا تنفصل عن الشخصية، ومقوماتها، وذلك على العكس من التوراة تماماً..

ولْنبق مع القرآن وعالم سورة يوسف.. فى إعجازها القرآنى التربوى..

- يعطينا يعقوب - عليه السلام - قيمة الحذر، وعدم التباهى بإعلان الشىء، وإظهار الارتفاع عن الآخرين، وذلك عندما يحذر ابنه يوسف من أن يقصَّ الرؤيا على إخوته خوفاً من تحريك نفوسهم فى اتجاه الشر ضدَّه.

وهذا درس يغْفل كثير من الناس عن قيمته التربوية، وقد شاع فى مجتمعاتنا اليوم تفضيل الذكور على الإناث فى بعض الأمور؛ لاسيما المواريث على غير ما شرع الله، وتفضيل بعض الأبناء على بعض فى المعاملة، أو المال، إمّا بسبب صغر بعضهم، أو اختلاف الأمّ.. وكم كانت لهذه التفرقة من آثار سلبية تهدمت من خلالها معانى الأسرة، وعاش الأبناء يصارع بعضهم بعضاً، وقد يحقد بعضهم على بعض، وقد يقضون شطراً من أعمارهم أمام المحاكم، وقد يرتكب بعضهم جرائم.. أما صلة الأرحام والترابط العائلى، والحبّ الأخوى.. فهى من أعظم ما يضيع من جراء هذه التفرقة الظالمة!!

- وحتى (الحُبّ) وهو أمر لا دخل للإنسان فيه، يجب أن يتحكم فيه الآباء والأمهات؛ حتى يظهروا أمام أبنائهم بمظهر العدل، ومع أن (الحُبّ) مطلوب، وقد تكون المساواة فيه صعبة، إلا أن المغالاة فى التفرقة فيه، وإظهاره بطريقة غير مبررة قد يؤدى إلى نفور بين الأبناء.

- وثمة قيمة ترتبط بصدر السورة - أيضاً - فقد حرص يعقوب على أن ينصح يوسف بالكتمان، وألا يقصّ الرؤيا على إخوته، مع أن الرؤية تشى بالنعمة، ومع أنهم إخوته؛ لكنه كان يحذر من حسد الإخوة لبعضهم، وهذا يوحى باستعمال الكتمان، وعدم التحدث بالنعمة؛ إذا كان هذا الحديث يحرك الحسد فى النفوس، وقد يؤدى إلى شرور كما حدث بين يوسف وإخوته؛ الذين ألقوه فى الجبّ ليموت، أو ليباع بيع العبيد.

- وهناك قيمة نلمحها فى صدر السورة - أيضاً - فمع أن يعقوب كان يشعر بمؤامرة أبنائه، إلا أنه لم يشأ أن يدخل معهم فى خصومة فيخسر كل شىء، واكتفى بأن قال لهم:

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾

(يوسف: ١٨)

ولم يحاول بعد أن شعر ببراءة (الذئب المهذب جداً) أن يطلب الذهاب إلى الموقع، أو استقصاء الأمور، فالدخول فى مماراة ستبعث على تعميق الإحن، وفساد الأمور، واكتفى بالقول:

﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾

(يوسف: ١٨)

- وقيمة أخرى نلمحها فى صدر السورة - أيضاً - وهى درسٌ تربوى عظيم؛ يعلمنا أن

(١) التوراة السامرية، ترجمة الكاهن السامرى: أبو الحسن إسحق الصورى، ص٨٨ - ١٦٢، الطبعة الأولى، مصر (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م)، دار الأنصار - القاهرة.

الوسيلة الشريرة لا تصلح للغاية النبيلة، فالأبناء الذين عابوا أباهم، ورموه بالضلال المبين وهذا سوء أدب نحذر الأبناء منه - يريدون أن يقتلوا يوسف، أو يتخلصوا منه؛ لكى يخلو لهم وجه أبيهم، ويكونوا قوماً صالحين، ولكنّ الأمرين لم يتحققا، فقد عاش أبوهم فى كدر نحو سبعة عشر عاماً، وعانوا هم من الشعور بالعقوق، والخيانة، فالشرّ لا يلد إلا شرا، فلا يجوز لنا أن نخادع الله، وأن نخدع أنفسنا، وأن نجد لها المبْرر..

وبما أن الغاية لا تبرّر الوسيلة فى الإسلام.. فإنهم قد ارتكبوا الخطأ، وركبوا الوسيلة الباطلة؛ لكنهم لم يصلوا إلى الهدف، وهو الصلاح المزعوم؛ لأن العمل الذى خبث لا يخرج إلا نكداً.

● وتعلمنا السورة - أيضاً - ونحن نستشرف صدرها ونهايتها معاً؛ أن العاقبة للمتقين الصابرين، الصادقين مهما يطل الزمن، ومهما يكن حجم المعاناة؛ بل بقدر ما تكون الآلام كبيرة تكون النتائج عظيمة، ومن هنا فلا طريق إلا الصبر والتقوى، كما قال يوسف نفسه فى نهاية القصة..

- وقد يقول بعضهم : إن بكاء يعقوب يتنافى مع الصبر.. وهذا غير صحيح، فالبكاء - فى الحدود المقبولة اللائقة - مشروع، وهو لا يدل على الجزع أو اليأس.. إلا إذا ارتبط بحركات أو أقوال تغضب الله - سبحانه - وتخالف الشريعة.

● ولا يجوز أن نعبر قيمة (الصبر) دون أن نقف عندها؛ فالصبر من أعظم قيم التربية؛ التى تعطيها لنا هذه السورة.. والصبر شقيق الأمل، وهما معاً عدوّان للعجلة واليأس، فلله فى خلقه سُنن أجراها على الأنبياء، وعلى سائر الناس، رضوا أم كرهوا.

- وما دام الأمر قدريا لم تصنعه بيدك فيجب أن تثق فى حسن العاقبة.

ويرى (راشد البراوى) أن سرّ صبر يعقوب ويوسف؛ يعود إلى أنهما كانا يدركان أنهما لم يكن لهما دخل فيما أصابهما، فيعقوب استأمن الإخوة على يوسف، فلما خانوا العهد صبر، وهو واثق أنه سيأتى اليوم الذى تزول فيه الغمة، ويوسف زج به فى السجن، وهو برىء تماماً، وجعله هذا الشعور ببراءته يؤمن بأنه سوف يسترد حريته، كما أنّ يعقوب وابنه كانا يؤمنان بأن الله لابدّ أن يحق الحق ويجزى المحسنين[٢].

لكننى مع تقديرى لهذا (الميزان) القائم على (العدل)؛ الذى أشار إليه الباحث الكريم إلا أننى أرى أن الثقة فى الله، وفى رحمته وعدله، والإيمان الكامل؛ هى الوقود الأعظم للصبر، والأمل، حتى لو لم يأخذ المظلوم حقه فى

(٢) القصص القرآنى - تفسير اجتماعى، ص: ١٠٢.

هذه الدنيا، وكم من ظالمين ذهبوا دون أن يُقْتصّ منهم؛ مع أنهم لم يظلموا أفراداً، وإنما ظلموا شعوباً بأكملها، وفرضوا عليها الاستبداد، والطغيان، كما سرقوا أقواتها، وعملوا لخدمة أعدائها...

وعندما يموتون - لأن الدنيا قصيرة، والأعمار محدودة - فإن الأجيال تلعنهم، وتجعلهم مثلاً سيئاً، إلا أنّ جزاءهم الحقيقى هناك فى الآخرة، ولا يمكن أن يكون عقابهم فى الدنيا كافياً فى مقابل ظلمهم للملايين، فأىّ دنيا تكفى للاقتصاص من هؤلاء ؟!!

- ولذلك حسم يوسف الأمر فى نهاية الرحلة عندما أرجع إلى التقوى والصبر كل شىء جميل أعطاه الله له ولأهله.

لقد كان صبر يوسف عميقاً فى سعته، ومجالاته المتعددة، فقد صبر على إيذاء إخوته له؛ إيذاءً وصل إلى مرحلة الشروع فى القتل، وصبر على بيعه عبداً بثمن بخس، وصبر على نعم الله بالشكر والطاعة، والعفة، والأمانة على العرض والمال لمن ائتمنه، وصبر على الغريزة الجنسية؛ التى هُيئت له تهيئة حافلة بصور الإغراء التى لا يقاومها إلا الأبطال المؤمنون.. وصبر على السجن، وتحول فيه إلى داعية رشيد، والتزم الأخلاق الزكية؛ التى جعلته ملجأ المسجونين ومعلمهم.. وصبر على العمل المضنى؛ الذى وكل إليه لإنقاذ شعب من الموت.. وصبر وغفر لإخوته عندما جاءوه سائلين، يعانون العوز وعذاب السفر، وكان بإمكانه الانتقام منهم.. وصبر - مع التخطيط - فى استدعاء أخيه بنيامين ووالده يعقوب، فترك الثمار حتى تنضج.. ثم كشف للجميع عن شخصيته!!

- فأى صبر (يوسفىّ) هذا ؟!!

- ويا لها من قيمة أخلاقية يعلمنا إياها يوسف؛ عندما يحافظ على مشاعر إخوته، ويأبى تذكيرهم بما ارتكبوه فى حقه، إنه لم يقل وهو يتحدث بنعمة الله عليه (أخرجنى من الجب)؛ بل قال :

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾

(يوسف: ١٠٠)

متحاشياً ذكر الجب مراعاة لمشاعر إخوته؛ الذين ألقوه فى الجب، وعَرّضوه للموت.. وهذا درس لنا، حتى لا تذكّر الذين أساءوا إلينا بإساءاتهم فنخدش حياءهم، وكرامتهم!!

● ويا لها من قيمة أخرى جميلة برزت متألقة فى سلوك يوسف فى بيت العزيز.. إنها قيمة لا نجد لها اسماً واحداً، فهى مركبة من (العفة، والوفاء، والإيمان).. ففى مواجهة طغيان زوجة العزيز الجميلة، مع جرأتها فى السرّ وفى العلن على طلب الفاحشة، مع التهديد بالسجن، والتصغير، والاحتقار، يقف يوسف بطلاً يعلم الناس وجوب الاعتصام بالله، ووجوب الوفاء، لاسيما فى هذه الامتحانات الصعبة؛ التى يظهر فيها المعدن النفيس من المعدن المزيف.. إنه بدلاً من

الخضوع، أو محاولة الخروج من الموقف بشيء من اللطف يقف ـ بقوة وحزم ـ أمام هذه الزوجة ليذكرها بفضل زوجها عليه هو، فكيف بفضل زوجها عليها، وهو الذي جعلها زوجة وزير، ومكنها في الأرض، وهاهي تكافؤه بالخيانة الوقحة.. أما يوسف وهو الخادم؛ الذي أحبه زوجها، وجعله رئيس الخدم فهو أوفى منها؛ ولهذا يرفض خيانة زوجها، ولكنّ هذا الوفاء مربوط بالخوف من الله، فإذا كان زوجها أحسن مثواه، فإن الله لا يفلح الظالمين، وهو يخشى أن يكون (ظالماً) أمام الله، كما أنه عفيف، ورث العفة عن آبائه وأجداده، وآتاه الله حكماً وعلماً.. وهكذا بهذه القيم المتداخلة نجح يوسف في هذا الامتحان الصعب، وقبل السجن بديلاً عن حياة تعجّ بالفساد، والتحلل، والخيانة.

• وتعلمنا سورة يوسف، وزوجة العزيز؛ خطورة الخلوة بالمرأة الأجنبية في البيت أو غيره، تحت أي شعار أو مسمى، فعلى الرغم من فارق السن والمكانة بين يوسف وامرأة العزيز إلا أنها ـ مع تكرار الخلوة وظهور مخايل الشباب على يوسف ـ شغفت به، وسعت لإرغامه على الفحشاء، لولا أنه كان من عباد الله المخلصين.

• ويعطينا هذا الدرس قيمة أخرى.. فهذا الامتحان؛ الذي قبل يوسف أن يدفع ـ من أجل النجاح فيه ـ ثمناً غالياً، وأن يخرج من القصور إلى السجن؛ الذي يشبه القبور.. هذا الامتحان كان طريقه ـ لو أبصرنا خطوات المستقبل القادمة ـ إلى المجد، وحكم مصر.. فامتحان واحد يُؤثر فيه الإنسان ما عند الله، وينتصر فيه على الشهوات والمغريات، قد يقوده إلى أعظم نجاح قد لا يتخيله الإنسان في حياته.

• ومن القيم التربوية المستوحاة ما يدلنا عليه موقف التفاف المسجونين حول يوسف، وقدرته على الدعوة إلى التوحيد بينهم.. لقد كان وراء ذلك خلقه الرفيع، وسمته الكريم، وصلاحه، وتقواه.. فكان الملجأ للمستفتين، وكان الأمين؛ الذي وثق به رئيس السجن، فجعله رئيس المسجونين، وهذا يعلمنا أن خير دعوة للقيم، وأفضل وسيلة لنشر التربية الفاضلة هو (السلوك).. سلوك المعلمين، والآباء، والمسئولين.

• وكان يوسف ينتهز كل فرص التقارب معهم؛ ليدعوهم إلى التوحيد قائلاً:

﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

(يوسف: ٣٩)

وهذا من فقه الأوليات، وفقه الدعوة بالحكمة.

• وفي هذا الرصد للقيم التربوية الصانعة للرقي الإنساني، هل نستطيع إغفال قيمة الأسرة، والتنشئة العائلية الأولى، والبيئة الصالحة؟ لقد كانت فراسة يعقوب في مكانها عندما تنبأ ليوسف بأن الله سيجتبيه، ويعلمه من تأويل الأحاديث، ويتمّ نعمته عليه.. ولعله أولاه عناية تربوية خاصة ـ مع الحبّ ـ بعد أن رأى جموح إخوته، وميلهم إلى الغيرة المؤدية إلى المكر.. ومن هنا كان يمنع يوسف من أن يقصّ رؤيته على إخوته فيكيدوا له.. وهذا ـ أيضاً ـ من فراسته التربوية؛ التي يجب أن يتزود بها المربون والآباء.. بحيث يعملون على كبح جماح المفاسد عند ذوي النفوس الجامحة.. ويعملون ـ في الوقت نفسه ـ على رعاية النابغين الواعدين؛ حتى لا يضيعوا في زحمة الغثاء الغالب في المجتمعات.. بل إنني أعتقد أن يوسف كان يخضع لتوجيهات قيمية تربوية مكثفة تلقاها من أبيه، وقد حفرت لنفسها أعماقاً راسخة في وجدانه، وتفكيره.. وقاوم بها هذه التحديات الصعبة التي واجهها.. مع حداثة سنه تارة، وفي ظل شبابه الغض المتدفق حيوية وجمالاً تارة أخرى.

ولعل يوسف لم ينس في كل تقلبات حياته قولة أبيه له، مذكراً إياه بعظمة أسرته، التي يجب أن يكون امتداداً صالحاً لها:

﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

(يوسف: ٦)

ـ وإطلاق لفظ الأبوة على أجداده يشي بأهمية الرباط الوثيق بين الأصول والفروع.

ـ ولعلّ يوسف قد شعر ـ من هذا الإطلاق ـ بأنه يحمل على كاهله مسئولية تاريخية، وأخلاقية عظيمة.

• ومثل يوسف يجب أن تظل صفحته بيضاء لا تشوبها شائبة، ولهذا لم يقبل الخروج من السجن إلا بعد التحقيق مع النسوة اللائي أعجبن به، واعتراف زوجة العزيز أمامهن بأنها التي راودته عن نفسه، وندمها ـ وندمهنّ ـ على ما كان منهن، واعترافهن المدوي بأنهنّ ما علمن عليه من سوء!!

وهكذا يجب أن نحرص على قيمة الكرامة الشخصية، والسمعة الطيبة، والبعد عن مواطن الريبة.. لا سيما إذا كنا نعد أنفسنا، أو مجتمعاتنا للبناء والتعمير، والطهر والشرف.

• وكذلك نتعلم حرص يعقوب على أبنائه ـ مع ما في نفسه تجاههم ـ ونصحه لهم بأن يدخلوا مصر من أبواب متفرقة؛ حتى لا يتعرضوا للحسد، أو الظنون، أو الإيذاء.. فالوالدان أكبر من أن يحقدا على أولادهما، أو أن يتمنيا لهم الشر مهما تكن أخطاؤهم (!!) فهل يدرك الأبناء قيمة الوالدين؟!!

• ومن القيم الجديرة بالتنويه والتأسيّ ـ لاسيما في عصرنا الذي يتطاول فيه الإنسان، وتتطاول الحضارات المادية على الله القوي القادر ـ أن يوسف (عليه السلام).. ذلك العظيم في جماله الخُلقي والنفسي، العبقري في مداركه العلمية، وفنون القيادة، لم ينس ـ أبداً ـ اللجوء إلى الله، والشعور بالحاجة، والعجز، والضعف

أمام قدرة الله.. إنه مع قوته النفسية والإيمانية، والجسدية التى تجعله يؤثر السجن.. ومع زعامته الكبيرة عندما مكنه الله فى الأرض.. مع كل ذلك ـ دائماً ـ يستعين بالله، وتتألق العبودية الخالصة لله فى كل أموره.. فى السراء والضراء.. لم تجعله المحن ييأس من الوقوف أمام باب الله راجياً.. ولم تجعله المنح يبطر ويشعر بأنه فوق الحاجة إلى الله، والوقوف ببابه.. بل إنه المقر بفضل الله فى كل الحالات.. فوقفته الشجاعة أمام النساء المعجبات يعزو الفضل فيها إلى الله:

﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾

(يوسف: ٣٣)

وفى ساعة تفسيره لرؤيا السجينين لم يتظاهر متطاولاً بالعلم.. بل اعترف بفضل الله قائلاً:

﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾

(يوسف: ٣٧)

وقائلاً أيضاً:

﴿ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

(يوسف: ٣٨)

● وهنا تظهر قيمة أخرى عند يوسف، لابدّ من الإلماع إليها، وهى قيمة (الشكر) القائمة على الاعتراف (بفضل الله)، وبعونه فى كل الأحوال.. بل إن يوسف ليبلغ به الشعور بأيادى الله عليه، ونعمه الغامرة عبر رحلته المليئة بالمحن والامتحانات.. مبلغاً يفسر من خلاله كل ما فيها بأنه كان تخطيطاً لكرم إلهى أسداه الله إليه.. إنه يقول لأبيه يعقوب فى لقائهما العجيب الفياض بالعبرات والعبر:

﴿ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ﴾

(يوسف: ١٠٠)

ولنلاحظ هنا (اللطف لما يشاء سبحانه)، وليس (بما أو بمن يشاء).. إنه التخطيط الإلهى؛ الذى يحقق الله به إرادته، والذى لا يبصره إلا أصحاب البصائر النقية، والقلوب التقية، وقد أبصره يوسف، ويعقوب ـ عليهما السلام ـ.

● ومع ذلك كله هناك (قيمة العفو المصحوبة بالكرم).. فمع أن إخوة يوسف قد اعتذروا إليه اعتذاراً هزيلاً، عندما قالوا:

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾

(يوسف: ٩١)

فحتى فى اعتذارهم يبدو نوع من الحسد فى كلماتهم.. بل إنهم ـ قبل ذلك ـ عمدوا إلى إيذاء يوسف واتهامه بالباطل؛ الذى يعرفون أنه باطل، وأنه لم يكن إلا دعابة عائلية بين عمة يوسف وأخيها يعقوب، وذلك عندما قالوا فى بنيامين:

﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾

(يوسف: ٧٧)

يقصدون يوسف.. كاشفين أن كمية الحقد لديهم عليه لم تنته بعد..

ومع ذلك كله سرعان ما يتجاهل يوسف كل هذا ويقول لهم:

﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

(يوسف: ٩٢)

وبينما يقولون هم ليوسف:

﴿ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾

فإن يوسف يقول لهم:

﴿ لَا تَثْرِيبَ ﴾

ـ أى لا لوم ولا تأنيب ـ حتى مجرد التأنيب مع كل ما ارتكبوه.. بل ويدعو الله أن يغفر لهم..

بل ويبلغ الأمر به ـ لشدة دماثة خلقه، وسعة صدره، ونقاء قلبه ـ أن يسمى ما فعلوه به، وما دفع ثمنه غالياً ـ مجرد مكيدة شيطانية بينه وبين إخوته؛ بل ويبدأ بنفسه قائلاً:

﴿ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾

(يوسف: ١٠٠)

وكأنه ينسب الجريمة إلى الشيطان لا إلى إخوته.. أدباً ولطفاً!!

لقد قدمت لنا سورة يوسف ـ من خلال الدرس التاريخى والأدبى والحضارى ـ (منظومة قيمية تربوية معجزة)، تستحق أن تأخذ مكانها فى المناهج التربوية والتعليمية.. فى المستويات المختلفة من الأعمار العقلية والزمانية.. فهى خطاب لكل الناس.. بأسلوبها القادر على الدخول إلى أعماق الوجدان.. وأعماق العقل.. على كل المستويات.

لقد تحقق للسورة كل أنواع الإعجاز فى القرآن، ففيها إعجاز النظم، والإيجاز، وفصاحة الألفاظ، ومعانيها الجامعة، والأسلوب البديع، والبيان البديع، وبلاغة المعنى، ووضوحه، بالإضافة إلى ما فيها من العلوم والمعارف والغيبيات..

وقد أضافت ـ إلى ذلك ـ إعجازها التاريخى، والأدبى، والتربوى.

وأخيراً..

ففى ختام هذه المنظومة التربوية المعجزة لم تنس سورة يوسف أن تعطينا درساً يصل بنا إلى تقدير العظمة اليوسفية على حقيقتها.. ففى هذا الوقت الذى يفترض أن يزهو فيه يوسف بالنصر، ها هو يذكرنا فى هذه اللحظة بالموت.. وبالآخرة...

***

من مشاهد القيامة فى القرآن الكريم

حوار على جانبى الأعراف

للأستاذ / صديق عيطة

قال الله تعالى فى سورة الأعراف:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ۚ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾

(الأعراف: ٤٠ - ٥١)

مجموعة من الآيات المباركات من سورة الأعراف، إحدى السور المكية التى نزلت لتؤكد على قضية العقيدة الصحيحة، وما يترتب عليها من مصائر تتجلى فى مشاهد القيامة، حيث يستقر أهل الجنة فى الجنة، وأهل النار فى النار، ومن هذه المشاهد: ما جاء على هيئة حوار متعدد الأطراف والشخوص، مختلف المناظر، متنوع اللقطات، وإن كانت هذه المشاهد كلها تتكامل فى إطار التصوير الفنى، لما يجرى فى ساحة الثواب والعقاب فى الجنة والنار. ولنرجئ التعليق على هذه المشاهد، لما بعد العرض.

أمامنا الآن ساحة العرض الكبرى، فسيحة الأرجاء، مترامية الأطراف، لا تبدو فيها الأرض أرضاً، ولا السماء سماء.. وإنما هو فراغ كونى هائل، لم يسبق أن شوهد مثله من قبل.. كل ما يمكن أن يحدد من ملامح الصورة - أقصد من ملامح ساحة العرض - هذه النار، التى يتأجج لظاها.. ويعلو أوارها.. ويشتد حرها حتى تبدو سوداء مظلمة..!! هذه النار تشخص فى الجانب الأيسر من ساحة العرض.. أما فى الجانب الأيمن منها: فإن الجنة تبدو متألقة زاهية مزهرة، فيها من ألوان النعيم ما لا عهد لبشر به فى الدنيا.. وهناك جسر يفصل بين شقى الصورة يسمى «الأعراف»، حيث يشرف أحد جانبيه على الجنة، ويشرف الآخر على النار.

﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾

(الحديد ١٣)

هذه هى الملامح التى تشكل أركان الصورة الفنية، والتى يمكن أن يتملاها الحس ويستوعبها الخيال، أما الأشخاص، فهى من خلال ما يبدو فى هذا المشهد الذى تصوره الآيات المباركات على النحو التالى:

فى الجانب الأيسر من الصورة: فى النار، أمم من الجن والإنس العصاة.. يصلونها ويعذبون فيها، حيث افترشوا لهيبها، والتحفوا لظاها.. فهم فى غمرة منها، أينما تقلبوا أو توجهوا..

وفى الجانب الأيمن: فى الجنة، أناس ينعمون، بما أفاء الله عليهم فيها من الخير الوفير، والنعيم المقيم، وقد بدا بينهم الود والصفاء، وعمهم الإخاء فهم يتحدثون فى محبة ووئام، ويتبادلون التحية والسلام، كما نسمع منهم عبارات الحمد والثناء على الله رب العالمين؛ أن هداهم للإيمان، الذى أورثهم هذا النعيم المقيم.

وهناك صنف ثالث من الناس: الذين يقفون على حجاب الأعرف وهو - على ما يبدو - يمنع الوصول، ولكنه لا يمنع الصوت ولا يمنع الرؤية. هؤلاء الرجال، يلتفتون إلى جهة اليمين تارة، وإلى جهة اليسار تارة أخرى، ليتحدثوا إلى أصحاب الجنة وإلى أصحاب النار، كما يبدو من الحوار الآتى بعد..

وهناك فى جانب من الصورة يقدم جماعة من الملائكة، الذين أحكموا قبضتهم على جماعة من الناس، الذين توفوا وانتقلوا إلى الدار الآخرة فى التو واللحظة.

ومن طريقة القبض عليهم، وهيئتهم يبدو أنهم من العصاة المذنبين الذين كذبوا بآيات الله، بعد أن متعهم الله فى الدنيا بكل ما سبق أن قدره لهم من صنوف الخير، ورفاهة العيش.. وهنا يبدأ الحوار، حيث يسألهم الملائكة سؤال تبكيت وتوبيخ:

- أين آلهتكم التى كنتم تدعونها، وتعبدونها من دون الله، وقد زعمتم أنها تضر وتنفع؟!

- يرددون (فى ذلة وانكسار وندم):

﴿ ضَلُّوا عَنَّا ﴾

ولم نعد نراهم، فقد هربوا وتبين لنا أننا فى ضلال مبين، وخسران أكيد، حينما عبدناهم.. وأننا كنا جاحدين كاذبين فيما ادعيناه من الشركاء!!

- فتقول لهم الملائكة «فى لهجة حازمة، ونبرة شديدة قاسية، مشيرين إلى حيث النار ومن يصطلون فيها»: ادخلوا هنا

﴿ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ﴾

- يدخلون مدخلاً غير كريم، ولكنه نزلهم الذى يستحقونه.. وهناك يتلاقون مداركين فيها مع من سبقهم إليها، ثم يبدأ الصراع المأساوى، الذى تتبدى أبعاده من خلال هذا الحوار الملتهب، وقد بدت حرارته وكأنها جزء من حر نار جهنم، حيث يتلاعن أهل النار جميعاً، ويتبادلون الشتائم التى تنم عن سخائم صدورهم الحاقدة، ونفوسهم المغيظة. وصدق الحق حينما قال:

﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾

(الزخرف: ٦٧)

- وهنا يتوجه المستضعفون إلى ربهم قائلين:

﴿ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا ﴾

فى الدنيا

﴿ فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ ﴾

جزاء لهم على هذا الإضلال - (فى عبارات قليلة مبكتة)

﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

هذه الحقيقة المؤلمة لكم ولهم!! - هكذا يرد عليهم الرب تبارك وتعالى.

وهنا ترد عليهم الفرقة الأولى المستكبرة فى غيظ شديد وحنق أكيد:

﴿ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾

باتباعكم إيانا.. وإنما أنتم الذين كفرتم وكذبتم

﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾

وتغلق فى وجه الفريقين المتلاعنين أبواب السماء، فلا يسمع لهم دعاء، ولا تقبل لهم ضراعة، ويسمع الحكم النهائى وهو أنهم لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط.. وهو حكم عادل ينسحب على كل من سلك سبيل هؤلاء المجرمين، حيث قال الحق الأعلى:

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾

ونتركهم بعض الوقت وتنسحب عنهم الأضواء إلى حين، وهم يتقلبون فى نار جهنم - نعوذ بالله من شرها - فهم:

﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾

ثم تضاء الأنوار على الجانب الآخر من ساحة العرض، لنرى الفريق الثانى: فريق المؤمنين الصالحين، وقد طال اشتياقنا إلى رؤيتهم، لنمتع أبصارنا وأسماعنا بما نرى ونسمع من حالهم، وهم يتقلبون بين أعطافها.. وقد علت بينهم روح المودة وساد الصفاء، بعد أن نزع الله - عز وجل - من صدورهم الحقد والغل ليصيروا إخوانا متحابين متصافين، كما نسمع منهم آيات الحمد والثناء على الله بما هو أهله:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾

فهو منه وإليه سبحانه!!

ثم نسمعهم وهم يجددون إيمانهم بما جاء به الرسل الكرام قائلين:

﴿ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾

يقولونها ويرفعون بها عقيرتهم، فرحين بسعادتهم الأبدية لتتجلى حقيقة أن المزيد من الحمد والشكر، يستوجب المزيد من النعمة والفضل.

وإذا بهم يسمعون صوتاً علوياً صادراً من أركان الساحة المباركة المترامية، غير أن أحداً لا يرى مصدره، وهو يخاطبهم بعبارات التهنئة، التى هى عندهم أحلى متعة مما هم فيه من ألوان النعيم.. هذا الصوت يناديهم:

﴿ أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

وهنا تعود الأنوار، لتسلط على الجانب الأول،

دون أن تنسحب عن الجانب الآخر، ليدور بين الفريقين هذا الحوار، الذى يبدأه أصحاب الجنة منادين:

- يا أصحاب النار

- فيجيبون: لبيكم يا أصحاب الجنة

- «فى سخرية مرة وتهكم لاذع»..

﴿ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا ﴾

من النعيم المقيم

﴿ حَقًّا ﴾

﴿ فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ﴾

- «وهم فى شغل شاغل وكرب عظيم، وهمّ لا يقدرون معه على الإطالة فى الرد»:

﴿ نَعَمْ ﴾

وهنا يسمع هذا الصوت النافذ القوى، الذى يضرع إلى الله داعياً عليهم، وهو يصدر من بين الفريقين، ولعله - والله أعلم - صوت رجال الأعراف الذين يعرفون كلا بسيماهم، ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون غيرهم:

﴿ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

«كما يصدون أنفسهم فهم ضالون مضلون، ويبغونها طرقا معوجة بعيدة عن منهج الله القويم»:

﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾

ثم تسلط الأضواء على جسر الأعراف، حيث رجال:

﴿ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ﴾

هؤلاء الرجال، يجرون هذا الحوار مع أصحاب الجنة محيين مهنئين، بعد أن عرفوهم ببياض وجوههم، ووضاءة ألوانهم، ونورهم الذى يسعى بين أيديهم وبأيمانهم.

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾

يلقون هذه التحية على أصحاب الجنة، وهم لم يدخلوها وإن كانوا يطمعون فى فضل الله علّه يشملهم ويدخلونها.

ثم يلتفتون إلى أصحاب النار، فلا يطيقون رؤيتهم لبشاعة منظرهم، ولما هم فيه من هم وكرب، ولذا يصرفون أبصارهم عنهم قائلين:

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

ثم ينادونهم وقد عرفوهم بسيماهم، وهى - على ما يبدو - سواد وجوههم، وغبرة ألوانهم، وما يعلوهم من الكآبة.. ينادونهم مبكتين إياهم

﴿ مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾

هل أفادكم شيئاً؟؟! هل دفع عنكم ضراً؟؟!

- لا يجيبون..!!

﴿ أَهَؤُلَاءِ ﴾

-مشيرين إلى أصحاب الجنة:

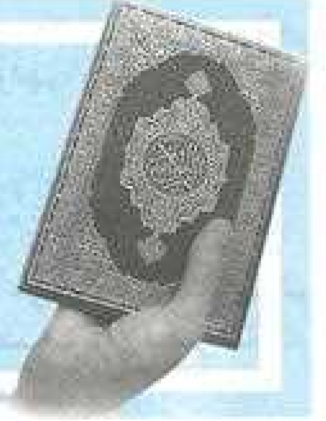
﴿ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾

لأنهم فقراء، وليسوا من علية القوم؟؟!

- لا يجيبون..!!

وعند ذلك، يلتفت رجال الأعراف إلى أصحاب الجنة مخاطبين إياهم:

﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾



رأى المسلمون الأوائل فى آيات الشفاء والهداية بالقرآن ما يعينهم على معالجة نفوسهم، ومعنوياتهم من كل أدواء الواقع، والتى استجابت للعلاج، ذلك أنهم اتخذوا من مجموع كلام الله هدى ورحمة، وشفاء لما فى الصدور.

الاستشفاء بالقرآن الكريم

للأستاذ الدكتور/ السيد محمد الديب
وكيل كلية اللغة العربية - بالزقازيق

الشفاء من الله تعالى

لقد نزلت آيات الوحى الكريم بإثبات الشفاء والهداية من الله رب العالمين، وجاء ذلك فى آيتين هما قوله تعالى فيمن نقضوا عهدهم مع الرسول ﷺ بعد صلح الحديبية:

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾

(التوبة: ١٤)

وذكر بعض المفسرين أن شفاء الصدور إشارة إلى فتح مكة، وقد حقق الله ذلك، مما يدل على صدق الرسول وتأكيد الإعجاز القرآنى.

والآية الثانية هى قول الله تعالى:

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾

(الشعراء: ٨٠)

والحديث فيها على لسان إبراهيم عليه السلام، فهو يذكر نعم الله عليه، ومنها نعمة شفائه، التى أسندها إلى الله تعالى؛ اعترافا بفضله وإقرارا بنعمته، فالآيتان دعوة إلى الثقة فى الله، وتأصيل الإيمان به، وتأكيد إسناد كل الأمور إليه، وعند ذلك يستلزم من المؤمن ألا ييأس من عفو ربه وكرمه، الذى يتجاوز ويعلو فوق الأمور السهلة

اليسيرة، ومنها الإبراء للمؤمن، مما ألمّ به من عوارض الحياة، كمرض عضوى أو نفسى أو معنوى، مما يعنى الأخذ بكل الأسباب التى تعين على ذلك كالدواء الطبى، الذى يقره العلماء المتخصصون فى مجال المرض المحدد، فعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: "ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء"[1]، وفى حديث أسامة بن شريك - أن الرسول ﷺ قال: "تداووا عباد الله، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء، إلا داء واحداً الهرم"[2] وأضاف ابن مسعود فى رواية أخرى: "علمه من علمه وجهله من جهله"[3]، فمن خلال العلم يصل الإنسان إلى الدواء، الذى ربما يحصل فيه تجاوز للحد فى الكيفية أو الكمية، فلا ينجح الدواء فيما قصد منه، وربما أحدث مرضاً آخر، أو أن الدواء المُعيَّن للمرض لا يعلمه أحد، فلا يبقى على الإنسان، إلا أن يأخذ بالأسباب، وأن يذعن ويرضى بما قدره الله تعالى من الداء والشفاء.

أبعاد الاستشفاء بآيات القرآن الكريم

لقد اتسعت آفاق الدلالة القرآنية فى أمر الاستشفاء بالقرآن الكريم بثلاث آيات كريمات، تتجه كلها إلى أن الشفاء بكل واحدة منها إفراداً أو جمعاً حاصل لا محالة، وهى توجه المؤمن الذى يزداد إيمانه بالقرآن إلى الاعتقاد الكامل بالشفاء التام به دون تحديد لنوع العلة وأسبابها، مما يجزم باتساع مجالات الاستشفاء وتحقيق الهدف مما يسعى إليه المؤمن، ويكون ذلك بتلاوة الراغب فى السلامة آية من القرآن أو أكثر، مما حدده المفسرون استناداً إلى الأحاديث الصحيحة أو يُتلى له من الآيات بواسطة شخص آخر ما دامت الثقة فيه ثابتة، فضلا عن حسن النية وصدق العزيمة، ويسبق ذلك الثقة فى التأثير العظيم والرائع للآيات الكريمة من كلام الله رب العالمين، تقول الآية الأولى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(يونس: ٥٧)

والموعظة كما قال المفسرون هى: القرآن العظيم، ومعنى:

﴿ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾

(يونس: ٥٧)

أى يشفى ما فيها من الشكوك والرِّيب، ذلك أن القرآن إرشاد ورحمة لمن قرأه، وآمن بما فيه بعد التفكير العقلى السليم.

وتأتى الآية الثانية مبينة أن فى آيات القرآن ما يحقق الشفاء والرحمة للمؤمنين، قال تعالى:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾

(الإسراء: ٨٢)

وذكر بعض المفسرين أن الشفاء من الكفر والضلال، وهما علتان يوجبان أن يسعى المقبل على الله، والراغب فى الإيمان إلى الشفاء من

(١) الحديث فى صحيح البخارى فتح البارى (جـ١ ص ١٤١).

(٢) رواه أحمد والبخارى والأربعة، وصححه الترمذى (من شرح فتح البارى جـ١ ص١٤١) والهرم: الموت.

(٣) أخرجه النسائى، وابن ماجه، وصححه ابن حبان، والحاكم حسب المصدر السابق.

هاتين العلتين وغيرهما، مما يستحق أن يبرأ المؤمن منه، أو يمثل بالنسبة له داء نفسياً، أو علة معنوية، فتكون الآيات الكريمات علاجاً لما حق به.

أما الآية الثالثة، فقد جاءت خطابا للمؤمنين بحق إنزال القرآن عربياً على رسول عربي، قال تعالى:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾

(فصلت: ٤٤)

وتفيد الآية أن القرآن قد نزل؛ ليكون هداية وشفاء للمؤمنين، دون سواهم وهم الكافرون الذين أعماهم الكفر، وصرفهم الشك عن تدبر آياته، ومعرفة أحكامه وإعجازه، وابتعدوا عنه، لعدم الثقة فيه، فلا يستحقون ما أنعم الله به على المؤمنين الصادقين، وهذه مع سابقتها تشير كما قال بعض العلماء - "إلى هداية القرآن الكريم لمن يريد الهداية، وشفائه لمن يطلب الشفاء، أما الظالمون الضالون، فما يزدادون بسماع القرآن إلا عمى وضلالاً، لأنهم عموا وصموا عن آياته ودلائله وهدايته"(٤).

وقد ورد الشفاء بغذاء ذُكر في القرآن الكريم، وهو العسل قال تعالى:

﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

(النحل: ٦٩)

ذلك أن الشفاء الذى يحققه العسل لبعض الأمراض - بنفسه، أو بإضافته لغيره - يأتى بسببه، وليس بالنص القرآنى الذى أورد هذا الغذاء، والذى يتحول إلى دواء فالأمر يخضع للإعجاز العلمي حيث أورد القرآن الكريم (العسل) مرتبطا بالشفاء، والذى يحققه، مما يعد سبيلاً منيراً أمام المؤمنين؛ ليُعملوا عقولهم بالتفكير فى صنع الله، وعجائب مخلوقاته، مما يحتم عليهم الاجتهاد فى البحث عن أسرار جديدة حول ما فى هذا الغذاء من دواء وشفاء، ذكره القرآن الكريم.

مجالات الاستشفاء بالقرآن الكريم

إن مجالات الشفاء من الأمراض التى تحلق المؤمن كثيرة، ويتوسع بعض العلماء فى بيانها؛ حتى إنهم يُدخلون فيها الأمراض العضوية، ولهم فى ذلك شواهد كثيرة من السيرة (لسنا بصدد الحديث عنها وبيان مناسبتها) أما الذى يعنينا أن نذكره فهو ما روى عن رسول الله ﷺ فى الاستعانة بالقرآن كدواء، فقد قال عليه الصلاة والسلام: "خير الدواء: القرآن"(٥) وكذلك ما رواه ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: "عليكم بالشفائين (العسل والقرآن)"(٦).

والثابت أن الاستشفاء بالقرآن فى الحالات المحددة لا يقتصر على آيات الشفاء المذكورة، وإنما يمتد إلى غيرها، وهذا ما ذكره رسول الله ﷺ: إذ قال: استشفوا بما حمد الله به نفسه، قبل أن يحمده خلقه - وبما مدح الله به نفسه" قلنا: وما ذاك بأبى وأمى يا رسول الله، قال: "الحمد لله، وقل هو الله

(٤) الدر النظيم - د/ حمزة النشرتى وآخرين - جـ٢ صـ٣٧.

(٥) رواه ابن ماجه.

(٦) رواه ابن ماجه، والحاكم، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.

أحد فمن لم يشفه القرآن فلا شفاء له".

ونؤكد أن للاستشفاء بالقرآن مجالات كثيرة فهو أولاً كتاب دعوة وهداية، وليس كتاباً فى الطب يُعالج به أصحاب الأمراض العضوية، ولكنه يسهم فى تخفيف وقع الآلام عليهم مما يساعد بدرجات كثيرة فى الشفاء.

ولذا تُوجه قراءة القرآن إلى كبح جماح غلواء النفس، كما ينهض بدور مؤثر فى مقاومة الأمراض غير العضوية كالحسد والحقد والكراهة ومعالجة القلوب وشفائها من الجهل والضلال، وكذلك الكثير من الأمراض الاجتماعية والانحرافات بكافة صورها. مثل (إدمان المخدرات وغيرها..).

ويسهم بدرجة كبيرة فى تخفيف حدة بعض الأمراض النفسية ولكن لا يقتصر عليه، كما أنه لا تعارض بين الاستشفاء بالقرآن على هذه الصورة والعلاج بالأدوية(٧).

إن الاستشفاء بالقرآن قضية إيمانية تحتاج إلى اليقين والثقة من المتلقى للقرآن عن طريق القراءة أو الاستماع، حيث تمتد هذه الثقة إلى القارئ ثانياً.

ويتحتم الاعتقاد فى تأثير القرآن، فإذا غاب هذا الاعتقاد فلن يكون للقراءة تأثير يذكر، وأورد الرواة مقولة خالدة وهى "هذه الفاتحة ولكن أين عمر" وقد ذكرت كمثل. قيل بعد أن ثبت أن عمر بن الخطاب قد قرأ سورة الفاتحة على مريض وشُفى، وعندما حاول شخص آخر أن يقرأ هذه السورة على مريض آخر فلم يشف فقالوا "هذه الفاتحة ولكن أين عمر"؟

ورأى بعض العلماء أن مجال الاستشفاء بالقرآن واسع يشمل الأمراض الظاهرة والباطنة، ولكن القول بذلك يخرج القرآن عن أهدافه، ويُهدر المنهج الإسلامى فى حتمية الأخذ بالأسباب، وأن كتاب الله قد نزل للهداية، وليس لعلاج الأمراض، مع الإقرار بأن الإعجاز القرآنى لا حدود له.

ويتحتم الفصل التام بين الاستشفاء بالقرآن، وبين الدجل والشعوذة الذى يُمارس تحت ستار العلاج بالقرآن، وإخراج الجان والسحر، وكل ذلك عبث لا قيمة له.

ومن المؤسف أن هذه الأوبئة المصطنعة منتشرة فى كثير من الأوساط الاجتماعية غير المتعلمة، أو التى حصّلت علماً لكنها لم تستفد به، ولم تتعلم منه، ولذا ينبغى مقاومة هذه الخرافات بكل وسيلة ممكنة لتطهير المجتمع الإسلامى من هذا الإفك والضلال المبين، وتعقب محترفى هذا الدجل، الذين لا هم لهم من ورائه سوى التكسب وجمع الأموال الطائلة، فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: "من أتى ساحراً أو عرافاً وصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد".

ونصل إلى صفوة القول، وهو أن الاستشفاء بالقرآن يتعلق بأقدس ما لدينا وهو القرآن الكريم، وبأغلى ما لدينا وهى الصحة، التى يجب صيانتها وعدم الطغيان عليها، والله الهادى إلى سواء السبيل.

(٧) ذكره صاحب كتاب خزينة الأسرار - طبع الحلبى - استهداء بما جاء فى هامش الدر النظيم جـ٢ ص (١٩) للدكتور حمزة النشرتى.

التجديد فى المقاصد

٣

للأستاذ الدكتور/ محمد الشحات الجندى
الأمين عام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

مرتكزات تجديد المقاصد

التجديد فى المقاصد لا يتم وفقاً للهوى أو يكون باعثه حماية مصلحة خاصة، وإنما يتأسس على ثوابت نصية، وحقائق مصلحية يتطلبها تقدم المجتمعات والأمة الإسلامية، فهى تدور تبعاً لذلك بين الأصول الشرعية والمتغيرات المجتمعية، وتوفق بين الثابت والمتغير، وبين النصوص وطريقة تنزيلها على أرض الواقع المعيش.

ويلزم هذا أن يسلك عالم المقاصد فى بيانه للمقصد الذى يحتاجه المجتمع والأمة إلى جملة من الأسانيد هى:

الأصول القطعية

يبنى عليها الفقيه اجتهاده ورؤيته فى ضرورة هذا المقصد، ذلك أن أحكام الشريعة فى أبوابها المختلفة تتأسس على الأصول القطعية، وعلى المحكمات التى لا يتطرق إليها تعارض الاحتمالات وطرق التأويلات، وهو ما يقول به الجوينى(١): «نذكر فى كل أصل من أصول الشريعة قاعدةتنزل منزلة القطب من الوحى والأس من المبنى ونوضح أنها منشأ التفاريع وإليه انصراف الجميع».

ثم وفق هذا الأصل، يقوم التجديد، وتنطلق الاجتهادات بغية حكم الوقائع المستجدة، والنوازل الطارئة، وما أكثرها فى واقع المسلمين الراهن، فتكون الحلول على هدى الأصول، وفى نطاقها، ومن بنية النصوص وتنزيلاً عليها، وتخريجاً على القواعد، وتفريعاً عليها.

العدل فى الحكم والنظام

ومن قبيل تلك الأصول فى مجال الحكم والسياسة الشرعية الحكم بالعدل، فهو سند الحكم الرشيد، وأساس انتظام الأمور واستقامة مسيرة المجتمع، برهانه قوله تعالى:

(١) غياث الأمم فى التياث الظلم، ص ٤٣٤، ٤٣٥.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾

(النساء: ٥٨)

وهذا ما اجتمعت على ضرورته نظم الحكم والإجماع على تعددها وتنوع مذاهبها، وما لم يجحده البشر على اختلاف هوياتهم وتوجهاتهم كدعامة أساسية لقوة النظام ونهضة الأوطان، وذلك كما يقول ابن تيمية(٢): إن العدل نظام كل شىء، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها فى الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بالعدل لم تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به فى الآخرة.

وموجب إعمال هذا الأصل من أصول الشرع، وإيتاء كل ذى حق حقه دون انتقاص من حق أحد، بسبب اختلاف الدين كالمسلم وغير المسلم؛ أو بسبب النوع كالرجل والمرأة، أو بسبب الهيئة الاجتماعية كالحاكم والمحكوم، أو الغنى والفقر، أو بسبب القرابة، أو البغض والكراهية، فلا يجوز للعدالة أن تخضع لهذه المؤثرات أو تميز بين هؤلاء بناء على هذه الاعتبارات، وإلا كانت ضرباً من الهوى، ولوناً من الجور الذى يأباه الإسلام ويقاومه.

الشورى فى النظام السياسى والاجتماعى

والشورى كذلك أصل شرعى وقطب النظام السياسى، وقوام سداده ورشده، وسبيل الاجتماع القائم على الموضوعية فى تسيير الأمور، واعتبار أصحاب النظر والرأى وتبصر بجوانب القضية وأبعادها.

لذلك كان تقرير القرآن لها، والأمر الإلهى للرسول بتسيير مصالح المسلمين على هديها وهو ما أثبته القرآن لرسول الله فى قوله تعالى:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

(آل عمران: ١٥٩)

ولأهمية أمرها فى الإسلام كانت دعامة أساسية فى كل شئون المجتمع وأحواله فى الاجتماع والاقتصاد والسياسة للجماعة المؤمنة بأسرها بقوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

(الشورى: ٣٨)

والشورى عديلة الديمقراطية فى النظم السياسية الحديثة، فهى تخول أفراد الشعب من المشاركة فى إدارة شئون الحكم لما فيه مصلحتهم، وسداد أمرهم، وفى الشئون المجتمعية الأخرى فى مواطن كثيرة، طبقها الرسول ﷺ وصحابته الراشدين، بما لا يتسع المقام لذكره هنا.

وقد استثنى من عموم تطبيق الشورى أمور العقيدة والعبادة، لكونها شئوناً إلهية محضة لا

(٢) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، المكتبة القيمة، ص ٤٣.

تدرك إلا بواسطة الوحي، ولأنها تتعلق بالعلاقة بين العبد والرب، وهي ما تتعلق بإرادة الله ومشيئته.

وإذا كان من أسس النظام الإسلامي: العدل والشورى، فإن آليات تطبيقهما تتغيران بحسب الزمان والمكان والأشخاص، شريطة ألا تخل بالمبدأ الأساسي أو تلتف عليه أو يتعارض تطبيقه مع نص شرعي أو قاعدة أصلية أو المصالح الكلية للمجتمع.

جماع ما ينهض به المجتمع، ويقوى به الوطن، وترتقي به الأمة في كل عصر

هو مما يندرج في رعاية المصالح التي أولاها الشرع الأهمية الكبرى، لأنها جماع شئون الدين والدنيا، وعليها المدار في الوفاء بالضروريات والاحتياجات الخاصة والعامة، وبقدر تحقيقها والقيام على أمرها يسعد المجتمع وتنتظم أحواله، ويستقر كيانه، وتنهض مسيرته.

وترتيباً على هذه الأهمية، بنيت الشريعة على المصالح المحققة للعلو وتنظيم السيادة فقد جاءت بتحصيل المصالح، وتجنب المفاسد، لما يترتب عليها من تحقيق الخير ودفع الشر، وهو ما لاحظه العز بن عبدالسلام بقوله [٣]: «فإذا سمعت الله يقول:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾

(المائدة: ١)

فتأمل وصيته بعد ندائه فلا تجد إلا خيراً يحثك عليه أو شراً يزجرك عنه أو جمعاً بين الحث والزجر، وقد أبان في كتابه ما في بعض الأحكام من المفاسد حثاً على اجتناب المفاسد وما في بعض الأحكام من المصالح حثاً على إتيان المصالح».

والسبب في إنزال المصالح الدينية والحياتية ومقاومة الفساد هذه المنزلة مرجعه أثرها في تقوية الوطن ونهضة المجتمع، وعلو الأمة وزيادتها، وهو موضع تنافس مشروع، فإن النفوس والأمم مجبولة على التسابق لتحصيل ما يسد متطلبات حياتها، ويلبي احتياجاتها، يقيناً بأن بقاء البشر واستمرار الأجيال، وقوة الأمة لا تتحقق إلا بالحصول عليها، واكتساب أسبابها، وجمعها والاستحواذ عليها.

ومنذ نشأة الخليقة، ومجئ الإنسان إلى الأرض يتسابق الناس، ويتنافس الأفراد والجماعات والأمم، طلباً لاكتساب المصالح، الروحية والمادية على تفاوت بينها في ذلك، وعلى قدر كسب أكبر المصالح ودرء أعظم المفاسد يعلو شأن الأمة، وتتبوأ مكانة مرموقة بين الأمم ويقوى صرح الوطن، ويكون الفرد حجر الأساس لهذا البنيان:

﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾

(المطففين: ٢٦)

لذلك اتجه الشارع الإسلامي صوب عناصر القوة والتقدم، وجعلها من مهام أنبياء الله

(٣) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ج ١، ص ١١.

ورسله، فها هو القرآن على لسان نبي الله شعيب عليه السلام يصرح بذلك:

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

(هود: ٨٨)

ويؤكد القرآن على أن الغاية من رسالة الإسلام، مراعاة مصلحة الناس وجلب السعادة لهم، في قوله:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾

(الأنبياء: ١٠٧)

ونظرة الشارع إلى المصالح، وطلبه إلى تحصيلها، هي من الأمور الضرورية في المقاصد الكلية، وفي الأحكام التفصيلية، وفي السياسات العدلية، وفي الاجتماعات الإنسانية في الدنيا والدين، يدرك ذلك كما يقول ابن قيم الجوزية [٤]. ومن له ذوق في الشريعة واطلاع على كمالها وتضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد، ومجيئها بغاية العدل الذي يسع الخلائق وأنه لا عدل فوق عدلها ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح، تبين له أن السياسة العادلة جزء من أجزائها وفرع من فروعها وأن من أحاط علماً بمقاصدها ووضعها موضعها وحسن فهمه، لم يحتج معها إلى سياسة غيرها البتة، والمصلحة التي يقصد إليها الشرع هي المصلحة الحقيقية البناءة التي تعمر الكون، وينقدم بها المجتمع، وتصلح الإنسان في باطنه وظاهره، وتستهدف بناء شخصية الإنسان وضميره الديني، والواقع الحياتي الذي يعيشه الفرد في كل العصور، دون اختصاص بزمان دون زمان، أو مكان دون آخر.

وعلى هذا النسق صاغ علماء المقاصد نظريتهم، مؤكدين على أن القصد في التشريع كما يقول الشاطبي [٥]:

«إقامة المصالح الأخروية والدنيوية وذلك على وجه لا تختل لها به نظام لا بحسب الكل ولا بحسب الجزء، وسواء في ذلك ما كان من قبيل الضروريات أو الحاجيات أو التحسينيات، فإنها لو كانت موضوعه بحيث يمكن أن يختل نظامها أو تخل أحكامها لم يكن التشريع موضوعاً لها، إذ ليس كونها مصالح إذ ذاك بأولى من كونها مفاسد، لكن الشارع قاصد بها أن تكون مصالح على الإطلاق، فلابد أن يكون وضعها على ذلك الوجه أبدياً وكلياً وعاماً في جميع أنواع التكليف والمكلفين والأحوال».

ولما كان الشرع يعتبر كل مصلحة لازمة لصلاح الجماعة والوطن والأمة وهي مما قد تختلف أهميتها ومدى ضرورتها للعصر، فإن ثمة مصالح أفرزها العصر الحديث، وأصبحت الأمة كلها أفراداً وجماعات في مسيس الحاجة إليها، لحفظ هويتها، واستقرار مجتمعاتها واستغلال أوطانها، لذلك فإنها تندرج ضمن

(٤) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ص ٥.

(٥) الموافقات في أصول الأحكام، ج ٢، ص ٢٥.

الفريضة الشرعية والحتمية المدنية.

وفى هذا الإطار تشكل التنمية بأبعادها الدينية والمجتمعية المختلفة، معلماً من معالم حفظ المال والنفس، وهو ما نعرض له فى هذه العجالة.

التنمية حتمية إنسانية وحياتية

الإنسان والحياة يمضيان معاً عبر الزمان فى طريق التنمية، فهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأنه لا حياة بدون الإنسان ولا إنسان بدون حياة، ومكمن العلاقة بينهما السعى والجد الدائم لإعلاء شأن الإنسان وازدهار الحياة.

وهذا لا يكون إلا بتنمية الفرد ذاته، وسمو نفسه وعلو همته، وسبيله الدين الحق بكل أطروحاته الروحية التى تحلق به فى آفاق الملأ الأعلى، وتغرس فيه الإيمان الذى ينساب فى أعماقه فيطهر من أدران الخطيئة والأوزار، ويصفى قلبه من الآفات والأمراض الاجتماعية كالحقد والنفاق والطمع والغش... إلخ. ويزكى عقله ليتأمل فى خلق الله، وفى النعم والموجودات التى خلقها حوله ينتفع وينفع بها، وتكتمل هذه التنمية الذاتية بالأمن الوجدانى الإيمانى الذى يتغلغل فى أعماق نفسه وعقله وضميره وروحه.

ولقيمة هذه التنمية الذاتية أثرها فى صلاح النفس، وازدهار الحياة، وتوظف من خلال العمل النافع، وهو قرين الإيمان، كما جاء به القرآن، وبشر صاحبه بالسعادة فى الدنيا والجنة فى الآخرة:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(النحل: ٩٧)

وليس اقتران الإيمان بالعمل الصالح إلا إعلاناً وإعلاماً للمسلم بقيمة الإيمان فى العمل وأثره الإيجابى والبناء الذى يعمر الوجود، وينهض بالكون، ويتقدم بالبشرية فى مضمار الحياة.

ويحفز المسلم على ارتياد هذا الطريق الإيمانى والعمل الصالح إذ به ينال الاستحقاقات الجدير بها بقدر عمله وإسهامه فى إشعاع نور الإيمان فى أعماقه، والوفاء باحتياجاته ونفع الناس من حوله فهو مما تتحدد مكانة الفرد به:

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

(الأنعام: ١٣٢)

ويثمن الإسلام هذه التنمية الذاتية، الموسومة بالتنمية البشرية فهى عطاء ربانى تضىء جنبات النفس الآدمية، وترتقى بها إلى فضاء الملكوت الأعلى، وهو ما تفرد به الإسلام بما لا يدانيه منه دين آخر.

هذه الصناعة الإسلامية للفرد تجعله نسيجاً وحده، لما اكتسبه من الصناعات والمؤهلات التى تجعله عبداً ربانياً يتمتع بالمقومات التى تجعله يقدر على حمل الأعباء والمسئوليات التى لا يستطيع حملها من لم ينخرط فى هذه العبودية، فقد كان المسلم فى ساحات الوغى وميدان الحروب يعادل أضعاف أضعافه، كما فى دلالة قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾

(الأنفال: ٦٥)

وحتى فى حالات التعب وتواصل النضال، فإن المسلم الواحد يعادل رجلين، وهو ما أشار إليه قوله تعالى:

﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

(الأنفال: ٦٦)

تنمية الشخصية المسلمة

يربى الإسلام المسلم على نموذج الشخصية القوية، المؤمنة بربها الواثقة من نفسها، ويعده ليكون قادراً على نفع نفسه وأسرته ومجتمعه ووطنه، وبالطبع فإن مثل هذه الشخصية لا تكون تابعة لغيرها، ولا عالة على الآخرين ترتمى فى أحضانهم وتسير على دروبهم، أو تتبطح أمام الشدائد ولا تقوى على مواجهة التحديات، فهى مؤمنة بربها واثقة من نفسها، ومن ثم تتميز شخصية المسلم بالاستقلالية والاعتماد على الذات وتحمل المسئولية، فلا يعرف الإسلام الشخصية الإمعة والاتكالية المعتمدة على الغير، وهو ما نهى عنه الحديث فى قوله ﷺ: «لا تكونوا إمعة تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا»[٦] وهو ملمح سديد لاتجاه التنمية البشرية فى الإسلام.

وحرى بمن كان على هذا النموذج أن يتحلى بالثبات والجلد والقوة أمام المواقف الفجائية وفى مواجهة الصعاب فيكون لديه من الرصيد الذاتى والتماسك النفسى، والاجتماعى ما يمده بالجرأة والشجاعة التى تجعله قادراً على مواجهة الأحداث، والتحديات.

ومتى كان ذلك، فإن ما تقدمه المدنية الحديثة من مقومات الشخصية القادرة على صنع الأحداث، وقيادة المسيرة، على ظن منها أنها قد سبقت بما لم تسبق إليه غيرها من النظم والشرائع وأنها تملك منهجاً غير مسبوق فى التنمية البشرية، هو قول لا يصح، فقد كان الإسلام رائداً وصاحب صناعة ثقيلة للتنمية البشرية، كانت بحق على غير مثال.

يبين ذلك حديث الرسول ﷺ: «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، ولا تقل لو

(٦) سنن الترمذى، كتاب البر والصلة عن رسول الله.

أنى فعلت كذا لكان كذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل»(٧). وهو تربية نموذجية لشخصية المسلم تنبع من ذاته وكيانه وعماد التنمية البشرية.

التنمية المالية والاقتصادية

للإسلام رؤية ومنهج فى التنمية الاقتصادية، تنبع من مقصده فى حفظ المال وتنميته. ومن المعلوم والمشاهد ضرورة المال لكل فرد وجماعة لا يستغنى عنه آحاد الناس أو جماعتهم، فهو عصب الحياة لذلك فإن الناس فى القديم والحديث احتاجوا إلى المال لسد احتياجاتهم وتوفير مطالبهم، وأن المجتمع بحاجة كذلك إلى المال للوفاء بالضرورات، والقيام على المتطلبات التى يقتضيها التعايش المشترك فيما بينهم، كذلك الحال بالنسبة للدول، فهى بحاجة إليه للقيام بالمرافق العامة ومصالح المجتمع.

ووعى الإسلام هذه الحقيقة، اتباعا لسنن الفطرة البشرية، وقياماً بمهمة العمران والتنمية الفردية والمجتمعية، وكانت نقطة الارتكاز لديه أنه جعل حفظ المال مقصداً عاماً من مقاصد شريعته، وقرن بين المال والإنسان على أساس أنهما مادة العمران، وتحقيق مهمة الإنسان كخليفة لله تعالى فى الكون، قال تعالى:

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾

(الكهف: ٤٦)

وإذا كان حفظ المال هدفاً للشرع، فقد أوجب الإسلام صيانة هذا المال، وتوظيفه فى الضرورات الحياتية والأمور المصلحية التى يتطلبها معاشهم، وذلك فى الأوجه المشروعة التى تعود بالنفع والخير على الناس وعلى المجتمع.

التنمية واجبة للحفاظ على المال

أولت الشريعة العناية الواجبة للمال، حين دعت إلى حفظه بغرض تثميره وتوظيفه فى مجالاته المشروعة، دون تحديد فى مجال بعينه وليس المقصد الشرعى من حفظ المال هو تجميده وحبسه من التداول فإن فى هذا المسلك تعطيلاً له عن أداء مهامه للفرد والعمران، وغفلة عن التكليف الشرعى بتوظيفه واستثماره بما يؤدى إلى النماء والربح، بحسبان أن التنمية وسيلة لحفظ المال.

وقد غفل كثير من الباحثين عن هذه الحقائق، فحصروا جل اهتمامهم فى معالجة أمور المال على جانب المحظورات الشرعية دون الالتفات إلى المؤيدات النصية لتنميته واستثماره، وهذا ملاحظ فى الدوران فى فلك الحظر؛ فإن مباحث المال تصب فى نطاق الربا وصوره والإنفاق التطوعى والخيرى للمال دون أن يولوا تنميته واستثماره العناية التى أولاها الشارع لهذا الجانب من جوانب توظيف المال يتجلى ذلك فى النظرة الفاحصة إلى

(٧) صحيح مسلم ٨/٥٦ - باب فى الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير - حديث رقم ٦٩٤٥.

حجم ونوعية الكتابات عن الربا والغش والاحتكار وما على شاكلتها، مقارنة بالكتابات عن التنمية الشرعية للمال بما يكشف عن البون الشاسع فى المعالجة لمحظورات توظيف المال، على حساب المأمورات الدالة على تنميته والعمل فيه بغرض تكثيره وطلب ربحه.

ومظهر القصور فى هذه المعالجة المنقوصة، أنها تعطى انطباعاً خاطئاً غير صحيح مؤداه عدم اهتمام الشريعة بتداول المال، واستثماره فى وجوهه الشرعية، وأن معالجتها لوظيفة المال جاءت محصورة فى التركيز على موانع وقيود تشغيل المال، ولم تعبأ بالوسائل والكيفيات التى ينمى بها المال، مع الإشارات المتعددة إلى التوجيه للتنمية والحث عليها.

وليس الغرض التقليل من شأن الربا فى النظام المالى الإسلامى وإنما يتحتم كذلك إبراز مجالات تنمية المال وتدويره فى الأنشطة المتنوعة للحصول على ربحه المشروع جنباً إلى جانب الحديث عن الربا ومتعلقاته، فإن هذا وذاك موضوع طلب الشرع ومن مقاصده متمثلاً فى الأوامر والنواهى الشرعية فى القرآن والسنة، ويلزم من ذلك أن اهتمام الباحثين فى هذا المجال ينبغى أن يتناول دلالة الحكمين فى النصوص التى جاءت بها النصوص وحكم النهى عن التعامل بالمال فى الأوجه غير المشروعة، وحكم الأمر بتوظيف المال فى الوجوه الجائزة شرعاً، فإن هذا هو التعبير الصحيح عن دلالة النصوص، وإعمالاً لموجب الأحكام التكليفية التى جاء بها الشرع، وابتغى بها انتظام المعاملات وقوة المجتمعات وتوفير الاحتياجات، والقيام على مصالح الناس.

الشرع ودوافع المسلمين يحثان على التنمية

إن تأمل دلالات النصوص فى القرآن والسنة، والتعرف على صنيع المسلمين فى العصر الأول، ينبىء عن سلوك طريق تنمية المال كآلية من آليات حفظ المال وتداوله فى المناحى الاقتصادية والمالية المختلفة، وهو ما تجلى فى دلالة النصوص وحال المسلمين فى السير على درب العمران والتنمية، وتستهل النصوص هذه الحقيقة فى نهى الإسلام عن كنز المال وحبسه عن التداول وتقليبه فى الأنشطة التنموية المتنوعة يقول الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۗ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(التوبة: ٣٤)

وقول الرسول ﷺ: «ألا من ولى يتيماً له مال فليتجر فيه ولا يتركه حتى تأكله الصدقة»(٨).

(٨) سنن الترمذى، كتاب الزكاة عن رسول الله.

وهو وعى بوظيفة المال فى دولاب الاقتصاد وتوفير الموارد للإنفاق، وكذا فى تكليف الأفراد بعمران الأرض، وذلك يكون بتنميتها فى قوله تعالى:

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾

(هود: ٦١)

يقول القرطبى[٩]: «استعمركم أى جعلكم عمارها وسكانها وأمدكم بعمارة ما تحتاجون إليه من بناء وسكن وغرس أشجار، وقيل المعنى ألهمكم عمارتها من الحرث والغرس وحفر الأنهار وغيرها».

ويقول الزمخشرى[١٠]: «واستعمركم فيها: أمركم بالعمارة، والعمارة متنوعة إلى واجب ومندوب ومباح».

كذلك فإن آيات التسخير بما يعنى تهيئة الله ما فى الكون من عناصر وأسباب التنمية والعمران ما يؤكد على طلب الإسلام للتنمية، وحث المسلمين على القيام عليها، من هذه الآيات قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

(الحج: ٦٥)

وقوله:

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾

(إبراهيم: ٣٤)

كان لزاماً أن يأمر الإسلام أتباعه بالكد والكدح فى الكون لتحصيل التنمية التى تكون سبباً فى إعزاز الدين، ونهضة الدنيا، قال تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾

(الملك: ١٥)

وأن يوجههم إلى الانتفاع بما فى الحديد، واستغلاله فيما يفيدهم ويزيد مواردهم المعاشية، يقول تعالى:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

(الحديد: ٢٥)

وقد تجلت أهمية الحديد فى العصر الحديث، فهو عصب الصناعة والتنمية.

وقد طلبت السنة من كل مسلم أن يساهم فى التنمية والإعمار فى كل وقت

(٩) تفسير القرطبى/ المعروف بالجامع لأحكام القرآن، ج ٢٩، ص ٥٦.

(١٠) تفسير الزمخشرى، المعروف بالكشاف، ج ٢، ص ١٠٤.

حتى آخر نفس لدى الإنسان، وقيام الساعة: يقول الرسول ﷺ: «إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة (شتلة نخل)، فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها، فله بذلك أجر»[١١].

وبجانب التوجيه إلى التنمية فى الزراعة والصناعة هناك التنمية بالتجارة، فى قول الرسول ﷺ: «تسعة أعشار الرزق فى طلب التجارة»[١٢].

ومفاد هذه النصوص طلب التنمية والحث عليها كمقوم أساسى لعمران الأرض، وتحقيق واجب الخلافة عن الله فى الكون، فإن الله قد خلق الإنسان وحدد مهمته فيما يخص الله تعالى بعبادته والإقرار له بالربوبية، وفى شأن الوظيفة الدنيوية بتنمية الكون وتعميره، والارتقاء به فى إطار الشريعة الإسلامية، وبهذا يتكامل الدين والدنيا.

حالة الفقر والتخلف توجب التنمية

إذا نظرنا إلى حال المسلمين فى عالم اليوم، فإنهم بلا شك فى أمس الحاجة إلى التنمية فى كافة مناحيها، التنمية البشرية والاجتماعية والاقتصادية، فهى السبيل للخروج من المأزق الذى وقعت فيه الأمة، ووضعها فى مؤخرة الأمم فى العالم المعاصر.

ولا يجوز أن يفسر ذلك على أنه مطلب دنيوى نبهت إليه الشريعة، باعتباره شأناً حياتياً، وتوجهاً مادياً نفعياً ليس له ارتباط بالدين، فهذا فهم مغلوط، وتأويل خاطىء، إن الدين والدنيا قرينان لا ينفصلان، ووجهان لعملة واحدة، هى الخلافة الحقة للإنسان عن خالقه فى هذا الكون، قياماً بواجب العبادة والتنمية، لحفظ الدين والمال.

قال تعالى:

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾

(القصص: ٧٧)

وفى الأثر: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

وتوصلاً لهذا عبد المسلمون الله -تعالى- على بصيرة، وانطلقوا بهذه العبادة إلى السعى والمجاهدة بالعمل فى الدنيا، والاكتساب للحصول على الرزق الحلال، وجاهدوا لنشر مقاصد الدين وترجمتها فى حياة الناس، حتى صارت واقعاً معاشاً أقاموا عليها نهضة الدين والدنيا.

***

(١١) العينى، عمدة القارى، ج ١٢/ ص ١٥٥.

(١٢) المناوى، كنز الحقائق على الجامع الصغير، ج ١، ص ٣١٠.

الإسلام والإدارة بين التغيير والتنظيم والتطوير

للأستاذ الدكتور / أحمد عمر هاشم
عضو مجمع البحوث الإسلامية

الإسلام دين العمل والإنتاج، يدعو أتباعه إلى إحسان العمل والإخلاص فيه، ويحث على ممارسة جميع أنواع العمل، إداريا كان أو صناعيا أو ثقافيا أو تجاريا أو زراعيا.. وما إلى ذلك من أنواع الأعمال.

وأوضح أن العمل الإدارى يعتبر الموجه والقائد لتنظيم وتطوير منظمات العمل ومؤسساته.

وللإسلام دعوته فى النهوض بالعمل الإدارى قدما للأمام.. فحيث احتاج العمل إلى التغيير أو التنظيم أو التطوير، كان لابد على القائمين عليه أن يهبوا لتلبية حاجة العمل سيرا نحو النجاح والصالح العام، ونجاح كل عمل مرهون بنجاح القيادة القائمة عليه، فحيث كان قائد العمل متسما بسمات القيادة الناجحة استطاع أن ينهض بالعمل، وبمن معه من العاملين.

القيادة الإدارية الناجحة

من أهم سمات القيادة الإدارية الناجحة: «الإخلاص فى العمل» وفى دائرة الإخلاص يؤدى المسئول عمله على أكمل وجه وينظر إلى جميع الذين يعملون معه على أنهم سواء، لا فرق بين واحد وآخر، ولا تفضيل لأحدهم على الآخر إلا بما يقدمه من عمل متقن، ولا يحابى أحدا، ولا يؤثر بعضهم على الآخر، ولا يولى أحدا محاباة له، لقرابة أو صداقة، أو سبب ما من الأسباب.

وعليه أن يختار «القيادات» الجديرة بالمنصب، فقد قال صلوات الله وسلامه عليه: «من استعمل رجلا على عصابة، وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين» (رواه الحاكم).

فرئيس العمل الذى يحابى أحدا على أحد، ويقدمه على غيره، ويؤخر الرجل الكفء، جزاؤه أليم، وعقابه شديد، فقد قال رسول الله ﷺ: «من ولى من أمر المسلمين شيئا فأمر عليهم أحدا محاباة، فعليه لعنة الله، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا حتى يدخله جهنم» (رواه الحاكم).

ومن أهم سمات العمل الإدارى والقيادة الناجحة فيه، أن يكون الإنسان محافظا على المال العام، وألا يسمح لنفسه بشىء مما تتيحه له صلاحياته من أخذ شىء منه بغير وجه حق.

ولقد ناهض الإسلام مثل هذا التصرف منذ فجر الإسلام حتى لا يعبث أحد بالمال العام عن طريق الخيانة أو السرقة أو الرشوة أو نحو ذلك.

وقاوم رسول الله ﷺ أول ظاهرة لذلك منذ الفجر الإسلامى عندما استعمل رجلا على الصدقة يقال له ابن اللتبية، فلما قدم قال: هذا لكم، وهذا أهدى إلى، فقام رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد.. فإنى استعمل الرجل منكم على العمل مما ولانى فيأتى فيقول: هذا لكم، وهذا هدية أهديت لى، أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقا؟ والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حقه إلا لقى الله يحمله يوم القيامة فلا أعرفن أحدا منكم لقى الله يحمل بعيرا له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر» ثم رفع يديه حتى رؤى بياض إبطيه: «اللهم هل بلغت». (رواه مسلم).

وإذا كان القائم على العمل غير أمين على المال العام، وغير حفيظ عليه فلا حل فى هذه الحالة إلا «التغيير» وليقم بهذا العمل من يصون حرمة المال العام فلا يخون ولا يفرط، ولا يقوم بالصرف منه على المظاهر التى لا تعود بالمنفعة العامة.

الروتين.. والبيروقراطية!!

ومن أهم سمات العمل الإدارى والقائد الإدارى للعمل أن يكون مستوعبا لروح العمل ومجالاته ولا يستبد به «الروتين» أو «البيروقراطية» بل عليه أن يتسم بالمرونة فى العمل، وبالرفق مع العاملين، وليس معنى الرفق أن يتهاون مع المقصرين، بل أن يكون سمح المعاملة رفيقا بمن معه لا يشق عليهم ولا يتساهل معهم ولقد دعا رسول الله ﷺ لمن رفق بالعاملين المؤمنين حيث قال ﷺ:

«اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به ومن ولى من أمر أمتى شيئا فشق عليهم فاشقق عليه». (أخرجه مسلم).

فإذا استبد الروتين والبيروقراطية بالعمل دمرت أسس النجاح فيه، والحل

هو «تغيير» أسلوب العمل، وتغيير المتعاملين بالتعقيد للنهوض بالعمل وبإصلاح الإدارة القائمة حتى لا يتفشى الروتين، وتنخر البيروقراطية فى قطاعاته وأروقته.

الشورى!!

ومن أهم سمات القيادة الإدارية الناجحة: الأخذ بمبدأ الشورى، وعدم تركيز سلطة اتخاذ القرار فى يد المسئول الكبير، لأنه يترتب على ذلك تأخير العمل، وفقدان القيادات التى تعمل للثقة فى أنفسهم، فقائد العمل الإدارى الذى لا يركز السلطة كلها فى يده بل يشرك غيره فى العمل ويفوض بعض المسئولين معه فى بعض الأعمال حتى يتاح له وقت أكبر فى التفكير وفى التنظيم والتطوير، وحتى لا يضيع وقت المسئول الإدارى فى توزيع كل فكره فى كل شىء، وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه. فما يسمى بلغة الإدارة «مركزية الإدارة» فيه تقييد، وتأخير للإنتاج والإصلاح، والمصلحة العامة.

مركزية الإدارة!!

ولا يستطيع فرد واحد أن يواجه تحديات العمل الإدارى، بل عليه أن يعطى الفرصة لمن معه، وأن يتيح لهم إبداء آرائهم وإسهامهم فى نجاح العمل.

فإذا كانت مركزية الإدارة وتركيز السلطة فى يد الفرد خطرا على المصلحة العامة، فإن الحل هو تغيير هذا الأسلوب وذلك بإعطاء الفرصة للمشاركين أن يمارسوا حقهم فى إدارة المنظمة أو المؤسسة ضمانا للصالح العام.

وكما يحتاج نجاح العمل وتحقيق المصلحة العامة إلى تغيير بعض القائمين تأكيدا لأهمية المسار الإدارى، وتنفيذا للإصلاح.. فإن هناك بعض القائمين بالعمل قد لا يحتاج الإصلاح إلى تغييرهم ولكنه يحتاج إلى مدهم بالمعلومات وتنظيمهم وتعديل بعض مواقعهم أو تطوير أدائهم عن طريق الدورات التدريبية.

العلم والمعرفة

وفى هذا الجانب، تجدر الإشارة إلى التركيز على زيادة العلم والمعرفة والخبرة، وهذه الزيادة فى العلم مطلوبة لكل قائد عمل، وكل رئيس فى عمله، وكل مرءوس أو عامل فى حاجة إلى مزيد من العلم والمعرفة والخبرة، ولذلك نجد القرآن الكريم يطلب من رسول الله ﷺ أن يسأل ربه -سبحانه وتعالى- أن يزيده علما على علمه، مع أنه يوحى إليه من ربه، فيقول رب العزة -سبحانه وتعالى- لرسوله صلوات الله وسلامه عليه:

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾

(طه: ١١٤)

مجال الأعمال

وكما يكون النهوض بالعمل عن طريق التغيير أو التنظيم أو التطوير للأشخاص فإنه أيضا يكون فى مجال الأعمال نفسها وأساليبها ومناهجها..

بمعنى: أن ضرورة التسامى والنهوض بمجال الأعمال ملحة وواجبة حتى تتواكب أعمالنا ومنظماتها ومؤسساتها مع التقدم الحضارى الذى تشهده الأجيال والدول الحديثة، وحتى تساير الثورة التكنولوجية والعلمية التى تموج بها دول العالم اليوم، ولو نظرنا إلى الإسلام، لوجدنا أن القرآن الكريم قد دعا إلى العلم والمعرفة والثقافة والقراءة فى أول آية من الوحى الإلهى نزلت على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه حيث قال جل شأنه لرسوله عليه الصلاة والسلام:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

(العلق ١-٥).

وأمر الله تعالى أن نأخذ بأسباب القوة والتقدم وأن نبذل فى سبيل ذلك أقصى ما فى الوسع الإنسانى، قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

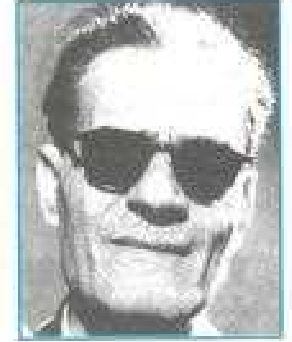
سورة الأنفال (٦٠).

وأن يكون «التغيير» فى هذا المجال من حسن إلى أحسن، ومن هام إلى أهم، فمن التوجيه النبوى: «حاربهم بما يحاربونك به» وهذا يقتضى التنظيم والتغيير والتطوير فى أساليب الأعمال وفى مناهجها.

***

من أعلام المعاصرين

محمد فريد وجدى وطه حسين


طه حسين

كان الأستاذ محمد فريد وجدى مشغولا برد شبهات المستشرقين ومن لف لفيفهم من كتاب العربية، وكتابه، «مناقشات وردود» حافل بردوده عليهم. وكان مما جاء فى شبهات المستشرقين ما جاء على لسان ويلز مؤلف كتاب مختصر تاريخ العالم قال فيه: «وقد أملى محمد كتابا من الأوامر والقصص اسمه القرآن، زاعما أنه أوحى به إليه من عند الله، وإذا نظرنا إلى هذا القرآن من الناحية الأدبية والفلسفية كان غير جدير بنسبته إلى الله».


فريد وجدى

للأستاذ الدكتور/ السيد أحمد فرج
الأستاذ بكلية التربية - جامعة المنصورة

ولقد رتب هذا المستشرق هذا الكلام، ليقول فى صراحة: إن القرآن ليس من كلام الله، ولاتزال هذه الفرية تدور فى عقول مخبولة من حين إلى حين، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا. وكان رد الأستاذ محمد فريد وجدى عليه فى قوله: «إذا كان القرآن متى نظر إليه من الناحية الأدبية والفلسفية يظهر أنه غير جدير بنسبته إلى الله، فلا يوجد كتاب فى العالم يستحق هذه النسبة، ولو أنصف المستر ويلز لقال: ما كان الإنسان ليستطيع أن يدرك الفوارق البينة المحسوسة بين الكلام الإلهى فى روعته وسموه وروحانيته، وبين الكلام البشرى فى نسبته وماديته إلا بعد نزول القرآن.

كان كتاب تاريخ العالم لويلز قد شغل اهتمام القائمين على الثقافة المصرية فأمروا بترجمته، فنشر على الملأ من قراء العربية فى مصر وفى أنحاء العالم العربى، فراق لكثير من المثقفين الحربيين، دون أن يقوموا برد على مفترياته، اللهم إلا إشارات ضئيلة لا تتجاوز الأسطر القليلة على هوامش الترجمة، وصفها الأستاذ محمد فريد وجدى بأنها: «مقاومة سلبية لا يرضى بها إلا من عجز عن نقضها، وهذا ما لا يرضاه مسلم، بل وما لا يرضاه إنسان يتحرى أن يصل إلى إدراك الحق له أو عليه»[1].

الشعر الجاهلى!!

كذلك نشر كتاب المستشرق مرجليوث: «فى الشعر الجاهلى» وهو الكتاب الذى ترسم طه حسين نهجه فى كتاب بالاسم نفسه، ودل ذلك على أنه قد ظهر فى كتاب الحربيين رغبة الاتباع لهذه الأفكار تحت شعار حرية البحث العلمى، وكان على رأس هؤلاء: طه حسين، ومحمد حسين هيكل، قبل أن يكتب فى الإسلاميات، وأحمد لطفى السيد، وعلى عبدالرازق، وكانوا يرومون نقض المجتمع التقليدى بعد ثورة سنة ١٩١٩م، لقد أرادوا أن يصاحب الثورة السياسية بقيادة سعد زغلول باشا ـ ثورة فى التغيير الفكرى والاجتماعى، ونقض القيم التقليدية للمجتمع السلفى، وقد بدأت هذه الحركة بكتاب الإسلام وأصول الحكم المنسوب إلى الشيخ على عبدالرازق باشا فى سنة ١٩٢٥م، وهذا العمل قام به الشيخ على عبدالرازق وطه حسين معا، وإن نسب إلى الشيخ على عبدالرازق وحده. فقد أقرّ طه حسين فى أخريات حياته بذلك لأمين سره الدكتور محمد السيد الدسوقى بقوله: «لقد راجعت كتاب الشيخ على عبدالرازق «الإسلام وأصول الحكم» ثلاث مرات، وغيرت فيه فقرات عديدة قبل إرساله إلى المطبعة».


على عبدالرازق

كان تأليف كتاب الإسلام وأصول الحكم، نتيجة ضغوط ثقافية أفرزها عصر الانحطاط السياسى فى العالم العربى تحت حكم السلطة العثمانية، نتج عنها خطاب تأويلى هدفه إسقاط ذرائع الحكم فى مصر، التى كانت تسعى إلى أن يحل السلطان المصرى محل السلطان العثمانى الذى سقطت خلافته نهائيا فى سنة ١٩٢٤م بإعلان تركيا قومية طورانية علمانية لا إسلامية. كان الهدف الأساسى من تأليف الكتاب قطع الطريق أمام سلطان مصر الذى أراد أن تحل الخلافة فى مصر لتقوم بالدور الذى كانت تقوم به الخلافة العثمانية، وأن يضع السلطان بمصر بين يديه بحكم خلافته على المسلمين، واجب الطاعة له فلا يجوز شرعا الخروج عليه.

لقد كان الغرض من هذا الكتاب مرتبطا بمهام دينية وسياسية واجتماعية وأخلاقية، ولكن كانت نتيجته دعوة ـ بقصد أو بدون قصد ـ إلى فصل الدين عن الدنيا، وهى دعوة بعيدة كل البعد عن جوهر الإسلام، ثم تلاه عمل طه حسين فى كتاب «فى الشعر

(١) راجع كتاب مناقشات وردود لمحمد فريد وجدى ص ٩٣، ٩٤، ١٠٢، ١٢٥ وبصفة خاصة فصل: إبراهيم والقرآن الكريم، جمع ومراجعة وتقديم د. محمد رجب البيومى، الدار المصرية ـ اللبنانية، ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨م.

الجاهلي» في سنة ١٩٢٦م الذي رفض فيه طه حسين الاعتراف بالتقييم التاريخي للشعر الجاهلي، كما رفض الإقرار بما جاء في القرآن والتوراة عن حقيقة وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهو كلام كثر فيه حديث المستشرقين، ورد عليه الأستاذ محمد فريد وجدي في كتاب مناقشات وردود، لاسيما في مبحث: إبراهيم والقرآن الكريم.

احتج طه حسين بأنه أراد بكتاب: (في الشعر الجاهلي) أن يقدم نقدا للشعر العربي يقوم على تجرد الناقد من انتمائه الديني والقومي، وأن يصطنع الشك المنهجي الذي استحدثه الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت في البحث. وبرر طه حسين وسيلته بأن مذهب الشك الديكارتي من أخصب المناهج وأحسنها أثراً وإن أغضب علماء الدين، وأنه أراد استحداثه في العربية رداً على الذين يدرسون الأدب القديم من حيث هو وسيلة إلى فهم القرآن والدين (طه حسين: في الشعر الجاهلي ص ٤٦).

وبينما بارك الحربيون كتاب طه حسين، فهم الإسلاميون أنه يروم الغاية لا الوسيلة، وإن زعم أن المنهج القديم يجب نقضه وتغيير قيمه لأنها تقف بالأفق العربي دون الأفق الأوروبي، حيث يتحول الأفق الجديد إلى أن ينهل من الثقافات، وأن يتحرر من التعصب الديني والسياسي والعنصري (السابق ص ٥٦) ومن ثم فقد وضع طه حسين ـ كما زعم- الأقدمين كلهم موضع الشك إن لم يكن موضع وجوب النقض.



محمد حسين هيكل — الخضر حسين

وبينما وقفت مدرسة الحربيين تعلن في صحيفة السياسة تأييدها لعلي عبدالرازق وطه حسين يقودهم الدكتور محمد حسين هيكل ويؤازرهم العقاد، وحافظ عوض من الوفديين ضد ما أسموه الأفكار الرجعية، كشف خطاب مشيخة الأزهر في الخامس من يونيو سنة ١٩٢٦م عما في كتاب «في الشعر الجاهلي» من كذب صراح على القرآن «إذ كذب القرآن في إخباره عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وتأثير الدين في انتحال الشعر» (في الشعر الجاهلي ص ٢٦، ٧٢) وكان مما قاله الإمام الأكبر محمد الخضر حسين في كتاب نقض كتاب في الشعر الجاهلي: إن الباطل ما برح يحارب الحقيقة الإسلامية بشبهاته، ثم يرجع خائباً بغير جدوى، وقد عاد اليوم إلى جولة يدفعه إليها نفر من المتأثرين بكتب الداعين إلى معاداة دين سيد المرسلين».

ثم تصدى له كبار الكتاب ومنهم: مصطفى صادق الرافعي في كتاب تحت راية القرآن، ومحمد لطفي جمعة في «الشهاب الراصد»، ومحمد أحمد الغمراوي في «النقد التحليلي في الأدب الجاهلي».

نقد فريد وجدي للشعر الجاهلي

وقدم الأستاذ محمد فريد وجدي كتاب نقد كتاب الشعر الجاهلي في ٢٤٠ صفحة، قام فيه بتلخيص فصول كتاب «في الشعر الجاهلي لطه حسين» وإيراد العبارات التي يهمه مقصدها في نقده. وتحدث عن المؤلف بأدب جم، ولسان عف، وعبارة راقية شفافة لا تمس شخصية طه حسين، فهو ينقد النص لا الناس، فقد كانت غايته الوصول إلى الحقيقة العلمية المجردة، ومن ثم فقد حدد نقضه تحديدا صارما في أمور لم يوفق فيها طه حسين وهي:

١ ـ أن ما كتبه طه حسين بتكوين العرب قبل الإسلام وبعده لا يتفق مع أحكام طه حسين التي تناقض المقررات التاريخية المحققة، وهذا هو الذي دفع طه حسين إلى اختلاق وقائع موهومة ليرتب الأحكام الخرافية عليها، وأدى به إلى طرح المسائل على مذهب ما أسماه الشك المنهجي انتهى به إلى أن صارت مادة البحث أباطيل مختلقة، وهذا يقودنا إلى القول بأن كل ما قاله طه حسين اعتمادا على نظرية الشك باطل.

٢ ـ أن ما كتبه طه حسين أثر من مؤثرات الكتاب الغربيين، الذين يرفضون أن يكون للدين أو القومية سلطان على مناهجهم. وقد يعذر الباحثون الغربيون لأنهم لا يعرفون أن الإسلام سن منهاجاً قويماً للبحث عن الحقائق ـ ولكن ما عذر النقاد العرب من أمثال طه حسين؟!

٣ ـ لو أن طه حسين تجرد من كل شيء، إلا منهج البحث الصحيح جاريا بذلك على منهج القرآن لا مذهب ديكارت لتوصل إلى نتائج مثمرة في بحثه عن الحقائق.

٤ ـ أن منهج القرآن يبز كل منهج بشري، وليس منهج ديكارت وحده، ولا محل لطلب الدكتور طه حسين أن ينسى الباحث المسلم دينه وقوميته في أثناء البحث عن الحقيقة لأن الإسلام يعطيه كل الحرية في البحث، ويخوفه من الوقوع في الباطل، ويهديه إلى المنهج الصحيح.

كانت طريقة الأستاذ محمد فريد وجدي أن يأخذ كتاب طه حسين فقرة فقرة، دون أن يبتر منها كلمة واحدة ويفندها ويرد عليها مثال ذلك:

أ ـ قول طه حسين: «لنجتهد في أن ندرس الأدب العربي غير حافلين بتمجيد العرب أو الغض منهم، ولا مكترثين بنصر الإسلام أو النعي عليه، ولا معنيين بالملاءمة بينه وبين نتائج البحث العلمي والأدبي، ولا وجلين حين ينتهي بنا هذا البحث إلى ما تأباه القومية أو تنفر منه الأهواء السياسية، أو تكرهه العاطفة الدينية.

ويرد الأستاذ محمد فريد وجدي قائلا: إن هذا الكلام لا غبار عليه، وهو مذهب كل طالب للحقيقة إلا قوله: «ولا مكترثين بنصر الإسلام أو النعي عليه» فإن هذا القول لا يصح إطلاقه على دين لا مرمى له إلا إيصال الإنسان إلى الحقيقة، وهو لذلك ينهج له مناهج بزَّ بها ديكارت وغيره، وهذا ثابت بنصوص الآيات

مما لا سبيل إلى إنكاره (ص ٣٨).

ب ـ قال طه حسين: إن القرآن أصدق مرآة للحياة الجاهلية وأصح تمثيلا لها من الشعر المسمى بالجاهلي، ومن ثم لا يحكم به على الحياة فى الجاهلية.

ورد الأستاذ فريد وجدى: نحن نوافقه من وجوه ونخالفه من وجوه، أما وجوه الموافقة: أن القرآن أصقل مرآة لما كان عليه عرب الجاهلية من النقائص الخلقية، والعيوب الاجتماعية؛ لأن القرآن قد عرض ذلك. لكن الشعر المنسوب لهم، وفيه الصحيح والمنحول، قد أجمع على أن لهم صفات: حفظ الجوار، وإباء الضيم، وحب الحرية، والصبر على المكاره، والنجدة والصدق فى القول والذكاء، وهى الصفات التى يحكيها الشعر الجاهلى، وعلى هذا فلا بد من الاعتماد عليه فى تكميل بناء تاريخهم، مع ما جاء ذكره فى القرآن الكريم (ص ٦٥).

ثم يتحدث الأستاذ فريد وجدى عما جاء فى كتاب «فى الشعر الجاهلى» عن الشعر الجاهلى واللغة (ص ٢٤ ـ ٣٠) فرأى أن طه حسين قد سقط سقطات:

• الأولى: التشكيك فيما ذكره القرآن عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فى قوله: للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا، ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى. فضلا عن إثبات هذه القصة التى تحدثنا عن هجرة إسماعيل وإبراهيم إلى مكة، ونشأة العرب المستعربة فيها، ونحن مضطرون إلى أن نرى فى هذه القصة نوعا من الحيلة فى إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية، والقرآن والتوراة من جهة أخرى.

• الثانية: قوله: إن الشعر الذى يسمونه الجاهلى لا يمثل اللغة الجاهلية، ولا يمكن أن يكون صحيحا، ذلك لأننا نجد بين هؤلاء الشعراء الجاهليين قوماً ينتسبون إلى عرب اليمن التى كانت تتكلم لغة غير لغة القرآن، التى أثبت البحث أنها لغة أخرى غير العربية.

• الثالثة: أنه لأسباب سياسية ودينية وعصبية بين القبائل، اختلق الشعر الجاهلى ونحل، ولذلك أسباب تتعلق بالقصص والخيال، والشعوبية، وولع الرواة بانتحال الشعر.

وكان رد فريد وجدى تبيين أن هذا الخلاف بين اللغتين القحطانية والعدنانية، خلاف افتعله الباحثون المحدثون فى علم اللغة، فاللغتان من أصل واحد ـ الدليل على ذلك أن امرأ القيس، وهو قحطانى يمنى نطق شعره بالعدنانية، وكان أعظم شعر صنعة وديباجة فى الشعر العربى كله.

أما وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فإن القرآن هو الذى أحيا ذكرهما فى بلاد العرب ونوه بديانتهما القائمة على التوحيد والتنزيه (وجدى ص ١٠٢).

وماذا يقال فى منكر لما جاء فى القرآن، إلا أنه منكر للقرآن؟!

قال الأستاذ وجدى: بقى القرآن، فهل كان فى حاجة لأن يثبت أنه بينه وبين التوراة صلة، وهو ينعى على أهل التوراة تحريفهم للكلام، وصرفهم الأمر عن وجوهه، ويشنع بذكر تمردهم على موسى وهارون عليهما السلام، وعبادتهم العجل، فهل مما جرت العادة أن يعمد المحتال إلى إثبات صلة كتاب بكتاب إلى مهاجمة أهله هذه المهاجمة العنيفة (وجدى ص ١٠٤).

• أما السقطة الثالثة: فى زعم نحل الشعر الجاهلى وذمه، فإن الإسلام لم يستهجن الشعر، بل هو يريده فى أغراض سامية، وكان ﷺ يحب أن ينشد له جيد الشعر مثل قول لبيد:

ألا كل شىء ما خلا الله باطل
وكل نعيم لا محالة زائل

ولما أنشده النابغة الجعدى قوله:

لا خير فى حلم إذا لم تكن له
بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

استحسنه ﷺ وقال له: لا فض الله فاك.

وحث عمر رضى الله عنه الآباء أن يرووا لأولادهم الشعر لتعذب ألسنتهم، وتلطف طبائعهم (وجدى ص ١٩٢).

ويعقب الأستاذ وجدى فيقول: إن جميع الشعر المختلق وغير المختلق لا يدل على شىء غير ما يعرف من أخلاق أهله فى ذلك العهد. فمن الخطأ البين أن يخوض الدكتور طه حسين هذا الخوض فى تكوين الأمة الإسلامية الأول، ليثبت أمرا قليل القيمة، قاله قبله أهل القرن الأول والثانى. وهو أن كثيراً من الشعر الجاهلى منحول، هذه ثمرة تافهة لمجهود هائل أوجب على الدكتور طه حسين أن يصدر أحكاما لا تتفق وعلم التاريخ، مع أن هذا الاختلاق كله يمكن تعليله بحب الرواة للإغراب والاستكثار من الرواية (وجدى ص ١٩٤ ـ ١٩٥) فنحلوا شعرا على مثال الشعر غير المنحول.

ثم إن الدكتور طه حسين أراد أن يضخم من أمر الشعوبية، وإضمار أهلها الخصومة للمسلمين الأولين، وهذا كلام لا يقول به عاقل، فقد عدد أئمة السلف، فكان أغلبهم من غير العرب، وكان بعضهم أساتذة الإمام مالك العربى الصريح. لقد جعلهم الإسلام أئمة المسلمين، أخذ عنهم المسلمون فقههم.

قال الأستاذ وجدى: فهؤلاء هم أئمة الدين الإسلامى، ولو أردت سرد أسمائهم لكتبت صحفا كثيرة، أخذوا عن أصحاب النبى ﷺ ونشروا العلم بين الناس، أما الذين وصفهم طه حسين بالشعوبيين فقد وضعهم المسلمون فى الحضيض الأسفل من تاريخهم لإضمارهم الحقد على الإسلام (وجدى ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦)[٢].

(٢) محمد فريد وجدى: نقد كتاب (فى الشعر الجاهلى)، من الطبعة الأولى، مطبعة دائرة معارف القرن العشرين فى ١٥/١٠/١٩٢٦م، الطبعة الثالثة، مكتبة الآداب بالقاهرة، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م، تقديم د. غريب جمعة، تعليق حسن نجار محمد.



ترنيمة صوفية

سُبحانَ ربِّى

للشاعر الكبير / أحمد محرم

سُبحانَ مَن خلقَ النفوسَ ... وقدَّرَ الآجالَ طُرًّا (١)

سُبحانَ مَن قدَرَ (٢) الحوادثَ ... كُلَّها خيرًا وشرًّا

سُبحانَ مَن ملكَ الرِّقابَ ... وحازَها رِقًّا (٣) وأسرًا

سُبحانَ مَن قهرَ الملوكَ ... وألبسَ التيجانَ ذُعرًا

سُبحانَ مَن غلبَ الجنودَ ... وهالَها بأسًا (٤) ونصرًا

سُبحانَ مَن صدعَ (٥) القرونَ ... فزالَ منها ما استقرَّا

سُبحانَ مَن أخذَ الممالكَ ... كُلَّها طيًّا ونشرًا (٦)

سُبحانَ مَن أحصى الأمورَ ... وعدَّها أمرًا فأمرًا

سُبحانَ مَن بعثَ الهُداةَ ... وأرسلَ الآياتِ تترى (٧)

(١) الآجال: جمع الأجل وهو وقت الموت، وطرًّا: أى جميعاً.

(٢) قدر: دبّر.

(٣) الرق: العبودية.

(٤) هالها: أفزعها، والبأس: القوة.

(٥) صدع: شقّ.

(٦) الطى: الممات والنشر: المحيا.

(٧) تترى: يتبع بعضها بعضاً.

سُبحانَهُ كشفَ الظلامَ ... وأطلعَ الإسلامَ فجرا

سُبحانَهُ نصرَ الهُدى ... وأعزَّهُ دُنيا وأخرى

سُبحانَهُ جعلَ اليقينَ ... لذى اليقينِ حِمًى وذُخرا (٨)

سُبحانَهُ جعلَ الجُحودَ (٩) ... لذى الجُحودِ أذًى وضُرّا

سُبحانَهُ عصمَ التقىَّ ... فلم يخفْ بغيًا ومكرا (١٠)

سُبحانَهُ هدَّ العتىَّ ... بما تطاولَ واشمخرّا (١١)

سُبحانَهُ نشرَ العظاتِ ... لمن تبيَّنَ أو تحرّى (١٢)

سُبحانَهُ أبقى لنا التنزيلَ ... تبصرةً وذكرى

سُبحانَهُ لم يُبقِ للغاوينَ ... والجُهلاءِ عُذرا

سُبحانَهُ وسعَ العبادَ ... بأسرِهم (١٣) فضلًا وبِرّا

سُبحانَهُ شغلَ العُصورَ ... وأهلَها عصرًا فعصرا

سُبحانَهُ أعلى لمن ... يخشاهُ منزلةً وقدرا

سُبحانَهُ أرخى منَ الأفهامِ ... دُونَ الغيبِ سترا

سُبحانَهُ كشفَ الأذى ... وأتاحَ بعدَ العُسرِ يُسرا

(٨) اليقين: العلم الحقّ الثابت الصادق، والحمى: ما يُحمى ويُدافع عنه، والذخر: ما ذُخر أى ما أعدّ للدنيا أو للآخرة.

(٩) الجحود: الكفر.

(١٠) عصمه : حفظه ووقاه، والبغى: الظلم، والمكر: الخداع.

(١١) العتىّ: الجبّار، وتطاول تكبّر واشمخرّ أيضاً.

(١٢) تحرّى: طلب ما هو أحرى بالاستعمال فى غالب الظن.

(١٣) بأسرهم : برُمّتهم وجميعهم.

سُبحانَهُ دفعَ البلاءَ (١٤) ... فما أقامَ ولا استمرا
سُبحانَهُ جعلَ المكارِهَ (١٥) ... منهُ تجربةً وأجْرا
سُبحانَهُ وهبَ النفوسَ ... على الخطوبِ السُّودِ صبرا
سُبحانَهُ أوْحى إليَّ ... روائعَ الآياتِ شِعْرا
سُبحانَهُ أجْرى البيانَ ... على لسَاني منهُ سِحْرا
سُبحانَهُ أسْدَى الجميلَ ... وتابعَ الآلاءَ غُرّا (١٦)
سُبحانَهُ لولاهُ ما ... برزتْ وُجوهُ العيشِ خُضْرا
سُبحانَهُ لولا عوارِفُ (١٧) ... فضلِه ما كنتُ حُرّا
سُبحانَهُ أعطى النفوسَ ... نصيبَها ضَعةً وكِبْرا (١٨)
سُبحانه لا أستقلُّ ... بحقِّه حمداً وشكراً
سُبحانَ ربّي بُكرةً ... وعشيةً سرًّا وجَهْرا
سُبحانَ ربّي في الحوادثِ ... ما خلا منها وَمَرّا
سُبحانَ ربّي ما نسيتُ ... وحينَ أحدثُ منهُ ذِكْرا
سُبحانَ ربّي ما حللْتُ ... بمنزلٍ، وسكنتُ قبْرا

❊❊❊

(١٤) البلاء: المصيبة.

(١٥) المكاره: جمع المكرهة: ما يكره الإنسان ويشقّ عليه.

(١٦) أسدى: أحسن ووهب، والجميل: الإحسان والمعروف، والآلاء: النِّعم جمع الإِلْى، والغرّ: جمع الأغرّ الحسن الأبيض.

(١٧) العوارف: جمع العارفة المعروف والعطيّة.

(١٨) الضعة: الانحطاط والخسّة، والكِبر: الشرف والرفعة.

قصة العدد

قاض نزيه

للدكتور / أبى حسام

جلس القاضى شريك النخعى فى مجلس قضائه، وقد أدركه التعب لما زاول من أقضية الناس منذ الصباح حتى صلاة العصر، فهم بإغلاق الباب ليأخذ حظه من الراحة، فإذا بصوت امرأة تصيح: أنا بالله ثم بالقاضى! أنا بالله ثم بالقاضى، ففزع لهول الصياح، وطلب أن تحضر، وجعل يهدئ من روعها، فلما ملكت أنفاسها، قالت فى إجهاش، لقد اعتدى أمير الكوفة موسى بن عيسى وهو ابن عم أمير المؤمنين على بستان غرست فيه نخلات أتعيش بها، وضرب العبد الذى يتولى شئون النخل، وضم البستان إلى أملاكه.

فقال شريك: وهل كنت تجاورين الأمير، وليس بين أرضكما فاصل؟

فقالت: كان إخوتى جيرانى، وقد باعوا ما يملكون إلى الأمير، وأبيت أن أبيع نصابى، فرفعوا فاصلاً يحفظ حقى، وأقمت أجيراً يقوم على أمر البستان، وجاءنى رسول الأمير بالأمس يطلب أن أجرى البيع له، كما صنع إخوتى، فقلت إنى فقيرة، وإذا أخذت المال تبدد فى شهور، ومكثت سائلة أتكفف، ولذلك لا أرضى البيع، ثم فوجئت بأتباعه وهم أكثر من خمسمائة ينزعون الفاصل، ويضربون العبد، ويقولون لى: مثلك يخالف أمير الكوفة، وابن عم أمير المؤمنين، لن تنالى شيئاً، وكان فى وسعه أن يسجنك، ولكنه حلم عليك!

سمع شريك قصة المرأة، فهدأ من روعها، ثم قال لغلامه، اذهب بهذه الورقة المختومة إلى الأمير، وقل له إن القاضى يدعوك فلا تبطىء، واذهبى معه أيتها المرأة، فقد يرجع إلى صوابه، ويرد إليك حقك، وإلا فأنا فى انتظارك.

شهقت المرأة كالمستعجبة، وقالت أأستطيع إن ألقى الأمير، ولديه الحراس والحجاب، وقد توعدنى أتباعه الذين نزعوا الفاصل، وضموا البستان، وهم غلاظ شداد!

قال: اذهبي مع الغلام وسترين!

فوجيء الحاجب بورقة القاضي، فتقدم إلى الأمير بها، وهو يقول: شريك يطلبك يا مولاي! فصاح الأمير موسى بن عيسى مندهشاً، أين صاحب الشرطة؟ ودعا به: فقال له في انفعال: امض إلى شريك هذا، وقل له: يا سبحان الله، ما رأيت أعجب من أمرك، امرأة ادعت دعوى لم تصح، أتطالبني بالحضور لتسألني أمامها.

وفوجيء الأمير بصاحب الشرطة يقول له: إن رأى الأمير أن يعفيني فليفعل!

فاحمر وجه موسى وصاح به: امض ويحك، فقد أمرتك، ولن تخالف! فذهب صاحب الشرطة إلى منزله، وحمل معه الفراش والطعام، وقال لأهله: لن تروني اليوم، فسأذهب إلى القاضي شريك، وليس عنده غير الحبس لمن يقف أمامه في غير أمر الله، وأنا أدرى به!

وكان ما ظن صاحب الشرطة، إذ ما كاد يراه القاضي، ويستمع منه حتى أمر به فأدخل الحبس، فقال صاحب الشرطة: يا أبا عبدالله، عرفت ماذا ستصنع وقد أحضرت الفراش والطعام، أفتأذن بهما؟ قال: نعم!

وانتظر موسى بن عيسى عودة صاحب الشرطة، فقيل له: إن القاضي قد حبسه، لأنه جاء في أمر غير مشروع، وعليه ألا يطيع في الباطل.

ففكر موسى قليلاً، ثم دعا الحاجب وقال له: اذهب إلى شريك، وقل له: هذا رسول لامتهم، فكيف تأمر بحبسه، وما جريرته؟

وكان عجيباً أن يأمر القاضي بحبس الحاجب، وانتظر موسى رجوعه دون جدوى!

أخذ موسى يفكر في هذا الذي يركب رأسه معه، وخاف أن يذهب إليه فيقابل بالرفض أمام العامة، فتضيع منزلته في الكوفة؟ ثم رأى أن يبعث لجماعة من وجهاء البلدة كي يذهبوا للقاضي فيبلغوه أنه أطال الاستخفاف بالأمير! وقد تسوء العاقبة.

فمضوا إلى القاضي وقد صلى المغرب، وأبلغوه الرسالة على حذر، فلما انقضى كلامهم، أشار القاضي إلى جماعة من حوله، وقال لهم، ليأخذ كل واحد منكم بيد واحد من هؤلاء، ويذهب به إلى الحبس، لا شيء غير ذلك، فصاحوا: أجاد أنت يا شريك فيما تقول؟ فصاح: ومتى عهدتموني أمزح! قالوا: وماذا صنعنا؟ قال: كيلا تجيئوا برسالة أخرى من ظالم!

جاء الخبر إلى الأمير، فانتظر حتى أقيمت صلاة العشاء، ورجع القاضي إلى منزله، فتوجه بنفسه إلى باب الحبس، ففتح الباب، وأطلق جميع من أمر القاضي بحبسهم من رسله، فلما كان من الغد، وجلس شريك للقضاء، جاء السجان فأخبره بما صنع الأمير، فدعا بسجل المحكمة، ووجه به إلى منزله، وقال لغلامه: الحقني بزاد الطريق إلى بغداد، والله ما طلبنا هذا الأمر (يريد القضاء) منهم، ولكنهم أكرهونا عليه، وضمنوا لنا الإعزاز فيه إذا تقلدناه، ثم توجه إلى قنطرة الكوفة، وعلم الأمير أن القاضي قد ألغى مجلس القضاء، وأنه بسبيله إلى

الاستعفاء من أمير المؤمنين ببغداد، فركب في موكبه، فلحقه، وأخذ يناشده الله أن يرجع، ويقول في استعطاف: يا أبا عبدالله، تسجن إخوانك من الشفعاء؟ فقال القاضي في غضب: لأنهم سعوا لك في باطل دون حق؟ ولست ببارح حتى يردوا جميعاً للحبس، وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين، فاستعفيته مما قلدني.

قال الأمير: أمصمم أنت على السفر إلى بغداد؟ فقال: وما بقائي في الكوفة، وأنا آمر بالحق فتجابهني بالباطل!

فقال موسى: سيرجعون للحبس كما تريد! والآن ماذا ترى؟

فالتفت القاضي إلى غلامه، وقال: خذ الأمير بلجام دابته إلى مجلس الحكم حتى أفصل بينه وبين غريمته!

وبحثوا عن المتظلمة فأحضروها، وقال لها القاضي: هذا خصمك قد حضر، فاجلسي بجواره، فأبدت الخوف فصاح بها شريك أنت أقوى بالحق منه فاجلسي مطمئنة.

فقال موسى: ليأذن القاضي في أن يخرج القوم من السجن، فقال شريك: أما الآن فنعم، وأمر بخروجهم، ثم قال لموسى:

عرفت دعوى هذه المرأة، فماذا تقول في شأنها، فقال في تخاذل: إنها صادقة! قال القاضي: إذن فرد ما أخذ منها، وابن لها الحائط ليكون فاصلاً، ولا تروعها في الجوار، فهي جارة الله قبل أن تكون جارة الأمير.

قال موسى: سأفعل.

فالتفت القاضي إلى المرأة وسألها: هل بقي لك شيء؟ فقالت: أخذوا متاع العبد الفارسي، وهدموا حجرته! فقال موسى مخاطباً إياها: يرد لك كل شيء.

فقال القاضي: هيا فقد بلغت ما تريدين، فانصرفت في دهشة مما رأت! ثم نزل القاضي من مجلسه، وأخذ بيد الأمير فأجلسه معه، وقال له: السلام عليك أيها الأمير، أتأمر بشيء؟

فضحك موسى، وقال: وهل لي معك أمر! فقال القاضي: انتهى مجلس القضاء، وجاء مجلس الحديث، والأمر لك فيه فأنت الأمير!

رجع الأمير إلى قصره، وهو يخفي لواعج دفينة تتأزم بها نفسه، بعد موقف شريك منه، وقد زاد في شجنه أنه علم أن أهل الكوفة يتحدثون بما كان ويقولون: أصبح شريك أميراً لا قاضياً فحسب، وظل يعمل في فكره في إهانة شريك على أن يكون الأمر بعيداً لا يمسه، وقد واتته الفرصة حين قدم رسول الخيزران والدة أمير المؤمنين إلى الكوفة يجمع المطرزات من الملابس الصوفية والحريرية، ويقيم من يُهيئها على أحسن طراز في الصنع، فاجتمع به موسى، وقال له: لا يهمك أمر شريك إن اعترض على حجز بعض الصناع لديك، فالأمر أمر الخيزران ومكانها في قصر الخلافة بالمقام الأول، وشريك هذا علوي متعنت، ويكن البغضاء لنا معشر بني العباس، وعسى أن تبلغ من تتصل بهم في القصر ببغداد عن

نواياه، وما زال برسول الخيزران حتى هون عليه أمر شريك، وإنه إذا عارض رغبته فسيلقى الوبال!

وكأن الظروف كانت تمهد للمفاجأة المتوقعة، حيث أظهر رسول الخيزران من السطوة والاستعلاء ما ضجت به الكوفة، وكلما جاءت الشكوى إلى الأمير موسى بن عيسى أدار ظهره، وقال: ماذا أصنع معه، وليس يأتمر بأمر الكوفة إنما يأتمر بأمر بغداد، وبأمر من؟ أم أمير المؤمنين.

وكان القاضى يأخذ طريقه إلى منزله ذات أصيل فى زقاق النخع بالكوفة، فسمع صائحا يصرخ: أنا بالله ثم بالقاضى! وأسرع نحوه فإذا آثار السياط الملتهبة تبدو على ظهره، فتقدم إليه ليقول له:

أنا يا سيدى القاضى عامل أصنع فى وشى الثياب، وأجرى مائة فى الشهر، أقيم بها أود عيالى، ولكن هذا البغدادى قد سجننى فى قصر الإمارة أربعة أشهر، لأصنع طراز الثياب، دون أن يعطينى فلسا، وأولادى لا يعلمون عنى شيئا، وقد بالغت فى الاستعطاف حتى أمر أن أزورهم ساعة ثم أرجع بعد أن شوى جسدى بالسياط! وهأنذا أراك فى الطريق بتدبير من الله!

فصاح شريك بالبغدادى: قم يا هذا واجلس مع خصمك! فصاح البغدادى: أنت لا تعرف من أنا؟ أنا رسول سيدتى الخيزران!

فقال شريك لغلامه: اذهب به إلى الحبس وسيرى! ثم اتجه إلى الرجل، وقال من الذى ضربك بالسياط؟ فقال من كان هنا، وأشار إلى البغدادى! فقال شريك: سيرى! وأمره بالانصراف إلى منزله دون عود إلى ما كان يصنع!

وفى الصباح دعا شريك البغدادى، وسأله: ما هذه الآثار التى فى ظهر الصانع؟

فقال فى استخذاء: هؤلاء لا يجيدون العمل إلا بالضرب! قال شريك: وإذن فقد ضربته واعترفت، فتراجع يقول: ضربته سوطاً واحداً، فالقى شريك رداءه، ورجع إلى داره وأحضر سوطاً قوياً، وهوى به فوق جسد البغدادى، وقال: تدل بمركزك فى بغداد، وتنسى غضب الله! لن تفلت من يدى إذا أصبت أحداً بمكروه، ثم أمر من ينادى: من كانت لديه ظلامة لدى البغدادى فليحضر! ثم عاوده بالسوط مرة ثانية، فهم أتباع البغدادى بمناصرته، فأمر شريك بحبسهم جميعاً ولمدة يومين!

عاد البغدادى إلى الأمير، وشكا له ما كان! فقال متعجبا: هذا رجل لا يعبأ بمنصبه ويتمنى أن يعفى من القضاء، وقد عييت به.

فقال البغدادى: وهل يعبأ به أمير المؤمنين؟ وهل تسكت الخيزران على ما لاقيت؟ فرد الأمير فى هدوء آسف: القضاة أمراء، بل خلفاء فى أنفسهم! وقد شكوت شريكاً إلى أمير المؤمنين وأعلمته بما كان من أمره معى، فقال هذا حق الله! ومع هذا فلابد أن تعلم الخيزران بما كان، حتى تقلق شريكاً فى مستقره، فهى صاحبة الدالة على ولدها، وربما استجاب فنقله من الكوفة إلى أى مكان! ولو إلى الجنة؟ فمن الخير فى الكوفة أن يرحل هذا العنيد! وعليك أن تدبر لذلك قدر ما تستطيع! إنك تسدى لى بذلك جميلاً لا أنساه!

رجع الرسول إلى بغداد، وقص على الخيزران ما كان من أمر شريك، فقالت: أمير المؤمنين لا يتدخل فى شئون القضاة وقد جربت كثيراً أن أقف دون أبى يوسف فى مسألة خالفت هواى، فكان الخليفة مع أبى يوسف، حين غاضبته، صاح فى وجهى: أأغضبك أم أغضب الله؟! فسكت.

ثم أطرقت هنيهة، وقالت: إن مؤنسة قد ملكت قلب الخليفة، ولا يرد لها شأناً أياً كان، وأعمالها بالكوفة كثيرة ويمكنها أن تطلب من وكيلها أشياء لا يرضى بها شريك لو حكم فى موضوعها، وهنا تقع الكارثة فوق رأسه، وسأعمل الحيلة، لتنفذ «مؤنسة» ما أريد.

وما هى إلا أيام حتى جاءت الشكوى إلى شريك من امرأة يائسة تعدى عليها وكيل مؤنسة، واستلب ناقة كانت لها هى كل ما تملك، فاستدعى شريك الوكيل، وأقر بما استلب، فأمر بحبسه، فصاح به: أنا وكيل مؤنسة، إنك لا تدرى من أنت؟ فاستشاط القاضى غضباً، وصاح بالوكيل، لو فعلت مؤنسة ما فعلت بالكوفة لحبست على الفور! الحكم لله لا للجوارى يا أحمق!

وطار الخبر إلى مؤنسة، فأظهرت الغضب، وتزلفت إلى أمير المؤمنين، وقد استجاب لها، فصدر الأمر بعزل شريك عن الكوفة! وكان العزل فى غاية الغرابة، لأنه صدر عن طريق مؤنسة ولم يصدر عن طريق الخيزران أو عن طريق موسى بن عيسى! أيكونان معاً دون جارية لعوب!

وعلم الأمير موسى بن عيسى بقرار العزل أول من علم بالكوفة، فاستخفت به الفرحة، وسارع فى ملأ من حاشيته إلى مجلس القاضى، ليشمت به علانية، وصاح به: قم يا شريك، فلست قاضياً من الآن! لقد عزلت.

ولكن القاضى ردَّ القول بأقسى ما يتوقع موسى بن عيسى، إذ كان والده عيسى ولى العهد، فعزله أبو جعفر المنصور، وجعل ولده المهدى مكانه وكان ذلك ضربة قاصمة للوالد وأولاده، فحين قال موسى بن عيسى للقاضى ما قال على رءوس الأشهاد صاح به، هم الخلفاء يعزلون القضاة، كما يعزلون أولياء العهود دون أن يعترض أحد!

صعق موسى بن عيسى إذ جاوبه بما لم يتوقع، ونظر فى وجوه أصحابه فوجدهم يطرقون خجلاً مما علق بالأمير، فقال فى استخذاء، هو مجنون فدعوه.

ورجع شريك إلى بغداد، فقابله سفيان الثورى وقال له: قلت لك: لا تقبل القضاء وفر منه كما فررت وها أنت ذا ترى ما حق بك! أما كان الأولى أن تظل معنا فى مجلس الحديث!

فقال شريك، لقد قبلت القضاء فأرضيت ربى، حين أحققت الحق، وأزهقت الباطل، أما يثبنى الله على ذلك يا سفيان!

وسكت الرجلان.

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور
علـى جمعـــة
مفتى جمهورية مصر العربية

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لهذا السؤال:

حكم الاحتفال بالمولد النبوى

•• ما حكم الاحتفال بالمولد النبوى وموالد آل البيت وأولياء الله الصالحين؟

• الجواب: المولد النبوى الشريف إطلالة للرحمة الإلهية بالنسبة للتاريخ البشرى جميعه، فلقد عبَّر القرآن الكريم عن وجود النبى ﷺ بأنه:

﴿ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

(الأنبياء: ١٠٧)

وهذه الرحمة لم تكن محدودة، فهى تشمل تربية البشر وتزكيتهم وتعليمهم وهدايتهم نحو الصراط المستقيم وتقدمهم على صعيد حياتهم المادية والمعنوية، كما أنها لا تقتصر على أهل ذلك الزمان، بل تمتد على امتداد التاريخ بأسره:

﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾

(الجمعة: ٣)

والاحتفال بذكرى مولد سيد الكونين وخاتم الأنبياء والمرسلين نبى الرحمة وغوث الأمة سيدنا محمد ﷺ من أفضل الأعمال وأعظم القربات، لأنها تعبير عن الفرح والحب للنبى ﷺ، ومحبة النبى ﷺ أصل من أصول الإيمان، وقد صح عنه أنه ﷺ قال: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين) رواه البخارى.

قال ابن رجب: محبة النبى ﷺ من أصول الإيمان، وهى مقارنة لمحبة الله عز وجل، وقد قرنها الله بها، وتوعد من قدم عليهما محبة شئ من الأمور المحببة طبعاً من الأقارب والأموال والأوطان وغير ذلك، فقال تعالى:

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾

(التوبة: ٢٤)

ولما قال عمر للنبى ﷺ: يا رسول الله، لأنت أحب إلىَّ من كل شئ إلا من نفسى، قال النبى ﷺ: لا والذى نفسى بيده؛ حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلىَّ من نفسى، فقال النبى ﷺ: (الآن يا عمر)، رواه البخارى. اهـ.

والاحتفال بمولده ﷺ هو الاحتفاء به، والاحتفاء به ﷺ أمر مقطوع بمشروعيته؛ لأنه أصل الأصول ودعامتها الأولى، فقد علم الله سبحانه وتعالى قدر نبيه، فعرف الوجود بأسره باسمه وبمبعثه وبمقامه وبمكانته، فالكون كله فى سرور دائم وفرح مطلق بنور الله وفرجه ونعمته على العالمين وحجته.

وقد درج سلفنا الصالح منذ القرن الرابع والخامس على الاحتفال بمولد الرسول الأعظم صلوات الله عليه وسلامه بإحياء ليلة المولد بشتى أنواع القربات من إطعام الطعام وتلاوة القرآن والأذكار وإنشاد الأشعار والمدائح فى رسول الله ﷺ، كما نص على ذلك غير واحد من المؤرخين مثل الحافظين ابن الجوزى وابن كثير، والحافظ ابن دحية الأندلسى، والحافظ ابن حجر، وخاتمة الحفاظ جلال الدين السيوطى رحمهم الله تعالى.

ونص جماهير العلماء سلفاً وخلفاً على مشروعية الاحتفال بالمولد النبوى الشريف، بل ألف فى استحباب ذلك جماعة من العلماء والفقهاء، بينوا بالأدلة الصحيحة استحباب هذا العمل؛ بحيث لا يبقى لمن له عقل وفهم وفكر سليم إنكار ما سلكه سلفنا الصالح من الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف، وقد أطال ابن الحاج فى (المدخل) فى ذكر المزايا المتعلقة بهذا الاحتفال، وذكر فى ذلك كلاماً مفيداً يشرح صدور المؤمنين، مع العلم أن ابن الحاج وضع كتابه (المدخل) فى ذم البدع المحدثة التى لا يتناولها دليل شرعى، وللإمام السيوطى فى ذلك رسالة مستقلة سماها (حُسن المقصد فى عمل المولد).

والاحتفال فى لغة العرب: من حفل اللبن فى الضرع يحفل حفلاً وحُفُلاً وتحفّل واحتفل: اجتمع، وحفل القوم من باب ضرب واحتفلوا اجتمعوا واحتشدوا. وعنده حفلٌ من الناس: أى جمع وهو فى الأصل مصدر، ومحفلُ القوم ومُحتفَلهم: مجتمعهم، وحفّله: جلاه، فتحفّل واحتفل، وحفل كذا: بالى به، ويقال: لا تحفل به.

وأما الاحتفال بالمعنى المقصود فى هذا المقام، فهو لا يختلف كثيراً عن معناه فى اللغة؛ إذ المراد من الاحتفال بذكرى المولد النبوى هو تجمع الناس على الذكر، والإنشاد فى مدحه والثناء عليه ﷺ، وإطعام الطعام صدقة لله، إعلاناً لمحبة سيدنا رسول الله ﷺ، وإعلاناً لفرحنا بيوم مجيئه الكريم ﷺ.. ويدخل فى ذلك ما اعتاده الناس من شراء الحلوى والتهادى بها فى المولد الشريف؛ فإن التهادى أمر مطلوب فى ذاته، لم يقم دليل على المنع منه أو إباحته فى وقت دون وقت، فإذا انضمت إلى ذلك المقاصد الصالحة الأخرى كإدخال السرور على أهل البيت وصلة الأرحام، فإنه يصبح مستحباً مندوباً إليه، فإذا كان ذلك تعبيراً عن الفرح بمولد المصطفى ﷺ كان أشد مشروعية وندباً واستحباباً، لأن للوسائل أحكام المقاصد، والقول بتحريمه أو المنع منه حينئذ ضرب من التنطع المذموم.. ومما يلتبس على بعضهم دعوى خلو القرون الأولى الفاضلة من أمثال هذه الاحتفالات، ولو سلم هذا - لعمر الحق - فإنه لا يكون مسوغاً لمنعها؛ لأنه لا يشك عاقل فى فرحهم - رضى الله تعالى عنهم - به ﷺ، ولكن للفرح أساليب شتى فى التعبير عنه وإظهاره، ولا حرج فى الأساليب والمسالك؛ لأنها ليست عبادة فى ذاتها، فالفرح به ﷺ عبادة وأى عبادة، والتعبير عن هذا الفرح، إنما هو وسيلة مباحة، لكل فيها وجهة هو موليها.

على أنه قد ورد فى السنة النبوية ما يدل على احتفال الصحابة الكرام بالنبى ﷺ مع إقراره لذلك وإذنه فيه؛ فعن بريدة الأسلمى رضى الله عنه قال: خرج رسول ﷺ فى بعض مغازية، فلما انصرف جاءت جارية سوداء فقالت: يا رسول الله؛ إنى كنت نذرت إن ردك الله سالماً أن أضرب بين يديك بالدف وأتغنى، فقال لها رسول الله ﷺ: (إن كنت نذرت فاضربى، وإلا فلا) رواه الإمام أحمد والترمذى، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. فإذا كان الضرب بالدف إعلاناً للفرح بقدوم النبى ﷺ من الغزو أمراً مشروعاً أقره النبى ﷺ وأمر بالوفاء بنذره، فإن إعلان الفرح بقدومه ﷺ إلى الدنيا - بالدف أو غيره من مظاهر الفرح المباحة فى نفسها - أكثر مشروعية وأعظم استحبابا.. وإذا كان الله تعالى يخفف عن أبى لهب - وهو من هو كفراً وعناداً ومحاربة لله ورسوله - بفرحه بمولد خير البشر بأن يجعله يشرب من نقرة من كفه كل يوم اثنين فى النار، لأنه أعتق مولاته ثويبة لما بشرته بميلاده الشريف ﷺ، كما جاء فى صحيح البخارى، فما بالكم بجزاء الرب لفرح المؤمنين بميلاده وسطوع نوره على الكون!.. وقد سن لنا رسول الله ﷺ بنفسه الشريفة جنس الشكر لله تعالى على ميلاده الشريف، فقد صح أنه كان يصوم يوم الاثنين ويقول: (ذلك يوم ولدت فيه)، رواه مسلم من حديث أبى قتادة رضى الله عنه؛ فهو شكر منه عليه الصلاة والسلام على منة الله تعالى عليه وعلى الأمة بذاته الشريفة، فالأولى بالأمة الائتساء به ﷺ بشكر الله تعالى على منته ومنحته

المصطفوية بكل أنواع الشكر، ومنها الإطعام والمديح والاجتماع للذكر والصيام والقيام وغير ذلك، وكل ماعون ينضح بما فيه، وقد نقل الصالحى فى ديوانه الحافل فى السيرة النبوية (سبل الهدى والرشاد فى هدى خير العباد) عن بعض صالحى زمانه: أنه رأى النبى ﷺ فى منامه، فشكى إليه أن بعض من ينتسب إلى العلم يقول ببدعية الاحتفال بالمولد الشريف، فقال له النبى ﷺ: (من فرح بنا فرحنا به).

وكذلك الحكم فى الاحتفال بموالد آل البيت وأولياء الله الصالحين وإحياء ذكراهم بأنواع القرب المختلفة؛ فإن ذلك أمر مرغب فيه شرعا؛ لما فى ذلك من التأسى بهم والسير على طريقهم، وقد ورد الأمر الشرعى بتذكر الأنبياء والصالحين فقال تعالى:

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾

(مريم: ٤١)

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ ﴾

(مريم: ٥١)

وهذا الأمر لا يختص بالأنبياء، بل يدخل فيه الصالحون أيضا، حيث يقول تعالى:

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ ﴾

(مريم: ١٦)

إذ من المقرر عند المحققين أن مريم عليها السلام صديقة لا نبية، كما ورد الأمر الشرعى أيضا بالتذكير بأيام الله تعالى فى قوله سبحانه:

﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾

(إبراهيم: ٥)

ومن أيام الله تعالى أيام الميلاد وأيام النصر، ولذلك كان النبى ﷺ يصوم يوم الاثنين من كل أسبوع شكرا لله تعالى على نعمة إيجاده واحتفالا بيوم ميلاده كما سبق فى حديث أبى قتادة الأنصارى فى صحيح مسلم، كما كان يصوم يوم عاشوراء ويأمر بصيامه شكراً لله تعالى وفرحا واحتفالا بنجاة سيدنا موسى عليه السلام، وقد كرم الله تعالى يوم الولادة فى كتابه وعلى لسان أنبيائه فقال سبحانه:

﴿ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ﴾

(مريم: ١٥)

وقال جل شأنه على لسان السيد المسيح عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم:

﴿ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ ﴾

(مريم: ٣٣)

وذلك أن يوم الميلاد حصلت فيه نعمة الإيجاد، وهى سبب لحصول كل نعمة تنال الإنسان بعد ذلك، فكان تذكره والتذكير به باباً لشكر نعم الله تعالى على الناس، فلا بأس من تحديد أيام معينة يحتفل فيها بذكرى أولياء الله الصالحين، ولا يقدح فى هذه المشروعية ما قد يحدث فى بعض هذه المواسم من أمور محرمة؛ بل تقام هذه المناسبات مع إنكار ما قد يكتنفها من منكرات، وينبه أصحابها إلى مخالفة هذه المنكرات للمقصد الأساسى الذى أقيمت من أجله هذه المناسبات الشريفة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

خطبة الجمعة

كيف نحتفل بالمولد النبوى الشريف

للأستاذ الدكتور/ محمد سيد طنطاوى
رحمه الله

الحمد لله رب العالمين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والعاقبة للمتقين، أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين - وأشهد أن سيدنا وشفيعنا محمداً عبده ورسوله أرسله ربه رحمة للعالمين، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه، ومن دعا بدعوته، وسار على نهجه إلى يوم الدين.

يأتباع النبى ﷺ نحن الآن فى أوائل شهر ربيع الأول، هذا الشهر الذى تشرف بمولد سيد الخلق سيدنا رسول الله وقد جرت عادة المسلمين فى مشارق الأرض وفى مغاربها، أن يحتفلوا بذكرى ميلاد الرسول ﷺ والسؤال كيف نحتفل بهذه الذكرى العطرة، احتفالا ننال به الرضا من خالقنا، والشفاعة من نبينا محمد ﷺ.

للإجابة عن هذا السؤال نقول: إذا أردنا أن نحتفل بذكرى المولد النبوى الشريف، هذا الاحتفال الذى يرضى خالقنا، ويكون سببا فى شفاعة نبينا ﷺ فعلينا أن نقتدى بصاحب الذكرى ﷺ.

نقتدى به فى عبادته، فقد قام الليل حتى تورمت قدماه، وعندما قيل له يارسول الله، لماذا كل هذا التعب وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فكان جوابه ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[1]؟!!

١- صحيح البخارى

نقتدى به فى مداومته على طاعة الله - تعالى - وعلى الإكثار من التضرع إليه بالدعاء، فقد كان إذا خرج من بيته رفع بصره إلى السماء، وقال: «بسم الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم إنى أعوذ بك أن أزِل أو أزَل، أو أضل أو أُضل، أو أظلم أو أُظلم، أو أجهل أو يجهل علىّ، أعوذ بك من أن أنصر ظالماً، أو أخذل مظلوماً»[2].

وكان إذا قدم إليه الطعام، قبل أن يتناول شيئاً منه قال: «بسم الله اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار»[3] فإذا ما انتهى من طعامه قال: «الحمدلله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين»[4].

وكان إذا ما استيقظ من نومه قال: «الحمدلله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»[5] فإذا ما أوى إلى فراشه قال: «باسمك اللهم وضعت جنبى وبك أرفعه، إن أمسكت نفسى فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»[6].

وكان إذا لبس ثوباً جديداً قال: اللهم إنى أسألك من خيره وخير ما هو له، وأعوذ بك من شره وشر ما هو له»[7].

وكان إذا نظر فى المرآة قال: «اللهم كما أحسنت خَلقى فأحسن خُلقى»[8].

وهكذا لا تمر لحظة من لحظات حياته ﷺ إلا وهو متصل فيها بربه، مكثر من ذكره - تعالى - ومن التضرع إليه بخالص الدعوات، وبأجمل الكلمات.

نقتدى به ﷺ فى رضاه وفى غضبه، فقد كان ﷺ لا يغضب لنفسه فإذا ما انتهكت حرمات الله، لم يقم لغضبه شىء.

فهو ﷺ لم يغضب حين كان يقسم الغنائم، فجاءه أعرابى، وقال له: يامحمد اعطنى من هذا المال، فهو ليس مالك ولا مال أبيك، فأعطاه ﷺ حتى أرضاه[9]!!

ولكنه غضب ﷺ أشد الغضب، عندما جاءه بعض أصحابه ليشفع فى امرأة سرقت، وكان مما قاله ﷺ: «أيها الناس إنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[10].

لم يغضب ﷺ حين سلط عليه الظالمون سفهاءهم فأخذوا يقذفونه بالأحجار حتى سالت دماؤه، وكان مما قاله بشأنهم: «اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون»!![11]

٢- سنن النسائى
٣- مسند أحمد
٤- سنن الترمذى
٥- صحيح البخارى
٦- مسند أحمد
٧- سنن الترمذى
٨- مسند أحمد
٩- سنن النسائى
١٠- صحيح البخارى
١١- إحياء علوم الدين

ولكنه ﷺ غضب أشد الغضب عندما أحاطت جيوش الأحزاب بالمدينة المنورة، وشغل هو وأصحابه بالدفاع عنها حتى كادت الشمس أن تغرب دون أن يؤدوا صلاة العصر، فقال ﷺ: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارا»(١٢).

لم يغضب ﷺ حين أحاط به المشركون فى غزوة «أحد» وأرسلوا إلى جسده الشريف سهامهم، فشجوا وجهه وسالت منه الدماء، فجعل ﷺ يتلقى الدم الساقط من وجهه ويقول: «كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم»(١٣)؟!!.

ولكنه غضب أشد الغضب عندما أرسل أحد أصحابه وهو سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه إلي أهل مكة ليخبرهم فى عام صلح الحديبية أنه جاء للطواف بالبيت الحرام ولم يأت لحربهم، وأشيع أنهم حبسوا سيدنا عثمان.

وهنا ظهر الغضب على وجهه الشريف وقال: «لن نبرح حتى نناجز القوم إذا كانوا قد أساءوا إلى عثمان»(١٤).

نقتدى به ﷺ فى ثباته على دعوته، وفى حرصه على نشرها، وفى غيرته عليها، وفى حبه لها، فقد تعرض ﷺ لألوان من الترغيب والترهيب، ولأنواع من الأذى، والاضطهاد، ولصنوف من المساومة والمقاطعة من أعدائه، ولكنه ﷺ ظل ثابتاً على مبدئه، وعندما قال له عمه أبو طالب: يابن أخى دع القوم وما يعبدون، رد ﷺ على عمه أبى طالب بقوله: «يا عماه، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك فيه»(١٥).

وهكذا ضرب ﷺ أروع الأمثال فى ثباته على دعوته، وفى دفاعه عنها، فى حبه لها، وفى بذله أسمى الدرجات فى الدفاع عنها.

نقتدى به فى حبه لأصحابه وفى حرصه على خير أمته، فإنه ﷺ لم يغادر الدنيا إلا بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح للأمة، ولم يترك باباً من أبواب الخير إلا وفتحه لأمته، ولم يترك باباً من أبواب الشر إلا وقفله فى وجهها، وكان المثل الأعلى فى حبه لأصحابه، وفى نشر المحبة والمودة والإخاء الصادق والتعاون على البر والتقوى بين أتباعه، وكان من توجيهاته لأصحابه: «لا يبلغنى أحد عن أحد من أصحابى شيئاً، فإنى أحب أن أخرج إليهم وأنا سليم الصدر»(١٦).

يا أتباع النبى - عليه الصلاة والسلام-

إننا إذا اقتدينا بسيدنا رسول الله ﷺ فى أقواله وفى أعماله وفى عبادته وفى أخلاقه، كنا قد احتفلنا بذكرى المولد النبوى الشريف احتفالا ننال به الرضا من خالقنا، والشفاعة من نبينا ﷺ.

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم

١٢- صحيح مسلم
١٣- مسند أحمد
١٤- البداية والنهاية
١٥- البداية والنهاية
١٦سنن الترمذى

زكى مبارك والمدائح النبوية



للأستاذ الدكتور/ محمد فتحى فرج بيومى
الأستاذ بجامعة المنوفية

كلما أشرقت علينا أنوار الربيعين من كل عام، يجد المرء منا دافعا لايقاوم، نحو مطالعة كتب السيرة والحديث والمدائح النبوية، وما يتصل بها من آداب إسلامية رفيعة ومن الكتب التى نطالعها الآن كتاب فريد فى بابه، طريف فى تبويبه وترتيبه، وهو أصلا جزء من كتاب قدمه الدكتور زكى مبارك إلى الجامعة المصرية عن: «أثر التصوف فى الأدب والأخلاق».

وعلى الرغم مما اشتهر به الدكتور زكى مبارك من حدة وشدة، حتى على نفسه التى شق عليها، فلم يقنع بدكتوراه واحدة ولكنه جمع بين ثلاث درجات لها، كما تميز الرجل أيضا بشجاعة فى الرأى والفكر، لاسيما فى معاركه الأدبية لدرجة أنه اشتهر فى الأوساط الأدبية والفكرية بالملاكم الأدبى، إلا أنه - مع كل ذلك - فقد كان يحمل بين جنبيه قلبا عطوفاً حانياً، وروحاً صوفية محلقة.

ولا ننسى أنه كان أيضا شاعراً مُجيداً قبل أن يكون أديبا ناثراً، وكاتباً مفكراً، وناقداً له رؤيته وآراؤه السديدة. ونظرة واحدة إلى بحوثه وعناوين كتبه ودراساته للدكتوراه، تجعل المرء يوقن بعمق إيمانه، ومدى حبه للنبى ﷺ وآل بيته، وإحساسه الدينى المرهف والعميق، ولاشك أن هذا يرجع إلى البيئة الريفية النقية التى نشأ وترعرع فيها. فمن دراساته المستفيضة التى نال بها إحدى درجاته للدكتوراه، واحدة كان عنوانها: «الأخلاق عند الغزالى»، وله دراسة أخرى تحت عنوان: «عبقرية الشريف الرضى»، صاحب القصائد الكثيرة فى مدح أهل البيت، إضافة إلى أطروحته الثانية للدكتوراه حول: «التصوف الإسلامى» كما أن له فصولا وبحوثاً كثيرة مبثوثة فى كتبه ذات الموضوعات المتنوعة، تتعلق بالدين والأخلاق والقيم

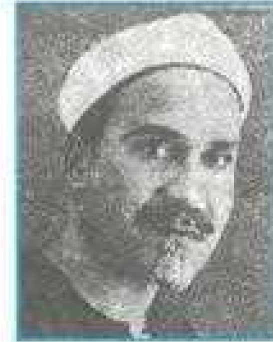
والشخصيات الإسلامية.

وهذا الكتاب هو واحد من كتبه التى لم تنل حظاً من الشهرة والذيوع - على ندرة ما ألف فى موضوعها، وهو بعنوان: «المدائح النبوية فى الأدب العربى». وسنحاول فى هذه العجالة أن نتعرض لبعض الموضوعات والآراء التى وردت فيه، وقبل ذلك نذكر طرفاً من حياة الكاتب الكبير.

نبذة عن الكاتب

ولد الدكتور محمد زكى عبدالسلام مبارك عام ١٨٩٢ فى قرية «سنتريس» التى طالما ذكرها فى كتبه وقصائده ومؤلفاته، وقرن اسمها باسم عاصمة فرنسا باريس، وهى إحدى قرى مركز أشمون، التابع لمحافظة المنوفية فى رأس دلتا مصر الخصيبة، التى يحدها فرعا نيل مصر الخالد: فرع دمياط من الشرق وفرع رشيد إلى الغرب.

وقد عمل الرجل بالتدريس فى الجامعة المصرية وفى دار المعلمين العليا فى بغداد، كما عمل بعد إقصائه من الجامعة فى التفتيش فى المدارس المصرية. وقد ترك الرجل ثروة فكرية هائلة، تتميز بجمال الأسلوب، وقوة العاطفة، وشجاعة الرأى، وعمق الفكر وأصالته. فبالإضافة إلى ما ذكرناه آنفا من كتبه ودراساته، فله أيضا: ديوان زكى مبارك - ألحان الخلود - مدامع العشاق - العشاق الثلاثة - الحديث ذو شجون - حب ابن أبى ربيعه - الموازنة بين الشعراء - وحى بغداد - الدين واللغة والتقاليد - ملامح دينية - حافظ إبراهيم - ليلى المريضة فى العراق، وغيرها. وقد توفى الرجل فى حادث مؤسف عام ١٩٥٢ وهو فى قمة نشاطه الفكرى ومجده الأدبى.


مصطفى عبدالرازق

كلمة عامة حول الكتاب

كتاب «المدائح النبوية فى الأدب العربى»، كتاب فريد فى بابه كما ذكرنا آنفا، ولذا فإن كل من يتعرض لمثل هذه الدراسات، لابد وأن يتخذ من هذا الكتاب حجة ومرجعاً، ومصدراً يرجع إليه المرة بعد الأخرى. ويعرف الرجل ذلك ويسجله فى صدر كتابه فيقول: وإنى لأعترف بأنى مأخوذ بنشوة النصر وأنا أقدم هذا الكتاب إلى القراء، فما كنت أحسب أن الزمان سينصفنى هذا الإنصاف: فأكون أول من يرسم خصائص المدائح النبوية فى الأدب العربى، وهو موضوع كان يجب أن تعين رسومه وحدوده منذ أزمان: وقد تلقيت جزائى سلفاً على تحبير هذه الفصول، فلن أنسى ما حييت تلك التحيات الطيبات التى تلقيتها من الدكتور منصور فهمى، والأستاذ مصطفى عبدالرازق، والدكتور عبدالوهاب عزام، ومن قبل هذا أنست بموضوع البحث، فكان ذلك الأنس أفضل جزاء، وأى أنس أعظم من شغل النفس بتلك الأقباس الروحانية التى بثها نبى الإسلام فى أرجاء الوجود(١)؟

والنسخة التى بين أيدينا هى نسخة مصورة عن الأصل الذى طبعه المؤلف لأول مرة، والتى لا نعرف - على وجه التحديد - تاريخ طباعتها، وقد صدرت هذه الطبعة عن هيئة قصور الثقافة المصرية بتاريخ ٢٠٠٣، والغريب الذى يدعو إلى الدهشة أن يذكر فى هذه الطبعة جملة: الطبعة الأولى، وكأن الكتاب لم يطبع من قبل، مع أن هذه الطبعة إن هى إلا مجرد تصوير عن نسخة الطبعة السابقة!

(١) د. زكى مبارك (٢٠٠٣): المدائح النبوية فى الأدب العربى. العدد رقم ٤٨ من سلسلة «ذاكرة الكتابة»، الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة. ص٨.

من محتويات الكتاب

يتألف الكتاب بعد فاتحته من اثنى عشر فصلا وخاتمة، تحدث المؤلف فى الفصل الأول عن «نشأة المدائح النبوية»، وفرق بين المدائح والرثاء، ثم عرّج على دالية الأعشى ولامية كعب بن زهير ثم مدائح شاعر الرسول حسان بن ثابت ومدائح على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - ثم ميمية الفرزدق ثم علق على مدح أهل البيت وأنهى هذا الفصل بالحديث عن النسيب فى صدر المدائح النبوية، والتى يعلل المؤلف وجودها فى صدر مثل هذا اللون من الشعر جنباً إلى جنب مع الخمريات: أن هذا الأسلوب كان معروفا فى الجاهلية، وقد وقع مثله فى همزية حسان وفى لامية كعب التى مدح بها الرسول ﷺ فلم يغير هذان الشاعران شيئاً من المذاهب الشعرية حين خاطبا النبى ﷺ ولم يتورعا عن ذكر الخمر والنساء، والتحسر على ملاعب الشباب. وليس هذا بغريب ففن المذاهب الأدبية لا يتغير فى عام أو عامين، ومن الإسراف أن ننتظر ذلك.

أما الفصل الثانى: فقد بسط المؤلف فيه البحث فى عدة نقاط منها: نشأة العطف على أهل البيت ثم عرج على مقتل الإمام الحسين مروراً بالنوح فى يوم عاشوراء ثم الصلاة على الحسن والحسين فى بعض الخطب المنبرية ثم مصرع ابن السكيت ودسائس الأمويين ضد الحسن بن على ثم المبالغة فى بكاء الحسين ثم تحدث عن أشياع على فى حضرة معاوية وغيره من الخلفاء وأخيراً أوضح أن: مدح شعراء الفاطميين لأهل البيت ليس من التصوف.

أما الفصل الثالث: فقد كرسه المؤلف «للكميت بن زيد الأسدى» مُركزاً على إخوانياته، وحبه لأهل البيت، واعتذاره عن مدح بنى أمية، ويُذكر أن من أول شعره ما قد جرى مجرى الأمثال:

يالك من قنبرة بمعمر
خلا لك الجو فبيضى واصفرى
ونقرى ما شئت أن تنقرى

ويذكر المؤلف أن الكميت لا يمدح أهل البيت لذواتهم، وإنما يعلل ذلك بقرابتهم من الرسول، كقوله فى البائية الكبرى:

إلى النفر البيض الذين بحبهم
إلى الله فيما نالنى أتقرّبُ
بنى هاشم رهط النبى فإننى
بهم ولهم أرضى مراراً وأغضبُ

ثم أدار المؤلف الفصل الرابع حول «هاشميات الكميت»، ومناقبهم وكرم أخلاقهم، ثم أنهى هذا الفصل بالكلام عن بائيته ولاميته الشهيرتين، ثم أنهى بالتعليق على: مظهر التصوف فى البائية.

وفى الفصل الخامس: ركز المؤلف على «تائيات دعبل» فى أهل البيت، وأشهرها وأبقاها على الزمان، وأجدرها بالخلود تائيته التى يقول فى مطلعها المفجع:

مـــدارس آيات خلت من تلاوة
ومنزل وحى مقفر العرصات
لآل رسول الله بالخيف من منى
وبالركن والتعريف والجمرات
ديار على والحسين وجعفر
وحمزة والسجاد ذى الثفنات

أما الفصل السادس: فقد خصصه المؤلف حول: «قصائد الشريف الرضى فى صريع كربلاء» - رضى الله عنه، وكرم الله وجه أبيه، ومنها قوله:

يا بن بنت الرسول ضيعت العهـ
ـد رجال والحافظون للعهد قليل
ما أطاعوا النبى فيك وقد ما
لت بأرماحهم إليك الذحول

ثم جاء الفصل السابع: حول «قصائد مهيار الديلمى فى أهل البيت»، ويذكر المؤلف أن لمهيار فى أهل البيت عشر قصائد طوال، ويشير جو تلك القصائد بأن معاصريه كانوا يستكثرون عليه أن يمعن فى مدح آل الرسول، كأن العصبية لأهل البيت كانت تعتمد على الجنسية العربية، ولذا نراه يقول:

أنا العبد والأكم عقده
إذا القول بالقلب لم يعقد
وفيكم ودادى ودينى معا
وإن كان فى فارس مولدى
خصمت ضلالى بكم فاهتديت
ولولاكم لم أكن أهتدى

أما الفصل الثامن: فقد دار حول: «بردة البوصيرى» واسمه محمد بن سعيد بن حماد ابن عبدالله بن صنهاج، كان أحد أبويه من «أبوصير» والآخر من «دلاص» من قرى بنى سويف، فركبت له منهما نسبة، وقيل أيضا «الدلاصيرى» لكنه اشتهر بالبوصيرى، وقد توفى بالإسكندرية وله بها قبر مشهور يتصل به مسجد كبير.

وقد ذكر المؤلف حديث البوصيرى حول سبب وضعه لهذه القصيدة الشهيرة، فقال على لسانه: «كنت قد نظمت قصائد فى مدح رسول الله ﷺ منها ما كان اقترحه علىّ الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير، ثم اتفق بعد ذلك أن صاحبنى فالج أبطل نصفى، ففكرت فى عمل قصيدتى هذه فعملتها، واستشفعت بها إلى الله تعالى فى أن يعافينى، وكررت إنشادها، ودعوت، وتوسلت، ونمت فرأيت النبى ﷺ فمسح وجهى بيده المباركة، وألقى على بردة، فانتبهت ووجدت فىّ نهضة، فقمت وخرجت من بيتى، ولم أكن أعلمت بذلك أحدا فلقينى بعض الفقراء فقال لى: أريد أن تعطينى القصيدة التى مدحت بها رسول الله ﷺ فقلت: أيها؟ فقال: التى أنشأتها فى مرضك وذكر أولها، وقال: والله لقد سمعتها البارحة تنشد بين يدى رسول الله ﷺ، ورأيت رسول الله ﷺ يتمايل وأعجبته، وألقى على من أنشدها بردة، فأعطيته إياها، وذكر الفقير ذلك، وشاع المنام»[٢].

وبعد أن يستبعد المؤلف حصول ذلك ويرجعه

(٢) المصدر السابق، ص١٩٧.

إلى سذاجة وطيبة البوصيرى يعود فيقول فى حاشية الصفحة: كذلك قلنا فى (كتابنا) «الموازنة بين الشعراء»، ونرى الآن أن البوصيرى صادق فى رؤياه، لأن قوة الإيمان تؤثر أبلغ الأثر فى التأثير على الجسم، ولاسيما إذا تذكرنا أنه لم يزد على أن قال: أنه وجد فى جسمه نهضة، وذلك أقل ما ينتظر لرجل مؤمن يرى الرسول ﷺ فى المنام ويسمع منه التشجيع (ص١٩٧).

وتقع هذه القصيدة العصماء فى اثنين وثمانين ومائة بيت (١٨٢)، ويقول البوصيرى فى مطلعها:

أمن تذكر جيران بذى سلم
مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة
وأومض البرق فى الظلماء من إضم

وبعد أن يعدد المؤلف عناصر البردة فى الفصل التاسع، يتعرض فى الفصل العاشر لأثر البردة فى اللغة العربية، ويعلق فى البداية على الشاعر وقصيدته تعليقا طويلا نجتزئ منه ما يلى: «والبوصيرى بهذه البردة هو الأستاذ الأعظم لجماهير المسلمين، ولقصيدته أثر فى تعليمهم الأدب والتاريخ والأخلاق، فعن البردة تلقى الناس طوائف من الألفاظ والتعابير غنيت بها لغة التخاطب، وعن البردة عرفوا أبوابا من السيرة النبوية، وعن البردة تلقوا أبلغ درس فى كرم الشمائل والخلال، وكذلك استطاع البوصيرى بتصوفه أن يؤثر فى الأدب والأخلاق تأثيرا لا يدرك كنهه إلا من رأى كيف تدور البردة على ألسنة العوام، وكيف تهذب ما انطبعوا عليه من عنجهية الخصال، وليس من القليل أن تنفذ هذه القصيدة بسحرها الأخاذ إلى مختلف الأقطار الإسلامية، وأن يكون الحرص على تلاوتها وحفظها، من وسائل التقرب إلى الله والرسول.

ثم يذكر المؤلف أنه كان للبردة أيضا أثرها أيضا فى التأليف والدروس نظراً لما وضع لها من الشروح الكثيرة التى كانت تعقد لها الدروس التى كانت تتلقاها الجماهير من الطلاب، لاسيما فى يومى الخميس والجمعة، خلال أوقات الفراغ. أما أثرها فى الشعر والشعراء فعظيم جداً، فقد ضمنوها، وشطروها وخمسوها وسبعوها وعشروها وعارضوها.

أما الفصل الحادى عشر: فقد دار حول «بديعة ابن حجة الحموى» صاحب كتاب «خزانة الأدب»، الذى طبع بمطبعة بولاق عام ١٣٣٧هـ، وقد استهلها بقوله:

لى فى ابتدا مدحكم ياعرب ذى سلم
براعة تستهل الدمع فى العلم
بالله سربى فسربى طلقوا وطنى
وركّبوا فى ضلوعى مطلق السقم

وقبل خاتمة الكتاب التى أدارها المؤلف حول «قصة المولد النبوى»، تعرض المؤلف فى الفصل الثانى عشر إلى «مدائح ابن نباته المصرى».

رحم الله «زكى مبارك»، الذى أثرى المكتبة العربية بدراساته المستفيضة، وكتبه الرصينة، وأشعاره المبتكرة، وتحقيقاته التراثية مثل «زهر الآداب» وغيره، ولنا معه وقفات أخرى لاحقاً، إن شاء الله تعالى.

بعد رحلة الطائف المضنية.. دخل النبى ﷺ مكة المكرمة فى جوار المطعم بن عدى وتوالت أحداث جديرة بالتأمل والملاحظة لكننا لا نود أن نستعرض كل الأحداث التى وقعت بعد العودة من الطائف حيث إن بعضها تناوله المؤرخون بالشرح والتحليل وهو حادث الإسراء والمعراج وحوادث أخرى فى حينها.

تأملات فى السيرة النبوية

لفضيلة الشيخ/ الطاهر الحامدى

والذى نرجو أن نتناوله بالعرض والتأمل هو عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل فى موسم الحج وذلك لسببين:

- أولهما: أن أكثر المؤرخين خصوصاً المحدثين منهم لم يتناول هذا الموضوع أصلاً ومن تناوله منهم كان تناوله سطحياً.

بمعنى: أن أكثرهم أشار إليه مجرد إشارة عابرة ولم يسرد وقائعه بشكل تفصيلى.

- السبب الثانى: أنه رغم ما كان فى ردود أكثر القبائل - وربما كلها - من جفوة وصلف. وما لاقاه النبى ﷺ من ردود تجاوزت حد السخرية والاستهزاء بالرسالة والرسول ﷺ إلا أنه كان فى العرض على القبائل الفتح المبين وكان فيها التمهيد للهجرة المباركة إلى المدينة المنورة.

وبناء على ذلك فإنى أود أن أستعرض ما كان من حوارات وأحداث فى عرض النبى ﷺ نفسه الشريفة على القبائل فى موسم الحج.

روى أبو نعيم - وغيره - عن عبدالرحمن العامرى عن أشياخ من قومه قالوا: أتانا رسول الله ﷺ ونحن بسوق عكاظ فقال: من القوم؟ قلنا: من بنى عامر بن صعصعة بنى كعب بن ربيعة فقال: إنى رسول الله إليكم وأتيتكم لتمنعونى حتى أبلغ رسالة ربى ولا أكره أحداً منكم على شىء. قالوا: لا نؤمن بك. وسنمنعك حتى تبلغ رسالة ربك. فأتاهم بيحرة بن فراس القشيرى فقال: من هذا الرجل الذى أراه عندكم أنكره؟ قالوا: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب قال: فما لكم وله؟ قالوا: زعم أنه رسول الله فطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلغ رسالة ربه. قال: ما رددتم عليه؟ قالوا: بالرحب والسعة نخرجك إلى بلدنا ونمنعك مما نمنع منه أنفسنا. فقال بيحرة: ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشىء أشر مما ترجعون به!!! أتعمدون إلى رهيق[1] قومه طردوه وكذبوه فتؤوه وتنصروه تنابذون العرب عن قوس واحدة. قومه أعلم به فبئس الرأى رأيكم ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: قم فالحق بقومك. فوالله لولا أنك عند قومى لضربت عنقك. فقام رسول الله ﷺ إلى ناقته ليركبها فغمز الخبيث - بيحرة - شاكلتها فقمصت برسول الله ﷺ فألقته. وعند بنى عامر يومئذ ضباعة بنت عامر بن حوطب وكانت من النسوة اللاتى أسلمن بمكة جاءت زائرة إلى بنى عمها. فقالت: يالعامر ولا لعامر لى؛ أيصنع هذا برسول الله ﷺ وهو بين أظهركم فقام ثلاثة نفر من بنى عمها إلى بيحرة واثنين أعاناه فأخذ كل رجل منهم رجلا فجلد به الأرض ثم جلس على صدره ثم علو وجوههم لطماً فقال رسول الله ﷺ: اللهم بارك على هؤلاء والعن هؤلاء. فأسلم الثلاثة الذين نصروه وأكرمهم الله بالشهادة.

ورغم هذا الموقف الثقيل المزعج فقد كانت مواقف أخرى أكثر إزعاجا وسخافة؛ مواقف أخرى فى مواسم حج أخرى وأسواق تكررت مع قبائل مغيرة. وإن لم تكن النهايات متطابقة إلا أنها لم تأت بنتائج إيجابية لكنها على أى حال كانت أكثر سوءا، تروى كتب السنة والسيرة عن ربيع بن عبادة - بكسر العين وتخفيف الباء - قال: إنى لغلام شاب مع أبى بمنى ورسول الله ﷺ يقف على القبائل من العرب فيقول: يا بنى فلان: إنى رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تخلعوا ما تعبدوه من دونه من هذه الأنداد وأن تؤمنوا بى وتصدقونى وتتبعونى حتى أبين عن الله عز وجل ما بعثنى به. والناس متقصفون عليه ما رأيت أحداً يقول شيئاً وهو لا يسكت. قال وخلفه رجل أحول وضىء له غديرتان. عليه حلة عدنية. فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعى إليه. قال ذلك الرجل: يا بنى فلان: إن هذا الرجل إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم وحلفائهم من الجن وبنى مالك إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه. فقلت لأبى: يا أبت من هذا الرجل الذى

---

(١) سفيه.

يرد عليه ما يقول ويتبعه حيث ذهب ورسول الله ﷺ يفر منه؟ قال هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب أبو لهب.

أبو لهب يتبع النبى ﷺ أينما ذهب فى مواسم الحج أو فى سوق عكاظ.. وغيره وقد جاء فيما نقله الصالحى فى سبل الهدى والرشاد[٢] ما نصه: «روى الطبرانى برجال ثقات عن مدرك بن منيب وكذا فى رواية البخارى فى تاريخه عن مدرك بن منيب عن أبيه عن جده، قال: رأيت رسول الله ﷺ فى الجاهلية وهو يقول - وهو يعرض نفسه على القبائل -: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا». فمنهم من سبه ومنهم من حثا عليه التراب حتى انتصف النهار فأقبلت جارية بعس من ماء فغسل وجهه ويديه وقال: «يا بنية لا تخشى على أبيك غلبة ولا ذلة. فقلت: من هذه؟ قالوا: زينب بنت رسول الله ﷺ». وتعددت الروايات فى البيهقى وأحمد أن رسول الله ﷺ بسوق الحجاز وهو يقول: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» وإذا رجل خلفه يسفى عليه التراب وهو يقول: يا أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزى. يتبعه حيث ذهب ورسول الله ﷺ يفر منه. ولقد عرض رسول الله ﷺ نفسه الكريمة (استجابة لأمر الله تعالى) على قبائل العرب، ففيما رواه أبى إسحاق أنه عرض نفسه على كندة وكلب وبنى عامر بن صعصعة وبنى حنيفة قال: ولم يكن أحد من العرب أقبح رداً عليه منهم وكل هذه القبائل وغيرها لم يستجب لدعوته منهم أحد إلا أن بعض هذه القبائل لما كانت ترجع إلى ديارها ويلقاها أحد كبرائها الذين قعدت بهم الشيخوخة عن حضور المواسم ويسألونهم عما كان فى موسم الحج أو فى الأسواق فكانوا يخبرونهم بعرض النبى ﷺ عليهم أن يؤمنوا بالله ولا يشركوا به شيئاً وأن ينصروه ويمجدوه لكنهم لم يستجيبوا لدعوته فكان كبراؤهم يندمون ويأسفون لذلك ويقولون: هل لها من تلاف، ولكن هيهات لما مات أن يعود أو يتدارك.!!!

فيروى أن عامر بن مسلمة الحنفى قال: لقد رأيت رسول الله ﷺ جاءنا ثلاثة أعوام بعكاظ ومجنة وذى المجاز يدعونا إلى الله عز وجل وأن نمنع ظهره حتى يبلغ رسالة ربه ويشرط لنا الجنة فما استجبنا له ولا رددنا عليه رداً جميلاً. فخشُنا عليه وحلم عنا قال عامر: فرجعت إلى هجر فى أول عام فقال لى «هوده» بن على - وهو واحد من كبرائهم - هل كان فى موسمكم هذا خبر؟.

قلت: رجل من قريش يطوف على القبائل يدعوهم إلى الله تعالى وحده وأن يمنعوا ظهره حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة فقال هوده: من أى قريش هو؟ قلت: من أوسطهم نسباً من بنى عبد المطلب قال هوده: أهو محمد بن عبد المطلب؟ قلت: هو هو. قال: أما أن أمره سيظهر على ما ها هنا. فقلت: هنا فقط من بين البلدان؟ قال: وغير ما ها هنا. ثم وافيت السنة الثانية هجر فقال: ما فعل الرجل؟ فقلت: والله رأيته على حاله من العام الماضى. قال: ثم وافيت فى السنة الثالثة وهى آخر ما رأيته وإذا بأمره قد أمر وإذا بذكره قد كثر بين الناس.

وأعتقد أنك تبينت مما نقلته لك بعض ما لقيه النبى ﷺ وما عاناه من صدود وجفوة وسوء أدب فى اللقاء إلا أننا لا نعدم لقاءات ليس فيها جفاء وسوء أدب إلا أنها رغم ذلك لم تعد بفائدة ترجى ولم تكن لقاءات مثمرة ومنها ما روى عن الإمام على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - قال: لما أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب. خرج وأنا معه فدفعنا إلى مجلس آخر عليهم السكينة والوقار فتقدم أبو بكر فسلم فقال: من القوم؟ قالوا: من شيبان بن ثعلبة فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ وقال بأبى وأمى هؤلاء غرر الناس، وفيهم مفروق بن عمرو وهانئ بن قبيصة والمثنى ابن حارثة والنعمان بن شريك. وكان مفروق قد غلبهم لساناً وجمالاً. وكانت له غديرتان تسقطان على تريبته. وكان أدنى القوم مجلساً من أبى بكر. فكان أبوبكر يسأل ومفروق يجيب ثم أحال على واحد من الرجال الذين ذكرناهم حتى وصل الأمر إلى المثنى بن حارثة وكانوا يتخلصون من الالتزام بشىء ذى بال ووافقوا على رأى هانئ بن قبيصة الذى قال: يا أخا قريش إنى أرى تركنا ديننا واتباعنا دينك لمجلس جلست إلينا لا أول له ولا آخر لَذُلٌّ فى الرأى وقلة نظر فى العاقبة وإن الذلة مع العجلة وإنا نكره أن نعقد على من وراءنا عقداً ولكن ترجع ونرجع وتنظر وننظر وفى آخر الأمر قال لهم رسول الله ﷺ: ما أسأتم فى الرد إذ أفصحتم بالصدق وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه.

وكانت مدة عرضه ﷺ نفسه على القبائل فى مواسم الحج وأسواق العرب حوالى ثلاث سنوات لم تكن فيها نتائج إيجابية مبشرة بل كان أكثرها فيه جفاء وغلظة وسوء أدب وفظاظة وأقلها كانت نتائج سلبية ولا تستطيع أن نقول أكثر من ذلك فلم تكن ثمة نتائج إيجابية أو حتى وعود إيجابية ونحسب أن وقع ذلك كان مؤلماً على رسول الله ﷺ لكن الغريب هذا النفق الضيق الطويل المظلم الذى بدأ من فترة الدخول فى شعب أبى طالب ثم رحلة الطائف المضنية ثم ختمه بفترة العرض على القبائل إلا أنه كان فى نهايتها ضوء باهر شعاعه جذاب بدأ ظهوره فى بيعة العقبة الأولى التى مهدت وهيأت لها موقعة بعاث.

وإلى لقاء آخر نتكلم فيه عن هذه البيعات التى كانت بداية عهد جديد فى الدعوة الإسلامية.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٢ص٥٩٤.

مشكلات الدعوة الإسلامية فى إثيوبيا

إثيوبيا هى إحدى دول حوض النيل [1]، وتقع فى منطقة القرن الإفريقى الذى يعتبر حلقة الوصل بين أجزاء الوطن العربى فى آسيا وأفريقيا فهى تطل على بحر العرب شمال غرب المحيط الهندى، وتشكل مع اليمن والصومال وجيبوتى واريتريا المدخل الجنوبى للبحر الأحمر. وتكتسب أهمية خاصة، بالنظر إلى أن نحو ٨٠٪ من مياه النيل ترد من مرتفعاتها. فضلا عن مكانتها الإفريقية التى اكتسبتها بفعل عوامل تاريخية وبشرية ومكانتها الدولية، فهى مقر اللجنة الاقتصادية لإفريقيا ECA التابعة للأمم المتحدة (١٩٥٤م) ومقر لمنظمة الوحدة الإفريقية OAU (سابقا ١٩٦٣) وهى الآن مقر للاتحاد الأفريقى.

للأستاذ الدكتور/ عبد الله نجيب محمد
معهد البحوث والدراسات الإفريقية - جامعة القاهرة

تتكون أثيوبيا جغرافياً من قسمين رئيسين، يفصل بينهما الوادى الأخدودى، الذى يمتد من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى مارا بإريتريا وممتداً إلى جمهورية كينيا جنوباً، ويشتمل هذان القسمان على تسعة أقاليم منها خمسة إسلامية. هى: هرر - عفر - الأوجادين - أوروموـ بنى شنقول، وتبلغ مساحة أثيوبيا نحو مليون كم مربع ويبلغ عدد سكانها أكثر من ٥٧ مليون نسمة وفق إحصاء ١٩٩٦م ويشكل المسلمون نحو ٤٥٪ من السكان، ويتحدثون العربية والأمهرية وبعض اللغات الأخرى[2].

تعتبر أثيوبيا من أقدم البلدان تاريخاً وحضارة، وفيها قامت واحدة من أعرق الحضارات، حيث قامت على أرضها مملكة «ماتى» سنة ٢٠٠ ق. م فى مدينة «أكسوم» شمال إقليم «تيجراى» الحالى، وكان يطلق عليها اسم «مملكة أكسوم» وقد تمكنت فيها المسيحية فى مستهل القرن الخامس.

ومن المعروف تاريخيا أن ثمة علاقات وثيقة بين سكان شبه الجزيرة العربية وأثيوبيا من أقدم العصور، تعود إلى ما

(١) كانت تسمى فى الماضى «الحبشة».

(٢) بعض الكتابات تصل بنسبة المسلمين من ٥٥٪ إلى ٦٠٪ من جملة عدد السكان.

(٣) وهو ما أكدته الحفريات الأثرية والدراسات التاريخية.



قبل الإسلام بقرون [3]. وتعد إثيوبيا البلد الأول خارج جزيرة العرب التى عرفت الإسلام بفضل الهجرة الأولى للمسلمين التى قادها «جعفر بن أبى طالب» فى عهد الرسول ﷺ فى السنة الخامسة للبعثة، وفى عهد الخليفة «عمر بن الخطاب» نزل العرب إلى أرخبيل «دهلك» على مقربة من «مصوع» وبقى الأرخبيل فى أيدى المسلمين طوال العصر الأموى، وظهرت به جالية إسلامية قوية منذ عصر المأمون العباسى.

بعد ظهور الإسلام بفترة وجيزة، تمكن العرب من إدخال طائفة من الشعوب البدوية ـ التى تعيش فى المنخفضات التى تقع حول الهضبة الحبشية ـ فى الإسلام، بينما اعتصم المسيحيون بالهضبة ذاتها، وحاولت الشعوب البدوية المسلمة اختراق النطاق الهضبى المسيحى مراراً. لكن الإسلام بدأ نوعاً من التسرب السلمى عن طريق الهجرة الوئيدة، والاتصال التجارى المباشر، مما أدى إلى دخول البجة [4] والأعفار [5] والصوماليون ثم الأوروموا [6] فى الإسلام.

أوغلت قبائل البجة فى الأطراف الشمالية من هضبة الحبشة (إريتريا الحالية) أما الأعفار فقد هاجروا واستقر بعضهم فى الهضبة ذاتها فى عهد «أحمد القرين» [7] وكذلك الأوروموا، أما الصوماليون فقد هاجموا الأحباش وأوغلوا

(٤) يسميهم العرب «البجاه».

(٥) يسميهم العرب والأحباش «الدناقل».

(٦) هم «الجالا» او «القالة» ولكنهم يسمون أنفسهم «الأوروموا».

(٧) راجع عن دور أحمد القرين: الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ـ د. حسن محمود ص ٣٥٥ وما بعدها.

في الهضبة وخالطوا بعض أهلها في ذات العهد، ويبدو أن الإسلام قد نفذ إلى الداخل في القرن الثالث الهجرى، حيث تطرق إلى منطقة «شوة» في جنوب شرق الحبشة [8] وفرض سلطته على «عدل ـ موره ـ هوتيث ـ جدابه» في الوقت الذى انتهت فيه الأسرة الحبشية المالكة القديمة، وخلفتها الأسرة السليمانية، وفي نفس الوقت تقريبا كان التيار الإسلامى يتسرب إلى ممالك سدامه جنوب الحبشة، وفي مرتفعات «شوة» وتحولت بعض المراكز إلى إمارات إسلامية هى: «هدية ـ فطجار ـ أوفات» التى قامت على أنقاض إمارة «شوة» وإمارة دارة وإمارة بالى وإمارة إرابينى وإمارة شرخا [9] وامتدت إلى هرر وعروسى جنوبا حتى البحيرات العظمى مطوقة الحبشة من الجنوب والشرق، وبذلك دخل كثير من أهل الحبشة في الإسلام في مستهل القرن الثالث عشر. ومن الجدول الآتى تتضح نسبة عدد المسلمين في الجماعات العرقية المختلفة:

الجماعة العرقية	نسبتهم إلى السكان	نسبة المسلمين
الأمهرة	٣٠,٢٥٪	١٨٪
التيجراى	٨,٥٠٪	١٦٪
الأورومو	٥٠,٤٪	٧٠٪
الصوماليون	٢٪	١٠٠٪
العفر	١,٠٥٪	١٠٠٪

انتشرت الثقافة العربية الإسلامية في المناطق السابقة الذكر، وكان التجار العرب والمهاجرين الذين شقوا طريقهم سلميا إلى المنطقة كانوا أول من نقل المؤثرات العربية إلى أثيوبيا، ثم قامت الإمارات الإسلامية السالفة بنشر الإسلام والثقافة العربية على نطاق واسع، ومع ذلك ظلت الهضبة الحبشية الرئيسية معقلا للمسيحية، كما استطاع اليهود السيطرة على البلاد لفترة تزيد على قرنين من الزمان استطاعت أثيوبيا خلالهما أن تتوسع على حساب السلطنات والإمارات الإسلامية المجاورة، حتى أصبحت إمبراطورية كبيرة تسمى «الحبشة» ويحكمها إمبراطور كان آخرهم «هيلاسلاسى» الذى أطيح به عام ١٩٧٤م.

في عام ١٩٣٥ غزاها الإيطاليون خلال الحرب العالمية الثانية، وحتى عام ١٩٤١، حيث دخلها الإنجليز وفرضوا عليها وصايتهم لمدة خمسين عاما، استقلت بعدها وأعلنت جمهورية اشتراكية، ثم استقلت عنها «إريتريا» عام ١٩٩٣م.

عمد حكام أثيوبيا المسيحيون والسليمانيون، عمدوا إلى محاولة القضاء على الهوية الإسلامية في البلاد، كما عمدوا إلى عزل المسلمين عن العالم الإسلامى مستخدمين كافة وسائل القمع والتشريد، كذلك الأمر في العهد الاستعمارى فقد عمد المستعمرون الأوروبيون إلى محاولة الفصل بين المسلمين وغيرهم، بل وحاولوا استئصال الحضور العربى الإسلامى والثقافة العربية، فأعادوا كتابة لغات المسلمين بالحروف اللاتينية وقضوا على

٨ ـ راجع: Cerulle, II Sultanato dello Shoa nel secolo XIII. R. E. I 194 I P. 42

٩ ـ راجع: Trimingham, Islam in East Africa, Oxford, P.63, Oxford, I952.

استخدام الخط العربى الذى كان المسلمون يستخدمونه في كتابة لغاتهم، ثم أخضعوا التعليم للمنصرين.

نجح الغرب إلى حد كبير في تغريب الثقافة في المنطقة بوجه عام وربطها بالثقافة الغربية مباشرة، وتم القضاء على استخدام اللغة العربية بين عشرات القبائل، واستبدالها بلغات الأوروبيين، هذا علاوة على إبعاد المسلمين عن أراضيهم وتراثهم وتشويه تاريخهم وقطع صلاتهم بماضيهم.

ترتب على ذلك أن سادت حالة من الضعف بين المسلمين الإثيوبيين بسبب تشتتهم بعيدا عن المركز السياسى والجغرافى الكائن في قلب الهضبة وتقع فيه العاصمة «أديس أبابا»، وكان التمييز في توزيع الخدمات الصحية والتعليمية وغيرها سببا آخر في حرمان كثير من المسلمين من ثروة بلادهم، وساد نوع من الصراع على طرق التجارة من موانى عصب ومصوع، أذكته الحكومات السابقة، وكان هذا سببا ثالثا في ضعف المسلمين بوجه عام استمرت هذه السياسة إلى حاضر القرن الحادى والعشرين وتدخلت الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها ـ وقد أدركوا الأهمية الاستراتيجية للمنطقة، فقاموا بالتحكم في طريق النفط بين منطقة الخليج العربى ودول أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية، كما تحكموا في الطرق الدولية للتجارة العالمية إلى المحيط الهندى عبر البحر الأحمر والمتوسط عن طريق باب المندب ـ وعمدت الولايات المتحدة إلى تدعيم نشر الثقافة الغربية في أثيوبيا مستخدمة كافة الوسائل وعلى رأسها التعليم الغربى والإعلام الموجه.

تدار إثيوبيا حاليا بنظام فيدرالى، أتاح استخدام اللغات المحلية على نطاق واسع، ومازال الإثيوبيون يعانون من آثار الفترة الاستعمارية، ومن التدخل الخارجى.

ترتفع نسبة الأمية في البلاد إلى ٥٨٪ وهى أعلى من ذلك بكثير في أوساط المسلمين، الذين يفتقدون الكوادر البشرية اللازمة والمدارس والمعاهد العصرية، وكثيرا ما تتأثر علاقات الحكومة الإثيوبية بالمسلمين فيها بعلاقاتها الخارجية مع الدول العربية وهى علاقات متوترة في أغلب الأحيان.

يتعرض المسلمون للنشاط التنصيرى والتعليم الغربى على نطاق واسع لا مثيل له، حيث تعتبر أثيوبيا البلد الأول أو الثانى في أفريقيا، من حيث ضخامة العمل التنصيرى ومستوى الهيئات التنصيرية، وهم يستهدفون المسلمين الإثيوبيين الفقراء والمشردين، هذا في الوقت الذى يغيب فيه العمل الإسلامى والدعوة الإسلامية الجادة.

مما سبق يمكننا أن نحدد مشكلات الدعوة الإسلامية في أثيوبيا فيما يلى:

١ ـ العمل الإسلامى في أثيوبيا اليوم ضئيل ومحدود لعدة أسباب منها ضعف الوعى العام لدى المسلمين الإثيوبيين، وغياب الأجهزة الدعوية المحلية والمنظمات الإسلامية العالمية، ومنها أيضا قلة الخبرة والكفاءة لدى القائمين بالعمل الدعوى، والمجلس الأعلى الإثيوبى للشئون الإسلامية هو الجهة الوحيدة المسئولة عن النشاط الدعوى والتعليمى، وبجهود

محدودة أوجد المجلس قلة من المدارس العصرية الإسلامية التى تتبع منهجاً صحيحا.

ونحن فى هذا المقال نهيب بالمنظمات الإسلامية أن تبذل مزيدا من الجهد والمال لتدعيم المسلمين فى إثيوبيا وحل مشكلاتهم، بتأسيس مراكز ومدارس إسلامية فى المناطق المحرومة منها، ويمكن إنشاء بعض المراكز والملاجىء والمستشفيات للعمل بين فقراء المسلمين.

هذا ويرى الشيخ «عبدالرحمن حسين موسى» رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بإثيوبيا ضرورة وضع استراتيجية شاملة وخطة للعمل الدعوى فى إثيوبيا تعتمد على دراسة واقعية للإمكانيات والاحتياجات، ويتم من خلالها تنفيذ نشاطات محددة فى مجال الدعوة والثقافة والتعليم على المدى المتوسط والبعيد، ويكون من أولويات اهتمامها الاعتناء بالمساجد وتوعية الأئمة والوعاظ والخطباء والدعاة وتبصير المسلمين بأمور دينهم وتحفيظ القرآن ورفع مكانة المسلمات من النساء وإعداد دورات تأهيلية لهن فى الحياكة وبعض المهن المناسبة لهن.

هذا وقد تم أيضا تكوين لجنة علمية إعلامية عهد إليها وضع استراتيجية شاملة للتعاون الإعلامى وفى مجالات ترجمة الكتب ودعم المشروعات العلمية وطبع القرآن الكريم ونشر الكتب ذات المضمون الثقافى الإسلامى، ويقوم المجلس حاليا بإعداد ترجمة لمعانى القرآن الكريم باللغة الأمهرية وعدد من اللغات الأخرى بعد إجازتها من كبار العلماء وهذا بدوره يحتاج إلى دعم من كافة المسلمين.

ومن وجهة نظرنا ـ ونظراً لأهمية هذا البلد ـ تدعو إلى فتح باب المنح الدراسية للطلاب المسلمين الإثيوبيين للدراسة فى البلاد العربية، وإعداد كوادر مناسبة من بينهم لمتابعة الدعوة الإسلامية وتدعيم الثقافة العربية الإسلامية، ومن الممكن أيضا عقد دورات تأهيلية وتدريبية للدعاة والأئمة والمعلمين الحاليين فى البلاد العربية وتزويدهم بما يلزمهم من المراجع والأدوات اللازمة لعملهم، كما ينبغى فتح قنوات اتصال مباشرة مع المنظمات الطوعية ـ والتى تبلغ حالياً حوالى ٢٠٠ منظمة منها ٤ فقط إسلامية هى الأضعف والأقل نشاطاً ـ يجب دعم هذه المنظمات القليلة وزيادتها وتمكينها من بناء المساجد والمدارس وكافة ما يؤدى إلى تنشيط الدعوة الإسلامية فى هذه البلاد، هذا ويتوقف مستقبل المسلمين السياسى فى إثيوبيا على عدد من العوامل أهمها:

١ ـ الاستفادة من النظام الفيدرالى الحالى الذى يعبر بواقعية عن الجماعات الإثنية المتعددة ويعترف بثقافتها.

٢ ـ التعاون المشترك بين الجماعات الإسلامية فى مختلف المناطق الإثيوبية.

٣ ـ التعاون بين المسلمين وإخوانهم المسيحيين فى إقرار السلام والاستقرار فى البلاد، بناء على مبدأ الحرية الدينية.

٤ ـ إعداد الاستراتيجيات المناسبة للتعليم والإعلام والانفتاح على العالم العربى والإسلامى.

وكل ذلك من وجهة نظرنا يحتاج إلى دعم من الدول الإسلامية الغنية.

وبالله التوفيق.

بين الصحف و المجلات

إعداد
أ/ محمد جمعة
أ/ علا عبدالرحمن

الجمهورية

شيخ الأزهر.. صوت الحق

وتحت عنوان «إمامنا الأكبر.. شيخ الأزهر.. صوت الحق» كتب الأستاذ/ جلاء جاب الله مقاله المنشور بجريدة «الجمهورية» الصادرة فى: ٢٠١١/١/١٣ يقول فيه:

إمامنا الأكبر شيخ الأزهر فضيلة الشيخ الدكتور أحمد الطيب له من اسمه الكثير.. فهو عالم.. وأستاذ.. واستبشرنا به خيرا.. وكان بالفعل عند حسن ظن الجميع به.

وعند المواقف الصعبة.. نعرف الرجال.. وعندما نحتكم إلى كلمة الحق يكون العلماء هم الفرسان.. لذلك كان لابد أن نقف إجلالاً واحتراماً وتقديراً لشيخنا الجليل وأن نشد على يديه ونحييه على مواقفه الإسلامية الرائعة والتى تؤكد سماحة الإسلام ووسطيته.. وعزته وكرامته..!!

عندما تمتزج السماحة والكرامة فإنه يكون الوجه الحقيقى للإسلام وعندما نبحث عن الوسطية يكون الوجه الآخر.. لذلك كان إمامنا الأكبر أفضل من عبر عن هذين الوجهين للإسلام فى هذه المواقف الصعبة التى عشناها مؤخراً.

كان شيخنا الجليل أول من استنكر جريمة كنيسة القديسين.. ومن أوائل من زار قداسة البابا لتقديم واجب العزاء.. والتأكيد على وحدة نسيج الوطن وصلابته.

إمامنا الأكبر كان واضحاً وجلياً وهو يؤكد موقف الإسلام والمسلمين ضد النذالة والخسة التى حدثت فى الهجوم على كنيسة القديسين.. كان صوت الحق الذى يعبر عنه لأن الإسلام لم يكن يوماً مرادفاً للإرهاب.. ولم يكن يوماً ضد أى دين..!!

كان الموقف الرائع لإمامنا الأكبر والذى هزنى وجعلنى أمسك بالقلم لأكتب هذه الكلمات هو موقفه من وفد كتلة البرلمان الألمانى.. ولمن لم يتابع فإن وفد الكتلة البرلمانية الألمانية هو وفد مشترك يمثل الحزب الديمقراطى المسيحى فى البرلمان الألمانى.. وممثلى الكنائس فى ألمانيا.

وهذا الوفد البرلمانى الألمانى جاء إلى مصر بعد حادث الإسكندرية بهدف المتابعة والاطمئنان- على حد زعمهم- على المسيحيين فى مصر وهو موقف مرفوض وكما حدده أحمد أبوالغيط وزير الخارجية فإن الاتحاد الأوروبى- أو أى دولة أوروبية- ليس جهة تقييم للأداء المصرى فيما يتعلق بموضوع يقع فى صميم الشأن الداخلى المصرى مثل تعامل الدولة مع الأقباط وعلاقة المسيحيين والمسلمين.

شيخنا الجليل عندما التقى الوفد الألمانى حاورهم بالمنطق والحجة.. تحدث معهم بلغتهم التى يفهمونها.. لأنه خريج السوربون كما هو خريج الأزهر.. كما أنه أستاذ الفلسفة والعقيدة.. وله مؤلفات معتبرة فى هذا المجال.

عندما قال رئيس الكتلة المسيحية إنه حضر لكى يتقصى الحقائق حول حادث كنيسة القديسين.. رفض إمامنا الأكبر هذا المنطق وأعلن رفضه القاطع قائلاً: إن الأقباط فى مصر جزء رئيسى من نسيج المجتمع ومواطنون مصريون يتمتعون بحقوق المواطنة الكاملة ولا يحتاجون لحماية أحد.

ثم أكد على الحقيقة التى يشهد بها التاريخ لكنها فيما يبدو تحتاج لأن نعيدها على مسامع العالم كمسلمين ومسيحيين حيث قال: المصرى المسلم أقرب للمصرى المسيحى فى أى دولة أو جهة خارجية لأنهم إخوة فى الوطن والعيش المشترك ونحن نعتصم جميعا بوحدتنا الوطنية التى صمدت فى مواجهة كل الظروف لقرون عديدة ولا نحتاج تدخلات من أى جهة.

ثم سألهم الإمام الأكبر بعد أن شكرهم على الاهتمام بالمسيحيين من أبناء مصر هل كان اهتمامكم أيضاً بالفلسطينيين خاصة المسيحيين منهم؟ هل كان لكم نفس قدر من الاهتمام بالعراقيين خاصة المسيحيين..؟ وأضاف: كنا نتمنى أن يكون التضامن أيضاً للعراق مسلميه ومسيحييه.

أضاف: إننا نحرص فى مصر على أن يبقى إخواننا الأقباط جزءاً رئيسياً من المجتمع يسهم فى تقدمه ورخائه.. لأن المسيحيين عاشوا آمنين مطمئنين لمدة ١٤ قرناً من الزمان قبل أن توجد المنظمات الدولية وقبل أن يكون للدول الأوروبية قدرة على التدخل ولم يمسهم سوء ولم يتعرضوا لأى أذى.

ثم وضع إمامنا الأكبر النقاط فوق حروف الحقيقة قائلاً: إننا لم نعرف مطلقاً سياسات التطهير الدينى والعرقى التى شهدتها أوروبا لأن المسلمين هم الذين احتضنوا اليهود عندما قامت الدولة المسيحية بإسبانيا بطردهم.. أما الشرق الإسلامى فقد اعتز دائماً بأن يكون جامعاً للمؤمنين فى كافة الأديان..!!

إمامنا الأكبر شيخ الأزهر كان واضحاً وحاسماً- كعادته- لأنه يتحدث بلسان المؤمن الواثق من نصر الله لذلك قال للوفد الألمانى: «إن دعوة تقسيم منطقتنا إلى مسلمين وأقباط تجزئة للمبادئ والمثل الإنسانية العليا وتجزئة لرسالة السيد المسيح لا نقبلها منكم».

إمامنا الأكبر.. قواك الله ومنحك الصحة والعافية.. وسدد خطاك لتظل لسان حق وصدق تنطق باسم سماحة الإسلام وعزة الإسلام وقوة الحق والاعتدال.. لأنك المثل الحقيقى لوسطية الإسلام.. والمتحدث الرسمى باسم الوسطية والاعتدال والمنطق والحجة والبرهان فى ديننا الحنيف.

إمامنا الأكبر.. وفقك الله وسدد خطاك للحق.. فى مواجهة الفكر المنحرف الضال الذى يسئ للإسلام قبل أن يسئ لإخوتنا المسيحيين.

تحية لك يا إمامنا الأكبر على مبادرتك الإنسانية الرائعة التى تعبر عن الانتماء لهذا الوطن «بيت العائلة».. والمهم أن تبدأ فى تفعيلها فوراً.. لأن العقلاء فى هذا الوطن كثيرون ويساندونك فى دعوتك الإنسانية.

إمامنا الأكبر وفقك الله لتظل صوت الحق

الحياة

الفاتيكان والمواقف الغامضة

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ/ عبدالعزيز بن عثمان التويجرى بجريدة الحياة الصادرة فى: ٢٠١١/١/١٨م يقول:

● التصريحات التى صدرت أخيراً عن بابا الفاتيكان بنديكتوس السادس عشر، فى شأن ما زعم أنه «حماية الأقليات المسيحية فى العالم الإسلامى»، تعد بجميع المقاييس، تدخلاً فى الشئون الداخلية للدول التى قصدها، وهى فى المقام الأول مصر والعراق وباكستان ونيجيريا. فالبابا، إضافة إلى رئاسته الكنيسة الكاثوليكية وحمله لقب الحبر الأعظم، هو رئيس دولة تتمتع بصفة مراقب فى دورات الجمعية العامة للأمم المتحدة وأعمالها، وتوفد سفراء لها معتمدين إلى دول العالم. وبهذا الاعتبار يسرى على حاضرة الفاتيكان القانون الدولى والأعراف الدبلوماسية، وهذه هى المرة الثانية التى تصدر عن بابا الفاتيكان تصريحات من هذا القبيل، حيث كانت المرة الأولى، فى أعقاب الحادث الإرهابى الإجرامى الذى وقع على أبواب كنيسة القديسين فى الإسكندرية ليلة رأس السنة الميلادية.

وقد ردّ عليه شيخ الأزهر الدكتور أحمد الطيب، فى بيان شاف، أوضح فيه حقائق الأمور، مستنكرا أن يتدخل بابا الفاتيكان فى الأمور الداخلية المصرية، والمرة الثانية كانت حين استقبل البابا السفراء الأجانب المعتمدين لدى حاضرة الفاتيكان، ووجه لهم كلاماً سياسياً فيه تدخل سافر فى شئون دول مستقلة ذات سيادة. وقد بادرت الحكومة المصرية إلى استدعاء سفيرتها لدى الفاتيكان، فى إشارة واضحة إلى شجبها واعتراضها على التصريحات البابوية التى مست بسيادة الدولة المصرية.

وليس يهمنا من أمر الفاتيكان أن تتخذ من السياسات ما تخدم به مصالحها، ولكن يهمنا أن نكشف فى هذا السياق، الأبعاد السياسية الفاتيكانية المنحازة إلى إسرائيل والصهيونية، وأن نؤكد أن التدخل فى الشئون الداخلية لدول العالم الإسلامى، من حاضرة الفاتيكان أو من غيرها، مسألة مرفوضة على الإطلاق.

ففى تشرين الأول (أكتوبر) عقد فى حاضرة الفاتيكان، اجتماع الأساقفة الكاثوليك الشرقيين المعروف بـ«السينودوس».

الذى تناول القضايا التالية:

- الصراع الفلسطينى - الإسرائيلى.
- علمنة المجتمعات الإسلامية.

ـ التصدى والمواجهة لظواهر «الإسلام السياسي» و «الأسلمة».

بل طلبت الوثيقة المشار إليها، التدخل الخارجي الغربي ـ السياسي والديني ـ في شئون أوطان الشرق. فهي إذن «ورقة عمل» سياسية، تمثل جدول أعمال سياسياً، يعقده بطاركة وأساقفة، هم زعماء سياسيون في كنائس الشرق.

وفي الوقت الذي تتدخل الفاتيكان في صميم الشئون الداخلية للدول، (والمقصود هنا حصرا دول من العالم الإسلام)، نجدها تعزز سياسة التقارب مع دولة العدوان التي تمارس أبشع الجرائم ضد الإنسانية التي ذهب ضحيتها، بالدرجة الأولى، المواطنون الفلسطينيون المسلمون. فلا كلمة واحدة وردت في هذه الوثيقة عن القدس التي تجهز الصهيونية اليوم على عروبتها، ولا أثر لحقوق الشعب الفلسطيني الذي اغتصبت أرضه ودنست مقدساته. ولا كلمة في هذه الوثيقة، عن المقدسات الإسلامية المهددة بالهدم في القدس.

وهذا يفضي بنا إلى حقيقية مخيفة تستدعي منا أن ننتبه لها. فهل يعيد التاريخ نفسه، فتعود الفاتيكان والدول الغربية المسيحية، إلى فرض الوصاية على المواطنين المسيحيين في دول العالم الإسلامي تحت دعوى حماية الأقليات المسيحية؟.

ذلك هو الخطر المحدق بالعالم الإسلامي الذي يستوجب أقصى حد من اليقظة والحذر والوعي بحقائق السياسة الاستعمارية الجديدة التي تلتحف بالعباءة الدينية، كما في زمن الحروب الصليبية، والعمل على مواجهتها بالتضامن، ووحدة المواقف، وقوة الدفاع عن المصالح العليا.

الشروق

سباق على نفط الجنوب

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ/ سلامة أحمد سلامة المنشور بجريدة «الشروق» بعددها الصادرة: ١٥/١/٢٠١١م يقول فيه:

لم يكن الحضور الأمريكي القوي في الجنوب السوداني قبل وبعد وأثناء الاستفتاء على الخطوة الأخيرة في عملية الانفصال عن الشمال، والتحذيرات والإغراءات التي أخذ يطلقها جون كيري رئيس لجنة الشئون الخارجية في مجلس الشيوخ الأمريكي، يعاونه فريق كبير من الخبراء والناشطين ضم فيمن يضم نجم السينما المشهور جورج كلوني، غير مؤشر على بداية الصراع المنتظر بين أمريكا والصين على المخزون الهائل من النفط في الجنوب، والذي يقدر حجم احتياطاته المؤكدة بخمسة بلايين طن طبقاً لتقديرات الخبراء.

ولم يكن هذا الصراع وليد اليوم، فقد بدأ السباق على استكشاف النفط في الجنوب بين شركات البترول الغربية: إيطالية وفرنسية وأمريكية منذ عام ١٩٥٩م، ولكن المعارك التي نشبت في دارفور، ثم بين الخرطوم والجيش الشعبي في الجنوب حالت دون استمرار هذه الشركات في محاولاتها، بينما نجحت الصين في وضع أقدامها بالاتفاق مع الخرطوم، واستحوذت الشركات الصينية بمرور الوقت على نسبة كبيرة من حقوق التنقيب بالإضافة إلى شركات ماليزية وهندية وأندونيسية وبعض شركات عربية صغيرة.

وبينما كانت الدول الغربية تعمل على عرقلة عمليات الاستكشاف والتنقيب من جانب الدول الأخرى، كانت الصين قد توصلت مع الخرطوم إلى عقود مكنتها من الهيمنة على نصف نفط الجنوب الذي يشكل نحو ٨٥ بالمائة من النفط في السودان.

الآن. تستعد أطراف مختلفة لقطف الثمار في جنوب السودان بعد الانفصال. ويرى الخبراء أن السباق بدأ بالفعل وليس الصينيون وحدهم في هذا المضمار، خصوصا بعد أن أخذ الجنوبيون يولون وجوههم شطر الغرب بعيدا عن نفوذ الخرطوم، وتحت تأثير المساعدات الأمريكية المتدفقة على جوبا، حيث تفتقر البلاد إلى الطرق والمنشآت والبنية التحتية. وربما تكون مصر قد ضمنت لنفسها موقع قدم. فهي أول دولة افتتحت قنصلية في جوبا بعد توقيع اتفاقية السلام. وقدمت مساعدات تقدر بأكثر من ٣٠٠ مليون دولار في مجالات مختلفة لبناء المدارس وإنشاء عيادات طبية ومد الكهرباء، وإقامة فرع جامعة الإسكندرية.

ويدرك الصينيون الذين يملكون أكبر الاستثمارات في الجنوب أن الأمريكيين لن يتركوا جائزتهم الكبرى من نفط الجنوب للصينيين وحدهم. وهو ما أخذ الصينيون يستعدون لمواجهته، حيث وجهت بكين الدعوات لوفود من الجبهة الشعبية أكثر من مرة بعد أن قوى ارتباط نظام سلفاكير في جوبا بالسياسات والمصالح الأمريكية.

ومن هنا يمكن فهم أسباب الاندفاع الأمريكي إلى تأييد الانفصال، بعد أن تدهورت العلاقات بين واشنطن والخرطوم، ووضعت السودان على قائمة الدول الحاضنة للإرهاب. كما شاركت واشنطن في الحملة الدولية لتقديم الرئيس عمر البشير إلى المحكمة الجنائية الدولية بتهمة الإبادة العنصرية في دارفور. وقد وعدت إدارة أوباما برفع السودان من قائمة الإرهاب وإعادة العلاقات إذا أيدت الخرطوم عملية الانفصال.

وعلى الرغم من أن اتفاق نيفاشا الذي بناء عليه تم الانفصال، ينص على اقتسام الريع النفطي بالتساوي بين الشمال والجنوب، إلا أنه بمجرد انتهاء الاستفتاء وإعلان الانفصال فإن معظم الحقول النفطية ستنتقل ملكيتها إلى الجنوب لأنها تقع في أراضيه ولا تبقى غير نسبة ضئيلة من حقول النفط في الشمال. وهو ما سوف يفتح باباً للخلاف ويقتضي إعادة النظر بين الطرفين للاتفاق على أسلوب جديد في تقسيم النفط، علماً بأن تصدير النفط يتم حاليا عن طريق خطوط أنابيب تمر عبر شمال السودان وتصب في بورسودان على البحر الأحمر. ولا تملك دولة الجنوب منفذاً على البحر، مما يستلزم استخدام خطوط الأنابيب الحالية. فضلاً عما سيطالب به الشمال من دفع رسوم للعبور، «الترانزيت» للنفط الجنوبي عبر أراضيه.

في كل هذه المشكلات التي تبدو بعيدة أو مؤجلة لبعض الوقت، يضع الأمريكيون أصابعهم وخططهم للتدخل. والمؤكد أن السباق المحموم على ثروات الجنوب قد بدأ.. وأن القادم لن يكون أفضل كثيراً مما مضى!.

تطبيقات واعدة لتكنولوجيا النانو والفمتو

٣

للأستاذ الدكتور / أحمد فؤاد باشا
أستاذ الفيزياء - جامعة القاهرة

(أ) فى مجالات البيئة والمياه والطاقة

تهتم المراكز البحثية العالمية حاليا باستخدامات تكنولوجيا النانو فى مجال حماية البيئة ومقاومة التدهور البيئى وعلاجه، وتظهر النتائج الحديثة قدرة هذه التقنية على إزالة الملوثات من المياه السطحية والجوفية وإزالة العوالق والملوثات فى الهواء واكتشاف عدد كبير ومتنوع من الملوثات المتعددة على المستوى الجزئى فى البيئات الجوية أو المائية أو فى التربة، وتتواصل جهود العلماء من أجل تحضير مواد نانوية جديدة - وابتكار نظم حديثة تستطيع تنقية مياه الصرف الصحى والصرف الصناعى، واستخلاص مافيها من ملوثات كيميائية ضارة وذلك عن طريق المحفزات الكيميائية والمرشحات ذات المسام النانوية. وإذا كانت مشكلة تلوث الهواء بأبخرة المواد الكيميائية والعضوية قد تفاقمت كثيرا فى البلدان الصناعية، والبلدان المنتجة للنفط والغاز، والبلدان النامية والفقيرة على حد سواء تقريبا، فإن المجسات النانوية Nanosensors أصبحت من الأدوات الضرورية الموثوق بمصداقيتها وإمكاناتها لرصد ومتابعة مستويات التلوث من جهة وللتنبؤ بالتدهور والكوارث البيئية من جهة أخرى.

كذلك أدى البحث والتطوير فى مجال المجسّات النانوية إلى إنتاج أنواع متقدمة منها تستخدم فى تقويم البيئة البحرية ورصد الملوثات البحرية نظرا لما يمثله ذلك من ضرورة ملحة تفرضها أهمية تلك البيئة خاصة مع ازدياد التهديدات التى تواجه البحار والمحيطات لسبب تزايد الملوثات والمخلفات الهيدروكربون فيها وتعد مجسات الهيدروكربونية النانوية الكيميائية ذات أثر كبير حاليا فى الكشف عن الملوثات الهيدروكربونية والتمييز بين أنواعها وأيضا فى رصد المواد الهيدروكربونية المتسربة من آثار الغاز والبترول غير المستعملة والموجودة فى قيعان البحار والمحيطات والتفرقة بينها وبين الملوثات العضوية للمياه.

ويمتد استخدام التقنية النانوية ليشمل رصد حرائق الغابات وتعقبها على غرار ما حدث عندما استخدمت الوكالة الأمريكية للفضاء «ناسا» أنواعا متقدمة من المجسات الحرارية النانوية التركيب فى رصد وتعقب حرائق الغابات التى اندلعت بولاية كاليفورنيا فى أكتوبر من عام ٢٠٠٧م.

كما يشمل الكشف عن الألغام والمتفجرات التى تستخدم كشراك موقوتة لاستهداف الضحايا مثلما يشمل تعيين وتحليل المقادير الضئيلة لملوثات الهواء داخل المركبات الفضائية المغلقة.

من ناحية أخرى تمثل تكنولوجيا النانو النظيفة حلاً أمثل لكثير من المشكلات البيئية التى أصبحت خطرا يهدد الحياة على كوكب الأرض بأكمله ويمكن أن يتم ذلك على نحو أفضل باستغلال وتطوير بحوث التصنيع والطاقة النظيفة للتقليل من حجم المخلفات الضارة، وأيضا بتطوير إنتاج مواد نانوية محفزة يمكنها رفع كفاءة التصنيع عن طريق التخلص من المواد السامة أو المنتجات النهائية الملوثة بالإضافة إلى تحسين كفاءة العمليات الصناعية وإنتاج الطاقة البديلة باستخدام الخلايا الشمسية المتطورة وخلايا الوقود وغيرها.

على سبيل المثال يلقى موضوع الطاقة النظيفة اهتماما كبيرا من جانب علماء التقانة النانوية وخاصة فيما يتعلق بحلم استغلال الطاقة الشمسية التى تهدد بحقيقة الزيادة المستمرة فى أسعار مادة السيليكون متعدد البلورات التى ماغالبا تستخدم فى صناعة الخلايا الشمسية، وكان من بين الخطوات الابتكارية التى أحيت الأمل مجددا فى تطوير استخدام هذا النوع من الطاقات الجديدة والمتجددة استخدام الأغشية والرقائق النانوية بالإضافة إلى حبيبات البلورات النانوية ثلاثية الأبعاد، فى تصنيع خلايا فوتوفلولطية ترتفع كفاءتها إلى نحو ٦٠٪ أى ضعف الكفاءة النظرية لمادة السيلكون وتتميز المواد النانوية بصورة عامة والحبيبات البلورية بخاصة بقدراتها الفائقة على استغلال وامتصاص جميع فوتونات ضوء الشمس على اختلاف أطوالها الموجية وبذلك ترفع من كفاءة الخلايا الفوتوفولطية وتقلل من قيمة الطاقة وغير المستغل من الفوتونات ذات الطاقة الأقل التى تعجز عن تحرير إليكترونات المدارات الخارجية للذرات.

ولعل أحدث ماينشغل به العلماء حالياً لتعظيم الإفادة من الآلات النانوية الحجم هو استحداث مولدات نانوية ذاتية التغذية يؤمل لها فى المستقبل القريب أن تستخدم لجمع وتدوير الطاقة المبددة فى حياتنا اليومية كتلك المتولدة من تغيرات الضغط فى إطار السيارات أو من الاهتزاز الميكانيكى لعربة متحركة أو حتى من اهتزاز سطح خيمة فى معسكر أو غير ذلك من العدد الكبير لمصادر الطاقة الصغيرة التى تحيط بنا إلى هذا الحد من الاهتمام

البحثى استطاعت تكنولوجيا النانو أن توجه أنظار العلماء والتقنيين إلى ضرورة البحث عن حاصدات طاقة من البيئة المحيطة.

ب - فى مجالات الطب والدواء والغذاء

«طب النانو» هو أحد المجالات الطبية التى تهدف إلى اكتشاف الأمراض أو علاج الأنسجة التالفة فى العظام أو العضلات أو الأعصاب على مستوى الجزيئات ويتوقع العلماء والأطباء أن يتحقق ذلك الحلم بحلول عام ٢٠١٥ وقام المعهد القومى للصحة بالولايات المتحدة بإطلاق مبادرة طب النانو وتحديد الأهداف الرئيسية لهذه المبادرة فيما يلى:

١- التوصل إلى سبل للاكتشاف المبكر للخلايا السرطانية والقضاء عليها.

٢- إزالة أجزاء الخلايا التالفة واستبدالها بأجهزة متناهية الصغر.

٣- تطوير وزراعة المضخات الجزيئية لحقن الأدوية بخلايا معينة بالجسم.

ويمكن الإفادة من «علم النانو» فى حل كثير من المشكلات الطبية التى تتعلق بالتشخيص وتخزين المعلومات الوراثية واسترجاعها واكتشاف استعداد المريض للإصابة بالأمراض عموما مثل مرض الزهايمر واستهداف الخلايا والعلاج الجينى وابتكار أدوية تعتمد على الاختلافات الكرموزومية.

وتتيح تكنولوجيا النانو التى طورها علماء الوراثة والبيولوجيا الجزيئية والكيمياء الحيوية والهندسة البيولوجية وغيرهم الفرصة لابتكار عقاقير جديدة لعلاج الكثير من الأمراض.

وقد سبق أن أشرنا إلى دور "الطبقة البلورية النانوية" فى علاج الأورام السرطانية حيث إنها صممت بحيث تمتص الأشعة تحت الحمراء القريبة دون أن ترفع درجة حرارة الأنسجة المحيطة السليمة، كما أشرنا إلى الدور المتوقع للمولدات النانوية ذاتية التغذية فى مجال الطب والعلاج حيث يمكن مثلا شحن بطارية منظم دقات القلب بدون الحاجة إلى تبديلها أو يمكن مجسّات نانوية لاسلكية مزروعة فى الجسم أن تراقب مستوى السكر فى دم المرضى.

إن الطاقة المبددة على شكل اهتزازات أو حركات (جريان الدم، الشهيق، الزفير، المشى، ....) أو حتى نبضات القلب يمكن حصرها لتشغيل مثل تلك الأدوات النانوية.

ويطمح الأطباء إلى صناعة إنسان آلى نانوى، أو "نانو روبوت" Nanorobot قادر على التحرك داخل جسم الإنسان لمعالجة الخلايا المريضة وحقن الأدوية فى المكان والوقت المناسبين ومن المنتظر أن تؤدى هذه القفزة النوعية فى طرق العلاج إلى تحولات جذرية فى تحضيرات الأدوية ويتوقع العلماء أنه سيكون بالإمكان خلال العقدين القادمين توجيه حركة الجزيئات مغناطيسيا من خارج الجسم لجعلها تبلغ

نقطة معينة داخل الجسم وتؤدى مهمتها هناك والأمر يتطلب بطبيعة الحال دراسة مدى استجابة جهاز المناعة الطبيعى لهذه الأدوات النانوية.

أما فى مجال الغذاء فهناك كثير من المواد النانوية التى دخلت بالفعل فى عدد من المنتجات والمكملات الغذائية، إضافة إلى دخولها فى مجال تعبئة وتغليف وتخزين الأغذية والمنتجات الزراعية، وقد ابتكرت إحدى الشركات الألمانية المتخصصة فى إنتاج وتعبئة اللحوم المحفوظة بعض الإضافات من حبيبات غروية لا تزيد أقطارها على ٣٠ نانو متر، يتم إعدادها على شكل كبسولات تحتوى بداخلها على مكملات غذائية مثل فيتامينات ج، هـ، وكذلك الأحماض الدهنية التى يمكن استخدامها كمواد حافظة بحيث لا ينجم عنها أى أضرار أو مشكلات صحية.

ويتم الآن تزويد العبوات الغذائية بمجسّات نانوية تعمل على مراقبة الحالة الداخلية والخارجية للمنتجات الغذائية المحفوظة وحالة الحاويات والحافلات الناقلة لها، أو غرف حفظ الأغذية وأمكنة عرضها، وذلك بهدف استشعار أية تغير أو نشاط بكتيرى أو ميكروبى قد يطرأ عليها، وتعتمد آليات عمل هذه المجسّات النانوية على التغير التدريجى الذى يحدث فى ألوان المادة النانوية المكونة لتلك المجسات، ويكون مصاحبا لوجود أى نشاط بكتيرى أو ميكروبى عند تركيزات شديدة الانخفاض.

ج. فى مجالات حيوية أخرى:

لاشك فى أن الطريق أمام تطور الجيل الحالى من تقنيات النانو لا يزال طويلا، ومعظم الإنجازات التى تحققت لا تزال فى طور الاختبار والتحليل.

ففى مجال الصناعات البترولية مثلا تقوم بعض الشركات بتطوير تقنيات مثل مجسات الإنسان الآلى النانوى (النانوروبوت) للكشف عن مستوى المخزون النفطى ومواقعه فى الحقول.

كذلك تستخدم التقنية النانوية فى عمليات السيطرة على الصدأ والتآكل الميكانيكى والكيميائى فى المنشآت النفطية، ولاسيما فى المصافى والمعدات النفطية المختلفة، وفى مجال التغلب على الاحتكاك بين القطع والآلات الميكانيكية.

وحينئذ يمكن الاستغناء عن مواد التزييت والتشحيم، وبهذا يزداد عمر الآلات وكفاءتها.

وتسعى الشركات النفطية إلى الإفادة من التقانة النانوية فى معالجة النفايات السائلة الناتجة عن المصانع المختلفة، ومنها مخلفات مصانع المواد البتروكيميائية ومخلفات المصافى، وذلك عن طريق ضخ جزيئات نانوية عبر التربة لتصل إلى مناطق وجود النفايات والعمل على تحطيم مكوناتها وتحويلها إلى مواد غير ضارة عبر تفاعلات كيميائية خاصة.

وهناك تطبيقات أخرى عديدة لتكنولوجيا النانو تشمل تقنيات المواد والاتصالات والمعلومات والطيران والفضاء والبحث العلمى والتعليم وغيرها.

د. تطبيقات مستقبلية

بين الحقيقة والخيال

يؤمل في المستقبل القريب أن تمتد تطبيقات تكنولوجيا النانو لتشمل جميع مناحي الحياة تقريباً، خاصة إذا ماحدث المزج بين طريقتي التصنيع من الأعلى إلى الأدنى ومن الأدنى نحو الأعلى للحصول على عناصر نانوية جديدة تستخدم في مختلف المجالات.

لكن نزعة الاهتمام بتكنولوجيا النانو إلى حد الخيال قد زادت خلال السنوات الأخيرة على نحو غريب.

وعندما طرح الرئيس الأمريكي الأسبق «بيل كلينتون» في خطاب له عام ٢٠٠٠م المبادرة الوطنية لتكنولوجيا النانو كان مفعما بآمال خيالية، حيث أشار إلى أن هذه التكنولوجيا قد تخزن يوما ما في مكتبة الكونجرس على جهاز بحجم مكعب السكر أو تنتج موادا لها عشرة أضعاف متانة الفولاذ وجزء ضئيل جداً من وزنه.

بل إن أحلام البعض قد شابها قدر كبير من الخذر عندما تحدثوا عما أسموه روبوتات نانوية لا تكبر جزيئات سكر أينشتين إلا قليلا، وهي - فيما يتخيلونها - مبرمجة بحيث يمكنها أن تجدد نفسها، وأن تتحكم بالأشياء لدرجة تستطيع معها أن تنتج فعليا أي سلعة مادية، وأن تخفض حرارة الكرة الأرضية، وأن تشفي الأمراض، وتطيل أمد الحياة، وتحقق ثراء لامحدوداً كما يتنبأ هؤلاء في الوقت نفسه بما يمكن أن يحدث من دمار شامل في «حرب النانو» القادمة التي تشنها حشود من هذه الربوتات التي يستحيل السيطرة عليها.

وما بين أحلام المتفائلين الوردية، وتفاهات الواهمين الخرافية، يعمل العلماء والتقنيون حاليا في مجالات تقنية النانو على قدم وساق لإرساء قواعد ثورة صناعية جديدة تغير كثيرا من وجه الحياة على الأرض. فالطريق لايزال طويلا لاكتساب المعرفة المعمقة التي ستكون في لب التقنية النانوية المستقبلية وخاصة فيما يتعلق بصعوبة الاتصال بين العالم النانوي Nanocosm والعالم الماكروي macro-cosm

ثم ماذا بعد؟!

وأخيراً يبقى أمامنا سؤال ينتظر الجواب. ثم ماذا بعد؟ هل تكون تكنولوجيا النانو هي نهاية الأجيال وآخر المطاف في تاريخ تكنولوجيا التصغير؟ أم أن التقدم التقني في اتجاه الكيانات الأصغر حجما سوف يواصل تقدمه الطبيعي مستقلا إلى عالم البيكو ($١٠^{-١٢}$ من المتر) ثم إلى عالم الفمتو ($١٠^{-١٥}$ من المتر) وربما إلى عالم الآتو ($١٠^{-١٨}$ من متر) وحينئذ يكون التعامل مع مكونات النواة الذرية من بروتونات ونيوترونات أو حتى كواركات؟! ولنتذكر أن «الكاميرا الفمتو» التي استخدمها «أحمد زويل» ساعدتنا على رؤية تحركات ذرات المادة ورصد تفاعلاتها، بعد أن كنا نتخيلها واختصرت جيلين من العمر الباقي لتكنولوجيا المستقبل..

دور الأسرة في نبذ العنف من المجتمع

للمستشار / حسن منصور
نائب رئيس محكمة النقض

خلق الله تعالى الإنسان، وركب فيه نوازع الخير والشر، وترك له حرية اختيار سلوك الطريق الموصل إلى أيهما، ولذا قال عنه:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (الشمس: ٧/ ١٠)

ومن فضله تعالى على هذا الإنسان أن جعل جانب الخير فيه، هو الغالب على جانب الشر، بما منحه من غريزة اللوم عقب فعل الشر، فيتراجع عن هذا الفعل، وقد يندم عليه، وقد لا يفكر في العودة إليه أو إلى مثله بعد ذلك، وعلى أية حال، فإن الأرض منذ بداية الخليقة.

وحتى الآن تعاني من الصراع بين الخير والشر وبين الحق والباطل، ومن ثم فإنها لم ولن تخلو من بعض مظاهر العنف، في أي وقت من الزمن الماضي أو الحاضر وربما في الآتي منه.

وإذا لم يكن بمقدور الإنسان أن يقضي على الشر بكل أشكاله ومنها العنف، فعلى الأقل، يجب عليه محاولة محاصرته، فلا يقع إلا في أضيق الحدود، ولهذا فإن على كل إنسان يتطلع إلى حياة آمنة، بعيدة عن أي مظهر للعنف، أن يبذل أقصى ما يملك من جهد وطاقة، في تدارك أية خطوة موصلة إليه.

وإذا كان الأمر كذلك، فمن العقل والمنطق، عدم إلصاق العنف بمجتمع معين بذاته دون غيره من مجتمعات هذه الأرض، بدعوى الانتماء لفكر أو دين أو مذهب معين، على نحو ما تذهب إليه بعض دول حضارة الغرب، من اتهام كثير من أتباع دين الإسلام بالعنف والإرهاب، وما نسبوا لبعضهم ارتكاب جرائم معينة، تنم عن اتخاذهم هذا النهج سبيلا، بل إن بعض مفكري هذه الحضارة ربطوا بين هذا العنف وبين هذا الدين ذاته، ففي الآونة

الأخيرة، وفى أحدث ما كتب فى بلاد الحضارة عن الحرب التى يقودونها ضد ما أسموه بالإرهاب، صدر كتاب بعنوان: «ما بعد بوش» لتيموثى لينش وروبرت سينج، وهما من كبار أساتذة العلوم السياسية فى جامعات بريطانيا، اللذين خلصا فيه إلى القول: وحتى يستطيع المسلمون إعادة صياغة دينهم، إلى معتقدات أساسها الاعتدال، فمن الصعب أن نرى الإسلام والغرب يعيشان فى سلام، ويتفاديان حربا دائمة على عدة جبهات، لكننا كمجتمعات غربية نعيش فى عالم يستحيل التعايش فيه مع أنظمة إسلامية وعدوانية.

وإذا كان فى مثل هذه الدعاوى من وجه للخير، فإنها تجعل المسلمين فى وضع الدفاع الدائم عن دينهم وعقيدتهم، ومحاولة إعلام غيرهم بأوجه العظمة فى هذا الدين الحنيف، والتى ربما تكون خافية على البعض من هؤلاء المفكرين، وفى هذا الإطار يمكن الإشارة إلى رحابة الفكر الإسلامى، وخلوه من دواعى كراهية الآخرين، أو الدعوة إلى استعمال العنف مع أحد، ممن لا ينتمى إلى دين الإسلام، هذا الدين الذى جمع ما لا يحصى من روافد الخير والتسامح واليسر مع هؤلاء وتلك، سواء كان مصدرها الفرد ذاته أو الأسرة أو المجتمع المسلم ككل.

إن النظرة المتأملة فى كلمة «لتسكنوا» فى قول الحق تعالى:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾

(الروم: ٢١)

تبرز كثيرا من المعانى المفيدة، منها أن أصلها من الفعل «سكن» وهو من السكون الذى لا يكون إلا بعد حركة، فكأن هذه الكلمة تفيد أن الزوج المكلف بالحركة فى الحياة، سعياً فى مناكب الأرض، لتحصيل الرزق لمن يعول، لابد له بعد هذه الحركة أن يسكن، ولا يتحقق له هذا السكون، إلا مع زوجته داخل البيت الذى يضمهما.

والسكن الزوجى ضرورى لاستقرار كيان الأسرة، ومن هنا كان حرص الشريعة الغراء على وضع مقومات بقاء هذا الاستقرار، وطلبت من الزوجين معاً، العمل على قيام موجبات استدامة هذا السكن بينهما، وهذه الموجبات كثيرة ومتعددة، ومنها على سبيل المثال، الآتى:-

أولا: المحافظة على كيان الأسرة

من الواجب على كل من أطراف العلاقة الزوجية، أن يحافظ على كيان الأسرة التى ينتمى إليها، تحقيقاً للغايات السامية من وراء استقرارها للفرد والمجتمع على السواء، وإذا كانت الشريعة الغراء، قد أباحت الطلاق كوسيلة لعلاج بعض المشكلات الزوجية، التى يعجز الزوجان عن حلها، ولايكون أمامهما من سبيل إلا استجابة لمقتضى قول الحق تعالى:

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾

(النساء: ١٣٠)

إلا أن هذه الإباحة جاءت فى إطار من القيود والضوابط، التى جعلت من الطلاق أبغض الحلال، كما أخبر بذلك الرسول الكريم ﷺ، وهو حق لكل الزوجين، ولا ينفرد به أحدهما دون الآخر، كما قد يتصور البعض أنه خالص للزوج وحده، ولكن كل ما فى الأمر، أن الزوجة تملك الطلاق عن طريق القاضى، الذى يحل محل الزوج فى إيقاعه.

وليس هناك فى الشريعة الغراء ما يمنع الزوجة، من أن تطلب الطلاق عن طريق القاضى، بل، ولها أن تطلبه من زوجها، ولكن بشرط أن يكون هناك السبب الذى يبرر هذا الطلب، وإلا كانت آثمة شرعاً، وعقابها فى الآخرة على الله تعالى، فقد روى أبوداود والترمذى وابن ماجه وابن حبان عن ثوبان رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أيما امرأة سألت زوجها طلاقها، من غير بأس، فحرام عليها رائحة الجنة»، وفى الحديث المعلوم لكل مسلم، يقول الرسول ﷺ: «أبغض الحلال عند الله الطلاق»[1]، ومن الملاحظ أن نص هذا الحديث عام مطلق، يشمل كل من الزوجين، بحيث إذا لجأ الزوج إلى الطلاق من تلقاء نفسه، أو طلبت الزوجة منه دون مبرر، فإن كل منهما يكون قد ارتكب أبغض الحلال إلى الله تعالى، ويكون آثماً، ويستحق العقاب من الله تعالى فى الآخرة.

والذى عليه جمهور الفقهاء أن الخلع هو نوع من الطلاق، وعلى هذا فلا يجوز للزوجة أن تخالع زوجها دون أن يكون هناك ما يحملها على ذلك، فقد وصف رسول الله ﷺ من تفعل ذلك بالنفاق، فقد قال فيما رواه الترمذى بسنده عن ثوبان رضى الله عنه: «المختلعات هن المنافقات»، ولفظ المختلعات فى هذا الحديث، وإن كان قد جاء عاماً، إلا أنه ليس مطلقاً، بل هو مقيد بشرط، هو ألا تكون الزوجة قد طلبت الطلاق خلعاً من غير بأس، لأنها تكون فى هذه الحالة، قد أظهرت خلاف ما تبطن، إذ من شروط الخلع أن تقرر الزوجة أنها تبغض زوجها، وأنها لا تستطيع أن تقيم حدود الله معه، وهذه أمور باطنية تنطوى عليها سريرتها، فإن أبدتها على خلاف الحقيقة والواقع، كانت منافقة حقاً، وكما هو معلوم أن جزاء النفاق فى الآخرة عظيم، كما أخبر الله عنه بقوله:

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾

(النساء: ١٤٥)

ثانيا: الرعاية المادية والمعنوية

فمن الواجب علي رب الأسرة تحقيق هذه الرعاية، سواء الإعالة المادية أو المعنوية، وقد جاء ذلك النهى عن تضييعها، على لسان رسول الله ﷺ فى قوله: «كفى بالمرء إثماً، أن يضيع من يعول»[2]، وهو موجه إلى كل زوج لا يرعي أسرته، مادياً أو معنوياً، فمثلاً لا ينفق عليها، فهو زوج مستهتر، يفرط فى حق نفسه، وحق أسرته، وحق مجتمعه كله، بل وفى حق الله تعالى الذى كرمه، ومنحه حق الولاية على أفراد هذه الأسرة.

وقد حدد الرسول ﷺ، من يعولهم الزوج،

(١) سنن أبى داود.

(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم.

بقوله الشريف الذى رواه الحاكم والدارقطنى والإمام أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه: «خير الصدقة، ما كان عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، فقيل: يا رسول الله: من أعول؟، قال: امرأتك ممن تعول، تقول: أطعمنى وإلا فارقنى، جاريتك تقول: أطعمنى واستعملنى، ولدك يقول: إلى من تتركنى؟».

ولكن لا يجب لمثل هذا الزوج البليد أن يترك وشأنه، وينتظر جزاء إثمه فى الآخرة، بل يتحتم تعجيل هذا الجزاء فى الدنيا، وذلك بأن تلجأ هذه الزوجة وأولادها إلى القاضى لإلزامه بالإنفاق عليهم، وإلا حكم بحبسه، ويجوز للزوجة أن تطلب التطليق على هذا لعدم الانفاق عليها، حتى لا يتمادى فى غيه واستهتاره، فيضيع من يعولهم.

ولا تقتصر إعالة أفراد الأسرة على النواحى المادية، فهى تتعدى إلى كل ما يصلحهم معنويا، كالتربية والتوجيه، غرس القيم والأخلاق الحميدة فى نفوسهم، بل إن هذه الرعاية وإن كانت مادية، فيجب أن تراعى فيها الجوانب المعنوية، فمثلا، فى السعى على الرزق المادى يجب تحرى الحلال فيه؛ لأن الحرام يؤدى إلى إحباط الأعمال، كما أخبر الرسول ﷺ، بقوله: «إن العبد ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه، ما يتقبل منه عمل أربعين يوما»[٣].

ثانيا: العدل بين أفراد الأسرة

إذا كان العدل ضرورة إقامة التوازن فى الحياة، بل هو كما قيل أساس الملك، فإن أحوج ما يكون تطبيقا بين الرحماء من الأهل والأقارب، فإن الأب الذى يفرق بين أبنائه لأى سبب، يخالف صريح أمر رسول الله ﷺ فى قوله الشريف: «اعدلوا بين أولادكم فى العطية...»[٤]، وفى بعض الروايات، أمر الرسول بالتسوية بين الأبناء حتى فى القبلة، وقد وصف الرسول ﷺ هذا الظلم بالجور، ورفض الشهادة على عمل به فى الوصية لأحد أبنائه دون الآخرين، فقال: أشهد عليه غيرى، فأنا لا أشهد على جور»[٥]، والجور هو الظلم الشديد، وهل هناك ظلم أشد، من ظلم الرحماء وهم الوالدين، وليت الأمر يقف عند حد مخالفة صريح أمر الله ورسوله، فهناك ما هو أفظع من ذلك فى الدنيا، من تقطيع الأرحام، وبذر البغضاء والشحناء بين الأحياء، وفضلا عن اللعنات التى يصبها الأحياء على الأموات، وفى الآخرة نار السعير التى تنتظر المخالفين لشرع الله الحكيم وما هى من الظالمين ببعيد.

ومن ينظر فى واقع الحياة، يجد أن غياب العدل بين أفراد الأسرة يؤدى إلى أوخم العواقب، وقد يتسبب فى إزهاق أرواح أقرب الأقربين، فكثيرا ما تحمل صفحة الحوادث أخبارا عن جرائم قتل عمد من أخ لأخيه، لتفضيل المقتول على أخيه القاتل فى الميراث أو فى بعض الأشياء الأخرى وغير ذلك.

(٣) المعجم الأوسط للطبرانى.
(٤) صحيح البخارى.
(٥) صحيح البخارى.

ثالثا: نبذ العنف داخل الأسرة

من صور العنف فى حياة الأسرة، ما يقع من وقائع ضرب متبادل بين بعض الأزواج، أيا كانت الوسيلة المستعملة فيه، وأيا كان الغرض منه، حتى ولو كان ذلك بغرض التأديب، والأصل المقرر فى الشريعة الغراء عدم إباحة هذا الضرب؛ لأن الأساس الذى تقوم عليه الحياة الزوجية، هو المودة والرحمة، وفى الضرب تقويض لهذا الأساس، وفى بيان هذا الأصل يقول رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود والنسائى والبيهقى عن أبى ذباب الدوسى رضى الله عنه: «لا تضربوا إماء الله» قيل فذئر (تمرد) النساء، وساءت أخلاقهن على أزواجهن، فقال عمر رضى الله عنه: يا رسول الله ذئر النساء، وساءت أخلاقهن على أزواجهن، منذ نهيت عن ضربهن، فقال رسول الله: «فاضربوهن»، قال: فضرب الناس نساءهم تلك الليلة، قال: فأتى نساء كثير يشتكين الضرب، فقال رسول الله ﷺ، حين أصبح: «لقد طاف بآل محمد الليلة سبعون امرأة، كلهن يشتكين الضرب، وايم الله لا تجدون أولئك (أى الأزواج الذين يضربون زوجاتهم) خياركم».

إن صفة الأخيار إذا توافرت فى كل من الزوجين، فلا يتصور أن يكون هناك عنف فى حياتهما، لأن كل منهما عرف ما له من حقوق، وما عليه من واجبات، فيؤدى ما عليه من واجبات، ويأخذ ما له من حقوق، فيسود بينهما التسامح، فيما قد يقع من أى منهما من تجاوز فى معاملة الآخر، ومن ثم يقوى الأساس الذى تبنى عليه الحياة الزوجية، فإذا وقع أى اعتداء بالضرب من الزوج على زوجته بعد ذلك، فإنه يكون بلا مبرر، وتنزع من المعتدى صفة الأخيار، بل يكون من الأشرار، ويستحق العقاب المناسب، الذى يقرره ولى الأمر لهذا الفعل.

ولكن قد يكون الضرب، إحدى وسائل منع الزوجة من الوقوع فى النشوز، كما جاء فى قول الحق تعالى:

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾

(النساء: ٣٤)

والمقصود بهذا الضرب، رغم سمو الغاية منه، هو الضرب غير المبرح، ومعياره كما ذكر العلماء، هو الذى لا يسيل دما، ولا يكسر عظما، كما لو كان باستعمال السواك، ويجب ألا يكون على الوجه، لقول الرسول ﷺ، الذى رواه الحاكم والطبرانى عن معاوية بن حيدة رضى الله عنه، حق المرأة على الزوج، أن يطعمها إذا طعم، ويكسوها إذا اكتسى، ولا يضرب الوجه، ولا يقبح، ولا يهجر إلا فى البيت.

والله تعالى ولى التوفيق...

طرائف.. ومواقف

لفضيلة الشيخ/ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

حكم نبوية

لعيسى عليه السلام في كتبنا حكم كثيرة منها قوله للحواريين:

«اتخذوا المساجد بيوتا والبيوت منازل، وكلوا بقل البرية، واشربوا الماء القراح، وانجوا من الدنيا سالمين».

وقال عليه السلام: «لا تنظروا في أعمال الناس كأنكم أرباب، وانظروا في أعمالكم كأنكم عبيد، فإنما الناس رجلان مبتلى ومعافى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية».

وقال عليه السلام لحوارييه: «عجبا لكم تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بعمل».

وقال عليه السلام: «ألا أخبركم بخيركم مجالسة؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: من تذكركم بالله رؤيته، ويزيد في عملكم منطقه، ويسوقكم إلى الجنة عمله».

أيحاسب الخليفة؟

روى ابن كثير أن أبازرعة دخل على الوليد ابن عبدالملك فقال له الوليد: أخبرني أيحاسب الخليفة، فإنك قد قرأت القرآن وفقهت؟

فقال يا أمير المؤمنين: أأنت أكرم على الله من نبيه داود - عليه السلام -؟ إن الله - تعالى - جمع له بين الخلافة والنبوة، ثم توعده في كتابه، فقال:

﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾

(سورة ص: ٢٦)

فكانت موعظة بليغة.

ما نراها قالت إلا خيرا

دخلت امرأة على هارون الرشيد، وعنده جماعة من وجوه أصحابه، فقالت: يا أمير المؤمنين، أقر الله عينك، وفرحك بما أتاك وأتم سعدك، لقد حكمت فقسطت.

فقال لها: من تكونين أيتها المرأة؟ فقالت: من آل برمك، ممن قتلت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم(١)

فقال: أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله، ونفذ فيهم قدره، وأما المال فمردود إليك، ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه قائلا: أتدرون ما قالت المرأة؟

قالوا: ما نراها قالت إلا خيرا قال: ما أظنكم فهمتم ذلك.

أما قولها أقر الله عينك، فتعني أسكنها عن الحركة، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت.

وأما قولها: وفرحك بما أتاك فأخذته من قوله - تعالى -:

﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾

(الأنعام: ٤٤)

وأما قولها: أتم الله سعدك فأخذته من قول الشاعر:

إذا تم أمر بدا نقصه
ترقب زوالا إذا قيل تم

وأما قولها: لقد حكمت فقسطت، فأخذته من قوله - تعالى -

﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ﴾

(الجن: ١٥)

فتعجبوا من ذلك.

السيادة

نظر رجل إلى معاوية وهو غلام صغير فقال: إني أظن أن هذا الغلام سيسود قومه، فسمعته أمه هند فقالت: ثكلته إذا لم يسد غير قومه.

ودخل ضمرة بن أبي ضمرة على النعمان بن المنذر وكانت به دمامة شديدة، فالتفت النعمان إلى أصحابه وقال: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه.

فقال ضمرة: أيها الملك إنما المرء بأصغرية قلبه ولسانه، فإن قال قال ببيان، وإن قاتل قاتل بجنان.

قال النعمان: صدقت، وبحق سودك قومك.

من الكلمات الطريفة

- دخل ابن السماك على محمد بن سليمان بن علي، فرآه معرضا عنه، فقال له: مالي أرى الأمير كالعاتب عليّ؟ قال الأمير: ذلك لشيء بلغني عنك كرهته.

قال ابن السماك: إذن لا أبالي، قال الأمير: ولم؟ فقال ابن السماك: لأنه إذا كان ذنبا غفرته، وإن كان باطلا لم تقبله.

- وأذنب رجل من بني هاشم ذنبا إلى المأمون فعاتبه فيه، فقال: يا أمير المؤمنين من حمل مثل حالتي، ولبس ثوب حرمتي، ومت بمثل قرابتي، اغتفر له فوق زلتي.

فقال له المأمون: صدقت يا بن عمي وصفح عنه.

- وكان سليمان بن عبدالملك الخليفة الأموي قد

---

(١) النوال: العطاء.

نذر إن آلت إليه الخلافة ليقطعن لسان يزيد بن راشد، لأنه كان يطالب بخلع سليمان بن عبدالملك من ولاية العهد وإحلال عبدالعزيز بن الوليد مكانه، فلما آلت إليه الخلافة دخل عليه يزيد بن راشد فجلس على طرف البساط مفكرا، ثم قال: يا أمير المؤمنين كن كنبي الله ﷺ: ابتلى فصبر، وأعطى فشكر، وقدر فغفر.

فقال له أمير المؤمنين: من أنت؟ فأجابه: أنا يزيد بن راشد! فعفا عنه.

قلة الكرام

• قالت الحكماء: الكرام في اللئام كالغرة في الفرس.

• قال السموءل:

تعيرنا أنا قليل عديدنا
فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا
عزيز وجار الأكثرين ذليل

• وقال أبو تمام:

ولقد يكون ولا كريم تناله
حتى تخوض إليه ألف لئيم

• وقال ابن أبي حازم:

وقالوا مدحت فتى كريما
فقلت وكيف لي بفتى كريم
بلوت ومر بي خمسون حولا
وحسبك بالمجرب من عليم
فلا أحد يعد ليوم طول
ولا أحد يعود على عديم

• وقال دعبل:

ما أكثر الناس لا بل ما أقلهم
والله يعلم أني لم أقل فندا
إني لأغلق عيني ثم أفتحها
على كثير ولكن ما أرى أحدا

تصيد الدراهم

قال الأصمعي: كنت عند الرشيد إذ دخل عليه إبراهيم الموصلي فأنشده:

وآمرة بالبخل قلت لها اقصري
فليس إلى ما تأمرين سبيل
فعالي فعال المكثرين تجملا
ومالي كما قد تعلمين قليل
فكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى
ورأي أمير المؤمنين جميل

فقال الرشيد: لله أبيات تأتينا بها ما أحسن أصولها، وأبين فصولها، يا غلام اعطه عشرين ألفا.

قال الموصلي: لا أخذت منها درهما، قال الرشيد: ولم؟

قال: لأن كلامك يا أمير المؤمنين خير من شعري! قال: اعطوه أربعين ألفا.

قال الأصمعي: فعلمت أنه أصيد لدراهم الملوك مني.

دعاء

اللهم أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيرا مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون.

قراءة في كتاب



للأستاذ/ عادل خفاجة

في كتاب ربنا العزيز قوله تعالى:

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

(الإسراء: ٨٨)

لقد حاول العلماء قديما وحديثا الوصول إلى أسرار إعجاز القرآن وهو أمر قد ندبهم الله إليه في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾

(القمر: ١٧)

ليتدبروا أغراضه ومراميه ويستضيئوا بأنواره في حياتهم، فأقبل علماء المسلمين يفسرونه ويجلون أسراره للناس.

ومن أشهر وأقدم الكتب التي تناولت موضوع إعجاز القرآن ما كتبه الإمامان الخطابي والباقلاني.

وقد تناول هذا الموضوع في العصر الحديث عدد غير قليل بقراءة جديدة موصولة بالقديم نشط لتقديم عدد منها الأستاذ الدكتور محمد فتحي فرج في هذا الكتاب «إعجاز القرآن في الفكر المعاصر» الذي نقدم في هذا العدد قراءة فيه.

مؤلف الكتاب

هو الأستاذ الدكتور محمد فتحي فرج بيومي وكيل كلية العلوم جامعة المنوفية سابقا له العديد من المؤلفات نذكر منها:

١ ـ نحن والبيئة: شقاق أم وفاق؟

«بالاشتراك» ١٩٩٦ نقابة المهن العلمية بالمنوفية.

٢ - رمضان فى الفكر الدينى المعاصر ٢٠٠٥ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة.

٣ - موسوعة الحضارة الإسلامية «بالاشتراك» ٢٠٠٥ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة.

٤ - مع القرآن فى شهر رمضان «٢٠٠٦» المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

٥ - الدكتور محمود حمدى زقزوق.. نصف قرن من العطاء - نادى أعضاء هيئة التدريس بجامعة الأزهر الشريف بالقاهرة.

٦ - علم السموم ومخاطر الملوثات «٢٠٠٧» دار المعارف.

بالإضافة إلى مشاركاته فى العديد من المجلات العلمية والثقافية والأدبية مثل: الأزهر - الهلال - المنهل - منبر الإسلام.. إلخ

هذا الكتاب

يقع الكتاب فى مائتين وثلاث وعشرين صفحة من مقاس ١٧ × ٢٤سم صدر عن دار الجمهورية للصحافة ضمن سلسلة كتاب الجمهورية عدد أغسطس ٢٠١٠م.

وقد قسم المؤلف كتابه إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة عشر فصلا تكلم فى المقدمة عن سمات هذا العصر وما به من مغريات مثل: الفضائيات وشبكة المعلومات الدولية وغيرها من مغريات صرفت أبناءنا عن القراءة خاصة قراءة المطولات.


د. محمد فتحى فرج

وتناول فى التمهيد عددا من النقاط المرتبطة بالقرآن الكريم.

مثل: أسماء القرآن، والقرآن ورمضان، ومن فضائل القرآن ثم تتوالى فصول الكتاب الثلاثة عشر، وقد تناول المؤلف فى كل منها أحد الكتب التى تناولت إعجاز القرآن بقلم واحد من أساطين الفكر والأدب والدين.

فألقى الضوء فى الفصل الأول على كتاب: «تفسير: فاتحة الكتاب» لإمام التجديد محمد عبده فبين أن الإمام كان له أسلوب بيانى معبر أسهم فى التركيز على المعنى الذى يريده بعيدا عن السجع والمحسنات البديعية المتكلفة وأن الإمام فى تفسيره لفاتحة الكتاب آثر المصادر الصحيحة ونبذ الخرافات والإسرائيليات العقيمة، وفتح باب الاجتهاد واعتمد على النقل الصحيح مع العقل الراجح، فكان أسوة لمن جاء بعده من علمائنا وشيوخنا الأفاضل على ذلك فإن فاتحة الكتاب تضمنت كل ما فى الكتاب مركزا ومكثفا.

وقدم المؤلف عرضا سريعا للتفسير الذى قدمه الإمام وانتقى ومضات من هذا التفسير منها قول الإمام:

«ويعد حلول الضعف ونزول البلاء بأمة من الأمم من العلامات والدلائل على غضب الله تعالى عليها، لما أحدثته فى عقائدها وأعمالها مما يخالف سنته، لهذا علمنا الله تعالى كيف ندعوه بأن يهدينا طريق الذين ظهرت نعمته عليهم، بالوقوف عند حدوده، وتقويم العقول والأفعال بفهم ما هدانا إليه وأن يجنبنا طرق أولئك الذين ظهرت فيهم آثار نقمه بالانحراف عن شرائعه سواء كان ذلك عمدا وعنادا أو غواية وضلالا.

وتناول المؤلف فى الفصل الثانى كتاب الشيخ محمد الغزالى نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم حيث يشير إلى الموضوعية والشمولية التى تنتظم سور الكتاب الكريم كوجه من وجوه الإعجاز حيث ينظر الشيخ من خلال التفاسير الموضوعية إلى كل جزئية من جزئيات الكتاب وكل آية من آياته ليربطها بالمنظومة الكلية، ويضعها فى موضعها من السياق العام.

أما الفصل الثالث فيعرض فيه المؤلف لكتاب من أفضل الكتب التى دارت حول القرآن فى العصر الحديث، وهو كتاب فضيلة الأستاذ العلامة الشيخ محمد أبوزهرة الذى يحمل عنوان: «المعجزة الكبرى: القرآن».

ثم يأتى الفصل الرابع ليقدم «القرآن فى شهر القرآن» لإمامنا النورانى الشيخ عبدالحليم محمود.

ثم يخصص الفصل الخامس لكتاب «الفلسفة القرآنية» وهو واحد من كتب العقاد النفيسة.

ثم يكرس المؤلف الفصل السادس لبيان أوجه الإعجاز القرآنى فى كتاب «مرآة الإسلام» وهو من أواخر ما دبجه يراع عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين.

ويتناول الفصل السابع كتابا من أروع ما صدر فى الفكر المعاصر حول إعجاز القرآن للمفكر الجزائرى الكبير مالك بن نبى - رحمة الله عليه - تحت عنوان: «الظاهرة القرآنية».

أما الفصل الثامن فقد تعرض فيه المؤلف لبعض الأفكار الندية للكاتب الإسلامى والشاعر المجيد الأستاذ مصطفى صادق الرافعى - رحمة الله عليه - فى كتابه الخالد «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية».

ويخصص الفصل التاسع لعرض كتاب الشيخ الجليل عبدالصبور مرزوق تحت عنوان: «منهجية التغيير الاجتماعى فى القرآن الكريم».

ويزدهر الفصل العاشر بأضواء من كتاب «البيان القرآنى» لشيخنا المبدع فضيلة الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى.

وتتوالى فصول الكتاب ليقدم المؤلف فى الفصل الحادى عشر كتاب «علوم القرآن» للأستاذ أحمد عادل كمال.

ثم يقدم فى الفصل الثانى عشر كتاب «القرآن والمنهج العلمى المعاصر» للأستاذ المستشار عبدالحليم الجندى.

ويختتم المؤلف رحلته مع الإعجاز القرآنى فى الفصل الثالث عشر والأخير بملامح من إعجاز القرآن عند الشيخ الشعراوى.

وأمام هذا الحشد الهائل للمعلومات عن إعجاز القرآن الذى استقاها المؤلف من أكثر من ثلاثة عشر كتابا، فإنه لا يسعنا إلا الإشارة

السريعة إلى بعضها، فمن الفصل الثانى نلتقط من شرح الشيخ الغزالى لمقاصد التفسير الموضوعى قوله:

«التفسير الموضعى يتناول الآية أو الطائفة من الآيات فيشرح الألفاظ والتراكيب والأحكام، أما التفسير الموضوعى فهو يتناول السورة كلها، يحاول رسم صورة «شمسية» لها تتناول أولها وآخرها وتتعرف على الروابط الخفية التى تشدها كلها وتجعل أولها تمهيداً لآخرها، وآخرها تصديقاً لأولها وهو إن كان لا يغنى عن التفسير الموضعى فإنه يكمله وجهد ينضم إلى جهوده».

وبعد أن عرض المؤلف ملخصاً للتفسير الموضوعى للفاتحة نجده يقول:

«هكذا فى سطور قلائل تم تصوير العلاقة الوحيدة الممكنة بين الناس ورب الناس: الاعتراف به والثناء عليه والاستعداد للقائه، والتعهد بعبوديته، ثم الرجاء إليه أن يجعلنا كما يحب.

ثم يقول المؤلف بعد أن عرض ذلك الكتاب القيم بأجزائه الثلاثة: إن الكتاب محاولة موفقة جديرة بالدراسة والإطلاع المرة بعد المرة ويذكرنا فى تركيزه وقصره بتفسير الإمام النسفى، لكنه يختلف عنه فى المنهج والأسلوب.

ومن جولة المؤلف فى كتاب المعجزة الكبرى (القرآن) للشيخ أبى زهرة نقدم هذه السطور: «.. ويستطرد الشيخ ليوضح أن ثمة معجزة أخرى بجوار المعجزة المادية، وهى شئ قائم بذاته ثابت، بيد أن وجه الإعجاز فيها لا يدرك بالحس، وإنما بالدراسة والفحص، وقد يدعى البعض أنه يستطيع أن يأتى بمثله وما هو بمستطيع، وهو من غرور النفس أو إدعاء القدرة واللجاجة فى الأفكار وأن ذلك يكون فى المعجزة التى تكون من نوع الكلام، وهى معجزة القرآن الكريم، فقد كان الغرور وإزالة تلك الغشية الباطلة، ليتبين وضح الحق، ولذلك طالبهم الله تعالى بأن يأتوا بمثله إن كانوا صادقين فى مثل قوله تعالى:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

(البقرة: ٢٣)

وعن معجزة النبى محمد يقول:

(ذكر العلماء أن كل معجزة مناسبة للعصر الذى أرسل فيه كل نبى إذ تكون هادية ومرشدة، وخرقها للعادات الجارية يكون أوضح، ومناسبتها لرسالة النبى المبعوث تكون دليلا على صدقه أما القرآن فمعجزة تدل على كمال الرسالة وعموم شمولها لكل الأزمنة).

وفى عرض المؤلف وتعليقه على كتاب الإمام عبدالحليم محمود يقول:

ما أحوجنا إلى معطيات الفصل الثانى من هذا الكتاب فى هذه الأيام التى تطل علينا فيها «أفعى» العولمة برءوسها الكثيبة مكشرة عن أنيابها السامة، التى لا تكف عن نفث سمومها فى جميع المستويات ومن أخطرها بلا شك الثقافة والقيم الأخلاقية والعادات

والتقاليد الأصيلة المعتدلة التى تتميز بها مجتمعاتنا الإسلامية.

وربطًا لهذا التفسير بمفردات العصر ومنها العولمة يواصل قراءته لكلمات الإمام عبدالحليم محمود فيقول:

وقد بدأ المؤلف هذ الفصل- والمؤلف أصلاً أستاذ للفلسفة- بمحاجة منطقية بسيطة وواضحة ومقنعة فى الوقت ذاته، فيقول: إذا قرأ الإنسان باسم ربه وإذا استجاب الإنسان- بمقتضى دخوله فى عقد الإيمان- للتربية الإلهية، وإذا كيَّف الإنسان حياته كلها لتكون قراءته باسم ربه... فقد أسلم، وإن:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾

لا يخرج معناها فى ثمرته عن معنى: «أسلمت» والمسلم هو من دخل فى الإسلام، والإسلام هو أن يسلم الإنسان وجهه لله، ولقد سئل رسول الله- ﷺ- عن معنى الإسلام، فقال: «أن تسلم لله وجهك، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك».

والإنسان إما مسلم صادق الإيمان وإما مسلم مزيف، والمسلم الصادق لا يسمح لنفسه أن ينهل من منابع غير إلهية، فى الأمور التى أنزل الله فيها وحيا، فالمؤمن الصادق لا يتخذ له فى العقيدة أو فى الأخلاق إماماً غير إمامه الربانى والأمور التى أتى الدين ونزل بها الوحى وصرح بها الكتاب هى مبادئ لا يجوز- فى أعراف المؤمنين الصادقين- العدول عنها إلى غيرها. والموقف القرآنى حاسم فى ذلك كل الحسم فنقرأ فيه:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

(النساء: ٦٥)

ولقد حرص النبى ﷺ - طيلة حياته على أن تستمر المنابع- التى يستقى منها المسلمون صافية صفاء مطلقاً. وعلى أن تستمر القراءة.

(تستعمل القراءة هنا كرمز لحركة الحياة كلها).

﴿ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾

لا تستقى إلا من المنابع الإسلامية الصافية وأول منبع هو القرآن الكريم، ومن ثم حرص الرسول ﷺ على ألا يختلط القرآن بغيره، لدرجة أنه لم يسمح فى العهد الأول من الوحى، أن تكتب الأحاديث التى كان ينطق بها حتى لا تختلط بالقرآن، ثم لما وضحت معالم القرآن، وبدت أوصافه الذاتية، وأسفرت آياته عن شخصيته، سمح الرسول ﷺ بكتابة السنة.

وفى حديثه عن الفصل التاسع.. بعنوان إلى النصر بإذن الله لم ينس المؤلف أن يشير إلى ما تحقق بعد صدور هذا الكتاب من نصر أكتوبر المبارك فى إشارة إلى تحقق وعد الله للمؤمنين اذا تمسكوا بدينهم وهو ما أشار إليه الإمام الصوفى عبدالحليم محمود قبل حرب أكتوبر.

وعن رائعة العقاد «الفلسفة القرآنية» يقول المؤلف فى الفصل الخامس:

«أما كتابه «الفلسفة القرآنية» فهو على الرغم من صغر حجمه فإنه عميق فى أفكاره، مفيد فى محتواه، شأن كل كتاباته، وقد يتميز على كتبه الأخرى فى كونه من أواخر الكتب التى ألفها الأستاذ العقاد، وهو فى قمة نضجه الفكرى وعطائه الخصب ومن ثم فهو يمثل خلاصة ماانتهى إليه الأستاذ من آراء فى فلسفة الدين وتعاليمه، ونظرته فى الكون والحياة فى إطار من الدين القويم وكتابه الكريم، ومن ثم فقد كان موفقا فى تسمية كتابه هذا «الفلسفة القرآنية» فكان جل اهتمامه بالنهج القرآنى، فى معالجته للقضايا الجوهرية فى الإسلام، والتى تهم المسلمين، بل والناس أجمعين.

ويشير المؤلف إلى ما احتواه كتاب العقاد فذكر فيما ذكر: الحكومة فى القرآن ثم ذهب إلى خلاصة قال فيها:

«إن الحكومة القرآنية هى لمصلحة المحكومين، يطاع الحاكم فيها ما أطاع الله، فكل أركان «حكم الأمة للأمة» قائمة فيها، ولكن لا يفهم من هذا أنها حكومة الأغلبية فقد وردت آيات كثيرة تنص على أن الرأى والفضل والعلم والذمة ليست من صفات أكثر الناس على التعميم فإذا كانت طاعة أكثر الناس تضل عن سبيل الله، فليس من الرشد لهم ولا لغيرهم أن يكون لهم الحكم المطاع وإنما تقع تبعات الحكم على الأمة كلها بجميع عناصرها وترجع الشورى إلى أهل الشورى، وهى لاتكون لغير ذى رأى أو ذى حكمة ويصبح المؤمنون كالإخوة فى المعاملة:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾

(الحجرات: ١٠)

فإذا كان الفصل السادس وجدنا مقتطفات من كتاب الدكتور طه حسين نقدم منها بدورنا هذه الكلمات.

«ومن أخص مزايا القرآن أن الذين يقرءونه أو يسمعونه دون أن يؤمنوا به يكذبون على أنفسهم فقلوبهم خاشعة وأذواقهم راضية وعقولهم هى المعارضة المكذبة فهم يناقضون أنفسهم حين يظهرون الإباء ويضمرون الاستجابة، لقد اختلفت قلوبهم وألسنتهم ووجوههم فقلوبهم تزعم وألسنتهم تنكر ووجوههم تعرض إلا أن يطبع الله على قلوبهم ويطمس على عقولهم ويجعل فى آذانهم وقرا.

وثمة وجه آخر من وجوه الإعجاز القرآنى يتمثل فى الأثر الباقى الذى يتركه فى قلوب الناس وعقولهم وأذواقهم بعد قراءته على تتابع القرون واختلاف الأجيال فالعربى القديم من أهل الفصاحة والبراعة فى تصريف القول، قد سمع القرآن فراعه منه ما راعه واستجاب له هذه الاستجابة التى يعرفها التاريخ ولكن أجيالا أخرى لا تحكم ولا تصرف القول ولا تذوق روعة البيان قد جاءت بعد أولئك القدماء من العرب فسمعت القرآن وقرأته، فإذا هو يستأثر بعقولها وبقلوبها وإذا هى لا تقرؤه أو تسمعه إلا خشعت له، واستيقنت أنه كلام لا كالكلام بل له شأن آخر يختلف أشد الاختلاف عما يكتبه الناثرون وينظمه الشعراء ويقوله الخطباء.

وأغرب من ذلك أن أمما أخرى ليس بينها وبين العرب سبب قد قرأت القرآن وسمعته فى القرون المتطاولة والأجيال المتعاقبة، فدانت له وآمنت به واستحبت قراءته على كل شيء آخر غيره يقرأ ويسمع أو يمتع الأسماع والقلوب والعقول معا فهو إذن يحتفظ بروعته على اختلاف الأزمنة والأمكنة وأجيال الناس.

أما كتاب «البلاغة القرآنية» لفضيلة الدكتور محمد رجب البيومى فنكتفى بالإشارة إلى قوله:

«وحسبنا هنا أن نكتفى ببعض آراء الأستاذ وجدى والدكتور دراز أما الأستاذ وجدى فقد تعرض للإعجاز القرآنى فيما كتبه بالجزء السابع من دائرة معارف القرن العشرين».

فقال: «إن المتكلمين فى إعجاز القرآن قد حصروا كل عنايتهم فى الناحية البلاغية، ونحن وإن كنا نعتقد أن القرآن قد بلغ الغاية من هذه الوجهة فإننا نرى أنها ليست الجهة الوحيدة لإعجازه، بل ولا هى أكثر جهات الإعجاز تسلطا على النفس، فإن للبلاغة على الشعور الإنسانى تسلطاً محدوداً، لا يتعدى حد الإعجاب بالكلام والإقبال عليه ثم يأخذ هذا الإعجاب والإقبال يضعف شيئاً فشيئاً بتكرار سماعه، حتى تستأنس به النفس فلا يعود يحدث فيها ما كان يحدثه فى مبدأ توارده عليها، وليس هذا شأن القرآن، فإنه قد ثبت أن تكرار تلاوته يزيده تأثيراً؛ فوجب على الناظر فى ذلك أن يبحث عن وجه إعجازه فى مجال آخر.

إلى أن يقول: «إن العلة فى نظرنا لا تحتاج إلى كثير تأمل وهى أن القرآن روح من أمر الله تعالى فهو يؤثر بهذا الاعتبار تأثير الروح فى الأجساد فيحركها ويتسلط على أهوائها، وأما تأثير الكلام فى الشعور فلا يتعدى سلطانه حد إطرابها والحصول على إعجابها.

وقوله تعالى:

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ﴾

الشورى/ ٥٢

يكفى وحده فى إرشادنا إلى جهة إعجاز القرآن وقصور الإنس والجن عن الإتيان بمثله وبقائه إلى اليوم معجزة خالدة تتلألأ فى نورها الإلهى، وتتألق فى جمالها القدسى، فلا جرم كانت له روحانية خاصة هى عندنا جهة إعجازه والسبب الأكبر فى انقطاع الإنس والجن من محاكاة أقصر سوره، وارتعاد فرائص الصناديد والجبابرة عند سماعه، وناهيك بروحانية الكلام الإلهى.

وبعد.. فعلى هذا النسق طاف المؤلف بين هذه الكتب الثلاثة عشر يقتطف منها شيئاً من أزهارها يضم بعضها إلى بعض ليقدم للقارئ تلك الطاقة من الورود اليانعة والتى يضمها كتاب إعجاز القرآن فى الفكر المعاصر.

ثم أما بعد.. فالكتاب إضافة حقيقية للمكتبة الإسلامية وجهد جدير بأن يلفت نظر الباحثين إليه، لأنه يفتح لهم آفاق البحث الجاد ويشير إلى كنوز لا يجب أن يغفلها باحث.

وبالله التوفيق والسداد.

كلمة فضيلة الإمام الأكبر أمام المؤتمر التحضيرى للملتقى السادس للرابطة العالمية لخريجى الأزهر

رأت الأمانة العامة لمجمع البحوث الإسلامية نشر الكلمة التى ألقاها فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر ورئيس الرابطة العالمية لخريجى الأزهر يوم الثلاثاء ٢١/ من صفر ١٤٣٢ الموافق ٢٥ من يناير سنة ٢٠١١م فى «المؤتمر التحضيرى للملتقى السادس للرابطة العالمية لخريجى بالأزهر»

بعنوان: أهل السنة والجماعة (الأشاعرة - الماتريدية - أهل الحديث).

دعوة إلى الوحدة والتسامح ونبذ الفرقة والتطرف المنعقد بقاعة الأزهر للمؤتمرات بمدينة نصر وهذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

السادة العلماء الأجلاء! ضيوف هذه الندوة.. الحضور الكريم، السادة والسيدات/ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،

ومرحبًا بكم فى الأزهر الشريف فى مصر الكنانة، ودعائى لنفسى ولحضراتكم بمزيد التوفيق والنجاح والتجرد لله تعالى، لخدمة هذه الأمة الكبيرة، التى قادت الإنسانية نحو الحق والخير والجمال ردحًا طويلًا من الزمن وأسعدت الإنسان، وانتشلت عقله من ضلال العقل، وأحكام الوهم، وانحرافات التاريخ وتراكماتها.

إن هذه الأمة التي أنارت العالم كله، بعد أن أطبقت عليه الظلمات من كل جانب، حتى إذا أخرج يده لم يكد يراها.. وصححت بقرآنها الكريم ورسولها العظيم مسار البشرية، ووضعت الإنسانية من جديد على المحجة البيضاء التى ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.. هذه الأمة تعاني الآن - كما تعلمون - من أعراض تشبه أعراض الأمراض المتوطنة، لا تكاد تعالج منها عرضًا حتى تعيا بعلاج مائة عرض وعرض، والمتأمل - أيها الشيوخ الأجلاء - فى عظمة الحضارة الإسلامية وقوتها التى تأسست على العدل والإنصاف، يعجب كثيرًا وهو ينظر إلى ما آلت إليه الآن، وهى وإن لم تكن قد آلت إلى زوال أو إلى فناء، فإنها باليقين قد آلت إلى شئ من الضعف والانزواء لا تكاد تخطئه عيون أبنائها قبل عيون الآخرين..

ومن مدهشات هذه الحضارة أنها حتى وهى تعانى من الهزال تبعث الأمل الذى لا حدود له فى إمكان التعافى والإحياء والتجديد، إنها تشبه الجمرة المتقدة التى لم تنطفئ ولم تخب برغم ما يتراكم عليها من طبقات الرماد الكثيف بين الحين والحين فى تاريخها المشرق الطويل، ولا يعلم الناس - حتى هذه اللحظة - حضارة بقيت وثبتت على وجه الزمان



أربعة عشر قرنًا برغم الضربات القاتلة التى وُجهت وتوجه إليها، غير حضارة الإسلام والمسلمين، بل يعجب المتأمل من أن حضارة المسلمين هذه - على ضعفها وركودها الآن - تقلق بال أبناء الحضارة الغربية، تلك التى استطاعت أن تحط برحالها على ظهور الكواكب، وأن تغدو وتروح فى مداراتها، حسبما تشاء ووقتما تريد، هذه الحضارة الغربية العملاقة، والتى ظن أهلها أنهم أصبحوا قادرين على كل شيء، تخشى قوة المسلمين الكامنة وتعمل ليل ونهار، كى يظل المسلمون نائمين، غافلين، مشلولين، متكففين من الغرب مطعمهم ومشربهم وملبسهم ومركبهم، وإن ملكوا تحت أقدامهم مناجم الذهب وكنوز الثروات، بل يتسولون منه فلسفتهم وثقافتهم ومناهجهم فى التربية

والتعليم والاجتماع والاقتصاد وكأنهم أمة همجية قادمة من مقابر التاريخ، لم يكن لهم - من قبل - عهد بعلم ولا أدب ولا فلسفة ولا تشريع ولا تاريخ ولا فنون، وكأنها علّمت الإنسانية كلها وأثرت حضارتها في الشرق والغرب قرونًا طويلة.

وتعلمون حضراتكم - أكثر مما أعلم - أن داء هذه الأمة هو:

الفرقة والاختلاف والتنازع الداخلي، وهو داء خبيث، طالما شكل نقطة ضعف نفذ منها المستعمرون لبلاد المسلمين في القرنين الماضيين، وهو هو الداء الخبيث الذي يتسلل منه الاستعمار الغربي من جديد في القرن الواحد والعشرين. ولا تزال مقولة «فرق تسد» والتي حفظناها صغارًا يعاد توظيفها الآن، تحت لافتات صراع الحضارات والفوضى الخلاقة والعولمة ونهاية التاريخ، وغيرها من اللافتات التي تُنصب هنا وهناك في بلاد المسلمين ليَقتتلوا، أو ليقاتل بعضهم بعضًا نيابة عن المستعمر الجديد.

ومن المحزن حقًا أن يتخذ أعداء الإسلام من فرقة المسلمين واقتتالهم فيما بينهم عدة وعتادًا يوفر عليهم الكثير من مؤنة نقل الجيوش والمعدات العسكرية إلى هذه البلاد التي يشعلون فيها فتيل الحروب الداخلية والصراعات البينية، يحدث هذا والقرآن الكريم الذي نردده صباح مساء ونتسابق في تحفيظه للأطفال ونتباهى بقدرة صغار الأطفال على حفظه واستظهاره، هذا القرآن الكريم يحذر المسلمين ويقرع سمعهم ليل نهار بقوله تعالى:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

(سورة الأنفال: الآية ٤٦)

أيها السادة العلماء الأجلاء!

هذه كلمة قد لا تضيف إلى مسامعكم جديدًا، أو شيئًا ذا بال، غير أني أردت التخلص منها إلى موضوع ندوتنا هذه.. وليس من همي الآن مناقشة العنوان الذي يُختار للمؤتمر العلمي الذي نتطلع إلى عقده في غضون الشهور المقبلة إن شاء الله.. ولكن يهمني «المعنون» أو المضمون المستهدف من هذا المؤتمر.

وهنا أعرض على حضراتكم أن الأزهر الشريف: جامعًا وجامعة، وُضع في العصر الحديث أمام تحديات لا مفر له من مواجهتها، ومسئوليات لا يسعه إلا الاضطلاع بها.. وقد بدأ الأزهر يتلمس طريقه بالفعل نحو هذه الغايات منذ عهد الشيخ المراغي وحتى الآن.. وما نحاوله اليوم بمعونتكم ودعمكم هو: المضي قدمًا برسالة الأزهر في طريقها الصحيح المستقيم، هذه الرسالة تتمثل في المقام الأول في أمرين لا ثالث لهما: الحفاظ على وحدة المسلمين وجمع كلمتهم، والسلام الوطني والإقليمي ثم العالمي، وذلك انطلاقًا من أن رسول الإسلام قد أرسله الله «رحمة للعالمين»

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

(سورة الأنبياء: الآية ١٠٧)

فلابد أن ينال الناس في الشرق والغرب نصيبهم من هذه الرحمة المهداة، وهي رحمة كاد يقصر عليها مهمة رسالته حين قال: «إنما أنا رحمة مهداة».. والسؤال الذي نطرحه اليوم وننتظر أن تتفضلوا فيه باقتراحاتكم ونصائحكم، هو كيف يتسالم المسلمون فيما بينهم؟ وهذا السؤال - المؤلم - تطرحه الساحة الآن بصورة قاتمة بل شديدة القتام.. ويكفي أن أشير فقط إلى أن خطاب الدعوة الذي يناط به عادة جمع الشمل على قسمات مشتركة، أصبح هو المسئول الأول عن فرقة المسلمين وتمزقهم، وبحيث أصبح شباب المسلمين بأسهم بينهم شديد، كم من مذهب في ساحة الدعوة الآن يقف من وراء تباغض شباب المسلمين وتنابذهم وتدابرهم؟ ولا تكاد تنبت قضية واحدة من قضايا الأمة المصيرية لهذه الأمة تشغل أذهان شبابها وشاباتها؟ هل يعلم شبابنا عن القدس وعن المسجد الأقصى وما يعانيه مثل ما يعلم من خلافيات الأشعرية والسلفية والصوفية والقبورية؟ وهل يشغل ذهنه البحث في واقع أمته مثل ما يشغله، البحث في قضايا خلافية تافهة ولّى زمانها؟ وهل يقبل على مقرراته العلمية مثل ما يقبل على كتب أو كتيبات لهذا الداعية أو ذلك؟ وكيف صرفتنا معركة النقاب عن معارك الأمريكان في العراق وأفغانستان والصومال والسودان؟ وهل يتسنى لنا مواجهة أعداء الإسلام بشباب لا يعرف عن تاريخ عدوه شيئًا؟ بل كيف أعرض شبابنا عن فرض محتم لازم هو وحدة المسلمين، وتفرغ لفقه يختلط فيه المندوب بالواجب والمكروه بالمحرم؟ لقد تلاشت الفروق أيها السادة العلماء - أو كادت - بين الأحكام الشرعية الخمسة، وانشغلت الأسرة في المجتمع الإسلامي بقضايا جزئية لا إلزام في فعلها ولا خطر في تركها: كالعقيقة وخروج السيدات للصلاة في المساجد، وأهملت كليًا حقوق الخدم والخادمات والإحسان إلى الجار، بل والبر بالوالدين الذي تراجع إلى ذيل القائمة في ترتيب الواجبات الشرعية في هذا الفقه الغريب.

وأمر آخر يدفع الأمة إلى هذا الاتجاه البائس، ذلكم هو محاولة العبث الواضح بفقه الأئمة الأربعة، وفرض فقه جديد يوجب على الناس مثلا التنفل قبل صلاة المغرب، أو زكاة الفطر بنوع واحد وحبة من الحبوب لا يجزى غيره.. وهو أمر لم تعرفه جماهير الأمة ولم تعتده مساجدهم من قبل أو لم يجر عليه العمل كما يقول فقهاؤنا الأقدمون، وأمر ثالث أشد خطرًا من سابقه، وهو العبث بأمهات كتبنا التراثية، وإعادة طبعها بعد تشويه نصوصها إما بالحذف، وإما بإضافة في الهامش تدمر

«المفهوم» الذى عناه المؤلف وأراد أن يبلغه للناس.. هذا فضلا عن الغياب التام للمنهج العلمى فى تحقيق هذه النصوص ونشرها.

ويجب أيها الإخوة العلماء أن نتوقف طويلا أمام ظاهرة كفيلة بهدم المجتمع الإسلامى من قواعده لو تركت ولم تواجه بالفقه الصحيح والعلم الخالص الصريح، تلكم هى «الجرأة على التكفير والتفسيق والتبديع».. وما تبرره من استباحة النفوس والأعراض والأموال. وكيف يستقيم انتشار مثل هذه الأفكار فى أمة أجمع علماؤها وأئمتها من المدارس الثلاث على المقولة الذهبية التى حفظناها من أروقة الأزهر ونحن طلاب صغار مثل: «لا نكفر أحداً من أهل القبلة ونصلى خلف كل بر وفاجر «ولا» يخرج من الإسلام إلا جحد ما أدخله فيه «وغيرهما من القواعد التى حفظت للأمة تماسكها ووحدتها عبر التاريخ.

أعتذر أيها الأخوة عن الإطالة وعن عدم القدرة على التقيد بالدقائق الست المحددة لكل منا فالأمر خطب وجلل والمسئولية ثقيلة ينوء بها ضمير كل من يرجو لقاء الله بعمل صالح وقلب سليم.

ولعلكم تلاحظون أننا نعد للأمر عدته، وبترتيب تغير معهود فى انعقاد كثير من اللقاءات والندوات والمؤتمرات، ولذلك دعوناكم وأنتم صفوة العلماء الذين يعكسون فى ثقافتهم ورؤاهم وأنظارهم توجهات أهل السنة والجماعة فى مدارسها الثلاث.. والذى نأمله من أجل تحقيق الهدف الأسمى أن تطرح قضية «الاختلاف فى إطار الوحدة» وقضية التكفير والإقصاء والعداء المتبادل وغيرها من القضايا على بساط البحث بكل مصارحة ومكاشفة وموضوعية وتجرد وخوف من الله تعالى، وأمانة ثم نستمع ونسترشد بآرائكم ومشاركتكم فى هذا الأمر.

أيها الأخوة: إن هذا المؤتمر وما يليه من مؤتمرات إن شاء الله ليس ترفاً فكرياً ولا مجرد حوار ثقافى تكفى فيه الكلمات والخطب والأفكار التى تعلن عن أصحابها وتضخم من ذواتهم.. فهذا كله لا يستحق ـ من وجهة نظرنا ـ شيئاً مما أعد وبذل من جهد ووقت وتفكير من أجل هذا اللقاء. الوقت الآن وقت جد وعمل، وليس وقت خطب ومواعظ والأمم من حولنا تعمل لشعوبها فى صمت وتدبير ومكر شديدين.. وقد مللنا من الكلام الذى لا يثمر عملاً على أرض الواقع.

وأذكركم بالمقولة الذهبية لإمام دار الهجرة وإمامنا الإمام مالك رضى الله عنه وأرضاه حين قال: «أكره الكلام فيما ليس تحته عمل» أيها الإخوة الله الله فى أمتنا.. والمصارحة المصارحة فى أمرنا، والإخلاص الإخلاص فى عملنا.

وفقنا الله وإياكم لخدمة الإسلام ونفع المسلمين. ومرحباً بحضراتكم مرة ثانية فى بلدكم الشقيق مصر وفى الأزهر الشريف بيت العرب والمسلمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،

مؤتمر الرابطة العالمية لخريجى الأزهر

للأستاذ/ عبدالموجود أمين

فى مؤتمر مهيب جمع قمم علماء أهل السنة والجماعة من كافة أنحاء العالم نظمت الرابطة العالمية لخريجى الأزهر لقاء تحضيرى للمؤتمر السادس للرابطة تحت عنوان، «أهل السنة والجماعة» الأشاعرة. الماتريدية. أهل الحديث «دعوة إلى الوحدة والتسامح ونبذ الفرقة والتطرف».

تحدث فى اللقاء نخبة من العلماء الأجلاء، وقد حضر اللقاء ما يقرب من ألفى طالب أزهرى مصرى ووافد، شهد حضورا لـ ٢٠ عالما نالت استحسان الجميع وعلى رأسهم الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب الذى قوبلت كلمته بتصفيق حاد من الحضور نظراً لقوتها.

الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر، أكد فى كلمته «أن الأمة الإسلامية قادت الإنسانية نحو الحق والجمال فأسعدت الإنسان وانتشلت عقله من انحرافات التاريخ وتراكماته وظلماته، فهذه الأمة التى أنارت العالم كله، وصححت بالقرآن الكريم ورسولها العظيم مسار البشرية ووضعت الإنسانية من جديد على المحجة البيضاء.

وأكد شيخ الأزهر «أن داء هذه الأمة فى الفرقة والاختلاف وهو نقطة الضعف والداء الخبيث الذى تسلل منه المستعمر الغربى فى العصر الحاضر بتبنى نظرية قديمة سادت خلال الاستعمار العسكرى «فرق تسد».

وأضاف: «أنه من الحزن أن يتخذ أعداء الإسلام فرقة المسلمين الذين نزل فيهم قوله تعالى:

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ﴾

(آل عمران - ١٠٣)

وقوله:

﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾

(الأنفال: ٤٦)

أن خطاب الأمة الإسلامية أصبح المسئول الأول عن فرقة المسلمين وتشتتهم.

وأضاف: «إن أعداء الإسلام يتخذون



من فرقة المسلمين عدة وعدادا ليشعلوا الخلاف بين الشعوب، والقرآن الكريم يحذر المسلمين ليل نهار بقوله.

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا ﴾

(الأنفال: ٤٦)

وأكد شيخ الأزهر: «أصبح شباب المسلمين بأسهم بينهم شديد، وكم من مذهب في ساحة الدعوة الآن يقف وراءه شباب الأمة، وهل يعلم شبابنا عن القدس وما يعانيه مثل ما يعلم عن الخلافات بين التيارات الإسلامية.

وأوضح شيخ الأزهر «أن هذا المؤتمر ليس ترفا فكريا أو حوارا ثقافيا لإلقاء الكلمات. فالوقت الآن وقت عمل وجد وليس وقت خطب ومواعظ والأمم في عصرنا تعمل في صمت وجد وخبث، وأذكركم بمقولة الإمام مالك حين قال: «أكره الكلام فيما ليس تحته عمل».

وفي كلمته أكد الدكتور علي جمعة مفتي الجمهورية، أن الوحدة هي المخرج الوحيد للأمة الإسلامية حتى تعتصم جميعاً بحبل الله تعالى وأن ذلك حتى يتحول إلى برامج عملية ينبغي أن يقوم على العلم وحده والعملية التعليمية تتكون من أركان خمس الطالب والأستاذ والمنهج والجو العلمي المحيط، وينبغي على الأمة الإسلامية أن تراجع كل هذه الأركان حتى تعيش عصرنا وتخدم نفسها».

من جانبه قال الدكتور عبدالله الحسيني، رئيس جامعة الأزهر، أن المؤتمر يتناول ٣ مدارس سنية وهي المدرسة الأشعرية وهي مدرسة إسلامية سنية اتبع منهاجها في العقيدة عدد كبير من أهل السنة والحديث، ومن كبار هؤلاء الأمة البيهقي والعز بن عبدالسلام، ويعد الأشاعرة المكون الرئيسي داخل أهل السنة والجماعة، أما المدرسة الثانية فهي الماتريدية نسبة لأبي حسن الماتريدي وهي لا تختلف بشكل عام عن مدرسة الاشاعرة إلا في بعض القضايا اليسيرة ومن أعلامها محمد الفاتح ويغلب على أتباعها اتباع المذهب الفقهي الحنفي، والمدرسة الثالثة هي مدرسة أهل الحديث وظهرت في القرن الثالث الهجري والأشاعرة والماتريدية يعدونهم أحد مكونات أهل السنة دون أن يكون لهم منهج في العقيدة، أمل أهل الحديث فيعتبرون أنفسهم لهم منهج في العقيدة اعتماداً على الحديث النبوي الشريف».

وأضاف: «لابد من تعظيم ما بين تلك المدارس من اتفاق وأن توجد آليات فعالة لتأكيد الاعتدال والوسطية ونبذ التعصب والتطرف والخروج برؤية واضحة لتوحيد الأمة ونبذ الخلافات الطائفية والنزاعات المذهبية».

وأكد الدكتور محمد سليم العوا، المفكر الإسلامي، في كلمة موجزة، أننا كأمة إسلامية في حاجة للملتقيات لمناقشة مشكلات أهم وأكبر مثل مسائل الصوفية والسلفية ومسائل السنة والشيعة ومسائل الخلاف بين الأمة في أمور كثيرة، قائلا: لماذا نستمسك بالخلاف ونكبره ونغفل الوفاق ونهمله.

أما الدكتور محمد عمارة، عضو مجمع البحوث الإسلامية، أكد أنه عندما يتداعى أهل السنة والجماعة بمدارسهم ويجتمعون فذلك يعني أن هناك تمثيل ٩٠٪ من أمة الإسلام، التي تقارب الآن ربع البشرية، وتملك الوحي الوحيد الصحيح على ظهر هذه الأرض، والتي لها حضارة جعل منها العالم الأول على ظهر هذا الكوكب من أكثر من ١٠ قرون بينما عمر الحضارة الغربية لا يتعدى قرنين من الزمان، مشيراً إلى أن الأمة الإسلامية أمة تملك من الثروات ما يجعلها العالم الأول في الاقتصاد لكن تلك الأمة تعاني تحديات شرسة.

وأضاف علينا أن نحول المذهبية إلى تنوع وسعة بدلا من أن تكون تشرذماً وعداء ولابد من تحويل القوميات في العالم الإسلامي إلى جزر من المحيط الإسلامي، مطالبا بتطبيق قاعدة فيلسوف السلفية بن تيمية لا ينبغي أن نكفر أحد من أهل القبلة، وقاعدة بن حامد الغزالي «الخطأ في ترك ألف كافر أفضل من إراقة قطرة دم لإنسان مسلم» مطالبا بجعل القدس وفلسطين على رأس الأولويات بدلا من الخلافات التي تشغل الأمة.

من جانبه قال الدكتور عصام البشير، وزير الأوقاف السوداني السابق، أنه لابد من ترتيب البيت السني من داخله فنحن

أقدمنا على الحوار مع الآخر دون أن نقوم بحوار مع الذات التى هى أنماط ومراتب أولها أن نعمل على حسن الحوار بين أهل العلم، الأمة يعصرها الخلافات ليس على الإطار المذهبية فحسب بل على مستوى سلب أطراف الدولة الإسلامية، ونشوء الخلاف فى دولة أخرى على أساس عرقى وطائفى، مضيفاً لابد من تأسيس قاعدة مهمة وهى بناء المفاهيم وضبط المصطلحات فهذه المشكلة وقع الناس فيها باختزال مخل وتحول منهج السلف الصالح إلى مذهبية ضيقة، مشيرا إلى أن الأمة تعانى أسلحة الدمار الشامل المعنوية نراها فى عناوين الكتب التى تحفل بها المكتبات الإسلامية مثل السيف الذكى.

من جانبه قال الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى، أكبر علماء الشام، إن العقيدة تتمثل فى القرآن والسنة، والأمة تعانى ممن يصورون الأشاعرة فرقة والماتريدية فرقة ويحاولون أن يزيدوا خلافات الأمة سوءا ونفسح المجال للخلاف بالقول بوجود فرقة أهل الحديث، فعلينا إنهاء هذا التقسيم الذى يولد مزيداً من الفرق.

الدكتور سلمان بن فهد العودة، المشرف على موقع الإسلام اليوم، قال: «إن الأزهر هو بيت العرب وبيت المسلمين وقد كتب لى أن أزور العديد من البلاد ورأيت أن خريجى الأزهر ضمانة قوية فى الحفاظ على قيم وهوية تلك البلاد التى واجهت مدا شيوعيا أو اتجاهات مدمرة تحاول أن تمس بنية تلك البلاد وهذا ما ينتظره الناس من الأزهر فى تلك الظروف الصعبة فنحن نعانى ظروف سيئة، ونقف بتلك الظروف فى عصر التواصل والعلم، ويشهد تراجعا عن الإنجازات فى العالم الغربى، لكن فى العالم الإسلامى تتحدث النشرات عن أزمات، ونحن بحاجة لنموذج واحد حتى نقول أنه علينا أن نصنع هذا النموذج فى كل بلادنا».

وأضاف الدكتور سلمان العودة والخلاف القاتل بيننا ليس سببه وجود اتجاهات مختلفة لأن التنوع سنة الله فى الكون والصحابة اختلفوا فى عهد الرسول واختلفت اتجاهاتهم وآرائهم، ولكن المشكلة هو غياب فقه الاختلاف والجور على الأسس والأصول العامة التى هى محل إجماع، فالناس أصبحوا يختلفون فى أمور يسع فيها الحوار مادام فى دائرة الاجتهاد».

***

أنباء مكتب الإمام الأكبر

للأستاذ / أحمد إبراهيم توفيق
مدير عام الإعلام بمكتب الإمام الأكبر

إطلاق مشروع تأسيس «بيت العائلة المصرية»

أعلن فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر عن إطلاق مشروع تأسيس «بيت العائلة المصرية»، والذى يضم فى عضويته رجال الأزهر والكنائس المصرية وعدد من المفكرين وعقلاء الأمة المصرية لمواجهة حالات الاحتقان الطائفى.

وقال شيخ الأزهر إن لجنة بيت العائلة ستجتمع أسبوعياً للاستماع إلى رأى المواطنين وبحث ما يطرأ من مشكلات وتقديم الحلول لصناع القرار، وحتى تكون صوتاً مسموعاً للمسلمين والمسيحيين يقضى على الأصوات النشاز التى لا تنتمى إلى الإسلام أو المسيحية أو اليهودية، وتزيل الكثير من أسباب وبواعث التوتر التى لم يعرفها المصريين طوال تاريخهم.

واستنكر فضيلة الإمام الأكبر حادث الاعتداء الآثم على كنيسة القديسين بالإسكندرية مؤكدا أن الحادث الذى سالت فيه دماء بريئة وتناثرت أشلاء كانت تؤدى صلواتها فى بيت من بيوت العبادة لا يمكن أن يتسبب فيه مسلم ولا يمكن أن يقوم به مصرى لأن المصريين بطبعهم رقاق القلوب وأهل مودة وكرم.. وقال شيخ الأزهر خلال مؤتمر صحفى عقده بمشيخة الأزهر إن هذا الحادث الغريب دبر له من خارج مصر، وأن هذا البلد الآمن المستقر مستهدف وأن أعداء الإسلام يريدون جر مصر إلى حروب طائفية واقتتال دينى كما يحدث الآن فى العراق وأفغانستان وبلاد إسلامية أخرى، وطالب فضيلة الإمام الأكبر بتشابك أيدى المصريين جميعا وأن نرفع معاً شعار وحدة الهلال مع الصليب مؤكدا أن مصر فى أشد الحاجة إلى الوحدة والتلاحم فى هذا التوقيت، وأن ما نال الكنائس قد ينال المساجد فى القريب العاجل، وأكد الإمام الأكبر أن الذين قتلوا الناس باسم الإسلام يهدمون الدين الإسلامى مطالباً المصريين جميعاً بالعمل على حماية المصريين وحفظ أمن واستقرار الوطن.

وانتقد فضيلة الإمام الأكبر تصريحات البابا بنديكتس السادس عشر بابا الفاتيكان حول الحادث والتى انتقد خلالها أوضاع المسيحيين فى الشرق الأوسط كما تناول اللقاء ما سبق وأطلقه بابا الفاتيكان من تصريحات عقب العدوان الآثم على إحدى الكنائس بالعراق أن طالب بحمايتهم أو

تشجيعهم على الجلاء والرحيل إلى الغرب، ولم يتحرك قداسته لملايين المسلمين الذين سالت دماؤهم أنهاراً فى العراق، وأضاف شيخ الأزهر قائلا: كنا ننتظر أن يساوى قداسة بابا الفاتيكان بين قتلى المسلمين والمسيحيين حتى تكون نظرته إلى السلام نظرة متوازنة تجاه الجميع.. وطالب شيخ الأزهر جموع المسلمين بتقديم التهنئة بعيد الميلاد المجيد وتقديم واجب العزاء فى ضحايا الحادث الآثم الذى وقع بالإسكندرية وأن يتحد الجميع من أجل الوطن رافعين شعار وحدة الهلال مع الصليب.

بيان الأزهر الشريف رداً على ما ورد فى خطاب البابا بنديكتس

تعقيباً على ما ورد فى الخطاب السنوى لقداسة البابا بنديكتس السادس عشر أمام الدبلوماسيين المعتمدين لدى الفاتيكان صرح السفير محمد رفاعة الطهطاوى المتحدث الرسمى باسم الأزهر الشريف بأن فضيلة الإمام الأكبر وجه بإيضاح ما يلى:

أولاً: أننا نقدر ما ورد فى كلمة قداسة البابا بنديكتيس السادس عشر من دعوة حكومات دول الشرق الأوسط إلى حماية الأقليات المسيحية، ونعتبر أن هذا تأكيد على أن حماية المسيحيين شأن داخلى تتكفل به دولهم باعتبارهم مواطنون لهم كافة الحقوق شأنهم فى ذلك شأن سائر مواطنيهم ونغتنم هذه المناسبة للتأكيد على رفض أى تدخل فى الشئون الداخلية للدول العربية الإسلامية بأى ذريعة من الذرائع.

ثانياً: أننا نشير إلى قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بمنع ازدراء الأديان، ونؤكد أن احترام عقائد الشعوب ومقدساتها أمر واجب، وأنه من حق كل الدول أن تسن ما تراه مناسباً من قوانين لحماية أمنها الوطنى وسلامها الاجتماعى، وأن مثل هذه القوانين تعكس الخصوصية الثقافية لكل بلد، وتراعى مشاعر الكثرة الغالبة من أبنائه، بما يحمى المقدسات والعقائد من أن تكون هدفا لطعن الطاعنين وعبث العابثين.

الإمام الأكبر يستقبل السيد/ أمين الجميل رئيس لبنان الأسبق

استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر فخامة الرئيس أمين الجميل رئيس لبنان الأسبق، وأكد فضيلته أن الأزهر الشريف وباعتباره حاضنا للثقافة العربية وللتراث الحضارى العربى والإسلامى هو بيت لكل العرب كما أنه بيت لكل المسلمين.

وقد قدم الرئيس أمين الجميل عرضاً للإسهام التاريخى للمسيحيين العرب فى الحضارة الشرقية ولدورهم فى النهضة العربية الحديثة وفى مقاومة الاستعمار الأجنبى، وأوضح الدور الكبير الذى قام به المسيحيون اللبنانيون دفاعاً عن قضية فلسطين مؤكدا أن الشراكة الإسلامية ـ المسيحية والشراكة الوطنية العربية الجامعة تشكلان أسس تاريخنا وحضارتنا الإنسانية كما تشكلان الأساس المتين لمقاومتنا فى العالم العربى للتحديات الراهنة، والمنطلق الصحيح لبناء التقدم واستشراف المستقبل.


الإمام الأكبر يستقبل الرئيس أمين الجميل

وقد أوضح الإمام الأكبر شيخ الأزهر أن الأزهر الشريف يرى أن المسيحيين العرب جزء أصيل من مكونات المجتمع فى العالم العربى وأن ازدهار المجتمعات المسيحية هو عنصر أساس لثراء الحضارة فى الشرق، وأن الإسلام يحرص وبحكم عقيدته وشريعته على إبقاء المسيحيين آمنين مطمئنين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وأشاد فضيلته بالصيغة اللبنانية باعتبارها تأكيداً للتعايش بين العرب على اختلاف أديانهم ومذاهبهم، ومثالاً للتعددية الثقافية، وأن الصيغة اللبنانية هى المثال الحى لرفض الدعوى الإسرائيلية لإقامة دولة يهودية عنصرية تقوم على العدوان والغصب وإقصاء الآخر.

وقد أوضح الرئيس الجميل أن المسيحيين فى الشرق خاصة الكاثوليك وهم يؤكدون انتماءهم العربى الراسخ فإنهم يأملون فى تعزيز جسور الحوار والتفاهم بين رئاستهم الروحية فى الفاتيكان وبين الأزهر الشريف باعتباره المرجعية الإسلامية العليا.

وتعقيباً على ما تقدم فقد أكد فضيلة الإمام الأكبر ما يلى:

١ ـ أن الأزهر الشريف حريص كل الحرص على الحوار البناء القائم على الاحترام المتبادل مع أتباع الديانات السماوية جميعاً.

٢ ـ أن الأزهر الشريف يؤكد أن الخطر الأكبر الذى يتعرض له المسيحيون فى الشرق ينبع من الاحتلال الإسرائيلى ومن الوجود الأجنبى فى المنطقة ومن سياسات الهيمنة والتسلط.

٣ ـ أنه تقديراً من الأزهر الشريف للأخوة المسيحيين العرب، وحرصاً على مشاعرهم، ومراعاة لحساسياتهم وتأكيداً لدورهم المقدر فى إثراء الحضارة والثقافة، فإنه قد وجه رسالة إخاء وسلام إلى

الفاتيكان، ولايزال الأزهر ينتظر رسالة مقابلة.

وفى ختام اللقاء وجه الإمام الأكبر شيخ الأزهر نداء إلى اللبنانيين جميعاً كى يوحدوا صفوفهم للحفاظ على أمن لبنان وسلامه واستقراره، فى مواجهة العدوان الإسرائيلى الذى يستهدف الصيغة اللبنانية فى العيش المشترك، كما يهدد الأمن والاستقرار فى البلد العربى الشقيق.

كما أعرب فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر عن أنه يرحب باستمرار التواصل وتبادل الرأى مع الرئيس أمين الجميل باعتباره رجل دولة وفكر وزعيماً من زعماء الشعب اللبنانى الشقيق.

ويستقبل وزير خارجية قبرص

استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد محمد الطيب - شيخ الأزهر وزير خارجية قبرص ماركوس كبريانو حيث تم التباحث حول تدعيم العلاقات بين الأزهر الشريف وجمهورية قبرص.

وقال وزير خارجية قبرص بأن حادث الإسكندرية تم الإعداد له بأيد خارجية وليست مصرية وأن حكومة قبرص على قناعة تامة بأن الحادث إرهابى وليس دينى.

ومن جانبه أكد فضيلة الإمام الأكبر اتفاقه مع ما ذكره وزير خارجية قبرص بأن ما حدث فى الإسكندرية عمل إرهابى لا علاقة له بالأديان وأن المسلمين فى مصر وأفغانستان والعراق وغيرهم من الدول الإسلامية تعرضوا للإرهاب بصور متعددة.

وطلب الإمام الأكبر من وزير خارجية قبرص أن ينقل وجهة النظر التى تم مناقشتها خلال الزيارة إلى زملائه فى الاتحاد الأوربى وطلب الإمام الأكبر من وزير خارجية قبرص أن يكون هناك تواصل بين الأزهر الشريف وكبير أساقفة قبرص حيث وجه فضيلة الإمام الأكبر الدعوة لكبير أساقفة قبرص لزيارة مصر.

وصرح السفير محمود عبدالجواد المستشار الدبلوماسى للإمام الأكبر أنه سيتم الاتفاق والإعداد لهذه الزيارة عن طريق سفارة قبرص بالقاهرة.

اجتماع الهيئة التأسيسية للمجلس الإسلامى العالمى للدعوة والإغاثة

فى اجتماع الهيئة التأسيسية واجتماعات اللجان الثانى والعشرين للمجلس الإسلامى العالمى للدعوة والإغاثة المنعقد بالقاهرة فى الفترة من ٥، ٦ يناير ٢٠١١ بفندق مريديان هليوبليس مصر الجديدة برئاسة فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر رئيس المجلس أكد فضيلته أن يكون المجلس أداة تنسيق للجهود التى يقدمها المجلس وأنه مازال أمامنا طريق طويل وتحديات تتطلب المواجهة كما تتطلب تفعيلات وبذل المزيد من الجهود لضحايا أفغانستان وإيجاد إدارة فعالة للتنسيق لهيئة المكتب لتوفير المعلومات لدى المنظمات الأعضاء وعرض بعض المقترحات لترابط هيئة المجلس فى ظل ما يتعرض له المجلس من تشويه فى ظل الظروف الراهنة التى تتطلب مسئوليات جسيمة فى

مجالات الدعوة والتدريب والتعليم وتفعيل قدرات الدعاة الدعوية والمعرفية لتطوير الخطاب الدعوى وتوصيل الرسالة وأن الأزهر بدأ الخطوات لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، وبرامج تدريبية للدعاة وزيادة الدعم للوافدين، وزيادة المنح الدراسية، وأشار فضيلته إلى ما يعانيه إخواننا فى فلسطين من ظلم وعدوان واقع عليهم من العدو الصهيونى من مخططات لتهويد القدس العربية، وينبغى علينا تقديم الدعم المادى والمعنوى من أجل وحدة الصف ونبذ الخلاف حتى يتسنى إقامة دولتهم المستقلة وعاصمتها القدس الشريف.

وأشار فضيلته إلى العراق وما يتعرض له من تشرزم عرقى يهدد وحدته ويهدد استقلاله، وعلينا تقديم المصلحة العراقية لعودة هيبة العراق واستعادة كرامته، وأشار فضيلته إلى ما يتعرض له السودان من ضغط يستهدف تهديد وحدته وأمنه واستقراره وتقسيمه، والصومال الذى ينتظر منكم الوقوف إلى جانبه للحفاظ على وحدة شعبه، ومعاناة الشعب الأفغانى التى يلقاها من آثار الحروب التى ساءت على إثرها الحالة الاقتصادية والاجتماعية.

الإمام الأكبر يستقبل وفد مجلس العلاقات الخارجية الأمريكية

استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور/ أحمد الطيب شيخ الأزهر وفداً يمثل مجلس العلاقات الخارجية الأمريكية.

رحب فضيلة الإمام الأكبر فى بداية اللقاء بالوفد فى الأزهر الشريف، وقال إنه يلمس فى الوفد طيبة الشعب الأمريكى وأنه يرى أن مثل هذه اللقاءات يمكن أن تؤدى إلى تقريب التفاهم بين الشرق والغرب وإعطاء صورة صحيحة عن الإسلام والمسلمين لدى الرأى العام الأمريكى، وقام فضيلة الإمام الأكبر بتقديم شرحاً تفصيلياً للنظام التعليمى والأكاديمى بالأزهر وجهود تطويره بما يؤكد الأصالة والمعاصرة ومد أصول التلاقى والتفاهم مع المؤسسات الأكاديمية فى العالم كله وأن الأزهر يستقبل فى الوقت الحالى وفداً طلابياً من جامعة بيل الأمريكية يدرسون العلوم الإسلامية والعربية لمدة فصل دراسى كامل.

وأوضح الإمام الأكبر أن الأزهر له أولويات ثلاثة هى تحقيق وتأكيد الوحدة الوطنية والتقريب بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم، ونشر السلام العالمى بين الناس جميعاً.

وأكد شيخ الأزهر أن محاولات تشويه صورة الإسلام فى الغرب تحركها دوافع سياسية ويقوم على دعمها وسائل إعلام هائلة مما يقتضى بذل جهد ضخم لتصحيح هذه الصورة خصوصاً وأن للأزهر تقليد راسخ فى تأكيد الوسطية والاعتدال وأن العلاقة بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات تقوم على المودة والتراحم الإنسانى والتاريخ الإسلامى على مدى ١٤ قرناً شاهداً على ذلك.



وأشار فضيلته إلى أن هناك مخططات غربية خبيثة تستهدف تفتيت العالم العربى وما نراه فى العراق وفى السودان وفى لبنان وبلاد المغرب العربى شاهدا على ذلك.

واستنكر فضيلته ما يردده البعض مؤخراً عن تقسيم مصر وهى أقدم دولة فى التاريخ وأكثر مجتمعات الأرض تماسكاً إلى ثلاث دول دولة مسلمة ودولة مسيحية ودولة نوبية، وأنه يعتقد بأن هناك مخططا صهيونيا يهدف إلى تمزيق العالم العربى بحيث تصبح إسرائيل هى الدولة الكبرى والمتحكمة فى المنطقة.

كما أكد الإمام الأكبر على أن هناك أصواتاً عاقلة ومنصفة فى الغرب لكنها ليست الأعلى صوتاً ولا الأكثر تأثيراً.

وفى ختام اللقاء أعرب الوفد عن تقديرهم لدور الأزهر باعتباره يمثل الإسلام الوسطى وطلب بعضهم أن يبذل الأزهر مزيداً من التعريف للثقافة الإسلامية وبعض أعمال العلماء المسلمين والمتصوفين أمثال جلال الدين بن الرومى وتساءل الوفد عن أهم المشكلات التى يراها الإمام الأكبر بين السنة والشيعة؟

وقد أجاب فضيلته بأن السبب الحقيقى فى تأجيج الخلاف هو سبب سياسى وأن الأزهر يعمل على جمع كلمة المسلمين على ما يتفقون عليه وأن يعذر بعضهم بعضا فيما اختلفوا فيه.

وشدد فضيلته على أنه يرفض دعاوى التكفير والتطرف سواء جاءت من مسلم أو غيره.

أنباء مجمع البحوث الإسلامية

للأستاذ/ يحيى سليمان

اقتراح بمشروع قانون بإضافة مادة جديدة للقانون رقم ١٠٢ لسنة ١٩٨٥م

بشأن طبع المصحف الشريف والأحاديث النبوية

أعد مجمع البحوث الإسلامية اقتراح بمشروع قانون بإضافة مادة جديدة للقانون رقم ١٠٢ لسنة ١٩٨٥م بشأن: طباعة المصحف الشريف والأحاديث النبوية وذلك على النحو التالى:

المادة الأولى: تحذف الفقرة الثالثة من المادة الأولى من القانون رقم ١٠٢ لسنة ١٩٨٥م، وليكون نصها كالآتى:

يختص مجمع البحوث الإسلامية دون غيره لإشراف على طبع ونشر وتوزيع وعرض وتداول المصحف الشريف وتسجيله للتداول والأحاديث النبوية وفقا لما تقرره اللائحة التنفيذية للقانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١م بشأن إعادة تنظيم الأزهر والهيئات التى يشملها.

ويختص الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية أو من ينوب عنه بالترخيص لدور الطبع والنشر وللأفراد والشركات والمؤسسات وغيرها بطبع ونشر وتوزيع وعرض وتداول والتسجيل للتداول لكل ما تقدم أو بعضه وفقاً للقواعد والشروط التى يصدر بها قرار من شيخ الأزهر.

المادة الثانية: تضاف مادة جديدة للقانون رقم ١٠٢ لسنة ١٩٨٥م برقم «الثانية مكررا» يكون نصها كما يلى:

المادة الثانية مكرراً: ـ

أ ـ يعاقب بالسجن وبغرامة لا تقل عن عشرة آلاف جنيه كل من طبع أو نشر أو وزع أو سجل أو عرض للتداول مصحفاً ووضع عليه رقم تصريح صادر لمصحف آخر سواء

كان هذا التصريح صادراً لمصحف لنفس الرواية لكن لمقاس مختلف أو لرواية أخرى أو لنفس المقاس والرواية ولكن صادر لشخص غيره أو دار طباعة أخرى وكذلك المصاحف المسجلة على حوامل صوت وغيرها.

ب ـ يعاقب بغرامة لا تقل عن عشرة آلاف جنيه ولا تزيد عن ثلاثين ألف جنيه كل من قام بطبع أو نشر أو توزيع أو عرض للتداول مصحفاً به أخطاء مطبعية كوجود صفحات مطموسة أو كلمات ممسوحة أو اختلاف ترتيب ملازم أو صفحات أو غيرها من الأخطاء المطبعية، ويحكم فضلاً عن ذلك بغلق المطبعة مدة لا تقل عن سنة ولا تزيد عن سنتين، ويتم سحب النسخ التى تم توزيعها وإعدامها على حسابه الخاص، وتكون العقوبة مثلى الغرامة فى حالة العود مع حرمانه من إعادة طباعة المصحف، ولا يجوز الحكم بوقف تنفيذ أى من هذه العقوبات.

ج ـ يجب على كل من صدر له تصريح طبع وتداول المصحف بتسليم أصل التصريح مع أفرخ الزنكات والاكلاشيهات بعد طبع الكمية المنصوص عليها فى التصريح ويعاقب بذات العقوبة المنصوص عليها بالفقرة «ب» كل من تجاوز العدد أو المدة المنصوص عليها فى التصريح الصادر له.

د ـ لا يترتب على طباعة المصحف أى ملكية فكرية أو أى حقوق أخرى، وما بين دفتى المصحف هو كلام الله عز وجل وملك لله تعالى وحده، ويلغى كل نص أو حكم يخالف ذلك ويعتبر كأن لم يكن من تاريخ العمل بهذا القانون.

هـ ـ يصدر الإمام الأكبر شيخ الأزهر قراراً ينظم ما يجب على مجمع البحوث الإسلامية اتخاذه بشأن إجراءات وشروط وضوابط التصريح بطباعة المصحف، وما يجب على الغرف الصناعية تقديمه من عون فى هذا الشأن.

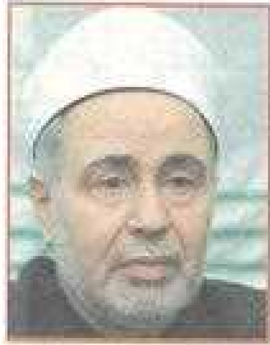
المادة الثالثة: ينشر هذا القانون فى الجريدة الرسمية ويعمل به من اليوم التالى لتاريخ نشره.

بيان بشأن تجميد الحوار بين الأزهر والفاتيكان

استعرض مجلس مجمع البحوث الإسلامية فى جلسته الطارئة المنعقدة يوم الخميس ١٦ من صفر سنة ١٤٣٢ هـ، الموافق ٢٠ من يناير سنة ٢٠١١م ما تكرر صدوره من بابا الفاتيكان أكثر من مرة من تعرضه للإسلام بشكل سلبى ومن دعوته اضطهاد المسلمين للآخرين الذين يعيشون معهم فى الشرق الأوسط.

قرر المجلس تجميد الحوار بين الأزهر والفاتيكان إلى أجل غير مسمى.

مجمع البحوث الإسلامية ينظم ندوات تثقيفية بقصور الثقافة


أ.د. محمد سيد طنطاوى

قرر مجمع البحوث الإسلامية برئاسة فضيلة الإمام الأكبر الدكتور/ أحمد محمد الطيب شيخ الأزهر عقد ندوات تثقيفية بقصور الثقافة فى محافظات الجمهورية لمواجهة الأفكار الوافدة التى انتشرت بين الشباب والجماهير يحاضر فيها أعضاء مجمع البحوث الإسلامية وأساتذة جامعة الأزهر وعلماء وزارة الأوقاف.

وقال فضيلة الشيخ/ على عبدالباقى الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية أن الندوات تهدف إلى مواجهة الأفكار الهدامة التى تحاول المساس بالوحدة الوطنية بين أبناء الأمة وكذلك الإيقاع بين المسلمين السنة والشيعة ومواجهة الأفكار السلفية المتشددة.

وأضاف: أنه سيتم الاتصال والاتفاق مع جميع المحافظين لتنفيذ الندوات والمحاضرات والتى سيتم الانتهاء من إعداد البرنامج الخاص بها خلال أسبوعين وعرضها على الإمام الأكبر لإقرارها.

كما قرر المجمع عقد احتفالية فى مارس المقبل لتكريم اسم الإمام الراحل الدكتور محمد سيد طنطاوى وأعلن الشيخ على عبدالباقى أن المجمع ناقش إحياء مشروع القانون الخاص بالعقوبات التى تطبق على الأخطاء فى طباعة المصحف الشريف والسنة النبوية المطهرة حيث وافق أعضاء المجمع على تشكيل لجنة قانونية لصياغة المواد المطلوب إضافتها على القانون (١٠٢ لسنة ١٩٨٥م) بشأن طبع المصحف والأحاديث النبوية على أن تعرض المواد المراد إضافتها للقانون وعرضها على مجمع البحوث الإسلامية الجلسة المقبلة لإقرارها.

ووافق المجمع على قرار لجنة تحسين طباعة المصحف بإعادة طباعة المصحف للجهات التى لم يسجل عليها أخطاء فى الطباعة بعد صدور قرار من فضيلة الإمام الأكبر ومعاقبة المطابع التى جاء منها أخطاء متعددة بالوقف ثلاث سنوات مبدئياً.

كما وافق المجمع على ترشيح الدكتور محمود مهنا عضو المجمع لنيل جائزة التسامح الدينى فى حفل تكريم اسم الإمام الراحل الدكتور محمد سيد طنطاوى والتى تقيمها جامعة سوهاج.

إدارة الطلاب الوافدين

صرح الأستاذ سامى عز الدين القائم بعمل مدير عام إدارة الوافدين بأن عدد الطلاب الوافدين لهذا العام من دولة الصين قد بلغ حوالى ١٠٦٦ طالباً وطالبة موزعين على النحو التالى:

- الدراسات الخاصة: ٢٣٨ طالبا، و٧٦ طالبة.
- المرحلة الابتدائية: ٥ طلاب و٣ طالبات.
- المرحلة الاعدادية: ٣٠٤ طلاب، و١١٤ طالبة.
- المرحلة الثانوية: ٦٦ طالباً و٣٣ طالبة.
- الجامعة: ١٧٦ طالباً، و٤٠ طالبة.
- الدراسات العليا: ٢٢ طالباً.

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية يستقبل وفداً نيجيرياً

استقبل فضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية بمكتبه وفدا نيجيرياً رفيع المستوى برئاسة الشيخ/ محمد حبيب الله آدم عبدالله الالورى، رئيس العلاقات الخارجية لرابطة الأئمة والعلماء وعضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بنيجيريا.

وضم الوفد فى عضويته: الشيخ/ ناصر مرتضى عبدالسلام، ممثلا للمعهد العربى ـ النيجيرى بأبادن، والشيخ/ زكريا عبدالقادر إمام وخطيب مسجد زعيم المسلمين بنيجيريا، والشيخ. عبدالرشيد هداية الله، مؤسس ومدير كلية الشيخ عبدالعزيز بن باز للشريعة الإسلامية ونائب رئيس المجلس الأعلى للشريعة فى نيجيريا، والشيخ/ مسعود عبدالغنى، الإمام الأكبر لمدينة أويو بنيجيريا، والدكتور/ كامل كويجو ولوشو، الأستاذ المساعد بقسم الدراسات العربية والإسلامية بجامعة أبادن بنيجيريا، والدكتور/ عبدالمؤمن يوسف، رئيس قسم الدبلوم بمركز التعليم العربى الإسلامى.

قدم الوفد الشكر للأزهر الشريف وللقائمين عليه لعنايتهم واهتمامهم بأمر المسلمين فى العالم عامة وفى نيجيريا خاصة وعلى إمداد الأزهر لهم بالمبعوثين الأزهريين حيث يوجد للأزهر بنيجيريا (٨٢) مبعوثاً.

ومن جانبه أوضح فضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية الشيخ على عبدالباقى شحاتة أن العلاقة بين مصر ونيجيريا والأزهر الشريف علاقة تاريخية منذ مملكة (كانو الإسلامية) وأن الود موصول بين الأزهر وبلاد غرب أفريقيا عموما ونيجيريا خاصة،



فمسلمى نيجيريا هم امتداد للشيخ/ آدم عبدالله الالورى، وللأزهر بنيجيريا أكبر بعثة أزهرية على الإطلاق.

وقد ناقش الوفد مع فضيلة الأمين العام حملات التبشير والتنصير فى نيجيريا وسبل مواجهة هذه الحملات، وقد طلب الوفد من فضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية زيادة المنح من عدد (٣٠) منحة إلى عدد (٣٠٠) منحة، وزيادة عدد المرشحين لدورة الأئمة، وزيادة عدد المبعوثين من الأزهر إلى نيجيريا.

وقد وعد فضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية ببحث هذه المقترحات ودراستها.

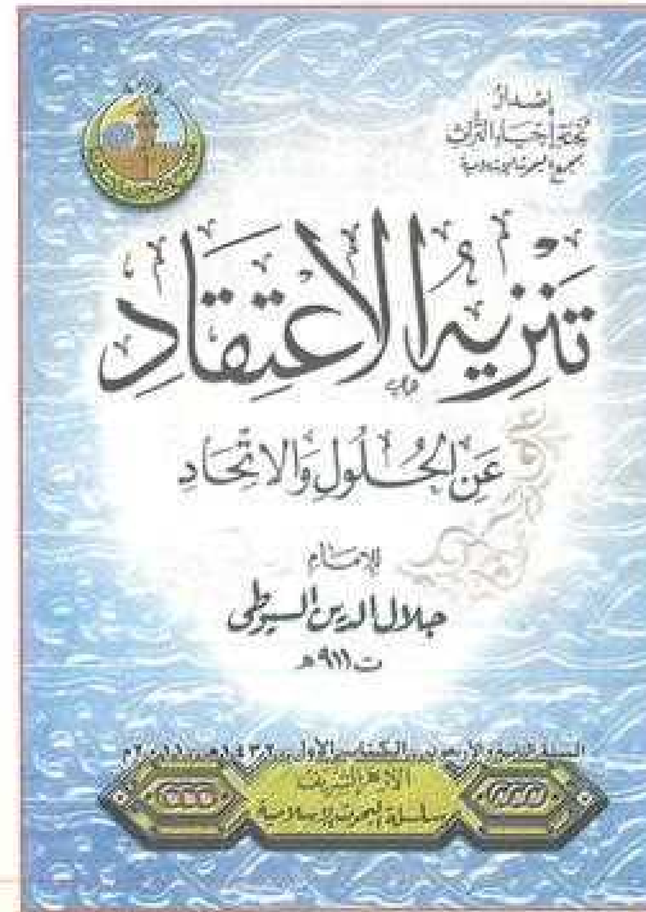
وفى الختام قدم الوفد الشكر لفضيلة الأمين العام للمجمع وللأزهر الشريف على حسن المقابلة والرعاية والاهتمام والتعاون.

تنزيه الاعتقاد

صدر عن سلسلة مجمع البحوث الإسلامية كتاب (تنزيه الاعتقاد عن الحلول والاتحاد) من تأليف الإمام جلال الدين السيوطى المتوفى عام ٩١١ هـ.

وهذا الكتاب من كتب التراث وتظهر أهميته من ناحيتين: الأولى أن هذا الكتاب لعالم جليل عُرف بثقافته الموسوعية وصوفيته المعتدلة.

والثانية من ناحية موضوع الكتاب، حيث إنه يفصل فى قضية ومسألة احتدم فيها الخلاف بين بعض الصوفية والمعارضين لهم، وفيه يضع المؤلف الأمور فى نصابها دون إفراط أو تفريط ودون تحيز لفريق على حساب الآخر.



ومخطوط هذا الكتاب قد اختارت طبعه لجنة إحياء التراث وهى إحدى لجان مجمع البحوث الإسلامية. وقد كلفت اللجنة د. عبدالباسط محمد أمين سليمان الباحث بمجمع البحوث الإسلامية بتحقيق هذا المخطوط وإعداد دراسة عنه وذلك تحت إشراف لجنة إحياء التراث.

ويقع الكتاب فى ٧٤ صفحة من القطع الصغير بخلاف الفهرس والمراجع ويحتوى على قسمين:

١ ـ القسم الأول: دراسة عن الكتاب وموضوعه وفيه عرف المحقق بالمؤلف جلال الدين السيوطى، وبنسخ الكتاب، ونسبتها للسيوطى.

وبموضوع الكتاب والمصطلحات الواردة فيه (الفناء، والاتحاد، والحلول، ووحدة الوجود، وموقف الشريعة الإسلامية منها).

٢ ـ القسم الثانى: تحقيق نص الكتاب (المخطوطة) وفيه النص الأصلى للكتاب بعد تحقيقه وتخريج الآيات والأحاديث الواردة فيه، ورد النقول والنصوص إلى مصادرها الأصلية وفيه يبين الإمام السيوطى معالجة هذه القضايا الشائكة التى زلت فيها أقدام الآخرين ومحاولة منه إيجاد مسوغ أو مخرج لهم من الوقوع فيما يخالف الشرع والدفاع عنهم، وإظهار براءتهم من ذلك، وأن الاتحاد والحلول ليس من صميم العقيدة الإسلامية ولا يدخل معتقدها أو منكرها فى مخالفة للشريعة وقارئ الكتاب يقى نفسه من شر الفتن الظاهرة والخفية.

أنباء العالم الإسلامى



إعداد الأستاذين:
محمود الفشنى - أحمد رضوان

خطيب الأقصى: المصريون سيتجاوزون الأزمة بالتسامح والمحبة

استنكر الشيخ يوسف جمعة سلامة - خطيب المسجد الأقصى المبارك النائب الأول لرئيس الهيئة الإسلامية العليا بالقدس - حادث الإسكندرية.

وأكد سلامة: أن هذا العمل الإجرامى يتنافى مع التعاليم السماوية والقيم الإنسانية، ويهدف إلى بث الفرقة والخلاف بين أفراد المجتمع المصرى المتلاحم الواحد.

وبيَّن خطيب الأقصى: أن العلاقات الإسلامية المسيحية فى مصر علاقات مميزة كما هى فى فلسطين التى تحكمها العهدة العمرية، حيث يعيش الجميع أخوة متحابين فى السراء والضراء ومن المعلوم أن أهل مصر هم أصهار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهم الذين أوصى بهم رسولنا - صلى الله عليه وسلم - خيراً فى أحاديثه الشريفة.

وأعرب سلامة عن ثقته بأن الأشقاء فى مصر قيادة وشعباً سيتجاوزون هذه المحنة بحكمة كبيرة، معتمدين على روح التسامح والمحبة والأخوة السائدة بين جميع طوائف الشعب المصرى الشقيق.

فضيلة المفتى يشارك فى اجتماع مجمع الفقه الإسلامى بالسودان


د. على جمعة

شارك د. على جمعة مفتى مصر فى اجتماع مجلس الفقه الإسلامى الذى أقيم بمنتدى النهضة والتواصل بالسودان.

أكد د. إبراهيم نجم المستشار الإعلامى لدار الإفتاء والذى يرافق فضيلة المفتى أن هذه الزيارة اكتسبت أهمية خاصة فى الوقت الحاضر للتأكيد على وجود فرص حقيقية لزيادة علاقات التقارب والتواصل بين الدول العربية والإسلامية وتفويت الفرص الرامية إلى تفتيت أواصر الوحدة والمحبة إيمانا بوجوب المحافظة على وحدة الأمة العربية والإسلامية فى الوقت الذى تتصاعد فيه الحملات والمخططات المعادية والهادفة إلى دس الفرقة وتمزيق الصفوف وإحياء الفتن بين المسلمين.

البشير أمام القمة الاقتصادية: ملتزمون بتنفيذ نتيجة استفتاء الجنوب


البشير

أكد الرئيس السودانى عمر البشير التزام حكومته بالنتائج التى سيسفر عنها استفتاء تقرير المصير بجنوب السودان. وتنفيذ آخر بنود اتفاقية السلام الشامل الذى تم توقيعه عام ٢٠٠٥.

وقال البشير فى كلمته أمام القمة الاقتصادية بشرم الشيخ: إننا وإذ نتأهب لإعلان النتيجة التى أكدنا التزامنا بها إكمالا لهذا العمل التاريخى فإننا نحمد الله على ما أنعم به على السودان من استقرار فى جنوبه منذ ٦ سنوات مما جعل بمقدورنا أن نلتفت إلى إنجاز مشروعات تنموية عملاقة فى بلادنا أفضت إلى طفرة اقتصادية.

للمرة الأولى: علم فلسطين يرفرف رسميا فى واشنطن

للمرة الأولى فى تاريخ الصراع العربى - الإسرائيلى، ارتفع علم الدولة الفلسطينية صباح يوم ١٨/١/٢٠١١، أعلى مقر بعثة منظمة التحرير الفلسطينية فى واشنطن فى مؤشر على زيادة الضغوط على الإدارة الأمريكية للاعتراف بالدولة التى يسعى الفلسطينيون إلى الإعلان الرسمى عن قيامها عبر الأمم المتحدة بعد فشل المفاوضات المباشرة مع الحكومة الإسرائيلية.

وقد شهدت البعثة الفلسطينية فى العاصمة الأمريكية احتفالا دبلوماسياً ومؤتمراً صحفياً بمناسبة رفع العلم، بعد موافقة وزارة الخارجية الأمريكية على تلك الخطوة التى يمكن أن تثير موجة من الانتقادات فى أوساط اللوبى الموالى لإسرائيل فى واشنطن وكانت وزارة الخارجية الأمريكية قد رفعت مستوى تمثيل منظمة التحرير الفلسطينية من مكتب إلى بعثة عامة فى يوليو الماضى،

وهو ما يمكنها من رفع العلم ويمنح الدبلوماسيين حصانة دبلوماسية، لكنها لا ترقى إلى مستوى السفارة.

وصرح معين عريقات ممثل التحرير لدى واشنطن فى وقت سابق: أن الخطوة الأمريكية برفع مستوى التمثيل الفلسطينى يجعل البعثة الفلسطينية فى واشنطن تتمتع بوضع يماثل الموجود فى كندا والعديد من دول غرب أوروبا.

دعوة لتفعيل الاستراتيجية الثقافية الإسلامية

دعا المجلس الاستشارى المكلف بتنفيذ الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامى، فى ختام اجتماعه العاشر فى مقر المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «إيسيسكو» بالعاصمة المغربية الرباط، الدول الأعضاء إلى مواصلة جهودها لإدراج مضامين الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامى وتوجهاتها، ضمن عملها وبرامجها الثقافية، واعتبار العمل الثقافى ضمن أولويات التنمية الشاملة، نظراً إلى مردوديته الاستثمارية ودوره فى التنمية الثقافية والاجتماعية للأفراد والمجتمعات.

ودعا المجلس الإيسيسكو - إلى مضاعفة جهودها من أجل التعريف بالاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامى على أوسع نطاق، لدى جهات الاختصاص فى الدول الأعضاء وهيئات المجتمع المدنى والمنظمات الإقليمية والدولية.

وأشاد بالجهود المبذولة فى مجال العمل الثقافى الموجه لصالح المسلمين خارج العالم الإسلامى، من خلال عقدها للمنتدى الأول لرؤساء المراكز والجمعيات الإسلامية الثقافية خارج العالم الإسلامى فى مقرها الدائم، وحرصها على تفعيل مهام المجلس الأعلى للتربية والعلوم والثقافة للمسلمين خارج العالم الإسلامى، وبالدعم الذى تخصصه لفائدة المراكز الثقافية والجمعيات الإسلامية فى أوروبا وآسيا وأمريكا اللاتينية، ودعاها إلى مواصلة هذه الجهود تعزيزا للعمل الإسلامى الثقافى.

اتصالات إسلامية دولية بشأن وضع المسجد الأقصى


اوغلو

بعث الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامى - برسائل إلى وزراء خارجية الدول دائمة العضوية فى مجلس الأمن الدولى، نبه فيها إلى المخاطر المحدقة بالمسجد الأقصى المبارك والتى تهدد سلامة بنيانه.

مشيراً إلى أن منظمة المؤتمر الإسلامى تعتبر المسجد الاقصى المبارك خطاً أحمر، وأن إسرائيل القوة القائمة بالاحتلال، تتحمل المسئولية عن كل ما يمكن أن ينجم عنه المساس بسلامته، كما دعاهم إلى منع إسرائيل

من المضى فى اعتداءاتها، والسماح للأوقاف الإسلامية بتنفيذ أعمال الصيانة المطلوبة للمسجد.

كما وجه الأمين العام رسالة إلى المدير العام لليونسكو، دعاهم فيها إلى الإسراع بتشكيل لجنة خبراء دولية وبمشاركة خبراء من الدول الأعضاء فى منظمة المؤتمر الإسلامى من أجل تقييم سلامة مبانى الحرم القدسى الشريف.

سبعة خيارات للرئيس الفلسطينى للتعامل مع مأزق السلام مع إسرائيل



ابو مازن

طرح الرئيس الفلسطينى محمود عباس «أبومازن» يناير الماضى سبعة خيارات يمكن أن توضع موضع التنفيذ بشكل تدريجى للتعامل مع مأزق السلام المتعثر مع إسرائيل التى ترفض وقف الاستيطان كشرط لاستئناف المفاوضات المشتركة.

وتضمنت الخيارات السبعة التى طرحها أبومازن: أولا - العودة إلى المفاوضات المباشرة فى حال وافقت إسرائيل على وقف الاستيطان، وهو مالم يتم تحقيقه.

وثانيا - مطالبة الإدارة الأمريكية الاعتراف بالدولة الفلسطينية على حدود ٤ يونيو ١٩٦٧م، وهو ما رفضته الإدارة الأمريكية.

وثالثا - مطالبة مجلس الأمن الاعتراف بالدولة الفلسطينية على أساس حدود ١٩٦٧، مع ضرورة عدم استخدام الولايات المتحدة لحق الفيتو.

ورابعاً - فى حال حصول فيتو فيرفع الطلب إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة استناداً إلى سابقة حصلت عام ١٩٥٠م فى أوج الحرب الباردة، تتيح للجمعية العامة الحلول محل مجلس الأمن فى حال شلت حركة هذا المجلس بسبب استخدام أحد الأعضاء حق الفيتو، وهو ما حدث فى لاوس.

وخامسا - المطالبة بوضع الأراضى الفلسطينية تحت إدارة دولية.

وسادسا - التوقف عن تطبيق الاتفاقات الانتقالية مع إسرائيل.

وسابعا - حل السلطة الفلسطينية وتحميل إسرائيل كامل مسئولياتها كقوة محتلة.

١,٩ مليار دولار لمكافحة الفقر فى العالم الإسلامى

أعلن الدكتور أحمد محمد على رئيس مجموعة البنك الإسلامى للتنمية: أنه تم إنفاق ١,٩ مليار دولار لدعم مشروع صندوق التضامن الإسلامى لمكافحة الفقر والبطالة فى العالم الإسلامى.. وحث عقب اجتماع لجنة الخبراء فى البنك بمدينة جدة السعودية الدول الأعضاء على إعلان مساهماتها فى الصندوق، كما دعا الدول التى

أعلنت مساهماتها إلى تأمين المبالغ المالية للوصول إلى رأس مال الصندوق الذى يبلغ ١٠ مليارات دولار.

ودعا رئيس المجموعة القطاع الخاص إلى المساهمة الفعالة فى أعمال الصندوق لتحقيق أهدافه المنشودة المتمثلة فى مكافحة الفقر والحد من البطالة.

وذكر أن اجتماع لجنة الخبراء خرج بعدد من التوصيات ستتم مناقشتها فى القمة الإسلامية والمزمع عقدها فى شرم الشيخ مارس المقبل.. وبين أن إجمالى العمليات المصدقة من الصندوق بلغت قيمتها ٥٠٩ ملايين دولار، شملت عدداً من القطاعات أبرزها البنى التحتية والزراعة والتمويل الأصغر والتعليم، والتدريب الحرفى.. مشيراً إلى أن الصندوق منذ تأسيسه فى مايو عام ٢٠٠٧ نفذ برنامجين رئيسيين هما «التعليم الحرفى ودعم التمويل الأصغر» بمبلغ ٥٠٠ مليون دولار، خلال خمس سنوات.

خمسة آلاف بريطانى يعتنقون الإسلام سنويا

فى لطمة جديدة على من يحاولون تشويه الإسلام والنيل من مكانته كشفت دراسة بريطانية نشرتها صحيفة الاندبندنت واسعة الانتشار عن تضاعف عدد البريطانيين البيض الذين اعتنقوا الإسلام مؤخراً.

وقالت الصحيفة: إن مؤسسة السياسة الدينية البريطانية أكدت فى دراسة علمية اعتناق خمسة آلاف بريطانى الإسلام وأن العاصمة لندن شهدت العام الماضى فقط إسلام ما يقرب من ألف وأربعمائة بريطانى.

السلام عليك أيها النبى.. جامعة وقناة وبوابة الكترونية

وقع الدكتور عبدالله العثمان مدير جامعة الملك سعود بالعاصمة السعودية الرياض مع الدكتور ناصر الزهرانى المشرف العام على مشروع مركز وموسوعة «السلام عليك أيها النبى» مذكرة تفاهم لترجمة موسوعة «السلام عليك أيها النبى» وكشف الدكتور الزهرانى عقب مراسم التوقيع أنه يجرى الإعداد حاليا لتأسيس جامعة «السلام عليك أيها النبى» ولإنشاء بوابة «السلام عليك أيها النبى» لتكون أكبر بوابة وموقع إلكترونى عن النبى- ﷺ - وعن الشريعة عموماً - بأهم اللغات العالمية. وإنشاء قناة تنطلق مستنيرة بالكتاب والسنة

من جانبه خصص الدكتور العثمان ١٥ وظيفة أستاذ مساعد لمساندة مشروع مركز وموسوعة السلام عليك أيها النبى على أن يتم تفريغ المتميزين فيه كما قام بدعمه من الناحية المادية وخصص له مكاناً ببرج الابتكار بوادى الرياض للتقنية، يذكر أن المشروع

تم تأسيسه قبل ٤ أعوام على يد الدكتور ناصر الزهرانى فى مكة المكرمة، ويشمل موسوعة «السلام عليك أيها النبى» وهى موسوعة ربانية نبوية تربو على ثلاثمائة مجلد تعد الأضخم فى التاريخ والتى وصفت بأنها تكتب عن كل شىء مما له علاقة بالوحى ومتحفاً نبوياً متفرداً يقوم على شرح تطبيقى وعملى منظور لبعض ما ورد فى الهدى النبوى من أثاث ولباس ومقتنيات ويضم معرضاً نبوياً متنوعاً تم استنباطه من وحى الموسوعة التى أنجز منها حتى الآن أكثر من ٦٠ مجلداً.

رابطة العالم الإسلامى: جريمة تنبذها الفطرة السليمة للإنسان

أعربت الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامى عن استنكارها الشديد لحادث الإسكندرية مؤكدة أنها جريمة تنبذها الفطرة السليمة للإنسان.

ونددت الرابطة فى بيان أصدره د. عبدالله بن عبدالمحسن التركى - الأمين العام لرابطة العالم الإسلامى بهذا الحادث الأليم، ووصفه بأنه من الأعمال التى لايقرها الإسلام الذى يحرم إراقة الدماء ويمنع الغدر بالآمنين وقتلهم بلا حق.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾

(الإسراء: ٣٣)

وأضاف د. التركى: إن رابطة العالم الإسلامى تستنكر باسم المسلمين والمنظمات الإسلامية الممثلة فيها هذا العمل البشع، الذى تنبذه الفطرة السليمة للإنسان، موضحاً عظم هذا الجرم، حيث عده سبحانه وتعالى ذلك من جرائم الفساد فى الأرض، وشدد عقوبة فاعليها:

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(المائدة: ٣٣)

***

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾



انتقل إلى رحمة الله تعالى

الأستاذ الدكتور

محمد رجب البيومى

رئيس تحرير مجلة الأزهر
وعضو مجمع البحوث الإسلامية
والأستاذ بجامعة الأزهر

صباح يوم السبت ٢ من ربيع الأول سنة ١٤٣٢هـ الموافق ٥ من فبراير سنة ٢٠١١م.

وأسرة مجلة الأزهر تنعى فقيدها الراحل وتشكر له جهاده ودعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

تغمد الله الفقيد بواسع رحمته وأسكنه فسيح جناته.

و ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾

mosque and said: I bear witness that there is no god except Allah and I bear witness that Muhammad is His slave and Messenger. O Muhammad, by Allah, there was no face on earth that was more hateful to me than your face, but now your face has become the dearest of all faces to me. By Allah, there was no religion on earth that was more hateful to me than your religion, but now your religion has become the dearest of all religions to me. By Allah, there was no city on earth that was more hateful to me than your city, but now your city has become the dearest of all cities to me. Your cavalry seized me when I was intending to do 'Umrah. What do you think? The Messenger of Allah (blessings and peace of Allah be upon him) gave him glad tidings and told him to do 'Umrah.

When he came a person asked him: Have you departed from your religion? He said: No, but I embraced Islam. By Allah, you will not get a seed of wheat until the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) permit.

"The good deed and the evil deed cannot be equal. Repel (the evil) with one which is better (i.e. Allâh orders the faithful believers to be patient at the time of anger, and to excuse those who treat them badly) then verily he, between whom and you there was enmity, (will become) as though he was a close friend". [Fussilat (Explained in detail): 34]

These are the instructions of our religion and the morals of our tolerant Shari'ah, which unites without dispersing. However, nowadays, the balances and standards became imbalanced. Values changed – apart from those on whom Allah has mercy. They compete with each other over the materials of life and hurried to desires. It seems that Allah has disclosed the unseen matters to the Messenger of Allah. He spoke about the matters that afflict the nation, disperse its members, and cause it to lose its power.

Al-Hakim narrated in Al-Mustadrak with good narration and Al-Dhahabi agreed with him on the authority of Abu Hurayrah (may Allah be pleased with him) that the Messenger of Allah said: "My nation will be afflicted with the disease of the nations. This is tyranny while having bounties. Also, a man may increase the price of a commodity to gain more money from the purchaser. Then, there is hatred and envy until it reaches oppression."

As the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) prohibited hatred and enmity, he prohibited envy, as it is the reason for this. Envy means hoping for the removal of the grace from others. It is the human nature; the human hates a person to trespass him in any religious or worldly graces.

It is mentioned in the Hadith: "Three attributes afflict every person: evil omen, ill thinking, and envy. It was said: If you have evil omen, do not retract, if you think ill, do not carry it out, and if you envy, do not wrong anyone.[5]

Al-Hassan Al-Basry (may Allah be merciful with him) said: "No human being is free from envy; whoever does not exceed this to oppression, then there is nothing wrong with him."[6]

[5] Fath Al-Bary

The Messenger of Allah warned his nation against envy, as it is a dangerous disease, which causes the downfall of the previous nations. It is mentioned in the Hadith on the authority f Al-Zubair Ibn Al-'Awwam that the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: "The disease of the nations who came before you has started to spread among you: destructive envy and hatred. These are the shavers. I do not mean that they shave hair but they shave away religious commitment. By the One in Whose hand is my soul, you will not enter Paradise until you believe, and you will not believe until you love one another. Shall I not tell you of something which if you do it, you will love one another. Spread (the greeting of) salaam amongst yourselves."

The true Muslim should not envy for the worldly bounties, but he may do that with regard to the religious graces. He may wish to excel in them without hoping for the removal of these graces from any one. In this case, it is a good attribute. Allah (Glory be to Him) says:

"For this let (all) those strive who want to strive (i.e. hasten earnestly to the obedience of Allâh)". [Al-Mutaffifun (The Defrauding): 26]

The envier hopes for the removal of the grace from a certain person. It is enough to say that he is the enemy of Allah's Grace.

As the Messenger of Allah (Glory be to Him) prohibited envy, he prohibited that a person seeing his fellow Muslim without greeting him. Also, he prohibited taking something exclusively without others as well as seeking enmity. All of these bad deeds and attributes should not be between the Muslims, as they are against brotherhood.

If the Muslims abandoned the prohibitions, they will become brothers. The Messenger of Allah warned against desertion, and called the Muslims to love each other. He (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: "It is not permissible for a Muslim to shun his fellow-Muslim for more than three (days), each of them turning away if they meet. The better of them is the one who greets the other first."[7]

Allah caused us to love belief. He caused us to hate the attributes of disbelief, atheism, and disobedience. May Allah grant us success in that which He likes and is pleased with, and make us like those who listen to a word and follow it properly.

[6] Musnad Ahmed
[7] Sahih Muslim

Disagreeing with Enmity and Hatred... Agreeing with Love and Brotherhood[4]...!

By: The Honorable Sheikh Ibrahim Ata Al-Fayoumy
Member of the Islamic Research Academy

Allah (Glory be to Him) sent His Messenger Muhammad (peace be upon him) with guidance and right religion, attributed him with good morals to spread love, security and welfare, and so that the people may live in happiness and Allah may be pleased with them. They should not be dispersed by worldly aspirations, the insinuations of Satan, or enmities.

Imam Muslim narrated on the authority of Abu Hurayrah (may Allah be pleased with him) that the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "When Allah loves one of His Slaves, He calls Jibril and says: I love a certain person, so love him, Jibril loves him and call the inhabitants of heaven saying: Allah loves a certain person, so love him. Thus, the inhabitants of heaven love him. Then, the inhabitants of earth become satisfied with him. When Allah dislikes one of His Slaves, He calls Jibril and says: I dislike a certain person, so dislike him, Jibril dislikes him and call the inhabitants of heaven saying: Allah dislikes a certain person, so dislike him. Thus, the inhabitants of heaven dislike him. Then, the inhabitants of earth dislike him.

The Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) prevented the people from following their whims in hating each other, because they are brothers in the religion. Allah (Glory be to Him) says: "The believers are nothing else than brothers (in Islâmic religion). So make reconciliation between your brothers, and fear Allâh, that you may receive mercy". [Al-Hujurat (The Apartments): 10]

The brothers should be merciful towards each other, sympathize with each other, love each other, and do not hate each other. Belief does not become perfect except by love. The Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: "You will not enter Paradise until you (truly) believe, and you will not (truly) believe until you love one another. Shall I not tell you something which, if you do it, you will love one another? Spread the greeting of salaam amongst yourselves."

Allah (Glory be to Him) prohibited everything that may cause enmity and hatred among the Muslims. Allah (Glory b to Him) says:

"Shaitân (Satan) wants only to excite enmity and hatred between you with intoxicants (alcoholic drinks) and gambling, and hinder you from the remembrance of Allâh and from As-Salât (the prayer). So, will you not then abstain?". [Al-Ma'idah (The Table): 91]

---

[4] An article published (in Arabic) at Al-Azhar magazine.

Allah granted His Slaves a Bounty, which is joining their heart together. Allah (Glory be to Him) says: "For you were enemies one to another but He joined your hearts together, so that, by His Grace, you became brethren (in Islâmic Faith)". [Al-Imran (The Household of Imran): 103]

Allah addressed our beloved Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) with regard to this meaning, saying: "He it is Who has supported you with His Help and with the believers. And He has united their (i.e. believers') hearts. If you had spent all that is in the earth, you could not have united their hearts, but Allâh has united them. Certainly, He is All-Mighty, All-Wise". [Al-Anfal (The Spoils): 62-63]

As for hating people for the sake of Allah is one of the great aspects of belief, and is not included in the prevention. Whoever dislikes a person for the sin he commits is rewarded by Allah, because in this way he glorifies Allah's Right. This is that which should be done.

As for the prohibited hatred, it is – as we mentioned before – for any reason other than Allah. Imam Al-Bukhary narrated on the authority of Abu Hurayrah that the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Beware of suspicion, for suspicion is the falsest of speech. Do not eavesdrop; do not spy on one another; do not envy one another; do not forsake one another; do not hate one another. Be, O slaves of Allah, brothers."

The tolerance, good morals, and patience of the Messenger of Allah (Glory be to Him) were the reason for removing hatred from the souls of his enemies and for their embracing Islam. The Hadiths in this regard are various such as the one mentioned by Imam Muslim on the authority of Abu Hurayra (may Allah be pleased with him):

The Messenger of Allah (blessings and peace of Allah be upon him) sent some cavalry towards Najd, and they brought a man of Banu Hanifah who was called Thumaamah ibn Uthaal, the leader of the people of Yamaamah. They tied him to one of the pillars of the mosque, then the Messenger of Allaah (blessings and peace of Allah be upon him) came out to him and said: "What do you have to say, O Thumaamah?" He said: O Muhammad, I shall say something good. If you kill me, you will kill one who has shed blood, and if you show me kindness, you will be showing kindness to one who is grateful, and if you want money, then ask, and you will be given whatever you want. The Messenger of Allah (blessings and peace of Allah be upon him) left him alone until the next day, then he said: "What do you have to say, O Thumaamah?" He said: What I said to you: If you show me kindness, you will be showing kindness to one who is grateful, and if you kill me, you will kill one who has shed blood, and if you want money, then ask, and you will be given whatever you want. The Messenger of Allah (blessings and peace of Allah be upon him) left him alone until the next day, then he said: "What do you have to say, O Thumaamah?" He said: I say what I already said to you: If you show me kindness, you will be showing kindness to one who is grateful, and if you kill me, you will kill one who has shed blood, and if you want money, then ask, and you will be given whatever you want. The Messenger of Allah (blessings and peace of Allah be upon him) said: "Let Thumaamah go." So he went to some date palms that were near the mosque, and washed himself (ghusl), then he entered the

Then Shaq came and told him the vision he saw. When both of them said the same, he said. However, each one's explanation is in a wording different from the other. The king told Shaq: I swear Shaq, what you say irritates and hurts me. He asked him: Will this happen in my lifetime or later on? He said: No, many years after your ruling time. Then, a great person will save you from the aggressors. The king asked: Who is this person? He said: A person will come from Dhi Yazn who will kick them out. The King said: Will they continue to be in power or not? He said: No, it will end with the coming of a Messenger who will come with justice, right, and true religion, and his nation will rule the earth till the Day of Judgment? The King asked: What is this Day? It is the Day on which all the people, either living or dead, will be resurrected to be brought to account for good and bad deeds and will be rewarded thereupon. He asked him: Is what you say right? He said: Yes, I swear.

May the blessings and peace of Allah be upon you, Messenger of Allah. All the humanity waited for your birth and coming in yearning so that good and blessing spread on earth. This came true after you conveyed the message and fulfilled the mission with which you had been entrusted. You tolerated the harm you received from the disbelievers, foolishness of the atheists, delusion of the hypocrites, and grudge and plots of the enemies of Allah. You endured this suffering with a merciful heart without supplicating to Allah against them. You told Jibril when he suggested to bury them under the mountains of Mecca: "They may beget people who will believe in monotheism."[2]

When we receive the fragrant memory of your honorable birth this year, and the Muslims' state turned to weakness, humiliation, submission, they became similar to orphans at the table of the mean people. They lost their weight, value, and importance. They became paralyzed, and the Superpowers determine their statuses, positions, and the size of their capability in the absence of their consciousness and awareness. They became dead in shape of alive due to the dispersion afflicting them, the deviation of their behavior and their diversion from their religion.

Also, this is caused by the foolishness of the rich Muslims and their abandonment of the treasures of their Islamic heritage that guides the people to dignity. They went astray from the path treaded by the earlier Muslims who adhered to applying the divine instructions, prophetic guidance. Thus, they became the masters of the world, ruled others, and all the powers in the world seek their satisfaction.

The Muslims went astray, sought knowledge from non-Islamic sources, and imitated the declining behavior adopted in the other countries. This behavior destroys and does not build, and they do not imitate these societies in their ways of building and progress.

The saying of the Prophet about the Muslims came true: "The nations will try to leap upon you in the manner the eaters eat their food. A person asked the Prophet: "Will we become a minority at that time? He said: No, you will be many in number like the drops of the heavy rain, but Allah will cause your enemy not to fear you and will

[2] Sunan Abu Dawud

cause you to be powerless. A questioner asks: What does this mean? He said: This is due to loving life and hating death."[3]

There are two things that should be done by the Muslims to celebrate the birth of the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him): First: They should return again to the holy Qur'an, and recite it thoroughly in the manner the Prophet and the righteous predecessors used to do. They should recite it deeply and contemplate at their meanings. Thus, their hearts will submit to Allah, and will be as Allah describes them in the Noble Qur'an:

"The believers are only those who, when Allâh is mentioned, feel a fear in their hearts and when His Verses (this Qur'ân) are recited to them, they (i.e. the Verses) increase their Faith; and they put their trust in their Lord (Alone); Who perform As-Salât (Iqâmat-as-Salât) and spend out of that We have provided them. It is they who are the believers in truth. For them are grades of dignity with their Lord, and Forgiveness and a generous provision (Paradise)". [Al-Anfal (The Spoils of War): 2-4]

They scrutinize it, put its instructions into effect, avoid its prohibitions, order their children to memorize it. They know quite well that as long as the people recite the Qur'an and contemplate at its meanings, and apply its instructions, Allah will cause them to win in all phases of history. Their enemies will be defeated and the Muslims will regain their dignity, glory, and status. Therefore, they will be happy for Allah's advocacy to them.

Second: Referring to and reading the Sunnah of the Prophet. They should read it in the manner a person who is afflicted by a disease and want to be cured of it so he will read it. They should read it thoroughly and put it into effect. It is worth mentioning that in the memory of the birth of the Prophet, we should strive to do this, so that Allah may be pleased with us and carry out His Promise.

"But honor, power and glory belong to Allâh, and to His Messenger (Muhammad peace be upon him), and to the believers, but the hypocrites know not." [Al-Munafiqun (The Hypocrites: 8].

We supplicate and pray humbly to Allah to guide us to the straight path and not to punish us. Also, we supplicate to Allah to rid us of grief, to relieve the distress of the Muslims, and help them to win their enemies.

[3] Sunan Abu Dawud

The Good Tidings of the Birth of the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) in Explaining the Vision of Rabi`ah Ibn Nasr, the King of Yemen[1]...!

By: The Honorable Sheikh. Fawzy Az-Zefzaf
Member of the Islamic Research Academy

The Muslims all over the earth celebrate in this month the memory of the birth of the last of the Prophets, our Prophet Muhammad Ibn Abdullah (May the blessings and peace of Allah be upon him). It is a great and honorable occasion, which requires the Muslims to render to the biography of the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him), the leader of the Messengers, the last of the Prophets, and the master of mankind. Allah honored and praised him in the holy Qur'an. Allah (Glory be to Him) says:

"And Verily, you (O Muhammad) (peace be upon him) are on an exalted (standard of) character". [Al-Qalam (The Pen): 4]

When the time of the fragrant memory of the birth of the most honorable Messenger, the great Prophet, the honest and truthful, and the savor of humanity, the birth of Muhammad Ibn Abdullah, every year, the human scrutinizes and tries to explain it. Also, he thinks deeply, reviews history and the events, asking a pressing question: What would be the state of humanity if Allah was not to bless it by the last of prophets and messengers?

Humanity suffered a great deal before the coming of Islam from tyranny, cruelty, torture, delusion, disbelief, atheism, discrimination between the humans such as the whites and the blacks, the strong and the poor, man and woman, the ruling class and the ruled, the elite and the slaves, who have nothing to do except submitting to the owners of wealth and influence.

Even the newly-born children at the pres-Islamic era did not escape this awful discrimination, which is stated in the holy Qur'an in the Saying of Allah (Glory be to Him):

"And when the news of (the birth of) a female (child) is brought to any of them, his face becomes dark, and he is filled with inward grief!'He hides himself from the people because of the evil of that whereof he has been informed. Shall he keep her with dishonor or bury her in the earth? Certainly, evil is their decision". [Al-Nahl (The Bees): 58, 59]

The Persians consider their emperors as their god, and the Romans treated each other arrogantly. In this way, the human societies were afflicted by catastrophes before Islam. Also, the people lived in terror, worry, and arrogance until the dawn of Islam

[1] An article published (in Arabic) in Al-Azhar Magazine.

started with the birth of the Prophet Muhammad Ibn Abdullah (May the blessings and peace of Allah be upon him).

O Messenger of Allah, you are the best of mankind, you are preferred by Allah to all mankind, you have the honored status and Allah blessed you with Al-Wasilah, and you are the last of the Prophets. You enlightened the humanity and guided them to light and to leave darkness and delusion. They came out of the darkness of disbelief to the light of monotheism and belief as well as the purification of the House of Allah from the idols. He saved the weak and the poor from the tyranny of the strong and the rich. He set the criteria for differentiation between the people, which is piety.

"Verily, the most honorable of you with Allâh is that (believer) who has At-Taqwâ [i.e. he is one of the Muttaqûn" (the pious). [Al-Hujurat (The Apartments): 13]

This occurred after boasting with lineage, money, and authority were the criteria of distinguishing in the pre-Islamic era. The Heavenly Books carried the glad tidings of the coming of the Prophet. The Jewish rabbis, the Christian clergymen, and the Arab priests waited for his birth. When the birth of the Prophet approached, Shaq and Satih explained the vision of Rabi'h Ibn Nasr, the King of Yemen.

The name of Shaq: Rabi' Ibn Rabi'ah Ibn Mas`ud Ibn Mazin Ibn Dhi'b Ibn Mazin

The Name of Satihah: Ibn Sa`b Ibn Yashkur Ibn Ruhm Ibn Afrak Ibn Qasr Ibn `Abqar Ibn Anmar Ibn Arash

Ibn Ishaq said that Rabi'a Ibn Nasr, the King of Yemen, was one of the kings of Tababi'ah. He saw a vision, which frightened him, but he asked all the priests, magicians, and fortunetellers to explain his vision. They used to ask him to say what he saw in his vision, but he said that no one will explain it except the person who knows what I saw. One of them suggested to the king to bring Shaq and Satih, as. When he asked them to come, Satih came before Shaq and the king told him that he saw a vision which frightened him and if he knows it he will explain it correctly. He said: You saw a piece of charcoal that came out of darkness. Then, it fell on earth and ate the skulls they are the only persons who can explain this vision. The king said: You did not say any mistake in the vision, then what is your explanation?

He said: I swear that the Ethiopians will come to your land and will own the land between Abyan and Jarsh. The King said: I swear that what you say irritates and hurts me? Will this happen in my lifetime? He said: No, after more than sixty or seventy years. The King said: Will they continue to be in power or not? He said: No, they will stay for around seventy years. Then, they will be killed and will escape. The king said: Who will come after them? Satih said: Eram Ibn Dhi Yazn known as Sayf Ibn Dhi Yazn, who attacked them from Adan and kicked them all out of Yemen. The King said: Will he continue to be in power or not? He said: No, an honorable Prophet sent by Allah will come. The King asked: Who is this Prophet? He said: He comes from the family of Ghalib Ibn Fehr Ibn Al-Nudur, and his nation will rule the earth till the end of the world. He asked: When the world end? He said: Yes, it is the day on which all the people, whether good or bad, will be resurrected. The king asked: Is what you say right? He said: Yes, I swear.

The Prophet was born on Monday, 12th of Rabi` Al-Awwal. When he was asked about Monday, he said: "It is the day on which I was born." He was born on Monday and in Rabi` Al-Awwal and not in Ramadan in which the Qur'an was sent down and which includes the Night of Decree, not in the inviolable months which Allah makes inviolable on the Day of the Creation of heavens and earth, not in the night of the half of Sha'ban, not on Friday or in its night. Rather, he (May the blessings and peace of Allah be upon him) was born on Monday, on which Allah created the trees after creating the earth.

It is mentioned in the Hadith of Muslim on the authority of Abu Hurayrah that it is the day on which Allah created sustenance, subsistence, fruits, and all types of goodness, regarding which the souls feel reassured as they are essential to their life. It is the day of the sustenance of the bodies, and his honorable birth is a great happiness for his nation, as it includes goodness and comprehensive blessing that ensure happiness in life and the Hereafter.

He brought from Allah sustenance for mind, hearts, souls purification, guidance, and light. As for his birth in Rabi` Al-Awwal, it refers to Spring , which is the most balanced season with regard to night and day, and coolness and hotness. It is the season in which flowers bloom, and the atmosphere becomes full of the fragrance of the flowers. Also, this is similar to the tolerant Shari`ah which involves no exaggeration, as it represents moderation in all matters.

"Thus We have made you [true Muslims - real believers of Islâmic Monotheism, true followers of Prophet Muhammad peace be upon him and his Sunnah (legal ways)], a just (and the best) nation, that you be witnesses over mankind and the Messenger (Muhammad peace be upon him) be a witness over you". [Al-Baqarah (The Cow): 143]

The time and place in which the Messenger (May the blessings and peace of Allah be upon him) was born became blessed and gained preference, except that which are excluded for the sake of increasing good deeds. If the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) was born on one of the days or in one of the nights or months which are inviolable, some people may imagine that he would be honored by his birth in it. However, Allah caused him to be born in other month to reveal to the people His care for him and the status he attains with regard to Allah.

"Allâh sends His Salât (Graces, Honours, Blessings, Mercy) on the Prophet (Muhammad peace be upon him), and also His angels (ask Allâh to bless and forgive him). O you who believe! Send your Salât on (ask Allâh to bless) him (Muhammad peace be upon him), and (you should) greet (salute) him with the Islâmic way of greeting (salutation i.e. As-Salâmu 'Alaikum)". [Al-Ahzab (The Parties): 56]

Mecca is Allah's most favorite places and it is the most beloved town to the Messenger (May the blessings and peace of Allah be upon him). It is located in the center of the Arabian Peninsula, which is the birthplace of the first prophets since the time of Nouh, Hud, Salih, and Shu`aib. The Prophet Ibrahim came to Mecca after his tour between Iraq and Kan`an Land. Also, it is the place in which the Home of Allah was built.

"Verily, the first House (of worship) appointed for mankind was that at Bakkah (Makkah), full of blessing, and guidance for the 'Alamîn (mankind and jinn). 'In it are

manifest signs (for example), the Maqâm (place) of Ibrâhîm (Abraham); whosoever enters it, he attains security". [Al-Imran (The Household of Imran): 96-97]

Also, Mecca was the focus of the Arabs' pride, the place of their meetings. Its story started with the coming of Isamil (May the peace of Allah be upon him) with his mother Hagar. Then, the Arabs resided at this place where the Sacred House of Allah was the first thing to be established.

"And (remember) when Ibrâhîm (Abraham) and (his son) Ismâ'îl (Ishmael) were raising the foundations of the House (the Ka'bah at Makkah), (saying), "Our Lord! Accept (this service) from us. Verily, You are the All-Hearer, the All-Knower".

[Al-Baqarah (The Cow): 127]

Ibrahim and Ismail renewed the establishment of the Ancient House, and Ibrahim supplicated to Allah, Who responded to him. Allah (Glory be to Him) says:

"O our Lord! I have made some of my offspring to dwell in an uncultivable valley by Your Sacred House (the Ka'bah at Makkah) in order, O our Lord, that they may perform As-Salât (Iqâmat-as-Salât). So fill some hearts among men with love towards them, and (O Allâh) provide them with fruits so that they may give thanks. O our Lord! Certainly, You know what we conceal and what we reveal. Nothing on the earth or in the heaven is hidden from Allâh. All praise and thanks are Allâh's Who has given me in old age Ismâ'îl (Ishmael) and Ishâq (Isaac). Verily, my Lord is indeed the All-Hearer of invocations". [Ibrahim (Abraham): 37-39]

Allah responded to Ibrahim's Supplication, as the Arabs began to come to this place from every place with different hearts and tendencies. Quraysh was of the Arabs' most sublime thinking, as its members were proud of their lineage to it. Also, its members were known for their eloquency. It was mentioned in history that the Arabs strove to leave their literary heritage in the language of Quraysh, as poetry was written in the methodology of Quraysh. Also, it mentioned in history that the person who won in the contests of the poets had his poem hanged on the cover of the Ka`bah.

In Mecca, Allah's favorite place and the Messenger's most beloved to, the Sacred House, the source of the Arabs' religion and dignity, is located. They believe in it and perform Hajj therein. Allah (Glory be to Him) says:

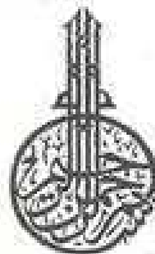
"Have they not seen that We have made (Makkah) a secure sanctuary, while men are being snatched away from all around them? Then do they believe in Bâtil (falsehood) and deny (become ingrate for) the Graces of Allâh?"

[Al-`Ankabut (The Spider): 67]

They were prohibited to kill anyone inside the Inviolable Mosque. A person may meet the killer of his father, brother, or son without hurting him for the high status of this House in their souls. They do not fight in the inviolable months. Then, Islam affirmed the inviolability of the House and prohibited fighting in the inviolable months.



AL-AZHAR MAGAZINE
Rabi'ul-Awwal, 1432 A. H.



ENGLISH SECTION
February, 2011

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾
الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."
(Al A'raf 43)

EDITOR : Dr. IBRAHIM AL-ASSIL,
Professor at the Faculty of Languages and Translation
Al-Azhar University

Remembrance of the Most honorable Messenger (May the blessings and peace of Allah be upon him) birthday...!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

Rabi' Al-Awwal is the birthday month of the Prophet Muhammad (May the blessings and peace of Allah be upon him) who is the guidance and mercy for the humanity, as Allah says:

"And We have sent you (O Muhammad peace be upon him) not but as a mercy for the 'Alamîn (mankind, jinn and all that exists)". [Al-Anbya' (The Prophets): 107]

The Prophet Muhammad (May the blessings and peace of Allah be upon him), who belongs to the noblest lineage, was born in Rabi' Al-Awwal. He is the Arab illiterate Prophet, who lineage backs to the Father of the prophets, Ibrahim (May the blessings and peace of Allah be upon them). He belonged to his lineage after Ibrahim supplicated to Allah in the most honorable place on earth to let the offspring of his son Ismail be a Muslim nation and to send a prophet from this offspring.

Then, Allah responded to his supplication, as the Prophet belonged to the lineage of Ismail Ibn Ibrahim (may the peace of Allah be upon them and my blessings and peace be upon our honorable Prophet). The honor of this lineage is mentioned in the Qur'an, the recitation of which is a kind of worship. It is mentioned in the Saying of Allah (Glory be to Him):

"And (remember) when Ibrâhîm (Abraham) and (his son) Ismâ'îl (Ishmael) were raising the foundations of the House (the Ka'bah at Makkah), (saying), "Our Lord! Accept (this service) from us. Verily, You are the All-Hearer, the All-Knower. Our Lord! And make us submissive to You and of our offspring a nation submissive to You, and show us our Manâsik (all the ceremonies of pilgrimage - Hajj and 'Umrah), and accept our repentance. Truly, You are the One Who accepts repentance, the Most Merciful. Our Lord! And send amongst them a Messenger of their own (and indeed Allâh answered their invocation by sending Muhammad (peace be upon him), who shall recite to them Your Verses and instruct them in the Book (this Qur'ân) and Al-Hikmah (full knowledge of the Islâmic laws and jurisprudence or wisdom or Prophet's Sunnah – legal ways), and purify them. Verily, You are the All-Mighty, the All-Wise."[Al-Baqarah (The Cow): 127-129]

The Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) spoke about his honorable lineage, as it is mentioned in Sahih Muslim on the authority Wa'ilah Ibn Al-Asqa' (May Allah be pleased with him) that the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him): "Allah, may He be glorified and exalted, chose Kinanah from among the children of Isma'il (peace be upon him), and He chose Quraysh from among Kinanah, and He chose Banu Hashim from among Quraysh, and He chose me from among Banu Hashim."



الفهـــــرس

AL AZHAR
MAGAZINE

Rabi'ul-Awwal 1432 A.H. Feb. 2011,
Vol. 84, Part III.



الأزهر

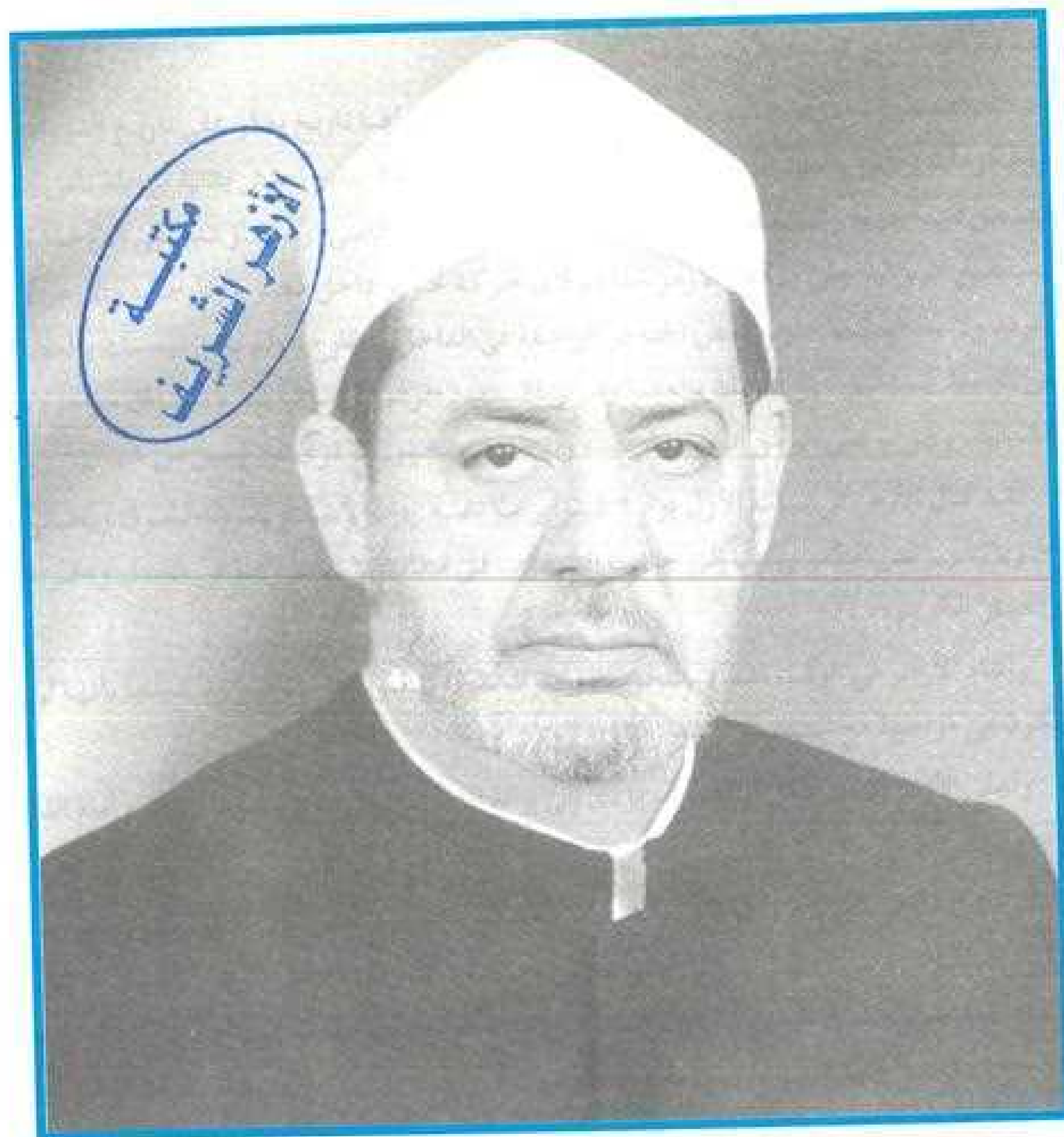
مجلة إسلامية شهرية جامعة يصدرها مجمع البحوث الإسلامية

هدية العدد
بحث في
ترجمة معاني القرآن الكريم

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾



مع الإمام الأكبر فى قلب الأحداث



للأستاذ/ أحمد إبراهيم توفيق
مدير عام الإعلام بمكتب الإمام الأكبر

كلمة الإمام الأكبر فى المؤتمر الصحفى
الذى عقد بمقر مشيخة الأزهر يوم ١٦/٢/٢٠١١م

هذا ليس بيانًا ولا نداء، فقد مضى وقت البيانات والنداءات، إنما هو موقف الأزهر نكشف عنه ونبلغه للناس ليسمعوه ويعرفوه.

انطلاقًا من أن الأزهر الشريف مؤسسة دينية كبرى لها تاريخ يعلو على تاريخ الثورات والحكومات ولأننا بحمد الله تعالى وبفضل ما قدمه شباب ٢٥ يناير نعيش بداية مرحلة نأمل أن تضمن فيه الحرية والديمقراطية حق الاختلاف فى الرأى، فإننى أود أن أؤكد على أن أحدًا لا يستطيع أن يزايد على موقف الأزهر الداعم لأى حركة تحرير داخل مصر وخارجها والأزهر لا يتردد ولا يخاف كما جأرت بعض الحناجر الزاعقة فى الداخل والخارج، ولم يكن ليمسك بالعصا من الوسط كما قيل، بل أمسك بالعصا وهو يتقلب بين خوفين: خوف قطرة دم تراق من هؤلاء الشباب، وخوف على الوطن أن ينفرط عقده ويدخل فى مجهول لا تُرى فيه يمين من شمال.

لقد قال الأزهر فى بيانه الأول يوم ٢ فبراير ما نصه: «إن الإسلام يقرر الحقوق ويحمى الحريات ويرفض الظلم ويقف إلى جانب الشعوب فى مطالبها المشروعة فى العدل والحرية والعيش الكريم».

وأشاد الأزهر فى الوقت نفسه بالتحام القوات المسلحة المصرية بالجماهير وتأكيدها بأنها لن تكون فى مواجهة مع الشعب.

وأعلن الأزهر أن أى عمل أو تصرف يؤدى إلى إراقة الدماء، عمل محرم شرعًا ومجرم أمام الله وأمام الناس.

بل سبق الأزهر كل الأصوات التى تركب الموجة الآن، وتتاجر بالدين والأخلاق وتنتهز الفرصة لإفراغ أحقادها وسمومها السوداء على الأزهر وعلمائه الشرفاء، سبق الأزهر الجميع، حيث طالب بحق سائر القوى السياسية دون إقصاء فى إجراء حوار فورى يهدف إلى احتواء الأزمة ورأب الصدع وأنا أضع خطًا أحمر تحت كلمة دون إقصاء.

وقال الأزهر فى بيانه الثانى: إنه يرفض كل محاولات التدخل الأجنبى لاستغلال المطالب المشروعة التى ينادى بها شباب مصر المخلص، وانطلاقًا من وطنيته الخالصة، ومصريته النقية الصادقة وقال للشباب: «فلتكن أعينكم أيها الشباب على المستقبل الذى نراه مشرقًا بكم ولكم»



وفتح أبوابه أمام الشباب وأمام الحكماء لإجراء حوار في رحابه وليعلم الجميع أنه بينما كانت الأصوات توجه سهامها نحو الشباب ويصفون الضحايا بأنهم قتلى معركة، صدع الأزهر بقولته التي لالبس فيها ولا غموض: بأن هؤلاء الشباب شهداء، وختم بيانه بعبارة: إن الأزهر الشريف ليسأل الله تعالى أن يتغمد بالرحمة والرضوان الشهداء من شباب مصر، ويتقدم بالمواساة والتعزية لأهليهم وذويهم والدعاء بأن يلهمهم الله الصبر والسلوان.

لقد قال الأزهر ذلك وجهر به في الوقت الذي كان فيه المنافقون يكيلون النفاق جزافًا للنظام، ويشكلون مواقفهم حسب اتجاه الرياح، هذه هي مواقف الأزهر الذي أمسك بعصا الحق، ولم يمسك بالعصا من وسطها كما يزايد الآن بعض المنتفعين والانتهازيين والباحثين عن أدوار في العهد الجديد.

وأؤكد لكم وتستطيعون أن ترجعوا إلى بيانات الأزهر، أؤكد لكم أن الأزهر لم يتملق السلطة القائمة آنذاك ولن يتملق السلطة القائمة الآن والأزهر الذي وقف أمام الولايات المتحدة حين أرادت أن تتدخل في شأن مصر، والذي تصدى للفاتيكان وجمد حواره معه في لغة حاسمة وقاطعة والأزهر الذي أصر ولايزال على الاستمساك بموقف صارم من إسرائيل برفض الاحتلال وتدنيس المقدسات وحصار غزة، كما يرفض التطبيع، ويقف إلى جانب الحق الفلسطيني إلى آخر المدى. والأزهر الذي يقف بالمرصاد لمؤامرات التغريب والأمركة هذا الأزهر الذي وقف هذه المواقف منطلقًا من ثوابت الأمة والمصالح العليا لمصر، ومن مسئوليته باعتباره معبراً عن ضمير الأمة الإسلامية، وآلام وآمال المسلمين في الشرق والغرب.

ويدعوا الأزهر الشريف إلى:

أولاً: انطلاقًا مما يؤمن به الأزهر من أن الحكم الذي يرضى عنه الشرع هو الحكم الذي يرضى عنه الناس بالإجماع أو بالأغلبية، فإنه يدعو إلى سرعة الانتقال إلى الحكم المدني المنتخب انتخاباً نزيهاً حراً خلال الأشهر الست التي حددها المجلس الأعلى للقوات المسلحة والذي هو الآن محل رضانا وثقتنا جميعًا.

ثانيًا: البدء في إرساء دعائم عهد جديد تراعي فيه القيم العليا التي أقرتها الأديان السماوية، وحضاراتنا الشرقية، وفي مقدمتها قيمة العلم الذي هو عماد تقدم الأمم والعدل الذي هو أساس الملك والحرية التي تفجر الطاقات وتبني الحضارات وتكسر قيود الجهل والقهر، والاستبداد الذي يقتل الملكات ويغرى بالنفاق ويزرع الخوف والتردد، ويرسخ مشاعر الجبن والأنانية، وكلها أدواء وأمراض ومصارع تهدم الفرد والمجتمع وتدمر الأمم والحضارات.

ثالثًا: أن حرمة الإنسان من أعظم الحرمات في الدين والشرائع ومنطق كل الحضارات الإنسانية ومن هنا يتطلع الأزهر مع جماهير المواطنين إلى سن قوانين صارمة تجرم التعذيب والإيذاء البدني والمعنوي والاعتداء على حرمة المواطن بأي شكل من الأشكال وأن تفرض ثقافة احترام المواطن أياً كان مركزه ويصبح ذلك معياراً أساسياً لدى أجهزة الأمن وسائر أجهزة الدولة.

رابعًا: يتطلع الأزهر إلى أن يوضع اقتصادنا في المرحلة المقبلة في أيدي خبراء يجمعون بين العلم والخبرة والنزاهة ويقودون الاقتصاد الجديد ليكون اقتصاداً منتجاً مستقلا وليس اقتصاد تابعًا مستهلكًا تستحوذ على خيراته قلة ويحرم من ثماره الأكثرون نتطلع إلى اقتصاد تضيق فيه الفوارق بين المواطنين وتتكافأ فيه الفرص بحيث لا تموت فيه قلة من تخمة ولا كثرة من جوع.

خامسًا: يجب أن يوضع الإعلام في أيدي المثقفين الحقيقيين الذين يرعون حرمة ثقافة الأمة وقيمها وحق مصر التاريخي في أن تستعيد دورها الرائد في محيطها العربي والإسلامي وبحيث يلتزم الإعلام أن يكون معبراً عن قيم المجتمع وأخلاقياته ومصالحه وألا يكون صدى لسياسات إعلامية خفية تضر بالوطن ومصالح المواطنين.

وختاماً أؤكد لكم أن الأزهر الشريف لا يخشى في الله لومة لائم ومعياره الذي يزن به الآراء ويقدر به المواقف هو الحق والشرع وما يدور في آفاقهما من مقاصد شريفة ومصالح عليا.

بيـــان للأمـــة

في هذه الظروف الدقيقة التي يمر بها وطننا العزيز، يتوجه الأزهر الشريف إلى كل أبناء الوطن، ألا يدخروا وسعاً في التعاون بفكرهم وعملهم في السعي الجاد والمسئول، إلى أن ترسو سفينة الوطن على بر الأمان.

وإذ يثق الأزهر الشريف في حكمة الممسكين بزمام الأمور في مسيرة الوطن الراهنة، فإنه يطمئن تماماً، إلى أن هوية الأمة ـ وروحها ـ متجذرة في ضمير كل منهم، وأن مبادئ الحرية والعدالة والمساواة والمشاركة الشعبية الحرة هي القيم الهادية لنا جميعاً في هذه الظروف الدقيقة.

ويُذكر الأزهر الشريف بأن مكتسبات شعبنا في اعتزازه بمصريته، وعروبته، وتشريعاته المستمدة من مبادئ الإسلام وروح شريعته السمحة، هي الضامنة لحقوق المواطنة والمساواة،

ووحدة النسيج الوطنى بين المصريين كافة، دون أى تمييز على أساس من الجنس أو الدين أو أى اعتبار آخر.

ويثق الأزهر الشريف أيضاً، فى أن ما وعد به المجلس الأعلى للقوات المسلحة ورجاله الشرفاء، من أنه لا بديل عن الشرعية هو وعد الأحرار الأوفياء الذين يرعون هذه القيم والمبادئ بكل إخلاص وتقدير.

ويأمل الأزهر الشريف أن تتم الإجراءات المؤدية إلى الانتقال السلمى لسلطة منتخبة وإلى إلغاء كل الإجراءات الاستثنائية، يتم ذلك كله فى أقرب وقت ممكن بإذن الله تعالى.

ويتطلع الأزهر الشريف فى ثقة وإيمان إلى تحقق وعد الله تعالى، الذى لا يتخلف للصادقين من عباده أن يمكنهم فى الأرض، ويدعو الأزهر الشريف إلى تضافر جهود أبناء الوطن جميعاً شيباً وشباباً رجالاً ونساء من أجل بناء وطن ينعم بالعدالة والحرية ويمضى على طريق التقدم والرخاء.

رحم الله الشهداء الأبرار الذين روت دماؤهم ثرى هذا الوطن وفتحوا أمام أبنائه آفاق عهد جديد للوطن العزيز.

والله الموفق،،،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الأزهر يرفض محاولات التدخل الأجنبى فى شئون مصر

يتابع الأزهر الشريف، بقلق بالغ التصريحات والفتاوى الإقليمية والعالمية، التى تتناول الشأن المصرى الداخلى، ويعلن الأزهر أنه يرفض رفضاً تاماً كل محاولات التدخل الأجنبى فى شئون مصر الداخلية، واستغلال مطالبها المشروعة التى ينادى بها شبابها المخلص، انطلاقاً من وطنيته الخالصة.. ومصريته النقية الصادقة.

ويحذر الأزهر الشريف من إثارة المشاعر، ومن اللعب بعواطف الجماهير، عبر فتاوى دينية صدرت بالأمس القريب، من مرجعيات فقهية ورموز دينية، دعت فيها إلى فتنة حرمها الله ورسوله، وأجمع المسلمون كافة على تأثيم كل من يدعو إليها.

من هنا يُدين الأزهر بشدة السياسات الإيرانية التى تستخدم مرجعياتها الدينية العليا،

وتسخرهم لتصدير النداءات التى تتناقض مع مبادئ الإسلام، وتخرج خروجاً سافراً على صريح القرآن والسنة وإجماع الأمة.

كما يرفض الأزهر التصريحات الأوروبية والأمريكية التى تنتهز الفرص وتحاول العبث بالشأن المصرى فى الوقت الذى تقف فيه هذه السياسات عاجزة ومشلولة كلياً عن تقديم أى عون يقف فى وجه الانتهاكات الصارخة التى تمارس يومياً ضد شعوب المنطقة وضد المسلمين فى العالمين: العربى والإسلامى.

والأزهر إذ يحذر كل هؤلاء، شرقاً وغرباً، يذكرهم، ويعيد على أسماعهم، أن مصر بتاريخها العريق، وبعناية الله تعالى التى لم تفارقها لحظة، وبما قدمته للدنيا كلها من حضارة وعلم وفنون وآداب، قادرة ـ دائماً ـ على تجاوز كل ما يمر بها من أزمات، والخروج من كل ذلك، أصلب عوداً، وأكثر قدرة على صنع الجديد من نماذج الإصلاح والتقدم والتطور.

ويُهيب الأزهر الشريف، بشباب مصر المخلص، أن يتماسك ويتجمع على كلمة واحدة من أجل نهضة حقيقية، تعود بالأمن والأمان والحرية والرخاء على مصر والمصريين.

فلتكن أعينكم ـ أيها الشباب ـ على المستقبل الذى نراه مشرقاً ـ بكم ولكم ـ بإذن الله تعالى.

هذا وإن الأزهر الشريف ليسأل الله تعالى أن يتغمد بالرحمة والرضوان الشهداء من شباب مصر ويتقدم بالمواساة والتعزية لأهلهم وذويهم والدعاء بأن يلهمهم الله الصبر والسلوان.

وفق الله الجميع،،،

شيخ الأزهر للقادة العرب: اتقوا الله فى دماء شعوبكم

أكد الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر، أن الأزهر الشريف يتابع بقلق بالغ وحزن عميق الأحداث الحالية التى تحدث على أرض ليبيا الشقيقة وتقع بين إخوة أشقاء، مؤكداً أن الأزهر الشريف يعرب عن ألمه وأسفه.

ويناشد الجميع ضبط النفس وكظم الغيظ، مؤكداً أنه على الجميع أن يعلم علم اليقين أن إراقة الدماء البريئة التى تسيل رخيصة الآن على أرض ليبيا واليمن وغيرهما، لا تصب إلا فى مصلحة أعداء الأمة العربية والذين يتربصون بهذا الوطن الكبير ويكيدون له من أجل تنفيذ مخططهم الاستعمارى الجديد.. وأضاف: أيها المسلمون اذكروا قول نبيكم ﷺ:

«كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»(1).

وقوله ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فإن القاتل والمقتول فى النار»(2).

وقوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض»(3).

وأضاف: يا قادة الأمة حكاماً وعلماء وعقلاء أوقفوا هذه المذابح البشرية الآن وفوراً، واحقنوا دماء الشعب الأعزل، واستجيبوا لمطالبه المشروعة وحقه فى الحرية والعدالة والعيش الكريم، ولا تقتلوهم إذا ما طالبوا بحقوقهم، «فمن قتل دون حقه فهو شهيد»(4) كما يقول النبى ﷺ.

وأضاف: إننى أتمنى من القادة أن يحكموا العقل وألا يتمسكوا بالمصالح الضيقة الزائلة، وأكرر من موقع العلم أن أولى الأمر لو وصلوا إلى مرحلة يتحتم فيها الاختيار بين الحفاظ على الدماء والحفاظ على السلطان، فعليهم أن يحفظوا الدماء ويحقنوها لأن الدماء لا تعوض والسلطان زائل، اتقوا الله فى الدماء واتقوا الله فى حقوق الشعوب ومصالحها، هذا بلاغ الأزهر للناس، ألا قد بلغت اللهم فاشهد.

***

(1) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة.
(2) المعجم الأوسط للطبرانى.
(3) كنز العمال ١٢٢٥٢.
(4) مسند أبى يعلى الموصلى.

بسم الله الرحمن الرحيم



الأزهر

مجلة شهرية جامعة
يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف فى مطلع كل شهر عربى
تأسست عام ١٣٤٩هـ - ١٩٣١م

رئيس التحرير
أ.د. محمد رجب البيومى

مدير التحرير
عادل رفاعى خفاجة

سكرتير التحرير
أحمد السيد تقى الدين

الاشتراك السنوى
داخل مصر ١٨ جنيها مصريا -
الدول العربية ٥٠ دولارا أمريكيا
أوربا وأمريكا ٨٥ دولارا أمريكيا -
اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولارا أمريكيا
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٥٧٨٦٢٠٠

المراسلات باسم: مدير التحرير -
مجمع البحوث الإسلامية - م. نصر
ت: ٢٢٦٢٨٥٩٩

داخل العدد

فى ذكرى المولد النبوى

محمد صلى الله عليه وسلم لتوفيق الحكيم

٢

لقد التزم الكاتب بأقوال التاريخ حقا دون تزيد ! كما أنه حافظ على صيغ هذه الأقوال التعبيرية فى نصاعتها الباهرة وقد صدرت فى أرقى عهود الفصاحة العربية فأمد قارئه المتوسط بنمط بيانى رصين، وشجعه على أن يقتحم عباب التراث فيقرأ لابن هشام وللطبرى وابن الأثير ! وأولى ثم أولى أن يقرأ كتاب الله إذ تحدث عن بعض مشاهد السيرة، وأن يقرأ كتب الحديث وفيها منارات تشع بالضوء على أنحاء حياة قائلها الكريم ! وكل ذلك كسب ثمين.

وإنصافا للكاتب الكبير ننقل للقارئ مشهدا مكتملا من مشاهده الكثيرة ليرى كيف حافظ على النصوص السلفية محافظة تامة، حتى خيل للقارئ أنه لم يأت بجديد، والحقيقة كل الحقيقة أنه بذل جهدا مستترا يعرفه كل كاتب فى الاختيار الدقيق على تسلسل السرد المتصل فى كل مشهد على حدة لا فى المشاهد بعامة إذا جرى معها قارئها فى نسق مطرد؛ لأن المؤلف يقرأ ويهضم ويوازن ويعلل فى صمت طويل ثم يقدم للقارئ خلاصة يظنها مما وقع عليه لساعته دون


توفيق الحكيم

معاناة، وأن وراءها ما وراءها من التنقيب والجمع والترشيح والاختيار !

ننقل للقارئ المنظر الثالث والثلاثين من الفصل الأول وهو يصور «بيعة العقبة» واجتماع الخزرج ليلا فى الشعب تصويرا مطابقا لما نعلم من شئون هذه البيعة بحيث لا يحتاج مستزيد إلى مزيد.

العباس: أوقد وعدوك يا ابن أخى؟.

محمد: نعم.

العباس: إنى أحببت أن أحضر أمرك، وأتوثق لك. فإن كانوا حقا قادرين على أن يمنعوك ويقوموا معك، ويخرجوا بك إلى بلادهم فإنهم والله نعم الأنصار.

محمد: إنهم مجتمعون خفية فى الشعب.

العباس: «ينظر إلى القوم» هؤلاء، إن عددهم والله لكثير.

محمد: السلام عليكم.

القوم: «ينهضون» وعلى النبى السلام والرحمة.

العباس: «يدنو منهم ويقوم فيهم»: يا معشر الخزرج إن محمدا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو فى عز من قومه، ومنعة فى بلده، وإنه أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده.

الخزرج: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك وربك ما أحببت.

محمد: أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.

البراء بن معرور: نحن -والذى بعثك بالحق- لنمنعك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر.

ينهض رجل هو الهيثم بن التيهان فيقول: يا رسول الله، إن بيننا وبين اليهود حبالا، وإنا لقاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

محمد «يبتسم»: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم.

ينهض العباس بن عبادة فيقول: يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟

الخزرج: نعم.

ابن عبادة: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال، وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة.

الخزرج: إنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟

محمد: الجنة.

الخزرج: ابسط يدك.

محمد: «يبسط لهم يده».

الخزرج: اللهم اشهد أنا بايعناك.

محمد: أخرجوا إلىّ منكم اثنى عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم.

الخزرج: «يخرجون اثنى عشر رجلا منهم» هؤلاء يا رسول الله.

محمد للنقباء: أنتم على قومكم بما فيكم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومى للمسلمين.

النقباء: نعم يا نبى الله.

يرتفع صوت صارخ من رأس العقبة

(الصـــــوت)

يا أهل الجباجب: هل لكم فى مذمم والصباء معه قد اجتمعوا على حربكم.

العباس: هذا الشيطان يصرخ من رأس العقبة.

الجميع يلتفتون ويصيحون..

محمد: هذا ابن أزيب، استمع أى عدو الله، أما والله لأفرغن لك.

الخزرج: نعوذ بالله منه.

محمد «للقوم»: ارفضوا إلى رحالكم.

ابن عبادة: والله الذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا.

محمد: لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم[١].

نقدم هذا النموذج ليمثل أكثر مشاهد الكتاب فقد يكون فيها ما يفوقه إبداعا، وقد يكون فيها ما ينحط عنه، ولكنه - بعد - صورة للطابع العام الذى انتهجه المؤلف حين اعتمد على نصوص السيرة فى كتبها الأولى ليأتى بها على نسق حوارى هو جلّ جهده فى الكتاب، وليست كتب السيرة قديمة وحديثة

(١) ما بين الصفحات (١٦١ - ١٦٦) من الطبعة الأولى من كتاب «محمد».

من الصعوبة بحيث يعد اختيار هذه المشاهد عملا جبارا، فقد ألف الأستاذ توفيق الحكيم كتابه عن محمد بعد أن ظهرت كتب الشيخ الخضرى ومحمد أحمد جاد المولى، ومحمد رشيد رضا ومحمد حسين هيكل وكلها قد عرضت ما جاء بكتب التراث عرضا شائقا، فسهل الرجوع إليه، وأصبحت قراءة سيرة ابن هشام وما تلاها من كتب التاريخ النبوى فى طوق القارئ!


رشيد رضا — هيكل

وإذا قلنا: إن كتاب الأستاذ توفيق الحكيم قد قرب السيرة النبوية من عقول طلبة المدارس ومن أفهام الشبيبة التى سحرها الأسلوب الحديث فاشرأبت إليه فيما تقرأ من التراث الأوروبى بحيث وجدوا فى كتاب (محمد) ما حبب إليهم أن يردوا حياض السيرة المطهرة من نبع صاف قريب، إذا قلنا ذلك فقد أنصفنا الكتاب، أما إذا قلنا ما قاله الأستاذ أحمد حسن الزيات عنه حين خص بتقريظة افتتاحية لامعة من افتتاحيات «مجلة الرسالة» فقال عن الحوار الفنى فى عمل المؤلف[٢]:

«أما تمثيله على النمط الذى جرى (يريد اقتباس الحوار مما كان فعلاً على لسان أبطاله من السابقين) فهو الفن المبدع الذى يمده الإلهام، وتهديه الطبيعة، يجرد الحادث من فضول الرواية، ونافلة الحديث، فيرده إلى جوهره، ويحيله إلى بساطته ثم يبعث الأشخاص ويحدد الأمكنة ويعيد المناسبات، ويحيى البيئة فيرجع بالقارئ إلى عصره، فيحيا حياته، ويعايش أهله، فيرى بعينيه ما يعملون، ويسمع بأذنيه ما يقولون، ويدرك بنفسه موانع الحال، ودوافع الموقف، وذلك ما عمله توفيق الحكيم

(٢) مجلة الرسالة العدد ١٣٥ ٢/٣ سنة ١٩٣٦.

فى كتابه الجديد (محمد) عمد إلى المواقف الخطيرة فى حياة الرسول ﷺ والمواقع العظيمة فى تاريخ الرسالة فمثلها على الوضع الذى كانت عليه وبالعمل الذى حدث، وبالحوار الذى جرى، وبالروح الذى انتشر، ثم صور البواعث النفسية التى أغفلها المؤرخ، وأظهر الألوان المحلية التى أحالها الزمن فاتصلت الأسباب واستبانت العلل وتحددت الفروق».


الزيات

أقول إذا قلنا ما قاله الأستاذ (الزيات) -رحمه الله- عن الكتاب، فقد نظرنا بعين الرضا التى هى كليلة عن كل عيب، كما أننا -شهد الله- لا ننظر بعين السخط التى تتلمس المساوئ من كل سبيل، بل ننظر نظرة معتدلة فنجد (الزيات) كان رقيقا فى قوله: «إن المؤلف قد رجع بالقارئ إلى عصر النبوة، ليحيا حياته ويعايش أهله فيرى بعينه ما يعملون ويسمع بأذنه ما يقولون ويدرك بنفسه موانع الحال ودوافع الموقف» كما نجد أستاذنا الزيات -رحمه الله- كان متسامحا حين قال عن فن الرواية: «إنه الفن المبدع الذى يمده الإلهام وأنه صور البواعث التى أغفلها المؤرخ وأظهر الألوان المحلية التى أحالها الزمن فاتصلت الأسباب واستبانت العلل وتحددت الفروق».

لقد كان الأستاذ توفيق فى حاجة إلى جهد أكبر هو فى مقدوره قطعا لكى يبلغ ما قاله (الزيات) متسامحا، ولعله ظن أن كل ابتداع فنى سيؤاخذ عليه من قبل قوم لا يريدون غير القديم المكرر، فآثر الدعة، ومضى ينسق وينضد دون أن يبدع الصورة ويحكم الإطار وهكذا وقع فيما عناه المتنبى حين قال:

ولم أر فى عيوب الناس شيئا
كنقص القادرين على التمام

د./ محمد رجب البيومى

تفسير سورة النساء

لفضيلة/ الأستاذ الدكتور
محمد سيد طنطاوى
رحمه الله

قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٦٨) ﴾

الآيات (٦٠ - ٦٨)

روى المفسرون في سبب نزول قوله - تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ ﴾

روايات متقاربة في معناها ومن ذلك ما أخرجه الثعلبي وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس أن رجلا من المنافقين يقال له بشر خاصم يهوديا، فدعاه اليهودي إلى التحاكم إلى النبي ﷺ ودعاه المنافق إلى التحاكم إلى كعب بن الأشرف: ثم إنهما احتكما إلى النبي ﷺ فقضى لليهودي، فلم يرض المنافق. وقال: تعالى نتحاكم إلى عمر ابن الخطاب.

فقال اليهودي لعمر: قضى لنا رسول الله ﷺ فلم يرض بقضائه. فقال عمر للمنافق: أكذلك؟ قال: نعم. قال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما. فدخل عمر فاشتمل على سيفه ثم خرج فضرب عنق المنافق حتى برد -أي مات- . ثم قال: هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله -تعالى- وقضاء رسول الله ﷺ فنزلت.(١)

والاستفهام في قوله ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ للتعجيب من حال أولئك المنافقين، وإنكار ما هم عليه من خلق ذميم وإعراض عن حكم الله ورسوله إلى حكم غيرهما.

وقوله ﴿ يَزْعُمُونَ ﴾ من الزعم ويستعمل غالبا في القول الذي لا تحقق معه، كما يستعمل -أيضا- في الكذب ومنه قوله - تعالى -:

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ ﴾

(الأنعام: ١٣٦)

أي بكذبهم.

وقد يطلق الزعم على القول الحق.

قال الآلوسي: وقد أكثر سيبويه في «الكتاب» من قوله: زعم الخليل كذا -في أشياء يرتضيها.

والمراد بالزعم هنا الكذب لأن الآية الكريمة في المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون.

والمعنى: ألم ينته علمك يا محمد إلى حال هؤلاء المنافقين الذين يزعمون كذبا وزورا أنهم آمنوا بما أنزل إليك من ربك من قرآن كريم، ومن شريعة عادلة، ويزعمون كذلك أنهم آمنوا بما أنزل على الرسل من قبلك من كتب سماوية؟ إن كنت لم تعلم حالهم أو لم تنظر إليهم فهاك خبرهم لتحذرهم ولتحذر أمتك من شرورهم.

فالمقصود من الاستفهام التعجيب من حال هؤلاء المنافقين، وحض النبي ﷺ وأمته على معرفة مسالكهم الخبيثة، حتى يأخذوا حذرهم منهم.

وفي وصفهم بادعاء الإيمان بما أنزل على الرسول وبما أنزل على الرسل من قبله تأكيد للتعجيب من أحوالهم، وتشديد للتوبيخ والتقبيح من سلوكهم؛ ببيان كمال المباينة بين دعواهم المقتضية حتما للتحاكم إلى

(١) تفسير الآلوسي جـ٥ ص٦٧

الرسول ﷺ وبين ما صدر عنهم من هرولة إلى التحاكم إلى غيره.

وقوله:

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾

بيان لموطن التعجب من أحوالهم الغريبة، وصفاتهم السيئة.

والمراد بالطاغوت هنا: ما سوى شريعة الإسلام من أحكام باطلة بعيدة عن الحق يأخذها المنافقون عمن يعظمونهم وقيل المراد به: كعب بن الأشرف؛ لأنه هو الذى أراد المنافقون التحاكم إليه، وقد سماه الله بذلك لكثرة طغيانه وعداوته للرسول ﷺ.

والمعنى: أن هؤلاء المنافقين يزعمون الإيمان بما أنزل إليك -يا محمد- وبما أنزل من قبلك، ومع هذا فهم يريدون -عن محبة واقتناع- التحاكم إلى الطاغوت أى إلى من يعظمونه، ويصدرون عن قوله، ويرضون بحكمه من دون حكم الله.

وقوله:

﴿ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ﴾

جملة حالية من ضمير يريدون.

أى: يريدون التحاكم إلى الطاغوت والحال أن الله -تعالى- قد أمرهم بالكفر به، وبالانقياد للأحكام التى يحكم بها النبى ﷺ.

وقوله:

﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾

معطوف على قوله ﴿ يُرِيدُونَ ﴾ وداخل فى حكم التعجيب، لأن اتباعهم لمن يريد إضلالهم، وإعراضهم عمن يريد هدايتهم أمر يدعو إلى العجب الشديد.

والمراد بالضلال البعيد: الكفر والبعد عن الحق والهدى.

ووصفه بالبعد للمبالغة فى شناعة ضلالهم، بتنزيله على سبيل المجاز منزلة جنس ذى مسافة كان هذا الفرد منه بالغا غاية المسافة.

قال ابن كثير: هذه الآية إنكار من الله -تعالى- على من يدعى الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء السابقين. وهو مع ذلك، يريد أن يتحاكم فى فصل الخصومات إلى غير كتاب الله، وسنة رسوله.

كما ذكر فى سبب نزول هذه الآية أنها فى رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما. فجعل اليهودى يقول: بينى وبينك محمد. وذاك يقول: بينى وبينك كعب بن الأشرف. وقيل: فى جماعة من المنافقين ممن أظهروا الإسلام أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية. وقيل غير ذلك. والآية أعم من ذلك كله، فإنها ذامة لكل من عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل. وهو المراد بالطاغوت هنا.(٢)

ثم صور -سبحانه- إعراضهم عن الحق، ونفورهم عن شريعة الله -تعالى- فقال:

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥١٩.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾

أى: وإذا قيل لهؤلاء المنافقين أقبلوا على حكم الله وحكم رسوله، فإن الخير كل الخير فيما شرعه الله وقضاه، إذا ما قيل لهم ذلك ﴿ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ ﴾ الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، رأيتهم لسوء نواياهم، ولؤم طواياهم

﴿ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾

أى يعرضون عنك -يا محمد- إعراضا شديدا.

وقوله:

﴿ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ ﴾

إغراء لهم بتقبل الحق، وحض لهم على الامتثال لشريعة الله؛ لأنها هى الشريعة التى فيها سعادتهم، ولكنهم لمرض قلوبهم ينفرون من الحكم المنزل من السماء إلى حكم الطاغوت الباطل.

وقال -سبحانه- ﴿ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ ﴾ ولم يقل رأيتهم بالإضمار؛ لتسجيل النفاق عليهم، وذمهم به، وللإشعار بعلة الحكم أى: رأيتهم لنفاقهم يصدون عنك صدودا.

وقوله ﴿ صُدُودًا ﴾ مصدر مؤكد بفعله أى: يعرضون عنك إعراضا تاما بحيث لا يريدون أن يسمعوا منك شيئا، لأن حكمك لا يناسب أهواءهم.

فذكر المصدر هنا للتأكيد والمبالغة فكأنه قيل: صدودا أى صدود.

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد ذكرت علامة جلية من علامات المنافقين حتى يأخذ المؤمنون حذرهم منهم، وهى أنهم إذا ما دعوا إلى حكم الله الذى يزعمون أنهم آمنوا به، أعرضوا عن هذا الحكم إعراضا شديدا، وظهر بذلك كذبهم ونفاقهم.

ثم يعرض القرآن بعد ذلك مظهرا آخر من مظاهر نفاقهم عند الشدائد والمحن فيقول:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾

والفاء فى قوله ﴿ فَكَيْفَ ﴾ للتفريع. و"كيف" فى محل رفع خبر لمبتدأ محذوف.

والمعنى: فكيف يكون حالهم إذا نزلت بهم النوازل، وأصابتهم المصائب بسبب تركهم حكم الله، واتباعهم حكم الطغيان

﴿ ثُمَّ جَاءُوكَ ﴾ معتذرين عما حدث منهم من قبائح، والحال أنهم ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ﴾ كذبا وزورا.

﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾

أى ما أردنا بالتحاكم إلى غيرك -يا محمد- إلا إحسانا إلى المتخاصمين، وتوفيقا بينهم حتى لا يتسع الخلاف بينهم، ولم نرد بذلك عدم الرضا بحكمك، فلا تؤاخذنا بما فعلنا.

والاستفهام بكيف هنا للتهويل. أى أن حالهم عندما تصيبهم المصائب بسبب أفعالهم الخبيثة، ويأتون للرسول ﷺ

معتذرين، ستكون حالا بائسة شنيعة مخزية؛ لأنهم لا يجدون وجها مقبولا للدفاع عما ارتكبوه من قبائح.

والباء في:

﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾

للسببية. والمراد بما قدمت أيديهم ما اجترحوه من سيئات من أشدها تحاكمهم إلى الطاغوت. وعبر عن ذلك بقوله:

﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾

لأن الأيدى مظهر من مظاهر الإنسان.

والتعبير بـ "ثم" في هذا المقام للإشعار بالتباين الشديد بين إعراضهم وصدودهم إذا ما قال لهم قائل: تعالوا إلى حكم الله... وبين إقبالهم بعد ذلك معتذرين ومقسمين بالأيمان الكاذبة أنهم ما أرادوا بما فعلوا إلا الإحسان والتوفيق.

وإن ما قاله هؤلاء المنافقون من أعذار بعد أن أصابتهم المصائب، وانكشف أمرهم بين المؤمنين، وصاروا محل الازدراء والنبذ لتحاكمهم إلى الطاغوت. ما قاله هؤلاء -كما حكاه القرآن الكريم- ليشبه ما يقوله منافقو اليوم عندما يتهربون من التحاكم إلى شريعة الله إلى التحاكم إلى غيرها من شرائع الناس. فأنت تراهم إذا ما أحيط بهم، وعجزوا عن الدفاع عن أنفسهم، اعتذروا بأنهم ما تركوا الحكم بشريعة الله إلى غيرها لا بقصد الإحسان إلى المتنازعين، والتوفيق بين مختلف الطوائف في المجتمع حتى لا يغضب من ليسوا مسلمين.

ولا شك أن هذه الأعذار لن تغني عنهم من عذاب الله شيئا، لأنه لا عذر لمن يهجر شريعة الله، ويهرع إلى التحاكم إلى غيرها.

ثم بين -سبحانه- أنه ليس غافلا عن أعمال أولئك المنافقين، وأرشد نبيه ﷺ إلى وسائل معالجتهم فقال -تعالى-:

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾

أي: أولئك الذين نافقوا، وأخفوا حقيقة نواياهم السيئة، وتركوا حكم الله إلى حكم الطاغوت...

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾

من النفاق والميل إلى الكفر، وإن أظهروا إسلامهم.

وقوله:

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾

بيان لطرق معالجتهم.

أي: فلا تلتفت إليهم، وغض الطرف عن مسالكهم الخبيثة، ولا تقبل عليهم، لكي يشعروا باستنكارك لأعمالهم.

وقوله ﴿ وَعِظْهُمْ ﴾: الوعظ هو التذكير بفعل الخير وترك الشر بأسلوب يرقق القلوب، ويشتمل على الترغيب والترهيب.

أي: ذكرهم بما في أعمالهم القبيحة من سوء العاقبة لهم، وبما في تركها من خير جزيل يعود عليهم في دنياهم وآخرتهم، وأخبرهم بأن تحاكمهم إلى غير شريعة الله سيكون فيه هلاكهم.

وقوله:

﴿ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾

أي قل لهم بعد ذلك قولا يبلغ أعماق نفوسهم لقوته وشدة تأثيره. بأن تورد لهم ما تريد أن تخاطبهم به بطريقة تجعلهم يقبلون على قولك.

وفي هذه الجملة الكريمة ما فيها من التعبير البليغ المؤثر، حتى لكأنما القول الذي يقوله الرسول ﷺ لهم: يودع مباشرة في الأنفس، ويستقر راسا في القلوب.

وقد وضح هذا المعنى صاحب الكشاف فقال: فإن قلت: بم تعلق قوله:

﴿ فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ قلت: بقوله ﴿ بَلِيغًا ﴾ أي: قل لهم قولا بليغا في أنفسهم مؤثرا في قلوبهم يغتمون به اغتماما، ويستشعرون منه الخوف استشعارا، وهو التوعد بالقتل والاستئصال إن نجم منهم النفاق، وأطلع قرنه، وأخبرهم أن ما في نفوسهم من الدغل والنفاق معلوم عند الله، وأنه لا فرق بينكم وبين المشركين. وما هذه المكانة إلا لإظهاركم الإيمان وإسراركم الكفر وإضماره. فإن فعلتم ما تكشفون به غطاءكم لم يبق إلا السيف.

أو يتعلق بقوله: ﴿ وَقُل لَّهُمْ ﴾. أي: قل لهم -في أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المطوية على النفاق- قولا بليغا. وإن الله يعلم ما في قلوبكم لا يخفى عليه، فلا يغني عنكم إبطانه.

فأصلحوا أنفسكم وطهروا قلوبكم وداووها من مرض النفاق. وإلا أنزل الله بكم ما أنزل بالمجاهرين بالشرك من انتقامه، وشرا من ذلك وأغلظ، أو قل لهم في أنفسهم خاليا بهم، ليس معهم غيرهم. قولا بليغا يبلغ منهم، ويؤثر فيهم.[٣]

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد أرشدت النبي ﷺ إلى استعمال ثلاثة طرق لصرف المنافقين عن أفعالهم القبيحة.

وهذه الطرق هي الإعراض عنهم، ووعظهم بما يرغبهم في الخير ويرهبهم من الشر، ومخاطبتهم بالقول البليغ المؤثر الذي يحرك نفوسهم تحريكا قويا، ويجعلهم يقبلون عليه وهذه الطرق هي أسمى ألوان الدعوة إلى الله. وأنجع الأساليب في جلب الناس إلى ما يأخذ بيدهم إلى الخير والفلاح.

ثم بين -سبحانه- أنه ما أرسل رسله إلا ليطاعوا لا ليخالفوا، وأرشد المخالفين إلى ما يجب عليهم فعله للتكفير عن مخالفتهم فقال تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾

و﴿ مِن ﴾ في قوله ﴿ مِن رَّسُولٍ ﴾ زائدة للتأكيد والتعميم، واللام في قوله ﴿ لِيُطَاعَ ﴾ للتعليل، والاستثناء مفرغ من

(٣) تفسير الكشاف جـ١ ص٥٢٧.

المفعول لأجله.

أى: وما أرسلنا رسولا من الرسل لشئ من الأشياء إلا ليطاع فيما أمر ونهى وحكم، لا ليطلب ذلك من غيره. فطاعته فرض على من أرسل إليهم. وإنكار فرضيتها كفر.

لأن طاعة الرسول طاعة لله، ومعصيته معصية لله. قال -تعالى-:

﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾

وقوله ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى: بسبب إذنه -سبحانه- فى طاعة رسوله. لأن هو الذى أمر بهذه الطاعة لرسله.

ويجوز أن يراد بقوله ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى بتوفيقه -سبحانه- إلى هذه الطاعة من يشاء توفيقه إليها من عباده.

وقوله:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ ﴾

بيان لما كان يجب عليهم أن يفعلوه بعد وقوعهم فى الخطأ.

أى: ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم بسبب تحاكمهم إلى الطاغوت، وبخروجهم عن تعاليم الإسلام، لو أنهم بسبب ذلك وغيره ﴿ جَاءُوكَ ﴾ تائبين توبة صادقة من هذا النفاق، ﴿ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ ﴾ مما اجترحوه من ذنوب وسيئات.

﴿ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﴾

أى: دعوا الله -تعالى- بأن يقبل توبتهم، ويغفر ذنوبهم، لو أنهم فعلوا ذلك

﴿ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾

أى كثير القبول للتوبة من التائبين ﴿ رَّحِيمًا ﴾ أى كثير التفضيل على عباده بالرحمة والمغفرة.

قال الفخر الرازى: لقائل أن يقول: أليس لو استغفروا الله وتابوا على وجه صحيح، كانت توبتهم مقبولة؟ فما الفائدة فى ضم استغفار الرسول إلى استغفارهم؟

قلنا: الجواب عنه من وجوه:

الأول: أن ذلك التحاكم إلى الطاغوت كان مخالفة لحكم الله.

وكان أيضا إساءة إلى الرسول ﷺ ومن كان ذنبه كذلك وجب عليه الاعتذار عن ذلك الذنب لغيره. فلهذا المعنى وجب عليهم أن يطلبوا من الرسول أن يستغفر لهم.

الثانى: أن القوم لما لم يرضوا بحكم الرسول، ظهر منهم ذلك التمرد. فإذا تابوا وجب عليهم أن يفعلوا ما يزيل عنهم ذلك التمرد، وما ذاك إلا بأن يذهبوا إلى الرسول ﷺ ويطلبوا منه الاستغفار.

الثالث: لعلهم إذا أتوا بالتوبة أتوا بها على وجه الخلل، فإذا انضم إليها استغفار الرسول صارت مستحقة للقبول.

ثم قال: وإنما قال -سبحانه-:

﴿ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﴾

ولم يقل واستغفرت لهم: إجلالا للرسول ﷺ، وأنهم إذا جاءوا من خصه الله برسالته، وأكرمه بوحيه، وجعله سفيرا بينه وبين

خلقه، ومن كان كذلك فإن الله لا يرد شفاعته، فكانت الفائدة فى العدول عن لفظ الخطاب إلى لفظ الغاية.(٤)

فالآية الكريمة قد فتحت باب التوبة أمام العصاة والمذنبين، وسمت بمكانة الرسول ﷺ عند ربه سموا عظيما.

ورحم الله ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهذه الآية: وقوله:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ ﴾

يرشد -تعالى- العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده، ويسألوه أن يستغفر لهم، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم؛ ولهذا قال:

﴿ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾

وقد جاء عن الإمام العتبى أنه قال: كنت جالسا عند قبر النبى ﷺ فجاء أعرابى فقال: السلام عليك يا رسول الله!! سمعت الله يقول:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ ﴾

وقد جئتك مستغفرا لذنبى، مستشفعا بك عند ربى. ثم أنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه
فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه
فيه العفاف وفيه الجود والكرم

قال العتبى: ثم انصرف الأعرابى، فرأيت النبى ﷺ فى النوم فقال «يا عتبى الحق الأعرابى فبشره أن الله قد غفر له».(٥)

ثم بين -سبحانه- أن كل من يدعى الإيمان لا يكون إيمانه صادقا إلا إذا تقبل حكم رسول الله ﷺ عن إذعان واقتناع فقال:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

والفاء فى قوله ﴿ فَلَا ﴾ للإفصاح عن شرط مقدر.

و﴿ لَا ﴾ يرى الزمخشرى أنها زائدة لتقوية الكلام وتأكيد معنى القسم، فهى كقوله -تعالى-:

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(الحجر: ٩٢-٩٣)

ويرى ابن جرير أنها ليست زائدة، وإنما هى رد على ما تقدم ذكره من تحاكمهم إلى الطاغوت وتركهم حكم شريعة الإسلام فقد قال: يعنى -جل ثناؤه- بقوله فلا: أى فليس الأمر كما يزعمون أنهم يؤمنون بما أنزل إليك وهم يتحاكمون إلى الطاغوت، ويصدون عنك إذا دعوا إليك يا محمد. ثم استأنف القسم -جل ذكره- فقال: وربك يا محمد لا

(٤) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥١٩.

(٥) تفسير الفخر الرازى جـ١٠ ص١٦٢.

يؤمنون أى: لا يصدقون بى وبك حتى يحكموك فيما شجر بينهم.(٦)

وقوله ﴿ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ أى فيما اختلف بينهم من الأمور والتبس.

يقال: شجر بينهم الأمر يشجر شجرا وشجورا إذا تنازعوا فيه.

وأصله التداخل والاختلاط. ومنه شجر الكلام، إذ دخل بعضه فى بعض واختلط. ومنه الشجر: لتداخل أغصانه.

وقيل للمنازعة تشاجر، لأن المتنازعين تختلف أقوالهم، وتتعارض دعاويهم، ويختلط بعضهم ببعض.

وقوله ﴿ حَرَجًا ﴾ أى ضيقا وشكا، وأصل الحرج مجتمع الشىء، ويقال للشجر الملتف الذى لا يكاد يوصل إليه حرج. ثم أطلق على ضيق الصدر لكراهته لشىء معين.

والمعنى: إذا ثبت ما أخبرناك به يا محمد قبل ذلك، فإن هؤلاء المنافقين وحق ربك ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ إيمانا حقا يقبله الله -تعالى-:

﴿ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾

أى: حتى يجعلوك حاكما بينهم، ويلجاوا إليك فيما اختلفوا فيه من أمور، والتبس عليهم منها.

﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ ﴾

بعد ذلك:

﴿ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾

أى ضيقا وشكا فى قضائك بينهم:

﴿ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

أى: ويخضعوا لحكمك خضوعا تاما لا إباء معه ولا ارتياب.

وفى إضافة الاسم الجليل إلى النبى ﷺ فى قوله -سبحانه- ﴿ وَرَبِّكَ ﴾ تكريم للنبى ﷺ وتشريف له، وتنويه بمكانته.

وقوله ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ هو جواب القسم.

وقوله ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا ﴾ معطوف على مقدر ينساق إليه الكلام. أى: حتى يحكموك فيما شجر بينهم فتحكم بينهم ثم لا يجدوا.

وقوله ﴿ تَسْلِيمًا ﴾ تأكيد للفعل. بمنزلة تكريره. أى تسليما تاما بظاهرهم وباطنهم من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة فقد روى الحافظ أبو نعيم والطبرانى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «والذى نفسى بيده، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به».

هذا، وقد روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما رواه البخارى عن الزهرى عن عروة قال: خاصم الزبير رجلا من الأنصار فى شراج الحرة -أى فى مسيل مياه-.

فقال النبى ﷺ: اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك. فقال الأنصارى: يا رسول الله!! أن كان ابن عمتك؟ فتلون وجه النبى ﷺ ثم قال: اسق يا زبير. ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر -والجدر هو ما يدار بالنخل من

(٦) تفسير ابن جرير جـ٥ ص١٥٨.

تراب كالجدار-. ثم أرسل الماء إلى جارك.

قال الزبير: فما أحسب هذه الآية إلا نزلت فى ذلك(٧):

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾

وهذا السبب الخاص فى نزول الآية الكريمة لا يمنع عمومها فى وجوب التحاكم إلى رسول الله ﷺ فى حياته، وإلى الشريعة التى أتى بها بعد وفاته، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يرى جمهور العلماء.

ويبدو أن ما ذكرناه سابقا من تحاكم بعض المنافقين إلى غير رسول الله ﷺ وما جاء فى البخارى من تخاصم الزبير مع الرجل الأنصارى يبدو أن هذه الحوادث قد حدثت فى زمن متقارب فنزلت الآيات لبيان وجوب التحاكم إلى شريعة الله دون سواها.

والمتأمل فى الآية الكريمة يراها قد بينت أن المؤمن لا يكون إيمانه تاما إلا إذا توفرت فيه صفات ثلاث:

أولها: أن يتحاكم إلى رسول الله ﷺ فى حياته، وإلى شريعته بعد وفاته.

وثانيها: أن يتقبل حكم الشريعة الاسلامية التى جاء بها النبى ﷺ برضا وطيب خاطر، وأن يوقن إيقانا تاما بأن ما يقضى به هو الحق والعدل. قال -تعالى-:

﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾

وثالثها: أن يذعن لأحكام شريعة الله إذعانا تاما فى مظهره وحسه. قال -تعالى-:

﴿ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

أى يخضوا خضوعا تاما.

فقوله -تعالى-:

﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾

يمثل الانقياد الباطنى والنفسى.

وقوله -تعالى-: ﴿ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ يمثل الانقياد الظاهرى والحسى.

وهكذا نرى الآية الكريمة تحذر المؤمنين من التحاكم إلى غير شريعة الله بأسلوب يبعث فى النفوس الوجل والخشية، ويحملهم على الإذعان لأحكام الله -تعالى-.

ثم بين -سبحانه- بعض مظاهر فضله على الناس، ورحمته بهم. فقال -تعالى-:

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾

والمراد بقوله ﴿ كَتَبْنَا ﴾: فرضنا وأوجبنا.

والمراد (بقتل النفس) تعريضها للهلاك

(٧) تفسير ابن كثير جـ١ ص-٥٢.

من غير أمل في النجاة، وقيل: المراد به تعريضها للقتل عن طريق الجهاد.

والمراد بالخروج من الديار: الهجرة في سبيل الله، والخروج من الأوطان إلى أماكن فيها استجابة لأمر الله.

قال الفخر الرازى: الضمير في قوله:

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ﴾

فيه قولان:

الأول: وهو قول ابن عباس ومجاهد -أنه عائد إلى المنافقين، وذلك لأنه -تعالى- كتب على بنى إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم، وكتب على المهاجرين أن يخرجوا من ديارهم. فقال -تعالى-: ولو أنا كتبنا القتل والخروج عن الوطن على هؤلاء المنافقين ما فعله إلا قليل منهم رياء وسمعة، وحينئذ يصعب الأمر عليهم، وينكشف كفرهم، فإذا لم نفعل ذلك بل كلفناهم بالأشياء السهلة، فليتركوا النفاق، وليقبلوا الإيمان على سبيل الإخلاص. وهذا القول اختيار أبى بكر الأصم والقفال.

الثاني: أن المراد لو كتب الله على الناس ما ذكر لم يفعله إلا قليل منهم، فلما لم يفعل -سبحانه- ذلك رحمة بعباده، بل اكتفى بتكليفهم بالأمور السهلة، فعليهم أن يقبلوا عليها بإخلاص حتى ينالوا خير الدارين.

وعلى هذا التقدير دخل تحت هذا الكلام المؤمن والمنافق.

وأما الضمير في قوله:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ ﴾

فهو مختص بالمنافقين، ولا يبعد أن يكون أول الآية عاما وآخرها خاصا.

وعلى هذا التقدير يجب أن يكون المراد بالقليل المؤمنين.[8]

وعلى كلا التقديرين: فإن الآية الكريمة تدل على أن الله -تعالى- لم يكلف هذه الأمة إلا بما تستطيعه، لأنه -سبحانه- لو كلف الناس جميعا بالتكاليف الشاقة، لما استطاع أن يقوم بها إلا عدد قليل منهم، وهذا الدين لم يجئ لهذا العدد القليل من الناس وإنما جاء للناس جميعا.

والمراد: أننا لم نكتب على الناس قتل أنفسهم أو خروجهم من ديارهم لأننا لو فعلنا ذلك لما استطاعه إلا عدد قليل منهم. وإنما الذى كتبناه عليهم هو طاعة الرسول ﷺ والخضوع لحكمه في الظاهر والباطن والاستجابة لتوجيهاته في السر والعلن.

فالمقصود من الآية الكريمة بيان لمظهر من مظاهر فضل الله على هذه الأمة، ورحمته بها، وتحريض الناس على الامتثال لشريعة الله -تعالى-.

والضمير في قوله ﴿ مَا فَعَلُوهُ ﴾ للمكتوب عليهم الشامل للقتل والخروج من الديار، لدلالة قوله ﴿ كَتَبْنَا ﴾ عليه.

وقوله ﴿ قَلِيلٌ ﴾ مرفوع على أنه بدل من الواو في قوله ﴿ فَعَلُوهُ ﴾ والتقدير: ما

(8) تفسير الفخر الرازى جـ١٠ ص١٦٧ - بتصرف يسير.

فعله أحد إلا قليل منهم. وقرأه ابن عامر بالنصب على الاستثناء. والأول أولى، لأنه استثناء من كلام تام غير موجب فيترجح الرفع.

قال ابن كثير: لما نزلت

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ﴾

قال رجل: لو أمرنا لفعلنا، والحمد لله الذى عافانا. فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال: «إن من أمتى رجالا، الإيمان أثبت في قلوبهم من الرواسى».

وعن عامر بن عبد الله بن الزبير أن هذه الآية لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «لو نزلت لكان ابن أم عبد منهم» -أى: لو فرض ذلك لكان عبد الله بن مسعود من الذين يفعلونه.

وعن شريح بن عبيد قال: لما تلا رسول الله ﷺ هذه الآية، أشار بيده إلى عبد الله بن رواحة فقال: «لو أن الله كتب ذلك، لكان هذا من أولئك القليل».[9]

وقوله:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾

بيان للنتائج الطيبة التى تترتب على امتثالهم لأمر الله.

أى: ولو ثبت أن هؤلاء الذين أمرناهم بطاعتنا:

﴿ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ ﴾

أى: ما أمرناهم به من اتباع لرسولنا ﷺ وانقياد لحكمه، لأنه الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى..

لو ثبت أنهم فعلوا ذلك لكان ما فعلوه ﴿ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ في دنياهم وآخرتهم. ولكان ﴿ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ لهم على الحق والصواب، وأمنع لهم من الضلال.

ثم بين -سبحانه- ما لهم بعد ذلك من أجر عظيم فقال:

﴿ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾

أى: وإذا لو ثبتوا على طاعتنا لأعطيناهم من عندنا ثوابا عظيما لا يعرف مقداره إلا الله -تعالى- ولتقبلناهم وأرشدناهم إلى سلوك الطريق المستقيم وهو طريق الإسلام الذى باتباعه يسعدون في دنياهم وآخرتهم.

قال صاحب الكشاف: وقوله ﴿ وَإِذًا ﴾ جواب لسؤال مقدر، كأنه قيل: وماذا يكون لهم أيضا بعد التثبيت؟ فقيل: وإذا لو ثبتوا ﴿ لَآتَيْنَاهُمْ ﴾ لأن إذا جواب وجزاء.[10]

وقد فخم -سبحانه- هذا العطاء بعدة أمور منها: أنه ذكر -سبحانه- نفسه بصيغة العظمة ﴿ لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا ﴾ ﴿ وَلَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ والمعطى الكريم إذا ذكر نفسه باللفظ الدال على العظمة عند الوعد بالعطية، دل ذلك على عظمة تلك العطية.

(9) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٢٢.

(10) تفسير الكشاف جـ١ ص٥٢٠.

ومنها: أن قوله ﴿مِن لَّدُنَّآ﴾ يدل على التخصيص أى: لآتيناهم من عندنا وحدنا لا من عند غيرنا. وهذا التخصيص يدل على المبالغة والتشريف، لأنه عطاء من واهب النعم ومن له الخلق والأمر كما فى قوله -تعالى-:

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾

ومنها: أنه -سبحانه- وصف هذا الأجر المعطى بالعظمة بعد أن جاء به منكرا، وهذا الأسلوب يدل على أن هذا العطاء غير محدود بحدود، وأنه قد بلغ أقصى ما يتصوره العقل من جلال فى كمه وفى كيفه.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾

(الحديد: ٢١)

هذا، وبذلك ترى أن الآيات الكريمة -من قوله -تعالى-:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾

إلى هنا -قد بينت ما عليه المنافقون من فسوق وعصيان، وحكت معاذيرهم الكاذبة، وصورت نفورهم من حكم الله تصويرا بليغا، وكشفت عن أحوالهم ورذائلهم بأسلوب يدعو العقلاء إلى احتقارهم وهجرهم، وأرشدت إلى أنجع الوسائل لعلاجهم؛ وفتحت لهم باب التوبة حتى يثوبوا إلى رشدهم، ويطهروا نفوسهم من السوء والفحشاء، ووضحت جانبا من مظاهر اليسر والتخفيف التى تفضل بها -سبحانه- على الأمة الإسلامية، ووعدت الذين يستجيبون لله ولرسوله بالثواب الجزيل، وتوعدت الذين يتركون حكم الله إلى حكم غيره بالعذاب الأليم، ووصفتهم بعدم الإيمان.

وقد أفاض بعض المفسرين عند تفسيره لهذه الآيات فى بيان سوء حال من يتحاكم إلى غير شريعة الله، وساقوا أمثلة متعددة لشدة تمسك السلف الصلاح بهدى رسول الله ﷺ.

ومن ذلك قول الفخر الرازى: قال القاضى: يجب أن يكون التحاكم إلى هذا الطاغوت كالكفر، وعدم الرضا بحكم محمد ﷺ كفر ويدل عليه وجوه:

الأول: أنه -تعالى- قال:

﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾

فجعل التحاكم إلى الطاغوت يكون إيمانا به.

ولا شك أن الإيمان بالطاغوت كفر بالله، كما أن الكفر بالطاغوت إيمان بالله.

الثانى: قوله تعالى -:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾

إلى قوله ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾. وهذا نص فى تكفير من لم يرض بحكم الرسول ﷺ.

الثالث: قوله -تعالى-:

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

وهذا يدل على أن مخالفته معصية عظيمة.

وفى هذه الآيات دلائل على أن من رد شيئا من أوامر الله أو أوامر رسول الله ﷺ فهو خارج عن الإسلام. سواء رده من جهة الشك أو من جهة التمرد. وذلك يوجب صحة ما ذهبت الصحابة إليه من الحكم بارتداد مانعى الزكاة وقتلهم وسبى ذراريهم.(١١)

وقال الشيخ جمال الدين القاسمى: قال ولى الله التبريزى. روى الإمام مسلم -بسنده- عن بلال بن عبدالله بن عمر عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا النساء حظوظهن من المساجد إذا استأذنكم: فقال بلال: والله لنمنعهن. فقال عبد الله: أقول قال رسول الله ﷺ. وتقول أنت: لنمنعهن».

وفى رواية سالم عن أبيه قال: فأقبل عليه عبد الله فسبه سبا ما سمعته سبه مثله قط. وقال: أخبرك عن رسول الله، وتقول: والله لنمنعهن.

وفى رواية للإمام أحمد أنه ما كلمه حتى مات.

فأنت ترى أن ابن عمر -رضى الله عنه- لشدة تمسكه بسنة رسول الله ﷺ قد غضب لله ورسوله. وهجر فلذة كبده، لتلك الزلة.

وقال الإمام الشافعى: أخبرنا أبو حنيفة بن سماك بن الفضل الشهابى قال: حدثنى ابن أبى ذئب عن المقبرى عن أبى شريح الكعبى أن النبى ﷺ قال عام الفتح: "من قتل له قتيل فهو بخير النظرين. إن أحب أخذ العقل وإن أحب فله القود" قال أبو حنيفة: فقلت لابن أبى ذئب. أتأخذ بهذا يا أبا الحارث؟ فضرب صدرى وصاح على صياحا كثيرا ونال منى وقال: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول أتأخذ به؟ نعم. آخذ به. وذلك الفرض علىّ وعلى من سمعه. إن الله -تعالى- قد اختار محمدا ﷺ من الناس فهداهم به وعلى يديه. واختار لهم ما اختار له وعلى لسانه. فعلى الخلق أن يتبعوه لا مخرج لمسلم. وما سكت حتى تمنيت أن يسكت.

وقال الإمام ابن القيم: والذى ندين الله به، ولا يسعنا غيره أن الحديث إذا صح عن رسول الله ﷺ ولم يصح عنه حديث آخر ينسخه. أن الفرض علينا وعلى الأمة بحديثه وترك كل ما خالفه.

ولا نتركه لخلاف أحد من الناس كائنا من كان. لا روايه ولا غيره. إذ من الممكن أن ينسى الراوى الحديث ولا يحضره وقت الفتيا. أولا يتفطن لدلالته على تلك المسألة. أو يتأول فيه تأويلا مرجوحا. أو يقوم فى ظنه ما يعارضه ولا يكون معارضا فى نفس الأمر. أو يقلد غيره فى فتواه بخلافه لاعتقاده أنه أعلم منه، وأنه إنما خالفه لما هو أقوى منه..

فالله -تعالى- علق سعادة الدارين بمتابعته ﷺ وجعل شقاوة الدارين فى مخالفته.(١٢)

وهكذا نرى أن السلف الصالح كانوا يتمسكون بسنة رسول الله ﷺ أشد التمسك، ويهجرون كل من خالفها، ولم يقيد نفسه بها.

---

(١١) تفسير الفخر الرازى جـ١٠ ص١٥٥.

(١٢) تفسير القاسمى جـ٥ من ص ١٣٦١ إلى ص ١٣٨٢ وراجعه ففيه نقول كثيرة جيدة فى هذا المعنى.

إن السلام تحية مبرورة

لفضيلة الشيخ / إبراهيم عطا الفيومى
رحمه الله

روى البخارى «رحمه الله» عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال:

«خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعا، فلما خلقه قال: اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: «السلام عليكم» فقالوا: «السلام عليك ورحمة الله» فزادوه «ورحمة الله»، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن».

اللغويات

فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن: هو فى معنى قوله تعالى:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾

(التين: ٤، ٥)

وجه الحكمة فى ذلك أن الله خلق العالم بما فيه دالا على خالق حكيم، وجعل فى حركات ما خلق دليلا على فناء هذا العالم وبطلانه خلافا للدهرية التى تعبد الدهر وتزعم أنه لا يفنى، فأبقى الله هذا النقص دلالة على بطلان قولهم، لأنه إذا جاز النقص فى البعض جاز الفناء فى الكل.

الشرح والبيان

الإسلام هو دين الله العام الذى أوحاه الله إلى جميع رسله، وأنزل به كل كتبه، وهو دين يدعو إلى السلم والسلام والأمان، وينشر الحب والود بين الناس، ويقضى على الخلاف والخصومة، وينشر الطهر والنقاء والخير والبركة فى سائر الدنيا وأنحاء الأرض.

وهذا الحديث الشريف يؤكد ذلك، حيث يشير إلى أن الملائكة فى الملأ الأعلى يتكلمون بلسان العرب ويحيون بتحية الله، وأن التحية بالسلام هى التى أراد الله أن يتحيا بها، وفيه الأمر بتعلم العلم من أهله والقصد إليهم فيه، وأنه من أخذ العلم ممن أمره الله بالأخذ عنه فقد بلغ العذر فى العبادة وليس عليه ملامة، لأن آدم أمره الله أن يأخذ عن الملائكة ما يحيونه، وجعلها له تحية باقية، وهو -تعالى- أعلم من الملائكة، ولم يعلمه إلا لتكون سنة.

ونفهم من هذا أن السلام تحية الإسلام، قال تعالى:

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾

(النساء: ٨٦)

والمعنى: إذا حياكم أحد بتحية فحيوا بأفضل منها أو ردوا عليه بمثلها، والمراد بالتحية فى الآية إلقاء السلام ورده، وهما من أوضح الحقوق فى الإسلام، وإذا كان إلقاء السلام من السنن الحميدة والأخلاق العظيمة المجيدة - فإن الرد عليه فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الباقين. وهما مطلوبان بالطلب العام لجميع الناس، لأن الآية الكريمة عامة، ولأن الله تعالى يقول:

﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾

(البقرة: ٨٣)

ويقول: فاصفح عنهم وقل سلام، ولما رواه البخارى عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما: «أن رجلا سأل رسول الله ﷺ: أى الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف». فما السلام؟

السلام دعاء منك لأخيك أن يسلم من كل من يخاف ويكره، ولفظه: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، وهو سلام الناس جميعا من لدن آدم «عليه السلام» إلى قيام الساعة كما ورد فى الحديث الشريف الذى صدرنا به هذا المقال.. والمطلوب فى رد التحية أن تكون على قدرها، أما الزيادة فخير يندب إليه.

وإنما كان السلام عاما لجميع الناس، الحاكم والمحكوم، والرئيس والمرءوس، والغنى والفقير، والقوى والضعيف، والكبير والصغير، حتى لا يتكبر أحد على أحد، فيحجم عن إلقاء السلام أورده، فذلك يجلب البغضاء والكراهية، وينشر الخلاف والخصام، ويقطع أواصر المحبة والمودة بين الناس!

يا ذا الذى ترك السلام تعمدا
ليس السلام بضائر من سلما!
إن السلام تحية مبرورة
ليست تحمل قائليها مغرما!

ولذلك نهى رسول الله ﷺ عن الأسباب المؤدية إلى ذلك، روى الإمام البخارى «رحمه

الله»، عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام»، وفى هذا المعنى أنشد الشاعر الحكيم:

قد يمكث الناس دهرا ليس بينهم
ود فيزرعه التسليم واللطف

هذا وإذا كان السلام يزيد فى الحسنات ويكثر الخير والبركات وينشر الأمن والأمان ويؤكد الصلات ويقوى الروابط بين الناس جميعاً ـ فلم لا نجود به ونتسابق عليه ونحرص على تحصيل أجره وثوابه؟! فقد روى أبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة»، وعنه كذلك أن رسول الله ﷺ قال: «إذا لقى أحدكم أخاه فليسلم عليه، فإن حالت بينهما شجرة أو جدار أو حجر ثم لقيه فليسلم عليه» وما ذلك إلا لأهمية السلام ومكانته فى الإسلام، ولذلك طالب الله المسلم إذا دخل بيتا أن يسلم على أهله، قال تعالى:

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾

(النور: ٦١)

يقول الإمام القرطبى فى تفسير هذه الآية:

اختلف المتأولون فى أى البيوت أراد، فقال إبراهيم النخعى، والحسن: أراد المساجد، والمعنى سلموا على من فيها من ضيفكم، فإن لم يكن فى المساجد أحد فالسلام أن يقول المرء: السلام على رسول الله وقيل: يقول السلام عليكم، يريد الملائكة، ثم يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. وذكر عبدالرزاق أخبرنا معمر عن عمرو بن دينار عن ابن عباس «رضى الله عنهما» فى قوله تعالى:

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾

(النور: ٦١)

قال: إذا دخلت المسجد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. وقيل: المراد بالبيوت البيوت المسكونة، أى فسلموا على أنفسكم قال جابر بن عبدالله، وابن عباس أيضا، وعطاء بن أبى رباح، وقالوا: يدخل فى ذلك البيوت غير المسكونة، ويسلم المرء فيها على نفسه بأن يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. قال ابن العربى: القول بالعموم فى البيوت هو الصحيح، ولا دليل على التخصيص، وأطلق القول ليدخل تحت هذا العموم كل بيت كان للغير أو لنفسه، فإذا دخل بيتا لغيره استأذن.. فإذا دخل بيتا لنفسه سلم كما ورد فى الخبر، يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، قال ابن عمر: وهذا إذا كان فارغا، فإن كان فيه أهله وخدمه فليقل: السلام عليكم. وإن كان مسجدا فليقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. وعليه حمل ابن عمر البيت الفارغ. قال ابن العربى: والذى أختاره إذا كان البيت فارغا ألا يلزم السلام، فإنه إن كان المقصود الملائكة فالملائكة لا تفارق العبد بحال، أما إنه إذا دخلت بيتك يستحب لك ذكر الله بأن

تقول: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله»، ويقول الأستاذ سيد قطب فى «ظلال القرآن»:

«.. وهو تعبير لطيف عن قوة الرابطة بين المذكورين فى الآية. فالذى يسلم منهم على قريبه أو صديقه يسلم على نفسه والتحية التى يلقيها عليه هى تحية من عند الله تحمل ذلك الروح وتفوح بذلك العطر وتربط بينهم بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها وهكذا ترتبط قلوب المؤمنين بربهم فى الصغيرة والكبيرة:

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

(البقرة: ٢٤٢)

وتدركون ما فى المنهج الإلهى من حكمة ومن تقدير..»

هذا وللسلام آداب نذكر منها: أن يسلم الراكب على الماشى، وأن يسلم الماشى على القاعد، وأن يسلم الصغير على الكبير، وأن يسلم العدد القليل على العدد الكثير، ويمتنع السلام فى حالات منها: حالة الخطبة، لكيلا ينصرف المستمعون عن متابعة الخطيب، وعند تلاوة القرآن جهرا، لأن الله يقول:

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

(الأعراف: ٢٠٤)

وعند درس العلم، حتى لا يشوش على المعلم والمتعلمين، وعند الآذان والإقامة، وعند قضاء الحاجة.

هذا وإذا كان الإسلام قد اهتم بالسلام وشرع له من الفضائل والآداب ما يجعله عاملا مهما من عوامل المحبة والمودة فقد حرص عليه السلف الصالح والرعيل الأول «رضوان الله عليهم» وتسابقوا على البدء به اغتناما لثوابه وتحصيلا لأجره، روى الطبرانى فى الكبير والأوسط عن الأغر المزنى رضى الله عنه- قال: كان رسول الله ﷺ أمر لى بجريب من تمر عند رجل من الأنصار فمطلنى به فكلمت فيه رسول الله ﷺ فقال: اغد يا أبا بكر فخذ له تمره، فوعدنى أبو بكر المسجد إذا صلينا الصبح فوجدته حيث وعدنى، فانطلقنا فكلما رأى أبا بكر رجل من بعيد سلم عليه، فقال أبوبكر رضى الله عنه: «أما ترى ما يصيب القوم عليك من الفضل، لا يسبقك إلى السلام أحد»، فكنا إذا طلع الرجل من بعيد بادرناه بالسلام قبل أن يسلم علينا.

فعجبا لهؤلاء الذين يمتنعون عن إلقاء السلام أو رده وهم يعلمون أن ذلك من دواعى الضغينة والشقاق.

روى البيهقى فى السنن الكبرى عن الزبير بن العوام رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، هى الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر، والذى نفس محمد بيده لا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلاأنبئكم بأمر إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم»، ولله در الإمام الشافعى حين أنشد:

إنى أحيى عدوى عند رؤيته
لأدفع الشر عنى بالتحيات

ولكن كثيرا ممن لم يهذبهم الإسلام ولم

تستنير بصائرهم بآدابه ممن جهلوا أدب الاجتماع وحقوق الأخوة - يعدلون عن هذه التحية التى أمرنا بها ربنا ودعا إليها رسولنا ﷺ إلى ما اعتاده الناس قديماً وحديثاً فى الشرق وفى الغرب، ويعدون ذلك لونا من ألوان التحضر، ومظهراً من مظاهر الرقى، ونهيب بهم جميعاً أن يلتزموا بأدب الإسلام وأخلاقه الحميدة، وأن يحرصوا على تحيته التى تميزهم عن غيرهم وتزرع الحب والتفاهم بينهم، ورد فى الحديث الشريف الذى رواه الترمذى وصححه عن عبدالله بن سلام قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام - تدخلوا الجنة بسلام». وفى الموطأ بإسناد صحيح عن الطفيل بن أبى بن كعب أنه كان يأتى عبدالله بن عمر رضى الله عنهما، فيغدو معه إلى السوق، قال: فإذا غدونا إلى السوق لم يمر عبدالله على سقاط ولا صاحب بيعة ولا مسكين، لا أحد إلا سلم عليه، قال الطفيل: فجئت عبدالله بن عمر يوما فاستتبعنى إلى السوق فقلت له: وما تصنع بالسوق، وأنت لا تقف على البيع، ولا تسأل عن السلع، ولا تسوم بها، ولا تجلس فى مجالس السوق؟! قال: وأقول: اجلس بنا هاهنا نتحدث قال: فقال لى عبدالله بن عمر: يا أبا بطن - وكان الطفيل ذا بطن - إنما نغدو من أجل السلام نسلم على من لقينا».

فالسلام هدف من أهداف الإسلام العظيمة، لذلك جعله الله «عز وجل» تحية للأنبياء والمرسلين، قال تعالى:

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(الصافات: ٧٩)

وقال:

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾

(الصافات: ١٠٩)

وقال:

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾

(الصافات: ١٢٠)

وقال:

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾

(الصافات: ١٣٠)

وقال:

﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

(الصافات: ١٨١)

كذلك جعله الله تحية للملائكة، فقال:

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾

(الذاريات: ٢٤، ٢٥)

وتحية المؤمنين لنبيهم، قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾

(الأحزاب: ٥٦)

كذلك يحيى الله به المؤمنين فى الجنة، قال تعالى:

﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾

(يس: ٥٨)

وبه يحيى المؤمنون بعضهم بعضا فى الجنة، قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(يونس: ٩-١٠)

ونحن فى صلاتنا نسلم على نبينا ﷺ فنقول فى التشهد: «السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته» ونسلم على أنفسنا وعلى عباد الله الصالحين نقول: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين».

هذا وقد جعل الله السلام مفتاحا لدخول البيوت، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(النور: ٢٧)

ثم رفع الله السلام فجعله علما لدار كرامته ونعيمه، قال تعالى:

﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾

(الأنعام: ١٢٧)

وقال:

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(يونس: ٢٥)

وما كان الله ليشيع السلام فى هدايته لعباده على هذا النحو إلا ليغرس فى قلوبهم حب السلام لفظا ومعنى، فلا عجب والحال هذا أن يرفعه الله عز وجل إلى الذروة ويجعله على عرش القمة، حيث جعله اسما لذاته العلية، قال تعالى:

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

(الحشر: ٢٣)

لهذا ينبغى علينا أن ننشره بين الناس، ليسود السلام ويعم الأمن وينتشر الرخاء والأمن.

روى البزار عن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «السلام اسم من أسماء الله وضعه الله فى الأرض فأفشوه بينكم، فإن الرجل المسلم إذا مر بقوم فسلم عليهم فردوا عليه كان له عليهم فضل درجة بتذكيره إياهم السلام، فإن لم يردوا عليه رد عليه من هو خير منهم وأطيب».

فهذا هو السلام وذلك شأنه وتلك آثاره، فاللهم أنت السلام ومنك السلام، وإليك يعود السلام فحينا ربنا بالسلام، وأدخلنا الجنة دارك دار السلام بسلام. وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

بين كتاب الله المسطور وكتاب الكون المنظور



إن مما لا ريب فيه أن الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاق ومعاملات، ودنيا ودين ودولة، ولا يستطيع أحد أن يمارى فيما قدمه الإسلام للبشرية من عطاء حضارى يجل عن النظير، وفيما اشتمل عليه من دعوة لتحصيل علوم الدين والدنيا، والقراءة والمعرفة والسير والنظر فى ملكوت السماوات والأرض.

وحسبنا دلالة على ذلك أن أولى آيات الوحى الإلهى التى صافحت قلب رسولنا عليه أفضل الصلاة وأتم السلام كانت أمراً بالقراءة، ولم تكن أمراً بنوع من العبادات أو الأوامر الأخرى.

للأستاذ الدكتور/ أحمد عمر هاشم

عضو مجمع البحوث الإسلامية

بل كانت أولى آيات القرآن الكريم الذى هو الدستور السماوى تحمل مفاتيح الحضارة، أنها تتمثل فى القراءة التعلم والقلم:

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ۝ خلق الإنسان من علق ۝ اقرأ وربك الأكرم ۝ الذى علم بالقلم ۝ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾

العلق (١-٥)

وأمر القرآن الكريم بالنظر والتدبر فى السماوات والأرض:

﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ﴾

يونس (١٠١)

ونبه القرآن الكريم العقول إلى أن فى خلق السماوات والأرض، وأن فى اختلاف الليل والنهار آيات عظيمة تدل على عظمة القدرة الإلهية، وتُوجّه إلى استنباط العبر والدلائل التى تشرق فى تلك الآيات الكونية التى عرفت وشاهدتها الأعين والتى ستعرف فى المستقبل وتكتشفها الأجيال جيلاً بعد جيل، أنهم سيكتشفونها فى الآفاق والأكوان وسيكتشفونها فى أنفسهم عندما تتطور المعارف، وتتعمق البحوث والعلوم:

﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾

فصلت (٥٣)

وعندما يصل العلماء والباحثون فى ميادين المعرفة الكونية إلى أسرار القدرة ودلائلها ويرون عن كثب عظمة القدرة الإلهية، سيؤمنون بربهم وسيخشونه:

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ۝ ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾

فاطر (٢٧، ٢٨)

كما حث القرآن الكريم على تفهم نواميس الكون وما فيه من دروس وعبر، وأسرار ودلائل ودقائق تشهد بعظمة القرآن، وعظمة القدر الإلهية:

﴿ أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾

الأعراف (١٨٥)

بل إن رب العزة سبحانه وتعالى وعد عباده بإظهار آياته الكونية، ويهدى إليه بعض العقول لاكتشافها والوصول إليها حيث قال الله تعالى:

﴿ سأوريكم آياتى فلا تستعجلون ﴾

الأنبياء (٣٧)

ومن دلائل القدرة الإلهية أن الله سبحانه وتعالى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وأنه جلّت قدرته سخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى، وبين أنه المدبر للأمور كلها، كما فصل الآيات والدلائل الشاهدة بوحدانيته وقدرته، قال الله تعالى:

﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾

الرعد (٢)

وكما ساق الدلائل فى عالم السماوات فإنه ساق الآيات والدلائل فى عالم الأرض، وكيف أن الله سبحانه قد جعلها متسعة ممتدة، وجعل فيها رواسى من الجبال وأنهاراً وثمرات تختلف فى الطعم واللون والرائحة مع أنها تسقى بماء واحد، ولكن القادر العظيم يفضل بعضها على بعض فى الأكل ويُفاوت بينها، قال الله تعالى:

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

الرعد (٣ ، ٤)

وكما تحث آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول العظيم عليه الصلاة والسلام على البحث والنظر، وعلى التدبر في كتاب الكون المفتوح المنظور، فإن علوم الكون تقدم بلسان حالها عظمة ما جاء به الوحي وصدق ما أنزل في القرآن وما قاله الرسول ﷺ إذ لا يسع المتدبر في علوم الكون إلا أن يؤمن بمن خلق فسوى وقدر فهدى.

وهنا يتجلى التكامل المعرفي بين علوم الوحي وعلوم الكون، فما جاء به الوحي حث على النظر في ملكوت السماوات والأرض، والتدبر في دقة الصنع الإلهي في الكون وفي خلق الإنسان.

وما جاء في علوم الكون يشهد بعظمة الخالق -جل وعلا- بما يظهر في الأكوان من أسرار وآيات، يدركها عالم الفلك فيبهره ما في الكون من آيات، ويدركها عالم الطب والتشريح فيرى دقة الصنع الإلهي في خلق الإنسان، ويدرك هذه الآيات والحقائق كل باحث عن الحقيقة فلا يسعه إلا أن يؤمن بمن خلق فسوى وقدر فهدى.

وهذه الحقائق التي حثت عليها علوم الوحي والتي صدقتها علوم الكون، حقائق ثابتة لا مرية والناس في حياتهم في حاجة إلى النوعين.

بيد أن علوم الوحي لا يلحقها خلل ولا شطط فهي مصونة محفوظة، وتكفل رب العزة سبحانه بحفظ دستورها السماوي وهو القرآن الكريم كما قال الله جل شأنه:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

(الحجر: ٩)

وعلوم الكون وإن كان يعتريها أحياناً بعض الخلل أو الخطأ، إلا أنها في الأغلب الأعم تنطق بحق الإنسان في التعلم والاكتشاف، لأن الله تعالى وعد في القرآن بإظهار آياته.

ومع كل هذا، فإن هناك نمطًا من مقامات بعض المفكرين الواصلين، والعارفين بالله، لا يرون أن وجود الخالق أو أن عظمة القدرة الإلهية في حاجة تدل عليها.

فها هو ذا ابن عطاء الله السكندري رحمه الله تعالى يرى أن لا حاجة عنده إلى دليل يدل على الخالق فقال:

«إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟

والناظر إلى التكامل بين علوم الوحي وعلوم الكون يرى أن علوم الوحي مثل علوم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وما استنبط منهما كالعلوم الأخرى في الفقه والعقيدة والسيرة النبوية وغير ذلك، يرى أنها تتسم دائما بالحق والصواب والحفظ، لأن منبع العلوم الشرعي القرآن وهو محفوظ بحفظ الله له:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

(الحجر: ٩)

وكذلك السنة النبوية الشريفة، لأنها المفسرة والمفصلة للقرآن، وحفظ المبيَّن يقتضي حفظ البيان كما قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾

(القيامة: ١٧- ١٩)

أما العلوم الكونية فهي وإن لم تكن لها هذه الخصوصية إلا أن القران والسنة والعلوم الشرعية دعت إلى معرفتها وإلى إظهارها وإلى اكتشاف أسرارها وخصائصها وما فيها من منافع هامة للناس جميعاً.

ونضرب مثلاً على ذلك، بعلم كعلم الطب أو صناعة الدواء الذي يعالج به المرضى نرى أن الله تعالى أمر بالأخذ بالأسباب، وبالنظر والسير واكتشاف ما في الأرض والسماء وما في المخلوقات من منافع.

بل نرى أن السنة النبوية الشريفة تأمر بالتداوي وأن الرسول ﷺ حثنا على أن نبحث عن العلاج والدواء، وبين لنا أنه لا يوجد مرض ليس له دواء ولا شئ ليس له علاج إلا الموت.

فقال ﷺ: «ما خلق الله داء إلا وقد خلق له دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله»[1] ومعنى هذا الحديث أنه لا يوجد مرض إلا وله علاج وأن علينا أن نبحث وأن نكتشف هذا العلاج، وأن على المتخصصين في الطب والعلم الحديث وعلم العقاقير والدواء أن يبحثوا وأن واجب الدوائر العلمية والجامعات والأكاديميات أن تبحث وتكتشف الدواء للأمراض التي وقف الطب والعلم الحديث حيالها لا يحرك ساكنًا ويقول الناس بل وبعض الأطباء إنها لا علاج لها وليس لأصحاب بعض هذه الأمراض من علاج سوى «المسكنات» وذلك كمرض فقدان المناعة «الإيدز»، ومثل مرض «السرطان»، و«الزهايمر» وغير ذلك، مع أن النبي المعصوم الموحى إليه، والذي لا ينطق عن الهوى بين لنا أن لكل داء دواء، وذكر ذلك بأسلوب الحصر ما من داء إلا وله دواء، وأن الله لم يخلق داء إلا خلق له دواء، وأن البعض قد يعرفه والبعض الآخر لم يعرفه، عرفه من عرف وجهل من جهل، فمن حاول معرفته والبحث عن الدواء ومحاولة الاكتشاف يهديه الله سبحانه وتعالى له.

(١) المعجم الأوسط للطبراني.

فعلى أهل الاختصاص فى صناعة الدواء أن يقوموا بالبحث عما أشار إليه الهدى النبوى وعلى الجامعات والأكاديميات وسائر الدوائر العلمية المعنية أن تجرى بحوثها واكتشافاتها، ولقد أعطى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه نماذج لبعض الأدوية فيما خلقه الله فى الأرض وما خرج منها وذلك مثل قول الرسول ﷺ: «الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام»[٢] و«السام» هو الموت، ومن بين توجيهاته ﷺ لبعض الأمور قوله ﷺ: «الكمأة من المنّ وماؤها شفاء للعين»[٣] والكمأة عبارة عن نبات يخرج من الأرض دون غرس أو زراعة ولكن ينبت بإرادة الله تعالى وهو يشبه نبات البطاطس ويخرج غالبًا فى الصحراء وبلاد الجزيرة، إلى غير ذلك من التوجيهات القرآنية والنبوية التى تحث فيها علوم الوحى على علوم الكون وتشير إلى ما فيها من أسرار ومنافع وعلاج.

وهذا يدل على أن علوم الوحى وعلوم الكون لها أهميتها ومنزلتها، وإن كان لعلوم الوحى تقدمها وعظمتها وقدسيتها فإنها أشارت إلى أننا فى حاجة إلى علوم الكون وإلى النّعم التى أودعها الله سبحانه وتعالى فى بعض المخلوقات وعلينا أن نصل إليها وأن نكتشفها وأن نتعرف عليها وأن نستفيد بها فى حياتنا.

وكتاب الله المسطور وهو القرآن الكريم يوجهنا إلى ما فى كتاب الكون المنظور من آيات ودروس وعبر قال الله تعالى:

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

سورة يونس (١٠١)

ويوجه القرآن الكريم أنظار الناس إلى ما فى خلق السموات والأرض وما فى اختلاف الليل والنهار من آيات شاهدة على قدرة الخلاق العظيم فقال الله تعالى:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

سورة آل عمران (١٩٠)

وقال الله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾

سورة الأعراف (١٨٥)

إن كل هذه التوجيهات الربانية عندما تستجيب لها الأمة الإسلامية، تُصاغ من جديد شخصيتها، لتصبح ـ وبحق ـ خير أمة أخرجت للناس، وذلك بتقدمها ونهوضها.

فإذا كنا الآن نعيش عصر التكتلات وعصر الكيانات الكبرى، فإنه أولى بالمسلمين أن يأخذوا موقعهم اللائق بهم باعتبارهم خير أمة أخرجت للناس، وأن تكون أعظم قوة قائمة على العلم وعلى السير والنظر والبحث الذى أمر الله سبحانه وتعالى به.

(٢) صحيح البخارى.

(٣) صحيح البخارى.

مهمة الإسلام فى العالم

كما يراها الأستاذ / محمد فريد وجدى

بقلم الأستاذ الدكتور / السيد أحمد فرج



صدر هذا الكتاب. الذى هو فى الأصل مجموعة مقالات نشرت بمجلة الأزهر تنوه بمهمة الإسلام فى العالم للأستاذ محمد فريد وجدى. هدية مجلة الأزهر الغراء مرتين فى جزئين متتاليين. الأولى فى شهرى ذى القعدة وذى الحجة سنة ١٤٢٢ هـ. والثانية فى شهرى: المحرم وصفر سنة ١٤٣١ هـ. وإهداؤه مرتين فى أقل من عشرة أعوام يؤكد أهمية هذا الكتاب عند مجلة الأزهر وقرائها على السواء، وكانت الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر قد أصدرته فى سلسلة: قضايا إسلامية معاصرة فى سنة ١٤٠٩ هـ/١٩٨٩م.

ولعل سبب تأليف المقالات التى صارت هذا الكتاب قد أملته طبيعة الزمن الذى صدرت فيه وطبيعة أحداثه، فمنذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كانت مصر التى يتسلط عليها الاحتلال البريطانى فى تلك الفترة، تروج فيها الأفكار المادية المؤسسة على نظريات وفدت مع الاحتلال من الغرب مثل الوضعية المنطقية والمادية الحيوية، والبرجماتية، والمادية التاريخية، وكلها نظريات تداخلت وتظاهرت وتآلفت يجمع بينها قاسم مشترك هو المادة المحسوسة التى تنظم كل شىء فى العالم دون ما حاجة إلى قوى من خارجها، كما زعم الماديون أصحاب هذه النظريات.

وفى هذه الفترة ذاتها ظهرت فى هذه المجالات كتب وأبحاث ومقالات لأقلام عربية كان أصحابها قد حققوا شهرة خاصة فى الصحف انبهر بها الأغمار الذين فتنوا بإنجازات الحضارة الغربية وسطوتها على شعوب كثيرة فى قارتى آسيا وأفريقيا، وهما القارتان اللتان يقع فيهما بلدان العالم الإسلامى، فنهض فريد وجدى رحمه الله يكتب البحوث والمقالات ليرد بها عليهم، فكان يفند آراءهم وأفكارهم، ويرد عليها فى أمانة علمية وإحاطة

شاملة بموضوعه.

وفى الوقت نفسه كتب مقالات موجهة للخاصة والعامة من قراء مجلة الأزهر، دون ما إشارة إلى أنه يرد على أحد بعينه، من خلال مقالات الثمانى عشرة سنة التى رأس فيها تحرير مجلة الأزهر الغراء، أظهر فيها عظمة الإسلام، وبيان فضله على العالمين، وحاجة البشر إليه لكى يصلح من أحوالهم، ولقد لاقت مقالاته وبحوثه قبولا لدى القراء، فقد كان أسلوبها أدبيا سلسا سائغا لكل القراء على اختلاف ثقافاتهم، كما كان مضمونها شمولى فى معارفه الكونية، والاجتماعية، والتاريخية، فضلا عن المعرفة الدينية التى تبين حقيقة الإسلام، وتسجل عظمته ورفعته، وتوافقه مع الفطرة السليمة والعقل السديد.

فى تقديم الدكتور محمد رجب البيومى للكتاب وكاتبه الأستاذ محمد فريد وجدى: قال مما قال: «كان مؤلف الكتاب صاحب رسالة مهمة، كرس فى سبيلها بذل قوته وماله، فقد وضع أمامه هدف الدفاع عن الإسلام، مما تناوله أعداؤه بالافتراء والتشكيك، وجهلة أنصاره، وكان سلاحه فى ذلك عقل ثاقب وعلم غزير، وعدة ناجحة، وإخلاص ملهم، واعتزاز بأهمية رسالته، وفى هذا الدفاع سجل عظمة الإسلام ورفعته، وأنه كان الدافع إلى رقى البشرية وإصلاح الكون».

ومجمل القول فإن الأستاذ محمد فريد وجدى أراد أن يطرح على الناس كافة ما أقامه الإسلام من مدنية قامت أركانها على قواعد من الدين الذى ألف بين معطيات الفطرة الإنسانية السليمة، ومعطيات العقل من النظر والعلم والفنون، وأعطى كل ما للقلب للقلب، وكل ما للعقل للعقل فى توحد لم تألفه المدنيات السابقة على الإسلام.

أخذ فريد وجدى على نفسه أن يبين كيف أن مدنية الإسلام قامت على أسس من التعاليم والمثل التى ضمنت لها أن تكون أطول الحضارات الإنسانية عمرا وأبلغها أثرا فى المدنيات الإنسانية الحديثة، ولاسيما فى الجانب المادى منها الذى لا يضاد الدين، ويقوم على الوقائع المادية الملموسة.

وكان على الأستاذ محمد فريد وجدى أن يقدم أسماء بارزة فى العلم المدنى لبعض علماء المسلمين ليدلل بالدليل القطعى اليقينى على فضل علماء المسلمين فى مجال العلوم الطبيعية والتطبيقية على العالمين، وكيف أنهم بلغوا ما بلغوا فى تقدم الفنون اعتمادا على قيم دينية كانت تزكى فيهم القيم العملية مثل محمد بن موسى الخوارزمى الذى ابتكر علم «الجبر والمقابلة» ووضع كثيرا من نظريات علم الحساب، وجابر بن حيان الذى ابتكر علم الكيمياء، والحسن بن الهيثم الذى ابتكر نظريات الضوء والبصريات، والرازى الذى بلغ علم الطب على يديه درجة عليا من الرقى، وتوصل إلى التفرقة بين مرضى: الجديرى والحصبة، وابن سينا مؤلف كتاب القانون فى الطب والصيدلة، الذى كان مرجعا

للعلماء المتخصصين فى أوروبا حتى القرن السابع عشر الميلادى.

ولم يفت الأستاذ محمد فريد وجدى أن يبرهن على أن تقدم العلم والمدنية الإسلامية يغاير أى تقدم علمى فى المدنيات السابقة عليه، واللاحقة به، فبين أن الإسلام آخى بين معطيات القلب والعقل، وكان فى كل مساراته الحضارية والمادية ينشد رضا خالق الأكوان سبحانه وتعالى، وكان العالم المسلم عندما يصل إلى تحقيق نتيجة علمية نافعة فى معضلة علمية تصدى لها، يعلن أنه فعل ما فعل مرضاة لله تعالى، ولمنفعة الناس، مثال ذلك ما ذكره محمد بن موسى الخوارزمى فى مقدمة كتاب «الجبر والمقابلة» فقال: لما رأيت مسائل استشكلت على علماء الفروض «المواريث» ألفت هذا الكتاب ليساعدهم على حل ما استشكل عليهم تقربا لله تعالى، إذ إن مقصوده من العلم رضا الله تعالى. ثم منفعة الناس.

كان ذلك هو هدف المدنية الإسلامية، أما هدف غيرها من المدنيات السابقة واللاحقة، فهو الكسب المادى، وتحقيق المصالح الخاصة، ولو تم ذلك وقام على جماجم الجماعات الأخرى التى تخالفهم فى العقيدة والعرق واللغة.

من هنا أراد الأستاذ محمد فريد وجدى أن ينظر المسلمون المعاصرون فى أنفسهم، وفى الأكوان من حولهم، مع الإيقان بأنهم أصحاب رسالة دينية قلبية عقلية علمية عملية، وأن تكون هذه النظرة هى أساس الاعتزاز بتاريخهم الدينى والمدنى وعلى أساس ما بناه الإسلام فى قلوبهم وعقولهم وضمائرهم غير مقيدين بما يبثه أعداء الإسلام من المستشرقين المحترفين، ومن والاهم من متفرنجة المسلمين.

إن الله تعالى خلق الإنسان ليكون خليفته فى الأرض، قال تعالى:

﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا ﴾

(البقرة: ٣٦)

أى فى الأرض لاستعمارها وتحقيق خلافة الله فيها، وتطبيق شرع الله تعالى، وكان آدم أبو البشر وزوجه ثم ذريتهما من بعدهما هم المقصودين بالهبوط فى الأرض ليحققوا مشيئة الله وإرادته، ومن أجل هذه الخلافة زود الله عزوجل آدم بأنواع العلم الذى يكفل له أن يقيم حياة شرعية ومدنية على الأرض، قال عز من قائل

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾

(البقرة: ٣١)

ولفظ ﴿ كُلَّهَا ﴾ للبيان والإحاطة والشمول لما يعرف لوقته، وما يعرف لما تقتضيه الحال.

من هنا دعا الأستاذ محمد فريد وجدى إلى ضرورة التنويه بفضائل الإسلام فى افتتاحيات ستة وعشرين جزءا من أجزاء مجلة الأزهر الشريف الغراء، بيّن فيها مهمة الإسلام فى العالم، وما يجب على المسلمين من حق رعاية لدينهم، وأن يوازنوا بين مدنية الإسلام التى تدفع العالم فى طريق التقدم، وبين المدنيات الأخرى التى يقودها الطغاة

المحربون، التى حققت تقدما فى جانب الماديات فقط، أدى إلى الحروب والدمار.

دأبت شعوب قبل الإسلام وبعده على التناحر من أجل تحقيق مصالح مادية دون أن تقدر مغبة أعمالها فى إفناء الشعوب، أما الإسلام فقد انفرد وحده بتعاليم ومثل عليا جاء بها التنزيل الحكيم ونفذها محمد ﷺ الذى قرب بين قبائل العرب المتناحرين، وجمعهم على الحق والعدل ونشر بهم الفضائل التى تبلغ البشر إلى الكمال الإنسانى، ورفع ﷺ علم الألفة بين الناس، ونادى بأن لمدنية الإسلام أساسا مستضاء بنور الوحى والعقل، دون ما تفرقة بين الناس لقوله تعالى:

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾

(الحجرات: ١٣)

لأن الله تعالى أراد أن تكون الأمة الإسلامية هى الأمة الداعية إلى الخير لقوله تعالى:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

(آل عمران: ١٠٤)

بهذه الروح الطيبة وبقيمها النبيلة دخل الناس فى الإسلام، وامتدت رقعة أرض الإسلام فى القارات فى أقل من ثمانين سنة، وكان الداخلون فيه لا يشعرون بأنهم أقل من العرب الفاتحين، إذ إن العرب الفاتحين لم يثيروا نعرات عرقية وقومية تثير الأحقاد، بل نشروا الإسلام على مبادئ الحق والعدل المطلق والمساواة بين كل المسلمين وإن اختلفت أعراقهم وألوانهم، ومن ثم فقد شارك الداخلون فى الإسلام من غير العرب فى بناء مدنية الإسلام فكان منهم علماء مدنيون، وفقهاء شرعيون، وكان رسول الله ﷺ قد وضع الأساس الذى اتبعه المسلمون، إذ ساوى بين على بن أبى طالب الهاشمى ابن عم رسول الله وبلال الحبشى الأسود، وصهيب الرومى، وسلمان الفارسى (رضى الله عنهم) وقال لجميع المسلمين: «لا فضل لعربى على أعجمى، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى» وعلى هذه القاعدة التى أقامها رسول الله ﷺ شاركت كل شعوب المسلمين فى إقامة مدنية الإسلام، تلك المدنية التى انفردت بين مدنيات التاريخ القديم والحديث بأن شارك فى رفعتها كل الأجناس التى دانت بالإسلام، فكان التشريعيون عربا وغير عرب، فكان أبو حنيفة فارسيا وكان مالك والشافعى وابن حنبل من العرب، وكان أئمة اللغة عربا كالخليل بن أحمد، وكان منهم الفارسى كسيبويه، والرومى كابن جنى.

وكان من العلماء: الفارابى، وابن سينا، والبيرونى، والخوارزمى من ترك وأفغان، صاغ كل هؤلاء مدنية الإسلام صياغة متآلفة متجانسة أحسن ما يكون التجانس والتآلف وحرص كل هؤلاء على الالتزام بفروض الدين فى العقائد والعبادات والمعاملات، لأن كل مسلم كان يجعل من نفسه رقيبا عليها

فيما يأخذ وفيما يدع، مع مؤاخاة لعاطفة القلب ومدارك العقل والنظر، حتى لا يندفع العقل الطموح فى غيبة من القلب الرقيق فيدمر ولا يعمر.

إن الإسلام جعل القلب رقيبا على العقل، فلا يجنح عن الطريق المستقيم، ثم إنه حرص على استغلال العقل ونموه الطبيعى فى مجالات المعرفة والنظر والعلم والعمل، واستخدام كل قوى العقل فى الاستدلال والاستنتاج لقوله تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

(فصلت: ٥٣)

كذلك فإن الحق كان وجه الإسلام فى التشريع، لأن الحق هو العدل الخالص الذى أراد الله تعالى أن يحكم به عباده، فدعا الإسلام إلى التزام الصراط المستقيم حتى فى حالات النصر على الأعداء فى الحروب، فلا يمثل مجاهد مسلم بقتيل أو يذل أسيرا، كما كانت تفعل جيوش الرومان والمغول وغيرهم من الشعوب التى كانت تفاخر بإبادة الشعوب المهزومة، وكما يفعل الغرب الآن فى حروب الإبادة والتطهير العرقى فى أفغانستان والعراق والبوسنة، وكما تفعل محارق الصهيونية فى الفلسطينيين.

لقد قام الإسلام على قاعدة إصلاح عامة الناس للكافة، فبلغ بالبشرية أعلى درجات الكمال.

ويقارن الأستاذ محمد فريد وجدى بين مدنية الإسلام فى معاملة الذين غلبوا ثم دخلوا فى دين الله عن رضا ورغبة، بما لاقوه من حسن المعاملة، وبين ما فعلته جيوش المدنيات الأخرى قديما، وما تفعله حديثا وبين كيف أن المدنيات الأوروبية تستنهض همم أبنائها لإبادة غيرهم، دون ما وازع دينى أو أخلاقى، لأنها لم تقم فى الأصل على أسس من الدين، ولأنهم يفصلون بين القيم الدينية، وما أباحوه لأنفسهم من عمل الموبقات المهلكات، وتجاهلوا حقيقة المدنية التى تتمسك بأوامر الدين ونواهيه، وبسنن الخلق الرفيع.

وينتهى فريد وجدى إلى أن الإسلام وضع القواعد لما يجب أن يكون عليه الاجتماع البشرى الذى يؤهل الإنسان لما خلق له، وهو خلافة الله فى الأرض، لإقامة تشريع دينه، وصيانة تعاليمه ومثله العليا، كما أراد فريد وجدى أن يؤكد أن الأمة الإسلامية منتدبة لهذه الخلافة، وهذا لا يجرح كبرياء الأمم الأخرى، بل يدعوهم إلى الإسهام فى تحقيق دعوة خلافة الله فى الأرض، بإقامة العدل المطلق وإحقاق الحق، لكى تعلو كلمة الله فى الأرض، ويسود الحق سيادة تسقط الباطل وتزيل الفروق بين الناس، وعلى هذا يدعو المؤلف المسلمين إلى بيان هذه الحقائق، وأن يقوموا بدعوة إلى دينهم مؤسسة على هذه الأصول.

ملامح الشخصية العربية الإسلامية المعاصرة

١

للأستاذ الدكتور/ مصطفى رجب

القارئ المدقق لتاريخ الأمة الإسلامية يستطيع أن يحكم بسهولة على الحقبة التي يعيشها المسلمون حالياً، بأنها حقبة تتميز بالضعف المذهل، والتخاذل المريب، والهوان الذي قلما مرت به الأمة على مدى تاريخها الطويل. فقد ذاقت الأمة مرارات الهزيمة العسكرية مراراً، ولكنها لم تبلغ الحد الذي بلغته الآن من الشعور بالضياع والإحباط والقهر باستثناء مرات قليلة معروفة في تاريخها. وإذا كان جوهر الإسلام - ممثلاً في نصوصه وثوابته العقائدية والتشريعية - لا يتغير وفقاً لظروف انتصار أو هزيمة، فإن الشيء الذي تغير لا يتعدى أولئك المسلمين الذين يتبعون هذا الدين فيأخذون منه ويتركون وفق أهوائهم، لا وفق ما أراد الله تعالى منها. وهم في أخذهم وتركهم وفق أهوائهم يتأولون النصوص ويطوعونها ليتخذوا منها ساتراً لرغباتهم، وغطاء لنزعاتهم، فإذا ردهم أحد إلى الحق رموه بالمروق والشذوذ والإرهاب وإثارة الفتن،

ولنستمع إلى القرآن الكريم وهو يشخص لنا حالة فئة من الناس فيقول تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

(النساء ٦٠- ٦٥)

ولنسأل أنفسنا الآن: هل لهذه الفئة وجود في أمة المسلمين اليوم؟، وكم يبلغ عددهم أو نسبتهم؟، ومن المسئول - الآن - عن إصلاح حالهم بأن يعظهم، ويقول لهم في أنفسهم قولاً بليغاً؟ ثم ما أثر لغة هذه الآيات: (يريدون - يريد الشيطان - إن أردنا - في أنفسهم) في بناء دلالاتها التشريعية والتربوية؟

إن تكرار تعبير (في أنفسهم) مرة عند الأمر بإصلاح أحوالهم، ومرة عند التعقيب على إظهارهم قبول حكم الشرع، فيه دلالة على أن الإسلام يولي النفس الإنسانية اهتماماً كبيراً، ويراها - في جميع أحوالها - مناط المسئولية، ومصدر السلوك، والأولى بالإصلاح.

وهل الشخصية الإسلامية - فردية كانت أو جماعية - إلا النفس المسلمة أو مجموعة النفوس؟!، لذلك يحسن بنا، ونحن في سبيل تناول الشخصية الإسلامية أن نمهد لهذا التناول: لا بالإغراق في تفاصيل تعريفات لا طائل من ورائها، ولا بالإسراف في تحديد مفاهيم كلمة (أبعاد) التي وردت في العنوان. فذلك ترف أو شرف لا حاجة إليه فيما نعتقد. ولندخل مباشرة إلى «مربط الفرس» كما يقول العرب.

وذلك أن الأمة الإسلامية لا تنطبق عليها في عصرنا هذا حالة الروم حين هزموا اليونان وانتصروا عليهم واحتلوا أثينا، لكن ثقافة اليونان وعلمهم وحضارتهم بهرت الروم، فانكبوا عليها نقلاً وهضماً وترجمة وتقليداً وتأثراً حتى صارت آداب روما وفنونها وفلسفتها ونقدها صورة شوهاء من آداب الإغريق وفنونهم وفلسفتهم ونقدهم.

ولم تتحقق فيهم نظرية ابن خلدون الشهيرة «إن المغلوب مولع دائماً بتقليد الغالب!». فقد قلد الرومان المنتصرون الإغريق المهزومين وعاشوا قروناً ثلاثة أو أكثر وهم على هذه الحال.

والأمة الإسلامية الآن مولعة بتقليد الغرب، ولكنها لم تنتصر عليه انتصاراً عسكرياً كما فعلت الروم، بل انهزمت أمامه هزائم عسكرية متتالية في كل صقع من أصقاعها حين خضعت للاستعمار سنوات طوال حتى إذا خرج وخلفها: أمة مهزومة من الداخل، أمة تشعر بالهوان والدونية والانسحاق والتبعية وانعدام الوزن، ونجح الاستعمار في أن يصنع له في بلدان المسلمين صنائع من رجال خونة تولوا تكملة رسالة المستعمرين في الإذلال والقهر النفسي للأمة، ووضع هؤلاء الخونة على رأس مؤسسات الدول الإسلامية في مجالين رؤى أنهما من أخطر المجالات وهما: الإعلام والتعليم، لأنهما المجالان اللذان يوكل إليهما أمر النشء من جهة، وأمر الرأي العام من جهة ثانية.

وقد نهضت هاتان المؤسستان (الإعلام والتعليم) بما أنيط بهما شر النهوض،

فباعدت المؤسسات التعليمية بين الشباب المسلم وبين دينه على خير ما يرجو المستعمر، وابتدعت لنفسها ديمقراطية شديدة الشذوذ، فهى تفرض على المتعلم زيا وطعاما وشرابا ونظاما للوقوف والجلوس والكلام والسكوت والحركة، على نحو صارم لا مجال فيه للحرية أو التعبير عن الرأى.

وهى حين ترسم الرسوم، وتمنهج المناهج، وتحدد طرائق التدريس وأوقاته، وحين تحدد الغياب والحضور، والنجاح والرسوب، وما يلزم للنجاح من درجات، وما يلزم للمتعثرين من إصلاح، لا تعود فى ذلك كله إلى المعلم ولا إلى المتعلم إلا إذا قيل لها: «عودى! فتعود صاغرة مكرهة مفرغة لهذه العودة من كل مضمون!!، ثم هى تسعى سعيا حثيثا إلى التبرؤ من كل ما له صلة صريحة بالإسلام.

وفى الجهة الثانية، وعلى التوازى مع مؤسسات التعليم، تسعى المؤسسات الإعلامية إلى تغريب ثقافة المجتمع، فهى تبث من الأفلام ما تفرق به بين المرء وزوجه، وبين الأب وأبيه، والأخ وأخيه، وتزين الأفلام من الشر ما قبحه الإسلام، وتهيئ من الانحراف ما يكون مدعاة للتقليد. وتهون من جرائم الزنا والقذف والغيبة والقتل والإدمان والرشوة والاختلاس، حتى صارت كل تلك الجرائم مما لا يقشعر له بدن مشاهد، ولا تهتز له نفس سامع، فشاعت الفواحش وذاعت.

ولم تقف مؤسسات الإعلام عند حدود الأفلام والمسرحيات والمسلسلات، بل إن الأغانى جميعا صارت وسائل لتيسير تواصل العشاق، فكأن مهمتها أن تلقنهم ما يقول بعضهم إلى بعض إذا خلوا أو إذا التقوا. وإضافة إلى ذلك توسع الإعلام فى نشر فنون الرسم الخليع، والرقص تحت مسمى الفن.

وقد نجم عن هذين الطوفانين المنهمرين على الأمة إفسادا أن صار الدين غريبا كأشد ما يكون غربة فى حياة الناس وصار الذى يقول:

﴿ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ ﴾

(النساء: ٦١)

يبدو وكأنه مجنون يخاطب أسوياء، أو كأنه سوى يخاطب مجانين وهو فى كلتا الحالتين: غريب!!

ولم يقف المستعمر الراحل عند حدود الإعلام والتعليم، وإن كان بهما أشد عناية مما سواهما، بل اصطنعه عملاء يفسدون فى الاقتصاد، والقانون، والاجتماع، والآثار، والتاريخ، والسياسة، فصارت مناحى الحياة كافة تعزف نغما واحدا هو: الولع بالغرب واتخاذه أسوة بكل ما فيه من خير وشر.

ووقف علماء المسلمين مما يجرى موقف الحائر المحنق المغيظ، وانقسموا إلى ثلاث فرق: فرقة أراحت نفسها بموقف الرفض التام للعصر وكل ما فيه من منكرات مستحدثة، وغرقت فى تراثها فاكتفت به. وفرقة قلبت ظهر المجن لدينها وتراثها وادعت التحضر فطوعت النصوص والأحكام لتوافق هوى المستعمرين وأذنابهم، فوصفت بالاستنارة على حين وصفت سابقتها بالجمود والتحجر. وفرقة أرادت التوسط فقالت: نأخذ وندع، ونقبل ونرفض وظلت تكرر ذلك دون أن تبين للناس ما يأخذون وما يتركون، فكان لها من حسن النية ستار غطى عجزها وقصورها.

وإذا أردنا على ذلك دليلا فلننظر فى تراثنا العلمى المعاصر مما ندرسه فى جامعاتنا: أليس كله ذا أصول غربية مادية؟، وهل قامت نظريات علم النفس التى يدرسها طلابنا فى معاهد وكليات التربية على شىء من تراث العرب والمربين المسلمين؟، أم تقوم جميعا على تجارب أجراها علماء الغرب على الكلاب والقطط والفئران والخيل والحمير والبغال، ومنها خرجوا بنظريات التعلم التى يراد لنا أن نطبقها على متعلمين مسلمين؟، وهل نجد للاقتصاد المعاصر جذورا إسلامية تدرس فى جامعاتنا؟، أم نجد لها جذورا فيما قال به «ماركس» من صراع طبقى؟ وما قال به «مالتوس» من خرافات سكانية؟، وهل يدرس طلاب جامعاتنا فى الاجتماع إلا ما قال به «دوركيم، وماكس فيبر، وسان سيمون وأضرابهم»؟ وجميعهم من الماديين الذين يفسرون الظواهر الاجتماعية تفسيرا ماديا بحتا؟!

أظن أن ما قدمته كاف لإبراز واقع الشخصية الإسلامية المعاصرة، ويمكن إجماله فى كلام موجز خلاصته: «أن هذه الشخصية المسلمة المعاصرة تعانى كثيرا من التغييب والتغريب، وقد أسهمت فى ذلك مؤسسات رسمية وغير رسمية، فأنتجت على مدى سنوات طوال أنماطا من الشخصية تعانى من هشاشة الالتزام الخلقى، وضعف الانتماء الدينى، والإحباط، والقهر، والشعور باليأس من النصر، والإحساس بالهوان، والضياع فى عصر يتسم بالقوة، وهى لا تملك من عناصر تلك القوة شيئا تعتصم به».



الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده، سيدنا ونبينا محمد بن عبدالله الرحمة المهداة، والنعمة المسداة. صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن سار على منوال شريعته واتبع منهاج دينه إلى يوم الدين..

نعم للسلام والتعايش بين الأديان لا للكراهية والصراع

للأستاذ الدكتور محمد الشحات الجندى
الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية

بالقدر الذى تزايد فيه الاتجاه للانفتاح بين أتباع الأديان والثقافات والحضارات فى العالم المعاصر مقارنة بحالة الانغلاق والشكوك وسوء الظنون التى سادت بين أتباع الأديان عبر فترة طويلة من الأزمان الماضية قبل حلول موجات المد والجزر فى العصر الراهن، أطلت النزاعات برأسها بين أصحاب الأديان، ونشبت من جديد دعوات البغضاء والصراع نقول على هذا القدر من حالة الانفتاح التى أشاعت أجواء من التفاؤل، عادت روح الكراهية والعداء مرة أخرى، وسادت حالة من المواجهات والصدام بين أتباع الأديان الإبراهيمية الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام، وانطلق المتطرفون فى هذه الأديان إلى تأجيج الصدام، وإشعال الصراع فى أنحاء عديدة، وعلى جبهات كانت بطبيعتها بمنأى عن الصراع، بل كانت نموذجا يحتذى فى إشاعة العلاقات الطيبة، وروح الود والمسالمة، واحتضان الناس جميعا.

ومن يتأمل مجريات الأحداث فى العقود الأخيرة وخاصة فى التطورات التى طرأت على العلاقات بين الإسلام والغرب يهوله ذلك الزخم من تفجر أسباب العداء، وحملات التشكيك، ودعوات التعصب وحالة الاستعلاء والتخندق لأيدولوجية العولمة بمفهوم الغرب الآخر، وهى وغيرها نماذج صارخة من العودة إلى أيدولوجية جاهلية يأباها الإسلام، والمسيحية واليهودية، فى معينها الصافى ومبادئها السامية.

لكن الغريب فى الأمر ومصدر الدهشة هو تراجع، وعدم قدرة ملاحقة قادة الأديان وأنصار الحوار فيها لذلك الكم الهائل من الحملات والإساءات بين مثيرى هذا الشغب، ومؤججى نيران الفتن من هنا وهناك، وفشل التوصل إلى حلول عملية، وأساليب قابلة للتنفيذ والتطبيق لاحتواء هذه الخلافات، ونزع فتيل هذه المواجهات، ووأد الأسباب والعوامل المؤدية إليها.

لقد تنوعت أشكال المواجهة، واتخذت صورا شتى، حتى يبدو للمتابع لها أن العالم المعاصر فى عصر المدنية والانفتاح يقف على أعتاب حروب دينية توشك أن تنفجر فى وجه دعاة الأديان وأنصار السلام، بين الإسلام والمسيحية من جانب وبين الإسلام واليهودية من جانب آخر، ليعيد جاهلية بغيضة ومحاولات معيبة لفرض دين على دين آخر، أو لإعلاء حضارة ونفى الأخرى، وما إلى ذلك.

وليس خفيا ولا مجالا للإنكار كم أصاب الإسلام رموزه ومقدساته وعقيدته وكذلك المسلمين من ألوان التشوهات فى السنوات الأخيرة بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، وما تلاها من التعبئة والفزع والاستنفار ضد الدين الإسلامى وطعن فى قلب عقيدته وشريعته، ونسبة الإرهاب وعدم التعايش مع الآخر، وكراهية المدنية الغربية، واستدعاء نموذج الدولة الدينية، والإساءة المتكررة ضد رسول الإسلام محمد ﷺ فى الرسوم الكاريكاتورية وكذلك الإساءة إلى القرآن بنعوت وأوصاف تمثل العدائية الفجة، ومحو دعوته الناصعة للسلام والأمان والسماحة والتعايش بين المختلفين وآخرها -كما نعلم- دعوة أحد رجال الدين القس جونز لحرق القرآن الكريم، وما شهدته بعض عواصم الغرب من الاعتداءات بالقتل فى ساحة العدالة «مروة الشربينى» وبعض الأئمة والدعاة من الأزهر فى لندن وغيرها.

ولعل ذلك التطور المحزن يلقى بظلال من الكراهية والاستفزاز بين أتباع الأديان ويكرس ظاهرة الإسلامو فوبيا «الخوف من الإسلام» ويبرر لتنظيم القاعدة المرفوض الذى يمثل فكر الخوارج الجدد مزاعمه فى إشعال الحرب ضد الغرب واستثارة الجهال نحو اعتناق فكره المشئوم.

وقد أفرز هذا الوضع المأسوى تداعيات مدمرة تأباها نصوص الأديان الثلاثة وتدينها بشدة لما أدت إليه من وصم الأديان وبخاصة الإسلام من العنف والفزع والرعب مع الآخر، وسرى هذا

الفكر للعامة والناس فى الشارع وداخل البيوت الذين كانوا فى مأمن من هذا التشويش والتشكيك فى الدين وهو أمر بالغ الخطورة لأنه يظهر الدين لدى الجماهير بأنه دعوة إلى الخلاف والشقاق والصراع ونشر الحروب هنا وهناك.

هذا الأمر الجلل الذى يقتحم على الناس حياتهم يفجر الصدامات بين الأديان الإبراهيمية ويحولها إلى أيدولوجية للكراهية والرفض بين الناس مما ينذر بعواقب وخيمة ومستقبل بائس، إن لم يتداركه قادة الدين والفكر والساسة والمسئولين والمنظمات المدنية والإعلام وكل المعنيين بسلام واستقرار هذا العالم الذى نعيش فيه جميعا.

وليس اطلاع كل صاحب دعوة دينية، أو فكر عقلانى أو خطة سياسية أو برامج جماهيرية للتوعية عبر كل التنظيمات والمؤسسات، وهى متعددة وتملك إمكانيات هائلة ورؤى ثاقبة لتغيير هذه الصورة الظالمة عن الأديان، مسألة ترفيهية أو كمالية، بل إنها ضرورة حتمية يتعين الالتفاف حولها وتضافر الجهود من أجلها وتعبئة وحشد الرأى العام تجاهها لأنه بغير ذلك يوشك أن تمتد الصراعات على مستويات مختلفة وعلى جميع الجبهات.

بعض الحلول للأزمة الراهنة

هذا الوضع المأزوم بين أتباع الأديان فى الشمال والجنوب وما تبعه من مآزق وأغاليط على المستوى الدولى والإقليمى والمحلى، بات خطرا داهما على السلام العالمى والوطنى، يفرض مجابهته وحصاره وإجهاض مخططاته مما يتعين رسم وسائل عملية تتسم بالإيجابية والفاعلية نورد بعضها فى الأمور الآتية:

١- أن يتحمل قادة الأديان مسئولياتهم فى توعية وتثقيف أبناء الدين بمبادئ الدين الصحيحة التى تدين بالإيمان بالله تعالى وبالسلام بين البشر فإن الأديان الإبراهيمية إنما جاءت بالتعايش والسلام بين أتباع اليهودية والمسيحية والإسلام بصفة خاصة ومع الناس بصفة عامة.. ففى القرآن الكريم جاء قوله تعالى:

﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾

(البقرة:٨٣)

وقوله:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾

(البقرة:٢٠٨)

وجاء فى المسيحية -فى الإنجيل-: «الله محبة وعلى الأرض السلام».

فهذه التعاليم والمبادئ المقدسة وما على شاكلتها إذا أمكن لزعماء الأديان ترسيخها فى أذهان الأتباع كفيلة بنشر المودة والتعايش بين المسلمين والمسيحيين واليهود.

٢- نبذ دعاوى الكراهية والتمييز

والعنف والصراع، ووأد كل المخططات الداعية إليها، من غرس هذا الفكر لدى الناشئة والشباب والمرأة داخل دور العبادة والمؤسسات الدينية واستبدال معاول الهدم تلك بقيم المودة والتكافؤ والحوار والأمان.

ومما يحتم سرعة تجفيف منابع هذا الفكر المغلوط عن الأديان، امتداد لهيب هذه الفتن والصرعات إلى أصحاب الوطن الواحد، والدعوة إلى الشقاق واختراق الجبهة الداخلية والوحدة الوطنية بين شعوب و دول كانت مثالا يحتذى فى التماسك والتلاحم بين مواطنيها كما وقع فى مصر أخيرا على سبيل المثال، وغيرها من بعض دول وشعوب المنطقة العربية والأفريقية وبروز فكر الأقليات والطوائف الدينية والإثنية والعرقية.. إلخ.

هذه الدعاوى التى تهدد وحدة الأوطان وتثير الفرقة والانقسام بين أصحاب النسيج المجتمعى الواحد وتثير الحروب الأهلية والاقتتال بين جماعات ومسميات وفرقاء لم يكن لها وجود فى السابق.

٣- تكريس الإيمان بخصوصية كل دين، الإسلام، المسيحية، اليهودية وأن لكل منها شرعتها ومنهاجها فى الإيمان والحياة:

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾

(المائدة:٤٨)

وعدم التعرض لإيمان كل مؤمن بدينه أو الخوض فى عقائده وتشريعاته وعدم اختراق هذه الخصوصية ففكر المسامحة حول الخصوصية الدينية مرفوض وغير مشروع.

الالتقاء على المبادئ والقواسم المشتركة بين الأديان وهى متعددة وكثيرة كالسلام والتعايش والتسامح والمودة والصدق والتعاون وغيرها على أساس أنها تنبع جميعا من مشكاة واحدة من عند الله تعالى:

﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾

(النساء:٧٨)

الكف عن التشكيك ووقف صور الإساءة إلى الأديان على أية صورة ومحو تلك الأشكال السيئة عن عقائد ورموز ومقدسات الأديان والعمل على إحلال القيم الروحية والطهارة والتفاؤل والشفافية وغرس الإشراقات النفسية والوجدانية النابعة من الإيمان بالله والرسل فى نفوس المؤمنين بالأديان الإبراهيمية.

التعاون البناء بين قادة الأديان السماوية الثلاثة لمواجهة فكر الإلحاد والمادية وعبادة العقل التى تزحف بشدة ضد الأديان الثلاثة وتنشر أيدولوجيتها السامة من خلال وسائط تقنية وتكنولوجية غاية فى التأثير وإحداث البلبلة بين الأوساط الجماهيرية المختلفة

مؤتمر دولى تعقده رابطة الجامعات الإسلامية فى رحاب جامعة دار السلام بإندونيسيا لبحث تفعيل دور الجامعات الإسلامية لتنمية التعاون فى مجالات البحث العلمى

للأستاذ / عاطف مصطفى

عقدت رابطة الجامعات الإسلامية مؤتمرا دوليا فى رحاب جامعة دار السلام كونتور الإسلامية بإندونيسيا بعنوان «الجامعات الإسلامية وبناء التقاليد العلمية مع الجامعات الآسيوية» فى الفترة من ٩-١١ يناير ٢٠١١م الموافق ٤-٦ صفر ١٤٣٢هـ برعاية رئيس الجمهورية الإندونيسية وشارك فى المؤتمر علماء وباحثون من مصر والسعودية وليبيا واليمن وإندونيسيا والصين والهند وباكستان وماليزيا وبروندى.

قال الدكتور جعفر عبدالسلام الأمين العام للرابطة حول فكرة عقد هذا المؤتمر المهم: إن الإسلام قد حث على طلب العلم فى أى مكان فى العالم وإن كان فى أماكن بعيدة مثل الصين كما قال النبى ﷺ: «اطلبوا العلم ولو فى الصين»[1] ولم يكن العلم المعروف فى الصين فى ذاك الوقت تعليما دينيا وإنما كان يعد وقتها علما للحياة ولتقدم البشرية.

وهذا المؤتمر يستهدف بحث إعادة صياغة الجامعات الإسلامية وهيكلتها وتفعيل دورها فى بناء الحضارة الإسلامية ومواجهة تحديات العولمة ووضع الخطوات الرئيسية لتنمية التعاون بين الجامعات الإسلامية والجامعات الشرقية، فى مجال البحوث المشتركة وتبادل نتائج البحث العلمى وتبادل أعضاء هيئة التدريس والطلاب والقيادات الجامعية.

وقد شاركت فى المؤتمر حوالى ٥٠ جامعة إسلامية من كل دول العالم الإسلامى وشاركت من مصر ثلاث جامعات فى مقدمتها جامعة الأزهر والتى مثلها الأستاذ الدكتور إسماعيل عبدالنبى شاهين نائب رئيس الجامعة وجامعة الزقازيق، وجامعة أسيوط، وتضمن المؤتمر أربعة محاور:

الأول: ويتضمن أصول الفكر الإسلامى والفكر الشرقى وعوامل التقارب والارتباط بينها وإبراز القيم المشتركة والتاريخ المشترك للمجتمعات الإسلامية والمجتمعات الشرقية وأهم المدارس الفلسفية المؤثرة فى النهضة الحديثة فى الشرق وأيضا أهم التجارب الإسلامية الحديثة التى دفعت العالم الإسلامى إلى التقدم.

أما المحور الثانى: فيتناول وسائل تهيئة العلاقات الاجتماعية والثقافية لإيجاد التقارب بين المجتمعات الإسلامية والمجتمعات الشرقية من خلال دور الجامعات والمؤسسات العلمية ومنظمات المجتمع المدنى والمؤسسات الاقتصادية ووسائل الإعلام والمؤسسات التربوية.

ويتضمن المحور الثالث: رؤية منهجية لوسائل وطرق تنمية التعاون العلمى بين الجامعات الإسلامية والجامعات الشرقية من خلال الاستفادة من تجارب التقدم بين الجامعات الإسلامية والجامعات الشرقية وتيسير النشر العلمى المشترك وتبادل الطلاب والباحثين والمفكرين وعمل اتفاقات ثنائية بين الطرفين وتفعيلها.

أما المحور الرابع: والذى تناوله المؤتمر فقد كان عبارة عن حلقة نقاشية حول آليات ووسائل التعاون المشترك بين الجامعات الإسلامية ومن بينها: عمل اتفاقيات ثنائية بين الجامعات الإسلامية والجامعات الشرقية تسمح بتنظيم التبادل الفكرى والبحوث المشتركة والنشر وكذلك تبادل العلماء والمفكرين بين الجامعات والقيام بالنشر المشترك والتواصل عبر الوسائل التكنولوجية الحديثة.

وصل عدد البحوث المقدمة إلى المؤتمر ما يقرب من عشرين بحثا كتبت باللغة العربية وحوالى خمسة عشر بحثا باللغة الإنجليزية كما قدمت خلال جلسات المؤتمر التسع أوراق عمل لملفات نقاشية متخصصة.

الدور الحضارى لجامعة الأزهر

وكان لمشاركة الدكتور إسماعيل شاهين نائب رئيس جامعة الأزهر أثر طيب فى فعاليات المؤتمر ابتداء من الجلسة الافتتاحية حيث ألقى كلمة الرابطة وكذلك ساهم بقدر كبير فى صياغة توصيات المؤتمر فضلا عن بحثه الذى تقدم به للمؤتمر وعنوانه «الدور الحضارى لجامعة الأزهر ومدى التواصل بينها وبين الجامعات الإسلامية والشرقية عبر التاريخ»، وكان من بين ما تناوله فى بحثه القيم، الدور الحضارى لجامعة الأزهر فى المجال العلمى تجاه الجامعات الإسلامية والشرقية حيث أشار إلى أن الاهتمام الأكبر لجامعة الأزهر - وخاصة فى الكليات الأصلية: اللغة العربية والشريعة وأصول الدين- ينصب على دراسة كتاب الله وسنة رسوله وعلوم الشريعة واللغة وآدابها والعقيدة والتفسير.. إلخ.

ومن ثم فهى تعنى فى المقام الأول بدراسة كتاب الله وتفاسيره وعلومه وسنة رسوله ﷺ وما تضمنت من رسم معالم الطريق للحياة الإنسانية الفاضلة وما أوصت به من بحوث ودراسات ولدينا سير الخلفاء الراشدين وحظهم وتوجيهاتهم للولاة

(١) كنز العمال ٢٨٦٩٧.

والقضاة في الأقاليم والأنظمة لبناء الحضارة الإسلامية، ومن ثم فقد اهتمت جامعة الأزهر بهذا التراث الضخم في التشريع والأصول والملل والنحل والتصوف والأخلاق والفلسفة وعلوم الأدب والبلاغة والاجتماع والتاريخ والجغرافيا وعلوم الطبيعة والكيمياء والأحياء والفلك والرياضة.. إلخ.

ولديها ذخيرة من الرسائل والكتب في أدب الدين والدنيا والسياسة الشرعية ولعلماء هذه الجامعة جهود موفقة في إبراز مقومات المدينة الإسلامية ولم تتوان جامعة الأزهر في مثل هذه العلوم والمعارف إلى الجامعات الإسلامية والجامعات الشرقية عن طريق تبادل البحث العلمي بين جامعة الأزهر وهذه الجامعات وتبادل أعضاء هيئة التدريس والطلاب والقيادات الجامعية على مر التاريخ ومن هنا يظهر الدور الحضاري لجامعة الأزهر في المجال العلمي.

يضيف الدكتور إسماعيل شاهين في بحثه: هناك تعاون علمي وثقافي بين جامعة الأزهر ومختلف الجامعات والمراكز العلمية في كل دول العالم من خلال عقد الاتفاقيات والبروتوكولات للتعاون العلمي والثقافي بينها وبين هذه الجامعات.

تعاون مثمر وبناء

وفي الآونة الأخيرة طلبت حكومات بعض الدول مثل إندونيسيا وماليزيا وبروندي وسيريلانكا وسنغافورة فتح كليات إسلامية بها تحت إشراف جامعة الأزهر وذلك بعد تطبيق وتدريس نفس المناهج التي يتم تدريسها في جامعة الأزهر كما قامت الجامعة بمد هذه الكليات بأعضاء هيئة التدريس لتدريس هذه المناهج.

وقد شهدت الفترة من عام ١٩٨٨م وحتى الآن إبرام عدد من الاتفاقيات أهمها:

- اتفاق علمي وثقافي مع حكومة ولاية جوهر - ماليزيا.
- اتفاق علمي وثقافي مع هيئة المنح الجامعية بنيودلهي بالهند.
- اتفاق علمي وثقافي مع بعض الجامعات في إندونيسيا.
- اتفاق علمي وثقافي مع معهد الفتح الإسلامي بدمشق
- اتفاقية الشراكة للتعاون بين كلية الجنيد للدراسات الإسلامية والعربية بسنغافورة وبين جامعة الأزهر.

كانت هذه الاتفاقيات قد بدأت في عام ١٩٨٨م باتفاقية واحدة بلغت حتى الآن أكثر من ٥٠ اتفاقية وأنشيء العديد من الوحدات والمراكز البحثية الجديدة لتكمل الجامعة مسيرتها العلمية والبحثية من أجل تقديم أفضل خدمة تعليمية لطلاب مصر والعالم الإسلامي وجامعات الشرق بوجه خاص.

وقد أسهمت هذه الاتفاقيات في حرص العديد من حكومات الدول على إنشاء كليات للدراسة بها تحت إشراف جامعة الأزهر بعد تطبيق المناهج الدراسية التي تدرس بها.

وكذلك تمكين كثير من طلاب الجامعات الإسلامية من الالتحاق بالجامعة بالمرحلة الجامعية في كليات جامعة الأزهر بالفرقة الثالثة والرابعة للحصول على شهادات التخرج من جامعة الأزهر.

فضلا عن تبادل زيارات أعضاء هيئة التدريس للاشتراك في الندوات وإجراء البحوث المشتركة لإثراء البحث العلمي.

وبذلك يتبين الدور الحضاري الذي تؤديه جامعة الأزهر لكل دول العالم ومشاركتها الفاعلة في تدعيم أواصر التلاقي بين طلاب وشعوب العالم الإسلامي وجامعة الأزهر الشريف.

الدور الريادي

وقد بين الدكتور إسماعيل شاهين في بحثه أهمية التواصل بين جامعة الأزهر والجامعات الإسلامية وخاصة الجامعات الإسلامية والشرقية بقوله: إذا كان التواصل هو سمة العلاقات الاجتماعية في الحياة بوجه عام فإن الروابط العلمية تعد من أقوى أسباب التواصل بين بني الإنسان، ومن هنا تأتي أهمية التواصل بين جامعة الأزهر والجامعات الأجنبية وخاصة جامعات الشرق وعلى الأخص في المجال التعليمي انطلاقا مما يلي:

١- الدور الريادي لجامعة الأزهر بين الجامعات الإسلامية وما تمثله من مكانة سامية تحظى بالاحترام بين كل المؤسسات التعليمية في العالم قاطبة فهي مؤسسة تربوية علمية دعوية اجتماعية إنسانية.

٢- قيام جامعة الأزهر بالدور البارز في تعميق الطابع الإسلامي لدى الشعوب والجامعات الإسلامية والشرقية حيث أسهمت في دعم الترابط بينها وبين جامعات العالم وخاصة جامعات الشرق عن طريق استقبال طلاب هذه الدول وقبولهم للدراسة بها في مرحلة الإجازة العالمية والدراسات العليا، وتبادل الزيارات بين أساتذتها وأساتذة هذه الجامعات والإشراف المشترك على أبحاث الماجستير والدكتوراه لطلاب الجامعات الشرقية والإسلامية، وإمداد هذه الجامعات بالأبحاث والمراجع العلمية المتنوعة للحفاظ على كتب التراث الإسلامي وإثراء الأبحاث العلمية في هذه الدول.

وكانت الحرية والاستقلالية المطلقة التي تتمتع بها جامعة الأزهر في تقرير الدراسات العلمية التي تحتويها منهاجها العلمية وعدم خضوعها لأي توجيه حكومي عاملين مهمين جعلا منها مركزا عربيا قياديا فريدا للفكر الإسلامي تهوى إليها أفئدة كبار العلماء وطلاب العلم من كافة أنحاء العالم الإسلامي، فوفدوا إليها ووجدوا في رحابها الزاد الروحي والتراث الفكري الأصيل.

المدخل الأخلاقي

وكان من بين أهم البحوث التي نوقشت في هذا المؤتمر «المدخل الأخلاقي وتحقيق التقارب بين الفكر الإسلامي والفكر الشرقي» لمؤلفه الدكتور محمد خليفة حسن الأستاذ بمؤسسة قطر للتربية والعلوم والذي تناول فيه أن المدخل الأخلاقي هو المدخل المناسب للدعوة الإسلامية لأنه يقدم مادة أخلاقية إسلامية ليست بعيدة عن متناول العقلية الشرقية أو غير الشرقية ومرتبط بالسلوك المباشر.

كذلك أن المدخل الأخلاقي يفيد في تقريب الشعوب وتقوية العلاقات بينها وتحقيق التعارف والتواصل وبالإضافة إلى ذلك فالمدخل الأخلاقي يقلل من التعصب الديني ويساعد على مواجهة التطرف والتشدد، فضلا عن أن المدخل الأخلاقي مفيد بالنسبة لموضوع حوار الأديان وحوار الحضارات.

تطوير مناهج الاقتصاد الإسلامى

من بين بحوث المؤتمر الدولى حول الجامعات الإسلامية وبناء التقاليد العلمية مع الجامعات الآسيوية بحث للأستاذ والباحث مصطفى دسوقى بعنوان : « نماذج من تجارب الجامعات الإسلامية فى تطوير مناهج الاقتصاد الإسلامى » تناول فيه ملامح مسيرة الاقتصاد الإسلامى المعاصرة وتجارب عملية لأقسام الاقتصاد الإسلامى بالجامعات ومراكز البحوث فى إعداد وتطوير مناهج ومقررات الاقتصاد الإسلامى .

ومن هذه التجارب : تجربة قسم الاقتصاد الإسلامى (مرحلة البكالوريوس) بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

والتجربة الثانية تناول فيها قسم الاقتصاد الإسلامى (الدراسات العليا) بجامعة أم القرى بالمملكة العربية السعودية ثم تجربة مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامى بجامعة الأزهر فى تطوير مناهج الاقتصاد الإسلامى فى إعداد عدد من المقررات من بينها مصطلحات ومناهج الاقتصاد الإسلامى، مناهج البحث فى الاقتصاد الإسلامى، الفكر الاقتصادى الإسلامى .

وخلصت الدراسة إلى تصور مقترح لتطوير مناهج الاقتصاد الإسلامى وتم إدراجه فى توصيات المؤتمر .

قراءة فى تجربة مؤسسة دار السلام
كونتور فى التنمية بإندونيسيا

كان أيضا هذا البحث للباحث أحمد سليمان وتناول فيه التجربة الإندونيسية ممثلة فى تجربة مؤسسة دار السلام كونتور كنموذج تربوى فريد فى التعليم الأهلى مبينا أن فلسفة النظام التعليمى بها استندت إلى القرآن والسنة ومنهج التربية الإسلامية وإلى التجارب التربوية العالمية كتجارب التعليم للحياة، كما أن المؤسسة استخدمت اللغة العربية فى الحياة العلمية والعملية وحولتها إلى مقصد عقائدى فى إطار فلسفة تربوية متكاملة .

فمنذ نشأة مؤسسة دار السلام كونتور بإندونيسيا واللغة العربية هى لغة التخاطب اليومى والحياتى داخلها وتعمل على نشرها إذ هى تحيى فى الشخصية المسلمة روح الانتماء للدين والاعتماد على النفس والعطاء فى سخاء دون انتظار لعائد مادى وهذا ما تفتقده سائر المناهج فى الجامعات الإسلامية .

ومن خلال بحثه أشار الأستاذ أحمد سليمان فى النتائج والتوصيات إلى عدة نقاط من بينها :

- التكامل والتوازن بين العلوم الدينية والعلوم الكونية إذ أن مؤسسة دار السلام كونتور بمناهجها المتكاملة والتى تقوم على الجمع بين العلوم الدينية والعلوم الكونية، فى إطار تربوى يستند إلى إدارة حازمة وإخلاص من القائمين على النظام التعليمى فى القيام بواجبهم حسبة وجهادا فى سبيل الله لبناء الشخصية المسلمة بناء عقديا وعقليا وبدنيا ومهنيا علاوة على التوازن بين العلوم النظرية والعلوم التطبيقية .

حرصت المؤسسة على تفعيل منهج الإسلام فى التنمية البشرية والتنمية الشاملة وتفعيل المنهج الإسلامى فى بناء المجتمع الزراعى والصناعى والتجارى من خلال التعليم للحياة .

أن التواصل العلمى بين الأساتذة والطلاب قد

مكن الطلاب من الاتصال بالأساتذة فى كل وقت وبذلك استطاعت المؤسسة فى إطار هذه الرؤية المتكاملة أن تقدم أدوارا مهمة فى شتى المجالات التربوية والثقافية والفكرية والإعلامية والاجتماعية والاقتصادية لتنمية المجتمع الإندونيسى وحل مشكلاته فضلا عن دورها الرائد فى التصدى لحملات التغريب والتنصير ومقاومة الأفكار الهدامة .

كما توصى الدراسة بضرورة إجراء المزيد من الدراسات للتجارب التربوية والتعليمية العالمية الرائدة التى قامت عليها نهضة بلدانها خصوصا التجربة التركية والتجربة الكورية الجنوبية والتجربة الصينية وغيرها .

تطوير منهج اللغة العربية لغير الناطقين بها

بعد انتهاء جلسات المؤتمر أعلنت التوصيات وكان من أهمها :

الاهتمام بدراسة تجربة جامعة دار السلام كونتور الإسلامية وتعريف العالم الإسلامى بهذه التجربة التعليمية الفريدة فى نوعها ونشرها بين المؤسسات التعليمية الإسلامية الآسيوية .

- يوصى المؤتمر بإدخال اللغة الإندونيسية كإحدى لغات الأقطار الإسلامية المهمة فى أقسام اللغات الشرقية فى الجامعات المصرية، وهذه اللغة يتحدث بها أكثر من خمسين ومائتى مليون مسلم فى إندونيسيا وماليزيا وسنغافورة وبروناى وجنوب الفلبين .

- وأوصى المؤتمر بأن تحرص الجامعات الإسلامية على تدريس كتب التراث ما أمكن حتى يكون المتخرج المسلم لديه القدرة على فهم النصوص وتأصيلها وتحليلها وحفظاً لهذا التراث من الاندثار .

- تقوية التعاون العلمى بين الجامعات الإسلامية والجامعات الشرقية وبخاصة فى اليابان والصين وكوريا الجنوبية وذلك لاكتساب المعرفة العلمية والتكنولوجية اللازمة لتقدم العالم الإسلامى وذلك لتنويع مصادر المعرفة .

- الاهتمام بتعليم اللغة العربية فى كل الجامعات الإسلامية واعتبارها لغة أساسية فى الدراسة لا يستغنى عنها المتخصص فى العلوم الإسلامية وتطوير منهج اللغة العربية لغير الناطقين بها .

- تشجيع دراسة الاقتصاد الإسلامى وإنشاء أقسام متخصصة فى كليات الاقتصاد والإدارة لتخريج كوادر مؤهلة ومدربة فى مجال الاقتصاد الإسلامى للعمل فى مجال الاقتصاد والإدارة فى المجتمعات الإسلامية، هذا فضلا عن إنشاء أقسام متخصصة فى كلية الشريعة والقانون لتخريج كوادر مؤهلة ومدربة فى مجال فقه الاقتصاد الإسلامى للعمل فى هيئات الرقابة الشرعية ومجال الإفتاء فى المعاملات المالية وتشجيع التأليف العلمى المشترك فى هذا المجال طبقا لمعايير البحث العلمى وتأليف الكتب .

التعاون المثمر

وتبرز أهمية مثل هذه المؤتمرات العلمية فى الاستفادة من التقدم العلمى الكبير الذى تشهده الدول الآسيوية والتى تربطنا بها علاقات طيبة مثل الصين واليابان وكوريا الجنوبية والهند وماليزيا خصوصا فى مجالات الطب وصناعة الأدوية والبرمجيات .

التربية وإصلاح الأمة في مقالات الإمام محمد عبده

الأستاذ الدكتور/ عبدالحليم عويس



لا نستطيع أن ننكر أن القرن التاسع عشر الميلادى (الثالث عشر الهجرى) كان قرن جمود وتخلف، وكان الاستعمار يسعى إلى تعميق هذا التخلف من جانب، وتغريب الإنسان المسلم من جانب آخر؛ وهما أمران يؤدى أحدهما إلى الآخر: فما دام المؤمن، بالإسلام، كما يزعمون، متخلفا؛ فمن الطبيعى أن يأخذ عن المتقدمين؛ الذين يستعمرون بلاده ويسيطرون عليها؛ سياسياً وتربوياً واجتماعياً.

١

وقد استسهل بعضهم، بسذاجة، الاستسلام للحل التغريبى؛ القائم على الذوبان فى حضارة الغرب، بينما رأى كثيرون، للأسف، ضرورة الثقة فى ديننا وحضارتنا بطريقة جامدة؛ لا تسمح للتطور أن يتفاعل مع الموروث الأصيل حتى يتمكن الأصيل من مواجهة العصر، وصناعة إنسان وحضارة مختلفين يأخذان صحيح التراث، وصحيح الحضارة الأوربية؛ فيتحرك، بالتالى، النقل والعقل معا؛ ويتآزر الدين والعلم.

وكلا الطرفين تصلّب فى موقعه؛ فهذا ماضوى يعيش فى القرون الماضية غير متفاعل مع التراث تفاعلا عصرياً، وذاك ساجد فى قبلة الغرب، بخيره وشره، كما ظهر عند بعض المتشنجين فى لبنان ومصر..

وكان الشيخ محمد عبده فى بدايات حياته قد عانى من جمود الدراسة فى الأزهر، وفى المسجد الأحمدى فى طنطا بخاصة، فقد جعل الفقهاء كتب الفقه القديمة وكتبهم، على علاتها، أساس الدين؛ حتى وإن عارض بعض ما فيها الكتاب والسنة؛ فانصرفت الأذهان، بالتالى، عن القرآن والحديث، وانحصرت فى كتب الفقه،

وقد رأى الإمام بقاء الأزهر على حاله محالا؛ فلابد من إصلاح شأنه؛ وإلا بقى فى الذيل؛ تابعاً لا متبوعا؛ وظُلمت، بالتالى، علوم الإسلام، وبقية العلوم..

إصلاح الأزهر!!

وقد وضع الشيخ محمد عبده لائحة لإصلاح الأزهر؛ يهدف منها إلى حذف الحشو الموجود فى المناهج، وإضافة علوم جديدة يستفيد منها التلميذ، كذلك عدم معاملة التلميذ بالقسوة والإهانة حتى تنمى فيه الكرامة والاعتزاز بالنفس، كذلك النظر فى القائمين على التدريس، ومراقبتهم، وأن نبث فى نفوسهم حب هذه المهنة، وأن يجعلوا همهم الأكبر هو مستقبل الجيل الذى يعلمونه، وليس الحصول على الراتب الشهرى.. إنه الجيل الذى يجب أن ينشأ صاحب نظرة فى كل ما يحيط به؛ بعيداً عن أن يكون مجرد آلة للصانع؛ ليصبح هو الآلة والصانع والبدن والرأس فى آن واحد..

ونعتقد أن الإمام كان أكثر توفيقاً من الدكتور محمد عمارة الذى خالفه فى بعض آرائه؛ رغبة منه فى الاعتماد على السياسة بطريقة كبيرة؛ لا يميل إليها الإمام محمد عبده [(١)]، كما كان الإمام موفقاً فى النظر إلى التربية الدينية على أنها أساس يسبق التربية فى مجال الزراعات والصناعات والتجارات؛ وهو رأى اختلف فيه معه، أيضاً، الدكتور محمد عمارة؛ الذى بالغ فوصف موقف الإمام بأنه موقف شديد المحافظة؛ ينكر دور العلوم الدنيوية فى تأديب النفس وإحيائها، ويستغنى عن الاستفادة من التراث الإنسانى، ووصفه أيضاً، بالتالى، بأن أفقه ليس رحبا، وأنه واحدى الجانب؛ يكتفى بالتركيز على أمور الدين؛ بطريقة لا تخلو من غلو فى تقدير جانب من العلوم، والتقصير فى تقدير جوانب أخرى [(٢)].



د. محمد عمارة

يقول الإمام محمد عبده:

"إن مطلوبكم المحبوب هو العلم، كان العلم فيكم وكان الحق معه، وكان الحق فيكم وكان المجد معه.. كل مفقود يفقد بفقد العلم، وكل موجود يوجد بوجود العلم.. أما العلم الذى نحس بحاجتنا إليه فيظن قوم أنه علم الصناعة، وما به إصلاح مادة العمل فى الزراعة والتجارة مثلا. وهذا ظن باطل؛ فإنا لو رجعنا إلى ما يشكوه كل منا نجد أمراً وراء الجهل بالصناعات وما يتبعها. إن الصناعة لو وجدت بأيدينا نجد فينا عجزا عن حفظها، وإن المنفعة قد تتهيأ لنا ثم تنفلت منا لشىء فى نفوسنا؛ فنحن

---

(١) الأعمال الكاملة، ج١، ص١٥٨، ١٥٩.

(٢) الأعمال الكاملة ج١ / ١٦١، ١٦٢.

نشكوا ضعف الهمم، وتخاذل الأيدى، وتفرق الأهواء، والغفلة عن المصلحة الثابتة. وعلوم الصناعات لا تفيدنا دفعاً لما نشتكيه؛ فمطلوبنا هو علم وراء هذه العلوم، ألا هو العلم الذى يمس النفس، وهو علم الحياة البشرية.. العلم المحيى للنفوس هو علم أدب النفس، وكل أدب لها هو فى الدين؛ فما فقدناه هو التبحر فى آداب الدين، وما نحس من أنفسنا طلبه هو التفقه فى الدين، ولا أريد أن نطلب علماً محفوظاً، ولكنا نطلب علماً مرعياً ملحوظاً.. فإذا استكملت النفس بآدابها عرفت مقامها من الوجود، وأدركت منزلة الحق فى صلاح العالم؛ فانتصبت لنصره، وأيقنت بحاجتها إلى مشاركيها فى الوطن والدولة والملة.. وإننا فى تحصيل هذا العلم الحيوى لا نحتاج إلى الاستفادة من البعداء عنا؛ بل يكفينا فيه الرجوع لما تركنا، وتخليص ما خلطنا؛ فهذه كتبنا الدينية والأدبية حاوية لما فوق الكفاية مما نطلب(٣).

وهذا النص فيه دلالة على طبيعة أسلوب محمد عبده فى فن المقالة التربوية، فالأسلوب، مع تطوره وخلوه من السجع، متأثر بكتابات سابقيه ومعاصريه، وفيه الدلالة على الأسلوب السائد فى عصره؛ بل نكاد نزعم أن هناك تناغماً بين أسلوب الأفغانى، ومحمد عبده (فى مرحلة ثورته الأفغانية)، ومحمد رشيد رضا (فى مرحلة استقلاله بالمذهب الإصلاحى)، والأسلوب سهل مشرق، مناسب للعصر.



الأفغانى — رشيد رضا

التعليم الدينى والتعليم المدنى

وجدير بالذكر أن الدكتور محمد عمارة قد اعترف بأن النظرة الدينية للإمام لا تعنى أن الرجل كان داعية تعليم دينى فقط؛ لأن الإمام فرَّق بين (التعليم الدينى) والتعليم المؤسس على مبادئ الدين. وهذا يعنى أن التعليم المدنى يجب أن يستجيب لظروف عصره، ويقيم مع التعاليم الدينية الصلات التى ينبه على ضرورتها الأستاذ الإمام.

وبهذا يقترب الدكتور عمارة مما قصد إليه محمد عبده وهو قيام تحصيل العلوم المدنية على الأساس الدينى؛ الذى يعطى المفاتيح الصحيحة للتعامل مع الله والكون والإنسان؛ والذى يجعل كل العلوم تلتقى عند النية السليمة فى التحصيل؛ والآليات السليمة فى البحث، والغايات الربانية الإنسانية كهدف.

(٣) الأعمال الكاملة، ١ / ١٦١.

وما ضلَّ التعليم فى الشرق والغرب، وكاد يدمر الإنسانية إلا عندما فقد هذه المفاتيح الدينية..

طبقية التعليم

ويرى الشيخ محمد عبده طبقية التعليم؛ فليس كل الناس قادرين على التعليم الروحى أو الإبداعى، وهى وجهة نظر أثبت الواقع الذى نعيشه اليوم صدقها؛ فالطبقة الأولى: العامة من أهل الصناعة والتجارة والزراعة، والثانية: طبقة الساسة وضباط العسكرية، وأعضاء الحاكم، ومأمورى الإدارة، والثالثة: طبقة العلماء من أهل الإرشاد والتربية؛ وهى أعلى الطبقات(٤).

تعليم المرأة

وقد اهتم الإمام محمد عبده بتعليم المرأة وتنويرها إسلامياً.. ولهذا قام الإمام بتشخيص الحالة المزرية التى انتهت إليها المرأة المسلمة فى عصره، كمرحلة أولى، موضحاً كيف أن النساء قد ضرب بينهن وبين العلم بما يجب عليهن فى دينهن أو دنياهن بستار لا يدرى متى يُرفع، ولا يخطر بالبال أن يعلمن عقيدة أو يؤدين فريضة سوى الصوم.. وهو ينفى أن يكون هذا الجهل هو سبب العفة والحياء كما كان يزعم خصوم تعليم النساء؛ ذلك أن ما يحافظن عليه من العفة فإنما هو بحكم العادة وحارس الحياء، أو قليل جداً من موروث الاعتقاد بالحلال والحرام.. وكيف أدى هذا الوضع بالنساء إلى أن أصبح حشو أذهانهن الخرافات، وملاك أحاديثهن الترهات؛ اللهم إلا قليلاً منهن؛ لا يستغرق الدقيقة عدهن.

لقد نادى الإمام بتعليم المرأة، وتمنى أن تنهض القلة المستنيرة من النساء المتعلمات بتكوين جمعية نسائية؛ تقيم المدارس لتعليم البنات، وحبذ هذا الدور لهنّ على ما يشغلهن من أمور السياسة، واستقبال علية القوم فى الصالونات (٥).

المدارس الأجنبية

ويأخذ بعضهم على الشيخ محمد عبده أنه عاب على المسلمين إرسال أولادهم إلى مدارس أجنبية طمعاً منهم، كما يقول الشيخ، فى تعليمهم علوماً؛ ظناً فى نفعها فى معيشتهم، أو تحصيلهم بعض اللغات التى يرونها ضرورية لسعادتهم فى مستقبل حياتهم، وكأنه يقول: إنه لا ضرورة من تعليم اللغات فى الوقت الذى تعلم هو نفسه اللغة الفرنسية، ورأى أن تعلمها شىء ضرورى؛ فلكى تأمن عدوك لابد أن تعرف لغته كى تعرف كيفية تفكيره، وقد برر الشيخ محمد عبده موقفه هذا بأنه

(٤) الأعمال الكاملة، ١ / ٧٧٤، بتصرف.

(٥) الأعمال الكاملة، ج ٣ / ٨١ وما بعدها.

يخاف على الدين، وأن دخول هؤلاء التلاميذ تلك المدارس يمثل خطراً على العقيدة [6].

ولكننى ألتمس العذر للإمام محمد عبده؛ فهذه المدارس الأجنبية كانت فى ذلك الوقت تقوم على التنصير الواضح وسلخ الأمة عن عقيدتها وحضارتها ولغتها، وكانت مصر ضعيفة أمام الضغط الأجنبى الذى زاد الطين بلة عندما أصبح استعماراً عسكرياً وسياسياً أيضاً؛ أما فى عصورنا شبه المستقلة فإن هذه المدارس تعمد إلى إخفاء وجهها الحقيقى؛ وتخفف من جرعات التنصير المباشر، وإن كانت الغاية البعيدة واحدة !!.

مقالات الإمام محمد عبده!!

لقد كانت الرؤية الفكرية والعملية للإمام واضحة؛ حملتها مقالاته فكراً، وحملتها جهوده وبرامجه ومشروعاته التى قدمها لتطوير الأزهر، وتطوير التعليم؛ عملاً وتطبيقاً.

وتعبر مقالاته فى إصلاح الجانب التربوى والتعليمى عن خصائص المقالة عند محمد عبده؛ فهى تتراوح بين مقالة متوسطة (انظر: مقالة "الكتابة والقلم"، ومقالة "المعارف"، ومقالة "الغاية من علم التوحيد)[7]، ومقالة طويلة (مثل مقالته "العلوم الكلامية والدعوة إلى العلوم العصرية"، ومقالة "تأثير التعليم فى الدين والعقيدة") [8].

ونستطيع أن نقول، مقالاته الست المنشورة بجريدة المؤيد سنة ١٩٠٠م (١٣١٨هـ) رداً على "مسيو هانوتو" فى دعواه أن المسيحية أفضل من الإسلام، وأن تمدن الجنس الآرى أفضل من الجنس السامى، وأن تمدن الأوربيين أفضل من تمدن المسلمين؛ هى من النوع الطويل، وحسبها أنها أصبحت بحثاً موضوعياً رائعاً كشف حقيقة الفروق الدقيقة بين الإسلام والنصرانية فى قضايا العقيدة والعلم والمدنية.

ونحن نلحظ أنه فى هذه المقالات الطويلة تتجلى عبقرية الإمام فى المقال: أسلوباً، ومضموناً، وتحليلاً، وارتباطاً كاملاً بين اللغة الجزلة الرصينة، والأفكار السديدة؛ التى يسعى إلى توصيلها.

وبهذا غلب على مقال الإمام محمد عبده المقال الطويل لرغبته الدائمة فى بسط أفكاره بسطاً جامعاً مقنعاً، وربما، أيضاً، للتعبير الصحيح عن القضايا التى تتضمنها هذه المقالات.. لكن هذا لا يعنى أن المقالين المتوسط والقصير، وهو الأقل؛

(٦) نقلاً عن عرض كتاب: د. عبدالرحمن بدوى (الإمام محمد عبده والقضايا الإسلامية) للدكتورة فاطمة عبدالرحمن، مجلة حصاد الفكر، عدد ١٦١، سبتمبر ٢٠٠٥، ص ٧٥.

(٧) الأعمال الكاملة، ج ٣ / ٩، ٣٢، ١٥٦.

(٨) المصدر السابق، ٣ / ٦٥، ٥٧.

ليس معبراً عن غايات الإمام.. لكنه غالباً ما يكون حول موضوعات لا تحتمل إلا هذا اللون من المقالات.

العلوم الكلامية

فى مقاله الطويل "العلوم الكلامية، والدعوة والعلوم العصرية" يبدأ الإمام محمد عبده حديثه ببيان الفروق بين عهد جاهلية العرب، وعهد العقل وتحصيل العلوم؛ فبعض طلبة العلم الكرام قد بذلوا جهودهم فى التحصيل وخلعوا ثياب أوزار البطالة والتعطيل، وافتدوا براحتهم لتنوير بصيرتهم؛ قد تحركت إلى المعالى همته، ودعته إلى التفنن غيرته؛ فأخذ فى دراسة بعض الكتب المنطقية والكلامية التى كان قد صنفها بعض أفاضل الملة الإسلامية.

ويتدرج الإمام إلى الدفاع عن قضية العلوم الكلامية؛ فهى أحكام لتأييد القواعد الدينية بالأدلة العقلية القطعية، ثم ينتقل بنا إلى ربط هذا الكلام الاستهلالى إلى تقديم قصة واقعية؛ لا ينقصها إلا قدر ضئيل من شروط القصة؛ فقد أشيع عن فتى انشغاله بهذه العلوم الكلامية، ووشى به بعض أحبائه، وأصفيائه، وأقربائه؛ الذين يؤثرون خيره ولا يرتضون ضرره؛ ومنهم عزيز عليه جداً؛ اهتز لذلك واضطرب، وأعجب كل العجب، وأخذه من الحزن على ذلك الطالب ما شاء الله أن يأخذه، وأوسع لذلك الطالب النصيحة، ويا لها من فضيحة أى فضيحة؛ قائلاً: كيف تدرس علوم الضلالات؛ حتى تقع فى الشبهات ألا فارتدع، وبحالتك اقنع، وكن كما كان الأب والجد، وجد فيما كانوا عليه؛ فمن جدَّ وجد، فأجاب الطالب المسكين سؤاله، وطوى سجل علمه، ونشر جهله، ومع ذلك لم تدعه ألسنة حساده؛ المتألبين على عناده، ولم يزالوا مصرين على سفه الكلام، ورمى سهام الملام؛ يقولون إلى الآن فى ضلاله القديم، لم يميز بين المنتج والعقيم، والمخدوش والسليم حتى إن بعض ذوى الجهل من أهل بلاده، المخلصين فى وداده، الساعين فى إسعاده؛ وشوا بهذا الطالب إلى والده، وانتصحوا له القول بشأن ولده؛ قائلين: إن الرجل منا إذا سمع أن ولدك يشتغل بالعلوم؛ تتناوله أيدى الهموم، يقوم ولا يهنأ له طعام ولا شراب، ويبيت ليله في اضطراب، ويظل نهاره فى اكتئاب؛ أسفاً على هذا المسكين كيف ترك جهالتنا!! ولم يعمل على مثالنا، ألم تعلم أن الإنسان كلما قوى فى العلم اجتهاده، وبدا له رشاده، يتزلزل اعتقاده؛ فكيف بك وهو ثمرة فؤادك وأرشد أولادك؟! فتحرك فى والده عرق الحمية، وأسرع ذاهباً إلى مصر المحمية ليرى هل صح الخبر أو كذب الناقل وفجر؛ فوصل إلى ولده فى الساعة الثالثة من الليل، ومن آن وصوله أخذ ينذر ولده بالثبور والويل؛ إن كان لتلك الأقاويل صحة، فأجابه الطالب إن ذلك من كذب الناقلين، وبغى الحاسدين، وإننى من يوم سعيت فى منعى، وقطع نفعى، لم تقر عينى بنظرة فى رياض تلك العلوم، ولم أشف قلبى بأخذ منطوق منها

ولا مفهوم؛ فلم يصدقه حتى تمسك بالحبل المتين، وأحلفه بالله رب العالمين أن الناقل كذاب، وأنه في أمره غير مرتاب؛ فحلف وهو الصادق في حلفه(٩).

وعلى هذا النحو من جزالة الأسلوب وبلاغته، وتتبعه للحالة النفسية لكل من الطالب ووالده، مع أسلوب حافل بالسخرية اللاذعة.. ومن ثم يتدرج من هذه اللقطة يحلل الإمام محمد عبده مواقف أبطال هذه الواقعة، ثم يتعجب من هؤلاء الإخوان في الوطن، أرباب البصائر والفطن؛ كيف مالت بهم الحرارة إلى الهبوط حتى آل أمرهم إلى السقوط.

ويشير إلى أن هذه العلوم تقرأ في جوامع المسلمين، ومشارق الأرض ومغاربها، وأن الأكابر المحققين كأبي حامد الغزالي، وفخر الدين الرازي وغيرهما قد جعلوا تعلم هذه العلوم من فروض الأعيان..

ثم يتساءل: إذا كان هذا حالنا بالنسبة إلى علوم قد أرضعت ثدي الإسلام، وغذيت بلبانه، وتربت في حجره، وتقلدت في إيوانه؛ من زمن يزيد عن ألف سنة، وتناولتها أيدي الخلص منا وتناقلتها عنهم الألسنة، فما حالنا بالنسبة إلى علوم جديدة مفيدة؛ هي من لوازم حياتنا في هذه الأزمان، وكافة عنا أيدي العدوان والهوان، وأساس لسعادتنا، ومعيار لثروتنا وقوتنا؛ لابد لنا من اكتسابها، وبذل المجهود في طلبها..

ثم يظهر محمد عبده ألمه على حال المسلمين المؤمنين بالتخلف والمدافعين عنه فيقول: وكنا نؤمل أن "المبنج" يفيق بشم روح "النوشادر"، وأن هؤلاء يهتدون إذا ارتفعت الموانع وأقبلت البشائر، ويقومون من غفلتهم إذا قام من يوقظهم، ويخرجون عما هم فيه إذا نادى بهم من يعظهم، ولكن تعذر ذلك الأمر منهم في زمان جرى فيه سيل العلوم حتى عم أنحاء الكرة على العموم وهم فيه غرقى من حيث لا يشعرون، ووقع فيه الارتباط بيننا وبين الأمم المتمدنة، ورأينا ما هم عليه من الأحوال الحسنة، وظهر لنا التوازن بينها وبين أحوالنا الهجنة؛ كثروتهم وفاقتنا، وعزتهم وذلتنا، وقوتهم وضعفنا، وقدرتهم وعجزنا، وصولتهم وانهزامنا، وغير ذلك من المزايا والرزايا التي لا تعد، وبها يعتد؛ بل في زمان خرج فيه العلم من الأذهان إلى الأعيان، وتنزل من مرتبته الروحانية وتجلى في الصور الجسدانية، وفتح لنا رياضه، وهيأ للغرس غياضه(١٠).

ثم يتطور من هذا الواقع الأسيف إلى مناشدة الحاكم والمحكوم لانتهاز الفرصة قبل انقضاء آجالهم؛ فيحاسبهم الله على همتهم الضعيفة؛ مستعينين بالطائفة الشريفة التي تعد بمنزلة الروح لهذه الأمة (يقصد بهم رجال الأزهر) الذين يأمل في إقلاعهم عن جمودهم..

(يتبع)

(٩) الأعمال الكاملة، ج ٣ / ١٦.

(١٠) الأعمال الكاملة، ج٣ / ١٨.

خطبة الجمعة

لماذا نحتفل بالمولد النبوى الشريف؟

للأستاذ الدكتور/ محمد سيد طنطاوى
رحمه الله

الحمد لله رب العالمين، هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له هو الفعال لما يريد، وأشهد أن سيدنا وشفيعنا محمداً عبده ورسوله، خاتم الأنبياء والمرسلين، وأفضل خلق الله أجمعين، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه الذين ساروا على نهجه، واتبعوا طريقه، فكانوا من المهتدين.

يا أتباع النبي – عليه الصلاة والسلام –.

أرأيتم إلى الفجر كيف يأتي بعد طول الظلام؟ أرأيتم إلى الشمس كيف تأتي بعد الليل البهيم؟

أرأيتم إلى الضياء الساطع كيف يأتي بعد الغيوم الداكنة؟

هكذا كان مولد سيدنا رسول الله ﷺ لقد كان مولده بعد أن عم الكفر والفسوق والعصيان الدنيا، وبعد أن انتشر الظلم، وكثر الفساد، فجاء سيدنا رسول الله ﷺ برسالته من عند خالقه – عز وجل – تلك الرسالة التي أخرجت الناس بإذن ربهم من الظلمات إلى النور، وأنقذتهم من الظلم والفجور، وصدق الله إذ يقول:

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

«المائدة: ١٥، ١٦»

لقد كان ميلاد النبي ﷺ وكانت بعثته تجديداً لميلاد الإنسان، وتجديداً لحياته، وتجديداً لعقيدته

ولأخلاقه ولسلوكه ولآدابه ولعلاقاته الخاصة والعامة.

لقد كان الإنسان قبل ميلاد الرسول ﷺ وقبل بعثته، لا يدرى لماذا خُلق، ولا إلى أين سيصير، وإنما هى أرحام تدفع وقبور تبلع، وبطون بين ذلك لا تشبع:

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾

«الجاثية: ٢٤»

فجاء النبى ﷺ برسالته من عند ربه، تلك الرسالة التى كرمت الإنسان، وبينت له وظيفته، وعلمته ما يجب عليه نحو خالقه وما يجب عليه نحو نفسه وما يجب عليه نحو غيره.

كرمته فى ذاته فصانت له حياته من أى عدوان عليها، ومن أى استخفاف بحقوقها، فقال - تعالى -:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

«الإسراء: ٧٠»

كرمته فى عقله حيث حرمت عليه تعاطى ما يفسده أو يضره فى مأكله أو مشربه أو غير ذلك من شئون حياته، قال - تعالى -:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

«البقرة: ١٧٢: ١٧٣»

كرمته فى ماله، فصانت له أمواله التى جمعها من حلال من كل عدوان عليها، وأباحت له أن يجمع ما يشاء من أموال بشرطين: أن يكون جمعها له من طرق مشروعة، وأن يؤدى حق الله - تعالى - وحق المجتمع فى هذه الأموال، ومتى فعل ذلك، فنعم المال الصالح للرجل الصالح.

كرمته فى عرضه، بأن حرمت الإساءة إليه عن طريق الغيبة أو النميمة أو القذف أو ما يشبه ذلك من القبائح. قال - تعالى -:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾

«الحجرات: ١٢»

كان ميلاده ﷺ تجديداً لميلاد الزمان، لأن الناس قبل ميلاده ﷺ وقبل بعثته كانوا لا يعرفون للوقت قيمة، ولا يقدرون للزمان حرمة، وإنما كانوا يقضون معظم أوقاتهم إما فى التفاخر بالأحساب والأنساب وإما فى شن الحروب لأتفه الأسباب.

فلما جاء النبى ﷺ بشريعة الإسلام الغراء، بينت للناس أن للوقت حرمة، وأن للزمن كرامة، وأن الوقت كالسيف، إن لم تقطعه قطعك، وأن كل لحظة تمضى من عمر الإنسان هى تقربه من نهايته، وأن كل عمل يعمله الإنسان فى ليل أو نهار هو محاسب عليه.

ففى الحديث الشريف: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه»(١)

وأنه ما من يوم ينشق فجره إلا وينادى: يابن آدم أنا يوم جديد، وعلى عملك شهيد فاغتنمنى فإنى لا أعود إلى يوم القيامة.

وكان ميلاده ﷺ وكانت بعثته تجديداً لميلاد المكان، لأن الأمكنة قبل مولده ﷺ كانت مرتعاً للفسوق والعصيان، والأرض كانت مليئة بالأصنام والأوثان.

فلما جاء ﷺ بشريعة الإسلام بيّن للناس أن هذه الأرض منها خلق الإنسان وإليها سيعود، وأن الله - تعالى - قد أوجدنا فيها لكى نعمرها بالخيرات وبالزروع وبالثمرات، وأن معظم رزق الإنسان هو مأخوذ من هذه الأرض، ففى الحديث الشريف: «التمسوا الرزق فى خبايا الأرض»(٢).

وبيّن ﷺ أن ما يزرعه الإنسان فى هذه الأرض يرفع من درجاته عند خالقه، فقال: «ما من مسلم يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»(٣).

وبانتشار دعوة الإسلام هدمت الأوثان والأصنام، وصارت العبادة لله - تعالى - الواحد القهار.

يا أتباع النبى - عليه الصلاة والسلام..

إن الاحتفال بمولد النبى ﷺ هو لون من الشكر لله - تعالى - على نعمه، فإن مولد النبى ﷺ وإن مبعثه هو منة المنن، وهو نعمة النعم، وكيف لا وهو الذى قال خالقه - عز وجل - فى شأنه:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

«الأنبياء: ١٠٧»

وقال - سبحانه - فى صفاته:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

«القلم: ٤»

وقال - تعالى - فى شأنه:

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

«التوبة: ١٢٨»

وقال ﷺ عن نفسه: «مثلى ومثل الأنبياء من قبلى، كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأكمله إلا موضع لبنة منه، فكان الناس يطوفون حول هذا البيت ويقولون: ما أجمل هذا البيت ما أحسنه، ما أكمله، هلا وضعت فيه هذه اللبنة؟ قال ﷺ: فأنا هذه اللبنة وأنا خاتم الأنبياء والمرسلين»(٤).

نسأل الله - تعالى - أن يرزقنا جميعاً شفاعة نبيه محمد ﷺ أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم.

(١) فتح البارى.
(٢) المعجم الأوسط للطبرانى.
(٣) البخارى.
(٤) البخارى.

حوار على جانبى الأعراف

٢

للأستاذ/ صديق بكر عيطة

لا تزال مع هذا الحوار الذى يجرى على جانبى الأعراف، وقد صورته بريشتها المبدعة آيات سورة الأعراف المباركة (الآيات من ٤٠-٥١). حيث عشنا فى مقالنا السابق مع وقائع هذا الحوار بألوانه وظلاله.. والآن وفى هذا المقال الذى بين يديك عزيزى القارئ نحاول - جاهدين - أن نفى بما وعدنا به من التعليق على هذا النص الكريم مبرزين عوامل الروعة والجلال اللذين تجلى بهما الأداء القرآنى المعجز. ولا نمل أن نقول: إننا لن نبلغ عشر معشار ما فى النص القرآنى - ومنه هذا النص الكريم - من عوامل الروعة والجمال. فالقرآن الكريم لا تنقضى عجائبه أبد الدهر، ولا يخلق على كثرة الرد ولا تشبع منه العلماء.

لابد من أن نعترف أولاً بأن هناك حقيقتين مؤكدتين: أولاهما: أن القرآن كتاب هداية، سلك فى سبيل تحقيق ذلك كل طريق ومن هذه الطرق، طريق التصوير الفنى كما أكد على ذلك الشهيد سيد قطب فى كثير من المناسبات. والحقيقة الثانية: أن الفن الحقيقى يقوم أساساً على الكلمة النظيفة، التى تفتح فى النفس آفاق الحق والخير والجمال وتغلق فيها السبل التى تدفع بها إلى مزالق الشر والعدوان والإفساد فى الأرض.

والقرآن الكريم يلتقى فى أحد آفاقه مع الأدب النظيف العف فى تربية النفس

البشرية على الفضيلة، وإقامتها على طريق العقيدة الصحيحة، والحق الصراح، وقد اتخذ من الأسلوب الأدبى التصويرى، القائم على الحوار، طريقاً للوصول إلى تحقيق لمساته النبيلة، وإيحاءاته العميقة.

فالفن التصويرى فى القرآن يخاطب النفوس، على اختلاف أشكالها وتكويناتها، ويصل إليها فى أعماقها، إذا هى كانت حية نابضة، يجرى فيها ماء الإيمان بالله تبارك وتعالى عذباً رقراقاً صافياً.. أما تلك النفوس الكافرة، التى ران عليها غلاف الغفلة، فلا شأن لنا بها ولا شأن لها بنا.

والآيات المباركات التى معنا، إنما تفتح فى النفوس البشرية كل أبواب الفضيلة والخير التى تستقبل هداية السماء، دون نظر إلى جنس، أو لون، أو عرق، أو ثقافة.. مستخدمة فى ذلك الحوار، بما يحيط به من وصف ملابساته الزمانية والمكانية، والعقدية، والأخلاقية؛ مما يسهم فى تجسيد الصراع، الذى هو لب العمل الفنى المصور..

فأول ما يشعر به القارئ لهذه الآيات، أنه قد انفتحت أمامه نافذة إلى خارج حدود المياه الحاضرة - وهى إحدى عادات القرآن فى كثير من سوره المباركات حينما يتحدث عن أحوال الناس فى يوم القيامة - يطل منها الإنسان؛ ليرى النفس البشرية، وقد عريت تماماً من كل زيف وضلال بدت من خلاله فى الدنيا على غير حقيقتها.

ترى قيم السماء، والعقيدة الصحيحة، وميزان الله، تسود من خلال الحوار الذى نسمعه يدور بين أصحاب الجنة، وأصحاب النار، ورجال الأعراف.. وقد وضع كل فريق فى مكانه الصحيح.

ومن هنا يفيد المرء فى حياته الحاضرة، قيما فكرية وعقدية وشعورية، لا تقف به عند حدود حياته المادية المحدودة ليشعر بعد ذلك أنه فى طريق موصول، أوله فى الدنيا، وآخره فى الجنة أو النار.

يرى الإنسان كل ذلك.. وأكثر من ذلك من خلال هذه المشاهد الحوارية، وقد تعانقت فى بنائها كل عناصر الفن الأصيل:

› ففيها الشخوص بملامحهم المميزة، وأنواعهم المختلفة: أصحاب الجنة - أصحاب النار - رجال الأعراف. فأصحاب الجنة يبدون بوجوههم النضيرة، وتفاؤلهم الحسن، وما يسود بينهم من روح المودة والصفاء، وما يسمع بينهم من همهمات التسبيح والحمد، وما يوجه إليهم من عبارات التهنئة.

› أما أصحاب النار، فيبدون بوجوههم الكالحة، التى شوهتها النار، وقبحت لونها، وأصواتهم التى بحت من الظمأ والصراخ، وبطونهم التى تكاد تتفجر من أكل النار وشجر الزقوم، وما يسودهم من روح العداوة والتباغض والتنابز وكل من أصحاب الجنة وأصحاب النار، هم الذين تدور عليهم ومن حولهم وقائع الحوار فى هذا المشهد الذى لم تشهد له الدنيا مثيلاً. فلهم حضوره المتميز، الذى ترتعد له فرائص القارئ المتدبر، حتى إنه - وهو لا يزال فى الدنيا - يتميز مكانه الذى يرتضيه لنفسه بين هذين الفريقين

وهو حتماً واصل إليه فى عاجل أيامه أو آجلها.

● أما رجال الأعراف، فهم صنف من الناس، تساوت حسناتهم وسيئاتهم.

(كما يقول المفسرون)، فهم - لذلك - بين الجنة والنار، وهم حينما يتطلعون إلى من فى الجنة يتمنون دخولها والتنعم بما فيها..!! وإذا حانت منهم التفاتة إلى من فى النار يستعيذون بالله من شرها وشر من فيها، ويحمدون الله على أن ليسوا منهم.

● وفيها الحوار: وهو المظهر الخارجى للمشهد، وهو إنما يعد إفصاحاً عن الصراع الذى يقوم عليه. ويتميز بالتركيز فى العبادة، فى الوقت الذى يحمل فيه دلالات عميقة على ما جرى ويجرى خارج المشهد: ماذا جرى منهم فى الدنيا وما موقفهم مما جاءت به الرسل، وما أنذروهم به..؟! فمما يحمل هذا المشهد من دلالات: خيبة الأمل التى منى بها هؤلاء الكافرون تجاه آلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله فى الدنيا آملين أن تنجيهم من عذاب الله فى الآخرة - فيما لو رجعنا إلى الوراء قليلاً إلى الآية التى تقول:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾

(الآية ٣٧ من سورة الأعراف)

فالعبارة على وجازتها - توحى بدلالاتها إلى ما هم فيه من هم وكرب فى الوقت الذى يذوقون فيه عاقبة كفرهم وجحودهم.

أما تلاعن أصحاب النار، وتبادلهم الاتهام، فهو حوار يجسد جانباً آخر من جوانب الصراع، حيث تبدى حقيقة المأساة الكبرى، التى وقع فيها الشر حينما يضرب بعض بعضاً، بعد أن فقد كل أسباب الهداية والرشاد والتوجيه الصحيح، فلم يبق إلا الصدام الذى تتساقط معه جميع الأطراف.

وأما الحوار الذى يدور بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، سواء ما بدأه الفريق الأول أو ما بدأه الفريق الثانى، فهو إنما يمثل هذه المفارقة العجيبة الساخرة، فى موقف المؤمنين الطائعين، وقد كانوا مستضعفين فى الدنيا، فى مواجهة العصاة الكافرين، وقد كانوا سادة مستكبرين فى الدنيا.. فإذا بالفريقين وقد انقلب حال كل فريق بهذه الصورة الساخرة..!!

ومجمل ما يستخلص من هذا الحوار بكل آفاقه وأبعاده، أنه بث للحركة فى المشهد الذى نقلته الآيات البينات مما سوف يحدث وبكل تأكيد يوم القيامة؛ ليعيش القارئ المؤمن بربه فى ظل عدل الله وهو لا يزال يتنسم عبير الحياة الدنيا وقبل أن ينتقل إلى الدار الباقية الخالدة، فهو حوار مركز له دلالاته العقدية وأبعاده السلوكية، وأهدافه الوعظية التحذيرية.

● وفيها عنصر الزمان والمكان: أما المكان، فقد عرفناه منذ بدايات السورة المباركة حيث كان آدم عليه السلام فى الجنة وإذا كان قد خرج منها وأخرجنا معه، لنعيش معه فى هذه الدنيا، فإنما هى فترة جد قصيرة. ومع ذلك كنا نسمع فيها صدى العالم الآخر من خلال تحذير الله لنا من أن يفتننا الشيطان، كما أخرج أبوينا من الجنة، وتذكيرنا بيوم القيامة.. وسرعان ما عادت الأحداث إليه، وهى تعرض مشاهد الجنة والنار، وأصحاب كل منهما. ومن خلال المشاهد وإيحاءاتها ندرك أنه لا تحده أرض، ولا تحده سماء، بعد أن أصبحت الأرض غير الأرض، والسماء غير السماء:

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

(إبراهيم ٤٨)

كل ما نحسه ونراه من ملامحه أنه يتنقل بين الجنة والنار والأعراف.

وأما الزمان، فقد ركزت المشاهد التى معنا على ما بعد الموت؛ حيث الحساب وما يعقبه من ثواب أو عقاب. والزمان «هنا» وإن كان له أول نعرفه بالموت والانتقال إلى العالم الآخر على وجه الإجمال، فليس له آخر، وهو ما يستخلص من إيحاءات المشهد الأخير الذى يدل على استمرار عذاب المعذبين، وما يقابله من استمرار نعيم المنعمين. وهذا كله يرسخ فى ذاكرة المشاهد من خلال مشهد أهل النار، حيث ينسون فيها، وقد امتدت أيديهم فى مشهد مأساوى رهيب:

﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾

(الأعراف: ٥١)

● وفيها عنصر الصراع: وهو لب المشهد كله فى مقابل الحوار، الذى يمثل المظهر الخارجى والصراع هنا يسلك فى تصويره للأحداث، طريقاً فريداً، لا يقدر على السير فيه إلا هذا الكتاب المعجز: فلقد جمع بين الحركة المنظورة، والحركة الذهنية، وزاوج بينهما فى وحدة فنية رائعة يصعب معها الفصل بينهما؛ حتى بلغت من النفس مبلغها، ودخلت عليها من كافة ملكاتها، وذلك على الرغم من أن النص مقروء، ولا يمكن إلا أن يكون مقروءاً ومن المستحيل أن تتناوله يد الفن المعاصر، لكنه بلغ من عظمة الأداء، وقوة التأثير وجمال العرض ما انطلق به خارج المنافسة. وحاشا لله أن تخطر على ذهن مسلم أية مقارنة أو منافسة - شأن كل كلمة فى هذا الكتاب المعجز - وإنما هى محاولة لتذوق الوجه الفنى بالقدر المتاح فقط، وإلا فإن عطاءات القرآن - ومنه بطبيعة الحال آيات المشهد الذى معنا - سوف تظل تفور بالخير الوفير، حتى آخر الزمان..!!

إن قضية الساعة، وما يحدث فيها يوم القيامة - بعد أن قرأنا هذه الآيات وأشباهها - لم تعد قضية فكرية مجردة، ولم يعد ذلك العالم الذى وعده الله الناس، بعد هذا العالم الحاضر، موصوفاً فحسب، بل عاد مصوراً محسوساً، وحياً متحركاً، بارزاً شاخصاً.. وعاش المسلمون فى ذلك العالم عيشة كاملة. رأوا مشاهده وتأثروا بها، وخفقت قلوبهم تارة، واقشعرت جلودهم تارة، وسرى فى نفوسهم الفزع مرة، وعاودهم

الاطمئنان أخرى، ولاح لهم من بعيد لفح النار، ورفت إليهم من الجنة أنسام [3] فها هو ذا الصراع فى الدنيا بين الحق والباطل قائم على أشده: الباطل بأسلحة المال والسلطان والقوة.. والحق بسلاح الإيمان والقيم السماوية، وكثيراً ما تطيش كفة الحق فى الدنيا، ليثقل جانب الباطل، فى عالم افتقدت فيه العدالة، أو قل أنصارها.. فإذا انتقل الصراع إلى الدار الآخرة ـ وهو ما تصوره الآيات بمشاهدها الحوارية ـ حيث لا ميزان إلا ميزان الله، ولا حكم إلا حكم الله.. لا محاباة.. ولا مداجاة ولا جاه ولا سلطان.. إلا وجه الحق الأعلى.. عندئذ.. وعندئذ فقط تشيل كفة الباطل ويبدو زيفها جلياً: فهاهم أولاء العصاة، يزج بهم فى نار جهنم زجا.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾

(الأعراف: ٣٨)

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾

(الأعراف: ٤١)

﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾

(الأعراف: ٥١)

وها هم أولاء المؤمنون يكرمون فى هذا النعيم المقيم:

﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

(الأعراف: ٤٣)

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾

(الأعراف: ٤٩)

وها هم أولاء العصاة يستعطفون المؤمنين، الذين يسخرون بهم ويتهكمون، فى صورة درامية غاية فى القوة والتأثير.. صراع الحق والباطل، قضية الإنسان الأولى، وقد أسفرت فى نهاية المطاف عن انتصار الحق وخذلان الباطل.

● وفيها عنصر الفكرة: وهى إنما تشكل فى المشهد، الهدف الأخير، والفكرة هنا تقوم على وضع قضية الرسالات جميعاً التى جاء بها رسل الله من لدن آدم وحتى آخرهم وخاتمهم عليه وعليهم الصلاة والسلام، أما البشر وهم بعد لايزالون فى الدنيا.

فهى بيان عملى مشاهد، يوضح نهاية كل من المؤمنين الطائعين والعصاة المذنبين. فى أى عصر وتحت أى رسالة، يراه البشر ويعيشون أحداثه؛ لتكون العبرة أنفذ، والدرس أقوى.

إن من يقرأ سورة «الأعراف» من أولها، ويتأمل ما جاءت به، ويربط السياق العام بما عايشه من خلال رؤيته لهذه المشاهد القائمة على الحوار، الذى يجسد أحداث يوم القيامة يرى أن هذه القضية ـ قضية الحساب ـ قد أعلن عنها منذ البداية، ولكن بطريقة موجزة:

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۞ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ۞ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾

(الأعراف ٦ ـ ٩)

حتى لا يفاجأ الإنسان بأحداث هذا اليوم، دون إنذار سابق، مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾

(الإسراء ـ ١٥)

وبعد أن تعرض السورة قصة البشرية من بدئها: فى جنة آدم، مروراً بحياتهم الدنيا وما تحفل به من طاعة الطائعين، ومعصية العاصين.. وانتهاء بموتهم وانتقالهم إلى دار الجزاء تقوم بعرض هذه المشاهد بطريقة عملية حية وحافلة بالحركة المنظورة والحركة الذهنية والشعورية؛ لتكون مصداقاً لما سبق أن أعلن فى أول السورة. وبالجمع بين طريقتى العرض، اللتين سكلتهما السورة، نرى أنها قد اكتفت بالإشارة السريعة، لمن تكفيهم الإشارة السريعة، ومن لم يكفهم ذلك عرضت عليهم القضية عرضاً حياً مؤثراً يرونه رأى العين، ويسمعونه سماع حضور، وينفعلون له انفعالهم بقضاياهم ـ وهم ـ بعد ـ لايزالون فى الدنيا. ومن لم يكفه هذا ولا هذا، فليس له إلا النار التى يصلاها..!! اقرأ عقب إسدال الستار على آخر مشهد تراه العين وتسمعه الأذن:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

(الأعراف ٥٢، ٥٣)

ومن هنا ندرك كيف بلغ القرآن الكريم الغاية القصوى فى جمال العرض، وعظمة الأداء. وامتلك ناصية البيان فى عرض قضاياه المصورة!!

***

قصة العدد

صعود وانحدار

للدكتور / أبي حسام

كان سليمان بن أبي سليمان مخلد الشهير بأبي أيوب المورياني شاباً جيد النظر، واسع الآمال، وقد اختاره سليمان ابن حبيب كاتباً لديه في بعض مدن فارس، فأظهر من النشاط والجد ما جعله موضع رعايته، والاستماع إلى آرائه في الملمات، وذلك في نهايات الدولة الأموية حين آذنت شمسها بالمغيب، واختلفت الأسرة الحاكمة فوقع بأسها بينها، وانتهز العلويون تصدع الأمر فأرسلوا عيونهم في البلاد يجمعون الناس حول آل البيت، من بني هاشم، وهي دعوة صادفت صداها الرنان، وحمل رايتها أبومسلم الخراساني، فأصبحت فارس جمرة تلتهب وانتقل الحريق إلى البصرة فالكوفة، ورأى ذلك كله أبو أيوب المورياني، فأخذ يتودد سراً إلى الهاشميين ويظهر من المحبة والإخلاص ما قربه إلى نفوسهم، دون أن يحيط رئيسه سليمان بن حبيب بسره الخافي عن عينه فيطرده من موضعه، وصادف أن كان أبوجعفر المنصور عاملاً عند ابن حبيب، يجمع له المال من بعض القرى النائية، فاتهمه لأمور اعتقدها في نفسه، وسيق أبوجعفر إلى مجلسه مقهوراً، فجاهره بخيانته، وطالبه بالمال فلم يقر أبوجعفر بشيء! وهنا انهال عليه سليمان بالسوط، لا يني عن ضربه المبرح، وقد تقدم إليه أبوأيوب في ثوب الناصح، فقال له: الدولة كما ترى غاربة، وأيامها معدودة، وأبوجعفر من صفوة الهاشميين، وقد يكون رئيساً مرموقاً في الدولة الجديدة، فعليك أن ترعى مقام نفسك، وتتخذ لك موضعاً من الآن، فاستهزأ به سليمان، ووالى السوط يهوى على جسد أبي جعفر، فلما رأى أبوأيوب ذلك أكب على جسمه ليتلقى السوط نيابة عنه، فاضطر سليمان بن حبيب، إلى رفع العذاب، ولكنه ساق أبا جعفر إلى الحبس مكبلا بالأغلال فعمل أبو أيوب على مواساته في محبسه، مهيئاً له كل ما يريد من مأكل ومشرب، ثم احتال فمهد له سبيل الهروب إلى الأهواز، حيث كان المنصور زوجاً لامرأة يكتم أمرها على الناس، كيلا تؤخذ بذنبه إذا خابت ثورة الهاشميين من بني العباس وبني علي! وكانت فراسة أبي أيوب توحي له أن أبا جعفر سيرعى موقفه، ويقدره حق قدره، فجعل يصل أسبابه بأسبابه سراً، حتى تمكن من نفسه، وانتهى الشوط إلى نهايته، فسقطت الدولة الأموية وتولى أبوالعباس السفاح أمر الخلافة، وأصبح المنصور مستشاره الأول، ولم يطل أمد العباس إذ وافته منيته بعد سنوات قصار، وأصبح المنصور أمير المؤمنين، ولم ينس لسليمان بن حبيب القاهر، فدعا به حيث لاقى مصرعه على يده، كما لم ينس من الناحية المقابلة أبا أيوب فجعله الكاتب الأول في ديوانه، ثم اختاره وزيراً يصدر الأمر والنهي، وبلغت ثقته فيه مبلغاً كبيراً، حيث كان سمير مجلسه، ونجي خلوته، وشاع صيته بين الناس، حتى كان أمراء البيت العباسي يتوسطون لديه كي يقضي حوائجهم لدى المنصور، ويقابلونه بالاحترام والتبجيل، والمنصور لا يخيب له رجاء! بل يلبي كل ما يريد، حتى وقر لدى الناس أن الرجل صار كل شيء في الدولة وأن أبا جعفر لا يعدل به إنساناً في حكمه، وكان ذا بصر نافذ في أمور الدولة، إذ بث عيونه على الولاة والعمال، فرهبوه، وامتدت يده إلى ما تحت أيديهم دون مواراة واتئاد.

وحين ضاقت نفس المنصور بأبي مسلم الخراساني، حيث عدّه أكبر خطرٍ يهدد ملكه، وليس لديه طاقة في مواجهته مواجهة علنية قد تكون سيئة العاقبة، كان مستشاره الأول أبا أيوب، حيث أشار عليه بالخديعة الماكرة، لا بالمواجهة المكشوفة، وترك المنصور لوزيره الأمر كي يحكم الخديعة كما يشاء، فذهب إلى أبي مسلم وصارحه بأن المنصور يعتبره الرجل الأول في الدولة، وقد تعهد له أن يكون الحاكم على بلاد المشرق، جزاء ما قدم في اندحار الأمويين أولاً، وفي هزيمة عمه عبدالله بن علي ثانياً! وهما صنيعان لا يجحدهما أحد، ولا أدرى أين ذهبت حنكة أبي مسلم وفراسته حين صدّق هذا الكلام، فلم يأخذ الحذر من أبي جعفر، إذ كان لأسلوب أبي أيوب ولهجته المصطنعة، وأيمانه المغلظة، ما جعل أبا مسلم يترك الحذر فيقدم على أبي جعفر دون جند وسلاح، بل يأتي مسالماً وكأنه يستقبل صديقاً يشتاق إليه، وتم اللقاء وأخذ أبوجعفر عدته الصارمة لتنفيذ مؤامرته فأغلق الأبواب، وأحضر الجلاوزة، وبدأ بنقاش صارم يعدد لأبي مسلم أخطاء لم تكن في حسابه ثم نادى بالسياف فاحتز رقبته، وأعلن في الناس موته لخروجه على الطاعة، وليس في هذه الحال من ينهض عاجلاً بثأره، وبعد نجاح المؤامرة

استشعر المنصور برد الراحة من أبى مسلم، كما استشعر ما أسداه أبو أيوب من مكيدة انتهت بما حسم أمر أبى مسلم، وقد زاد ذلك من تيه أبى أيوب، وغلوائه فى الاستعلاء من النظراء ممن كانوا يقفون معه على قدم واحدة فى عيون المجتمع، ومنهم أمراء البيت العباسى نفسه، حيث بدءوا يهابونه، ويقدمون له من فروض الولاء ما اضطرهم إليه موقف المنصور من تأييده.

ولم ينس أبو أيوب إخوته وأقاربه، فقد جعلهم ولاة على الأقاليم، وترك لهم حرية المصادرة والعقاب، ووراء ذلك ما يملكه الوالى من نهب للعقار والأموال دون محاسبة، وبذلك أصبحوا مصدر خوف ورعب، وبالغوا فى السطوة والجبروت، حتى وصلت أنباؤهم الفادحة إلى أبى جعفر، ومن أعجب ما انتهى إليه أمر هؤلاء حينئذ أن أبا جعفر قد غض الطرف نهائياً عن محاسبتهم، وهو الحريص على أموال الدولة، إذ كان يستقصى أنباء العمال فى كل موضع، ويحاسب على الدانق والدرهم، إلا هؤلاء فقد جعلهم فوق المؤاخذة، رغبة فى رضا أبى أيوب ولعله بذلك كان يخدعه حتى يتمادى فى غلوائه، فتدور عليه الدائرة بالأدلة الشاهدة، والبرهان الأكيد وإلا فكيف تحصّل هذا الموقف من خليفة حريص، حتى وصفه من أرخوا له فيما بعد بأنه عبد الدرهم والدوانيق ولم تك فى أبى أيوب غفلة عما سيحدث لو تمادى الأمر هذا التمادى، فجعل يبغض المنصور فى كل من يتوهم أنه سيشى به فى غيبته، ويختلق المثالب لهؤلاء المقربين، وكان الزاهد العالم الكبير عمرو بن عبيد رأس المعتزلة فى عصره، ممن صاحبهم أبوجعفر فى أواخر العهد الأموى، وقد عرف من إخلاصه، وشدة تحرزه، وصراحته الصادقة ما جعله يتودد إليه ويرسل ملحاً فى مقابلته، حتى سمح عمرو بلقائه بعد طول تمنع، وأظهر الخليفة اهتماماً بالغاً باستقباله، فسعى إلى لقائه خارج القصر حين علم بمقدمه، وجلس معه على بساط واحد فوق الأرض دون أن يسمح لنفسه بالاستعلاء على زائره، وكان فى المجلس أبو أيوب فتبرم تبرماً شديداً، بما يلقى عمرو بن عبيد من احتفاء المنصور، وبخاصة حين اتهمه عمرو صراحة بمجافاة العدالة، وأخذ الرعية بالشدة دون موجب، والاستماع إلى رفقاء السوء من وزرائه ومستشاريه، فقال له أبو أيوب غاضباً رفقاً بأمير المؤمنين يا شيخ، فصاح عمرو فى وجهه: اسكت أيها الشيطان، فأنت أول من أعنيهم من هؤلاء! وانقمع أبو أيوب ولم ينطق، وقد عرض المنصور على عمرو أن يكافئه بما يصلح حاله من المال، فغضب فى وجهه وقال: ادفع ما تريد عطاءه لى لفقراء المسلمين ممن لا يجدون لقمة العيش إلا بجهد النفس! ثم قام راحلاً، فودعه المنصور إلى الباب ورجع حائراً يفكر فيما قاله ابن عبيد، ونظم

شطرين من الشعر يقول فيهما:

كلكم طالب صيد..

كلكم يمشى رويد..

غير عمرو بن عبيد!

وأراد المنصور أن يخلو بنفسه، فأمر بانصراف الحاضرين، وخرج أبو أيوب، مرتبكاً يفكر فيما قاله عمرو بن عبيد بشأنه، ويعلم أنه تعرض إلى صدع خطير!

وقد انتهز الربيع بن يونس، وكان فى مقدمة رجال الدولة، وموضعاً لثقة المنصور، انتهز ما قاله عمرو بن عبيد، وطلب لقاء المنصور على خلوة، فسمح له بما أراد، وقال للخليفة إنه لم يكن يجرؤ على اطلاع أمير المؤمنين بما يعرف من مساوئ أبى أيوب، لولا أن عمرو بن عبيد قد بدأ بالحديث، ومن أفدح هذه المساوئ ما أخذه من المال بدعوى صيانة ضيعة وهبها المنصور لأحد أبنائه، وقد ادعى أبو أيوب أنه أصلحها بمال أمير المؤمنين، وهو ما يزيد على ثلاثمائة ألف درهم، مع أنه لم يفعل شيئاً، وترك الضيعة كما هى دون إصلاح! كما أنه حصل من الأهوازى أحد الولاة على مال مضاعف ليترك يده فى انتهاب الأموال، حتى جمع عن طريق الغصب أضعاف أضعاف ما بذله لأبى أيوب! وأفاض الربيع فى أحداث مشابهة، وكانت المفاجأة أن الربيع قد سمع من المنصور أنه يعرف كل ما قال وأنه لم يأت بجديد! ولكنه يرتقب المؤاخذة فى الآجل دون العاجل، حتى يستصفى كل ما جمع أبو أيوب وأقاربه من الولاة! دون أن يفلت منه دانق واحد، ومن يومها، والربيع يأخذ مكانه من قلب المنصور ويدخل عليه دون استئذان.

والسؤال الذى يفد على الذهن هو لماذا أبطأ المنصور فى البطش بوزيره، وقد بدت دلائل خيانته بما لا يحتمل التمهل؟! لقد كان فى الأمر سر لا يدركه غير المنصور، إذ لم يبح به لأحد غير أبى أيوب، وهو سر لم يشأ المنصور أن يعرفه أحد من أسرته! فيحدث الصراع بين أخوين من أب واحد، هو المنصور.

كان أمير المؤمنين فى عهده الأول، يسكن الأهواز، ويكتم أمر انتسابه إلى بنى هاشم، كيلا تثور عليه الثوائر، وقد تزوج بأمة من الأهواز، وطابت له معيشتها معه، ثم علم أن العيون تترصده، وقد يأتى من يحمله إلى أمير الأهواز فيدفع به إلى حيث لا يعلم مصيره أحد، فآثر الرحلة على عجل، فبكت زوجته وأخبرته أنها حامل منذ شهرين، ولا تدرى ماذا ستصنع بحملها حين يدنو موعده، فأعطاها بعض المال، وخاتماً خاصاً به، يكون دليل ارتباطهما فى موعد قادم، ومضت السنون وانغمس أبوجعفر فى معارك الصراع بين الهاشمية والأموية، حتى سقطت دولة مروان بن محمد، وقامت الدولة العباسية، ثم أتيح للمنصور أن يكون

أمير المؤمنين، وقد نسي تماماً ما كان من أمر الأهوازية، ولكنه فوجيء بعد قرابة خمسة عشر عاماً بمن يستأذن عليه مدعياً أن المنصور هو الذى بعث فى طلبه، فسهل له الحاجب طريق اللقاء بعد أن رجع إلى أمير المؤمنين فسمح بلقائه، ونظر المنصور فوجد غلاماً حسن الصورة تقرب ملامحه كثيراً من ملامحه، فصاح به فى دهشة، من أنت؟ فقال: أنا ولدك، أنا ابن الأهوازية التى أعطيتها هذا الخاتم! وقد ماتت من أيام، ولم تشأ أن تتصل بك فى حياتها غضباً وعتاباً! وقد أصبحت وحيداً، فجئت لأبى الذى لا يعرف عنى شيئاً! هنا ماج المنصور فى بحر من الأفكار، وقال فى نفسه، كيف أنسبه إلىّ، ومحمد المهدى أخوه ولى العهد سيكون أول من يعلن الخلاف! وأمه والبيت من ورائه! وبعد ساعة من الحيرة، دعا أبا أيوب، وقال له، هذا هو أعز الناس علىّ، وهو وابنى محمد فى منزلة واحدة لدى، فهيئ له فى أحسن منزل لك، مكاناً مريحاً. وقدم له من وسائل المتعة ما يتمتع به ابن أمير المؤمنين، ثم اجعله يقابلنى كل يومين بعد العشاء دون أن يعلم أحد! وفرح أبو أيوب بهذه الثقة التى أظهرها له المنصور، وكان فى الضيف فطنة وذكاء فأخذ يلحظ ما يتمتع به أبو أيوب من جاه، وما يفد إليه من الأموال بين الفينة والفينة، فإذا كان اللقاء الليلى بينه وبين أبيه أفضى إليه بما شهد ويشهد، وتأكد أبو أيوب من أن الولد أصبح عبئاً عليه، ويجب أن يتخلص منه! متوهماً أن ذلك مما يريح المنصور حين يرتاح مما يتوقع من الشقاق، وهو حائن حائن فى القريب أو البعيد! وقد كان واهماً فيما يتخيل، إذ دفعه حمقه إلى أن يضع السم فى طعام الأمير ذات يوم، ثم يتركه إلى مصيره بعد الغداء، وكانت جريمة نكراء، فهمها المنصور حق الفهم حين جاء النبأ العصوف، ولكنه كتم لواعجه كيلا يشيع ما أخفاه عن أسرته! ومكث أياماً لا يقابل أبا أيوب على غير عادته، على حين أرسل من جنوده من اعتقل جميع أقاربه في ولاياتهم المتعددة، فسجنهم جميعاً، وأرسل أبا أيوب إلى محبس رهيب، ليلاقى أشد صنوف العذاب، قبل أن يأمر بقتله، حتى إذا جاءه أن المسكين قاب قوسين من الهلاك، أمر باستئصاله!

وهكذا انحدر أبو أيوب من عليائه إلى مهواه السحيق، فختمت قصة حياته بما لم يكن فى الحسبان.

***

قصيدة العدد



وَحْـــدى

من الشعر النفسىّ الصريح

للشاعر الكبير الأستاذ/ أحمد محرم

مـــالى وللناس، هل قـــوّمتُ من أوَدٍ؟[1] وهل رَددتُ جِـــمـاحَ الأنفُسِ الشُّـــرُدِ؟
مـــاذا علىّ إذا مـــا خـــانَنى سَـــبَبٌ؟ لا الأمـــرُ أمـــرى، ولا الأقـــدارُ طَوْعُ يدى
الأمـــرُ إن جَـــهِلَ الأقـــوامُ أو عَـــقلوا لله، سُـــبحـــانَهُ من واحـــدٍ صَـــمَـــدِ[2]
وَحـــدى وُلدتُ، ووحـــدى عِـــشْتُ مُنفـــرداً ولن يكونَ مَـــعـــى إن مِتُّ من أحَـــدِ
ولى بنفـــســـىَ شُـــغلٌ إن بُعـــثتُ غـــداً عن والدٍ كـــان يرعـــانى، وعن وَلَدِ
مـــالى ســـوى عَـــملى، لا شىءَ يَنفَـــعُنى غـــيرُ الذى كـــان من خَـــيرٍ ومن رَشَـــدِ

*** ***

وَحـــدى حـــملتُ خُطوبَ الدهْرِ فـــادحـــةً مـــا خـــانَنى مَنكِبى فـــيـــهـــا ولا عَـــضُـــدى

(١) الأود: الاعوجاج.
(٢) الصمد من أسماء الله الحسنى ومعناه السيد المقصود لا يُقضى دونه أمر.

وحدى بُليتُ بنفسٍ ليس يُعجبُها   ما يُعجبُ النَّاسَ من رأىٍ ومُعتقَدِ
ولا يطيبُ لها إلا الذى كرِهوا   من مَركبٍ خشِنٍ، أو مطلبٍ نكِدِ[3]
وحدى شَقيتُ بهذا الشعرِ، أجعلُه   أحدوثةَ الدهرِ، أو أنشودةَ الأبدِ
أصوغُه من شُعاعٍ ليس يَحجُبُه   سترٌ من الحقدِ، أو سُورٌ من الحسدِ
يُقيمُ شعرُ أناسٍ وهْو مُرتحلٌ   فى الأرضِ من بلدٍ ناءٍ إلى بلدِ

***

وحدى وفَيتُ بعهدى، والوفاءُ أذى   يَجنى على الرُّوحِ ما يَجنى على الجسدِ
كان الوفاءُ غريباً حانَ مَرجعُه   فانصاع(٤) غيرَ ذميمٍ، ثُمَّ لم يَعُدِ
أبقى له أثراً ينسابُ ملءَ دمى   ناراً، ويُمعِنُ فى قلبى وفى كبدى
يا نارُ لا تخمُدى، باللهِ يا كبِدى   زيدى أسىً وجوىً، يا قلبىَ اتّقِدِ
مَن كان يمشى وراءَ الموتِ مُتَّئِداً   يبغى البقاءَ، فإنى غيرُ مُتَّئِدِ
ما ضِقتُ بالعيشِ، إلا أنَّ لى أملاً   عند المجرةِ[5]، لم يَصْدُرْ ولم يَرِدِ
أهمُّ بالأفقِ الأعلى، وقد عقدتْ   منى الجناحَ يدٌ جنيةُ العُقَدِ
لى مَطلبٌ أتمنّاهُ، فتذهبُ بى   فيه المُنى شططاً حتى أقولَ: قَدِ[6]
أين الرِّفاقُ؟ أما تدنو منازِلُهم   لوالهِ النفسِ حرّانِ الفؤادِ صَدِ؟

***

وحدى بقيتُ أُعانى الهمَّ منفرِداً   والهمُّ حولى رُكامٌ غيرُ منفردِ

(٣) عسر.   (٤) رجع مسرعاً.

(٥) منطقة فى السماء، قوامها نجوم كثيرة لا يميزها البصر فيراها كبقعة بيضاء، قيل لها ذلك لأنها كأثر المجرّ.

(٦) حسبى.

أعُدُّه، وهو شىءٌ لا يُحيطُ به   علمُ الحسابِ وما يُحصيه من عَدَدِ
هل عند راقدِ هذا الليلِ من خبرٍ   عن ليلِ مُنتفِضِ الجنبينِ مُرتعِدِ؟
لا يستقرُّ، وما ينفكُّ مضجعُه   يَرُجُّ من صَبَبٍ آناً ومن صُعُدِ[7]
يكاد يقذفُه لو خفَّ جانبُه   لكنه مُثقَلٌ بالهمِّ والكمدِ
وحدى سهِرتُ، ووحدى ذُبتُ من أسفٍ   كذلك الحبُّ، لم ينقُصْ ولم يَزِدِ
لى صاحبٌ، لا أطالَ اللهُ غيبتَه   يقولُ: ليتَك لم تفعلْ ولم تكَدِ
لا تبتئسْ بفراقٍ سوف يعقُبُه   من اللقاءِ زمانٌ واسعُ الأمدِ
سألتُه ما يرُدُّ النفسَ إذ ذهبتْ   فيه شَعاعاً[8]، فلم يبخلْ، ولم يَجُدِ

***

وحدى طفِقتُ أغنّى، ما درى أحدٌ   ماذا أردتُ، وماذا دارَ فى خَلَدى[9]
فقائلٌ: ما لَهُ؟ هل هاجَه طربٌ؟   وقائلٌ: يا لَه من طائرٍ غَرِدِ
ما لُمتُ ذا الجهلِ فيما ليس يعلمُه   ولا حفلتُ بقولِ الزُّورِ والفَنَدِ[10]
لو كان للعلمِ سلطانٌ يؤيّدُه   لم يَغلبِ الجهلُ فى الدنيا ولم يَسُدِ
ولو علتْ دولةُ الأخلاقِ ما اضطجعتْ   دُنيا الشعوبِ على الأركانِ والعَمَدِ
كأنها لم تقُمْ شمّاءَ راسيةً   لو مادتِ الراسياتُ الشُّمُّ لم تَمِدِ[11]
ليتَ المعاوِلَ إذ هدّتْ جوانبَها   هدّتْ قُوى الشرِّ من شتّى ومن حُشُدِ[12]

(٧) الصبب: الانحدار، والصعد: العلو.

(٨) المتفرق من كل شىء، ويقال ذهب القوم شعاعا أى متفرقين وطارت النفس شعاعا أى تبددت من الخوف ونحوه.

(٩) بالى وقلبى.   (١٠) الكذب.

(١١) شمّاء: أى مرتفعة شامخة، وماد: تحرك واضطرب واهتز، والراسيات: والرواسى الجبال الثابتة الراسخة.

(١٢) شتى: جمع شتيت وهو المفرق والمشتت، وحُشُد: أى مجتمعين.

تكتسب المعلومات المتعلقة بموضوع ما أهمية حقيقية وقيمة فعلية فى حدود الدقة التى تقاس بها، ومعلوماتنا عن كثير من العمليات والأحداث التى تتم فى حياتنا، وتحدث فى العالم من حولنا، لا ترقى إلى مستوى المعرفة الحقيقية إلا بقياس الطول الزمنى الذى تستغرقه هذه العمليات والأحداث، والذى يكون فى بعض الحالات مساويا لأجزاء من الفمتوثانية (الفمتوثانية تساوى جزءاً من الف مليون مليون جزء من الثانية)، ويكون فى حالات أخرى مساويا لبلايين السنين.

تكنولوجيا الساعات
من المزولة الشمسية إلى الساعة الذرية

للأستاذ الدكتور/ أحمد فؤاد باشا
أستاذ الفيزياء بجامعة القاهرة
afbasha@gmail.com

ويحاول الإنسان منذ أقدم العصور وحتى أيامنا هذه، أن يطور مفهومه للزمن، وأن يستحدث تدريجياً طرقا وآلات لقياسه بأكبر قدر ممكن من الدقة المناسبة لموضوع القياس. وكانت دورات الشمس والقمر والفصول الأربعة والليل والنهار هى أهم ما نبه الإنسان لمعرفة الوقت وصنع الساعات. وعرف من ذلك فيما بعد أن أى ظاهرة أو عملية تتكرر بانتظام يمكن الاستفادة منها كأساس لقياس الزمن بشرط أن يبقى زمنها الدورى ثابتا تماما.

ويبدأ تاريخ تطور قياس الزمن من صناعة الساعات الأولى التى ابتكرها الإنسان فى العصور القديمة، وكان أول هذه الأجهزة هى الساعات الشمسية، والرملية، والنارية، والمائية، ثم ظهرت بعد ذلك تباعا الساعات الميكانيكية والبندولية، وساعات الكوارتز والساعات الذرية المعاصرة.

الساعات الشمسية

كانت الساعة الشمسية فى البداية عبارة عن عصا خشبية أو معدنية مغروسة رأسياً فى الأرض تسمى «الشاخص» ويحدد الوقت بقياس طول الظل الذى يلقيه هذا الشاخص، ولهذا سميت هذه الساعة بـ «ساعة الظل» shadow clock،

وهناك نوع آخر يسمى «المزولة» Sundial، وفيها يعتمد قياس الوقت على طول ظل الشاخص واتجاهه طوال حركة الشمس نهاراً، حيث يتحرك هذا الظل على ميناء مدرّج تتوافق تقسيماته مع الساعات الزمنية وأجزائها.

وقد انتشرت الساعات الشمسية فى العالم القديم انتشاراً واسعاً، فكانت المسلات العالية الرشيقة فى مصر القديمة عبارة عن مؤشرات لساعات شمسية، وفى روما القديمة أقام الامبراطور أغسطس مسلة «سيزوستريس» كمؤشر لساعة شمسية كان ارتفاعها ٣٤ متراً، أخذها غنيمة حربية من مصر. وأنشأ الإمبراطور الصينى كوشو كينج فى عام ١٢٧٨م مؤشراً لساعة شمسية ارتفاعها ٤٠ درجة سلم. وفى أثينا القديمة أقيمت ساعة شمسية ضخمة فوق «برج الرياح».

وفى عصر الحضارة العربية الإسلامية عكف كثير من العلماء والمخترعين على تحسين الساعات الشمسية وتطويرها لكى تكون صالحة لأى يوم وأى شهر على مدار العام بمساعدة حساب المثلثات الكروية وجداول مواقع الشمس. ومما اشتهر من آلات قياس الوقت عند العرب تلك الساعات الشمسية المعروفة بآلة «الرخامة» التى يعرف منها ما يمضى من النهار من ساعات زمنية فى كل بلد. وكان أولغ بك السمرقندى قد أنشأ فى عام ١٤٣٠م ساعة شمسية ارتفاع مؤشرها ١٧٥ درجة سلم (حوالى ٥٠ مترا) لزيادة دقة حساب الزمن.

ونظراً للاهتمام الذى أولاه الملوك وعلْية القوم للساعات الشمسية، لجأ صانعوها إلى تصميم ساعات دقيقة ومسلّية باستخدام آليات (مؤشرات) أكثر غرابة وابتكاراً. واستمر هذا الاهتمام حتى القرن السابع عشر الميلادى، لكن استخدام هذه الساعات ظل محدوداً بفترات سطوع الشمس، لأنها بطبيعة الحال لم تكن تعمل ليلاً وفى أوقات الجو الغائم، كما كان من الصعب أخذها فى الرحلات أو الحروب.

الساعات المائية

تقوم فكرة الساعات المائية على التحكم فى معدل تسرب الماء بانتظام من ثقب أسفل إناء معين، أو بالقرب من قاعه، إلى وعاء آخر يوجد به علامات لمعرفة مستوى الماء الذى يحدد الزمن.. ولزيادة طول الفترة الزمنية المقاسة كان يتم استخدام عدة أوعية. ولما كانت سرعة تسرب الماء من الوعاء تعتمد على ارتفاع مستواه الأعلى، فقد اهتم الصناع بتصميم الأوعية على نحو يحقق دقة أكبر فى حساب الزمن.

وكانت الساعات المائية معروفة فى مصر القديمة، وعند البابليين والصينيين والإغريق، وغيرهم من أمم العالم القديم. ولعل أقدم هذه الساعات تلك التى اكتشفت

في مقبرة أمنحتب الأول (١٥٢٥ - ١٥٠٤ق.م)، واكتشفت آثار ساعة أخرى في الكرنك سنة ١٩٠٤م على يد ليجران G.Legrain، وهي الآن محفوظة في متحف القاهرة ويبلغ ارتفاع أوعيتها ١٤ بوصة، ويرجع تاريخها إلى عصر أمنحتب الثالث AmenhotepIII (حوالي ١٣٩١ - ١٣٥٣ ق.م)، وهي مصنوعة من الألبستر Alabaster على هيئة قمع مقطوع الرأس، أشبه بأصيص الزهور Flowerpot.

وكان لدى الفيلسوف الإغريقي أفلاطون منبهاً مائياً يدعو تلاميذه كلما حان وقت الدرس في الأكاديمية. وفي بداية القرن التاسع الميلادي (٨٠٧) أهدى الخليفة العباسي هارون الرشيد إلى قيصر الروم شارلمان ساعة مائية مصنوعة من البرونز الدمشقي المذهب، وكانت تعلن عن الساعة وتتحكم في تماثيل متحركة بآلية بارعة. وقد وصفها مؤرخ القيصر في مذكراته بقوله: ساعة مائية تبين اثنتي عشرة ساعة زمنية، وعندما تبلغ الساعة الثانية عشرة تكون قد سقطت اثنتا عشرة كرة، وعن طريق سقوطها يرن مضرب متصل بآخرها، وفيها أيضاً اثنا عشر فارساً، وفي نهاية الساعة يقفز الفرسان من اثنى عشر باباً، وبعد قفزهم تغلق الأبواب التي كانت مفتوحة من قبل..

وكان لدى الخليفة المأمون ساعة مائية تصدح فيها دمى طيور على أغصان من الفضة.. وقام أحمد ومحمد ابنا موسى بن شاكر بتركيب ساعة مائية أمام مرصد سامراء في العراق، وذلك لرصد ظهور النجوم واختفائها، واستخدم الفلكي الشهير تيخوبراهي (١٥٤٦ - ١٦٠١) الساعة المائية لملاحظة الأجرام السماوية.

وبخلاف الساعات الشمسية، كانت الساعات المائية تستخدم لقياس الزمن في جميع أوقات النهار والليل على حد سواء.

الساعات الرملية

تعمل الساعات الرملية بنفس الأسلوب الذي تعمل به الساعات المائية، حيث يستخدم وعاءان زجاجيان على شكل قمعين فوق بعضهما من خلال العنق. وكان الوعاء العلوي يملأ بالرمل إلى حد معين فتنتقل منه الرمال إلى الوعاء السفلي، وعندما تنتقل كل الرمال من الجزء العلوي يدرك مراقب الوقت أن فترة زمنية محددة قد مضت، ثم يلزم قلب الوعائين. ولسهولة حساب الزمن، كان يتم استخدام نظام كامل من هذه الأوعية، يفرغ الأول منها كل ربع ساعة، والثاني كل نصف ساعة، وهكذا حتى يفرغ الوعاء الرابع، ثم يقوم شخص بقلب كل الأوعية بحيث يبدأ عدّ الساعات الزمنية من جديد بعد أن يسجل أن ساعة زمنية قد مضت. وقد كانت هذه الساعات تستخدم الزئبق في البداية، ولكنه استبدل بدقائق الرمل الجافة والناعمة لكي تنهال بمعدل ثابت تقريباً بصرف النظر عن الكمية التي يحتويها الوعاء. وكانت البحارة تستخدم هذا النوع من الساعات حتى بداية القرن العشرين لتحديد نظام حياتهم وتغيير ورديات العمل والراحة، وقياس سرعة

السفن. ولما كان هذا النوع من الساعات يتطلب ملاحظة مستمرة، فإنها لم تكن مناسبة لحساب الفترات الزمنية الطويلة نسبياً نظراً لدقتها المحدودة.

الساعة النارية

كان عمال المناجم في العالم القديم يستخدمون مصباحاً من الطين فيه مقدار من الزيت يكفي للاشتعال ١٠ ساعات، ويفهمون من ذلك أن يوم العمل قد شارف على الانتهاء ويصعدون إلى أعلى.

واخترع الصينيون في القرن الرابع عشر الميلادي عجينة من مواد عطرية كانوا يلفون منها عصي ذات أشكال مختلفة على شكل لولب مثلا يصل طوله إلى عدة أمتار، ويمكن أن يشتعل لعدة أشهر معطية عطراً، وفي بعض الأحيان كان يعلق في أمكنة محددة من «ساعات البخور» هذه كرات معدنية تسقط عند احتراق العصي وتقع لأسفل في وعاء من الخزف محدثة صوتاً عالياً ينبه إلى انقضاء فترة زمنية معينة. وأحياناً كان يستخدم أنواع متعددة من البخور لمعرفة الزمن المنقضي في كل مرة تتغير فيها الرائحة.

أما ساعات الشموع Candle Clocks فكانت تستخدم في الأديرة وفي الحياة المدنية إبان العصور الوسطى لحساب الزمن بوضع علامات عليها تقابل أطوالاً زمنية معينة.

وكان لدى الملك الإنجليزي «ألفريد الأكبر» ساعة مكونة من ست شمعات طول كل منها ٣٠ سم، وكان احتراق كل شمعة يتم بمعدل ثمان دقائق لكل سنتيمتر واحد، وبهذا يستغرق اشتعال الشمعات الست ٢٤ ساعة.

وفي عام ١٢٠٦م قدم الجزري لأول مرة وصفاً لساعات الشمعة على مقياس أصغر هندسيا من الساعات المائية، باستخدام آلية ثاقلية Weight driven clock لم تظهر في الغرب إلا بعد أكثر من قرن من الزمان.

لكن دقة الساعات النارية عموماً كانت صغيرة جداً، بالإضافة إلى صعوبة الحصول على عصي أو شموع متجانسة.

الساعات الميكانيكية (ذات التروس)

ظهرت الساعات الميكانيكية التي تعمل بسلاسل تروس (مسننات) معقدة في القرن الحادي عشر الميلادي على يد المهندس محمد بن خلف المرادي في أسبانيا الإسلامية. وفي القرن الثالث عشر الميلادي ظهر هذا النوع من الساعات على هيئة منشآت كبيرة وثقيلة، حيث كان وزن التروس في بعض الساعات يصل إلى مئات الكيلوجرامات. ولهذا كانت تحتاج إلى التزييت بصورة مستمرة، وكان الخطأ في حساب الزمن لا يزيد عن عدة دقائق في اليوم. واهتم الفلكيون المسلمون بصناعة الساعات الفلكية للمساجد والمراصد، مثل ساعة الجزري التي تعمل بقوة المياه، والساعة الأسطرلابية ذات التروس للبيروني وابن ابي بكر وغيرهما.

وفي القرن الخامس عشر الميلادي شهدت الساعات الميكانيكية انتشاراً واسعاً وأدخلت عليها تحسينات ملموسة أهمها «زنبرك الساعة» وبدأت تظهر ساعات المكاتب ذات

الزنبرك بأحجام وأوزان صغيرة نسبياً.

وكانت الساعات الميكانيكية في بادئ الأمر تعمل بعقرب واحد، ثم ظهرت الساعات ذات العقربين: عقرب للساعات وعقرب للدقائق حوالي عام ١٥٥٠م، وفي عام ١٧٦٠م ظهر عقرب الثواني.

الساعات البندولية

ينسب اختراع البندول، أو رقاص الساعة، إلى ابن يونس المصري في القرن العاشر الميلادي. وقد كان البندول البسيط هو مصدر الحركة الدورية في الأجهزة الأولى لقياس الزمن، وفيه يؤثر الثقل الذي يحرك الساعة على محيط محور الدوران مسبباً دورانه. وهذا الدوران يتم تنظيمه بواسطة خطاف متصل بالبندول ومتشابك مع أسنان عجلة مسننة، يمسكها ويطلقها بصورة دورية. وتعرف مجموعة الخطاف والعجلة المسننة باسم «شاكوش الساعة» أو ميزان الانطلاق. وتنطلق الحركة إلى عقارب الساعة بواسطة مجموعة من العجلات المسننة، وتتم المحافظة على الحركة في الساعة البندولية عن طريق عجلة الانطلاق التي يديرها الثقل المعلق.

وفي عام ١٥٨٤م لاحظ جاليليو أن المصابيح البرونزية الضخمة المعلقة في سقف الكاتدرائية بسلاسل ذات طول واحد كانت تتأرجح بدورة تذبذبية ثابتة رغم اختلاف أحجام المصابيح وأوزانها. ويقال إن هذا أوحى إلى جاليليو بفكرة استخدام تأرجح البندول للتحكم في سير الساعات، ولكنه لم ينفذ هذه الفكرة عملياً.

وفي وقت لاحق (١٦٥٦) صمم «كريستيان هيجنز» الساعة البندولية وأعطى طريقة حسابها. وفي عام ١٧٢٥م توصل فني الساعات الإنجليزي جون هاريسون إلى صنع بندول من قضبان زنكية وحديدية مختلفة لحفظ التوازن الحراري، مما أسفر عن دقة في حساب الزمن بلغت عدة أجزاء من مائة جزء من الثانية في اليوم. واكتمل تطور هذا النوع من الساعات بإحلال «الرقاص» محل البندول العادي فيها. والرقاص عبارة عن طارة صغيرة تقوم بحركة تذبذبية حول وضع اتزان بدورانها إلى اليمين وإلى اليسار.

ساعات الكوارتز

في عام ١٨٨٠م اكتشف جاك وبيير كوري الخصائص البيزوكهربية لبلورات الكوارتز، وفي عام ١٩٢٧م، صمم «موريسون» و«هورتون» ساعة لحساب الزمن استخدما فيها التذبذبات المرنة لبلورة الكوارتز بدلاً من تأرجح البندول. ذلك أن الرقيقة المقطوعة من بلورة الكوارتز (وبعض أنواع البلورات الأخرى) بطريقة معينة يكون لها خصائص هامة متميزة، منها حدوث اهتزازات للسُّمك يصعب تلاشيها. ويمكن توضيح الاهتزازات هذه بالمثال التالي.

عند ما نقوم بطرق قالب من هلام الفواكه (الجيلي) بملعقة، فإن كتلة الهلام تبدأ في الارتجاف. وليس هذا الارتجاف سوى نوع من اهتزازات السُّمك، فإذا طرقنا القالب على فترات منتظمة تناظر تردد اهتزازه الطبيعي، فإن مدى هذه الاهتزازات سيزداد تدريجياً إلى

أن يؤدي إلى تصدع القالب. ولبلورة الكوارتز المقطوعة بطريقة معينة صفات مشابهة لما حدث مع هلام الفاكهة. والفارق بينهما هو أن استثارة الكوارتز لا تكون بطرقه ميكانيكياً، بل بواسطة نبضات كهربائية دورية. ونستخدم في هذا ظاهرة الانضغاط الكهربي. فعندما تتعرض البلورة إلى تتابع من إجهادات الضغط والشد تنتج شحنات كهربية متعاكسة (سالبة أو موجبة) على سطحيها الآخرين المتقابلين. والعكس صحيح، فإذا ما أثرت شحنات كهربية على سطحيها فإننا نحصل على تقلص وتمدد في البلورة، أي أن اهتزازات تحدث في سمكها، ويعتمد مقدار تردد هذه الاهتزازات اعتماداً كاملاً على أبعاد (طول وعرض وارتفاع) البلورة، ومن ثم يمكن تحديد القيمة المطلوبة إذا ما كانت أبعاد البلورة مناسبة. ويظل التردد ثابتاً بدقة فائقة تحت ظروف محددة. وهكذا يمكن استخدام بلورة الكوارتز كمنظم عالي الدقة لدائرة اهتزاز كهربائي.

وقد سمحت خاصية الثبات العالي لتردد الذبذبات بصنع ساعة كوارتز دقيقة جداً تصل إلى واحد من عشرة آلاف جزء من الثانية خلال فترة تصل إلى عدة شهور. ولقد اكتسبت ساعات الكوارتز أهمية خاصة وأصبحت مرجعاً لضبط الساعات العامة وللمحافظة على ثبات تردد أجهزة الإرسال في الراديو. وأدت سهولة تصنيعها إلى شيوع استخدامها كساعات يد على نطاق واسع خلال الحرب العالمية الأولى عندما وجدها الجنود أيسر استخداما من ساعات الجيب.

الساعات الذرية

إذا كانت السّاعات المائية والرملية والنارية التي كانت موجودة في العالم القديم تعطي خطأ مقداره عشرات الدقائق في اليوم، ومن ثم فهي ساعات غير دقيقة إذا ما استخدمت كمعايير للزمن. وكانت الساعات الميكانيكية ذات التروس بأجزائها الضخمة تعطي خطأ مقداره عدة دقائق في اليوم، ويعتمد عملها على مقاييس ووزن أجزائها ،وعلى الاحتكاك والتشحيم والصيانة الدائمة، ومن ثم لا يمكن استخدامها كمعايير للزمن نظرا لدقتها المنخفضة وعدم إمكانية استحداثها بعد فقدها، وكانت الساعات البندولية لا تزيد دقتها عن حوالي ثلاث ثوان في السنة، والساعات الكوارتزية تفوقها في الدقة بمائة إلى ألف مرة، لكن تردد اهتزازها يتغير مع مرور الزمن، ويتطلب الأمر مراجعة التردد من وقت لآخر وإعادة ضبطه. وإذا كانت المتطلبات المستجدة من دقة القياس والمعايرة في عصرنا قد ارتفعت بشدة لدرجة تكون معها هذه الأخطاء غير مناسبة لحل بعض المسائل العلمية والفنية الدقيقة، وتكون غير مرضية أكثر مما كانت تسببه الأخطاء في الساعات العتيقة.. إذا كان ذلك كله كذلك، فإن الحاجة تكون ماسة للبحث عن ساعة جديدة تصلح كمعيار أولي وأساسي ثابت لقياس الزمن، وكان المعوّل منذ زمن بعيد على ما يعدنا به استخدام العمليات الذرية في فن قياس الزمن، خاصة فيما يتعلق بمشكلتي الدقة البالغة والاستحداث بعد الفقد، وهما من أهم عيوب الساعات الأخرى التي يتأثر تردد

ذبذباتها بالظروف المحيطة الخارجية.

وهكذا تعتبر الساعة الذرية أعلى أدوات قياس الوقت دقة فى عصرنا الحاضر، لأن الاهتزازات الجزيئية التى تبقى ثابتة لا تتغير مع الزمن هى التى تحدد التردد فى هذه الساعة، ومن ثم تصلح كمعيار جديد للزمن، حيث تصل دقتها إلى حوالى عشرة أضعاف دقة ساعة الكوارتز.

وقد تم تصنيع أول ساعة ذرية فى عام ١٩٤٩م باستخدام جزيئات الأمونيا (النوشادر)، لكن أغلب الساعات الذرية الآن تعتمد على خاصية الحركة المغزلية Spin لذرة السيزيوم، وفى عام ١٩٦٧م تمت معايرة وحدة قياس الزمن، وهى الثانية، على أساس خصائص السيزيوم. وفى النظام الدولى للوحدات تعرف «الثانية» بدلالة تردد الضوء المنبعث فى عملية ذرية محددة، وهى تساوى الزمن الذى تستغرقه ٩١٩٢٦٣١٧٧٠ ذبذبة بالضبط من طول موجى معين للضوء المنبعث من ذرات السيزيوم. وهذا يعنى أن «الثانية» كوحدة قياس للزمن تعاير بساعة السيزيوم الذرية التى تبلغ دقتها جزءاً من مائة ألف مليون جزء من الثانية، بحيث يكون الاختلاف بين ساعتىْ سيزيوم تعملان معاً حوالى ثانية واحدة كل خمسة آلاف سنة.

وهنا ربما ينشأ التساؤل التالى: ما العمل إذا توقفت الساعة الذرية السيزمية؟ فقياس الزمن بمثل هذه الدقة البالغة يمكن فقط باستخدام الساعة الذرية أو مثيل لها. وللتغلب على هذه الصعوبة وضعت فى مراكز قياس الزمن ومعايرته مجموعات من هذه الساعات الذرية، وهذا يعطى إمكانية المراجعة المتبادلة بين الساعات المختلفة، وإن توقفت إحداها فإن الساعات الأخرى تضمن استمرار حساب الزمن الدقيق. وبذلك أمكن التوصل، ليس فقط إلى أعلى دقة ممكنة لقياس الزمن، ولكن أيضاً إلى ثقة كافية فى الحساب المتواصل للزمن بواسطة الساعات الذرية.

من ناحية أخرى، ليس من المستبعد أن يحل محل المعيار السيزيومى الذرى معيار آخر، مثل بخار الهيدروجين أو الروبيديوم، حيث يقدم الأول ساعات ذرية هيدروجينية أعظم ثباتاً، بينما يقدم الثانى ساعات ذرية روبيديومية أقل حجماً واستهلاكاً للقدرة، ومن ثم أقل كلفة.

ساعات التوقيت الإلكترونية

هكذا وصل الاهتمام بقياس الزمن إلى حد توخى الدقة فى حساب أجزاء «الثانية» حتى الفمتوثانية أو أقل. ونجد فى حياتنا العادية أمثلة عديدة لهذا الاهتمام، منها دراسة حركات العدائين فى المباريات الرياضية من نقطة البداية الى نقطة النهاية، وتحديد الفائز من بينهم بأجزاء من الثانية. وغير ذلك كثيرفى مجالات العلم والتقنية. وفى الوقت الحالى توجد ساعات توقيت إلكترونية مختلفة الأنواع تسمح بقياس الفترات الزمنية بدءاً من النانو ثانية حتى عدة ساعات، وبدقة حتى أجزاء فى المائة من قيمة الفترة المقاسة. ويلزم فى كثير من الأحيان الحصول على تسجيل متصل، ليس فقط للفترات الزمنية بين حدثين، ولكن أيضاً لسريان عمليات سريعة جداً.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً
مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾



الأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيومى فى رحاب الله

ولد الدكتور محمد رجب البيومى فى أول أكتوبر سنة ١٩٢٣ هـ بقرية «الكفر الجديد» مركز المنزلة محافظة الدقهلية.. تلقى تعليمه الابتدائى والثانوى بمعهد الزقازيق الدينى.. ومما يذكره الراحل العزيز فى هذه الأيام الأولى من حياته أن كل شىء كان يعبق بأريج الإيمان، فالمسجد هو المكان الجامع، وشيخ المسجد هو صاحب القدوة والامتثال.

والمناسبات الدينية كالهجرة والمولد والإسراء ورمضان ترسل البسمات الوضيئة فى الوجوه الراضية، وكانت القرية موضع الفضيلة والحب والتراحم، إذ لا تباع فيها الفاكهة والخضراوات والألبان، بل تهدى إهداء إلى كل طالب.. أما هذه الأيام فقد اختفت هذه الفضائل كما اختفت البسمة من الوجوه القانعة ليسيطر «جدول الضرب» بماديته الصماء.

فضيلة الدكتور محمد رجب البيومى فى رحاب الله

بقلم/ مدير التحرير

ومما يذكره الراحل العظيم ـ أيضاً ـ أن الأزهر كان لا يقبل أن تكون سن الطالب أقل من اثنتى عشرة سنة؛ ليتمكن من حفظ القرآن الكريم قبل الالتحاق، وقد حفظه فى سن العاشرة، وبقى سنتين حفظ فيهما متون العلم فى الفقه والنحو والتجويد، مع ديوان «حافظ إبراهيم» الذى اختاره له أبيه مع قصائد كتاب (جواهر الأدب).

ومما يذكره ـ أيضاً ـ أنه قرأ مقالة بإحدى المجلات الدينية، تتحدث عن غزوة بدر، فوجدها لا تخرج فى مضمونها عما جاء بالكتاب المقرر بالمعاهد، فحدثته نفسه: لم لا تكون كاتباً؟ وسارع بكتابة مقال تحدث فيه عن الأثر النفسى الذى أحدثه كتاب رسول الله «ﷺ» إلى الإمبراطور الرومانى هرقل وبعث به إلى «مجلة الأزهر».

يقول فضيلته تعليقاً على ذلك: «كان هذا تسرعاً مشتطاً من طالب ناشئ، يبعث بمثل هذا التلخيص إلى أكبر مجلة إسلامية، لكنه فوجئ بعد أسبوعين بمظروف كبير من الأستاذ الكبير محمد فريد وجدى رئيس تحرير «مجلة الأزهر» به مقاله مع رد توجيهى خلاصته أنه سُرَّ كثيراً لاتجاهه الأدبى الحميد كما أرسل ثلاثة من مؤلفاته العلمية هدية له وتوجيه لطيف مفاده أن المقال الإسلامى ليس ذكراً للأحداث، ولكن الكاتب المعاصر يتخذ من الأحداث مجالاً للتحليل والتعليل والاستنباط ليضيف الجديد.

لقد ترك هذا التصرف فى نفس الدكتور البيومى الشىء الكثير إذ جعله يتساءل: كم من رؤساء التحرير من يصنعون صنيع الأستاذ وجدى؟

والحق أنه هو ـ ذاته ـ من كان يصنع صنيع الأستاذ وجدى، فكثيراً ما كان يتصل بى أحد طلاب العلم ليسأل عن مسألة ما ملتمساً الإجابة من فضيلة الدكتور البيومى وكنت ـ بدورى ـ أنقل هذه الرغبة لفضيلته فكان يكتب الرد المطلوب مصحوباً بأحد كتبه المتصل بالموضوع أو بأحد الكتب من مكتبته العامرة أو بقائمة من الكتب التى يمكن للباحث الرجوع إليها.. وقد نلت ـ شخصياً ـ بعضاً من هذا الكرم الحاتمى حيث أهدى إلىّ عدداً غير قليل من كتبه القيمة.

ولعل أول ما نشر لفضيلته ذلك المقال الذى أرسله إلى مجلة «الرسالة» وهو لم يناهز السابعة عشر من عمره إذ يقول:

«على أنى لم أحرم فى المرحلة الابتدائية، من موقف شد عضدى، فقد أرسلت تعليقاً أدبياً لمجلة «الرسالة» على مقال لأستاذ كبير، فنشره الأستاذ الزيات دون إبطاء، نشر بالعدد الصادر فى ٢٢ يناير سنة ١٩٤٠م.

ظلت كلمات الأستاذ فريد وجدى التى تفيد ضرورة احتواء المقال على التحليل والتعليل والاستنباط يتردد صداها فى كيان الراحل العظيم حتى وقع بين يديه كتاب «محمد المثل الكامل» للأستاذ محمد أحمد جاد المولى بك فوجد فيه تطبيقاً لما قاله الأستاذ وجدى إذ يتبع كل حادث بالتحليل والاستنباط، ويواجه الخصوم بسيف لا يفل وبمنطق لا يدفع.. ثم علم بوفاته فكتب يرثيه بقصيدة مطلعها:

حنّ لليث عرينه
ما عسى يجدى حنينه
كلما ظنّ لقاءً
عاجلاً خابت ظنونه

فنشرها الأستاذ صالح عشماوى بمجلة «الإخوان المسلمون» وأرسل له مرحباً بكتاباته وبخاصة بشعره الإسلامى.

يقول فضيلة الدكتور البيومى ـ يرحمه الله ـ: «فواليت إرسال قصائدى تحت عنوان (على قبر حمزة)، و(هلال المحرم) و(إلى مدينة النور) و(جهاد المستضعفين) و(من وحى بدر).

• ومما يذكره ـ أيضاً ـ أنه كان مولعاً بالشاعر الكبير خليل مطران وكان يحفظ أكثر دواوينه، وتمنى لقاءه، مما دعاه أن يطلب من الأستاذ زكى مبارك أن يصحبه لزيارته، وكان هذا اللقاء مدعاة سرور

للشاعر الكبير حين علم أن أزهريًا ناشئًا يحفظ ديوانه ويجعله شاعره المفضل، ويذكر الدكتور البيومى - رحمه الله - أن هذه الجلسة الواحدة كانت بألف لما حوته من نصائح خالصة.

وكان الراحل العظيم محبًا للشيخ محمد الخضر حسين ومولعًا بكتاباته ومقالاته العلمية، كما يحب حديثه الهامس وقد توجه مرة إلى (جمعية الهداية الإسلامية) وكان رئيسًا لها، فوجد معه شيخًا وقورًا عرف أنه الأستاذ العلامة الشيخ عبدالقادر المغربى، نائب رئيس المجمع العربى العلمى بدمشق، فاستمع إلى العالمين الكبيرين يتناقشان فى تفسير حديث الرسول ﷺ «وإن منكم محدثين منهم عمر بن الخطاب» يقول فضيلته ـ رحمة الله عليه: «فأفاض المغربى فى ترجيح كلمة (محدث) على أنها اسم مفعول ورأى الشيخ الخضر أنها محدّث على أنها اسم فاعل وصال دليل على دليل وزاحم ترجيح ترجيحًا وأنا صامت أسمع، ولا أستطيع أن أتكلم، فوجدت العلامة المغربى ينظر إلىّ فى ابتسام ويقول: أى الرأيين ترجح؟ فقلت عجلاً: معاذ الله يا سيدى أيتناقش الخضر والمغربى فى الحديث واللغة، وأكون أنا مرجع الترجيح؟ أنا طالب بكلية اللغة العربية، فربت الرجل على كتفى، وقال مبتسمًا: من يدرى، قد تكون.

قالها المغربى: من يدرى؟ قد تكون.

ولقد كان.. لقد تخرج فى كلية اللغة العربية سنة ١٩٤٩م ثم تخرج فى معهد



الخضر حسين — زكى مبارك

التربية العالى، وعين مدرسًا وأنهى عهده الأول الذى أسماه عهد التكوين.

ثم واصل دراساته العليا حتى حصل على الدكتوراة من كلية اللغة العربية بمرتبة الشرف الأولى.

عمل مدرسًا ثم أستاذًا، فعميدًا لكلية اللغة العربية بالمنصورة، وكان مقررًا للجنة البلاغة، وعضوًا بلجنة الأدب والنقد لترقية الأساتذة بجامعة الأزهر.

كما عمل أستاذًا بالجامعات العربية عدة سنوات، واشترك فى مؤتمرات علمية فى عواصم مختلفة بالدول العربية، وأشرف على كثير من الرسائل الجامعية، وشارك فى مناقشة كثير منها.

وآخر ما تولاه أن عمل رئيسًا لتحرير مجلة الأزهر، وعضوًا بمجمع البحوث الإسلامية. وقد نال الأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيومى جوائز أدبية عديدة منها:

- جائزة وزارة التربية والتعليم سنة ١٩٥٨م، عن المسرحية الشعرية (ملك غسان).
- جائزة شوقى بالمجلس الأعلى للفنون والآداب بمصر سنة ١٩٦١م، عن المسرحية الشعرية (انتصار).
- الجائزة الأولى بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، عن المسرحية الشعرية (فوق الأبوة) سنة ١٩٦٢م.
- جائزة مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٦٣م، عن ديوانه الشعرى «صدى الأيام».
- الجائزة الأولى بمجمع اللغة العربية القاهرة سنة ١٩٦٤م، فى الدراسات الأدبية عن كتابه «الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير».
- جائزة مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٦٥م فى التراجم الأدبية عن حياة «محمد توفيق البكرى».
- جائزة مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٧٢م، عن المسرحية الشعرية «بأى ذنب».

والدكتور محمد رجب البيومى كاتب سخى العطاء: أثرى المكتبة العربية بمؤلفات شتى فى مجالات متنوعة.

- ففى الدراسات القرآنية له: «البيان القرآنى» الذى نقدمه فى باب «قراءة فى كتاب» فى آخر هذا القسم، و«خطوات التفسير البيانى» أصدرهما مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، و«التفسير القرآنى» أصدرته المؤسسة العربية الحديثة.
- وفى مجال السيرة والسنة: ألف «البلاغة النبوية» أصدرته دار الوفاء للنشر وهو رسالته للدكتوراة. و«فى ظلال السيرة النبوية» أصدرته المؤسسة العربية الحديثة. و«السيرة النبوية عند الرواد المعاصرين مناقشات وردود» أصدرته الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر.
- أما التاريخ الإسلامى فقد حظى بجهد كبير من الدكتور البيومى: إذا أصدر عددا كبيرا من المؤلفات التاريخية منها: «صفحات هادفة من التاريخ الإسلامى»، و«من شرفات التاريخ»، و«من القصص الإسلامى» «جزءان» المؤسسة العربية الحديثة. و«الأزهر بين السياسة وحرية الفكر» دار الهلال كما أصدره مجمع البحوث الإسلامية.
- وللدكتور محمد رجب البيومى عناية كبيرة بأعلام الإسلام وعلمائه، فكشف عن جهودهم العلمية، وجهادهم ضد الباطل وتصديهم لأراجيف المرجفين وذلك فى مؤلفاته: «علماء فى وجه الطغيان» ـ «مع الأبطال» ـ «ابن حنبل» عن مجمع البحوث بالأزهر، «مصطفى صادق الرافعى فارس القلم تحت راية القرآن»، «محمد متولى الشعراوى جولة فى فكره الموسوعى الفسيح»، «أحمد أمين»، «محمد فريد وجدى»، «هارون الرشيد»، «أحمد حسن الزيات بين البلاغة والنقد» أصدرته دار الأصالة بالرياض، «من أعلام العصر»، كيف عرفت هؤلاء» أصدرته الدار المصرية اللبنانية، ثم إن له من وراء ذلك كتابا جامعا هو النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين» ٦ أجزاء، دار القلم ببيروت.

● والدكتور محمد رجب البيومى رائد فى الدراسات الإسلامية، ومن مؤلفاته فى هذا المجال: «فى ميزان الإسلام» «جزءان» و«من منطلق إسلامى» «جزءان» و«مجالس العلم فى حرم المسجد»، و«المثل الإسلامية»، و«قضايا إسلامية مناقشات وردود» «جزءان» دار الوفاء بالمنصورة.

وله فى الدراسات الأدبية والنقدية باع طويل، فألف كتبا منها «الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير»، و«النقد الأدبى للشعر الجاهلى» أصدرهما المجلس العلمى لجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض. و«دراسات أدبية أصدرته دار السعادة بمصر، و«نظرات أدبية» «٤ أجزاء» أصدرته دار زهران بمصر. و«حديث القلم»، و«قطرات المداد» أصدرهما النادى الأدبى بجدة، و«بين الأدب والنقد» أصدرته الدار المصرية اللبنانية. ولم يقف نتاجه الأدبى عند الدراسة الأكاديمية وحدها، بل تخطاه إلى الإبداع الأدبى قصة وشعرا ومسرحية.

● فمن مسرحياته: «انتصار»، و«فوق الأبوة» فى كتاب واحد مطبعة السعادة، و«بأى ذنب»، و«ملك غسان» «مسرحية شعرية» أصدار مكتب الجامعات للنشر.

● ومن دواوينه: «صدى الأيام»، و«حنين الليالى» مطبعة السعادة. و«من نبع القرآن»، و«حصاد الدمع» دار الأصالة بالرياض.

● كما أصدر قصصا للأطفال، فى أجزاء متوالية: أصدرتها دار الأصالة، ودار القاسم بالرياض.

المغامر الشجاع، الهمة العالية، مؤامرة فاشلة، الفارس الوفى، يوم المجد، دجال القرية، الحبل الأسود، الفتاة المثالية، إلى الأندلس، رحلة الخير، الله معى، بطل شيبان، إلى الإسلام، لست وحدى، حكمة الله، الأصل الطيب.. وغيرها

وقد تدفقت مقالته عبر أنهر الصحف والمجلات، فكتب فى مجلات:

الأزهر، الأدب الإسلامى، الأديب، الأقلام، الثقافة، الحج، رابطة العالم الإسلامى، الرسالة، الضياء، علامات، الفيصل، الكتاب، المجلة العربية، منار الإسلام، المنهل، الهلال.. وغيرها.

لعل هذا الثراء الفكرى العريض.. يكون فيه التصديق لنبوءة ذلك الرجل الفذ العلامة الشيخ عبدالقادر المغربى حين ربت على كتف الشاب محمد رجب البيومى قائلاً من يدرى.. قد تكون؟!

رحم الله العالم الجليل الذى فاضت روحه إلى بارئها فى صباح يوم السبت ٢ من ربيع الأول ١٤٣٢هـ الموافق الخامس من فبراير عام ٢٠١١م عن عمر يقارب التسعين عاما وقد دفن فى الكفر الجديد حيث مسقط رأسه نسأل الله أن يتغمده بوافر رحمته وبتكريم يليق بكرمه العميم وأن يلهم أهله الصبر والسلوان

و﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾

(البقرة: ١٥٦)

إِختَرتَ يَومَ الهَولِ يَومَ وَداع

لأمير الشعراء/ أحمد شوقى

فى لقاء مع الدكتور محمد السليمانى أستاذ الأديان بجامعة روما - أحد المحبين لأدب الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى ومن أكثر العارفين بأعماله العلمية والإبداعية - تعجب الرجل من تأخر تكريم الدكتور البيومى وهو من قدم للأمة الإسلامية ما لم يقدمه غيره، وأنه لابد من العمل على الإسراع نحو ترشيحه للحصول على إحدى جوائز الدولة التقديرية وعبر عن شوقه للقائه، وكم أسعدنى هذا الحديث لشعورى بأن الرجل قد يكون صاحب المبادرة المنتظرة، وفى لقائى الأخير مع الدكتور رجب البيومى أخبرته بما دار بيننا، وكنت أظن أن ذلك سيكون مبعث سعادته، ولكن كلماته جاءت هادئة ثابتة، «إننى أنتظر تكريم الله يا عادل»، فلم أعقب.

ومرت الأيام وجاءنى نعيه فى ظروف قاسية لفت مصر من أقصاها إلى أقصاها، لقد رحل الرجل فى صمت دون التكريم اللائق به من محبيه.. فهنيئا له تكريم الله وهو تكريم وأى تكريم، لقد شابه هذا الرحيل الصامت رحيل الأديب الكبير مصطفى لطفى المنفلوطى، ذلك الرحيل الذى جعل أمير الشعراء أحمد شوقى يرثيه بهذه القصيدة التى نقدمها لقرائنا نرثى بها فقيدنا الغالى.

إِختَرتَ يَومَ الهَولِ يَومَ وَداعِ ... وَنَعاكَ في عَصفِ الرِياحِ الناعي

هَتَفَ النُعاةُ ضُحىً فَأَوصَدَ دونَهُم ... جُرحُ الرَئيسِ مَنافِذَ الأَسماعِ[1]

(١) كانت وفاة المنفلوطي تتزامن مع حادث الاعتداء على الزعيم سعد زغلول.

من مات في فزع القيامة لم يجد   قدماً تُشَيِّعُ أو حفاوة ساعي
ما ضرّ لو صبرت ركابُك ساعةً   كيف الوقوفُ إذا أهاب الداعي
خلّ الجنائز عنك لا تحفل بها   ليس الغرورُ لميّت بمتاع
سر في لواء العبقريّة وانتظم   شتّى المواكب فيه والأتباع
واصعد سماء الذكر من أسبابها   واظهر بفضل كالنهار مُذاع
فُجع البيانُ وأهلُه بمصوّرٍ   لبق بوشي المُمتعات صَناع
مرموق أسباب الشباب وإن بدت   للشيب في الفود الأحمّ رواعي
تتخيّلُ المنظوم في منثوره   فتراهُ تحت روائع الأسجاع
لم يجحد الفصحى ولم يهجم على   أسلوبها أو يُزْرِ بالأوضاع
لكن جرى والعصر في مضمارها   شوطاً فأحرز غاية الإبداع
خُرُّ البيان قديمُهُ وجديدُهُ   كالشمس جدّة رقعة وشعاع
يونانُ لو بعثت بهومير لما   خسرت لعمرك صفقةُ المُبتاع
يا مرسل النظرات في الدنيا وما   فيها على ضجر وضيق ذراع
ومرقرق العبرات تجري رقّة   للعالم الباكي من الأوجاع
من ضاق بالدنيا فليس حكيمها   إنّ الحكيم بها رحيبُ الباع
هي والزمانُ بأرضه وسمائه   في لجّة الأقدار نضوُ شراع
من شذّ ناداهُ إليه فردّهُ   قدرٌ كراعٍ سائق بقطاع
ما خلفهُ إلا مقودٌ طائعٌ   مُتلفّتٌ عن كبرياء مُطاع
جبّارُ ذهن أو شديدُ شكيمة   يمضي مضيّ العاجز المنصاع

من شَرّهِ الدنيا إليك فلم تجد   في المُلك غير مُعذّبين جياع
أبكلّ عين فيه أو وجه ترى   لمحاتِ دمع أو رسوم دماع
ما هكذا الدنيا ولكن نُقلةٌ   دمعُ القرير وعبرةُ المُلتاع
لا الفقرُ بالعبرات خُصّ ولا الغنى   غيرُ الحياة لهُنّ حُكمُ مشاع
ما زال في الكوخ الوضيع بواعثٌ   منها وفي القصر الرفيع دواعي
في القفر حيّاتٌ يُسيّبُها به   حاوي القضاء وفي الرياض أفاعي
ولرُبّ بؤس في الحياة مُقنّع   أربى على بؤس بغير قناع
يا مصطفى البُلغاء أيّ يراعة   فقدوا وأيّ مُعلّم بيراع
اليوم أبصرت الحياة فقل لنا   ماذا وراء سرابها اللمّاع
وصف المنون فكم قعدت ترى لها   شبحاً بكلّ قرارة وبقاع
سكن الأحبّةُ والعدى وفرغت من   حقد الخصوم ومن هوى الأشياع
كم غارة شنّوا عليك دفعتها   تصلُ الجهودُ فكنّ خير دفاع
والجهدُ موت في الحياة ثمارُهُ   والجهدُ بعد الموت غيرُ مضاع
فإذا مضى الجيلُ المراضُ صدورُهُ   وأتى السليمُ جوانب الأضلاع
فافزع إلى الزمن الحكيم فعندهُ   نقدٌ تنزّه عن هوى ونزاع
فإذا قضى لك أنت من شُمّ العُلا   بثنيّة بعُدت على الطُلّاع
وأجلُّ ما فوق التراب وتحتهُ   قلمٌ عليه جلالةُ الإجماع
تلك الأناملُ نام عنهُنّ البِلى   عُطّلن من قلم أشمّ شُجاع
والجُبنُ في قلم البليغ نظيرهُ   في السيف منقصةٌ وسوءُ سماع

عرفت الدكتور محمد رجب البيومى منذ عشرة أعوام كاملة وعلى وجه التحديد فى صيف سنة ٢٠٠١ ومنذ ذلك الوقت وشعرت أننى أمام قامة أدبية شامخة تقف على قدم المساواة بين أدبائنا العظماء من أمثال الرافعى والعقاد والمنفلوطى وطه حسين وعبد الرحمن شكرى والمازنى وأستاذه وصديقه الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة التى شهدت بزوغ نجم الدكتور رجب كاتبا من أبرز كتابها منذ بداية الأربعينيات من القرن الماضى.

الدكتور محمد رجب البيومى.. كما عرفته

للأستاذ الدكتور/ حمدى فتوح والى

وكما يعجب المرء كثيرا أمام المفارقات التى لا يجد لها تفسيرا.. كنت أتساءل فى عجب كلما نظرت إلى الساحة الأدبية من حولي فأرى العابثين واللاهين من اللاعبين والفنانين ومن يدعون الأدب قد ارتفعوا فى سمائنا نجوما وأقمارا، بينما رجل فى قامة الدكتور رجب لا يأخذ مكانه اللائق فى حياتنا بل لا يكاد يعرفه أحد من أبناء هذا الجيل حتى أشيع عنه بين تلاميذه وأحبابه فى المملكة العربية السعودية منذ خمسة أعوام أنه قد توفاه الله.

وقد استمعت فى أسف وحسرة إلى الدكتور رجب وقتها وهو يطلعنى على نعيه منشورا فى بعض الجرائد السعودية وبجانب النعي قصاصة أرسلها إليه أحد أصدقائه من الأدباء المصريين وهو أديب قبطى يقول له فيها مواسيا «الحمد لله يا دكتور رجب أن الله أعلمك قبل موتك كيف يحتفى بك أبناؤك وأحبابك عندما تموت.. فلك الآن أن تموت قرير العين بعد أن لمست هذا الثناء العاطر وهذا المديح الكريم».

وليت الأمر كان كذلك عند موت الدكتور فقد حضرت جنازته فى قريته فلم أجد بين المشيعين أحدا من تلاميذه وأبنائه الذين يعدون بالمئات بل بالألوف من طلاب الأزهر وأساتذته وإن كنت قد رأيت أهل قريته يودون لو حملوه بين أعينهم وفى حبات قلوبهم.

ولقد أتاحت لى الأقدار الطيبة ما لم تتحه لكثير من تلامذة الدكتور وأحبابه عندما اتفقت رغبته مع رغبتى فى أن أصحبه بسيارتى فى نزهة أسبوعية بين المزارع التى تحيط بمدينة المنصورة عصرا أو فى شوارعها وعلى ضفاف نيلها الذى يبدو فى الليل «كرنفالا» أسطوريا ساحرا عندما تنعكس الأضواء المنبعثة من النوادى الليلية على صفحات النيل فتبدو كقطع من اللؤلؤ المتكسر على الأمواج الهادئة فتبهر العين وتبهج القلب وكثيرا ما كان الدكتور يستوقفنى أمام هذا المشهد الممتع ليملأ عينيه من هذا الجمال مرددا عبارة تبدو كبيت من الشعر يقول فيها:

ومن ذا يكره الدنيا وفيها
تطالعه الطبيعة بابتسام

ثم نستأنف المسير فإذا نسيت وأسرعت قليلا استمهلنى قائلا: «تمهل يا حمدى فإن المشي الآن غاية ووسيلة» فأعود إلى التهادى المريح ولأن هذه المشية تكررت واستمرت طويلا فقد كانت فرصة لأعرف الدكتور عن قرب، وكثيراً ما حكيت لزملائى من تلامذة الدكتور من أساتذة الجامعة عن هذه اللحظات فيقولون لقد جلسنا معه كثيراً لكنا لم نره ينفتح معنا فى مثل هذه الأحاديث ـ وأنا أصدقهم فى ذلك ـ لأن الدكتور لم يكن يستجيب للجلسات المعدة، والمناسبات المقصودة مهما كانت مهمة لأنه يكره التكلف ويزهد أشد الزهد فى طلب الشهرة وحب الظهور. ومازلت أذكر إلحاح القنوات الفضائية عليه لكى يظهر على بعض الشاشات لكنه رفض أشد الرفض. وعندما ألحت عليه قناة المجد الفضائية، وتوسلوا إليه ببعض أصدقائه من أساتذة الجامعة السعوديين قبل منهم شريطة أن يأتوا هم إلى منزله فى المنصورة، وبالفعل نزلوا على إرادته وجاءوا إلى المنصورة، فسجلوا معه ساعة، وعندما طلبوا حلقة أخرى اعتذر لهم، برغم أن الحلقة الواحدة كانت مقابل ألفى جنيه (٢٠٠٠ جـ) وعندما راجعته فى ذلك، قال: لم أجد فى نفسى انشراحا لذلك، ولعل هذا الزهد فى الظهور هو الذى أعانه على الأنس بوحدته، والتمتع بالعيش مع أجمل ما جادت به قرائح الشعراء على مدى عصورنا الأدبية. ويكفى أن تدخل إلى غرفة المكتب المتواضعة التى شهدت أعظم إبداعاته وأروع مقالاته لتشعر بالدهشة والعجب عندما ترى جدران الغرفة من جهاتها الأربع قد غطيت بصور عمالقة السياسة والفكر والأدب والثقافة بما يزيد عن

خمسمائة صورة، وقد سألته عن الغرض من وضع هذه الصور فقال: إن كل صورة من هذه الصور تمثل لدىّ استرجاعاً لأعظم ما قدم صاحبها للبشرية من إبداع. وبرغم هذه الوحدة الطويلة، لم أسمعه يشكو الفراغ والملل، ولكنى سمعته كثيراً يشكو من زيارة معظم زائريه خاصة ممن لا يملكون مواهب أدبية أو ثقافة واسعة. والذين يحضرون بغير موعد ولغير حاجة محددة إلا مجرد قضاء وقت مع الدكتور وهم يحسبون أنهم يخففون عليه من ألم الوحدة كما يتوهمون. وكيف يشكو الدكتور من الفراغ وهو يكتب فى كل أسبوع أكثر من مقال ويكتب فى كل شهر لأكثر من سبع مجلات فهو يكتب للأزهر ومنبر الإسلام والمنهل والفيصل والهلال والتصوف وصوت الأزهر وغير ذلك فكيف يأتيه الفراغ؟.

ومن أبرز السمات الشخصية التى تلمسها فى شخصية الدكتور بجانب سعة علمه وعفة نفسه وعلو همته، وزهده فيما يتكالب عليه الناس من الشهرة وحب الظهور سمة الوفاء، وسأذكر لذلك موقفين: أولهما يعرفه عامة المثقفين فى مصر وهو وفاؤه لزوجته التى انتقلت إلى جوار الله وهى شابة فى مقتبل عمرها، تاركة له ستة من الأطفال أخراهن كانت رضيعة وكان الرجل أحوج ما يكون إلى من يحمل معه هذا العبء الثقيل، لكنه طوى حزنه فى قلبه، وعبر عن لوعته وشجنه، بما يملكه الأديب المرهف، فخرجت هذه الأحزان دمعا يسيل به القلم فيقدم للأمة أجمل وأبدع وأصدق ما شهده تاريخنا الأدبى من شعر الرثاء، حتى بلغ هذا الشعر ديوانا كاملا، مطبوعا باسم «حصاد الدمع». فكان وفاؤه ظاهرة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً، وقد ظلت صورة هذه الزوجة معلقة أمام سريره على مدى أربعة عقود كاملة لتكون أول ما يقع عليها بصره عند صحوه، وآخر ما يغمض عليها جفنه عند منامه إلى أن أغمض عينه الاغماضة الأخيرة، حافظاً سر هذا الميثاق الغليظ الذى أعطاه إياها.

وأما الموقف الثانى الذى لا يقل روعة وإعجاباً عن سابقه فهو موقف لا يعرفه إلا المقربون منه قرباً شديداً برغم ما نشرته عنه الصحف وقتها: فقد حدث أن قرأ الدكتور مقطعاً شعرياً لأميرة إيرانية من أسرة «بهلوى» فأعجب بالأبيات ونشر إعجابه فى نفس الصحيفة.

ولما كانت أبيات الدكتور تسيل رقة وعذوبة وثناء، فقد أعجبت بها الشاعرة الأميرة وأرسلت تطلب عنوانه من الصحيفة، وبدأت تخصه بكتاباتها وعواطفها، ولم يبخل عليها الدكتور برقيق شعره وذوب عواطفه، حتى تكونت لديه مجموعة من الرسائل المفعمة بالأشواق والوجد وعندما قامت الثورة الإيرانية، أرسلت السفارة مندوباً إلى الدكتور رجب يساومه على شراء تلك الرسائل لتكون ضمن حملة التشنيع على الأميرة وعلى أسرة الشاه فأبى الدكتور

ذلك بشدة فرفع المندوب سقف المساومة إلى نصف مليون دولار، فلم يزدد الدكتور إلا رفضاً وتمنعاً قائلا: «إن العواطف والقيم أغلى من كل كنوز الأرض» وقد اطلعنى الدكتور على هذا الخبر منشوراً فى جريدة الأخبار المصرية وبجانبه صورة له، ومازلت احتفظ بها لدىّ.

والسمة الثانية التى ميزت شخصية الدكتور «رحمه الله» هى سمة التسامح والاعتدال والوسطية. فقد عهدته فى أشد الأوقات اضطراباً، وفى أعظم الأوقات حرجاً، لا يتحول إلى رد فعل للأحداث وإنما يتناول الأمور بحكمة وينظر إليها بمعيار الشرع والعقل دون تحيف أو تحيز وعندما وقعت أحداث إيران ثم برز حزب الله وكثر الكلام عن الشيعة والسنة، سألت الدكتور عن الشيعة ورأيه فيما يقال عن المذهب الجعفرى، وما يرى من أفعال عوامهم فى مناسبات عاشوراء وغيرها فقال أما المذهب الجعفرى فهو مذهب معتد به بين المذاهب الإسلامية، وإن بدت بيننا وبينهم خلافات، فإن أوجه التقارب أكثر وأعمق من هذه الخلافات والأولى بالمسلمين أن يجتمعوا فيما اتفقوا عليه ويعذر بعضهم بعضاً فيما اختلفوا فيه، وأما ما يفعله عوامهم فإن عند عوام السنة ماهو أخطر من ذلك. ولا تصلح أفعال العوام لتكون مقياساً على قبول مذهب أو رده، وكان من أشد الناس تحمساً لمحاولات التقريب بين السنة والشيعة، وكانت له صداقات حميمة مع المعتدلين من رموزهم وفقهائهم. ويؤكد سمة الاعتدال والتسامح عند الدكتور ما لمسته من شعوره نحو المخالفين له فى الدين أو فى الرأى وكانت له صداقات حميمة ومتينة مع كثير من الأدباء الأقباط، وكان كثير الثناء على شعر مطران ويفضله دائماً على شعر حافظ إبراهيم وربما فضله من بعض جوانبه على شعر شوقى.

وقد اطلعت على إحدى قصائد الرثاء فى ديوانه عن الشيخ «حسن البنا» ورأيت فيها صدق العاطفة وحرقة الحزن، وعندما سألته عن مناسبتها قام فأحضر لى مجموعة من المجلدات تضم جميع ماصدر من أعداد مجلة الإخوان.. ولا يخلو عدد منها من قصيدة له. فكانت شاهداً آخر على حياده وانصافه واعتداله، وعدم خضوعه للأهواء والتيارات العاصفة مهما كانت قوتها - رحم الله أستاذنا الجليل، ورفع درجته فى عليين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. وحسن أولئك رفيقا.

❊❊❊

لله درك يا أبا حسام، فقد ودعتنا أو ودعناك فى ظروف عصيبة، شملت البلاد من أقصاها إلى أقصاها، وقد كانت مصر وأحوالها همَّك الأول، ولعلك الآن تنعم بما آلت إليه أحوالها بعد تلك الأهوال، التى كادت تعصف بكل شىء -لا قدَّر الله- فالله تعالى قد ضمن لمصر الحماية والأمن فى قرآنه الكريم، بل وأمر كل من يريد أن يلوذ بالأمن والأمان عليه أن يتوجه إليها فقد جاء فى القرآن الكريم من سورة يوسف:

﴿ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾

(الآية: ٩٩)

الدكتور محمد رجب البيومى
سبعون عاما من العطاء الفكرى والأدبى

للأستاذ الدكتور/ محمد فتحى فرج بيومى
كلية العلوم - جامعة المنوفية

لله درك يا أبا حسام.. ما أشبه ظروف رحيلك بظروف رحيل زعيم من زعماء النهضة الإسلامية والأدبية هو السيد مصطفى لطفى المنفلوطى رحمه الله -والذى تحدثت عنه كثيرا فى كتبك ومقالاتك فقد شُيع الرجل أيضا يوم اعتدى على زعيم الأمة سعد زغلول، فانشغل الناس بسعد ولم يتح للمنفلوطى التشييع المناسب الذى يستحقه ويليق بمقامه حتى إن شوقيا -رحمه الله- قد عبَّر عن ذلك شعرا فقال:

اختـــرت يوم الهــول يوم وداع
ونعــاك فى عـصـف الرياح الناعى
هتف النعاة ضحى فأوصد دونهم
جـرح الرئيس منافـذ الأسـماع
من مات فى فزع القيامة لم يجد
قـدمـا تشـيع أو حفـارة سـاع

ولكن ما يعزينا فى هذا الوداع الهادئ، أنه يتمشى مع طبيعته الهادئة الوديعة وتواضعه الجم، وإنكاره للذات، وإيثاره المعهود للجوهر والمضمون والموضوعية وتغليبه للمصلحة العامة وابتعاده عن التزاحم فى الصفوف الأمامية، وكل ما كان يعتبره من الأمور الشكلية التى لا تقدم ولا تؤخر.

ومع كل هذا أشهد أنه لم يأخذ حظه بالمقارنة إلى كثيرين جدا ممن هم دونه قيمة وقامة وقدرا وعلما وعملا وفضلا، فلم يفز مثلا بجائزة الدولة التقديرية فى الآداب مع إنه تجاوز بمراحل كثيرين ممن فازوا، بها كما لم يحظ بعضوية مجمع اللغة العربية وهو من هو فهما لدقائق العربية وأسرارها، وبلاغة وبيان كنوز تراثها من القديم والمعاصر والحديث.

بل إن إدارة مجلة «الأزهر» دأبت بتعليمات مشددة منه -رحمة الله عليه- على رفض نشر أية مقالات حوله أو حول أدبه وكتبه، ظنا منه أن هذا ربما يدخل تحت ما يعرف باستغلال النفوذ لكونه رئيسا لتحرير هذه المجلة العريقة وأشهد أيضا أن لى تجربة شخصية فى هذا الصدد يشهد عليها الأستاذ الفاضل مدير التحرير.

الدكتور محمد رجب البيومى -رحمه الله وأسكنه فسيح جناته- قامة سامقة فى مجالات شتى، فمن الدراسات الأدبية والبلاغية واللغوية إلى الإنتاج الأدبى بأنواعه المختلفة من قصة ورواية ومسرحية فضلا عن ريادته وتربعه على عرش المقال الأدبى لأكثر من ستين عاما، كما شمل عطاؤه العلمى أيضا الدراسات القرآنية، فى مجالات الإعجاز والبيان القرآنى والرد على المستشرقين المارقين من الذين خاضوا فى القرآن الكريم بغير حق كما تطرق أيضا إلى الترجمة الأمينة الرصينة الوافية لأعلام النهضة الإسلامية والأدبية، ورموز الفكر والأدب والإسلام والحضارة العربية بشتى أطيافها من المصريين والعرب والمسلمين فى موسوعة له من خمسة أجزاء فضلا عن فصول أخرى كثيرة لم يشملها هذا الكتاب، نشرها سواء فى المجلات الثقافية المختلفة أو كمقدمات لكتب كثيرة لهذه الأعلام والشخصيات المرموقة سعى إلى نشرها شهريا كملاحق لمجلة الأزهر.

هذا إضافة إلى إنتاجه الشعرى الباذخ فى مجالاته المختلفة من دواوين الشعر التقليدى والدينى والملحمى أو المسرحى والذى نال إعجاب القُراء والمؤسسات الرسمية المحترمة كمجمع اللغة العربية وغيره وقد حظى بجوائز أدبية عن معظم هذه الأعمال. كما ألف أيضا مجموعة هائلة من القصص القصيرة والطويلة نال عن بعضها الجوائز والتقدير الأدبى.

النشأة والتدرج العلمى

ولد الدكتور البيومى فى عام ١٩٢٣ فى قرية «الكفر الجديد» التابعة لمركز المنزلة بمحافظة الدقهلية بدلتا مصر. وبعد أن أنهى دراسته قبل الجامعية فى المعاهد الأزهرية نال

عالمية الأزهر من كلية اللغة العربية عام ١٩٤٩، ثم حصل على دبلوم معهد التربية العالى، ليعمل مدرسا للغة العربية بمؤسساتنا التعليمية قبل الجامعية كعمله مدرسا بالمدارس الثانوية بالإسكندرية عام ١٩٤٨ ثم مدرسا أول بدار المعلمات بالفيوم وغيرها ثم نال الرجل درجة الماجستير فى العام ١٩٦٥ عن رسالته حول «الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير» ودرجة الدكتوراه فى الأدب والنقد عن أطروحته بعنوان: «البيان النبوى» فى العام ١٩٦٧م.

وقد عُين بجامعة الأزهر إثر حصوله على درجة الدكتوراه مدرسا بقسم اللغة العربية، وارتقى بها حتى نال درجة الأستاذية فعمل عميدا لكلية اللغة العربية بالمنصورة، التابعة لجامعة الأزهر لمدة عشر سنوات فأستاذا متفرغا فأستاذا غير متفرغ فى قسم اللغة العربية كما عمل أستاذا بجامعة الإمام محمد بن سعود بالمملكة العربية السعودية.

وقد اختير رئيسا لتحرير مجلة «الأزهر» ليقفز بها قفزات وثابة نحو تجديد شبابها والاضطلاع بمسئولياتها الجسام للقيام بنهضة فكرية ودينية وأدبية شاملة، شكلا ومضمونا، مما لفت الانتباه نحو هذا التجديد الحميد وأغرى شقيقاتها من المجلات الأخرى، التى تعمل فى حقل الإعلام الدينى، سواء فى مصر أو البلاد العربية بالتطوير والتجديد المفيد للقارئ والمجتمع على حد سواء.

الكتابة.. والتأليف هاجسه الأول

والجدير بالذكر أن نسجل هنا أن الكتابة كانت باعثا قويا لديه وأمرا مُلحا عليه، دعاه لأن يُراسل أشهر مجلة أدبية ويكتب فيها وهو لم يزل بعد فى السابعة عشرة من عمره فنشر له الأستاذ محمد حسن الزيات فى مجلته «الرسالة» التى كان يستكتب فيها كبار كتاب العصر كالعقاد وطه حسين وأحمد أمين وزكى مبارك وتوفيق الحكيم وغيرهم من أقطاب الأدب المبرزة وأساطينه البارزة، فظهر له فى العدد ٣٤٢ سنة ١٩٤٠ خاطرة بعنوان: «معنى بيت وإعرابه» وهو مقال صغير حول شرح بيت من الشعر للأعشى مع بيان محاسن الجمال فيه [1] ثم توالت مقالاته المطولة فيها.

وعلى هذا فقد بدأ الدكتور البيومى نشاطه الأدبى والفكرى مبكرا حيث بدأ الكتابة فى أعرق المجلات الثقافية والأدبية التى كانت تصدر فى مصر والبلاد العربية ولا يزال بعضها يصدر حتى الآن، فانتظمت كتاباته منذ الخمسينيات من القرن الماضى فى مجلات «الرسالة» فى إصداريها القديم والحديث و«الثقافة» فى إصدارتها المتتالية و«الأزهر» و«الهلال» و«المنهل» السعودية التى ربطت الصداقة بينه وبين رئيس تحريرها ومجلس إدارتها، فكان الكاتب الوحيد الذى ينشر فيها مقالين، أحدهما باسمه الذى تعرفه به، والثانى بكُنيته

(أبو حسام) ونشر أيضا فى مجلة «الأديب» اللبنانية، كما كتب أيضا فى مجلات «التصوف» و«منبر الإسلام» و«الكاتب» و«البيان» و«الجديد» و«المنار الجديد» ومجلة «الفيصل» السعودية و«الدوحة» القطرية فى إصدارها القديم، حينما كان يرأس تحريرها الأستاذ رجاء النقاش -رحمه الله- كما كتب فى «الوعى الإسلامى» الكويتية و«منار الإسلام» حينما كانت تصدر بالإمارات العربية إلى عهد قريب ومجلة «الأدب الإسلامى» التى تصدرها «رابطة العالم الإسلامى» وصحيفة «صوت الأزهر» التى ظهر فيها آخر مقال له (بعد وفاته فى ١٨ فبراير ٢٠١١م) فى عموده «نظرات أدبية» تحت عنوان: «عاقبة أليمة» يورد فيها أقاصيص قصيرة يُعبر فيها بشكل أدبى ورمزى ليسوق من خلالها آراءه حول ما كان يحدث من ثورة عارمة فى «ميدان التحرير».

التزامه للحق فى كتاباته وآرائه

ربما كان وراء ابتعاده عن الأضواء أو بالأحرى انحسار الأضواء عنه هو التزامه للحيدة وإيثاره للحق فى كل ما يكتب ويرى من آراء وابتعاده عن الزيف والمجاملات الزائفة واللهاث وراء المسئولين على كافة المستويات، بهدف الانتفاع أو الحصول على منصب أو جاه أو حظوة أو مكسب غال أو رخيص ومن ثم لم يؤثر عنه أنه كان من «شلة» هذا أو من مجموعة ذاك، ولما أن أصبح ممن يمكن أن يكون له رجال وأتباع ومريدون لم يسمح لنفسه أيضا بهذا.

أما على المستوى العلمى والأدبى فكان لا يكتب ويوثق إلا ما يرى أنه الحق حتى وإن تعارض ذلك مع ما يراه بعض أصدقائه ومعارفه، ومن هذا ما جاء فى آخر الفصل الذى كتبه عن الأستاذ العلامة أحمد محمد شاكر فى كتابه «النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين» بالجزء الرابع بعد أن أثنى على الرجل وعدّد مناقبه ثم قال: وإذا كنت قد خالفت الأستاذ شاكر فى تشدُّده المتربص بالدكتور هيكل وبالأستاذ العقاد فلأن ما أنشره الآن بمجلة «الثقافة» الغراء سأسجله بالجزء الرابع من كتابى: «النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين» وقد سبق الحديث فى الجزء الثالث عن هيكل والعقاد سبق الحديث عن دوريهما الأدبى فى إعجاب واثق ولابد من الدفاع عنهما حين يفرض الحق الملح على الكاتب أن يجهر بما يرى أنه الصحيح عن إخلاص لا يشوبه تعنت أو افتيات [2].

هذا هو الرجل وهذه هى معاييره وموازينه حينما يرى الصواب فإنه يتحراه ولا يحيد عنه لمجاراة صديق أو مجاملة عابرة، أو موقف يمكن أن ينتهى وتنقضى ظروفه على أية حال

(١) د.محمد رجب البيومى (١٩٤٠): مجلة الرسالة - عدد ٣٤٢ - السنة الثامنة -ص١٥٨-١٥٩.

(٢) د.محمد رجب البيومى (١٩٨٤): النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين - الجزء الرابع - سلسلة البحوث الإسلامية الصادرة عن مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة - السنة الخامسة عشرة - الكتاب الثالث - ص١٤٠.

كانت .لهذا كان يحز فى نفسه مواقف طلاب المصلحة، الذين يتزلفون ويتقربون، وربما يصانعون وينافقون ويظهرون غير ما يُبطنون حتى إذا انقضت مصالحهم ظهروا على حقيقتهم وكشروا عن أنيابهم وأداروا لك ظهر المجن، وفيهم يقول شعرا تحت عنوان دالّ يصف أحدهم خير وصف فى حال الحاجة والاستغناء أى حين يلح فى الطلب وحين يكف عنه وهو «نابح» فيقول:

تأملت من يسعى إلىّ فلم أجد
سوى مجتد يدى له البر مانح
فإن عزّ واستغنى تناءى كأنما
توقع منى الزهو حين أصافح
ولست أخا منْ فينكر مشهدى
ولكن عقوق أكدته الملامح
تؤم كلاب الحى بيتى جوّعا
فإن شبعت لم يطرق الباب نابح
إخال به غيظا لأنى أعنته
فهل كنت أجفوه، فتشفى الجوانح؟
شمولك بعض الناس بالعطف باعث
أساها فتخفيه وليست تصارح [٣]

من مؤلفاته

من الصعوبة بمكان حصر مؤلفات الدكتور البيومى الكثيرة، فالرجل غزير الإنتاج متنوعه وقد نشر إنتاجه الغزير فى مصر فى دور نشر مختلفة وفى البلاد العربية كلبنان والمملكة العربية السعودية وغيرها ولم يكن يذيل مؤلفاته كغيره من كتاب كثيرين باستعراض مؤلفاته الكثيرة لهذا يصعب حصر هذه المؤلفات.

ويمكن تصنيف هذه المؤلفات على النحو التالى:

مؤلفات إبداعية: وتنتظم ضمن هذه المجموعة دواوين الشعر، ومنها: صدى الأيام - حنين الليالى - من نبع القرآن - حصاد الدمع (وهو ديوان كرّسه لرثاء زوجته - رحمها الله).

ومن مسرحياته الشعرية: انتصار - فوق الأبوة - ملك غسان - بأى ذنب.

أما قصصه الإبداعى والتاريخى فمنه: فاتنة الخورنق - فى قصور الأمويين - الجبل الأسود - فتى العرب - المهمة العالية - مؤامرة فاشلة - المغامر الشجاع - يوم المجد - الفارس الوفى - دجال القرية - الفتاة المثالية - رحلة الخير - بطل شيبان - إلى الأندلس - الله معى - إلى الإسلام - الأصل الطيب - حكمة الله - لست وحدى - من القصص الإسلامى (جزءان).

البيان والنقد الأدبى: ومن الكتب التى نشرها فى هذا الباب: خطوات التفسير البيانى - البيان القرآنى - البيان النبوى - أدب السيرة النبوية عند الرواد المعاصرين:

(٣) د محمد رجب البيومى (١٩٩٨): حنين الليالى - مكتبة الدار العربية للكتاب - القاهرة - ص١٤٢.

مناقشات وردود - النقد الأدبى للشعر الجاهلى - أحمد حسن الزيات بين البلاغة والنقد الأدبى - الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير - دراسات أدبية - حديث القلم - نظرات أدبية (٤ أجزاء) - قطرات المداد - التفسير القرآنى.

مصنفات تاريخية وتراجم ومنها: الأزهر بين السياسة وحرية الفكر - مواقف خالدة لعلماء الإسلام - النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين (خمسة أجزاء) - مع الأبطال - ابن حنبل - صفحات هادفة من الأدب والتاريخ - صفحات من التاريخ: أبرياء ويتهمون.

كتابات إسلامية عامة: من منطلق إسلامى (جزءان) - فى ميزان الإسلام (جزءان) - المثل الإسلامية - فى ظلال السيرة - قضايا إسلامية: مناقشات وردود (جزءان) - من شرفات التاريخ - من القيم الإنسانية فى الإسلام - كتاب «الإسلام وأصول الحكم» فى الميزان - علماء فى وجه الطغيان - المسجد فى الإسلام: عبادة وثقافة - المجتهدون فى ميدان التشريع - صور من البطولات الإسلامية.

هذا فضلا عن جمعه لبعض الآثار الأدبية والنقدية والخواطر الخاصة بكل من الأستاذ محمد فريد وجدى، والشاعر الأستاذ عبدالرحمن شكرى، وتحقيقها ووضع المقدمات اللازمة لها.

وهناك حشد هائل من المقالات التى لا تحصى فى المجلات الثقافية والأدبية والإسلامية فى مصر والبلاد العربية يصعب على الباحث الببليوجرافى أن يتتبعها فضلا عن جمعها وتبويبها توطئة لنشرها ذلك أنها غطت مساحة زمنية تربو على سبعين عاما متصلة هذا فضلا عن أن بعض هذه المجلات قد احتجب أو فُقد كما فقدت أشياء فى الفترة الأخيرة.

نماذج من شعره

ولا نستطيع أن ننهى هذا المقال المتواضع دون أن نعرج على واحة شعره الوارفة الظلال فالرجل - كما يقول الأستاذ أحمد مصطفى حافظ [٤]: شاعر يمتلك ناصية التعبير عن مشاعره وأحاسيسه.

ومن ديوان «صدى الأيام» نطالع بعضا من قصيدته بعنوان «أبى» تقطر وفاء وعرفانا بفضل أبيه عليه وما قدمه له طواعية رغم أنه لم يكن من الموسرين وفى هذا يقول:

وآثر تعليمى، ولم يك ذا غنى
فأنفق جهدا طال منه تعجبى
يظل وراء الرزق يكدح مُتعبا
لأرفل فى نعمائه غير متعب
ويعلم أنى بالقراءة مولع
فيملأ بالأسفار والصحف مكتبى

ومن ديوانه «حصاد الدمع» الذى جعل

(٤) أحمد مصطفى حافظ (١٩٨١): مجلة الجديد - عدد أول فبراير ١٩٨١ - ص٣٦.

منه قصيدة طويلة فى رثاء زوجته -رحمها الله- وفيه نقرأ هذه الأبيات المؤثرة والمعبرة عن معاناة الفقد ومصاب الفراق حيث يقول:

أتاتى إلى مجد لتلقى مصيرها
وقد تركت خير الأطباء فى مصر
بنت أملا كالصرح فانهار فوقها
وفوقى فاردانا ولما نكن ندرى

ثم يقول:

قد تغربت لا لشىء سوى أن
نقضى العمر فى بلادى هنيا
أجمع المال كادحا لتعيشى
فى حياة، ترفُّ زهرا شذيا
ولك المطعم النظيف شهيا
ولك المنزل الرحيب عليا
ولأطفالنا من الخصب والرفه
حياة تفيض نورا وريا

إلى أن يقول:

أنت أنت التى دفعت إلى هذا
وشاركتنى المكان القصيا
كم تباطأت أستخف فأبديت
جفاء مُرا وغيظا حميا
ومددت الآمال تبنين حلما
ضاحك الوجه، فأتانا عبقريا
وهتفت: الأولاد يبغون تأمينا
بدنيا تعجُّ بؤسا وغيا
لما لا ندفع الأعاصير عنهم
إذ نقيم السياج صلبا قويا
حسرتاه، وألف واحسرتاه
حينما انهدُّ كل شىء عليا!
أسفى أن أجىء مصر وحيدا
حيث لا نزل المطار سويا

ولقد تقدم ما نقلناه آنفا عن ديوانه «حنين الليالى» فيكفينا هذا للدلالة على شاعرية الرجل وصدق إحساسه، وعمق مشاعره وهو الذى يصور الشاعر بأنه ذلك الذى: يعبر عن ذاته ونزعات وجدانه الصادقة فى إطار يتناسب مع حرارة التجربة وصدق الانفعال.

رحم الله أستاذنا الدكتور محمد رجب البيومى رحمة واسعة، فقد تعلمنا منه الكثير والكثير سواء بشكل مباشر من خلال ما كنا ولازلنا نقتبسه من دُرر علمه ونشير إليها فى مواضعها، أو بشكل غير مباشر مما علمناه إياه من تقنية الكتابة وأصولها العلمية، حيث كان يُعبر بسلاسة وبساطة، عن كثير مما لا نستطيع ولا يستطيع كثير غيرنا من التعبير عنه، حتى بعد الجهد والمحاولة تلو الأخرى، فى أمور كثيرة لاسيما حينما كان يتعرض إلى مناقشة المسائل العامة والأحداث الجارية فى سهولة ويسر وكأنما يتحدث إلينا بتلقائية وطلاقة وصدق كبير.

راحل فى حومة الوغى

شعر/ السيد الصديق حافظ

راهب العلم والأدب فى المحاريب يا رجب
سوف تبقى مخلدا ما إلى الموت من سبب
عظم الله أجركم فيه يا أمة العرب
غبت عن حومة الوغى والوغى منك عن كثب
مصر يبنى شبابها دولة هدها التعب
لم تكرمك دولة سادها الرقص والطرب
غيب اللهو عقلها ليس هذا من العجب
حسبك العلم من حسب.. حسبك الدين من نسب
كل حرف كتبته كان أغلى من الذهب
كل ظلم وظالم مثلما النار والحطب
أحمد الله لم تنل منه مالا ولا لقب
عشت يا مصر دولة فى شباب مدى الحقب
دولة المجد أقبلت.. وانتهت دولة اللعب

●●●

الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى وجهوده فى الدراسات القرآنية

إعداد / أ.د.رضا عبد المجيد المتولى ابراهيم
أستاذ ورئيس قسم التفسير وعلوم القرآن فى كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة

الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى عالم موسوعى، ورائد فى مجالات الفكر المتعددة، فى مجال اللغة، الأدب والنقد، البلاغة، النقد الاجتماعى، التربية، الدراسات القرآنية وغير ذلك.

وسأقتصر فى هذا المقال على أبرز إسهاماته وجهوده فى مجال الدراسات القرآنية التى هى مجال تخصصى وأدع باقى المجالات للمتخصصين فيها إذ المتخصص فى فن أدرى به من غيره.

وفى البداية أقرر -بلاشك- أن لأستاذنا الدكتور البيومى باعا طويلا وقدما راسخة فى مجال الدراسات القرآنية وأعنى بها الدراسات التى تتعلق بالقرآن الكريم وتفسيره وتاريخه وغير ذلك.

وتكمن أبرز جهوده -جزاه الله خير الجزاء- فى هذا المجال على النحو التالى:

جهوده فى الحديث عن «تاريخ التفسير» عموما

وذلك فى كتابه «التفسير القرآنى» حيث تحدث عن المفسر لكتاب الله تعالى وشروطه وأهم آفات البحث المعاصر فى تفسير كتاب الله، التفسير النبوى وخصائصه، وتفسير الصحابة رضوان الله عليهم، التفسير بالمأثور وماهيته وتفسير القرآن بالقرآن وألوانه ونماذج لكل لون، التفسير بالرأى وأقوال العلماء فيه مع الموازنة بين تلك الآراء.

كما تحدث عن تفسير الإمام الطبرى وبين عنايته بالآثار واشتماله على بذور الرأى والتعقيب وأنه بهذا كان بين اتجاهين:

- اتجاه التفسير بالمأثور
- واتجاه الرأى والتعقيب.

ثم تحدث أستاذنا البيومى عن ألوان التفسير القرآنى: وهى: التفسير الفقهى، التفسير النحوى، التفسير البيانى، التفسير الموضوعى، التفسير التوجيهى، التفسير العلمى، التفسير السياسى والكلامى، التفسير الصوفى، التفسير الأدبى، وعالج كل نوع من هذه الأنواع معالجة شافية بلغت الغاية فى بابها وأيضا تحدث عن القصص والروايات الإسرائيلية الدخيلة إلى التفسير وبين أسباب تطرق تلك الإسرائيليات إلى التفسير وحكمها وذكر أمثلة لها، وأشار إلى بعض من يذكرها من المفسرين كالثعلبى والخازن، ومن يحجم عنها كالطبرى، ومن يبينها وينقدها ويفندها كابن كثير والآلوسى والدكتور محمد حسين الذهبى.

ثم تحدث عن التفسير المتعسف الذى يحاول فيه بعض أهل العلم أن يذهبوا بالمعنى الواضح من كتاب الله مذهبا متعسفا لا تدل عليه اللغة ولا السياق العام وذكر نموذجا لذلك بكتاب «الهداية والعرفان فى تفسير القرآن بالقرآن» للشيخ أبى زيد الدمنهورى.

وأيضا تحدث عن التفسير الميسر للقرآن الكريم، وتعريفه ونماذج له من القديم والحديث، وتعرض للتفسير الإذاعى الذى يلقى على الناس من خلال الإذاعات المسموعة والقنوات المرئية وبين ما ينبغى أن يكون عليه وذكر أمثلة لأعلام التفسير الإذاعى وهم الإمام محمد مصطفى المراغى، الشيخ محمد متولى الشعراوى، الدكتور محمد السعدى فرهود.

وأخيرا تحدث عن نماذج من التفسير الحديث للقرآن الكريم واجتهاد المفسرين فيه للدلالة على أن الله تعالى يفتح بالخير على كثير من العقول المخلصة.

جهوده فى إبراز «تاريخ التفسير البيانى» على وجه الخصوص

أبرز ذلك الأستاذ الدكتور البيومى فى كتابه «خطوات التفسير البيانى للقرآن الكريم».

حيث استطاع -بفضل الله تعالى- أن يؤرخ للتفسير البيانى مبتدئا بالعهد النبوى الشريف ومنتهيا بتلاميذ الإمام محمد عبده فى وضوح وموضوعية وقد ألم فى ذلك إلماما تاما بالتفسير البيانى سواء ما وجد فى كتب خاصة بالتفسير ككتب أبى عبيدة، والزمخشرى، وابن عطية وابن أبى الأصبع، أو ما وجد فى كتب بلاغية تعرضت للآيات القرآنية تعرضا بيانيا وذلك ككتب الجاحظ والشريف الرضى وعبدالقاهر الجرجانى وأبى هلال العسكرى أو فى كتب كلامية تمثل التأويل البيانى لأهل السنة أو التأويل البيانى للمعتزلة.

وأيضا أبرز أثر مدرسة الإمام محمد عبده فى الدراسة البيانية للتفسير؛ حيث قام تلاميذه بشرح الآيات القرآنية شرحا أدبيا كان مفتاح نهضة فى التفسير القرآنى بنوع عام والتفسير البيانى بنوع خاص، ومن أعلام هذه المدرسة الإمام محمد مصطفى المراغى، والشيخ عبدالقادر المغربى، والشيخ إبراهيم الجبالى، والشيخ محمد الخضر حسين.

وأخيرا تحدث عن الدراسات القرآنية البيانية فى الجامعات العلمية على يد لفيف من العلماء كالأساتذة أمين الخولى، محمد خلف الله أحمد، محمد عبدالله دراز، محمد المبارك، الخضر حسين، الرافعى، سيد قطب.

جهوده فى قضايا تتعلق بالتفسير البيانى

جاء ذلك فى كتابه «البيان القرآنى»

وفى هذا المؤلف الرائع تحدث أستاذنا البيومى عن بلاغة القرآن العالية الرفيعة بما أفاء الله عليه من بيان ناصع وعلم ساطع.

كما تحدث أيضا عن الجزالة والرقة، الإطناب

والإيجاز، الحقيقة والمجاز، الغريب، التصوير البلاغى، الإقناع المنطقى، القصة القرآنية، الوحدة الموضوعية، وقضية السجع فى الأسلوب القرآنى وغير ذلك وعالج كل قضية من هذه القضايا معالجة شافية وافية.

ولا أستطيع فى هذا المقام استقصاء الجديد فى هذا البحث ومن أراد مثالا على ذلك فليقارن بين مفهوم الإيجاز والإطناب عند البلاغيين وما عناه أستاذنا البيومى بهما.

وفى خاتمة الكتاب المذكور تعرض المؤلف لقضية مهمة ألا وهى قضية التفسير العلمى للقرآن الكريم.

جهوده فى قضايا تتعلق بعلوم القرآن

تحدث أستاذنا البيومى عن كثير من قضايا وموضوعات علوم القرآن الكريم وسأشير إلى أهمها ومواضعها من مؤلفاته الكريمة كما يلى:

- ترتيل القرآن الكريم وبيان بعض بدع القراء التى لا تليق والقرآن الكريم.

(انظر فى ميزان الإسلام ٢ / ٥٣، من منطلق إسلامى ١ / ٤١)

- المناسبة بين الآيات والسور القرآنية (فى ميزان الإسلام ١ / ١٩٧، ٢١١)

- ظاهرة التكرار فى القرآن الكريم (فى ميزان الإسلام ٢ / ٥٩)

- المعرب من القرآن الكريم (فى ميزان الإسلام ٢ / ٢٢٥)

- السياق القرآنى وأهميته (فى ميزان الإسلام ١ / ٢٣١)

- زيادة بعض الحروف فى القرآن الكريم (من منطلق إسلامى ٢ / ٨١)

- ترجمة القرآن الكريم (مجلة الهلال عدد ديسمبر سنة ٢٠٠٠م)

جهوده فى تفسير بعض آيات من القرآن الكريم تفسيرا مقارنا

وذلك فى كتابه (نظرات قرآنية)

جهوده فى الرد على المستشرقين فى قضايا قرآنية

ومن ذلك ما قام به أستاذنا البيومى من الرد على المستشرق الفرنسى جاك بيرك فى بحثه «إعادة قراءة القرآن»، وطبع البحث مع الرد عليه فى كتاب أصدرته دار الهلال.

جهوده فى إبراز مناهج المفسرين المعاصرين

وذلك فى ثنايا حديثه عن الشخصيات المعاصرة التى تناولها فى كتابه القيم (النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين) ومن أراد أن يقف على ذلك فليرجع إلى ترجمته للإمام القاسمى، محمد مصطفى المراغى، محمد إبراهيم الجبالى، يوسف الدجوى، محمود شلتوت، محمد متولى الشعراوى وغيرهم.

وفى النهاية أقرر عجزى عن الكتابة عن مثل هذا العالم الموسوعى ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله.

ولعل هذا المقال يكون نواة لدراسة علمية يتناول فيها باحث حصيف جهود الأستاذ الدكتور البيومى فى هذا المجال، وأسأل الله أن يرحمه وأن يجعل عملنا وإياه خالصا لوجهه الكريم.

جزى الله الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى خير الجزاء، جزاء ما قدم للإسلام والمسلمين وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

محمد رجب البيومى.. العلامة الأديب وداعًا!

لفضيلة الشيخ/ أحمد مصطفى فضلية
من علماء الأزهر الشريف

رحم الله أستاذنا الكبير العلامة الأديب الدكتور محمد رجب البيومى الذى وافته المنية فى صباح السبت الموافق (٢ من ربيع الأول ١٤٣٢هـ ـ ٥ من فبراير ٢٠١١م) عن عمر يناهز ٨٨ عامًا، حيث ولد فى أكتوبر سنة ١٩٢٣م بقرية الكفر الجديد ـ محافظة الدقهلية [1] وقد عاش العلامة الأديب عمره المديد نجمًا مضيئًا فى سماء حياتنا الأدبية والفكرية مع سموق منزلته العلمية فى أروقة الجامعات، فهو علم كبير من أعلام الأزهر العتيق، وعالم محقق، وأديب كبير نثرًا وشعرًا، وناقد أدبى نابه له قلم سيال، وبيان عذب، عرف به منذ ظهر بقوة فى الساحة الأدبية كاتبًا لامعًا تعرفه أمهات المجلات الأدبية والعلمية فى الشرق العربى كالرسالة، والثقافة، والهلال، والكتاب، والأزهر، وشاعرًا رائعًا يرسل قصائده الجميلة محكمة النسج بارعة الخيال، ومؤلفًا مسرحيًا يرسم الصورة ويسلسل الحوار، ويحكم العقدة ثم يسلمها إلى الحل البديع[2]!!

كما عرف بأسلوبه الأدبى البليغ الذى يعد دليلًا صادقًا على معرفته وتأثره بالأساليب النثرية التى سادت فى زمنه وما قبله من مشاهير الأدب والبيان بدءًا بمدرسة الإمام محمد عبده وأعلامها الكبار، وأعلام النهضة الأدبية شعرًا ونثرًا من أمثال محمود سامى البارودى، وأحمد شوقى، وحافظ إبراهيم، وعبدالرحمن شكرى، والرافعى، والعقاد، والمنفلوطى، وغيرهم.

وهذا ما يمنحنا الدليل الذى لا مراء فيه على نبوغ العلامة الأديب وتفرده، فإقبال القراء على قراءة كل ما يكتبه فى المجلات الإسلامية والأدبية فى عالم الإسلام، ساعد على ذيوع كتاباته ومؤلفاته

(١) انظر ترجمة المؤلف ضمن كتاب «صوت الإسلام الصارخ احمد محرم» للدكتور البيومى دار الأدب الإسلامى ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى، سنة ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م

(٢) د. احمد شفيع السيد ـ عند تقديمه ـ لمسرحية «مالك غسان» وزارة التربية والتعليم ١٩٥٨م

وانتشارها وتداول طبعاتها.

وهذا يؤكد عمق فكره وسلامة فكره، وسلاسة أدبه، وأن القراء يجدون في أدبه التوجيهي ما لا يجدونه في كتابات سواه من غير دعاية، أو ترويج شيعة، أو اتفاق في مذهب، وإنما هو فيما يراه القارئ الحصيف تأثير الأدب الخالص حين يخلص له صاحبه فيبقى ما بقي قارئ بصير.

وهذا ما أكده أحد الكاتبين حين قال[٣]: «.. كاتب موهوب، غزير الإنتاج، وهو في هذا النتاج عميق الفكرة، متين الأسلوب، دقيق المعالجة .وهذا ما جعل له قاعدة كبيرة من القراء خاصة من صفوة المثقفين والمتخصصين الذين يجعلون من كتاباته مراجع لبحوثهم ونقاشهم العلمي المفيد».

يقول العلامة الكبير الشيخ صادق إبراهيم عرجون متسائلا: «.. هل ينقص من تجديدنا في بحوثنا وجود المادة (الخام) في كتب الأقدمين؟ وهل في وجود المعدن في باطن الأرض ما يسلب فضيلة الصائغ الماهر؟ وهل للمعدن قيمة من دون الصياغة؟ على أن البحث الحديث لم يقف دون الخلق والابتكار، فقد خلق فكرا، وابتكر موضوعات لها طابعها الخاص»[٤].

والحق.. هذا ماينطبق تماما على عالمنا وأديبنا الكبير الدكتور محمد رجب البيومي -رحمه الله- فهو من أولئك الكبار الذين جددوا ديباجة الأدب وألوانه في موضوعاته وبحوثه، ولم يقلدوا في النظام وطرائق الأداء، وهو في أدبه يؤمن بالقديم وجلاله مستمسك به أشد الاستمساك، ومع ذلك فهو مجدد، مجدد في طرائق الأداء، وتنظيم موضوعات الأدب وتقريبها.

ومؤلفاته التي تزيد على السبعين والتي تنوعت بين (الدراسات الأدبية والعلمية، والإبداع الأدبي، والفكر الإسلامي، والسيرة والتاريخ، وقصص الأطفال والإسلاميات العامة).

إذا أنعمنا النظر في قراءتها وجدناها جمعت بين الأصالة والمعاصرة، فلا ينكب على القديم لقدمه، ولا ينصرف للحديث لحداثته فمادة مؤلفاته في تنسيقها وتناولها للمعلومات والأسلوب السلسل الرقراق المعبر عن الوجدان هي التي تحبب القارئ للدرس والبحث والإنتاج.

ولقد تعلمنا من مؤلفاته أن الكاتب الأديب كي يتسم أدبه بالتميز والانفراد لابد أن يكون أدبا ملتزما برسالات السماء ووحيها المعصوم.

وفهمنا من كتاباته كلمة الأدب: أنها الصورة الراقية التي يحتفل بها، ويدخل لون الخيال في تصويرها .ونعني بالخيال الاتساع في التصوير على النحو الذي يتراءى في الاستعارات والمجازات والتشبيهات والكنايات من ألوان البلاغة ومما يتميز به أدب الدكتور البيومي: أنه يتحرى صحة الواقعة التاريخية، فينكر شيئا قد يصح إنكاره معتمدا على شئ من الأدلة التاريخية أو البيئية أو الطبعية وقد أصاب في كثير مما كتب من قصص تاريخية، وأفاد الأدب الحديث كثيرا بهذا النهج ويصدق في أدبه أيضا ما يقوله صادق عرجون: «.. الأدب الصادق هو ما يتسم بالبحث والتحرير، ففي البحث أسلوب علمي يستند إلى صلة الحقائق بالحياة، وفي التحرير أسلوب مهذب طليق من قيود الافتتان بالإغراب، ويجمع إلى جانب العناية بالقالب العناية بسمو المعنى، بل العناية بالمعاني فيه أغلب وأظهر، تأثرا بروح العصر، وليس هذا الطراز من البحث الأدبي جديدا كله على الأدب العربي فقد عرف الكثير منه في صور أبرع وأدق من الصور التي يعرفها الأدب في عصر النهضة الأدبية -وجديدنا يستند في مهيعة إلى ذلك القديم القوي قبل الركود والجمود، ولكنه ليس محض التقليد بل هو تقليد الحر المفكر .فهو صفوة الاجتهاد والابتكار..»[٥].

وإذا كان أدب الدكتور محمد رجب البيومي مما يصدق فيه وينطبق عليه قول صادق عرجون فإننا في أمس الحاجة إلى تعدد الدراسات وتنوعها في أدبه الحفيل لكي نستطيع تقديمه للأجيال القادمة.. فلابد من دراسة ما يكشف عن شخصيته الأدبية ويعرب عن عالمه الذي يفكر فيه، وقلبه وما يؤده، ووجدانه وما يشغله وهدفنا هو تحقيق الفائدة الأدبية التي تنهض بناشئتنا وشبابنا وباحثينا تربية وتكوينا وإبداعا.

وأنا هنا لا أكتب عن علمه وأدبه المتعدد الميادين، وعالمه الرحيب، فذلك يحتاج إلى دارسين متخصصين يكتبون دراسات متنوعة ومطولة من طلاب الدراسات العليا وقد أسهم بعض الفضلاء من تلاميذه ومعاصريه في إبراز بعض جوانب علمه وأدبه أذكر منهم أستاذه الكبير الدكتور أحمد شفيع السيد، والدكاترة -على على صبح، وإبراهيم محمد قاسم، وعبدالعزيز الدسوقي، وعبدالله محسن التركي، وطه أبو كريشة. وبعض الكاتبين مثل الأستاذ نعيم محمد عبدالغني والأستاذ سيد عبدالرازق ومن الشعراء: الشاعر أحمد مصطفى حافظ والشاعرة جليلة رضا.



جاد الحق ‏ ‏ الغزالي

كما نال أدبه ونتاجه العلمي إعجاب كبار الكتاب في مقتبل حياته من أمثال الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات، ومحمد فريد وجدي، وعباس العقاد.

كما نوه بفضله وحسن جهاده في الرد على ما يقال عن الإسلام من افتراءات شيوخ الأزهر وعلمائه نذكر منهم الشيخ محمد الغزالي، والإمام عبدالحليم محمود، والإمام محمد عبدالرحمن بيصار، والإمام جاد الحق علي جاد الحق، والإمام محمد سيد طنطاوي، والإمام أحمد محمد الطيب ومن علماء الأزهر الدكتور محمود محمد عمارة، والدكتور الحسيني عبدالمجيد هاشم، والشيخ محمد متولي الشعراوي وغيرهم كثير من العلماء والأدباء والكتاب مما يؤكد ما ذهبوا إليه جميعا من سموق منزلته، وعلو كعبه، عالما محققا، وكاتبا بليغا، وأديبا ناقدا، وشاعرا مجيدا، ومصلحة فذا عليما رحمه الله رحمة واسعة، وأجزل له المثوبة جزاء ما قدم لدينه وأمته من علم نافع يمكث في الأرض صلاحا وإصلاحا.

(٣) هو الأستاذ نعيم محمد عبدالغني. مقال «الدكتور محمد رجب البيومي بين إبداع الفكرة وبراعة المعالجة» جريدة صوت الأزهر - العدد ٢٩٨.

(٤) صادق إبراهيم عرجون. مقال «نهضة الأدب العربي بين القديم والحديث» - مجلة نور الإسلام. الأزهر حاليا المجلد السادس لسنة ١٣٥٤هـ.

(٥) المصدر السابق.

أستاذ الأساتذة: الدكتور رجب البيومي

(١٣٤٢ - ١٤٣٢هـ/ ١٩٢٣-٢٠١١م)

كما سبق ورحل عن عالمنا عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين (١٣٠٦-١٣٩٣ هـ ١٨٨٩-١٩٧٣م) في زحام حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣م رمضان سنة ١٣٩٣هـ. فلم يلتفت إلى رحيله الكثيرون.. كذلك شاء الله - سبحانه وتعالى - أن يرحل عن دنيانا العالم الموسوعي والمحقق والأديب والشاعر الأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيومي (١٣٤٢-١٤٣٢ هـ-١٩٢٣-٢٠١١م) في زحام الثورة المصرية، التي فجرها الشباب في ٢٥ يناير سنة ٢٠١١م-٢١ صفر سنة ١٤٣٢ هـ.. رحل عن عالمنا في زحام هذه الثورة وضجيجها، فلم يشعر برحيله الكثيرون.. رحل عن عمر ناهز التسعين - بالتقويم القمري - ثمانية وثمانين بالتقويم الشمسي.

للأستاذ الدكتور/ محمد عمارة
عضو مجمع البحوث الإسلامية

ولقد كان الأستاذ الدكتور محمد أحمد البيومي - الذي اشتهر باسم محمد رجب البيومي - عالمًا موسوعيا في عصر جارت فيه التخصصية على الموسوعية والموسوعيين وكان عالما محققًا في عصر جار فيه الإعلام - بسطحيته - على العلم والعلماء والتحقيق والمحققين.. كان راهبًا في محراب الفكر الإسلامي والأدب العربي في عصر اجتذبت فيه زخارف الدنيا الكثيرين بعيدًا عن محاريب العلم ومشاق العمل الفكري الرصين.. لقد رحل عن عالمنا وهو يمثل مدرسة في الفكر والأدب - فيها تلامذة ومريدون.. وغادر هذه الدنيا وهو عضو مرموق في أعرق هيئات العلم الإسلامي «مجمع البحوث الإسلامية» - هيئة كبار العلماء - بالأزهر الشريف.

● ولد الدكتور البيومي في قرية «الكفر الجديد» - مركز «المنزلة» - محافظة الدقهلية - بدلتا النيل في شمال مصر (١٣٤٢ هـ ١٩٢٣م).. عندما كانت مصر تجني أولى ثمرات ثورة سنة ١٩١٩م بالحصول على دستور سنة ١٩٢٣م.. وشاء الله أن يكون رحيله وعيون شعبه تكتحل برؤية دستور جديد، يعيد روح الحرية إلى الوطن الذي أحبه هذا العالم الجليل.

● ولقد تخرج في الأزهر الشريف، حيث حصل على شهادة العالمية من كلية اللغة العربية سنة ١٩٤٩م.

● وفي العام التالي لتخرجه سنة ١٩٥٠م - حصل على دبلوم معهد التربية العالي.

● وتولى عمادة كلية اللغة العربية - بجامعة الأزهر - مدة عشر سنوات.

● وشغل منصب مقرر لجنة الترقيات - بجامعة الأزهر - لتخصص البلاغة والنقد والآداب.

● وانتخب عضوا بهيئة كبار العلماء - مجمع البحوث الإسلامية - بالأزهر الشريف.

● وعمل أستاذا زائرا بعدد من الجامعات العربية.

● وأشرف على أكثر من ثلاثين رسالة جامعية - للماجستير والدكتوراه... كما شارك في مناقشة أكثر من خمسين رسالة جامعية، بمصر والبلاد العربية..

● وأسهم في العديد من المؤتمرات الفكرية والأدبية - بالوطن العربي وخارجه - وقدم إلى هذه المؤتمرات العديد من الأبحاث، وألقى فيها العديد من المحاضرات.

● ولقد بدأ نبوغ الدكتور البيومي مبكرا.. فتكوينه الفكري والأدبي قد برز وهو لايزال طالبا بالأزهر الشريف.. كما بدأ يبدع، وينشر ثمرات إبداعه في كبريات المجلات الفكرية والثقافية - مثل «الثقافة» و«الرسالة» - وهو لايزال طالبا.. ولقد كان أساتذته - الذين يتتلمذ عليهم بالأزهر - يقرءون له في هذه المجلات، ويعجبون بنبوغه الذي يشرف أبناء الأزهر الشريف.

● وعبر المشوار الفكري والأدبي للدكتور البيومي، شارك في تحرير العديد من المجلات الفكرية والأدبية المتميزة.. فنشر فيها الإبداعات المتميزة.. ومن هذه المجلات:

١- الرسالة ٢- الأديب ٣- منار الإسلام ٤- الثقافة ٥- التضامن الإسلامي ٦- رابطة العالم الإسلامي ٧- الكتاب ٨- الأقلام ٩- الحج ١٠- الهلال ١١- الوعي الإسلامي ١٢- المنهل ١٣- الأزهر ١٤- صوت الأزهر ١٥- المنتدى ١٦- هدى الإسلام.

● وعندما رأس الدكتور البيومي تحرير مجلة الأزهر، نقلها إلى طور جديد.. فأشرك في تحريرها أقلام العلماء المجددين، مع الحفاظ على أبوابها التراثية، التي تتعلق بها دوائر الفقه والإفتاء عبر عالم الإسلام.

وكانت «ملاحق» مجلة الأزهر - التي توزع كهدايا مجانية مع أعدادها - إنجازا عبقريا للدكتور البيومي.. اختار لها الكثير من عيون نصوص الفكر الإسلامي الجامع بين الأصالة والتجديد.. حتى لقد كانت هذه «الملاحق» العامل الأول في رواج المجلة، ووصولها إلى دوائر جديدة من الباحثين والقراء.. كما كانت اختياراته هذه مصداقا للمقولة التراثية: «اختيار المرء قطعة من عقله»!

● ولقد قدم عالمنا الجليل - الدكتور محمد رجب البيومي - للمكتبة العربية والإسلامية - غير الدراسات والمقالات التي نشرتها له المجلات - قدم نحوا من سبعين كتابا - منها ثمانية دواوين شعرية.. وأكثر من عشر تراجم أدبية وتاريخية.. أرخ فيها لنخبة متميزة من أعلام الفكر والإصلاح الإسلامي في عصرنا الحديث وواقعنا المعاصر.. كما قدم - في هذا الإنتاج الغني - أكثر من عشرين قصة كتبها للأطفال والفتيان.

● ومن المؤلفات التي أغنى بها الدكتور البيومي

مكتبتنا العربية:

١ـ موسوعة النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين.. وهى خمسة أجزاء فى ٣٠٠٠ ثلاثة آلاف صفحة أرخت لحياة وفكر كوكبة من زعماء النهضة والتجديد والإصلاح فى عالمنا الإسلامى الحديث.

٢ـ الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير.

٣ـ بين الأدب والنقد.

٤ـ النقد الأدبى فى الشعر الجاهلى.

٥ـ البيان النبوى ـ دراسة تحليلية..

٦ـ البيان القرآن ـ دراسة تحليلية.

٧ـ خطوات التفسير البيانى ـ ج١، ٢

٨ـ أحمد حسن الزيات بين البلاغة والنقد.

٩ـ أدب السيرة النبوية عند الرواد المعاصرين.

١٠ـ إعادة قراءة القرآن ـ نقد علمى لكتاب الأستاذ «جاك بيرك» (١٩١٠ ـ ١٩٩٥م).

١١ـ حديث العلم.

١٢ـ قطرات المداد.

١٣ـ قطرات أدبية

١٤ـ مواقف خالدة لعلماء الإسلام.

• وفى عالم الشعر، قدم شاعرنا الفنان ثمانية دواوين ومسرحيات شعرية، هى:

١ـ ديوان صدى الأيام.

٢ـ ديوان من نبع القرآن.

٣ـ ديوان حنين الليالى.

٤ـ ديوان حصاد الدمع ـ الذى رثا فيه زوجه وشريكة حياته.. فقال ـ ضمن ما قال:

أجل، هى كانت فى البلايا طبيبتى
فبالجراح بعدها ليس تدمل
فكانت نعيم الله يبهج منزلى
وها هو ذا عن وجهتى يتحول
هياما به إذ صار منزل حسنها
فما شاقنى من بعدها اليوم منزلى

• وفى المسرحيات الشعرية قدم شاعرنا:

١ - مسرحية ملك غسان.

٢ - مسرحية فوق الأبوة.

٣ - مسرحية انتصار.

٤ - مسرحية بأى ذنب - «لاتزال مخطوطة».

• وفى ميدان التراجم الأدبية والسير التاريخية قدم الدكتور البيومى:

١ - ابن حنبل سيرة تاريخية أدبية.

٢ - مصطفى صادق الرافعى - ترجمة أدبية.

٣ - صلاح الدين الأيوبى - ترجمة أدبية.

٤ - هارون الرشيد - ترجمة أدبية.

٥ - على الجارم ترجمة «موجزة» وافية.

٦ - أحمد أمين.

٧ - محمد حسين هيكل.

٨ - محمد فريد وجدى.

٩ - محمد متولى الشعراوى.

١٠ - على ذم وجه الطغيان.

١١ - مع الأبطال - تراجم أدبية.

١٢ - كيف عرفت هؤلاء؟ - ذكريات أدبية.

١٣ - من شرفات التاريخ ج١ و٢ و٣.

١٤ - صفحات هادفة من التاريخ.

١٥ - نضال الأزهر بين السياسة والفكر

كما ترجم لاثنين من شيوخ الأزهر هما الشيخ جاد الحق على جاد الحق (١٣٣٥ - ١٤١٦هـ - ١٩١٧ - ١٩٩٦م)، والشيخ محمد سيد طنطاوى (١٣٤٧ - ١٤٣١هـ - ١٩٢٨ - ٢٠١٠م)، وفى الجمع والتحقيق للنصوص.. قدم الدكتور البيومى أكثر من ستة أعمال منها:

١ - مقالات علمية للأستاذ محمد فريد وجدى.

٢ - دراسات فى الأدب العربى.

٣ - فى النفس والحياة.

• وفى قصص الأطفال والفتيان قدم عالمنا الموسوعى أكثر من عشرين قصة نشرها فى كتيبات.

• ولقد نال عالمنا الجليل العديد من الجوائز الأدبية من الهيئات والمؤسسات ذات المصداقية العلمية منها:

١ - جائزة شوقى فى الشعر - من المجلس الأعلى للفنون والآداب بمصر سنة ١٩٦٠م.

٢ - جائزة مجمع اللغة العربية فى الشعر «ديوان» سنة ١٩٦٢م.

٣ - جائزة مجمع اللغة العربية فى الدراسات الأدبية سنة ١٩٦٣م.

٤ - جائزة مجمع اللغة العربية - الأولى - فى المسرحية الشعرية - سنة ١٩٦١م.

٥ - جائزة مجمع اللغة العربية فى التراجم الأدبية سنة ١٩٦٤م.

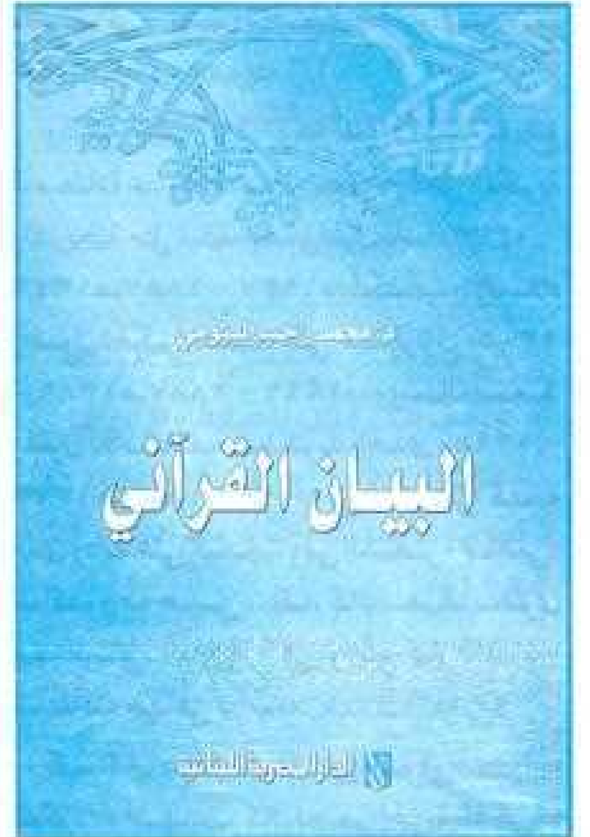
٦ - جائزة مجمع اللغة العربية فى المسرحية - مرة ثانية سنة ١٩٧٢م.

رحم الله عالمنا الجليل.. ومفكرنا الموسوعى.. المحقق.. والشاعر.. أستاذ من الأساتذة المعاصرين الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى.. الذى جمعت بينى وبينه روابط الفكر والعلم، إذ العلم رحم بين أهله.. ومشاعر التقدير والاحترام للإخلاص فى محراب الفكر.. والذى كان شديد الحفاوة بما قدمته لمجلة الأزهر فهو الذى دعانى للإسهام فى تحريرها.. بالدراسات.. والملاحق التى نشرتها لى - باسم «مجمع البحوث الإسلامية» الذى تزاملنا فى عضويته.

وأذكر كيف كان - وهو أستاذ الأساتذة بالغ السعادة عندما نشرت بعض الوثائق الفكرية والتاريخية مثل: نقد سعد زغلول باشا (١٢٧٣ - ١٣٤٦هـ ١٨٥٧ - ١٩٢٧م) لكتاب «الإسلام وأصول الحكم» للشيخ على عبدالرازق (١٣٠٥ - ١٣٨٦هـ ١٨٨٧ - ١٩٦٦م) ورسالة سعد زغلول للأستاذ محمد فريد وجدى (١٢٩٥ - ١٣٧٣هـ ١٨٧٨ - ١٩٥٤م) فى الثناء على كتابه الذى رد به على كتاب «فى الشعر الجاهلى» للدكتور طه حسين.. لقد كان سعيدا بنشرى لهذه الوثائق.. معترفا - فى تواضع كبار العلماء - باستفادته منها فى دراساته.

لقد كان عالما جليلا.. وراهبا فى محراب الفكر.. وأشهد أنه كان نصير الحرية الفكرية، منافحا فى مجمع البحوث الإسلامية عن حق الاختلاف.. وتشهد على ذلك تقاريره عن الكتب التى فحصها للمجمع.. لقد عاش وتكون فى حقبة الحرية الفكرية التى ازدهرت بمصر ما بين ثورتى سنة ١٩١٩ و١٩٥٢.. فكان ثمرة طيبة لحرية الفكر.. كما كان نهرا معطاء للإبداع والتجديد فى كل الميادين التى شرفت «بقطرات مداد قلمه».. رحمه الله. وعوضنا فيه خيرا؟!

قراءة فى كتاب



للأستاذ/ عادل خضاجة

١

هذا الكتاب من أروع ما جادت به قريحة الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى -رحمة الله عليه- حيث تجد البلاغة ورصانة الأسلوب وسهولة التناول حين يتكلم عن الأحكام والأخلاق التى تضمنها البيان القرآنى.

يقع الكتاب فى ثلاثمائة واثنتين وسبعين صفحة من مقاس ١٧×٢٤سم صدر عن الدار المصرية اللبنانية فى طبعته الأولى فى شوال ١٤٢١هـ- يناير ٢٠٠١م ثم طبع طبعة ثانية فى رجب ١٤٢٦هـ- أغسطس ٢٠٠٥م.

وقد قسم المؤلف كتابه إلى قسمين:

الأول: «دراسات نظرية» وقد تضمن أربعة عشر مبحثا.

وجاء القسم الثانى تحت عنوان «دراسات تطبيقية» وقد تضمن أربعة وعشرين مبحثا.

فأما الدراسات النظرية فقد تناولت الأسلوب المنفرد للقرآن الكريم وفصلا عن الجزالة والرقة ثم بلاغة الإقناع فبلاغة التصوير، وأشار إلى الفرق بين الحقيقة والمجاز وكذلك «بين الإيجاز والإطناب» ثم تناول «الغريب فى كتاب الله» وقضية السجع والوحدة فى السورة القرآنية والقصة فى القرآن، ثم عقد فصلا للموازنات، ثم عرض لبعض الآراء المعاصرة فى الإعجاز ثم أنهى هذا القسم ببحث عن التكلف التطبيقى ثم تساءل: «هل نفسر القرآن علميا؟».

يستهل المؤلف حديثه عن الأسلوب القرآنى وهو أسلوب منفرد فيقول: حين نزل القرآن على محمد ﷺ فاجأ العرب بأسلوب لا عهد لهم به، فظلوا حائرين دهشين يلمسون سحره الغالب وتأثيره الخالب دون أن يستطيعوا معارضته، وقد تحداهم القرآن أن يأتوا بسورة من مثله، فبذلوا قصارى جهدهم فى ذلك فما استطاعوا إليه سبيلا، وهم بَعْدُ فرسان الفصاحة وأئمة البلاغة يتباهون بخطبهم الرائعة، وأشعارهم البارعة، ويعقدون الندوات الأدبية رنانة بفصيح القول، صخابة برائع الشعر والنثر ولكنهم وقفوا أمام القرآن دهشين حائرين.

ويسترسل المؤلف فى حديثه عن طابع القرآن وأسلوبه المتميز الذى لم يجد مقلدا فظل قمة عالية منقطعة فى نمطها الأدبى عن السابق واللاحق، حتى أن النبى محمد ﷺ الذى أوتى جوامع الكلم كان أسلوبه على بلاغته بعيدا عن الأسلوب القرآنى المتفرد فيقول المؤلف فى هذا الشأن:

وهذا النبى الكريم -الذى تحدر الوحى الإلهى على قلبه ليكون من المرسلين- مع اشتهاره بالفصاحة الخالبة، والقول المبين بحيث أصبح سيد البلغاء فى عصره، كان ذا أسلوب بيانى يبتعد عن أسلوب القرآن ابتعادا تتسع مسافته أمام الدارسين بحيث لا يختلط ما يصدر عنه من قول مبدع بما يتنزل عليه من بيان معجز، فدل ذلك دلالة قاطعة على أن القرآن نمط إلهى ليس فى طوق البشر محاكاته، ولو جاز لأحد من البلغاء أن يدنو منه لجاز لرسول الله -وهو أفصح القائلين قاطبة- أن يأتى فى حديثه النبوى وبيانه الخطابى بما يقرب مما يصدع به من الوحى! وقد عقد الناقدون أبوابا تحليلية للبيان النبوى نطقت باختلاف طابعه الأدبى عن طابع القرآن، وكان ذلك دليلا ساطعا على أن النبى الأمين لا يلفق أو يخترع فيما يبلغ من وحى! وكيف وهو يأتى الناس بما ليس فى طوق إنسان كائنا من كان!

ويذكر المؤلف ما رواه البيهقى فى دلائل النبوة: «أن أبا جهل بن هشام وأبا سفيان بن حرب والأخنس بن شريق كانوا يتواصون ألا يستمعوا لهذا القرآن ويحذرون الناس أن يميلوا إلى سحره ولكنهم -تحت تأثير جاذب لا يستطيعون مقاومته- كانوا يتسللون متسترين إلى حيث يستمعون فإذا انصرفوا بعد التلاوة تلاقوا فى الطريق فأخذوا يتلاومون ويتعاهدون ألا يعودوا كيلا يقتدى بهم الملأ من قريش. إلخ

يسوق المؤلف هذه القصة على تمامها ثم يقول: «أسوق هذه الحادثة على طولها لا لأكتب فصلا من فصول السيرة النبوية الشريفة، بل لأؤكد ما أريده من انفراد القرآن بطابعه الأسلوبى الذى أفحم البلغاء من قريش وتركهم حائرين يتلمسون أسباب الإعجاز القرآنى فلا يعرفون» ثم يقول: إذا كان عجيبا أن يظل القرآن متفردا بطابعه الخاص فى عصر النبوة حين تحدى الله العرب أن يأتوا بسورة مثله فإن بقاء هذا التفرد مستقلا بأسلوبه المتميز إلى يومنا هذا أعجب وأغرب، إذ جدَّ من أساطين البلاغة وأئمة البيان على توالى القرون من ورثوا شتى الثقافات العالمية من يونانية وفارسية وهندية فى القديم وإنجليزية وفرنسية وألمانية فى الحديث، مضافة إلى ملكتهم العربية ذات النفاذ والقوة، وما انكبوا عليه من دراسة أساليب البلغاء فى الفصحى دراسة خلقت منهم جهابذة البيان وأعلام القول، ثم ما استطاعوا بعد ذلك كله أن يحاكوا القرآن فيما يقولون، أو أن يأتوا بعشر آيات من مثله، فكان ذلك إعجازا آخر يحقق قول الله -عز وجل-:

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾

(الإسراء: ٨٨)

ويعبر المؤلف عن سعادته وفرحه بكل ما كتب فى دراسة البلاغة القرآنية ونواحي الإعجاز فيها ويدعو إلى مواصلة التحليل البيانى للقرآن لأن التراث القديم يمثل ثقافة عصره التى لا تكاد تغنى شيئا أمام ما يتيحه التطور الزمنى من أقيسة جديدة لفن القول ولكنه يحذر أن تكون ثقافة العصر ثقافة مبتوتة من بيئة أخرى لا تمثل الثقافة العربية حيث يقول: إنما نعنى بثقافة العصر تلك الثقافة المتطورة التى ترتكز فى أصولها القريبة والبعيدة على التراث العربى بذوقه وإحساسه، متطلعة إلى ما جد من نظريات الفن الأدبى، لتأخذ منها ما تراه مناسبا لنمو هذا التراث الأصيل، بحيث يمتزج الطارئ بالقديم امتزاج التآلف لا التنافر ولهذا كان القول فى البيان القرآنى حديث كل عصر ومجال كل زمن بحيث لا يجوز لنا أن نعدد المؤلفات القديمة فى الإعجاز القرآنى والتحليل البلاغى لنعقبها بقول القائل: «وما ترك الأول للآخر شيئا» كما نسمع من بعض الكاتبين.

ثم يعود فيؤكد أن العربية الفصحى لغة موهبة فنية وسليقة أدبية تتناقل فى حلقات العصور المتتالية متمثلة فيما تنتجه القرائح الصافية ذات الطبائع السليمة والإرث الفصيح فلابد أن يكون المتصدى لدراسة البيان القرآنى من أصحاب هذه القريحة البريئة من لوثة العجمة.

ثم يوقفنا المؤلف بين الجزالة والرقة فيشير إلى أن الجزالة ليست غرابة اللفظ بحال، فقد يكون الأسلوب بعيدا عن الغريب وهو جزل متماسك جاءت جزالته من تماسك كلماته وترابطها ترابطا صادقا، ثم يشير إلى أن تماسك المعنى وترابط النظم يحدث كلاهما من القوة والتمكن ما لا يحدثه اللفظ الغريب، ثم يؤكد أن اللفظ الغريب لا يحدث قوة إطلاقا إلا إذا صادف مكانه الصادق من التجربة وإلا فهو حجر ثقيل فى طريق القارئ يرهقه ويضنيه ثم يستحسن قول ابن الأثير حين ذهب إلى أن الجزالة ما يعذب ويلذ وأن العزوبة واللذاذة هما من صفات الرقة دون نزاع.

ثم يقول: ما دامت الجزالة والرقة كلتاهما ترجعان إلى الموضوع فإن الاستشهاد عليهما من آيات القرآن الكريم لا يتم إلا بعرض نص كامل يرسم موقفا تاما تتضح به سمات الجزالة إذا انتمى إليها القول، أو صفات الرقة إذا اتسم بها النص ثم يقدم المؤلف الآيات من ١ :٣٧ من سورة الحاقة ليعرض من خلالها أقوى المشاهد الإنسانية روعة وإدهاشا وأخذا بالألباب والأحاسيس ليوضح جزالة اللفظ.

ثم يترك الجزالة إلى الرقة فيقدم أنموذجها الأدبى من خلال عرضه لبعض آيات سورة غافر من الآية ٢٦ إلى الآية ٤٥.

حيث يعرض النص الكريم حوارا هادئا فى جلسة رسمية يقف فيها فرعون موقف الجريح الحائر، بعد أن ظهرت نبوة موسى مؤيدة بالمعجزات الخارقة واضطرار فرعون إلى أسلوب الملاينة حتى بين حاشيته الخاصة متعللا بأنه يخاف أن تكون دعوة موسى فسادا فى الأرض وإضلالا للناس وهذا دائما منطق الطغاة.

ثم يمس المؤلف كبد الحقيقة حين يقول: «قد يكون الحديث عن هدوء الخاطر وحدة الانفعال مما يقال عن البشر إذا صدروا عن عواطفهم الذاتية، أما كلام الله -عز وجل- فأعلى وأقدس من أن نرجع به إلى مقياس بشرى دون شك، غير أنا نقول: إن المواقف التى يتعرض القرآن لتصويرها منها المواقف الصاخبة التى تتطلب المواءمة فى التعبير عنها فتنحو منحى الجزالة ومنها المواقف المشرقة الهادئة التى تتطلب المواءمة فى التعبير عنها فتنحو منحى الرقة.

ثم ينتقل المؤلف إلى «بلاغة الإقناع» فنراه يقول: «كان القرآن بليغا أعظم البلاغة حين دعا إلى انفساح النظر، واتساع التفكير، وحين نعى على مخالفيه إهمالهم حرية التفكير، وانقيادهم الأعمى للتقليد المتوارث والآيات المتواترة فى ذلك أذيع وأشهر من أن نستدل بها الآن».

ثم يقول فى موضع آخر: ولن تجد أهدى إلى حقائق النفس وأنفذ إلى شعاب القلب وأدعى إلى اطمئنان العقل من قول الله -عز وجل-

﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ۝ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شىء شهيد ﴾

(سبأ: ٤٦، ٤٧)

إذ إن الآية الأولى قد دعت إلى حقيقة علمية يؤكدها اليوم علماء النفس والاجتماع حين يحذرون من خطر الاستهواء الجماعى، إذ يخضع الناس لرأى عامى مشترك على ما به من ضلال دون أن يفيء كل منهم إلى تفكيره الشخصى، ونظره الذاتى فيما يقول ويعمل. لذلك دعت الآية إلى أن ينفرد كل شاك بنفسه أو بصاحبه، ثم يتأمل تأملا ذاتيا ليعلم -بعد تفكير- أن محمدا ليس بمجنون وأن ما يقال عنه بصدد ذلك قد صدر عن جماعة حاقدة تستهوى الأتباع دون نظر ذاتى منفرد يزن الأمر وزنا عادلا محايدا لا يتحيف.

ثم يشير إلى أن القضايا الفكرية التى ناقشها القرآن الكريم مما لا يتسع لبسطه فصل من كتاب فاختار ثلاثا منها تحتل أهمية خاصة فى كتاب الله العزيز وهى: الوحدانية، والبعث الأخروى والرسالة النبوية، ولأن هذه القضايا الفكرية تشغل أصحاب الرسالات السماوية فقد خصها المؤلف بالعرض ليوضح من خلالها طريق الإقناع البلاغى، وكيف ناقشها القرآن بأسلوبه المقنع ومنطقه الكاشف.

وليس هناك أبدع من قول المؤلف:

ونبدأ بأنموذج لقضية الوحدانية فنذكر نصا كاملا يعرض الدعوى ويقيم الدليل فى بيان مبسوط كاشف، وإذا كانت كتب العقيدة تكتفى باقتطاع الدليل مهما كان جزءا من آية أو آية من آيات مثل:

﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾

(الأنبياء: ٢٢)

أو مثل:

﴿ وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ﴾

(المؤمنون: ٩١)

أو مثل:

﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾

(الرعد: ١٦)

إذا كانت كتب العقيدة تكتفى بهذا الاقتطاع الجزئى فإننا فى مجال التحليل البلاغى لأسلوب القرآن نعمد إلى نص قرآنى كامل لنرى تسلسل الحجة القرآنية بدءاً وخاتمة، فنعرف كيف يطرد البيان القرآنى إطراداً يملك قوة الإقناع، ومتانة الدفع، وبراعة الحجة فى نسق شفاف يجذب الشعور كما يجذب الإدراك، ويوقظ التفكير كما ينبه الوجدان، وتلك رسالة البيان الحى ذى الهدف المرموق والمثل المنشود.

ويقدم المؤلف الآيات من ١٨٩ إلى ١٩٩ من سورة الأعراف للحديث عن الوحدانية وتمهيد القرآن للحديث العقلى المنطقى الذى ينزه الخالق عن الشريك.

وينساب حديث المؤلف على هذه الوتيرة ليوضح بلاغة القرآن من خلال حديثه عن دليل البعث الذى اختار شاهده الأدبى من الآيات ١ : ٣٥ من سورة ق. وكذلك من خلال حديثه عن قضية الرسالة النبوية من خلال عدة شواهد قرآنية هى الآية ٣٢ من سورة الأنفال، والآية ٩ من سورة الأحقاف والآية ١٦ من سورة يونس، والآيات ٢ : ٢٤ من سورة نوح وبعد عرضه الكاشف يقول المؤلف تعليقا على قول نبى الله نوح: «هو فى لبابه قول محمد ﷺ حين شكا تجبر المترفين من المشركين ومؤامراتهم المتربصة بالرسالة كل متربص، وهيامهم المشغوف باللات والعزى ومناة وهبل كما هام سابقوهم بود وسواع ويغوث ويعوق ونسر. وقد كانت العاقبة فادحة لدى المغرقين من قوم نوح، وهى نفسها عاقبة كل متكبر عنيد».

ثم يقول: «هذا مثل من تأييد قضية الرسالة بين أمثال مختلفة سجلها الذكر الحكيم فى إقناع مبين، لتسن طريق الحجاج الملزم بالمنطق المؤيد بالتاريخ، المشرق بالوضوح لتدعو عشاق البيان الرفيع إلى الاهتداء بالمنهج القرآنى فيما يزاولونه من حجاج، وإذا كنا نرى الآن اختلاف الباحثين فى تحديد طرق النظر حيث يتوخى كل فرد ما يناسب منحاه التفكيرى من مناهج الفلاسفة وأساطين الحكمة فإننا نقول لهم: لن تبلغوا الهدف الجدير بالنجاح إلا إذا أفصحتم عما تقولون إفصاح البليغ الحصيف فجمعتم إلى قوة الإقناع سلاسة الوضوح ورصانة التعبير، وتلك سبيل القرآن».

بين الإيجاز والإطناب

لقد ذهب البعض إلى أن الإيجاز يكون بعدد الكلمات والحروف، وضربوا العديد من الأمثلة من أشهرها عبارة:

﴿ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾

(البقرة: ١٧٩)

الواردة فى القرآن الكريم ومقارنتها بما قالت العرب «القتل أنفى للقتل».

ولكن فضيلة الدكتور البيومى - رحمة الله عليه - يرى أن الحكم بمقدار العبارة اللفظى فيه من التعسف ما فيه فيرى بنظره الثاقب «أن الإيجاز ليس مجرد قصر فى النص، إنما هو طبيعة تشيع فيه مهما بلغ من الطول، فقد تأتى السورة الكريمة فى أكثر من خمسين آية وهى إلى الإيجاز أقرب، كما قد تكون العبارة ثلاثة أسطر وهى إلى الإطناب أقرب؛ لأن مقتضى الحال هو الذى يميل بالقول إلى سوائه بسطا واختصارا ومحا وإفاضة».

ويخلص المؤلف إلى أن أساليب القرآن تتنوع إيجازاً وإطناباً ومساواة لا لمزية نوع على نوع بالنظر إليه فى حد ذاته، بل لأن كل نوع من هذه الأنواع صادف موقعه المطلوب ومقتضاه اللازم،، فجاء التعبير عنه بما يشفى كل صدر ويبرد كل غليل.

الغريب فى كتاب الله

يناقش المؤلف فى هذا الفصل معنى الغريب وأنه وجد طريقه إلى كل اللغات وكل العصور ويضرب أمثلة على ذلك نذكر منها هذا الشاهد، أن عبدالله بن عباس - وهو ترجمان القرآن - قال: كنت لا أدرى ما فاطر السماوات والأرض حتى أتانى أعرابيان - مختصمان فى بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، يريد: أنا ابتدأتها.

ويخلص المؤلف فى نهاية هذا البحث إلى أن الغريب موجود فى القرآن بمعناه اللغوى، لا بمعناه البلاغى، إذ لا يعرف القرآن كلمة غريبة تمت إلى المعنى البلاغى المعيب بسبب، وكيف وكل ألفاظه معجز خالب؟ وإذا كان من أسباب الغرابة البلاغية ثقل نطق كما مثلوا لذلك بمثل قول القائل: «تكأكأتم على فافرنقعوا» مما اقتربت فيه مخارج الحروف إلى حد يدعو إلى الثقل؛ فليس فى القرآن إلا ما هو سهل المخرج من الألفاظ، حتى لتترقرق فيه العذوبة ترقرقاً يعرفه خبراء البيان».

هل نفسر القرآن علميا؟

يعرض المؤلف فى هذا الفصل الأخير من القسم الأول، آراء المؤيدين والمعارضين ويثبت قيدين مفيدين لأنصار التفسير العلمى للقرآن وضعهما الأستاذ الغمراوى ليحول دون الشطط فى التأويل والجموح فى التطبيق، ثم يضيف قيداً ثالثاً وضعه فضيلة الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغى.. وبعد أن عرض أدلة أصحاب كل رأى يخلص إلى أن الذين ينادون بإبعاد القرآن عن التفسير العلمى مصيبون كل الإصابة إذا كان التفسير قائماً على الظن الوهمى أو التعسف التأويلى، أما إذا كان مستنداً إلى الصريح من القول معتمداً على اليقين الثابت من العلم، فلا مانع إطلاقاً أن نستضىء بشعاع العلم فى إيضاح حقائق الذكر الحكيم، وإذا كان القرآن كتاب هداية وإرشاد، فإن آياته العلمية لا تحول دون هذه الهداية المبتغاة، بل تؤكدها وتدعو إليها الجاحدين، أما من يقول: إنه نزل فى أمة أمية لا تعرف النظر العلمى فنحن نرد عليه بأنه لم ينزل لأمة واحدة أو قرن واحد، بل لجميع الأمم فى شتى القرون المتعاقبة، ليأخذ كل جيل من هديه ما يناسب استعداده الذهنى والنفسى، ولن يضير النهر المترقرق أن يرتوى منه غلام ناشئ أو شاب مكتمل، ولن تجد حجة لمن يدعون تناقض العلم واضطرابه، لأننا فى هذا التفسير المرتقب لن نأخذ بغير اليقين الثابت مما صححته الأجيال المتعاقبة.

«يتبع»

﴿ فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور

علي جمعة

مفتي جمهورية مصر العربية

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لهذا السؤال:

أموال الزكاة

● نحن جمعية خيرية تجمع لجنة زكاة الجمعية أموال الزكاة والصدقات والتبرعات، وتصرفها على المستحقين، ويتقدم إلى الجمعية حالات تطلب المساعدة مثل:

- هل يجوز توجيه مبلغ زكاة للمساهمة في إجراء عملية زراعة كلى إذا غلب الظن أن هذا المبلغ يستخدم كله أو بعضه في شراء كلية من شخص آخر تحت اسم متبرع، أو إذا غلب على الظن أن الذي يقوم بتقديم الكلية متبرع فعلاً ولا يبيع كليته؟

- هل يجوز تقديم المساعدات الواردة إلى الجمعية للحالات الفقيرة وتيسير الزواج سواء عن طريق مساعدة مالية أو شراء أجهزة وخلافه وهل هناك فرق بين تقديم هذه المساعدة من أموال الزكاة أو الصدقات؟ فهل يجوز أن يكون هذا من الأموال المخصصة للزكاة؟

●● الجواب:

- يجوز أن تكون تكاليف هذه العملية من أموال الزكاة إذا كان المريض لا يستطيع تحمل تكاليف العملية، ولا يجوز دفع مال الزكاة لشراء عضو بشري مثل الكلية، لحرمة ذلك شرعاً.

- إخراج الزكاة مساعدة لمن أراد الزواج وهو عاجز عن تكاليفه أمر جائز كما عند المالكية، وكما صرح به بعض الحنابلة، حيث ذكروا أن من تمام الكفاية التي يشرع إعطاء الفقير من الزكاة ليصل إلى حدها ما يأخذه ليتزوج به إذا لم تكن له زوجة واحتاج للنكاح «حاشية الروض المربع» (١ / ٤٠٠).

وقال الإمام الحطاب المالكي في «مواهب الجليل في شرح مختصر خليل» (٢ / ٣٤٧): تقدم عن البرزلي أن اليتيمة تعطى من الزكاة ما تصرفه في ضروريات النكاح والأمر الذي يراه القاضي حسنا في حق المحجور، فعلى هذا فمن ليس معها من الأمتعة والحلي ما هو من ضروريات النكاح تعطى من الزكاة من باب أولى فتامله.

وفي الأثر عن عمر بن عبدالعزيز أنه أمر من ينادي في الناس: «أين المساكين؟ أين الغارمون؟ أين الناكحون؟» أي: الذين يريدون الزواج وذلك ليعطيهم من بين مال المسلمين.

وزكاة المال تجب للمسلمين فقط، لأنها تؤخذ من أغنياء المسلمين وترد على فقرائهم وزكاة المال الأصل فيها أن تؤدى مالا فإن كان المستحق يحتاج إليها عيناً ويفيده ذلك فلا بأس بتأديتها إليه عينا، لأن المطلوب هو تحقيق مصلحته.

وعليه وفي واقعة السؤال: فيجوز للجمعية تقديم زكاة المال والصدقات للغرض المذكور للمسلمين المحتاجين في شكل مساعدات مالية وإذا كان المستفيدون بذلك في حاجة لشيء من لوازم الزواج بعينه وأمكن للجمعية تقديمه لهم فيجوز ذلك أيضاً.

والله سبحانه وتعالى أعلم

الصلاة المنفردة

● هل تصح الصلاة منفرداً خلف الصف إن لم يوجد مكان آخر بالصف الأمامي؟ وهل يجوز أن يسحب المنفرد رجلاً من الصف الأمامي ليصلي معه؟

●● الجواب:

صلاة المنفرد إما أن ترد مطلقة أو مقيدة فإن وردت مطلقة فإنها تكون في مقابلة صلاة الجماعة كما قال رسول الله ﷺ: «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ - أي المنفرد - بسبع وعشرين درجة» متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أما إذا أريد بها ما ذكر بالسؤال فإنها تقيد به فيقال: صلاة المنفرد خلف الصف.

وصلاة المنفرد خلف الصف إذا كانت لعذر ـ كأن لم يجد من يصف معه ـ صحيحة، فإذا اتفق

العذر فإنها تكون صحيحة مع الكراهة، وذلك لما روى البخارى عن أبى بكرة -رضى الله عنه- أنه انتهى إلى النبى ﷺ وهو راكع، فركع قبل أن يصل إلى الصف، فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال: «زادك الله حرصًا ولا تعد». فأخذ الفقهاء من ذلك عدم لزوم الإعادة، وأن الأمر الذى ورد فى حديث وابصة بن معبد رضى الله عنه عند الترمذى -من أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يصلى خلف الصف وحده فأمره أن يعيد الصلاة- إنما هو على سبيل الاستحباب، جمعًا بين الدليلين.

أما الحنابلة فأبطلوا صلاة من صلى خلف الصف وحده ركعة كاملة دون عذر، حملاً للأمر فى حديث وابصة على الوجوب.

ومن لم يجد فرجة ولا سعة فى الصف فللفقهاء فيه مذاهب:

١- فعند المالكية وأحد قولى الشافعية -وهو ما نص عليه الإمام الشافعى فى البويطى واختاره القاضى أبو الطيب- أنه يقف منفردًا خلف الصف ولا يجذب أحدًا، لئلا يحرم غيره فضيلة الصف السابق، بل زاد المالكية أنه إن جذب أحدًا فلا يطعه المجذوب، وهذا رأى الكمال ابن الهمام من الحنفية.

٢- أما عند الحنفية والصحيح عند الشافعية فإنه يستحب أن يجذب إليه شخصًا من الصف ليصطف معه، لكن مع مراعاة أن المجرور يوافقه، وإلا فلا يجر أحدًا، منعًا للفتنة.

٣- وعند الحنابلة يقف عن يمين الإمام إن أمكنه ذلك، لأنه موقف الواحد، فإن لم يمكنه ذلك فله أن ينبه رجلاً من الصف ليقف معه، وإلا صلى وحده خلف الصف، ويكره تنبيهه بجذبه، واستقبحه أحمد وإسحاق، لما فيه من التصرف بغير إذنه.

وبناءً على ما سبق، فصلاة المنفرد خلف الصف إن لم يمكنه إلا ذلك صحيحة باتفاق الفقهاء، ومن أجاز منهم له أن يجذب رجلاً من الصف أمامه فإنما اشترط معرفة موافقة المجرور على ذلك مسبقًا، ولذلك فإنا نرى قصر ذلك على هذه الحالة فقط، أما إن لم يعلم المنفرد خلف الصف هل يوافقه المجذوب أو لا أو علم عدم موافقته على ذلك فليس له أن يجذب أحدًا، وذلك تأدبًا مع مذهب المخالف وردًا للفتنة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

البسملة فى الصلاة

● هل قول بسم الله الرحمن الرحيم ممنوعة فى الفاتحة وما بعدها فى الصلاة الجهرية؟

●● الجواب

مسألة الجهر بالبسملة من المسائل المختلف فيها بين العلماء، فالشافعية يرون مشروعية الجهر بها، وغيرهم من العلماء يرون أن الإسرار بها هو الأفضل، وهذا الأمر معدود من هيئات الصلاة التى لا ترقى إلى درجة السنن المؤكدة، فالخلاف فيه قريب والشأن فيه واسع، ومن المقرر شرعًا أنه إنما ينكر ترك المتفق على فعله أو فعل المتفق على تركه، ولا ينكر المختلف فيه، فمن جهر بالبسملة فهو حسن ومن أسر بها فهو حسن، ولا يجوز أن تكون أمثال هذه المسائل الخلافية مثار فتنة ونزاع وفرقة بين المسلمين، بل يسعنا فيها ما وسع سلفنا الصالح من أدب الخلاف الذى كانوا يتحلون به فى خلافاتهم

الفقهية واختياراتهم الاجتهادية.

والله سبحانه وتعالى أعلم

صلاة القصر

● رجل سافر إلى مسافة قصر قاصدًا أن يقيم هناك أكثر من أربعة أيام، فهل له أن يقصر الصلاة ويجمعها فى ذلك السفر بالتفصيل على المذاهب الأربعة إن أمكن؟

●● الجواب:

الشافعية والمالكية والحنابلة يجيزون القصر والجمع بشرطين: أن تكون مسافة بلد السفر نحوًا من ثلاثة وثمانين كيلو مترًا، وكان مكثه ببلد السفر ثلاثة أيام غير يومى الدخول والخروج، فإن زاد على ذلك فلا قصر ولا جمع.

أما الحنفية فيجعلون مسافة القصر مسيرة ثلاثة أيام بلياليهن، بشرط أن لا تزيد مدة المكث فى بلد السفر عن خمسة عشر يومًا، والقصر عندهم واجب فى هذه الحالة، ولا جمع عندهم إلا فى الحج.

والله سبحانه وتعالى أعلم

الخطأ فى الصلاة

● قام الإمام فى صلاة العشاء لركعة خامسة بعد تذكيره من المأمومين بقولهم: سبحان الله، فجلس ثم قام مرة أخرى، وجاء بالركعة الخامسة، وقد اتبعه بعض المأمومين بينما ظل البعض الآخر جالسًا حتى جاء الإمام بالتشهد الأخير فقاموا بقراءتها معه وسجدوا معه سجدتى السهو وقاموا بالتسليم معه. فما هو الحكم الشرعى فى صلاة الإمام وكذلك صلاة المأمومين الذين قاموا خلفه وجاءوا بالركعة الخامسة، وكذلك صلاة المأمومين الذين ظلوا جالسين وقاموا باتباعه فى التشهد وسجدتى السهو والتسليم معه؟

●● الجواب:

أما عن صلاة الإمام فإن كان قد أتى بالخامسة متعمدًا عالمًا بأنها خامسة فصلاته باطلة، ويجب عليه إعادتها، لتعمده الزيادة فى الصلاة، أما إن كان غير عالم بأنها خامسة، بل كان مترددًا يظنها رابعة أو خامسة فبنى على اليقين -وهو الأقل- فإن ما فعله هو عين الصواب، وصلاته صحيحة.

وأما عن صلاة المأمومين الموافقين للإمام -بمعنى أنهم بدءوا الصلاة معه وليسوا مسبوقين بركعة أو أكثر- وظلوا جالسين ولم يتابعوه فى القيام حتى جلس للتشهد فتشهدوا وسلموا معه، ففعلهم هذا هو عين الصواب، وصلاتهم صحيحة.

وأما من قام منهم معه للخامسة فحاله واحدة من اثنتين:

إما أنه متردد غير جازم بأنها خامسة، فما فعله هو عين الصواب، وصلاته صحيحة.

وإما جازم بأنها خامسة، فهذا صلاته باطلة، ويجب عليه الإعادة، لتعمده الزيادة فى الصلاة.

وأما من كان من المأمومين مسبوقًا بركعة أو أكثر فقيامه مع الإمام لخامسة الإمام هو عين الصواب، وصلاته صحيحة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

تأملات فى السيرة النبوية

لفضيلة الشيخ / الطاهر الحامدى

نقطة ضوء فى نهاية الممر الضيق الطويل المظلم ورغم طول النفق وشدة ظلمته إلا أن نقطة الضوء بدأت تتضح وتكبر وتنتشر ومن الغريب الملفت للنظر أن نقطة الضوء انطلقت من بين ثنايا النفق المظلم فبعد الحصار المضنى فى شعب أبى طالب ثلاث سنين وبعد رحلة الطائف الموجعة المؤلمة وما تلاها من عرض النبى ﷺ نفسه الكريمة على القبائل العربية فلم تستجب له طوال ثلاثة مواسم متتالية ولم يجن منها ﷺ إلا ردوداً مزعجة بليدة مؤلمة فى مجملها أو تكاد، وأقلها وعوداً لم يجن منها ﷺ خيراً يرجى، ثم يهيئ الله الأسباب وعلى بعد ما يقرب من خمسمائة كيلو متر تقوم حرب قريباً من المدينة بين سكان المدينة، بين الأوس والخزرج تسمى فى التاريخ بحرب بعاث، وهما أكبر قبيلتين فى المدينة آن ذاك وهذه الحرب لم تكن فى الواقع إلا تمهيداً وتهيئة لدخول الإسلام إلى المدينة المنورة، قد جعلها الله سبحانه وتعالى سبباً فى دخول الإسلام إلى المدينة مطلوباً مرحباً به عزيزاً كريماً ولقد أدركت أم المؤمنين السيدة عائشة هذا المعنى الرقيق النبيل فقالت فى حديث يرويه البخارى: «كان يوم بعاث يوماً قدمه الله لرسوله ﷺ فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم وقتلت سرواتهم وجرحوا فقدمه الله لرسوله ﷺ فى دخولهم فى الإسلام»[١].

وهى رؤية عبقرية للصديقة بنت الصديق رضى الله عنها وعن أبيها، انطلق من ضوئها الثاقب قول رشيد وحكمة بالغة لأهل الله أصحاب القلوب الوضيئة فقالوا: «إذا أراد الله شيئاً هيأ له الأسباب» يعنى أن لله تعالى أسباباً يخفيها فى أمور يجريها لنتائج يظهرها، فيبدو الأمر أمام الناظر كأنه شىء مستساغ مبرر معقول وكما فى قصة سيدنا موسى والخضر قضى الله أن يحفظ سفينة المساكين العاملين فى

١ - صحيح البخارى، جـ٥

البحر من الملك المغتصب وركبا السفينة ويعيبها الخضر فينصرف عنها الملك المغتصب وهكذا تسلم السفينة من الاغتصاب فيبدو للناظر المتعجل كأن الخرق أو العيب هو الذى نجا السفينة من الاغتصاب، وذلك هو الظاهر الذى لا يلام عليه أى مشرع ورغم هذا فإن أرقى منه من بقى مع مسبب الأسباب ويرى أن الذى نجا السفينة هو الله سبحانه وتعالى مسبب الأسباب فهو سبحانه قادر على أن ينجى السفينة دون خرق أو عيب فمن الممكن مثلاً أن يصرف عنها بصر الملك المغتصب فلا يراها حتى وإن كان ناظراً إليها فكما أنه غيب أبصار ركاب السفينة أن يروا الخضر وهو يعيب السفينة وأتاح هذه الرؤيا لموسى عليه السلام فهو الذى اعترض وأنكر على الخضر، ولو أن ركاب السفينة رأوا فعل الخضر لأنكروا عليه ما فعله خوفاً على أنفسهم وذلك لم يحدث لأنهم لم يبصروه، وهذا الأمر واقع فى حياة النبى ﷺ كما أخبرت بذلك كتب السيرة.

تروى السير أن النبى ﷺ وهو خارج من بيته يوم الهجرة وكان شباب قريش واقفين على بابه فحثى عليهم التراب وهو يقرأ قوله تعالى:

﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

(يس: ٩)

فناموا ومضى سالماً إلى بيت الصديق ثم خرج من خلف الدار - دار أبى بكر - يقول النبى ﷺ : لقد خرجت من الخوخة - يعنى خوخة بيت أبى بكر - متنكراً فكان أول من لقينى أبو جهل فأعمى الله عز وجل بصره عنى وعن أبى بكر حتى مضينا [٢] فأنت ترى أن العيون لا تغنى عن الرؤية شيئاً لأن السبب لا يغنى عن المسبب شيئاً، فلما قضى الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ أن يدخل المدينة هيأ له الأسباب حتى يدخل كريماً عزيزاً.

لكن كيف كان ذلك على أرض الواقع؟ كانت الأحداث تجرى لتظهر ما أراده الله سبحانه وتعالى على نحو عجيب كان يجرى فى نظام متسلسل يكاد يشى بنهايته الحتمية تلفها غلالة رقيقة من الغموض الذى يغرى بالتلهف على الأمل المرجو، فكانت حرب بعاث التى أفنت صناديد الأوس والخزرج وأفنت الأموال وأنهكت قوة من بقى منهم وبينهم اليهود لا يأمنون شرهم ولا مكرهم فباتوا يتطلعون إلى الحامى المنقذ المخلص وهناك فى مكة مر النبى ﷺ وهو يعرض نفسه على القبائل وفى الموسم الموعود لقى النبى ﷺ نفراً من الخزرج أراد الله بهم خيراً فقال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج قال: أمن موالى يهود؟ قالوا: نعم. قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى من

٢ - أبو نعيم

أنت؟ فابتسم لهم وأخبرهم خبره ودعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلى عليهم القرآن وكان مما هيأ الله لدخولهم فى الإسلام أن اليهود كانوا معهم فى بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم وكان أهل المدينة أهل شرك وأصحاب أوثان وإذا كان بينهم شئ - اليهود وأهل المدينة - قالوا لهم إن نبينا مبعوث الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم قتل عاد وإرم فلما كلمهم رسول الله ﷺ أيقنوا به وأطمأنت قلوبهم إلى ما سمعوا وعرفوا ما كانوا يسمعونه من أهل الكتاب من صفته فقال بعضهم لبعض يا قوم تعلمون والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه!! فأجابوه إلى ما دعاهم إليه وصدقوه ثم قالوا: قد علمت الذى بيننا من اختلاف وسفك دماء ونحن حراص على ما آثرك الله به مجتهدون لك بالنصيحة وإنا لنشير عليك برأينا فامكث على رسلك باسم الله حتى نرجع إلى قومنا فنذكر لهم شأنك وندعوهم إلى الله ورسوله فلعل الله يصلح ذات بينهم ويجمع لهم أمرهم فإنا اليوم متباغضون متباعدون ولكنا نواعدك الموسم من العام المقبل فرضى بذلك رسول الله ﷺ وانصرفوا راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا وكانوا ستة نفر من الخزرج واثنان من الأوس وقيل غير ذلك، لقد آمن هؤلاء النفر ولقد كان هذا اللقاء بداية الغيث وأول خطوة فى الطريق إلى المدينة ولم تكن فيه بيعة - بالطريقة المعروفة - ولذلك فإن كثيراً من المؤرخين لا يذكره على أنه البيعة الأولى ولكن البعض منهم يذكره على أنه البيعة الأولى ولن نخوض فى هذا الشأن فلا تعنينا التسمية ولا شأن لنا بالخلاف لكن الذى يعنينا أولاً وأخيراً أن نذكر الواقعة كما وردت وأن نؤكد على أن بركتها مهدت أبواب الفتح والنصر والعز للإسلام وأنها هيأت لبناء الدولة الإسلامية كما يقول المحدثون وكما يحلوا لكثير من المنظرين.

***

التأمل فى طعام الإنسان

للأستاذ الدكتور/ السيد محمد الديب
وكيل كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر - بالزقازيق
Sayed.Addeeb@hotmail.com

إن الهدف من دعوة الإنسان إلى النظر والتأمل فى كل ما حوله بالأرض والسماء، هو ترسيخ عقيدة الإيمان الكامل بالله تعالى، وأنه سبحانه خالق كل شئ، وأن الدعوة إلى النظر فى ملكوت الله دعوة شاملة ومتنوعة وفاحصة؛ بهدف زيادة الإيمان والاعتبار، وورد ذلك فى العديد من آيات القرآن الكريم، بحيث يكون النظر مرتبطا بالسير والحركة على الأرض؛ سعياً إلى مزيد من التأمل فى ماهية خلق الإنسان، وبيان مكونات طعامه وشرابه، والانتقال إلى سائر الكائنات الحية، التى يحتاج إليها، ومن تسخير الله لها، حتى يستفيد عباد الله من ألبانها ولحومها وأصوافها وأوبارها، والتنقل عليها والتنزه بها إلى غير ذلك من الفوائد التى يستثمرها الإنسان من سائر الكائنات الحية، ويترتب على النظر بأن يعتبر المسلم بما لحق بالأمم السابقة الظالمة من نتائج، تعطى عبرا ودروسا للأمم المتعاقبة؛ سعياً لتثبيتها على إيمانها وعدم تسرب الشك إليها فيما يخص آثار رحمة الله تعالى، وتأمل سائر مشتملات الكون الواسع.

الدعوة إلى النظر والتأمل فى ملكوت الله

لقد تعددت الآيات القرآنية فيما يخص دعوة الإنسان إلى السير فى أرجاء الأرض، والتأمل فى آيات الله والتى جاءت بأسلوب الأمر وما يستتبعه من تفكير وتدبر وإيمان وتأمل، وحض للإنسان؛ ليصل بإيمانه إلى إدراك نعم الله تعالى،

وأهمية ترسيخ عقيدته، ولم يكن التوجيه قاصراً على ضرورة النظر والتأمل للطعام، وإنما تعدد وتنوع، ليرتقى الإنسان به إلى مزيد من الورع والتقوى، وقد جاء ذلك فى قول الله تعالى:

﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾

سورة الطارق (٥)

وقال تعالى فيما يخص النظر للتأمل فى بعض ما أنعم الله به على الإنسان

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾

سورة الغاشية (١٧)

كما ارتبط التأمل بالنظر إلى مخلوقات الله، فقال سبحانه وتعالى:

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾

سورة الصافات (٨٨، ٨٩)

وذلك فى شأن سيدنا إبراهيم خليل الرحمن، الذى كان التأمل فى حياته باعثا لرفض كثير من معتقدات قومه، فيما يخص عبادة غير الله، وارتبطت الدعوة إلى النظر فى كثير من الآيات القرآنية بالسير فى الأرض، لفحص آثار الأمم السابقة، ومن بين ما ورد فى هذا الشأن قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾

سورة يوسف (١٠٩)

كما اشتمل الأمر بالنظر للتأمل فى آثار رحمة الله سبحانه وتعالى على الأرض، ذلك أن التأمل الإنسانى لكل مشتملات الكون يفتح أمام الإنسان آفاقاً رحبة لتثبيت الإيمان واليقين.

دعوة الإنسان إلى التأمل فى طعامه

لقد تحدث القرآن الكريم والسنة النبوية عن طعام الإنسان وسائر الكائنات التى يحتاج إليها، ويستفيد بها، وتجلى ذلك بصورة مباشرة فى تسع آيات موجزة بسورة (عبس) قال الحق تبارك وتعالى فيها:

﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾

سورة عبس (٢٤ - ٢٩)

وذلك فى أعقاب ما تحدثت به السورة عن خلق الإنسان، وتحديد صفاته وجنسه وأجله ورزقه، إلى غير ذلك.

ويأتى الحديث عن طعام الإنسان من خلال الآيات المذكورة بما يمثل دعوة مباشرة وخطابا موجهاً؛ لتأكيد وحدانية الله تعالى، من خلال ما أنبته فى الأرض بمختلف الأشكال والألوان والطعوم والأهداف.

وقد عرض الدكتور زغلول النجار لهذه الآيات ضمن بحوثه عن الإشارات الكونية فى القرآن الكريم، ومغزى دلالاتها العلمية، فقال فيما يخص المحتوى الإيمانى والتوجيهى لهذه الآيات: "تنبيه الإنسان الغافل، والجاحد لنعم الله تعالى عليه؛ كى ينظر إلى طعامه، ويتفكر فى الذى أعده له بالعديد من العمليات الدقيقة والمرتبة، والمسخرة لإنزال المطر، وجعل الأرض قادرة على الإنبات، وخلق مختلف النباتات فيها من ذوات المحاصيل، كالحبوب والأعناب والبقول والخضراوات والزيتون والنخيل، ومختلف أنواع الفواكه والثمار، ومن غير ذوات المحاصيل كالكلأ والعشب مما يحتاجه كل من الإنسان والأنعام للطعام والشراب.

والطعام ضرورة من ضرورات نمو كل منهما، كما أنه لازم لتعويض ما يموت من خلاياه، ولازم لبقائه على قيد الحياة إلى أن يتوفاه الله"(١).

وليس الأمر إلى الإنسان فيما يخص النظر إلى طعامه قاصراً على المشاهدة التى تفرّقُ نوعا من آخر من مكونات طعامه، وطعام الأنعام التى يعتمد عليها فى كثير من أكله وشربه وسائر منافعه، وإنما المستهدف من ذلك هو النظر المرتهن بالتأمل، وإعمال الفكر والوصول إلى مزيد من الإيمان والتقوى.

وتحدث الإمام القرطبى -رحمه الله- عن هذا الأمر الخاص بقول الله تعالى:

﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴾

فقال: "لما ذكر جل ثناؤه ابتداء خلق الإنسان، ذكر ما يسر من رزقه، أى فلينظر كيف خلق الله طعامه، وهذا النظر نظر القلب بالفكر، أى ليتدبر كيف خلق الله طعامه، الذى هو قوام حياته، وكيف هيأ له أسباب المعاش، ليستعد بها للمعاد"(٢).

وقوله تعالى:

﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾

أى الغيث، وجاءت بداية الحديث عن الطعام بذكر الماء، فهو سابق ومتقدم فى الوجود على خلق الحياة، ولا يستغنى عنه النبات والحيوان والإنسان، ويتصاعد بخار الماء من الأرض إلى ما يُسمى الحد الأعلى لنطاق الرجْع، ويصير سحاباً، ويعود إلى الأرض مطرا، ثم يتجمع على سطح الأرض، وتُسلّط عليه أشعة الشمس، فيرتفع على هيئة بخار، وقوله:

﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴾

وذلك بالنبات:

﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴾

لأن الحب لا ينبت إلا فى تربة الأرض، والحبّ هو الزروع مثل القمح والشعير،

(١) جريدة الأهرام اليوم الثالث من مارس ٢٠٠٣م ص ١٢.

(٢) تفسير القرطبى جـ١٩ ص ٢٢٠.

وقوله: ﴿ وَعِنَبًا ﴾ أى كروماً، وقوله: ﴿ وَقَضۡبٗا ﴾ أى علفا رطبا للدواب كالعشب، وقيل ما يقضب من النبات؛ ليأكله الإنسان غضا طرياً، مثل الفول، وقوله: ﴿ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴾ وهذان معروفان، ويشملان أجناساً وأنواعاً كثيرة، وقوله: ﴿ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴾ أى حدائق كثيرة ملتفة الأغصان، وقوله: ﴿ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴾ والفاكهة معروفة، أما الأب فهو الكلأ والمرعى الذى تأكله البهائم من العشب وغيره.

ولقد جاءت الآية الأخيرة من الآيات التسع المذكورة، لبيان قيمة هذه الأطعمة للإنسان والحيوان، فقال تعالى:

﴿ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴾

أى تتمتعون بها وتنتفعون.

وبدأت هذه الآيات بالأمر إلى الإنسان؛ حتى ينظر إلى طعامه، ويتأمل فى قدرة الخالق، وتتبع مراحل النمو، بالأمر إلى أن يصل إلى الغذاء الذى يحتاجه الإنسان وسائر الكائنات الحية.

وجاء التأسيس لذلك بالإخبار عن نزول المطر وشق الأرض؛ تمهيدا للإنبات الذى تحدثت عنه خمس آيات، تتصل اتصالا مباشرا بطعام الإنسان والحيوان، وهى قول الله عز وجل:

﴿ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ۝٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴾

وقد وضح من هذا الترتيب للبيان القرآنى أنه جمع بين صب الماء وشق الأرض وإنبات الزروع والثمار فى تسلسل وترتيب معجز، إلى أن تأتى الآية الأخيرة محددة الهدف من النظر، سعيا إلى التأمل فى مخلوقات الله، وإلى أهمية ذكر هذه الآيات، وما تشمله من نباتات وزروع وثمار فقال الله تعالى:

﴿ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴾

وقد كتب ابن كثير عن قول الله تعالى:

﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾

فقال: وفيه امتنان وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعد ما كانت عظاماً بالية وترابا متمزقا"[٣].

ولم يقتصر عرض القرآن الكريم لطعام الإنسان وشرابه على هذه الآيات، وإنما أعيد الذكر والبيان فى آيات آخرى متعددة، تتناول كل واحدة منها بعض الزوايا فيما يتصل بالنظر والتأمل، وصولا إلى تثبيت الإيمان وترسيخ العقيدة، كما جاء في قول الله تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ (الأنعام: ٩٩)

وقد بدأت هذه الآيات بالإخبار عن قدرة الله تعالى فى إنزال المطر، وما يترتب عليه من إخراج النبات، والذى يتمخض عن إخراجات متعاقبة إلى الحَبّ المتراكب، الذى يركب بعضه بعضا، كما فى سنابل القمح والأرز وغيرها.

وتُوالى الآية تقديم الحبوب والثمار والفواكه؛ حتى تصل إلى ما قبل نهايتها فتذكر الثمار، الذى يمثل الغذاء الرئيسى للإنسان، وذلك عند مرحلة النضج والانتهاء، إلى أن تكون خاتمة الآية، التى جاءت بأسلوب مؤكد للإفادة عما فيها من آيات ودروس واعتبارات للمؤمنين الصادقين فى إيمانهم، وفى تدبرهم لمكونات الطعام والشراب.

التدبر والاعتبار بالطعام والشراب

لقد دعا الإسلام إلى الاستقراء بالطعام والشراب؛ لتحقيق مزيد من الشكر والتأمل لصنائع الله فى الأرض والسماء، وجاء ذكر الطعام فى القرآن والسنة بأشكاله وهيئاته المختلفة، منها أطعمة الكفارات والهدى فى الحج، وأطعمة المناسبات الدينية، كعيد الأضحى وأطعمة العقائق والولائم وغيرها، واعتبر الحرمان من الطعام اختباراً للبشر بالجوع، الذى يعد مع الخوف من أقسى أنواع الابتلاءات، التى تستدعى اليقظة الإيمانية لعباد الله المتقين.

وفى ضوء ما تقدم يلزم على المؤمن أن يتدبر ما أنعم الله سبحانه وتعالى به عليه، فيما يتصل بالطعام والشراب، وكيفية وصولهما إلى أمعائه والاستفادة بهما، كالإمداد بالطاقة والحركة والسعى إلى إطعام المحتاجين، وإيصال المستحقات إلى الآخرين الذين يعجزون عن الكسب، ولا تستقيم لهم الحياة إلا بما يؤول إليهم من الآخرين، ولذا يجب مراعاة آداب إخراج الزكاة والصدقات، وينبغى أن يكون النظر إلى الطعام مرتهناً بالتأمل فيه والاستقواء به، سعياً إلى ترسيخ الإيمان، وتقوية العقيدة، وحسن الإقبال على الله تعالى، وهو نعم المولى ونعم النصير.

❁❁❁

(٣) تفسير ابن كثير جـ٤ صـ٤٧٢.

بين الصحف و المجلات

إعداد

أ/ محمد جمعة

أ/ علا عبدالرحمن

وقفة مع النفس والعودة للعمل والإنتاج

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ السيد العزاوى بجريدة المساء الصادرة فى ٢٠١١/٢/٢٢م يقول:

وسط هذه الظروف التى تعيشها مصر .. بعد نجاح ثورة شباب ٢٥ يناير .. وإعلان مطالبهم التى تعبر عن كل فئات الشعب وهى بلا شك مطالب مشروعة لكن هناك من يركب الموجة محاولاً أن يشير إلى أنه كان صاحب دور فى تحريك هؤلاء الشباب. وهناك فئة من المجرمين واللصوص الذين استغلوا الانفلات الأمنى ونهبوا وارتكبوا جرائم ومازال المجتمع يعانى من جرائمهم. وآخرون يخترقون القانون ويرتكبون مخالفات.

هذه الأعمال وتلك التصرفات تحتاج من كل فرد من أبناء مصرنا العزيزة أن تكون هناك وقفة مع النفس لوقف مثل هذه الأعمال والمخالفات وأن يكون لنا موقف لمواجهة كل تلك السلبيات وحذار من التقاعس وترديد عبارات للتنصل من المسئولية لأننا جميعاً سوف تصيبنا الأضرار. كما أن على الفئات التريث بعد إعلان مطالبهم من خلال الوقفات الاحتجاجية ومنح الجهات المسئولة القائمة بمهام الدولة هذه الأيام فرصة لتصحيح تلك الأوضاع ورفع المظالم عن هؤلاء الموظفين بمواقعهم المختلفة.

ويجب أن يبادر كل عامل وموظف إلى العمل باذلاً أقصى جهد. وبأقصى سرعة لتعويض الخسائر التى لحقت باقتصادنا والتطلع للمستقبل بوعى وإدراك لمصلحة الوطن وليكن شعار هذه المرحلة معاً من أجل إنتاج أفضل وعيوننا على مطالبنا فى مختلف الجهات بمعنى أننا نعمل لكى تتوفر الأموال التى تساهم فى تلبية مطالبنا لأن كفاح الشعوب ينطلق من صيحة الحق والعمل وليت الجميع يدرك أننا بعد ثورة ٢٥ يناير قد خرجنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. من أجل تشغيل طاقاتنا فى كل المواقع وتجويد الإنتاج وزيادته بحيث نلبى احتياجاتنا وننافس الآخرين فى التصدير للأسواق الخارجية بأجود البضائع وأفضل الأنواع.

هيا بنا جميعاً نعمل ونجتهد من أجل الرخاء ومزيد من فرص العمل لشبابنا والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

الخوف من الله.. والرجاء فيه أهم دروس الثورة

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ جلاء جاب الله بجريدة الجمهورية الصادرة فى ٢٠١١/٢/١٧م يقول:

المؤكد أن مصر لن تعود أبداً إلى الوراء إن شاء الله.. فقد تعلمنا من أبنائنا الشباب دروساً عديدة.

كنا نحلم .. ونتمنى ونقول .. لكن أبناءنا هم الذين ثاروا.. ونقلوا مصر إلى المستقبل المشرق إن شاء الله.

الثورة الشبابية الشعبية أبهرت العالم.. وفرضت على الدنيا كلها أن تعترف من جديد بأن مصر هى أم الدنيا .. وموطن الحضارة.. ومهد الإنسانية وفجر الحياة المدنية المشرق فى العالم.

الحديث عن الثورة يطول خاصة أنها بخرت ماكان مخزوناً فى داخلنا جميعاً .. لكن لابد أن أشير إلى جانب مهم تجاهله البعض أو تناساه.. وإذا كان الله سبحانه وتعالى يمهل .. فإنه لايهمل وإذا كان سبحانه يمد للظالم.. فإنه بعزته وجلاله لابد أن يعيد للمظلوم حقه.. وقد ظلم كثير من المسئولين السابقين مصر.. والمصريين.. ولم يعوا معنى المهلة التى منحها الله لهم.. فاستمروا فى غيهم حتى قصمهم الله بقدرته وعظمته، لأنهم كما تقول الآية:

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ﴾ (الفجر: ١١، ١٢)

وهذا ما فعله الكثير من المسئولين الذين طغوا واعتقدوا أنهم فوق الناس وأنهم فوق العدالة.. فأكثروا فى الأرض الفساد.. فأفسدوا من حولهم.. فكان لابد أن يقصمهم القهار ويذلهم!!

ألم تر أن الله قصم ظهورهم بحناجر الشباب فقط.. لم يحمل أحدهم سيفاً.. أو مدفعاً.. بل تصدوا للمدافع والبنادق.. والقنابل المسيلة للدموع.. بل وسيوف البلطجية بأصواتهم وحناجرهم وهتافاتهم وقلوبهم ودعاء الكثيرين معهم.

لم يصدق العالم كله أن هذا السلاح أقوى من رجال أمن الدولة.. ومن قوات الأمن المركزى.. ومن البلطجية المأجورين لحساب البعض.. فمن منح هذه الحناجر وتلك الأصوات قوة الزلزال فيهز عرش المتجبرين ويكسر أعناقهم.

إنه الاخلاص والصدق فى العمل من أجل الوطن، إنه الإخلاص الذى هو كلمة السر فى حب الله إنه الصدق الذى هو كلمة السر فى العمل.. إنه الصدق مع الله.. والإخلاص لله.. ودعاء المظلوم ودعاء صاحب الحاجة.. ودعاء المخلصين.. فكان نصر الله لشباب نقى طاهر خرج وما كان يخطر على باله أنه يهز عرش الجبابرة.. أو يكسر أعناقهم ويذلهم فيتساقطون كما تتساقط الحشرات تباعاً.!

هذه هى قدرة الله وحكمته وسنته فى خلقه ولعلها الدرس الأول من دروس الثورة لكل من يتولى مسئولية عباد الله فى المرحلة المقبلة.. إن الخوف من الله والرجاء فيه هو سفينة النجاة فى الدنيا والآخرة.. من كان يخاف الله فإنه سيحاول أن يكون عادلاً.. عاملاً لوجهه مخلصاً فى أدائه وعطائه فيكسب حب الناس ويرضى عنه رب

الناس ويفوز بالحسنيين: الدنيا والآخرة.

إنه الدرس الأول من دروس الثورة الخوف من الله.. والرجاء فيه والعمل من أجل وجهه الكريم.. والرفق مع الناس خاصة البسطاء والفقراء وذوى الحاجة. يقول رسولنا الكريم ﷺ: «حرم على النار كل هين لين سهل قريب من الناس»[1] وقال عليه الصلاة والسلام فى دعائه لرب العزة والجلال: «اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فشق عليهم فاشقق عليه ومن ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم.. فارفق به»[2] هذا دعاء الحبيب لله.. فهل وصل إلينا وفهمناه.

الدرس الأول هو الخوف من الله والرجاء فيه والعمل لوجهه الكريم، يا من ستحملون أمانة العمل والمسئولية فى مصر بعد ثورة الشباب.

اللهم بلغت.. اللهم فاشهد.

مصر أولا

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ/ احمد موسى المنشور فى جريدة الأهرام بعددها الصادر فى ٢٠١١/٢/٢٣م يقول فيه:

ما نراه فى كل الشوارع من قيام الشباب المصرى من كل الأعمال، بحملات يومية للنظافة المستمرة وطلاء الأرصفة - يدل على أن هذا الشعب تحرك، لكى يرى وطنه نظيفا فى كل المواقع والأماكن، فالأولوية لنا حماية هذا الوطن بعيدا عن حملات التخوين والتشكيك.

خرج الآلاف من الشباب من منازلهم وامتلأت بهم الشوارع بالقاهرة والمحافظات، وكل منهم يتسابق للقيام بهذا العمل التطوعى لتنظيف الشوارع، فى سابقة فريدة تنم عن التحول فى سلوكيات المواطنين، والذين أصبحوا أكثر حرصا على وطنهم وشوارعهم.

ينتشر شبابنا العظيم من ساعات الصباح فى الشوارع والميادين، وكل منهم يحمل فرشاة أو (جركن) مياه و(مقشة) ومن حولهم كميات من الأكياس المملوءة بالقمامة. ويقومون بتحميلها ونقلها إلى الأماكن المخصصة لها، وتبادر مجموعات أخرى لمقابلة رؤساء الأحياء للحصول منهم على خرائط كاملة، لكى يتمكنوا من إنجاز هذا العمل التطوعى فى كل المواقع.

هو مظهر حضارى يليق بشعب ووطن عظيم، تريد أجياله المتعاقبة أن تفعل شيئا، وهذا التحرك جاء عقب ثورة ٢٥ يناير، والتى حركت الجميع، لكى يعملوا لبناء الوطن ولايشاركون فى تخريبه وهدمه، فكفى عمليات النهب والسرقة والفساد، التى حدثت طوال السنوات الماضية، وهو الأمر الذى يضع مسئولية ضخمة على المستشار د/عبدالمجيد محمود النائب العام لإنجاز هذا الكم الهائل من ملفات الفساد، لمحاكمة هؤلاء الذين استغلوا مواقعهم فى التربح والإضرار بأموال الدولة.

الوطن فى حاجة للجميع، لنعيد الثقة فى كل المؤسسات والجهات الحكومية من جديد، مثلما فعل الشباب المصرى سواء فى ثورتهم أو هؤلاء الذين ينظفون الشوارع، بعكس تلك الفئة من البشر ممن يحتاجون إلى تنظيف قلوبهم من الغل

(١) مسند أحمد، كتاب مسند المكثرين من الصحابة.

(٢) مسند أحمد، كتاب باقى مسند الأنصار.

والكراهية والحقد على الآخرين، وهؤلاء ندعو لهم بالشفاء من تلك الأمراض المتوطنة داخلهم، فمصلحة الوطن أهم من المصالح الخاصة.

ليست غيمة عابرة

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ/ غسان شربل فى جريدة الحياة الصادرة فى: ٢٠١١/٢/٢١م يقول:

لم تكن العقود الأخيرة فى الشرق الأوسط سهلة. شهدت انفجارات تركت بصماتها على ملامح المنطقة.. لكن لا مبالغة فى القول أن ما يعيشه الشرق الأوسط حالياً أكثر أهمية وأشد خطورة. وأن المشهد الحالى غير مسبوق. ومثله الخوف الذى يصيب دول المنطقة.

ما يجرى ليس غيمة عابرة. يمكن الالتفات إلى ليبيا. واليمن. والجزائر. والمغرب. والبحرين. وإيران. هذه ليست رياحاً عابرة. إنها عاصفة تضرب الإقليم. والدليل أن تونس لا تعيش فى ظل بن على. ومصر لا تعيش فى ظل مبارك. ولا شيء يشير إلى أن العاصفة فقدت اندفاعتها. وأن نارها لن تفيض عن مسارحها الحالية. واضح أننا نشهد نهاية حقبة وبداية أخرى.

ليست غيمة عابرة. إنها مجموعة من السحب السوداء. تجمعت وتراكمت وتفاقمت شحناتها الكهربائية والمغناطيسية. لهذا تبدو الدول قلقة ومرتبكة. تماماً كما يحدث لطائرة تكتشف فجأة أنها دخلت منطقة من المطبات الهوائية العنيفة. وأن الأجهزة التى كان عليها استشعار العواصف عن بعد لم تقم بمهمتها.

غياب السوابق يضاعف صعوبة المعالجة. كانت دول المنطقة تخاف فى السابق من تورم أحلام الضباط فى الثكن. أو من مجموعات تتولى زرع القنابل أو قيادة السيارات المفخخة أو تنفيذ عمليات انتحارية. أو من معارضات تقليدية. تدربت دول المنطقة على مواجهة هذا النوع من التحديات. لكنها تواجه اليوم ما هو أخطر. شبان يتدفقون من الجامعات أو الثانويات إلى شوارعها. شبان لا ينتمون إلى حزب بل يتشاركون فى اليأس من الواقع القائم وفى الرغبة فى تغييره. لا يحركهم قائد ملهم. شبكات التواصل الاجتماعى تسهل مواعيدهم. والفضاء المفتوح يحميهم من الممارسات التى كانت الدول تلجأ إليها لإسكات الناقمين والمعارضين وهو ما كانت تسميه وأد الفتنة فى مهدها.

المشهد جديد تماماً. يكفى أن تنقب تظاهرة صغيرة هيبة النظام لتصبح الشوارع فى عهدة المحتجين. تكبر الجموع وأحلام التغيير. تبدأ أيام الغضب. ثم ترتفع شعارات لم يكن المواطنون قبل أيام يجازفون بترداد مثلها داخل منازلهم. وإذا أطلقت الشرطة الرصاص لتفريق المحتجين يعترض باراك أوباما على الاستخدام المفرط للقوة ويطالب السلطة بمحاورة المحتجين.

المشهد الجديد أشاع الخوف لدى دول الإقليم. الطريقة الوحشية التى تعامل بها نظام القذافى مع الاحتجاجات فى بنغازى تكشف حجم مخاوفه. بدد العقيد وقته وثروة بلاده على محاولات إضرام نار الثورات والانتفاضات فى الخارج، لكنه أطلق جيشه ولجانه حين ارتفعت هتافات التغيير فى بلده. يحب الثورات شرط أن تكون بعيدة. يدعم التغيير شرط أن يكون بعيداً. الطريقة التى تعاملت بها السلطات الإيرانية مع الاحتجاجات

تكشف أيضاً خوفاً عميقاً. الثورة التى جاءت بقوة الجماهير والشارع تخاف اليوم من الجماهير والشارع.

الارتباك شديد والخوف واضح. والمشهد كئيب ومتفجر. أضاعت دول كثيرة عقوداً متتالية. فقر وتهميش. تعثر التنمية وغياب المؤسسات. تعليم ردىء وبطالة. تجمعت السحب القاتمة. الهراوات لا تكفى والرصاص محظور أو باهظ التكاليف. لقد انتهى عصر الطمأنينة. الطمأنينة المفرطة مضرة كالقلق الدائم.

ممر فاروق الباز أمل مصر فى المستقبل

تحت هذا العنوان جاء تحقيق الأستاذ/ هانئ مباشر المنشور فى مجلة آخر ساعة الصادرة بتاريخ: ٢٠١١/٢/٢٣م يقول فيه:

مشروع ممر التنمية.. عنوان المستقبل والخير لمصر ولأبنائها على المدى البعيد وعودة الروح إلى المشروعات القومية الحقيقية التى يلتف حولها الشعب لينتج ويبنى ويعمر.. مثلما حدث من قبل مع مشروع السد العالى والذى تحول على مر التاريخ إلى رمز للنهضة والنمو.

فكرة المشروع وكما يقول العالم المصرى الكبير الدكتور فاروق الباز بدأت عندما قام بدراسة صحارى مصر منذ ثلاثين عاماً والتى يؤمن الباز أنها يمكن أن تؤهل حياة كريمة لعدد كبير من السكان لذلك لا يصح أن تبقى مدن مصر مكتظة بالسكان فى نطاق وادى النيل الضيق ودلتاه.. ينتج عن هذا التكدس مصاعب حياتية كثيرة منها ضياع الوقت فى التنقل وعدم توفر الغذاء الصحى وتكدس المدارس إضافة إلى الآثار البيئية السيئة.

والمشروع ليس زراعياً وإنما صناعى واجتماعى فالأهم فى هذا المشروع هو تأهيل وزيادة الرقعة التى يقام عليها إعمار خارج الرقعة الزراعية فى وادى النيل والدلتا فالمشروع سيقوم بتسوية الأرض وبناء من ٣٠ إلى ٤٠ مدينة فى الخطوط العرضية وآلاف القرى بعيداً عن النيل خلال الخمسين أو المائة سنة القادمة وإلا ستنتهى الأراضى الزراعية فى مصر لو استمر الحال لما هو عليه الآن من الزيادة السكانية.

فالهدف الرئيسى للمشروع هو فتح مجال للبناء بعيداً عن الأراضى الزراعية وإيجاد أماكن جديدة تسمح بإقامة مصانع ومدن صناعية والزراعة باستخدام المياه الجوفية المتوافرة فى هذه المنطقة.. والتى يوجد بها نحو مليون فدان صالحة للزراعة.

ويتضمن مشروع ممر التعمير إنشاء طريق رئيسى للسير السريع بالمواصفات العالمية يبدأ من غرب الإسكندرية ويستمر حتى حدود مصر الجنوبية بطول ١٢٠٠ كيلو متر تقريباً.. إضافة إلى إنشاء اثنى عشر فرعاً من الطرق العرضية التى تربط الطريق الرئيسى بمراكز التجمع السكانى على طول مساره بطول كلى نحو ٨٠٠ كيلو متر.. وكذلك شريط سكة حديد للنقل السريع بموازاة الطريق الرئيسى ومد أنبوب ماء من بحيرة ناصر جنوباً وحتى نهاية الطريق على ساحل البحر المتوسط إضافة إلى خط كهرباء يؤمن توفير الطاقة فى مراحل المشروع الأولية.

ويمثل الطريق العالمى من الشمال إلى الجنوب

العنصر الأساسى لممر التعمير، يبدأ الطريق على ساحل البحر المتوسط فى موقع بين الإسكندرية والعلمين، ويؤهل لإنشاء ميناء عالمى جديد يضاهى الموانئ العالمية الكبرى فى المستقبل وتؤخذ فى الاعتبار الحاجة إلى توفير استخدام تكنولوجيا المعلومات الحديثة فى التعامل السهل السريع مع الصادرات والواردات والبضائع المؤقتة.

ويتكون الطريق الرئيسى من ثمانى ممرات على الأقل اثنان لسيارات النقل واثنان للسيارات الخاصة ذهاباً وإياباً كما يلزم تمهيد الطريق وفق المواصفات العالمية التى تسمح بالسير الآمن السريع دون توقف إلا فى حالات الطوارئ ومحطات الاستراحة والوقود ومراكز تحصيل رسوم السير.

يشتمل المشروع على ١٢ محوراً عرضياً يربط كل منها الطريق الرئيسى بموقع من مواقع التكدس السكانى فى الدلتا وبموازاة وادى النيل، تسمح هذه الطرق بالامتداد العمرانى غرباً فى هذه المواقع رويداً.. رويداً وتضيف بعداً جغرافياً لعدد من المحافظات التى تعانى من الاختناق فى الوقت الحالى.

إن مشروع ممر التعمير يهدف إلى تحقيق تنمية غير مسبوقة.. ويشتمل على خط سكة حديدية للنقل السريع بموازاة الطريق الرئيسى، وتؤهل هذه الوسيلة نقل الناس والبضائع والمنتجات من جنوب مصر حتى ساحل البحر المتوسط لاسيما أن السكة الحديدية الحالية تعانى من الكهولة.. كما لا يصح إنشاء سكة حديدية جديدة داخل وادى النيل لأن فى ذلك تعديا على الأراضى الزراعية.

الفوائد لا تعد ولا تحصى حتى الجانب البيئى هناك مكاسب فى هذا المجال بل إنه يعتبر من إحدى مزاياه الرئيسية.. إلى جانب العديد من المزايا والمنافع.. ومن بينها كما قلنا فى البداية هو الحد من التعدى على الأراضى الزراعية داخل وادى النيل من قبل القطاع الخاص والحكومى معاً.. وفتح مجالات جديدة للعمران بالقرب من أماكن التكدس السكانى.. وإعداد عدة مناطق لاستصلاح الأراضى غرب الدلتا ووادى النيل.

هذا إلى جانب المكسب الأكبر وهو توفير مئات الآلاف من فرص العمل فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة والإعمار.. وتنمية مواقع جديدة للسياحة والاستجمام فى الصحراء الغربية بالشريط المتاخم للنيل.. والإقلال من الزحام فى وسائل النقل وتوسيع شبكة الطرق الحالية وتأهيل حياة هادئة ومريحة فى بيئة نظيفة تسمح للبعض بالإبداع فى العمل وربط منطقة توشكى وشرق العوينات وواحات الوادى الجديد بباقى مناطق الدولة.. وخلق فرص جديدة لصغار المستثمرين للكسب من مشاريع فى حقول مختلفة.. ومشاركة شريحة واسعة من الشعب فى مشاريع التنمية، مما ينمى الشعور بالولاء والانتماء.. وفتح آفاق جديدة للعمل والتمتع بثمار الإنجاز فى هذا المشروع.. وبالمناسبة فإن تكلفة المشروع تقدر بحوالى ٤٠ مليار دولار.. وهذه التكلفة ليست باهظة إذا ما قورنت بالمردود الذى سيحدث فيما بعد.. ولكن شريطة أن نبدأ الآن.. واقترح الباز أن يتم تمويل مشروع ممر التنمية الذى تقدم به للفريق أحمد شفيق رئيس مجلس الوزراء عن طريق الشعب وأن يبتعد تماما عن أى تمويل حكومى

وذلك بطرح أسهمه للشعب بجنيه واحد حتى يشارك كل المصريين وبعد ذلك يتم فتحه للاستثمار العربي ثم للاستثمار الخارجي حتى يتم تجميع ٢٤ مليار دولار تكلفة المشروع والذى قد يحتاج إلى ٤٠ مليار دولار.. ومن السهل تجميع المبلغ فى ٦ أشهر.

العسكرية المصرية وحضارة ٧ آلاف عام

تحت هذا العنوان، كتب الأستاذ/ محمد عبدالمنعم مقالاً نشر فى جريدة الأخبار بعددها الصادر بتاريخ: ٢٠١١/٢/١٣م يقول فيه:

إن أداء قواتنا المسلحة منذ اللحظات الأولى لأحداث يناير ٢٠١١م وحتى انفراج الأزمة والأوضاع فى مساء يوم ١١ فبراير ٢٠١١م، هذا الأداء اتسم بمستويات راقية من التحضر والاحتراف والتمكن والثقة، وذلك فى ذات الوقت الذى حافظت فيه قواتنا على المصالح العليا للوطن ودون المساس بأى طرف أو فرض إرادتها على هذا الجانب أو ذاك، باستثناء ما يتعلق بالأمن والشرعية وعدم إراقة دماء أبناء ذات الوطن!

وفى البيان الذى أذاعه اللواء عمر سليمان، نائب رئيس الجمهورية، انعكس عنصر الوفاء ورفقة السلاح والاعتزاز التاريخى والأبدى بقادة حرب أكتوبر ١٩٧٣، وذلك عندما تضمن البيان تلك العبارة التى تقول: «إن القوات المسلحة لن تقبل أبداً المساس بأحد قادة حرب أكتوبر ٧٣».. ومن جانب آخر تضمن البيان الذى أذاعه المتحدث العسكرى للقوات المسلحة فى مساء يوم الجمعة ١١ / ٢ / ٢٠١١م، وعقب تخلى الرئيس مبارك عن الرئاسة وتكليف المجلس الأعلى للقوات المسلحة بإدارة شئون البلاد، تضمن البيان تأكيداً للخدمات التى قدمها الرئيس مبارك للوطن إن حرباً أو سلماً.. وحرص المجلس الأعلى للقوات المسلحة فى هذا البيان التاريخى على توجيه التحية والتقدير للرئيس مبارك على ما قدمه للبلاد فى مسيرة العمل الوطنى وعلى موقفه الوطنى الذى تمثل فى تفضيل المصلحة العليا للوطن عن أى مصالح أخرى.

لقد كانت المحصلة النهائية لهذه المعالجة التاريخية هى ذروة الحكمة والاقتدار للخروج الآمن من أزمة حقيقية كان يمكن أن تعصف بأى مجتمع وأى دولة ولكن ليس أبدا تلك الدولة التى تمتلك هذه التركيبة النادرة من إمكانات حضارية وشعبية ووطنية وعسكرية، إلى جانب احتياطى هائل من شباب قادر وواعد، يختزن ذات الرصيد من حضارة سبعة آلاف عام.. حضارة تجسدت خلال أحداث الأيام الماضية وانحنى أمامها احتراماً ملوك ورؤساء وشعوب العالم كله.

شهادات من الخارج

تحت عنوان «لا يقل عن أحمد زويل»، كتب الأستاذ سليمان جودة مقاله المنشور بجريدة المصرى اليوم الصادرة بتاريخ: ٢٠١١/٢/١٩م، يقول فيه:

الشهادات المقبلة من الخارج فى حق حركة شباب ٢٥ يناير، لا بد أن تستوقفنا لسببين، أولهما: أن هناك إعجاباً بالحركة فى حد ذاتها، من حيث سلميتها، ثم من حيث قدرتها فى النهاية على أن تجعل الدولة تسلم بأهدافها، وأما

السبب الثانى: فهو يتعلق بمسألة لا صلة لها بأهداف الحركة ومع ذلك فقد أثارت الإعجاب على مستوى رؤساء دول وحكومات وشبكات عالمية، ولاتزال!

فالرئيس الأمريكى أوباما يقول مثلاً: إنهم فى الولايات المتحدة يجب أن يربوا أبناءهم ليكونوا مثل الشباب المصرى..

أما الرئيس النمساوى فقال: المصريون هم أروع شعب على الأرض ويستحقون جائزة نوبل للسلام..

وقال رئيس وزراء بريطانيا: علينا أن نفكر جدياً فى تدريس الثورة المصرية فى المدارس الإنجليزية!..

ثم قال رئيس وزراء إيطاليا لا جديد فى مصر.. فالمصريون يقومون بكتابة التاريخ كالعادة..

وقال رئيس وزراء النرويج: اليوم كلنا مصريون.

وقالت شبكة «سى.إن.إن» الأمريكية: لأول مرة نجد شعبا يقوم بثورة وينظف الشوارع من بعده!

وحقيقة الأمر أننا يجب أن نتوقف عند شهادة الشبكة الأمريكية، بوجه خاص، لأن رؤساء الدول والحكومات الذين أدلوا بشهاداتهم، يعرفون أن هناك ملايين غيرهم من آحاد الناس، يشاركونهم الدرجة ذاتها من الإعجاب بما جرى فى بلدنا، ابتداء من ٢٥ يناير.. ولكن شبكة «سى. إن. إن» تتوقف أمام شىء نادر فى العالم، وهو أن يقوم شعب بثورة فى ميدان من الميادين وحين يحقق أهداف ثورته فإنه لا يحمل أشياءه فقط، ويعود إلى بيته ولكنه يحرص على أن ينظف الميدان، ليعيده كما كان، قبل أن ينصرف.

هذا هو الجديد، وهذا هو الذى جعل الشبكة الأمريكية تصف ما جرى بأنه يحدث لأول مرة، بما يعنى أن أى مكان فى العالم لم يشهد شيئاً مماثلاً من قبل..

الذين نظفوا الميدان من الشباب منحوا بلدهم أرفع وسام.

ثورة شباب مصر

كتب الأستاذ/ محمد الزرقانى فى عموده «مجرد اجتهاد» المنشور فى جريدة اللواء الإسلامى بعددها الصادر بتاريخ ٢٠١١/٢/١٧م، يقول فيه:

أثبتت ثورة شباب مصر النقى الطاهر، أن ما كان يجرى الترويج له عن الفتنة الطائفية بين مسلمى مصر وأقباطها، والتأكيد عليها من خلال ادعاءات تدخل جهات خارجية ومتطرفين مسلمين، حتى وصل الأمر إلى ارتكاب جرائم، كان آخرها جريمة تفجير كنيسة الإسكندرية، لم يكن إلا جريمة كبرى ارتكبها أناس لا ضمير لهم.

وأتمنى أن يعود جهاز الشرطة إلى واجبه الأساسى فى خدمة الشعب، وأن ينتهى إلى الأبد إهدار كرامة المواطنين، واعتقال أقارب المطلوبين، أيا كانت جرائمهم، لإجبارهم على تسليم أنفسهم وتعذيبهم وهتك أعراضهم.. وأن يتخلص الجهاز ممن يضمهم من الساديين الذين يتلذذون بإهانة وتعذيب الآخرين.

طرائف.. ومواقف

لفضيلة الشيخ/ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

معرفة الله

معرفة الله نوعان:

● الأول: معرفة إقرار، وهى التى اشترك فيها الناس، البِّر والفاجر، والمطيع والعاصى.

● والثانى: معرفة توجب الحياء منه، والمحبة له، وتعلق القلب به، والشوق إلى لقائه، والخشية منه، والإنابة إليه، والأنس به، والفرار من الخلق إليه.

عظمة

● كان أهل المدينة قد ثاروا على المنصور الخليفة العباسى تحت قيادة محمد بن عبدالله بن الحسن من أهل البيت النبوى، فقاتلهم المنصور، وقبض على قائدهم فقتله، ثم أحضر جعفر بن محمد بن على بن الحسين فقال: قد رأيت إطباق أهل المدينة على حربى، وقد رأيت أن أبعث إليهم من يَنُور عيونهم، ويجمر نخلهم.

●● فقال له جعفر: يا أمير المؤمنين، إن سليمان أعطى فشكر، وإن أيوب ابتلى فصبر، وإن يوسف قدر فغفر، فاقتد بأيهم شئت، وقد جعلك الله من نسل الذين يعفون ويصفحون.

● فقال له المنصور: إن أحداً لا يعلمنا الحلم، ولا يعرفنا العلم، وإنما قلت هممت ولم ترنى فعلت، وإنك لتعلم أن قدرتى عليهم تمنعنى من الإساءة إليهم.

تحاسد الأقارب

● قالت العرب: أزهد الناس فى عالم أهله

● ووقف أمية بن أبى الأشكر على ابن عم له فقال:

نشدتك بالبيت الذى طاف حوله
رجال بنوه من لؤى بن غالب
فإنك قد جربتنى فوجدتنى
أعينك فى الجلى وأكفيك جانبى
وإن دب من قوم إليك عداوة
عقاربهم دبت إليهم عقاربى

قال نعم كذلك أنت، فما بال متبرك لا يزال إلىّ دسيساً؟ قال: لا أعود. قال: قدر رضيت وعفا الله عما سلف.

● وقال يحيى بن سعيد: من أراد أن يبين عمله ويظهر علمه فليجلس فى غير مجلس رهطه.

الأدب مع الملوك

● كان الحسن اللؤلؤى ليلة عند المأمون وهو يسامره إذ نعس المأمون والحسن يحدثه: فقال له: نعست يا أمير المؤمنين؟ فانتبه. فقال المأمون: سوقى ورب الكعبة! «أى لا يقول مثل هذا الكلام فى حق أمير المؤمنين إلا سوقى لا يصلح لمجالسة الملوك» يا غلام خذ بيده! فأخرجه الغلام.

● ودخل أبوالنجم على هشام بن عبدالملك ينشده أرجوزته التى أولها:

«الحمد لله الوهوب المجزل».

وهى من أجود شعره. فلما أتى على قوله: «والشمس فى الجو كعين الأحول»

غضب هشام وكان أحول، وأمر بصفع قفاه وإخراجه!.

● ودخل كثير عزة على يزيد بن عبدالملك، فبينما هو يحدثه إذ قال: يا أمير المؤمنين ما معنى قول الشماخ؟ وأنشده بيتا له. فقال يزيد: وماذا على أمير المؤمنين أن لا يعرف ما قال هذا الأعرابى! وأمر بإخراجه.

من الحكم

أنشد أحمد بن عبيد الله لشاعر قديم من قصيدة حماسية:

ولا خير فى حسن الجسوم وطولها
إذا لم تزن حسن الجسوم عقول
فكائن رأينا من فروع طويلة
تموت إذا لم تحيهن أصول
فإن لا يكن جسيما طويلا فإننى
له بالفعال الصالحات وصول
ولم أر كالمعروف أما مذاقه
فحلو وأما وجهه فجميل

نصيحة

قال حكيم:

إذا جالست الجهال فأنصت لهم، وإذا جالست العلماء فأنصت لهم، فإن فى إنصاتك للجهال زيادة فى الحلم، وفى إنصاتك للعلماء زيادة فى العلم.

ترداد الكلام

● تكلم ابن السماك يوماً، وجارية له تسمع كلامه، فلما دخل إليها، قال: كيف رأيت كلامى؟

●● قالت: ما أحسنه، لولا أنك تكثر ترداده!

● قال: أردده حتى يفهمه من لم يفهمه.

●● قالت: إلى أن يفهمه من لم يفهمه، قد ملّه من فهمه.

القاضى الصغير، والقاضى الكبير

● دخل إياس بن معاوية، وهو شاب صغير، على قاضى دمشق ومعه شيخ كبير، فقال إياس للقاضى: أصلح الله القاضى هذا الشيخ ظلمنى، وأكل مالى.

●● فقال له القاضى: يا فتى ارفق بالشيخ، ولا تستقبله بمثل هذا.

● فقال إياس: إن الحق أكبر منى ومنه ومنك.

● فقال القاضى: اسكت.

● قال إياس: وإن سكت فمن يقوم بحجتى؟

●● قال القاضى: لا بأس، تكلم، فوالله لا تتكلم بخير.

● فقال إياس: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له».

فبلغ الحوار الخليفة، فعزل القاضى، وولى إياساً مكانه.

فراسة

طاف سائل مكفوف البصر بشوارع «أصبهان» يسأل الناس على حسب عادته؟ فأعطاه رجلاً رغيفاً، فدعا له السائل، وقال: رد الله غربتك.

فقال المتصدق: وكيف عرفت أننى غريب، وأنت أعمى؟

فقال الرجل: لأنى أسأل الناس فى هذه المدينة منذ ثلاثين سنة، ما أعطانى أحد رغيفاً كاملاً.



● اللهم أرحمنا إذا أتانا اليقين، وعرق منا الجبين، واشتد الحنين والأنين.

● اللهم ارحمنا إذا اشتدت السكرات، وفاضت العبرات، وتعطلت القوى والقدرات.

● اللهم ارحمنا إذا يأس منا الطيب، وبكى علينا الحبيب.

● اللهم ارحمنا إذا حملنا على الأعناق، والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق.

بين المجلة والقارئ

إعداد وتقديم

أحمد السيد تقى الدين

كلنا أغنيــاء

تحت هذا العنوان جاءت كلمات الشيخ/ مصطفى الأزهرى - إمام وخطيب مسجد سوق الحمام - السيدة عائشة - القاهرة:

تبقى قضية الغنى والفقر فى ميزان البشر وتصوراتهم مرهونة بما يملكه المرء من مال ووفرة يستطيع من خلالها أن يعيش فى بحبوحة ورغد ورفاهية حسب ما يتوفر له من سبل العيش الكريم ومن ثم يتفاضل الناس فى درجاتهم واحتياج بعضهم لبعض على حسب ما يملكون، ونحن نجد أن القرآن الكريم أقر مصطلحى الغنى والفقر فسمى أصحاب الأموال «أغنياء» قال تعالى:

﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾

(الحشر: ٧)

وقال تعالى:

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ ﴾

(التوبة: ٦٠)

وهذا تأكيد من وجهة نظر الإسلام بتوفر المال أو قلته أو عدم وجوده فى يد الأفراد، إلى هنا ليس هناك جديد فى هذا الطرح، فهو الشائع الغالب المعروف بين البشر وهو ما تجرى عليه أمور الناس من أغنياء وفقراء إلى الحد الذى يغلب ذلك التصور على الأذهان والعواطف فيعتبر بعض الناس وفرة الرزق دليلا على تكريم الله تعالى للعبد، وقلته علامة على الإهانة وعدم الرضا، نجده فى قوله الله تعالى:

﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾

(الفجر: ١٥، ١٦)

لكن القرآن العظيم يأتى فيصحح تلك المفاهيم ويعدل من هذه الأغاليط الفكرية والنفسية فى قضية الغنى والفقر فيقول الله عز وجل:

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ﴾

(الشورى: ٢٧)

إذاً هى الحكمة الإلهية فى تقدير الأرزاق والعطاء، مع التأكيد الجازم أن الله:

﴿ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾

وأنه عز وجل:

﴿ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

(البقرة: ١٠٥)

وأنه جل جلاله:

﴿ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾

(المؤمنون: ٨٨)

وأن القوى العزيز مالك الملك هو كذلك الذى يطمئن عباده فى أوقات الشدة ومخافة الفقر فيقول لهم:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾

(التوبة: ٢٨)

وينهاهم عن أن يكون الخوف من قلة الرزق دافعاً إلى ارتكاب جريمة قتل النسل فقال تعالى:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

(الأنعام: ١٥١)

لذا فإن من أخطر الأمور التى تهدد عقيدة المسلمين فى قضية «الرزق» أو تشوش على نظرتهم الإيمانية فى مسألة «الغنى والفقر» أن يتعاملوا معها بعيداً عن التصور القرآنى والنظرية الإسلامية التى ترفع العبد بتقواه وقربه من مولاه، لا بحسب ما يملك أو ما لا يملك، فكم من عقائد فسدت، وأعصاب احترقت، وأمراض نفسية وعضوية انتشرت بسبب تعامل الناس فى قضية «الأرزاق» بعيداً عن روح الإيمان واليقين الذى أراح فؤاد الزاهد العابد إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله ـ حين قالها فأراح بها القلوب المتعبة والعقول المنهكة: «علمت أن رزقى لن يأخذه غيرى فاطمأن قلبى»!! وكذلك معيار آخر جديد على البشر فى مفهوم الحيازة والغنى لتستريح القلوب ونصير كلنا بعد هذا البيان النبوى العظيم «أغنياء».. قال «صلى الله عليه وسلم»: «من بات آمناً فى سربه، معافى فى بدنه، عنده قوت يومه، فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها».

***

الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم

تحت هذا العنوان جاءت كلمة الأستاذ محمد عباس محمد عرابى:

إننا نعيش عصر العلم والتقنية الرفيعة، التى استطاع الإنسان من خلالها ارتياد الفضاء، ودخول عصر الهندسة الوراثية، والليزر والحاسب الآلى، وثورة الاتصالات والمعلومات، ومع ذلك تبقى الحقيقة الثابتة «أنه كلما تقدم العلم خطوة للأمام كلما زاد اليقين بما جاء به القرآن».

ففى الكون أسرار كثيرة لم يكن العلماء قديماً يعلمون عنها شيئاً، ولا يعرف العلماء عنها فى عصر العلم الحديث إلا القليل، وسيكشف العلماء كل يوم ما هو جديد، وكل ما كشفه العلماء مطابق لما جاء به القرآن الكريم منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام.

ونحن نعيش فى عصر العلم يتحتم على المسلمين خاصة العلماء منهم الاستفادة بمعطيات العلم فى توسيع مدلول الآيات التى تتحدث عن علوم الكون، ويستحيل أن تتعارض حقيقة علمية ثابتة وأصيلة مع نص قرآنى، ولأن القرآن كتاب الله المسطور، والكون كتاب الله المنظور، والإسلام دين الفطرة، ونحن لا نثبت القرآن بالعلم، بل على العلم أن يلتمس صحته من القرآن، ومن ثم لا يجب أن نجر الآية جراً لكى نتفق مع المكتشفات، أو نفسر القرآن على وجه خطأ حتى يتفق مع مدلول ما نعتقد أنه حقيقة علمية، بل نقبل ما كان حقيقة من العلم، ومتفقا مع ظاهر الآيات القرآنية، وقد يُخطئ النص العلمى أما النص الدينى فهو الصحيح.

وعند تناول الحقائق العلمية فى ضوء القرآن الكريم يلزم التنبيه على أن القرآن يأتى بالكليات ويترك للناس البحث عن جزئياتها، ويتناول القرآن الحقائق العلمية من أعلى، أما العلم فيتناول الأشياء من أسفل حتى يصل إلى الحقيقة.

ومن العجيب أن جميع القضايا العلمية التى تناولها القرآن جاء الناس وتناولوها أيضاً، فقد أخبر القرآن أن الذين كفروا سيتناولون قضية خلق السماوات والأرض، مع أنهم لم يكونوا مشاهدين لها.. وحدث بعد ذلك أن تناولوها.. وغيرها من القضايا.

ويجب أن يطمئن قلب المسلم حينما يعلم أن أساسيات العلم قد أشار إليها القرآن إشارات صريحة أو تلميحا، فلقد أشار القرآن إلى خلق السماوات والأرض من فتق الرتق، وإلى اتساع الكون، ونهايته، وأشار

إلى كروية الأرض ودورانها، وإنقاصها من أطرافها، واتساع بحارها المسجورة من منتصفاتها بالنار، وأشار إلى ثقل جوفها، وأقطارها، ودور جبالها في إرسائها واتزانها.

ويتيه المسلم عجبًا وسرورًا بآيات القرآن الكونية التي تتحدث عن الجبال والبحار والزلازل والكون بصفة عامة فيشير إلى أعمدة السماء التي لا تُرى، وظلمة الكون وانسلاخ النهار منها، وتعدد الشموس والأقمار، ودورة حياة النجوم، بل إن القرآن قد أشار إلى النسبية العامة والخاصة، وأشار إلى النجم الطارق الثاقب، والخُنَّس الجوار الكُنَّس، وعن صناعة الفلك المشحون، وارتياد الفضاء، وركوب طبق عن طبق.

وإشارات القرآن في الخلق لا تخفى على عاقل، فلقد تحدث القرآن عن مراحل خلق الإنسان من التراب والطين والنطفة والعلقة والعظام واللحم، والقرآن يتحدث من قاعدة عموم الزوجية، وعن عالم الأحياء غير الإنسان حيث البعوض يضرب المثل بها، ليس لتفاهتها، ولكن لموقعها الراقي في تقسيم الحيوانات التي لا يعلمها إلا العالمون، وفي النملة الناصحة لقومها ومساكنها رائعة البناء، وفي النحلة المذللة سبلها، والشفاء الذي يخرج من بطونها، وفي وهن بيت العنكبوت، وفي الذبابة التي تثبت عجز البشر عن خلقها أو حتى الحصول على ما تسلبه الذبابة منهم، وتتجلى آيات الإعجاز في خلق الدواب وبثها، وأزواج النبات وتنوعاتها وشقوق الحجارة وخشوعها، ورجع السماء، وصدع الأرض.

ما أروع رحلة الإيمان مع القرآن في أعماق الكون مع الأرض والكواكب والنجوم والخلق، رحلة يرى الناس فيها آيات الله في الأنفس والآفاق.

الأدب مع الله تعالى

تحت هذا العنوان جاءت كلمة الشيخ: إبراهيم أحمد جاد الكريم - واعظ دشنا - فوشوط - قنا:

يقول العلماء: معنى الأدب: أن تجتمع خصال الخير في العبد.. ظاهرًا وباطنًا.. قولا وفعلا.. سرا وعلانية. ومعنى الأدب مع الله تعالى: أن يجتمع هذا كله للعبد في معاملته لربه جل وعلا، والناظر في القرآن الكريم يجد أن أنبياء الله جميعا -وهم خير الناس- كانوا في أسمى مراتب الأدب مع الله تعالى.

ونحن مأمورون أن نسير على خطاهم.. وأن نقتضي أثرهم ونسلك طريقهم.

* فهذا آدم عليه السلام يقول في أدب جميل داعيا ربه قائلاً:

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

ولم يقل رب قدرت عليّ وقضيت عليّ.. بل نسب الظلم لنفسه وطلب المغفرة والرحمة من ربه.

* وهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام.. جاء على لسانه في القرآن الكريم:

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾

فلم يقل عليه السلام وإذا أمرضني حفاظا على الأدب مع الله تعالى..

وهذا نبي الله عيسى عليه السلام.. متأدبا مع الله جل وعلا حينما قال الله له:

﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾

فكانت إجابة نبي الله عيسى عليه السلام في كمال الخضوع والتنزيه والأدب حيث جاء على لسانه:

﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾

***

وهذا نبي الله محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم.. المتأدب بأدب الله تعالى، فقد ذكر السيوطي في الجامع الصغير: عن ابن مسعود -رضي الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «أدبني ربي فأحسن تأديبي» حديث (٣١٠) وصححه السيوطي.

فقد كان ﷺ في أرقى درجات الأدب مع الله تعالى.. والأمثلة أكثر من أن تذكر ففي رحلة الطائف وفي وسط معاناته ومتاعبه يخاف من غضب الله تعالى.. فيقول في دعائه الطويل: (إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي).. قمة الأدب مع الله تعالى ويبقى أن نقول: كيف يكون الأدب مع الله تعالى؟؟

يكون الأدب مع الله تعالى بعدة أمور منها:

(١) تعظيم أمره سبحانه واجتناب نهيه.

(٢) صيانة معاملته.. فلا تشوبها نقيصة.

(٣) صيانة القلب.. فلا يتعلق بغير الله تعالى.

(٤) صيانة الإرادة.. فلا تتعلق إرادة العبد بالشواغل عن الله تعالى

(٥) يقول ابن القيم رحمه الله: لا يستقيم لأحد قط الأدب مع الله تعالى إلا بأمور هي: معرفته بأسمائه وصفاته.. ومعرفته بدينه وشرعه وما يحب وما يكره ونفس مستعدة قابلة لينة مهيئة لقبول الحق علما وعملا وحالا.

ابـن التلميـــذ

تحت هذا العنوان جاءت رسالة فرج مجاهد عبدالوهاب عضو اتحاد كتاب مصر - محلج شربين دقهلية:

هو أبوالحسن هبة الله بن أبى الغنايم بن صاعد بن إبراهيم الملقب بأمين الدولة وابن التلميذ توفى سنة ٥٦٠ هجرية.

قيل أنه أبى قراط عصره وجالينوس زمانه، وقيل إنه سلطان الحكماء.

تتلمذ على جده لأمه معتمد الملك ابن التلميذ ومنه أخذ اللقب، ودرس على أبى الحسين هبة الله بن سعيد الطبيب المشهور.

أتم تعليمه فى عدة أفرع وكان يجيد اللغات السريانية والفارسية إلى جانب العربية، وكان شاعراً وموسيقياً وخطاطاً عظيم الموهبة حازم الرأى والفكر نال الصدارة لدى الخلفاء المقتفى بالله والمستجد بالله والمستضئ بالله فوصل إلى درجة عميد الأطباء إلى جانب إشرافه على البيمارستان العظيم فى بغداد، كما كان مسئولا عن إجازة الأطباء.

كان ابن التلميذ مسئولا عن دار القوارير (الصيدلة) وألف العديد من الكتب أهمها: (كتاب الأقربازين وهو عن الأدوية وتركيباتها، وكتاب اختصار كتاب الحاوى، وكتاب الأشربة، وكتاب مقالة فى الفصد وكتاب المقالة الأمينية فى الأدوية البيمارستانية، وغيرها.

حلل ودرس كتاب القانون لابن سينا، وبنى قاعدة قوية لطلبته على القانون بشروحه وتحقيقاته ونظرياته التى خرج بها منه.

درس على يديه عدد من الأطباء الذين حضروا من الشام ومصر:

(فخر الدين الماردينى، وابن أبى الخير رضى الدين الرجي، وموفق الدين ابن المطران) وكانوا النواة الأولى فى افتتاح مستشفيات (بمارستانات) فى دمشق أيام نور الدين زنكى.

وأقاموا مدارس جديدة تؤرخ لها نهضة دراسة الطب فى هذه الأقطار.

ترك ابن التلميذ مكتبة كبيرة تحتوى على تراث من المعرفة فى الطب والرياضيات والشعر والأدب والموسيقى، وأجمع المؤرخون على القول بسعة علم ابن التلميذ، ودقة نظره، وحسن معالجته، وقوة فراسته، وصحة حدسة.

استدعاه الخليفة المقتفى لأمر الله إلى بغداد وجعله رئيساً للحكماء وبقى فى مهمته حتى وفاته فى شهر صفر من عام ٥٦٠هـ.

أنباء العالم الإسلامى



إعداد الأستاذين:
محمود الفشنى - أحمد رضوان

مضاعفة أعداد البريطانيين الذين يعتنقون الإسلام سنوياً

ذكرت صحيفة الإندبندنت البريطانية أن عدد البريطانيين الذين يعتنقون الإسلام تضاعف خلال العقد الماضي طبقاً لتقديرات إحصائية شاملة عن عدد البريطانيين الذين يعتنقون الإسلام.

وأوضحت الصحيفة فى تقرير لها على موقعها على الإنترنت أنه عقب ما وصفته الصحيفة البريطانية بالأسلحة العنيفة على المستوى الدولى فى السنوات الأخيرة.

واجه المسلمون فى بريطانيا انتقادات أكثر من أصحاب أى عقيدة أخرى.. مؤكدة أنه بالرغم من هذه الصورة السلبية عن الإسلام إلا أن آلاف البريطانيين يقبلون على اعتناق الإسلام كل عام.

وقالت الصحيفة: إن تقدير أعداد المتحولين إلى الإسلام ممن يعيشون فى بريطانيا عملية صعبة، وذلك لأن بيانات الإحصاء السكاني لا تفرق بين ما إذا كان الشخص المتدين قد اعتنق ديناً جديداً أم أنه ولد به.

وأشارت الصحيفة إلى أن التقديرات السابقة تضع الرقم بين ١٤ ألف و٢٥ ألف شخص، منوهة إلى أن دراسة جديدة لمؤسسة الأبحاث البريطانية (فيث ماترز) توضح أن العدد الحقيقى لمعتنقي الإسلام من البريطانيين قد يصل إلى ١٠٠ ألف شخص، حيث يدخل فى الإسلام ٥ آلاف شخص جديد كل عام.

واختتمت الصحيفة تقديرها بنقل شهادات البريطانيين اعتنقوا الإسلام يصفون فيها تجربتهم في دخول الدين الإسلامي والأسباب التي دفعتهم لذلك، ومنهم من اكتشف الإسلام بعد زيارته لبلد مسلم وأغلبهم تأثر بزملاء الدراسة الجامعية المسلمين.

تأجيل القمة الإسلامية والتأكيد على استضافة مصر لها

أعربت الوفود المشاركة في الاجتماع التحضيري لمؤتمر القمة الإسلامية عن تفهمها لقرار تأجيل موعد انعقادها والذي كان مقرراً في ١٥ مارس الجاري في شرم الشيخ وذلك نظرا للظروف التي تمر بها مصر، على أن يتم تحديد الموعد من قبل مصر.

وأعرب الاجتماع الذي عُقد في مقر المنظمة بمدينة جدة السعودية عن الثقة الكبيرة بنجاح القمة المقبلة وفاعليتها بصورة تعكس قدرة مصر وإمكانات مؤسساتها الراسخة. عبر المجتمعون عن تقديرهم واعتزازهم بالشعب المصري. معربين عن أمانيهم بأن تدفع التطورات التي تشهدها مصر إلى التقدم المنشود ولكل ما فيه مصلحة الشعب المصري.

وأكد الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو الأمين العام للمنظمة أن العالم الإسلامي بات يشهد تحولات تاريخية تجري في عدد من بلدانه مؤكداً أن معالجة هذه التحولات تتطلب قدراً عالياً من بلدانه مؤكداً أن معالجة هذه التحولات تتطلب قدراً عاليا من الحكمة والرؤية الثاقبة وأعرب إحسان أوغلو عن تهانيه للشعب المصري لانتصار إرادته وخياراته الوطنية.

تحذيرات من عمليات تهويد جديدة بالقدس

حذرت دائرة الأوقاف الفلسطينية ومؤسسة الأقصى من مغبة تغيير الوضع القائم المتعلق برباط الكرد، وهو وقف إسلامي مقام على الجدار الغربي للمسجد الأقصى وتسكنه عائلات فلسطينية، حيث فوجئ السكان قبل نحو شهر بلافتة كتب عليها بالعربية حوش الشهابي وبالعبرية المبكى الصغير ويعود تاريخ المكان إلى نحو ثمانية قرون.

وكانت بلدية الاحتلال في القدس أقدمت عام ١٩٧١ على وضع دعامات حديدية خوفاً من تأثير الحفريات الإسرائيلية في محيط المسجد الأقصى على المباني القريبة.

وقالت مصادر في دائرة الأوقاف الفلسطينية ومؤسسة الاقصى: إن سلطات الاحتلال الإسرائيلي أزالت قبل أيام دعائم حديدية كانت مقامة على الرباط تجنبا لحدوث انهيارات فيها الأمر الذي أصبح يعرض المبنى الذي تسكنه ١٧ عائلة فلسطينية للخطر بعد ظهور شقوق فيه.

افتتاح بنك تنمية دارفور الإسلامي يونيو القادم

أكد الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي أن شهر يونيو القادم سوف يشهد افتتاح الفرع المركزي لبنك تنمية دارفور وذلك بعد الحصول على موافقة البنك المركزي السوداني وكشف الأمين العام أن إجراءات عديدة تتم حالياً لاستكمال إنشاء البنك وذلك برأس مال تأسيسي قدره ٢٠٠ مليون دولار أمريكي.. مشيراً إلى أنه ستتبع ذلك أنشطة إنسانية في الإقليم في مجالات الإسكان والتخطيط العمراني وصناعة الأسمنت والصحة والتعليم ومشروعات الزراعة والثروة الحيوانية والغابات والتنمية الريفية وتنمية المرأة وبناء القدرات والمياه.

وزيرة بريطانية تحذر من استمرار التعصب ضد الإسلام

حذرت سعيدة وارس ـ الوزيرة المسلمة في حكومة بريطانيا الحالية ـ من خطورة استمرار التعصب ضد الإسلام والمسلمين في بريطانيا وتقبل ذلك في المجتمع البريطاني واعتياده.

وقالت وارس: إن الإسلام وفوبيا الخوف من الإسلام أصبح بكل أسف أمراً سائداً في الحياة البريطانية وأن ظاهرة العداء للإسلام أصبحت متأصلة داخل المجتمع.

جاء حديث وارس في محاضرة ألقتها في جامعة ليستر، حيث هاجمت ما رأته تزايداً في حالة اللاتسامح الديني، خاصة فيما يتعلق بالمسلمين، الذين قدرت دراسة عددهم في بريطانيا بحوالي ٢،٩ مليون نسمة.

وقالت: إن تقسيم المسلمين إلى صفين: معتدل ومتطرف، يقدم وقوداً لعدم التسامح الناجم عن سوء الفهم، وأن هناك قلقاً كبيراً في حالة تعيين مسلم في مصنع، حيث يقول صاحبه للعمال فيه لا تقلقوا إنه مسلم جيد.

كما طالبت وارس بعدم اعتبار بعض الأفعال الإرهابية التي قامت بها حفنة من المتطرفين سببا لشجب كل أتباع الدين.. وفي المقابل دعت المسلمين في بريطانيا إلى العمل على التخلص من مظاهر التشدد؛ حيث قالت: إن من يرتكبون أفعالا إجرامية إرهابية في بلدنا لا يجب التعامل معهم فقط من خلال قوة القانون، بل يجب أن يواجهوا الرفض من مجتمعاتهم والتهميش من كل المجتمع، ويجب والحالة هذه أن لا يتم استخدام أفعالهم من أجل تشويه كل المسلمين.

من ناحية أخرى اعتقلت الشرطة البريطانية شخصاً لإحراقه نسخة من القرآن خلال مظاهرة معادية للإسلام في مقاطعة كامبريا، كما أعلنت وزارة الداخلية البريطانية أنها منعت القس الأمريكي تيري جونز، الذي هدد بإحراق نسخ من المصحف الشريف من دخول المملكة المتحدة، فيما تعهد الأخير باستئناف القرار، حيث كان القس جونز يخطط لزيارة المملكة المتحدة بدعوة من جماعة يمينية متطرفة تسمي نفسها «إنجلترا لنا».

مؤتمر حول الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة

تنظم الهيئة العالمية للإعجاز العلمى فى القرآن الكريم والسنة المطهرة والتابعة لرابطة العالم الإسلامى المؤتمر الدولى العاشر حول الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة بمدينة اسطنبول التركية، وقد شكلت الهيئة خمسة لجان للتحضير للمؤتمر هى:

الطب وعلوم الحياة، الأرض وعلوم البحار، الفلك وعلوم الفضاء، العلوم الإنسانية والحكم التشريعية، واللجنة الشرعية الأعلى.

وأكد أمين عام الهيئة الدكتور عبدالله عبدالعزيز المصلح على ضرورة تعاون اللجان لتنفيذ الخطط العلمية والعملية على أكمل وجه.. وأوضح المصلح أن المؤتمر سيناقش عدداً كبيراً من البحوث المتخصصة فى مختلف مجالات العلوم.

ندوة علمية حول تراث الحرف العربى بالبلقان

استضافت مدينة تيرانا عاصمة ألبانيا ندوة حول تراث الحرف العربى فى منطقة البلقان.. وقال الدكتور رامز زيكاى مدير المركز الألبانى للفكر والحضارة الإسلامية: إن انعقاد هذه الندوة جاء تحقيقا لدعوة العلماء والباحثين من مسلمى هذه المنطقة المهمة من القارة الأوروبية المتصلين بشئون التراث الإسلامى المكتوب بالحروف العربية، وقد شارك فى أعمال هذه الندوة علماء وباحثون وأكاديميون من ألبانيا وكوسوفا وبلغاريا وصربيا ومقدونيا والجبل الأسود والبوسنة وبلونيا.

وعقدت الندوة بالتعاون مع المركز الألبانى للفكر والحضارة الإسلامية، وبالتنسيق مع المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «الإيسيسكو» ووزارة الأوقاف والشئون الإسلامية.

افتتاح أكبر مسجد بأوروبا الغربية فى روتردام الهولندية

افتتح فى مدينة روتردام الهولندية أكبر مسجد فى أوروبا الغربية يضم مئذنتين بارتفاع ٥٠ متراً ويتسع لثلاثة آلاف شخص.. وقال رئيس مجلس إدارة المسجد: إنه يأمل أن يتحول هذا الصرح إلى مركز للأعمال الخيرية والرحمة والفهم المتبادل وأن يكون متاحاً للجميع.

وخصص الطابق الأول فى المبنى الذى تفوق مساحته ألفى متر مربع وتعلوه قبة بارتفاع ٢٥ متراً لصلاة الرجال، ويمكن للنساء الاستماع إلى الإمام ومشاهدته من الطابق الثانى، ويضم الطابقان الأرضى والثالث مركزاً للدعم المدرسى للأطفال ومكتبة.. وتم تمويل بناء المسجد من طرف مؤسسة آل مكتوم التابعة لوزير المالية فى الإمارات العربية المتحدة الشيخ حمدان بن راشد آل مكتوم.

The writer of the biography of the Prophet should be extremely careful in everything he writes, not to commit unintended mistake, causing hurting psychological consequences to him.

The person who writes about the Prophet of Islam is not like the person who writes about a historical hero, as the former tackles the Messenger as a good pattern in everything he says and does. Any mistaken interpretation of any of the Prophet's situation may become a real danger. He may fall in a mistake without caution in explaining the situations of people other the Messenger. Their mistakes do not surpass their history to following their patterns. This extreme caution made this thinker become precise in his comment without deception.

We should not leave the reader without drawing the people's attention to the speech of the writer in the introduction of the Mecca liberation, as he is very creative and wonderful in analyzing the simplicity of this liberation unexpectedly. Some people thought that the capital of polytheism would be impregnable, and would not be liberated except by blood shedding. But, we find that Mecca was liberated without any resistance from the disbelievers. How did this happen unexpectedly? He analyzed these events deeply, and mentioned the real reasons for reaching this great outcome without exerting any effort.

We can state the reasons he mentioned without summarizing so that anyone may understand them in his way. He concluded his speech about this great liberation with wonderful words by the English writer "Layers" in his book "Heroism and Heroes", as he said about the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) in admiration and appreciation:

What should be required from a person claiming to be a Prophet greater than establishing a house, calling the people to it? Muhammad came, claiming that he was a Prophet and spread his religion which was followed by twenty hundred millions at the time of layers, finding their happiness in it. This religion lasted fro more than a thousand and two hundred years.

Also, his analysis of the invasions of the Prophet is the most wonderful witness of what we say. He mentions the events of the invasion as the people know it, then he starts analyzing and revealing it to the reader. An example for this is Badr Invasion, as he compared the strength and size of the disbelievers to these of the Muslims, as the number of the Muslims and weapons were small.

The leader who pushes his men to a battle, knowing that his enemy was stronger than his troop, saying: "Be happy, I swear that these disbelievers will be killed," although they do not have strong material capabilities should not come out of venturing, except that he wants to risk his people and money. The writer said wondering:

What pushed Muhammad to this battle while he was not by any means compelled to it? His people did not tell him that he deluded them and claimed that he would be victorious, but he did not. They asked him to return without entering in a battle. Also, his project would not fail if he did not enter the battle, and the enemy did not intend to attack him while being at home. If he did, he would seek defeat, because he did not have enough power.

Also, the Messenger of Allah was not afraid that his Companions may avoid him if he did not find a resort. He went out many times to take over the trade of Quraysh, but he came back without doing that. This did not affect the belief of his Companions. The remaining reason is that he pushed the Muslims to enter this battle, to which they were not well-prepared, as he was confident that Allah promised to win one of two things, and the first was missed. Thus, Allah will certainly keep his promise. Thus, he asked his Companions to enter this battle, as he was confident of winning because Allah does not break his promise.

"So think not that Allâh will fail to keep His Promise to His Messengers". [Ibrahim (Abraham): 47]

Allah fulfilled what he thought of and made him win the battle. The thinker discussed the opinions of some of the people who contradicted to him with well sight. Then, he commented saying:

Our aim behind discussing the objectors is to deny everything causing debate from the biography of the Prophet, being satisfied with matters taken for granted. This is better than stirring disputes and calling to controversies.

This man is right in his way of dealing with matters. He speaks to the opponents. If he speaks to all the Muslims, he may say simply whatever he wants.

The thinker Wagdy analyzes matters accurately, as he found strange books presenting strange opinions, which were written by the previous writers with good will without seeking accuracy. They presented these opinions to their readers as a real fact, written by the professional Muslim scholars without overbidding. An example of this is what the French Writers "Lemerre" and "Justan Dujjaric" who wrote a book about the biography of the Prophet Muhammad, stating its beginning that they write about the biography of the Prophet accurately without fabricating a word.

This is regarded as deliberate malice, as it suggests to the European reader that these fabricated lies are non-debatable facts. There is no more abominable insult to Islam than the rendering the fabricated lies a history to its Prophet. Also, collecting superstitions from information stated by earlier Muslims with good faith is horrible distortion to the history of Muslims.

These pieces of information were collected in one book to be distributed to the enemies of Islam. It is unparalleled scientific betrayal, as the writers of this book knew the value of these narrations for their narrators. Also, they knew that collecting these narrations is not because they are right, but because believing and denying these narrations are probable.

Attributing these narrations to their narrators excuses the collector from their responsibility. If the two collectors of these narrations know the earlier way of writing down narrations without revealing it to their readers, stating lies as if they are facts, this is considered as abominable fraud. If the earlier Muslims had been careful in writing down the narrations, we would have escaped this evil.

The thinker Wagdy was concerned only with historical narration in few chapters, and did not find in them what deserves careful securitization, such as his speech about coys, "the invasion of the Jews of Khaibar, "the evacuation of Bani Nudhair", and delegation coming frequently to Medina. It seems that he found that the similar chapters and analyses are sufficient.

Every writer sometimes stops at certain points and analyzes them, and skips others. Thus, the circumstances of writing do not have single pattern.

A person told them that the footprints stopped at the Cave. The Arabs had great confidence in the people who trace the people. Thus, their non-dependence on his saying in spite of the existence of the Cave along with the impossibility of entering it is most surprising.

The writer continues to say:[1] We are satisfied to say that they were scarred to enter it to search for the Prophet, not to be stung by its snakes. However, we do not accept that they leave him without besieging it for nights and days to make sure that it is empty. Otherwise, we feel compelled to accuse them of negligence of a matter considered as their most serious matter.

Also, we say that they should have left in every road that led to Yathreb a group of knights to block the way against their opponent. If they did not do that in spite of their carefulness and caution, then their forgetting to do that explains that Allah distracted their minds from it. In this biography, I was committed not to go beyond the scientific constitution, as I do not resort to guessing in a case that can be scientifically explained. The life of the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) is full of miraculous signs; they do not need any refutation from the opponents.

Thus, I explain it that Quraysh overlooked it as they did with the immigration of the great Companions to Yathreb. It seems that it is satisfactory to them not to see the Arabs in Hajj season not to be attracted by his eloquence.

We may stop at this speech, as the writer did not say in explaining the inability to trace the Messenger (may the blessings and peace of Allah be upon him) that Allah turned them away from him in keeping pace with the natural reasons and abiding by the scientific constitution. He estimated that he addressed by his book the opponents of Islam, who do not accept any metaphysical justification that do not suit the events. He analyzed the stance of the Al-Khazraj and Al-Aws in their hurrying to embrace Islam while knowing the heavy consequences of this step.

I say that he analyzed this situation as a divine sign that is beyond searching. If the Islamic situations that do not find good reasons multiply, their recurrence forms a new scientific basis: the submission of the events to a great divine power that is greater than being analyzed. Confessing this fact

[1] Al-Azhar Magazine: Vol 11. P. 82.

obligates those who deny this controlling power to find a scientific explanation for its supernatural aspects that do not submit to normality. If they can not do that while the effects of the Divine Power are apparent to all the people, this inability is the horrible defect that they should repair.

We are not to seek their satisfaction by explaining the physical explanations only. Why do not we explain the prophetic miracles that occurred to the prophets scientifically as a scientific issue? It is typical to the Prophets, and the proof of its truthfulness is the success that accompanied them throughout centuries. No liar will succeed in a matter that deceived people.

We found many people who deceived their followers. Then, events throughout their life revealed that they were deceivers. Thus, they were despised. This is contrary to what happened to the Messengers (May the peace of Allah be upon them), as their Da`was were transferred to the people after their death in a way that reflects their extreme truthfulness. The fixedness of the Islamic Da`wah and its progress emphasize these divine miracles, rendering them a scientific constitution special to the Messengers of Allah.

I see that the disbelievers of Quraysh did not neglect breaking into the Cave, as the writer said. However, they did not neglect tracing the Messenger, as they did their best in this regard but in vain. They announced that they would give money to anyone who would find him whether dead or alive. Also, there is the incident of Suraqah Ibn Malek, which is too famous to be mentioned.

They forget something and did another. Everyone, whatever cautious he is, takes all the precautions, thinking that he has done everything in favor of what he wants, but the situations surprises him, signifying that there was lack of precautions. I believe that the matter of immigration is implied by the poet who said:

Allah's Protection was better than increasing the armors and shields.

We do not belittle the analytic approach of the writer, but we add something to his words. The writer, in his deep insight of the Prophetic events, confutes the opponents by his scientific precision and increases the belief of the believers. He thinks deeply in every matter without leaving anything hidden. He analyses everything truthfully in a way that persuades anyone.

If the interest changes along due to the change of the issues under consideration, they should reconsider these issues in the light of the new circumstances and requirements, and another agreement should take place instead of the previous one. The nation in both cases submits to Allah, Who lets the opinion of the responsible people effective in matters that are not stated in the Book of Allah, Shari`ah, or the Sunnah of His Messenger. Allah enjoins the obligation of obeying each one of them.

In conclusion, the people in authority whom the believers are commanded to obey are not only the princes and rulers, but they include the responsible people in public fields such as peace, war, agriculture, commerce, management, and politics. This occurs within the framework of legislative rules and partial legislations. This involves happiness, improvement, progress, security, and social peace. Allah is the Grantor of success and guides to the right path.

The Biography of Muhammad (PBUH) in the Light of Science and Philosophy by the Great Thinker. Muhammad Farid Wagdy...!

Comment by: Dr. Muhammad Rajab Al-Bioumy

The Great Thinker speculated at the reason why the Jews refrained from accepting the Da`wah of the Messenger, although they were informed with it before Al-0Awas and Al-Khazraj embraced Islam? This question was answered by many writers of the biography of the Prophet, as they thought that the coming Prophet would belong to Bani Israel. When they knew that he belongs to the Arabs, they became stubborn and refused him. Torah carried good tidings of his coming, but they distorted it.

We present the answer of this question, including the opinion of the thinker. Wagdy concerning the Ansar's (advocators) zeal in embracing Islam, not to say that it is non-debatable, but to present an opinion of a researcher who scrutinized carefully this matter until he concluded that this zeal is Divine sign that does not have an explicit reason. We wish to present another puzzling question that its askers can not answer.

The writer tackled his subject in a way that reveals his uniqueness in explaining and interpreting the events including the most famous ones. There is not subject that was tackled carefully by the researches like the Prophet's immigration, as seasonal issues of the literary and Islamic magazines were assigned to this subject in every year all over the Islamic world. Those who tackle this subject wrote too much in this subject to the extent that they can not find what to say. Thus, they turn to another prophetic subject.

Sometimes, they reformulate it in an artistic and literary way which is the thing that changes in this subject. As for the subject itself, it does not require more tackling. Allah granted this writer a new way of tackling it concerning the disbelievers' departure from the entry of "Thawr" Cave without entering it although the footprints stopped at its entry, making it the resort of the immigrants. The writer mentions that Quraysh members were keen to find the Prophet to get rid of the wars and struggles he will bring to them if he escaped danger and resided in Medina.

Consultancy was left without setting basis for it, as the affairs differ from time to time and the opinions differ along with the changing of the generations and the human progress. If there was a certain system for it, the people would be limited to it.

It is left to the people without fixation or limitation as a mercy for the people and to enable them to choose that which is available to the mature mind and humanity. As the objective is consultancy in itself and reaching the laws that organize the nation fairly, reforms, and builds without destruction, then the method is easy.

When the Noble Qur'an enjoined the principle of consultancy, it eradicated the enemy of virtuous humanity and the element that spoils the life of the individuals and groups: despotism in leadership and opinion, and monopolizing legislation, disposition, and management. In this way, it granted the individual his dignity and the group its natural right in managing their affairs.

The Qur'an does not want for consultancy which is ranked between prayer and spending money for the sake of Allah the ludicrous image we used to see in the past. The tyrants and monopolists used it as veil behind which they hide their psychological tyranny in plundering rights. The Qur'an wanted it to be a pure fact like prayer and spending money in the cause of Allah. Consultancy achieves the dignity and life of the human being without oppression. It grants the people justices and psychological peace.

There is a kind of consultancy that Allah regards as valueless. Islam, which governs the world with proof and wholesome human logic in creed and Shari`ah and blames the imitators and regarding desires as a god, can not ignore the basis of leadership and a natural principle in life: consultancy.

Also, it does not want only being attributed with good characteristics intending merely gathering hearts and treating souls without putting them into practice like the tyrant kings. It does not want it a fabricated image, justifying the tyranny of the tyrants. It wants it a firmly established fact, which is the nation's right.

The nation should ask for consultancy and maintain it, and it becomes sinful if it does not maintain it. This fact has its practical effect on

leadership and the policy of the group. Consultancy which weaves its strings by multiplicity of numbers and terrorism is regarded valueless by Allah. So it is the case with the consultancy in which the loyal person can not discover the spoilage of the spoilers and also the consultancy in which the hypocrites hide behind truthfulness and loyalty and do not discover to the loyal ruler the seeds of evil and spoilage.

Islam set the principle of consultancy and the Prophet as well as the subsequent Caliphs applied it. It had a great status at the beginning of the emergence of Islam in stressing the human right. It is based on freedom of expressing opinion without prejudice to the creed and worship. The Qur'an revealed the sources from which the believers take their rulings, systems and commands. They are clarified in the Saying of Allah:

"O you who believe! Obey Allah and obey the Messenger (Muhammad peace be upon him), and those of you (Muslims) who are in authority". [Al-Nisa (Women): 59]

Obeying Allah is applying the instructions of His Clear Book, and obeying the Messenger is applying his general legislative sayings that are reliable. The responsible people are the people who are appointed to handle the people's affairs and to fulfill their interests. They should be obeyed in the matters that their majority agrees on or if they have strong proof.

Undoubtedly, the nation has many affairs, as there are many aspects and fields of life. Allah distributed the cognitive readiness to the individuals according to the variety of affairs. In every field, there are men who are concerned with every field. Also, every nation has power that maintains its interior security, jurisdiction that dispute settlement, politicians that are concerned with foreign affairs, economists, and others. In every field, there are many men who have sound opinion, long expertise, and strong effect.

These men are the responsible people, whom the nations should grant its confidence, and delegate them in their systems, legislation, and dominance. They are the permanent means in the Islamic point of view to know the way of managing its affairs in matters that are not stated in the decisive heavenly sources. Finally, they are the people of consensus who agree on a certain matters that should be followed, because they involve interest.

Consultancy at the time of the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) and his Companions...!

By: The Honorable Sheikh Omar Ad-Deib
Member of the Islamic Research Academy

Consultancy is the basis of good leadership and is the way to right and knowing the mature. Allah enjoined it and made it a basis of the Islamic nation in a Qur'anic Surah "Al-Shura". It regarded consultancy as an element of the believing character, and is included among purity of heart with belief and reliance of Allah from sins. Also, watching Allah occurs by establishing prayers and solidarity occurs by consultancy and spending money in the Cause of Allah. Then, another element of belief is dignity and conquering aggression. Allah (Glory be to Him) says in this Surah:

"But that which is with Allah (Paradise) is better and more lasting for those who believe (in the Oneness of Allah Islamic Monotheism) and put their trust in their Lord (concerning all of their affairs). And those who avoid the greater sins, and Al-Fawâhish (illegal sexual intercourse), and when they are angry, they forgive. And those who answer the Call of their Lord [i.e. to believe that He is the only One Lord (Allah), and to worship none but Him Alone], and perform As-Salât (Iqâmat-as-Salât), and who (conduct) their affairs by mutual consultation, and who spend of what We have bestowed on them. And those who, when an oppressive wrong is done to them, take revenge". [Al-Shura (Consultancy): 36-39]

These verses were sent down after Uhud Invasion, and the incidents that occurred to the Muslims therein. Allah commanded His Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) to consult his Companions in their affairs to gather their hearts, and to stress solidarity in handling the Muslims' affairs. Allah (Glory be to Him) says:

"And by the Mercy of Allah, you dealt with them gently. And had you (Muhammad peace be upon him) been severe and harsh-hearted, they would have broken away from about you; so pass over (their faults), and ask (Allah's) Forgiveness for them; and consult them in the affairs. Then when you have taken a decision, put your trust in Allah, certainly, Allah loves those who put their trust (in Him)".

[Al-Imran (The Household of Imran): 159]

Consultancy at the time of the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) and his Companions

The Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) used to consult his Companions in matters that were not sent down by the Inspiration. Sometime, he altered his opinion and adopted the views of his Companions. He adopted the opinion of Abu Bakr, which was his opinion also in the incident of the captives of Badr and refused to believe in the opinion of Omar Ibn Al-Khattab and those who adopted his opinion. Then, Allah sent down verses to blame the Prophet severely as he did not accept the others' opinion, which was better in this case.

"It is not for a Prophet that he should have prisoners of war (and free them with ransom) until he had made a great slaughter (among his enemies) in the land. You desire the good of this world (i.e. the money of ransom for freeing the captives), but Allah desires (for you) the Hereafter. And Allah is All-Mighty, All-Wise. Were it not a previous ordainment from Allah, a severe torment would have touched you for what you took".

[Al-Anfal (The Spoils): 67, 68]

In this way, consultancy became a basis of managing the social affairs, and seeking the truth and acceptance is one of the obligations of the ruler. The Companions of the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) used to do that, as Abu Bakr used to consult the Companions in their affairs and adopts the others' opinion if they were suitable and good. Omar used to gather the Companions at his Caliphate and prevent them from getting out of Medina if he needed to consult them.

The basis of consultancy is ensuring the entire freedom in expressing opinions without prejudice to any of the bases of creed or worship. Also, neither the Qur'an nor the Messenger set a certain system for consultancy, as it an innate system. The Prophet or the Caliph gathered his colleges, put forth a certain matter, and asked for their opinions. When they agree unanimously on a certain opinion, the majority agrees on a certain opinion, or if some of them had a strong evidence for their opinion, this opinion was adopted.

The Anniversary of the Birth of the Most Honorable Messenger Muhammad (May the blessings and peace of Allah be upon him)...!

-2-

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

The birth of the Messenger Muhammad (May the blessings and peace of Allah be upon him) represents a new dawn for the world. The period before his birth (May the blessings and peace of Allah be upon) and mission witnessed that the world was free of sublime meanings and values, to which the Messengers and Prophets of Allah called before the mission of our Messenger (May the blessings and peace of Allah be upon him).

The bad attributes such as tyranny, belittling the rights, indulging in desires, devoting the people's lives to acts contrary to good attributes prevailed among the people at that time. Also, the people deviated from the heavenly religions. Two states dominated the world at that time: Persia and Roman. Humanity submitted to them and looked forward to getting rid of darkness. Humanity could not find a way out.

Amidst this darkness that was extended throughout the world, Allah allowed the light of the prophet to come out of the Arabian Peninsula with the birth of the Prophet Muhammad (May the blessings and peace of Allah be upon him) in Rabi` Al-Awwal, the Elephant Year, most probably in 570 A.D.

Prophet Muhammad (May the blessings and peace of Allah be upon him) was not like his peers, as he did not like the people at his time, who were worshipping the idols at the pre-Islamic era. Thus, he did not want to participate with his people in his worship of idols.

The Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) devoted himself to worshiping in Hira' Cave until the inspiration Jibril was sent down to him. He told him the Saying if Allah:

"Read! In the Name of your Lord Who has created (all that exists). He has created man from a clot (a piece of thick coagulated blood). Read! And your Lord is the Most Generous. Who has taught (the writing) by the pen. He has taught man that which he knew not".

[Al-`Alaq (The Clot): 1-5]

When the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) called for Islam out loud, Quraysh members considered him their enemy. They tortured and hurt the Muslims. They hurt the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him). This only increased his adherence to religion.

They presented to him prestige and money to abandon his Da`wah and to stop stultifying their idols, he said to his uncle: " If they put the sun into my right and the moon into my left to abandon my Da`wah, I will not do that until Allah makes it victorious or I die without fulfilling it."

The Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) continued to defend right and to bear torment patiently. He used to face the aggression of Quraysh against him and his companions with supplicating to Allah to guide them to the right path, as they do not know it.

When Quraysh hurt the Messenger of Allah and his Companions severely, he (May the blessings and peace of Allah be upon him) immigrated to Medina after thirteen years, spent in Mecca, calling the people to worship Allah alone, to believe in resurrection and reckoning, and to abandon the false beliefs, in which his people believe.

In Medina, the Da`wah found advocators, and Allah decreed that the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) to triumph over the stubborn persons. He dazzled the people with the instructions and methodology of Islam along with a kind of life which they did not expect. Thus, they embraced Islam in crowds, believed the Message of Muhammad (May the blessings and peace of Allah be upon him) deeply.

Life became so trivial for the sake of protecting their creed and religion. The banner of Islam fluttered high all over the world. Everyone who was stubborn at the beginning believed in it. Also, those who tried to disperse the people from it embraced it afterwards.

Now, we invoke Allah's peace and blessings upon the Prophet. Also, we ask Allah to cherish Islam and to restore its glory and to refute its enemies, and to grant the believers victory and success.

AL-AZHAR MAGAZINE

Rabiul-Akher, 1432 A. H.



ENGLISH SECTION

March. 2011

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."

(Al A'raf 43)

EDITOR : Dr. IBRAHIM AL-ASSIL,

Professor at the Faculty of Languages and Translation

Al-Azhar University

The Departed of Encyclopedic Islamic Thought...!

While the revolution spreads all over the country, an honorable scholar and an imminent Islamic thinker passed away:

Prof. Dr. Muhammad Rajab Al-Bioumy.

He parted with life on Saturday morning, 2 Rabi' Al-Awwal, 1432 H. corresponding to 5th February 2011 A.D.

The English Department of Al-Azhar Magazine, being respresented in its editor, expresses its deep grief and sorrow, appreciating the value of the departed, and realizing the loss from which the Islamic world suffers as a result of his death. May Allah (Glory be to Him) be merciful to him and resurrects him with the prophets, righteous people, martyrs and good believers (and surely it is a good companionship) for spending his life in serving Islam as a writer, poet, professor in Al-Azhar University, a messenger to the Qibla country, a member of the Islamic Research Academy, and Editor in Chief of Al-Azhar Magazine.

Truly! To Allâh we belong and truly, to Him we shall return.



الفهـــــرس

AL AZHAR MAGAZINE

Rabi'ul-Akher,1432 A.H. Mar. 2011.
Vol. 84, Part IX.



الأزهر

هدية العدد
مقالة السنة
للشيخ / علي الطنطاوي

وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ



بسم الله الرحمن الرحيم



الأزهر

مجلة شهرية جامعة
يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف فى مطلع كل شهر عربى
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١ م

رئيس التحرير
أ.د. محمد رجب البيومى

مدير التحرير
عادل رفاعى خفاجة

سكرتير التحرير
أحمد السيد تقى الدين

الاشتراك السنوى

داخل مصر ١٨ جنيهاً مصرياً -
الدول العربية ٥٠ دولاراً أمريكياً
أوربا وأمريكا ٨٥ دولاراً أمريكياً -
اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولاراً أمريكياً
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٥٧٨٦٢٠٠

المراسلات باسم: مدير التحرير -
مجمع البحوث الإسلامية - م. نصر
ت: ٢٢٦٣٨٥٩٩

داخل العدد

جمادى الأولى ١٤٣٢هـ - أبريل ٢٠١١م - الجزء الخامس - السنة الرابعة والثمانون

مجمع البحوث الإسلامية ينعى الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى

عضو مجمع البحوث الإسلامية ورئيس تحرير مجلة الأزهر


د. أحمد الطيب

عقد مجمع البحوث الإسلامية ـ بحمد الله تعالى وتوفيقه ـ جلسته العاشرة فى دورته السابعة والأربعين يوم الخميس الحادى والعشرين من ربيع الأول ١٤٣٢ هـ الموافق الرابع والعشرين من فبراير ٢٠١١م بقاعة الاجتماعات بمبنى مشيخة الأزهر الشريف.. برئاسة فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد محمد أحمد الطيب ـ شيخ الأزهر رئيس مجمع البحوث الإسلامية الذى افتتح الجلسة قائلا:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه.. وبعد.

فبادئ ذى بدء نحتسب عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ أستاذنا الجليل وعالمنا الكبير الشاعر والمفكر والأديب شيخنا فضيلة الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى الذى وافاه أجله منذ أسابيع وقد كان ـ كما نعلم جميعاً ـ خاتمة الشعراء المدققين، والأدباء المحققين، ومع ذلك لم ينل ـ للأسف الشديد ـ ما يستحقه خلال حياته، فنسأل الله أن يجزيه كل خير بعد وفاته، فقد كان قامة عالية، وقيمة سامقة عالماً وأديباً، وهو جدير بحق أن تعقد له ندوات وندوات وقد ظل ـ رحمه الله ـ وحتى آخر أيامه مجداً مجتهداً، لم يترك قلمه لحظة واحدة، وأنا لدى المجموعة الكاملة لمجلة الرسالة التى أحرص على مطالعتها بين الحين والآخر والتى كان يزينها بمقالاته الرصينة فى القرن الماضى.

فنسأل الله ـ عز وجل ـ أن يعوضنا عنه خيراً، كما ـ نسأله سبحانه ـ أن يتغمده بواسع رحمته وفضله ورضوانه، ويرحم أمواتنا وأموات المسلمين.

وقال فضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة مصطفى: رحم الله أستاذنا الكبير الدكتور/ محمد رجب البيومى الذى رحل فى زحام هذه الأحداث، وقد علمت نبأ وفاته من جدة من خلال مجلة المنهل التى تكتب فيها، وقد طلب منى أن أكتب عن فضيلته مقالا للمجلة، وقد أحضرت منه صورتين اقترح نشر إحداهما فى جريدة صوت الأزهر، والأخرى فى مجلة الأزهر، وقد سلمت صورتى المقال إلى فضيلة الأمين العام للمجمع.



وقال فضيلة الأستاذ الدكتور/ محمود حمدى زقزوق: رحم الله أستاذنا الجليل فضيلة الدكتور/ محمد رجب البيومى رحمة واسعة، وأنا أحد الذين تتلمذوا على مقالاته وما كان يكتبه عموما لاسيما فى مجلة الرسالة التى كان يكتب فيها منذ بواكير شبابه بجانب أساطين الفكر والأدب وشيوخ العلم، وقد استفدت أنا ومعظم جيلى من كل ما كتبه، وعندما

كنت طالبا فى الصف الثالث الثانوى نشر لى فى مجلة الرسالة فى باب البريد الأدبى مقالات ثلاث على ما أذكر وكم كان ـ رحمه الله ـ يذكرنى بهذه المقالات، وكانت المقالة الأولى منها عن الاقتباس من القرآن الكريم، وهى المقالة التى حصلت بها على جائزة من معهد دمياط الدينى.

ففضيلة المرحوم الدكتور/ محمد رجب البيومى قيمة وقامة كبيرة جدا وهو جديربكل تقدير، وأنا مع فضيلة الإمام الأكبر فيما اقترحه من أن تكون هناك ندوة عنه وعن فكره، وقد تحمل فضيلة الدكتور/ محمد رجب البيومى فى الفترة الأخيرة مسئولية رئاسة تحرير مجلة الأزهر فأدى الأمانة على خير وجه، ورغم الجهد الكبير الذى بذله للارتقاء بالمجلة فقد ظل على سيرته الأولى من العطاء الأدبى والفكرى حتى لقى ربه فرحمة الله الواسعة عليه.

وقال فضيلة الأستاذ الدكتور/ أحمد عمر هاشم: أود أن أذكر فى هذه الجلسة التى نلتقى فيها بعد رحيل علم من أعلام الفكر الإسلامى والأدب



د. محمود زقزوق — د. محمد عمارة

والشعر أستاذنا الجليل الدكتور/ محمد رجب البيومى ـ رحمه الله رحمة واسعة وأجزل له مثوبته وأسكنه فسيح جناته ـ، أود أن أذكر من خلال معرفتى الشخصية بهذا العالم أنه كان عالمًا موسوعيًا عرف عنه أنه شاعر وأديب، وكاتب إسلامى فذ، لكنه إلى جانب تلك المواهب المتعددة كانت له دراساته الرصينة فى السنة النبوية ورجالها من كبار المحدثين كالإمام أحمد بن حنبل، والإمام البخارى وغيرهما من أئمة الحديث النبوى، وشوامخ الفكر الإسلامى، ولأصالة فكره ورسوخ علمه حازت مؤلفاته على شهرة واسعة، وسارت فى العالم الإسلامى مسيرة الضوء فى الآفاق، ولا غرو فهو عالم فذ، راسخ القدم، موسوعى

المعرفة، فنأمل أن يكون تراثه الخالد نصب أعيننا، وكم أشعر بالأسف لأنه حتى هذه اللحظة لم يخرج لهذا الأديب الكبير ديوان شعر يضم أشعاره المتناثرة، ولهذا اقترح أن يقوم الأزهر الشريف بطبع قصائده فى ديوان وكذا أعماله الأدبية والإسلامية والتاريخية، وطبع قصيدته العصماء عن الأزهر التى كثيراً ما ألقيت فى محافله، فأرجو أن يطبع كل ذلك ضمن كتب السلسلة الصادرة عن مجمع البحوث الإسلامية، وشكر الله لفضيلة الإمام الأكبر أن منحنا هذه الفرصة كى نتحدث عن هذا العالم العلم وأدعو الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يسكنه فسيح جناته، وأن يلهم آله وذويه الصبر الجميل.

وقال فضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد رأفت عثمان: بداية أدعو الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يفسح للراحل الكريم فى جناته، وأن يجزيه خير الجزاء على ما قدم للأزهر وللمسلمين عامة، ولأهل العربية خاصة، ولهذا أتقدم لفضيلتكم باقتراحات:ـ

● الاقتراح الأول: أن تصدر مجلة



د. محمد رافت عثمان



د. احمد عمر هاشم

الأزهر ملحقاً خاصاً عن هذا العالم العظيم الذى قدم للأزهر كل ما يمكن تقديمه من عالم أزهرى معتز بأزهريته.

● الاقتراح الثانى: أن يطلق اسم هذا العالم الجليل العظيم على أحد مدرجات كلية اللغة العربية التى شرفت به أستاذاً وعميداً.

● الاقتراح الثالث: أن تقوم مجلة الأزهر بطبع كل ما كتبه فضيلته ولم يطبع؛ لأن كل ما كتبه يمثل ثروة عظيمة يجب أن يطلع عليها كل مشتغل بالعلوم العربية والإسلامية.

فجزاه الله خيراً على ما قدم، ونسأله ـ تبارك وتعالى ـ أن يتغمده برحمته، وأن يلحقنا وإياه بالشهداء والصديقين والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

تفسير سورة النساء

لفضيلة/ الأستاذ الدكتور
محمد سيد طنطاوي
رحمه الله

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾

الآيات (٦٩ - ٧٠)

روى المفسرون في سبب نزول هاتين الآيتين روايات منها ما أخرجه ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وهو محزون فقال له النبي ﷺ: يا فلان مالي أراك محزونا؟ فقال الرجل: يا نبي الله شيء فكرت فيه، فقال ما هو؟ قال: نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغدا ترفع مع النبيين فلا نصل إليك. فلم يرد النبي ﷺ شيئا، فأتاه جبريل بهذه الآية:

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾

قال: «فبعث إليه النبي ﷺ فبشره»(١).

(١) تفسير ابن جرير جـ٥ ص١٦٣

والمعنى: ﴿ مَن يُطِعِ اللَّهَ ﴾ بالانقياد لأمره ونهيه، ويطع ﴿ الرَّسُولَ ﴾ في كل ما جاء به من ربه ﴿ فَأُولَٰئِكَ ﴾ المطيعون:

﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم ﴾

بالنعم التي تقصر العبارات عن تفصيلها وبيانها.

وقوله:

﴿ مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾

بيان للمنعم عليهم الذين يكون المطيع في صحبتهم ورفقتهم.

أي: فأولئك المتصفون بتمام الطاعة لله - تعالى - ولرسوله ﷺ، يكونون يوم القيامة في صحبة الأنبياء الذين أرسلهم الله مبشرين ومنذرين، فبلغوا رسالته ونالوا منه - سبحانه - أشرف المنازل.

وبدأ - سبحانه - بالنبيين لعلو درجاتهم، وسمو منزلتهم على من عداهم من البشر.

وقوله ﴿ وَالصِّدِّيقِينَ ﴾ جمع صديق وهم الذين صدقوا بكل ما جاء به الرسول ﷺ تصديقا لا يخالجه شك، ولا تحوم حوله ريبة، وصدقوا في دفاعهم عن عقيدتهم وتمسكهم بها، وسارعوا إلى ما يرضي الله بدون تردد أو تباطؤ.

وقوله ﴿ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ جمع شهيد، وهم الذين استشهدوا في سبيل الله، ومن أجل إعلاء دينه وشريعته.

وقوله ﴿ وَالصَّالِحِينَ ﴾ جمع صالح، وهم الذين صلحت نفوسهم، واستقامت قلوبهم وأدوا ما يجب عليهم نحو خالقهم ونحو أنفسهم ونحو غيرهم.

هؤلاء هم الأخيار الأطهار الذين يكون المطيعون لله ولرسوله في رفقتهم وصحبتهم.

قال الفخر الرازي: «وليس المراد بكون من أطاع الله وأطاع الرسول مع النبيين والصديقين.. كون الكل في درجة واحدة، لأن هذا يقتضي التسوية في الدرجة بين الفاضل والمفضول، وأنه لا يجوز بل المراد كونهم في الجنة بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية الآخر، وإن بعد المكان، لأن الحجاب إذا زال شاهد بعضهم بعضا: وإذا أرادوا الزيارة والتلاقي قدروا عليه، فهذا هو المراد من هذه المعية.

ثم قال: وقد دلت الآية على أنه لا مرتبة بعد النبوة في الفضل والعلم إلا هذا الوصف، وهو كون الإنسان صديقا ولذا أينما ذكر في القرآن الصديق والنبي لم يجعل بينهما واسطة كما قال - تعالى - في صفة إدريس(٢):

(٢) تفسير الفخر الرازي جـ١٠ ص١٧١

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾

وقوله - تعالى - :

﴿ وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾

تذييل مقرر لما قبله مؤكد للترغيب فى العمل الصالح الذى يوصل المسلم إلى صحبة هؤلاء الكرام.

وقوله ﴿ وَحَسُنَ ﴾ فعل مراد به المدح ملحق بنعم، ومضمن معنى التعجب من حسنهم، واسم الإشارة ﴿ أُولَٰٓئِكَ ﴾ يعود إلى كل صنف من هذه الأصناف الأربعة وهم النبيون ومن بعدهم.

والرفيق: هو المصاحب الذى يلازمك فى عمل أو سفر أو غيرهما، وسمى رفيقا لأنك ترافقه ويرافقك ويستعين كل واحد منكما بصاحبه فى قضاء شئونه، وهو مشتق من الرفق بمعنى لين الجانب، ولطف المعاشرة.

ولم يجمع، لأن صيغة فعيل يستوى فيها الواحد وغيره.

والمعنى وحسن كل واحد من أولئك الأخيار - وهم الأنبياء ومن بعدهم - رفيقا ومصاحبا فى الجنة لأن رفقة كل واحد منهم تشرح الصدور، وتبهج النفوس.

والمخصوص بالمدح محذوف أى: وحسن كل واحد من المذكورين رفيقا أو وحسن المذكورون أو الممدوحون رفيقا، لأن حسن لها حكم نعم.

وقوله ﴿ أُولَٰٓئِكَ ﴾ فاعل ﴿ حَسُنَ ﴾، و﴿ رَفِيقًا ﴾ تمييز.

قال صاحب الكشاف وقوله:

﴿ وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾

فيه معنى التعجب كأنه قيل: «وما أحسن أولئك رفيقا، ولاستقلاله بمعنى التعجب قرئ وحسن بسكون السين»(٣).

واسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ فى قوله:

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ﴾

يعود إلى ما ثبت للمطيعين من أجر جزيل، ومزيد هداية، وحسن رفقة وهو مبتدأ وقوله ﴿ ٱلْفَضْلُ ﴾ صفته، والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبره، أى: ذلك الفضل العظيم كائن من الله - تعالى - لا من غيره.

وقوله:

﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾

(٣) تفسير الكشاف جـ١ ص٥٣١

تذييل قصد به الإشارة إلى أن أولئك الأخيار الذين قدموا أحسن الأعمال، واستحقوا أفضل الجزاء، وإن لم يعلمهم الناس فإن الله - تعالى - يعلمهم، وقد كافأهم بما يستحقون.

أى: كفى به - سبحانه - عليما بمن يستحق فضله وعطاءه وبمن لا يستحق، فهو - سبحانه - الذى لا تخفى عليه خافية من شئون خلقه.

وفى هذه الجملة الكريمة حض للمسلم على التزود من العمل الصالح، لأنه - سبحانه - مادام يعلم أحوال عباده وسيحاسبهم على أعمالهم، فجدير بالعاقل أن يرغب فى الطاعة وأن ينفر من المعصية.

هذا، وقد وردت أحاديث كثيرة تشير إلى أن المؤمنين الصادقين سيكونون يوم القيامة مع أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ومن هذه الأحاديث ما أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه عن ربيعة بن كعب الأسلمى أنه قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لى: «سل» فقلت: أسألك مرافقتك فى الجنة، فقال: «أو غير ذلك؟» قلت: هو ذاك، قال: «فأعنى على نفسك بكثرة السجود».

ومنها ما رواه الإمام أحمد عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ ألف آية في سبيل الله كتب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا».

ومنها ما رواه الترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء».

قال ابن كثير: وأعظم من هذا كله بشارة، ما ثبت فى الصحيح والمسانيد وغيرهما من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم؟ فقال: «المرء مع من أحب».

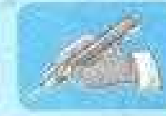
قال أنس: فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث(٤).

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد بشرتا المطيعين لله ولرسوله بأحسن البشارات وأرفع الدرجات.



(٤) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٢٢

لا دين لمن لا غيرة له



لفضيلة الشيخ / إبراهيم عطا الفيومي
رحمه الله

روى الإمام مسلم عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أنه قال: قال سعد بن عبادة: «لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح عنه». فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أتعجبون من غيرة سعد، فوالله لأنا أغير منه، والله أغير مني، من أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا شخص أغير من الله، ولا شخص أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث الله المرسلين مبشرين ومنذرين، ولا شخص أحب إليه المدحة من الله، من أجل ذلك وعد الله الجنة».

التعريف بالراوي

المغيرة بن شعبة الثقفي: أسلم عام الخندق وشهد الحديبية، وكان أحد دهاة العرب حتى كان يقال له «مغيرة الرأي»، وهو أول من وضع ديوان البصرة، وشهد اليمامة وفتوح الشام، وذهبت عينه باليرموك، وشهد القادسية وكان رسول سعد إلى رستم، وشهد نهاوند وغيرها، واعتزل الفتنة بعد قتل عثمان رضي الله عنه، ثم بايع معاوية -رضي الله عنه- بعد أن اجتمع الناس عليه وولاه بعد ذلك الكوفة فاستمر على إمرتها حتى مات بها سنة خمسين.

وسعد بن عبادة بن الخزرج الأنصاري: كان سيداً جواداً، شهد العقبة وكان أحد النقباء، وكان مشهورا بالجود هو وأبوه وجده وولده، وكان وجيها في الأنصار ذا رياسة وسيادة يعترف قومه له بها، وهو صاحب راية الأنصار في المشاهد كلها، وكان يكتب بالعربية ويحسن العوم والرمي فكان يقال له «الكامل» وأمه الصحابية عمرة بنت مسعود رضي الله عنهما.

اللغويات

غير مصفح: غير ضارب بعرض السيف بل بحده، تأكيدا لبيان ضربه به لقتله، والمراد: ضربته بحد السيف للإهلاك لا بعرضه للإرهاب.

غيرة سعد: الغيرة/ الأنفة والحمية، وقال القاضي عياض: الغيرة مشتقة من تغير القلب وهيجان الغضب بسبب المشاركة فيما به الاختصاص، وأشد ما يكون ذلك بين الزوجين، يقولون: غار على أهله، أي: حماهن ومنع أن يدخل عليهن أحد من غير المحارم.

وغيرة الله تعالى: بغضه أن يأتي العبد الفواحش.

أحب إليه: أرضى عنده وأكثر قبولا وثوابا.

المدحة: الثناء الجميل بذكر نعمه وفضائله.

الشرح والبيان

إن إسلامنا الحنيف دين الفطرة السوية والخلق القويم والصراط المستقيم، وما بعث المصطفى ﷺ ليحارب الفطر السوية أو ليحرمها، ولكنه جاء ليهذبها ويكبح جماحها وليلبسها ثوب التوسط والاعتدال.

ومن الأخلاق التي هذبتها شريعتنا الغراء وعلمتنا خيرها وشرها ـ الغيرة، والمراد بها كراهة أن يشاركني غيري في حقي، وهي خلق طبعي وغريزة للإنسان والبهائم، وكما تكون في الرجال تكون في النساء، فأما زيادة حظ الأنثى على الذكر من الغيرة أو الذكر على الأنثى فليس بلازم طريقة واحدة، ولا جار على وتيرة واحدة، بل ربما زاد ذكر على أنثاه في هذا المعنى، وربما زادت أنثى على ذكرها فيه، على أن الذكر أولى بالمحاماة وأخص بهذا الخلق لأنه تستعمل فيه قوة الغضب والشجاعة، وهذا أولى بالذكر منه بالأنثى، وإن كانت الأنثى تشارك فيه الذكر.

وقد حكت لنا كتب السنة والسير أخبار بعض الصحابة الأجلاء الذين اشتهروا بشدة الغيرة وتمكنها من أنفسهم، روى الشيخان عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيتني دخلت الجنة، فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة، وسمعت خشفة فقلت: من هذا؟ فقال: هذا بلال. ورأيت قصراً بفنائه جارية، فقلت: لمن هذا؟ فقال: لعمر. فأردت أن أدخله فأنظر إليه، فذكرت غيرتك» فقال عمر: «بأبي وأمي يا رسول الله! أعليك أغار؟».. وروى الإمام البخاري عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: «تزوجني الزبير وما له في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير ناضح وغير فرسه، فكنت أعلف فرسه وأستقي الماء، وأخرز غربه وأعجن، ولم أكن أحسن أخبز، وكان يخبز جارات لي من الأنصار،

وكن نسوة صدق، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التى أقطعه رسول الله ﷺ على رأسى، وهى منى على ثلثى فرسخ فجئت يوما والنوى على رأسى، فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار فدعانى، ثم قال: إخ إخ ليحملنى خلفه، فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته -وكان أغير الناس- فعرف رسول الله ﷺ أنى قد استحييت فمضى، فجئت الزبير، فقلت: لقينى رسول الله ﷺ وعلى رأسى النوى ومعه نفر من أصحابه فأناخ لأركب، فاستحييت منه وعرفت غيرتك». فقال: «والله لحملك النوى كان أشد علىّ من ركوبك معه».. وممن اشتهر كذلك بشدة الغيرة سعد بن عبادة - رضى الله عنه- كما فى حديثنا الذى صدرنا به هذا المقال، وفى بعض الروايات: قال سعد ابن عبادة: حضرت رسول الله وجاءه رجل فقال: يا رسول الله، وجدت على بطن امرأتى رجلا، أضربه بالسيف؟ فقال رسول الله ﷺ: «أى بينة أبين من السيف؟»، ثم رجع فقال: كتاب ربنا هذا، فقال سعد بن عبادة: يارسول الله، أى بينة أبين من السيف؟ فقال: «كتاب الله وشاهد ثمة»، ثم قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار، هذا سيدكم استفزته الغيرة، حتى خالف كتاب الله»، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله إن سعدا رجل غيور، ما تزوج امرأة ثيبا لغيرته، وما قدر أحد منا أن يتزوج امرأة طلقها لغيرته، فقال رسول الله ﷺ: «سعد غيور، وأنا أغير منه، والله أغير منى»، فقال رجل من الأنصار: على أى شىء يغار الله؟ قال: «يغار على رجل مجاهد فى سبيل الله يخالف إلى أهله»(1).

والغيرة خلق فاضل متركب من النجدة والعدل، لأن من عدل كره أن يتعدى إلى حرمة غيره، وأن يتعدى غيره إلى حرمته، ومن كانت النجدة طبعا له حدثت فيه عزة، ومن العزة تحدث الأنفة من الاهتضام. وحقيقة الغيرة للرجل هى منع الحريم وحماية الحوزة، لأجل حفظ النسل والنسب، فكل من كانت غيرته لأجل ذلك، ثم لم يتجاوز ما ينبغى حتى يحكم بالتهمة الباطلة، فيصدق بالظنون الكاذبة، ويبادر إلى العقوبة على ذلك، ولم ينقص عما ينبغى حتى يتغافل عن الدلائل الواضحة، ويترك الاستعاض من الرؤية والسماع إذا كان حقاً، وكان معتدل الخلق بين هذين الطرفين يغضب كما ينبغى، وعلى ما ينبغى -فهو محمود غير ملوم.

والغيرة الواجبة على المسلم هى ما يتضمنه النهى عن الخزى، والغيرة المستحبة ما أوجبت المستحب من الصيانة، وأما الغيرة فى غير ريبة وهى الغيرة فى مباح لا ريبة فيه فهى مما لا يحبه الله بل ينهى عنه إذا كان فيه ترك ما أمر الله. فالاعتدال فى الغيرة يكون بألا يتغافل المرء عن مبادئ الأمور التى تخشى غوائلها، ولا يبالغ فى إساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن، قد نهى رسول الله ﷺ أن تتبع عورات النساء، روى مسلم عن جابر رضى الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يطرق الرجل أهله ليلا يتخونهم أو يلتمس عثراتهم»، وروى الحاكم فى مستدركه عن عقبة بن عامر الجهنى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «غيرتان إحداهما يحبها الله والأخرى يبغضها الله، ومخيلتان إحداهما يحبها الله والأخرى يبغضها الله، فالغيرة فى الريبة يحبها الله والغيرة فى غير ريبة يبغضها الله، والمخيلة إذا تصدق الرجل يحبها الله والمخيلة من الكبر يبغضها الله».. وقال سليمان بن داود عليهما السلام لابنه: «يابنى، لا تكثر الغيرة على أهلك ولم تر منها سوءا فترمى بالشر من أهلك وإن كانت بريئة، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تستخف فؤاد الرجل الحكيم، قال: وعليك بخشية الله عز وجل فإنها غاية لكل شىء».. لأن ذلك من سوء الظن الذى نهينا عنه فإن بعض الظن إثم، وكم أتلفت الغيرة الحمقاء من نفوس، وكم أزالت من نعم، وكم خربت من بيوت وقطعت من أرحام! لذلك قال على رضى الله عنه: «الغيرة غيرتان: حسنة جميلة يصلح بها الرجل أهله، وغيرة تدخله النار»، وقال رضى الله عنه: «لا تكثر الغيرة على أهلك فترمى بالسوء من أجلك».

ما أحسن الغيرة فى حينها
وأقبح الغيرة فى كل حين!
من لم يزل متهما عرسه
متبعا فيها لرجم الظنون
أوشك أن يغريها بالذى
يخاف أو ينصبها للعيون
حسبك من تحصينها ضمها
منك إلى عرض نقى ودين
لا تطلع منك على ريبة
فيتبع المقرون حبل القرين

وأما غيرة النساء بعضهن من بعض فتلك ليس مأموراً بها، لكنها من أمور الطباع كالحزن على المصائب ونحو ذلك، وفى صحيح السنة غير واقعة غارت فيها أمهات المؤمنين، ومن أولى أن يغار عليه من سيد الخلق أجمعين ﷺ؟!

فالغيرة فى محلها لابد منها وهى محمودة، بل هى من مكارم الأخلاق وفضلى الطباع، وهو خلق تحبه المرأة العفيفة الحرة فى الرجل ويعظم عندها به، قدمت امرأة مجلس موسى بن اسحاق القاضى فادعت على زوجها خمسمائة دينار مهرها فأنكر الزوج، فقال وكيل المرأة: قد أحضرت شهودى، فقال واحد من الشهود: أنظر إلى المرأة فقام وقامت، فصرخ الزوج: يفعل ماذا؟! ينظر إلى امرأتى؟! قالوا: نعم، قال: «فإنى أشهد القاضى أن لها على مهرها خمسمائة دينار كلها ذهبا عينا مثاقيل ولا تسفر عن وجهها!، قالت المرأة: فإنى أشهد القاضى أنى قد وهبتها له، قال القاضى: يكتب هذا فى مكارم الأخلاق.. وها هى ذى هند بنت عتبة ابن ربيعة حين فارقها الفاكه بن المغيرة تقول لأبيها: يا أبت إنى قد ملكت أمرى فلا تزوجنى رجلا حتى تعرضه على، قال: ذلك لك. ثم قال لها ذات يوم: يا بنية قد خطبك رجلان من قومك ولست بمسم لك واحدا

(1) المعجم الكبير للطبرانى.

منهما حتى أصفه لك، فاختارت أبا سفيان بن حرب بن أمية، لأنه شديد الغيرة فولدها منه حرى أن يكون المدافع عن حريم عشيرته، والذائد عن كتيبتها، والمحامى عن حفيظتها، والزائن لأرومتها.

والإسلام حين أمر المرأة بالحجاب ونهاها عن مخالطة الرجال الأجانب أو مصافحتهم أو مجالستهم - إنما كان يؤطر الغيرة فى إطارها ويمنع نارها أن تحرق من نحب، فأول طريق يغنى عن الغيرة ألا يدخل الرجال على المرأة وألا تخرج إلى الأسواق قدر المستطاع، ولذلك كان الحسن يقول: «أتدعون نساءكم ليزاحمن العلوج فى الأسواق، قبح الله من لا يغار»، وكان أصحاب رسول الله ﷺ يسدون الكوى والثقب فى الحيطان لئلا تطلع النساء إلى الرجال، ورأى معاذ امرأته تطلع فى الكوة فضربها، ورأى امرأته قد دفعت إلى غلامه تفاحة قد أكلت منها فضربها.. ولذلك تحكى كتب التاريخ أن ابنة شعيب لما قالت لأبيها:

﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾

(القصص: ٢٦)

«احتملته الغيرة على أن قال: «وما يدريك ما قوته وما أمانته؟» قالت: «أما قوته فما رأيت منه فى الدلو حين يسقى لنا لم أر رجلا قط أقوى فى ذلك السقى منه، وأما أمانته فإنه نظر حين أقبلت إليه وقد شخصت له فلما علم أنى امرأة صوب رأسه فلم يرفعه ولم ينظر إلى حتى بلغت رسالتك، ثم قال: امش خلفى وانعتى لى الطريق فلم يفعل هذا إلا وهو أمين»، فسرى عن أبيها وصدقها وظن به الذى قالت.

وإنما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب، ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأنساب، ولذلك قيل: «كل أمة وضعت الغيرة فى رجالها وضعت الصيانة فى نسائها»، فمن أحس من نفسه بضعف الغيرة وخسة النفس فى احتمال الذل والضيم فى غير محله فينبغى أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه لله وليعلم أن الصبر على الأذى المحظور محرم، كمن يقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر عن إظهار الغيرة ويسكت على ما يجرى على أهله فهذا الصبر محرم وهجنة قبيحة، إذ فى الغيرة للقلب حياته وصلاحه كالحرارة لحياة جميع البدن فالغيرة حرارة القلب وناره التى تخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة كما يخرج الكير خبث الذهب والفضة، فقد نجد فى بعض الحيوان من لا تعرض له الغيرة كالكلب والتيس، ويسب به الإنسان إذا ذكر به، وسمى باسمه، ونجد أيضا بعضها غيورا محاميا كالكبش وغيره من فحول الحيوان فيمدح بذكره الإنسان إذا شبه به، وسمى باسمه.

وقد بين لنا الحديث الذى بين أيدينا أن أشرف الناس وأعلاهم قدرا وهمة - أشدهم غيرة على نفسه وخاصته وعموم الناس، ولهذا كان النبى ﷺ أغير الخلق على الأمة، والله سبحانه أشد غيرة منه، ولأجل غيرة الله تعالى حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والغيرة المحبوبة هى ما وافقت غيرة الله تعالى، وهذه الغيرة هى أن تنتهك محارم الله بأن تؤتى الفواحش الباطنة والظاهرة، ولهذا كانت الغيرة الواجبة على المسلم هى غيرته على أهله وأعظم ذلك امرأته ثم أقاربه ومن هو تحت طاعته.

ولا أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك أثنى على نفسه فجمع فى هذا الحديث بين الغيرة التى أصلها كراهة القبائح وبغضها وبين محبة العذر الذى يوجب كمال العدل والرحمة والإحسان، والله سبحانه مع شدة غيرته يحب أن يعتذر إليه عبده ويقبل عذر من اعتذر إليه، وأنه لا يؤاخذ عبده بارتكاب ما يغار من ارتكابه حتى يعذر إليهم ولأجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه إعذارا وإنذارا وهذه غاية المجد والإحسان ونهاية الكمال، فإن كثيرا ممن تشتد غيرته من المخلوقين تحمله شدة الغيرة على سرعة الإيقاع والعقوبة من غير إعذار منه ومن غير قبول العذر ممن اعتذر إليه. ولما جمع سبحانه صفات الكمال كلها كان أحق بالمدح من كل أحد ولا يبلغ أحد أن يمدحه كما ينبغى له بل هو كما مدح نفسه وأثنى على نفسه. فالغيور قد وافق ربه - سبحانه - فى صفة من صفاته ومن وافق الله فى صفة من صفاته قادته تلك الصفة إليه بزمامه وأدخلته على ربه وأدنته منه وقربته من رحمته وصيرته محبوبا له.

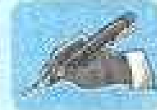
وكلما اشتدت ملابسة المرء للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس وقد تضعف فى القلب جدا حتى لا يستقبح بعد ذلك القبيح لا من نفسه ولا من غيره، وإذا وصل إلى هذا الحد فقد دخل فى باب الهلاك، وكثير من هؤلاء لا يقتصر على عدم الاستقباح بل يحسن الفواحش لغيره ويزينها له ويدعوه إليها ويحثه عليها ويسعى له فى تحصيلها، ولهذا كان الديوث أخبث خلق الله والجنة عليه حرام، فانظر ما الذى حملت عليه قلة الغيرة! وهذا يدلنا على أن أصل الدين الغيرة ومن لا غيرة له لا دين له، فالغيرة تحمى القلب فتحمى له الجوارح فتدفع السوء والفواحش، وعدم الغيرة تميت القلب فتموت الجوارح فلا يبقى عندها دفع البتة.

فمحب الله ورسوله يغار لله ورسوله على قدر محبته وإجلاله، وإذا خلا قلبه من الغيرة لله ولرسوله فهو من المحبة أخلى وإن زعم أنه من المحبين، فكذب من ادعى محبة محبوب من الناس وهو يرى غيره ينتهك حرمة محبوبه ويسعى فى أذاه ويستهين بحقه ويستخف بأمره وهو لا يغار لذلك بل قلبه بارد فكيف يصح لعبد أن يدعى محبة الله وهو لا يغار لمحارمه إذا انتهكت ولا لحقوقه إذا ضيعت؟!

وإذا ترحلت هذه الغيرة من قلب ترحلت منه المحبة بل ترحل منه الدين وإن بقيت فيه آثاره، وهذه الغيرة هى الحاملة على الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فإن خلت من القلب لم يجاهد ولم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر، فإنه إنما يأتى بذلك غيرة منه لربه.

وفقنا الله للغيرة المحمودة شرعا، وجعلنا ممن يستمع القول فيتبع أحسنه والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

الحذر من الفتن



للأستاذ الدكتور/ أحمد عمر هاشم
عضو مجمع البحوث الإسلامية

إن حياة الإنسان فى الدنيا معرضة لأن تجتاحها الفتن والابتلاءات، وواجبنا حيالها أن نتمسك بالإيمان وعمل الصالحات، لأن الله سبحانه وتعالى وعد. ووعده الحق. المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن يستخلفهم فى الأرض وأن يمكن لهم دينهم، وأن يبدلهم بعد خوفهم أمنا، حيث قال الله جل شأنه:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ **(النور: ٥٥)**

وحذرنا الإسلام من خداع بعض الذين يظهرون على الساحة بغير هدى ولا حق ولا صدق ولا أمانة ومع هذا يصدقون ويؤتمنون ومن بعض الذين يتفشى أمرهم وكيانهم فى الحياة وهم على غير هدى.

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سيأتى على الناس سنوات خداعات، يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين وينطق فيها الرويبضة» قيل: وما الرويبضة؟ قال: «الرجل التافه فى أمر العامة» رواه ابن ماجة.

ويظهر تصديق الكاذب عند بعض المسئولين حين يثقون فى بعض بطانة السوء التى تحيط بهم فيكذبون على رؤسائهم والمسئولين فيهم ومع هذا يصدقهم المسئولون فينخدعون بهم فى حين يتحدث بعض الصادقين ولكنهم لا يسمع لقولهم بل يكذبون فى قولهم مع أنهم صادقون ولكن بطانة السوء تسول لهم، والشيطان سول لهم وأملى لهم.

ثم يزداد السوء أكثر عندما يتظاهر من لا قيمة له ولا وزن فى الحياة وليس له من عناصر الإيمان ولا الحق شىء، فيتحدث فى أمر العامة، وتجرى أمور العامة بيديه وهو المسمى فى الحديث بالرويبضة وعندما سئل عنه الرسول ﷺ قال: «الرجل التافه فى أمر العامة» وفى هذا كله ما يدل على تغيير الأحوال وانقلاب الأوضاع فلا يرى الناس الحق حقا ولا الصدق صدقا فتشيع الفتن فى الحياة، ومن هنا كان التحذير النبوى من هذه الفتن ومن غيرها.

ومن الفتن التى تكثر فى آخر الزمان أن يكون أسعد الناس فى الدنيا منصبا وثراء ومالا وجاها اللئام من الناس.

عن حذيفة بن اليمان -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع» رواه الترمذى ومعنى «لكع ابن لكع» هو اللئيم ابن اللئيم.

الأمانة!!

وأهم إجراء فى مواجهة الفتن هو إقامة الأمانة وألا يوسد الأمر إلى غير أهله.

لقد جاء رجل يسأل رسول الله ﷺ قائلا: متى الساعة؟ فقال له الرسول ﷺ: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة» فقال: وكيف إضاعتها؟ قال: «إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة» رواه البخارى.

ومن أسباب انتشار الفتن والتذمر والغضب ما يحدث من جراء ظلم بعض المسئولين، ومحاباة البعض وعدم إعطاء الرجل المناسب الوضع المناسب، ففى غياب العدالة تضيع الحقوق، ويكون جزاء من أضاعها بتولية غير الصالحين من الفاسدين ما أخبر به الرسول ﷺ فى قوله: «من استعمل رجلا على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين» رواه الحاكم.

إن بعض بطانة السوء غالبا ما تقدم لبعض المسئولين رغبات فى إعطاء بعض الناس بعض الحظوظ أو المناصب إشباعا لأهوائهم المشبوهة، ويقدمون بعض الناس على بعض ظلما وعدوانا على الحق والعدل ويخفون على المسئولين الحقائق، ومن هنا حذر الرسول ﷺ من مثل ذلك أشد التحذير، عن يزيد بن أبى سفيان قال: «قال لى أبوبكر الصديق -رضى الله عنه- حين بعثنى للشام: يا يزيد إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة، وذلك أكثر ما أخاف عليك بعدما قال رسول الله ﷺ: «من ولى من أمر المسلمين شيئا فأمّر عليهم أحدا محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا حتى يدخله جهنم» رواه الحاكم.

فتنة المال العام

ومن الفتن التى حذر الإسلام منها، فتنة المال العام الذى يستغله بعض أهل المناصب فى أخذ منافع خاصة لهم، فقد قال رسول الله ﷺ: «من استعملناه على عمل فرزقناه رزقا فما أخذ بعد ذلك فهو غلول». رواه أبوداود.

وقد قال الله تعالى:

﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

(سورة آل عمران: ١٦١)

وهكذا نرى توجيهات الإسلام، فى بناء المجتمع الإسلامى تدعو الناس إلى البعد عن فتنة الأموال والمناصب وهى أكثر أنواع الفتن فى الحياة العملية، وبسببها تشقى المجتمعات فى حياتها، وأكثر ما تكون أنواع هذه الفتن بسبب بطانة السوء التى تكون عندبعض كبار المسئولين فمن أراد الله به منهم خيرا جعل له بطانة خير إن نسى ذكروه وإن ذكر أعانوه، وإن أراد الله به شرا جعل له بطانة شر، إن نسى لم يذكروه وإن ذكر لم يعينوه.

إن خيانة المسئول لمجتمعه هى خيانة لله والرسول وقد حذر من ذلك رب العزة سبحانه وتعالى فى قوله:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(سورة الأنفال: ٢٧)

وقد أمرنا الله تعالى بأن نأخذ حذرنا فى أوقات الفتن قال الله سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾

(سورة النساء: ٧١)

وقال الله تعالى:

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾

(سورة الأنفال: ٢٥)

❊❊❊

كلما نظرت حولى، واستمعت لأحاديث الناس وتعرفت على أحوالهم وأفكارهم، شعرت بغصة فى حلقى، وألم فى نفسى، لما أرى من صفرة وجوههم، وشرود فى نظراتهم وذهول عقولهم نتيجة الاستغراق فى هموم العيش، والعجز عن تحمل تبعات الحياة، ولأنى لا أملك القدرة على مواساتهم أو تخفيف همومهم وأعبائهم؛ فإننى أكتفى بنظرة الألم والشعور بالحزن العميق لما آلت إليه أحوالهم.

إلى أين؟

للأستاذ الدكتور/ حمدى فتوح والى

وإذا كان كثير من عقلاء الأمة وحكمائها يشعرون بما أشعر ويجدون فى أنفسهم ما أجد من الألم لحال الأمة والحسرة على شبابها، فإن ذلك ينبغى أن يؤدى إلى الإجابة عن سؤال يشغل بال كل غيور على هذه الأمة. وهو: كيف المخرج من هذه الحال؟.

وهذا السؤال عندما يطرح فى أمة تقية سيجد إجابة واضحة صريحة فى قول ربنا سبحانه:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

(الأعراف: ٩٦).

وفى قوله سبحانه:

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾

(نوح ١٠-١٢).

إلى غير ذلك من الآيات المحكمة والأحاديث الصحيحة. لكنك اليوم عندما تطرح السؤال ستسمع إجابات بعدد الجالسين أمامك وربما لا تجد من بينها ما كنت تتوقعه من جواب شاف. يسعد قلبك ويشفى نفسك ويريح ضميرك. لأنها فى الغالب قلوب خاوية من الذكر، خالية من الأنس، مشغولة بالدنيا ممزوجة بالشهوات والشبهات فإذا جاءت الإجابة صدى لهذا المزيج الشائه من الأفكار

والأخلاق، فلا تعجب ولا تدهش فقديما قالوا: «الشيء من معدنه لا يستغرب»، وكما يقول الحكماء «إنك لا تجني من الشوك العنب». والأصدق من ذلك كله قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾

(الأعراف: ٥٨).

وهكذا استقر في وجداني أن الإصلاح والتغيير أمر ضروري، لكن ضرورته لا تبرر أخطاء المصلحين عندما يقعون فريسة الرغبة المتعجلة في إحداث التغيير، فيسلكون إلى الإصلاح طرقا سريعة يحسبونها الأقرب والأسرع، فإذا هي الضرر الخطير والشر المستطير، لأنهم لم يسلكوا إلى التغيير طرقه المشروعة، وضوابطه الموضوعة. ولهؤلاء المخلصين نذكرهم قول الشاعر الحكيم:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ..

إن السفينة لا تجري على اليبس

ولأننا لسنا مخيرين أن نبدأ في التغيير ونتوقف؛ كان لابد لنا أن نبحث عن المداخل الحقيقية للتغيير، ومهما التمسنا هذه المداخل بعيداً عن خالق النفوس وبارئها فإننا لن نهتدي إلى هذه المداخل حتى نعود إلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى فنسأله الهداية إلى البداية التي وضعها بين أيدينا منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام وذلك في قوله تعالى:

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ۝ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۝ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ۝ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾

(الرعد: ٨-١١).

إنه اليقين أولاً بعلم الله لكل شيء وإحاطته بكل شيء، وإطلاعه على الخفايا والنوايا وما تكنه النوايا مما استخفى بالليل، واستتر بالغيب واستكن في الضمائر، وتحدثت به النفوس. وهذا البيان الإلهي ضروري لكل من عقد نية على إحداث التغيير سواء كان واقعاً في دائرة القائم بالتغيير أو في دائرة القابل للتغيير إذ لابد أولاً أن يشعر يقيناً أن الله يعلم السر وأخفى، وثمرة هذا اليقين بعلم الله وإطلاعه على كل شيء، تظهر في إحساس كل إنسان بأنه مراقب من ربه، وأنه مجازى من خالقه؛ فيحمله هذا الشعور على إحسان العمل إحساناً يليق بكمال الناظر إليه والمطلع عليه، فإذا بلغ العمل درجة إرضاء الله؛ فقد حقق ضمناً إرضاء كل مخلوق يؤمن بالله.. وذلك راجع إلى استواء معيار القبول لدى الخالق ومن يؤمن بمعيار الخالق سبحانه وتعالى، وتلك درجة إن حققها العبد فقد استحق حب الله وتوفيقه، من منطلق بشارة رسولنا ﷺ القائل: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه»(1).

(١) رواه الطبراني والبيهقي عن عائشة مرفوعاً.

ولك أن تتصور قلباً متعلقا بالله مخلصا له واثقاً به متوكلا عليه، يرجو رحمته ويخشى عذابه ينطلق في أرض الله مذكراً بدينه، يأمر بالمعروف وهو ملتزم به، وينهى عن المنكر غير متلبس به لا يجد لذته إلا في التعب لله. ولا يعرف راحته إلا في عزة دينه وإقامة حدوده، ورفع معالمه، وتنفيذ أحكامه.

﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾

(الأنفال: ٣٩).

كيف يكون حاله؟ وكيف تكون حياته؟! إنني لا أظن أن أحداً يخالفني عندما أقول إن نجاحنا في إيجاد هذا النموذج الفذ هو البداية الحقيقية لصناعة جيل المستقبل وإحداث التغيير الذي ننشده والخير الذي نرجوه. لكن الذي يدهشني ويحيرني هو ما أراه من انصراف أجهزة التربية والتعليم، والثقافة والإعلام في غالب بلاد المسلمين عن هذه الحقيقة برغم وضوحها ونصاعتها، ولقد كنت ألتمس العذر للكثيرين منهم عندما أستمع إليهم يتحفظون في كلامهم، ويدورون حول الحقيقة ثم ينصرفون عنها دون أن يجدوا القوة النفسية التي تدفعهم إلى ثقافة التغيير؛ لأنني أدركت يقيناً أن نفوسهم لم تتغير، وأن مشاعرهم لم تلتهب. وأن ضمائرهم لم تتألم، وإن وجدناهم لم نتألم لمصير الجيل القادم، الذي يرونه يتقدم إلى المستقبل دون غطاء فكري، ودون حصانة عقدية ودون امتلاك لأسلحة التحدي الحضاري، الذي لا يرحم الضعفاء والجاهلين والكسالى والمترددين.

إن أعظم استثمار تمارسه أمة على وجه الأرض هو الاستثمار في الإنسان وأعني بذلك بذل الجهد ورصد الأموال لتأديبه وتهذيبه وتعليمه، حتى يحسن التعامل مع الواقع من حوله؛ وأول ما يجب أن يحسنه هو أن يعرف الغاية التي لها خلق، والمهمة التي من أجلها وجد، وأن يمتلك من الثقافة والعلم ما يجعله قادرا على توظيف معطيات الكون من حوله في حالة من الانسجام النفسي والتوافق الروحي. وهذه الغاية هي التي جاء بها رسول الله ﷺ بإذن ربه لينقذ الأرض من ضلالها ويبعثها من مواتها.

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

(الجمعة: ٢).

ولعظم هذه الأمة وخطورتها كانت دعوة إبراهيم التي طلبها من ربه لإصلاح أهله وذريته هي قوله:

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

(البقرة: ١٢٩).

إن العاقل الحكيم لا يمكن أن يرضى لنفسه أن يفقد وعيه، ويتحول إلى دمية يلهو بها الأطفال؛ عندما ينفق ماله ليجلب به ما يفقد به عقله وكرامته، وقس على ذلك بقية الجرائم التي لا تنتشر وتزدهر إلا حيث توجد البيئة الجاهلة التي لا تعرف معروفاً ولا تنكر منكراً، فالفساد لا يظهر في الناس إلا بما كسبت أيديهم

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

(الروم: ٤١).

إن علماء الأمة وحكماءها مدعوون بقوة للبحث عن مخرج لما تعانيه البلاد من أزمات. وعندما أقول أزمات بلفظ الجمع فإننى أعى ما أقول فهى ليست أزمة واحدة وإنما هى سلسلة معقدة من الأزمات والمعوقات. لكننى أستطيع القول بأنها جميعا تتفرع من أزمة واحدة هى أزمة الوازع الأخلاقى والدينى. هذا الوازع الذى إن وجد وجدت معه الاستقامة التى عدها النبى ﷺ المخرج الأوحد من جميع الأزمات، والحل الأمثل لجميع ما يواجه الإنسان من معضلات، ولعلنا جميعا نذكر سؤال الرجل الذى جاء إلى النبى ﷺ وقال له يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك. فقال ﷺ: «قل آمنت بالله ثم استقم»[2].

إن الإيمان بالله والاستقامة على هذا الإيمان، عقيدة تملأ القلب، وشريعة تحكم العلاقات وتضبط السلوك، ومنهجا يصبغ الحياة كلها بصبغة الإيمان، جدير بإصلاح جميع مجالات الحياة. لأننا نؤمن أن الإنسان هو صانع الحياة فإن كان صالحا رأيت أثر ذلك فى أمته سياسة راشدة، واقتصادا طاهرا، وإعلاما هادفا وتعليما ربانيا، وحياة مباركة طيبة، وهذا ما وعدنا الله تبارك وتعالى به فى قوله:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(النحل: ٩٧)

هذا وعد الله لنا

﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾

(التوبة: ١١١)

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾

(النساء: ١٢٢)

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾

(النساء: ٨٧)

ويؤكد الحق تبارك وتعالى هذا الوعد الكريم بقوله:

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾

(طه: ١٢٣)

لكنه سبحانه وتعالى يتوعد من أعرض وطغى، وأفسد فى الأرض وبغى بسوء المصير ونكد العيش وذلك فى قوله تعالى:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾

(طه: ١٢٤)

ولعل سائلا يسأل وما مناسبة العمى فى هذا المقام ويأتيه الجواب واضحا حاسما؛ بأنه قد وضحت أمام عينيه أسباب السعادة. وتجلت بين يديه معالم الهداية، لكنه أعرض عنها رغم شدة وضوحها. فكان حاله كحال الأعمى الذى لا يرى شيئا.

(٢) متفق عليه.

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾

(طه: ١٢٦)

إن الله تبارك وتعالى رحيم بعباده، وهو بهم رءوف رحيم. ومن منطلق هذه الرحمة أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه رسلاً مبشرين ومنذرين:

﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

(النساء: ١٦٥)

إن الطريق إلى صناعة الجيل المسلم، جيل النصر والتمكين، واضحة بينة، لا تحتاج إلا إلى وقفة مع النفس، تحدد بها نيتها، وتحدد وجهتها، وترتب أولوياتها طبقا لمراد الله منها، وأن تستعد للإجابة يوم تسمع نداء الله يوجه إلى ملائكته:

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾

(الصافات: ٢٤)

وأن تجد لنفسها مخرجاً من ظلم النفس، يوم ترضى بالهوان. وتألف الذل، وتستكين لكل مجرم كى يفسد فى الأرض كما يشاء. دون أن تستشعر إثما أو تجد حرجا. ولتستعد ليوم لقاء الله:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾

(النساء: ٩٧-٩٩).

إننى لا أجد مخرجا أمام هذه الآية لإنسان يرضى أن يعيش فى دنياه بغير رسالة، أو أن يرضى بالظلم لنفسه أو للآخرين. فهذا مصير من يرضى الظلم على نفسه والذى يلفت النظر بشدة فى الآية الكريمة هو أنها شددت النكير على من يرون أنفسهم مستضعفين فى الأرض. ولم تلتفت إلى الكلام عمن استطالوا عليهم وألجأوهم إلى الاستضعاف. وكأن الآية الكريمة تبين لنا أن الظالم لا يمكن أن يستبد فى أمة عزيزة أبداً، وأن الطاغية لا يمكن أن يطغى فى أمة كريمة أبداً وأن الأمم الخانعة الذليلة هى التى تصنع الظالمين والطغاة، عندما تفسح لأهوائهم المجال. وترخى لهم الحبال، وترفعهم إلى منزلة من لا يسأل عما يفعل، وقديما قالوا:

والنفس راغبة إذا رغبتها ..
وإذا ترد إلى قليل تقنع

إن البداية الحقيقية للإصلاح لا يمكن أن تأتى إلا إذا توافرت الإرادة الحقيقية لهذا الإصلاح، وهو ما نفهمه من قول ربنا سبحانه:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

(الرعد: ١١)

ومن قوله تعالى:

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

(هود: ٨٨)

مصر تتحدث عن نفسها





لشاعر النيل/ حافظ إبراهيم

وقف الخلقُ ينظرون جميعاً ... كيف أبني قواعد المجد وحدي

وبناةُ الأهرام في سالف الدهـ ... ـرِ كفوني الكلام عند التحدّي

أنا تاجُ العلاء في مفرق الشر ... قِ ودرّاتُه فرائدُ عقدي

أيُّ شيءٍ في الغرب قد بهر النا ... سَ جمالاً ولم يكن منه عندي

فترابي تبرٌ ونهري فُراتٌ ... وسمائي مصقولةٌ كالفرندِ

أينما سرتَ جدولٌ عند كرمٍ ... عند زهرٍ مدنّرٍ عند رندِ[1]

ورجالي لو أنصفوهم لسادوا ... من كهولٍ ملءِ العيون ومُردِ

لو أصابوا لهم مجالاً لأبدوا ... معجزاتِ الذكاء في كلِّ قصدِ

إنهم كالظُّبا ألحَّ عليها ... صدأُ الدهر من ثواءٍ[2] وغمدِ

فإذا صيقلُ القضاء جلاها ... كُنَّ كالموت ما له من مردِّ

أنا إن قدّر الإلهُ مماتي ... لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدي

ما رماني رامٍ وراح سليماً ... من قديمٍ عنايةُ الله جندي

كم بغت دولةٌ عليَّ وجارت ... ثُمَّ زالت وتلك عُقبى التعدّي

إنني حُرّةٌ كسرتُ قيودي ... رغم رُقبى العدا وقطّعتُ قِدّي

وتماثلتُ للشفاء وقد دا ... نيتُ حيني وهيّأ القومُ لحدي

قُل لمن أنكروا مفاخر قومي ... مثل ما أنكروا مآثر وُلدي

هل وقفتم بقمّة الهرم الأكـ ... ـبرِ يوماً فريتمُ بعض جُهدي

هل رأيتم تلك النقوش اللواتي ... أعجزت طوق صنعة المُتحدّي

حال لونُ النهار من قِدم العهـ ... ـدِ وما مسَّ لونها طولُ عهدِ

هل فهمتم أسرار ما كان عندي ... من علومٍ مخبوءةٍ طيّ بردي

ذاك فنُّ التحنيط قد غلب الدهـ ... ـرَ وأبلى البلى وأعجز ندّي

قد عقدتُ العهود من عهد فرعو ... نَ ففي مصر كان أولُ عقدِ

إنَّ مجدي في الأوليات عريقٌ ... من له مثل أولياتي ومجدي

أنا أمُّ التشريع قد أخذ الرو ... مانُ عني الأصول في كُلِّ حدِّ

ورصدتُ النجوم مُنذُ أضاءت ... في سماء الدجى فأحكمتُ رصدي

وشدا بنتئورُ فوق ربوعي ... قبل عهد اليونان أو عهد نجدِ

(١) الرند هو الآس، وقيل: هو العود الذي يتبخر به، وقيل: هو شجر من أشجار البادية طيب الرائحة يستاك به. لسان العرب مادة «رند».

(٢) الثواء: طول المقام. لسان العرب مادة «ثوا».

وقديماً بنى الأساطيل قومي   ففرقن البحار يحملن بندي
قبل أسطول نلسن كان أسطو   لي سرياً وطالعي غير نكد
فسلوا البحر عن بلاء سفيني   وسلوا البر عن مواقع جُردي
أتراني وقد طويت حياتي   في مراس لم أبلغ اليوم رشدي
أيْ شعب أحق مني بعيش   وارف الظل أخضر اللون رغد
أمن العدل أنهم يردون الـ   ـماء صفواً وأن يُكدر وردي
أمن الحق أنهم يُطلقون الـ   ـأسد منهم وأن تقيد أسدي
نصف قرن إلا قليلاً أعاني   ما يُعاني هوانه كُل عبد
نظر الله لي فأرشد أبنا   ئي فشدوا إلى العلا أي شد
إنما الحق قوة من قوى الديـ   ـان أمضى من كُل أبيض هندي
قد وعدت العُلا بكُل أبي   من رجالي فأنجزوا اليوم وعدي
أمهروها بالروح فهي عروس   تسنا[٣] المهر من عُروض ونقد
وردوا بي مناهل العز حتى   يخطب النجم في المجرة ودي
وارفعوا دولتي على العلم والأخـ   ـلاق فالعلم وحده ليس يُجدي
وتواصوا بالصبر فالصبر إن فا   رق قوماً فما له من مسد
خُلق الصبر وحده نصر القو   م وأغنى عن اختراع وعد
شهدوا حومة الوغى بنفوس   صابرات وأوجه غير رُبد[٤]
فمحا الصبر آية العلم في الحر   ب وأنحى على القوي الأشد
إن في الغرب أعيُناً راصدات   كحلتها الأطماع فيكم بسُهد
فوقها مجهر يُريها خفايا   كم ويطوي شعاعه كُل بُعد
فاتقوها بجُنة من وئام   غير رث العرا وسعي وكد
واصفحوا عن هنات من كان منكم   رُب هاف هفا على غير عمد
نحن نجتاز موقفاً تعثر الآ   راء فيه وعثرة الرأي تُردي[٥]
ونُعير الأهواء حرباً عواناً   من خلاف والخُلف كالسل يُعدي
ونُثير الفوضى على جانبيه   فيُعيد الجهول فيها ويُبدي
ويظن الغوي أن لا نظام   ويقول القوي قد جد جدي
فقفوا فيه وقفة الحزم وارموا   جانبيه بعزمة المستعد
إننا عند فجر ليل طويل   قد قطعناه بين سُهد ووجد
غمرتنا سود الأهاويل فيه   والأماني بين جزر ومد
وتجلى ضياؤه بعد لأي   وهو رمز لعهدي المسترد
فاستبينوا قصد السبيل وجدوا   فالمعالي مخطوبة للمجد

(٣) تسنا: ترتفع. السناء من الرفعة، وأسناه أي رفعه، وفي الحديث: «بشر أمتي بالسناء» أي بارتفاع المنزلة والقدر عند الله.

(٤) ربد: الربدة الغبرة، والربد في النعام سواد مختلط، وتربد وجهه أي تغير من الغضب. لسان العرب مادة «ربد».
(٥) تهلك.

إن المخــــرج من هذا الوضع المتـــردى الراهن للشخصية العربية المسلمة يتمثل فى تحرى أن تكون شخصية المسلم كما رسمها القرآن الكريم، عسى أن يكون غدهم خيرا من أمسهم، وأن يكون مستقبلهم أشد إشراقا من حاضرهم. ويستلزم ذلك أمورا ، هى:

ملامح الشخصية العربية الإسلامية المعاصرة

٢



للأستاذ الدكتور / مصطفى رجب
كلية التربية - جامعة سوهاج

أولاً: الطهارة

«الطهارة» هى: البعد المفقود فى حياة المسلمين فى عصرنا هذا، ولا يعنينا هنا أسباب ذلك، فقد أجملناه فيما سبق من عوامل سعت لإبعاد المسلم عن دينه، والطهارة إذا استشعر المسلم أنها سمة لازمة له، رأى لها انعكاساً فى كل لحظة من لحظات حياته، فكما أن الإسلام طالبه بتطهير الظاهر بقوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(المائدة / ٦)

إن الجعل التراب هنا بديلاً للماء - في التطهير - معنى عجيباً، ودلالة عظيمة أشار إليها قوله تعالى:

﴿ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾

أى: أن التطهير إرادة إلهية، وما دام هذا شأنها فعلى المسلم أن يأتى بها كما أرادها له سبحانه وتعالى، على المسلم أن يأتى بها دون فلسفة أو إعمال فكر ودون موازنة بين تراب وماء، فالتطهير إذن له جانبان: جانب مادى ملموس، وجانب معنوى محسوس غير ملموس يتمثل فى الطاعة، وقد اجتمع الجانبان في قوله تعالى:

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾

(المدثر: ٤، ٥)

فجمع طهارة الثوب مع طهارة السلوك قولاً وعملاً.

أقول: كما أن الإسلام طالب المسلم بطهارة الظاهر: ممثلة في الختان والوضوء والاغتسال والتيمم، وتطهير الثوب، واعتزال النساء فى المحيض، والإتيان فى موضع الحرث، وتحرى طيبات الطعام والشراب، فإنه أمره كذلك بطهارة الباطن فنهاه عن الغيبة والنميمة وأكل أموال الناس بالباطل، والكذب، والنفاق، وإساءة استخدام السمع والبصر واليدين والرجلين واللسان كما نهاه عن البخل وتحبيذ البخل، وإثارة الفتنة، وغير ذلك من مصادر التلوث النفسى.

كل ذلك يمكن أن يتحول إلى سلوك يومى فى حياة المسلم حين يعاهد ربه ويعاهد نفسه أن يعيش طاهرا بمعنى الكلمة، فيتمثل ضدها وهو «النجاسة» وكما يبتعد بأقدامه فى أثناء سيره عن كل نجاسة حتى لا تلوث ملابسه، فليحتط لنفسه قبل أن ينجرف فى حوار أو حديث مع أحد وليسأل نفسه: هل هذا حديث طاهر أم نجس؟.. وحين يهم بكلمة أو نصيحة أو جواب سؤال.. إلخ فليكن شعاره دائماً: «لأعش طاهراً» فى كل لحظة: حينذاك يشعر أنه فى معية الله تعالى دائماً، وأن الله تعالى ظهيره ونصيره لأنه يطهر نفسه أولاً بأول ولحكمة ما، قال تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾

(البقرة: ٢٢٢)

ولم يقل: «الطاهرين»، لأن القرآن نزل عربيا بلغة دقيقة حساسة: فكلمة «متطهر» على وزن «متفعل» فيها معنى المشقة والمكابدة والمحاولة المستمرة من الإنسان أن يكون طاهرا. فالمتطهر هو التواب الذى يقوم كلما وقع، ويستغفر كلما أخطأ.

فإذا فعل الإنسان هذا، وعاش بشعار «لأكن طاهراً متطهراً» كل ذلك خير تحقيق لقوله تعالى:

﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

(الزخرف: ٤٣)

ثانياً: الاعتدال

البعد الثانى فى شخصية المسلم ينبغى أن يكون «الاعتدال» أو «التوسط بين أى متناقضين» فالمسلم ينتمى إلى أمة جعلها الله تعالى أمة وسطاً، أى أمة معتدلة التوجه، مستقيمة السلوك، ولا تغلو فى دينها ولا ترفع منزلة أحد أو تخفضها دون سبب من دين أو تشريع، ومن هنا توالت أوامر القرآن الكريم بالاعتدال:

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾

(الأعراف: ٣١)

﴿ لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾

(المائدة: ٨٧)

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾

(القصص: ٧٧)

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾

(النحل: ١٢٥)

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾

(الفرقان: ٦٧)

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ﴾

(البقرة: ٢٦٣)

﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾

(الإسراء: ١١٠)

وإذا قلنا: إن «الاعتدال» أو «التوسط» سمة ملازمة للشخصية المسلمة فلا ينبغى أن تتحول هذه السمة إلى شىء آخر كالإمعية أو ذوبان الشخصية بدعوى المرونة حيناً، وبدعوى المحافظة حيناً آخر، بل يجب أن يكون للاعتدال مفهوم واضح محدد الملامح، وله جوانب تفصله عن غيره من مفاهيم التبعية أو الاندماج أو التسامح أو ما شابه ذلك.

فالاعتدال الذى نعنيه يقصد به:

أ- التوسط فى الإنفاق بين التقتير والتبذير.

ب- التوسط فى العبادة بين الغلو والتفريط.

ج- التوسط فى التفكير فيما شجر بين السلف من خلافات، فلا يكفر المسلم مسلماً أفضى إلى ما قدم، وإنما يكون شأنه مع هؤلاء وأولئك:

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا ﴾

(الحشر: ١٠)

د- إنصاف أهل الحق أينما كان موقعهم: أعداء كانوا أو أصدقاء عملاً بقوله تعالى:

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

(الممتحنة: ٨، ٩)

هـ- أن يلازم المسلم قول الحق فى كل حال، شاهداً وبائعاً، ومشترياً، ومعلناً، وسمساراً، فلزوم الحق عليه مدار المعاملات بين المسلم، ولو تعود المسلمون اتخاذ الأيمان ذريعة للتحايل لوقع الناس فى شر عظيم وفتنة كبرى، فما نراه الآن من فساد الذمم، واستحلال أموال الناس بالباطل عن طريق ظلم الإناث فى الميراث، والتعامل بالشيكات والكذب فيها، والغش التجارى فى الإنتاج، وفى الإعلانات.. كل ذلك مرده إلى غيبة مفهوم «الاعتدال» من حياة المسلمين.

و- التيسير فى المهور، حرصاً على إعفاف الشباب المسلم، فالمغالاة فى طلب الشقق وتأثيثها والمهور الغالية تصعب الزواج على الشباب، فينصرف بعضهم إلى الحرام أو يفتن فى دينه، والذكور والإناث فى هذا الأمر سواء بسواء، ولو توسم المسلمون الاعتدال ليسروا أمور الزواج ولشاعت مفاهيم المودة والرحمة والسكن بين الأسر التى تبنى دعائمها على تقدير ظروف الطرف الأضعف.

ز- ومن جوانب الاعتدال أيضاً ألا يغرق القادرون من المسلمين فى ملاذ الحياة ومتعها وينسون الملايين التى لا تجد لقمة العيش إلا بشق الأنفس.

ح- ومما يدخل فى هذا الجانب أيضاً: ألا يترك أبناءهم يحاربون وحدهم أوقات فراغهم، بل يجب على الآباء أن يرشدوا أبناءهم إلى حقيقة أن المسلم لا ينبغى له أن يشكو مما يشكو منه الغرب من مشكلة «وقت الفراغ» فوقت المسلم مما يحاسب عليه أمام ربه فلابد له من العمل الجاد، أو السعى للعمل، أو الاستمتاع الحلال، أو التنفل أو الذكر، أو ما إلى ذلك مما يجعل كل دقيقة فى عمره ذات ثمرة.

ثالثاً: التوبة وتجديدها

من أهم الأبعاد التى تحدد شخصية المسلم وتمنح هذه الشخصية تميزاً ملحوظاً: «التوبة» بوصفها علاجاً إلهياً لمظاهر انحراف السلوك الإنسانى، وإذا كانت الشخصية الإسلامية المعاصرة تعانى من القلق والتوتر والاكتئاب والإحباط، فمرجع ذلك - دون ريب - هو غياب هذا البعد المهم من أبعاد الشخصية، ذلك أن الإنسان بحكم طبيعته خطاء، فإذا لم يدرك حقيقة التوبة، ويجعلها منهج حياة، فإنه سيعانى من وخز الضمير، وتأنيب الذات، ولوم النفس، وبتزايد هذه المشاعر، ينشأ الإحباط، ويستشرى التشاؤم، ويرتفع الإحساس بالإثم والمخالفة.

والمسلم المتفقه فى دينه، المتدبر لكتاب الله، يلحظ أن وراء الآيات المنذرة بالعقاب، تأتى غالباً آيات الاستثناء لمن يتوب، يقول الله تعالى:

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

(النساء: ١٤٥، ١٤٦)

بل إن الله تعالى ادخر للتائبين أجراً عظيماً، وإكراماً كبيراً، وذلك حين وعدهم

بتبديل سيئاتهم حسنات، فقد ذكر سبحانه أنواعاً من الذنوب، وتوعد عليها بمضاعفة العذاب فى نار جهنم والخلود فيه، ثم استثنى التائبين، فقال تعالى:

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

(الفرقان: ٦٨- ٧٠)

ومما يؤسف له أن هناك أنواعاً من «الكتابات» تشيع بين المسلمين فى العصر الحاضر، ذات أهداف نبيلة فى التنفير من الذنوب والدعوة إلى الصلاح، ولكن منهجها فى التضخيم والمبالغة يزرع فى النفوس الشك فى قبول التوبة، ويرفع كل صغيرة إلى كبيرة، مما يوئس المذنبين ويحبطهم، وهذا عكس مقصود الشارع الحكيم، الذى يأمر بالدعوة إلى الله بالحكمة لا الغلظة، وبالتبشير لا التنفير.

وإذا كان تجديد التوبة نوعاً من التطهر المستمر، فإنه - من خلال آلياته المعروفة وأهمها الاستغفار - مجلبة للرضا النفسى، ولسعة الرزق، كما شهدت بذلك آيات القرآن الكريم:

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾

(نوح: ١٠- ١٢)

﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾

(هود: ٣)

والتوبة مأوى حصين يلجأ إليه الإنسان إذا أخطأ فراراً من قسوة وخز الضمير، حتى لا يتحول هذا الوخز إلى طاقة تدميرية تفتك بصاحبها، كما أنه ملجأ يهرع إليه الإنسان من مكر الشيطان الذى يتربص به آناء الليل وأطراف النهار.

والتوبة تكون من الصغائر والكبائر معاً، ولا يجوز لعالم أو كاتب أو خطيب أن يضيف إلى شرع الله ما يوافق هوى نفسه، فيجعل الصغيرة كبيرة أو العكس بغير دليل شرعى صحيح فقد جعل الله تعالى مجرد اجتناب الكبائر سبباً كافياً لتكفير الصغائر، وذلك لما يلزم لاجتناب الكبائر من عظيم المكابدة مع الشيطان والنفس. وقد ذكر الله تعالى فى كتابه المجيد قصص قوم من التائبين كآدم عليه السلام ونوح عليه السلام وغيرهما من الأنبياء، والثلاثة الذين خُلّفوا وغيرهم ليكون فى هذا القصص دافع لمن فترت عزائمهم وخارت إرادتهم حتى يثوبوا إلى رشدهم ويتوبوا إلى ربهم.

ويا ليت الوعاظ والخطباء والمربين والعلماء يتركون التنفير والتشديد والتخويف ويستبدلون بذلك كله أنواعاً من قصص التائبين كما وردت فى القرآن الكريم وما صح منها فى السنة كحديث أبى هريرة المتفق عليه عمن قتل تسعة وتسعين نفساً من بنى إسرائيل ثم أراد أن يتوب، فإن هذا القصص يفعل فعل الدواء الناجع فى النفوس الخائرة والقلوب الحائرة.. يثبتها ويقوى عزمها ويجدد إيمانها ويمنحها الطاقة لاستئناف مسيرتها الإيمانية.

وينعكس أثر هذا البعد فى شخصية المسلم فى سلوكه تجاه أبنائه وأهل بيته وجيرانه وأقاربه وزملائه فيكون رفيقاً بهم صفوحاً عن زلاتهم إذا اعترفوا بها، كاظماً لغيظه، حليماً، لأنه كما يطلب من الله المغفرة لنفسه عليه أن يقبل عذر من يعتذر إليه.

رابعاً: الإيجابية

الصفة الأهم فى تمييز شخصية المسلم عن غيرها هى: الإيجابية، فالمسلم الحق إيجابى بطبعه، لا ينتظر ثواباً ولا عقاباً يحفز سلوكه إلا من خالقه تبارك وتعالى أما غير المسلمين فغالباً ما تكون دوافع سلوكهم نابعة إما من حاجات بيولوجية أو استجابة لتشريعات بشرية يخضعون لها، ومن ثم فإن حركتهم فى الحياة تبدو كأنها «آلية» لا روح منها، ولا إقدام فيها على خير، ولا إحجام فيها عن شر إلا بمقدار ما يكون وراء ذلك من منفعة أو دفع مضرة.

وقد قلد أكثر المسلمين فى عصرنا هذا غيرهم فركنوا إلى الراحة وآثروا سلامة الأبدان والأنفس والأموال وانغمسوا فى الملذات فانمحت شخصياتهم وضاعت قيمة «الإيجابية» من ملامحهم مع الأسف الشديد وهى القيمة التى لولاها لما حقق أسلافهم ما حققوا من رقى وإبداع وإصلاح وفتوح.

و«إيثار السلامة» بوصفه نقيضاً للإيجابية يورث النفس خمولاً وكسلاً وخوراً وجبناً، ومن مظاهره:

١- ترك الجهاد وتخذيل المجاهدين فى سبيل الله.

٢- كنز الأموال.

٣- التمتع بالملذات.

٤- القعود عن نصرة المظلوم وإغاثة الملهوف.

٥- ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

٦- كتمان العلم النافع.

٧- الاعتماد على الدولة.

٨- ترك السعى فى الأرض لطلب الرزق.

ونظرة إلى حادث سيارة يصاب فيه أحد المشاة، فيظل ينزف على مرأى ومسمع من الكثيرين، وما نشر عن حوادث اغتصاب وهتك عرض علنى فى الأماكن العامة... وغير ذلك يدل دلالة صريحة على غياب (الإيجابية) من حياة أكثر الناس، أو غياب (المروءة) و(الشهامة) بوصفهما من جوانب الإيجابية.

«يتبع»

حوار مع جارودى:

أخطاء الأصولية أم أخطاء جارودى؟؟


جارودى

للأستاذ الدكتور/ محمد عمارة
عضو مجمع البحوث الإسلامية

فى كتاب جارودى عن «الأصوليات المعاصرة» عقد بابا لرأيه فى «الجامع المشترك بين الأصوليات الإسلامية».. أى جامع أخطاء هذه الأصوليات ـ من وجهة نظر جارودى ـ وفى هذا الباب نقاط خلاف رئيسية بين فهم جارودى للإسلام ـ وللشريعة الإسلامية على وجه الخصوص ـ وبين فهم جمهور علماء الإسلام، القدماء منهم والمحدثين، للإسلام والشريعة الإسلامية.

فهو يرى أن هناك ثلاثة أخطاء جامعة «بين الأشكال الراهنة للأصولية» الإسلامية.. هى:

١ ـ احترام السنة النبوية، والالتزام بها.

٢ ـ والخلط بين الشريعة، التى جاء بها القرآن الكريم، والتى يراها مجرد «أخلاق»، وبين الفقه والقانون، الذى هو اجتهاد بشرى.

٣ ـ وتجاهل «تاريخية ـ وتاريخانية» الأحكام التشريعية القرآنية، والتى ارتبطت بملابسات وخصوصيات واقعية وتاريخية، جعلت وتجعل الباقى منها والدائم هو «القدوة» وليس «الأحكام».

تلك هى القضايا التى رآها جارودى جامعة لأخطاء الأصولية الإسلامية المعاصرة، وأسبابا لاختلافه معها.. والتى نراها أبرز أخطاء جارودى، وأسبابا لاختلافه مع ثوابت الفكر الإسلامى وجمهور علماء الإسلام.. ولذلك فلابد وأن تكون موضوعاً لحوار موضوعى مع هذا العقل الفلسفى الكبير..

يعرض جارودى القضية الأولى، فيقول: إن الجامع المشترك بين الأشكال الراهنة للأصولية:

احترام السنة: التراث. وهذه الكلمة غالباً ما تستعمل فى القرآن بمعنى ازدرائى: فهى تدل على العادات الجاهلية التى يدعو القرآن للقطع معها.

إن سنة النبى لم توضع لأجل المستقبل.. إذ إن الله يُذكر رسوله أن من الواجب عليه، خارج الوحى الذى يبلغه فى القرآن، أن يقول:

﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾

(الكهف: ١١٠)

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾

(الغاشية: ٢١، ٢٢)

وفى القرآن أمر بطاعة النبى :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

(آل عمران: ٥٠)

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾

(النور: ٥٤)

لا بتقليده، اللهم إلا فى إيمانه وعقيدته..

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

(الأحزاب: ٢١)

ولم يشأ النبى أن تدون أقواله الشخصية.. ولكن عمر بن عبدالعزيز، أرسل فى أواخر القرن الهجرى الأول، رسلا يُعلمون سنة النبى والشريعة، وكان ذلك التعليم قائماً على تصور «للجبرية» التى كانت تبرز الطاعة غير المشروطة للملك، ولو كان فاسداً أو ضالاً، فإذا كان ملكاً، فإن الله هو الذى أراد له ذلك، ومقاومته يمكنها أن تكون معاكسة لمشيئة الله «عليكم أن تصلوا، ولو وراء المخالف»[1].. تلك هى عبارات جارودى.. المليئة بالأخطاء الفكرية، والتى تستوجب الحوار.

فمصطلح «السنة»، فى القرآن الكريم، ليس هو «التراث»، حتى يكون معناها تراث الجاهلية غالبا، وحتى يكون احترامها والتزامها أول الأخطاء.. وإنما «السنة»، فى القرآن الكريم، غالباً ما تعنى القانون الحاكم فى مختلف ميادين الوجود:

﴿ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾

(الأنفال: ٣٨)

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾

(الإسراء: ٧٧)

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

(الأحزاب: ٦٢)

(١) جارودى «الأصوليات المعاصرة» ص٨٢ ـ ٨٤. طبعة باريس ـ العربية ـ سنة ١٩٩٢م.

﴿ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ﴾

(غافر: ٨٥)

فالسنة هى «القانون»، وليست «التراث».. و«التراث»، فى القرآن الكريم، ليس عادات الجاهلية التى يدعو الإسلام إلى القطيعة معها.. وإنما هو مطلق الموروث، وكما يكون عادات وأفكارا، يكون مالا وأرضا وديارا:

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ ﴾

(الأحزاب: ٢٧)

ويكون الوحى الإلهى والكتاب المنزل:

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾

(فاطر: ٣٢)

وسنة النبى، ﷺ، ليست ـ كما يقول جارودى ـ هى «أقواله الشخصية»، وإنما هى بيانه للبلاغ القرآنى.. فالرسول «مبلغ للقرآن»:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾

(المائدة: ٦٧)

وهو أيضاً «مُبين» لهذا البلاغ القرآنى:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(النحل: ٤٤)

فالسنة النبوية، عندما تكون «بياناً» للبلاغ القرآنى، تصبح «ديناً»، ولا يقال عنها إنها «آراء شخصية» للرسول، عليه الصلاة والسلام.

ولو أن جارودى اطلع على هذا المبحث من مباحث «الأصول» الإسلامية، لعلم أن «للأصوليين» ـ طبعاً بالمعنى الإسلامى لا الغربى!! ـ علماً إسلامياً يزيل اللبس بين السنة التشريعية، التى هى دين، وبين سنة العادة، التى لا تدخل فى إطار الدين.. فالعلم النبوى منه ما هو «تبليغ» ومنه ما هو «إفتاء»، أى بيان للبلاغ الإلهى. وهذا «الإفتاء» النبوى هو السنة النبوية المعدودة جزءاً لا يتجزأ من «الدين».. أما تصرفاته الشخصية، بحكم البشرية المحضة، والعادات والتقاليد والأعراف، فهى ليست ديناً ملزماً، وإن كان فيها الكثير والكثير مما هو الأطيب والأجمل والأولى بالتأسى به، عليه الصلاة والسلام.. بل إن علماء الأصول لا يعدون تصرفات الرسول «القاضى» فى المنازعات بين الناس، و«الإمام» أى رئيس الدولة وسائس المجتمع، من السنة التشريعية، التى هى دين، وإنما يصنفونها فى باب «الاجتهاد»، المتميز عن «البلاغ القرآنى» و«البيان النبوى لهذا البلاغ»[٢].

فتعميم جارودى الحكم على السنة النبوية بأنها «آراء الرسول الشخصية» خطأ.. وانطلاقه من هذا الخطأ إلى الحكم بخطأ الذين يحترمون السنة النبوية ـ واعتباره سمة من سمات الأصولية الجمودية المرذولة ـ خطأ مركب، أدى إليه غيبة هذا المبحث من مباحث

(٢) انظر: شهاب الدين القرافى (الإحكام فى تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضى والإمام) ص٨٦ ـ ٩٦. طبعة حلب سنة ١٩٦٧م. وكذلك: ولى الله الدهلوى (حجة الله البالغة) جـ١ ص١٢٨، ١٢٩ طبعة القاهرة سنة ١٣٥٢هـ.

الأصول الإسلامية عن فيلسوف كبير، كان عليه أن يسأل أهل الذكر والاختصاص فى هذه العلوم!

وليس صحيحاً كذلك ما قاله جارودى عن دور عمر بن عبدالعزيز (٦١ ـ ١٠١هـ ٦٨١ ـ ٧٢٠م)، رضى الله عنه، فى قضية السنة النبوية.. فعمر اهتم بتدوين السنة وجمعها، ولم يكن البادئ بذلك ـ وتلك قضية أشهر من أن تفصل القول فيها.. يعلمها الجمهور، فضلاً عن العلماء.. وأغرب من خطأ جارودى فى هذا الأمر، قوله إن عمر بن عبدالعزيز. هو الذى بدأ فأرسل رسلاً «يعلمون الشريعة»!!.. ويبدو أن ما ساقه جارودى، فى هذا الموضوع، هو سلسلة من الأخطاء الفكرية، فهو، علاوة على ذلك، يتهم عمر بن عبدالعزيز «بالجبرية»!!.. ولو علم أن «المعتزلة» ـ فرسان الحرية والاختيار ـ يعدون هذا الخليفة العادل من أعلامهم، ويذكرونه فى الطبقة العاشرة من طبقات رجالهم[٣]، لما قال هذا الذى قال!

ثم، إن عمر بن عبدالعزيز لم يكن ـ كما ادعى جارودى ـ مع الطاعة غير المشروطة «للملك»، فهو الذى رد إلى الأمة حقها فى اختيار الخليفة، وأدان تحول الخلافة إلى نظام وراثى، وقال عن الذين تولوها من بنى أمية ـ وهم أهله ـ: «هؤلاء جبابرة، وأنا لا أحب مثلهم»[٤]، وأحدث، فى الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، ثورة رد بها المظالم إلى أهلها.. حتى لقد دفع حياته ثمنا للحرية والعدل اللذين رفع لهما أعلا المنارات[٥]!

ولم يكن عمر بن عبدالعزيز ـ كما قال جارودى، أيضاً ـ يعتبر مقاومة الحاكم معاكسة لمشيئة الله.. فهو الذى حاور الخوارج، الذين كانوا يحملون السلاح ضد الدولة، واستدعاهم إلى العاصمة، وهم بسلاحهم! وأقام معهم سلاماً، وقال عن هؤلاء الثوار: «إن الذين خرجوا «ثاروا» غضباً لله ولنبيه، ﷺ، ليسوا أولى بذلك منى. فلنتناظر، فإن كان الحق بأيدينا دخلوا فيما دخل فيه الناس، وإلا نظرنا فى أمرنا.. فإنى لن أكون ظهيرا للمجرمين..»[٦]!!

ويبدو أن جارودى قد فهم خطأ معنى العبارة التى أوردها: «عليكم أن تصلوا، ولو وراء المخالف»، فلا علاقة لمعناها بالطاعة الجبرية للملك.. وإنما هى التعبير عن رفض الإسلام تكفير المخالفين، ودعوته للصلاة خلف من نختلف معهم فى السياسة أو المذهب، حتى ولو وصل الخلاف بيننا وبينهم إلى حدة القتال! وعلى بن أبى طالب، هو الذى أجاب من سأله عن جواز الصلاة خلف الخوارج ـ وكانوا يكفرونه ويقاتلونه ـ فقال: نعم، صلوا خلفهم

(٣) انظر: أبو القاسم البلخى، والقاضى عبدالجبار بن أحمد، والحاكم الجشمى (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص٣٣٥. طبعة تونس سنة ١٩٧٢م.

(٤) ابن سعد (الطبقات الكبرى) جـ٦ ص٥٥٦، ٥٥٧. طبعة دار التحرير ـ القاهرة.

(٥) د. محمد عمارة (عمر بن عبدالعزيز: ضمير الأمة) طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨م.

(٦) الطبرى (التاريخ) جـ٦ ص٥٥٥، ٥٥٦. طبعة دار المعارف. القاهرة.

«فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه»[٧]!.. وهو القائل عن معاوية ابن أبى سفيان ومن معه ـ وكانوا قد بغوا عليه وقاتلوه ـ عندما سئل عن رأيه فيهم: «لقد التقينا ـ فى القتال.. بصفين.. وربنا واحد، ونبينا واحد، ودعوتنا فى الإسلام واحدة، ولا نستزيدهم فى الإيمان بالله والتصديق برسوله ولا يستزيدوننا، وإنهم لإخواننا فى الدين، قبلتنا واحدة.. وإنما الخلاف بيننا وبينهم فى دم عثمان»[٨].

فهو تسامح الإسلام، ورفضه أن يكون لبشر سلطان الحكم على عقائد الناس وضمائرهم.. وليس هذا الكم الهائل من الأخطاء التى وقع فيها جارودى، عندما جعل احترام سنة رسول الله، ﷺ، أول الأخطاء الجامعة «للأصوليات» الإسلامية!

أما الخطأ الثانى، الذى رأى جارودى، اجتماع «الأصوليات» الإسلامية عليه، فهو:

الخلط بين الشريعة وبين الفقه والقانون: فالشريعة الإلهية، التى جاء بها القرآن الكريم، هى ـ برأى جارودى ـ محض أخلاق، ولا علاقة لها بالفقه والقانون، اللذين هما «وضع بشرى».. وهو يعرض رأيه هذا فيقول: «إن الأصولية ترتكز دائماً على الخلط.. بين الشريعة، قانون الله الأخلاقى، وبين الفقه، تشريع الأحكام، الخلط الدائم بين الكلام الإلهى والكلام البشرى».

يقول القرآن عن النبى صلى الله عليه وسلم

﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾

(الأعراف: ١٥٧)

فالنبى يمارس الأمر بالمعروف، ولا يتصرف كفقيه.. إنه يعلم أخلاقية أساسية، «القانون الإلهى» الحق، الشريعة الحق.

والله حين يذكر بالرسالات السابقة، رسالة موسى والتوراة، ورسالة عيسى والإنجيل، التى تحتوى كلها:

﴿ هُدًى وَنُورٌ ﴾

(المائدة: ٤٤)

يقول أيضاً:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾

(الشورى: ١٣)

يعبر هذا النص عن كون الشريعة «الطريق» هى تلك التى تقود الإنسان إلى الله، وهذه لا يمكنها أن تكون حكماً قانونياً، لأن التشريعات تتباين فى التوراة والأناجيل

(٧) (نهج البلاغة) ص٧٤. طبعة دار الشعب. القاهرة.

(٨) ابن أبى الحديد (شرح نهج البلاغة) جـ١٧ ص١٤٦. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩م. والباقلانى (التمهيد) ص٢٣٧، ٢٣٨. طبعة القاهرة سنة ١٩٤٧م.

والقرآن، بينما يشدد الله على تواصل رسالته: ينصح الله بالرجوع إلى أولئك الذين تلقوا الرسالة قبل القرآن، وبالتالى يوصى بالعودة إلى التوراة والأناجيل:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(النحل: ٤٣)

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾

(المائدة: ٤٨)

والشرعة والمنهاج متمايزان تماماً.. فـ«الشرعة»، أخلاقية شاملة، و«المنهاج» تاريخى: إن «الغاية» أبدية، و«الوسائل» لبلوغها تاريخية.. إن الشريعة أو الطريق / الشرعة، تدل، إذن، على توجه أخلاقى شامل وليس على عدد معين من الوصايا الفقهية المرتبطة بأوضاع تاريخية لا تنى تتبدل.. إن فعل شرع هو جذر مصطلحى شريعة وشرعة فى كل صيغهما وألوانهما: التوجه نحو مورد ماء، فالطريق هو الذى يوصل إلى مورد ماء، إلى مصدر، وهو مجازاً الطريق الموصل إلى الله، إلى الفضائل والخصال التى ترضى الله. وهذا مختلف تماماً عن وصايا وتعاليم فقهية يضعها البشر، انطلاقاً من هذه المبادئ.

إن التوجه الخلقى والدينى، «الطريق» إلى الله، الشريعة الحق، هو الهدف الأساسى للقرآن: فمن أصل ما يزيد عن ٦٠٠٠ آية قرآنية هناك ٨٠ آية فقط حول الأحكام الحقوقية.. إن القرآن دعوة دينية وأخلاقية وليس قانوناً فقهياً.. ولئن كان كتاباً حقوقياً، فلأنه يشرع لمجمل الحياة الاجتماعية، بدءاً من البنية التكوينية للجماعة وصولاً إلى تنظيمها الاقتصادى.. إنه يقدم الأسس الأخلاقية لوضع تشريع، فى كل عصر، يلبى حاجات المجتمع، لكنه لا يقترح قانوناً.. إن الآيات المعتبرة «تشريعية» لا تتناول إلا قطاعات محددة تماماً: كالزواج والميراث، ولا تدور إلا حول العقوبات المتعلقة بالذنوب الخمسة «الحدود».. وبالتالى لا يتعلق الأمر بمدونة فى القانون المدنى أو فى القانون الجزائى..»[٩].

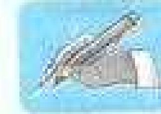
تلك هى نصوص جارودى، التى تبنى فيها آراء الذين أرادوا «علمنة الإسلام»، والتسوية بينه وبين النصرانية فى هذا الجانب، وذلك بقصر شريعته القرآنية على الأخلاق، كما اقتصرت شريعة الإنجيل على المحبة، تاركة ما لقيصر لقيصر!!

ليتحرر القانون البشرى من الشريعة الإلهية، اللهم إلا عندما يطلب منه مراعاة الأخلاق! وهى الدعوى التى انطلقت ـ بعد «الفصل» بين ما هو أخلاقى وما هو قانونى ـ إلى محاولة اختزال الجانب القانونى ـ تشريع الأحكام ـ فى القرآن الكريم ـ مع إهدار ما جاء فى السنة النبوية من فقه وأحكام قانونية، بدعوى أن هذه السنة: تراث، وأنها هى «الأقوال الشخصية للرسول»، ﷺ، كما سبق وقال جارودى.

(٩) (الأصوليات المعاصرة) ص٨١ ـ ٨٨.

خطبة الجمعة

من توجيهات القرآن الكريم



للأستاذ الدكتور/ محمد سيد طنطاوى
رحمه الله

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، نشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين، ونشهد أن سيدنا وشفيعنا محمدا عبده ورسوله، الذى كانت رسالته تتميما لمكارم الأخلاق، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه، الذين اتبعوا سنته، وساروا على هدى أخلاقه، فكانوا من المفلحين.

عباد الله.. أوصيكم ونفسي بتقوى الله، فإن تقوى الله خير وسيلة نتقدم بها إلى خالقنا، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله.

يا أتباع النبى عليه الصلاة والسلام..

من مظاهر إعجاز القرآن الكريم أنك تقرؤه على الراسخين فى العلم، فتراهم يتأثرون به، ويزدادون إيمانا على إيمانهم، ويقينا على يقينهم بأن هذا القرآن من عند الله.

وتقرؤه على الأميين فتراهم يتأثرون به - أيضا -، وقد يحملهم هذا التأثر على الاستزادة من القول الطيب، ومن العمل الصالح، ومن طلب المزيد من العلم النافع..

وقد يستمع الإنسان منا مرات ومرات إلى آية قرآنية واحدة، فيجد فيها من الهداية ومن التوجيه ومن مظاهر الإعجاز، ما لا يجده فى إحدى المرات السابقة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

ومن الآيات القرآنية التى جمعت مكارم الأخلاق ونهت عن رذائلها، والتى يسمعها الناس كثيرا من الدعاة خلال خطبة الجمعة، من هذه الآيات قوله - تعالى -:

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾

(النحل: ٩٠)

لقد اشتملت هذه الآية الكريمة على جماع مكارم الأخلاق التى ما انتشرت فى أمة إلا وارتفعت رايتها، وعزت كلمتها، وسادها الأمان والسلام والرخاء والاطمئنان.

لقد اشتملت على ثلاث فضائل هن من أمهات مكارم الأخلاق، وقابلت ذلك بالنهى عن ثلاث رذائل، ما انتشرت فى أمة إلا وكان أمرها فرطا.

أما الفضيلة الأولى فهى الأمر بالعدل، والعدل معناه: أن يلتزم الإنسان جانب الحق فى كل أقواله وأفعاله، وفى كل ألوان سلوكه ومعاملاته.

وقد أمرنا القرآن الكريم بالعدل فى الأقوال فقال:

﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾

(الأنعام: ١٥٢)

وأمرنا بالعدل فى الأحكام فقال:

﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾

(النساء: ٥٨)

وأمرنا بالعدل فى الشهادة فقال:

﴿ وأقيموا الشهادة لله ﴾

(الطلاق: ٢)

وأمرنا بالعدل عند الإصلاح بين الناس فقال:

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾

(الحجرات: ٩)

وأمرنا بالعدل مع الغنى ومع الفقير، ومع العدو ومع الصديق فقال:

﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾

(المائدة: ٨)

وذلك لأن العدل يحيي الأمم، ويزيدها قوة على قوتها، وأمانا على أمانها، ورخاء على رخائها، وقد قالوا فى الحكم: لا ملك إلا بالرجال، ولا رجال إلا

بالتعمير، ولا تعمير إلا بالعدل، فالعدل أساس الملك.

وأما الفضيلة الثانية التي أمر بها القرآن الكريم في هذه الآية فهي الإحسان، ولفظ الإحسان يشمل إحسان الشيء في ذاته سواء أكان هذا الشئ يتعلق بالعقائد أم بالعبادات أم بغيرهما، كما يشمل إحسان الإنسان إلى أخيه الإنسان.

فالإحسان أوسع مدلولا من العدل؛ لأنه إذا كان العدل معناه: أن تعطى كل ذى حق حقه، دون إفراط أو تفريط، فإن الإحسان يندرج تحته أن تضيف إلى ذلك: العفو عمن أساء إليك، والصلة لمن قطعك، والعطاء لمن حرمك.

ولقد سئل النبى ﷺ عن الإحسان فقال:

«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

وأما الفضيلة الثالثة فهي قوله - تعالى:

﴿ وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾

ومع أن هذه الفضيلة مندرجة فى فضيلتى العدل والإحسان، إلا أن الله - تعالى - أفردها بالذكر اهتماما بشأنها، وتعظيما لقدرها.

أى: أن الله - تعالى - يأمركم - أيها المسلمون - أمرا دائما وواجبا، أن تلتزموا الحق والإنصاف فى كل أقوالكم وأعمالكم وأحكامكم، وأن تلتزموا التسامح والعفو فى كل أحوالكم، كما يأمركم أن تقدموا لأقاربكم على سبيل المعاونة والمساعدة، ما تستطيعون تقديمه لهم من خير وبر، لأن هذه الفضائل متى سرت بينكم، ظفرتم بالسعادة فى دينكم ودنياكم، إذ بالعدل يأخذ كل صاحب حق حقه، وبالإحسان يكون التراحم، وبصلة الأرحام يكون التكافل والتعاون.

ولقد وردت آيات متعددة، وأحاديث كثيرة فى وجوب صلة ذوى الأرحام، وفى النهى عن مقاطعتهم، منها ما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ - قال: إن الله - تعالى - خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: «هذا مقام العائذ بك - أى: المستجير بك - من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأن أقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذلك لك».

ثم قال ﷺ اقرءوا إن شئتم:

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾

(محمد: ٢٢ - ٢٣)

(١) صحيح البخاري، ك الإيمان.

وبعد أن أمر - سبحانه - بأمهات الفضائل، أتبعها بالنهى عن رءوس الرذائل فقال:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

والفحشاء كل ما اشتد قبحه من قول أو فعل. والمنكر: كل ما أنكره الشرع بالنهى عنه، فيعم جميع المعاصى والرذائل والدناءات على اختلاف أنواعها. والبغى: هو تجاوز الحد فى كل شىء.

أى: وكما أمركم - سبحانه - بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى، فإنه - عز وجل - نهاكم عن كل قبيح وعن كل منكر، وعن كل تجاوز لما شرعه الله - تعالى -، وذلك لأن هذه الرذائل ما شاعت فى أمة إلا وكانت عاقبتها خسرا، لأنها تتنافى مع العقول السليمة، ومع الطباع القويمة، ومهما روج الذين لم ينبتوا نباتا حسنا لتلك الرذائل، فإن النفوس الطاهرة، تلفظها بعيدا عنه، كما يلفظ الجسم الأشياء الغريبة التى تصل إليه.

يا أتباع النبى عليه الصلاة والسلام..

أتدرون ماذا قال بعض الحكماء العقلاء عندما استمعوا إلى هذه الآية الكريمة؟ لقد قالوا كلاما يدل على أن الفطرة الإنسانية تحب الخير وتنفر من الشر، تحب الفضائل وتنأى عن الرذائل.

لقد ذكر بعض المفسرين أن «أكثم بن صيفى» - أحد حكماء العرب - عندما بلغه مبعث رسول الله ﷺ أراد أن يأتى إليه ليسمع منه، فقال له قومه: هو يأتى إليك فأنت كبيرنا وما كان لك أن تسير إليه؟ فقال لهم: فليأت إليه من يبلغه عنى ويبلغنى عنه. ثم اختار رجالا من قومه وقال لهم: اذهبوا إلى محمد ﷺ وقولوا له نحن رسل «أكثم بن صيفى» وهو يسألك: من أنت وما أنت؟ فلما وصلوا إلى النبى ﷺ وسألوه ذلك قال لهم: «أما أنا فمحمد بن عبدالله، وأما ما أنا فأنا عبدالله ورسوله» ثم تلا عليهم هذه الآية:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(النحل: ٩٠)

فقالوا له: ردد علينا هذا القول حتى نحفظه، فردده عليهم. فلما عادوا إلى «أكثم بن صيفى» وقصوا عليه ما دار بينهم وبين الرسول ﷺ قال لهم: «إنى أرى محمدا يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها، فكونوا فى هذا الأمر رءوسا، ولا تكونوا فيه أذنابا».

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم.

❊❊❊

١ حول قصة يوسف

الأحداث.. العقدة والحل

للشيخ صديق بكر عيطة

قصة يوسف ـ عليه السلام ـ من أبرز القصص القرآنى، بل ربما كانت أبرزها جميعا، لما بها من عنصر الإثارة والتشويق، الذى يلازمها منذ أن ينفتح الستار عن المشهد الأول فيها؛ مما يدفع القارئ والسامع إلى تتبع أحداثها منذ أول حلقة، وحتى المشهد الأخير.. صحيح أن القرآن الكريم لم يشر صراحة أو ضمنا إلى المدة التى استغرقتها الأحداث منذ ولادة هذا النبى الكريم يوسف ـ عليه السلام ـ أو حتى منذ صباه ورؤياه الشهيرة، إلى أن انتهت هذه الأحداث، لأن ذلك لم يدخل ضمن أهداف القصة، سواء أكانت أهدافا عقدية أو أهدافا سلوكية أو أهدافا اجتماعية.. لم يشر القرآن الكريم إلى ذلك، وإن كان القارئ والسامع يشعران بأن هذه الأحداث، وما بها من تقلبات وما تتضمنه من تطورات بعيدة المدى، توحى بطول المدة التى استغرقتها؛ وهو ما يدفعنا إلى أن نأخذ بعين الاعتبار ما أورده المقريزى فى خططه من أن مدة حكم يوسف ـ عليه السلام ـ لمصر بلغت مائة سنة، حيث مات وهو ابن ثلاثين ومائة سنة(١).

والذى يتأمل أحداث قصة يوسف من أولها إلى آخرها ـ من خلال السورة المباركة وعلى طريقة العرض القرآنى ـ ليأخذه العجب وتستبد به الدهشة منذ أن بدأ هذا الصبى يقصّ على أبيه يعقوب ـ عليه السلام ـ تلك الرؤيا العجيبة، التى رآها؛ حيث يشعر القارئ أن من ورائها ما يدفع إلى المتابعة والتعرف عليه مما يتصل بتأويل هذه الرؤيا، وكيف يتم ذلك، بمعنى: كيف تنزل هذه الأجرام السماوية من عليائها لتسجد لهذا الصبى؟ أهى هى؟ أم أن شيئاً آخر يرمز إليه بهذه الأجرام؟ نقول ذلك وندع جانبا ولو إلى حين، أن القارئ مسلم، قد عرف منذ بواكير حياته الثقافية والعلمية، أو حتى من المحيطين به مضمون هذه الرؤيا وما انتهى إليه تأويلها، وإن كان ذلك لم يحل مطلقاً من الدهشة والتعجب اللذين هما من أخص خصائص ما تثيره هذه الأحداث من مشاعر، وعلى جميع الأحوال.

بل إن المتتبع والدارس لهذه الأحداث من خلال النص القرآنى، وما يتميز به من روعة الأداء، وجمال النسق فى تكوين العبارة، ودقة التصوير، وما به من إيحاءات بعيدة الأثر، لتزداد دهشته يوما بعد يوم، فكلما تُليتْ السورة المباركة، وكلما تتابعت النظرة بعد النظرة، وكلما امتد التأمل مرة بعد أخرى، ازداد المؤمن إعجابا وتعجبا، لما تحمله الأحداث من مفاجآت عميقة، تجعل المرء فى نهاية المطاف يزداد إيماناً على إيمانه بأن حكمة الله بالغة، وأن مشيئته لابد نافذة، مهما تكاثرت العراقيل، ومهما تعاقبت الموانع..!!

حيث يرى أن هذه الأحداث تنحصر شكلاً ومضموناً بين قوسين:

● الأول: هو الرؤيا بما تتضمنه من البشارة العظمى، التى هى وعد من الله ـ عز وجل ـ بما ستؤول إليه حياة يوسف.

● والثانى: هو سجود أبويه وإخوته له وهو على عرش مصر، وقد تحققت هذه الرؤيا بكل ما تحمله من إجلال وتعظيم لشأن يوسف ـ عليه السلام ـ وبين هاتين الواقعتين توالت أحداث وأحداث، ما كان لها أو لبعضها ـ مهما شطت الأحلام، وترامت أطراف الخيال ـ أن تصل إلى هذه النتيجة لو أن القضية قضية عادية، ليس فيها وعد من الله من خلال هذه الرؤيا العجيبة، أو لو أن الأحداث عبارة عن بطولة فردية، وتحد للعقبات.. كل ما يمكن أن يصل إليه الأبطال التاريخيون فى هذا الصدد، بعد أن تعرضوا للقتل، أو النفى أو الإلقاء فى الجب بين الحيات والثعابين، كل ما يمكن أن يصلوا إليه ألا يموتوا، وأن تمتد أعمارهم، أو حتى على أبعد تقدير، أن يحققوا مكاسب دنيوية بعيدة الشوط فضلاً عن انتصارهم على الموت، أما أن يكونوا فوق هذا وذاك موضع اختيار الله عز وجل لهداية البشر، واعتلاء أعلى المراكز على عرش إحدى الممالك، وأن يسجد له حاسدوه؛ اعترافاً بالفضل والسبق، وقد ملك رقابهم وأرزاقهم، فهذا ما لا يدخل فى حساب بشر، إلا أن يكون ذلك بتدبير السماء، وإرادة الله التى لا يغلبها غالب.

إن المتتبع لأية قصة فنية ناجحة، ليحللها تحليلاً فنياً، ليرى أنها ترجع إلى العناصر المعنوية التالية:

١ ـ عمق الفكر وغوْر المعنى.

٢ ـ وضع العراقيل، التى من شأنها أن تحول دون تحقيق البطل لأهدافه.

٣ ـ مراحل الوصول إلى النتيجة المرجوة من الصراع.

(١) اقرأ كتاب «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» المعروف بالخطط المقريزية تأليف تقى الدين أبى العباس أحمد بن على المقريزى، ٢٤٥/١ وما بعدها. ط. الهيئة العامة لقصور الثقافة.

٤ ـ تتابع السرد، وتجدد الصراع(٢).

وقصة يوسف ـ عليه السلام ـ كانت من أروع الأمثلة، التى تحققت فيها هذه العناصر؛ مما يجعل القارئ يجتمع لديه المتعة الفنية والأدبية، مع المتعة الأخلاقية والسكينة القلبية اللتين تُلازمان رؤية الحق حينما تعلو رايته، والباطل عندما تُنكس رايته وتنحنى رأسه:

● وإلا، فأين الفكرة العميقة، وأين المعنى البعيد، إذا لم تكن فكرة هذه القصة ومعناها اللذان قامت عليهما الأحداث من بدئها لختامها هما أعمق الفكر، وأبعد المعانى.. والقارئ يرى من المشهد الأول أن خيوط الأحداث محكومة بيد السماء؛ حيث يرى الرؤيا التى هى جزء من النبوة، هى هى بعينها البذرة الأولى للأحداث، وقد أخذت طريقها إلى التأويل منذ أن أعلنت الآية التالية:

﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(يوسف: ٧، ٨)

فالفكرة هى الوعد من الله بتحقيق النبوة ليوسف ـ ووعد الله لا يتخلف ـ لنفاجأ بعد ذلك مباشرة بالمؤامرات التى بدأت أولى خيوطها تنسج من حول هذا النبى المنتظر للقضاء عليه والخلاص منه بدعوى أن أباهم يُفضله هو وأخاه عليهم مع أنهم عصبة وينتظر منهم ـ فى رأيهم ـ من الخير ما لا ينتظر من هذا الصبى الصغير.

● أما من جهة العراقيل التى توضع فى طريق البطل لتحول بينه وبين تحقيق أهدافه أو تحد من اندفاعه نحو تحقيقها، فهى فى هذه القصة كثيرة ومتواصلة: «فبين البداية والنهاية يتمثل جسم القصة، وفيه يبدو موقف التردد بين الخوف والرجاء. فالبطل لا يكاد يخرج من موقف عسير بسلام حتى تدهمه الأحداث بما هو أشد خطباً، فإذا هو يهجم عليه فيسحقه ثم تواجهه النوائب، وهكذا تمضى عقد القصة فى التسلسل واحدة بعد أخرى مشكّلة نسيجاً متلاحماً، وهى فى اتجاهها نحو هذا المنحنى تشيع فى نفسه نوراً يزداد لحظة بعد أخرى حتى تتوهج نفس القارئ بما يرشفه من فيض قصته»(٣).

لقد بلغت العراقيل فى قصة يوسف أقصى درجات الشدة والعنف، وإلا فهل هناك أقسى وأشد من الإلقاء فى الجب للخلاص من البطل الذى يوشك أن يتحقق له المستقبل العظيم، الذى يسود فيه إخوته؟ هل هناك أعنف وأشد من أن يتحول هذا البطل الذى تعد الرؤيا بأنه سيكون أحد أنبياء الله المختارين إلى عبد رقيق يُباع ويُشترى فى سوق النخاسة بثمن بخس دراهم معدودة؟! هل هناك أبعد فى باب الموانع والعراقيل من السجن الذى يُزج به فيه ليقاسى مرارة القيد ووحشة الظلمة؟!

(٢) اقرأ كتاب «القصة فى الأدب العربى حتى العصر الحديث» للدكتورة فردوس نور على حسين ص ٢٠.

(٣) القصة فى الأدب العربى حتى العصر الحديث: د. فردوس نور على حسين: ص ٢١، ٢٢.

إن قصة يوسف مفعمة بالعراقيل التى تحول دون تحقيق البطل لأهدافه، وكلها عراقيل من النوع القاتل أو المذل، الذى يقتل فى الإنسان روح الطموح والتطلع إلى العلياء. لكن يوسف عليه السلام كان يتغلب عليها واحدة تلو الأخرى بالحلم والأناة وقوة الإيمان بالله تعالى، والتمسك بالفضيلة مهما كانت التكاليف. يضاف إلى ذلك، أو ـ بعبارة أكثر دقة وأمانة ـ يسبق كل هذا ويدفع به إلى شرايين الأحداث، مشيئة الله تعالى، التى اختارت، والتى وجهت، والتى رتبت من المقدمات ونتائجها فى تسلسل عجيب ومنطقية واضحة، ما كان سبباً فى التغلب على هذه العقبات واحدة بعد الأخرى؛ حتى تحققت الرؤيا، وأصبح تأويلها واقعاً محققا يفصح عنه يوسف بلسانه قائلا:

﴿ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

(يوسف: ١٠٠)

● وأما مراحل الوصول إلى النتيجة المرجوة، التى يسعى البطل إلى تحقيقها، وهى ـ بالنسبة لقصة يوسف ـ تمثل الرؤيا، لتصبح واقعاً معيشاً، فهى متعددة:

أولاً: الإقلاع عن اقتراح القتل، وذلك عندما قال قائل منهم:

﴿ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ ﴾

(يوسف: ١٠)

فمجرد رفض هذا الاقتراح، يُعد خطوة أولى فى سبيل تحقيق الهدف؛ لأن استبقاء الحياة يحتمل معه أى شىء آخر، أما لو أن هذا الاقتراح قبل، وتم تنفيذه لانتهت الأحداث قبل أن تبدأ.

ثانياً: التقاط السيارة له ثم بيعه لرجل من مصر، يتبين بعد ذلك أنه كبير وزرائها، وهو ما اقترب به خطوة أخرى ناحية اعتلاء سدة الحكم فى مصر.

ثالثاً: وقوع امرأة العزيز فريسة لحبه الذى شغفها وملك عليها قلبها ليكون من نتيجته أن دخل يوسف السجن دون ذنب أو جريرة، ليكون قريباً من ميزان العدالة حينما يعاد النظر فى قضيته.

رابعاً: خروجه من السجن واعتلاء عرش مصر نائباً عن الملك فى رعاية مصالح البلاد، ليصبح هو الحاكم الفعلى للرعية، حيث توارت خلفه شخصية الملك تماماً، ويصبح يوسف هو الحاكم الفعلى للبلاد.

خامساً : وصول إخوته إليه ووقوفهم بين يديه طالبين القوت، وهم لا يعرفون حقيقته، مع أنه قد عرفهم، ثم تطور الأحداث إلى أن اجتمع شمل الأسرة ـ أسرة يعقوب ـ لتتحقق الرؤيا.

هذه هي مراحل تطور الأحداث، التي أدت إلى وصول يوسف إلى أن تتحقق له النبوة واعتلاء سدة الحكم، ليجمع بذلك بين خيرى الدنيا والآخرة، وليسجد له أبواه وإخوته، لكن ما نود أن نؤكد عليه هنا ولا ننساه مطلقاً، أن هذه التطورات والمراحل، ما كان ليوسف ـ عليه السلام ـ ولا لغيره أن يرتب لها أو لبعضها.. وإنما هي مشيئة الله عز وجل، التى لا يقف فى طريقها أحد كائناً من كان.. ولا يغير من مسارها قيد شعرة، قوة أخرى مهما بلغت من سعة الحيلة وسلامة التدبير:

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(يوسف: ٢١)

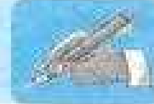
● والآن مع تتابع السرد، وتجدد الأحداث، حيث كانت الأحداث منطقية يفضي بعضها إلى بعض، دون وقوع حدث واحد، لم تكن له مقدمته التى أفضت إليه، هذا من جانب، ومن جانب آخر، لم تكن الأحداث لتقف لحظة واحدة دون تطور وتجدد؛ وهو ما كان سبباً قوياً ومباشراً للإثارة والدهشة.. ومما يزيد من عنصر الإثارة والدهشة، أنها أحداث حقيقية كلها، قصها القرآن الكريم بأسلوبه المعجز، ليظل يتلى على البشر بهذه الصورة من الروعة البيانية، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

إننا حينما نؤكد على أن قصة يوسف ـ عليه السلام ـ اجتمعت لها العناصر المعنوية للقصة الناجحة، التى تعارف عليها الناس فى العصر الحديث، لا تعنى مطلقاً أن هذه العناصر فرضت عليها من خارج العمل لتساير جنساً أدبياً بعينه فى عصرنا أو غير عصرنا، وإنما هو عرض لحقائق تاريخية ثابتة وموغلة فى القدم، وبمصداقية تامة فى طريقة هذا العرض، لتؤدى القصة دورها فى تثبيت العقيدة الصحيحة فى وجدان القارئ المسلم، وفى بيان ما يلقاه رسل الله وأنبياؤه فى سبيل الدعوة إلى الله عز وجل، أو فى التأكيد على أن مشيئة الله غالبة لا يعجزها شيء.

«يتبع»

***

التربية وإصلاح الأمة في مقالات الإمام محمد عبده



الأستاذ الدكتور/ عبدالحليم عويس



يقول الإمام: أليس من البين أنه لا دين إلا بدولة، ولا دولة إلا بصولة، ولا صولة إلا بقوة، ولا قوة إلا بثروة، وليس للدولة تجارة وصناعة، وإنما ثروتها بثروة أهاليها، ولا تمكن ثروة الأهالى إلا بنشر العلوم فيما بينهم حتى يتبينوا طرق الاكتساب، فإن ذلك أمر قد خفى على ذوى الألباب فضلاً عن غيرهم؛ كيف لا.. وقد ولت أزمنة كان التحارب فيها بالأخشاب والنبال، والسهام وخزف الجبال.. وحضرنا زمانا نضطر فيه إلى المراكب المدرعة، ومدافع "المتراليوز" و"الكروب" وبنادق الإبرة، وغير ذلك من الأسلحة التى تجددت وستجدد فيما بعد..

٢

وكيف نتمكن من حفظ ملتنا ودولتنا وديننا من شر هذه النيران بدون أن يكون عندنا ما يماثلها، إن لم نقل ما يزيد عنها.. ولعمر الله قد كان ذلك خير الأعمال وأحبها عند الله؛ لأن إعلاء كلمة الحق وحفظ بيضة الإسلام مقدم على جميع الشعائر؛ فإنه بعد زوال الرأس لا يبقى لسائر البدن إلا الرمس، كما هو بين عندهم، وغير خاف عليهم.. نعم؛ إننا نحتاج زيادة على هذه المدارس إلى مدرسة عمومية تتكفل ببيان أن العلم نافع، والجهل ضار، وإفصاح الفرق بين غسق الليل ورائعة النهار؛ بل هي ألزم من جميع اللوازم؛ فإنه ما لم تتوفر الرغبة في شيء لا يتحقق الإقدام عليه؛ بل يكون مبتذلاً عند النفوس، مرموقاً بعين البؤس، تشمئز منه الطباع، وتنفر منه الأسماع.

إننا نرى فى هذه المقالة صورة من صور تألق الإمام محمد عبده الأدبية الفكرية، فقد تدرجت المقالة كأنها قصة، إلا أنها تقريرية مباشرة جامعة بين مجموعة العناصر المكونة لمقالة فيها أدب وتربية وفكر ممتزج بالواقع، وفيها تشويق قصصي، وبيان لمنهج الإصلاح المتكامل بين الحاكم والمحكوم؛ بطريقة ذكية، ومحاولة لكسر الحواجز بين الشعب بنخبته المفكرة من جانب والحاكم الذى يصوره الإمام متجاوباً حريصاً على رقى أمته من جانب آخر، حتى إن لم يكن هذا الحاكم أهلاً لذلك، لكن الإمام يسعى إلى دفعه إلى الاهتمام بهذا

الجانب بطريقة حكيمة..!!

والأسلوب الذكى يستعمله نفسه مع علماء الأزهر الجامدين الذين يسميهم (الأشراف) تقرباً إليهم حتى يقلعوا عن العصبية والجمود إلى موقع الاجتهاد والتطوير.

وفى المقال تطبيق لمنهجه الإصلاحى حين يشير إلى ضرورة الاهتمام بالدين تعليماً وتطبيقاً من خلال برنامج تعليمى وبرنامج سلوكى مدرسى؛ لأن ذلك هو الطريق لتخريج رجال أخلاقيين يبنون المجتمع كما بناه الرسول العظيم القائل "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"(1).

وقد صيغ المقال بأسلوب بليغ وبيان يعتمد على السجع اللطيف المقبول وليس المرذول، والطبيعى وليس الصناعى.

أما معجمه اللغوى فيجمع بين الألفاظ الأصيلة والألفاظ الجديدة، لكنها كلها فصحى، يستطيع أن يتعامل معها المثقفون والقارئون للصحف من المتأدبين وأشباه المتأدبين؛ فهى لغة موجهة للصفوة أولاً، ولمن دونهم ثانياً؛ دون ابتذال، ومع ذلك فقد ضم قاموسها اللغوى كلمات قليلة تركية وأجنبية مثل كلمة: "خوجة" بمعنى المعلم الصغير، ومثل كلمة "الشراليوز" و"الكروب".. وهما نوعان من الأسلحة.

ردود قوية على وزير خارجية فرنسا

فى رده على "مسيو هانوتو" (وزير خارجية فرنسا) بجريدة المؤيد نجد لوناً آخر طريفاً من أساليب فن المقالة عند الإمام، وهو لون يجمع بين العمق العلمى والسخرية الهادفة والأسلوب القوى الذى يعكس تطوراً فى الكتابة المقالية عند الإمام، فهذه المقالات نشرت سنة ١٩٠٠م بعد أن كان محمد عبده قد سبر غور فنون القول، ومرّ بتجارب كثيرة؛ صقلت فكره وأسلوبه معاً..

يوضح الإمام فى مطلع حوار أورده على "هانوتو" أن هانوتو يدعو قومه إلى وضع قاعدة لمعاملة المسلمين الذين يدخلون تحت ولايتهم (أى استعمارهم) أو يجاورنهم فى ممالكهم، وذلك لا يتم، على مذهبه، إلا بالبحث فى طبيعة الأمر الذى صار به المسلمون غير المسيحيين، وبه يُفضّل المسلمون سلطة إسلامية على سلطة فرنساوية؛ فإن أمكن تلقيح ما عليه المسلمون بالولاء الفرنساوى، وسهل الجمع بين ما وقر فى نفوسهم وبين الخضوع الأعمى لسلطان فرنسا؛ طاب الجوار فى قلوب الملة لعقيدة الإسلام، والطاعة لكل أمر يصدر عن آخر فرنساوى فى طبقته؛ صح للدولة الفرنسية أن تمن على المسلمين بالبقاء فى الأرض؛ وإلا وجب عليها أن تحمل عليهم فتبيدهم من البسيطة أو تجليهم إلى قارة أخرى!!(2).

أما غاية "هانوتو" فى البحث، وتناوله بيده قمحضاء (والمحضاء هو العود الذى تزداد به النار اشتعالاً) يحرك به نيران العداوة فى قلوب الفرنسيين، تثير عزائمهم إلى حرب المسلمين، وليكون (مسيو هانوتو) للأمة الفرنسية مثل ذلك الراهب الذى أثار تلك الحروب المعروفة (يقصد الحروب الصليبية وبطرس الناسك) فذلك أمر نكل فائدته إليه، وإلى علمه بمكان دولته من القوة، ومنزلة تمدنه من الرحمة والإنسانية، ونستلفت إليه ذكاء بعض شبّاننا من المسلمين الذين يعرفون اللغة الفرنسية، ويتجملون بآداب الأمة الفرنسية، ويطربون إذا ذكرت المدنية الفرنسية.

ولو لم يتعرض "مسيو هانوتو" إلى الطعن فى أصل من أصول الدين، ما حركت قلمى لذكر اسمه، وكان حظى من النظر فى مقاله هو العظة والاعتبار، حظ الناظر فى أحوال الأمم وأعمال رجالها، حظ المؤرخ الذى يقرأ ليفهم، ويفهم ليعلم ويحكم، ولا يهمه أخطأ القائل أو أصاب.

أما ما جاء به من التحكك بأصل الدين، فهو الذى أغمزُهُ بما أكتب اليوم:

يرى الناظر فى كلام "مسيو هانوتو" لأول وهلة، أنه مقلد فى التاريخ، كما هو مقلد فى العقائد، وأنه جمع خليطاً من الصور وحشرها إلى ذهنه، ثم هو سلط عليه قلمه ينثرها كما يشاء القدر ليدهش بها من لا يعرف الإسلام من الفرنسيين، وهو جمهورهم(3).

إنى أكيل "لمسيو هانوتو"، إجمالاً بإجمال، والتفصيل لا يجهله قومه، وكثير من منصفيهم لم يستطع إلا الاعتراف به.

إن أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين، فطارت بها إلى المدنية الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة التى كان يسطع ضوؤها من بلاد الأندلس على ما جاورها، وعمل رجال الدين المسيحى على إطفائها مدة قرون فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، واليوم يرعى أهل أوروبا ما نبت فى أرضهم بعد ما سقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدى أهل دينهم فى سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالع المدنية الحاضرة.

إن الناظر فى التاريخ تحمر عيناه من مناظر الدماء المتجسدة على جليد الأزمان، ذلك مما سفكه أهل ذلك الدين المتحد (المسيحية) بالمدنية الآرية ليقاوموا دعاة تلك المدنية ويخمدوا نارها.

إن صح الحكم على الأديان بما يُشاهد فى أحوال أهلها وقت الحكم، جاز لنا أن نحكم بأن لا علاقة بين الدين المسيحى والمدنية الحاضرة، فإن الإنجيل بين أيدينا نقرؤه ونفهمه، ولا يغيب عنا شىء من دقائق معناه، يأمر الإنجيل أهله بالانسلاخ عن الدنيا والزهادة فيها، يوجبُ عليهم إذا سلبهم السالب قميصاً أن يعطوه الرداء أيضاً وإذا ضربهم الضارب على خدهم الأيمن أن يديروا له خدهم الأيسر، وأن يفنوا بكليتهم فى الأب، ويقصُ عليهم أن دخول الجمل فى سم الخياط أيسر من دخول الغنى ملكوت السماوات، وما شابه ذلك من الوصايا الملكوتية التى تليق برسول إلهى ربانى يدعو الناس إلى الانقطاع من هذا العالم الفانى ليليقوا بالانتظام فى أهل ذلك العالم الباقى.

هل خطر ببال "مسيو هانوتو" أن يجعل "ما لله لله وما لقيصر لقيصر" كما أوصى الإنجيل؟ وهل رأى مثالاً لذلك فى المدنية الآرية التى ناخت مع الدين المسيحى؟؟

العيان يدلنا على أن شيئاً من ذلك لم يكن، فإن هذه المدنية إنما هى مدنية الملك والسلطان، مدنية الذهب والفضة، مدنية الفخفخة والبهرج، مدنية الختل والنفاق، وحاكمها الأعلى هو "الجنيه" عند

(1) السنن الكبرى للبيهقى.

(2) الأعمال الكاملة، ج ٣ / ٢١٩.

(3) الأعمال الكاملة ٣ / ٢٢٠.

قوم، و "الليرا" عند قوم آخرين، ولا دخل للإنجيل في شيء من ذلك.

أوصى المسيح بأن يترك ما لقيصر لقيصر، حتى لا يشغب المسيحيون على ملوكهم من غيرهم، فانقلبت الحال بهم وأصبحوا لا يحتملون أن يروا لهم رعايا من غير دينهم فضلاً عن الملوك [4].

وقد أخذ الغرب الآرى عن الشرق السامى أكثر مما يأخذه الآن الشرق المضمحل عن الغرب المستقل، فلم يبق من معنى للمدنية يريده حضرة الكاتب إلا الدين، وقد ظهر في كلامه أن الدين السامى يراد منه التوحيد، والدين الآرى يعنى به ما يقابله.

وإنى أقرر لهذا الوزير الشهير حقيقة بديهية يعرفها صبيان المكاتب، وهى أن دين التوحيد ليس ديناً سامياً، بل هو دين عبرانى فقط، عرف به إبراهيم عليه السلام، وبنوه، ومنهم عيسى من جهة أمه وأصحابه وأنصاره الأولين، أما بقية الساميين من عرب وفينيقيين وآراميين وغيرهم من الأمم المذكورة في الكتاب المقدس، وهو يعرفها، فقد كانوا وثنيين مشبهين، ولم يخالفوا في ذلك بنى عمهم أو أعدائهم الآريين.

جهل هانوتو

وهنا يكشف الإمام جهل "هانوتو" وزير خارجية فرنسا بحقائق بديهية ثم يقول:

وقبل إلقاء القلم، أذكر الذين يتفانون في إجلال مثل هذا الوزير كما يتفانى المسلم في الله على رأيه، أني إن صغرت شأن "هانوتو" في معارفه التاريخية، فذلك لأنه صغير فيها حقيقة، وكثير من قومه يعرف ذلك منه، لأنه لا أمير في العلم إلا العلم، والسلام.

وفى مسألة الإيمان بالقضاء والقدر يذكر الإمام أن "هانوتو" قارن، بجهل فاضح، بين الديانتين المسيحية والإسلامية، وقال: إنهما تمثلان ذينك المذهبين، أى مذهبى الناس في القدر وأن الأولى ربانية توارثت ما ترك الآريون، والثانية بشرية أخذت ما ترك الساميون، وأن الأولى ترقى بالإنسان إلى المقام الإلهى والأخرى تنزل به إلى أسفل درك حيوانى، ويظهر ميل كل من الديانتين ظهوراً بيناً في الأصل الذى بنى عليه كل منهما، فأصل الأولى: هو إيجاد الإله الأب للإله الابن، حتى كان إلهاً بشراً، واتصال الإلهين بروح القدس، وأصل الثانية: تنزيه الإله عن البشرية وتقديسه إلى حد تنقطع فيه النسبة بينه وبين الإنسان.

ثم رجع بعد هذا إلى الخلط بين الدينين، وردهما إلى أصول واحدة، وعقد التشابه بينهما، إلى آخر ما أطال به على غير جدوى.

ويتساءل الإمام:

هل عُهد بين الكُتّاب وأهل النظر تشويش في الفكر وخلل في المقال يشبه ما جاء به هذا الكاتب؟ أدعُ الحكم في ذلك لمن له أدنى إلمام بمذاهب الأمم وآرائهم.

ويفضح الإمام "هانوتو" حين يكشف جهله حتى بدينه هو، فيعلمه كيف أن مسألة القضاء والقدر قد عظم الخلاف فيها بين المسيحيين أنفسهم، وبدأ النزاع بينهم قبل الإسلام، واستمر إلى هذه الأيام، ولعل "هانوتو" اطلع على مذهب "التومبيين"، أتباع القديس توما، أو الدومينيكيين، وهم جبرية، وأشياع "لوايولا"، وهم قدرية.

ثم يقول الإمام:

هل سمعت بيهودى استلقى على قفاه، وترك العمل اتكالاً على القدر؟ هل سمعت بأحد من الفينيقيين، وقد وصلوا بزوارقهم ذات المجاديف إلى جزائر بريطانيا، أنه كان ينام ويتلذذ بالأحلام اعتمادا على ما يسوقه إليه الغيب؟..

لكن سمعنا بذلك في الأديرة، وبين الرهبان، وعرفنا أخبار ذلك الجيش العرمرم من المتكلين الذين كانوا يعيشون عالة على الناس حتى ضجت منهم أوروبا في زمن من الأزمان، وطلبت الخلاص منهم بالسيف البتار.

أما في الإسلام فقد جاء القرآن الشريف، وهو الكتاب المنزل بالإسلام، يعيب على أهل الجبر رأيهم، وينكر عليهم قولهم:

﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾

(الأنعام: ١٤٨)

وأثبت الكسب والاختيار في نحو أربع وستين آية، وما جاء به مما يتوهم الناظر فيه ما يخالف ذلك فإنما جاء في تقرير السنن الإلهية العامة، المعروفة بنواميس الكون، كما في آية:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾

(هود: ١١٨)

ونحوها.

وجاء النبى ﷺ، في عمله وقوله بما يؤيد ذلك، فكان العامل الذى لا يكل والدائب الذى لا يمل والساهر الذى لا ينام والجاد الذى لم يبلغ شأوه أحد من الأنام. هل تقول عنه: إنه اتكأ يوما على وسادته واكتفى بالتسليم للقدر في إتمام دعوته، قائلاً: الذى كفل لى النصر يكفينى التعب، وضمانة الله لإعلاء كلمة دينه تغنينى عن النصب؟ كلا.. بل لم تكن تزيده الوعود الصادقة إلا نشاطاً، ولا تجد العصمة الإلهية من نفسه إلا حزماً واحتياطاً.

ولكن.. وا أسفاه!! نتأت رءوس بين المسلمين كأنها رءوس الشياطين، واحتملت غثاء من قمش (الفتات والردىء من كل شىء) الآريين، وقذفت به في الأرض الطاهرة فتدنس به أديمها، وانتشر قذره وعم مزره. [5]

محام ناجح عن قضية دينه وأمته!!

وهكذا.. لا نكاد نصل إلى السنوات الأخيرة من عمر الإمام محمد عبده (ت ٩٠٥ هـ) رحمه الله، إلا ونجده قد نبغ في فن المقال، ولا سيما المقال السياسى، والتربوى، والتعليمى، والإصلاحى بعامة، وأيضاً المقال الذى يدافع به عن الإسلام، دون انهزامية.

وكل ذلك في تألق بيانى وعلمى يجعله بحق إماماً في المقال.. كما كان إماماً في الإصلاح..

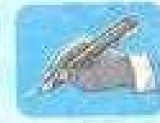
لقد كان محامياً ناجحاً عن قضية دينه وحضارته وأمته العادلة.. فرحمه الله رحمة واسعة.

(٤) الأعمال الكاملة ٣ / ٢٢٢، ٢٢٣.

(٥) الأعمال الكاملة، ٣ / ٢٢٤، ٢٢٧ بتصرف.

الأستاذ مصطفى نظيف

رائد الفيزيقا ومكتشف ابن الهيثم



للأستاذ الدكتور/ محمد فتحى فرج

الأستاذ بجامعة المنوفية

الأستاذ مصطفى نظيف هو الرائد الأول من رواد النهضة المصرية الحديثة، فى مجال علوم الطبيعة الحديثة أو الفيزيقا (كما كان يحب أن يسميها)، وهو أيضا أحد قادة الفكر العلمى العربى، وما نجم عنه من نهضة فى الوطن العربى، خلال القرن العشرين. وقد نال الرجل عن جهوده فى هذه العلوم والعمل على تحديثها وتطويرها بحثا وتدريسا جائزة الدولة سنة ١٩٤٧. كما حصل الرجل أيضا على وسام الجمهورية من الطبقة الثانية عام ١٩٥٥، ثم حصل على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم فى عام ١٩٥٨، ووسام الاستحقاق من الطبقة الأولى عام ١٩٥٩.

مولده وتدرجه العلمى

ولد مصطفى نظيف بمدينة الإسكندرية سنة ١٨٩٣، وتلقى تعليمه الابتدائى والثانوى بمدرسة رأس التين الأميرية، وبعد حصوله على شهادة إتمام الدراسة الثانوية (القسم العلمى) فى العام ١٩١٠، أوفد فى بعثة لوزارة المعارف إلى إنجلترا، حيث التحق بجامعة بريستول، فدرس فى المرحلة المتوسطة علوم الرياضيات والطبيعة والنبات والحيوان، ثم تخصص فى دراسة الطبيعة كمادة أساسية، والرياضيات البحتة والتطبيقية كمادة فرعية. وقد حصل على درجة التخصص فى علم الطبيعة (بكالوريوس العلوم) فى يوليو من عام ١٩١٤، ثم عاد إلى مصر نظراً لتلبد الجو العالمى بقيام الحرب العالمية الأولى، فعمل حين عودته مدرساً بالتعليم الثانوى، ثم بمدرسة المعلمين العليا (كلية المعلمين سابقاً، والتربية الآن)، وتولى إلى جانب ذلك تدريس هذا العلم لطلاب مدرسة الطب، ومدرسة طب الأسنان فى المرحلة السابقة لإنشاء الجامعة سنة ١٩٢٥. ولبث يعمل بمدرسة المعلمين العليا حتى أواخر سنة ١٩٣٠م، ثم عمل فى أثناء السنتين التاليتين مفتشا بوزارة التعليم، فناظراً لمدرسة الفنون والصنايع.

وفى سنة ١٩٣٢ عين الأستاذ نظيف أستاذاً مساعداً بمدرسة الهندسة العليا (التى صارت فيما بعد كلية الهندسة ـ جامعة القاهرة)، وفى عام ١٩٣٤ رشحه مجلس إدارة المدرسة لتولى وظيفة الأستاذية بدلاً من الأستاذ الأجنبى الذى كان يشغلها، وقد ضمت المدرسة إلى الجامعة عام ١٩٣٥ ليعمل بها أستاذا للطبيعة، فرئيساً لقسم الطبيعة فيها حتى عام ١٩٥٠، ثم عين الرجل فى هذا العام وكيلا لجامعة (نائبا لرئيس الجامعة) إبراهيم باشا الكبير (جامعة عين شمس الآن) حتى يناير سنة ١٩٥٣، وهو وقت التقاعد بالنسبة للرجل، فمدت خدمته إلى آخر يوليو عام ١٩٥٤، ثم عين مديراً (رئيساً) لها فى مايو من العام ذاته (١٩٥٤) وظل يشغل هذا المنصب حتى طلب إعفاءه من الوظيفة فى أكتوبر من عام ١٩٥٦، فعين عضواً بمجلس الجامعة، وأستاذا غير متفرغ للطبيعة بكلية العلوم، ثم استقال من عمله أستاذاً غير متفرغ فى يونيو سنة ١٩٥٨[(١)]. وقد توفى الرجل ١٩٧١ عن عمر يناهز الثامنة والسبعين من السنين.

رجل أمين.. نادر المثال

يحكى عنه عالم فاضل هو الدكتور عبدالحليم منتصر فيقول: كان رئيساً لجامعة عين شمس وكنت أميناً عاما للاتحاد، وظل مديرا لجامعة عين شمس إلى أن حدث ما دعاه للاستقالة، فذهبت إليه مع وفد من مجلس الكلية لندعوه ليلقى محاضرات فى «تاريخ العلم»، وليعمل أستاذاً غير متفرغ بالكلية، فقبل مشكوراً، وكانت المكافأة الشهرية زهيدة، وهى فى الأصل سنوية ولكن تدفع مشاهرة، فلما وصله «شيك» شهر مايو، رفض أن يتسلمه وقال: إنه لم يحاضر فى مايو، واضطررنا إلى رده للجامعة.

وحينما دعانا مدير الجامعة ليوصلنا بسيارة المدير، رفض أن يركبها واستأجرنا «تاكسى» ليوصلنا. وكذلك كان الأستاذ نظيف حريصا إلى أقصى حد، أميناً فى عمله بلا حدود، حتى بالنسبة لترجمة بعض المصطلحات التى لها سوابق يمكن الاسترشاد بها، من ذلك مثلاً رفضه تعريب كلمة Physics بفيزياء، وإصراره على استعمال كلمة «فيزيقا»؛ لأنها الأصح فى نظره قياسا على ما قال الأقدمون بشأن: ماثيماطيقا، وميتافيزيقا.. إلخ[(٢)].

إسهاماته العلمية

كان للأستاذ مصطفى نظيف دور بارز فى توطين العلوم وتأصيلها فى البيئة العربية؛ وذلك بالعمل ـ بكل السبل ـ فى ترجمتها، ووضع المقابلات من المفردات العربية للمصطلحات والتعبيرات العلمية الأجنبية، وكان من أشد الداعين لتدريس العلوم فى الكليات والمعاهد العلمية الجامعية باللغة العربية، إيماناً منه بأن التقدم الحقيقى لن يكون إلا من خلال هذا الأسلوب، واعتقادا منه أيضا بقدرة اللغة العربية على مجاراة علوم العصر ومكتشفاته ومخترعاته، وذلك ببذل المتخصصين لبعض الجهد فى هذا

---

(١) د. محمد مهدى علام (١٩٨٦). المجمعيون فى خمسين عاما. الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية. القاهرة. ص ٣٥٩.

(٢) د. عبدالحليم منتصر (١٩٩٢). ذكريات عطرة وهؤلاء علمونى. دار المعارف بمصر، ص ٢٢.

المضمار. ولهذا الحماس المتوقد والنشاط الجم في هذا المجال ؛ تم اختيار الرجل عضواً عاملا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٤٦، فأبلى بلاءً حسناً في وضع كثير من المصطلحات العلمية في مجال العلوم ولا سيما علوم الطبيعة والرياضيات والعلوم الهندسية.

كما شارك الأستاذ مصطفى نظيف في تأسيس وعضوية الكثير من الجمعيات والهيئات العلمية في مصر والبلاد العربية. فقد كان عضوا بالمجمع العلمي العراقي، ونظراً لمكانته العلمية البارزة فقد كان الرجل رئيسا للجمعية المصرية لتاريخ العلوم، والاتحاد العلمي المصري، واللجنة القومية للاتحاد الدولي للفيزيقا البحتة والتطبيقية، وعضواً بارزا في المجمع العلمي المصري. كما ساهم الرجل في إنشاء وإدارة المجمع المصري للثقافة العلمية، وشارك في إلقاء المحاضرات العلمية في مؤتمراته السنوية، عُني فيها بالتعريف بأهمية العلم، وإبراز دوره المهم في إصلاح المجتمع والعمل على تطويره ونهضته. كما كان عضوا بالمجلس الأعلى لدعم البحوث العلمية، والمجلس الأعلى للعلوم، وعضوا باللجنة التي أعدّت لإنشاء مؤسسة الطاقة الذرية في مصر، وعضوا بمجلس إدارتها.

مؤلفاته

قام الأستاذ مصطفى نظيف بكتابة عدد من المقالات وإلقاء الكثير من المحاضرات والأحاديث العلمية، التي ظهرت بعد ذلك على هيئة مقالات ورسائل علمية موجزة، كما قام بتأليف الكتب الأساسية التالية:

- «علم الطبيعة: نشوؤه ورقيه وتقدمه الحديث». وقد نُشر هذا الكتاب سنة ١٩٢٧، ومن ثم فقد كان أول كتاب من نوعه باللغة العربية في التعليم الهندسي، ويتناول عرضا تاريخيا لعلم الطبيعة منذ نشأته في الحضارات القديمة وحتى وقت تأليفه في منتصف العقد الثالث من القرن الماضي.

- «البصريات الهندسية والطبيعية»: وهو أيضا أول كتاب باللغة العربية عُني بدراسة علم الضوء، على مستوى التعليم الجامعي، وقد نُشر هذا الكتاب عام ١٩٣٠.

- «الحسن بن الهيثم: بحوثه وكشوفه البصرية»: وقد جاء هذا الكتاب في جزءين، ونشرتهما جامعة القاهرة فظهرا عامي ١٩٤٢ و١٩٤٣، ويحتويان على دراسات مستفيضة وتحليلات مسهبة لبحوث الحسن بن الهيثم ومؤلفاته في الضوء والبصريات الهندسية، كما وردت في أصولها المخطوطة مع شرحها والتعليق عليها. وقد كشف هذا الكتاب النقاب عن الدور الحقيقي لبعض العلماء العرب في تطور وتقدم العلوم الطبيعية، والتي ظلت مجهولة، فنسبها البعض إلى علماء الغرب، حتى صحح ذلك الأستاذ نظيف - رحمه الله -. وهو مرجع مهم يشير إليه علماء الضوء الحديث، والمستشرقون المهتمون بتاريخ العلوم في الغرب في مؤلفاتهم [٣].

(٣) أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا (١٩٩٠). تاريخ الحركة العلمية في مصر الحديثة: العلوم الأساسية (٥ ـ الفيزياء). ص ١٠٥.

نماذج من أدبه العلمي

في أثناء الحديث عن ابن الهيثم، الذي يعده الرجل واحداً من عباقرة العالم المعدودين، والذي أعاد اكتشافه الأستاذ مصطفى نظيف، وجدها فرصة ليتحدث عن المنهج العلمي، ليصحح خطأ متواتراً من أن هذا المنهج قد وُضع حديثا بعد عصر النهضة، وأنه من ابتكار الغرب، وقد صحح هذه الأخطاء، ودلل في هذا النص الموجز على أن هذا المنهج العلمي هو ابن شرعي للعلوم العربية والإسلامية، وأن أحد أهم العلماء الذين وضعوا لبناته هو العالم الكبير الحسن ابن الهيثم، بل إنه عمد في ثنايا ذلك إلى نقد طريقة أو منهج «باكون» نفسه، وفي ذلك يقول الأستاذ نظيف: من المتواتر الشائع أن الطريقة العلمية (أي المنهج العلمي) الحديثة لم تنشأ في تاريخ تطور الفكر الإنساني إلا بعد عصر النهضة في أوروبا، وينسب أكبر قسط من الفضل في إنشائها إلى «فرنسيس باكون»، أحد فلاسفة الإنجليز وكتابهم المشهورين في القرن التاسع عشر. فهو يعد أول من بيّن أن الطريقة المثلى في البحث، الاعتماد على الحقائق والأمور الواقعة ومشاهدتها والمضي في جمع المشاهدات وتبويبها وترتيبها، حتى يمكن بالاستقراء الوصول إلى المعلومات الصحيحة. والاستقراء من الدعائم الأساسية التي يقوم عليها العلم الحديث. ولكن طريقة «باكون» في قصر البحث على المشاهدة أو التجربة، والاكتفاء بجمع المشاهدات أو نتائج التجارب، طريقة ضيقة محدودة، لا نخطيء كثيرا إذا قلنا: إنها تجعل من العالم البحاثة آلة ترقُبُ وتُدوِّنُ وتُبوِّبُ، وإنها تهوى بالعلم من سموه إلى الوصف المجرد من الخلق أو الإبداع.

ثم يوالي الرجل نقده لطريقة باكون، حيث يقول: وسرعان ما تبيّن أن طريقة باكون لا تتوافر فيها جميع العناصر اللازمة في البحوث العلمية؛ إذ أن طريقة البحث العلمي تبتدئ بمشاهدة الأمور الطبيعية على ما هي عليه في الواقع، وجمع الحقائق المُشاهدة، ثم ترتيبها وتبويبها، لا لمجرد الجمع أو الترتيب أو التبويب، بل للبحث بتمحيص تلك الحقائق عن علاقة ترتبط بها، قد نسميها قانونا طبيعيا، وقد نسميها نظرية علمية. ولا ينتهي الأمر بالكشف عن هذه العلاقة، وإنما تستنبط بالقياس النتائج التي تفضي إليها. ثم يبحث عن نتائج صحة القياس، هل هي مطابقة للواقع المُشاهد، أو المستدل عليه بالتجربة؟ فإن تحققت على هذه الصفة كان ذلك دليلا على صحة تلك العلاقة، التي هي القانون المكشوف عنه، أو النظرية المقول بها، وإن وجدت نتائج القياس غير متفقة والواقع محصت تلك العلاقة، علها تقبل التعديل أو التنقيح بما يجعل نتائجها القياسية متفقة والواقع. وإن تبين قصورها نُبذت وطرحت جانبا، وجرى البحث عن علاقة أخرى تكون أصلح وأنسب. وفي الكشف عن هذه العلاقة وتصورها وصوغها في الصيغة الملائمة، تتجلى ناحية من النشاط الفكري لا يعنينا إن سُميت عبقرية أو ذكاء أو إلهاما. ورائد الباحث في كل ذلك إقرار الحقائق كما يجدها

دون أن يكون لنزعة من النزعات، أو هوى من الأهواء، أثر يلونها بلون خاص، أو يكيفها على صورة خاصة. وأحيانا يستعان فى الكشوف العلمية بالتمثيل أى «الأنالوجى» ويعنى به - كما كان يعنى به فى المنطق العربى القديم - نقل أحكم من ظاهرة إلى أخرى تشبهها فى أمر من الأمور. فيهتدى به على منوال المعلوم إلى معرفة المجهول.

وهذه الطريقة فى البحث التى تعد من مبتكرات العصر الحديث هى الطريقة التى لا أتردد فى القول بأن ابن الهيثم أدرك أنها الطريقة المثلى. فهو قد أدرك ضرورة الأخذ بالاستقراء، والأخذ بالقياس، والأخذ فى بعض البحوث بالتمثيل، وضرورة الاعتماد على الواقع الموجود، على مثل المنوال المتبع فى البحوث العلمية الحديثة.

ثم يؤكد الأستاذ نظيف على هذه الحقيقة المهمة وهى تتعلق بأسبقية ابن الهيثم وأصالة منهجه وإحكامه، ثم إنه لم يتوقف عند التنظير بل إنه قد ضرب المثل ببحوثه التطبيقية، وفى ذلك قال الأستاذ نظيف: إن ابن الهيثم لم يسبق «فرنسيس باكون» إلى إدراك خطر عنصر الاستقراء فحسب، بل سما عليه، لأنه أدرك العناصر الأخرى التى لم يدركها «باكون» من بعده. وأيضا ابن الهيثم لم يطل فى الكتابة عن الطريقة المثلى فى البحث دون أن يقوم ببحث يصح أن يتخذ مثالا يهتدى به، كما فعل باكون، بل اكتفى بأن يلم بعناصرها فى قول موجز، وانطلق يسلك سبيلها فى بحوثه ودراساته عملا وفعلا.

ثم يتعرض الأستاذ نظيف - بشىء من الإسهاب - فى عرض مثل واضح، وهو النظرية التى وضع أساسها ابن الهيثم، فى كيفية رؤية الأشياء، والتى نقض بها النظرية القديمة الخطأ التى قال بها الفلاسفة القدماء[4]، حيث كان القدماء يعتقدون أن الأشعة تنطلق من عينى الرائى على الأجسام، حيث تتم رؤيتها على هذا النحو! ثم جاء ابن الهيثم ليسخف هذه الآراء وينقضها، وليؤكد بالواقع والتجربة أن الذى يحدث بالفعل هو أن الأشعة إنما تنطلق من الأجسام على عينى الرائى فتتكون صورها، وتحدث الرؤية.

مولد العلم الحديث

وفى المؤتمر العلمى العربى الأول، الذى عقد فى مدينة الإسكندرية سنة ١٩٥٣م تحت إشراف الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية، ورأسه الأستاذ مصطفى نظيف الذى ترأس أيضا الوفد المصرى فى هذا المؤتمر، أقول فى هذا المؤتمر ألقى الرجل بحثا مطولاً بعنوان: «العلوم التعليمية والطبيعية عند العرب: أصولها وفروعها وطرق النظر فيها»، جاء فيه تحت عنوان: «مولد العلم الحديث» ما يلى: إذا اقتصرنا على الجزئيات فلا جدال أن ثمة أمثلة كثيرة من البحوث والدراسات المتعلقة بمبادئ العلوم الرياضية والطبيعية التى تنسب إلى علماء العرب، كان لأصحاب التعاليم والفلاسفة فى العصر الإسلامى السبق إليها. ومن حقهم علينا نحن أبناء العروبة، أن نعنى بالتنويه بذلك مع ذكر أسمائهم، فى

(٤) مصطفى نظيف (١٩٣٩)، ابن الهيثم، مقال منشور فى مجلة «الثقافة»، العدد رقم ٣٢، ص ١٥٨٣.

المناسبات التى تعرض عند تدريس العلوم بمعاهدنا العلمية.

وإذا نحن عنينا بتقدم أساليب البحث العلمى بوجه كلى، فلا شك أيضا أن فى الجمع بين النظر الطبيعى وبين النظر التعليمى، على الصفة التى نبينها، قد أدى بالفعل فى العصر الإسلامى إلى سلوك طريقة للنظر فى المسائل العلمية يؤخذ فيها بالاستقراء، ويعتمد فيها لا على المشاهدة السطحية وحدها، بل على التجربة أيضا أو على «الاعتبار» - كما كانوا يقولون - ويؤخذ فيها بالقياس. وذلك على النحو الذى يتوافر به مقومات ما يسمونه بالطريقة العلمية الحديثة. وقد طبقت هذه الطريقة على أتم صورة مستطاعة فى ذلك العصر، فى دراسة الظواهر الأساسية المتعلقة بالضوء بوجه خاص.

أما أن يقال: إن العلم بمعنى «Science» هو من مبتكرات علماء أوروبا فى القرن السادس عشر أو السابع عشر، وأن نشأة التفكير العلمى الصحيح أولى بأن يؤرخ بمولد «ليوناردو دافنشى» سنة ١٤٥٢م، كما يرى بعض قادة الفكر الحديث من أمثال «وايتهد» و«جيمس جينز»، أو أن الطريقة العلمية الحديثة من وضع «فرانسيس باكون» كما هو الشائع المتواتر، فليس له عندى ما يبرره، إلا إذا كان القائلون بذلك يرون أن الحركة العلمية فى أوروبا فى القرن السادس عشر، ذات بداية جديدة لا صلة لها بما قبلها، وأن علماء أوروبا المحدثين لم يكن لهم علم لا بالمباشرة ولا بالواسطة بالبحوث والكشوف العلمية التى تمت فى العصر الإسلامى، وظل قبسها يضىء إلى أواسط القرن الخامس عشر، وهو قول مردود قطعا؛ ذلك أن أصول العلوم الإسلامية، بدئ فى ترجمتها إلى اللاتينية منذ القرن الثانى عشر، والكتب المنقولة معروف أكثرها بأسمائها اللاتينية وأسماء مترجميها، وكتاب ابن الهيثم فى المناظر، الذى يدل دلالة مادية على أن صاحبه اعتمد فى مباحثه على الاستقراء والتجربة والقياس على المنوال المأخوذ به فى البحث العلمى كان معروفا على التحقيق عن «روجر باكون» و«فتلو» فى القرن الثالث عشر، ولم ينشر «رزنر» ترجمته اللاتينية الكاملة سنة ١٥٢٧م عبثا، دون أن تدعو الحاجة فى أوروبا إلى نشره. ومسألة «الهازن» كما يسميها أهل أوروبا، شغلت عقول كثير من علمائها فى القرن السادس عشر والقرن السابع عشر وما بعده، وكان يتناولها «باروز» أستاذ «نيوتن» فى محاضراته بجامعة «كمبردج».

ثم ينهى الأستاذ نظيف هذا الجزء المهم من بحثه بالدعوة الجادة إلى التعريف بمآثر العرب العلمية لا فى البحوث والأمور الجزئية فحسب وإنما أيضا فى دورهم فى وضع أسس الطريقة العلمية الحديثة، وفى توجيه التفكير نحو وجهته الصحيحة، وليكن غرضنا كما قال ابن الهيثم بلفظه: «استعمال العدل لا اتباع الهوى، وطلب الحق لا الميل مع الأهواء[5]».

(٥) مصطفى نظيف (١٩٥٤)، العلوم التعليمية والطبيعية عند العرب: أصولها وفروعها وطرق النظر فيها، بحث منشور فى: كتاب المؤتمر العلمى العربى الأول، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ص ٧٠.

قصة العدد

ستّ الكلّ



للأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيومي
رحمه الله

نشأ طاهر نشأة سخيّة فى ظل والد ثرى يمنحه عطفه، ويلبّى كل ما يطلب، وقد ماتت والدته وهو فى التاسعة من عمره ولم تنجب غيره، فاحتضنه أبوه بكل اهتمامه، وأعدّه ليكون شابًا ممتازًا ذا مستقبل سعيد، وقد كان فى نيته أن يلتحق بكلية الحقوق وهى يومئذ ذات صدى رنان لدى الدولة، ينتمى إليها أكثر الوزراء، وعلية النابهين من رجال الوطن، ولكن طاهرًا أصرّ على أن يلتحق بكلية الآداب ليدرس التاريخ قديمه وحديثه، فهو على طراوة عمره معجب بأحاديث الأولين، وقد بذل الكثير من عطاء أبيه إياه، فى شراء الكتب التاريخية، وحار والده فى رغبة طاهر؛ إذ لم تقع من نفسه الموقع الذى يتمناه، ولكنه قال فى نفسه: إنه سيرث البيت والمال فإذا كان راتب التدريس لا يقضى مآربه، فلديه ما يجعله يعيش عيشة سعيدة، ولعلى لو أجبرته على دراسة الحقوق على غير رغبته أدفع به إلى التأخر والهبوط إذ يدرس مادة لا يرحب بها فى صميم نفسه، ومن ثم صار طاهر بعد تخرجه مدرسًا للتاريخ فى المدارس المصرية، وانتهى به الأمر إلى أن صار مدرسًا أول فى مدرسة البنات الثانوية، وكان سعيدًا فى عمله يمارسه فى شغف واشتياق.

وقد مات والده بعد أن التحق بالتدريس، وأصبح مربيًا ثريًا ذا وجاهة فى منظره ومخبره، وله مكان الحب والتقدير من زملائه الذين يغمرهم بهداياه عن سماح، غير أنه أعرض عن الزواج إعراضًا لم يكن متوقعًا من مثله، ذلك أن والده كان دائم الخلاف مع والدته، وحين انتقلت إلى رحمة الله، أفهمه أن الزوجة عبء لا يحتمل، وأن الله قد أنقذه بوفاتها إذ كانت ترهقه بأسئلة عن ذهابه وغيابه ومع من يجلس ومن يصحب، كما كانت تفتح مراسلاته، وتفتش جيوب ثيابه، وترهقه بظنون لا حقيقة لها، ومن ثم فقد صمّم الوالد على أن يظل أرملًا لا يقترن بزوجة أخرى مهما كانت موضع الإعجاب من الآخرين، سمع طاهر حديث أبيه عن الزوجة، وأثرها السيئ فى نفسه، وامتناعه عن التجربة مرة ثانية؛ فأصرّ على أن يسلك نهجه إذ لا يجعل نفسه تحت رحمة امرأة تشقيه وتفنيه.

وقد مضت الأيام، وطاهر ينتقل من العشرين إلى الثلاثين فما فوقها وهو مصمّم على موقفه لا يحيد عنه مهما نوقش وعوتب، ولكنّ الأقدار قد تهيئ للمرء ما لم يكن يتصوره، فقد كان مدرسًا للتاريخ فى الفرقة النهائية من المدرسة الثانوية للبنات، وراعه أن يجد بين طالباته تلميذة حسنة المنظر، تناقشه فى المادّة فى أدب حيىّ، ثم رآها فى حفلة التمثيل بالمدرسة تقوم بدور كليوباترة فى مسرحية شوقى، فتفتن الحاضرين تمثيلًا وتصويرًا وجودة إلقاء لشعر شوقى الرصين بحيث كانت وحدها صاحبة السبق بين الزميلات! وقد قال عنها زملاؤه ممن درّسوا لها فى السنوات الماضية إنها كانت النجمة الأولى فى الفصل مع أدب جاوز كلّ حد، وطاهر يعرف عنها براعة النقاش، وقوة الانتباه، مع حياء مفرط يندر بين الكثيرات، وهنا خفق قلبه خفقانًا شديدًا بحبّها، ورأى كل السدود التى كانت تقف فى وجهه حين يشار عليه بالزواج، تنهار فجأة، وتصبح الطالبة الصغيرة، مالكة أمره ونهيه، وهو فى الرابعة والثلاثين، وهى فى السابعة عشرة أى فى نصف عمره تمامًا إذ غلبته شجونه فبحث عن مسكنها، وعرف عن والدها أنه بالمعاش ينوء تحت أعباء ثقال، وابنه الكبير ذو أسرة تعيش عيش الكفاف، وابنته تزوجت بمن رحل عن الحياة بعد أن وهبها ثلاث بنات! ولم يترك غير معاش ضئيل، والحق أن فقر الأسرة كان أكبر دافع لطاهر أن يمضى فى طريق الخطة، ليقدّم لها بعض ما ينهض بها ماديًا، ولم يشأ أن يتخذ وسيطًا بل تقدم بنفسه إلى الوالد، ودهشت أميرة، -وهذا اسمها- لأمر لم تكن تتوقعه، وما جاز أن يخطر لها على بال، وهى فى أطوائها تعجب بالأستاذ، وتكن له من التقدير ما ينزل به منزلًا كريمًا فى نفسها! وترك طاهر المنزل ليسمع الرد بعد أسبوع، وكان النقاش يدور حول فارق السنّ من وجهة نظر الوالد، ولكن أميرة وهى تعلم ثراء الخاطب وحسن سلوكه لم تعر المسألة اهتمامًا، وقالت لأبيها دعنى أقابله فى مجلس خاص حين يحضر، وسينتهى الأمر على أحسن ما نرجو من التوفيق.

وحلّ الخاطب الكريم بعد أسبوع، وبعد تبادل التحية، انصرف الوالد وترك الخطيبين، وكانت أميرة كعهدها محتشمة خجلة تتعثر فى فمها الكلمات بدءًا، ثم انطلقت لتقول فى صراحة:

يا أستاذى أنا لا ألتفت إلى فارق السنّ ما دمت أعيش مع أستاذ أحبّه من أعماقى، ولكنى وقد سمعت عن ثرائك الشيء الكثير أطلب منك شيئًا واحدًا هو كل مبتغاى!

فقال طاهر هاشاً مرحباً: كل ما تطلبينه رهن إشارتك.

قالت ووجهها إلى الأرض: أن تمنحني أول كل شهر ثلاثين جنيها لا تسألني عنها.

فقال في ابتسام: وأكثر من ذلك لأنك ستكونين مصدر هنائي.

فابتسمت في رقة، وقالت: قلت لك لا تسألني عنها!

فقال: نعم ولن أتدخل في شيء من خصوصياتك.

قالت: أنا زوجك من الآن! وفرح طاهر بما تم، وتحدد موعد الزفاف!

انتقلت أميرة بعد أن نجحت في الثانوية إلى طراز من العيش لا تعهده، فهي تسكن فيلا أنيقة ذات دورين كبيرين، وأمامها حديقة منسقة تجمع شتى الأشجار والورود، وبالبيت بستاني وبواب، وخادمة، ومن قبل ذلك كله زوج يهيم بها حبًا، ويرى سعادته تحققت في جوارها، وكان هوى قراءة التاريخ مشتركًا بينهما وقد رأى أن يبدآ معًا بالكتب الموجزة، ذات التعبير السهل وقد اختارها طاهر بعناية، فاشتد اهتمامه بناء على رغبتها بالتاريخ الإسلامي مبتدئاً بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخلفائه الراشدين وله عند كل موقف تعليق تُسر به أميرة كثيراً، وتناقشه فيما يبدو لها من الآراء فتنبئ عن فهم وحسن استعداد، وكان طاهر فرحًا بهذه التي جذبته، إلى قراءة التاريخ الإسلامي، وجعلته يهيئ الدرس قبل ميعاده، ليكو على درجة كبيرة من الاستيعاب فالتحليل وقد لمس البواب والبستاني والخادمة من عطف أميرة ما لم يكن يخطر لهم على بال فقد عملت على زيادة الراتب بعدما عرفت قدرة طاهر المالية، وكانت تمنح كلّ المحيطين بها من الهدايا المتواضعة ما يسعدون ب ثيابًا ومأكلا ومالا، وطاهر مغتبط بإنسانية هذه الزوجة العطوف، ويقول في حب إنه تعلم منها الكثير، لقد تعلمت من التاريخ، وتعلم منها مكارم الأخلاق. فكانت تقول: مكارم الأخلاق هي مكارمك أنت، فأنت الذي يقول، وأنا أتولى التنفيذ.

وقد ارتبط طاهر بالمنزل ارتباطاً وثيقاً، فكان لا يخرج منه إلا لضرورة ملزمة؛ بعد أن قضى أيامه الأولى بين المقاهي والزيارات والرحلات القريبة. فكانت أميرة أكبر جاذب لبقائه معها سعيداً مغتبطاً، وقد اقترح عليها أن تعيد أمامه تمثيل كليوباترا الذي شغف به من قبل على مسرح المدرسة، فقالت له: ولماذا كليوباترا إن لشوقي روايات كثيرة مثل مجنون ليلى وعنترة وعلى بك الكبير، وقنبز، فإذا شئت أن تحضر لي هذه الروايات، وأن نقرأها معاً بإمعان، وسترشدني إلى ما يخفى عليّ من المعاني والأساليب فإني بعد استيعاب المضمون الشعري سأختار من كل رواية من أصلح للقيام بدورها بعد استشارتك، وأقوم بالتمثيل في البهو الكبير لك وحدك، وهذا ما أعتز به، ورحب طاهر بالفكرة، وبادر بإحضار مسرحية مجنون ليلى، فوجدت شخصية ليلى إيقاعاً رنانًا في نفس أميرة، وأعادت لها عهد التلميذة، فحفظت كل ما جاء على لسان ليلى مع كثرته، حفظته في لذة وشوق.. حتى المقطوعات الغنائية رأت أن تشدو بها إذ ساعدها صوتها الجميل على تلحينها، وبهر طاهر بفن الزوجة، وجعل يرسل من عبارات الثناء صادقاً ما كان له أقوى الأثر في شدة ارتباطها به، ثم نقل إلى التفتيش تاركاً المدرسة، فتلكأ أولاً في الاستجابة إلى الترقية، لأنها ستجعله يدور بين مدن المحافظة، وقد يبيت ليلة أو ليلتين خارج العاصمة، فتبقى أميرة وحدها، ولا أنيس لها سواه، ولكنها هونت الأمر عليه، واقترحت أن تأتي أختها معها إذا تحتم أن يغيب، وهي على استعداد تام لأن تكون معها، وأصبح طاهر مفتشاً يعود من عمله ليحكي لها ما رآه من نجاح أو قصور لدى المدرسين، وقد فهمت من حديثه أنه يلتفت إلى المآخذ، فرأت أن تقترح عليه أن يعطي المحاسن نصيبها التام من التقدير، وأن يشمل المقصر بعطفه الأبوي لينهض مستجيباً إلى توجيهه في ظل من الحب والإخلاص، وراقت الفكرة لديه، فأصبح ذا منزلة مرموقة بين المدرسين، وعلى حين كان مفتشو المواد الأخرى في صراع مع بعض المدرسين قد ينتهي إلى الشكوى للرؤساء في مديرية التربية والتعليم لم تصدر شكوى واحدة بشأنه! إذ تحدث بذلك إليها مسنداً الفضل إليها في اقتراحها العطوف، وقد رزقت بطفلة أصبحت شغلها الشاغل وموضع الحديث الحلو بين الزوجين، إذ جعلا يتحدثان عما ينتظرها من مستقبل يرسمان خطواته من الآن، ومهما كان من شأن فقد مرت الأيام سعيدة دون تكدير، وأحس طاهر أن مأساة والده التي عاقته عن الزواج المبكر، لم تكن قياساً عاما على الزوجات، فضحكت وقالت له في ملاطفة: إني أشكر هذه المأساة شكراً جزيلا لأنها أخرت موعد زواجك حتى التقينا في المدرسة فكان أسعد حظ في حياتي. ونهض طاهر إليها مقبلاً، إذ وجد في حلاوة الرد، ما أقنعه بمكانته لديها.

وهذا ما يرتجيه، على أن الزمن لا يصفو، فلازال النحس والسعد يتعاقبان على الملأ.. كما يتعاقب الليل والنهار، فقد أحس طاهر بعد خمسة عشر عاماً من الهناءة الراغدة، ببوادر مرض ظهرت عليه أعراضه في الخمسين، وتخوف أن يدهمه الموت فجأة، فذهب سرا دون أن يخبر زوجته إلى شركة الحديد التي يضع فيها أسهمه المالية، وجعلها باسم الزوجة كيلا تلاقي عنتاً، إن وقع المحظور، وكان هذا العمل منبئاً عن حب خالص تشتعل به جوانحه نحو الزوجة الحبيبة، وقد علمت به بعد أيام فبكت كثيراً، وبلغ من تأثرها أن وقعت على الأرض، ولم تستطع الحراك إلا بعد جهد.

بلغ الكتاب أجله، فكانت محنة قاسية قابلتها الزوجة بالفزع الشديد، حتى استطاع من حولها أن يعيدوا إليها بعض الصواب، وفي غمرة هذا الحزن تقدم

مدرس سابق بالمدرسة التى كانت أميرة طالبة بها، يعلن أسفه الشديد على وفاة أعز أصدقائه، ويؤكد أنه سيلازم المنزل بعد رحيله لقضاء ما يلزم إكراماً لذكرى الراحل، وقد لاحظت أميرة غرضاً مستتراً فى هذا العرض المشبوه، فقالت له: أنت غريب، وحولى أخوتى وأقاربى، ولا أريد أن أكون محل انتقاد حين يرى الناس شخصاً أجنبياً يتردد علىّ دون مبرر، وعلى غير رغبة منى. فقال فى سماحة: إن المنزل فسيح وبقاءك فيه وحدك، يخلق لك متاعب كثيرة، فقالت له فى حسم: لن أبقى وحدى! ثم سارعت فاستدعت أسرتى أخيها وأختها، لأن والدها قد انتقل إلى جوار ربه من قبل، وطلبت أن يسكن الجميع معها، كل أسرة لها شقة خاصة فى الطابق الأول، ودهش المدرس الوصولى حين مر بالبيت من الخارج، فرأى البيت عامراً بالوافدين، وتقرب من البواب ليسأل البواب عن هؤلاء، فغضب فى وجهه وكان ذا شباب وفتوة، وأعلن أن السيدة أميرة قد طلبت منه عدم السماح له بزيارة المنزل مرة ثانية، فانكفأ مقهوراً ذليلاً.

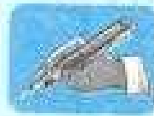
كانت أميرة ذات همة ومروءة، وقد وجدت لديها من المال ما يكفى لسعادة الأسرتين الوافدتين فأغدقت عليهما ما لم يكونا يحلمان به، وظهر الأحياء من تلاميذهما فى مظهر جديد ملبساً ومأكلاً ومسكناً، واعتبرت كلاً منهم ابناً لها، وهى مغتبطة بما تؤديه من عطف تراه حقاً واجباً، وزاد عطفها فامتد إلى أسرتى البواب والبستانى، فكان الرجلان يحملان يومياً من الطعام الهنىء ما يسعد أسرتيهما، وشعرت أميرة أنها مستريحة الخاطر هانئة البال بما تفعل، وقد أطلق عليها البواب وصف «ست الكل» يناديها به، فأصبح كل من بالمنزل لا يناديها إلا بهذا الوصف، وقد حاولت رفضه من أسرتى أخويها، ولكن الجميع كبيراً وصغيراً أصر عليه وقالوا إنه وصف حقيقى لا مبالغة فيه، وفى ليلة من ليالى الشتاء شعرت أميرة بمرض عارض فارتج المنزل ارتجاجاً، وهرع أبناء أخويها للطبيب، فجاء على عجل، ثم أخذوا الروشتة فداروا بها فى شوارع العاصمة بحثاً عن صيدلية لم تغلق أبوابها فى الليل، وما اطمأنوا حتى كان الدواء فى حجرة المريضة، وأصروا على أن يبيتوا معها فوق البساط، حول السرير جميعاً، تلمساً لأدنى إشارة تصدر منها، فقالت فى نفسها: لو كنت وحيدة فى هذا المنزل وباغتنى الداء ماذا كنت أصنع، وجعلت تحمد الله على توفيقها الكريم.

وانقضت الأيام فى سعادة، فالمال موفور، والأقارب رهن الإشارة، وأميرة فى المنزل ملكة غير متوجة، والبواب والبستانى يستشعران الرضا والأمن فى كنف ذات كرم وإسعاد، فهى ست الكل بجودها الفياض، وكرمها الجزيل.

ليت هذا النمط العالى من السيدات يكثر بين الناس! بل ليت البخلاء يعرفون أنهم فى ضلالهم يعمهون!

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾

بالعمل تنهض الأمة



للمستشار حسن حسن منصور
نائب رئيس محكمة النقض

إذا كانت الحركة من طبائع المخلوقات النافعة فى الحياة، فإن الإنسان له منها الحظ الوافر، به يسعى فى مناكب الأرض، لتحصيل الرزق المفيد له ولغيره من خلق الله، ويعد قيام الإنسان بالعمل من أهم مظاهر هذا السعى فى الأرض، استجابة لأمر الله، فى قوله تعالى:

﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ «الملك: ١٥».

والمبدأ العام الذى يحكم هذا العمل، هو الاستجابة لأمر الخالق جل شأنه، الوارد فى قوله تعالى:

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ «التوبة: ١٠٥».

ونظراً لأهمية قيمة العمل فى حياة كل من الفرد والمجتمع فإننا نتناول هنا جانباً من فقه بعض المهن، التى تباشر هذه الأعمال، وذلك كالتالى:-

نماذج لمهن أشار إليها القرآن الكريم

باستقراء آيات الكتاب العزيز، نلحظ أنه وردت به إشارات واضحة، عن بعض

المهن المتنوعة فى الحياة، التى تقدم نوعاً من الخدمة للفرد والمجتمع على السواء، ومن هذه الإشارات على سبيل المثال :-

١- بناء السفن : وقد أشار إلى ذلك قول الحق تعالى، فى أمره لسيدنا نوح عليه السلام :

﴿ واصنع الفلك بأعيننا
ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون
ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ﴾

«هود: ٣٧، ٣٨»

٢- رعى الغنم: كما أشار إلى ذلك قول الحق تعالى، على لسان سيدنا موسى عليه السلام، عندما سأله الله عما بيده، قال :

﴿ هى عصاى أتوكؤا عليها
وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى ﴾

«طه: ١٨»

وكما روى البخارى والبيهقى فى سننه عن أبى هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «ما بعث الله نبياً، إلا رعى الغنم، فقال أصحابه وأنت؟ فقال: نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة».

٣- صناعة الدروع وغيرها: كما أشار إليها قوله تعالى عن كل من سيدنا داود وسيدنا سليمان عليهما السلام:

﴿ ولقد آتينا داود منا فضلا
يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد ۝ أن اعمل
سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا إنى بما تعملون
بصير ۝ ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر
وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن
ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ۝
يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب
وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا ﴾

«سبأ: ١٠-١٣»

٤- صناعة الطوب الآجر: كما أشار إليها قوله تعالى:

﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله
غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى
أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين ﴾

«القصص: ٣٨»

وقد روى ابن المنذر عن ابن جريج قال: فرعون أول من أمر بصنعة الآجر وبنائه.

٥- السقاية والعمارة: بمختلف أعمالها من بناء الحوائط وطلائها ونظافة وغيرها: كما أشار إليهما قوله تعالى عن أهل مكة:

﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد
الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل
الله لا يستوون عند الله ﴾

«التوبة: ١٩»

بعض القواعد العامة
التى تحكم هذه المهن

يمكن الإشارة إلى بعض هذه القواعد، كما وردت فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، على النحو التالى :-

أ- اختيار أفضل الأعمال :

كما روى الديلمى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «أفضل الأعمال الكسب من الحلال»، وذلك لأ طلب الحلال فريضة بعد الفريضة، كما روى عن الرسول ﷺ فى حديث آخر قوله: «إن الله يحب أن يرى عبده، تعباً فى طلب الحلال»، وقال حجة الإسلام الغزالى: إذا كان الرجل معيلاً محترفاً، فقام بحق العيال فكسب الحلال، فإنه يكون أفضل من العبادة البدنية، لكنه لا ينبغى أن يخلو وينفك عن ذكر الله تعالى.

كما روى البيهقى فى شعب الإيمان عن الإمام علي - كرم الله وجهه -، أن رسول الله ﷺ، قال: «أزكى الأعمال، كسب المرء بيده».

ب- القدرة علي العمل:-

وهي قدر الطاقة، كما أخبر الرسول ﷺ، فيما رواه الطبرانى عن عمران بن حصين رضى الله عنه، أنه قال: «عليكم من الأعمال بما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا»، وفى رواية أخرى عند مسلم ولفظها: يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دوم عليه وإن قل، وإن كان آل محمد إذا عملوا عملاً أثبتوه، وفى رواية ثالثة عند البخارى عن عائشة رضى الله عنها، أن النبى ﷺ دخل عليها وعندها امرأة، فقال: من هذه؟، قالت: فلانة تذكر من صلاتها، فقال: مه عليكم من الأعمال بما تطيقون، فوالله لا يمل الله، حتى تملوا، أى: الزموا ما تطيقون الدوام عليه بلا ضرر، ولا تحملوا أنفسكم ما لا يطاق من العمل لما فيه من مشقة، أو يخل الاشتغال به بالعلم، لأن الاشتغال بالعلم من أفضل الأعمال، قال البيضاوى: الملل فتور يعرض للنفس، من كثرة مزاولة شيء معين، فيورث الكلال فى الفعل والإعراض عنه.

ولفظ الأعمال جاء فى الحديث عاماً، يشمل كل أنواع العمل، التى يقوم بها الإنسان، سواء كانت من أعمال الدنيا أو الآخرة أو هما معاً، وحتى ولو كان سبب هذا الحديث، أعمال العبادة، ولكن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

إتقان العمل ضرورة

من أهم عناصر القيام بأى عمل، أن تتوافر له مقومات حسن الأداء، وهو اتقان العمل، حتى يحصل العامل على المقابل المناسب لقاء قيامه به، وقد تضمنت مبادئ شريعة الإسلام، ما يكفل تحقيق التوازن بين هذين العنصرين، وذلك كما روى البيهقى فى سننه عن السيدة عائشة -رضى الله عنها- أن رسول الله ﷺ، قال: «إن الله

يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه»، وفي رواية عند مسلم والترمذي عن السيدة عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ، كان إذا عمل عملاً أثبته.

والمقصود بالإتقان في هذا الحديث، هو إحسان العمل بقصد نفع خلق الله، ولا يعمل على نية: قدر العمل وحده، أى أنه إن لم يعمل ضاع، ولا على مقدار الأجرة، بل على حسب إتقان ما تقتضيه الصنعة، وذكر بعض العلماء: أن المراد بالإتقان الإخلاص، لما ورد في رواية أخرى لهذا الحديث ولفظها: «إن الله لا يقبل عمل امرئ حتى يتقنه، قالوا: يا رسول الله: وما إتقانه؟، قال: «يخلصه من الرياء والبدعة».

كما روى من أن صانعاً عمل عملاً، تجاوز فيه ودفعه لصاحبه، فلم ينم ليلته، كراهة أن يظهر من عمله أنه غير متقن، فشرع في عمل بدله، حتى أتقن ما تعطيه الصنعة، ثم غدى به لصاحبه، فأخذ الأول وأعطاه الثاني، فشكره، فقال: لم أعمل لأجلك، بل قضاء لحق الصنعة، كراهة أن يظهر من عملي عمل غير متقن، فمتى قصر الصانع في العمل لنقص الأجرة، فقد تنكر لما علمه الله، وربما سلب الإتقان.

ومن أفضل أنواع شكر النعمة، ما كان بالعمل، وذلك عندما يسبغ الله تعالى نعمة معينة على العبد، فيكون شكرها بإتقان العمل المكلف به، فمثلاً: من رزقه الله وظيفة مرموقة، فالشكر العملي لهذه النعمة، هو إتقان الأعمال التي تقتضيها هذه الوظيفة، فيكون العمل هذا بنية الشكر، وهذا ليس بالأمر اليسير على كل العباد، بل أهله قلة بين الناس، كما أشار إلى ذلك قول الحق تعالى مخاطباً آل داود:

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾

(سبأ: ١٣)

دفع الأجرة للأجير فور إتمام العمل

كما روى الدارقطني بسنده عن ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ، قال: «إذا استأجر أحدكم أجيراً فليعلمه أجره»، وفي رواية أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأعلمه أجره، وهو في عمله «أى أثناء القيام بالعمل. أى أن المستأجر يجب أن يبين قدر أجرة الأجير وقدر العمل، ليكون على بصيرة ويكون العقد صحيحاً، لأن من أركان الإجارة ذكر الأجر وكونها مقدرة، وقد روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، نهى عن استئجار الأجير، حتى يبين له أجره.

ويجب على المستأجر أن يسارع في الوفاء بالأجرة المقدرة للأجير، لما رواه البيهقي في سننه عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ، قال: «أعطوا الأجير أجره، قبل أن يجف عرقه»، لأن أجره عمالة جسده، وقد عجل منفعته، فإذا عجلها استحق التعجيل، ومن شأن الباعة إذا سلموا قبضوا الثمن عند التسليم، فهو أحق وأولى، فيحرم مطله والتسويف به مع القدرة، فالأمر بإعطائه قبل جفاف عرقه، إنما هو كناية عن وجوب المبادرة عقب فراغ العمل، إذا طلب وإن لم يعرق أو عرق وجف.

وقد روى البيهقي في السنن عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ، قال: «انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم، حتى أووا المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت عليهم صخرة من الجبل، فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة، إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، ..... إلى أن ذكر: وقال رجل منهم: اللهم إني استأجرت أجراء، فأعطيتهم أجرهم، غير رجل واحد ترك الذي له، وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين، فقال: يا عبدالله أعطني أجري، فقلت له: كل ما ترى من أجرك، من الإبل والبقر والغنم والرقيق، فقال: «يا عبدالله لا تستهزئ بي فقلت: إني لا أستهزئ بك، فأخذه كله، فاستاقه، فلم يترك منه شيئاً، اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون».

كما روى البخاري والإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً!!، فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً، فاستوفى منه، ولم يعطه أجره». لأنه استوفى منفعته بغير عوض واستخدمه بغير أجرة فكأنه استعبده.

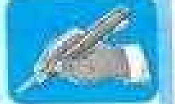
التطبيق العملي لفقه العمل والمهن

عملاً بالمصلحة المرسلة كأحد مصادر الشريعة الغراء، فقد تدخل المشرع القانوني، ونظم علاقات العمل في المجتمع، سواء في مجال الوظيفة العامة، بإصدار القوانين واللوائح التي تنظم علاقة الموظف العام بالدولة ومؤسساتها وإداراتها العامة، ووحدات الإدارة المحلية وغيرها، وفي مجال المهن الحرة أصدر قوانين العمل المتعاقبة، وآخرها إصداراً كان القانون رقم ١٢ لسنة ٢٠٠٣، الذي يقرر في أحكامه العامة، أن العامل هو: كل شخص طبيعي يعمل لقاء أجر، لدى صاحب عمل وتحت إدارته وإشرافه، وأن صاحب العمل هو: كل شخص طبيعي أو اعتباري يستخدم عاملاً أو أكثر لقاء أجر، وأن الأجر هو: كل ما يحصل عليه العامل لقاء عمله، ثابتاً كان أو متغيراً، عيناً أو نقداً، وغيرها من الأحكام التفصيلية في هذا القانون لعقد العمل وحقوق وواجبات العمال..

والله تعالى ولي التوفيق



التأصيل الإسلامى للمنهجية العلمية



للأستاذ الدكتور / أحمد فؤاد باشا
أستاذ الفيزياء بجامعة القاهرة

يهتم المؤرخون بعامة، وفلاسفة العلم والحضارة بصورة خاصة، اهتماماً كبيراً بتاريخ العلوم الكونية وتقنياتها وفلسفاتها، للتعرف على نصيب كل ثقافة، أو حضارة، من هذا الرصيد الذى أفرزه النشاط الإنسانى عبر العصور، وأيضا لإلقاء المزيد من الضوء على قضية التأصيل لنظرية العلم ونشأته، وعلى الجدل الدائر بين الباحثين حول الإجابة عن أسئلة أين ومتى وكيف نشأ العلم، وتكونت «بذرة» المنهجية العلمية فى فكر الإنسان؟!.. فهناك من يرى أن العلم لا يمكن إلا أن يكون غربيا، وأن الجنس الآرى هو وحده من بين أجناس البشر المؤهل لحمل رسالة العلم والتقدم العلمى، وأن عبقرية الإغريق هى صاحبة الفضل الأول فى ابتداع العلم والتفكير العلمى، وأنصار هذا الرأى هم الأعلى صوتا والأكثر جلبة، وإن كانوا أضعف حجة وأقلّ إقناعاً.

وهناك من يرى أن فجر العلم ومنهجيته قد بزغ فى بلاد الشرق القديم، وأن كل الحضارات قد تفاعلت وشاركت فى زرع شجرة العلم التى تجنى البشرية ثمارها اليوم، فكل أمة من الأمم لها دورها فى صنع تاريخ العلوم على مر العصور، ومن ثم فإن التقدم العلمى ليس احتكاراً لجنس دون جنس، أو موطن دون موطن. وأصحاب هذا الرأى هم الأخفض صوتاً، وإن كانوا هم الأقوى حجة، والأكثر إقناعاً.

وحكاية القصة من بدايتها يمكن أن تساعد على وضع الحقائق فى نصابها المقبول عقلياً، والممكن تاريخيا ومنطقيا، وذلك بالرجوع إلى أساس صحيح من الفطرة الإنسانية النقية، وفطرة السنن الكونية، والوحى الإلهى عن طريق النبوات الأولى، وفى ضوء النصوص المقدسة من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، سواء فيما يتعلق بعالم الغيب أو عالم الشهادة. عندئذ فقط سوف يظهر أن أولية المنهجية العلمية ونشأة العلم كانت منذ خلق آدم عليه السلام، مفطورة فى كينونة الإنسان، وأن التفكر والتدبر وإعمال العقل الراجح وصولاً إلى معرفة الحقيقة، هى من أهم خصائص الفكر الإنسانى ونشاطاته، ومن أهم الأدوات المعينة لإنسان الاستخلاف على أداء رسالته الحضارية فى إعمار الحياة على الأرض حتى تأخذ زخرفها، وتستكمل زينتها، وتتحقق حكمة الله من خلقه وخلقها.

أولا: بداية المنهجية فى الفطرة الإنسانية

يحدثنا القرآن الكريم بأن العلم قرين الإنسان منذ خلقه الله ـ تعالى ـ ونفخ فيه من روحه، وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد امتنّ على العباد بنعمة الخلق والإيجاد، وامتن عليهم بتكريم آدم ـ عليه السلام ـ وتعظيم شأنه، وشرّفه على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شىء دونهم، ولا شك أن الإحسان إلى الأصل إحسان إلى الفرع، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء، قال تعالى فى كتابه الكريم:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

(البقرة: ٣٠ ـ ٣٣)

وقد جاء فى التفسير أن الله تعالى علم آدم الأشياء كلها: ذواتها وصفاتها وأفعالها، والحاصل أن الله تعالى أظهر فضل آدم للملائكة بتعليمه ما لم تعلمه الملائكة، وخصّه بالمعرفة التامة دونهم[1]، وبما أودع فيه من طبيعة عارفة أو عالمة، وبما زوده من استعدادات وقدرات لاكتساب العلم.

كذلك امتن الله ـ سبحانه وتعالى ـ على الإنسان، بعد أن خلقه وسوّاه فى أحسن تقويم وأبهى صورة من الجمال والكمال، كما قال سبحانه:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾

(سورة التين: ٤)

وقال:

﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾

(التغابن: ٣)

امتن عليه بأن مكنه من بيان ما فى نفسه من أفكار بالمنطق الفصيح، ومن فهم بيان غيره، وميزه بذلك عن الحيوان الأعجم، وهيأه لتلقى العلوم وحمل أمانة الاستخلاف فى الأرض. قال تعالى:

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾

(الرحمن: ١ ـ ٤)

وقد جعل الله ـ تعالى ـ أسباب هذا البيان وأدواته فى جسم الإنسان ذاته، حيث يوجد مركز النطق فى المخ، وتوجد أجهزة النطق فى الرئتين

(١) مختصر تفسير ابن كثير، ج ١، ص ٤٩ ـ ٥٢، صفوة التفاسير، ج ١، ص ٣٤، ط ١ (١٩٨١ م).

والقصبة الهوائية بشعبها، والحنجرة واللهاة واللسان والشفتين والفكين والأسنان. فكل هذه الأدوات تشترك فى النطق والكلام المعبر عن الأفكار، ويعمل كل من السمع والمخ والأعصاب فى ترجمة هذا النطق إلى معان تفهم ويستجاب لها بالإيجاب أو النفى.

وهكذا نرى من بديع صنع الله فى خلق الإنسان وتكوينه وتقويمه إياه، أن غرس فيه ملكة التفكر وحب المعرفة، وأنطقه بالكلام المنظوم، وميزه بالقدرة على التعبير والإبانة والمحاورة بلسان فصيح، لتكون هذه الخصائص وسيلة تعارف واتصال بين البشر، وتكون هذه الأجهزة من أدوات التعبير عما ينجزه الإنسان من علوم ومعارف ومدنية وعمران. لقد أعد الله الإنسان وأهله لما أراده له من مكان كريم، خليفة له فى أرضه، وميزه فى الخلق بدماغه الراقى ولسانه الناطق ويده الصناع، وحواسه وملكاته الإدراكية المختلفة. واجتماع هذه المزايا قد مكّن الإنسان من النقش والحفر والكتابة (التدوين)، ومن ثم أمكنه تسجيل إنجازاته الحضارية بالوسائل المتتابعة التطور. وهذا هو الذى جعل مسيرة الحضارة الإنسانية تراكمية متنامية.

أيضا، ميز الله الإنسان بالعلم المكتسب بعد الولادة،، والمتزايد دائما من خلال عملية تصحيح مستمرة لمسيرته، وصولاً إلى كشف الحقائق المبثة فى الآفاق وفى الأنفس. فالإنسان يولد فى هذه الأرض لا علم له بشىء من هذا الكون على الإطلاق، وتدفعه فطرته النقية إلى التفكير وتحصيل العلم والاستفادة من تطبيقاته وتقنياته، ووسائله فى ذلك نعمة التفكير والبيان، ونعمة الحس والعقل وباقى الملكات الإدراكية، وقبل هذا كله توفيق الله وهدايته. قال تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(النحل: ٧٨)

وقال:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(فصلت: ٥٣)

وقال:

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾

(طه: ١١٤)

لهذا لم يكن الإنسان فى أى مرحلة من مراحل تاريخه بعيداً عما يمكن اعتباره ممارسة لعملية التفكير واستخدامه فى التغلب على مصاعب البيئة التى كان يعيش فيها. وبمرور الزمن استطاع الإنسان بالفطرة والخبرة وإعمال العقل (التفكير) أن يصل تدريجيا إلى قدر من المعرفة العلمية التى أفاد منها فى التمييز بين الموجودات ومحاولة التعامل معها. فهو عندما اهتدى إلى إيقاد النار من تطاير الشرر الذى يحدثه احتكاك الأحجار بقوة، نجده قد استخدم هذه النار للدفء، وطهو الطعام، وإنارة الكهوف التى سكنها. وعندما رأى الحجارة الكبيرة تحدث أثرا فى الأجسام والأشياء عند ارتطامها بها أو سقوطها عليها، نجده قد تعامل معها بجرها ونقلها ليتخذ منها أدوات يستخدمها فى القطع والشق والثقب وصناعة الأسلحة البدائية التى يدافع بها عن نفسه، ثم اكتشف صقل المعادن وروض الحيوانات وعرف العدّ وتبادُل المنفعة وبعض وسائل القياس.

ولا ريب أن هذا النوع من التفكير فى تلك المرحلة البدائية كان ساذجاً وعفوياً ومشوبا بالأوهام والخرافات، لكنه كان ضروريا لمساعدة الإنسان على تفسير الظواهر التى يراها ويتعامل معها، بعد أن لاحظ تجانس العالم الذى يعيش فيه، واسترعى انتباهه تواتر الظواهر الطبيعية أمام عينيه، وأحرز شيئاً من التقدم فى الاستفادة من تلك الظواهر.

وعندما استطاع الإنسان أن يميز بين مناطق الأرض المختلفة، ويختار أنسب الأماكن التى تصلح للزراعة والسكن والإنتاج، لجأ إلى التمركز وتنظيم نفسه فى مجتمعات وشعوب، وبدأ فى تشييد الحضارات المختلفة، وأدرك أهميته على الأرض، وشعر بالحاجة إلى تدوين أفكاره ومعارفه خوفاً عليها من الضياع.. وبدأ التاريخ معه فى تسجيل نجاحاته وإنجازاته، والانتقال مع حضاراته من أرض إلى أرض، ومن أمة إلى أخرى. وكانت الأنهار الكبرى وشواطئ البحار بصورة عامة هى التى تثير طمع الإنسان وتغريه بما تدره خصوبة الأرض ووفرة المياه من خيرات، فيهاجر إليها ويتمركز حولها، أو بالقرب منها.. ثم يشرع فى تطوير أسباب الحياة من حوله مبتدئا بالزراعة والتجارة لاستيفاء ما ينقصه من وسائل العيش، ثم يتجه تفكيره إلى مختلف المظاهر الحضارية الأخرى، من سياسية واجتماعية وثقافية وعلمية وغيرها، فيعمل على تطويرها والارتقاء بها.

منهجية التفكير إذن مطبوعة فى الإنسان منذ خلقه الله سبحانه وتعالى، ليس فقط باعتبارها حاجة فطرية تدفعه إلى البحث وراء ما يسدّ به حاجته، ويكفى ضرورته، ولكن أيضا باعتبارها حاجة عقلية ينظم بها حياته ويرقيها، ويطور بها علومه ومعارفه ليحقق من خلالها فهماً أفضل لطبيعة الأشياء والظواهر التى يتعامل معها، ولطبيعة العلاقة بينه وبين غيره من بنى جنسه، والعلاقة بينه وبين الكون الذى يعيش فيه [2].

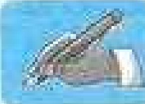
إن بداية حركة العقل فى الأشياء على نحو يمت بصلة إلى العلم وإلى التفكير العلمى إنما ترجع إلى انفراد الإنسان -عن غيره من المخلوقات- بالمقدرة على التعبير عن الأشياء بعد تمييزها، ويكون ذلك بشيء من القياس الفطرى يكون به التدرج من إدراك الأخص إلى معرفة الأعم،، وقد كانت اللغة بطبيعة الحال هى بداية التدرج الفطرى المطبوع فى طريقة التفكير العلمى، مثلما يكون الإيمان الخالص بالخالق الواحد -سبحانه وتعالى- هو الأساس لفهم حقائق الكون والحياة على أنها من عند الله، فهو الحق المطلق ومصدر كل الحقائق المعرفية فى هذه الحياة [3].

«يتبع»

(٢) اعتمد بعض الفلاسفة فى تقسيمهم لنظرية المعرفة على ما اسموه «القوة الفطرية» فى الإنسان، فيقول «ديكارت» فى معرض تقسيمه للأفكار عموما: «هذه الأفكار يبدو بعضها مفطوراً فىّ، وبعضها غريبا عنى ومستمداً من الخارج (أى مكتسب)، والبعض الآخر وليد اختراعى، فمن حيث أن لى قوة على تصور ما يسمى على العموم شيئاً، أو حقيقة، أو فكرا، يبدو لى أنى لم أستمد هذه القوة إلا من جبلتى وفطرتى الخاصة» (راجع رينيه ديكارت، التأملات فى الفلسفة الأولى، ترجمة: عثمان أمين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٤م).

(٣) د. أحمد فؤاد باشا، فى التنوير العلمى، دار الفكر العربى، القاهرة ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م.

فضل الحضارة الإسلامية على النهضة فى العالم المعاصر



للأستاذ / عاطف مصطفى

تحرص عدد من الجامعات الإسلامية الآسيوية على ارتباطها بالأزهر الشريف، ولدينا نموذج هو جامعة دار السلام بإندونيسيا، والتى يصل عدد المسلمين بها نحو ٢٥٠ مليون نسمة، لو تأملنا عدد طلابهم بالأزهر لوجدناهم من أكبر الجاليات الإسلامية ويصل عددهم إلى ستة آلاف طالب وطالبة.

وتتميز الجامعات فى الدول الآسيوية بشكل عام بالاهتمام الكبير بالبحث العلمى ؛ مما حدا بتلك الدول أن تحقق نهضة فى صناعة البرمجيات وعدد من الصناعات الثقيلة التى أقبلت عليها أوروبا، وهذا ما يدعونا للتقارب مع تلك الجامعات المتميزة، وتبادل البرامج معها، خاصة وأن بعض الجامعات الأوروبية لا تتيح هذه المعارف للباحثين من الدول الإسلامية.

هذا التقارب الذى ننشده بدأ بمؤتمر عقد فى منتصف يناير الماضى فى إندونيسيا بعنوان: (الجامعات الإسلامية وبناء التقاليد العلمية مع الجامعات الآسيوية)، تناولنا بعض فعالياته فى العدد الماضى، ولكن لفت نظرى محور مهم نلقى عليه الضوء ويتناول القيم المشتركة والقواسم المشتركة بين الحضارة الإسلامية والحضارتين الكونفوشيوسية والبوذية..

حيث يشير الدكتور رأفت غنيمى الشيخ، أستاذ التاريخ المعاصر، فى بحثه (نموذج للحضارة الإسلامية فى آسيا)، إلى تميزت حضارة دول وشعوب الشرق الأقصى بتأثير العقائد الوصفية البوذية والكونفوشيوسية.

ويسوق نموذجاً للحضارة الإسلامية باعتبارها حضارة إنسانية موحدة، تأخذ به جامعات الدول الآسيوية، وبخاصة فى الشرق الأقصى ؛ حيث يبين الدكتور حسين مؤنس عن الحضارة: أنها ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء أكان هذا المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصودا، أم كانت الثمرة مادية أو معنوية.

قواسم مشتركة

كما بيّن الدكتور ناجى هدهود، أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، فى بحثه المهم، أن الحضارات تعاقبت على مر التاريخ، ونجد تشابهاً بين أهل هذه الحضارات فى نواح عدة، وكذلك نجد قواسم مشتركة بين الحضارة الإسلامية وحضارة الشرق وجنوب شرق آسيا، وخاصة فى الحضارتين الكونفوشيوسية والبوذية.

ولو تناولنا القواسم المشتركة بين هذه الحضارات، نقول بداية: إن السبب الرئيسى الذى جعل الحضارة الإسلامية فريدة من نوعها إلى العقيدة الإسلامية.

فلقد جلب الفاتحون العرب معهم الإسلام الذى كان عاملاً حاسماً فى عملية الخلق الحضارى، الذى كان يشكل أساساً إنجازاً عربياً خالصاً، وتتجلى هذه الأهمية حينما نتذكر عدد الفاتحين الأجانب الذين امتصهم الشعب الذى أخضعوه، فالغزاة المتتابعون للصين، من أمثال المغول، تحولوا فى نهاية الأمر إلى صينيين لغة وثقافة، فما كان يصعب معهم تفريقهم تقريباً عن رعاياهم.

ولكن الفتح العربى كان إسلامياً وعسكرياً فى آن واحد معاً ؛ فقد وقف حائلاً ضد هذا النوع من التشتت الحضارى.

الإسلام إطار شامل للحياة الإنسانية

كما أوضح الدكتور هدهود الفرق بين الديانات الثلاث بقوله: لقد صور الإسلام نفسه كإطار للحياة الإنسانية شاملاً لكل شىء ويأمر بإيجاد الحلول للمشكلات التى تتعرض لها الأمة، ويعمل الدين الإسلامى من أجل الحياة والآخرة معاً.

والديانة البوذية تأمر بالتقشف والبعد عن الدنيا والشهوات، كما تدعو إلى عدم الاكتراث بالحياة وما فيها، حيث يقول بوذا: يكفى البوذى حبة أرز لطعامه اليومى، ولا يقبل على كثرة الولادة، ويأمر بنبذ المرأة ؛ لأنها سبب الولادة، وتكون من هذا السبب الأكثر فى الألم للحياة الإنسانية.

أما الكونفوشيوسية فتقوم على أساس الرحمة والحكم الرحيم، واهتمامها هو العلاقة بين التهذيب الذاتى والسياسة الاجتماعية والوعى الأخلاقى والالتزام بمعيار الأخلاق الإقطاعية والبعد عن الرغبة الذاتية.

ومن ناحية ذيوع الحضارة وشهرتها إلى خارج مكانها ؛ فإننا نجد اختلافاً بين الحضارات الثلاث، فالحضارة الإسلامية فاقت الحضارتين فى انتشارها، وذلك مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾

(التوبة: ٣٣)

الحضارة الإسلامية

وعقيدة التوحيد للإله الواحد

وتعتبر البوذية فى الهند والصين أكثر أتباعاً، واتفق الباحثون فى تاريخ الأديان والعقائد أن سيرة بوذا لا تخلو من قصص خيالية وأساطير حيكت حوله منذ مولده حتى وفاته، حيث نسبوا إليه معجزات وكرامات.

كذلك صورت الكونفوشيوسية كونفوشيوس بأنه صاحب حكمة ويأمر بالرحمة وحب الناس لبعضهم بعضاً، وكان يقول: (لا تفرض على غيرك ما لا تحبه لنفسك).

لكن الحضارة الإسلامية قامت على أسس ومبادئ، أولها: عقيدة التوحيد للإله الواحد، وكان لها دور كبير فى تكوين منطقة دينية وسياسية واسعة، غرضها توحيد بلاد وشعوب مختلفة فى مملكة كبيرة، لينصهروا بعد ذلك فى الشعوب التى أخضعوها.

إن الحضارة الإسلامية، كما يشير د. ناجى عبدالباسط هدهود فى بحثه: (القواسم المشتركة بين الحضارة الإسلامية والحضارتين الكونفوشيوسية والبوذية)، ظاهرة طبيعية ليس فيها شذوذ أو خروج عن منطق التاريخ، فلم يكن بد من قيامها حين قامت، وقد قام العرب أصحابها بدورهم فى تقدم الفكر وتطوره بأقصى الحماس والفهم، وهم لم يكونوا مجرد ناقلين، كما قال بعض المؤرخين، بل إن نقلهم روحاً وحياة، وكذلك لم يكن ميكانيكاً، فهو أبعد ما يكون عن الجمود، ويرى كثير من الباحثين أن قيام العرب بشرح الفلسفة الكلاسيكية أمر جدير بالنظر والاعتبار، وهو أمر لا بد منه قبل أن تتهيأ العقول للتفكير العلمى.

ويضيف د. هدهود: وفوق ذلك لم يقف العرب عند حد الشرح، بل خرجوا إلى نسق جديد فى الفلسفة فى بعض بحوثها؛ ففلاسفة العرب قد نحوا فى البحث عن الوجود منحى مستقلاً غير تابع لتعلقهم بالقرآن، كما يقول (وولف)، ويميل مصطفى عبدالرازق إلى هذا الرأى ويرى فى القول: إن الفلسفة العربية صورة مشوهة من مذهب أرسطو ومفسريه، ظلماً وإجحافاً، وهذا الرأى قد تلاشى عند الكثيرين من الثقات العالميين، وقد ثبت لهم أن الفلسفة كيان ذو ميزات تميزه عن مذهب أرسطو ومفسريه، ففيها عناصر مستمدة من مذاهب الفلسفة اليونانية، غير مذهب أرسطو، وفيها عناصر هندية وفارسية، ثم إن فيها ثمرات عبقرية أهلها، ظهرت فى تأليف نسق فلسفى قائم على أساس من مذهب أرسطو مع تلافى ما فى هذا المذهب من النقص باختيار آراء من مذاهب أخرى وبالتخريج والابتكار، وفى العلوم خطوا خطوات فاصلة، فبعد أن اطلعوا على ما تركه القدماء، نقحوه وشرحوه وأضافوا إليه إضافات مهمة وأساسية تدل على الفهم الصحيح، وقوة الابتكار.

دور بارز للحضارة الإسلامية

يبين الباحث فى بحثه جهود العرب فى مجالات العلوم والرياضيات والفلك قائلاً: أما ما يميز العرب، فقد برعوا فى الرياضيات، وأجادوا فيها وأضافوا إليها إضافات أثارت إعجاب علماء الغرب وأدهشتهم، وقد اعترفوا بفضل العرب المسلمين وأثرهم الكبير فى خدمة العلم والعمران.

فلقد اطلع العرب على حساب الهنود، وأخذوا عنه نظام الترقيم وفضلوه على النظام الشائع بينهم، وهو نظام الترقيم على حساب الجمل، وكان لدى الهنود أشكال عديدة للأرقام، فهذبوا بعضها وكونوا من ذلك سلسلتين، عرفت إحداهما بالأرقام الهندية، وهى التى تستعملها هذه البلاد، وأكثر الأقطار الإسلامية والعربية..

وعرفت الثانية باسم الأرقام الغبارية، وقد انتشر استعمالها فى المغرب والأندلس، وعن طريق الأندلس دخلت هذه الأرقام إلى أوروبا وعرفت عندهم باسم الأرقام العربية.

وعن دور العرب فى الحضارة الإسلامية وازدهارها، يشير الباحث قائلاً: ليس المهم هنا تهذيب العرب للأرقام وإدخالها إلى أوروبا، بل المهم هو إيجاد طريقة جديدة لها، طريقة الإحصاء العشرى واستعمال الصفر لنفس الغاية التى نستعمله لها الآن..

ومن المرجح أنهم وضعوا علامة الكسر العشرى، والذى لا شك فيه أنهم عرفوا شيئاً عنه.

كما اشتغل العرب بالجبر، وأتوا فيه بالعجب العجاب، حتى إن (كاجورى) قال: إن العقل ليدهش عندما يرى ما عمله العرب فى الجبر، ولولا العرب لما كان علم المثلثات الآن، ولا يخفى ما لهذا العلم من أثر فى الاختراع والاستكشاف، وفى تسهيل كثير من البحوث الطبية والهندسية والصناعية.

كذلك نهضة العرب فى الفلك وفى الجغرافيا، ساعدت الحضارة على تقدمها، وصححت كثيراً من أغلاط بطليموس، وكشفت مناطق لم تكن معروفة فى بعض القارات.

ابتكارات الحضارة الإسلامية

يبرز الباحث فضل الدور الكبير للحضارة الإسلامية على العالم، حيث يشير إلى أن الحضارة الإسلامية أثبتت اتصالها بالعالم الخارجى، وأن العرب، قابلون لمسايرة الحضارات المختلفة، وابتكرت الحضارة الإسلامية كذلك علوماً كثيرة نذكر منها علم البصريات، وثبت أن (ليكر) أخذ معلوماته فى علم الضوء عن ابن الهيثم، وفى الكيمياء ابتكرت الحضارة الإسلامية وأضافت الجديد، مما جعل (يزتيلو) يقول عن جابر بن حيان: «لجابر فى الكيمياء ما لأرسطو فى المنطق».

ويرى (كمستون) أنه لو لم يكن للعرب وللمسلمين غير هذا الفضل فى علوم الطب لكفاهم خدمة وفخراً.

إن الحضارة الإسلامية تقوم على جانب دنيوى وآخر أخروى، وقد ظهرت للعالم بسماحة، والدليل على ذلك هو انتشارها فى مشارق الأرض ومغاربها، ولم تقتصر على أهل مكة والمدينة والعرب، بل وصلت إلى محطات البوذية والكونفوشيوسية، وذاع صيت العلماء المسلمين ونهضوا بما لم ينهض

به غيرهم، وشهد لهم بذلك من على غير ملتهم أو لغتهم.

والكونفوشيوسية قامت على مبادئ كلاسيكية غرضها نشر المحبة وتعليم الناس الرحمة، واقتصرت على الشعب الصينى ولم تتخطاه، وأغلقت نفسها على مجتمعها، وبسبب الكونفوشيوسية مازال الرجل الصينى والكونفوشيوسى، يحترم هذه المبادئ إلى الآن، وهو لا يحب الموت، بل الحياة عنده هى الأساس.

والدين الإسلامى بسماحته لم يرغم أحداً على الدخول فيه، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

حضارة روحية

ويخلص هذا البحث المتميز إلى أن كل أرض دخلها الإسلام وانتشر بين أهلها، الذين أصبحوا بناة أعظم حضارة عرفها المجتمع البشرى على مر التاريخ، باعتراف المؤرخ البريطانى (أرنولد توينبى)، بأن الحضارة الإسلامية باقية لأنها حضارة روحية تسعى لإسعاد الإنسان وقوته الروحية والمادية، لما فيه خير البشرية، بعكس الحضارة الغربية، مثلاً، التى وصفها (توينبى) بأنها حضارة مادية تعرضت لتدمير الإنسان الذى بناها فى حربين عالميتين فى القرن العشرين: هما الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية.

ومن هذا المنطلق يقول الباحث: استعرضنا الحضارة الكونفوشيوسية والحضارة البوذية فى آسيا بما أجزاه على الأرض، وفى نفوس البشر وعقولهم من مبادئ وأسس ميزت حياة الآسيويين، وانطلقت جهودهم لمزيد من التقدم الحضارى الذى لفت الانتباه إلى التجارب الآسيوية الناجحة اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وثقافياً.

وهكذا يمكن أن نحدد القواسم المشتركة بين الحضارة الإسلامية والحضارتين الكونفوشيوسية والبوذية فى آسيا فى النقاط الآتية:

أولاً: مبدأ الفضائل الأخلاقية والاجتماعية المتمثل فى إشاعة المحبة بين الناس، بصرف النظر عن انتماءاتهم العرقية أو الدينية، أو طبقتهم الاجتماعية أو اختلافاتهم الفكرية والسياسية.

كما يتمثل فى المبدأ الأخلاقى فى الدعوة إلى التمسك بالفضيلة فى السلوك الإنسانى، والبعد عن الرذائل التى تشين الجنس البشرى وتبعده عن الحياة الطيبة المطلوبة لمسيرة الحياة البشرية فى جميع المجالات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية.

كما يتمثل هذا المبدأ فى الحضارة الإسلامية والحضارات الآسيوية، فى الإخلاص وإتقان العمل المكلف به الفرد فى حياته وتعامله مع الناس عموماً، دون تفرقة تطبيقاً للحديث النبوى الشريف: (إن الله يحب إذا عمل عملاً أن يتقنه)[1] وهو مبدأ أخذت به الكونفوشيوسية والبوذية.

(١) المعجم الأوسط للطبرانى.

ثانياً: الإنتاج المؤدى للتقدم البشرى فى المجالات الاقتصادية والتعليمية والتكنولوجية، هذا الإنتاج الذى جعل من إندونيسيا وماليزيا من دول النمور الاقتصادية والسياسية الآسيوية، بل وجعل من الصين قوة اقتصادية وسياسية كبيرة، ونفس الشىء يقال عن اليابان وعن كوريا، وهذا التقدم فى الإنتاج انعكس أثره على شعوب هذه البلاد، لتنطلق إلى مزيد من الإنتاج، ولعل مقولة يابانية تذكر أن تفسير هذا التقدم يرجع إلى إرادة المواطنين لبناء بلدهم بمزيد من الإنتاج والإتقان، كما يرجع إلى إدارة الدولة لأمور الإنتاج والتوزيع العادل.

ثالثاً: التعليم والتعاليم من أهم القواسم المشتركة بين الدول الإسلامية فى آسيا (إندونيسيا وماليزيا)، والدول غير الإسلامية (تايلاند، الفلبين، كوريا، تايوان، اليابان، الصين)؛ لأن جميع هذه الدول وضعت التعليم فى مقدمة العوامل المهمة المسئولة عن التقدم.

وإذا كانت الحضارة الإسلامية قد أكدت على أن التعليم أساس بناء الفرد والمجتمع، فإن تعاليم كونفوشيوس وتعاليم بوذا اهتمت بالتعليم كأساس لبناء الفرد والمجتمع على أسس فلسفة كل منهما.

رابعاً: المجتمع الفاضل ركيزة من ركائز الحضارة الإنسانية، وقد اهتمت الحضارة الإسلامية ببناء المجتمع الفاضل.. وأشار القرآن الكريم فى أكثر من موضع إلى أهمية بناء المجتمع الفاضل المتمسك بالفضيلة والقيم الأخلاقية والدينية والاجتماعية، وكذلك السنة النبوية الشريفة، فإن كونفوشيوس وبوذا كانت أهدافهما بناء مجتمع فاضل تسود فيه القيم والفضائل التى تدفع بالفرد والمجتمع إلى النماء والاستقرار والسلام، وإذا كانت الحضارة الإسلامية تدعو إلى السلام بين بنى البشر، فإن تعاليم كونفوشيوس وبوذا تدعو أيضاً إلى إشاعة السلام والوئام لخير البشرية.

أخيراً.. فإن تماسك المجتمع فى ظل الحضارة الإسلامية ركن أساسى، حيث أكد القرآن الكريم ذلك فى قوله سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾

(الحجرات: ١٠)

وقال رسول الله ﷺ: (المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضاً)[2] ولعل أصدق مثل على هذا جمهورية إندونيسيا التى تتكون من ١٦ ألف جزيرة تسكنها عرقيات متعددة، ويتحدثون لغات محلية متعددة، ومع ذلك فقد أقاموا المجتمع المتماسك فى هذه الجزر، ونفس الشىء يقال عن دعوة كل من كونفوشيوس، وبوذا بتماسك المجتمع لمصلحة أفراد المجتمع والدولة تنفيذاً لتعاليم هذين الفيلسوفين.

(٢) صحيح البخارى، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع فى المسجد.

بين الصحف و المجلات

إعداد

أ/ محمد جمعة

أ/ علا عبدالرحمن

الثورة والتغيير

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ/ عبدالله حسن بجريدة «أخبار اليوم» الصادرة فى ١٩/٣/٢٠١١م يقول:

يخطئ من يعتقد أن الثورة تعنى تغيير المجتمع تغييراً جذرياً وشاملاً فى كل شىء؛ فلا يمكن أن يتغير مجتمع بأكمله بين يوم وليلة، صحيح أن التغيير هو سمة الحياة ودوام الحال من المحال، ولكن التغيير له أصوله وقواعده وضوابطه، خاصة عندما يتعلق الأمر بمجتمع كبير له أركانه وقواعده وأصوله وتقاليده وقيمه.. ولا يمكن تجاوز كل هذه القواعد فى لحظة فوران أو غضب وإلا ينهار كل شىء ويفقد الناس الأمل فى التغيير إلى الأفضل وتحقيق آمالهم وطموحاتهم التى ثاروا من أجلها على أوضاع لم تكن تروق لهم، ويتحول الأمر إلى فوضى وانفلات فى كل شىء وهو ما نخشى أن يصل إليه مجتمعنا لا قدر الله.. فالثورة فى مصر حدثت يوم ٢٥ يناير، وسيظل التاريخ يذكر هذا اليوم بكل تقدير وإعزاز، حين خرج شباب مصر واتفقوا على الخروج فى هذا اليوم ليعبروا عن آمالهم وطموحاتهم فى غد أفضل ولتستعيد بلادهم مكانتها اللائقة وسط الأمم..

اعتبر العالم أن هذه الثورة مصدر إلهام للثوار والمتطلعين للحرية فى أنحاء العالم وبدأت آثارها تظهر فى العديد من الدول المجاورة واستوعب الجميع النموذج المصرى فى الثورات الشعبية.

ومع تفاعل الأحداث وتداعياتها، ظهرت ثورة مضادة تهدد الثورة البيضاء وتحاول إجهاضها.. فظهرت جماعات تحاول أن تركب الموجه وتستولى على السلطة وتقفز عليها؛ فرأينا جماعات تظهر فى المؤسسات والوزارات والجامعات تطالب المسئولين فيها بالاستقالة بزعم أنهم من فلول العهد البائد وجماعات أخرى ذات مطالب فئوية والكل يحاول أن يحصل على أكبر قدر من المكاسب، سواء كانت مشروعة أو غير مشروعة، المهم الحصول عليها؛ لأن الظروف مواتية الآن أكثر من أى وقت مضى كما يعتقدون.. لكن ليس هذا وقت التظاهر والاعتصامات والاضرابات.. فلنترك المجلس العسكرى الأعلى الذى يتحمل المسئولية فى هذا الظرف العصيب ليؤدى دوره على الوجه الأكمل فى تأمين البلاد والوصول بالمسيرة إلى بر الأمان ليتحقق الأمل المنشود ولنضرب المثل أمام العالم أجمع بأن مصر قوية وقادرة على تجاوز المحن والصعاب مهما كانت وأن شعبها الأبى العظيم جدير بأن يكون نموذجا يحتذى به وأن جندها هم خير أجناد الأرض وأن مصر ستظل واحة الأمن والأمان تأكيدا لقول الله عز وجل فى كتابه الكريم:

﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾

(يوسف: ٩٩)

الاستفتاء والدروس المستفادة للمعارك القادمة

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ/ مجدى سالم مقاله المنشور بجريدة «عقيدتى» بعددها الصادر فى ٢٢/٣/٢٠١١م يقول فيه:

انتهت أكبر معركة ديمقراطية شريفة عرفتها مصر فى تاريخها الحديث، وربما القديم أيضا، بإعلان نتيجة الاستفتاء على تعديلات بعض بنود الدستور.. قال الشعب كلمته.. وارتضاها الجميع وهذا أعظم ما فى المعركة.. وهو الأعظم لأنه يبين عظمة الشعب المصرى واحترامه للتباين فى الآراء.. وهو الأعظم لأنه ينفى عن الشعب المصرى الأصيل مقولة: إنه ليس مؤهلاً لممارسة الديمقراطية.. تلك المقولة التى حاول العهد السابق ترسيخها فى أذهان الجميع ليتسنى لهم حكم البلاد كيفما شاءوا باعتبارهم الأوصياء على الشعب القاصر.

لم يكن هذا ليحدث ولم يكن من الممكن أن نرى تلك الابتسامة وهذه الفرحة التى تعلو وجوه المصريين وهم فى طريقهم لممارسة حقهم فى الاختيار وكلهم ثقة فى أن رأيهم سوف يكون موضع اعتبار وتأثير.. لم يكن هذا ليحدث إلا بثمن غال دفعه شباب مصر الذين قامت على أكتافهم وبدمائهم ثورة الخامس والعشرين من يناير.

وإذا كانت معركة الاستفتاء على بعض بنود الدستور قد انتهت بانتصار إرادة الشعب كله سواء من وافق أو من عارض، فإن هناك معارك كثيرة أخرى فى انتظار هذا الشعب الذى طال تعطشه للحرية وأهمها معركة اختيار أعضاء مجلسى الشعب والشورى وهى أصعب بكل تأكيد ولذلك أتمنى أن تبدأ من الآن استخلاص الدروس التى يجب أن تستفيد منها والتى قدمتها لنا معركة الاستفتاء الأخيرة.

أهم هذه الدروس هو اقتناع الجميع بأن الديمقراطية الحقيقية تقتضى التسليم بالنتائج التى تترتب على ما يختاره الأغلبية وأن الجميع هدفهم المصلحة العامة وأن الاختلاف بحد ذاته هو اختلاف فى وسائل الوصول للمصلحة العامة وليس اختلافا حول الأهداف.

وأيضاً اقتناع الجميع أن أى معركة قد يشوبها بعض التجاوزات التى قد نرفضها ولكنها يجب أن تكون محصورة فى إطار المعركة نفسها ويجب أن نحرص جميعا على ألا تمتد إلى ما بعد المعركة.

كما يجب أن نتخلص من موروثات النظام السابق والأساليب التى كانت متبعة فى ظله

بكاملها وأهمها طعن وتخوين المنافس والإقصاء والإبعاد لمن نراه يشكل خطرا علينا واستخدام وسائل التخويف والترهيب وأيضا وسائل الترغيب بالوعود التى يصعب تحقيقها أو التى يمكن اعتبارها خادعة.

هناك الكثير من الدروس الأخرى التى يجب علينا استخلاصها لتنير لنا الطريق الطويل الذى بدأناه ويجب علينا الاستمرار فيه حتى لا يأتى يوم نتحسر فيه على أرواح الشهداء ونتأكد أن دماءهم لم تضع هباء.

بيتر كنغ والجالية المسلمة

كتب الأستاذ/ جهاد الخازن فى عموده «عيون وآذان» بجريدة «الحياة» الصادرة فى ٢٠١١/٣/١٥م يقول:

عضو الكونجرس الأمريكي بيتر كنغ يرأس لجنة الأمن الوطنى «الداخلى» فى مجلس النواب، وهو دعا إلى جلسة موضوعها «مدى الراديكالية فى الجالية المسلمة فى الولايات المتحدة ورد فعل الجالية عليها».

لجنة كنغ أطلقت «تسونامى» من الجدل داخل الولايات المتحدة.

كنغ بتطرفه أدان نفسه قبل أن يبدأ، فهو قال: هناك خطر حقيقى على البلاد من الجالية المسلمة، والطريقة الوحيدة لسبر غور الموضوع هى التحقيق فيما يجرى، طبعاً التحقيق لا ضرورة له طالما أن كنغ قرر أن الجالية المسلمة خطر على الولايات المتحدة قبل أن يستمع إلى أى من الشهود الذين تحدثوا أمام لجنته.

أعود إلى ماضيه فهو كاثوليكى أيد إرهاب جيش التحرير الجمهورى ضد «الاحتلال» البريطانى فى شمال أيرلندا، وإلى درجة أن الحكومة البريطانية رفضت المشاركة فى مهرجان القديس باتريك فى نيويورك سنة ١٩٨٥؛ لأن كنغ أشرف عليه، وهى اتهمته بأنه يؤيد الإرهاب.

جيش التحرير الجمهورى مسئول عن قتل ٣٥٠٠ شخص فى ٣٠ سنة من الاضطرابات، بينهم ٦٠٠ مدنى.. مع ذلك كنغ قال: إن عنف جيش التحرير الجمهورى رد فعل مبرر أو حتمى على القمع البريطانى، وأنه كفاح قرون من أجل الاستقلال والحكومة البريطانية «آلة قتل».

الحكومة الإسرائيلية آلة قتل، وهى فاشستية مجرمة تدمر البيوت وتطرد أهلها وتقتل النساء والأطفال، إلا أن كنغ يؤيدها، مما يجعله شريكاً فى جرائمها ضد الفلسطينيين، وهو أيد تفجيرات الجمهوريين الأيرلنديين فى المدن واعتبرها «قوة مشروعة»، إلا أنه يعارض أن يدافع الفلسطينيون عن أنفسهم داخل بلادهم أمام مجرمين ولصوص.

كثيرون فى الولايات المتحدة اتهموا كنغ بأنه يمارس «مكارثية جديدة» فى إشارة إلى تحقيقات السناتور مكارثى مع المتهمين بالشيوعية فى خمسينيات الحرب البادرة.

وعضو الكونجرس شيلا جاكسون قالت: إن الجلسة تخالف الدستور الذى يمنع التمييز ضد الأديان.

وقرأت فى انتقاده مقالات عناوينها:

- زحف الجهاديين والمعادين للمسلمين.

- تذرية «بمعنى ضرب أو غربلة القمح» المسلمين.
- اجتذاب الجماهير الأمريكية برسالة معادية للمسلمين.
- استجواب كنغ جزء من تقليد قديم كريه.
- إذكاء مخاوف غير منطقية من الإسلام.
- إلى بيتر كنغ: الإسلاموفوبيا قد تسبب راديكالية.

بل إننى قرأت مقالاً عنوانه «إلى الأمام أيها المحاربون المسيحيون» يحرض المسيحيين الأمريكيين على الإسلام والمسلمين، فالليكوديون الأمريكيون يريدون أن يقتل الأمريكيون فى سبيل إسرائيل، كما حدث فى العراق وغيره.

وجدت أن أسوأ ما فى تحقيق لجنة كنغ وردود الفعل عليها أن مئات المعلقين فى وسائل الإعلام كافة، فاتتهم أهم نقطة فى الموضوع، وهى سبب الراديكالية الإسلامية، والعمليات الإرهابية من نوع ١١ / ٩ / ٢٠٠١ التى أدينها بالمطلق.

السبب هو إسرائيل والتأييد الأمريكى الكامل لها، وكل حديث غير هذا خرافة أو كذب، والمتطرفون المسلمون الذين يقتلون مسلمين فى العراق وأفغانستان، وعواصم عربية ومدن، أو يقتلون مسيحيين ويحرقون كنيسة هم أول داعم لأمثال كنغ وأقوى حجة عنده ضدنا، والمتطرفون سواء كانوا من نوع كنغ والليكوديين أو القاعدة يبرر أحدهم وجود الآخر.

فوكوشيما وديمونة

تحت هذا العنوان كتب عربى اصيل بجريدة «المساء» الصادرة فى ٢٠١١/٣/٢٠م يقول:

الكارثة التى تعرضت لها محطة فوكوشيما لتوليد الطاقة الكهربائية فى اليابان حدثت فى حقيقة الأمر لمفاعل أقامته دولة متقدمة على أحدث تكنولوجيا وراعت فيه أقصى درجات الأمان. ومع ذلك فقد تعرض هذا المفاعل لكارثة من جراء زلزال بلغت قوته تسع درجات بمقياس ريختر وموجات المد العاتية التى تبعته.. وهذه الكارثة جعلته يصل إلى نفس درجة الخطورة التى وصلت إليها كارثة مفاعل تشيرنوبيل فى أوكرانيا قبل ٢٥ عاماً، والذى أقيم بتكنولوجيا متخلفة تفترض أن كل شىء سوف يمضى على ما يرام.. ولم يعد هناك من حل لتلك الكارثة سوى أن يغطى المفاعل بكميات من الرمال ثم يحاط بحواجز خرسانية سميكة.. وحتى هذا الإجراء لا يمكن القيام به إلا بعد السيطرة على ما يحدث بداخله من حرائق وانفجارات.

وإذا كان كل ذلك قد حدث فى فوكوشيما، فكيف بمفاعل ديمونة الإسرائيلى المقام منذ أكثر من خمسين عاماً والذى انتهى عمره الافتراضى وأصبح يشكل خطورة داهمة.. والخطورة هنا لا تقتصر على إسرائيل ويهودها، بل إنها تمتد إلى مليون و٧٠٠ ألف فلسطينى يقيمون داخل حدود الكيان العبرى وعدة ملايين فلسطينى يقيمون فى الضفة الغربية وقطاع غزة، ويعتقد أن هناك حالات كثيرة من السرطان بين الفلسطينيين ناتجة عن مواد مشعة تتسرب من

هذا المفاعل، ويمتد هذا الخطر إلى الدول العربية وفى مقدمتها مصر والسعودية والأردن التى لا يبعد هذا المفاعل كثيراً عن حدودها، كما أنه يخالف القوانين الدولية التى تلزم الدول بإقامة المنشآت النووية على مسافة لا تقل عن خمسين كيلو متراً عن حدودها مع الدول المجاورة، وتشير بعض التقارير إلى أن المفاعل مقام بالفعل فى منطقة زلزالية نشطة.. كما أصيب عدد كبير من العاملين به بمرض السرطان.

من هنا يتعين على العرب البدء فى حملة لإجبار إسرائيل على القبول بإخضاع مفاعلها للتفتيش الدولى لتحديد مدى توافر شروط الأمان فيه وإجبارها على اتخاذ الإجراءات اللازمة دون اعتبار لكون إسرائيل غير موقعة على معاهدات حظر الانتشار النووى، والمتوقع هنا أن تتدخل دول الغرب التى طالما رعت إسرائيل لإجهاض أى محاولة عربية فى هذا الصدد، لكن على هذه الدول تذكر أنها لن تكون بمنأى عن أى كارثة تقع بسبب تقادم هذا المفاعل، حيث لا يفصلها عن إسرائيل سوى البحر المتوسط.. والرياح كفيلة بباقى المهمة.

جنوب السودان.. صديق أو عدو؟

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ/ عباس الطرابيلى المنشور بجريدة «الوفد» بعددها الصادر فى ٢٠١١/٣/٢٠م يقول فيه:

ونصل إلى الجنوب السودانى، أى إلى جمهورية جنوب السودان.. التى انفصلت عن السودان، بالاستفتاء.. وبنشوء هذه الدولة أصبح حوض النيل يضم ١١ دولة بما فيها مصر.. ومن هذا الجنوب تنبع العديد من الأنهار والروافد التى يتكون منها - بعد ذلك - النيل الأبيض مثل بحر العرب وبحر الجبل وبحر الغزال وبحر الزراف.. وبعض هذه المصادر يأتى من جنوبها من بحيرة فيكتوريا مثلاً أو من بحيرة ألبرت وبعض من بحيرة تانجانيقا عند رواندا وبوروندى فى أقصى الجنوب، وهما من دول حوض النيل.. الاستوائى.. وما بين شمال جنوب السودان.. وجنوبه هناك العديد من الروافد مثل نهر لول ونهر بنجو ونهر واو ونهر تونج ونهر مريدى ونهر النعام ونهر ياى وكلها تمثل منابع تصب فى النهاية فى النيل الأبيض شمالاً الذى يلتقى مع النيل الأزرق عند الخرطوم ليمثلا معاً المجرى الرئيسى لنهر النيل.. وهذه المنابع التى تنبع من الهضبة الاستوائية هى ما تعنينا فى هذا المقال، أى التى أصبحت داخل جمهورية جنوب السودان.. من هنا تأتى أهمية جنوب السودان لمصر.. رغم أن كل ما يصل إلى مصر من هذه المنابع الاستوائية هو ١٥٪ والباقى وقدره ٨٥٪ يصل إلى مصر من المنابع الأثيوبية من النيل الأزرق ونهر عطبرة ونهر السوباط.

وبقيام دولة جنوب السودان أصبحت دول حوض النيل ١١ دولة بما فيها مصر بعد أن كانت دول الحوض مكونة من ١٠ دول.. ولقد ثار سؤال عند الكلام عن انفصال الجنوب: هل يؤثر ذلك على حصة مصر من المياه؟ هنا نقول: لم يعد يهم أن يكون حوض النيل ١٠ دول، أو ١١ دولة. المهم أن نعرف كيف نتعامل مع هذه الدول كلها..

وما يهمنا هو: هل يمكن أن نقيم مشروعات مشتركة - بالذات مع جنوب السودان - لنزيد من حصيلة النهر نأخذ نحن جزءاً منها.. ويأخذون الجزء الآخر؟ هنا نقول: نعم. ولعل مشروع قناة جونجلى هو الأوضح والأكثر شهرة وهو مشروع فكرنا كثيراً فيه منذ عشرات السنين للحد من ضياع المياه فى مناطق السدود والحشائش والمستنقعات التى تدخل فيها مياه النيل بمئات الملايين ولا تخرج منه إلا أقل القليل.. إذ تسيح هذه المياه لتشربها الحشائش التى تكون سداً يعوق تدفق المياه من الجنوب إلى الشمال.. وكان يفترض أن يتم إنشاء قناة جونجلى عام ١٩٨٥؛ لتحصل مصر على مليارين من المياه هما نصيب مصر من حصيلة هذا المشروع - فى مرحلته الأولى - والباقى كان يفترض أن تحصل عليه السودان.

ولكن الحرب الأهلية فى هذا الجنوب أوقفت هذا المشروع، الذى كاد يقترب من نهايته.. وتم تدمير معداته.. والطريف أن جون قرنق قائد هذا الجنوب عندما سافر إلى أمريكا وكان وقتها ضابطاً برتبة مقدم اختار أن يحصل على الدكتوراه بدراسته لهذا المشروع.. وبالفعل تم له ما أراد.. وعندما عاد إلى الجنوب قاد الجنوب إلى الانفصال الذى نفذه خليفته سيلفاكير..

والآن - وهذا الكلام موجه للدكتور العربى وزير خارجية مصر - علينا أن نتعامل فى الجنوب لاستكمال هذا المشروع لمصلحة شعبه.. رغم أن الجنوب من البلاد المطيرة التى تعتمد فى الزراعة على الأمطار.. على أن تحصل مصر على حصتها من المشروع ويتفق شمال السودان مع الجنوب على كيفية اقتسام الحصة القديمة التى كانت مقررة لكل السودان.. المهم أن نوقف ضياع كل هذه المليارات التى تدخل مناطق المستنقعات أى السدود ولا يخرج منها إلا أقل القليل. وبذلك نزيد من موارد النهر، لنا.. ولغيرنا.

وإذا كان شمال السودان لا يهتم باحتياجات الجنوب من المياه.. فإن الجنوب يحتاجها لأن فيه مساحات شاسعة من المراعى تحتاج للمياه.

وفى هذا المجال يجب أن نستعين بخبرات ورأى كل المختصين الفاهمين لقضايا مياه النيل، وفى مقدمتهم الدكتور محمود أبوزيد وزير الموارد المائية السابق.. الذى يعرف كل أسرار هذا النهر وروافده.. ويعرف أكثر الجهود التى بذلت على مدار عشرات السنين لتحصل مصر على كمية أكبر مما تحصل عليه الآن.. لا أن تخفض دول المنابع هذه الكمية، كما تطالب الآن.

أيضاً يمكن الاستفادة بخبرات وعلم الدكتور عبدالفتاح مطاوع الذى يعرف كل أسرار النهر بقسميه: النيل الأزرق «الأثيوبى» والنيل الأبيض بروافده فى جنوب السودان، وقد طرت معه فوق مناطق هذه المنابع وتلك.. وله علاقات طيبة..

وإذا كانت قناة جونجلى هى أحد المشروعات فى النيل الاستوائى لأن هناك مناطق مستنقعات أخرى تصلح لمشروعات أخرى تزيد من حصيلة النهر.. فإن هناك مشروعات المنابع الأثيوبية يمكننا أن تزيد من حصيلة المياه.. مثل الاستفادة من مياه نهر الجاش الذى يندفع كالسيل من أثيوبيا ليدخل أراضى السودان وينطلق إلى الصحراء ليدخلها.. ويدفن فيها دون فائدة.. ويمكننا أن نقيم مشروعاً مشتركاً مع أثيوبيا، غير بعيد عن مشروعها الذى تفكر فيه على النيل الأزرق قرب حدودها مع السودان.. ويمكن لمشروع نهر الجاش هذا أن

يعوض على أثيوبيا ما تحلم به من مشروعات على النيل الأزرق.

المهم أن نساعد جنوب السودان بالذات حتى يقف على قدميه فنزيد من عدد الأصدقاء، فى دول الحوض، بدلاً من أن نزيد من عدد الأعداء.. لأن ذلك سيوفر لمصر المزيد من المياه وتلك هى قضية مصر الأساسية، بعد الاستقرار.

فكر جرىء

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ/ عطية عيسوى المنشور بجريدة «الأهرام» بعددها الصادر بتاريخ ٢٠١١/٣/١٤م يقول فيه:

وضع انضمام بوروندى لاتفاقية عنتيبى التى أبرمتها خمس من دول منابع النيل - مصر والسودان - فى موقف صعب يحتاج إلى أسلوب جديد أكثر جرأة وانفتاحا لحل الخلاف حول مياه النهر، فقد اكتمل بتوقيعها النصاب القانونى لبدء سريان الاتفاقية برغم محاولاتنا إثناءها والكونغو عن ذلك حتى لا تلغى الاتفاقيات الموقعة فى عهد الاستعمار والتى تضمن لمصر حصة مياه قدرها ٥٥,٥ مليار متر مكعب وتحظر على دول المنابع إقامة أى مشروعات على النهر وفروعه وروافده تنقص الحصة التى تعتمد عليها بنسبة ٩٥٪.

لم تعد الاتفاقيات القديمة مجدية؛ لأن دول المنابع لم تعد تحترمها وليس هناك ما يضمن لنا أن يجبرها مجلس الأمن أو دول صديقة على الالتزام بها وإلا وقعت تحت طائلة العقوبات؛ لأن تلك الدول تعطى أولوية لمصالحها الاقتصادية والأمنية لديها.. فهناك دول تمول سراً إنشاء سدود فى أثيوبيا مثلاً وتنكر ذلك؛ لأن قواعد البنك الدولى تمنع تمويل أى مشروع ما لم تتفق عليه كل دول الحوض.. كما أصبح بإمكان دول المنابع تمويل مشروعات بجهودها الذاتية وهى شبه متأكدة أنه لن يستطع أحد منعها لا بالسياسية ولا بالقوة المسلحة، كذلك فشلت مساعداتنا الاقتصادية والفنية فى إثناء أثيوبيا وكينيا وأوغندا وتنزانيا ورواندا عن إبرام اتفاقية عنتيبى، ومن الممكن أن تنضم الكونغو إليها قريباً، فضلاً على أن مساعدتنا صغيرة إذا قورنت بما تقدمه دول مثل الصين وأمريكا وإيطاليا برغم أنها تخطت المليار دولار فى أثيوبيا وحدها مما لا يحمسها للاستجابة للاقتراحات المصرية.

وهناك من يقول: إن معاهدات الأنهار لا تعامل معاملة اتفاقيات الحدود الموروثة عن الاستعمار إلا إذا كانت جزءا منها برغم نص اتفاقية فيينا الخاصة بتوارث المعاهدات والاتفاقيات القنصلية لعام ١٩٧٨ على احترام الاتفاقيات الموقعة فى زمن الاستعمار وإقرار معهد القانون الدولى عام ١٩٦١: أن مياه الأنهار العابرة للدول ملكية مشتركة للبلدان المتشاطئة، ولا يجوز لأى منها القيام بأى عمل يضر بحقوق الدول الأخرى فيها، ودليل ذلك سدود تركيا التى أنقصت مياه دجلة والفرات الواردة للعراق وسوريا ولم يتحرك أحد لإنصافها، وإن كانت محكمة العدل الدولية فصلت فى نزاع مماثل بين المجر وسلوفاكيا لصالح إحداهما عام ١٩٩٧م.

سلامة الإنسان فى الإسلام



للأستاذ الدكتور / السيد محمد الديب
وكيل كلية اللغة العربية بالزقازيق
Sayed.Addeeb@hotmail.com

إن القرآن الكريم عطاء متجدد، وكلام معجز، وبحر زاخر.. وهو شفاء للنفوس، وهداية للقلوب، قال تعالى:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾

(الإسراء: ٩)

وكان رجال من المعتزلة فى القرن الثانى من الهجرة وما تلاه يذهبون فى الحكم على إعجاز القرآن الكريم مذهباً خاصاً، إذ رأوا أن الإعجاز بالصَّرْفة، أى أن الله سبحانه وتعالى صرف العرب عن معارضة القرآن الكريم، ورأى - آنذاك أيضاً - أكثر أهل السنة أن كتاب الله معجز ببيانه ونظمه ومحتواه.

وقد نظر الكثيرون فى العصر الحديث إلى القرآن الكريم شرحاً وتفسيراً، وحظى الإعجاز البيانى بنصيب كبير من هذه الدراسات، ولعل منها كتاب الدكتورة عائشة عبد الرحمن "الإعجاز البيانى للقرآن"، كما تحدث كثير من العلماء عن العلوم المختلفة فى القرآن، مثل النبات والحيوان والاقتصاد والطب، والمياه وغيرها، وانتشرت نظرية الإعجاز العددى فى القرآن، وبحثها علماء كثيرون منهم الأستاذ عبد الرزاق نوفل، ولا نقبل القول إن القرآن كتاب طبى أو أدبى، أو حسابى، أو قاصر على مدة زمنية، أو بيئة محددة؛ لأن فيه نبأ من قبلنا، وخبر من بعدنا، وليس بالشعر ولا بالنثر، ولا يشبه كلام البشر.

وكنا ولا زلنا نعرض لبعض القضايا التى تتصل بعناية الإسلام بسلامة الإنسان، تأكيداً على حضارة هذه الرسالة، ورقى الخطاب الدينى فيها، وسوف نعرض لبعض العادات الضارة بالإنسان.

١- الأصوات العالية

(الضوضاء) مجموعة من الأصوات المختلطة العالية من سائر الكائنات والمصنوعات والجمادات التى تتلاقى فتحدث آثاراً ضارة بالإنسان، وأخطر هذه الآثار هو التأثير على الصحة

النفسية، وعلى الحواس بصفة خاصة، وذكر الأطباء أن من أهم الآثار السيئة للضوضاء هو رفع نسبة السكر في الدم، بالإضافة إلى بعض الأمراض العصرية الأخرى، مثل الصداع والقلق والضيق، والاضطراب النفسي.

وإذا كانت الضوضاء تنبعث من بعض المسببات التي يصعب التحكم فيها فإن الأصوات العالية من الإنسان بصفة خاصة يمكن تقليلها، وينبغي التحذير منها، والتنبيه إلى خطورتها.

وقد كانت الأصوات الجهيرة العالية مطلوبة في بعض المراحل من عمر الحياة الماضية، ولكنها في ظل الحياة المعاصرة منفرة وغير مطلوبة.

ويتصل ارتفاع الأصوات - بلا داع - بقضايا أخلاقية تحدث القرآن الكريم عنها في أكثر من موقف، فقال تعالى في مجال وصايا لقمان(1) (الحكيم) لابنه وهو يعظه:

﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾

(لقمان: ١٩)

ومعنى:

﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾

أي لا تتكلف رفع الصوت فيما لا فائدة فيه، وتحدث بمقدار ما تحتاج إليه دون رفع للصوت. وبيان قوله تعالى:

﴿ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾

هو أن صوت الحمير أقبح الأصوات وأوحشها، والمعنى العام للآية واضح في الحض على التواضع، ويكون ذلك بالاعتدال في المشي، وخفض الصوت؛ حتى لا يصل من يرفع عقيرته بلا مقتض إلى درجة الحيوان الطويل الأذنين كناية عن الحمار.

وفي الصحيح عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: "إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطاناً"(2).

وتحدث القرآن الكريم عن رفع الصوت في مقام العلاقة بين الرسول وقومه، وجاء ذلك في الآيات الأولى من سورة الحجرات، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾

(الحجرات: ٢)

وقيل إن هذه الآية نزلت في وفد بني تميم، عندما اختلف بعض الصحابة في الشخص الذي يكون أميراً عليهم، وكان الأقرع بن حابس التميمي محل ذلك الخلاف.

فأبو بكر يقول لرسول الله: استعمله على قومه، وعمر بن الخطاب يقول: "لا تستعمله" وقال أبو بكر لعمر: "ما أردت إلا خلافي" وقال عمر: "ما أردت خلافك" وكان كل ذلك بصوت عال مرتفع، حسب طبيعة الحياة، أو البيئة التي نشئوا فيها.

والمعنى لقوله تعالى:

﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾

كما قال ابن كثير: "أي إنما ينهاكم عن رفع الصوت، خشية أن يغضب (رسول الله) من ذلك، فيغضب الله تعالى لغضبه، فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدري، كما جاء في الصحيح: أن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى، لا يلقي لها بالا يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض وقوله تعالى:

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(النور: ٦٣)

وقيل إنها نزلت في (ثابت بن قيس) وقيل غير ذلك، والعبرة في الآية بعموم ما دعت إليه، لا بخصوص من نزلت فيه.

فالآية تدعو إلى توقير رسول الله، وتعظيم شأنه، وعدم رفع الصوت في حضرته بدرجة لا تتناسب وواجب الاحترام له والتوقير لقوله وإرشاده.

ثم قال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

(الحجرات: ٣)

ولقد دعت هذه الآية الكريمة إلى خفض الصوت، وحثت عليه، ورغبت فيه؛ لتكون الدعوة إلى غض الصوت (في هذه الآية) في مقابلة رفع الصوت في الآية المتقدمة من ذات السورة، ففيها إحباط للأعمال، وفي هذه الآية ترويض للقلوب، وإعدادها للتقوى، فهناك لا

---

(1) قيل إن لقمان كان يعيش قبل بعثة داود، ويفصل بين الناس بالعقل والحكمة، وقيل إن اسمه لقمان بن عنقاء، أو لقمان بن باعوراء، واختلف المفسرون في كل ما يتصل به، فقالوا: هو ابن أخت أيوب، أو ابن خالته وقالوا: إنه أسود من النوبة، أو من مصر، والثابت أنه كان حكيما عاقلا، ولم يكن نبياً، قال تعالى:
﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (لقمان ١٢)
راجع تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٤٤ وتفسير القرطبي جـ١٤ ص ٥٩.
(2) أخرجه الجماعة سوى ابن ماجة.

(3) تفسير ابن كثير جـ٤ ص ٢٠٧.

يشعرون بما صار لهم، وهنا لهم مغفرة وأجر عظيم.

ويكتمل حديث سورة الحجرات عن الأصوات العالية بهاتين الآيتين التاليتين لما سبق، قال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(الحجرات: ٤، ٥)

والحجرات: هى بيوت نسائه، وجاء أن الذين كانوا ينادون ذلك النداء هم وفد بنى تميم، وأن الأقرع بن حابس قال لرسول الله: اخرج إلينا فإن مدْحَنا زين وذمنا شين وأخذوا ينادون: يا محمد.. يا محمد.

والدعوة فى جميع الآيات السابقة واضحة فى الحث على خفض الصوت أمام الرسول، أو من وراء منازله، وفى عموم المواقف والمناسبات، التى تقتضيه وتتناسب معه.

ومن المؤسف أن الأصوات العالية التى نهى القرآن الكريم عنها نهيا عاما كما فى سورة لقمان أو فى حق رسول الله، كما فى سورة الحجرات، قد تحولت فى العصر الحاضر إلى صورة بشعة منفرة، لأن الوسائل المستحدثة تساعد فى تفخيم الصوت وإعلائه مثل مكبرات الصوت وسماعاتها العالية، وكأن الكثيرين من الناس لم يعد يروق لهم الهدوء وخفض الصوت فيحرصون على إشاعة (الضوضاء) وإيذاء الآخرين بها.

وتمتلئ الشوارع - الآن - بالأصوات العالية المنبعثة من أبواق السيارات وإعلانات التجار، وصياح الأطفال والشباب فى لهوهم وعبثهم، وأفراحهم وأحزانهم، وغير ذلك من ألوان الصخب والجلبة والصياح.

إن الحياة المعاصرة التى جعلت الناس يعانون من الضيق والقلق تحتاج إلى مراجعة الكثير من السلوكيات؛ لكى تتجنب ما فيها من أخطاء وتجاوزات فاقت قدرات الإنسان فى الصبر والتحمل خاصة فيما يتصل بالأصوات العالية والضوضاء الصاخبة؛ حتى يعود الهدوء إلى الباحثين عنه والمحتاجين إليه والراغبين فيه.

وقد حذر الإسلام من رفع الصوت فى المسجد، حفاظاً على حرمة بيت الله، وحرصاً على راحة المصلين حتى يؤدوا الشعائر الدينية فى هدوء وخشوع واطمئنان. فقد رُوى أنه ﷺ قال: "من سمع رجلا ينشد ضالة فى المسجد فليقل لا ردها الله عليك فإن المساجد لم تبن لهذا"(٤).

لقد أوصى الإسلام بضرورة التقدير والتعظيم لبيت الله فإذا تجاوز المسلم ذلك فإن وجوده فى المسجد يصير بلا هدف، وتصبح صلاته عبارة عن حركات وأقوال مجردة من الثواب.

فالضوضاء والأصوات العالية تتنافى مع دعوة الإسلام فى مخاطبة الشعور الطيب والإحساس النبيل، والحفاظ على صحة الإنسان.

٢- شرب الدخان

إن شرب الدخان على أية صورة عادة سيئة مضرة بالصحة والمال، قال تعالى:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾

(الأعراف: ١٧٥)

فالذين يشربون السجائر وما على شاكلتها يضرون أنفسهم، ويؤثرون تأثيراً سلبياً فى قوتهم وصحة أبدانهم، كما أنهم يضرون غيرهم، فيسهمون فى زيادة الإصابة بحساسية الصدر عند الآخرين. وقد قال رسول الله: "ملعون من ضارَّ مؤمنا أو مكر به"(٥) وقال: "من ضارَّ أضر الله به"(٦) فالذى يدخن ويقصر فى حق دينه ونفسه يتجاوز حدوده فيسبب الضرر للآخرين.

ومن المعلوم أن القانون الوضعى يمنع التدخين فى الأماكن المغلقة، والمواصلات العامة، لكن الناس لا تعبأ كثيراً - أمام رغباتهم وشهواتهم - ولا تبالى بالقوانين الدينية أو الوضعية.

وفى التدخين إضاعة للمال وإتلاف للصحة، فأكثر الذين يدخنون محتاجون لما ينفق فى هذا الضرر، وهو صورة من صور الإسراف الممقوت للمال فى غير وجوهه الشرعية.

فعن أبى هريرة، قال رسول الله: إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال(٧).

ويرتبط شرب الدخان غالبا بالتواجد فى أماكن اللهو، كما يرتبط بالانصراف عن العمل أحياناً، خاصة فى تلك الأنواع من الأدخنة التى تحتاج إلى مناخات فاسدة وأهواء ضارة، وفيه ضياع للوقت وابتعاد عن روح العبادة ومشروعيتها، وكلها عادات سيئة، وانهزام قبيح أمام حركة الحياة، وتقصير فى أداء الحقوق الدينية والدنيوية.

٣- إطلاق النيران فى المناسبات المختلفة

رغم التقدم والحضارة التى شملت أكثر من فى الأرض فلا زال بعض الناس يمارس نوعا من الضلال والعبث والإدعاء

(٤) رواه ابن ماجة وابن حنبل.

(٥) رواه الترمذى.

(٦) رواه ابن ماجة وأبو داود وابن حنبل.

(٧) رواه مسلم.

الباطل بالقوة والشجاعة والمجاملات الكاذبة، حيث يتسلط بعض اللاهين والمغرورين الحمقى بالأسلحة النارية، ويطلقون رصاصها ونارها فى الهواء فى غرور واستهتار، ولا نفهم السر فى بقاء هذه العادة المقيتة، خاصة أننا نقرأ بين حين وآخر أخباراً سيئة فى هذا الشأن.

وليس هذا الأمر الخطير قاصراً على بيئة أو طبقة واحدة، فنراه فى الريف والمدينة وبين الجهلة والمتعلمين، وفى مناسبات الزواج والحج والخروج من السجن، والبراءة من الأحكام القضائية، والنجاح فى الامتحانات الدراسية، والفوز فى الانتخابات، وما شابه ذلك من المناسبات المختلفة.

إن الضرر خطير جداً من أسلحة النيران (الحيّة)، ومن مسدسات الصوت أيضاً، إذ تصيب الناس بضرر كبير، وتفزع الأطفال والنساء، كما أن الصواريخ النارية تسبب حرائق كثيرة فى الدور والمنشآت؛ قال رسول الله: "لا ضرر ولا ضرار"[٨] إن هذا العادات السيئة تحتاج إلى وعى من الناس فى سائر المجتمعات، وعليهم أن يفهموا جيداً أن التعبير عن السرور والفرح لا يكون بهذه الطريقة المؤذية السيئة، وربما يقول شخص: إن صاحب المناسبة لا يقوم بشئ من هذه الأفعال غالباً، وإنما ينهض بها آخرون مجاملة له، ونقول بضرورة مشاركته فى المسئولية عما يحدث، فهو صاحب المناسبة، ويشارك فى تبعتها.

ولابد أن ينهض الإعلام على اختلاف وسائله بدور مؤثر فى مقاومة هذا السلوك المعوج، فكم من أفراح انقلبت إلى أتراح، وكم من زواج تحول إلى مأتم وعزاء، وكم من أطفال يتموا، وكم من عائلات راح دم عائلها هدرا بسبب رصاصة طائشة تاه صاحبها فى أمواج البشر، أو قبض عليه فلحقت به عقوبة ليس منها إرجاع من قُتل، وإعادة ما ضاع من مال ومتاع.

كما أن لوزارة الداخلية دورا فى محاربة هذه العادة السيئة، والقضاء عليها، إذ من التقصير البين أن تترك حرمة المجتمع نهبا لأمزجة هؤلاء القتلة، الذين يعيشون بالأمن بلا رادع لهم. قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

(النساء: ٥٩)

ويستطيع من يريد أن يجامل الآخرين بهذه الطريقة أن يفكر فى أسلوب آخر للتكريم والمجاملة، وهى كثيرة معروفة

(٨) رواه ابن ماجة وابن داود وابن حنبل.

ولا تخفى على أحد وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام للسيدة عائشة بأن تبعث إلى فتاة متزوجة من تُغنى لها وتقول:

أتيناكم أتيناكم ... فحيونا نحييكم
فلولا الحبة السمرا ... لم تحلل بواديكم

ولكن بعض الناس يأبون إلا أن يحولوا مناسبات الزواج السعيدة إلى مآس وأحزان، فمتى يرتدعون ويعودون إلى رشدهم وصوابهم؟ ونتمنى أن يكون ذلك قريبا، علما بأن هذه العادة السيئة قد خفت كثيراً عن ذى قبل، لكنها موجودة بأضرارها ومآسيها، ويحتمى البعض فيقول إن السلاح المستخدم مرخص له.. والصواب أن الترخيص لدواع معينة ليس منها إطلاق النار فوق رءوس الناس الآمنين بمن فيهم من نساء وأطفال.

٤- التقبيل بين الرجال

إن من سمو الخلق، ورفعة الشأن وكرم النفس أن يحسن الإنسان تعامله مع الآخرين، فلا يسئ إليهم، ولا يصخب عليهم، ولا يهزأ منهم بل يلاطفهم، ويجاملهم ويرشدهم إلى الصواب بأدب حسن وصفح جميل، لكن بعض الناس يبالغون أحياناً فى المجاملة خاصة عند اللقاء فى المناسبات المختلفة، فيقبل الرجالُ بعضَهم، على أن هذا التصرف إذا كان مقبولاً وجميلاً فى مرحلة زمنية سابقة، فلم يعد له الآن مجال فى ضوء التقدم الطبى وإثبات ما يمكن أن ينقله هذا التقبيل من أمراض من خلال إفرازات الوجه والفم والأنف خاصة فى أعقاب حلاقة الشخص لشعر وجهه وسائر رأسه، وللرسول حديث مهم فى هذا الموضوع، ويمكن أن يكون محل نقاش للإعجاز العلمى فى السنة النبوية الشريفة.

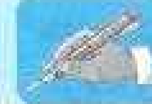
فقد روى الترمذى بإسناد حسن عن أنس قال: قال رجل: يا رسول الله الرجل منا يلقى أخاه وصديقه، أينحنى له؟ قال: لا، قال: أفيلتزمه ويقبله؟ قال: لا، قال: أفيأخذ بيده ويصافحه؟ قال: نعم".

ويشير الحديث إلى عدة معان أخرى منها عدم انحناء الشخص لصديقه فى مزلة وانكسار، ربما تترك أثراً لدى واحد من الشخصين فى قابل الأيام، لكن المصافحة والأخذ باليد، وإبداء المودة والسرور فى صدق وشموخ من المعانى التى يحرص الإسلام عليها.

ونعود فنؤكد ضرورة التخلى عن عادة التقبيل بين الرجال؛ لما يمكن أن تسببه من أمراض. إلى غير ذلك من العادات التى يجب التنبيه إلى أضرارها.. والله أعلم.

***

وترجل الفارس عن الجواد



د. عمر حسين الموجان السعدي

الحياة رحلة يعبر الإنسان منها إلى ما بعدها وخلالها يمر بأحوال مختلفة فيرى ألوانا من آمال الحياة المشرقة ومواجعها المبكية وقد غيّب الموت فضيلة الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي الذي كان من البقية الباقية من أهل العلم والفضل ولقد تذكرت قولا للإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - حينما رأى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وهو مسجى بعد استشهاده.. فقال: «والله ما أحب أن ألقى الله عز وجل بعمل أحد أحب إليّ من عمل هذا المسجى».

إن حياة الدكتور البيومي رحمه الله تعالى حياة مشرقة ومشرفة قضاها في طلب العلم وتعليمه وعاش بين الكتب قراءة وتأليفاً حتى أصبح لديه ملكة نادرة يستطيع من خلالها أن يقرأ الكتاب الذي يتجاوز الخمسمائة صفحة في دقائق معدودة وترك تركة ثمينة من المؤلفات التي تستطيع من خلالها قراءة هذه الشخصية الفاضلة فقد كان رحمه الله تعالى على خلق فاضل وأدب جم.

ولا أنسى أول لقاء جمعني به في منزله بالمنصورة فقد لقيني بالترحاب الحافل والكرم الفياض حتى أشعرني أني صاحب المنزل وهو الضيف ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل يجود بطرائف الحكمة وروائع الأدب وبالغ في الضيافة والإكرام فخرج معي إلى أن استقليت السيارة فترك في نفسي من كريم خلقه ونبل صفاته ما كان له الأثر الطيب الذي أستعيده في نفسي كلما ذكرته أو تذكرته.

وامتدت هذه الصداقة الأبدية سنوات عديدة وهو بين الوقت والآخر يتحفني بروائع من الكتب التي يختارها بذائقته العلمية والأدبية والفكرية العالية والتي سلط الأضواء عليها بدراسته العميقة وذلك لأدفعها إلى المطبعة لتخرج للقراء فأثمر ذلك عدة كتب منها:

صلة الإسلام بإصلاح المسيحية، ومحمد المثل الأعلى للأنبياء، والمرأة العربية في الجاهلية والإسلام، وعلاج النفس، وبقي منها ما هو في طريقه للنشر وقد ترك - رحمه الله - للمكتبة العربية والإسلامية ما يستحق أن يذكر فيشكر من ثروة علمية ثمينة فلقد وثق فضيلته سيرة أعلام النهضة المعاصرة من خلال كتابه القيم: «النهضة الإسلامية في أعلامها المعاصرين» وقد كان منهجا رائعا في التوثيق لهؤلاء الأعلام من العالم الإسلامي الذين أبرز جهودهم المميزة من خلال سيرتهم وهو وفاء يستحق الثناء وكان وفيا لعلماء مصر خاصة حينما ألف كتابه الرائع: «المجتهدون في ميدان التشريع».. وبدأ بذكر الاجتهاد من عصر المصطفى ﷺ ثم المجتهدين من الصحابة والتابعين وعبر دول الإسلام المتعاقبة حتى القرن الماضي، فذكر علماء مصر بما هم أحق به وأهله واعتذر عن عدم معرفة سيرة وتفاصيل حياة العلماء في الدول الإسلامية الأخرى وأوصى أن يؤرخ لعلماء كل دولها من قبل الكتّاب الذين يعرفون سيرتهم التفصيلية.. أما منهجه في دراسة الكتب ونقدها فهو أمام العصر الذي لا يشق له غبار فما وقفت على ناقد سلك مسلكه الرصين أو سار في دربه القويم فهو يجول بك في الكتاب مع بيان ما يستحق النقد والتصحيح من الأحداث والمعلومات دون أن يجرح أو يؤلم المؤلف ولكنه يدور مع الحق حيث دار ويلتمس للكاتب الأعذار فما تملك إلا أن تبدي له الاحترام والتقدير حتى وإن كنت أنت المنقود وهذه براعة فقدها كثير من النقاد فهو - رحمه الله - يبحث عن الحق بشكل موضوعي دون المساس بالشخص وتنال نقداته الصائبة موافقة القلوب والعقول ويتلقاها القراء بالقبول التام.

وخير مثال لذلك كتابه الرائع: «رحلة في المكتبة المعاصرة» الذي تعرض فيه لخمسين كتابا بالنقد الهادف المفيد ولعل الذي أكسبه هذه الموهبة الفريدة في النقد هو اتساع الثقافة التي تحيط بالموضوع الذي يتعرض له بالدراسة النقدية من جميع الجوانب ولقد قال عن أحد الكتب التي قام بدراستها النقدية: إنه قرأ في موضوع الكتاب أكثر من مائة مرجع وفي ذلك دلالة واضحة على الثقافة الشمولية.

أما الأسلوب القصصي؛ فهو أستاذ هذا الميدان بلا نزاع تقرأ له فلا تمل من روعة الأسلوب وبديع الصياغة ومن حسن اختيار الموضوع، وله مجموعة قصصية رائعة جاءت في أربعة أجزاء وهي من القصص الإسلامي: يحكى أن، وقال الراوي، والثمالة، وقالت شهر زاد، وهي خير ما أوصى أن يقرأها الجيل الصاعد من الشباب لما فيها من بديع الحكم ورائق الأسلوب وحسن البيان الشافي وقد طلبت من فضيلته - رحمه الله تعالى - أن يقدم للقراء سيرته الذاتية؛ لأن حياته ثروة ثمينة ولن يكتب عنه أفضل منه وكان لايخيب لي رجاء فاستجاب على ممانعة من نفسه فصدر له كتاب «ظلال من حياتي» عن سيرته الشخصية وكان كتاباً كاشفاً عن نبل نفسه وحسن خلقه وأدبه الجم الرفيع.

لقد فقدت الأمة الإسلامية والعربية عالماً مخلصاً وأديباً لامعاً وناقداً بصيراً وشاعراً مرهفاً وراوياً مبدعاً وإنساناً بكل معاني الإنسانية ولقد أصبحت أشعر بعد فراقه - رحمه الله تعالى - باليتم الأدبي لأنه كان مثالاً نادراً في زمن طغت فيه المادة وبقي متمسكاً بالصفات الحميدة والأخلاق الكريمة.. فرحم الله الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي رحمة واسعة وجمعنا به في دار كرامته ومستقر رحمته وأسكنه الفردوس الأعلى من الجنة. «آمين».

تقاس مكانة الشخصية وقيمتها العلمية أو الفكرية أو الحياتية بقدر الأثر البناء والإيجابى فى الوسط الذى أسهمت فيه، وبين أقرانها من الشخصيات، فتجدها طرازاً فريداً وقامة سامقة، وعلماً يشار إليه بالبنان، وذلك لما أضافته من تنوير فى ذلك المجال أو تركته من أعمال أو منجزات أو بصمات مبدعة، تقدم برهاناً ساطعاً وتفوقاً ملموساً بين ذويها وأقرانها.

يقيناً فإن شخصية على هذا النموذج لا تبلغ هذه الدرجة أو تلك المنزلة، إلا إذا كانت تتمتع بصفات وطاقات وملكات كامنة لدى صاحبها ترفعه مكاناً علياً، وتوفر له ميزات يفوق بها نظراءه فى الميدان وأن يكون ذا شأن فى الأوساط العلمية، أو المسيرة الاجتماعية أو غيرها من ميادين التفوق، فى جانب من الجوانب العلمية أو العملية، يمثل فيه علامة فارقة تحدث أثراً قوياً على نحو يكون مصدر هداية، وعلماً يقتدى به، على هذا الطريق، أو فى ذلك المجال.

العلامة البيومى شاهد على الوسطية


للأستاذ الدكتور/ محمد الشحات الجندى
الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية

والحق أن المتابع لسيرة العلامة الدكتور رجب البيومى، يجد فيه الكثير من المعانى السابق الإشارة إليها، لما تفرد به الراحل الكريم من نعوت وقدرات شكلت شخصيته، وصقلت موهبته فى جانب، وبالأحرى فى جوانب تعدد بها عطاؤه، وبرزت بها ملكاته فى الأدب والشعر واللغة والتاريخ للأبطال والأعلام الذين كان لهم دور بارز فى خدمة العربية والإسلام.

لم يكن الرجل من ذلك من العلماء التقليديين الذى يكتفى فيه صاحبه بأن يكون مجرد ناقل يردد مقالة أو مقولات هؤلاء النفر من الرعيل الأول والثقات من الأدباء والمؤرخين، وإنما كان مبدعاً بين المبدعين، وصاحب رؤية ومنهج بين السالكين على دروب علم الشعر والأدب يضيف إلى هؤلاء الكبار، ويأخذ عنهم، ويسير على نهجهم، لكن فى ظل فكر ناقد وثراء بارز لا تخطئه العين.

ويعد إسهام الشيخ الجليل نموذجاً فذا للطريقة الأزهرية فى جيله وبين معاصريه، ونحسب أن آثاره الأدبية ستبقى نقطة مضيئة يقتفى طريقها من يتوفر على دراسته، ومن يجول ببصره وبصيرته فى إسهام الرجل الأدبى والشعرى، كونه إسهام قوى، بلغة رصينة، وشعر مطبوع يتذوقه أصحاب لغة الضاد، وأرباب الفصحى ممن تمرسوا بصناعة الأدب والشعر.

ويحسب لهذه الشخصية الحقيقة بالاحتفاء، أنها مع عطاء بارز وأدب نافذ فى القلوب والعقول، لم يحتف بها، طوال حياة حافلة من العمل والعطاء، فهذه المسيرة الثرية لم تأخذ حقها، ولم تنل حظها الذى تستحقه أدباً وشعراً؛ لأنها لم تكن من طلاب الشهرة، ولا من بين من ملأوا الدنيا ضجيجاً بأعمال دون مستوى عمله فى الأوساط الأدبية والشعرية، بل آثر الراحل أن يبدع فى صمت، وأن يعيش بين تلك الشخصيات التى تنكر ذاتها، لا تبحث عن شهرة ولا تجرى وراء مغنم ممن كثروا فى هذا الزمان برغم كساد تجارتهم، وبوار بضاعتهم.

تأثير الأزهر فى كتابات البيومى

ويعطى نموذج البيومى الدور الذى يقوم به الأزهر جامعاً وجامعة فى خدمة العربية والإسلام، وإسهامه فى الحفاظ على علوم الإسلام وتراثه، وقدرة هذه المؤسسة على التواصل على درب الأصالة العربية وتجذرها فى أعماق شخصية المسلم ومن يعيش فى أوطان العروبة، والناطقين بلغة الضاد.

جهوده العلمية

ولا تقف مساهمة الشخصية المحتفى بها فى المجال الأدبى، وانتسابه إلى مدرسة أدبية وشعرية تنتصر للأصالة العربية والشعر المقفى، وفى ذات الوقت تجدد نفسها من خلال انخراطها فى تجارب شعرية طرقها فحول الشعراء فى العصر الحديث، مثل مدرسة أمير الشعراء فى الشعر المسرحى والعقاد، الذى جدد به الشعر العربى أسلوبه فى ضوء ما طرأ على هذا العصر من أغراض وطرائق جديدة، الأمر الذى يعتبر معه هذا العلامة امتداداً للمدرسة الشعرية الحديثة الملتزمة بالرصانة والحفاظ على الأصول الشعرية القديمة ومواكبة العصر.

وقد امتد عطاء هذه الشخصية إلى مجال الإسلاميات فى انفتاحها على العلوم والثقافة الشرعية التى حمل لواءها الأزهر على مدى العصور والأجيال، والتى اتسمت بالعمق وانحازت لمدرسة الوسطية التى اختص بها الأزهر كمركز إشعاع للاعتدال والاستنارة، ونقطة للتقريب والالتقاء بين



المذاهب الدينية والفقهية بين أهل القبلة ليجتمعوا معاً على الفكر الإسلامى الصحيح بين طلاب العلم من شتى أرجاء العالم الإسلامى، والتعريف برسالة الإسلام العالمية فى عالم متغير.

يتجلى هذا الاتجاه فى كتابات البيومى فيما التزمته من العمل على إبراز الجهود المخلصة لنشر الإسلام الوسطى بلا مذاهب، والتعريف بعظماء الفاتحين من أبطال المسلمين الذين كانت فتوحاتهم من أجل نشر مبادئ الإسلام الإنسانية فى الرحمة والعدل والتسامح والحرية، مع من دخلوا ديارهم، وامتلكوا زمام الأمور ومقاليدها فى أيديهم، فما أكرهوهم على اعتناق الدين، ولا قهروهم تحت رايات الفتح المبين، وإنما كانوا نموذجاً يحتذى فى تمثل هدى الإسلام ونور القرآن.

وفى هذا السياق، فقد تناول السلسلة الذهبية للأبطال الذين صنعهم الإسلام، فى كتاباته عن قادة اللواء المحمدى عن الفاتحين العظام نخص منهم محمد بن القاسم فاتح الهند الذى قوض عروش الجبابرة فيها، وهو الفتى الذى كان فى العشرين من عمره، أو تجاوزها بعام أو عامين، فى رسالة واضحة بأن المسلم هو الذى يعيش على رحاب الانتماء لأيدولوجية الدين، والتضحية والفداء فى سبيله، فى نشر الرسالة، ومبادئ الحضارة.

كذلك فيما كتبه عن الناصر صلاح الدين الأيوبى قاهر الفرنجة على أرض القدس فى فلسطين، بطل حطين، المنتصر لعروبة أرضها، وللحق الإسلامى فى القدس الشريف.

الناشئة والشباب

ولنتأمل طريقة هذا العلامة فى حديثه عن شخصية القائد فى عبارة موجزة باهرة بقوله: «ولنقل: إنه ابن بطل حربى وجليس أمير عظيم، وربيب وطن محارب يزحمه الأعداء ويتربص به المتربصون أفلا تكون هذه البيئة وحدها كافية لابتعاث همته واتقاء طموحه، فيكون فى نشأته الأولى ملتهب الغيرة متأجج الحماسة، وهل يعقل أن تكون خواتيمه الرائعة نتيجة بدون مقدمة، وغاية بغير سبيل»(١).

يلحظ القارئ لمنهج الراحل الكريم، الطابع الأدبى الرصين الممزوج بالعقلانية، التى تسلم لصاحبها بتملكه لناصية اللغة، وملكة أخاذة فى الإقناع، وتلك شيمة المبدعين فى كل الأزمان.

وقد أراد باشتغاله وانشغاله بهذا الجانب المضىء من سيرة البطولة والفاتحين المسلمين، أن يعرف الناشئة والشباب بطولات أسلافهم، والسير على خطاهم، واقتفاء آثارهم فى تكريس رسالة الإيمان والتفانى فى إعلاء كلمة الله وجمع الصف

(١) سلسلة قادة اللواء المحمدى، الفاتح العظيم، صلاح الدين الأيوبى، محمد رجب البيومى، جريدة عقيدتى، العدد الصادر فى ١١ يناير ٢٠١١م، ص ٤.

حول حقائق الإسلام والتوحد على الهدف الذى يصنع المعجزات، ولا يبتغى عرض الدنيا، وإذلال الرقاب، أو قهر العباد، قارن ذلك بما فعله الاستعمار الغربى بدول العالم الإسلامى فى العصر الحديث، التى كرست الاستبداد والاستغلال ونهب الثروات ونشر الجهالة والتخلف بين المسلمين، ومحو الهوية الإسلامية، لحساب الأيدولوجية الغربية.

ولم تستطع هذه المساعى الغربية أن تحقق مرادها فى النيل من سمو الفتح الإسلامى، وهذا ما شهد به المنصفون من كتاب الغرب، فيما قاله أرنولد توينبى: «لم يعرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب»(٢)، وهى كلمة حق وشهادة صدق جسدتها الفتوحات الإسلامية.

وتمضى جهود البيومى فى مواصلة أمانة الكلمة نصرة لحقائق الإسلام فى مواجهة شبهات الحاقدين، فنجد من بين ما خطه يراع الأديب الكبير، إقامة الحجة والبرهان على من ينتقص من حقائق الإسلام، عبر الافتتاحيات النيرة التى صدر بها مجلة الأزهر فتجده ينافح فيها عن هذا الدين، ويبين منهجه العالمى ومبادئه الفذة بأسلوب أدبى بليغ، ومعنى عميق، حتى ينساب حديثه فى الوجدان، ويتغلغل فى مكنون الضمير، وهو أسلوب ناجح فى القبول والإقناع.

المنازعة بين الدين والعلم!!

انظر فى هذا المقام عما عرض به لشبهات المشككين عن الإسلام فى كتاب المنازعة بين الدين والعلم للأستاذ درابر، فيقول فى دحض وإبطال هذه المنازعة(٣): «قد استطاع المسلمون فى نطاق التفكير العلمى البصير أن يجعلوا الأسلوب التجريبى دستور الاكتشاف العلمى، وأن يعتبروا الهندسة والرياضيات أدوات مساعدة لعلم المنطق، بمعنى أن التفكير العقلى قد انتقل من أبراجه الشاهقة إلى الميدان العلمى فى تجارب الحياة من عمارة وزراعة وبناء، كما اخترعت آلات التقطير والضوء والإبصار والتصعيد والإسالة فى فروع الكيمياء والميكانيكا والطبيعة، بل سمت الهمم إلى دراسة الآفاق العليا فى الأجرام والكواكب والأفلاك النائية، فاستحدثت الأزياج الفلكية على نحو غير معهود، وبها حركات الكواكب، وقدرة أبعادها المترامية، أما اكتشاف علم الجبر فقد كان معجزة هذه النوادر الرائعة، وقد انبعث المسلمون وراء ذلك كله فى نطاق تفكيرهم الدينى الحافز على البحث والنظر الهاتف بالتأمل فى ملكوت السموات والأرض، وما خلق الله من شىء، ولم تكن هذه النهضة العلمية المباركة فى بلد واحد من بلاد الإسلام حتى

(٢) انظر للمؤلف، منهج الإسلام فى تحقيق السلام العالمى للمجلس الاعلى للشئون الإسلامية.

(٣) مجلة الأزهر، عدد ذى القعدة، ١٤٣١هـ، اكتوبر ٢٠١٠م، ج ١١، السنة ٨٣، محمد رجب البيومى مقاله شبهات حول التفكير الدينى ٣٠، افتتاحية العدد.

يقال إنها شذوذ عن القاعدة، واستثناء عارض لا يلتفت إليه، بل امتدت أشعة هذا التفكير المثمر إلى جهات مترامية فى الشرق والغرب الإسلاميين، بحيث كان مرصد سمرقند الفلكى يماثل مرصد جيراك الأندلس، وكانت مكتبة الحكم بالأندلس لا تقل حشداً عن مكتبة المأمون ببغداد والمعز بالقاهرة، فإجماع المسلمين فى كل مكان وزمان على النهوض العلمى يقدم أسطع الأدلة على أن هذه النهضة المباركة وليدة دين حى متوثب يدعو العقول إلى النظر البعيد ويندد بمن يغفلون نعم الله عليهم فيهملون طريق النظر والتدليل».

فهذا البيان عن العلم والمدنية فى الإسلام، يكشف عن جانب حضارى نحن فى حاجة ماسة إليه، ونفتقده فى خطوط المواجهة مع المشككين فى حضارة الإسلام، لأنه يكشف عن جانب مغيب فى عطاء الإسلام للإنسانية، وأبعاده الحضارية، وهو ما اعترفت به بعض الكتابات الغربية(٤).

وقد تنوعت كتابات البيومى، وتعددت مشاربها ومن بين اهتماماته التى تكشف عن عقليته الموسوعية، معالجته لبعض القضايا الفقهية والتشريعية، يظهر ذلك فى تصديه لقضية اختلاف الفتوى بين الفقهاء(٥)، فى مجلة منبر الإسلام، فيقول: «لدينا فى كتب التراث ما يسمى بعلم الخلاف، وهو الذى يبحث عن الخلاف الفقهى بين مذهب ومذهب فى بعض المسائل، ويقيم الموازنة التى تنتهى بترجيح أحد الرأيين على الآخر، وهو ما يعرف الآن بعلم الفقه المقارن، هو بعينه سواء دارت المقارنة بين الأحكام فى الشريعة الإسلامية وحدها أو بينها وبين القانون الوضعى، وقد لاحظت بعض الأحكام التى اختلف فى شأنها فى هذا العصر، فأحببت أن يقوم فقيه متمكن بما قام به أسلافه من رجال علم الخلاف ليضيف الجديد، وإذن فاختلاف الحكم فى مسألة فقهية أمر متوقع، وليس لأحد أن يدعى أن أحد الرأيين ينتقص من مكانة قائل الرأى الآخر، إذا ظهر بطلانه».

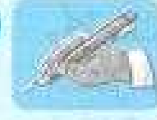
أدب الاختلاف

هذا المنحى العلمى الذى يؤكد عليه العلامة البيومى هو المسلك الذى قرره المحققون من علماء الفقه والأصول، ومارسوه فى بناء المذاهب الفقهية، حيث الاعتراف بالآراء المتعددة فى المسألة الواحدة، وكل له دليله وحجته، فى الوقت الذى يسلم كل منهم للآخر بالاجتهاد الذى يبتغى به طلب الحق ورأى الشرع فى القضية دون تخطئة ولا لوم على المخالف فى الرأى وإنما تحرير لرأيه والرد عليه بالحجة فى ظل الاحترام والتقدير، وهو منهج عرف به كل منهم حق الآخر فى نطاق علم: أدب الاختلاف -الذى نحن فى أمس الحاجة إليه- الذى يعتنق الفكر الوسطى ويحترم المخالف.

(٤) ممن تناول هذه الجوانب العلمية والحضارية الكاتبة الغربية زيجريد هونكه، شمس الإسلام تشرق على العالم.

(٥) السنة ٦٩، العدد ١٢ ذو الحجة ١٤٣١ هـ نوفمبر ٢٠١٠م، مقاله: اختلاف بين الفقهاء، محمد رجب البيومى ص ٤٢.

العلامة الأديب محمد رجب البيومى فى عيون معاصريه



بقلم الشيخ: أحمد مصطفى فضلية
من علماء الأزهر الشريف

فى صباح يوم السبت الموافق ٢ من ربيع الأول ١٤٣٢هـ ٥ من فبراير ٢٠١١م نعى إلى المسلمين علم من أعلام النهضة الأدبية فى عالم الإسلام، وعلم من أعلام العلماء المجاهدين بالعلم والحكمة والموعظة الحسنة، فخسرت المحافل الأدبية والدوائر العلمية بفقده كاتبا كبيرا، وأديبا مبدعا وعالماً جليلاً وأستاذاً جامعيا كبيرا، وخسر طلاب العلم بفقده باحثا موسوعيا، ومربيا صالحا، وركنا من أركان البحث والتأليف.

فكان رحمه الله شجاع القلب، قوى النفس، بعيد الهمة، صلباً فى الحق، غيوراً على الدين، لم تثنه المكاره عن الدفاع عن الحق، ومناضلة دعاة التشكيك والبلبلة والمبتدعين فى الدين، بعلمه الغزير، وقلمه البليغ فكتب وألف، وروى وحدث، وكان فى كل ذلك الحجة الثبت والإمام الصدوق.

ولا شك أن ثناء حشد من الناس على رجل لا يعتبر دليلا على قبوله عند الله، واستقامته وعلو منزلته. أما إذا شهد له رجال العلم والبصيرة وأصحاب الصلاح والتقوى فى عصره، فلاشك أنه يعتبر دليلاً على قبوله وعلو منزلته.

والناس أكيس من أن يمدحوا رجلاً ... ما لم يروا عنده آثار إحسان

ولا ريب أن من كان له من الإنتاج الأدبى شعراً ونثراً، والإنتاج العلمى والنقدى المتميز والذى يتسم بالموضوعية فى البحث، والعفة فى القول، والنزاهة فى النقد، إلى جانب الأسلوب الأدبى الرفيع البليغ، والفكر العميق المؤمن، لابد أن يكون فى موضع الصدارة بين العلماء والمفكرين والأدباء المبرزين لهذا أجمع عارفو الدكتور محمد رجب البيومى على فضله وعلمه وأدبه فشهدوا بعلو قدره وسموق منزلته فأثنوا عليه بما هو له أهل.



وصدق رسول الله ﷺ: (ألسنة الخلق أقلام الحق).[1]

لهذا أردنا في هذا المقال المتواضع أن تبرز مكانته عند علماء وكتاب وشعراء عصره. وهذه الشهادات التاريخية مفاتيح دقيقة لجوانب عديدة من فكره وأدبه تفتح للشبيبة المؤمنة من طلاب العلم وعشاق الأدب فكره الموسوعي وعالمه الأدبي الفسيح.

(١) كان له شجاعة كشفت عن سعة اطلاع وثقة بالنفس:

في حفلة أقيمت لتكريم الدكتور محمد رجب البيومي مساء يوم الأربعاء الموافق ٢٦ من شعبان سنة ١٣٨٥هـ بمجمع اللغة العربية بمناسبة فوزه بجائزة المجمع الأولى للدراسات الأدبية عن كتابه (الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير).

قال الدكتور (محمد مهدي علام) الأمين العام لمجمع اللغة العربية سابقا في كلمته الجامعة بعد أن قدم المؤلف تقديما حافلا بتاريخه وآثاره الأدبية في الشعر والنثر ما نصه:

(... ومما يذكر للباحث شجاعته في مناقشة آراء السابقين والمعاصرين، وهي شجاعة محمودة كشفت عن سعة اطلاع وثقة بالنفس، كما كشفت عن بعض الحقائق التي ندت عن سابقيه، ولاشك أنه سيسلم لمن يقرأ بحثه أن يسلط عليه من الأضواء مثل ما سلط هو على كتابات من سبقه، لقد تبنى الباحث موضوعاً شاقا تبناه وأحبه وعطف عليه، وعكف عليه، ولكنه لم يتعصب له إلا قليلا، لقد بحث عن المجد العربي في الأندلس، وأشاد به وبأثره في المشرق العربي، وفي المغرب الأوروبي، ولكنه حين بدا له أن السبق لم يكن للأندلس في بعض الفروع لم يتردد في إعلان ذلك.



محمد مهدي علام

كما فعل في موضوع الموشحات، وفي موضوع رثاء المدن والدول فقد خاض في هذين الميدانين معركتين أصاب فيهما نصرا، وأصابته منهما بعض الجراح، وقد كان في هذا ككل جندي باسل يتقدم إلى هدفه محتملاً كل ما يقابله من صعاب. لقد تحدث الباحث في أثر الأزجال والموشحات في شعراء (الترو بادور)، وعن دور الأندلس في نمو النهضة الأوروبية، وعن أثر الحب العذري في الأدب الغربي، واختص بعض نوابغ الأندلسيين بدراسة مستفيضة، كصاحب طوق الحمامة، وصاحب حي ابن يقظان وابن رشد وما أحدثته كتبه من يقظة فكرية في أوروبا، كذلك ناقش في أسلوب علمي تأثير ابن شهيد في أبي العلاء وأثر ابن خلدون في الأسلوب الأدبي المعاصر)[2].

(١) كشف الخفاء، رقم ٥٣٢.

(٢) انظر مجلة (مجمع اللغة العربية)، الجزء الحادي والعشرين ص ٢٠٦، وراجع مقدمة د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، للكتاب، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المجلس العلمي، نشر إدارة الثقافة والنشر بالجامعة.

(٢) كان كاتباً لامعاً:

وقال الأستاذ الدكتور/ أحمد شفيع السيد - الأستاذ بكلية اللغة العربية سابقاً:

كنت أعهد تلميذي الأستاذ محمد رجب البيومي كاتباً لامعاً تعرفه أمهات المجلات الأدبية والعلمية في الشرق العربي كالرسالة والثقافة والهلال والكتاب والأزهر، شاعراً رائعاً يرسل قصائده الجميلة محكمة النسج بارعة الخيال. وهاأنذا أعرفه الآن مؤلفاً مسرحيا يرسل الصورة ويسلسل الحوار ويحكم العقدة ثم يسلمها إلى الحل البديع!! وإني لأرجو أن يتابع جهوده الحميده في هذا المضمار راجياً له سداد التوفيق وصواب الاتجاه[3].

(٣) كان له قلم رقيق وقلب كبير وعقل فاره:

وقال الأستاذ/ أنور الجندي - الكاتب والمفكر الإسلامي:

أخي الحبيب الحزين الدكتور محمد رجب البيومي قلبي له ومعه في هذه الأزمة الكبرى التي ألمت به ولقد كنت أسرح ببصري وخاطري نحوه في العيد ومن حوله أبنائه التسعة وقد فقدوا الأم الحنون فأسأل الله أن ينزل عليهم السكينة ويغشيهم بالرحمة، ويبدلهم من خوفهم أمنا، ويسبغ عليهم الرضوان والإحسان، ولقد كنت أظن أخي الدكتور البيومي المؤمن الصابر قد واجه القدر وصمد للصدمة الأولى وكسب مع الله النصر بالرضا والتسليم في بلاد بعيدة، وبين أحباب غمروه بالفضل، وأعزة أكرموه بالمحبة، وكان أهلا لها، فإليك يا أخي أبعث إليك أصدق العزاء وأتمنى أن يثبت الله قلبك، وأن يبدلك ذلك رحمة منه وفضلا، وعطاء جزيلا من عطاء الله الغامر.



انور الجندى

ولقد أملت أن يجعل الله من أيامك في الرياض وفي كلية اللغة العربية بالسعودية الزاهرة مجالا خصبا لدراسات واسعة في الإسلام وفي التغريب وفي الغزو الثقافي بعد أن وفيت دراسات الأدباء والشعراء حقها، فذلك هو مجالك الحق وليس ببعيد على من مسته نفحة الحرم، وطاف بالبيت، ووقف بالملتزم. أن يجتبيه ربه لدعوة الإسلام خالصا. وكذلك كان الأخ الكريم الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي.

وأنا أتوجه إلى الله أن يهديك هذا السبيل فتكون سيفا من سيوف الحق في وجه هذه المحنة البالغة التي تواجه الأمة العربية والعالم الإسلامي. عن طريق التغريب والشعوبية والغزو الثقافي ولك قلم رقيق، وقلب كبير، وعقل فاره وتلك دعوتي إليك في أعقاب الأزمة وهو النور الجديد الذي سيشرق على قلبك بإذن الله.[4].

(٣) عن تقديمه لمسرحية د. البيومي (ملك غسان) مسرحية شعرية تاريخية نالت جائزة وزارة التربية والتعليم لعام ١٩٥٨م.

(٤) من رسالة عزاء أرسلها الأستاذ أنور الجندي للدكتور البيومي في وفاة زوجته المرحوم ونشرت تحت عنوان (مع البريد الطائر) في إحدى الصحف السعودية.

(٤) من أساتذة الجيل:

وقال فضيلة الشيخ/ السيد وفا حسن أبوعجور - الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية سابقا:

فضيلة الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي عضو مجمع البحوث الإسلامية وأستاذ الجيل يفند الآراء المغرضة التي تتطاول على المعاني الإسلامية وتشوهها خاصة من بعض الكتاب المتشنجين الذين يرفعهم غرورهم للتعالي ويتصورون أنهم أرقى تفكيراً وأسمى إدراكاً ممن يعتصمون بقواعد الدين. وكتاباته في تفنيد هذه الأراجيف والاتهامات التي يرددها المخالفون للمنهج الإسلامي ردود هادئة، ونقود هادفة. تعصف بالباطل وتحق الحق. وقد رأى فضيلته أن الساكت عن الحق شيطان أخرس فقام بتأييد من المولى عز وجل وبما له من مكانة علمية مرموقة بالرد على هذه المقالات وكشف ما جاء بها من أباطيل ببصيرته النافذة وعلمه الفياض (٥).

(٥) كان شاعراً مرهف الإحساس:

وقالت عنه الشاعرة الأستاذة/ جليلة رضا:

(... ما كدت أنتهي من قراءة ديوان (صدى الأيام) للشاعر الدكتور محمد رجب البيومي حتى اعترت كياني كله وعكة مفاجئة، أعقبتها رعشة قلق غريب، وما لبثت أن عرفت مصدرهما الحقيقي..

فقد كان الديوان وجبة كاملة دسمة من الوجد المشبوب والهوى الدفاق.

لقد ساهم الشاعر محمد رجب البيومي في كثير من الأحيان في وصف جمال الطبيعة. كما كان له عدد من القصائد في الدين.

إن أول ما لفت نظري في الديوان هو تلك اللغة العربية السليمة الرفيعة، فالشاعر يجيدها كل الإجادة، بطبيعة عمله ومؤهلاته.

وتلك هي مقومات الشعر في صياغته ثم نأتي بعد ذلك إلى الشعر نفسه فنلاحظ أن الشاعر مرهف الإحساس إلى حد بعيد، ذو فطنة وضاءة وذكاء فريد، فمن الطبيعي إذن أن يكون شعره عميق التصوير، عميق التفكير)(٦).

(٦) أسهم في بلورة حركة النقد الإسلامي:

وقال الأستاذ/ سيد سيد عبدالرازق:

(الدكتور محمد رجب البيومي حاول أن يبلور حركة النقد الأدبي الإسلامي قديماً وحديثا من خلال الرصد التاريخي لهذه الظاهرة منذ بداية عهد الدعوة الإسلامية..)(٧)

(٥) عن تقديمه لكتاب الدكتور البيومي (ردود هادئة)، مجمع البحوث الإسلامية، السنة السابعة والثلاثون، الكتاب الثالث عشر ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

(٦) انظر مجلة الأزهر - الجزء الثاني - السنة السابعة والستون.

(٧) مجلة الأزهر - الجزء الرابع - السنة الثالثة والستون

(٧) كان باحثاً قديراً سخي العطاء:

وقال عنه الأديب الشاعر/ أحمد مصطفى حافظ:

كان الدكتور محمد رجب البيومي باحثاً قديراً سخي العطاء، قدم للمكتبة العربية إنتاجاً غزيراً، في حقل الدراسات الأدبية والتاريخية، منذ أكثر من ثلث قرن.

وقد استطاع الغوص في أدب الرافعي.. بامتلاكه لناصية البيان، يجعله في مقدمة الدارسين والباحثين المعاصرين، الذين يستوفون موضوعاتهم بأستاذية واقتدار.. ففي حديثه عن بلاغة الرافعي، نجده قد وجد موضوعه، الذي لا يستطيع إلا أن يقول فيه ما يشاء، كيف شاء بعد أن ملك عليه هذا الموضوع أقطار نفسه، فاستغرق فيه بفهم وعمق، وأصبح عداء لا يلحق، في بسط رأيه، والإدلاء بحجته.. وقلما اتفق له ذلك في مقالاته وبحوثه العديدة عن أدبائنا المعاصرين، مما جعل كتابه عن الرافعي، كقلادة العقد في مؤلفاته ودراساته(٨).

(٨) كان مؤلفاً نابهاً

وتحدث عنه فضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد عبدالرحمن بيصار- الإمام الأكبر شيخ الأزهر الأسبق:


عبدالله تركي


محمد عبد الرحمن بيصار

(... مؤلف نابه اطلع على كثير مما صدر من دراسات فقدم دراسات تجتهد في دراسة النظم القرآني، بالتحليل الذي يكشف عن جمال الأسلوب وروعة التصوير مناقشاً ما يراه مستحقاً للمناقشة في إخلاص باد واجتهاد موفق(٩).

(٩) كانت روح كتاباته تجذب القارئ:

وقال عنه الأستاذ الدكتور/ عبدالله عبدالمحسن التركي- الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي:

(... والحق أن روح الكاتب تجذب إليه قارئه ـ لأنه يبرز مكانة الإسلام الحضارية، وأثره في تقدم العمران شرقاً وغرباً، ويصور ما أحدثه الفتح الإسلامي في الأندلس من حضارة زاهرة، ومجد علمي تليد، ولم يرسل الباحث قوله إرسالاً دون تدليل، فقد كانت مصادره الموثوق بها ذات إقناع حاسم، وبعضها

(٨) انظر مجلة الأزهر - العدد السابع - السنة السبعون.

(٩) عن تقديمه لكتاب البيومي (البيان القرآني) نشر بمجمع البحوث الإسلامية.

مما كتبه قوم لايدينون بالإسلام، ولكنهم يعترفون بالحقيقة العلمية بدون تعصب بغيض..)[١٠]

(١٠) كان رائداً متعدد الريادات

وقال الأستاذ الدكتور/ عبدالعزيز الدسوقي:

الدكتور محمد رجب البيومي من أهم الرواد على امتداد الأرض العربية، ورياداته متعددة. فهو رائد فى الشعر، ورائد فى المقال الأدبى، ورائد فى كتابة الدراسات الإسلامية، ورائد فى كتابة السيرة والمقال الأدبى، وله عشرات الكتب والدراسات الأدبية والإسلامية. وله حضور باهر فى الساحة الثقافية، حمل القلم، وواصل الكتابة، حتى لقد تحولت الكتابة عنده إلى رسالة يحمل رايتها وهو يمضى فى الحياة، وكأنه يرى فى التخلى عنها خيانة عظمى، كالجندى المحارب الذى يحمل الراية ولا يتخلى عنها)[١١].

(١١) كان يملك الأسماع والعقول والقلوب

وقال الأستاذ الدكتور طه مصطفى أبو كريشة- نائب رئيس جامعة الأزهر سابقاً

الدكتور محمد رجب البيومى: (غنى عن التعريف لدى قرائه ومستمعيه الذين عرفوه عالماً ومفكراً إسلامياً وشاعراً وكاتباً ومحدثاً وخطيباً، يملك منهم الأسماع والقلوب والعقول..)[١٢]

طه ابو كريشة

(١٢) كان يمتاز بالأسلوب الأدبى

وقال الأستاذ المحقق محمد عطا:

الدكتور محمد رجب البيومى: (ممن تمرسوا بالدراسات الإسلامية الناضجة وتعمقوا روح الفقه والتشريع، ويمتاز بالأسلوب الأدبى العلمى أى الذى يجمع بين المادة العلمية والصورة الأدبية مما جعله محببا إلى النفس)[١٣]

(١٣) كان كاتباً موهوباً غزير الإنتاج:

وكتب الأستاذ نعيم محمد عبدالغنى:

(الدكتور محمد رجب البيومى كاتب موهوب، غزير الإنتاج.. وهو فى هذا النتاج عميق الفكرة، متين الأسلوب، دقيق المعالجة وهذا ما جعل له قاعدة كبيرة من القراء خاصة من صفوة المثقفين والمتخصصين الذين يجعلون من كتاباته مراجع لبحوثهم ونقاشهم العلمى المفيد..)[١٤].

---

(١٠) عن مقدمته لكتاب البيومى (الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير) مكتبة الدار العربية للكتاب.

(١١) مجلة الأزهر - الجزء السابع - السنة السادسة والستون.

(١٢) مجلة الأزهر - الجزء الثامن - السنة الخامسة والخمسون.

(١٣) عن تقديمه لكتاب الدكتور البيومى (ابن حنبل) سلسلة مذاهب وشخصيات.

(١٤) انظر جريدة صوت الأزهر - العدد (٢٩٨).

(١٤) كان كاتباً ألمعياً:

وقال عنه الأستاذ الدكتور/ الحسينى عبدالمجيد هاشم - الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية:

من يتصفح كتاب (النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين)، لمؤلفه فضيلة الدكتور محمد رجب البيومى، عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة، فإنه يجد الكاتب قد طرق بحوثاً مستفيضة تحدث فيها عن رواد النهضة الإسلامية الحديثة..

وكان كاتباً ألمعياً، يتحدث عن فهم ثاقب، وغوص بعيد الغور، وأوفى كل رائد حقه من البحث والعرض والتحليل..

وكان الجهد، والعناية بالبحث واضحين، ولعل هذا التوفيق، فيما تناوله، من بحوث راجع إلى ما عرف عن المؤلف من علم، ودقة واهتمام بما يعمل.. وما عهد فيه من أخلاق، وصدق إيمان.. وقد تناول المؤلف كل شخصية من شخصيات كتابه، وكل رائد من رواد النهضة الإسلامية المعاصرة بالعرض والتحليل، وتحدث عنهم حديثاً وافياً.. ولقد كان بارعا فى عرضه للأفكار، وهو يرى أن ما يقدمه ويسجله من روائع لهؤلاء الأبطال يحيى مجداً ويرسم قدوة.

وللمؤلف الفضل فى إحياء الجيل، وبث روح البحث والحماس فى نفوس قرائه، وإنارة الطريق أمام أبنائه من الشباب بعرض النماذج البطولية التى تحيا بها الأمة، التى نرجو لها أن ترجع عن طريق القدوة إلى مجد الأولين، وإلى ماضيها المجيد.[١٥]


إبراهيم عطا الفيومى — الحسينى هاشم

(١٥) قدم للقارئ ما يريد:

وقال فضيلة الشيخ/ إبراهيم عطا الفيومى - الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية سابقا فى تقديمه لكتاب (الصراط المستقيم) للدكتور محمد رجب البيومى - رحمه الله -:

هذا الكتاب (الصراط المستقيم) لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى، عضو مجمع البحوث الإسلامية، يقدم فيه لكل قارئ يريد أن ينهل من الثقافة الإسلامية فى عصرنا الحاضر، ويحرص على اتباع الطريق القويم الذى يسعده فى معاشه ومعاده.

وهذا الكتاب يتضمن فصولاً هادفة تدور حول أفكار تشغل الذهن إلى الآن، وتعرض لمفتريات كاذبة، فتدحضها بالحق

---

(١٥) د. الحسينى هاشم، عن مقدمته لكتاب الدكتور محمد رجب البيومى (النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين) الجزء الرابع، السنة الخامسة عشرة، الكتاب الثالث، سنة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤م.

أو تعمد إلى ناحية خافية من نواحى الفكر والاجتماع والدين، فتكشف عنها النقاب مجادلة بالتى هى أحسن من يحرفون الكلام عن مواضعه[16].

(١٦) كان إذا كتب فى موضوع استوفاه:

وقال الأستاذ الدكتور/ محمد بن محمد أبوشهبة- عميد كلية أصول الدين، رحمه الله:

قرأت المقال القيم الذى كتبه السيد الفاضل الدكتور محمد رجب البيومى، وأنا أحرص على قراءة مقاله فى المجلات التى يكتب فيها وتقع تحت يدى، وعهدى به أنه إذا كتب فى موضوع استوفاه من جميع أطرافه ويعرض لما قاله القدماء، والمحدثون فى الموضوع الذى يتناوله ثم يبدى رأيه[17].

(١٧) لم يَخلُ بموضوعية الباحث وحياده:

كتب الدكتور محمد رجب البيومى كتاباً بعنوان (محمد متولى الشعراوى، جولة فى فكره الموسوعى الفسيح)، وقدم له نجل الشيخ الأستاذ سامى محمد متولى الشعراوى، فقال عن المؤلف ما نصه:

وإنه ليسعدنى ويشرفنى أن أكون بمعية أستاذ عظيم، ولو كانت تلك المعية عن بعد وعن استحياء، وهذا الكتاب كان الباعث على تأليفه، هو وضع مؤلف يتحدث عن فكر الشيخ الشعراوى فى شتى اتجاهاته، ليكون عوناً لطلاب الدراسات العليا، الذين يتخذون من نتاجه الفكرى، ومنهجه العلمى، وأسلوبه، ومواقفه الدينية والوطنية، مجال بحث لدرجتى الماجستير والدكتوراه، وليقدم للقارئ العادى سيرة عالم علم تمكن من علماء الأزهر الشريف، لعله يجد فيها عظة، أو يستفيد منها درساً.. إلى غير ذلك بعبارة عذبة سهلة مع رصانتها وأسلوب شائق محبب.. ليس بغريب على عالم جليل مثل فضيلة الدكتور محمد رجب البيومى..


متولى الشعراوى

ولا يفوتنى أن أنوه بظهور روح المحب فيما كتب المؤلف، إلا أن هذه الروح لم تُخل بموضوعية الباحث وحياده، واختلافه فى الرأى-إن كان له محل- فى أدب العالم المقدر، وأمانة المنصف المحايد، وصدق المسلم الغيور[18].

(١٦) د. محمد رجب البيومى (الصراط المستقيم)، الجزء الأول، السنة السابعة والثلاثون، الكتاب الثالث، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م.

(١٧) مجلة الحج، السعودية، فى مساجلة فكرية بينهما.

(١٨) نقلاً عن كتاب (محمد متولى الشعراوى، جولة فى فكره الموسوعى الفسيح)، نشر مكتبة التراث الإسلامى بالقاهرة، سنة ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، الطبعة الأولى.

(١٨) كان له شخصيته المستقلة وتميزه الذاتى:

وقال الأستاذ/ محمد جاد البنا - ماجستير فى اللغة والنقد الأدبى:

عرفت الدكتور محمد رجب البيومى على مرحلتين.. مرحلة السماع والقراءة والإعجاب والانبهار، ثم مرحلة الالتصاق والتلمذة والصداقة.. فرأيت أحمد حسن الزيات مكرراً، وكأنه لم يفارقنا، فما زال يسكن جوانح الدكتور محمد رجب البيومى شعوراً ووفاءً نبضاً ومعايشة، حتى إنه ليعد من قلائل النقاد والدارسين الذين فهموا الزيات، الرجل والمدرسة والتاريخ.. ثم إن للدكتور محمد رجب البيومى قبل ذلك كله، وبعد ذلك كله، شخصيته المستقلة وتميزه الذاتى الذى لا ينكر، بل لقد اعترف الزيات نفسه.. عرفت (أبا حسام) فعرفت الإنسان والصديق، عرفت فيه الوفاء النادر والنابه لمن تعلم منهم أو أخذ عنهم وعرفت فيه الأستاذ الموجه الذى لا يبخل.. فهو يصادق تلاميذه ويقربهم إليه فى مودة علمية، قل أن تتوفر بين كثيرين من كتاب وأدباء وأساتذة هذا الجيل[19].

(١٩) كان قمة عالية وقامة شامخة:

وكتب الأستاذ الدكتور يسرى عبدالخالق خضر- كلية أصول الدين بطنطا - جامعة الأزهر:

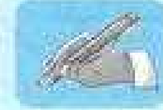
مما منّ الله به علىّ أن هدانى لمؤلفات العلامة الأديب العملاق الدكتور محمد رجب البيومى، فوعيت وتعلمت وعرفت قدره، ورأيت فيه العظمة بأجلى معانيها، مما دفعنى إلى زيارته فى منزله لأسأله عن بعض القضايا التى تتعلق بالشيخ البهى الخولى، رحمه الله، فرأيت أثناء زيارته التواضع فى أصدق معانيه، لقد كان الدكتور محمد رجب البيومى قمة عالية وقامة شامخة، وكان أكبر من أن تحتويه هالة أو تضمه شاشة أو يجذبه ميكروفون أو تستهويه صورة.. رحمه الله وغفر له وكتبه فى المحسنين وعوض الأمة وطلاب العلم والمعرفة وعشاق الأدب عنه خيراً.. وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم[20].

***

(١٩) انظر كتاب د. محمد رجب البيومى (أحمد حسن الزيات بين البلاغة والنقد)، دار الأصالة بالرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م.

(٢٠) مقابلة شخصية، تمت المقابلة فى منزله بكفر الحمام بسيون.

بالحق والفكر المنير جمعتنا !!


للأستاذ الدكتور/ السيد سليمان محمد سليمان
أستاذ الأدب والنقد المساعد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالزقازيق

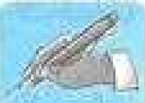
صدع القلوب تفرق الأحباب ... فاسود من خبر النعيْ ثيابى
ودموع بشى فى الخطوب تحدرت ... فوق الخدود مقاوم المرتاب
بالذكر والهدى الصحيح نصحته ... فغدا يتيه بمنة الوهاب
وسماء ربى ألبست ثوب الأسى ... والأرض تندب صفوة الأقطاب
والشمس كُورّ فى السماء ضياؤها ... والنجم صار مُغبَّر الجلباب
والضاد صكت وجهها لمصابكم ... والشعر يندب زينة الأحباب
والنقد من وقع الفجيعة شاحب ... والنثر فى هلع على الأنجاب
والنون جُمّد فى الصحيفة نبعها ... بوفاة بحر ساحر الألباب
بالحق والفكر المنير جمعتنا ... بعد الشتات بهمه وشعاب
ويراعك المسنون يَعْثُر خطوه ... بين الأنامل فوق كل كتاب
والأزهر المعمور يندب حظه ... أسفاً عليك مشجع الطلاب
حزناً على بحر المكارم والوفى ... والصادق التحرير والأواب
يا فارس الهيجاء فى العلم الذى ... ساس النفوس بحكمة وصواب
أبشر بفضل لست تنكر سره ... يا خادم الفصحى مدى الأحقاب
بالصدق والقول السديد بعثتها ... فغدت تتيه بمنة الوهاب
ورأبت بالرأى السديد خلافنا ... ودحضت شبهة ملحدٍ مرتاب
فعلوت بالفكر المنير سماءنا ... والأرض أضحت روضة الأحباب
ونقدت بالرأى السديد قصيدنا ... فغدا عرائسَ فى نهى الخُطّاب
وتركت للأجيال زاداً نافعاً ... فغدوا بزادك زينة الأقطاب
يا موت رفقاً بالتقى فإنه ... شمس أضاءت ليل كل ضباب
يا لهف نفسى والوفود تشيع ... بحراً عظيماً فاق كل سحاب
يا محسناً والخير غاية سعيه ... أبشر بفضل المنعم التواب
وجنان عدن فُتّحت لمقامكم ... فوق الآرائك زينة الأصحاب
وشراب شهد فيه رى فؤادكم ... ولحوم طير صفوة الأنجاب
وفواكه الجنات دائمة العطا ... للفائزين بأنْعُم الوهاب
أعطاك من حُلل البيان قشيبه ... فنسجت شعراً ناضر الجلباب
أبشر محمدُ فالجنان تزينت ... بالحور والولدان للأحباب
رباه عطّر بالأريج ضريحه ... فعطاء بحرىَ فصل كل خطاب



قراءة فى كتاب



للأستاذ/ عادل خفاجة



٢

فى هذا القسم من كتاب (البيان القرآنى) ألقى فضيلة الدكتور محمد رجب البيومى - رحمة الله عليه - الضوء على بضع وعشرين موضعاً من الدراسات التطبيقية شملت: التكرار فى كتاب الله - المناسبة بين الآيات القرآنية - المناسبة بين السور القرآنية - المناسبة بين آيتين - هل من لفظ زائد فى القرآن الكريم؟ - التدرج فى التشريع القرآنى - المعرَّب فى القرآن - القرآن أساس الثقافة - التناجى فى سورة المجادلة.. وغيرها.

من أمثلة التكرار فى القرآن الكريم

يشير المؤلف فى هذه الدراسة إلى أن قصة موسى - عليه السلام - هى الأكثر ترديداً فى كتاب الله وأنها قد تجئ مسهبة مطنبة فى مواضع وتجئ سريعة مقتضبة فى مواضع أخر، وأن لكل موضع دلالته الواضحة وإضافته الجديدة، حتى مواقف الإيجاز اللامح حين تطوى التفصيلات الجزئية متدرجة فى المعنى الكلى العام، وحين يخيل للقارىء المتعجل أن التكرار لم يأت بجديد، فعليه أن يرجع إلى كتب التفسير البيانى؛ لأنها ذات نفع جزيل؛ ليطمئن قبل الحكم.

ويعقد المؤلف مقارنة بين تكرار سريع موجز لقصة موسى عليه السلام فى سورتين متعاقبتين.

فأما النص الأول فقد ورد فى الآيات من ٤٦ : ٥٦ من سورة الزخرف وأما النص الثانى فقد ورد فى الآيات من ١٧ : ٣٣ من سورة الدخان ويعلق المؤلف على هذين النصين قائلا:

«فإذا نظرنا إلى النص الأول فى سورة الزخرف وجدنا أن السورة الكريمة تنعى على المشركين استخفافهم برسول الله، إذ قالوا:

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾

(الزخرف: ٣١)

وهم يعنون بذلك أن يكون من اختار الله لدعوته سيد القوم جاهاً وثراء، فرد الله عليهم بأن رحمة الله من شأنه، وليس لأحد أن يصرفها كما يشاء، فقد قسم للناس معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفع بعضهم فوق بعض درجات، ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لبلغ المشركون من المتاع مبلغاً كبيراً، فكان لبيوتهم سقف من فضة، وأبواب وسرر ومعارج عليها يظهرون، وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا، وكل ذلك مواساة لرسول الله، وهنا جاءت مناسبة قصة موسى وفرعون؛ لأن الذين قالوا لرسول الله لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم لهم أسلاف من الكفرة الذين قال فرعون بلسانهم:

﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾

(الزخرف: ٥١، ٥٢)

هذا هو السياق المتتابع، وقد جاءت القصة فى مكانها الطبيعى لتضرب المثل بالسابق ليتعزى اللاحق، فإذا تركنا السياق إلى نص القصة فإننا نجد إيجازها المعجز قد شمل معانى كثيرة، إذ تحدث القرآن عن بعضها فى مواضع أخرى فإن حديثها فى سورة الزخرف يحمل طابعه الخاص المتمثل فى قول الله تعالى:

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ۝ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

(الزخرف: ٤٧، ٤٨)

وإذا قال فرعون - فيما حكاه الله عنه فى مناسبات أخرى:

﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾

(النازعات: آية ٢٤)

﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾

(القصص: ٣٨)

فإن فى هذه السورة يقول: أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى! ويتعجب لفقر موسى وادعائه النبوة - فى تقديره - فيتهكم به قائلا - فيما حكى الله عنه -:

﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾

(الزخرف: ٥٣)

وقارئ هذا النص الكريم فى سورة الزخرف لا يستغنى عنه بنص آخر فيما سبقه أو لحقه من حديث موسى فى القرآن، لأن ما سبق عن موسى مسهباً فى مثل سورة الأعراف، والعشراء، والقصص وغيرها لا يلم بما جاء فى هذا الحديث الموجز، وإذن فللتكرار فائدته لفظاً، ومعنى، وهو ليس بتكرار حقيقى إذا علمنا ما أضاف من



الجديد إلى سيرة موسى عليه السلام ومن التعزية والتسلية إلى محمد صلى الله عليه وسلم حيث أيده النص وثبت فؤاده، فليس عليه أن يأسى لقول المشركين:

﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: ٣١)

بعد أن سمع قول فرعون لموسى:

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (الزخرف: ٥٢)

فإذا اتجهنا إلى النص الثاني في سورة الدخان فإننا نجد مناسبته واضحة صريحة، فقد حذرت السورة من بأس الله وعذابه حين تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس بالعذاب الأليم، فيصيح صائحهم:

﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ (الدخان: ١٢)

إذ يستغيثون بربهم وقد كفروا بنبيه ﷺ، وأرهقوه، وتولوا عنه، وقالوا معلم مجنون! هذا القول المنكر آذى الرسول وضايقه، فاحتاج إلى تسلية حميدة من قصص السابقين، فضرب الله المثل بموسى كما ضرب به المثل في سورة الزخرف، ومع اتحاد المناسبة فقد جاء حديث سورة الدخان جديداً بما يحمل من المعاني في مثل قول الله -عز وجل- على لسان موسى:

﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (الدخان: ١٨، ١٩)

وقد هدده قومه بالعذاب والرجم، فرد يقول فيما حكى القرآن عنه:

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ (الدخان: ٢٠)

ثم دعاهم إلى الحياد فلا يعترضون سبيله قائلا:

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ (الدخان: ٢١)

وهذا لم يأت في نص الزخرف.

وقد هيأ الله له سبيل النجدة والإنقاذ حين أمره أن يسري بعباده المؤمنين ليلا، وأن يترك البحر رهواً فسينجو من الغرق، ويهلك أعداؤه الألداء، وإذا قال الله في سورة الزخرف:

﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ (الزخرف: ٥١)

فقد عبر في سورة الدخان عن هذا المعنى في تصوير رائع ممتاز حين قال عز وجل:-

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (الدخان: ٢٥، ٢٨)

ثم تلا ذلك كله هذا النص المعجز:

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ (الدخان: ٢٩)

ويا له من تصوير!.

ويوجه المؤلف سهامه القاتلة تجاه أدعياء العلم حيث يقول:

إني أدعو الذين يأخذون على كتاب الله من جهلة المستشرقين ما وقع فيه من التكرار أن يقارنوا النصوص المتكررة مقارنة الدارس الأدبي المستشف، ليجدوا هذا التكرار الظاهري في سياقه ومضمونه يضم جديد المعاني وطريف الصور، فهو ذو إضافة جديدة تجعله ذا إمتاع أدبي، وإقناع عقلي، وكتاب الله عزوجل كتاب بيان خالد يتطلب متذوقاً بليغاً يقف على بعض أسراره، إذ لا يبلغ مدى هذه الأسرار جميعها غير نبي، وإذ ذاك يرى فيما يتوهم من التكرار من فنون الإصابة ودلائل الإعجاز ما يقف أمامه دهشاً حائراً، بل أزيد فأقول: إن هذا التكرار المعترض عليه ممن لا يفقهون أسرار العربية هو موضع إعجاز حقيقي لا مرية فيه، لأن عهدنا بذوي التكرار من أدباء البشر أن يعيدوا ما ذكروه دون إضافة لافتة أو ايحاء موجه، فيجئ حديثهم المتكرر لغواً لا طائل تحته.

المناسبة بين الآيات القرآنية

يثني المؤلف على ما بذله المفسرون من جهد مشكور في فهم آيات القرآن وما أفردوه من كتب لشرح الأسرار البيانية للإعجاز القرآني، وما ظهر في عصرنا الحاضر من توجه بعض الباحثين الكرام إلى إظهار الوحدة الموضوعية في السورة الواحدة مهما امتدت آياتها كسورة البقرة، وأن لهم في ذلك اجتهادات ذكية تشكر بواعثها العلمية الأمينة غير أنه ينعى على هؤلاء الذين لحق الاعتساف المتكلف اجتهاداتهم وبخاصة وأن هناك فريقاً من الدارسين لا يرى وجوب الوحدة الموضوعية في السورة الطويلة ويشير إلى قول سلطان العلماء العز بن عبد السلام رحمه الله: (واعلم أن المناسبة علم، ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد يرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط، ومن ربط ذلك فهو متكلف).

ويدلل المؤلف على صحة ما ذهب إليه بمثال من سورة القيامة، إذ يوضح أن الآيات من ١ : ١٥ في حديث متسلسل عن البعث الأخروي وما يتبعه من حيرة وسؤال وحساب تنتهي بحديث آخر يبتدئ بقول الله - عزل وجل -:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾

ويشير المؤلف إلى أن محاولة الربط لدى البعض ممن يرون وجوبه يوقعهم في التكلف، وساق المؤلف دليلا لهذا التكلف ما وقع فيه الإمام القفال، حيث ذهب إلى أن الخطاب في الآيات السالفة موجه إلى ذلك الجاحد الذي يفجر أمامه، وإذا خوفه مخوف بيوم القيامة أجاب

مستهزئا: أيان يوم القيامة؟ حتى إذا جاء ذلك اليوم لم يجد مفراً، إلا إلى الله، ونبىء بما قدم وأخر. وقد علم من آيات أخرى أن الإنسان يعطى يوم القيامة صحيفة عمله، ويقال له:

﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾

(الإسراء: ١٤)

فإذا أخذ فى قراءتها تلجلج وتكلف الإسراع فى القراءة لينجو من هذا الموقف المخزى، فيقال له: لا تحرك به لسانك مريداً التخلص منه بهذه العجلة، فإنه يجب بحكم الوعد والحكمة أن نجمع عملك ونقرأه عليك، فإذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه بالإقرار، ثم إن علينا بيانه، أى بيان أمره وشرح مراتب عقوبته).

ويشير المؤلف إلى أن قول الله:

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾

لا يمكن أن يتجه إلى صحيفة عمل المرء دون أن تسبق الإشارة إليها وأن الإحالة على آية كريمة من سورة أخرى افتعال يرفضه الذوق البيانى فى أفصح كتاب عربى.

ثم يقول: والحق الذى لا مرية فيه، أننا لا نعدل عن القريب إلا إذا تعذر رجوع الضمير إليه، وقامت قرينة تدل على الإشارة إلى البعيد، وهنا لا يتعذر فهم الكلام على نهجه الطبيعى، كما لم تقم قرينة دالة على الإحالة إلى آية كريمة فى سورة أخرى، ففيم العناء؟

المناسبة بين السور القرآنية

يرى المؤلف أن محاولة الكثير من المفسرين الربط بين الآية الأخيرة من السورة السابقة والآية الأولى من السورة اللاحقة نوع من التكلف لا طائل من ورائه؛ لأن الربط الحقيقى بين السور المتجاورة، إنما يكون بامتداده إلى الموضوع الشامل فى كل من السورتين، ويضرب المؤلف مثالا لما ذهب إليه بسورتى الدهر والمرسلات إذ يقول:

إذا تأمل القارئ الدارس سورة (الدهر) وجدها تكاد تكون خالصة للبشارة والأمل، إلا فى نص صغير يرهب ويوعد فى مجال المقابلة الطارئة، كما أن سورة (المرسلات) تليها متحدثة عن الزجر والتهديد، إلا فى نص صغير يبشر ويرحب فى مجال المقابلة الطارئة أيضاً، ومعنى ذلك أن قارئ كتاب الله إذا انشرح صدره للطاعة فإنه مع سورة (الدهر) فى روضة معطار، تجد فيها ما تشتهيه النفس وتلذ العين، فيقبل على قراءتها بعيداً عن جو الإنذار والتخويف، كما أن قارئ القرآن إذا تورط فى المعصية فإنه مع سورة (المرسلات) فى جو رهيب ينذره بالويل الراصد، ويريه مصيره فى اللهب المستعر، والجحيم المشتعل، وهكذا يكون تجاور السورتين مرتبطاً أوضح الارتباط حين يفصل المصيرين المتقابلين تفصيلاً يبلغ مبلغه النافذ فى الإقناع والتأثير.

ويستعرض المؤلف عناصر السورتين الكريمتين ليرى الدارس كيف كان تجاورهما منطقياً فى بابه، وكيف كانت المقابلة بين مشهدين متناقضين ذات عبرة بالغة وحسم دقيق.

هل من لفظ زائد فى القرآن؟

يشير المؤلف فى هذا الفصل إلى عدة أبحاث ألقاها المغفور له الإمام الأكبر عبدالرحمن تاج فى عدد من مؤتمرات مجمع اللغة العربية المتوالية حول ما يزعمه البعض من زيادة الحروف فى بعض الألفاظ القرآنية.

ويشير إلى ما أثارته من حراك فكرى انتفع به المناقشون والمعقبون حتى أنتج ثروة علمية وفائدة مستطابة وجدت طريقها إلى المطابع فأثرت المكتبة العربية بالعديد من البحوث المستفيضة التى نشرت فى مئات الصحف غير أن المؤلف وجد كتباً أخيرة تعاقبت فى تفسير كتاب الله، واكتفت بالنقل عن السابقين فيما يسمى بزيادة الألفاظ فى القرآن، ولم تنتفع بشىء مما ذكره المغفور له الدكتور عبدالرحمن تاج، ويتساءل: أفتكون تلك غفلة متعمدة؟ أم ماذا تكون؟

ويرى المؤلف أن أنصار القول بزيادة الكلام لا ينقطع لهم حديث مع توهين ما يذهبون إليه، وكأنهم لا يقرءون.

ويقدم المؤلف ثلاثة أمثلة لبعض ما حكموا فيه بزيادة اللفظ ويقول: (ولو شئنا أن نمد بالاستشهاد إلى عشرات الأمثلة لأسعفنا الموضوع).

ونحن بدورنا نقدم أحد هذه الأمثلة الثلاثة: فى قول الله - عز وجل:

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾

لقد نظر بعض المتسرعين إلى آيتى النار والجنة، فوجد قوله تعالى فى آية النار:

﴿ فُتِحَتْ ﴾

بدون واو، وقوله تعالى فى آية الجنة:

﴿ وَفُتِحَتْ ﴾

بثبوت الواو، فحكم بأن الواو فى آية الجنة زائدة، لتكون كآية النار دون خلاف فى المعنى!

يقول المؤلف: «ولعمرى!! هذا هو التسرع بعينه، لأن الموقف بين الجنة والنار جد مختلف، فالجنة بمنظرها الفتان، وعطورها الفائحة، ونسيمها الرائح الغادى محملاً بأزكى العبير كانت مفتحة الأبواب قبل أن يأتى إليها المتقون، ليكون مرآها على البعد أشوق وأجذب وأخلب، ولذلك لم تفتح أبوابها عند حضورهم، إذ كانت فى زينتها المرئية من الداخل على أكمل منظر يبهج النفس، وتأكيداً لذلك يقول الله - عز وجل - فى سورة (ص):

﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴾

فهى دائمة الإشراق داخلا وخارجاً! فالواو هنا للحال، وليست زائدة.

أما النار فلو فتحت أبوابها قبل أن يصل إليها التعساء من أصحابها لانتشر اللهيب فى كل مكان، وخرج الشواظ المتأجج ليحرق ما حوله، وانتقل خطره من النار إلى ماعداها، ولذلك تظل أبوابها موصدة غير مفتوحة، حتى يأتى المذنبون إلى مستقرهم بها، وهنا تفتح الأبواب فجأة، وهذا السر البيانى فى ذكر الواو فى الأولى، وحذفها فى الثانية، وعلى الذين يسارعون إلى القول بالزيادة أو الحذف أن يتدبروا المعانى أولا، لأن الإعراب فرع المعنى، ولا يتم هذا التدبر دون تأمل فى رسم المشهد، وتخليه ذهنياً، والحكم عليه بما يثبت التصور الصحيح.

ويستطيع قارئ الكتاب أن يستشف، بل يلمس شيئاً من أخلاق ونبل مؤلف هذا الكتاب من خلال النقاط التالية:

(١) حين يخالف رأياً أو يضيف جديداً، فلا نكاد نرى أروع ولا أكثر تواضعاً من قوله: ولست بذلك أخطئ من اتجه غير هذه الوجهة، بل أضيف رأياً إلى رأى، وإذا احتمل الخطأ عند قوم، فقد يحتمل الصواب عند الآخرين.

(٢) وحين يستجد له رأى - خلافاً لما قدمه فى سابق عهده لتلاميذه - بعد طول تفكير يقول:

هذا ما ارتضيته حينذاك، وقد بدا لى اليوم غيره فمن حق تلاميذى علىّ أن يعلموا أن الآراء العقلية تتجدد بتجدد التفكير المتصل، وأن اختلاف هذه الآراء يفتح مجال الموازنة بينها؛ ليميل كل دارس إلى ما يرتضيه.

(٣) ويتضح التواضع العلمي حين يصرح - رحمة الله عليه - بأن مشوار جهاده الممتد ما هو إلا خطوة قصيرة فى طريق ممتد فياح لا يكاد ينتهى السير فيه ما دامت هناك عقول تفكر وأقلام تسطر.

وبعد.. فقد كانت هذه قراءة فى كتاب غنى لصاحب فكر ثرى، توقفنا عند بعض ما قاله، ولو توقفنا عند كل ما قال لاحتجنا إلى صفحات وصفحات، ولكننا نكتفي بما قدمنا؛ لأن ما كتبه فضيلة الدكتور - رحمه الله - يماثل ما يقدمه الصائغ الماهر من مصنوعات تبهر أشكالها الرائى ويشهد بريقها المتلألئ أن معدنها من الذهب الخالص.

وإذا كان من الواجب أن نشير إلى أن الكتاب إضافة متميزة للمكتبة العربية.. فهل للمكتبة العربية غنى عن كل ما كتب الدكتور البيومى؟

رحم الله فقيدنا الغالى لقاء ما أمتعنا بما قدم من فكر هادئ ونقد بناء مستنير.. وعلى الله قصد السبيل.



﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِ ﴾

كلنا مصريون

للأستاذ/ عبدالموجود أمين موسى

انتصرت «صول» على كل دعاة الفتنة الذين كادوا أن يعصفوا بالوطن الذى مازال يعانى آلام مخاض صعب فى أعقاب ثورة مجيدة قام بها شباب مصر يوم ٢٥ يناير.

رموز دينية مشهود لها بالتجرد والصدق بمساندة الجيش نجحت فى اقتلاع بذور الفتنة.. وتم الصلح الذى شارك فى وضع بنوده مجموعة كبيرة من العلماء عقدت جلسة الصلح النهائية بديوان عائلة البحيرى بالقرية يوم ٢٠١١/٣/١٢ مع عشرين من شباب القرية لإزالة الضغائن وإعادة الثقة المفقودة فى ظل التأكيد على أن الشريعة الإسلامية تحرم الاعتداء على الأقباط وهو ما أعلن أمام الحضور فى المؤتمر الجماهيرى الذى شهده أكثر من ثلاثين ألفا من أهالى القرية والقرى المجاورة.

أكد الشيخ محمد حسان أن بنود البيان الذى تم الإعلان عنه شارك فيها بالرأى والمشورة ٢٦ من علماء الدين منهم من حضر اللقاء ومنهم من تم الاتصال به هاتفيا لإبداء رأيه الشرعى.

قال فضيلة الشيخ حسان مخاطباً أهل قرية صول الذين جلسوا أمام باحة ديوان عائلة البحيرى منذ الساعة الثانية عشرة ظهرا وحتى الساعة السابعة مساء "حياكم الله جميعا يا أهل هذه القرية

إحساساً أن هاهنا مجزرة بدون مبالغة!!

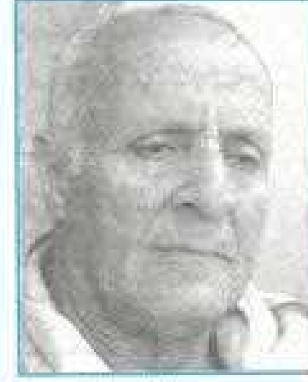
قال: لو اجتهد المذيع أو من يتحدث عما يحدث هنا داخل القرية، وجاء إلى هنا لوقف على الحقيقة.. حتى بعض من جاءوا إلى هنا سولت لهم أنفسهم أن يحرفوا الحقيقة، بل ويضيفوا من خيالهم.. لقد سمعت مثلما سمع الكثيرون عن وقوع قتلى وجرحى وهدم وحرق للمنازل، وتعجبت كثيراً من ذلك!!

قلت: إذن ما هي حقيقة الأمر؟

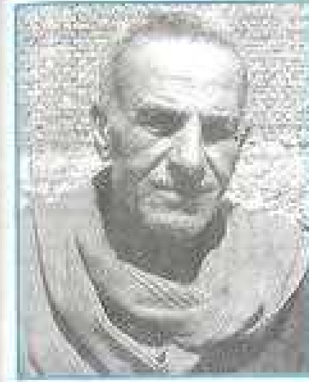
قال: مجرد جريمة قتل تمت بين مسلمين وقتل كل منهما الآخر.

قلت: إذن ما دخل الكنيسة والأقباط في ذلك؟

قال: الجريمة ترتبط بالشرف والقصة أن شابا قبطيا ارتبط بعلاقة آثمة بامرأة مسلمة فوقع خلاف حاد وعنيف داخل عائلة المرأة المسلمة ترتب عليه مقتل أبيها وابن عمها وأثناء تشييع الجنازة تجمع أكثر من عشرين ألف رجل وشاب مطالبين بالثأر من الشاب القبطي الذي تسبب في كل ما حدث وسرت شائعة أنه يحتمي بالكنيسة فاتجهت الجموع إليها، ورفض القائمون على الكنيسة دخول أي شخص للتأكد من عدم وجود الشاب فحدث الانفجار وكان ما كان.



محمد عبدالعليم غيث



وديع غبريال

قلت: هل لغياب الأمن في ذلك الوقت سبب في تطور الأحداث؟

قال: كان الأمن والقوات المسلحة متواجدين، ولكن ماذا يمكن أن يفعلا في مواجهة الجماهير الحاشدة؟ لم يكن بمقدور أي أحد التدخل للحيلولة دون وقوع هذه الأحداث المؤسفة وكان لابد من الانتظار حتى تهدأ الأمور ليكون بالإمكان إعادة الأمن والهدوء وبناء الكنيسة التي تعرضت بالفعل للتدمير.

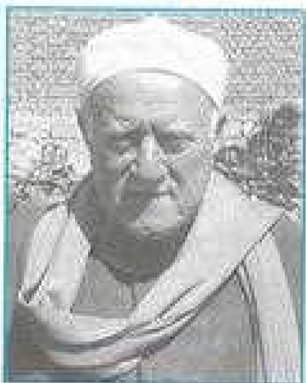
بعد ذلك تحدثت مع وديع فريد غبريال وهو من أهل قرية صول ويعمل سائق سيارة نقل ثقيل وقال: يا أستاذ الموضوع باختصار واحد مسيحي كان على علاقة آثمة بامرأة مسلمة وحدث خلاف بسبب هذا الموضوع داخل أسرتها ترتب عليه مقتل اثنين من أهلها هما أبوها وابن عمها ولم يقع أي قتيل أو مصاب بخلافهما سواء من المسلمين أو من المسيحيين.

المسلمون اعتبروا أن الشاب المسيحي هو السبب في مقتل رجلين مسلمين فأرادوا الانتقام منه واعتقدوا أنه يختفي داخل الكنيسة فدخلوها بالقوة بحثا عنه فلم يجدوه فهدموا الكنيسة ولم تقع أي أحداث قتل ولم يتم الاعتداء على أي مسيحي داخل القرية.

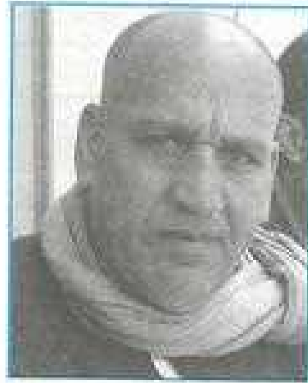
المسألة كلها متعلقة بالشرف وهو أمر قد يحدث بين المسلمين بعضهم البعض أو بين المسيحيين أنفسهم، ولا دخل للتعصب الديني في هذه المسألة، فقريتنا لا تعرف التعصب، ونحن جميعا نعيش معًا في حب ووئام.

التقيت العمدة الحاج محمود عبدالعليم غيث الذي قال: الموضوع كله متعلق بالشرف وهي مسألة لها حساسيتها سواء عند المسلمين أو المسيحيين على حد سواء أما موضوع أن هناك فتنة بين المسلمين والمسيحيين فهذا غير موجود أبداً ولن يكون موجوداً فكلنا أخوة وأسرة واحدة.

تدخل في الحوار الأستاذ/ حمدي يوسف البحيري وهو ناظر معهد أزهري قائلاً: الناس هنا يعيشون في وئام منذ عهد بعيد وأبسط دليل على ذلك أننا في المعهد الأزهري احتجنا لعمل مقاعد جديدة وإصلاح المقاعد القديمة فاخترنا ورشة يملكها أحد المسيحيين للقيام



محمود عبدالعليم غيث



حمدي البحيري

بهذا العمل ولم ننظر إلى ديانته لأن هذا الأمر غير مطروح على الإطلاق فكيف يمكن تصور حدوث فتنة؟!

تجولت في القرية، وعلى بعد نحو خمسين مترا من الكنيسة شاهدت منزل ماهر صادق فهيم وإخوته وهم أسرة مسيحية دعتني للدخول لمنزلهم فسألتهم: لماذا بقيتم في القرية ولم ترحلوا مثلما قيل في الفضائيات؟

قال ماهر: لماذا نرحل؟ كل ما حدث أن شخصا أخطأ خطأ جسيما وهو يستحق القتل فعلا فقد ارتكب عملا نرفضه جميعا ونجرمه.. إنها جريمة شرف وأظن أنك تعلم عاداتنا وتقاليدنا مسلمين ومسيحيين.

قلت: إذن لماذا هدمت الكنيسة؟

قال: إشاعة انتشرت أن الشاب اختبأ داخل الكنيسة، فتحول الأمر إلى هرج عجز الجميع عن السيطرة عليه وحدث ما حدث.

سألته: المعتصمون أمام مبنى الإذاعة والتليفزيون رفعوا عدة مطالب، وهذه

المطالب كانت نتيجة لما حدث في صول، فما هي مطالبكم أنتم؟

قال: ليس لنا أي مطالب غير بناء الكنيسة.

وقبل أن أغادر حصلت على نسخة من لائحة العمل الداخلي لقرية صول ونزلة ترجم وعزبة رياض، هذا نصها:



أسرة ماهر صادق فهيم

لائحة العمل الداخلى لقرية صول ونزلة ترجم وعزبة رياض

قال رسول الله ﷺ: «لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم ولو أدعى به في الإسلام لأجبت»(٣) ومقصود هذا الحلف أنه كان يهدف إلى نصرة المظلوم والوقوف في وجه الظالم والأخذ بكل قوة على يد كل معتد على حرمات ومقدرات الغير.

● وفي ظل الظروف التي تمر بها البلاد وفهم البعض للحرية فهما خاطئا على أنه يفعل ما يشاء وقت ما يشاء دون مراعاة لحقوق وحرمات المجتمع فإنه يتعين على أولي الأمر بالقرية الوقوف يدا واحدة لوضع الأمور في نصابها الصحيح وبناء على ذلك:ـ فإنه في يوم السبت الموافق ٢٣ من ربيع الأول ١٤٣٢ هـ - ٢٦ فبراير ٢٠١١م تم عمل مجلس إدارة لقرية صول وتوابعها ممثلا في عمدة صول والسادة مشايخ العائلات وأصحاب الرأي والفكر في القرية وقد تم اجتماع أعضاء المجلس لبحث ما يتحتم علينا لنصل بقريتنا إلى بر الأمان وقد أسفر الاجتماع عما يلي:

● البند الأول: القرية بفضل الله تعالى تتمتع بإطار اجتماعي وأدبي وأخلاقي قد لا تتمتع به قرية أخرى فلنعمل على ترسيخ هذا المبدأ والمحافظة عليه.

● البند الثاني: لا فرق في الحقوق والواجبات الاجتماعية بين مسلم ومسيحي فالجميع يد واحدة في المحافظة على أمن واستقرار البلد ولا يوجد ما يسمى طائفية أو أقلية ويتم فض أي نزاع عن طريق مجلس قيادة القرية.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي.

● البند الثالث: إذا وقع أي خطأ يخل بأمن واستقرار القرية أو اعتداء على ممتلكات الغير وجب على شيخ العائلة أو من ينوب عنه أن يسارع في فض النزاع والأخذ بكل قوة على يد المعتدي.

● البند الرابع: إذا كان الأمر الأكبر من مقدور شيخ العائلة يتم استدعاء مجلس إدارة البلد بأقصى سرعة وللمجلس حرية أخذ القرار الحاسم في إيقاف المعتدي عند حده وتوقيع العقوبة اللازمة عليه.

● البند الخامس: إذا حدث خلاف بين أحد أبناء القرية وأي فرد من قرية أخرى يتم حسم الخلاف عن طريق مجلس إدارة القرية.

● البند السادس: إذا حدث اعتداء على المال العام أو استغلال للظروف وخاصة في السلع الغذائية والتموينية يتحتم على من علم بهذا الاعتداء إبلاغ مجلس قيادة القرية لسرعة البت في الأمر وردع المستغل بالعقوبة التي يراها المجلس.

● البند السابع: لا يحق لأحد أبناء القرية أن يتستر على مجرم أو يؤويه أو يعينه على إفساد في القرية وإذا تبين ذلك يعتبر الشخص المتستر هو المذنب في حق القرية.



● البند الثامن: على أهالي كل منطقة بالقرية عمل لجان شعبية لحماية الممتلكات والأفراد وتكون على اتصال دائم بمجلس قيادة القرية وتكون مهمتها حفظ الأمن ومراقبة المنشآت العامة.

● البند التاسع: يتم التنبيه على جميع أهالي القرية بما جاء في هذا البيان عن طريق المساجد والمنتديات والمدارس والأماكن العامة حتى يصل للجميع ما يدور بالقرية.

● البند العاشر: مجلس قيادة القرية يعتبر في حالة انعقاد مستمر لمناقشة ما يطرأ على الساحة لصالح القرية وسكانها وعلى جميع الأهالي الوقوف جنبا إلى جنب للوصول بالقرية إلى بر الأمان.

والله تعالى نسأل أن يعيد لبلدنا أمنها واستقرارها ويحفظ أهلها وممتلكاتها.

***

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور

علـى جمعـة

مفتى جمهورية مصر العربية

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى اله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لهذا السؤال:

نقـــل الموتـى من المقابــر

● ما حكم نقل جثمان من مقبرة إلى مقبرة أخرى بدون أى أسباب شرعية تضطرنا إلى نقل هذا الجثمان؟

●● الجواب: لا يجوز نقل الموتى من قبورهم إلا لرفع ضرر عن جثث الأموات أنفسهم لا يمكن رفعه إلا بنقلهم، كما لو تضررت قبورهم بالفيضان أو السيول، أو لكونهم قد دفنوا فى أرض مغصوبة، أو لمصلحة عامة لا يمكن تحقيقها إلا بتحويل القبر، كما لو احتاج الأحياء لشق طريق أو لتحويل مجرى نهر لا يستغنى عن فعله وتعين نقل الموتى لأجل ذلك، فنقل الموتى فيه إيذاء لهم، وإيذاؤهم أمواتاً كإيذائهم أحياء، وذلك أخذاً من حديث عائشة - رضى الله تعالى عنها - الذى رواه عنها أبوداود وابن ماجة وأحمد وغيرهم مرفوعاً: (كسر عظم الميت ككسره حياً)، ولا يجوز تقديم مصلحة الأحياء عليهم، ولا يتجاوز فى ذلك إلا عند التعارض مع مصلحة عامة للمجتمع، تقديماً لمصلحة الجماعة على مصلحة الأفراد.. وعليه وفى واقعة السؤال فلا يجوز نقل هذا الجثمان من مكانة الحالى.. والله سبحانه وتعالى أعلم.

قنـــوت الفجـــر

● ما حكم قنوت الفجر؟

●● الجواب: القنوت فى صلاة الفجر سنة نبوية ماضية، قال بها أكثر السلف الصالح من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من علماء الأمصار، وجاء فيه حديث أنس بن مالك رضى الله عنه: «أن النبى ﷺ قنت شهراً يدعو عليهم ثم تركه، وأما فى الصبح فلم يزل يقنت حتى فارق الدنيا»، وهو حديث صحيح رواه جماعة من الحفاظ وصححوه.. كما قال الإمام النووى وغيره، وبه أخذ الشافعية والمالكية فى المشهور عنهم، فيستحب عندهم القنوت فى الفجر مطلقاً، وحملوا ماروى فى نسخ القنوت أو النهى عنه على أن المتروك منه هو الدعاء على أقوام بأعيانهم لا مطلق القنوت.

قال الإمام الحفاظ أبوبكر الحازمى فى كتابه (الاعتبار فى بيان الناسخ والمنسوخ من الآثار) (٣ / ٩٠-٩١): (وقد اختلف الناس فى القنوت فى صلاة الصبح؛ فذهب أكثر الناس من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من علماء الأمصار إلى إثبات القنوت:

فممن روينا ذلك عنه من الصحابة الخلفاء الراشدون: أبوبكر وعمر وعثمان وعلى رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، ومن الصحابة: عمار بن ياسر، وأبى بن كعب، وأبو موسى الأشعرى، وعبدالرحمن بن أبى بكر الصديق، وعبدالله بن عباس، وأبوهريرة، والبراء بن عازب، وأنس بن مالك، وأبوحليمة معاذ بن الحارث الأنصارى، وخفاف بن إيماء ابن رحضة، وأهبان بن صيفى، وسهل بن سعد الساعدى، وعرفجة بن شريح الأشجعى، ومعاوية بن أبى سفيان، وعائشة الصديقة.. ومن المخضرمين: أبو رجاء العطاردى، وسويد ابن غفلة، وأبوعثمان النهدى، وأبورافع الصائغ.. ومن التابعين: سعيد بن المسيب، والحسن بن أبى الحسن، ومحمد بن سيرين، وأبان بن عثمان، وقتادة، وطاوس، وعبيد بن عمير، والربيع بن خثيم، وأيوب السختيانى، وعبيدة السلمانى، وعروة بن الزبير، وزياد بن عثمان، وعبدالرحمن بن أبى ليلى، وعمر بن عبد العزيز، وحميد الطويل..

ومن الأئمة والفقهاء: أبو إسحاق، وأبوبكر ابن محمد، والحكم بن عتيبة، وحماد، ومالك ابن أنس، وأهل الحجاز، والأوزاعى، وأكثر أهل الشام، والشافعى وأصحابه، وعن الثورى روايتان، وغير هؤلاء خلق كثير.

وخالفهم فى ذلك نفر من أهل العلم ومنعوا من شرعية القنوت فى الصبح، وزعم نفر منهم أنه كان مشروعاً ثم نسخ، وتمسكوا فى ذلك بأحاديث توهم النسخ) أ.هـ.

والفريق الآخر من العلماء يرى أن القنوت في صلاة الفجر إنما يكون في النوازل التي تقع بالمسلمين، فإذا لم تكن هناك نازلة تستدعي القنوت فإنه لا يكون حينئذ مشروعا، وهذا مذهب الحنفية والحنابلة.

فإذا ألمت بالمسلمين نازلة فلا خلاف في مشروعية القنوت في الفجر عند الجميع، وإنما الخلاف في القنوت للنازلة في غير الفجر من الصلوات المكتوبة، فمن العلماء من رأى الاقتصار في القنوت على صلاة الفجر كالمالكية، ومنهم من عدّى ذلك إلى بقية الصلوات الجهرية وهم الحنفية، والصحيح عند الشافعية تعميم القنوت حينئذ في جميع الصلوات المكتوبة، ومثلوا النازلة بوباء أو قحط أو مطر يضر بالعمران أو الزرع أو خوف عدو أو أسر عالم.

فالحاصل أن العلماء إنما اختلفوا في مشروعية القنوت في صلاة الفجر في غير النوازل، أما في النوازل فقد اتفق العلماء على مشروعية القنوت واستحبابه في صلاة الفجر واختلفوا في غيرها من الصلوات المكتوبة، ولا يخفى على الناظر ما تعيشه الأمة الإسلامية من النوازل والنكبات والأوبئة وتداعي الأمم عليها من كل جانب وما يستوجبه ذلك من كثرة الدعاء والتضرع إلى الله تعالى عسى الله أن يرفع أيدي الأمم عنا ويرد علينا أرضنا وأن يقر عين نبيه المصطفى ﷺ بنصر أمته وورد مقدساتها إنه قريب مجيب.

ومن العلماء من قال بتواصل النوازل وعدم محدوديتها؛ وهذا يقتضي مشروعية قنوت الفجر في هذا العصر، ولايتأتى عدم القنوت حينئذ إلا على قول من قال بمحدودية النازلة ووقتها بما لا يزيد عن شهر أو أربعين يوما.

وإذا أخذ المسلم بقول من قصر القنوت على النوازل فقط، فليس له أن يدع غيره ممن يقنت في الفجر على كل حال، ولذلك فعندما ارتضى العلامة ابن القيم الحنبلي القول بقصر القنوت على النوازل فقط وصف القائلين بذلك بأنهم (لا ينكرون على من داوم عليه، ولا يكرهون فعله، ولايرونه بدعة، ولا فاعله مخالفا للسنة، كما لا ينكرون على من أنكره عند النوازل.. ولا يرون تركه بدعة، ولا تاركه مخالفا للسنة، بل من قنت فقد أحسن، ومن تركه فقد أحسن) أ.هـ من (زاد المعاد) (١ / ٢٧٥، مؤسسة الرسالة).

وبناء على ذلك: فالأمر مبني على أن من قنت في الفجر فقد قلد مذهب أحد الأئمة المجتهدين المتبوعين الذين أمرنا باتباعهم في قوله سبحانه وتعالى:

﴿ فَسْئَلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(النحل: ٤٣)

ومن كان مقلداً لمذهب إمام آخر يرى صوابه في هذه المسألة فلا يحق له الإنكار على من يقنت؛ لأنه لا يُنكر المختلف فيه، ولأنه لا يُنقض الاجتهاد بالاجتهاد.

والله سبحانه وتعالى أعلم

زكاة المال

● توفي زوجي وترك لي ولداً عمره خمس سنوات، وكان لهذا الولد مبلغ من المال قد حال عليه الحول، وأريد أن أخرج زكاة هذا المال؟

●● الجواب: يرى جمهور العلماء أن الزكاة واجبة في مال الصبي القاصر وفي مال السفيه أو المجنون المحجور عليه، وهذا هو الذي عليه الفتوى، لأنه حق يتعلق بالمال فلا يسقط بالصغر أو السفه أو الجنون، ويخرجها عنهم أولياؤهم، واستندوا في ذلك إلى عموم النصوص من الآيات والأحاديث الصحيحة التي دلت على وجوب الزكاة في المال الذي بلغ النصاب وحال عليه الحول، كقوله تعالى:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(التوبة: ١٠٣)

وكقوله ﷺ في وصيته لمعاذ بن جبل - رضي الله عنه - حين أرسله إلى اليمن: (فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد في فقرائهم)، (رواه مسلم)، والقصر والسفهاء والمجانين ترد فيهم الزكاة إذا كانوا فقراء، فلتؤخذ منهم إن كانوا أغنياء.

كما استدلوا بما رواه الإمام الشافعي عن يوسف بن ماهك أن رسول الله ﷺ قال: (ابتغوا في أموال اليتامى؛ لا تستهلكها الصدقة)، وهو مرسل صحيح يعتضد بما سبق من عموم النصوص، وبما يأتي من طرقه وشواهده، وقد صح هذا اللفظ أيضاً موقوفاً على عمر بن الخطاب - رضي الله عنه.

وروى الطبراني في المعجم الأوسط عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (اتجروا في أموال اليتامى؛ لاتأكلها الزكاة) وصححه الحافظ العراقي.

وروى الترمذي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: (من ولي يتيماً فليتجر له ولا يتركه حتى تأكله الصدقة).

ولولا أن الزكاة واجبة في القاصر والسفية والمجنون لما جاز للولي أن يخرجها منه؛ لأنه ليس له أن ينفق ماله أو يتبرع منه في غير واجب، فأمر النبي ﷺ بتنمية أموالهم حتى لا تستهلكها الزكاة الواجبة فيها.

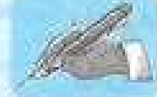
وقد صح إيجاب الزكاة في مال الصبي والمجنون عن عمر وعلي وابن عمر وعائشة وجابر بن عبدالله - رضي الله عنهم - ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة إلا رواية ضعيفة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - لا يحتج بها.

وهذا هو الملائم لتشريع الزكاة في الإسلام من أنها حق في المال يجب لمستحقه كما قال سيدنا أبوبكر الصديق - رضي الله عنه: (فإن الزكاة حق المال)، كما أن كلا من القاصر والمجنون أهل لوجوب حقوق العباد في ماله ولذلك يضمن ما أتلفه بأداء الولي من ماله، وينوب عن القاصر أو المجنون أو السفيه وليه في إخراجها، بشرط أن يكون هذا المال فائضاً عن نفقة الصبي وحاجته الأصلية وأن يبلغ هذا المال النصاب ويحول عليه الحول القمري ويخرج عليه ربع العشر.

والله سبحانه وتعالى أعلم

تأملات فى السيرة

«بيعة النساء»


لفضيلة الشيخ الطاهر الحامدى

عجيبة هذه البيعة سماها بعض المؤرخين بيعة النساء ولم يكن فيها نسوة وسماها بعض المؤرخين البيعة الأولى وسماها أكثر المؤرخين أو من كتبوا السيرة من بعد بالبيعة الأولى فما سر التسمية وما هو سبب الاختلاف؟

أما سر التسمية مع أنها لم تكن فيها امرأة واحدة فهو أن صيغة البيعة وشروطها كانت موافقة لشروط الصيغة التى وردت فى بيعة النساء بمعنى أنه لم يشترط فيها النبى ﷺ الحرب مع من يبايعه وكانت قبل فرض الحرب فلم يشترط على المبايعين له ﷺ أن يحموه ويدافعوا عنه فى حالة الاعتداء عليه.

أما سبب اختلاف التسمية فيرجع إلى أن النبى ﷺ قبل هذه البيعة - بيعة النساء - لقى جماعة من أهل المدينة فى موسم الحج وعرض عليهم الإسلام واتباعه؛ فرضوا بالإسلام وقبلوا ما جاء وطلبوا منه ﷺ أن يرجعوا إلى أهلهم وأن ما عنده حسن ومقبول ولعل الله أن يجمع به شملهم لكنهم لم يبايعوه ولم يشترط عليهم شيئاً، وتراضوا على أن يرجعوا إلى أهلهم وتواعدوا العام القادم.

ولذلك فقد سمى بعض المؤرخين هذا اللقاء أو العهد بيعة واعتبرها الأولى، والبعض الآخر لم يسمها بيعة؛ لأنها لم تكن فيها شروط من الطرفين، واعتبرها بعض المؤرخين هى الأولى، فروى ابن إسحاق أنه بعد اللقاء الأول وفى العام المقبل أتى الموسم اثنا عشر رجلاً من الأنصار فبايعوا رسول الله ﷺ وفيما روى الشيخان والبيهقى عن عبادة بن الصامت - رضى الله عنه - قال: «بايعنا رسول الله ﷺ بيعة النساء وذلك قبل أن تفرض علينا الحرب على ألا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه فى معروف. قال «فمن وفى ذلك منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فى الدنيا فهو كفارة له. ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر».

ولما انصرف القوم راجعين إلى المدينة قيل: إن رسول الله ﷺ بعث معهم مصعب بن عمير يعلمهم القرآن ويفقههم فى الدين ويصلى بهم الصلوات، وقيل: إنهم كتبوا إليه أن يبعث إليهم من يعلمهم القرآن ويصلى بهم؛ لأنهم كرهوا أن يأمهم أحد منهم وكان مصعب يسمى فى المدينة «المقرئ» وكان منزله على أسعد ابن زرارة.

هذا ويجدر بنا أن نذكر موقفاً لمصعب ابن عمير مع سعد بن معاذ وأسيد بن حضير يذكره المؤرخون على أنه سبب إسلامهم ويروى عن البخارى فى تاريخه الأوسط أن قريشاً سمعت قائلاً يقول فى الليل على جبل أبى قبيس:

فإن يُسْلم السَّعدان يصبح محمدٌ
بمكة لا يخشى خلاف المخالف

فلما أصبحت قريش قالت من السعدان؟

فلما كانت الليلة الثانية سمعوا قائلاً يقول:

فيا سعد الأوس كن أنت ناصراً
ويا سعد الخزرجين الغطارف
أجيبا إلى داع الهدى وتمنيا
على الله فى الفردوس زلفة عارف
فإن ثواب الله للطالب الهدى
جنان من الفردوس ذات زخارف

فقالت قريش هذا سعد بن معاذ وسعد ابن عبادة ويروى أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بنى عبد الأشهل ودار بنى ظفر، وكان سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد ابن عبد الأشهل ابن خالة أسعد بن زرارة فدخل به حائطاً من حوائط بنى ظفر فجلسا فيه واجتمع إليهما رجال ممن أسلموا وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير - يومئذ سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل وكلاهما مشرك على دين قومه - فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد ابن حضير: لا أبا لك انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارنا فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث قد علمت كفيتك ذلك فهو ابن خالتى ولا أجد عليه مقدماً، قال: «فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما. فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه فاصدق الله فيه. قال مصعب: إن يجلس أكلمه، قال: «فوقف عليهما متشتماً قال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة!! فقال له مصعب: أوتجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهته كف عنك ما تكره؟ فقال: أنصفت. ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم به فى إشراقه وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى

هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلى. فقام فاغتسل وطهر ثوبه وتشهد بشهادة الحق، ثم قام فصلى ركعتين ثم قال لهما: إن ورائى رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وهم جلوس فى ناديهم فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم.

فلما وقف على النادى قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدثت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ليُخفروك. قال: فقام سعد مُغضباً مبادراً تخوفاً للذى ذكر له من أمر بنى حارثة فأخذ الحربة من يده ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً ثم خرج إليهما فلما رآهما مطمئنين عرف سعد أن أسيداً إنما أراد أن يسمع منهما فوقف عليهما متشمتاً ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة أما والله لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رمت هذا منى، أتغشانا فى دارنا بما نكره؟ وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أى مصعب: جاءك والله سيد من وراءه من قومه إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان. قال: فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره. قال سعد: أنصفت. ثم ركز الحربة وجلس فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن.

قالا: فعرفنا والله فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم لإشراقه وتسهُّله ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلى ركعتين.

ثم أخذ حربته فأقبل عامداً إلى نادى قومه ومعه أسيد بن حضير فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم. فلما وقف عليهم قال: يا بنى عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله. قال: فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة.

أيها القارئ الكريم وبعد أن نقلت إليك هذا النص كاملاً بطوله لعلك تأملته كما تأملته واستخلصت منه كما استخلصت وتوصلت لحقيقة واضحة كما توصلت وهى أن هذا السياق الذى يبدو منطقياً والنتيجة التى تبدو مستساغة مقبولة لماذا لم تكن الأمور فى مكة بهذه السلاسة ولماذا لم يدخل الناس فى الإسلام بمثل هذا الأسلوب ولماذا لم يقتنعوا بالدعوة ولماذا لم يستجيبوا لمصعب أو لغيره بهذا اليسر حيث إن مصعباً مكى بالأساس.

أرى والله أعلم أن أهل المدينة قلوبهم رقيقة وأفئدتهم لينة وأن الله سبحانه وتعالى قد أعد هذه القلوب ليدخل الإيمان فى حناياها سريعاً سهلاً ميسوراً غير ذى عوج وقد تهيأت الأسباب كما أوضحتُ وذكرت الصديقة بنت الصديق فى قولها أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - السابق ذكرها فى مقالنا السابق «يوم بُعاث يوماً قدمه الله لرسوله» هذا إلى جانب أن أهل مكة الذين كانت الدعوة بين أيديهم ونزل القرآن بينهم كانوا أقسى قلوباً وأكثر عناداً وأكثر صلفاً كما أن الله سبحانه وتعالى لم يقدم لهم بين أيديهم حرباً كيوم بعاث تأكل أموالهم وصناديدهم وتلجئهم إلى إيمان بالدعوة يلوذون إليه، أحسب أن هذه بعض أسباب جعلت الموقف مختلفاً بين مكة والمدينة أو أستطيع أن أضيف أن فترة مكة كانت فترة تمحيص واختبار وتهيئة لمراحل تتلوها تتطلبها الدعوة قد لا تكون شرسة ولا وعرة مثل ما كان فى مكة لكن الأمر كان يتطلب فترة مكة للإعداد والتمحيص.

قال جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - فيما يروى عنه أن رسول الله ﷺ لبث عشر سنين يتبع الناس فى منازلهم مجنة وعكاظ وفى المواسم منى يقول من يؤوينى ومن ينصرنى حتى أبلغ رسالة ربى وله الجنة؟ ثم يقول: حتى بعثنا الله إليه من يثرب فيأتيه الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه حتى لم تبق دار من دور يثرب إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام ثم بعثنا الله تعالى فائتمرنا - أى اتفقنا - واجتمعنا وقلنا: إلى متى نذر رسول الله ﷺ يطوف جبال مكة ويخاف؟ فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه فى الموسم فواعدناه شعب العقبة فاجتمعنا فيه من رجل ورجلين حتى توافينا عنده فقلنا: يا رسول الله علام نبايعك؟ قال: تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل، وعلى النفقة فى العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعلى أن تقولوا فى الله لا تأخذكم لومة لائم، وعلى أن تنصرونى إذا قدمت عليكم يثرب تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة.

وإلى لقاء آخر إن شاء الله



طرائف.. ومواقف

لفضيلة الشيخ/ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

لا يفعل ذلك إلا نبى

روى أن رسول الله ﷺ أعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل، ثم مائة، ثم مائة، ورآه يرمق شعبا مملوءا نعما وشاء، فقال له: أأعجبك هذا الشعب يا أبا وهب قال: نعم، قال: هو لك بما فيه!.

فقال صفوان: إن الملوك لا تطيب نفوسها بهذا ولا يفعل ذلك إلا نبى: «أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله».

ما ترك الأعرابى لنا عذرا

قيل: إن بعض وفود العرب قدموا على أمير المؤمنين عمر بن العزيز -رضى الله عنه- وكان فيهم شاب، فقام وقال: يا أمير المؤمنين أصابتنا سنون عجاف، سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة دقت العظم، وفى أيديكم فضول أموال فإن كانت لنا فعلام تمنعونها عنا؟ وإن كانت لله ففرقوها على عباد الله، وإن كانت لكم فتصدقوا بها علينا:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾

(يوسف: ٨٨)

فقال عمر بن عبد العزيز -رضى الله عنه-: ما ترك الأعرابى لنا عذرا فى واحدة.

العقل

قال المغيرة بن شعبة لعمر بن الخطاب إذ عزله عن كتابة أبى موسى الأشعرى: أعن عجز عزلتنى أم عن خيانة؟ فقال عمر: لا عن واحد منهما، ولكنى كرهت أن أحمل على العامة فضل عقلك.

يقول: إن من عبقرية الحكم أن تكون لعمر بن الخطاب هذه الكياسة فى حكم أمته، فإن الأمور الاجتماعية إذا عولجت بشدة، وسرى عليها المنطق الدقيق، فسدت وخرجت عن حدودها ككل الأشياء الإنسانية، ومن أحكم ما قرأناه فى هذا الموطن قول معاوية: «العقل مكيال ثلثه فطنة، وثلثاه تغافل». ومثله قول الشاعر:

ليس الغبى بسيد فى قومه
لكن سيد قومه المتغابى

العفو

لما دخل المأمون بغداد أحضر «دعْبلا» الشاعر بعد أن أعطاه الأمان، وكان قد هجاه وهجا أباه، فقال له يا دعبل «من الحضيض الأوهد» يشير المأمون إلى ما قاله فيه من قصيدة هجاه بها.

فقال دعبل: يا أمير المؤمنين قد عفوت عمن هو أشد جرما منى وقد أراد المأمون من اللفظين اللذين واجه الشاعر بهما أن يذكره بالقصيدة التى هجاه بها ومنها قوله يخاطب المأمون:

إنى من القوم الذين سيوفهم
قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله
واستنقذوك من الحضيض الأوهد

نوه له فى هذا البيت بما قام به طاهر بن الحسين من قتل أخيه محمد بن الرشيد وتوليته المأمون مكانه واستنشده هذه القصيدة فاستعفاه، فقال: لا بأس عليك وقد رويتها، وإنما أحببت أن أسمعها منك.

فلما أنشده إياها وانتهى إلى قوله منها:

بنات زياد فى القصور مصونة
وبنت رسول الله فى الفلوات

بكى المأمون وجدد له الأمان، وأحسن له الصلة.

ذم الثقلاء

قال الشاعر فى ذم الثقلاء:

سقط الثقيل من السفينة فى الدجى
فبكى عليه رفاقه وترحموا
حتى إذا طلع الصباح أتت به
نحو السفينة موجة تتقدم
قالت خذوه كما أتانى سالما
لم أبتلعه لأنه لا يهضم

الأذن عند العرب

قال زياد لحاجبه عجلان: كيف تأذن للناس؟ قال: على البيوتات، ثم على الأسنان، ثم على الآداب.

فقال له الأمير: فمن تؤخر؟ قال الحاجب: من لا يعبأ الله بهم.

قال الأمير: ومن هم؟ قال الحاجب: الذين يلبسون كسوة الشتاء فى الصيف وكسوة الصيف فى الشتاء.

وكان سعيد بن عتبة إذا حضر باب أحد من السلاطين جلس جانبا، فقيل له: إنك لتباعد من الآذن جهدك قال: لأن أدعى من بعيد، خير من أن أقصى من قريب. ثم قال:

فإن مسيرى فى البلاد ومنزلى
هو المنزل الأقصى إذا لم أقرب
ولست وإن أدنيت يوما ببائع
خلاقى ولا دينى ابتغاء التحبب
وقد عدّه قوم تجارة رابح
ويمنعنى من ذاك دينى ومنصبى

كم ذبابة قتلت؟!

قام أحد الأزواج يطرد الذباب من البيت، ولما تضايق من إخراجه كله راح يقتل ما تبقى منه، وبعد أن فرغ من مهمته سألته زوجته ساخرة: كم ذبابة قتلت؟!

أجاب: ثمانية أربع إناث، وأربعة ذكور!!

فقالت له: ولكن كيف استطعت أن تميز الإناث من الذكور؟

أجاب: كانت الأربع الإناث واقفة على المرآة، بينما الأربعة الأخرى كانت مرتكزة على قطعة من السكر.

عدل كسرى

روى أن بعض السفراء زار إيوان كسرى، فرأى به اعوجاجاً، فسأل عنه، فقيل له: إن جواره بيت حقير لعجوز فقيرة، سألها الملك أن تبيعه إياه بما ترضى من الثمن مهما بلغ فرفضت، وجعل يرغبها بمال كثير فأصرت على الامتناع، فتركها وجعل لا يعبأ بحاجة الإيوان إلى مكانها.

ثم إن العجوز رأت أن تتنازل بعد أن عرفت أن كسرى لم يرض إجبارها على البيع، فتقدمت إليه قائلة: أيها الملك، إنما أردت بامتناعي أن أشهد الناس على عدلك، وها هم أولاء قد شهدوا.

بين أبيض وأسود

اشترى الحجاج غلامين، أحدهما أسود البشرة والثاني أبيض فقال لهما يوما: أريد من كل واحد منكما أن يمدح نفسه ويذم رفيقه في أبيات من الشعر، فقال الأسود:

ألم ترأن المسك لا شيء مثله
وأن بياض اللفت حمل بدرهم
وأن سواد العين لا شك نورها
وأن بياض العين لا شيء فاعلم

وقال الأبيض:

ألم ترأن البدر لا شيء مثله
وأن سواد الفحم حمل بدرهم
وأن رجال الله بيض وجوههم
ولا شك أن السود أهل جهنم

فضحك الحجاج وأجازهما.

دعاء

اللهم اجعل منتهى مطالبنا وجهك ورضاك، وأقصى مقاصدنا عفوك يوم لقاك، وأذقنا لذة مناجاتك، فقد وقفنا على بابك.

يا قريبا لمن سأل، يا مجيبا لمن دعا، يا سميعا لمن طلب، يا سريعا لمن قصد:

﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾

(يوسف: ١٠١)

***

بين المجلة والقارئ

إعداد وتقديم
أحمد السيد تقي الدين

من أجل غد أفضل

لغط كبير.. مظاهرات وإضرابات فئوية.. جميعها تدور حول مطالب تكاد تكون واحدة.. بل هي متطابقة.. لم يعد في وسع الناس أن تصبر.. لقد صبروا وتحملوا الكثير والكثير في زمن الحرب.. وكان الشعار: «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة»، ومرت سنوات تحمل فيها شعب مصر الكثير والكثير وحصلوا على وعود بأن الأمور ستتغير وبأن شعب مصر سيحصل على ما يستحقه من عيش كريم.. ولكن الأمر مرهون فقط برد الاعتبار وقد حدث وعبرت مصر بجيشها الباسل مرارة الهزيمة وحققت انتصاراً عسكرياً مذهلاً صفق له العالم كله. ولكن..؟

الأيام القليلة الماضية التي بدأت اعتباراً من ٢٥ يناير ٢٠١١ وحتى اليوم أكدت بما لا يدع مجالاً للشك أن هناك من أثرى ثراء يفوق حد التصور، والصحف تنشر يومياً تقارير موثقة تتحدث عن أرقام مذهلة ليست بالملايين ولكن بالمليارات، والتي استحوذت عليها فئة قليلة جداً تتمثل في بضعة آلاف فاسد عاشوا في ثراء فاحش تاركين الملايين من أبناء هذا الشعب يعانون من الفقر المدقع.

الأخبار والتقارير الصحفية كانت صادمة لجميع فئات المجتمع المصري التي لم تكن تتصور أن الفساد وصل إلى هذا المستوى، وعلى قدر الصدمة جاء رد الفعل متمثلاً في مظاهرات وإضرابات فئوية قام بها العديد من فئات الشعب التي ورثت التحمل والصبر على مدى عدة أجيال في سبيل هذا الوطن وكانوا على استعداد للصبر والتحمل، ولكن حجم الفساد أخرج الجميع عن شعوره وانطلقوا يطلبون التعويض عن سنوات التحمل والصبر

والحرمان ولا يمكن توجيه اللوم إليهم!!

ولكن لابد من الصبر.. ولابد أن يتكاتف الجميع ويكون الشعار: «نعمل جميعًا من أجل غد أفضل»!!

لابد أن نثق في قيادة جيشنا لنمكنهم من تكرار إنجاز السادس من أكتوبر ١٩٧٣ حتى يعبروا بنا إلى مستقبل جديد مشرق بإذن الله خاصة أنهم حافظوا علينا وانحازوا إلينا، ولم يفعلوا كما فعل غيرهم، ولم يكونوا أداة بطش وقمع، بل كانوا سيف الأمة ودرعها كما عودونا دائمًا.

لابد أن نهدأ وأن نفكر كيف نستعيد عافيتنا من أجل مستقبل بلادنا.

لقد قدم هذا الشعب مثلاً في شبابه مثالاً رائعًا عندما خرج الجميع ينظفون الشوارع ويجملونها.. جميع أطياف الشعب خرجت لهذا الغرض ولابد من مواصلة هذه المسيرة وهذا المظهر الرائع بأن يعمل كل في موقعه من أجل غد أفضل. فالعمل المخلص الجاد الدءوب هو الذى سيصنع المستقبل المشرق لهذا الوطن بإذن الله تعالى القائل في محكم تنزيله:

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة: ١٠٥)


د. عصام شرف


المشير محمد حسين طنطاوى

فبالعمل وحده تنهض الأمم.

لابد أن تتوقف المظاهرات والإضرابات الفئوية، لأنها لا تعطل العمل فقط بل هي تدمره تمامًا.. لابد أن تستبدل المظاهرات والإضرابات بندوات ومؤتمرات يُدعى إليها رجال المجلس الأعلى للقوات المسلحة، ورجال الحكومة - وهم أهل للثقة بإذن الله - من أجل النقاش والحوار لبحث مطالب فئات الشعب التى تحملت الكثير والكثير ولكنها صُدمت عندما اكتشفت فجأة أنها تعرضت للخداع.

لابد أن نثق بأن في هذا البلد شرفاء يهمهم صالح هذا البلد ويعملون على رفعته.. لابد أن نثق في رجال القوات المسلحة وفي رجال حكومتنا آملين من الله أن يلهمهم السداد والتوفيق.

أحمد تقى الدين

وإلى رسائل القراء ←

الثورة والشعراوى والهدوء!

تحت هذا العنوان جاءت كلمة الشيخ: مصطفى الأزهرى - خطيب مسجد سوق الحمام - السيدة عائشة - القاهرة:

بثت الفضائيات المصرية هذه الأيام جزءاً من تراث «إمام الدعاة» المفسر الربانى فضيلة الشيخ «الشعراوى» تسمعه كأن الرجل يعيش معنا أحداث الثورة المصرية المباركة (ثورة الخامس والعشرين من يناير)، مما يؤكد لنا من جديد بصيرة الرجل ونور بيانه المقتبس من نور القرآن الكريم الذى «فيه نبأ من قبلكم، وخبر من بعدكم..»[1] وهي واحدة من كرامات هذا الإمام الجليل الذى احتوت قلوب المسلمين بل وإعجاب غير المسلمين به وبحلو حديثه وشمولية بيانه لأحداث الماضي والحاضر.. وكذلك المستقبل، كانت مفاجأة للجميع أن الشعراوى يحدثنا عن الثورة حديثاً حاضراً كأنه يطل علينا من إحدى شرفات «الدار الآخرة» لينصحنا ويرشدنا ويهدينا بهداية القرآن العظيم الذى أمتعنا - ولا يزال - بخواطره الأخاذة - التى تهز قلب من يستمع إليها فتخشع روحه ويزداد حباً وولاءاً ويقيناً بعظمة هذا الكتاب الذى:

﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: ٤٢)


الشيخ الشعراوى

فكان مما قاله الإمام الشعراوى - يرحمه الله - في المقطع المشهور والذى سموه إعلامياً (الثائر الحق): (... فالثائر الحق هو الذى يقوم بالثورة ليهدم الفساد ثم يهدأ ليبني الأمجاد)!

سبحان الله! ما أروع كلماتك وأصدقها يا شيخنا فهكذا العلماء الربانيون ذوو البصيرة يبصرون بنور الله، يموتون وتظل أرواحهم تسرى في كلماتهم وتراثهم الجميل والذى يبقى رصيداً روحياً ونفسياً للأمة، وشراعاً يهديها إلى بر الأمان وشاطئ النجاة، فهناك - كما قال الشعراوى - ثائر الحق الذى ينطلق في ثورته من مبادئ الحق والعدل والذى يسمو علي سفاسف الأمور ويسعى لتحقيق الأهداف العليا لوطنه وأمته حتى ولو قدم نفسه فداء للحق والعدل والذى ثار من أجله ومات دون أن يذوق هو حلاوة انتصار الثورة ولم يشهد

(١) كنز العمال: ٨٨٧

فوزها، فإن قدر له أن يعيش بعد زوال الظلم والفساد الذى ثار لكشف غمته وإزاحة ظلمته، فإنه يستكمل مسيرة بناء وطنه الذى هده الفساد وأكل خيراته المفسدون والظالمون لأن الثورة ليست هدفاً فى حد ذاتها بل وهى وسيلة لتغيير الأوضاع السيئة للتى هى أحسن؛ فالثائر الحق هو الذى «يهدأ» بعد ثورته - شاكراً لربه - مستكملاً ثورته الخضراء بلمّ شعث الوطن، وتجميع أشلاء البلد، ساعياً لاستجلاب الأمن والأمان والاستقرار لها؛ فالله جل جلاله لا يقبل ولا يحقق «الأمن» حتى للمؤمنين إلا إذا أخلصوا وصفّوا نفوسهم من كل شائبة قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

(الأنعام: ٨٢)

أما من يحاولون ركوب موجة الثورة فيتظاهرون ويعطلون مسيرة الأهداف الكبرى لبلدهم فإنهم إما حمقى أو من بقايا الذين يبغونها عوجاً، والثورة الجميلة المشرقة التى شهد برقيّها زعماء الغرب وشعوبهم - أقصد ثورة مصر - توجب علينا أن نبقى دائماً مضرب الأمثال فى الرقى والتحضر لتبقى مصر حاضرة العالم العربى والإسلامى بلد النيل والأهرامات والأزهر الشريف وبلد الإمام محمد متولى الشعراوى - رحمه الله وغفر له.

عباد الرحمن

وتحت هذا العنوان جاءت كلمة الأستاذ: السيد حسين العزازى - وكيل وزارة سابق بالكهرباء والطاقة - الإسماعيلية:

● عباد الرحمن هم أهل التقوى وأهل المغفرة ممن يقبلون على طاعة الله بقلب سليم يلتمسون مرضاته فيما يقولون أو يفعلون ويتفهمون دورهم فى غرس الفضائل ونبذ الرذائل لدعم القيم وجلب النعم وحصار النقم وتنقية المعاملات من الزيف والعبادات من النفاق وتهيئة السبل لإضاءات عقلية وإشراقات روحية لإجلال الربوبية والتسامى بالعبودية.

● وقد وصف الله عباده الصادقين بمحددات سلوكية ومقومات أخلاقية وسمات إنسانية ترتفع بقدرهم وتضعهم على مدارج الارتقاء والشفافية وفى ذلك يقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۝ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴾

(الفرقان: ٦٣، ٦٤)

وينعتهم بالاعتدال:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾

(الفرقان: ٦٧)

وشيمتهم «النزاهة»:

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾

(الفرقان: ٧٢)

ورسوخ الاعتقاد:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾

(الفرقان: ٧٣)

ويتوسلون إلى الله أن يجعلهم وذرياتهم الدعاة الهداة:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

(الفرقان: ٧٤)

● وعباد الرحمن مزودون بخاصية الحلم والعلم ويستبصرون العاقبة فينتهوا عن المعاصى ويتقوا مواطن الشبهات ويميزوا بين الخبيث والطيب ليسلكوا أقوم السبل وأسلم الدروب بالتفكير والتدبير وطلب العلم للاستزادة والاستفادة وترسيخ العقيدة. ويوظفون عقولهم فى النظر والتأمل فى ملكوت الله ليستخلصوا عظمة الخالق وكمال قدرته وجميل صفته وجليل حكمته ومردود ذلك خشية وطاعة وإيمان:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾

(فاطر: ٢٨)

وفى الحديث الشريف: «وإن الملائكة تضع أجنحتها رضا لطالب العلم وإن العالم يستغفر له كل من فى السماوات والأرض، ومن الأرض والحيتان فى جوف الماء وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ورثوا العلم»[٢] وهو ما يوضح بالتبعية صحة المأثور: «العلماء ورثة الأنبياء»، «وإن مداد العلماء يوزن يوم القيامة بدماء الشهداء» رمزاً للتلاقى فى صدق التضحية لتستبدل غشمها بالوعى والاستنارة ورد على الدنيا رشدها فاستقام أمرها واعتدل ميزانها بعد اختلال. وقد أوجز ميراث المرء فى ثلاث: «صدقة جارية أو علم يستفاد به أو ولد صالح يدعو له»[٣] وهذا السياق يجمع جوانب الخير المادى والعقلى والروحى فالصدقة عطاء والعلم تحصيل وتأصيل وتوصيل والذرية الصالحة مؤشر عدل فى الوفاء والاستيفاء فهم من الحلال وبأحسن الخلال نبتوا وبها وعليها شبوا وساروا وما يربطهم بالوالدين إن فارقوهم إلا معروف يذكر وقدرة تقتفى وتؤثر ولا يخرج الإيمان عن هذه

(٢) سنن أبى داود.
(٣) سنن الترمذى.

المنظومة فالعالم العابد دعاؤه:

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾

(طه: ١١٤)

ومهما أدرك فبإحساسه يقرر:

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(الإسراء: ٨٥)

وفضل العلم مردود إلى الله

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾

(يوسف: ٧٦)

ونتوسل إليك يا ربنا ومولانا أن تنفعنا بما علمتنا وأن تعلمنا بما ينفعنا وأن تزدنا علماً وألا نستدرج لمفازات العداء والاستعداء والانحراف برسالة العقل ومضمون العلم حتى يظل أداة للسلام والرحمة وتاجاً لعباد الرحمن يوم الزحام:

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

(البقرة: ٢٨١)

فوائد الإنفاق

وتحت هذا العنوان جاءت كلمة الأستاذ/ محمد عباس محمد عرابى:

قال لنا أستاذنا فى إحدى محاضراته: نزلت مدينة القاهرة المعمورة فى فجر يوم وهممت أبحث عن مسجد لأصلى فيه لأصلى الفجر والتفت يميناً ويساراً فإذا الشوارع خالية، فجأة خرج علىّ رجل فى الثمانين من عمره وقال لى: أعطنى لله فوضعت يدى فى جيبى وأخرجت له مالاً وأعطيته هذا المال فقال لى أعطنى ثانية فقلت له يعطيك الله وشعرت بينى وبين نفسى بالحياء ووضعت يدى فى جيبى لأعطى الرجل، ولكن حدث أمر عجب التفت يميناً ويساراً فلم أجد الرجل!! والوقت وقت السحر والدعاء مستجاب فدعوت ربى اللهم تعلم أنى مُخلص فى عطائى لهذا الرجل فارزقنى من لدنك رزقاً حلالاً طيبا مباركاً فيه، وذهبت إلى المسجد وصليت وأشرقت الدنيا بنور ربها، وذهبت إلى جهة حكومية لأسأل عن موضوع يخصنى، وحول هذا الموضوع قال لى أحد الموظفين أنت الدكتور.. قلت: نعم.. قال لى أين أنت؟! لقد أرسلنا لك لحضور حفل.. أنت لك شيك بمبلغ..... وحسبت المبلغ الذى بالشيك فإذا هو المبلغ الذى أعطيته للرجل مضروباً فى سبعة مضروبة فى مائة مع مضاعفة ذلك مائتى ألف مرة عندها رددت قوله تعالى:

﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(البقرة: ٢٦١)

واستأذنا صاحب القصة نعرفه من دون أساتذتنا بأدبه وأخلاقه وإخلاصه فهو لا يرائى بقصته هذه بقدر ما أراد أن يلفت انتباهنا من الواقع بثواب الانفاق ليشجعنا على ذلك.

وفى نفس المحاضرة ألح الزملاء على أستاذنا ذكر قصص أخرى تبين ثواب الإنفاق وأمام إلحاحنا قال ما أكثر القصص يا أبنائى أذكر أنه كان فى شارعنا مسجد يُبنى وفى عقب صلاة الجمعة حثنا الإمام على التبرع لإكمال المسجد واستحييت أن أدفع مبلغاً كبيراً أمام الناس مساهمة منى فى إكمال المسجد وانتهزت غفلة الناس ووضعت مبلغاً كبيراً فى صندوق التبرعات، ومر أسبوع وقبيل إحدى الصلوات جلست لأصلى والمسجد مكتظ بالمصلين وقفت لأداء صلاة النافلة وعقب أدائها فإذا بمبلغ كبير أمامى قلت لكل من بجوارى هل فُقد منك مال؟ الجميع قال: لا، الغريب أن المبلغ الذى وجدته هو نفس المبلغ الذى وضعته فى صندوق التبرعات فابتسمت!! وأعطيت المبلغ لغلام كان فى المسجد ليعطيه لمسئول المسجد!! عسى أن يسأل عنه صاحبه.

وأخذ يسرد لنا أستاذنا قصصاً كثيرة حول ثواب الإنفاق إلى أن قال كان هناك رجل صالح تصدق بناقة على جار له محتاج، وكان يبحث عن المياه فى سراديب الأرض فضاع مرة، وانتظره أهله سبع ليال فلم يعد، فتوقعوا هلاكه، ووزعوا ماله، واسترجعوا من جارهم الناقة فسألهم أن يدلوه على السرداب، وبحث عنه حتى وجده وقد شارف على الهلاك فسأله: كيف عشت بلا طعام؟ فقال: كان يأتينى كل يوم إناء فيه لبن بارد، ومنذ ليلتين انقطع عنى، فأخبره الجار أنه منذ ليلتين فقط أخذ أبناؤه الناقة.

وختم أستاذنا محاضرته بقصة هى مسك الختام، قصة عائشة (رضى الله عنها): أن مسكينا سألها وهى صائمة وليس فى بيتها إلا رغيف فقالت لمولاتها: أعطيه إياه، فقالت: ليس لك ما تفطرين عليه! فقالت: أعطيه إياه! قالت: ففعلت، فلما أمسينا أهدى لنا أهل بيت أو إنسان ما كان يهدى لنا شاة، فدعتنى، فقالت: (كلى من هذا، هذا خير من قرصك) الموطأ للإمام مالك ٢/ ٩٩٧.

كانت المحاضرة فى مادة الحديث، وقد أحسن أستاذنا فى ربط المحاضرة بالواقع مستخدماً أسلوب القصة فى الشرح فيا ليتنا يقتدى به المعلمون والأساتذة، ونقتدى به فى أخلاقه!!.

أم سلمة والجائزة الكبرى

ومن الأستاذ: محمد بدر فراج - الجمعية المصرية للدراسات التاريخية جاءت هذه الرسالة:

تلك الدرة الوفية بكل ما تحمل الكلمة من معان طيبة جليلة، السيدة أم سلمة (رضى الله عنها): هند بنت أبى أمية بن المغيرة، والتى ما إن أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة إلى يثرب حتى انطلقت تحمل طفلها ومعها زوجها أبو سلمة (رضى الله عنه): عبدالله بن عبدالأسد المخزومى، وما أن اقتربت من أطراف مكة حتى أسرع بنو أسد فانتزعوا منها طفلها وحبسها بنو المغيرة، وفى صورة من أجمل وأروع صور الوفاء والمحبة الإيمانية الزوجية حيث تتعانق محبة الله ورسوله ﷺ ومحبة الزوج المهاجر.. تسعى أم سلمة (رضى الله عنها) كل يوم إلى اللحاق بزوجها فيمنعها بنو المغيرة من اللحاق به على مدار سنة كاملة تخرج من صباحها باكية متلهفة حتى المساء.

ونرى شدة وفائها بحزنها الشديد على زوجها وهو على فراش الموت وهى تعاهده ألا تتزوج بعده ولكن أبا سلمة الصحابى الجليل قال لها: «إذا مت تزوجى.. اللهم ارزق أم سلمة بعدى رجلا خيرا منى لا يحزنها ولا يؤذيها»!!

وبعد استشهاد الزوج أبى سلمة (رضى الله عنه) وكعادة الصحابة للتسرية عن زوجات الشهداء تقدم لخطبتها أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) فردته وهى تقول: من خير من أبى سلمة؟!، وعندما تقدم لها عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ردته بنفس القول: من خير من أبى سلمة؟!

ولنتأمل هذه الجملة «من خير من أبى سلمة»؟! فهى تحمل كل المعانى التى تفوق كل ما تحمله قصص الحب على اختلاف ألوانها وأشكالها شرقًا وغربًا؛ إذ إنها تعنى:

من خير من أبى سلمة؟!: الصحابى الجليل والعلم المنير فى مدرسة النبوة.

من خير من أبى سلمة؟!:الزوج الحبيب القريب من القلب.

من خير من أبى سلمة؟!:الأب المربى الحنون.

من خير من أبى سلمة؟!: المجاهد الفارس المغوار المجاهد فى سبيل الله.

تلك خلال تجمعت فى قلب ووجدان أم سلمة (رضى الله عنها) فتجلت فيها صورة من أروع صور الوفاء التى عبرت عنها من قبل بإصرارها الكبير على اللحاق بزوجها عند الهجرة، فكانت المنة الإلهية والجائزة الربانية لهذا الوفاء النادر بتقدم رسول الله ﷺ للزواج منها.

فهل هناك مكافأة لهذا الوفاء أجمل وأطيب من هذه الجائزة؟!!

أنباء العالم الإسلامى



إعداد الأستاذين:
محمود الفشنى - أحمد رضوان

منظمة المؤتمر الإسلامى تدين استخدام العنف ضد المدنيين فى ليبيا


اوغلو

أعرب الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامى عن إدانته الشديدة لاستخدام القوة ضد المدنيين فى ليبيا، والذى أسفر عن سقوط عدد كبير من القتلى والجرحى، واعتبر أن ما يجرى فى ليبيا من قمع وترويع كارثة إنسانية تتنافى مع القيم الإسلامية والإنسانية.

ودعا أوغلو السلطات الليبية إلى الوقف الفورى لأعمال العنف، واستهداف أبناء الشعب الليبى الأبرياء، وضرورة التعامل مع مطالبهم بالوسائل السلمية والحوار الجاد بدلاً من أساليب الفتك وسفك الدماء.

وأكدت الأمانة العامة للمنظمة حق الشعوب فى التعبير السلمى والحضارى عن مطالبها المشروعة، مشيرة إلى أن ميثاق المنظمة وبرنامجها العشرى يؤكد أن أهمية ترسيخ الدول الأعضاء لمبادئ الحكم الرشيد وتعزيز حقوق الإنسان ومحاربة الفساد وتوسيع المشاركة السياسية والتنمية الشاملة ومواجهة التحديات المتنامية فى المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى لا يمكن التغلب عليها إلا من خلال تنفيذ إصلاحات شاملة فى مختلف القطاعات.

ملتقى تعليمى لمدرسى اللغة العربية لغير الناطقين بها فى الأرجنتين

عقدت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «الإيسيسكو» بالتعاون مع مؤسسة غرناطة للنشر والخدمات التربوية، ومركز الملك فهد الثقافى الإسلامى فى بوينس ايرس عاصمة الأرجنتين ـ ملتقى تعليميا تكوينيا للموجهين التربويين ومدرسى اللغة العربية للناطقين بغيرها فى الأرجنتين.

استهدف الملتقى تعزيز الجهود التربوية وتنسيقها بين المنظمات والهيئات المتخصصة من أجل تطوير طرق تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها فى الغرب، والتعريف بالإصدارات المدرسية الحديثة والمناسبة لتعليم العربية فى البيئات الثقافية الغربية.

شارك فى أعمال الملتقى ثلاثون مدرساً ومسئولاً تربويا من مؤسسات تعليمية وتربوية عربية إسلامية من مختلف المناطق فى الأرجنتين، وتضمن برنامج الملتقى عدداً من الموضوعات التربوية المهمة، منها «المشروع التربوى العربى الإسلامى فى الغرب، أسسه وآفاق النهوض به» و«خصوصيات الكتاب المدرسى لتعليم العربية للناطقين بغيرها ومرجعيات تأليفه المنهجية والتربوية والتعليمية»، و«مناهج إعداد الدروس وفق أحدث الطرق التربوية» و«استثمار التقنيات الحديثة ووسائط التعلم عن بعد لتعليم العربية للناطقين بغيرها» و«التربية على قيم الحوار وثقافة الاختلاف من خلال كتابى اللغة العربية والتربية الإسلامية» و«تأهيل المدرسين غير المتخصصين لتعليم العربية فى المؤسسات التعليمية النظامية وغير النظامية فى الأرجنتين».

كما أتاح الملتقى للمشاركين فيه مجالاً للتدريس على إعداد الدروس فى مختلف مواد اللغة العربية، وعلى أساليب استثمار المواد والوسائل التعليمية فى تدريس لغة الضاد.

باحث هولندى: الخوف من الإسلام يعرقل مساعدات المنظمات الغربية

أكد الدكتور وارد برينسخوت الباحث بجامعة أمستردام فى العلوم السياسية ـ أن مخاوف الغرب من الإسلام ونذر التطرف، يؤدى إلى عرقلة حصول المسلمين المعتدلين فى الدول الإسلامية والنامية على المساعدات الغربية التى يستحقونها، خاصة من منظمات المعونة الغربية؛ حيث تتخوف هذه المنظمات من التعاملات فى هذه الدول.

وتتخوف هذه المنظمات من أن تؤدى المساعدات إلى دعم وتمويل العناصر المتطرفة من جهة، كما تخشى أن تتعرض لإيذاء هذه الجماعات المتطرفة من جهة أخرى، إذا ما تواجدت بقوة لتقديم المساعدات للمعتدلين، وهو الأمر الذى ينعكس سلباً على جهود المعونات التنموية والمساعدات الإنسانية التى يستحقها المسلمون المعتدلون إبان الكوارث أو الصراعات التى قد تنشب بهذه البلدان.

وأضاف برينسخوت الذى أجرى دراسات مستفيضة حول مقارنات بين الهند وإندونيسيا والمساعدات الغربية التى تصل إلى أى من الجانبين، أضاف فى بحثه أن الهندوس وغيرهم من

أصحاب الديانات الأخرى، يلقون دعماً قوياً من المنظمات الغربية، مقارنة بالمسلمين المعتدلين، وهو أمر يستوجب إعادة النظر حتى لا تكون ذريعة الدين هى العائق لدى الغرب لمد يد العون للمحتاجين فى هذه الدول فى العالم الثالث؛ إذ يجب أن تتخلى المنظمات الغربية عن رؤيتها التفضيلية للمجتمع العلمانى.

وفد منظمة الإغاثة الإسلامية يدعم مصر بـ ٢٠ مليون دولار

أعلن وفد منظمة الإغاثة الإسلامية - الذى زار مصر خلال شهر مارس- عن خطة لدعم مصر بنحو ٢٠ مليون دولار خلال الخمس سنوات القادمة كحد أدنى فى مجالات الدعم الإنسانى والعمل الخيرى والتنمية البشرية والأدوية والأجهزة الطبية.

وقد أشار حشمت فهمى ـ مدير إدارة تنمية الموارد بمنظمة الإغاثة الإسلامية ـ إلى أنه سوف يتم إقامة مستشفى فى قرية «صول» التى شهدت الفتنة الطائفية مؤخراً جنباً إلى جنب، مع ما قامت به القوات المسلحة من إنشاء الكنيسة دعماً للشعب المصرى.

مسلمو أمريكا يحتجون على مناقشة «الخطر الإسلامى»

تظاهر مسلمون وناشطون ومؤيدون فى ساحة «تايمز سكوير» بنيويورك احتجاجاً على جلسة دعا إليها النائب الجمهورى بيتر كينج، لمناقشة ما يعتبره «خطراً إسلامياً» على الولايات المتحدة وتجمع المحتجون فى الساحة رافعين لافتات كتب عليها «اليوم أنا مسلم أيضا» منتقدين «التعصب الأعمى والجهل اللذين يقفان وراء المشاعر المناهضة للمسلمين» فى الولايات المتحدة.

وقال النائب الديمقراطى من مينسوتا كيث اليسون، وهو أول نائب مسلم ينتخب فى الكونجرس الأمريكى: أخشى أن تؤدى جلسات الاستماع بهذا الشأن إلى استهداف الأمريكيين المسلمين بشكل ظالم.

وأضاف فى تصريح لمحطة «سى. إن. إن» الإخبارية: أشعر بالقلق تجاه ذلك، كل من تحدثت إليهم يشعرون بالقلق لهذا الأمر، مشيراً إلى أن خطوة مماثلة قد تثبت وجهة نظر المتطرفين بأن أمريكا «تحارب الإسلام».

وقال: أنا أتحدى الأسس التى تقوم عليها جلسة الاستماع هذه.. لا مشكلة فى مناقشة التشدد والتطرف العنيف، ولكن الخطأ وصم مجموعة معينة به.

وقال الإمام فيصل عبدالرءوف: إنه يخشى أن تؤدى جلسة كينج المزمعة إلى نفور المسلمين الأمريكيين وما يقلقنى هو الفكرة الموجودة بين الشبان هنا بأن المسلمين يتعرضون لهجوم من قبل حكومتهم، وهذا يساعد على تطرف الناس ونحتاج إلى وقف دائرة التطرف تلك.

جريمة عنصرية ترفضها جميع الأديان

حرق نسخة من القرآن الكريم فى إحدى الكنائس بأمريكا


اوباما

ارتكبت كنيسة فى فلوريدا جريمة عنصرية ضد كافة الأديان السماوية؛ حيث قام القس المتطرف واين ساب بإحراق نسخة من القرآن الكريم بزعم أن المصحف الشريف مسئول عن عدة جرائم، وقام ساب بإحراق نسخة من القرآن تحت إشراف القس المتطرف تيرى جونز الذى أثار فى سبتمبر الماضى موجة من الإدانات بشأن خطته لإحراق كومة من نسخ القرآن فى ذكرى هجمات الحادى عشر من سبتمبر، وادعى المنظمون أن ما حدث كان محاكمة للقرآن اعتبر فيها المصحف مذنباً وتم إعدامه ـ حسب زعمهم.

وقد استمرت مداولات هيئة المحلفين حوالي ثماني دقائق وضعت بعدها نسخة القرآن التى كانت قد نقعت بالوقود لمدة ساعة، على طبق حديدى فى وسط الكنيسة وأشعل فيها ساب النار، واحترق القرآن لمدة عشر دقائق فيما التقط بعض الحضور الصور.. وكان جونز قد أثار موجة من الاحتجاجات والإدانات من الكثير من الأطرف بينهم الرئيس الأمريكي باراك أوباما ووزيرة الخارجية هيلارى كلينتون ووزير الدفاع روبرت جيتس بسبب خطته لإحراق المصحف الكريم فى سبتمبر الماضى، ولم ينفذ خطته هذه فى نهاية المطاف وتعهد بعدم القيام بها أبدا، إلا أنه قال: إنه أراد هذه المرة أن يعطى العالم الإسلامى فرصة للدفاع عن كتابه، ولكنه لم يحصل على أى جواب.

مجزرة أمريكية تقتل ٩ أطفال بأفغانستان

ارتكبت القوات الأمريكية فى أفغانستان مجزرة جديدة راح ضحيتها ٩ أطفال، حين قصفت طائراتها مجموعة من الأطفال كانوا يجمعون الحطب شرق البلاد.. واعتبر الرئيس الأفغانى حامد كرزاى الاعتذار الذى قدمه قائد قوات حلف الأطلسى فى أفغانستان الجنرال الأمريكي ديفيد بترايوس عن تسبب قواته بمقتل تسعة أطفال شرقي البلاد، «غير كاف».. وندد كرزاى بالحادث ودعا الأطلسى إلى التوقف عن ارتكاب عمليات القتل التى تستهدف السكان المدنيين.. وكان الرئيس الأمريكي باراك أوباما عبر بنفسه عن عميق أسفه لكرزاى، بعد يوم على قيام الجنرال بترايوس بتقديم اعتذاره عن هذه المأساة مؤكداً تحمله مسئوليتها.

وقالت قوة إيساف التابعة للأطلسى: إن مروحية قتلت الأطفال التسعة عن طريق الخطأ بعد أن استدعيت بشكل طارئ إثر تعرض قاعدة أمريكية قريبة لهجوم مسلحين.

كانت الأيام الماضية قد شهدت عدة جرائم مماثلة حيث قتل ١٢ مدنياً بانفجار سيارة شرقي أفغانستان ولقى ١٠ مصرعهم بانفجار عبوتين ناسفتين، كما قتلت قوات الأطلسى ٦٥ مدنيا قبل أيام من وقوع الحادث الذى استهدف الأطفال.

حماس تحذر من هدم وطمس المعالم الإسلامية بالقدس

أعربت حركة المقاومة الإسلامية «حماس» عن إدانتها بشدة لما يقوم به الاحتلال الإسرائيلى من عمليات حفر وطمس للمعالم التاريخية الإسلامية الملاصقة للمسجد الأقصى بهدف تحويلها إلى مرافق للهيكل المزعوم، مؤكدة أنها تتابع بقلق بالغ استغلال الكيان الصهيونى للأحداث التى تمر بها المنطقة للتسريع فى عملياته التهويدية وهدم وتغيير المعالم الموجودة على الأرض، واعتبرت ذلك بمثابة جريمة وتحدياً صارخاً على الشعب الفلسطينى والأمة العربية والإسلامية وعلى تاريخ وحضارة القدس.

وقالت الحركة فى بيان لها تعقيباً على مواصلة الاحتلال الصهيونى عمليات الحفر والهدم بخطوات متسارعة لتدمير قصور الخلافة الأموية جنوبى المسجد الأقصى لإقامة الهيكل المزعوم:

«إننا نؤكد على أن هذا التسريع فى تنفيذ مخططات التهويد لن يغير من حقيقة أن القدس عاصمة إسلامية عربية، وسيظل شعبنا الفلسطينى متمسكاً بحقوقه ثابتاً على أرضه، وسيبقى المسجد الأقصى منارة ليس للفلسطينيين فحسب، وإنما للأمة العربية والإسلامية قاطبة». ودعت الحركة فى بيان لها الشعب الفلسطينى وقواه الفاعلة ومنظمة المؤتمر الإسلامى وجامعة الدول العربية والمؤسسات الحقوقية والإنسانية فى العالم إلى ضرورة التحرك العاجل لحماية المعالم التاريخية الإسلامية، والتصدى لجرائم الاحتلال الصهيونى ضد المسجد الأقصى.

تعاون إسلامى بريطانى لتنفيذ برامج إنسانية وتنموية

وقعت منظمة المؤتمر الإسلامى فى مقر الأمانة العامة فى جدة مذكرة تفاهم مع منظمة العون الإسلامى البريطانى بهدف تعزيز التعاون فى مجال المساعدة الإنسانية والتنمية المستدامة.

وتسعى الاتفاقية التى وقعها عن المؤتمر الإسلامى الأمين العام الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو وعن منظمة العون الإسلامى البريطانية رئيسها أمبال ساكرانى إلى تحقيق الهدف المشترك المتمثل فى التخفيف من معاناة شعوب الأمة الإسلامية فى الكوارث الطبيعية والحالات الطارئة. ورحب الأمين العام بتوقيع الاتفاقية على اعتبار أن منظمة العون الإسلامى البريطانية إحدى المنظمات المهمة فى بريطانيا وتعمل فى كثير من الدول الأعضاء فى منظمة المؤتمر الإسلامى حيث يعزز ذلك أهداف البرنامج العشرى الذى يدعو إلى توثيق العلاقات مع الأقليات الإسلامية والمنظمات والهيئات التى تمثلها.

واتفق الطرفان على تنفيذ برامج تنمية مستدامة طويلة الأجل بهدف تسريع النمو الاقتصادى والتقدم الاجتماعى انطلاقا من مبدأ الشراكة والمساواة بين الناس وتعهد الطرفان على التعاون فى تقديم المساعدة الإنسانية والخدمات الاستشارية للحد من أضرار الكوارث والاستجابة للطلبات الواردة من الدول الأعضاء فى منظمة المؤتمر الإسلامى وذلك بعد الدراسة فى إطار الامكانات المتاحة والبرامج المعتمدة.

٥١١ مليون دولار من البنك الإسلامى لتنمية الدول الأعضاء

وافق مجلس المديرين التنفيذيين للبنك الإسلامي للتنمية فى ختام اجتماعاته فى مدينة جدة السعودية على تقديم مشروع تمويلي جديد بمبلغ ٥١١ مليون دولار أمريكي وشملت التمويلات مشاريع استراتيجية جديدة لصالح دول أعضاء هي : ألبانيا ـ تركيا ـ باكستان ـ موريتانيا ـ واليمن، وأقر المجلس تخصيص حزمة مساعدات بمبلغ ٢٥٠ مليون دولار لدعم الاستثمارات الرامية إلى إيجاد فرص عمل للشباب والحد من الفقر عن طريق برامج التدريب التى تلبى احتياجات سوق العمل، واعتمد المجلس مساعدة فنية لمشروع إقليمي يتمثل فى إعداد استراتيجية دول مجلس التعاون الخليجي المتعلقة بالصادرات غير النفطية إضافة إلى تقديم منح لا ترد من صندوق الوقف التابع للبنك لدعم جهود التعليم والتدريب المهنى لصالح دول أعضاء هي : أثيوبيا ـ الهند ـ الفلبين ـ تتارستان ـ أوكرانيا .

رعب فى إسرائيل من نتائج الثورات العربية

أكد فاروق القدومى عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية أن هناك رعباً داخل إسرائيل من نتائج الثورات العربية خاصة ما يحدث فى مصر من عملية تغيير شامل لكل أسس النظام السابق ؛ فالثورة المصرية ثورة عميقة وليست شكلية سيكون لها أثر كبير على مستقبل القضية الفلسطينية حيث تم الإعداد جيداً لتلك الثورات التى لم تستند على أصحاب المصالح الشخصية الضيقة وقام بها شباب وضعوا حساباتهم الشخصية جانباً .

وأضاف القدومي : إن ثورة مصر ستحدث زلزالاً فى المنطقة العربية بدأت بعض آثاره بالظهور، مؤكداً أن زمن حكم الفرد والحزب الواحد اندثر أو فى طريقه إلى الاندثار، وقال : إن حركة الشباب سوف تتجاوز تلك الأفكار والأحزاب ولن يستطيع أحد الوقوف فى وجه حركة الشباب وتطلعاته نحو الديمقراطية والمشاركة فى صنع القرار، مما يؤكد أن الوطن العربى جسد واحد لا يمكن لبعض أعضائه إلا أن تكون عضداً للبعض الآخر .

وأضاف القدومي : إن تأثير هذا الحراك على أوروبا وأمريكا سيظهر قريباً ؛ حيث ستدرك تلك الأطراف أن مصالحها التى ارتبطت بتلك الأنظمة قد تأثرت، وستحرص على حماية تلك المصالح من خلال تقوية علاقاتها مع قادة الثورات الذين سيمثلون مصالح شعوبهم العربية أولاً وأخيراً وبذلك تتأثر إسرائيل سلباً . مشيراً إلى أن حصار إسرائيل فى المنطقة اكتمل حيث إن مصر وتركيا وسوريا ولبنان ستشكل حلفاً ضاغطاً على إسرائيل وهذا له أثر إيجابى كبير على المستويين المتوسط والبعيد فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية . وفيما يخص الوضع الفلسطيني أكد القدومى أن منظمة التحرير الفلسطينية هى ضامنة الوحدة الوطنية وبدونها لن تكون هناك وحدة ؛ لأنها هى المعترف بها ممثلاً شرعياً ووحيداً للشعب الفلسطيني .

Gazny (may Allah he pleased with him: The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) ordered me to take some dates from one of the advocators, but he procrastinated. Then, I told the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him). He said: Abu Bakr, bring a date for him. Abu Bakr promised me to meet him at the mosque when we pray the Fajr (Prayer). Then, I found him where he promised me. We went on, and when Abu Bakr saw a person at a distance, he greeted him. Abu Bakr (may Allah be pleased with him) said: "We will gain great blessing If you hurried to greet him." Thus, whenever we see a person at a distance, we hurry to greet him before he does.

I wonder to see a person abstaining from greeting another person or returning the greeting, while they know that it is a kind of spite and dispersion.

Al-Baihaqy narrated in Al-Sunan Al-Kubra on. the authority of Al-Zubair ibn

Al- 'Awwam (may Allah be pleased with him) Said: The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him "There has come to you the disease of the nations before you, jealousy and hatred. This is the 'shaver' (destroyer); I do not say that it shaves hair, but that it shaves (destroys) faith. By the One in Whose Hand is my soul, you will not enter Paradise until you believe, and you will not believe until you love one another. Shall I not tell you of that which will strengthen love between you? Spread (the greeting of) Salam amongst yourselves."

Imam Al-Shafi'y said:

I greet my enemy when I meet him

To refute evil by greetings

However, many people, who are not refined by Islam and its instructions, as they are ignorant of the ethics of its sociology and rights of brotherhood, abstain from saying the greeting enjoined by Allah (Glory be to Him) and his Messenger (may the blessings and peace of Allah be upon him). They tended to imitate the West in their so-called aspects of civilization.

We ask them all to stick to the Islamic ethics and morality. They should adhere to the Islamic greeting, which distinguishes them from the other people and implants kindness and compromise among them. It is mentioned m the Hadith narrated by At-Tarmedhy and corrected by Abdullah Ibn Salam that he heard the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him: "0 people, spread the greeting of Salam, feed each other, establish prayers at night while the people are sleeping, you will enter Paradise."

Hadith. It is required with respect to the greeting of peace is returning it equally; and if you add more words, it will be better .

Also, this greeting is not specified for a certain person, as it is for all the people including the ruler, the ruled, the boss, the employee, the rich, the poor, the strong, the weak, the old, and the young, so that no one may treat people arrogantly or refrain from greeting the people or returning their greeting. This causes hatred and enmity and spreads dispute and conflict, cuts the ties of love and kindness among the people.

The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) prevented the acts leading to this end. Imam Al-Bukhari (may Allah be peaceful with him) said on the authority of Abi Ayoub Al-Ansari (may Allah be pleased with him) that the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "It is not permissible for a person to stop talking to his fellow Muslim more than three nights, they meet each other and the best of them is the person who starts saying the greeting of peace .

As long as the greeting of peace increases virtues, goodness, and blessings, spreads security, stresses all the ties, as strengthens all the relations among the people, why do not we compete with each other to say it to gain its reward ?

Abu dawud narrated about Hurayrah (may Allah be pleased with him) said that the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: " If a person reached a session, he should greet with the greeting of peace, and if he wants to depart, he should greet with the greeting of peace, as the first is not prior to the last".

Also, the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "If a person meets his fellow Muslim, he should greet him with the greeting of peace, if a tree, wall, or a stone stands between them, then he meets him , he should greet him again with the greeting of peace. " This reveals the status of the greeting of peace in Islam. Thus, Allah commanded the Muslims if they enter a house to greet the people in the house with the greeting of peace. Allah (Glory be to Him) says:

{greet one another with a greeting from Allah (i.e, say: As-Salamu 'Alaikum - peace be on you), blessed and good}

An-Nur (The Light): 61]

Imam Al-Qurtuby says in interpreting this verse: The interpreters differ with respect to the meaning of houses: Ibrahim An-Nakhi and Al-Hasan said that Allah meant the mosques, as the people should greet the people who are in the mosques. If there is no one in the mosques, a person may say: peace be upon the Messenger of Allah. It is said that a person may say: May Allah's peace and blessings be upon you, intending the angels. Then, he may say: May peace and blessings be upon us and Allah's righteous servants.

Abdul Razaq said that Muamar ibn Amr ibn Dinar said on the authority of Ibn Al-Abbas (may Allah be pleased with them both) about the saying of Allah (Glory be to Him):

{But when you enter the houses, greet one another}[An-Nur (The Light): 61]

He said: When you enter a mosque, you should say "may peace and blessings be upon us and the righteous servants of Allah. Also, it was said that this refers to the inhabited houses, i.e., greet one another. Jabir ibn Abdullah, Ibn Al-Abbas, and Atta'ibn abu Rabah said: "This includes the uninhibited houses, as a person may greet himself saying: may peace be upon us and on the righteous servants of Allah.

Ibn Al-Arabi said: "Generalization with respect to houses is the soundest opinion, and there is no evidence of privatization. This means that every house is included in this meaning whether owned by the person himself or by; any other one. When he enters someone else's house, he should ask for permission. When he enters his own house, he should say: may peace and_" blessings be upon us and the righteous servants of Allah. Ibn Omar said: This is said if the house is empty, but if his family or servants are in this house, he should say: may Allah's peace be upon you.

When he enters a mosque, he should say: May peace and blessings be upon us and the righteous servants of Allah. Ibn Omar said that the empty house is included in this meaning. Ibn Al-Arabi says:The meaning in which I believe is that if the house is empty, a person is not obliged to greet the angels, as they accompany him in every state. But, when you enter you house, it is desirable to say: There is no power but with Allah." Sayyed Qutb says in "Zelal Al- Quran":

It is a kind expression that reveals the strong link among those who are mentioned in the previous verse. The person who greets his relative or friend is actually greeting himself. The greeting he says is greeting from Allah, which bears this spirit and significance, and links them all strongly. In this way the hearts of the believers are linked to their Lord in everything:

{Thus Allah makes clear His Ayat (Laws) to you, in order that you may understand .}

[Al-Baqarah (The Cow): 242]

In this way, you realize the Divine Wisdom and Estimation.

Greeting of peace has certain code of ethics which includes: The rider greets the walker, the walker greets the person who sits, the young greets the old, and the small number greets the big number. There are certain cases in which it is not permissible to greet: in the sermon so that the people who listen to the preacher are not distracted, in case of reciting Qur'an out loud, as Allah says:

{When the Qur'an is recited, listen to it, and be silent that you may receive mercy. [i.e. during the compulsory congregational prayers when the Imam (of a mosque) is leading the prayer (except Surat Al-Fatihah), and also when he is delivering the Friday-prayer Khutbah]}[Al-A' raf (The Battlement): 204]

Also, it is not permissible to say the greeting of peace in seminars, at the time of the call for prayer, and at the time of relieving one's nature.

As Islam attaches importance to the greeting of peace and set certain rules and codes of ethics, rendering it an important factor leading to love and friendliness, our righteous predecessors and earlier Muslims (may Allah be pleased with them), they competed to say it to gain its reward.

At-Tabarany narrated in Al-Kabir and A-Awsat on the authority of Al -

Also, Boby Gosh wrote another article entitled "The Youth Revolutionists in Egypt" in which it praised the Egyptian youths, their organization and creativity in their protests. His Eminence, the Grand Imam, Prof Doctor. Ahmed At-Tayeb, Al-Azhar Sheikh, asked the protesters to elect a group to represent them and to meet him in Al-Azhar Headquarters to talk with him and to agree on a word that restores to Egypt its security and stability.

Moreover, Al-Azhar Grand Imam asked – in his speech throughout Egypt TV – the protesters in Tahrir Square and in other places to come back home and to stop the grievous confrontations and clashes that occur among the citizens of one country. Furthermore, he drew the people's attention to the events that may disperse and scatter the citizens of the nation, warning the people against revenge that some people may exploit to harm the homeland interest. He asked them to stick to the instructions and values of Islam and to adhere to the nature of the glorious Egyptian people that refuses violence and fighting, as well as to unite their rows so that truth and responsibility can be high.

He issued many statements to the Egyptians to maintain the security and stability to the homeland. One of them comes as follows:

O Youths of Egypt and his hope in a bright future (if Allah wills), I salute, praise and appreciate you for your loyalty to your country and your as well as the great stance of the Armed forces, which was attributed with courage. I ask you to maintain the security of the homeland, to protect the properties, and to defy the destroyers and the criminals who tried to make use of these circumstances to frighten the people, to transgress the souls and the public and private properties.

Starting from my admiration of your serious loyalty to your nation and your brilliant role in protecting Egypt, it is an honor to me to bless your efforts in maintaining the security and stability of the nation and the interests of the citizens and their rights. I assure you, youths of Egypt, that Allah (Glory be to Him) will protect Egypt thanks to its youths and loyal and sincere citizens including men, women with all ages.

I am sure that these temporary circumstances will come to an end for ever, and the flags of Egypt will be raised by power and glory. It will be protected forever by Allah, and Allah will destroy any enemy that tries to cause her evil.

Again, I tribute the courageous armed forces, and it is an honor to us that the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) said about the Egyptian soldiers fourteen centuries ago that they are the best soldiers on Earth. Thanks for our courageous armed forces. May Allah grant all of us success in achieving and maintaining Egypt's interests and glory.

Peace be upon you (As-Salam Alaykum) is a Blessed Islamic Greeting

BY: Late Honorable Sheikh. Ibrahim Ata Al-Fioumy
Ex. Member of the Islamic Research Academy

Islam is the comprehensive religion of Allah, which He revealed to all the Messengers and all of His Books mentioned it. It is the religion that calls for peace and security, spreads love and kindness among the people eradicates conflicts and disputes, spreads purity, good, and blessing among all the people.

Greeting of peace is the greeting that Allah likes and it includes the command of seeking knowledge from its legal sources. The person is excused and is not be blamed. Allah commanded Adam to imitate the angels in their way of greeting, making it an eternal greeting. He (Glory be to Him) knows more than the angels; and he taught him this greeting only to be a Sunnah.

In this way we understand that peace is the Islamic greeting. Allah (Glory be to Him) says:

'}When you are greeted with a greeting, greet in return with what is better than it, or (at least) return it equally. Certainly, AlHih is Ever a Careful Account Taker of all things.}

{An-nisa'a (Women):86}

This means that if a person greets you with a certain greeting, you should greet him in a better way or return it equally. This means greeting others and returning it. These are the simplest rights in Islam. If greeting people is one of the good acts of Sunnah and great morals, returning this greeting is, a religious duty)

Kifayah. If some people return it, the other attendees are excused. It IS required for all the people. Allah (Glory be to Him) says ;

{and speak good to people (i.e. enjoin righteousness and forbid evil, and say the truth about Muhammad peace be upon him)}

Al-Baqarah (The Cow): 83

Also, Allah says: "So turn away from them (0 Muhammad peace be upon) him), and say: Salam (peace)!" Al-Bukhari narrated on the authority of Omar Al-Khattab: "A person asked the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him): What is the best thing in Islam ?He said :

Feeding others and giving the greeting of peace to those whom you know and those whom you do not know." Saying the greeting of peace means that you supplicate for your fellow Muslim to be protected from any harm .

Its wording is "May Allah's peace and Mercy be upon you." It indicates the peace of humankind as a whole until the Day of Judgment, as it is mentioned in the

An article published (in Arabic) at Al-Azhar Magazine*

dignity, real wish for being better, plans, and ability of working as a teamwork. This Revolution enhanced our experience, ability to dreaming, imagination, and sacrifice for the sake of our objectives. We acquired a great deal of self-confidence and acceptance of other people who have different trends.

Our objectives are united, and our steps became similar clearly. There is no meaning for the life of any person who does not strive hard to make Egypt better. The person who tried to destroy us or distract us from the right path failed and perished. Glory is for everyone who urged us to avoid silence and submission which dominated us all that time. We praise Allah that helped us to abstain from them in this glorious day, which we will never forget.

The martyrs of this glorious revolution undertook many responsibilities that are not limited to crying over them, describing their merits, cursing their killers or those who gave commands to kill them, or knew their killers and stayed silent, and taking severe legal actions against all of these people. However, these are not the objectives for which those people are martyred.

Undoubtedly, 25^{th} January Revolution is the greatest popular revolution in the Egyptian modern history. It is the revolution of a patient, great, and civilized people, who always prove they are is in the foreground. Tribute is to the Egyptian remarkable youths who started this revolution and restored spirit and hope to Egypt as a whole, and to the few people of our generation who endured pain and remained believing in their homeland and people. Tribute is to the youths of the Revolution who gave hope and chose steadfastness and awareness, as the way of the Revolution was long and full of risks.

The youths achieved a great Revolution because it was easy to gather the Egyptians due to their unity and coherence against any enemy. They gathered to gain a fair demand, making this revolution a great one because the people gathered in huge numbers in a way that never happened before.

All the people admitted that this Revolution with its strength and youths changed Egypt, and even our enemies admitted the importance of this Revolution. It faced a barbaric aggression with sublime steadfastness and noble civility, stemming from the sublimity of the morals of the Egyptians. It presented to the whole world a magnificent model of the peaceful popular demonstrations. All its demonstrators including the large numbers of men, women, and children with different trends, social class, and religion were keen to respect the ordinances and human law and to keep the public and private properties.

The army supported the amendment of the constitution rapidly, practically, in a very short time to pave the way for reformation. Also, we will choose the next president, heading to the executive authority by polls. Also, we will choose our representatives in the People's Assembly and Consultation (Shura) Council, forming the legislative authority in a fair and liberate climate.

After a period, there is an important mission for the elected president and the legislative assembly: electing a constituent body to select a committee to

prepare a new constitution that suits the prospects of the people for the new democracy in Egypt. This should provide the climate for the independent parties with their different trends so that security and stability are restored to ensure that the elections will be without weapons, money, and bullying.

We seek fair elections based on using the national ID, entire freedom and complete judicial supervision ensured by the constitutional amendments. We lack nothing to move to more developing democracy in which the whole people prove their loyalty and devotion to their homeland and the objectives of change. Will the Egyptians prove that as they did this fascinating change? This question will be answered by the street and the events after the restoration of security and silence.

Times Magazine celebrated the Egyptian Revolution and this generation of youths in its last issue published on 28^{th} of February, 2011, having the cover decorated with a photo of some of the Egyptian youths. Also, it described them by the title "A Generation changes the World" referring to the youths of Tunisia and Egypt.

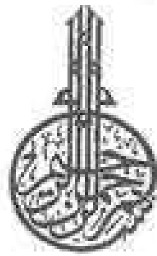
The famous American writer, Farid Zakaria, attributed the outbreak of the revolutions in the Middle East for these reasons: The youth generation, technology, the inability of the governments and political systems to meet the prospects of the youth generation, which has different differ way of thinking and vision for the future, the matter that causes Zakaria to be optimistic for the future.

In an article entitled "Anger and Revolution", Bobi Gosh presented his vision to the elements that stirred the youths to change their circumstances in their countries starting from the national songs, in which Egypt and Tunisia were very creative. They succeeded in converting their anger and protests from mere words and exchanged plans in the social communication sites to a revolution that changed the features of the whole region in spite of the non-existence of certain leaders in unprecedented way. The effect of these revolutions extended from Tunisia and Egypt to the surrounding countries.

Gosh praised this remarkable generation that succeeded in deceiving many politicians in the region and the world, who thought that it is an Arab disappointed generation that is politically incapable of initiating any change due to oppression and intimidation prevailing around him. Undoubtedly, it surprised many people with his achievements by civilized peaceful methods.

Times Magazine specified issue 14^{th} of February, 2011 to the Egyptian Revolution and the cover of the magazine carried photos of the demonstrators carrying the Egyptian flag, on which they wrote "Viva Egypt". Mark Thomson praised, in a magnificent article published by the same Magazine, the role played by the Egyptian army, as it saved the souls of the demonstrators and citizens, and its neutrality and self-control.

AL-AZHAR MAGAZINE
Jumada Al-Oula, 1432.



ENGLISH SECTION
April, 2011

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾
الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."

(Al A'raf 43)

EDITOR : Dr. IBRAHIM AL-ASSIL,
Professor at the Faculty of Languages and Translation
Al-Azhar University

All of a sudden an Egyptian popular youths revolution broke out in the Tahrir Square...!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

Revolutions break out with the prevalence of despair, loss of hope, obscurity of future, and increase of political and living congestion amidst the citizens. The 25th January Revolution is not an exception, as it started with youths living in a state of anguish due to their state. It started with correspondence and gathering throughout "Facebook", as they called for peaceful demonstrations on the 25th of January, the Police Day.

Thousands of demonstrators went to Tahrir Square on the day of Anger; and there were other demonstrations in Ismailya, Suez, and other cities, resulted in clashes between the policemen and the demonstrators, causing the murder of 4 citizens in Suez and a soldier in Cairo. However, the policemen managed to disperse the demonstrators at the dawn of Wednesday by tear gas.

The demonstrators challenged the police decisions to ban demonstrations. Clashes took place and 500 demonstrators were arrested. Also, the authorities imposed restrictions on using the internet and blocked the social communications sites.

Also, the authorities preceded the demonstrations by cutting the internet service and the SMS. After the Friday Prayer, the Central Security Forces attacked the demonstrators using tear gas, against the demonstrations broke out from all of the mosques, causing the murder of tens and injury of hundreds.

The Chief of Martial Law Administrator enjoined curfew in Cairo, Alexandria, and Suez. Suddenly, the Egyptian police withdrew from the streets of Cairo, some demonstrators attacked police stations, and most of Cairo streets were robbed. The angry protests continued in Cairo and many cities, and the popular committees were formed following the spread of robbery.

Forty thousand prisoners escaped from the prisons and the offenders took over thirty thousand weapons. The foreign governments started to evacuate their nationals from Egypt after the loss of security. The demonstrations followed one another until Friday 11th of February, 2011, and Supreme Council of the Armed Forces was formed.

25th of January Revolution is not like any other revolution recorded in history, as it decisively proves that we did not lose our unity, intelligence,

الفهـــــرس



AL AZHAR

MAGAZINE

Jumada-l-ula 1432 A.H. Apr. 2011,
Vol. 84, Part V.



الأزهر

يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا

ن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين



VOL. 84, Part VI.

AL AZHAR
MAGAZINE

Jumada al-Akhirah 1432 H May 2011,
Vol. 84, Part VI.



بسم الله الرحمن الرحيم

نـــدوة
الإسلام والحرية وسيادة القانون



إعداد الأستاذين/ عبدالموجود أمين، أحمد رضوان



تحت رعاية فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر وبالاشتراك مع جمعية كرامة بواشنطن عقدت في الرابع من جمادى الأولى سنة ١٤٣٢هـ الموافق السابع من أبريل سنة ٢٠١١م ندوة «الإسلام والحرية وسيادة القانون» وذلك بقاعة المؤتمرات الكبرى بمركز الأزهر للمؤتمرات بمدينة نصر.

كان فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر أول المتحدثين فقال:

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه..

أما بعد..

الإخوة الأفاضل الزملاء الأعزاء والزميلات بناتي وأبنائي الطلاب المصريين والمصريات والوافدين والوافدات..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فهذه كلمة عامة موجزة أو ربما كانت هي أقرب إلى خواطر حول موضوع الحرية والتكاليف الشرعية سجلتها على عجل نظرا لضيق الوقت وكثرة المشاغل، هذه الكلمة تدور حول العلاقة بين حرية الإنسان والتكاليف الشرعية المطلوبة منه اقتضاءً أو منعا.

وأن تقوم هذه العلاقة على أساس من انتقاص الحرية الإنسانية أو هي في الواقع تقوم على أساس تشكل فيه التكاليف الشرعية الدينية جزءاً أصيلا من مفهوم الحرية الإنسانية في بعدها الاجتماعي والذي يختلف اختلافا واضحا عن مفهوم الحرية في بعدها الصغير الذي يمثل قدرا



مشتركا بين الإنسان والحيوان والنبات أو لنقل بين الكائنات الحية.

لابد لنا فى البداية من التمييز بوضوح بين نوعين من الحرية..

أما الأول: فيسميه العلماء «الحرية الطبيعية».

والنوع الثانى: يسمونه «الحرية الاجتماعية».

أما النوع الأول: فمرجعه مبدءاً أو قوة وضعفاً إلى الطبيعة وهو طاقة تشترك فيها الكائنات الحية بدءاً من النبات الذى يغير من اتجاه نموه حين يصطدم بمانع أو حاجز يمنعه من مواصلة النمو فى هذا الاتجاه أو ذاك، ومرورا بالحيوان الذى تمنحه الطبيعة حرية أوسع وأغنى بالبدائل من النبات.

وانتهاء بالإنسان الذى تضعه الطبيعة فى قمة الكائنات الحية التى تتمتع بقدر هائل نظرا لطبيعة جوهره النفسى والعقلى والعضوى، حتى إنه يستطيع بحريته أن يسلك ضد متطلبات طبيعة من هذه الطبائع، وذلك حين يقهر شهواته ويقمع نزواته استجابة لنداء العقل أو نداء الواجب والضمير.

هذه الحرية الطبيعية التى تعنينا فى هذه الكلمة الموجزة ولا يتعلق بها البحث فى الحرية التى هى مناط الاختيار ومناط التكاليف الشرعية أيضا.

والذى يعنينا هنا هو النوع الثانى وهو «الحرية الاجتماعية» التى يمنحها المجتمع للأفراد ويكفلها النظام الاجتماعى وفى هذا النوع تحديدا يرد سؤال محورى يتساءل عن الهدف من الحرية الإنسانية التى يسعى إليها كل إنسان ويقاتل من أجل اكتسابها والحصول عليها.

هذا السؤال هو: هل الحرية غاية مطلوبة فى ذاتها أو هى وسيلة إلى تحقيق غايات أخرى أعقد وأشد خطرا من الحرية الشخصية فى حياة الأفراد والجماعات وقد تعلم أن الاتجاه الليبرالى يقرر أن الحرية الفردية هى الهدف وهى غاية الغايات، فى حين يدعو الاتجاه الاشتراكى مثلا إلى التضحية بالحرية الفردية لصالح حرية المجتمع والمصلحة العامة.

وكلا المدرستين تنطلقان من فلسفة واحدة أو من مبدأ واحد هو أن حقيقة الإنسان ترجع إلى أنه كائن مادى صرف يجب أن تتوفر الحرية الكاملة فرداً أو مجتمعاً من أجل إشباع رغباته وملذاته وتحقيق مآربه الحياتية والدنيوية والتى هى معنى السعادة وعنوانها كما تقرره الفلسفة الخلقية لهذين الاتجاهين بصورة أغلبية أو بشكل عام تقريبى.

وقبل أن نترك هذه النقطة نقرر فى يقين واطمئنان ووثوق أن الحرية التى تأسست على هذه الفلسفة المادية التى أقصت كل العناصر الروحية إن تكن قد حررت الإنسان من قيود عدة وانتشلته من مآسٍ حقيقية إلا أنها كبلته بسلسلة طويلة من العبودية الخانقة. ولنا أن نعتبر بأحدث نظام اجتماعى واقتصادى عرفته الإنسانية وأعنى به النظام الرأسمالى، فهذا النظام لا جدال فى أنه أطاح بكثير من المظالم فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية وبالدكتاتورية فى الحياة السياسية وقضى قضاء مبرماً على



سلطات التابوت والمؤسسات الدينية التي كانت تغرد خارج سربه وتعاليمه.

هذا النظام الذى أعلن الحريات فقط السياسية والاقتصادية والفكرية والشخصية واستطاع أن يحرر الفرد من كافة أنواع الضغوط والحجر والتسلط، ولم يجعل للحرية حدوداً تصادر عندها، اللهم إلا حداً تقف عنده هو الاصطدام بحرية الآخر.

هذا النظام نفسه ما لبث أن قلب إلى مصدر آلام بشعة لأغلب شعوب العالم الفقير بل أثر تأثيراً مباشراً فى رفع معدلات الفقر والجوع والمرض والجهل بين أفراد هذه الشعوب.

بل صاغها باسم الحرية وصادر تحت لافتتها حريات الآخرين وحقوقهم وفرض الوصاية عليهم وصدر لهم الموت والدمار والخراب والتخلف، وأساس البلاء فى كل ذلك هو أن فلسفتهم الإنسانية فلسفة عوراء، لا ترى الجانب الآخر من الإنسان ولا تحفل بالقيم التى يتطلبها هذا الجانب والتى لا تأتى إلا من السماء ولا تصنع إلا من صوت الوحى الإلهى والتى هى الكابح الأوحد للحريات المنفلتة التى تنتهي بالضرورة إلى أضدادها من العبودية والقيود والأغلال التى توضع فى أعناق الآخرين.

أما عن فلسفة الحرية في الإسلام فإنها تنطلق من محتوى آخر، والمحتوى الحقيقى للإنسان الذى يجمع بين الجانب المادى والجانب الروحى معا، ولا يتحيف فى معنى الحرية وحدودها على جانب لحساب جانب آخر، ومن هنا كانت الحرية فى الإسلام منضبطة ولم تكن





مطلقة غير محدودة، كما فى النظام الرأسمالى مثلا، أو حرية مصادرة من الفرد لحساب المجتمع كما فى النظام الاشتراكى بل هى حرية محددة بدواعم القيم والمثل العليا بعبارة أخرى الحرية في الإسلام مرتبطة بخلفية خلقية ودينية محددة وهذه الخلفية تشكل ضماناً لا مفر منه يجعل من الحرية أداة نفع للفرد والمجتمع على السواء..

إن الحرية فى الإسلام مرتبطة بعقيدة الإسلام وبمفاهيمه عن الكون والحياة ومقومات الأخلاق فى هذا الدين، وبسبل السعادة الحقيقية وبعاطفة الأخوة ومشاركة الناس فى الآلام والعدالة الاجتماعية، وما إلى ذلك من المقومات التى أناطها الإسلام بالمجتمع وبالفرد وكلها تحمل طابع المسئولية الخاصة والعامة، وكلها أيضا دورات لا مفر منها فى ضبط الاجتماع الإنسانى والتوجيه نحو التكافل والألفة والتضامن، بل كانت هذه المقومات مقاصد من المقاصد العليا يتغياها الإسلام في مجتمعات الناس واجتماعهم، فهو ينشئهم على عقيدة التوحيد التى تحرر الإنسان من سائر أنواع العبوديات المادية والنفسية ينشئهم على الاعتقاد فى محدودية هذه الأرض وضيقها وقصر عمرها بالمقارنة إلى الحياة الخالدة والوجود الأبدى الدائم، وهذا الاعتقاد يؤصل عند المسلم محدودية الحريات التى تعود بالنفع والفائدة على الخط الطويل للحياة والذى يبدأ بعد موت الإنسان أو يتواصل بعد موته، فالمسلم حين يفقد مساحة من الحرية التى يتمتع بها من لا يؤمن بآخرة



ولا بثواب أو عقاب لا يفقدها حرمانا من حقه من الحرية بل يفقدها من أجل مصلحة تعود على غيره فى الدنيا ثم تعود عليه هو بأعواض هائلة فى مستقبل قد يكون قريبا أو بعيدا لكنه آتٍ لا محالة فى كل الأحوال.

فى هذا الإطار وحده وفقط يجب أن نرصد العلاقة بين الحرية والتكاليف الشرعية فى الإسلام لنعلم أن الحرية ليست مطلقة كما قلنا، وليست مصادرة وأنها لما يترتب عليها من آثار مباشرة تتعلق بالغير مقيدة بأطر شرعية ذات قوة معنوية هائلة وتأثير كبير فى ضبط الحريات وتحديدها، وبحيث ينبع التحديد من داخل الإنسان وباختياره الحر أيضا، وبصورة لا يشعر معها أن شيئا من حريته قد نقص أو سلب منه.

انظر إلى كثير من المسلمين حين يدفعون زكاة أموالهم للفقراء والمحتاجين طواعية واختيارا دون أن يشعروا بأى درجة من درجات الانتقاص من حقهم فى الحرية مع أن هذه الزكاة فى صورتها المادية الخارجية ليست إلا شكلا من أشكال المصادرة على حرية التملك وحرية التصرف بالمفهوم الغربى أو الرأسمالى للحريات وهذا ما أسماه بعض المفكرين الكبار بالتحديد الذاتى للحرية عند المسلم نتيجة لإيمانه بالله تعالى وبشرائعه وبالقيم الخلقية الثابتة المطردة التى لا تخضع لا لنسبية ولا لتحرك ولا لتدين.

كيف وهى قيم معيارية حاكمة يقاس بها تدخل الاجتماع البشرى ويُصرَع من مجالها أو يُخطط.

هذا البيان ثابت ومتحدد ولا يقبل التبدل ولا الانقلاب فى منظومة الخير والشر والحسن والقبح فى الأفعال سواء قلنا بالحسن والقبح العقليين أو الشرعيين.

ويحفظ المسلم فى هذا المقام: «حلال محمد ﷺ حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة».

إن هذا التحديد الذاتى للحرية عند المسلمين هو أيضا يعد الضامن الأساسى لأعمال البر والخير فى مجتمع المسلمين منذ توقف التجربة فى الإسلام وشريعته فى مجتمعات المسلمين وفقد الإسلام قيادته السياسية وإمامته الاجتماعية.

فبالرغم من ابتعاد المسلمين عن روح التجربة الإسلامية قرونا عدة واعتيادهم على ألوان أخرى بالحياة الاجتماعية والسياسية، بل إن التحديد الذاتى للحرية الذى وضع الإسلام نواته فى تجربة حية كان له دور إيجابى فعال فى ضمان أعمال البر والخير التى تتمثل فى إقدام الملايين من المسلمين بملء حريتهم على دفع الزكاة وعلى التبرع وعلى أداء حقوق الله تعالى والإسهام فى تحقيق مفاهيم الإسلام عن العدل الاجتماعى، ويتساءل بعض العلماء الكبار قائلا: فماذا تقدر من نتائج فى ضوء هذا الواقع لو كان هؤلاء المسلمون يعيشون التجربة الإسلامية الكاملة وكان مجتمعهم تجسيدا كاملا للإسلام فى أفكاره وقيمه وسياساته وتعبيرا عمليا عن مفاهيمه ومثله؟!

وفى ضوء ما تقدم نستطيع أن نواجه الدعاوى الغربية التى تشغب على الإسلام والمسلمين فى مسألة انتقاص الحرية فى التكاليف الشرعية انطلاقا من أن الحرية جزء من كيان الإنسان، فإذا سلبت حريته سلبت معها كرامته وجوهره الإنسانى الذى يتميز به عن سائر الكائنات والحقيقة أن هذا الكلام سفسطة فارغة ولا يتضمن أية قيمة علمية، ذلك أن الذى يتميز به الإنسان عن سائر الكائنات والذى هو جزء من ذاته فى باب الحرية إنما هو الحرية الطبيعية التى أشرنا إليها فى مفتتح هذه الكلمة.

ولا خلاف فى أن مصادرة هذه الحرية اعتداء مباشر على إنسانية الإنسان، فأنت حين تسجنه أو تقيده ظلما وعدوانا أو تفرض عليه اختيارا واحدا أو بديلا معينا بالقهر والسلطان والغلبة فإنك تصادر عليه إنسانيته حين تصادر عليه حريته فى هذه الحقوق.

أما حريته الاجتماعية فهى حرية تمنح وتسلب وفقا للمذهب الاجتماعى الذى يعطى هذه الحرية أو يمنعها والذى يمنحه المجتمع الرأسمالى وفلسفته مثلا من حريات يصغره المجتمع الاشتراكى والشيوعى دون أن يخطر ببال الناس هناك أنهم فقدوا جزءاً من كيانهم الإنسانى والشىء نفسه يقال على ما

يمنحه المذهب الاجتماعي الاشتراكي من حريات للمجتمع يصادرها المذهب الرأسمالي على الدولة ولا يرى أن هناك منتقصا من إنسانية الدولة ولا من كرامتها شيء.

والذي يقال هنا يقال على النظام الاجتماعي الإسلامي حين يكلف المسلمين بتكاليف شرعية تنتقص من - ليس من حريتهم الطبيعية - حريتهم الاجتماعية التي هي محل المنح وفقا للمذهب الاجتماعي السابق.

أيهاد السادة الأفاضل يطول بنا الكلام لو ذهبنا نعدد مظاهر الحريات المتعددة في الإسلام والتي تمنحها شريعته للفرد وللمجتمع مثل حرية حق الحياة، وحرية الاعتقاد، وحرية العمل وحرية التملك. وحرية المسكن، وحرية الرأي، وسائر الحريات المدنية والسياسية، ولا يزال البحث في حاجة إلى المزيد من النظر وبخاصة فيما يتعلق بعلاقة التكريس بالحريات الفردية والاجتماعية وتكييف هذه العلاقة في ضوء مفهوم الحرية ومعناها في فلسفة الغرب وفي ضوء تطبيقاتها التي تتعرض فيها مرة للانتقاص من أجل مقاصد مادية ضيقة، ومرة بتطبيقات منفلتة وأعني بذلك الحرية من غير سقف والتي يسميها البعض بالحرية السالبة، بل في ضوء الثمرات المرة التي تثمرها الحرية الغربية وأعني بها عبودية الآخرين والكيل بمكيالين أو أكثر، والتسلط وخلق بؤر



د. أحمد كمال أبو المجد

القتل والقتال في بلاد الشرق، ليسلم الغرب وينعم وحده بالحرية والأمن والرفاهية ولذلك حديث آخر إن شاء الله.

شكرا لحسن استماعكم

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كما شارك في هذه الندوة لفيف من العلماء الأجلاء ونورد فيما يلي إشارة موجزة لكلمات بعض منهم.

فقد تحدث الدكتور أحمد كمال أبو المجد قائلا:

نحتاج أن نمارس دورا ثقافيا في الخطاب السياسي لتعلم الدنيا وليعلم حكامنا أن النقد هو دعوة للإرشاد وليس دعوة للهدم والإبادة.

- إن الله سبحانه وتعالى خلق الناس أحرارا ويقول عمر - رضي الله عنه - «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا»، فكل ملكة معطاة للإنسان لها شق إيجابي وشق سلبي والإنسان يُسأل عن كل ما أعطاه الله عن سمعه وعن بصره.

إننا أمة مسبوقة ولنا تراث إيجابي تعالوا نشيع الثقة ونشيع شيئا من الإيجابية.

كما تحدث الأستاذ الدكتور محمد عبدالفضيل القوصي عضو مجمع البحوث الإسلامية فقال:

عنوان الندوة «الإسلام والحرية وسيادة القانون»، أسأل نفسي سؤالا أزهريا هل العطف يقتضي المغايرة؟ أجيب وأقول: إنه يقتضي المغايرة على نحو ما وليست المغايرة الكلية بمعنى أنك إذا حفرت في الإسلام وجدت الحرية وإذا حفرت في الإسلام وجدت أيضا سيادة القانون وكأنها ينابيع متصلة.. إذا حفرت في الإسلام لن تجد فيه إلا الحرية لقد بحث المسلمون حرية الذات في داخل الذات قبل أن يبحثوا الحرية الفكرية أو العقائدية، ويحضرني في هذا المقال قول ابن عطاء الله السكندري: «أنت حر مما أنت منه آيس، عبد لما أنت فيه طامع» ثم هناك الحرية التي بحثها الفقهاء ثم هناك الحرية العقائدية التي بحثها علماء الكلام وذهبوا فيها مذاهب شتى، إذن



د. محمد عبدالفضيل القوصي

فالإسلام هو في حد ذاته الحرية تحرر من عبودية العبد إلى عبودية الرب وإذن لا يتحقق لك الإسلام إلا إذا تحررت من عبودية العباد وانطلقت إلى عبودية الإله الحق، الإله الواحد القهار.

ثم إذا حفرت في الإسلام أيضا وجدت سيادة القانون، لماذا؟! لأن سيادة القانون مضبوطة في الإسلام بضابطين.

- الضابط الأول: التكليف.
- الضابط الثاني: المقاصد الشرعية.

وهما محيطان متوازيان ينبغي للحرية أن تسير بينهما، وأن تجمع بينهما، وأن توفق بينهما. فالتكاليف لا تكون تكاليف إلا إذا نظر فيها إلى المقاصد ولا تكون مقاصد إلا إذا نظر فيها إلى

التكليف بهذه الكلمات الموجزة أوضحت ما في العنوان من تداخل لا أقول عطفا يقتضي المغايرة بل يقتضي المغايرة على نحو ما.

ثم تحدثت الدكتورة نيفين أحمد عبدالله مديرة الأبحاث بجمعية كرامة فقالت:

موضوع الحرية وسيادة القانون أراه موضوعا مركبا تتداخل فيه المفاهيم، وأبدأ بسيادة القانون فأقول إن قواعد سيادة القانون هي قواعد عامة ومدرجة عامة بمعنى أنها تطبق على عامة الناس وعلى جميع الناس ومدرجة لأنها تطبق بلا استثناء، لا يستثنى منها مواطن وهذا هو المفهوم الذي رسخه لنا ديننا الحنيف.. حين قال رسول ﷺ: «وأيم الله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها» فلم يستثن رسول ﷺ ابنته إذا أخطأت بل يطبق عليها القانون، وذلك في معرض القصة المعروفة حين جاء قوم إلى رسول الله ﷺ يطلبون أن يستصدر عفوا عن امرأة مخزومية سرقت فجاء رد الرسول ﷺ ردا حاسما يعلم فيه البشرية والمسلمين أن الإسلام يطبق القانون على جميع الناس وأنهم جميعا سواسية وأن جميع المواطنين متساوون أمام القانون لا فضل لغني على فقير ولا لوضيع على ذي حسب ولا لقوي على ضعيف وهذا ما استنكره الرسول ﷺ على قوم قال فيهم: «إنما هلك من قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا



د. نيفين أحمد عبدالله

سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد» فهذا مبدأ مرفوض في الإسلام، فالإسلام دين العدالة فإذا طبق القانون بهذه الكيفية دون حسابات ومصالح وامتيازات للبعض على حساب بعض آخر، إذا طبق بالعدل فأرى أن القانون حينئذ هو أداة لتحقيق مبدأ المساواة ليس أداة للقهر والاستعباد والاستبداد، لأن القانون وضع لرفع الظلم عن العباد فإذا استشعر المواطنون بأن القانون يطبق بهذه الكيفية سنطالب بسيادة القانون، كلنا سنطالب بتطبيق القانون؛ لأنه لا يعني حينئذ الظلم أو مصادرة لحرية الإنسان.

ويجب أيضا ألا يكون القانون جائرا فهو الأداة التي ترفع الظلم وليس الأداة التي تخنق.

وكما نتفق أن سيادة القانون هي مبدأ إسلامي فنرى أيضا أن الحرية مبدأ من مبادئ الشريعة الإسلامية كفلها الإسلام؛ فالحق في الحرية فريضة على الحاكم والمحكوم معا، على الحاكم أن يطبقها عن طريق تنفيذ المطالب عن طريق الشورى، وعن طريق تحقيق العدل وتطبق أيضا على المجتمع، لأن الإسلام أقر أن يتمتع المجتمع نساء ورجالا بحرية التعبير عن آرائهم ومواقفهم ولو كانت تخالف الحاكم ولكن ذلك في إطار معروف وهو ما يقرره الشرع، فحرية المواطن مكفولة تحت مظلة الإسلام فالإسلام دين الحرية هو الذي حررنا من العبودية لغير الله تعالى، وتحت مبدأ الحرية لا يحق للحاكم أن يصادر حرية محكوميه، ولكن يجب أن نفهم ونقر أن الحرية لا تعني التعدي على الآخر.

فحرية الأفراد تنتهي حدودها عند حدود حرية الآخرين والحرية لا تعني إلحاق الضرر بالآخر تحت مبدأ: «أنا حر أفعل ما أشاء وقتما أشاء كيفما أشاء» فحديث رسول الله ﷺ خير معلم لنا حين قال: النبي ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا خرقا ولم نؤذ



د. محمد كمال إمام

من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا» هذا هو مبدأ الحرية في الإسلام، أن نأخذ على يد الظالم، فالحرية مكفولة شرعا، والحرية حق في الإسلام مع مراعاة القواعد والمبادئ العامة.

وتحدث الأستاذ الدكتور محمد كمال إمام أستاذ الشريعة الإسلامية بجامعة الإسكندرية فقال:

أريد أن أقول ماذا تعني الحرية؟ وماذا يعني القانون؟ لأن الحرية كلمة متعددة المعاني لها مستويات عدة فإذا نظرنا إليها من زاوية ميتافيزيقية أو فلسفية فهي من أكثر المسائل إثارة للمتاعب في فهمها وتقديرها وقد أنتجت كثيرا من التراث حولها ما بين جبرية وحتمية..



وكذلك لها تراثها في الغرب كما لها تراثها في الشرق، لها تراثها عندنا نحن المسلمين كما لها تراثها عند كثير من ثقافات العالم، وهذا ليس مقصودا في هذا العنوان ليست الحرية باعتبارها ظاهرة من ظواهر الإرادة ولكن الحرية باعتبارها ظاهرة من ظواهر السياسة، أعتقد أن هذا هو المعنى الدقيق المراد لهذا الحديث.

الأمر الثاني ماذا تعني كلمة القانون، والقانون أيضا له معان كثيرة فحين يتعلق الأمر بالقانون يعني سلطة الأمر والنهي الصادرة من ولي الأمر، ما العلاقة بين الحرية والقانون على مستوى الفرد والجماعة؟ هل الحرية هي الأعلى من القانون أم أن القانون هو الذي يعلو على الحرية؟

أولا: حينما يضع المشرع قانونا فإنه يضعه تعبيراً عن مصالح مجتمعه الذي يعيش فيه وتطبيقا لمبادئ كلية يحترمها كل إنسان في هذا المجتمع، لابد أن تكون القاعدة القانونية مرآة صادقة لكل التفاعلات الاجتماعية الصادرة من هذا المجتمع.

وهناك قاعدة فقهية ضابطة لتصرف أولياء الأمور في هذا الشأن، في قول العلماء تصرف ولي الأمر منوط بمصلحة الرعية فإذا تصرف خارج هذه القاعدة فإن السيادة المشروعية التي تعطى للاختيارات القانونية قيمة إلزامية وأهمية قد سقط هذا الأساس فأصبحت تعبيرا عن حاجات الدول، تعبيرا عن مصلحة طبقة أو فئة، تعبيرا عن مصلحة من يدين لهم بالولاء ولكنها ليست تطبيقا عمليا لقاعدة أساسية في بناء أي قانون وهو أن يكون معبراً تعبيرا حقيقيا عن مصلحة هذا الشعب وعن مصالح المجتمع.

وتأتي الحرية لكي تكون طريق المجتمع ولكي تعطي القانون المقدرة للتعبير عن هذه المصالح؛ لأننا نتكلم عن حرية سياسية وهذه هي التي تختار الحكام، هي التي تختار السلطان، هي التي تتحرك من أجل تعبئة الواقع حتى يكون محكوما بمصالح الناس.. فالقانون هو الذي يحدد قيمة هذه الحرية السياسية ويحكم تفاصيلها وجزئياتها.

فسيادة القانون تعني احترام القانون لدى الجميع، وتحقيق المساواة أمام القانون لدى الجميع.

فإذا لم يكن هناك احترام لسيادة القانون فنحن أمام غيبة لسيادة القانون، وأيضاً إذا لم تكن هناك مساواة للجميع أمام القانون فنحن أمام غيبة لسيادة القانون، فإذا نظرنا إلى ذلك في ضوء الشريعة الإسلامية فالإسلام يربط بين حركة الإنسان والتكليف الشرعي، ولا يستطيع الإنسان المسلم تحت دعوى أي حرية وبأي صورة من الصور أن ينفصل عن التكليف الشرعي تحت مسمى المصلحة العامة وتحت مسمى مصلحة قومية أو تحت أي مسمى، لأن لديه إرشادات من الله - سبحانه وتعالى - تبدأ من معتقده وتنتهي بشريعته بأن عليه أن يفعل كذا وكذا.. في دنيا الناس وهو يمشي ليس مقيد الخطوات إنما هو حر في



خطواته العقلية ولكنه ليس حراً فى أن يقود المجتمع إلى جهالة أو إلى تدهور...

والمشكلة الأساسية فى قضية الحرية والقانون ليست فى غيبة القانون وليست فى غيبة الحرية وإنما فى غيبة النسق الفكرى الذى يجعل العلاقات ما بين الحرية والعقيدة علاقات سوية ويجعل العلاقات ما بين الدين والقانون علاقات آمنة مطمئنة، فآخرون يفترضون تعارضا - متوهما - ويفترضون تحاربا نهى عنه الإسلام..

حينما يصبح الدين مطية لكل فريق أو تصبح إزاحته هدفا لكل فريق فنحن لسنا أمام حرية ولسنا أمام قانون وإنما أمام تغير كامل لأنساق اجتماعية ظلت حاضرة فى حياتنا الثقافية والفكرية والعقلية على مدى أربعة عشر قرناً وأقول على مدى تاريخ مصر كلها..

إننا فى هذه اللحظة التاريخية الفارقة من التاريخ نقول: إذا كانت الحرية غاية وحتمية فإن الحفاظ على الثوابت هو الجزء الأساسى من الحفاظ على هذه الحرية المنضبطة وليست الحرية المفككة، وإذا كنا نريد سيادة القانون فإنها تعنى أن نستمسك بكل الأصول الأساسية التى ذكرت فى إسلامنا وعقيدتنا وديننا والتى ساوت بين البشر جميعاً.


د. عمر عبدالله كامل

ثم تحدث الدكتور عمر عبدالله كامل عضو مجلس إدارة الرابطة العالمية لخريجى الأزهر فقال:

الحرية، هذه الكلمة الجذابة التى يسعى البشر للحصول عليها، يجب أن يسبقها العلم ويجب أن تسبقها الأخلاق فإن الشعوب التى لا تسعى لمكارم الأخلاق لا تستحق هذه الكلمة والشعوب التى لا تسعى لرفع مكانة العلم لا تستحق هذه الكلمة، يجب أن نقدم القيم أولا والانضباط الأخلاقى -المفقود فى مجتمعاتنا - ثانيا، ثم إعلاء شأن العلم ثم بعد ذلك تأتى الحرية.

***

بسم الله الرحمن الرحيم



الأزهر

مجلة شهرية جامعة
يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف فى مطلع كل شهر عربى
تأسست عام ١٣٤٩هـ - ١٩٣١م

رئيس التحرير
أ.د. محمد رجب البيومى

مدير التحرير
عادل رفاعى خفاجة

سكرتير التحرير
أحمد السيد تقى الدين

الاشتراك السنوى
داخل مصر ١٨ جنيها مصريا -
الدول العربية ٥٠ دولارا أمريكيا
أوربا وأمريكا ٥٥ دولارا أمريكيا -
اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولارا أمريكيا
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٥٧٨٦٢٠٠

المراسلات باسم: مدير التحرير -
مجمع البحوث الإسلامية - م. نصر
ت: ٢٢٦٢٨٥٩٩

داخل العدد

العلماء والإصلاح



لفضيلة الشيخ/ محمد الخضر حسين
شيخ الأزهر الأسبق - رحمه الله -

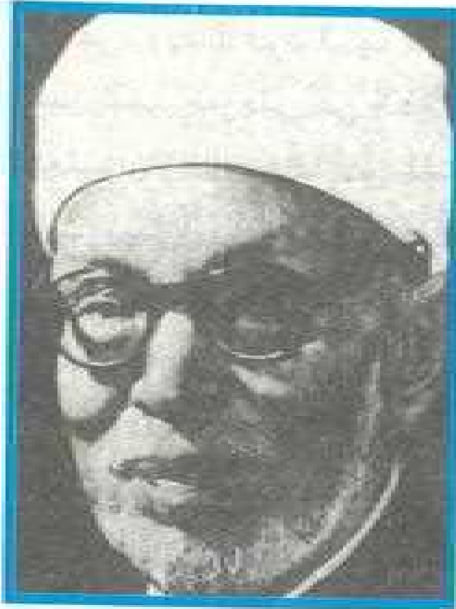
نود من صميم قلوبنا أن تكون نهضتنا المدنية راسخة البناء رائعة الطلاء محمودة العاقبة ولا يرسخ بناؤها ويروع طلاؤها وتحمد عاقبتها إلا أن تكون موصولة بنُظم الدين مصبوغة بآدابه والوسيلة إلى أن يجرى فيها روح من الدين يجعلها رشيدة فى وجهتها، بالغة غايتها، أن يزداد الذين درسوا علوم الشريعة عناية بالقيام على ما استحفظوا من هداية، فلا يذروا شيئا يشعرون بأنه موكول إلى أمانتهم إلا أحسنوا أداءه.

ينظر أهل العلم فى حال الناس من جهة ما يتقربون به إلى الخالق، ويزنون أعمالهم ليميزوا البدعة من السنة، ويرشدهم إلى أن يعملوا صالحا، ومن الذى لا يدرك أن البدع تقف كقطع من الليل المظلم فتغطى جانبا من محاسن الشريعة الغراء، وهى بعد هذا ضلالات تهوى بأصحابها فى ندامة وخسران.

ينظرون فى أحوال الناس من جهة ما يدور بينهم من المزاعم الباطلة والأحاديث المصنوعة، وينفون خبثها نفى النار خبث الحديد، يفعلون هذا ليكون الناشئ المسلم نقى الفكر صافى البصيرة، لا يحمل فى نفسه إلا عقائد خالصة وحقائق ناصعة.

ينظرون فى أحوال الناس من جهة ما يجرى بينهم من المعاملات، فيصلحون ما

كان فاسدا ويصلون ما كان منقطعا، وما شاعت المعاملات التى نهى عنها الدين فى غير هوادة كالربا والميسر إلا حيث قلّ من يعظ الناس فى ارتكابها ويبسط القول فى شؤم عاقبتها.



الخضر حسين

ينظرون فى أحوال الناس من جهة ما يمسهم من السراء والضراء، ويسعون ما استطاعوا فى كشف الضر عنهم ولو بعرض حالهم على أولى الشأن وإثارة دواعيهم إلى أن يعالجوا العسر حتى ينقلب بفضل تدبيرهم يسرا، يحدثنا الكاتبون فى تاريخ الأندلس أن العلماء المقيمين فى ضواحى قرطبة كانوا يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة ويطالعونه بأحوال بلدهم، وقال أحد علمائهم:

وأتعب إن لم يمنح الناس راحة
وغيرى إن لم يتعب الناس يتعب

ينظر أهل العلم بعين الاحتراس إلى كل من يدعو إلى مذهب باسم الدين، ويتخذون الوسائل إلى الاطلاع على حقيقة قصده، ومن أسباب وهن حبل الإسلام وتقطع أوصاله مذاهب يبتدعها ملاحدة يمكرون، أو جهال لا يفقهون، أفلم يكن المذهب البهائى يعمل لهدم قواعد الإسلام واستهواء أبنائه من خلف ستار، وقد أحس بعض أتباعه اليوم بقوة فصاروا يخطبون على منابر بعض النوادى ويجهرون بشىء من مزاعمه، وعرف بعض خصوم الإسلام قصدهم فقاموا يشدون أزرهم ويرددون الثناء على مذهبهم.

نحن نعلم أن فى كل أمة فئة يفتحون صدورهم لقبول كل دعوة توافق أهواءهم أو تأتيهم فى طلاء يلائم أذواقهم، ولكن نهوض العلماء بعزم وحكمة إن لم يسحق آراء زعماء هذه الفئة سحقا، فإنه يكشف عما فيها من سوء، فلا يسكن إليها إلا من هم إلى الحيوان الأعجم أقرب منهم إلى الإنسان.

يرقب أهل العلم كل حركة تقوم بها جماعة من الأمة، فينقدونها بالنظر

الخالص، ويصدعون فيها بآرائهم مدعومة بالأدلة المقنعة، ولا تعد هذه المراقبة وهذا النقد خارجين عن خطة العالم الإسلامى، بل هما واجبان فى عنقه كواجب التعليم والإفتاء، وإذا قص علينا التاريخ أن فريقا من أهل العلم قضوا حياتهم فى بحث المسائل العلمية البحتة، فقد قص علينا أن أمة من عظمائهم كانوا ينظرون فى الشئون العامة ويمثلون السيرة التى تكسو صاحبها جلالة وترفع له بين الخلائق ذكرا.

كان أهل العلم يوجهون هممهم إلى الوسائل التى تقى الأمة ممن يخافونها الأذى، فهذا أبو بكر بن العربى قاضى أشبيلية رأى ناحية من سور أشبيلية محتاجة إلى إصلاح ولم يكن فى الخزانة مال موفر يقوم بسدادها، ففرض على الناس جلود ضحاياهم وكان ذلك فى عيد أضحى فأحضروها وصرفت أثمانها فى إصلاح تلك الناحية المتهدمة.

وكان محمد بن عبد الله بن يحيى الليثى قاضى قرطبة كثيرا ما كان يخرج إلى الثغور ويتصرف فى إصلاح ما وهى منها حتى مات فى بعض الحصون المجاورة لطليطلة.

وظهور العلماء فى أمثال هذه المواقف يغرس لهم فى نفوس الأمة وداً واحتراماً، ويبوئهم فى رأى أولى الأمر مقاماً كريماً، أفلا تذكر أيام كان أمراء الإسلام يعرفون فى طائفة من العلماء رجاحة الرأى وصراحة العزم وخلوص السريرة فيلقون إليهم بقيادة الجيوش فيكفون بأس أعدائهم الأشداء، وما كان أسد بن الفرات قائد الجيش الذى فتح صقلية إلا أحد الفقهاء الذين أخذوا عن مالك بالمدينة ومحمد بن الحسن فى بغداد وعبد الرحمن بن القاسم فى القاهرة.

ينظر أهل العلم إلى ما غرق فيه بعض شبابنا من التشبه بالمخالفين وتقليدهم فى عادات لا تغنى من الرقى شيئا، وقد يرى بعضهم انحطاط كثير من أبنائنا فى هذا التشبه والتقليد، فيعده قضاء مبرما، ويملكه خاطر اليأس حتى ينكث من التعرض للشئون العامة ومعالجتها، ولكن الذى يعرف علة هذا التسرع ويكون قد قرأ التاريخ ليعتبر، يرى الأمر أهون من أن يصل بالنفوس إلى التردد فى نجاح

الدعوة، بله اليأس من نجاحها.

وأذكر بهذا أن كاتبا كتب فى إحدى المجلات مقالا تحت عنوان «وحدة العالم» يدعو فيه إلى مسايرة أوروبا فى السفور ونحوه، وقال فى علة الدعوة إلى هذه المسايرة: ليخرج الشرق والغرب فى مدنية واحدة، وأشار إلى دعاة الإصلاح فى الشرق بأن لا يقفوا فى سبيل هذه المدنية زاعما أنهم لا يستطيعون مقاومتها، ولا يزيدون على أن يجعلوا سيرها بطيئا، ورغب إليهم أن يحثوا الناس على المسارعة إلى قبولها.

والذين ينظرون إلى مدنية أوروبا باعتبار، يبصرون فيها على البداهة ما لا يرتضيه العقل ولا يقبله الشرع، واختلاف الأمم بالحق خير من اتحادها إلى باطل، ولا يفوت الحكمة أن تجد نفوسا مهذبة وعقولا سليمة فتتقبلها، فحقيق على العلماء أن يتبسموا لهذا الرأى تبسم الازدراء ولا يقيمون لمثله وزنا إلا أن يكشفوا سريرته ويعرضوا على الأنظار سوء مغبته، والعالم بحق من يتدرع بالإيمان البالغ والثقة بما وعد الله به الداعى إلى الحق من الظهور على أشياع الباطل وإن أوتوا زخرفا من القول وسعة من المال وكانوا أكثر قبيلا.

لا ينبغى لأهل العلم أن يغفلوا عن سير أرباب المناصب والولايات، فمن واجبهم أن يكونوا على بينة من أمرهم، حتى إذا أبصروا عوجا نصحوا لهم بأن يستقيموا، أو رأوا حقا مهملا لفتوا إليه أنظارهم وأعانوهم على إقامته.

أمر السلطان سليم بقتل مائة وخمسين رجلا من حفاظ الخزائن، فبلغ هذا النبأ الأستاذ علاء الدين الجمالى وكان متوليا أمر الفتوى فذهب إلى السلطان وقال له: وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان، وهؤلاء الرجال لا يجوز قتلهم شرعا، فعليك بالعفو عنهم، فغضب السلطان سليم، وقال له: إنك تتعرض لأمر السلطنة وليس ذلك من وظيفتك، فقال الأستاذ علاء الدين: لا: بل أتعرض لأمر آخرتك، وإنه من وظيفتى، فإن عفوت فلك النجاة، وإلا فعليك عقاب عظيم، فانكسرت سورة غضب السلطان وعفا عن الجميع، ومتى كان فى ولاة الأمور شىء من العدل، وكان فى الداعى إلى الإصلاح حكمة وإخلاص، نجحت

الدعوة فى سعيها، وبلغت بتأييد الله مآربها.

يكون العالم رفيقا فى خطابه لينا فى إرشاده، أما إذا أراده ذو قوة على أن يقول ما ليس بحق أو يأتى ما ليس بمصلحة، أخذ بالتى هى أرضى للخالق، وكان مثالا للاستقامة صالحا، أذكر أن أحمد بن طولون دعا القاضى بكار بن قتيبة إلى خلع الموفق من ولاية العهد فأبى، فحبسه وكرر عليه القول فأصر على الإباء، وبقى فى السجن حتى ثقل ابن طولون فى مرض الوفاة، فبعث إلى القاضى بكار يقول له: أردك إلى منزلتك أو أحسن منها، فقال بكار للرسول قل له: شيخ فان، والملتقى قريب، والقاضى الله (عز وجل)، فأبلغ الرسول ابن طولون ذلك فأطرق ساعة ثم قال شيخ فان، والملتقى قريب، والقاضى الله (عز وجل)، وأمر بنقله من السجن إلى دار اكتريت له.

وإنما يقوم العالم بإسداء النصيحة إلى ذى قوة أو لا يوافقه فيما يخدش أمانته وتقواه، متى قدر مقامه العلمى قدره وكان شأن العلم أسمى فى نظره من كل شأن، وهذا الشعور هو الذى يهيؤه بعد داعية الغيرة لأن يجاهد فى سبيل الحق مستهينا بكل ما يعترضه من أذى.

ومن أدب العلماء أن ينصحوا للأمة فيما يقولون أو يفعلون، ويحتملوا ما ينالهم فى سبيل النصيحة من مكروه، وكم من عالم قام فى وجه الباطل فأوذى فتجلد للأذى، وأجاب داعى التقوى متأسيا بقوله ﷺ: ((اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون))[1] وممن جرى على هذا الخلق المتين أبو بكر بن العربى يوم كان قاضيا بإشبيلية، قال فى كتاب العواصم من القواصم: "حكمت بين الناس فألزمتهم الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى لم يك يرى فى الأرض منكر، واشتد الخطب على أهل الغضب، وعظم على الفسقة الكرب، فتألبوا وألبوا، وثاروا علىّ فاستسلمت لأمر الله وأمرت كل من حولى ألا يدفعوا عن دارى، وخرجت على السطوح بنفسى، فعاثوا علىّ حتى أمسيت سليب الدار،

---

١ ـ صحيح البخارى رقم: ٣٢٦٨.

ولولا ما سبق من حسن الأقدار، لكنت قتيل الدار" يعنى بقتيل الدار عثمان (رضى الله عنه).

ولا يستحق لقب عالم أو مصلح ذلك الذى يدعو الناس إلى العمل الصالح ويقبض عنه يده، أو ينهاهم عن العمل السيء ولا يصرف عنه وجهه، فمن أدب العلماء أن يسابقوا الأمة إلى اجتناب ما يؤاخذ به، وعمل ما يحمد عليه، كأن ينفقوا فى وجوه البر والمشروعات الصالحات ما ينفقه أمثالهم من المكثرين أو المقلين، فإن ذلك أدل على إخلاصهم وأدعى إلى توقيرهم وقبول نصائحهم.

وإذا كان العدد القليل فيما سلف يكفى لحراسة الدين وإرشاد من ينحرف عنه حتى يعود إليه، فلأن سلطان الإسلام يومئذ غالب، وصوت الجهل عليه خافت، أما اليوم فالحال ما ترون وما تسمعون، فلا يمكن للدعوى أن تأتى بفائدتها إلا أن تضم المعاهد الإسلامية بين جدرانها طوائف كثيرة من أولى الغيرة والعزم، يصرفون جهدهم فى الدفاع عن الدين والدعوة إلى الخير ويعيدون الدعوة مرة بعد أخرى.

وستنبت المعاهد الإسلامية إن شاء الله كثيرا من العلماء القوامين على نحو ما وصفناه ولاسيما حين يأخذ التعليم بالأزهر الشريف نظامه الأسمى ويجرى مثل هذا النظام فى غيره من المعاهد الإسلامية كجامع الزيتونة فى تونس، وجامع القرويين فى فاس، ويقوى الأمل فى أن تؤتى هذه المعاهد الثمرة العزيزة الطيبة متى نظر إليها أولو الأمر برعاية، وعاملوا النشء المتخرجين منها بما دل على أنهم يحترمون الشريعة ويقدرون ما تبثه فى الأمة من رشد وإصلاح.[2]

محمد الخضر حسين

---

٢ ـ مجلة الأزهر المجلد الأول سنة ١٣٤٩ هـ

تفسير سورة النساء

لفضيلة/ الأستاذ الدكتور
محمد سيد طنطاوي
رحمه الله

قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ
فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ
فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ
مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ
لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ
فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

الآيات (٧١ - ٧٣)

قال القرطبي: قوله - تعالى -:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾

هذا خطاب للمؤمنين المخلصين من أمة محمد ﷺ، وأمر لهم بجهاد الكفار والخروج في سبيل الله، وحماية الشرع.

ووجه النظم والاتصال بما قبله أنه لما ذكر طاعة الله وطاعة رسوله أمر أهل الطاعة بالقيام بإحياء دينه وإعلاء دعوته. وأمرهم ألا يقتحموا على عدوهم حتى يتحسسوا إلى ما عندهم ويعلموا كيف يردون عليهم. فذلك أثبت لهم فقال:

﴿ خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾

فعلمهم مباشرة الحروب ولا ينافي هذا التوكل بل هو عين التوكل..[1].

والحِذْر والحَذَر بمعنى واحد كالإثر والأثر. يقال: أخذ فلان حذره، إذا تيقظ واحترز مما يخشاه ويخافه. فكأنه جعل الحذر آلته التي يقي بها نفسه ويعصم بها روحه. فالكلام على سبيل الكناية والتخيل. بتشبيه الحذر بالسلاح وآلة الوقاية.

والمعنى: استعدوا - أيها المؤمنون - لأعدائكم، وكونوا على يقظة منهم، وكونوا متأهبين للقائهم دائما بالإيمان القوى، وبالسلاح الذى يفل سلاحهم.

هذا، وللأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده كلام حسن في هذا المعنى، فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه: «الحذر: الاحتراس والاستعداد لاتقاء شر العدو، وذلك بأن نعرف حال العدو ومبلغ استعداده وقوته ومعرفة أرضه وبلاده وفي أمثال العرب (قتلت أرضٌ جاهلها). ويدخل في الحذر والاستعداد معرفة الأسلحة وكيفية استعمالها فكل ذلك وغيره يدخل تحت الأمر بأخذ الحذر.

وقد كان النبي ﷺ وأصحابه عارفين بأرض عدوهم، وكان للنبي ﷺ جواسيس يأتونه بأخبار مكة، ولما أخبروه بنقض قريش للعهد استعد لفتحها، وقال أبو بكر لخالد يوم حرب اليمامة (حاربهم بمثل ما يحاربونك به: السيف بالسيف، والرمح بالرمح)، وهذه كلمة جليلة فالقول وعمل النبي ﷺ وأصحابه، كل ذلك دال على أن الاستعداد يختلف باختلاف حال العدو وقوته»[2]

فأنت ترى أن هذه الجملة الكريمة ﴿ خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ دعوة للمؤمنين في كل زمان ومكان إلى حسن الاستعداد لمجابهة أعدائهم بشتى الأساليب وبمختلف الوسائل التي تجعل الأمة الإسلامية يرهبها أعداؤها سواء أكانوا في داخلها أم في خارجها.

وقوله:

﴿ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا ﴾

تفريع على أخذ الحذر، لأنهم إذا أخذوا حذرهم، عرفوا كيف يتخيرون أسلوب القتال المناسب لحال أعدائهم

وقوله:

﴿ فَانْفِرُوا ﴾ من النفر وهو الخروج إلى عمل من الأعمال بسرعة. ومنه قوله - تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾

(التوبة: ١٢٢)

---

(١) تفسير القرطبي جـ ٥ ص٢٧٣

(٢) تفسير المنار جـ ٥ ص٢٥٠

والمراد بقوله ﴿ فَٱنفِرُواْ ﴾ هنا: أى اخرجوا إلى قتال أعدائكم بهمة ونشاط.

ويقال: نفر القوم ينفرون نفرا ونفيرا إذا نهضوا لقتال عدوهم. واستنفر الإمام الناس إذا حضهم على جهاد أعدائهم ومنه قوله ﷺ: «وإذا استنفرتم فانفروا».

والنفير. اسم للقوم الذين ينفرون.

وقوله ﴿ ثُبَاتٍ ﴾ جمع ثبة وهى الجماعة والعصبة من الفرسان. مأخوذة من ثبا يثبو أى اجتمع.

والمعنى: عليكم - أيها المؤمنون - أن تكونوا دائما على استعداد للقاء أعدائكم، ولا تغفلوا عن كيدهم. فإذا ما حان الوقت لقتالهم فاخرجوا إليهم مسرعين جماعة فى إثر جماعة، أو فاخرجوا إليهم مجتمعين فى جيش واحد، فإن قتالكم لأعدائكم أحيانا يتطلب خروجكم فرقة بعد فرقة، وأحيانا يتطلب خروجكم مجتمعين، فاسلكوا فى قتالكم لأعدائكم الطريقة المناسبة لدحرهم والتغلب عليهم.

وقوله ﴿ ثُبَاتٍ ﴾ منصوب على الحال من الضمير فى قوله ﴿ فَٱنفِرُواْ ﴾ وكذلك قوله ﴿ جَمِيعًا ﴾ أى انفروا متفرقين أو انفروا مجتمعين أى، ليكن نفوركم على حسب ما تقتضيه طبيعة المعركة.

قال الآلوسى: قوله:

﴿ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴾

أى مجتمعين جماعة واحدة. ويسمى الجيش إذا اجتمع ولم ينتشر كتيبة. وللقطعة المنتخبة المقتطعة منه سرية وهى من خمسة أنفس إلى ثلثمائة أو أربعمائة. وما زاد على السرية فمنسر - كمجلس ومنبر - إلى الثمانمائة. فإذا زاد يقال له جيش إلى أربعة آلاف.

فإن زاد يسمى جحفلاً. فإن زاد يسمى خميسا وهو الجيش العظيم. وما افترق من السرية يسمى بعثا. والآية وإن نزلت فى الحرب لكن فيها إشارة إلى الحث على المبادرة إلى الخيرات كلها كيفما أمكن قبل الفوات»(٢).

ثم كشف - سبحانه - عن فساد نفوس المنافقين وضعاف الإيمان فقال:

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾

أى: ليتأخرن وليتثاقلن عن الجهاد. من «بطأ» - بالتشديد - بمعنى أبطأ فهو فعل لازم. وقد يستعمل أبطأ وبطأ - بالتشديد - متعديين، وعليه يكون المفعول هنا محذوف أى: ليبطئن غيره ويثبطه عن الخروج للجهاد فى سبيل الله.

وقد جمع المنافقون وضعاف الإيمان بين الأمرين: فقد كانوا يتخلفون عن

(٢) تفسير الآلوسى جـ٥ ص٧٩

الجهاد فى سبيل الله وينتحلون المعاذير الكاذبة لتخلفهم، ولا يكتفون بذلك بل يحاولون منع غيرهم عن الخروج للجهاد.

والتعبير بقوله:

﴿ لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ تعبير فى أسمى درجات البلاغة والروعة، لأنه يصور الحركة النفسية للمنافقين وضعاف الإيمان وهم يشدون أنفسهم شدا، ويقدمون رجلا ويؤخرون أخرى عندما يدعوهم داعى الجهاد إلى الخروج من أجل إعلاء كلمة الله.

وقد اشتملت الجملة الكريمة على جملة مؤكدات، للإشعار بأن هؤلاء المنافقين لا يتركون فرصة تمر دون أن يبثوا سمومهم بنشاط وإصرار، وأنهم حريصون كل الحرص على توهين عزائم المجاهدين، وحملهم على أن يكونوا مع القاعدين كما هو شأن المنافقين.

والمراد بقوله ﴿ مِنكُمْ ﴾ أى من جنسكم وممن يعيشون معكم ويساكنونكم، ويرتبطون معكم برباط القرابة، ويتظاهرون بالإسلام، فلقد كان المنافقون فى المدينة تربطهم روابط متعددة بالمؤمنين الصادقين، كما هو معروف فى التاريخ الإسلامى.

فمثلاً عبدالله بن أبى بن سلول - زعيم المنافقين - كان أحد أبنائه من المؤمنين الصادقين.

وقد وجه القرآن الخطاب إلى المؤمنين لكى يكشف لهم عن المنافقين المندسين فى صفوفهم لكى يحذروهم.

قال صاحب الكشاف: واللام فى قوله ﴿ لَمَن ﴾ للابتداء بمنزلتها فى قوله:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وفى ﴿ لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ جواب قسم محذوف تقديره: وإن منكم لمن أقسم بالله ليبطئن وجوابه صلة «من» والضمير الراجع منها يعود إلى ما استكن فى ﴿ لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾. والخطاب لعسكر رسول الله ﷺ»(١).

وقوله:

﴿ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾

بيان لما انطوت عليه نفوس المنافقين من فساد، وما نطقت به ألسنتهم من سوء.

أى: وإن من المتظاهرين بأنهم منكم - يا معشر المؤمنين - لمن يتثاقلون عن القتال ويعملون على أن يكون غيرهم مثلهم، ﴿ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُمْ ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿ مُّصِيبَةٌ ﴾ كهزيمة وقتية،

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٥٣٢

أو استشهاد جماعة منكم ﴿ قَالَ ﴾ هذا المنافق على سبيل الفرح والتشفي:

﴿ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ ﴾

أي: قد أكرمني الله بالقعود

﴿ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾

أي: حاضرا في المعركة، لأني لو كنت حاضرا معهم لأصابني ما أصابهم من القتل أو الجراح أو الآلام.

فالآية الكريمة تحكي عن المنافقين أنهم يعتبرون قعودهم عن الجهاد نعمة، إذا ما أصاب المؤمنين مصيبة عند قتالهم لأعدائهم.

أما إذا كانت الدولة للمؤمنين، وظفروا بالغنائم، فهنا يتمنى المنافقون أن لو كانوا معهم لينالوا بعض هذه الغنائم. واستمع إلى القرآن وهو يحكي عنهم ذلك فيقول:

﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

أي:

﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ ﴾ يا معشر المؤمنين

﴿ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ كفتح وغنيمة ونصر وظفر ﴿ لَيَقُولَنَّ ﴾ هذا المنافق على سبيل الندامة والحسرة والتهالك على حطام الدنيا، حالة كونه:

﴿ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ ﴾

ليقولن:

﴿ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ ﴾

عندما خرجوا للجهاد:

﴿ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

بأن أحصل كما حصلوا على الغنائم الكثيرة.

وهذا - كما يقول ابن جرير - خبر من الله - تعالى - ذكره عن هؤلاء المنافقين، أن شهودهم الحرب مع المسلمين - إن شهدوها - إنما هو لطلب الغنيمة وإن تخلفوا عنها فللشك الذي في قلوبهم، وأنهم لا يرجون لحضورها ثوابا، ولا يخافون بالتخلف عنها من الله عقابا(*).

وفي نسبة الفضل إلى الله في قوله:

﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾

دون إصابة المصيبة تعليم لحسن الأدب مع الله - تعالى - وإن كان سبحانه - هو الخالق لكل شيء، فهو الذي يمنح الفضل لمن يشاء وهو الذي يمنعه عمن يشاء.

(*) تفسير ابن جرير جـ٥ ص١٦٦

وقوله:

﴿ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ ﴾

جملة معترضة بين فعل القول الذي هو ﴿ لَيَقُولَنَّ ﴾ وبين المقول الذي هو:

﴿ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ ﴾

وقد جئ بها على سبيل التهكم والسخرية والتعجب من حال المنافقين، لأنهم كان في إمكانهم أن يخرجوا مع المؤمنين للقتال، وأن ينالوا نصيبهم من الغنائم التي حصل عليها المؤمنون، ولكنهم لم يخرجوا لسوء نواياهم، فلما أظهروا التحسر لعدم الخروج بعد أن رأوا الغنائم في أيدي المؤمنين كان تحسرهم في غير موضعه، لأن الذي يتحسر على فوات شيء عادة هو من لا علم له به أو بأسبابه، أما المنافقون فبسبب مخالطتهم وصحبتهم للمؤمنين كانوا على علم بقتال المؤمنين لأعدائهم، وكان في إمكانهم أن يخرجوا معهم.

فكأن الله تعالى يقول للمؤمنين: انظروا وتعجبوا من شأن هؤلاء المنافقين إنهم عندما أصابتكم مصيبة فرحوا، وعندما انتصرتم وأصبتم الغنائم تحسروا وتمنوا أن لو كانوا معكم حتى لكأنهم لا علم لهم بالقتال الذي دار بينكم وبين أعدائكم، وحتى لكأنهم لا مخالطة ولا صحبة بينكم وبينهم مع أن علمهم بالقتال حاصل، ومخالطتهم لكم حاصلة فلم يتحسرون؟ إن قولهم:

﴿ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ
فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

ليدعو إلى التعجب من أحوالهم، والتحقير لسلوكهم، والدعوة عليهم بأن يزدادوا حسرة على حسرتهم.

وبذلك نرى أن الآيات الكريمة قد أمرت المؤمنين بحسن الاستعداد للقاء أعدائهم في كل وقت، وكشفت لهم عن رذائل المنافقين الذين إذا أصابت المؤمنين مصيبة فرحوا لها، وإذا أصابهم فضل من الله تحسروا وحزنوا، وفي هذا الكشف فضيحة للمنافقين، وتحذير للمؤمنين من شرورهم.

"إذا ابتليت عبدي المؤمن؛ فصبر، فلم يشكني إلى عُوَّاده؛ أطلقته من أساري، ثم أبدلته لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، ثم يستأنف العمل". رواه الحاكم عن أبي هريرة.

دعوته ﷺ إلى الاتحاد



لفضيلة الشيخ / إبراهيم الجبالى

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾

(آل عمران: ١٠٣)

الدعوة إلى الاتحاد شعار كل مصلح، ومقصد كل ناصح، وغاية كل واعظ ومرشد، وقلما تجد امرءاً يدعو إلى فضيلة، بل قلما تجد من يدعو إلى سلوك خطة، وانتهاج شرعة مهما قام فى وجهه مخالف وعانده معاند، إلا وهو يدعو إلى الاتحاد.

غير أن الدعاة المختلفين إذا سئلوا: علام يتحد الناس؟ فسر كل منهم الاتحاد الذى يدعو إليه بالاندماج فى خطته والإذعان لرأيه وانتهاج منهجه، ويقابله معاندوه بمثل دعوته، ويفسرون الاتحاد فى رأيهم بالإقبال على ما هم عليه وترك ما عداه، فتراهم دائماً فى أمر مريج، وترى دعوتهم غالباً تذهب أدراج الرياح، وتراهم قد اتحدوا فى أن لا يتحدوا. ذاك أن كلاً منهم حين يدعو إلى الاتحاد لم يترك أنانيته، ولم يقصد بالاتحاد أكثر من أن يندمج رأى غيره فى رأيه ويترك كل امرئ ما عنده إلى ما عند ذلك الداعى، وأنى له ذلك وعند كل منهم من الاعتداد بنفسه والحرص على تقديس رأيه ما عند صاحبه سواء بسواء؟!

فهل كانت دعوته ﷺ إلى الاتحاد على هذا الوجه الذى تكرر له الفشل وحق له أن يفشل وأن يفشل؟! لا لا، ما كان مسلكه ﷺ هذا المسلك، ولا نحا هذا المنحى، ولكنه سلك مسلكاً ممهداً، وانتهج طريقاً معبداً، أوضحه بالبينات والهدى، ودعا الجميع إلى السير فيه عن بينة وبصيرة، وبرهن عليه بالبرهان الساطع والحجة الدامغة، فإذا السالكون فيه قد اتحدوا من تلقاء أنفسهم، وإذا هم قلب واحد واتجاه واحد، ووجدان واحد، وإذا هم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر، وإذا هم كالبنيان يشد بعضه بعضاً.

هاك شريعته التى أوحاها إليه ربه وأمره أن يبلغها لكافة الخلائق، فانظر إليها فى أصل عقيدتها وفروع عباداتها وأنواع معاملاتها ومظاهر أخلاقها، انظر إلى كل قسم من ذلك على حدة ثم استوضحها جملة واحدة، وانظر إليها متناسقة وبعد ذلك احكم عليها بما تراه من حكم عادل فى جملتها وتفصيلها.

تأمل فى خطابه للمعاندين المعتزين بما أوتوا من كتاب أنزل عليهم، فهم لا ينفكون يدعون إليه لا لشىء سوى أن فى يدهم كتاباً، فلا تسمح نفوسهم بأن يتركوه إلى غيره مهما وضح الحق وقامت الحجة، انظر إلى خطابه لهم تجده يقول فيما أوحى إليه ربه وأمره به:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ﴾

(آل عمران: ٦٤)

ثم يقول عقبها:

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

(آل عمران: ٦٤)

فماذا ترى فى هذا؟ تراه وقد أطرح الأنانية، وأطرح استمساك كل واحد بما عنده لمجرد أنه عنده، وقال:

﴿ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾

(آل عمران: ٦٤)

لا على وجه أنكم خضعتم لنا أو أنا خضعنا لكم، وإنما على أنا جميعاً خضعنا لإله واحد لا نعبد إلا إياه ولا نشرك به شيئاً، فنمتثل الأمر، لأنه أمره لا لأنه أمر بعضنا بعضاً، فإذا كان هذا الأمر قد علمتموه عن طريقنا فلأنه قد أمرنا أن نبلغكموه، وأيدنا وصدقنا فى دعوانا بما شاهدتموه من آيات بينة وحجة قاطعة لا تجد نفوسكم إلى الطعن فيها سبيلاً، ولا يجد الشك معها إلى النفوس المفكرة مسلكاً، فماذا يحول بينكم وبين أمر ربكم؟ تعالوا وأطيعوا الرسول لا لأنه هو فلان بن فلان، وإنما لأنه رسول الله، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله، وعلى هذا تجد الأنانية التى من شأنها أن تحول بين المرء وبين الإذعان للدعوة

والاستجابة لها قد زالت وقضى عليها.

وينخرط في هذا السلك ما تقرأ في قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

(البقرة: ٦٢)

ماذا تفهم منها بعد التأمل الصحيح والتفكر الصادق؟ إنك حين تتأمل فيها وتفهمها حق فهمها تجدها تناديك باطراح الأنانية وإظهار أن المسألة ليست مسألة: نحن، وأنتم، وهم، وأمثال ذلك مما يتمسك فيه كل فريق بما عنده، حتى يقال عنهم:

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾

(المؤمنون: ٥٣)

وإنما الأمر أمر القانون العام والحجة الواضحة التي يجب أن تكون الحكم الفاصل بين الجميع،، وهو أن من صدق عليه أنه آمن بالله حق الإيمان، وآمن بيوم الجزاء حيث لا يفيد المرء إلا ما عمل، وقام بالعمل الصالح حق القيام، فهو الذي لا خوف عليه ولا حزن يلحقه، فأينا يتحقق فيه هذا الوصف فهو صاحب هذا الحكم حتماً، هل تجد من ينفر من حكم هذه القضية الصادقة العادلة؟ كلا، إذاً فتعالوا نعرض إيماننا بالله وإيمانكم الذي تزعمون، على محك النظر الصحيح.

إنا نجد أنفسنا قد أسلمنا أمرنا لله ورضينا بكل ما حكم الله، وامتثلنا كل ما أمرنا به الله، ولكنكم أنتم اتخذتم إلهكم أهواءكم، وقلتم:

﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾

(المائدة: ٤١)

وآمنتم ببعض وكفرتم ببعض؛ إذاً ليس المستقل عندكم هو أمر الله، وليس إيمانكم هو الإيمان بالله، وإلا لاطرد الامتثال في كل ما قامت الحجة عليه أنه أمر من الله، وإذاً فأنتم لم تؤمنوا حق الإيمان باليوم الآخر، وإلا لحذرتم خطر الجزاء العدل لمن خالف أمر ربه مالك يوم الدين، وإذاً فلم يكن القصد في عملكم إلى الصالحات، ولا صالح إلا ما رضيه لكم ربكم وأمركم به المهيمن عليكم، وإنما أنتم تجيبون داعي أهوائكم وتقومون بما مالت إليه نفوسكم.

هذا نموذج واضح جد الوضوح في بيان كيفية الدعوة إلى الله، وأنها كانت تظهر على وجه اطراح الأنانية، وأنها إنما كانت تتجه إلى الحق من حيث هو الحق بقطع النظر عمن قام به ودعا إليه، وهي أشبه شيء بقولهم: أنظر إلى ما يقال لا إلى من قال. وهل بعد هذا منهج يرفع الخلاف وأسبابه، ويمكن للاتحاد في النفوس فضل تمكين؟

تعال وانظر معي بعد ذلك في فروع العبادات، تجدها قد بنيت على ما يثبت

روح الاتحاد في القلوب ويمكنها من النفوس. وها نحن أولاء نجلوها عليك في أركان الإسلام الخمسة:

١- شهادة أن لا إله إلا الله:

ماذا تقول في قوم جزموا جزم اليقين، وعلموا علم الشهود أن إلههم جميعاً واحد لا يعبدون إلا إياه، فهم يشعرون جميعاً بأنهم خاضعون أمام عظمة واحدة هي مصدر وجودهم، ومنشأ ما هم فيه من نعم جلت أو دقت؟ إنها أكبر داع إلى توحيد قلوبهم، وتوحيد اتجاههم، وتوحيد غايتهم، وهي الفوز بالزلفى إليه واكتساب مرضاته.

٢- إقام الصلاة:

ماذا تشهد في جموع متصافة متراصة كالبنيان تنطق بلسان واحد «الله أكبر» وتقوم في وقت واحد بتحميده وتمجيده، وتوجه إليه خالص العبادة، وتسأله كلها في آن واحد أن يمنحها معونته، ويهديها إليه الصراط المستقيم، فإذا ركعت خضوعاً لعظمته كانت جميعاً في خضوعها، وإذا استكانت أمام علو مجده كانت جميعاً في استكانتها وذلتها، وإذا وقفت قانتة لربها مطيعة لأمره كانت كلها معاً خاشعة قانتة، ثم هي تتجه إلى جهة واحدة أمرها ربها أن تتجه إليها، أليس الاشتراك في هذا كله مدعاة إلى اتحاد الاتجاه، واتحاد الأعمال والأقوال، وبالتالي يثمر اتحاد القلوب؟!

٣- إيتاء الزكاة:

ماذا تراه في قوم تعاطفوا وتراحموا، وشارك فقيرهم غنيهم فيما أنعم الله عليه به من رزق فأخذه من يده حلالاً طيباً: هذا يؤدي أمانة ائتمنه الله عليها، وهي حق الفقير في ماله، طيبة بها نفسه، وهذا يتسلم وديعة من الوديع عن طيب خاطر فيتفاضلان وكل منهما قد امتلأ قلبه محبة نحو أخيه: هذا بما استفاد من رزق، وهذا بما كسب من أجر، وكلاهما بما ساد بينهما من عطف. أليس في هذا أكبر داع إلى اتحاد القلوب؟!

٤- صيام رمضان:

بخ بخ! تصور -يرعاك الله- قوماً قد دعوا إلى توحيد أذواقهم ووجداناتهم الخصوصية: فكلفوا أن يكفوا عن مشتهياتهم في وقت واحد، وأن يتناولوها في وقت واحد، كم يكون بينهم من الشعور باتحاد الوجدان واتحاد الميول والاتحاد في المنح والحرمان؟ إن من جرب حالة قوم جمعتهم ظروف خاصة قاسوا فيها معاً مرارة ما في الحياة وأفرج عنهم دفعة واحدة فنعموا معاً في وقت واحد، يجد أنهم اعتبروا هذا الاشتراك جامعاً بينهم لا يزالون يذكرونه طول حياتهم ولو صادفهم في العمر مرة، فكيف وهذا يتكرر على المسلمين في كل عام مرة بل في كل عام ثلاثين مرة؟ إن قليلاً من الانتباه يجلو لك هذا المعنى

بمنتهى الوضوح إذا كنت من المنصفين.

٥ - حج البيت من استطاع إليه سبيلا:

ناهيك بهذا المؤتمر العام يعقده المسلمون فى كل عام ليشهدوا منافع لهم، وليطوفوا بالبيت الحرام، هل يخفى عليك ما فيه من توكيد الربط بينهم والوئام، سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، والحمد لله الذى أنعم علينا بنعمة الإيمان والإسلام!

أما إذا نظرت إلى قسم المعاملات بين الناس فيكفيك منه اجتلاء ناحية عامة فيه، هى أنه بنى على العدل، ودعى فيه إلى الفضل، وأى اتحاد ينبت من بين إقامة العدل وزيادة الفضل؟ ارجع بنفسك أنت إلى أثر هذين الميدانين الجليلين فستعرف أنت بنفسك أكثر وأكثر مما نستطيع أن نسطره لك فى هذه الكلمة الوجيزة.

ولا يقتصر هذا على قسمة المعاملات المدنية، بل تجده سارياً فى باب روابط الأسرة والحياة المنزلية، انظر إلى أحكام الزوجين وما دعوا إليه، واتل إن شئت قوله تعالى:

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾

(البقرة: ٢٢٨)

ثم التفت إلى باب نفقات الأقارب وما تضمنه من مغزى ربط القلوب وتحبيب أفراد الأسرة بعضهم لبعض، وتحبيب كل منهم أن يكون الباقى فى نعمة ويسار، إما ليكفى مؤنته أو ليستفيد معونته. بل انظر إلى أحكام الجنايات والقصاصات تجد العدل فى قوله تعالى:

﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾

(البقرة: ١٩٤)

وفى قوله تعالى:

﴿ فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾

(الإسراء: ٣٣)

وتجد الفضل يتجلى فى قوله تعالى:

﴿ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾

(البقرة: ٢٣٧)

وتجدهما قد تجليا معاً على وجه يأخذ بالألباب فى قوله جل شأنه:

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾

(النحل: ١٢٦)

هذا قليل من كثير من دواعى الاتحاد فى المعاملات، وكلما تأملت فى باب منها وجدت ما يملأ قلبك اقتناعا، ونفسك هدى ونوراً. والأساس فيه - كما قلنا - تقرير العدل والترغيب فى الفضل، ولا يكون الفضل فضلا مثمراً إلا إذا نشأ عن رغبة واختيار.

فإذا أنت رجعت إلى الأخلاق التى بعث ﷺ لتتميمها فكم يتجلى لك هذا واضحا

جلياً. اقرأ إن شئت قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾

(الحجرات: ١٣)

ومتى تعارفوا تآلفوا، واقرأ ما يحفها من آيات فى سورة الحجرات.

واستعرض ما شئت من مثل حديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(١) وحديث: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»(٢) وحديث: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»(٣) وحديث «لا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا»(٤) إلى غير ذلك مما لا يكاد يأتى عليه الحصر فى مثل هذه الكلمة.

نعم، لقد جاءت الدعوة إلى الاتحاد، وقررت عوامل تنميته فى النفوس مستفيضة متفشية فى كل أبواب الشريعة الغراء، وليس لمعترض أن يقول: فما بالنا نرى المسلمين متفرقين إلا قليلا منهم؟ فإنا نجيبه بأن هذا كقولك: فما بالنا نرى الكثير من المسلمين قد تركوا العمل بأحكام دينهم وغرتهم ملاهى غيرهم؟ والجواب عن هذا وذاك أن مرجع هذا إلى نفوسهم واتباع أهوائهم، لا لنقص فى ضوء دينهم ونور هديهم:

ما ضر شمس الضحى فى الأفق طالعة
ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

نسأل الله أن يوفقنا برحمته إلى اتباع هدى شريعته، والعمل بسنة نبيه، إنه هو الفعال لما يشاء.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون قال المتكبرون».

(سنن الترمذى)

(١) مسند أحمد، باب مسند أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) صحيح البخاري، باب نصر المظلوم، صحيح مسلم، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم.

(٣) صحيح البخاري، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه.

(٤) مصنف عبدالرزاق، باب الهاجرة والحسد.

تصحيح المفاهيم وبيان عظمة الإسلام بموسوعة الأحاديث الصحيحة

إن موسوعة الأحاديث النبوية الصحيحة مع شرحها، والتي وفقني الله سبحانه وتعالى إلى تأليفها، وشكر الله للدار المصرية السعودية أن قامت بنشرها في أبهى صورة، تعد انتصاراً للإسلام ولرسول الله ﷺ



للأستاذ الدكتور/ أحمد عمر هاشم
عضو مجمع البحوث الإسلامية

هذه الموسوعة هدفها يتلخص في جانبين:

● أما **الجانب الأول**: فهو تصحيح المفاهيم التي وقع فيها كثير من الناس والشباب في هذه الآونة الأخيرة فأخطأوا طريقهم في الوصول إلى الحقيقة المنشودة.

● وأما **الجانب الثاني**: فهو بيان عظمة الإسلام وعالميته، وسماحته ووسطيته.

● أما بالنسبة للجانب الأول: وهو تصحيح المفاهيم، فقد جاءت الأحاديث النبوية الصحيحة بشرحها تؤكد صحة المفاهيم الإسلامية وتوضح حقيقتها التي غابت عن كثير من العقول التي أخذت بعض المفاهيم من أخبار ضعيفة أو موضوعة وبنوا -للأسف الشديد- عليها قضايا ونظريات لا أساس لها من الصحة.

والبعض خلط بين بعض المفاهيم وبين المعنى المراد بها فقلبوا الحقائق كما جرى في الخلط بين الجهاد والإرهاب، فبينت الأحاديث الصحيحة مع شرحها معنى الجهاد، ومعنى الإرهاب وفرقت بين هذا وذاك وأن الفرق بينهما بعيد جداً، لأن الجهاد مشروط بأنه في سبيل الله دفاعاً عن العقيدة والوطن والأرض والعرض ونشرا للدين العالمي الذي ارتضاه الله دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا.. وأما الإرهاب فهو ترويع وتخويف وعدوان دون وجه حق وليس في سبيل الله.

كما وضحت الأحاديث أن الجهاد هو ما كان في سبيل الله وأن الرباط أيضاً هو ما كان في سبيل الله كما قال رسول الله ﷺ: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله»[1].

● وأبانت الأحاديث الصحيحة وفرقت بين المقاومة وبين العدوان أو الإرهاب، وأن الإنسان المظلوم حين يقاوم الظالم أو الصائل عليه لا يكون إرهابيا ولا معتديا بل يكون مدافعا عن حقه وعن نفسه، والدفاع مشروع بل واجب، فعندما جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال له: أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: «لا تعطه مالك».. قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: «قاتله»، قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: «فأنت شهيد»، قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: «هو في النار»[2] فالذي يقاوم المعتدي والغاصب المحتل لوطنه لا يكون إرهابيا لأنه يقاوم الظالم الذي يريد أخذ ماله وأخذ وطنه فالفرق واضح بين المقاومة وبين الإرهاب أو العدوان وهذا الوضوح جاء بمنطوق الأحاديث.

● ومن ذلك أن تحالف بعض قوى الظلم يعتبره البعض من قبيل التعاون بينما هو عين الظلم وأما العون الحقيقي والانتصار للغير إنما يكون بأن تنتصر للمظلوم من الظالم، وأن تنتصر للظالم بأن تكفه عن ظلمه لا أن تساعده على هذا الظلم وهذا من المفاهيم التي مازال الخطأ فيها حادثا لا على مستوى الدول بل على مستوى المؤسسات والأفراد خاصة عندما يكون هناك إنسان مسئول والناس يعلمون أنه ظالم لبعض الناس فيساعدونه على ظلمه زعماً منهم أنهم ينتصرون له وأنهم أحباء له ويعاونونه بينما هم بذلك يساعدونه على الظلم الذي يبوء بإثمه، ومن أعان ظالما تسلط عليه وعليهم لو أرادوا أن ينصروه وأن يعاونوه أن يدفعوه عن ظلمه فإن في هذا الدفع نصراً له، فعندما قال الرسول ﷺ: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما»[3] قال البعض: ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالما؟ قال عليه الصلاة والسلام: «يدفعه عن ظلمه فإن في هذا نصره»، وفي بعض الروايات: تأخذ فوق يديه أي أن يقهره في الرد عن الظلم.

● وأما **الجانب الثاني**: وهو بيان عظمة الإسلام، فيتضح هذا للناظر في الأحاديث النبوية الشريفة، وفي أبوابها الكثيرة المتعددة والتي تضم العقيدة والعبادات والأخلاق والمعاملات والحدود والعقوبات، والسرايا والغزوات، والآداب وغير ذلك من الموضوعات الكثيرة المتعلقة بالأسرة من زواج وطلاق ورضاع وميراث وغير ذلك مما يتعلق بالمجتمع وبالدول بعضها مع بعض من عهود ومواثيق ومن دعوة إلى وحدة الأمة واعتصامها بحبل الله وعدم تفرقها والتناصح والتعاون بين الراعي والرعية، وذلك في قوله ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»[4].

كما تتضح عظمة الإسلام في أحاديث الموسوعة التي تكشف عن حقيقة علمية مهمة، ألا وهي أن الأحاديث النبوية الشريفة ما تركت شيئاً من شئون الحياة الدنيا ولا الآخرة، إلا وأحصته، وأن كل ما صدر عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة إلا وتم جمعه وتدوينه.. بل إن الناظر في أبواب الأحاديث يرى أن كل قول قاله الرسول ﷺ وكل فعل أو

(١) سنن الترمذي.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان.

(٣) صحيح البخاري.

(٤) السنن الكبرى للبيهقي.

تقرير أو صفة قد دُون، وأن جميع ما يتصل بالرسول ﷺ في حله وترحاله وفي نومه ويقظته، وفي سلمه وحربه، وفي سروره أو حزنه، وفي عباداته وفي معاملاته حتى الأمور الخاصة في حياته مع أسرته ومع زوجاته أمهات المؤمنين، وفي أكله وشربه وفي كل خصائصه لا شيء إلا وهو مدون في الأحاديث النبوية حتى تقول ما كان يقوله عند خروجه من بيته: «بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أُضل أو أزِلّ أو أُزل أو أظلم أو أُظلم أو أجهل أو يجهل عليّ»[5] حتى نقول ما كان يقوله عند الدخول لقضاء حاجته: «اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث»[6] وحتى ما كان يقول عند معاشرة الزوجة قبل الجماع: «بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا»[7].

كل ذلك وغيره نقول حتى الأمور التي يعدها الناس سرية ذكرت في هذه الأحاديث وجمعها الصحابة وحفظوها فلا يوجد في حياة رسول الله ﷺ شيء سرى، ولا أمر خفى.. وإن المتصفح لتاريخ عظماء الحياة وكبارها يرى أن في حياتهم صفحات منسية، وأسراراً خفية لم يذكرها التاريخ ولم تدون عنهم، إلا سيدنا محمداً ﷺ فلا يوجد في حياته شيء خفى ولا أمر منسى، وإنما نُقلت حياته كلها بجميع أقوالها وأفعالها ودقيقها وكل أمر سرى أو خفى نقلت حياته بكل ما فيها من الظاهر وغير الظاهر وما كان في حياته الأسرية نقلته أمهات المؤمنين.. لقد دُونت حياة سيدنا رسول الله ﷺ بكلياتها وجزئياتها وجميع تفصيلاتها.

وبماذا نُقلت؟ إنها نقلت بأدق طرق النقل التي لا تعرف الدنيا لها مثيلا، لدرجة أن أئمة الإسلام وعلماء الحديث النبوي الشريف ابتكروا علماً بل علوماً، أسموها «علوم الحديث» أو «علم أصول الدين»، وزنوا به كل خبر جاءهم عن رسول الله ﷺ بميزان النقد العلمي النزيه الذي لا تعرف الدنيا له مثيلا.

وما كان هذا التدوين والاستيعاب للسنة النبوية الشريفة إلا لأنها المفسرة للقرآن الكريم والمفصلة لمجمله، والمقيدة لمطلقه، والمخصصة لعامه والشارحة لأحكامه، قال الله تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾

(النحل: ٤٤)

وأيضاً فقد شاء الله تعالى ألا يبقى شيء من الحديث إلا ويدون لأن الرسول ﷺ أمر الله سبحانه وتعالى بالاقتداء به والتأسي به، لأنه الأسوة الحسنة، كما قال الله تعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

(الأحزاب: ٢١)

وكان هذا التدوين المستوعب لكل أحاديث رسولنا ﷺ، لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، ورحمة الله للعالمين، فلم تقتصر دعوته على زمان دون زمان ولا على مكان دون مكان بل هو كما قال الله تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

(الأنبياء: ١٠٧)

فعالمية رسالته تستوجب أن يبقى هديه محفوظا مصونا مُدونا، يحمله في كل جيل رجال أمناء وأئمة فضلاء، وعلماء أتقياء «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالي وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»[8].

لأن هذه الرسالة عالمية، ولأنها خاتمة الرسالات، وبها أكمل الله الدين وأتم النعمة قال الله تعالى:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾

(المائدة: ٣)

وقد بين الرسول صلوات الله وسلامه عليه مكانه من إخوته السابقين من الأنبياء والمرسلين حيث قال: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأجمله وأحسنه إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»[9].

وتتجلى في أحاديث رسول الله ﷺ عظمة الإسلام وعالميته، وسماحته ووسطيته، حين يُعلي رسول الله ﷺ من قدر العافين عن الناس ويقول: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين أجرهم على الله؟ فلا يقوم إلا من عفا»[10].. ويطبق ذلك عمليا في كل حياته ومعاملاته.

وتتجلى لنا يسر الدعوة الإسلامية ووسطيتها في قوله ﷺ: «إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»[11].

«ابن آدم! عندك ما يكفيك، وأنت تطلب ما يطغيك، لا بقليل تقنع، ولا من كثير تشبع، إذا أصبحت معافى في جسدك، آمنا في سربك، عندك قوت يومك فعلى الدنيا العفاء» رواه ابن عدي، والبيهقي عن ابن عمر.

(٥) سنن أبي داود.
(٦) مصنف ابن أبي شيبة.
(٧) صحيح البخاري.
(٨) كنز العمال، شرح مشكل الآثار.
(٩) صحيح البخاري.
(١٠) كنز العمال «بلفظ مقارب».
(١١) صحيح البخاري.

٢ حول قصة يوسف

الأحداث.. العقدة والحل



الشيخ صديق بكر عيطة

إن قصص القرآن الكريم. بشكل عام. سيقت لتثبيت رسول الله ﷺ على طريق الدعوة المباركة، ولتؤكد للناس أن هذا القرآن من عند الله رب العالمين، وليس من عند محمد ﷺ، حيث لم يجلس إلى معلم، ولم يتردد على حكيم، ولم يكن يعلم من مصدر بشرى أحوال الأمم السابقة. وإنما هو وحى من عند الله تعالى، يطلع رسوله من خلاله على ما سبق من أحداث بعُد زمانها، ولم يعد يذكر التاريخ منها أو من بعضها إلا ما هو مبثوث فى بطون الكتب السماوية مما لم يكن لمحمد ﷺ حيلة فى التعرف عليه.

والله تبارك وتعالى يقول فى محكم تنزيله:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾

(آل عمران: ٤٤)

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾

(يوسف: ١٠٢)

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

(هود: ٤٩)

هذا هو القاسم المشترك بين أهداف القصة فى القرآن الكريم. لكن قصة يوسف عليه السلام كان لها بالإضافة إلى ذلك هدف آخر ـ أو قل: أهداف أخرى ـ «فالدارس للسورة الكريمة يجد أنها طراز آخر من القصص، ففيها كشف عن النفس فى ناحية من نواحيها ودراسة لها فى علاقتها بالمجتمع الذى تعيش فيه، وإن الدارس لهذه القصة من وجهة النظر الاجتماعية يجد فيها بيانا للأسرة من حيث علاقة أفرادها بعضهم ببعض، وبخاصة العلاقة بين أبناء العلات[1]، وكيف يختصمون، وكيف يجتمعون، وما يؤدى إليه التحاسد بينهم بسبب ما تثور به النفوس، وكيف تتصور ما ليس واقعا على أنه واقع، ثم ما يؤدى إليه الاندفاع بدافع الحسد المقيت»[2]

فها هم أولاء، أبناء يعقوب ـ نظراً لاختلاف أمهم عن أم يوسف وبنيامين ـ ينسون أو يتناسون أنهما من أبيهم يعقوب، وأنهما خرجا من صلبه، الذى خرجوا منه، فهما أخواهم، ما فى ذلك شك، وهم يعلمون هذه العلاقة الأسرية الحميمة، لكنهم عند التحاسد والتحاقد يذكرونهما بعبارة تدل دلالة واضحة على الغيرة، التى لا يعترفون معها بوشيجة الأخوة التى تجمعهم بهما:

﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

(يوسف: ٨)

فهو فى نظرهم أخوه فقط وليس بأخ لهم أو ليسا بأخوين لهم وهى صورة نفسية صادقة ودقيقة على ما يسود أبناء العلاّت عندما يتميز أحدهم عن الآخرين، أو عندما يظن أحد هذه الأطراف ذلك، وهنا تكون المؤامرات، ورسم الخطط الشيطانية من قبل أحدهم تجاه الآخر، ولذا اتبع هؤلاء الإخوة، هذا التقدير بقولهم أو بقول أحدهم:

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾

(يوسف: ٩)

وهنا تأخذ الأحداث طريقها إلى تنفيذ ما اتفق عليه المؤتمرون.

وتتطور فصول القصة، ويقف الإخوة ـ بعد زمن طويل ـ أمام يوسف الذى لم يكونوا يعرفونه، وإن كان هو قد عرفهم، وتتكرر الزيارة ليقفوا أمامه مرة أخرى وقد اتهم أخوهم من أبيهم بالسرقة، ويدركون أنه مأخوذ لا محالة بفعلته التى نُسبت إليه، وأنهم عائدون إلى أبيهم من دونه: فتندّ منهم ـ أو من أحدهم، وهم له مصدّقون ـ عبارة تصور وبكل صدق وأمانة ما تنطوى عليه نفوسهم من الحقد والحسد على يوسف، الذى أضاعوه منذ سنوات

---

(١) العلة: الضرة (ج) علات. وبنو العلات: بنو رجل واحد من أمهات شتى، ويقابلهم بنو الأخياف، وهم بنو الأم الواحدة من آباء شتى ـ المعجم الوجيز مادة ع ل ل.

(٢) المعجزة الكبرى: القرآن للإمام محمد أبو زهرة ص٣٧٦ ط دار الفكر العربي بتصرف يسير.

طويلة حينما ألقوه في البئر، حيث لاتزال نفوسهم تغلي، وقلوبهم تنكأ بالبغض الذي يحملونه له بين صدورهم:

﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾

(يوسف: ٧٧)

ويشعر يوسف عليه السلام بالاستياء الشديد ويُسرّها في نفسه قائلا:

﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾

(يوسف: ٧٧)

وتستمر الأحداث في انطلاقها إلى غايتها، ولم يعُد في مقدور يوسف أن يواصل دوره كأمير للبلاد، وهو يرى إخوته وقد علاهم البُؤس، وسحقتهم الشدة، ومسهم الضر، حتى فسدت بضاعتهم، ووقفوا أمامه موقف الضراعة والذلة طالبين منه أن يتصدق عليهم بإعطائهم البضاعة المطلوبة، وأن يحسن إليهم بإطلاق سراح أخيهم المحتجز لديه. لم يعُد في مقدور يوسف أن يستمر في دوره كأمير للبلاد أمامهم وهم على هذه الحال، ولذا يبدأ في الكشف عن شخصيته قائلاً لهم:

﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾

(يوسف: ٨٩)

ويخجل الإخوة مما قدموه لأخيهم من بالغ الإساءة، ويعترفون له بالفضل والسبق.. ويجتمع شمل الأسرة كلها في مصر، وعلى رأسها الأبوان، ويخرّ الجميع ليوسف ساجدين.

فالقصة، صورة صادقة لما يحدث بين أبناء العلات، حينما ينتشر التحاسد والتباغض بينهم، وهي من هذه الوجهة قصة اجتماعية، تدفع المتأمل إلى أن يكون شديد الحرص على سلامة العلاقة بين أفراد أسرته عموما وبخاصة إذا اختلفت بينهم الأمومة.

ولا يتوقف الجانب الاجتماعي في هذه القصة عند حد تصوير ما يسود أبناء العلات من التحاسد والتباغض نتيجة ما قد يُتوهّم من التمييز بين أفرادها، وإنما يمتد ليشمل تصوير ما يقع بين أبناء القصور، وأصحاب الطبقات الراقية، حيث حياة الترف والبذخ، مما يدفع إلى الاستهتار بالقيم الاجتماعية والأخلاقية.. فالقصة صورة واقعية تماماً من هذه الوجهة أيضا. وواقعيتها، لا تقف عند واقعية الشخصيات الإنسانية، التي تحفل بها القصة في هذا المجال الواسع، على هذا المستوى الرائع، ولكنها تتجلى كذلك في واقعية الأحداث والسرد والعرض وصدقها وطبيعتها في مكانها وزمانها وفي بيئتها وملابساتها وكل حركة وكل خالجة، وكل كلمة تجيء في أوانها، وتجيء في الصورة المتوقعة لها، وتجيء في مكانها من مسرح العرض، متراوحة بين منطقة الظل ومنطقة الضوء بحسب أهميتها ودورها وطبيعة جريان الحياة بها»[2].

«فإذا كانت القصة بأحداثها المتلاحقة، سيقت لتؤكد ـ ضمن أهدافها العامة والخاصة ـ على عفة الطبيعة النبوية ممثلة في يوسف ـ عليه السلام ـ الذي تمسك بالطهارة ومقاومة الفساد الأخلاقي، مهما لاقى في سبيل ذلك من عنت ومشقة، ومهما صادف في طريقه من آلام، فإن القصة لم تصور من ذلك إلا ما يوضح الفكرة بجلاء تام، وذلك من خلال تصوير طرفي القضية، تصويرا صادقا وأمينا ومما يكشف تمسك كل منهما بموقفه بغية تحقيق هدفه: تصوير امرأة العزيز في حبها الجارف لفتاها، ومراودتها إياه عن نفسه، ومحاولة جذبه إليها ولو بالقوة، وتصوير يوسف في تمسكه بالفضيلة وفراره من الرذيلة، حتى إنه ليفضل السجن وظلماته على حياة القصور وأبهة الحياة فيها إذا كانت مقترنة بالفحشاء، وكل ما لا يتفق ومروءة الإنسان.

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ۝ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ۝ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

(يوسف: ٢٣ ـ ٢٨)

﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ۝ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾

(يوسف: ٣٢، ٣٣)

فتصوير خطرات الجنس لم يأخذ من النص القرآني إلا بقدر ما يثبت عفة هذا النبي وطهارته، في مواجهة المرأة التي أطلقت في وجهه كل جحافل المغريات، لا أكثر ولا أقل، ولم يتوقف النص القرآني عند وصف هذه المشاهد بما يوسع من رقعتها، ويجعل منها وقائع أساسية تدور من حولها القصة.

إن قارئ سورة يوسف، ليستشعر منذ البداية المبكرة في عرض الأحداث، أن هناك بذرة «ماء» تم غرسها في أرض الواقع،

---

(٢) في ظلال القرآن: سيد قطب ٤/١٩٥٩.

ولابد من استنباتها، ولابد من جني ثمارها في نهاية الأحداث، وهذه البذرة تتمثل في تلك الرؤيا التي رآها يوسف وقصها على أبيه يعقوب ـ عليه السلام ـ:

﴿ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾

(يوسف: ٤)

إذن، لابد من أن تتحقق هذه الرؤيا لتشكل تأويلا لها، ولكن ذلك لن يكون سهلا ميسورا، دون أن تمر الأحداث بمنعطفات صعبة وأزمات شديدة، وهو ما أطلق عليه في عرف المحللين للقصة «العقدة»، وكلما كانت العقدة شديدة الإحكام صعبة الوقع على نفس البطل، معوقة له في طريق الوصول إلى الهدف، كانت مثيرة للقارئ أو المشاهد، دافعة له إلى مشاركة البطل أحاسيسه ومشاعره، وبخاصة إذا كان البطل يناضل في طريق الحق والخير، ويحارب الشر والرذيلة.

فالعقدة «من أهم عناصر القصة الأدبية التي تعطينا جمال القصة، وتظهرها في مظهر فني رائع، يجذب انتباه الإنسان، ويسيطر عليه ويهزه من الأعماق، وهي تحتاج في إدراكها إلى ذكاء ملحوظ من السامع، وهي وسيلة من أنجح الوسائل في تنشيط الذهن وتجديده»[٤] والعقدة في القصة ـ أية قصة ـ هي قمة الأحداث، وهي أشد مراحلها وأبعدها أثرا في جذب انتباه القارئ، حيث إنها تمثل مفترق الطرق بين أن ينجح البطل في تحقيق ما يرمي إليه من أهداف، وهو ما يريحه ويريح نفس القارئ، ويعطي حياة البطل الهدف النبيل الذي له وناضل من أجله.. أو أن يخفق في ذلك، وهو ما يكون بداية لنهايته المأساوية والقضاء التام عليه وقد يدفع البطل حياته ثمنا لتحقيق أهدافه النبيلة، وعند ذلك يكون قد حقق الهدف الذي من أجله كان وجوده ويكتب اسمه عند ذلك في سجل الخالدين.

وبالنسبة لقصة «يوسف» ـ عليه السلام ـ فالعقدة واضحة تماما من أول الأمر وهي «تبدأ بالرؤيا كما سبق ويظل تأويلها مجهولا، يتكشف قليلا قليلا، حتى تجئ الخاتمة فتحل العقدة حلا طبيعيا لا تعمّل فيه ولا اصطناع»[٥]

وبين البداية والنهاية تمر الأحداث بكثير من الأزمات الصعبة، التي يرى فيها ما يبعد بهذا الصبي عن تحقيق ما تعد به هذه الرؤيا، ولكنه في نهاية المطاف، وفي ختام الأحداث يرى أن هذه العقبات كلها، إنما هي خطوات تتوالى ـ بالرغم من شدتها ومرارة ما فيها من محن وابتلاءات على طريق الحل الطبيعي الذي يؤدي إلى أن يسجد ليوسف أبواه وإخوته وهو على

(٤) القصة في الأدب العربي حتى العصر الحديث: د. فردوس نور علي حسين ص٢٢.

(٥) في ظلال القرآن: سيد قطب ٤/١٩٦٢.

عرش إحدى الممالك الشهيرة آنذاك «مصر». وإلا، فأين كان يسجد له أبواه وإخوته، لو لم تكن الأحداث قد مرت بهذه الفصول كلها بدءا من إلقائه في الجب، ومرورا باسترقاقه في بيت عزيز مصر، ثم اتهامه زورا بمحاولة ارتكاب الفاحشة مع امرأة العزيز ودخوله السجن ثم اعتلائه عرش مصر، حتى تتعلق به أنظار الناس جميعا في وقت اشتدت فيه الأزمة بالناس في مصر وغيرها من البلاد المجاورة، ليأتي إليه إخوته، وتنتهي الأحداث إلى ما انتهت إليه بهذا السجود، وليكون آخر فصل في أحداث القصة، هو التأويل المباشر والمطابق تماما لأول فصل فيها.

﴿ ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا ﴾

(يوسف: ١٠٠)

أقول: أين كان سيتم هذا السجود، لو لم تكن حياة هذا النبي المبارك قد مرت بهذه الأزمات الطاحنة والمنعطفات الصعبة التي لا يثبت لها إلا الرجال الأشداء؟!

نقول هذا، مع إيماننا الشديد ـ ولله الحمد والمنة ـ بأن قدرة الله مطلقة:

﴿ والله غالب على أمره ﴾

(يوسف: ٢١)

وما كان لشئ أن يعز على أمره سبحانه، لو أنه أراد أن يسجد ليوسف أبويه إخوته، دون حدوث شئ من ذلك.

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾

(يس: ٨٢)

ولكن الله عزت قدرته وتعالت حكمته، أراد أن يؤكد للبشر جميعا على أن إيمان المؤمن بربه كفيل بأن يعصمه من الزلل، وأن يعصمه من اليأس، مهما طال ليل الشدة، ومهما استحكمت حلقاتها، فليس على الله ببعيد أن يجعل من الضيق فرجا، ومن كل كرب مخرجا، وأن يحيل الليل الحالك إلى نهار أبلج قد سطعت شمسه:

﴿ فإن مع العسر يسرا ۝ إن مع العسر يسرا ﴾

(الشرح: ٥، ٦)

أراد الله عز وجل أن يعلمنا ذلك، من خلال عرض نموذج من أنبياء الله، الذين ابتلاهم بالبأساء والنعماء، فكانوا نعم العباد الأخيار.

"ابن آدم! تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك. وإلا تفعل؛ ملأت صدرك شغلا، ولم أسد فقرك".

(رواه الترمذي، والبيهقي عن أبي هريرة)

كيف نؤدي شكر النعمة؟!

مايزال العالم كله يتساءل فى دهشة: ماذا حدث فى مصر فى يوم الخامس والعشرين من يناير؟! فالناس ما بين مأخوذ بدهشة الحدث حتى لا يكاد يصدق ما يرى، وبين مستشعر أن ما حدث لا يقل عن زلزال هائل، هز كل أركان الحياة فمن قائل بأنها انتفاضة أمة وقائل بأنها ثورة شعب، وبين إجماع من قادة الدنيا بأن ما حدث فى مصر لم يسبق له مثيل فى تاريخ الأمم والشعوب.



للأستاذ الدكتور/ حمدى فتوح والى

إذ لم تعرف الدنيا ثورة اجتمع لها ما يزيد عن خمسة عشر مليونا من البشر في لحظة واحدة، يجمعون على مطالب محددة دون قيادة تمسك دفتها، وترسم خطتها، وتحدد وجهتها وتطور حركتها، وتحمي تيارها الهادر من أن يندس فيه دخيل أو يختلط به عميل مما جعل الدنيا كلها تجمع على الإيمان الواثق، بأن وراء هذه الثورة إرادة قادرة، وحكمة مدبرة وسلطان قاهر، وخالق حكيم.

وقد جاءت تلك القدرة الإلهية الحكيمة، لتكون شهادة من الله سبحانه وتعالى على أن نفوس الناس قد تغيرت؛ فأصرت على تغيير الحال، مهما كلفها ذلك من مشقة، ومهما بذلت من أجله من تضحيات. والمشاهد التي نقلتها الفضائيات من صمود الشباب أمام المصفحات والمدرعات، وتصديهم للقنابل الحارقة، والغازات الخانقة، والرصاص الحي، ورؤيتهم لشلالات الدماء تنفجر من شرايين إخوتهم في وحشية وضراوة كل ذلك جاء شاهدا على إصرار هذه النفوس على التغيير أو الموت شهادة دون الكرامة الضائعة، والعدل الغائب، والدم المسفوك والعرض المنهوك. وليتأكد للدنيا كلها أن الله قد علم باستحقاق هذه النفوس لنعمة التغيير فغيّر عليهم ومكر لهم، ودبر أمرهم، وبلّغهم ما يريدون؛ مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾

(الرعد: ١١)

ومن يتأمل الآية الكريمة يجدها عبرة بالغة لطرفي عملية التغيير سواء من رحمهم فغيّر لهم. ومن عاقبهم فغير عليهم. فصدر الآية شهادة بأن المغير هو الله. وأن البشر ليسوا إلا ستاراً تتنزل من خلفه إرادة الله وأن دورهم الحقيقي في التغيير هو سعيهم إليه وإصرارهم عليه، فإذا علم الله منهم هذا الشوق ورأى منهم هذا الإصرار؛ تدخل بقوته وإرادته وقهره، فرفع عنهم ما يحذرون، وأراهم من فضله ما يريدون، وأذهب غيظ قلوبهم، وشفى غليل نفوسهم بعقاب الظالمين، وإهانة المجرمين وليقول لكل عميل ذليل، ممن أعطى ولاءه لغير مولاه الجليل،

﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(نوح: ٤)

وليتأكد فيهم شق الآية الأخير:

﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾

(الرعد ١١)

إن الآية الكريمة تعطي للمؤمنين وعداً ليأمنوا ويأملوا، وليطمئنوا ويصبروا، وليعلموا أن وعد الله آت، وأن نصر الله قريب، وهي خطاب للظالمين والمجرمين ليعلموا أن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، وأنه من استعان بظالم سلطه الله عليه.

وإذا كنا على يقين كامل وعلى إدراك أكيد، بأن ما حدث في مصر كان نعمة من أعظم نعم الله، جاءت استحقاقا لنفوس اشتاقت، وقلوب اطمأنت إلى ضرورة التغيير فإن السؤال الذى ينبغى ألا يغيب عن أذهاننا هو أن نسأل: كيف وصلت النفوس والقلوب إلى هذه الحال من إرادة التغيير؟ وهل جاء التغيير جزافا من غير عمل، أو جاء منحة بغير استحقاق؟ والجواب على ذلك نجده في قول ربنا سبحانه:

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(العنكبوت)

وهذا يعني أن هذا التغيير جاء ثمرة جهود صادقة، ونوايا خالصة، وحراك دائم، وعمل مستمر. فكل كلمة مخلصة قالها معلم لطلابه، يعلي بها الحق ويبطل الباطل، لم تذهب سدى ولم تضع عند الله؛ وكل نصيحة ألقاها والد مؤمن في قلوب أبنائه يثبتهم على الحق ويحفزهم على طاعة الله، تحولت مع الزمن إلى طاقة إيجابية تقول للحق: نعم، وتقول للباطل: لا. وكل مقاله خطها قلم تقي، وأملاها فؤاد تقي، وصدرت عن عقل ذكي، أحدثت وعيا، وردت بغيا، وأزهقت باطلا ونصرت حقا، كانت سببا في هذا الحدث العظيم، وكانت جهادا في سبيل الله. وكل وقفة إنكار لمنكر ومواجهة لظالم، وبيان لحق وكشف لباطل كانت سببا في هذا العمل العظيم، وكانت جهادا في سبيل الله بل كانت من أعظم الجهاد بشهادة رسول الله ﷺ القائل: «إن من أعظم الجهاد

كلمة حق عند سلطان جائر[1] وهذا يعنى أن هذه الثورة المباركة وهذا الحدث العظيم، ما كان له أن يقع لولا جهود المخلصين من أبناء هذه الأمة على مدى عقود من القهر والظلم والبغى والعدوان، وأن كل كلمة وكل همسة وكل نصيحة وكل إشارة سبقتها نية صادقة، وصحبتها همة عالية، واحتساب كريم، لم تذهب سدى ولم تضع فى ميزان الله وكيف تضيع لديه وهو الحسيب الرقيب؟! وهو سبحانه وتعالى القائل:

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾

(البقرة: ١٤٣)

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

(النساء: ٤٠)

وإذا كان هذا التغيير قد جاء نعمة أكبر من جهودنا، وأعظم من توقعاتنا، فلا يعنى هذا أن الوسائل كلها كانت سليمة، وأن مسيرة الثورة قد خلت من الأخطاء، وإنما هى رحمة الله التى وسعت كل شىء، فعاملنا بفضله لا بعدله، ووهب الخاملين منا للعاملين، والمسيئين منا للمحسنين، والقاعدين منا للمجاهدين، ولعله - سبحانه وتعالى - علم أعذار الضعفاء أمام بطش الجبارين والمستبدين؛ فأراد أن يمتحنهم فرصة، وأن يسقط حجتهم، وينظر ماذا يفعلون؛ عندما يأمنون بعد الخوف، ويأملون بعد اليأس، وينعمون بعد البؤس، ويمارسون حياتهم دون تهديد أو وعيد.

إن ما حدث فى مصر وإن كان نعمة من أعظم النعم فإنه اختبار لأبنائها لينظر كيف يعملون وكيف سيشكرون، حتى تدوم عليهم نعمة التغيير؟ فقد علمنا ربنا - سبحانه وتعالى - أن دوام النعمة وزيادتها لا يكون إلا بشكرها:

﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾

(إبراهيم: ٧)

إن الأمة التى استجاب الله لرجائها فأبدلهم من بعد خوفهم أمنا، ومن بعد يأسهم أملا ومن بعد قهرهم عزة ونصرا. مطالبة أن ترى الله منها ما يرضيه عنها فيديم عليهم نعمته، ويسبغ عليهم رحمته؛ ليتحول هذا التغيير إلى نصر وتمكين كما علمنا ذلك فى كتابه؛ فعندما اشتد الأذى بقوم موسى، وأسرف فرعون فى كيده وبغيه وضاق بهم الحال فقالوا لنبيهم موسى:

﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

(الأعراف: ١٢٩)

إن نبى الله موسى - عليه السلام - يدرك أن تغيير الحال ليس هو نهاية المطاف، وإنما هو بداية لتبعة ثقيلة، وجهاد متواصل وصراع طويل؛ ولهذا فقد نبه قومه إلى أن للنعمة تبعات، وللتمكين حقوق وواجبات فمن أحسن استثمارها، وأدى حقوقها، ووظف النعمة لربط الناس بربهم، وتعريفهم بخالقهم، فقد أرضى ربه، واستدام نعمته وفضله ونجح فى اختبار النعمة كما نجح من قبل فى اختبار الشدة، واستحق منة الله عليه كما منّ على موسى من قبل بقوله سبحانه:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾

(القصص: ٤ - ٦)

أما إن أعطى المؤمنون فرصتهم، وسقطت أمام الله حجتهم بأن أمكنهم من وسائل السعى إلى التمكين فأحجموا، ودعاهم إلى استنفار ما لديهم من مذخور الهمة والحكمة والقوة فبخلوا وتقاعسوا، وطالبهم بوحدة الكلمة، وقوة الصف، والتئام الشمل، فتفرقوا واختلفوا؛ فإن عقاب الله سينزل بهم وغضب الله سيحل عليهم، وستر الله سيرفع عنهم، مصداقا لقوله تعالى:

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾

(الطلاق: ٨ - ١٠)

إن الله تبارك وتعالى الذى يمنح التغيير عند توافر أسبابه واستحقاق النفوس له، هو سبحانه وتعالى الذى يسلب نعمة التمكين والأمن فمن أساء استقبالها ولم ينهض بأعبائها، ولم يؤد حقها. وهذا ما نجده واضحا فى قول ربنا سبحانه:

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(الأنفال: ٥٣)

فهل ندرك حقيقة المرحلة وطبيعة المهمة، وثقل التبعة فنحسن شكر النعمة لتستحق دوامها، كما استحققنا من قبل منحها وحدوثها؟ هذا ما نرجوه من ربنا وما تأمله من قومنا.

(١) كشف الخفاء.

القيم فى واقع الفكر الإسلامى المعاصر



الأستاذ الدكتور/ محمد الشحات الجندى
الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية

حديث الإسلام عن القيم حديث عن مقوم وأساس من أسس النهضة والحضارة وتقدم الفكر والمجتمع والدولة والأمة الإسلامية.

فالقيم هى موازين حاكمة لضبط الفكر وسلوك المسلم يتمسك بها لإقامة فكر سديد وتصرفات رشيدة تهديه للطريق القويم.

وعلى قدر الالتزام بهذه القيم، تستقيم مسيرة المسلم، فقد كانت كالكوابح تحميه وتنقذه من الانزلاق إلى هاوية الهلاك والتدمير.

والمستقرئ لمنظومة الفكر الإسلامى الجامعة فى جوانبها العقدية والتشريعية والأخلاقية والحضارية يجد أنها شيدت على هدى قيم السماء التى تلبى الفطرة البشرية التى فطر الله الناس عليها.

ظلت هذه القيم متلاحمة مع مسيرة علماء الإسلام، وسلوكيات المسلمين طوال عصور الازدهار والنهضة والريادة فى الدين والحياة، وكانت عنوانًا على ترقى وتمدن إنسانى فى تاريخ البشرية الحافل بالانتصارات والابتكارات.

وكان أساس الاستمساك بهذه القيم انطلاقًا من هدى الدين، فيما جاء به، وعلمهم إياه تلمس ذلك فى التسامح تجاه الآخر، والتعددية فى الرأى، وقبول المخالف، والانفتاح على الفكر الإنسانى فى كل مناحى الحياة لتصبح معلمًا من معالم التعامل الإسلامى مع غير المسلمين ناهيك عن المسلمين.

أصول العلاقة بين العلماء

لذلك أقام علماء الإسلام، صلاتهم وعلاقاتهم فى الفكر والاجتهاد على أن العلم رحم بين أهله.

فهو رباط قوى متين يجمع بين العلماء الذين هم ورثة الأنبياء.

وهم فى تحصيل العلم، والتفكر والنظر ينشدون الحق من كل طريق، إذ بالحق يعرف الرجال، وليس بالرجال يعرف الحق.

التمسوا العلم والحكمة من كل طريق يوصل إليهما، فاجتهدوا لدينهم ودنياهم واطلعوا على ثقافات غير المسلمين، وعلى هدى ذلك كانوا يسلكون الطرق الموصلة للعلم والحكمة، حرصًا على الاستجابة لتوجيهات الإسلام يقصدون إليها فى كل مكان، وممن أوتى الحكمة والعلم، مهما كان حال هذا الشخص إذ: «الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق الناس بها»[1].

انفتاح الإسلام على الأديان والثقافات

نجد ذلك فى انفتاحهم على ثقافات الحضارات اليونانية والفارسية والرومانية، والتأثر بها والتأثير فيها وعلى أن الإسلام هو الدين الذى استوعب أديان السماء، وإطلاعهم على ثقافات الأمم الأخرى، فى إطار من التفاعل الخلاق الذى حملته رسالة الإسلام إلى البشرية فى عصر نضجها وترقيها.

وقد نتج عن ذلك إسهام كثير من العلماء المسلمين من غير العرب من أبناء الأمم الفارسية والرومانية فى صرح الفكر والحضارة الإسلامية، حيث وجدوا أن الإسلام بعثهم فى خلق جديد، وأعطى قيمة لوجودهم بمبادئه وتعاليمه وقيمه الإنسانية وعبروا بحق عن إنسانية وعالمية هذا الدين، الذى لا يتعصب لجنس، ولا يحابى عنصرًا على حساب الحق والعدالة، إذ هما مطلبان للإسلام لكل البشر.

فقد أقاموا النظام والحياة على ذلك اقتناعًا بأن الفكر المحاط بسياج من القيم الإيمانية والحضارية ينطلق بالأمة والوطن إلى التقدم والترقى فى شتى المجالات: الدينية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية.

فالفكر الحق النابع من الإسلام هو القوة الدافعة للمسيرة، والقاطرة التى تجر المجتمع إلى الأمام وتضمن له السبق والريادة.

التحول عن القيم، والتراجع عنها

لكن أتى حين من الدهر، تغير الزمان، وتعثر العقل الإسلامى، وتوقف عطاؤه، وتجدده فتبدل الحال، من التقدم إلى التخلف، ومن الأصالة إلى التبعية، ومن القيادة فى المقدمة إلى المؤخرة.

وأحد الأسباب الرئيسية لذلك، يرجع إلى جمود العقل المسلم فى عصور الانحطاط فى استخراج كنوز النصوص فى القرآن والسنة، وعدم اتباع المناهج السديدة التى قال بها السلف من العلماء، والتقوقع فى شرنقة التقليد، والجمود على المتون، وعدم التحلى بأدب الاختلاف، ومنهج الحوار بالتى هى أحسن.

ونتج عن ذلك أن توارى العلم الحق، وظهر الأدعياء، وشاعت الفوضى، وتخبط الناس فى العمل بمنهج الإسلام، أى منهج يتبعون؟ وعلى أى رأى يسيرون وسط هذه الغابة الكثيفة من المناهج والآراء؟ فضاع التميز الإسلامى والعطاء الإسلامى للمسلمين وللبشرية فى عصور الانحطاط والتخلف.

وأبرز معالم ذلك غياب فكر الإسلام الحق عن دنيا المسلمين.

وفى مثل هذه الأجواء، غاب الفكر الإسلامى بمناهجه وعطائه للبشرية، أو غيب فى غمرة التراجع عن قيمه الإنسانية والحضارية.

---

(1) سنن الترمذى - كتاب العلم - باب ما جاء فى فضل الفقه على العبادة.

ولم يحدث هذا التغيب إلا بسبب الغفلة عن عوامل القمة والحيوية فى هذا الدين، والالتفات عن مصادر الخصوبة والتقدم وقيادة الحياة فى عنصريها الدينى والدنيوى على سواء.

آفة القدح والتلاسن بين العلماء

وأخطر ما نزل بهذه الأمة، وعطل مسيرتها وأفقدها ريادتها، أن يكون بأس مفكريها وعلمائها المعاصرين بينهم شديداً، وما انزلقوا إليه من القدح والتلاسن فى منتديات علمية، وهو النذير والعقاب الذى توعد الله به الأمة، بسبب انحرافها عن النهج وحيدتها عن الصراط المستقيم.

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾

(الأنعام: ٦٥)

وأورث هذا الخلل أثره فى تراجع كلمة العلماء وتأثيرهم على حياة الناس، وضعف مهابتهم ومنزلتهم، وفى المقابل لم يلتزم العلماء بتحكيم أصول الاختلاف فيما بينهم، وهم القدوة التى يقتدى بها، وأحد الصنفين اللذين تصلح بصلاحهما الأمة، كما جاء فى الحديث: (صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس: العلماء والأمراء)[٢].

المردود السيئ عند الأمة، وتصدى الجهال

طبع ذلك الاختلال، أثره السيئ على الأمة فاختلطت المفاهيم، وتطاول الجهال فى البنيان، وأساءوا الأدب مع العلماء، ولم يرعوا للدين حرمة، أو يلتزموا بمرجعية الإسلام، فكان أن تصدروا الركب، وكانوا فى الطليعة، وقادوا الأمة إلى الهاوية وتمددوا فى الفراغ الكبير الذى تركه العلماء، حدث ذلك والعلماء منشغلين بمعاركهم الكلامية، وجدالهم فى مماحكات لفظية.

تفشى التوهان والغشاوة العقلية

أسفر عن هذا الخلل، حالة من التوهان الفكرى، والتغيب العقلى، ينبغى تخليص العقل المسلم منها، وتخليص الناس من حالة الحيرة والتخبط، وإقامتهم على الطريق لترشيد المسيرة الإسلامية فى تجديد الدين فى العقيدة والتشريع والأخلاق.

وهى مهمة تحتاج إلى التقارب بين العلماء، والتآلف فيما بينهم، لإقامة وحدة الوطن والأمة، وتكريس الفهم المتبادل، لتحقيق المصلحة العامة.

انظر على حالة الفكر فى العالم الإسلامى تجد أنه قد برز على الساحة صراعات فكرية، وتيارات مذهبية: السنة، والشيعة، والسلفية، والصوفية، والأشعرية.. اعتصم كل منها بطريقته، وانحاز لرأيه متناسياً أن الجميع دينهم واحد، وربهم واحد، وقرآنهم واحد، ورسولهم واحد، وقبلتهم واحدة، فلم هذا الانقسام والطائفية التى أطلت برأسها.

تخلى العلماء عن الميثاق الشرعى فى أدب الاختلاف

وقد أفرز هذا الخلل فى ميثاق أدب الاختلاف بين العلماء، الخروج عن الأصول المرعية، والقواعد الشرعية، تسببت فى الوقوع فى مأزق، أصاب عقل الأمة فى الصميم، وأورث حالة من الحيرة وخلط الأوراق، والتخبط فى معرفة الأحكام، بسبب ما طرأ على القيم من عدم الالتزام بها.

ونرصد طرفاً من ذلك فيما هو آت:

١- فقدان التسامح بين علماء العصر، ومفكرى الأمة، ذلك التسامح الذى أوجبه الإسلام بين المختلفين فى الأجناس والأديان والقوميات، فما بالك بين أتباع الدين الحق، الصفوة والنخبة، كل يدعى أنه على الحق، وأن أخاه على الباطل، يحقره ويسفه رأيه فى مسائل فرعية وقضايا اجتهادية.

واستفحل الخلاف بين الكل، وتعصب كل لرأيه، وعاب على الآخر وهو يعلم قول الله:

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾

(الشورى: ١٠)

فصار الجلاد شديداً بين الإخوة فى الدين.

وفى الحديث: (..ولينوا فى أيدى إخوانكم)[٣].

(وكونوا عباد الله إخواناً)[٤].

وقد تسامح السلف الصالح إزاء بعضهم البعض:

أبو حنيفة: (علمنا هذا رأى فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه).

مالك: (كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذه الروضة: مشيراً إلى قبر الرسول ﷺ.

الشافعى: (رأيى صواب يحتمل الخطأ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب).

وهو ما يبرهن على قيمة الدفاع عن رأى المخالف، والتسليم بحقه فى التعبير عنه.

٢- إنكار التعددية فى الرأى والفكر، والحرص على وأد الرأى الآخر، وحرمان الفكر الدينى من أسمى ما جاء به من عوامل الاجتهاد والإبداع.

لم يحجر الإسلام على فكر بناء أو رأى خلاق، وإنما سلم بالرأى ومقابله، ورسخ التعبير عن الرأى مع طلب الحجة ومقارعة الدليل بالدليل:

﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

(البقرة: ١١١)

وكان من ثمرة ذلك تعددية الفكر والرأى

(٢) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير، وقال المناوى: قال الحافظ العراقى: سنده ضعيف.

(٣) مسند الإمام أحمد رقم ٥٤٧٢ (مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب)

(٤) صحيح البخارى - كتاب الأدب - باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر

في علوم الشرع نشأت مدارس في علم الكلام، كان لكل منها أطروحاتها واتجاهاتها: الأشاعرة، والماتريدية، والمعتزلة، والمرجئة، والدهرية، وساق كل حجته، وأقام دليله، وأبان عن منهجه المعبر عن سعة ورحابة فكر الإسلام في أقدس منطقة، تدور في نطاق الحقيقة المطلقة الألوهية والنبوة.

بل إن القرآن كتاب الإسلام المقدس حمَّال أوجه، كما قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

وقامت المذاهب الفقهية على ترسيخ التعددية: الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنابلة، والظاهرية، والشيعة الإمامية، والشيعة الزيدية، والأباضية، واتخذت من الاجتهاد في القرآن والسنة مرجعية لها، فما سفه بعض الأئمة رأى البعض الآخر، وإنما اعتبر الرأي الذي قال به من تمام حقه في ممارسة الاجتهاد.

لم يقل هؤلاء العلماء الثقات: ما ترك الأول للآخر شيئاً.. وليس في الإمكان أبدع مما كان.

وإنما وقر في النفوس الالتزام بتوجيه القرآن:

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾

(التوبة: ١٢٢)

وأتى الحديث عن الجد والاجتهاد: (من يرد بالله به خيراً يفقهه في الدين[٥])، ومن الطبيعي أن تسفر تجربة التعددية الفكرية خصوبة وحيوية فقد جسدت التعددية في المجتمع الإسلامي للتعددية الدينية، والتعددية القومية، والتعددية التشريعية، والتعددية الحضارية، ولا عجب فنظام الخليقة يتأسس على أن الناس مختلفون في الأجناس والأديان والألوان، فقد جعلها القرآن من التنوع لتحقيق التكامل أساساً لنظام الكون، وأنه في ظل وحدة الخالق والأصل الإنساني تتنوع الخلائق وتتناحل الآراء توخياً لما هو أفضل وأكثر تحقيقاً للمصلحة العامة.

ويقرر الإسلام أن الله واحد، وأن الناس من أصل واحد تذكيراً لهم بقبول بعضهم البعض، رغم اختلاف الفكر والرؤى، فهذا نداء الرسول الكريم للناس في صعيد عرفة في حجة الوداع:

(يا أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى)[٦].

٣- انصراف العلماء عن قضايا الأمة والوطن، وعدم الالتفات إلى الهموم والشأن العام، والانحصار في النطاق الضيق للمكان، والفكرة، والرؤية المذهبية، والإلحاح على الجزئيات والمسائل الخلافية.

(٥) رواه البخاري في صحيحه عن معاذ بن أبي سفيان.

(٦) رواه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبدالله من قول النبي ﷺ في حجة الوداع.

فترى العديد من العلماء صرفوا همهم إلى أمور هامشية، انغلقوا عليها، وصاروا أسرى لها يقتلونها بحثاً وما هي بمستحقة كل هذا العناء فمازال النقاب، والسواك، وما على شاكلته يروج له على أنه من جوهر الدين، وما هو كذلك، ويدافع العديد من العلماء عن ذلك، بينما قضايا وحدة بدء الصيام في رمضان، والاعتماد على الحساب الفلكي، وتحقيق الاكتفاء الذاتي والوسائل العلمية، لا تلقى الاهتمام المستحق بها كعنوان على وحدة الأمة.

وما تزال هذه الأمور الخلافية تطفوا على السطح بين أبناء الجاليات الإسلامية في بلدان الغرب، وتنتقل نفس العدوى، مع ما يسببه من إشاعة الخلافات وكثرة الشقاقات، وهو ما يؤدي إلى تشويه لصورة الإسلام، وتقليل من شأن المسلمين في عيون الغرب، وأيضاً بين شعوب العالم قاطبة.

ومثل ذلك التشكيك في شرعية شعيرة السعي في التوسعة الجديدة في مشعر الصفا والمروة، وصد الحجيج عن السعي فيها بحجة أنها خارجة عن مسعى رسول الله ﷺ أو بغير ذلك من الحجج الواهية.

ومن ذلك التقاعس عن تقنين وضع غير المسلمين في داخل بعض دول العالم الإسلامي، وتقرير حقوقهم في المواطنة أو الرعوية وفق صحيح الإسلام، وغلق السبيل أمام التدخل الأجنبي في شئون الدول الإسلامية تحت ذريعة حماية حقوق الأقليات.

كذلك يدور الخلاف ويعم الجدل حول مسائل فرعية مثل إطالة اللحية، وتقصير الثياب، وتجد من يشهر سلاحه ضد من يعتبرها من الفروع، ويقيم خصومة حتى تقوم الدنيا ولا تقعد من أجلها.

مع أن الفقه السديد يقوم على ترتيب الأولويات وتحديد الأسبقيات، ففرض الكفاية لا يزال يدور في فلك صلاة الجنازة، وغاب عن ساحته الاشتغال بالتنمية، ومحو الأمية، وزراعة الصحراء، والتنقيب عن الثروات في البر والبحر، وتحصيل السبق في الصناعة، والسعي إلى الاكتشافات العلمية والتكنولوجية.

"إذا ابتليت عبداً من عبادي مؤمناً فحمدني، وصبر على ما ابتليته؛ فإنه يقوم من مضجعه ذلك كيوم ولدته أمه من الخطايا، ويقول الرب للحفظة: إني قيَّدت عبدي هذا، وابتليته، فأجروا عليه ما كنتم تجرون له قبل ذلك من الأجر وهو صحيح".

(رواه أحمد)

ملامح الشخصية العربية الإسلامية المعاصرة



٣



الأستاذ الدكتور / مصطفى رجب
كلية التربية - جامعة سوهاج

وقد نعى القرآن الكريم على فئات من الناس أخلدت إلى الراحة ورأت في الحركة سبيلاً للأذى ومن هذه الفئات:

أ. المتقاعسون عن الجهاد:

إن الجهاد في سبيل الله هو السبيل الوحيد لنصرة الدين وإعلاء كلمة التوحيد، وقد تقاعس قوم عن الجهاد فسجل القرآن الكريم مواقفهم مقرونة بلومهم وتوبيخهم، فقال تعالى:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

(التوبة: ١٦)

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾

(التوبة: ١٩، ٢٠)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾

(التوبة: ٣٨)

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

(التوبة: ٤٢)

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾

(التوبة: ٤٦)

ب. الذين يكتمون العلم:

وهناك فئة من الناس رزقها الله تعالى بعلم نافع، ولكنها تقاعست عن نشره، أو كتمت ما تعلم أنه الحق، ففتحت بذلك باباً للجهال لكي يتصدوا لتعليم الناس وتثقيفهم، وهم في الحقيقة يزيفون ويزورون ويضللون - عن قصد حيناً وعن غير قصد حيناً - وتفتح لهم وسائل الإعلام نوافذها فيفتن الناس بكلامهم المنمق. وأولئك هم الأئمة المضلون الذين حذر منهم رسول الله ﷺ.

يحدث هذا، ونحن نرى طوائف من أهل العلم الفضلاء يقعدون عن نشر ما عندهم إيثاراً للسلامة، وتجنباً للفتنة، وقد ذم القرآن الكريم من يفعل ذلك، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

(البقرة: ١٥٩، ١٦٠)

وقال سبحانه:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾

(آل عمران: ١٨٧)

ج. القاعدون عن السعي:

من جهل بعض الناس بثواب السعي والضرب في الأرض، يظن بعضهم أن هذا عمل دنيوي بحت، في حين أنه مطلب شرعي، حثت عليه الشريعة الإسلامية الغراء. وقد سمى القرآن الكريم من يفعل ذلك تسمية توبيخ بأنهم ظالمون لأنفسهم، وأولئك ستتوفاهم الملائكة وهي توبخهم: فيم كنتم؟ ولم رضيتم بهذا القعود الذليل عن طلب العيش الكريم والرزق الحلال؟

فيجيبون: بأنهم كانوا مستضعفين في الأرض!!، مع أن أرض الله واسعة، وقد أمروا أن يهاجروا فيها ويبتغوا من رزق الله ولا يركنوا إلى الراحة والاعتذار بأنهم مستضعفون. فقد سخر الله تعالى لهم الأرض ليستعمروها، والبحار ليجوبوها ويستخرجوا منها لحماً طرياً وحلية يلبسونها، وسخر لهم الخيل والبغال والحمير وغيرها من الحيوانات، لينتفعوا بها قدر ما يتاح لهم الانتفاع؛ لأن المسلم الحق إيجابي لا يعرف للسكون فائدة، ويرى في الحركة تنفيذاً للمشيئة الإلهية:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

(الأنعام: ١٦٢)

فكيف يرضى المسلم أن تكون حياته رخيصة ذليلة ساكنة؟!

وإذا كانت قوانين البشر قد صعبت أمر حركة الناس من بلد إلى بلد، فما تزال في البلد الواحد آفاق من الرزق مفتوحة، وفرص للعمل متاحة، كل ما في الأمر أن الناس قد آثروا الراحة، واستمرأوا السكون، وألفوا الدعة، وعودوا حواسهم الكسل، فلا العقول تعمل، ولا الحواس تتحرك إلا في نطاق حركة يومية مكرورة تخلو من الحافز وتستريح إلى

الاسترخاء والخمول والرضا بالقليل. وقد نعى القرآن الكريم على طائفة من البشر هذه حالها. فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾

(الأعراف: ١٧٩)

وما أكثر آيات القرآن الكريم التي تأمر المسلمين أن يسيروا في الأرض وأن يبتغوا عند الله الرزق، ولكن أنى لهم ذلك وأمامهم الشاشات البيضاء تكبلهم أمامها ليل نهار، فكأنهم معرقون لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا؟!!

د. الذين يكنزون أموالهم:

تكره الشريعة الإسلامية الغراء كنز الأموال، وترى فيه جريمة اجتماعية كبرى وتتوعد صاحبها بالعذاب الأليم يوم القيامة. فيقول تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾

(التوبة: ٣٤، ٣٥)

وذلك لأن الإنسان إذا استهواه جمع المال وتكديسه، فرط في مبادئه ودينه وقيمه، وصار كالحيوان الذي يأكل ولا يعرف حداً للشبع.

فكنز الأموال غاية السلبية، ومنتهى الانغلاق على الذات، ولا تقدم عليه نفوس المؤمنين، لأنها نفوس مطهرة بحب الإنفاق في وجوه الخير، والذي ينفق ماله ثاني اثنين مغبوطين بعد صاحب العلم الذي ينشر علمه لينتفع به الناس.

هـ. الذين يعتمدون على الدولة:

منذ تفككت عرى ارتباط المسلم بدينه مع تعقد الحياة الحديثة، ومنذ أنشئت «الدولة» كنظام مؤسسي ييسر حياة الناس، استبدل كثير من الناس بمفهوم «التوكل على الله» مفهوم (الاتكال على الدولة). فأصبح المسلم ينتظر من الدولة أن تطعمه وتسقيه وتكسوه وتشفيه وتعلمه وترفه عنه.

وقد أدى هذا (التواكل / الاتكال) إلى اطراح مفهوم التوكل على الله واتخاذ أسباب الحياة، والضرب في الأرض، ومكابدة مرارة البحث عن الحلال. وأنا شخصياً لا أستطيع أن أفهم: كيف يبقى خريج المدرسة المتوسطة أو الجامعية سنين طوال يمد يده إلى أسرته ويأخذ مصروفاً ينفقه على انتظار «الدولة» على المقاهي حتى تقبل عليه الوظيفة وهو ساه لاه لا يكد ولا يكدح؟!

وفي المقابل أعرف عشرات من الشباب تركوا شهاداتهم وراء ظهورهم وسعوا في الأرض طلباً للرزق من أي باب حلال. فأصابوا خيراً كثيراً بتوكلهم على الله وسعيهم.

خامساً: إصلاح أحوال الأسرة المسلمة:

إن الأسرة المسلمة هي مناط التربية، ومؤسستها الأولى، وهي تتعرض في الواقع المعاصر إلى ضغوط لا قبل لها بها: رسمية وغير رسمية. ويكفي أن نقرأ وثائق مؤتمرات الأمم المتحدة الخاصة بالسكان والتنمية، وبخاصة مؤتمر القاهرة ١٩٩٤، ومؤتمر بكين ١٩٩٨، لنرى إلى أي حد تسعى المؤسسات الدولية إلى إشاعة الفواحش، وتحطيم كل القيم الإسلامية التي تستهدف تحصين الشخصية الإسلامية ضد الانحلال والانحراف. والمأمول أن يسعى المسلمون إلى إصلاح أحوال الأسرة، ويحوطوها بالرعاية والعناية الفائقة ضد الهجمات التي تتستر بالتمدن والتحضر. فتعود القوامة للرجال، وتعود للأمهات هيبة مسئولياتهن التربوية. وتعود روح المودة لتسربل العلاقات بين الإخوة والأخوات، وتعود صلة الرحم فتلطف جهامة الحياة المعاصرة وتخفف جفاءها. ونظرة إلى آيات القرآن الكريم تفتح أمام المسلمين آفاق حقيقة العلاقات الأسرية كما أرادها الإسلام. ولنقرأ قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾

(التحريم: ٦)

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾

(الأنعام: ١٥١)

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾

(النساء: ٣٤)

وتبقى هناك أبعاد أخرى في الشخصية الإسلامية تجدر دراستها مثل:

- حسن استثمار الوقت.
- الوعي بالتاريخ.
- الولاء والبراء.
- أهمية التمسك باللغة العربية والحفاظ عليها.

وكل تلك الأبعاد حرية بأن يهتم بها الباحثون المسلمون ويديموا تحليلها والنظر في أهميتها، كما أنها جديرة بأن تتخذ منها المنظمات والهيئات الإسلامية المعاصرة دساتير تستنهض بها الهمم لمواجهة الغزوات التبشيرية الجديدة المسماة بالعولمة.

والله من وراء القصد.

"إذا هم عبدي بسيئة، فلم يعملها؛ فاكتبوها له حسنة، فإن عملها؛ فاكتبوها له سيئة، فإن تاب منها؛ فامحوها عنه، وإذا هم عبدي بحسنة فلم يعملها؛ فاكتبوها له حسنة، فإن عملها؛ فاكتبوها بعشرة أمثالها إلى سبعمئة ضعف".

رواه ابن حبان عن أبي الدرداء.

خطبة الجمعة

سياحة تاريخية



فضيلة الشيخ محمد الغزلى
رحمه الله

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. وأشهد أن محمداً رسول الله، الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، والسراج المنير. اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.

أما بعد:

فإن الله جل شأنه ذكر بلدنا هذا - مصر - في مواطن كثيرة من كتابه العزيز، وهذا يشير إلى أن بلدنا هذا - مصر - قديم التاريخ موصول الحضارة، تعتبر المدنية التي نبتت على شاطئه من أعرق المدنيات على ظهر الأرض، ويبدو أن الحياة الرتيبة في هذا الوادي، وأن الاستقرار الذي يصبغ جوه وأحواله عموماً أعان على تكوين حضارة في بلدنا هذا.. حضارة تغلغلت في تاريخ الإنسانية وتركت أثراً واضحاً نضح على ما حولها، وأفاد الآخرون منه إفادة غير منكورة.

وكانت الحضارة المصرية على الإجمال متدينة، يظهر أن تربة هذا الوادي لا يصلح فيها الإلحاد ولا ينشبث بها إلا الإيمان.

ومع أن حضارة المصريين الأقدمين اختلط الإيمان فيها بين توحيد، وتعديد، فإنها على الإجمال كما قلت لكم كانت حضارة متدينة، وكان الشرك فيها إن حدث فاستجابة للرأي السائد يومئذ في الدنيا، وهو رأي يرفضه الإسلام بداهة.

هذا الرأي أساسه أن الاتصال بالله الواحد صعب وأنه لابد من وسطاء يمهدون له أو يوصلون إليه، وبداهة رفض الإسلام هذا المعنى لأنه أعطى كل امرئ الحق إذا عبد الله أن يقف بين يدي ربه يقول له:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

«الفاتحة: ٢ - ٣»

وإذا أذنب أن يقف أمام ربه نادماً مستعبراً يقوله:

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا
وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

«الأعراف: ٢٣»

لكن أجيالاً ضلت طريقها لم تحسن الصلة بالله، وكان المصريون الأقدمون عموماً أهل توحيد حيناً، وأهل تعديد حيناً آخر، وإن كان التوحيد قد غلب عليهم في فترات كثيرة من حياتهم وتاريخهم، ثم وقع شيء لابد أن يذكر، فقد هجم الرومان على مصر، وكان الرومان يومئذ وثنيين واحتلوا هذا البلد قرابة ستة قرون!!.

كانت مدة طويلة كليل الشتاء البارد المظلم، وكان مجيء الرومان إلى مصر في موجة من موجات المد التي تجعل بعض الأجناس يستغل خصائصه، ويمتطي قواه كي يستعبد غيره ويستخلص لنفسه خيره، ويجعل من نفسه سيداً، ومن الناس عبيداً!!.

كان الرومان لما دخلوا مصر على هذا النحو، ووقعت أمور نذكرها في أثناء احتلال الرومان لمصر ظهرت المسيحية، وقيل إن عيسى ابن مريم وأمه جاءا إلى بلدنا هذا، فارين من بطش الرومان، ومن ضغط حكامهم، أو من عسف الحاكم هناك ومن ضغطه، ورجع بعد أن نمى عوده، وأخذ يؤدي دعوته في فلسطين.

لكن المصريين كانوا قد اعتنقوا النصرانية، ولما اعتنق المصريون النصرانية ضاق الرومان بهم، وغضبوا منهم، لأن الرومان عباد أصنام، لأن الوثنية الرومانية كانت تصبغ الحكم صبغة شديدة، حاول الرومان أن يردوا المصريين عن المسيحية التي اعتنقوها ولكن المصريين أبوا وتشبثوا بدينهم الذي اختاروه لأنفسهم.

وبدأ عصر من العسف والطغيان والمذابح حتى قيل إنه ما من قرية من مصر أو مدينة إلا سفك فيها الدم وكثر فيها القتلى!!.

أبى المصريون أن يتركوا الديانة النصرانية التي اختاروها لأنفسهم، وبدأ بهذا العصر الذي يسمى «عصر الشهداء» بدأ التاريخ المسيحي في مصر، وهو تاريخ يشرف أهله، لأن أهله قاوموا عبادة الأصنام، ودفعوا ثمن المقاومة من دمهم وأبوا إباء شديداً أن يتحولوا عن التوحيد وعن الكتاب السماوي الذي جاءهم، ثم شاء الله بعد ذلك أن يدخل الرومان المسيحية!!.

ولكن الرومان لما دخلوا المسيحية دخلوها على نحو غريب، حتى قال بعض المفسرين: لا يدري أتنصر الرومان أم تروّمت

النصرانية؟!.

أياً ما كان الأمر فقد تحول الرومان إلى النصرانية واعتبرت الديانة الرسمية لهم، لكن المذهب أو الفهم الذى استقر الرومان عليه كان فهماً آخر غير الفهم الذى استقر عند المصريين.

وحدث نزاع نظرى تحول إلى جدل مر، وإلى أخذ ورد طويلين، ثم رأى الرومان وعلى رأسهم هرقل أن يفرض المذهب الرومانى ومذهب الكنيسة الكاثوليكية على المصريين!!.

وهنا قاوم المصريون الرومان وبدءوا عصراً يشبه العصر الأول، عصر الاضطهاد والاستشهاد، إلا أن هذا العصر الجديد لم يطل، فقد شاء الله أن يخرج من قلب جزيرة العرب مد إسلامى عريض انتشر فى أنحاء العالم انتشار السنا بعد ليل معتكر، انتشار الرحمة بعد عصر ملئ بالقسوة والمرارة!!.

ونال -المصريين- شىء من هذه الرحمة، فإذا عمرو بن العاص يقرع أبواب البلاد وهى فى حال منكرة من الاضطهاد والفوضى!!.

لما دخل عمرو بن العاص عرض دينه عرضاً عادياً!!

الناس لا تفهم كيف عرض عمرو الإسلام؟

إن الإسلام لا يعرض فى مجالس مناظرة، وهو فى مجالس المناظرة قادر على أن يقهر الخصم، وأن يعلن الدليل، ولكن الإسلام عرض نفسه حكماً عادلاً ومجتمعاً فاضلاً، ونفوساً بلغ من صفائها وعفتها أن قال الراقعى فيها: «ربما خافت البنت على نفسها من أبيها، ولكنها لا تخاف على نفسها من الفاتح العربى المسلم»!!.

دخل الإسلام مصر حرية عقل وضمير، وتوازن مجتمع لا تطغى فيه طبقة على أخرى، دخل الإسلام مصر، وأمام المسلمين قول نبيهم ﷺ لهم: «إنه لا قُدِّست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع»[1].

والعجيب أن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - الذى دخل مصر فبنى هذا المسجد - مسجد عمرو بن العاص - للركع السجود، والذى أقام حكماً ذوب فيه الفوارق بين الأجناس والألوان، عندما أخذت ابنه نشوة من نشوات النصر، أو نزوة من نزوات العرب، أو قوة من قوى الجاهلية فأساء إلى أحد الأقباط، وكان القبطى ماكراً لبيباً، فذهب إلى الرجل الذى أرسل عمراً، ذهب إلى عمر نفسه وشكى له!!

فجاء عمر صاحب محمد ﷺ وتلميذه، جاء بالقبطى المظلوم وبابن عمرو بن العاص ابن الحاكم وقال لعمرو:

متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً..؟!

ثم قال للقبطى: خذ حقك من ابن الأكرمين!!

ثم قال فى فترة من فترات الغضب لله: «لو شئت أدرت السوط على صلعة عمرو بن العاص!!».

هذا حكم النبوة، هذا حكم الإسلام!!

كان الإسلام يومئذ عقيدة تعرض نفسها، ولكن على أى شىء تعتمد؟

على صفاء حقائقها، على نضارة عقائدها وغزارة فضائلها، ووفرة المثل الرفيعة التى تدعو إليها.

والرجل يوم يكون صاحب ثروة طائلة من الصدق والشرف والرحمة والوفاء والعفة فإنه يطمئن إلى أن ثروته هذه ستوطئ له الأكناف، وتفتح له القلوب، وتضئ له النواصى.

ولذلك ما فكر الإسلام فى بلد دخله أن يقيد الحريات.

لم يقيدها؟ والحرية عونه الأول على غرس الإيمان وتصحيح المعتقد، ما فكر الإسلام يوماً أن يقيم حكماً استثنائياً.

ولم يقيمه؟ والعدالة هدفه، وهو يعلم أن الله عزوجل إنما ينصر أو يهزم بمقدار قوة الصلة به أو ضعف هذه الصلة.

ظل المسلمون الذين جاءوا إلى مصر وهم أربعة آلاف مع عمرو لحقهم عدد قليل بعد ذلك من الناس بعد أن قوضوا الحكم الرومانى، ظلوا على هذا النحو قلة، ولكن المصريين أخذوا يغلغلون البصر فى الدين الجديد، وفى المبادئ التى قام عليها، وبدءوا يدخلون فيه، وظل المصريون يدخلون فى الإسلام خلال القرن الأول، وخلال القرن الثانى، ولم يتحول الإسلام فى مصر إلى كثرة فى السكان إلا فى القرن الثالث تقريباً!!، والأساس هو ما قلت لكم: دين لا يعرف قط إلا مخاطبة العقل الحر، وإيقاظ الضمير النائم، وما يعتمد فى نشر مبادئه على عصا أو على إكراه

يخطئ المسلمون فى مصر الآن خطأين:

الخطأ الأول: أن عدداً منهم لا أدرى أهو عدد كبير أم صغير؟، يقول بشىء من الغباء: إننا عرب، يقصد بذلك أنه نسل الفاتحين، هذا كذب، هذا كذب!! ولعل مركب النقص هو الذى يدفع إلى هذا الزعم!! فنحن فى الحقيقة أبناء المصريين الذين أسلموا!! ربما كان هناك عدد من أبناء العرب الذين وفدوا، لكن هذا العدد قليل!! أما الكثرة الكبرى من المسلمين فهم أبناء المصريين الذين دخلوا فى الإسلام.

وعندما يقول المسلمون إنهم أبناء الفاتحين يعطون غيرهم حجة مكذوبة أنهم أبناء مصر وأن غيرهم وافد وطارئ، وهذا غير صحيح!! يجب أن نعرف الحقائق فإن أكثرنا غافل.

أريد أن أقول لكم: إن شيخ الأزهر العباسى المهدى كان أبوه قبطيا!!

ويوجد بين أئمة المساجد الآن وبين مفتشى المساجد وبين علماء الأزهر رجال آباؤهم أو أجدادهم من الأقباط!!.

فالقول بأن المسلمين أبناء الفاتحين غلط فاحش ما ينبغى أن يقال، هذا خطأ يرتكب!!.

الخطأ الثانى: الذى يرتكبه المسلمون أنهم يسمون مجئ عمرو بن العاص إلى مصر: الفتح العربى لمصر!!.

---

(1) رواه ابن ماجة فى الصدقات، باب لصاحب الحق سلطان بسند صحيح ٢/ ٨١٠ ومعنى: متعتع أى من غير أن يصيبه أذى يقلقه أو يزعجه

كان هذا التعبير سليماً يوم كانت كلمة فتح تعني شيئاً آخر غير المفهوم الذى عرف به الآن فى العالم، فكلمة الفتح الآن تساوى الغزو والحقيقة أن الوصف الدقيق لمجئ العرب إلى مصر هو تحرير العرب للمصريين!!.

الجيش الذى انطلق من المدينة عباه أبناء محمد ﷺ فى عقيدته، وحملوه راية التوحيد، لم ينطلق كى يكره على إيمان، وإنما انطلق كى يحرر شعوباً مستعبدة أو كما قال أحد القادة لحاشية كسرى تقولون: لم جئتم؟

«جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد»!! لم نجئ لنستعبد الخلق، والدين لله، هذا ما ينبغى أن يعرف.

إن العرب لما خرجوا من جزيرتهم إلى مصر أو الشام لم يخرجوا مستعمرين أو طلاب دنيا، لماذا؟ لأن طلب الدنيا فى دينهم جريمة!!.

رجل قال لرسول الله ﷺ: «إنى أقف المواقف أريد وجه الله وأحب أن يُرى موطني»؟ فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً حتى نزلت هذه الآية:

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾

«الكهف: ١١٠» «٣٠»

اعتبر الرياء شركاً، اعتبر القتال طلباً للدنيا جريمة

وقال فى تعريف الجهاد: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله» «٣٠».

هذا هو الإسلام، فالذين جاءوا إلى مصر أو ذهبوا إلى سوريا، ما جاءوا وما ذهبوا كى يقال: إنهم فتحوا أو إنهم غلبوا أو إنهم ملكوا.. لا.. لا، كانوا يعملون لله، ويؤدون حق الله، وكانت الآخرة أحب إليهم من الدنيا، وكان الموت فى سبيل الله أحلى مذاقاً فى أفواههم من أن يعودوا إلى زوجاتهم وأولادهم، كانوا أصحاب عقائد، وإذا حلا لبعض المستشرقين أن يتساءل ما الذى جاء بالعرب إلى أفريقيا أو إلى آسيا؟.

فلنقل له قبل ذلك: وما الذى جاء بالرومان إلى مصر، وإلى آسيا الصغرى، وإلى الشمال الأفريقى كله؟!.

قبل أن تسأل: ما الذى جاء بالعرب ليحرروا، اسأل نفسك ما الذى جاء بأجدادك هنا ليستعبدوا؟!.

لا تقل لم جاء العرب مصر؟ سل نفسك أولاً لم جاء الرومان مصر؟ إن المحرر لا يسأل عن فعله، وإنما يسأل المستعبد عما صنع!! ثم إن الجزية التى يتحدث البعض عنها ما كانت أكثر من توازن اقتصادى بين المسلمين وغيرهم.

كان المسلم مكلفاً بدفع الزكاة، وكان مكلفاً بدفع ما يقيم عدة الحرب، وجهاز القتال، ولم يكن أهل الذمة مكلفين لا بقتال ولا بمساهمة فى قتال ولا بالإعداد له بقرش ولا بدفع زكاة!!.

فإذا كان المسلمون سيأخذون القليل فى نظير أن ينهضوا هم بالحماية فأى عيب فى ذلك؟.

ويقول التاريخ: إن أبا عبيدة بن الجراح لما وصل إلى «حمص» وأخذ من أهلها الجزية أكرهته بعض العمليات العسكرية على أن ينسحب فقرر رد الجزية إلى الناس، فقالوا: ما هذا؟.

لقد تعودوا أن الحكام يأخذون ولا يردون، تعودوا أن الحكام، يغصبون ولا يعدلون، فوجدوا حاكماً أخذ منهم بالأمس جنيهاً وهو يرده اليوم!!

فقال لهم: لقد أخذنا منكم هذه الجزية فى نظير أن ندفع عنكم أما إذ عجزنا عن الدفاع فلا يحق لنا أن نأخذها!! فقالوا لأبى عبيدة: استبق المال معك، وسنقاتل الرومان معكم معشر العرب جنباً إلى جنب، فما عانينا من ظلمهم يجعلنا نتفق معكم على قتالهم!!

إن التاريخ ملئ بالإشاعات الكاذبة، ومن الإشاعات التى روج المسلمون لها للأسف أن الإسلام دخل مع الفاتحين وأنه دين الفاتحين وهذا غير صحيح.

فماذا كانت علاقة الإسلام بغيره من الديانات بعد أن أصبح دين الكثرة هنا؟.

المسلمون فى أرض الله كلها ناس طيبون وسمحاء، والتعصب لا يعرف طريقاً إلى قلوبهم، والحروب الدينية التى جعلت سطح أوربا ملوثاً بالدم مليئاً بالفتن، هذه الحروب لا يعرفها العالم الإسلامى، إن العالم الإسلامى عاش على فهم أنه يمكن أن يتعاون اثنان بينهما اختلاف دين على أمر ما!!.

وقد حدث أن النبى عليه الصلاة والسلام وهو يهاجر حين استأجر الدليل على الطريق استأجره مشركاً.

مشى الإسلام فى بلدنا على هذا النحو يعيش بسماحته، ويعيش بقدرته الذاتية على الحياة، إلى أن نكب بالاستعمار الأوربى، وحدث ما حدث فى تاريخ يطول، ثم بدأنا ننتعش ونعود، لكننا عندما حاولنا أن نعود وجدنا الاستعمار قد نكبنا بنكبتين من لونين مختلفين!!.

فى عهد مضى نكبنا بالمادية الحيوانية، والمادية الحيوانية فلسفة تجعل الشباب يعيشون بحثاً عن الشهوات، تجعل الناس يكدحون لمأرب خسيس أو غرض قريب، المادية الحيوانية تجعل العيش فى الأرض للأرض، وهى مادية قصد بها تكوين جيل مقطوع عن دينه يبحث عن الأهواء والدنايا فقط!!.

والذى أريد أن أقوله بعد هذه السياحة التاريخية المتقطعة:

«٣٠» رواه ابن أبى حاتم. تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٨

«٣٠» رواه البخارى فى الجهاد. باب من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ٤/ ٢٤ ومسلم فى الإمارة. باب من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ٦/ ٤٦ وابن ماجة فى الجهاد. باب النية فى القتال ٢/ ٩٣١

أيها المسلمون : إن التمسك بالدين ضرورة حياة لكم ، وإن الذى يتصور، التمسك بالدين طريقا إلى السجن مخطئ جدا ، وإن الذى يتصور التمسك بالدين طريقا إلى السجن ، ثم يترك دينه فهو مجرم !! فالسجن أولى من ترك الدين !!.

ومع هذا فنحن لا نقول ما قال يوسف :

﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾

«يوسف : ٣٣»

فإننا لا ندعى الآن إلى منكر ، لا ندعى الآن إلى ضلالة ، إننى أهيب بالشباب ، بالجيل الناشئ ألا يهاب العودة إلى دينه ، أن يكون جريئا فى التمسك بإيمانه وانطلاقه تحت راية التوحيد ، غير متهيب ولا متوجس ، ولا قلق ولا جزوع ، يجب أن يعلم أن راية الإيمان لابد أن تمشى القوافل تحتها حثيثة كثيفة لا تخاف ولا تخشى .

ثم أقول للمسلمين شيئا آخر : إن الضعيف لا يقويه أن يهدم غيره ، إن الضعيف سيبقى ضعيفا ، ولو أن غيره تلاشى من الأرض ، ولو أن أعداء الإسلام اختفوا جميعا من هذه الدنيا وبقى المسلمون على الوضع الذى هم عليه الآن نظريا ونفسيا وخلقيا فإن الأرض لا تصلح بهم ولا يستحقون التمكين فيها !!

إننى أقول للمسلمين استرجعوا دينكم بحقائقه ، عيب أن يكون الشباب المسلم أو الطالب المسلم متأخرا فى ثقافته أو فى دراسته ، وغيره قوى فى دراسته ، أو فى معرفته وعلومه !!.

عيب أن يكون التاجر المسلم ضعيفا فى عمله ، مضطربا فى أسلوبه ، غاشا فى سلعه، ثم يحسد الآخرين إذا نجحوا أو تقدموا .

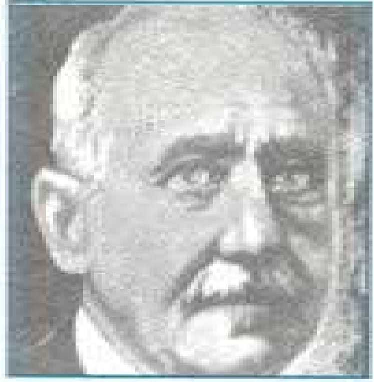
ألا فليستيقظ المسلمون ، إن يقظة المسلمين لا تعنى أكثر من أن يتمسكوا بدينهم ، ويحترموا إخوتهم ، ثم الآخرون ممن ليسوا على ديننا سوف يعيشون معنا كما عاشوا على امتداد القرون ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا !! بل ربما قلنا : «لهم ما لنا من الحقوق وأكثر !! وعليهم ما علينا من واجبات بل أقل»!!

إننا نحن المسلمين ليس فى تاريخنا الطويل أننا أصحاب تعصب ، ولكن فى تاريخنا الطويل أننا أصحاب طيبة قد تبلغ حد الغفلة والجهل !!

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم

«إذا تقرب إليّ العبد شبرا تقربت إليه ذراعا ، وإذا تقرب إليّ ذراعا تقربت منه باعا ، وإذا أتى إليّ مشيا أتيته هرولة» .

رواه البخاري عن أنس وأبي هريرة ، وأبو عوانة والطبري عن سلمان



بنى مصر



أمير الشعراء / أحمد شوقى بك

بنى مصر مكانكمو تهيَّا ... فهيَّا مهِّدوا للمُلك هيَّا
خذوا شمس النهار له حليًّا ... ألم تك تاج أولكم مليَّا ؟!
على الأخلاق خُطُّوا الملك وابنوا ... فليس وراءها للعز ركن
أليس لكم بوادى النيل عدنٌ ... وكوثرها الذى يجرى شهيًّا ؟!
لنا وطنٌ بأنفسنا نقيه ... وبالدُّنيا العريضة نفتديه
إذا ما سيلت الأرواح فيه ... بذلناها كأنْ لم نُعط شيَّا
لنا الهرمُ الذى صحب الزمانا ... ومن حدثانه أخذ الأمانا
ونحنُ بنو السنا العالى ، نمانا ... أوائلُ علَّموا الأمم الرقيَّا
تطاولُ عهدهم عزا وفخرا ... فلما آل للتاريخ ذُخرا
نشأنا نشأةً فى المجد أخرى ... جعلنا الحقّ مظهرها العليَّا
جعلنا مصر ملَّة ذى الجلال ... وألفنا الصليب على الهلال
وأقبلنا كصفٍّ من عوالٍ ... يُشدُّ السمهرىُّ السمهريَّا
نرومُ لمصر عزًّا لا يُرامُ ... يرفُّ على جوانبه السلامُ
وينعمُ فيه جيرانٌ كرامُ ... فلن تجد النزيل بنا شقيَّا
نقومُ على البناية محسنينا ... ونعهدُ بالتمام إلى بنينا
إليكِ نموتُ - مصرُ - كما حيينا ... ويبقى وجهك المفدى حيَّا

حان وقت العمل..
فى مناخ من الأمن والأمل

الأستاذ الدكتور محمد فتحى فرج
كلية العلوم - جامعة المنوفية

إن الذى تحقق لمصر وشعبها العظيم خلال سبعة عشر يوما (٢٥ يناير - ١١ فبراير ٢٠١١) من الصمود فى «ميدان التحرير»، لم يكن أحد - مهما أوتى من خيال جامح - أن يتخيله أو حتى يحلم به، ولعل ذلك يذكرنا بالآية الكريمة:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

الرعد: ١١

فحينما قهر شبابنا وجموع شعبنا الكريم، الخوف داخل أنفسهم، أيدهم الله بقوة من عنده ونصرهم، والله تعالى يقول أيضا:

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾

الأنفال: ١٧

ولعل هذه النتيجة الجيدة هى أيضا ثمرة من ثمرات الحديث النبوى الشريف: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[1].

وتعاونوا على البر والتقوى

تنهض شريعة الإسلام وآدابه على أسس قويمة وأحكام سليمة وواقعية، وهى كلها فى صالح الفرد والمجتمع، حيث تنظر شريعتنا الغراء إلى الفرد على أنه جزء مهم لا يتجزأ من بنيان الأمة، وعضو فاعل من أعضائها لا يُغنى عنه سواه، بحيث يستفيد من مجموع الأعضاء ويفيدها فى الوقت ذاته، فالقلب لا يغنى فى أدائه لوظيفته عن المعدة فى أدائها لوظيفتها، فلكل وظيفته فى خدمة الجسم، كما لا يستغنى هو أيضا عن وظائف بقية أعضاء الجسم الأخرى. وأفراد الأمة كأعضاء الجسد الواحد، وحينما ينظر كل فرد فى الأمة إلى كيانه الفردى ودوره الاجتماعى على هذا النحو فإنه يصبح إنسانا إيجابيا لا يتقاعس عن أداء مهمته ودوره مهما كان. والواقع أن الأمة إن هى إلا حاصل مجموع أبنائها، ولكن هذا الحاصل يتضاعف كثيرا بهذه الوحدة حتى ليفوق القيمة الحسابية البسيطة لهذا المجموع، وهذا

(١) صحيح مسلم.

ما حدث فى ميدان التحرير حيث شكلت تلك الجموع مطالب أمة أرادت التغيير ومكافحة الفساد، فكان لها ما أرادت بإذن الله.

مكافحة الفساد وبناء الأمجاد

تأملت بعض فيوضات الله تعالى على الشيخ الشعراوى، حينما تحدث فى أحد حلقات برنامجه التليفزيونى الشهير «من خواطر الإيمان»، الذى كان يقدمه لسنوات طويلة فى التليفزيون المصرى، حول الثائر الحق وذلك فى معرض تفسيره لقوله تعالى من سورة هود:

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾

(هود: ٢٧)

وتعجبت، فالرجل كأنه لايزال يعيش بين ظهرانينا، فماذا قال؟

يقول الشيخ: لم ينف نوح - عليه السلام - ذلك، لأن الذين اتبعوه قد يكونون من الضعاف، وهم ضحايا الإفساد، لأن القوىّ فى المجتمع لا يقربه أحد، ولذلك فإنه لا يعانى من ضغوط المفسدين أما الضعاف فهم الذين يعانون من المفسدين، فما إن يظهر المخلّص لهم من المفسدين فلابد أن يتمسكوا به.

ويتابع الشيخ ليستدرك بقوله: ولكن ذلك لا يعنى أن الإيمان لا يلمس قلوب الأقوياء، بدليل أن البعض من سادة وأغنياء مكة استجابوا للدعوة المحمدية مثل:

أبى بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعبدالرحمن بن عوف - رضى الله عنهم أجمعين - بيد أن الغالب فى دعوات الإصلاح أنه يستجيب لها المطحونون بالفساد، وهؤلاء هم الذين يشعرون بالغليان فى مراجل الألم بسبب الفساد، وما إن يظهر داعية إلى الإصلاح ويريد أن يزحزح الفساد، حتى يلتفون حوله ويتعاطفون معه، وإن كانوا غير عبيد، لكنهم محكومون بالغير، فهم يؤمنون علنا برجل الإصلاح، وإن كانوا عبيدا مملوكين للسادة فإنهم يؤمنون خفية، ويتحمل القوى منهم الاضطهاد والتعذيب.

الشعراوى

إذن: فكل رسول يأتى إنما يأتى فى زمن فساد، وهذا الفساد ينتفع به بعض الناس، وطغيان يعانى منه الكثيرون الذين وقع عليهم الفساد والطغيان ويأتى الرسول وكأنه «ثورة» على الطغيان والفساد، لذلك يتمسك به الضعفاء والفقراء ويفرحون به، وتلتف قلوبهم حوله.

أما المنتفعون بالفساد فيقولون: إن أتباعك هم أراذلنا وكأن هذا القول طعن فى الرسول، لكنهم أغبياء، لأن هذا القول دليل على ضرورة مجىء الرسول، ليخلّص هؤلاء الضعفاء، فيجىء الرسول ليقود غضبة على فساد الأرض، ولينهى هذا الفساد. وهى غضبة تختلف عن غضبة الثائر العادى من البشر فالثائر من الناس يرى من يصفق له من المطحونين بالفساد.

إلا أن آفة الثائر من البشر شىء واحد، يتمثل فى أنه يريد أن يظل ثائرا، ولكن الثائر الحق هو الذى يثور ليهدم الفساد، ثم يهدأ ليبنى الأمجاد. فلا يسلط السيف على الجميع، ولا يفضل قوما على قوم، ولا يذل من طغى عليه ،ويظلم من طغوا

حان وقت العمل.. فى مناخ من الأمن والأمل



الأستاذ الدكتور محمد فتحى فرج

كلية العلوم - جامعة المنوفية

إن الذى تحقق لمصر وشعبها العظيم خلال سبعة عشر يوما (٢٥ يناير - ١١ فبراير ٢٠١١) من الصمود فى «ميدان التحرير»، لم يكن أحد - مهما أوتى من خيال جامح - أن يتخيله أو حتى يحلم به، ولعل ذلك يذكرنا بالآية الكريمة:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

الرعد: ١١

فحينما قهر شبابنا وجموع شعبنا الكريم، الخوف داخل أنفسهم، أيدهم الله بقوة من عنده ونصرهم، والله تعالى يقول أيضا:

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾

الأنفال: ١٧

ولعل هذه النتيجة الجيدة هي أيضا ثمرة من ثمرات الحديث النبوى الشريف: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[1].

وتعاونوا على البر والتقوى

تنهض شريعة الإسلام وآدابه على أسس قويمة وأحكام سليمة وواقعية، وهي كلها في صالح الفرد والمجتمع، حيث تنظر شريعتنا الغراء إلى الفرد على أنه جزء مهم لا يتجزأ من بنيان الأمة، وعضو فاعل من أعضائها لا يُغنى عنه سواه، بحيث يستفيد من مجموع الأعضاء ويفيدها في الوقت ذاته، فالقلب لا يغنى في أدائه لوظيفته عن المعدة في أدائها لوظيفتها، فلكل وظيفته في خدمة الجسم، كما لا يستغنى هو أيضا عن وظائف بقية أعضاء الجسم الأخرى. وأفراد الأمة كأعضاء الجسد الواحد، وحينما ينظر كل فرد في الأمة إلى كيانه الفردى ودوره الاجتماعي على هذا النحو فإنه يصبح إنسانا إيجابيا لا يتقاعس عن أداء مهمته ودوره مهما كان. والواقع أن الأمة إن هي إلا حاصل مجموع أبنائها، ولكن هذا الحاصل يتضاعف كثيرا بهذه الوحدة حتى ليفوق القيمة الحسابية البسيطة لهذا المجموع، وهذا

(١) صحيح مسلم.

ما حدث في ميدان التحرير حيث شكلت تلك الجموع مطالب أمة أرادت التغيير ومكافحة الفساد، فكان لها ما أرادت بإذن الله.

مكافحة الفساد وبناء الأمجاد

تأملت بعض فيوضات الله تعالى على الشيخ الشعراوى، حينما تحدث في أحد حلقات برنامجه التليفزيونى الشهير «من خواطر الإيمان»، الذى كان يقدمه لسنوات طويلة في التليفزيون المصري، حول الثائر الحق وذلك في معرض تفسيره لقوله تعالى من سورة هود:

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾

(هود: ٢٧)

وتعجبت، فالرجل كأنه لايزال يعيش بين ظهرانينا، فماذا قال؟

يقول الشيخ: لم ينف نوح -عليه السلام- ذلك، لأن الذين اتبعوه قد يكونون من الضعاف، وهم ضحايا الإفساد، لأن القوىّ في المجتمع لا يقربه أحد، ولذلك فإنه لا يعانى من ضغوط المفسدين أما الضعاف فهم الذين يعانون من المفسدين، فما إن يظهر المخلِّص لهم من المفسدين فلابد أن يتمسكوا به.

ويتابع الشيخ ليستدرك بقوله: ولكن ذلك لا يعنى أن الإيمان لا يلمس قلوب الأقوياء، بدليل أن البعض من سادة وأغنياء مكة استجابوا للدعوة المحمدية مثل:

أبى بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعبدالرحمن بن عوف -رضى الله عنهم أجمعين- بيد أن الغالب في دعوات الإصلاح أنه يستجيب لها المطحونون بالفساد، وهؤلاء هم الذين يشعرون بالغليان في مراجل الألم بسبب الفساد، وما إن يظهر داعية إلى الإصلاح ويريد أن يزحزح الفساد، حتى يلتفون حوله ويتعاطفون معه، وإن كانوا غير عبيد، لكنهم محكومون بالغير، فهم يؤمنون علنا برجل الإصلاح، وإن كانوا عبيدا مملوكين للسادة فإنهم يؤمنون خفية، ويتحمل القوى منهم الاضطهاد والتعذيب.



الشعراوى

إذن: فكل رسول يأتى إنما يأتى في زمن فساد، وهذا الفساد ينتفع به بعض الناس، وطغيان يعانى منه الكثيرون الذين وقع عليهم الفساد والطغيان ويأتى الرسول وكأنه «ثورة» على الطغيان والفساد، لذلك يتمسك به الضعفاء والفقراء ويفرحون به، وتلتف قلوبهم حوله.

أما المنتفعون بالفساد فيقولون: إن أتباعك هم أراذلنا وكأن هذا القول طعْن في الرسول، لكنهم أغبياء، لأن هذا القول دليل على ضرورة مجيء الرسول، ليخَلِّص هؤلاء الضعفاء، فيجيء الرسول ليقود عصبة على فساد الأرض، ولينهى هذا الفساد. وهي عصبة تختلف عن عصبة الثائر العادى من البشر فالثائر من الناس يرى من يصفق له من المطحونين بالفساد.

إلا أن آفة الثائر من البشر شيء واحد، يتمثل في أنه يريد أن يظل ثائرا، ولكن الثائر الحق هو الذى يثور ليهدم الفساد، ثم يهدأ ليبني الأمجاد. فلا يسلط السيف على الجميع، ولا يفضل قوما على قوم، ولا يذل من طغى عليه، ويظلم من طغوا

بل عليه أن يحكم بين الناس بالعدل والرحمة؛ لتستقيم الأمور، وتذهب الأحقاد، ويعلم الناس كلهم أن الثائر ما جاء ضد طائفة بعينها، وإنما جاء ضد ظلم طائفة لغيرها، فإذا أخذ من الظالم وأعطى المظلوم فليجعل الاثنين سواء أمام عينيه ومن هنا يجيء الهدوء والاستقرار في المجتمع[٢].

رحم الله أستاذنا العظيم، فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي، الذي كان يفسر القرآن بإخلاص شديد، دون أن يخشى في الله لومة لائم، مما جعل الرئيس الأسبق «أنور السادات» يقول له مداعبا: «أنت تريد أن تحرض الشعوب على زعمائها يا شيخ شعراوي»؟

فحينما يقرأ المرء هذا التفسير لفضيلته، على هذا النحو يشعر وكأنه معنا يحادثنا ويعيش أحداث ثورتنا المباركة! لقد كان بحق ترجماننا عصريا للقرآن في هذا الزمان -رحمه الله رحمة واسعة-.

الأمن والعمل الجاد

الخوف أعدى أعداء الإنسان، فقد يبيت على الطوى من لا يجد ما يقتات به، إلا أن الخائف قد يطلب النوم فلا يحظى منه بسنة! ولذا فإن الأمن والأمان نعمة من الرحمن وأي نعمة، ولأهمية نعمة الأمن والأمان فقد أثر عن النبي ﷺ قوله: «من أصبح آمنا في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»[٣].

إن ما كانت تتيه وتفخر به مصر على سائر الأمم والشعوب هو نعمة الأمن والأمان، التي كانت تتميز بها، وستظل كذلك إن شاء الله تعالى، ما دام أبناؤها وشبابها حريصا عليها، ساهرا على حمايتها، يعرف قيمتها وفضلها، ويكفي أنها البلد الوحيد التي ذكرها ربنا جل وعلا في قرآنه الكريم وكلامه القديم. كما أنها البلد التي شرفت بضيافة أنبيائه الكرام، وساروا على أرضها الطاهرة.

ينبغي علينا جميعاً، أفرادا وجماعات ومؤسسات، أن نحرص على توفير الأمن والأمان في هذا البلد الطيب، وقد ظهرت أهمية ذلك جليا خلال الفترة التي انسحبت فيها -مؤقتا- قوات الشرطة، فقيض الله لها من بنيها الشرفاء، من قاموا بهذا الدور على خير وجه، إلى أن انتهت تلك الفترة العصيبة، فكان امتحانا قاسيا، إلا أن نتيجته كانت النجاح والفلاح.

وفي ظل هذا الأمن والأمان يمكن أن نعمل وننتج ونبني بلدنا، ولذا ينبغي علينا جميعا أن نعمل بجد واجتهاد، فالأمم الناهضة إنما نهضت بالعمل، ولن أذكر بالإحصائية الشهيرة المشينة، التي يعرفها القاصي والداني، والتي تقول: إن نصيب المصري، من وقت العمل، لم يكن يتجاوز نصف ساعة في اليوم، على أحسن تقدير! هذا زمن ولى، ولا نريد له أن يعود.

ينبغي علينا جميعا ونحن نتوجه بكليتنا إلى العمل أن نلجأ أيضا إلى قيمة الإجادة والتجويد في هذا العمل أيا ما كان، وقد كان عمالنا معروفين بهذه الإجادة حتى إن الدولة العثمانية كانت تلجأ إلى المصريين المجيدين لكي ينجزوا في الآستانة ما قاموا به من إنجاز في مصر المحروسة!

(٢) الشيخ محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي، دار أخبار اليوم، ص: ٦٤٣.

(٣) أحاديث الإحياء للعراقي.

ومن ثم أحلم بسائق السيارة المحسن لقيادتها، والذي لا يتجاوز حدوده في هذه القيادة ويحقق المقولة: القيادة فن وذوق وأخلاق! وهذا من شأنه عودة الانضباط إلى الطرق ووسائل المواصلات، فيتوقف نزيف الدم المسال ليل نهار، جراء حوادث السيارات دون أسباب معقولة أو مبررات مفهومة! ومثل قائد السيارة المعلم في مدرسته، والفلاح في حقله، والمهندس في عمله، والباحث في معمله، وطالب العلم في معهده، ورجل العدل في ساحته، ومثل الشرطة في ميدانه.. وهكذا.

نريد أن نودع الفوضى واللامبالاة، والرشوة وأكل أموال الناس بالباطل، والمحسوبية، و«الفهلوة»، و«الأنامالية»، التي من معانيها السلبية وعدم الاكتراث، نريد أن نكرس قيم الانتماء والمحافظة على الهوية العربية والإسلامية.

ثم أحلم أيضا بالمحافظة على الوقت، فلا نسعى لتدميره، حتى إن البعض منا أحيانا يلجئون لتعبير بغيض مؤداه: هيا بنا نقتل الوقت! وهم قد يعلمون أو لا يعلمون أن هذا الوقت هو عمرهم، الذي سوف يسألون عنه يوم القيامة.. فيم ضيعونه؟ وفي هذا السياق أيضا أحلم بمن يحافظون على وعدهم ومواعيدهم، والمحافظة على الوعود والمواعيد من شيم الكرام المتحضرين، وهي أيضا من سمات المؤمنين العاملين.

نسيان النفس

ولا أستطيع أن أنهي مقالي إلا بكلمة لعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين -رحمه الله- قالها في مثل ظروفنا هذه، إبان ثورة يوليو سنة ١٩٥٢، لها مدلولها ومغزاها في ظروفنا الراهنة، التي تسعى فيها كثير من الفئات لتحقيق مآرب شخصية، وهي على شرعيتها ليس هذا أوانها، حتى تستقر البلاد، وتدور عجلة الإنتاج كما كانت، ويحدث الانتعاش الاقتصادي، وحينها يحق لكلٍّ أن يطلب ويطالب بما يريد. يقول الدكتور طه حسين: ما أكثر ما تمنيت على الله عز وجل أن يعلمني ويعلم المواطنين نسيان أنفسنا حين يجد الجد، ويتعقد الأمر، وتكثر المشكلات، وحين تتصل أعمالنا وأقوالنا بالمصلحة العامة، فنسيان النفس في هذه المواطن هو أقوم سبيل إلى الإخلاص في القول والعمل، والتجرد من الأهواء والأغراض، وإيثار الوطن وآماله على منافعنا ومآربنا. والرجل الشجاع حقا هو الذي يستطيع أن يقهر نفسه قبل أن يحاول أن يقهر غيره، وهو الذي يستطيع أن يضبط نفسه في مواطن الرضى والغضب، فلا يُسرف ولا يغلو، ولا يجني ولا يتجنى، ولا يُرهق الناس من أمرهم عسرا، ولا يؤذيهم في ذات أنفسهم بما يكره أن يؤذوه به في ذات نفسه، وإذا أقبل الوطن على مثل ما يقبل عليه في هذه الأيام، من الأمور العظام، والأحداث الجسام، والإصلاح الذي يريد أن يكون شاملا كاملا، مستقصيا لكل شيء، محتاطا لكل طارئ، كان المصري الصادق في مصريته خليقا أن ينسى نفسه ومنافعه وأهواءه، وأن يخلص قلبه وعقله لخدمة مصر، والنصح لها في كل ما تستقبل من الإصلاح»[٤].



د. طه حسين

(٤) د. طه حسين: مقال بصحيفة البلاغ، بتاريخ ٢٥/٨/١٩٥٢م.

مشكلات المسلمين فى أوغندا

أوغندا إحدى دول حوض النيل، تقع فى وسط شرق أفريقيا، على القسم الشمالى من بحيرة فيكتوريا، بين دائرتى عرض ١،٥ جنوبا و٤ شمالا، يحدها من الشرق جمهورية كينيا ومن الغرب الكونغو الديمقراطية، ومن الشمال السودان الجنوبى ومن الجنوب تنزانيا ومن الجنوب الغربى رواندا، وتبلغ مساحتها نحو ٢٤١،٠٣٨كم٢.

للأستاذ الدكتور/ عبدالله نجيب محمد
معهد البحوث والدراسات الأفريقية - جامعة القاهرة

تكتسب أوغندا أهمية خاصة بالنظر إلى أنها عضو فى الأمم المتحدة، وعضو مؤسس لمنظمة الوحدة الأفريقية، وعضو فى رابطة الكومنولث، وعضو فى السوق المشتركة لشرقى وجنوبى أفريقيا «الكوميسا» وعضو فى الهيئة الحكومية للتنمية (الإيجاد) وعضو فى منظمة المؤتمر الإسلامى.

يبلغ عدد سكان أوغندا نحو ٢٤ مليون نسمة، منهم ٧ ملايين من المسلمين، وبقية السكان يدينون بالمسيحية والمعتقدات الطبيعية، وتضم أوغندا نحو ٢٠ قبيلة رئيسية أشهرها الباجندا - البانياكورى - الباسوجا - الباتيورواباتورا - واللغات المحلية السائدة هى: السوجاندا - الأتشولى - اللانجا - والسواحيلية التى تنتشر بين عدد من القبائل كلغة تفاهم مشترك، واللغة الإنجليزية هى اللغة الرسمية ولغة الدواوين الحكومية.

تتكون أوغندا من عدد من المحافظات أهمها «ماساكا» و«امبرارا» و«جنجا» وعاصمة الدولة هى مدينة «كامبالا» التى بها عدة مساجد أهمها مسجد «كيبلى» الذى يعتبر مع كلية «كيبلى» مركز المسلمين فى المدينة الجميلة الشهيرة، ويعتمد اقتصاد أوغندا على الزراعة بدرجة كبيرة حيث يستوعب هذا القطاع نحو ٨٣٪ من السكان، وأهم الحاصلات الزراعية: الكسافا - البن - القطن - الشاى - التبغ، كما يوجد فى أوغندا قدر من النحاس والقصدير.

عرفت أوغندا قديما نظام الحكم الملكى، ووجدت بها مجموعة من الممالك القوية، وتطرق المسلمون إلى أوغندا منذ القرن الأول الهجرى، منذ عام ٧٦هـ عن طريق الهجرات العربية والتجار القادمون من الشمال من مصر والسودان ومن الشرق من سواحل شرق أفريقيا، وكما هى العادة اختلط هؤلاء بالسكان الأصليين وتزاوجوا معهم ونشروا دينهم.

وفى عهد الخديوى إسماعيل، امتد النفوذ المصرى إلى منطقة البحيرات، ووقعت معاهدة مع ملك اليوجاندا «موتيسا»[١] فى ١٩ يوليو ١٨٧٤ اعترف فيها بالحماية المصرية، ثم اعتنق الإسلام، وعمد إلى نشره فى المناطق المجاورة وأسس أول مسجد فى أوغندا فى قرية «كاسوبى» الواقعة غربى العاصمة «كمبالا»، وفى عهده شهد انتشار الإسلام دفعة قوية.

فى نهاية القرن التاسع عشر قام تنافس كبير من الإنجليز والألمان منذ عام ١٨٨٥ حول أوغندا، انتهى بعقد اتفاقية أصبحت أوغندا بمقتضاها محمية بريطانية، ثم اتجهت نحو الحكم الذاتى بعد الحرب العالمية الثانية أول مارس ١٩٦٢ ثم حصلت على الاستقلال الكامل فى ٩ أكتوبر ١٩٦٢.



الخديو إسماعيل

فى العهد الاستعمارى كان المنصرون قد استقروا على ساحل شرق أفريقيا فى تنجانيقا «تنزانيا الآن» وفى كينيا منذ عام ١٨٦٠، ثم بدأت المسيحية تنفذ من ساحل شرق أفريقيا إلى الداخل بعد اكتشاف منطقة البحيرات العظمى. وتطرق المنصرون الفرنسيون إلى أوغندا عام ١٨٧٤، وأنشأوا عدة كنائس محلية سيطرت على التعليم، وعمدت إلى تغريب الصفوة من أهل البلاد، ثم عمدت إلى الوقوف فى وجه انتشار الإسلام، ومع ذلك يثبت التاريخ أن الإسلام قد انتشر فى ظل الاستعمار، ولم يتوقف عن الزحف إلى جميع المناطق[٢].

فى العصر الحديث تتزايد أعداد المسلمين فى أوغندا بصورة ملحوظة، وقد انتشر المسلمون فى عدد من المناطق التى لم يدخلها الإسلام من قبل، ففى محافظة «ماسيتوى»

(١) توفى عام ١٨٨٤م.

(٢) راجع: حسن محمود، الإسلام، والثقافة العربية فى أفريقيا، دار الفكر العربى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ص ٦١ وما بعدها.

شمال غرب أوغندا وفى منطقة «كيبامبا» Kibamba تزايدت أعداد المهتدين إلى الإسلام بعد الحروب التى وقعت بين قبيلتى الهوتو والتوتسى، وكان للمسلمين فيها مواقف رائعة تمثلت فى حماية من يلوذ بهم من كلا الطرفين.

وفى الأونة الأخيرة بدأت نهضة إسلامية شاملة، قام فيها المسلمون بنبذ الخلافات المذهبية واتحدوا تحت مظلة «المجلس الأعلى للشئون الإسلامية»، وهو الهيئة الدينية الإسلامية المعترف بها من الحكومة[3] ومنح الدستور الأوغندى مفتى الجمهورية صلاحيات كبيرة فهو المرشد والموجه العام لجميع المسلمين فى أوغندا، وهو أيضا ممثلهم فى المناسبات الدينية والسياسية فى الداخل والخارج.

يحرص المسلمون فى العصر الحديث على بناء المساجد ونشر الإسلام، وقد ازدادت أعداد المساجد بشكل ملحوظ فى عهد الرئيس السابق «عيدى أمين» كما ازدادت أعداد المدارس التى تضم أبناء المسلمين وغيرهم.

وتشير التقارير إلى وجود أكثر من عشرة آلاف مدرسة ابتدائية فى أوغندا، منها ١٥٠٠ مدرسة للمسلمين كما يوجد نحو ٦٠٠ مدرسة ثانوية منها ٥٠ مدرسة للمسلمين، كما يوجد ٨٠ معهدا للتدريب



ومدارس فنية ومهنية بعضها للمسلمين، إضافة إلى ١٢ معهدا إسلاميا، وعددا من معاهد تحفيظ القرآن الكريم فى المدن والقرى.

هذا وقد قامت الجامعة الإسلامية فى أوغندا التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامى بإنشاء كلية «التراث الإسلامى» وتضم أقساما للدراسات الإسلامية واللغة العربية والشريعة والدعوة، والجدير بالذكر أن الجامعة الإسلامية تضم خمس كليات على رأسها كلية التراث الإسلامى وكلية التربية وكلية العلوم وكلية الآداب والعلوم الاجتماعية وكلية الدراسات الإدارية وقد بلغ عدد طلاب هذه الجامعة نحو ٧٥٠ طالبا

(٣) وهو ما أيده الرئيس الحالى «يورى موسيفينى».

وطالبة ويقوم بالتدريس فيها أساتذة من بلدان العالم العربى والإسلامى وتجتذب الجامعة طلابا من جميع أنحاء القارة الإفريقية، وقامت بتوسعات كبيرة فى السنوات الأخيرة تخطت الجوانب الدينية ونشر اللغة العربية إلى الجوانب التطبيقية[4] بالإضافة إلى ذلك قام المسلمون بإنشاء منظمة الدعوة الإسلامية، ورابطة العالم الإسلامى والجمعية الأفريقية الخيرية لرعاية الأمومة والطفولة، واتحاد المجالس الإسلامية لشرق ووسط وجنوب أفريقيا والندوة العالمية للشباب الإسلامى وغيرها من المؤسسات التى تبذل جهودا كبيرة فى مساعدة المسلمين فى بناء مدارسهم ومساجدهم ورعاية الدعاة والوعاظ والمدرسين.

هذا وقد عثر فى أوغندا على كنوز ثمينة من المخطوطات المدونة بالعربية والسواحيلية، مما دعا إلى إقامة مركز للبحوث الأفريقية فى فبراير ١٩٨٩م للحفاظ على هذا التراث الثمين، وقد قام المركز بتحقيق العديد من كتب التراث وصيانتها، وعمل على نشرها بالتعاون مع المؤسسات الأفريقية والعالمية وتشير كتب التراث الإسلامى التى حققها المركز إلى أن هناك نحو ٢٠ قبيلة قد توارثت هذه المخطوطات وحافظت عليها وتمسكت بها.


عيدى أمين

هذا وقد خصص الأزهر الشريف عددا كبيرا من المنح الدراسية لأبناء مسلمى أوغندا لدراسة اللغة العربية والعلوم الإسلامية، كما قام بتدريب عدد من أئمة المساجد والدعاة فى القاهرة، كما يقوم الأزهر الشريف بإيفاد بعض العلماء والأساتذة لتدريس العلوم الإسلامية بالجامعة الإسلامية والمعاهد الأخرى، وأنشأ أخيرا معهدا أزهريا فى عام ١٩٩٧م بدأت به الدراسة عام ١٩٩٩م ويعد هذا المعهد بمثابة فرع للأزهر الشريف فى أوغندا.

أدت هذه الجهود إلى مزيد من انتشار الإسلام وانتشار تعلم اللغة العربية والإقبال المتزايد على حفظ القرآن الكريم والالتحاق بالمدارس الإسلامية. وكما يقول سماحة مفتى أوغندا «الشيخ شعبان رمضان موباجى» فى كلمة ألقاها فى المعهد الإسلامى ببلدة «مساكا»: إن الإسلام يحدث تحولا عميقا فى طبيعة الحياة وسلوك السكان فى أوغندا بوجه عام، وقد تحول عدد من الأقزام فى أوغندا إلى الإسلام وكان له أكبر الأثر فى حياتهم وسلوكهم.

ومع كل ما ذكرنا يعانى المسلمون فى

(٤) أنشئت قبل ١٨ عاما.

أوغندا من عدة مشكلات أساسية على رأسها :

١- التهميش المتعمد فى المناصب السياسية والإدارية.

٢- سوء الأحوال الاقتصادية للأغلبية الساحقة من المسلمين فجميع المهن الرئيسية فى أيدى المسيحيين.

٣- سوء المعاملة والتعسف فى معاملة المسلمين، خاصة الدعاة. فقد شهد عام ١٩٩٨م وما بعده قتل ٨٠ مسلما معظمهم من الدعاة، وتم اعتقال كثير من المثقفين المسلمين وأسيئت معاملتهم فى السجون، وبعد سقوط «عيدى أمين» وفى عهد «ميلتون أوبوتى» توجهت الحكومة توجها ثأريا تضرر منه المسلمون كثيرا مما دفع الكثيرين منهم إلى الهجرة إلى البلاد المجاورة ولاحقتهم المنظمات التنصيرية بالعون المشروط بتنصرهم..

٤- قصور الإمكانيات المادية والبشرية الخاصة بالمؤسسات والمنظمات الإسلامية، كما أن ارتفاع تكاليف الدراسة بالجامعات تحد من التحاق أبناء المسلمين بكثير من الجامعات الأوغندية والتى أغلبها جامعات أهلية.

٥- شراسة الهجمة التنصيرية المكثفة التى تعمل على الحد من انتشار الإسلام بالإغراءات المادية للسكان ومنع الدعاة المسلمين من العمل بين سكان كثير من المناطق الفقيرة، كما يعمل المنصرون على إضعاف معنويات المسلمين وتشكيكهم فى دينهم عن طريق الإعلام؛ حيث تمتلك المؤسسات التنصيرية ٤٥ إذاعة أهلية مسيحية تبث برامجها طوال الـ٢٤ ساعة وتوجه إلى المسلمين، كما تمتلك ١٠ محطات إذاعة مرئية. هذا بينما لا يمتلك المسلمون أية إذاعة مرئية، ويمتلكون إذاعة مسموعة واحدة ضعيفة الإمكانيات هى إذاعة صوت أفريقيا(*).

من هذا يتبين مدى حاجة المسلمين إلى وسائل إعلام قوية للتعريف بالإسلام ومواجهة الهجمة التنصيرية الشرسة، وأيضا للربط بين المسلمين من مناطقهم المختلفة المتباعدة أحيانا.

يحاول المنصرون كذلك تهميش اللغة العربية وإبعادها من الاستخدام فى التخاطب والتعليم، وقد تمكنوا من فرض اللغة الإنجليزية كلغة رسمية، ولغة الدواوين الحكومية.

من كل هذا ندرك أهمية تدعيم العمل الدعوى الإسلامى وأهمية التواصل بين المسلمين الأوغنديين وإخوانهم فى القارة الأفريقية والبلاد العربية، ونحن حقا نهيب بالهيئات الإسلامية وأغنياء المسلمين أن يمدوا يد العون لإخوانهم فى أوغندا وتدعيم نهضتهم وتوجههم الإسلامى الذى يبذلون من أجله جل اهتمامهم وجهودهم.. وبالله التوفيق.

(*) قامت على تبرعات من جمعية الدعوة العالمية.

التأصيل الإسلامى للمنهجية العلمية

٢



الأستاذ الدكتور / أحمد فؤاد باشا
أستاذ الفيزياء بجامعة القاهرة

من ناحية أخرى، وفى مقابل الفطرة الإنسانية ومنهجيتها المؤهلة للتفكر والبحث، وصولاً إلى حقائق الكون والحياة، توجد الفطرة الكونية بسننها وقوانينها التى أوجدها العليم الحكيم ابتداء بإرادته المباشرة المطلقة على أعلى درجة من الترتيب والنظام والجمال والكمال(١). قال تعالى:

﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ﴾ (الأنعام : ٧٩)

وقال سبحانه:

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (الأنعام : ١٤)

وليس هناك من شك فى أن اهتداء الإنسان إلى فطرته التى فطره الله عليها، فيه خير كثير يجعله يعيش فى سلام ووئام مع نفسه، ومع فطرة الوجود

(١) الفطرة فى اللغة: الخِلْقة التى يكون عليها كل موجود أول خلقه، والطبيعة السليمة التى لم تَشُب بعيب. ومن مرادفاتها: الجبلة، السليقة، السجية. وفى اصطلاح الفلاسفة: الفطرية Inneism: القول بأن الأفكار والمبادئ جِبِلِّية وموجودة فى النفس قبل التجربة والتلقى، أى موجودة فى الذهن منذ النشأة، وهى مذهب الفطرة. والفطرى Innate: ما يختص بطبيعة الكائن ويصاحبه منذ نشأته، ومنه الأفكار الفطرية، وهى التى لم تستمد من التجربة. والفطرى: اللازم والمتأصل فى صلب الشىء نفسه أو طبيعته الأساسية، أو ما ينشأ بالسليقة، ويقابل المكتسب Acquired، وهو كل ما يضاف إلى القدرات الفطرية عن طريق النشاط الثقافى أو التجربة والتدريب. والعلم المكتسب ما يحصل بالتجربة والنظر العقلى الشخصى. والجبلية Nativism: اتجاه يسلم بفطرية الطبائع والصفات وقد يمتد إلى نظرية المعرفة، على أنه ينبغى ألا نبالغ فى التقابل بين المكتسب والفطرى؛ إذ إن كل صورة من صور السلوك إنما تكون نتيجة تفاعل الوراثة وعوامل الاكتساب بعضها مع بعض.

راجع: المعجم الوجيز، والمعجم الفلسفى، مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

الكبير من حوله، فكلتا الفطرتين تسبحان خالق الكون والحياة الذى أخضع هذا العالم لقوانين معينة ثابتة لا يحيد عنها، وحفظ تناسقه وتوازنه فى ترابط محكم بين عوالم الكائنات، وتنسيق معجز بين آحادها ومجموعاتها، ليس فيه اختلاف ولا تنافر، ولا نقص ولا عيب ولا خلل، ولا شقوق ولا فروق ولا صدوع.. قال تعالى فى نعمة الاهتداء إلى الفطرة الإنسانية:

﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

(يس: ٢٢)

وقال سبحانه:

﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾

(الزخرف: ٢٧)

وأخبر عن عظيم سلطانه وآثار قدرته، مبينا غاية الإحكام والإتقان فى بديع خلقه وباهر صنعته، وفطرية سننه ونواميسه التى لا تتبدل ولا تتحول، فقال عز من قائل:

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾

(الملك: ١ ـ ٤)

وقال سبحانه:

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾

(القمر: ٤٩)

وقال جل علاه:

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾

(السجدة: ٧)

وقال جل جلاله:

﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

(فاطر: ٤٣)

وقد شاءت إرادته تعالى أن تبين لنا من خلال نظام الكون ووحدته استمرارية المواد كأشياء، وتكرر الحوادث والظاهرات كعلاقات سببية لنراقبها وندركها وننتفع بها فى حياتنا الواقعية، بعد أن نقف على طبيعة سلوكها ونستدل بحقائقها على قدرة الخالق ووحدانيته.. قال تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

(فصلت: ٥٣)

وفى إطار هذا المفهوم الإيمانى لمسلمة النظام الكونى واطراد الظاهرات الكونية كعلاقات علية يتمتع الباحث المؤمن بالاطمئنان والثقة اللازمين لمواصلة البحث العلمى، وصولاً إلى تعميمات وقوانين علمية من مجموعة محددة من الوقائع، وهذا الشعور لا يتوفر مثلا بنفس الدرجة من اليقين لباحث آخر ينطلق فى تفكيره من مبدأ «الحتمية المادية» الذى يفترض أن صدق أحداث الكون مستقل عن الزمان والمكان، وعندما ينتقل العلم إلى مرحلة جديدة تتميز باللاحتمية، يضطر هذا الباحث إلى التخلى عن إيمانه بالحتمية المادية المطلقة والبحث عن مبدأ جديد يعتنقه.. لكن التصور الإسلامى للنظام الكونى ينقذ العلماء من التخبط فى التيه بلا دليل، كالإحالة على الطبيعة أو العقل أو المصادفة، أو ما إلى ذلك.

كما أن هذا التصور الإيمانى لثلاثية: الدين ـ الكون ـ الإنسان، فى ضوء الفطرة الإنسانية والكونية، يجعل الطريق مفتوحاً دائماً أمام تجدد المنهج العلمى وتطوره بما يتناسب مع حالة العلم فى المرحلة التى يبلغها من تطوره.. وهنا أيضا تظل العلاقة بين إرادة الله - سبحانه وتعالى - واطراد القانون الطبيعى واضحة جلية، لما تفسحه من مساحة لتفسير حدوث الخوارق والمعجزات التى يظهرها الله بين الحين والحين؛ تذكيراً للإنسان بأن الله - سبحانه وتعالى - هو مصدر الوجود، وأن كل ما فى الكون من قوانين مستمد من إرادته ومتوقف عليها، وإذا اختل نظام السنن الكونية الثابتة، فإن هذا فى كتاب الإسلام يعنى اقتراب قيام الساعة، ويؤذن بانتهاء الحياة على الأرض. قال تعالى:

﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾

(القيامة: ٧ ـ ٩)

ثانيا: تلمس المنهجية فى العلم القديم:

من الطبيعى أن تنمو بذرة المنهجية الفطرية تدريجياً فى الإنسان مع ازدياد علومه ومعارفه وخبراته.. ويمكن تلمس نمو هذه المنهجية الفطرية ومستوياتها من خلال عرضنا لبعض النظريات والأنساق المعرفية التى نشأت فى ثقافات قديمة متباينة، واحتاجت فى صياغتها أو بنائها إلى ممارسة منهجية: استنباطية أو استقرائية.

(أ) نظرية المثلث القائم الزاوية:

احتاج الإنسان للهندسة منذ بدأ يبنى البيوت ويعد الأراضى للزراعة والرى، ويكفى أن نتأمل تلك الآثار العجيبة التى خلفتها الأمم القديمة فى مصر والعراق والصين والهند وغيرها، لكى ندرك عظمة تلك العبقرية التى تمتع بها المهندس القديم. لكن السؤال الذى نطرحه هنا هو: هل كانت الأعمال الهندسية القديمة قائمة على الخبرة التجريبية والمهارة فقط من دون أية منهجية علمية، كما يزعم أغلب المؤرخين لعلوم الرياضيات القديمة؟ والإجابة على هذا السؤال سوف تظهر من خلال تتبعنا لنشأة وتطور نظرية المثلث القائم الزاوية فى الفكر الرياضى القديم عند المصريين والبابليين والصينيين، قبل أن يتلقفها فيثاغورس وينسبها التاريخ بعد ذلك إليه وحده.

١ ـ فى عصر الحضارة المصرية القديمة: أوضحت «بردية ريند» فى المسائل من رقم ٦١ إلى رقم ٨٤ أن المصريين توصلوا إلى معرفة

مساحة المثلث يضرب نصف طول قاعدته في ارتفاعه. وقد أوضح الكاتب المصرى القديم طريقة حساب مساحة المثلث في المسألة رقم ٥١ من مسائل «بردية ريند»، والتى تعرض لحساب مثلث ارتفاعه عشر وحدات وطول قاعدته أربع وحدات، فيقول: «تأخذ نصف الأربعة (أى ٢) حتى تحصل على مستطيله (أى تحول المثلث إلى مستطيل يكافؤه فى المساحة)، ثم تضرب ٢ × ١٠ وهذه هى المساحة».

ويرى أغلب المتخصصين فى تحليل مثل هذه النصوص أن الرياضى المصرى القديم كان يعرف الحل المنهجى لإيجاد مساحة المثلث بأشكاله المختلفة، وأنه استعان بأسلوب الرسم فى حل مسائله. بل إن المسألة رقم ٥٢ من نفس البردية تدلنا على أن طريقة حساب مساحة المثلثات «بما فيها المثلث القائم الزاوية الذى تحقق نظريته الأعداد البسيطة ٣، ٤، ٥» كانت معروفة بنفس القاعدة العامة التى نعرفها الآن، وذلك قبل أن تظهر نظرية فيثاغورس المشهورة التى تنص على أن «المربع المقام على الوتر فى المثلث القائم الزاوية يساوى مجموع المربعين المنشأين على الضلعين الآخرين»[٢].

وهناك مسألة مهمة فى «بردية برلين» تحمل رقم ٦٦١٩، تطرح تقسيما يقتضى وجود معادلة من الدرجة الثانية فى مجهولين: كيف يمكن قسمة ١٠٠ إلى قسمين بحيث يكون الجذر التربيعى لأحدهما مساويا ثلاثة أرباع الجذر التربيعى للآخر؟. وقد انطلق الحاسب المصرى القديم فى حله لهذه المسألة من اعتبار أحد القسمين مساويا للواحد الصحيح، فيكون القسم الآخر مساويا ٣ / ٤، ثم يتوصل إلى الحل: ٦٤ + ٣٦ = ١٠٠، وباختصار هذه المعادلة، بقسمة كل حد على ٤، تظهر مربعات الأعداد ٣، ٤، ٥، التى ظهرت بعد ذلك فى نظرية المثلث القائم الزاوية لفيثاغورس.

واستناداً إلى هذه المسألة يقرر مؤرخ الرياضيات «نوجيباور» Neugebauer أن معرفة المصريين واستخدامهم لمعادلات من الدرجة الثانية كان أساساً لنظرية المثلث القائم. ومنهج الحاسب المصرى القديم فى حل هذه المسألة لا يختلف عن منهج عالم الجبر المعاصر إلا فى اعتبار الواحد الصحيح أساساً للحساب بدلاً من افتراض الرمز «س» الذى لم يعرفه علم الجبر إلا فى حقبة متأخرة من عصر الحضارة الإسلامية، بل إن الأخير، فى واقع الأمر، هو الذى انتهج منهج الأول بافتراض رمز المجهول «س» بدلا من أخذ العدد «واحد» كأساس فى عملية تقسيم العدد ١٠٠ طبقاً للشروط التى حددتها المسألة[٣].

من ناحية أخرى، كان الماسحون المصريون القدماء قد تمكنوا من رسم زوايا قائمة باستعمال حبال مقسمة بواسطة عُقد إلى أجزاء بنسبة ٣ : ٤ : ٥ وحدات، وكان بسط الحبل، أى مده، من العمليات التى استخدموها لتقسيم الأراضى أثناء الزراعة والرى، أو لوضع الحجر الأساسى لبناء معبد من المعابد، أو ما شابه ذلك[٤].

وهكذا نجد أن المصريين القدماء لم يحصلوا فقط على معرفة تجريبية للمثلث القائم وخواصه بطرق شتى فى أعمال الزراعة والبناء ومسح الأراضى، وغيرها، ولكنهم تلمسوا أيضاً منهجية علمية للتعميم النظرى بإيجاد القاعدة العامة لمساحات الأشكال الهندسية المختلفة، وتوصلوا إلى حل وحيد لمعادلات الدرجة الثانية يصلح لأن يكون أساساً لنظرية المثلث القائم الزاوية.

٢ـ فى عصر حضارة ما بين النهرين:

كان الاهتمام بالخطوط وحساب مساحات الأشكال الهندسية المختلفة ذا طبيعة نظرية ومنطقية. من ذلك قولهم: «إذا أسندت سلماً أو عموداً إلى جدار، تألف من السلم ومن الجدار ومن سطح الأرض بينهما مثلث نسبة أضلاعه إلى بعضها كنسبة ٣ : ٤ : ٥». كما أنهم حاولوا إقامة صيغة جبرية تتيح الانتقال من أضلاع المستطيل إلى محوره، أى العلاقة التى تربط ضلعى الزاوية القائمة بالوتر فى المثلث القائم، وعرفوا أيضاً أن الزاوية التى يكون رأسها على محيط نصف دائرة وضلعاها يمران فى طرفى القطر هى زاوية قائمة.

أما الدليل المباشر على معرفة البابليين بنظرية المثلث القائم فقد وجده الباحثون فى أحد الألواح التى عثرت عليها هيئة الآثار والتراث نتيجة للتنقيبات التى أجرتها فى موقع «تل حرمل» الواقع بالقرب من مدينة بغداد.. فقد أوضحت ترجمة هذا اللوح أن أبعاد المثلث القائم الزاوية المرسوم فى أعلى اللوح هى ٤٥، ٦٠، ٧٥، ولو قسمنا كل بعد من هذه الأبعاد على ١٥ لحصلنا على النسبة المثالية ٣، ٤، ٥ التى قال بها فيثاغورس بعد ذلك. وتؤكد الدراسات التراثية أن هذه النسب قد استخدمت فى بناء برج بابل.

بالإضافة إلى ذلك، أظهرت التنقيبات فى موقع «تل الضباعى»، الذى يقع ضمن حدود المنطقة المعروفة باسم «بغداد الجديدة» القريبة من بغداد العاصمة، لوحاً هندسياً آخر تحكى سطوره السمارية خطوات إثبات أن مربع الوتر فى المثلث القائم الزاوية يساوى مجموع مربعى الضلعين الآخرين، وهو نص النظرية المنسوبة إلى فيثاغورس. ويدلنا هذا اللوح الهندسى المهم على أن الرياضيين البابليين لم يكونوا مهتمين فقط بمحاولة إيجاد صيغة جبرية للربط بين ضلعى المستطيل وقطره، ولكنهم كانوا مهتمين أيضا

(٢) رينيه تاتون، تاريخ العلوم العام: العلم القديم والوسيط، المجلد الأول، ترجمة د. على مقلد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

(٣) د. أحمد فؤاد باشا، دراسات إسلامية فى الفكر العلمى، مرجع سابق.

(٤) جورج سارتون، تاريخ العلم، الجزء الأول، الترجمة العربية، دار المعارف بمصر ١٩٧٦م.

بالشكل الخاص للمثلثات القائمة الذى يحقق نفس الصيغة بطرق تطبيقية ونظرية مختلفة(٥).

٣ ـ فى عصر الحضارة الصينية القديمة:

عرفت بدايات هندسية مهمة على طريق المنهج الرياضى السليم، ويعتبر كتاب «لى يى» (Li Ye) «انعكاسات قياسات الدائرة على البحر»، والذى يعود تأليفه إلى عام ١٢٤٨م، من أفضل الوثائق الدالة على الفكر الهندسى القديم فى الحضارة الصينية.

وفى كتاب آخر بعنوان «فن الحساب» فى تسعة فصول، تم تخصيص الفصل التاسع لحالات الزوايا القائمة، وهى مسائل ترتكز على استعمال نظرية المثلث القائم، وتؤدى إلى معادلات من الدرجة الثانية. وفى كتاب «كلاسيكيات حساب مزولة» لوحظ وجود رسم لمثلث قائم الزاوية أضلاعه بنسبة ٣ : ٤ : ٥، وأضاف أحد المفسرين الصينيين لهذا الكتاب رسماً توضيحياً يشتمل على ثمانية مثلثات قائمة الزاوية تقع داخل مربع ضلعه يساوى مجموع ضلعى الزاوية القائمة فى المثلث، وتقع خارج مربع آخر ضلعه هو الفرق بين ضلعى الزاوية القائمة، وكلها حالات نظرية أصيلة لنظرية المثلث القائم الزاوية(٦).

(ب) التقاويم الفلكية:

تقدم قصة اكتشاف القدماء للتقاويم المختلفة خير دليل على دور الملاحظة والتجربة والاستقراء فى فكر الإنسان وتحصيله للمعارف منذ أقدم العصور:

١ ـ فى عصر الحضارة المصرية القديمة، لجأ المصريون فى بادئ الأمر إلى حساب الزمن بواسطة القمر، ولكنهم اكتشفوا أن هذا سيؤدى إلى تغيير مواعيد مواسمهم الدينية عاماً بعد عام، فانتقلوا عن هذه الطريقة إلى تقويم شمسى لما أدركوا أن فيضان النيل مرتبط بالشمس (أى الفصول)، ووائموا بين سنتين: إحداهما شمسية وطولها ٣٦٥ يوماً وربع تقريباً، والأخرى مدنية وطولها ٣٦٥ يوماً صحيحاً، وكانوا يتركون الأرباع حتى يجتمع منها أيام سنة تامة، وذلك فى ألف وأربعمائة وستين سنة ـ كما حسبها البيرونى

(٥) فى عام ١٩٤٥م نشر أوتو نوجيباور O.Neugebauer نصاً عن لوحة بليمتون Plimpton رقم ٣٢٢ التى تتضمن أربعة أعمدة من الأعداد التى إذا رمزنا لثلاثة منها بالرموز أ ، ب ، جـ فإنها تكون مرتبطة فيما بينها بالعلاقة $أ^{2} + ب^{2} = جـ^{2}$، وهى علاقة تعبر تماماً عن نظرية المثلث القائم الزاوية. راجع:
- رينيه تاتون، مرجع سابق.
- د. فوزى رشيد، الأصل العربى فى الرياضيات اليونانية، أعمال ندوة التراث العلمى العربى، طرابلس ـ ليبيا ١٩٩٠م.
- بحوث الندوة القطرية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب، جامعة بغداد، مركز إحياء التراث العلمى العربى ١٤ ـ ١٩٧٨/٤/٢٦.

(٦) كارلين شيلا، الرياضيات فى الصين القديمة، ترجمة حنا القاوى، مجلة العلم والتكنولوجيا، معهد الإنماء العربى، بيروت، العدد ٢٣ (١٩٩٦م)، راجع أيضاً رينيه تاتون، مرجع سابق.

ـ ثم يكبسونها، ويتفق التقويمان حينئذ فى أول السنة، ولو كان المصريون فى كل سنة قد علقوا بداية سنتهم المالية على ملاحظة بزوغ الشعرى اليمانية Sirius فى وقت طلوع الشمس مع بداية فيضان النيل، لكانت لديهم سنة مدنية صحيحة متفقة مع تقسيمهم الفصلى(٧).

وحرصاً من المصرى القديم على أداء أرصاده وتجاربه وقياساته بأقصى دقة ممكنة، لجأ إلى صناعة بعض الأدوات الفلكية مثل المزولة، وآلة الرصد البندولية، والساعة المائية، وغيرها، وجمع نتائجه فى جداول فلكية مرتبة تبين ظهور النجوم وعبورها خط الزوال. ومن هذه الأدوات بقايا لاتزال محفوظة بمتحفى القاهرة وبرلين.

٢ ـ فى عصر حضارة ما بين النهرين:

برع الفلكيون البابليون فى وضع قواعد عامة للتقويم. فهم، وإن كانوا أيضاً منجمين، لم يبتعدوا عن ما توصلوا إليه بالرصد المباشر، وكانت اهتماماتهم محكومة بمدى قدرتهم على تحقيق الربط المنهجى بين التقويم القمرى وحركة الشمس، ومع هذا فإنهم استندوا فى تقويمهم استناداً أساسياً إلى القمر، وجعلوا الشهور القمرية ذات ٢٩ يوماً وذات ٣٠ يوماً بشىء من التعاقب تقريباً. ولكى يتم التوافق بين التقويم القمرى والتقويم الشمسى، كانوا يضيفون شهراً ثالث عشر بصورة دورية، مثلما يضاف فى التقويم الميلادى الحديث يوم واحد كل أربع سنوات. ولابد أنهم استخدموا ذلك منذ عهد قديم؛ إذ يتضح من زمن دولة أور الثالثة (٢٢٩٤ ـ ٢١٨٧ ق.م) أن تلك الإضافة حدثت كل ثمانى سنوات لجعل السنة القمرية معادلة للسنة الشمسية، بدليل ما أمر به حمورابى فى أحد رسائله إلى جميع ولاته بإضافة ذلك الشهر(٨).

٣ ـ فى عصر الحضارة الصينية القديمة:

كانت السنة فى البدء مقسمة إلى ٣٦٦ يوماً، ولكنها قسمت بعد ذلك ٣٦٥ يوماً وربع اليوم، مما يوضح أن تراكم الأرصاد التى قاموا بها لفترات طويلة من الزمان ساعدتهم على حساب قيمة أدق للسنة النجمية. وجمع الصينيون أيضاً بين التقويم النجمى والتقويم القمرى، وكانت سنتهم المدنية تبدأ فى الشتاء وتحسب ١٢ و١٣ دورة قمرية. وكانوا يستعينون فى إجراء أرصادهم وقياساتهم ببعض الأدوات، مثل المزولة الشمسية التى تدلهم على وقت الظهر، والساعة المائية التى كانت تسمح بتقسيم الزمن الذى ينقضى بين ظهرين متتاليين إلى ١٢ ساعة متساوية(٩).

(ج) الإنجازات التقنية:

من يتفحص آثار القدماء سوف لا يجد صعوبة فى اكتشاف أسس منهجية لإنجازاتهم التقنية. فقد

(٧) أبو الريحان البيرونى، كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية، عن: عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٧م.

(٨) رينيه تاتون، مرجع سابق.

(٩) نفس المرجع السابق.

وقع المصريون في نحو عام ٥٠٠٠ قبل الميلاد على معدن النحاس واستخدموه في وجوه كثيرة، وتعلموا مزجه بالقصدير للحصول على النحاس الأصفر نحو عام ٣٠٠٠ ق. م. ويعتبر المعدِّنون والمؤرخون أن هذه الخطوة التقنية الحضارية لا تقل في أهميتها عن اكتشاف النحاس نفسه. ولعل الطريقة التي لاتزال معروفة في طلاء الأواني النحاسية بالقصدير لمنع الصدأ كانت أيضاً صناعة قديمة جداً عند المصريين(١٠).

كذلك برع الصينيون القدماء في فنون الطلاء وحفر الخشب ونقش العاج وصناعة الحلى والتحف الفنية وغيرها، كما أنهم أعطوا العالم فن الطباعة وصناعة الورق والحبر والعملة الورقية والبارود والبوصلة وآلة تسجيل الزلازل. ويذكر التاريخ لهم أنهم صنعوا حضارتهم بأنفسهم، وربما لم يقتبسوا عن غيرهم إلا القليل، حتى أنهم تمسكوا بمعتقداتهم وفلسفتهم الخاصة.

وهكذا نجد من الأمثلة التي ذكرناها، وغيرها كثير جداً في فروع العلم المختلفة، أن هناك عدة استنتاجات نوجزها فيما يأتي:

١ ـ خطأ الاعتقاد السائد بأن تقدم الرياضيات والفكر الرياضي عند الإغريق لم يسبقه تقدم في تاريخ البشرية، وقد تم دحض هذا الزعم بعد أن صدرت أول طبعة من «بردية ريند» Rhind Papyrus في عام ١٨٧٧م، وهي تنسب إلى كاتبها المصري القديم «أحمو» نحو عام ١٧٠٠ ق. م، وبعد اكتشاف بعض الجداول الرياضية التي يرجع تاريخها إلى عصر أسرة حمورابي (حوالي ١٨٠٠ ق. م) في بابل، وأيضاً بعد اكتشاف نصوص تراثية أخرى قديمة من حضارات الصين والهند وفينيقيا وغيرها(١١).

٢ ـ ليس من المنهجية في شيء أن يُطلب من الفكر العلمي في نشأته ما يطلب منه في خلال مرحلة متقدمة من مراحل تطوره وازدهاره، كما لا يصح أن يطلب منه في فجر العلم من كثرة الصواب في مقابل الخطأ ما يُطلب منه بعد تقدم العلم واتضاح طرقه، وكثرة رصيده من النتائج والمسائل. ورغم هذا، فإن عبقرية القدماء المنهجية ظهرت في أمثلة عديدة، منها الوصول إلى الفرض الصحيح عن طريق «المحاولة والخطأ» Trial and error، وهي طريقة لحل بعض المسائل الحسابية لاتزال مستخدمة حتى الآن. كذلك كانت عنايتهم بدراسة حركة الشمس والقمر، واستنباط طول السنة النجمية بدقة كافية، وابتكار سنة مدنية تجنب تقويمهم وأعيادهم أهواء الملوك والحكام، كانت كلها أعمالاً علمية موضوعاً ومنهجاً.. وهل يُعقل ـ مثلاً ـ أن يتم بناء الأهرام، إحدى عجائب الدنيا، في القرن ٢٦ ق. م بناء على مجرد خبرات عملية أو دوافع دينية دون أن يكون هناك أساس من أفكار ونظريات ذات صبغة علمية كاملة؟! إن مثل هذه الأعمال، التي لاتزال محل إعجاب العالم حتى عصرنا الحالي، لا تأتي بطبيعة الحال إلا من حالة فكرية متقدمة، ربما يقال عنها: إنها ليست هي المنهج العلمي الذي نعرفه الآن، لكنها بلا شك تمثل مرحلة مهمة من مراحل تطور الفكر التجريبي الاستقرائي في الوصول إلى الأفضل دائماً.

٣ ـ إن العلم القديم كان جزءاً من النشاط الفكري والعملي في المجتمعات القديمة التي نشأ فيها، ولعل هذا كان أهم أسباب نموه وارتقائه، على عكس ما يتصور بعض المؤرخين.. وبصرف النظر عن درجة «الصواب» أو «الخطأ»، أو مبلغ الدقة، فيما توصل إليه القدماء من نتائج ومعلومات؛ فإن هذا لا يجب أن يكون المعيار الوحيد للحكم على نضج المنهجية العلمية واتساقها، أو يكون سبباً لإنكار قدرتهم على التجريد، وممارستهم للاستنباط والاستقراء، وصولاً إلى قواعد عامة من مسائل جزئية. بل إنه ـ على العكس ـ يعطينا تصوراً عن بدايات منهجية كانت تتكون تدريجياً وتتطور بتطور العلم نفسه.

لنأخذ، على سبيل المثال، فكرة العناصر الخمسة التي قال بها الصينيون والهنود، وهي عناصر التراب والماء والنار والهواء والأثير التي يتألف منها العالم المادي، ثم بنى الإغريق على أساسها نظرية العناصر الأربعة وتحول المواد الخسيسة، مثل النحاس والرصاص، إلى مواد نفيسة مثل الذهب والفضة. هل هذه النظرية خاطئة تماماً؟ ألم تكن سبباً في ممارسات عملية «تجريدية» أسفرت عن معارف جديدة؟ ثم ألم تبرأ ساحتها، من حيث الفكرة على الأقل، باكتشاف ظاهرة النشاط الإشعاعي في أوائل القرن العشرين؟!.. إن معيار «الصواب» و«الخطأ» في العلم يجب ألا يؤخذ على إطلاقه عند التأصيل لنظريات العلم ومناهجه، فأكثر ما توصل إليه الإغريق أو الرومان لم يبلغ، في أحسن الأحوال، غاية الصواب والدقة.

٤ ـ لم يعد مقبولاً في عصرنا، أكثر من أي وقت مضى، أن يُصر بعض الذين يؤرخون للعلم والحضارة من منطلقات متحيزة على طمس حقائق التاريخ العلمي والتقني لاحتكار شرف الإنسانية في نشأة العلم ومناهجه لجنس دون بقية الأجناس.. فمادام الإنسان في كل زمان ومكان هو الكائن الذي ميزه الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ بنعمة التفكير والقدرة على البيان والتدوين وتحصيل العلم النافع، فمن الطبيعي أن يسفر هذا الفكر الإنساني عن ظهور معارف علمية مختلفة، أو متماثلة، في موطنين أو أكثر، بدلاً من موطن بعينه، وأن ينشأ المنهج العلمي لدى جنسين أو أكثر، بدلاً من جنس واحد بذاته، فالتواصل العلمي، والتلاقح الثقافي، بين البشر حقيقة تاريخية ومنطقية محكومة بانتقال الخبرات والتجارب والمعارف عبر الأجيال والقرون منذ خلق آدم ـ عليه السلام ـ وحتى يرث الله الأرض ومن عليها. قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ
لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

(الحجرات: ١٣)

«يتبع»

(١٠) د. أحمد فؤاد باشا، التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة، طبعة دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣م.

(١١) راجع في ذلك:
- د. أحمد فؤاد باشا، دراسات إسلامية في الفكر العلمي، مرجع سابق.
- رينيه تاتون، تاريخ العلوم العام، مرجع سابق.
- جورج سارتون، تاريخ العلم، مرجع سابق.
- دكتور عبدالفتاح عبدالله بركة، في نشأة العلم، حولية الشريعة، قطر، رقم ٢.

قصة العدد

طفولة أم رجولة



للأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيومى
رحمه الله

-١-

نشأ عدنان فى أسرة تهتم بتربية أبنائها، وتعد البيت مدرسة أولى يتعلم فيها الطفل قبل أن يذهب إلى المدرسة؛ لأن والدته كانت مدرسة ممتازة بالمدارس الثانوية قبل أن تتزوج بوالده، ثم رأت أن زوجها ميسور، وليس فى حاجة إلى ما تأخذه من راتب شهرى، فعرض عليها أن تختص بتربية أولادها فى المنزل، لأن المنزل مدرسة صغيرة، وكانت تخص زوجها بالود، وتسمع رأيه العاقل فتستريح إلى موافقته، وهكذا نشأ عدنان فى مدرسة صغيرة يتلقى تربيته وتعليمه من أم حنون ذات ثقافة واطلاع.

وحين التحق عدنان بالمدرسة الابتدائية، كان ذا استعداد قوى بفضل ما تلقاه فى المنزل من توجيه، وظهر أثر ذلك فى أجوبته الصحيحة على ما يوجهه المدرس من أسئلة، وفى سلوكه الطيب بين التلاميذ، إذ كان يحترم زملاءه ويبادلهم الحب، ولا يسمح لنفسه أن يقول كلمة غير مهذبة حتى أجمع تلاميذ الفصل على احترامه، وجعل كل تلميذ منهم يحرص على صداقته ويعد من الفخر أن يكون صديقا لعدنان، أما المدرس فقد كان كثير الثناء عليه، وإذا سأل التلاميذ سؤالا غامضا بعض الشىء توقع أن يجيب عنه عدنان، ويصح توقعه فيزداد حبا، كما يزداد التلاميذ إكبارا لزميلهم الموهوب.

وكان «سمير» بين زملاء عدنان، وهو تلميذ مجتهد، يحرص على أن يكون مثل عدنان فى جده وانتباهه، ولم يشعر نحوه بغير الحب، لأن الفطرة النقية لا تعرف الحسد والغيرة، فأخذ يتقرب إليه، ويدعوه لأن يشاركه المذاكرة والتنزه، لأنه يراه باعثا لطموحه، وعدنان يعرف «سمير» جيدا ويعلم أنه يبذل ما يستطيع لكى يكون تلميذا ممتازا، فرحب به ترحيبا مخلصا، وقال له: إن من سعادته أن يحضر إلى منزله ليشتركا معا فى المذاكرة، فإذا انتهى موعدها خرجا يتنزهان!

وكانت هذه رغبة سمير التى يسعى إلى تحقيقها، وفى أصيل اليوم التالى ذهب مسرورا إلى منزل «عدنان» فقابله بسرور واغتباط، وحضرت والدة عدنان فناقشت «سميرا» ورأته تلميذا على جانب من الذكاء فاطمأنت إليه، ولم تكد تترك التلميذين يذاكران، حتى حضر سعيد والد عدنان، وتلقى صديق نجله ببشر ومودة، وسأله عن والده فحين عرف اسمه ظهر الاكتئاب على وجهه، وخرج مسرعا أدرك عدنان تغير أبيه، ولكن الموقف دفعه لتجاهل ما أدرك، وخاف أن يلحظ سمير ما لحظه، فجعل يشغله بأسئلة مدرسية، لينهى الموقف بسلام، ثم ودعه وفى نفسه شجون.

خلا عدنان إلى أبيه فوجده يعاجله بقوله: إن والد سمير أكبر منافس له فى التجارة، وإنهما يتاجران، وكأنهما يتحاربان فى ميدان كما يتحارب الأعداء وليس من الحسن أن يأتى ولده إلى منزلى، وأن تذهب أنت إلى منزله، ولو علم والد سمير ما أعلم، لمنع ابنه، وحرمه من صداقتك.

نظر عدنان إلى والدته حائرا، وهو يعلم أنها قادرة على استرضاء أبيه، ولكنه وجدها تقول: مهلا يا عدنان، فسأناقش والدك بعد حين، حتى أمهد الجو لاسترضائه.

وفى صباح اليوم اللاحق ذهب عدنان إلى المدرسة، وهو لا يدرى ماذا سيقول لصديقه العزيز، وقد رأى وجهه متغيرا حين قابله، فأدرك أن مقابلة والده قد تركت صدى فى نفسه، واصطنع البشر، وجلس معه كعادتهما من قبل، فوجد سميرا يفاجئه بقوله:

أخى عدنان، أنت أحب الناس إلىّ، وقد سمعت من أبى بالأمس ما كدرنى وأحزننى.

قال عدنان فى لهفة: سمعت من أبيك أنت ما كدرك وأحزنك؟

فقال سمير: نعم، لقد سألنى بعد عودتى إلى المنزل أين كنت؟ فقلتُ له: كنت أذاكر مع صديقى عدنان، وحين عرف اسم والدك، ظهر الغضب فى وجهه، وقال لى: لا تذهب إلى منزل عدنان مرة أخرى، وقد فكرت فى السبب، فلم أعرف، لأن والدى قطع الكلام، ولم يزد على ما قال.

فردّ عدنان يقول: أنا أعرف السبب من والدى لأن شعوره مثل شعور أبيك، فهما تاجران يتنافسان فى رواج التجارة، وقد جر عليهما هذا التنافس ما لمسناه من هذا الجفاء!

قال سمير: وما ذنبى وذنبك؟ حتى تمتنع عن التزاور، ونحرم أن نذاكر معا؟ ودق الجرس، فذهب الصديقان إلى حجرة الدراسة، وفى وجهيهما معا ما يدل على الأسف، وقد لحظ المدرس إطراقهما غير المعهود، فعدنان وسمير من أحرص الزملاء على الانتباه، فكيف يطرقان هكذا؟ ولم يشأ أن يسكت فقال لعدنان لى معك حديث، وأحسب أنك شاجرت سميرا فهو مثلك ساكت مكتئب.

تصنع عدنان الابتسام، وقال لأستاذه: إذا تفضلت بلقائى مع سمير بعد انتهاء الدرس سنتحدث إليك عما شغلنا معا!

كان الأستاذ أحرص من تلميذيه على معرفة ما جد من أمرهما، لذلك بادر باصطحابهما إلى مكتبه، وكان عدنان هو السابق إلى الحديث، فقص على الأستاذ ما كان، وأعلن أنه لا يدرى كيف ينقطع عن زيارة سمير لأمر لا يتصل بهما فى شىء.

قال الأستاذ: أنا مسرور من اجتماعكما على الجد والمذاكرة، وتبادلكما المودة الصادقة، ولكنى أشير بعدم التزاور تلبية لرغبة الوالدين، وقد تأتى الأيام بما يغير الحال، ولستُ أقر والديكما على موقفهما، ولكنى لا أحب أن تتعرضا إلى ما يضايقكما، ولديكما أماكن للاجتماع بالمدرسة، ومكتبة المدينة، وحديقة الأشبال، وفى هذه الأماكن يناقش كل منكما صاحبه فيما ذاكره من الدروس، وكأنكما لم تنقطعا عن الاستذكار المشترك!

قال عدنان: هذا حل معقول فما رأيك يا سمير؟ فرد سمير: نعم وسننفذه بكل ارتياح فأثنى عليهما الأستاذ وحياهما، فخرجا سعيدين.

-٢-

اعتاد الصديقان أن يتقابلا فى فترات معلومة بمكتبة المدينة، لأن بها جناحا خاصا بكتب الأشبال، وقد كان اتصالهما بالمكتبة نافذة ضوء جديدة على أفكارهما إذ قرأ قصصا سهلة تصور مواقف البطولة ومآثر الفضيلة وتعرض لتاريخ رجال العلم والأدب والسياسة، وقد ألف كل منهما أن يستعير قصته من المكتبة لمدة أسبوع، ثم يردها ليأخذ غيرها، وظلت هذه القصص مصدر أحاديث ممتعة بين الصديقين إذ حرص عدنان على أن يحكى لسمير خلاصة ما يقرأ، وهو الآخر يحدثه عما قرأ، مع تعقيبات واعية تدل على فهم لديهما، وحين تأكدا من نفع هذه القراءة الأدبية، عرفا أن الحظ كان معهما حينما تركا المذاكرة فى المنزل، إذ كانا سيقتصران على دروس المدرسة فقط، كما أن بعض تلاميذ المدارس الأخرى من رواد المدرسة قد تعرفوا بهما، ولكل تلميذ اهتمامه الأدبى، فاتسعت دائرة الأصدقاء، ولكن من نوع مشرف طموح. إذ امتدت أحاديثهم إلى ما يرون ويسمعون ويقرءون فى الصحف والإذاعة والتليفزيون، ومن فاته رؤية مشهد من المشاهد الرائعة فى التليفزيون رأى من يلخصه ويعلق عليه من أصدقائه، فألم به، وسعد بتحصيل ما فات!

وفى عودة عدنان إلى منزله ذات أصيل، وجد آثارا من الدم فى الطريق، وجثة مطروحة لقطة داهمتها عربة سريعة، فأسف أسفا أليما لصرع حيوان ضعيف لم يجن شيئا، وزاد فى ألمه أن أحد المارة من المشاهدين، قال: إن القطة أم لقطتين صغيرتين تجثمان على بضع خطوات ولا يدريان شيئا عن حادث الأم، واندفع عدنان إلى رؤية القطتين فى ألم نشب بين ضلوعه، وكاد الدمع يسقط من عينيه، ثم انطلق إلى والدته، وفى عينه أثر الدمع ليخبرها بما كان! وقدرت الأم الفاضلة مشاعر ولدها الطيب، فقالت له: يا عدنان إن حديقة المنزل فى حاجة إليهما بعد أن يكبرا، ليخلصاها من الفئران والحشرات، فاذهب مع الحارس إلى مكان القطتين ليحملهما إلى الحديقة، وسيقوم بغذائهما إذ أعطيهما من اللبن ما يكفى! وكانت فرحة عدنان شديدة باقتراح الأم الحنون فاصطحب الحارس، وخرجا ليأتيا بالقطتين، وبرقت الفرحة فى عين عدنان حين تقدم شاكرا معتزا، فقالت له الأم: بل الشكر لله يا بنى، فأنت ذو مشاعر رفيعة أسعدتنى كثيرا

ولم يطق عدنان أن يسكت عن إذاعة ما كان فأخبر صديقه سمير بكل ما حدث، فقال سمير: أريد أن أشترك فى مروءتك يا عدنان! خذ قطة، وأترك لك قطة، فقال عدنان: إن أمى سترعى الاثنتين، وقد اهتمت بهما، فابحث لك عن حيوان ضعيف!

مر العام الدراسى، وجاء الامتحان، فأداه الصديقان فى يقظة وحرص حيث استعدا له فتعجب التلاميذ جميعا إذ ظنوا الأمر سيكون على العكس، وتخيلوا أن عدنان سيتألم لسبق سمير، ولكنهم شاهدوه يسرع إليه فى شوق، ويحتضنه، ويقول للزملاء، قد كنت أعرف جيدا أنه أذكى منى، وأقدر على الفهم، وقد تحقق رأيى فيه، وسعادته سعادتى، أما سمير فقد طفرت الدموع من عينه، وهو يقول: يشهد الله أن عدنان كان يوضح لى أثناء المذاكرة كثيرا مما غمض علىّ، فهو الأذكى والأقدر، وأعده العامل الأول فى سبقى، فإذا كانت الأولية مصدر تفوق لى، فهى أيضا ترجع إلى معونة عدنان! صدقوا يا زملائى فأنا لا أكذب!

وسمع التلاميذ حوار الصديقين، فقالوا: يجب أن نقتدى بسمير وعدنان! يجب أن نعيش فى ظلال المودة والحب والإخلاص.

-٣-

رجع عدنان إلى منزله، فاستقبلته أمه فرحة بتفوقه، وأثنت على صديقه سمير، وقالت: أنت تحسن اختيار أصدقائك يا عدنان، وسمير هو مرآتك أمام الزملاء لأن كل صديق لا يختار غير من يتفق معه فى طموحه وآماله، ثم دعته إلى تناول الغذاء، وقالت إن والده سيسر به كثيرا حين يعلم أنه الثانى على فرقته، وقبل أن ينام عدنان نوم الظهيرة رأى أن يتصفح بعض الجرائد اليومية، فوقع نظره على عنوان صغير هو «مدرسة الرحمة»، وتحت العنوان سطران يقولان:

مدرسة الرحمة تدعو من يريد من التلاميذ إلى زيارتها فى العطلة الصيفية، ليتم التعارف بين الأشبال شاكرة من يُسرع إليها دون إبطاء.

قرأ عدنان السطرين، ثم نادى أمه ليقول لها: هل تعرفين شيئا عن مدرسة الرحمة يا أماه؟

فابتسمت الأم وقالت: أقرأت شيئا عنها بالجريدة اليوم يا عدنان؟

قال: نعم ولذلك سألتك.

قالت الأم: لقد قرأت ما قرأت يا بنى، ومدرسة الرحمة هذه مدرسة الأيتام من التلاميذ، ويقوم أهل الخير بإدارتها والتبرع لها بما يكفل لتلاميذها كل راحة فى المسكن والمأكل والملبس والتعليم، وتقع فى آخر محافظة فى البلاد قال عدنان - وفى عينه حيرة بريئة: ولماذا نشرت الجريدة هذه الدعوة؟

قالت الأم: فكر يا عدنان! إن الأيتام من تلاميذ المدرسة لا يبرحونها فى شهور العطلة لأنها مكانهم المريح، ولن يخرجوا منه حتى تنقضى سنوات الدراسة، إذ يعرفون كيف يواجهون الحياة بما تعلموه من الحرف والصناعات، وقد جرت العادة أن تستقبل

مدرسة الرحمة أهل الخير من الآباء والتلاميذ معا هذه الأيام، فالتلاميذ يشاركون زملاءهم بالمدرسة لعبهم ونشاطهم، ويقومون بعقد صداقات إنسانية مع من يختارون، والآباء يتبرعون بما تسمح به نفوسهم من أموال وهدايا وملابس وكتب تفيد التلاميذ! لذلك جاء إعلان الجريدة مذكرا أهل المعروف من الناس!

قال عدنان: لم أعد أشتاق إلى الذهاب للمصيف يا أمي، وأود أن أزور مدرسة الرحمة لأني أعتبر الدعوة قد وجهت إليّ حين قرأتها الآن!

فأجابت الأم: وماذ تنفع زيارتك وحدك يا عدنان، إن المسألة تحتاج إلى جهد جماعي، ترسم له الخطة منذ شهور؟

فأجاب عدنان: إنني اجتمع مع زملائي كل عصر في نادي المدرسة لنزاول بعض الألعاب الرياضية وسأحدثهم عن مدرسة الرحمة، وقد أجد من يوافقني فنكون عددا لا بأس به!

قالت الأم: وهل موافقة زملائك تعني موافقة آبائهم على السفر إلى مكان بعيد دون إشراف مدرس مقرر!

فابتسم عدنان وقال: إن مشرف النادي هذا الأسبوع هو أستاذ الفصل الذي يغمرني بعطفه، وسأناقشه في محضر من الزملاء؟

سكتت الأم قليلا، ثم قالت: على بركة الله يا بني فأنا أفرح كثيرا حين أحس نوازع الخير من نفسك، ولن يضيع المعروف عند الله!

لاحظ المدرس المشرف عدنان يقبل من بعيد مسرعا وفي وجهه اهتمام وجد، فانتظر حتى قدم إليه، وقال له في هدوء:

ما وراءك يا بني!

فسكت عدنان لحظة، ثم قال: عندي حديث طويل، ولا أدرى هل تأذن لي بقوله؟

فقال المشرف: أنت تعرف أني أحب أحاديثك مهما تكن طويلة، فتكلم فبدأ عدنان يسأل:

هل يعرف أستاذي شيئا عن مدرسة الرحمة؟

فرد المدرس يقول: أعرف عنها الكثير، وأعرف أن خبرا عنها بجرائد اليوم فنظر عدنان وقال: وهذا ما جئت لأتحدث عنه!

فابتسم الأستاذ مشجعا، وقال: دائما تحاول أن تسمو إلى ما فوق يا عدنان.

فقال عدنان: وهل إذا حاولت أن أساعد زميلا يحتاج إلى معونتي أنتظر حتى أكبر؟

ففهم المدرس ما يعنيه تلميذه ومضى يقول:

نحن الآن في موسم العطلة ولا سلطان للمدرسة على التلاميذ، فمن يحضر للنادي يأتي باختياره ومن يتأخر لا يلومه أحد، وإذا كنا نريد زيارة مدرسة الرحمة، فلابد من ترتيب دقيق قبل انتهاء العام الدراسي مع مراسلة المدرسة لتحدد موعد الرحلة وتكون في استعداد للقائنا دون أن تفاجأ بزوار آخرين فلا يتسع المكان للجميع!

ورأى الحاضرون من التلاميذ اهتمام المدرس بمحادثة عدنان فأسرعوا إلي التجمع حوله ليعرفوا في أي مجال يدور الحديث، وكان المدرس لبقا حصيفا فلخص لهم موضوع النقاش ليشتركوا جميعاً فيه، وكان سمير أكثر الحاضرين اهتماماً بما فوجيء به من أخبار عن مدرسة الرحمة، فقال لعدنان! هل تعرف عنها شيئاً؟.

فرد عدنان معتذراً، لم أقرأ الجريدة إلا في الظهيرة، فما استرحت من التفكير المتصل وقد أتيت إلي المدرسة لأخبركم جميعاً متسائلاً عما يجب أن تصنع؟.

فقال سمير: إن الأستاذ يؤيد الرحلة كما فهمت من حديثه ولكنه يمهلها إلي العام القادم بعد أن تجرى الترتيب الدقيق، وهنا انطلق عدنان يتحدث، وكأن إلهاماً نزل عليه، فقال:

ليس للمدرسة شأن بنا إذ اعتزمنا على زيارة مدرسة الرحمة هذا الموسم لأنها ستكون رحلة شخصية نقوم بها كما نعتزم السفر إلى أي مكان فإذا وافق عدد من الزملاء على الرحلة أمكننا أن نذهب في سرور، ومع كل زميل ما يقدمه لزملائه الفقراء في مدرسة الرحمة وستجد هناك من القائمين بأمرها كل تشجيع، فقد أعلنوا عن حاجتهم إلي الزيارة وماذا بعد هذا إلا التنفيذ؟.

فقال سمير: ولكن كيف نذهب وحدنا دون مشرف يعرف متطلبات الرحلة ويرسم الخطة ونطبع رأيه إذ نثق به كل الوثوق فنظر عدنان إلي أستاذه وقال في أدب عجول:

ألا يوافق أستاذي على أن يكون معنا في رحلة الخير؟

فسكت المدرس وكأنه فوجيء بما لم يكن يتوقع، ورأى تلاميذه يتطلعون إليه، ينتظرون إجابته صريحة دون تسويف فقال في هدوء.

لا أعطى رأيي الحاسم إلا بعد اشتراط واضح، فلابد أولاً أن يأتيني خطاب صريح من ولي الأمر لكل تلميذ بموافقته التامة على الرحلة الخاصة التي لا شأن للمدرسة بها، ولابد ثانياً أن يكون معنا من المسافرين من يبلغون عدداً لا يقل عن العشرين لنستطيع أن تقدم ما يفيد التلاميذ هناك، ولابد ثالثاً أن يقدر المسافرون متاعب السفر فيعدوا أنفسهم لتحمل المشاق، وأن يقبلوا برغبة ذاتية لا أثر فيها للاضطرار والموافقة غير المدروسة، فإذا تمّ ذلك كله طواعية دون إلحاح فأنا لست أقل منكم حرصاً على إمتاع النفس بعمل المعروف ولن أتلقى الردّ قبل أسبوع ليتسع أمامكم مجال التفكير، ومن بوادر التوفيق أن مدة إشرافي المدرسي على النادي ستنتهي في الغد، وأكون متمتعاً بإجازة ممتعة أقطعها كما أريد.

توالت أيام الأسبوع في نشاط مستمر إذ وهب عدنان وسمير جهدهما لنجاح الرحلة فكانا يتصلان بأولياء الأمور تارة وبمن يعرفان من تلاميذ المدارس الأخرى كي يرغبا زملاءهما في الانضمام إلى القافلة المرتحلة، وكانت الرغبة بحمد الله متحققة لدى الكثيرين، فالنفوس الطيبة تحب الخير وتنهض إليه إذا وجدت الطريق دون اعتراض، وقد اكتشف عدنان وسمير أن السعي في الخير يورث الإنسان قوة وعزيمة حيث كانا لا يشعران بتعب ما مع كثرة الانتقال من منزل إلى منزل ومع اتساع المحاورة وتوجيه الأسئلة والردّ عليها وكان الهدف الأكيد هو الحصول على أوفر غنيمة مادية تقع موقع الارتياح من القائمين على إدارة مدرسة الرحمة، وقد حقق

الله رجاءهما بأكثر مما كانا ينتظران، وكانت دهشات السيد المشرف كبيرة حين عرف أنه سيحمل الماء العذب إلى الزرع الظامىء بهذه الوفرة الكثيرة وقال في نفسه لأول مرة أجد التلاميذ يفوقون أستاذهم في ميدان المروءة عن حمية وإخلاص وذلك مصدر سعادة للمربي الصادق إذ يرى غرسه ينمو وينضر ويؤتي ثمره على أحسن وجه يلوح!.

ولم تكن الرحلة ذات أعباء مجهدة كما حدثهم الأستاذ من قبل إذ أن التلاميذ قد تيسرت لهم الحافلة التي ستنقلهم من أيسر سبيل فأحد الآباء هو صاحبها، وقد أراد أن يسهم بنفسه في قيادتها ليستشعر رضى النفس في سبيل المعروف، وقد انضم بخبرته وتوجيهه إلى الأستاذ المشرف فكانا جناحين قويين، ومتاربين هادبين، وكان الأشبال يضحكون مرحين أثناء السير الطويل ويسألون المشرف أين المصاعب التي حدثتنا عنها، فيقول لهم إن الله يرعى العمل المخلص فيسهل عسيره، ويهوّن صعبه، وإن النفس المطمئنة إذا أقبلت راغبة غير مكرهة كان شعورها بالرضى دليل التوفيق.

وقد كان المشرف قبل الخطوة الأولى من الرحلة قد أبرق إلى مدرسة الرحمة محدداً موعد الوصول كما توقعه، ولكن سهولة السير تقدمت بالموعد أكثر من ثلاث ساعات ومع ذلك فقد كانت مدرسة الرحمة تنتظر الوافدين من الصباح، وتتأهب للاستقبال في شوق وما إن ظهرت بشائر القادمين حتى لاحت مظاهر الابتهاج واصطف تلاميذ المدرسة صفوفاً في فنائها كأنهم يقفون في طابور الصباح ليحيوا ضيوفهم الوافدين، وتلت الإذاعة المدرسية آيات معبرة من كتاب الله أعقبها كلمة استقبال ألقاها تلميذ مختار يحيي بها الضيوف نيابة عن إخوانه المرحبين.

وكان ناظر المدرسة وأعوانه من الإداريين والمدرسين يتخذون من هذه الزيارات مجالاً لعرض النشاط المدرسي من كافة وجوهه، إذ يتبعون نظاماً جميلاً يظهر خير ما في المدرسة من مناحي التربية والتهذيب، وقد سعدوا بما قدم الوافدون من تبرعات متعددة المنافذ، وهي في مجموعها تصور تعاطفاً حميداً كان موضع الإعجاب، فبعد الاستراحة المعهودة وما يتبعها من استحمام واستبدال للملابس وتناول للغذاء بدأت حفلة جميلة يمثل فيها تلاميذ المدرسة بمسرحها الهادئ مشهداً من مشاهد التاريخ بطله صلاح الدين الأيوبي، حيث عرض انتصاره في معركة حطين وجلوسه مع أصحابه وبين يديه الأسرى من ملوك الغرب وأمرائهم وكان من المؤثر أن يقتحم المجلس فتاة صليبية تسأل عن ولدها الصغير مسترحمة صلاح الدين فيأمر بمن يذهب إلى الخيام المنتشرة ليبحث عن الطفل كي يرده إلى أمه، ثم انتهت المسرحية وقام الزائرون بجولة ممتعة في ربوع المدرسة يعرفون بها ألوان النشاط المدرسي المهني في حجرات العمل التأهيلية، فيرون كيف يدرب التلاميذ فرقاً فرقاً على أعمال النجارة والسباكة والنسيج والطلاء بالنسبة للبنين وعلى أعمال التريكو والتطريز والحياكة والطبخ بالنسبة للبنات ليكون لكل تلميذ عمله النافع بعد مبارحة المدرسة، أما حديقة المدرسة فقد كانت موضع العجب لأنها بأشجارها وزرعها وزهرها وما تضم من فواكه وثمار من غرس التلاميذ، إذ تدرّب فريق منهم على إتقان العمل الزراعي برعاية مهندسين فنيين يتعهدون الغرس منذ أن توضع البذرة حتى تجنى الثمرة، وكان جميلاً أن يختلط التلاميذ بزملائهم الوافدين فيتحدث كل تلميذ عن شجرته التي غرسها، أو المقعد الذي صنعه، أو الثوب الذي حاكه، وكان ناظر المدرسة وزملاؤه يوضحون للتلاميذ ما قد يخفى عليهم ويجيبون عن استفساراتهم المختلفة في سرور ومحبة، ثم انتقلوا بعد هذه الجولة إلى مسرح المدرسة حيث بدأت.

كان جهد السفر والتجول في أماكن النشاط المدرسي، ومواصلة الفكر فيما يراه التلاميذ طيلة يوم كامل مدعاة لاستقبال النوم الهادئ من غرف نظيفة أعدت لأمثال هذه الزيارات، وقد نام الوافدون مستريحين، ولكن عدنان لم يجد السبيل إلى النوم ممهداً، حيث سبح مع أفكاره المختلفة وكلها تدور حول ضرورة عقد الصلات الوثيقة بين الزائرين وتلاميذ هذه المدرسة، إذ ليست المسألة زيارة سريعة ينقضي أثرها بمرورها، بل لابد أن تحدث معه العلائق القوية ما يجعلنا حقيقيين بمدرسة الرحمة فنتبادل بالرسائل، ونحدد مواسم اللقاء ونجدد الفرحة باللقاء كل عام!

في هذا المدار جالت أفكار عدنان وأخذت تتبلور في اقتراحات كثيرة، حتى اهتدى إلى رأي شاء أن يعرضه على الأستاذ المشرف بل على المتجمعين جميعاً حين تسنح الفرصة من الصباح.

ظهرت أضواء الشروق وانتبه النائمون فخفوا للصلاة وتناولوا الإفطار في جو من البشاشة والصفاء، حتى وقف عدنان بين زملائه والمشرفين على المدرسة من ناظر وإداريين ومدرسين، ليقدم اقتراحاً متواضعاً قال فيه: إن سعادته بهذه الزيارة لا تحد، وقد كان يتمنى أن يكون تلاميذ مدرسته جميعاً معه في هذه الرحلة، ولكن العدد عشرون فحسب لذلك يقترح أن يكون لكل زائر من إخوانه صديقاً يختاره من تلاميذ المدرسة يراسله ويعقد معه صلات المودة والحب، وإذا كان عدد الوافدين عشرين، وعدد سنوات مدرسة الرحمة أربعاً فإنه يرى أن تعد الإدارة كشفاً بأسماء الخمسة الأوائل من كل سنة دراسية، فيكون العدد عشرين ويختص كل زائر بصديق من هؤلاء يعطيه عنوانه، ويبادله الرسائل لتتأكد مظاهر الود الحقيقي، وإذا شاء الله وسمحت الظروف في العام القادم بزيارة مماثلة فسيكون العدد بإذن الله أكثر، ويتبعه اتساع المجال في اختيار الأصدقاء من التلاميذ، ثم عقب عدنان على اقتراحه بقوله: إن التراسل على البعد يقوي الأواصر ويجعل الواحد منا يشعر بأنه لا يعيش وحده فهناك من يشاطره الآلام والآمال، وما بلغ عدنان هذه الفقرة من حديثه حتى دوّى الحفل بالتصفيق، وقام ناظر المدرسة مبدياً عبارات الثناء ومباركاً هذا الاقتراح الأخوي السديد، ودعا إلى التنفيذ الفوري فجاء الموظف المختص بكشوف التلاميذ في الفرق الأربع، ليحدد الأوائل من كل فرقة كما قام المشرف على الوافدين بكتابة أسمائهم واحداً واحداً مع عنوان كل تلميذ، ونوديت الأسماء ليصافح

كل صديق صديقه الجديد وليعانقه في حب وود، وكان موقفاً لا ينسى إذ أحدث من التأثير البالغ ما طفرت به دموع الفرح سعادة وابتهاجاً.. وتهيأ الزائرون للرحلة وحديثهم لا ينقطع عن تزكية عدنان وشكره الجم على ما أبداه من ذكاء ويقظة وسماحة وقد تعاهدوا جميعاً على أن تكون الرحلة إلى مدرسة الرحمة فرضاً محتوماً كل عام!.

- ٤ -

عاد الزملاء إلى بيوتهم وأخذ لقاء سمير وعدنان يتكرر يومياً في المكتبة كل أصيل وصداقتهما تزداد رسوخاً وثباتاً، حتى ألمّ كل منهما بأحوال صاحبه، وقد عرف عدنان أن سميراً يذهب كل صباح أثناء العطلة إلى المخزن التجارى العام الذى يملكه والده خارج المدينة ليراقب بعض الشئون استجابة لرغبة أبيه، كما ذهبا ذات يوم يتنزهان خارج المدينة حتى بلغا المخزن التجارى، فعرفه عدنان عن يقين، وكان القدر قد هيأ هذه المعرفة ليقع ما ليس فى الحسبان ففى ليلة ما ذهب عدنان مع والدته إلى زيارة أخت لها لمناسبة ما تقيم بمنزل قريب من المخزن التجارى وامتدت السهرة طويلاً إلى منتصف الليل، وحين خرجت الأم مع ولدها لتركب العربة لحظ عدنان، أن باب المخزن قد فتح فى عجلة، ثم أغلق على الفور، وأن نوراً ضئيلاً ينبعث من ثقاب بالباب الحديدى، فجعل يسائل نفسه! لماذا فتح الباب بهذه الطريقة العاجلة، ثم أغلق هكذا سريعاً وزاد من شكه أن رأى عربة تقف بعيداً عن المكان، وقد خرج منها من وقف ليدور ببصره ذات الشمال وذات اليمين ثم يرجع إلى العربة في حالة انتظار! فقال في نفسه لابد أن أطلب سميراً بالتليفون وأخبره عما رأيت ولن أخسر شيئاً إذا كان الأمر طبيعياً، ثم ترك أمه وصعد إلى منزل خالته وطلب صديقه ليتحدث بما لاحظ وكانت مفاجأة للابن وللوالد وللمنزل جميعاً، حيث تأكدوا من وجود لصوص بالمخزن، وأبلغوا الشرطة على الفور، وذهبوا سريعاً يحاولون منع الخطر، فإذا بهم يروا الأقفال مكسورة، ويسمعوا اللغط بداخل المخزن، فاقتحمت الشرطة المكان لتجد الخزنة مكسورة وقد رتبت بعض البضائع فى وضع خاص لتحمل.. فتم القبض على اللصوص قبل أن يذهبوا بما فى الخزنة أولاً ثم بما رتبوه وصفوه ليحملوه!

وكانت ليلة عاصفة لم ينسها والد سمير!

وفى الصباح! توجه سمير مع أبيه إلى منزل عدنان فشكر الوالد صنيعه، وقال لأبيه: نحن من الآن صديقان، ولا أقف فى طريق صفقة تريدها، بل إذا أردت أن نكون معاً شركة تجارية لإدارة واحدة فأنا على استعداد، لقد أنقذ ابنك الكريم مستقبلى حين حفظ أموال الخزنة فلم يأخذها الأوغاد.

فابتسم والد عدنان، وقال: إن ولدينا أكثر منا وعياً وإدراكاً، وقد مهدا السبيل إلى الصفاء والود، وأنا صديقك الآن ومستشارك، ولن أبرم صفقة كبيرة دون أن تكون معى وتعانق الأبوان!

قال سمير: سأزورك فى منزلك من الآن يا عدنان، فضحك عدنان وهو يقول بل خذنى لزيارة منزلك الآن!

آيات الله فى تصريف الرياح

للأستاذ الدكتور/ السيد محمد الديب
وكيل كلية اللغة العربية - بالزقازيق
Sayed.Addeeb@hotmail.com

تتجلى بعض دلالات العظمة الإلهية فى تصريف الله تعالى للرياح، وما يعقبها من تحقيق النعمة للبشر، وتكون إعصاراً أو هزيماً مرعباً فتحقق آثاراً ضارة، ولكنها ذات دلالات على إنذار الله وتحذيره لعباده وينبغى أن يكون ذلك كله مصحوباً بالتأمل والاعتبار.

حديث القرآن والسنة عن الرياح

لقد ورد ذكر الريح فى القرآن الكريم مفردة وجمعها، وهى الهواء المتحرك فى السماء، وارتبط الحديث عنها ببعض صفاتها مثل الذاريات والعاصفات والمرسلات، وجاء معظم ورودها بالإفراد فى مقام الضرر والعذاب والهلاك، كقوله تعالى:

﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(آل عمران: ١١٧)

كما جاءت فى مقام الخير والنصر لأولياء الله، كقوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

(يونس: ٢٢)

ووردت فى القرآن الكريم بلفظ الجمع كثيراً فى مواضع الرحمة والخير كقوله تعالى:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(الروم: ٤٦)

وسواء أكانت الكلمة إفرادا أم جمعاً، أو كانت في مواضع البشارة والخير أم في مواضع الضرر والشر، فإن ذلك يستدعي التأمل والاعتبار خاصة من عباد الله المتقين، الذين يثقون في الله تعالى، ويؤمنون بقضائه وقدره، ويحمدونه على نعمائه وضرائه، ولا يخفى على المدرك البصير والعالم الخبير قيمة ما تحمله الرياح من لقاح للأشجار، وتحريك للسحب، وتسيير للفلك، وهي جزء من تصريف الله في كونه الواسع العظيم، ومجال للتأمل والعظة، وليس للازدراء والاحتكار، فقد قال الرسول ﷺ: لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: "اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها وشر ما أمرت به"[1] ذلك أن الإسلام دستور شامل لمنهاج الحياة، ولا يليق بالمسلم أن يأتي الكلام الفاحش على لسانه، ويجب عليه أن يتذكر الرياح على أنها آية من آيات الله تعالى، محملة ببعض دلالات قدرته ومظاهر عظمته، وأن التعامل معها ينبغي أن يسير في خطين متوازيين أولهما عن العظة والاعتبار، وزيادة معدلات الإيمان في قلوب المؤمنين، وثانيهما عن بيان إعجاز القرآن الكريم من خلال الإشارات العلمية التي وردت به، في مواضع مختلفة، وفي مقامات متعددة كطرح لسبل الخير والشر، وعرض لها العلماء والمفسرون بحيدة وإيمان.

وقد ذكر الرسول ﷺ الريح، وما يترتب عليها من نعمة أو نقمة، وعلّم أمته وسائل التعامل معها في عنفها ولينها، وفي خيرها وشرها فقال ﷺ: "الريح من روح الله، تأتي بالرحمة، وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبُّوها، وسلوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرّها"[2].

وعلى ذلك يجب أن يأخذ المسلم اعتباراً من تقليب الليل والنهار، وحركة الفلك في البحار، وحمل الرياح لما يعود على البشر بالخير أو بالشر، تلك التي سخرها الله تعالى لسليمان عليه السلام إذ كانت تجْري بأمره، حسب رغبته واختياره، وبتقدير الله وتدبيره ويكون ذلك عونا لهذا النبي الكريم على تبليغ رسالته إلى البشر، وبحيث تبقى أمام الناظرين من دلائل القدرة الإلهية.

ارتباط آيات الريح بالرحمة والخير

لقد جاءت آيات القرآن الكريم عن الرياح مرتبطة بالخير، الذي يتجلّى في نزول المطر، وإحياء الأرض، وما يعقب ذلك من آيات وتوجيهات للمؤمنين والموقنين والعاقلين، وما يترتب عليها من تأمل واعتبار، فتكون وصفا حقيقيا لعباد الله الذين يسْعون إلى تثبيت دعائم إيمانهم وتقوية سُبل الأخذ والتناول للوحي الكريم إذ جاء ذكر تصريف الرياح مسبوقا بتوجيهات بيانية متعددة تسهم كلها في حتمية التبصر لحركة الرياح، وورد ذلك مفصّلاً في قوله تعالى:

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

(الجاثية: ٤، ٥)

وقد جاءت هاتان الآيتان متعانقتين، سعْياً إلى إرشاد المؤمنين وسائر عباد الله المتقين إلى وجوب التأمل والاعتبار في آيات الليل والنهار، خاصة في أمر الرياح، التي ذُكرت مقرونة بالتصريف، وما يترتب عليه من إنزال المطر وإحياء الأرض؛ لإمداد البشر بأسباب الوجود والتكاثر على الأرض فالله سبحانه وتعالى هو القادر على ملكه، يقلّبُ الرياح مرة جنوباً ومرة شمالاً في أحوال متعددة، باردة وحارة، شديدة وهينة، ذات منافع وأضرار، لحكم متعددة يجب على المؤمنين استيعابها والاعتبار بها، وذلك شأن العقلاء من عباد الله، فهم منارات وإضاءات لغيرهم، فالريح تهب لينة رخوة، تبعث الحيوية والنشاط والحركة في الإنسان، وتتجلى في النسيم الذي يصافح وجوه الخلق عندما تقسو الحرارة عليهم، وهي في مقام الخير تحرّك السفن، ناقلة للإنسان وغيره من الكائنات كثيراً من الخيرات، التي يستفاد بها، وارتباط كل ذلك بالرياح يجعل المؤمنين في مواقف العظمة، التي يعتبرون بها، ويتأملون فيها، قال تعالى:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۝ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

(الشورى: ٣٢، ٣٣)

فلا زال للريح دور في حركة السفن، وإيقافها بلا حراك على ظهر الماء، مع تقدم العلم وتداخله في هذا التحرك والإيقاف، وكل ذلك يستدعي الصبر على متغيرات الأزمان والأحداث، والشكر على نعم الله سبحانه وتعالى وابتلائه للبشر، وفيما يتصل بقوانين الله تعالى في حركة الرياح وتوقفها ذكر الدكتور زغلول النجار: "أن الرياح التي تبدو للمراقب من الناس هوجاء عاصفة، لها في الحقيقة توزيع دقيق على سطح الأرض، تحكمه قوانين شديدة الانضباط، وقد وصف القرآن الكريم هذه الدقة في التوزيع والانضباط في الحركة بوصف معجز هو "تصريف الرياح" بمعنى أن الرياح لا تتحرك هذه الحركات العديدة بذاتيتها، ولكن بقدرة الله، الذي يصرّفها بعلمه وحكمته كيفما يشاء، والرياح تقوم بدور رئيسي بإذن الله في تكوين السحب وإنزال المطر، وإتمام دورة الماء حول الأرض وإلا فسد، وفي تفتيت الصخور وتعريتها،

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه أبو داود بإسناد حسن.

وتكوين التربة والرمال السافية وتحريكها، وفي تلطيف الجو وتكييفه وتطهيره من الملوثات، التي تحملها حركة الرياح جنوباً وشمالاً"[3].

وهكذا تعرض آيات القرآن حركة الرياح، وتصريف الله لها، مما يحتم على علماء المسلمين مواصلة البحث عن دلالات الإشارات الكونية في القرآن الكريم، خاصة ما اتصل منها باحتياجات عباد الله لمواصلة الحياة.

ارتباط ذكر الريح بالضرر والعذاب

لقد جعل الله سبحانه وتعالى الريح الشديدة آية من آيات تحذيره وإنذاره لخلقه، وأوجبت الآيات القرآنية أن يتمخض ذلك عن التأمل الإيجابي لعباد الله المتقين، وتحقق ذلك في غزوة الأحزاب، عندما هبّت رياح شديدة، وحقق الله بها الهلاك لأعداء الدين، هؤلاء الذين سعوا إلى حجب رسالة الإسلام عن ذيوعها وانتشارها، حيث أرسل سبحانه وتعالى الريح التي كانت دماراً بالنسبة لهم فولوا مدبرين مقهورين، كما كانت نصراً لأولياء الله تعالى، الذين أخلصوا لعقيدتهم، وسعوا للدفاع عن المدينة المنورة، التي كانت مهددة بالاقتحام من قبل الكارهين والمعاندين لأنوار الإسلام، قال تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ﴾

(الأحزاب: ٩)

وقد كشفت هذه الآية عن الدور المزدوج لتصريف الله تعالى للريح، إذ كانت هلاكاً وتدميراً لخطط أعداء الله، ونصراً وتأييداً للمتقين من المهاجرين والأنصار، الذين حفظهم الله بحفظ أرواحهم، وصيانة مدينتهم، التي أحبّوها، وعاشوا فيها، وتعلقوا بها.

وقد عرضت بعض آيات سورة الروم للآثار المترتبة على إرسال الله للرياح، وما يتبعها من تكوين السحب، وبسطها في السماء، وجعلها كسفاً تخرج منها قطرات الماء، والتي تنزل في صورة أمطار متنوعة بين الكثرة والقلة والاختلاف من موضع لآخر، حيث تنتقل آثارها الإيجابية إلى خلق الله، هؤلاء الذين يجبُ عليهم التنبه لدلالات القدرة الإلهية، وما تشتمله من تأمل لتصريف الله للرياح، قال تعالى:

﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾

(الروم: ٤٨)

وقد ذكرت آية أخرى في سورة الحجر بعض دلالات القدرة في إرسال الله للرياح، وما يترتب عليها من تلقيح للسحب، ومن تلقيح آخر للأشجار والنباتات وغيرها مما يشمله البيان الإلهي، الذي ذكرته بعض الآيات إجمالاً، ومنها قول الله تعالى:

﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾

(الحجر: ٢٢)

وفيما يتصل ببيان ما في الآية من إعجاز علمي، ومغزى دلالاته ذكر الدكتور النجار "أن تصريف الرياح بمشيئة الله تثير السحاب بتزويد الهواء بالرطوبة اللازمة، وأن إرسال الرياح بنوى التكثف المختلفة يعين بخار الماء الذي بالسحب على التكثف، كما يعين قطيرات الماء المتكثفة في السحاب على مزيد من النمو؛ حتى تصل إلى الكتلة التي تسمح لها بالنزول مطراً، أو ثلجاً أو برداً بإذن الله، كما أن الرياح تدفع بهذه المزن الممطرة بإذن الله تعالى إلى حيث يشاء"[4].

ولما كانت الرياح متعددة الأغراض فإنها تحقق الخير للعباد، كما تأتي شراً مستطيراً، يستلزم الاتعاظ بما فيها، وحسن التعامل معها، وحتمية الالتجاء إلى الله والاحتماء بقدرته، ولهذا يستلزم أن يتجه المؤمن إلى ربه بالدعاء، ما لو سبقت الريح بشرها، ويكون ذلك بالدعاء، الذي روت السيدة عائشة رضي الله عنها نموذجاً له فقالت: "كان النبي ﷺ إذا عصفت الريح قال: "اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرّها وشرّ ما فيها، وشرّ ما أرسلت به"[5].

فالرياح التي يصرّفها الله تعالى تخضع لقوانين شديدة الانضباط في الحركة، وهي تحمل الخير، كما تحمل الشر، وفي كل الأحوال يجب أن يتمخض تصريف الله لها عن التأمل الإيجابي، الذي يتحول اعتقاد المؤمنين به إلى قوة محركة ودافعة، وموجهة إلى تحقيق المزيد من الإيمان بالله تعالى.

"إذا ذكرني عبدي خاليًا ذكرته خاليًا، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من الملأ الذي ذكرني فيه".

رواه الطبراني عن ابن عباس

(3) جريدة الأهرام في ٢٢/٤/٢٠٠٢م ص ١٢.

(4) الأهرام ٦/٥/٢٠٠٢م.

(5) رواه مسلم.

﴿ فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لهذا السؤال:

كيفية وضع الميت فى القبر

• هل تكون رأس الميت بيمين القبلة ورجلاه شمالها، كما نصلى عليه أم غير ذلك؟

•• الجواب:

يجب أن يوضع الميت تجاه القبلة بأن يكون وجهه وصدره وبطنه تجاهها، ويستحب أن يكون على جنبه الأيمن، أى: كأنه كان واقفاً يصلى ثم اضطجع على جنبه الأيمن فى نفس اتجاه الصلاة، فإن وضع على جنبه الأيسر تجاه القبلة جاز ذلك ولكنه خلاف الأولى.

قال الإمام النووى الشافعى - رحمه الله - فى (المجموع شرح المهذب) (٥/ ٢٩٣، ط. دار الفكر): يجب وضع الميت فى القبر مستقبل القبلة، هذا هو المذهب وبه قطع الجمهور.. واتفقوا على أنه يستحب أن يُضجع على جنبه الأيمن، فلو أضجع على جنبه الأيسر مستقبل القبلة جاز وكان خلاف الأفضل.. أ. هـ

والله سبحانه وتعالى أعلم

الحقوق الفكرية

• صدرت من دارالإفتاء المصرية فتوى بعنوان (انتحال الحقوق الفكرية أو التعدى عليها محرم شرعاً؛ وأحتاج هذه الفتوى لأننا نمتلك مصنفاً دينياً عن مورثنا وأخشى من ضياع حق الملكية الفكرية؛ لذلك ألتمس من فضيلتكم التكرم بإصدار فتوى بهذا الصدد.

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور

على جمعة

مفتى جمهورية مصر العربية

•• الجواب:

جاء الإسلام بحفظ المال، وجعل ذلك من المقاصد الكلية الخمسة التى قام الشرع الشريف عليها، (وهى حفظ النفس والدين والعرض والعقل والمال)، وحقوق الملكية الفكرية والأدبية والفنية وبراءات الاختراع والأسماء والعلامات والتراخيص التجارية (والتى اصطلح على تسميتها بالحقوق الذهنية) هى من الحقوق الثابتة لأصحابها شرعاً وعرفاً، سواء أقلنا إنها من قبيل الأموال، كما هو مقتضى قول الجمهور فى كون المنفعة مالاً متقوماً، أم قلنا إنها من قبيل المنافع التى تعد أموالاً بورود العقد عليها مراعاة للمصلحة العامة، كما هو رأى المتقدمين من الحنفية، وحاصل قول جمهور الفقهاء فى ضابط (المال) أنه: ما له قيمة بين الناس بسبب إمكان الانتفاع به ولزم متلفه الضمان، ووافقهم على ذلك متأخروا الحنفية.

والمال فى اللغة؛ كما قال العلامة ابن منظور المصرى فى (لسان العرب): (كل ما ملكته من جميع الأشياء) أ. هـ، وظاهر هذا أنه يشمل ما كان أعياناً أو منافع أو حقوقاً.

قال العلامة ابن عابدين من الحنفية فى حاشيته (رد المحتار): (المراد بالمال ما يميل إليه الطبع ويمكن ادخاره لوقت الحاجة، والمالية تثبت بتمول الناس كافة أو بعضهم، والتقوم يثبت بها بإباحة الانتفاع به شرعاً) أ.هـ.

وقال القاضى عبدالوهاب البغدادى المالكى: (هو ما يتمول فى العادة ويجوز أخذ العوض عنه) أ. هـ.

وقال القاضى ابن العربى المالكى: (هو ما تمتد إليه الأطماع، ويصلح عادة وشرعاً للانتفاع به) أ. هـ.

ويذكر الإمام العز بن عبدالسلام فى كتابه (قواعد الأحكام) أن المنافع هى المقصود الأظهر من جميع الأموال.

وقال الإمام الشاطبى فى (الموافقات): (مايقع عليه الملك، ويستبد به المالك عن

غيره إذا أخذه من وجهه) أ . هـ.

وعرف الإمام الزركشي من الشافعية المال بأنه : (ما كان منتفعا به ، أى مستعداً لأن ينتفع به) أ . هـ.

وقال المحقق الجلال المحلى الشافعى فى شرحه على (المنهاج) للإمام النووى : (الثانى من شروط المبيع (النفع) فما لا نفع فيه ليس بمال ، فلا يقابل به) أ . هـ.

وقال الإمام السيوطى فى (الأشباه والنظائر) : (خاتمة فى ضبط المال والمتمول : أما المال فقال الشافعى رضى الله عنه : (لا يقع اسم (مال) إلا على ما له قيمة يباع بها ، وتلزم متلفه ، وإن قلت ، وما لا يطرحه الناس مثل الفلس وما أشبه ذلك) أ . هـ.

وما نقله عن الإمام الشافعى موجود فى (الأم) ، وعبارة المطبوع منه : (ولا يقع اسم (علق) إلا على شىء مما يتمول وإن قل ، ولا يقع اسم (مال) ولا (علق) إلا على ما له قيمة يتبايع بها ويكون إذا استهلكها مستهلك أدى قيمتها وإن قلت ، وما لا يطرحه الناس من أموالهم مثل الفلس وما يشبه ذلك) أ . هـ.

وقال العلامة شرف الدين المقدسى الحنبلى فى (الإقناع) : (هو ما فيه منفعة مباحة لغير حاجة أو ضرورة) أ . هـ.

وقال العلامة البهوتى الحنبلى فى (شرح منتهى الإرادات) : (المال ما يباح نفعه مطلقا ، أى فى كل الأحوال ، أو يباح اقتناؤه بلا حاجة) أ . هـ.

يقول الشيخ على الخفيف فى كتابه الملكية) (١ / ١٣ الهامش) : (ومن الفقهاء من صرح بأن (المالية) ليست إلا صفة للأشياء ، بناء على تمول الناس ، واتخاذهم إياها مالاً ومحلاً لتعاملهم ، وذلك لا يكون إلا إذا دعتهم حاجتهم إلى ذلك ، فمالت إليه طباعهم ، وكان فى الإمكان التسلط عليه ، والاستئثار به ، ومنعه من الناس ، وليس يلزم لذلك أن يكون مادة تدخر لوقت الحاجة ، بل يكفى أن يكون الحصول عليها ميسوراً عند الحاجة إليها غير متعذر ، وذلك متحقق فى المنافع ، فإذا ما تحقق ذلك فيها عدت من الأموال ، بناء على عرف الناس وتعاملهم) أ . هـ.

ولما كان النتاج الفكرى ومثله العلامة التجارية مما يقطع بمنفعته بحيث يحصل به الاختصاص الحاجز ويجرى فيه التقويم والتداول عرفاً ويتخذ محلاً للتعامل والمعارضة بين الناس بسبب ظهور آلات الطباعة ووسائل النشر وتطور العصر ويثبت فيه حق المطالبة القضائية فى العرف القانونى ولا معارض لذلك فى الشرع فإن هذا يجعل لمثل هذه الحقوق حكم المالية فى تملك أصحابها لها واختصاصهم بها اختصاصاً يحجز غيرهم عن الانتفاع بها بدون إذنهم.

كما جاء الشرع بتحرى الأمانة فى إسناد الأقوال والجهود ونسبتها إلى أصحابها ؛ فحرم انتحال الشخص قولا أو جهدا أو إنتاجا لغيره على أنه هو الذى قاله ، أو إسناده إلى غير من صدر عنه تضييع لحق قائله ، وجعل هذا من الكذب الذى يستحق عليه صاحبه العقاب ، ومن جهة أخرى فقد احترم الإسلام حق الأسبقية وجعل للسابق ما ليس للمسبوق ، فعن أسمر بن مضرس - رضى الله عنه - قال : أتيت النبى ﷺ فبايعته ، فقال : (من سبق إلى ما لم يسبقه إليه مسلم فهو له) رواه أبوداود وغيره بإسناد حسن ، كما قال الحافظ ابن حجر فى (الإصابة) .

كما أن الجهود المضنية والأموال التى قد يبذلها أصحاب الإنتاج الفكرى فى التوصل إلى أبحاثهم وطباعة كتبهم تجعل من التعدى عليها أكلا لحقوقهم وتضييعا لجهدهم بالباطل وإلحاقا للضرر بهم ، والله تعالى يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾

(النساء : ٢٩)

ويقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة : ١٨٨)

قال الإمام القرطبى فى (تفسيره) عند هذه الآية : (الخطاب بهذه الآية يتضمن جميع أمة محمد ﷺ ، والمعنى : لايأكل بعضكم مال بعض بغير حق ، فيدخل فى هذا : القمار والخداع والغصوب وجحد الحقوق ، وما لا تطيب به نفس مالكه ، أو حرمته الشريعة وإن طابت به نفس مالكه ، كمهر البغى وحلوان الكاهن وأثمان الخمور والخنازير وغير ذلك) أ . هـ.

وعلى ذلك : فحقوق التأليف والنشر ملك لأصحابها ، يجرى فيها ما يجرى فى الملك الذى هو حق خالص يختص به صاحبه : من جواز انتفاعه بها على أى وجه من الوجوه المشروعة ، ومن جواز معاوضتها بالمال إذا انتفى التدليس والغرر ، ومن تحريم الانتفاع بها على الوجه الذى يتضرر به أصحابها بغير إذنهم ، ومن حرمة الاعتداء عليها بإتلافها أو إتلاف منفعتها أو تزويرها أو انتحالها زورا وكذبا ، وبذلك صدرت قرارات المجامع الفقهية الإسلامية ؛ فجاء فى القرار رقم ٤٣ (٥ / ٥) لمجمع الفقه الإسلامى المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامى ، فى مؤتمره الخامس بالكويت من ١ - ٦ جمادى الأولى ١٤٠٩هـ ماياتى :

ثالثاً : حقوق التأليف والاختراع أو الابتكار مصونة شرعاً ، ولأصحابها حق التصرف فيها ، ولا يجوز الاعتداء عليها والله أعلم) أ . هـ.

وبناء على ذلك ؛ فإن انتحال الحقوق الفكرية أو التعدى عليها دون إذن أصحابها أمر محرم شرعاً ، لأنه تضييع لحقوق الناس وأكل لأموالهم بالباطل .

والله سبحانه وتعالى أعلم

البيعة الثالثة



لفضيلة الشيخ الطاهر الحامدى

يسميها بعض المؤرخين العقبة الثالثة على اعتبار أن اللقاء الأول الذى كان بين النبى ﷺ وبعض أهل المدينة ممن تواعدوا معه ﷺ على أن يرجعوا إلى أهلهم ويخبروهم خبر رسول الله ﷺ على أن يعودوا إليه فى العام المقبل، وتراضوا على ذلك وآمنوا به وصدقوه فهذه يسميها بعض المؤرخين البيعة الأولى وبهذا تكون هذه هى البيعة الثالثة وقد يسميها بعض المؤرخين البيعة الثانية فإنهم لا يعتبرون ما تم فيما سبق بيعة لأن هؤلاء النفر لم تكن بينهم وبين رسول الله ﷺ بيعة، وإنما كان وعداً باللقاء فى العام القادم.

وأنا أميل وأرى أنها جديرة بأن تسمى هذه البيعة التى نحن بصددها البيعة الكبرى فإنها جديرة بأن تحوز هذا الاسم شكلاً وموضوعاً:

أما من حيث الشكل فهي أكبر البيعات التى كانت قبل الهجرة، حيث إن عددها كان ثلاثاً وسبعين رجلاً وامرأتين.

ثانياً: كان فيها اختيار النقباء الاثنى عشر.

ثالثاً: حضرها مع النبى ﷺ عمه العباس بن عبد المطلب وكان على دين قومه جاء ليستوثق لابن أخيه.

أما من حيث الموضوع فقد كان فيها أخذ العهد على النصرة والدفاع عن رسول الله ﷺ وبذلك تختلف عن السابقة التى توافق ما كان فى بيعة النساء.

وثانياً: فإنه كان بعدها إعلان الهجرة إلى المدينة حتى اكتملت بهجرته ﷺ وقدومه المدينة.

وثالثاً: أنها كانت تأسيساً لتكوين دولة الإسلام وأن الإسلام دين ودولة وبدأ بعدها وبعد هجرة النبى ﷺ بناء المسجد النبوى الذى كان هو التأسيس الفعلى للحكم والشورى والقضاء وعقد ألوية الحرب يقول جابر بن عبدالله رضى الله عنه فيما يرويه الإمام أحمد والبيهقى: (إن رسول الله ﷺ لبث عشر سنين يتتبع الناس فى منازلهم مجنّة وعكاظ وفى المواسم بمنى يقول من يؤوينى؟ من ينصرنى حتى أبلغ رسالات ربى وله الجنة؟ فلا يجد أحداً يؤويه ولا ينصره حتى إن الرجل ليرحل من مضر أو اليمن فيأتيه قومه وذوو رحمه فيقولون: احذر فتى قريش لا يفتنك، يمضى بين رحالهم وهم يشيرون إليه بأصابعهم. حتى بعثنا الله إليه من يثرب فيأتيه الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه حتى لم تبق دار من دور يثرب إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام ثم بعثنا الله تعالى فائتمرنا - أى اتفقنا - واجتمعنا وقلنا: إلى متى نذر رسول الله ﷺ يطرف جبال مكة ويخاف؟ فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه فى الموسم فواعدناه شعب العقبة. فاجتمعنا فيه من رجل ورجلين حتى توافينا عنده فقلنا: يا رسول الله علام نبايعك؟ قال: «تبايعونى على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة فى العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعلى أن تقولوا فى الله لا تأخذكم لومة لائم وعلى أن تنصرونى إذا قدمت عليكم يثرب تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة» يقول جابر: فقمنا نبايعه فأخذ بيديه ﷺ أسعد بن زرارة وهو أصغر السبعين رجلاً إلا أنا فقال: (رويداً يا أهل يثرب فإنا لم نضرب إليه أكباد المطى إلا ونحن نعلم أنه رسول الله وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم وأن تعضكم السيوف فإما أنتم قوم تصبرون على عض السيوف إذا مستكم وعلى قتل خياركم وعلى مفارقة العرب كافة فخذوه وأجركم على الله فإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو أعذر لكم عند الله) فقلنا ابسط يدك يا أسعد بن زرارة فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها فقمنا إليه نبايعه رجلاً رجلاً يأخذ علينا شرطه ويعطينا على ذلك الجنة).

وكما أن جابر بن عبد الله حضر البيعة وروى هذا الحديث الذى أسلفناه فيما ذكره الإمام أحمد فإن ابن إسحاق يروى عن آخر حضر البيعة رواية أخرى وهو كعب بن مالك رضى الله عنه والاختلاف الذى بين الروايتين ليس اختلاف تنافر ولا تضاد، وإنما هو اختلاف زاوية رؤية ومشاهدة ورُفقة وما حدث فى هذه الرُفقة. يقول كعب بن مالك رضى الله عنه فيما يرويه ابن إسحاق: (خرجنا فى حجاج قومنا من المشركين وقد صلينا وفقهنا - حيث إنهم تعلموا القرآن والصلاة والإسلام من مصعب بن عمير مبعوث النبى ﷺ إليهم مع أول من أسلم ممن هاجر إلى رسول الله ﷺ ومعنا البراء بن معرور سيدنا وكبيرنا، حتى إذا كنا بظاهر البيداء قال: - أى البراء بن معرور - يا هؤلاء إنى قد رأيت رأياً والله ما أدرى أتوافقوننى عليه أم لا. فقلنا: - أى جماعة المرافقين له من المدينة إلى مكة المكرمة - وما ذاك؟ قال: رأيت ألا أدع هذه البنية منى بظهر - يعنى أنه لا يترك التوجه إلى الكعبة فى صلاته - وأن أصلى إليها. قال: فقلنا والله ما بلغنا أن نبينا ﷺ يصلى إلا إلى الشام وما نريد أن نخالفه. فقال: إنى لمصلٍ إليها. فقلنا له: لكنا لا نفعل. قال: فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام وصلى هو إلى الكعبة حتى قدمنا مكة وقد كنا عبنا عليه ما صنع وأبى إلا الإقامة على ذلك. فلما قدمنا مكة

قال لي: يا بن أخي انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ حتى أسأله عما صنعت في سفرى هذا فإنه والله لقد وقع في نفسي منه شيء لما رأيت من خلافكم إياى فيه. قال: فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ وكنا لا نعرفه، لم نره من قبل ذلك فلقينا رجلاً من أهل مكة فسألناه عن رسول الله ﷺ فقال: هل تعرفانه؟ فقلنا: لا. قال: فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه؟ قلنا: نعم وقد كنا نعرف العباس كان لا يزال يقدّم علينا تاجراً. قال: فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس. قال: فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله ﷺ جالس معه. فسلمنا ثم جلسنا إليه فقال رسول الله ﷺ للعباس: (هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟) قال: نعم هذا البراء بن معرور سيد قومه وهذا كعب بن مالك. قال: فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ: (الشاعر؟) قال: نعم. فقال البراء بن معرور: يا نبى الله إنى خرجت في سفرى هذا وقد هدانى الله تعالى للإسلام فرأيت ألا أجعل هذه البنية منى بظهر فصليت إليها وقد خالفنى أصحابى في ذلك حتى وقع في نفسي من ذلك شيء فماذا ترى يا رسول الله؟ قال ﷺ: (قد كنت على قبلة لو صبرت عليها)[١] قال: فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ معنا إلى الشام. قال: وأهله يزعمون أنه صلى إلى الكعبة حتى مات وليس ذلك كما قالوا نحن أعلم به منهم..

قال ابن هشام: وقال عون بن أيوب الأنصارى:

ومنا المصلى أول الناس مقبلاً

على كعبة الرحمن بين المشاعر

يعنى البراء بن معرور. قال كعب: ثم خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق - زاد بن سعد - ليلة النفر الأول إذا هدأت الرّجل أن يوافوه في الشّعب الأيمن إذا انحدروا من منى بأسفل العقبة، حيث المسجد الحرام اليوم وأمرهم ألا ينبهوا نائماً ولا ينتظروا غائباً. قال: فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله ﷺ لها ومعنا عبد الله بن عمرو ابن حرام أبو جابر سيد من سادتنا وشريف من أشرافنا أخذناه معنا، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا فكلمناه وقلنا له: يا أبا جابر إنك سيد من سادتنا وشريف من أشرافنا وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً ثم دعوناه إلى الإسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة. قال: فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيباً. قال: فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائنا: نسيبة بنت كعب أم عُمارة إحدى نساء بنى مازن بن النجار

١ – قول البراء (حتى وقع في نفسي من ذلك شيء) افهم منها أنه غير ما كان عليه من صلاته إلى الكعبة إلى ما عليه قومه ولذلك قال له رسول الله ﷺ (كنت على قبلة لو ... إلخ) فيه إخبار منه ﷺ بأن هذا هو الذى سوف يصير إليه الأمر.

وأسماء بنت عمرو بن عدى بن نابى إحدى نساء بنى سلمة وهى أم منيع، فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ - وذكر ابن سعد وأبو معشر أن رسول الله ﷺ سبقهم وانتظرهم - حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له.

فلما جلس كان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال: "يا معشر الخزرج - قال: وكانت العرب إنما يسمون هذا الحى من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها - إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو في عز من قومه ومنعة في بلده وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده."

وروى الإمام أحمد عن الشعبى عن أبى مسعود البدرى رضى الله عنه قال: انطلق رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس إلى السبعين من الأنصار عند العقبة تحت الشجرة فقال: (ليتكلم متكلمكم ولا يُطل الخطبة فإن عليكم من المشركين عيناً وإن يعلموا بكم يفضحوكم) فقلنا: (قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله وخذ لنفسك ولربك ما أحببت) قال: فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال: (أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم). قال: فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: (نعم فوالله الذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرنا فبايعنا يارسول الله فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر) قال: فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم ابن التَّيهان فقال: (يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها - يعنى اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: (بل الدم الدم والهدم الهدم) - أى ذمتى ذمتكم وحرمتى حرمتكم - (أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم). قال كعب: وقد قال رسول الله ﷺ: (أخرجوا إلىّ منكم اثنى عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم) فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

ولعلك تريد أن تعرف من هم النقباء وكيف ولماذا اختارهم رسول الله ﷺ؟ وأعلم أنك قد عرفت كيف كانت بيعة العقبة حدثتك عنها ورويت لك ما قاله كعب بن مالك، وجابر بن عبد الله، وأعلم أنك لاحظت بعض اختلاف بين الروايتين وكما قلت لك ليس هذا اختلاف تضاد ولكن اختلاف زاوية رؤية فكل حكى وروى ما رآه. وبالتأكيد كل واحد منهم رأى شيئاً لم يره صاحبه ولذلك فمن المحتمل أن ترى روايات أخرى ربما اختلفت في كثير أو قليل فلا يقدح ذلك في الواقعة (البيعة) إنما بكل ذلك تجتمع وتكتمل الصورة وأرى أنه حان الوقت لأنهى حديثى معك على أن استكمل الحوار والحديث معك في العدد القادم إن شاء الله.

العفو والصفح من فضائل الإسلام



لفضيلة الشيخ/ فوزى الزفزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية

يقول الله ـ تعالى ـ :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(النور: ١٩ - ٢٢)

تحدثت الآيات السابقة عما قاله المنافقون فى شأن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ حين رماها أهلُ الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب والفرية التى غار الله ـ تعالى ـ لها ولنبيه ﷺ، فأنزل براءتها صيانة لعرض رسول الله ﷺ.

كما تحدثت الآيات السابقة عما أعده الله ـ سبحانه ـ لهؤلاء الخائضين فى حديث الإفك من عقاب وعذاب.. وعن الطريق الذى كان يجب على المؤمنين أن يسلكوه فى مثل هذه الأحوال، وما ينبغى أن يتمسك به المؤمنون من آداب.

ثم يهدد القرآن الكريم فى هذه الآيات الكريمة الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا بالعذاب الأليم:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

الفاحشة: ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال.

أى: إن الذين يحبون أن تنتشر قالةُ السوء بين صفوف المؤمنين وفى شأنهم لكى يُلحقوا الأذى بهم، هؤلاء الذين يحبون ذلك لهم ـ بسبب نواياهم السيئة ـ عذاب أليم فى الدنيا كإقامة الحد عليهم، واحتقار الناس لهم، ولهم ـ أيضا ـ عذاب أليم فى الآخرة، وهو أشد وأبقى من عذاب الدنيا، لأن من أحبَّ ذلك الحديث ولم ينكره فقد شارك فيه، والله ـ تعالى ـ وحده يعلم ما ظهر وما خفى من الأمور والأحوال، وأنتم ـ أيها الناس ـ لا تعلمون إلا ما كان ظاهرا منها فعاملوا الناس على حسب ظواهرهم، واتركوا بواطنهم لخالقهم الذى يتولى محاسبتهم عليها، فمحبة الفجور وشيوع الفواحش فى صفوف المؤمنين ذنب عظيم يؤدى إلى العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة.. ثم ذكر ـ سبحانه ـ المؤمنين بفضله عليهم لكى يزدادوا اعتبارا واتعاظا:

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

أى: ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم موجودان لعاجلكم بالعقوبة، ولكنه ـ سبحانه ـ لم يعاجلكم بها، لأنه ـ جل شأنه ـ شديد الرأفة والرحمة بعباده:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

نداء من الله ـ تعالى ـ إلى المؤمنين نهاهم فيه عن اتباع طرق ومسالك ووساوس الشيطان، كالإصغاء إلى حديث الإفك والخوض فيه، وما يشبه ذلك من الأقوال الباطلة، والادعاءات الكاذبة، والأفعال القبيحة.. أى: يا من آمنتم بالله حق الإيمان، احذروا أن تسلكوا المسالك التى يغريكم الشيطان بسلوكها، فإن الشيطان وظيفته الإغراء بالشر لا بالخير، والأمر بالفحشاء والمنكر، وليس بالفضائل والمعروف.. ومن يتبع خطوات الشيطان يقع فى الضلال والعصيان والهلاك وسوء المصير.. ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم ـ أيها المؤمنون ـ ما طهر أحد منكم من دنس الذنوب والمعاصى طول حياته، ولكن الله ـ سبحانه ـ بفضله ورحمته يطهر من يشاء من الأرجاس والأنجاس، بأن يقبل توبته، ويعفو عن زلته، ويغسل حوبته، والله ـ تعالى ـ سميع لدعاء عباده ومناجاتهم إياه، عليم بما يسرونه ويعلنونه من نيات وأقوال وأفعال.

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

نزلت هذه الآية الكريمة فى شأن أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ عندما أقسم ألا يعطى مسطح بن أثاثة شيئا من النفقة أو الصدقة، وكان مسطح قريبا لأبى بكر وكان من الفقراء الذين تعهد أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ بالإنفاق عليهم لحاجتهم وهجرتهم وقرابتهم منه، وذلك بسبب أن مسطح كان من الذين خاضوا فى حديث الإفك.

أى: ولا يحلف أصحاب الزيادة منكم فى قوة الدين وفى سعة المال على ألا يعطوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله شيئا من أموالهم التى تعودوا أن يقدموها لهم، بل قابلوا ـ أيها المؤمنين ـ إساءة المسىء بالعفو، ومقابلة الإساءة بالإحسان.

والآية الكريمة تفيد الحض والترغيب فى العفو والصفح، وقد صح أن أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ لما سمع الآية قال: بلى والله يا ربنا إنا لنحب أن تغفر لنا، وأعاد إلى مسطح نفقته، وفى رواية: أنه ـ رضى الله عنه ـ ضاعف لمسطح نفقته.. ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بما يرفع من شأن العفو والصفح فقال: ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

أى والله ـ تعالى ـ كثير المغفرة، وواسع الرحمة بعباده، فكونوا ـ أيها المؤمنين ـ أصحاب عفو وصفح عمن أساء إليكم.



تحية وإجلال لمن كان يكتب عن الأعلام، فحان الوقت لأن يكتب عنه، ولكن أى كاتب ذلك الذى يستطيع أن يوفيه حقه، وقد قال شيخنا المرحوم الإمام محمد أبو زهرة: «لا يكتب عن الأعلام من أساطين الفكر والأدب ويتصدى للحديث والكتابة عنهم إلا علم».. وأنى لى أن أقوم بهذه المهمة ولكن واجب الوفاء يحتم علينا القيام بها على صعوبتها، فقد ملأ علينا الفقيد - رحمه الله - حياتنا الأدبية والفكرية والاجتماعية، فسلب منا اللب والفؤاد وامتلك نواصينا كما امتلك ناصية القلم.

محمد رجب البيومى
جسد يفنى.. وروح باقية



الدكتور/ أبوبكر سعد القشيرى

ومهما جُلت بعقلى فى أى من النواحى أكتب عن أستاذنا الدكتور محمد رجب البيومى، وأى من المجالات أقدم وأيهما أؤخر! فإن الحيرة مازالت تملؤنى والاختيار جد صعب، فلقد كان كالغواص الماهر الذى يغوص فى بحار المعانى وأصداف الكلم ليخرج لنا حلولاً للقضايا ويمس أوتار حياتنا الاجتماعية والفكرية والثقافية فيثريها بطرح أفكاره وعرض تساؤلاته من أجل لفت الانتباه أو شحذ الهمم أو تسليط الضوء على مسألة أخلاقية أو تربوية أو مشكلة أسرية أو ثقافية.

فقد جعل من حياته نبراساً مضيئاً ومصلحاً اجتماعياً يوجه بأفكاره حركة الحياة وينير الطريق أمام المتشككين عنه الذين غرقوا فى العادات والتقاليد البائدة أو البالية وهو بذلك يقود حركة الإصلاح الفكرى والاجتماعى بقلمه وبروحه الوثابة من خلال المنابر التى أتيحت له، وكأنما يمتطى جواده ويقبض بسيفه فيخوض المعارك الفكرية والأدبية والاجتماعية فلا يشق له غبار ولا يلاحق عندما يعرض أو يحلل أو ينقد، لذا كان الدكتور محمد رجب البيومى -رحمه الله وأسكنه فسيح جناته- قامة سامقة فى مجالات شتى فمن الدراسات الأدبية والبلاغية واللغوية إلى الإنتاج الأدبى بأنواعه المختلفة من قصة ورواية ومسرحية فضلا عن ريادته وتربعه على عرش المقال الأدبى لأكثر من ستين عاماً.

كما شمل عطاؤه العلمى أيضاً الدراسات القرآنية، فى مجالات الإعجاز والبيان القرآنى والرد على المستشرقين المارقين من الذين خاضوا فى القرآن الكريم بغير حق كما تطرق أيضا إلى الترجمة الأمينة الرصينة الوافية لأعلام النهضة الإسلامية والأدبية، ورموز الفكر والأدب والإسلام والحضارة العربية بشتى أطيافها من المصريين والعرب والمسلمين فى موسوعة له من خمسة أجزاء فضلا عن فصول أخرى كثيرة لم يشملها هذا الكتاب، نشرها سواء فى المجلات الثقافية المختلفة أو كمقدمات لكتب كثيرة لهذه الأعلام والشخصيات المرموقة سعى إلى نشرها شهريا كملاحق لمجلة الأزهر [1].

ومن يتحدث عن الأعلام مثل أستاذنا الدكتور البيومى بشتى أنواعها فى الأدب والفكر والعلم والسياسة والاجتماع فلا شك أنه قد استفاد منهم ومن خبراتهم ومن طموحاتهم وإشراقهم، فمن ناحية هم ثروة المجتمع، ومن ناحية أخرى هو تواق إلى أن يستفيد من تراثهم وعطائهم، والعمر المديد الذى منحه الله لهذا العلم الجهبذ رحمه الله- قد أتاح له الاقتراب والمعاصرة والتعامل والمعايشة لكثير من قادة الفكر والسياسة الذين أثروا فى مجتمعاتهم أيما تأثير، كما أتاح له هذا العمر المزيد من فرص الاضطلاع وخاصة أنه كان منذ صدر شبابه منكباً على العلم والأدب، وكانت له إسهامات فكرية وأدبية كثيرة فى مقدمتها مجال التفسير البيانى للقرآن والبلاغة النبوية، ووضع منهجا للتفسير البيانى للقرآن وقد أبرز ذلك فى كتابه «خطوات التفسير البيانى للقرآن»، حيث استطاع -بفضل الله تعالى- أن يؤرخ للتفسير البيانى مبتدئاً بالعهد النبوى الشريف ومنتهيا بتلاميذ الإمام محمد عبده فى وضوح وموضوعية، وقد ألم فى ذلك إلماماً تاماً بالتفسير البيانى سواء ما وجد فى كتب خاصة بالتفسير ككتب ابن عبيدة، والزمخشرى، وابن عطية وابن أبى الأصبع، أو ما وجد فى كتب بلاغية تعرضت للآيات القرآنية تعرضاً بيانياً وذلك ككتب الجاحظ والشريف الرضى وعبدالقاهر الجرجانى وأبى هلال العسكرى، أو كتب كلامية تمثل التأويل البيانى لأهل السنة: أو التأويل البيانى للمعتزلة [2]، كما أن فضيلة الدكتور البيومى قد أبرز أثر مدرسة الإمام محمد عبده فى الدراسة البيانية للتفسير، حيث قام تلاميذه بشرح الآيات القرآنية شرحاً أدبياً كان مفتاح نهضة فى التفسير القرآنى بنوع عام والتفسير البيانى بنوع خاص، ومن أعلام هذه المدرسة الإمام محمد مصطفى المراغى، والشيخ عبدالقادر المغربى، والشيخ

---

(١) الدكتور محمد فتحى فرج بيومى، مقال بمجلة الأزهر، عدد ربيع الآخر ١٤٣٢ هـ ـ صـ ٥٨٦.

(٢) الدكتور رضا عبدالمجيد المتولى مقال بمجلة الأزهر عدد ربيع الآخر ١٤٣٢ هـ صـ ٥٩٣.

إبراهيم الجبالى، والشيخ محمد الخضر حسين.

وأخيراً تحدث عن الدراسات القرآنية البيانية فى الجامعات العلمية على يد لفيف من العلماء كالأساتذة أمين الخولى، محمد خلف الله أحمد، محمد عبدالله دراز، محمد المبارك، الخضر حسين، الرافعى، سيد قطب[3].

كما كانت له إسهامات فى القصة القصيرة والطويلة والمسرح والشعر والمقال، فقد تربع على عرش المقال الأدبى قرابة ستين عاماً كما ذكرت، ولقد تربينا على مقالاته الدسمة المشبعة المتنوعة سواء فى مجلة الأزهر أو منبر الإسلام أو الرسالة أو الفيصل السعودية والثقافة والهلال والتصوف والكاتب والبيان والأديب والمنار الجديد والأدب الإسلامى وصحيفة صوت الأزهر التى ظهر فيها آخر مقال له (بعد وفاته فى ١٨ فبراير ٢٠١١م) جنباً إلى جنب مع مؤلفاته التى لم استطع إحصاءها إلا بعد وفاته من خلال ما كتب عنه عند عرض السادة العلماء لآثره، فإنه من الصعوبة بمكان حصر مؤلفات الدكتور البيومى الكثيرة، فالرجل غزير الإنتاج متنوعه وقد نشر إنتاجه الغزير فى مصر فى دور نشر مختلفة وفى البلاد العربية كلبنان والمملكة العربية السعودية وغيرها ولم يكن يذيل مؤلفاته كغيره من كتاب كثيرين باستعراض مؤلفاته الكثيرة لهذا يصعب حصر هذه المؤلفات[4]، فكاد الرجل ألا يترك مجالا إلا وكتب فيه، ففى البيان والنقد الأدبى نشر: خطرات التفسير البيانى - البيان القرآنى - البيان النبوى - أدب السيرة النبوية عند الرواد المعاصرين: مناقشات وردود - النقد الأدبى للشعر الجاهلى - أحمد حسن الزيات بين البلاغة والنقد الأدبى - الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير - دراسات أدبية - حديث القلم - نظرات أدبية (٤ أجزاء) - قطرات المداد - التفسير القرآنى، ولم يترك علماً إلا وكتب عنه خاصة هذا الطراز من الأعلام الذين كانت لهم بصماتهم المضيئة.

كما أن له مصنفات تاريخية وتراجم منها: الأزهر بين السياسة وحرية الفكر - مواقف خالدة لعلماء الإسلام - النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين (خمسة مجلدات) - مع الأبطال - ابن حنبل - صفحات هادفة من الأدب والتاريخ - أبرياء ويتهمون[5]، وكما قلت سابقا لا يقوى قلمى الضعيف أن يحصى مآثره ولا يعطيه حقه أو بعضه.

وكل ما أستطيعه هو أن أنصح بأهمية قراءة لا أقول فقط النصوص التى تركها وهى كثيرة بل قراءة ما بين السطور فكلها إيماءات وإشارات تفيض بالنصح والتوجيه والتربية من كاتب لم تكن غايته الكتابة الأدبية ليقال له أحسنت أو أجدت، بل ربما كانت بعض غاياته إحداث تغيير فى المجتمع، فإن سلاح الكلمة لا يقل فتكاً عما يحدثه السيف البتار، فإن رب العالمين تبارك وتعالى عندما أراد أن يختم معجزاته على يد خاتم أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم جعل هذه المعجزة الخاتمة معجزة الكلمة لما فى الكلمة من أثر باق وأثر نافذ وأثر مؤثر، بل بالكلمة يتم تغيير النفوس، وبالكلمة تنشأ الأسر، وبكلمة التوحيد لا إله إلا الله يدخل صاحبها الجنة، هكذا كانت الكلمة فى الإسلام أقوى من السحر وأشد من الأسلحة الفتاكة، وهكذا كان التزامه الحيدة وإيثاره للحق فى كل ما يكتب ويرى من آراء وابتعاده عن الزيف والمجاملات الزائفة واللهاث وراء المسئولين على كافة المستويات، بهدف الانتفاع أو الحصول على منصب أو جاه أو حظوة أو مكسب غال أو رخيص، ومن ثم لم يعرف عنه أنه كان من «شلة» هذا أو من مجموعة ذاك، ولما علا شأنه وأصبح ممن يمكن أن يكون لهم رجال وأتباع ومريدون لم يسمح لنفسه أيضاً بهذا.

أما على المستوى العلمى والأدبى فكان لا يكتب ويوثق إلا ما يرى أنه الحق، حتى وإن تعارض ذلك مع ما يراه بعض أصدقائه ومعارفه[6].

إذا لم تكن غاية الشيخ العطاء الأدبى فحسب، ربما كان هذا العطاء هو الوسيلة المعتبرة التى يسوق من خلالها فكره ويعرض من أجلها منهجه ويقدم بها بضاعته فى شتى المجالات التى غاص فيها.

أنظر إليه وهو يكتب فى سفره الرائع «البيان القرآنى» عن بلاغة القرآن العالية الرفيعة بما أفاء الله عليه من بيان ناصع وعلم ساطع.

كما تحدث أيضاً عن الجزالة والرقة، الإطناب والإيجاز، الحقيقة والمجاز، الغريب، التصوير البلاغى، الإقناع المنطقى، القصة القرآنية، الوحدة الموضوعية، وقضية السجع فى الأسلوب القرآنى وغير ذلك وعالج كل قضية من هذه القضايا معالجة شافية وافية.

ولا أستطيع فى هذا المقام استقصاء الجديد فى هذا البحث ومن أراد مثالا على ذلك فليقارن بين مفهوم الإيجاز والإطناب عند البلاغيين وما عناه أستاذنا البيومى بهما.

وفى خاتمة الكتاب المذكور تعرض المؤلف لقضية مهمة ألا وهى قضية التفسير العلمى للقرآن الكريم[7].

رحم الله الشيخ محمد رجب البيومى وأجزل له العطاء ونفعنا وجميع قرائه بعلمه وأعلى قدره فى العلى بعد مماته بعد أن حرم التقدير اللائق به فى حياته، فلقد كان يستحق أكثر مما أخذ، إن هذا العلم قد حبب إلينا الكثير من الأعلام بحسن عرضه لسيرتهم وجميل تقديمه لأعمالهم ولقد عرفنا الكثير والكثير من هؤلاء الأعلام المرموقين من مثل: محمد فريد وجدى، والشاعر عبدالرحمن شكرى، والشيخ محمد مصطفى المراغى، والعلامة الدكتور محمد عبدالله دراز، سواء كان بتقديمه لبعض إنتاجهم التراثى أو من خلال موسوعته: «النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين».

فقد حان الوقت لأن يكتب عنه كعلم من مشاهير الأعلام ويقدم للقراء وتجمع سيرته ويكتب عن مؤلفاته وأثره فى عصره والذى قد يمتد لأجيال تالية.

---

(٣) السابق.

(٤) الدكتور محمد فتحى بيومى، مرجع سابق صـ ٥٨٨.

(٥) الدكتور محمد فتحى فرج بيومى مرجع سابق صـ ٥٨٩.

(٦) الدكتور محمد فتحى بيومى مرجع سابق صـ ٥٨٧.

(٧) الدكتور رضا عبدالمجيد المتولى مرجع سابق صـ ٥٩٣، ٥٩٤.

بين الصحف و المجلات

إعداد
أ/ محمد جمعة
أ/ علاء عبدالرحمن

علماء الأزهر يحسمون الجدل
دولة الإسلام مدنية

تحت هذا العنوان جاء تحقيق الأستاذ / محمد عبد الخالق المنشور بجريدة الأهرام بعددها الصادر بتاريخ : ٢٢ / ٤ / ٢٠١١ م يقول فيه :

ثار الجدل ، وسيظل ثائرا ، حول الدولة المدنية والدولة الدينية ، واشتد اللغط حول طبيعة ومفهوم الدولة الإسلامية ، وفي ظل الجدل السياسي والفقهي حول مرجعية الدولة وهل هي مدنية لا مكان فيها للأديان ؟ أو مدنية ذات مرجعية إسلامية رغم ما قد يثيره هذا المفهوم الأخير لدى دعاة المدنية من تكريس للدولة الدينية ؟ تتساءل : ماذا يعني المفكرون الإسلاميون بقولهم أن الحكم الإسلامي يقوم على المدنية والشورى ، وأن الشريعة الإسلامية لا تقر ولا تعترف بالدولة الدينية ؟ وكيف يمكن فض الالتباس بين الدين والسلطة ؟ وماهي الضوابط التي أقرها الفقهاء أساسا لنظام الحكم في الدولة الإسلامية ؟

ثم يقول الكاتب :

تلك الضجة المثارة حول مرجعية وهوية الدولة لا يرى فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر أن لها ما يبررها ، ويقول : الإسلام لا يعرف الدولة الدينية بالمعنى الغربي على الإطلاق فهي عندهم تعني أن الملك يحكم باسم الله ولا اعتراض عليه لأنه ناطق باسم الذات الإلهية والإسلام لم يعرف عبر تاريخه مثل هذا الأمر ، وأول حاكم في الإسلام أبو بكر الصديق رضي الله عنه جاء عن طريق الاختيار ونفس الشيء حدث مع عمر بن الخطاب الذي حسمت المسألة في خلافته بالشورى وكذلك سيدنا عثمان كلهم كان أمرهم شورى وجميعهم تولوا الخلافة بالاختيار ..

أين الدولة الدينية التي ظهرت في تاريخ الإسلام؟ والمناداة بدولة مدنية يستوجب علينا أن نتحفظ ، نحن نستخدم مصطلحات غربية للأسف الشديد ؛ لأن الدولة المدنية في الغرب هي المقابلة للدولة الدينية التي شهدتها أوروبا في العصور الوسطى ومعنى ذلك أن الدولة المدنية لا تحفل بالدين لا من قريب ولا من بعيد وفي ظلالها نشأت العلمانية التي تعني إقصاء الدين أو استبعاده أو فصله عن أي تأثير في المجتمع من الناحية القانونية والدينية والاقتصادية والاجتماعية والأسرية والفنية ، وهم حين فعلوا ذلك كانت لهم فلسفتهم ولهم ظروفهم الخاصة .. فالممثلون للدين في ذلك الوقت لم يكونوا ممثلين للمسيحية الحقيقية فأدخلوا المسيحية مع الإقطاع مع الدولة الدينية ، فكانت الكنيسة أمامهم من المؤسسات التي يجب أن تتحمل نصيبا من الوزر الذي حاق بالفقراء والشعوب وتسيد الظلم إلى آخره ، أيضا كانوا يبررون ضرورة العلمانية ؛ لأنه كان عندهم طوائف دينية شكلت حدودا فاصلة فيما بينها وحدث الاقتتال عندهم بين الكاثوليك والبروتستانت وحرب دامية وشديدة فزعوا منها كثيرا ، إذن أي دين سيسود وكل طائفة لها أتباع من الأديان والممثلين ، وقالوا إن الحل الوحيد للهروب من صراع الأديان وإقامة ونهضة الدول هو إقصاء كل الأديان من المشهد السياسي ..

أما نحن عندنا الدولة الحديثة فيها الحرية والشورى والديمقراطية ، الدولة في الإسلام ليست دولة دينية ولكنها دولة ذات مرجعية دينية تنضبط فيها الأخلاق بالإسلام ؛ لأن كثيرا من المفاهيم الأخلاقية تختلف فيها النظرة الإسلامية عن الأخلاق الغربية الآن ، كما هو الحال مع قوانين الأسرة في المجتمع الإسلامي المصاغة بأسس دينية ، وهذا فارق بين الدولة المدنية في الغرب وبين الدولة المدنية في الإسلام ..

ويعرض الكاتب رأي الدكتور / عبد المعطي بيومي فيقول :

الصراع الدائر في مصر الآن بين أنصار الدولة المدنية ، والدولة الدينية يرد عليه الدكتور / عبد المعطي بيومي بالقول : ليست في الإسلام سلطة دينية ، ولا دولة دينية ، دولة الإسلام دولة مدنية في دائرة لها إطار أخلاقي قيمي ديني لكنها من الداخل تعمل العقل والاجتهاد ، وتعطي للخبرة الإنسانية مجالا واسعا جدا ، كما تقوم الدولة المدنية على أسس رئيسية هي أن الأمة مصدر السلطة ، وعلى فصل السلطات الثلاث وعلى عقيدة تشكل النظام السياسي ، والاجتماعي والاقتصادي أما الدولة الدينية التي ظلت تحكم العالم في الحضارات القديمة فكانت تقوم على الحق الإلهي في الحكم لبشر معينين . أما رأي الإسلام في الدولتين المدنية والدينية فيرى الدكتور بيومي أن الدولة المدنية الأولى التي نشأت على يد الرسول ﷺ حددت نقاطا مهمة ، هي أن الأمة مصدر السلطات ، فلم يتول حاكم في تاريخ الإسلام الحكم بناء على حق إلهي مطلق ، وإنما كان الخلفاء يستمدون سلطتهم من

البيعة العامة ..

ثم يذكر رأى الدكتور نصر فريد واصل قائلا: وإذا كانت المرجعية الإسلامية للدولة المدنية تثير المخاوف والالتباس بين الرؤية الدينية والسلطة الحاكمة فإن الدكتور نصر فريد واصل يؤكد أنه لا يوجد تنافر بينهما فالأصل فى السلطة الدينية والسلطة المدنية إنهما يؤديان إلى تحقيق العدل والمساواة .. والإسلام دوله مدنية دستورها الشريعة الإسلامية تجمع بين الدين والدنيا وحقوق الله وحقوق العامة ، والدولة الدينية ليس لها وجود ، والرسول ﷺ كان رئيس دولة مدنية مبلغ من عند الله فعندما يأمر بما يخص الدين يطاع أما فيما يخص أمور الدنيا والحكم بين الناس فكان شخصا مدنيا يستشير الصحابة فى أمور الحرب والدنيا .

مئوية الشعراوى والثورة

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ/ عبدالمعطى عمران بجريدة اللواء الإسلامى بعددها الصادر بتاريخ: ٢٠١١/٤/٢١م يقول:

رحم الله الشيخ الإمام محمد متولى الشعراوى الذى حلت ذكرى ميلاده المائة منذ أيام،هذا الإمام المجدد الذى بهر العقول والألباب بأسلوبه الجذاب وطريقته البسيطة المشوقة فى تفسير القرآن الكريم، التى جعلت عشرات الملايين من المسلمين فى مصر وخارجها يلتفون حول جهاز التليفزيون لمشاهدة هذه الخواطر الإيمانية غير المسبوقة حول القرآن الكريم وجعل ملايين المسلمين فى كل مكان، يجتمعون من جديد حول كتاب الله تعالى ، بعد أن بهرتهم هذه الخواطر بأسلوبها السهل الممتع وسرعة فهمها وروحانيتها العالية التى أفاض الله بها على الشيخ الجليل، الذى يعتبر بحق مجدد القرن العشرين، بهذه الخواطر المبهرة التى مازالت غضة ندية حتى الآن والتى كلما كررت سماعها أحسست أنك تسمعها لأول مرة حتى أنه بعد ثورتنا المباركة فى ٢٥ يناير وجدنا كأن الشيخ الشعراوى - رحمه الله - يعيش بيننا فى هذه الثورة عندما يتحدث عن الثائر الحق الذى يثور ليهدم الفاسد ثم يهدأ ليبنى الأمجاد، وأن آفة الثورات ، أن يظل الثائر ثائرا ، ويصنع فى كل يوم مشكلة.. ولذلك لابد أن يهدأ بعد أن هدم الفساد ليبنى الأمجاد.

إن الحديث عن هذا العالم الجليل يحتاج إلى مجلدات حتى توفيه حقه، ولكن عزاءنا أنه عادت خواطره من جديد إلى الشاشة الصغيرة لتنير العقول والأفهام وتنشر الإسلام الوسطى السمح فى وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى هذه الوسطية وهذه السماحة فى ظل الفوضى الفكرية التى نعيشها هذه الأيام.

وحدة الشعب.. ووحدة القوات المسلحة

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ/ محمد أبو الحديد بجريدة الجمهورية الصادرة فى ٢٠١١/٤/١٤م يقول:

كان الله فى عون المجلس الأعلى للقوات المسلحة، وهو يواصل إدارته لشئون البلاد فى هذه المرحلة الانتقالية الدقيقة باقتدار، وسط ضغوط هائلة ومتصاعدة لا تتوقف من كل الاتجاهات، تنوء بحملها الجبال.

ولا توجد «إدارة سياسية محترفة» لأى دولة فى العالم ترضى عنها جميع الأطراف فى مجتمع هذه الدولة، بدليل وجود قوى وتيارات معارضة كثيرة فى كل الدول.

فما بالك والقوات المسلحة المصرية «إدارة عسكرية محترفة» حملها الشعب وثورته مسئولية سياسية ضخمة لم تتدرب عليها أو تؤهل لها، إضافة إلى مهامها العسكرية الأساسية، وفى ظروف يعيش المجتمع كله فوق رمال متحركة لا تكاد تترك شيئا أو أمرا أو أحدا على حاله.

فالقوات المسلحة - بنص الدستور - ملك للشعب وهى ملاذه الآمن فى كل وقت وحين.

ولم يسبق للقوات المسلحة أن خذلت الشعب فى أى مرة احتاجها فيها، ولم يسبق لها أيضا أن اتخذت قرارا أو تصدت لمهمة دون حساب دقيق لكل الجوانب المتعلقة بها، والآثار المترتبة عليها.

وقد تعهدت القوات المسلحة ممثلة فى مجلسها الأعلى، بأن تلتزم القانون، باعتباره ضمانة للجميع دون تفرقة أو تمييز، وسياجا منيعا ضد الفوضى والانفلات وغير ذلك من الظواهر السلبية المصاحبة - عادة - للمراحل الانتقالية.

وتعهدت أيضا بأن تنجز استحقاقات الانتقال السلمى للسلطة، وهى إجراء الانتخابات البرلمانية والرئاسية، والشروع فى وضع دستور جديد يعيد الحياة فى مصر إلى طبيعتها، وذلك خلال الفترة الزمنية التى يستلزمها ذلك.

ولم تخل القوات المسلحة، ممثلة فى مجلسها الأعلى بأى من الالتزامين حتى الآن.

درس لأمريكا وغيرها.. ليتهم يتعلمون

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ - جميل مطر بجريدة الحياة الصادرة فى ٢٠١١/٤/١٨م يقول:

● يبدو إن لم تكن هناك مبالغة فى قول ردده سياسيون ومفكرون غربيون إن «الثورات العربية لمست وتراً حساساً فى الغرب». ففى خاتمة مقال بمجلة «فانيتى فير» الواسعة الانتشار.

كتب جوزيف ستيغليتز يقول «إننا (فى أمريكا) عندما ننظر إلى شوارع العرب، لا يملك الواحد منا إلا أن يسأل: متى سنرى المنظر نفسه فى شوارع أمريكا. بعد أن صار بلدنا يشبه تلك الأقاليم البعيدة الملتهبة (فى الشرق الأوسط)؟».

قالوا لنا فى مصر على امتداد العقود الأخيرة، وهى العقود التى شهدت توحش الفجوة بين أعلى الدخول وأدناها، وشهدت انفجار اللامساواة وسوء العدالة فى الدخل والتوزيع، إن الزيادة فى أموال

الأغنياء ودخولهم سينتهي بها الأمر إلى جر المجتمع بأسره نحو الرخاء. قال لنا هذا الكلام خبراء المصرف والصندوق وتلامذتهم الذين أتوا بهم لتنفيذ توصياتهم ووصفاتهم. وكانوا إذا خاطبوا الفقراء والطبقة الوسطى، وجدناهم يحضونهم على التزام الصبر والتحمل، فالرخاء في رأيهم قادم.

يرد ستيغليتز في مقاله الرائع على هذا المنهاج في النمو بالقول إن التاريخ الاقتصادي الأمريكي يجيب عن هذا الإدعاء ويفنده. إذ بينما زادت دخول ١ في المئة من السكان بنسبة ١٨ في المئة خلال العقد الأخير، انخفضت دخول أفراد الطبقة الوسطى الشاسعة. بمعنى آخر، ذهب عائد النمو في العقود الأخيرة وليس فقط في العقد الأخير، إلى الأغنياء جداً الذين لا تزيد نسبتهم على ١ في المئة، حتى صارت أمريكا تقف في آخر الصف، أي وراء معظم الدول الغربية الأخرى من حيث عدالة الدخول!! إن التفاوت الواسع في الدخول يفضي -وفق رأى ستيغليتز- إلى توفير فرص أقل للعمل والإبداع والتقدم، وأي تقليص للمساواة في المجتمع أو الانتقاص منها يعني سوء استخدام أهم موارد الأمة وهو البشر، فضلا عن أنه يتسبب في تشوهات خطيرة في الاقتصاد لما يقدمه للأغنياء من إعفاءات ضريبية والتغاضي عن الممارسات الاحتكارية، وكلاهما كما نعلم من أهم مصادر زيادة ثروات الأغنياء. من ناحية أخرى، رأينا في مصر، كما يرى ستيغليتز في أمريكا، شباباً بالملايين يسمعون عن أموال طائلة وحوافز ومكافآت مذهلة تذهب جميعها إلى أسواق المال وعمليات مضاربات شتى، ولا تذهب إلى مشاريع إنتاجية تساهم في خلق اقتصاد صحيح وصحي.

من ناحية ثالثة، رأينا في مصر، وهو بالضبط ما يراه ستيغليتز في أمريكا، كيف أن هؤلاء الأغنياء، وهم في الوقت نفسه حكام ومسئولون، رفضوا أن تقوم الدولة بالإنفاق على بناء المرافق أو صيانتها وتحديثها.

في النهاية وجدنا في مصر اقتصاداً مقلوباً على رأسه تماماً كالوصف الذي أطلقه جوزيف ستيغليتز على الاقتصاد الأمريكي في حالته الراهنة.

تتشابه الحالتان في أمور أخرى. تتشابه في أوضاع العمال الذين تراجع نفوذ نقاباتهم، إذ لم تعد نقابات أمريكا تمثل سوى ١٢ في المائة من العمال الأمريكيين بعد أن كانت تمثل ٣٣ في المائة منهم.

وكانت مفاجأة أذهلت متظاهرين في ميدان التحرير الأنباء التي خرجت من ولاية ويسكونسين تبلغنا بأن العمال هناك رفعوا أعلام الثورة المصرية تيمناً بها في صراعهم ضد أصحاب الشركات الأغنياء جداً الذين ضغطوا على حكومة الولاية لحرمان العمال من امتيازاتهم وحقوقهم، وانتهى الأمر بنشوب «ثورة محلية» كان يمكن أن تنتشر كالنار في الهشيم في أنحاء الولايات المتحدة كافة. لو توافرت «اللحظة التاريخية» الضرورية، كاللحظة التي توافرت لمصر في كانون الثاني (يناير) الماضي.

مرة أخرى يجرني مقال ستيغليتز إلى المقارنة بين أمريكا ومصر، وبخاصة حين يبدأ في حصر النتائج والآثار الوخيمة للامساواة المفرطة في الدخول. أول النتائج أن المنتمين إلى نسبة ٩٩ في المائة يتعودون تدريجياً على نمط إنفاق لا يتناسب ودخولهم المحدودة.

يريد هؤلاء أن يعيشوا في مستوى حياة الأغنياء فتجدهم يمارسون سلوكيات متناقضة مع دخولهم الحقيقية. هذه السلوكيات، وفق رأى ستيغليتز، هي الثمار غير الاقتصادية التي تتساقط نتيجة الزيادة المستمرة في دخول الأغنياء ونتيجة الفارق الواسع في الدخول بين الأغنياء جداً والطبقات الأخرى.

ثانياً: من شأن هذا الوضع الشاذ في الاقتصاد الأمريكي، والمصري بطبيعة الحال، أن تتشوه السياسة الخارجية للدولة، إذ عندما يتربع ١ في المائة من السكان على القمة لا يدفعون ضرائب ولا يخدمون في الجيش كبقية أبناء المجتمع، فإن التخطيط للسياسة الخارجية سيخضع بالضرورة لاعتبارات مصالح الأغنياء أولاً.

ثالثاً: أما النتيجة الأخطر والأعظم لاتساع الفجوة بين الأغنياء جداً من ناحية ومتوسطي الحال والفقراء من ناحية أخرى، فهي في رأى ستيغليتز -وأؤيده تماماً- الانجراف الذي يحدث للهوية الوطنية، فالهوية تقوم على أساس الاعتماد على مجتمع عادل وفرص متساوية وروح جماعة. كلها شروط تختفي في نظام غير عادل لا تتاح فيه الفرص الكافية.

الدرس العربي مطروح على أمريكا وبخاصة على أغنيائها وجوزيف ستيغليتز واثق من أنهم سيتعلمون، ولكنهم، وفق رأيه «سيتعلمونه كالعادة متأخراً جداً».

الثورة والأعراض الجانبية

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ/ مجدى سالم في جريدة «عقيدتي» الصادرة في ١٢/٤/٢٠١١م يقول:

قامت الثورة كجراحة خطيرة أجريت لمصر التي كانت تعاني من أمراض مزمنة أصابتها بالشيخوخة والضعف الشديد.. كانت مصر تترنح وتوشك على الضياع.

كانت جراحة صعبة لاستئصال الكثير من الأورام الخبيثة والطفيليات التي استنزفت جسد مصر لسنوات طويلة حتى أوشكت على الهلاك.

هذا هو الواقع الذي يجب أن نعترف بوجوده لنعلم أن ما تمر به مصر اليوم هو فترة نقاهة يجب أن نتحملها جميعاً أعتقد أن أهم ما نعاني منه خلال فترة النقاهة والأعراض الجانبية التي يجب أن نتحملها حتى تشفى وتتعافى مصر تماما هو ضبط الحالة الثورية عند كثير من الناس.

نعم نحن فى حاجة إلى الانتباه حتى لا تضيع إنجازات الثورة.

ثم ينهى الكاتب مقاله قائلا :-

أخشى ما أخشاه أن تتحول الثورة إلى عـادة.. وإلى ثورة على كل شىء وعلى أى شىء.

أخشى ما أخشاه أن يكون لكل منا ثورة خاصة به.. ثورة يثور فيها على ما لا يعجبه وما لا يتفق مع وجهة نظره ويحاول فرض ثورته على الآخرين ومن لا يتفق معه يصبح خائنا.

أخشى ما أخشاه أن يضيع الهدف الأول للثورة وسط أهداف فردية أخرى كثيرة.

الحماية الدولية للفلسطينيين

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ/ أمين محمد أمين بجريدة الأهرام الصادرة فى ١٧/٤/٢٠١١م يقول:

من المؤكد أن الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاءها الغربيين فى حلف الناتو لن يستجيبوا لنداء مجلس الجامعة العربية الأخير، والذى طالبهم بسرعة فرض الحظر الجوى على قطاع غزة لحماية المدنيين الفلسطينيين من بطش وعدوان الطائرات الإسرائيلية المستمر على القطاع، وذلك امتدادا لمسلسل الاعتداءات الإسرائيلية المستمرة على شعب محتل ومحاصر منذ سنوات، ولم يتحرك المجتمع الدولى لإنقاذه بإرسال قوات دولية لحمايته، وهو عكس ما سارعت به قوات راعى السلام الأمريكية والفرنسية والألمانية وقوات حلف الناتو من الاستجابة السريعة والفورية لنداء الجامعة العربية بفرض الحظر الجوى على الجماهيرية الليبية لحماية الثوار الليبيين من قصف قوات العقيد القذافى فى اتجاهها من بنغازى إلى الغرب مقر إقامة قائد الثورة الليبية الرافض لانطلاق ثورة شعبية تطالب بتحريره من حكمه.

المهم أن الاستجابة الفورية من قوى الغرب تحت دعوى الحماية سرعان ما كشفت عن وجهها الحقيقى، وهو السيطرة على كعكة النفط الليبى وتقسيمه كغنائم بعد انتهاء المواجهات بين الثوار وقوات العقيد والتى تبددت مع طول فترات المعارك، وفقد الأمل فى الحل العسكرى والاتجاه إلى تقسيم ليبيا إلى دويلتين، سارعت دول الغرب بالتقدم للثوار لشراء النفط الليبى من المناطق التى يسيطرون عليها.

صراع القوى من أجل المصالح فى المنطقة إلى متى يستمر وينتهى وهو يفسر السبب الذى من أجله عدم استجابة القوى الدولية على مدى تاريخ الصراع الفلسطينى- الإسرائيلى لتوفير الحماية الدولية للفلسطينيين، ومن قبلها عدم فرض وتطبيق العقوبات الدولية على إسرائيل لرفضها تنفيذ جميع القرارات الدولية الصادرة لصالح العرب والفلسطينيين، الآن اتضحت الرؤية وهو أن فلسطين ليست دولة نفطية ولا يوجد لديها أية موارد تشجع دول الغرب للإسراع بحمايتها.

رابطة الجامعات الإسلامية وجامعة مرمرة يبحثان فى مؤتمر دولى:

الأخذ بأسباب النهضة فى تركيا الحديثة لصالح دولنا العربية والإسلامية



للأستاذ/ عاطف مصطفى

فى مدينة اسطنبول وفى رحاب جامعة مرمرة بتركيا عقدت رابطة الجامعات الإسلامية مع هذه الجامعة العريقة، ممثلة فى كلية الإلهيات، ومع مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، أرسيكا، مؤتمرا دوليا بعنوان، دور الدولة العثمانية وتركيا الحديثة فى الحضارة والثقافة الإسلامية، وذلك فى الفترة من ٥-٧ جمادى الأولى ١٤٣٢هـ الموافق ٨-١٠ أبريل ٢٠١١م.

ويهدف المؤتمر إلى إبراز دور الدولة العثمانية فى نشر الإسلام والتمكين له فى كثير من البقاع، خصوصا الاتجاه غربا على حساب الدولة البيزنطية وممتلكاتها، إلى جانب التعرف على دور الأتراك فى بناء حضارة ثرية مازال العالم ينهل من منجزاتها.

وكذلك التركيز على التجربة التركية فى كافة المجالات فى التنمية والتقدم وممارستها للديمقراطية، واستنكارها للإرهاب الدولى واتجاهها للحوار الحضارى بين الشرق والغرب.

تاريخ حافل بالثقافات

وفى الجلسة الافتتاحية والتى شارك فيها عدد كبير من الباحثين والمفكرين من الجامعات الإسلامية من دول العالم ومن الجامعات التركية أشار الدكتور حسن زايد شوك نائب رئيس جامعة مرمرة إلى أن الدولة العثمانية كانت ولازالت بمثابة الجسر الذى ينقل لنا القيم الثقافية الإسلامية وذلك من خلال تعايشها مع

الثقافات والديانات المختلفة في دول البلقان وفي أوروبا.

لذلك فإن تاريخ الدولة العثمانية، هو تاريخ حافل بالثقافات المتعددة، وهو ميراث متنوع من الثقافات لجميع المجتمعات، يمكن الاستفادة منه في كافة المجالات.

وأكد في كلمته على ضرورة إقامة علاقات علمية وثقافية مع كافة الدول الإسلامية، خاصة في المجال التعليمي، حيث إن الجامعات التركية تقيم علاقات قوية مع الجامعات الأوروبية. قائلا نحن كإدارة جامعة مستعدون للتعاون مع كافة الجامعات العربية والإسلامية مبينا أهمية فتح الأبواب للحركات الطلابية بين الجامعات الإسلامية.

وقال: إن تركيا الحديثة ورثت عن الدولة العثمانية الحضارة الإسلامية التي كان مصدرها الأول تلك القيم الإسلامية السامية، موضحا أن هناك الكثير من الكتب والمخطوطات المهمة والقيمة التي سجلتها المؤسسات الإسلامية في عهد الدولة العثمانية، والتي يمكن الاستفادة منها فيما يحتاج إليه العالم الذي نعيش فيه الآن.

واختتم كلمته بالحديث الصافي عن الدولة العثمانية وما كانت تملكه من



جامعة مرمرة

ذخيرة مليئة بالتراث والتي يمكن أن نرى ملامحها في كافة المجالات المعمارية والثقافية، ومن المساجد إلى المتاحف وكذلك المؤسسة التعليمية، والمؤسسات الأخرى والتي تشير إلى مدى التقدم الذي وصلت إليه الحضارة الإسلامية في ذلك الوقت.

مجد الإسلام وعظمته

وفي كلمته قال الدكتور جعفر عبدالسلام الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية: ولأننا الآن في مدينة اسطنبول، فإننا نتذكر دائما مجد الإسلام وعظمته وعظمة خلفاء رسول الله ﷺ وما قدموه للحضارة الإنسانية، كما نشاهد هنا تلك المساجد ذات العمارة الزاهرة، التي تنطق بما كان عليه المسلمون ونتذكر خلفاء رسول الله ﷺ،

وما كانوا يتمتعون به من قدرات أبدعت هذه الحضارة، ومواهب أنتجت فنونا عظيمة في العمارة والثقافة الإسلامية ممثلة في تلك المساجد ومن بينها مسجد السلطان أحمد، فضلا عن تلك القصور العظيمة والفنون الزاخرة التي خلدتها واحتفظت بها كما نراها اليوم في متحف «توب كابي».

وتساءل عن هذا الماضي الخالد بقوله: وماذا أقول عن تسامح المسلمين بكل ما يحمله هذا التسامح من حب ومودة وتآلف وتسامح مع غير المسلمين، وقد سجل التاريخ كل هذه المعاني النبيلة من خلال تركهم لكنيسة أياصوفيا بعد أن كانوا قد وضعوا أيديهم عليها عندما تبين لهم أنها أثر مسيحي، وهو نفس ما نجده في تلك الوثيقة التي أصدرها السلطان محمد الفاتح عام ١٤٥٣م، وهي وثيقة تضع قواعد ونظم المدن المقدسة، والتي اعتبرتها الأمم المتحدة أنموذجاً لما يجب أن يكون عليه نظم المدن المقدسة، أقصد مدينة القدس، وأوضح الدكتور جعفر بأنه هكذا تكون روح الإسلام وعظمته التي تتجلى في عمارة المساجد والمباني والقصور التي راعت حاجات الإنسان المسلم، وعملت على إشباعها في مختلف أوجه الحياة.



ايا صوفيا .. حافظ عليها المسلمون عبر الزمن

دور حضاري للمسلمين

وأضاف الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية: إننا نباهي بما يوجد في قصر «توب كابي» من معالم الحضارة، فعندما زرته في أول مرة، لم أنس حتى الآن فضل الإسلام على الحضارة، فقد كانت الحمامات موجودة في نفس مكان الإقامة في القصر، ويعني هذا أن الإسلام علم الإنسان النظافة، بينما كانت أجراس الكنائس تدق عندما يستحم الإمبراطور وهكذا أتانا الانتصار الباهر حضاريا وعمرانيا وإنسانيا هزيمتنا في الأندلس، حيث وصلت الحضارة الإسلامية إلى أبواب فيينا وحاصرتها سنوات عديدة.

إننا هنا في مهد الحضارة الإسلامية، حيث انطلقت الجيوش الإسلامية من آسيا ـ الأناضول ـ على يد السلطان محمد الفاتح، لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، ولتنقذ العالم من ظلمات الضلال والجهل والفتنة، ولتضيء الحياة هنا في مختلف أنحاء أوروبا بالخير والنور وكل مظاهر التقدم والخير.

وقال الدكتور جعفر: نحن هنا لنلتقي مع ما كان من تفاعل خلاق بين ما أبدعه الإنسان المسلم في عصر نهضة الإسلام، وما خلفته الحضارة الأوروبية من نتاج جيد، وما تم على يد الإنسان المسلم من تفاعل خلاق مع الحضارة الأوروبية التي كانت في أعظم مدنها ـ القسطنطينية ـ حيث أدارها المسلمون بجدارة واستحقاق، وجعلوا منها عاصمة للدنيا بأسرها، تعج بالفنون والآداب والثقافة، بما جلبته الدولة العثمانية من مهندسين وعمال مهرة من سائر الدول الإسلامية.

فضل الإسلام على الحضارة الإنسانية

عن فكرة المؤتمر أشار: لقد فكرنا منذ عدة شهور في هذا المؤتمر بعنوان: «كيف مكنت الدولة العثمانية من انتشار الإسلام في أوروبا» ليس فقط لكي نقرأ صفحة مضيئة من أعمال الأجداد، وكيف مكنوا للإسلام وحضارته في أوروبا، وإنما أيضا لنتذكر فضل الإسلام والمسلمين على الحضارة الإنسانية بشكل عام وعلى الحضارة الغربية بشكل خاص، وأعددنا من أجل ذلك العديد من البحوث الرصينة والدراسات العميقة في هذا الإطار، لكي تساعدنا ونحن اليوم



السلطان محمد الفاتح

نعيد العمل والدراسة حول ما كان، لنهتدي بها نحو ما يجب أن نفعله في الحاضر والمستقبل.

شدد الدكتور جعفر على أن توحدنا معاً والتفافنا حول بعضنا البعض من شأنه أن يعيد أمجاد المسلمين وفضلهم على الحضارة المعاصرة ومن هنا يجيء الجزء الثاني من أعمال هذا المؤتمر، فتركيا الحديثة تنبهنا إلى ما عندها من ثروات علمية وفنية وثقافية، وهي التي عهدت إليها منظمة المؤتمر الإسلامي برعاية هذا التراث وحفظه وإشاعته بين الناس، ولذلك وجدت على أرضها المنظمة الإسلامية للتاريخ والفنون والآداب «إرسا» والتي أدارها الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي السيد كمال إحسان أوغلو على خير وجه.

واختتم الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية كلمته في افتتاح المؤتمر بقوله: إن ما تقوم به تركيا الحديثة اليوم سياسيا وعلميا وعمليا في انتهاج سياسة معتدلة، تدعم مقومات الحضارة الإسلامية وتعلنها للناس، واضحة جلية، في إطار سياسة تحديث الحياة والأخذ بما ينفع الناس في خطوات غير مسبوقة في مختلف المجالات، مما جعلنا نأتي إلى هنا للاستفادة من التجارب العثمانية قديماً والتركية حديثا، في إعادة بناء دولنا على أمجاد الماضي، وعلى أصول التقدم العلمي والفكري والثقافي في الحاضر.

وما يتحقق في تركيا الآن من تقدم هو خير ما يحتذى به في وضع أسس النهضة والتقدم في حياتنا المعاصرة كدول إسلامية وعربية، وإننا نتطلع بكل فخر إلى ما تم ويتم هنا من أسس التقدم والنهضة، لنستفيد به في الحاضر والمستقبل لدولنا العربية والإسلامية.

ثراء في الثقافات

وأشار الدكتور بنجيس تومار ممثل المنظمة الإسلامية للتاريخ والفنون والآداب «أرسا» في كلمته إلى أن الدولة العثمانية التي اتسعت رقعتها في ثلاث قارات، قد احتوت في بوتقتها مجموعة كبيرة من الثقافات، حيث كانت هناك مجموعة من الديانات في المناطق التي حكمتها، مما أدى إلى ظهور تنوع وثراء في الثقافات داخل الدولة العثمانية، ولقد تواءمت هذه الدولة بين العرب والغرب، وقامت بعرض باقة متنوعة من الثقافات المختلفة.

وبين أن هذه الإسهامات الكبيرة للدولة العثمانية في الحضارة، بلغت بحضارتنا الإسلامية إلى مستوى كبير جداً في كافة دول العالم، حيث تحولت العديد من المدن التابعة لها في أسطنبول ودمشق والقاهرة والقدس وغيرها من المدن إلى مراكز ثقافية، والتي كانت منارة للثقافة والحضارة الإسلامية في كافة أنحاء العالم.

وأوضح بأن هذه المنظمة تقوم حالياً بإجراء دراسات حول الثقافة والفنون الإسلامية في كافة البلدان الإسلامية، كما تعمل على إصدار المنشورات والدراسات والكتب الخاصة بهذا المجال.

تعلم اللغة العربية

وتناول الدكتور راشد كشج عميد كلية الإلهيات بجامعة مرمرة دور كلية الإلهيات في الاستفادة من التراث الثقافي والإسلامي للدولة العثمانية، فكلية الإلهيات هي المؤسسة الثانية في تركيا لتعليم العلوم الدينية، بعد كلية أنقرة للإلهيات. ولقد أقرت كلية الإلهيات منذ العام الماضي سنة تمهيدية باللغة العربية تفرض على كل الطلاب الذين يريدون التعلم في كلية الإلهيات، كما تم فتح برنامج دولي لدراسة الإلهيات، يتم تدريسه باللغة الإنجليزية للطلاب الأتراك، أو لمن يرغب من الأجانب.

وأوضح بأن عدد كليات الإلهيات في تركيا في الفترة الماضية قد ارتفع حتى

وصلت إلى أربعين كلية للإلهيات، كما توجد المدارس الشرعية في تركيا والتي تقوم بتخريج الأئمة والخطباء لنشر الدعوة الإسلامية السمحة بتركيا.

تجربة التعايش مع الآخر

وقد ناقش المؤتمر وعلى مدار ثلاثة أيام، وخلال عشر جلسات ما يزيد على أربعين بحثاً قدمها أساتذة وباحثون متخصصون من الجامعات الإسلامية في العديد من دول العالم تتمثل في ثمانية محاور هي:

- التراث الذي ورثته الدولة العثمانية.
- الجغرافيا العثمانية وتجربة التعايش مع الآخر في البلدان الإسلامية.
- الدعائم الاقتصادية للدولة العثمانية.
- تجربة التعايش مع الآخر في البلدان الإسلامية.
- تجربة الدولة العثمانية في حماية البلاد الإسلامية والدفاع عنها.
- تجربة تركيا الحديثة في نهضة التعليم المعاصر.
- علاقات تركيا العلمية والثقافية والاقتصادية والسياسية مع الدول الإسلامية.
- تم إلقاء الضوء على عوامل النهضة في الحضارة والثقافة الإسلامية.

التمكين للإسلام في أوروبا

ونتوقف عند بعض البحوث التي عرضت في المؤتمر ومنها بحث الدكتور محمد عبدالعليم العدوى أستاذ التاريخ بجامعة الأزهر بعنوان «محمد الفاتح والتمكين للإسلام في أوروبا»، وتناول فيه سيرة ذلك الرجل الصالح والبطل الذي نال الشرف والمجد ببشرى رسول الله ﷺ والتي تمثلت في قوله عليه الصلاة والسلام: «لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش»[1] هذا الرجل هو السلطان محمد الفاتح ابن السلطان مراد الثاني بن بايزيد والذي تأثر بأمه وبأبيه في العناية بأمور الدين قولاً وعملاً، فتربى على النظافة والتطهر حساً ومعنى، وعلى الخشوع والخضوع لله في المحافظة على إقامة الصلاة والحفاظ على الوقت وحب النظام والتعاون على البر والتقوى والانقياد والطاعة لأمر الله، وتعهده أبوه بالتربية العقلية والعلمية، حيث هيأ له بعض العلماء والمربين الصالحين المتقين، فصقل عقله واطمأن قلبه بحفظ القرآن الكريم والسير على هديه وهدى رسول الله ﷺ.

ويشير الدكتور العدوى إلى حرص محمد الفاتح على دراسة الفلسفة والتاريخ والجغرافيا، حيث استفاد من التاريخ بما

(١) مسند أحمد.

يحمله من العبر والدروس والعظات، خاصة عن قيام الدول وانهيارها، وأعجب كل الإعجاب بالبطولات الإسلامية التي حدثت منذ فجر الإسلام وظهوره، فجعل فتح القسطنطينية هدفاً لاتغفل عنه عيناه، لكي ترفرف عليها راية الإسلام خفاقة عالية ولإخراج الناس من عبادة العباد، إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، لاسيما وأن مدينة القسطنطينية ذات موقع ممتاز، يربط بين آسيا وأوروبا، وبين البحر الأسود والبحر الأبيض عبر ذلك المضيق المهم، مضيق البوسفور، وكان الهدف بذلك الفتح ظهور الإسلام على الدين كله، ونشر الإسلام في أنحاء أوروبا.

لقد وضع نصب عينيه قوله تعالى:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

(الأنفال: ٦٠)

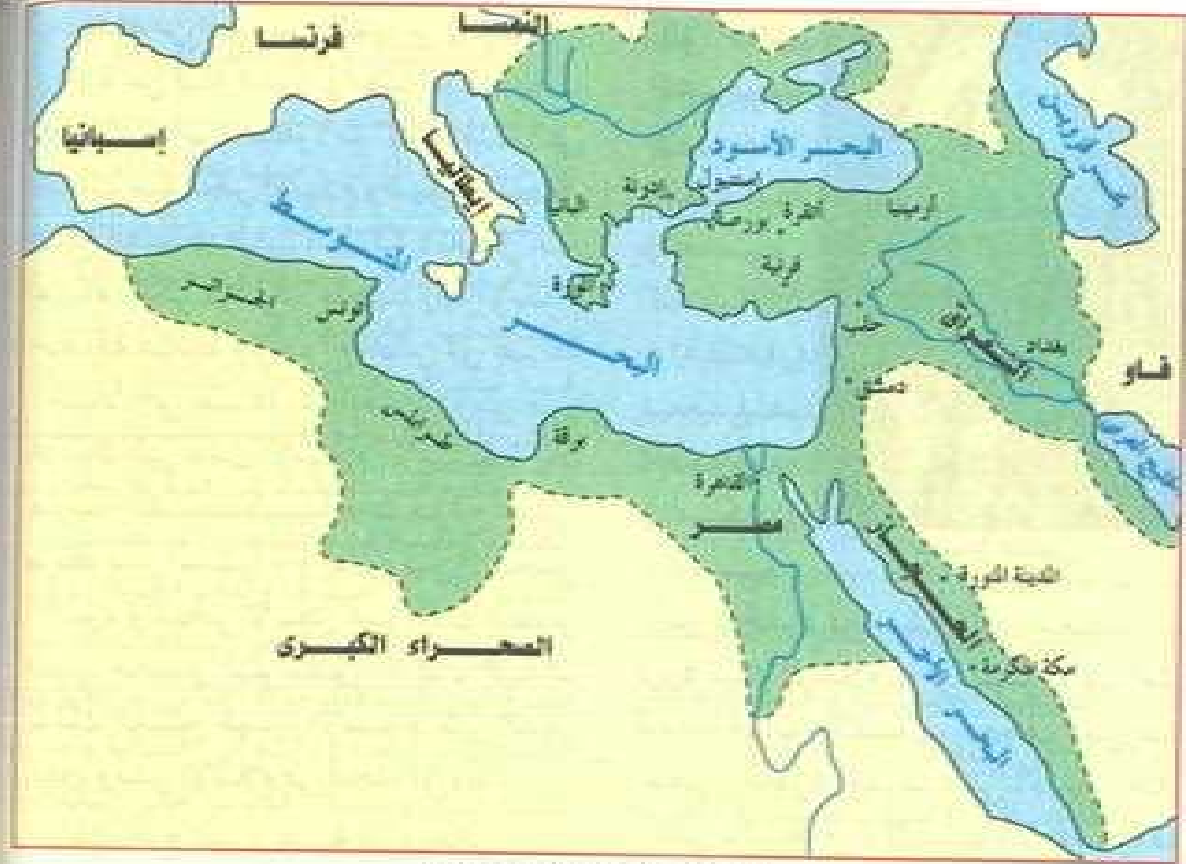
ويتحدث د. محمد العدوى عن هذه الشخصية المهمة والمؤثرة في التاريخ الإسلامي: لقد حرص محمد الفاتح على تعلم لغات كثيرة منها الفارسية واللاتينية والإغريقية والسلافية إلى جانب براعته وعلو كعبه في اللغة العربية الفصحى لغة القرآن الكريم،



سليمان القانوني

وإلى جانب التربية الإيمانية والعقلية والعلمية، كانت براعته في تعلم الفروسية والكر والفر، وآمن بالجهاد في سبيل الله، معتقداً أنه ذروة سنام الإسلام، وفي سبيل ذلك تعلم فنون الحرب والقتال، فعكف على بناء أسطول بحري مدرب على أكمل وجه، وعني بالسلاح، ولاسيما المدافع، وأعد لفتح القسطنطينية العدة والقوة والتخطيط السليم، وقاد الجيش المؤمن إلى النصر والظفر، فأتم الله عليه النعمة، فكان نعم الأمير ونعم الجيش، حيث فتحت في فجر ٢٩ من مايو ١٤٥٣م وكانت المدينة في صورة السلطان الذي دخلها مترجلاً عن فرسه وسجد لله شكراً، ثم توجه إلى كنيسة أياصوفيا حيث أقر الرهبان والشعب البيزنطي على ما هم عليه وتلك سماحة الإسلام، وقرر اتخاذ القسطنطينية عاصمة لدولته وأطلق عليها اسم «إسلام بول» أي دار السلام.

وكان من نتائج فتح القسطنطينية أن



الدولة العثمانية في أوج اتساعها

اتسعت حدود الدولة العثمانية وتوحدت أجزاؤها ومكن الله للإسلام في أوروبا، حيث تم فتح أثينا وما يتبعها بين سنتي ١٤٥٨م، ١٤٦٠م، وتم إخضاع بلاد العرب سنة ١٤٥٩م وبلاد البوسنة ١٤٦٣م، واعتنق خلق كثير من كبار البوسنيين الإسلام وتولوا قيادة الغزو على الحدود الشمالية، وتمت سيطرة العثمانيين على سواحل البحر الأدرياتيكي، ثم تم الاستيلاء على السواحل الجنوبية والشمالية للبحر الأسود والقرم، وتتابعت الفتوحات بعد ذلك، حتى استولى سليمان القانوني على بلجراد سنة ١٥٢١م وبودابست وحاصر فيينا سنة ١٥٢٩م.

وتتوالى البحوث المهمة والتي نرجو أن نتناولها فيما بعد ومنها: «الأتراك الأزهريون ودورهم في نشر الإسلام والتمكين له» دراسة وثائقية، «الفتح العثماني لجزر البحر المتوسط»، والجهود المضنية التي بذلتها الدولة العثمانية وعلى مدى ستة قرون لرفع راية الإسلام والحروب الطويلة البرية والبحرية في مواجهة الدول الأوروبية، وكذلك إلقاء الضوء على «دور الأوقاف في النهضة التربوية في تركيا»، «وثيقة عهد وأمان من السلطان محمد الفاتح إلى رهبان وقساوسة القدس الشريف».

توصيات المؤتمر

وفي الجلسة الختامية للمؤتمر صدرت عدة توصيات كان من بينها:

● أولاً: يوصي المؤتمر الدول والشعوب الإسلامية بضرورة التواصل مع ماضيها التليد، والبناء عليه ليكون الماضي والحاضر والمستقبل سلسلة متصلة الحلقات، تستفيد كل حلقة من الأخرى، حتى يكون البناء شاهقاً ومتيناً.

● ثانياً: يوصي المؤتمر الشعوب الإسلامية بضرورة البحث عن عوامل التضامن والتعاون والتوحد فيما بينها، والبدء بالمجالات الأسهل والأسهل حتى تصل إلى مرحلة الوحدة الكاملة.

ويشيد المؤتمر بالخطوات التي اتخذتها الحكومة التركية لإلغاء الحواجز المصطنعة بين الدول الإسلامية، خاصة تأشيرات الدخول، وضرورة العمل على انطلاق الأشخاص والبضائع بين الدول الإسلامية بغير قيود.

● ثالثاً: يقدر المؤتمر الدور الثقافي والاقتصادي والسياسي للدولة العثمانية وتركيا الحديثة، والتي وضعها على طريق التقدم العالمي، ويبارك خطواتها الرائدة في التواصل مع العالم الإسلامي، والإسهام في حل المشكلات العربية والإسلامية، وعلى رأسها مشكلة القدس الشريف، وفلسطين، والمشكلة العراقية، ويثمن جهودها ومواقفها في التدخل لمناصرة المستضعفين في كل مكان، اهتداء بمبادئ الإسلام وقيمه الأساسية.

● رابعاً: يشيد المؤتمر بالدور التاريخي الذي قامت به دولة الخلافة العثمانية في التعامل العادل مع غير المسلمين، ومنحهم كافة الحقوق، كما يوصي بإظهار الوثائق والعهود التي عقدتها وأصدرتها هذه الدولة للاستفادة بها في حياتنا المعاصرة.

● خامساً: يوصي المؤتمر كافة الدول الإسلامية بإبراز الفنون والآداب وسائر الفنون التي أبدعتها قريحة الفنان المسلم في مختلف العصور والأماكن والأزمان، مع بعث هذه الفنون والاستفادة منها في حياتنا المعاصرة، والمزج بينها وبين ما يلائم حضارتنا الإسلامية من وسائل الفنون الحديثة.

● سادساً: يوصي المؤتمر الدول الإسلامية بتعميم التجارب العلمية الرائدة في التربية والتعليم مع الاستفادة بالتجارب الإسلامية

والتمكين لها فى حياتنا المعاصرة.

● سابعاً: يوصى المؤتمر باتباع الأسلوب الناجح للأتراك فى إقامة درجات علمية مشتركة فى البكالوريوس والماجستير والدكتوراة فى التخصصات العلمية المشتركة مع الجامعات الأوروبية والأمريكية، وإدخال مصر كشريك ثالث فى هذه المنظومة، مما يعطى زخما لكل الأطراف حتى الأوروبيين.



من أقوال ومواقف.

السلطان عبد الحميد الثاني

((انصحوا الدكتور "هرتسل" بالا يتخذ خطوات جديدة في هذا الموضوع، فإني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من أرض فلسطين ... فهي ليست ملك يميني ... بل ملك الأمة الإسلامية .. لقد جاهد شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه .. فليحتفظ اليهود بملايينهم ... وإذا مزقت دولة الخلافة يوماً فإنهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن ..

أما وأنا حي فإن عمل المبضع في بدني لأهون علي من أن أرى فلسطين قد بترت من دولة الخلافة وهذا أمر لا يكون. إني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة))

السلطان عبد الحميد الثاني
استانبول ١٩٠١م

واحدة من أهم الوثائق العثمانية التى تؤكد مدى تمسك الدولة العثمانية ممثلة فى السلطان العثمانى عبدالحميد الثانى بفلسطين العربية المسلمة وربما كان هذا الموقف هو السبب الرئيسى لسقوط دولة الخلافة العثمانية!!

وأخيراً يوصى بتفعيل فكرة المشترك الثقافى التى تتبناها الرابطة بين الجامعات الإسلامية وجامعات العالم أجمع لتدعيم فكرة تلاقى الحضارات.

***



وزارة الأوقاف والشؤون الدينية



ندوة

تطور العلوم الفقهية في عمان

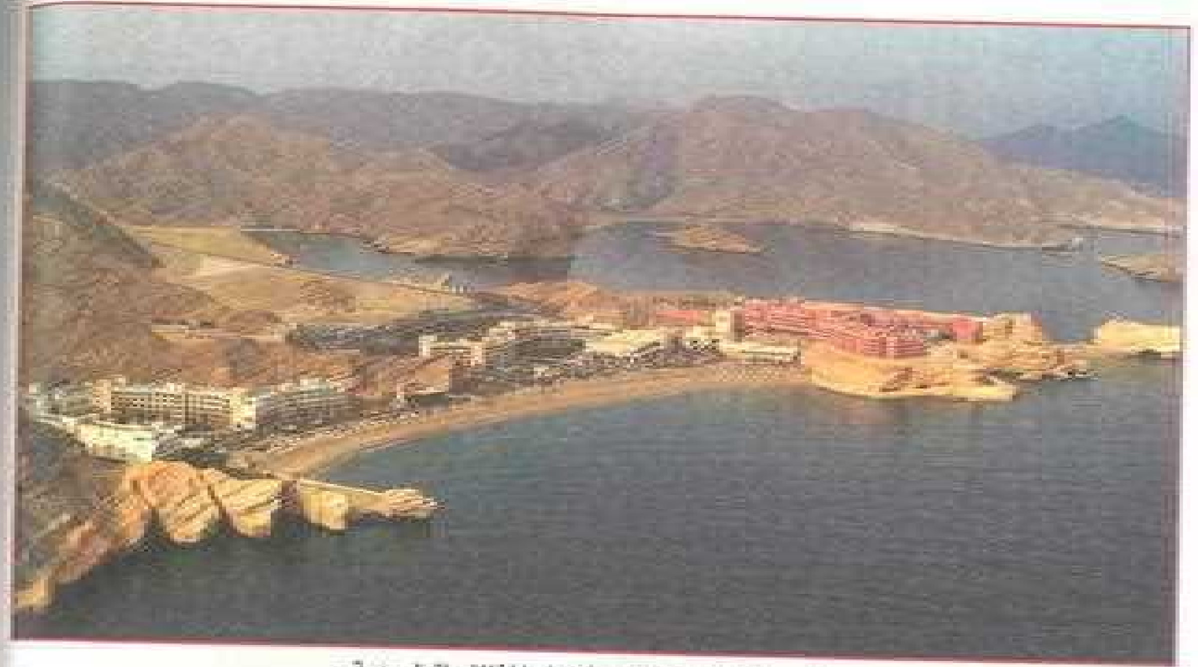
الفقه الإسلامي في عالم متغير

(٥-٨) جمادى الأولى ١٤٣٢هـ (٩-١٢) أبريل ٢٠١١م

رسالة مسقط

للأستاذ / عادل خفاجة

تصوير: عبدالله سالم الخروصي



الجصة في مسقط من أجمل المناظر الطبيعية

من مسقط عاصمة سلطنة عمان ذات الموقع الاستراتيجي المميز على بحر عمان انطلقت هذه الحلقة العاشرة من ندوة العلوم الفقهية التي تقيمها وزارة الأوقاف والشئون الدينية بسلطنة عمان وحملت عنوان «الفقه الإسلامي في عالم متغير» ألقيت من خلالها الأضواء على التغيرات التي تحدث في المجتمعات الإسلامية من خلال أطروحات الفقهاء والمفكرين المسلمين لتقديم الإسلام بصورته البهية القادرة على التطور وذلك من أجل استخراج ما يناسب الأمة من ذلك التراكم الفقهي الإسلامي الذي تكون منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وليضيفوا إلى هذا الرصيد الفقهي إضافات أخرى جادة تثرى وتفيد.

على هذا الدرب اعتادت ندوة تطور العلوم الفقهية أن تقدم المزيد من الأفكار والحلول لتواكب تطورات العصر ولتأخذ من أنوار الماضي ما تستضيء به في حل معضلات الحاضر، وإنها لسنة حسنة أن تسير وزارة الأوقاف والشئون الدينية على هذا النهج وعلى حد قول الدكتور إسماعيل صالح الأغبري خبير الوعظ بوزارة الأوقاف والشئون الدينية: «لو لم يكن لهذه الندوات من ثمار إلا جمع أكبر قدر ممكن من الضيوف الفقهاء والعلماء والمفكرين من مختلف أنحاء البلاد الإسلامية والعالم لكان ذلك كافيا، وهو يعبر عن منهج التسامح والوعي عند المسئولين».



بدأت جلسات الندوة صباح السبت الخامس من جمادى الأولى ١٤٣٢هـ التاسع من شهر أبريل ٢٠١١ بقاعة فندق جراند حياة بمسقط.

وقد رعى حفل الافتتاح معالي الدكتور عبدالله بن محمد بن سعيد السعيدي وزير الشئون القانونية بحضور عدد من أصحاب المعالي والسعادة من المسئولين بالدولة.

بدأ الحفل بتلاوة مباركة لآيات من الذكر الحكيم ثم كلمة وزارة الأوقاف للدكتور عبدالرحمن السالمي ثم **كلمة سماحة الشيخ أحمد الخليلي مفتي عام السلطنة وقد جاء فيها:**

من يُمن الطالع أن يجمع الله سبحانه وتعالى هذا اللفيف من علماء الأمة وهذه المجموعة الطيبة التي تحضر هذا المكان الطيب في ظلال شريعة الله ـ سبحانه ـ التي جعلها الله ـ سبحانه ـ حلاً لكل مشكلة من مشكلات الإنسانية، ذلك لأنها من عند الله، والإنسان هو صنع الله والله ـ سبحانه وتعالى ـ وحده هو العليم بطبيعة الإنسان وبطبيعة الكون الذي استخلف الإنسان في جزء منه وسخر له منافعه؛ لذلك كان هذا الإنسان أحوج ما يكون إلى أن يستلهم كل ما يواجهه في هذه الحياة من عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليرجع بالحل الأمثل، إذ الله ـ سبحانه ـ هو الذي أنزل هذا الذكر، وهو الذي يعلم السر في السماوات والأرض، وفي كل عصر من العصور تتجلى آيات الله ـ سبحانه ـ فيما أنزل.

وقد كنا نتصور أن قوله سبحانه وتعالى:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۝ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

(فصلت: ٥٢، ٥٣)

يؤول إلى الاكتشافات العلمية وحدها وأصبحنا الآن ـ بجانب ذلك ـ تُدخل فيه قضايا البشرية وحلول مشكلاتها، فهذه الإنسانية اليوم تعاني ما تعانيه من الويلات بسبب بعدها عن منهج الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأصبح الذين كانوا أشد عداء لهذا الدين وأكثر الناس صداً عن هذا القرآن يحنون ظهورهم ويطأطئون رؤوسهم أمام الحل القرآني الذي جاء من عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ فهذه المشكلة الاقتصادية التي يرزح العالم تحت نيرها أصبح الكل يدرك أنه لا حل إلا بالرجوع إلى هذا الكتاب العزيز واستلهام الرشد منه.

والإنسان مهما أوتي من طاقة عقلية، فإن هذه الطاقة محدودة بحدود القدرات البشرية، إذ لا يمكن أن تستوعب كل مشكلة من المشكلات فتعطي الحل لها، إذ العقل يتأثر بالمؤثرات الكثيرة البيئية والنفسية والاجتماعية، ومع هذا أيضا هو ـ كما قلت ـ كسائر الطاقات تغشاه غواش من الهوى وتؤثر عليه مؤثرات شتى، لذلك كان هذا العقل بحاجة إلى



مدد من عند الله ـ سبحانه ـ وقد أنزل الله ـ تعالى ـ كتابه تبياناً لكل شيء، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين، فعلى المسلمين الذين أنعم الله عليهم بهذا الكتاب أن يحرصوا على تدارسه والرجوع إليه لحل هذه المشكلات في هذا العالم المتغير، هذا العالم الذي يتكشف فيه كل يوم جديد من أنواع القضايا التي تحتاج إلى دراسة جديدة هذه الدراسة لا تكون إلا بالرجوع إلى مصادر التشريع (كتاب الله وسنة نبيه وإلى ما أجمع عليه السلف الصالح) فإن فيها القواعد الكلية التي تفرز جزئيات شتى فيها الحلول لهذه المشكلات المختلفة وإنما يستلهم ذلك كله العلماء الربانيون الذين درسوا هذه الشريعة وغاصوا في أعماقها وسبروا أغوارها وأبعادها فإنهم القادرون على حل هذه المشكلات.

ومن المعلوم أن الإنسان مهما أوتي من

طاقات عقلية وفكرية وملكات فقهية وعلمية، إلا أنه يبقى بحاجة إلى غيره، فالإنسان قليل بنفسه كثير بإخوانه، لذلك كان اجتماع لفيف من العلماء من أجل تدارس هذه المشكلات وإعطاء الحلول لها هو الأمر الذي جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيه الخير لهذه الأمة، فما أحوجنا إلى أن تتابع هذه الجهود باستمرار.

وأثنى سماحته على المسئولين بوزارة الأوقاف والشئون الدينية على هذا العمل والجهد الدائب المتواصل من أجل توالي حلقات هذه الندوات، لتعطي كل وقت حلاً جديدا بإذن الله ـ تعالى ـ ولتعطي ثمارها كل حين بإذن ربها.

ثم ألقى الدكتور سالم بن هلال الخروصي مستشار وزير الأوقاف والشئون الدينية كلمة ورد فيها:

إن الندوة التي تقام بتوجيهات وعناية ورعاية سامية من لدن صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم حققت أهدافها وأبانت عن مقاصدها وآتت أكلها، فالندوة وهي تزهو في تمام عقدها الأول بما قدمته من عطاء معرفي وما أخرجته للأمة من اجتهاد فقهي وما بان عنها من توصيات قربت البعيد ونفضت الغبار عن التليد وأثارت البصائر عن كل جديد أثارت قرائح العلماء وألهبت حماس طلاب العلم وفتحت الباب أمام الباحثين والدارسين عن موضوعات



يعملون فيها عقولهم ويستفرغون فيها وسعهم ويجتهدون فيها لخير أمتهم ولمستقبل غدهم.

وأشار في كلمته إلى أن ما يشهده العالم من تغير وما تعج به الساحة الإنسانية من أحداث أبانت عن وحدة صفنا وصلابة أمتنا ونقاء معدننا وصفاء سرائرنا واجتماع كلمة علمائنا، فكل يوم يمر شاهد على وحدة الأمة وحكمة قيادتها، فلا صوت إلا صوت العقل، ولا كلمة إلا كلمة يراد بها جمع الشمل، ولا مبادرة إلا مبادرة يقصد بها إطفاء نار الفتنة وإذكاء روح الوطن الواحد.

وأضاف: إن التغيير الذي يُنادى به إذا كان يدعم استقرار الوطن ويحافظ على منجزاته ويضمن استمرار حضارته ويرنو إلى مستقبل أمته فأنعم به من تغيير، أما نداء التغيير من أجل هوى نفسي أو إضرام لنار الفتنة بين أفراد الأمة فأقبح به من

نداء لن يجد آذانا صاغية لأنها مساع واهية.

وشدد على دور علماء الأمة لتبصير الناس لخير مستقبلهم ولتوضيح مبادئ الدين لهم ولغرس سماحة الإسلام فيهم ولتعريفهم بالحقوق والواجبات.

كما شدد على أن تقوم المؤسسات الفقهية ومجامعها بواجبها العظيم من خلال ما تتوصل إليه من قرارات تسهم في بلورة الخطاب الديني لمراحله المستقبلية، وتروي ظمأ المجتمع المتعطش إلى مايزيل عنه لبس أحداثه، وما يرشده لخير دينه ودنياه، وأكد أن للأحداث في عالمنا المتغير أهمية تتحقق بها أهداف تلك المجامع وأن يصل علماؤها إلى رأي جامع فيما استجد. فإن ذلك أدعى إلى تهدئة الأوضاع واستقرار الشعوب وطمأنينة المجتمعات وسلامة الأمة.

وأوضح أن الوزارة سعت منذ تأسيس هذه الندوة المباركة عام ٢٠٠٢ إلى تقريب الفكر الإسلامي والإسهام في جمع علماء الأمة كل عام، لإعمال العقل الاجتهادي في نوازل الساحة الإنسانية، تحقيقا لغاية تجديد الخطاب الديني، ونشرا للوعي بين العالمين، ووصلا بين المسلم ودينه وواجبه ابتغاء لمرضاة الله وتلبية للواجب تجاه الأمة، ورغبة صادقة في صون تراثنا الإسلامي، وإضافة جديدة لعلومنا ومعارفنا الشرعية.

مبينا أن هذه الندوة جاءت لتناقش



الأحداث المتغيرة في العالم وترصد تلك المتغيرات وتربط بين الماضي والحاضر، وتستشرف المستقبل لخير هذه الأمة وشعوبها، بما تجود به قرائح العلماء الأجلاء.

ثم قال معالي **الدكتور محمد جورماز رئيس الشئون الدينية بمجلس الوزراء التركي**، إن الأصول والفقه هما مفهومان جوهريان بالنسبة للعلوم الإسلامية كلها حيث ابتكر العلماء المسلمون فنا لم يعهد تاريخ العلوم مثله مضيفين كلمة الأصول إلى الفقه وضبطوا في بطون مؤلفاتهم القواعد التي يتوصل بها المجتهد إلى استنباط الأحكام العملية الشرعية في غاية الدقة والتمحيص، مما أنتج تراثا علميا زاخرا بالعطاء، وفتح لنا آفاقا فكرية رحبة، وكان غرضهم من ذلك تحديد منهاج موحد يراعون به استنباط الأحكام من النصوص ويحتكمون إليه عند الاختلاف.

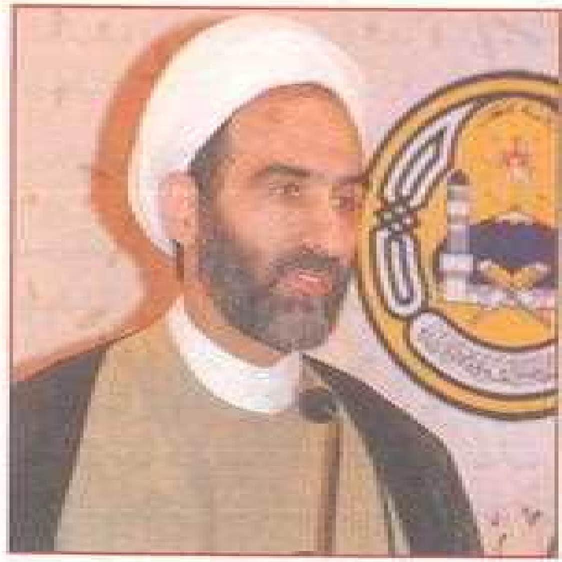
وطالب جورماز بأن تؤخذ الظروف الداخلية التي يعيشونها والظروف الخارجية التي تحيط بهم بعين الاعتبار وأن يفكروا مجددا حول الثوابت الدينية وتطوير الطرق والأساليب لوضع هذه الثوابت في بؤرة الواقع المعاش المتغير.

وألقى سماحة الشيخ آية الله أحمد مبلغي من علماء حوزة قم، كلمة جاء فيها: هناك نسب ثلاث بين الفقه والواقع:

النسبة الأولى: الواقع كدافع للاجتهاد أن اجتهادنا اليوم يتم ويتحقق في هذه الظروف المعاصرة والمحيطة به، وكل درس يؤثر على مدروسه أبينا أو لم نأب، اللازم إذن الالتفات إلى هذه الظروف التي تحقق اجتهادنا فيها ومحاولة الخروج من الحالة اللاشعورية بالنسبة إلى تأثيرات الزمن على اجتهادنا إلى حالة شعورية، ومن يكن جاهلا بالظروف تحيط به وباجتهاده، فسوف يكون اجتهاده عرضة لخطر عظيم إذا كان اجتهاده بمعزل عن الواقع وعن النظر إلى الواقع، فسوف تضر اجتهاداته بالدين وفاعلية الدين في الحياة البشرية.

النسبة الثانية: الواقع كموضوع ينبغي الاجتهاد فيه، نحن لابد أن لا نقتصر على الموضوعات القديمة، بل لابد أن نوجه بشكل أكبر إلى الموضوعات المعاصرة والمستجدة وإلى الواقع المعاصر.

النسبة الثالثة: الواقع عنصر ينبغي



إدراجه في منظومة منهج الاستدراك، وهذا الثالث يكون التركيز عليه أهم من التركيز على السابقين لأهميته الكبرى في ترك التأثير على سابقيه.

أشكر وزارة الأوقاف والشئون الدينية على هذه السلسلة من الندوات العلمية والأدبيات الفقهية التي تطرحها على علماء الدين، وعلى هذا الملتقى لعلماء المذاهب حقيقة، وسررت عندما وجدت في أدبيات هذه الندوة كلمة فقه الأمة، ففقه الأمة يعني صبغ هذه المجموعة المنتمية إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وعلى آله وسلم، نحن نجد أن الواجبات الكفائية عندما طرحت في الفقه تحمل على عاتقها النظر إلى الأمة نحن نطرح في قالب الواجبات العينية التي تفرغ الأمة وتفرق الأمة، وهذه الندوة المباركة جاءت وركزت على فقه الأمة الإسلامية، أشكر السلطنة وسلطانها العظيم

والعلمـــاء الموجــودين الأحـــرار في هذه السلطنة.

الدكتور وهبة الزحيلي رئيس رابطة علماء الشام فقال في كلمته: في مظلة هذا الألق وهذا المجد العلمي الذي تستظل بهما هذه السلطنة في جهود علمائها وفضلائها وتطلعاتهم إلى غد مشرق وإلى أن يتفاعل الفقه الإسلامي وتحتل شريعة الله مكانها في هذا الوجود، أريد أن أبين وأحدد أن كل ما تفضل به أصحاب الفضيلة العلماء من قبلي هو حق وسليم، وكل منهم ينظر إلى زاوية من زوايا تفعيل الفقه الإسلامي.

من المعلوم أن شريعة الله ودينه وحي سابق خالد لا يتغير بتغير الزمان والمكان، وأن هذه الشريعة الخالدة ذات الأفق العالي وذات الصبغة الخاتمية لكل الشرائع في السماء وكل ألوان الوحي السابق، كل ذلك يدل دلالة قاطعة إلى أننا بأشد الحاجة إلى الانطلاق من أفق هذه الشريعة على أساس من العلم الرصين والانفتاح على ما يجده من ثورة المعلومات، وآفاق التبدل والتغير في هذا العالم المعاصر، فهناك بالتأكيد ثوابت لا يجوز أن نتجاوزها، كما أنه لا يمكن إغماض الطرف عن القضايا المعاصرة ومتعلقاته وصلتها بالفرد والجماعة، فنحن حينما نتعلم الفقه في كليات الشريعة وأمثالها نعيش عيشة ضيقة ذات أفق محدود، فالمهم أن يكون الفقيه عالي القدر واسع النظر والأفق، إلى أن يجمع بين الفقه



العام والفقه الخاص، والأحداث الأخيرة أظهرت هذا التباين الشاسع وهذا الوضع المتأزم، حيث نجد علماء تراهم يتأثرون بفقه الجزئيات، وهم بعيدون كل البعد عن الفقه العام الذي تكلله آفاق هذه الشريعة، ليس بالفقه الضيق، وإنما في آفاق الفقه السياسي، آفاق العلم النظري والتطبيقي ومستجدات الواقع، ومحاولة تغطية كل هذه الأحداث بنظرة إسلامية عميقة بحيث لا يكون هناك ترنح ولا تعثر ولا انتقاد، فبعض هؤلاء الذين يتكلمون ويتحدثون في آفاق الأحداث الجارية، إنما نجد عندهم هذا الانفصال، إما بالاستقلال للنظرة العامة للفقه العام، وإما بالنظرة الجزئية المحدودة المقصورة على نظرات ضيقة تدل على ضيق أفق أولئك العلماء. فالاتجاه الصحيح أن نتجه الاتجاه الذي يحقق مدلول هذه الشريعة في الجمع بين نصوصها وثوابتها ومراعاة



متغيراتها على أساس من النظرة الشمولية العامة، والاستفادة من كل معطيات القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، فكثير من هؤلاء مع الأسف الشديد يتخصصون بتخصصات ضيقة، إما فقهية جزئية وإما عقدية وإما أخلاقية، ويغضون النظر عن الآفاق الكلية العامة، والعالم بحق هو الذي يستطيع أن يجمع بين كل هذه الآفاق، وأن يكون له نظر ثاقب كنظرة أئمة مذاهبنا العظام الذين خلد التاريخ آثارهم، فهم لم يكونوا إلا واسعي الأفق ويتحدثون عن: فقه الدولة، وفقه القضاء، وفقه المجتمع، وفقه الفرد، والآفاق المتعددة، لذلك خلدت هذه الأمة نتاجهم. وأما في عصرنا الحاضر فمع الأسف الشديد لم نجد مثل هذا الأفق الذي يجمع بين كليات الشريعة وواقعات الزمان وتطورات الحياة، كل هذا يدعونا إلى إعادة النظرة في مناهجنا التي ندرسها في كليات الشريعة من أجل أن نخرج فقيها على مستوى لائق يكون ملما بالخالد الأصيل وبالمعاصر الذي يفرض وجوده على كل واحد منا، لكل هذا فإننا نجد - ولله الحمد - في هذه الندوات العشر التي حضرنا معطياتها وعرفنا الكثير الطيب الذي سجلته هذه الندوات بحق مثل هذا التطلع الذي أدعو إليه والذي أدعو دائما إلى أن يكون هناك تكامل في شخصية الفقه وأفق العالم، لكل هذا نحن نقدر هذا الجهد العظيم من هذه السلطنة، وأكاد أقول أنه لولا أمران أساسيان وهو أن السلطنة ولله الحمد كانت من البلدان التي دخل إليها الإسلام في مشرقها الأصيل كبلاد الشام وبلاد

الرافدين وبلاد المغرب، وكل هذا حقق إرثاً غير مختوم في نظرات الأفراد والشعوب، مما جعلهم يتمثلون الإسلام تمثلا نقيا خالصاً غير مشوباً بشوائب المجاملات والتأثرات التي لا فائدة ولا جدوى منها.

ونيابة عن إخواني العلماء الذين تفضلتم بدعوتهم وبادروا بكل سعي حثيث وبكل جرأة وتطلع إلى مزيد من العطاء في ظل هذه الندوات، أقدم بالنيابة عنهم جميعا شكرهم الخالص وتقديمهم العظيم على كرم الوفادة وسمو الضيافة والشفافية واللطف الذي نلمسه من أهل هذه السلطنة بحق، فكلنا أصبح بعد أن كان في الماضي بعيد النظرة لا يعرف شيئاً عن هذه البلاد أصبح الحب العميق يتجذر في قلوب الجميع لتقدير ما هم عليه علماء هذا البلد وأهلها العظام الذين حفظوا للإسلام مجده وأرادوا أن يظل منطلقا ليعم الحياة الإسلامية كلها، ونحن مدينون بالفضل لكم سائلين المولى جل جلاله أن يكلل هذه الجهود بالتوفيق وأن ينشر الأمن والسكينة والمحبة والتقدير بين علماء الأمة أو لا؛ لأن الناس تبعا لعلمائهم أن ينشر هذه المفاهيم في الأجواء كلها ليكون الإسلام موحداً، فهناك مع الأسف الشديد إسلام لهذا البلد، والإسلامات تعددت بتعدد الانتماءات إلى أنظمة معينة، فضاعت الهوية وأصبحت المشكلة معقدة، فنحن بأشد الاهتمام وبأشد الانتباه إلى أن تكون عاملين بفحوى وعطاءات مثل هذه الندوات التي لا تعرف ضيقاً في الأفق ولا مذهبية معينة ولا اقتصاراً على جمهور لفيف معين من العلماء، وأقدر تقديراً بالغاً هذا الجهد الطيب الذي تبذله السلطنة في مظلة وزارة الأوقاف والشئون الدينية وبمظلة السلطنة العظيمة أن تظل كل هذه العطاءات منتجة محققة للخير للأمة، وداعية الأمة أولاً إلى أن ينفتحوا على الحياة ضمن روابط رصينة، وضمن الجمع كما أشرت بين الفقه العام والفقه العام، لتظل الراية واضحة المعالم، ويظل الإسلام واحداً غير متجزئ، فهناك مع الأسف الشديد الفضائيات نشرت هذا التلون والتنوع بين إسلام في منطقة وإسلام في منطقة أخرى، مما زاد الأمر تعقيداً، وزاد المجتمع حيرة وارتباكاً. فنسأله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يحقق قول الله جل جلاله:

﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾

(الأنبياء: ٩٢)

فأسأله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يحقق عبوديتنا المطلقة لله ـ جل جلاله ـ لا عبودية لغير الله، فالعبودية في نظرة وإيمان القلب وإيمان كل مسلم وقلبه الرصين، العبودية واحدة لا تكون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وإنما تكون لله والواحد الأحد الفرد الصمد، إذا انطلقنا من هذه العبودية نشعر بأننا أحرار وبأننا أعزة كرام وأن لنا شخصية قوية متماسكة لا تعرف التلون ولا التأثر بالأصبغة من يمين وشمال، وهذا هو الذي ينبغي أن يسود أفقنا العلمي وندواتنا التي تتطلع إلى المزيد من خيراتها ونتاجها.

وعلى مدى أربعة أيام ناقشت الندوة ستة وثلاثين بحثاً شملتها سبعة محاور، من هذه الأبحاث بحث بعنوان: فقه الثوابت بين التأصيل النظري والتطبيق العلمي لمعالي الدكتور محمد جورماز تكلم فيه عن الأصول وعن الفقه لفت الانتباه إلى تركيبة أخرى لكلمتي الأصول والفقه وهي "فقه الأصول" وأشار إلى أنه ليس بديلاً عن أصول الفقه وليس القصد منه التشكيك بعلم أصول الفقه أو بمصداقيته في فهم النصوص الدينية وإنما أراد من وراء هذا الطرح الجديد التأكيد على وجوب بذل المزيد من الجهود لفقه الثوابت الدينية، وعلى الاهتمام بفقه الأصول أو الثوابت الدينية بقدر الاهتمام بأصول الفقه.

وضمن الباحث ورقته اقتراحين، الأول إعادة النظر في ترتيب الأحكام الشرعية والتسلسل الهرمي للقيم وقائمة الحلال والحرام، كما يتحتم على أرباب العلم وأصحاب الفقه أن يركزوا مساعيهم على القضايا الحيوية والمصيرية وينأوا بأنفسهم عن بعض المسائل الفرعية التي قد تفضي إلى الفرقة والتشرذم بين المسلمين، والاقتراح الثاني التأكيد للمسلم المعاصر بأن الفقه الإسلامي قد احتضن تجارب علمية مختلفة عبر التاريخ.

● ومنها أيضا هذا البحث بعنوان: التجنيس والهجرة بين التراث الإسلامي والواقع العالمي للأستاذ: محمد موسى بابا عمي

حيث تناول عددا من الآيات والأحاديث التي تتعلق بموضوع بحثه عن التجنيس والهجرة ودار الإسلام ودار الحرب، وأظهر آراء مفكرين إسلاميين وعرب مثل: فيصل المولوي وطارق رمضان وحمر فتح الله كولن وغيرهم، كما بين رأي جفري لامع في كلامه عن دار الإسلام ودار الحرب، وتوصل الباحث إلى عدة نقاط في موضوعه أهمها إن الجنسية مصطلح سياسي جديد، ظهر مع تشكل الدولة الحديثة في أواخر القرن الثامن عشر وهذا المصطلح غير وارد في المصادر الفقهية المتقدمة بلفظه لكن معناه يرد كثيراً في التراث الفقهي الإسلامي، وإن حكم التجنيس بجنسية دولة غير إسلامية معقد، فهو من حيث الحكم يأخذ حكماً خاصاً ومن حيث إن هناك ملابسات عديدة يدعو ذلك للتوقف ومن أهم تلك الملابسات الظروف المختلفة التي يعيشها الساكنون في البلاد الخاضعة لحكم غير إسلامي وهي ظروف ليست في مستوى واحد، وحكم التجنيس جذوره موجودة في العقيدة من خلال العديد من أبوابها ومداخلها ومن أبرزها ما يعرف بحكم الدار، فتقسيم العالم إلى دارين دار إسلام ودار حرب هو وليد ظروف نشأة الدول

الإسلامية الأولى فى علاقتها بالفرس والروم ومشركى العرب وغيرهم، وثمة اجتهادات كثيرة وظروف تقسيم الدار، منها ما ورد عن الشافعى إضافة لدار الأمان أو دار العهد، أو إضافة دار العدل ودار الجور من قبل علماء الإباضية عن مصادرهم الفقهية وناشد العلماء ضرورة توسيع النظرة إلى جغرافية العالم الإسلامى والعمل بتخطيط حتى ينتشر دين الله فى جميع الأرض بالحكمة والحسنى.

وعن الجنسية ـ أيضاً ـ جاء بحث قواعد الجنسية فى الإسلام.

للدكتور ناصر بن محمد الحجرى

وقد ضمنه الباحث معظم قواعد الجنسية فى الإسلام وفى القانون الوضعى فعرف الجنسية وتكلم عن أركانها وعن حرية الدولة فى تنظيم جنسيتها ومزاياها وحسناتها، كما تكلم عن فكرة الجنسية فى الإسلام، وأورد الباحث فى نهاية ورقته والتعديلات المتعلقة بقانون الجنسية العمانية، كما أورد بعض النتائج التى توصل إليها منها أن الجنسية مصطلح قانونى حديث وثيق الصلة بالدولة وما يرتبط بها من أنظمة وقوانين ويعود إلى أواخر القرن الثامن عشر، كما أن الجنسية هى الوسيلة الوحيدة لحماية الفرد فى المجتمع الدولى وأن دار الإسلام هى الدار التى تسودها شريعة الإسلام وتطبق فيها بقطع النظر عن سكانها، ودار الكفر هى الدار التى لا تسودها شريعة الإسلام، وتظهر فيها أحكام الكفر، كما أن الإسلام دين وجنسية وإن الجنسية الإسلامية تقوم على أساس الانتماء إلى الإسلام تديناً أو الانضواء تحت سلطان دولة إسلامية نظاماً، كما بين المشارك أن الجنسية الإسلامية فى ظل الدولة الإسلامية تمنح لكل من أعلن إسلامه وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله بعد التحقق من صدق دعواه، كما كفل الإسلام لغير المسلمين المقيمين على أرضه كافة الحقوق والحريات التى يحتاجها الإنسان فى حياته، وألزمهم فى مقابل ذلك بواجبات منها، الخضوع لأحكام الشرع الإسلامى فيما يعرف بالمسئولية المدنية والجنائية دون ما يتعلق بالعقيدة.

- وتناولت الأبحاث شبكة الإنترنت، فمنها هذا البحث بعنوان: الرؤية الفقهية لتأصيل الجرائم الإلكترونية.

للدكتور أحمد عيد عبدالحميد إبراهيم، من جامعة الأزهر

بدأ الباحث بالتعريف بالجرائم الإلكترونية وبيان خطواتها وأنواعها، كما بين أركان الجريمة الالكترونية والحكم الفقهى لها، من هذه الجرائم انتهاك الخصوصية والعقوبة المقررة لها، وجريمة الاعتداء على النفس وجريمة انتحال الشخصية وجريمة الاعتداء على المعلومات وجريمة السرقة الالكترونية وجرائم السلب والقذف والتشهير، وجريمة إفشاء الأسرارالوطنية واختتم الباحث ورقته بعدة توصيات منها:

- أهمية التعاون لوضع قانون مكافحة الجرائم الالكترونية.
- ضرورة العمل على كشف المحتالين والمجرمين وبيان طرق وأساليب الاحتيال التى يستخدمونها حتى يقوم الناس بتأمين أنفسهم وأجهزتهم من الوقوع فى شراك هؤلاء المجرمين.
- ضرورة مسارعة الدول إلى وضع ضوابط حماية، وإنشاء أمن خاص للشبكات تهدف إلى منع الجريمة قبل وقوعها أو سرعة الكشف عن مرتكبيها قبل وقوعها.
- أن يقوم المربون والمعلمون ببيان خطر هذه الجرائم والتحذير منها، والتركيز على تنمية الشعور بمراقبة الله تعالى حتى تكون هناك رقابة داخلية للشخص من ضميره حتى لا يقدم على هذه الجرائم.
- خطر المواقع الضارة بالمجتمع والتى تعمد إلى إفساد أخلاق الشباب وتحثهم على الجريمة والعمل على تنقية المواقع وحذف ما لا فائدة منه.

هذا قليل من كثير، بل إنها مجرد إشارة فحسب إلى ما تحمله هذه الأبحاث، وما تتصف به من الجدة والقوة وحاجة المجتمع إليها.

تناولها بالعرض فى العدد القادم بمشيئة الله تعالى.

وفى حفل الختام كانت للمشاركين كلمة ألقاها **فضيلة الدكتور عبدالله فدعق الهاشمى المكى قال فيها:**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله الأطهار وأصحابه الأخيار وسلم تسليماً كثيراً، وبعد...

ففى ظل عناية حضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم، حفظه الله ورعاه، وبمتابعة وإخلاص المسئولين فى مقام وزارة الأوقاف والشئون الدينية بسلطنة عمان الشقيقة، وفى مقدمتهم معالى الشيخ عبدالله بن محمد السالمى، أتممنا بحمد الله تعالى العقد الأول من العمر المديد بإذن الله تعالى لتطوير العلوم الفقهية.. الفقه الإسلامى فى عالم متغير.

إن موضوع ندوة هذا العام يتحدث عن نفسه، والحمد لله تعالى أن جميع جوانبه نوقشت كالمعتاد بلا تسييس وبلا ضجيج، وبانضباط ونظام، وبدقة والتزام، وبكل حرية واستقلال.

السادة العلماء:

لقد آن أوان تحويل مقولة إن «الشريعة صالحة لكل زمان ومكان» إلى مقولة بديلة هى: «**إن الزمان والمكان لا يصلحهما إلا الشريعة**»، ولقد آن أوان تحويل هذه المقولة من مجرد نظرية إلى تطبيق حيوى فى

حياة الأمة.

هذا التطبيق يحتاج فيما يحتاج إلى تفعيل دور الاجتهاد وفق مقاصد الشريعة الإسلامية، وكيفية تكوين الملكة الفقهية، وعمل مقارنة بين أحكام التشريع الإسلامي وبين القوانين الوضعية، والنظر بعمق في النوازل والمستجدات التي تواجه الحياة اليومية.

الحضور الكريم:

لا شك أن حركة التجديد في الفقه لم تتوقف منذ عهد الصحابة وإلى يومنا هذا وإن اختلف نتاجها كثرة وقلة، وبحمد الله نجد في أيامنا هذه أن العطاء الفقهي مستمر، على الرغم مما يتعرض له من التحديات.

ومعلوم أن الثابت بالنص الثابت القطعي لا يعدل ولا يتغير، فالعقائد، والعبادات، والمقادير الشرعية، والقواعد القطعية ثابتة راسخة، أما الوسائل المساعدة للعقيدة، والوسائل المساعدة للعبادات، والوسائل المساعدة للمقادير الشرعية، والوسائل المساعدة للقواعد القطعية، أو الكلية الكبرى فهي قابلة للاجتهاد، فالعلل تبدلت، والأعراف تطورت، والعالم تغير، ولا بد أن تنزل التغيرات على واقع الناس، حتى نخرج من ظن أن الفقه تنظير، أو أنه مجرد تراث.

السادة الفقهاء:

لا بد لنا من تفعيل الفقه الإسلامي، وتوسيع دائرة الاجتهاد، واستيعاب



النوازل الحديثة، بكل تقلباتها وتشعباتها، وبدونه لن نصمد أمام التحديات، وما دامت حركة المجتمعات في تطور فإن هذه هي الوجهة اللازمة للعلماء الفقهاء.

وأخيراً وليس آخراً:

أرجو باسمي وباسم أصحاب الفضيلة العلماء المشاركين في هذه الندوة أن يسمح لنا أهلنا، أهل سلطنة عمان الكرماء، أن نوجه تحية واجبة لحضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم - حفظه الله ورعاه - الذي راقبنا جميعاً وبكل فخر كيف استطاع بحكمته وبهدوئه، وبخطواته المباشرة والفورية أن ينتصر لشعبه، وأن يقمع محاولات الفساد والإفساد، ولا غرابة في ذلك لمن كان ديدنه ترديد: «سأعمل بكل ما يمكن لجعل العمانيين يعيشون سعداء، لمستقبل أفضل»، فجزاه الله عن أمته، وعن محبيه خيراً.. وتقبل الله جميعنا بقبول حسن.. ودمتم ونحن معكم آمنين مطمئنين.

***

وأبى الشعر إلا أن يشارك في هذه الندوة المباركة فألقى الأستاذ الدكتور مصطفى باجو أستاذ الفقه وأصوله بجامعة الأمير عبدالقادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة - الجزائر قصيدة بعنوان: «نفحات عمان» قال فيها:

شوق وحنين:

ياطائر الشوق هاج القلب تذكارُ
فالقب نار، ودرب العمر أسفارُ
بنت الكرام، بسحر الحسن آسرتي
كم هام في حبّها صيدٌ وأحرارُ
يهفو الفؤاد إلى إشراق طلعتها
نبع الضيا، والمدى غيمٌ وأوضار
بنت الأباة عمان المجد قبلتُنا
روضُ المنى قد غدتْ، والكون إعصار
أهل النهى والهدى والفضل سادتها
أحفاد أسد، مناجيدٌ وأحرارُ
من هَدْي أحمد والأصحاب منهلُهم
إنا على أثر، أنى بنا ساروا

مأساة الشباب:

يامركب النور ظلّل ربْعَ أمتنا
طال السُّرى واختفت في الأفق أقمار
حاد الشبابُ إلى نهج بلا رشد
واستاق ركبَهمُ وغدٌ وغدّار
في مهمه التيه قد ضاعت دلائلهم
أفكارهم قزع في الشك قد حاروا
والرشدون عن الأجيال في شُغُلٍ
والراصدون لهم سمعٌ وأبصار
والمرجفون سعوا بالدسّ جهدهمُ
مفتاح كيدهمُ: غيدٌ وخمار

واقع المسلمين:

يا قلبُ عفواً إذا مزقت أشرعتي
قد لفّ شاطئنا موت وأخطار
ما قيمة العمر، والأمواج قاصمة
زهر المنى، والمنى للعمر أزهار
دعْني ودع زورقي في اليمّ يغرقني
ما عاد يُجديه تجديفٌ وإبحار
حُلمي سادفنه في مهد منبته
لما استباح الحمى ذئبٌ وجزار
ياظلمة الليل أشباهٌ مَراجعُنا
أنى اتجهت فبُرْكانٌ وإعصارُ
نوْحي على زمن ضاعت كرامته
والمسلمون به حُمقٌ وأغرار
ألفٌ كُأفٍّ، غثاءٌ في مواقفهم
صفرٌ بساح الوغى، والعدّ مليارْ
عذب المياه أجاج صار بظْمئنا
مهما سقى أرضنا غيث وأنهارْ
ضوء الصباح ظلام في نواظرنا
لا الشمس شمس ولا الأقمار أقمارْ

التشدد الديني وأسبابه:

ضاقت بنا الأرض والأوطان واسعة
لما غدا ليثنى التفريق أقطار

نمضي بلا أمل، والرعب يغـــرقنـا
والقـابعون على الشطآن سـمّار
في كل مـا حــرم من أرضنا ثوبٌ
لم يسلم الأهل والأحبـاب والجار
إلى مَ أمضغ جمر الهمّ في حُرق
فـالصف منصدعٌ، والقطر أشطار
واستأسد الهرُّ، والآساد رابضة
وطاول النجم أقـزام ومـا طاروا
حتى غدا الفارس المغوار راجلنا
ومن عـلا صهوات الخيل طيار
ومن روى من حروف العلم أبجدها
قال اسمعوا: للإمام البحر أسرار
العلم عندي، وكل الخلق جـاهلة
قولي صواب يقينا، وهو مختار
الحق عندي، ورأي الناس مبتذل
أتقى الورى أنا، والساعون فجّار
الدين فهمي، وفهم الناس مبتدعٌ
من لم يدن مـثل ديني داره النارُ
داء الغلوّ جحـيمٌ لفّ ناشئـة
يطفو بهم جارف للجهل تيارُ
واحسرة الدين من فهم يدى عته
قد ضرّ مالم يضرّ بالكيد كفّار
صدّ الأنام عن الإسلام زعمهم
أن الشريعة أسياف وأحجار
إن يقدح الرزء في علم بلا أدب
فـالويل أن يجتمع جهل وإصرار

الميوعة والانحلال:

ضاق الشباب بهذا الضيق فانسلخوا
نحو الخنا، دينهم: خمرٌ، وأوتار
تخنّث الطبع فالخنسان في شبه
لولا النهود لكنّا فيه نحتار
غاياتهم موضة جدّت، بها وُلعوا
ربّانهم في بوادي التيه غدّار
أغراهمُ سفهاً، فاستسلموا طعماً
واستاقهم غنماً، أو شئت أبقار
لا تعتب الجيل إن ضلّت مراكبهم
آباؤهم همّهم جمعٌ ودولار

الشباب الأمل:

طال السهاد ونجم الليل أرقبه
شوقاً لفجر الهدى بالخير معطارُ
من أفق مسقط بالإسعاد مشرقه
بالبشر يغمرنا زانته أنوار
يا فتـيـة الحق لا نوم ولا خورٌ
إن الهداة بصوت الحق قد ساروا
يا معقد الأمل الزاهي لأمتنا
أنتم غدٌ، ويدٌ تحمي، وأنصار
يا معقلا لأثيل المجد ترفعه
يسمو به لمعالي النجم، طيّارُ
في منهج المصطفى ترياق حيرتكم
علمٌ، وتقوى، وإنصافٌ، وإيثارُ
يا جمع أنتم حمى الإسلام، موعدكم
ربيع سعد، وروضٌ فيه أزهار
تيهي دلالا عمان الخير وابتهجي
حماة أرض الحمى، لبّوك واختاروا
تيهي عمان ففجر النور منبلج
أنتم شموس به، والنشء أقمار



وفي ختام الندوة ألقى الشيخ محمد الخروصي من وزارة الأوقاف والشئون الدينية بنتائج وتوصيات الندوة والتي جاء بها:

النتائج والتوصيات

لقد مر الفقه الإسلامي طيلة أربعة عشر قرنا ونيفاً بأطوار متعددة، انتقل فيها من طور التأصيل إلى طور الاجتهاد، مروراً بالتقليد وعوداً إلى الاستنباط، وفي كل مرحلة خرجت إلى النور مؤلفات تعني بمستجدات كل عصر، تباينت بين البحوث المختصرة والفتاوى والموسوعات، وشملت الجوانب الاجتماعية والثقافية والاقتصادية وغيرها، فشكّلت إرثا حضارياً، ومرجعاً تاريخياً وفكرياً، حددت فيها الأصول الفقهية، وقعدت القواعد الشرعية، فكانت مسلك المجتهدين، ومنهج الفقهاء المجددين، واليوم في الندوة العاشرة لتطور العلوم الفقهية في عمان، التي تحمل عنوان «الفقه الإسلامي في عالم متغير» تأتي إداركاً لأهمية المتغيرات في العالم وماله من أبعاد حيوية وآثار إيجابية سواء من حيث التعمق الفاحص والتدقيق العميق للتراث الفقهي الضخم تأصيلا وتفريعا أم من حيث الأخذ الجاد والمدروس لمعطيات الحاضر تمكينا لأهل العلم من أن ينزلوا الحكم الشرعي على كل واقعة بحسبها.

إن هذه الندوة العاشرة لتطور العلوم الفقهية في عمان «الفقه الإسلامي في عالم متغير» التي بدأت أعمالها في الخامس من شهر جمادى الأولى لعام ألف

وأربعمائة واثنين وثلاثين للهجرة الشريفة الموافق التاسع من أبريل لعام ألفين وإحدى عشر للميلاد والتي استمرت جلساتها طيلة أربعة أيام، استعرض فيها العلماء والباحثون الذين وفدوا مشكورين من أرجاء المعمورة كافة ليرفدوا هذه الندوة بما تعنى به مجتمعاتهم من قضايا اجتماعية واقتصادية إلى غير ذلك من محاور.

إن هذه الندوة تسدل ستارها يوم الثلاثاء الثامن من شهر جمادى الأولى من عام ألف وأربعمائة واثنين وثلاثين للهجرة الشريفة الموافق الثاني عشر من أبريل لعام ألفين وإحدى عشر للميلاد عما تمخض عنها من توصيات كانت نتاج حوار هادف ومداخلات بناءة ونقاش علمي معطاء، فجاءت على ما يأتي :-

● أولاً : أهمية دراسة الفقه المقارن لما يؤكده من تداخل المدارس الفكرية المختلفة والاتفاق على كثير من القضايا المتغيرة، وبذلك يتم التعارف بين مختلف المذاهب، مبلورا فكرا معتدلا للنظر في القضايا المستجدة بعد الرجوع إلى مصادر الشريعة و قواعدها وضوابطها العامة.

● ثانياً : لابد من تمكين الفقه من التعامل البناء مع المتغيرات من خلال الاجتهاد في النوازل، وإظهار مقدرة الإسلام وعلمائه على مواكبة مستجدات العصر، وتنقية فقه المذاهب والفقه



المقارن من كل الآراء التي لا تلائم العصر والظروف المحيطة به في إطار سماحة الإسلام.

● ثالثاً : العناية بالفقه المرتبط بالأصول والمتصل بالقرآن منطلقا وإطارا، لتعيد الربط بين فقه الفروع وفقه الأصول من خلال التجديد الفقهي والأصولي.

● رابعاً : دعوة علماء الفقه الشرعي وعلماء القانون إلى الاجتماع لصياغة اللوائح المنظمة للعمل في القضايا المتغيرة.

● خامساً : حث الباحثين على تناول نتاج الفقه الإباضي في الجانب المالي والسياسي، ومقارنته بالمعاملات المالية والأطر السياسية الحديثة، وبيان وجوه التجديد والنظرة الاستشرافية في ذلك النتاج.

● سادساً : إعادة النظر في ترتيب الأحكام الشرعية والتسلسل الهرمي للقيم وقائمة الحلال والحرام، مما يحتم على أرباب العلم وأصحاب الفقه أن يركزوا مساعيهم على القضايا الحيوية والمصيرية وينأوا بأنفسهم عن بعض المسائل الفرعية التي قد تفضي إلى الفرقة والتشرذم بين المسلمين.

● سابعاً : المصالح المرسلة منهج تشريعي خصب، مشبع لحاجة الناس في كل زمان ومكان، وعامل أساسي للإبقاء على حيوية الشريعة، وهي من خير الوسائل وأنجعها لعلاج ما ينزل بالمسلمين من حوادث يحتاجون إلى معرفة الحكم الشرعي فيها، وليس العمل بها انفلاتا من النصوص الشرعية أو خروجا عليها، أو حكما بالرغبة والهوى، وبذلك يتحقق شمول التشريع ومرونته التي هي سر من أسرار خلود هذه الشريعة.

● ثامناً : ترسيخ مفهوم الفروض الكفائية، وتصحيح الفهم الخطأ تجاهها بعدم قصرها على الجنائز ومتعلقاتها من الغسل والدفن، بل يشمل جميع الجوانب التي لا تنهض الأمة إلا بتحقيقها، كالطب والصيدلة والهندسة والصناعات وكل ما يتعلق بالمهن الحرة، إذ المقصود منها حماية المصلحة العامة للأمة.

● تاسعاً : الاعتناء بفروض الكفاية يوفر ميدانا فسيحا لتطوير المجتمعات الإسلامية، للعلاقة الوطيدة بين الفرض الكفائي والمسئولية الاجتماعية، ولذلك توصي الندوة بوضع قواعد تضبط الفروض الكفائية بغية تطبيقها في إطار مؤسسات تعنى بوضع الخطط المتعلقة بها وعمل بحوث ودراسات تبحث كيفية توزيع الفروض الكفائية على المجتمع، وكيفية تأهيل الأفراد لتحمل أعباء القيام بها.

● عاشراً : ينبغي إبراز إسهامات الفقه الإسلامي وأهله في تطوير وبلورة العديد من قواعد القانون الدولي العام لما تميزت به الشريعة الإسلامية من تقرير المبادئ والأسس المنظمة لعلاقات الدول ببعضها في الأحوال كافة.

● حادي عشر : ضرورة التآخي بين مؤسسة الشورى وعلماء الشريعة «أهل الحل والعقد» في المواءمة بين الحكم الفقهي وتطبيقاته المجتمعية بغية الاقتراب ما أمكن من التعبير عن الرأي المقبول من أغلبية الأمة أو إجماعها.

● ثاني عشر : الجنسية مصطلح سياسي جديد، ظهر مع تكوين الدولة الحديثة في أواخر القرن الثامن عشر، وقد التزمت به الدول الإسلامية بعد ظهور الأنظمة الإقليمية للمجتمع المعاصر، ولقد أصبح العمل بمدلول الجنسية معبرا عن انتماء الأفراد والجماعات لدولة معينة، وهو لا يتناقض مع تعاليم الإسلام.

● ثالث عشر : إن المذكور في كتب

الفقهاء من تقسيم العالم إلى دارين: دار إسلام ودار حرب هو تعبير عن واقع أملته ظروف العلاقات بين المسلمين وغيرهم في حال وجود الحرب بينهم، ولا نجد دليلا نصيا على اعتبار هذا التقسيم على الدوام.

● رابع عشر: العناية بفقه الأقليات من أجل تلبية احتياجاتهم لبيان أحكام القضايا الفقهية التي تواجههم في حياتهم وسط مجتمعات غير إسلامية.

● خامس عشر: إن ظاهرة الاجتهاد الجماعي في عمان كانت واضحة المعالم في القديم والحديث، وإن الدور الكبير الذى تعنى به المجامع الفقهية في العصر الحاضر بارز حيث عالجت عددا من القضايا المعاصرة، مثل قضايا التلقيح الصناعي وأطفال الأنابيب وتشريح جثث الموتى ورفع أجهزة الإنعاش وزرع الأعضاء وغيرها، وقد كانت لهذه المجامع طريقة فريدة في معالجة هذه القضايا، فقد راعت فقه الأولويات وفقه الموازنات وتميزت بالسماحة وعدم التعصب لمذهب معين، والتزمت حرية النقاش والعمل بمبدأ الاجتهاد الجماعي واستخلاص النتائج والتصويت على القرارات إذا لم يكن هناك اتفاق، لذلك ينبغي العمل على ربط المجامع الفقهية في العالم بشبكة اتصال لتكوين مجلس أعلى للمجامع الفقهية كلها، لتحديد منهج الاجتهاد لما قد يطرأ في عالمنا المتغير مع مواكبة التطور السريع في العالم وضرورة التنسيق والتوافق بين قراراتها.

● سادس عشر: ضرورة عقد ندوة تقييمية لجهود الاجتهاد الجماعي الحديث بمختلف مؤسساته، ومعالجة معوقاته، وتحديد أساليب تفعيله وتطويره.

● سابع عشر: إن حرية تداول المعلومات جزء من حرية التعبير التى كفلتها الشريعة الإسلامية لذلك يجب أن تؤسس على مبادئ هذه الشريعة وتؤطر بضوابطها وقيودها في ضرورة الدقة والتثبت في نقل المعلومات وعدم وقوع الضرر بتداولها وسن قوانين منبثقة من هوية الأمة تنظم ذلك، والعمل على توفير الأمن والاستقرار في البلاد الإسلامية.

● ثامن عشر: العناية بالفقه الرقمي المنشور في الإنترنت وتوثيقه ووضع ضوابط له في الشكل والمضمون، لضمان فاعليته، وأداء دوره في تفقيه الناس وربطهم بمظلة الشريعة.

● تاسع عشر: الجرائم الإلكترونية كثيرة ومتعددة، منها انتحال الشخصية والاعتداء على المعلومات والسرقة الإلكترونية والقذف والتشهير، وإفشاء الأسرار الوطنية، ولذلك لابد من وضع قانون لمكافحة هذه الجرائم، والعمل على كشف المحتالين والمزورين وبيان طرقهم وأساليبهم حتى يتحقق الأمن للناس وممتلكاتهم وحقوقهم.

● العشرون: العمل على تنقية المواقع الإلكترونية وحظر الضار منها بالمجتمع التي تعمد إلى إفساد أخلاق الشباب وترغيبهم في ارتكاب الجريمة، مع قيام المربين والمعلمين ببيان خطر هذه الجرائم والتحذير منها، وتنمية الشعور بمراقبة الله تعالى في السر والعلن.

● الحادي والعشرون: مراعاة مآلات الألعاب الإلكترونية بحيث تتفق مع الأحكام الشرعية والقيم الإنسانية، فالأصل فيها الإباحة، وتغير هذه الإباحة يكون بحسب القرائن والملابسات، وأبرز القواعد المؤصلة لهذه الألعاب قاعدة «الضرر يزال» فإن كان لها أضرار صحية أو مالية أو نفسية أو على مستوى القيام بالواجبات الشرعية والأسرية فإنه عندئذ يجب منعها تطبيقا لهذه القاعدة، وقاعدة «جلب المصالح ودرء المفاسد» وذلك من جهة ما يمكن أن تحققه هذه الألعاب من منافع حسية وحركية وذهنية للأطفال والشباب.

● الثاني والعشرون: لابد من إيجاد البيئة الفكرية والاجتماعية والإعلامية الملائمة لأحكام الألعاب الإلكترونية والمساعدة على التوجيه والإرشاد، إلى أن يتوافر إحداث البديل الإسلامي لهذه الألعاب بما يتناسب وديننا وخصوصيتنا الثقافية وهويتنا، سواء بصنع هذه الألعاب وبرامجها داخل الدول الإسلامية، أم بالإفادة من تلك الألعاب المتوافرة بعد تنقيتها مما يتعارض مع قيمنا وأصولنا الشرعية والحضارية.

هذا وفي ختام هذه الندوة يرفع العلماء والباحثون المشاركون في الندوة أسمى آيات الشكر والتقدير والعرفان إلى المقام السامي لحضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم - حفظه الله ورعاه - على عظيم اهتمام جلالته بهذه الندوة وسائر الندوات التى تُعنى بقضايا المجتمع وصولاً إلى النتائج المرجوة لبنائه ورقيه، متمنين لجلالته موفور الصحة والعافية والعمر المديد، والسلطنة تستشرف عقدها الخامس المزدهر بالإنجازات، المفعم بالأمل، المشرق بالعطاء.

كما تتقدم وزارة الأوقاف والشئون الدينية بخالص الشكر والتقدير إلى العلماء المشاركين على جميل استجابتهم لدعوتها، وما أسهموا به من غزير علمهم في هذه الندوة المباركة، مما كان له الأثر الطيب في توصياتها، شاكرين الجميع على حضورهم وإنصاتهم، متمنين أن نلتقي بهم في الندوة القادمة إن شاء الله تعالى.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

يتبع بعرض للأبحاث في العدد القادم بمشيئة الله.

***

طرائف.. ومواقف

لفضيلة الشيخ/ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

قريش

قريش هي القبيلة العربية الماجدة التي اختار الله أن يجعل منها خاتم رسله محمداً ﷺ، قال الجاحظ إمام البلاغة يصفها:

قد علم الناس كيف كان كرم قريش وسخاؤها، وكيف عقولها ودهاؤها، وكيف رأيها وذكاؤها، وكيف سياستها وتدبيرها، وكيف إيجازها؛ وكيف رجاحة أحلامها إذا خف الحليم، وحدة أذهانها إذا كل الحديد، وكيف صبرها عند اللقاء، وثباتها في اللأواء، وكيف وفاؤها إذا استحسن الغدر، وكيف جودها إذا حُب المال، وكيف ذكرها لأحاديث غد، وكيف إقرارها بالحق وصبرها عليه، وكيف وصفها له ودعاؤها إليه، وكيف سماحة أخلاقها وصونها لأعراقها، وكيف وصلوا قديمهم بحديثهم، وطريفهم بتليدهم، وكيف أشبه علانيتهم سرهم، وقولهم فعلهم.

من حكم لقمان

قال لقمان لابنه: لا تركن إلى الدنيا، فإنك لم تخلق لها، وما خلق الله خلقاً أهون عليه منها، فإنه لم يجعل نعيمها ثواباً للمطيعين، ولا بلاءها عقوبة للعاصين.

يا بني لا تضحك من غير عجب، ولا تمش في غير أرب، ولا تسأل عما لا يعنيك.

يا بني لا يضيع مالك، وتصلح مال غيرك، فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت.

يا بني من يرحم يرحم، ومن يصمت يسلم، ومن يقل الخير يغنم، ومن يقل الباطل يأثم، ومن لا يملك لسانه يندم.

يا بني زاحم العلماء بركبتيك، وأنصت إليهم بأذنيك، فإن القلب يحيا بنور العلماء، كما تحيا الأرض الميتة بمطر السماء.

أحمد شوقي، ورثاء والده

توفي والد أمير الشعراء أحمد شوقي، فلم يقل في رثائه شيئاً من الشعر، ولامه البعض على ذلك، فرد عليهم بتلك الأبيات:

سألوني لمَ لمْ أرثِ أبي
ورثاء الأب دين أي دين
أيها اللوام ما أظلمكم
أين لي العقل الذي يسعف أين؟
يا أبي ما أنت في ذا أول
كل نفس للمنايا فرض عين
هلكت قبلك ناس وقرى
ونعى الناعون خير الثقلين
أنا من مات، ومن مات أنا
لقي الموت كلانا مرتين

هناك حساب

ولو أنا إذا متنا تُركنا
لكان الموت راحة كل حي
ولكنا إذا متنا بُعثنا
ونُسأل بعده ذا عن كل شي!

اخفض من بصرك

أكل أعرابي على مائدة الحجاج، فكان يأكل بسرعة ونهم، فقال له الحجاج: يا هذا، ارفق بنفسك.

فقال الأعرابي: وأنت أخفض من بصرك.

حسدني عليك

بعث عبدالملك بن مروان عامر الشعبي إلى الروم سفيرا، وكان الشعبي عالما وربما كان فريد دهره، فأدخلوه على ملكهم من باب ضيق حتى ينحني عند الدخول، لكنه تقدم للملك رافع الرأس ولما رأى صاحب الروم كمال عقله وحسن جوابه وخطابه، قال له: أمن بيت الخلافة أنت؟ قال: لا، أنا رجل من العرب، فكتب ملك الروم إلى عبدالملك: عجبت من قوم عندهم مثل هذا الرجل وولوا غيره!! وعند قراءة عبدالملك جواب صاحب الروم التفت إلى الشعبي، وقال له: حسدني عليك وأراد أن أقتلك.

تلذذ العلماء بعلمهم

- كان أبوحنيفة - رحمه الله - إذا أخذته هزة المسائل يقول: أين الملوك من لذة ما نحن فيه؟ لو فطنوا لقاتلونا عليه.
- وقيل: من خلا بالعلم لم توحشه الخلوة، ومن تسلى بالكتب لم تفته السلوة.
- وقيل لابن المبارك: من تجالس؟ فقال: أصحاب النبي ﷺ، إني أنظر في كتب آثارهم وأخبارهم.

شر الحاسد

جامل عدوك ما استطعت فإنه
بالرفق يطمع في صلاح الفاسد
واحذر حسودك ما استطعت فإنه
إن نمت عنه فليس عنك براقد
إن الحسود وإن أراكم توددا
منه، أضر من العدو الحاقد
ولربما رضي العدو إذا رأى
منك الجميل فصار غير معاند
ورضا الحسود زوال نعمتك التي
أوتيتها من طارف أو تالد

الأخذ بالثأر

دخل ظريف على قوم يأكلون السمك، وقال: هذا والله عدوي، ولي عليه ثأر، فقد مات أبي غريقاً فأكله السمك.

قالوا: هون عليك نحن ننتقم لك، فقال: لا بل الابن أحرى بأخذ الثأر.

مدح العقل وذم الحمق

قال النبي ﷺ: «ما اكتسب ابن آدم أفضل من عقل يهديه إلى هدى أو يرده عن ردى».

- وقيل: الحمق يسلب السلامة ويورث الندامة، والعقل وزير رشيد وظهير سعيد، من أطاعه أنجاه، ومن عصاه أرداه. وقيل: لو صوِّر العقل لأضاء معه الليل، ولو صوِّر الجهل لأظلم معه النهار.
- وقال المتنبي:

لولا العقول لكان أدنى ضيغم
أدنى إلى شرف من الإنسان

المروءة

قال معاوية لقرشي: ما المروءة؟ قال: إطعام الطعام وضرب الهام، وقال ذلك لثقفي فقال: هي تقوى الله وإصلاح المعيشة، فقال لعمرو: اقض بينهما، فقال: أما ما قاله القرشي فهو المروءة، وقد أجاد الثقفي ولم يصب، ولكن من بدأ بكلام حسن، زين بذلك سائر كلامه. وإن المروءة أن تعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك. وقال عبد الله بن عباس: المروءة أن تحقق التوحيد، وتركب المنهج السديد، وتستدعي من الله المزيد. وقيل: جماع المروءة في قول الله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(النحل: ٩٠)

وقيل لعمرو بن العاص: ما المروءة؟ فقال: العفة عما حرم، وقيل للأحنف ذلك فقال: أن لا تعمل في السر ما يستحيا منه في العلانية، وقيل له مرة أخرى فقال: اجتناب الريب فإنه لا ينبل مريب، وإصلاح المال فلا مروءة لمحتاج، والقيام بحوائج الأهل فلا مروءة لمن يحتاج قومه إلى غيره. وقيل لآخر فقال: مواطأة القلب اللسان. وقيل: الحسب إحصاء المكارم، والنسب إحصاء الآباء.

مدح من يقول لا أدري

سئل الشعبي عن مسألة فقال: لا أدري. فقيل: ألا تستحي من قولك هذا وأنت فقيه العراقيين؟ فقال: إن الملائكة لم تستحي إذ قالت: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا! وقيل لأبي عمرو مثله فقال: أقبح من هذا أن أقول فأخطئ، وأروي فلا أروى، قال الشاعر:

إذا ما انتهى علمي تناهيت عنده
أطال فأملى أم تناهى فقصرا

وقال الحسين رضي الله عنه: لو أن العالم كل ما قال أحسن وأصاب لأوشك أن يجن من العجب، وإنما العالم من يكثر صوابه. وقال بعض الفقهاء، العلم ثلاثة: كتاب ناطق، وسنة قائمة، ولا أدري فيقتضي اجتهاداً.

نصيحة

لا تتهافت على اللئيم فتتهم في مروءتك، ولا على الغني فتتهم في عفتك، ولا على الجاهل فتتهم في فطنتك.

دعاء

اللهم نور بصائرنا، ونق سرائرنا، وذك ضمائرنا وأحينا مستورين، وتوفنا مستورين، وابعثنا مستورين، وأكرمنا بلقائك مستورين، غير خزايا ولا مفتونين، ولا ضالين، ولا مضلين.. برحمتك يا أرحم الراحمين.

بين المجلة والقارئ

إعداد وتقديم

أحمد السيد تقي الدين

هدم الأضرحة الفكرية

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الشيخ: مصطفى الأزهري - خطيب مسجد سوق الحمام - السيدة عائشة - القاهرة:

لست هنا بصدد التصدر للفتوى بحكم النهي أو جواز بناء أو هدم المشاهد والأضرحة على الصالحين والأولياء في المساجد أو غيرها فللعلماء حول هذا الأمر كلام كثير ونفيس ويحتاج إلى نظرة تأمل وتعلم لا إلى انفعال تؤججه في النفوس ظروف تمر بها مصر بل وبلاد العرب والمسلمين، وهي ظروف انتقالية تتخللها أحداث وفتن نسأل الله السلامة منها، بل علينا هنا أن ننظر إلى تلك المسألة وأمثالها من زاوية أخرى هي أقرب ما تكون إلى ما يسمى فقه المقاصد، أو تقدير المصالح والمفاسد ومن هنا ندلف إلى قضية غاية في الأهمية وقع بسبب الاستخفاف بها أو الغلو فيها فتن ومصائب جمة دفع الإسلام نفسه وشريعته الغراء وفلسفته السمحة ثمنا غير قليل من سيرته العطرة على مدار قرون الدعوة الطويلة التي أرسى قواعدها رسولنا الأمين ﷺ مهتديا بأمر ربه إليه إذ يقول:

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

(النحل: ١٢٥)

صحيح أن الله تبارك وتعالى قد من علينا هنا في بلد الأزهر بتغيير أوضاع كان من لطف الله بالناس ورأفته سبحانه بهم أن تتغير ليتحقق العدل الاجتماعي ويتنفس الناس هواء الحرية وتنطلق الدعوة

السمحة تبين الحق للناس وتأخذ بيد الأمة كلها إلى ما فيه خيري الدنيا والآخرة، وقد يلتمس بعض العذر للذين عاشوا سنوات من الضيم والقهر أن ينتفضوا فرحين بما آتاهم الله من فضله، فيخطئون أحيانا من شدة الفرح، لكن ما لا يقبل أن يكون الخطأ أو حتى تغيير المنكر من أهل الدين أو من ينتسبون إليه بلا فقه ولا روية مما يخشى أن تصل إلى حد «البلطجة الفكرية»، وأخطر منه أن يتم هذا باسم الدين أو باسم السلف الصالح الذين أفنوا أعمارهم المباركة في وضع قواعد وشروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكيف تكون النصيحة وفي أي وقت وسياق تتم، حتى كتب الإمام ابن رجب الحنبلي رسالة صغيرة لكنها في غاية النفاسة بعنوان «الفرق بين النصيحة والتعبير»، إلى غير ذلك من كلام وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من علماء الأمة في فقه تغيير المنكرات، وحتى لو شبه البعض «الأضرحة» بالأصنام التي تعبد من دون الله تعالى، - وشتان ما بينهما - فإن السؤال المهم: وهل هدم رسول الله ﷺ أصنام قريش فور بعثته وتلقيه الوحي الإلهي أم ظل يدعو الناس ويصحح لهم المفاهيم ويعرفهم بالله سبحانه بكل ما حباه به ربه وأدبه به من رأفة ورحمة وحسن خلق حتى فتحت له القلوب وانشرحت لدعوته الصدور؟! ومن كمحمد ﷺ في لين قلبه وحسن خلقه ورحمته للعالمين، ومع ذلك فقد قال له مولاه:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾

(آل عمران: ١٥٩)

إن تهيئة الناس وتعليمهم وتثقيفهم بدينهم وتقريبهم إلى روح الشريعة الغراء مهمة تحتاج إلى دعاة مخلصين ومتخصصين لا إلى أدعياء عرفوا من الدين صفحة من كتاب أو خطبة في شريط، وأخطر ما يضر بالدعوة والأمة جاهل نشيط وعالم كسول، من هنا تنشط فيروسات «الرويبضة» الذين تعاني منهم أمة الإسلام ويكونون خطرا كبيرا على أشرف مهمة وهي الدعوة إلى الله تعالى حيث قال عز وجل:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

(فصلت: ٣٣)

وكلمتي الأخيرة في أذن من لا يفهمون فقه الواقع ولا أدب تغيير المنكر أسوق لهم هذا الحديث وأرجو أن يفهموا أو يسألوا أهل الذكر إن كانوا لا يعلمون.. عن عروة عن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال لها: «يا عائشة لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منه وألصقته بالأرض وجعلت له بابين، بابا شرقيا وبابا غربيا فبلغت به أساس إبراهيم» رواه البخاري.

الجهاد الأكبر

تحت هذا العنوان جاءت كلمة الأستاذ/ أحمد عبدالمحسن على محمد - مدرسة الأورمان الثانوية النموذجية للبنين - إدارة الدقى التعليمية - جيزة:

إن الجهاد كلمة عذبة الرتين قوية المعنى لها دلالتها الدنيوية والأخروية والجهاد جهادان كما جاء في الحديث الشريف حيث قال ﷺ لأصحابه بعد أن عادوا من إحدى الغزوات: «أتيتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» قيل وما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟ قال: «مجاهدة النفس».

وقال تعالى:

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾

(يوسف/ ٥٣)

ولا يتأتى ذلك إلا بكبح جماح النفس ومقاومة رغباتها من هذه السلوكيات السيئة، كحب السيطرة والثرثة للتباهي، ويلجأ بعض الناس إلى ذلك طمعا في الملذات والفوز بإعجاب الناس مهما كلفهم من ثمن.

والشرائع السماوية جميعا تهدف إلى سعادة البشرية ورقيها، وعلى الإنسان السعي الدائم على متاع الدنيا وملذاتها بالطرق المشروعة، ولا يجعل الدنيا تتمكن من قلبه فينسى آخرته، بل يجعل من الدنيا مزرعة للآخرة فيسعى إلى إرضاء الله وطاعته وتجنب المعاصي، ويطهر قلبه من الحقد والحسد ويكون الغنى في القلب دون التطلع إلى ما في يد الغير، وذلك يعود على المجتمع بالنفع حيث يترفع الناس عن الصراع حول الدنيا والتكالب عليها، فيعم الخير وتنتشر السعادة فالإنسان لن يحصل في الدنيا إلا على ما كتبه الله له، وعلى الإنسان أن يفرغ نفسه لما خلقه الله له وهو العبادة ولا ينشغل بما تكفل الله به وهو الرزق قال تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾

(الذاريات: ٥٦، ٥٧)

المسلم بين فعل ما ينبغي وعمل ما يشتهي

وتحت هذا العنوان جاءت رسالة الشيخ محروس عبدالفتاح محمد - إمام وخطيب ومدرس - أوقاف الإسماعيلية.

الشهوة: هي إحدى الغرائز الطبيعية التي استودعها رب البرية النفس الإنسانية، فالإنسان من حيث هو إنسان مركب من عنصرين أساسين: أحدهما «مادي» والآخر

«معنوى».

والشهوة أحد أهم الأجزاء الجسدية فى الخلقة الإنسانية، إذ لا يمكن بأى حال من الأحوال استغناء أى إنسان عن بعض منها، فضلا عن الاستغناء عن معظمها أو عن كلها.

فإن بقاء النوع الإنسانى والمحافظة على تطوره الطبيعى والمداومة على نموه البدنى متوقف بالأساس على جملة من الغرائز التى يبقى الفرد الآدمى ببقائها، ويفنى بفنائها. والتى منها «الجنس. الأكل. الشرب. النوم... إلخ».

لذلك وضع الخالق - عزوجل - للإنسان ميزاناً دقيقاً يستطيع من خلاله استخدام غرائزه وشهواته فيما جعلت له دون إفراط ولا تفريط.

إنه ميزان الشرع الحكيم، والدين القويم، الذى يضمن لكل إنسان على وجه الأرض التزم بما شرع الله. ومن رسول الله ﷺ، تحقيق قدر متساو بين متطلباته الجسدية ومتطلباته الروحية.

فالنبى ﷺ كان حريصاً كل الحرص على إرشاد أصحابه ومن اهتدوا بهداه إلى التوازن العادل بين الدين والدنيا، بين حظ النفس وحق الرب، بين متعة البدن ومتعة الروح.

فإذا رأى غلواً عند بعضهم فى أى جانب من الجوانب الاعتقادية أو التعبيرية أو السلوكية قوم هذا الغلو وعالجه بالحكمة والموعظة الحسنة.

فلما رأى ﷺ غلو بعض أصحابه وإفراطه فى التعبد والصيام والقيام، على حساب جسمه وأهله ومجتمعه قال له: «إن لجسدك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً، وإن لربك عليك حقاً، فأعط كل ذى حق حقه».

وقال - عليه السلام - لمن ذهب إلى بعض بيوته يسأل عن عبادته كيف هى؟ وكم مقدارها؟ فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها!! فالتزم أحدهم أن يصوم ولا يفطر، والتزم الثانى أن يقوم ولا ينام، والتزم الثالث أن يعتزل النساء فلا يتزوج أبداً فقال ﷺ:

«ما بال أقوام قالوا كذا وكذا، ولكنى أصلى وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى».

فالمسلم مطالب بالتوازن المقسط بين مطالب دنياه وآخرته فالرسول ﷺ كان يعطى للدنيا حقها وللآخرة حقها، بالقسطاس المستقيم. فكان يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً، ويعمل لأخراه كأنه يموت غداً.

فكان يبتغى فيما آتاه الله الدار الآخرة ومع ذلك لم ينس نصيبه من الدنيا. فالدين عصمة أمره وملاك حياته والدنيا فيها معاشه ومتاعه إلى حين، والآخرة إليها معاده ومصيره.

وهذه المعانى تضمنها دعاؤه ﷺ الذى يقول فيه: «اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى، وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير، واجعل الموت راحة لى من كل شر».

بداية الطريق

وتحت هذا العنوان جاءت كلمة الشيخ/ خالد توفيق عبده - العزيزة - المنزلة - دقهلية:

إن كثيرا من الذين لا يفهمون حقيقة الإسلام يهرفون بما لا يعرفون، فإذا قلنا للناس: هذا كتاب الله بيننا فيه حل المشاكل التى نحن فيها الآن، وهذا دين الله بين أيدينا، فهيا لنطبقه فى واقعنا.

ولعلى هنا أتذكر قول الشيخ الغزالى -رحمه الله- حين قال: إنى لأنظر إلى المستهينين بالدين فى هذه الأيام على أنهم يرتكبون جريمة الخيانة العظمى - دروا أو لم يدروا - إنهم يساعدون الصهيونية والاستعمار على ضياع بلدنا وشرفنا ويومنا وغدنا. (حصاد الغرور، ص ٧)

نلقى كل يوم بعقولنا إلى أصحاب البرامج التليفزيونية وهم يستضيفون أناساً منا - عربا ومسلمين - لكن وبكل الأسف: تأثروا بثقافة الغرب.

والله قد ترى منهم الرجل قد بلغ الأربعين أو الخمسين من عمره وهو لا يعرف كيف يصلى ولا يصوم.. إلخ.

- كم يحزن المسلم الصادق حين يرى أن العرب يتخلون عن رسالتهم العظمى.

- كم يحزن المسلم الصادق حين يرى أن من العرب من يخشون الناس ولا يخشون الله.

إن قضية تخلف العالم العربى الإسلامى مخجلة، وهذا التخلف فى الأمة جعل الأقوياء يطمعون فيها، لكنى لا أحب البكاء على ما فات والواجب علينا الآن أن نعمل لنعيد للعالم العربى والإسلامى مكانته المغصوبة، لنعمل فى مجال الطب والهندسة والمعمار والعلم بأكمله فهذا سيكون حصاده النجاح والسعادة فى الدنيا والآخرة، فإن أدركنا هذا النجاح فى الدنيا فبفضل من الله علينا، وإن لم تدركه فإن الأحفاد سيدركونه لا محالة، ولسان حالنا يقول:



الغزالى

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ۝ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴾

(المؤمنون: ٩٣ - ٩٥)

فأنا كداعية أسمع ما يقوله الناس: أناشد الدعاة أن يعرضوا الإسلام على الناس عرضاً صحيحاً، وأن يسخروا خطبهم ودروسهم فى تغيير أفكار شعوبهم، فأنا لست أعيب على أحد أساء لنا ولإسلامنا، بقدر ما أعيب على أننا أول من أساء لديننا بأقوالنا وأفعالنا:

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾

(سورة غافر: ٤٤)

الدكتور مصطفى الشكعة فى رحاب الله

توفى فى العاصمة المصرية، القاهرة، الأستاذ الدكتور مصطفى الشكعة العميد الأسبق لكلية الآداب بجامعة عين شمس، وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر عن عمر ناهز الـ ٩٤ عاماً بعد رحلة طويلة مع الدراسات الأدبية والتاريخية فى جامعات مصرية وعربية.

انتقل الفقيد إلى جوار ربه مساء يوم الأربعاء ٢٠ من أبريل سنة ٢٠١١ م بسبب هبوط مفاجئ فى الدورة الدموية.

- والفقيد الراحل من مواليد أغسطس / آب عام ١٩١٧، فى محافظة الغربية.
- وهو من أبرز المفكرين فى مصر والعالم العربى.
- حصل على ليسانس الآداب، كلية الآداب، جامعة القاهرة، سنة ١٩٤٤ .
- ثم حصل على درجة الماجستير فى الآداب، كلية الآداب، جامعة القاهرة، سنة ١٩٥١ .
- ثم حصل على درجة الدكتوراه فى الآداب، كلية الآداب، جامعة القاهرة، سنة ١٩٥٤ .
- عمل مدرسا بالتعليم الثانوى من سنة ١٩٤٤ - حتى ١٩٤٩.



- ثم عمل رئيس وحدة اجتماعية ثم خبيرا بالتخطيط الاجتماعى ١٩٤٩ -١٩٥٦.
- ثم عمل مدرسا فى كلية الآداب، جامعة عين شمس ١٩٥٦ .
- انتدب للعمل مستشاراً ثقافياً فى العاصمة الأمريكية، واشنطن ١٩٥٦-١٩٦٠ .
- ثم عمل أستاذاً بقسم اللغة العربية بجامعة بيروت العربية، لبنان ١٩٧٠-١٩٧٤ .
- ثم عمل عميداً لكلية الآداب، جامعة عين شمس، مصر، ١٩٧٦ .
- ثم عمل أستاذ للدراسات العليا بجامعة أم درمان، السودان ١٩٧٩-١٩٨١ .
- ثم عميد كلية بجامعة الإمارات العربية المتحدة ١٩٨٢- ١٩٨٣ .
- ثم أصبح عضوا بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف، ورئيس لجنة التعريف بالإسلام بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف المصرية، وعضو لجنة الحوار الإسلامى المسيحى بالأزهر الشريف، وواحدا من أهم المدافعين عن الإسلام ضد مظاهر الغلوّ والتفريط.

له عدة مؤلفات، منها :

- إسلام بلا مذاهب.
- فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين.
- بديع الزمان الهمذانى رائد القصة العربية والمقالة الصحفية.
- أبوالطيب المتنبى فى مصر والعراق.
- معالم الحضارة الإسلامية.
- وله باللغة الإنجليزية كتابان هما : «مقالات فى الدراسات الإسلامية»، و«التربية والتعليم فى العالم العربى».

الجوائز والأوسمة التى حصل عليها :

- وسام الجمهورية من الطبقة الرابعة، مصر، ١٩٥٩ .
- وسام الجمهورية من الطبقة الثانية، مصر، ١٩٧٧ .
- جائزة الدولة التقديرية فى الآداب من المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ١٩٨٩ .
- نعتته المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «الإيسيسكو»، وأشادت بجهوده المتميزة فى نشر الفكر الإسلامى المستنير، وفى خدمة قضايا الإسلام والمسلمين فى المحافل الدولية، وفى التربية والتعليم فى رحاب الجامعة لمدة تزيد على نصف قرن.

رحم الله الفقيد وتغمده بواسع رحمته.



نعتذر للسادة القراء لعدم نشر رسائلهم كاملة، وذلك حرصاً من المجلة على أن يشارك أكبر عدد ممكن من القرّاء. ونود أن نشير إلى أن للمجلة الحق فى اختصار الرسائل وتنقيحها بما يتلاءم وسياسة النشر لديها. كما نقدم اعتذارنا للسادة الذين لم تسمح الظروف بنشر رسائلهم ونواصل نشرها تباعا بمشيئة الله تعالى.

تحت رعاية فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر:

توزيع جوائز مسابقة الإعجاز العلمى فى ضوء القرآن والسنة فى علوم الفضاء لعام ١٤٣١هـ-٢٠١٠م



متابعة الأستاذ: محمود الفشنى

فى حفل مهيب شهدته مشيخة الأزهر الشريف مساء يوم الثلاثاء ٢٤ من ربيع الآخر ١٤٣٢هـ الموافق ٢٩ من مارس ٢٠١١م تم توزيع جوائز مسابقة الإعجاز العلمى فى ضوء القرآن والسنة، والتى حملت عنوان «الإعجاز العلمى فى ضوء القرآن والسنة فى علوم الفضاء» وذلك عن عام ١٤٣١هـ-٢٠١٠م والتى تنظمها لجنة الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم والسنة المطهرة بمجمع البحوث الإسلامية بناء على وقفية المرحوم المستشار محمد شوقى الفنجرى بالاشتراك مع بنك فيصل الإسلامى المصرى، وذلك تحت رعاية فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور/ أحمد محمد أحمد الطيب شيخ الأزهر.

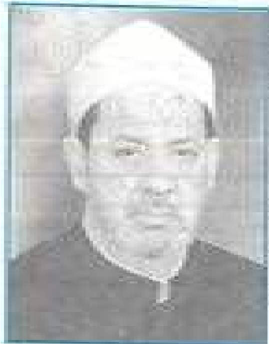
بدأ الحفل الكريم بتلاوة آيات من الذكر الحكيم، ثم تحدث الأستاذ الدكتور طه أبو كريشة نائب رئيس جامعة الأزهر الأسبق ومقرر لجنة الإعجاز العلمى للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بمجمع البحوث الإسلامية، حيث رحب بالحضور وأثنى على مسابقة الإعجاز العلمى فى ضوء القرآن والسنة التى يقدم جوائزها وقف المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى خدمة للدعوة الإسلامية والفقه الإسلامى وعلى موضوعها «الإعجاز العلمى فى ضوء القرآن والسنة في علوم الفضاء» مؤكدا على أهمية الموضوع الذي لم يتعرض له أحد من قبل بالبحث والدراسة خاصة وأنه يفتح آفاقا جديدة فى حقل الدراسات القرآنية في العلوم المعاصرة.

ثم تحدث الأستاذ الدكتور أحمد شوقى إبراهيم عضو لجنة الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم والسنة المطهرة بمجمع البحوث الإسلامية عن الإعجاز العلمى ودور اللجنة فى خدمة هذا الإعجاز منذ بدايتها وحتى الآن.

ثم تحدث الأستاذ الدكتور محمد الشحات الجندى الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وعضو مجمع البحوث الإسلامية عن ضرورة توسيع القاعدة العلمية للإعجاز العلمى للقرآن والاستفادة منها.

ثم جاء دور المتسابقين حيث تحدث الفائز بالجائزة الأولى الدكتور حسنى حمدان أستاذ الجيولوجيا المساعد بكلية العلوم جامعة المنصورة عن بحثه (إسلامية علوم الكون: الإعجاز فى أقسام القرآن الكريم والتاريخ الكونى) والذى تحدث عن هذا البحث قائلا: كتبت هذا البحث سعيا نحو تحقيق هدف نبيل، وهو أسلمة علوم الفضاء والكون، وجاء البحث فى أربعة أبواب على النحو التالي:

فى الباب الأول تحدثت عن ألفاظ السماء والسموات ومعانيها فى القرآن الكريم، وقمت بالتركيز على المعانى ذات الصلة بعلم الفلك وعلم الكون «الكسمولوجيا».



د. أحمد الطيب

أما فى الباب الثاني، فقد تناولت الإعجاز العلمى فى ضوء آيات القسم في القرآن الكريم والآيات ذات الصلة، إن أروع ما فى الأقسام الكونية فى القرآن الإيجاز فى الوصف والشمولية فى المعنى واحتواء حقائق العلم ونظريات علوم الفلك والكون.

وتحدثت فى الباب الثالث عن زينة السماء مبينا روعة الأسلوب القرآنى فى وصف زينة السماء بمصابيح وكواكب، واتضح لى كيفية تداخل مسميات الظواهر الكونية القرآنية فى العلوم

الفلكية بنفس معانى كلمات القرآن، ولا غرو فى ذلك، فالله هو الذى خلق وهو الذى أعطى الأسماء لما خلق.

وفى الباب الرابع تناولت تاريخ الكون من رحلة فتق رتق السماوات والأرض إلى طى السماء كطى السجل للكتب وقبض الأرض، وقد بينت فى هذا الباب مبادىء علم تاريخ الكون وعلوها فوق النظريات الفلكية والكونية، وتم التركيز على حقيقة المصطلح الكونى القرآنى الثابت فى مواجهة النص العلمى المتغير، وأكدت على أن حقائق خلق الكون المطلقة لاتوجد إلا فى القرآن.

وأخيرا قال الدكتور حسنى حمدان: يجب أن تبث الروح فى الإعجاز العلمى ولن تبث فيه الروح إلا إذا استعملت فى المعامل واستخدمت عمليا فى كل المجالات.

الثورة المعلوماتية

ثم تحدث الفائز بالجائزة الثانية الدكتور أحمد عبد العزيز المليجى الأستاذ المشارك بقسم العلوم الجيولوجية بالمركز القومى للبحوث عن بحثه (الإعجاز العلمى فى ضوء القرآن والسنة المطهرة فى علوم الفضاء) قائلا: برغم أن القرآن كتاب عبادة وهداية وليس كتاب علوم إلا أنه يحوى بين طياته قضايا علمية كثيرة جدا تم اكتشافها من خلال تكنولوجيا القرن العشرين.

وانتقد خلو الكتب المدرسية من مادة الإعجاز العلمى للقرآن الكريم وهو أمر ينبغى تداركه وذلك لبناء الطالب المسلم على أساس علمى.

وأوصى الدكتور أحمد عبدالعزيز المليجى فى نهاية بحثه بضرورة عقد مؤتمرات عالية خاصة بالإعجاز العلمى فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، تدعى إليها الهيئات العلمية والبحثية من مختلف أنحاء العالم.

أما المتسابق نذير طلال أحمد مومنى - طبيب أسنان - من الأردن، فقد تحدث عن بحثه: «الإعجاز العلمى فى تكبيرة الإحرام وعلم الجو والفضاء» وقدم ثلاث رسائل:

- إلى المسلم الذى يصلى.
- إلى المسلم الذى لايصلى.
- إلى كل الناس مسلمين وغير مسلمين.

قائلا: المسلم الذى يصلى وهو يعلم أن العبادات وخاصة الصلاة هى لله تعالى طاعة وتسليما لله ولا ينتظر الفائدة الطبية والصحية من وراء تأديتها ولكن هو يعلم أيضا أن تأديتها بعد معرفة الحكمة والفائدة الطبية من وراء تأديتها أنها ستزيده إيمانا وتسليما فإنه يؤديها بطريقة أفضل وأكمل مما لو لم يكن يعلم الفائدة الطبية من وراء تأديتها.

إذاً باختصار هو يؤديها سمعا وطاعة فيحصل على الأجر والثواب أولا ثم الفائدة الطبية ثانيا وليست هى الأساس.

فى هذا البحث نثبت أن هناك رياضة إسلامية ذات فوائد وليس فيها أضرار جانبية وأنتم تعلمون أن كل دواء له مضار وأعراض جانبية إلا هذا الدواء الربانى وأنتم أحرار إن وجدتم فيه شفاء ودواء فخذوه وإلا فاتركوه.

وبهذا نثبت لأنفسنا وللناس كافة أن عقيدة المسلمين ذات نفع وفائدة، وأن لهم دور فعال فى إنقاذ البشرية من الأمراض والآفات قال رسول الله ﷺ: «صلوا كما رأيتمونى أصلى»[1] وفى حديث قال: «قم فصل فإن فى الصلاة شفاء»[2] والصلاة لاتسقط عن الإنسان حتى الممات.

ولقد تضمن البحث فوائد الصلاة الطبية جميعا فهى تشفى بعون الله تعالى أكثر من ١٠٣ من الأمراض المنتشرة.

إذاً لسنا بحاجة إلى شئ آخر إلا العودة إلى الله وسنة رسوله، فتنتهى مشاكلنا وأمراضنا.

وبعد هذه الكلمات الموجزة تم توزيع الجوائز على الفائزين وهى كالتالى:

جوائز مالية وجوائز تقديرية وجوائز تشجيعية وقام بتسليمها الأستاذ الدكتور: أحمد شوقى إبراهيم، والأستاذ الدكتور: طه أبو كريشة، والأستاذ الدكتور: محمد الشحات الجندى الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية



طه أبو كريشة — محمد الشحات الجندى

وعضو مجمع البحوث الإسلامية، والأستاذ: قاسم محمد قاسم مدير عام الأمانة الفنية بمجمع البحوث الإسلامية.

أولا: الجوائز الأصلية:-

** الجائزة الأولى وقيمتها (١٥٠٠٠) جنيه وفاز بها الأستاذ الدكتور/ حسنى حمدان الدسوقى حمامة - أستاذ الجيولوجيا المساعد بكلية العلوم جامعة المنصورة - عن بحثه «إسلامية علوم الكون: الإعجاز فى أقسام القرآن الكريم والتاريخ الكونى»

** الجائزة الثانية: وقيمتها (١٠٠٠٠) جنيه، وفاز بها الأستاذ/ أحمد عبد العزيز المليجى - الأستاذ المشارك بقسم العلوم الجيولوجية بالمركز القومى للبحوث عن بحثه «الإعجاز العلمى فى ضوء القرآن والسنة المطهرة فى علوم الفضاء»

** الجائزة الثالثة وقيمتها (٥٠٠٠) جنيه. وفازت بها السيدة / هدى محمد

(١) السنن الكبرى البيهقى ٢/٣٤٥.

(٢) سنن ابن ماجه ١٠/٢٦٥.

نشأت الباجورى- أستاذ الكيمياء بكلية العلوم- جامعة الزقازيق عن بحثها (الإعجاز العلمى فى علوم الفضاء فى ضوء القرآن والسنة النبوية المطهرة

ثانيا الجوائز التقديرية :

خمس جوائز تقديرية بواقع (٢٠٠٠) جنيه لخمسة فائزين وهم:

١- الدكتور / نذير طلال أحمد مومني - طبيب أسنان - عن بحثه «الإعجاز العلمى فى تكبيرة الإحرام وعلم الجو والفضاء»

٢- السيد / هيرى جرداتى بيهقى طالب بكلية أصول الدين جامعة الأزهر- أندونسيا..

٣- السيد / إيهاب سعد صديق توفيق سرور- طالب بكلية التربية - مصرى- عن بحثه: «الإعجاز العلمى فى ضوء القرآن والسنة المطهرة فى علوم الفضاء والكون».

٤ - السيد / أحمد شعبان شحاته محمد - ليسانس لغة عربية. مصرى عن بحثه «الإعجاز العلمى فى ضوء القرآن والسنة المطهرة فى علوم الفضاء».

٥- السيد / محمد أركان رضوى الأزهرى - رئيس مركز أهل سنة دار العلوم - مسجد محمد لال - الهند، وعنوان البحث: مقالة عن «الإعجاز العلمى فى ضوء القرآن والسنة».

ثالثا - الجوائز التشجيعية :

ست جوائز تشجيعية بواقع ألف (١٠٠٠) جنيه لستة فائزين هم:

١- المهندس / عبد الدايم الكحيل - مشرف هندسى بوزارة العدل - سوريا ، عن بحثه: «روائع الإعجاز فى الكون».

٢- الأستاذ : حصان أرامجس - محاضر بجامعة بولشتان بمدينة كونيتا باكستان. عن بحثه: «الإعجاز العلمى فى القرآن فى الفضاء».

٣- الأستاذ / وائل حسانين محمد غنيم - طالب بالفرقة الثالثة بكلية اللغة العربية - فرع المنوفية - مصر . عن بحثه: «الإعجاز العلمى فى ضوء القرآن والسنة المطهرة فى علوم الفضاء».

٤- الأستاذ / أحمد سليمان أبو زيد محمود - موجه لغة عربية وتربية إسلامية إعدادى إدارة قنا- مصر -عن بحثه «الإعجاز العلمى فى علوم الفضاء فى ضوء الكتاب والسنة».

٥- الأستاذ / أحمد إبراهيم حسن موسى - معاش - مصر . عن بحثه (الإعجاز العلمى للقرآن والسنة فى علوم الفضاء).

٦- الأستاذ / إبراهيم جعفر إبراهيم حسن - محاسب - مصر . عن بحثه «الإعجاز العلمى فى علوم الفضاء».

وإلى مزيد من المؤتمرات العلمية والإسلامية فى موضوعات أخرى إن شاء الله.

أنباء مكتب الإمام الأكبر

للأستاذ / محمد عبد المجيد حسن
مدير عام العلاقات العامة بمكتب الإمام الأكبر

بيان من الأزهر الشريف يدين الأنظمة الاستبدادية ويحذر من الاستعمار الغربى لليبيا

سبق للأزهر الشريف أن أدان الأنظمة الاستبدادية القمعية التى تسلطت على الشعوب العربية المظلومة والمقهورة، وطالب الحكام والرؤساء أن يوازنوا بين تركهم لمناصبهم وبين الدماء التى تسيل أنهاراً نتيجة للتمسك بالبقاء في مناصبهم. وطالبهم بأن يتركوا أماكنهم كأقل واجب يرد إلى شعوبهم التى تحمّلتهم وصبرت عليهم طويلاً.

والآن يدين الأزهر الشريف سلبية العالم العربي والإسلامى بمنظماته ومؤسساته ونُظُمه التى تقاعست عن واجبها في حل مشكلاتنا الداخلية السياسية والاقتصادية وغيرها، وهيأت الأجواء لتدخلات عسكرية أجنبية، كنا نظن أن عهدها قد ولى إلى غير رجعة، وسوف لا ينسى التاريخ أننا كشعوب عربية حكاماً ومحكومين قد فقدنا الاتجاه الصحيح فى مواجهة قضايانا ومشكلاتنا المصيرية.

والأزهر إذ يساند المطالب المشروعة لثورة الشعب الليبى الشقيق، يحذر ويرفض الاستعمار الأمريكي والأوروبي للأراضى الليبية العربية وتقسيمها وتدمير ثرواتها الطبيعية والبشرية، وفى ما حدث فى العراق بالأمس القريب عبرة لمن يعتبر.

لجان للتنسيق بين الأزهر ووزارة الخارجية

بحث فضيلة الإمام الأكبر الدكتور / أحمد محمد الطيب شيخ الأزهر ووزير الخارجية / نبيل العربى كيفية تدعيم دور الأزهر التعليمي وتصحيح صورة الإسلام فى



مختلف دول العالم لكي يؤدى رسالته على أكمل وجه وكذلك دور السفارات المصرية فى اختيار الدارسين القادمين إلى جامعة الأزهر سواء على منح أو على نفقتهم الخاصة.

و صرح السفير / محمود عبدالجواد مستشار شيخ الأزهر بأنه تم الاتفاق على ضرورة التعاون بين الأزهر الشريف ووزارة الخارجية فى رعاية أئمة الأزهر فى جميع دول العالم وتسهيل دورهم فى هذه الدول.

كما تم الاتفاق على ضرورة التنسيق بين السفارات المصرية بالخارج ومبعوثى الأزهر الشريف للمساهمة فى تحقيق رسالتهم .

دعوة الإمام الأكبر لزيارة النمسا

شدد فضيلة الإمام الأكبر الدكتور/ أحمد محمد الطيب- شيخ الأزهر- على عدم وجود ما يسمى بالفتنة الطائفية فى مصر وإنما مشكلات اجتماعية يتداولها الإعلام الغربى على أنها مشكلات طائفية بين المسلمين والمسيحيين.

وقال فضيلة الإمام الأكبر خلال استقباله السيد/ سبيدلجر وزير خارجية النمسا: إن الأزهر الشريف يحافظ على وسطية الإسلام من خلال ما تقوم به جامعة الأزهر والمعاهد الأزهرية ومن خلال الطلاب الوافدين الدارسين بالأزهر والبالغ عددهم أكثر من ٣١ ألف طالب وطالبة من ١٠٢ دولة.

وقدم فضيلة الإمام الأكبر شرحا لما تمر به مصر من ثورة بيضاء ودور الأزهر العقلانى فى الحفاظ على مبادئ الوسطية والاعتدال.

ومن جانبه طلب وزير خارجية النمسا زيادة التعاون مع مؤسسة الأزهر بكل فروعها وضرورة التنسيق مع دولة النمسا عن طريق سفارتهم بالقاهرة فى هذا الخصوص.

وقدم وزير النمسا الدعوة للإمام الأكبر لزيارة النمسا ووعد الإمام الأكبر بدراسة تلبية الدعوة فى الوقت المناسب.

الإمام الأكبر يعلن استعداده للمساهمة فى المصالحة بين الفصائل الفلسطينية

أكد فضيلة الدكتور/ أحمد الطيب ،شيخ الأزهر، أن الأزهر ليس جهة سياسية وإنما جهة علمية تنزل للسياسة حينما يتعرض المسلمون لسياسات خارجية، مؤكدا أنه منذ أن كان رئيسا لجامعة الأزهر وحتى توليه مشيخة الأزهر له مواقف واضحة ضد التطبيع وضد إسرائيل.

ودعا فضيلة الإمام الأكبر خلال استقباله الدكتور / محمود الزهار وزير الخارجية الفلسطينى السابق وعضو حركة حماس الفصائل الفلسطينية للمصالحة و توحيد الشعب الفلسطينى مشددا على أنه لا يمكن الوقوف فى وجه إسرائيل بشعب منقسم، وأنكم بفرقتكم أعطيتموهم الحجة لوقف المفاوضات وانه بدون المصالحة سيقضى بعضكم على بعض بعيدا عن إسرائيل وهذا مخطط لضعفكم وفرقتكم يجب أن تواجهوه بوحدتكم .

مؤكدا استعداده المشاركة فى جهود المصالحة بين الفصائل الفلسطينية مع حفظ حق حماس وحق فتح وحق الشعب الفلسطينى لأن الشعب الفلسطينى يستحق أكثر من ذلك لكى يحظى بحياة أفضل والأزهر يقف معكم ومن ورائكم .

ومن جانبه عبر الدكتور/ محمود الزهار عن ثقته التامة فى مؤسسة الأزهر ومواقف الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر من القضية الفلسطينية.

وقال: إننا فى حركة حماس ندعو للمصالحة ونثق فى قدرات مصر وشعبها على إتمام المصالحة وأننا على استعداد تام للجلوس مع حركة فتح والتصالح مشيرا إلى التعاون الكامل بين أبناء الشعب الفلسطينى مسلمين ومسيحيين فى غزة وأن حركة حماس لم ترفع السلاح فى وجه أحد من أبناء الشعب الفلسطينى.

مركز لتعليم اللغة الفرنسية بجامعة الأزهر

استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور/ أحمد الطيب ،شيخ الأزهر ، بمقر الرابطة العالمية لخريجي الأزهر ، سفير فرنسا بالقاهرة و الوفد المرافق له ، تم خلال اللقاء تقديم نموذج لاتفاقية تعاون بين الأزهر و فرنسا يتم بموجبها إنشاء مركز للغة الفرنسية بجامعة الأزهر على غرار المركز الإنجليزى يتم فيه تدريس اللغة الفرنسية لطلاب كليات الأزهر ويقوم بالتدريس لهم فرنسيون يأتون من الجامعات الفرنسية تكون لغتهم الأم هى الفرنسية .

وصرح الدكتور محمود عزب مستشار شيخ الأزهرللحوار بأن بنود الاتفاقية تشمل أن يؤهل الطلاب المتفوقون من هذه الكليات خلال ثلاث سنوات يصبحون بعدها صالحين لاستكمال الدراسات العليا "الدكتوراه" فى جامعات فرنسا ،كما سيتم تبادل الأساتذة و الطلاب لفترات تدريب يتم فيها رفع كفاءة مدرسى اللغة الفرنسية بالأزهر الشريف كما تقوم السفارة الفرنسية بدور الوسيط بين جامعة الأزهر و الجامعات الفرنسية ، كما يدرس الأزهر استعداده لاستقبال طلاب جامعات فرنسا الراغبين فى تعلم اللغة العربية و الحضارة الإنسانية .

شيخ الأزهر يستقبل الأنبا أرميا لتفعيل بيت العائلة

أستقبل الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب ، شيخ الأزهر ، الدكتور محمود حمدى زقزوق ،وزير الأوقاف السابق ،و الأنبا أرميا ممثلا عن الكاتدرائية المرقصية حيث تم خلال اللقاء مناقشة تفاصيل قرارات تفعيل مبادرة شيخ الأزهر بيت العائلة المصرية على أن يبدأ ذلك فى أقرب وقت ممكن وينتظر الأزهر الرد من قداسة البابا شنودة بابا الأسكندرية ، فى أقرب وقت ممكن و الاجتماع لاتخاذ الخطوات التنفيذية التى تم الإعلان عنها فى الفترة الماضية .

***

أنباء العالم الإسلامى



للأستاذ / يحيى سليمان

القنصلية المصريه تكرم حفظة القرآن الكريم المقيمين بالسعودية

أقامت القنصلية المصرية والعامة بجدة حفلاً كبيراً لتكريم ٣٠٠ من حفظة القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة من أبناء المصريين المقيمين بجدة ومكة المكرمة والطائف، للعام الخامس برعاية السفير على الشعيرى القنصل المصرى العام بجدة وبحضور د. سعيد يحيى رئيس مجلس إدارة صندوق رعاية المصريين.

أكد السفير على الشعيرى بأن مسابقة حفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة تأتى فى إطار ما تقوم به القنصلية المصرية العامة بجدة من أنشطة دينية وثقافية وعلمية وأدبية يشارك فيها أبناء الجالية، خاصة جدة والمنطقة الغربية، وهذا من منطلق إيمان وزارة الخارجية بأهمية أن يشمل عمل القنصليات المصرية بالخارج نواحى ثقافية وعلمية ودينية، إلى جانب قيامها بدورها الأساسى فى تقديم خدماتها القنصلية للمصريين بالخارج.

متحف للحفاظ على مخطوطة قديمة للقرآن الكريم بالصين

صرح نائب رئيس المؤتمر الاستشارى السياسى لمحافظة لينشيا ذاتية الحكم بمقاطعة قانسو شمال غربى الصين «ما ون بى» بأن الحكومة المحلية تعتزم إنشاء متحف للحفاظ على المخطوطة القديمة للقرآن

الكريم التى تم اكتشافها تلبية للطلب الرسمى الذى قدمته مجموعة من قومية هوى - أكبر القوميات المسلمة العشرة الصينية - إلى حكومة المقاطعة تدعو فيه إلى الاستثمار فى بناء متحف لحفظ هذه النسخة النفيسة من القرآن الكريم التى يعود تاريخها لأكثر من ألف عام، وهى مكتوبة بخط اليد باللغة العربية وتضم ٥٣٦ صفحة.

ويقدر خبراء من الصين، والولايات المتحدة وبريطانيا واليابان، أن هذه النسخة كتبت فى الفترة ما بين القرنين التاسع إلى الحادى عشر، لتعد بذلك أقدم نسخة من القرآن الكريم المكتشفة فى الصين.

وقال «ما»: إن تكاليف تشييد المتحف ستبلغ ١٥ مليون يوان «٢,٢٨ مليون دولار أمريكى»، غير أن المحافظة طالبت الحكومة الصينية فى بكين بالإسهام بمبلغ ١٢ مليون يوان، على أن تتحمل الحكومة المحلية الباقى، مضيفاً أن المتحف لن يستخدم فقط فى حفظ نسخة القرآن من خلال توفير بيئة سليمة للنسخة تضمن درجة الحرارة والرطوبة المناسبة، وإنما أيضاً فى حماية الآثار الثقافية للمجموعة العرقية بالمحافظة.

برلين تنظم الأسبوع الإسلامى السنوى

تنظم جمعية «مبادرة مسلمى برلين BMAS» الأسبوع الإسلامى السنوى فى العاصمة الألمانية برلين من ٢٢ إلى ٢٦ مايو، ويتم مناقشة هذا العام سؤال: «هل الإسلام جزء من ألمانيا؟»، عن طريق عقد البرامج المتنوعة واللقاءات والحوارات.

ويتم تنظيم البرامج المختلفة حول موضوعات عدة مثل الأسئلة والقضايا المتعلقة بالعنصرية ضد الإسلام، وسيقوم بالحديث عن هذا ممثلو المؤسسات الإسلامية المختلفة، والعلماء ورجال السياسة والإعلاميون، وذلك لإزالة الأحكام المسبقة المتعلقة بالمسلمين.

يشار إلى أن الأسبوع الإسلامى منتدى جيد يناقش من خلاله سكان برلين القضايا المتعلقة بالإسلام ويتحاورون فيه، ويتم هذا العام طرح جديد بعيداً عن الجدل القائم الآن حول الإسلامى الألمانى، حيث سيتم تعريف الناس بأكثر المساهمات التى قدمها المسلمون منذ قرون عديدة إلى ألمانيا وأوروبا، وذلك عن طريق عرض الثقافة الإسلامية.

مسلمو فرنسا يرفضون إلقاء خطبة الجمعة بلغة البلاد

أعلن دليل بوبكر، عميد مسجد باريس، رفض المسلمين فى فرنسا تصريح جان فرانسو اكوبى، أحد مستشارى الرئيس الفرنسى ساركوزى بضرورة إلقاء خطبة الجمعة باللغة الفرنسية خلال النقاش الذى يتعلق بوضع الإسلام والعلمانية فى فرنسا، ويرعاه حزب «الاتحاد من أجل حركة شعبية» الذى يرأسه ساركوزى، وفقاً لما نشرته صحيفة لوبوا الفرنسية.

وحذر بوبكر النظام فى فرنسا قائلاً: «لا تمسوا مقدسات ديننا»، داعياً الرئيس الفرنسى نيكولا

ساركوزى إلى وقف النقاش عن الإسلام والعلمانية، وقال بوبكر: يجب عدم اتخاذ المسلمين فى فرنسا كبش فداء بسبب الأزمة، فى إشارة إلى الأزمة، الاقتصادية التى تعانى منها فرنسا.

مشروع جديد حول الإسلاموفوبيا تناقشه الأمم المتحدة سبتمبر القادم

تعتزم منظمة المؤتمر الإسلامى تقديم مشروع قرار جديد حول مسألة «معاداة الإسلام» أو ما يعرف بـ«الإسلاموفوبيا» إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة فى سبتمبر المقبل، بعد أن أقر مجلس حقوق الإنسان الدولى بالإجماع، قراراً دولياً جديداً للقضاء على أوجه التمييز، والعنف بناء على الدين والمعتقد، بعد مباحثات مطولة استمرت أسبوعياً كاملاً، وضمت منظمة المؤتمر الإسلامى التى تمثل المجموعة الإسلامية فى المجلس، وكل من الولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد الأوروبى. ويتعلق القرار الجديد «مكافحة مظاهر عدم التسامح، والصور النمطية السلبية، والتصنيف والتمييز والتحريض على العنف، والعنف ضد الأشخاص بناء على الدين والاعتقاد»، ولن يكون القرار الجديد بديلاً لسابق تبنته المنظمة ويقضى بـ«مكافحة ازدراء الأديان»، والذى كان المجلس قد أقره عدة مرات فى سنوات مضت ووصفت المصادر بأن القرار الجديد يعد اختراقاً نوعياً من حيث تبنيه بالإجماع وإعطائه دفعة دولية تتجاوز التحفظ الأوروبى والأمريكى الذى كان يعرقل تمرير قرار ازدراء الأديان، بذريعة تقييده حرية التعبير والمعتقد.

وأشارت إلى أن القرار الجديد يعطى هامشا أوسع لحرية التعبير، مع نبذ عمليات التمييز والتحريض والصور النمطية التى استخدمها البعض ضد رموز وأتباع ديانات.

رابطة العالم الإسلامى تنظم مؤتمراً عالمياً تحت شعار دور الإسلام فى دول الكومنولث بكازخستان

اختتم بمقر رابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة أعمال الاجتماع التحضيرى الثانى لمؤتمر «دور الإسلام فى دول الكومنولث» والذى ستعقده الرابطة بالتعاون مع وزارة الثقافة فى كازخستان بمدينة الآستانة خلال الفترة من ٧ إلى ٩ من شهر سبتمبر المقبل.

وأوضح الأمين العام للرابطة الدكتور عبدالمحسن التركى أنه تم الاتفاق على أن يتناول المحور الأول للمؤتمر جهود الإدارات الدينية للمسلمين فى الجمهوريات المستقلة، فيما يتناول المحور الثانى «مسلمو رابطة الدول المستقلة والتعليم الإسلامى»، والمحور الثالث «أهمية المساجد ورسالتها الإسلامية ومبادرات الأمة الإسلامية فى الحوار الحضارى».

وأشار التركى إلى أنه تم الاتفاق على دعوة المفتين ومسئولى الإدارات الدينية ورؤساء الجامعات والمعاهد الإسلامية فى رابطة الدول المستقلة كافة وكذلك المفتون من الجمهوريات الإسلامية ذات الحكم الذاتى فى روسيا الاتحادية.

وأضاف: أنه تم الاتفاق خلال الاجتماع على أن تنظم الهيئة العالمية لتحفيظ القرآن الكريم التابعة

للرابطة مسابقة قرآنية يشارك فيها حفظة كتاب الله تعالى من شباب رابطة الدول المستقلة، كما اتفق كذلك على تكوين مجلس يضم ممثلي الإدارات الدينية في رابطة الدول المستقلة يكون مقره مدينة «أستانة» عاصمة كازخستان، وتكون مهمته العمل على تنسيق جهود العاملين فى رابطة الدول المستقلة والتعاون على تحقيق المشروعات المشتركة والمواقف الموحدة على أن تشرف على هذا المجلس رابطة العالم الإسلامى بالتعاون مع الجهات المختصة في كازخستان.

بدء تنفيذ اتفاق أبى الأمنى بين شمال وجنوب السودان

اتفق الرئيس السودانى عمر البشير ورئيس حكومة جنوب السودان سلفاكير ميارديت على البدء فى تنفيذ ما تم الاتفاق عليه بشأن الوضع الأمنى فى منطقة أبى المتنازع عليها.

وقال رئيس اللجنة الأفريقية التابعة للاتحاد الأفريقى المكلفة بمتابعة تنفيذ اتفاقية السلام الشامل ثابو مبيكى: إن الطرفين وافقا على برنامج العمل الخاص بمحادثات أديس أبابا والمتعلق بالمسائل الأمنية والاقتصادية وقضية الديون، وأضاف أن اجتماع جوبا عاصمة الجنوب يأتى فى إطار ما تم الاتفاق عليه بين البشير وسلفاكير على عقد اجتماعات بصورة دورية كل أسبوعين بالتناوب فى كل من الخرطوم وجوبا، وتحدث «مبيكى» عن اجتماع فى واشنطن مع صندوق النقد الدولى والبنك الدولى والدائنين بمشاركة وفد من حكومة شمال السودان ووفد من حكومة الجنوب وذلك لمناقشة حالة ديون السودان الخارجية والقضايا الاقتصادية بين الشمال والجنوب.

«المؤتمر الإسلامى» تدين الاستيطان فى القدس

أدان الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامى الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو بشدة قرار الحكومة الإسرائيلية بناء ٩٤٢ وحدة استيطانية فى القدس الشريف، معتبرا استمرار التوسع الاستيطانى فى المدينة عدوانا خطيرا وحربا مفتوحة على الشعب الفلسطينى وحقوقه المشروعة.

وأكد أوغلو أن استمرار إسرائيل فى ممارستها غير القانونية يهدف إلى عزل مدينة القدس عن محيطها وخلق واقع جديد على الأرض من خلال بناء المستوطنات ومصادرة الأراضى وهدم المنازل وطرد الفلسطينيين والإمعان فى سياسات التهويد معتبرا ذلك تحديا صارخا للقانون الدولى وقرارات الشرعية الدولية واتفاقيات جنيف.

دعوى قضائية للقبض على بيريز لارتكابه جرائم حرب

تقدمت جمعية «الحقوق للجميع» وهى جمعية حقوقية أوروبية غير حكومية، بدعوى قضائية للمدعى العام فى جنيف لاعتقال ووقف الرئيس الإسرائيلى شيمون بيريز بسبب ارتكابه جرائم ضد الإنسانية وجرائم حرب ضد الشعب الفلسطينى.

وصرح أنور جرجى، رئيس جمعية «الحقوق للجميع» السويسرية وعضو الحملة الأوروبية لرفع الحصار عن غزة، بأن بيريز قد التقى برئيسة سويسرا ميشلين كالمى راى أثناء زيارته لسويسرا، الأمر الذى وصفه جرجى أنه بمثابة أمر مؤسف فى وقت تثور فيه شعوب العالم العربى، ويذكر أن نفس المنظمة كانت قد تقدمت بطلب من قبل لاعتقال ووقف الرئيس الأمريكى السابق جورج بوش ضد جرائمه فى حرب العراق.

إسرائيل اعتقلت ٧٥٠ ألف فلسطينى

كشف تقرير إحصائى أصدره مدير دائرة الإحصاء بوزارة الأسرى والمحررين فى السلطة الوطنية الفلسطينية عبدالناصر فروانة أن قوات الاحتلال الإسرائيلى اعتقلت منذ العام ١٩٦٧م وحتى اليوم، قرابة ٧٥٠ ألف مواطن ومواطنة، بينهم نحو ١٢ ألف مواطنة وآلاف من الأطفال.

وفى التقرير الذى صدر بمناسبة يوم «الأسير الفلسطينى» فى ١٧ / ٤ / ٢٠١١م، قال فروانة: إنه لم تعد هناك عائلة فلسطينية إلا وتعرض أحد أو جميع أفرادها للاعتقال، وهناك من تكرر اعتقالهم مرات عديدة، ولم تعد هناك بقعة فى فلسطين إلا وأقيم عليها سجن أو معتقل أو مركز توقيف.

البنك الإسلامى يمنح إثيوبيا ١٦ مليون دولار لدعم التنمية

قال بنك التنمية الإسلامى: إنه سوف يمنح إثيوبيا ١٦ مليون دولار لدعم أنشطة التنمية فى البلاد..

وقال مأمون العزمى، رئيس إدارة التنمية المجتمعية بالبنك خلال ورشة عمل حول «التنمية المجتمعية لمنطقة شرق أفريقيا» عقدت فى أديس أبابا: إن هذه المساعدة تهدف إلى التعجيل بالأنشطة الاجتماعية والاقتصادية فى البلاد.

وأكد أن البنك سيواصل دعمه للبلاد فى مجال بناء وتعزيز القدرات المجتمعية ودفع جهود التنمية فى البلاد.

من جانبه قال رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية الإثيوبى شيخ أحمد الدين عبدالله: أن المجلس تبنى بالتعاون مع بنك التنمية الإسلامى أنشطة مختلفة تتضمن تقديم منح دراسية دولية لأكثر من ٣٠٠ إثيوبى منذ التسعينيات.

ومن جانبه قال مدير إدارة شئون الشرق الأوسط بوزارة الخارجية الإثيوبية «تكليب كيبدى» إن مشاركة كل قطاعات المجتمع فى كل مجالات الحياة أمر حيوى ويدعم جهود التنمية الشاملة فى البلاد وتهدف ورشة العمل التى تستمر أربعة أيام وتعقد تحت شعار «تطبيق مشروعات وبرامج التنمية» إلى بناء قدرات المجتمعات الإسلامية بهدف تمكينهم من المساهمة فى دفع جهود التنمية الجارية فى البلاد، كما تهدف ورشة العمل إلى تقديم أوراق البحث وتبادل الخبرات والأفكار.

The reader of the writings of this great scholar notices the eloquent literary style mixed with rationality, owned to a person who masters the language brilliantly. This is the attribute of the creative people in every place.

His aim behind his preoccupation with this enlightened side of the biography of heroes and the great Muslim scholars was to make the youth and the new generation acquainted with the heroism of their predecessors and followers, directing them to follow their pattern in devoting themselves to the message of belief and to exert their souls in upholding the Word of Allah and gathering the Muslims around the facts of Islam and the objective that achieves miracles.

He does not seek worldly gains, humiliating or oppressing people. Compare this to the acts of the Western colonialism in the Islamic countries in the modern age. The colonizers devoted themselves to tyranny, exploitation, plundering, spreading ignorance and deterioration among the Muslims, eliminating the Islamic entity for the sake of the Western ideology.

The Western efforts did not succeed in achieving their objective: disparaging the sublimity of the Islamic conquest. This is witnessed by the Western fair writers. Arnold Twimby said: "No conqueror in history was fairer and more merciful than the Arab conqueror[2]. This is a fact and a proof embodied by the Islamic conquests.

Al-Bioumy continues his efforts in saying the message of Islam honestly to face the malicious people. We find that the great writer refutes the sayings of those who tried to belittle the Islamic facts in his editorials of Al-Azhar Magazine.

He defended his religion throughout these articles, revealing its universal approach and brilliant principles with an eloquent and literary style and deep meaning that penetrates into the feeling and conscience. It is an acceptable style in persuasion.

Struggle between Religion and Science:

Let's scrutinize in this respect his writings refuting the sayings of those who are skeptic about Islam in the book entitled "Struggle between Religion and Science" by Prof. Drabber[3]. He said: "The Muslims managed within the scope of the scientific thinking to make the experimental method as a basis for the scientific discoveries.

They regarded Geometry and Algebra as tolls assisting to reach the logic. This means that the intellectual thinking moved to science in the aspects of life such as architecture, agriculture, and construction.

Also, they invented distillation equipment and discovered light, enlightenment, escalation, liquefaction in chemistry, mechanics, and physics. Moreover, they studies astronomy and planets unprecedented. Then, they discovered Algebra, which was a wonderful action. The Muslims tended to discover the universe around them within the framework of religion.

---

[2] Al-Azhar Magazine, Dhul Qi`dah issue, 1431, October, 2010, part 11, year 83, Muhammad rajab Al-Bioumy in his article "suspicions about the religious thought.

[3] Al-Azhar Magazine, Dhul Qi`dah Innue 1431, corresponding to October 2010, p. 11, 83, Muhammad rajab Al-Bioumy's article "Misconceptions about Religious Thinking" (3), the editorial.

This blessed scientific Renaissance was not only in one Islamic country, so that it may be regarded as an exception or an accident. This fruitful thinking extended to the East and West of the Islamic world. The astronomical observatory of Samaqand was similar to Gerak observatory of Andulsia.

The library of Al-Hakam in Andalusia contained no less books than the library of Al-Ma'mun in Bagdad and that of Al-Mu`iz in Cairo. The consensus of the Muslims in every time and place on the scientific revival clearly proves that the blessed renaissance resulted from a fresh religion calling the minds to discoveries and renouncing those who neglect the blessings of Allah and do not care about contemplation and discovery.

This statement about science and civility in Islam manifests the civilized side which we need it badly and we miss it in our confrontation with those who had misconceptions about the Islamic civilization. It reveals a missed side of the giving of Islam to humanity. This is confessed in the Western writings.[4] The writings of Al-Bioumy varied and tackled various subjects. One of his concerns which reveal his encyclopedic mentality is treatment of some of the legislative and jurisdictional subjects.

This is revealed in his refutation of the issue of the difference of Fatwas among the jurists[5]. He said in Minbarul Islam Magazine "We have in heritage books what is called difference science, which tackles the juridical difference among doctrines. It compares between two opinions until it prefers an opinion to the other.

This called the comparative jurisdiction. It is the same whether this comparison occurs between the Shari'a rulings and the positive laws. I noticed some of the rulings in which there were different opinions. I liked that a qualified jurist undertakes the mission done by his predecessors in difference science.

Thus, the difference of ruling in a jurisdictional matter is expected. No one should claim that one of the opinions belittle or cancels the other."

Difference Ethics:

This scientific approach confirmed by the great scholar AL-Bioumy is the approach confirmed by the jurists and scholars. They practiced it in building the juristic doctrines, where the various opinions concerning the same matter is admitted, and ever opinion has its proof and evidence.

Every person having a certain opinion strives to prove his opinion without belittling the other opinion and with respect to the other opinion and, this approach was known in Islam as difference ethics, which we need badly, while embracing the mediation approach and respecting the different opinion.

---

[4] Zigrid Hoakah, the Western writer, is one of the writers who tackled the topic of the scientific and civilized aspects in the book "The Sun of Islam Rises to the World."

[5] Year 69, issue 12 of Dhul Qi`dah 1431 H, corresponding to November 2010, article "Difference among the Jurists", Muhammad Rajab Al-Bioumy, p.42.

[*]The Eminent Scholar Dr. Muhammad Rajab Al-Bioumy is a witness for Mediation (Al-Wasateyyah)…!

By: Dr. Muhammad Ash-Shahhat Al-Gindy

The Secretary General of the Supreme Council for Islamic Affairs

In fact, one who follows up the biography of the eminent scholar Dr. Rajab Al-Bioumy will find many remarkable meanings, as the late scholar was marked by many virtuous characteristics and attributes, which formed his personality and refined his talents.

He dedicated himself to many aspects and his talents manifested themselves in literature, poetry, language, and history of heroes and the eminent scholars who had a remarkable role in serving Arabic and Islam.

These scholars were not like the traditional scholars who were only concerned with transmitting the articles, the earlier leading generation, trustful writers and historians. Rather, he was creative and had a specific view and approach amongst those concerned with poetry and literature, as he added to, imitate and follow them in remarkable richness that can never be mistaken.

The contribution of the great Sheikh is considered as a remarkable model for the Azhari method amongst his generation and his contemporaries. We know that his literary books will always be a bright point sought by anyone who reads them and wants to get introduced to the literary and poetic contribution of this great Sheikh.This contribution is strong, with eloquent language and printed poetry tasted by the Arabs who have good knowledge of literary and poetry.

This character should be honored; in spite of the remarkable work and literary presented by this character; it did not attain what it deserves in literary and poetry. This person did not seek fame with inferior works. Rather, this person preferred to be creative in silence and to live amidst the people who were known with self-denial and did not seek fame or gains from the people who were not successful in the real sense of the word.

The effect of Al-Azhar on the writingts of Al-Bioumy:

Al-Bioumy gives the example of the role played by Al-Azhar as a mosque and university in serving Arabic language and Islam. Also, it gives the example of the contribution of Al-Azhar in maintaining the Islamic sciences and heritage, and the ability of this institution to continue on the path of the Arab originality and to deepen it in the personality of the Muslims who live in the Arab Nation and speak Arabic.

[*] An article published (in Arabic) at Al-Azhar Magazine.

His Scientific Efforts:

The contribution of the honorable character is not limited to literature and affiliation with a poetic and literary school which advocates the Arab originality and rhymed poetry and at the same time renews itself throughout involving in poetic experiences lived by the great poets of the modern poetry and in the theatrical poetry.

The style of the Arab poetry is renewed by this school in the light of the new purposes and methods that occurred to the age.

This great scholar is regarded as an extension for this modern poetic school which is committed to eloquence and perseverance of the old origins of the age and keeping pace with the age. The giving of this character extended to Islamic fields such as Shar'i sciences and culture which are educated by Al-Azhar throughout ages and generations. These sciences were deep and were directed to mediation.

Al-Azhar, in this respect, is the center of mediation, enlightenment, and concurrence of the religious and jurisdictional doctrines among the students from all over the Islamic world, as they join each other at the true Islamic thought. Also, they introduce the message of the global Islamic message in a changing world.

This attitude manifests itself in the writings of Al-Bioumy, in which he was keen to introduce the great conquerors of the Islamic world whose conquests spread the humane principles of Islam such as mercy, justice, tolerance, and freedom of the conqueror who possessed the reins of their countries.

They neither forced anyone to embrace Islam nor did they oppress them under the banner of the glorious conquest. They were an ideal example for the guidance of Islam and the light of the Qur'an.

In this context, he tackled the Islamic heroes in his writings about the great conquerors such as Muhammad Ibn Al-Qasim, the conqueror of India, who demolished the thrones of the tyrants while being in his twenties. This delivers the message that the Muslim should devote himself to religion and sacrifice for the sake of spreading the message and the principles of civilization. Also, he wrote about Saladin, the Conqueror, who conquered the Crusaders in Jerusalem, and was the hero of Hittin. He conquered the Crusaders for the sake of Arabism and the Islamic right in Jerusalem.

The New Generation and the Youth:

Let's scrutinize the way in which the great scholar tackled the character of the leader in a precise and brilliant sentence: "He is the son of a heroic fighter, the companion of a great prince, the son of a fighting nation which is stalked by enemies. This environment should be sufficient for stirring his resolution and ambition.

Thus, he was so enthusiastic at a very young age. It is not reasonable that this great end resulted from an introduction or an aim without a way"[1]

[1] The Serial of the Leaders of Muhammad' Bannewr, the Great conqueror, Saladin, Muhammad Rajab Al-Bioumy, 'Aqidaty Newspaper, issue dated 11th of January 2011, p.5.

He wandered at night to see the state of the people, and to make sure that they are safe.

The Muslim ruler adapted the approach of `Omar and advised the People of the Book. The ideal example which we refer to in this regard is `Omar's message to `Amr Ibn Al-`As: "There are many people of the Book in Egypt, and the Messenger of Allah (May the blessing and peace of Allah be upon him) advised us to treat them well. The Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: Whoever wrongs one of the People of the Book or loads him with a burden that exceeds his capacity will be my opponent on the Day of Judgment. So, be careful not to be an opponent to the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him)

One of the authentic Hadiths in this regard is: "The one who insulted one of the people of the book will be hit by whips of fire on the Day of Judgment."

The Muslim is allowed to marry a Jewish or Christian woman, and Islam gave her the rights entitled to the Muslim wife. This reveals that Islam does not call for cutting relations with them. Rather, it called for cooperation in all the aspects of life.

Islam hates that a Muslim becomes fanatic to his creeds and insults those who debate with them in their creeds. Allah (Glory be to Him) says: {And argue not with the people of the Scripture (Jews and Christians), unless it be in (a way) that is better (with good words and in good manner} [Al-`Ankabut (The Spider): 46]

Allah (Glory be to Him) says: {and argue with them in a way that is better. Truly, your Lord knows best who has gone astray from His Path, and He is the Best Knower of those who are guided.} [Al-Nahl (Bees): 125]

The Muslims were instructed by their religion to treat the people of the Book kindly and not to treat them as enemies. Also, it called them to cooperate with them in the national benefits.

Khattab and `Amr Ibn Al-`As was wearing wrapper and robe. `Omar was searching for Muhammad who was standing behind his father. `Omar said: Where is the Egyptian? He said: Here I am, the Commander of the Faithful. `Omar said: Hit Ibn Al-Akramin. Then, he hit him, and he did no stop until we liked him to stop. `Omar told `Amr Ibn Al-`As: Why do you enslave the people while the people are born free? He referred to the Egyptian and said: Go back home, and if you fear anything, write to me.

When `Omar knows that one Dirham from the Treasury was stolen or spent in a wrong way, he was quivering as if all the money was lost not one dirham or few dirhams.

Then he ran after a camel which escaped. He met `Ali Ibn Abi Taled who asked him: Where are you going, the Commander of the Faithful? He told him: A camel which is allocated to charity escaped. `Ali told him: You exhausted those who would come after you. `Omar said in a quivering voice: By Lord, if a goat escaped to the coast of Al-Furat, `Omar will be taken into account on the Day of Judgment for it.

No ruler attached importance to consultancy in the way `Omar did. At the time of rule, democracy emerged and was greatly applied. `Omar did not try to impose his opinion and did not rule the people without engaging them in the decisions.

He warned the people saying: "Do not say the opinion that you think complying with my wish, but say the opinion which will comply with right. When he ascended the pulpit, he asked the people: What will you do if I attached importance to worldly matters and abstained from right. One of them waved his arm and sad: We will use the sword. `Omar asked him: Do you mean me? The man said: Yes. `Omar became happy and said: may Allah be merciful with you. Praise be to Allah who put amongst you those who may reform me.

It was narrated that `Omar (may Allah be pleased with him) said at the first day of assuming the reign: "If I do right, help me, and if I did wrong, reform me."

A man stood and said: If you did wrong, we will reform you by the sword. He did not ask the soldiers to imprison him or to kill him. But he said an eternal sentence: "may Allah be merciful with you. Praise be to Allah who put amongst you those who may reform me." This principle set by `Omar is the basis for the modern democracy, as it gives the peoples the right to reform their rulers.

Although `Omar was strong and powerful, he was sympathetic and kind that can not stand seeing the people suffering. He terrified the kings at his time. He was the most democratic ruler, and the first Caliph who set the principles of the fair ruling, who met the needs of the people with their different categories.

The second story is that of `Omar and the hungry children. Aslam, `Omar's slave said: I came out with `Omar at a night in a place full of rocks where one can hardly walk. We stayed until we say the light of fire and `Omar said: Aslam, it seems that there are people there staying around the fire. When they reached this place, they found a woman with her boys. There was a pot on the fire. Her sons were crying and `Omar said: Peace be upon you, people staying around the light (This is out of his politeness, as he did not say peace be upon you, people staying around the fire. She returned the salutation.

She told him come near us, and then he did. She said: the night came and it is cold. He asked her about the reason that these children cried. She said that they are crying out of hunger. He asked her: what is on fire? She said: This is water until they sleep; Allah watches our state, and guid `Omar. He cried and went to the flour house and brought her flour and fat. He told Aslam: Put this load on my back. Aslam said: Commander of the Faithful, I may put it on my back. `Omar said: Will you bear my sins on the Day of Judgment. They went to the woman and put the flour in the pot and the fat over it. Then, he blew under the pot and the smoke penetrates his beard. When the food was cooked, he put it in a plate and they ate until they were full. The woman supplicated to Allah for him although she did not know him. He stayed with them until the children slept, and commanded to give them money. He told Aslam: Hunger caused them to stay awake and to cry.

One of the proofs of `Omar's justice and returning to justice is that he wanted to enact a law, giving the husband the right to take some of the dowry given to his wife. A woman objected to him and quoted the Saying of Allah (Glory be to Him):

{But if you intend to replace a wife by another and you have given one of them a Qintār (of gold i.e. a great amount as Mahr) take not the least bit of it back; would you take it wrongfully without a right and (with) a manifest sin?}[Al-Nisa' (Women): 20]

`Omar went back on his word and said his famous saying: "All the people know more than you, `Omar, even the women. The Woman is right and `Omar erred.

There are many situations that reveal `Omar's fairness in his ruling of his people without differentiating between the Muslim and non-Muslim. The historians agreed that the Islamic conquests increased, and the matters were settled, and security and stability prevailed in the Islamic nation at the age of `Omar due to his justice and his elimination of oppression.

`Omar feared Allah and kept his duty to Him throughout his life. His tears dropped whenever he drank a cool drink or bought a new garment. These tears

left a black line under his eyes and he used to ask himself: What will say to your Lord on the Day of Judgment? He was quivering whenever any person told him: Keep your duty to Allah.

He said: If I sleep at night, I may be lost, and if I sleep in the morning, I will ruin the people. He used to ask many people eagerly: Tell me without lying, how do you find `Omar? Do you think that Allah is pleased with me? Do you think that I did not betray Allah and His Messenger in my ruling?

`Omar did not isolate himself from his people, but he treated himself as a member of the people. When the Muslims were afflicted with a dire shortage of meat and cooking fat, he ate oil until he had stomach ache. He put his hand on his stomach and said: O my stomach, you should be adapted to eat oil as the cooking fat is sold by high price.

If we contemplate at `Omar's life with his family, we will find that he was a responsible person who respected his family. He deprived them not only from things that are not their right, but he deprived them even from their rightful items as he feared for them. He loaded them with double the responsibilities the other people bear, so that approaching `Omar is a burden from which his companions fled.

Once he passed by a market and found fat camels that are different from the other camels. He asked: whose are these camels? They said: They are owned by `Abdullah Ibn `Omar, He was surprised and disturbed. He asked `Abdullah to come and told him: What are these camels, `Abdullah? He said: I bought them out of my money, while they were feeble. But I sent them to the pasture, then I trade with them. `Omar told him in bitter irony: the people will say when they see the camels: graze the camels of the son of the Commander of the Faithful, water the camels of the son of the Commander of the believers. Then, your camels will be fat and your profits increase. He screamed at his face and told him: Take your capital of the camels and the profit will be saved in the Treasury.

He chose carefully the rulers and workers, as he regarded himself responsible for every mistake they may commit, whether he knew about it or not. The first step in choosing the rulers was to keep away anyone who seeks this position, because the person who seeks ruling will seek dominating the people. To guarantee ruling the people justly, he rendered the ruler under the supervision of the ruled. He investigated every complaint from any citizen.

Once a delegation came from Egypt including a sorrowful guy, who told `Omar that Muhammad Ibn `Amr Ibn Al-`As hit him by the whip because he preceded him in their competition, telling him: take it from Ibn Al-Akramin. The Commander of the Faithful called for `Amr Ibn Al-`As and his son Muhammad. Anas Ibn Malik narrated the incident saying: We were sitting with `Omar Ibn Al-

`Omar fought the Muslims and antagonized the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) until the first Hijirah to Al-Habashah. `Omar started to feel sorry for missing the members of his family after they emigrated and endured torment and torture. He resolved to get rid of Muhammad (May the blessings and peace of Allah be upon him) so that Quraysh may return to its earlier unity which was torn by the new religion.

He drew his sword and went to Dar Al-Arqam where the Prophet used to meet his Companions. While he was on his way to the Prophet, he met a man from "Bani Zuhrah" who asked him: "Where are you going `Omar? He said: I want to kill Muhammad. The man said: Go to your home and handle the affairs of your family. He informed him that his sister Fatimah Bint Al-Khattab and her husband Sa`id Ibn Zaid (may Allah be pleased with him) embraced Islam.

Omar hurried to their home and Khabbab Ibn AlArt (may Allah be pleased with him) was there reciting Surat Taha. When they heard his voice, Khabbab hided, and Fatimah hided the paper on which the Surah was written. `Omar was nervous, and he slapped his sister until her cheek bled and hit her husband. Then, he held the paper and read the Surah. Afterwards, he embraced Islam.

He went to the place where the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) met his Companions. The Prophet told him: Will not you stop what you are doing, otherwise you will be humiliated in the same way Al-Walid Ibn Al-Mughirah was afflicted? `Omar said: O Messenger of Allah, I came to you as a Muslim who believes in Allah and his Messenger. `Omar asked the Prophet: O Messenger of Allah, Are not we on the right path whether we are living or dead? He said: Yes. Then, he asked: Why are we hiding?

The Muslims came out in two rows until they entered the mosque. When Quraysh saw them, it was disappointed. This was the first emergence of the Muslims in front of the disbelievers. From this day, the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) called him Al-Farouq.

`Omar had white complexion with redness. It was said that his complexion became brown in the year when the Muslims suffered from famine. He was presentable and bald. His beard was long at the front and becomes lighter at the sides of the face. He used to color it with Henna, and he had long mustache. At-Tabarany narrated that `Abdullah Ibn Ahmed Ibn Hanbal said that Ishaq Ibn `Isa At-Tabbaa` said that he saw Malik Ibn Anas has bushy mustache. Then, he asked him about that and he said that Zayd Ibn Aslam said on the authority of `Amir Ibn `Abdullah Ibn Az-Zubair that `Omar Ibn Al-Khattab twisted his mustache and blew when he was angry. He was so tall so that his feet touched the ground when he rode a horse, and he seemed to be standing. He used to walk quickly and was strong and courageous.

`Omar embraced Islam in Dhul Hijjah in the sixth year of the Da`wah. He embraced Islam after forty men. He embraced Islam with the same zeal with which he fought it. He was keen to spread the news of his embracing of Islam in Quraysh, which antagonized the Prophet and his Companions fiercely. Then, the Muslims started to immigrate to Medina escaping from the harm of the disbelievers. They immigrated to it secretly.

When `Omar wanted to immigrate, he took his sword and circumambulated the Ka`bah seven rounds. Then, he prayed in the Sacred Mosque and told them: "Whoever wants to be killed may meet me behind this valley, and I will immigrate tomorrow." No one spoke and some weak people immigrated with him, as they sought protection with him. In this way, the Muslims were humiliated and were not able to pray in front of the Ka`bah untiul `Omar embraced Islam. `Abdullah Ibn Mas`ud said that they were humiliated until `Omar embraced Islam, and we were not able to pray in front of the Ka`bah until `Omar embraced Islam. When he did, Allah sent down the following verse. {O Prophet (Muhammad peace be upon him)! Allāh is Sufficient for you and for the believers who follow you.} [Al-Anfal (The Battlements): 64]

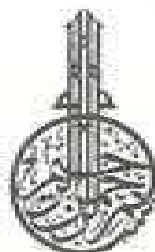
In Medina, the Prophet fraternized him with `Utban Ibn Malik and it was said that he was fraternized with `Utban Ibn `Afra'. His life in Medina had other aspect with which he was not familiar when he was in Mecca. Many remarkable aspects of his personality appeared, and he had a remarkable role in medina. He (may Allah be pleased with him) was one of the fairest people, so that the messenger of Hiraql said "You was fair in your rule, thus, you felt secure and you slept, `Omar.

One of the examples of his fairness is that two guys of Hatib Ibn Balta`ah were accused of stealing a camel owned by a person from Muzayna tribe and came in front of `Umar. He asked them and they admitted the incident, but he did not submit them to the legal punishment of robbery. He said: "By Lord, unless you use then and prevent them, and if anyone of them ate unlawful food. It will be lawful for him, I would cut their hands.

Then, he compensated Al-Muzany for his camel and exempted the two guys from the punishment. He did so because Hatib forced them to work and did not give them food.

As for the story of `Omar and the old woman, Talha Ibn `Abdullah said: `Omar went out in a dark night and I followed him until he entered a house. In the morning I came to this house and found in it a paralyzed and blind woman. I asked her for the reason for his visit to her. She said he came to me to serve me, to bring me food, and to clean for me my home. I told myself "Your bother be incorrect, Talha, `Omar's movements should not be followed.

AL-AZHAR MAGAZINE
Jumada Al-a'Khera, 1432 A. H.



ENGLISH SECTION
May, 2011

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾
الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."
(Al A'raf 43)

EDITOR : Dr. IBRAHIM AL-ASSIL,
Professor at the Faculty of Languages and Translation
Al-Azhar University

`Omar Ibn Al-Khattab, the Fair Caliph and Ideal Ruler:

"If a mule stumbles in Iraq, Allah will ask me: Why you did not pave the way for it, `Omar?"...!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

No matter how much or less talk was about his greatness, as there is no more sublime appreciation than that of the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) about the personality of `Omar. He appreciated him extremely and admitted his virtues. Allah (Glory be to Him) gave him many great virtues and attributes of science and religion.

Al-Bukahry narrated on the authority of Ibn `Omar (May Allah be pleased with him and his father) that the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: "While I was sleeping, I was given a pot of milk and I drank till I saw it coming out of may nails. Then, I gave the surplus to `Omar Ibn Al-Khattab. They said: What is your interpretation of it, Messenger of Allah? He said: Science.

`Omar surpassed the kings while he was ascetic and he surpassed the ascetics while he was a king. Also, he surpasses the wise men and his morals were sublime, which could not be described by the philosophers and reformers. His deeds and sayings greatly reflect the instructions of Islam, the Qur'an and the Sunnah of the Messenger of Allah.

We will start with his lineage and general description – he is Abu Hafs `Omar Ibn Al-Khattab Ibn Nufail Ibn `Abd-Al`uza Ibn Ka`b Ibn Lu'ay. He is one of the relatives of the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him), and belongs to Quraysh.His tribe, Bani `Udai was responsible for Sifarah, and he was responsible for it in his tribe, but he never practiced it. Quraysh at that time mastered all the Arab tribes and no one can oppose it. Thus, his role was limited.

He was born thirteen years after the elephant year. And the Prophet was sent as a Messenger, when he was twenty seven years old. He embraced Islam in the six year of the Islamic mission. He became the Caliph of the Muslims when he was fifty two years and was the Commander of the Faithful after ten years, six months and five days. He died when he was sixty two years, i.e., approaching the age of the Prophet when he died. He embraced Islam when he was thirty two years, i.e., the duration of his being Muslim is thirty years.

الفهـــــرس

بسم الله الرحمن الرحيم

داخل العدد





الأزهر

مجلة شهرية جامعة
يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف فى مطلع كل شهر عربى
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣٠م

رئيس التحرير
أ.د. محمد رجب البيومى

مدير التحرير
عادل رفاعى خفاجة

سكرتير التحرير
أحمد السيد تقى الدين

الاشتراك السنوى
داخل مصر ١٨ جنيها مصريا -
الدول العربية ٥٠ دولارا أمريكيا
أوربا وأمريكا ٨٥ دولارا أمريكيا -
اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولارا أمريكيا
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٥٧٨٦٢٠٠

المراسلات باسم: مدير التحرير -
مجمع البحوث الإسلامية - م. نصر
☎ ت: ٢٢٦٢٨٥٩٩

رجب ١٤٣٢هـ - يونيه ٢٠١١م - الجزء السابع - السنة الرابعة والثمانون

افتتاحية العدد

أين المسلمون اليوم من الإسلام؟!



الأستاذ الكبير/ أحمد حسن الزيات
- رحمه الله -

أصبح من المعلوم في بداهة العقل الحر أن الدين الإسلامي هو الصورة الكاملة لشرائع الله، والقوة المهذبة لقوانين الطبيعة. وضع فيه شارعه الأعظم وهو فاطر الأرض، وواهب الحياة، ومنزِّل الوحي، أسس القواعد التي تكفل للعالم نظامه وسلامه، وللمجتمع وحدته وقوته، وللفرد سعادته وكرامته، مهما يتطاول الأمد وتتغير الحال. ومَن غيرُ الله جلت قدرته يفجر نور الهدى للأرض من غار مظلم موحش، ويبجس نبع الحياة للناس من جبل مجدب وعر؟ وهل كان لولا وحي الله في غار حراء من جبل النور، في مقدور أميّ نشأ ربيب اليتم والعُدم في قرية جاهلة من قرى الحجاز المقفر، أن يعلن في أوائل القرن السابع حقوق الإنسان وحرياته، وهي الحقوق التي أعلنت بعضها فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر بعد الثورة وأعلنت بعضها أمريكا في أواسط هذا القرن بعد الحرب.

وماكان لبشر سليم الفطرة أن يستريب في أن الدين الذي أكمله الله لنبيه، ورضيه لخلقه، ونسبه إلى نفسه، هو وحده مصدر الخير المحض ومظهر الكمال المطلق، وسبيل الغاية التي يجد عندها ابن آدم المكدود المجهود نفسا من كربه، وراحة من تعبه، وسكينة من اضطرابه؛ تلك الغاية التي كان يراها، منذ هبط العاصي من الجنة، حدا لشقائه ونهاية لألمه، فكان يتشوف إليها من وراء الغيوب، ومن خلال القرون فلا يراها لا في الحروب التي شن ولا في النظم التي سن، ولا في الشرائع التي اعتقد حتى أراد الله للأغب الضال أن يهتدي ويسترفه فكان محمد هو المنار وكان الإسلام هو المرفأ.

إن من المبادئ التي ميزت الإسلام التوحيد وهو سبيل القوة، والإخاء وهو سبيل التعاون، والمساواة وهي سبيل العدل والحرية وهي سبيل الكرامة والبر وهو سبيل المحبة، والسلام وهو سبيل الرخاء وكل هذه المبادئ معلومة من القرآن بالنصوص الصريحة فلا موضع فيها لتأويل أو تحميل أو تعسف وهي كما ترى تتضمن أفضل ما في الديمقراطية، وأعدل ما في الاشتراكية، وأجمل ما في المدنية؛ فهي حرية أن تصلح ما فسد من أمور الناس، وأن تقيم ما اعوج من نظام الدنيا. وقد كانت كذلك يوم كان لحماتها دولة، ولدعاتها صوت، ولمعتقديها يقين فلما دالت الدولة وخشع الصوت وأراب اليقين تمزق المسلمون قطعانا في فدافد الأرض، لا مرعى يجود، ولا راع يزود ولا حظيرة تزوي. ثم كانوا بتخلفهم عن ركب الحياة حجة على الإسلام في رأي السفهاء من مرضى الهوى أو الجهل، فصموا عن دعائه، وعموا عن ضيائه.



أحمد حسن الزيات

أين المسلمون اليوم من إسلام عمر وخالد، والرشيد والمأمون، والناصر والحكم، والعزيز والحاكم؟ ألم يبلغ هؤلاء بفتوح الجيش وفتوح الدين وفتوح العلم وفتوح الخلق من السلطان والعمران ما لم تبلغه أمة من قبل فنزل على حكمهم الدهر، ودخل في ملكهم العالم؟

إن الدين الذي رفع هؤلاء السادة والقادة إلى الذروة، وضمن للخلافة في عهودهم العزة والمنعة والقوة، لا يزال هو الدين، لا يغيره الزمن، ولا تجافيه الطبيعة، ولا يعاديه العلم، ولا تنسخه المذاهب؛ وإنما الأمر فيه كما قال الرسول صلوات الله عليه: "مثل ما بعثني به الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا، كان منها طائفة طيبة قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله به الناس، فشربوا منها وسقوا وزرعوا. وأصاب طائفة منها أخرى؛ إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ" (١)

والمسلمون اليوم هم هذه القيعان، تحدرت إلى ما ركد فيها من سلسل الوحي عكارات المذاهب الطارئة، ورواسب العقائد الخاطئة، فكان منها ذلك الخلط العجيب الذي يعوق عن السعي ويمنع من النظر ويصد عن الفكر؛ ثم كان من أثره أن ترى اليوم مواطن العروبة والإسلام: مراكش والجزائر وتونس وليبيا ومصر وفلسطين وسورية والعراق وإيران وباكستان والصين وإندونسيا وسائر جزر الهند الشرقية، قد أصبحت نهبا مقسما بين دول الاستعمار يتنازعون فيه، ويتقاتلون عليه، وليس من أهلها من يقول فيسمع قوله، أو من يفعل فيخشى فعله، وإنما هم أشياء كثروة الأرض، خسارة على المغلوب وربح للغالب.

لقد تغيرت عقائد الإسلام الحرة النقية في نفوس الكثرة من المسلمين كما يتغير الشراب الخالص في الإناء القذر! انحلت الأخلاق فلا تماسك في قول ولا فعل، وتقاطعت القلوب فلا

---

(١) مسند أحمد بلفظ مقارب

تتواصل في دين ولا وطن، واستأثرت النفوس فلا تتعفف في صداقة ولا نسب، واستبهمت المذاهب فلا تستبين بنجم ولا شمس؛ وأصبحت غاية الدين في رأيهم مظاهر من العبادة لا تخدع وظواهر من البدع لا تنفع، وأقاويل من الوعظ لا تدل.

من يصدق أن المسلمين اليوم يفقهون القرآن حق الفقه وهو الكتاب المبين الذي يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويهديهم إلى صراط مستقيم وكل انتفاعهم منه أن يحملوه للحفظ كما تحمل التمائم وأن يقرءوه للبركة كما تقرأ الأوراد وأن ينشدوه للطرب كما تنشد الأغاني.

من يصدق أن المسلمين اليوم يقدرون الرسول حق القدر، وهو الذي قال فيه أصدق القائلين:

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾

(القلم: ٤)

﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ﴾

(النساء: ١١٣)

وكل ما يمدحونه به أن يرفع المؤذن عقيرته في الأذان بالصلاة على "مليح الوجه وأن يتغنى منشد سيرته المطهرة بحمرة خديه وسواد عينيه، كأن الصباحة والوسامة والرواء هي كل ما يمتاز به محمد نبي التوحيد والوحدة ورسول السلام والمحبة وداعي الحرية والكرامة! لقد أنف عبد الملك بن مروان أن يمدحه ابن قيس الرقيات بقوله:

يأتلق التـــاج فـــوق مـــفـــرقـــه
علـى جــبـــيـــن كـــأنـه الذهـب

فقال له: وماذا من الفضل في تألق التاج ونصاعة الجبين؟ هلا مدحتني بمثل ما مدحت به مصعب بن الزبير إذ تقول فيه:

إنما مـــصـــعب شـــهـــاب من اللـه
تجلت عن وجــــهـــه الظلمـــاء
ملكه ملك عـــزة ليس فـــيـــه
جـــبـــروت منه ولا كـــبـــرياء

ثم حرمه عطاءه العمر كله. والفرق بين فضل الرسول وفضل الخليفة كالفرق بين الجبل والذرة، أو بين الشمس والشرارة!

من يصدق أن المسلمين اليوم يؤمنون بالإسلام وفيهم من يؤمن بالشيوعية وأهلها يزعمون أنهم أعلم من الله بأحوال خلقه، وأعدل منه في تقسيم رزقه.

ثم يقولون بكل وسيلة من وسائل القول: كل شيء مشاع، وكل أمر مباح، وكل إرادة طليقة!

والمسلمون يسمعون هذه الأضاليل تبث في الإذاعة، وتنشر في الكتب، وتردد في المجالس فيرهقون لها سمع الغبي، وتدفعهم شهوة الإباحية إلى أن يشتروا الضلال بالهدى، ويستبدلوا الخبيث بالطيب، ويؤثروا أن يكونوا كالذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم.

والعلة في كل أولئك هي الجهل التام والعلم الناقص، فلو أن المسلمين اعتقدوا ربهم اعتقاد المؤمن، وفقهوا دينهم فقه المقتنع وتبعوا رسولهم اتباع الصدق، لما أصبحوا في الحال التي تنبأ بها الرسول صلوات الله عليه إذ قال "يوشك أن تتداعى عليك الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن، فقال قائل أو من قلة نحن يا رسول الله يومئذ؟ قال: لا إنكم حينئذ لكثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل! فقال قائل وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهة الموت".[٢]

﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع
قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين
أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير
منهم فاسقون ﴾

(الحديد: ١٦)

بلى والحمد لله قد أنى للمؤمنين أن يكشفوا عن العيون غشاوة الباطل، ويجلوا عن القلوب صدأ الغفلة، فيبصروا الطريق ويستبينوا الغاية.

وإن في يقظة الوعي الإسلامي التي بدت في تعاطف المسلمين على البعد، وتناصفهم في القرب، وتحالفهم على الأحداث، لأشعة من تباشير الصباح، قبلها الليل المظلم، وبعدها النهار المشرق. ولعل الأزهر وحده هو الذي يملك أن يقوى هذا الوعي ويوجه هذا الشعور. إذ عمر الصدور بالإيمان الخالص عن طريق التعليم في المدارس، والوعظ في المساجد والنشر في الصحف، والحديث في الإذاعة، والنظر قبل ذلك كله فيما يقرأ المسلمون من كتب، وفيما يدرس المتعلمون من مناهج، وفيما يقمش الموهون من بدع؛ فإن تنقية الدين مما علق به ودس فيه تكشف للناس عن جوهره وتصلهم بروحه. والقتام يحجب الشمس، والقذى يفسد الشراب. وإن الماء إذا راق ساغ، وإذا ساغ روى. وعما قريب نبشر المسلمين والأزهريين بما رأى الشيخ الأكبر من إصلاح، وبما عزم من عمل. جدد الله بسعيه حبل الإسلام، وحقق في عهده صلاح الأزهر.[٣]

---

(٢) المعجم الكبير للطبراني، بنحوه.

(٣) نشر هذا المقال في مجلة الأزهر، المجلد ٣٠، سنة ١٣٧٦ هـ.

تفسير سورة النساء

لفضيلة/ الأستاذ الدكتور
محمد سيد طنطاوى
رحمه الله

قال تعالى: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ
يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ٧٤
وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ
الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا
٧٥ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي
سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ
كَانَ ضَعِيفًا ﴾

(الآيات: ٧٤ - ٧٦)

والفاء فى قوله ﴿ فَلْيُقَاتِلْ ﴾ للإفصاح عن جواب شرط مقدر أى إن أبطأ هؤلاء المنافقون والذين فى قلوبهم مرض وتأخروا عن الجهاد والقتال، فليقاتل المؤمنون الصادقون الذين ﴿ يَشْرُونَ ﴾ أى يبيعون الحياة الدنيا بكل متعها وشهواتها من أجل الحصول على رضا الله - تعالى - فى الآخرة.

وقوله:

﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

تنبيه إلى أن هذا النوع من القتال هو المعتد به عند الله - تعالى -، لأن المؤمن الصادق لا يقاتل من أجل فخر أو مغنم أو اغتصاب حق غيره، وإنما يقاتل من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى.

وقوله:

﴿ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

بيان للثواب العظيم الذى أعده الله - تعالى - للمجاهدين.

أى: ومن يقاتل فى سبيل الله ومن أجل إعلاء دينه، فيستشهد، أو يكون له النصر على عدوه، فسوف نؤتيه أجرا عظيما لا يعلم مقداره إلا الله تعالى.. وإنما اقتصر - سبحانه على بيان حالتين بالنسبة للمقاتل وهى حالة الاستشهاد وحالة الغلبة على العدو، للإشعار بأن المجاهد الصادق لا يبغى من جهاده إلا هاتين الحالتين، فهو قد وطن نفسه حالة جهاده على الاستشهاد أو على الانتصار على أعداء الله، ومتى وطن نفسه على ذلك ثبت فى قتاله، وأخلص فى جهاده.

وقدم - سبحانه - القتل على الغلب، للإيذان بأن حرص المجاهد المخلص على الاستشهاد فى سبيل الله، أشد من حرصه على الغلب والنصر.

والتعبير بسوف فى قوله:

﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

لتأكيد الحصول على الأجر العظيم فى المستقبل.

والجملة جواب الشرط وهو قوله:

﴿ وَمَن يُقَاتِلْ ﴾

وقوله: ﴿ فَيُقْتَلْ ﴾

تفريع على فعل الشرط ونكر - سبحانه - الأجر ووصفه بالعظم، للإشعار بأنه أجر لا يحده تعيين، ولا يبينه تعريف، ولا يعلم مقداره إلا الله - تعالى -.

ثم حرض - سبحانه - المؤمنين على القتال بأبلغ أسلوب فقال:

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ﴾

فالخطاب للمؤمنين المأمورين بالقتال على طريقة الالتفات، مبالغة فى التحريض عليه، وتأكيدا لوجوبه، و﴿ وَمَا ﴾ اسم استفهام مبتدأ، والجار والمجرور وهو ﴿ لَكُمْ ﴾ خبره.

وجملة:

﴿ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

فى محل نصب على الحال، والعامل فى هذه الحال الاستقرار المقدر أو الظرف لتضمنه معنى الفعل.

والمراد بالاستفهام تحريضهم على الجهاد، والإنكار عليهم فى تركه مع توفر دواعيه، والمعنى: أى شىء جعلكم غير مقاتلين؟ إن عدم قتالكم لأعدائكم يتنافى مع إيمانكم،

أما الذى يتناسب مع إيمانكم وطاعتكم لله فهو أن تقاتلوا من أجل إعلاء كلمة الله، ومن أجل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان.

فالآية الكريمة تحريض على الجهاد بأبلغ وجه، ونفى للاعتذار عنه.

والمراد بالمستضعفين: الضعفاء من الناس وهم المسلمون الذين بقوا فى مكة بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، لعدم قدرتهم على الهجرة أو لمنع المشركين إياهم من الخروج وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو لهم فيقول: اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة والمستضعفين من المؤمنين.

وقوله: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ معطوف على قوله:

﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

أى: قاتلوا فى سبيل الله وفى سبيل المستضعفين حتى تخلصوهم من ظلم المشركين لهم.

وخصهم بالذكر مع أن القتال فى سبيل الله يشملهم، لمزيد من العناية بشأنهم، وللتحريض على القتال بحكم الشرف والمروءة بعد التحريض عليه بحكم الدين والتقرب إلى الله - تعالى - لأن مروءة الإنسان الكريم تحمله على نصرة الضعيف، ومنع الاعتداء عليه.

وقوله:

﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾

بيان لهؤلاء المستضعفين.

أى: قاتلوا - أيها المؤمنون - من أجل إعلاء كلمة الله ونشر دينه، ومن أجل نصرة المستضعفين من الرجال الذين صدهم المشركون عن الهجرة، ومن النساء اللاتى لا يملكن حولاً ولا قوة ومن الولدان الصغار الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم.

وفى النص على هؤلاء المستضعفين وخصوصا النساء والولدان، أقوى تحريض على الجهاد، وأعظم وسيلة لإثارة الحماس والنخوة من أجل القتال؛ لأنهم إذا تركوا هؤلاء المستضعفين أذلاء فى أيدى المشركين، فإنهم سيعيرون بهم؛ وهذا ما يأباه كل شريف كريم.

ثم حكى - سبحانه - ما كان يقوله المستضعفون فقال:

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾

أى: قاتلوا - أيها المؤمنون - فى سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يضرعون إلى الله قائلين: يا ربنا أخرجنا من هذه القرية التى ظلمنا أهلها بسبب شركهم وكفرهم:

﴿وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾

أى وسخر لنا من عندك حافظا يحفظ علينا ديننا:

﴿وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾

أى: وسخر لنا من عندك كذلك ناصرا يدفع عنا أذى أعدائنا، فأنت الذى لا يذل من استجار به، ولا يضعف من كنت نصيره ووليه.

والمراد بالقرية الظالم أهلها: مكة وقد وصف أهلها بأنهم ظالمون، ولم توصف هى بأنها ظالمة كما وصف غيرها من القرى كما فى قوله - تعالى -:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾

وذلك من باب التكريم لمكة، إذ هى حرم الله الآمن؛ ولا يوصف حرم الله الآمن بالظلم ولو على سبيل المجاز.

وقوله:

﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾

صفة للقرية، وأهلها مرفوع به على الفاعلية، و«أل» فى ﴿الظَّالِمِ﴾ موصولة بمعنى التى أى التى ظلم أهلها فقوله ﴿الظَّالِمِ﴾ جار على القرية لفظا، وهو لما بعدها معنى نحو: مررت برجل حسن غلامه.

وفى هذا النداء الذى تضرع به أولئك المستضعفون إلى خالقهم أسمى ألوان الأدب والإخلاص فهم يلتمسون منه - سبحانه - أن يخرجهم من بطش الظالمين وحكمهم، وأن يجعلهم تابعين للقوم الذين يحبهم ويحبونه، وهم المؤمنون، وأن يهيء لهم النصر على أعدائهم وأعدائه.

ولقد استجاب الله - تعالى - لهم دعاءهم، حيث يسر لبعضهم الخروج إلى المدينة، ورزق المؤمنين فتحا قريبا، وإلى ذلك أشار صاحب الكشاف بقوله: «والمستضعفون هم الذين أسلموا بمكة وصدهم المشركون عن الهجرة فبقوا بين أظهرهم مستذلين.. وكانوا يدعون الله بالخلاص ويستنصرونه، فيسر الله لبعضهم الخروج إلى المدينة، وبقى بعضهم إلى الفتح حتى جعل الله لهم من لدنه خير ولى وناصر وهو محمد صلى الله عليه وسلم فتولاهم أحسن التولى، ونصرهم أقوى النصر.

فإن قلت: لم يذكر الولدان: قلت: تسجيلا بإفراط ظلمهم، حيث بلغ أذاهم الولدان غير المكلفين، إرغاما لآبائهم وأمهاتهم، ومبغضة لهم، ولأن المستضعفين كانوا يشركون صبيانهم فى دعائهم استنزالا لرحمة الله بدعاء صغارهم الذين لم يذنبوا، كما وردت السنة بإخراجهم فى الاستسقاء»[1].

ثم ساق - سبحانه - لونا آخر من تحريضهم على الجهاد وهو تحديد الهدف الذى يقاتل من أجله كل فريق فقال:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾

أى أنتم - أيها المؤمنون - إذا قاتلتم فإنما تقاتلون وغايتكم إعلاء كلمة الله، ونصرة

(١) تفسير الكشاف ج١ ص٥٣٤.

الحق الذى جاء به رسولكم محمد ﷺ .

أما أعداؤكم الكافرون فإنهم يقاتلون من أجل طاعة الشيطان الذى يأمرهم بكل بغى وطغيان، وإذا كان هذا حالكم وحالهم فعليكم - أيها المؤمنون - أن تقاتلوا أولياء الشيطان بكل قوة وصدق وعزيمة:

﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾

أى إن كيد الشيطان وتدبيره كان ضعيفا، لأن الشيطان ينصر أولياءه، والله - تعالى - ينصر أولياءه، ولا شك أن نصرة الله - تعالى - لأوليائه أقوى وأشد من نصرة الشيطان لأوليائه.

فقوله - تعالى - :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

كلام مستأنف سيق لتشجيع المؤمنين وترغيبهم فى الجهاد ببيان الغاية والهدف الذى يعمل من أجل كل فريق، وبيان أن المؤمنين ستكون عاقبتهم النصر والظفر لأن الله وليهم وناصرهم.

والفاء فى قوله ﴿ فَقَاتِلُوا ﴾ للتفريع، أى إذا كانت تلك غايتكم أيها المؤمنون وتلك هى غاية أعدائكم؛ فقاتلوهم بدون خوف أو وجل منهم لأن الله معكم بنصره وتأييده أمامهم فالشيطان معهم بضعفه وفجوره.

والمراد بكيد الشيطان تدبيره ووسوسته لأتباعه بالاعتداء على المؤمنين وتأليب الناس عليهم قال الفخر الرازى: الكيد: السعى فى فساد الحال على جهة الاحتيال عليه، يقال: كاده يكيده إذا سعى فى إيقاع الضرر على جهة الحيلة عليه وفائدة إدخال ﴿ كَانَ ﴾ فى قوله:

﴿ كَانَ ضَعِيفًا ﴾

للتأكيد لضعف كيده، يعنى أنه منذ كان، كان موصوفا بالضعف والذلة"[٢٠].

وبذلك نرى أن هذه الآيات الثلاث قد شجعت المؤمنين على القتال بأبلغ أسلوب، وأشرف دافع، وأنبل غاية، فقد أمرتهم بالقتال إذا كانوا حقا من المؤمنين، الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، وبشرتهم برضا الله وحسن ثوابه سواء أقتلوا أم غلبوا واستنكرت عليهم أن يتثاقلوا عن القتال مع أن كل دواعى الدين والشرف والمروءة تدعوهم إليه، وبينت لهم أنه إذا كان الكافرون الذين الغاية من قتالهم نصرة الشيطان يقدمون على القتال، فأولى بالمؤمنين الذين الغاية من قتالهم نصرة الحق أن ينفروا خفافا وثقالا للجهاد فى سبيل الله، ثم بشرتهم فى النهاية بأن العاقبة لهم، لأن الكافرين يستندون إلى كيد الشيطان الضعيف الباطل، أما المؤمنون فيأوون إلى جناب الله الذى لا يخذل من اعتصم به، ولا يخيب من التجأ إليه.

---

(٢٠) تفسير الفخر الرازى ج١٠ ص١٨٤.

السنة

خاتم النبيين



فضيلة الشيخ/ طه محمد الساكت
رحمه الله

عن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لى خمسة أسماء: أنا محمد وأحمد، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى، وأنا العاقب.

(رواه الشيخان، واللفظ للبخارى)

لا يريد النبى ﷺ أن يحدد أسماءه الشريفة بهذا العدد، تحديد أصابع اليد، وإلا لم يحدثنا بأن له أسماء غيرها كثيرة، وإنما أراد أن لها من الفضائل والمزايا ما ليس لغيرها، كما ينبئ عن ذلك تفسيرها، أو أنه اختص أو اشتهر بها، فى أمته والأمم التى قبلها.

ولا يريد ﷺ بذكر أسمائه أن نعدّدها ونردّدها ونتباهى بها، وإنما أراد أن نتدبر ما احتوت عليه من معان سامية، أو أشارت إليه من آداب عالية، فنسمو بها ونتحلى بأخلاقها، حتى ترفع رءوسنا وتكون جدراء بالانتساب إليه....

من أسمائه ﷺ خاص وعام:

فأما الخاص: فهو الذى لا يشركه فيه غيره من الرسل كهذه الأسماء الخمسة؛ والمقفى، وهو الذى قفى من قبله فكان آخرهم، ونبى الملحمة وهو الذى بعث ليجاهد أعداء الله جهادا كبيرا.

وأما العام: فهو الذى يشاركه فى معناه غيره من الرسل، ولكن له منه ذروته

وكماله، فضلا من الله عظيما. وذلك كرسول الله ونبيه وعبده، والشاهد والبشير والنذير، ونبي الرحمة ونبي التوبة.

فإذا جعل له من كل وصف من أوصافه اسم تجاوزت أسماؤه المائتين عدا، كالصادق والمصدوق والرءوف والرحيم وأمثالها، ومن هنا من قال من الصوفية إن لله تعالى ألف اسم وللنبي ﷺ ألف اسم مثلها !!

على أن من تدبر أسماءه ﷺ لم يجدها أعلاما محضة لمجرد التعريف كما هو الشأن في أسماء الناس، بل يجدها مشتقة من صفات قائمة به توجب مدحه وتشير إلى كماله، شأن أسماء الرب تعالى جده، وأسماء كتابه، وأسماء أنبيائه، ليست أعلاما مجردة، ولكنها مع العلمية نعوت وصفات توجب لموصوفها السناء والثناء كما يليق به.

وكثرة الأسماء والصفات دليل على العناية بأصحابها، ومن هنا قيل: إن كثرة الأسماء برهان على شرف المسمى.

وحسبنا في حديثنا هذا أن نلم بمعاني هذه الأسماء الخمسة، فإنها أمهات الأسماء النبوية وأصولها. ومن ابتغى زيادة في البسط والتفصيل فليرجع إلى زاد المعاد... وجلاء الأفهام... وكلاهما لشمس الدين ابن القيم، ثم إلى المواهب اللدنية وشرحها ... وعلى هذه الثلاثة أكثر تعويلنا في شرح هذه الأسماء.

فأما محمد: فقد استفاضت الأنباء بأنه لما حملت به ﷺ السيدة آمنة، بشرت في منامها بأنها تحمل سيد هذه الأمة ونبيها، وأمرت أن تسميه إذا وضعته محمدا، وأنه لما كان سابع ولادته ﷺ عق عنه بكبش جده عبد المطلب.. وألهمه الله تبارك أسماؤه أن يصدق رؤيا أمه فيسميه تسميتها... فلما قيل له: يا أبا الحارث ما حملك على أن تسميه محمدا وليس من أسماء آبائك ولا قومك؟! قال: أردت أن يحمده الله في السماء، ويحمده الناس في الأرض.

فمحمد اسمه الأول الذي سماه الله به في عالم الرؤيا، على لسان البشير الذي بشر به أمه، ثم سماه به في عالم الرؤية على لسان جده وكافله عبد المطلب.

ومحمد اسمه الأشهر الذي سماه الله به في غير آية من كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾

(آل عمران: ١٤٤)

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾

(الأحزاب: ٤٠)

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾

(الفتح: ٢٩)

ومحمد اسمه الأسبق الذي سماه الله به في التوراة، على ما حققه وارتضاه ابن القيم في كتابيه السابقين، خلافا لما ذهب إليه أبو قاسم السهيلي والقاضي عياض على ما نشير إليه.

وأما أحمد، فهو الذي يلي محمدا في فضله وسبقه وشهرته حتى كأنه هو في كل معنى يتصل به أو يرمز إليه[1]، ولا عجب إذ كان كلاهما منقولا من الحمد فهو يتضمن الثناء على المحمود كما يتضمن محبته وإجلاله وتعظيمه واتباعه في كل ما جاء به.

وإذ غلب على الأول أنه المحمود حمدا بعد حمد: عند الله وعند ملائكته، وعند إخوانه المرسلين من قبله، وعند أهل الأرض جميعا - بله الجاحدين والجاهلين منهم - وعند الأمم قاطبة في موقف الحشر؛ فقد غلب على الثاني أنه أحق الناس وأولاهم بأن يحمد هذا الحمد. فالاسمان كلاهما واقعان -كما اختار ابن القيم- على صيغة المفعول، والفرق بينهما أن محمدا كثير الخصال التي يحمد عليها، وأحمد هو الذي يحمد بحق أكثر مما يحمد غيره، فمرد الأول إلى الكثرة والكمية، ومرد الثاني إلى الصفة والكيفية.

وأيا ما كان الأمر فقد أوتي ﷺ من خصال الثناء والحمد، ما لم يؤت أحد، فكان أعظم من حمد، وأجل من حمد، وسبحان من لا ينتهي عطاؤه عند حد.

وأحمد هو الاسم الذي سماه الله به في الإنجيل على لسان عيسى ابن مريم عليهما السلام إذ قال:

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾

(الصف: ٦)

تلك تسميته وبشارته في الإنجيل بلا خلاف ولا ريب.

وإنما الخلاف فيما سمي به في التوراة: هل هو محمد أو أحمد؟

قال أبو القاسم السهيلي والقاضي عياض وصاحب الفتح: كان عليه الصلاة والسلام أحمد قبل أن يكون محمدا كما وقع في الوجود، فإن تسميته أحمد وقعت في الكتب السالفة وتسميته محمدا وقعت في القرآن الكريم، وذلك أنه حمد ربه قبل أن يحمده الناس، وفي الآخرة يحمده ربه فيشفعه فيحمده أهل الموقف. وقد خص بسورة محمد وبلواء الحمد وبالمقام المحمود، وشرع له الحمد بعد الأكل والشرب والدعاء وغيرها، فجمعت له معاني الحمد وأنواعه.

وقال ابن القيم في أثناء رده واختياره: إنه ﷺ عرف عند كل أمة بأعرف الوصفين لديها... فلما كانت أمة موسى أوسع علما

(١) الرواية التي اخترناها "أنا محمد وأحمد" نكتة لطيفة تؤكد هذا الاتصال، حيث عطف الثاني على الأول من غير الضمير الفاصل.

ومعرفة وشرعة ومنهاجا من أمة المسيح، عرف عندها بالاسم الجامع للمحامد التى يحمد عليها حمدا متكررا، وهذا إنما يعرف بعد العلم بخصال الخير وأنواع العلوم والمعارف والأخلاق والصفات التى يستحق تكرار الحمد عليها، ولا ريب أن بنى إسرائيل هم أهل الكتاب الذى كتب الله فيه كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء.

ولما كان الإنجيل كأنه مكمل للتوراة ومتمم لها، جاء فيها اسمه الدال على الفضل والكمال كما جاءت شريعتهم بالفضل المكمل لشريعة التوراة.

ولما كان القرآن الكريم مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل وجامعا لمحاسنهما معا جاء كذلك بالوصفين جميعا.

وأما الماحى: فهو الذى محا الله بنوره ظلمات الكفر، ولم تمح هذه الظلمات بأحد من خلق كما محيت به ﷺ؛ فإنه بعث وقد أطبق الكفر على أهل الأرض قاطبة إلا بقايا من أهل الكتاب.

والكفار ما بين عباد أوثان، وعباد كواكب، وعباد نار، ويهود ونصارى، وصابئة دهرية، لا يعرفون ربا ولا معادا، وفلاسفة لا يعرفون شرائع الأنبياء ولا يقرون بها فمحا الله بسببه الماحى ﷺ هذه الظلمات، وأظهر دينه على كل دين غيره حتى بلغ مبلغ الليل والنهار، وسار مسير الشمس فى الأقطار.

وأما الحاشر: فهو الذى يحشر الناس على قدمه؛ لأنه أول من تنشق عنه الأرض ثم الناس على أثره يحشرون، وإليه فى المحشر يلجئون، وبه عند الفزع الأكبر إلى ربهم يتوسلون، وهنالك يتجلى مقامه المحمود الذى يحمده له الأولون والآخرون.

وأما العاقب: فهو فى معنى المقفى والآخر؛ لأنه تبع آثار من سبقه من الرسل فكان خاتمهم...

وهذا الاسم صريح فى أنه ﷺ خاتم النبيين فلا نبى بعده، وقد فسر بهذا عند مسلم، ففى إحدى روايتيه لهذا الحديث نفسه "وأنا العاقب، والعاقب الذى ليس بعده نبى" وفى الرواية الأخرى "وأنا العاقب الذى ليس بعده أحد" وقد تظاهرت الدلائل القاطعة، والبراهين الساطعة، من صريح الكتاب والسنة، وإجماع الأمة على أنه أتى عقب جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأن به انتهاء النبوة وحسن الختام.

وحسبنا من صريح الكتاب قوله عز وجل:

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾

(الأحزاب: ٤٠)

ومن صحيح السنة قوله ﷺ فيما رواه الشيخان "إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة. قال فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين".

حق الرؤية والاستضافة



الأستاذ الدكتور/ محمد الشحات الجندى
الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية

منشأ الإشكالية: غياب أو تغييب منهج الإسلام فى علاقة الأم والأب، ولجوء كل منهما إلى أساليب لا تنهض بالرعاية للصغير. فنجد الصراع هو طابع مرحلة ما بعد الانفصال بين الرجل والمرأة، ولو كان ذلك ضد المصلحة الفضلى للصغير، والغرض من ذلك:

- حب الاستحواذ والرغبة فى الاستحواذ والاستئثار بالطفل، من جانب الطرفين.

- التحدى للفوز بالطفل كواقع يهيمن على العلاقة بين الطرفين، على حساب مصلحة الطفل والضحية هو الطفل بسبب هذه العوامل ونتيجة لها.

- كيد كل منهما للآخر، والسعى للنيل منه ونسيان سابق العشرة.

حقائق أولية

إن حق الأم فى الحضانة ثابت لا مشاحة فيه عبرت عنه أم صحابية وفق أسباب مقنعة منطقية مصلحية.

فيما روى أن امرأة جاءت إلى النبى ﷺ وقالت يارسول الله: إن ابنى هذا كانت بطنى له وعاء، وثديى له سقاء، وحجرى له حواء، وإن أباه طلقنى، وأراد أن ينتزعه منى، فقال لها الرسول ﷺ (أنت أحق به ما لم تنكحى «تتزوجى»)(١).

وسبب اختصاص الأم بالطفل فى هذه المرحلة المبكرة وجود رابطة عضوية لصيقة بين الطفل والأم، يتعذر انفصامها، فهى التى حملت وأنجبت، وتحملت الكثير من صنوف الألم والمعاناة فمصلحة الطفل فى التربية والتنشئة الصحيحة تجعل الأم هى المحضن الطبيعى له فهى الأكثر استعداداً والأقدر على القيام بمتطلبات الرعاية.

تنظيم الرؤية

من حق الأم والأب والجدة والجد رؤية الصغير شرعاً وهو ما قرره القانون لكل من الأبوين الحق فى رؤية الصغير أو الصغيرة وللأجداد مثل ذلك عند عدم

(١) سنن أبى داود ٢/٢٨٣ عن عبدالله بن عمر.

وجود الأبوين؛ لأنهم الأهل والعائلة، وهم أساس وجوده فى الحياة، والحق أنه كان جديراً أن يعطى القانون حق الرؤية للأجداد مع وجود الأبوين.

والقاعدة فى المسألة أن تنظيم الرؤية يتم على أساس الاتفاق بين الأم والأب، فهما الأكثر حرصاً وأصدق عاطفة وعلى دراية بحال الصغير، فيترك أمر تنظيمها لهما سوياً، ولا يتدخل القاضى فى التنظيم إلا عند عدم الاتفاق بينهما.

يقول النص: «وإذا تعذر تنظيم الرؤية اتفاقاً نظمها القاضى على أن تتم فى مكان لا يضر بالصغير والصغيرة نفسياً».

منع استخدام الوسائل القسرية كالجبر والإكراه والقهر فى التعامل مع الصغير، لما لها من تأثير مدمر على تنشئة الصغير ومسلكه فى الحياة.

ويتطلب تحقيق ذلك:

- وجود توافق وتراض بين الأم والأب.
- تبديد مخاوف الطرف الحاضن والطفل المحضون.
- طرح آليات التنفيذ الكفيلة برعاية الحقوق لكل طرف، وعدم اللجوء إلى أساليب العنف والتحايل، ولا يكفى القول بتغليظ العقوبة على المخالف فقط، فإن المسئولية عن العناية بالصغير تتجاوز العقوبة، وتشمل وسائل وقائية وتقويمية للسلوك ذلك أن المصلحة الفضلى للطفل تحتم إحاطة الطفل بالأمان الوجدانى والمادى وتوفير أجواء التنشئة الصالحة.

وتأكيداً على الطبيعة الاتفاقية للرؤية: نص القانون على أن:

«ولا ينفذ حكم الرؤية قهراً، ولكن إذا امتنع من بيده الصغير عن تنفيذ الحكم بغير عذر أنذره القاضى، فإن تكرر منه ذلك جاز للقاضى بحكم واجب النفاذ نقل الحضانة مؤقتاً إلى من يليه من أصحاب الحق فيها لمدة يقدرها».

والغرض من ذلك تمكين الأبوين من السماح لهما بالرؤية إشباعاً للناحية النفسية والعاطفية الكامنة لدى كل طرف منهما.

م٦٧ من القانون رقم (١) لسنة ٢٠٠٠م:

«ينفذ الحكم الصادر برؤية الصغير فى أحد الأماكن التى يصدر بتحديدها قرار من وزير العدل بعد موافقة وزير الشئون الاجتماعية، ما لم يتفق الحاضن والصادر لصالحه الحكم على مكان آخر».

«ويشترط فى جميع الأحوال أن يتوفر فى المكان ما يشيع الطمأنينة فى نفس الصغير».

كما جاء قرار وزير العدل ١٠٨٧ لسنة ٢٠٠٠م:

«يكون للمحكمة أن تنتقى من الأماكن مكاناً للرؤية وفقاً للحالة المعروضة».

«يتوفر فى المكان ما يشيع الطمأنينة فى نفس الصغير، ولا يكبد الأطراف مشقة، فالرؤية تتم فى أحد الأماكن الآتية:

- النوادى الرياضية.
- مراكز الشباب.
- دور رعاية الأمومة والطفولة.
- الحدائق العامة.

ضوابط الرؤية:

تكون لمدة ٣ ساعات أسبوعياً ما بين ٩ ص إلى ٧م.

وتتم ما أمكن خلال العطلات الرسمية بما لا يتعارض مع انتظام الصغير فى دور التعليم ومن المهم الاستعانة بالأخصائى الاجتماعى المنتدب للعمل بدائرة المحكمة التى أصدرت الحكم.

وعلى المسئول الإدارى فى مكان الرؤية أن يثبت الحالة فى مذكرة حضور أو عدم حضور المسئول عن تنفيذ حكم الرؤية.

ويجب أن يراعى أنه مع ثبوت حق الأم فى الحضانة ووجود الصغير معها، يكون للأب الحق فى المتابعة والملاحظة والرعاية للصغير بموجب الولاية على النفس، والواجب عليه أن يتعرف على أحوال الصغير الصحية وحالته التربوية، وتقدمه العلمى والدراسى بما يطمئنه على ظروفه ويعين الأم على القيام بمسئولياتها.

وهى مسئولية مبناها الشفقة والرعاية للصغير، يقول تعالى:

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾

(النساء: ٩)

الحاجة إلى ميثاق لرعاية الطفل

إن من الأهمية بمكان وجود ميثاق رعاية مشترك بين الأم والأب يصوغ حقوق الطفل والأم والأب بعد الانفصال، ويرسى أسس علاقة رشيدة بين الأطراف جميعاً، بما يهيئ لتنشئة وتربية سوية للطفل.

وأصل هذا الميثاق الأبوى، موجود فى النصوص، إذ العلاقة بين الطرفين قوامها المودة، عبر عنها القرآن بالمعاشرة بالمعروف، كدستور للعلاقة بينهما فى قوله تعالى:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾

(النساء: ١٩)

ويجب أن تدوم وتستمر صفات المروءة، والعفو يقول تعالى:

﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾

(البقرة: ٢٣٧)

تحقيق المصلحة الفضلى للطفل بعيداً عن النظرة الضيقة، وحب الامتلاك والسيطرة.

حق الاستضافة

تأخذ العديد من الدول الإسلامية والأجنبية بحق الطرف غير الحاضن فى الاستضافة تكون مسألة الاستضافة للطرف غير الحاضن للصغير لمدة زمنية محددة فى أوقات معينة أيام العطلة والأجازات، كأسلوب يضع أساس الرعاية المشتركة للطفل من جانب الأبوين، ويضمن مشاركة الأم والأب فى رعاية الصغير وحسن تربيته

وتنشئته نشأة قويمة ومتوازنة بينهما.

والمناط فى شرعية الاستضافة، بعض الحقائق.

أن تربية الصغير مسئولية الاثنين:

﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾

(الإسراء: ٢٤)

كما أن قوة العلاقة بين الطفل وأبويه تستدعى تأصيل صلة الرحم، كما يشير القرآن:

﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾

(الأنفال: ٧٥)

وينهى عن قطع هذه الصلة بقوله:

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾

(محمد: ٢٢)

يقول ابن عابدين [٣]: «والحاضنة أماً أو غيرها أحق به أى بالغلام حتى يستغنى عن النساء، وقدر بسبع، وبه يفتى لأنه الغالب، وقيل بتسع سنين، قوله: «لأنه الغالب» أى الاستغناء هو الغالب فى هذه السن.

وفى الفتح: ويجبر الأب على أخذ الولد بعد استغنائه عن الأم لأن نفقته وصيانته عليه بالإجماع أهـ. وفى شرح المجمع: «وإذا استغنى الغلام عن الخدمة أجبر الأب أو الوصى أو الولى على أخذه، لأنه أقدر على تأديبه وتعليمه».

ويقول: «والأم والجدة لأم أو لأب أحق بها -أى بالصغيرة- حتى تحيض -أى تبلغ- فى ظاهر الرواية، ولو اختلفا فى حيضها فالقول للأم».

ذلك أن القيام بالتربية القويمة تتحقق بوجود الطفل بين الأم والأب، ولما كان الانفصال قد حدث، فلا ينبغى حرمان الطفل من دورهما خاصة مع طول مدة الحضانة إلى ١٥ عاماً، وجواز امتدادها إلى أكثر من ذلك، عند اختيار الصغير ليعيش مع الأم الحاضنة، فقد خير رسول الله ﷺ «غلاماً بين أمه وأبيه» [٣].

فالطفل نتاج الطرفين الأم والأب، فيجب إسهام كل منهما فى رعايته، والقيام على أمره، مع عدم الإخلال بحق الأم فى الحضانة (كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، فالأب راع ومسئول عن رعيته، والأم راعية ومسئولة عن رعيتها» [٤].

كما أن للأب حقاً فى الولاية على نفس الصغير وماله، وهى ولاية تأديب وتهذيب ورعاية.

حديث: (أنت ومالك لأبيك) [٥].

وقد أورد القرآن دروساً ومبادئ تربوية حكاها عن سلوك لقمان مع ابنه: بما جاء فى سورة لقمان:

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

(لقمان: ١٣)

وغيرها مما اشتملت عليه الآيات المبينة لدور الأب فى التربية والتنشئة عبر ما ورد فيها من سبل التعليم والتربية التى جاءت فى الآيات المذكورة فى السورة.

وهى مسئولية تمتد إلى تدريبه وتعليمه الرياضة، قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «علموا أولادكم السباحة والرمى والفروسية» [٦].

وتظل الرعاية مستمرة طوال مراحل نمو الصغير، وبما يتناسب مع ظروفه يقول الإمام على: «لاعب ولدك سبعاً، وأدبه سبعاً، وآخه سبعاً، ثم ألق حبله على غاربه».

شرعية الاستضافة

من الأصول الواجبة فى العناية بالصغير، تحصيل المصلحة والبعد عن المضرة للطفل والأم والأب، وهو ما قرره القرآن بقوله تعالى:

﴿ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ﴾

(البقرة: ٢٣٣)

وفى الحديث: (لا ضرر ولا ضرار) [٧].

المصلحة تقتضى وجود الطرفين فى حياة الطفل كل بقدره ودوره وحسن تنشئة الصغير، وبما يعود عليه بالنفع، وينأى به عن الضرر.

موقف المؤسسة الدينية

- جاء فى فتوى دار الإفتاء:

المنصوص عليه شرعاً أن الصغير إذا كان فى حضانة أمه أو غيرها لا يجوز لها أن تمنع أباه من رؤيته.

والرؤية تتم فى مكان عام ولا تجبر الحاضنة على أن ترسله إلى مكان إقامة أبيه، ولها الحق فى عدم تمكينه من أخذه منها أو إخراجه من مكان إقامتها. (المفتى / أحمد هريدى).

تشير الفتوى إلى أن أخذ الأب للصغير يكون برضا الأم.

رأى مجمع البحوث الإسلامية حول الاستضافة

أصدر المجمع فتواه بشأن استضافة الصغير، بتاريخ ٢٧ سبتمبر ٢٠٠٧م بما نصه: «يجوز للطرف غير الحاضن استضافة الصغير بمسكنه فى العطلات إذا أذن الحاضن بذلك».

بمعنى يشترط للاستضافة موافقة الأم الحاضنة بذلك.

تجدر الإشارة إلى أن الحضانة حق للأم وحدها، فلا تعرف الشريعة الحضانة المشتركة.

ولما كانت المدة المقررة للرؤية ٣ ساعات فى

---

(٣) حاشية رد المحتار على الدر المختار، جـ ٣، ص ٥٦٦، طبعة الحلبى.

(٣) رواه الترمذى.

(٤) أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود وأحمد «واللفظ للبخارى».

(٥) أخرجه ابن ماجه فى سننه.

(٦) رواه البلاذرى فى انساب الأشراف.

(٧) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ، والبيهقى فى السنن الكبرى.

مقر النادى، أو الحزب، أو مركز الشباب، فقد اعترض عليها الآباء لأسباب:

أسباب الاعتراض:

- يراها الأب غير كافية ولا مقنعة، وروتينية، وفى ظل ترقب وتوجس من الأم واستعجال لمرور الوقت، فى ظروف قابلة لنشوب نزاع بينهما. وبين الأب، وتكريس حالة من التربص بين الطرفين، تسبب حيرة بالغة للطفل وتوزع مشاعره وسط هذه الأجواء غير الطبيعية، وتجعله فى قلق دائم.

- لا تحقق فترة الرؤية القصيرة العدالة بين الطرفين ولا تتفق مع مسئولية الأب فهو القائم بالإنفاق على الصغير، من مأكل، وملبس، ومسكن، وعلاج، وتعليم.

مخاوف الأمهات الحاضنات من الاستضافة:

تثير الكثير من الأمهات الشكوك حول قضية الاستضافة لما قد يترتب عليها من إخفاء الأب للطفل فى الداخل لوجود ٢٩ محافظة فى مصر، يسهل عليه إخفاؤه فى أى منها.

ما هى المهلة التى يجب على الأم أن تنتظرها ليعود لها الطفل وتتسلمه من الأب؟

ماهى الجهة المسئولة عن إعادة الطفل؟

كيف تتصرف الأم عندما يتعرض الطفل لأذى أو ضرر أو سوء، فى فترة اصطحاب الأب له؟

ما السبيل عند انشغال الأب عن الطفل، بتركه لزوجة الأب أو للخدم.

التأثير السلبى للاستضافة على متابعة دروس المدرسة:

يجب الأخذ فى الاعتبار ضرورة توفير ضمانات حتى لا تؤدى الاستضافة إلى سلب الأم حقها فى الحضانة، ذلك أن فى الاستضافة منافع وأضرار، وأن المحاذير والمخاوف من جانب الأم حقيقية لا ينبغى التهوين منها، وهو يتعارض مع قاعدة: «درء المفسدة مقدم على جلب المنفعة».

فتوى بعض العلماء أنه لا يجوز للطرف غير الحاضن السفر بالصغير بدون إذن أو علم الطرف الحاضن.

وفى هذا السياق، يجب ألا يغيب عن الأذهان ما ذهب إليه مجمع البحوث الإسلامية، فإنه لا يوافق على سجن الأب، أو حبسه إذا هرب بالصغير، ولا يعتبر ذلك من قبيل الخطف.

- اعتياد الصغير على الحياة مع الأم المتفرغة له، لم تتزوج، إذ يلزم الطفل أمه فترة الحضانة، ويعتاد المكان والأشخاص، وأن الاستضافة تؤدى إلى نقل الطفل إلى غير بيئته الطبيعية، فهو مكان غريب عليه، وأشخاص جدد. وقد يترتب عليه حرمانه من التواجد مع إخوته فى بيئته الطبيعية، وهم الذين لم يبلغوا سن الاستضافة.

- الاختلاف فى المعاملة بين الأم والأب، وما يترتب على ذلك من نزاعات.

- فى الاستضافة إخلال بالولاية التعليمية المقررة للأم.

- الأضرار التى تصيب الصغير حالة انتزاعه من الأم وتتمثل فى علل نفسية وعصبية.

- تعرض الطفل لحالة من التشرد والضياع.

- الرعب والفزع الذى يصيب الأم بسبب غياب وليدها عنها.

ضمانات لتنفيذ الاستضافة:

- ألا يقل عمر الطفل عن التمييز لتطبيق الاستضافة لكى يكون على نضج ووعى بطبيعة الاستضافة، وقيمة الحضانة، وحسن التربية.

- موافقة الطفل المحضون على الاستضافة، أسوة بالحضانة التى لا تنفذ قهراً.

- موافقة الأم الحاضنة على الاستضافة.

- اطمئنان الطرف الحاضن لكيفية تطبيق الاستضافة وطريقة استلام الطفل.

- تنفيذ الأب لمسئولياته المادية والأدبية.

- انتزاع جواز السفر من الأب، حتى لا يستخدمه فى الهروب بالطفل.

- حرمان الأب من الاستضافة إذا حاول الهروب بالصغير، ونزعه من حضانة الأم دليله قاعدة: «الضرر يزال».

- حظر نقل الصغير إلى مدرسة أخرى، دون موافقة الأم.

- وضع الطفل على قوائم المنع من السفر، كإجراء وقائى يحول دون الهرب منه.

- أهمية توفير الضمانات لإعادة الطفل إلى الحاضن. وذلك لتوفير أجواء الاستقرار للصغير، وحسن العلاقة بين الأم والأب، وهو ما يؤثر إيجابياً على حياة الطفل.

فإذا تحقق ذلك فلن يكون النظر إلى الاستضافة على أنها تعتبر انتقاصاً، أو تعد خصماً من حق الأم فى الحضانة.

ولا يتأتى ذلك إلا بالتطبيق السليم وعدم إساءة الأب لاستخدام هذه المكنة ومحاولة الهروب بالصغير، وإلا وقع الطرفان والطفل والمجتمع فى مشكلات دائمة.

وتجدر الإشارة إلى أن ترتيب العلاقة بين الأم الحاضنة والأب الشريك فى التربية والصغير المحضون بالنسبة للحضانة والرؤية والاستضافة، لا يكفى التعامل معها عن طريق القانون وحده، وإنما يلزم لنجاح هذه العلاقة بين الأطراف جميعاً إشاعة ثقافة القيام بأمانة المسئولية والاعتماد على الوعى الخلاق فى تحمل كل طرف لمسئوليته، وهو ما يحتاج إلى مزيد من الوعى، ولاشك أن لرأى مجمع البحوث الإسلامية الأولوية فى هذا الصدد، باعتباره رأياً جماعياً صادراً عن الجهة الدينية صاحبة الاختصاص فى موضوعات الفتوى فى القضايا المجتمعية.

من أجل ذلك فقد يتطلب الأمر إشراك منظمات المجتمع المدنى فى متابعة تنفيذ هذه المرحلة، ومراكز الطفولة والأمومة، والطب النفسى، لما لذلك من أثر مهم فى ترتيب علاقة تستند إلى صحيح الدين بين الأطراف جميعا، وبما يحقق مصلحة الطفل الفضلى بصفة خاصة ومصلحة المجتمع بصفة عامة.

المنهجية الإسلامية فى مكافحة البطالة



الأستاذ الدكتور / مصطفى رجب
كلية التربية - جامعة سوهاج

ليس أدل على كون الإسلام دين العمل من ذلك الاقتران الواضح بين الإيمان والعمل المتكرر فى عشرات الآيات الكريمة، التى يتكرر فيها التعبير القرآنى:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ (البقرة: ٨٢).

بل إن القرآن الكريم أشار إلى رفع درجة المؤمنين العاملين فى أكثر من موضع، فقال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ «البقرة: ٨٢».

وقال تعالى:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ
صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ «فصلت: ٣٣».

ومن هذا المنطلق، نود أن نتناول فى هذا المقال منهجية الإسلام فى مكافحة مشكلة البطالة التى تفشت فى المجتمعات المسلمة، والتى ترجع أسبابها إلى عوامل اجتماعية وسياسية واقتصادية من أهمها:

١. فساد نظم التعليم العصرية

فالواقع أن نظمنا التعليمية السائدة فى المجتمعات المسلمة، نظم نشأت فى ظل الاستعمار فاكتست لباساً غربياً بعيداً عن الصبغة الإسلامية التى ستتبين ملامحها فى هذا المقال. ومن مظاهر هذا الفساد، فيما يخص موضوع مقالنا، ذلك الفصل التعسفى بين التعليم النظرى «الأكاديمى» والتعليم الفنى «التطبيقى»؛ حيث نجد غالبية الناس ينفرون من العمل اليدوى الحرفى، ويميلون إلى الوظائف الحكومية المكتبية، وينظرون نظرة احتقار إلى الصناع والفنيين، مما أدى إلى احتقار التعليم الفنى.

٢. غياب روح التكافل الاجتماعى

إن المجتمع المسلم المعاصر يفتقر إلى روح التواد والتعاطف والتراحم التى دعا الإسلام إلى ضرورة أن تسود المجتمع المسلم، ومن ثم فإن تراكم الخريجين بلا عمل لا يشغل بال أصحاب المال ورجال الأعمال، ولا يشعرون بالتالى بواجبهم إزاء إخوانهم المتبطلين الذين لا يجدون عملاً يسترون به أنفسهم وأسرهم.

٣. ميكنة العمل

إن تطور العمل واستخدام التقنيات الحديثة من أجل رفع معدلات الإنتاج وتسريعها، أدى بالتبعية إلى تناقص فرص العمل، فما كان يؤديه عشرون عاملاً فى يومين يمكن الآن أن تؤديه آلة فى بضع ساعات، مما زاد من معدلات البطالة.

٤. الميل إلى الراحة

مع تقدم وسائل العلم والتقنيات الحديثة، صارت حياة الناس أسهل بكثير عما كانت عليه من قبل، فالمرأة التى كانت تعمل بيديها كل خدمات بيتها، أصبحت الآن تستعين بغسالة أطباق وغسالة ملابس وما شاكل ذلك من آلات، وأصبح الرجل يستخدم المحرك اليدوى «الريموت كنترول» لتغيير محطات التلفاز بدل أن يتحرك خطوات.. وهذه مجرد أمثلة لما صارت عليه حياة الناس من يسر وسهولة، مما خلق أجيالاً من الكسالى الذين يحبون الراحة ويخلدون إلى الأرض.

وكل ذلك جعل من الصعب على شباب الأمة المسلمة أن يتكبدوا أية مشكلات فى البحث عن العمل، كما صاروا يهربون من أية أعمال تتطلب مجهوداً.

إن الأسباب الأربعة السابقة، وغيرها كثير، أدت إلى شيوع البطالة وتفشيها فى المجتمعات المسلمة.. فكيف السبيل إلى مواجهة هذه المشكلة ذات العواقب الاجتماعية الوخيمة؟..

دعوة القرآن للعمل.. إيجابية دائماً

إن الخطوة الأولى فى المنهجية الإسلامية لمواجهة مشكلة البطالة هى تدبر القرآن الكريم لمعرفة المكانة العليا للعمل كمفهوم إنتاجى تنموى، اهتم القرآن بإبرازها فى أكثر من صورة:

أ- فالعمل مصدر للسعادة: قال تعالى:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا
مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

«النحل: ٩٧»

ب- والعاملون مأجورون فى الدنيا قبل الآخرة: وهذا ما يمثل بالنسبة لهم حافزاً دائماً للعمل لقوله تعالى:

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

«الأحقاف: ١٩»

ج- والعاملون محل للتقدير دائماً: فإنه تعالى يكرمهم ورسوله ﷺ يعتز بهم، والمؤمنون يحترمونهم ويقدرونهم، كما يقول جل شأنه:

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ
وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾

«التوبة: ١٠٥»

د- والعمل مصدر للغنى والثروة والاستمتاع بالحياة: يقول تعالى:

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾

«القصص: ٧٧»

هـ العاطلون محاسبون بتقصيرهم: وقد يظن العاطلون أنهم معذورون لأنهم لا يجدون أعمالاً، ولكن الحقيقة أنهم محاسبون على عجزهم وتقاعسهم عن التماس العمل، فالآيات القرآنية صريحة في الأمر بالعمل، كما يظهر من قوله تعالى:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

«الكهف: ٧»

كما أن التماس العمل لا يكون ببقاء الإنسان في مكانه انتظاراً لوظيفة حكومية أو رزق يأتيه وهو مسترخ في بيته؛ بل إنه مأمور بالسعي والحركة وطلب الرزق والعمل حيثما يكونان، يقول تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾

«الملك: ١٥»

ويقول سبحانه:

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾

«الجمعة: ١٠»

ويقول جل شأنه مبيناً سنن الله في الكون:

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾

«النبأ: ١١،١٢»

وهذه الآية الأخيرة انقلبت موازينها في حياة المسلمين حالياً؛ فإن انتشار أجهزة التلفاز والفيديو وما شابهها جعلت أكثر الشباب يسهرون معها وينامون قبيل الفجر تاركين صلاة الفجر، بل ولا يستيقظون إلا قرب انتصاف النهار، وربما بعده، مخالفين بهذا السلوك منهج الله الذي ارتضاه لعباده من عمل بالنهار وراحة بالليل.

معالم المنهجية الإسلامية لمحاربة البطالة

أولاً: استغلال الموارد المتاحة:

يدعو الإسلام إلى الاستثمار الأمثل لأبسط الموارد المتاحة من أجل تحسين مستوى المعيشة، وتأكيد قيمة العمل، وإذا نظرنا في أحوال من يعانون الفاقة ويشتكون البطالة، وجدنا أكثرهم يعيشون في مستوى معيشة لا بأس به، ولو أنهم باعوا بعض ما يملكون واستثمروه في أي مشروع نافع لشغلوا أنفسهم وليسط الله تعالى لهم الرزق، نفهم هذا من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه الذي رواه أبو داود وغيره والذي نهى فيه رسول الله ﷺ عن المسألة، فقد أخرج أبو داود بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه[1]: «أن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ يسأله فقال: «أما في بيتك شيء»؟ قال: بلى حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه من الماء، قال: «ائتني بهما» فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده، وقال: «من يشتري هذين»؟ قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصاري، وقال:

(١) سنن أبي داود جـ ٢، القاهرة: دار الحديث ١٩٨٨، ص ١٢٢.

«اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدوماً فأتني به» فأتاه به، فشد فيه رسول الله ﷺ عوداً بيده ثم قال له: اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينك خمسة عشر يوماً؛ فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوباً وببعضها طعاماً، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة: لذي فقر مدقع، أو لذي غرم مفظع، أو لذي دم موجع».[2]

والحلس: فراش بسيط، والمراد بذي الغُرم المفظع: المدين دينا يعجز عن أدائه، والمراد بذي الدم الموجع: من لزمه دفع دية قتل خطأ، فباستثناء هذه الفئات الثلاثة: الفقراء والغارمين وذوي الديات لا يحل للمسلم بحال من الأحوال أن يسأل الناس.

ثانياً: حسن إدارة الوقت

أغلب المسلمين حالياً يسيئون إدارة أوقاتهم، ونظرة الإسلام إلى الوقت ذات أهمية كبرى فيما يتعلق بموضوعنا وهو البطالة؛ فالأصل في الشرع عدم السهر وكراهية السمر بعد صلاة العشاء لما ورد من النهي عن ذلك في السنة النبوية فكيف إذا كان السهر مصحوباً بجلسات مجون ولهو وتمضية الوقت مع الأغاني والطرب والاختلاط الماجن؟ مما يضر بالنفس والجسم والمال.

ثالثاً: العمل اليدوي شرف

إن العمل اليدوي - في أية حرفة - شرف للإنسان، لا يخجل منه إلا من كان قصير النظر، ضعيف الشخصية، خائر الإرادة، وهذا الأمر أضعف الأمة، وجعلها عالة على غيرها فهي تستورد السباك والنجار والميكانيكي والكهربائي؛ لأن شباب المسلمين يستنكفون أن يقوموا بهذه الأعمال، ويرون أنفسهم غير جديرين إلا بالإدارة والمكاتب الوثيرة، وقد نبهنا القرآن الكريم إلى أهمية العمل بصرف النظر عن نوعه فقال عن نبي الله داود عليه السلام:

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾

«الأنبياء: ٨٠»

وقال تعالى موجهاً الخطاب لداود عليه السلام:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

«سبأ: ١٠-١١»

وقال في شأن العبد الصالح ذي القرنين:

﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۝ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾

«الكهف: ٩٤-٩٧»

وأخرج ابن ماجه بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «كان زكريا نجاراً» وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم» فقال أصحابه: وأنت؟، قال:

(٢) الألباني: صحيح سنن ابن ماجة، ط٣، م٢، الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٩٨٨م، ص٧.

«نعم.. كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة» «أخرجه البخارى فى صحيحه»[٢]، أى أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يرعى الغنم مقابل أجر لأهل مكة. أفليس فى ذلك كله مقنع لشباب المسلمين لكى يتأسوا بأنبياء الله عليهم السلام ولا يأنفوا من العمل اليدوى أياً كان؟!.

رابعاً: تأمين حقوق العمال:

لقد حرص الإسلام على تأييد حقوق العمل بأن أكد مشروعية «الأجر مقابل العمل»، كما ثبت من قصة موسى عليه السلام بعدما سقى لابنتى الرجل الصالح فاقترحت إحداهما على أبيها أن يستأجره لقوته وأمانته، فاستأجره ثمانى سنوات مهراً لتزويجه من ابنته على نحو ما حكته سورة القصص. كما ثبت الأجر مقابل العمل من قوله تعالى:

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

«الكهف: ٧٧»

ومن قوله تعالى:

﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾

«الطلاق: ٦»

كما ثبت مبدأ الأجر مقابل العمل فى السنة المطهرة، لما رواه البخارى وابن ماجة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث أنا خصمهم يوم القيامة، ومن كنت خصمه خصمته: رجل أعطى بى ثم غدر، ورجل باع حراً وأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يوفه أجره»، كما أخرج ابن ماجة وغيره عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه»، ولم يستكبر الصحابة رضوان الله عليهم عن أداء العمل عند الحاجة إليه، ما داموا يضمنون الحصول على أجرهم عما يعملون. فلقد أخرج الإمام أحمد بسنده عن سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه أنه قال: «جعت يوماً جوعاً شديداً، فخرجت أطلب العمل فى عوالى المدينة «أطرافها» فإذا أنا بامرأة قد جمعت مدراً «تراباً جافاً» فظننتها تريد، بله «أى تريد أن تخلطه بالماء» فقاطعتها «أى اتفقت معها»: كل ذنوب «دلو» على تمرة، فمددت ستة عشر ذنوباً حتى مجلت «ورمت» يداى، فعدت لى ست عشرة تمرة، فأتيت النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم فأخبرته فأكل معى منها».

خامساً: التماس الحلال

والتماس الرزق الحلال، والأجر الحلال مقابل العمل، أصل من أصول الشريعة، يجب على كل مسلم أن يتمسك به، وأن يربأ بنفسه عن المطعم الحرام والمشرب الحرام، والأجر الحرام الذى لا يقابله عمل؛ لأن ما يترتب على ذلك لا طاقة له به.

والخلاصة

أن الإسلام عالج مشكلة البطالة علاجاً فعالاً ناجعاً بالحث على العمل، وقبول العمل اليدوى، واشتراط الأجر، والتماس الحلال، والسعى فى الأرض لطلب الرزق أينما كان. والله أعلم.

(٢) وانظر أيضاً: المرجع السابق نفسه ص ٦ .

التأصيل الإسلامى للمنهجية العلمية

٣

الأستاذ الدكتور / أحمد فؤاد باشا
أستاذ الفيزياء بجامعة القاهرة

ثالثاً: أولية المنهجية العلمية فى العصر الإسلامى

لعل القرآن الكريم هو الكتاب السماوى الوحيد الذى يوجب التفكير فى أسرار الكون وخفايا الوجود، ويصف المتأملين والمتفكرين والباحثين عن الحقيقة بخير ما يدل على الإنسانية السوية، ويربط بين خير العلم واتصاله بالتوحيد المطلق فى أول ما أنزل من آياته الكريمات:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

(العلق: ١-٥)

واتصال العلم بالتوحيد فى الإسلام هكذا منذ الإعلام الأول، وحياً وترتيباً واتساقاً فى آن واحد، يدلنا على أن العلم فى الإسلام أصل من أصول دين الله، وأنه وُلد فى رحم التوحيد الخالص، وينبغى أن يظل فى مكانه الصحيح لينمو نمواً طبيعياً ويكون قادراً على أن يؤتى ثماره خير الإنسان حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

كذلك أعلمنا الحق - جلا وعلا - فى جلسة الوحى الأولى أنه قد امتن على الإنسان بنعمة العلم والتفكير العلمى، وأن العالم كله، مُلكاً وملكوتاً، موضوعٌ لهذا التفكر وصولاً إلى العلم الصحيح والإدراك السليم لحقائق الأشياء، وهى رخصة واسعة المرادات، وبعيدة المدى، وكريمة العطاء، تدعو إلى أن يكون الخلق بصفة مطلقة هو المنطلق نحو الهدف الأسمى فى التعرف على قدرة الله وعظيم خلقه، فقد تحدى الله الخلق، بالخلق، لإثبات التوحيد، ولتأسيس اليقين الإيمانى على هدى وبصيرة.. قال تعالى:

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾

(الذاريات: ٢٠-٢٣)

وقال سبحانه:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(الجاثية: ١٣)

وبهذا يكون العلم الحق الذى يريده الإسلام، أيا كان موضوعه ومجال بحثه، هو العلم المحروس بالإيمان على طريق التقوى والتزكية والعمران والتنمية الحضارية.

أيضاً، أعلمنا الخبير العليم فى أول ما أُنزل من آيات القرآن الكريم أن القراءة التى يريدها الإسلام وتتميز بها الأمة الإسلامية تكون فى الكتابين العظيمين المعجزين: القرآن والكون «الخلق»، لأن أحدهما معادل موضوعى للآخر، والجمع بين قراءتيهما ضرورة تسبق كل الضرورات اللازمة لتحقيق الإعمار الحضارى وعالميته، ويكون من تدبر الإنسان للوحي ما يعينه على اكتشاف آفاق الكون وقوانينه والإفادة منها فى ترقية الحياة على الأرض، ويكون من تدبره للكون وسننه الفطرية ما يهتدى به لفهم القرآن الكريم، وفقه آياته، واستيعاب معانيه ودلالاته، واكتشاف سننه ومنهجيته الناظمة له كله، والعمل وفق مبادئه وتعاليمه السامية.. ولهذا كثرت آيات القرآن الكريم الداعية إلى التفكر والتدبر فيما يحتويه الكتابان من كنوز وأسرار.. فمن آيات القرآن الكريم الداعية إلى فهم التعاليم والحقائق القرآنية حق الفهم، وإلى حسن استيعاب المراد من الخطاب القرآنى، قوله تعالى:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾

(النساء: ٨٢)

وقوله:

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(الإسراء: ٩)

وقوله:

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا ﴾

(الإسراء: ٤١)

وقوله:

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

(الزمر: ٢٧)

ومن آيات القرآن الكريم التى تستثير فى الإنسان النظرة المتأملة المستقصية لكل ما فى الكون، وتلفت أصحاب العقول الراجحة، وذوى القلوب المؤمنة، إلى المنهج الصحيح فى التعامل مع الكون واستقراء لغته وإشاراته، باعتباره كتاب معرفة لكل مؤمن موصول بالله، وبما تبدعه يد الله، قوله تعالى:

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾

(الغاشية: ١٧ - ٢٠)

وقوله:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا

مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

(البقرة: ١٦٤)

وقراءة الآيات المبثوثة فى جنبات الكون وظواهره تتم بالاستخدام الأمثل لملكات الإدراك والعلم التى وهبها الله للإنسان لتلمس الحقائق الكونية بالاختبار والرصد والتجريب والقياس والاستدلال.. وقد أشار القرآن الكريم إلى حواس الإنسان وملكاته المعرفية فى أماكن متفرقة، فذكر «الذوق» فى قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا ﴾

(الأعراف: ٢٢)

وأشار إلى «اللمس» فى قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

(الأنعام: ٧)

وأشار إلى حاسة الشم فى قوله تعالى:

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾

(يوسف: ٩٤)

وأشار إلى السمع والبصر والفؤاد فى مثل قوله تعالى:

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(النحل: ٧٨)

وأشار إلى العلم الذى يُتلقى بالفتح من الله سبحانه وتعالى، ويعوَّل فى تحصيله على التقوى، حيث قال عز من قائل:

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(البقرة: ٢٨٢)

وليس اختراع العديد من أجهزة الاختبار والرصد والقياس سوى تعزيز وتعميق لوسائل تحصيل المعرفة فى الإنسان ذاته، فهذه الوسائل لم تتغير فى ذاتها مع التقدم العلمى والتقنى، ولكن تطورت الأجهزة التى تعزز أداءها.. ولم يكن استحداث أجيال المجاهر والمقاريب «الميكروسكوبات والتلسكوبات» بأنواعها المختلفة إلا تعزيزاً لحاسة الإبصار، بعد أن اقتحم العلم عالم المتناهيات فى الصغر، كالذرة والخلية الحية وتوابعهما، وغزا عالم المتناهيات فى البعد والكبر من كواكب ونجوم ومجرات وأجرام سماوية عديدة ومتنوعة فى أعماق الفضاء الخارجى.. ولم يكن اختراع مقاييس الحرارة «الترمومترات» سوى تعميق لحاسة اللمس، وليست سماعة الطبيب سوى تعزيز لحاسة السمع، مثلما يساعد الحاسب الآلى العقل فى إجراء العمليات الحسابية والتخطيطية المعقدة.. وسوف يستمر تطور الأجهزة العلمية مواكباً لتطور العلم، ومرتبطا فى الوقت نفسه بأصولها الثابتة كما خلقها الله فى الإنسان.

إن الإنسان بكامله، بعقله وحواسه وإرادته وبصيرته وحدسه وكل ما أنعم الله عليه به من ملكات إدراكية، هو الوسيلة الأولى التى يبدأ بها البحث العلمى وتعود إليها نتائجه، كما أن الأجهزة والأدوات التى يستخدمها ويطورها

لتعزيز قدراته وإمكاناته هي في الوقت نفسه من صنع ملكاته ومهاراته الخاصة، وبهذا يبطل أي اختزال مصطنع لوسائل المعرفة في وسيلة بعينها، مثلما يفعل العقليون والحسيون وأصحاب النزعة النقدية والنزعة الاجتماعية، وغيرهم.. ولهذا يظل فكر الإنسان وعمله نتاجاً لوسائل وملكات يتحمل مسئوليتها أمام خالقه الحكيم العليم القائل في محكم التنزيل:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾

(الإسراء: ٣٦)

ولما كانت طبيعة المعرفة العلمية تتطلب إجراء البحث والدراسات المكثفة على أجزاء محدودة جداً من الكون وظواهره، وبمعزل عن بعضها البعض، دون إلمام كاف بكل الجوانب المتصلة بموضوع البحث والمؤثرة عليه، فإن إدراك الحقيقة الكاملة المطلقة يظل دائماً هدفاً أسمى يسعى إليه العلماء من خلال عملية تصحيح مستمرة لمسيرة العلم، تتم بتكافل جهودهم وتنافسهم في السبق إلى كشوف جديدة وإلقاء الضوء على حقائق جزئية في الواقع الكوني الثابت.. وتبقى الاستزادة من العلم مطلباً إسلامياً يوافق فطرية الإنسان في حبه للمعرفة وسعيه دائماً إلى تحصيل العلم النافع.. قال تعالى:

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾

(طه: ١١٤)

وكما حث الإسلام على مواصلة تحصيل العلم النافع والاستزادة منه وحسن استخدام وسائله وأدواته، نجده في الوقت نفسه يحذر من معوقات التفكير العلمي عندما يرث العقل عن الآباء والأجداد عقيدة لا عقل فيها، أو يقتدي المرء اقتداء أعمى لأصحاب السلطة الدينية والدنيوية، أو يتورط بالاستناد إلى ألفاظ اللغة وأوهامها، فينسى أنها وضعت للصور الذهنية قبل أن توضع للأعيان الخارجية.. وهذا هو جوهر تحرير إرادة الباحث عن الحقيقة من أي مؤثرات وأحكام تتناقض مع النزاهة والأمانة والموضوعية المطلوبة في البحث العلمي.. قال تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

(البقرة: ١٧٠)

إن مثل هذا الباحث يكون أكثر تهيؤاً للتعامل مع الواقع، مستخدماً منطق العقل وقوانين الفطرة الصافية، إذا ما اعتمد على مقدمات وشواهد علمية صحيحة صالحة للبرهان والحكم على أساس العلم لا على أساس الجهل أو الظن، استرشاداً بقوله تعالى:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾

(الإسراء: ٣٦)

وإن شئنا تحديداً لبدايات تطبيق المنهج العلمي القرآني، فإن فكرة القياس الأصولي نشأت في عصر النبي ﷺ، وفي عصر صحابته رضوان الله عليهم، وتحت تأثير القرآن نفسه.. كما وضعت قواعد للقياس وشرائط للعلم..

يقول «الزركشي» صاحب «البحر المحيط»: «إن الصحابة تكلموا في زمن النبي ﷺ في العلل».. ولقد نشأ القياس الأصولي وتطور إلى نوع من الاستقراء العلمي الدقيق القائم على مبدأي العلّية والاطراد في وقوع الحوادث.. وانتقل هذا المنهج الإسلامي التجريبي من الفقه إلى العلم، ومن القانون إلى التطبيق.

ويؤصل العلامة ابن خلدون لأولية المنهج التجريبي الاستقرائي في العلوم النقلية، قبل انتقاله إلى العلوم الكونية والإنسانية بقوله في المقدمة: «وأصل هذه العلوم النقلية كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة التي هي مشروعة لنا، من الله ورسوله، فلابد من النظر في الكتاب ببيان ألفاظه أولاً، وهذا هو علم التفسير، ثم بإسناد نقله وروايته إلى النبي ﷺ الذي جاء به من عند الله، واختلاف روايات القراء في قراءته، وهذا هو علم القراءات، ثم بإسناد السنة إلى صاحبها والكلام في الرواة الناقلين لها، ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ليقع الوثوق بأخبارهم بعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك، وهذه هي علوم الحديث، ثم لابد من استنباط هذه الأحكام من أصولها من وجه قانوني يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط، وهذا هو أصول الفقه، وبعد هذا تحدث الثمرة بمعرفة أحكام الله في أفعال المكلفين، وهذا هو الفقه، ثم النظر في القرآن والحديث لابد أن تتقدمه العلوم اللسانية لأنه متوقف عليها، وهي أصناف، فمنها علم اللغة وعلم النحو وعلم الأدب، ثم يقول: «واعلم أن أصول الفقه أعظم العلوم الشرعية وأجلها قدراً، وأكثرها فائدة وهو النظر في الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتكاليف.. وأصول الأدلة الشرعية هي الكتاب الذي هو القرآن ثم السنة المبينة له».. ويقول صاحب المقدمة أيضاً: «إن كثيراً من الواقعات لم تندرج في النصوص الثابتة، فقاسها الصحابة بما ثبت، وألحقوها بما نص عليه بشروط في ذلك الإلحاق تصحح تلك المساواة بين الشبيهين أو المثلين، حيث يغلب على الظن أن حكم الله تعالى فيهما واحد، وصار هذا دليلاً شرعياً بإجماعهم، وهو القياس»[1].. لهذا يمكن القول بكل ثقة وموضوعية: إن نشأة العلم الإسلامي وفلسفته تدين لأرباب العلوم النقلية، وخاصة علماء الفقه، ابتداء بإمام الرأي، أبي حنيفة النعمان (ت ١٥٠هـ) وصاحب الموطأ مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) ومن تبعهما. إلى جانب إخوانهم علماء الطبيعيات والفلك والرياضيات، ابتداء بجابر بن حيان والكندي والخوارزمي ومن جاء بعدهم، الذين أحسنوا استخدام منهج النظر الإسلامي في تحصيل كل ما هو جديد ومفيد، وقدموا للحضارة الإنسانية رصيداً هائلاً من كتب وأبحاث واكتشافات واختراعات، لولاها لتأخر سير المدنية إلى ما شاء الله.

(١) د. أحمد فؤاد باشا: في فقه العلم والحضارة، سلسلة قضايا إسلامية (ع ١٠٢)، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

خطبة الجمعة

العمل فى الإسلام

للأستاذ الدكتور/ أحمد الشرباصى
- رحمه الله -

الحمد لله تبارك وتعالى، هو القائم على كل نفس بما كسبت، المجازى لها بما عملت:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ **(طه: ١١٢)**

أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله:

﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ **(الأعلى: ٢-٣)**

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله خير من حمل لواء العلم والعمل وفتح أبواب الرجاء والأمل، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه، وجنوده وحزبه:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ **(الرعد: ٢٩)**

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام: ليس فى الدنيا كلها عقيدة أو شريعة كرمت العمل ودعت إليه وحثت عليه ونوهت به مثل الإسلام، ويكفينا هنا

دليلا إجماليا أن دين الله أقام أساسه على دعامتين رئيسيتين هما الإيمان والعمل، وقال القرآن فيما قال:

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

(الكهف: ١١٠)

وقال:

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(التوبة: ١٠٥)

ولم يطلب الإسلام مطلق عمل، بل حدد نوعية العمل، وشرط أن يكون عملا صالحاً طيباً، وأخبر أن العمل الصالح سيكون خيرا للإنسان، وأن العمل السيء سيكون وبالا عليه، فقال القرآن الكريم:

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾

(فصلت: ٤٦)

ولايكاد الإيمان يذكر فى القرآن حتى يقترن به العمل الصالح، حتى تكررت فيه عبارة:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

أكثر من خمسين مرة، ووعد الله جل جلاله بوفاء الأجر وإكمال الجزاء والثواب لهؤلاء العاملين الصالحين فقال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾

(الكهف: ٣٠)

ويقول:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾

(فصلت: ٨)

أى غير مقطوع، وإذا كان العمل يحتاج إلى رقابة ومتابعة وتقويم، فإن الله عز شأنه قد أقام من ذاته القدسية رقيبا على هؤلاء العاملين، يحصى عليهم أنفاسهم وأقوالهم وأعمالهم، ولذلك يقول القرآن:

﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

(البقرة: ٧٤)

ويقول:

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

(البقرة: ١١٠)

ويقول:

﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾

(هود: ٩٢)

ويقول:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾

(إبراهيم: ٤٢)

ولقد جعل الإسلام أى عمل يقوم به الإنسان أمانة بين يديه يسأله عنها فيدقق السؤال يوم لقائه، ولذلك يقول سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهله، وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته، والرجل راع فى مال أبيه ومسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسئول عن رعيته»[1] والراعى هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما أؤتمن على حفظه فهو مطالب بالعدل فيه والقيام بمصالحه بل لقد قال العلماء إن الرجل المنفرد الذى لا زوجة له ولا خادم يصدق عليه أيضاً أنه راع، لأنه مطالب شرعاً بأن يكون راعياً على نفسه وجوارحه، حتى يعمل المأمورات، ويتجنب المنهيات فعلا ونطقاً واعتقاداً، فجوارحه وحواسه وقواه هى رعيته التى وكل الله إليه رعايتها وصيانتها، والحساب بين يدى الإنسان دقيق عميق:

﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾

(الأنبياء: ٤٧)

والرسول يقول: «إن الله سائل كل راع عما استرعاه»[2] وهو ينذر كل مفرط فى رعيته كثرت أم صغرت، عمت أم انفردت، فيقول: «ما من وال يلى رعيته من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة»[3].

وأرشد الإسلام إلى أن الله جل جلاله لا يحب العمل المتقطع، أو المبتور أو الناقص، بل يحب العمل الحسن المتقن، الكامل الموصول، ولذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «إن الله عز وجل يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه»[4] ويقول: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»[5] وتقول السيدة عائشة رضى الله عنها: «كان أحب الأعمال إلى رسول الله ﷺ أدومها وإن قل»[6]. وكذلك روى الإمام البخارى أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه «كان يعجبه الدائم من العمل». وليس فى الإسلام أى ظل للمحاباة أو الاستثناء من شرعية العمل، وكل فرد فى الأمة يمكن أن يسهم بأداء عمل مهما كان قليلا أو محدودا، وتنوع الأعمال يناسب تنوع الملكات والطاقات، وهذا رسول الله ﷺ يعطى القدوة فى الحرص على العمل، وهو لا يكتفى مع أنه سيد الأمة وخير الناس بالاشتراك فى العمل، بل

١. مسند أحمد. ٢. سنن الترمذى. ٣. صحيح البخارى. ٤. المعجم الأوسط. الطبرانى.
٥. مسند أحمد. ٦. مسند أحمد.

يسبق إليه ويجتهد فيه حتى يكون مثلا وقدوة، ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يخجلون كلما رأوا نبيهم يسبقهم فى العمل وبذل الجهد فيرددون قولهم:

لئن قعدنا والنبى يعمل

لذلك منا العمل المضلل

وكان يدفع بأهل بيته دفعاً - وهو أشرف البيوت وأعلاها وأزكاها إلى العمل، نساء ورجالا، فكان يقول لفلذة كبده وحشاشة قلبه فاطمة الزهراء «يافاطمة، اعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً» ويقول لآل بيته «يا آل بيت محمد، لا يأتينى الناس، بالأعمال وتأتونى بالأنساب، اعملوا فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئاً»[7] وكان الله تعالى قد أراد حكمة بليغة حين كتب على نبيه رعى الغنم وهو فى شبابه حتى قال الرسول: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم»[8] فإن رعى الغنم يحتاج إلى يقظة وانتباه، وإلى صبر وأناة، وإلى فعالية واحتمال، ورعى الغنم يعلم الإنسان التواضع، فإذا أدب نفسه برعى الغنم لم يجد أى غضاضة فى أن يقوم بعمل آخر من الأعمال.

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام: إن الإسلام يحذر الولاة من الاعتساف والانحراف، فيقول الرسول ﷺ: «إن شر الرعاة الحطمة»[9] ويأمر الرعية بالطاعة فى الحق والعدل، ولذلك يقول الحديث: «إنما الطاعة فى المعروف»[10] وعلى الجميع أن يستجيبوا لأمر الله وتوجيهه: فإن الإمام عليا يقول:

«اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل».

وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم.



٧- صحيح مسلم بلفظ: عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤) - «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا بنى عبدالمطلب لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبدالمطلب لا أغنى عنك من الله شيئا، يا صفية عمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا أغنى عنك من الله شيئا، يا فاطمة بنت رسول الله سلينى بما شئت لا أغنى عنك من الله شيئا».

٨. صحيح البخارى.

٩. شعب الإيمان.

١٠. صحيح البخارى.

المسلم المعاصر وفقه الدعوة إلى الإسلام

للأستاذ الدكتور/ عبد الحليم عويس

للدعوة ثوابت.. في العقيدة والشريعة والأخلاق والإطار الحضاري.. لا يجوز المساومة عليها.. فبدونها يتعرض الإسلام - في ركائزه وشعب إيمانه - إلى فوضى.. ويصبح خليطا من القيم والتصورات المتناقضة التي يهدم بعضها بعضا.. وتتلاعب بها عقول اللاعبين.. وأهواء المنافقين.

● وهذه الثوابت بعيدة عن تقلبات العصور والأماكن إلا في أساليب عرضها، وآليات نشرها، وفقه عرضها.

● بيد أن هناك مساحة أخرى تتصل بفقه الدعوة، وفقه الداعية، تبقى قابلة في كل عصر للتطوير والتحديث، بل إنها لتختلف من مخاطب إلى مخاطب آخر، ومن بيئة إلى بيئة أخرى، فما يقال في قرن مضى قد لا يقبله الناس اليوم، وما يخاطب به أهل البادية والريف قد يختلف عن خطاب أهل الحضارة والثقافة وهكذا.

● ونحن نرى أن (الداعية المعاصر للإسلام) يحتاج إلى زاد كبير، وفقه عميق بالإسلام، وبوسائل عرضه ونشره، كما يحتاج إلى فقه كبير بالعصر الحديث بقاراته التي تختلف ثقافياً واقتصادياً واجتماعياً.

● وإذا كانت آليات البلاغ قد تطورت تطوراً معروفاً من خلال الإذاعات والشاشات المرئية والإنترنت وغيرها من وسائل الإعلام والدعوة؛ فإن الداعية المعاصر في حاجة إلى الفقه والوعي والثقافة التي تمكنه من تقديم الإسلام تقديماً يعبّر - بجلاء والتزام - عن ثوابت الوحي، لكنه - في الوقت نفسه - يحسن الدخول الجيد إلى (العقل المعاصر) لكل ما يحتشد به هذا العقل من أفكار وتصورات وأنماط حياة.

● وفي النقاط التالية نقدم بعض المنطلقات والمعالم المتصلة بفقه الداعية - والدعوة - والتي نراها ضرورية للداعية المعاصر للإسلام.

الدعوة للإسلام.. إحياء للفطرة:

● على الداعية أن يفقه الصلة العميقة بين حقائق الإسلام والفطرة الإنسانية، وبالتالي فعليه أن يخاطب الكيان الإنساني كله، وليس العقل وحده، وأيضا ليس العاطفة وحدها.. وعمل الإسلام الأكبر إعادة الإنسان إلى فطرته النقية التي فطر الله الناس عليها.

● وليس بالشريعة - أو القانون - يصنع الإسلام الحياة ويقود الإنسانية.

فالإسلام - ابتداء - دين الفطرة وكل مولود - في نظره - يولد نظيفاً طاهراً لا يحمل أي نجاسة سابقة وليس مسئولاً عن أي شيء قبل بلوغه.

● فالإسلام قبل أن يضع القوانين، وبعد أن يرسي أساس الربوبية - يقيم دعامات أخرى إنسانية تشيع بين الناس أواصر الرحمة، والحب، والتسامح، والفضل، والتعاون، ومراقبة الضمير، وخشية الله، إلى غير ذلك من المعاني الكريمة.

● والآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تؤكد هذه المعاني أكثر من أن تحصر.. بل إن أبرز معالم الصياغة الإنسانية للمجتمع في المنهج الإسلامي تؤكد على إيمان الإسلام (بنظافة الفطرة الإنسانية) وبأنه لم تولد آثمة أو خاطئة، وبأن ما يلحقها من عيوب إنما هو حصاد تأثرها بأوضاع غير كريمة في المجتمع تطورت - وتأكدت - عبر العصور، وبأن الإسلام يعتمد في تشريعاته على هذا الرصيد الكريم للفطرة، ويحاول تحريك الإنسان بالإرادة الذاتية من داخله، قبل أن يقوده بسلاسل القانون من خارجه..

قال تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

(الرعد: ١١)

وقال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾

(العنكبوت: ٦٩)

● ويضاف إلى موقف الإسلام من التناغم مع الفطرة، موقف الإسلام من جوانب الإنسان الفطرية بالطرق الحلال، وتصعيد كل غرائزه، وليس كبتها أو حرماتها بالرهبانية المبتدعة أو الزهد الكاذب، فالإسلام منهج للحياة حسب قوانين الطبيعة التي سنها الله لخلقه، وما عمله الأسمى سوى التوفيق التام بين الوجهتين الروحية والمادية في الحياة الإنسانية) كما يقول اليهودي المهتدى إلى الإسلام محمد أسد - رحمه الله.

● وينبني على هذا إعطاء الإسلام كل ذي حق حقه، في توازن، وبلا إفراط أو تفريط، فللرجل حقه كإنسان، وللمرأة حقها، وللابن حقه، وللأب حقه، وللضيف حقه، وللمريض حقه، وللعاجز حقه، وللفقراء والمساكين واليتامى والمعوقين وأشباههم حقوقهم، فالإسلام للجميع؛ لأنه للإنسان لمجرد أنه إنسان.

السنة والسيرة هما الترجمة الواقعية للقرآن

لينطلق الداعية من حفظ القرآن وفقهه - أو تفسيره - إلى ربط القرآن بالحياة الواقعية، وهنا سيعود الربط الكامل بين القرآن الكريم والسنة الصحيحة، ولو لم ير المسلمون في رسول الله (قرآناً يعيش بينهم)، لما وجدوا النموذج العملي الذى يُحوِّل لبناتهم ليكونوا - بحق - خير أمة أخرجت للناس فليس بالفكر والتنظير وحده يمكن تغيير الأفراد والمجتمعات.

أجل: إن السنة النبوية الشريفة هي السلوك الحيّ والتطبيق - بل التفسير الأول العملي - للقرآن، فهي الدليل (الواقعي) الذى قدمه الرسول - عليه الصلاة والسلام - قولاً وعملاً على أن الإسلام دين سماحة ويسر وقابلية كاملة للتطبيق من كل الناس.

ومنذ أربعة عشر قرناً من الزمان والسنة تمثل المفتاح الذى يفهم به أسلوب الحياة الإسلامية، ويفهم به سبيل العودة إليها، وطريق النهضة الإسلامية بوجه عام.

أليست هي (المثال) الذى أقامه لنا الرسول من أعماله وأقواله؟

أليست هي التفسير الأول الصحيح للقرآن الكريم؟

وبالإضافة إلى ذلك فإن السنة تقوم بدور ذى ثلاث شعب:

فهي تمرن الإنسان بطريقة فردية منظمة على أن يحيا الإنسان دائماً في حال من الوعي الداخلي والضبط واليقظة (اعبد ربك كأنك تراه)، وهو إذا فعل ذلك يقدم بعمله وسلوكه رسالة دعوية مستمرة ومتجددة لكل الناس رسالة السلوك الفردي القدوة!!

وهي تمرّن الإنسان على أن يكون نافعاً اجتماعياً، وإيجابياً في مواجهة العادات والتقاليد، ومتماسكاً مع مجتمعه الصغير والكبير.. وهي - أيضاً - رسالة دعوية اجتماعية مستمرة ومتجددة.

وهي تجعل من إشعاعات الرسالة، الممثلة في سلوك الرسول وصحابته حقيقة يمكن أن يتمثلها المسلم العادى الصغير الموجود في تركيا، أو باكستان، أو الجزيرة العربية، أو إندونيسيا، أو مصر، أو إيران، فكلهم يستطيع أن يتمثل - مع اختلاف في مستوى التمثيل - شخصية أعظم مثل أعلى في التاريخ وهو محمد.

- فالربط الكامل بين القرآن (الدستور والفكر) والسنة (النموذج والحياة الواقعية) من ضرورات فقه الدعوة في هذا العصر الذى كثر فيه الكلام وقل العمل والصدق والقدوة!!

الدعوة رسالة بشر ممتازين لا ملائكة معصومين

● إنسانية الإنسان وكرامته وواجباته وحقوقه، وحقوق الله وحقوق العباد، هي المحيط الذى يتحرك فيه الداعية ليصنع ناساً ممتازين - في نطاق البشرية - لا ملائكة ولا رافضين للحياة أو

مدمرين لها.

● ولقد يظن بعض الناس أنه من المفروض على الأنبياء أن يحولوا البشر إلى ملائكة، وأن أتباع الأنبياء يجب أن يخرجوا من نطاق بشريتهم!!

● وهذا في الحقيقة من الظن الباطل فليس من الممكن ولا من المطلوب إخراج الناس عن طبيعتهم، بل المطلوب، إعادتهم إلى فطرتهم بعيداً عن الزيف الفكري والحضاري اللاديني.

● وكل ما تصنعه المبادئ الرفيعة في رحلة التاريخ - وعلى رأسها الإسلام - أنها تجعل الإيقاعات البشرية متناغمة لا متنافرة، وأنها تحول دون أن تقضي الشوائب والسلبيات على نهر الحياة الإنسانية فيبقى الشرّ - وبخاصة في مراحل الازدهار - محصوراً في جوانب قليلة، وفي دائرة الشذوذ، بينما يمتد الخير إلى معظم المساحة الإنسانية، ويمثل بالتالي قاعدة الحياة الإنسانية.

● إن المجتمع الذى لا أخطاء فيه ليس مجتمعاً إنسانياً، ومثل هذا المجتمع لم يوجد ولا يمكن أن يوجد في التاريخ البشري.

● والفترة التي وجد فيها الأنبياء - عليهم السلام - ولا سيما في لحظات انتصارهم وسيطرة مبادئهم هي أعلى المراحل التي يمكن أن تصل إليها البشرية.

● إنها المثال الذى تضعه العناية الإلهية في (نموذج تاريخي) واقعي لكي تبقى البشرية متفائلة مقاومة للشر، ساعية إلى الوصول إلى أقرب نقطة ممكنة من هذا المثال الحي الواقعي.

وليس في طريق الطبيعة الإنسانية أن يقوى الناس جميعاً - أو أكثرهم - على الوقوف طويلاً في القمة والتشبث بمواقع البطولة والمثال.

كما أنه ليس مطلوباً من كل الناس أن يكونوا في مستوى أبي بكر الصديق الذى يتبرع بكل ماله - إن أبا بكر الصديق مجرد نموذج للمثال - أما المستوى المتناغم مع الطبيعة البشرية فهو المستوى الذى حدده الرسول - عليه الصلاة والسلام - عندما منع سعد بن أبي وقاص من أن يتصدق بكل ماله، بل طلب منه أن يذر ورثته أغنياء لا يتكففون الناس، وحسبه أن يهب ثلث ماله.. بل إن الثلث كثير!!

ونموذج الأنصار الذين مدحهم الله في القرآن الكريم أرفع درجة في التاريخ - الإيثار بالمال والأرض - هو أيضاً مجرد نموذج للمثال الذى يقدم أروع صورة تستطيع البشرية أن تقترب منها، وليس شرطاً أن تكون في مستواها، فيصبح كل مسلم قادراً أن يقول لكل مسلم: انظر أىّ مالي أطيب فخذه، أو انظر أىّ زوجتي شئت فأطلقها لتتزوجها!!

إن هذا المستوى يمثل النموذج الإنساني الذى يمكن أن يرتفع إليه البشر، إنه (مستوى القمة والمثال) وليس من الموضوعية أن يحاكم التاريخ البشري بأقوى مما تطيقه (البشرية).

مازال الناس يعيشون حالة التفاؤل والانشراح والفرح، ابتهاجا بما منّ الله عليهم من استجابة دعائهم، وتغيير أحوالهم، وهذه الحالة من التفاؤل والانشراح والفرح حق منحه الله أولياءه وفضل أكرمهم به.

فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ



الأستاذ الدكتور/ حمدى فتوح والى

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

(يونس: ٥٨)

وهذا التغيير الذى أحدثه الله فى حياتهم يمثل شهادة من ربهم بأن نفوسهم قد نضجت وأرواحهم قد اشتاقت وقلوبهم قد تعلقت. وعزائمهم قد اجتمعت، ونياتهم قد انعقدت على ضرورة التغيير، فكانت تلك الحال جديرة بتحقيق وعد الله لهم، وتعجيل فضل الله عليهم الذى وعدهم به فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾

(الرعد: ١١)

وتحقق الجواب الذى هو بيد الله «وهو التغيير» يؤكد لنا تحقق الشرط وهو «تغير النفوس» واستحقاقها لعطاء الله، وهذا أمر يستوجب حسن النظر ودقة التأمل والارتفاع إلى مستوى المراد من فعل الله تبارك وتعالى فالتغيير الذى أحدثه الله لنا، وأسعد به نفوسنا، ليس مجرد منحة تمثل نهاية الأمر وتمام النعمة، وإنما هى انتقال من حال إلى حال إنها نقلة من حالة الضعف إلى القوة والحرية والأمان والاعتزاز، وهذا يعنى أن العذر الذى كان قائمًا ومقبولاً لدى قطاع كبير من الأمة، لم يعد له مجال الآن، لكن الجانب الآخر لهذه النعمة هى نظر الله إلينا واطلاعه علينا وإحاطته بنا ورضاه عنا إن أحسنا أو سخطه إن أسأنا؛ فهى حالة اختبار وابتلاء وليست حالة تمكين واصطفاء، بدليل انفتاح الحياة أمام جميع الاتجاهات لينتصر كل فريق لدعوته. ويمكن كل مجتهد لوجهته:

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(البقرة: ١٤٨)

إنها حالة من تهيؤ الأسباب، وإزالة العوائق، وفتح الميدان ليتسابق فيه الناس جميعًا

﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾

(المطففين: ٢٦)

والقرآن الكريم يلفت أنظار المؤمنين إلى مثل هذا الحال فى تجربة من تجارب السابقين، عندما شكا بنو إسرائيل إلى نبيهم موسى شدة إيذاء فرعون لهم وتحامله عليهم وكيف أنه استجاب لبطانة السوء الذين أغروه بالفئة المؤمنة فمضى يمارس عليهم أنواع تنكيله وتعذيبه، ولقد سجل الحق تبارك وتعالى هذا الحوار ونقله إلينا فى قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ۝ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

(الأعراف: ١٢٧، ١٢٩)

فانظر يا أخى إلى مراد الله من إهلاك عدوهم، وإتاحة الفرصة لهم وأيلولة الأمور إلى أيديهم، وكيف أن ذلك كله ليس بقصد الإنعام وإنما بقصد الابتلاء والاختبار:

﴿ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

(الأعراف: ١٢٩)

وتأمل معى كيف اختار الحق تبارك وتعالى النظر إلى كيفية العمل وليس النظر إلى «كمه» أو «نوعه» فقد يكون العمل كثيرًا وكبيرًا لكنه غير خالص - أو غير هادف - أو غير مجد فيفسده الرياء أو الطيش وسوء القصد أو العبث وغياب التخطيط.

«إنه ينظر بقلب النبى فيرى سنة الله، تجرى وفق وعده للصابرين وللجاحدين!

ويرى من خلال سنة الله هلاك الطاغوت وأهله، واستخلاف الصابرين المستعينين بالله وحده، فيدفع قومه دفعا إلى الطريق لتجرى بهم سنة الله إلى ما يريد.. وهو يعلمهم - منذ البدء - أن استخلاف الله لهم إنما هو ابتلاء لهم، وليس جزافًا بلا غاية، وليس خلوداً بلا توقيت، إنه استخلاف للامتحان والاختبار:

﴿ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

وهو سبحانه يعلم ماذا سيكون قبل أن يكون، ولكنها سنة الله وعدله ألا يحاسب البشر حتى يقع منهم فى العيان

ما هو مكشوف من الغيب لعلمه القديم»[1] ومن هنا ندرك أن الابتلاء بالنعمة والتمكين وخلو الساحة أشد وقعًا وأخطر أثرًا من الابتلاء بالشدة والتضييق، ففي الأولى يطلب السعي الدءوب والتخطيط الحكيم والمتابعة الجادة، وهذا لا يتأتى إلا بالإيمان العميق والتكوين الدقيق والعمل المتواصل. أما الثانية فإن الأمر فيها لا يحتاج إلى غير الصبر والثبات حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين، وقد يسأل سائل وماذا يمكن أن يقع لو لم تحسن استثمار فرصة التغيير وتهيئ النفوس للانتقال إلى التمكين؟ والجواب نراه واضحًا جليًا في قول ربنا سبحانه:

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

(الأنفال: ٥١ ـ ٥٢)

ومن يتأمل الآيات الكريمات يدرك أن الله تبارك وتعالى أعطانا نعمة التغيير وهو يرقب أعمالنا ويرصد إخلاصنا وسعينا، فإن صدقنا العمل وأريناه من أنفسنا ما يرضى به عنا، أتم علينا نعمته وأسبغ علينا رحمته، وإن كانت الأخرى فرأى منا تقاعسًا وإحجامًا، وتفرقًا وخصامًا، وانشغالاً بحظوظ النفوس عن القيام بحقوق الله وكلنا إلى أنفسنا، وسلط علينا شرار خلقه فملكوا رقابنا واستباحوا أرضنا وهتكوا أعراضنا وعاثوا في الأرض مفسدين «فإذا تساءلنا في دهشة عما أصابنا رأينا الجواب واضحًا في قول ربنا:

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

(آل عمران: ١٨٢)

إن مصر اليوم على مفترق طريق وعليها أن تختار: بين دولة مصرية الوطن والانتماء عربية اللغة والإباء إسلامية المنهج ربانية الولاء، وبين دولة علمانية الوجهة ضائعة الهوية، باهتة الولاء، فاقدة الانتماء، يتعصب كل فصيل فيها لفكرته وينتصر لنحلته، كما نرى في كثير من البلدان.

إن مصر التي شهدت أقدم حضارات الأرض ـ وماتزال تحتضن باعتزاز وإكبار كل شواهد الحضارات التي احتضنتها، من معابد فرعونية ـ وتماثيل رومانية، وكنائس مسيحية، وآثار يهودية، وهي تمارس الإسلام عقيدة وعبادة وشريعة ونظام حياة على مدى خمسة عشر قرنا من الزمان، وهي تملك القرار المطلق في كل أمورها دون خوف أو خشية من أية

(١) في ظلال القرآن ج٣ ص١٣٥٥.

قوة أرضية على مدى تلك الأزمان، هي مصر التي نرجو عودتها اليوم عائدة لهويتها ممارسة لعقيدتها، حارسة لحضارتها هاضمة لكل ما حولها من ثقافات وحضارات.

إنني أعجب لتصرفات بعض الحمقى الذين يظنون أنهم أغير على الإسلام من سلفنا الصالح، منذ دخل الإسلام أرض مصر المباركة، وحضرت إلى مصر جيوش الفاتحين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأوا ما فيها من معابد وكنائس وتماثيل وأحجار، وما سمعنا أن همة واحد منهم توجهت إلى هدم تمثال، أو نقض معبد، أو تحطيم أثر أو نبش قبر، أو تحويل قضية العقيدة إلى تكسير أحجار، وإنما رأينا همتهم تتجه إلى تعبيد الناس لخالقهم، وربطهم بربهم، وتعريفهم بوحدانية الله دون شريك أو نظير.

إنني أقدر نبل المقصد، وبراءة الدافع إلى تلك الأفعال، لكنني أذكر أن حسن النية، وبراءة القصد لا تكفي وحدها لإحقاق الحق والوصول إلى رضا الله.

وإلا كان الخوارج في شدة غيرتهم، وعمق يقينهم أعظم الصحابة إيمانًا وأسبقهم منزلة عند الله، لكنا نعلم قول رسول الله فيهم: «إن أحدكم يحقر صلاته إلى صلاتهم، وعبادته إلى عبادتهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية»[2] إن الله تبارك وتعالى جعل الحكمة شرطًا في الدعوة قبل شرط الموعظة والجدارة في الحجاج والجدال يقول تعالى:

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

(النحل: ١٢٥)

إن هؤلاء الطيبين المخلصين يقدمون فرصة ذهبية لأصحاب المشروع العلماني ليتخذوا هذه الأفعال ذريعة يعيبون بها الإسلام، ويضللون بها العوام، ويفسدون بها ما يقدمه الحكماء والعلماء من الدعاة إلى الإسلام.

إن الأمة كلها مدعوة اليوم لكي ترى الله سبحانه وتعالى منها ما يرضى به عنها وما تستحق به نعمته التي من بها على الضعفاء من عباده بقوله:

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾

(القصص: ٥، ٦)

(٢) مسند أحمد بلفظ: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حلف واجتهد في اليمين قال «لا، والذي نفس أبي القاسم بيده ليخرجن قوم من أمتي تحقرون أعمالكم مع أعمالهم يقرءون لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية».

مِصرُ انهضي





الشاعر/ أحمد محرم

مصرُ لنا منذُ القِدم ... رمزُ الجلالِ والعِظمْ

مصرُ انهضي يحيا العَلَمْ

دانت عصورٌ ودُوَلْ ... منذُ الفراعينِ الأُوَلْ

ومصرُ مصرُ لم تزلْ ... قائمةً منذ الأزلْ

تروي أحاديثَ الأُمَمْ

أمُّ العلومِ والفنونْ ... سادَ بنوها الأولونْ

وكما كانوا نكونْ ... إنّا عليها قائمونْ

نرعى العهودَ والذِّمَمْ

مصرُ العَتادُ والسَّنَدْ ... لوالدٍ وما ولَدْ

ما خانها منّا أحَدْ ... عاشتْ لنا إلى الأبَدْ

عاشتْ لنا تُسدي النِّعَمْ

مصرُ لنا منذ القِدَمْ ... رمزُ الجلالِ والعِظَمْ

مصرُ انهضي يحيا العَلَمْ

نُحبُّ مصرَ مُخلصينْ ... ونفتديها أجمعينْ

فيها حَيينا مُكرَمينْ ... وهي الحياةُ للبنينْ

هي الوجودُ والعدَمْ

نبني لها خيرَ البناءْ ... نعلو بها إلى السماءْ

ندينُ فيها بالوفاءْ ... ومصرُ أولى بالفداءْ

هي الحِمى وهي الحَرَمْ

المجدُ علمٌ وعَمَلْ ... نطلبُهُ بلا مَلَلْ

قال السُّها على مَهَلْ ... هيهاتَ فالأمرُ جَلَلْ

النصرُ جِدٌّ واعتزامْ

مصرُ لنا مُنذ القِدَمْ ... رمزُ الجلالِ والعِظَمْ

مصرُ انهضي يحيا العَلَمْ

نَصْدُقُ في آمالنا ... نَجِدُّ في أعمالنا

نحمي حِمى استقلالنا ... ليس لدى أبطالنا

سوى الإباءِ والشَّمَمْ

نقضي لمصرَ سُؤْلَها ... نُولي الجميلَ مثلَها

وكيف ننسى فضلَها ... نحن لها نحن لها

نحن لها خيرُ الخدَمْ

دستورُنا الحِصنُ المنيعْ ... وجيشُنا فوقَ الجميعْ

نرعاه جُهدَ المُستطيعْ ... في جاهِهِ العالي الرفيعْ

يعلو ويعتزُّ الهرَمْ

مصرُ لنا منذ القِدَمْ ... رمزُ الجلالِ والعِظَمْ

مصرُ انهضي يحيا العَلَمْ

***

حوار مع جارودى:

أخطاء الأصولية؟ أم أخطاء جارودى؟؟







الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة
عضو مجمع البحوث الإسلامية

يرى «جارودى» أن شريعة الإسلام محض «أخلاق» لا علاقة لها بالقانون.. وأن الفقهاء المسلمين ـ وكذلك حركات ودعوات الإحياء الإسلامى ـ التى يسميها «الأصوليات الإسلامية» قد خلطت بين «الشريعة» ـ التى هى «أخلاق» ـ وبين «الفقه» ـ الذى فيه القانون ـ.

وإذا كان جارودى قد سار فى هذا الخطأ على منوال آخرين من ذوى العلم الإسلامى القليل! فإن من الأهمية بمكان ـ تقديراً لمكانة الرجل ـ أن ندير معه ـ حول هذه القضية ـ حواراً، توجزه فى سبع ملاحظات:

أولها: أن هناك علاقة حقيقية وعروة وثقى بين «الشريعة» التى هى وضع إلهى ثابت، وبين «الفقه ـ القانون» الذى هو الاجتهاد البشرى، المتغير، والمحكوم بالشريعة الإلهية الثابتة.. وهذه العلاقة هى وسط بين «الوحدة ـ والخلط» وبين «الفصل ـ والمغايرة».. فالشريعة الإلهية الثابتة، القليل منها أحكام جاءت فى القضايا الثوابت، والأغلب فيها فلسفة تشريع، ومعايير تقنين، وقواعد فقه، ومبادئ ومقاصد هى أُطر كلية للاجتهاد الفقهى، تحفظ الإسلامية الدائمة والكاملة للقانون المتطور عبر الزمان والمكان.. فالفقه والقانون محكوم بقواعد الشريعة ومبادئها ومقاصدها، ينمو ويتطور ويتغير، ليلبى حاجات ومستجدات الواقع والمصالح المتجددة، دون أن يخرج من إطار الكليات الشرعية، وفلسفة الإسلام التشريعية، والمبادئ والقواعد والمقاصد التى جاء بها الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.. فالعلاقة بين «الشريعة» وبين «الفقه» هى علاقة «التمايز» لا «الوحدة.. والمماثلة» ولا «الفصل.. والمغايرة».. فليس الفقه هو الشريعة، ولا كل الفقه شريعة، وكذلك لا يغاير الفقه الشريعة، ولا ينفلت من مبادئها وقواعدها ومقاصدها، ولا يتحرر من فلسفتها فى التشريع.. إنه اجتهاد بشرى لفقهاء ملتزمين بالشريعة، وليس مطلق قانون وضعى وضعه مطلق فقهاء!

وثانيها: أن الطابع الأخلاقى للشريعة الإسلامية، لا يعنى مغايرتها للطابع القانونى، ولا انعزالها عن الفقه.. وإنما هو نابع من كونها شريعة إلهية، تبتغيا تنظيم الدنيا، لا باعتبار هذا التنظيم هو الغاية العليا والمقصد الأخير، وإنما باعتبار أن صلاح الدنيا هو السبيل إلى سعادة الآخرة.. فالبعد الأخلاقى، والطابع الأخلاقى: خصيصة ملازمة للقانون والفقه الإسلامى، يميزه عن الفقه والقانون «العلمانى ـ اللادينى» الذى يتغيا المنفعة الدنيوية وحدها، بصرف النظر عن الضوابط الأخلاقية للتصرفات وللقوانين الحاكمة لهذه التصرفات.. فالقانون الوضعى البشرى، المتحرر من الشريعة الإلهية، هو «سياسة عقلية» ـ بتعبير ابن خلدون ـ يتغيا تحقيق مصالح الدنيا ومنافعها.. بينما الفقه الملتزم بمبادئ الشريعة وقواعدها ومقاصدها هو «سياسة شرعية» ـ بتعبير ابن خلدون أيضاً ـ يتغيا «حمل الكافة على الأحكام الشرعية فى أحوال دنياهم وآخرتهم.. وذلك لأن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط.. وإنما دينهم المفضى بهم إلى السعادة فى آخرتهم.. إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة..»[1].

شريعة للحرية

وهذه الخصيصة من خصائص القانون الإسلامى، قد أبصرها أحد كبار المستشرقين، الذين جمعوا بين الأستاذية فى القانون الرومانى وفى الفقه الإسلامى، فألف فيهما وقام بتدريسهما فى العديد من الجامعات العربية والغربية، وهو المستشرق ديفيد سانتيلانا (١٨٤٥ - ١٩٣١) فكتب عن هذه الخصيصة يقول: «إن آيات القرآن فُصلت للناس بمعرفة حكيم خبير، لتكون شريعة للحرية وقانوناً للرحمة.. إن الصبغة الأخلاقية تسود القانون، والعلاقة تقترب غالباً لتوحد بين القواعد القانونية والتعاليم الأخلاقية توحيداً تاماً.. وكل اتفاق أو عقد يتهيأ فى موضوع علاقة قانونية ذات صبغة أخلاقية لهو أسمى درجة من أن يكون محض منفعة.. وهكذا ترسم الأخلاق والآداب فى كل مسألة حدود القانون.

(١) ابن خلدون «المقدمة» ص ١٥٠، ١٥١ ـ طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢هـ.

إن معنى الفقه والقانون، بالنسبة لنا وإلى الأسلاف: مجموعة من القواعد السائدة التى أقرها الشعب، أما التفسير الإسلامى للقانون فهو خلاف ذلك، لأنها شريعة دينية تغاير أفكارنا أصلاً.. وعبثا نحاول أن نجد أصولا واحدة تلتقى فيها الشريعتان الشرقية والغربية «الإسلامية والرومانية»[2].

فهذا المستشرق، الفقيه فى الفقه الرومانى والشريعة الإسلامية، قد أبصر تميز وامتياز الفقه الإسلامى بالطابع الأخلاقى.. بينما وقف جارودى عند الطابع النفعى الدنيوى للقانون ـ كما هو حاله فى الفقه الرومانى ـ فلما رأى الشريعة الإسلامية ذات طابع أخلاقى أنكر عليها أن تكون قانونا؟!.. وكان أولى بجارودى، حتى إذا أعوزته المصادر الإسلامية «البحر الشريعة الغراء» ـ وفق عبارة رفاعة الطهطاوى ـ أن يطلع على كتابات «سانتيلانا» وأمثاله، بدلاً من أن يتبنى آراء الذين لا يعلمون!

وثالثها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان، فى بيانه للبلاغ القرآنى، وفى استنباطه لقواعد الأحكام ـ قد كان أول مجتهد فى أمته، مع تميز اجتهاده بإقرار الوحى له أو مراجعته فيه وتصويبه إياه، كى لا يتحول الاجتهاد الخاطئ إلى سنة متبعة.. إذا كان هذا هو مكان الرسول من الاجتهاد، فإن اجتهاداته هذه تجعله أول الفقهاء فى أمة الإسلام[3].. وليس كما يدعى جارودى: إنه «لم يتصرف كفقيه»!

الاختلاف فى الشرائع

ورابعها: ليس صحيحاً قول جارودى: إن القرآن الكريم يوصى المسلمين بالعودة إلى شريعة التوراة والإنجيل.. لأن القرآن إذ يقرر الوحدة فى الدين:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾

(الشورى: ١٣)

فإنه، فى ذات الوقت، يقرر الاختلاف فى «الشرائع»:

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

(المائدة: ٤٨)

فاختلاف أمم الرسالات فى الشرائع، وتمايزها فى الشريعة قانون إلهى، بنص القرآن الكريم.. كذلك لا حجة لجارودى فى أن المسلمين مدعوون لالتماس الشريعة من

(2) سانتيلانا «القانون والمجتمع» بحث منشور بكتاب «تراث الإسلام» ص٤١٦، ٤٣٨، ٤٣١ ـ طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

(3) الشيخ عبدالجليل عيسى «اجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم» ـ طبعة الكويت سنة ١٩٦٩م.

التوراة والإنجيل، بدعوى «تحتوى كلها (هدى ونور)..»[4] لأن السياق القرآنى لهذه الآية يجعلهما شريعتين لليهود والنصارى:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾

(المائدة: ٤٤)

﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾

(المائدة: ٤٧)

وذات السياق يجعل شريعة المسلمين فى القرآن:

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾

(المائدة: ٤٩).

وليس صحيحاً، كذلك، ما قاله جارودى، من أن المسلمين مأمورون أن يسألوا أهل الكتاب عن الشريعة التى تنظم حياتهم.. فالآية:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(النحل: ٤٣)

لا تدعو المسلمين أن يسألوا اليهود والنصارى عن الشريعة التى يتحاكمون إليها، وإنما تدعوهم أن يسألوهم عن سنة الله فى إرسال الرسل، رجالاً يوحى إليهم ـ كما هو واضح بنص الآية!

الاحتكام إلى الشريعة!!

وحتى ما بقى فى الشريعة الإسلامية من شرائع الرسالات السابقة، دون نسخ، فلقد بقى كجزء من الشريعة المحمدية الخاتمة؛ لأن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم التى أقرت بعض هذه الأحكام، هى «سفارة» من الله إلينا، عبر رسولنا محمد، وليست «سفارة» من الرسول السابق إلينا ـ كما نبه، بحق، الإمام أبو منصور الماتريدى (٣٣٣هـ، ٩٤٤م)[5].. فنحن مأمورون بالاحتكام إلى شريعة محمد، وما أبقته من أحكام الشرائع السابقة هو جزء منها، جاءنا به محمد، ولم نأخذه من شرائع أهل الكتاب.

وخامسها: أن حديث جارودى عن مغايرة «الشِّرْعة» لـ«المنهاج» فى الآية القرآنية:

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾

(المائدة: ٤٨)

لأن «الشرعة»: أخلاق، و«المنهاج»: تاريخى.. هو قول لم يقل به أحد ممن لهم إلمام بمضامين المصطلحات العربية.. فالشرعة والشريعة ـ اصطلاحا ـ هى (الوضع الإلهى الثابت، الذى جاء به

(4) جارودى «الأصوليات المعاصرة» ص٨٦ ـ طبعة باريس ـ العربية سنة ١٩٩٢م.

(5) أبو البقاء الكفوى «الكليات» ـ مادة «المنهاج».

الرسول صلى الله عليه وسلم ليتهذب به المكلف معاشاً ومعاداً..)[6]، دون وقوف بها عند الأخلاق وحدها.. أما المنهاج، فهو مطلق «الطريق الواضح البين»[7]، وقد يكون «شريعة» حدد الوحى الإلهى معالم صوابه ووضوحه، وقد يكون وضوحه ثمرة للحكمة والصواب البشرى، فهو - المنهاج - أعم من الشريعة.. ولا أثر فى معانى العربية ولا فى مفاهيم الإسلام لهذه «التاريخية» التى ابتدعها جارودى معنى لمصطلح «المنهاج»!

وسادسها: أن الوقوف عند المعنى اللغوى «للشريعة» - وهو «الطريق إلى مورد الماء» - أو المعنى المجازى - وهو «الطريق إلى الله» - دون المعنى الاصطلاحى - الذى هو (الوضع الإلهى الثابت، الذى جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ليتهذب به المكلف معاشاً ومعاداً).. أى فى العبادات والمعاملات.. إن الوقوف عند المعنى اللغوى للمصطلح، دون المعنى الاصطلاحى - على النحو الذى يريد جارودى - سيوقع أصحاب هذه الدعوة فى غاية مضحكة لمعانى المصطلحات:

- فالتنزيل: سيكون أى تنزيل، وليس الوحى القرآنى!
- والقرآن: سيكون أى مقروء، وليس الوحى الإلهى المصطلح عليه!
- والفرقان: سيكون كل فارق بين أمرين، وليس القرآن خاصة!
- والإسلام: سيكون أى طاعة - حتى ولو كانت لطاغوت - وليس دين الله الواحد!
- والصلاة: ستكون أى دعاء - حتى ولو كان لـ «هُبَل»! - وليس العبادة المصطلح عليها!
- والحج: سيكون أى قصد - حتى ولو كان إلى «كابرى»! - وليس الشعائر والمناسك المصطلح عليها!
- والصوم: سيكون مطلق الإمساك - حتى ولو كان عن الطيبات والخير! - وليس ما اصطلحنا عليه!
- والزكاة: ستكون أى نمو - حتى ولو كان لأجسام الخنازير! - وليس ركن الإسلام المصطلح عليه!

والعقل: سيكون ربط الناقة - وليس الملكة التى يفقه بها الإنسان!... إلخ... إلخ... إلخ.

المعانى الاصطلاحية للمصطلحات!!

فلابد، وحتى نظل فى إطار العلم المسئول، من أن نحدد، ونحن نتحدث فى أى فن من الفنون أو علم من العلوم، عن المعانى الاصطلاحية للمصطلحات، لأنها هى المقصود، بل إن هذه المفاهيم الاصطلاحية - فضلا عن أنها هى المرادة فى مقام العلوم والفنون - تتغير مفاهيمها ومضامينها باختلاف العلوم والفنون.. فالمصطلح الواحد، قد يختلف مفهومه عند الفقهاء عنه عند المتصوفة عنه عند الفلاسفة عنه عند المتكلمين.. وما معناه اللغوى إلا مفهومه فى علم من العلوم.. فالدعوة إلى الاكتفاء بالمعنى اللغوى للمصطلح هو قول لم يقل به عاقل فى حضارة الإسلام!

وسابعها: أن حديث جارودى عن قلة آيات الأحكام القانونية فى القرآن - سواء أكانت ٨٠ آية، كما قال جارودى، أو ٥٠٠ آية، كما قال أغلب علماء أصول الفقه - ليس دليلا على ضمور حجم التشريع الفقهى فى القرآن الكريم.. فهذه الآيات ليست هى كل آيات الأحكام فى القرآن الكريم، وإنما هى الدالة على الأحكام «دلالة ظاهرة.. دلالة أولية، وبالذات»، لا التى تحصر جميع الأحكام.. حتى لقد قال علماء الأصول: «إن غالب القرآن، بل كله لا يخلو شىء منه عن حكم يُستنبط منه»[8].. وذلك فضلاً عن ما قدمناه حول اشتمال القرآن على المبادئ والقواعد والمقاصد التى تجعله وافياً بالتشريع والتقنين دائماً وأبداً.. إن فى القرآن «نورا وهدى» لكل «النوازل» التى تنزل بالإنسان، ومن هذا النور والهدى يستنبط الإنسان الأحكام.. وهذا هو معنى قول الشافعى: «فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفى كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها»[9].

كتاب الشريعة الخاتمة

إن القرآن، لأنه كتاب الشريعة الخاتمة والعالمية، لم يُفَصِّل قانوناً وفقهاً فى المتغيرات الدنيوية، وذلك حتى لا تنسخه التطورات والمتغيرات.. وهو قد اعتمد، للوفاء بمهام الفقه والتقنين، على ما استوعب من القواعد والمبادئ والمقاصد وفلسفة التشريع، التى جعلته مصدر الحاكمية للفقه والقانون عبر الزمان والمكان، فهو «دستور الدساتير» و«أبو القانون».. ولذلك، لم يفرط فى شىء من معايير القانون المتميز بالإسلامية، والملبى حاجات الوقائع المتغيرة، عبر الزمان والمكان.

ولعل هذا المعنى هو الذى تدل عليه عبارة جارودى، التى اعترف فيها بأن القرآن «كتاب حقوقى، لأنه يشرع لمجمل الحياة الاجتماعية، بدءاً من البنية التكوينية للجماعة وصولاً إلى تنظيمها الاقتصادى»!

فكيف - مع هذا - يتبنى الآراء التى أجهدت الحقيقة عندما سعت إلى اختزال الجانب التشريعى فى القرآن الكريم؟!

---

(٦) «الكليات».

(٧) الراغب الأصفهانى «المفردات فى غريب القرآن» ص٧٠٥ - طبعة دار التحرير - القاهرة. و«معجم ألفاظ القرآن الكريم» - وضع مجمع اللغة العربية - طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠. و«الكليات».

(٨) الزركشى «البحر المحيط» جـ٦ ص١٩٩ طبعة الكويت. وابن النجار «شرح الكوكب المنير» مجلد ٤ ص٤٦ طبعة السعودية سنة ١٩٨٧م.

(٩) «الرسالة» ص٢٠ طبعة القاهرة.

يشهد اعتناق الإسلام فى «رواندا» ازديادا مضطردا فى العصر الحديث، حيث اعتنق أكثر من نصف مليون رواندى الإسلام فى مدة لا تتجاوز ثمانى سنوات.

ظاهرة القبول المتزايد للإسلام فى رواندا


الأستاذ الدكتور/ عبدالله نجيب محمد
معهد البحوث والدراسات الأفريقية - جامعة القاهرة

ورواندا هى إحدى دول حوض النيل، تقع فى وسط القارة شرق بحيرة فيكتوريا، وهى دولة صغيرة المساحة، فمساحتها ٢٦،٣٣٨كم٢، وعدد سكانها حوالى عشرة ملايين نسمة وعدد المسلمين الآن حوالى مليون نسمة.

تقع رواندا جنوب «أوغندا» وشمال غرب الكونغو وشرق «تنزانيا» وشمال «بوروندى» وعاصمتها «كيجالى» وفى رواندا اثنا عشر محافظة، فى كل منها يوجد عدد من المسلمين، وأشهر محافظاتها «كيجالى» العاصمة، ومحافظة «جيتاراما» ومحافظة «جيسينيى».

لم يتمكن التجار العرب من الوصول إلى رواندا قبل عام ١٨٨٤م بسبب الحروب القبلية التى كانت تدور بشكل متواصل فى منطقة البحيرات، وبسبب ما شاع عن العرب من المتاجرة فى الرقيق، وبوصول المؤثرات العربية الإسلامية إلى جارتها «أوغندا» عام ١٨٨٤م فصاعداً، بدأت المؤثرات العربية تطرق أبواب هذه الدولة الصغيرة، حيث تأثر بعض الروانديين - الذين كانوا يذهبون إلى أوغندا للتجارة بسلوك المسلمين - فعاد بعضهم إلى رواندا وقد اعتنقوا الإسلام، ثم انفتح باب المنطقة ببطء شديد أمام التجار العرب، خاصة فى عهد الملك «كيجيرى» الرابع (روا بوجيرى) سنة ١٨٩٥م.

تمكن التجار المسلمون القادمون من «أوغندا» من نشر الإسلام فى مدينة «موجاندا مورى»[1] التى تقع فى منطقة «جيتاراما» فى جنوب رواندا، وهى أول مدينة يؤسسها المسلمون فى هذه الدولة، حيث قاموا بإنشاء مدرسة إسلامية هى الأقدم فى البلاد، وفى وقت لاحق أنشأ التجار العمانيون مدينة «رواما جانا» «Rwama gana» فى محافظة «كيبونجو» فى شرق رواندا، وهى الآن تضم أكبر تجمع من المسلمين الروانديين وفيها عدة مدارس إسلامية، وفى مدينة «جيسينى» «Gisenyi» التى تقع فى المحافظة المسماة بالاسم ذاته فى شمال غرب رواندا يوجد عدد كبير من المسلمين، وقد شيدوا مسجداً جامعاً كبيرا وألحقوا به مدرسة إسلامية، كذلك الأمر فى مدينة «نجوما» «Ngoma» فى محافظة «بوتارى» فى جنوب البلاد، حيث بنى المسلمون عدة مدارس ومسجداً كبيراً، وتضم مدينة «نياميرا مبو» «Nyamirambo» فى «كيجالى» العاصمة عدداً لا بأس به من المسلمين لهم بعض المدارس الإسلامية، التى تدرس العلوم الدينية والدنيوية، وبعض هذه المدارس تحت إشراف الدولة، مثلما فى ذلك مثل المدرسة التابعة للمركز الإسلامى الذى يقبل أبناء المسلمين والمسيحيين.

توالى بعد ذلك إنشاء العديد من المدارس الإسلامية منها ما يقوم بتدريس القرآن الكريم والعلوم الدينية الأخرى على أيدى العلماء والشيوخ الذين تخرج بعضهم فى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وجامعة الدعوة الإسلامية بطرابلس، وجامعة الأزهر الشريف.

بوصول المستعمرين الأوروبيين إلى منطقة البحيرات حاولوا اختراق رواندا ولكن الروانديين قاوموهم بشدة خاصة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى عهد «الموامى روابوجيرى» «Rwabugiri»، ثم تطرق الألمان إلى رواندا عام ١٨٩٦م، وكان الجيش الألمانى يضم عدداً من المسلمين من «تنجانيقا» (تنزانيا الآن) وزنجبار وكان هؤلاء يتحدثون اللغة السواحيلية، التى تأثر بها السكان، ثم وصل «البلجيك» عام ١٩١٦م بعد انتصارهم على الألمان مع بداية القرن العشرين، وفى عهدهم عملوا على نشر المسيحية، وأنشأوا جمعيات لنشرها فى جميع مناطق رواندا، وبنيت أول كنيسة فى رواندا فى مدينة «سافى» «Save» عام ١٩٠٠م. وكان لها دور كبير فى نشر المسيحية بين أغلبية السكان.

والآن وفى العصر الحديث، يشهد اعتناق الإسلام ازدياداً مضطرداً فى رواندا، كنتيجة للدور الإنسانى العظيم الذى قام به

(١) نسبة إلى تاجر أوغندى مسلم اسمه «عمرو» ودعاه الناس «موجاندى عمرو» أى عمرو الأوغندى.

المسلمون الروانديون أثناء الحرب الطاحنة التى دارت بين الهوتو والتوتسى عام ١٩٩٤م، ولم يشارك فيها المسلمون [٢] فقد احتمت عائلات من كلا الطرفين بالمساجد ومنازل المسلمين، الذين أعطوهم الأمان جميعا وقدموا لهم الحماية والإعاشة.

كان لهذا الموقف الإنسانى الرائع فعل السحر فى عقول الروانديين، الذين أدركوا أن الإسلام يحمل قيماً أخلاقية واجتماعية ودينية إنسانية بمعنى الكلمات، هذا بينما كانت بعض الكنائس مسرحًا للقتل، وشارك مسيحيون من رجال الدين البروتستانت والكاثوليك، ومنهم قساوسة ورهبان من بينهم «اليزاقان تناكيرو تمانا» الذى سلم ما بين ألفين وستة آلاف لاجئ للكنيسة، سلمهم فى يوم واحد وتم قتلهم، قائلاً: ينبغى أن تهلكوا جميعا لأن الرب لم يعد يريدكم [٣].

ولعل ما يثير الدهشة هو تجاهل وسائل الإعلام العربية والإسلامية والدولية لهذه الصورة الحضارية والإنسانية المشرقة التى قدمها المسلمون.

أدرك كثير من الروانديين أهمية هذه القيم والمبادئ فدخلوا فى الإسلام واقتنعوا به وتخلوا عن كراهيتهم للمسلمين التى دفعهم إليها المنصرون السابقون، وشهدوا للإسلام بالصدق والبراءة.

قال بعض المهتدين الجدد: كون المرء مسلمًا يعنى الاحترام والاعتزاز بالنفس، ويعنى الأمان للجميع، لأن الإسلام ينحاز للحق وللإنسانية ويتجاوز العصبية القبلية.

أدرك الجميع أن الإسلام بسماحته وقيمه الإنسانية قادر على إعادة بناء المجتمع الرواندى ودعم تماسكه ووحدته، وأدرك الحكام من المسيحيين أهمية الدور الإيجابى للإسلام كدين، وللمسلمين كمواطنين فى تعزيز الاستقرار ونشر المحبة والوئام بين مختلف أبناء المجتمع الرواندى.

تضاعفت أعداد المسلمين، ويحظى الإسلام بقبول متزايد يوما بعد يوم وتقوم جمعية مسلمى رواندا بدور كبير فى الوقت الراهن فى تحويل أعداد كبيرة من الجماعات العرقية المختلفة، كما تؤثر بشكل متزايد فى توجهات رجال الدولة من المسيحيين الكاثوليك، والجدير بالذكر أن جمعية مسلمى رواندا تتولى حاليا تنشيط العمل الإسلامى بالتنسيق بين الاتجاهات والجمعيات الإسلامية، كما تقوم بتوجيه العلماء من خلال تشكيل هيئة إسلامية تضم خريجى الجامعات الإسلامية، والإشراف على شئون الدعاة ومتابعة القضايا التى تهم المسلمين، كما يقوم مجلس العلماء الذى يتخرج فيه قضاة المحاكم الشرعية بدور مماثل، وتأسست جمعيات نسائية عديدة فى رواندا تقوم برعاية الأطفال والأمهات وتوفر لهم فرصًا للتعليم.

---

(٢) نشرت صحيفة «شيكاغو تريبيون» فى الأول من شهر أغسطس ١٩٩٥ أن نسبة المسلمين فى رواندا قد ارتفعت من ٧٪ إلى ١٤٪ خلال السنوات العشر الأخيرة.

(٣) فى مقاطعة «كيبوى».

هذا وقد لعبت المساجد فى رواندا دوراً مهمًا فى المصالحة الوطنية، وعن ذلك يقول الإمام «كايرينجا»: «الإسلام لا يعرف فرقاً بين هوتى أو توتسى، فكلنا إخوة فى الإسلام، أما الشيخ «صالح هابيماناً» فيقول: «إن المجتمع المسلم فى رواندا لديه فرصة ذهبية لتحقيق المصالحة والعدالة الاجتماعية، واعترافا بدور المسلمين بدأت الحكومة الرواندية تعتمد كثيرا على المسلمين فى إيجاد الحلول للكثير من مشكلات المجتمع الرواندى، مما يؤدى إلى تدعيم الاستقرار الوطنى كذلك تقوم إذاعة راديو رواندا ببث برامج ثقافية إسلامية، وتتواصل مع المؤسسات والجمعيات الإسلامية فى العالم الإسلامى كله.

يؤكد الروانديون أن الإسلام هو الدين الوحيد الذى يمكن له أن يوحد بين القبائل، وأن المساجد وحدها هى التى تتمكن من تأليف القلوب واستلال العنف والقضاء على الحروب.

يحقق المسلمون فى رواندا تقدمًا وتطوراً يومًا بعد يوم، وتتزايد أعداد الداخلين فى الإسلام، وتتحسن أوضاعهم الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، فأغلبية المسلمين يعملون بالتجارة، وعلى مستوى الأوضاع السياسية أدركت الحكومة الحالية أهمية إشراك المسلمين فى إدارة شئون البلاد، وقد شكل المسلمون حزبًا سياسيًا اشترك فى البرلمان بعضوين، كما يشارك المسلمون فى الخدمة العسكرية، مما لم يكن متاحًا لهم فى عصر الحكومات السابقة.



يقبل المسلمون فى رواندا بحماس شديد على الثقافة والتقاليد الإسلامية، بمعنى أن هناك بعثًا جديدًا فى أرواح المسلمين فى هذا البلد الصغير.

هذه الظاهرة تحتاج من المسلمين على مستوى العالم إلى مزيد من التأييد والرعاية والمساعدات على جميع المستويات، كى تصبح رواندا مثالاً يحتذى به للمسلمين ولغيرهم فى جميع دول القارة السمراء.

هذه دعوة للأزهر الشريف وعلمائه ودعاته الشرفاء إلى الاهتمام بهذه الظاهرة الإسلامية فى هذا البلد، والعمل على تدعيمها ورعايتها ونشر منجزاتها فى كل البلاد، وتقديم كافة أنواع الدعم والمعونة للمهتدين الروانديين.

وبالله التوفيق

بين الصحف و المجلات

إعداد

أ/ محمد جمعة

أ/ علا عبدالرحمن

الأزهر الطيب.. والإمام الأكبر

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ/ سعيد حلوى مقالا نشر فى جريدة الأهرام بعددها الصادر بتاريخ ٢٠١١/٥/١٣م يقول:

أى منصف ومتابع لحركة الأزهر الشريف الآن، يجد أن الدور الرائد لهذه المؤسسة الدينية والثقافية الكبرى قد بدا واضحا للجميع، وتأثيره بات منبرا لوسطية الإسلام. كما كان فى الماضى البعيد. مؤثرا فى صنع اتجاه معتدل وحكيم ليس فى العالم الإسلامى وحده، ولكن فى العالم بأسره، يعترف بالوسطية كمنهج حياة شرعه الدين الحنيف.

وفضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر، عالم صاحب فكر يحرك الأحداث ولا تحركه، يتخذ القرار الصائب ومعه كوكبة من أعضاء مجمع البحوث الإسلامية فى الوقت المناسب يتواجد ومعه المؤسسة الدينية كلها فى قلب أى موقع يحتاج المؤسسة الدينية. والمنصف والمتابع الجيد سواء من أهل الاختصاص أو حتى العامة يدرك جيدا النتيجة الطبيعية لوجود الأزهر فى الساحة، وهى حل المشاكل، وتدارك المواقف، وبالتالى تحقيق السلام الاجتماعى الذى هو أحد الأدوار المنوطة بالأزهر الشريف.

ولعل العالم كله أدرك قيمة الأزهر وعلمائه، واستشعر أهميته فى توضيح حقيقة الإسلام السمح المستنير والمعتدل من خلال مواقفه المعروفة محليا وإقليميا وعالميا.. وهو ما تحقق فى عهد فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب الذى بالفعل وليس بالقول أعاد هيبة الأزهر، بل والمؤسسة الدينية كلها.

ويكفى أنه أول شيخ للأزهر فى العصر الحديث وافق بصراحة وشجاعة على انتخاب شيخ الأزهر بعد استعادة هيئة كبار العلماء، وأنه هو الذى قرر تشكيل لجنة على مستوى عال لإعادة النظر فى قانون الأزهر الشريف، وإعادة أوقافه، واختار لرئاسة تلك اللجنة المستشار طارق البشرى الذى ارتضى جموع المصريين رئاسته للجنة تعديل الدستور.

وإذا كانت رياح الثورة قد امتدت إلى جميع قطاعات الوطن، فهى لم تكن بعيدة عن فكر الإمام الأكبر والأزهر ذاته، فقد كان حاسما ومنصفا وهو يصدر أول بيان وصف فيه شباب الثورة الذين انتقلوا إلى جوار ربهم بالشهداء واستمر ومعه المؤسسة الدينية كلها داعما لهذه الثورة وأفكارها، ومشجعا لشبابها.. آخذا بيدها لتصل إلى بر النجاح.

وحين برزت التيارات الإسلامية على الساحة بعد ٢٥ يناير، وتبع ذلك هجوم إعلامى على بعض هذه التيارات وحالات الجدل التى أثارتها دعاوى تغيير المنكر باليد، وسرت المخاوف من حالة الانفلات الفقهى والفكرى بادر الإمام الأكبر بإجراء اتصالات مع جميع التيارات الإسلامية، سياسية ودعوية، لعقد لقاء تحت راية الأزهر الشريف بهدف توحيد الخطاب الدينى والدعوى.

وفى نفس التوقيت تواصلت جهود الإمام الأكبر، فجاءت مبادرة «بيت العائلة» التى أطلقها لمواجهة الفتنة الطائفية، وضمت فى عضويتها كبار رجال الدين الإسلامى والمسيحى، وتعد طوق نجاة لدرء شرور وأخطار الفتنة الطائفية التى تهدد بحرق الوطن.

إن الآمال كلها معقودة الآن على الأزهر العظيم وعلى شيخه الجليل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب ومعه المؤسسة الدينية كلها، لأن المهام وخطورة الأحداث تحتاج كل الجهد لدرء الفتن وتوحيد الجهود واستعادة المكانة الطبيعية للأزهر إقليميا ومحليا وعالميا.. إنه الأزهر الذى لم يكن يوما مؤسسة دينية فقط.. إنما منهج كامل للحياة.

مصر فوق الجميع

تحت هذا العنوان جاءت افتتاحية الأهرام العربى الصادرة بتاريخ: ٢٠١١/٥/١٤م تتضمن ما يلى:

أحداث إمبابة الإجرامية تكشف أن مصر مستهدفة.. مستهدفة فى وحدتها ونسيجها الاجتماعى بصناعة فتنة طائفية من المسلمين والمسيحيين، وما جرى فى إمبابة لم يكن مصادفة ولن يكون، وعلى المجلس الأعلى للقوات المسلحة إدراك أن الجريمة التى ارتكبها متعصبون من الطرفين لها أبعاد محلية ودولية، ونعتقد أن المجلس الأعلى لقواتنا المسلحة الباسلة على وعى كامل بالمخطط.

البعض يرى أن هناك فرصة لتقسيم مصر، وهناك وثائق تؤكد ذلك، وكلما فشلوا بحثوا عن سيناريو آخر، وإمبابة برميل بارود نتيجة الإهمال والفقر والبطالة، ومن يذهب إلى هذا الحى سيكتشف أنه حى مهمل برغم تراثه الإنسانى المتمثل فى معايشة المسلمين والمسيحيين معا منذ عقود طويلة دون أدنى احتكاك على أساس الدين، فالدين لله والوطن للجميع.

وقد لعب الإعلام الغربى وبعض المنظمات الممولة دورا خطيرا فى المبالغة وإيصال رسالة أن هناك حيا فى القاهرة يشكل جمهورية مستقلة، ومع الأسف وقع الإعلام المحلى فى شراك المصطلحات الغربية.

إمبابة التى قاومت بونابرت وضمت كُتابا وفنانين وشعراء ونخبة فى كل شىء، هى نفسها إمبابة التى ستكون الحصن للوحدة

الوطنية، وعلى الذين يعيشون بأمن الوطن أن يتراجعوا قبل أن يعلقوا على المقاصل. فمصر كدولة مركزية لن تتحول إلى دويلات كما يتمنى ويرغب ويعمل البعض.

وفي النهاية هناك جمعيات وجماعات ترى فيما جرى فرصة للظهور لدى المجتمع الدولي، وأمريكا تحديدا لاستجلاب أموال جديدة بحجة الحرية، وحقوق الإنسان، والتدخل الدولي وهو أمر مرفوض وعلى الجيل الحالي من المصريين أن يفهموا أن الأجيال المقبلة سوف تلعنهم إذا فرطوا في بلدهم وحولوه إلى مجرد دويلات، لا سمح الله.

الدكتور نبيل العربى

تحت هذا العنوان جاءت الكلمة المنشورة بجريدة المساء بقلم/ عربى اصيل بتاريخ: ٢٠١١/٥/١٧م يقول:

فى تاريخ مصر السياسى، نادرا ما يحزن الشعب المصرى على مغادرة وزير لمنصبه، ولأول مرة يشعر المصريون بحزن شديد لمغادرة.

الدكتور نبيل العربى موقعه كوزير خارجية مصر بعد أن شغل منصب الأمين العام، الدكتور نبيل العربى لم يمكث سوى مدة قصيرة تعد بالأيام على رأس الخارجية المصرية بعد ثورة ٢٥ يناير فلماذا شعر المصريون بالحزن لفراقه؟ السبب واضح دون تذويق أو تصريحات رنانة لقد أعاد الدكتور العربى للمصريين كرامتهم فى الخارج والكرامة خارج مصر هى امتداد للكرامة داخلها، بمجرد أن شغل منصبه تم إلقاء القبض على مصريين اثنين فى أحداث سوريا فلم يتوان الوزير فى إجراء الاتصالات حتى تم الإفراج عنهما، سياسة اعتبرها البعض جديدة على الخارجية المصرية التى عاشت فترة من الزمن لا تهتم بمشاكل المصريين فى الخارج مما جعل المصريين يبتعدون عن سفاراتهم ولا يقتربون منهم من قريب أو بعيد، سياسة الدكتور نبيل جعلت المصريين يشعرون بالفعل بأن عهداً جديداً قد بدأ وإذا كان مقعد رئاسة أمانة الجامعة العربية يتطلب شخصاً بقدر الدكتور نبيل العربى فى المرحلة الحالية فإن وزارة الخارجية المصرية تزخر بالكثير من أمثال الدكتور العربى ولابد من اختيار خليفة له لا يقل مكانة عنه ليعلم المصريون والعرب أن ثورة ٢٥ يناير بهم ولهم من المحيط إلى الخليج.

حراك إسرائيل لمواجهة المصالحة الفلسطينية

تحت هذا العنون كتبت الأستاذة/ جيهان فوزى مقالا نشر فى جريدة المصرى اليوم بعددها الصادر بتاريخ: ٢٠١١/٥/٧م تقول:

بعد أن أنجز اتفاق المصالحة الفلسطينية، وأصبح حقيقة مؤكدة، جاء دور العمل الجاد والدءوب للتنفيذ الفعلى على الأرض، حتى لا يلاقى هذا الاتفاق مصير الاتفاقات والمبادرات السابقة. فالشعب الفلسطينى لُدغ من الجُحر أكثر من مرة، ومن حقه أن يقلق ويبدى مخاوفه بأن تحدث بعض التجاوزات والإخفاقات التى من شأنها إعاقة التنفيذ، فالسقف الزمنى

المطروح لتنفيذ الاتفاق من وجهة نظر البعض، ومدته عام يعتبر فترة طويلة قد تحدث خلالها فى الأمور أمور أخرى، خاصة إذا ما تباطأ القائمون على الاتفاق، ولم يسرعوا فى إنجاز بنوده بخطوات حقيقية وسريعة يلمس منها المواطن الفلسطينى أن ثمة تغيرا حقيقيا وجادا يحدث على الأرض، ولم لا..؟!

إن القول المأثور «الشيطان يكمن فى التفاصيل» لهو حقيقة مؤكدة. فالمصالحة الفلسطينية بحاجة إلى وحدة وطنية واعية ومدركة لأخطاء المرحلة السابقة، ومعترفة تماما بأن الشعب الفلسطينى ناضل وقدم التضحيات على أرض فلسطين من أجل الوطن. وليس من أجل سيطرة فتح فى الضفة الغربية، وحماس فى قطاع غزة، فالتفاصيل التى تنتظر الفلسطينيين كلها ألغام بحاجة لمن ينزع فتيلها وعلى رأسها الملف الأمنى، واختيار رئيس الوزراء، وإعادة هيكلة منظمة التحرير الفلسطينية.

هذا بالإضافة إلى الجهود الخبيثة التى تبذلها إسرائيل لاجهاض الاتفاق والتحريض الدولى عليه بألاعيبها المختلفة، التى تحاول دائما التعطيل والعرقلة من خلال سعيها لتمرير مخططاتها وفرض حلولها، وفى هذا الإطار تسعى إسرائيل لاختراق جدار الوحدة الفلسطينية التى جاءت رغما عن إرادتها ويستعد رئيس وزرائها بنيامين نتنياهو للسفر إلى كل من لندن وباريس لاقناع قادتيهما برفض المصالحة الفلسطينية، باعتبارها تشجيعا للإرهاب وتهديدا بتدمير المسيرة السلمية وبلغ العداء للمصالحة حد معاقبة السلطة ومصادرة أموال الجمارك المستحقة لها. ومن زاوية أخرى فإن نتنياهو يرى فى المصالحة فرصة لإجهاض الخطة الفلسطينية بحشد المجتمع الدولى للاعتراف الشامل بالدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس على حدود ١٩٦٧م فى سبتمبر المقبل، بما فى ذلك دول أوروبا. بدعوى أن حماس تنظيم إرهابى يرفض قبول شروط الرباعية الدولية «الاعتراف بإسرائيل ،وقبول اتفاقيات منظمة التحرير مع إسرائيل، ونبذ العنف».

بالإضافة إلى جولة شبيهة يقوم بها نائب وزير خارجيته دانى أيالون فى دول البلطيق، ليقنعها بعدم الانجرار وراء الموقف الأوروبى فى حال أصرت بريطانيا وفرنسا وغيرهما على الاعتراف بفلسطين، وعدم التعامل مع حكومة وحدة وطنية فلسطينية.

وإرهاب الغرب من يحمينا منه؟

تحت هذا العنوان كتب الدكتور/ رضا عكاشة مقاله المنشور بجريدة اللواء الإسلامى الصادرة فى ٢٠١١/٥/١٢م يقوم فيه:

قد تصدق رغم عدم قناعتنا، أن ابن لادن إرهابى خطير، وأن العالم سوف يصبح أكثر سلاما بعد اغتياله كما تردد الآلة الإعلامية الأمريكية الغربية.. ولكننا أيضا سوف نصدق على الإطلاق أن هذه الدول استعمارية وصانعة الإرهاب بامتياز، وأن ثقافة الغرب وفكره وممارسات معظم دوله وشعوبه ومؤسساته هى الراعى الرسمى للإرهاب والتطرف والعنصرية.

هذه القناعات، سوف ندلل عليها بثلاثة شواهد بارزة فى الواقع الفكرى والسياسى الإنسانى:

الأول: جل الفلسفات العنصرية المعادية للآخر كله، وخاصة الإسلامى، هى وليدة ثقافة أوروبا وامتدادها الأمريكى.. وقد تجسد هذا فى عشرات وربما المئات من المذاهب والتيارات والفلسفات التى تعلى أنانية الغرب وعنصريته وتجعله مركز الكون. وتثير الأحقاد ضد الجميع.. مثال ذلك نظريات الاستعلاء الغربى والنقاء العرقى والتعصب للرجل الأبيض وصراع القوميات ومفاهيم حرب الكل ضد الكل، فضلاً عن مذاهب العدمية والوجودية والنازية والفردية والغرائزية والصراع بين الآلة والعبادة والمادة والروح والإيمان والإلحاد..

وغيرها من الأفكار التى صارت حضانات قاتلة لكل مشاريع التعايش الإنسانى!

الثانى: ممارسات الحروب والإبادة والفتن الاستعمارية التى مارسها الرجل الأبيض بدءاً من «مملكة الرب» التى أنشأها القيصر أغسطس منذ نحو ألفى عام وحتى بوش الابن والأب فى العقدين السابقين.. وهى حروب طالت المسلمين كما طالت كل البشر، بفعل تطرف ساسة الغرب وإرهاب جيوشه..

المفكر السياسى زبجنيو بريجنسكى المستشار السابق للأمن القومى الأمريكى، يصف فى كتابه «الفوضى» سلوك الغرب الأمريكى بأنه جنون منظم.

هذا الجنون أفرز أسوأ ظاهرة قاسية فى تاريخ البشرية وهى ظاهرة «الموت الملايينى».

والموت الملايينى ليس وليد القنابل النووية التى صنعها وامتلكها الأمريكان وإخوانهم والتى تقتدر أن تبيد العالم نحو ٣٥٠ مرة، ولكن بالحروب التى تمت بالفعل فى القرن السابق.

فى المائة سنة الأخيرة مات من جراء الحروب ٤٣ مليون شاب، ونحو ٤٣ مليون من العسكر، ونحو ٨٧ مليون فى المذابح العرقية والقومية ونحو ٧٧ مليون فى المذابح العرقية والقومية ونحو ٧٧ مليون فى الزلازل والفيضانات..!

هذا العنف صنعه ومارسه واستفاد منه نخب الساسة والثقافة فى أوروبا وأمريكا تحديداً.

الثالث: جماعات التطرف الدينى التى زرعها رجال الدين والمستشرقون والساسة فى البيئات الغربية وفى أمريكا على وجه الخصوص..

أمريكا بها نحو ٢٣٠ ألف جمعية تغرس فى غالبيتها العنصرية للرجل الأبيض والكراهية لإسلام والتدين وتمارس التطرف حتى ضد الذات الإلهية!!

بكل إيمان الإرهاب والتطرف ليس من صناعة المسلمين بل هو من صناعة دين الغرب وفكر الغرب ونووى الغرب و«فيتو» الغرب.

الإرهاب هو من يقتلع شعب فلسطين من أرضه، ويحارب المسلمين فى عقيدتهم وبترولهم ولقمة عيشهم، أو يضفى عليهم بالحرية والحياة!

والسؤال إذن: من يحمى البشرية من

إرهاب الغرب وتطرفه؟ من يحمى المسلمين خاصة فى ثقافتهم وديارهم وحياتهم ودور عبادتهم؟!

سؤال آخر: ألا ترون معى أن البشرية سوف تكون أكثر سعادة وسلاماً، لو رمينا أمثال شارون وبوش وليبرمان بجوار «ابن لادن» يرحمه الله؟!

الوطن.. والفتنة.. وأعداء الثورة

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ/ فتوح الشاذلى مقاله المنشور بجريدة الوفد بعددها الصادر بتاريخ ٢٠١١/٥/١٢م يقول فيه:

لست قلقاً على مصر.. ولست خائفاً على مصير بلادى.. أختلف مع الكثيرين الذين أفزعتهم أحداث الفتنة الطائفية الأخيرة فى إمبابة.. ولا أذهب مع الآخرين إلى حيث ذهبوا من أن الثورة فى خطر.. وأن الوطن فى محنة..

إن الأحداث التى شهدتها مصر منذ نجاح الثورة وحتى الآن هى أحداث طبيعية ومتوقعة.. فمحاولات ترويع الآمنين وإحداث فوضى فى البلاد، والمؤامرات التى يتم تدبيرها بليل من أجل الوقيعة بين الجيش والشعب.. ومحاولات إثارة الفتنة الطائفية بين الحين والآخر كلها وقائع تأتى فى إطار الثورة المضادة من ناحية، والجهل والتعصب الأعمى الذى يحكم العلاقة بين المسلمين والأقباط من ناحية أخرى.

وإذا قارنا بين ما يحدث فى بلادنا فى أعقاب الثورة وبين ما حدث فى بلاد كثيرة فى أعقاب الثورات التى قامت فيها نجد أن وطننا تحرسه عناية الله وحده وجهود المخلصين من أبنائه.. فالأحداث الدموية التى أعقبت الثورة الفرنسية دفعت الشعب الفرنسى إلى السخط على الثورة وعلى من قاموا بها، والتضحيات الكبيرة التى أعقبت الثورة الروسية دفعت الشعب الروسى إلى الندم.. ولم تنجح الثورة الفرنسية إلا بعد سنوات من الانتصار على الثورة المضادة، وكانت سنوات عجافاً خاصة الشهور الأولى منها.

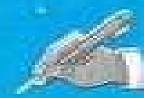
أما نحن فى مصر فقد كانت ثورتنا بيضاء ولا يمثل عدد الشهداء الذين تعدوا الـ ٥٠٠ شهيد أى نسبة بالمقارنة بالآلاف الذين سقطوا فى الثورات العالمية الكبرى.. ولا يمكن أن تقارن حجم الخسائر الاقتصادية فى بلادنا بالانهيارات التى حدثت فى أعقاب الثورات الأخرى.

وأعتقد أننا فى أمس الحاجة إلى الوحدة والتماسك خلال الأيام القادمة.

وتبقى كلمة.. إلى السادة أعضاء المجلس العسكرى: نشد على أيديكم.. ونسأل الله أن يحميكم تقدر لكم الحكمة فى التعامل مع الأحداث.. ونثق فى قدرتكم على العبور بالبلاد إلى بر الأمان.. سيروا على بركة الله.. واجهوا أعداء الوطن المتربصين بنا.. الداعين إلى الفتنة والمحرضين على الفوضى.. خذوهم بقوة ولا تأخذكم بهم شفقة ولا رحمة.

بورك فى الثورة.. وحمى الله الثوار.

وسطية الإسلام



للأستاذ الدكتور/ أحمد عمر هاشم
عضو مجمع البحوث الإسلامية

قال الله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

«البقرة - ١٤٣»

والوسط: الخيار والأجود، ولما أنعم الله على هذه الأمة بنعمة الوسطية فكانت خير الأمم، خصها سبحانه وتعالى بأكمل الشرائع وأوضح المناهج وأيسر التكاليف وأوضحها، كما قال سبحانه:

﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾

«الحج: ٧٨»

وفيما رواه الإمام أحمد - بسنده - عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه، فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد. فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، قال: فذلك قوله:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾

قال: والوسط العدول فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم»[1].

وفيما رواه الإمام أحمد بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيدعى قومه فيقال: هل بلغكم هذا،

«١» رواه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجة من طريق الأعمش.

فيقولون: لا، فيقال له هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيقال من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيدعى محمد وأمته، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا فذلك قوله عز وجل:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾

والآية الكريمة تشير إلى أن الله تعالى حين حول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة قبلة إبراهيم عليه السلام واختارها لهم ليجعلهم خيار الأمم ليكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم؛ لأن الجميع معترفون لهذه الأمة بالفضل وواضح أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة، وكان أكثر أهل المدينة اليهود، فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهرا، وكان يحب قبلة إبراهيم، فكان يتوجه بالدعاء إلى ربه سبحانه وتعالى وينظر إلى السماء، فأنزل الله تعالى قوله:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

«البقرة: ١٤٤»

وكان عليه الصلاة والسلام قبل هجرته قد أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس فكان بمكة يصلي بين الركنين فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس.

وكان الأمر باتجاهه إلى بيت المقدس من الله تعالى، وكان التحويل إلى الكعبة من الله ووافق رغبة رسول الله ﷺ، فقد شرع الله التوجه إلى بيت المقدس ثم شرع التحول إلى الكعبة، ليظهر من يتبع الرسول ﷺ ممن ينقلب على عقبيه، قال تعالى:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾

«البقرة: ١٤٣»

عن البراء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمر على أهل المسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت وكان الذي قد مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجالا قتلوا لم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله:

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

«البقرة: ١٤٣»[2]

«٢» رواه البخاري.

والكعبة المشرفة، التي هي قبلة المسلمين، هي في البقعة المباركة، والمكان الوسط، فهي في وسط الكوكب الأرضي، تتوسط دنيا الناس، شرقا وغربا وشمالا وجنوبا.

وهكذا اختار الله تعالى مكان رسالته، وموقع قبلة الصلاة، ومهبط الوحي، هذا المكان الوسط، الذي يتسق مع وسطية الدعوة السمحة، ويتناسب مع الرسالة العامة الخالدة لترسل أشعة النور والهداية إلى من حولها من جميع بقاع العالم.

وهكذا اقتضت الحكمة الربانية، أن يكون المكان وسطا في جغرافية الأرض؛ لتتمكن الدعوة أن تنتشر في ربوع الأرض، وتؤدى أمة الإسلام أمانة التبليغ التي حملها الله تعالى إياها حيث نزل الوحي - قرآنا وسنة - بلسان عربي مبين، وفي أمة عربية، وفي مكان وسط من العالم، كل هذا يؤكد وجوب تبليغ الأمانة التي كلف الله تعالى هذه الأمة بها، وشرفها بإنزال الوحي على أرضها، وإرسال رسول من أنفسهم، وقيام القبلة - الكعبة المشرفة - في هذا المكان الطاهر والحرم الآمن في قلب العالم.

وهكذا تتكشف حقيقة نزول الوحي الإلهي في البلد الحرام، والقبلة المشرفة داخل المسجد الحرام، فمكة المكرمة هي مركز الكرة الأرضية ووسط العالم بأسره.

وإن قوله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾

«البقرة: ١٤٣»

يحدد لهذه الأمة دورها في النهوض بالبشرية، ورسالتها في قيادة القافلة الإنسانية، فبذلك تتبوأ مكانتها كخير أمة أخرجت للناس، شاء الله أن تكون أمينة على رسالة السماء وشاهدة على الناس.

وحين تتخلى عن هذه الرسالة، أو تخل بواجبها تكون قد حرمت نفسها من خيريتها، ومن كونها الأمة الوسط، وفقدت كيانها المعنوي ودورها الريادي بين الأمم.

ويستوجب القرآن على هذه الأمة عبادة الله، والجهاد في سبيل الله حق جهاده؛ لأنه اختارهم واصطفاهم على سائر الأمم، وكلفهم بشريعة لا حرج فيها ولا مشقة، ولا ضيق ولا عسر، إنها الحنيفية السمحة ملة إبراهيم عليه السلام، وقد سماهم الله المسلمين من قبل الكتب المتقدمة وفي هذا قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾

«الحج: ٧٧ - ٧٨»

أي أن الله تعالى جعل هذه الأمة وسطا عدولا خيارا، ليكونوا شهداء على الناس وعلى جميع الأمم، لأن جميع الأمم معترفة بفضل هذه الأمة على كل أمة سواها، ولذلك تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة في أن كل رسول بلغ قومه، ويشهد رسول الله ﷺ على هذه الأمة أنه بلغها ذلك.

وفي مقابل هذه المنزلة التي بوأها الله تعالى لهذه الأمة، وفي مقابل النعمة على الأمة أن تقوم بشكر ربها سبحانه وتعالى، وما أوجبه الله عليها من عبادة وطاعة ومن أهمها الصلاة والزكاة، وعليهم أن يعتصموا بالله، وأن يعتضدوا به ويتوكلوا عليه

﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾

«الحج ٧٨»

وكذلك كانت أمة وسطا في الزمان، فلم تأت رسالة الإسلام الخاتمة في أول تاريخ البشرية ولا في آخره بل جاءت في الوسط لتكون مصدقة ومهيمنة وحارسة لما جاءت به الرسالات السماوية السالفة.

وسطية العقيدة

ووسطية العقيدة تعني أنها عقيدة عادلة خيرة، يؤمن العباد فيها بالله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.. إيمانا لا تمثيل فيه ولا تعطيل، لأن الله تعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

ويؤمن العباد بالرسول -صلوات الله وسلامه عليه- بأنه رسول الله وأنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة وهدى الأمة وأخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويؤمنون بأنه ليس في درجة فوق النبوة والرسالة كما يزعم بعض الضالين في أنبيائهم أنهم وصلوا إلى درجة الألوهية وليس في درجة سائر البشر فهو بشر ولكنه يوحى إليه ومرسل من ربه، ولذا ورد عنه صلوات الله وسلامه عليه النهي عن الغلو في إطرائه حيث قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله»[٣] ويؤمنون أنه خاتم الأنبياء والمرسلين.

وكما تتجلى وسطية العقيدة في عدم التمثيل والتعطيل في الصفات، فإنها تتجلى أيضا في الإيمان بالقدر، فنرى أهل السنة يرفضون رأي الجبرية، الذين يقولون إن الإنسان مجبور على عمله، كما يرفضون رأي القدرية الذين يقولون بإنكار القدر، ووقف أهل السنة والجماعة موقفا وسطا، فيثبتون أن الله خالق كل شيء، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ويؤمنون أيضا بأن للعباد قدرة واختيارا، أي أنهم يقفون موقفا وسطا بين الذين ينفون اختيار العبد والذين ينفون القدر، فيؤمنون بأن الله على كل شيء قدير، وأنه لا يكون في ملكه إلا ما يريد، ويؤمنون بأن للعبد قدرة واختيارا.

وسطية العبادة

لقد جاءت عبادات الإسلام ميسرة ووسطا فلا هي صعبة يشق على العباد أن يأتوا بها، ولا هي بسيطة جدا، بحيث لا تترك في النفس كبير أثر، وإنما جاءت وسطا:

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

«البقرة: ٢٨٦»

«٣» جامع الأحاديث للسيوطي.

فما كلف الله تعالى عباده إلا بما كان فى استطاعتهم أن يفعلوه، قال تعالى:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾

«التغابن: ١٦»

فالصلاة لم يفرضها الله فى كل ساعة، ولم تكن ركعاتها كثيرة وشاقة ولم تكن أيضا قليلة أو فى وقت واحد أو اثنين فحسب، بل كانت وسطا تجمع بين الليل والنهار وهى خمس صلوات فى اليوم والليلة.

والصوم لم يكن للعام ولا لعدة شهور، ولكن فرض الله تعالى صيام شهر واحد فى السنة كلها وهو شهر رمضان ولم يكن صوم اليوم شاملا لليلته بل كان الصوم من الفجر إلى غروب الشمس.

ولم تكن الزكاة ضارة بحال الفقير ولا بحال صاحب المال، بل فاوت الله فى مقادير الزكاة حسب الجهد الذى يبذله صاحب المال، فما كان من جهود كثيرة كالنقد وعروض التجارة قلَّ مقدار ما يخرجه صاحب المال من الزكاة، وما كان أقل جهدا كالركاز يزيد مقدار ما يخرجه للزكاة، ففى زكاة النقدين وعروض التجارة يخرج ربع العشر وفى زكاة الركاز يخرج الخمس.

وأيضا فى زكاة الزروع والثمار: فما كان منها يسقى بالآلة يخرج منه نصف العشر وما كان منها يسقى بغير آله ففيه العشر.. وهكذا كلما كان الجهد المبذول أكثر كان مقدار الزكاة أقل، وكلما كان الجهد المبذول أقل كان مقدار الزكاة أكثر.

وعبادة الحج لم يفرضها الله ولم يوجبها إلا على المستطيع ولم يفرضها مرتين أو أكثر بل فرضها على المستطيع مرة واحدة فى العمر كله.

وهكذا كانت جميع التكاليف الشرعية، لا إفراط ولا تفريط، ولا غلو فيها ولا تقصير، بل جاءت وسطا يستطيع كل مكلف أن يأتى بها.

وسطية الأخلاق

وإذا نظرنا إلى الأخلاق فى الإسلام وجدنا أنها جاءت وسطاً، فكل فضيلة من الفضائل وسط بين رذيلتين، ففضيلة «الكرم» وسط بين «التبذير» إذا كان هناك إفراط، وبين «البخل» إذا كان هناك تفريط.

وفضيلة «الشجاعة» وسط بين «التهور» إذا كان الإفراط، وبين «الجبن» إذا كان التفريط.. وهكذا.

وسطية الروح والجسد

لقد عنى الإسلام برعاية الجسد ورعاية الروح ولم تتركز عنايته لجانب دون الآخر، فدعا الإسلام إلى متطلبات الجسد فى الحلال بعيدا عما حرم الله، ففى الحديث: «وإن لجسدك عليك حقا»[٤] ولم يحرم الزينة الحلال ولا الطيبات من الرزق، قال تعالى

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾

«الأعراف: ٣٢»

«٤» رواه البخارى.

ودعا إلى وسائل القوة كالرماية والسباحة وركوب الخيل والرياضة البدنية.

كما عنى بالجانب الروحى بالعبادات والالتجاء إلى الله والتوجه إليه بالدعاء، وتوثيق الصلة الدائمة بالله تعالى ومراقبته فى السر والعلانية، وتواصل الرعاية بالبدن والروح والتوازن بينهما بحيث لايطغى جانب الجسد والمادة على الروح، ولايطغى جانب الروح على الجسد بل يكون الإنسان فى الوسط وهو الاعتدال بين متطلبات الجانبين، ولقد وجه الرسول ﷺ إلى هذه «الوسطية» والاعتدال بين متطلبات الروح والجسد فعندما علم انهماك عبدالله بن عمرو بن العاص فى العبادة، قال له: «ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟ قال عبدالله: فقلت: بلى يا رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام: فلا تفعل، صم وأفطر وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا، وإن لزورك عليك حقا»[٥] «زورك»: أى ضيفك.

وسطية المنهج فى الدعوة

وجاء منهج الدعوة الإسلامية وسطا، لا إكراه فيه ولا تشديد، ولا تهاون فيه ولا تفريط، إنما هو دعوة تتناسب مع معادن الناس وأحوالهم، وتقوم على الحكمة والموعظة الحسنة، قال تعالى:

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

«النحل: ١٢٥»

كما يقوم منهج الدعوة على اللين فى القول، وعدم التشدد أو التزمت، فقد قال تعالى:

﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾

«طه: ٤٤»

ولقد وعظ أحد الواعظين المأمون وأغلظ له فى القول، فقال: يا رجل ارفق، فقد بعث الله من هو خير منك - يريد موسى وهارون عليهما السلام - إلى من هو شر منى - يريد فرعون - فأمرهما بالرفق واللين، فقال سبحانه

﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾

«طه: ٤٤»

وتقتضى وسطية المنهج الدعوة باللين والتدرج والتؤدة، وعدم التفريط والطفرة والعجلة.

داويت متئداً وداووا طفرة
وأخف من بعض الدواء الداء

فالتدرج فى الدعوة وعدم الطفرة هو سمة المنهج الإسلامى فى الدعوة، وقد روى عن عمر بن عبدالعزيز أن ابنه عبدالملك قال له: ما لك لا تنفذ الأمور؟ فو الله ما أبالى لو أن القدور غلت بى وبك فى الحق، فقال له عمر: «لا تعجل يابنى، فإن الله ذم الخمر فى القرآن مرتين وحرمها فى الثالثة، وإنى أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة فيدفعوه جملة ويكون من ذا فتنة».

«٥» رواه البخارى.



الدكتور مصطفى الشكعة صاحب كتاب «إسلام بلا مذاهب» فى ذمة الله

مثلما عمل الرجل طوال حياته فى تدبيج المطولات، من عيون ما زخرت به المكتبة العربية، فى دأب ودون صخب، وأثار كثيرا من القضايا المهمة فى هدوء وتؤدة، فقد رحل أيضا عن دنيانا فى هدوء وصمت نبيل.. كان آخر ما دبجته يراعة الرجل من المؤلفات الإسلامية التى كان لها دوى، كتابه الذى ذاعت شهرته فى الأوساط الدينية والسياسية، حتى تعرف إليه الرجل العادى المتواضع الثقافة، سواء فى مصر أو فى البلاد العربية، وهو كتاب (إسلام بلا مذاهب)، والذى وضع فيه تصوره حول ما ينبغى أن يكون عليه مسلم اليوم، بعد أن تفرق المسلمون فرقا كثيرة، تحت مذاهب بلا عدد، مما جعله يؤلف هذا الكتاب تحت ذلك العنوان اللافت للنظر، لا سيما أنه قد ألف أيضا عن أئمة المذاهب الإسلامية الكبيرة المعروفة بين المسلمين، منذ ظهورهم وإلى اليوم.

للأستاذ الدكتور/ محمد فتحى فرج
الأستاذ بجامعة المنوفية

نشأته وتدرجه العلمى

ولد الدكتور مصطفى الشكعة فى شهر أغسطس سنة ١٩١٧م بقرية محلة مرحوم التابعة لطنطا بمحافظة الغربية، وقد تلقى تعليمه الأولى فى مدارسها الابتدائية، وأيضاً جانباً من تعليمه الثانوى، إلا أن رحيل والده، فى أوائل الثلاثينيات من القرن الماضى، جعله ينتقل للإقامة مع شقيقه الأكبر الموظف بالقاهرة، ليستكمل تعليمه الثانوى بمدارسها.. التحق الدكتور الشكعة بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) وتخرج فيها عام ١٩٤٤م، وقد حصل على درجة الدكتوراه بعد ذلك بعشر سنوات (١٩٥٤م).

وقد عمل عقب حصوله على درجة الليسانس فى اللغة العربية وآدابها مدرساً فى التعليم الثانوى فيما بين عامى ١٩٤٤م و١٩٤٩م، أما النقلة الثانية فى محيط حياته العملية، فقد تمثلت فى عمله خبيراً بالتخطيط الاجتماعى فيما بين عامى ١٩٤٩ و١٩٥٦، وهو العام الذى التحق فيه بالسلك الجامعى مدرسا للأدب العربى بكلية الآداب جامعة عين شمس، التى تسنم فيها قمة وظائفها ليعتلى كرسى عمادتها عام ١٩٧٦م.

ومن بين المهام العامة والوظائف الأخرى التى قام بها الرجل، عمله كمستشار ثقافى لمصر فى واشنطن بالولايات المتحدة، فى النصف الأول من ستينيات القرن الماضى (١٩٦٠ - ١٩٦٥)، فأفاد جيلا من خيرة الباحثين والعلماء بعلمه وخبرته ومشورته، كما كان الرجل عضواً بمجمع البحوث الإسلامية، وعضواً بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف المصرية، والذى ترأس فيه لجنة التعريف بالإسلام، كما كان أيضاً عضوا بلجنة الحوار الإسلامى - المسيحى بالأزهر الشريف.

وبعد هذه الرحلة الثرية الطويلة، والجهاد النبيل، علماً وتعليماً وبحثاً ودرساً، ومشاركة إيجابية فى قضايا وطنه ودينه وأمته، أدى فيها الرجل دوره ورسالته، وحمل فيها الأمانة بحقها، فقد لقى ربه عن عمر يناهز الرابعة والتسعين، فى مساء الأربعاء الموافق للعشرين من أبريل سنة ٢٠١١م، رحمه الله رحمة واسعة وعوض الأمة عن فقده خيراً.

قامة علمية سامقة

الملاحظة العامة التى أستطيع أن أبديها وأنا أطالع المسيرة العلمية والأكاديمية لهذا العلم الشامخ، أنه لم يشغل نفسه إلا بالتأليف العلمى الجاد فى مجال تخصصه، أى فى مجال الدراسات الأدبية والإسلامية، وقد اتسمت مؤلفاته بالإحاطة والشمول والعمق، وهى فى أغلبها دراسات مستفيضة تقع تحت ما يعرف فى التأليف بالمطولات.

أما الملاحظة الثانية فهى ندرة ما ألفه من مقالات فى المجلات الثقافية العامة، سواء أكانت أدبية أو دينية، كما لم يكتب أيضاً كتبا لنشرها فى السلاسل الشعبية المعروفة فى مصر مثل (اقرأ) أو (كتاب الهلال) أو (المكتبة الثقافية) أو غيرها، شأن غيره من زملائه الجامعيين، ولا تعليل عندى لهذا إلا أنه كان يضن بوقته وجهده أن يصرفه فى غير مكانه الذى يستوجبه ويستأهله.. وقد تعجب أخى القارىء من مصدر استقائى واستقرائى لهذا المسوغ أو التعليل، الذى استشففته من صياغة وفحوى إهدائه واحدا من مؤلفاته الطويلة لأفراد أسرته - وهو نادرا ما يصنع ذلك - والذى جاء على النحو التالى: (إن العمل فى تأليف هذا الكتاب وإخوته من كتبى الأخرى قد استغرق سنوات غير قليلة من العمر، وإن قدرا كبيرا من الوقت الذى استحوذ عليه كان ملكا لأفراد أسرتى الصغيرة،

وحقا من حقوقهم، متحوني إياه في رضا وسماحة ورحابة صدر).

أما الملاحظة الثالثة فتتعلق بتوزيع جهده العلمي بين مجالين أو حقلين، وهما الدراسات الأدبية واللغوية والدراسات الإسلامية، وقد استطاع أن يوجد المناطات المناسبة بينهما، فآخر دراسة له، على سبيل المثال، التي كانت حول (الرافعي وإعجاز القرآن)، نستطيع أن ندرجها تحت كل من الدراسات الأدبية واللغوية والبلاغية من ناحية، كما يمكن أن ندرجها من ناحية أخرى تحت الدراسات الإسلامية، وتستطيع أن تطبق هذا أيضاً على معظم دراساته الأخرى، وأستطيع أن أؤكد هنا تأثير نشأته الأولى في كنف شقيقه الأكبر، والذي كان عضوا في (جمعية الشبان المسلمين)، ثم انخرط بعد ذلك في (جماعة الإخوان المسلمين) فتابعه الرجل في ولائه وانتمائه.

وقد نال الدكتور الشكعة العديد من أوجه التكريم الذي يستحقه أمثاله، ممن أعطوا بلدهم وعالمهم العربي والإسلامي من عصارة فكرهم وجهدهم الكثير والكثير، كما تخرج على يديه أجيال تلو أجيال في مصر والبلاد العربية التي قاد في إحداها كلية الدراسات العليا، ومن الجوائز التي حصل عليها سيادته ـ رحمه الله ـ وسام الجمهورية مرتين عامي ١٩٥٩ و١٩٧٧ ثم جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام ١٩٨٩م.

من مؤلفاته العلمية

من بواكير مؤلفاته العلمية كتابه حول (فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين)، مكتبة الأنجلو المصرية.

وله أيضاً (بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية والمقالة الصحفية).

كما اختص شاعر العربية الأكبر المتنبي بكتاب تحت عنوان: (أبو الطيب المتنبي في مصر والعراق).

ومن مؤلفاته في الثقافة الإسلامية كتابه بعنوان: (معالم الحضارة الإسلامية) وله أيضاً في هذا المجال كتاب بعنوان (مقالات في الدراسات الإسلامية) نشره باللغة الإنجليزية.

أما كتابه (إسلام بلا مذاهب) الذي صدر عام ١٩٦٠، فقد توالت طبعاته فيما يزيد على أربع عشرة طبعة كان آخرها ما صدر عن الدار المصرية اللبنانية عام (٢٠٠٥) ضمن سلسلة (القراءة للجميع).. ومن أعماله العلمية المطولة كتابه المعنون: (الأدب في موكب الحضارة الإسلامية)، مكتبة الأنجلو المصرية (١٩٦٨) أما كتابه العمدة في بابه فقد جاء تحت عنوان (مناهج التأليف عند العلماء العرب) وقد صدر عن (دار العلم للملايين) في بيروت عام ١٩٧٤.

كما تتبع الجذور الفكرية وأصولها الإسلامية، في كتابات عبدالرحمن بن خلدون في مؤلف تحت عنوان (الأسس الفكرية في فكر ابن خلدون ونظرياته).

كما ألف أيضاً مصنفا حول كتاب صبح الأعشى) للقلقشندي بعنوان: (الأصول الأدبية في صبح الأعشى) كما أن له دراسة بعنوان (مصطفى صادق الرافعي كاتبا عربيا ومفكرا إسلاميا)، كما كتب أيضاً دراسة أخرى تحت عنوان (الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه).

ومن واقع عمله وخبرته التعليمية في جامعات مصر، وأم درمان بالسودان، وجامعة بيروت العربية، وجامعة الإمارات العربية، فقد كتب كتاباً قيماً تحت عنوان: (التربية والتعليم في العالم العربي) باللغة الإنجليزية.

وتحت العنوان الجامع: (الأئمة الأربعة)، نشر الكاتب أربعة كتب صدرت كلها عن ثلاثة دور للنشر في مصر ولبنان هي: (دار الكتب الإسلامية) و(دار الكتاب المصري) (القاهرة)، و(دار الكتاب اللبناني) (بيروت). وكانت عناوينها على النحو التالي: (الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان) (١٩٨٣)، و(الإمام مالك بن أنس) (١٩٨٣)، و(الإمام محمد بن إدريس الشافعي) (١٩٨٤)، وأخيراً: (الإمام أحمد بن حنبل) (١٩٨٤).

أما كتابه (جلال الدين السيوطي: مسيرته العلمية ومباحثه اللغوية)، الدار المصرية اللبنانية (١٩٩٤)، فقد جاء تحت العنوان الجامع: (موسوعة الدراسات السيوطية)، إلا أنني لم أعثر على بقية هذه السلسلة، ولا أدري إن كان قد طبع بعد هذا الجزء الأول جزءا أو أجزاء أخرى أم لا.

أما آخر ما وقع تحت أيدينا من إنتاجه العلمي فهو كتاب (الرافعي وإعجاز القرآن) (٢٠٠٣)، الذي صدر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، بتكليف من وزير الأوقاف الأسبق الدكتور محمود حمدي زقزوق، وفضيلة الدكتور عبدالصبور مرزوق نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ رحمه الله ـ.

(إسلام بلا مذاهب)

ولا نستطيع أن ننهي هذا المقال حول هذا الرجل الفاضل ـ رحمه الله ـ إلا بعد أن نلقي بعض الضوء، حول أشهر كتبه وأوسعها انتشارا، وهو كتاب (إسلام بلا مذاهب)، الذي قرظه فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر الأسبق ـ رحمه الله تعالى ـ حيث قال فضيلته: ليست الدعوة إلى تقريب المذاهب الإسلامية دعوة إلى بقاء مذهب على حساب مذهب، ولكنها دعوة إلى تنقية المذاهب من الشوائب، التي أثارتها العصبيات والنعرات الطائفية، وأذكتها العقلية الشعوبية.. ثم يقول فضيلته في نهاية مقدمته: وإن كتاب (إسلام بلا مذاهب) هو محاولة من تلكم المحاولات التي اضطلع بها المصلحون أخيرا للمّ الشعث، وتأليف

القلوب، وتوحيد الصف.

ويقرر الشيخ شلتوت ـ بعد اطلاعه على الكتاب ـ أنه:

أولا: عرض العقيدة الإسلامية عرضا بيِّنا واضحا ميسّرا يتفق مع ما جاء به القرآن الكريم والسنة الصحيحة، وأبان بأسلوب سهل موافقة هذه العقيدة للفطرة الإنسانية السليمة، وملاءمتها لحكم العقل الناضج الفكر، ومُجانبتها للتعقيد الفلسفي الناشئ من خطأ الفكر وفساد الرأي.

ثانياً: تعرض لدفع بعض الشبه التي كثر حولها الجدل في الأيام الأخيرة، كتعدد الزوجات ومسألة الرّق، فأبان وجهة نظر الإسلام في هذه الموضوعات، وقارن بين ما جاء به غيره من الأديان وما عليه العمل الآن في بعض الدول التي يُظنّ أنها بلغت من الحضارة ما لم تبلغه أمة. وكان عرضه هذا عرضا جميلا، ورده قويًا يقنع كل من طلب معرفة الحق ورغب فيه.

ثالثاً: وهو المقصود الأصلي من كتابه، وهو الكلام عن الفرق الإسلامية، الغُلاة منهم والمعتدلين، فقد تكلم عن كل فرقة، وكيف نشأت، وكيف تطورت، وقد أعجبني منه أنه عالج هذا الموضوع الشائك بأسلوب المؤرخ الأمين، ولكن في هوادة ولين لا تُثير فتنة، ولا تورث ضغينة، ولا تبعث عصبية، ولم ينس عند الكلام عن فرق الغُلاة أن يُبيّن سبب غلوهم في رقة مَنْ يخشى على وحدة الأمة أن تتصدّع، ولاسيما أنه تعرض للفرق التي ارتبط ـ ولايزال يرتبط ـ تاريخها بمصرنا، ولم ينس أن يشيد بالمواقف النبيلة الكريمة، التي وقفتها الفرق المتعددة لرفعة هذا الوطن العزيز، وما بذلوه من دماء وأرواح في محاربة المستعمرين وأذنابهم.

ثم يُضيف الشيخ في أسلوب أدبي بليغ: ولقد طرّز كتابه هذا بشيء من آداب المتأدبين من أبناء الفرق المختلفة، فكان كتابه هذا كتاب علم وتاريخ وأدب، لا يرى العالم فيه انحرافا عن الجادة، كما لا يرى فيه المؤرخ تحاملا على فريق لمصلحة فريق، بل هو سجل للأحداث من غير تحيز ولا تعصب، كما يرى فيه الأديب صورة وأفكار المتأدبين، وأسلوبا مُعبّرا عن خلجات نفوسهم في عصور مختلفة وبيئات متعدّدة.

وهذه الأهداف التي أشار إليها فضيلة الشيخ شلتوت، والتي استهدفها وأومأ إليها الدكتور الشكعة من خلال تأليفه لهذا الكتاب القيم، لهي من ألزم ما ينبغي أن يحرص عليه مسلمو اليوم، أمام ما يتعرضون له من فتن ومحن، سواء في الداخل أو من الخارج، تستهدف وحدتهم وشق صفوفهم، بل تُهدّد ـ بشكل مباشر ـ حاضرهم ومستقبلهم ووجودهم ومصيرهم.

●●●

قصة العدد

عقد اللؤلؤ



للأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيومي
رحمه الله

رجع غانم الأسدي من تجارته الرابحة إلى منزله ببغداد، بعد سفر طويل استغرق منه قرابة ثلاثة أشهر.. وكان أثناء الطريق يفكر تفكيراً جدياً في زوجته سلمى البصرية، ويتأمل ما طرأ على نفسها من سأم، وما ران على عاطفتها من جمود، لقد أصبحت ضائقة بمنزله الشامخ، تراه سجناً رهيباً لشبابها الغض، وجمالها الفتان! إن زوجها يقطع الأيام الطويلة غائباً عنها في تجاراته المتواصلة التي لا تكاد تنقطع حتى تعود! وليس معها غير خادم عجوز لا تؤنس نفساً، ولا تسعد جليساً، وإن الوحدة لتكظم أنفاسها، وتضيق على رئتيها الخناق.. ثم إن زوجها الرحالة بخيل شحيح يحاسبها على الدرهم قبل الدينار، ولا يكاد يسمح بغير القوت الضروري رغم ثرائه الواسع وماله العريض.. فإذا جلس في منزله يوماً أو بعض يوم، كان حديثه البارد عن ضياعه وتجاراته، وما ينتظر في الغد من الربح، وما أوشك أن يضيع عليه من الحظ لولا حيلته البارعة، وذكاؤه اللماح، أما شجون القلب وحنين الأليف، وهمس النجوى فمما لا يخطر له على بال، ثم هو إذا تكلف غير طبيعته، وخاض فيه بعض الخوض يحس بانقباض فاتر يصرفه عن القول بعد لحظات.

هذه طبيعته التي يعرفها عن نفسه، وأنه ليتصور شخصه بعد ساعات، وقد وصل إلى منزله وصول الضيف الثقيل الذي لا يحس حرارة اللقاء، ودفء الاستقبال، فسلمى تسلم في تخاذل، وتصل القول في تصنع، ثم تنظر إليه نظر من لا يفرق بين ذهابه وإيابه.. بل نظر من يود أن يتصل بالذهاب كي لا يتكلف ما لا يطيق من المصانعة والاحتيال، فماذا عسى أن يصنع ليزيل وحشتها الكئيبة دون أن ينفق درهماً واحداً ينقص قليلاً من ثرائه؟! فتلك التي

لا تتحملها نفسه الطموح، لقد جمع ثروته بكده، المتواصل، وعرقه المتساقط ليتمتع بمرآها الذهبي في خزائنه لا ليتقدم بها أو بقليل منها إلى زوجة كسول، لا تحتال للثراء، ولا تعبأ بالأموال والضياع.

أجل.. كان هذا التفكير الخير يشغل ذهن «غانم» ويوقعه في أسف مرير، ثم برقت في ذهنه فكرة.. هش لها فؤاده، فأخذ يجيلها في خاطره، منقباً فاحصاً، حتى اطمأن إلى إكسيرها النافع، وتأثيرها الحاسم، إن معه عقداً لؤلؤياً قد اشتراه من الهند بثمن مرتفع، لا يقدر عليه تاجر غيره ببغداد، وإذا أرادت سلمى أن تبيعه ذات يوم من أيام رحلته، فلن تجد من يقدر على دفع الثمن المنشود، إنه وحده ثروة متجمدة لا تقبل التصرف والاستبدال فلماذا لا يعرضه على زوجته حين يفاجئها بحضوره كهدية ثمينة اختارها لحبيبته، وقدمها دليلاً حياً على توهج شوقه واشتعال حنينه؟

إنها بلا شك ستغير مجرى شعورها النفسي، وتجعلها تنقلب من معرضة نافرة إلى مقبلة راغبة، وربما اندفعت إلى حب مخلص لا يعرف السأم والفتور بل تعود حياتها في القصر مرحة بهيجة، وكأنها طائر في حديقة يتنقل من زهرة إلى شجرة إلى غدير!! ما عليه لو قدم إليها هذا العقد لتحتفظ به في صوانها الخاص، بدل أن يحتفظ به هو في خزانته الحديدية ذات الأقفال السبعة، والنتيجة بعد ذلك واحدة.. فالعقد لزوجته في ظاهر الأمر، ولكنه في الحقيقة رهن إشارته، لا تستطيع أن تتصرف فيه إذا وسوس لها هاجس بالبيع والإنفاق!!

تلك فكرة حصيفة لابد أن ينفذها الرجل بلباقته الماهرة، وسيعود إليه ارتياحه النفسي حين يرى أشعة الحنان تشع من عيني سلماه، ورقة الحب ترف في همسها العطوف، ومظاهر الشوق تبرق في أسرة وجهها الفتان، ولن يبقى بعد اليوم مجال للضيق والاشمئزاز.

وكانت ساعات عابرة تقلصت من حدود الزمن لتدفع بغانم إلى منزله فدق الباب في لهفة.. واندفع إلى سلمى مؤتلق الجبين باسم الثغر، فغمرها بقبلاته، وقد وقفت ذاهلة مبهوتة، وكأنها تشاهد مسرحية مصطنعة، ثم تطلعت إليه في جمود.. فمد يده سريعاً إلى كيس من المخمل الناعم طرز بالذهب وضمخ بالعطر، ثم أخرج منه عقداً لؤلؤياً، تراقصت عليه أشعة الشمس من النافذة فكان كمصباح كبير يشرق فجأة بالحجرة ليغمرها بلألاء براق.

واندفع الرجل فعلقه في جيد زوجته، وطبع على جبينها قبلة حارة تطقت بما أراد أن يظهره من إخلاص، وهدأ صوته قليلاً قليلاً حتى تحول إلى همس رقيق، حين قال: لقد رأيت هذا العقد في متجر أعظم الدهاقين الهند، فخيل إلىّ أنه لا يأخذ جماله الفاتن إلا إذا تحلى بجيد سلمى، فبذلت نصف ثروتي ثمناً رخيصاً له، وهأنذا أقدمه إليك دليلاً صادقاً على وفائي

الأمين، ثم سار حديثهما الرقيق في هذا المنحى ردحاً من الوقت حتى شملهما الظلام فأويا إلى الرقاد.

كانت سلمى البصرية أديبة متفقة تروى الشعر، وتقرأ التاريخ.. ولولا هوايتها الأدبية ما استطاعت أن تعيش وحدها في منزل ساكن لا يؤنسه سمير، وهي بعد مرهفة الشعور، متوقدة الإحساس، ولها مع وجدانها الرقيق إدراك عقلي لماح يستشف السرائر ويستوضح الخلجات.

وقد أوت إلى فراشها لا لتنام، بل لتفكر فيما وراء هذه الهدية الثمينة؛ إنها لتعرف شح زوجها البالغ وتقتيره الحريص، ومثله في بخله الشديد لن يقدم لها هذه الثروة لتكون طوع يديها مرة واحدة، لقد اكتشفت من حديثه ومضا يوحي بأن أعظم تاجر في بغداد لا يجرؤ على شراء العقد اللؤلؤي دون مجازفة خطيرة، وإذن فقد ضمن الزوج ألا يباع، وكأنه أهداه باليمين ليسترده بالشمال!! أي تضحية قام بها في سبيل الإهداء؟ لقد ظن أنه سيخدعها به متوهماً سذاجتها البريئة وغفلتها الساهية، ليته تقدم إليها بما يؤكل من الطعام وما يلبس من الثياب!!

إنه غبي ماكر يتوهم في نفسه مقدرة على ستر أهوائه وأغراضه، وأنها لتتضح لكل ناظر حتى لتكاد تنادي على نفسها دون استتار! ثم استرجعت أنفاسها لحظات، وهي تتقلب على الفراش القلق، وقد سار تفكيرها في مجرى آخر، فقالت بينها وبين نفسها: لعلي سيئة الظن به، ولعله غيّر بعض الشيء من سلوكه فقدم هديته في براءة لا تخفي الخديعة والاحتيال، ثم صممت على أن تختبر شعوره بعمل حاسم تتكشف به السرائر، وتفتضح النيات، لقد تذكرت حبيبها الأثير، وابن عمها الهائم سليمان البصري، هذا الذي نشأ معها في منزل واحد، وتأدبا معاً على شيخ راوية غرس في نفسيهما حب الأدب والقصيد، وكانت تظنه فتاها المنتظر، لولا أن والدها قد خدع بثروة غانم فآثره واختاره.. ومازال القلبان يشتعلان بالوجد.. وكثيراً ما نهض سليمان تحت ستار الليل في غيبة غانم، وذهب إلى القصر الذي تقيم به الزوجة فرويا الشعر، وتطارحا الأدب، وتطلعت العيون ناطقة بما تسكن به القلوب دون أن يخدشا حجاب المروءة، أو يهتكا ستر العفاف!!

إن سليمان لأعز عليها من نور العين، وسيكون بمنزلها غداً في هدأة الليل، ولابد أن تنتظره ساهدة ساهرة حتى إذا لاح شخصه تحت الشجرة الضخمة في حديقة المنزل كشبح عابر في الظلام، نهضت إليه وأخبرته بعودة غانم ثم أعطته العقد مترقبة ما تتمخض عنه الأيام!!

أشرق الصباح فنهض الزوج لبعض شأنه في المدينة، وعاد مع الظلام فقطع مع صاحبته وقتاً لذيذاً يحفل بالسمر والإيناس حتى رفرف النوم على أهدابه، فتركته في هدوء ساكن لتؤدي رسالتها المهمة في ظل

الشجرة الباسقة، وقد فوجئ سليمان بالعقد، فهم بالرفض لولا نظرة حادة عرف مدلولها الصارم من عينى حبيبته، فاستسلم لمشيئتها الكبيرة، وتسلل تحت الظلام إلى مأواه، فنهضت سلمى إلى فراشها رابطة الجأش هادئة الخاطر، وغرقت فى نوم عميق مازال يمتعها بأطيافه حتى أيقظها زوجها فى الصباح فقامت متثاقلة، وتناولا الطعام معا - كما اعتادا - دون أن يحدث جديد، حتى إذا هم غانم بالخروج، دعته فى هدوء بارد، وأخبرته أنها بحثت عن العقد فلم تجده فى مكانه، وقد رأياه معاً قبل النوم، وتشهد كما يشهد أن المنزل لم يطرقه كائن ما منذ غرقا فى السبات، فأين ضاع؟ ومن الذى عرف حقيقته حتى تخفى فى المنزل وتصيده فى الظلام؟ لقد كانت البغتة صاعقة شديدة التأثير فى نفس الزوج، فانتابه إغماء حاد أفاق منه بعد تعهد وعلاج، وحين رجع إليه صوابه وخرج مستطارا إلى رئيس الشرطة ببغداد ليفضى إليه بالنبأ الكارث بين الشهيق والنحيب.

كان سعيد بن خالد بن يحيى البرمكى رئيس الشرطة البغدادى إدارياً نافذ النظرة، واسع التجربة، بعيد الغور، وقد أعطاه عمه جعفر بن يحيى البرمكى وزير الرشيد سلطة واسعة تجعل كل بغدادى يرهبه ويخشاه، فله أن يقتحم المنازل الممنوعة دون اعتراض وله أن يدلف إلى المقاصير المحجبة متى شاء! وله فى مهمته الرسمية ما يشفع له بحثاً عن مؤامرة مزمعة أو خيانة مدبرة!!

وقد استمع إلى غانم فى يقظة حازمة، وألم بظروف حياته، وحالة بيته ونفسية زوجته بعد أسئلة محبوكة لماحة وجهها فى حكمة وسداد، وأجاب عنها التاجر فى صدق وإخلاص.

وبقليل من تفكيره الصائب لمح يد الزوجة وراء السرقة، وأمر التاجر فى لهجة الحاكم المسيطر أن يأخذ قارورة من عطر خاص يحتفظ به ثم يمضى إلى بيته متصنعاً الهدوء، مظهراً عدم المبالاة، ويتقدم بها لسلمى فى ملاطفة متحدثاً عما ينتظره على يد الشرطة من نجاح فى إعادة العقد واسترجاعه، فإذا أصبح الصباح قام برحلة تجارية جديدة تستغرق شهرين.. وحين يعود سيجد الكنز الغائب بين يديه، ولم يجد المسكين بدأ من التنفيذ العاجل فبادر بالرحيل ونفسه الحائرة تضطرب بين اليقين والشك واليأس والرجاء!

وجاءت الخطوة الثانية.. فأحضر سعيد البرمكى شرطياً من خيرة أعوانه، وأطلعه على ما لديه من عطر بوليسى لا يشاركه فيه مشارك، فعرف رائحته المتميزة، وتشمم مذاقه المنفرد، ثم أمره أن يجلس على رأس الدرب المفضى إلى منزل غانم كل ليلة، فإذا عبر به عابر تشمم رائحته، وتعرف ثيابه حتى يصادف من يتعطر بمثله، فيحمله إليه، وقد صدقت فراسة الرئيس.. فما لبث أن جاءه تابعه بسليمان البصرى يضطرب من الخوف.. فهدأ من روعه، وسأله فى هدوء:

- أين العقد اللؤلؤى الذى حملته من منزل غانم؟

فذهل سليمان لسؤال لم يكن يتوقعه، وحاول الإنكار، فصاح به سعيد: «لقد اعترفت سلمى أمامى بأنك أخذت العقد فعلام الهروب»؟!

فتخاذلت شجاعته، وأعلن أن العقد معه.. ولكنه يخشى فضيحة قلبين على رءوس الأشهاد!

ففكر سعيد ملياً، ثم بعث بمن حمل إليه سلمى فكانت بين يديه بعد لحظات، وتطلعت فى حجرة الشرطة فلمحت ابن عمها، ورأت أنوار العقد اللؤلؤى تشع فى توهج، فلم يخذلها ثباتها الحازم، وقالت فى صراحة:

- أيها الأمير، لقد تقبلت الهدية فتصرفت فيها كما أريد.. وإنى لصاحبتها، ففيم الملام؟ فقال سعيد فى إنكار:

- وهل يرضى غانماً أن يأخذها سليمان؟

فبادرت تقول فى شجاعة لم تبرحها بعد: «إن غانماً يملك جسمى وحده، وقد حفظته له، دون أن يعبث به إنسان.. أما قلبى النائح فى صدرى فله أن ينبض حباً لمن يشاء» فأطرق سعيد إطراقة المفكر، ونظر إلى الحبيبين، وقد سبر ما يخفيانه من حب وحنين، وتأكد لديه أن بقاء سلمى عند غانم فى وحشة الوحدة، وجفاء العشير هم لا يطاق، فعقد العزم على شىء خطير، وطلب إليهما فى رفق هادئ أن ينصرفا كل إلى بيته، وستأتى الأيام بما لا يتوقعان!!

حانت أوبة غانم، فاتجه إلى دار الشرطة قبل أن يعرج على منزله، ولا يعلم غير الله ما كابد فى رحلته المضنية من طوارق الهم، وشواغل الشجن، حتى صار كطيف نحيل يتعثر مع النسيم إذا هب عليه هبة رقيقة!! وحين استأذن على سعيد لم يمهله بل عجّل باستحضاره، ثم فاجأه بهذا السؤال:

- أيهما آثر لديك عقدك اللؤلؤى أم زوجتك سلمى؟ «فارتبك الرجل، ونظر كالحائر دون جواب»، فانطلق سعيد يقول فى صرامة:

- لن تجمع بعد اليوم بين الزوجة والعقد فاختر ما تشاء!

فشخص غانم ببصره قليلاً، ثم قال:

- إن العقد ثروة نفيسة لا يمكن أن أفرط فيها بحال!

فقال سعيد، وقد أخرج العقد من كيسه المخملى: «ها هو ذا يا صح.. ولابد لسلمى بعد طلاقها من تعويض مالى لا يرهقك فى شىء! ستدفع خمسمائة دينار دون نقصان»!.

ولم ينتظر أن يسمع الجواب، فأمر بمن يذهب معه إلى منزله ليحضر سلمى إليه، وليقبض الدنانير خمسمائة كما قدر، ثم ليرجع به ليعلن الطلاق.

وبعد ثلاثة أشهر، كانت سلمى البصرية فى منزل زوجها الحبيب سليمان يرويان قصائد البهجة واللقاء، بعد أن رددا تحت شجرة البستان زفرات البعد وأنات الحرمان!.

حــول النبـــع:

قضايا أدبية فى ديوان «من نبع القرآن» للدكتور/ رجب البيومى





لفضيلة الشيخ صديق بكر عيطة

من علماء الأزهر الشريف

قضايا الإبداع «١»

إن للقلب ذى البصيرة وحيًا ... ضلّ فى غوره العميق العلمُ

من يُجادلْ بعقله دون إيما ... نٍ فقد طاش فى يديه السَّهمُ

د. محمد رجب البيومى

إن للفكر لسبحات، وإن للأديب لتجليات، وإن من البيان لسحراً، يملك زمام القلوب طراً؛ فالأديب بفكره وسحر بيانه، إنما يمتاح من عالم الروح أكثر مما يغترف من عالم المادة، ومن هنا كانت أزمّة القلوب دائماً بين أنامله تتحرك فى خفة كخفة روحه، فإذا ما سال رحيق قلمه على بساط أوراقه، لم يسع النفوس الرقيقة والأرواح الشفافة، إلا أن تُسلس له قيادها.

والشعر من نفس الرحمن مقتبس

والشاعر الحق بين الناس رحمان

وإذا كانت الأدب عنصراً أساسياً فى حياة الأمم، وفى كل زمان، منذ أن عرفت طريق الحياة الوجدانية الراقية، فإن الشعوب فى هذا الزمان ـ الذى أطبقت فيه المشاكل على الأعناق أو كادت ـ فى أشد حالات التطلع إلى دور الأديب، فهو الذى يداوى الأرواح النَّصبة فى هجير الحياة القاسية، وهو الذى يطب النفوس اللاهثة فى بيداء المادة الفانية.

والواقع أننا نحن ـ المسلمين ـ فى أمس الحاجة إلى العودة إلى رحاب الله تعالى نستظل بظل كتابه الأسنى، وننعم بدوحه الوارف، فخير ما تعالج به قضايانا هو المنظور الإسلامى، للمجتمع الأمثل الذى يسوده الحق والخير والفضيلة.

وموضوعنا فى هذا المقال، وفى المقالات التالية ـ إن شاء الله ـ إنما يتركز حول ديوان «من نبع القرآن» الذى أهداه إلىّ المرحوم الأستاذ الدكتور: محمد رجب البيومى الشاعر والناقد المعروف.. والديوان ليس كبير الحجم، فهو يقع فى أقل من مائة صفحة من القطع الوسط، غير أن أهميته تُستمدّ من عدة اعتبارات يمكن تلخيصها فيما يلى:

أولاً: إن تجاربه الشعرية، قد استمدت من أدب القرآن الكريم، ذلك الأدب الذى تشرئب له الأعناق، وتنقطع دونه الأنفاس، وتهفو إليه الأرواح والقلوب طمعاً فى أن تنال شيئاً من ظله الوارف، وسكينته التى تهدأ إلى جوارها النفوس، وهو بذلك يلفت نظر أدبائنا الشبان إلى ما يحويه القرآن من قيم أدبية بين ثنايا النص لا ينضبُ معينها، ولا يبلغ شأوها كل ما قاله الأولون والآخرون.

ثانياً: الرد على من يدعون أن مداواة الشعوب خرجت عن نطاق المنظور الإسلامى وتجاوزت ما جاء فى كتاب الله تعالى، ولم يعد من الضرورى العودة إليه، فهذا الديوان دليل واضح على فساد هذا الزعم؛ لما فيه من حث على القيم التى دعا إليها القرآن، ذلك الدستور المقدس الذى لايزال وسوف يظل ميداناً لعلاج القضايا التى تصادف الإنسان «فرداً» كان أو «نوعاً» وعلى هدى من شريعة الله اللطيف الخبير.

ثالثاً: ما فى هذا الديوان ليس مجرد تسجيل مباشر لبعض اللقطات فى القصص القرآنى المقدس، وإنما هو انتقاء لبعض ما ورد فى القرآن من المواقف التى تعالج أدواء الأمة الإسلامية، وتسليط للأضواء عليها فى أهم مراحل تطورها ـ كما سنوضح فيما بعد ـ ليكون دعوة إلى الرجوع إلى رحاب الدين فى حل قضايانا، فهو دين الفطرة السليمة البعيدة عن كل ما يشوب الدعوات الأخرى من أغراض ضيقة تهدف إلى صالح فئة معينة من الناس، وفى زمن محدود.



وشاعرنا ـ رحمه الله ـ كان يتمتع بثقافة عربية وإسلامية واسعة، يقوم القرآن الكريم حارساً أميناً على ما بها من قيم فاضلة، ولأنه من الشعراء القلائل ذوى الثقافات المتنوعة الذين كونوا لأنفسهم زاداً أدبياً يأخذ القضايا الإنسانية بمعيار الحق والفضيلة فإننا نراه يعالج أدواء أمته بمنطق القرآن الكريم.

والأديب الحق يتحمل أعباء مسئوليات جسام فى توجيه الحياة نحو الخير والرشاد ولكل أديب مسئوليته التى يتحملها أمام فنه وأمام مجتمعه.

«أما مسئولية الأديب أمام فنه فتتمثل فى أن يوفر له كل مقومات النجاح من ثقافة خصبة أصيلة تمتد إلى كل آفاق المعرفة الإنسانية».

«وأما مسئولية الأديب أمام مجتمعه، فتتمثل في مقدار تفاعله مع الأحداث التي يعيشها هذا المجتمع، وفي وعيه الكامل بطبيعة المرحلة التي يجتازها»[1].

وإن من يتأمل ديوان «من نبع القرآن» يدرك أن الدكتور رجب البيومي - رحمه الله - إنما كان يختار لقضايا مجتمعه رؤيته الشعرية من وجهة نظر الإسلام الحنيف، ومن خلال مجموعة من اللقطات القصصية في القرآن الكريم، تضع يد المتلقي الواعي على مكمن الداء، وتوجهه إلى حقيقة الدواء، وبعبارة أخرى نرى الشاعر الأديب، قام بالمزج بين الدين والأدب في صورة فريدة، وهو يعي تماماً مسئوليته الأدبية أمام فنه، وأمام مجتمعه.

فالدكتور رجب البيومي، واحد من رجالات الأزهر المرموقين، ذوي الثقافة الخصبة التي تدور في فلك تتسع دائرته لتشمل محاور ثلاثة - وذلك بحكم نشأته في أحضان الأزهر الشريف - تضم كثيراً من آفاق المعرفة الإنسانية حاضرها وماضيها على السواء:

المحور الأول: محور القرآن الكريم، وآدابه وعلومه.

المحور الثاني: اللغة العربية، التي تُعدّ مرتكزاً لكل دراساته العملاقة.

أما المحور الثالث: فهو متابعة الأحداث الاجتماعية، وعلى جميع الأصعدة من خلال قراءاته الواسعة، مما يبرز بجلاء قضايا الأمة أمام ناظريه على حقيقتها. وبذلك نرى أنه قد تحقق لديه الشق الأول من مسئولية الأديب، وهو مسئوليته أمام فنه.

أما الشق الثاني الذي يمثل مسئولية الأديب أمام مجتمعه، فقد تحقق لدى شاعرنا أيضاً، ها هو ذا مجتمعنا يموج بالأحداث الجسام، التي تدعو الأديب إلى القيام بواجبه غير أنه لا يعالجها بصورة مباشرة؛ فليس هذا طريق الشعر، ولا يعالجها من وجهة نظر الفلاسفة وعلماء الاجتماع، وإنما يعالجها من خلال عرض قضايا قرآنية، تضع يد القارئ على حقيقة المشكلة وعلاجها. فمثلاً، عندما يرى الشر وقد تطاير بآثاره الوخيمة بين الناس، تبدو أمامه قصة آدم عليه السلام، وإبليس الذي رفض السجود له حقداً وبغياً وكبراً، وينتقي من هذه القصة ذروتها، التي تجتمع فيها خيوط المأساة الكبرى وهي تتمثل في قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾

(ص: ٧٦-٨١)

وفي هذه التجربة يقول الدكتور البيومي - رحمه الله -:

آثر الله آدماً بمزايا
خلصت جوهراً، وطالت سناء
ساد بالعقل والفضيلة والد
ين وأخْصِبْ بها خلالاً وضاء
لقن الرشد والحصافة لما
علّم اللهُ آدمَ الأسماء
من سواه يدري الذي بات يدريه
وقد أوتي النهى والذكاء
وتجلى الرحمن للملأ الأعلى
سخياً بفضله معطاء
سأل النابهين منهم سؤالاً
يبتليهم فلم يجيبوا عياء
فانبرى آدم يردّ حفيّاً
فتناهى إلى الصواب اهتداء
عرفوا فضله وللعالم الفضلُ جلياً
كما شهدت ذُكاء[2]
فهَوَوا بالسجود عنوان تقد
ير وأبدوا تجلّة وولاء
غير إبليس كيف يسجد للإنسا
ن حتى ولو شأى العلماء
باله ثائراً حسوداً غضوباً
يتلظى شراسة وعداء

إذن: إنه الحسد والغضب، ونيران الشر والعداء تتطاير في عروق إبليس وتدفعه إلى العصيان دفعاً، ولقد أجج نيران الحقد في قلب إبليس أن وجد نفسه مطروداً من رحمة الله تعالى. أما آدم عليه السلام، فإنه ينعم في جنته:

كل ما يشتهيه طوعُ يديه
ما ألذّ الفردوس روضاً وماء
ثمر فاتن المذاق وكَرْمٌ
يتعبّان جنة خضراء

فلابُدّ إذن من إغوائه وإخراجه من هذه الجنة الوارفة الدائمة إلى حياة الشقاء. ومازال به اللعين حتى أخرجه منها وأخرجنا معه:

وهكذا دبّر المكيدة إبليسُ
لنقضي حياتنا تعساء
هنّةٌ فذّةٌ لآدم صرنا
بعدها في ديارنا غرباء

وإذا كان شيطان الجن قد نجح في إخراج آدم من الجنة بعد أن رفض السجود له حقداً، وغضباً، فإن شياطين الإنس أشدُّ خطراً على بني آدم، ولايزالون يباشرون مهامَّهم غير المحمودة إلى آخر الزمان.

يقول الدكتور عبدالحكيم بليع: «إن عملية الخلق الفنّي تمر بمراحل ثلاث:

المرحلة الأولى: هي مرحلة معايشة التجربة، إما عن طريق الخبرة المباشرة، أو عن طريق التمثل الوجداني الذي يمكن أن يحصل طاقة الانفعال التي تولدها الخبرة المباشرة».

(1) د. عبدالحكيم بليع، مجلة الثقافة عدد مارس ١٩٧٤، مقال «ماهية الأدب ومسئولية الأديب في العصر الحديث».

(2) ذُكاء: الشمس

والمرحلة الثانية: هى مرحلة الانصهار الداخلى بعناصر التجربة وأبعادها، ثم تكون الرؤيا الشعرية إزاءها.

أما المرحلة الثالثة: فهى مرحلة التعبير الفنى الذى يعطينا الصورة المادية المقابلة لكل الحركات والمواقف النفسية التى عاناها الأديب.

واتصال هذه المراحل وتلازمها فى مجال الإبداع هو الذى يؤدى إلى خلقٍ فنىٍّ متكامل تتصل أجزاؤه وتتلاحم عناصره داخل سياج شعورىٍّ واحد»[2].

وهذه المراحل محلُّ اتفاق بين كافة المبدعين والنقاد والمحللين تقريباً. والمتأمل فى ديوان «من نبع القرآن» يستطيع أن يتتبع مراحل بناء العمل الفنى؛ حيث إن لها من الشواهد ما يؤكد على وجودها، مرفرفة بجناحيها اللذين يعطيانها القدرة على أن تحلق فى علياء النفس البشرية، وتخترق بقوة كل الغيوم التى تتكاثف فى سمائها، لتصل لامعة ناصعة إلى سويداء القلوب: هذان الجناحان هما: الصدق الشعورى الذى يعتمد على الحسِّ المرهف، والصدق الفنىّ المزوَّد بثقافة ذات رافدين، إسلامىّ وعربىّ.

منْ منا لم ينفعل بأحداث ما يجرى على أرض فلسطين، وقدسها الحبيب مُلتقى النبوات ومعراج النبى صلى الله عليه وسلم ومسراه؟! منْ منا لم يتابع ما يجرى فوق أرض لبنان الكسيح؟! من منا لم يتابع طيلة ثمانى سنوات ولم يحزن لما جرى بين قوتين من أعظم قوى الإسلام: العراق وإيران؟! وما جرى بين جارتين مسلمتين عربيتين: العراق والكويت؟! كل هذا وغيره يفجِّر طاقة الغضب لدى كل مسلم، والحزن لما أصاب أرض الإسلام؛ سواء أكان هذا المسلم شاعراً أو غير شاعر!! فما بالك بالإنسان المسلم الشاعر؟!! الذى يسأل نفسه، وما السر فى كل ما يحدث؟! أليس هو الإنسان بكل أطماعه ونزواته وزعاماته الخرقاء؟!

والشاعر المسلم بصفة عامة إنسان، غير أنه إنسان تميز برقة مشاعره وضميره الحىّ، وحبه الدائم لسيادة كل مبادئ الحق والعدل والرحمة: من هنا كانت «معايشة الدكتور البيومى للتجربة» قد تحققت كأقوى ما يكون التحقق، غير أن الشاعر لا يقنع بهذه المرحلة، فنراه يعود إلى نفسه وثقافته الإسلامية الواسعة التى امتزجت برؤية الأديب الشاعر. فنراه وقد تراءت أمامه قصة ابنى آدم عليه السلام فتكون «الرؤية الشعرية» وهنا يبدأ عمل الشاعر.

قلنا: إن قصة ابنى آدم عليه السلام تتراءى بكل ما وراءها من أطماع، وأحقاد أراقت دماء البشر ولأول مرة فى التاريخ، ولكن هذه المرحلة ليست نهاية المطاف عند الشاعر، فلابد إذن من تنفيس بربح ضميره، ويهدّئ من بركان نفسه الثائرة المترعة، ويخفّف من حدة لوعتها، فيكون عندئذ «التعبير الفنّى» الذى يعطينا الصورة المادية المقابلة» لكل داخل نفسه المؤارة، وكانت هذه التجربة التى قدم لها الشاعر بقوله تعالى:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۝ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ۝ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾

(المائدة ٢٧ - ٣١).

فاستمع إلى الشاعر وهو يقول فى مأساة هذا الإنسان:

عظم الشـــر بين نفـــسى وبينى
إنهـــا وحـــدها التى قـــهـــرتنى
لم تزل تَلْهب الدِّمـــــاء بذرًا
تى، كـــأن النيـــران تأكل منى
كلمـــا قـــد هدأت أجَّ لظاها
فـــمـــحـــا فطنتى وشـــرَّد ذهنى
هائج، لست أســـتــقـــر وأنّى
وعـــروقى مـــشـــبوبة صـــهـــرتنى؟!

إنها الضغينة التى تتوارثها الأجيال، وستكون بابا من أبواب الشر العاتى الذى يملأ حياة الإنسان ويكدر عليه صفو العيش.

سوف تأتى الأجيـــال بعدك تترى
وبهـــا مـــثل دائك المـــستكن
ســـيـــصـــولون فى الربوع ذئاباً
ضـــاريات يدْعَـــهـــا[4] شـــرُّ ضِـــغْن

إذن ماذا فعل «قابيل» بأخيه «هابيل»؟! لقد قتله، وسالت الدماء! ولأول مرة نتيجة الأحقاد.

وتـــراءى مُـــــــــولْولاً ذات يـــوم
صـــارخـــا يا أبى، كَـــبُـــرتُ، أغثنى
قـــد تدجّى حـــقـــدى فـــسوَّد عـــيْـــشى
وهَوَى بى فى حَـــمْـــأة لطختنى
يا أبى، يا أبى، قـــتـــلت شـــقـــيـــقى
كـــان عـــقـــلى مُـــجَـــانبى فـــاعـــذرنى

وكـــان الندم الذى لا يجدى فـــتـــيـــلاً ولا قطميراً، ولات ساعة مندم!!

أين أمـــــضى به تحـــيـــرت لولا
حكمـــة للغـــراب قـــد أرشـــدتنى
حـــفـــر الأرض فـــاهـــتـــديت ومـــاكـــا
ن لمثلى من قـــبـــلُ عـــهـــدٌ بدفن؟!

❁❁❁

(2) د. عبدالحكيم بلبع، مجلة الثقافة عدد مارس ١٩٧٤، مقال: «ما هية الأدب ومسئولية الأديب فى العصر الحديث».

(4) (دعّ) دفعه وبابه ردّ ومنه قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ (الماعون: ٢) مختار الصحاح مادة (د ع ع) ومنه أيضاً قوله تعالى فى سورة الطور آية ١٣: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾.

﴿ فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور

علـــى جمعـــة

مفتى جمهورية مصر العربية

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لهذه الأسئلة:

حكم هدم الأضرحة

● السؤال من: م . ن . ع:

انتشرت فى الآونة الأخيرة أصوات تدعو إلى هدم الأضرحة فى المساجد، وهذه الأصوات تتخذ حججاً متعددة لتنفيذ مآربها، منها توسعة المساجد التى بها هذه الأضرحة بما يتطلب إزالتها، ومنها أن الصلاة فيها حرام وباطلة، وغير ذلك. فما حكم الشرع فى ذلك؟ وهل يجوز للمسلم السكوت على ذلك؟

●● الجواب:

من المقرر شرعاً أن مكان القبر إما أن يكون مملوكا لصاحبه قبل موته، أو موقوفاً عليه بعده، وشرط الواقف كنص الشارع، فلا يجوز أن يتخذ هذا المكان لأى غرض آخر، وقد حرم الإسلام انتهاك حرمة الأموات، فلا يجوز التعرض لقبورهم بالنبش، لأن حرمة المسلم ميتاً كحرمته حياً، فإذا كان صاحب القبر من أولياء الله تعالى الصالحين فإن الاعتداء عليه بنبش قبره أو إزالته تكون أشد حرمة وأعظم جرماً، فإن إكرام أولياء الله تعالى ومعرفة حقهم أحياءً وأمواتاً من أقرب القربات وأرجى الطاعات قبولاً عند رب البريات، وقبورهم روضات من رياض الجنة، ويجب على المسلمين أن يأخذوا على يد من تسول له نفسه انتهاك حرمة الأموات، وبخاصة أولياء الله الصالحين من أهل البيت وغيرهم، فإنهم موضع نظر الله تعالى، ومن نالهم بسوء أو أذى فقد تعرض لحرب الله عزوجل، كما جاء فى الحديث القدسى: «من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب» رواه البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

وأما ما يثار من أن الصلاة فى المساجد التى بها أضرحة الأولياء والصالحين هى صلاة باطلة فقول مبتدع لا سند له، بل الصلاة فى هذه المساجد صحيحة ومشروعة، بل إنها تصل إلى درجة الاستحباب، وذلك بالأدلة الصحيحة الصريحة من الكتاب والسنة وفعل المسلمين سلفاً وخلفاً.

وبناءً على ذلك: فإن إزالة الأضرحة من المساجد أو نقل رفاتها إلى أماكن أخرى - تحت أى دعوى، حتى لو كانت توسعة المسجد وتجديده - هو أمر محرم شرعاً، لما فيه من الاعتداء السافر على حرمة الأموات، وسوء الأدب مع أولياء الله الصالحين، وهم الذين توعد الله من آذاهم بأنه قد آذنهم بالحرب، وقد أمرنا بتوقيرهم وإجلالهم أحياءً وأمواتاً، ولا يجوز التوصل إلى فعل الخير بالباطل، ومن أراد توسعة مسجد أو تجديده فيجب عليه شرعاً أن يبقى الضريح الذى فيه فى مكانه حتى لو أصبح وسط المسجد، أو يترك المسجد كما هو حتى يقيض الله تعالى له من يتولى توسعته من عباده المخلصين الذين يعرفون لأوليائه قدرهم وحرمتهم، وينأون بأنفسهم عن التعدى على أضرحة الصالحين، لتتحقق إقامة المساجد على تقوى من الله تعالى ورضوان.

ودار الإفتاء المصرية تهيب بعموم المسلمين إلى التصدى لهذه الدعوات الهدامة التى ما تفتأ ترفع عقيرتها بين الفينة والأخرى زاعمة أن قبور الصالحين التى بنى المسلمون المساجد عليها شرقاً وغرباً سلفاً وخلفاً - بدءاً بنبيها ﷺ فى روضته الشريفة بالمدينة المنورة، ومرورا بالصحابة وآل البيت الكرام كسيدنا أبى بصير فى جدة البحر، والإمام الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة بأرض مصر، والأئمة المتبوعين كالشافعى والليث

بن سعد بمصر، وأبى حنيفة وأحمد ببغداد، وأولياء الله الصالحين كالشيخ عبدالقادر الجيلانى الحنبلى ببغداد وأبى الحسن الشاذلى بمصر، وعلماء الأمة ومحدثيها كالإمام البخارى فى بخارى وابن هشام الأنصارى والعينى والقسطلانى وسيدى أحمد الدردير فى مصر، وغيرهم ممن يضيق المقام عن حصرهم - هى من شعائر الشرك وأعمال المشركين، وأن المسلمين إذ فعلوا ذلك فقد صاروا مشركين بربهم سبحانه، ويجعلون التوسل بالأنبياء والصالحين وتعظيم أماكنهم وزيارة أضرحتهم - مما أطبقت عليه الأمة وعلماؤها جيلا إثر جيل - ضرباً من ضروب الوثنية والشرك، غير عابئين بتراث الأمة ومجدها وحضارتها، فلا يعود المسلم يحس بمجد تاريخى ولا علمى ولا ثقافى ينتسب إليه، ولا يعود يرى سلفه إلا شذاذ آفاق مضللين يعبدون غير الله ويشركون به من غير أن يشعروا، فينهار المسلم أمام نفسه ويصغر فى عين ذاته، وذلك كله جرياً منهم وراء فهم سقيم لبعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى وردت فى المشركين الذين يعبدون غير الله، لا فى المسلمين الموحدين الذين يحبون الله ورسوله ﷺ وأولياء الله الصالحين ويكرمونهم أحياء وأمواتاً، وهذه كلها دعاوى الخوارج، يعمدون إلى الآيات التى نزلت فى المشركين فيجعلونها فى المسلمين، كما رواه الإمام البخارى فى صحيحه عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فى وصف الخوارج تعليقاً، ووصله الطبرى فى «تهذيب الآثار» بسند صحيح، فعلى المسلمين أن يأخذوا على تلك الأيدى الآثمة التى لا تريد أن تعرف لقبور الصالحين حرمة، ولا أن ترقب فى أولياء الأمة إلا ولا ذمة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

إخراج الزكاة للمساعدة فى تكاليف الزواج

● السؤال من : أ . د . ج :

تجمع لجنة زكاة الجمعية أموال الزكاة والصدقات والتبرعات وتصرفها على المستحقين، ويتقدم إليها بعض الشباب من غير القادرين لمساعدتهم فى إتمام زيجاتهم، وتقديم إعانات مادية ونقدية لزواجهم، فهل يجوز أن يكون هذا من الأموال المخصصة للزكاة؟

●● الجواب :

إخراج الزكاة مساعدة لمن أراد الزواج وهو عاجز عن تكاليفه أمر جائز كما عند المالكية، وكما صرح به بعض الحنابلة، حيث ذكروا أن من تمام الكفاية التى يشرع إعطاء الفقير من الزكاة ليصل إلى حدها ما يأخذه ليتزوج به إذا لم تكن له زوجة واحتاج للنكاح «حاشية الروض المربع» (١ / ٤٠٠).

وقال الإمام الحطاب المالكى فى «مواهب الجليل فى شرح مختصر خليل» (٢ / ٣٤٧): «فرع: تقدم عن البرزلى أن

اليتيمة تعطى من الزكاة ما تصرفه فى ضروريات النكاح والأمر الذى يراه القاضى حسناً فى حق المحجور، فعلى هذا فمن ليس معها من الأمتعة والحلى ما هو من ضروريات النكاح تعطى من الزكاة من باب أولى فتأمله».

وفى الأثر عن عمر بن عبدالعزيز أنه أمر من ينادى فى الناس: «أين المساكين؟ أين الغارمون؟ أين الناكحون؟»، أى: الذين يريدون الزواج، وذلك ليعطيهم من بيت مال المسلمين.

وزكاة المال تجب للمسلمين فقط، لأنها تؤخذ من أغنياء المسلمين وترد على فقرائهم، وزكاة المال الأصل فيها أن تؤدى مالا، فإن كان المستحق يحتاج إليها عيناً ويفيده ذلك فلا بأس بتأديتها إليه عيناً، لأن المطلوب هو تحقيق مصلحته.

وعليه وفى واقعة السؤال فيجوز للجمعية تقديم زكاة المال للغرض المذكور للمسلمين المحتاجين فى شكل مساعدات مالية، وإذا كان المستفيدون بذلك فى حاجة لشئ من لوازم الزواج بعينه وأمكن للجمعية تقديمه لهم فيجوز ذلك أيضاً.

والله سبحانه وتعالى أعلم

حكم تحديد نوع الجنين

● السؤال من : ط . خ . أ :

ما حكم تحديد نوع الجنين فى عملية الحقن المجهرى، مع العلم بأن زوجتى أنجبت بنتا وتريد تحديد نوع الجنين القادم ذكر؟

●● الجواب :

خلق الله تعالى الإنسان خلقاً متوازناً، فجعله زوجين: ذكراً وأنثى، وميز كلا منهما بخصائص تتناسب مع الوظائف التى أقامه فيها، وبين أن هذه هى طبيعة الخلق التى تقتضى استمراره، فقال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

«النساء: ١»

وقال تعالى:

﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾

«النجم: ٤٥ - ٤٦»

وقال تعالى:

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

«الذاريات: ٤٩»

وهذا التنوع فى الخلق والتوازن فى الطبيعة هو ما اقتضته حكمة الله تعالى العليم بكل شئ والقدير على كل شئ:

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾

«الشورى: ٤٩ - ٥٠»

وعندما نتناول مسألة كمسألة تحديد نوع الجنين فإننا نعالجها على مستويين مختلفين:

فإذا عالجناها على المستوى الفردى فالأصل فى الأشياء الإباحة: لأن الإنسان يمكنه أن يتزوج أو لا يتزوج، وإذا تزوج فيمكنه أن ينجب أو لا ينجب، وإذا أنجب فيمكنه أن ينظم النسل أو لا ينظمه، كل حسب ظروفه وأحواله، وكما يجوز للإنسان أن يعمل على زيادة نسبة اختيار نوع الجنين بما ينصح به المختصون فى ذلك - من اختيار نوع الغذاء، أو توقيت الجماع قبل التبويض أو أثناءه، أو غربلة الحيوانات المنوية، أو غير ذلك من الأساليب التى يعرفها أهلها - فكذلك يجوز التعامل المجهرى مع الكروموسومات والمادة الوراثية DNA لنفس الغرض، إذ ليس فى الشرع ما يمنع من ذلك على المستوى الفردى، ولكن كل هذا بشرط ألا يكون فى التقنية المستخدمة ما يضر بالمولود فى قابل أيامه ومستقبله، وهذا مرده لأهل الاختصاص، فلا يقبل أن يكون الإنسان محلا للتجارب، ومحطا للتلاعب.

وعليه فإن هناك فارقاً فى الحكم بين تحديد نوع الجنين على المستوى الشخصى وعلى المستوى الجماعى، وذلك بناءً على ماهو مقرر شرعاً من اختلاف الفتوى باختلاف تعلق الحكم بالفرد وتعلقه بالأمة، وهذا نجده كثيراً فى كتب الفقه من مثل قتال أهل البلدة إذا امتنعوا عن أداء سنة الفجر أو الأذان مع جواز ترك ذلك على المستوى الفردى الشخصى.

أما إذا عالجناها على مستوى الأمة فالأمر يختلف، لأن الأمر سيتعلق حينئذ باختلال التوازن الطبيعى الذى أوجده الله تعالى، وباضطراب التعادل العددى بين الذكر والأنثى الذى هو عامل مهم من عوامل استمرار التناسل البشرى، وتصبح المسألة نوعاً من الاعتراض على الله تعالى فى خلقه بمحاولة تغيير نظامه وخلخلة بنيانه وتقويض أسبابه التى أقام عليها حياة البشر.

وبناءً على ذلك وفى واقعة السؤال: فلا مانع من نقل ذكور الأجنة دون إناثها حسب رغبة الزوجين، ما لم يشكل اختيار أحد الجنسين ظاهرة عامة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

ما حكم كفالة مجهول النسب

● السؤال من: ع. أ. م:

هل يجوز أن تتكفل أسرة من الأسر بكفالة مجهولى النسب مثلما يجوز لها كفالة الأيتام معلومى النسب؟ وهل يكون ثوابها مثل ثواب كفالة الطفل اليتيم؟

●● الجواب:

إذا تكفلت أسرة بتربية طفل يتيم معلوم النسب لا وصىّ له أو طفل مجهول النسب، لينشأ بين أفرادها، ويتمتع برعايتها وإنفاق عائلها عليه كفرد من أفرادها، عوضاً عما فقده من جو أسرى، فإن هذا يعد عملا خيرياً عظيماً يهدف إلى توفير بيئة صالحة للأطفال الذين فقدوا عوائلهم، صيانة لهم من الضياع، وعملا على أن يكونوا أفراداً صالحين فى مجتمعاتهم، نافعين لها.

وقد ورد فى الحديث الشريف الذى رواه الإمام مسلم فى صحيحه والترمذى فى سننه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين فى الجنة وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى».

واليتيم هو الذى مات أبوه ولم يبلغ الحلم، فهو يتيم حتى يبلغ، فإذا بلغ زال عنه اسم اليتم.

والعلة فى الحض على كفالة اليتيم كونه محروماً من أبيه، وقد ذكر الأصوليون عند كلامهم على مسلك الإيماء من مسالك العلة أن من أنواع الإيماء اقتران الحكم بوصف مناسب، كـ «أكرم العلماء، وأهن الجهال»، فإن الإكرام مناسب للعلم، والإهانة مناسبة للجهل، والمعلوم من تصرفات العقلاء ترتيب الأحكام على الأمور المناسبة، والشرع لا يخرج عن تصرفات العقلاء، ولأنه قد ألف من الشارع اعتبار المناسبات دون إلغائها، فإذا قرن بالحكم فى لفظه وصفاً مناسباً غلب على الظن اعتباره «انظر: شرح الكوكب المنير للفتوحى ص ٥١٥، ط. مطبعة السنة المحمدية».

إذا تقرر هذا فنقول: إذا كانت العلة فى فضيلة كفالة اليتيم حرمانه من أبيه فهذه العلة متحققة فى مجهول النسب بصورة أشد تأثيراً فى النفس وفى أمور الحياة التى تحتاج إلى مزيد من العناية، لكون اليتيم معلوم الأب، لا يلحقه عار بموت أبيه، كما أن له عائلة ينتمى إليها، وأقارب قد يصلونه فى يوم من الأيام، أما هذا فبسبب جهالة نسبه فإنه عرضة لأن ينبذه المجتمع، مع كونه لا أب له ولا أقارب ينتظر وصلهم له أو سؤالهم عنه، وليست له عائلة ينتمى إليها، فقد تحقق فيه أصل معنى اليتم اللغوى الأعم - وهو التفرد - الشامل للمعنى الخاص المنقول لليتم فى الإنسان - وهو الحرمان من الأب - والزائد عليه بالحرمان من الأهل والأقارب والعائلة، فصدق عليه أنه يتيم بالمعنى الوضعى - المعنىّ فى الشرع بفضيلة كفالته - نظراً لحرمانه من أبيه، وزيادة، فلما تحققت فيه علة الحكم وزادت فى وصفها شمله الحكم من باب أولى، وتأكدت فى حقه فضيلة الكفالة التى رغب فيها النبى ﷺ، ورتب عليها الأجر العظيم.

وعليه فإن كفالة مجهولى النسب مرغب فيها شرعاً، ومن فعلها يرجى له ثواب كافل اليتيم، بل إن زيادة حرمانه من أقاربه أدعى لزيادة ثواب كافله.

والله سبحانه وتعالى أعلم

تحريم الإسلام الإفساد فى الأرض



لفضيلة الشيخ/ فوزى الزفزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية

يقول الله ـ تعالى ـ :

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(المائدة: ٣٣ ، ٣٤)

حرص الإسلام على توفير الأمن والأمان والاطمئنان للمواطنين، وتهيئة مناخ الهدوء والاستقرار لهم، ليتفرغ كل مواطن للسعى وراء توفير عيشه، وتحقيق مطالب أسرته ومجتمعه، وبناء دولته ورفعة شأنها.. لأنه فى ظل توفير الهدوء والاستقرار تزدهر الحياة فى أحوالها المختلفة، وفى جميع مجالاتها المتعددة.. فالاطمئنان ييسر للإنسان كل عسير، ويسهل له كل صعب، فينشط للعمل والإنتاج، راضى النفس، هادئ البال، متعاونا مع من حوله، آمناً على نفسه وماله وعرضه.

أما إذا تبدل الحال، وانتشرت القلاقل والاضطرابات، وعمّ القلق والفزع، والخوف وعدم الأمان، وفقد الإنسان الهدوء والاستقرار والاطمئنان، فإن ذلك ينعكس على عمله فيقل الإنتاج، ويهبط مستوى الأداء، وينتشر الفساد والكساد، وتنعدم الثقة بين الجميع، فتتفتح أبواب الشر، وتتقطع أوصال المجتمع.

من أجل ذلك كان حرص الإسلام على تحريم الإفساد فى الأرض، وتغليظ العقوبة على من يرتكب الأعمال التى تؤدى إلى ترويع الآمنين والاعتداء عليهم بالقتل أو السلب والنهب والسرقة.. ويتضح ذلك جلياً فى الآية الكريمة.

﴿ يُحَارِبُونَ ﴾ من المحاربة وهى ضد السلم، والمراد بالمحاربة فى الآية الكريمة: قطع الطريق على الآمنين بالاعتداء عليهم بالقتل أو السلب أو ما يشبه ذلك من الجرائم التى حرمها الله تعالى، ﴿ فَسَادًا ﴾ الفساد ضد الصلاح، فكل ما خرج عن وضعه الذى يكون به صالحاً نافعاً، يقال إنه قد فسد، والمراد بالسعى فى الأرض بالفساد هنا: قطع الطريق على الناس، وتهديد أمنهم، والتعرض لهم بالأذى فى أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم.. وهو ما يطلق عليه اسم «البلطجة».

وقد تعددت آراء المفسرين فيمن نزلت فيهم هذه الآية الكريمة؟

وأولى الأقوال هو ما يراه الإمام ابن جرير ـ رحمه الله ـ : أن الله أنزل هذه الآية على نبيه ﷺ لمعرفة حكمه على من حارب الله ورسوله، وسعى فى الأرض فساداً بعد الذى كان من فعل رسول الله ﷺ بالعرنيين[1].

ومحاربة الناس لله ـ تعالى ـ على وجه الحقيقة غير ممكنة، لتنزهه ـ سبحانه ـ عن أن يكون من الجواهر والأجسام التى تُقاتل، ولأن المحاربة تستلزم أن يكون كل من المتحاربين فى وجهة ومكان، والله منزه عن ذلك، فيكون المعنى: الذين يخالفون شرع الله وارتكاب ما يغضبه من فعل المنكرات والمحرمات والمعاصى.. أو الذين يحاربون أولياء الله وأولياء رسوله وهم المسلمون.

وصدر ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بلفظ «إنما» المفيد للقصر، لتأكيد العقاب، ولبيان أنه عقاب لا هوادة فيه، لأنه حد من حدود الله ـ تعالى ـ على تلك الجريمة النكراء التى تقوض بنيان الجماعة، وتهدم أمنها، وتزلزل كيانها، وتبعث الرعب والخوف والفزع فى نفوس أفرادها.

وقد حددت الآية الكريمة عقاب هؤلاء المجرمين الذين يرتكبون تلك الأعمال المحرّمة، ويخالفون أمر الله ورسوله، ويعتدون على أوليائهما، ويعملون بسرعة ونشاط فى الأرض لا من أجل الإصلاح والإعمار والنماء والازدهار، وإنما من أجل الإفساد والتخريب والتأخر عن طريق تهديد أمن الناس والاعتداء على أموالهم وممتلكاتهم وأنفسهم وأعراضهم واستباحة دمائهم التى حرمها الله.

حددت عقاب هؤلاء بالآتى:

١ ـ ﴿ أَن يُقَتَّلُوٓاْ ﴾ والتقتيل: هو القتل، إلا أنه ذكر فى الآية بصيغة التضعيف لإفادة الشدة فى القتل وعدم

(١) العرنيون: قوم أتوا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله إنا أهل ضرع، ولم نكن أهل ريف، وإنا استوخمنا المدينة ـ أى وجدناها ردية المناخ ـ فأمر لهم النبى صلى الله عليه وسلم بعدد من الإبل ومعهم راع، وأمرهم أن يخرجوا بها، فيشربوا من ألبانها.. فقتلوا الراعى، واستاقوا الإبل وكفروا بعد إسلامهم، فأُتى بهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم، وتركهم فى الحرة حتى ماتوا.

التهاون فى إيقاعه عليهم، لكونه حق الشرع، وللإشارة إلى الاستمرار فى قتلهم ماداموا مستمرين فى ارتكاب جرائمهم، فكلما كان منهم قتل أو إفساد قتلوا.

٢ - ﴿ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ ﴾ والتصليب: وضع الجانى الذى يراد قتله مشدوداً على مكان مرتفع بحيث يرى بعد القتل ليكون عبرة لغيره، وردعاً وزجراً له عن ارتكاب المعاصى والجرائم.. قالوا: ويكون الصلب لمدة ثلاثة أيام، وقيل لمدة يوم واحد.. وجىء هنا أيضاً بصيغة التضعيف لإفادة التشديد فى تنفيذ هذه العقوبة، وإثبات أنه لا هوادة ولا تراخ فيها.

٣ - ﴿ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾

أى: تقطع مختلفة فلا تكون اليد والرجل المقطوعتان من جانب واحد، بل تكونان من جانبين مختلفين.

٤ - ﴿ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾

أى: يطردوا من الأرض التى اتفقوا فيها على الإجرام - وتنفيذ أعمال البلطجة - إلى أرض أخرى ليتشتت شملهم، ويتفرق جمعهم، مع مراقبتهم والتضييق عليهم، وفسر بعضهم النفى بالحبس فى السجون، لأن فيه إبعاداً لهم وتفريقاً لجمعهم.

وتشير الآية الكريمة إلى أن هذا العقاب المذكور هو عقاب لهم فى الدنيا، وفيه ذل لهم وفضيحة وعار عليهم، لأنه كشف أمرهم، وهتك سترهم، وجعلهم عبرة لغيرهم.. ولهم فى الآخرة عذاب عظيم فى شدته وآلامه جزاء ما اقترفوا من جرائم ومعاصى.

وقد احتج جمهور العلماء بعموم هذه الآية فى أن المحاربة فى الأمصار وفى القرى وفى الصحراء على السواء، فحيثما تحققت إخافة المسلمين، واستلاب أموالهم، والاعتداء على أرواحهم، كان الفاعلون لتلك الإخافة محاربين لله ولرسوله، ويجب إنزال العقوبة بهم، لقوله - تعالى -:

﴿ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ﴾

وكل هذه الأماكن من الأرض.

واختلف العلماء فى معنى التخيير فى قوله - تعالى -:

﴿ أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾

• فقال قوم: «الآية تدل على التخيير بين هذه العقوبة.. فمتى خرج المحاربون بقطع الطريق، وقدر الإمام عليهم، فهو مخير بين أن يوقع بهم أى نوع من العقاب من هذه الأنواع الأربعة: القتل أو الصلب أو التقطيع أو النفى، حتى ولو لم يقتلوا ولم يأخذوا مالا، ماداموا قد اجتمعوا وقصدوا ترويع وتخويف وتهديد أمن الناس.. فالمسألة متروكة لتقدير الحاكم، وعليه أن يوقع بهم ما يراه مناسباً لزجرهم وردعهم وجعلهم عبرة لغيرهم حتى لا يستشرى الشر فى الأمة.

ومستند هذا القول أن ظاهر «أو» للتخيير كما فى نظائر ذلك من القرآن، كما فى قوله - تعالى - فى كفارة الفدية:

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾

(البقرة: ١٩٦)

فأو هنا للتخيير، وكذلك فى الآية التى معنا.

• وقال قوم: الآية تدل على ترتيب الأحكام وتوزيعها على ما يليق بها من الجنايات أى: أن «أو» لتنويع العقوبات على حسب طبيعة الجرائم.. فإذا قتل هؤلاء المحاربون غيرهم وأخذوا المال قتلوا وصلبوا، وإذا قتلوا فقط قتلوا، وإذا أخذوا المال فحسب قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا تجمعوا واتفقوا على ارتكاب الجرائم من غير أن يرتكبوا بالفعل نفوا من الأرض.

ومن رحمة الله بعباده أنه - جل شأنه - يفتح دائماً باب الأمل فى عفو الله للمذنبين والعاصين إذا أعلنوا توبتهم صادقين، وعادوا إلى الله نادمين:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وفى توبة المحاربين قبل القبض عليهم والتمكن منهم تفصيل:

• ذهب كثير من الفقهاء إلى أن توبة المحاربين قبل الظفر بهم تُسقط عنهم حد المحاربين المذكور فى الآية الكريمة - فيما يتعلق بحقوق الله - كما ينبئ عنه قوله - تعالى -:

﴿ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

أما ما يتعلق بحقوق العباد فلا يسقط عنهم بالتوبة قبل القدرة عليهم.. من حيث كونه قصاصاً، فالأولياء إن شاءوا عفوا، وإن أحبوا استوفوا.

• وذهب بعض المفسرين إلى أن توبة المحاربين قبل القدرة عليهم تسقط عنهم جميع الحدود، إلا ما كان قائماً فى أيديهم من أموال المسلمين والمعاهدين فيرد إلى أهله.. وظاهر الآية أن مَن تاب بعد القدرة عليه فتوبته لا تنفع، وتقام الحدود عليه..

وتلك العقوبات الشديدة التى ذكرتها الآية الكريمة لتوقيعها على الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً يتضح أن القصد منها ردعهم وكف عدوانهم، وأن يحس الناس فى حياتهم بالأمان والاطمئنان على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم.. فواجب على المواطنين أن يتعاونوا مع الحاكم على تعقبهم وقتالهم وكف أذاهم للقضاء على كل مَن يحاول إثارة الفتن والاضطراب بين صفوف أفراد الأمة، حتى يعيش الجميع مطمئنين، مؤدين لما يجب عليهم نحو دينهم ودنياهم بدون خوف أو إزعاج.

بيعة العقبة الثالثة


لفضيلة الشيخ/الطاهر الحامدى

أما النقباء فمن الخزرج أبو أمامة أسعد بن زرارة نقيب بنى النجار، ورافع بن مالك بن العجلان نقيب بنى زريق، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة نقيب بنى الحارث بن الخزرج وسعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو نقيب بنى ساعدة، والبراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وعبادة ابن الصامت. هؤلاء من الخزرج . ومن الأوس أسيد بن حضير نقيب بنى عبد الأشهل ورفاعة بن عبد المنذر وسعد بن خيثمة نقيب بنى عمرو بن عوف. ثم قال رسول الله ﷺ للنقباء: "أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل على قومى". يعنى المهاجرين. قالوا: نعم.

٢

وبعض أهل العلم يعدون من النقباء الهيثم بن التيهان ولا يعدون رفاعة.

ولعلك تريد أن تعرف لماذا وعلى أى أساس كان اختيار النقباء؟.

أقول لك: إن الاختيار كان بأمر من عند الله سبحانه وتعالى فإن جبريل عليه السلام أمين الوحى كان يشير إلى رسول الله ﷺ إلى من يجعله نقيباً ليلة العقبة.

روى البيهقى عن مالك رضى الله عنه قال: حدثنى شيخ من الأنصار أن جبريل كان يشير إلى رسول الله ﷺ إلى من يجعله نقيباً ليلة العقبة، يقول مالك: وكنت أعجب كيف جاء هذا؟ - يعنى على أى أساس وكيف كان ولماذا كان الاختيار - رجلان من قبيلة ورجل من أخرى؟ حتى حُدثت بهذا الحديث وأن الله سبحانه وتعالى هو الذى ولاهم وأن جبريل يشير للنبى ﷺ على كل واحد منهم.

ولما أخذ رسول الله ﷺ النقباء؟ قال لا يجد امرؤ فى نفسه شيء إنما آخذ من أشار إليه جبريل.

وروى أن النبى ﷺ نقب على النقباء أسعد بن زرارة - وهذا منتهى الحكمة وبصيرة القيادة فإن أمر الجماعة لا بد أن يرجع فيه إلى قائد واحد يكون عنده الرأى إذا تباينت الآراء - فلما توفى أسعد بن زرارة والمسجد يبنى اجتمع بنو النجار إلى النبى ﷺ وسألوه أن يجعل منهم شخصاً نقيباً فقال ﷺ أنتم أخوالى وأنا نقيبكم[1].

ويروى أنه لما اجتمع القوم لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصارى أخو بنى سالم بن عوف: «يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتل أسلمتموه فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما عاهدتموه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فما لنا بذلك يا رسول الله؟ قال: الجنة. قالوا: ابسط يدك فبسط يده فبايعوه»[2].

يروى أن رسول الله ﷺ قال لهم بعد المبايعة: «ارجعوا إلى رحالكم» فقال له العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم».

ولما سمع المشركون بالبيعة قال أبو جهل يا معشر الأوس والخزرج: أنتم إخواننا وقد أتيتم أمراً عظيماً تريدون أن تغلبونا على صاحبنا، فقال له حارثة بن النعمان: نعم، وأنفك راغم والله لو نعلم أنه أمر رسول الله ﷺ أن نخرجك لأخرجناك، وقال بعض المشركين: يامعشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا لتخرجوه من بين أظهرنا وتبايعوه على حربنا وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم. قال: فانبعث من هناك من مشركى قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه - وقد صدقوا لم يعلموا - قال وبعضنا ينظر إلى بعض.

واستقصى أهل مكة الخبر فوجدوه قد كان وخرجوا فى طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو وكلاهما كان نقيباً.

أما المنذر فقد أعجز القوم وأما سعد فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه وأخذوه حتى دخلوا به مكة يضربونه ويجذبونه. يقول سعد فوالله إنى لفى أيديهم إذ طلع علىّ نفر من قريش فيهم رجل وضيء شعشاع حلو من الرجال فقلت فى نفسى إن يكن عند أحد من القوم خير فعند هذا

1. السيرة النبوية لابن كثير.

2. سيرة ابن هشام.

قال: فلما دنا منى فلطمنى لطمة شديدة فقلت فى نفسى لا والله ما عندهم بعد هذا خير وجاء أبو البخترى بن هشام فقال أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد؟ قلت: بلى والله لقد كنت أجير لجبير بن مطعم بن عدى تجارة وللحرث بن حرب وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى، قال: ويحك فاهتف باسم الرجلين اذكر ما بينك وبينهما ففعلت وخرج ذلك الرجل إليهما ووجدهما فى المسجد عند الكعبة وقال لهما: إن رجلاً من الخزرج الآن يضرب ويهتف باسمكما ويذكر أن بينه وبينكما جواراً قالوا: ومن هو قال: سعد بن عُبادة قالا: صدق والله إنه كان ليجير لنا تجارة ويمنعنا أن نظلم ببلاده فجاءا فخلصا سعداً من أيديهم.

وكان ممن شهد العقبة معاذان: معاذ بن جبل وكان سنه حين بايع النبى ﷺ يقارب الرابعة عشر، والثانى معاذ بن عمرو بن الجموح ولهما بعد البيعة قصة مع زعيم وسيد بنى سلمة تكاد تقترب من قصة أبى الأنبياء سيدنا إبراهيم مع قومه لما نهاهم عن عبادة الأصنام حيث إنها لا تسمع ولا تبصر ولا تنطق فأبوا وقال لهم: إنها لا تنفع ولا تضر فلم يستجيبوا فقال لهم: إنها لا تستطيع أن تدافع عن نفسها ولا تستطيع أن تجلب نفعا لكم فلم يستجيبوا فأراد أن يقيم لهم دليلاً عملياً فقام بتحطيم الأصنام.

فلما اتهموه بأنه هو الذى حطم أصنامهم قال لهم: كيف تعبدون مالا يستطيع أن يدفع عن نفسه وإذا كان إلهكم لا ينفع نفسه فكيف ينفعكم؟ فلما لم يستطيعوا جواباً لم يجدوا مفراً إلا أن يحرقوه وقد وردت القصة فى سورة الأنبياء بأسلوب محكم وتعبير آخاذ يحكي القرآن عن سيدنا إبراهيم وقومه:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾

(الأنبياء: ٥١ - ٦٩)

فلما رجع المعاذان معاذ بن جبل ومعاذ بن عمرو بن الجموح إلى المدينة بعد أن بايعا رسول الله ﷺ وكان عمرو بن الجموح سيداً من سادات بنى سلمة من الخزرج قد اتخذ صنماً فى داره كعادة أشرافهم فأراد المعاذان أن يدعواه إلى الإسلام وأن يرفض عبادة الصنم الذى لا يسمع ولا يتكلم ولا ينفع ولا يضر لكنهما خشيا بأسه وسطوته وعناده وكبرياءه فلجأ إلى حيلة علها تقنع عمرو وترده إلى الرشد وتوقظ عقله فعمدا إلى صنمه بالليل فطرحوه فى بعض حفر بنى سلمة وفيها عذر الناس وألقوا الصنم منكس الرأس فأصبح عمرو وصاح فى غرور وعناد وقال: ويحكم من عدا على آلهتنا هذه الليلة؟ ثم يغدو على صنمه فيغسله ويطهره ويطيبه ثم يقول: أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينه. فإذا أمسى ونام فعلوا به مثل ما فعلوا بالأمس فيغدو هو فيغسله ويطهره فلما أكثروا عليه استخرجه ثم علق به سيفه ثم قال: إنى والله لا أعلم من يصنع بك ما أرى؟ فإن كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك. فلما أمسى عدوا على صنمه وأخذوا السيف وعلقوا فيه كلباً ميتاً وألقوه فى بئر فيه عذر الناس فلما رآه ثاب إلى رشده وكلمه من أسلم من قومه فرجع إلى عقله وأسلم رحمه الله وحسن إسلامه؟ ثم قال يذكر قصته مع صنمه:

والله لو كنت إلهاً لم تكن … انت وكلبٌ وسط بئر فى قرن

أف لملقاك إلهاً مستدن … الآن فتشناك من سوء الغبن

الحمد لله العلى ذى المنن … الواهب الرزاق ديان الدين

هو الذى أنقذنى من قبل أن … أكون فى ظلمة قبر مرتهن

بأحمد المهدى النبى المؤتمن[٣]

وإلى لقاء آخر إن شاء الله.

❊❊❊

٣. سيرة ابن هشام

الإمام محمود شلتوت

رائد التفسير الموضوعي في العصر الحديث

للأستاذ الدكتور/ رضا عبدالمجيد المتولي ابراهيم
أستاذ التفسير وعلوم القرآن ورئيس قسم التفسير
كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة



ولد الشيخ محمود شلتوت ـ رحمه الله ـ في السادس من شوال ١٣١٠ هـ/ أبريل ١٨٩٣م ببلدة منية منصور مركز إيتاي البارود محافظة البحيرة بدلتا القطر المصري، والتحق بمعهد الإسكندرية الديني عام ١٣٢٤ هـ/ ١٩٠٦م، ثم نال شهادة العالمية عام ١٣٣٦ هـ/ ١٩١٨م، وفي العام التالي لتخرجه عين مدرسا بمعهد الإسكندرية الديني، ثم نقل إلى القاهرة مدرسا بالقسم العالي، الجامعة،.

وفي عام ١٣٥٤ هـ/ ١٩٣٥م عين وكيلا لكلية الشريعة، وفي عام ١٩٣٩م عين مفتشا بالمعاهد الدينية ليتابع حركة الإصلاح فيها، وفي عام ١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م عين ـ رحمه الله ـ عضوا في هيئة كبار العلماء، وفي عام ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م اختير الشيخ شلتوت عضوا بمجمع اللغة العربية، وفي عام ١٣٦٩ هـ/ ١٩٥٠م عين ـ رحمه الله ـ مراقبا عاما لمراقبة البحوث والثقافة الإسلامية بالأزهر، ثم عين بعد ذلك وكيلا للجامع الأزهر، وفي ٢٩ من ربيع الأول عام ١٣٧٨ هـ/ ١٣ من أكتوبر عام ١٩٥٨م تولى الشيخ شلتوت منصب الإمام الأكبر شيخ الأزهر.

وفي ١٦ من ربيع الأول ١٣٨٣ هـ/ ٦ من أغسطس عام ١٩٦٣م قدم ـ رحمه الله ـ استقالته للرئيس الراحل جمال عبدالناصر عندما حيل بينه وبين إصلاح الأزهر، وتوفي بعد خمسة أشهر من تقديم الاستقالة، وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها في ٢٧ من رجب عام ١٣٨٣ هـ/ ١٣ من ديسمبر عام ١٩٦٣م، في ذكرى الإسراء والمعراج بعد عمر امتد سبعين عاما كان فيها منارة سامقة للاستنارة والإصلاح والاجتهاد والتجديد[1].

هذا وقد تحدث الإمام ـ رحمه الله تعالى ـ عن التفسير الموضوعي فقال: «هو أن يعمد المفسر أولا إلى جميع الآيات التي وردت في موضع واحد ثم يضعها أمامه كمواد يحللها ويفقه معانيها، ويعرف النسبة بين بعضها وبعض[2]، فيتجلى له الحكم ويتبين المرمى الذي ترمي إليه الآيات الواردة في الموضوع، وبذلك يضع كل شيء موضعه ولا يكره آية على معنى لا تريده كما لا يغفل عن مزية من مزايا الصوغ الكريم[3]».

ثم بين ـ رحمه الله ـ أهمية هذا النوع من التفسير «التفسير الموضوعي»، وأنه الطريقة المثلى للتفسير، خاصة للدعاة إلى الله تعالى، إذ به تبرز هداية القرآن الكريم في مختلف مناحي الحياة وشئونها، فقال: وهذه الطريقة في نظرنا هي الطريقة المثلى، وخصوصا في التفسير الذي يراد إذاعته على الناس بقصد إرشادهم إلى ما تضمنه القرآن من أنواع الهداية، وإلى أن موضوعات القرآن ليست نظريات بحتة يشتغل بها الناس من غير أن يكون لها مثل واقعية فيما يحدث للأفراد والجماعات من أقضية ويتصل بحياتهم من شئون، وهي تمكن المفسر من علاج موضوعات عملية كثيرة، كل موضوع منها قائم بنفسه لا يتصل بسواه، ولا يختلط بغيره فيعرف الناس موضوعات القرآن بعناوينها الواضحة، ويعرفون مقدار صلة القرآن بحياتهم الواقعية: القرآن وأصول التشريع، القرآن والعلم، القرآن والأسرة، القرآن وأدب الاجتماع، القرآن والسياحة، القرآن والاقتصاد، القرآن والتضحية، القرآن والبر، وهكذا.. إلى آخر ما يمكن عرضه من موضوعات القرآن التي تعتبر بحق عمدا قوية في بناء الأمة ونهضتها، وبهذا يطمئن الناس بطريقة عملية واضحة إلى أن القرآن ليس بعيدا عن حياتهم، ولا عن نواحي تفكيرهم، ولا عن مشكلاتهم، التي تعرض لهم في كل حين، يطمئنون إلى أن القرآن ليس كتابا روحيا فقط مهمته أن يشرح طريق القربى إلى الله من غير أن يعنى بشيء من وسائل الحياة، ولقد سرت هذه الفكرة الخبيثة الباطلة في نفوس كثير من الناس من حيث لا يشعرون، ليس عند سواد الناس وعامتهم فقط، ولكن عند كثير ممن يزعمون لأنفسهم أو يزعم الناس لهم تفقها في الدين أو ثقافة ونبوغا في الحياة، ولقد أصبح القرآن بهذا في نظر هؤلاء وهؤلاء كالأوراد يعكف عليها طوائف المريدين في أوقات الخلوة، واكتفوا منه

(١) مشيخة الأزهر، للأستاذ/ علي عبدالعظيم ٢/١٨٦، ط/ الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ـ النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، أ.د/ محمد رجب البيومي ٣/٤١ ط/ مجمع البحوث الإسلامية ـ الإمام الأكبر محمود شلتوت، أ.د ـ محمد عمارة ص ٣٩ط/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٢) وذلك كالإجمال والبيان، والعموم والخصوص، والإطلاق والتقييد.

(٣) راجع: الإسلام والعلاقات الدولية للشيخ/ محمود شلتوت ص ٩ مطبعة الأزهر.

بتلاوته، والاستماع إليه، والتعوذ به، والاستشفاء من الأمراض.

إنهم بهذا ظلموا القرآن، وظلموا أنفسهم وعقولهم، وظلموا الحياة الطيبة، وحرموها ينبوعا لا ينتهي فيضه في العلم والحكمة والتشريع والسياسة والتربية والتهذيب وكل ما تعالج به شئون الحياة:

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾

(الإسراء: ٩)

وإذا كانت هذه الطريقة «التفسير الموضوعي» تجود على الناس بتلك الثمرات الطيبة، وتقيهم سوء الظن بكتاب الله وتشريعه، فإنها تضع المفسر أمام الموضوع الذي يريد أن يعالجه وجها لوجه، وتلقيه في البيئة الخاصة به من الآيات فيستعين ببعضها على تفسير بعض، وإن أقوم تفسير للقرآن هو ما استقاه المفسر من القرآن نفسه، وكثيرا ما يغيب عن الناظر في القرآن السر في آية معينة حتى إذا ما سمع زميلتها الواردة في موضوعها علم ما غاب عنه، وانكشف أمامه ما كان خافيا عليه[4].

ثم قال - رحمه الله - معلنا رغبته في التفسير الموضوعي، ومطبقا له، وداعيا غيره إليه: وقد رغبنا ورغب أهل البصيرة في العلم، أن يعرض تفسير القرآن على هذه الطريقة الجديدة، فتعرف موضوعات القرآن، وتبحث بحثا نقيا بريئا من الشوائب التي من شأنها أن تستر الحق أو تشوه جماله، بعيدا عن الطريقة الملتوية، منزها عن الأقاصيص الدخيلة والخيالات التي لا يزكيها عقل ولا حقيقة.

وأرجو أن يجد الناس في هذا النحو الجديد من التفسير ما تصبو إليه نفوسهم من تعريف هداية القرآن والوقوف على أسراره وحكمه، والانتفاع بمبادئه وتعاليمه، وقد عرضت منذ سنوات على هذا النحو موضوع: «القرآن والمرأة»، وأظن أن الذين قرأوه بإخلاص قابلوه بصدر رحب، وقد رأيت أن يكون أول موضوع أعرضه الآن على هذه الطريقة بعد «القرآن والمرأة» موضوع «القرآن والقتال»[5].

وبهذا ترى - أيها القارئ الكريم أن الإمام محمود شلتوت - رحمه الله - تحدث عن التفسير الموضوعي حديثا مستفيضا من حيث التعريف به، وبيان أهميته، والدعوة إليه، ولم يقف عند هذا الجانب النظري، وإنما تناوله بالتطبيق، فأسهم فيه بمؤلفين «القرآن والمرأة»، «القرآن والقتال».

وسأقطف لك قطفا مما ذكره في مقدمة بحثه الأول، فقال - رحمه الله -: قرأت القرآن وتتبعت أبرز مواقفه في جانب المرأة، فوجدت أن القرآن وحده خير ما يصور للناس عناية الإسلام بالمرأة، وحظوتها عنده، وليس بعد كلام الله كلام، ولا بعد تشريعه تشريع، فهو الحكم الأعلى ومصدر التشريع الذي يحكم على غيره ولا يحكم الغير عليه.

لذلك رأيت أن أقدم للقراء جملة صالحة من موضوعات القرآن التي عرض لها القرآن، لتكون منارة يسترشد بها من تتقاذفه الأهواء، وتأخذه التيارات المختلفة فتصرفه عن الحق، وتهوي به إلى مكان سحيق.

عرض القرآن للمرأة في عشر سور أو أكثر، منها: سورة البقرة، وسورة النساء الكبرى، وسورة المائدة، وسورة النور، وسورة الأحزاب، وسورة المجادلة، وسورة الممتحنة، وسورة التحريم، وسورة النساء الصغرى المشهورة بسورة الطلاق.

وليس في استطاعتي أن أصل إلى تحقيق رغبة القارئ في استيعاب كل ما جاء به القرآن متعلقا بالمرأة، فإن ذلك يستدعي وقتا قد لا تسمح به دفعة واحدة حياة المدرس، وسأكتفي - وأرجو أن يكتفي القارئ معي - بهذا الإجمال الذي أقدمه اليوم[6].

وهذا جهد مشكور للإمام - رحمه الله - إذ ما لا يدرك كله لا يترك كله، ومن يطالع كتابه «منهج القرآن في بناء المجتمع» سيقف على بذور كثير من الموضوعات القرآنية التي تناولها الإمام على طريقة التفسير الموضوعي، وذلك كحديث القرآن عن المال[7]، أساليب القرآن في الدعوة إلى الإنفاق[8]، حديث القرآن عن اليتامى[9]، وغير ذلك كثير.

قال الأستاذ الدكتور أحمد الشرباصي: وهناك طريقة أخرى في التفسير، هي إجمال ما في السورة من موضوعات وأهداف ومقاصد، وممن برز في هذه الطريقة الشيخ محمود شلتوت في محاضراته وكتاباته[10].

أقول: وهذه الطريقة هي ما اصطلح على تسميتها بـ «الوحدة الموضوعية لسور القرآن الكريم»، وقد أبرز ذلك في كتابيه «تفسير الأجزاء العشرة الأولى»، «إلى القرآن الكريم».

وبهذا يكون الإمام شلتوت - رحمه الله - قد استوعب الحديث عن التفسير الموضوعي بنوعيه: العام «الطريقة الأولى»، والخاص «الطريقة الثانية»، كما قام بالجانب التطبيقي لكل من النوعين، والحديث عن الوحدة الموضوعية وتطبيق الإمام لها يحتاج إلى تفصيل في موطن آخر.

رحم الله الإمام محمود شلتوت جزاء ما قدم للإسلام والمسلمين، وأجزل له المثوبة والعطاء.

---

(٤) الإسلام والعلاقات الدولية - للشيخ محمود شلتوت ص ١٠ وما بعدها.

(٥) المرجع السابق ص ١٢.

(٦) انظر كتاب فصول شرعية واجتماعية - القرآن والمرأة للإمام/ محمود شلتوت ص ٢٠١ ط/ مطبعة وادي الملوك.

(٧) منهج القرآن في بناء المجتمع ص ٧٥ وما بعدها، ط/ دار الهلال.

(٨) المرجع السابق ص ٩٢.

(٩) المرجع السابق ص ١٢٠.

(١٠) قصة التفسير، د/ أحمد الشرباصي ص ١٦٤ط/ دار القلم بالقاهرة.

التأمل في أحوال الضحك والابتسام

يأتى الضحك بصوت أو بدونه، تعبيراً عن الفرح الذى ينبغى أن يكون مرشداً فى حياة المؤمن، وخاضعاً للأصول والأعراف الصحيحة التى لها اعتبار فى الشرع، فيجب مراعاتها فى الأفراح والمناسبات السارة، وألا يوجّه للإساءة للآخرين والسخرية منهم، وإضحاك الناس عليهم، كما تأتى الابتسامة استجابة لموقف يستدعى الاكتفاء بها دون سواها من التعبيرات الإنسانية.

الدكتور / السيد محمد الديب

وكيل كلية اللغة العربية بالزقازيق - جامعة الأزهر

Sayed.Addeeb@hotmail.com

١- بيان المصطلح ومتطلباته عند الإنسان

أفادت دوائر المعارف وبعض شبكات المعلومات أن الضحك عند الإنسان شكلٌ من أشكال التعبير الصريح عن التسلية والفرح ومشاعر أخرى أحياناً، هذا الذى يظهر خارجيا على وجه الإنسان، وتتعدد بواعثه ومسبباته.

وأما القهقهة فهى الضحك بصوت عالٍ مسموع، وتكون غالباً فى جمع من الناس، استجابة لفعل مخالف أو نكتة أو موقف تمثيلى، كما تشهد ذلك فى بعض سلوكيات الإنسان، وهى غير مستحبة فى كثير من الأحوال، فتفسد الصلاة وتنقض الوضوء، كما ذهب إلى ذلك بعض الفقهاء، وعلى ذلك يجب تنحية سائر العبادات عنها، خاصة الصلاة؛ لأنها حديث إلى الله تعالى.

أما الابتسامة فهى ذات قيمة عالية على القائم بها والموجهة إليه، وقيل إنها أجمل لغة فى الحياة.

ولقد خلق الله سبحانه وتعالى فى الإنسان- استعداده للضحك والبكاء - وفق الأحوال التى تتطلبها، قال تعالى:

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾

(النجم: ٤٣)

وتقدم ذكر الضحك فى الآية؛ لأنه الأقيد والأدعى لطبيعة الحياة الإنسانية، التى يعتورها كثير من الهموم والابتلاءات، فتكون الابتسامة النشيطة مخففة للضيق النفسى، وإعلاناً عن استمرار الإنسان فى أداء دوره بدون عوائق تحجبه عن القيام برسالته فى الحياة، وأكثر ما يكون الضحك والابتسام فى الفرح والسرور والتهنئة بالخير.

وجاءت البشارات إلى سيدنا إبراهيم متتابعة، وأبرز ما أضحك زوجته سارة، هو هلاك قوم لوط، ثم كانت البشارة بإنجابها لإسحاق ومن بعده يعقوب، قال تعالى:

﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾

(هود: ٧١)

وتحدث القرآن الكريم عن بعض الأوصاف الخاصة بأهل الجنة، فقال تعالى:

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾

(عبس: ٣٨ - ٣٩)

و﴿ مُّسْفِرَةٌ ﴾ أى مستنيرة

و﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أى مسرورة فرحة؛ تعبيراً عما فى القلوب، كما ظهر البشر على وجوههم، وقد أورد البخارى حديثاً لرسول الله ﷺ جاء فيه "وتبسمك فى وجه أخيك صدقة"[١]؛ لأن المؤمن عندما يبتسم فإنه يحقق لنفسه هدوءاً واستقراراً وراحة للنفس، فإذا ما توجه بابتسامته إلى مريض يسعى إلى الشفاء أو مكروب مهموم بالحياة فإن تأثير هذه الابتسامة على هؤلاء النفر من الناس لا حدود لها، خاصة إذا كانت من طبيب يعالج أو ممرض يداوى، و كان الرسول ﷺ كثير التبسم قليل الضحك، ومن المناسبات التى شوهد فيها ضاحكا ما رواه عباس بن مرداس رضى الله عنه قال أبو بكر أو عمر للرسول ﷺ: (أضحك الله سنّك يا رسول الله)[٢]" والمعنى أدام الله فرحك، وأكثر سرورك، من خلال التعبير عن ذلك بمصطلح الفرح والسرور[٣]".

٢- أحوال الضحك والابتسام

يكون الضحك تعجبا أو رفضا لبعض التصرفات المنكرة، أو سخرية من أشخاص معاندين يوظفون وسائلهم فى الإساءة إلى الآخرين والضحك عليهم والتغامز بهم، قال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ۝ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾

(المطففين: ٢٩ - ٣٠)

وذكر ابن كثير - رحمه الله - معنى ذلك فقال: "يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا فى الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين أى يستهزئون بهم ويحتقرونهم، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم، أى محتقرين لهم[٤]، إلى أن تنجلى الحقيقة للمشركين يوم القيامة، فلا يستحقون جزاء

(١) كما رواه الترمذى.

(٢) رواه أبو داود وابن ماجة.

(٣) قوله: سنك - أى واحدة الأسنان؛ لأنها تظهر فى الفم حين الضحك.

(٤) تفسير ابن كثير جزء ٤ صفحة ٤٨٧.

صنعهم إلا الضحك عليهم، والسخرية منهم، قال تعالى:

﴿ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴾

(المطففين: ٣٤)

وأورد القرآن الكريم عددا من الآيات، التى ترصد ضحك المشركين من دعوة الرسول ﷺ(٥) كما كان المؤمنون يضحكون من صنائع أهل الشرك فى الدنيا، ونتائج ذلك فى الآخرة، وشغل المؤمنون بذلك، حتى تحولوا إلى الضحك من المشركين، سخرية واستهزاء، قال تعالى:

﴿ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴾

(المؤمنون: ١١٠)

ولابد من الحرص على مراعاة آداب الضحك، فلا يكون الضحك عاليا ومليئا بالقهقهة الضارة، كما يجب تجنب الضحكة الصفراء الكئيبة، التى تكشف عن النفوس اللئيمة، وتتنافى مع أخلاق عباد الله المتقين فى كل زمان ومكان، كما يراعى تجنب الضحك بغير سبب واضح ؛ لأن تفسيره وإدراك بواعثه يجعل الآخرين فى حيرة مما يشهدون.

٣- من هدى الرسول للمؤمنين فى الضحك والابتسام

لقد ذكرت كتب السنة بعض المواقف من ضحك الرسول ﷺ وبعض الصحابة والتابعين رجالا ونساء ومن ذلك أنه ﷺ أسر إلى السيدة عائشة رضى الله عنها بحديث فضحكت، وكذلك ما كان منه إلى أم سلمة، وذكر البخارى رضى الله عنه حديثا ذكر فيه ضحك على رضى الله عنه، فقد رُوى عن عقبة بن الحارث قال: "رأيت أبا بكر رضى الله عنه، يحمل الحسن وهو يقول: "بأبى شبيه بالنبى، وليس شبيهٌ بعلى..... وعلى يضحك""(٦).

فأسباب الضحك كثيرة، وحصوله من الرسول وأزواجه وأصحابه ذائع مشهور، وهو سلوك إيجابى غير موجه للإساءة المنكرة إلى شخص ما، وإنما الهدف هو التجاوب الحسن مع الفرح والبهجة والسرور، وقد كان شأن الرسول ﷺ مع زوجاته واضحا جليا، واستطاعت السيدة عائشة رضى الله عنها أن ترصد هذه الحياة، وتروى كثيرا من تفصيلاتها أكثر من غيرها فى هذا الشأن، إذ كانت صغيرة السن، ولها قدرة رائعة ومتميزة فى الرواية والحفظ، فضلا عن نشأتها فى بيت إيمان وعلم، ومما يروى عنها قولها عن رسول الله ﷺ "كان ألين الناس وأكرم الناس، وكان رجلا من رجالكم إلا أنه كان بساما"(٧).

وفيما يتصل بالتبسم فقد كان كثيرا فى حياة الرسول بالمواقف التى تحتاج إلى الضحك وإظهار السرور، وتحدث القرآن الكريم عن حادث لسيدنا سليمان (عليه السلام) اقتضى أن يبتسم فيه ضاحكا، وذلك أن النملة خافت على سائر النمل أن

---

(٥) مثل الذى جاء فى سورتى الزخرف ٤٧ والنجم ٤٣.

(٦) الحديث فى صحيح البخارى جزء ٧ صفحة ٩٩ (فتح البارى) رقم ٣٧٥٠.

(٧) رواه أبو داود فى سننه ورواه الحاكم فى المستدرك.

تحطمها الخيول بحوافرها، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم، وفهم سليمان ذلك منها، فكان منه ما قال القرآن عنه:

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا ﴾

(النمل: ١٩)

والمزاح من أسباب الضحك والابتسام، وهو أن يقول الإنسان كلاما صادقا، وإن أمكن تناوله على ظاهره بما يخالف الواقع الحقيقى فيكون الضحك والابتسام، إلى أن تظهر الحقيقة، إذ لا ينبغى أن يبنى على الكذب، كما لا يليق بالمسلم أن يُكثر منه ؛ حتى يحافظ على هيبته ووقاره، ولا حرج فى القليل منه، إذا فُهِم الباعث عليه، ولم يُحدث أثرا سيئا فيمن يوجّه إليه، وكان الرسول ﷺ يمزح ولا يقول إلا صدقا، ومن مزاحه ما روى أن عجوزا من الأنصار أتته فقالت: يارسول الله أدع لى بالمغفرة، فقال: أما علمت أن الجنة لا يدخلها العجائز؟ فصرخت، فتبسم رسول الله ﷺ وقال:

"أما قرأت من القرآن قول الله عز وجل

﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ۝ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ۝ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ﴾

(الواقعة: ٣٥ - ٣٧)

وذلك شأن رسول الله فى بعض المواقف، التى تحتاج إلى تهدئة النفوس، وترطيب القلوب، والإقبال على الله تعالى.

٤- أثر الضحك على صحة الإنسان

لقد تحدث العلماء عن آثار الضحك على صحة الإنسان وأفادوا بما يسهم فيه الضحك بدرجات كبيرة فى علاج مرض السكر، وأداء الأوعية الدموية لوظائفها الطبيعية، وتخفيف حدة القلق عند الأطفال، وتمكين مرضى آلام العمود الفقرى من النوم بصورة أفضل وإسهام الضحك فى تقوية عضلات البطن، ومساعدة القلب على أداء دوره بصورة تجعل دعوة الإسلام إلى الابتسام والضحك حسب المواقف محل اعتبار وتقدير وتفعيل لهذا الأداء الوظيفى لأعضاء الجسم الإنسانى.

وقد صار العلاج بالضحك برنامجا معروفا خاصة عند أطباء علم النفس، ذلك أن التقدم فى التقنية العلاجية يحفز الأطباء إلى محاولة التغلب على بعض الجوانب الوراثية فى الإنسان ؛ سعيا إلى الانتصار على المرض، واقتحام قلوب الآخرين بالابتسامة اللطيفة التى تزيل كثيرا من الهموم والأحزان، ومن المقولات الخالدة فى الطب الحديث (ضحكة فى اليوم تبقى الطبيب بعيدا) وقد كثرت أندية الضحك فى كثير من بلدان العالم، والتى تجعل من الضحك هواية ودواء شافيا لكثير من الأمراض، إلا أنه ينبغى لبعض المرضى أن يتجنبوا الضحك فى بعض الحالات، خاصة فى أعقاب بعض الأمراض والجراحات.

وهكذا تتضح دعوة الإسلام إلى فضيلة التبسم فى وجوه الآخرين وحسن البشاشة لهم، ويمكن أن يصحبه قليل من الضحك من غير مبالغة فيه، وبحيث يعود أثره النفسى على الضاحك، الذى تنفرج أساريره فى وجوه الآخرين، الذين يستقبلون الحدث بمزيد من السرور والبهجة، مما يضفى على العلاقات الإنسانية الحسنة جوا من المحبة والمودة فى كل زمان ومكان.

تركيا حافظت على الهوية الإسلامية وهى القاسم المشترك فى دعم ومناصرة قضايا العالم الإسلامى

٢

المؤتمر الدولى الذى عقد مؤخراً بمدينة اسطنبول بتركيا، تناول موضوعاً مهماً بعنوان «دور الدولة العثمانية وتركيا الحديثة فى الحضارة والثقافة الإسلامية».

ويجىء هذا المؤتمر الذى أعدت له بعناية واهتمام شديدين رابطة الجامعات الإسلامية بالتعاون مع جامعة مرمرة بتركيا، بهدف إبراز الدور المتميز الذى تقوم به تركيا الحديثة، وما تتوسمه من علاقات طيبة بينها وبين مصر، وما يمكن أن تحققه تلك العلاقات فى الجوانب العلمية والاقتصادية والثقافية. وكلنا يعلم أن مصر من خلال الأزهر الشريف لها إسهامها فيما قدمه هذا الصرح الإسلامى الشامخ على مدار أكثر من ألف عام لطلاب العلم من تركيا.



للأستاذ / عاطف مصطفى

ونحن فى هذه الفترة التاريخية الحاسمة نحرص على مزيد من الدعم فى مرحلة إعادة البناء والنهضة للحاق بركب الحضارة والتقدم، خصوصاً ونحن نشهد حرص تركيا على تحسين العلاقات بين المسلمين فى العالم، انطلاقاً من مكانتها، وما تتمتع به من احترام وتقدير الشعوب الإسلامية، وأنها فى سعيها حديثاً للانضمام إلى الاتحاد الأوروبى لا تنسى ارتباطها الدينى والحضارى مع الأقطار العربية والإسلامية.

وقد تناولت فى العدد الماضى أهداف المؤتمر والكلمات التى ألقيت فى الجلسة الافتتاحية، وبعض التوصيات المهمة، وعلى أن نتناول فى هذا المقال عدداً من البحوث التى نوقشت، وشارك فيها عدد كبير من الباحثين من بينهم أساتذة بكليات جامعة الأزهر ومن الجامعات المصرية.

الأتراك الأزهريون تميز كبير

من أبرز بحوث المؤتمر دراسة وثائقية بعنوان: «الأتراك الأزهريون ودورهم فى نشر الإسلام والتمكين له» للأستاذ الدكتور مجاهد توفيق الجندى أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر والتى أشار فيها إلى أن الأزهر وجامعته فتحا الأبواب لكل مسلم يطلب العلم والمعرفة، وعمل على أن يعنى فى مناهجه وبرامجه بكل ما يقوى الروح الإسلامية، وأن يخرج لمصر وللعالمين العربى والإسلامى علماء وخبراء فى كل العلوم والفنون ومتابعة الأنشطة العلمية العالمية.

وبين د. مجاهد أنه فى سبيل تحقيق هذه الغايات استضاف الأزهر طلاب العلم من كل مكان من أرض الله الواسعة، وأنشأ لهم الأروقة العديدة، وهى أماكن للإعاشة الكاملة طعاماً وإقامة وكسوة وجرايات ومرتبات ومخصصات.

وكان من بين طلاب العلم الذين درسوا فى الأزهر الشريف ونبغوا فى علومه وفى نشره فى العالم، الطلاب الأتراك الذين ضربوا أروع الأمثلة فى الوفاء لدينهم ولأوطانهم، وانطلقوا فى تميزهم وعلو قامتهم من رواق الأتراك بالأزهر الذى يقع على يسار الداخل من باب المغاربة، والذى أنشأه السلطان قايتباي، وزاد عليه الأمير عبدالرحمن كتخدا، وكان له بابان بالأزهر، أحدهما بالقرب من باب رواق المغاربة، والثانى على سطح الجامع، ويطلق عليه بعض الباحثين (رواق الأروام) وكان يحتوى على ١٦ عموداً من الرخام، واثنى عشر مسكناً علوياً، وله خزانة كتب عظيمة جامعة، وله مطبخ وبئر وحنفية داخلية، وأوقافه يستحقها كل مجاور من بلاد الترك.

مؤسس قسم اللغة التركية فى مصر

من بين الشخصيات التركية المهمة التى تناولها بحث الدكتور مجاهد واحد من الشخصيات النابهة وهو الشيخ محمد إحسان أوغلى والد الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامى.

جاء من تركيا ليدرس فى الأزهر الشريف، بعد أن حفظ القرآن الكريم فى بلدته إحدى قرى البلقان، وكان فى رحلته إلى القاهرة قد

قابل على السفينة التى أتت به من تركيا إلى الإسكندرية الشاعر الإسلامى محمد أرسوى وتزاملا وتصادقا فى القاهرة.

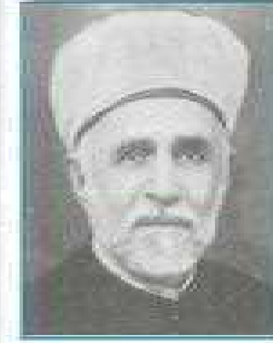
التحق محمد إحسان أوغلى برواق الأتراك بالجامع الأزهر الشريف ودرس العلوم الإسلامية على يد كبار شيوخ الأزهر وعلمائه، وكذلك علوم العربية والعلوم الحياتية، وكان شيخاً لتكية السلطان محمود فى درب الجماميز، لكنه بعد أن انتهى تعليمه لم يرجع إلى تركيا، وبقى بالقاهرة طيلة حياته حبا فى مصر وشعبها، فضلاً عن أن ظروف تركيا لم تعد تسمح بعودته إليها.

وقد أنشأ وأسس قسماً للغة التركية بكلية الآداب جامعة عين شمس وصار يدرس فيه إلى ما قبل وفاته، وكل أساتذة القسم كانوا من طلابه.. وتزوج بالقاهرة وأنجب أولاده بها وعلى رأس أولاده الدكتور أكمل الدين ولديه جنسية مصرية وجنسية تركية.

وكان الشيخ محمد إحسان خير معين للأتراك القادمين عليه من تركيا حيث كان يستقبلهم أحسن استقبال ويستضيفهم فى بيته ويدبر لهم شئون حياتهم المعيشية، ويلحقهم برواق الأتراك، أو تكية محمد بك أبو الذهب أو بتكية السلطان محمود بدرب الجماميز.

وكان عالماً جليلاً شهماً صبوراً زاهداً يكفيه القليل من الطعام، وكان كل همه هو خدمة الإسلام والمسلمين عامة والأتراك خاصة.. عاش بالقاهرة وتوفى فيها.

صاحب المؤلفات الخمسين فى العلوم الإسلامية



الكوثرى

وتناول د. مجاهد الجندى شخصية تركية مهمة أخرى هى الشيخ محمد زاهد بن حسن الحلمى الكوثرى والذى ولد بقرية دوزجة القريبة بنحو ثلاثة أميال شرق الآستانة فى تركيا (٢٧ شوال ١٢٩٦هـ، الموافق ١٤ أكتوبر ١٨٧٨م).

ويعد أيضاً من الشخصيات التركية المهمة والتى عاشت فى حضن الأزهر والذى وقف حياته على القراءة فى عامة الكتب الإسلامية، والعربية وخاصة فى الحديث النبوى الشريف.

ورغم أنه فى بداية حياته فى تركيا قد درس الفقه الإسلامى فى جامع الفتح بالآستانة، إلا أنه حينما جاء إلى مصر التى أحبها التحق فوراً بالأزهر الشريف على نظامه القديم «نظام الحلقات»، وقبل إنشاء الكليات المتخصصة التى نعرفها اليوم.

حصل على العالمية من الأزهر الشريف بعد أن درس علومها الأحد عشر، ثم درّس بعد ذلك للطلاب الأتراك الذين قدموا إلى القاهرة للدراسة بالأزهر الشريف؛ حيث كان يدرس لهم باللغة التركية واللغة العربية.

من أهم كتبه «الإشفاق على أحكام الطلاق»، «إحقاق الحق وإبطال الباطل»، «التعليقات المهمة على شروط الأئمة»، «التبصرة فى الدين».

وكان مرجعاً فى الحديث النبوى الشريف ورجاله، وحجة فى المراجع والمكتبات العامة والخاصة فى العالم العربى والإسلامى، وصحح الجزء الخاص عن الشراكسة فى دائرة المعارف الإسلامية وعلق عليه، وشارك الأستاذ حسن قاسم فى كتابة الجزء الخاص بالشراكسة فى مؤلفه الكبير «المزارات والآثار الإسلامية فى مصر والقاهرة» وقد توفى بتاريخ ١٩ من ذى القعدة ١٣٧١هـ الموافق ١١ أغسطس ١٩٥٢م عن خمس وسبعين سنة، ودفن قرب قبر أبى العباس الطوسى فى قرافة الإمام الشافعى بالقاهرة.

بين الجوانب الإيجابية والجوانب السلبية

محور مهم نوقش فى المؤتمر يتناول تجربة الدولة العثمانية فى حماية البلاد الإسلامية والدفاع عنها وبنفس هذا العنوان كتب الدكتور زكريا سليمان بيومى أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة المنصورة بحثا نستعرض ما جاء فيه، حيث بدأه بالقول: لا شك أن تاريخ الدولة العثمانية قد تعرض لكثير من محاولات التشويه والتجنى، لا من الصياغات الأوروبية التى شارك فيها كثير من الكتاب اليهود فحسب، بل شارك فى ذلك أتباع التيارين القومى والليبرالى فى كل من تركيا والعالم العربى.

فقد حاول القوميون الأتراك تحميل الخلافة العثمانية كافة التراكمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التى أضعفت الأمة الإسلامية والتركية منها بخاصة.

كما حاول القوميون العرب التركيز على الجوانب السلبية للفترة العثمانية واعتبارها ـ من منظورهم القومى المتعصب ـ فترة احتلال واستعمار.. كما اتبعوا الصياغات الأوروبية التى سعت إلى إلصاق تهمة التخلف الحضارى بالعثمانيين، وأن تاريخهم هو امتداد للعصور الوسطى، وأن فترة التاريخ الحديث تبدأ من احتكاك المشرق الإسلامى بالأوروبيين، بدءاً من حملة نابليون فى نهاية القرن الثامن عشر، ومن تولى الأنظمة السياسية التى سعت للارتباط بالغرب كمحمد على فى مصر.

ويبين الدكتور زكريا سليمان أنه مع ظهور نسبى لأتباع التيار الإسلامى الذى كان غائبا أو مغيبا بفعل الاستبداد السياسى ظهرت بعض الصياغات التى أعادت النظر فى التاريخ العثمانى وبشكل موضوعى أحيانا، وفى إطار رد الفعل على ما تعرض له العثمانيون من ظلم فى أحيان أخرى، وألقت الضوء على العديد من الجوانب الإيجابية لهذه الحقبة التاريخية.

الحفاظ على الهوية

وبداية، فإنه من المسلم تاريخياً أن المشرق الإسلامى، والجناح السنى منه على وجه الخصوص، يدين للدولة العثمانية بالاستمرار والبقاء فى ظل هويتهم الموحدة وبكل مقوماتها المعاصرة؛ حيث جاهدت هذه الدولة حقبة طويلة من الزمن، وفى ميادين عديدة من أجل الحفاظ على هذه الهوية.

يواصل د. زكريا: ففى أعقاب الهجوم

البرتغالى الإسبانى على مسلمى الأندلس الذى أخذ شكلاً دينياً متعصباً، ونجاحهم فى طرد المسلمين، واصل دعاة التعصب الدينى الدعوة للهجوم على الوجود الإسلامى فى الشمال الأفريقي، ونجحوا فى الاستيلاء على العديد من المراكز الساحلية كسبتة ومليلية ووهران وغيرها، وخرجت نداءات متعصبة منهم تدعو إلى مواصلة الزحف عبر مصر، وصولاً إلى جزيرة العرب؛ لإنهاء ما يسمى بأسطورة الإسلام وهدم الكعبة، ونبش قبر النبى عليه الصلاة والسلام وهو اتجاه قاده البوكيرك البرتغالي، ومن سايره من قادة البرتغال وإسبانيا وباركته الكنيسة الكاثوليكية.

وكانت هذه الهجمة المتعصبة والشرسة كفيلة بتمزيق المشرق الإسلامى برمته وتبديد هويته كما فعلت مع مسلمى الأندلس؛ فالطالع لدور البرتغال فى السعى للالتفاف حول إفريقيا، والذى كان فى البداية، يهدف الوصول عن طريق الحبشة لمقدسات المسلمين، وكيف كانوا يحرقون المدن ويبيدون السكان فى محارق جماعية على كل الساحل الإفريقي، وهم ليسوا من أعدائهم المسلمين، ليدرك مدى موقفهم من المسلمين لو تمكنوا من بلادهم.

صد الهجوم الصليبى المتعصب

يبرز الباحث من هذا المنطلق دور الدولة العثمانية التى أوقفت زحفها على وسط أوروبا، وعقدت معاهدات سلام وهى المنتصرة؛ كى تسارع إلى المشرق الإسلامى للمشاركة مع المماليك فى الدفاع ضد هذا الهجوم الصليبى المتعصب؛ فسارعت بتقديم الدعم العسكرى والمادى للمماليك للتصدى للبرتغاليين، لكن المماليك هزموا فى معركة «ديو» البحرية ١٥٠٩م، وتوجسوا خيفة من الدور العثمانى بفعل الدسائس البرتغالية الصفوية، فعادوا ليراقبوا الدور العثمانى ووجهوا سهامهم إليه بدلاً من البرتغاليين، ولم يكن الوقت يتحمل التأخير الذى كان يسعى له المستعمرون، فكان التدخل العثمانى فى المشرق الإسلامى ضرورة سياسية ودينية لحمايته أرضاً ومقدسات وهوية..

كما سارع العثمانيون على جبهة أخرى لم تكن تقل شراسة فى تعصبها عن هذه الجبهة، وهى جبهة البحر المتوسط التى شاركت فيها مع الإسبان والبرتغاليين فرسان القديس يوحنا وجماعات أخرى توشحت بالوشاح الديني، فمدوا يد العون للمجاهدين المسلمين، ممثلين فى الأخوين عروج وخير الدين بربروسا، مما ساعدهم على استرداد الكثير من المراكز الساحلية من يدى الإسبان خاصة، ثم تطور دورهم إلى حد إنشاء قوة نظامية على السواحل فى المغرب الأوسط وأسهموا فى إجبار الإسبان والبرتغاليين على إعادة النظر فى مخططاتهم؛ فكان توجه البرتغال للالتفاف حول إفريقيا والإسبان فى الاتجاه غرباً، وكان من نتاج الدور العثمانى الذى لم يكن له أية أغراض سياسية، أن طالب المجاهدون وفاء - الانضمام إلى الخلافة الإسلامية عن طواعية ليتقووا بها وتتقوى بهم.

ويختم د. زكريا سليمان بحثه القيم بقوله: ولذلك فإنه من الإنصاف اعتبار الوجود العثمانى فى المشرق الإسلامى فتحاً وليس غزواً أو استعماراً، وأنه فى حفاظه على الهوية للشعوب الإسلامية واستمرارها يعد بداية لمرحلة تاريخية جديدة، وهو ما ينبغى أن يعد ديناً تاريخياً يستوجب الاعتراف به لهذه الدولة التى نشأت وترعرعت تحت راية الإسلام منذ بداية ظهورها السياسى.

وثيقة عهد وأمان إلى رهبان وقساوسة القدس

عنوان هذا البحث الذى تصدر أعمال المؤتمر يبين مدى تسامح المسلمين وعلاقتهم الطيبة بغير المسلمين منذ وثيقة المدينة، وترد على كل دعاة الفتنة الطائفية التى تشهدها مصر الآن وشعب مصر منها براء.

الباحث هو الأستاذ الدكتور عبدالعزيز محمد عوض الله رئيس قسم اللغة التركية وآدابها بكلية الدراسات الإنسانية بجامعة الأزهر وبحثه «وثيقة عهد وأمان من السلطان محمد الفاتح إلى رهبان وقساوسة القدس الشريف».

وبنظرة سريعة يشير الباحث إلى أن الوثائق التركية العثمانية تمثل معينا تاريخيا لا ينضب من خلال ما سجلته وما تحويه من معلومات وأحداث تاريخية لا تشوبها شائبة؛ حيث إنها مصادر أصيلة تحمل كل مظاهر وسمات الفترة التاريخية التى حكم فيها الأتراك العثمانيون، وكانت دولتهم تشكل القوة الكبرى فى العالم فى حكمهم لما كان تحت إمرتهم من أراض، وكانوا يمتثلون للأحكام الإسلامية، ويتحركون فى الإطار الذى خطه الشرع الشريف، خاصة فيما يتعلق بغير المسلمين الذين يعيشون على هذه الأرض.

حقوق كفلها الإسلام

لقد كانوا يتعاملون مع هؤلاء من منطلق المحافظة على حقوقهم التى كفلها لهم الإسلام دون الأخذ فى الاعتبار اللون أو اللغة أو العرق، وكانوا يعقدون مع الدولة صلحا تحت لواء الشريعة، وهم من أطلق العثمانيون عليهم (الذميون) يعطون من الحقوق والمكاسب ما لم تعط لأحد فى نفس الظروف والأوضاع.

عهد على ألا تمس الكنائس والممتلكات بسوء

ويبين الباحث أن ذلك قد تجلى بوضوح بعد فتح السلطان محمد الفاتح للقسطنطينية (اسطنبول) حينما ذهب عدد من الرهبان والقساوسة إليه يطلبون العيش فى ظل الدولة تحت أحكام الشريعة الإسلامية مما دعا البعض إلى القول بأن حقيقة فتح اسطنبول كان صلحاً ولم يكن حرباً كما ذاع فى كتب التاريخ.

كما انعكس ذلك أيضاً على أناس لم يكن بينهم وبين الدولة العثمانية أية صلة حتى ذاك الحين، من أمثال رهبان وقساوسة القدس الشريف الذين سارعوا بتشكيل وفد ليذهب إلى مدينة اسطنبول لتهنئة السلطان على هذا الفتح، ولكى يطلبوا منه عهداً على كنائسهم وأموالهم وممتلكاتهم من أن يمسها أحد بسوء.

وعلى الفور يكتب السلطان محمد الفاتح وثيقة عهد إليهم يجيبهم إلى كل ما يطلبون ولا ينسى أن يضمن هذا العهد أنه تم على نسق عهود سبقت عليه، منه ما استنه رسول الله

ﷺ للمسلمين من ضرورة معاملة أهل الذمة وحمايتهم ورعايتهم، وكذا العهد العمرى الشهير وعهد صلاح الدين فى مواقف مشابهة.

ثوابت الأمة فى حسن تعاملها مع أبناء الديانات الأخرى

وهذه الوثيقة وهى تتضمن الإشارات السابقة وتقول على لسان السلطان محمد الفاتح: إنه بعد أن منّ الله تعالى عليه بفتح القسطنطينية، وفد إليه من كل حدب وصوب زعماء وملوك وشخصيات كبيرة، تبارك له هذا الفتح الكبير وكان من بين هؤلاء بطريرك الأروام (أطناسيوس) الذى جاء بمحض إرادته، وقدم إلى السلطان العهد العمرى لأبناء القدس الشريف والذى يؤمنهم فيه على ممتلكاتهم وأماكن عباداتهم، وطلب منه العهد مجدداً سيراً على ذلك العهد وغيره من العهود التى منحها لهم زعماء مسلمون من قبل.

هذه الوثيقة تؤكد على ثوابت عاشت عليها الأمة الإسلامية فى حسن تعاملها مع أبناء الديانات الأخرى، سواء من كانوا يعيشون فى ظل حكوماتها أو من يعيشون خارج إطار دولها.

ولذلك فالمطلوب منا كمصريين أن نقرأ التاريخ جيداً، وأن يعى المسلم والمسيحى كيف عاش الجميع فى سلام ووئام، كل يعرف حقوقه وواجباته بعيداً عن التشنج، وبعيداً عن التعصب الذى أوصل الأمة إلى درجة من الاحتقان يأباها ويرفضها ديننا الإسلامى السمح.



السلطان محمد الفاتح

تركيا الحديثة والهوية الإسلامية

ولأن المؤتمر لا يتناول من خلال الدراسات والبحوث الدولة العثمانية فقط وإنما يلقى الضوء على تركيا الآن، والتى تعد قوة مؤثرة ورصيداً حضارياً مهماً للمسلمين ولمصر بشكل خاص؛ لذا نستعرض بحثنا بعنوان: «قيام الجمهورية التركية/ تركيا الحديثة والحفاظ على الهوية الإسلامية» للدكتور محمد عاطف عبدالمقصود أستاذ التاريخ المعاصر بكلية الآداب جامعة المنيا، ويتناول دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى بجوار ألمانيا والنمسا والمجر وخوضها الحرب فى أربع جهات مختلفة تكبدها المشاق العسكرية والمالية مما دعا إلى التراجع فى هذه الجبهات، وهذا أدى إلى أن توقع الدولة العثمانية هدنة رودس فى ٣٠ أكتوبر ١٩١٨م، وكانت شروط الهدنة قاسية للغاية بالنسبة للدولة العثمانية؛ حيث أطاحت بكل مظاهر سيادة الدولة العثمانية على أراضيها وموانيها، ومضايقها وكانت هذه هى بداية لظهور مصطفى كمال أتاتورك، حيث كلف بالقضاء على حركة المقاومة فى الأناضول، والعمل على المحافظة على تنفيذ بنود معاهدة رودس.

وبدأت تظهر شخصيته حينما تقرر عقد مؤتمر فى «أرضروم» يضم زعماء المنطقة ونواب الأقاليم الشرقية، وقرروا انتخاب مصطفى كمال رئيساً لهذا المؤتمر، مع الولاء للسلطان والدفاع عن البلاد، ودعوا إلى مؤتمر فى مدينة (سيواس) وتم انتخاب مصطفى كمال أتاتورك رئيساً، وانتقل بعدها من (سيواس) إلى (أنقرة) وانتخب نائباً عن أنقرة وبدأ يظهر لكافة الشعب على أنه عدو لدود للإنجليز، وأجرى انتخابات جديدة فى الأناضول، وأصبحت أنقرة مقراً للمجلس، ونقل الموظفين والضباط وأجهزة الدولة إليها، وبدأ بإنشاء جيش جديد ودولة تقوم على أساس جمهورية، ونجم عن ذلك أن وجدت فى تركيا حكومتان فى وقت واحد، حكومة فى اسطنبول وحكومة أنقرة.

وواصل د. عبدالمقصود بحثه مشيرا إلى أنه قد ذاع فى مؤتمر الصلح شروط معاهدة «سيفر» واضطرار السلطان على توقيعها مما ألب الشعب عليه، ودعت بريطانيا لعقد مؤتمر فى لندن للنظر فى معاهدة «سيفر» ومثل تركيا وفدان أحدهما يمثل الخليفة والثانى يمثل مصطفى كمال أتاتورك الذى رفض جميع قرارات المؤتمر، وعندها دار القتال بين الأتراك واليونانيين فى موقعة «سناريا» والتى انتصر فيها الأتراك انتصاراً حاسماً، وكان يقود القوات التركية مصطفى كمال وتقرر منحه لقب غازى (أى الظافر فى حرب مقدسة) وكان لانتصار الكماليين أصداء كبيرة؛ إذ تم الاعتراف بهم دوليا وانتصر الأتراك انتصاراً نهائياً على اليونانيين فى موقعة «دمليبنار» وتم طردهم نهائيا، ثم كانت الدعوة لمؤتمر لوزان لوضع معاهدة جديدة لإقرار السلام.



كمال أتاتورك

تم إعلان الجمهورية فى ١٩ من أكتوبر ١٩٢٣ وانتخب مصطفى كمال أتاتورك رئيساً لها، وبدأت تركيا الحديثة عهداً جديداً، ولم ينس الأتراك أنهم مسلمون وأن دولتهم كانت مقراً للخلافة الإسلامية.

التمسك بالإسلام وأهداب الدين

تمسك الأتراك بإسلامهم وبدأوا فى الحفاظ على الهوية الإسلامية، وبدأت تركيا الحديثة فى إقامة العلاقات الودية مع البلاد العربية، وأصبحت لها لغتها الخاصة بها (اللغة التركية) وبدأ التعليم يأخذ نصيبه فى الدولة، وأصبح للمرأة مكانة متميزة، وأصبحت تركيا من الدول المتقدمة علميا، كما أصبحت قوة لا يستهان بها فى منطقة الشرق الأوسط.

وأصبحت قاسماً مشتركاً فى حل جميع المشكلات التى يمر بها العالم الإسلامى؛ وذلك لأنها حافظت على إسلامها وتمسكها بأهداب الدين وعلى الرغم من تعدد الديانات إلا أن تركيا لم تفقد فى يوم من الأيام إسلامها وأن أبناءها لم ينسوا فى يوم من الأيام أنهم أحفاد الخلافة الإسلامية.

طرائف.. ومواقف

لفضيلة الشيخ/ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

لا يموت نبي حتى يخير

عن عائشة ـ رضي الله عنها – قالت: كنت أسمع أنه لا يموت نبي حتى يخير بين الدنيا والآخرة فسمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول في مرضه الذي مات فيه ـ وأخذته بحة يقول:

﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ (النساء: ٦٩)

فظننت أنه خير. «رواه البخاري ومسلم»

فضيلة الصبر

قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة: ١٥٣)

ولا يعقل أنه يوجد مقام أرفع من هذا المقام. وقد صدق الحسن البصري رضي الله عنه حيث قال:

وجدت الدنيا والآخرة في صبر ساعة.

وقال علي بن الحسين ـ رضي الله عنهما ـ احتمال الصبر عند البلية، أسلم من إطفائها بالمشقة.

نقول: هذا كلام يوهم أن من ابتلي بنازلة وجب عليه أن يصبر عليها، وأن لا يعمل لدفعها، وليس هذا مراد علي بن الحسين، وإنما مراده أن يعلم الناس أن الصبر صفة يجب أن يحرص عليها مهما كانت شديدة على النفس، فقد تكون أخف عليها من التوفر على دفع البلية نفسها.

وإنما يطلب الصبر في المواطن التي لا يجدي فيها غيره، فالصبر في وطيس الحرب من الضرورات وإلا انقلب الدفاع إلى هزيمة منكرة، والهزيمة يتبعها الوقوع في أسر العدو. ويحسن الصبر في المرض، لا بترك العلاج، ولكن بترك الجزع الذي تكون نتيجته زيادة إعداد البنية لقبول أفاعيل الداء.

فالصبر معناه توطيد الحالة المعنوية للنفس للصمود للبلايا التي لا مفر منها في الحياة، لا استشعار البلادة إزاء كل بلية وتركها تفعل ما تشاء.

اسأل الله وحده

قال الحسني: قال أبوغسان: أخبرني أبوزيد قال: سأل سائل بمسجد الكوفة وقت الظهر فلم يعط شيئاً، فقال: اللهم إنك بحاجتي عالم لا تُعلَّم، أنت الذي لا يعوزك نائل، ولا يحفيك سائل، ولا يبلغ مدحك قائل، أسألك صبرا جميلاً، وفرجا قريباً، وبصرا بالهدى، وقوة فيما تحب وترضى. فتبادر سامعوه إليه يعطونه. فقال لهم: والله لا رزأتكم الليلة شيئاً! ثم خرج وهو يقول:

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله
عوضا ولو نال الغنى بسؤال
وإذا النوال مع السؤال وزنته
رجح السؤال وشال كل نوال

وقال عبيد بن الأبرص:

من سأل الناس يحرموه
وسائل الله لا يخيب

اكتمه علي

قال الأحنف بن قيس: يضيق صدر الرجل بسره فإذا حدث به، قال: اكتمه علي وأنشد:

إذا المرء أفشى سره بلسانه
ولام عليه غيره فهو أحمق
إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه
فصدر الذي يستودع السر أضيق

سياسة الملك

قال الوليد بن عبدالملك لأبيه: يا أبت ما السياسة؟ فأجابه: هيبة الخاصة مع صدق مودتها، واقتياد قلوب العامة بالإنصاف لها واحتمالها فوات الضائع.

وكتب أبرويز ملك الفرس إلى ابنه شيرويه: اعلم أن كلمة منك تسفك دماء، وأخرى تحقن دماء، وأن سخطك سيف مسلول على من سخطت عليه، وأن رضاك بركة مستفيضة على من رضيت عنه، وأن نفاذ أمرك مع ظهور كلامك. فاحترس في غضبك من قولك أن يخطئ، ومن لونك أن يتغير، ومن جسدك أن يجف، فإن الملوك تعاقب حذراً، وتعفوا حلماً. واعلم أنك تجل عن الغضب، وأن ملكك يصغر عن رضاك، فقدر لسخطك من العقاب، كما تقدر لرضاك من الثواب.

قول كالحصى

من الناس من لفظه لؤلؤ
يبادره اللقط إذ يلفظ
وبعضهم قوله كالحصى
يقال فيلغى ولا يحفظ

«أبوالعلاء المعري»

ثلاثة ورابعهم

يقول عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ثلاثة لا أكافئهم، رجل بدأني بالسلام، ورجل وسع لي في المجلس، ورجل اغبرت

قدماه في المشي إلى إرادة التسليم عليّ.

أما الرابع فلا يكافئه عني إلا الله - عز وجل - قيل له: ومن هو؟

قال: رجل نزل به أمر، فبات ليلته يفكر بمن ينزله، ثم رآني أهلاً لحاجته، فأنزلها بي.

الزكاة

قيل لبعض الصوفية: كم تجب الزكاة في مائتي درهم؟ فقال: أما على العوام بحكم الشرع فخمسة دراهم، وأما على أهل الكمال فيجب بذل ما يفيض عن الحاجة، وقد رفض الحارث المحاسبي أن يأخذ شيئاً من ميراث أبيه. وقال: لا أدري من أين كسبه!

فوائد التدخين

قالوا: إن المدخن يجني من التدخين ثلاث فوائد:

هي أن شعر رأسه لا يشيب

وأن الكلاب لا تعضه

وأن اللصوص لا تدخل بيته

ذلك: أنه يموت قبل أن يبلغ من الشيخوخة..

وأنه يصاب بارتجاف في أعصابه فيضطر إلى التوكؤ على عصاه فلا تقربه الكلاب.

وأنه يسعل كثيراً في الليل فيظنه اللص مستيقظاً فلا يدخل بيته.

نصيحة أبرويز

قال أبرويز ملك الفرس لصاحب بيت المال: إني لا أعذرك في خيانة درهم، ولا أحمدك على صيانة ألف ألف، لأنك إنما تحقن دمك، وتقيم أمانتك، فإن خنت قليلاً خنت كثيراً، واحترس من خصلتين: النقصان فيما تأخذ، والزيادة فيما تعطي. واعلم أني لم أجعلك على ذخائر الملك وعماد المملكة، والقوة على العدو، إلا وأنت آمن موضعه الذي هو فيه، وخواتمه التي هي عليك، فحقق ظني باختياري إياك، أحقق ظنك في رجائك إياي، ولا تتعوض بخير شراً، ولا برفعة ضعة، ولا بسلامة ندامة.

أي زحام؟!

جلس رجل مع زوجته يأكلان.

فقال: ما أطيب هذا الطعام، لولا الزحام.

قالت: أي زحام ههنا، إنما هو أنا وأنت فقط.

قال: كنت أحب أن أكون أنا والطعام فقط.

دعاء

اللهم إنا نتوسل إليك بك، ونسألك لا نسأل غيرك بحقك وحق نبيك صلى الله عليه وسلم أن تميتنا على دينه وملته، وأن تحشرنا في زمرته، وتحت لوائه وعنايته، وأن تغفر ذنوبنا، وأن تستر بمنك عيوبنا، وأن تطهر من صدأ الغفلة قلوبنا.

بين المجلة و القارئ

إعداد وتقديم

أحمد السيد تقي الدين

الإسلام دين رحمة وتراحم للجميع

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الأمير محفوظ محمد إبراهيم - إمام وخطيب - باحث بالأزهر:

إقرار حرية الاعتقاد في الإسلام أمر مستقر في الدين، ومفروغ منه، ولا زيادة عليه لمستزيد، إذ قال الله تعالى:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

(يونس: ٩٩)

قال الطاهر ابن عاشور: «لو شاء الله لجعل مدارك الناس متساوية منساقة إلى الخير، فكانوا سواء في قبول الهدى والنظر الصحيح والاستفهام في: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ ﴾ إنكاري»[1]، فمع حرص النبي على إيمان الخلق، فإن الله تعالى يحثه على ألا يكره أحداً على الإيمان به - تعالى -، هذا هو تحقيق حرية الاعتقاد، كما بينها ربنا وتصورها نبينا ﷺ. لذلك كانت الشريعة الإسلامية بكمال نظرتها، قد وضعت حدود المعاملة مع أهل الكتاب، والعلاقة الواضحة بهم في المجتمع المسلم، فقال:

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

(الممتحنة: ٨، ٩)

وهذا وضع واضح للعلاقة السلمية الواجب توافرها في العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب.

---

(١) الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١١/٢٩٢).

روى أحمد بسنده عن أبي أمامة، قال: إني لتحت راحلة رسول الله ﷺ يوم الفتح، فقال قولاً حسناً جميلاً، وكان فيما قال: «من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين، وله ما لنا وعليه ما علينا، ومن أسلم من المشركين فله أجره وله ما لنا وعليه ما علينا»[٢]. وأخرج البيهقي بسنده أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمّن الرجل الرجل على نفسه ثم قتله؛ فأنا بريء من القاتل، وإن كان المقتول كافراً»[٣].

وللحالة المصرية وضعية خاصة في الإسلام الحنيف؛ حيث إن القبط أخوال العرب؛ لذلك كانت رسالة النبي إلى المقوقس تفيض بالود والتراحم، حتى رد المقوقس عليها رداً طيباً، فكتب المقوقس رسالة للنبي وفيها: «محمد بن عبدالله، من المقوقس، سلام، أما بعد: فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه. وقد علمت أن نبياً قد بقي، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام. وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، بكسوة وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام»[٤]، قال عبدالله بن بريدة، عن أبيه رضي الله عنه، قال: «أهدى أمير القبط إلى النبي ﷺ جاريتين أختين وبغلة، فكان ﷺ يركب البغلة بالمدينة، واتخذ إحدى الجاريتين لنفسه، فولدت له إبراهيم ووهب الأخرى لحسان بن ثابت رضي الله عنه»[٥].

وقد تزوج رسول الله ﷺ مارية بنت شمعون، وهي التي أهداها إلى رسول الله ﷺ المقوقس صاحب الإسكندرية، وأهدى معها أختها سيرين، فوهب رسول الله ﷺ سيرين لحسان بن ثابت، وولدت مارية لرسول الله ﷺ إبراهيم في ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة، ومات إبراهيم بالمدينة وهو ابن ثمانية عشر شهراً[٦]، هذه العلاقة بها الكثير من الانسجام والتلاؤم، على يد رسول الإسلام ﷺ، ولما مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، صلى عليه رسول الله ﷺ، وقال: «لو عاش لعتقت أخواله القبط وما استرق قبطي»[٧]، انظر إلى هذا الكلام، لكنه ما عاش إبراهيم ابن رسول الله، وقد عتق أخواله القبط بالفعل على يد عمرو بن العاص رضي الله عنه، ونفذ الرجاء الذي رجاه الرسول.

الوصية القبطية

وكانت وصية النبي بالقبط خيراً، إذا فتحت أرضهم أخرج الحاكم بسنده عن ابن كعب بن مالك، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في مسند الأنصار، من حديث أبي أمامة الباهلي الصدي بن عجلان بن عمرو، رقم: ٢٦٦٧٤.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب السير، جماع أبواب السير، باب الأسير يؤمن فلا يكون له أن يغتالهم في أموالهم وأنفسهم، من حديث رفاعة بن شداد رضي الله عنه عن عمرو بن الحمق الخزاعي رضي الله عنه، رقم: ١٧٦٣٤.

(٤) د. محمد حميدالله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص: ١٢٥ - ١٣٦، طبعة دار النفائس، السابعة ١٠٢٠.

(٥) الحافظ ابن حجر العسقلاني في المطالب العالية، كتاب الخلافة والإمارة، باب ما يحل للعامل من أموال الرعية، رقم: ٢١٨٢.

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، ذكر سراري رسول الله ﷺ فأولهن مارية القبطية، رقم: ٦٨٨٣.

(٧) أخرجه ابن ماجة كتاب الجنائز رقم ١٥٠٨، باب ما جاء في الصلاة على ابن رسول الله ﷺ (٤٨٤/١) من حديث ابن عباس رضي الله عنه، وفيه إبراهيم بن عثمان، قال البخاري: سكتوا عنه، وقال أحمد: منكر الحديث وقال النسائي: متروك الحديث.

ورحماً»، قال الزهري: «فالرحم أن أم إسماعيل منهم»[٨]، ولا شك أن الوصية بالقبط تستلزم تماماً التعايش فيما بينهم في حدود العلاقات الإنسانية العامة التي أكدها وأقرها الشرع من إعطاء حق الجوار، على شريطة عدم تخاذل تلك القيم من الطرفين، وحتى إذا أفرط أحد في معاملته وخلقه تجاه الآخر، فتغليب صوت العقل على صوت السباب والتنابز.

وقى الله بلدنا مصر، وجميع بلاد المسلمين شر الضير، وضر الفعال، والقيل والقال، وإضاعة المال.

الاعتداء على الكنائس.. لماذا؟!

وتحت هذا العنوان جاءت كلمة الشيخ: مصطفى الأزهري - خطيب مسجد سوق الحمام - السيدة عائشة - القاهرة:

لا يحتاج المرء إلى ضجيج أو طنطنة أو كثرة صراخ وعويل، أو حتى عقد ندوات ومؤتمرات أو بث برامج إذاعية أو تليفزيونية أرضية أو فضائية من أجل أن نثبت حقيقة في نصاعتها وبهائها هي أكثر وضوحاً وجلاء من الشمس في ضحاها ومن القمر ليلة البدر.. تلك الحقيقة هي أن الإسلام يحرم ويجرم الاعتداء على ما يسمى «دور العبادة» لغير المسلمين «كنائس النصارى» أو «صوامع الرهبان» أو «بيع اليهود» ولن ترى رداً ودحضاً لأي افتراء على سماحة الإسلام وقبوله للآخر واحتضانه لأهل الكتاب وبالأخص في بلد كمصر، سوى أن تمشي وفي بصرك شعاع من النور، وفي بصيرتك قبس من الإنصاف ليفاجئك ذلك المشهد التاريخي الشاخص. إنه مسجد الفاتح العظيم سيدنا عمرو بن العاص -رضي الله عنه- «أول مسجد في مصر وأفريقيا» وعلى مسافة قريبة جداً منه كنيسة من أقدم الكنائس المصرية فما العجب في ذلك؟ ليس من وراء هذا المشهد من عجب، لسبب واحد هو أن تلك هي تعاليم الإسلام السمحة والتي تتكون منها عقيدة المسلمين، وفهمهم الصحيح لدينهم العظيم ومن يقلب صفحات قليلة من صحيح الإمام مسلم، سوف يقرأ باباً بعنوان «باب وصية النبي بأهل مصر» وفيه عن أبي ذر الغفاري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحماً - أو قال ذمة وصهراً»، كما نصت أول وثيقة للصلح بين سيدنا عمرو بن العاص وبين مندوبي المقوقس «عظيم القبط في مصر» أن جاء فيها: «وقد أعلمنا نبينا ﷺ

(٨) أخرجه الحاكم، في المستدرك، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، ذكر إسماعيل بن إبراهيم صلوات الله عليهما حديث رقم: ٢٩٦٦، وقال: وهذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

أنا مفتتحوكم وأوصانا بكم حفظاً لرحمنا فيكم وإن لكم إن أجبتمونا ـ ذمة إلى ذمة ومما عهد إلينا أمير المؤمنين «استوصوا بالقبطيين خيراً فإن رسول الله ﷺ أوصانا بالقبطيين خيراً، لأن لهم رحماً وصهراً».

فهل يعتدى آثم لئيم على نسب الرسول؟!

رسالة يتيم

وتحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ/ عاصم سيد - مستشار التحكيم الدولى - محكم بمركز تحكيم كلية الحقوق جامعة عين شمس - عضو اتحاد المحامين العرب:

أبى قد أمسكت بيديك كثيراً ولكن آخر مرة تفلتت يداك من يدى حاولت الإمساك بها ولكن هرب النبض منها وحدقت عيناك ثم تمت فجاة دون إرادتك وإرادتى وغادرت عنى رغم أنفى. أنا فى حاجة إليك الآن لكى أشكو إليك وأسألك هل يرضيك حالى؟ أمى رحلت عنى ولم أرك كان أملى أن ألمح ملامحك حتى ولو من بعيد. كان كل واحد يصفك غير الثانى سألتهم هل ستعود إلىّ؟ فأجابونى بأنى قريباً ساحق بك بصعودى للسماء لكى أشكو إليك هل يرضيك حالى؟

خالتى: هل أنت والدتى بعد أمى؟ إذا كان الأمر كذلك فقولى لى: هل أنت تشبهين أمى؟ أتمنى أن أراك كم تمنيت أن أرى أمى هل تعلمين أن أمى رحلت عنى؟ سارعى لتبحثى عنى أنا فى انتظارك، إياك أن تغيبى عنى عسى أن يعوضنى ربى بحنانك عن رحيل أمى وأسألك هل يرضيك حالى؟

خالى: أنت الآن والدى، وعندى لك سؤال: لماذا أنت خالى فى أوراقى؟ ولم أرك مرة وأتشرف بك بين أصحابى وأشكو إليك حينئذ هل يرضيك حالى؟ عمى: أين أنت؟ يقال: إنك أخو والدى الذى ترك لك مالى بين يديك كوصى على فاحذر من أخذ مالى أتريد أن تأكل ناراً؟ كما وصف مثلك ربى فى قرآنه قال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾

(النساء: ١٠)

سأشكوك إلى ربى هل يرضيه عز وجل حالى؟

عمتى: أحقيقة أنك تربيت مع أبى وكنت أختاً له يوماً ومرحت ولعبت معه فى بيت واحد وشعرت يوماً ما بمشاعر الطفولة...!! فلماذا لم تحسى بى؟ فأنا طفل مثل كل الأطفال، فأنا أجهش بالبكاء عندما تفرقين فى المعاملة بينى وبين أولادك، هل ترضين ذلك على أولادك؟ من المؤكد أنك ستجيبين: لا.. إذن هل يرضيك حالى؟

زوج أمى: أنا الآن بين يديك أرشدنى.. ووجهنى كما توجه أولادك ولا تقس على بدعوى أنك تحبنى، فاعلم أن الحب هو دفء المشاعر وبراءة الحنو علىّ، ولم يكن أبداً بالزجر والشدة علىّ دون أولادك فاسألهم أنت الآن هل يرضيهم حالى؟

زوجة أبى نعم.. أنك لم تلدينى وأخبرونى أن الأم هى التى تربى ألم ترغبى فى تربيتى؟ هل أنت فى استغناء عن ثواب رعايتك لى؟ كونى عطوفة علىّ حتى لا يتبدل حال أولادك ويصبحون مثلى وسأسألك حينئذ هل يرضيك حالهم الذى أصبح مثل حالى؟ رسالة إلى كل من قصر فى حقى سأشكوه إلى خالقى أبقوى على حساب ربى الذى قال:

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

(الشعراء: ٨٨ - ٩٠)

وليعلم الجميع أن سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام وصى الكافة على اليتيم وأنه كان من قبلى يتيماً مثلى وأنا الآن نلت شرف أن أكون مثله.. حقاً الشدائد تصنع الرجال وإن كل نبى مر بكثير من الصعاب فعلمه ربه بالعلم اللدنى وعوضه بالنصر على أعدائه. إلى كل من شغلته الدنيا وانخرط فى مشاكلها مستسلماً لها تطحن وقته كيفما تشاء دون أن يخصص وقتاً لرعايتى مثل أولاده فليعلم أن الدنيا مثل الرحايا عليه وعلى كل من كان مثله قال تعالى:

﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾

(آل عمران: ١٤٠)

أنا أعلم يقيناً بأنه فى داخل كل إنسان على وجه الأرض جانب عطوف حنون كامن لا يتحرك إلا برؤيتى، وبزيارتى من وقت لآخر حتى يرق قلبه وتسمو روحه باتباع وصية رسولنا على كل يتيم مثلى، قال تعالى:

﴿ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾

(البلد: ١٥)

وقال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا، وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى»[9].

وقال عليه الصلاة والسلام: «البر لا يبلى والإثم لا يُنسى والديان لا يموت فكن كما شئت كما تدين تدان»[10].

وقال رسولُ الله ﷺ: «هل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم؟»[11].

وإن كفالة الأيتام من أعظم أبواب الخير التى حث عليها الإسلام قال تعالى:

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾

(البقرة: ٢١٥)

وقال تعالى:

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾

(الإنسان: ٨)

وأخيرا وليس آخرا قال تعالى:

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾

(النساء: ١٢٢)

---

(٩) صحيح البخارى.

(١٠) مصنف عبدالرزاق، باب الاغتياب والشتم.

(١١) صحيح البخارى.

نظـرة فـى أبحـاث ندوة تطور العلوم الفقهية فى عمان

بقلم: عادل خفاجة

إن اختيار هذا العنوان:

«الفقه الإسلامى فى عالم متغير»

لدليل على أن منظمى الندوة يبرهنون بشكل وثيق على أنهم يحملون هموم عالمنا الإسلامى ويبحثون - بجد - عن الحلول المناسبة لما يشهده العالم من تطور دائم وتغير كبير، ولكون الفقه الإسلامى يصلح لكل زمان ومكان، بل ولا يتصلح الزمان والمكان إلا به، لذلك فإن هذا العنوان يعتبر مناسبا لهذه المرحلة بدرجة كبيرة.

ولقد أثبتت هذه الندوة ضرورة انعقاد مثل هذه المؤتمرات، لما ينتج عنها من تلاقح أفكار، فلا شك أن لقاء العلماء من شتى بلدان العالم الإسلامى يتيح هذا التبادل الفكرى البنّاء، ويساعد على التعرف على ثمار ما أنتجته المجامع الفقهية، ولا شك أن هذه اللقاءات تفتح الطريق إلى مزيد من الابتكار الفكرى.

ولقد ناقشت الندوة ستة وثلاثين بحثاً، تألقت فيها الكثير من المقولات الفقهية الناصعة، نذكر منها على سبيل المثال:

- إن الحفاظ على كرامة الإنسان من الثوابت الفقهية.
- على الفقه متابعة «تدافع الوقائع».
- لابد من تأسيس فرع للفقه تحت اسم فقه «فهم المفاهيم».
- لا بد أن يتفاعل الفقه الإسلامى والمجتهدون وأهل الذكر لاستنباط الحلول.
- الإسلام لا يتقادم، وإنما عقولنا هى التى تحتاج إلى التجديد.. وقلوبنا هى التى تحتاج إلى الإصلاح والإحياء.
- ترك الترتيب بين الأولويات من جملة الشرور.

هذه بعض ومضات من ثنايا الأبحاث، ولعل القارئ يتوق إلى نظرة أكثر قرباً من هذه الأبحاث.. والتى منها **بحث الأستاذ الدكتور محمد كمال الدين إمام أستاذ**



تصوير: عبدالله سالمين الخروصي

الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق - جامعة الإسكندرية الذى تكلم عن «القواعد الحاكمة لتغير الفتوى فى الزمان والمكان والأشخاص والبيئات».

فاستشهد بحديث ورد فى مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «كنا عند النبى ﷺ فجاء شاب فقال يا رسول الله أقبل وأنا صائم؟ قال: لا، وجاء شيخ فقال: يا رسول الله أقبل وأنا صائم؟ قال: نعم. فنظر بعضنا إلى بعض فقال ﷺ: قد علمت نظر بعضكم إلى بعض إن الشيخ يملك نفسه».

ثم يعلق الباحث على هذا الحديث بقوله: وهذا الحديث أصل فى باب تغير الفتوى بتغير حال الشخص.

ثم استشهد بحديث آخر رواه [illegible] سلمة ابن الأكوع رضى [illegible]

ﷺ: «من ضحى منكم فلا يصبحن بعد ثلاثة أيام ويبقى فى بيته منه شىء، فلما كان العام المقبل قالوا يا رسول الله: نفعل كما فعلنا فى العام الماضى قال: كلوا وأطعموا وادخروا فإن ذلك العام كان بالناس جهد - أى شدة - فأردت أن تعينوا».

وأشار الباحث إلى أن هذا الحديث أصل فى باب نفى الحكم بانتفاء علته ثم استشهد بقول الإمام الشافعى فى «الرسالة»: «هو حكم ارتفع بارتفاع علته لا لأنه منسوخ، وفرق بين رفع الحكم بالنسخ ورفعه بارتفاع علته، فالمرفوع بالنسخ لا يحكم به أبداً والمرفوع بارتفاع علته يعود بعود العلة».

[illegible] الأحكام والشرائع بحسب [illegible] أنه

قد اختلف فى تأصيل هذه القاعدة إلى ثلاثة اتجاهات:

الاتجاه الأول: يربطها بمقاصد الشرع الكلية، وهو اتجاه يعبر عنه ابن القيم فى «أعلام الموقعين» إذ يقول: «وهذا فصل عظيم النفع جدا، وقد وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة، أوجب من الحرج والمشقة وتكليف ما لا سبيل إليه، ما يعلم أن الشريعة الباهرة التى فى أعلى رتب المصالح لا تأتى به، فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد فى المعاش والمعاد، وهى عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة فى شىء وإن أدخلت فيها بالتأويل».

الاتجاه الثانى: يجعل من التغير سنة كونية، وتصبح قاعدة اختلاف الأحكام مرتبطة بالتغير فى كل المجالات باعتبارها قاعدة عامة تستوعب كل مجالات الحياة فى الكون والشريعة والإنسان.

الاتجاه الثالث: ينظر إلى هذه المسألة من زاوية تخريج المناط، فهى مجرد تغير صورى يرتبط بواقع التنزيل، فالإسلام - كما يرى العلامة البوطى - بما تضمنه من عقائد وأحكام كله ثوابت ولا متغيرات فيه: «فالتغير هنا ليس حقيقيا، ولكنه تطبيق ظرفى لأحكام ثابتة تتغير صورتها



مع تغير مناطات الأحكام».

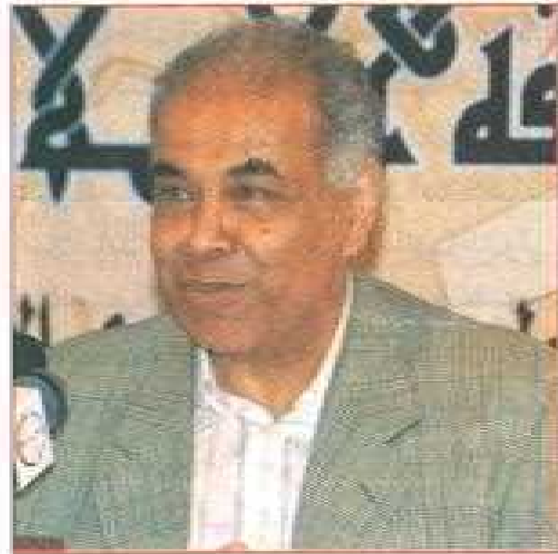
وبعد أن عرض الباحث لهذه الاتجاهات الثلاثة يرى أن الاتجاه الثالث ليس إلا وجها من وجوه الخلاف حول الحق بين الواحدية والتعدد فى النظرة الاسلامية، وهو منظور كلامى، وليس منظوراً تشريعيا، خاصة وأن قاعدة التغير تعنى - كما يقول العلامة أحمد فهمى أبو سنة - رفع تطبيق الحكم السابق لعدم مناسبته، لا رفع الحكم المشروع، والحاصل أن للواقعة الواحدة ذات الأحوال المختلفة حكمين أو أحكاماً ثابتة، لكل حكم تطبيق فى ظرفه الذى يختص به.

كما تناول البحث عددا من النقاط نذكر منها: العرف وقواعده فى تغير الفتوى - المصلحة وقواعدها فى تغير الفتوى - قواعد تغير الفتوى فى الظروف الاستثنائية - مآلات الأفعال وأثرها فى الفتوى - أيلولة الأحكام إلى غير مقاصدها.

وتحت عنوان «بعض القواعد العلمية للفتوى» تناول: الفتوى بالرأى المشهور - الحسم فى الفتوى ويقصد به اختيار المفتى جوابا حاسما للواقعة محل الفتوى، فلا يجوز له مجرد رواية الآراء الفقهية فى المسألة، لأن غاية المستفتى البحث عما يعمل به، وما يقوله المفتى ليس بجواب إلا إذا أفرد الواقعة برأى مفرد هو الراجح فى النازلة التى يستوعبها السؤال.

كما تناول فى بحثه أيضا الفتوى بما جرى به العمل - الفتوى بتقليد مذهب آخر واختتم هذا البحث القيم بنقطة مهمة هى: عدم الاستدلال بالفتوى فى فتوى جديدة إذ يقول:

لكل واقعة ظرفيتها التاريخية، وشخصيتها الواقعية، وحكم المفتى يحمل فى داخله بعض عناصر الواقعة بظرفيتها وشخصيتها، وهو ما أسماه الشاطبى «بالخصوصية التى ليست فى غيره» أو الخصوصية الذاتية بتعبير معاصر، وفى ضوء هذا التحليل لا تكتسب الفتوى السابقة حجية مطلقة أو نسبية على أى فتوى قادمة، ولو كان السؤال من ذات المستفتى وكان الجواب من ذات المفتى، فهذا على ما قضينا وهذا على ما نقضى، وهذه القاعدة الإجرائية والموضوعية معا تتجذر أصولها فى روح القانون الإسلامى ومقاصده، وهنا يصح ما قاله المفكر والدبلوماسى العربى المعروف الشاذلى القليبى - فى كتاب «الشرق والغرب السلام العنيف»: إن روح القوانين قبل



«مونتسكيو» بكثير كان مفهوما ذا حظوة لدى كبار المفكرين المسلمين، ولقد بين المفكرون البارزون منذ القرون الأولى للهجرة، أن كل حكم من تشريعات القرآن يتضمن ما نسميه اليوم فلسفة، وليس بالإمكان تطبيقه تطبيقا صحيحا إذا لم تدرك هدفه المقصود، أليس ذلك هو الطريق المفتوح نحو التطور حسب ظروف الزمان والمكان؟

أما بحث المعاهدات الدولية من خلال كتب الفقه الإباضى والذى قدمه الأستاذ الدكتور أحمد أبو الوفا أستاذ ورئيس قسم القانون الدولى العام بكلية الحقوق - جامعة القاهرة وقد استهل بحثه بأن: المعاهدات الدولية تحتل مكانا مهما بين مصادر القانون الدولى المعاصر - قد لا ينازعها فيه فى الوقت الراهن - أى من المصادر الأخرى، سواء العرف أو المبادئ العامة للقانون أو الفقه والقضاء أو غيرها.

ويذهب الباحث إلى أن تعليل ذلك جد بسيط: ذلك أنها باعتبارها رضائية من حيث أطرافها ومضمونها وآثارها ومدة سريانها، تمثل المعاهدة الدولية أفضل أداة لإقامة علاقات بين أشخاص القانون الدولي. ويشير الباحث إلى أن عناية فقهاء المسلمين، ومن بينهم فقهاء الفقه الإباضي، بالاتفاقات التي تبرم كوسيلة للعلاقات السلمية بين المسلمين وغير المسلمين.

وقد تناول فيه عدداً من المباحث نذكر منها: الأسباب الدالة على معرفة الفقه الإباضي لإمكانية إبرام معاهدات دولية ـ شروط إبرام المعاهدات الدولية في الفقه الإباضي ـ آثار المعاهدات الدولية في الفقه الإباضي ـ انقضاء المعاهدات الدولية في الفقه الإباضي.

وتجدر الإشارة إلى ما أثبته الباحث تحت عنوان: «في بعض الأحوال يمكن الالتزام بالمعاهدة حتى ولو نقضها الطرف».

وأوضح أن ذلك يكون في حالتين أوضحهما الفقه الإباضي:

أولا: في حالة الأمان: إذ جاء في المصنف: «وعن قوم من المسلمين، صالحهم قوم من أهل الشرك، ووضعوا عندهم رهائن وأخذوا من المسلمين رهناً، فقتل المشركون ما في أيديهم من رهائن. أيحل للمسلمين قتل الذين في أيديهم؟

قال: لا يحل ذلك لهم؛ لأنهم آمنون. فإن نقض أولئك وقتلوا المسلمين، فقد نقضوا عهدهم، وصاروا حرباً».

ثانياً ـ في حالة عودة الناقض إلى الالتزام بعهده: إذ جاء في المصنف أيضا: «من المعتبر: ويدعى أهل العهد إلى الإسلام، إذا نقضوا العهد بشيء يكونون فيه ناقضين، أو الرجوع إلى عهدهم، وإعطاء الجزية لا يقبل منهم غير ذلك، لثبوت عهد الإسلام لهم وعليهم. ثم يعقب المؤلف قائلا: ولا شك أن قاعدة عدم انقضاء المعاهدة بعودة الناقض إلى الالتزام بعهده، يجب فهمها كما يلي:

أولاً- أنها تدل على «نزعة سلمية» في الفقه الإباضي تهدف إلى استقرار الأمن القانوني بين أطراف المعاهدة، وعدم رواج الفوضى في علاقاتهم المتبادلة إذا تقرر انقضاء ما تم الاتفاق عليه سلفاً.

ثانياً- أنها تطبق فقط عند عدم الإخلال الجسيم بالمعاهدة وبشرط ألا يترتب على استمرار المعاهدة التي تم نقضها ضرر كبير بالدولة الإسلامية؛ لأن القول بغير ذلك:

- يعطي لأي طرف إمكانية خرق المعاهدة مطمئناً بأنها ستظل نافذة رغم خرقها.
- يمكن أن يؤدي إلى توتر «وقتي» أثناء فترة الانتهاك في العلاقات بين أطراف المعاهدة.
- يشجع على عدم الالتزام بالكلمة المعطاة حتى ولو ترتب على ذلك نتائج وآثار وخيمة.

ويخلص الباحث إلى أن الوفاء بالمعاهدات الدولية هو حجر الأساس في الفقه الإباضي، كما هو الحال في الفقه الإسلامي بمختلف مذاهبه. علة ذلك هو تحقيق استقرار العلاقات الاتفاقية الدولية باعتباره التزاما دنيوياً ودينياً.

وفي إطار المعاهدات الدولية فإن الفقه الإباضي أكد على أن قواعد الشريعة الإسلامية، في كلياتها وجزئياتها، واجبة المراعاة علة ذلك: «أن أهل الحق ينصفون من المظالم ويعطون منه الحق».

كما أن: «الغدر والنكث حرام في قول المسلمين».

أما بحث الدكتور علي محيي الدين القره داغي الأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين فقد جاء تحت عنوان: «حكم إجراء العقود بآلات الاتصال الحديثة» وقد استهله بتعريف آلات الاتصال الحديثة من سلكية ولاسلكية وانتهى فيه إلى أن التليفون ينقل كلام المتعاقدين بدقة، ولا يختلف العقد به إلا من حيث البعد المكاني، وعدم رؤية أحدهما الآخر.

أما عدم الرؤية بين العاقدين فلا يترتب عليه حكم في باب العقود، سوى احتمال التزوير، وتقليد الصوت، ولذلك يقبل كلام من ادعى ذلك، ولكنه يقع عليه عبء الإثبات، وذلك لأن القاعدة الأساسية في العقود، هي: صدور ما يدل على التراضي من الطرفين بصورة واضحة مفهومة، وأن المرجع في ذلك هو العرف كما تدل على ذلك نصوص الفقهاء. وأما البعد المكاني بين المتعاقدين - بالتليفون فتترتب عليه المسائل الخاصة بمجلس التعاقد.

وقد ناقش البحث هذا الموضوع باستفاضة، وأثار ما ذكره الفقهاء واختلفوا فيه من خيار الرجوع، وخيار القبول، وخيار المجلس، وقد رجح بهذا الخصوص رأي الجمهور من حيث إن المتحدث بالتليفون الموجب له الحق في الرجوع عن إيجاب قبل قبول الآخر، وأن الموجه إليه لا يشترط عليه أن يسارع إلى القبول فور سماعه، بل له الحق ما داما يتحدثان حول موضوع العقد، ولم يعرضا عنه أو لم يقطعا المحادثة، فإذا قبل فقد تم العقد.

وقد رجح الباحث قول القائلين بخيار المجلس، لكنه قدر المجلس بفترة المحادثة وعدم انقطاع الخط مهما طالت، فإذا قبل الآخر، فقد انعقد العقد، وأن لكل واحد منهما حق الخيار ما داما لا يزالان يتحدثان، ولم يقطعا المحادثة فإذا أنهيا المحادثة وسدا التليفون فقد انتهى المجلس ولزم العقد، لأنهما في الواقع متفرقان بأبدانهما، ولا وصال بينهما سوى المحادثة، فإذا انتهت انتهى المجلس حقيقة وحكماً.

وأما التعاقد باللاسلكي، فهو إذا كان مما ينقل الكلام الواضح إلى الآخر فهو مثل التليفون في جميع الأحكام التي ذكرناها، وكذلك إذا كان ينقل الكلام عن طريق الشفرات الواضحة المفهومة المسموعة للطرفين، حيث يتم العقد إذا فهما الإيجاب والقبول بوضوح.



وقد تطرق إلى الصعوبات الفنية التى تعترض طريق التعاقد بالبرقية، أو التلكس أو الفاكس، من حيث تصوير مجلس العقد، ووقت تمامه، وما يترتب على المجلس من خيارات.

فبخصوص مجلس العقد قرر الفقهاء أن مجلس العقد بالنسبة للغائبين فى حالة الكتابة، أو الرسول هو مجلس وصول الكتاب، وحضور الرسول، ولذلك اعتبرنا أن مجلس العقد بالنسبة للتعاقد بالبرقية، أو التلكس، أو الفاكس هو مجلس وصول البرقية أو التلكس، أو الفاكس.

وأما وقت تمام العقد.. فبعد أن استعرض نصوص بعض الفقهاء فى المذاهب المختلفة وصل إلى أن العقد يتم بمجرد القبول فى مجلس الوصول.

وأما الخيارات المتعلقة بمجلس العقد فى البرق والتلكس والفاكس فهى خيار الرجوع حيث للموجب الحق فى التراجع قبل قبول الآخر، خلافاً للمالكية فيما إذا كان الإيجاب بصيغة الماضى حيث يصبح ملزماً به، وأما خيار القبول فهو حق ثابت للموجه إليه ما دام فى مجلس العقد حيث لا يلزمه القبول فوراً خلافاً للشافعية وقد رجح قول الجمهور فى ذلك فعلى ضوء ذلك له الحق فى التروى والتفكير ثم القبول ما دام لم يفارق مجلس وصول البرقية، أو التلكس أو الفاكس.

وأما خيار المجلس فقد رجح قول الجمهور واعتبر أن مجلس العقد هو وقت وصول البرقية، أو التلكس، أو الفاكس، وعلى ضوء ذلك يكون لكل واحد منهما الحق قبل فراق الموجه إليه مكان الوصول.

أنباء مكتب الإمام الأكبر

للأستاذ/ محمد عبد المجيد حسن
مدير عام العلاقات العامة بمكتب الإمام الأكبر



بيان من مجلس بيت العائلة المصرية

عقد مجلس بيت العائلة المصرية اجتماعاً، بمشيخة الأزهر الشريف لدراسة تقرير لجنة تقصى الحقائق، التى أوفدها إلى حى إمبابة يوم ٨ مايو لإثبات شهادات الذين تواجدوا أثناء الأحداث، ولتفقد الآثار التى ترتبت عليها.

وأصدر البيان التالى:

إن مجلس بيت العائلة المصرية وهو يراقب ببالغ الاهتمام والقلق تلك الأحداث، وآثارها المدمرة التى يدينها الوطن كله بقوة وإصرار يتقدم بالتوصيات التالية:

• يرى المجلس ضرورة اتخاذ الإجراءات القانونية الحاسمة والمشددة، ضد كل من يثبت تورطه فى هذه الجرائم الإرهابية، سواء بالتحريض، أو المساعدة، أو التنفيذ.

• يناشد بيت العائلة المجلس الأعلى للقوات المسلحة عدم السماح بالتجمهر أمام دور العبادة وجميع مؤسساتها للمسلمين والمسيحيين، أياً كانت الذرائع وأياً كانت الأغراض والمقاصد .

• يرى بيت العائلة ضرورة تعويض كل من أصابه الضرر من المسلمين والمسيحيين.

• يناشد بيت العائلة كافة وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمكتوبة، عدم التسرع فى بث أى شائعة قد تثير الفتنة، والامتناع عن نشر أى خبر قبل التثبت من صحته، وخاصة فيما يتعلق بتغيير الديانة .

• يشكل بيت العائلة وفداً لزيارة أسر الضحايا والمصابين من الجانبين، ولزيارة المصابين فى أماكن تواجدهم، فى البيوت أو المستشفيات .

• كما يوفد بيت العائلة بعض أعضائه من الجانبين إلى ملتقيات طلاب الجامعات للمناقشات وللحوار والرد على أسئلتهم حيث بدأت اتحادات الطلاب توجه إليه الدعوة لذلك .

• يعمل بيت العائلة على تشكيل وفود من شباب المسيحيين والمسلمين، تقام لها معسكرات عمل ودورات تثقيفية، بعد انتهاء الامتحانات، وخلال أشهر الصيف، وذلك لاستعادة ثقافة الألفة والمودة والتى كانت دائماً من قيم الشعب المصرى الأصيلة .

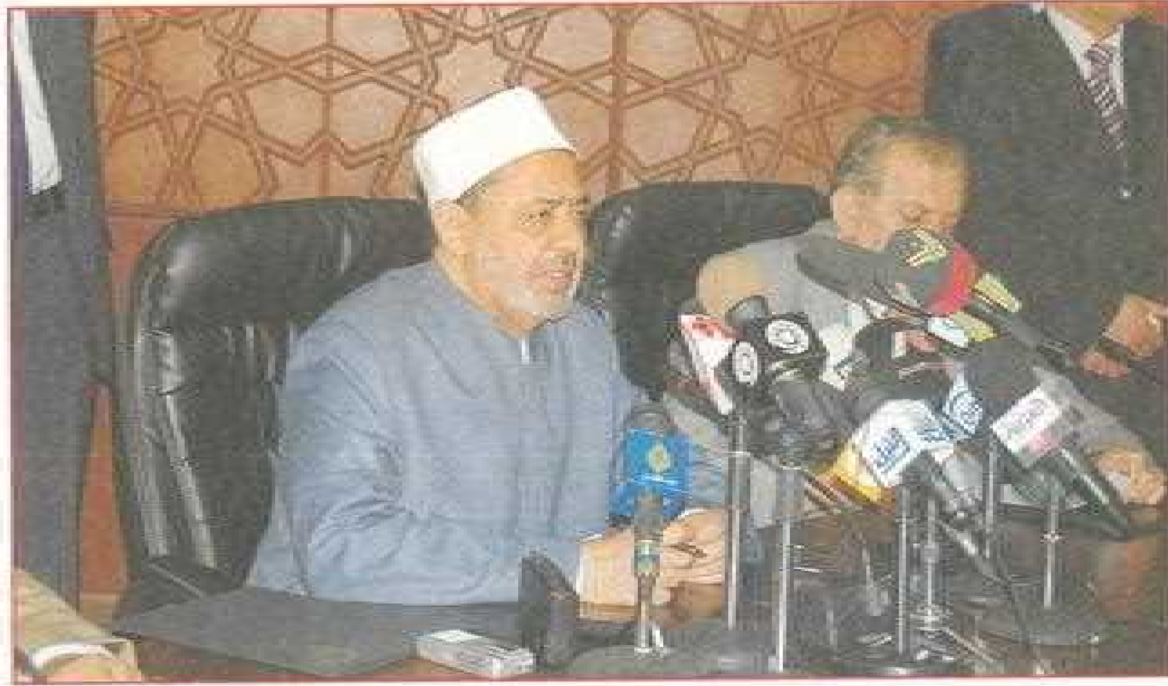
حفظ الله مصر من كل شر وحماها من كل سوء

الأزهر يجمع شمل التيارات الإسلامية لمواجهة الفتنة الطائفية

أكد فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر على ضرورة جمع شمل التيارات الإسلامية المختلفة تحت راية الأزهر الشريف فى مجال الدعوة الإسلامية ومواجهة الفتنة الطائفية وأن مصر الآن والأمة كلها تمر بمرحلة حرجة جدا تستلزم من الجميع التعاون و التكامل بدلا من التآكل، وتعاون جميع التيارات الإسلامية ليلتقى الجميع على الأصول حيث توجد أصول تسع الجميع وألا يعادى بعضنا بعضا وألا نركز على مشاكل الخلاف والجزئيات.

وأضاف شيخ الأزهر أن الأزمة التى تمر بها البلاد تتطلب من الدعاة والعلماء أن يتحركوا لتبصير الناس والمسلمين بحقيقة الإسلام وعظمته وأنه لا يليق أبدا أن يتم الاعتداء على قبطى أو نصارنى فى بلدنا .. والقرآن والسنة يؤكدان على حق الذمى .

ومن جانبه قال الشيخ محمد حسان: تم الاتفاق مع فضيلة الإمام الأكبر على تنظيم لقاء بعدد من رموز التيار السلفى ورموز من كل التيارات الإسلامية ليلتقى الجميع فى الأزهر الشامخ للعمل تحت راية الأزهر، مؤكدا انه لا يوجد داع إلى الله يريد أن يقلل من شان الأزهر لأنه ليس فى صالح أحد



وأكد أن الفتنة التى حدثت فى أمبابة التيار السلفى برئ منها، وليست من أدبياته ويجب على الجميع أن يتعاون لأمن هذا البلد ولعزة الدين.

وقال حسان: إن الهدف من هذه التحركات أن بلدنا تمر الآن بأزمة خطيرة ومرحلة حرجة ويجب على الجميع أن يتخلى عن الأنا والمسميات والرايات التى يعمل تحتها وأن تعمل من أجل أمن هذا البلد واستقراره ولا أتصور رجلا مسلما أو غير مسلم يعيش على أرض هذا البلد إلا ويتحرك الآن بكل قوة وطاقة من أجل الحفاظ على هذا البلد .

وشدد على أن الفتنة الطائفية خطيرة لو اشتعلت نيرانها ستأكل الأخضر و اليابس، وعلى حرمة أن يقوم أى شخص بأخذ حقه بيده حيث أننا نعيش فى دولة مؤسسات ولا نعيش فى غابة، وقال: " لا يمكن الإعلان بأن هيبة الدولة سقطت ، والحل الجذرى للأزمة التى تحدث بين المسلمين والأقباط ليس باللقاءات الإعلامية بين المشايخ والقساوسة .

و لابد من اقتلاع جذورها بالالتقاء بين مجموعة من العلماء والقساوسة للخروج بقرارات تطبق مع مجلس الوزراء تصل إلى حد القوانين لمعالجة الأزمة الطائفية إن ظهرت فى أى مكان فى أى بؤرة فى هذا الوطن

وقال: " لايجوز أن تتدهور سلطة القانون وتسقط هيبة الدولة ، وإلا سترى قنابل موقوتة تنفجر بسبب الأزمة الطائفية، مؤكدا أن تغيير المنكر له أصوله وفقهه و يتبرأ السلفيون من كل سلفى يقوم بإيذاء قبطى أو الاعتداء عليه، فالإسلام لا يسمح بظلم المسلم للقبطى ولا القبطى للمسلم.



الإمام الأكبر يستقبل وفد جماعة الإخوان المسلمين

استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور / أحمد محمد الطيب شيخ الأزهر وفد جماعة الإخوان المسلمين برئاسة محمد بديع المرشد العام للجماعة ومحمد مهدى عاكف المرشد السابق والشيخ سيد عسكر الأمين العام المساعد لمجمع البحوث الإسلامية سابقا وعضو مكتب الإرشاد، والشيخ حجازى عبدا لمجيد، والدكتور عبدالرحمن البر عضو مكتب الإرشاد وبحضور الدكتور عبد الله الحسينى وزير الأوقاف المصرى، والدكتور أسامة العبد رئيس جامعة الأزهر.

تناول اللقاء الاتفاق على التعاون المشترك لخدمة الإسلام والمسلمين خلال الفترة الحالية التى تفرض على الجميع التعاون بالإضافة إلى الاتفاق على تقديم خطاب دعوى مشترك يعمل على جمع شمل المسلمين فى العالم والإشادة بموقف المجلس الأعلى للقوات المسلحة والتأكيد على الحفاظ على الثورة ومبادئها وتأكيد أهمية العودة إلى الإنتاج فى جميع المواقع والمصانع والشركات للوصول إلى الأداء الطبيعى للاقتصاد المصرى . وقال فضيلة الإمام الأكبر أن الجو العام أتاح اللقاء، خاصة وأن الأزهر و جماعة الإخوان المسلمين لديهم قواسم مشتركة فنصف أعضاء الإخوان من خريجى الأزهر.

وتم الاتفاق على ضرورة العمل والالتقاء من أجل مواجهة دعاوى التكفير والإقصاء حتى لا تنشأ خلافات بين الجماعات المختلفة . وأكد شيخ الأزهر أنه سيتم قريبا عقد مؤتمر تحت عنوان " مستقبل مصر إلى أين " وهو مؤتمر يتبناه الأزهر ومن أوائل المدعوين فيه الإخوان المسلمين وأنه لابد من اتفاق كل الدعاة على توحيد الصف.



العلماء والمثقفون:

الأزهر مظلة الأمة.. وتحقيق استقلاليته.. ودعم دوره العلمى والدعوى ضرورة

أكد المشاركون فى الاجتماع الثانى لمثقفى مصر وعلماء الأزهر الشريف برئاسة فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد محمد الطيب شيخ الأزهر أن الأزهر مظلة الأمة كلها تفزع إليه فى لحظاتها الفارقة حيث كان له دائما ومازال دوره الوطنى الكبير.

وطالب المجتمعون بضرورة تحقيق استقلالية الأزهر ودعم دوره العلمى والدعوى وقدم البعض وثيقة الأزهر وفيها اقتراحات بالمبادئ وتتناول أفكار رئيسية تشمل موضوع علاقة الدين بالمجتمع وعلاقته بالدولة، واعتماد النظام الديمقراطى القائم على الانتخاب الحر المباشر، وتداول السلطة وتحديد الاختصاصات، وتأكيد الالتزام بالمواثيق والعهود الدولية.

وطرح المشاركون تحليلات للواقع الذى تمر به مصر ومناقشة الأفكار والتصورات لما يجب أن يكون عليه المستقبل، والتمسك بالإنجازات الحضارية فى العلاقات المجتمعية والدولية لتوافقها الكامل مع التقاليد السمحة للثقافة الإسلامية والثقافة المسيحية، ومع التجربة الحضارية للأمة المصرية العريقة، والحرص على صيانة كرامتها وقداسة دور العبادة الإسلامية والمسيحية وحمايتها، والسعى لتحقيق أكبر قدر ممكن من العدالة الاجتماعية واعتماد التنمية ومحاربة الفقر والبطالة ونهضة مصر فى جميع المجالات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية هى الأولوية القصوى



في مرحلة التحول الديمقراطي .

واعتبر المشاركون الأزهر ودار الإفتاء هما الجهتان المنوط بهما تحديد المرجعية الإسلامية مع عدم مصادرة حق الجميع في التعبير عن الرأي حيث تتوفر له شروط الاجتهاد والالتزام بأدب الحوار وعدم الخروج على ما اتفقت عليه الجماعة.

شارك في الاجتماع الدكتور محمود حمدي زقزوق عضو مجمع البحوث الإسلامية والدكتور حسن الشافعي، والدكتور محمد عبدالفضيل القوصي، والدكتور جابر عصفور والدكتور يوسف القعيد.

بيان حول:

لقاء مفكري مصر ومثقفيها في الأزهر الشريف

دعا الأزهر الشريف كبار رموز الفكر والثقافة في مصر وعقدت جلسة حوار طويلة بدأها الإمام الأكبر بكلمة ترحيب برموز الفكر و الثقافة تحت قبة الأزهر الشريف.

وقال الإمام الأكبر :في هذه المرحلة التي تمر بها مصر ينتاب الغموض الكثير مما يطرح على صعيد الفكر ودراسة الواقع وتصورات المستقبل .

والأزهر الذي يؤمن بالتعددية والتنوع وحق الاختلاف وواجب الحوار يحتضن كل فكر يؤازر الوطن وينحاز إليه وأن الأزهر يقدر هذه الرموز الكبرى لثقافة المجتمع المصري وتوجهاته ويرحب

بها ويدعوها الى الحوار والمساهمة بالأفكار والرؤى البناءة ليتكامل سياق جاد تحتاج إليه مصر الثورة في هذه المرحلة الانتقالية.

وقد اتفق الجميع من البداية على الهدف الرئيسي من اللقاء وهو الاتفاق حول القيم الكبرى المشتركة الضرورية لإعادة بناء الوطن ونهضته وثقافته وتشكيلها وكلها قيم تؤكد عليها الأديان السماوية والحضارات الإنسانية الكبرى البناءة وتؤكد على ضرورة مشاركة كل التيارات والمذاهب على اختلاف مشاربها .

وقد طرحت أفكار حيوية جادة تدور حول نقد الماضي القريب وأفكار تتجه نحو البحث عن وسائل تغيير العقل المصري وتحويله من وعي متخلف إلى وعي متقدم ونشر ثقافة الحوار والتسامح والعقلانية ونبذ الأفكار الواردة من الخارج والتي تجهل هوية المجتمع المصري وتاريخه ومكوناته الراسخة فيه عبر التاريخ والتي بنت قيمه العليا.

وفي النهاية أعلن فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف أن أبواب الأزهر مفتوحة للجميع وأنه يرحب بالجميع ويؤكد على ضرورة تكرار اللقاءات لأن الأفكار المطروحة لابد أن تناقش لتطرح نتائجها على الشعب المصري لتفعيلها في مواكبة ثورته والوصول بها إلى بر الأمان.

وأكد الحاضرون على ضرورة المحاكمات العادلة والسريعة وإصدار الأحكام الرادعة على كل من يثبت تورطه في تلك الأحداث المؤسفة التي يدينها الجميع بوصفها جرائم إرهابية تهدف إلى تدمير مصر وإعاقة ثورتها .

الأزهر يقرر تأجيل القرار حول قانون الرؤية لحين الانتهاء من دراسته

قرر مجمع البحوث الإسلامية برئاسة فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر تأجيل قراره بشأن تعديل قانون الاستضافة والولاية التعليمية لحين الانتهاء من دراسته واتخاذ القرار بما يحقق المصلحة العليا للطفل .

وقرر المجمع تحويل البحث المقدم من فضيلة الدكتور علي جمعة مفتي الجمهورية بخصوص الرؤية والحضانة إلى لجنة البحوث الإسلامية لدراسته واتخاذ القرار وقام المجمع بإرسال وفد خلال الاجتماع إلى المعتصمين برئاسة الدكتور كمال أبو المجد ،عضو مجمع البحوث الإسلامية، والدكتور محمود إمبابي عضو المجمع، و الشيخ علي عبد الباقي الأمين العام للمجمع ،للاجتماع بخمسة من الآباء بناء على طلب من الإمام الأكبر للاستماع إلى مطالبهم ووجهة نظرهم .

وأكد الدكتور أحمد كمال أبو المجد ، في كلمته للآباء أن مصر تمر بمرحلة حرجة يجب أن يتكاتف الجميع من أجل أن تمر بسلام ،مؤكدا أن مجمع البحوث الإسلامية هو مجمع فقهي يفكر بمهل ويستند إلى الشريعة قبل أن يقول كلمته في أي من الموضوعات التي تطرح عليه مؤكدا أن مطالب الآباء تحتاج إلى دراسة بحيث توضع مصلحة الطفل أولا يليها الأبوين دون ظلم

لأحد، مشيرا إلى أنه تم عرض الأمر على لجنة البحوث الفقهية للاحتكام إلى الشرع ورأى الفقهاء الأربعة مع مراعاة كافة الأطراف مطالبهم بفسحة من الوقت حتى يتم أخذ الرأى النهائى.

كما أكد أنه سيتم بحث الموضوع من كافة الجوانب دون ظلم لطرف عن الآخر ،مشيرا أن الانفصال بين الرجل و المرأة أصبح مثل الحرب الأهلية ضاعت فيها حقوق الأبناء.

الإمام الأكبر خلال استقباله خالد مشعل: المصالحة الفلسطينية بداية استقلال دولة فلسطين

أبدى فضيلة الإمام الأكبر الدكتور / أحمد الطيب -شيخ الأزهر سعادته البالغة بالمصالحة الفلسطينية وإنهاء الانقسام وقدم فضيلته خلال استقباله خالد مشعل ،رئيس المكتب السياسى لحركة حماس ، التهنئة للشعب الفلسطينى وللمسئولين بحركتى فتح وحماس.

وعبر الإمام الأكبر عن سعادته البالغة بالمصالحة وقرب استقلال فلسطين العزيزة على قلوب كل المصريين ،مشيرا أن هناك آمالا وأحلاما كثيرة بدأت تتحقق على أرض الواقع وبدأنا نراها ونشعر بها وهى قرب استقلال دولة فلسطين وأن تقف فى وجه الشرق و الغرب وتطالب بحقها وهى قوية متحدة على قلب رجل واحد.

من جانبه عبر خالد مشعل عن سعادته البالغة بلقائه شيخ الأزهر الذى وصفه بالعالم المستنير، قائلا: أنا سعيد بلقائى للإمام الأكبر وتواجدى فى مشيخة الأزهر وخاصة بعد الثورة المباركة.

وقال إن مصر احتضنت المصالحة ووضعت كل إمكانتها من أجل إتمامها وأنها ستتابع إعادة تطبيق المصالحة.

وأضاف إن الشعب المصرى شهد المصالحة وسيشهد خطوات عملية لتطبيقها تؤكد طى صفحة الانقسام والذى يعد مقدمة وخطوة قوية لقيام الدولة الفلسطينية لتكون تحقيقا لآمال الأمة الإسلامية.

وشدد مشعل على أن الشعب الفلسطينى فخور بمصر على المستوى الشعبى والرسمى والقيادات والعلماء وأن مصر على الدوام هى السند الحقيقى للقضية الفلسطينية والأمة الإسلامية. وأبدى تخوفه من حدوث بعض المشكلات مؤخرا وإنه يدعو من مشيخة الأزهر جميع المصريين أن يتوحدوا ويحافظوا على وحدتهم حتى تظل مصر قوية.

الإمام الأكبر يرد على تصريحات حاخام إسرائيلى

تابع الأزهر الشريف ما نشرته إحدى الصحف اليومية حول تصريحات الحاخام الإسرائيلى عوفاديا يوسف عن عزمه مخاطبة فضيلة الإمام الأكبر الدكتور/ أحمد الطيب شيخ الأزهر للعمل معه على إصدار فتاوى شرعية تبيح العفو عن الرئيس السابق.

يؤكد فضيلة الإمام الأكبر أنه لم يتلق أية مكاتبات فى هذا الأمر وأنه يرفض وبشدة استقبال أى طرف إسرائيلى أو يقر له بالحق فى إصدار فتوى تخص الشأن المصرى.

كما أكد فضيلته أن لمصر قضاء نثق فى شرفه ونزاهته واستقلاله التام المطلق وليس لنا أى تدخل فى أى من القضايا المنظورة أمام القضاء.

الإمام الأكبر يبحث كيفية الاستفادة من مبعوثى الأزهر

بحث فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد محمد الطيب شيخ الأزهر والدكتور نبيل العربى وزير الخارجية وأمين عام جامعة الدول العربية القادم كيفية الاستفادة من مبعوثى الأزهر فى جميع دول العالم وكذلك تنظيم الارتباط بين المبعوثين والسفارات المصرية فى تلك الدول.

وصرح السفير محمود عبدالجواد المستشار الدبلوماسى لشيخ الأزهر أن وزير الخارجية قام بعرض نتائج زيارته لإيطاليا والفاتيكان.

وأضاف أنه تم التباحث حول مشاركة مصر فى مؤتمر قمة عدم الانحياز والذى سيعقد فى بالى بأندونيسيا وستشارك فيه أغلب الدول الإسلامية، و يرأس وفد مصر الدكتور نبيل العربى.

الأزهر يساهم فى إنشاء مركز لتعليم اللغة العربية فى بوروندى

بحث فضيلة الإمام الأكبر الدكتور / أحمد محمد الطيب - شيخ الأزهر و السفير / سليمان موسى سفير بوروندى بالقاهرة التحاق طلاب بوروندى بالدراسة بالكليات العملية بجامعة الأزهر ومعادلة الشهادة الثانوية ببوروندى بالثانوية الأزهرية وإنشاء مركز لتعليم اللغة العربية. وعد فضيلة الإمام الأكبر السفير بدراسة الطلبات وتلبيتها ووافق على مساهمة الأزهر فى إنشاء وبناء مركز تعليم اللغة العربية وإمداده بالمدرسين والأبحاث والمناهج.

من جانبه شكر السفير فضيلة الإمام الأكبر والأزهر الشريف على ما يتم تقديمه لطلاب بوروندى الدارسين بالأزهر وعددهم ٥٩ طالبا وأنه يفتخر بزيارته للأزهر ولقائه بالإمام الأكبر.

الإمام الأكبر يستقبل وفد الكنيسة الإنجيلية

استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور / أحمد الطيب شيخ الأزهر يوم الخميس الموافق (٥ / ٥ / ٢٠١١م) وفدا من الكنائس الإنجيلية الألمانية بفرانكفورت برئاسة القس الدكتور / ثروت قديس والدكتور / مايكل زس. وهذا الوفد يمثل مقاطعة السين بفرانكفورت بألمانيا وفى بداية اللقاء رحب فضيلة الإمام الأكبر بالوفد فى الأزهر الشريف ثم قدم لهم شرحا وافيا عن دور الأزهر الشريف فى المجتمع الإسلامى المصرى والعالمى، وعن التسامح فى الدين الإسلامى وعن أهمية السلام مع المؤمنين. وطالب فضيلته بأن يكون قادة الأديان والزعماء الروحانيين فى العالم مؤمنين بالسلام حيث إن جميع الأديان تنص على السلام كما أن الأزهر الشريف والدين الإسلامى يؤيدان الحوار مع الأديان السماوية الأخرى وأن الإسلام دين حوار فى المقام الأول

يحترم عقائد الآخرين ويحافظ عليها ويضمن حريتها .

كما أوضح فضيلته للوفد مبادرة الأزهر الشريف ببيت العائلة المصرى الذى يمثل فيه جميع الكنائس المصرية وله دور على المستوى الشبابى والتعليمى ،والأزهر فى هذا العهد الأخير يمد يده إلى كل راغب يرسى قاعدة من قواعد السلام على هذه الأرض الطيبة وأن المؤهل لمهمة السلام هم المؤمنون قادة الأديان والزعماء الروحانيين ولا يمكن القيام بهذا الدور إلا إذا كان السلام موجودا بين قادة الأديان ، أما إذا كان السلام لا يتوافر بين هؤلاء القادة فيستحيل نقله إلى الآخرين .

ومن جانبه شكر رئيس الوفد فضيلة الإمام الأكبر على هذه الزيارة مطالبين فضيلته بتوطيد العلاقات بين الكنائس الإنجيلية بفرانكفورت والقاهرة مؤكدين أن حوار المسلمين مع المسيحيين من أهم الأساسيات التى تخدم قضية السلام العالمى ، كما أشاد الوفد بشباب مصر الذين قاموا بالثورة السلمية وهى ثورة تقدمية لصالح جميع الناس ، وهذه الثورة غيرت مفاهيمنا عن شباب مصر الذين كنا نعتبرهم متعصبين ولكننا رأيناهم متحضرين إلى أقصى درجة .

وفى نهاية اللقاء أضاف فضيلته بأن ثورة ٢٥ يناير أعادت لنا الثقة فى الشباب المصرى لأن نتائجها مبهرة بكل المقاييس وهى ثورة سلمية واعية انتقلت بمصر من مرحلة إلى أخرى بدون المآسى التى تمر بها بلاد أخرى وأننا فى طريقنا إلى الحرية والديمقراطية .

المجلس الأعلى للأزهر يوافق على إنشاء كليتين للإعلام والتربية الرياضية

وافق المجلس الأعلى للأزهر برئاسة فضيلة الإمام الأكبر الدكتور/ أحمد محمد الطيب- شيخ الأزهر على تحويل قسم الصحافة والإعلام بكلية اللغة العربية بالقاهرة إلى كلية مستقلة وتحويل قسم التربية الرياضية بكلية التربية بالقاهرة إلى كلية مستقلة .

كما وافق المجلس على معادلة بعض درجات الدكتوراه الحاصل عليها بعض المدرسين المساعدين من الخارج بدرجة الدكتوراه التى تمنحها الجامعات المصرية .

كما وافق المجلس على تشغيل بعض المعاهد الأزهرية الصالحة للدراسة فيها وقبول بعض التبرعات الخاصة بإنشاء معاهد أزهرية على نفقة المتبرعين .

***

أنباء مجمع البحوث الإسلامية

للأستاذين: يحيى سليمان - عبد الموجود أمين

مجمع البحوث الإسلامية يدعو أبناء الشعب المصرى للتوحد حول غاية واحدة


د. أحمد الطيب

أصدر مجمع البحوث الإسلامية بجلسته التى عقدت يوم السبت ٢٥ جمادى الآخرة ١٤٣٢هـ الموافق ٢٨ مايو ٢٠١١م البيان التالى:

يتابع مجمع البحوث الإسلامية بقلق بالغ، انحراف بعض ردود الأفعال بين بعض الأطياف والفئات ووسائل التعبير فى مصر إلى ممارسات تعود على الوطن بأوخم العواقب وأفدح الأضرار، وهو إذ يقر إقرارا كاملا بالحق فى التعبير وإبداء الرأى، والحق فى المراجعة، والنقد والحق فى متابعة الفساد، ومساءلة من تورطوا فيه؛ فإنه فى الوقت نفسه يؤكد على أهمية الالتزام بقيم العدالة ووجوب توخى الأمانة فى استخدام الحق فى الإبلاغ الذى يوجب القانون أن يلتزم الصدق والدقة والتجرد، وأهمية التزام الإعلام بكافة مواثيق النشر التى لا تقر إطلاق عرض البلاغات وإنما بث الأنباء القضائية التى خضعت للفرز والبحث والتحقيق وصارت معبرة عن الحقيقة التى من مصلحة المجتمع برمته أن تُقدم على ما عداها .

ويؤكد المجمع على أنه إذ قال ويقول نعم للثورة؛ فإنه ينوه إلى مخاطر الفوضى، وأنه فى هذه المرحلة الدقيقة يجب الالتزام بالقيم الدينية والأخلاقية والنظر بعين الرعاية إلى مصلحة الوطن الذى هو قرة أعين الجميع، ويدعو أبناء الشعب إلى التوحد حول غاية واحدة هى تمهيد الطريق أمام مصر لتتابع مسيرتها إلى المستقبل المشرق الذى نرجوه لها .

والله تبارك وتعالى من وراء القصد .

ويطالب بحقن الدماء العربية

كما أصدر مجمع البحوث الإسلامية فى نفس الجلسة البيان التالى :

يجدد الأزهر الشريف مناشدته لأولى الأمر والشعوب العربية الشقيقة فى سوريا واليمن وليبيا ، ويذكرهم بحق الرحم والأصرة العربية أن يسارعوا إلى حقن الدماء وصون الأعراض والحفاظ على وحدة الوطن ، ويتمنى لهم أن يبذلوا غاية الجهد فى البحث عن مخرج آمن من هذا المأزق الخطير ، وحلول عملية تضمن حقوق المواطنين فى أن يعيشوا حياتهم فى أمن وسلام على أرضهم وبين أهيهم وذويهم ويحققوا طموحاتهم فى الإصلاح والتغيير .

ويرى الأزهر الشريف أن هذا الذى يحدث لا يليق بمكانة الأمة العربية والإسلامية ولا بتاريخها ولا بحضارتها فى هذا العصر الذى تعيش فيه . وقى الله أمتنا العربية مما يُدبَّر لها من مكائد وتربصات داخلية وخارجية .

وفد كردستان العراق فى زيارة لمجمع البحوث الإسلامية


على عبدالباقى

استقبل فضيلة الشيخ على عبدالباقى شحاتة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية وفد كردستان العراق الذى مثله :

- الأستاذ / طاهر معروف كريم - مدير معهد أربيل الأزهرى .
- الشيخ / جميل محمد محمد نصار - مبعوث الأزهر لكردستان .

وقد بدأ الوفد اللقاء بتقديم التحية والشكر للأزهر الشريف لرعايته للتعليم الأزهرى فى كردستان العراق وإمدادهم بالمدرسين والمناهج والكتب الدراسية .

قام الوفد بتسليم نتيجة الامتحان للدور الثانى للعام الدراسى ٢٠١٠ / ٢٠١١م لفضيلة الأمين العام للمجمع وذلك لاعتمادها من قطاع المعاهد الأزهرية ثم تطرق اللقاء لبحث المعوقات التى تواجه الدارسين والمدرسين بمعهد أربيل بكردستان العراق وقد حددها الوفد فى الآتى :

١- عدم إجادة الطلاب للغة العربية حيث إنهم يتحدثون اللغة الكردية وليست العربية .

٢- كثرة المناهج والمواد الدراسية .

٣- عدم مراعاة مستوى الطلاب عند وضع أسئلة الامتحان .

٤- افتقادهم لطريقة وضع أسئلة الامتحان .

وفى سبيل تذليل هذه المعوقات أشار فضيلة الشيخ على عبدالباقى الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية بضرورة معاملة طلاب كردستان العراق معاملة طلاب معهد البعوث الإسلامية الغير

ناطقين باللغة العربية وذلك بعد تعديل بعض بنود الاتفاقية بين البلدين .

كما أشار فضيلته إلى ضرورة مراعاة مستوى جميع الطلاب عند وضع أسئلة الامتحان وأن تكون أسئلة مادة القرآن الكريم بنسبة ٥٠٪ من الماضى وأما باقى المواد فتكون حسب الخطة والمنهج الدراسى لكل عام .

وقد طلب الوفد من فضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية مقرر الصف الثانى الثانوى من كتب الأزهر الشريف ، كما طلب أيضا تكريم الطلبة المتميزين والمتفوقين فأجاب فضيلة الأمين العام للمجمع بتقديم طلب باسم فضيلته لتسليمهم الكتب ، وأشار عليهم بإرسال أسماء المتفوقين والمتميزين للأزهر لكى يجهز لهم بعض المنح الدراسية .

وفى نهاية اللقاء قدم الوفد الشكر لفضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية وللأزهر الشريف لما أبدوه من تعاون وحسن استقبال .

والله ولى التوفيق

١٢٩٩ طالبا من دولة جزر القمر يدرسون بالأزهر الشريف

بلغ عدد الطلاب الوافدين من دولة جزر القمر العربية إلى الأزهر الشريف هذا العام ١٢٩٩ طالبا وطالبة موزعين على جميع المراحل المختلفة على النحو التالى :

١- الدراسات الخاصة : ١١٥ طالبا وطالبة .

٢- المرحلة الابتدائية : ٨٧ طالبا وطالبة .

٣- المرحلة الإعدادية : ٤٢٦ طالبا وطالبة .

٤- المرحلة الثانوية : ١٥٦ طالبا وطالبة .

٥- الجامعة : ٥٦٨ طالب وطالبة .

٦- الدراسات العليا : طالب واحد فقط .

صرح بذلك فضيلة الأستاذ / سامى عزالدين القائم بعمل مدير عام الإدارة العامة لشئون الطلاب الوافدين .

الأقليات الإسلامية فى أوروبا

صدر عن سلسلة مجمع البحوث الإسلامية كتاب «الأقليات الإسلامية فى أوروبا» للأستاذ الدكتور/ مصطفى محمد رمضان والأستاذ الدكتور/ إلهام محمد على ذهنى أستاذى التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة الأزهر ومراجعة فضيلة الشيخ/ فوزى فاضل الزفزاف وكيل الأزهر الأسبق وعضو مجمع البحوث الإسلامية .

وقد تناول المؤلفان المعلومات عن الأقليات الإسلامية في أوروبا، وقد اشتمل الكتاب على ثمانية فصول تضمنت جغرافية أوروبا والأقليات والجاليات الإسلامية في كل من فرنسا وهولندا وإقليم وسط أوروبا: ألمانيا وسويسرا والنمسا والتشيك، وإقليم شرق أوروبا وكرواتيا وأوكرانيا وقبرص والأقليات الإسلامية في روسيا الاتحادية وانهيارها وانفصال الشيشان وطاجستان وجورجيا، ثم جنوب أوروبا مثل اسبانيا وإيطاليا وألبانيا واليونان.... إلخ.





وقد بينا أن الصعوبات الفنية والسياسية تحول دون معرفة حجم الأقليات الإسلامية بدقة وأن العديد من الدول التي توجد فيها أقليات إسلامية لا تتوفر فيها إحصائيات رسمية دقيقة عن التوزيع الديني للسكان، وأن الأقليات التي تعيش في دول فقيرة لا تتوفر فيها الإمكانيات المادية والعلمية والفنية فلا تتوافر فيها نسبة المواليد أو الوفيات أو عدد أفراد الأقليات الدينية، وأن العديد من الدول التي تضم أقليات إسلامية تفرض عليها طوقا من السرية والكتمان خوفا من إثارة المشكلات الطائفية كما أن الأقليات تعاني من مشكلة الذوبان داخل الكيان السياسي للبلاد التي تعيش فيها ولكنها تتطلع إلى المشاركة في الحياة السياسية والاقتصادية رغم الضغوط التي تفرض عليها.

وقد جاء الكتاب بألفاظه السهلة والإحصائيات التي قد أتيحت لهما في أواخر القرن الماضي ولمن أراد الرجوع إلى إحصائية عام ٢٠١٠م فليرجع لتقرير مركز بيو للأبحاث عن توزيع مسلمي العالم.

وسيصدر قريبا كتاب الأقليات في آسيا والمحيط الهادي.

صرح بذلك فضيلة الشيخ عبدالرحمن العسيلي مدير عام الإدارة العامة لسلسلة البحوث الإسلامية.

أنباء العالم الإسلامي



إعداد الأستاذين: محمود الفشني - أحمد رضوان

كيان مستقل لتنمية سيناء والحدود مع السودان منطقة تكامل


د. عصام شرف

طلب الدكتور عصام شرف رئيس مجلس الوزراء إنشاء كيان مستقل لإدارة سيناء وقال: إنه يجرى متابعة دورية لتنمية سيناء وتلبية كافة مطالب أهلها، وأن هناك اجتماعاً للبدء في تنفيذ طلبات أهل سيناء جاء ذلك خلال حضور رئيس الوزراء أولى جلسات المجالس القومية المتخصصة التي عقدت بمقرها الجديد - مصر الجديدة.

من ناحية أخرى بحث شرف والسيد مصطفى عثمان مستشار الرئيس السوداني خلال لقائهما - وسائل دفع العلاقات المصرية السودانية على المستويين الشعبي والرسمي، وأكد شرف أن منطقة الحدود كلها منطقة تكامل.

وأوضح الدكتور أحمد السمان المستشار الإعلامي لرئيس مجلس الوزراء: أن مستشار رئيس جمهورية السودان قدم شرحاً لرئيس مجلس الوزراء عن الجهود المبذولة حول عملية السلام في السودان والخطوات التي تم إنجازها في مسيرة العلاقات الثنائية المتطورة في ضوء قرارات اللجنة المشتركة بين البلدين.

وقد قدم مستشار الرئيس السوداني التهنئة على تولى الدكتور نبيل العربي منصب الأمين العام للجامعة العربية خلفاً للسيد عمرو موسى وأعرب عن ثقته بأنه سيكون خير خلف لخير سلف، مشيرا إلى أن هذا الاختيار سيخدم الأمة العربية.

العربي يدعو لمؤتمر دولى للسلام لإنهاء الصراع العربي الإسرائيلى


نبيل العربي

أكد الدكتور نبيل العربي الأمين العام الجديد للجامعة العربية أن ما قامت به مصر بشأن المصالحة الفلسطينية يأتى فى إطار ترتيب البيت الداخلي للفلسطينيين، كي يكون لهم متحدث وشريك فى مفاوضات السلام لافتا إلى أنها تسعى الآن لحث المجتمع الدولى على الاعتراف بالدولة الفلسطينية.

جاء ذلك فى تصريحات لوكالة الأنباء الإيطالية «آكى» على هامش زيارته لروما.

وأضاف: أنه عندما كان الفلسطينيون يعيشون انقساما داخليا كانت إسرائيل تقول: لا يوجد شريك فى محادثات السلام، موضحاً أن الخطوة التالية تتمثل فى كيفية إنهاء الصراع وهو ما تعمل مصر عليه بقوة.

وقال العربي: إن الدرس المهم الذى تعلمناه يكمن فى ضرورة عقد مؤتمر دولى للسلام بدعم من الأمم المتحدة.

وفيما إذا كان هناك البعض من حركة حماس يرى أن الحل هو حمل السلاح، رد وزير الخارجية المصرى: إن إسرائيل تملك سلاحاً أكثر وأقوى، عندما يكون هناك حكومة، فكل عضو ينتمى إليها ملزم باتباع سياساتها.

بحث تغيير اسم «منظمة المؤتمر الإسلامى»

يبحث وزراء الخارجية بالدول الأعضاء فى منظمة المؤتمر الإسلامى فى اجتماعهم فى كازاخستان فى ٣٠ يونيو المقبل - اسم «منظمة المؤتمر الإسلامى» وشعارها.

وقال مصدر مطلع فى المنظمة بجدة: إن اجتماع كبار الخبراء التمهيدى الوزارى الإسلامى، رفع فى ختام أعماله فى جدة مشروع قرار بتغيير اسم المنظمة وشعارها وذلك من أجل مواكبة التغييرات التى يعيشها العالم الإسلامى، وتلبية لمضامين التضامن والتعاون بين الدول الأعضاء فى المنظمة التى ارتقت إلى مستويات أعلى.

وزير الداخلية الفرنسي: تزايد المسلمين بفرنسا «يخلق مشكلة»

قال وزير الداخلية الفرنسي «كلودجيان»: إن تزايد عدد المسلمين فى فرنسا «يخلق مشكلة» وذلك عشية نقاش حول العلمانية ينظمه حزب الاتحاد من أجل حركة شعبية الحاكم، برئاسة الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزى.

وأضاف: «فى فرنسا، يعود القانون الذى أرسى العلمانية ومبدأ فصل الدين عن الدولة إلى عام ١٩٠٥م فى تلك الفترة، كان هناك عدد قليل من المسلمين فى فرنسا.. اليوم يقدر عددهم بحوالى خمسة أو ستة ملايين مسلم».

وأوضح: «صحيح أن زيادة عدد المسلمين وبعض التصرفات يخلق مشكلة.. لكن الحكومة سوف تأخذ عددا من القرارات من شأنها أن تضمن بشكل أفضل مبادئ العلمانية.

فى أول مبادرة منذ نجاح الثورة
صندوق خليجى لإعادة تشغيل المصانع المصرية المعطلة

كشف الشيخ محمد بن سحيم آل ثانى رئيس مجموعة استيت القطرية القابضة عن اعتزام مجموعة من رجال أعمال الخليجيين من مختلف دول مجلس التعاون الخليجى إطلاق صندوق لإعادة تشغيل المصانع المصرية المتوقفة وحاجتها للتحديث خاصة فى مجال الصناعات الثقيلة كمصانع الحديد وذلك فى مبادرة هى الأولى من نوعها منذ اندلاع ثورة الخامس والعشرين من يناير وقال بن سحيم - خلال المؤتمر الصحفى الذى عقد بالقاهرة بمناسبة تدشين أول مجمع صناعى للحديد فى المنيا «حديد المصريين» بشراكة قطرية مصرية أنه سيتم أيضا فى المرحلة القادمة عمل صندوق استثمارات خليجى من القطاع الخاص لتشغيل مصانع الحديد المعطلة فى مصر وذلك وفاء من رجال الأعمال العرب للشعب المصرى واستجابة لما توصلت إليها المباحثات التى أجراها الشيخ حمد بن خليفة آل ثان أمير قطر مع المشير محمد حسين طنطاوى خلال الزيارة التى قام بها لمصر فى مايو الماضى كما شهد المؤتمر إطلاق تحالف مصرى قطرى يضم رجل الأعمال المصرى أحمد أبو هشيمة وشركة أسمنت القابضة القطرية أول مجمع صناعى لصناعة الحديد بالمنطقة الصناعية بمدينة المنيا بعد الثورة المصرية برأسمال ٢,١ مليار جنيه حيث يستهدف المصنع إنتاج ٥,١ مليون طن بعد استكمال مراحله الثلاث حيث من المقرر أن يبدأ فى الإنتاج نهاية ٢٠١٢م بطاقة إنتاجية سنوية نصف مليون

طن وكشف رئيس استيت القابضة أحد شركاء أى أى سى مالكة مصنع حديد المصريين الجديد عزم الشركة ضخ استثمارات بقيمة ٣ مليارات جنيه بالسوق المصرية خلال السنوات الثلاث القادمة وذلك فى القطاعات الاستثمارية المختلفة فى مصر.

الإيسيسكو تدرب مدرسى اللغة العربية والتربية الإسلامية فى غينيا

عقدت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - ومؤسسة المنتدى الإسلامى التى يوجد مقرها فى لندن دورة تدريبية وطنية للموجهين والمدرسين العاملين فى مجال تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها فى غينيا بيساو.

أقيمت الدورة فى إطار أنشطة التعاون لسنة ٢٠١١ بين الإيسيسكو ومؤسسة المنتدى الإسلامى واستهدفت مساعدة جهات الاختصاص التربوية فى غينيا بيساو على تحديث طرق تعليم العربية بخاصة وتطور برامج التعليم الأصيل بعامة من أجل دمج مخرجاته فى حركة التنمية الوطنية، ويأتى تنظيم الدورة استجابة لطلب عبر عنه ديوان رئاسة الجمهورية فى غينيا بيساو لدعم التعليم العربى الإسلامى فى هذا البلد.

شارك فى أعمال الدورة ٢٥ مدرسا ومسئولا تربويا من العاملين فى مجال التعليم العربى الإسلامى فى بيساو وفى مدن ومناطق أخرى من البلاد وستتيح الدورة للمشاركين فيها الفرصة من خلال الأنشطة التطبيقية لتقييم الطرق المعتمدة فى تعليم العربية فى مؤسساتهم التعليمية مثل الإيسيسكو.

زعماء إسرائيل ينقصهم الاحترام والضمير

كشف يوسى ساريد زعيم المعارضة اليسارية فى إسرائيل فى مقال نشرته صحيفة هآرتس الإسرائيلية - عن أنه ليس هناك فى الوقت الراهن رئيس وزراء أو وزير دفاع فى إسرائيل يفعل ما يمليه عليه ضميره.

وأضاف ساريد: أنه للمرة الأولى يعترف مساعد مقرب من الحكومة بارتكاب الأخطاء، حيث قال المساعد العسكرى السابق عزرائيل تيفو فى مقابلة الكاتب الإسرائيلى بن كاسبيت أنه ينبغى أن تحاكم بتهمة إخفاء حالة رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق مناحم بيجن على العامة وتابع: إنه من الصعب الآن إخفاء رئيس الوزراء داخل خزانة ممتلئة بالأشباح أو العقاقير، لأن القادة الآن فى صحة جيدة وأصغر سنا ولديهم ثروات كبيرة، وأن ما ينقصهم هو الثقة والاحترام.

وثائق سربها موقع ويكيليكس:

محاولات أمريكية لعرقلة التحقيق فى العدوان الصهيونى على غزة

كشفت وثائق دبلوماسية سربها موقع «ويكيليكس» عن معلومات تفيد بأن الولايات المتحدة تحركت بشكل سرى لمساعدة الصهاينة على عرقلة عمل لجنة الأمم المتحدة للتحقيق فى جرائم حرب محتملة خلال العدوان على غزة فى شتاء ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩م.

وبحسب مجلة «فورين بوليس» فقد جاء فى الوثائق المسربة أن السفيرة الأمريكية فى الأمم المتحدة سوزان رايس كانت فى الخط الأمامى فى محاولات نسف جهود الأمم المتحدة لإلقاء الضوء على عملية الرصاص المصبوب.

وكانت حركة المقاومة الإسلامية الفلسطينية «حماس» قد عبرت عن دهشتها من موقف القاضى الدولى ريتشارد جولدستون الذى تراجع عن جزء من تقرير أعده عن العدوان الذى شنه الصهاينة على قطاع غزة فى نهاية ٢٠٠٨ - بداية ٢٠٠٩م.

وقال سامى أبو زهرى الناطق باسم حماس فى بيان: جولدستون قام بهذه الخطوة رغم أن الاحتلال الإسرائيلى رفض استقباله أو التعاون معه مقابل استقباله فى غزة وتقديم كل التسهيلات لعمل فريق جولدستون.

ودعت حركة حماس الأمم المتحدة إلى تنفيذ ما ورد فى تقرير جولدستون على اعتبار أنه أصبح أحد الأوراق والوثائق الدولية.

واشنطن بوست: الملل يهيمن على الجنود الأمريكيين فى العراق

ذكرت صحيفة «واشنطن بوست» الأمريكية على صدر صفحتها الرئيسية أن الملل بات يهيمن على مهمة الجنود الأمريكيين الأخيرة فى العراق فرسميا لا تزال قوة يبلغ قوامها ما يقرب من ٤٨ ألف جندى باقية فى إطار مهمتها لتقديم الاستشارة والمساعدة لقوات الأمن المحلية والتى من المرتقب أن تستغرق عاما ولكن على ما يبدو أصبحت مهمتهم الرئيسية مكافحة الملل الذى يشعرون به والبقاء متيقظين للحفاظ على أمنهم.

وأشارت الصحيفة إلى أن الكثير من المدن العراقية شهدت سلسلة من الاغتيالات والتفجيرات والهجمات المسلحة التى تسببت فى مقتل عشرات من قوات الشرطة العراقية والمدنيين والمسئولين الحكوميين منذ بداية العام الجارى ومع ذلك لم تطالب القوات الأمريكية بأن تقدم استشارتها ومساعدتها فى أى من هذه الحوادث.

وقالت: إن نهاية الحرب فى العراق أصبحت تتسم بالرتابة بالنسبة للجنود الأمريكيين المحميين وراء جدران خرسانية والمفترض أنهم باقون لوضع الأمور فى نصابها الصحيح.

does something for him to do it well." Muslim and At-Termedhy narrated on the authority of `Aishah mother of the believers (may Allah be pleased with her) that the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) used to do any deed well.

The meaning of proficiency in this Hadith is doing any deed well with the intention of benefiting the people. It should not only depend on the intention. If the deed is not done well, it may be lost. Also, doing a certain deed well should not depend on the fee wage taken in return for it. However, it should be done well according to that which is required by the deed.

Some scholars said that the meaning of proficiency here is sincerity. There is another narration of this Hadith and the following is its wording: "Allah does not accept a certain deed until it is done well. It was said: O Messenger of Allah? What is the meaning of doing it well? He said: Ridding it from hypocrisy and innovations in religion.

It was narrated that a handicraft did a craft and delivered it to its owner who paid him for it. Then, he felt that it was not done well. For that, he did not sleep, as he did not like to leave his work not done well. Thus, he made another craft well and gave it to the buyer instead of the first one because he sought proficiency at work. The buyer thanked him, and he told him that he did not do that for his sake, but for the sake of making the craft proficiently. Whenever the craftsman neglects his work, his reward will decrease, because he did not use his knowledge well, and Allah may take this skill from him.

One of the ways of thanking Allah for His Graces is done through working. When Allah grants one of His Slaves a certain grace, praising Him for this grace occurs through doing his work well. For example, when Allah grants a person a notable job, he may thank Allah practically for this grace by performing his job well, and the work is done with the intention of thanking. This matter is not easy for the people, and it is done by few people. Allah referred to this while addressing Dawud:

{They worked for him as he desired, (making) high rooms, images, basins as large as reservoirs, and (cooking) cauldrons fixed (in their places). "Work you, O family of Dâwûd (David), with thanks!" But few of My slaves are grateful.} [Saba: 13]

Paying the worker immediately after completing his work

Ad-Darqutny narrated on the authority of Ibn Mas`ud that the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Whever anyone of you hires a certain person, he should inform him with his wage."

It was narrated on the authority of Abu Hurayrah (may Allah be pleased with him) that the Messenger of Allah said: "Inform him with his wage while he is still working." The employer should evaluate the wage of the employee and the size of work, so that he should be aware of the situation and the contract becomes valid. One of the basic elements of hiring is mentioning and evaluating the wage. Imam Ahmed Ibn narrated of Abu Said Al-Khudry (may Allah be pleased with them) narrated that the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) preventing the hiring a person until he is informed with this wage.

The employer should hurry to pay the employee his wage due to the narration of Al-Baihaqu in his Sunan on the authority of Ibn `Umar (may Allah be pleased with

him) that the Messenger of Allah (May the blessing and peace of Allah be upon him) said: "Give the worker his wages before his sweat dries." His wage is the compensation for his work, and its benefit and use are hurried. If he did his work quickly, he should be paid quickly.

When the sellers deliver their goods, they should be paid upon delivery, as they deserve to be paid, and procrastinating to pay him in spite of the ability to do that is prohibited. The command of paying the worker before his sweat dries refers to the necessity of paying the worker immediately after his finishing the work if he asks for his wage.

Al-Baihaqy narrated in the Sunnan on the authority of Ibn `Umar (may Allah be pleased with them both) that the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Three people in the past entered a cave to stay in, then a rock from the mountain dropped and blocked their way. They said: They will not be rescued from this rock until they supplicate to Allah with their good deeds…then one of them said: I hired people and gave them their wage except one of them who left his wage and went away. Then, I invested his money until it achieved great gains. Then, he came to me asking for his wage. I told him: All the camels, sheep, cows, and slaves are for him. He said: O Slave of Allah, do not mock at me. I said: I do not mock at you; then he took all of them. O Allah, I did so for Your sake, so save us from our ordeal. Then, the rock moved and they went away.

Al-Bukhary and Imam Ahmed narrated on the authority of Abu Hurayrah (may Allah be pleased with him) said: "There are three whose opponent I will be on the Day of Resurrection: a man who makes a promise in My name then breaks his word, a man who sells a free man and consumes his price, and a man who employs another and benefits from him (his labor), then does not give him his wages."

This is because he benefited from him without giving him his wages, as if he enslaves him.

The Practice of the rules of Work and Profession

Putting one of the sources of Shari`a into effect, law legislator organized the work relations in the society in the public job by issuing laws and regulations which organize the relations between the employee and the country with its institutions, administrations, local administration units, and others. Also, it issued word laws in the field of free professions frequently, the last of which is the law no. 12 of 2003, which states in its general rulings that the worker is every natural person who works in return for wage for the employer and under his administration and supervision. The employer is every natural or legal person who hires one worker or more in return for wage. The wage is whatever is gained by the worker in return for his work whether fixed or changing, in kind or in cash, and other detailed rulings in this law for work contract and the rights and duties of the workers.

May Allah grant us success!

Al - Bukhary and Al - Baihaqy narrated on the authority of Abu Hurayrah (may Allah be pleased with him) that the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah upon him) said: "Every prophet sent by Allah grazed sheep. His companions asked: What about you, Messenger of Allah? He said: I grazed sheep on carats owned by the inhabitants of Mecca."

3- Making shields and others: It is referred to by the Saying of Allah (Glory be to Him) about Dawud and Suliman (may the peace of Allah be upon him):

{And indeed We bestowed grace on Dâwûd (David) from Us (saying): "O you mountains! Glorify (Allâh) with him! And you birds (also)! And We made the iron soft for him. Saying: "Make you perfect coats of mail, and balance well the rings of chain armour, and work you (men) righteousness. Truly, I am All-Seer of what you do. And to Sulaimân (Solomon) (We subjected) the wind, its morning (stride from sunrise till midnoon) was a month's (journey), and its afternoon (stride from the midday decline of the sun to sunset) was a month's (journey i.e. in one day he could travel two months' journey). And We caused a fount of (molten) brass to flow for him, and there were jinn that worked in front of him, by the Leave of his Lord. And whosoever of them turned aside from Our Command, We shall cause him to taste of the torment of the blazing Fire. hey worked for him as he desired, (making) high rooms, images, basins as large as reservoirs, and (cooking) cauldrons fixed (in their places). "Work you, O family of Dâwûd (David), with thanks!}

[Saba' (10-13]

Making bricks: It is referred to by the Saying of Allah (Glory be to Him):

{Fir'aun (Pharaoh) said: "O chiefs! I know not that you have an ilâh (a god) other than me. So kindle for me (a fire), O Hâmân, to bake (bricks out of) clay, and set up for me a Sarh (a lofty tower, or palace) in order that I may look at (or look for) the Ilâh (God) of Mûsâ (Moses); and verily, I think that he [Mûsâ (Moses)] is one of the liars.}

[Al-Qassas (The Narative): 38]

Ibn Al - Mundhir narrated on the authority of Ibn Juraig that: Fir'un was the first one who ordered the people to make bricks.

4- Watering and architecture: It includes many types such as building and painting walls, cleaning and others. Allah referred to them in His Saying (Glory be to Him) about the inhabitants of Mecca:

{Do you consider the providing of drinking water for the pilgrims and the maintenance of Al-Masjid al-Harâm (at Makkah) as equal to the one who believes in Allâh and the Last Day, and strives hard and fights in the Cause of Allâh? They are not equal before Allâh. And Allâh guides not those people who are the Zâlimûn (polytheists and wrong-doers).}

[Al-Tawbah (Repentance): 19]

Some of the General Rules Governing these Professions

We refer to some of these rules as mentioned in the Noble Qur'an and the purified Sunnah as follows:

A- Choosing the best Work:

Ad-Dailamy narrated on the authority of Abu Sa'id Al-Khudry (may Allah be pleased with him) that the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "The best of deeds is earning living lawfully." Seeking lawful ways of earning living is obligatory, as the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said in another Hadith: "Allah likes to see His Slave exerting efforts in seeking lawful ways of earning his living." Al-Ghazaly, the authoritative source of Islam.

Al-Ghazaly said: "If the family provider has a profession, he should earn his living lawfully, because this is better than physical worshipping. However, he should not forget about remembering Allah (Glory be to Him).

Al-Baihaqy said in Shu'abul-Iman on the authority of Imam 'Ali (may Allah be pleased with him) that the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: "The best of deeds is the person's earning his own living by his own hands."

b- Ability to work:

It is the capacity, as the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) said in what is narrated by Al-Tabarany on the authority of 'Imran Ibn Hussain (may Allah be pleased with him): "You should consider your capacity in your deeds, as Allah does not get bored until you do."

Muslim narrated another wording of the Hadith: "O people, you should do whatever good deeds you can; for Allah does not get tired (of giving reward) until you get tired. And the most beloved of good deeds to Allah is that in which a person persists, even if it is little. If the family of Muhammad (May the blessings and peace of Allah be upon him) started to do something, they would persist in it."

Al-Bukhary narrated on the authority of 'Aishah mother of the believers (may Allah be pleased with her) that the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) entered her house while there was a woman with her. He said: Who is this? She said: She speaks about her prayers. He said: "O people, you should do whatever good deeds you can; for Allah does not get tired (of giving reward) until you get tired."

This means that a person should do the deeds that he can do without overloading himself with deeds that he can not do or keeping himself away from knowledge, because collecting knowledge is one of the best deeds. Al-Baidawi said: "Boredom is a kind of languor that afflicts the soul due to over practicing of a certain deed. This leads to fatige and keeping away from doing it.

The word "deeds" mentioned in the Hadith refers in general to all deeds whether worldly, religiously, or both of them, even if the reason for this Hadith is the acts of worship, but the Hadith refers to all deeds in general.

Proficiency at Works is a Must

One of the factors of doing any deed is the availability of the elements of proficiency at work. Then the person earns compensation in return for his deeds. The Islamic Shari'ah includes the principles that achieve balance between these factors.

Al-Baihaqy narrated in his Sunnan on the authority of 'A'ishah mother of the believers (may Allah be pleased with her) that the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Allah loves who wants to do anyone

religion and a way of eliminating the sins, as Al-Bukhary narrated that the Messenger of Allah said: "If there is a river beside the door of anyone of you by which he washes five times per day and night, will any dirt stick to you? They said: No. He said: In this way, the five prayers eliminate the sins.

Moreover, Allah responds to our (Du'a') call during prayer. Muslim narrated on the authority of the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: "He closest that a person may be to his Lord is when he is prostrating, so say a great deal of Du'a' in sujood."

Rabi'ah Ibn Ka'ab (may Allah be pleased with him) said as narrated on the authority of Muslim: I was spending night with the Messenger of Allah and helped him in performing Wudu'. He told me: what are you wishing? He said: I wish to accompany in paradise. He asked him: What else? He said: I said: This is what I wish. He said: prostrate much."

Allah (Glory be to Him) said in the Noble Qur'an: {Fall prostrate and draw near (to Allâh)!} [Al'Alaq (The Clot): 19]

The people who abstain from prayer are so far from Allah, as Ahmed narrated that the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: "The thing makes a person reach disbelief is abstaining from prayer." Ahmed narrated that the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Whoever performs Prayer regularly, it becomes light for him on the Day of Judgment. Whoever does not keep it, he will not have light on the Day of Judgment. He will accompany Qaroon, Pharoh, Haman, and Ubai Ibn Khalaf."

The soundest opinion is that the Night Journey and Ascension to heaven occurred in Rajab on the twenty seventh night of it. In this way, this night is a good memory of the eternal nights of prophecy and Islam in which Allah's Might is demonstrated. At this night, the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) gained the best honor. It is enough that prayer was enjoined at this night, making it eternal.

*Work Elevates the Nation...!

By Consultant: Hassan Hassan Mansour
The Vice President of the Court of Cassation (An-Naqd)

If movement is one of the innate aspects of the useful creatures in life, the human being has a great portion in it, as he should seek earning his living that benefits him and other creatures. Working is regarded as one of the important aspects of exerting effort. This is a response to the Command of Allah. Allah (Glory be to Him) says:

{He it is Who has made the earth subservient to you (i.e. easy for you to walk, to live and to do agriculture on it); so walk in the paths thereof and eat of His provision. And to Him will be the Resurrection.}

[Al-Mulk (The Sovereignty): 15]

The general principle controlling this work is a response to the Command of the Creator (Glory be to Him), which is stated in the Saying of Allah (Glory be to Him):

{And say (O Muhammad peace be upon him) "Do deeds! Allâh will see your deeds, and (so will) His Messenger (peace be upon him) and the believers. And you will be brought back to the All-Knower of the unseen and the seen. Then He will inform you of what you used to do.}

[At-Tawbah (Repentance): 105]

Due to the importance of work in the life of the individual and the society, we tackle one side of some professions such as:

Examples of Professions to which Islam referred

When we read the verses of the Holy Quran, we notice that there are clear indications to various professions in life, which provide the individual or the society with services. The following are some of these indications:

1- Building of Ships: This is indicated by the Command of Allah to Prophet Nouh (May the peace of Allah be upon him).

{And construct the ship under Our Eyes and with Our Revelation, and call not upon Me on behalf of those who did wrong; they are surely to be drowned. While he was constructing the ship, the chiefs of his people used to mock at him whenever they passed by him. He said:

{If you mock at us, so do we mock at you likewise for your mocking.} [Hud 36, 37]

2- Grazing Sheep: Allah (Glory be to Him) referred to this meaning by the Saying of Musa (may peace of Allah be upon him), when Allah asked him about the thing he holds. He said:

"This is my stick, whereon I lean, and wherewith I beat down branches for my sheep, and wherein I find other uses} [Taha: 18]

* An Article published in Arabic at Al Azhar Magazine.

when they heard about the descending of the Revelation to the Prophet to reform their lives. Allah (Glory be to Him) says:

{Will you then dispute with him (Muhammad peace be upon him) about what he saw [during the Mi'rāj: (Ascent of the Prophet peace be upon him to the seven heavens)]. 'And indeed he (Muhammad peace be upon him) saw him [Jibrīl (Gabriel)] at a second descent (i.e. another time). Near Sidrat-ul-Muntaha (a lote-tree of the utmost boundary over the seventh heaven beyond which none can pass). Near it is the Paradise of Abode. 'When that covered the lote-tree which did cover it! The sight (of Prophet Muhammad peace be upon him) turned not aside (right or left), nor he transgressed beyond the limit (ordained for him). Indeed, he (Muhammad peace be upon him) did see of the Greatest Signs of his Lord (Allāh).} [Al-Najm (The Star): 12-18]

He saw Paradise and Hell, heard the sound of the pen writing the affairs of the creatures, saw the Great Throne and His Kursi extended over heaven and earth, saw the place where the angels reside while they were created to glorify Allah, saw the River Nile and Al-Furat, carrying the good tidings of adding their lands to the Muslim lands and liberating them from the oppression of the Persians and the tyranny of the Romans, and revealing that their blessed water should not be wasted but treated carelessly. However, their water should irrigate the lands, so that fruits, plants, and grains are planted for any living creature.

It is really great that the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) chose milk and refused to drink wine. This backs to his honorable nature which is free from any perfidy and grudge. Any way, light erase darkness, guidance beats delusion, truth beats wrong.

{Nay, We fling (send down) the truth (this Qur'ān) against the falsehood (disbelief), so it destroys it, and the (falsehood) is vanished. And woe to you for that (lie) which you ascribe (to Allah by uttering that Allah has a wife and a son).} [Al-Anbia (The Prophets): 18]

The books relevant to the Prophet's biography (May the blessings and peace of Allah be upon him) mentioned that the Messenger saw at the Night Journey and during his Ascension to Heaven the reward and punishment of the people. He saw people planting and harvesting in the same day. When he asked Jibril about them, he said that they were the people who strove in the Cause of Allah, as their rewards are doubled. When he smelt good musk, Jibril said that theis is the smell coming out of the maid of the daughter of Pharaoh who believed in Allah, the Lord of heaven and earth and disbelieved in Pharaoh who killed her.

He saw a man swimming in blood and Jibril said that this is a usurer. Also, he saw a man who could not bind firewood pack, and Jibril said that this is the person who wasted deposits. He saw men and women who eat bad meat and leave the good meat, Jibril said that there were the adulterers. Also, he saw a person who scarified his cheeks by brass nails. Jibril said that this is the backbiter and slanderer who spoke ill of the people.

I wonder how did the human nature of the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) endure this great and awesome situation? The answer is this was

not the human nature of the Messenger, but was the angelic nature which surpassed that of Jibril who could not go on. The Prophet said: My brother Jibril, would a person get separated from his beloved in this awesome situation? He said: Muhammad, you should go forward and I should go back. If I left my place, I will be burnt due to this light.

During this state of love and closeness, Allah enjoined to the Muslim nation fifty prayers in the day and night, and the Messenger of Allah accepted them praising His graces. He passed by Mosa in his way who asked him: What did Allah enjoin on you and your nation?

The Messenger said: Fifty prayers in the day and the night.

Mosa told him: Go back to Allah and request him to decrease the number of prayers, as the previous nations could not endure.

The Messenger of Allah came back to Allah and asked Allah to decrease the number of prayers.

He repeated the question until they became five Prayers.

Mosa asked him: Go back to Allah and request him to decrease the number of prayers.

The Messenger of Allah said: I asked Allah to decrease them until I became shy.

He heard a voice coming behind him saying: You apply my obligation, and eased matters for My servants, until they become five prayers in number and fifty in reward.

{Whoever brings a good deed (Islāmic Monotheism and deeds of obedience to Allāh and His Messenger peace be upon him) shall have ten times the like thereof to his credit}

[Al-An'am (The Cattle): 160]

Allah's making things easy is a vast Mercy from Allah and abundant Graces. However, what matters is the way of performing the prayer in submission not in the number.

It was asked: How did the Prophet meet dead Messengers? We can say that this is by the angelic nature that Allah created for him at this night. What makes this event marvelous is that Allah revealed facts to him and the veils were removed so that he saw people in a precedent time who knew about him and waited for his intercession.

{How (will it be) then, when We bring from each nation a witness and We bring you (O Muhammad peace be upon him) as a witness against these people?}

[Al-Nisa' (Women): 41]

It is realy amazing that prayer is the only obligation that was enjoined in the heaven, so that it may elevate the people if they were degraded by appetites. Moreover, it contained all the pillars of Isalm such as the Two Testimonies of Faith, Zakah at the time when money is collected , fasting by the faster's abstaining from everything that breaks his fast, and Hajj by directing oneself to the Ka'bah. Also, it contains all types of sports, as it is a cure for heart and bodies. Also, the servant of Allah stands in front of Him five times along the day and night.

Great torment is awaiting the people who do not perform prayer to satisfy themselves and please their Creator and Sustainer. They forgot that a pillar of the

[Al-Isra' (The Night Journey): 1]

The disbelievers did not believe that Jibril descended to the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) and disputed with him to deny the truth. Allah swore by the star that His Prophet is truthful.

{By the star when it goes down (or vanishes). Your companion has neither gone astray nor has erred. Nor does he speak of (his own) desire. 'It is only a Revelation revealed. He has been taught (this Qur'ân) by one mighty in power [Jibrîl (Gabriel)]. One free from any defect in body and mind then he (Jibrîl — Gabriel in his real shape as created by Allah) rose and became stable. While he [Jibrîl (Gabriel)] was in the highest part of the horizon, (Tafsir Ibn Kathir)}

As they were doubtful about Allah and were accusing the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) with lying, the news of the Night Journey started in the Noble Qur'an by deeming the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) far above the false assumptions they held about Allah and His Messenger. Allah (Glory be to Him) says:

{'Glorified (and Exalted) is He (Allâh) [above all that (evil) they associate with Him] Who took His slave (Muhammad peace be upon him) for a journey by night from Al-Masjid-al-Harâm (at Makkah) to Al-Masjid-al-Aqsâ (in Jerusalem)}

[Al-Isra' (The Night Journey): 1]

Allah wanted the expression of Allah's slave, as the Messenger was granted the choice of being a Messenger in the form of an angel or a Messenger in the form of a slave, and he chose to be Messenger in the form of a slave. The slave is usually protected and kept by his lord.

It indicates that the Night Journey and Ascension to Heaven was in body and soul together, as the slave has a body and soul.

{Have you (O Muhammad peace be upon him) seen him (i.e. Abû Jahl) who prevents. A slave (Muhammad peace be upon him) when he prays?}[Al-`Alaq (The Clot): 9-10]

Allah (Glory be to Him) says: {And when the slave of Allâh (Muhammad peace be upon him) stood up invoking Him (his Lord — Allâh) in prayer they almost densely packed upon him} [Al-Jin (The Jinn): 19]

This invalidates the saying that the Night Journey and Ascension to Heaven occurred in soul while sleeping, because this case can not be considered as a miracle and this may occur to all the human beings. This does not deserve the confrontation to the disbelievers who asked him: What is the evidence for your truth? He said: The commodities you trade in, which will come to you with Al-Awraq Camel which has a white a white spot at the head.

When they asked ironically Abu Bakr who was called "the truthful": Do you believe him that he reached Jerusalem in part of the night while we reach it by camels in a month? He said: I believe him in more of than that.

The word "true vision" which was mentioned in the holy verse "and We made not the vision which We showed you (O Muhammad peace be upon him as an actual eye-

witness and not as a dream on the night of Al-Isrâ') but a trial for mankind" refers to the vision by eye and not a dream.

The night in which this event happened was really wonderful, as it was a veil for the pious and worshippers, in which the hearts get rid of the noise of the day and the souls, become free of any tiredness. Using the indefinite noun in the verse reveals the short time, indicating the greatness of Allah's Might and Command. {And Our Commandment is but one as the twinkling of an eye.}[Al-Qamar (The Moon): 50]

It is known that the blessing surrounding the Furthest Mosque backs to the abundance of its fruits, and trees.

The holy verse "Glorified (and Exalted) is He (Allâh) [above all that (evil) they associate with Him] Who took His slave (Muhammad peace be upon him) for a journey by night" reveals the signs of Allah's Might so that his belief in Allah becomes stronger and he may be heedless towards those who torment and hurt him. He spoke secretly to Allah saying "If you are not wrathful at me, then I do not care." The verse indicates that the Furthest Mosque is one of the Islamic sacred places, the first Qibla, and the third Holy Mosques. Thus, the Muslims should in no way ignore it.

This night witnessed the gathering of all the Prophets and Messengers to confirm the message and prophecy of Muhammad. Allah (Glory be to Him) says about the prayer in which he led them:{And (remember) when Allâh took the Covenant of the Prophets, saying: "Take whatever I gave you from the Book and Hikmah (understanding of the Laws of Allâh), and afterwards there will come to you a Messenger (Muhammad peace be upon him) confirming what is with you; you must, then, believe in him and help him." (Allâh) said: "Do you agree (to it) and will you take up My Covenant (which I conclude with you)?" They said: "We agree." He said: "Then bear witness; and I am with you among the witnesses (for this).}

[Al-Imran (The Household of Imran): 81]

This verse denotes that time and place are not inherited from a Prophet to another or from a Messenger to another, but this is the divine gradation of nations from weakness to strength and prosperity until Allah inherits the earth and all the creatures living on it.

The Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: "The previous Prophets and I are like a beautiful house built by a person except for a block in one of its corners. The people circumambulate it and ask why such a block. I resemble this block and I am the last of the Prophets."

The Night Journey and Ascension to Heaven is a miracle that occurred to the Prophet Muhammad (May the blessings and peace of Allah be upon him) to support and honor him and to entertain him. This was in the way the wind was subjected to Suliman, in the way Musa threw his stick which turned to be a huge snake and he stroke the sea separating it into two great pieces and in the way Isa healed the blind and leper and bring the dead to life by Allah's permission.

It was said that the Night Journey and Ascension to Heaven was a kind of breaching the norms of time and customs. Why do we search for the evidence of mind while there is evidence that can be understood easily? The disbelievers were not at ease

AL-AZHAR MAGAZINE

Rajab, 1432 A. H.



ENGLISH SECTION

June, 2011

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."

(Al A'raf 43)

EDITOR : Dr. IBRAHIM AL-ASSIL,

Professor at the Faculty of Languages and Translation

Al-Azhar University

The Night Journey and Ascension to Heaven...!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

Allah commanded most of His Prophets and Messengers to move and travelled on earth to see the end of those who denied the truth. They travelled and obeyed Allah, learning the lesson. Thus, Allah strengthened their belief and they were active in spreading the call (Da'wah) for the Path of Allah and their evidence became clear. This was the case of their father Ibrahim who travelled from Babil to the Levant, Palestine, and Egypt and Allah let his mind move from a place to another in the whole universe to be a believer.

{Thus did we show Ibrâhîm (Abraham) the kingdom of the heavens and the earth that he be one of those who have Faith with certainty.} [Al-An'am (The Cattle): 75]

His argument became strong so that it amazed the person who disputed with him about His Lord.

{When Ibrâhîm (Abraham) said (to him): "My Lord (Allâh) is He Who gives life and causes death." He said, "I give life and cause death." Ibrâhîm (Abraham) said, "Verily, Allâh brings the sun from the east; then bring it you from the west." So the disbeliever was utterly defeated. And Allâh guides not the people, who are (Zâlimûn) wrong-doers.}

[Al-Baqarah (The Cow): 285]

This was the case of our Prophet Muhammad (May the blessings and peace of Allah be upon him) who belongs to Quraysh tribe. They used to know him as truthful, honest, and fair judge. When the Inspiration descended to Him – Allah knows best the affairs of His Message – so that they may come out of darkness to light, and to organize their life, but they accused him of lying and denied the Inspiration

{Then they had turned away from him (Messenger Muhammad peace be upon him) and said: (He is) one taught (by a human being), and he is a madman!"}

[Al-Dukhan (Smoke): 14]

{Has the Reminder been sent down to him (alone) from among us?" Nay, but they are in doubt about My Reminder (this Qur'ân)! Nay, but they have not tasted (My) Torment!}

[Al-Qamar (The Moon): 25]

In spite of the hurt and oppression for him and the universality of his Message, his journey was different from that of the other Prophets. The first part was on earth from the Inviolable Mosque to the Furthest Mosque in Jerusalem – one year before his Hijirah, and a second part was the ascension to Sidratul-Muntaha.

{ 'Glorified (and Exalted) is He (Allâh) [above all that (evil) they associate with Him] Who took His slave (Muhammad peace be upon him) for a journey by night from Al-Masjid-al-Harâm (at Makkah) to Al-Masjid-al-Aqsâ (in Jerusalem), the neighborhood whereof We have blessed, in order that We might show him (Muhammad peace be upon him) of Our Ayât (proofs, evidences, lessons, signs, etc.). Verily, He is the All-Hearer, the All-Seer. }

الفهرس

الأزهر

هدية العدد
القرآن في التربية الإسلامية

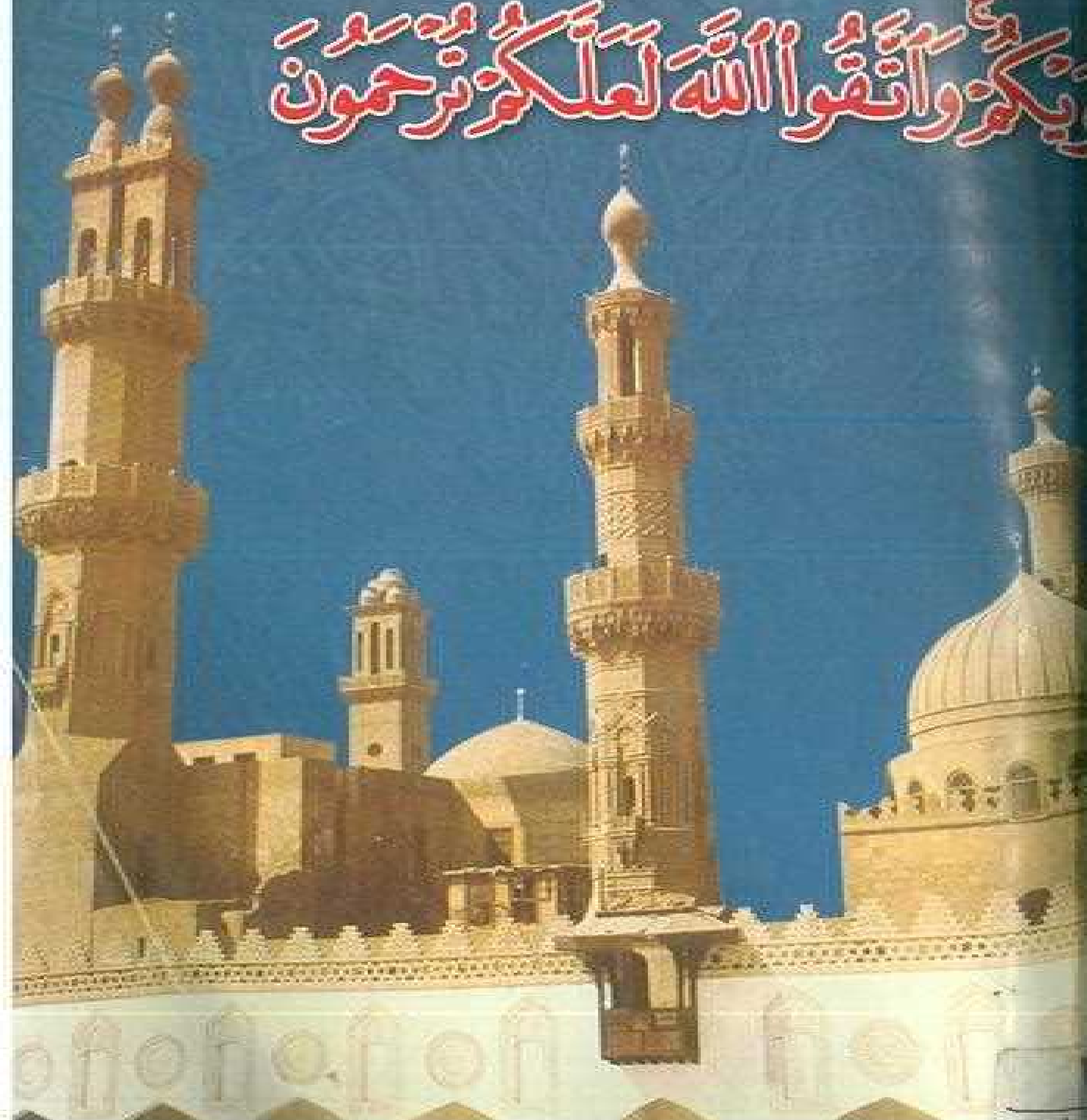
﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾

الأزهر

هدية العدد

الدين والدولة فى الإسلام

ا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ
يْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ



AL AZHAR
MAGAZINE

Sha'ban 1432 AH. Jun. 2011,
Vol. 84, Part VIII.

الثمن ١٥٠ قرشا

بيان الأزهر ونخبة من المثقفين حول مستقبل مصر

بمبادرة كريمة من الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر اجتمعت كوكبة من المثقفين المصريين على اختلاف انتماءاتهم الفكرية والدينية مع عدد من كبار العلماء والمفكرين فى الأزهر الشريف. وتدارسوا خلال اجتماعات عدة مقتضيات اللحظة التاريخية الفارقة التى تمر بها مصر بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير وأهميتها فى توجيه مستقبل مصر نحو غاياته النبيلة وحقوق شعبها فى الحرية والكرامة والمساواة والعدالة الاجتماعية.

وقد توافق المجتمعون على ضرورة تأسيس مسيرة الوطن على مبادئ كلية وقواعد شاملة تناقشها قوى المجتمع المصرى وتستبصر فى سيرها بالخطى الرشيدة. لتصل فى النهاية إلى الأطر الفكرية الحاكمة لقواعد المجتمع ونهجه السليم.

واعترافاً من الجميع بدور الأزهر القيادى فى بلورة الفكر الإسلامى الوسطى السديد، فإن المجتمعين يؤكدون أهميته واعتباره المنارة الهادية التى يُستضاء بها، ويحتكم إليها فى تحديد علاقة الدولة بالدين وبيان أسس السياسة الشرعية الصحيحة التى ينبغى انتهاجها، ارتكازاً على خبرته المتراكمة، وتاريخه العلمى والثقافى الذى ارتكز على الأبعاد التالية:

١ ـ البعد الفقهى فى إحياء علوم الدين وتجديدها، طبقاً لمذهب أهل السنة والجماعة الذى يجمع بين العقل والنقل ويكشف عن قواعد التأويل المرعية للنصوص الشرعية.

٢ ـ البعد التاريخى لدور الأزهر المجيد فى قيادة الحركة الوطنية نحو الحرية والاستقلال.

٣ ـ البعد الحضارى لإحياء مختلف العلوم الطبيعية والآداب والفنون بتنوعاتها الخصبة.

٤ ـ البعد العملى فى قيادة حركة المجتمع وتشكيل قادة الرأى فى الحياة المصرية.

٥ ـ البعد الجامع للعلم والريادة والنهضة والثقافة فى الوطن العربى والعالم الإسلامى.

وقد حرص المجتمعون على أن يستلهموا فى مناقشتهم روح تراث أعلام الفكر والنهضة والتقدم والإصلاح فى الأزهر الشريف، ابتداء من شيخ الإسلام الشيخ حسن العطار وتلميذه الشيخ رفاعة الطهطاوى إلى الإمام محمد عبده وتلاميذه وأئمته المجتهدين من علمائه من أمثال المراغى ومحمد عبدالله دراز ومصطفى عبدالرازق وشلتوت وغيرهم من شيوخ الإسلام وعلمائه إلى يوم الناس هذا.



كما استلهموا في الوقت نفسه إنجازات كبار المثقفين المصريين ممن شاركوا في التطور المعرفي والإنساني، وأسهموا في تشكيل العقل المصري والعربي الحديث في نهضته المتجددة، من رجال الفلسفة والقانون، والأدب والفنون، وغيرها من المعارف التي صاغت الفكر والوجدان والوعي العام، اجتهدوا في كل ذلك وركزوا في وضع القواسم المشتركة بينهم جميعاً، تلك القواسم التي تهدف إلى الغاية السامية التي يرتضيها الجميع من عقلاء الأمة وحكمائها، والتي تتمثل في الآتي:

تحديد المبادئ الحاكمة لفهم علاقة الإسلام بالدولة في المرحلة الدقيقة الراهنة، وذلك في إطار استراتيجية توافقية، ترسم شكل الدولة العصرية المنشودة ونظام الحكم فيها، وتدفع بالأمة في طريق الانطلاق نحو التقدم الحضاري، بما يحقق عملية التحول الديمقراطي ويضمن العدالة الاجتماعية، ويكفل لمصر دخول عصر إنتاج المعرفة والعلم وتوفير الرخاء والسلم، مع الحفاظ على القيم الروحية والإنسانية والتراث الثقافي، وذلك حماية للمبادئ الإسلامية التي استقرت في وعي الأمة وضمير العلماء والمفكرين من التعرض للإغفال والتشويه أو الغلو وسوء التفسير، وصوناً لها من استغلال مختلف التيارات المنحرفة التي قد ترفع شعارات دينية طائفية أو أيدلوجية بعيدة عن ثوابت أمتنا ومشتركاتها تحيد عن نهج الاعتدال والوسطية، وتناقض جوهر الإسلام في الحرية والعدل والمساواة، وتبعد عن سماحة الأديان السماوية كلها.

من هنا نعلن توافقنا نحن المجتمعين على المبادئ التالية لتحديد طبيعة المرجعية الإسلامية النيرة، التي تتمثل أساساً في عدد من القضايا الكلية، المستخلصة من النصوص الشرعية القطعية الثبوت والدلالة، بوصفها المعبرة عن الفهم الصحيح للدين، ونجملها في المحاور التالية:

أولاً: دعم تأسيس الدولة الوطنية الدستورية الديمقراطية الحديثة، التي تعتمد على دستور ترتضيه الأمة، يفصل بين سلطات الدولة ومؤسساتها القانونية الحاكمة.. ويحدد إطار الحكم، ويضمن الحقوق والواجبات لكل أفرادها على قدم المساواة، بحيث تكون سلطة التشريع فيها لنواب الشعب، بما يتوافق مع المفهوم الإسلامي الصحيح، حيث لم يعرف الإسلام لا في تشريعاته ولا حضارته ولا تاريخه ما يعرف في الثقافات الأخرى بالدولة الدينية الكهنوتية التي تسلطت على الناس وعانت منها البشرية في بعض مراحل التاريخ، بل ترك للناس إدارة مجتمعاتهم واختيار الآليات والمؤسسات المحققة لمصالحهم، شريطة أن تكون المبادئ الكلية للشريعة الإسلامية هي المصدر الأساسي للتشريع، وبما يضمن لأتباع الديانات السماوية الأخرى الاحتكام إلى شرائعهم الدينية في قضايا الأحوال الشخصية.

ثانياً: اعتماد النظام الديمقراطي، القائم على الانتخاب الحر المباشر، الذي هو الصيغة العصرية لتحقيق مبادئ الشورى الإسلامية، بما يضمنه من تعددية ومن تداول سلمي للسلطة، وتحديد للاختصاصات ومراقبة للأداء ومحاسبة للمسئولين أمام ممثلي الشعب، وتوخي مصالح الناس العامة ومنافعهم المرسلة في جميع التشريعات والقرارات، وإدارة شئون الدولة بالقانون والقانون وحده وملاحقة الفساد وتحقيق الشفافية التامة وحرية الحصول على المعلومات وتداولها.

ثالثاً: الالتزام بمنظومة الحريات الأساسية في الفكر والرأي، مع الاحترام الكامل لحقوق الإنسان والمرأة والطفل، واعتبار المواطنة وعدم التمييز على أساس من الدين أو النوع أو الجنس، أو غير ذلك، مناط التكليف والمسئولية وتأكيد مبدأ التعددية واحترام جميع العقائد الدينية السماوية الثلاث.

رابعاً: الاحترام التام لآداب الاختلاف وأخلاقيات الحوار، بحيث يتم اجتناب التكفير والتخوين، وتأثيم استغلال الدين واستخدامه لبعث الفرقة والتنابذ والعداء بين المواطنين، واعتبار الحث على التمييز الديني والنزعات الطائفية والعنصرية جريمة في حق الوطن، واعتماد الحوار المتكافئ والاحترام المتبادل والتعويل عليهما في التعامل بين فئات الشعب المختلفة، دون أية تفرقة في الحقوق والواجبات بين جميع المواطنين.

خامساً: تأكيد الالتزام بالمواثيق والقرارات الدولية، والتمسك بالمنجزات الحضارية في العلاقات الإنسانية، المتوافقة مع التقاليد السمحة للثقافة الإسلامية والعربية، والمتسقة مع الخبرة الحضارية الطويلة للشعب المصري في

عصوره المختلفة، وما قدمه من نماذج فائقة في التعايش السلمي ونشدان الخير للإنسانية كلها.

سادساً: الحرص التام على صيانة كرامة الأمة المصرية والحفاظ على عزتها الوطنية وتأكيد الحماية التامة والاحترام الكامل لدور العبادة لأتباع الديانات السماوية الثلاث، وضمان الممارسة الحرة لجميع الشعائر الدينية دون أية معوقات، واحترام جميع مظاهر العبادة بمختلف أشكالها، دون تسفيه لثقافة الشعب أو تشويه لتقاليده الأصيلة، وكذلك الحرص التام على صيانة حرية التعبير والإبداع الفني والأدبي في إطار منظومة قيمنا الحضارية الثابتة.

سابعاً: اعتبار التعليم والبحث العلمي مسئولية الدولة ودخول مصر عصر المعرفة قاطرة التقدم الحضاري، وتكريس كل الجهود لتدارك ما فاتنا في هذه المجالات، وحشد طاقة المجتمع كله لمحو الأمية واستثمار الثروة البشرية وتحقيق المشروعات المستقبلية الكبرى.

ثامناً: إعمال فقه الأولويات في تحقيق التنمية والعدالة الاجتماعية ومواجهة الاستبداد ومكافحة الفساد والقضاء على البطالة ونهضة المجتمع في الجوانب الاقتصادية والبرامج الاجتماعية والثقافية والإعلامية بحيث تكون على رأس الأولويات التي يتبناها شعبنا في نهضته الراهنة مع اعتبار أن الرعاية الصحية واجب الدولة تجاه كل المواطنين جميعاً.

تاسعاً: بناء علاقات مصر بأشقائها العرب ومحيطها الإسلامي ودائرتها الأفريقية خصوصاً دول حوض نهر النيل وبقية دول العالم على أساس التعاون على الخير المشترك وابتغاء مصلحة الشعوب في إطار من الندية والاستقلال التام، ومتابعة المشاركة في الجهد الإنساني النبيل لتقدم البشرية والحفاظ على البيئة وتحقيق السلام العادل بين الأمم والتوفيق بين مصالحها المختلفة، مع مناصرة الحق الفلسطيني والحفاظ على استقلال الإرادة المصرية واستعادة دورها القيادي التاريخي.

عاشراً: تأييد مشروع استقلال مؤسسة الأزهر، وقيام هيئة كبار العلماء باختيار الإمام الأكبر، والعمل على تطوير مناهج التعليم الأزهري، ليسترد دوره الفكري الأصيل، وتأكيد الدور العالمي للأزهر الشريف في مختلف الأنحاء، والاعتداد بجهوده الرشيدة في التقريب بين المذاهب الإسلامية المختلفة.

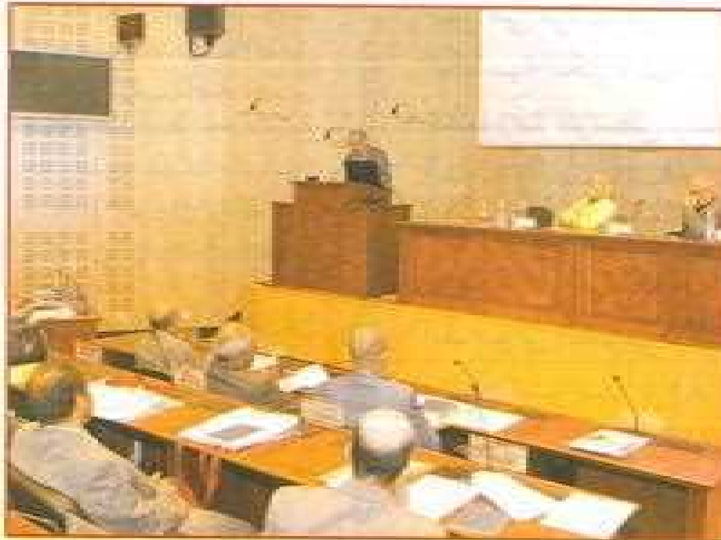
حادي عشر: اعتبار الأزهر الشريف هو الجهة المختصة التي يرجع إليها في شئون الإسلام وعلومه وتراثه واجتهادات الفكر الإسلامي، مع عدم مصادرة حق الجميع في إبداء الرأي متى توافرت له الشروط العلمية اللازمة، وبشرط الالتزام بآداب الحوار، واحترام ما توافق عليه علماء الأمة.

ويهيب علماء الأزهر والمثقفون المشاركون في إعداد هذا البيان بكل الأحزاب والاتجاهات السياسية المصرية أن يلتزموا بالعمل على تقدم مصر سياسياً واقتصادياً واجتماعياً في إطار المحددات الأساسية التي وردت في هذا البيان.

والله الموفق لما فيه خير الأمة

بسم الله الرحمن الرحيم

داخل العدد





الأزهر
مجلة شهرية جامعة
يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف في مطلع كل شهر عربي
تأسست عام ١٣٤٩هـ - ١٩٣١م

رئيس التحرير
أ.د. محمد عمارة

مدير التحرير
عادل رفاعي خفاجة

سكرتير التحرير
أحمد السيد تقي الدين

الاشتراك السنوي
داخل مصر ١٨ جنيها مصريا -
الدول العربية ٥٠ دولارا أمريكيا
أوربا وأمريكا ٨٥ دولارا أمريكيا -
اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولارا أمريكيا
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٥٧٨٦٢٠٠

المراسلات باسم: مدير التحرير -
مجمع البحوث الإسلامية - م. نصر
ت: ٢٢٦٢٨٥٩٩

شعبان ١٤٣٢هـ - يولية ٢٠١١م - الجزء الثامن - السنة الرابعة والثمانون

فرسان المراجعات العلمانية

الشيخ على عبدالرازق

(١٣٠٥/١٣٨٦هـ/ ١٨٨٧/ ١٩٦٦م)

نستفتح بالذى هو خير

نستفتح بالذى هو خير نستفتح بالذى هو خير

● اللهم إنا نسألك الرحمة لعلمائنا الذين سبقونا إلى رئاسة تحرير هذه المجلة.. والذين جعلوا منها منبرا للإسلام.. يبلغ الدعوة.. ويقيم الحجة.. ويزيل الشبهات.

● كما نسألك - ربنا - أن تسدد خطانا على الدرب.. بصحبة العاملين بهذه المجلة.. لتحقق لها الريادة فى عالم المجلات الإسلامية.. حتى تكون جديرة بحمل اسم «الأزهر» - أعرق مؤسسات العالم الإسلامى.. الحارس لهذا الدين الحنيف..

إنك - يا مولانا - خير مسئول وأكرم مجيب..

خادم العلم الشريف

الشيخ الدكتور

محمد عمارة

كانت المرة الأولى التى ذكر فيها مصطلح «العلمانية» - التى هى نزعة غربية، ظهرت كرد فعل معاكس للدولة الكنسية الكهنوتية الثيوقراطية - التى عرفتها أوروبا فى عصورها الوسطى والمظلمة - والتى تعنى فصل الدين عن الدولة والسياسة والقانون - وأحيانا فصل الدين عن الحياة، وعزل السماء عن الأرض - كانت المرة الأولى لظهور هذا المصطلح - «العلمانية» - باللغة العربية - فى القاموس العربى - الفرنسى، الذى وضعه لويس بقطر والذى نشر سنة ١٨٢٨م.

● ولقد بدأ تسلل القانون الوضعى الفرنسى - العلمانى - إلى مصر، على استحياء، وبشكل جزئى، على عهد الخديوى سعيد (١٢٧٠ - ١٢٧٩هـ ١٨٥٤ - ١٨٦٣م) فى سنة ١٢٧٢هـ ١٨٥٥م، عندما نشأ - فى الموانىء المصرية «مجلس تجار» للفصل فى المنازعات بين التجار الأجانب والمصريين، وفق القانون الأجنبى - وليس وفق القانون الوطنى الإسلامى.

ثم توسع أمر هذا الاختراق فى «المحاكم القنصلية» - التى تفصل فى المنازعات بين عموم الأجانب والمصريين - وهى المحاكم التى تعددت بتعدد جنسيات الرعايا الأجانب حتى بلغت سبعة عشر!


محمد عبده

ثم نظمت فوضى هذه «المحاكم القنصلية» فى «المحاكم المختلطة» سنة ١٢٩٢هـ / ١٨٧٥م - والتى كان قضاتها أجانب.. ولغتها فرنسية.. وقانونها فرنسى.. ولقد وصف القاضى الهولندى «فان بملن» - الذى عمل قاضيا بالمحاكم المختلطة - وصف القضاء القنصلى «بأنه وليد الاغتصاب الواقع من الأقوياء على حقوق الضعفاء».. ووصف المحاكم المختلطة «بأنها ركن من أركان السيطرة الأوروبية على مصر...»[1].

● وعندما احتل الإنجليز مصر سنة ١٢٩٩هـ سنة ١٨٨٢م، مند اختراق القانون الأجنبى - بعد تعديله - إلى عموم القضاء الأهلى المصرى - فى رجب سنة ١٣٠٠هـ مايو سنة ١٨٨٣م.. فأصبح هو شريعة القضاء الأهلى فى المنازعات بين المصريين.. وذلك لأول مرة فى تاريخ مصر الإسلامية.

● وعلى الجبهة الفكرية، كان هناك إجماع وطنى على معارضة هذا الاختراق القانونى العلمانى لمؤسسات التشريع والقضاء المصرى.. ولقد كتب رفاعة رافع الطهطاوى (١٢١٦ - ١٢٩٠هـ/ ١٨٠١ - ١٨٧٣م) مستنكرا هذا الاختراق.. «لأن المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما أخلت بالحقوق، بتوفيقها على الوقت والحالة.. ومن أمعن النظر فى كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية، حيث بوبوا للمعاملات الشرعية أبوابا مستوعبة للأحكام التجارية، كالشركة، والمضاربة والقرض، والمخابرة، والعارية، والصلح، وغير ذلك...».

وأعلن الطهطاوى: «أن بحر الشريعة الغراء، على تفرع مشارعه، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقى والرى، ولم تخرج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية، لأنها أصل، وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع»[2].

● ولقد نهض تلميذ الطهطاوى محمد قدرى باشا (١٢٣٧ - ١٣٠٦هـ/ ١٨٢١ - ١٨٨٨م) بتقنين عدد من كتب الفقه الحنفى، ليقدم للدولة والأمة البديل القانونى الإسلامى - المقنن والمنظم - للقانون الوضعى الأجنبى الهجين.

---

(١) عبدالرحمن الرافعى (عصر إسماعيل) جـ٢ ص٢٤٣، ٢٤٧. طبعة القاهرة سنة ١٩٤٨م.

(٢) رفاعة الطهطاوى (الأعمال الكاملة) جـ١ ص٥٤٤، ٣٦٩، ٣٧٠ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م وطبعة القاهرة سنة ٢٠١٠م.

● وأعلن الإمام محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) فى مواجهة الغزو القانونى، الذى يريد علمنة السياسة والتشريع والقضاء، أن الإسلام دين ودولة، وشريعة وحكم وتنفيذ.. وأنه - بعبارته - «وإن رفض ما يسميه الإفرنج «ثيوقراتيك» أى سلطان إلهى، إلا أنه جمع بين الدين والشرع، ولم يدع ما لقيصر لقيصر.. فكان كمالا للشخص، وألفة فى البيت، ونظاما للملك، امتازت به الأمم التى دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه»[3].

● وكانت المرة الأولى التى تظهر فيها الدعوة إلى العلمانية.. وإلى فصل الدين عن الدولة، بواسطة أقلام شرقية، آتية من النصارى الشوام، الذين تربوا فى مدارس الإرساليات التنصيرية الفرنسية - بلبنان - وكانت بواكير هذه الدعوة من قبل حنا الطرابلسى وميشيل حكيم فى صحيفة (المقطم) - التى كانت لسان حال الاحتلال الإنجليزى فى مصر - فى أغسطس سنة ١٨٩٨م.. ويومئذ تصدى الشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ / ١٨٦٥ - ١٩٣٥م) فى مجلة (المنار) لهذه الدعوة بالتفنيد، مدافعا عن شمول الإسلام للدين والدولة، وكفالة شريعته لحقوق الأقليات.

● أما أول دعوة تصدر من مسلم لعلمنة الإسلام، ولفصل الدين عن الدولة والسياسة والتشريع والقانون، ولتجريد الخلافة من المشروعية الإسلامية، فإنها قد جاءت من العالم الأزهرى والقاضى الشرعى الشيخ على عبد الرازق[4] (١٣٠٥ - ١٣٨٦هـ / ١٨٨٧ - ١٩٦٦م) الذى أحدث كتابه (الإسلام وأصول الحكم) - الصادر سنة ١٩٢٥م - عقب إلغاء الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤م - أكبر المعارك الفكرية فى القرن العشرين، على امتداد عالم الإسلام.

ومنذ ذلك التاريخ وحتى الآن، أصبح هذا الكتاب - على صغر حجمه - «إنجيل» العلمانيين العرب والمسلمين.

● لقد ذهب هذا الكتاب إلى علمنة الإسلام، وإنكار علاقته بالسياسة والدولة

(٣) محمد عبده (الأعمال الكاملة) جـ٣ ص٢٨٧، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٣٣، ٢٨٨، ٢٨٠، ٢٨٥، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م، وطبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

(٤) الشيخ على عبد الرازق هو على بن حسن بن أحمد بن عبد الرازق ولد بأبى جرج من أعمال المنيا بصعيد مصر وتعلم بالأزهر ثم بأكسفورد وعين قاضياً بالمحاكم الشرعية واشتغل بالمحاماة بعد إخراجه من زمرة العلماء بسبب كتاب «الإسلام وأصول الحكم» سنة ١٩٢٥م. شغل عضوية مجلس النواب ومجلس الشيوخ وعين وزيراً للأوقاف بعد صدور العفو عنه إبان شغل أخيه الشيخ مصطفى عبد الرازق مشيخة الأزهر. وكان عضواً بمجمع اللغة العربية وظل يحاضر طلبة الدكتوراه بجامعة القاهرة فى مصادر الفقه الإسلامى عشرين عاماً وكان فى السياسة منتمياً إلى حزب الأحرار الدستوريين. ومن أشهر آثاره الفكرية «الإسلام وأصول الحكم» و«الإجماع فى الشريعة الإسلامية».

والحكومة وبناء الوطن والأمة.. فقال:


محمد رشيد رضا

«إن محمداً ﷺ ما كان إلا رسولاً لدعوة دينية خالصة للدين.. غير مشوبة بشىء من الحكم.. وإنه لم يقم بتأسيس مملكة بالمعنى الذى يُفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها. ما كان إلا رسولا كإخوانه الخالين من الرسل.. وما كان ملكا ولا مؤسس دولة ولا داعيا إلى مُلك.

وإن ظواهر القرآن المجيد تؤيد القول بأن النبى ﷺ لم يكن له شأن فى الملك السياسى، وآياته متضافرة على أن عمله السماوى لم يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معانى السلطان.. ولاية الرسول على قومه ولاية روحية.. وولاية الحاكم ولاية مادية.. تلك ولاية هداية إلى الله وإرشاد إليه، وهذه ولاية تدبير لمصالح الحياة وعمارة الأرض. تلك للدين وهذه للدنيا. تلك لله، وهذه للناس، تلك زعامة دينية، وهذه زعامة سياسية.

وإن تلك الوحدة العربية التى وجدت زمن النبى - عليه الصلاة والسلام - لم تكن وحدة سياسية بأى وجه من الوجوه، ولا كان فيها معنى من معانى الدولة والحكومة، بل لم تعد أبدا أن تكون وحدة دينية خالصة من شوائب السياسة، وحدة الإيمان والمذهب الدينى، لا وحدة الدولة ومذاهب الملك.. يدلك على هذا سيرة النبى ﷺ فما عرفنا أنه تعرض لشىء من سياسة تلك الأمم الشتيتة، ولا غَيّر شيئا من أساليب الحكم عندهم، ولا مما كان لكل قبيلة منهم من نظام إدارى أو قضائى.. ولا سمعنا أنه عزل واليا، ولا عين قاضيا.. إنهم كانوا دولا شتى، على قدر ما تسمح به حياة العرب يومئذ من معنى الدولة والحكومة. تلك حال العرب يوم لحق عليه السلام بالرفيق الأعلى، وحدة دينية عامة من تحتها دول تامة التباين إلا قليلا..

هيهات هيهات، لم تكن ثمة حكومة ولا دولة، ولا شئ من نزعات السياسة، ولا أغراض الملوك والأمراء.. لم يكن هناك ترتيب حكومى، ولم يكن ثمة ولاة ولا قضاة ولا ديوان.. إلخ.. كانت زعامة دينية.. وبا بعد ما بين السياسة والدين»[5].

هكذا قال كتاب «الإسلام وأصول الحكم» عن علاقة الإسلام بالدولة والسياسة والحكم والتشريع والقانون.

● وعن الخلافة الإسلامية، وطبيعة السلطة فيها، صور كتاب «الإسلام وأصول الحكم»

(٥) على عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم» ص٨٥،٤٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥م.

ولقد قامت الكتب التى صدرت ردا على كلام على عبد الرازق هذا بتفنيد هذا الإنكار لإقامة الرسول - ﷺ - دولة وحكومة. انظر كتبنا «الإسلام والسياسة» و«معركة الإسلام وأصول الحكم» و«إسلاميات السنهورى باشا».

معلقاً على حوار دار بينه وبين الأستاذ أحمد أمين (١٢٩٥ ـ ١٣٧٣ هـ / ١٨٧٨ ـ ١٩٥٤م) أعاد فيه ذكر هذه العبارة ـ قال:

«.. وما أرى في الأمر إلا أن هناك خطأ في التعبير جرى به لساني في المجلس الذى كنا نتجادل فيه ونستعرض حال المسلمين. وما أدرى كيف تسربت كلمة روحانية الإسلام إلى لساني يومئذ؟!، ولم أرد معناها، ولم يكن يخطر لي ببال.

بل لعله الشيطان ألقى في حديثي بتلك الكلمة.. وللشيطان أحيانا كلمات يلقيها على ألسنة بعض الناس»[11].

هكذا تم التراجع عن أخطر المقولات التي حملها كتاب (الإسلام وأصول الحكم) ١٩٢٥م والتي حاولت علمنة الإسلام.. والفصل بينه وبين الحكم والدولة والسياسة والتشريع والقانون.. وتحويله إلى مسيحية تدع ما لقيصر لقيصر ـ حتى ولو كان قيصر هذا بلشفيا ـ!.. والاكتفاء بروحانية الدين والشعائر والعبادات..

كما حاولت هذه المقولات تشويه صورة الخلافة الإسلامية.. وإنكار وجود مرجعية إسلامية لنظام الخلافة والحكم في بلاد الإسلام..

تم التراجع ـ الواضح والحاسم والصريح ـ عن هذه المقولات.. وحدث الإياب إلى النموذج الإسلامي في الحكم والسياسة والتشريع والقانون.

لقد شهدت بدايات القرن العشرين:

١ ـ تراجع صورة الخلافة العثمانية، التي أخذت في التفكك والانهيار.

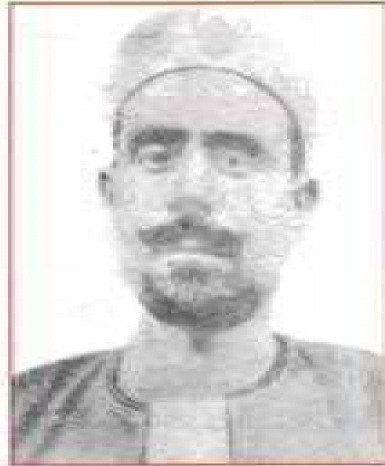
٢ ـ وتألق النموذج الحضاري الغربي ـ الوضعي العلماني ـ.. وتسويق صورته في بلاد الشرق بواسطة الاستعمار والتغريب.

ويومئذ، حدث انبهار قطاعات من النخبة بهذا النموذج الغربي.. مع النفور من النموذج الإسلامي، الذى خلطوا بينه وبين «الصورة العثمانية».. الأمر الذى جعل هذه القطاعات من النخبة تبشر بالنموذج الغربي سبيلا لإخراج الشرق من مأزقه الحضاري، وطريقاً لتحريره من الاستعمار.

ولأن الكثيرين من أعلام هذه النخبة ـ التي انبهرت بالنموذج الغربي ـ كانوا أصحاب «اجتهاد خاطئ».. ولم يكونوا «عملاء حضاريين».. فلقد عادوا ـ في مرحلة نضجهم الفكرى ـ إلى الانتماء للنموذج الحضاري الإسلامي.. فكانت المراجعات الفكرية ـ التي مثلت «ظاهرة طبيعية» في عالم الفكر وتاريخ الأفكار..

---

(١١) على عبدالرازق «تعليق على مقال الاجتهاد في الإسلام» مجلة «رسالة الإسلام» عدد مايو سنة ١٩٥٦م.


على عبدالرازق

● لقد شهد التاريخ الفكرى للحضارة الإسلامية الكثير من المراجعات الفكرية الكبرى والشهيرة..

١ ـ فمعتزلة بغداد قد راجعوا كثيرا من مقولات معتزلة البصرة..

٢ ـ وإمام أهل السنة والجماعة أبو الحسن الأشعرى (٢٦٠ ـ ٣٢٤ هـ / ٨٧٤ ـ ٩٣٦ م) قضى أربعة عقود من حياته معتزليا.. ثم راجع مقولات المعتزلة، وأعلن عليها «الثورة الفكرية» التي جعلت «الأشعرية» تستقطب جمهور الأمة الإسلامية، منذ ذلك التاريخ وحتى هذه اللحظات..

٣ ـ وأبو الوفاء ابن عقيل البغدادى (٤٣١ ـ ٥١٣ هـ / ١٠٤٠ ـ ١١١٩ م) قضى زمناً من حياته الفكرية معتزليا.. ثم تحول فأصبح إمام الحنابلة وشيخهم في بغداد..

٤ ـ والذين يقارنون بين حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ/ ١٠٥٨ ـ ١١١١ م) ـ وهو من أبرز أئمة الأشعرية ـ وبين مؤسس الأشعرية، يجدون الكثير من معالم المراجعات الفكرية الكبرى..

٥ ـ وكذلك الذين يقارنون بين شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ/ ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨ م) وبين مؤسس السلفية الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١ هـ/ ٧٨٠ ـ ٨٥٥ م) يجدون ظاهرة المراجعات الفكرية حاضرة بوضوح شديد..

٦ ـ بل إن المسيرة الفكرية الخصبة للإمام الشافعي (١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ/ ٧٦٧ ـ ٨٢٠ م) والتي جعلت له مذهباً جديداً ناسب الواقع المصرى.. وتميز عن مذهبه القديم، الذى ناسب الواقع العراقي.. قد حملت ـ هي الأخرى ـ ملامح مراجعات فكرية، مثلت علامة على الحيوية والتجدد والتجديد..

● هكذا.. ومن هذا المنظور.. كانت المراجعات الفكرية لفرسان العلمانية في بلادنا على امتداد عقود النصف الأول من القرن العشرين.. وفي طليعتهم الشيخ على عبدالرازق ـ عليه رحمة الله.

د. محمد عمارة

تفسير سورة النساء

لفضيلة/ الأستاذ الدكتور
محمد سيد طنطاوى
رحمه الله

قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾

(الآية: ٧٧)

الاستفهام فى قوله ـ تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ للتعجيب من حال أولئك الذين كانوا يظهرون التشوق إلى القتال فلما فرض عليهم جبنوا عنه.

وقوله: ﴿ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ﴾: من الكف بمعنى الامتناع أى: امتنعوا عن مباشرة القتال إلى أن تؤمروا به.

والمعنى: ألم ينته علمك يا محمد أو ألم تنظر بعين الدهشة والغرابة إلى حال أولئك الذين كانوا يظهرون شدة الحماسة للقتال، فقيل لهم ﴿ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ﴾ أى: عن القتال لأنكم لم تؤمروا به بعد ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ فإن الصلاة تخلص النفس من أدران المآثم، وتجعلها تتجه إلى الله وحده ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ فإن الزكاة تطهر النفوس من الشح والبخل، وتربط بين الناس برباط المحبة والتعاون.

ثم بين ـ سبحانه ـ حالهم بعد أن فرض عليهم القتال فقال:

﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾

أى: فحين فرض عليهم القتال وأمروا بمباشرته بعد أن صارت للمسلمين دولة بالمدينة، حين حدث ذلك، إذا فريق منهم ـ وهم الذين قل إيمانهم، وضعف يقينهم، وارتابت قلوبهم ـ ﴿ يَخْشَوْنَ النَّاسَ ﴾ أى يخافونهم خوفا شديدا:

﴿ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾

أى: يخافون من الكفار أن يقتلوهم كما يخافون من الله أن ينزل بهم بأسه، أو أشد من ذلك.

فالمراد بالناس فى قوله: ﴿ يَخْشَوْنَ النَّاسَ ﴾ أولئك الأعداء الذين كتب الله على المؤمنين قتالهم.

وعبر عن هؤلاء الأعداء بقوله ﴿ النَّاسَ ﴾ زيادة فى توبيخ أولئك الذين خافوا منهم هذا الخوف الشديد، لأنهم لو كانوا مؤمنين حقا، لاستقبلوا ما فرضه الله عليهم بالسمع والطاعة، ولما خافوا هذا الخوف الشديد من أناس مثلهم.

وقوله ﴿ كَخَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ مفعول مطلق، أى يخشونهم خشية كخشية الله.

وهو بيان لشدة خوفهم وهلعهم، ولفساد تفكيرهم، حيث جعلوا خشيتهم للناس فى مقابل خشيتهم لله، الذى يجب أن تكون خشيته ـ سبحانه ـ فوق كل خشية.

وقوله ﴿ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ معطوف على ما قبله. وأشد حال من خشية لأن نعت النكرة إذا تقدم عليها أعرب حالا.

وفى هذه الجملة الكريمة زيادة فى توبيخهم وذمهم، وترق فى توضيح حالتهم القبيحة، لأنه إذا كان من المقرر أنه لا يجوز للعاقل أن يجعل خشيته للناس كخشيته لله، فمن باب أولى لا يجوز له أن يجعل خشيته للناس أشد من خشيته لله ـ تعالى ـ.

قال الفخر الرازى ما ملخصه: فإن قيل: ظاهر ﴿ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ يوهم الشك. وذلك على علام الغيوب محال. أجيب بأن ﴿ أَوْ ﴾ بمعنى بل. أو هى للتنويع. على معنى أن خشية بعضهم كخشية الله وخشية بعضهم أشد منها أو هى للإبهام على السامع. على معنى أنهم على إحدى الصفتين من المساواة والشدة، وهى قريب مما فى قوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾

يعنى أن من يبصرهم يقول: أنهم مائة ألف

أو يزيدون (١) .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله أولئك الضعفاء عندما فرض عليهم القتال فقال :

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾

أى : أن هؤلاء الضعفاء لم يكتفوا بما اعتراهم من فزع وجزع عندما كتب عليهم القتال وإنما أضافوا إلى ذلك أنهم قالوا على سبيل الضجر والألم : يا ربنا لم كتبت علينا القتال فى هذا الوقت :

﴿ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾

أى : هلا عافيتنا وتركتنا حتى نموت موتة لا قتال معها عند حضور آجالنا ، دون أن نتعرض لهذا التكليف الثقيل المخيف .

وهكذا يصور القرآن تخبط هؤلاء الضعفاء أكمل تصوير . إنهم قبل أن يفرض القتال يظهرون التحمس له ، والتشوق لخوض معامعه ، فإذا ما فرض عليهم القتال فزعوا وارتعدوا وقالوا ما قالوا من ضلال بضيق وهلع .

ويبدو أن هذه طبيعة أكثر المتهورين فى كل وقت ، إنهم قبل أن يجد الجد أشد الناس حماسة للقاء الأعداء ، فإذا ما جد الجد ووقعت الواقعة كانوا أول الفارين ، وأول الناكصين على أعقابهم .

وذلك لأن الشجعان العقلاء لا يتمنون لقاء الأعداء ، ولا ينشئون القتال إنشاء ، وإنما يقدرون الأمور حق قدرها ، ويضعون الأشياء فى مواضعها ، فإذا ما اقتضت الضرورة خوض معركة من المعارك ثبتوا ثبات الأبطال .

أما المندفعون بدون إيمان يدفعهم ، أو عقل يرشدهم ، فإنهم لعدم تقديرهم للأمور يكونون فى ساعة الشدة أول الناس جزعا ونكولا وانهيارا .

ولكن من هؤلاء الذين تحدثت عنهم الآية الكريمة ووصفتهم بأنهم حين كتب عليهم القتال :

﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾

إن الذى يراجع أقوال المفسرين يرى أن بعضهم يميل إلى أن الآية الكريمة فى شأن المؤمنين ، ويرى أن بعضهم يرجح أنها فى شأن المنافقين ، وقد لخص الإمام الرازى هذه الأقوال تلخيصا حسنا فقال :

« هذه الآية صفة للمؤمنين أو المنافقين ؟ فيه قولان :

الأول : أن الآية نزلت فى المؤمنين . قال الكلبى : نزلت فى عبدالرحمن بن عوف ، والمقداد ، وقدامة بن مظعون ، وسعد بن أبى وقاص . كانوا مع النبى ﷺ قبل أن يهاجروا إلى المدينة ، ويلقون من المشركين أذى شديدا ، فيشكون ذلك إلى النبى ﷺ ويقولون : ائذن لنا فى قتالهم ويقول لهم الرسول ﷺ كفوا أيديكم

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١ ص١١٦

فإنى لم أومر بقتالهم ، واشتغلوا بإقامة دينكم من الصلاة والزكاة ، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة كرهه بعضهم فأنزل الله هذه الآية .

ثم قال : واحتج الذاهبون إلى هذا القول بأن الذين يحتاج الرسول أن يقول لهم : كفوا عن القتال هم الراغبون فى القتال ، والراغبون فى القتال هم المؤمنون . فدل هذا على أن الآية فى حق المؤمنين . . وأن كراهتهم للقتال إنما هى بمقتضى الجبلة البشرية . . وقولهم :

﴿ لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ ﴾

محمول على التمنى فى التخفيف للتكليف لا على وجه الإنكار لإيجاب الله تعالى .

ثم قال : والقول الثانى : أن الآية نازلة فى حق المنافقين . واحتج الذاهبون إلى هذا القول بأن الآية مشتملة على أمور تدل على أنها مختصة بالمنافقين ، لأن الله وصفهم بأنهم :

﴿ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾

ومعلوم أن هذا الوصف لا يليق إلا بالمنافق ، لأن المؤمن لا يجوز أن يكون خوفه من الناس أزيد من خوفه من الله - تعالى - ولأنه - سبحانه - حكى عنهم أنهم قالوا : ربنا لما كتبت علينا القتال ، والاعتراض على الله ليس إلا من صفة الكفار أو المنافقين ، ولأن الله قال للرسول :

﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ ﴾

وهذا الكلام يذكر مع من كانت رغبته فى الدنيا أكثر من رغبته فى الآخرة ، وذلك من صفات المنافقين .

ثم قال : والأولى حمل الآية على المنافقين لأنه - سبحانه - ذكر بعد هذه الآية قوله :

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ﴾

ولا شك أن هذا من كلام المنافقين ، فإذا كانت هذه الآية معطوفة على الآية التى نحن فى تفسيرها ثم المعطوف فى المنافقين ، وجب أن يكون المعطوف عليهم فيهم أيضا (٢) .

ونحن نوافق الإمام الرازى فيما ذهب إليه من أن حمل الآية الكريمة على أنها فى المنافقين هو الأولى للأسباب التى ذكرها .

ونضيف إلى ما ذكره الإمام الرازى أن المتأمل فى سياق الآيات السابقة واللاحقة يراها واضحة فى شأن المنافقين ، ومن هم على شاكلتهم من ضعاف الإيمان ، الذين أدى بهم ضعف نفوسهم ، وحبهم للدنيا إلى كراهة القتال ، والخوف من تكاليفه .

فأنت إذا قرأت الآيات التى قبل هذه الآية تراها تتحدث عن إرادة تحاكمهم إلى الطاغوت مع زعمهم الإيمان بما أنزل إلى الرسول ﷺ وبما أنزل على الرسل من قبله . وتراها تتحدث عن تباطئهم عن القتال وفرحهم لنجاتهم من مخاطره .

ثم إذا قرأت الآيات التى تأتى بعد هذه الآية تراها تتحدث عن نسبتهم الحسنة إلى الله ، ونسبتهم السيئة إلى رسوله ﷺ وعن إذاعتهم

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١٠ ص١٨٥ - بتصرف وتلخيص

لأسرار المؤمنين.. إلخ. فثبت أن الآية الكريمة تتحدث عن صفات المنافقين، وعمن هم قريبو الشبه بهم من ضعاف الإيمان الذين أخلدوا إلى الراحة، وآثروا القعود في بيوتهم على القتال من أجل إعلاء كلمة الله، ودفع الظلم عن المظلومين.

ونضيف أيضاً أن القول الأول - الذي ذكره الإمام الرازي وهو أن الآية نزلت في المؤمنين - غير صحيح لأسباب من أهمها:

١ - أن الرواية التي ذكرها الإمام الرازي نقلا عن الكلبي وهي أن الآية نزلت في عبدالرحمن بن عوف والمقداد وقدامة بن مظعون.. إلخ هذه الرواية يبدو عليها الضعف، لأنها لم ترد في كتب الحديث الموثوق بها، ولأن الكلبي نفسه قد عرف عنه عدم التثبت في النقل.

ولقد علق الإمام الشيخ محمد عبده على هذه الرواية بقوله:

إنني أجزم ببطلان هذه الرواية مهما كان سندها، لأني أبرئ السابقين الأولين كسعد وعبدالرحمن مما رموا به. وهذه الآية متصلة بما قبلها، فإن الله - تعالى - أمر بأخذ الحذر والاستعداد للقتال، والنفر له، وذكر حال المبطئين لضعف قلوبهم. وبعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة أمر الإسلام اتباعه بالسلم وتهذيب النفوس بالعبادة والكف عن الاعتداء والقتال.. إلى أن اشتدت الحاجة إليه ففرضه الله عليهم فكرهه الضعفاء منهم»

٢ - أن المؤمنين لم يعهد عنهم ما ذكرت الآية من خوف من القتال، ومن تمن لعدم حضوره، وإنما المعهود عنهم أنهم كانوا يبادرون إليه كلما اقتضت الضرورة ذلك ويتسابقون لخوض ساحته دفاعا عن دينهم، وانتصارا ممن بغى عليهم.

ولقد قال المقداد بن عمرو للرسول ﷺ في غزوة بدر: «يا رسول الله، امض لما أمرك الله فنحن معك. والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون. ولكن نقول لك اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون. فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه».

إلى غير ذلك من الأقوال والمواقف التي تدل على شجاعتهم وقوة إيمانهم.

ولقد رجح الإمام القرطبي عند تفسيره للآية الكريمة أنها في المنافقين فقال: قال مجاهد: هي في اليهود. وقال الحسن: هي في المؤمنين لقوله ﴿ يَخْشَوْنَ النَّاسَ ﴾ أي مشركي مكة ﴿ كَخَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ فهي على ما طبع عليه البشر من المخافة لا على المخالفة، وقال السدي: هم قوم أسلموا قبل فرض القتال فلما فرض كرهوه. وقيل: هو وصف للمنافقين. والمعنى: يخشون القتل من المشركين كما يخشون الموت من الله «أو أشد خشية» أي عندهم وفي اعتقادهم.

ثم قال: قلت وهذا أشبه بسياق الآية لقوله:

﴿ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾

ومعاذ الله أن يصدر هذا القول من صحابي كريم، يعلم أن الآجال محدودة، والأرزاق مقسومة، بل كانوا لأوامر الله ممتثلين سامعين طائعين، يرون الوصول إلى الدار الآجلة خيرا من المقام في الدار العاجلة. على ما هو المعروف من سيرتهم - رضي الله عنهم - اللهم إلا أن يكون قائله ممن لم يرسخ في الإيمان قدمه، ولا انشرح بالإسلام جنانه، فإن أهل الإيمان متفاضلون فمنهم الكامل ومنهم الناقص، وهو الذي تنفر نفسه عما تؤمر به فيما تلحقه فيه المشقة وتدركه فيه الشدة»

والخلاصة: أن الذي تطمئن إليه نفوسنا أن الآية الكريمة تحكي ما كان عليه المنافقون وضعاف الإيمان، من بعد عن طاعة الله، ومن جبن في النفوس ومن حب للحياة الدنيا وزينتها.

وأن المؤمنين بعيدون كل البعد عما اشتملت عليه الآية الكريمة من صفات وأحوال، لأن ما عرف عنهم من إيمان وإقدام ينأى بهم عن أن يكونوا ممن قال الله فيهم:

﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾

وعن أن يقولوا:

﴿ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾

هذا، وقوله - تعالى:

﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾

رد على التصرفات الذميمة، والأقوال الفاسدة التي صدرت عن المنافقين وضعاف الإيمان! وإرشاد من الله - تعالى - لعباده إلى أن متاع الحياة الدنيا قليل بالنسبة لما اشتملت عليه الآخرة من نعيم للمؤمنين الصادقين.

والمتاع: اسم لما يتمتع به الإنسان في هذه الحياة من مال وغيره.

والفتيل: هو الخيط الدقيق الذي يكون في شق نواة التمرة. ويضرب به المثل في القلة والتفاهة.

والمعنى: قل - يا محمد - لهؤلاء الذين يخشون لقاء الأعداء، ويفزعون من القتال طمعا في التمتع بزينة الحياة الدنيا، قل لهم: إن منافع الدنيا ولذاتها قليلة مهما كبرت في أعينكم، لأنها زائلة فانية، أما الآخرة بما فيها من نعيم دائم فهي خير ثوابا، وأعظم أجرا لمن اتقى الله، وجاهد في سبيله. وإذا كان الأمر كذلك فاجعلوا خشيتكم من الله وحده، وبادروا إلى الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، لكي تنالوا الثواب الجزيل من الله دون أن يذهب من ثوابكم شيئا مهما كان هذا الشيء ضئيلا أو قليلا، ودون أن ينقص من أعماركم شيئا، لأن الجبن لا يؤخر الحياة كما أن الإقدام لا ينقص شيئا منها.

(٣) تفسير المنار جـ٥ ص٢٦٣

(٤) تفسير القرطبي جـ٥ ص٢٨١

أقسام السنة النبوية عند الإمام القرافى

(٦٨٤هـ/١٢٨٥م)

الإمام القرافى

● التعريف به:

● هو : أبوالعباس، أحمد بن إدريس بن عبدالرحمن - شهاب الدين، الصنهاجي، القرافي.

● من كبار علماء المالكية في الفقه.. والأصول.. والقواعد الشرعية.. والمبدع في «فن الفروق» الدقيقة بين معاني المصطلحات.. والمشارك في العقليات.. والرياضيات.. ومقارنة الأديان.

● صنهاجي، لانحداره من قبيلة صنهاجة - من أمازيغ المغرب.

● ولد ونشأ وعاش وتوفى بمصر.. واشتهر بالقرافى، لأن سكناه كان بحى القرافة - المجاور لضريح الإمام الشافعى، بالقاهرة.

● ولقد مثل القرافى بداية النهضة والازدهار للفقه المالكي، بعد مرحلة من التراجع والجمود.

● ومن آثاره الفكرية:

١ - (أنوار البروق في أنواء الفروق) أربعة أجزاء.

٢ - (الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام) وهو الذى عرض فيه لأقسام السنة النبوية.. فكان أحكم ما كتب في هذا الفن بتراثنا الأصولي.

٣ - (الذخيرة) - في الفقه المالكي - ستة مجلدات.

٤ - (اليواقيت في أحكام المواقيت).

٥ - (تنقيح الفصول في علم الأصول).

٦ - (شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول).

٧ - (نفائس الأصول في شرح المحصول).

٨ - (كتاب شرح الأربعين في أصول الدين للفخر الرازى).

٩ - (كتاب الانتقاد في الاعتقاد)

١٠ - (الأمنية في إدراك النية).

١١ - (البيان في تعليق الإيمان).

١٢ - (العقد المنظوم في الخصوص والعموم).

١٣ - (كتاب الاستغناء في أحكام الاستثناء).

١٤ - (شرح التهذيب).

١٥ - (شرح الجلاب).

١٦ - (الاحتمالات المرجوحة).

١٧ - (التعليقات على المنتخب).

١٨ - (الاستبصار في مدركات الأبصار).

١٩ - (كتاب المناظرة في الرياضيات).

٢٠ - (الأجوبة على الأسئلة الواردة على خطب ابن نباته).

٢١ - (البارز للكفاح في الميدان).

٢٢ - (المنجيات والموبقات فيما يجوز وما يكره وما يحرم من الدعوات).

٢٣ - (الخصائص) - في قواعد العربية.

٢٤ - (الأجوبة الفاخرة في الرد على الأسئلة الفاجرة) - في الرد على اليهود والنصارى.

٢٥ - (أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية).

● ولقد أخذ القرافى العلوم والفنون عن أبرز أعلام عصره.. لكنه لازم إمام العصر الشيخ العز بن عبدالسلام (٥٧٧ - ٦٦٠هـ/ ١١٨١ - ١٢٦٢ م) حتى أصبح خليفته في العلم وقيادة حركة الإصلاح.

● وتميز بمشاركات في الفنون تفرد فيها.. ويذكر العلامة أحمد تيمور باشا (١٢٨٨ - ١٣٤٨هـ/ ١٨٧١ - ١٩٣٠م) في كتابه (التصوير عند العرب)(ص٧٩، ١٠٤) قول القرافي في «شرح المحصول»:

بلغني أن الملك الكامل (٦١٥ - ٦٣٥هـ/ ١٢١٨ - ١٢٣٨م) وضع له شمعدان - هو عمود طويل من نحاس له مراكز يوضع عليها الشمع للإنارة - كلما مضى من الليل ساعة انفتح باب فيه، وخرج منه شخص يقف في خدمة الملك، فإذا انقضت عشر ساعات طلع الشخص على أعلى الشمعدان وأصبعه في أذنه، وقال: صبّح الله السلطان بالسعادة، فيعلم أن الفجر قد طلع.

قال: وعلمتُ أن هذا الشمعدان، وزدت فيه أن الشمعة يتغير لونها في كل ساعة، وفيه أسد تتغير عيناه من السواد الشديد إلى البياض الشديد إلى الحمرة الشديدة، في كل ساعة لها لون، فإذا طلع شخص على أعلى الشمعدان، وأصبعه في أذنه يشير إلى الأذان.

غير أني عجزت عن صنعة الكلام!

وهكذا كان القرافي إماما متفردا في علوم الدين والدنيا.. حتى ما كان منها غريبا عن اهتمامات علماء الدين(١).

(١) انظر مقدمة العلامة المحقق الشيخ عبدالفتاح ابوغدة لتحقيق كتاب القرافي (الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام)(ص٣ - ١٦) طبعة مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب سنة (١٣٨٧هـ/١٩٦٧م). و: عبدالله إبراهيم صلاح (الإمام شهاب الدين القرافي وأثره في الفقه الإسلامي) طبعة مركز دراسات العالم الإسلامي - مالطا سنة (١٩٩١م). والزركلي (الأعلام) طبعة بيروت.

الفروق بين تصرفات الرسول

سؤال (*): ما الفرق بين تصرف رسول الله ﷺ بالفتيا والتبليغ، وبين تصرفه بالقضاء، وبين تصرفه بالإمامة؟ وهل آثار هذه التصرفات مختلفة في الشريعة والأحكام أو الجميع سواء في ذلك؟ وهل بين الرسالة وهذه الأمور الثلاثة فرق أو الرسالة عين الفتيا؟ وإذا قلتم: إنها عين الفتيا أو غيرها فهل النبوة كذلك أو بينها وبين الرسالة فرق في ذلك؟ فهذه مقامات جليلة، وحقائق عظيمة شريفة، يتعين بيانها وكشفها والعناية بها، فإن العلم يشرف بشرف المعلوم.

جوابه

إن تصرف رسول الله ﷺ بالفتيا هو إخباره عن الله تعالى بما يجده في الأدلة من حكم الله - تبارك وتعالى - كما قلناه في غيره ﷺ من المفتين.

وتصرفه ﷺ بالتبليغ هو مقتضى الرسالة، والرسالة: هي أمر الله تعالى له بذلك التبليغ

فهو ﷺ ينقل عن الحق للخلق في مقام الرسالة: ما وصل إليه عن الله تعالى.

فهو في هذا المقام مبلغ وناقل عن الله تعالى، وورث عنه ﷺ هذا المقام المحدثون رواة الأحاديث النبوية وحملة الكتاب العزيز لتعليمه للناس، كما ورث المفتي عنه ﷺ الفتيا وكما ظهر يكون الفرق لنا بين المفتي والراوي فكذلك يكون الفرق بين تبليغه ﷺ عن ربه وبين فتياه في الدين. والفرق هو الفرق بعينه، فلا يلزم من الفتيا: الرواية، ولا من الرواية: الفتيا، من حيث هما رواية وفتيا.

وأما تصرفه ﷺ بالحكم فهو مغاير للرسالة والفتيا؛ لأن الفتيا والرسالة تبليغ محض واتباع صرف، والحكم إنشاء وإلزام من قبله ﷺ بحسب ما يسنح من الأسباب والحجاج، ولذلك قال ﷺ: «إنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض؟ فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه، إنما أقتطع له قطعة من النار»(٢) دل ذلك على أن القضاء يتبع الحجاج وقوة اللّحن بها.

فهو ﷺ في المقام منشئ، وفي الفتيا والرسالة متّبع، مبلّغ.

(*) (الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام) (ص٨٦: ١٠٩) بتحقيق وتعليق: العلامة المرحوم الشيخ عبدالفتاح أبوغدة. طبعة حلب سنة (١٩٦٧م).

(٢) رواه البخاري في مواضع من «صحيحه» عن أم سلمة زوج النبي ﷺ، في كتاب (المظالم) في باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه (٥/٧٧) بشرح «فتح الباري» وفي كتاب (الشهادات) في باب من أقام البينة بعد اليمين (٥/٢٨٣)، وفي كتاب (الحيل) في باب إذا غصب جارية فزعم أنها ماتت (١٢/٣٩٩) وغيرها.

وهو في الحكم أيضا متّبع لأمر الله تعالى له بأن ينشئ الأحكام على وفق الحجاج والأسباب، لا أنه متّبع في نقل ذلك الحكم عن الله تعالى؛ لأن ما فوّض إليه من الله تعالى لا يكون منقولا عن الله تعالى.

ثم الفرق من وجه آخر بين الحكم والفتيا: أن الفتيا تقبل النسخ، والحكم لا يقبله، بل يقبل النقض عند ظهور بطلان ما رتب عليه الحكم، والفتيا لا تقبله، فصار من خصائص الحكم: النقض، ومن خصائص الفتيا: النسخ. وهذا في فتياه عليه السلام خاصّة ومن كان في زمانه. وأما الفتيا بعد وفاته ﷺ فلا تقبل النسخ لتقرر الشريعة. فهذا أيضا فرقٌ حسن بين القضاء والفتيا من حيث الجملة في جنسيهما، غير أنه لا يتقرر في كل فرد من أفراد الفتيا، ومتى ثبت الفرق بين الجنسين حصل الفرق بين الحقيقتين فلا لبس.

وأما الرسالة من حيث هي رسالة فقد لا تقبل النسخ، بأن تكون خبرا صرفا، فإنه يقبل التخصيص دون النسخ على الصحيح من أقوال العلماء، وقد تقبله إن كانت متضمنة لحكم شرعي، فصارت الرسالة أعمّ من الفتيا ومباينة لها. فظهرت الفروق بين الرسالة والفتيا والحكم.

وأما النبوة فكثيرٌ من الناس يعتقد أنها عبارة عن مجرد الوحي من الله تعالى للنبي، وليس كذلك، بل قد يحصل الوحي من الله تعالى لبعض الخلق من غير نبوة، كما كان الوحي يأتي مريم ابنة عمران رضي الله عنها في قصة عيسى عليه السلام، وقال لها جبريل عليه السلام:

«إنما أنا رسول ربك ليهب لك غلاما زكيا»(٣)

(مريم: ١٩)

وقال في موضع آخر:

«إن الله يبشرك»

(آل عمران: ٤٥)

مع أن مريم رضي الله عنها ليست نبية على الصحيح.

وفي «مسلم»: «إن الله تعالى بعث ملكا لرجل على مدرجته، وكان خرج لزيارة أخ له في الله تعالى، وقال له: إن الله تعالى يعلمك أنه يحبك لحبك لأخيك في الله تعالى (الحديث بطوله)».

(٣) هذه قراءة نافع.

(٤) ولفظه في «صحيح مسلم» في كتاب (البر والصلة والآداب) في باب فضل الحب في الله تعالى (١٦/١٢٤) عن أبي هريرة عن النبي: «أن رجلا زار أخا له في قرية أخرى، فأرصد - أي أقعد - الله له على مدرجته - أي طريقه - ملكاً، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربُّها - أي تقوم بإصلاحها وتنهض إليه بسببها -؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله - عز وجل - قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه».

وليس ذلك نبوة.

ولو بعث الله تعالى لأحدنا ملكاً يخبره بمذهب مالك في واقعة معينة أو بضالة ذهبت له لم يكن ذلك نبوة. وإنما النبوة - كما قال العلماء الربانيون - أن يوحي الله تعالى لبعض خلقه بحكم أنشئ له يختص به، كما أوحى الله تعالى لنبيه محمد ﷺ:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾

(العلق: ١، ٢)

فهذا تكليف يختص به في هذا الوقت قال العلماء: فهذه نبوةٌ وليست رسالة، فلما أنزل الله تعالى عليه:

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾

(المدثر: ١، ٢)

كان هذا رسالة، لأنه تكليفٌ يتعلق بغير الموحى إليه، فتقدمت نبوة رسول الله ﷺ على رسالته بمدة.

ولذلك قال العلماء: كلُّ رسول نبي، وليس كلُّ نبي رسولاً؛ لأن كلَّ رسول كلف تكليفاً خاصاً به وهو تبليغ ما أوحى إليه. فظهر الفرق بين النبوة وبين الرسالة والفتيا والحكم.

وأما تصرفه ﷺ بالإمامة فهو وصف زائد على النبوة والرسالة والفتيا والقضاء؛ لأن الإمام هو الذي فوضت إليه السياسة العامة في الخلائق، وضبط معاقد المصالح، ودرء المفاسد، وقمع الجناة، وقتل الطغاة، وتوطين العباد في البلاد، إلى غير ذلك مما هو من هذا الجنس.

وهذا ليس داخلا في مفهوم الفتيا ولا الحكم ولا الرسالة ولا النبوة، لتحقق الفتيا بمجرد الإخبار عن حكم الله تعالى بمقتضى الأدلة، وتحقق الحكم بالتصدى لفصل الخصومات دون السياسة العامة، لا سيما الحاكم الذى لا قدرة له على التنفيذ كالحاكم الضعيف القدرة على الملوك الجبابرة، بل ينشئ في نفسه الإلزام على ذلك الملك العظيم، ولا يخطر له السعي في تنفيذه لتعذر ذلك عليه، بل الحاكم من حيث هو حاكم: ليس له إلا الإنشاء، وأما قوة التنفيذ فأمرٌ زائد على كونه حاكماً، فقد يفوض إليه التنفيذ، وقد لا يندرج فيه ولايته(٥)، فصارت السلطنة العامة التي هي حقيقة الإمامة مباينة للحكم من حيث هو حكم.

أما إمام لم تفوض إليه السياسة العامة فغير معقول إلا على سبيل إطلاق الإمامة عليه مجازا، والكلام إنما هو في الحقائق.

وأما الرسالة فليس يدخل فيها إلا مجرد التبليغ عن الله تعالى، وهذا المعنى لا يستلزم أنه فوض إليه السياسة العامة، فكم من رسل لله تعالى على وجه الدهر قد بعثوا بالرسائل الربانية، ولم يطلب منهم غير التبليغ لإقامة الحجة على الخلق من غير أن يؤمروا بالنظر في المصالح العامة.

وإذا ظهر الفرق بين الإمامة والرسالة فأولى أن يظهر بينها وبين النبوة؛ لأنَّ النبوة خاصة بالموحى إليه لا تعلّق لها بالغير، فقد ظهر افتراق هذه الحقائق بخصائصها.

وأما آثار هذه الحقائق في الشريعة فمختلفة:

فما فعله عليه السلام بطريق الإمامة كقسمة الغنائم، وتفريق أموال بيت المال على المصالح، وإقامة الحدود، وترتيب الجيوش، وقتال البغاة، وتوزيع الإقطاعات ونحو ذلك: فلا يجوز لأحد الإقدام عليه إلا بإذن إمام الوقت الحاضر(٦)، لأنه ﷺ إنما فعله بطريق الإمامة، وما استبيح إلا بإذنه، فكان ذلك شرعاً مقرراً لقوله تعالى:

﴿ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

(الأعراف: ١٥٨)

وما فعله عليه الصلاة والسلام بطريق الحكم كالتمليك بالشفعة وفسوخ الأنكحة والعقود، والتطليق بالإعسار عند تعذّر الإنفاق والإيلاء والفيئة، ونحو ذلك: فلا يجوز لأحد أن يقدم عليه إلا بحكم الحاكم في الوقت الحاضر اقتداء به ﷺ لأنه عليه السلام لم يقرر تلك الأمور إلا بالحكم، فتكون أمته بعده ﷺ كذلك.

وأما تصرفه عليه الصلاة والسلام بالفتيا والرسالة والتبليغ فذلك شرع يتقرر على الخلائق إلى يوم الدين، يلزمنا أن نتبع كلَّ حكم مما بلغه إلينا عن ربه بسببه، من غير اعتبار حكم حاكم ولا إذن إمام؛ لأنه ﷺ مبلّغٌ لنا ارتباط ذلك الحكم بذلك السبب، وخلّى بين الخلائق وبين ربهم، ولم يكن منشئاً لحكم من قبله ولا مرتباً له برأيه على حسب ما اقتضته المصلحة بل لم يفعل إلا مجرد التبليغ عن ربه كالصلوات والزكوات وأنواع العبادات.

ثم تحصيل الأملاك بالعقود من البيعات والهبات وغير ذلك من أنواع التصرفات: لكلّ أحد أن يباشره ويحصّل سببه، ويترتب له حكمه من غير احتياج إلى حاكم ينشئ حكماً، أو إمام يجدد إذنا.

فإذا تقرر الفرق بين آثار تصرفه ﷺ بالإمامة والقضاء والفتيا: فاعلم أنَّ تصرفه عليه الصلاة والسلام ينقسم إلى أربعة أقسام:

قسمٌ: اتفق العلماء على أنه تصرفٌ بالإمامة: كالإقطاع، وإقامة الحدود،

(٥) هذه العبارة من قوله في هذا القطع: (لاسيما الحاكم...) إلى هنا منقول بتصرف يسير في «تبصرة الحكام» لابن فرحون (١٢/٦، ١٣).

(٦) هذه العبارة من قوله في أول هذا القطع: (كقسمة الغنائم...) إلى هنا منقول بتصرف يسير في «تبصرة الحكام» لابن فرحون (١٢/٦، ١٣).

وإرسال الجيوش ونحوها.

قسمٌ: اتفق العلماء على أنه تصرفٌ بالقضاء؛ كإلزام أداء الديون، وتسليم السلع، ونقد الأثمان، وفسخ الأنكحة ونحو ذلك.

وقسمٌ: اتفق العلماء على أنه تصرف بالفتيا؛ كإبلاغ الصلوات، وإقامتها، وإقامة المناسك ونحوها.

وقسمٌ: وقع منه ﷺ متردداً بين هذه الأقسام؛ اختلف العلماء فيه على أيها يحمل؟ وفيه مسائل:

المسألة الأولى

قوله ﷺ «من أحيا أرضاً ميتة فهي له»(٨).

قال أبو حنيفة: هذا منه ﷺ تصرُّفٌ بالإمامة، فلا يجوز لأحد أن يحيى أرضاً إلا بإذن الإمام؛ لأن فيه تمليكاً، فأشبه الإقطاعات، والإقطاع يتوقف على إذن الإمام، فكذلك الإحياء.

وقال الشافعي ومالك: هذا من تصرُّفه ﷺ بالفتيا؛ لأنه الغالب من تصرُّفاته ﷺ، فإنَّ عامَّة تصرفاته التبليغ، فيحمل عليه تغليباً للغالب الذي هو وضع الرسل عليهم السلام، فعلى هذا: لا يتوقف الإحياء على إذن الإمام؛ لأنها فتيا بالإباحة كالاحتطاب والاحتشاش، بجامع تحصيل الأملاك بالأسباب الفعلية.

وأما قول مالك: ما قرب من العمران لابد فيه من إذن الإمام فليس لأنه تصرفٌ بطريق الإمامة، بل لقاعدة أخرى، وهي أنَّ إحياء ما قرب يحتاج إلى النظر في تحرير حريم البلد، فهو كتحرير الإعسار في فسخ النكاح، وكلُّ ما يحتاج لنظر وتحرير فلابد فيه من الحكّام.

المسألة الثانية

قوله عليه السلام لهند بنت عتبة لما شكت إليه أنَّ أبا سفيان رجلٌ شحيحٌ لا يعطيها وولدها ما يكفيها، قال لها عليه السلام: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»(٩).

قال جماعة من العلماء: هذا تصرف منه ﷺ بالفتيا؛ لأنه غالب أحواله عليه الصلاة والسلام، فعلى هذا: من ظفر بجنس حقِّه أو بغير جنسه مع تعذر أخذ الحق ممن هو عليه جاز له أخذه حتى يستوفي حقَّه.

ومشهور مذهب مالك ـ وقاله جماعة من العلماء ـ أنه لا يأخذ جنس حقِّه إذا ظفر به وإن تعذر عليه أخذ حقه ممن هو عليه واختلف في المُدْرَك للمنع: هل هو كونه ﷺ تصرُّف في قضية هند بالقضاء فلا يجوز لأحد أن يأخذ شيئاً من ذلك إلا

(٨) رواه بهذا اللفظ عن سعيد بن زيد رضي الله عنه أبوداود في «سننه» (٣/١٧٨)، والترمذي في «سننه» (٦/١٤٦).

(٩) رواه البخاري في مواضع من «صحيحه» عن عائشة رضي الله عنها (٤/٢٣٨، ٢٣٩)، (٩/٤٤٤).

بحكم حاكم؟ وهذه الطائفة من العلماء جعلت هذه القضية أصلاً في القضاء على الغائب. ومنهم من جعلها أصلاً في القضاء بالعلم، لأنها لم تقم بيِّنةٌ على دعواها، حكاه الخطَّابي وغيره(١٠).

وقيل: القضية ليس فيها إلا الفتيا؛ لأن أبا سفيان كان حاضراً في البلد، والقضاء لا يتأتى على حاضرٍ في البلد قبل إعلامه، بل هذا تصرفٌ بالفتيا(١١).

وعارض حديث قضية هند قوله ﷺ: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»(١٢). فاتفق الفريقان على الحكم، واختلفا في المُدْرَك.

المسألة الثالثة

قوله عليه الصلاة والسلام: «من قتل قتيلاً فله سلبه»(١٣).

قال مالك: هذا تصرفٌ من النبي ﷺ بالإمامة، فلا يجوز لأحد أن يختصَّ بسلب إلا بإذن الإمام في ذلك قبل الحرب، كما اتُّفق ذلك من رسول الله ﷺ.

وقال الشافعي: هذا تصرُّفٌ من رسول الله ﷺ على سبيل الفتيا، فيستحقُّ القاتل السَّلب بغير إذن الإمام؛ لأنَّ هذا من الأحكام التي تتبع أسبابها كسائر الفتاوى. واحتجَّ على ذلك بالقاعدة المتقدمة(١٤)، وهي أن الغالب على تصرُّفه ﷺ الفتيا، لأنَّ شأنه الرسالة والتبليغ.

وأما مالكٌ: فخالف أصلَه في القاعدة، وجعلَه من باب التصرُّف بالإمامة بخلاف المسألتين المتقدمتين، وسببه أمورٌ:

ـ أحدها: قوله تعالى:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ (الأنفال: ٤١)

فالآية تقتضي أنَّ السَّلب فيه الخُمْسُ لله

(١٠) أي حكوا هذا التفريع بقسميه، والذي حكاه الخطابي في «معالم السنن» (٤/١٦٢) هو تفريع القضاء على الغائب فقط ولم يتعرض لتفريع القضاء بعلم القاضي.

(١١) قال المؤلف في «الفروق» (١/٢٠٨): «وهذا هو ظاهر الحديث».

(١٢) جاء هذا الحديث عن عدد من الصحابة ـ فعن أبي هريرة رواه أبو داود في «سننه» (٣/٢٩٠) والترمذي في «سننه» (٥/٢٦٨) وقال: حديث حسن غريب، والدارمي في «سننه» (ص/٢٤٦)، والحاكم في «المستدرك على الصحيحين» (٢/٤٦)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(١٣) رواه أبو قتادة الأنصاري السُّلَمي فارس رسول الله ﷺ وقد قاله الرسول ﷺ في غزوة حنين. ورواه عنه البخاري في «صحيحه» (٦/١٧٧)، (٨/٢٩).

والسَّلَبُ: ما يوجد مع المحارب من ملبوس وسلاح وغيرهما.

(١٤) وتلك القاعدة هي: «أن الغالب من تصرفاته ﷺ ـ عند الشافعي ومالك ـ تصرُّف بالفتيا، فإنَّ عامَّة تصرفاته التبليغ، فيحمل عليه تغليباً للغالب الذي هو وضع الرسل عليهم الصلاة والسلام».

عـز وجل، وبقيّـتـه للغـانمين. والآيةُ متواترة، والحديثُ آحاد، والمتواتر مقدَّم على الآحاد (١٥).

ـ وثانيـهـا: أنَّ إباحة هذا تقتضي إلى فساد النيات، وأن يحمل الإنسانُ بنفسه على قرنه من الكفّار لما يرى عليه من السَّلَب، فربما قتله الكافرُ وهو غيرُ مُخلِص في قتاله، فيدخل النار! فتذهبُ النفس والدِّين! وهذه مزلّة عظيمة تقتضي أن يُترك لأجلها الحديث (١٦)؛ لأنَّ الأحاديثَ قد تترك للقواعد، لاسيما والحديثُ لم يُترك، وإنما حملناه على حالة وهو أن يُجعل من باب التصرف بالإمامة، فإذا قاله الإمام صحّ.

ـ وثالثها: الاستدلالُ على صَرْفه للتصرُّف بالإمامة. وذلك أنَّ هذا القول منه ﷺ يتبادرُ للذهن منه أنه إنما قـاله ﷺ لأنَّ تلك الحالة التي كانت تقتضي ذلك ترغيباً في القتال. فلذلك نقول: متى رأى الإمامُ ذلك مصلحة قاله، ومتى لا تكونُ المصلحة تقتضي ذلك لا يقولُه. ولا نعني بكونه تصرفاً بالإمامة إلا هذا القدر.

فهذه الوجوهُ هي الموجِبةُ لمخالفة مالك أصلَهُ في حَمْل تصرُّف رسول الله صلى الله على القُتيا حتى يثبت غيرُها؛ لأنها الغالب.

ونظائرُ هذه المسألة كثيرٌ في الشريعة، فتفقَّده تجده وتجد فيه علماً كثيراً ومَدركاً حسناً للمجتهدين.

تنبيه

لا يتوهَّم الفقيهُ أنَّ من هذه المسائل المختلَف فيها: ما وقع بين عمر بن الخطاب وأبي بكر الصديق رضي الله عنهمـا في سبايا بني حنيفة، فإن الصديق رضي الله عنه أباحهن سبياً، ثم لما ولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر بردِّهن لأهلهن، ولو كان الصديق رضي الله عنه حكم باسترقاق بني حنيفة صاروا ملكاً للمسلمين، فلا يجوز لعمر رضي الله عنه إتلافُه عليهم.

بل كان ذلك من الصديق رضي الله عنه على سبيل الفتوى، لا جرم جاز لعمر رضي الله عنه مخالفته؛ لأنها مسألةُ اجتهاد لم يحصُل فيها إجماع، ولم يتَّصل بها حُكم، فاعلَم ذلك فإنَّ كثيراً من الفقهاء يستشكلُ إطلاق عمر رضي الله عنه لبني حنيفة مع أنَّ الصديق استرقَّهم. ولولا تقريرُ هذه القواعد لعسُر في ظاهر الحال فهمُ ذلك، فإنَّ المتبادرَ إلى الفهم أنه مما حكَم به الصديق رضي الله عنه (١٧).

---

(١٥) علّق في حاشية مخطوطة الأحمدية هنا: الحديثُ خاص فيُخصّ به عموم الآية وإن كان خبرَ واحد.

(١٦) زاد المؤلف في «الفروق» (١/٢٠٦): «وسببُ مخالفة مالك لهذا الأصل أمورٌ: منها أنَّ ذلك ربما أفسد الإخلاص عند المجاهدين فيقاتلون لهذا السَّلَب دون نصر كلمة الإسلام، ومن ذلك أنه يؤدي إلى أن يُقبل على قتل من له سَلَبٌ دون غيره، فيقع التخاذل في الجيش، وربما كان قليلُ السَّلَب أشدَّ نكاية على المسلمين. فلأجل هذه الأسباب تَرَكَ هذا الأصل».

(١٧) لمزيد من التفصيل انظر د. محمد عمارة (حقائق وشبهات حول السنة النبوية) طبعة دار السلام القاهرة سنة ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

الدين

«بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان»



للأستاذ الدكتور/ محمد عبدالله دراز

المعنى اللغوي

الوضع المنطقي السليم في ترتيب أعمالنا العقلية يقتضينا حين نطلب تفسير حقيقة معينة أن نبدأ بمعرفة عناصرها العامة، ومقوماتها الكلية، قبل أن نأخذ في البحث عن مميزاتها ومشخصاتها.

فمن أحب أن يتعرف كُنه دين الإسلام، أو دين المسيحية، أو اليهودية، أو المجوسية، أو البوذية، أو الوثنية، أو غيرها من الأديان التي ظهرت في الوجود يجمل به أن يوفر همته قبل كل شيء على تعرف المعنى الكلي الذي يجمعها، والقدر المشترك الذي تنطوي عليه في جملتها، إذ أنه من الواضح أنه وإن تفاوتت الأديان في نفسها، أو في مصادرها، أو في أهدافها، أو في قيمها، فإنها كلها يجمعها اسم «الدين».. فلابد أن تكون هناك وحدة معنوية تنظمها، ويعبر عنها الاسم المشترك.

فما هي تلك الوحدة؟

ما الدين؟

هذا السؤال الأول الذي يجب أن نضعه نُصب أعيننا ونحن على عتبة باب البحث في تاريخ الأديان.

معاجمنا العربية:

قلة غنائها وسوء تأليفها

وللإجابة عن هذا السؤال لا غنى لنا عن الرجوع قبل كل شيء إلى معاجم اللغة العربية، لنستأنس بما دونه اللغويون فيها من وجوه الاستعمال لهذه المادة. نقول: لنستأنس بما في هذه المعاجم، ولا نقول لنجد فيها ضالتنا المنشودة. فكلنا نعرف مقدار الصعوبة التي يعانيها المزاولون لهذه المعاجم، ومبلغ إخفاقهم في استنباط

المعانى المحددة من ثنايا تعريفاتها، وفرط ألمهم لهذا الحرمان.

لكنه إذا كان اليأس كما قيل إحدى الراحتين، فالذى يريح بالنا من ناحية هذه الكتب هو أن نبدأ بتحديد مطامحنا منها، فلا نطلب منها أكثر من طبيعتها ولا نكلفها شيئاً هو وراء أهدافها. ولعله ليس أطيب لقلب الباحث فى هذه المعاجم من أن يوطن نفسه بادئ ذى بدء على أنها إنما وضعت لضبط الألفاظ، لا لتحديد المعانى، وأن مهمتها هى لتقويم اللسان، لا تثقيف الجنان، فإن شاء أن يتوسع فى حدود هذه المهمة شاع له أن يقول إنها وضعت أيضاً لسرد المترادفات والمتقابلات، وتقديمها لمن يفرض فيه أنه يعرف معنى كل مفرد على حدة.

حاول مثلاً أن تعرف نعت طير، أو حيلة حيوان، أو وصف نبات، أو موقع بلد، وافتح المعجم فى باب الاسم المطلوب ثم انظر ماذا ترى: «طائر معروف»، «حيوان معروف»، «نبات معروف»، «بلد معروف»، ذلك هو الجواب العتيد الذى تظفر به فى غالب الأمر، فهو تذكير للعارفين بالحقيقة التى يشير الاسم إليها، ومن لم يكن يعرف فلا سبيل له بذلك إلى أن يعرف.

أما إذا سمحت هذه المعاجم بأن تقدم لقرائها شيئاً من التعريف والتحديد، فإنها لا تبالى فى كثير من الأحيان أن تعرف الشىء بنفسه. أو بأنه غير ضده.. هكذا «البلاغ» ما يتبلغ به و«الدواء» ما يتداوى به و«الدين» ما يدان به.. أو يقال لك: إن الدين هو الملة فإذا رجعت إلى كلمة الملة فى بابها قيل لك: إنها هى الدين. وكذلك يقال لك فى شرح لفظ «الحلال» إنه ضد الحرام، وفى تعريف «الحرام» إنه ضد الحلال وهكذا.

دع ما وراء ذلك من سوء الترتيب. وكثرة الخلط والإعادة، وعدم رد كل طائفة من المعانى المتشابهة إلى أصل واحد يجمعها. على أن هذه الناحية الأخيرة ربما كانت أهون وجوه النقص. وأقلها استعصاء على الإصلاح:

أقرب مثال لهذا الحشد والخلط والغثاء المتراكب تجده فى المادة التى نحن بصددها. فالذى يرجع فيها إلى القاموس المحيط، أو إلى لسان العرب، أو غيرهما يظل فى بيداء، ويخيل إليه أن هذه الكلمة الواحدة يصح أن تستعمل فيما شئت من المعانى المتباعدة، بل المتناقضة: فالدين هو الملك، وهو الخدمة. هو العز، وهو الذل، هو الإكراه، وهو الإحسان، وهو العادة، وهو العبادة، هو القهر والسلطان، وهو التذلل والخضوع، وهو الطاعة، وهو المعصية، هو الإسلام والتوحيد، وهو اسم لكل ما يعتقد، أو لكل ما يتعبد الله به... إلخ.

محاولة رد أشتات المعانى إلى معنى واحد

نحن إذاً بحاجة إلى التشمير عن ساعد الجد، للوصول إلى لب الحقيقة من وراء هذه القشرة، ولالتماس شىء من الوحدة فى ثنايا هذه الكثرة.

والواقع أننا إذا نظرنا فى اشتقاق هذه الكلمة ووجوه تصريفها نرى من وراء هذا الاختلاف الظاهر تقارباً شديداً، بل صلة تامة فى جوهر المعنى، إذ نجد أن هذه المعانى الكثيرة تعود فى نهاية الأمر إلى ثلاثة معان تكاد تكون متلازمة بل نجد أن التفاوت اليسير بين هذه المعانى الثلاثة مرده فى الحقيقة إلى أن الكلمة التى يراد شرحها ليست كلمة واحدة، بل ثلاث كلمات، أو بعبارة أدق أنها تتضمن ثلاثة أفعال بالتناوب.

بيانه أن كلمة «الدين» تؤخذ تارة من فعل متعد بنفسه: «دانه يدينه»، وتارة من فعل متعد باللام: «دان له» وتارة من فعل متعد بالباء: «دان به» وباختلاف الاشتقاق تختلف الصورة المعنوية التى تعطيها الصيغة.

المعنى العرفى

نماذج من التعريفات

١ ـ فإذا قلنا: «دانه ديناً» عنينا بذلك أنه ملكه، وحكمه وساسه، ودبره، وقهره، وحاسبه، وقضى فى شأنه، وجازاه وكافأه. فالدين فى هذا الاستعمال يدور على معنى الملك والتصرف بما هو من شأن الملوك من السياسة والتدبير، والحكم والقهر، والمحاسبة والمجازاة، ومن ذلك:

﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (الفاتحة: ٤)

أى يوم المحاسبة والجزاء وفى الحديث: «الكيس من دان نفسه»(١) أى حكمها وضبطها. و«الديّان» الحكم القاضى.

٢ ـ وإذا قلنا: «دان له» أردنا أنه أطاعه. وخضع له. فالدين هنا هو الخضوع والطاعة. والعبادة والورع وكلمة «الدين لله» يصح أن منها كلا المعنيين الحكم لله. أو الخضوع لله.

وواضح أن هذا المعنى الثانى ملازم للأول ومطاوع له «دانه فدان له» أى قهره على الطاعة فخضع وأطاع.

٣ ـ وإذا قلنا «دان بالشىء» كان معناه أنه اتخذه ديناً ومذهباً، أى اعتقده أو اعتاده أو تخلق به فالدين على هذا هو المذهب والطريقة التى يسير عليها المرء نظرياً أو عملياً فالمذهب العملى لكل امرئ هو عادته وسيرته، كما يقال «هذا دينى وديدنى» والمذهب النظرى عنده هو عقيدته ورأيه الذى يعتنقه ومن ذلك قولهم «دينت الرجل» أى وكلته إلى دينه ولم أعترض عليه فيما يراه سائغاً فى اعتقاده.

ولا يخفى أن هذا الاستعمال الثالث تابع أيضاً للاستعمالين قبله. لأن العادة أو العقيدة التى يدان بها لها من السلطان على صاحبها ما يجعله ينقاد لها، ويلتزم

(١) الترمذى عن شداد بن أوس كتاب صفة القيامة والرقائق والورع باب منه رقم ٢٣٨٣.

باتباعها.

وجملة القول فى هذه المعانى اللغوية أن كلمة الدين عند العرب تشير إلى علاقة بين طرفين يعظم أحدهما الآخر ويخضع له فإذا وصف بها الطرف الأول كانت خضوعاً وانقياداً، وإذا وصف بها الطرف الثانى كانت أمراً وسلطاناً، وحكماً وإلزاماً.. وإذا نظر بها إلى الرباط الجامع بين الطرفين كانت هى الدستور المنظم لتلك العلاقة أو المظهر الذى يعبر عنها.

ونستطيع الآن أن نقول إن المادة كلها تدور على معنى لزوم الانقياد فإن الاستعمال الأول، الدين هو إلزام الانقياد وفى الاستعمال الثانى هو التزام الانقياد وفى الاستعمال الثالث هو المبدأ الذى يلتزم الانقياد له.

ولا يخفى من جهة أخرى، أن معنى اللزوم هذا هو المحور الذى تدور عليه كلمة الدين بفتح الدال. والفرق بين الدين بالفتح والدين بالكسر(٢) هو أن أحدهما يتضمن فى الأصل إلزاماً مالياً، والآخر يقتضى إلزاماً أدبياً.. ونحن نعرف من سنن اللغة العربية فى تصاريفها أنها حين تريد التفرقة بين الحسيات والمعنويات من جنس واحد قد تكتفى بتغيير يسير فى شكل الكلمة مع إبقاء مادتها كما هى مثل: «العوج، والعوج» و«الخلق، والخُلق»، و«الرؤية، والرؤيا» و«الكِبر والكُبر».

وهكذا يظهر لنا جلياً أن هذه المادة بكل معانيها أصيلة فى اللغة العربية، وأن ما ظنه بعض المستشرقين(٣) من أنها دخيلة، معربة عن العبرية أو الفارسية فى كل استعمالاتها أو فى أكثرها بعيد كل البعد، ولعلها نزعة شعوبية تريد تجريد العرب من كل فضيلة، حتى فضيلة البيان التى هى أعز مفاخرهم.

ونعود إلى موضوعنا فنقول: إن الذى يعنينا من كل هذه الاستعمالات هو الاستعمالان الأخيران، وعلى الأخص الاستعمال الثالث. فكلمة الدين التى تستعمل فى تاريخ الأديان لها معنيان لا غير (أحدهما) هذه الحالة النفسية etat subjectif التى نسميها التدين religiosite «والآخر» تلك الحقيقة الخارجية التى يمكن الرجوع إليها فى العادات الخارجية fait odjectif أو الآثار الخالدة، أو الروايات المأثورة، ومعناها جملة المبادئ التى تدين بها أمة من الأمم، اعتقاداً أو doctrine religiouse عملاً. وهذا المعنى أكثر وأغلب.

بيد أن هذه التحليلات الاشتقاقية كلها إنما تكشف لنا عن جذر المعنى وأصله فى

(٢) فى شارح القاموس نقلاً عن العراقى إن الأصمعى نقل عن بعض العرب فرقاً طريفاً فقال: إنما فتح دال الدين لأن صاحبه يعلو الدين، وكسرت دال الدين لابتنائه على الخضوع، وضم دال الدنيا لابتنائها على الشدة.

(٣) انظر دائرة معارف الإسلام فى كلمة (Din).

اللغة، ولا تصور لنا حقيقته واضحة وافية، كما هى فى عرف الناس واصطلاحهم بل لا تزال المسافة منفرجة بين المعنى اللغوى، والمعنى العرفى، ذلك أنه ليس كل خضوع وانقياد يسمى فى العرف تديناً، فخضوع المغلوب للغالب، وطاعة الولد لوالده، وتعظيم المرءوس لرئيسه، كل أولئك قد يكون من معدن آخر غير معدن الدين، كما أنه ليس كل رأى ومذهب، ولا كل سيرة وخلق يسمى ديناً.

فما هى الخصائص والعناصر الجوهرية التى تميز الفكرة الدينية أو السلوك أو الشعور الدينى بوجه عام عن سواها؟

لا ريب أن تحديد هذه الخصائص تحديداً حقيقياً لا يتم إلا فى نهاية العلم، بعد استعراض جميع النحل ومقارنتها، واستنباط القدر المشترك بينها، ولكنه إذا تعذر علينا الآن، ونحن فى فاتحة البحث، أن نعرض الديانات أنفسها لنستخرج منها الحد الأدنى المشترك بينها، ففى وسعنا أن نعرض طائفة من التعريفات التى سبقنا بها العلماء سواء منها ما وضعه الإسلاميون لكلمة الدين، وما وضعه الغربيون للكلمة التى تقابلها، وهى كلمة Religion، وأن نقفى على هذا العرض بشىء من التحليل والنقد، لنتعرف إلى أى حد تنطبق هذه التعريفات على الديانات المعروفة.

أما الإسلاميون فقد اشتهر عندهم تعريف الدين بأنه «وضع إلهى سائق لذوى العقول السليمة باختيارهم إلى الصلاح فى الحال، والفلاح فى المآل» ويمكن تلخيصه بأن نقول: «وضع إلهى يرشد إلى الحق فى الاعتقادات، وإلى الخير فى السلوك والمعاملات».

وأما الغربيون فلهم فى ذلك تعبيرات شتى(٤) وهذه نماذج منها يقول سيرون، فى كتابه «عن القوانين»: «الدين هو الرباط الذى يصل الإنسان بالله»(٥).

ويقول كانت، فى كتابه «الدين فى حدود العقل»: «الدين هو الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلهية»(٦).

ويقول شلاير ماخر، فى «مقالات عن الديانة»: «قوام حقيقة الدين شعورنا بالحاجة والتبعية المطلقة»(٧).

ويقول الأب شاتل، فى كتاب «قانون الإنسانية»: «الدين هو مجموعة واجبات

(4) voir chachion, Evolution des idees Religieuse des Religions.

(5) La religion est le lien qui unit l'homme a Dieu (ciceron, de Legibus, Lxv

(6) La religion est le sentiment de nos devoirs en tant que fondes sur des commandements divins (kant, La Religion dans sles limites de la Raison, 4eme partie, 1ere section).

(7) L' essence de la religion consiste dans le sentiment de notre dependanc absolue (schlei macher, Discours sur la Religion, second Discours).

المخلوق نحو الخالق: واجبات الإنسان نحو الله، وواجباته نحو الجماعة، وواجباته نحو نفسه»(٨).

ويقول روبرت سبنسر، في خاتمة كتاب «المبادئ الأولية»: «الإيمان بقوة لا يمكن تصور نهايتها الزمانية ولا المكانية، هو العنصر الرئيسي في الدين»(٩).

ويقول تايلور، في كتاب «المدنيات البدائية»: الدين هو الإيمان بكائنات روحية»(١٠).

ويقول ماكس ميلر، في كتاب «نشأة الدين ونموه»: «الدين هو محاولة تصور ما لا يمكن تصوره، والتعبير عما لا يمكن التعبير عنه، هو التطلع إلى اللانهائي، هو حب الله»(١١).

ويقول إميل برنوف، في «علم الديانات»: «الدين هو العبادة، والعبادة عمل مزدوج، فهي عمل عقلي به يعترف الإنسان بقوة سامية، وعمل قلبي أو انعطاف محبة، يتوجه به إلى رحمة تلك القوة»(١٢).

ويقول ريفيل، في «مقدمة تاريخ الأديان»: «الدين هو توجيه الإنسان سلوكه، وفقا لشعوره بصلة بين روحه وبين روح خفية، يعترف لها بالسلطان عليه وعلى سائر العالم، ويطيب له أن يشعر باتصاله بها»(١٣).

ويقول جويو في كتاب «لا دينية المستقبل»: «الديانة هي تصور المجموعة العالمية بصورة الجماعة الإنسانية، والشعور الديني هو الشعور بتبعيتها لمشيئات أخرى يركزها الإنسان البدائي في الكون»(١٤).

ويقول ميشيل مايير، في كتاب «تعاليم خلقية ودينية»: «الدين هو جملة العقائد والوصايا التي يجب أن توجهنا

(8) La religion est la collection des devoirs de la creature envers le createur: devoirs de l'homme envers Dieu, envers la societe et envers soi - meme (Abbe chatel; code de l'Humanite chapitre v).

(9) La croyance en un pouvoir dont on ne peut concevoir les limites dans le temps ni dans l'es pace est l'element fondamenta de la religion (Rebort spencer, premiers principes).

(10) La religion est la croyance en des etres spirituels (Taylor, civilisation primitives, ch. xi).

(11) La religion est un effort pour concevoir l'inconcevabli, pour exprimer l'inexprimable, une as piration vers l'infini un amour de Dieu (Max Muller, origine et Developpemenet de la Religion, Lec on I, ch. iv).

(12) La religion est un octe d'adoration et l'adoration est a la fois un acte intellectuel par lequel l'homme reconnaft une puissance superieure et un acte d'amour par lequel il s'adresse a sa bonte (Emile Burnouf, science des Religions, ch. xii).

(13) La reigion est la determination de la vie humaine par le sentiment d'un lien unissant liesprit hu main aun esprit mysterieux, dont il reconnait la domination sur le monde et sur lui - meme, et au quel il aime a se sentir uni. (Reville, prolegomene a l'histoire des des Religions).

(14) La religion est un sociomorphisme universel. Le sentioment religieux est le sentiment de depen dance par rapport a des volontes que l'homme primitif place dans l'homme primitif place dans l'univers. (Guyau, Irreligion de l'avenir, p. 1-3).

في سلوكنا مع الله، ومع الناس، وفي حق أنفسنا»(١٥).

ويقول سلفان بيريسيه، في كتاب «العلم والديانات»: «الدين هو الجانب المثالي في الحياة الإنسانية»(١٦).

ويقول سالومون ريناً، في «التاريخ العام للديانات»: «الدين هو مجموعة التورعات التي تقف حاجزاً أمام الحرية المطلقة لتصرفاتنا»(١٧).

ويقول إميل دوركايم، في «الصورة الأولية للحياة الدينية»: «الدين مجموعة متساندة من الاعتقادات والأعمال المتعلقة بالأشياء المقدسة «أي المعزولة المحرمة» اعتقادات وأعمال تضم أتباعها في وحدة معنوية تسمى الملة»(١٨).

تصنيف التعاريف ونقدها:

من هذا العرض يتبين أن حقيقة الدين لا تكفي في تحديدها فكرة الاعتقاد بإطلاق أو فكرة الخضوع من حيث هي، وأنه لابد من إضافة قيد أو قيود أخرى تحددها بإبراز عناصرها الجوهرية، وتلك هي المحاولة التي بذلها الباحثون حين قدموا لنا مختلف التعريفات التي أوردنا الآن جانبا منها.

غير أنه ليس من العسير على من يستعرض هذه التعاريف - الإسلامي منها وغير الإسلامي - أن يلاحظ أن الجمهرة الغالبة منها قد جاوزت الحد في التحديد، حتى حصرت مسمى الدين في نطاق الأديان الصحيحة، المستندة إلى الوحي السماوي، وهي التي تتخذ معبودا واحدا، هو الخالق المهيمن على كل شيء، فالدولة الطبيعية المستندة إلى محض العقل، والديانات الخرافية التي هي وليدة الخيالات والأوهام، وكل ديانة تقوم هي أو جانب منها على عبادة التماثيل، أو عبادة الحيوان، أو النبات، أو الكواكب، أو الجن، أو الملائكة... إلخ. تخرج بمقتضى هذه التعاريف عن أن تكون دينا، مع أن القرآن قد سماها كذلك حيث يقول:

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾

(الكافرون: ٦)

ويقول:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾

(آل عمران: ٨٥)

(15) La religion c'est l'ensemble des croyances et des preceptes qui doivent nous guider dans no-tre conduite envers Dieu envers nitre prochain et envers nous-memes (michel mayer, Instructions morales et religieuses I ere lecon).

(16) La religion, ... c'est la part de l'ideal dans a vie humaine (sylvain perisse, scince et religions, ch 1).

(17) L religion: Un ensemble de scrupules quifont obstacle au liber exercise de nos facultes (salomon Reinach, Orpheus: Hist.gene.des Rel.p.4).

(18) La religion est un systeme solidaire des croyances et des pratiques relatives a des choses sacrees c'est a dire separees interdites - croyances et pratiques qui unissent en une meme commu-naute morale appelee. Eglise tous ceux qui y adherent (Durkheim, Formes Elentaires de la Vil Religieuse, p.65

نشأة التشريع الإسلامى وتدرجه



للدكتور/ محمد يوسف موسى

هذا التشريع مثله مثل كل كائن حى، لا ينشأ من لا شئ، ولا يبلغ كماله طفرة واحدة، بل ينشأ من شئ موجود سابق على وجوده، ويأخذ فى السير إلى الأمام متدرجًا فى مراتب الحياة والوجود، حتى يبلغ أقصى ما يقدر له من نضج وكمال.

وقد كان للعرب طبعًا شئ من القواعد والتقاليد، والأعراف التى تحكم مجتمعهم، شأنهم فى هذا شأن كل مجتمع مهما كان حظه من الحضارة، والرقى الفكرى والعملى، وكانت هذه القواعد تحكم مسائلهم الشخصية ومعاملاتهم المالية وغير هذا وذاك من الشئون ومسائل الحياة ومشاكلها.

ومن ثم، لنا أن نقرر أن الإسلام طرأ على مجتمع له تقاليده وأعرافه، فما كان الإسلام ليغير كل ما كانت عليه الأمة العربية حتى ما كان صالحًا لبناء مجتمع سليم صالح للحياة الطيبة، بل إنه أقر ما كان صالحًا للبقاء، وحرم وألغى ما كان غير صالح من تلك القواعد والأوضاع والتقاليد.

وقد مر هذا التشريع بأدوار ثلاثة حتى بلغ كماله، وهى: دور النشأة الذى كان أيام حياة الرسول ﷺ، ودور الشباب أيام الصحابة وكبار التابعين، ودور النضج والكمال الذى ظهر فيه الأئمة المجتهدون الكبار، ثم كان بعد ذلك كله دور التقليد الذى لا تزال آثاره -بكل أسف- إلى هذه الأيام التى نعيش فيها.

دور النشأة

بدأ التشريع فى هذا الدور ينشأ ويتكون، وعماده القرآن الكريم والسنة النبوية، ولم تستمر هذه الفترة إلا اثنتين وعشرين سنة وبضعة أشهر، وفيها نزل القرآن، وتم نزوله بقوله تعالى فى سورة المائدة:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾

(المائدة: ٣)

إذ لم ينزل بعدها شئ من آيات الأحكام، فى رأى كثير من المفسرين.

وهنا يجدر بنا أن نلاحظ أن ما نزل من القرآن بمكة لم يشتمل على كثير من التشريعات الفقهية، إذ كان المقصود الأول منه هو الدعوة إلى وجود الله وتوحيده وعبادته، ونبذ ما كان الناس يعبدون قبل الإسلام من مختلف المعبودات، وإقامة الأدلة على ذلك وعلى وجود الدار الأخرى وما يكون فيها من ثواب وعقاب. أما التشريعات الفقهية التفصيلية، فقد نزل الجانب الأكبر منها فى السور المدنية، وهذه السور أكثر من الثلث بقليل من مجموع القرآن.

حقًا، لقد بدأ أن يكون للعرب والمسلمين دولة بالمدينة، والدولة تتطلب ما تقوم به من نظم وتشريعات وقوانين تحدد العلاقات بين أفرادها وبين الدول الأخرى، وتحكم تصرفاتهم على اختلافها، وكان هذا هو سبب نشأة هذه النظم والتشريعات فى المدينة المنورة.

وكان من الحكمة، ومما يتفق وطبائع الأمور، أن لا تنشأ هذه التشريعات مرة واحدة، بل كان ذلك على التدريج حسب الحاجة التى تدعو إليها، وفى هذا، دفع للحرج عن المسلمين، وأخذهم بالتيسير فى التكاليف والأحكام، وبخاصة أنهم كانوا حديثى عهد بحياة لها أوضاعها وتقاليدها التى تختلف فى الكثير منها عما جاء به الإسلام.

وكان من الضرورى أن يعتمد التشريع على السنة النبوية بجانب القرآن، فإن الكتاب الكريم كان يجئ بالقواعد العامة والأحكام أو التشريعات بصفة إجمالية فى كثير من الأمور، فكان على الرسول ﷺ بيان ما جاء فى الكتاب، وتفصيل هذا الإجمال، وتحديد تلك القواعد العامة.

على أننا نجد فى السنة تشريعات لا نجدها فى القرآن، وإن كانت طبعًا لا تخرج عن روحه ومعانيه ومقاصده، ولا عجب فى شئ من ذلك كله! فمهمة الرسول دائمًا هى البيان لرسالته بكل طرق البيان، بما لا يقصر عن مقاصد صاحب الرسالة وهو الله تعالى.

ولنا أن نقول بإيجاز بأن دور الرسول ﷺ كان دور الشارح للمتن الذى هو القرآن بعد تبليغه للناس، إلا أنه شارح ملهم من الله يعمل تحت رعايته، فلا يقر على خطأ بحال. ولنذكر بعد ذلك بعض الأمثلة التى تبين لنا بما لاشك فيه أن السنة كانت توضح ما أجمل الكتاب، وتفصل ما جاء به من الآيات حين يكون هذا ضروريًا:

١ - أمر الله تعالى بالصلاة وشرعها فرضًا علينا، وجاء ذلك فى نص القرآن، إلا أنه لم يبين لنا فى القرآن أوقاتها بيانًا واضحًا، ولا عدد صلوات اليوم أو عدد ركعات كل صلاة، ولا كيفيتها على نحو لا لبس فيه ولا إبهام. فجاءت السنة وبينت ذلك كله، حين صلى الرسول ﷺ فعلًا وقال: «صلوا كما رأيتمونى أصلى»، وقد روى لنا الصحابة كيفية صلاة الرسول.

٢ - وفرض الله علينا الصوم بقوله تعالى:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾

(البقرة: ١٨٥)

ثم كان الرسول هو الذى بين أن المراد به هو الشهر القمرى لا الشمسى، وأن الصوم يكون من الفجر إلى غروب الشمس، وأنه يجب أن نصوم لرؤية هلال رمضان ونفطر لرؤيته، كما بين حكم المفطر عامداً أو ناسياً، إلى غير ذلك كله من أحكام هذه الفريضة.

٣ ـ ومثل ذلك كانت الزكاة، فقد جاء الأمر بها فى كثير من الآيات، ومنها قوله تعالى:

﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾

(البقرة: ٢٧٧)

وقوله:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾

(التوبة: ١٠٣)

وقوله:

﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾

(الأنعام: ١٤١)

وقوله:

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾

(المعارج: ٢٤-٢٥)

إلا أن السنة هى التى بينت لنا «نصاب» الزكاة فى كل نوع من أنواع الأموال، نعنى النقود والزروع والثمار وعروض التجارة والحيوانات السائمة مثلا، كما بينت المقدار الواجب إخراجه فى كل نوع منها، وهكذا إلى آخر ما يتعلق بتحديد هذه الفريضة تحديداً كافياً.

وهكذا كانت السنة النبوية مبينة للقرآن، وفى ذلك يقول الله تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ ﴾

(النحل: ٤٤)

وكان الرسول مشرعاً بما يقول وما فعل، حتى لبعض ما لم يرد فى القرآن ولو مجملاً كزكاة الفطر. وإن كان الله هو المشرع الحقيقى الأعظم، ما دام الرسول كان يستلهم دائماً القرآن: نصه، وروحه، ومقاصده التى ترمى دائماً لصالح الفرد والجماعة.

دور الشباب

فى هذا الدور الذى انقضى بعد القرن الأول بقليل، نجد الإسلام أخذ يمتد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، إذ فتح الله على العرب والمسلمين العراق والشام ومصر، وبلدان شمالى إفريقية وغيرها.

وكان لكل من هذه الأقطار حضارتها وعادتها وتقاليدها وأعرافها وقوانينها، وكان للاختلاط الذى تم بين العرب وأهالى هذه الأقطار والبلاد المختلفة أثره المحتوم فى التفكير وغيره. ومع ذلك كله حصل أن

كثرت الحوادث والمسائل التى تتطلب أحكاما شرعية لها، وظهرت مشكلات تنتظر حلولاً لها.

وذلك لأن المأثور من تشريعات الرسول وأحكامه وأقضيته أصبح غير واف بهذه الحوادث والمسائل والمعاملات التى تتجدد وتزيد كل يوم، فكان لكل هذا أثره فى نمو الفقه والتشريع.

وثمة عامل آخر كان له أثر واضح كبير فى هذه الناحية، فى هذه الفترة وما تلاها، وهو هجرة كثير من الصحابة إلى تلك البلاد التى عرفها العرب، ونزحوا إليها، وما كان نتيجة لذلك من شيوع التحديث عن الرسول ﷺ، والأخذ فى تعمق القرآن، واستنباط الأحكام التى شعروا بالحاجة لها منه أو مما يرونه صحيحا من أحاديث الرسول وسننه.

ومن الطبيعى أن يكون لهذه العوامل أثرها فى الفقه والتشريع، وفى ظهور الاجتهاد والمجتهدين؛ إذ كان كل من الصحابة القادرين على تعمق القرآن يجتهد فى فهمه وفهم ما ثبت عنده عن الرسول، فقد كان هذا الحديث أو ذاك قد يصح عند البعض دون البعض الآخر.

وهكذا بدأ التشريع الإسلامى يتكون من اتساع، وبدأت أصوله تعرف وتتميز، نعنى الكتاب والسنة، والقياس والإجماع.

كما أخذت قوانين وأعراف البلاد المختلفة، التى أصبحت تحت راية العرب داخلة فى تكوين جسم الدولة العربية والإسلامية، تؤثر فى الفقه والتشريع بصفة عامة أثرا غير قليل، إلا أن ذلك كله كان لا يخرج عن فلك الكتاب والسنة دائماً.

ولهذا، كان سيدنا أبو بكر الصديق الخليفة الأول إذا سئل عن شئ، أو جاءه خصم فى قضية من القضايا، يقضى بما يجده فى القرآن، فإن لم يجد لجأ إلى ما يعرفه من أحاديث الرسول ﷺ وسننه.

فإن لم يجد فى القرآن والسنة حكم الواقعة المطلوب بيان حكم الله فيها، لجأ إلى الصحابة، فإن وجد عند أحدهم فى هذا شيئا عن الرسول قضى به، وحمد الله على أن فى الأمة من يحفظ علم رسوله، وإن أعياه الأمر، جمع من يرى من خيار الناس وأهل الفقه والرأى والعلم فاستشارهم، ثم يقضى بما يجمعون عليه.

وكذلك كان يفعل عمر ـ رضى الله عنه ـ بعد أن صارت إليه خلافة المسلمين، وكان يتحرى رأى أبى بكر إن كان له رأى فى الحادثة، وذلك إن لم يجد حكم الله فى القرآن أو الحديث.

فإن لم يجد لأبى بكر قضاء فى المسألة، أخذ بما يجمع عليه أهل العلم والرأى من الصحابة.

وليس معنى هذا أن أبا بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ كانا لا يجتهدان فى المسائل التى جدت فى أيامهما، إن لم يجد الواحد منهما حكم الله فى الكتاب أو السنة، بل كانا يجتهدان ويستعملان القياس، وبخاصة سيدنا عمر الذى يعرف

له التاريخ في أيام الرسول نفسه آراء نزل القرآن موافقا له فيها.

إلا أن عمر رضي الله عنه، وهو الألمعي الذي كان يجتهد في الرأي بنور الله تعالى، كان يتخوف على الناس أن يجتهدوا برأيهم فلا يوفقوا في كل حال للحق الذي هو حكم الله. ولذلك نجده يكتب لشريح بن الحارث الكندي حين ولاه قضاء الكوفة يقول:

«إن جاءك شئ في كتاب الله فاقض به ولا يلفتك عنه الرجال، فإن جاءك ما ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ، ولم يتكلم فيه أحد قبلك، فاختر أي الأمرين شئت: إن شئت أن تجتهد برأيك فتقدم، وإن شئت أن تتأخر فتأخر، ولا أرى التأخر إلا خيراً لك.

وإذا كان عمر بن الخطاب يتحرى رأى أبي بكر الخليفة الأول ليأخذ به، كما ذكرنا من قبل، فإن هذا لا يمنع من القول بأنه حصلت اختلافات بينهما تمسك فيها عمر برأيه، إذ بان له أنه الحق في زمنه، كما حصلت اختلافات أخرى بين آراء الصحابة بصفة عامة، ولكل وجهة هو موليها، والكل كان يستلهم دائما القرآن والسنة.

وسنكتفي من ذلك بمثال واحد، وهو مثال يرينا الخلاف بين أبي بكر وعمر كيف يكون؟ وكيف كان لكل منهما وجهة نظر لها وجاهتها؟

كان أبو بكر في زمن خلافته يسوى بين المسلمين في أعطياتهم التي تفرض لهم من المال العام للمسلمين، فلا يفضل أحدا منهم على آخر. فلما ذكر بأن الحق والخير في التفاضل، لما للبعض من الفضل على بعض، بسبب سبقه في الدخول في الإسلام أو قدمه في الجهاد في سبيل الله، رد بأنه من أعرف المسلمين بهذا ولكنه يدع ذلك لله يثيب عليه، أما الأعطيات فهي للمعاش فالأسوة فيها خير من الأثرة. وفي هذا يقول في بعض الروايات: فضائلهم عند الله، فأما هذا المعاش فالتسوية فيه خير.

فلما صارت الخلافة إلي عمر الفاروق، وجاءت الفتوحات بأموال كثيرة، عدل عما كان يراه الصديق؛ إذ رأى ألا يسوى بين من قاتل رسول الله وبين من قاتل معه. وكان من كلامه في ذلك: ما أنا فيه (أي في هذا المال) إلا كأحدكم، ولكنا على منازلنا من كتاب الله عز وجل، وقسمنا من رسول الله ﷺ، فالرجل وتلاده في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته في الإسلام. وهكذا، فضل عمر البعض على البعض في العطاء.

وفي رأينا أن عمر كان ينشد بما ذهب إليه التسوية أيضا، لأن من التسوية بين الناس أن يأخذ كل منهم بقدر ما قدّم من خير للإسلام والمجتمع والأمة، وبقدر ما هو في حاجة إليه، ولهذا، يقول في بعض ما روى عنه في هذا الأمر: «ما يريد ابن الخطاب بهذا إلا العدل والتسوية»، وذلك عندما قال له البعض: «يا ابن الخطاب أنشدك الله في العدل والتسوية».

هذا، وبعد كبار الصحابة طوال عهد الخلفاء الرشدين الأربعة، تجئ فترة صغار الصحابة وكبار التابعين من أول ولاية سيدنا معاوية بن أبي سفيان إلي ما بعد المائة الأولى بقليل.

وتبدأ هذه الفترة «بعام الجماعة»، وهو العام الذي اجتمعت فيه كلمة المسلمين على خلافة معاوية بعد تنازل سيدنا الحسن ابن على رضي الله عنهما ـ عن الخلافة، وبهذا التنازل ابتدأت دولة بني أمية. إلا أن ذلك لم يمنع من وجود طوائف شذت عن الجماعة، وهم الخوارج والشيعة المعروفون.

وقد تميزت هذه الفترة من حياة الفقه والتشريع بأمور نذكر أهمها:

١ ـ لم يكن الخوارج يعتمدون من الأحاديث الا ما رواه رجالاتهم، وكذلك الشيعة. أما جمهور المسلمين، وهم أهل السنة والجماعة، فقد كانوا يعتمدون الأحاديث التي ثبتت صحتها عندهم مهما يدخل في أسانيدها من رجال الفرق الأخرى متى كانوا عدولاً ثقات.

٢ ـ كثرة التحديث عن الرسول ﷺ في البلدان المختلفة التي تفرق فيها المسلمون، وبخاصة أنه قد ذهب عهد سيدنا عمر الذي كان يشدد كثيراً في رواية الحديث، فكان كل يحدث بما سمع من الرسول بنفسه أو بواسطة رواة آخرين.

٣ ـ وكان من نتيجة هذا، أن كثرت رواية الأحاديث بلا تثبت أحيانا، وأن كثر الخطأ في رواية الحديث عن الرسول، بل الكذب عمداً من بعض من كانوا لا يبالون في سبيل نصرة آرائهم ومذاهبهم السياسية بصفة خاصة.

٤ ـ ابتعاد بعض خلفاء الدولة الأموية وأمرائها عن سنة السلف الصالح، وبخاصة أهل المدينة المنورة مهد الحديث وسنة الرسول ﷺ، واعتدادهم في حياتهم وتصرفاتهم على تفكيرهم وآرائهم واجتهاداتهم الشخصية، بعد أن جعلوا من خلافة العرب والمسلمين ملكاً عضوضا لهم ولأسرتهم، بما ابتدعوه من نظام «ولاية العهد» الذي لم يعرفه الإسلام من قبل.

وكان من هذه الأمور كلها أن أخذ صفوة من الصحابة والتابعين، العلماء بالكتاب وسنة الرسول ﷺ، يتجهون إلى تأسيس علم الفقه والتشريع الذي يقوم على هذين المصدرين المقدسين العظيمين، والذي يجب أن يكون المثل الأعلى للقانون الذي تقوم عليه حياة العرب والمسلمين العملية. فكان هذا بدء سير الفقه والشريعة الإسلامية في اتجاه نظري يختلف، كثيراً أو قليلاً، عن الواقع العملي في الحياة.

وينبغي أن نضيف إلي ذلك سبباً آخر، ونعني به أن الورعين من العلماء بالكتاب والسنة النبوية، لما رأوا كثرة رواية الحديث عن الرسول والخطأ عليه أحيانا، لجئوا في معرفة أحكام الله الشرعية إلي اجتهادهم الخاص، مستندين إلي فهم القرآن والثابت لديهم من أحاديث الرسول وسنته.

وكان من هذا، الاختلاف في الآراء

التشريعية، وتعددت الفتاوى في المسألة الواحدة، وبخاصة وقد وجد المسلمون أنفسهم في بلاد واسعة، لها عادات وتقاليد وأعراف جديدة عليهم، وكل ذلك يستدعي أحكاماً غير ما كانوا يعرفون أو يعلمون.

وكان من نتائج ذلك كله، أن ظهرت نزعتان في الفقه والشريعة: نزعة «أهل الحديث» ومهدها «الحجاز» وكان منها فيما بعد المالكية، والشافعية، والحنابلة. ونزعة «أهل الرأى» ومهدها «العراق» وكان حاملو لوائها فيما بعد الأحناف.

وإن كان الشافعية «بعبارة أدق» كانوا وسطا بين أهل الحديث وبين أهل الرأى.

دور النضج والكمال

كان هذا الدور أطول أدوار الفقه والتشريع عمراً، إلا دور التقليد بكل أسف، إذ قد استمر نحو مائتين وخمسين عاماً، فقد بدأ أوائل القرن الثاني الهجرى، واستمر إلى منتصف القرن الرابع الذى أقفل فيه باب الاجتهاد!

وفى هذا الدور، بدأ تدوين السنة، ومذاهب الفقه، وفيه ظهرت المذاهب الكبرى التى لا تزال معروفة ومتّبعة فى بلاد العرب والإسلام حتى اليوم، تعنى مذاهب أبى حنيفة، والشافعى، ومالك، وابن حنبل من أهل السنة، ومذاهب الزيدية والإمامية من الشيعة.

وينبغى أن نشير هنا إلى أهم الخصائص التى تميز بها هذا الدور، فكان مرحلة خاصة من مراحل الفقه والتشريع، وهى:

١ - قيام الدولة العباسية التى كانت عاملاً قوياً من عوامل ازدهار الفقه وتطوره، وفقا للحياة العامة التى كان عليها المسلمون إبان هذه الدولة، وتمشيا مع ما كان يجدّ من وقائع ومشاكل تتطلب أحكاما شريعة لها.

ويعتبر قيام هذه الدولة حدثًا ملحوظًا فى حياة الفقه والتشريع؛ لأنها قامت باسم الدين وعلى الدين. فلا عجب أن يعنى رجالها بالحياة الدينية، وأن يعملوا على أن تقوم على قانون مستمد من صميم الفقه والتشريع الإسلامى. فكانت الحاجة ماسة للفقه والفقهاء، وكان هؤلاء موضع رعاية طيبة من الخلفاء أيام عزهم ومجدهم.

فهذا هو الخليفة هارون الرشيد يطلب من أبى يوسف، تلميذ الإمام أبى حنيفة وصاحبه، أن يضع له كتابا يستهديه فى نظم الدولة المالية والإدارية، فيكتب له مؤلفه المعروف: «كتاب الخراج»، وفى مقدمته يقول للخليفة وهو أقوى سلطان فى عصره:

فأقم الحق فيما ولاك الله وقلدك، ولا تزغ فتزيغ رعيتك، وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب.. وكن من خشية الله على حذر، واجعل الناس عندك فى أمر الله سواء القريب والبعيد.. وإن الله سائلك عما أنت فيه، وعما عملت به، فانظر الجواب! إلى آخر ما قال.

على أن الخليفة هارون الرشيد لم يكن هو وحده الفريد فى إجلال الفقهاء، وفى سؤالهم النصح والتوجيه، فقد كان هذا شأن غيره أيضا من خلفاء هذه الدولة، والأمر معروف لمن قرأ شيئا من تاريخ العروبة والإسلام المجيد.

لا عجب، إذن، أن يجد الفقه والتشريع فى هذه الفترة الطيبة الطويلة من حياته تربة صالحة للنضج والكمال، وأن يكون من ذلك نشر سنة الرسول، وأحاديثه - بعد تمحيصها - وظهور كبار المجاميع فيها، وأن تغزر كتب الفقه ويكثر جدا ما فيها من الأحكام والتشريعات العملية، وأن يدون ذلك كله فى مؤلفات رويت عن أئمة الفقهاء، وكبار أصحابهم، وتلاميذهم المباشرين وغير المباشرين.

إنه لما كثر التحدث عن الرسول ﷺ فى البلدان المختلفة، وغزر إلى حد كبير ما روى عنه أو نسب إليه من الأحاديث، ندب بعض أعلام المسلمين من رجال الحديث أنفسهم للفحص عن هذه الأحاديث وتصنيفها، وبيان صحيحها من ضعيفها، والموضوع منها ثم تدوينها؛ ليرجع إليها المسلمون بجانب القرآن لمعرفة شريعتهم.

وكان هذا الصنيع الذى قام به أئمة أعلام حفاظ، فضلا وتوفيقا عظيمين من الله لحفظ الأصل الثانى للإسلام وتشريعه، وهو سنة رسوله ﷺ. وأهم هذه المجموعات هو صحيح الإمام البخارى المتوفى عام ٢٥٦ هـ، وصحيح الإمام مسلم المتوفى عام ٢٦١ هـ.

وهذه الكتب والمجاميع الخطيرة - ومنها ما صنف على أبواب الفقه المختلفة، والتى أنفق جامعوها فيها جهودا شاقة طويلة مضنية - قدمت بلا ريب مادة غزيرة خصبة للفقهاء، يستخلصون منها الأحكام الفقهية، بجانب القرآن، ولذلك كان لها أثرها الطيب الكبير فى اكتمال الفقه والتشريع.

دور التقليد

بعد أن بلغ الفقه والتشريع أوجه فى الدور السابق، أخذ ينزل رويدا رويدا عن الذروة التى وصل إليها، وكان ذلك لعوامل مختلفة: منها ضعف الدولة الإسلامية وتقسيمها إلى دول عديدة، مما أدى إلى ضعف الدولة الكبرى التى كانت تشجع الفقه ورجاله.

ومنها ركون رجال الشريعة إلى المذاهب الكبرى الأربعة المعروفة بعد أن دونت وصار لها أتباع أقوياء لا يحصون كثرة، وبعد أن أخذت تؤتى أكلها ويجنى العرب والمسلمون ثمراتها، وبخاصة أنهم وجدوا حلولا وأحكاما لما كان يجد لهم من مشاكل وواقعات، فلم إذن يتعبون أنفسهم بالاجتهاد فى تأسيس مذاهب أخرى.

ثم كان أن قصر أنصار كل مذهب من هذه المذاهب أنفسهم - بعد أن تلقتها الأمة بالقبول - جهودهم على تأييد مذهب إمامهم فى أصوله وفروعه وتطبيقاته العملية، وعلى الإشادة بأئمتهم ومن إليهم

من رؤساء المذهب وأعيانه، وبما خصوا به من نبوغ وملكة فقهية ومقدرة فائقة على الاستنباط، حتى كأن الله قد خصهم وحدهم بفضله، وحبسه عن غيرهم!

وأخيراً، لم يكن هناك فى ذلك العصر نظام إدارى أو تشريعى يقصر الفتوى على من هم أهل لها، ويأخذ على أيدى غير الصالحين للحكم فى شريعة الله، فتصدى كثيرون للإفتاء، حتى كان يصدر فى المسألة الواحدة أقوال وفتاوى متعددة متعارضة، وهذا ما يجعل المستفتين فى حيرة لا يدرون الحق فيما يستفتون فيه.

ومن أجل ذلك رأى أهل العلم والبصر بالتشريع - فى أواخر القرن الرابع - أن يسدوا باب الاجتهاد، وأن يجعلوا القضاة والمفتين مقيدين بأقوال الأئمة الأربعة المعروفين الذين أجمعت الأمة على الرضى بهم.

وبهذا وقع المسلمون فى الجمود على أقوال السابقين، الذين كانوا، هم أنفسهم، يصرحون بأنهم عرضة للخطأ، ويدعون إلى استنباط الأحكام من أدلتها كما يفعلون هم، ويعيبون على التقليد والمقلدين!

وفى ذلك يقول العلامة ابن خلدون، المتوفى سنة ٨٠٨ هـ، ما نصه: «ووقف التقليد فى الأمصار عند هؤلاء الأربعة، ودرس المقلدون لمن سواهم، وسد الناس باب الخلاف وطرقه؛ لما كثر تشعب الاصطلاحات فى العلوم، ولما عاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد ولما خشى من إسناد ذلك إلى غير أهله ومن لا يوثق برأيه ولا بدينه.

فصرحوا بالعجز والإعواز، وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء.. ومدعى الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه، مهجور تقليده، وقد صار أهل الإسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة.

حركة بعث ونهضة

وأخيراً، ينبغى أن نشير هنا إلى أنه نجحت فى هذه الأيام حركة مباركة، تدعو بقوة إلى ترك التفكير الذى ران على العقول وثقل على الصدور طوال القرون الماضية، وإلى فتح باب الاجتهاد لمن هو أهل له.

ونعتقد أن أكبر الفضل فى هذا يرجع إلى رجلين عظيمين من أعيان الفقهاء العلماء، وهما ابن تيمية المتوفى عام ٧٢٨ هـ، وتلميذه ابن القيم المتوفى عام ٧٥١ هـ. ثم من بعدهما أبى محمد بن عبدالوهاب التميمى النجدى المتوفى عام ١٢٠٦ هـ.

على أن حركة البعث هذه لن تصل إلى الذى نرجوه لها، ولن تؤتى أكلها الذى نبتغيه، إلا إذا درسنا الفقه الإسلامى دراسة علمية صحيحة من ينابيعه الأصيلة، وهى الكتاب والسنة وآراء الصحابة والتابعين، وعرفنا كيف نفيد منه فى تشريعاتنا الحديثة، وحل مشاكل العصر، ومن الله العون والتوفيق.

الفقه الإسلامى ومدارسه

تفيد معجمات اللغة العربية جميعاً أن الفقه معناه الإدراك العميق فى أمر من الأمور، وبذا يتميز عن الفهم الذى يدل على مجرد الإدراك ولو بلا تعمق.

أما فى اصطلاح علماء الشريعة الإسلامية فقد أطلق منذ العصر النبوى فى حديث الرسول ﷺ على معنى الفهم المتعمق لقواعد دين الإسلام ونظامه ومقاصده العامة.



الأستاذ الدكتور/ مصطفى أحمد الزرقا

وقد جاء فى الحديث النبوى الثابت: «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين» (متفق عليه) ويقال عندئذ لمن يتصف بذلك: فقيه.

ثم لما تشعبت الثقافة الإسلامية، وبدأ تدوين العلوم، وأصبح علم نظام الشريعة وأحكامها بالتفصيل اختصاصا ينصرف إليه الدارسون، عرفوا فقه الشريعة تعريفا فنياً اصطلاحياً دقيقاً بأنه: (العلم بالأحكام الشرعية العملية مستمداً من أدلتها التفصيلية) وأدلتها هى مصادر أحكامها «وسيأتى بيانها».

والمراد بالأحكام العملية فى هذا التعريف للفقه: كل ما يصدره المشرع الإسلامى للناس من أوامر ونظم للعمل بموجبها مما ينظم حياتهم الاجتماعية، وعلاقاتهم فيها، ويحدد نتائج أعمالهم وتصرفاتهم فيما بينهم حقوقاً والتزامات، كما يوضح لهم واجباتهم نحو ربهم الخالق (تعالى شأنه)، وطريقة عبادتهم له.

فالفقه الإسلامى يشمل القسمين:

- علاقة المسلم الدينية بربه (أحكام العبادات).
- وعلاقته بمجتمعه الإسلامى أفراداً وجماعة، وبالمجتمع الإنسانى عامة (النظام القانونى فى شريعة الإسلام).

وكلمة (العملية) فى تعريف الفقه أخرجت من نطاقه مسائل العقيدة، فإنها موضوع علم آخر هو علم التوحيد.

فمن هذا المنطلق تصنف الأحكام الشرعية في الفقه الإسلامي، بوجه عام، إلى سبع زمر:

الأولى: الأحكام المتعلقة بعبادة الله تعالى من صلاة وصيام وغيرها، وتسمى: العبادات.

الثانية: الأحكام المتعلقة بالأسرة من نكاح وطلاق ونسب ونفقة ووصايا وميراث، وتسمى في الاصطلاح القانوني: الأحوال الشخصية.

الثالثة: الأحكام المتعلقة بنشاط الناس الاكتسابي وتعاملهم بعضهم مع بعض في الأموال والحقوق، وتصرفهم بالتعاقد وغيره، وفصل منازعاتهم بالقضاء، وتسمى: المعاملات ومن هاتين الزمرتين (٢ و٣) يتألف ما يسمى في الاصطلاح القانوني الحديث: القانون المدني.

الرابعة: القواعد المتعلقة بسلطان الحاكم على الرعية، والحقوق والواجبات المتقابلة بينهما، وهذه يسميها بعض الفقهاء: الأحكام السلطانية، وهي من قبيل ما يسمى أيضا: السياسة الشرعية.

وهذه الزمرة الرابعة تشمل نوعين متميزين من الحقوق في الاصطلاح القانوني الحديث هما: القانون الإداري، والقانون الدستوري.

الخامسة: الأحكام والقواعد المتعلقة بعقاب المجرمين، وضبط النظام الداخلي بين الناس، وتسمى: العقوبات.

السادسة: القواعد التي تنظم علاقة الدولة الإسلامية بالدول الأخرى. ويتألف منها نظام السلام والحرب، وتسمى في الاصطلاح القانوني: الحقوق الدولية.

السابعة: الأحكام المتعلقة بالأخلاق والحشمة، والفضائل ومحاسن السلوك ومساوئه، وتسمى: الآداب.

مما تقدم يتضح أن الفقه الإسلامي نظام روحي ومدني معا؛ لأن الشرع الإسلامي جاء ناظما لشئون الدين والدنيا وهذا معنى التعبير الشائع في هذا العصر: إن الإسلام دين ودولة.

وكل هذه الزمر من الأحكام مستمدة من نصوص القرآن الذي هو دستور الإسلام (الكتاب) ومن أحاديث الرسول ﷺ الشارحة والموضحة له (السنة) وهما المصدران الأساسيان والخطاب التشريعي فيهما كثيرا ما يتضمن تعليلات وربطا للمسببات بالأسباب، مما تفرع منه طرق استدلال أخرى كانت مصادر جانبية بنى عليها علماء الشريعة أحكاما فقهية فيما سكت عنه الكتاب والسنة النبوية.

الصفة الدينية وأثرها في الأحكام المبنية على الفقه

ومن ثم يلاحظ أيضا أن الفقه الإسلامي - حتى في القسم المدني منه، وهو المعاملات - يفترق عن القوانين الوضعية التي ليس لها أي صفة دينية في مصادرها، بل هي من وضع الأمم لأنفسها ففي القانون الوضعي لا محل لفكرة الحلال والحرام الدينية لأنه لا علاقة له بالعقيدة الدينية، ولا سلطان للقانون على بواطن الأمور الخفية والضمائر، وإنما العبرة للظواهر، أي ما يثبت أو لا يثبت أمام القاضي فما أمكن منه القانون والقضاء كان حقا سائغا، وما لم يمكن منه فليس بحق وبتعبير آخر لا يبحث القانون الوضعي وفقهه فيما سيواجهه الإنسان عند ربه في اليوم الآخر إذا لم يمكن أن يطوله القانون والقضاء وكان في الواقع مبطلا أو مذنبا.

أما في الفقه الإسلامي فلأن مصدره الذي تستند إليه الحقوق والالتزامات المالية، وسائر الواجبات غير المالية، هو إلهي في العقيدة الإسلامية (وهو كتاب الله وسنة رسوله الذي لا ينطق عن الهوى، بل عن وحي من الله تعالى)، لذلك كان المقرر فيه أن العبرة في تعلق الحقوق إنما هي للحقائق والواقع، وإن كان القضاء يجري فيه بحكم الضرورة على البينات الظاهرة التي تثبت أمام القاضي؛ لأنه لا يعلم الغيب، فلا يستطيع أن يبني قضاءه إلا على ما يظهر له ويثبت أمامه في مجلس القضاء.

فلو أن دائنا أبرأ مدينه مثلا أو قبض منه ولم يعطه وثيقة خطية بذلك ولا يوجد شهود، ثم أقام دعوى عليه بطلب دينه وأنكر الإبراء أو القبض فإن القاضي يقضي على المدين بأن يؤدي استنادا إلى صك الدين، ولكن هذا القضاء في نظر الفقه الإسلامي لا يحل به للمدعي المقضي له ما أخذ، بل هو كما لو سرق المبلغ سرقة من خصمه، ولم يمكن إثبات السرقة عليه، وسيحاسب عليه في اليوم الآخر عند الله تعالى ويعاقب، وفي هذا حديث نبوي ثابت ومعروف.

ومن ثم كان في الفقه الإسلامي رقيب من عقيدة المسلم على نفسه في طاعة الحكم الشرعي، وعدم الاحتيال عليه ففي كل حق مختلف عليه بين طرفين حكمان: حكم القضاء (الذي يقضي به القاضي بحسب ما يثبت لديه) وحكم الديانة الذي يفتي به المفتي للشخص بحسب الواقع أنه بريء أو مذنب أو مديون ولو قضي بخلاف ذلك بحسب الظاهر.

ففي الفقه الإسلامي زاجر باطني للمسلم يقتضي عقيدته وإيمانه يمنعه من الاحتيال على قانون الشريعة وهذه الرقابة الأخلاقية مفقودة في القانون الوضعي، ولا سيما إذا كان المكلف يرى نفسه أفهم من القاضي ومن مشرع القانون، فيستسيغ التهرب من حكمه والاحتيال عليه بلا حرج.

وكثيرا ما حدث ويحدث أن أحدا من الناس يدخل على ذمته حق لغيره بسبب من الأسباب ولا يدري به صاحبه، أو يودع أحد وديعة ثمينة عند صديق بصورة سرية ولا يعرف بها غيره، ثم يموت المودع، فيأتي الذي عنده المال إلى صاحبه أو إلى ورثته ويؤديه إليهم كاملا كما يوجبه عليه حكم الديانة تبرئة لذمته أمام الله تعالى في اليوم الآخر.

الفرق بين الشريعة الإسلامية والفقه

من المهم جدا التمييز بين قولنا: الشريعة الإسلامية، وقولنا: الفقه الإسلامي.

فالشريعة هي: نصوص القرآن الموحى به من الله تعالى إلى رسوله محمد ﷺ، والسنة

النبوية، وهى أقوال الرسول ﷺ وأفعاله التى هى شرح وتفصيل لما أجمله القرآن، وتطبيق عملى لأوامره ونواهيه وإباحاته، باعتبار أن كل ما يصدر عن الرسول ﷺ متصلاً بتفسير الشريعة وتطبيقها ليس من عند نفسه ومن رأيه الشخصى، وإنما هو بوحى من الله تعالى إليه، وفقا لقوله تعالى فى القرآن:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾

(سورة النجم: ٣ - ٤)

أما الفقه فهو ما يفهمه العلماء من نصوص الشريعة وما يستنبطونه من تلك النصوص، ويقررونه ويؤصلونه، وما يقعدونه من القواعد المستمدة من دلالات النصوص ولا يجوز الخلط وعدم التمييز بين مفهوم الشريعة الإسلامية، ومفهوم الفقه الإسلامى؛ لأن الشريعة معصومة، وهى فى العقيدة الإسلامية صواب وخير كلها تهدى الحياة الإنسانية إلى الطريق السليم المستقيم.

أما الفقه فهو من عمل الفقهاء فى طريق فهم الشريعة وتطبيق نصوصها، وفيه يختلف فهم فقيه عن فهم فقيه آخر. وفهم كل واحد مهما علا قدره يحتمل الخطأ والصواب لأنه غير معصوم. وليس معنى ذلك أنه لا قيمة له، بل له قيمة عظيمة وتقدير كبير، ولكن المقصود أن ليس له القدسية التى للشريعة نفسها المتمثلة بنصوصها من الكتاب والسنة الثابتة. فالفقه وهو فهم الفقيه ورأيه، ولو كان مبنياً على النص الشرعى، هو قابل للمناقشة والتصويب والتخطئة، ولكن التخطئة تنصرف إلى فهم الفقيه لا إلى تخطئة النص الشرعى ومن ثم اختلفت آراء الفقهاء، ورد بعضهم على بعض، وخطأ بعضهم بعضا، ونشأت المذاهب الفقهية المختلفة.

على أن هناك نقطة مهمة محل اشتباه ينبغى تجليتها والتنبيه عليها، وهى أن الفقه الإسلامى يتضمن نوعين من الأحكام مختلفين فى طبيعتهما:

- النوع الأول: أحكام قررتها نصوص فى الكتاب (القرآن) وفى السنة قطعية الثبوت والدلالة تمثل إرادة الشارع الإسلامى الواضحة فيما يفرضه على المكلفين نظاماً للإسلام ملزما لهم، لم يترك لتفسيرهم وفهمهم واستنتاجاتهم وذلك مثل أصل وجوب الصلاة والزكاة وصوم رمضان والوفاء بالعقود، والجهاد بحسب الحاجة وقدر الطاقة، ونحو ذلك مما جاءت به النصوص فى الكتاب والسنة المتواترة.

- النوع الثانى: أحكام سكت عنها الكتاب والسنة وتركت للاجتهاد واستنتاج علماء الشريعة، أو جاءت بها نصوص غير قطعية الثبوت أو الدلالة، تحتمل اختلاف آراء العلماء فى ثبوتها أو دلالتها، وهى محل اجتهادهم فى فهمها واستنتاج الأحكام منها.

فالفقه الإسلامى ومدوناته تتضمن كلا النوعين هذين. فما قلناه عن الفرق بين الشريعة والفقه منصرف إلى هذا النوع الثانى من الأحكام الفقهية الذى هو استنتاج الفقهاء واجتهادهم فى تفسير النصوص المحتملة غير

القطعية الدلالة، أو من أقيستهم، أو ما قرروه بطريق الاستحسان حيث يرون سبباً يقتضى الخروج عن حكم القياس، أو ما قرروه بطريق الاستصلاح والمصالح المرسلة حيث لا نص يحكم فى الموضوع وإنما قرروا فيه الحكم نتيجة للموازنة بين ما فيه من مصلحة أو ضرر بالنظر الإسلامى، ونحو ذلك من الأحكام الاجتهادية، وهى أكثر ما يتضمنه فقه المذاهب.

فهذا النوع هو الذى من عمل الفقهاء واستنتاجهم، ولا يتمتع بالقدسية التى للنصوص التشريعية، أما النوع الأول فله قدسية النصوص التشريعية نفسها.

فكرة إجمالية عن مصادر الفقه الإسلامى: يقسم الفقهاء مصادر الفقه الإسلامى إلى زمرتين: المصادر الأصلية، والمصادر التبعية (الملحقة).

المصادر الأصلية

فالمصادر الأصلية أربعة هى: الكتاب (القرآن)، والسنة النبوية، والإجماع، والقياس.

١ـ الكتاب:

فالكتاب، أو القرآن هو الحجة الأولى والعليا؛ لأن نصوصه ثابتة لم يطرأ عليها تغيير ما أو تحريف أو زيادة أو نقص كما بلغها الرسول ﷺ إلى أصحابه.

والقرآن يعتبر دستور الإسلام (بالتعبير العصرى اليوم) هذا، ولأن القرآن كتاب هداية عامة للبشر، وله من أجل هذه الغاية مسالك ومقاصد عديدة (كمحاورة الملحدين والمشركين، وإقامة الحجة عليهم، وتوجيه الأفكار والأنظار إلى دلائل الإيمان بالله من نظام الكون، والترغيب فى ثواب الله للمؤمنين المطيعين فى اليوم الآخر، والترهيب من عقابه للكافرين والعصاة بنار جهنم، وضرب الأمثال والشواهد للاعتبار بما أصاب الأمم الغابرة التى تمردت على الإيمان بالله، ولم تقبل دعوة رسلها الأنبياء)، وليس القرآن كتاب قانون يقتصر على بيان النظام وقواعد الأحكام فقط، وهذا إلى جانب المحافظة فيه على الأسلوب البيانى البليغ المعجز، من أجل هذه الاعتبارات جميعا اقتصر القرآن فى خطاباته التشريعية على الإجمالية دون بيان تفاصيل الأحكام إلا فى النادر؛ لأن تفصيل الأحكام الجزئية يطغى على الأهداف الأخرى الكلية، ويضيع الروعة البلاغية فى البيان.

ولكنه لأجل التفصيل أحال على بيان الرسول ﷺ وسنته إحالة عامة بقوله:

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾

(الحشر: ٧)

فمثلا قد أمر القرآن المؤمنين بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، ولم يبين كيف تؤديان عددا ومقدارا ووقتاً إلخ.. فأصبح مرجع ذلك كله إلى بيان الرسول ﷺ، ومن ثم كانت السنة النبوية هى المصدر الرئيسى الثانى للفقه الإسلامى بعد القرآن.

ب ـ السنة:

إن السنة النبوية في اصطلاح علماء الإسلام يراد بها ما نقل عن الرسول ﷺ من أقواله، وأفعاله، وتقريره، أى مافعله بعض أصحابه بحضرته فشاهده الرسول ﷺ ولم ينكره على من فعله، إذ يفهم من سكوته عنه أنه أقره، أى لم يره شيئا منكرا.

وبما أن في السنة نصوصاً آمرة وناهية كما في القرآن، وأنها محال عليها في القرآن نفسه كما بينا آنفاً، لذلك كانت حجية السنة النبوية كحجية القرآن في تقرير الأحكام واستنباطها من دلائل نصوص السنة النبوية. فإذا سمع من الرسول ﷺ أحد أصحابه أمراً أو نهياً، وجب عليه طاعته وتنفيذه كما لو سمع منه آية قرآنية، لا فرق بينهما من حيث أنهما نظام تشريعي واجب الطاعة والامتثال بالنسبة لكل من سمعه مباشرة من الرسول ﷺ.

لكن الأمر يختلف بالنسبة للأجيال اللاحقة من المسلمين الذين أتتهم نصوص الكتاب والسنة بطريق النقل المتلاحق المتسلسل من الجيل الذى نقل عن صحابة الرسول ﷺ (وهو جيل التابعين)، ثم الجيل الذى نقل عن التابعين (وهو تابعو التابعين) ثم الذين بعدهم.

فهذه الأجيال اللاحقة بعد صحابة الرسول ﷺ أصبحت حجية ما ينقل إليهم من نصوص القرآن مختلفة عما ينقل من نصوص السنة النبوية.

ـ فالقرآن، لكونه مدوناً في المصاحف من عهد الخليفة الثالث عثمان، وهو محفوظ غيبا في صدور الملايين من الحفاظ، دون أى اختلاف بين المكتوب في المصاحف وبين المحفوظ في صدور الحفاظ؛ لذلك كانت نصوصه ثابتة ثبوتا قطعيا لا شبهة فيه ولا شك (وهذا معنى أنه منقول ومروى بالتواتر) فأصبح البحث في حجية القرآن مقصورا على دلالات نصوصه وما يستفاد منها من معانى وأحكام أما ثبوت نصوصه فليس محل بحث.

ـ أما السنة النبوية؛ فلأنها لم تكتب في حياة الرسول ﷺ وبإملاء منه كالقرآن، بل كانت خلال القرن الأول كله يروى منها صحابته شفاها ما سمعوه وشاهدوه من أقواله وأفعاله، ثم رواها عنهم التابعون بعدما تفرق الصحابة في مختلف الأمصار المفتوحة ينقلون دعوة الإسلام إلى تلك البلاد، وكان الناقلون عن التابعين وتابعيهم ليسوا كلهم بدرجة واحدة من الضبط والأمانة في النقل كما وجد أناس من المنافقين والمرتزقة صاغوا أحاديث ونسبوها إلى الرسول ﷺ وأشاعوها بين الناس (وهؤلاء فئة الكذابين) إلى جانب فئة الضعفاء والمغفلين، لذلك أصبحت السنة النبوية (التى بدأت كتابتها ونقلها من الروايات الشفهية إلى الكتب والمدونات في أول القرن الثانى من الهجرة في عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز) ليست كل مروياتها قطعية الثبوت كقطعية نصوص القرآن، بل أصبح في مروياتها أحاديث يحكم العلماء بأنها مكذوبة (موضوعة)، أو ضعيفة الثبوت، أو صحيحة الثبوت يعتمد عليها في تقرير الأحكام الإسلامية وهذا النوع الصحيح أيضا على درجات، فمنه القوى ومنه الأقوى ثبوتا.

وقد تفرغ في القرنين الثانى والثالث بعد الهجرة علماء انقطعوا وانصرفوا بكليتهم إلى نخل الأحاديث النبوية المروية، وتتبع تاريخ رواتها في مراحل حياتهم وأخلاقهم ومدى قوة حفظهم، وسلوكهم الدينى (تقواهم) ومدى نباهتهم في التمييز والثقة بمن ينقلون عنه وأصبح علم السنة أو الحديث اختصاصاً عميقاً جدا وواسعاً، وأصبح كل حديث مروى قد بين هؤلاء العلماء في كتبهم تصنيفه، بين الأحاديث: الموضوعة، أو الضعيفة الثبوت أو الحسنة، أو الصحيحة، وفي أى درجة من الصحة.

وأصبح من المقرر عند علماء الشريعة أنه لا يؤخذ حكم شرعى أو قاعدة فقهية تدخل في نظام الشريعة، سواء في العبادات أو المعاملات، ولا يعتبر في فقه الشريعة شيء إلا ما كان مستنداً إلى نص في القرآن دال عليه، أو إلى حديث في السنة النبوية صحيح الثبوت.

وقد نشأ في ثقافة الإسلام علمان فريدان عظيما الأهمية هما: علم أصول الحديث (أو مصطلح الحديث) وعلم أصول الفقه.

ـ فالأول هو العلم الذى يوضح قواعد الحكم على الحديث المروى في السنة بأنه موضوع (مكذوب) أو ضعيف أو حسن، أو صحيح.

ـ والثانى هو العلم الذى يوضح قواعد استنباط الأحكام الشرعية من نصوص الكتاب والسنة في مختلف الموضوعات الفقهية.

وهذا العلم الثانى (أصول الفقه) يتكون إجمالاً من:

ـ بيان المقاصد العامة للشريعة الإسلامية وما يتفرع عنها من قواعد ذات أهداف أساسية وقانونية، مما يساعد الفقيه على فهم نصوص الكتاب والسنة ومراد الشارع في ضوء تلك المقاصد.

ـ القواعد اللغوية والمنطقية في فهم نصوص القرآن والسنة في لسان العرب الأصليين، ذلك لأن فهم الكلام ومراد المتكلم يعتمد على معرفة اللغة التى ورد بها، وأساليب أهلها في التعبير والبيان وإن العرب الأصليين هم الذين جاء النص في عهدهم بلغتهم، وبحسب عرفهم الكلامى في التعبير والتخاطب بطريق الحقيقة أو المجاز، وبحسب معانى الحروف ذات الدلالات كحروف الجر والعطف والشرط والاستثناء.

ومثال القواعد المنطقية في فهم النصوص أن نهى الشارع عن فعل معين يعتبر نهيا تحريمياً عما هو أشد منه بطريق الأولوية؟ فنهى القرآن الولد مثلاً عن التأفف والتذمر من والديه:

﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾

(الإسراء: ٢٣)

يعتبر تحريماً لإهانتهما أو ضربهما، ونهى الرسول ﷺ عن مماطلة المدين في وفاء الدين وهو قادر عنده ما يفى به يعتبر نهياً وتحريماً

لإنكار حق الغير بطريق الأولوية.

وهذه الدلالة تعتبر من دلالة النص نفسه وليست قياساً.

ج- الإجماع:

إن المصدر الأساسي الثالث للفقه الإسلامي بعد الكتاب والسنة هو الإجماع. ويعرفونه بأنه: (اتفاق بين الفقهاء المجتهدين في عصر على حكم شرعي)، ولا فرق بين أن يكون هؤلاء المتفقون من فقهاء صحابة رسول الله ﷺ بعد وفاته، أو من الطبقات التي جاءت بعدهم في أي عصر كان. وحجية الإجماع تستند إلى قول الرسول ﷺ: «لا تجتمع أمتي على الضلالة»، والمراد بالأمة علماؤها.

والإجماع في ذاته دليل شرعي يقرر ويثبت الحكم الشرعي المجمع عليه. ومعنى ذلك أنه لا يشترط للعمل بموجب الإجماع أن يكون دليله من الكتاب والسنة مذكوراً معه، وإلا لم يكن الإجماع هو الدليل، وإن كان في الواقع لا يخلو عن دليل استند إليه المجمعون من أصول الشريعة وهم أدرى بها.

ومن أمثلة المسائل التي انعقد عليها الإجماع ولم يرد بها نص في الكتاب أو السنة النبوية، ميراث الجد (أب الأب) مع الابن فيما لو مات شخص وله ابن وجد. فقد أجمع الصحابة أن جد الميت يرث مع وجود حفيده (ابن الميت) سدس التركة وهو النصيب الذي كان يرثه أبو الميت لو كان حياً. فيحل جد الميت محل أبيه في هذا الإرث.

ويلحظ أن المسائل التي دليل حكمها الإجماع وحده فقط قليلة، ويرجع تاريخها إلى عصر الخلفاء الراشدين أو الصدر الأول منه؛ لأن الصحابة بعد عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه تفرقوا في مختلف الأمصار المفتوحة، ونشأ على أيديهم علماء وفقهاء كثيرون (التابعون) في بلاد متنائية، فلم يعد من الممكن جمعهم ومشاورتهم ليعرف ما يتفقون عليه أو تختلف فيه آراؤهم من الأمور المستجدة.

ولولا ذلك لكان الإجماع مصدراً خصيباً جدا في الفقه الإسلامي.

د- القياس:

إن القياس هو رابع الأدلة على الحكم الشرعي ونطاق فاعليته هو في المسائل التي سكتت عنها المصادر الثلاثة التي قبله، فلا نص على حكمها في الكتاب أو السنة الصحيحة الثبوت، ولم ينعقد على حكمها إجماع، فأصبح لابد من الاجتهاد في التماس الحكم المناسب لها في ضوء ما هو منصوص عليه ومقاصد الشريعة وقواعدها والإمام الشافعي في كتابه الشهير: الرسالة (وهي أول تدوين في أصول الفقه) سمى القياس: اجتهادا والقياس هو (إلحاق أمر لم ينص على حكمه بآخر قد نص عليه، لعلة جامعة بينهما، ولم يوجد فارق معتبر بين الأمرين) فحيثما لا يوجد في الواقعة نص عليها بخصوصها، ولا تدخل تحت نص عام لتعتبر مشمولة به وجزئية من جزئياته، ووجد الفقهاء نصاً في حادثة قد حكم الشرع فيها بحكم معلل قد صرح النص بعلته وسببه، أو كانت علته واضحة من مناسبة وروده، ورأوا أن العلة الموجبة للحكم في الحادثة المنصوص عليها تشبه العلة في الحادثة الجديدة التي لا نص فيها، فإنهم يلحقون الجديدة الثانية بالأولى في الحكم لاتحادهما في العلة باعتبار أن الحكم يدور مع العلة، وإن كان الموضوع مختلفاً.

وواضح من هذا أن القياس يأتي دوره في المرتبة الرابعة بعد الكتاب والسنة والإجماع فلا يلجأ إليه في الاستدلال على حكم حادثة إلا حين سكوت المصادر الثلاثة التي قبله عن حكمها.

أمثلة واقعية للقياس

١- ورد النص القرآني بالنهي عن البيع وقت الأذان للصلاة يوم الجمعة فقاس الفقهاء عليه حرمة التعاقد بعقود أخرى كالإجارة مثلاً؛ لأن علة النهي أن البيع يلهي المتبايعين عن المبادرة والتهيؤ لصلاة الجمعة التي تتقدمها خطبة عامة توجيهية ومواعظ من الإمام. وهذا السبب موجود في جميع الأعمال التجارية وسائر العقود الأخرى غير البيع، وإن كانت صفقات البيع هي الأكثر وقوعا في الأسواق وقد حكم معظم الفقهاء ببطلان البيع وسواه من العقود وقت أذان الجمعة.

٢- ورد في الشريعة الإسلامية نصوص بشأن وصي اليتيم تبين وضعه الحقوقي وصلاحيته ومسئوليته في تصرفاته بأموال اليتيم القاصر نيابة عنه. فقاس الفقهاء على الوصي وضع المتولي على مال الوقف في صلاحيات المتولي ومسئولياته ذلك لأن وضع متولي الوقف يشبه تماما وضع وصي اليتيم الذي يدير أمواله وينفق عليه منها: فكل منهما (وصي اليتيم ومتولي الوقف) مؤتمن على مال تجب حمايته، ويديره بالنيابة عن أصحاب الحقوق فيه.

وأمثلة القياس التي أثبتت فيها أحكام حوادث ومسائل جديدة (لم يرد فيها نص بخصوصها، فأعطاها الفقهاء أحكام حوادث ومسائل ورد فيها نص تشريعي في الكتاب والسنة لاتحاد بينهما في علة الحكم) تلك الأمثلة والشواهد الواقعية كثيرة جدا لا تحصى في كتب المذاهب الفقهية عبر العصور اللاحقة. وبذلك كان القياس أغزر المصادر الفقهية في إثبات الأحكام الفرعية في الحوادث والعقود وسائر المسائل.

على أن هناك جماعة من فقهاء بعض المذاهب لم يقبلوا إثبات الأحكام الشرعية بطريقة القياس، واعتمدوا على ظواهر النصوص فقط فسموا: (الظاهرية)، فلم يكن لمذهبهم هذا حياة ووزن لمخالفته ضرورات الحياة التشريعية(١) ذلك أن نصوص الكتاب والسنةمحدودة متناهية، والحوادث الواقعة والمتوقعة غير متناهية فلا سبيل إلى إعطاء الحوادث والمعاملات الجديدة منازلها وأحكامها في فقه الشريعة إلا عن طريق الاجتهاد بالرأي الذي رأسه القياس(٢).

---

(١) إمام المذهب الظاهري داود بن علي بن خلف (ت/ ٢٧٠هـ) وأبرز أتباعه الذي قام بتدوين المذهب هو أبو محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الأندلسي (ت/ ٤٥٦هـ) وذلك في كتابه الحافل الذي ناقش فيه أيضا المذاهب الأخرى الفقهية وأدلتها وسماه المحلّى.

(٢) ينظر كتاب الملل والنحل للشهرستاني.

المسألة القانونية

بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعى

مقدمة:

إن النظر إلى المسألة القانونية، فى الإطار العام للأصالة والمعاصرة، يستوجب دراسة أوسع لذلك. تستحسن هذه الدراسة أن تكون أكثر تواضعا من أن تدعى أنها توفى الأمر حظه من البحث الشامل. وهى تفصح من البداية أنها تكتفى بإيراد عدد من الملاحظات حول المسألة القانونية، وتشكل بعضا من أهم جوانب المسألة، فى حدود ترسم السياق العام لظهورها، ومناقشة بعض ما راج حولها من تقديرات، وتوضح جوانب من المشكلة التى تثور اليوم حولها.




المستشار/ طارق البشرى

منذ القرن التاسع عشر، تفاعلت عناصر ثلاثة كان من شأن تفاعلها حدوث الاضطراب فى البناء التشريعى وهياكله وأنساقه فى أقطار الدولة العثمانية عامة، وفيما انفصل عنها عبر هذا القرن من بلدان. لم يكن واحد من هذه العناصر وحده هو مصدر الاضطراب، ولكن تضاربها معا ـ على الصورة التى حدثت فى الظروف التاريخية الملموسة ـ هو ما أشاع الفوضى فى هذا المجال.

أول هذه العناصر، جمود الوضع التشريعى الآخذ عن الشريعة الإسلامية، وهو الوضع الذى انحدر إلينا من قرون الركود السابقة، حسبما آلت إليه الأوضاع الاجتماعية السياسية وقتها. وليس المقصود بالجمود هنا الشريعة الإسلامية ـ بحسبانها الأصول المستمدة من القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة ـ ولكن المقصود هو ما آل إليه الجهد الاجتهادى فى تلك الأحكام من جمود.

وثانى هذه العناصر، ما أوجبته أوضاع الصحوة الاجتماعية والسياسية، من ظروف الحاجة الماسة لإصلاح الأوضاع والنظم وتجديدهما، الأمر الذى يستوجب إصلاحا وتجديدا مناسبين فى الهياكل والنظم التشريعية.

وليس الإصلاح فى ذاته مدعاة للاضطراب، إنما أسلوب الإصلاح هو ما أفضى إلى ذلك. إذ اتخذت برامج النهوض ـ سواء على أيدى سليم الثالث ثم محمود الثانى فى استانبول، أو على يدى محمد على فى القاهرة ـ اتخذت طابعا ازدواجيا، تأتى من إبقاء القديم على ركوده وإنشاء الحديث بجانبه وعلى غير انبثاق منه ولا تفاعل معه. يظهر ذلك فى المؤسسات التعليمية والقضائية ونظم الإدارة والقانون والاقتصاد. وكان هذا مما انصدعت به البيئة الاجتماعية والفكرية إلى شطرين متميزين، ولا تزال آثار انصداعها العميقة تعمل عملها إلى الآن..

وثالث هذه العناصر، هو الغزو الأوروبى السياسى والاقتصادى ثم العسكرى.

ما من أمر ولا معضل فى تاريخنا الحديث إلا ويبدو هذا العنصر ذا تأثير كبير فيه، ولو بطريق رد الفعل. وهنا نلحظ الاقتحام أول ما نلحظ، سواء بالإملاء والقسر أو بفعل ضغوط السياسة والاقتصاد. ثم نلحظ بعد ذلك ما فرضته مقاومة الغزو، وما أوجبه تفوق الغزاة فى العلوم والفنون وأساليب التنظيم، مما أملاه ذلك من ضرورة التعلم عن الغزاة، وما ولده من مشكل يتعلق بضرورة الأخذ عنهم وضرورة مقاومتهم فى الوقت نفسه.


محمد على

كان الجمود عائقا يحول دون التجديد المرجو، ثم كان قيام المؤسسات الحديثة جنبا إلى جنب مع المؤسسات التقليدية، مما حط كثيرا من إمكانات التفاعل بين هذين النمطين، تحريكا وتنمية لوجوه التجديد فى المؤسسات التقليدية، ودعما وتوثيقا لأواصر الأصالة فى الأبنية الفكرية والاجتماعية الحديثة. وكان من الطبيعى ـ مع وفود الهجمة الاستعمارية الغربية ـ أن تجد فى هذا الانفصام فجوة التسرب المواتية، وأن تسعى لاستيعاب المؤسسات الحديثة غير العميقة الجذور، وأن تحاصر المؤسسات القديمة المتيبسة.

أولا: الفقه الإسلامى

قبل الغزو الاستعمارى:

ومن حيث النظام القانونى، فلا شبهة فى أن الإسلام كان هو السائد فى ديارنا، فكرا وثقافة وسياسة ودينا وعقيدة ونظاما، وذلك حتى نهايات القرن الثامن عشر.

ولا شبهة كذلك فيما كان يتسم به الفقه الآخذ عن الشريعة الإسلامية من جمود.

ويصف الشيخ محمود شلتوت مظاهر الجمود ـ عند ذكره الأمراض التى لحقت بالجامع الأزهر فى عهوده المتأخرة ـ بقوله:

«تغلبت العناية بالمناقشات اللفظية، وتتبع

كلمات المؤلفين فى المصنفات والشروح والحواشى والتقارير على الروح العلمية الموضوعية..

- تغلبت روح التقديس للآراء والأفهام التى دونها السابقون، والسمو بها عن مستوى النقد وعدم الاكتراث بما قد يظهر من آراء جديدة.

- تغلبت نزعة الاشتغال بالفروض والاحتمالات العقلية التى لا تقع، وما يتصل بها من أحكام، وأعرضوا عن تنمية الفقه العملى الذى يحتاج إليه الناس فى معاملاتهم وأقضيتهم.

- تغلبت نزعة الاشتغال باختراع الحيل التى يتخلص بها من الحكم الشرعى.

ولقد تناولت هذه الحيل كثيرا من أبواب الفقه، ولم تقف عند الحد الذى أثر عن الأئمة من جعلها وسيلة للتخلص من ضرر أو مكروه، بل افترضوا حيلا يسقطون بها الواجبات..

- تغلبت روح التعصب المذهبى الشديد، حتى وصل الأمر بين أتباع الأئمة إلى المناقشة فى صحة الاقتداء بالمخالف فى المذهب.

- تغلبت الفكرة القائلة بتحريم غير المذاهب الأربعة، فحجروا واسعا، ومنعوا رحمة اختص الله بها هذه الأمة..» (١)

ويمكن تلخيص أهم وجوه الضعف والتخلف، التى عانى منها الفكر الإسلامى عامة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، فيما وصفه أنور الجندى من طغيان عنصر الجبرية على العقل، وطغيان مذاهب وحدة الوجود والحلول والاتحاد على الوجدان، بما يعنى ذلك من تسليم كامل بالواقع الحادث وانسحاب الفرد من المجتمع وسقوط الإرادة البشرية، مع غلبة طابع



محمود شلتوت

التقليد فى مجال الفقه الإسلامى (٢). وبدا التقليد فى العصبية المذهبية، وفى صعوبة الرجوع إلى الأحكام الشرعية الموزعة فى كتب الفقه المذهبى، وعدم وجود تقنين مستمد من أحكام الشريعة يسهل الرجوع إليه والأخذ عنه.

على أنه مع الإقرار بكل هذه المظاهر والعلل، فإنه ينبغى ملاحظة أن حركة البعث والتجديد فى الفكر الإسلامى وفقه الشريعة، قد بدأت وتمت قبل تصاعد الغزو الاستعمارى الأوروبى فى القرن التاسع عشر، وإن تراخت حركة التجديد ودعوته فى كل من دار الخلافة العثمانية ومصر وبلاد الشام، أى فى تلك الديار التى تمثل قلب الدولة العثمانية، حيث تقوى المؤسسات التقليدية ويعظم نفوذها الخانق. ويحكى الجبرتى فى أحداث رمضان عام ١١٢٣ هـ (١٧١١م) أن واعظا روميا جلس فى جامع المؤيد يحض الناس على إنكار التوجه إلى القبور والقباب والتوسل بالأولياء، وجذب

(١) محمد عبدالرحمن خفاجى: الأزهر فى ألف عام (القاهرة: المطبعة الخيرية ١٩٠٠) جـ٣، ص ٩ - ١٢.

(٢) أنور الجندى: اليقظة الإسلامية فى مواجهة الاستعمار (القاهرة: دار الاعتصام ١٩٧٨)، ص ٤١ - ٤٨.

إليه رهطا من الناس أعجبتهم دعوته، لكن شيوخ الأزهر وقفوا ضده، وتحرك الصناجق يمتعضون من تجمع مع الرجل، «فضربوا بعضهم ونفوا بعضهم، وسكنت الفتنة» (٣). وتكشف هذه القصة عن وجود الداعين إلى التجديد ونفى البدع، ووجود من يستجيبون لذلك من الناس، مع صعوبة انتشار الدعوة، سواء فى تركيا موطن «الرومى» أو فى مصر حيث جاء فصفيت دعوته.

ولكن أمكن لحركات التجديد ودعواته أن تنمو وتظهر فى أطراف الدولة، حيث تضعف السلطة المركزية ويهن نفوذ المؤسسات التقليدية، أو فى الأصقاع البعيدة عن سلطة الدولة العثمانية.

فظهر فى نجد محمد بن عبدالوهاب (١٧٠٣ - ١٧٩١م)، وقامت دعوته المعروفة عن التوحيد المطلق الخالص مع رفض الجبرية وفكرة الحلول والاتحاد، ومع تأكيد مسئولية الإنسان، وأن التوسل لا يكون بغير الله. كما قامت دعوته على فتح باب الاجتهاد والتماس الحلول من المصادر الرئيسة للشريعة - وهى القرآن والسنة والإجماع - مع عدم التقيد بمذهب معين من المذاهب الأربعة السنية. وكان من شأن دعوته أن جردت المذاهب من القداسة التى كانت مدعاة لها (٤). وفى الوقت نفسه، ظهر بالمدينة محمد بن نوح الفلانى الذى يعتبره البعض المجدد على رأس القرن الثانى عشر (هـ) (١٧٥٢ - ١٨٠٣م)(٥). وفى الفترة نفسها فى الهند، ظهر ولى الدين الدهلوى (١٧٠٢ - ١٧٦٢م)، وسعى - كشأن قرينيه السابقين - مسعى الإمام ابن تيمية، مع الاهتمام بالصوفية، وكتب عن «الإنصاف فى بيان أسباب الاختلاف»، وعن «عقد الجيد فى أحكام الاجتهاد والتقليد».

وفى اليمن، تأثر الإمام محمد بن عبدالله الشوكانى (١٧٥٨ - ١٨٢٣م)، بكل من ابن حزم وابن تيمية - وكلاهما ثائر على التقليد - تأثر بهما برغم كونه زيديا، وخلع ربقة التقليد، وفتح لنفسه باب الاجتهاد، وألف رسالة «القول المفيد فى حكم التقليد»، ذم فيها التقليد وحرمه. وسار فى أشهر مؤلفاته «نيل الأوطار، شرح منتقى الأخبار فى حديث سيد الأخيار»، سار فيه على نهج استنباط أحكام الفقه مباشرة من الأحاديث الشريفة. وبرغم ما أثار نهجه من مقاومة، فقد استطاع أن يثبت عليه، حتى ذاع صيته، وتولى منصب قاضى قضاة اليمن. وكذلك ظهر السيد المرتضى الزبيدى، صاحب «تاج العروس فى شرح القاموس»، وصاحب شرح الإحياء للغزالى، «فكان من متفقهة الصوفية

(٣) عبدالرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار (القاهرة: الطبعة الأميرية ١٢٣٦ هـ) جـ١ ص٤٨ - ٥٠.

(٤) أمنة محمد نصير: الشيخ محمد بن عبدالوهاب ومنهجه فى مباحث العقيدة (القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٣م)، ص٢٢٤.

(٥) عبدالمتعال الصعيدى: المجددون فى الإسلام من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر، ط٢ (القاهرة: مكتبة الآداب، ١٩٦٢م)، ص٤٣٦.

فى هذا القرن، وللناس فيه اعتقاد يصل إلى حد الغلو» (٦) ثم هناك السيد نذير حسين، والقاضى حسين بن محمد الأنصارى، وصديق حسن خان، ممن تغلب عليهم نزعة ابن تيمية، وابن الوزير اليمنى (١٣٧٣ - ١٤٣٦) الذى تأثر بابن حزم وابن تيمية، ولم يتقيد بمذهب من المذاهب برغم زيديته، وآثر الكتاب والسنة على التقيد بأى مذهب. ومن المعروف أن حركة الاتصال بين الجزيرة العربية والهند كانت نشيطة، بالهجرة والسفر للتجارة والاستيطان، وخاصة بالنسبة لأهالى حضرموت ونجد (٧).

وفى العراق، ظهر الشهاب الألوسى (١٨٠٢ - ١٨٥٤م) الذى صار علامة العراق، وتولى المدرسة المرجانية ومنصب إفتاء السادة الأحناف. واشتغل بالتأليف والتدريس، وسار على طريقة ابن عبدالوهاب فى التجديد والدعوة للتوحيد، واتخذ سبيله فى ذلك بتفسير القرآن، وخاصة فى كتاب ذى المجلدات التسع: «روح المعانى» (٨).

ومن المغرب العربى، ظهر عبدالقادر الجزائرى، ثم ظهر محمد بن على السنوسى (١٧٨٧ - ١٨٥٩م)، الذى أنشأ حركة إصلاحية وطريقة صوفية، وشدد على الاعتبار بالكتاب والسنة على طريقة ابن عبدالوهاب وسلفه ابن تيمية، وفتح باب الاجتهاد، «ولا يتقيد بالمذاهب مع بقاء احترامه لها»، (٩) مع تنقية الدين من البدع.


عبدالقادر الجزائرى

وأقامت طريقته حركة جماعية، وأنشأت «الزوايا» التى تجمع بين الدراسة والعبادة والعمل، وقامت بنشر الإسلام بين القبائل الوثنية فى إفريقيا الوسطى. وفى الوقت نفسه، كانت الدعوة للإسلام تنتشر فى غرب إفريقيا ووسطها، بواسطة الشاذلية والتيجانية والقادرية (١٠).

هذه أمثلة لأبرز دعاة الإصلاح والتجديد فى الفكر الإسلامى عامة، وفى فقه الشريعة الإسلامية خاصة، ظهروا منذ القرن الثامن عشر، وظهروا فى الجزيرة العربية جنوبا، وفى الهند والعراق شرقا، وفى المغرب غربا. وظهروا فى مجالات الحركة السياسية والدعوة الفكرية، وفى الطرق الصوفية ونشر الإسلام. وكل ذلك يوحى أنها كانت صحوة، وكانت ظاهرة عامة منذ القرن الثامن عشر. وهى - فى هذا الإطار، وفى ذلك الوقت المبكر - كانت حركة إسلامية شرقية صرفة. قد تكون المناجزة مع الغرب واستشعار خطره الوشيك، من أسباب قيامها وانتشارها، خاصة فى المغرب، ولكن يظل مترجحا أنها - فى ذلك النطاق التاريخى المبكر - لم تتأثر بالفكر الغربى الذى لم يكن وفد بعد، لا فى مناهجها التجديدية، ولا فى موادها وأدواتها الفكرية، ولا فى هيئاتها الحركية والتنظيمية.

وهذه الحركة التجديدية العامة، تبنت ودعت إلى أصول الفكر الإسلامى ومناهج فقه الشريعة بما يلائم متطلبات التجديد والإصلاح، سواء بالنسبة للأوضاع الداخلية لهذه المجتمعات، أو بالنسبة لموجبات الحشد والترسيخ إعدادا لمقاومة الخطر الغربى الوشيك، الذى بدأ مناجزاته مع الدولة العثمانية فى الشمال - وخاصة فى القرن الثامن عشر (١١) - ثم مع توجيه السهم الخاطف إلى مصر بالحملة الفرنسية فى نهاية ذلك القرن، ثم مع بدايات الهجوم الشامل الذى تمثل فى احتلال الجزائر فى عام ١٨٣٠، ومع الضغوط العنيفة على أراضى الروملى العثمانية والحروب الروسية ضد الدولة.

وهذه الحركة التجديدية العامة، لم تكن معزولة الأصداء عن منطقة المركز فى تركيا ومصر والشام. وإذا كانت المؤسسات التقليدية فى هذه المنطقة قد انغلقت من دون هذه الصحوة، وحاربت استانبول - بجيش محمد على - الحركة الوهابية وواجهتها بعنف فظ، وأصم الأزهريون آذانهم عن سماع السنوسى الكبير عند مروره بمصر، فإن حديث الجبرتى عن ابن عبدالوهاب يوضح إلى أى مدى لقيت دعوة الوهابيين تعاطفا، من حيث كونها دعوة فكرية تجديدية، (١٢) وتتفق مع أصول المعتقد.

التقليد فى الفقه يعرفه الغزالى فى «المستصفى» بأنه قبول قول بلا حجة، ويعرفه آخرون بأنه اعتماد الإنسان فى فهم الحكم من الدليل على غيره لا على نفسه. والاجتهاد فى الفقه، هو بذل الفقيه جهده فى استخراج الأحكام من أدلتها الشرعية. ورفض التقليد يعنى طرح الالتزام باجتهادات السابقين. وفتح باب الاجتهاد يعنى العودة والأخذ المباشر عن المصدرين الأساسيين للشريعة الإسلامية، وهما القرآن والسنة، بمعنى أن يستقى المجتهد - بعقله المعاصر - حكم القرآن والسنة فيما يحيط به من مشكلات الواقع المعين فى عصره.

فالدعوة الاجتهادية هنا دعوة سلفية، لأنها تعود للمصدر الأول والأسبق، دون وساطة. وهى تجديدية، لأنها تتخفف من الالتزام

---

(٦) المصدر نفسه، ص ٤٣٦ - ٤٣٢.

(٧) محمد كرد على: القديم والحديث (القاهرة: المكتبة التجارية، ١٩٢٥ م)، ص٣٥٢، نقلا عن: «الهجرة إلى مصر» المقتبس، السنة ٢ (١٩٠٧/٢٢٥).

(٨) جرجى زيدان: تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر، ط٣، ٢ج (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٧٠)، جـ٢، ص١٧٦ - ١٧٨.

(٩) أحمد صدقى الدجانى: الحركة السنوسية: نشأتها ونموها فى القرن التاسع عشر (بيروت: دار لبنان، ١٩٦٧)، ص٧٥.

(١٠) على محافظة: الاتجاهات الفكرية عند العرب فى عصر النهضة، ١٧٩٨ - ١٩١٤: الاتجاهات الدينية والسياسية والاجتماعية والعلمية (بيروت: الدار الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٧٥)، ص٥٥ - ٦١. الجندى: اليقظة الإسلامية فى مواجهة الاستعمار، ص٦٩ - ٧٣ والدجانى: المصدر نفسه، ص٢٦٨ - ٢٦٩.

(١١) أحمد عبدالرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى (القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٢)، ص ١٤٣ - ١٧٠.

(١٢) محمد جلال كشك: السعوديون والحل الإسلامى، ط٤ (القاهرة: المطبعة الفنية، ١٩٨٤ م)، ص١٦٦ - ١٨٩.

باجتهادات السابقين، وتستعيد قراءة النصوص الأصلية قراءة معاصرة.

لقد اتفقت الدعوات المشار إليها جميعا فى هذا الطراز: الرافض للتقليد، الفاتح للاجتهاد. وآذن ذلك بأن تجرى حركاتها على انسجام وتناغم. وكانت هذه الدعوات ذات سعة وشمول، وآذن ذلك أن تقوى وتنمو، يغذيها انسجامها وأنها تتفق مع ما توجيه الأوضاع الاجتماعية والسياسية للنهوض ومقاومة الأخطار. وكان كل ذلك يقوم فى مواجهة سلطة دولة مُضعَفة تحوطها الأزمات، وفى مواجهة مؤسسات فكرية تقليدية واهنة النفوذ منهوكة العزم. وبرغم كل ذلك، أحسرت قوتها وأعيق نموها، أو انحسرت حركتها وعزلت فى المعازل.

ولا يبدو مقنعا فى ترتيب هذا المصير إلا هذا التدفق الهائج للهجمات الأوروبية الكاسحة على كل صعيد سياسى واقتصادى وفكرى واجتماعى، والتى طغت على اليابس والأخضر معا.

لذلك، نلحظ أن موجة التجديد التالية قد انبعثت فى ظروف مختلفة، بعد أن تحقق الغزو الاستعمارى الأوروبى، وتسرب ثم أمسك بمنطقة القلب وهيمن على كثير من الأقطار، وتراوح تغلغله من الاحتلال العسكرى، إلى الهيمنة السياسية والسيطرة الاقتصادية، إلى النفوذ الفكرى والثقافى وإعادة تشكيل المؤسسات الفكرية والاجتماعية. وقد انبعثت تلك الموجة التجديدية الثانية فى المناطق المغزوة نفسها، ومن أبرز رجالها: الأفغانى (١٨٣٩ - ١٨٩٦م)، ومحمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥م)، وخير الدين التونسى (١٨٢٢ - ١٨٩٧م)، وعبدالحميد بن باديس (١٨٨٩ - ١٩٤٠م).. إلخ. فجاءت فى ظروف جد مختلفة زمانا ومكانا، وحملت وظائف مختلفة.



الأفغانى — عبدالحميد بن باديس

والمهم - فى خصوص الموضوع المعروض - أنه فى هذا الظرف الجديد، صار على الحركة الإسلامية فى عمومها أن تواجه أوضاعا متعددة، تستدعيها مواقف فكرية جد متباينة. فهى لم تعد تواجه خطرا استعماريا وشيكا ولا احتلالا عسكريا حالا فقط، ولكنها صارت تواجه موجات من التبشير ونشر النزعة التغريبية فى المسالك والعادات وأساليب العيش. فلم يعد من مهمتها فتح باب الاجتهاد فقط، ولكن جدت لها مهمة الدفاع عن الأصول والثوابت المميزة للمعتقد والهوية. ودفع هذا فريقا من قادة الفكر إلى الابتعاد عن الموقف التجديدى، والانخراط فى موقف الذود عن الأصول والدفاع عن أصل وجود المؤسسات الإسلامية فى التعليم والقضاء والفكر وغيرها. وهنا نجد كتابات ومواقف لأمثال: الشيوخ محمد عليش وحسن العدوى وحسونة النواوى وسليم البشرى ومحمد بخيت ومحمد شاكر ويوسف الدجوى، مرتبين حسب تاريخ نشاطهم.

- يتبع -

الفتح الإسلامى لمصر



للأستاذ الدكتور/ محمد سليم العوا

(١)

خزائن الأرض

إن المقولة الشهيرة (حب الوطن من الإيمان) مقولة صحيحة. الوطن هو الذى يصنع هوية الإنسان، ويمنحه نعمة الانتماء، ويصنع له علاقة بالآخرين ثابتة فيه يرسخها تاريخ الآباء والأجداد وتمتد فى الأبناء والأحفاد. وحب الوطن، على هذه الصورة، شعور عاقل ينتج من التأمل الطويل المتكرر لمعانى المواطنة، وصور المشاركة فيها، وهو شعور مستمر لا ينقطع، دائم لا يتحول، لا يزيده الزمان إلا رسوخا واستقرارا، حتى إنه ليصح أن نقول إن الوطن خزانة المشاعر: الفردية منها والجماعية.

وحُبُّ الزمان والمكان لا يصح ولا يصدق إلا بحب الإنسان.

والحب، بين البشر، منه عاطفة تتكون بلا سبب فإذا دهَتْ محلها الدواهى، أو أتت نفس الإنسان منها المتاعب، أخلت المحبة مكانها للنقمة، وغادر الإعزاز مكانه من القلب مخليا إياه للنفور والبغضاء. ومن الحب عاطفة عاقلة، كحب الزمان والمكان، يغذوها العلم بمزايا المحبوب، ويثبت أركانها تكرار التأمل فيما يقدمه للمحب من العطايا المعنوية قبل المادية! ومن هذا النوع حب المصريين لمصر.

***

لقد أهدى الإنسان المصرى إلى البشرية أعظم ابتكار فى تاريخ الدنيا: اختراع الكتابة فالناس منذ آدم كانوا يتكلمون ولا يكتبون، فلما اخترع المصرى الكتابة دونت اللغات والتواريخ والجغرافيا والكيمياء والفيزياء والطب والهندسة والفلك والرياضة والموسيقى والفنون والآداب والصناعة وكل مكونات الحضارة ولولا هذا التدوين، الذى مكن له اختراع الكتابة والقراءة، لكانت ذاكرة الإنسان قد تاهت بما يعلم ويتعلم، وتفلت منها - وهى محدودة - أكثره، ولم يبق له إلا أقله!!

فحَقٌّ للإنسان المصرى أن يحب هذا الوطن الذى منح البشرية أول خطوة فى سبيل استبقاء العلوم، وصناعة الحضارة، وتدوين مظاهرها، وسهَّل للناس كافة، أن يستفيد

الجديد من القديم، واللاحق من السابق»(١).

وحب الأوطان يقتضي حمايتها من الشرور والذود عنها عند المحن، وتقوية الحق فيها وردّ الباطل عند الفتن والأوطان تستحق التضحية في سبيلها بما يملك أبناؤها من غال ورخيص، فلا يستكثر الوطني الحق حياته إذا دعاه داعي الوطن لتقديمها فداء له، ولا يبخل بمال مهما عظم إذا احتاج الوطن إليه.

ولا يستطيع أحد أن يصنع بعض ذلك - فضلا عن كله - إلا إذا عرف تاريخ بلاده، وتمثل مراحل القوة فيه والضعف، وميز فيه بين الصحيح والمنحول، والنقي والمدخول. ذلك أن التاريخ ليس قصة تحكى فحسب، وإنما هو عبر تؤدى من جيل إلى جيل، فإذا قصرنا في أداء هذه العبر فإنما في حق الوطن كان تقصيرنا، وإذا حافظنا عليها وقدمناها إلى الأبناء والأحفاد فإننا نكون قد أدينا قدراً مهماً من حق هذا الوطن علينا. فإن المرء إذا صحت معرفته صح قوله وعمله، وإذا اضطربت فسدا، ولم يعد بمقدوره أن يقدم لوطنه ما ينفع، أو يذود عنه ما يسيء إليه أو يضره!!

وإذا كان الدافع إلى هذه الدراسة مشكلة فكرية وتاريخية، أثارها أحد رءوس الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بكلام لا يصح، نشره على الناس في تحد للإسلام والمسلمين غير مسبوق، فإن فهم حقيقة العلاقة بين الأقباط والمسلمين في مصر لا يتم إلا إذا وقفنا على معالم الفتح الإسلامي لمصر، ثم مررنا على حقيقة الحياة الواحدة التي عاشها المصريون، بأديانهم كافة، لا بالمسيحية والإسلام وحدهما، وعرفنا إلى متى استمرت هذه الحياة الواحدة ومتى بدأت تنال منها الفتن، عندئذ يمكننا التعرف على عوامل الوحدة وتقويتها، وعلى أسباب الفرقة ومحاربتها، وعلى مثيري الفتن والمحرضين عليها وتعريتهم أمام الأمة المصرية لتعرف حقائق معاهم وتأخذ على أيديهم حماية لسفينة الوطن من الغرق: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم، وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»(٢).

وهؤلاء الذين يصنعون الفتن، أو يتكسبون منها، يخربون هذا البلد: إما على سبيل الخطأ الذي يبلغ مرتبة الخطأ الجسيم فلا يغتفر، وإما على سبيل العمد وسوء القصد الذي هو من أشنع مراتب الجريمة فينبغي أن يحاسب فاعلها عليها أشد حساب والتستر على صناع الفتن والمتكسبين منها جريمة لا تقل خطورة عن جريمتهم نفسها، ولذلك فإن كشفهم واجب، وتعريف الناس بحقائق أفعالهم

(١) قرب: احمد عادل كمال، حجر رشيد والهيروغليفية، الزهراء للإعلام العربي.

(٢) رواه البخاري عن النعمان بن بشير ح(٢٤٩٣).

واجب ولو قصرت الجهات ذات الشأن في محاسبتهم على ما يفعلون ومؤاخذتهم بما يقترفون. ولا نجاة للوطن إلا بالتمييز بين الخبيث والطيب، وبتمحيص المرابطين عليه وبيان حقيقة الساعين في هدمه وتخريبه.

***

ومصر التي نتحدث عنها تمتد من الغرب إلى الشرق من خط طول ٢٥ إلى خط طول ٣٥ شرق جرينتش، ومن الشمال إلى الجنوب من خط عرض ٣١ إلى خط عرض ٢٢ شمال خط الاستواء.

ومساحتها ١،٢٥٠،٠٠٠ كم٢ والمأهول منها ٤٥،٠٠٠ كم٢ بنسبة ٣،٦٪ هي التي يعيش المصريون عليها زراعة وصناعة وسكنى(٣)!

وقد أتاحت خصوبة أرضها، وماء النيل الذي كان يحمل إليها الطمي (الغرين)(٤)، على مر العصور، لشعبها أن يكون من أولى الشعوب التي صنعت الحضارة البشرية، شأنه في ذلك شأن شعوب ما بين النهرين، دجلة والفرات، وشعوب وادي السند في شبه القارة الهندية. ومع ذلك فإن هاتين الحضارتين ظهرتا في زمن متأخر عن الزمن الذي ظهرت فيه الحضارة المصرية وصنعت فيه مبتكراتها العلمية والعمرانية.

وقد اختلف الأقدمون والمحدثون في سبب تسميتها باسمها: مصر فقيل لأن أول من سكنها وعمّرها هو مصرايم بن بيصر بن حام ابن نوح عليه السلام(٥). وقال الجاحظ: «سميت كذلك لمصير الناس إليها واجتماعهم بها.. وجمع المصر من البلدان أمصار، وليس لهذه جمع لأنها واحدة»(٦).

وقال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية: «... وهي عندنا مشتقة من مصرت الشاة، إذا أخذتَ من ضرعها اللبن. فسميت مصر لكثرة ما فيها من الخير مما ليس في غيرها، فلا يخلو ساكنها من خير يدرّ عليه منها، كالشاة التي ينتفع بلبنها وصوفها وولادتها»(٧).

(٣) يذكر احمد عادل كمال في كتابه (الفتح الإسلامي لمصر) أن مساحة مصر ٣٨٦،٠٠٠ ميلا مربعاً (=٠٠٠،٠٠١، ١كم٢)، وفي موسوعة المورد هي ٣٨٦،٩٠٠ ميلاً مربعاً (=٠٠٠،٠٠٢، ١كم٢)، وهي في الموسوعة العربية (١،٠٠١،٤٤٩كم٢) والله أعلم بالصواب (!).

(٤) الغرين على وزن فِعْيِل، والغَرِينُ على وزن فَعِيل، هو الطين يحمله الماء فيبقى على وجه الأرض. انظر الفيروز أبادي، القاموس المحيط مادة غرين. واقتصر ابن منظور في لسان العرب على لفظ (الغَرِينُ) راجع: مادة (غرن).

(٥) القريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن ٢٠٠٢، ج١ص٤٣، والقلقشندي، صبح الأعشى، الهيئة العامة لقصور الثقافة (مصورة عن ط دار الكتب الخديوية)، القاهرة ٢٠٠٤، ج٣ ص٢٨٨، وابن عبدالحكم، فتوح مصر تحقيق على محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد ١٩٩٥، ص٣٧ وما يليها، وياقوت الحموي، معجم البلدان، تحقيق فريد عبدالعزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٠، ج٥ ص١٦٠ برقم (١١٣٠٤).

(٦) نقله عنه من كتاب مدح مصر، القريزي، السابق ص٥٥.

(٧) نقله القريزي، السابق، ص٥٨. ويؤكد صحة كلام عمر بن دحية أن مصر لم تزل، منذ كانت، تنتج ما يَتْخَمُ به الناهبون لثروتها فضلا عما يشبع أهلها ويكفيهم!!

وقال ابن الأعرابي: المصْرُ الوعاء.. وكذلك هي خزائن الأرض.. ألا ترى إلى قول يوسف:

﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾

(يوسف: ٥٥)[٨]

ويقول أهل اللغة: مصر، المدينة المعروفة، تذكر وتؤنث وتصرف وتمنع من الصرف[٩].

***

وقد عرف العرب مصر منذ أقدم عصور التاريخ، ثم حكموها في عهد الهكسوس، الذين مهما اختلف في أصلهم[١٠] فإن الاتفاق قائم على أن أسماءهم كنعانية[١١] وعند جرجي زيدان أن الهكسوس من الأمم العربية التي تمدنت قديماً ومنهم العمالقة.. ومنهم الملوك الرعاة الذين فتحوا مصر وحكموها عدة قرون[١٢].

والكنعانيون قوم من العرب سكنوا فلسطين منذ سنة ٤٥٠٠ - ٤٠٠٠ق.م.

وبنوا فيها مدينة القدس حوالي سنة ٣٥٠٠ق.م وهم قد غزوا مصر وحكموها ما بين سنتي ١٦٥٠ و١٥٤٢ قبل الميلاد ولم يهزموا إلا في عهد الملك أحمس الذي ردهم إلى ديارهم في فلسطين، فهناك تنتهي حدود مصر وتبدأ حدود بلاد الشام بمعناها الواسع الذي يشمل فلسطين ولبنان وسوريا وما يعرف بالأردن ولا مراء في عروبة الكنعانيين فلا تقف عند ما يبدو في كتابات بعض المؤرخين من التردد في كون الهكسوس من العرب[١٣] وقد بدأ الفتح الإسلامي لمصر في سنة ١٨هـ- ٦٣٩م، وكان سكان مصر يومئذ هم الرومان واليونان، والقبط، واليهود، وقبائل عربية عديدة كانت قد استوطنت مصر من خلال الهجرات من جزيرة العرب إليها، أو من خلال التجارة[١٤]، إذ كان المعتاد أن يبقى بعض التجار حيث يألفون من البلاد، ويتخذونها مواطن لهم، ويتزوجون من أهلها حتى يحسبوا منها[١٥] ويؤكد الصلات التجارية

(٨) المقريزي، الموضع نفسه.

(٩) القاموس المحيط مادة مصر.

(١٠) أحمد عادل كمال، الفتح الإسلامي لمصر، القاهرة ٢٠٠٢ مطبعة الشركة الدولية للطباعة، ص١٤.

(١١) زكي شنودة، تاريخ الأقباط، ط مطبعة التقدم، القاهرة ١٩٩٦، ج٢ ص٧٦.

(١٢) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، دار الهلال د.ت، ج١ ص٢٦ وراجع له أيضاً: تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة الهلال، القاهرة، د.ت، ص٤٢ وما بعدها.

(١٣) قال فيهم أخونا الجليل أحمد عادل كمال بعد أن ذكر اختلاف المؤرخين في أصلهم «ربهم أعلم بهم» المصدر السابق، ص١٤.

(١٤) سيدة إسماعيل الكاشف، مصر في فجر الإسلام، مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٩، ص٩.

(١٥) مصطفى كمال عبدالعليم، اليهود في مصر، مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٦٨، ص٤، وعويدا عبدالعظيم رمضان، اليهود في مصر الإسلامية حتى نهاية العصر الأيوبي، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٠، ص٣١ وما يليها، حامد سليمان، من القبطية إلى الإسلام، الكتب العربي للمعارف، القاهرة ١٩٨٨، ص ١٢ وما يليها، قاسم عبده قاسم، اليهود في مصر من الفتح العربي حتى الغزو العثماني، دار الفكر للدراسات القاهرة ١٩٨٧، ص١١ وما يليها.

القديمة بين العرب ومصر ما ينقله من ذلك، بتفصيلات غير قليلة، المؤرخ الفرنسي الشهير (جوستاف لوبون) في كتابه: حضارة العرب[١٦].

لقد كانت مصر - ولاتزال - محط أنظار العالم، وثروتها الهائلة، وموقعها الجغرافي الفريد، وحضارتها القديمة الراسخة الجذور في الأرض، وبحارها الشاسعة.. كل ذلك جعلها مطمع الطامعين حتى غزاها أعداؤها - قبل الفتح الإسلامي ثلاث عشرة مرة (!) ثم كان الفتح الإسلامي الذي لم يكن على أي نسق سابق، ولم يلحقه في طبيعته أي غزو لاحق (غزيت مصر بعد الفتح الإسلامي ست عشرة غزوة!!) وسوف يتبين لنا ذلك إن شاء الله[١٧] لقد كانت جميع الغزوات السابقة واللاحقة للفتح العربي استعمارية معادية لمصر وللمصريين وقاوم المصريون جميع هؤلاء الغزاة حتى أجلوهم عن البلاد أو أذابوهم في أهلها، فلم يعودوا يميَّزون عنهم (!) لكن الفتح الإسلامي كان تحريراً لمصر من المستعمر الروماني، واستقر فيها الإسلام، وتعرّب اللسان والثقافة فأصبحت مصر عربية إسلامية إلى أن يرث الله الأرض

ومن عليها.

وعندما بدأت بشائر الفتح العربي لمصر، وكان حكامها يومئذ من الرومان (الدولة الرومانية الشرقية التي كانت عاصمتها القسطنطينية، التي يقال لها الدولة البيزنطية)، كان بطريرك القبط هو الأنبا بنيامين، وكان مختفياً في الصحراء بسبب مطاردة الرومان له، فلما بلغه قدوم عمرو إلى مصر كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا تكون للروم دولة، وأن ملكهم قد انقطع، وأمرهم بتلقي عمرو، فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما[١٨] كانوا يومئذ عوناً لعمرو بن العاص[١٩].

وقد كان للفتح الإسلامي[٢٠] لمصر مقدمات من أهمها العلاقة التي قامت بين رسول الله ﷺ وبين المقوقس عظيم القبط[٢١].

(٢)

رسائل وبشارات

بعد اتفاق النبي ﷺ مع مشركي مكة على الهدنة في الحديبية، كاتب رسول الله ﷺ

(١٦) مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٠، ترجمة عادل زعيتر، ص٤٤.

(١٧) راجع: أحمد عادل كمال، السابق، ص١٤ - ٦٩.

(١٨) مدينة درست كانت تقع شرق بورسعيد، ولم يبق منها إلا تل الفرما على بعد ٣كم عن ساحل البحر المتوسط ونحو ٢٤كم شرق محطة الطينة على سكة حديد بورسعيد/ الإسماعيلية التي تربط بين مصر والعريش.

(١٩) ابن عبدالحكم، السابق، ص٨٠.

(٢٠) استعملت وصفي «العربي» و«الإسلامي» لفتح مصر دون تفرقة بينهما، لأنه كان فتحاً عربياً إسلامياً في حقيقته، وواقعه، ولست ممن يقررون - تعصباً - أن أحد الوصفين نقيض للآخر أو ضد له(!)

(٢١) المقوقس اسم وظيفة، معناه: حاكم مصر من قبل الرومان، وليس اسم شخص بعينه، ولا نسبة إلى بلد معين.

جيران جزيرة العرب من الملوك ونحوهم ويروى أصحاب السير نحو مائة رسالة أملاها النبي ﷺ وأرسلها إلى ذوى الجاه والسلطان داخل جزيرة العرب وخارجها، أكثرها كتب لمن لم يكونوا قد أسلموا بعد، وأقلها كتب لقوم أسلموا يُعلِّمهم فيه بعض شعائر الإسلام وأحكامه[٢٢].

فكان ممن كاتبهم المقوقس حاكم مصر من قبل إمبراطور الروم (هرقل) والمقوقس كلمة يونانية معناها حاكم، أو معناها الأجلّ أو المبجل، ولقبه النبي ﷺ على عادة العرب يومئذ بـ: (عظيم القبط) أما اسمه فكان جورج بن مينا[٢٣] وقال الرواة المسلمون إن اسمه كان جريج (=جورج) بن قرقب الرومي، ويقولون عنه «صاحب الإسكندرية» إذ كانت عاصمة مصر آنئذ.[٢٤] والمقوقس لم يكن من القبط وإنما كان من اليونان أو الرومان يعينه إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية حاكماً على مصر، وتلقيبه بـ: (عظيم القبط) لأنه كان حاكمهم في ظل الاستعمار الروماني.

أرسل النبي ﷺ كتابه إلى المقوقس مع الصحابي الجليل حاطب بن أبي بلتعة، وهو من توابع أصحاب النبي ﷺ، ومن أكثرهم تمرساً بالدبلوماسية العربية قبل الإسلام، ومن قبيلته (لخم) بطون سكنت مصر من أقدم العصور فكان له معرفة بها، وجماعة يستطيع أن يأوى إليها، وذلك كله من الأسباب التي اختاره النبي ﷺ من أجلها ليحمل كتابه إلى مصر.

وكان نص الكتاب، فيما روته المصادر الإسلامية بغير خلاف يذكر، هو:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبدالله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد:

فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم القبط و ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[٢٥]

ودعاية الإسلام أي دعوته؛ وأسلم تسلم أي من عذاب الآخرة، ويؤتك الله أجرك مرتين أي أجر الإيمان بنبي قبل محمد ﷺ ثم أجر الإيمان بمحمد ﷺ وليس من معاني أسلم تسلم ما يذهب إليه بعض من لا علم له

---

(٢٢) انظر على سبيل المثال الكتب التي ذكرها ابن سعد في الجزء الأول من الطبقات في صفحات متعددة، محمد بن سعد: كتاب الطبقات الكبير، ط مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٣، تحقيق دكتور علي محمد عمر، ومعظم هذه الرسائل النبوية مجموعة في كتاب الأستاذ محمد حميد الله الحيدر آبادي، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار الإرشاد، بيروت ١٩٦٩.

(٢٣) يعقوب نخلة روفيلة، تاريخ الأمة القبطية، تقديم جودت جبرة، ط٢، القاهرة ٢٠٠٠، ص٣٩، وراجع في بعث حاطب إليه: تاريخ الطبري، ط بيت الأفكار الدولية بعناية أبي صهيب الكرمي، عمّان [د.ت] ص٤١٥ و٤١٦.

(٢٤) أحمد عادل كمال، السابق، ص٨٣، وابن عبدالحكم، السابق، ص٦٦.

(٢٥) ونص الكتاب في: ابن عبدالحكم، السابق: ص٦٦، وفي أحمد عادل كمال، السابق، ص٢٢٣، وفي مصادر تاريخية أخرى كثيرة.

من أن معناها تسلم من القتل أو تسلم من الحرب، فهذا تقوُّل على النص لا يحتمله سياقه. وفي الكتاب درسٌ للدعاة المسلمين يؤخذ من نص آية آل عمران التي ختم بها النبي ﷺ كتابه ففيها:

﴿ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

لم يقل القرآن اشهدوا بكفركم، ولا اشهدوا بأنكم كاذبون، ولا نحو ذلك من الأقوال التي هي صادقة في حال توليه عن دعوة الإسلام ولكنها لا تناسب مقام الدعوة، لأن فيها ذماً للمدعوين واستثارة لحفائظهم فناسب ذلك المقام أن يشهدوا هم بأننا مسلمون كما نشهد نحن بإسلامنا، وكأن النص القرآني يقيم بهذا الاستشهاد الحجة عليهم بأننا قد بلغناهم رسالة الإسلام وكلمته.

فلما بلغ حاطب الإسكندرية، وجد المقوقس في مجلس مشرف على البحر[٢٦] فركب حاطب البحر فلما حاذى مجلس المقوقس أشار إليه بالكتاب، فأمر به المقوقس فأوصل إليه، وأمر بالكتاب فقبض (تُسلِّم) منه، فلما قرئ له أخذه وجعله في حق[٢٧] من عاج وختم عليه وصورة الكتاب منشورة في مؤلف أحمد عادل كمال (الفتح الإسلامي لمصر)[٢٨]. وهو مستقيم السطر جميل الخط، لابد أن المقوقس قد تذوق أسلوبه ومضمونه. وكان حاطب في منطقه ومظهره وحضور بديهته جديراً بالسفارة عن رسول الله ﷺ[٢٩].

وقد بقي هذا الكتاب النبوي محفوظاً في مصر إلى أن عثر عليه في إحدى كنائس الصعيد في عهد السلطان عبدالمجيد الذي نقله إلى الآستانة وأمر أن يصنع له صندوق ذهبي يحفظ فيه، وهو لايزال معروضاً في ذلك الصندوق في أحد متاحف استانبول.

وقد دار بين المقوقس وحاطب حوار روته المصادر الإسلامية على النحو الآتي: بعد أن قرأ المقوقس الكتاب، قال:

- ما منع محمداً إن كان نبياً أن يدعو عليّ فيسلَّط عليّ؟

- فقال حاطب: ما منع عيسى بن مريم أن يدعو على من أبى أن يُفعل به ويفعل؟

فوجم المقوقس ساعةً، ثم أعاد الجملة نفسها على حاطب، ورد حاطب رده نفسه فسكت[٣٠].

- قال حاطب: إنه كان قبلك رجل زعم أنه

---

(٢٦) يحقق أحمد عادل كمال في الوضع السابق أنه قصر داخل الماء في لسان السلسلة بمحطة الرمل المواجه لموقع مكتبة الإسكندرية الآن.

(٢٧) الحق علبة صغيرة من خشب أو عاج، راجع ابن منظور، لسان العرب: مادة حق، والفيروز آبادي، القاموس المحيط المادة نفسها، وأحمد تيمور، معجم تيمور الكبير، ج٣ ص١١٨ مادة حق، وج٤ ص٤٢٨ مادة علبة.

(٢٨) أحمد عادل كمال، المرجع السابق، ص٢٢٣ - ٢٢٤.

(٢٩) السابق، ص٢٢٤.

(٣٠) يرد صديقنا الدكتور يوسف زيدان هذا الحوار بدلالة أن المقوقس لا يؤمن بنبوة عيسى بل بأنه إله أو ابن الإله. والواقع أن هذا الرد غير صحيح فليس في كلام حاطب أنه قال للمقوقس إن عيسى - عليه السلام - نبي.

الرب الأعلى (فرعون) إذ قال:

﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾

فانتقم الله به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يُعتبر بك، وإن لك دينا لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام الكافى الله به فقد ما سواه؛ وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به (31).

هذه هى سلسلة الأنبياء، وذريتهم المتواصلة من آمن بواحد ثم جاء الذى بعده يجب عليه أن يؤمن به موسى وعيسى ومحمد ثلاثة أحدهم بعد الآخر فى سلسلة أولى العزم من الرسل فإذا كان اتباع عيسى يدعون أتباع موسى إلى الإيمان بنبيهم فإن الطبيعى، والمعقول، أن يدعوا أتباع محمد أتباع النبيين السابقين إلى الإيمان به. ولذلك قال حاطب للمقوقس «ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به» وهو قول مأخوذ من قول القرآن الكريم فى إيمان المسلمين:

﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾

(البقرة: 285)

فكان أمر حاطب للمقوقس بدين المسيح يأتى فى إطار الإيمان الشامل بالإسلام الذى لا يتم إيمان المرء به إلا بإيمانه برسل الله وأنبيائه كافة.

استبقى المقوقس حاطباً أياماً حتى يرد على الكتاب، وذات ليلة أرسل المقوقس إلى حاطب فأتاه، فإذا هو وحده ليس معه إلا ترجمانٌ له، فقال:

- ألا تخبرنى عن أمور أسألك عنها، فإنى أعلم أن صاحبك قد تخيّرك حين بعثك.

- قال حاطب: لا تسألنى عن شىء إلا صدقتك.

- قال: إلام يدعو محمد؟

- قال: إلى أن تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتخلع ما سواه، ويأمر بالصلاة.

وقد أدرج حاطب الأمر بالصلاة مع الأمر بتوحيد الله لأن الصلاة عماد الدين من أقامها أقام الدين ومن هدمها هدم الدين، ولأن الأمر الذى بين المسلمين وبين غيرهم هو الصلاة من تركها فقد كفر، يعنى من تركها جحوداً بها وإنكاراً لها، وكان أصحاب النبى ﷺ عند تبليغ الدعوة إلى غير المسلمين كانوا ينصون على أساسيات الإسلام لئلا يقع فى وهم المبلَّغ أنه ليس عليه إلا النطق بالشهادتين.

- قال المقوقس: فكم تصلون؟

- قال حاطب: خمس صلوات فى اليوم والليلة؛ وصيام شهر رمضان (أى إن النبى ﷺ يأمر به) وحج البيت والوفاء بالعهد وينهى عن أكل الميتة والدم.

(31) ابن عبدالحكم، السابق: ص66، والمقريزى، السابق: جـ1 ص77 وأحمد عادل كمال، السابق: ص 224 ـ 225 والعمدة هو ما رواه ابن عبدالحكم وعنه أخذ الآخرون.

المسيحيون يصلون ويصومون بطريقتهم، ويحجون إلى بيت المقدس على طريقتهم، والوفاء بالعهد أمر مشترك بين الأديان السماوية كافة، والنهى عن أكل الميتة والدم من أمور العادات التى يتعبد بتركها أو يعصى الله بفعلها، فكان ذكر هذا كله مما يناسب دعوة رجل مسيحى إلى الإسلام.

- قال: من أتباعه؟

- قال: الفتيان من قومه ومن غيرهم

- قال: فهل يقاتل قومه؟

أى يقاتلهم بسبب معارضتهم له ومقاومتهم لدعوته إلى الدين الذى بعث به. وسؤال المقوقس فى محله تماماً إذ سبقه قول حاطب إن أتباع محمد هم الفتيان أى الشباب فكان طبيعياً أن يسأل المقوقس عن بقية الناس هل يسكتون على هذه الدعوة أم يقاتلون صاحبها؟؟

- قال: نعم.

قال المقوقس: صفه لى، فوصفه حاطب ببعض صفته ﷺ.

قال المقوقس: قد بقيت أشياء لم أرك ذكرتها، وذكر المقوقس بعض صفة النبى ﷺ.

فقال حاطب: هذه صفته (!)(32).

قال المقوقس: قد كنت أعلم أن نبياً قد بقى، وقد كنت أظن أن مخرجه الشام، وهناك كانت تخرج الأنبياء قبله، فأراه قد خرج فى العرب، فى أرض جهد وبؤس.

ثم دعا المقوقس كاتباً يكتب بالعربية فكتب: «لمحمد بن عبدالله من المقوقس عظيم القبط، سلام أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمتُ ما ذكرتَ، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقى، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين، لهما مكان فى القبط عظيم، وبكسوة وبغلة لتركبها والسلام»(33).

ويلاحظ فى خطاب المقوقس أنه يبدأه باسم المرسل إليه، وهذا من العادات الحسنة فى الكتابة بين الناس أن يبدأ بأعلاهما شأناً، وأكرمهما منزلة كتب إليه رسول الله ﷺ: من محمد بن عبدالله.. وكتب هو لمحمد بن عبدالله من المقوقس...، ولا ريب أن هذا من حسن أدب المقوقس ومعرفته بأصول الخطابات السياسية بين الزعماء والملوك.

ودفع المقوقس الكتاب إلى حاطب، وأمر له بمائة دينار، وخمسة أثواب، وقال له: «ارجع إلى صاحبك، ولا تسمع منك القبط حرفاً واحداً، فإن القبط لا يطاوعونى فى اتباعه(34) وأنا أضن بملكى أن أفارقه،

(32) وهذا مصداق لقول الله تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ (الأعراف: 157)، وقوله سبحانه ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ (البقرة: 146 والأنعام: 20) وفى هذه الآيات رد على الذين أنكروا صحة هذا الحوار بزعم أن المقوقس ما كان يمكن أن يعرف وصف محمد ﷺ وهو لم يره!

(33) ابن عبدالحكم، الموضع نفسه، والمقريزى، الموضع نفسه، وأحمد عادل كمال، الموضع نفسه، والنص من نصب الراية للزيلعى، ط. المكتب الإسلامى، بيروت 1393هـ جـ4 ص422.

(34) وإذا كان القبط لا يطاوعونه، فإن الروم من باب أولى، لا يطاوعونه كذلك وقد ذكر القبط لأنهم أهل البلاد المعنيون بالأمر فيها، ولم يكن للروم إلا سلطان المحتل وقوة جنده!)

وسيظهر صاحبك على البلاد، وينزل بساحتنا هذه أصحابه من بعده فارحل من عندى»!

وكلام المقوقس صحيح فالقبط لا يمكن أن يطاوعوه بسهولة على ترك دينهم واتباع هذا الدين الجديد الذى هو الإسلام وهو ملكانى من أتباع مذهب الطبيعتين، وهما يعقوبيون من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة، فإذا لم يطيعوه فى الخلاف داخل المسيحية فكيف يطيعونه فى الخروج منها جملة؟!

وتهيبه حاطباً أن يخبر القبط بالمحاورة بينهما فى محله لأنه يكره أن يشاع عنه أنه علم بصحة نبوة محمد فيكون هذا سبباً لغضب هرقل عليه.

قال حاطب: «فرحلت من عنده... فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت له ما قال لى فقال: «ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه»[35]! قال حاطب: «كان لى مكرماً فى الضيافة وقلة اللبث ببابه، وما أقمت عنده إلا خمسة أيام»[36].

وفى الروايات زيادات فى وصف الهدايا، وعدد من بعثهن المقوقس إلى النبى، وأشياء أخرى، ولعل الأصح ما نقلناه.

والجاريتان هما مارية أم ولد رسول الله ﷺ إبراهيم، رضى الله عنه، وأختها: سيرين، أو حنة أو قيصر، وقد اختلف فيمن أهداها له النبى ﷺ فقيل لجهم بن قيس العبدرى، وقيل لمحمد بن مسلمة الأنصارى، وقيل لخليفة الكلبى، وقيل لحسان بن ثابت، والله أعلم أى ذلك كان. المهم أن نعرف أن النبى ﷺ لم يجمع بين الأختين فى ملك يمينه، فكذلك غير جائز كما أن الجمع بينهما فى الزواج غير جائز وقد كان من حديثهما أن النبى ﷺ لما نظر إليهما رأى فى وجهيهما الطيبة والصلاح فقال: «اللهم اختر لنبيك» وسألهما «أتسلمان؟»، فقالت مارية: نعم! أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وتأخرت شقيقتها بعض الوقت فقال النبى ﷺ: «لقد اختار الله لى»، واستبقى لنفسه مارية التى أسلمت فور سؤاله لهما عن الإسلام، وجعل الثانية هدية لواحد من أصحابه، والذين يترجمون للصحابة يثبتون أنهما كانتا مسلمتين صالحتين لم يؤثر عنهما إلا الخير.

ولم يكن ذلك التواصل، بين النبى ﷺ والمقوقس، هو التواصل الوحيد، بين الدولة الإسلامية فى المدينة المنورة، وبين قبط مصر.

فقد أرسل النبى ﷺ إلى مصر شرحبيل بن حسنة الكندى من تبوك، وأرسل أبو بكر حاطباً نفسه - مرة أخرى - إلى المقوقس، وأرسل عمر بن الخطاب كعب بن عدى التنوخى سنة ١٥هـ، وكان أبو بكر قد أرسله كذلك سنة ١٣هـ إلى المقوقس[37].

---

(٣٥) نصب الراية، السابق، الوضع نفسه.

(٣٦) روى هذا الخبر ابن سعد فى الطبقات بسنده إلى ابن عباس والعلاء بن الحضرمى وعمرو بن أمية الضمرى وغيرهم. ابن سعد، الطبقات، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٢، ج١ص٢٢٢ - ٢٢٤ وهو فى نهاية الأرب لشهاب الدين النويرى، ط دار الكتب، القاهرة ١٩٥٥، ج١٨ ص١٦٤؛ وفى نصب الراية، السابق، الوضع نفسه.

(٣٧) تراجم هؤلاء الصحابة، وذكر سفاراتهم إلى مصر، فى أسد الغابة، والإصابة والاستيعاب، وذكر بعثة شرحبيل أحمد عادل كمال ص٢٤٥ ولم يذكر لها مصدراً.

وقد قبل رسول الله ﷺ هدية المقوقس، وكان لا يردها من أحد من الناس، وكان فيها مع الثياب والجاريتين والبغلة عسلا عن عسل بنها، فأعجب النبى ﷺ ودعا فيه بالبركة (!) ولم يكن المقوقس الذى قبل النبى ﷺ هديته مسلماً. والثابت عن رسول الله ﷺ أنه قبل هدايا أهل الكتاب وهدايا المشركين مادامت لا شبهة فيها، فالذين يضيقون على الناس - فى هذا الزمان - ويحرمون الهدية إلى غير المسلم، أو قبول الهدية منه، مخطئون، وليس لهذا التحريم أساس من الكتاب أو السنة، بل التضييق كله ليس جائزاً إذ النبى ﷺ مبعوث بالحنيفية السمحة وكما أن التشديد على العباد بغير سند محرم أو مكروه فإن التساهل والتفريط فى أمر الدين، أو فى أمر الكرامة الإنسانية، محرم كذلك أو مكروه والواجب على الناس أن يكونوا كما قال رب العالمين

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾

(البقرة: ١٤٣)

***

والمقوقس الذى كاتبه رسول الله ﷺ ليس هو المقوقس الذى راسله أبو بكر وعمر ثم لقيه عمرو بن العاص، فالأول هو (جورج أو جريج بن مينا أو ابن قرقب) الذى عزل سنة ٦٣١م، وتولى بعده مقوقس ثان اسمه «سيروس أو قيرس» وهو الذى اضطهد القبط أعظم الاضطهاد وأقساه[38] والأول - الذى كاتبه النبى ﷺ - كان حاكماً على مصر فحسب، ولم تكن له صفة دينية، والثانى كان حاكماً وبطريركاً ملكانياً[39] فى الإسكندرية، باعتبارها العاصمة[40].

وكان المعتاد أن ترسل القسطنطينية حاكماً للإسكندرية (رجل دولة) وأن ترسل أسقفاً (رجل كنيسة) تكون له الزعامة الدينية دون السياسية، ولكن هذا البطريرك (قيرس) جمع بين الرئاستين الدينية والسياسية، على خلاف سلفه الذى كان رئيساً سياسيا فحسب.

ولم تكن هذه الصلات، التى أورثت معرفة لا ريب فيها بمصر وثرواتها وحضارتها، هى الدافع الوحيد لتوجه الفتح الإسلامى إليها، بل كان مع ذلك، وربما قبله البشارات النبوية بفتح مصر: «إنكم ستفتحون مصر، وهى أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً» أو قال «ذمة

---

(٣٨) عبدالرحمن الرافعى، مصر القديمة من فجر التاريخ إلى الفتح العربى، ط١ مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٦٣، ص٢٠٢؛ وأحمد عادل كمال، السابق، ص٨٣.

(٣٩) أى على دين الملك هرقل، من الإيمان بالطبيعتين والمشيئتين للسيد المسيح عليه السلام.

(٤٠) لايزال البطرك فى الكنيسة الأرثوذكسية المصرية يسمى بطريرك الإسكندرية.

وصهراً»[٤١] وقال ﷺ: «إذا فتح الله عليكم مصر، فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً، فذلك الجند خير أجناد الأرض، فقال له أبو بكر: ولم يا رسول الله؟ قال «لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة»[٤٢].

كان الصحابة يؤمنون بصدق هذه البشارات النبوية إيماناً تاماً، فقد عاينوا الوحي، وشاهدوا رسول الله ﷺ وعرفوا صدقه. وإذا كنا نحن اليوم نؤمن بأن رومية (روما) ستفتح للإسلام كما فتحت القسطنطينية، ونؤمن أن هذا الدين سيبلغ ما طلعت عليه الشمس حتى لا يبقى بيت وبر ولا مدر إلا دخله الإسلام بعز عزيز أو بذل ذليل، ونؤمن بأن الأرض ستعود أمناً وسلاماً حتى تخرج الظعينة من صنعاء إلى مكة لا تخشى إلا الله، ويخرج الراعي لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه، نؤمن بذلك تماماً ونعتقد أنه واقع لا محالة، فإن إيمان الصحابة كان كذلك، بل هم كانوا أقوى يقيناً بغير شك. ولذلك خرجوا لفتح مصر متزودين بإيمانهم بهذه البشارات، وبالمعلومات التي عرفوها عن مصر على مدى السنين، وبالصلات القديمة بين قبائل العرب وفروعها التي استقرت في أنحاء من مصر كما سنرى فيما بعد.

وتصديقا لهذه البشارات وعلماً بحقائق الأحوال في مصر، من الرسل المتتابعين إليها، كان التحرك الإسلامي للفتح.


مسجد عمرو بن العاص أول مسجد أنشأه الفاتحون المسلمون في مصر وفي أفريقيا

(٤١) رواه مسلم عن أبي ذر، ح[٢٥٤٣] والقيراط جزء من أجزاء الدينار والدرهم كان أهل مصر يستعملونه (قاله النووي: ج١٦ص ٩٧) وهو أيضا جزء من ٢٤ جزءا من الفدان، أو من العقار بوجه عام.

(٤٢) كنز العمال، ح[٣٨٢٦٢] عن عمر بن الخطاب.

ميراث المرأة وقضية المساواة



للأستاذ الدكتور: د. صلاح الدين سلطان

قضت حكمة الله تعالى أن يكون الصراع بين الحق والباطل أبدياً منذ نزل سيدنا آدم إلى هذه الأرض إلى أن تقوم الساعة قال سبحانه:

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾

(البقرة: ٣٦)

ويقول سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

(الحج: ٤٠)

ولكن الله سبحانه وعد أصحاب الحق بالنصر والتمكين فقال سبحانه:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾

(غافر: ٥١)

وإذا كان أنصار الباطل يكرون بين الحين والآخر بزبدهم على ما استقر لدى المؤمنين من ثوابت الحق، فإن هذا الزبد لا يلبث أن يذهب مع أقل عوامل التعرية، قال تعالى:

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾

(الرعد: ١٧)

ومن هذا التزيد الرخيص استغلال موضوع المرأة ليكون مرتعا خصبا للهجوم على الإسلام؛ فيرون أن تشريعات الإسلام قد ظلمت المرأة ظلما بينا عندما جعلت القوامة للرجل دونها، وجعلت للرجل دونها حق تعدد الزوجات، وحبستها وراء الأسوار، ومنعتها من الولاية العامة، وأعطتها نصف الرجل فى الميراث.

وقد وصل الأمر إلى عقد اتفاقية للقضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة اعتمدتها الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ١٨ / ١٢ / ١٩٧٦، وفتح باب التوقيع عليها فى مارس سنة ١٩٨٠ وأصبحت نافذة المفعول من ٣ / ٩ / ١٩٨١ ووافق على الالتزام بجميع أحكامها ثلاثة وتسعون بلداً منها مصر وتركيا وتونس واليمن وإندونيسيا وبنجلاديش والعراق من البلاد الإسلامية.. وقد جاء فى المادة الأولى من الاتفاقية ما نصه:

«لأغراض هذه الاتفاقية يعنى مصطلح التمييز ضد المرأة: أى تفرقة أو استبعاد أو تقييد يتم على أساس الجنس.. ويجب تساوى الرجل والمرأة فى الحريات الأساسية فى الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية والتعليمية أو فى أى ميدان آخر».

وورد فى المادة الثانية: «تشجب الدول الأطراف جميع أشكال التمييز ضد المرأة وتوافق على أن تنهج بكل الوسائل المناسبة ودون إبطاء سياسة القضاء على التمييز ضد المرأة».

وقد انعقد مؤتمر السكان فى مصر فى سبتمبر سنة ١٩٩٤ وكان من أهدافه أن تعطى المرأة حق المساواة مع الرجل فى كل شىء، ورأى المؤتمرون تخصيص حقوق المرأة بمؤتمر آخر تالى فى بكين بالصين فى (٢٠ - ٢٥) سبتمبر سنة ١٩٩٥، ويبدو الاتجاه واضحا فى الهجوم على الإسلام فى تفرقته بين الرجل والمرأة فى بعض الأحكام.

ومن الموضوعية أن تقرر أن هناك ممارسات من بعض المسلمين نحو المرأة قد سوغت لأعدائهم أن يبالغوا فى هجومهم على الإسلام خلطا منهم بين حقائق الإسلام وتخليط بعض المسلمين.

وإذا كانت هناك مؤلفات كثيرة من الغيورين على الإسلام قد فندت دعاوى الحاقدين بالأدلة الدامغة والبراهين الساطعة؛ فإن حق المرأة فى الميراث لم أقف فيه على دراسة علمية متأنية تعالجه معالجة موضوعية، فانتدبت نفسى تقربا إلى الله تعالى، وحمية على هذا الدين المتين، والتماسا للمعذرة بين يدى الله تعالى يوم الدين؛ لأن هذا من فروض الأعيان علينا نحن المتخصصين فى الشريعة الإسلامية.

ولما كان موضوع حق المرأة فى الميراث مرتبطا بحقها فى النفقة فقد جعلت عنوان البحث: التوازن بين حقوق المرأة فى الميراث والنفقة فى الشريعة الإسلامية، وجعلته فى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول بعنوان: «حق المرأة فى الميراث فى الشريعة الإسلامية».

قدمت فيه أمثلة كثيرة وضعت فيها المرأة

بمكان من يحاذيها من الرجال فى قوة القرابة ودرجتها فإذا بالاستقراء يظهر ما يلى:

١ - هناك أربع حالات فقط ترث فيها المرأة نصف الرجل.

٢ - هناك حالات أضعاف ما سبق ترث فيها المرأة مثل الرجل تماماً.

٣ - هناك حالات عشر أو تزيد ترث فيها المرأة أكثر من الرجل.

٤ - هناك حالات ترث فيها المرأة ولا يرث نظيرها من الرجال.

أما المبحث الثانى فعنوانه: «حق المرأة فى النفقة فى الشريعة الإسلامية».. تعقبت فيها حالات المرأة بنتا ثم زوجة ثم أماً وجعلت لكل حالة مبحثا تعرضت فى كل للأدلة القطعية على وجوب الإنفاق على المرأة سواء كان ذلك فى ذمة الأب لابنته أو الزوج لزوجته، أو الأبناء لأمهم، وتعرضت فى ذلك أيضاً لما تختص به البنت دون الذكر من حق الإنفاق عليها ما دامت بلا زوج، أما الذكر فحتى يبلغ قادراً على الكسب.. وتعرضت بعد ذلك لحقوق الزوجة فى النفقة، وكيف أن الفكر الفقهى قد بالغ جداً فى إكرام الزوجة، فنجد للفقهاء شروطا فى سكن الزوجية أن يكون فارغا من أحماء الزوجة أو أبناء الزوج من امرأة أخرى إلا بإذن الزوجة نفسها، وأن يكون السكن واسعا ذا تهوية جيدة، وغير موحش وبين جيران صالحين، وذلك كله فى حدود يسار الزوج.

أما الطعام فقد اشترط فقهاؤنا أن يكون كافيا ومتنوعا، أما الكسوة فقد أوجبوا للزوجة كسوة للصيف وأخرى للشتاء، وكسوة لليل وأخرى للنهار، وكسوة داخلية وأخرى خارجية، وكسوة للصلاة وأخرى للخروج، كما جعلوا من حقوق المرأة أدوات التطيب من صابون وسوائل للشعر، ومكحلة للعين، ومزيل للعرق والسهوكة. كما أكدوا على حق الزوجة فى خادمة إن كانت ممن تُخدم لدى أهلها، وكان زوجها موسرا، بل نعجب معاً إذ نجد للفقهاء اهتماماً بوجود غسالة وسخان فى منزل الزوجية هذا فوق ما يجب لها من الرعاية والعناية عند الحمل والوضع والرضاع.

كما رصدت الدراسة فى آخر الفصل ما اتفق عليه فقهاء الأمة من وجوب تقديم الأم على الأب فى واجب النفقة والبر فجعلوا للأم حقوقاً معنوية ومادية أكثر من الأب.

وقد جاء المبحث الأخير بعنوان: التوازن بين ميراث ونفقة المرأة فى الشريعة الإسلامية. وقد ركزت فيه على هذه العلاقة بين الميراث والنفقة للبنت ثم للأم ثم للأخت ثم للزوجة وهى الحالات التى ترث فيها المرأة نصف الرجل أحياناً، مع حالات أخرى تظهر أخيراً من مقررات الشريعة توازناً دقيقاً بين حقى المرأة فى الميراث والنفقة بشكل يجعلها إما تساوى الرجل أو هى أحظى منه مراعاة لضعفها عن مسايرة الرجل فى التكسب والتربح، كما تظهر الدراسة أن المرأة تساوى الرجل فى حق الميراث أو تأخذ أكثر منه عندما يقل ضمان كفالتها، ولا ترث نصفه إلا إذا تضاعف أوجه كفالتها بشكل يجعلها فى مأمن من العوز والحاجة، ولعل هذا يشبه فى

وجه ما يدفعه الناس من أقساط للتأمين للحصول على مبلغ يسد بعد آثار الخطر، والأمر يختلف من وجه آخر لأن كثيراً من صور التأمين الحالية لا تخلو من الربا والغرر وغيره مما يجعله محرماً، ولا يحظى من دفع الأقساط على قدر يكفي حاجته غالباً وإنما هناك عوامل كثيرة تحكم المسألة.. أما حق المرأة في النفقة في جميع أحوالها فهو مما يلتزم به المسلمون ديانة، ويحكم به القضاة وجوبا، ويكون حق المرأة من الديون الممتازة التي تقدم على غيرها من الديون.

أريد أن تحظى هذه الدراسة برضا الباحثين عن الحقيقة، وأن ترد أصحاب عقول لُبِّس عليها أن الإسلام ظلم المرأة في ميراثها، وأن توقف الدعاوى الهوجاء بالاجتهاد في حق المرأة في الميراث لتكون مثل الرجل دائماً، من ذلك ما ذكره د. نصر أبو زيد في كتابه: نقد الخطاب الديني. وفي قضية ميراث البنات، بل في قضية المرأة بصفة عامة نجد الإسلام أعطاها نصف نصيب الذكر، بعد أن كانت مستبعدة استبعاداً تاماً، وفي واقع اجتماعي اقتصادي تكاد تكون فيه المرأة كائناً لا أهلية له، وراء التبعية الكاملة، بل الملكية التامة للرجل، أباً ثم زوجاً، اتجاه الوحي واضح تماماً، وليس من المقبول أن يقف الاجتهاد عند حدود المدى الذي وقف عنده الوحي(١).

أما الذين لا تردهم الحقائق إلى شاطئ الإنصاف، ومن خيم الحقد الدفين على جنبات قلوبهم فإن الإسلام نور لا يطفأ، وشعاع لا يخمد، وماء غير آسن، وعبير طيب، وسيظل نوره ومداده يبدد ظلام الضللين. يقول الله تعالى:

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾

(الأنبياء: ١٨)

أخيراً أحب ألا تزأر النساء على الرجال بما جاء في هذه الدراسة؛ لأن الحياة الزوجية لا تقوم على إلزام الآخرين بالحقوق المفروضة، بل ظلال التعامل فيها بالفضل لا العدل، وبالإحسان لا الفرائض، فمن تنازل عن جزء من حقه، أو بذل فضلا فلا يتبعه بمنٍّ أو أذى يلطخ نضارة الخير، ويمحق ثوابه.

وأخيراً أسأل الله أن تكون هذه الدراسة سبباً في تكفير السيئات ونيل الدرجات عند رب الأرباب إنه سميع مجيب.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

حق المرأة في الميراث في الشريعة الإسلامية

عندما نقارن بين حق المرأة في الميراث وحق الرجل نستعير ـ لغرض المقابلة فقط ـ الترجيح بين العصبات بثلاثة معايير هي: جهة القرابة أولاً، ودرجتها ثانياً، وقوتها أخيراً.. ومع أن الترجيح بين العصبات يقتصر على البنوة والأبوة والأخوة والعمومة لكنا هنا نستعير المعنى فقط.

فعند الترجيح بجهة القرابة تكون المقابلة بين الأب والأم أو الجد والجدة فتكون الجهة هي الأبوة، وتكون المقابلة بين الابن والبنت وتكون الجهة هي البنوة وتكون المقابلة بين الأخ والأخت والجهة هي الأخوة، أو بين الزوج والزوجة والجهة هي الزوجية.

وعند الترجيح بدرجة القرابة لا نقارن بين أب وجدة؛ لأن درجة الجدة أبعد والأب أقرب، بل تكون بين أب وأم أو جد وجدة، ولا نقارن بين ابن وابنة ابن لأن الأول أقرب، بل بين ابن وبنت أو ابن ابن وبنت ابن.

وعند الترجيح بقوة القرابة لا نقارن بين أخ شقيق وأخت لأب بل بين أخ شقيق وأخت شقيقة أو أخ لأب وأخت لأب وهكذا.

وقد نحتاج أن نخرج على هذا المعيار نادراً إذا كان الخروج لصالح فكرة البحث أي تكون القرابة أبعد للمرأة وتأخذ مثل الأقرب أو أكثر منه.

وفي هذه المقارنة قد توجد حالات يوجد فيها الرجل والمرأة في مسألة واحدة مثل الأب مع الأم، والابن مع البنت، وقد نحذف أحدهما ونضع من يقابله مكانه، وهناك حالات يستحيل وجود الطرفين معاً مثل الزوج مع الزوجة فلابد أن يموت أحدهما ليرثه الآخر.

الحالات التي ترث فيها المرأة نصف الرجل

عند الاستقراء لكل الحالات التي ترث فيها المرأة نصف الرجل نجدها تنحصر في الحالات التالية:

أولاً: وجود البنت مع الابن:

وذلك لقوله تعالى:

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾

(النساء: ١١)

وعليه إذا مات أب أو أم وتركا:

ابن	بنت
٢	١

تقسيم التركة أثلاثاً

ويلحق بهذه الحالة إذا وجد من أولاد الأولاد مهما نزلوا مع بنات الأولاد في درجتهم مثل ابن ابن مع بنت ابن، أو ابن ابن ابن مع بنت ابن ابن فيرثون جميعاً للذكر مثل حظ الأنثيين(٢).

(١) نقد الخطاب الديني: د. نصر أبو زيد (ص١٠٥ - ١٠٦) طبعة دار سينا للنشر.

(٢) توجد حالة يعصب فيها الابن الذكر الأنزل درجة بنتاً أعلى درجة لأنها لا ترث بغيره وذلك إذا وجد في مسألة:

بنتان	بنت ابن	ابن ابن ابن
٢/٣	الباقي تعصيباً للذكر مثل حظ الأنثيين	

وذلك لأن البنتين قد أخذتا الثلثين وهو حظ البنات، فلا تأخذ بنت الابن إلا إذا وجد عاصب يحاذيها أو أنزل درجة يعصبها.

ثانياً: عند وجود الأب مع الأم ولا يوجد أولاد ولا زوج أو زوجة:

وذلك لقوله تعالى:

﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ (النساء: ١١)

فهنا فرض الأم الثلث، ويكون الباقي وهو الثلثان للأب لما رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة والنسائي بسندهم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأولى رجل ذكر»[3].

فإذا مات شخص عن:

أب	أم
الباقي تعصيباً	١/٣
٢	١

وبهذا يكون الأب قد أخذ ضعف الأم[4].

ثالثاً: وجود الأخت الشقيقة أو لأب مع الأخ الشقيق أو لأب:

وذلك لقوله تعالى:

﴿وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ (النساء: ١٧٦)

وعليه من مات وترك:

أخ ش	أخت ش
٢	١

أخ لأب	أخت لأب
٢	١

للذكر مثل حظ الأنثيين

رابعاً: حالات ميراث الزوج والزوجة عند وجود الولد وعند عدم وجوده:

وذلك لقوله تعالى:

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ (النساء: ١٢)

(٣) رواه البخاري ـ كتاب الفرائض ـ باب ميراث الولد من أبيه وأمه رقم «٦٧٣٢». ورواه مسلم ـ كتاب الفرائض ـ باب ألحقوا الفرائض بأهلها. ورواه الترمذي ـ كتاب الفرائض ـ باب ما جاء في ميراث العصبة رقم «٢٠٩٨». ورواه ابن ماجة بلفظ آخر: «اقسموا المال بين أهل الفرائض على كتاب الله، فما تركت الفرائض فلأولى رجل ذكر» ـ كتاب الفرائض ـ باب ميراث العصبة رقم «٢٧٤٠».

(٤) إذا اعتبرنا أن الجهة واحدة في الجد والجدة فإذا وجدا وجمعهما في مسألة تأخذ الجدة السدس والجد الباقي وسيأتي بيان أن هذا من الحالات النادرة والأكثر أن ترث الجدة ولا يرث نظيرها من الأجداد.

وعليه إذا مات أحد الزوجين وترك الآخر يكون الميراث كما يلي:

	الزوج	الزوجة
عند عدم الولد	١/٢	١/٤
عند وجود الولد	١/٤	١/٨
	٢	١

حالات ترث فيها المرأة مثل الرجل

باستقراء مسائل الميراث نجد أن هناك حالات ترث فيها المرأة مثل الرجل منها:

أولاً: حالة ميراث الأم مع الأب مع وجود ولد ذكر أو بنتين فأكثر أو بنت أحياناً:

(أ)

أب	أم	ابن
١/٦	١/٦	الباقي تعصيباً

(ب)

أب	أم	بنتان
١/٦ + الباقي تعصيباً	١/٦	٢/٣
١	١	٤

(جـ) بل هناك حالة يتساوى فيها الأب والأم مع وجود بنت واحدة وذلك إذا ماتت امرأة عن:

زوج	أب	أم	بنت
١/٤	١/٦ + الباقي تعصيباً	١/٦	١/٢
٣	٢	٢	٦

فيها عول

(د) هناك حالات تأخذ فيها الجدة مثل الأب مع كونها جدة لأم وهي أبعد من الميت مثل[5]:

(أ)

أب	أم أم	ابن
١/٦	١/٦	الباقي تعصيباً
١	١	١

(ب)

أب	أم أم	بنتان
١/٦ + الباقي تعصيباً	١/٦	٢/٣
١	١	٤

(٥) خرجت عن معيار التساوي بين الرجل والمرأة في درجة القرابة لأنها تظهر مدى إكرام الإسلام للمرأة مع كونها أبعد صلة بالميت من الرجل وورثت مثله.

ثانياً: ميراث الإخوة لأم مع الأخوات لأم دائماً في الميراث:

يقول الله تعالى:

﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ﴾[6]

(النساء: ١٢)

وهذا النص ظاهر الدلالة على تساوي حظ المرأة مع الرجل إن كانت الأخوة من جهة الأم.

وبموجب الآية يكون ميراث الإخوة كما يلي:

(أ)

زوج	أم	أخ لأم
١/٢	١/٣	١/٦
٣	٢	١

زوج	أم	أخت لأم
١/٢	١/٣	١/٦
٣	٢	١

(ب)

زوج	أم	أخ لأم	أخت لأم
١/٢	١/٦	هم شركاء في الثلث	
٣	١	١	١

ثالثاً: المسألة المشتركة[7]

فإذا ماتت امرأة عن:

زوج	أم	أختين لأم	أخ شقيق
١/٢	١/٦	١/٣	الباقي، ولم يبق له شيء
٣	١	٢	صفر

هنا الأختان لأم أخذت كل واحدة السدس لأنهما شركاء في الثلث ولم يبق شيء للأخ الشقيق، لكن قضاء سيدنا عمر وزيد وعثمان بن عفان أن هذا التوريث يعدل إلى:

(٦) قال القرطبي: أجمع العلماء على أن الإخوة في الآية عنى بها الإخوة لأم، وكان سعد بن أبي وقاص يقرأ: وله أخ أو أخت من أمه. ولا خلاف بين أهل العلم أن الإخوة لأب ولأم ليس ميراثهم هكذا. راجع الجامع لأحكام القرآن (٧٨/٥).

(٧) هي من المسائل المشهورة في علم الميراث يوجد فيها: زوج وأم وإخوة لأم وأخ شقيق فأكثر فيكون للزوج النصف وللأم السدس وللإخوة لأم الثلث وللأخ الشقيق الباقي تعصيباً ولم يبق له شيء. وفقاً للحديث: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر». وبهذا كان يقضي سيدنا عمر وزيد وعثمان وعلي وابن مسعود وأبي بن كعب وابن عباس وأبو موسى الأشعري. ولكن سيدنا عمر رجع عن هذا القضاء عندما جاءه إخوة أشقاء فقالوا: يا أمير المؤمنين لنا أب وليس لهم أب. ولنا أم كما لهم فإن كنتم قد حرمتمونا بأبينا فورثونا بأمنا كما ورثتم هؤلاء بأمهم واحسبوا أن أبانا كان حماراً، أو ليس قد تراكضنا في رحم واحدة. فقال عمر حينئذ: صدقتم فاشترك بينهم وبين الإخوة لأم في الثلث الباقي. ووافق زيد وعثمان عمر في قضائه وبقي سيدنا علي وابن عباس يقضيان بالقضاء الأول. راجع: بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد (٣٤٥/٢)، المغني (٢٤/٩ ـ ٢٦) لابن قدامة المقدسي تحقيق د. عبدالفتاح الحلو، د. عبدالله التركي. وراجع أسباباً أخرى في ترجيح ما قضى به سيدنا عمر في: محاضرات في الميراث والوصية. صلاح الدين سلطان ـ طبعة ١٩٩٢ ـ طبعة الرسالة ص (١٠٤ و١٠٦).

زوج	أم	أختين لأم	أخ شقيق
١/٢	١/٦	شركاء في الثلث	

فيقسم الثلث بينهم بالتساوي لكل منهم سهم من ثلاثة؛ لأنه ورث باعتباره أخاً لأم.

ويلاحظ هنا أن الأخ الشقيق وهو الأقرب درجة إلى الميت ورث مثل الأخت لأم وهي أبعد درجة من الميت.

رابعاً: تساوي الرجل والمرأة عند انفراد أحدهما بالتركة:

إذا مات أحد عن رجل واحد أو امرأة واحدة تكون المحصلة الأخيرة هي أن يأخذ من بقي التركة كلها سواء أخذها الرجل كعصبة، أم أخذت المرأة حظها بالفرض والباقي رداً عليها مثل:

	الوارث	حقه من التركة	الوارثة	حقها من التركة
(أ)	أب	كل التركة تعصيباً	أم	١/٣ + الباقي رداً عليها.
(ب)	ابن	كل التركة تعصيباً	بنت	١/٢ + الباقي رداً عليها.
(جـ)	أخ	كل التركة تعصيباً	أخت	١/٢ + الباقي رداً عليها.
(د)	زوج	١/٢ + الباقي رداً عليه.	زوجة	١/٤ + الباقي رداً عليها.
(هـ)	خال	كل التركة لأنه من ذوي الأرحام	خالة	كل التركة لأنها من ذوات الأرحام
(و)	عم	كل التركة تعصيباً	عمة	كل التركة لأنها من ذوات الأرحام

هذه مجرد أمثلة لا تعني الحصر على التساوي بين الرجل والمرأة، وقد يقال قد أخذت المرأة مثل الرجل لعدم وجود من يحجبها من الرجال، ويرد على هذا بأنه كان من الوارد النص على عدم جواز أخذ ذوي الفروض من النساء أكثر من فرضهن خاصة أننا نجد خلافاً بين الفقهاء في قضية الرد أصلاً (بلا تفرقة بين رجل وامرأة) حيث رفض الرد على ذوي الفروض زيد بن ثابت ومالك والشافعي، وذهب الأكثر من الصحابة والفقهاء إلى جوازه[8] وبه أخذ القانون المصري في المادة رقم ١٤ من قانون المواريث رقم ٧٧ لسنة ١٩٤٣م.

ويلحق بهذه الحالات إذا وجد في المسألة رد على غير الزوجين مثل[9]:

(أ)

زوج	ابن
١/٤	الباقي تعصيباً

زوجة	بنت
١/٨	١/٢ الباقي رداً عليها

(٨) راجع: الأم للشافعي (٧٦/٤، ٧٧، ٨٠، ٨١) والمغني لابن قدامة (٤٨/٩ ـ ٥١).

(٩) اختار واضعوا القانون المصري أن يكون الرد على غير الزوجين إذا وجد أي من الورثة مع أحدهما وهو مذهب سيدنا عمر وعلي وعبدالله بن مسعود وابن عباس، لكني أرجح في هذه المسألة الرد على الزوجين أيضاً وهو مذهب سيدنا عثمان بن عفان بلا فرق بين الورثة؛ لأنهما يتحملان في الغرم عند العول فيأخذان في الغنم عند الرد؛ ولأنهما ورثا بسبب الزوجية وقد سماهما القرآن زوجين بعد وفاة أحدهما.

راجع تفصيل ذلك في: محاضرات في الميراث والوصية. صلاح سلطان ص(١٤١ ـ ١٤٣).

(ب)

زوجة	اخ
١/٤	الباقى تعصيبًا

زوجة	أخت
١/٤	١/٢ الباقى ردًا عليها

هنا نجد أن الابن والبنت، والأخ والأخت تساويا فى حظهما من التركة.

على كل لا نجد من الفقهاء من أجاز الرد على الزوج مع وجود وارث آخر؛ لأنه رجل وحرم الزوجة من الرد عليها باعتبارها زوجة.

خامسًا: حالات أخرى:

(أ) تساوى الأخت الشقيقة مع الأخ الشقيق:

(١)

زوج	أخ ش
١/٢	الباقى تعصيبًا
١	١

زوج	أخت ش
١/٢	١/٢
١	١

(٢)

زوج	بنت	أخ ش
١/٤	١/٢	الباقى تعصيبًا
١	٢	١

زوج	بنت	أخت ش
١/٤	١/٢	الباقى عصبة مع الغير أى مع البنت
١	٢	١

(ب) تساوى الأخت لأم مع الأخ الشقيق دون تشريك:

بحثنا سابقًا حالة تساوى الأخت لأم مع الأخ لأم، وتساوى الأخوات لأم مع الأخ الشقيق فى المسألة المشتركة وهنا تساوى الأخت لأم وهى أبعد قرابة مع الأخ الشقيق وهو الأدنى قرابة مثل:

زوج	أم	أخت لأم	أخ ش
١/٢	١/٦	١/٦	الباقى تعصيبًا
٣	١	١	١

(جـ) تساوى عدد النساء مع الرجال فيمن لا يحجبون أبدًا:

هناك نوعان من الحجب: حجب حرمان وهم الذين يحرمون من التركة نهائيًا لوجود من يحجبهم مثل الأخ يحجب بالأب حجب حرمان. وهناك حجب نقصان وهم من يقل فرضهم لوجود آخر مثل نقصان نصيب الأم من الثلث إلى السدس لوجود الفرع الوارث.

وهناك ستة لا يحجبون حجب حرمان أبدًا هم:

الزوج	و	الزوجة
الابن	و	البنت
الأب	و	الأم

ويلاحظ أنهم ثلاثة من الذكور ومثلهم من الإناث، لا يحجبون حجب حرمان مطلقًا.

(د) هناك فى ميراث ذوى الأرحام[10] ثلاثة مذاهب:

١ - مذهب أهل الرحم وهم يسوون بين جميع ذوى الأرحام ذكورا وإناثا سواء قربت درجتهم من المتوفى أم بعدت فمن مات عن:

بنت بنت	ابن بنت	خال	خالة
١	١	١	١

تقسيم التركة على أربعة أسهم

٢ - مذهب أهل التنزيل وهم ينزلون ذوى الأرحام منزلة أصولهم فمن مات عن:

بنت بنت	ابن أخت
بنت	أخت
١/٢	الباقى عصبة مع الغير

تورث بمنزلة أصولهما

٣ - مذهب أهل القرابة حيث يعتد بالأقرب إلى الميت من ذوى الأرحام فمثلا لو مات عن:

ابن بنت + ابن عمة

فيكون الميراث كله لابن البنت ولا شيء لابن العمة.

هذه الآراء الثلاثة مطروحة فى الفقه الإسلامى، ونلاحظ معًا أن مذهب أهل الرحم لا يجد حرجًا من تساوى الرجل مع المرأة عند اجتماعهما[11].

(١٠) ورد فى المادة رقم ٣١ من القانون رقم ٧٧ لسنة ١٩٤٣: إذا لم يوجد أحد من العصبة بالنسب ولا أحد من ذوى الفروض النسبية كانت التركة أو الباقى منها لذوى الأرحام. وهذا ترجيح جيد خلافًا لما يراه سيدنا زيد وابن عباس ومالك والأوزاعى وأبو ثور والشافعى وداود وابن جرير الطبرى أن ما بقى بعد ذوى الفروض والعصبات يكون لبيت المال. وقد خالفهم فى ذلك عمر وعلى وابن مسعود وأبو عبيدة ومعاذ بن جبل وأبو الدرداء وشريح وعمر بن عبد العزيز وطاوس وعلقمة ومسروق وأهل الكوفة وأحمد وأبو حنيفة راجع: نيل الأوطار للشوكانى ٦٠/٦٢ - ٦٤، وقد أخذ واضعو القانون المصرى بهذا المذهب الأخير.

(١١) لا يقلل من هذا عدم أخذ القانون المصرى بالمذهب الأول بل أخذ بمذهب أهل القرابة فى نص المادة ٣١ من القانون.

﴿ فَسْئَلُوٓا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لهذا السؤال:

كفالة اليتيم

● ما الوقت الذى تنتهى فيه فترة كفالة اليتيم أو مجهول النسب؟ وهى تنتهى بوفاة الكافل؟ وإذا تم الطلاق بين الكافل وزوجته فلمن تذهب كفالة الطفل المكفول؟

●● الجواب:

الكفالة نوع من أنواع التبرع، وهو: بذل المكلف مالاً أو منفعة لغيره فى الحال أو المآل بلا عوض، بقصد البر والمعروف غالباً، وفى الكفالة يبذل الكافل للمكفول المال والمنفعة معاً.

أما الوقت الذى تنتهى فيه فترة الكفالة فإنه يجوز للكافل أن يفسخ عقد كفالة الطفل فى أى وقت؛ لأنه عقد تبرع، وعلى الجمعيات القائمة على ذلك أن تحتاط لهذا بالقيام مقام الكافل المستقيل فور استقالته؛ حرصاً على المكفول.

وإذا اشترط الكافل مدة معينة لكفالة الطفل، فإن الأمر يكون على ما تم الاشتراط عليه، على أن لا يضر هذا بمصلحة الطفل؛ وقد يعسر الكافل، فلا يملك ما ينفقه على الطفل، فيفسخ العقد، وقد يموت الكافل فتنتهى فترة الكفالة ويرد الطفل إلى دار الكفالة؛ حيث إن الكفالة فى أصلها لا تورث؛ لأنه عقد تبرع يجوز فى حق المتبرع نفسه فسخه حال حياته، فمن باب أولى أن لا يجب استمرار العقد بعد حياته إلى ورثته؛

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور
علـى جمعـة
مفتى جمهورية مصر العربية

ولأن العقد ملزم - حال إلزامه - لأطرافه فقط، أما إذا تبرع بالقيام بها الورثة أو أحدهم فهذا عقد تبرع جديد.

وقد تكون كفالة الطفل باسم الأب والأم معاً، ففى حالة الانفصال أو الوفاة لأحد الطرفين فعلى ما يتفق عليه، بينهما من جهة، وبينهما وبين دار الكفالة المسئولة من جهة أخرى، ويتحرى فى ذلك مصلحة المكفول.

والله سبحانه وتعالى أعلم

الكفالة غير مرتبطة بالرضاعة

● هل يشترط فيمن يكفل طفلاً أو طفلة أن ترضعه زوجته أو إحدى أخواتها؟ وما عدد الرضعات التى تجعل الطفل المكفول أو الطفلة محرما على الكافل والكافلة؟

●● الجواب:

الكفالة غير مرتبطة بالرضاع، فقد تكون هناك كفالة دون رضاع، وقد يكون هناك رضاع دون كفالة، إلا إذا كانت الكفالة ستستمر إلى حين البلوغ مع اختلاف الجنس بين الكافل والمكفول؛ فيشترط الرضاع المحرم حينئذ للمكفول وهو فى زمن الرضاع من زوجته أو إحدى أخواتها حتى لا يكون هناك حرج عند بلوغ الطفل من وجوب احتجاب نساء الأسرة الكافلة أمامه، وحرمة الخلوة بهن، وما أشبه ذلك من أحكام، ويكون ذلك بالشروط المقررة شرعاً للرضاعة المحرمة.

وعدد الرضعات المحرمة هى خمس رضعات متفرقات - على المختار للفتوى والمعمول به فى الديار المصرية - لما روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: «كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نسخن بخمس معلومات، فتوفى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهن فيما يقرأ من القرآن» أخرجه مسلم (٢/ ١٠٧٥)، ط ٣ دار إحياء التراث العربى، بيروت؛ أى: يتلى حكمهن أو يقرؤهن من لم يبلغه النسخ لقربه.

مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج «٥ / ١٣١»،ط دار الكتب العلميـــة، والآية الكريمة في سورة النساء«٢٣».

وضابط الرضعة يرجع فيه إلى العرف؛ لأن الشرع ورد بها مطلقاً ولم يحدها بزمن ولا مقدار فدل ذلك على أنه ردها إلى العرف، فما قضى عرفاً بكونه رضعة أو رضعات اعتبر، وإلا فلا.

ومتى تخلل الرضاع بما يصح أن يطلق عليه بأنه فصل: تعدد، فلو ارتضع ثم قطع إعراضاً واشتغل بشئ آخر ثم عاد وارتضع فهما رضعتان، ولو قطعت الرضعة ثم عادت إلى الإرضاع فهما رضعتان على الأصح، كما لو قطع الصبي، ولا يحصل التعدد بأن يلفظ الثدى ثم يعود إلى التقامه في الحال، ولا بأن يتحول من ثدى إلى ثدى في الحال، ولا بأن يلهو عن الامتصاص والثدى في فمه، ولا بأن يقطع التنفس، ولا بأن يتخلل بالنومة الخفيفة، فكل ذلك رضعه واحدة «مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج «٥ / ١٣٣-١٣٥».

ولا يشترط في الرضعة الواحدة أن تكون مشبعة، وهذا ما نص عليه السادة الشافعية في كتبهم، قال الخطيب الشربيني في الإقناع: «قالوا: لو لم يحصل في جوفه إلا خمس قطرات في كل رضعة قطرة حرم». «حاشية البجيرمي على الخطيب «٤ / ٧٣»، ط دار الفكر».

وقال العلامة البيجوري في حاشيته الفقهية «٢ / ١٨٨؛ ط مصطفى البابي الحلبي»: «ولا يشترط في الرضعة الإشباع» اهـ.

والذي عليه المذاهب المتبوعة المستقرة في الأمة أن الرضاع المحرم إنما هو ما كان في الحولين، عملاً بقوله تعالى:

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾

«البقرة ٢٣٣»

ورخص المالكية في زيادة شهر أو شهرين على الحولين، وجعله الإمام أبو حنيفة عامين ونصفاً، استدلالا بقوله تعالى:

﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾

«الأحقاف: ١٥»

قال الإمام السرخسي في المبسوط: «وظاهر هذه الإضافة يقتضي أن يكون جميع المذكور مدة لكل واحدة منهما، إلا أن الدليل قد قام على أن مدة الحبل لا تكون أكثر من سنتين، فيبقى مدة الفصال على ظاهره» اهـ «المبسوط «٥ / ١٣٦»، ط دار المعرفة».

والله سبحانه وتعالى أعلم

كلمة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب

بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام هو الحلقة الأخيرة فى منظومة «الدين الإلهى» الذى بشر به كل الأنبياء والمرسلين من آدم وحتى محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ومن يتأمل آيات القرآن الكريم يعلم أن الاسلام ليس هو - تحديداً - الرسالة التى نزلت على محمد ﷺ، وانما هو الاسم الجامع لكل الرسالات التى حملها الأنبياء على اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم.. ولذلك كان من الطبيعى أن يوصف الأنبياء السابقون على «محمد» بأنهم: «مسلمون» وأن يطلق على كل من: نوح وابراهيم وعيسى اسم: «مسلم».. كما أطلق على محمد نفس الاسم سواء بسواء. ويكفى أن تقرأ فى القرآن الآيات: ١٢٨، ١٣٢، ١٣٣ من سورة البقرة، والآية: ٥٢ من سورة آل عمران، والآية ٨٤ من سورة يونس، والآية: ٩١ من سورة النمل لتتأكد من أن هذه الأسماء المتألقة فى لوحة «النبوة» يصفهم القرآن: بوصف «مسلمين».

وليس الاشتراك بين الإسلام كرسالة أخيرة والرسالات السابقة عليه هو مجرد اشتراك فى «اسم» أو عنوان فحسب، بل هو اشتراك فى مضمون «الإسلام» وجوهره وحقيقته.. لأن البحث فى القرآن يثبت أن ما جاء به «محمد» من عقائد جوهرية وأخلاق أساسية ودعوة إلى العبادة هى نفس ما جاء به نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء والمرسلين، ويؤكد أن الله لم يشرع للمسلمين ديناً جديداً، بل ما أوحاه الله إلى نبيهم هو ما أوحاه إلى الأنبياء من قبلهم:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾

(الشورى: ١٣)

هذا الدين المشترك بين المسلمين وغيرهم من الأمم السابقة عليهم هو: «التوحيد المطلق، والتصديق برسل الله، وكتبه». والإيمان بكل ذلك دون تفرقة أو تمييز عنصرى أو طائفى بين رسول ورسول، أو كتاب وكتاب:

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

(البقرة: ١٣٦)

والإسلام بهذا المعنى لا يتصور أن يكون بينه وبين الرسالات الإلهية السابقة عليه خلاف أو تعارض أو افتراق[1].

ولا ينبغى أن نفهم من اشتراك الرسالات الإلهية فى دين واحد، أنها تشترك فى «شريعة» واحدة كذلك.. فالدين مضمون ثابت فى كل رسالة لا يتعدد ولا يختلف؛ وذلك لأنه يتعلق بحقائق الوجود الكلية الثابتة التى لا تتغير، بينما تختلف الشريعة وتتعدد بين رسالة ورسالة أخرى من رسالات السماء، ونعنى بالدين هنا: البيان الإلهى المتعلق بالأصول العامة المشتركة بين الرسالات الإلهية، مثل العقيدة والأخلاق والعبادات. أما الشريعة فهى «القوانين» الإلهية التى تنظم حياة المؤمنين وتصرفاتهم الاجتماعية التى تتغير من زمان لزمان ومن مكان لآخر. والذى يتدبر آيات القرآن يتضح له أن «التوحيد» كان يمثل «قطب الرحى» فى كل الرسالات، وأن دعوة الأنبياء إليه

(١) انظر فى هذا: محمد عبد الله دراز، الدين، بحوث ممهدة لدراسة الأديان ١٧٦، دار القلم، الكويت، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م

تشابهت شكلاً ومضموناً: فالنبي نوح يقول:

﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾

(المؤمنون: ٢٣)

وكذلك إبراهيم:

﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه﴾

(العنكبوت: ١٦)

وهود:

﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾

(الأعراف/ ٦٥)

وصالح:

﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾

(الأعراف: ٧٣)

وشعيب:

﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾

(الأعراف/ ٨٥)

وفي خطاب الله لموسى:

﴿وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ۝ إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾

(طه/ ١٣-١٤)

وعيسى:

﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾

(المائدة: ١١٧)

ويلفت النظر - في هذه الآيات - التأكيد الإلهي على أن «الدين» هو الوحي المشترك بين الأنبياء، وأنه أمر واحد لا يصح أن يقع فيه اختلاف أو تفرق بين المؤمنين أياً كانت أزمانهم وكيفما كانت رسالتهم.

وإذا كان أمر الدين واحداً في فلسفة الإسلام، فإن الشريعة ليست كذلك؛ إنها تختلف باختلاف الناس وبيئاتهم وأزمانهم وأماكنهم وأحوالهم. ومن هنا أكد القرآن على اختلاف الشرائع بين المؤمنين:

﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾

(المائدة: ٤٨)

ونحن نلاحظ أنه بالرغم من اختلاف الشرائع بين جماعات المؤمنين، فإن وحدة الدين تنشئ من علاقات المودة ما يشبه «صلة الرحم»، التي تربط بين المؤمنين جميعاً حيثما كانوا وكيفما كانت شرائعهم ورسالاتهم. وهذا هو واقع العالم الإسلامي الذي استوعب جميع أديان العالم المعروفة، حيث التقى في محيطه الغربي بالأديان الإبراهيمية: اليهودية والمسيحية، والتقى في محيطه الشرقي بالهندوسية والبوذية، وقدم للتاريخ نماذج مضيئة للترابط الإنساني الذي ينبع من الأخوة الإنسانية الممزوجة بأخوة الإيمان، بل هذه هي تجربتي الشخصية في صعيد مصر؛ حيث عشنا كمسلمين قروناً متطاولة جنباً إلى جنب مع إخواننا المسيحيين الأقباط.

إذا ما تقدمنا خطوة أخرى في بيان علاقة «الإسلام» بالأديان وجدنا أن هذه الوحدة العضوية لم تتوقف عند حدود الدين الجوهرية: عقيدة وعبادة وأخلاقاً[2]، بل امتدت لتشمل علاقة نبي الإسلام بالأنبياء السابقين، وعلاقة القرآن بالكتب السماوية السابقة.

فنبي الإسلام يصدق إخوانه الأنبياء، ويؤمن بهم، ويتمم ما بدأوه من دعوة الناس إلى الله. ويقرأ المسلمون في هذا المعنى قرآناً يتلى على مسامعهم صباح مساء:

﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾

(البقرة/ ٢٨٥)

وقد صور محمد ﷺ هذه الوحدة العضوية التي تجمع بينه وبين إخوته من الأنبياء والمرسلين عبر التاريخ، في كلام جميل رائع يقول فيه:

«أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة والأنبياء إخوة لعلات[3]، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»، أي: أن الأنبياء يشبهون إخوة من أب واحد وأمهات شتى، والأب الواحد هو الدين الذي يجمعهم جميعاً، والأمهات التي تفرقهم هي الأزمنة والأمكنة التي يختلف بها نبي عن نبي، ورسول عن رسول.

والشيء نفسه يقال على القرآن الكريم: إنه يصدق الكتب السماوية في صورتها الأولى التي لم تبتعد فيها عن منبعها الإلهي. ونحن نتعلم من القرآن أن الإنجيل مصدق ومؤيد للتوراة، وأن القرآن مصدق ومؤيد للإنجيل وللتوراة، ولكل ما سبقه من الكتب السماوية:

﴿نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل ۝ من قبل هدى للناس﴾

(آل عمران/ ٣-٤)

﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا﴾

(المائدة: ٤٤)

﴿وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين﴾

(المائدة: ٤٦)

وهذه الأصول القرآنية هي التي حكمت تصورات المسلمين، وتركت بصماتها قوية وعميقة على علاقتهم بغيرهم من أهل الأديان

---

(٢) تلفت النظر هنا إلى أن «الصلاة» -مثلاً- شكلت «مظهراً» قوياً تجلت فيه وحدة الرسالات الإلهية، وبحيث وجدنا دعوات الأنبياء تتحد فيها كما اتحدت في «العقيدة» سواء بسواء، ولإثبات هذه القضية يمكن الرجوع إلى القرآن الكريم في المواضع الآتية: ٢: ٣٩، ١٤: ٣٥ - ٤٠، ١٩: ٣١ - ٣٣، ٢٠: ١٢ - ١٤، ٢١: ٧٣، ٣١: ١٧، وما يقال عن «الصلاة» يقال عن «الصوم»، كذلك انظر أيضاً القرآن الكريم ٢: ١٨٣، أما الاتحاد في «الأخلاق» والفضائل العامة فهو أظهر من أن يكون محل بحث وتحليل.

(٣) العلات: الزوجات الضرائر، والأخوة لعلات: الإخوة من أب واحد وأمهات متعددة. انظر صحيح الإمام البخاري.

السماوية منذ أيامهم الأولى.. فنحن نؤمن بموسى وعيسى كما نؤمن بمحمد سواء بسواء، ونعتقد أن التوراة كتاب الله وأن الإنجيل كتاب الله، وأنهما هدى ونور للناس، وقد يدهشكم أن تعلموا أن كثيراً من فقهاء الإسلام يقررون أنه إذا كان لا يجوز للمسلم أن يمس القرآن وهو جنب وكذلك المسلمة الحائض، فإنه لا يجوز لأي منهما أن يمس التوراة أو الإنجيل حتى يغتسل(٤).

سماحة الإسلام مع الأديان

إن ديناً تتأسس فلسفته في علاقته بالرسالات الإلهية الأخرى على هذه الوحدة العضوية التي بيناها في الفقرات السابقة، ومن خلال نصوص صريحة لا مجال فيها لغموض أو خفاء، لابد وأن ينشئ حضارة سمحة ومنفتحة على الحضارات الأخرى تتعامل معها من منطلق التعارف والتكامل وليس من منطلق الصراع أو الإقصاء. ولو رحنا ندلل على هذه الفرضية فإن وقت الكلمة لا يتسع لتفصيل القول في ذلك. ولكن أكتفي بتسجيل الحقائق التالية:

- يقرر القرآن الذي يحفظه كثير من المسلمين عن ظهر قلب أن الله لو شاء أن يجعل الناس على دين واحد وعقيدة واحدة ولون واحد ولغة واحدة لفعل. لكنه لم يشأ ذلك، وشاء بدلاً منه أن يخلقهم مختلفين في أديانهم وعقائدهم وألوانهم ولغتهم، وأن يستمر هذا الاختلاف إلى آخر لحظة في عمر هذا الكون:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾

(هود: ١١٨)

- ويترتب على هذا الاختلاف الذي أراده الله للناس أن تختلف الأديان والعقائد، وتبقى مختلفة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ويمكن أن نقول: إن اختلاف العقائد واستمرارها حقيقة قرآنية وكونية معاً، ومن هذا المنطلق لا يمكن للمسلم أن يتصور اجتماع البشرية كلها على عقيدة واحدة أو دين واحد، ولا أن يتصور تحويل الناس إلى دين واحد، حتى لو كان هذا الدين هو: «الإسلام»، وما دام الأمر كذلك فإن العلاقة بين «المسلم» و«غير المسلم» هي علاقة «التعارف»، وهذا ما حدده القرآن في نص صريح واضح يقول:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

(الحجرات: ١٣)

- استعراض تاريخ الحضارة الإسلامية يبرهن على التزام هذه الحضارة بالأصول القرآنية، التي تحدثنا عنها، مع الأديان والحضارات والشعوب التي انفتحت عليها، ولا نستطيع بطبيعة الحال أن نتقصى تاريخ الحضارة الإسلامية في هذا المجال.. ولكن نركز - فقط، وفي إيجاز شديد - على تاريخ الإسلام وسماحته مع «المسيحية» رسالة ورسولاً وأتباعاً.

(٤) من محاضرة بعنوان: الإسلام والأديان.. ألقيت في معهد الشرق الأوسط للسلام والتنمية بنيويورك، ديسمبر ٢٠٠٤م.

فالقرآن فيه حديث جميل عن سيدنا عيسى عليه السلام وعن أمه مريم العذراء عليها السلام.. وفيه سورة «مريم»، وفيه سورة أخرى تسمى سورة «الروم» وهم المسيحيون الشرقيون الذين كانوا يتاخمون حدود الدولة الإسلامية، ويشكلون الجار الأقرب للمسلمين.. وهنا يحدثنا التاريخ أن الفرس الوثنيين حين هزموا الروم المسيحيين، سخر الوثنيون العرب من المسلمين وعيروهم بهزيمة «الروم»، ولما شكا المسلمون أمرهم إلى النبي ﷺ، نزل وعد الله بأن الروم سيغلبون الفرس في بضع سنوات قلائل، وأن المؤمنين من مسلمين ومسيحيين سيفرحون بنصر الله.. وهنا نقرأ قول الله تعالى:

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(الروم: ٢-٦)

وقد صدق وعد الله، وفرح المسلمون لانتصار الروم المسيحيين.. ويلفت النظر في هذه الآيات أن القرآن ذكر كلمة «المؤمنون» عنواناً جامعاً ينطبق على المسلمين وعلى الروم.. وهذا العنوان هو وحدة الدين التي تحدثنا عنها من قبل، والتي كادت تجعل من الفريقين أمة واحدة في مقابل أمة الوثنية والشرك.. وسورة «الروم» هذه من السور المتقدمة جداً في نزول القرآن، مما يعني أن علاقة «الأخوة» بين المسلمين والمسيحيين علاقة مقررة منذ السنوات الأولى من تاريخ المسلمين، وأنها استمرت حتى السنوات الأخيرة في عصر الرسالة المحمدية، حيث نقرأ في سورة «المائدة» خطابًا من الله لرسوله يقول فيه:

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾

(المائدة: ٨٢)

والذي يتأمل سيرة النبي ﷺ طوال فترة الرسالة في مكة والمدينة لا يصعب عليه أن يرصد «المودة» الخاصة الكامنة وراء كل تصرفاته وتعاملاته مع المسيحيين أو النصارى كما كانوا يسمون آنذاك.. نجد ذلك فيما يسمى بهجرة المسلمين المستضعفين في مكة إلى الحبشة المسيحية وملكها المسيحي، وقد حدثت هذه الهجرة مرتين في العهد المكي، وكان من بين المهاجرين عثمان بن عفان وزوجه رقية ابنة النبي ﷺ. وقال النبي ﷺ لأصحابه الضعفاء والمستضعفين: «إن بأرض الحبشة ملكًا لا يظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه»(٥). ويحدثنا التاريخ أن ملك الحبشة استقبل المسلمين استقبالاً حسناً وحماهم وأمنهم، ولم يسلمهم إلى وفد قريش الذي

(٥) السنن الكبرى للبيهقي.

جاء إلى الملك ليطلب منه عودة هؤلاء المستضعفين إلى ساداتهم فى مكة، ولما يئس وفد قريش من استجابة الملك المسيحى العادل لجأ عمرو بن العاص إلى حيلة يوقع بها بين الملك والمسلمين. فقال للنجاشى: أيها الملك! إنهم يقولون فى عيسى قولاً عظيماً. فأرسل الملك إلى جعفر بن أبى طالب وسأله فقال له جعفر: «نقول هو عبد الله ورسوله وكلمته وروحه ألقاها إلى مريم العذراء البتول»، وقرأ عليه آيات من سورة «مريم» فبكى النجاشى وأعطى الأمان للمسلمين، وكان كما قالت أم سلمة، زوج النبى ﷺ: «نزلنا بخير دار، إلى خير جار، آمنا على ديننا ولم نخش منه ظلماً».

وقصة نصارى نجران – وهى قصة موثقة فى القرآن والتاريخ – تقص علينا أن وفداً، مكوناً من ٦٠ رجلاً من أشراف نجران من المسيحيين يتقدمهم الأسقف: أبو حارثة ابن علقمة، ذهبوا ليحاوروا نبى الإسلام فى أمر رسالته الجديدة، فاستقبلهم النبى فى مسجده بالمدينة. واستضافهم فيه، وجرى الحوار بينه وبين الوفد المسيحى فى رحاب المسجد النبوى بالمدينة المنورة، ولما حان وقت صلاتهم قالوا للنبى: «يا محمد! إن هذا وقت صلاتنا، وإنا نريد أن نؤديها. فقال لهم: دونكم هذا الجانب من المسجد، صلوا فيه»، وصلى المسيحيون صلواتهم الكنسية فى مسجد النبى بالمدينة، ولم يجد النبى ولا المسلمون أدنى حرج فى أن يستخدم المسيحيون مسجد النبى – وهو أول مسجد فى تاريخ الإسلام – ليؤدوا فيه صلاتهم.. وقد شجعتنى هذه الحادثة – حين كنت مدعواً للغداء فى إحدى كنائس مدينة فريبورج بسويسرا – على أن أطلب من كبير الأساقفة أن يأذن لى بالصلاة، فأذن لى مشكوراً، وهيأ لى غرفة صغيرة، وأحضروا فيها نسخة من القرآن الكريم، وصليت فى هذا المكان بمذاق خاص من الروحانية الأخاذة لا أنسى سحره حتى هذه اللحظة. وتأكد لى – وقتها – أن الأديان حين تخلو من التوظيفات الرديئة فإنها تشيع المحبة والسماحة فى نفوس المصلين، أينما كانوا، وكيفما كانت عقائدهم وأديانهم. وكثيراً ما توقفت عند حادثة هذا الوفد المسيحى الذى قطع آلاف الأميال على ظهور المطايا ليحاور نبى الإسلام، وكيف أن هذا الحوار حدث فى أقدس مكان فى عاصمة الإسلام الأولى، وتم فى جو من المودة الخالصة، رغم الحساسية الشديدة، والحرج البالغ على طرفى مائدة الحوار، وكيف انتهت المهمة فى حرية تامة مكفولة للطرفين، وتساءلت: هل يمكن أن نتصور حدوث حوار من هذا النوع فى مساجدنا وكنائسنا الآن؟ وهل ينتهى بنفس الحرية والسماحة التى انتهى بها حوار أسلافنا القدامى؟! أو أن حواراً على هذا المستوى سوف يبعث منذ اللحظات الأولى تاريخاً كاملاً من الكراهية والحقد والتعصب والفرقة بين المؤمنين فى الشرق والغرب؟! وأكبر الظن أن ما نعلمه الآن – ونراه – من المضاربة «بالأديان» فى سوق السياسات والصراعات الدولية يرشح الاحتمال الثانى بكل قوة.

ولا يفوتنى هنا أن ألفت النظر – إلى موقف النبى محمد ﷺ من السيد المسيح وأمه مريم العذراء – عليهما الصلاة والسلام – حين دخل مكة مع المسلمين وحطم الأصنام من حول الكعبة، ووجد صور الأنبياء والملائكة معلقة على حوائطها، فأمر بإزالة كل الصور، ما عدا صورة واحدة وضع يديه عليها. ولما انتهت عملية الإزالة رفع النبى يديه، فإذا الصورة التى خبأها هى صورة عيسى المسيح مع أمه مريم، وكانت هى الصورة الوحيدة التى بقيت مرسومة على أحد الأعمدة الداخلية للكعبة، وذلك قبل أن يزيلها تجديد الأعمدة الذى حدث بعد ذلك بفترة طويلة، وقد رأى كثير من الصحابة والتابعين هذه الصورة، منهم «عطاء بن أبى رباح»[6] وقد سئل: هل رأيت صورة مريم وعيسى؟ فقال: نعم أدركت تمثال «مريم» مزوقاً فى حجرها «عيسى» قاعد، وكان فى البيت (الكعبة) ستة أعمدة، وكان تمثال عيسى ومريم فى العمود الذى يلى الباب[7].

وما قلناه عن موقف الإسلام من المسيحية ينطبق بالقدر نفسه على اليهودية التى انفتح عليها الإسلام فى المدينة، ووجد فيها أوجه شبه عديدة بينها وبينه فى مفهوم «التوحيد» ومفهوم «الشريعة». وتغنينا صحيفة المدينة، أو «وثيقة المدينة» التاريخية عن الاستفاضة فى بيان صلة الإسلام باليهودية، ويكفى أن أشير إلى إحدى فقرات هذه الوثيقة التى تنص على أن اليهود «أمة من المؤمنين: لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، وعلى اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم» كدليل على أن الإسلام يوفر حرية اختلاف الدين، وحرية الاستقلال الاقتصادى للآخرين من منطلق الأخوة فى الأديان.

أيها السادة

هذا موقف الإسلام من الأديان الإلهية ممثلة فى أكبر دينين موجودين فى جزيرة العرب إبان ظهور الإسلام وهما: اليهودية والمسيحية.. ولعلكم تتساءلون عن موقف الإسلام من باقى الأديان العالمية الأخرى التى سادت من قديم الزمان فى الهند والصين وغيرهما من المناطق النائية عن جزيرة العرب.

وجوابنا أن المنطقة العربية أو منطقة الشرق الأوسط التى ظهر فيها الإسلام، لما كانت بعيدة عن الهندوسية والبوذية والكونفشيوسية وغيرها؛ فإن من المتوقع ألا يتحدث القرآن عن عقائد وأديان مجهولة لدى سامعيه ممن تتلى عليهم آياته، ولو فعل القرآن ذلك لعده الوثنيون مطعناً على واقعية القرآن وبلاغته التى تراعى أحوال السامعين فى الخطاب.

غير أن القرآن يشير فى أكثر من موضع إلى ضوابط عامة وأحكام كلية فى نصوص صريحة يتبين منها موقفه من سائر الأديان، وهو الموقف ذاته من اليهودية والمسيحية: سماحة واحتراماً وشعوراً بالأخوة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

(البقرة: ٦٢)

وأوضح من ذلك الآية التى تلزم المسلم بالبر والإحسان فى علاقته بغير المسلم، أياً كان دينه، وكيفما كانت عقيدته، ما دام هذا الغير غير محارب ولا مقاتل:

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

(الممتحنة: ٨)

(٦) من كبار فقهاء مكة وعلمائها، توفى سنة ١١٤هـ.

(٧) انظر أخبار مكة لأبى الوليد الأزرقى، ص١٦٦.

والأساس الذى ترتكز عليه هذه الرؤية القرآنية الشاملة هو أن القرآن ينظر إلى الناس جميعًا نظرة متساوية، وأنهم أبناء أب واحد وأم واحدة، وأن غير المسلم إما أخ للمسلم فى الدين أو نظير له فى الإنسانية، فهاهنا وحدة إنسانية لا تفاضل بين أفرادها إلا بالعمل الصالح، ثم إن القرآن يذكِّر المسلمين بأنه لم تخل أمة من الأمم السابقة إلا وقد أرسل الله لها رسولاً أو نبيًا، وأن ما قصه الله من سير الأنبياء فى القرآن ليس هو كل ما هنالك فى تاريخ الإنسانية، وأن المسلمين واليهود والمسيحيين ليسوا وحدهم أبناء ديانات إلهية، بل هناك من الأمم البائدة أو الباقية آثارها وشواهدها، كثير مما نعلمه ومما لا نعلمه، كانت لهم كتب مقدسة، ولهم أنبياء ورسل، وأديان وعقائد:

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾

(النساء: ١٦٤)

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

(يونس: ٤٧)

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾

(فاطر: ٢٤)

وهذه الأصول القرآنية التى ترتكز على وحدة الإنسانية وعلى شمول الهدى الإلهى للإنسان جعلت للآخر حقوقًا عدة يراعيها المسلمون ويحفظونها لغيرهم، مثل حق احترام الإنسان فى ذاته، بغض النظر عن دينه ولونه وجنسه، وحق احترام العقائد مهما اختلفت وتعارضت مع عقيدة الإسلام.

لقد مرت جنازة يهودى، فوقف النبى محمد ﷺ احترامًا لها، وحين استغرب أصحابه هذا الاحترام لميت لا يؤمن بالإسلام ولا يعترف به دينا، كانت إجابة النبى ﷺ: «أليست نفسا؟!»[٨].. وهذا الدرس العملى من جانب نبى الإسلام إنما يكرس حق الإنسانية التى سوى الله بينهما فى الحقوق والواجبات، والذى أشرنا إليه قبل قليل.

أيها السادة

لا يتسع المقام لسرد المزيد من الأمثلة التطبيقية التى حفظها لنا تاريخ الإسلام فى انفتاحه على الأمم والشعوب والثقافات والحضارات، وكيف تمكن المسلمون من خلال هذا الانفتاح، أن يتعاملوا مع حضارات وثقافات عديدة، أخذًا وعطاء وتأثرًا وتأثيرًا، ويغنينى عن إثبات هذه الحقيقة ترجمة كتب الأديان والتصوف الهندى، والفلسفة اليونانية، والثقافة الفارسية إلى اللغة العربية فى وقت مبكر

(٨) صحيح البخارى.

جداً من تاريخ الثقافة الإسلامية، مثل كتاب: «تحقيق ما للهند من مقولة» للبيرونى، ومثل «الأدب الصغير والكبير» لابن المقفع، ومثل مؤلفات أفلاطون وأرسطو وأفلوطين. وقد بلغ التشابه القوى بين التصوف الإسلامى والتصوف الهندى درجة دفعت كثيراً من الباحثين الغربيين إلى أن يتلمسوا للتصوف الإسلامى أصولاً ومصادر فى التصوف الهندى، وفى النظريات الروحية فى التصوف الفارسى والمسيحى. بل إننى لأذهب إلى مدى أبعد من ذلك حين أقول: إن القرآن بتوجيهاته مكّن للمسلمين أن يحفظوا حضارات كاملة لولاهم لما استطاعت الحضارات المعاصرة أن تبلغ ما بلغته من نجاح باهر فى العلوم التطبيقية ومن رخاء وتطوير لأساليب المعيشة والحياة.

أيها السيدات والسادة

إن الدور التاريخى الذى قام به الأزهر عبر تاريخه الطويل سوف يظل فى ذاكرة الأمة مصدر إلهام، وإن دور علمائه فى التاريخ الحديث والمعاصر لدليل على موقعه الرائد والقائد فى اللحظات التاريخية الفارقة، وإن قادة الفكر والسياسة من الطهطاوى إلى محمد عبده إلى سعد زغلول، وغيرهم من النجوم اللامعة فى سماء الأمة هم من حصاد الأزهر جامعاً أو جامعة، خلاصة القول: إن الأزهر أعطاه تاريخه العلمى والنضالى مشروعية تمثيل الأمة عالمياً وإقليمياً، وهذا لا يعنى أنه وحده على ساحة العمل الإسلامى، إلا أن ألف عام ويزيد فى ميادين العطاء العلمى والاجتماعى والسياسى، جعلته الأجدر بثقة الأمة وهى المؤتمنة على دينها، والعارفة بأقدار علمائها ورجالات نهضتها وحضاراتها،

أيها السيدات والسادة، إن مصر اليوم والتى ترقبها عيون العالم فى لحظة ثورية خالدة فاجأت الجميع، هى استمرار لمصر، الحضارة والتاريخ، وتأكيد على صلابة إرادتها، وأصالة هويتها، وعلى العالم أن يقرأ بأناة رسالة كتبها المصريون بدم الشهداء وهى رسالة فحواها أن مصر التاريخ ومصر الأزهر لن تفرط قيد أنملة فى قضايا أمتها الرئيسية مقدمتها القضية الفلسطينية، وأن الأزهر لن يسمح باسم الحوار أو التسامح أن تسلب حقوق أمة أو يحتل واحد من أراضيها، كما لن يسمح الأزهر فى ظل فوضى المصطلحات حول المدنى والدينى وأمثالها من المصطلحات الغامضة والملتبسة، أن يدخل فى معارك وهمية، ومسميات زائفة أو مغرضة.

إن الأزهر -وهذه رسالة للداخل والخارج- سوف يظل أمينًا على تراث الأمة بكل مكوناته، وسوف يقف مع الحق، ويعلى لواء العدل والإنصاف فى كل أرجاء المعمورة.

شكراً لحسن استماعكم

لماذا مفهوم تعارف الحضارات؟

الفكرة، والخبرة، والتأسيس



زكى الميلاد

رئيس تحرير مجلة الكلمة. السعودية

١. جارودى وحوار الحضارات

عند النظر فى فكرة حوار الحضارات خلال القرن العشرين وما بعده، يمكن الحديث عن أربعة أزمنة أساسية، تشرح طبيعة الأطوار التى مرت بها هذه الفكرة، والسياقات والأرضيات الفكرية والسياسية التى تأثرت بها، كما تشرح طبيعة حركة هذه الفكرة، ومستويات الاهتمام بها، وكيفيات التعاطى معها، ومنظورات الرؤية لها، وهذه الأزمنة هى على النحو التالى:

الزمن الأول: يتحدد فى النصف الثانى من سبعينيات القرن العشرين، حينما تبنى هذه الدعوة المفكر الفرنسى المعروف روجيه جارودى، وشرحها فى كتابه الشهير (من أجل حوار بين الحضارات) الصادر سنة ١٩٧٧م، الكتاب الذى يمكن وصفه بمثابة مرافعة محكمة فى الدفاع عن قضية حوار الحضارات، وتميز بمنطق شديد التماسك، وبخطاب موثق بالشهادات والوقائع والحقائق، وبالنمط الذى يمكن اعتباره من الصور الفعلية التى تجسد حوار الحضارات، وظهر جارودى فى هذا الكتاب أحد أكثر المنظرين والمتحمسين لهذه الفكرة التى عرف واشتهر بها عالمياً.

هذه الدعوة فى أطروحة جارودى مرت بثلاثة أطوار زمنية وفكرية، جسدت شخصية جارودى الفكرية فى انتقالاته وعبوره بين الأيديولوجيات والأديان، وكشفت عن طبيعته الجدلية والإشكالية، وذهنيته الحائرة والقلقة، بحثاً عن الأمل الذى ظل يفتش عنه فى الثقافات والحضارات الإنسانية، وهذه الأطوار هى:

الطور الأول: الدعوة للحوار بين الماركسية والمسيحية، وذلك حينما كان جارودى مفكراً فى الحزب الشيوعى الفرنسى، وكان يصف نفسه آنذاك بالمحرك الرئيسى لهذه الدعوة فى فرنسا وأوروبا، طيلة اثنى عشرة سنة، وكانت الغاية من هذه الدعوة حسب رؤية جارودى هى بناء العلاقة بين التحرر والإيمان، التحرر الذى تمثله الماركسية، والإيمان الذى تمثله المسيحية.



جانب من الحضور اثناء الوقوف دقيقة حدادا على ارواح الشهداء

الطور الثانى: فى سنة ١٩٦٨م تكونت عند جارودى رؤية لفت بها نظر المجتمع المسكونى للكنائس فى جنيف، حيث اعتبر أن الحوار بين الماركسيين والمسيحيين سوف يظل إقليمياً حسب تعبيره، ولن يتقدم إلا فى نطاق منطقة ثقافية واحدة، وهى منطقة الغرب، وإنه من الأهمية فى نظره التحول نحو إدارة هذا الحوار على مستوى الحضارات، وكانت الغاية من هذا الحوار فى نظر جارودى هى بناء العلاقة بين الإيمان والتاريخ، الإيمان والعالم، الإيمان الذى يعطى الشعوب القوة والأمل فى تغيير العالم والحياة.

الطور الثالث: التأكيد والتركيز على الحوار بين الغرب والإسلام، وهى الدعوة التى ظهرت واضحة ومتجلية فى الكتاب الذى أصدره جارودى سنة ١٩٨١ بعنوان (وعود الإسلام)، وفى كتابه أيضاً (الإسلام فى الغرب: قرطبة عاصمة الروح والفكر)، فقد اعتبر أن العقبة الرئيسية التى تقف فى وجه حوار الحضارات هى النظرة التى حملها الغرب منذ مئات السنين عن الإسلام، وأن النظرة للإسلام فى رؤية جارودى إنما تتعلق بمستقبلنا، مستقبل البشرية الذى يتعرض مصيره للخطر، فالإسلام قوة حية ليس كامناً فقط فى ماضيه، وإنما فى كل ما يمكن أن يقدمه لصنع المستقبل.

وقد تأكدت قناعة جارودى بالإسلام الذى أعلن اعتناقه له سنة ١٩٨٢م، ووجد فيه الأبعاد الإنسانية المطلوبة، والفرص المفقودة فى أنظمة الغرب الثقافية والفلسفية والاجتماعية والاقتصادية؛ لذلك أولى أهمية للدفاع عن الإسلام، والتعرف عليه، واكتشاف جمالياته، وتركيز النقد على الغرب فى رؤيته وأنماط تعامله مع الإسلام، ومع التراث الإسلامى الذى يصفه بالتراث الثالث المكوِّن للتراث الغربى، والذى رفضه الغرب كما يقول جارودى منذ ثلاثة عشر قرناً، التراث الذى كان باستطاعته ولا يزال فى نظر جارودى ليس الإصلاح بينه وبين

حكم العالم فحسب، بل مساعدته بالتعرف على الأبعاد الإنسانية والإلهية التي انفصل عنها، عندما نمّى أحاديًا إرادته للسيطرة على الطبيعة والناس[1].

وما يعزز هذه القناعة عند جارودي رؤيته بأن الإسلام لم يكمل ويخصب وينشر أقدم وأرفع الحضارات فحسب، كحضارة الصين والهند وفارس واليونان والإسكندرية وبيزنطة، بل حمل إلى إمبراطوريات مفككة وحضارات ميتة، روح حياة جماعية جديدة، وأعاد إلى الناس ومجتمعاتهم أبعادهم الإنسانية والإلهية من تسام وتوحد. كما أعاد خميرة تجديد العلوم والفنون والحكمة النبوية والقوانين)[2].

وتساءل جارودي (لقد أنقذ الإسلام في القرن السابع الميلادي، إمبراطوريات كبيرة متهاوية، فهل يستطيع اليوم أن يحمل لنا جوابًا عن قلق ومشاكل الحضارة الغربية؟ هذه هي المسألة التي يجهد هذا الكتاب – وعود الإسلام – في طرحها إذا لم يكن في حلها؟)[3].

أما في كتابه (الإسلام في الغرب) فهو ينطلق من فكرة يحاول أن يعيد من خلالها قراءة بداية تاريخ النهضة في أوروبا، وحسب تصوره فإن نهضة أوروبا الأولى لم تبدأ في إيطاليا، وإنما في أسبانيا خلال القرن الثالث عشر.. النهضة التي كانت وعداً مشرقاً في أسبانيا، وكان لها اتجاه معاكس ومختلف عن نهضة القرن السادس عشر في إيطاليا، ونهضة القرن السابع عشر في إنكلترا، ونهضة القرن التاسع عشر في فرنسا، ونهضات القرنين الأخيرين في الغرب[4].

ويختتم جارودي كتابه وفي السطر الأخير منه، بأمل أن تعطي الأندلس وقرطبة للعالم ثانية رسالة عصورها الذهبية، رسالة حضارة الكوني الشمولي[5]. ويستشهد في كتابه (وعود الإسلام) برأي المستشرق الهولندي دوزي (١٨٢٠-١٨٨٣م) الذي عرف باهتمامه بحضارة العرب، في كتابه (تاريخ مسلمي أسبانيا)، حيث يرى أن الفتح العربي كان خيراً لأسبانيا؛ لأنه أحدث ثورة اجتماعية هامة، وقضى على قسم كبير من الشرور التي كانت ترزح البلاد تحتها منذ قرون[6].

ومع أن جارودي كان ينطلق من مقولة حوار الحضارات في توجيه النقد التاريخي والفلسفي والاجتماعي للغرب، إلا أنه كان متوجهاً إلى الغرب في خطابه وليس للحضارات الأخرى، وأن الغرب هو المعني بهذه الدعوة لحوار الحضارات، بقصد تصحيح

١- روجيه جارودي، وعود الإسلام، بيروت: الدار العالمية، ١٩٨٤م، ص١٩.

٢- روجيه جارودي، المصدر نفسه، ص١٩.

٣- روجيه جارودي، المصدر نفسه، ص٢٥.

٤- روجيه جارودي، الإسلام في الغرب قرطبة عاصمة الروح والفكر، ترجمة د. محمد مهدي الصدر، بيروت: دار الهادي، ١٩٩٦م، ص١٤،٢٠٦.

٥- روجيه جارودي، المصدر نفسه، ص٢٠٢.

٦- روجيه جارودي، وعود الإسلام، مصدر سابق، ص٥١.

مساراته بعد أن وصل إلى مأزق حضاري خطير.

فقد اكتشف جارودي بفكره النقدي، ومعرفته الواسعة، وانفتاحه على الثقافات غير الأوروبية، وجود أزمة حضارية عميقة في الغرب والحضارة الغربية، ولا سبيل لتجاوز هذه الأزمة وتداركها في نظره، إلا بالانفتاح على الحضارات الأخرى غير الأوروبية، والتحاور معها، والتعلم منها؛ لاكتشاف ما يسميه بالفرص المفقودة، والأبعاد الإنسانية والأخلاقية المطلوبة، التي تمت في الحضارات والثقافات غير الأوروبية.

وهذه الأزمة التي يعيشها الغرب في الربع الأخير من القرن العشرين، إنما ترجع في جذورها حسب رأي جارودي، إلى عصر النهضة، الذي ولدت معه الرأسمالية والاستعمار معاً، وما صاحبه من تنكر وهدم لجميع الثقافات غير الأوروبية. فقد اتبعت الحضارة الغربية في نموها وتقدمها من القرن السادس عشر وحتى نهاية القرن العشرين، طريقة أوصلتها كما يعتقد جارودي، إلى أزمة داخلية عميقة، حددها في ثلاثة أبعاد رئيسية، شرحها في كتابه: (حوار الحضارات)، وهي:

١- رجحان جانب الفعل والعمل، بالشكل الذي يتحول فيه الإنسان إلى مجرد آلة للإنتاج والاستهلاك، ويفقد جوهره المعنوي والأخلاقي.

٢- رجحان جانب العقل، واعتباره قادراً على حل جميع المشكلات، بحيث لا توجد مشكلات حقيقية إلا تلك التي يستطيع العلم حلها، والنتيجة بعد ذلك هي عدم القدرة على تحديد الغايات الحقيقية، والسيطرة على الوسائل.

٣- رجحان جانب الكم، وجعله معياراً ومقياساً لا نهائياً، بحيث يصبح النمو باعتباره نمواً كمياً صرفاً في الإنتاج والاستهلاك.

ويرى جارودي أن حضارة تقوم على هذه الأبعاد الثلاثة، إنما هي حضارة مؤهلة للانتحار.

وعلى ضوء هذا التحليل لأزمة الثقافة والحضارة الغربية، بلور جارودي نظريته لحوار الحضارات، ناظراً بها إلى الغرب، بوصفها طريقاً لإنقاذه وتصحيح مساراته، وتشكلت هذه النظرية على أساس المرتكزات التالية:

١- الاهتمام بالحضارات اللاغربية في مجال الدراسات، وجعلها بمنزلة تعادل في أهميتها الثقافة الغربية.

٢- ضرورة أن يشغل مبحث الجمال، منزلة يعادل في أهميته تعليم العلوم والتقنيات.

٣- جعل الاهتمام بالمستقبل، يعادل في أهميته من حيث التفكير والغايات والأهداف أهمية التاريخ وعلم التاريخ[7].

هذه النظرية التي كونها جارودي لحوار الحضارات، أراد بها أن يخاطب الغرب بصورة أساسية؛ لذلك فهي تنتمي وتصنف على

٧- روجيه جارودي، حوار الحضارات، ترجمة عادل العوا، بيروت: منشورات عويدات، ١٩٨٧م، ص١٨٦.

النظريات الغربية، التي تنطلق من نقد التجربة الغربية والحضارة الغربية، ويعبر جارودي عن ذلك بقوله: (حوار الحضارات أصبح ضرورة عاجلة لا سبيل لردها، إنه قضية بقاء، لقد بلغنا حد الخطر، بل لعلنا تجاوزناه، إن مهمتنا بعد الفرص التاريخية الضائعة، وضياع أبعاد الرجل الغربي، هي استئناف حوار حضارات الشرق والغرب، من أجل وضع حد لحوار الذات الغربي الانتحاري.. إدراك هذا النقص، وإدراك ما تدين به للثقافات والحضارات غير الغربية، هو اليوم على ما نظن السبيل الوحيد الذي بقي مفتوحا أمامنا خارج مأزق الموت)[٨].

وكون هذه النظرية تنتمي وتصنف على النظريات الغربية، لا يعني ذلك بالضرورة نقدا لها، أو رفضاً أو إسقاطاً، وإنما القصد هو تحديد طبيعة الفضاء المعرفي والمرجعي لهذه النظرية، وفهم غاياتها ومقاصدها، وكيفية التعامل معها.

وبالتالي لا يمكن الرجوع إلى هذه النظرية، إلا في إطار التثاقف والتواصل الفكري والمعرفي، وليس الاعتماد عليها بوصفها نظرية كونية عامة، أو باعتبارها قابلة للتعميم على المستوى الإنساني، مع أنها قد تعد من أنضج النظريات في مجالها، وأكثرها دعوة للانفتاح والتواصل مع الثقافات والحضارات الأخرى غير الأوروبية.

ولعله إلى اليوم لم تتبلور نظرية أخرى لحوار الحضارات، في مستوى نظرية جارودي وتماسكها وخبرتها ودرجة انفتاحها، كما نظر لها وشرحها في كتابه الشهير: (حوار الحضارات)، وتمثلها في تجربته الفكرية، وفي الأطوار والانتقالات التي مر بها من المسيحية إلى الماركسية، ومن ثم إلى الإسلام، فلم يكن جارودي مجرد داعية لحوار الحضارات، بل كان مثالاً تطبيقياً لهذه الدعوة في تجربته الفكرية.


جارودي

هذا هو المأخذ الرئيسي على رؤية جارودي لحوار الحضارات لكونها تستجيب بصورة أساسية لحاجات الغرب ومشكلاته، باعتبارها ناظرة إليه، ولا تلبي من جهة أخرى حاجات الحضارات غير الأوروبية.

أما قيمتها الرئيسية فهي في النقد الذي وجهه جارودي للغرب، وأراد منه أن يدفعه لمراجعة ذاته وتراثه وتاريخه، وأن يغير من نظرته إلى العالم، ويدخل في مصالحة مع الحضارات غير الغربية، والاستفادة والتعلم منها، واكتشاف مستقبله المشترك مع بقية العالم، وليس مستقبله الذي لا يرى فيه إلا ذاته. وقيمة هذا النقد أنه يأتي من مفكر غربي واسع الثقافة والمعرفة، ومنفتح على الثقافات والحضارات غير الأوروبية، وقد تمثل حوار الحضارات في تجربته الفكرية بتحولاته

٨- روجيه جارودي، المصدر نفسه، ص ٢٣.

وتقلباته وانتقالاته.

وكان بالإمكان لأفكار جارودي أن تكون لها فاعلية وشأن، لو انفتح الغرب عليها، وقبل الإصغاء إليها، وتفهمها. مع ذلك فقد بقيت أطروحة جارودي مجرد دعوة لم تتحول إلى تيار فاعل ومؤثر في الغرب والثقافة الغربية، حتى مع محاولته لإنشاء معهد دولي لحوار الحضارات سنة ١٩٧٦م، وسعيه بعد ذلك لإحياء مشروع قرطبة كمركز إشعاعي حضاري جديد في الغرب، إلا أن هذه الأفكار بقيت مجرد طموحات وآمال غاية في النبل.

ومع دخول العالم حقبة ثمانينيات القرن العشرين تراجعت الدعوة إلى حوار الحضارات، وظهرت ما سميت في الخطاب الغربي والإعلام الغربي بالأصوليات، وارتفعت درجة الاحتكاك والتوتر بين العالمين الإسلامي والغربي، وفي هذا السياق نشر جارودي كتابه (الأصوليات المعاصرة.. أسبابها ومظاهرها)، حيث اعتبر فيه أن الأصوليات -كل الأصوليات- تشكل الخطر الأكبر على عصرنا وعلى المستقبل.

وحتى في هذا الكتاب لم يغفل جارودي عن توجيه النقد للغرب، بتحميله مسئولية انبعاث هذه الأصوليات بكل أشكالها في العالم الثالث، نتيجة إصراره على فرض نموذجه الإنمائي والثقافي، واعتبر الأصولية الغربية هي العلة الأولى التي ولدت كل الأصوليات الأخرى رداً على أصولية الغرب، وتحدياً لها.

٢. هنتنجتون وصدام الحضارات

الزمن الثاني: يتحدد مع ظهور مقولة صدام الحضارات التي بشر بها صمويل هنتنجتون في صيف ١٩٩٣م، على صورة مقالة قصيرة نشرها في مجلة (الشئون الخارجية)، الأمريكية، ومن ثم حولها إلى كتاب موسع صدر سنة ١٩٩٦م بعنوان: (صدام الحضارات وإعادة صياغة النظام العالمي).

ومنذ ذلك الوقت والجدل يحتدم حول هذه المقولة الجدلية بين الكتاب والأكاديميين والسياسيين، وتحولت إلى واحدة من أنشط الأفكار تداولاً ونقاشاً وسجالاً في مختلف مراكز العالم، وذلك بسبب طبيعتها التحريضية، وبنيتها التفسيرية، ورؤيتها التشاؤمية؛ ولأنها جاءت في وقت دخل العالم فيه مرحلة ما بعد الحرب الباردة، فكانت التطلعات باتجاه إزالة المخاوف من إمكانية وقوع الحروب، ووقف سباق التسلح العالمي، وتوازنات الردع النووي، التي جعلت المجتمع الدولي يعيش حالة من الرعب، وبدل الشعور بالتفاؤل جاءت هذه المقولة لكي تبعث التشاؤم المخيف، وتبشر بحرب باردة بين الحضارات، هي أشد خطورة مما كانت بين الدول في المرحلة السابقة.

لا شك أن هذه المقولة تمثل ارتداداً واضحاً على مقولة حوار الحضارات، وعلى ذلك النسق من الدراسات والأبحاث المقارنة لتاريخ الحضارات التي كرست مفاهيم التفاعل والتواصل والتعاقب، وتنتمي هذه المقولة لنسق آخر من الدراسات الغربية، ذلك النسق

الذى اتصف بالتحيز المفرط، وإظهار النزعة العدائية إلى الآخر الحضارى، ومحاولة التوظيف اللاأخلاقى، وقد ارتبط هذا النسق فى وقت سابق بعلاقات مباشرة مع مؤسسات التبشير، وأجهزة الاستعمار الأوروبى، ومن صوره ما تجلى فى دراسات بعض المستشرقين التى تصنف على الاستشراق التقليدى، ودراسات بعض الأنثروبولوجيين التوظيفية.

ومن جهة أخرى تنتمى هذه المقولة إلى حقل العلوم السياسية، وعلم السياسة الأمريكى بشكل خاص، وقد ارتبطت هذه المقولة بأسماء مفكرين يصنفون مهنياً وأكاديمياً على هذا الحقل، وينتمون إلى المدرسة الأمريكية فى علم السياسة.

وإذا كان هنتنجتون هو الذى عرف واشتهر بهذه المقولة، إلا أن هناك من سبقه إليها، بطرح مماثل فى التحليل والتفسير والاستشراف، كأستاذ الدراسات الدورية بجامعة وورويك البريطانية بارى بوزان، الذى نشر مقالة بمجلة (الشئون الدولية) الأمريكية فى يوليو ١٩٩١م، حملت عنوان (السياسة الواقعية فى العالم الجديد.. أنماط جديدة للأمن العالمى فى القرن الواحد والعشرين)، توصل فيها إلى ما اصطلح عليه بتصادم الهويات الحضارية المتنافسة، وبالذات بين الغرب والإسلام.

وفى نظر بوزان إذا اجتمع خطر الهجرة، وخطر تصادم الثقافات أصبح من السهل


برنارد لويس

وضع تصور لنوع من الحرب الباردة الاجتماعية بين المركز وجزء من الأطراف على الأقل، ولا سيما بين الغرب والإسلام. فالهجرة حسب رأيه من الجنوب إلى الشمال، وبكيفية خاصة من جنوب البحر المتوسط إلى شماله، تشكل خطراً على أمن دول المركز، إذ تهدد هويتها الحضارية.

والتصادم الحضارى هو أوضح ما يكون حسب رؤية بوزان بين الغرب والإسلام؛ نظراً للتعارض بين القيم العلمانية السائدة فى الغرب وبين القيم الإسلامية، وللتنافس التاريخى بين المسيحية والإسلام، ولغيرة المسلمين من قوة الغرب، إضافة إلى الجوار الجغرافى.

والذى يختلف فيه بوزان عن هنتنجتون أنه يضيف الحضارة الهندية إلى جوار الإسلام فى الحرب الباردة الحضارية مع الغرب، فى حين يضيف هنتنجتون الحضارة الصينية الكونفوشية مكان الحضارة الهندية[٩].

أما الذى يمكن أن يصنف مرجعاً لمثل هذه الآراء والأفكار فهو المستشرق والمؤرخ المعروف برنارد لويس أستاذ تاريخ الشرق الأدنى فى جامعة بريستون إحدى أهم الجامعات الأمريكية السبع، ومع أنه معروف بتحيزه لآراء

٩. محمد عابد الجابرى. قضايا فى الفكر المعاصر، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٧م، ص٩٠.

وأفكار وتحليلات معارضة للإسلام والعرب، مع ذلك يعتبر من أهم المؤرخين فى كتابة تاريخ الشرق الأدنى الحديث والمعاصر، ولعله فى نظر البعض يمثل آخر المستشرقين الذين يمثلون المدرسة الكلاسيكية.

وقد شبه إدوارد سعيد هنتنجتون ببرنارد لويس فى موقفه بانتقاء المصادر التى تناسبه فى سرد تاريخ الشرق الأوسط والإسلام، واعتبر محمد عابد الجابرى آراء هنتنجتون بأنها مماثلة لآراء روج لها برنارد لويس ويميل إليها هنتنجتون نفسه.

ولعل ما تميز به هنتنجتون فى هذا الشأن، هو أنه استطاع تحريك هذه المقولة فى المسرح الدولى، وقام بتعميمها على نطاقات واسعة، وظل يدافع عنها، ويحرض عليها. وفى نظر الكاتب الأمريكى جيمس كورث وهو يجيب عن سؤال حول الصراعات السياسية الرئيسية التى سيشهدها المستقبل فى نظره (هذا هو السؤال الذى يفرض نفسه على الجدل الدائر حول الشئون الدولية، وقد جاءت أكثر الإجابات شمولاً وإثارة للجدل من جانب صمويل هنتنجتون، الذى فجر مفهومه حول تصادم الحضارات صداماً كبيراً بين الكتاب)[١٠].

إن اختلاف موقف هؤلاء الذين يقولون بصدام الهويات، أو صدام الحضارات، أو الصدام بين الإسلام والغرب، عن أولئك الذين يتحدثون عن تعاون الثقافات أو حوار الحضارات، يعود إلى


إدوارد سعيد

طبيعة المنظور وطرائقه التوصيفية والتحليلية والتفسيرية، والذى ينقسم هنا إلى منظورين: منظور يستند على البحث التاريخى المعرفى كما هو عند توينبى، أو البحث الأنثروبولوجى كما عند شتراوس، أو البحث عن الفلسفة الأخلاقية كما هى عند اشفيتسر.

ومنظور يستند على السياسة والأمن والدفاع، وهو المنظور الذى أوصل بوزان ولويس وهنتنجتون إلى فكرة صدام الهويات عند بوزان، وصدام الحضارات عند هنتنجتون، والصدام بين الإسلام والغرب عند لويس.

وهذا المنظور الذى ينطلق من علم السياسة، من طبيعة حقله وأدواته التعامل مع أفكار ونظريات حول الصراع أو القوة أو النزاع أو السيادة فى نطاق ما يعرف بالجغرافيا السياسية، الأمر الذى يجعل من فكرة الصراع أو الصدام حاضرة فى منهجيات النظر والتحليل والتفسير.

وهذا ما وقع فيه هنتنجتون الذى كرس حياته المهنية والأكاديمية فى مجال الدراسات السياسية والاستراتيجية، فهو أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفارد، ومدير معهد الدراسات الاستراتيجية فيها أيضاً، ومدير أكاديمية هارفارد للدراسات الدولية والإقليمية،

١٠. جيمس كورث. تصادم المجتمعات الغربية نحو نظام عالمى جديد، مجلة الثقافة العالمية، الكويت، السنة الثالثة عشرة، العدد ٧٧، يوليو ١٩٩٦م، ص٧.

ورئيس الجمعية الأمريكية للعلوم السياسية، وكان مسئولاً عن التخطيط بمجلس الأمن القومي في إدارة الرئيس السابق جيمي كارتر.

ومن جوانب النقد الأساسية التي وجهت لهنتنجتون، هو أنه ينطلق من مفهوم الدولة كما تحدد في علم السياسة، وليس من مفهوم الحضارة كما تحدد في علم التاريخ والبحث التاريخي؛ لذلك فإن مقولته هي أقرب إلى النظريات السياسية، والتي تنطلق من بواعث سياسية ولمقاصد سياسية.

ولقد استفزت هذه المقولة المجتمع الدولي، وكانت الباعث الأساسي لإحياء مقولة حوار الحضارات، باعتبارها الطرف النقيض من جهة، ولكونها تمثل الطرح الإيجابي البديل عن لتلك المقولة.

٣. الأمم المتحدة وحوار الحضارات

الزمن الثالث: إذا كان هذا الزمن يتصل بالزمن الثاني ويتأثر به، إلا أنه يختلف ويفترق عنه في مستويات الاهتمام، وديناميات التطور، وطرائق التعاطي. ويؤرخ لهذا الزمن بموافقة الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الثالثة والخمسين لسنة ١٩٩٨م، على اقتراح باختيار سنة ٢٠٠١م سنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات، وهو الاقتراح الذي تقدم به السيد محمد خاتمي رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية آنذاك، في خطابه الذي ألقاه بالجمعية العامة للأمم المتحدة في أغسطس ١٩٩٨م.

والخلفيات التي أشار إليها قرار الأمم المتحدة بهذا الشأن، تنتمي وتتوافق مع أفكار وتصورات أولئك المفكرين والمؤرخين أصحاب


محمد خاتمي

النزعة الأخلاقية والإنسانية في البحث التاريخي والأنثروبولوجي، الذين يؤكدون على مفاهيم تنوع الثقافات، وتعدد الحضارات، والنظر لهذا التنوع والتعدد بوصفه مصدر إثراء واستلهام يبعث على التقدم والتواصل بين الأمم والحضارات.

وعن هذه الخلفيات، وتعزيزاً لهذا الاختيار، شرح قرار الأمم المتحدة رؤيته لحوار الحضارات منطلقاً من «الإقرار بالإنجازات الحضارية المتنوعة للبشر، وضرورة بلورة ثقافة تعددية، والقبول بتنوع المخلوقات البشرية، والأخذ بعين الاعتبار أن التعاملات الثنائية بين الحضارات على امتداد التاريخ الإنساني، كانت مستمرة على الرغم من وجود الموانع النابعة من عدم التسامح والنزاع والحروب، ومع التأكيد على أهمية التسامح في العلاقات الدولية، والدور الرفيع للحوار بمثابة أداة للوصول إلى التفاهم وإزالة تهديدات السلام وتعزيز التعامل والتبادل بين الحضارات.. ومع إعادة التأكيد بأن الإنجازات الحضارية تشكل ميراثاً مشتركاً للبشرية جمعاء، وتهيئ مصدراً لسمو البشرية وتقدمها. والترحيب بالمساعي الجماعية للمجتمع الدولي، وباتجاه مزيد من التفاهم من خلال الحوار البناء بين الحضارات على عتبة الألفية الثالثة، تعلن عن عزمها الراسخ على تسهيل وترويج الحوار بين الحضارات».

هذا التبني من طرف الأمم المتحدة ساهم بصورة فاعلة وكبيرة في تحريك وتعميم



مفهوم حوار الحضارات، وتحويله إلى مفهوم متحرك في مجال العلاقات الدولية، بطريقة بات يأتي على ذكره في المناسبات والاجتماعات الدولية، ويشار إليه في البيانات والتقارير الإقليمية والعالمية، وعقدت حوله الكثير من الندوات والمؤتمرات التي توزعت في دول العالم المختلفة، بحيث يمكن القول أنه لأول مرة يجري هذا المستوى من الاهتمام العالمي بقضية حوار الحضارات.

من جهة أخرى أن اختيار سنة ٢٠٠١م تحديداً، كان بقصد أن يستقبل العالم الألفية الثالثة بنوع من التفاؤل والثقة والشعور بالأمن والسلام، والاندفاع نحو تجديد وتطوير العلاقات الدولية بين الأمم والشعوب، وليكون قرناً مختلفاً عن القرن العشرين الذي عد قرن الحروب الكبرى، حيث بدأ بحرب عالمية مدمرة في أوروبا، هي الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م، وانتهى بحرب عالمية مدمرة أخرى في الشرق الأوسط، وهي حرب الخليج الثانية سنة ١٩٩٠م.

والتطور المهم الذي حصل في هذا الشأن مع مبادرة الأمم المتحدة، هو إحياء مفهوم حوار الحضارات، وتجديد العمل به في مجال العلاقات الدولية، واستخدامه في نقد وتقويض ومحاصرة مقولة صدام الحضارات، وبناء تراكمات فكرية وثقافية حوله، وفتح أوسع نقاش دولي عابر للثقافات والقوميات واللغات حوله، والتأكيد على بناء الجسور وتعزيز الحوار بين الحضارات.

٤. الحادي عشر من سبتمبر وحوار الحضارات

الزمن الرابع: بدأ مع حدث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، الحدث الذي أصاب العالم بهزة عنيفة غيرت من صورته، وقلبت معادلاته وتوازناته، وأصبح الحدث الذي تؤرخ به الألفية الثالثة الجديدة، وتأثرت به

التطورات والتغيرات اللاحقة، وما زالت تتأثر به، وقد اعتبر المعهد الدولى للدراسات الاستراتيجية بلندن فى تقريره السنوى حول التوازن العسكرى فى العالم، أن عهداً استراتيجياً جديداً قد بدأ منذ أحداث الحادى عشر من سبتمبر.

فقد دفعت هذه الأحداث العالم ليعيش فى أشد حالاته انفعالاً وتوتراً واضطراباً، وهيمنت عليه مفاهيم العنف والإرهاب والقوة، وأصبح المجتمع الإنسانى لأول مرة وكأنه يعيش صدام حضارات، المفهوم الذى أخذ العالم يتداوله على أوسع نطاق، وكأن هنتنجتون صدق فى نبوءته حين بشر بهذا المفهوم عام ١٩٩٣م، وأكده عام ١٩٩٦م.

وفى الجانب الآخر، فإن هذه الأحداث لفتت انتباه العالم مجدداً، وبالذات فى العالم العربى والإسلامى إلى مفهوم حوار الحضارات، المفهوم الذى أصبح له واقع فعلى، ولم يعد كما كان قبل هذه الأحداث مجرد مفهوم يعبر عن فهم أخلاقى نبيل، وعن طموحات ورغبات مثالية لا واقع لها ولا مصير.

ولهذا فإن الربع الأخير من سنة حوار الحضارات، وتحديداً بعد أحداث سبتمبر شهد العالم العربى أوسع نشاط واهتمام بهذا المفهوم، ولأول مرة فى تاريخ الجامعة العربية تدعو إلى عقد مؤتمر فكرى حول حوار الحضارات، وبقدر ما لفتت هذه الأحداث الأنظار لمقولة هنتنجتون فى صدام الحضارات، لفتت الاهتمام أيضاً إلى دعوة السيد خاتمى فى حوار الحضارات، وأكدت قيمة هذه الدعوة والحاجة إليها فى استشراف المستقبل.

ومع هذه الأحداث كانت البداية الفعلية لحوار الحضارات على مستوى العالم، مع ذلك لم يحصل أى تقدم فى صياغة نظرية أو بلورة خطاب متقن ومتماسك؛ إذ بقى هذا المفهوم يوجه لوظيفة دفاعية، الغرض منها مواجهة التشويهات والإسقاطات التى تعرضت لها الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية، فى أوسع حملة تشويهية تحصل فى الغرب خلال نصف قرن.

وحسب هذه المهمة فقد تحول مفهوم حوار الحضارات إلى أشبه ما يكون بمفهوم إعلامى يستهلك على نطاق واسع فى وسائل الإعلام المختلفة والمتعددة، من دون أن يرتكز هذا المفهوم ويستند على بناء فكرى وتاريخى عميق ومنظم، ومن دون أن يكون له تأثيرات فاعلة وحقيقية فى تغيير المفاهيم والذهنيات، وتبديل الاتجاهات والسياسات العامة، لا فى النطاقات الإقليمية، ولا فى النطاقات العالمية، وبالتالى فهو أقرب ما يكون إلى مجرد مفهوم ساحر وجذاب، يغرى الآخرين بالحديث عنه وحوله، والتباهى به، من دون أن يكون له فاعلية أو تأثير.

٥. حوار الحضارات.. فحص ونقد

مع التداول الواسع لمفهوم حوار الحضارات، دخل هذا المفهوم فى دائرة الفحص المعرفى، للنظر فى بنيته وتركيبته اللغوية والمعرفية، وهذه هى أول مرة يحصل فيها فحص هذا المفهوم فى المجال العربى.

ونتيجة لهذا الفحص بدأ النقد يتجه لهذا المفهوم، ويتعدد فى جهات مختلفة، منها ما يتصل بتركيبة المفهوم وطريقة اختراعه وصياغته، ومنها ما يتصل بإمكانية تطبيق هذا المفهوم والالتزام به فعلياً، ومنها ما يتصل بطبيعة الأرضيات والسياقات الموضوعية وهل هى مساعدة فى تقبل هذا المفهوم وتحريكه أم لا!

فمن جهة تركيبة هذا المفهوم وطريقة صياغته واختراعه، فقد أطلت التأمل والتفكير فيه كثيراً، وكنت أتساءل كيف يمكن للحضارات أن تتحاور؟ حتى يصح استعمال مصطلح حوار الحضارات، هل عن طريق ممثلين ومفوضين عن الحضارات لهم صفة قانونية أو اعتبارية! لكننى وجدت أنه لم تحصل سابقة بهذا الشأن، لأن كل حضارة فيها من الانقسامات والتعدديات الدينية والمذهبية، العرقية والقومية، اللغوية واللسانية، ما يجعل من الصعوبة القيام بمثل هذا الدور.

من جهة ثانية إن السائد حالياً فى مجال العلاقات الدولية هو مفهوم الدولة وليس مفهوم الحضارة، والعلاقات بالتالى هى علاقات بين دول وليس بين حضارات، والتمثيل والتفويض لو حصل فرضاً بين المجموعات الحضارية فهو أقرب ما يكون إلى تمثيل دول وليس حضارات.

إلا أن نقول بأن ما يجرى فى الجمعية العامة للأمم المتحدة التى تضم دولاً من مختلف الحضارات والثقافات والقوميات والديانات هو الذى يمثل الصورة الفعلية لحوار الحضارات، حتى لو سلمنا بهذا الفرض وهو أقرب الفروض استباقاً إلى الذهن، إلا أن ما يجرى هناك ليس مبرمجاً لهذا الغرض، وحينما طالبت إيران بأن يكون لدول المجموعة الإسلامية ممثل دائم بمجلس الأمن اعترضت مصر على هذا الاقتراح؛ لأن التمثيل حسب رأيها لا يخضع لموجبات أو معايير دينية.

يضاف إلى ذلك أن الدراسات والأبحاث التاريخية والأنثروبولوجية المقارنة للحضارات، لم تستعمل مصطلح أو تسمية حوار الحضارات، وهى الدراسات التى بحثت مختلف أشكال وصور العلاقات بين الحضارات، إذ استعملت تسميات أخرى، كتعاون الثقافات عند شتراوس، وتفاعل الحضارات عند قسطنطين زريق، إلى غير ذلك من تسميات، الأمر الذى يدعو إلى مساءلة تسمية حوار الحضارات.

وحين توقف الدكتور محمد عابد الجابرى أمام هذا المفهوم، الذى وصفه بالشعار وجد أن هذا الشعار هو فى جميع الأحوال مفعم بالغموض والالتباس.. والذين يرفعونه واقفون عند منطوقه حيث ينطوى موقفهم على نوع من الغفلة، ذلك لأن الحوار بين الحضارات إما أن يكون عفوياً تلقائياً نتيجة الاحتكاك الطبيعى فيكون عبارة عن تبادل التأثير، عن أخذ وعطاء، بفعل الصيرورة التاريخية. وهذا النوع من تلاقح الحضارات لا يحتاج إلى دعوة، ولا يكون بتخطيط مسبق، بل هو عملية تاريخية تلقائية[١٦].

---

١٦. محمد عابد الجابرى، قضايا فى الفكر المعاصر، مصدر سابق، ص ١٣، ١٣٦.

وهذا النقد لمفهوم حوار الحضارات يعتبر جديداً في الكتابات العربية، وهو ناشئ كما أشرت عن التداول الواسع لهذا المفهوم، الأمر الذى اقتضى فحصه وإعادة النظر فيه.

أما فيما يتصل بجانب القدرة والفاعلية والتأثير لهذا المفهوم وإمكانية تطبيقه والالتزام به، فيمكن القول أن هذا المفهوم لن تكون له القدرة الفاعلة فى التأثير على مجرى السياسات العالمية، وعلى بنية وأنماط العلاقات الدولية، وذلك لشدة تعقيداتها وتناقضاتها، وتضارب مصالحها السياسية والاقتصادية والأيديولوجية.

لهذا السبب فإن مقولة صدام الحضارات هى أقرب إلى روح العالم المعاصر بمعادلاته ومكوناته وعناصره القائمة، والمحكوم بذهنية الهيمنة والسيطرة والاستقطاب. وهى الوضعيات التى كوّن منها هنتنجتون مقولة صدام الحضارات، وأراد منها حسب رأيه أن تكون مقولة تفسيرية وليس تقريرية، كما فهم منتقدوه فى رده عليهم.

وحينما كان بطرس غالى أميناً عاماً للأمم المتحدة أعلن سنة ١٩٩٥م: (إن بعض الدول اعتقدت أن بإمكانها الاسترخاء بعد الانتصار فى الحرب الباردة، وهى تكتشف أنه على العكس من ذلك، فإن الحرب الباردة حالت دون وقوع أو أخفت ٣٠ حرباً صغيرة تواجهها اليوم.. وإن العالم يمر بفترة أصعب من الفترة التى شهدها خلال الحرب الباردة، والأمم المتحدة غير قادرة على حل جميع المشاكل).



كوفى عنان — بطرس غالى

وفى مؤتمر الأمم المتحدة الثالث حول الدول الأقل تقدماً، الذى عقد فى بروكسل سنة ٢٠٠١م، قال الأمين العام السابق للأمم المتحدة كوفى عنان فى كلمة الافتتاح: إن هذا المؤتمر هو الثالث الذى ينعقد فى غضون ٢٠ عاماً، وبدلاً من أن تنخفض لائحة الدول الأقل تقدماً، فإنها قد ازدادت، وبحسب أرقام الأمم المتحدة فإن عدد الدول الأقل تقدماً قد ارتفع من ٢١ دولة فى العام ١٩٧١م إلى ٤٩ دولة اليوم.

وأما من جهة الأرضيات والسياقات، فليست هناك إمكانيات فعلية للنهوض بحوار بين الحضارات؛ لأن الغرب الذى يفترض فيه أن يكون طرفاً أساسياً فى أى حوار من هذا المستوى، ليس على استعداد لأن يدخل فى حوار متكافئ مع الحضارات الأخرى، وهو صاحب الحضارة الغالبة والمهيمنة على العالم، والمستحوذة على ثرواته، ولا يرى نفسه معنياً بهذا الحوار أساساً، وقد ظل يتعامل مع الحضارات الأخرى بنوع من التعالى المفرط، وتاريخه القديم والحديث والمعاصر خير شاهد على ذلك.

وحتى الحضارات الأخرى فليست لديها القدرة والإقناع فى أن تدخل فى حوار متكافئ أو متوازن، أو فى شراكة فعلية أو عادلة مع الغرب، ما لم يقتنع الغرب بتقدمها وتفوقها، وبالحاجة إليها وإلى شراكتها الحضارية.

وقد توقف جارودى كثيراً أمام هذه الإشكالية، حيث وجد فيها العقبة الرئيسية التى تقف فى وجه علاقة الغرب بالعالم والحضارات غير الغربية، وحسب رأيه أن الغرب قد صادر المعرفة العالمية، وأباح لنفسه تحديد مواقع الآخرين، والحكم عليهم، وفقاً لتاريخه وغاياته وقيمه[12]، ويرى أن المشكلة الأساسية فى الثقافة الغربية الحاضرة، هى فى أن نقضى على التصور التسلطى فى الثقافة الغربية، والاستعاضة عنه بتصور يتطلع بأسئلته إلى حكمة العالم اللاغربى.- وذلك لا يمكن إلا بالانخراط فى حوار حضارات حقيقى مع الثقافات غير الغربية[13].

ومن وجهة نظر الجغرافى والمؤرخ الفرنسى رولان بريتون فإنه يرجع هذه الإشكالية فى ذهنية الغرب إلى منشأ تصور الأوروبيين لمفهوم الحضارة والثقافة، حيث يرى أنه (فى ذروة العصر الذى كان الأوروبيون يهيمنون فيه على العالم، فكرياً وسياسياً، جرى تصور الحضارة أولاً بصيغة المفرد، وكذلك الحال بالنسبة إلى الثقافة.. وفى الوقت الذى كانت أوروبا تبتكر كلمة حضارة كانت تكتشف المتوحشين أيضاً. فكانت تقوم بجردة للعالم، غير المغلق حقاً بعد، وباستشراف للبشرية التى لا يزال الجدال دائراً حولها، وكان التعارض الأساسى بين الطبيعة والثقافة قد سمح بفرز أولى مختصر بين شعب طبيعى أو ثقافى، أى بين شعب بدائى أو متحضر)[14].

ما يريد أن يقوله بريتون هو أن الأوروبيين تكونت نظرتهم إلى العالم من خلال مفهوم للحضارة يكاد يتحدد فيهم وينحصر عندهم، ونقيض الحضارة فى تصورهم هو التوحش أو البدائية، الوصف الذى يطلقونه على من يكون فى الطرف المغاير لهم.

من جهة أخرى، فإن الغرب شديد الحذر من أى تقارب أو توافق يحصل بين الحضارات، خصوصاً إذا كان الإسلام طرفاً فيها، خوفاً أو توهماً من تحول هذا التقارب أو التوافق إلى نوع من التحالف المتعارض مع الغرب، وهذا ما حذر منه بوزان الذى كشف عن خشية من حصول توافق بين الإسلام والحضارة الهندية، أو بين الإسلام والحضارة الصينية كما فى رؤية هنتنجتون.

مع كل ذلك سوف يظل العالم يتطلع إلى حوار الحضارات، كدعوة أخلاقية وإنسانية نبيلة.

٦. تعارف الحضارات

لقد كانت للمسلمين تجربتهم فى بناء الحضارة والعمران الإنسانى، وتكونت لهم معرفة وخبرة فى هذا الشأن، وأن الإسلام فى نظر برنارد لويس أول من سعى إلى العالمية، فالحضارات القديمة للبحر المتوسط والشرق

١٢- روجيه جارودى. وعود الإسلام، ص٢٢٧.

١٣- روجيه جارودى. حوار الحضارات، مصدر سابق، ص٩٢.

١٤- رولان بريتون. جغرافيا الحضارات، ترجمة د. خليل احمد خليل، بيروت - باريس: منشورات عويدات، ١٩٩٣م، ص٢٠-٢١.

الأوسط ولأوروبا والهند والصين، كانت محلية، وإقليمية في أحسن حال كما يقول لويس الذي اعتبر أن (المسيحية والإسلام على السواء انفتحا على مهمة عالمية، فالمسكونية الإسلامية امتدت على أجزاء كبيرة من آسيا وأفريقيا وأوروبا، وكانت البادئة في إيجاد حضارة متعددة الأعراق، ومتعددة الثقافات، وإلى حد ما متعددة القارات. فقد امتدت الحضارة الإسلامية إلى أبعد بكثير من أقصى حدود وصلتها الثقافات الرومانية والهيلينية، وقدرت بذلك على اقتراض عناصر مميزة من حضارات أكثر بعداً في آسيا ثم تبنيها وإدماجها)[15].

لهذا يفترض أن يكون للتصور الإسلامي رؤية أو مفهوم يحدد شكل العلاقات مع الأمم والمجتمعات والحضارات الأخرى، والمفهوم الذي نتوصل إليه في هذا المجال، وتزداد ثقة به، وبقيمته المعرفية والأخلاقية والإنسانية هو مفهوم (التعارف)، ومنشأ هذا المفهوم القرآن الكريم الذي خاطب الناس كافة، وجاء رحمة للعالمين، وكشفت عنه آية التعارف في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾

(الحجرات: ١٣)



د. حسين مؤنس

وهذه الآية تحديداً من أكثر آيات القرآن الكريم التي تكرر ذكرها والحديث عنها، والالتفات إليها في الكتابات العربية والإسلامية، منذ أن تجدد الحديث حول حوار الحضارات، الأمر الذي يجعلها ذات علاقة بهذا الشأن.

وقد استشهد بهذه الآية الدكتور حسين مؤنس في كتابه (الحضارة)، الذي تحدث فيه عن أصول الحضارة وعوامل قيامها وتطورها، وذلك في سياق حديثه عن علاقة الحضارة بالأجناس، وما توصل إليه المؤرخون الغربيون بعدم حصر القدرة على بناء الحضارة بأجناس معينة، وأن الحضارات إنما قامت بمشاركة أجناس متعددة.

ويعقب الدكتور مؤنس على هذا الرأي بقوله)[16]: لقد خرج المؤرخون الغربيون بهذه النتيجة بعد جهد وعناء، في حين أننا معاشر المسلمين والمتكلمين بالعربية، نفتح القرآن الكريم فنجد أنه أجمل ذلك كله في آية واحدة من آياته، وهي الآية الثالثة عشرة من سورة الحجرات:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾

والملاحظ أن حضور هذه الآية والاستشهاد بها، والالتفات إليها في الأدبيات العربية والإسلامية يكاد ينحصر ويتحدد في نطاق التذكير بها، أو مجرد الإشارة إليها، من دون التعمق في استجلاء دلالاتها، أو استكشاف مكوناتها، أو إمكانية ابتكار مفهوم منها، يكون أصيلاً ومحكماً بشرائطه العلمية، وقواعده الاصطلاحية.

والتأمل الفاحص لهذه الآية، يكشف لنا عن حقائق كلية ذات أبعاد إنسانية عامة، نتوصل منها لمفهوم نصطلح عليه بتعارف الحضارات، والتعارف هو المفهوم الذي حاولت هذه الآية تحديده وتأكيده وإبرازه والنص عليه، من خلال سياق وخطاب يؤكد على قيمته وجوهريته، لأن يكون مفهوماً أساسياً، وذلك بالاستناد على الحقائق التالية:

أولاً: الخطاب في سورة الحجرات متوجه بشكل صريح إلى المؤمنين في بداية السورة وفي خاتمتها، باعتبارها من السور المدنية، إلا في هذه الآية الثالثة عشرة حيث توجه الخطاب إلى الناس كافة بصيغة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾

الأمر الذي جعل بعض المفسرين يعتبر هذه الآية مكية، وكون الخطاب متوجهاً إلى الناس كافة فهو ناظر إليهم بكل تنوعهم وتعددهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم، وإلى غير ذلك من تمايزات ومفارقات.

ثانياً: التذكير بوحدة الأصل الإنساني في قوله تعالى:

﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾

فالناس مع كل اختلافاتهم وتعددياتهم وتباعدهم في المكان والأوطان، إنما يرجعون في جذورهم إلى أصل إنساني واحد. والقصد من ذلك أن يدرك الناس هذه الحقيقة، ويتعاملوا معها كقاعدة إنسانية وأخلاقية في نظرتهم لأنفسهم، وفي نظرة كل أمة وحضارة إلى غيرها، كما لو أنهم أسرة إنسانية واحدة على هذه الأرض الممتدة.

ثالثاً: الإقرار بالتنوع الإنساني في قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾

وهذه حقيقة اجتماعية، وقانون تاريخي، فالله سبحانه وتعالى بسط الأرض بهذه المساحة الشاسعة لكي يتوزع الناس فيها شعوباً وقبائل، ويعيشوا في بيئات وجغرافيات ومناخات وقوميات مختلفة ومتعددة، لكي يعمروا هذه الأرض، ويكتشفوا كنوزها وخيراتها، ويتبادلوا ثرواتها، ويجعلوا منها بيتاً مشتركاً وآمناً ومتمدناً للجميع، علماً بأن القرآن الكريم لم يذكر في كل آياته عبارة:

﴿شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾

إلا في هذه الآية.

رابعاً: خطاب إلى الناس كافة، وتذكير

١٥- برنارد لويس. الحضارة الغربية دمج حداثات والإسلام أول من سعى إلى العالمية، ترجمة: فؤاد حطيط، جريدة السفير، بيروت، الجمعة ٧ فبراير ١٩٩٧م.

١٦- حسين مؤنس. الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطور، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة (٢٣٦)، ١٩٩٨م، ص٥٠.

بوحدة الأصل الإنسانى، وإقرار بالتنوع بين البشر، فما هو شكل العلاقة بين الناس؟ من بين كل المفاهيم المحتملة فى هذا الشأن، يتقدم مفهوم التعارف:

﴿لِتَعَارَفُوا﴾.

فتنوع الناس إلى شعوب وقبائل، وتكاثرهم وتوزعهم فى أرجاء الأرض، لا يعنى أن يتفرقوا، وتتقطع بهم السبل، ويعيش كل شعب وأمة وحضارة فى عزلة وانقطاع. كما لا يعنى هذا التنوع أن يتصادم الناس، ويتنازعوا فيما بينهم من أجل الثروة والقوة والسيادة، وإنما ليتعارفوا.

ولا يكفى أن يدرك الناس أنهم من أصل إنسانى واحد فلا يحتاجون إلى التعارف، أو أن يتوزعوا إلى شعوب وقبائل ويتفرقوا فى الأرض فلا يحتاجون إلى التعارف.

ولأن التعارف بين شعوب وقبائل أى بين مجتمعات وجماعات؛ لذلك جاز لنا استعماله فى مجال الحضارات الاستعمال الذى نتوصل منه إلى مفهوم واصطلاح (تعارف الحضارات).

خامساً: إذا انطلقنا من قاعدة التفاضل والمقارنة لنتساءل، لماذا لم تستخدم الآية كلمة ليتحاوروا، أو ليتوحدوا، أو ليتعاونوا، إلى غير ذلك من كلمات ترتبط بهذا النسق، ويأتى التفضيل لكلمة (ليتعارفوا)؟

وهذا هو مصدر القيمة والفاعلية فى مفهوم التعارف، فهو المفهوم الذى يؤسس لتلك المفاهيم المذكورة (الحوار، الوحدة، التعاون)، ويحدد لها شكلها ودرجتها وصورتها، وهو الذى يحافظ على فاعليتها وتطورها واستمرارها، هذا من جهة الإيجاب. أما من جهة السلب فإن التعارف كمفهوم وفاعلية بإمكانه أن يزيل مسببات النزاع والصدام.

٧. تعارف الحضارات.. والبناء المعرفى

إذا أردنا أن نقرّب مفهوم التعارف إلى بعض حقول المعرفة الإنسانية، فإن هذا المفهوم يشترك فى نسق معرفى متقارب أو متجاور مع مفهوم التواصل الذى عرف به المفكر الألمانى المعاصر والبارز يورغن هابرماس، والذى حوله إلى فلسفة أطلق عليها تسمية (التفاعلية التواصلية)، وهى أكثر أفكار هابرماس شهرة واهتماما، حيث اختبرها وتوصل إليها بعد دراسة نقدية لكبريات النصوص الفلسفية باتجاهاتها المختلفة فى منظومات الفكر الأوروبى، من فلاسفة الأنوار إلى فلاسفة ما بعد الحداثة المعاصرين، وذلك فى أشهر مؤلفاته، ولعله الأكثر شهرة فى حقله أيضا، وهو كتاب (القول الفلسفى للحداثة).

وفاعلية التواصل فى رؤية هابرماس تعنى تجاوز ما يصطلح عليه بفلسفة الذات، والعمل على الوصول إلى فلسفة الآخر. وهذا ما تسعى إليه مقولة التعارف أيضا، التى تتجاوز الذات أو فلسفة الذات إلى بناء المعرفة والتعارف والوصول إلى الآخر.

والفارق الرئيسى بين المفهومين أن

مفهوم التواصل عند هابرماس يرتبط بحقل المعرفة أو هكذا حاول ربطه، فتحددت علاقته بالعقل. أما مفهوم التعارف فيرتبط بحقل الاجتماع، فتحددت علاقته بالمجتمع والجماعة والناس.

أما وجه الصعوبة المعرفية التى تواجهنا فى هذا الشأن، فهى القدرة على اكتساب الثقة العلمية لمثل هذه المقولات والمفاهيم، والقدرة على بناء القاعدة المعرفية المتماسكة لهذه المفاهيم. خصوصاً وأن المجال العربى فى علم الحضارة وتاريخ الحضارات لم يشهد ازدهاراً وتقدماً، وليس معروفاً عن الكتابات العربية تميزها فى هذا الحقل، فهى أقرب إلى محاكاة الكتابات الغربية، والتزود بالمعرفة منها، واتباع منهجياتها ومحاولة تقليدها أو الاعتماد عليها. لهذا فإن المفاهيم والنظريات التى تأتى من العالم العربى تواجه تحديات صعبة فى انتزاع الاعتبار العلمى، والجدارة العلمية ليس من الغرب فحسب، وإنما من داخل العالم العربى أيضاً.

يضاف إلى ذلك الصعوبات المتعلقة بعملية الإنماء المعرفى لهذه المفاهيم والنظريات ذات المنشأ العربى، وإمكانية دمجها فى التراكمات المعرفية، وإحاطتها بالخبرات والتجارب والحفريات الأثرية والتاريخية والحضارية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، مستويات الاهتمام بتناولها بالدراسة والتحليل والفحص والنقد، لغرض إنمائها وتطويرها وإنضاجها. ومن جهة ثالثة، المشاركة بتعميمها وإلفات النظر إليها والدفاع عنها.

وهذا ما يفسر عدم قدرة العالم العربى على ابتكار الأفكار والنظريات وإدماجها فى المعارف الإنسانية، وفتح النقاش حولها على نطاق عالمى واسع. كما يفسر أيضاً غياب التضامن والإحساس بالمشاركة بين الباحثين والكتاب فى العالم العربى.

وأخيراً فإن مقولة (تعارف الحضارات)، لا تعنى مجرد الاعتراف بتعدد الحضارات وتنوعها، وإنما تستند على ضرورة بناء وتقدم الحضارات فى العالم، وتأسيس الشراكة الحضارية فيما بينها، وتبادل المعرفة والخبرة، فالعالم ليس بحاجة إلى حضارة واحدة، وإنما إلى استنهاض الحضارات كافة.

لهذا فإن مفهوم تعارف الحضارات أكثر ضبطاً وصواباً من مفهوم حوار الحضارات، وأوضح تعبيراً عن الرؤية الإسلامية فى هذا الشأن، وأن التعارف هو الذى يؤسس للحوار وينهض به، وما تحتاج إليه الحضارات فى عالم اليوم هو التعارف الذى يرفع الجهل بصوره كافة، الجهل المسبب للصدام بين الحضارات، فى المقابل أن التعارف هو الذى حافظ على تعاقب الحضارات فى التاريخ الإنسانى.

من أجل تعارف إيجابى للحضارات

المركزية الفكرية الغربية فى ميزان النقد



الدكتور/ بنسعيد العلوى

تمهيد

« تعارف الحضارات »، كما نقول اليوم، و« حوار الحضارات »، و« تحالف الحضارات »، وما شابه من العبارات التى تفيد نفس المعنى تدل على إرادة الانفتاح على الغير المخالف من جهة أولى، وتشى بالرغبة فى الالتقاء به والتفاعل معه من جهة ثانية، وهى، من جهة ثالثة، تحمل مشروعا إنسانيا وجهته المستقبل يصح القول، فى كلمة جامعة، إن « تعارف الحضارات »، على النحو الذى نود توضيحه لاحقا، مشروع مستقبلى يستهدف مجاوزة حال النفور والحرب الخفية القائمة اليوم، ويتطلع إلى غد قوامه الحوار والتفاهم والسلام وبالتالى إرساء القواعد المكينة لمجتمع إنسانى تعددى أو العالم على النحو الوحيد الممكن غدا حيث لا بديل له إلا الحرب والدمار. يتعلق الأمر بتشييد صرح جديد وتأسيس نظر جديد مغاير لكثير من الأفكار السائدة والنظريات المتداولة فى فهم الإنسان.

هناك حكمة كبيرة نستمدها من فلسفة الفيلسوف الفرنسى غاسطون باشلار، تقضى هذه الحكمة، فى معرض القول فى المعرفة العلمية أو المعرفة الصحيحة، بأن التعلم لا يعنى اكتساب معارف جديدة بقدر ما يفيد التخلص من أوهام وأخطاء كثيرة شائعة. أخطاء وأوهام قد يكون عمرها، فى بعض الأحيان، مساويا لعمر الإنسان ذاته - ولذلك كان تأسيس معارف جديدة عملاً يقوم، أحيانا كثيرة، ضداً على الأفكار الخاطئة وجهداً نفسانيا - معرفياً معاً لتخليص العقل البشرى منها يصح القول مع باشلار: إن الأمر يتعلق بمجاوزة عدد من العوائق: عوائق سيكولوجية وأخرى اجتماعية، ثم، فى المرتبة العليا، عوائق إبستيمولوجية.

ما أقصده باستحضار الدرس الباشلارى، فى معرض الحديث عن « تعارف الحضارات »، هو التسليم بأن البداية السليمة تقوم فى البحث عن « العوائق المعرفية » قصد مجاوزتها بالتخلص منها أو بالأحرى، تخليص العقل البشرى منها، والنظر فى اللغط الشديد الذى دار فى تسعينات القرن الماضى خاصة، حول « صدام الحضارات » « لأسباب سياسية وتاريخية وثقافية »، والنظر فى الجدل السابق على ذلك فى القرن التاسع عشر عند دعاة المركزية الفكرية الأوروبية.. كل ذلك وسائل لمجاوزة العوائق التى تقف فى وجه الدعوة إلى التفاهم والحوار أيا كانت نعوته وتسمياته وفى عبارة أخرى: إن التأصيل للدعوة « تعارف الحضارات »، على النحو الذى نفهمه « وما سنعمل على توضيحه لاحقا - كما سبقت الإشارة إلى ذلك »، يستدعى وقفة نقدية ضرورية، وقفة يكون فيها تسليط الأضواء الكافية للكشف عن مناحى القصور والضعف، ومن ثم الإساءة، التى تمنع من إرساء دعوة الإيجاب والتشييد طرح نظريات المركزية الغربية فى ميزان النقد هو عندنا المقدمات الضرورية لإقامة صرح « تعارف الحضارات » على أسس صلبة، منطقية، وواضحة من جانب وهى السبيل، من جانب آخر لمعاودة الاتصال مع ما افتقدناه فى مكوناتنا الثقافية العميقة.. ما أضاعه الفكر العربى الإسلامى نتيجة التردى فى ظلمات الانحطاط والخضوع لمؤثرات النظرية الاستعمارية فى صورتها الكلاسيكية أولا ثم فى تجلياتها المعاصرة ثانيا.

تستدعى الوقفة التى نتحدث عنها النظر فى المركزية الفكرية الغربية فى صورتها الأولى « المركزية الفكرية الأوروبية »، ثم النظر فى الصورة الثانية للنزعة ذاتها « المركزية الغربية فى صورتها الأمريكية، ممثلة فى فكر المحافظين الجدد »، ثم إن الوقفة تقتضى، كما أشرنا إلى ذلك، معاودة الاتصال بالفكر العربى الإسلامى فى مراحل البهاء والإشعاع. لنقل إننا، فى قسم أول، نقف عند المركزية الأوروبية وشعارها: أوروبا وغير أوروبا. ثم، فى قسم ثان، عند النزعة الغربية المركزية الجديدة وشعارها: الغرب كتلة واحدة، وفى قسم ثالث وأخير نتبين ملامح النظر الإيجابى فى الفكر العربى الإسلامى ودعوته إلى الإنصات للغير المخالف ثم محاورته والشعار المعبر عن التوجه والمرحلة معا هو: الثقافة الحوارية.

متى جعلنا من النقد العقلانى، أو من العقل باعتباره قيمة عليا ومبدأ يكون الاحتكام إليه، معيارا نأخذ به فإن الطريق التى تجعلنا عند مشارف « تعارف الحضارات » تنفتح أمامنا وتصبح دربا سالكاً.

١ - المركزية الأوروبية: أوروبا وغير أوروبا

المركزية الأوروبية (Europeocentrisme)، فى نعت عام لها، موقف يقوم على إخضاع كل القضايا التى يكون النظر فيها إلى منظور أوروبى محض. يصح القول، فى عبارة أخرى، أن أوروبا تغدو عند أصحاب هذا الموقف هى

المركز الذى يكون الانطلاق منه والرجوع إليه وهى المنظار الذى لا يدرك العالم إلا من خلاله. هى إذن نزعة مركزية، بمعنى أنها تجعل من ذات جماعية ثقافية متوهمة «أوروبا» مركزا ومرجعا معا المركزية الأوروبية، وقد تم اعتبارها كذلك، تقبل المماثلة مع نزعة مركزية الذات أو النزعة الموسومة بـ«الأنانة» (نسبة إلى الأنا Egocentrisme) هذه الأخيرة، كما هو معلوم، مرحلة من مراحل النمو النفسى عند الطفل حسب فرويد ومدرسته بل وحسب عموم المدارس السيكولوجية. مرحلة من مراحل التدرج حيث يبدأ فيها الطفل بإدراك التمايز عن العالم والموجودات من حوله. وللأنانة هذه، كما هو معروف كذلك، تجليات تظهر فى سلوك الطفل ولها، فى علم النفس، تعابير مختلفة بحسب نماذج السلوك فهى النرجسية حينا، وهى فى اللغتين الفرنسية والإنجليزية Nombrilisme نسبة إلى السرة، فى اللغة العربية يقال أيضا: سرة الدنيا وبهجتها: بمعنى مركز الأرض أوسط العالم». فى الأحوال كلها، نزعة تقضى باعتبار الذات أو الأنا Ego المركز والأنموذج والمعيار فى القياس. ذلك أن الغارق فى الأنانة لا يملك أن يقدر مكامن الخطأ فى تصوره لأنه لا يرى شيئا آخر غير الذات والمركزية الأوروبية، من حيث احتمالها المماثلة مع مركزية الذات أو الأنانة، تخضع شعوريا، حينا قليلا، ولا شعوريا، أحيانا كثيرة، للأوهام والأخطاء التى تخضع لها هذه الأخيرة - ولربما كانت النرجسية أكثرها دلالة: ينظر نرجس فلا يرى سوى ذاته، سوى صورته.

تقوم المركزية الأوروبية على منطق ذاتى يقضى بجعل العالم قسمتين غير متكافئتين شق أول هو أوروبا، وشق ثان هو كل ما عدا أوروبا. فأوروبا غير - كما يقول متكلمة الإسلام - وباقى العالم غير، إنهما غيران أو طرفان متناقضان: أوروبا وغير أوروبا.

تجد المركزية الأوروبية بداياتها الأولى مع ميلاد الفكر الفلسفى الحديث، فى القرن السابع عشر، ولكنها تبلغ مداها الأقصى من التطور والاكتمال مع نهاية القرن التاسع عشر، إذ أصبحت أوروبا قوى استعمارية مهيمنة على أجزاء غير يسيرة من الكرة الأرضية، والمركزية الأوروبية، من الناحية الفكرية، تواكب نشأة وتطور عدد من العلوم الاجتماعية والاقتصادية، وكذا انتشار نظريات جديدة مثل نظرية الأجناس البشرية، ونظريات التطور، وفكرة التقدم..

وحيث إننا لا نستهدف التوسع فى الموضوع بل نحبذ الإيجاز والتركيز خشية الابتعاد عن الموضوع «مع الأهمية الجلية لكل ما تشير إليه من علوم ونظريات وأفكار القرن التاسع عشر خاصة، فإننا نكتفى بإشارات قليلة، من ذلك مثلا ظهور نظرية Golimeaw غوبينو فى الأجناس البشرية والتفاضل بينها، والقول بأفضلية العرق الآرى على العرق السامى والاختلاف فى الأسس الميتافيزيقية والمنطقية التى تحكم سلوك واعتقادات كل فئة من المنتسبين إلى هذا الجنس أو ذاك ومنهما، على سبيل التمثيل، ظهور نظريات: «العقلية البدائية»

و«الأقوام البدائيون»، «شعوب إفريقيا السوداء، وسكان الغابات الاستوائية، وساكنة مناطق عديدة من أمريكا اللاتينية»، وهذ النظرية تقضى بوجود فوارق جوهرية فى طرائق التفكير والإدراك العقلى بين «البدائيين»، أى أولئك الذين يظلون على حال من البساطة التامة جعلتهم أقرب ما يكونوا إلى إنسان العصور الحجرية، ومن ثم القول بالتمايز المطلق بين العقلية «المنطقية» «الأوروبية فى نهاية المطاف»، والعقلية «غير المنطقية» أو «البدائية». ونذكر أخيرا مجمل النظريات التى تتحدث عن «المعجزة اليونانية»، أساس الحضارة الأوروبية، إذ إلى هذه «المعجزة» تعزى نشأة علوم ومعارف وتقنيات عديدة: المركزية الأوروبية لا تريد الانتباه إلى الأصول المصرية البعيدة للنظريات الرياضية التى سيأخذ بها اليونان لاحقا.. وهى تقلل من شأن الإسهام العربى فى تاريخ العلوم وفى الفلسفة.

لم يكن من الغريب أن تنشأ فى أجواء إيديولوجيا المركزية الأوروروبية نظريات فى الحضارة وفى التاريخ تتسم بخصائص الانتقائية من جانب، والاستعلائية Mehaiamtl التحقيرية من جانب آخر، ولم يكن من العجيب أيضا أن يكون هناك ظهور وانتشار لنظرية مثل التى يقول بها الفرنسى أرنست رينان Ernest Renan فى كتابه عن «ابن رشد والرشدية»، ولا أن يكتب هانوتو ما كتبه عن الفروق الجوهرية بين الحضارة «الآرية» من جهة والحضارة «السامية» من جهة أخرى. وقد كان من الطبيعى أن يتصدى الفكر الإسلامى الإصلاحى للردود على دعاوى مماثلة بالنظر إلى ما اتسم به الفكر الإصلاحى من نزوع نهضوى حمله على الدفاع عن الإسلام وفكره وما أحدثه الزحف الاستعمارى على البلدان الإسلامية والعربية الإسلامية من نزوع إلى الدفاع عن النفس. كذلك نقرأ ردود الإمام محمد عبده على هانوتو «المجلد الثانى من الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده، الصادر عن دار الشروق - الصفحات ٢١٥ - ٢٥٦»، وكذلك نجد حماسة كبيرة عند تلميذه من بعده، الشيخ مصطفى عبد الرازق، فى دحض أطروحات رينان وذلك فى كتابه «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية - دار المعارف».



مصطفى عبدالرازق

نحسب أن ردود الشيخ محمد عبده على هانوتو معروفة مشهورة، شأنها فى ذلك ردوده على فرح أنطون فى «الإسلام والنصرانية فى معركة العلم والمدنية»، ومن ثم فلا نرى حاجة فى الرجوع إليها، والشأن نفسه بالنسبة لصاحب «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية». وبصفة عامة يجوز القول إن المنحى الدفاعى التمهيدى الذى هيمن على الفكر العربى الإسلامى طيلة النصف الأول من القرن العشرين كان ردا طبيعيا، منطقيا، على محاولات التشويه

التى لحقت بالفكر الإسلامى جراء الموقف التحقيرى الذى سار عليه، فى التأريخ للفلسفة الإسلامية، تلامذة إرنست رونان والمتأثرون بنظريات الأجناس وصفاء العرق الآرى التى خيمت على الفكر الأوروبى، عموما، طيلة القرن التاسع عشر. من ثم كان رد الفعل الطبيعى يعمل فى اتجاهين اثنين: اتجاه أول دفاعى عن الحضارة الإسلامية وعن الأمم السامية عامة، والمثال الواضح لهذا الاتجاه هو الشيخ محمد عبده فى ردوده على هانوتو كما رأينا. واتجاه ثان هجومى من جانب، وساع إلى إبراز سبق الحضارة الإسلامية من جانب ثان، والمثال الواضح لذلك هو الشيخ محمد عبده فى ردوده على فرح أنطون، وفى مقاطع من الاعتراض على هانوتو أيضا، هجومى، يبرره الاستفزاز والمبادرة بالتحقير من مفكرى النزعة الأوروبية المركزية، «إن صح الحكم على الأديان.. جاز أن نحكم بأنه لا علاقة بين الدين المسيحى والمدنية الحاضرة» «ردود على هانوتو - الأعمال الكاملة - المجلد الثالث - الصفحة ٢٢٠ وما بعدها». نقرأ أيضا «وقر فى نفوس المسيحيين أن السلامة فى ترك الفكر والأخذ بالتسليم وتقرر عند القوم قاعدة: «الجهالة أم التقوى» «.... لا أحد فى التاريخ ذكراً للعلم والفلسفة بعد ظهور المسيحية «.... إلا فى أثناء المنازعات الدينية التى كان يفصل فيها تارة بسلطان الملوك، وأخرى بجمع المجامع، وثالثة بسفك الدماء فتخمد شعلة العلم وينتصر الدين المحض «الأعمال الكاملة - ٢٨٤ - ٢٨٦» فى الردود على فرح أنطون، وسعى إلى إبراز السبق فى مجالات الإبداع العلمى والإبداع الفلسفى والأسبقية على أوروبا - ولعل هذا المنحى الأخير يشكل السمة العامة التى تستغلب على الفكر القومى العربى فى خمسينيات وستينيات القرن الماضى على نحو ما نجده، على سبيل المثال، عند ساطع الحصرى.

على أن النتائج المباشرة للنزعة المركزية الأوروبية لم يكن منحصراً فى نظرته الاستعلائية إلى ما عند الأقوام فى «غير أوروبا»، «فالهجوم لم يكن يستهدف الإسلام والعرب فقط، بل إن النظرة التنقيصية للغير شملت فكر الهند، والصين، ومصر القديمة، وحضارات الأنكا والزنوج فى إفريقيا السوداء....». ذلك أن النتائج شملت المنهج فى التأريخ للفكر الغربى الأوروبى ذاته «وقد أشرنا سابقا إلى قضية «المعجزة اليونانية» فأدخلت هذا الفكر فى نفق مسدود وأحكمت إقفال الأبواب والنوافذ حوله، ضدا على التقاليد الليبرالية المؤسسة التى تقضى بشمولية العقل البشرى وأنواره الطبيعية، وإقصاء الأحكام القبلية واليقين الكاذب. وبالتالى فإن المركزية الأوروبية أساءت للفكر الغربى مرتين: الأولى من حيث إنها كرست القول بالحدود والفواصل بين الحضارات والأفكار، من حيث إنها صنفت الحضارات الإنسانية فى حضارات دنيا وأخرى عليا - لا بل إنها جعلت الحضارة الأوروبية «كما تتوهمها هذه النزعة» فى مقابل كل الحضارات الأخرى، والإساءة الثانية من حيث إنها نزعت عن الفلسفة الغربية أجمل ما فيها وهو روحها النقدية، ومن ثم فهى قد طوقت الفكر الأوروبى بالأغلال.

لا يتعلق الأمر فى نقد النزعة المركزية الأوروبية بالعمل على إزالة الأوثان وتكسير العوائق التى تقوم فى وجه دعوة إلى الحوار بين الحضارات بل إنه، أبعد من ذلك، يستهدف الإسهام فى تحرير الفكر الأوروبى من أغلال ظلت تطوقه عقوداً طويلة. الحق أن الفلسفة النقدية المعاصرة فى أوروبا الغربية عامة، وفى المدرسة الفرنسية، قطعت على هذا الدرب أشواطاً غير قليلة، تقول ذلك ونحن نستحضر المغزى البعيد لأعمال كل من ميشيل فوكو «فى دراساته للعصر الكلاسيكى، كما يسميه، أى للفكر الغربى فى مراحل التأسيس فى القرن السابع عشر» وكلود ليفى ستروس. قد يجدر التنويه، بالنسبة لهذا الأخير، بدرسه الافتتاحى فى الكوليج دوفرانس والمنشور فى كتاب صغير ذائع الصيت: العرق والتاريخ (Race et Histoire). فى هذا البحث الطريف يجتهد الفيلسوف الفرنسى فى الدفاع عن قضيتين أساسيتين: القضية الأولى أنه لا وجود فى التاريخ البشرى لعرق أو شعب أو جماعة بشرية لم تسهم قدراً من الإسهام فى الحضارة. ذلك أن الحضارة الإنسانية جهد بشرى، جماعى وتضافرى. والقضية الثانية هى أن أقل الحضارات شأنا أو تأثيرا فى العالم تعبر عن حال من الوجود الثقافى هو، دوما، أعلى من حالة الطبيعة فهى متقدمة عليها.


هانتنجتون

النزعة المركزية الأوروبية، على النحو الذى ينتقدها به علماء الأنثروبولوجيا الأوروبيون والفلاسفة معا، كشف وإبان عن جوانب الضحالة والتقهقر فى فكر إنسى منفتح يجد جذوره العميقة فى العقلانية والليبرالية ويستمد قبسه من عصر الأنوار.

٢- المركزية الغربية الجديدة

ترتبط المركزية الغربية الجديدة، أو ما ادعوه كذلك، بالحال الناتج عن انهيار نظام القطبية الثنائية وظهور أمريكا قطبا واحدا مهيمنا، ومن ثم نظام القطبية الأحادية. قد يلزم أن نذكر جهات ثلاث ساهمت فى التنظير لهذه المركزية الغربية الجديدة: المحافظون الجدد فى الولايات المتحدة الأمريكية، الفيلسوف فرانسيس فوكوياما وكتابه «نهاية التاريخ»، والمفكر الأمريكى الذائع الصيت بكتابه «صدام الحضارات» صامويل هانتنجتون.

نعلم السطوة الهائلة التى غدت للمحافظين الجدد فى الولايات المتحدة الأمريكية وتأثيرهم المباشر فى رياسة بوش الأب ثم فى حكم ابنه بعده، دون أن يكون لهم اختفاء تام عن التأثير الإيديولوجى القوى فى فترة بيل كلينتون الديمقراطى.

نحسب أننا في غنى عن التذكير بالأطروحات الكبرى التي يصدر عنها هؤلاء المحافظون غير أنها تمتح من دعاوى الأسس العقائدية للفكر الغربي الذي يقول بالعماد المسيحي - اليهودي للحضارة الغربية. كما أن تلك الأطروحات تستند على عداوة متوهمة للإسلام بحسبانه عدوا للغرب، عداوة تربطها هذه الأطروحات بالواقع الذي نتج عن حرب ١٩٧٣، وقصة الأسرى الأمريكيين في السفارة الأمريكية في طهران، وأخيرا بالأعمال الإرهابية التي نفذتها بعض الجماعات «الإسلامية» في الولايات المتحدة الأمريكية أو تضررت منها مصالح أمريكية في مناطق مختلفة من العالم. على أن الصياغة النظرية العليا لفكر المحافظين الجدد، والتعبير الواضح عما نقول عنه إنه النزعة المركزية الأوروبية في ترجمتها الأمريكية، أو إنها المركزية الأوروبية الجديدة neo - europeocentrisme أو neo-occidantalocenterisme، هذه الصياغة تبلغ مداها الأقصى عند صامويل هانتنجتون. ومع أن نظرية «صدام الحضارات» عرفت ترويجا واسعا لها في المنتديات العربية والعالمية في القارات المختلفة، فإننا لا نرى بأسا من التذكير بأهم الأطروحات في النظرية سعيا لبلورة نظرية المركزية الغربية الجديدة.

خمس أطروحات كبرى تحكم نظرية صدام الحضارات كما يبسطها صاحبها، أستاذ العلوم السياسية في جامعة هارفرد.

الأطروحة الأولى شديدة الوضوح والبساطة معا: الكراهية هي محرك التاريخ. ذلك أن عالما دون كراهية هو من قبيل المحال. فكأن هانتنجتون يستعيد المقولة الشهيرة للفيلسوف البريطاني طوماس هوبز: الإنسان ذئب للإنسان. والرأي عند صاحب «صدام الحضارات» هو أنه حيث كان كل من السياسة والإيديولوجيا والاقتصاد يحكم العالم إبان السنوات الطويلة التي شهدتها الحرب الباردة، فإن ما يحكم العالم اليوم شئ مختلف تماما، هي العلائق الثقافية العميقة والفروق الثقافية التي تحدد المصالح والصراعات بين الدول» «الصفحة ٢٣ من النص الفرنسي الذي نرجع إليه». وهكذا فإن الحضارة والثقافة هما ما يؤسس الدعائم التي ينهض عليها العالم الجديد.

في عالم تتسم فيه العلاقات بين البشر بالتأرجح بين العنف واللامبالاة فإن على المحلل الذكي، في تصور هانتنجتون، أن يتبين أن «القوة المحورية في الصراع تغدو هي الدين» «ص٦٨» وهذه هي الأطروحة الثانية.

أما الأطروحة الثالثة فمفادها أن الحضارات الكبرى التي تكون عالم اليوم هي خمس أساسية: الصين، الهند، اليابان، الإسلام، الغرب. ومتى أمعنا النظر فإننا نتبين أن واقع الحال يجعل القسمة، في النظر في هذه الحضارات، ثنائية، فهناك الغرب، من جهة أولى، وهناك «غير الغرب»، من جهة ثانية. إذا كانت المركزية الأوروبية تقضي، كما رأينا في القسم السابق، بوجود «أوروبا وغير أوروبا» فإن هانتنجتون يذهب أبعد من ذلك إذ يكتب «هنالك كيفيات شتى حتى لا يكون المرء غربيا». متى تصفحت الحضارات الأربع الأخرى «الإسلام، الهند، الصين، اليابان» فإنك تتبين أن الاختلاف لا يغدو جذريا إلا متى تعلق الأمر بالغرب وحده وبالتالي فهنالك «الغرب وباقي العالم».

أما الأطروحة الرابعة فتقضي بأن الغرب، الواحد والموحد، لا يجد عند حدوده الثقافية والواقعية سوى عدوين اثنين خطيرين: الإسلام من جانب أول، والصين من جانب ثان. إن العدو الفعلي هو اجتماع بين الخصمين أو العدوين السالفي الذكر:

«التفاعل الناتج «...» عن الالتقاء بين انعدام التسامح في الإسلام وبين الصلف والاعتداء بالذات عند الصينيين» «ص١٩٩».

في حين أن الأطروحة الخامسة والأخيرة تصاغ على النحو التالي: «إن سقوط الشيوعية قد أزاح العدو المشترك بين كل من الإسلام والغرب، ومن ثم فإن ذلك السقوط قد جعل من كل من هذين الأخيرين عدواً للآخر. أما هذه العداوة المشتركة بين الإسلام والغرب «الشيوعية» فإنها لم تعمر طويلا، فهي لا تتجاوز فترة الوجود الشيوعي، في حين أن العدواة بين الإسلام والغرب ترقى إلى ١٤٠٠ سنة، وفي عبارة واضحة شفافة يقول صاحب «صدام الحضارات»: «طالما ظل الإسلام هو الإسلام «وهذا أمر أكيد» وظل الغرب هو الغرب «وهو أقل تأكيدا» فإن هذا الصراع الأساسي بين حضارتين، وبين نمطين من أنماط الوجود سيكون متحكما في العلاقة المقبلة بين الحضارتين، مثلما ظل حاكما لهما طيلة أربعة عشر قرنا» «الصفحة ٢٣٢».

متى عرضنا الأطروحات الخمس السابقة على محك النقد فنحن نتبين هيمنة ثلاثة أوهام إيديولوجية كبرى تحكم خطاب هانتنجتون في كليته. الوهم الأول: هو اعتقاد وجود الغرب كتلة واحدة، ذلك أنه ليس أدعى إلى السذاجة من هذا الاعتقاد، إذ واقع الغرب أنه كثرة وتعدد... والاعتراض يأتي أول ما يأتي، من فكر الغرب ذاته ومن المفكرين في ذلك الغرب. وهؤلاء الأخيرون يرون في أمريكا الشمالية عامة وفي الولايات المتحدة خاصة غربا آخر، غربا مغايراً أو، كما قلنا في أول هذه الورقة، غرب هو «غير» الغرب الأوروبي.

الوهم الثاني: هو عين الوهم الذي وقعت فيه المركزية الأوروبية «على نحو ما أسلفنا الإشارة إليه» من حيث وجود شعوب ذات حضارة، وشعوب أخرى «بدائية» أو «لا حضارة لها بالجملة». ذلك مغزى اللوحة التي تقضي بوجود مجموعات حضارية كبرى خمس «كانت في الأصل، في المقالة المنشورة في «شئون خارجية» أكثر من ذلك». في اعتناق هذا الوهم سقوط لا شعوري تقريبا، في شرك نظرية «الجنس الصافي» والأجناس الدونية.

الوهم الثالث: هو التقرير الإيديولوجي بوجوب وجود عدو ماكر يتربص بالغرب الدوائر ويسعى إلى الإيقاع به، الغرب ممثلا

فى الولايات المتحدة الأمريكية بطبيعة الأمر.

وفى هذا المعنى فإن الإسلام «المتطرف، الإرهابى» يقوم بالدور عينه الذى كان المعسكر الشرقى بقيادة الاتحاد السوفياتى يقوم به.

الحق أننا نصير إلى نتيجة لا تخلو من غرابة: إن نظرية المركزية الغربية الجديدة تحذو حذو سلفها المركزية الأوروبية خطوا بخطو، ذلك أن الموجهات واحدة، وإن لم تكن دوماً تطفو على سطح الشعور، والأهداف الإيديولوجية واحدة، كما أن العوائق الإيديولوجية والسيكولوجية والمعرفية التى تقوم فى وجه النظرة العلمية السليمة واحدة بدورها. وإذا كان كذلك فإن فى عمل النقد الإيجابى الذى يقوم بعمل التطهير وبتحطيم الحواجز والعوائق المختلفة يغدو ذا فائدة مزدوجة مرة أخرى: تحرير للعقل الغربى من جانب أول، ورفع للعوائق التى تقوم فى سبيل حوار هادف وهادئ وبناء بين الثقافات والحضارات العديدة فى العالم من جانب ثان.

٢- خطوة إيجابية فى سبيل تعارف الحضارات

ربما أغفلنا، دون وعى منا، شيئا أساسيا فى الحديث عن التعارف وهو صيغة التفاعل أو تبادل الفعل والانفعال. التعارف يقتضى -وهذه بديهية- وجود الرغبة فى التعارف... إرادة التعارف. هذه الأخيرة تقتضى بدورها وجود الحرية، والحرية تعنى استمرار فعل التحرر قائما، فاعلا، فى الحرية وإرادة التعارف شئ آخر هو القدرة على الحوار. وأول مقدمات الحوار وشروطه وجود طرفين متقابلين ومتمايزين بل وربما متناقضين يقف كل منهما من الثانى على طرفى نقيض، وثانى المقدمات الاعتراف المتبادل بالوجود لكلا الخصمين.

هذه المقدمات، على بساطتها الظاهرة، تقتضى التحرر من الأوهام التلقائية أو الأولى على النحو الذى يوضحه غاسطون باشلار فى أحاديثه العديدة عن الفكر العلمى والروح العلمية والمعرفة الموضوعية. والتحرر من الأوهام، فى معنى حديثنا، يفيد التحرر من الثنائيات المطلقة، وهذه تستوجب الانفكاك من إسار مركزية الذات فى كل تجلياتها. إعمال الفكر النقدى هو، دون غيره، السبيل إلى ذلك أو قل إذا شئت أنه الدال على سبيل التحرر.

الرأى الذى نود أن نسوقه على سبيل الإيجاز «فى هذه الصياغة الأولى، المؤقتة والسريعة للورقة» يقوم فى الدعوة إلى تأسيس ثقافة حوارية، ثقافة تعتمد الحوار - من حيث هو:

أولاً: إقرار بوجود الغير المخالف واعتراف بوجوب الإنصات إليه، وما نقول عنه إنه خطوة إيجابية فى هذا الدرب هو استخلاص الدرس والعظة عما كانت عليه الثقافة العربية الإسلامية فى العصر الذى ننعته بالعصر الكلاسيكى. وهذا الأخير يعنى عندنا جملة المراحل التى تم فيها تشكل الثقافة العربية الإسلامية. إن من المتعذر علينا أن نحصر هذه الثقافة فى مرحلة تاريخية محددة، مهما كان من دينامية وغزارة العطاء فى تلك المرحلة حتى لو كان الأمر متعلقا بعصر التدوين ذاته ما دام أن علوما إسلامية عديدة لم ترق إلى مصاف العلوم التى تتميز بوضوح كامل فى الموضوع ودقة فى المنهج إلا فى عصور لاحقة وفى مناطق متفرقة من العالم الإسلامى «القاهرة، قرطبة، فاس، القيروان وغيرها». لنقل إن العصر «الكلاسيكى» مرن، متحول، فهو يشمل كل عصور الإنتاج النظرى فهو لا يستثنى سوى عهود «الانحطاط». وأما السمة الكبرى المميزة للثقافة العربية الإسلامية فى العصر الكلاسيكى فهى ثقافة تقوم على الاعتراف بوجود الغير، وتقتضى بوجود المغايرة «الاختلاف كما نقول اليوم» وهذا من جانب أول، كما أنها تسعى إلى الدخول مع ذلك الغير فى حوار تضبطه قواعد وشروط دقيقة وهذا من جانب ثان. كذلك كان الشأن فى علم الكلام والمتكلمة، وكذلك كان الشأن فى «المناظرات»، وكذلك كان الشأن عند الرموز الكبرى فى ثقافتنا العربية الإسلامية: الجاحظ، التوحيدى، علماء الكلام، الماوردى، الغزالى وأضرابهم.

إسهامنا فى إرساء دعوة أو فكرة تعارف الحضارات يكون بالتعريف بالبعد الحوارى فى ثقافتنا العربية الإسلامية أو لنقل: فهم الثقافة العربية الإسلامية فى العصر الكلاسيكى بحسبانها ثقافة حوارية، غير أن المربى فى حاجة أن يتلقى بدوره تربية ومن ثم وجب القول: إن المقدمة الأولى، الشرط الأول الضرورى، للإسهام الفعلى فى الدعوة إلى التعارف الحضارى، أو إلى «تعارف الحضارات» هو أن نكون نحن أولاً، نحن العرب، مشبعين بالدرس العميق لثقافتنا العربية الإسلامية فى العصر الكلاسيكى. نحن مطالبون بانتفاضة شاملة يكون بها التحرر من قيود ثلاثة تجثم على صدورنا وتمسك بأنفاسنا. ثقافة «عصر الانحطاط» التى لا نزال متمسكين بها دون وعى منا، ثقافة ردود الفعل على النزعة المركزية الأوروبية، مما يحيل فكرنا إلى جملة من المواقف الدفاعية فى جانب والتمجيدية فى جانب آخر. وثقافة يكون بموجبها رفض النقد والنقد الذاتى وبالتالى الجمود على الأحكام القبلية هذا من جانب أول، وتوهم عداوة مزعومة القصد منها هو «الغرب» وهذا من جانب ثان مما يستوجب الوقوع فى ما أسميه «الغرب فوبيا» قياسا على «الإسلاموفوبيا». ذلك أن الغرب فوبيا هى النقيض والمقابل الموضوع المعكوس لنزعة الخوف المرضى من الإسلام.

تعارف الحضارات مشروع ضخم أوله النقد وقبوله والسبيل إليه هو الحرب الدءوب ضد الأوهام والعوائق التى قد نكون نحن أنفسنا أطرافا فيها وجنودا مدافعين عنها.

سوريا



احمد شوقى



لأمير الشعراء/ أحمد شوقى

سلام من صبا بردى أرق ... ودمع لا يكفكف يا دمشق
ومعذرة اليراعة والقوافى ... جلال الرزء عن وصف يدق
وذكرى عن خواطرها لقلبى ... إليك تلفت أبداً وخفق
وبى مما رمتك به الليالى ... جراحات لها فى القلب عمق
دخلتك والأصيل له ائتلاق ... ووجهك ضاحك القسمات طلق
وتحت جناتك الأنهار تجرى ... وملء رباك أوراق ووُرق
لحاها الله أنباء توالت ... على سمع الولى بما يشق
يفصلها إلى الدنيا بريد ... ويجملها إلى الآفاق برق
تكاد لروعة الأحداث فيها ... تخال من الخرافة وهى صدق
وقيل معالم التاريخ دكت ... وقيل أصابها تلف وحرق
ألست دمشق للإسلام ظئراً ... ومرضعة الأبوة لا تعق
صلاح الدين تاجك لم يجمل ... ولم يوسم بأزين منه فرق
وكل حضارة فى الأرض طالت ... لها من سرحك العلوى عرق
سماؤك من حلى الماضى كتاب ... وأرضك من حلى التاريخ رق
بنيت الدولة الكبرى وملكا ... غبار حضارتيه لا يشق
له بالشام أعلام وعرس ... بشائره بأندلس تدق
رباع الخلد ويحك ما دهاها ... أحق أنها درست أحق
وهل غرف الجنان منضدات ... وهل لنعيمهن كأمس نسق
وأين دمى المقاصر من حجال ... مهتكة وأستار تشق
برزن وفى نواحى الأيك نار ... وخلف الأيك أفراخ تزق
إذا رمن السلامة من طريق ... أتت من دونه للموت طرق
بليل للقذائف والمنايا ... وراء سمائه خطف وصعق
إذا عصف الحديد احمر أفق ... على جنباته واسود أفق
سلى من راع غيدك بعد وهن ... أبين فؤاده والصخر فرق
نصحت ونحن مختلفون داراً ... ولكن كلنا فى الهم شرق
ويجمعنا إذا اختلفت بلاد ... بيان غير مختلف ونطق
وقفتم بين موت أو حياة ... فإن رمتم نعيم الدهر فاشقوا
وللأوطان فى دم كل حر ... يد سلفت ودين مستحق
ومن يسقى ويشرب بالمنايا ... إذا الأحرار لم يسقوا ويسقوا
ولا يبنى الممالك كالضحايا ... ولا يدنى الحقوق ولا يحق
ففى القتلى لأجيال حياة ... وفى الأسرى فدى لهمو وعتق
وللحرية الحمراء باب ... بكل يد مضرجة يدق
جزاكم ذو الجلال بنى دمشق ... وعز الشرق أوله دمشق
نصرتم يوم محنته أخاكم ... وكل أخ بنصر أخيه حق
وما كان الدروز قبيل شر ... وإن أخذوا بما لم يستحقوا
ولكن ذادة وقراة ضيف ... كينبوع الصفا خشنوا ورقوا
لهم جبل أشم له شعاف ... موارد فى السحاب الجون بلق
لكل لبوة ولكل شبل ... نضال دون غايته ورشق
كأن من السموأل فيه شيئاً ... فكل جهاته شرف وخلق

قصة العدد

معركة رشيد



للأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيومى
رحمه الله

كانت فاطمة الشريفة تقف بأعلى منزل أخيها ذات أصيل، فشاهدت سفينة حربية ترسو بالشاطئ، مثقلة بجنود كثيرين من الفرنجة، فعادت ذاكرتها بها إلى ما قبل عشر سنوات حينما داهمت الحملة الفرنسية مصر، وأخذت تتساءل حائرة! أيكون الفرنسيون قد عاودوا الكرة ثانية فقدموا إلى الثغر الوادع ليشردوا أمنه ويخربوا منازله، ويطردوا أصحابه، ثم رأت رجلا أجنبيا تبدو عليه سيما الرياسة عرفت فيما بعد أنه القنصل الإنجليزى يذهب إلى السفينة فيصافح رجالها، ويتسلم رقاعاً مختلفة لا تدرى من أمرها شيئا.. ومضت ثلاثة أيام، وهى تتحدث مع أسرتها عما شاهدت، وينتقل الحديث إلى الجيران فيتداولونه لأن كثيراً منهم قد شاهدوا ما شاهدت فاطمة دون أن يكشفوا سره الغامض، ولكن الأمور بدأت تتكشف حيث أتت بعد ثلاثة أيام ست وعشرون سفينة حربية تحمل ستة آلاف جندى من جنود الإنجليز، وقد انطلقوا إلى نواحى الثغر الآمن وهم ينقلون إلى الشاطئ ما تحمل السفن من الذخيرة الكاسحة، وكأنهم بذلك يهددون الشعب الإسكندرى إذ يرى رأى العيان ما لا طاقة له بمقاومته، ولكن جمهور الناس جعلوا يتساءلون عن هذا الاعتداء الصارخ، ما دواعيه؟ ويلجئون إلى محافظ المدينة فلا يجدون غير السكوت المريب!

لقد كان محافظ الإسكندرية فى الحملة الأولى منذ عشر سنوات، بطل الإسكندرية المغوار السيد محمد كريم، فمن لها اليوم، ومحافظها التركى أمين أغا أمين ساقط الهمة لم يبد من أنواع الاحتجاج ما يعبر به عن شعور المواطنين، بل تحداهم فى خسة حين صرخ فى وجوه من قدموا يسألونه عن هذا الغزو الوحشى، وقال: هم الإنجليز ولا طاقة لنا بهم فاعتصموا فى منازلكم! وهو خطاب أوقد الغضب فى النفوس، وذهبت العيون حائرة تبحث عن قائد يقود المواطنين فى معركة حياة أو موت! ولكن المفاجأة لم تتح لأحد أن يتصدر وليس بالثغر أية قوة عسكرية تحميه، بل ليس به مدفع واحد يقف فى وجه المحتلين!

ظلت فاطمة تصعد إلى أعلى المنزل القريب من الشاطئ، وتهبط حائرة مضطربة، وعلى شفتيها سؤال لا تدرى الإجابة عنه، أتكون الإسكندرية برجالها المخلصين لقمة سائغة الازدراد، هينة المضغ، أم تواجه عدوها الزاحف بالزلزال الراجف، والرعد المخيف، ولكن الإجابة تأتى عمليا لا لسانيا، إذ يعلن أمين أغا محافظ المدينة أنه قد سلمها بعد مفاوضات صورية، ثم قدم نفسه مع بضعة من عساكره أسراء حرب فى معركة لم ينطلق بها مدفع واحد ثأراً للشرف الجريح، وقد أخذ المعتدون يملئون الطرقات مهددين متوعدين، فجثم على الثغر وجوم رهيب، حبس الألسنة وأطلق الزفرات، ولم تطق فاطمة أن تمكث بمنزل أخيها فقررت الرحيل عن الإسكندرية، ولكن إلى أين تتجه؟ إلى رشيد حيث والدها نقيب الأشراف وسيد القوم حسن كريت! أم إلى القاهرة حيث أمها تقضى إجازة طويلة فى بيت أسرتها الأولى مع الخال والأقارب الأدنين؟ إنها تود من أعماقها أن ترحل إلى القاهرة، لا إلى رشيد، لأنها تعلم أن أهلها فى بولاق قد جعلوا الحمى جميعه ملتقى للأبطال الذين قاوموا الحملة الفرنسية من قبل، وقد صارت بولاق حينئذ قلعة حصينة تضم مخازن الذخيرة، ومصانع السلاح، ولأبطالها خبرة بأدوات التدمير فمنهم ابن خالها المجاهد البطل الذى تخصص فى إعداد الكرات النارية، إذ تقذف على الأعداء فى جموعهم الزاحفة، فتلتهب الحرائق، وتأكل النار الجسوم والثياب معاً، ومنهم من تخصص فى إعداد قذائف المدافع، وبارود البنادق ذات الطلق البعيد، وفيهم جماعة من القناصة دأبوا على اصطياد الرءوس فى غبش الظلام، إذ عرفوا مرابض الفرنسيين فرصدوهم رصداً ذكيا، ووالوا سهامهم المارقة فكان بلاؤهم الليلى مما يغض الظلام إلى الأعداء، حيث يواجهون به عصابات تلوح وتختفى دون أن يقدروا على مواجهتها، إنها لو ذهبت إلى بولاق وفيها ابن خالها رشاد العفيفى، وهو قائد كتيبة الكرات النارية، يجيد الوثوب كما يجيد الاختفاء فستحرضه على الانتقال إلى الإسكندرية مع رفاقه المجاهدين، ولديهم ذخائرهم وأسلحتهم، وفى منازل المدينة متسع للقادمين، إذ هم أبناء محنة مشتركة مهما تباعدت البلاد!! إن فاطمة تعلم مكانتها فى قلب رشاد، وقد تحدث مع خالته عن رغبته الحارة فى الاقتران بفاطمة، ولم تتخذ الأم قراراً حاسما بشأنه ولكنها لا تخفى إعجابها ببسالته، وسيبذل كل جهد بطولى ليكون محلا

لتقديرها، وهو لابد مستجيبٌ إلى رجائها في مبارحة القاهرة مع رفاقه إلى الاسكندرية ليصبح بطلها المرموق!

هكذا كانت تفكر فاطمة حين دخل عليها أخوها رشاد ساهم الوجه مبلبل التفكير، فحدثته بما جال في خاطرها، ولكنّه عارض الرحيل إلى القاهرة بشدّة لا تقبل الدفع، لأنه من ناحية أولى لا يأمن عليها في طريق طويل لا سبيل إلى الأمان به في مثل هذه الأزمات لأنّ شذاذ الآفاق من قطاع السبيل ينتهزون أوقات الاضطراب ليُواصلوا عملهم الشرّير دون وازع من ضمير، أو اهتمام بمستقبل شعب، كما أنه من ناحية ثانية لا يرغب أن تذهب إلى منزل خالها بعد أن أعلن رشاد ولده تعلقه بها، ورغبته في اتخاذها رفيقة عمره، إذا معنى ذلك أنها ستظهرُ في مظهر الراغبة المندفعة، فتهون مكانتُها لدى من يتلمسّون النقد الجارح تلمّساً، فإذا لم يجدُوا له سبباً حقيقيا اختلقوه، وقد استمعتْ إلى الملاحظة الثانية فاقتنعتْ بها، وقررتْ أن تسير إلى رشيد عند أبيها، ولكن بشرط واحد، هو أن يبعث أخوها برسالة إلى رشاد ينبئه بهجوم الإنجليز على الإسكندرية، ويعلمه أن الثغر في حاجة إلى شباب بولاق، لأن المعركة معركة مصر جميعها لا معركة الإسكندرية وحدها، وهذا ما وافق عليه سعيد في ارتياح ولم ينتظر قليلاً، بل بادر بكتابة الخطاب المقترح، مسهباً فيما سيتعرض له الثغر من أهوال لاحت بوادرها للعيان، ومؤكداً أنّ من دواعي فخره أن يكون ابن خالته في طليعة المناضلين وسينزل عليه مع رفاقه في منزل رحب فسيح.

تهيأت فاطمة إلى السفر لرشيد، وهي تعلم أن حديثها عن الغزاة القادمين سيهيج هائجة والدها: السيد حسن كريت إذ هو الزعيم في قومه روحياً ووطنياً، وستنقل إليه ما انتهك المحتلون من محارم، وما قاموا به من ألوان الغدر والعدوان، وكانت تلك الأنباء المشئومة قد ترامتْ إلى رشيد على نحو غامض، ثم أخذت الحقائق تتجلى شيئاً فشيئاً، وزاد الخطر هولاً في المدينة المسالمة حين أكدت الأنباء أنّ الحملة التي ضمنت مسالمة الإسكندرية في طريقها إلى رشيد فلابد إذن من عمل جماعي يدرأ به الخطر الزاحف، ولا بدّ من اجتماع عاجل يحضره محافظ رشيد وأعيانهم وذوو الرأي من رجالها وليكن في هذه الساعة دون إبطاء، إذ لا يتيح التهاون غير تزاحم الكوارث، لذلك نهض السيد حسن كريت إلى سراي المحافظة، لينقلَ إلى على بك السلانكى ما ستتعرّض له المدينة من خطر مؤكد، وكان المحافظ بطلاً باسلاً ذا همّة وشموخ، وهو إلى ذلك صلب المكسر، تدهمه الخطوب فتزيده ثباتاً ورسوخا، وقد عرفَ الأنباء من قبل، ودعا إلى اجتماع سياسي خطير، فُوجئ به السيد كريت، إذ تبطأ رسولُ الدعوة في المرور على منزله البعيد، وقد سمع على بك يقول في حماسة! إنّنا لن نفكر لحظة واحدة في الاستسلام، فإما الموت أو الحياة.

فقالَ أحد الحاضرين: لابدّ من إبلاغ القيادة في القاهرة ليُرسلوا لنا عدداً من الجنود، ولئلا تقع علينا المسئولية إذا تهوّرنا دون استعداد، فصاح المحافظ مستنكراً: محمد على عاتب في الصعيد، والمماليكُ الذين يتباهون بحمل السلاح في السلم، لن يُعتمد عليهم لأنّ الإنجليز حلفاء رئيسهم محمد الألفي، وقد جاءوا في ظلال صداقتهم، كما علمتُ أن الرقاع التي حملها القنصل قبل مجيء الحملة كانت خاصة بهم، إذ تدعوهم إلى تأييد الحملة تخلصاً من حكم محمد علي، بناء على موافقة الألفي وهم واهمون، لأن الإنجليز إذا أفلحوا في احتلال البلاد فلن يُسلموا لهم الأمر كما يظنون، فالألفي والبرديسي وأتباعهما مخالب قطّ لهؤلاء! فكيف نستعين بهم، بل كيف ننتظر الأسابيع حتى يتهيأ المتطوعون في العاصمة إلى النجدة وبيننا وبينهم عشرات الأميال!

فقالَ السيد حسن كريت: أوافق على كل ما يقوله على بك، وأزيدُ فأقرر أن الزاحفين إلى المدينة جمع كثير، وليس لدينا في الحامية العسكرية غير سبعمائة جندى فقط فكيف تتعادل الكفتان!

سكتَ المحافظ، لينظر ما يردّ به أحد الأعضاء على السيد حسن كريت، فوجد الصّمت الحائر، فصاحَ في حماسة مشتعلة: إن كل فرْد من أفراد المدينة جندى من جنود الحامية، وسيؤدّى كل مواطن دوره حتى النساء والشيوخ والأطفال، وقد بدأت بأسرتي فحمل ولداى السلاح! وإن بلدةً تجمع على الحق جديرة بالانتصار.

وهمّ المحافظ بالوقوف إيذاناً بانتهاء المجلس، ولكنّه لمح من يريد أن يتحدث، فانتظر ليأذن له في الحديث، وقد قال قبل أن يستمع إليه، لا تكن مخذّلاً فأنا أعرف عنك المبالغة في التؤدة، وهذا وقتُ العمل لا وقت الاتئاد.

فقال المتحدث: لابد أن أقول ما أعتقد، فأنا أرى أن محافظ الإسكندرية حين أعلن تسليم المدينة، قد رأى بعينه قوة الأسطول الإنجليزى الزاحف، وعرف أن المقاومة لا تُجدى، فلماذا لا نتشاور فيما صنع؟

صرخ المحافظ مستنكراً، وصاح بالرجل، عرفت ما تهدف إليه قبل أن تتكلم، وعليك أن تعلم أن خبرتي بمحافظ الإسكندرية كافيةُ للحكم عليه، فقد عاشرته أمداً طويلاً، وعرفت أنه يجمع المال من كل طريق ليتخذ المستقبل المريح بعد اعتزال المنصب، وسفره إلى استانبول، فماذا تنتظرُ من مثله غير الخذلان! على أني أعتقد أنّ الإنجليز قدموا له رشوة مالية كانت كل أمله، وإلاّ فكيف تستسلم المدينة الكبيرة دون أن ينطلق مدفع واحد يدل على أن في القوم بعض الحياة!

وهنا استأذن السيد حسن كريت ليقولَ: ليس كل المماليك على مذهب الألفي والبرديسي، فأنا أعرف عند بعضهم عداوة شديدة لهذَين، وإذا طلبنا منهم العون فسيلبّون.

فهزّ المحافظ رأسه قائلاً، وإلى أن تعرف

من معنا من المماليك، ومن مع الألفي والبرديسي، فستحتل رشيد!! لا تتعلقوا بهؤلاء، واتكلوا على الله! عليكم أن تعبئوا شعب رشيد، وعلى أن أرسم خطة النضال، وسأمنع مراكب التعدية من الشاطئ الغربي إلى الشاطئ الشرقي كيلا يفكر أحد في الفرار فإذا حانت ساعة الجد، كان الجميع في ميدان الجهاد! ووافق الحاضرون على ما انتهى إليه الرأي، وانصرف كل إلى حيث يعبئ ويشجع، كما أشار المحافظ القدير.

لم يكن على بك بالرجل المتسرع العجول كما بدأ من حديثه في الاجتماع، ولكنه هدف إلى إذكاء الروح، وتهيئة النفوس وعليه الآن أن يفكر في مهل عما سيقوم به عند المواجهة. إنه يعرف ما يحمل المعتدون من أسلحة حديثة لا قبل للمدنية بمقاومتها، وإذا ضمن الحماسة والغيرة لدى المواطنين فهل سيلقون أنفسهم في اللهب المشتعل ليحترقوا دون جدوى، إن البسالة المخلصة والحمية المتقدة مما يعجز وحدها عن مقاومة القذائف المنطلقة، والمدافع الحاصدة، فلابد إذن من الاحتيال فقد يكون في إحكام الخديعة ما يغري الأسد بالوقوع في الفخ وقد أمن عقباه! لماذا لا يعتصم الرشيديون جميعا في منازلهم فلا يجد الأعداء مقاومة ما، فيتأكدون أن رشيد قد تابعت الإسكندرية في الاستسلام، وإذ زال حرصهم يلقون أسلحتهم، ويمضون في الشوارع الفارغة مطمئنين هادئين، ثم أطلق الصفارة فجأة، فتتحفز جنودنا إلى لقاء هؤلاء بمدافعهم الماطرة، ونبالهم الهادفة، ومن ورائهم شعب رشيد يجهز على الجريح ويحرق القتيل، ولن تستمر المعركة طويلا لأن المحتلين عزل لا يملكون السلاح، وقد تركوه في سفنهم آمنين! هذه هي الحيلة الواحدة التي تبلغني ما أريد من الانتصار، وسأعمل على تنفيذها في سرية وإحكام! إنني سأظهر الاستسلام وأبادر بالترحيب، لأعطى الانطباع الزائف، فإذا نجحت الخديعة فقد اندحر العدوان!

وكأن المحافظ كان يرسم خطة القدر المقبلة لينفذها في إحكام، إذ ما كاد يعلن استسلام المدينة في هدوء صاغر حتى صفق المحتلون، وخلعوا ثيابهم الحربية، ومضوا زرافات يكتشفون ملامح المدينة، ويتخيرون أجمل ما تقع عليه العين من قصور، لتصبح مأوى آمنا للاستراحة والاسترواح، وقد ابتهجوا كل الابتهاج حين رأوا الطرق خالية لا أثر فيها للمقاومة، ثم انطلق الصفير فجأة، فتدفق الرصاص من كل مكان، وهجمت الجموع على من يتنزهون في الشوارع، وبأيديهم السيوف والمدى والسهام، ومن استطاع أن يحمل المدفع حمله في صلابة وإحكام، وامتلأت الشوارع بالجثث الصريعة، ومن المفارقات أن القنصل الإنجليزي برشيد، كان قد أعد وليمة حافلة للجيش، ليهنأ القوم بلذاتها الشهية، فصارت هذه المأدبة الحافلة وليمة للمجاهدين، وتصدرها على بك المحافظ، وقام على ترتيبها السيد حسن كريت!

كان النصر حاسما مؤزرا، ابتهجت له مصر جميعها، وانطلقت الزغاريد في المدن والقرى، وخرجت القاهرة جميعها لترى رءوس القتلى في موكب مجلجل، فسقطت هيبة الإنجليز، واحتقرهم من كان يظن بهم القوة والاستعلاء، وجاء محمد على من الصعيد ليشترك في موكب القتلى، وليبارك صنيع المناضلين!

كان رشاد العفيفي يتسمع أنباء الانتصار، ولكنه يفكر في المدى البعيد، فيتصور أن الإنجليز لن يسكتوا عن الهزيمة الساحقة، وسيعودون فورا إلى رشيد بكل ما لديهم من الأسلحة ومن بقي في الإسكندرية من جنود، فالمعركة في رأيه لم تنته بعد، وقد جاءه منذ زمن خطاب خاله يدعوه إلى الثغر مع زملائه الأبطال، ورشيد اليوم هي موضع الاعتداء المنتظر، وبها فاطمة مناط أمله، ومنحى هواه، وقد جاءته دعوة السيد عمر مكرم إذ أرسل مناديه من الأحياء مستنهضا الرجال للمعركة الفاصلة برشيد والسير إليها المسهل هين، ولكن انتقال القذائف والكرات والمدافع مما يتطلب الجهد الجماعي، ولن يقوم به فرد واحد، لذلك استصوب أن يخبر السيد عمر مكرم برسالة خاله، وبما يدخره من سلاح ليهيئ من يقوم بالحراسة والرعاية حتى يصل إلى رشيد، وقد سر السيد عمر مكرم باقتراح رشاد، وكتب كتابا خاصا إلى صديقه السيد حسن كريت دون أن يعلم أنه خاله، وكان من المنتظر أن تتدفق الجموع رأسا إلى رشيد، ولكن الأنباء قد تواترت بأن قوة عظمى للأسطول الإنجليزي تحاصر قرية (الحماد) الواقعة جنوبي رشيد بين النيل وبحيرة أدكو، ليتمكن المحتلون بهذا الحصار أن يطوقوا رشيد، ويمنعوا وصول المدد إليها من القاهرة والأقاليم فصمم رشاد ورفاقه على التوجه إلى الحماد فقطعوا سد النيل ليفاجئوا المحتلين بالفيضان، وقامت القناصة على الشاطئ المقابل للحماد بإزعاج المعتدين، وحين اتجهوا لهم بالسفن المسلحة اندفع البولاقيون إلى عبور الماء ليخرقوا السفن من الأسفل، على حين قام فريق آخر بمواصلة الهجوم بالسهام ومصادرة ما يأتي من الإسكندرية للغزاة من عتاد! وهكذا وقع المحتلون في مأزق لا يحسدون عليه، واضطروا إلى التقهقر إلى الإسكندرية، فزال الخطر عن رشيد! بعد معركة فاصلة قضت على ثلثي المعتدين قضاء مبيدا ومنهم من حاولوا الفرار، فتعقبهم القناصة، وسقطوا في اليم غرقى، حتى تغير لون الماء لكثرة ما انفجر من الدماء.

وفي أصيل يوم باسم توجه رشاد العفيفي إلى منزل خاله السيد حسن كريت طالبا يد فتاته التي شغفت فؤاده من قبل، فقال السيد حسن في ابتسام: وهل أضن بها على بطل القاهرة والحماد ورشيد!!

***

علاقـة المسـلم بالآخـر



للأستاذ الدكتور/ أحمد عمر هاشم
عضو مجمع البحوث الإسلامية

إن علاقة المسلم بغيره لها أهميتها، فى تأكيد الحقوق والواجبات وفى توثيق عرى الجهود والمعاملات وإطار علاقة المسلم بالآخر إطار واسع، يشمل كثيراً من المعاملات والعلاقات بحيث يشمل البيع والشراء والشركة والوكالة والرهن وسائر وجوه العمل، وبحيث يتسع إطار العلاقة ليضم الزوجة والأبناء والأصحاب والجيران والأرحام والفقراء والمحاجين وهذه العلاقة بالآخر نوعان: علاقة المسلم بالمسلم، وعلاقة المسلم بغير المسلم.

● فأما النوع الأول: وهو علاقة المسلم بالمسلم، فتقوم على أساس أخوة الإسلام التى تقتضى الإصلاح والمودة:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

سورة الحجرات آية «١٠»

وتقوم على أسس التعاون على البر والتقوى وعلى الجهاد بالمال والنفس:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾

سورة الحجرات آية «١٥»

إن من أهم ما يجب الحرص عليه فى علاقة المسلم مع المسلم الإصلاح والمودة والتعاون والتضامن والتناصر وإصلاح ذات البين، والذين يصلحون ذات بينهم فى الدنيا يُصلح رب العزة سبحانه ما لا يقدرون على إصلاحه يوم القيامة، ويتولى عنهم التبعات التى لم يقدروا عليها، ففيما رواه أبو يعلى فى مسنده بسنده عن سيدنا أنس رضى الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه، وقال عمر رضى الله عنه: ما أضحكك يا رسول الله بأبى أنت وأمى؟ فقال: رجلان من أمتى جثيا بين يدى رب العزة تبارك وتعالى، فقال أحدهما: يارب خذ لى مظلمتى من أخى، قال الله تعالى: أعط أخاك مظلمته، قال: يارب لم يبق من حسناتى شىء، قال رب فليحمل عنى من أوزارى، قال: ففاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ثم قال: إن ذلك اليوم عظيم يوم يحتاج الناس إلى من يتحمل عنهم من أوزارهم، فقال الله تعالى للطالب: ارفع بصرك وانظر فى الجنان، فرفع رأسه فقال: يارب أرى مدائن من فضة، وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ لأى نبى هذا؟ لأى صديق هذا؟ لأى شهيد هذا؟ قال: هذا لمن أعطى ثمنه، قال: ربى ومن يملك ثمنه؟ قال: أنت تملكه.. قال: ماذا يارب؟ قال: تعفو عن أخيك، قال: يارب فإنى قد عفوت عنه، قال الله تعالى: «خذ بيد أخيك فادخلا الجنة» ثم قال رسول الله ﷺ: «فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المؤمنين يوم القيامة».. رواه أبو يعلى.

أى أن من يقومون بإصلاح ذات البين فى الدنيا ويتسامحون ولا يحملون إلا الحب لإخوانهم والعفو والتسامح والمودة والتعاون يكسبون ذلك فى الآخرة، يوم يحتاج الإنسان لأن يحمل عنه من أوزاره.

● وأما النوع الثانى: فهو علاقة المسلم مع غير المسلم، فتقوم على أساس احترام الأديان والكتب السماوية والشرائع الآلهية وجميع رسل الله والإيمان بهم دون التفريق بين أحد منهم:

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾

سورة البقرة «٢٨٥»

وشرع الإسلام حل طعام أهل الكتاب، وحل طعامنا لهم:

﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ﴾

(المائدة: ٥)

كما سمح بالزواج منهم، وبالمعاملات المالية حتى إن رسول الله ﷺ رهن درعه عند يهودى كما ورد فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ومسلم.

ومما أثر أن وفد نصارى نجران دخلوا المسجد النبوى وسمح لهم الرسول ﷺ بالدخول ولم يمنعهم من ممارسة عباداتهم.

العلاقات الوطيدة بين المسلمين وغير المسلمين

كما سمح الإسلام للمسلمين بدخول كنائسهم، وزيارة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه شاهد على ذلك وكاد يصلى فى الكنيسة عندما حضرت الصلاة ولولا أنه خاف أن يقول المسلمون بعد ذلك هنا صلى عمر ويأخذونها منهم فصلى على باب الكنيسة.

وشواهد العلاقات الوطيدة بين المسلمين وغير المسلمين من أهل الكتاب أكثر من أن

تحصر لدرجة أن الرسول ﷺ اتخذ خادماً له يهودياً، وعندما مرض ذهب النبى ﷺ ليزوره وليعوده، ووالده معه فعرض النبى على الغلام الإسلام فإذا به يتوقف فقال له والده: أطع أبا القاسم يا بنى، فأسلم الخادم اليهودى، فقال عليه الصلاة والسلام: «الحمد لله الذى أنقذه بى من النار» رواه أحمد والبخارى.

بل إن رسول الله ﷺ اتخذ دليله فى الهجرة رجلاً غير مسلم عندما ائتمنه على أسرار هجرته.

ويعلن رسول الله ﷺ خصومته لمن يؤذى أحداً من المعاهدين فيقول: «ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة» رواه أبو داود.

وقد وضح القرآن الكريم جوهر هذه العلاقة حين قال سبحانه:

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

(سورة الممتحنة: ٨)

وصايا القرآن

وتبلغ وصايا القرآن بغير المسلمين صيغتها النهائية حين يقول رب العزة سبحانه، عن المشركين:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾

(سورة التوبة: ٦)

سمو معاملة المسلمين!!

ويشهد التاريخ على سمو معاملة المسلمين لغير المسلمين عبر عصور التاريخ حتى مع من كانوا يناصبونهم العداء والحرب ومن وقع منهم أسيراً فقد كانت معاملة الرسول ﷺ قمة فى الإنسانية والتسامح والكرم كما صنع هذا مع ثمامة بن أثال الذى كان سيد قومه وكان يناصب المسلمين العداوة ومع هذا فعندما أسر وعرض الرسول ﷺ الإسلام عليه ثلاثة أيام فى ثلاث مرات ورفض الدخول فى الإسلام فأمر النبى ﷺ بإطلاق سراحه وعفا عنه، فراجع الرجل نفسه وقال: إن ديناً يقدر أهله على عدوهم ثم يصفحون عنه لجدير بأن يتبع لسماحته، ثم أعلن إسلامه وقال: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلىّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلىّ، والله ما كان من دين أبغض إلىّ من دينك فأصبح دينك أحب الدين كله إلىّ، والله ما كان من بلد أبغض إلىّ من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إلىّ، وإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر فلما قدم مكة قال له قائل: أصبوت؟ فقال: «لا ولكنى أسلمت مع رسول الله ﷺ لا والله لا

يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ» رواه البخارى ومسلم.

ومن نماذج علاقة المسلمين بغيرهم وقوف رسول الله ﷺ عندما مرت به جنازة، فلما قيل له: إنها جنازة يهودى قال: أوليست نفساً؟

الوصية بالجار!!

ولقد وعى الصحابة والمسلمون أهمية هذه العلاقة فطبقوها واقتدوا برسول الله ﷺ، قال مجاهد: كنتُ عند عبدالله بن عمر رضى الله عنهما وغلام له يسلخ شاة فقال يا غلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودى حتى قال ذلك مراراً، فقال له: كم تقول هذا؟ فقال: إن رسول الله ﷺ لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه.

الأقليات الإسلامية

وإذا كانت تعاليم الإسلام تحث على حسن علاقة المسلم بغير المسلم وتدعو إلى المعاملة الحسنة والعدالة والتعاون معه فإن من الواجب أن تقابل هذه المعاملة بمثلها من غير المسلمين مع المسلمين، خاصة فى البلاد التى بها أقليات إسلامية فلا يصح أن يمنعوا من ممارسة شعائرهم ولا أن يضيق عليهم، ولا يصح أن ينال أحد من الإسلام ولا من القرآن الكريم، ولا من قدر الرسول العظيم عليه أفضل الصلاة وأتم السلام، كما حدث من بعض الكتاب ومن تصريحات بابا الفاتيكان التى يرفضها الحق والتاريخ والتى تتنافى مع أبسط واجبات العلاقات الإنسانية بين الناس؛ لأن رسول الله ﷺ جاء بالرحمة للعالمين، ولكل أبناء الجنس البشرى دون استثناء كما قال رب العزة سبحانه:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

(الأنبياء: ١٠٧)



الدعوة تنتشر بالحكمة والقدوة والتوجيه الروحى



للأستاذ الدكتور/ عبد الحليم عويس

ليعلم الداعية (وكل مسلم يمكن أن يكون داعية بشروط معينة، وفى مستوى معين): أن الدعوة الإسلامية نجحت عن طريق الدعوة الفردية أو الجماعية بالحكمة والقدوة.. أى بالداعية المخلص، والتاجر الصادق الأمين، وغيرهما، وما كان دور الفتوحات الإسلامية إلا إزالة الحواجز وتأمين طرق البلاغ، والحفاظ على كيان دولة الإسلام.

فلم يكن - أبداً انتشار الإسلام بالفتوحات الإسلامية!!

ومع تقديرنا العظيم لجهود سلفنا الصالح فى العصرين: الراشدى (١١ - ٤١هـ)، والأموى (٤١ - ١٣٢هـ) فى مجال الفتوحات.. إلا أننا نعلم علم اليقين أنهم ما قصدوا من وراء فتوحاتهم إدخال الناس فى الإسلام مكرهين، وما قصدوا أن تفرض هذه الفتوحات الإسلامية الإسلام على الناس..

- ولو كان الأمر كذلك لما بقى فى الهند - حتى اليوم - (وقد حكمها المسلمون حكماً مطلقاً ثمانية قرون - تقريباً) أغلبية هندوكية.. بل إن الهند الآن كانت منذ شهور محكومة بحزب هندوسى متطرف!!

- وإنما كانت الفتوحات دفاعاً عن الإيمان نفسه.. كانت طريقاً لمقاومة الصورة التقليدية الكاذبة المشوهة التى يصر أعداء الدين والحق والخير والإيمان.. أن يرسموها للإيمان.

إنهم - دائما - يخشون أن يعرض الناس الحق والخير والإيمان على حقيقته، لأن مجرد هذه المعرفة الصحيحة، مع ما توحيه - بالضرورة - من المقارنة مع الباطل والإلحاد - فكراً وحياة وسلوكاً - ستنتهى بالنتيجة الحتمية لصالح الإيمان!!

- حقاً كان الأباطرة الهرقليون فى الإمبراطورية الرومانية ودهاقنتهم، وكان الأكاسرة فى الإمبراطورية الرومانية الفارسية، وسدنة النار أو الأوثان عندهم... كان هؤلاء وأولئك يحرصون الحرص كله على تنفير الرعية من الإسلام.. وتصوير العرب الذين يحملون رايته على أنهم إرهابيون ووحوش، دفعهم الجوع وجدب الجزيرة العربية إلى الزحف على العالم!!

- وكانت الدولة الإسلامية فى المدينة المنورة - تعيش فى رعب دائم.. ومن هنا كانت لا تفتأ ترسل السرايا والغزوات، لتؤمن الحدود ولتفرض هيبتها، لأنها كانت تعلم علم اليقين أن اليهود الذين يعيشون داخلها، ومعهم جماعة المنافقين، يعادونها ويتربصون بها الدوائر.

وينتظرون الهجوم الخارجى ليضعوا أيديهم فى يده، شأن كل الأقليات الخائنة للأوطان والقيم والمبادئ.. حتى مهما كانت طبيعة المهاجمين، فاليهود لا يأبهون بالمبدأ ولا تجمعهم بأى أحد جسور مشتركة، وهمهم الانتصار العاجل، حتى ولو وضعوا أيديهم فى يد الوثنيين ضد أهل كتاب من أمثالهم!!

وعلى الحدود القريبة يقف أهل مكة وتوابعهم فى الجزيرة يلاحقون مدينة الإسلام الناشئة، ويدخلون معها المعارك، بدءاً من بدر الكبرى، وانتهاء بغزوة الخندق، ثم صلح الحديبية!! أما الحدود البعيدة فتقف الدولة الرومانية عليها تحرك توابعها من الغساسنة، وتتربص بالدولة الإسلامية الناشئة، التى أرسلت الرسل إلى الملوك تدعوهم إلى الدين الجديد، وتقيم عليهم الحجة، وتحملهم المسئولية الكاملة عن أنفسهم ومواطنيهم...

- وتقف الإمبراطورية الفارسية - كذلك - على جانب من الحدود تحرك توابعها المناذرة للتربص بالدولة الناشئة والكيد لها.

وهذه القوى أوجبت على الإسلام أن لا يغمض عينه عنها، وفرضت عليه الاشتباك، وهو فى مهده فى معارك معروف سلفاً أنها بين قوى غير متكافئة.

وهكذا دفع المسلمون ثمنا غالياً فى (مؤتة)، واستشهد ثلاثة من خيرة صحابة رسول الله ﷺ هم: (زيد بن حارثة، وعبدالله بن رواحة، وجعفر بن أبى طالب.. فضلا عن مئات غيرهم!!

فلم تكن الفتوحات - إذن - قراراً إسلاميا هجوميا وإنما كانت قراراً دفاعياً فرضته القوى الشريرة، التى لا تؤمن أبداً بحق الآخرين فى التعبير عن عقائدهم فكراً وسلوكاً.

- ولو كان العالم مفتوحا للحوار العادل الصادق فى مناخ حر سليم، لما كانت هناك حروب غالبا، بل إننا نجد الرسول يقبل من أهل مكة شروطاً مجحفة ظالمة؟ بحثاً عن السلام، لأنه يرى أن السلام الصحيح الحقيقى الكافى هو فرصة الإسلام دائماً للانتشار

الإسلام دائماً للانتشار والازدهار.

وفعلاً كانت الفترة بين صلح الحديبية فى السنة السادسة للهجرة، وفتح مكة فى السنة الثامنة للهجرة من أزهر فترات الانتشار الإسلامى.. ودخل الناس فى دين الله أفواجا.

ـ فالدعوة كانت هى البداية، وكانت هى الطريق، وكانت هى الهدف الثابت والأبقى، ويجب أن تبقى كذلك فى فقه الدعاة، ولاسيما فى العصر الحديث، عصر الإعلام والفضاء وشبكة المعلومات الدولية، وتقارب المسافات، بطريقة لم تعرفها البشرية من قبل على هذا النحو!!

لا يستطيع داعية أو غيره إنكار أننا فى عصر العلوم والصراع الثقافى.. وأنه لمن الغفلة والعجز تجاوز هذه الأرضية، بل إن على الداعية الوقوف فى دعوته فوق أرضيتها عاملا على أن يكون لهذه العلوم والثقافة توجيه روحى ورسالة أخلاقية فالمسلم داعية للعلم والثقافة شريطة أن يكون لهما وظيفة روحية وأخلاقية.

ولقد دعا العلامة (مالك بن نبى) إلى بناء ثقافى إسلامى للمسلم المعاصر يعتمد ابتداء على التوجيه الروحى والأخلاقى للثقافة، بهدف تكوين صلات اجتماعية منسجمة.. ذات نظرة أخلاقية إسلامية للحياة والكون.

ـ وهو يرى أن منظومة العالم الروحى التى تستطيع أن ترتقى بفعالية الفرد والمجتمع إلى مستوى العطاء النموذجى لابد أن ترتكز على عدة محاور أساسية هى:

١ـ محور (الإخلاص) الذى يتكفل بتجريد نية المسلم وقصده لله وحده.

٢ـ محور (المراقبة) التى تفرض الاستشعار بحضور الله الدائم فى حياتنا.


مالك بن نبى

٣ـ محور (المحاسبة للنفس) دفعا لها إلى تصويب الخطأ.

٤ـ محور (التوبة) الذى يتكفل بفتح الطريق أمام الفرد للعودة إلى توازنه النفسى والاجتماعى.

٥ـ محور (التوكل) الذى يعنى تفويض الأمر لله والثقة فيه وطلب العون منه.

٦ـ محور (الارتقاء بالسلوك الإنسانى) كهدف محورى لحركة البناء الحضارى (عملياً وجمالياً) وطموحاً فردياً واتجاهاً اجتماعياً.

ـ وللأسف فإن كثيراً من العاملين للإسلام انحرف ميزان العدل عندهم، فوقعوا تارة فى إهدار الذات وإهانتها، وتارة فى تضخيمها والتقليل من شأن إخوانهم وأساتذتهم، أو من شأن الآخرين الذين يخالفونهم فى بعض الآراء، وبعضهم حريص على تأجيج صراعات عنصرية مذهبية أو فكرية أو فقهية أو وطنية.

والمهم عنده تضخيم ذاته وتحقيق الاغترار بنفسه وبمن معه فى فرقته أو جماعته! والمؤلم أن الاغترار بالنفس، أو الدوران حول الذات لا يبدو فى طلب الرياسة بالأساليب غير الكريمة وحسب، كلا، إنما قد يبدو فى

تنقص رجل معروف، أو اعتناق رأى شاذ أو المكابرة فى حوار، أو ما شابه ذلك من مواقف لأناس يعملون فى الميدان الدينى أو الميدان المدنى على السواء.

ـ وقد ورد أن هؤلاء أول من تسعر بهم النار يوم القيامة:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

(القصص: ٨٣)

إن هؤلاء المرضى بالشذوذ والحقد يكثرون من التلاوة وصور العبادة، وينتهزون الفرص التى تتنفس فيها طباعهم فيضربون ضربتهم، وقد كانوا كثيرا فى جيش على بن أبى طالب ولكنهم شغلوا عليا عن هدفه حتى انهزم، وكانت صيحتهم لا حكم إلا لله! وكان تعليق علىّ: (كلمة حق أريد بها باطل)!!

ـ إن المتدينين من هذا الصنف الغاش بلاء على الدين، وعقبة أمام امتداده.

ـ وكان ابن عمر يراهم شرار الخلق، وقال: «إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت فى الكفار فجعلوها على المؤمنين»!

إن إيمانهم لا يجاوز حناجرهم، أى لا يعلق بخلقهم وعملهم شىء من لب الدين إنما هى صور عبادة، وصوت قراءة، إلى جانب فظاظة فى الأخلاق، وقساوة فى الأفئدة وقباحة فى الأعمال!!

وتلك كلها خلال تنافى الإيمان، فالإيمان إنكار الذات، وحب للغير، وستر على المخطئ، وسعى لإقالته من عثرته، وسرور غامر بتوبته.

الإيمان توقير للكبار ورحمة بالصغار وتكريم للعلماء.

الإيمان سعادة بالرخاء يشيع بين الناس، وألم للكوارث التى يقطب لها الجبين، ولو كان هذا أو ذاك خبراً ينقل لا علاقة لشخصك به.

وهذا الإيمان الودود هو ما يجب أن يعلمه الداعى المسلم للبشرية.. حتى يكون على خطا رسول الله ﷺ.

***

لقد آن فض الاشتباك بين من يصلحون العقيدة، ومن يصلحون النفس والقلب، ومن يصلحون العقل، ومن يصلحون الظاهر أو الباطن، فكل هذه الجوانب كلٌ لا يتجزأ، وبعضهم يرشح على بعضه، سلباً وإيجاباً.. وإذا ما أعدنا الأمور إلى ميزانها الصحيح (كتاب الله وسنة رسوله وسيرته العملية عليه الصلاة والسلام) فإننا سنجد كل هذه الجوانب حية فاعلة متكاملة لا يمكن أن تنفصل عن بعضها.

وعندما تكون هناك (روح) و(أخلاق) تسود كل المدارس العاملة للدعوة يسود الحب والوئام ـ والأخوة الإسلامية ـ والجميع، يتكاملون ولا يتصارعون.. والداعية الحق من يقود الناس إلى هذا الطريق!!

طرائف.. ومواقف

لفضيلة الشيخ/ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

الفقر فى النفس لا فى المال

أرسل سليمان بن حبيب، والى فارس والأهواز، إلى الخليل بن أحمد يستدعى حضوره، وكان له راتب عليه، فكتب الخليل إليه:

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعة
وفى غنى غير أنى لست ذا مال
شحا بنفسى إنى لا أرى أحدا
يموت هزلا ولا يبقى على حال
الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه
ولا يزيدك فيه حول محتال
والفقر فى النفس لا فى المال تعرفه
ومثل ذاك الغنى فى النفس لا المال

فقطع عنه سليمان الراتب فقال الخليل:

إن الذى شق فمى ضامن
لى الرزق حتى يتوفانى
حرمتنى مالا قليلا فما
زادك فى مالك حرمانى

فبلغت سليمان فأقامته وأقعدته واعتذر إلى الخليل وأضعف راتبه.

لك جوابى إذا أمنتنى

لبس سليمان بن عبدالملك أفخر ثيابه وتضمخ بالطيب وركب أفره خيله، وتقدم إلى المرآة فأعجبته هيأته، فقال أنا الملك الشاب، والتفت إلى جارية له، وقال: يا جارية، ماذا ترين فى هيئتى وفى شبابى؟

فقالت الجارية: لك عندى يا أمير المؤمنين جواب إذا أمنتنى، فقال سليمان: لقد أمنتك فما جوابى عندك، قالت الجارية:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى
غير ألا بقاء للإنسان
أنت خلو من العيب ومما
يكره الناس غير أنك فانى

هكذا كانوا

قيل ليونس بن عبيد: أتعرف أحداً يعمل بعمل الحسن البصرى؟

فقال: والله لا أعرف أحداً يقول بقوله، فكيف يعمل بعمله؟ ثم وصفه فقال:

كان إذا أقبل فكأنه أقبل من دفن حميمه، وإذا جلس فكأنه أمر بضرب عنقه، وإذا ذكرت النار فكأنها لم تخلق إلا له.

سؤال وجواب

قيل لسيدنا عمر - رضى الله عنه - يا أمير المؤمنين: رجل لا يشتهى المعصية ولا يعمل بها أفضل، أم رجل يشتهى المعصية ولا يعمل بها،

قال سيدنا عمر - رضى الله عنه -: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها:

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

يطلقون الكلاب ويربطون الحجارة

دخل أعرابى قرية لأول مرة، فهاجمته كلابها، وكادت أن تنال منه، فانحنى ليأخذ حجراً من الأرض، يدافع به عن نفسه، فاستعصى عليه الحجر من شدة البرد فقال: لعن الله أهل هذه القرية، يطلقون كلابهم ويربطون الحجارة.

كلف وخنس

عرضت جارية على الرشيد ليشتريها، فتأملها وقال لمولاها:

خذ جاريتك، فلولا كلف بوجهها، وخنس بأنفها لاشتريتها، فلما سمعت الجارية مقالة أمير المؤمنين قالت مبادرة: يا أمير المؤمنين، اسمع منى ما أقول، فقال: قولى، فأنشدت تقول:

ما سلم الظبى على حسنه
كلا والبدر الذى يوصف
الظبى فيه خنس بين
والبدر فيه كلف يعرف

الجزء الثانى

أراد عميد إحدى الجامعات أن يهدى إلى صديق له نسخة من كتابه الجديد، فكلف ناشر الكتاب إرسال تلك النسخة فأرسل الناشر نسختين لا نسخة واحدة، وبعد حين قابل العميد صديقه، وسأله هل جاءك كتابى الجديد؟

فأجاب: نعم وقد انتهيت من قراءة الجزء الأول وكدت أفرغ من قراءة الجزء الثانى.

طه حسين يرثى العقاد

هذا هو عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين يرثى عملاق الفكر العربى عباس محمود العقاد بعد وفاته.. فيقول:

«أمثالك تموت أجسامهم، لأن الموت حق على الأحياء، ولكن ذكرهم لا يموت، لأنهم فرضوا أنفسهم على الزمان وعلى الناس فرضا.. وسيوارى شخصك الكريم فى أطباق الثرى، ولكن القبر الذى سيحتوى شخصك لن يستأثر بك، فلك فى قلوب الذين يحبونك، والذين ينتفعون بأدبك وعلمك ـ ذكر لن يموت ولكنهم لن يستأثروا أيضاً بذكرك، وإنما ستشاركهم فيه الأجيال التى تبقى بقاء الدهر».

رجاء

فإما أن تكون أخى بصدق
فأعرف منك غثى من سمينى
وإلا فاجتنبنى واتخذنى
عدوا أتقيك وتتقينى

دعاء

اللهم لبابك قصدنا، وقبولك أردنا، وعلى رحمتك وفضلك وجودك اعتمدنا، وإلى عزك استندنا، وفى مرضاتك اجتهدنا وبهدايتك استرشدنا.

بعد العقبة الأخيرة وتعيين نقباء لم تبق فى المدينة دار إلا ودخل أكثر أهلها فى الإسلام حتى أنك لو قلت: إن المدينة كلها صار أهلها مسلمين لم تكن قد خالفت الحقيقة. وتهيأت المدينة لاستقبال النبى ﷺ الذى شرفها بدخوله فى يوم عظيم سجلته كتب السنة والسيرة فى عبارات خالدة كان من أبهجها وأصدقها ما يروى عن سيدنا أنس خادم النبى ﷺ حيث ورد عنه رضى الله عنه أنه قال ما فى معناه: لما دخل النبى ﷺ المدينة أضاء منها كل شىء ويروى أن أهل المدينة كانوا يخرجون كل يوم لاستقبال النبى ﷺ لما سمعوا بمخرجه والمسير إليهم كانوا ينتظرونه من الصباح حتى تحمى الشمس عليهم.

تأملات فى السيرة النبوية



فضيلة الشيخ/الطاهر الحامدى

ويروى أن يهودياً لما رأى النبى ﷺ قادماً أخذ ينادى ويقول: يا بنى قيلة هذا جدكم - وبنى قيلة هم الأوس والخزرج وجدكم أى نصيبكم وحظكم - ويعنينى أن أتحدث عما حدث منذ قدوم النبى ﷺ المدينة لأننى أعتقد أن كثيراً مما حدث لم يجمعه المؤرخون وكتب السير فى باب واحد وفى مكان واحد إنما وجد متناثراً فى كثير من كتب السيرة والحديث.

وأما عن هجرته ﷺ هو وأبو بكر الصديق منذ خرجا من مكة حتى وصلا المدينة فإنى سوف أرجىء الحديث عنها فى مكان وزمان لاحق ييسره الله حيث كان ذلك لسببين:

السبب الأول: أننى أرى أن الهجرة حدث مهم فى التاريخ الإسلامى، على المسلمين أن يتناولوه تناولاً مغايراً لما هو عليه فليس قصة تحكى ولا حكاية يرويها قصاص إنما هى إعجاز من قبل الله سبحانه وتعالى فى الحدث وفيما يجب على المسلمين أن يستخلصوه منه.

ثانياً: أعتقد أن كتاب الحديث والسيرة تناولوا الهجرة كوقائع مرئية فى كثير من الأحيان لا ينقص القارئ منها سوى أن يقرأها فى تأن وتؤدة وهذا ما دفعنى إلى أن أهتم بما حدث بعد دخول النبى ﷺ وتشريفه أرض المدينة. تدافع أهل المدينة إلى رسول الله ﷺ تطلب كل قبيلة من رسول الله ﷺ أن ينزل عندها وأن تستأثر بتشريفه لها

وتنال هذا الشرف، شرف الضيافة فى الدنيا والآخرة فكانت تمسك بزمام ناقة النبى ﷺ تريد أن تأخذ الناقة فى اتجاهها فكان القول الرشيد المهذب القاطع فيما يسمعونه من رسول الله ﷺ بأمرهم أن يتركوا الناقة لأن الأمر ليس بيد أحد ولا تحت رغبة بشر فكان ﷺ يقول:

"دعوها فإنها مأمورة"

أى أنها تمشى بتوجيه إلهى ليس للبشر دخل فيه وتركوها حتى ألقت جرانها حيث بنى رسول الله ﷺ المسجد النبوى الشريف وأمر النبى ﷺ أبا أيوب الأنصارى أن يحمل رحله إلى بيته ونزل ﷺ عند أبى أيوب الأنصارى.

فى بيت أبى أيوب الأنصارى

ولقد تحدثت كتب السيرة عما دار بين أبى أيوب وزوجه فى أين ينزل رسول الله ﷺ فى دارهم؟ هل يكون فى مدخل الدار (الطابق الأول) أو فى العلو حيث الطابق الثانى وكان مصدر التردد والحيرة ذلك التقدير السامى وأقل ما يجب حول الرسول ﷺ هل ينزل فى الطابق الأول حيث السعة واليسر وعدم المشقة لكن كيف؟ هل يصح أن يكون أبو أيوب وزوجه أعلى والنبى أسفل؟ لكن أليس فى العلو المشقة على رسول الله ﷺ واستقر رأيه أن ينزل رسول الله ﷺ حيث الأيسر له ولزواره فى الطابق الأول لكن حدث ما كان متوقعاً فذات ليلة انكسرت جرة عند أبى أيوب حيث كان ينزل هو وزوجه فى الطابق الأعلى وسال ماؤها فخشى أبو أيوب أن ينزل الماء على رسول الله ﷺ فأخذ هو وزوجه يدفعان الماء وينشفانه وينظفانه بقطيفة كانت عندهم حتى لا ينزل على رسول الله ﷺ وياله من موقف فى بساطته وعفويته ينم عن إكبار وإجلال لرسول الله ﷺ ونعتقد أنه ليس أبو أيوب وحده بل كل المسلمين يشاركونه هذا الحب والإكبار والإجلال والإيثار لرسول الله ﷺ. من منا حتى اليوم وغداً وبعد غد لا يؤثر النبى ﷺ على نفسه ويتمنى فداءه. وأعتقد أن الروح أقل ما يفدى به النبى ﷺ، وثمة موقف آخر حدث مع أبى أيوب أثناء تشريف النبى ﷺ وإيثاره بالنزول فى داره، كان أبو أيوب يصنع طعاماً أو يقدم طعاماً للنبى ﷺ وبالطبع لا يأكل هو أولاً وينتظر حتى يأكل النبى ﷺ أولاً وعندما تأتى القصعة يتأمل أبو أيوب فى القصعة ولا يقع على الطعام دون تأمل ونظر!!! ماذا كان يتأمل وماذا كان ينظر؟ كان يتأمل وينظر أين موقع أصابع النبى ﷺ من الطعام فيأكل مكان أصابع النبى ﷺ وذات يوم بحث عن موضع أصابع النبى ﷺ فلم يجدها فعاد للنبى ﷺ فزعاً فقال: يا رسول الله مالى لا أرى موضع أصابعك فى القصعة؟! فقال له النبى ﷺ: إن فيه ثوماً وبصلاً وأنا لا آكله فهدأت نفس أبو أيوب وتسمع القصة من أبى أيوب قال: (لما نزل على رسول الله ﷺ فى بيتى نزل فى السفل وأنا وأم أيوب فى العلو فقلت له: بأبى أنت وأمى يا

رسول الله إني أكره أن أكون فوقك وتكون تحتي فاظهر أنت فكن في العلو وننزل نحن فنكون في السفل. فقال: (يا أبا أيوب أن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت، فكان رسول الله ﷺ في سفله وكنا فوقه في المسكن. فلقد انكسر جب لنا فيه ماء وقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها تنشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه. قال: وكنا نصنع له العشاء ثم نبعثه إليه فإذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة. حتى بعثنا إليه ليلة بعشاء قد جعلنا له فيه بصلاً - أو ثوماً - فرده رسول الله ﷺ فلم أر ليديه فيه أثر قال: فجئته فزعاً فقلت: يا رسول الله بأبي وأمي رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك؟ فقال: إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة وأنا رجل أناجي فأما أنتم فكلوه. فأكلناه ولم نصنع له تلك الشجرة بعد.) رحم الله أبا أيوب الذي عمر في الإسلام وجاهد مع رسول الله ﷺ ومع خلفائه من بعده حتى خرج في خلافة بني أمية واشترك في فتح القسطنطينية "تركيا" وهو مدفون هناك وحوله مسجد عامر يتبرك بزيارته - الحمد لله الذي وفقني وسعدت بزيارته في القسطنطينية - وأول ما نزل النبي ﷺ بعد هجرته في قباء ثم ارتحل منها صبيحة الجمعة وأدركته أول جمعة في بني سالم وصلى بالناس وخطب هناك أول خطبة وبنى في هذا المكان مسجد.

وفي السنة الثانية من الهجرة ولد عبد الله بن الزبير فكان أول مولود للمهاجرين وولد قبله النعمان بن بشير وكان أول مولود للأنصار بعد هجرته ﷺ ويروى أن النبي ﷺ بعث عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب في ثمانين رجلاً من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد إلى ماء بالحجاز بأسفل ثنية المرة لقي بها جمع عظيم من قريش ولكن لم يقع بينهم قتال إلا أن سعداً بن أبي وقاص رمى بسهم فكان أول سهم رمي به في الإسلام.

أذان الصلاة

في المدينة المنورة أمن المسلمون وبعد أن بنى النبي ﷺ مسجده كثر المسلمون من المهاجرين والأنصار وجهر المسلمون بإسلامهم وأمنوا وأمكن لهم أن يصلوا جماعة في المسجد وفرضت الزكاة والصيام وكان الناس يجتمعون إلى الصلاة لميقاتها بغير دعوة فاستشار النبي ﷺ أصحابه كيف يدعوهم إلى الصلاة. اقترح بعضهم أن يجعلوا بوقاً فرفض النبي ﷺ وقال: هذا فعل اليهود واقترح بعض آخر ناقوساً فقال: هذا شأن النصارى وأشار آخرون بأن يوقدوا ناراً فقال هذا فعل المجوس وبينما هم كذلك إذ جاء عبد الله ابن زيد بن ثعلبة من الخزرج يعدو حيث إنه رأى رؤية فأراد أن يقصها على رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله رأيت الليلة كأن رجلاً مر بي عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً في يده فقلت يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس؟ فقال: وما تصنع به؟ قلت: ندعوا به للصلاة قال: ألا أدلك على خير من ذلك قلت: وما هو؟ قال: تقول:

الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد ألا إله إلا الله، أشهد ألا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة ،حي على الفلاح، حي على الفلاح الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله.

فقال رسول الله ﷺ: إنها رؤية حق إن شاء الله. فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها فإنه أندى صوتاً منك. فلما أذن بها بلال سمعه عمر بن الخطاب وهو في بيته فخرج إلى رسول الله ﷺ وهو يجر رداءه وهو يقول يا نبي الله والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى. وعند بعض كتب الحديث أن الذي رآه عبد الله بن زيد علمه إقامة الصلاة أيضاً حيث قال: " ثم تقول إذا أقمت الصلاة:

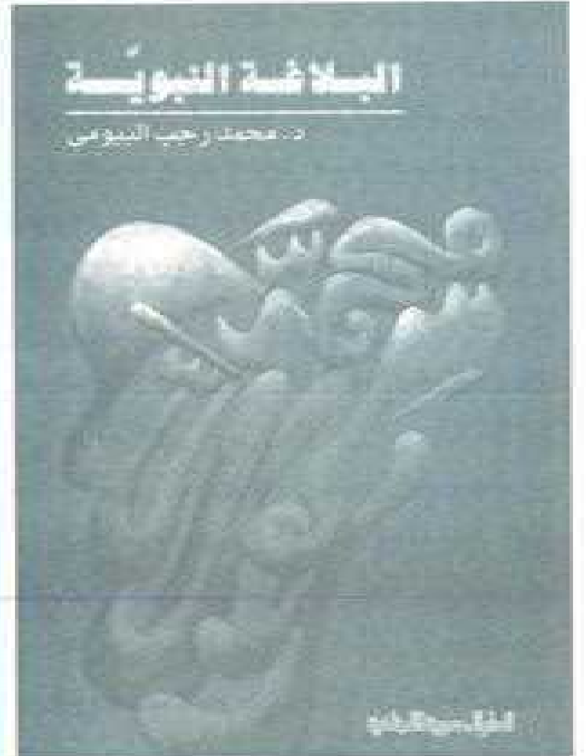
الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله حي على الصلاة حي على الفلاح قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله".

بلال.. مؤذن الرسول

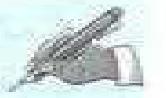
وبعد أيها القارئ الكريم أرجوك أن تتأمل قول النبي ﷺ لعبد الله بن زيد: (فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها فإنه أندى صوتاً منك) تأمل هذه الجملة هل لها معنى في نظرك أم أنها لغو لا تعني شيئاً؟ وهل في عقلك يمكن أن يلغو النبي بكلام لا معنى له؟ أعلم أنك تنزه النبي ﷺ عن هذا العبث. إذاً ما معنى هذا الكلام عندك ولماذا لم يترك النبي عبد الله بن زيد يؤذن؟ فلا بد أن النبي ﷺ يريد حسن الصوت في الأذان فلماذا يصر إخواننا السلفيون على إقصاء أصحاب الأصوات الندية ويرفضونها وما هي حجتهم في هذا؟ لماذا لا يختارون من هو أندى صوتاً في الأذان عملاً بهذا الحديث؟ ليتهم يفعلون. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد. وإلى لقاء آخر إن شاء الله.



قراءة فى كتاب



١


بقلم: عادل خفاجة

إن بلاغة النبي ﷺ من أوضح وأجلى دلائل نبوته، فهو ﷺ صاحب المنطق السليم، والحكمة البالغة والكلمة الصادقة، والمعجزة الخالدة وهو ﷺ القائل عن نفسه: «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش واسترضعت فى بنى سعد»(١) وكيف لا يكون أفصح العرب وهو خاتم النبيين، وعلى قلبه نزل القرآن العظيم، وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه، وكيف لا يكون أفصح العرب وقد نشأ وترعرع بين عرب فصحاء.

ومن أفضل ما قيل فى ذلك ما سجله الجاحظ رائد البلاغة العربية؛ فى كتابه البيان والتبيين إذ يقول: «لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى، من كلامه ﷺ».

ولقد اهتم فضيلة الدكتور محمد رجب البيومى رحمه الله بالبحث عن كتاب جامع عن البيان النبوى ولكنه لم يجد فألّف هذا الكتاب: «البلاغة النبوية».

أسباب تأليف الكتاب

يقول المؤلف: «منذ زمن بعيد وأنا أبحث فى المكتبة العربية عن كتاب يخص بيان محمد ﷺ بدراسة تحليلية مفصلة فلا أجد؛ إذ إن كتاب الله الخالد قد شغل جمهور النقاد، وأئمة البلاغيين فى القديم والحديث بدراسة إعجازه.. ولم يشحذ أحد هؤلاء همته ليخص البيان النبوى بدراسة تحليلية فى كتاب خاص تظهر روائع إبداعه ﷺ، وتوضح سمات أسلوبه».

الكتاب

يقع الكتاب فى خمس وسبعين وثلاثمائة صفحة مقاس ٢٤سم × ١٧سم وقد صدر عن الدار المصرية اللبنانية في طبعته الأولى فى يونيو ٢٠٠٨م.

والجدير بالذكر أن هذا الكتاب هو الأطروحة التى تقدم بها الدكتور البيومى إلى كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر لنيل درجة الدكتوراه.

يقع الكتاب فى ستة عشر فصلا وهى:

النص النبوى ثابت مكين – طابع الحديث الصحيح يدل عليه ويحتم الاستشهاد به – القرآن أستاذ محمد.. نظرة فى عوامل تكوينه الأدبى – محمد ﷺ خطيبا – موقف النبى ﷺ من الشعر والشعراء – رسائل محمد ﷺ ونصوص معاهداته – الأقصوصة فى أدب الرسول ﷺ – صور القيامة في أدب محمد ﷺ – تأثير حديث المعراج في الأدب العالمى – محمد ﷺ رائد الدعوة والدعاة – الابتهال فن طريف فى أدب محمد – سمات الأسلوب النبوى – رسالة الأديب كما حققها الرسول – نماذج من التفسير النبوى للقرآن الكريم – بين إعجاز القرآن الكريم وإبداع الحديث النبوى – ثلاثة من القدماء يتحدثون عن محمد الأديب – ثلاثة من المعاصرين يتحدثون عن محمد الأديب – محمد فى كتاب الأبطال.

وقد بدأ المؤلف كتابه بفصل بعنوان «النص النبوى ثابت مكين» بدد فيه ما حيك حول السنة النبوية من شبهات كان الدافع إليها إما الجهل وإما النيل من الإسلام بعامة، وأن الإرجاف بالسنة المطهرة قديم قدم الإسلام.

وأما الفصل الثانى فتحدث فيه عن الطابع الأدبى للبيان النبوى ليجعل من تحقق هذا الطابع دليلاً على صحة النص المحمدى، وأشار إلى أن علماء الحديث قد أطالوا القول فى السند وفى المتن وتركوا طابعه الأدبى بخصائصه المميزة، وهو فى الحقيقة أحد موازين التقدير والترجيح.

وجاء الفصل الثالث ليتحدث عن العامل الرئيسى فى تكوين بيان محمد ﷺ، جازماً بأن ما يذكر بصدد ذلك من نشأته فى قريش ورضاعه فى بنى سعد إنما كان أقل العوامل فى بيانه النبوى وإنما العامل الأول هو فطرته القوية التى طبعه الله عليها منذ اختاره للدعوة.

أما الفصل الرابع وقد خصه المؤلف بالحديث عن محمد ـ ﷺ ـ «الخطيب» فقد عرض فيه بالتمثيل والشرح إلى ما اتسمت خطابته من الإعجاز وقوة الإقناع ووضوح العبارة مع إلتزام الصدق.

وجاء الفصل الخامس ليبسط فيه المؤلف قضية هامة وهى التى أردنا أن نتوقف عندها: «موقفه ـ ﷺ ـ من الشعر والشعراء» موضحاً ما أحيط بها من لغط كثير وكاشفاً ما تجمع من غيوم حول هذه القضية. وقد عوّل على

(١) سبل الهدى والرشاد والشفا.

الفرق بين الإنشاد والإنشاء في إحقاق الرأى.

ويستهل المؤلف الكبير -رحمه الله- عرضه لهذه القضية بقول كاشف يوضح ما ألم بهذه القضية من ركام إذ يقول: آفة الكتابة التزيد، فقد تكون قضية من القضايا الأدبية أو العلمية واضحة النتيجة، لا تتطلب الكثير من الإسهاب، ولكن نفراً من الكتاب يطيلون القول في غير مقال، فيضاعفون الشبهة الواهية حتى تتضخم، ثم يقرنونها بغيرها ويقفون بذلك أمام أدلة قوية تتعارض معها، وتدور معركة كبيرة في التأييد والتفنيد، فيتسع القول على أصحابه، وتمضى الأيام، فيأتي من الكتاب من يتناول القضية عارضاً ما قيل من نقض وتأييد، ومضيفاً من استنتاجه ما يميل برأى على رأى فيساعد على تضخيم الجدل وتعدد مناحيه. وتتزايد النصوص والنقول لكثرة ما خاض الخائضون حتى تصبح القضية الواضحة في بادئ الأمر ذات غموض وتعقيد، قد لفها غبار الجدل وكاد وجه الحقيقة معه أن يضيع.

وبعد هذا القول الكاشف لأبعاد القضية يقدم حديثاً نبوياً وآية قرآنية ليؤكد في وضوح صريح أن ليس هناك داع لشن الغارة على الشعر ككل.

فيقول: «لقد قال الرسول ﷺ: «إن من الشعر لحكمة»[٢]، وهي جملة صريحة يدل منطوقها الواضح، على أن بين ما يقول الشعراء ما يوصف بالحكمة ذات الرأى الصائب والسداد العاقل، كما يدل مفهومها المتلمس، على أن من بين ما يقول الشعراء ما لا يوصف بالحكمة، بل يذهب مذهب اللغو والأباطيل من حث على اللهو وولوع بما حرم الله من القول، وهذا هو الجانب البغيض من الشعر، بل من القول، شعراً كان أم نثراً، فليست القضية في ذلك قضية شعر بالذات.

فإذا تركت قول الرسول -صلى الله عليه وسلم-: «إن من الشعر لحكمة» واستمعت إلى قول الله:

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾

(الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧)

«تجد الشعراء فريقين: فريقاً يهيم في كل واد بالباطل يتبعهم الغواة من الفاسدين، إذ يطلقون الكلام دون تحرز، ثم يقولون ما لا يفعلون. وفريقاً من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، جاء شعرهم مهتدياً بنور الإيمان، إذ يذكرون الله كثيراً فإذا تطرقوا للهجاء، فليس هجاء البادئ المعترض ولكنه دفاع عن ظلم نزل، إذ انتصروا لأنفسهم ممن تناولوهم بالسباب بغياً دون عدل».

وبعد أن عرض المؤلف لملخص ما قاله العلماء في حكم الشعر في الإسلام، وأنه قد ذهب قوم إلى كراهة الشعر مطلقاً، وذهب

(٢) سنن ابن ماجه.

قوم إلى إباحة الشعر ما لم يكن فيه فحش، نراه يقول:

«ولعل بعض الكتاب المتحمسين للنثر الطاعنين على الشعر يحتج بأن القرآن كلام الله تعالى منثور، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- غير شاعر لقول الله تعالى:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾

ويرى أنه قد أبلغ في الحجة وبلغ في المحجة، والذى عليه في ذلك أكثر مما له، لأن الله تعالى إنما بعث رسولاً أمياً غير شاعر إلى قوم يعلمون منه حقيقة ذلك حين استوت الفصاحة، واشتهرت البلاغة آية للنبوة، وحجة على الخلق، وإعجازاً للمتعاطين، وجعله منثوراً ليكون أظهر برهاناً لفضله على الشعر الذى من عادة صاحبه أن يكون قادراً على ما يحبه من الكلام، وتحدى جميع الناس من شاعر وغيره بعمل مثله فأعجزهم ذلك، فكما أن القرآن أعجز الشعراء وليس بشعر، كذلك أعجز الخطباء وليس بخطبة، والمترسلين وليس بترسيل، وإعجازه الشعراء أشد برهاناً، ألا ترى كيف نسبوا النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى الشعر لما غلبوا وتبين عجزهم، فقالوا: هو شاعر لما في قلوبهم من هيبة الشعر وفخامته، والمنثور ليس كذلك فمن هنا قال الله تعالى:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾

أى لتقوم عليكم الحجة ويصح قبلكم الدليل.

أما الاستدلال بالآية الكريمة:

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾

فيؤكد المؤلف أن المقصودين في هذه الآية هم شعراء المشركين ثم يأتي بالبرهان الناصع إذ يقول: «فلو جاز لنا أن نحكم بكراهية الشعر أصلاً لا نحطاط بعض أغراضه، لجاز لنا أن نحكم بكراهية جميع ألوان البيان لاتحاد العلة، ولا تظن عاقلاً منصفاً يميل إلى ذلك».

ويحشد المؤلف الآراء المؤيدة لكلامه فيقدم لنا ما أثبته (ابن رشيق) في معرض كلامه عن هذه الآية فيقول: «أما احتجاج من لا يقيم وجه الكلام بقوله تعالى:

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾

فهو غلط وسوء تأول، لأن المقصودين بهذا النص شعراء المشركين الذى تناولوا رسول الله ﷺ بالهجاء ومسوه بالأذى، فأما من سواهم من المؤمنين فغير داخل في شئ من ذلك، ألا تسمع كيف استثناهم الله عز وجل، ونبه عليهم فقال:

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾

يريد شعراء النبي صلى الله عليه وسلم الذين ينتصرون له ويجيبون المشركين عنه (كحسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة).

ثم ينتقل المؤلف إلى أدلة الحديث فيقول: لا نجد إلا حديثاً واحداً أولع به القائلون بكراهة الشعر وهو ما يروى من قول رسول الله ﷺ عن أبي هريرة: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً فيريه، خير له من أن يمتلئ شعراً»[٣].

(٣) صحيح البخاري.

يقول المؤلف: لقد ظلّ هذا القول يتردد في كتب الحديث هكذا ناقصًا مبتورا.. حتى طبع كتاب الزركشي المسمى بـ«الاجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة فإذا فيه»:

أن عائشة رضي الله عنها قالت مستدركة على الراوي: «لم يحفظ أبو هريرة الحديث إنما قال رسول الله: لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا ودمًا خير له من أن يمتلئ شعرًا هجيت به». وقد ذكر (عبدالقاهر) حديث أبي هريرة ناقصًا في دلائل الإعجاز، فعلق عليه (السيد محمد رشيد رضا) بقوله في أحد هوامشه ص١٣: «وفي رواية ابن عدي عن جابر: «لأن يمتلئ جوف الرجل قيحًا أو دمًا خير له من أن يمتلئ شعرًا مما هجيت به» فاتفقت روايتا عائشة وابن عدي على تصحيح ما قاله أبو هريرة، وسقط بذلك الدليل الوحيد من قول الرسول على كراهية الشعر مما استند إليه مبغضوه، وقد كان محمد ﷺ من رقة الإحساس ونبل الشعور بحيث يبغض كل هجاء ظالم وجه إليه أو لغيره، فليست الكراهة لديه نزعة ذاتية تخص ما قاله المشركون في هجائه ظلمًا، بل تشمل كل هجاء ظالم.

وينتقل (المؤلف إلى الإشارة إلى الأحاديث التي رويت عن رسول الله ﷺ في تحبيذ الشعر والتي أفصحت عن موقفه المؤيد لكل ما سلك سبيل الحق من الشعر.

ويشير المؤلف إلى الحملة التي تزعمها شعراء الجاهلية حين انطلق عبدالله بن الزبعرى وعمرو بن العاص وأبو سفيان بن الحارث يهجون الرسول ويذمون الإسلام، مما دعاه صلى الله عليه وسلم أن يقول: «ما منع الذين نصروا الله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم».

ويثبت المؤلف في هذا الفصل عدة مواقف للشاعر الكبير المؤيد.. حسان بن ثابت إذ يقول:

أقام الرسول منبرًا لحسان، وأمره أن ينشد في الدفاع عن دينه، وكان حسان أشد زملائه عارضة، وأقوى المسلمين بيانًا، فأخذ يترصد كل ما يقوله شعراء مكة ليأتي على بنيانه من القواعد، فإذا بكى (ابن الزبعرى) صرعى بدر من المشركين ناقضه ابن ثابت بقصيدة من الوزن والقافية، وإذا شمت (ابن الزبعرى) بالمسلمين بعد أحد لم ينس أن يعرض بحسان فيقول في قصيدة:

يا غراب البين أسمعت فقل
إنما تنطق شيئًا قد فعل
أبلغا حسان عني آية
فقريض الشعر يشفي ذا الغلل

فيرد عليه حسان مناقضًا بقوله من قصيدة طويلة:

نزلت بابن الزبعرى ضربة
كان منا الفضل فيها لو عدل
ولقد نلتم ونلنا منكم
وكذلك الحرب أحيانًا دول

وإذا قدمت الوفود مفاخرة رسول الله وقام (الزبرقان بن بدر) يقول في قصيدته:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا
منا الملوك وفينا تنصب البيع

بعث رسول الله إلى حسان فيأتي عجلًا ليرد بقصيدته:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم
قد بينوا سنة للناس تتبع

وحتى لا يتوقف المؤلف عند الاستشهاد بشعر حسان يتحول إلى العديد من الأمثلة لشعراء آخرين من مثل: أبو عزة الجمحي، وقيس بن الخطيم وأمية بن أبي الصلت الذي كان حاسدًا للرسول ﷺ ويذكر المؤلف في معرض كلامه عن ابن الصلت أن الرسول ﷺ كان يستنشد شعره ويقول: «آمن لسانه وكفر قلبه» وفي رواية البخاري: (وكاد أمية ابن أبي الصلت أن يسلم) بل إن الرسول قد استشهد بقوله:

إن تغفر اللهم تغفر جما
وأي عبد لك لا ألما

ويقرر المؤلف في شكل قاطع أن لو كان صلى الله عليه وسلم يكره الشعر لذات الشعر لأعرض عن شعر أمية على الأقل وهو حاقده اللدود.

ويختتم المؤلف هذا الفصل ببرهان قاطع حين يقول:

لقد وقع هؤلاء المنكرون في مأزق حرج حين وجدوا الرسول يقول: أصدق كلمة قالها لبيد:

«ألا كل شئ ما خلا الله باطل» فهبوا ينتحلون المبررات ويزعمون أن ذلك ليس شعرًا، لماذا. لأنه ﷺ لم يكمل البيت. وإذًا فقد تحول الشطر من الشعر إلى النثر دون إمهال، مع أن من يسمعه منفصلًا عن عجزه يعلم أنه شطر تام من بيت شعري شهير، فهو شعر لا محالة، ونحن نستشهد في مقالاتنا وخطبنا بأشطار من الأبيات تجري مجرى الأمثال بل نستشهد أحيانًا ببعض الشطر لا كله، فلا يمنع ذلك أحدًا أن يقول إنه استشهاد بالشعر، وهبني قلت في كلمة ما «وإنما الأمم الأخلاق» فقط أفلا يطير ذهن القارئ إلى شوقي مدركًا أني استشهدت بشعره. إنما يكون الشطر الواحد غير شعر إذا أنشأه المتكلم إنشاءً في حديثه عن غير قصد فجرى على لسانه موزونًا كما جاء الوزن عفوًا في بعض آيات القرآن، هنا نقول بحق: هذا ليس بشعر، أما أن نقول ذلك عن شطر طائر الصيت تتناقله الألسن عن لبيد فذلك ما لا يستقيم.

إن الحديث عن سلامة الشعر المنشد على لسان رسول الله حديث عن تمام فصاحته وكمال بلاغته وهما في غير حاجة إلى تدليل.

(يتبع)

نظرية الأمن الاجتماعى فى منظور الفكر الإسلامى



عاطف مصطفى

الأمن نعمة من نعم الله تعالى على الإنسان التى لا تعد ولا تحصى. ومن يستقرىء نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة يجد أنهما قد وضعا منظومة جامعة، أو نظرية كاملة لو أخذ بها وعمل بمقتضاها لتحقق الأمن الاجتماعى لهذه الأمة.

و لا يقوم الأمن فى المجتمع إلا بتوفير الأمان واطمئنان الناس على أرواحهم وأعراضهم عن طريق تطبيق القانون وسيادته على الجميع، باختيار القانون العادل الحازم الذى لا يفرق بين المخالفين!

و من الضرورى أن يأمن الناس على أرزاقهم بتوفير فرص العمل والقضاء على البطالة، فيقنع الناس بأرزاقهم وتخفض الجرائم التى نشهدها الآن، كذا الفساد والرشوة والسرقات، وتتجنب الأحقاد فى النفوس.

فهل نجد من خلال منظومة الفكر الإسلامى ما يدعو إلى تدعيم هذا الأمن، ودعوة الكافة للاهتمام به لتحقيق الاستقرار الآن الذى ينشده من خلال أمة تدين بالوسطية وتنبذ التطرف والتعصب للأفكار المغرضة؟.

الدين الصحيح ملاذ الأمة

وفى عرضنا الموجز لكتاب «نظرية الأمن الاجتماعى فى الإسلام» لمؤلفه الدكتور أسامة السيد عبدالسميع الأستاذ بكلية الشريعة والقانون جامعة الأزهر، والذى أصدرته رابطة الجامعات الإسلامية ضمن سلسلة فكر المواجهة والتى يشرف على إصدارها الدكتور جعفر عبدالسلام الأمين العام للرابطة.

يمكن أن نستهدى ببعض ما جاء فى هذا الكتاب، أملاً فى أن نعود للدين الصحيح، وهو ملاذنا فى هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ أمتنا الإسلامية والتى انتفض عدد من شعوبها العربية بحثاً عن هذا الأمن الاجتماعى، سواء فى مصر أو اليمن أو فى ليبيا وسوريا والبحرين وغيرها من دول المغرب العربى التى ثارت على الظلم طمعاً فى العدل الاجتماعى وفى الحرية والمساواة.

ويشير الكاتب إلى أن القرآن والسنة اللذين استشهد بهما فى بعض صفحات كتابه، نظرية ذات محاور ثلاثة هى: تحلى أفراد المجتمع بالفضائل، وأن يتخلوا عن الرذائل، وأن يعم التكافل الاجتماعى بين أفراد المجتمع، لاسيما عن طريق الزكاة وغيرها، وسن التشريعات العقابية لأفراد المجتمع الخارجين عن شرعية الأمن الاجتماعى.

وقد ورد لفظ الأمن ومشتقاته وهى: أمن، يأمن، آمنا، آمنة، آمنهم، آمنين، آمنون، أمنتم، تطمئن، أمنا، مأمنه، أمنة، أمنتكم، الأمين تسعا وأربعين مرة فى القرآن الكريم.

العدل فى القول

ومن ينظر فى الدين الإسلامى يجد أنه دعا أول ما دعا إليه هو عدم الإشراك بالله سبحانه وتعالى، وبر الوالدين، والوفاء فى الكيل والميزان، والعدل فى القول، ولو كان على ذات الإنسان أو قريب له، والوفاء بالعهد، ونهى عن قتل النفس بغير وجه حق، والزنا والاقتراب منه، وأكل مال اليتيم والتبذير والتقتير والغرور وقول الزور.

أمور مطلوبة لصلاح وسعادة المجتمع

وقد أشار الدكتور أسامة السيد فى كتابه إلى أثر التحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل فى نشر الأمن الاجتماعى بقوله: «ولا شك أن كل هذه الأمور السابقة من شأنها أن يعم الأمن فى المجتمع وأن ينعم الناس به، فهى أمور مطلوبة لصلاح وسعادة المجتمع بصرف النظر عن ديانته، فمن يقرأ آيات القرآن الكريم ولاسيما أواخر سورة الأنعام وأوائل سورة الإسراء، يجد الدعوة واضحة إلى التحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل، والتى لو طبقت تطبيقاً صحيحا لعاش أفراد المجتمع فى أمن وسلام.

أحب لغيرك ما تحبه لنفسك

وقد أحسن المؤلف حين استشهد بهذا الحديث الجامع للنبى ﷺ فيما رواه عنه أنس ابن مالك رضى الله عنه... «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1].

رعاية اليتيم وكفالته

كما أشار الدكتور أسامة عبد السميع وهو يستعرض فى كتابه «نظرية الأمن الاجتماعى فى الإسلام» إلى رعاية اليتيم وحرمة ماله والتى حرصت عليها الأديان السماوية، وحرمت الإساءة إليه لاسيما الشريعة السماوية وإذا نظرنا إلى الشريعة الإسلامية فنجدها قد رعت اليتيم أى رعاية فقد جعلت جزاء من يقم برعايته وكفالته أن يفوز بالجوار والصحبة للنبى ﷺ فى الجنة.

أما عن رعايته بحفظ أمواله فلم تحرم الشريعة الإسلامية أكل مال اليتيم بالفعل فقط، وإنما حرمت حق الاقتراب من ماله بدون وجه حق.

بل إن القرآن الكريم أمر من يتاجر فى مال اليتيم - إذا كان فقيرا- أن يأكل بالمعروف، أى يأخذ أجرا نظير عمله وإذا كان غنيا فليعف نفسه حتى عن أخذ الأجر ابتغاء الأجر من الله تعالى.

نشر الأمن الاجتماعى بين أفراد الأمة

ومن ذلك يتبين لنا بجلاء ووضوح أن الإسلام بكل ما دعا إليه من فضائل للتحلى بها، ونهيه عن الرذائل للتخلى عنها، من شأنه نشر الأمن

(١) مسند الطيالسى.

الاجتماعي بين أفراد الأمة.

إن عوامل تحقيق الأمن الاجتماعي بين أفراد المجتمع، ذكرها المؤلف في عدة مباحث توجزها في الآتي:

الأمن النفسي أو الروحي في الإسلام - الأمن المكاني في الإسلام - الأمن الصحي أو البدني في الإسلام - الأمن الغذائي في الإسلام - مناشدة طلب الأمن يوم القيامة وفي الجنة.

الأمن يوم القيامة

و الأمن الذي ينشده الإنسان ليس قاصرا فقط على مدة بقائه في الحياة الدنيا، وإنما عليه أن ينشد أيضا نوعا من الأمن له صفة الدوام والأبدية، ألا وهو الأمن يوم القيامة والأمن في الجنة.

ولو توقفنا عند الأمن النفسي فإنه يتحقق بأمرين.. أحدهما أساسي والآخر مكمل له.

الأمر الأول: الإيمان بالله سبحانه وتعالى وتوحيده، وعدم الإشراك به، وفي القرآن أمثلة عديدة لذلك، وفي حديث النبي ﷺ: «اللهم إني أسألك الأمن والإيمان والصبر والشكر والغنى والعفاف».

الوسائل المادية لتحقيق الأمن الاجتماعي

في الفصل الثالث يتناول الكاتب، الوسائل التنفيذية لتحقيق وتنفيذ الأمن الاجتماعي؛ حيث يشير إلى أنه لا يكفي لتحقيق الأمن الاجتماعي ما استعرضناه هنا بإيجاز شديد، بل لابد من وسائل تنفيذية وتتمثل في: وسائل مادية وأخرى معنوية.

والوسائل المادية تتمثل في:

- قيام الفرد والدولة بدور فعال لتحقيق الأمن الاجتماعي

- تفعيل دور الزكاة في تحقيق الأمن الاجتماعي

- تفعيل دور الوقف الإسلامي للنهوض بالأمن الاجتماعي

- الكفارات ودورها في تحقيق الأمن الاجتماعي

-الصدقات ودورها في تحقيق الأمن الاجتماعي

- المساهمة في إقامة المشروعات الخيرية ودور ذلك في تحقيق الأمن الاجتماعي.

دور مشترك

وعن دور الدولة في تحقيق الأمن الاجتماعي، فذلك يتم من خلال توفير فرص العمل المناسبة.

والفرد عليه أن يبحث عن عمل أو حرفة يكسب منها قوت يومه ويحصل بسببها على مسكن يأويه ولباس يواريه.

والعمل يمنع صاحبه من السرقة والسطو والتسول وسؤال الناس حفظا لماء الوجه.

ومفهوم العمل في الإسلام لا يقتصر على مجال معين، فهو يدخل في كافة الميادين وشتى مناحي الحياة.

فالمسلم في المجتمع الإسلامي لا تعرف البطالة طريقا إليه، ومن ثم فعليه ألا يحتقر أي مهنة طالما أنها ليست مؤدية إلى الحرام.

يقول ﷺ فيما رواه عنه ابن عباس: «من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفورا له»[٢].

ويشير المؤلف إلى دور الدولة في تحقيق الأمن الاجتماعي من خلال توفير فرص العمل المناسبة لكل شخص بالأجر المناسب تحقيقا لمبدأ التوازن بين الدخول وأسعار السلع وإن

(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد الهيثمي.

لم تستطع الدولة ذلك فعلى أغنياء المجتمع لاسيما رجال الأعمال أن يضطلعوا بهذا الدور تخفيفا عن الدولة، كما أن الدولة مطالبة بإنشاء دور للعلاج بالمجان لغير القادرين وأن تعمل على تحسين الخدمة الصحية بشكل لائق.

كما يجب أن تقوم ببناء مساكن بالمجان وبشكل مناسب تذهب لمستحقيها ومساكن أخرى بسعر اقتصادي وذلك لتحقيق لأمن المكاني.

الزكاة وتحقيق الأمن الاجتماعي

وعن دور الزكاة في تحقيق الأمن الاجتماعي يبين الكاتب أنه لم نجد شريعة من الشرائع السماوية أو قانونا من القوانين الوضعية أعطى للفقراء حقوقا واضحة وتفصيلية، مثلما فعلت الشريعة الإسلامية، والتي أعطت حقوقا للفقراء على سبيل الإحسان والإجمال، وليس على سبيل الوجوب والتفضيل.

ومن بين معاني التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع، قيام أغنياء المجتمع بدفع زكاة أموالهم لهؤلاء الفقراء وبقية مصارف الزكاة، لكي يستعينوا بهذه الزكاة على تحقيق مطالب حياتهم وعلى رأس ذلك الأمن الغذائي.

والزكاة التي يقوم الأغنياء بدفعها للفقراء ليست منحة، بل هي حق لهم، يقول تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾

(المعارج: ٢٤-٢٥)

ويشير إلى أن الزكاة لا تقوم بتحقيق الأمن الغذائي أو الاقتصادي فحسب بل إنها تحقق الأمن المكاني لمن لم يكن له مكان، ولو كان بطريق الإيجار، كما تحقق أيضا الأمن الصحي لمن لم يكن قادرا على نفقات العلاج.

أهمية خاصة للوقف في النهوض بالأمن

وعن تفعيل دور الوقف الإسلامي في النهوض بالأمن الاجتماعي قال المؤلف وهو يتحدث عن سند مشروعية الوقف وجوازه والندب إليه القرآن والسنة والآثار والإجماع.

من القرآن: حيث ورد في القرآن الكريم في أكثر من موضع ما يدعو إلى الإنفاق في وجوه الخير ويحث عليه، وما الوقف إلا أحد هذه الأوجه، ومن هذه النصوص قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾

(التغابن: ١٥ / ١٧)

وبعد عرض شيق لكيفية تحقيق الأمن الاجتماعي والاستشهاد بآيات من القرآن الكريم وبأحاديث نبوية شريفة كلها تحض على ضرورة أن يقوم المجتمع بتحقيق عوامل الأمن الاجتماعي وتنفيذ وسائله وبما يترتب عليه نتائج في غاية الأهمية أنه يؤدي إلى: الاستقرار والشعور بالأمان وتحقيق التوازن في سوق العمل.

كما يؤدي إلى تحقيق التوازن في العدالة الاجتماعية بين أفراد المجتمع وطبقاته.

والأمن الاجتماعي الذي يحظى به المجتمع يؤدي إلى منع التسول والحد من ارتكاب الجريمة وعدم التطرف والإرهاب والحفاظ على أمن الوطن وسلامته من الخارج.

بين الصحف و المجلات

إعداد

أ/ محمد جمعة

أ/ علاء عبد الرحمن

كتاب جديد في إسرائيل:

عرب الـ٤٨ يسعون لتخريب المشروع القومي لليهود

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ زهير اندراوس المنشور بجريدة «القدس الدولية» بعددها الصادر بتاريخ ٢٠١١/٦/٦م يقول فيه:

الناصرة - «القدس العربي»: العرب في مناطق الـ٤٨ هم حالة متميزة، فالحديث يدور عن أقلية ذات عقلية أكثرية، إزاء أكثرية يهودية ذات عقلية أقلية، هذا هو المصطلح الجديد الذي أدخله على الأجندة الإسرائيلية، الدكتور دان شيفطان، المقرب جدا من صناع القرار في تل أبيب في كتابه الجديد «فلسطينيون في إسرائيل»، ويعتقد المؤلف أنه حتى بعد الانفصال الكامل عن الفلسطينيين في المستقبل، فمازال هناك موضوع واحد يصفه بالمركزي والأليم والأكثر نزفاً، وهو المواطنون العرب في إسرائيل.

ويلخص الكتاب باختصار موقف المؤلف من مستقبل عرب الـ٤٨ بقوله: إنهم غير مستعدين لقبول حل أقل مما يُرى انتحاراً لإسرائيل، مما يعني أن لديهم رفضاً خالصاً لدولة الشعب اليهودي، لأنهم جزء آخذ يكبر في المجتمع الإسرائيلي، مبدياً شكوكه في القدرة على إدخالهم تحت جناحي هذا المجتمع، وهم الذين باتوا يشكلون بنظرة أعداء الدولة اليهودية. ويعتقد المؤلف أن المسار المطلوب للحفاظ على إسرائيل دولة يهودية يتمثل بالتوصل إلى مصالحة تاريخية مع العالم العربي، بما يقتضيه الأمر من تنازلات في المجال الأمني، ويثير الحاجة إلى مواجهة أقلية كبيرة تزيد على مليون عربي، يناضلون من الداخل ضد الشكل والهوية اليهوديين لإسرائيل، وستكون هذه أكبر معضلات الدولة في الداخل، لأنه حتى لو وجد حل للصراع مع العرب والفلسطينيين، فستكون معضلة عرب الـ٤٨ هي المجال التالي الذي سيحاولون فيه سلب إسرائيل شرعيتها، كما يقول. وبما أن دان شيفطان قريب من القيادة العليا الإسرائيلية، فإن ذلك يعطي كلامه وزناً ذا شأن حقيقي من حيث تقييمه لخطورة عرب الـ٤٨، الذي يزعم أن أصحاب التيار المركزي بينهم لا يعتقدون بشرعية قيام دولة للشعب اليهودي، حتى لو نشأت إلى جانبها دولة عربية فلسطينية في الأرض نفسها، بين الأردن والبحر، وبدلا من ذلك، فهم يطالبون بالاعتراف بالجماعة الفلسطينية باعتبارها أقلية قومية، تحظى بمكانة معترف بها، مع سحق إلى درجة الإلغاء للأهداف القومية اليهودية لدولة إسرائيل. ويبدي رأيه في طبيعة التحركات التي يقوم بها العرب الفلسطينيون في إسرائيل لتحقيق ما وصفها باستراتيجيتهم هذه، من خلال مهاجمة المؤسسة اليهودية من الداخل، بأدواتها الديمقراطية، رافضاً بشدة ما يطرح من شعارات داخل إسرائيل من قبيل أنها دولة لجميع مواطنيها؛ لأنه شعار يخفي فكرة إنشاء دولة ثنائية القومية على أنقاض الدولة اليهودية، وهو من شأنه أن يغير بالتدريج الميزان السكاني بين اليهود والعرب، بحيث يتم رفض قانون العودة الإسرائيلي، وتبني حق العودة الفلسطيني. ويطرح الكتاب جملة من الآراء القاسية بحق عرب الـ٤٨، من قبيل - وفقاً لآراء المؤلف- أنهم يسعون إلى خراب المشروع القومي للشعب اليهودي، مما يشير إلى أن الصراع في حقيقته ليس عرقياً، بل قومياً، لأن الشعبين يتصارعان على البلاد، والعرب يؤكدون أنهم شعب مستقل، ولهذا يرفضون فكرة الأسرلة. ويرى الدكتور شيفطان فإن عداء عرب الـ٤٨ لإسرائيل ليس مقتصراً على القدماء منهم فقط، ممن عاشوا النكبة، أو سمعوا عنها من آبائهم، على العكس من ذلك، فإننا اليوم أمام جيل أكثر شباباً وثقافة، وقد رُبّي على تصور أن مقاومة الدولة اليهودية جزء من هويته، على أمل إعادة البلاد إلى عروبتها. ومع ذلك، يبدي قناعته أنه بالرغم من كل هذه الثقافة العدائية، فإنهم لم يتوجهوا، حتى صدور الكتاب، إلى طريق العنف، كما وصفها، قاصداً العمل المسلح، لأنهم أدركوا أن النضال السياسي الداخلي للدولة اليهودية هو الوسيلة الناجعة الوحيدة التي بقيت في أيديهم، وما يقلق الإسرائيليين أن النخب العربية داخل إسرائيل تلتزم بالصيغة الأكثر تطرفاً لمكافحة الدولة اليهودية.

ويتوقع المؤلف تكرار أحداث هبة القدس والأقصى كما حدث في تشرين الأول (أكتوبر) من العام ٢٠٠٠، ومع ذلك فإن مستوى خطر هذه الظاهرة أقل من مستواه على النسيج الاجتماعي والسياسي والقيمي؛ لأن التحدي الأول ذو طابع عنفي مسلح، ولإسرائيل أدوات لمواجهته بصورة أنجع مما يوجد لديها لمواجهة التحدي القيمي. ويعتبر المؤلف أن أهم إنجاز حققته إسرائيل هو انفصالها عن الفلسطينيين سنة ٢٠٠٥، بانسحابها الأحادي من قطاع غزة، وهو ما أسماه استقلالها عن الفلسطينيين، بالرغم من أن الفلسطينيين يحتاجون للاستقلال عن الإسرائيليين، ولكن من الناحية العملية فإن جدول الأعمال الإسرائيلي واقع تحت ما وصفه بالاحتلال الفلسطيني، وهو من صنع إسرائيل التي فرضته على نفسها حين رهنت جدول أعمالها الوطني بوهم السلام، مما استنفد الجزء الأكبر من الطاقة الوطنية.

ويرى الكاتب أن المشكلة الأساسية لدى إسرائيل لا تتمثل بالقيادات السياسية كياسر عرفات أو حركة حماس، وإنما في الشعب الفلسطيني كله، الذي لا يعتبره شريكاً في

التسوية التاريخية، ولا يعترف في الأصل بالدولة القومية لليهود، ويحمل نظرة معادية للسامية، وهو ما ينطبق أيضا على عرب الـ٤٨؛ الذين يرون أن الزمن يعمل لصالحهم، وربما ما يشجعهم على ذلك رؤيتهم للتصدعات في المجتمع الإسرائيلي.

ويخلص المؤلف في كتابه إلى مطالبة صناع القرار الإسرائيلي بضرورة اتباع استراتيجية الانفصال عن الفلسطينيين، لتقليل الضرر المتوقع، محددا مطلبه بالانفصال عنهم على غرار جدار الفصل العنصري في الضفة الغربية والقدس؛ لأن مسار الانفصال هذا سيصعب من جعل عرب الخط الأخضر وكلاء للنضال الفلسطيني الموجه ضد إسرائيل.

يشار إلى أنه قد سبق للمؤلف أن أصدر جملة من التصريحات العنصرية، وأثارت ردود فعل واسعة داخل إسرائيل، ومنها قوله: إن العرب هم أكبر فشل في تاريخ الجنس البشري، ولا يوجد من هم متخلفون تحت الشمس كالفلسطينيين، وعندما تطلق إسرائيل قمراً صناعياً متطوراً إلى الفضاء، يخرج العرب بنوع جديد من الحمص، على حد تعبيره..

الديمقراطية الحقيقية

كتب الأستاذ: محمد الزرقاني كلمة نشرت في جريدة أخبار اليوم الصادرة بتاريخ: ٢٠١١/٦/١١م يقول فيها:

أهم ما يجب أن يدركه الجميع في هذه المرحلة التي يجب أن تكون فارقة في حياة أمتنا أن ثورة الخامس والعشرين من يناير، هي ثورة الشعب المصري كله، وأنه إذا كان بعض الشباب قد بدأوها بمطالبات الحرية والعدالة الاجتماعية، فإن الشعب المصري كله من أقصى حدود مصر في الجنوب إلى أقصى حدودها في الشمال، هو الذي حول هذه المطالبات إلى ثورة شاملة، ثورة فرضت إرادتها على نظام الحكم الفاسد والمستبد.. وهذا يعني أن الثورة لم تعط توكيلا لأحد أو لطائفة أو ائتلاف أو حتى نخبة، لكي يتحدث باسمها، وإذا كان رفض مبدأ التوريث الذي أراد الرئيس السابق حسني مبارك أن يفرض خلاله ابنه على مصر كان أحد أسباب اشتعال الثورة، فإن هذا يعني بكل تأكيد، أن الشعب يرفض أيضا أن يوجد من بينه من يسعى لكي يرث الثورة، ومن ثم أن يمتلك مصر كلها من خلال هذا الميراث، وأن يفرض إرادته وتسلطه على الشعب، ودون أن يكون للشعب وإرادته أي معنى.

إن غياب الديمقراطية الحقة، والضحك على الشعب الذي استمر طوال العقود الماضية، لإقناعه بديمقراطية شكلية مزيفة، لم تكن موجودة إلا عبر أقلام بعض الكتاب، كان أيضا من أهم أسباب قيام الثورة.. ومن ثم فإن الشعب لن يرضى بعد ذلك إلا بديمقراطية حقيقية ولن يرضى أن يعيش في ظل ديمقراطية مزيفة يحاول أن يقنعه بها كتاب آخرون!

ثقافة الاختلاف

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ الشربيني مقاله المنشور بجريدة المساء الصادرة بتاريخ: ٢٠١١/٦/٦م يقول فيه:

نشأت أغلبية مجتمعاتنا العربية على ثقافة يسود فيها الاختلاف، الاختلاف بمعنى مخالفة كل ما يعارض أفكارنا وتفكيرنا وميولاتنا. ويرجع سبب ثقافة الخلاف التي تعاني منها كشعوب عربية إلى الأنظمة القبلية التي سادت ولاتزال سائدة في بعض الدول العربية بالإضافة إلى الزعامة السياسية الأحادية والمهيمنة والديكتاتورية التي حكمت ولاتزال معظمها يحكم دولنا العربية.. الشيء الذي جعل معظمنا يتبنى ثقافة الخلاف ويرفض الاختلاف شكلا ومضمونا.

وتعد ثقافة الاختلاف في الرأي من أهم الثقافات الغائبة عن مجتمعنا وحتى وإن توحد الهدف، فعندما تصادر الآراء والسبب هو اختلافها فهذا من أكبر المصائب التي ابتلينا بها.

لم نعد نرى من الألوان سوى الأبيض والأسود، ومن الحرية سوى معارضة أي شيء وكل شيء، ومن الحوار سوى الصراخ.. قد يكون ذلك وضعا طبيعيا بعد سنوات طويلة من الديكتاتورية، كان النظام هو أول من يتجاهل ثقافة الاختلاف ويتعامل مع معارضيه بالقهر والعنف لكننا بحاجة إلى تغيير هذا الوضع الآن والتفاعل مع المتغيرات الجديدة، والمساهمة في بناء مصر الديمقراطية والبداية الحقيقية يجب أن تكون من القوى الفاعلة المستنيرة على الساحة السياسية والفكرية، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار لتتخلص جميعاً من ثقافة الاقصاء وتتبنى ثقافة الاختلاف، وبث ذلك في السلوكيات والحوارات العامة والتجمعات والتظاهرات ووسائل الإعلام.. والمرحلة التالية ينبغي أن تكون من خلال مناهج التعليم في المدارس والجامعات، ووفقا لخطة علمية محددة تصنع أجيالا جديدة تربت على الحوار وحق الخلاف في الرأي والموقف دون اتهام أو تخوين، وبغير ذلك لن تستمر الثورة.. أرجو من الجميع التريث والتفكير الجدي بمعطيات الأمور وتحليلها بشكل صحيح، ولكن قبل ذلك يجب علينا أن نثق ونحسن الظن في من حولنا وإن اختلفنا معهم في الرأي والطريقة ولكن نتفق معهم في الهدف المنشود ونشد على أيدي الشباب ونحافظ عليهم وعلى طاقاتهم قبل أن نفقدهم في لحظة تفكير وقرارات عاجلة.

شباب العودة.. جريمة إسرائيل وتواطؤ أمريكي

تحت هذا العنوان كتب محرر «الجمهورية تقول» كلمته الصادرة بتاريخ: ٢٠١١/٦/٧م يقول فيها:

لزم المجتمع الدولي ومنظماته السياسية والحقوقية والإنسانية الصمت إزاء الجريمة الإسرائيلية البشعة ضد الشباب الفلسطيني والسوري الذي عبر في يوم نكسة ٥ يونيو عن تمسكه بتحرير أرضه في هضبة الجولان السورية المحتلة.. إذ أطلقت قوات الاحتلال والعدوان الرصاص على هؤلاء الشباب العزل فسقط منهم مئات القتلى والجرحى الذين لم تحرك دماؤهم الطاهرة الضمير العالمي حتى يحاسب القتلة الإسرائيليين على جرائمهم.

خرقت وزارة الخارجية الأمريكية جدار الصمت عندما عبرت في بيانها عن مجرد قلقها البالغ إزاء ما وصفته بأحداث الجولان دون الالتفات إلى أنها جريمة قتل بالسلاح ضد متظاهرين عزل، بل أضافت ذلك التبرير الأمريكي المعهود لكل جرائم إسرائيل وهو أنها تمارس حق الدفاع عن النفس، في تجاهل أمريكي متعمد لحق الفلسطينيين والسوريين واللبنانيين المحتلة أراضيهم في التعبير عن تمسكهم بتحرير الأرض ودحر الاحتلال، وهكذا يكون المنظور الأمريكي لحقوق الشعوب

في الحرية والديمقراطية، إذا مست بسوء الخليفة الاستراتيجية إسرائيل.

تركيا تصوت للإنجازات لا للشعارات

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ/ محمد عيادي مقاله المنشور بجريدة «العرب» القطرية الصادرة بتاريخ: ١٤/٦/٢٠١١م يقول فيه:

الديمقراطية التركية أصبحت قوة لا تزعزع الآن، هكذا قال رجب طيب أردوغان زعيم حزب العدالة والتنمية في خطاب النصر بتحقيق فوز كبير بولاية حكومية ثالثة، والحصول على نسبة من الأصوات لها دلالتها (٥٠٪)، باكتسابه ثقة أصوات ٥ ملايين تركي.

ولم تكن هذه النتيجة حصيلة خطابات ولا شعارات أيديولوجية، ولا عمل موسمي في أيام الانتخابات كما يحصل في غالب الدول العربية، بل هو نتاج مسار طويل من العمل انبنى على خمس ركائز رئيسية:

الأولى: القناعة الراسخة بأن الديمقراطية وصناديق الاقتراع وحدها الكفيلة بتحقيق التغيير.

الثانية: ممارسة العمل السياسي بما هو عمل شعبي ميداني وليس عملا نخبويا، والانفتاح على مختلف شرائح المجتمع وطبقاته والتغلغل داخلها والإنصات لنبضها، مستفيداً في ذلك من تجربة تسيير الشأن المحلي، وكسب خبرة تدبير الشأن العام. وقد امتحنت قيادات حزب العدالة والتنمية من قبل توليها الشأن الحكومي قدراتها على الوفاء بحاجات الناس ووعودهم، وهو ما نجحوا فيه إلى أبعد الحدود.

الثالثة: أن الحزب نجح في الولايتين الحكوميتين السابقتين في الاستجابة لانتظارات الأتراك وعلى رأسها تحسين الوضع الاجتماعي والاقتصادي، وتحقيق المكانة المحترمة والقوية والمستقلة لتركيا في خريطة العلاقات الدولية، ومواقفه القوية في عدد من الأحداث الدولية، وهو ما يعني أن الشعب التركي صوت للإنجازات وليس للشعارات كما كان يحصل قبل عشر سنوات.

الرابعة: أن حزب العدالة والتنمية لم يجعل من مرجعيته الإسلامية سياجاً يحول بينه وبين الناس، ولم يجعل القبول بها أساساً للتعامل مع الأفراد والهيئات كما هو الحال لبعض الحركات والجماعات الإسلامية في العالم العربي، بقدر ما جعلها إطاراً عاماً لفلسفته للعمل السياسي والأسلوب التغييري.

الخامسة: امتلاك الحزب لرؤية استراتيجية واضحة المعالم يشتغل وفقها على المستوى الداخلي والخارجي تطرق لها كتاب وزير الخارجية التركي أحمد داود أوغلو «العمق الاستراتيجي».

ثم يقول الكاتب في نهاية المقال:

باختصار لقد تجنب رجب طيب أردوغان الخطاب الحزبي الضيق، وأبقى الباب مفتوحاً للتعامل مع منافسيه ومعارضيه في بلد استطاع أن يصل بالعملية الديمقراطية إلى مرحلة نضج كبير جداً (أغلبية واضحة، وعدد أحزاب أقل بالبرلمان بعد اشتراط حصول الأحزاب على نسبة الـ ١٠٪ من الأصوات للتمثيل بالبرلمان)، حري بها أن تكون نموذجاً يحتذى في العالم العربي، مع مراعاة اختلاف السياقات السياسية والتاريخية والاجتماعية.

بين المجلة والقارئ

إعداد وتقديم

أحمد السيد تقي الدين

تغيير النفس.. أول مقومات نجاح الثورة

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ: إبراهيم مسلم النجار- مدير عام تنظيم وإدارة (سابقا) - سنتهور - قليوبية:

إن بناء مجتمعنا الذى قمنا من أجله بثورة ٢٥ يناير.. يجب أن يقوم على أسس جديدة بعيدة عن الفساد والتدليس وأن تعبد الطريق بالمزيد من العمل والجد والاجتهاد والتضحيات أيا كانت هى ويوجهنا إلى ذلك قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ (الرعد ١١)

أما عن الدعوة إلى العمل والتغيير والتطوير فيقول رب العزة:

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (التوبة ١٠٥)

والثورة هى مفتاح التغيير فى كل مناحى الحياة فقد أنهينا مرحلة سوداء تجرعنا فيها كئوس الفساد والتخلف لنبدأ مرحلة جديدة تنشد فيها العدالة والحرية والكرامة.. ولكى تنجح الثورة فإن كل فرد منا يحتاج إلى ثورة مع نفسه لتزكيها سمات وصفات وفضائل تؤهله لأن يكون عضواً فاعلاً فى صفوف الثوار لإعادة بناء المجتمع وتطويره بل وتطهيره من كل بوائق الفساد والتكاسل والإهمال وانعدام الضمير.

وإعادة البناء لإقامة مجتمع سليم يحقق لنفسه مستقبلاً مشرقاً يستلزم أن يكون الخطوة التالية لثورتنا هى محاربة الخارجين على القانون للانطلاق جادين والالتزام بحدود الإسلام فى كل العبادات والمعاملات لأننا نستمد منها ثبات عقيدتنا وتأكيد وقفتنا مع النفس لإعادة بنائها بما يتناسب مع تحديات المرحلة الجديدة فى حياتنا ليعمل

كلٌ منا على تقويم وتعديل أى خلل أو نقص يعتريه فيلتزم بما شرعه الله سبحانه فى كتابه الكريم وما أمرنا به معلم البشرية الأول سيدنا محمد ﷺ.

والنهج التربوى فى ديننا يعمل على إخضاع الإنسان إلى عملية تحول داخلى وخارجى كامل بتغيير النفس للتخلص من الصفات السلبية وتحويلها إلى سلوكيات نورانية وإيجابية اقتداء بدعاء الحبيب -صلى الله عليه وسلم- «اللهم احفظنى بالإسلام قائماً واحفظنى بالإسلام قاعدا واحفظنى بالإسلام راقداً ولا تشمت بى عدواً ولا حاسداً. اللهم إنى أسألك من كل خير خزائنة بيدك وأعوذ بك من كل شر خزائنه بيدك».

(أخرجه الحاكم والذهبى)

والتغيير الذاتى مطلوب فورياً للتخلص مما نعانيه من شرور النفس التى جعلتنا نركز على الإلحاح بالوقفات الاحتجاجية وتعطيل دولاب العمل والإنتاج بينما الواجب أن تبذل الجهد ولا تضيع الوقت وأن تصبر على التخلص من طغيان ثلاثين عاماً عانيناها حتى يتحقق التغيير الصحيح الذى أمرنا به المولى سبحانه وتعالى.

الأديب على أحمد باكثير

وتحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ محمد عباس محمد عرابى

تمر هذا العام المئوية الأولى لمولد الأديب الكبير على أحمد باكثير (١٩١٠ - ١٩٦٩) والذى يعد من رواد الأدباء فى العصر الحديث وذلك لغزارة إنتاجه وتنوعه ولريادته الفنية فى الفنون الأدبية الأساسية: الشعر والرواية والمسرحية ترك باكثير أربعة دواوين شعرية جمعها وحققها مؤرخ سيرته والأمين على تراثه الإعلامى الكبير والأستاذ بجامعة الإمام بالرياض الدكتور محمد أبوبكر حميد وهى: «أزهار الربا فى شعر الصبا، وديوان سحر عدن وفخر اليمن»، «وديوان صبا نجد وأنفاس الحجاز»، وديوان (وحى ضفاف النيل).

وله ست مسرحيات: وا إسلاماه، سلامة القس، ليلة النصر، الثائر الأحمر، سيرة شجاع، الفارس الجميل، وله ثنتا وستون مسرحية طويلة ومائة وثنتا وثمانون مسرحية قصيرة كلها منشورة إلا القليل مخطوط لدى الدكتور حميد

ولد على أحمد باكثير فى اندونيسيا فى عام ١٩١٠م لأسرة من حضرموت وتنقل فى الجزيرة العربية وزار الصومال والحبشة (إثيوبيا) قبل أن يحط رحاله فى مصر فى عام ١٩٣٤م لدراسة اللغة الإنجليزية فى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول واستقر فى مصر (حصل على الجنسية المصرية عام ١٩٥١م) وعين مدرساً للغة الإنجليزية فى المدارس الثانوية، ومنها مدرسة الرشاد بالمنصورة، ثم انتقل للعمل بمصلحة الفنون مستشاراً للمدير العام لشئون المسرح، وعرضت عليه رئاسة تحرير مجلة العربى عند صدورها كما عرض عليه العمل بالتدريس بجامعات لندن بانجلترا.

كتب باكثير أعماله الأدبية المنطلقة من التصور الإسلامى قبل ظهور مصطلح «الأدب الإسلامى» -بثلاثين سنة على الأقل- على الساحة الأدبية فى العالمين العربى والإسلامى. ذلك لأن النظريات النقدية والاتجاهات الفنية والفكرية فى الأدب تأخذ مسمياتها بعد ظهور الأعمال الإبداعية التى تقوم على أساسها تلك النظريات والاتجاهات، وربط منذ باكر حياته الأدبية - فى رؤية ناضجة - بين العروبة والإسلام، إذ رأى أن إسلامية الأدب العربى ليست فى الموضوع الذى يتناوله الأديب بقدر ما هو فى الفكرة التى يوحى بها مضمون العمل الفنى. وما ينطبق على الأديب بالموضوع ينطبق على اللغة التى يكتب بها فهو يرى أن كتابة الأديب باللغة العربية لا يعبر بالضرورة عن انتمائه العربى أو الإسلامى إلا إذا انعكس هذا الانتماء - من خلال اللغة - على مضمون العمل الفنى وتصوره للعروبة والإسلام حتى ولو كتب بلغة غير عربية.

الأدب موهبة وليس وظيفة

وتحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ: عبدالعال محمد عبدالعال فرو - مدير عام بالتربية والتعليم (بالمعاش).

الأدب موهبة يوجهها صاحبها ويوظفها حسب شخصيته وتكوينه العقلى والنفسانى فقد يوجهها للخير فيتناول الموضوعات التى تخدم الإنسان فى دينه ووطنيته وسلوكه بما يعود عليه وعلى أمته بالخير والرخاء وقد يوجهها للشر ويستثمرها استثمارا سيئا والعياذ بالله لخدمة أغراضه الدنيئة الهدامة التى تسيء لشخصه ولدينه ولوطنه فيتناول، المواضيع السلبية والأشياء الهدامة ويلفت النظر ويوجهه نحو السلبيات والموبقات بما يعود عليه وعلينا جميعا بالشر والوبال ولم يكن الأدب فى يوم من الأيام وظيفة يقوم بها موظف جامد الشعور صاحب قلم متحجر لا يعرف كيف يؤدى رسالته على أكمل وجه، لأن أداة الأدب الأساسية ومقوماته الأصيلة وهى الموهبة غير متواجدة فى حياته، وللأسف نرى فى هذه الأيام موظفين فى الإعلام يديرونه حسب هواهم ويرون أن الكمال لهم وحدهم دون غيرهم مما يصيبهم بالغرور ويدفعهم لوضع الحجاب والحراس على أبوابهم ويبذرون أموال الدولة فى الإنفاق على الماتعين والحجاب ليمنعوا أصحاب الرأى

والراغبين فى المساهمة لرفع شأن وطنهم من الوصول إلى هؤلاء الموظفين . لقد أصبح طلب الحج أو العمرة أيسر من طلب لقاء مسئول فى الصحافة أو الإعلام مرئيا أو مسموعا لمناقشته فى أمر يراه مساعدا فى نهضة الوطن ومنقذا له من محنته وللأسف هم يديرون هذه المصالح حسب أهوائهم الشخصية فيقبلون الغث ويرفضون الثمين فى بعض الأحيان غير مراعين رسالة الأدب السامية فى تنمية النشئ وتربية وجدانهم على الحب والتسامح وقبول الآخر لقد استطاع النظام السابق أن يجعل من الإعلام سوطا يلهب به ظهور المصريين بما يشيعه من تضليل للرأى العام وتهليل للنظام وتسبيح بحمده وإنفاق للملايين المنهوبة من الشعب وإهدارها فى الدعاية لإنجازات النظام وانتخاباته بينما توارى أصحاب الموهبة الحقيقية الذين يسعون لخير أمتهم وشعوبهم خلف هؤلاء الموظفين الذين اشتغلوا بحرفة الإعلام والذين لا يجيدون إلا غلق الأبواب والجلوس من خلفها فى حراسة الحجاب ولمنع كل المؤهلين لخدمة أوطانهم من الاقتراب منها مما أثر على الشباب والقراء بالسلب فلم يجدوا من يرشدهم وينمى فيهم قيم المواطنة ويعلى عندهم قيم الحق بالخير والجمال والوطنية فأين أغانينا اليوم من وطنى حبيبى - مصر التى فى خاطرى - وقف الخلق - طوف وشوف - دقت ساعة العمل إلى آخر هذه القمم التى ألهمت حماس الشعب فحقق نصره العظيم فى السادس من أكتوبر والتى رددها شبابنا فى الخامس والعشرين من يناير !!

إن للإعلام دورا بارزا يجب أن يقوم به فى ظل هذه الظروف القاسية كى يهذب مشاعر الناس ويحييهم فى وطنهم ويمجد من تاريخه ويحثهم على الوحدة وقبول الآخر فلنفتح أبواب الإعلام للراغبين فى نهضة أوطانهم بفكرهم وأدبهم وشعرهم وعقائدهم ليساعدوا فى نهضة أمتهم ولتعود مصر الحبيبة إلى مكانتها فى القيادة والريادة والله الموفق.

***

أنباء مكتب الإمام الأكبر

للأستاذ / محمد عبد المجيد حسن
مدير عام العلاقات العامة بمكتب الإمام الأكبر

بيان من الأزهر الشريف



الأزهر الشريف وقد أحيط كثيراً مما يحدث فى ليبيا من إراقة الدم الليبى الزكى ومن تقسيم لوحدة الأراضى الليبية يستصرخ علماء الشعب الليبى من الطرفين المتنازعين ويدعوهم كممثلين للشعب الليبى الشقيق إلى الجلوس على مائدة الأزهر الشريف للوصول إلى حلول سلمية عادلة وحاسمة تؤدى إلى الوقف الفورى للقتال بين الإخوة وتكوين مجلس حكماء من العلماء والمفكرين الليبيين لوضع الحلول المثلى التى تكفل الانتقال بالشعب الليبى إلى الوضع الذى يمكنه من اختيار من يحكمه بمحض إرادته الحرة .. وفى حالة الاستجابة التى يرجوها الأزهر الشريف فإنه يدعو جامعة الدول العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامى إلى المشاركة فى هذا اللقاء المأمول للمساعدة فى تقديم الحل التاريخى لإنهاء الأزمة وإنقاذ الشعب الليبى الشقيق.

ومن جانبه صرح السفير محمود عبدالجواد المستشار الدبلوماسى لشيخ الأزهر أن البيان صدر عن فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد محمد الطيب شيخ الأزهر بعد استقباله وفداً من علماء المسلمين فى ليبيا الشقيقة مكون من السيد/ على أحمد أبو سوة والسيد عبدالسلام جمعة زقوط والسيد/ أبو النور بشير محمد.

إطلاق أكبر مشروع للحفاظ على تاريخ الأزهر العلمي والحضاري

وقع فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر والدكتور ماجد عثمان وزير الاتصالات بروتوكولا للتعاون بين الأزهر الشريف ووزارة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات لتنفيذ مشروع «ذاكرة الأزهر الشريف»، ويقوم على تنفيذ هذا البرتوكول كل من مركز توثيق التراث الحضاري والطبيعي تحت مظلة وزارة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات ومكتبة الأزهر الشريف.



وصرح فضيلة الإمام الأكبر أن توقيع هذا البروتوكول يأتي في إطار الجهود التي يبذلها الأزهر الشريف للحفاظ على تراثه الحضاري والعلمي عبر تاريخه وللتعريف بدور الأزهر الشريف الذي يمتد لأكثر من ألف عام حيث يشمل المشروع عدة محاور أهمها توثيق تاريخ الأزهر من خلال مواقفه سواء الداخلية أو الخارجية وتوثيق السير الذاتية لشيوخ الأزهر ومؤلفاتهم وإنجازاتهم عبر السنين وتوثيق الطرز المعمارية للجامع الأزهر والمعاهد الدينية القديمة بالإضافة إلى توثيق الذاكرة الصحفية لكل ما نشر عن الأزهر وتنفيذ متحف تخيلي وتصميم وإنشاء بانوراما التراث.

وقال فضيلة الإمام الأكبر إن الأزهر صرح عريق وحينما يوقع اليوم على توثيق ذاكرة الأزهر الشريف فإننا نحفظ ذاكرة العالم الإسلامي فتاريخه له أكثر من ألف عام ويمثل الحارس الأمين على وسطية الإسلام وحضارته ووقف بالمرصاد لكل من يحاول العبث بها من بعيد أو من قريب.

وأضاف أن الغرب يعرف الأزهر بأنه أقدم جامعة في العالم، وهو المعهد الوحيد الذي بدأت فيه الدراسة واستمرت فترة طويلة بغير انقطاع وكل الجامعات الأخرى والمراكز البحثية التي صدرت منذ ألف عام انتهت وزالت، ولكن الأزهر مازال زاخراً بالبحث والعلم منذ ألف عام ويدرس به الآن أكثر من ١٦ ألف وافد ووافدة من أكثر من ١٠٠ دولة في الجامعة، وهناك أكثر من ٣٠ ألف وافد ووافدة، وبه رابطة عالمية تضم خريجين في كل أنحاء العالم وقد أعلنت واشتهرت ووقفت

على قدميها منذ خمسة أعوام، وهي تضم من خريجي الأزهر في العالم كله ٤٠ ألف خريج في مختلف الدول.

وأشار إلى أن الأزهر يعد قوة ضاربة وناعمة في الوقت نفسه، وتأثيره دائما يكون خارج مصر كما أن قدره أكبر في الخارج أكثر مما هو في مصر، وهذا ما يؤلمني جدا لكن أذكر قول «لا كرامة لنبي في قومه»، وشدد على أن الأزهر حين يحيا داخل مصر تحيا معه مصر، وأي إضافة للأزهر تصب على الفور في مصلحة مصر عالميا، فدور الأزهر وتاريخه يعلم قدره كثيرون في العالم، ومصر ستظهر بالأزهر فإذا أردنا إحياء مصر فلابد من إحياء الأزهر ومشروع التوثيق هو مشروع يمثل إنقاذا للأزهر وتاريخه ومكتسباته، وبه سنحمي الفكر الوسطي.

وأضاف فضيلة الإمام الأكبر أن الأزهر الشريف هو الأمين على الدين الإسلامي، وهو رمز للفكر والعلم. لذلك حرص كل من الأزهر الشريف ووزارة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات على التوثيق الرقمي لذاكرة الأزهر وما شهده من الأحداث المختلفة على مر العصور، ونشرها من خلال إطلاق بوابة رقمية على شبكة الإنترنت لتعريف المهتمين والباحثين في أنحاء العالم بتاريخ الأزهر الشريف ومكانته كخطوة في سبيل الربط بين ماضي الأزهر وحاضره ومستقبله والتعريف بذاكرة الأزهر الشريف من خلال أبنائه.

كما أضاف فضيلته أن من أهم الأهداف التي يطمح هذا المشروع القومي لتحقيقها هو استدعاء عظمة الأزهر الشريف إلى ذهن المسلمين والعالم أجمع ودوره في نشر الوسطية، واحتواء الخلافات بين المذاهب الإسلامية، والحفاظ على الهوية الإسلامية في مختلف بقاع العالم وعلى مر العصور.

وصرح الدكتور ماجد عثمان وزير الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات بأن التطورات المتسارعة في مجال تكنولوجيا المعلومات ساهمت في تقديم مفاهيم جديدة للتوثيق الرقمي. وقد رأى الأزهر الشريف بالتعاون مع وزارة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات أن يتم الاستفادة بهذه التطورات في توثيق ذاكرة الأزهر الشريف والتي تتمثل في المعالم الرئيسية لتاريخ الأزهر الشريف ومشايخه وعلمائه على مر العصور، ويقدم بنكا للمعلومات الموثقة، تكون نواة للبناء عليها فيما بعد، وتقديمها في أفضل صورة ممكنة باستخدام أفضل التقنيات الرقمية المتاحة، ونشرها على شبكة الإنترنت.

وقال الدكتور فتحي صالح مدير مركز توثيق التراث الحضاري والطبيعي: إن من أهم أهداف المشروع إعداد قواعد بيانات لذاكرة الأزهر الشريف، ونشر ما تم تجميعه ليصبح مصدراً موثقا للمعلومات عن تاريخ الأزهر على الإنترنت، للشباب والناشئة والجمهور العام فضلا عن الباحثين، والمساهمة في زيادة قيمة المحتوى العربي على شبكة الإنترنت، وتوفير فرص العمل لشباب الخريجين.. كما أضاف أن من أهم التحديات التي تواجه المشروع استكشاف وتحديد

والمسيحيين المصريين وأن اجتماعات هذا البيت تعقد برئاسة شيخ الأزهر لمدة أسبوعين ثم برئاسة البابا شنودة الأسبوعين التاليين وأن اجتماعات بيت العائلة تعقد مرة فى الأزهر الشريف ومرة فى الكاتدرائية المسيحية فى القاهرة.

وأوضح فضيلته بأن بيت العائلة المصرى هو أمل كبير فى توطيد المحبة بين أبناء الوطن الواحد وتجاوز الأحداث التى تنشأ بسبب مشكلات اجتماعية بسيطة ثم تستخدم دينيا.

وقال فضيلته بأنه فى ظل الحرية سينشأ جيل جديد مصرى عظيم سيبهر العالم، وأن مصر لم تخلق إلا لتكون فى المقدمة، وهذا هو أملنا الكبير الذى سيتحقق بإذن الله، صرح بذلك السفير محمود عبد الجواد المستشار الدبلوماسى لشيخ الأزهر.

تخصيص منح دراسية لتركيا

بحث فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب - شيخ الأزهر - وتوران سفر - مبعوث رئيس الوزراء التركى - رجب طيب أردوغان - والسفير التركى بالقاهرة حسين بتصالى التبادل الثقافى فى مجال اللغة العربية والتركية بين جامعة الأزهر والجامعات التركية.

وصرح السفير محمود عبد الجواد المستشار الدبلوماسى للإمام الأكبر أن الجامعات التركية قامت بالاعتراف بالشهادات الأزهرية فى تركيا، مما يسهل التعاون فى مجال المبعوثين الأتراك إلى الأزهر.

وفى ختام اللقاء وعد فضيلة الإمام الأكبر المبعوث التركى بتخصيص منح دراسية للطلاب الأتراك للدراسة بالأزهر.

اتفاق بين الأزهر ووفد الكنائس العالمى على مواجهة التطرف بنشر الوسطية والاعتدال

أشاد وفد مجلس الكنائس العالمى بمبادرة بيت العائلة التى طرحها الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر، وتنفيذها على أرض الواقع بالتعاون بين الأزهر والكنائس المصرية لدعم الوحدة الوطنية ومواجهة الفتنة الطائفية والقضاء على التطرف الدينى.

وصرح السفير محمود عبد الجواد المستشار الدبلوماسى لشيخ الأزهر عقب لقاء الوفد بشيخ الأزهر أنه تم استعراض الأحداث التى تقع فى مصر حالياً وواقع مصر بعد ثورة ٢٥ يناير، ومناقشة سبل مواجهة التطرف الدينى.

وأكد د. الطيب خلال اللقاء أن الوسيلة المثلى لمواجهة أى نوع من التطرف الدينى والقضاء عليه هو الحوار، مستشهدا بالحوار الذى يعقده الأزهر مع المثقفين من المسلمين والمسيحيين بمقر مشيخة الأزهر.

واتفق الجانبان خلال اللقاء على ضرورة التركيز على نشر الوسطية والاعتدال الدينى ونبذ التعصب والتشدد بمختلف أشكاله وأطيافه.

الإمام الأكبر يستقبل وفداً من أقباط المهجر

أكد فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد محمد الطيب - شيخ الأزهر - أن ما تشهده مصر من حوادث فتنة طائفية لا تمت إلى الدين بصلة وأن إلباس تلك الحوادث لباسا طائفيا يتم من قبل أشخاص لهم عقول ونفوس مريضة.



وأوضح فضيلة الإمام الأكبر خلال استقباله وفداً من أقباط المهجر أن الغرب خرج من الشرق بعد أن استغل خيراته وتركه محطماً وأن الحضارة الغربية شوهاء وفارغة من الناحية الروحية.

وأضاف أن الغرب ينعم بالديمقراطية ولكننا نحن فى الشرق يمنعوننا من الديمقراطية الحقيقية وذكر الإمام باستعراض الخارطة العالمية بقوله بإننا نجد السلاح الغربى لا يستعمل إلا فى المناطق العربية والإسلامية.

وانتقد فضيلته أداء القنوات الفضائية المغرضة التى تبث الانحطاط الفكرى من خلال برامج بعيدة كل البعد عن منهج الرسالات السماوية والأخلاق الإنسانية.

ومن جانبه أعلن الوفد عن سعادته بمبادرة بيت العائلة التى أطلقها فضيلة الإمام الأكبر والتى ساهمت فى الفترة الأخيرة فى رأب صدع الفتنة الطائفية.

إشادة جزائرية بدور الأزهر فى نشر وسطية الإسلام

استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر، السفير المصرى بالجزائر - عز الدين فهمى - حيث قرر الإمام الأكبر زيادة المنح الدراسية للطلاب الجزائريين الراغبين فى الالتحاق بالمعاهد و الجامعة الأزهرية ودعم العلاقات المصرية الجزائرية فى مجال البعثات الأزهرية و التعليم.

ومن جانبه أوضح السفير عز الدين أن زيارته لمشيخة الأزهر تأتى فى إطار التنسيق بين الأزهر

مصادر تراث الأزهر الشريف وعناصره الموجودة لدى جهات مختلفة وأفراد شتى. (مثال ذلك التراث الأزهرى الموجود فى مكتبات ومجموعات خاصة بالأفراد).. ولمواجهة هذا التحدى سوف يتم الاستعانة بالمتخصصين من خبراء الأزهر الشريف لإعداد الدراسات اللازمة لاكتشاف المصادر المختلفة لذاكرة الأزهر والأسلوب الأمثل للحصول عليها.

وصرح مهدى شلتوت رئيس الإدارة المركزية لمكتبة الأزهر الشريف بأن الاهتمام بحفظ وتوثيق التراث من أهم أولويات العمل بمكتبة الأزهر التى كانت لها المبادرة بالاتصال بمركز توثيق التراث الطبيعى والحضارى لدراسة الأسلوب الأمثل لتنفيذ مشروع ذاكرة الأزهر الشريف والتى استغرقت الدراسة فيه أكثر من عام ونصف العام.

وأضاف رئيس الإدارة المركزية لمكتبة الأزهر أن من أهم مخرجات هذا المشروع بوابة رقمية على شبكة الإنترنت تعرف الباحثين فى جميع أنحاء العالم بتاريخ الأزهر الشريف ومكاناته وهو ما يمثل خطوة فى سبيل الربط بين ماضى الأزهر وحاضره ومستقبله، بالإضافة إلى خلق كوادر مدربة فى الأزهر على استخدام أحدث وسائل تكنولوجيا المعلومات وقواعد بيانات لكل محاور توثيق تراث الأزهر الشريف، وأن عملية التوثيق هذه ستكون عملية مستمرة حتى بعد تسليم المشروع.

ومن المنتظر أن يتم نشر مخرجات المشروع من بوابة إلكترونية ومطبوعات وغيرها خلال الفترة المقدرة لتنفيذ المشروع وهى عامين من بدء التوقيع وسيتحمل الأزهر الشريف ووزارة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات التكلفة الإجمالية لتنفيذ المشروع كل فى حدود اختصاصاته ومهامه التى تم الاتفاق عليها مسبقا بين الأزهر والوزارة.

الإمام الأكبر يستقبل السيد/ سيرجو رومانو

استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد محمد الطيب شيخ الأزهر يوم الأربعاء الموافق ١ يونية ٢٠١١م السيد/ سيرجو رومانو أهم الكتاب والمؤرخين الإيطاليين بجريدة كوريرى ديرا سيرا الواسعة الانتشار وأنه جاء إلى الأزهر ليستطلع رأى الإمام الأكبر فى كثير من القضايا التى تهم مصر والعالم الإسلامى وبعض المشكلات التى تثار حول الإسلام والمسلمين.

وقدم الإمام الأكبر له عرضاً وافياً عن الأوضاع فى مصر فى الوقت الراهن وخاصة الثورة التى اعتبرها فضيلته مفاجأة حيث كانت ثورة الشعب بأكمله ومن مميزات هذه الثورة أنها لا تمثل طيفاً واحداً من المصريين بل جمعت كل أطياف الشعب المصرى بمكوناته الدينية والسياسية

واعتبر فضيلته بأن الوضع السياسى قبل الثورة كان العامل الأساسى لثورة الشباب.. وبالنسبة لموقف العالم من الثورة قال فضيلته إن أمريكا لم تعد لديها البوصلة الحقيقية لتقييم الأحداث فى الشرق الأوسط.

كما قدم الإمام الأكبر شرحاً وافياً عن دور بيت العائلة المصرى الذى يجمع بين المسلمين

الشريف ووزارة الخارجية لإحياء الدور العالمى للأزهر معرباً عن أمله أن تشهد العلاقات المصرية الجزائرية تطورا فى مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية خلال المرحلة المقبلة.

وقال إن الجزائر تشيد بدور الأزهر فى المرحلة الراهنة لنشر وسطية الإسلام والبعد عن التطرف الدينى، مؤكداً أنه تم التباحث مع الجانب الجزائرى لإقامة علاقات اقتصادية تستفيد منها الشقيقتان.

امتحانات الشهادات الأزهرية

أشاد فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر بحالة الانضباط والجدية التى تسود امتحانات الشهادات الأزهرية؛ من القائمين على أعمال الامتحانات: المراقبين ورؤساء اللجان.. وأكد حرصه على ضمان حصول الطلاب على حقهم كاملاً وتوفير المناخ الملائم لهم ومتابعة الشكاوى الخاصة بهم وحلها على الفور.



وصرح محمود صبيحة مدير عام أمن الأزهر أن الإمام الأكبر أصدر تعليماته لجميع المناطق بإرسال تقرير يومى عن أعمال الامتحانات يتضمن ما قامت به المنطقة على مدار اليوم وهل هناك مشكلات أم لا.. وقال إن الإمام الأكبر تلقى اتصالاً هاتفياً من منطقة الأقصر تطلب فيه زيادة تأمين اللجان فقام على الفور بالاتصال بمحافظ الأقصر اللواء خالد فودة للتأمين والتنسيق مع الجهات المسئولة.

وأضاف مدير عام الأمن أن اللجنة العليا التى شكلها الإمام الأكبر لمتابعة الامتحانات قد تلقت عدداً من الشكاوى من أولياء الأمور حول وجود بعض المخالفات فى بعض اللجان حيث تلقت اللجنة اتصالاً تليفونياً من أحد أولياء الأمور بمعهد برج النور الحمص ـ مركز أجا بالمنصورة ـ بوجود تسيب فى اللجان.

فقام فضيلة الإمام الأكبر بتكليف مدير أمن الأزهر بعمل لجنة فورية لزيارة المعهد برئاسة

الشيخ عبد الخالق محمود مدير عام التعليم النموذجي بالقطاع والذى توجه للجنة الساعة السابعة صباحاً فوجد مخالفات مندوب الأمن وعمال الحراسة وتم العرض على الإمام فأمر بإلغاء مكافأة الامتحانات لهم والتحقيق معهم.

كما تلقت اللجنة اتصالاً هاتفياً من الطلاب عبر سماعهم إشاعات تقول بتغيير نظام أسئلة اللغة الإنجليزية هذا العام وبعرض الأمر على مستشار اللغة بالقطاع أفاد بعدم صحة ذلك.

كما قال مدير عام الأزهر إن اللجنة استقبلت شكاوى بوجود حالات تسيب وغش بلجنة فاقوس بالشرقية وقيام مدرسين غير منتدبين لأعمال الامتحانات بحل الأسئلة وإبلاغها للطلاب بطرق مختلفة فتم تشكيل لجنة من المنطقة للتأكد من ذلك وحصلت إدارة الأمن على نماذج من الإجابات التي أعدها المدرسون فقرر الإمام الأكبر إحالة المدرسين وعددهم (٨) إلى النيابة الإدارية تمهيداً لإحالتهم للمحاكمة التأديبية.

الإمام الأكبر يستقبل السفير البريطاني

بحث فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد محمد الطيب - شيخ الأزهر الشريف - والسفير البريطاني الجديد بالقاهرة جيمس وات سبل التعاون بين الأزهر الشريف وبريطانيا في مجال البعثات التعليمية.



وقال الإمام الأكبر إن الأزهر الشريف قاد عملية الانفتاح الفكرى والثقافى مع جميع التيارات السياسية والدينية وقام بالتعاون مع الكنيسة المصرية من خلال بيت العائلة في إزالة التوتر وإيقاظ الوعي والتعريف بأهمية المواطنة في الإسلام والمسيحية.

وأضاف أن الأزهر سيعقد مؤتمرا حول مستقبل مصر يعرض من خلاله رؤية الأزهر الكاملة للمستقبل والأمور التي يتطلع إليها.

وصرح السفير البريطاني عقب الزيارة أنه تم الاتفاق على زيادة المنح لطلاب جامعة

الأزهر الدارسين في المركز البريطاني بالجامعة بالإضافة إلى إعداد برامج تعليمية مشتركة.

وقال إن الحكومة البريطانية تقدر الدور الذى يقوم به الأزهر الشريف في مجال حوار الأديان والتعايش السلمى المشترك بين الجميع من خلال توضيحه للمعنى الحقيقي للإسلام.

اتفاقية تعاون بين الأزهر والبنك الإسلامي للتنمية لدعم مركز اللغة العربية لغير الناطقين بها

استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر رئيس البنك الإسلامي للتنمية أحمد علي والوفد المرافق له بمناسبة توقيع اتفاقية تقديم منحة لدعم مركز تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها بالأزهر الشريف.



وصرح السفير محمود عبد الجواد المستشار الدبلوماسي لشيخ الأزهر أن اللقاء ناقش المشروعات المستقبلية للمركز والتي تتضمن بناء منهج أزهرى لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها بأحدث طرق التعليم وتشكيل لجنة لتحديد أفضل الطرق للتدريس وكذلك إتاحة دورات متخصصة في مجال تعليم اللغة العربية للمدرسين بالمركز أو لمبعوثي الأزهر بالخارج بالإضافة إلى إنشاء مراكز لتعليم اللغة العربية بالدول الإسلامية (الإفريقية والأسيوية).

إعلان هام

تعلن إدارة الزكاة بمشيخة الأزهر الشريف للسادة مستحقي الزكاة والذين يحق لهم صرف إعانة شهر رمضان ويبلغ عددهم ٩٥٠٠٠ مستفيد أنه نظراً للظروف الحالية التي يصعب فيها تحقيق الانضباط والنظام وتيسيرا لهم فإنه تقرر أن تصرف الإعانة المالية من مكاتب البريد.

لذا يرجى من السادة المستفيدين من زكاة الأزهر الشريف التوجه إلى مكتب البريد التابع له والمدون باستمارته لصرف إعانة شهر رمضان ابتداءا من عشرين شعبان للمرضى والخامس من رمضان لباقي الحالات.

أنباء مجمع البحوث الإسلامية

للأستاذين: يحيى سليمان - عبدالموجود أمين

قرارات الجلسة الطارئة لمجلس مجمع البحوث الإسلامية



د. طه أبو كريشة — د. محمد المختار المهدى

● قرر مجلس مجمع البحوث الإسلامية فى جلسته الطارئة المنعقدة فى ٢٨ / ٥ / ٢٠١١ إعادة طبع بحوث مؤتمرات مجمع البحوث الإسلامية منذ بدايتها، على أن تشكل لجنة لانتقاء الأبحاث التى تترجم إلى اللغات الأجنبية.

● كما قرر مجلس المجمع فى ذات الجلسة الموافقة على إعادة طبع كتاب التفسير الوسيط.

● كما وافق مجلس المجمع على مذكرة مستشار فضيلة الإمام الأكبر لشئون التعليم والعلاقات الثقافية بشأن التماس بعض الطلاب الوافدين لطلب القيد على منحة من الأزهر الشريف والالتحاق بالدراسات الخاصة.

● كما وافق المجلس على مذكرة الإدارة العامة للبعوث بشأن مسابقة شهر رمضان المعظم لعام ١٤٣٢ هـ/ ٢٠١١ وتحديد موعد الاختبار للسادة المتقدمين، على أن تشكل لجنة الاختبارات من السادة أصحاب الفضيلة:

ـ الأستاذ الدكتور/ طه مصطفى أبو كريشة.

ـ الأستاذ الدكتور/ القصبى محمود زلط.

ـ الأستاذ الدكتور/ محمد المختار المهدى.

● كما بحث مجلس المجمع خطاب السيد المستشار وزير العدل إلى فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر بشأن طلب الرأى الشرعى فى بعض المسائل المتعلقة بسن الحضانة وحدود حق الرؤية، حيث أكد مجلس المجمع على ما صدر عنه من قرارات بشأن تحديد سن الحضانة وحدود حق الرؤية وموافقته ومناسبته لظروف الأسرة والأطفال والاستضافة طبقا لقرار المجمع بجلسته الثانية فى دورته الرابعة والأربعين بتاريخ ١٥ من رمضان سنة ١٤٢٨ هـ الموافق ٢٧ من ديسمبر سنة ٢٠٠٧م أنه يجوز للطرف غير الحاضن استضافة الصغير بمسكنه فى العطلات إذا أذن الحاضن بذلك، وإرجاء البت فى أمر الولاية التعليمية لاستكمال البحث، مع مخاطبة المؤسسات المجتمعية لموافاة المجمع بما لديها من دراسات، وعرض ما يرد على لجنة البحوث الفقهية بالمجمع قبل إصداره قراره النهائى فى هذا الشأن.

صرح بذلك فضيلة الشيخ قاسم محمد قاسم مدير عام الإدارة العامة لشئون مجلس المجمع ولجانه.

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية يستقبل وفدا نيجيريا



الشيخ على عبد الباقى

اجتمع فضيلة الشيخ/ على عبدالباقى الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية مع أعضاء الوفد النيجيرى المكون من:

ـ أ. محمد حبيب الله آدم عبدالله الألورى مدير المركز التعليمى العربى الإسلامى.

ـ د. عبدالمؤمن يوسف عوما لاجا عميد قسم الدبلوم بالمركز.

ـ أ. عبدالواحد جمعة آريبى عميد المركز.

ـ أ. مرتضى يعقوب آلا بوتو

ـ أ. عبدالوهاب محمد كرنغ.

● ناقش الوفد الأوضاع فى نيجيريا وما يحاك للمسلمين فيها من قبل اليهود، وقد أشار فضيلة الأمين العام إلى أن ذلك ليس أمراً خاصاً بنيجيرياً وحدها، بل هو أمر عالمى فى جميع دول العالم.

وقد طلب الوفد تنظيم دورة تدريبية للأئمة النيجيريين، مؤكداً على أن أئمة نيجيريا فى حاجة إلى تجديد الخطاب الدينى وأسلوب الدعوة، ونحن نريد التنسيق مع الأزهر لتدريب أكبر عددمن الأئمة.

كما طلب الوفد ترشيح بعض الطلبة النيجيريين للمنح الدراسية ومعادلة شهادة مركز التعليم العربى الإسلامى بنيجيريا، وزيادة المنح الدراسية المخصصة لأبناء نيجيريا.

ويستقبل وفداً أفغانياً

كما استقبل فضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية وفدا من دولة أفغانستان الشقيقة يتكون من :

- نائب وزير التعليم الأفغاني.
- والمستشار الثقافي لسفارة أفغانستان بالقاهرة.

وقد تناول اللقاء بحث ما تم انجازه أو تنفيذه من اللقاء السابق حيث خصص لهم عدد ٧٥ منحة للدراسة بالأزهر في مختلف المراحل التعليمية.

وقد طلب الوفد سرعة معادلة المناهج التي قد تم تسليمها في اللقاء السابق كما طلب فضيلة الأمين العام للمجمع من الوفد إرسال أوراق عدد «١٥» طالبا من القسم العلمي للالتحاق بالكليات العلمية بالأزهر الشريف بدون معادلة قياساً على قبول طلاب الثانوية العامة المصرية في الكليات العلمية بالأزهر الشريف.

وقد وعد الوفد بإرسال هذه الأوراق عن طريق الفاكس مؤقتا لاتخاذ ما يلزم من إجراءات لاستقدام الطلاب لحين ورود الأصول رسميا.

وفي نهاية اللقاء قدم الوفد الشكر للأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية وللأزهر الشريف لقيامه برعاية مصالح المسلمين في العالم عموما وفي أفغانستان خاصة.

الإدارة العامة للطلاب الوافدين

أصدر فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر أ.د. أحمد الطيب القرار رقم ١٦٥ لسنه ٢٠١١ م بتعيين السيد على أمين على إبراهيم مديراً عاماً لإدارة شئون الطلاب الوافدين.

وصرح السيد على أمين مدير عام إدارة الطلاب الوافدين أن الإدارة تسير وفق خطة موضوعة للتحديث والتطوير والعمل على حل مشكلات الطلاب الوافدين الدارسين في الأزهر الشريف كما صرح أنه يسعد الإدارة العامة للطلاب الوافدين أن تشترك مجلة الأزهر مع الإدارة في تلقي شكاوى الطلاب الوافدين والعمل على حل تلك المشكلات ونشر الحلول داخل المجلة حتى تسير العملية التعليمية للطلاب الوافدين على أكمل وجه.

كما أضاف السيد على أمين أنه تيسيراً على الطلاب الوافدين المقيمين داخل جمهورية مصر العربية فقد وافق فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر على قبولهم في

الدراسات الخاصة بعد إجراء اختبار تحديد المستوى.

كما أضاف أنه تقرر فتح باب القبول بالمستوى الأول التمهيدي والثاني والصف الأول الابتدائي الدراسي ابتداء من ١٥ / ٦ / ٢٠١١ إلى ١٥ / ٧ / ٢٠١١ ويراعى في المتقدمين الشروط الآتية :

١ - ألا يقل سن المتقدم للصف الأول التمهيدي عن ٣ سنوات وستة أشهر ولا يزيد على ست سنوات.

٢ - ألا يقل سن المتقدم للصف الثاني التمهيدي عن ٤ سنوات وستة أشهر.

٣ - ألا يقل سن المتقدم للصف الأول الابتدائي عن ٥ سنوات وستة أشهر.

مع استيفاء البيانات والأوراق المطلوبة.

الأقليات الإسلامية في آسيا والمحيط الهادي





صدر عن سلسلة مجمع البحوث الإسلامية الجزء الثاني من كتاب «الأقليات الإسلامية في آسيا والمحيط الهادي» إعداد الأستاذ الدكتور مصطفى محمد رمضان والأستاذة الدكتورة إلهام محمد على ذهني أستاذا التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة الأزهر ومراجعة فضيلة الشيخ فوزي فاضل الزفزاف وكيل الأزهر الأسبق وعضو مجمع البحوث الإسلامية.

وقد تناول المؤلفان المعلومات عن الأقليات الإسلامية في كل من هونج كونج، وسيلان والفلبين والهند وأستراليا وتايلاند ومنغوليا والصين.

وقد بيّنوا أن الصعوبات الفنية

والسياسية تحول دون معرفة حجم الأقليات الإسلامية بدقة، وأن العديد من الدول التى توجد فيها أقليات إسلامية لا تتوفر فيها إحصائيات رسمية دقيقة عن التوزيع الدينى للسكان فضلاً عن أن الأقليات التى تعيش فى دول فقيرة لا تتوافر فيها الإمكانيات المادية والعلمية والفنية ولا تتوافر فيها نسبة المواليد أو الوفيات أو عدد أفراد الأقليات الدينية، كما أن العديد من الدول التى تضم أقليات إسلامية تفرض طوقاً من السرية والكتمان خوفاً من إثارة المشكلات الطائفية، وأن الأقليات تعانى من مشكلة الذوبان داخل الكيان السياسى للبلاد التى تعيش فيها ولكنها تتطلع إلى المشاركة فى الحياة السياسية والاقتصادية رغم الضغوط التى تفرض عليها.

ضم الكتاب الإحصائيات التى أتيحت فى أواخر القرن الماضى ولمن أراد الرجوع إلى إحصائية عام ٢٠٠٩م فليرجع لتقرير مركز بيو للأبحاث عن توزيع مسلمى العالم الصادر فى أكتوبر ٢٠٠٩.

صرح بذلك فضيلة الشيخ عبد الرحمن العسيلى المدير العام للإدارة العامة لسلسلة البحوث.

***

أنباء العالم الإسلامى



إعداد الأستاذين: محمود الفشنى - أحمد رضوان

أبو العنين شعيشع فى رحاب الله



توفى الشيخ قارئ القرآن الكريم صاحب الحنجرة الذهبية أبو العينين شعيشع عن عمر يناهز ٨٩ عاماً، ويعتبر من أشهر قارئى القرآن الكريم فى العصر الحديث، واشتهر فى بداية عمره بتشابه صوته مع الشيخ محمد رفعت.

وكان أبو العينين شعيشع ولد فى مدينة بيلا بمحافظة كفر الشيخ بمصر عام ١٩٢٢ ودخل شعيشع الإذاعة المصرية سنة ١٩٣٩ لإصلاح الأجزاء التالفة من تسجيلات الشيخ رفعت.

ومن تنقلات أبو العينين شعيشع عبر المساجد المختلفة تم تعيينه قارئاً لمسجد عمر مكرم سنة ١٩٦٩، ثم لمسجد السيدة زينب منذ ١٩٩٢، وناضل الشيخ فى السبعينات لإنشاء نقابة القراء مع كبار القراء مثل الشيخ محمود على البنا، والشيخ عبد الباسط عبد الصمد، ثم انتخب نقيباً لها سنة ١٩٨٨م.

كما عُين عضواً بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وعميداً للمعهد الدولى لتحفيظ القرآن الكريم، وعضواً للجنة اختيار القراء بالإذاعة والتليفزيون، وعضواً باللجنة العليا للقرآن الكريم بوزارة الأوقاف وعضواً بلجنة عمارة المسجد بالقاهرة.

دعم إسلامي للقدس

بحثت اللجنة المشتركة بين المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو والبنك الإسلامي للتنمية في اجتماعها الأخير الذي عقد في مقر البنك بجدة بالسعودية سبل تعزيز التعاون المشترك لدعم مدينة القدس.

يشمل التعاون المشترك البرامج الموجهة لصالح القدس الشريف، وتضم إعداد دراسات قانونية وميدانية لحماية المواقع الأثرية والوقفية في القدس الشريف وصيانتها، ودعم المؤسسات التربوية في القدس الشريف بالمعدات التقنية، ودعم المؤسسات الثقافية المقدسية المختصة في صيانة المخطوطات والتحف العتيقة من خلال تزويدها بالمعدات الفنية والتجهيزات التقنية والتدريب.

وتم في الاجتماع بحث تعزيز التعاون في ثلاثة مجالات، هي: الأنشطة التربوية، وتشمل إعداد حملات توعية في المجالات الصحية والسكانية، ودعم المركز الإقليمي لمحو الأمية في النيجر، ومركز الإيسيسكو التربوي في تشاد، ودعم مشروع تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها في الأزهر الشريف، ومجالات العلوم والتكنولوجيا، وتشمل التعاون في مجال حدائق العلوم، مثل المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة في اجتماعات اللجنة المشتركة، الدكتور أحمد سعيد ولد أباه المشرف على مديرية العلاقات الخارجية والتعاون بالمنظمة.



الدبلوماسية الشعبية تنجح في حماية حقوق مصر في النيل

نجحت وفود الدبلوماسية الشعبية التي زارت عددا من دول حوض النيل وعلى رأسها إثيوبيا والسودان في تقديم هذه الدول لإشارات إيجابية للتعاون والتنسيق مع مصر بشأن أية مشاريع على حوض النيل. وقد وافقت إثيوبيا على إرجاء التصديق على الاتفاقية الإطارية لحوض النيل لحين التفاهم مع مصر وكذلك موافقتها على قيام لجنة مصرية بفحص مشروع سد الألفية الإثيوبي.

كما أكد مصطفى الجندي عضو مجلس الشعب السابق، عضو وفد الدبلوماسية الشعبية، أن هذه الدبلوماسية تعد أفضل الحلول لإعادة الحوار مع دول حوض النيل خاصة أن هذه الشعوب تهتم بالجانب الإنساني وتفكر بالعاطفة وهذا ما لمسناه خلال رحلة أوغندا والتي ضمت العديد من المفكرين والسياسيين وشباب ثورة ٢٥ يناير وكافة ألوان الطيف السياسي، حيث تم استقبالنا بصورة ودية، كما تم السماح لنا بزيارة منابع النيل في الهضبة الاستوائية، وحقيقة كنا نلاحظ مدى الاستقبال الحافل والمودة التي يكنها الأفارقة للمصريين.

وأضاف: إن صورة مصر بعد ثورة ٢٥ يناير تغيرت للأحسن في جميع دول العالم وبالأخص الدول الإفريقية، مشيرا إلى أن السياسة المصرية تجاه إفريقيا كانت خاطئة لأقصى درجة.

بمشاركة مصر: علماء الإسلام في ندوة القيم والتنمية في سلطنة عمان

عقدت في سلطنة عمان ندوة «القيم العمانية ودور المواطن في التنمية» بمشاركة مجموعة كبيرة من العلماء يمثلون مصر والعديد من دول العالم من مختلف المذاهب ـ التي نظمتها وزارة الأوقاف والشئون الدينية بجامعة السلطان قابوس.

دعت الندوة إلى العناية بالموروث الأخلاقي المدون بجمعه وتحقيقه ونشره، وأوصت بضرورة اعتماد البناء الخلقي على الدين وتراث الأمة الفكري مع انفتاحه على العالم الخارجي في إيجابياته المعرفية، وإلى ضرورة الحفاظ على المفاهيم الخلقية وتفعيلها في مجالات الدين والتعليم والإعلام، والتعاون بين المؤسسات المعنية بذلك في شتى المجالات والإعلام للقيم التنموية الضرورية ومن بينها: الكفاء والمشاركة الفعالة في الحياة العامة وخدمة المجتمع وتقدير قيم لعطاء والبذل والعمل التطوعي.. كما أوصت بمزيد من الاهتمام بالشباب وطموحاته مع ربط تلك التطورات الاقتصادية والاجتماعية التي تحدث على أرض الوطن تعميقا لعناصر الانتماء، وجعل

الأخلاقيات المهنة والعمل جزءاً أساسياً من برامج التعليم فى الجامعات والمعاهد والكليات ومؤسسات التأهيل والتدريب للتأكيد على قيم إتقان العمل وجودته، والبعد عن الشكلية ورداءة المستوى، وترسيخ قيم العدل والنزاهة والرقابة الذاتية.

كما نوقشت فى الندوة عدة بحوث مختلفة، هذه البحوث فى مجملها عالجت الكثير من الجوانب الاجتماعية الراقية وفندت الجوانب السلبية وكرست الجوانب الإيجابية فى المجتمعات بشكل عام وفى المجتمع العمانى بشكل خاص.

وفى ختام أعمالها دعت الندوة إلى ترسيخ قيم المحافظة على ثروات الوطن ومكتسباته والمحافظة على المال العام والاقتصاد وفى الاستهلاك وحسن التدبير ووضع المال فى موضعه الصحيح، وإلى العمل على تأصيل قيم الانتماء والمواطنة فى الملتقيات الثقافية الرسمية والمعتمدة بما يحقق التوعية لتطبيق هذه القيم فى واقعنا المعاصر.

بابا الفاتيكان يؤكد احترامه للإسلام والشعب المصرى

أكد بابا الفاتيكان بنديكت السادس عشر ضرورة استعادة العلاقات الطيبة مع مصر، مشيراً خلال استقباله الدكتور نبيل العربى إلى احترام دولة الفاتيكان للإسلام والشعب المصرى المعروف بالاعتدال، وتمسكه بعقيدته الإسلامية التى سوف تحميه من الشرور.



وأكد البابا حتمية استعادة العلاقات الثنائية لسابق عهدها فى ظل رؤية ديمقراطية جديدة.

ومن جانبه أطلع الدكتور نبيل العربى البابا على الأوضاع الداخلية على الساحة المصرية وخطوات مسيرة الديمقراطية بعد الثورة المصرية التى سجلت أعظم نموذج للتلاحم الشعبى بين المسلمين والمسيحيين باعتبارهم شعباً واحداً موضحاً بأن ما تشهده مصر من أحداث مؤسفة يرجع لتسرب عناصر من النظام السابق وهو ما يمكن توقعه فى أوضاع استمرت لأكثر من ٣٠ عاماً.

وأكد الدكتور نبيل العربى فى تصريح عقب اللقاء أن مصر قيادة وشعباً تعمل بكل طاقاتها لإنهاء هذا التوتر. وأضاف أنه أطلع البابا على الخطوات التى تتخذها الحكومة المصرية لتحسين أوضاع المسيحيين فى مصر وإزالة العقبات التى كانت تؤرقهم خاصة فيما يتعلق بإجراءات بناء دور العبادة.

مستوطنون يحرقون مسجداً برام الله

أقدم مستوطنون إسرائيليون على حرق مسجد قرية المغير شمال شرق مدينة رام الله بالضفة الغربية، وكتبوا على جدرانه شعارات معادية للفلسطينيين والعرب.

وقال عضو مجلس القرية مرزوق أبو نعيم إن الأهالى فوجئوا بحريق المسجد لدى توجههم لصلاة الفجر، حيث اقتحمه المستوطنون وأشعلوا إطارات مطاطية داخله، مما أدى إلى احتراق سجاده وسقفه ومكتبته التى تضم مصاحف وكتباً دينية.

وكتب المستوطنون على جدران المسجد شعارات باللغة العبرية معادية للفلسطينيين والعرب مثل «ستزولون»، وهددوا بأن إحراق المسجد سيكون «أول الثأر»، وتركوا توقيعاً باسم «عيلى عاد» وهو اسم المستوطنة المقامة على أراضى القرية من الجهة الشمالية.

منظمة إسلامية تندد بتدنيس المساجد والمقابر الخاصة بالمسلمين فى بريطانيا

نددت منظمة الإيسيسكو بما تتعرض له العديد من المساجد والمقابر الخاصة بالمسلمين فى بريطانيا من تدنيس واعتداءات طالت حتى الأئمة والموظفين المسئولين عنها.

وقالت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) فى بيان لها إن عدداً من المساجد والمقابر فى بريطانيا تعرضت خلال العام الماضى والحالى لاعتداءات بالقنابل الحارقة والحجارة وتعليق رءوس الخنازير على مداخلها وعلى المآذن، وتعرض الأئمة والموظفون إلى اعتداءات مباشرة، وتلقوا تهديدات ورسائل مسيئة.

وجاء فى بيان الإيسيسكو أن تقريراً للمجلس الإسلامى البريطانى كشف من خلال معلومات من مصادر رسمية، أن عدد الجرائم المرتكبة ضد المسلمين فى بريطانيا بلغ ١٢٠٠ جريمة عام ٢٠١٠.

وقالت إن «هذا يدل على تنامى مشاعر الكراهية والعنصرية ضد المسلمين». ودعت الإيسيسكو السلطات البريطانية إلى اتخاذ إجراءات قوية ورادعة ضد المتطرفين الذين يقومون بهذه الأعمال العدوانية العنصرية، والعمل على حماية مسلمى بريطانيا والحفاظ على حقوقهم الدستورية والإنسانية.

وقالت الإيسيسكو فى بيانها، إن مواجهة التطرف والإرهاب يجب أن تشمل كل من يقوم بهما أو يحرض عليهما، وألا تكون مقصورة على المسلمين البريطانيين كما هو حاصل الآن فى المدارس والجامعات البريطانية.

وحثت الإيسيسكو مسلمى بريطانيا على التضامن ونشر قيم الإسلام الداعية إلى العدل والسلم والتسامح والإحسان إلى الناس، والمسارعة فى فعل الخير.

responded to the call of Islam such as Abu Bakr As-Seddiq, `Umar Ibnul Khattab, Abdul Rahman Ibn `Ouf (may Allah be pleased with them).

However, it is most likely that the people that are most affected by corruption respond to the calls for reformation. They are extremely hurt by the corruption. Whenever the person who calls for reformation appears, they gather around him to eliminate the corruption. If they are not slaves, they sympathize with him and support him openly. If they are slaves owned by their masters, they support him secretly and the strong person of them endures oppression and torment.

Therefore, any messenger comes at the time of corruption, from which some people benefit and at a time of tyranny from which people suffer. The Messenger comes like a revolution over tyranny and corruption. Thus, the weak and poor adhere to him and gather around him.

As for the people who benefit from corruption, they say: "Your followers are our enemies". They think that this saying is contestation in the messenger. But they are stupid, because this saying is an evidence of the necessity of the coming of a messenger to rescue the weak and to fight against corruption. But this revolution differs from that of a normal human being, as the demonstrator sees those who applaud for him among the people who suffer from corruption.

However, the bad aspect of the demonstrator is to demonstrate all the time. However, the true demonstrator demonstrates to destroy corruption. After that, he calms down to achieve glories. He should not be aggressive with all the people, prefer certain people to others. He should not pamper or wrong the oppressor. However, he should be fair and merciful in his judgment, so that things may become upright and grudges are removed, and all the people know that the demonstrator does not oppose a certain category of people, but against the oppression of certain category. If he takes from the oppressor to give the oppressed, he should look to both of them on equal footing. Subsequently, the society becomes quiet and stable.[2]

May Allah be merciful to our great professor, the honorable Sheikh Muhammah Metwaly Ash-Sha`rawy, who interpreted the meanings of the Qur'an with great sincerity without fearing as long as he sticks to the truth, the matter that caused President Sadat to tell him jokingly: "Do you want to incite the peoples against their leaders, Sheikh Sha`rawy?

When one reads his interpretation in this way, he feels that he is living with us amidst the events of the blessed revolution. Indeed, he was a contemporary translator of the meanings of the Qur'an in this time. May Allah be merciful to him!

Fear the fiercest enemy of the human being. Thus, security and safety are graces of Allah. Due to the importance of security and safety, it was narrated that the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Whoever becomes secure, healthy, and owns his daily food, it is as if he owns the whole world."[3]

Egypt was proud of security and safety, and these graces distinguished it among the nations. It will maintain these graces (Allah wills) as long as its people and youth are keen on this, protect it, and know its value and graces. It suffices that it is the only country that Allah (Glory be to Him) mentions in the Noble Qur'an. Also, it is the country which was honored by hosting His honorable prophets who moved on its pure land.

[2] Sheikh Muhammad Metwaly Ash-Sha`rawy, the interpretation of Ash-Sha`rawy, Akhbarul-Yum book, p. 643.
[3] Hadiths of Al-`Ihya'a by Al-`Iraqi

All of us, individuals, groups, and institutions, should be keen on providing safety and security in this country. The importance of this was crystallized during the period in which the police troops withdrew temporarily. Some of its honorable citizens performed this role very well until this hard time came to an end. It was a hard exam, but its result was success.

In the atmosphere of safety and security, we can work and build our country. Thus, we should work hard, as the developed countries progress due to work. We do not want to resort to the disgraceful statistics that the time in which the Egyptian citizen works is only one hour at best! This age passed, and we do not want it to come back.

We should work hard and accurately whatever the type of work is. Our workers were known of their proficiency at work at the Ottoman Khalifate, which resorted to the Egyptian workers to achieve work in Astana like that which they achieved in Egypt.

Thus, I hope to find the car driver who drives it well without exceeding his limits in driving and achieves the saying: driving is art, taste, and morals. This will lead to the coming back of discipline to roads and the means of transport. Also, this will lead to stop shedding the blood flowing night and day due to the car accidents without reasonable causes or understandable justifications! Similar to the car driver is the teacher in the school, the farmer in his farm, engineer in his work, researcher in his lab, the scholar in his institute, the judge in the court, and the policeman in his circle , and so on.

We want to take leave of chaos, indifference, bribe, consuming people's property, patronage, and carelessness, which reflect their negative meaning. We want to stabilize the values of belongingness and keeping the Islamic and Arabic entity.

I hope that time could be saved, so that we do not seek its waste, as some people use an awful expression "let's kill time! Perhaps they know or do not know that this time refers to their age which passes and about which they will be asked on the Day of Judgment about their time and how they used it. In this context, I hope to find people who keep their appointments, as this is the attribute of the civilized people.

I can only conclude my article with the words of the Dean of the Arabic Literature, Taha Hussein (may Allah be merciful with him) which he said in circumstances similar to ours after the July Revolution. These words have their significance currently. Many categories of people seek achieving personal aims, which are not suitable to our time although they are lawful. They should be delayed until the country regains its stability, the production wheel goes on, and the economy flourishes.

Dr. Taha Hussein said: The attribute which I mostly hope that Allah grants me and the other citizens is unselfishness at hard times and bad circumstances. When the sayings and deeds are related to interests, unselfishness in these circumstances is the best way to sincerity in work and being free from personal purposes and preferring the homeland and its prospects.

The brave person indeed is the one who can overcome his interests and can control himself in all circumstances. He should not exaggerate or burden the people. Also, he should not hurt them in the same way he disliked them to hurt him. If the homeland approaches these circumstances, hard times, and reform that is hoped to be comprehensive, the Egyptian citizen should forget about himself, his interests, and desires and should devote himself to serve Egypt in the coming reform.[4]

[4] Dr. Taha Hussein, an article in Al-Balagh Newspaper, dates 25/8/1952.

They said that he is up to that time deluded as he was in the past and he did not distinguish between the productive and the barren. Some of the ignorant people who are not sincere in their love to him informed his father against him. They told him: Anyone of us who knows that his son is preoccupied with sciences becomes worried and upset because his son abstained from ignorance. Do not you know that when a person becomes educated, his creed is shaken? How can you agree to this?

His father became upset and visited him in Egypt to know exactly what happened. He reached his son's house at 3:00 am. When he came, he threatened his son if these sayings are true. The student said these are lies that are said out of envy. When I abstained from knowledge, I did not enjoy any branch of science. He did not believe him until he adhered to the strong robe and swore to him that the person who conveyed this speech is a liar and there are no suspicions about his matter.[1]
He continued in this way using the eloquent style and detecting the psychological state of the student and his father with a style full of bitter irony. Then, the Imam moved to analyze the situations of the characters of this event. Then, he gets surprised at the brothers in this nation who moved from the top to the bottom.

He referred to the fact that these sciences are read in ever part all over the world. He referred to the great scholars such as Abu Hamid Al-Ghazaly, Fakhrul-Din Ar-Razy and others who cared about learning these sciences.

He wonders: At the early periods of Islam, there were sciences that progressed and developed from one generation to another. Now, there are useful sciences which are important to our life and help us overcome our enemies. They are regarded as the basis of our happiness, criterion of our wealth. These sciences should be acquired and the people should exert efforts in gaining them.

Muhammad Abdu revealed his pain due to the retardation of the Muslims saying: We believed that the person who is anesthetized regain conscious by smelling ammonia, and that these people will be guided if the obstacles are eliminated and the good tidings approaching. They wake up from their inattentiveness if someone comes to awaken them.

This can not be done in an age in which there is abundance of sciences, while they are still asleep and inactive. There is not link between us and the developed countries. Their circumstances are good, and balance between them and our bad circumstances. They are strong while we are weak; they are able while we are disables, they are victorious while we are defeated. They have many advantages while we have many disadvantages. In our age, science became clear and important.[2]

Then life moves from this regrettable position to appealing to the ruler and the ruled to exploit the opportunity before their lives come to an end. Allah may bring them to account for their weak resolution, seeking the help of the honorable sect which is considered as the soul of this nation (he means Al-Azhar scholars) whom he hoped that they cause the nation to come out of its inactivity.

[1] The complete works, part 3/16.
[2] The complete works, part 3/18.

*It is the time for Work in an atmosphere of Security and Hope…!

By: Dr. Muhammad Fathy Farag

The achievements that Egypt attained throughout seventeen days (25th of January – 11th of February, 2011) due to their steadfastness in Tahrir Square were not imagined. This reminds us of the following holy verse:

{Verily, Allāh will not change the (good) condition of a people as long as they do not change their state (of goodness) themselves (by committing sins and by being ungrateful and disobedient to Allāh).}[Ar-Ra`d (Thunder): 11]

When our youth and honorable youth overcame their fear, Allah supported them and gave them strength. Allah (Glory be to Him) says:

{And you (Muhammad peace be upon him) threw not when you did throw, but Allāh threw}[Al-Anfal (The Spoils): 17]

This good result is one of the fruits of the honorable Hadith: "Whoever sees an abominable act should change it by his hand. If he can not, he should change it by his tongue. If he can not, he should change it by his heart, which is the weakest belief."[1]

The Shari`ah and morals of Islam are based on strong, sound, and real bases, which are for the benefit of the individual and the society. Our Shari`ah regards the individual as an integral part of the society, as it benefits from the other organs as benefits them as well. The heart is not substitute for the stomach, as each of them performs a certain role for the body. The members of the nation resemble the organs of the body. When the person looks at his individual entity and his role in the society in this way, he becomes positive and does not neglect his duties whatever they are.

The nation consists of individuals, but the outcome of this unity is greater than their total number. This is what happened in Tahrir Square, as the great assembly of the people represented the demands of the nation which wants change and fights corruption. Thus, they achieved their demands by the Will of Allah.

I scrutinized some of the inspirations that Allah granted to Sheikh Ash-Sha`rawy when he spoke in one of the episodes of the famous TV program "Some of the Thought of Belief" played in the Egyptian TV for many years. He spoke about the real demonstrator and interpreted the Saying of Allah (Glory be to Him) in Surah Hud:

{And we do not see in you any merit above us, in fact we think you are liars.}[Hud: 27]

I was amazed because this man is as if he lives among us, what did he say!.

Nuh (May the peace of Allah be upon him) did not deny that because his followers were weak, the victims of corruption. The strong person in the society is not harmed, but the weak suffer from the spoilers. Whenever the person who will rescue them from the corruptors appears, the people would cling to him.

The Sheik went on saying: This does not mean that belief does not touch the strong people, and the evidence is that some of the masters and rich people of Mecca

* An article published (in Arabic) at Al-Azhar magazine.
[1] Sahih Muslim

When the soul knows morals, it knows its stance in the existence. Also, knows the role of right in reforming the universe. Our literary and religious books contain more than we seek[1].

This text implies the nature of Muhammad Abdu's style in the art of the education. His style, while being free from rhyme, is affected by the writing of his contemporaries and predecessors. We may say that there is harmony between Al-Afghani's style and that of Muhammad Abu (during his rebellious stage). Also, there is similarity between his style and that of Rashid Muhammad Rida (in the stage of reforming doctrine. His style is easy, bright, and suitable to the age.

Shaykh Muhammad `Abdu believes in the caste of education because not all of the people can afford to the spiritual and creative education. The reality in which we live proves this point of view. The first caste: the common people who belong to industry, trade and agriculture. The second: the leaders, military officers, courts members, administration offices. The third: the scholars who are concerned with guidance and education, and this is the highest caste.[2]

Imam Muhammad `Abdo was concerned with educating the women with regard to their religion. Thus, he diagnosed the bad condition of the Muslim woman in his age. He revealed that there is a thick veil at his age between women and religious education, which he does not know the time of its elimination. He does not believe that they know any thing about their creed except fasting. He denied that the reason of ignorance is virtuousness and shyness, as viewed by the people who refuse educating women.

They believe that their virtuousness is protected by shyness and very few knowledge about the heritage of lawful and forbidden matters. . This opinion led the women to believe in superstitions. Few women are excluded from this opinion.

The Imam called for educating women and hoped that the few educated Muslim women to form a small women association to educate the ignorant and illiterate women, to establish schools for girls. He preferred this role for them than getting involved in political matters and receiving the elite in salons.[3]

Some people blame Shaykh Muhammad `Abdu for blaming some Muslims for sending their children to foreign schools, seeking their sciences or learning their languages, which they regard as important in their life. It is as if he said that there is no need for learning languages while he learnt French, as he regarded learning it important. To be safe from your enemy, you should learn his language to know his way of thinking. He justified his opinion by saying that he fears for the religion, and the students joining theses schools is regarded as a danger for the creed[4].

I excuse Imam Muhammad `Abdu, as the foreign schools at that time were based on clear Christianizing and eliminating the creed, civilization, and language of the nation. Egypt at that time was weak against the foreign pressure, which intensified after military and political imperialism. As for the semi-independent ages, these schools managed to hide their real faces and reduce the dose of direct Christianizing although the aim is the same.

[1] The complete works, 1/161.
[2] The complete works : 1/173 with some changes
[3] The complete works : part 3/81 and thereafter.
[4] Quoted from the presentation of the book: Dr. Abuol Rahman (Imam Muhammad Abdo and Islamic cases) by Dr. Fatima Abul-Rahman, Hasadul-Fikr Magazine, issue 161, September 2005, p. 75.

The literary and scientific view of the Imam was clear and was held by his articles in the form of ideas and by his efforts, programs, and projects he presented to improve Al-Azhar and education in work and practice.

His articles which were relevant to the educational side expressed the characteristics of Muhammad Abdo's articles, as they range from a medium-length article (see, "Writing and Pen" Article, "Knowledge" article, and "The Aim of Monotheism" article)[1] and a long article (like his article "Theological sciences and call for the Contemporary sciences" and "The effect of education on religion and creed")[2]

We can say that his six articles published in Al-Mu'ayyed Magazine in 1900 refuting the claim of Mansieur Hanna who said that Christianity is better than Islam and that the Aryans are better than the Samyans, and that the civility of the Europeans is better than that of the Muslims are long articles. Also, they became a great research that discovered the serious differences between Islam and Christianity in the causes if creed, science and civility.

We note that the genius of the Imam appears in the long articles with respect to style, content, analysis, full coherence between sedate language and sound ideas, which he tries to convey.

In this way, the long articles formed the greater part of the articles of Muhammad `Abdu as he wanted to explain his ideas in a persuasive and detailed way, or perhaps, to express well the issues contained in these articles. This does not mean that the medium or short articles, which form the minority of his work, do not express the intentions of the Imam. However, they tackle issues that do not need this type of articles.

In his long article "Theological Sciences, Da`wah and Contemporary Sciences", Imam Muhammad Abdu started with revealing the differences between the pre-Islamic era and the age of reason and gaining knowledge and sciences. Some honorable scholars exerted efforts in obtaining knowledge, and rid themselves of unemployment and disablement. Also, they sacrificed their ease for the sake of enlightenment and knowledge. His resolution was strong and his jealousy caused him to be creative. He studied some of the logical and theological books, which were categorized by the most righteous people in Islam.

The Imam progressed by steps in the cause of the theological sciences, as he started with the rulings of supporting the religious principles by the decisive intellectual evidence, then he moved to link the introductory words to presenting a real story that misses only a small amount of the conditions of the story. It was known about a person preoccupation of these theological sciences. Some of his beloved people, friends, and relatives who love him in certain cases only, gossiped at him. There were some people who were so dear to him. Thus, he was so disturbed, surprised, and upset.

He was advised by saying: How do you study these deluding sciences which cause you to fall in these suspicions. You should be convinced of your state and adopt the methods followed by the father and grandfather. He followed their attitude and kept away from his science and spread his ignorance. However, the envious people did not let him alone, as they insisted on foolish words and blaming.

[1] The Complete Works: Part 3/9, 33, 159.
[2] Ibid 3/15, 57.

upon him) be a witness over you. And We made the Qiblah (prayer direction towards Jerusalem) which you used to face, only to test those who followed the Messenger (Muhammad peace be upon him) from those who would turn on their heels (i.e. disobey the Messenger). Indeed it was great (heavy) except for those whom Allâh guided. And Allâh would never make your faith (prayers) to be lost (i.e. your prayers offered towards Jerusalem). Truly, Allâh is full of Kindness, Most Merciful towards mankind.} [Al-Baqarah (The Cow): 142-143]

When the Jews said their sayings seeking the return of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) to their Qibla, offering him to embrace his religion in return for his direction to their Qibla, Allah enlightened him, revealed to him their plots, warned him against returning to their Qibla, and disappointed him of their belief in his religion.

Allah (Glory be to Him) says: {And even if you were to bring to the people of the Scripture (Jews and Christians) all the Ayât (proofs, evidences, verses, lessons, signs, revelations, etc.), they would not follow your Qiblah (prayer direction), nor are you going to follow their Qiblah (prayer direction). And they will not follow each other's Qiblah (prayer direction). Verily, if you follow their desires after that which you have received of knowledge (from Allâh), then indeed you will be one of the Zâlimûn (polytheists, wrong-doers).} [Al-Baqarah (The Cow): 145]

To end the argument about the Qibla, as there were enquiries about the state of the people who did not live until the changing of the Qibla, Allah (Glory be to Him) sent down a verse rendering any other argument as mere chatter. There should not be a saying after this verse:

Allah (Glory be to Him) says:

{'It is not Al-Birr (piety, righteousness, and each and every act of obedience to Allâh, etc.) that you turn your faces towards the east and (or) the west (in prayers); but Al-Birr is (the quality of) the one who believes in Allâh, the Last Day, the Angels, the Book, the Prophets and gives wealth, in spite of love for it, to the kinsfolk, to the orphans, and to Al-Masâkin (the needy), and to the wayfarer, and to those who ask, and to set slaves free, and performs As-Salât (Iqâmat-as-Salât), and gives the Zakât, and who fulfil their covenant when they make it, and who are patient in extreme poverty and ailment (disease) and at the time of fighting (during the battles). Such are the people of the truth and they are Al-Muttaqûn (the pious) [Al-Baqarah (The Cow): 177]

This holy verse includes the conclusion of this subject, as it revealed that the Qibla issue does not deserve such a great effort because righteousness forms are not limited in it. There is much righteousness in Prayer, Zakah, keeping promises, patience in extreme poverty and ailment, giving money to relatives, orphans, the needy, the poor, and to set the slaves free. The people are not rewarded for directing themselves towards East or West as long as it is not accompanied by strong belief in Allah, the Day of Judgment, the Angels, and Prophets.

*Education and the Reformation of the Society in the Essays of Imam Muhammad `Abdu ...!

By: Dr. Abdul-Halim Owis

We can not deny that the nineteenth century AD (the thirteenth century A.H) was a century of stagnancy and deterioration. Imperialism sought to deepen this deterioration from one side, and estranging the Muslim from the other side. Each one of these two matters leads to the other. As long as the Muslim is deteriorated, it is normal that he learns from the developed countries who will dominate him from the political, educational and social sides.

Some of them sought in naivety the easy way: surrendering to westernization, which is based on dissolving in the civilization of the West. Unfortunately, many held the opinion that we should have confidence in our religion and civilization but in a stagnant way that does not permit development to interact with our heritage, so that our heritage can face the development of the age. This calls for making a different person and civilization that takes from the good aspects of the European civilization. . In this way, taking from the Western civilization and thinking should go side by side. Religion and science should work together.

Each of the two sides stood still, one of them refuses to interact with progress, and the other is directed to the West taking good and evil. This appears in the attitude of some of the people in Egypt and Lebanon.

Shaikh Muhammad `Abdu suffered at the beginning of his life from the stagnancy of study in Al-Azhar, and in Al-Ahmady Mosque in Tanta. The scholars regarded the old juristic books and their book as the basis of religion, even if some of them contradict with the Book of Allah and the Sunnah. The minds turned away from the Qur'an and Sunnah and the Juristic books.

Imam held the opinion that it is impossible that Al-Azhar remains in its state. It should be reformed. Otherwise, it will not progress and be subordinate. Also, it will live in darkness.

Muhammad `Abdu set a regulation to reform Al-Azhar by removing unnecessary and useless information and added new sciences from which the students can benefit. He also, called for treating the students well and abstaining for maltreating the students. He observed the teachers and planted in their souls love of their profession. He let them care only about the future of the generation they educate and not the salary. This is the generation that should have a good point of view, and to resemble a machine.

The Imam was successful in regarding religion as a subject that should precede agriculture, industry, and trade.

We complain of the lack of determination, different interests, and negligence of the fixed benefits. The industry sciences do not rid us of our complaints. We seek a type of science that has to do with the human soul. The science that revives the souls is the science of morals, which is derived from religion. We need knowing much of religion. We do not seek memorized science, but we need remarkable science.

*An article published (in Arabic) at Al-Azhar magazine.

He took precautionary measures towards them, sneaked them, and answered to them retaliating until he rid the Arabian Peninsula of them.

Allah (Glory be to Him) is truthful in Saying:

{Then whosoever breaks his pledge breaks it only to his own harm}

Allah is truthful in his Saying to His Messenger (May the blessings and peace of Allah be upon him):

{But if they incline to peace, you (also) incline to it, and (put your) trust in Allâh. Verily, He is the All-Hearer, the All-Knower. And if they intend to deceive you, then verily, Allâh is All-Sufficient for you. He is Who has supported you with His Help and with the believers.} [Al-Anfal (The Spoils of War): 61-62].

Also, Allsh (Glory be to Him) says:

{But if they intend to betray you (O Muhammad peace be upon him), they indeed betrayed Allâh before. So He gave (you) power over them. And Allâh is All-Knower, All-Wise.} [Al-Anfal (The Spoils of War): 71]

Less than two years after the Hijira and his pledge with them, they started to plot against him and ask him to come out of Medina. Their hidden hatred became clear, and the whole matter became clear to the Messenger (may the blessings and peace of Allah be upon him) and his Companions. He started to retaliate. Then, he wished to change the Qibla from Al-Aqsa Mosque, the direction of the Jews, to the Ka'aba, as he longed and yearned for it. He came out of Mecca at the night of Hijira biding it farewell saying: "by Lord, you are the most beloved place to my heart, and unless your people caused me to come out, I would not have left you."

After the passing of sixteen or seventeen months following the deirection towards Al-Aqsa Mosque, while he was looking at the sky in Sha`ban, Allah sent down Jibril with the verses of Allah (Glory be to Him):

{'Verily, We have seen the turning of your (Muhammad's peace be upon him) face towards the heaven. Surely, We shall turn you to a Qiblah (prayer direction) that shall please you, so turn your face in the direction of Al-Masjid-Al-Harâm (the sanctuary mosque at Makkah). And wheresoever you people are, turn your faces (in prayer) in that direction. Certainly, the muslim who were given the Scripture (i.e. Jews and the Christians) know well that, that (your turning towards the direction of the Ka'bah at Makkah in prayers) is the truth from their Lord. And Allâh is not unaware of what they do.}(cow:144)

Al-Bara' Ibn `Azeb said: "I prayed with the Messenger of Allah being directed to Jerusalem for sixteen months until the verse which exists in Al-Baqarah Surah was sent down

{And wheresoever you Muslims are, turn your faces (in prayer) in that direction}

It was sent down after the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) performed prayer. A person passed by the people while they were praying informing them to be directed to the Kaaba.

Changing the Qibla from Al-Aqsa Mosque to the Ka`ba was an opportunity that was exploited by the enemies of Islam, as they started to accuse Islam of lying. The polytheists said that Muhammad began to return to restore his mind and would come back to their earlier creed. The hypocrites in Medina said that the changing of the Qibla is a form of frivolity and manipulation in the name of false religion. If there had been Revelation behind this religion, they would not have flounder in such a way. The Jews said that Muhammad returned to his predecessors' way of worship and yearned for their religion. If he remained to be directed towards our Qibla, we would believe that he is a Prophet as long as we are directed to the same Qibla. Changing the Qibla from Al-Aqsa Mosque to the Ka`ba is frivolity. How can we believe the saying of Muhammad that Allah is the One that directs him while he resorts to this ignorance and primitiveness?

The Jews accusing the Messenger of Allah of lying and abrogation, and Allah replied to them saying:

{Whatever a Verse (revelation) do We abrogate or cause to be forgotten, We bring a better one or similar to it. Know you not that Allâh is Able to do all things?} [Al-Baqarah (The Cow): 106]

Allah (Glory b to Him) says:

{'And when We change a Verse (of the Qur`ân,) in place of another ? and Allâh knows best what He sends down ? they (the disbelievers) say: "You (O Muhammad peace be upon him) are but a Muftari! (forger, liar)." Nay, but most of them know not. 'Say (O Muhammad peace be upon him) Ruh-ul-Qudus [Jibril (Gabriel)] has brought it (the Qur'ân) down from your Lord with truth, that it may make firm and strengthen (the Faith of) those who believe, and as a guidance and glad tidings to those who have submitted (to Allâh as Muslims).}[Al-Nahl (The Bees): 101-102]

Also, He says:

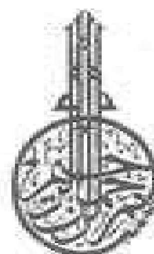
{'Allâh blots out what He wills and confirms (what He wills). And with Him is the Mother of the Book (Al-Lauh Al-Mahfûz)} [Ar-Ra`d (Thunder): 39]

After a short time, Allah sent down to His Messenger verses that eliminated the doubts and revealed that as long as all the directions are owned by Allah, then Allah can choose whatever Qibla He wants. Also, He is entitled to change the direction of the Qibla from time to time as long as He sees that this is better to the people. Thus, changing the Qibla does not involve ignorance or frivolity. Also, changing the Qibla distinguish the truthful believers from the weak believers.

{The fools among the people (pagans, hypocrites, and Jews) will say, "What has turned them (Muslims) from their Qiblah (prayer direction towards Jerusalem) which they used to face in prayer." Say (O Muhammad peace be upon him), "To Allâh belong the east and the west. He guides whom He wills to a Straight Way. Thus We have made you [true Muslims - real believers of Islâmic Monotheism, true followers of Prophet Muhammad peace be upon him and his Sunnah (legal ways)], a just (and the best) nation, that you be witnesses over mankind and the Messenger (Muhammad peace be

AL-AZHAR MAGAZINE

Shaban, 1432 A. H.



ENGLISH SECTION

July, 2011

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."

(Al A'raf 43)

EDITOR : Dr. IBRAHIM AL-ASSIL,

Professor at the Faculty of Languages and Translation

Al-Azhar University

Sha`ban Month

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

Believing in the Oneness of Allah, the Creator, the All-Mighty is the major basis of Islam. Then, this becomes the attribute distinguishing all the Muslims. Allah (Glory be to Him) commands the people in His Saing:

{And hold fast, all of you together, to the Rope of Allâh (i.e. this Qur'ân), and be not divided among yourselves}[Al-Imran (The Household of Imran): 103]

Allah clarified that the Muslims are one nation. Allah (Glory be to Him) says:{Truly, this is, your nation (Ummah) [Shari'ah or religion (Islâmic Monotheism)] is one religion, and I am your Lord, therefore worship Me (Alone). [Tafsir Ibn Kathîr]} [AlMu'minun (The Believers): 52

Prayers were enjoined at the Night Journey and Acension to Heaven, five years befor Hijira. Allah willed not to leave the nation performing prayers towards various directions according to everyone's wishes. In the centre of the earth and the Arabian Peninsula and in Mecca, there is the Kaaba. Allah (Glory be to Him) says:

{'Verily, the first House (of worship) appointed for mankind was that at Bakkah (Makkah), full of blessing, and a guidance for the 'Alamîn (mankind and jinn). 'In it are manifest signs (for example), the Maqâm (place) of Ibrâhîm (Abraham); whosoever enters it, he attains security.} [Al-Imran (The Household of Imran) 96-97]

Allah commanded Ibrahim to build it with the assistance of his son Ismail. There slogan while they were building it: {Our Lord! Accept (this service) from us. Verily, You are the All-Hearer, the All-Knower}[Al-Baqarah: The Cow): 127]

The Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) came out of Mecca immigrating. Then, he chose Yathreb to circulate his call (Da`wah) and its inhabitants including Jews were happy because he will live among them. The first one who carried the good tidings of the arrival of the Prophet was a Jew. The good manners and wise policy of the Prophet let him to treat them in the same way by which they treated him. Thus, he won their support and sympathy, and they lived in harmony with his Da`wah. This is manifested in his choice of Jerusalem to be the Muslims' prayer direction (Qibla) during Prayer. Thus, the hearts of the Muslims clang to Al-Aqsa as they are directed to it during their Prayer five times per day.

The Jews were happy for his coming not for their love of him or sincerity to his religion, but due to commercial, racial, and sectarian interests, which were not accepted by the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him).

الفهرس

AL AZHAR
MAGAZINE
Ramadan 1432 A.H. Aug. 2011
Vol. 84. Part IX.

ترقب في العدد القادم

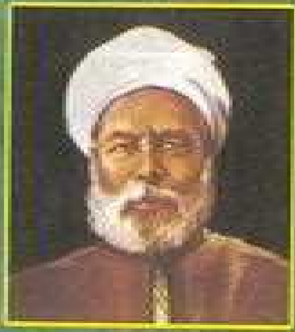
الإسلام في إفريقيا
للأستاذة الدكتورة : حورية توفيق مجاهد

هدية العدد

الوثائق الدستورية
في دولة النبوة والخلافة الراشدة
للأستاذ الدكتور محمد عمارة

الأزهر

هدية العدد
الصوم تربية وجهاد



... العدد

... القرآن للإمام محمد عبده



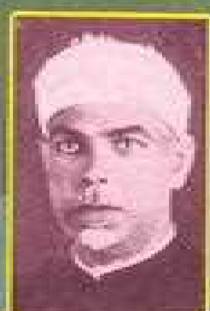
... طه حسين

... في القرآن إلى حاكمية القرآن



بنو إسرائيل في القرآن والسنة

... الهولاء



... محمد عبدالله دراز



المستشار / طارق البشرى



... محمد سليم العوا

بسم الله الرحمن الرحيم



الأزهر

مجلة شهرية جامعة
يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف فى مطلع كل شهر عربى
صدر العدد الأول فى المحرم ١٣٤٩ هـ / ١٩٣١م
وحمل اسم «نور الإسلام»
برئاسة تحرير فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين

رئيس التحرير
أ.د. محمد عمارة

مدير التحرير
عادل رفاعى خفاجة

سكرتير التحرير
أحمد السيد تقى الدين

الاشتراك السنوى
داخل مصر ١٨ جنيها مصريا
الدول العربية ٥٠ دولارا أمريكيا
أوربا وأمريكا ٥٥ دولارا أمريكيا
اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولارا أمريكيا
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٥٧٨٦٢٠٠

المراسلات باسم: مدير التحرير
مجمع البحوث الإسلامية - م. نصر
ت: ٢٢٦٣٨٥٩٩

داخل العدد

الافتتاحيـــة

فرســـان المراجعـــات العلمانيـــة





للدكتور/ محمد عمارة

الدكتور طه حسين (*)

● كان الدكتور طه حسين (١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ ١٨٨٩ - ١٩٧٣ م) أبرز الفرسان الذين دافعوا - في صحيفة «السياسة» - عن كتاب (الإسلام وأصول الحكم)... بل لقد اعترف - سنة ١٩٧١ م - بأنه شريك في تأليف هذا الكتاب.. وبنص عبارته:

«لقد قرأت أصول كتاب الشيخ علي، قبل طبعه، ثلاث مرات، وعدلت فيه كثيرا» (١)

* هو طه حسين بن علي بن سلامة.
● ولد في قرية الكيلو بمغاغة، محافظة المنيا، بصعيد مصر.
● كف بصره، بسبب مرض الجدري، وهو في الثالثة من عمره.
● حفظ القرآن، ودرس بالأزهر، ثم بالجامعة المصرية، ومنها نال الدكتوراه في (ذكرى أبي العلاء).
● سافر في بعثة إلى باريس، وتخرج في جامعة السربون، وتزوج من فرنسية، ولما عاد إلى مصر عين محاضراً بكلية الآداب بالجامعة المصرية، وتولى عمادة الكلية، ولقب بعميد الأدب العربي، ثم تولى وزارة المعارف في عهد حكومة الوفد أوائل خمسينيات القرن العشرين.
● عين عضواً بمجمع اللغة العربية في ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٤٠ ثم أصبح رئيساً للمجمع، كما أصبح عضواً مراسلاً في المجمع العلمي العربي بدمشق، وحصل على الدكتوراه الفخرية من [illegible] جامعات أوروبية.
● ومع كونه أحد بلغاء عصره، أجاد الفرنسية واللاتينية واليونانية.
● وكانت حياته سلسلة من المعارك الفكرية، وشهدت تطوراً فكرياً خصباً وحيوياً.
● من آثاره الفكرية: (في الشعر الجاهلي)، و(في الأدب الجاهلي)، و(مستقبل الثقافة في مصر)، و(حديث الأربعاء)، و(قادة الفكر)، و(على هامش السيرة)، و(الأيام)، و(مع أبي العلاء في سجنه)، و(المتنبي).

(١) د. محمد الدسوقي (طه حسين يتحدث عن أعلام عصره) ص ٧٠، ٧١. طبعة دار المعارف - سلسلة اقرأ - القاهرة سنة ١٩٩٢ م. وانظر كتابنا (الإسلام بين التنوير والتزوير) طبعة دار الشروق سنة ١٩٩٥ م.

● كما تبنى طه حسين الفكرة المحورية لهذا الكتاب - نفي علاقة الإسلام بالدولة والحكم - في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) سنة ١٩٣٨ م - عندما قال:

«إن السياسة شيء والدين شيء آخر.. وإن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية ولا قواماً لتكوين الدول» (٢)

● ومضى طه حسين - في مرحلة انبهاره بالنموذج الحضاري الغربي.. ودعوته للتماهي مع هذا النموذج، والاستعارة لسماته وقسماته - مضى فحاول التأصيل لوحدة الشرق مع الغرب - وحدة العقل ومكوناته.. ووحدة الحضارة - قديماً وحديثاً - فقال:

«إن العقل الشرقي هو كالعقل الأوروبي، مرده إلى عناصر ثلاثة:

١ - حضارة اليونان، وما فيها من أدب وفلسفة وفن.

٢ - وحضارة الرومان، وما فيها من سياسة وفقه.

٣ - والمسيحية، وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على الإحسان.

وإن السبيل واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهي واحدة فذة ليس فيها تعدد. وهي أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، ما يحب منها وما يكره، ما يحمد منها وما يعاب.

وإن الإسلام قد تقبل الحضارة اليونانية، فلم لا يتقبل الحضارة الفرنسية؟ والحضارة الغربية والفرنسية قائمتان على أساس واحد هو الحضارة اليونانية اللاتينية. وهو في نهاية الأمر الحضارة الكلاسيكية..

(٢) (مستقبل الثقافة في مصر) جـ ١ ص ١٦، ١٧. طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م.


علي عبدالرازق

لقد التزمنا أمام أوروبا أن نذهب مذهبها في الحكم، ونسير سيرتها في الإدارة، ونسلك طريقها في التشريع.. التزمنا هذا كله أمام أوروبا.. وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال - سنة ١٩٣٦ م - ومعاهدة إلغاء الامتيازات - سنة ١٩٣٨ م - إلا التزاما صريحا قاطعا أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوروبيين في الحكم والإدارة والتشريع»؟!(٣)

● وفي سبيل التماهي مع النموذج الغربي.. انتقد طه حسين محاولات الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م) «التوفيق بين عبارات القرآن وحقائق العلم» معتبراً هذه المحاولات «أفكاراً بالية»!.. لأن الناس - برأيه - «يندفعون بابتهاج نحو الحضارة الغربية، ويتخذونها مثلاً أعلى.. وقليل هم المسلمون الذين يهتمون بالتوفيق بين إيمانهم والمعارف التي حصّلوها.. لذلك صار المتمسكون بآراء محمد عبده وقاسم أمين (١٢٨٠ - ١٣٢٦ هـ ١٨٦٣ - ١٩٠٨ م) يُعدون محافظين، بل ويدرجون أحيانا بين المتخلفين»!(٤)

● وكان طه حسين قد ذهب على طريق التماهي مع الحضارة الغربية - القديمة والحديثة - إلى تفجير معركة فكرية كبرى حول القرآن الكريم، في العام التالي لصدور كتاب (الإسلام وأصول الحكم)..

ففي سنة ١٩٢٦ م أصدر كتابه (في الشعر الجاهلي) وفي سبيل التشكيك في صدق نسبة كثير من هذا الشعر إلى من نُسب إليهم من الشعراء.. نحا طه حسين نحو الأوروبيين الذين استخدموا شك ديكارت (١٥٩٠ - ١٦٥٠ م) في نفي الصدق التاريخي عن أسفار العهدين القديم والجديد.. فتماهى طه حسين مع هذا النهج الديكارتي في التعامل مع القرآن الكريم.. فشكك في الصدق التاريخي لما جاء بالقرآن عن:

١ - الرحلة الحجازية لأبي الأنبياء إبراهيم - عليه السلام -.

٢ - وإقامته قواعد البيت الحرام هو وابنه إسماعيل - عليه السلام -.

٣ - وحديث القرآن عن صلة الإسلام بملة إبراهيم والحنيفية والحنفاء(٥).

ولقد أثارت هذه الأفكار الصادمة معركة فكرية كبرى، شارك فيها عدد كبير من شيوخ العلم والفكر - من بينهم الشيخ محمد الخضر حسين (١٢٩٣ - ١٣٧٧ هـ ١٨٧٦ - ١٩٥٨ م) والعلامة محمد فريد وجدي (١٢٩٥ - ١٣٧٣ هـ ١٨٧٨ - ١٩٥٤ م) - وتوقش الأمر في

(٣) [مستقبل الثقافة في مصر] جـ ١ ص ٢٩، ٤٥، ٣٦، ٧٧.

(٤) [من الشاطئ الآخر] ص ٣٦، ٣٧، ٦٢. ترجمة عبدالرشيد الصادق المحمودي، طبعة بيروت سنة ١٩٩٠ م.

(٥) طه حسين [في الشعر الجاهلي] ص ٨٠، ٨١. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦ م.


فريد وجدي


الخضر حسين

البرلمان المصري... وأحيل طه حسين إلى التحقيق أمام النيابة العامة.. التي قررت وقوع الجناية بحق القرآن الكريم، لكن دون توفر القصد الجنائي لدى طه حسين.. وبنص عبارة رئيس النيابة - محمد نور: فإن الباحث حدا في بحثه «حذو العلماء من الغربيين. ولكن لشدة تأثر نفسه بما أخذ عنهم قد تورط في بحثه حتى تخيل حقا ما ليس بحق، أو مازال في حاجة إلى إثبات أنه حق، فكان يجب عليه أن يسير على مهل، وأن يحتاط في سيره حتى لا يضل، ولكنه أقدم بغير احتياط فكانت النتيجة غير محمودة..

إن غرض المؤلف لم يكن مجرد الطعن والتعدي على الدين، بل إن العبارات الماسة بالدين، التي أوردها في بعض المواضع من كتابه، إنما أوردها في سبيل البحث العلمي، مع اعتقاده أن بحثه يقتضيها، وحيث إنه، من ذلك، يكون القصد الجنائي غير متوفر؛ لذلك تحفظ الأوراق إداريا»(٦).

لقد قررت النيابة العامة ثبوت «جناية التورط في الطعن والتعدي على الدين».. من طه حسين - وعزت ذلك إلى «حذوه حذو العلماء من الغربيين، وشدة تأثر نفسه بما أخذ عنهم».. أي أن سبب الجناية هو التماهي مع النموذج الغربي في التعامل مع المقدس «دون تمهل ولا احتياط»..

ولقد اعترف طه حسين - نفسه - بهذا الذي صنعه في كتابه هذا.. فقال - في مقام آخر -:

«لقد شككت في بعض المعتقدات التي لا تمس الدين، وإن كانت قد ذكرت في القرآن أو في الأحاديث النبوية. وكانت الصدمة قاسية، والاستنكار واسع النطاق»(٧).

هكذا - وعلى هذا النحو - سار الدكتور طه حسين على طريق التماهي مع النموذج الغربي - الوضعي العلماني - مدعيا وحدة العقل الشرقي والغربي - قديما وحديثا - ووحدة الحضارة - قديما وحديثا.. وطبق على المقدس الإسلامي مناهج الشك التي طبقها الأوروبيون على أسفار العهدين القديم والجديد.. لأن الإسلام - بزعمه - هو كالمسيحية.. ولأن القرآن لم يغير يونانية العقل الشرقي؛ لأنه - مثل الإنجيل - الذي لم يغير من يونانية العقل الأوروبي..(٨)

لكن.. لأن طه حسين لم يكن «عميلا حضاريا».. وإنما كان «منبهرا بالنموذج الحضاري

(٦) د. جابر عصفور [التنوير يواجه الظلام] ص ٩٣، ٩٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

(٧) [من الشاطئ الآخر] ص ٦٧.

(٨) [مستقبل الثقافة في مصر] جـ ١ ص ٢١، ٢٢.

الغربى، الذى قارن بين ازدهاره يومئذ - وبين «التخلف العثمانى» - الذى حسبه على الإسلام- .. فلقد قاده هذا «الانبهار» إلى هذه الاجتهادات الخاطئة .. لذلك، عاد إلى جذوره الإسلامية - عودة المجتهد المجدد- .. وطوى هذه الصفحات من حياته الفكرية الأولى ..

١- لقد حذف السطور - الثمانية والعشرين - التى حملت التشكيك فى الصدق التاريخى للقرآن الكريم .. وغيّر عنوان الكتاب - إلى [فى الأدب الجاهلى] -بعد أن كان عنوانه [فى الشعر الجاهلى] .. وضم إلى محتواه دراسات جديدة، جعلت منه كتابا جديدا.

٢- وطوى صفحة ما جاء بكتابه «مستقبل الثقافة فى مصر» عن يونانية العقل الشرقى، والالتزام بالنموذج الحضارى الغربى فى السياسة والإدارة والتشريع .. وعلمنة الإسلام، والقول «بأن السياسة شىء والدين شىء آخر .. وأن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسا للوحدة السياسية ولا قواما لتكوين الدول».

طوى هذه الصفحة .. وذلك:

- بالامتناع عن إعادة طبع هذا الكتاب طوال حياته - على عكس كتبه الأخرى ..
- وقوله - عندما سئل عنه - فى أول مارس سنة ١٩٧١م:

«إنه قدُم قوى، عاوز يتجدد، ويجب أعود إليه، وأصلح فيه بعض حاجات، وأضيف»(٩).

- وبعد الإنكار لعلاقة الإسلام بالسياسة وبناء الوطن والدولة .. وصل طه حسين، فى الإياب الفكرى، إلى الدعوة - أثناء مناقشات لجنة وضع الدستور سنة ١٩٥٣م - إلى وجوب الالتزام - فى الدستور والقانون بحاكمية القرآن الكريم - كل القرآن الكريم - فقال:

«إنه من المقطوع به أن الأغلبية لن تقبل أن تخرج، عند وضع الدستور، على ما أمر به الإسلام .. وليس هناك أى مقتض .. يسمح لنا بأن نعدل عن نص القرآن .. وإنه إذا وجد نص دينى صريح؛ فالحكمة والواجب يقتضيان ألا نعارض النص، وأن نكون من الحكمة ومن الاحتياط بحيث لا نمس الناس فى شعورهم، ولا فى ضمائرهم، ولا فى دينهم .. وإذا احترمت الدولة الإسلام فلابد أن نحترمه جملة .. وتفصيلا .. ولا يكون الإيمان إيمانا ببعض الكتاب وكفرا ببعضه الآخر»(١٠).

- وبعد أن كان طه حسين يدافع - سنة ١٩٢٥م - عن كتاب «الإسلام وأصول الحكم» الذى وصف الخلافة الإسلامية «بالكهانة المستبدة» وأن الخليفة - عند المسلمين - «ولايته كولاية الله تعالى وولاية الرسول .. بل لقد رفعه المسلمون فوق صف البشر، ووضعوه غير بعيد من مقام العزة الإلهية»(١١).

(٩) طه حسين - من حديث له فى [الأهرام] بتاريخ أول مارس سنة ١٩٧١م.

(١٠) طه حسين [لجنة مشروع الدستور] - الجلسة السابعة - ص ٨١، ١٢٦. طبعة وزارة الإرشاد القومى - القاهرة - بدون تاريخ.

(١١) [الإسلام وأصول الحكم] ص ٢-٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥م.

يعد أن كان طه حسين يدافع عن هذه الصورة الغربية - للخلافة الإسلامية .. عاد ١٩٥٥م .. فى كتابه [الفتنة الكبرى] ليقدم صورة ناصعة لهذه الخلافة الإسلامية، كنظام مدنى، ملتزم بالشريعة الإسلامية - وفى ذلك قال:

«قد يظن بعض الذين تخدعهم ظواهر الأمور أن نظام الحكم الإسلامى [فى العهد النبوى وفى الخلافة] كان نظاما ثيوقراطيا، يستمد سلطانه من الله، ومن الله وحده، ولا شأن للناس فى هذا السلطان .. ولا شك أن هذا الرأى هو أبعد الآراء عن الصواب .. ذلك أن الإسلام لم يسلب الناس حريتهم، ولم يملك عليهم أمرهم كله، وإنما ترك لهم حريتهم فى الحدود التى رسمها لهم .. لقد ترك لهم عقولا تستبصر، وقلوبا تستذكر، وأذن لهم فى أن يتوخوا الخير والصواب والمصلحة العامة والمصالح الخاصة ما وجدوا إلى ذلك سبيلا .. وما من شك فى أن خليفة من خلفاء المسلمين ما كان ليفرض نفسه وسلطانه عليهم فرضا إلا أن يعطيهم عهده ويأخذ منهم عهدهم، ثم يمضى فيهم الحكم بمقتضى هذا العقد المتبادل بينه وبينهم .. فالخلافة الإسلامية عهد بين المسلمين وخلفائهم .. ولقد قام أمر الخلافة، كله على البيعة، أى على رضا الرعية، فأصبحت الخلافة، عقدا بين الحاكمين والمحكومين، يعطى الخلفاء على أنفسهم العهد أن يسوسوا المسلمين بالحق والعدل، وأن يرعوا مصالحهم، وأن يسيروا فيهم سيرة النبى ما وسعهم ذلك، ويعطى المسلمون على أنفسهم العهد أن يسمعوا ويطيعوا وأن ينصحوا ويعينوا .. لذلك، فإن الرأى القائل بأن نظام الخلافة إنما هو النظام الثيوقراطى الإلهى .. هو أبعد الآراء عن الصواب.

لم يكن نظام الحكم الإسلامى نظام حكم مطلق، ولا نظاما ديمقراطيا على نحو ما عرف اليونان، ولا نظاما ملكيا أو جمهوريا أو قيصريا مقيدا على نحو ما عرف الرومان، وإنما كان نظاما عربيا خالصا، بين الإسلام له حدوده العامة من جهة، وحاول المسلمون أن يملئوا ما بين هذه الحدود من جهة أخرى.

لقد كان نظاما إنسانيا، ولكنه على ذلك تأثر بالدين إلى حد بعيد جدا.

لم يكن الخليفة يصدر عن وحى أو شىء يشبه الوحى فى كل ما يأتى وما يدع، ولكنه على ذلك كان مقيدا بما أمر الله به من إقامة الحق وإقرار العدل وإيثار المعروف واجتناب المنكر والصدود عن البغى ..»(١٢).

هكذا تحدث طه حسين عن الخلافة الإسلامية، وعن طبيعة السلطة فيها - كنظام مدنى ملتزم بالشريعة الإسلامية .. وقائم على التعاقد بين الأمة والخلافة .. وهكذا قدم هذه

(١٢) د. طه حسين [الفتنة الكبرى - عثمان] جـ١ ص٢٢، ٢٥ - ٢٧، ٢٨، ٣٢. طبعة القاهرة سنة ١٩٨٤م.

الصياغة المحكمة.. فقهيا وتاريخيا - والتى ناقضت ونقضت ما جاء عن الخلافة فى كتاب [الإسلام وأصول الحكم]- الذى شارك طه حسين فى كتابته.. والذى دافع عنه بحرارة شديدة سنة ١٩٢٥م.

● فى ذات العام الذى نشر فيه طه حسين ما كتب عن الخلافة الإسلامية - سنة ١٩٥٥م - رأس مؤتمر «اللجنة الثقافية للجامعة العربية» - الذى انعقد بجدة - فى جمادى الأولى سنة ١٣٧٤هـ يناير سنة ١٩٥٥م.

وفى كلمته - بهذا المؤتمر - طوى طه حسين الصفحة التى قال فيها - من قبل -: «إن الدين ليس له دور فى بناء الوطن».. وأعلن أن الإسلام هو الذى أقام الوطن المقدس الذى صنع الإنسان المسلم على امتداد عالم الإسلام.. فقال:

«إن لكل مسلم وطنين، لا يستطيع أن يشك فى ذلك شكا قويا أو ضعيفا؛ وطنه الذى نشأ فيه، وهذا الوطن المقدس [مهبط الوحى] الذى أنشأ أمته وكون عقله وقلبه وذوقه وعواطفه جميعا.

هذا الوطن المقدس الذى هداه إلى الهدى، والذى يسّره للخير، والذى عرّفه نفسه، وجعله عضوا صالحا مصلحا فى هذا العالم الذى نعيش فيه»(١٢).

هكذا آب طه حسين إلى أحضان النموذج الحضارى الإسلامى.. وغادر الدعوة إلى التماهى فى النموذج الغربى - الوضعى العلمانى - .. وأعلن ضرورة ووجوب الالتزام بحاكمية القرآن الكريم فى الدستور والتشريع والمجتمع والقانون.. وأكد على أن الإسلام هو صانع الوطن الإسلامى، والمقومات والسمات والقسمات التى تمثل هوية الإنسان المسلم، على امتداد الأقاليم والقوميات فى عالم الإسلام.

إن الأمانة العلمية فى التعامل مع رموزنا الفكرية والثقافية، وفى التعامل مع عالم الأفكار، تحتم علينا رصد التطور فى الاجتهادات الفكرية لهؤلاء الرموز.. وأن لا نقف عند مرحلة انبهارهم بالنموذج الغربى، متجاهلين تجاوزهم للانبهار، بهذا النموذج.. وإلا كنا كمن أصابهم الجمود عند «البدايات» والتعامى عن «النهايات والمآلات».. بل كمن يقف فى التعامل مع صحابة رسول الله ﷺ عند طورهم الجاهلى، لا يتعداه!

● لقد بدأ طه حسين حياته الفكرية مدافعاً عن علمنة الإسلام.. وقائلا: «إن الدين شىء والسياسة شىء آخر.. وإن الدين لا يصلح أن يكون مقوما من مقومات بناء الوطن ووحدته».. ثم انتهى إلى إعلان وجوب الالتزام بحاكمية القرآن الكريم - كل القرآن الكريم - فى الدستور والقانون.. وإلى إعلان أن الإسلام هو صانع الوطن الأول بالنسبة

(١٢) حسين محمد بافقيه: مجلة [الحج والعمرة] - مكة - العددان ١، ٢- محرم وصفر سنة ١٤٢٦م.


طه حسين

لكل المسلمين على امتداد عالم الإسلام.

● وبدأ طه حسين حياته الفكرية بالدفاع عن كتاب [الإسلام وأصول الحكم] الذى صور نظام الخلافة الإسلامية كهانة تقدس الحاكم وتضعه غير بعيد من الذات الإلهية.. ثم انتهى إلى تصوير هذه الخلافة تصويرا عبقريا.. فهى نظام مدنى، ملتزم بمرجعية الشريعة الإسلامية، وتحقيق المصالح الشرعية المعتبرة للمسلمين.. وهى نظام تعاقدى.. حر.. أبدعه المسلمون إبداعا خالصا، لا نظير له فى الحضارات الأخرى.

● وبدأ حياته الفكرية، بالتشكيك فى الصدق التاريخى لبعض قصص القرآن الكريم.. وانتهى إلى الدعوة للالتزام بكل القرآن، حتى لا نكون ممن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعضه الآخر.

بل لقد كان فى سنوات عمره الأخيرة لا يسمع - بمنزله - سوى تلاوة المصحف المرتل من إذاعة القرآن الكريم.

● وبدأ طه حسين حياته الفكرية بإنكار دور اللغة العربية فى بناء الوطن ووحدته.. ثم انتهى قطبا من أقطاب القومية العربية والوحدة العربية - المؤسسة على دعامة اللغة العربية - التى كان واحدا من أبرز بلغائها فى القرن العشرين.

● وبدأ حياته الفكرية منبهرا بالنموذج الحضارى الغربى، داعيا إلى الالتزام بحلوه ومره، خيره وشره، ما يُحب منه وما يُكره، ما يُحمد منه وما يُعاب.. ثم انتهى إلى تسليط الأضواء على تميز النموذج الحضارى الإسلامى - فى علاقة الدين بالسياسة.. وفى دور الدين الإسلامى فى بناء الوطن وصياغة الهوية الحضارية للإنسان المسلم.

فكان - رحمه الله - فارسا من فرسان المراجعات الفكرية.. كما كان - رغم كبريائه المشهور - نموذجا طيبا من نماذج نقد الذات.. والتجدد الفكرى.. لكن الغريب والعجيب أن بعضا من الذين يكرهون طه حسين، ومن الذين يتمسحون فى طه حسين، قد جهلوا أو تجاهلوا هذه الحقائق فى المسيرة الفكرية لهذا الرائد العظيم.. وتلك «مصيبة» من «مصائب» الاستقطاب الفكرى الذى نعيش فيه؟!



مقدمة فى تفسير القرآن



لفضيلة الأستاذ الأكبر الإمام الشيخ محمد عبده



محمد عبده

> **لقد كان الإمام محمد عبده أبلغ من تكلم فى التفسير، بيانا لهدى القرآن الكريم، وفهما لأسراره، وتوفيقا بين آيات الله فى القرآن وبين آياته فى الأكوان. إنه إمام المفسرين بلا منازع، وتفسيره ليس فقط تفسيراً للقرآن، بل التفسير المعجزة لمعجزات القرآن.**
>
> **الإمام محمد بشير الإبراهيمى**

التكلم فى تفسير القرآن ليس بالأمر السهل، وربما كان من أصعب الأمور وأهمها، وماكل صعب يترك؛ ولذلك، لا ينبغى أن يمتنع الناس عن طلبه ووجوه الصعوبة كثيرة، أهمها أن القرآن كلام سماوى، تنزل من حضرة الربوبية، التى لا يكتنه كنهها، على قلب أكمل الأنبياء. وهو يشتمل على معارف عالية، ومطالب سامية، لا يشرف عليها إلا أصحاب النفوس الزاكية، والعقول الصافية.

وإن الطالب له يجد أمامه من الهيبة والجلال، الفائضين من حضرة الكمال، ما يأخذ بتلابيبه، ويكاد يحول دون مطلوبه.

ولكن الله تعالى خفف علينا الأمر، بأن أمرنا بالفهم والتعقل لكلامه، لأنه إنما أنزل الكتاب نوراً وهدى، مبينا للناس شرائعه وأحكامه، ولا يكون كذلك إلا إذا كانوا يفهمونه.

والتفسير الذى نطلبه، هو فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى مافيه سعادتهم فى حياتهم الدنيا، وحياتهم الآخرة؛ فإن هذا هو المقصد الأعلى منه؛ وما وراء هذا من المباحث تابع له، أو وسيلة لتحصيله.

التفسير له وجوه شتى

أحدها: النظر فى أساليب الكتاب ومعانيه، وما اشتمل عليه من أنواع البلاغة ليعرف به علو الكلام وامتيازه على غيره من القول. سلك هذا المسلك «الزمخشرى»، وقد ألمّ بشىء من المقاصد الأخرى، ونحا نحوه آخرون[1].

ثانيها: الإعراب، وقد اعتنى بهذا أقوام توسعوا فى بيان وجوهه، وما تحتمله الألفاظ منها.

ثالثها: تتبع القصص، وقد سلك هذا المسلك أقوام زادوا فى قصص القرآن ما شاءوا من كتب التاريخ والإسرائيليات، ولم يعتمدوا على التوراة والإنجيل والكتب المعتمدة عند أهل الكتاب وغيرهم، بل أخذوا جميع ما سمعوه عنهم من غير تفريق بين غث وسمين، ولا تنقيح لما يخالف الشرع، ولا يطابق العقل.

رابعها: غريب القرآن:

خامسها: الأحكام الشرعية من عبادات ومعاملات، والاستنباط منها.

سادسها: الكلام فى أصول العقائد ومقارعة الزائغين ومحاجة المخالفين، وللإمام الرازى العناية الكبرى بهذا النوع.

سابعها: المواعظ والرقائق، وقد مزجها الذين ولعوا بها بحكايات المتصوفة والعبّاد، وخرجوا ببعض ذلك عن حدود الفضائل والآداب التى وضعها القرآن.

ثامنها: ما يسمونه بالإشارة، وقد اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية. ومن ذلك، التفسير الذى ينسبونه للشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى، وإنما هو للقاشانى، الباطنى الشهير، وفيه من النزعات ما يتبرأ منه دين الله وكتابه العزيز.

وقد عرفت أن الإكثار فى مقصد خاص من هذه المقاصد، يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهى، ويذهب بهم فى مذاهب تنسيهم معناه الحقيقى. لهذا، كان الذى نعنى به من التفسير هو ما سبق ذكره، ويتبعه بلا ريب بيان وجوه البلاغة بقدر ما يحتمله المعنى، وتحقيق الإعراب على الوجه الذى يليق بفصاحة القرآن وبلاغته.

ويمكن أن يقول بعض أهل هذا العصر: لا حاجة إلى التفسير والنظر فى القرآن، لأن الأئمة السابقين نظروا فى الكتاب والسنة، واستنبطوا الأحكام منهما، فما علينا إلا أن ننظر فى كتبهم ونستغنى بها. هكذا زعم بعضهم. ولو صح هذا الزعم، لكان طلب التفسير عبثا يضيع به الوقت سدى، وهو على ما فيه من تعظيم شأن الفقه مخالف لإجماع الأمة من النبى ﷺ على آخر واحد من المؤمنين، ولا أدرى كيف يخطر هذا على بال مسلم.

الأحكام العملية التى جرى الاصطلاح على تسميتها فقها، هى أقل ما جاء فى القرآن وإن فيه من التهذيب ودعوة الأرواح إلى ما فيه

(١) أثناء مقام الأستاذ الإمام منفيا عن مصر، فى بيروت، زار المدرسة «الخاتونية» بمدينة «طرابلس» الشام، وكان الشيخ رشيد رضا لايزال تلميذا بها، فسأل التلميذ رشيد رضا الأستاذ الإمام عن «أى التفاسير أنفع لطلبة العلم؟» فأجاب الإمام: «الكشاف»، فقال الشيخ رشيد: «ولكن فيه كثيرا من نزعات الاعتزال؟» فأجاب الإمام: «بمسائل معروفة، لا تخفى على طالب التفسير، الواقف على أقوال الفرق ومذاهب السنة فيها».

سعادتها، ورفعها من حضيض الجهالة إلى أوج المعرفة، وإرشادها إلى طريقة الحياة الاجتماعية، ما لا يستغنى عنه من يؤمن بالله واليوم الآخر، وما هو أجدر بالدخول فى الفقه الحقيقى. ولا يوجد هذا الإرشاد إلا فى القرآن. وفيما أخذ منه كإحياء العلوم حظ عظيم من علم التهذيب، ولكن سلطان القرآن على نفوس الذين يفهمونه، وتأثيره فى قلوب الذين يتلونه حق تلاوته، لا يساهمه فيه كلام. كما أن الكثير من حكمه ومعارفه لم يكشف عنها اللثام، ولم يفصح عنها عالم ولا إمام. ثم إن أئمة الدين قالوا: إن القرآن سيبقى حجة على كل فرد من أفراد البشر إلى يوم القيامة، لحديث: «والقرآن حجة لك أو عليك»، ولا يعقل هذا إلا بفهمه، والإصابة من حكمته وحكمه.

خاطب الله بالقرآن من كان فى زمن التنزيل. ولم يوجه الخطاب إليهم لخصوصية فى أشخاصهم، بل لأنهم من أفراد النوع الإنسانى الذى أنزل القرآن لهدايته. يقول الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾

(النساء: ١، لقمان: ٣٣)

فهل يعقل أنه يرضى منا بألا نفهم قوله هذا، ونكتفى بالنظر فى قول ناظر نظر فيه، لم يأتنا من الله وحى بوجوب اتباعه، لا جملة ولا تفصيلا؟!

كلا.. إنه يجب على كل واحد من الناس أن يفهم آيات الكتاب بقدر طاقته، لا فرق بين عالم وجاهل. ويكفى العامى من فهم قوله تعالى:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾

(المؤمنون: ١، ٢).

ما يعطيه الظاهر من الآيات، وأن الذين جمعت أوصافهم فى الآيات الكريمة لهم الفوز والفلاح عند الله تعالى. ويكفى فى معرفة الأوصاف، أن يعرف معنى: الخشوع، والإعراض عن اللغو وما لا خير فيه، والإقبال على ما فيه فائدة له دنيوية أو أخروية، وبذل المال فى الزكاة، والوفاء بالعهد، وصدق الوعد، والعفة عن إتيان الفاحشة، وأن من فارق هذه الأوصاف إلى أضدادها فهو المتعدى حدود الله المتعرض لغضبه.

وفهم هذه المعانى، مما يسهل على المؤمن من أى طبقة كان، ومن أهل أى لغة كان. ومن الممكن أن يتناول كل أحد من القرآن بقدر ما يجذب نفسه إلى الخير ويصرفها عن الشر، فإن الله تعالى أنزله لهدايتنا وهو يعلم منا كل أنواع الضعف الذى نحن عليه. وهناك مرتبة تعلو هذه، وهى من فروض الكفاية.

للتفسير مراتب، أدناها أن يبين بالإجمال ما يشرب القلب عظمة الله وتنزيهه، ويصرف النفس عن الشر، ويجذبها إلى الخير. وهذه هى التى قلنا إنها متيسرة لكل أحد:

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾

(القمر: ٢٢)

وأما المرتبة العليا، فهى لا تتم إلا بأمور:

أحدها: فهم حقائق الألفاظ المفردة التى أودعها القرآن، بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة، غير مكتف بقول فلان وفلان، فإن كثيراً من الألفاظ كانت تستعمل فى زمن التنزيل لمعان، ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد.

من ذلك لفظ التأويل، اشتهر بمعنى التفسير مطلقاً، أو على وجه مخصوص، ولكنه جاء فى القرآن بمعان أخرى كقوله تعالى:

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾

(الأعراف: ٥٣)

فما هذا التأويل؟

يجب على من يريد الفهم الصحيح أن يتتبع الاصطلاحات التى حدثت فى الملة ليفرق بينها وبين ما ورد فى الكتاب؛ فكثيراً ما يفسر المفسرون كلمات القرآن بالاصطلاحات التى حدثت فى الملة بعد القرون الثلاثة الأولى. فعلى المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعانى التى كانت مستعملة فى عصر نزوله، والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه بأن يجمع ما تكرر فى مواضع منه وينظر فيه، فربما استعمل بمعان مختلفة، كلفظ الهداية وغيره، ويحقق كيف يتفق معناه مع معنى الآية، فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه.

وقد قالوا: إن القرآن يفسر بعضه ببعض، وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ موافقته لما سبق له من القول، واتفاقه مع جملة المعنى، وائتلافه مع القصد الذى جاء له الكتاب بجملته.

ثانيها: الأساليب، فينبغى أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة، وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته، مع التفطن لنكته ومحاسنه، والعناية بالوقوف على مراد المتكلم منه.

نعم.. إننا لا نتسامى إلى فهم مراد الله تعالى كله، على وجه الكمال والتمام، ولكن يمكننا فهم ما تهتدى إليه بقدر الطاقة. ونحتاج فى هذا إلى علم الإعراب وعلم الأساليب (المعانى والبيان). ولكن مجرد العلم بهذه الفنون، وفهم مسائلها، وحفظ أحكامها، لا يفيد المطلوب.

ترون فى كتب العربية أن العرب كانوا مسددين فى النطق، يتكلمون بما يوافق القواعد قبل أن توضع، أتحسبون أن ذلك كان طبعيا لهم؟!.. كلا، وإنما هى ملكة مكتسبة بالسماع والمحاكاة. ولذلك صار أبناء العرب أشد عجمة من العجم، عندما اختلطوا بهم. ولو كان طبعيا ذاتيا لهم، لما فقدوه فى مدة خمسين سنة من بعد الهجرة.

ثالثها: علم أحوال البشر. فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب، وبين فيه ما لم يبينه فى كثير من أحوال الخلق وطبائعه، والسنن الإلهية فى البشر، وقص علينا أحسن القصص عن الأمم، وسيرها الموافقة لسنته

فينا. فلابد للناظر فى هذا الكتاب من النظر فى أحوال البشر، فى أطوارهم وأدوارهم، ومناشئ اختلاف أحوالهم، من قوة وضعف، وعز وذل، وعلم وجهل، وإيمان وكفر. ومن العلم بأحوال العالم الكبير، علويه وسفليه، ويحتاج فى هذا إلى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه.

أنا لا أعقل كيف يمكن لأحد أن يفسر قوله تعالى:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾

(البقرة: ٢١٣)

وهو لا يعرف أحوال البشر، وكيف اتحدوا، وكيف تفرقوا، وما معنى تلك الوحدة التى كانوا عليها، وهل كانت نافعة أم ضارة، وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم؟

أجمل القرآن الكلام عن الأمم، وعن السنن الإلهية، وعن آياته فى السماوات والأرض وفى الآفاق والأنفس. وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شيء علما. وأمرنا بالنظر والتفكر والسير فى الأرض، لنفهم إجماله بالتفصيل الذى يزيدنا ارتقاء وكمالا.. ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة فى ظاهره، لكنا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده، لا بما حواه من علم وحكمة.

رابعها: العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن. فيجب على المفسر القائم بهذا الفرض الكفائى، أن يعلم ما كان عليه الناس فى عصر النبوة، من العرب وغيرهم، لأن القرآن ينادى بأن الناس كلهم كانوا فى شقاء وضلال، وأن النبى صلى الله عليه وسلم بعث لهدايتهم وإسعادهم.

وكيف يفهم المفسر ما قبحته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة أو ما يقرب منها، إذا لم يكن عارفا بأحوالهم وما كانوا عليه! هل يكتفى من علماء القرآن، دعاة الدين والمناضلين عنه، بالتقليد؟! بأن يقولوا، تقليدا لغيرهم، بأن الناس كانوا على باطل، وإن القرآن دحض أباطيلهم فى الجملة؟.. كلا.

خامسها: العلم بسيرة النبى ﷺ وأصحابه، وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف فى الشئون، دنيويها وأخرويها.

فعلم مما ذكرنا أن التفسير قسمان:

أحدهما: جاف مبعد عن الله وكتابه، وهو ما يقصد به حل الألفاظ، وإعراب الجمل، وبيان ما ترمى إليه تلك العبارات والإشارات من النكت الفنية. وهذا لا ينبغى أن يسمى تفسيرا، وإنما هو ضرب من التمرين فى الفنون كالنحو والمعانى وغيرهما.

وثانيهما: وهو التفسير الذى قلنا إنه يجب على الناس، على أنه فرض كفاية، وهو الذى يستجمع تلك الشروط لأجل أن تستعمل لغايتها، وهو ذهاب المفسر إلى فهم مراد القائل من القول، وحكمة التشريع فى العقائد والأخلاق والأحكام على الوجه الذى يجذب الأرواح، ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة فى الكلام، ليتحقق فيه معنى قوله:

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾

(الأنعام: ١٥٤)

وتحوهما من الأوصاف، فالمقصد الحقيقى وراء تلك الشروط والفنون، هو الاهتداء بالقرآن. وهذا هو الغرض الأول الذى أرمى إليه فى قراءة التفسير.

مثل الناطقين بالعربية الآن -من العراق إلى نهاية مراكش- بالنسبة إلى العرب فى لغتهم، كمثل قوم من الأعاجم مخالطين للعرب، وجد فى كلامهم، بسبب المخالطة، مفردات كثيرة من العربية، فهؤلاء الأقوام أشد حاجة إلى التفسير وفهم القرآن من المسلمين الأولين، لاسيما من كانوا فى القرن الثالث، حيث بدىء بكتابة التفسير، وأحس المسلمون بشدة حاجتهم إليه، ولاشك أن من يأتى بعدنا يكون أحوج منا إلى ذلك، إذا بقينا على تقهقرنا. ولكن إذا يسر الله لنا نهضة لإحياء لغتنا وديننا فربما يكون من بعدنا أحسن حالا منا.

التفسير عند قومنا اليوم، ومن قبل اليوم بقرون، وهو عبارة عن الاطلاع على ما قاله بعض العلماء فى كتب التفسير، على ما فى كلامهم من اختلاف يتنزه عنه القرآن:

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾

(النساء: ٨٢)

وليت أهل العناية بالاطلاع على كتب التفسير يطلبون لأنفسهم معنى تستقر عليه أفهامهم فى العلم بمعانى الكتاب يبثونه فى الناس ويحملونهم عليه، ولم يطلبوا ذلك، وإنما طلبوا صناعة يفاخرون بالتفنن فيها، ويمارون فيها من يباريهم فى طلبها، ولا يخرجون لإظهار البراعة فى تحصيلها عن حد الإكثار من القول، واختراع الوجوه من التأويل، والإغراب فى الإبعاد عن مقاصد التنزيل.

إن الله تعالى لا يسألنا يوم القيامة عن أقوال الناس، وما فهموه؛ وإنما يسألنا عن كتابه الذى أنزله لإرشادنا وهدايتنا، وعن سنة نبيه الذى بين لنا ما نزل إلينا:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾

(النحل: ٤٤)

يسألنا هل بلغتكم الرسالة؟ هل تدبرتم ما بلغتم؟ هل عقلتم ما عنه نهيتم وما به أمرتم؟ وهل عملتم بإرشاد القرآن واهتديتم بهدى من النبى واتبعتم سنته؟ عجبا لنا! ننتظر هذا السؤال ونحن فى هذا الإعراض عن القرآن وهديه، فياللغفلة والغرور!!

معرفتنا بالقرآن كمعرفتنا بالله تعالى.. أول ما يلقن الوليد عندنا من معرفة الله تعالى، هو اسم «الله» تبارك وتعالى، يتعلمه بالأيمان الكاذبة، كقوله: والله لقد فعلت كذا وكذا. والله ما فعلت كذا.

وكذلك القرآن.. يسمع الصبى ممن يعيش معهم: أنه كلام الله تعالى، ولا يعقل معنى ذلك. ثم لا يعرف من تعظيم القرآن إلا ما يعظمه به سائر المسلمين الذين يتربى بينهم، وذلك بأمرين:

أحدهما: اعتقاد أن آية كذا إذا كتبت ومحيت بماء، وشربه صاحب مرض كذا، يشفى، وأن من حمل القرآن، لا يرقبه جن ولا شيطان، ويبارك له في كذا وكذا، إلى غير ذلك مما هو مشهور ومعروف للعامة، أكثر مما هو معروف للخاصة، ومع صرف النظر عن صحة هذا وعدم صحته، نقول: إن فيه مبالغة في التعظيم عظيمة جداً، ولكنها - ويا للأسف - لا تزيد على تعظيم التراب الذي يؤخذ من بعض الأضرحة، ابتغاء هذه المنافع والفوائد نفسها.

ثانيهما: الهزة والحركة المخصوصة والكلمات المعلومة التي تصدر ممن يسمعون القرآن، إذا كان القارئ رخيم الصوت، حسن الأداء، عارفا بالتطريب على أصول النغم. والسبب في هذه اللذة والنشوة، هو حسن الصوت والنغم، بل أقوى سبب لذلك، هو بعد السامع عن فهم القرآن، وأعني بالفهم ما يكون عن ذوق سليم تصيبه أساليب القرآن بعجائبها وتملكه مواعظه فتشغله عما بين يديه مما سواه، لا أريد الفهم المأخوذ بالتسليم الأعمى من الكتب أخذا جافا لم يصحبه ذلك الذوق وما يتبعه من رقة الشعور ولطف الوجدان اللذين هما مدار التعقل والتأثر والفهم والتدبر.

لهذا كله، يمكننا أن نقول: إن الجاهلية اليوم أشد من الجاهلية، والضالين في زمن النبي ﷺ لأن أولئك قال الله تعالى فيهم:

﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾

(البقرة: ١٤٦)

ومعرفة الحق أمر عظيم شريف، نعم.. ربما كان إثم صاحبها من الجحود أشد، ولكنه يكون دائما ملوما من نفسه على الإعراض عن الحق.. وهذا اللوم يزلزل ما في نفسه من الإصرار على الباطل.

كان البدوي، راعي الغنم، يسمع القرآن فيخر له ساجدا، لما عنده من رقة الإحساس ولطف الشعور، فهل يقاس هذا بأي متعلم اليوم؟ أرأيت أهل جزيرة العرب، كيف انضووا إلى الإسلام بجاذبية القرآن، لما كان لهم من دقة الفهم التي كانت سبب الانجذاب إلى الحق؟

إن الأصمعي قال: سمعت بنتا من الأعراب، خماسية أو سداسية، تنشد:

استغفر الله لذنبي كله
قبلت إنسانا بغير حله
مثل غزال ناعم في دله
وانتصف الليل ولم أصله

فقلت لها: قاتلك الله، ما أفصحك!! فقالت: ويحك! أيعد هذا فصاحة، مع قول الله تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

(القصص: ٧)؟!

فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وبشارتين؟

لما أرى علماء المسلمين في الصدر الأول

تأثير القرآن في جذب قلوب الناس إلى الإسلام، وأن الإسلام لا يحفظ إلا به، ولما كان العرب قد اختلطوا بالعجم، وفهم من دخل في الإسلام من الأعاجم ما فهمه علماء العرب أجمع كل على وجوب حفظ اللغة العربية، ودونوا لها الدواوين ووضعوا لها الفنون.

نعم.. إن الاشتغال بلغة الأمة وآدابها فضيلة في نفسه، ومادة من مواد حياتها. ولا حياة لأمة ماتت لغتها. ولكن لم يكن هذا وحده هو الحامل لسلف الأمة على حفظ اللغة بمفرداتها وأساليبها وآدابها، وإنما الحامل لهم على ذلك ما ذكرنا.

ألف العالم الأسفراييني كتابا في الفرق، ختمه بذكر أهل السنة ومزاياهم، وعدد من فضائلهم التي امتازوا بها على سائر الفرق: التبريز في اللغة وآدابها، وبين ذلك بأجلى بيان. فأين هذه المزايا؟ وأين آثارها في فهم القرآن؟ بل وفهم ما دونه من الكلام البليغ؟!

وقد بينا وجه الحاجة في التفسير إلى تحصيل ملكة الذوق العربي، وإلى غير ذلك من الأمور التي يتوقف عليها فهم القرآن.

حوار حول تفسير القرآن(٢)

الأستاذ الإمام: إن القرآن لا يحتاج إلى تفسير كامل، من كل وجه، فله تفاسير كثيرة، أتقن بعضها ما لم يتقن بعض، ولكن الحاجة شديدة إلى تفسير بعض الآيات، ولعل العمر لا يتسع لتفسير كامل.

الشيخ رشيد: لو كتبت تفسيرا على هذا النحو، تقتصر فيه على حاجة العصر، وتترك كل ما هو موجود في كتب التفسير وتبين ما أهملوه؟

الأستاذ الإمام: إن الكتب لا تفيد القلوب العمي، فإن دكان السيد «عمر الخشاب» مملوءة بالكتب من جميع العلوم، وهي لا تعلم شيئا منها!! لا تفيد الكتب إلا إذا صادفت قلوبا متيقظة، عالمة بوجه الحاجة إليها، تسعى في نشرها، إذا وصل لأيدي هؤلاء العلماء كتاب فيه غير ما يعلمون، لا يعقلون المراد منه، وإذا عقلوا عنه شيئا، يردونه ولا يقبلونه. وإذا قبلوه، حرفوه إلى ما يوافق علمهم ومشربهم، كما جروا عليه في نصوص الكتاب والسنة التي نريد بيان معناها الصحيح وما تفيده.

إن الكلام المسموع يؤثر في النفس أكثر مما يؤثر الكلام المقروء، لأن نظر المتكلم وحركاته وإشارته ولهجته في الكلام، كل ذلك يساعد على فهم مراده من كلامه.

وأيضا يمكن السامع أن يسأل المتكلم عما يخفى عليه من كلامه. فإذا كان مكتوبا، فمن يسأل؟! إن السامع يفهم ٨٠ في المائة من مراد المتكلم، والقارئ لكلامه يفهم منه ٢٠ في المائة على ما أراد الكاتب. ومع ذلك، كنت أقرأ التفسير، وكان يحضره بعض طلبة

(٢) جرى هذا الحوار، حول الحاجة إلى تفسير جديد للقرآن، بين الأستاذ الإمام والشيخ رشيد رضا، عندما ألح عليه الشيخ رشيد في البدء بقراءة تفسير القرآن.

الأزهر وبعض طلبة المدارس الأميرية، وكنت أذكر كثيرا من الفوائد التى تحتاج إليها حالة العصر، فما اهتم لها أحد، فيما أعلم، مع أنها كان من حقها أن تكتب. وما علمت أحدا كتب منها شيئا خلا تلميذين قبطيين من مدرسة الحقوق، وكانا يراجعانى فى بعض ما يكتبان. وأما المسلمون، فلا!!

قرأت تفسير سورة العصر فى سبعة أيام، وكل درس لا يقل عن ساعتين أو ساعة ونصف، بينت فيها وجه كون نوع الإنسان فى خسر، إلا من استثنى الله تعالى، وما المراد بالتواصى بالحق والتواصى بالصبر، مما لو جمع لكان رسالة حسنة فى تفسير السورة، وما علمت أحدا كتب من ذلك شيئا إلا أن يكون عبدالعزيز.

الشيخ رشيد: إنه يوجد كثير من المتنبهين لحالة العصر والإسلام فى البلاد المتفرقة، وكثير منهم ما نبههم إلا «العروة الوثقى»، وأنا لم أتنبه التنبيه الذى أنا عليه إلا بها.

الأستاذ الإمام: إن بعض الناس يوجد فيهم خاصية أنهم يقدرون على الكلام بأى موضوع أمام أى إنسان، سواء كان يدرك الكلام ويقبله أم لا، وهذه الخاصية كانت موجودة عند السيد جمال الدين، يلقى الحكمة لمريدها وغير مريدها، وأنا كنت أحسده على هذا، لأننى أتأثر فى حالة المجالس والوقت، فلا تتوجه نفسى للكلام إلا إذا رأيت له محلا.

وهكذا الكتابة، فإننى ربما أتصور أن أكتب بموضوع، وعندما أوجه قواى لجمع ما يحسن كتابته، تتوارد على فكرى معان كثيرة ووجوه للكلام جمة، ثم يأتينى خاطر: لمن ألقى هذا الكلام؟ ومن ينتفع به؟ فأتوقف عن الكتابة، أرى تلك المعانى التى اجتمعت عندى قد امتص بعضها بعضا حتى تلاشت، ولا أكتب شيئا.

إن حالة المخاطب تؤثر بى جدا، ولذلك لا أتكلم بشىء عن حالة الإسلام عندما أجتمع بهؤلاء العلماء، لأن أفكارهم منصرفة عن ذلك بالكلية، ولذلك لا يعملون شيئا مع سعة وقتهم، وعند قراءة التفسير، كنت أتكلم على حسب حالة الحاضرين، لأننى لا أطالع عندما أقرأ، لكننى ربما أتصفح كتاب تفسير إذا كان هناك وجه غريب فى الإعراب أو كلمة غريبة فى اللغة. فإذا حضرنى جماعة من البلداء الخاملى الفكر أحل لهم المعنى بكلمات قليلة، وإذا كان هناك من ينتبه لما أقول ويلقى له بالا، يفتح علىّ بكلام كثير.

الشيخ رشيد: إن الزمان لا يخلو ممن يقدر كلام الإصلاح قدره، وإن كانوا قليلين، وسيزيد عددهم يوما فيوما. فالكتابة تكون مرشدا لهم فى سيرهم. وإن الكلام الحق، وإن قل الآخذ به والعارف بشأنه، لابد أن يحفظ وينمو بمصادفة البيئة المناسبة له، وهو مقتضى ناموس الانتخاب الطبيعى، كما حفظت «العروة الوثقى»، فإن أوراقها الأصلية الضعيفة قد بليت، لكن ما فيها من المقالات البديعة المثال والفوائد العظيمة قد حفظت فى الطروس والنفوس.... إلخ.

أقسام السنة النبوية عند الإمام القرافى

٢

الفرق بين قاعدة تصرفه ﷺ بالقضاء وبين قاعدة تصرفه بالفتوى وهى التبليغ وبين قاعدة تصرفه بالإمامة(*)

اعلم أن رسول الله ﷺ هو الإمام الأعظم، والقاضى الأحكم، والمفتى الأعلم. فهو ﷺ إمام الأئمة، وقاضى القضاة، وعالم العلماء، فجميع المناصب الدينية فوضها الله تعالى إليه فى رسالته، وهو أعظم من كل من تولى منصباً منها فى ذلك المنصب إلى يوم القيامة، فما من منصب دينى إلا وهو متصف به فى أعلى رتبة.

غير أن غالب تصرفه ﷺ بالتبليغ؛ لأن وصف الرسالة غالب عليه. ثم تقع تصرفاته ﷺ منها ما يكون بالتبليغ والفتوى إجماعاً، ومنها ما يجمع الناس على أنه بالقضاء، ومنها ما يجمع الناس على أنه بالإمامة، ومنها ما يختلف العلماء فيه لتردده بين رتبتين فصاعداً، فمنهم من يغلب عليه مرتبة، ومن يغلب عليه أخرى.

ثم تصرفاته بهذه الأوصاف تختلف آثارها فى الشريعة:

فكل ما قاله ﷺ أو فعله على سبيل التبليغ، كان ذلك حكماً عاماً على الثقلين إلى يوم القيامة، فإن كان مأموراً به أقدم عليه كل أحد بنفسه، وكذلك المباح. وإن كان منهياً عنه اجتنبه كل أحد بنفسه.

وكل ما تصرف فيه عليه السلام بوصف

(*) القرافى: (الفروق) (١/٢٠٥ - ٢٠٩) - طبعة عالم الكتب - بيروت.

الإمامة، لا يجوز لأحد أن يُقْدِم عليه إلا بإذن الإمام اقتداء به عليه السلام ولأن سبب تصرفه فيه بوصف الإمامة دون التبليغ يقتضي ذلك.

وما تصرف فيه ﷺ بوصف القضاء، لا يجوز لأحد أن يُقدم عليه إلا بحكم حاكم اقتداء به ﷺ ولأن السبب الذي لأجله تصرف فيه ﷺ بوصف القضاء يقتضي ذلك. وهذه هي الفروق بين هذه القواعد الثلاث.

ويتحقق ذلك بأربع مسائل:

المسألة الأولى

بعث الجيوش لقتال الكفار والخوارج ومن تعين قتله، وصرف أموال بيت المال في جهتها وجمعها من محالها، وتولية القضاء والولاية العامة، وقسمة الغنائم، وعقد العهود للكفار ذمة وصلحاً.

هذا هو شأن الخليفة والإمام الأعظم.

فمتى فعل ﷺ شيئاً من ذلك، علمنا أنه تصرف فيه ﷺ بطريق الإمامة دون غيرها.

ومتى فصل ﷺ بين اثنين في دعاوى الأموال أو أحكام الأبدان ونحوها، بالبينات أو الأيمان والنكولات ونحوها، فنعلم أنه ﷺ إنما تصرف في ذلك بالقضاء دون الإمامة العامة وغيرها؛ لأن هذا شأن القضاء والقضاة.

وكل ما تصرف فيه ﷺ في العبادات، بقوله أو بفعله، أو أجاب به سؤال سائل عن أمر ديني فأجابه فيه، فهذا تصرف بالفتوى والتبليغ.

فهذه المواطن لا خفاء فيها.

وأما مواضع الخفاء والتردد ففي بقية المسائل.

المسألة الثانية

قوله ﷺ: «من أحيا أرضاً ميتة فهي له».[1]

اختلف العلماء رضي الله عنهم في هذا القول، هل تصرف بالفتوى؟ فيجوز لكل أحد أن يحيى، أذن الإمام في ذلك الإحياء أم لا؟ وهو مذهب مالك والشافعي رضي الله عنهما.

أو هو تصرف منه عليه السلام بالإمامة؟ فلا يجوز لأحد أن يحيى إلا بإذن الإمام؟ وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله.

وأما تفرقة مالك بين ما قرب من العمارة، فلا يُحيا إلا بإذن الإمام، وبين ما بَعُد، فيجوز بغير إذنه، فليس من هذا الذي نحن فيه، بل من قاعدة أخرى، وهي أن ما قرب من العمران يؤدي إلى التشاجر والفتن وإدخال الضرر، فلابد فيه من نظر الأئمة دفعاً لذلك المتوقع - كما تقدم - وما بعد من ذلك لا يتوقع فيه شيء من ذلك، فيجوز.

ومذهب مالك والشافعي في الإحياء أرجح؛ لأن الغالب في تصرفه ﷺ الفتيا والتبليغ. والقاعدة: أن الدائر بين الغالب والنادر إضافته إلى الغالب أولى.

المسألة الثالثة

قوله ﷺ لهند بنت عتبة، امرأة أبي سفيان، لما قالت له ﷺ: إن أبا سفيان رجل شحيح، لا يعطيني وولدي ما يكفيني. فقال لها عليه السلام: «خذي لك وولدك ما يكفيك بالمعروف».[2]

اختلف العلماء في هذه المسألة وهذا التصرف منه عليه السلام هل هو بطريق الفتوى؟ فيجوز لكل من ظفر بحقه أو بجنسه أن يأخذه بغير علم خصمه به؟

ومشهور مذهب مالك خلافه، بل هو مذهب الشافعي.

أو هو تصرف بالقضاء؟ فلا يجوز لأحد أن يأخذ جنس حقه أو حقه إذا تعذر أخذه من الغريم إلا بقضاء قاض؟

حكى الخطابي القولين عن العلماء في هذا الحديث.

حجة من قال إنه بالقضاء: أنها دعوى في مال على مُعَيَّن، فلا يدخله إلا القضاء؛ لأن الفتاوى شأنها العموم.

وحجة القول بأنها فتوى: ما روي أن أبا سفيان كان بالمدينة، والقضاء على الحاضرين من غير إعلام ولا سماع حجة لا يجوز، فيتعين أنه فتوى، وهذا هو ظاهر الحديث.

المسألة الرابعة

قوله ﷺ: «من قتل قتيلا فله سلبه».[3]

اختلف العلماء في هذا الحديث، هل تصرف فيه ﷺ بالإمامة، فلا يستحق أحد سلب المقتول إلا أن يقول الإمام ذلك؟

وهو مذهب مالك؛ فخالف أصله فيما قاله في الإحياء، وهو أن غالب تصرفه ﷺ بالفتوى، فينبغي أن يُحمل على الفتيا عملاً بالغالب. وسبب مخالفته لأصله أمور، منها: أن الغنيمة أصلها أن تكون للغانمين، لقوله عز وجل:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾

(الأنفال: ٤١)

وإخراج السلب من ذلك خلاف الظاهر، ومنها أن ذلك ربما أفسد الإخلاص عند المجاهدين، فيقاتلون لهذا السلب دون نصر كلمة الإسلام. ومن ذلك أنه يؤدي إلى أن يقبل على قتل من له سلب دون غيره، فيقع التخاذل في الجيش، وربما كان قليل السلب أشد نكاية على المسلمين؛ فلأجل هذه الأسباب ترك هذا الأصل.

وعلى هذا القانون وهذه الفروق يتخرج ما يرد عليك من هذا الباب من تصرفاته ﷺ فتأمل ذلك، فهو من الأصول الشرعية.[4]

---

(١) صحيح البخاري.

(٢) المعجم الكبير للطبراني.

(٣) صحيح البخاري.

(٤) لمزيد من التفصيل انظر: د. محمد عمارة (حقائق وشبهات حول السنة النبوية) طبعة دار السلام القاهرة سنة ١٤٣١هـ سنة ٢٠١٠م.



تحليل الفكرة الدينية فى نظر المتدين من الوجهتين الموضوعية والنفسية



لقد رأينا كيف وصل الأمر ببعض الباحثين فى تحديد موضوع الدين إلى تصويره بأرقى صورة عرفتها الفلسفة، وأبعد صورة عن الخطور ببال العامة من المتدينين، أعنى تلك الفكرة التى عبر عنها روبرت سبنسر بقوله: إن العنصر الأصيل فى الدين هو الإيمان بقوة لا يمكن تصور نهايتها الزمانية والمكانية.. فهذه اللانهائية إن صح أنها عقيدة كبار الفلاسفة والعلماء، لا تنطبق بحال على عقيدة المشبهين ولا المجسمين ولا القائلين بأن ربهم فى السماء.. ونحن هنا لا نطلب تحديد الدين الصحيح فحسب، بل الدين من حيث هو، فى مختلف صوره ومظاهره.

ثم رأينا كيف أن «ماكس ميلر» كان أشد تضييقا لهذه الدائرة، حين قال إن الدين هو «محاولة تصور ما لا يمكن تصوره» فهذه العبارة لا تنطبق فى حرفيتها إلا على نوع من الأديان يفصل بين العقيدة والعقل فصلا تاما، ويفرض على معتنقيه أن يؤمنوا بما لا تقبله عقولهم، ولا تتصوره أذهانهم.

للأستاذ الدكتور/ محمد عبدالله دراز (*)

هذا الغلو فى طرف التضييق لدائرة المحدود، يقابله - كما رأينا - غلو فى الطرف الآخر، يمثله فريق من علماء الاجتماع وعلماء الآثار (أمثال إيميل دوركايم، وسالمون ريناك)، فهؤلاء لا يكتفون بحذف فكرة «الإله، الخالق، اللانهائى، الذى لا يحيط به التصور» من التعريف الجامع للأديان، بل يذهبون إلى وجوب إبعاد أصل فكرة الألوهية بكل معانيها من هذا التعريف؛ محتجين بأن فى الشرق أديانا، مثل البوذية، والجاينية، والكونفوشيوسية، تقوم على أساس أخلاقى بحت، خال من تأليه كائن ما، وأن الذين يؤلهون «بوذا» و«جينا» إنما هم مبتدعون، خارجون عن أصول دينهم الحقيقى القديم.

(*) ولد فى محلة دياى، محافظة كفر الشيخ ودرس بالأزهر الشريف، بمعهد الإسكندرية الدينى، وحصل على شهادة العالمية، وعين مدرساً بالقسم العالى بالأزهر، ونال شهادة الدكتوراه من جامعة السوربون «باريس»... وعاد أستاذاً بجامعة الأزهر ودار العلوم وجامعة القاهرة، ونال عضوية جماعة كبار العلماء بالأزهر الشريف. ومن آثاره الفكرية، التى وضعته فى مقدمة علماء عصره: النبأ العظيم، ومدخل إلى القرآن الكريم، والميزان بين السنة والبدعة، ودراسات إسلامية فى العلاقات الدولية، وزاد المسلم الدين والحياة، والصوم إرادة وجهاد، والدين، ومن كنوز السنة، ودستور الأخلاق فى القرآن الكريم.

فلننظر فى قيمة هذا النقل، ومغزى هذه الحجة!

هل يعنى هؤلاء الباحثون أن الأديان الصينية المذكورة مجردة من كل فكرة نظرية اعتقادية؟

إن الحقيقة التى أجمع عليها مؤرخو الأديان هى أنه ليست هناك جماعة إنسانية، بل أمة كبيرة، ظهرت وعاشت ثم مضت دون أن تفكر فى مبدأ الإنسان ومصيره، وفى تعليل ظواهر الكون وأحداثه، ودون أن تتخذ لها فى هذه المسائل رأياً معيناً، حقاً أو باطلاً، يقيناً أو ظناً، تصور به القوة التى تخضع لها هذه الظواهر فى نشأتها، والمآل الذى تصير إليه الكائنات بعد تحولها.. وهذه الأديان الثلاثة المشار إليها لم تشذ عن هذه القاعدة قط؛ فهى من جهة مصدر الحوادث، لا تنكر وجود الآلهة الهندية المسماة «أندرا» و«أجنى» و«فارونا»... إلخ، ومن جهة مصير الإنسان، لم تنس تلك النظرية الهندية القديمة فى الحياة وآلامها، وفى أن التعلق بملاذها ومتعها هو السبب فى عودة الحياة إلى الجسم فى صورة ما بعد الموت، فلا ينتقل الإنسان بذلك من ألم إلا إلى ألم، وأنه لا سبيل إلى الراحة التامة إلا بالزهد التام فى الحياة، ليموت الإنسان بلا رجعة، فلا يعود إلى آلام الحياة كرة أخرى.

نعم قد يشكل علينا أن مؤرخى البوذية يقولون إن الآلهة الهندية، التى سرى الاعتقاد بها إلى البوذية القديمة، لم يكن لها فى نظر البوذيين سلطان إلا على العالم المادى، الذى يريد البوذى أن يتخلص منه، فهو لذلك لا يعبدها ولا يرجو خيرها، بل يريد أن يهرب من سلطانها بالموت الأبدى، ثم هو لا يعتمد عليها فى شئونه الأدبية، بل يعتمد على مجهوده العقلى والخلقى فحسب.. ووجه الإشكال أننا سواء أقلنا إن البوذية القديمة لا تعرف آلهة البتة، أم قلنا إنها تعترف بآلهة لا تعبد، فالنتيجة واحدة: وهى أن تكون هناك ديانات خالية من فكرة العبادة، وذلك إما لخلوها من كل عنصر نظرى اعتقادى فى مصدر الكائنات، وإما لأنها مركبة تركيب ضم لا امتزاج فيه، من عنصرين متدابرين لا يلوى بعضهما على بعض.. بحيث يكون شطرها النظرى مثبتاً لقوى عظيمة ذات سلطان على الوجود ولكنها لا شأن لها بأعمالنا، وشطرها العملى مبيناً لطريق السلوك الذى يُخلص النفس من آلام الحياة، من غير توجه إلى تلك القوى.

لكن المسألة إنما هى فى صحة تسمية أمثال هذه المذاهب أدياناً.

ونحن لا نرى مانعاً من أن يُصطلح مصطلحٌ على هذه التسمية، ولكنه يكون اصطلاحاً نابياً عن معهود الناس، مجافياً لذوق اللغات، ولا سيما لغتنا العربية التى لا تفهم من اسم الدين إلا اعتقاداً بشىء يدين له المرء، أى يخضع له ويتوجه إليه بالرغبة والرهبة والتقديس.. بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إن كل مذهب يخلو من هذه الديونة هو أحق باسم «الفلسفة الجافة» منه باسم آخر.. وأكبر الظن عندنا أن الديانات المذكورة «البوذية والكونفوشيوسية ونحوهما» ما استحقت أن تدرج فى جدول الأديان إلا منذ دخلتها فكرة التأليه، أو على اعتبار أنها كانت كذلك أبداً.

وبالجملة فنحن لا نوافق على حذف مبدأ الألوهية من تعريف الأديان، بل نذهب إلى القول مع الفيلسوف الألمانى «إرنست شلاير ماخر» بأن

قوام حقيقة الدين هو ذلك الشعور بالحاجة والتبعية المطلقة لقوة ماهرة، فلا ريب أن هذا الشعور ركنٌ أصيل لابد منه فى تحقيق ماهية الدين من حيث هو.

ولكنه مع ذلك لا يحتوى كل العناصر التى يتألف منها هذا المفهوم؛ إذ لو كان كل شعور بالخضوع الكلى والتبعية المطلقة لقوة قاهرة أيا كانت ـ وأياً كان لون الخضوع لها، يسمى ديناً، لكان أحق الضرورات بهذا الاسم حاجتنا إلى التنفس والغذاء، واستسلامنا التام لقوانين الثقل والجاذبية وسائر العوامل الكونية، ولا قائل بذلك.

يجب إذاً أن نتابع البحث، لمعرفة الفوارق والمميزات التى تجعلنا نُسمى نوعاً من الخضوع ديناً، ولا نُسمى نوعاً آخر منه بهذا الاسم.

وإن التحليل الدقيق لنفسية المتدين يكشف لنا نوعين من هذه الفوارق والمميزات:

(أحدهما) فى صفات الشىء الذى يقدسه المتدين ويخضع له.

(والثانى) فى طبيعة هذا الخضوع.

فهلم بنا ندرس هذين النوعين:

أولا: العناصر الموضوعية:

أول ما يواجهنا من الفروق بين الخضوع الدينى والخضوع اللادينى يتمثل فى مجموعة الصفات التى يحدد بها المتدين موضوع خضوعه ومناط تقديسه الدينى، ويميزه بها عن سائر الأشياء التى يعظمها ويخضع لسلطانها.

كلنا نقدس معنى الشرف، والعرض، والحرية، والكرامة، وما إلى ذلك من المعانى الإنسانية النبيلة؛ وكلنا نشعر بالخضوع والطاعة القهرية لقوانين الكون وسننه الثابتة التى لا نستطيع أن ننقضها أو نبدلها لكن الشىء الذى يقدسه المتدين ليس من جنس تلك المعانى العقلية المجردة، وليس من قبيل هذه التصورات الشائعة المبهمة، ذلك أن المتدين يهدف بتقديسه إلى حقيقة خارجة عن نطاق الأذهان، وإن كانت تعبر عنها الأذهان فإنها فى هذا التعبير تشير إلى ذات مستقلة، قائمة بنفسها ليست مجرد عرض من الأعراض أو لقب من الألقاب.. هكذا ينفصل منذ البداية موضوع العقيدة الدينية عن هذا الضرب من المعانى المقدسة، من حيث إن الصلة بين المقدس عند المتدينين هى قبل كل شىء صلة بين ذات وذات، لا بين ذات وفكرة مجردة أو تجريدية كما فى الأمثلة التى أسلفناها.

الإله ذات لا فكرة تجريدية:

ثم إن هذا التقديس الدينى ليس تقديساً لذات أياً كانت، وإنما هو تقديس لذات لها صفات خاصة؛ وأهم مميزاتها ليست مما يقع عليه حس المتدين، ولا مما يدخل فى دائرة مشاهداته، وإنما هى شىء غيبى لا يدركه إلا بعقله ووجدانه، فالفاصل الثانى الذى تتميز به العقيدة الدينية بمختلف أنواعها هو أن لها خاصة الإيمان بالغيب، أى بما وراء الطبيعة.

الإله ليس مادة وذو تصرف اختيارى:

ثم إن هذا الغيب الذى تؤمن الأديان بوجوده من وراء الطبيعة ليس من جنس هذه الطبيعة المادية المنفعلة، بل هو شىء ذو قوة فعالة مؤثرة، وله أسلوب فى تصرفاته مباين للطرائق التى تؤثر بها المادة فيما حولها، إذ إن هذه المواد يصدر عنها أثرها دون شعور منها ولا اختيار لها فى صدوره أما القوة التى يخضع لها المتدين فإنه يفهمها على أنها قوة عاقلة تقصد ما تفعل، وتتصرف بمحض إرادتها ومشيئتها.

الإله يهيمن على شئون الناس:

وأخيراً فإن هذه القوة العاقلة المدبرة فى نظر المتدينين ليست قوة منطوية على نفسها، منعزلة عنه وعن العالم، بل يرى أن لها اتصالاً معنوياً به وبالناس.. تسمع نجواهم وتصغى لشكواهم، وتعنى بآلامهم وآمالهم، وتستطيع إن شاءت أن تكشف عنهم ما يدعونها إليه.

من جملة هذه المعانى يتحدد على وجه الإجمال المعنى الذى يتعلق به الاعتقاد والتقديس فى جميع الديانات.. ولتلخيص هذه الاعتبارات فى لقب واحد نقول إن التقديس الدينى «تأليه» وعبادة، وإن موضوعه «إله معبود».

ولعلك قد يشكل عليك من مقالتنا هذه أننا جعلنا مناط الاعتقاد والتأليه فى جميع الأديان ذاتاً غيبية لا تراها العيون، كأن لم يكن من الأقوام من عبد الأحجار والأشجار والأنهار، والطير والحيوان والإنسان.

الوثنيات لا تعبد المادة فى الحقيقة:

فاعلم أن كلمات الباحثين فى نفسيات المتدينين وعقلياتهم قد تطابقت على أنه ليس هناك دين أياً كانت منزلته من الضلال والخرافة، وقف عند ظاهر الحس، واتخذ المادة المشاهدة معبودة لذاتها، وأنه ليس أحد من عُباد الأصنام والأوثان كان هدف عبادته فى الحقيقة هياكلها الملموسة، ولا رأى فى مادتها من العظمة الذاتية ما يستوجب لها منه هذا التبجيل والتكريم.. وكل أمرهم هو أنهم كانوا يزعمون هذه الأشياء مهبطا لقوة غيبية، أو رمزا لسر غامض، يستوجب منهم هذا التقديس البليغ.. فهى فى نظرهم أشبه شىء بالتمائم والتعويذات التى يتفاءل أو يُتبرك بها، أو يُستدفع بها شىء من الحسد أو السحر، لا على أن لها خاصية ثابتة كامنة فيها كُمون النار فى الرماد، أو أن لها قوة طبيعية كقوة المغناطيس، بل على أن وراءها أو حولها روحاً عاقلاً، مُدبراً، مستقل الإرادة يستطيع أن يغير بمشيئته سير الأمور ومجرى العادات، فيعطى ويمنع، ويضر وينفع، من حيث لا ينتظر الناس ذلك فى العادة، وأن تلك المواد المشاهدة ما هى فى اعتقادهم إلا مظهر ومطلع يطل منه هذا الروح الخفى، ويبارك من يتمسح بتلك الهياكل التى اتخذها له مظهراً ومزاراً.

يلزمنا إذاً أن نضم عنصراً رباعياً إلى التعريف: فنقول إن القوة التى يقدسها المتدين ليست فكرة مجردة، وصورة عقلية خالصة، بل هى حقيقة خارجية، ونقول إن هذه الحقيقة ليست مادة يقع عليها الحس، بل هى سر غيبى لا تدركه الأبصار، ونقول إن هذه القوة الغيبية قوة عاقلة تتصرف بالإرادة، لا بالضرورة كالمغناطيس والكهرباء، ونقول أخيراً إن لهذه القوة عناية مستمرة بشئون العالم الذى تدبره، وأن لها تجاوباً نفسياً مع نفوسه

وهكذا نقرر مع العلامة (تايلور) أن الدين يتضمن دائماً «الإيمان بكائنات روحية» لكن على شريطة أن نأخذ كلمة الروح هنا بأوسع معانيها فلا نحدد طبيعتها، ولا مدى سلطانها، ولا طريقة تصرفها، بل ندعها تتسع للتصورات المختلفة فى ماهية تلك القوة، ونكتفى بأن نقول على الجملة

إنها قوة خفية، شاعرة، مدبرة، وأن أفعالها تصدر عنها بمحض إرادتها، وأنها تستمع لمن يدعوها ولها مطلق الحرية في قبول مطالبه أو رفضها.

تمييز النظرة الدينية عن النظرتين النفسية والطبيعية:

هذا العنصر الرباعي: عنصر الذات، الغيبية، الروحية، المتصلة معنوياً بعابديها ـ هو الحد الموضوعي الرئيسي الذي يفصل بين وجهتي النظر الدينية واللادينية.

فبينما النظرة المنطقية أو النفسية تد[illegible]ر في حظيرة العقل أو النفس، باحثة عما فيهما من المعاني والأحوال، ولا يعنيها دراسة ما خلف هذه الحدود، والنظرة الطبيعية تبرز إلى الوجود الخارجي ولكنها لا تعالج إلا ما يقع عليه الحس والمشاهدة بالفعل، أو ما هو من نوع هذه المشاهدات، ولا تنفك عن هذه القيود، تنفذ النظرة الدينية فترمي من وراء ذلك كله إلى حقيقة أخرى لا تلمس في داخل النفس ولا في خارجها المادي، وإنما هي ذات غيبية وراء الطبيعة، بل فوق الطبيعة.. فشأن المتدين أنه يطلب وراء كل حس معنى، ويلتمس تحت كل ظاهر باطنا، ويضع في مبدء كل فعل فاعلاً، معتقداً أنه لا يقع في الكون شيء، من دقيق الحوادث وجليلها إلا وللإله (أو لبعض الآلهة) فيه قضاء وتدبير. نعم إن الفلسفة الروحية تشارك النظرة الدينية في هذا الإيمان بما وراء الطبيعة من قوة أو قوى فاعلة عاقلة، ولكنها تفارقها بأنها منقطعة الصلة الأدبية بهذه القوة: فليس بين الفيلسوف وبينها ارتباط بحقوق أو واجبات.. وليس بينهما مناجاة تتبادل فيها المطالب والرغبات. أما المتدين فإنه يؤمن بهذه الصلة إلى حد أنه يجعلها جزءاً حيوياً من كيانه النفسي، ولذلك تراه كلما حزبته حاجاته، وتعسرت عليه رغباته. تطلع إلى روح أشد قوة، يلتمس منها تلك الحاجات والرغبات.

الفرق بين التدين وبين السحر بأنواعه:

على أنه ليس كل إيمان بقوة غيبية روحية، ولا كل توجه إلى تلك القوة، يدخل صاحبه في جماعة المتدينين، فإن موقف العالم الروحاني في مناجاته للأرواح، ليس أحق باسم التدين من موقف أخيه العالم الطبيعي لدى الأشباح، وإن كان قد يشتبه الأمر بينه وبين موقف المتدين في عبادته، من حيث يتصل كل منهما بقوة خفية، يستلهمها ويلتمس عونها، إلا أنه، على الرغم من الاشتراك في جنس هذه الصلة، تختلف الحقيقتان اختلافا كبيراً، حتى إن طرفي النسبة في الأوضاع غير الدينية قد يبدوان متعكسين تماما الانعكاس بالنسبة لهما في الأوضاع الدينية وذلك أن القوى السرية التي يدعوها الساحر أو الكاهن أو مناجي الأرواح لا تقع صورتها في أخيلتهم على أنها شيء يعلوها فيتطاولون إليه، بل على أنها قرن ينازلونه، أو قرين يخادنونه. وقد يرون لأنفسهم من العلو والسلطان على تلك القوى بوسائلهم الخاصة ما يستطيعون به أن يقتنصوها ويخضعوها لأوامرهم، ويسخروها لرغباتهم، كما يسخر الكيميائي عناصر الطبيعة المادية لمآربه. أما العابد فإنه يقف من معبوده موقف الخاضع المتواضع الساعي في رضى سيده، المشفق من غضبه وسخطه.

تصوير الأهداف الثلاثة:

فالفاصل الأخير، الذي يتم به تصوير القوة التي يؤمن بها المتدين، أنها قوة علوية سبحانية، قاهرة غير مقهورة، يخضع هو لها، ولا تخضع له.

إن شئنا أن نضرب مثالاً حسياً لهذه الأهداف المختلفة، قلنا إن قبلة العالم المادي تحت أقدامه، لأن القوى التي هو منها بسبيل قوى عمياء صماء، يحس بها ولا تحس به، وإذا دعاها لا تستجيب له. وقبلة العالم الروحي هي من وجه ما في مستوى أفقه، لأنها وإن كانت أقدر منه على التصرف، إلا أنها قوى حية عاقلة مثله، ولكنها من وجه آخر هي دونه، لأنها تحت يده، متصرفة بأمره، منقادة إلى تعاويذه وطلاسمه. أما المؤمن فإنه يهدف إلى أعلى من ذلك كله، لأنه يتجه إلى القوة العليا بإطلاق. فالكل ينكسون أبصارهم إلى الأرض، والمؤمن يرفع رأسه إلى السماء.

العناصر النفسية

هذه العناصر الخمسة التي يتألف منها (موضوع) العقيدة الدينية، ينبغي أن يضم إليها عنصر (ذاتي، نفسي) يتميز به نوع الخضوع الذي يتصف به المتدين بإزاء موضوع عقيدته.

وإليك البيان:

الفرق بين الخضوع الديني والخضوع الطبيعي:

الناظر إلى العالم العلوي في جملته يراه مسخراً تحت سلطان القدر، في أوضاعه وأحجامه، وحركاته، وطبائعه: كل شيء فيه له قدر لا يعدوه، وطور لا يتجاوزه.. والناظر في عالمنا الأرضي كذلك يجده مقيداً بنسب معينة من البعد عن الشمس وعن الكواكب وبمقادير معينة من الضوء والحرارة والضغط الجوي وغيرها.

هل تمحى ظاهرة الموت:

والناظر إلى هذه الكائنات الحية التي على ظهر الأرض يراها كلها خاضعة لقانون الشيخوخة والهرم، وأخيراً لظاهرة الموت.. تلك كلها ضروب من الخضوع الطبيعي، منها ما هو آلي لا شعوري، ومنها ما هو شعوري اضطراري كمثل الذي يتردى من نافذة علوية، فهو حين يهوي في الفضاء لا يسعه إلا الاستسلام لهذه الحركة القسرية راغماً مكرهاً، أما التدين فخضوعه شعوري اختياري معاً، وهو حين يخشع لمعبوده ويسجد لعظمته يفعل ذلك عن طواعية لا عن كراهية، لأنه يقوم في ذلك بحركة نفسية من التمجيد والتقديس تأبى طبيعتها أن تؤخذ قهراً، وإنما تعطى وتمنع لمن يستحقها متى اقتنعت النفس بهذا الاستحقاق. نعم إن هناك نوعاً من الإكراه (وهو الإكراه غير المباشر، كالتهديد بالعقاب) يمكن أن يفضي إلى مظهر من مظاهر التعظيم وصورة من صوره المادية، ولكنه لا يمكن أن يتولد عنه حقيقة التعظيم ولا صورته القلبية.

فهذا وجه ينفصل به خضوع العبادة عن خضوع العبودية العامة.

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾

(الرعد: ١٥)

ووجه آخر: وهو أن خضوع المتدين لمعبوده وإن كان خضوعاً كلياً لقوة قاهرة كما يقولون، ليس

هو ذلك الخضوع الذى يخلق اليأس، ويكبت النفس، ويغل من الجهد، ويحد مجال العمل، ويسد باب الأمل، بل هو شعور يرفه عن القلب بما يفتحه أمامه من آفاق الإمكان، هو شعور يضع عن النفس الأثقال، ويحطم ما حولها من الأغلال، وتكاد لا تعثر فى لغته على كلمة «المحال» فإذا اشتدت الأزمات، وضاقت الحلقات، أمام المتدين، تراءى له من خلالها أبواب ومخارج ليس دون انفراجها إلا أن يأذن معبوده. ولذلك إذا رأيته فى توجهه إلى هذا المعبود رأيته مقسم القلب أبدا بين الرغبة والرهبة، موزع الأمل بين الشك واليقين، لأن القوة التى يتوجه إليها بالعبادة هى فى نظره أعز مثالاً، وأعظم استقلالاً، من أن تخضع لغير إرادتها نفسها، تلك الإرادة التى لا يعرف هو قانونها بل يقف حائراً أمام أسرارها.

الإيمان جماع أمل وحذر:

هذا الترقب والانتظار فى مزيج من الأمل والحذر أمام دولاب الحوادث، هو إحدى الظواهر العامة التى نلاحظها فى نفسية المتدين، ولا نجدها إلا فى نفسية المتدين (أو المؤمن بإرادة مهيمنة على الطبيعة).

الإلحاد أمن غافل أو يأس قاتل:

ذلك أن الطبيعيين حين يرون ترابط الأشياء وتتابعها فى نظام مطرد، يقف بهم النظر فى هذه النظم عند حد العادة الجارية، فيطمئنون الاطمئنان كله إلى استقرارها ودوامها، وييأسون اليأس التام من تحولها وانفصامها، فهم أبداً فى أحد طرفين متباعدين: إما أمن غافل، وإما يأس قاتل. أما العقيدة الدينية (وكذلك الفلسفة الروحية) فإنها لا تخضع لسياسة الأمر الواقع، بل تنفذ إلى بواطن الأمور وأعماقها، فتقيس الوجود بمقاييس العقل، وتزنه بموازين الإمكان، وبذلك يتكشف لها الكون عن حقيقته. فلا ترى فى نظامه الواقعى ضرورة ذاتية، ولا فى تبدل هذا النظام استحالة ذاتية، بل ترى عليه طابع الصنعة الموضوعة، وأثر الترتيب المقصود، وترى أمر بقائه أو تطوره رهينا بالإرادة التى وضعت هذا النظام وحفظته، لأن من استطاع أن يربط السلسلة، استطاع أن يفصمها، ومن أدار الدولاب ذات اليمين قدر أن يديره ذات الشمال، ومن صرف الأمور بمحض اختياره على وجه، كان فى وسعه أن يحدث فى سيرها من العجائب والشواذ والمفاجآت ما يخرق كل حساب، فيبرئ المريض الذى عجز الطب عن علاجه، ويخلص الأسير الذى أوصدت دونه الأبواب، وينزل الغيث فى القيظ، وينصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة.. إلى غير ذلك.

الأديان تمهد لتقدم العلوم:

هكذا ترى الأديان فى كل صورها ومظاهرها تقف إلى جانب الأمل والإمكان والحرية والاختيار فى مبدأ الأشياء. وهى بهذه النزعة فى الحقيقة تخدم العلوم وتمهد لتقدمها، إذ تفسح المجال أمامها فى تغيير معالم الأشياء إلى مدى أبعد مما تتصوره العلوم الواقعية، التى هى بطبيعتها جبرية إلى أقصى حدود الجبر، يئوسة إلى أبعد حدود اليأس، لأنها كلما كشفت قانونا وقفت عنده دهراً، تبنى على أساسه كل فنونها وصناعاتها.. حتى إذا انتقلت إلى مرحلة أخرى، انتقلت بذلك من طوق حديدى إلى طوق أوسع منه، ولكنه فى نظرها طوق حديدى على كل حال، فهى تعيش يوما بيوم، لا تؤمن إلا بعينيها، ولا ترى أكثر من طرف أنفها.

لا جديد فى الكون إلا بفعل إرادة عاقلة:

إلا أنها فى هذا السير الحثيث إلى الكشف والتجديد، خاضعة فى الواقع من حيث لا تشعر لدفعة خفية من الإيمان بإمكانيات لا نهاية لها فى الكون، كما أنها تلمس فى أثناء تجاربها اليومية أن كل جديد تحصل عليه فى تبديل أوضاع الأشياء إنما هو ثمرة مجهودات إرادية عاقلة. وليس هناك مثال واحد، منذ عرف الإنسان الكون يدل على أن الطبيعة بدلت أوضاعها، وأحدثت فى نفسها نظاما جديداً من غير تدخل قوة شاعرة مستقلة عن تلك المادة، مهيمنة عليها. أليس هذا وحده كافيا فى لفت النظر إلى سائر الترتيبات السابقة، التى نراها فى طبائع الأشياء أو سير الحوادث، لم تبرز هكذا من تلقاء نفسها ولا بقوة لا شعورية مثلها؟ هذا هو أساس الفكرة التى تسيطر على الدينيات والروحيات جميعا، وهى أن على رأس كل سلسلة من الأسباب قوة اختيارية، هى قوة الإنشاء والابتكار التى لابد أن ينطوى عليها السبب الأول.

العلوم الواقعية تفحص الآلة

ولا تفكر فى مخترع الآلة:

نعم إن العلوم الواقعية، حين تنظر فى هذه الآلة الكونية الدقيقة لفحص أجزائها وتعرف قانون سيرها، إنما يعنيها من وراء هذا البحث تنظيم الجهد الإنسانى وتنسيقه على وفق ذلك القانون الآلى. وهى من هذه الوجهة الخاصة لا لوم عليها فى إهمالها السؤال عن مخترع هذه الآلة وواضع ذلك النظام، لأن هذا السؤال خارج عن طبيعة المهمة الأولى التى تخصصت لها.

إغفال هذا التفكير هبوط

إلى مستوى الحيوانية:

ولكن اللوم كل اللوم على الإنسان، بما هو إنسان، حين يضع بيديه هذه القيود الحديدية لعقله، وحين يبتر هذا العنصر الجوهرى فى كيان نفسه، بإبعاد هذا السؤال بتاتا من بين بحوثه، قناعة باللحظة الحاضرة عن الماضى السحيق والمستقبل البعيد، لأنه بذلك يهبط من عرش إنسانيته إلى صف الحيوانية، ويسكت ذلك الصوت السماوى الذى يناديه من أعماق روحه، مستحثا له على استكمال فطرته، زاجراً له عن الاكتفاء بنظره فى حاضر الأشياء وحاضره، عن التطلع إلى مبدئها ونهايتها، وإلى مبدئه ونهايته.

ضم العناصر المستخرجة من هذا التحليل:

والآن نستطيع أن نضم العناصر الرئيسية التى استخرجناها فى ثنايا هذا التحليل، وأن نؤلف منها الحد التام لماهية الدين، فنقول:

الدين هو: «الاعتقاد بوجود ذات - أو ذوات - غيبية - علوية، لها شعور واختيار، ولها تصرف وتدبير للشئون التى تعنى الإنسان، اعتقادا من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية فى رغبة ورهبة، وفى خضوع وتمجيد» وبعبارة موجزة، هو «الإيمان بذات إلهية، جديرة بالطاعة والعبادة». هذا إذا نظرنا إلى الدين من حيث هو حالة نفسية etat subjectif، بمعنى التدين، أما إذا

نظرنا إليه من حيث هو حقيقة خارجة fait objectif فنقول: هو جملة النواميس النظرية التى تحدد صفات تلك القوة الإلهية، وجملة القواعد العملية التى ترسم طريق عبادتها».

المآخذ على تعريف المدرسة الاجتماعية:

«وبعد، فلن يشق على القارئ أن يعود الآن بنفسه إلى التعريفات المختلفة التى نقلناها فى صدر هذا البحث، وأن يتبين فى ضوء هذا البيان مقدار ما فى كل واحد منها من وفاء أو زيادة أو نقص عن الحاجة. غير أننا نود أن نشير إلى مؤاخذتين مهمتين فى تعريف (دور كايم) و(ريناك) وأشياعهما.

أما (الأولى) فهى أن هؤلاء الباحثين لم يعتبروا من القدسية الدينية سوى جانبها العملى (السلبى) وهو تحريمها لبعض الأشياء، والتحذير من مباشرتها والدنو منها: Taboo. وقد فاتهم أن المنع من لمس شىء ما ليس دائما دليل قدسيته، بل قد يكون على الضد دليل ما فيه من خبث ورجس، كما فاتهم أن الشعائر العملية فى كل نحلة يجب أن تكون ترجمة كاملة لعقائدها، فإذا كان التقديس هو من أحد جانبيه تنزيها عن العيوب والنقائص، فهو من الجانب الآخر وصف بالجميل والكمال، هو تعظيم للقيم الكبرى، والمثل العليا. فمظهره فى الناحية السلبية عدم انتهاك الحرمات، وفى الناحية الإيجابية الإقبال على الفضائل اعترافا من معينها، وتذوقا لجمالها، وتمثلا لجوهرها، فالتعريف إذا قاصر عن استيفاء أجزاء المعرف.

وأما المؤاخذة (الثانية) - وهى أشد خطراً وأمس بالجوهر - فهى أنهم بتجريدهم ماهية الدين من فكرتى «الروحية» و«الإلهية» قد جردوها من أخص صفاتها، ونزعوا منها المحور الذى تدور عليه كل عناصرها، والمعيار الوحيد الذى تقاس به مظاهرها، وتتميز به عما سواها.

وفى الحق أن التعريف الذى يقدمونه لنا بعد حذف هاتين الخاصتين يمكن تطبيقه بأكمله على كل مظهر من مظاهر النشاط الاجتماعى، متى كانت له صبغة السنن الموروثة، التى يلتزم الجمهور مراعاتها فى حياتهم الأدبية، أو الفنية، أو الاقتصادية، أو غيرها. فعادة رفع الأعلام فى الأعياد، والقيام عند السلام الوطنى، ولبس السواد فى الحداد، ووضع الخاتم فى أصبع معينة للمتزوج أو غير المتزوج، وحفلات التكريم وإشارات التعظيم، والأزياء القومية أو الطائفية، وسائر العوائد الملتزمة التى تسمى «بالاتيكيت» أو «البروتوكول» والتى يعد الخروج عنها نابيا فى ذوق العرف العام أو الخاص - كل أولئك يسوغ لنا بمقتضى تعريفات المدرسة الاجتماعية الفرنسية أن نسميها أعمالا دينية وعبادات. ومثل هذا يقال فى باب الآراء والمذاهب السياسية وغيرها.

ولا يكفى لإزالة اللبس هنا أن نقول إن الفكرة الدينية تقتضى «الإيمان بأن الموجودات ليست كلها من نوع واحد، ولا فى مرتبة واحدة، بل بعضها أسمى من سائر الأنواع» لأن اعتقاد هذا التفاوت كما يتحقق فى الفكرة الدينية يتحقق فى غيرها، كاعتقاد أمة ما أنها أرقى عنصرا، وأنبل مولدا وأحق بالزعامة العالمية من سائر الأمم.. وهكذا ينفرط العقد ويمتد اللبس بين الحقائق الدينية وغيرها إلى أقصى مداه. وما وضعت الحدود إلا لإقامة الحدود بين المعانى المختلفة، حتى لا يبغى بعضها على بعض».

أصول التشريع وأسسه العامة

٢



للأستاذ الدكتور/ محمد يوسف موسى(*)

ليس التشريع الإسلامى من وضع أحد من الناس، بل هو تشريع إلهى، جاء به القرآن الكريم وسنة الرسول خاتم الأنبياء والمرسلين.

وعمل الفقهاء هو: فهم هذين المصدرين العظيمين، واستنباط الأحكام الشرعية منهما، وذلك فى غير الأحكام التى جاءت بالنص فى أحدهما. ومن ثم، يكون لهذا التشريع الخالد أصوله التى يقوم عليها ويرجع إليها.

ومن هذه الأصول ما اتفق عليه العلماء جميعا، وهى الكتاب والسنة والإجماع، ومنها ما هو مختلف فيه، وهى القياس، والاستحسان، والمصالح المرسلة أو الاستصلاح بتعبير آخر. وسنتكلم هنا عن كل من هذه الأصول الستة، فهى التى يكثر ذكرها فى كتب أصول الفقه والتشريع.

الكتاب

هو كلام الله تعالى الذى أنزله على رسوله المصطفى بمعانيه، وألفاظه العربية، فكان كتاب الإسلام الأول. وهو يشتمل على نظام كامل للدين والدنيا، بما حوى من التشريعات العادلة الصالحة للأفراد والجماعات فى كل البيئات والأزمان، وقد نقل إلينا متواتراً جيلا بعد جيل، دون أن يناله أى تحريف أو تغيير، وبهذا صدق

(*) درس بالأزهر الشريف، وحصل على التخصص، وعمل مدرساً بمعهد الزقازيق، ودرس الفرنسية والحقوق واشتغل بالمحاماة الشرعية، ونال الدكتوراه من فرنسا - تحت إشراف ماسينيون ومصطفى عبدالرازق - فى «الدين والفلسفة عند ابن رشد وفلاسفة العصر الوسيط». وقام بتدريس الفلسفة والأخلاق بكلية أصول الدين، ثم انتقل أستاذاً للشريعة بكلية الحقوق جامعة القاهرة، ثم جامعة عين شمس، ثم جامعة الخرطوم وهو الذى أصدر مجلة «منبر الإسلام» بوزارة الأوقاف. ولقد أضاف إلى المكتبة الإسلامية أكثر من عشرين كتاباً فى الدين والفقه والفلسفة والأخلاق والقانون والتاريخ لأعلام الفكر الإسلامى. وكما عاش راهبا فى محراب العلم، فلقد جاءت آثاره الفكرية متميزة بين إبداعات معاصريه.

قوله تعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

(الحجر: ٩)

وقد جاءت فيه في غالب الأمر الأحكام التشريعية على نحو كلي عام، ومن ثم كانت الحاجة للرسول وسنته بجانبه كما ذكرنا من قبل، وكان إنكار السنة للأصل الثاني الذي لابد منه للإسلام ونظمه وتشريعاته، وهذا ما لا يصح أن يكون من أحد يؤمن بالله ورسوله.

وكان من أحكامه، في العبادات والمعاملات، ما نزل تدريجيا تبعاً لحاجة الزمن وطاقة النفس الإنسانية، ولهذا وقع فيه نسخ حكم بآخر، وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾

(البقرة: ١٠٦)

على أن من الأحكام ما لا يقبل النسخ مطلقاً: مثل وجوب الإيمان بالله، واليوم الآخر، والأمر بالصدق والعدل والإحسان ونحوها من الفضائل، والنهي عن أضدادها من الرذائل؛ وذلك لأن هذه الأحكام حسنة في كل زمان ومكان، ولا يختلف الأمر فيها باختلاف الأمم والبيئات والعصور.

السنة:

هي ما صدر عن الرسول من قول أو فعل أو تقرير، ومعنى التقرير: أن يقول أو يفعل بعض الصحابة شيئا بمحضر الرسول فيسكت عنه أو يستحسنه، فيعتبر ذلك موافقة له عليه، وقد يبلغ الرسول ذلك عن أحد من الصحابة غائب عن مجلسه فيقرّه عليه، فيكون هذا أيضا موافقة له على ما قال الصاحب أو فعل.

وقد بدأ جمع السنة وتدوينها على نحو واسع شامل في العصر العباسي، ثم كثرت فيها المجاميع والمؤلفات التي ذكرنا فيما سبق أكثرها قيمة، وأعظمها حظاً من الدقة والتمحيص، فكانت معيناً خصباً غزيراً للفقهاء والأحكام التشريعية.

ولا نزاع في أن السنة حجة في التشريع بجانب القرآن، وفي وجوب العمل بها معه، وفي هذا يقول الله تعالى:

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾

(الحشر: ٧)

ويقول:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾

(النساء: ٥٩)

ويقول مخاطباً رسوله المصطفى:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

(النساء: ٦٥)

إلا أنها تجيء بعد الكتاب في الاحتجاج بها وتعرف الأحكام الشرعية منها، وإذاً، فلا يصار إليها إلا عند عدم وجود نص من القرآن يفي بما نريده، أو عند الحاجة لتفصيل أو بيان لبعض ما جاء في القرآن، وهكذا كان الصحابة والفقهاء جميعا يفعلون.

وكانت السنة كذلك؛ لأن القرآن مقطوع بصدق كل حرف منه وصحته، أما هي فمنها ما هو مقطوع به، ومنها ما ليس كذلك، ولا شك في أن المقطوع به منها لا يبلغ في اليقين مبلغ القرآن بطبيعة الحال. ثم السنة تعتبر كالتفسير والبيان للقرآن، وما كان كذلك يكون تاليا في الرتبة والمنزلة.

الإجماع:

من الواضح المشاهد أن كثيراً من المعاملات في عصرنا هذا، لم يكن موجوداً من قبل، وأنه قد لا نجد أحكام بعضها في الكتاب أو سنة الرسول ﷺ، فما العمل إذن؟ هنا، نجد أصلاً ثالثاً من أصول التشريع يسعفنا في هذه المسائل ونحوها، وهذا الأصل هو الإجماع.

ومعنى هذا أن يجتمع المجتهدون من الفقهاء، لبحث هذه المسألة أو تلك، وبعد تبادل الآراء وتمحيصها يجمعون على حكم المسألة المطلوب بيان الحكم الشرعي فيها، ويصير ما يجمعون عليه حكما شرعيا ملزما للمسلمين.

ويمكن تعريف الإجماع: بأنه اتفاق جملة المجتهدين من الفقهاء المسلمين في عصر من العصور على حكم واقعة من الوقائع، أو مسألة من المسائل.

ويرى بعض الفقهاء: أن هذا الإجماع من الفقهاء المجتهدين جميعاً في البلاد الإسلامية، لا يمكن تحققه فعلا؛ لأنه يتعذر معرفتهم،، ومعرفة آرائهم جميعاً في المسألة التي يراد معرفة الحكم الشرعي فيها، ونحن نرى أن هذا كان صحيحا فيما مضى.

أما اليوم فإنه من اليسير تحقق الإجماع لسهولة المواصلات بين العالم كله، ولأننا نرى فعلا كثرة الاجتماعات والمؤتمرات العالمية في أمريكا وغيرها من البلاد الغربية، بل رأينا أن ذلك حصل في القاهرة نفسها.

ذلك أمر ميسور بلا ريب، والحاجة ماسة إليه، فما أكثر ما نحتاج إلى معرفة أحكامه الشرعية من معاملاتنا التي تقوم بها هذه الأيام، وبخاصة عمليات المصارف والشركات. وكل ما على الحكومات الإسلامية هو العناية بمعرفة وتعيين من لهم حق الاجتهاد والإفتاء من فقهاء المسلمين في كل بلد، ثم تيسّر لهم سبيل الاجتماع وتبادل الآراء.

ومن البديهي أن الإجماع على حكم شرعي لا يكون إلا عن دليل يستند إليه، وأمارة تشهد بصحته شرعاً، فإن القول في الدين من غير دلالة أو أمارة خطأ شرعاً، كما يقرر العلماء، وقد يكون ذلك الدليل قياس هذه المسألة أو تلك، التي نريد معرفة حكمها الشرعي، على مسألة معروف حكمها من الكتاب أو السنة.

القياس:

يرى جمهور الفقهاء - ورأيهم هو الحق - أن نصوص كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا تفي بأحكام كل ما يحدث من الحوادث والمسائل، وكل ما يجد من المشكلات، وقد رأينا أن

الإجماع يكاد يكون متعذراً حصوله كلما جدت مسألة تتطلب بيان حكمها الشرعي.

فلم يبق إلا أن يكون هناك أصل آخر للأحكام الشرعية يلجأ إليه الفقيه وحده دون حاجة إلى الاجتماع بغيره، وهذا الأصل هو القياس الذي لجأ إليه الفقهاء في كل عصر من عهد الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً.

ومعنى القياس في اللغة هو التقدير؛ فيقال: قست الأرض بالمتر مثلاً، أي عرفت مساحتها بالأمتار المربعة. وله تعريفات مختلفة مأثورة عن علماء أصول الفقه، وكلها تتضمن معنى التقدير والمساواة؛ ولهذا، نستطيع أن نعرفه شرعاً بأنه: إلحاق فرع بأصل في حكمه، بمساواته له في علة هذا الحكم الشرعي.

ومن أمثلة ذلك إلحاق النبيذ مثلاً بالخمر الثابت تحريم تناولها بالكتاب والسنة، في حرمة شربه، ووجوب حد من يقدم على تناوله، وذلك لأنه يسكر مثلها. وكذلك كراهة كل أنواع المعاملات إذا نودي لصلاة الجمعة، بالقياس على كراهة البيع التي نص القرآن عليها في هذا الوقت، وذلك لما في هذا من الاشتغال عن الصلاة.

الاستحسان:

اشتهر الفقهاء الأحناف بالأخذ بهذا الأصل والعمل به، وإن ذهب إليه غيرهم من الفقهاء الآخرين، ولا يراد به طبعاً ما يستحسنه المجتهد بعقله من غير دليل، وإنما المراد به هو العدول في مسألة من المسائل عن حكم نظيرها إلى حكم آخر لوجه هو أقوى، فهو ليس قولاً بالرأي المجرد أو الهوى، بل هو قول لدليل رجح لدى القائل به.

ومن أدلة وجوب اللجوء إليه عند الحاجة والاحتجاج به، وجعله أصلاً من أصول الأحكام الشرعية، قوله تعالى:

﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾

(الزمر: ١٧، ١٨)

وقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن»(١).

ويجيء الاستحسان في المرتبة بعد الأصول التي سبق الكلام عليها، وهي الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وكثيراً ما انتفع به الفقهاء في التشريع، فنراهم يقولون مثلاً: هذا العمل يجوز استحساناً لا قياساً، وذلك الأمر محظور قياساً مباح استحساناً، فكأنهم يجعلونه مقابلاً للقياس.

ونجد كثيراً من المُثل على الأخذ به في كتب الفقه المختلفة في كل المذاهب المعروفة، ونشير من هذه المثل إلى ما يأتي:

١ ـ لا يصح بيع الشيء المعدوم لسبب الشك في وجوده، أو خوف النزاع في تسليمه وتسلمه، ولكن أجيزت الإجارة شرعاً مع أنها بيع منافع الشيء المستأجر، وهذه المنافع معدومة طبعاً وقت العقد، فكان القياس عدم جواز هذا العقد، ولكنه

(١) كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني.

أجيز استحساناً لتيسير المعاملات.

٢ ـ ومن هذا القبيل ما يسمى بالاستصناع، وهو أن تتعاقد مع صانع على أن يصنع لك رداء أو شيئاً من الأثاث مثلاً، فالمعقود عليه معدوم وقت العقد، ولكنه جاز استحساناً لجريان العُرف والتعامل به من الأمة جميعاً.

ومن هذا وذاك نرى أن الاستحسان أصل من أصول التشريع، وأنه كثيراً ما يلجأ إليه الفقيه، وأن العرف جرى عليه، وأن تيسير المعاملات يقتضيه؛ ولهذا، كان من الخير أن اعتبره جمهور الفقهاء أحد أصول التشريع الإسلامي.

المصالح المرسلة:

كان الإمام مالك بن أنس «رضي الله عنه» أكثر الفقهاء أخذاً بهذا المصدر من مصادر الأحكام التشريعية، وحسناً فعل؛ ذلك بأننا لو وقفنا في التشريع عند المصالح التي أمر الشارع باعتبارها، لتعطل كثير من المصالح الحقيقية للناس والأمة، هذه المصالح التي تختلف وتتجدد في كل زمان ومكان؛ ولعجزت الشريعة الإسلامية عن مسايرة التطور الذي لا نعلم له مدى ينتهي إليه، بل هو دائم مادام الزمن.

ويراد «بالمصالح المرسلة»: كل مصلحة غير مقيدة بنص من الشارع يدعو إلى اعتبارها أو عدم اعتبارها، وفي اعتبارها مع هذا جلب نفع أو دفع ضرر، بشرط ألا تعارض مقصداً من مقاصد الشريعة، ولا دليلاً من أدلتها المعروفة، وأن تكون مصلحة حقيقية ضرورية للمجتمع، أو على الأقل يكون فيها تحصيل نفع أو درء ضرر حقيقي.

وأن من يبحث في تشريعات الصحابة والتابعين، ومن إليهم من الفقهاء المجتهدين، يعرف يقيناً أن هذا الأصل قد روعي في كثير من تلك التشريعات. بل إن من هؤلاء من عمل على تأويل بعض النصوص، أو إهمال القياس، رعاية لهذه المصالح وتحقيقها، وقصداً إلى المصلحة العامة فيما سنوا من تشريعات، كما يتضح ذلك من هذه الأمثلة:

١ ـ ليس في القرآن ولا سنة الرسول نص يوجب أو يحرم جمع القرآن من الصدور والصحف والرقاع التي كان محفوظاً فيها، ومع هذا أجمع الصحابة أيام أبي بكر على كتابته وجمعه، رعاية لمصلحة الأمة، بعد أن تحرج سيدنا أبو بكر أول الأمر من هذا العمل وقال: كيف أفعل شيئاً لم يفعله الرسول؟ ولكن سيدنا عمر بن الخطاب ظل يراجعه حتى شرح الله صدره له.

٢ ـ يجب شرعاً قطع يد السارق كما هو معروف بنص القرآن، ولكن عمر بن الخطاب أوقف هذا الحد الشرعي عام المجاعة، والأمر معروف مشهور.

٣ ـ أبقى سيدنا عمر أيضاً أرض العراق وغيرها بعد فتحها بأيدي أهلها، ووضع الخراج عليهم، بدل توزيع أربعة أخماسها بين الجنود الذين فتحوها وهم أصحاب الحق في ذلك، وهذا رعاية للمصلحة العامة للمسلمين جميعاً وللأجيال الآتية منهم.

٤ ـ أجاز الفقهاء أن يفرض الوالي والإمام العادل على الأغنياء من المال ما لا بد منه، لتكثير الجند وإعداد السلاح وحماية البلاد،

وسند هذه الإجازة هو رعاية المصلحة الحقيقية للأمة.

٥ ـ ونستطيع أخيراً أن نذكر من هذا القبيل قانون الإصلاح الزراعي عندنا، مع أن من المقرر شرعاً، أن للمالك أن يملك ما شاء من الطريق المشروع، ولكن في هذا القانون مصلحة عامة حقيقية لا ريب فيها؛ ولهذا صدوره كان جائزاً شرعاً رعاية لهذه المصلحة.

٢.منزلة السنة من الكتاب:

تناولنا أصول التشريع واحداً إثر آخر، وهنا نرى من الخير أن نخص سنة الرسول وهي المصدر أو الأصل الثاني بكلمة فيها شيء من التفصيل تبين منزلتها من الكتاب، وتبيينها له، كما تبين أنها حجة في التشريع بجانبه، وذلك لخطورة الموضوع، ومن الله التوفيق.

هي الأصل الأول بعده:

جعل علماء أصول التشريع لسنة الرسول ﷺ المنزلة الأولى بعد كتاب الله العظيم، وهذا أمر طبيعي بلا ريب. لقد جاء الرسول مبلغاً عن الله في أحكامه وأوامره ونواهيه، وفرض على المؤمنين طاعته، وجعل هذا من طاعة الله سبحانه، فقال جل شأنه:

﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾

(النساء: ٨٠)

ولا عجب! فلم يكن الرسول بأحاديثه وسائر ضروب سنته إلا معلماً للمؤمنين، ومبيناً لهم كتاب رب العالمين، ولنسمع في هذا قوله تعالى في سورة آل عمران:

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾

وهنا يذكر الإمام الشافعي، رضي الله عنه، في رسالته المشهورة: أنه سمع ممن يرضى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله ﷺ.

إلا أن هذا لم يمنع في قديم الزمن وحديثه من ظهور جماعة وأفراد، لا يباليهم الله ولا المسلمون ولا أحد من ذوي الألباب، يذهبون إلى عدم اعتبار السنة طريقاً للتشريع، فيقولون: حسبنا القرآن وقد نزل بلسان عربي مبين يفهمه الناس كافة. وهذه قولة حق يراد بها باطل!

أما قديماً، فقد حكى الإمام الشافعي في كتاب «جماع العلم» قول هذه الطائفة التي رفضت الأخذ بالأحاديث كلها، وتكلم بإطالة عن الشبه التي قام عليها قول هذه الطائفة، ثم رد عليها بما أبان عن الحق ووضع الأمر في نصابه.

إن هذه الطائفة ـ التي آمن أفرادها بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، وكان من ذلك الصنف عدد كبير في أيام الإسلام الأولى ـ ترى أن القرآن نزل بلسان عربي، يسر فهمه لجميع من يعرف اللغة العربية ومناحيها في الأسلوب والبيان، وهو مع هذا قد اشتمل على كل ما يحتاج إليه المسلمون من تشريعات، وأحكام، فما الحاجة للسنة إذاً بجانبه وقد دخل فيها ما دخل من خطأ وغلط ونسيان ووضع وكذب.

كل ذلك قد حكاه الإمام الشافعي عن هذه الفئة الضالة، ثم بين وجه الحاجة إلى السنة بجانب كتاب الله؛ لتكون بياناً لا غنى عنه، بما جاء به من إجمال لابد له من تفصيل، ومطلق لابد له من تقييد، وعام لابد له من تخصيص، وهكذا إلى سائر وجوه بيان السنة للقرآن.

وفي الحديث في هذا الزمن الذي نعيش فيه، نرى جماعة عمدوا إلى حل عُرى الدين عروة بعد أخرى. فبدأوا بالطعن في الفقهاء المسلمين وآرائهم، وفي التنفير من الرجوع إليها والأخذ بها مادامت تتعارض أحياناً فيما بينها، ولأن أصحابها رجال ونحن رجال، فما لنا لا نغترف من المعين الأول الذي اغترفوا منه؟، يعنون الكتاب والسنة!.

وهذه كلمة حق يراد بها باطل كما قلنا من قبل؛ فما كان اختلاف العلماء دليلاً في يوم من الأيام على الطعن في آرائهم جملة، بل إن هذا الاختلاف دليل على حيوية الفكر، وعلى الرغبة في تمحيص الآراء، للوصول إلى الحق الذي هو طلبتهم جميعاً.

ثم انتقلت هذه الجماعة المغرضة إلى هدفها خطوة أخرى، وذلك بالطعن في أحاديث الرسول جملة، ومرة واحدة، مادام منها الصحيح والموضوع، والقوى والضعيف، ولا سبيل في رأيهم ـ هكذا يزعمون! ـ لمعرفة ما يجب اعتماده من تلك الأحاديث.

وهم يتناسون جهود علماء الحديث في هذا السبيل، هذه الجهود التي لا يعرف تاريخ الأديان والعلوم لها نظيراً في سبيل نقد ما نسب إلى الرسول ﷺ من أحاديث، وتمييز الصحيح منها من غير الصحيح.

وهم ينتهون إلى ما انتهى إليهم أسلاف ضالون، من ضرورة الاكتفاء بالقرآن، وكأن الله يبعث رسله المصطفين من خلقه لحمل كلماته وكتبه دون بيانها. وهم بموقفهم هذا يكذبون القرآن نفسه؛ إذ يقول الله ـ جل ذكره ـ في سورة النحل (آية: ٤٤) مخاطباً رسوله:

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾

وفي هؤلاء وأمثالهم في كل زمان ومكان، يقول النبي الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام: «لا ألفينّ أحدكم متكئاً على أريكته، يأتيه الأمر بما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: «لا أدرى، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه»[٢].

وفيهم أيضاً يقول أبو أيوب السختياني: إذا حدثت الرجل بسنة عن الرسول ﷺ، فقال دعنا من هذا وأجبنا عن القرآن، فاعلم أنه ضال.

بيان السنة للكتاب:

وإذا كانت سنة الرسول كما عرفنا، وكما أجمع عليه المسلمون إلا شرذمة لا قيمة لرأيهم، هي الأصل الثاني للدين والتشريع بعد القرآن، فإنها تكون بلا ريب مبينة له، ونتكلم عن هذا بإيجاز.

يذكر الإمام الشافعي: أن الله تبارك وتعالى قال:

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾

(النساء: ١٠٣)

(٢) سنن أبي داود، باب في لزوم السنة.

وقال:

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾

(البقرة: ٤٣)

وقال:

﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾

(البقرة: ١٩٦)

ثم بيّن على لسان رسوله ﷺ عدد ما فرض من الصلاة، ومواقيتها وسننها، وأنواع الزكاة ومواقيتها، وكيفية عمل الحج والعمرة..... ولهذا أشباه كثيرة في القرآن والسنة.

وبعد ذلك يذكر الشافعي أيضاً أن البيان في الفرائض المنصوصة في كتاب الله عز وجل، يكون بأحد هذه الوجوه: منها ما أتى الكتاب على غاية البيان فيه، فلم يحتج مع التنزيل فيه إلى غيره. ومنها ما لم يأت البيان فيه على غايته، فكان على الرسول بيانه، وكان على المؤمنين طاعته فيما يبينه، وهنا يبين الرسول عن الله تعالى كيف فرضه، وعلى من صار فرضاً ومنها، أخيراً، ما كان بيانه من سنة الرسول وحده بلا نص من الكتاب.

وهذا الإجمال الذي حكيناه عن الشافعي رضوان الله عليه من كتابه «الرسالة» نجد له تفصيلاً لدى العلامة ابن القيم، وذلك حين تكلم على منزلة السنة من القرآن وبيانها لما جاء فيه.

إنه يذكر، في الجزء الثاني من كتابه «إعلام الموقعين» المعروف، أن السنة مع القرآن على ثلاثة أوجه: أحدها، أن تكون موافقة له من كل وجه، فيكون ذلك من باب توارد الأدلة وتضافرها. والثاني: أن تكون بياناً لما أريد بالقرآن وتفسيراً له. والثالث: أن تكون موجبة لحكم سكت القرآن عن إيجابه، أو محرمة، لما سكت عن تحريمه.

ولا تخرج السنة عن هذه الأقسام الثلاثة، ولا تعارض القرآن بوجه ما، فما كان منها زائداً على القرآن، فهو تشريع مبتدأ من الرسول ﷺ، وتجب فيه طاعته ولا تحل معصيته ومخالفته.

وليس هذا تقديماً لها على كتاب الله، بل هو امتثال لما أمر الله به من طاعته، وطاعة رسوله، ومن المقرر أن الرسول لا ينطق عن الهوى.

ثم أخذ ابن القيم، بعد ما تقدم، في ذكر بعض ما جاءت به السنة النبوية بياناً لكتاب الله من ناحية ما سكت القرآن عن إيجابه أو تحريمه، فقال:

وكيف يمكن لأحد من أهل العلم أن لا يقبل حديثاً زائداً على كتاب الله؟ فلا يقبل حديث تحريم زواج المرأة على عمتها أو خالتها، ولا حديث التحريم بالرضاعة لكل ما يحرم بالنسب في الزواج أيضاً، ولا أحاديث خيار الشرط والشفعة والرهن في الحضر، مع أن ذلك كله زائد على ما في القرآن. كما أن الناس جميعاً قد أخذوا بهذا الحديث الثابت عنه ﷺ وهو: «من قتل قتيلا فله سلبه»[٢] وهو زائد على ما في القرآن من وجوب قسمة الغنائم كلها، بما فيها من أسلاب القتلى بين المقاتلين المسلمين جميعاً.

---

(٢) صحيح البخاري ومسلم.

الفقه الإسلامي ومدارسه

٢

للأستاذ الدكتور/ مصطفى أحمد الزرقا

المصادر التبعية

تكلمنا فيما سبق عن المصادر الأساسية الأربعة للفقه الإسلامي بصورة تعريفية موجزة جداً. مما لابد من بيانه في الكلام عن الفقه ومذاهبه للقارئ العادي غير المختص.

ويتضح مما بينا عن القياس أنه إنما يفيدنا حين وجود مسألة منصوص على حكمها في نصوص الشريعة تشابه الحادثة المقيسة في علة الحكم الذي قرره الشارع للمسألة القديمة.

فإذا لم يوجد مسألة منصوصة متحدة مع الحادثة الجديدة في علة الحكم فلا مجال لإجراء القياس، بل لابد من اللجوء إلى أدلة أخرى لإعطاء المسألة الجديدة حكمها الشرعي المناسب.

تلك الأدلة الأخرى التي يجب اللجوء إليها في هذه الحال هي ما يسمى: المصادر التبعية. وأهمها ثلاثة:

الاستحسان، والاستصلاح «أو المصالح المرسلة» والعرف «أي العادة الشائعة في المجتمع» حيث يكون للعرف تأثير في بناء الأحكام الفقهية في مجالات عديدة ولاسيما في آثار التعاقد بمختلف العقود.

فهذه المصادر التبعية للأحكام في الفقه الإسلامي تجعله قابلاً لأن يستجيب ويلبي فقهاء الشريعة في جميع العصور في ترتيب الأحكام المناسبة لكل ما يستجد من الحوادث، ولا يضيق عنها أبداً في حالة سكوت النصوص.

والمراد بالأحكام المناسبة أن يكون الحكم الذي يفتي به الفقيه ويقضي به القاضي موافقاً لمقاصد الشريعة الإسلامية في صيانة ما يسمى بالضروريات الخمس، وهي: الدين والنفس والنسل والعقل والمال.

***

الاجتهاد واختلاف الآراء الفقهية

سبقت الإشارة إلى أنه عند سكوت النصوص في الكتاب والسنة عن حكم بعض الحوادث أو المسائل ولم يوجد فيها إجماع، فلا بد عندئذ من الاجتهاد لتقرير حكم مناسب لها في ضوء المصادر الأخرى من

القياس، إن أمكن، أو من المصادر التبعية، في ضوء مقاصد الشريعة.

والاجتهاد هو: إعمال العالم المؤهل فكره وبذلُ جهده لمعرفة حكم الشريعة في الوقائع والمسائل من أدلتها الشرعية.

والمجتهد يراد به العالم بأحكام الشريعة الذي وصل إلى مستوى من الرسوخ والتبحر والإحاطة بالنصوص التشريعية في الكتاب والسنة النبوية وعلومهما وعلمي أصول الحديث وأصول الفقه مع ذكاء وفطنة وتقوى لله تعالى في سلوكه الشخصي وحياته الخاصة بحيث يطمئن عارفوه من أهل العلم إلى أنه قادر ومأمون على استنباط أحكام للوقائع والحوادث من الأدلة الشرعية، أي من مصادر الفقه. أما من لم يبلغ هذا المستوى من العلم فيجب عليه في سلوكه وأعماله وتطبيقاته العملية لأحكام الشريعة أن يتبع رأي أحد المجتهدين المسلّم لهم بمرتبة الاجتهاد.

والواقع أن للاجتهاد مجالين واسعين جداً سعة لا حدود لها:

المجال الأول: حالة سكوت النصوص ولا إجماع.

المجال الثاني: فهم النص نفسه بمنطوقه ومفهومه وعمومه وخصوصه، وهل هو مقيد أو مطلق، بمختلف احتمالاته.

فيتضح من ذلك أن الاجتهاد الفقهي في معرفة أحكام الشريعة ليس محله عدم وجود النص التشريعي فقط، بل هو ضروري أيضاً في حالة وجود النص، إذ كثيراً ما يكون فهم النص وتعيين مراد الشارع منه محتاجاً إلى اجتهاد.

وقد حصل هذا في الحالين في عهد الرسول ﷺ. فقد جاء في السيرة النبوية وكتب الحديث ما يلي:

١- أمر الرسول ﷺ أصحابه مرة بالذهاب إلى بني قريظة قائلاً: «لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة»، «أخرجه البخاري في المغازي، ومسلم وأحمد»، وفي الطريق حان وقت صلاة العصر فاختلف الصحابة، فأراد بعضهم أن يتوقفوا لأداء الصلاة خشية أن يضيق الوقت عنها ثم يتابعون المسيرة، إذ فهموا من قول الرسول ﷺ لهم: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»، أن المقصود به مجرد الحث على الإسراع وعدم التأخر أو التباطؤ. ورأى آخرون أن يتابعوا المسيرة دون توقف لأداء الصلاة عملاً بظاهر كلام الرسول ﷺ. وهكذا توقف الأولون فصلوا ثم تابعوا، وذهب الآخرون دون توقف، فلم يتمكنوا من تأدية صلاة العصر إلا بعد وقت صلاة العشاء. ولما علم الرسول ﷺ بما حصل من اختلاف آرائهم لم يقل عن أحد الفريقين: إنه أخطأ، بل أقر كلا منهما على ما فعل. «زاد المعاد لابن القيم ٣ / ١٣٠، ط مؤسسة الرسالة، وكتب السيرة النبوية في غزوة الخندق».

٢- لما بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن قاضياً ومعلماً سأله: بم تقض بينهم؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد «أي نص فيه»؟ قال: فبسنة رسوله. قال: فإن لم تجد؟ قال: اجتهد رأيي ولا آلو «أي لا أقصر في اجتهادي». فأقره الرسول ﷺ على ما قال، وحمد الله تعالى على ما وفقه إليه من الصواب[1].

وهكذا نرى من هاتين الواقعتين في عهد الرسول ﷺ أن الاجتهاد مارسه الصحابة في الحالين: حالة وجود النص لفهمه ومعرفة مراد الشارع منه، وحالة سكوت النص، بل إن الرسول ﷺ نفسه كان يجتهد، فقد نقل عنه أنه قال لأصحابه: «إني إنما أقضي بينكم برأيي فيما لم ينزل عليّ فيه وحي»، لكن الوحي يصوبه إن أخطأ، أو يقره على اجتهاده.

بدء الاجتهاد

بوفاة رسول الله ﷺ انتقل علماء الصحابة رضي الله عنهم من طور إلى طور آخر. فهم في حياته كان شأنهم تلقيا عنه، ووعيا لما يلقيه إليهم.

فشأنهم في حياة رسول الله ﷺ استماع واتباع واستفتاء له واستيضاح منه في كل ما يشكل عليهم من الأمور وبتعبير آخر: اعتمادهم على الرسول ﷺ في الفهم والتوجيه في كل شيء.

أما بعد وفاته عليه الصلاة والسلام فقد انتقلوا من طور الاعتماد إلى طور الاجتهاد، لعدم وجود ذلك المرجع، وحلول نصوصه الدستورية «القرآن والسنة» محل بياناته الشفهية لهم.

فمن ذلك الحين تولدت ضرورة إلى الاجتهاد تجاه الطوارئ والأحداث الجديدة، وكانت تلك الضرورة إلى الاجتهاد لا مناص منها، ولا حدود لها ولا أمد.

فالمسلمون بعد وفاة النبي ﷺ قد انسابوا في ملك كسرى وقيصر فاتحين لتحطيم الحواجز التي أقامها الملوك في وجه دعوة الإسلام ورسالته الإصلاحية في الأرض، فكان تحت حكم المسلمين أمم ذات حضارات عريقة في مصر وفارس وسورية ثم شمال أفريقيا، والمدن الإسلامية الكبرى بأمم وعناصر مختلفة الأجناس. فكان لابد من مواجهة أحداث ومسائل تستدعي النظر فيما يصلح لها من الحلول الفقهية، وأن يحتاج المسلمون إلى نظم وأحكام من روح الإسلام لم يكن في عهد الرسول ﷺ ما يضطرهم إليها، ويدفعهم إلى التفكير فيها.

لذلك كان لابد لصحابة الرسول ﷺ من الاجتهاد بآرائهم في حلول تلك الأمور المعقدة التي واجهتهم، وتحكيم فهمهم فيما يرونه أشبه بالمعروف من مقاصد الشريعة وقواعدها في إقامة العدل، واستقامة المصالح. مثلهم في ذلك مثل القاضي المقيد بنصوص قانون، فإن لم يجد في نصوصه ما يحكم به في قضية بين يديه طبق ما يراه أقرب إلى العدل والإنصاف. وإن ميزان قواعد العدل والإنصاف عند الفقيه

---

(١) مقدمة تفسير ابن كثير ١/٣. وقد أخرجه أحمد ٥/٢٣٦و٢٤٢، وأبو داود «٣٥٩٢» في الأقضية باب اجتهاد الرأي، والترمذي «١٣٢٧» في الأحكام. وهو ضعيف الثبوت لكن مال إلى القول بصحته عدد من المحققين منهم ابن العربي وابن القيم. وقد فصل ذلك الشيخ شعيب الأرناؤوط محقق شرح السنة للبغوي ١٠/١١٦ط المكتب الإسلامي - بيروت.

المسلم المجتهد هو المقاصد العامة للشريعة. وأن أهم المسالك الموصلة إلى الأحكام البصيرة والحلول المستنيرة هو طريقا الاستحسان والاستصلاح اللذان سبقت الإشارة إليهما، ثم رعاية أعراف الناس التي تعارفوها في بيئتهم وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية مما لا يتعارض مع نصوص الشريعة ومقاصدها العامة. «المدخل الفقهي العام لكاتب هذا البحث في الفقرات ١٤-١٩ / و٢٧-٢٨ و٤٩».

اتضح مما بينا أن الاجتهاد ضروري لابد منه لمواجهة المسائل والمشكلات المستجدة بالحلول الفقهية المناسبة في كل عصر ومصر.

وهذا الاجتهاد الضروري لا يجوز أن يمارسه إلا من كان مؤهلاً له بالعلم الكافي والفكر البصير المستنير وبحسن الأخلاق الذي قوامه استقامة السلوك الشخصي وتقوى الله تعالى، أي بتوافر ثلاثة عناصر: الكفاية العملية والنباهة الفكرية، وسلامة الدين المعبر عنها جميعاً بكلمة «العدالة»، وصاحبها الذي تتوافر فيه يوصف بأنه: عدل، أو بأنه: ثقة.

إن ممارسة الاجتهاد لابد أن تؤدي إلى نتيجة حتمية له هي اختلاف الآراء بين المجتهدين. ذلك لأن العلماء الذين يتمتعون بعلم ودراية وحرية تفكير، ولو كانوا ينطلقون من قواعد وأسس متفق عليها، لا يمكن أن تتفق آراؤهم وقناعتهم في فهم النصوص، وغرض الشارع في كل منها، وتقدير الصواب والخطأ في ذلك وهذا شيء طبيعي مشهود. فهم في هذه المواجهات الفكرية، وإن اتفقوا في كثير، لابد أن يختلفوا في كثير.

يقول العلامة الدكتور محمد حميد الله:

«كان رسول الله ﷺ يجتهد برأيه وقت سكوت القرآن، ويسمح بذلك لأصحابه أيضاً وقت حاجتهم عند سكوت القرآن والسنة... ومن البديهي أن رخصة الاجتهاد للأفراد تؤدي إلى الاختلاف فيما بينهم. وهناك أمثلة لذلك حتى في عصر الرسالة ولكن كلما اختلفت آراؤهم كانوا يراجعون رسول الله ﷺ فيفصل بينهم.. وإن ما يدهشنا هو سعة قلوب الصحابة، وتحملهم اختلاف آراء بعضهم مع بعض، وكأنهم يرون أن في الاختلاف تطور العلم».

ثم أورد الأستاذ الدكتور محمد حميد الله أمثلة وشواهد عديدة على ما ذكر بين الصحابة، وأفاد أن صحابة الرسول ﷺ لم يحاولوا أبداً أن يمنع بعضهم بعضاً من الاجتهادات الفردية[٢].

ويقول الإمام أبو إسحق الشاطبي عن هذا الاختلاف الفقهي بين الصحابة، في كتابه «الاعتصام» (٣ / ١١) ما نصه:

«روى ابن وهب عن القاسم بن محمد أيضاً، قال: أعجبني قول عمر بن عبد العزيز:

«ما أحب أن أصحاب محمد ﷺ لا يختلفون؛ لأنه لو كان قولاً واحداً لكان الناس في ضيق، وأنهم أئمة يقتدى بهم، فلو أخذ رجل بقول أحدهم لكان في سعة».

ومعنى هذا أنهم فتحوا للناس باب الاجتهاد وجواز الاختلاف فيه؛ لأنهم لو لم يفتحوه لكان المجتهدون في ضيق. فوسع الله على الأمة بوجود الخلاف الفرعي فيهم، فكان فتح باب للدخول في هذه الرحمة». انتهى كلام الشاطبي.

الأسباب التي تجعل الاختلاف في الاجتهاد أمراً حتمياً

كتب العلماء الأقدمون والفقهاء المعاصرون في بيان هذه الأسباب كتابات كثيرة جداً، ومن المؤلفين القدماء الذين بينوا تلك الأسباب العلامة القاضي ابن رشد الحفيد في مقدمة كتابه القيم: «بداية المجتهد».

ومن المؤلفين المعاصرين العلامة الشيخ محمود شلتوت عضو جماعة كبار العلماء بمصر، وشيخ الجامع الأزهر سابقاً، فقد شرح وأوضح تلك الأسباب في كتابه: «فقه الكتاب والسنة في القصاص».

وهناك مؤلفات عديدة وضعت خصيصاً لبسط الأسباب العلمية لاختلاف الفقهاء.

ويمكن رد معظم أسباب اختلاف الفقهاء إلى الأمور التالية إجمالاً:

١- قابلية النص التشريعي لأن يُحمل على أكثر من معنى واحد.

٢- تعدد وجوه القياس في المسائل القياسية.

٣- اختلاف الأئمة في بعض مصادر الفقه وفي بعض قواعد أصول الفقه التي يبتى عليها استنباط الحكم الشرعي من النصوص، كاختلافهم في حجية الاستحسان والاستصلاح.



محمود شلتوت

٤- تعارض دلالات بعض النصوص واختلاف أنظار العلماء في التوفيق بينها.

٥- اختلاف الأنظار في تقدير المصلحة والمفسدة في القضايا الاستحسانية والاستصلاحية.

٦- اختلاف قناعتهم في ثبوت بعض الأحاديث النبوية وعدمه، أي في صحة الحديث المروي أو ضعفه؛ فبعضهم يراه صحيحاً، وبعضهم يراه ضعيفاً «أي مشكوكاً في ثبوته» فلا يؤخذ به.

في ضوء ما تقدم يرى أن الاختلاف الفقهي في آراء الفقهاء هو نتيجة ضرورية لا يمكن أن لا تكون، ما دام للعلماء نظرات لا تتحد، وأفهام لا يمكن أن تتفق في كل مسألة وقضية.

وهذا الاختلاف بين العلماء المتشرعين في الفهم واستنباط الحكم بالنظر الشرعي لا يدل على تناقض في المصدر التشريعي المستنبط منه، كما لا تدل اختلافات آراء الحاكم في معنى مادة قانونية على تناقض فيها، وإنما تدل على مرونة النص، وسعة قابليته التطبيقية.

(٢) مجلة الرائد – العددان ٨٩ و٩٠- رمضان وشوال ١٤٠٦ هـ – ص٣و٥٨ و٥٩.

على أنه إذا كان الوضوح الصريح في المادية القانونية الفرعية أحسن غالباً وأصون، فلا شك أن المرونة في المصادر الأساسية الدستورية التي تستند إليها المواد القانونية الفرعية هو الأفضل، ليمكن أن تصاغ على أساسها القوانين والأحكام بحسب الحاجة ومن ثم كانت نصوص الدساتير تتميز بالعموم والإجمال.

وإن تعدد الاحتمالات في معاني النصوص الأساسية في الشريعة مع تشعب وجوه القياس يجعلان اختلاف الاجتهادات أمراً حتماً مبرماً مع كونه ثروة قيمة.

ولا يتسع المقام في هذا البحث لشرح كل واحد من هذه الأسباب وإيضاحه بالأمثلة والشواهد الواقعية. ولكن، إيضاحاً لضرورة هذا الاختلاف الفقهي ولقيمته، نضرب المثلين التاليين، أحدهما لتعدد وجوه فهم النص، والآخر لتعدد وجوه القياس في حكم القضية الواحدة:

أ- مثال من النصوص: قبض المرهون.

جاء في آية المداينة من القرآن الكريم، بعد الإرشاد إلى توثيق الديون والعقود بالكتابة والشهود، قوله تعالى:

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾

[البقرة: ٢٨٣]

فكلمة «مقبوضة» يحتمل أن تكون وصفاً يفيد معنى الشرط، فيدل على أن قبض المرهون شريطة شرعية لتمام عقد الرهن، فلا يتم الرهن بدونه نظراً لغايته التوثيقية؛ لأن الرهن غير المقبوض لا يوثق تحصيل الدين. وبذلك يفترق الرهن عن نحو البيع الذي يتم بمجرد العقد بلا حاجة إلى قبض البيع في مجلس العقد. وإلى هذا المعنى ذهب الاجتهادان الحنفي والشافعي «وسنذكر فيما بعد لمحة عن هذين المذهبين وسواهما من المذاهب الاجتهادية».

ويحتمل أن تكون كلمة «مقبوضة» وصفاً يدل على استحقاق قبض المرهون لا على شرطيته في العقد، فينعقد الرهن بدون قبض، ويجبر الراهن قضاء على تسليم المرهون إلى المرتهن إذا امتنع. وهذا ما عليه الاجتهاد المالكي.

- ثم من جهة أخرى: هل الغاية من قبض المرهون في نظر الشرع استيثاقية محضة، ككتابة صك الدين؛ لأنه جُعل في الآية تدبيراً احتياطياً لتوثيق الدين عوضاً عن كتابة الصك عن فقدان الكاتب، فيأخذ حكم الصك، ويكون المرهون في يد الدائن المرتهن أمانة غير مضمونة، فإذا تلف في يده لا يسقط شيء من الدين كما لا يسقط شيء منه بتلف الصك؟ وهذا ما عليه الاجتهاد الشافعي.

- أو هل يعتبر في قبض المرهون معنى الاستيفاء إلى جانب الاستيثاق بسبب وضع الدائن المرتهن يده على مال المدين وامتيازه بتقديمه على سائر الغرماء الآخرين في استيفاء دينه منه، فلا يكون مجرد أمانة بيده، بل هو أمانة من وجه ومضمون من وجه. «وهذا ما عليه الاجتهاد الحنفي». فإذا تلف المرهون في يد الدائن المرتهن وكانت قيمته أكثر من الدين يسقط الدين، وما زاد عن قيمة المرهون يكون أمانة غير مضمونة[٣].

فانظر في كلمة «مقبوضة» وفي سياق الآية ماذا ينشأ عنها من النظريات الفقهية والأحكام الفرعية المختلفة. واعتبر مثل ذلك في كثير من نصوص الكتاب والسنة.

ب- مثال قياسي: المال المشترك

ومن الأمثلة القياسية التي اختلف النظر في وجه قياسها بين أئمة الاجتهاد الأولين لتعدد وجوه القياس فيها مسألة طريفة، وهي ما لو تشارك شخصان ورأس مالهما «مثلاً» ثلاثة دنانير: من أحدهما دينار، ومن الآخر ديناران، واختلطت فأصبحت لا يمكن التمييز بينها، ثم ضاع منها ديناران فما حصة كل من الشخصين في الدينار الباقي؟

- سُئل أبو حنيفة عنها فأجاب أن الباقي يكون بينهما أثلاثاً، فثلثاه لصاحب الدينارين وثلثه لصاحب الدينار الثالث، جرياً مع القياس الظاهر. فإن الدنانير لما اختلطت بصورة لا تقبل التمييز أصبحت كلها مشتركة بين الشخصين بنسبة ما لكل منهما. فيكون كل دينار مشتركاً أثلاثاً بينهما، لأحدهما ثلثاه وللآخر ثلثه.

فما يهلك بعد ذلك من المال يهلك على الشركاء بنسبة حصصهم في المجموع، ويبقى الباقي مشتركاً بنسبة حصصهم أيضاً. وهذا هو قياس الحكم المسلم به في الشركة.

- وسئل عنها ابن شبرمة فأجاب بأن الدينار الباقي يكون مشتركاً أنصافاً بين الشخصين، لكل منهما نصفه؛ لأن أحد الدينارين الضائعين هو من مال صاحب الدينارين بيقين، فيهلك من حسابه فقط، ويبقى له دينار واحد كما لرفيقه. فالدينار الآخر الضائع هو المشكوك فيه أنه من مال هذا أو ذاك، فيهلك عليهما مناصفة، فيبقى الباقي بينهما نصفين.

«ضحى الإسلام للأستاذ أحمد أمين ج٢ص/ ٨٨ الطبعة الثانية».

وهذا بخلاف ما لو ضاع دينار واحد فقط، فإن الباقي يكون بينهما أثلاثاً بالاتفاق، لاحتمال أن يكون الضائع كله عائداً لكل منهما.

فأبو حنيفة اعتبر الاختلاط سبباً للشركة في الملك قياساً على سائر أسبابها، ثم لم يجعل الهلاك معدلاً للحصص؛ لأنه وقع بعد ثبوت الشركة، فأجرى فيه أيضاً قياس هلاك بعض المال المشترك.

وابن شبرمة نظر إلى أن هلاك دينار واحد يختلف عن هلاك الاثنين، لما في هلاك الاثنين من علم يقيني بنصيب أحد الشخصين في بعض الهالك، والشك في البعض الآخر، فيعطي اليقين حكمه في بعض الهالك وتعدل الحصص أولاً، ثم يجري في البعض الآخر المشكوك على قياس هلاك المال المشترك.

ج- مثال ثالث حول البيع وقت أذان

(٣) انظر في هذه الاجتهادات «بداية المجتهد» لابن رشد، كتاب الرهن.

الجمعة :

جاء في القرآن العظيم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

[الجمعة: ٩، ١٠]

وقد اختلفت آراء الأئمة المجتهدين في حكم البيع الذي يعقده أحد الناس يوم الجمعة ما بين بدء أذان الظهر «النداء لصلاة الجمعة» حتى انقضاء الصلاة.

فذهب بعض الأئمة إلى أن البيع في هذه الفترة الزمنية باطل لا ينتج أي أثر بين البائع والمشترى للنهي الصريح عنه زجراً لمن يلتهي باكتساب الربح عن المبادرة إلى الصلاة الجامعة المفروضة في هذا اليوم.

وذهب أبو حنيفة وأتباعه إلى أن هذا البيع منعقد صحيح منتج لجميع آثاره ولكنه مكروه كراهة ديانية بسبب هذا النهي. وحجته أن النهي عن هذا البيع ليس لخلل ذاتي في عملية التعاقد، كنقص في بعض أركان العقد، وإنما النهي لسبب خارجي عن أركان العقد وهو احترام الوقت الذي يجب السعي فيه إلى الصلاة الجامعة. وهذا يقتضي إثماً دينياً لفاعله، ولا ينبغي أن يؤدي بالعقد المتوافر الأركان إلى البطلان القضائي بمعناه الاصطلاحي.

هذه نماذج عرضناها وهي قليل من كثير يتبين منها أنه ليس من الممكن الحجر على فكر الفقيه المجتهد أن يفهم من النص التشريعي فهماً يراه أصوب مما فهمه غيره، أو أن يقوم بتنزيل الحوادث على القواعد القياسية عند سكوت النص تنزيلاً وتطبيقاً مخالفاً رأي غيره، ما دام يسلك منهجاً علمياً في أصول الفهم والقياس والتطبيق. فهذا الحجر على الفكر والفهم مستحيل.

هذا وإن تلك الاجتهادات الفقهية، على اختلافها الكبير، نسبتها جميعاً إلى الشريعة الإسلامية نسبة صحيحة معتبرة، وإن كانت تلك الاجتهادات في كثير من تفاريع الأحكام الفقهية متفاوتة في درجة قربها من الصواب ومسايرتها لحكمة التشريع.

وإذا اعتبر كثير من تفاريع الأحكام الفقهية في المذاهب إنما هو من عمل الفقهاء أنفسهم «كما يقول الأستاذ علي حسن عبد القادر في كتابه «نظرة عامة في تاريخ الفقه ص / ٣»، فذلك لا ينافي صحة نسبته، على اختلافه، إلى مبادئ الشريعة، واشتقاقه منها، فإن عمل فقهاء الإسلام في إيجاد تلك الأحكام التفصيلية التي لا حد لسعتها في مختلف المذاهب إنما هو اجتهاد أو تخريج على أصول الشريعة الإسلامية، ودلائل نصوصها الأساسية كما رأينا من الأمثلة المتقدمة، ومن منهج صحابة الرسول ﷺ في فهم أحكام الشريعة وتطبيقها.

خواطر تأصيلية في رحاب المقاصد والمآلات



للأستاذ / يحيى جاد

الخاطرة الأولى : في مصطلح المقاصد وما يتعلق به

١- مصطلح (المقاصد) يتضمن ثلاث دلالات أساسية يفيدها فعل «قصد» في معناه المعجمي؛ إذ يتضمن معنى (الفائدة والمعقولية)؛ لأنه ضد (اللغو).. كما يفيد معنى (العمد) الذي يضاده (السهو).. ويحمل معنى (الحكمة والقيمة) التي تنافي (اللهو والعبث):

وقد اجتهد العلامة الفيلسوف الدكتور طه عبد الرحمن اجتهاداً موفقاً للغاية في كشف هذه المعاني الثلاثة من مفهوم المقاصد، فانتهى إلى ما حاصله:

أ- المعنى الأول: يستعمل الفعل قصد بمعنى ضد الفعل «لغا» «يلغو». ولما كان اللغو هو الخلو من الفائدة أو صدق الدلالة فإن المقصد يكون على عكس ذلك «هو معقول الفائدة أو معقول الدلالة»، وهذا المضمون الدلالي - الذي ينفي اللغو- يعود إلى الفصل الذي وضعه الشاطبي تحت عنوان «مقاصد وضع الشريعة للإفهام»، وقد ناقش فيه قضيتين أساسيتين حاول فيهما إثبات صفة العربية والأمية للشريعة الإسلامية.

ب- والمعنى الثاني: يستعمل الفعل «قصد» أيضا بمعنى ضد فعل «سها» «يسهو». ولما كان السهو هو فقدان التوجه أو الوقوع في النسيان، فإن المقصد يكون على خلاف ذلك، وهو حصول التوجه والخروج من النسيان. وهذا المضمون الشعوري أو الإرادي - الذي ينفي السهو- يظهر - عند الشاطبي في موافقاته- في فصول «مقاصد وضع الشريعة للتكليف» و«مقاصد وضع الشريعة للامتثال» و«مقاصد المكلف».

ج- وفي المعنى الثالث: يستعمل فعل «قصد» ضد الفعل «لها» «يلهو»، ولما كان اللهو هو خلو من الغرض الصحيح وفقدان الباعث المشروع، فإن القصد يكون على العكس من ذلك، وهو حصول الغرض الصحيح وقيام الباعث المشروع..[1] وهذا المضمون القيمي - الذي

١- ومقصود من اللهو العبث: ذلك أن للمقاصد الأحكام غرضاً تسعى إليه، ومنطقاً تسير عليه، وأنها ليست فعلاً ولا قولاً جنونياً عبثياً أو جزافياً اعتباطياً.

ينفي اللهو- هو ما تناوله الشاطبي في فصل «مقاصد وضع الشريعة ابتداء».[2]

٢- وللمقاصد، فوق ذلك، ارتباط عضوي بأفكار ثلاث:

أ- فهي على مستوى علم الكلام - بل وكل العلوم الفلسفية، قديمها وحديثها، الميت منها والحي، والواجب دفنه منها والمفترض تدشينه وشق قنواته وحفر مجاريه - ترتبط بالعلة.

ب- وعلى مستوى علم الأصول ترتبط بالمصلحة، وتتسع دائرتها وتضيق في كثير من جنبات التراث الأصولي تبعا للموقف من المصلحة قبولاً ورفضاً، وشمولاً وتجزئة.

ج- وعلى مستوى علم الفقه ترتبط - ضمن ما ترتبط بمآلات الأفعال، إذ اعتبار المآلات - كما قال بحق الشاطبي في الجزء الرابع من الموافقات - في كل حكم واجب على الإطلاق. وهذا يعني ضمن ما يعني: استدعاء الواقع ومراعاة حال الزمان وأهله.

وارتباط المقاصد العضوي بهذه الأفكار الثلاث يجعلها من زاوية التحليل الدقيق ثلاثية الأبعاد:

أ- فهي في البعد الكلامي والفلسفي «قانون فكر».

ب- وفي البعد الأصولي «أداة استنباط» و«منهج تفسير»، و«قواعد ترجيح».

ج- وفي البعد الفقهي التطبيقي «قاعدة تنزيل»، عنصراها «المصلحة والمفسدة» بعد تعيينهما في الزمان والمكان باعتبار مقتضى الحال في تنزيل الحكم، وهذا «تحقيق للمناط» يقوم على ظنية المآل الجزئي دون أن يخل بأصل المآل الكلي وقطعيته.

ومن هذه الأفكار الثلاث يتخلق مركب هو «المقصد» الذي نرتضيه، وبه يستجيب العقل الفكري والفلسفي والتشريعي والفقهي الإسلامي للتأسيس المقاصدي.[3]

٣- لقد ندبنا الله تعالى إلى التدبر في معاني كتابه.. وأمرنا أن نعتبر بما فيه من مواضع العبرة.. ثم أجرى سنته - أقصد أحكامه- التشريعية على وجه يمهد لنا الطريق فيها إلى ذلك الاعتبار، إذ وضع بجانب أكثر الأحكام عللها وغاياتها؛ لنتخذ منها أصولاً ومقاييس نرد إليها أشباهها ونظائرها، يستوي في ذلك أمره ونهيه وإذنه وتقريره للحقوق والواجبات، فنحن إذا سمعناه يقول:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾

(آل عمران: ١٠٣)

عرفنا أن من مقاصد الشرع تأليف القلوب في هذا الشأن وغيره، وإذا سمعناه يقول:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾

(الإسراء: ٣٢)

فهمنا أنه ينهى عن كل فحش زنا كان أو غيره.. والقرآن جله - بل كله؛ كتابا متشابها، كما قال تعالى- على هذا النمط.

إذا، المقاصد أمر مركزي - بل هي الأمر المركزي الأول- في التشريع الإسلامي.. ولذلك فمراعاتها واجبة في الفتوى والقضاء والتعليم بل وفي كل شأن من شئون الأمة عاما كان أو خاصا.. ولذلك قال الإمام العز بن عبد السلام: «قاعدة: كل تصرف تقاعد عن تحصيل مقصوده فهو باطل»[4].. ولذلك أيضا قال الشاطبي: «إن عمل المكلف إذا خالف قصد الشارع من التشريع يعتبر عمله باطلا فلا يقبل ولا يثاب عليه»[5].

إذا، المقاصد هي الفكرة المحورية في النسق الفكري الفلسفي والفقهي الإسلامي، وهي تصدر في الأصل عن توجيهات نصية تحمل العقل في المجال الفكري والفلسفي والتشريعي الفقهي على إدراك أهميتها والتسليم بارتباطها الضروري برسالة خالدة تستوعب الزمان والمكان والإنسان، فهي ليست - كما يظن البعض - محاولة يائسة للخروج من مأزق تراجع النصوص الموهوم، ولا لقطعية مزعومة بين نص جامد وواقع متحرك.

المقاصد جزء من الخطاب التشريعي منذ نزوله، وعنصر أساسي في تنزيله، وآلية داخلية لتفعيله، وإذا كانت الحداثة أو المعاصرة تعني - عند دعاتها أو أدعيائها - تجاوز النص، فإن المنهج العقلي الإسلامي الراشد والرشيد يستخدم المعاصرة بمعنيين:

«الأول»: العودة إلى عصر النص - لغة وأحداثا ومفاهيم - حتى يصح فهم النص.

«والثاني»: المعايشة الكاملة لزمن المكلف بكل دوائره ومنجزاته.

وبذلك يتفاعل «التجريد الذهني للخطاب» مع «التجسيد للمخاطب».[6]

٣- إذا يمكن تعريف المقاصد على النحو التالي:

المقاصد «هي الأهداف والغايات التي شرعت الأحكام لتحقيقها؛ وهذه الأهداف والغايات هي المصالح التي تعود على العباد - أفرادا وأسرا وجماعات وأمة- في دنياهم وأخراهم، وتحصيلها إنما

٢- انظر: تجديد المنهج في تقويم التراث، د. طه عبد الرحمن، ص٩٨، ط/ ١٩٩١م، المركز الثقافي العربي بالمغرب وبيروت.

٣- انظر: نظرة في المقاصد الشرعية، د. محمد كمال إمام، مجلة المسلم المعاصر، العدد ١٠٢-١٠١، ٢٠٠١م، ص٥-٦٢م.

٤- قواعد الأحكام في مصالح الأنام، الإمام العز بن عبد السلام ٢/١٤٣، ١٩٨٦م، ط الكليات الأزهرية.

٥- الموافقات، الإمام الشاطبي ٢/٣٢٣ وما بعدها، دار الكتب العلمية - بيروت.

٦- انظر: نظرة في المقاصد الشرعية د. محمد كمال إمام، مرجع سابق.

يكون بجلب المنافع – ودفع المضار من جملته»[٧].

والمصالح جمع مصلحة، والمصلحة في عُرف الشارع – في تعريف جامع مانع لها– هي: «المحافظة على مقصود الشارع؛ ومقصود الشارع أن يحفظ على العباد دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم وعرضهم وأمنهم وحقوقهم وحرياتهم، وأن يقيم العدل وينشر التكافل بينهم، وأن ييسر عليهم حياتهم، ويرفع الحرج عنهم، ويتمم لهم مكارم الأخلاق، وأن يهديهم إلى التي هي أقوم في الآداب والأعراف والنظم والمعاملات».

فالمصلحة إذاً هي المحافظة على مقاصد الشارع ولو خالفت مقاصد الناس؛ فإن الأخيرة عند مخالفتها للأولى ليست في الواقع مصالحا، بل هي أهواء وشهوات زينتها النفوس، وألبستها العادات والتقاليد ثوب المصالح[٨].

إذاً، وبناء على جميع ما سبق، وباستقراء نصوص الشارع، يمكن القول بأن المقصد العام من التشريع – بل المقصد الأعلى للشريعة فيما أرى– هو «إنشاء أمة ممثلة لمقتضيات الإيمان، قادرة على الحضور الذي يمكن من الشهادة ويقيم الحجة ويبعث على الاحترام ويغري بالاقتداء، أمة قادرة على عمارة الأرض وتسخير الكون لتكون الحياة على الأرض طيبة لا عسر فيها ولا ضنك، تحكمها الرحمة والتخفيف والسماحة، وتتوجه إلى البناء والعمران والتواصل والتعارف»[٩].

الخاطرة الثانية:

تجديد المقاصد لتنحية النصوص![١٠]

بعض الأدعياء والدخلاء على الشريعة ندبوا أنفسهم – تحت مسميات كثيرة– من أجل تنحية النص – القرآن والثابت من السنة– عن التطبيق، وحصر الدين في المسجد.. والهدف – في زعمهم– إعادة الاعتبار للإنسان في مواجهة الخالق – تعالى سبحانه عما يقولون–.. وذروة هذا الاتجاه يعبر عنه «محمد أركون» في كتابه المترجم بعنوان «تاريخية الفكر العربي الإسلامي»، فهو يدعو إلى التجديد المقاصدي بهدف «تخفيف حدة النظرية الصارمة لأصول الفقه، وذلك باستبدال

٧– قارن بـ: المقاصد العامة للشريعة الإسلامية د. يوسف حامد العالم، ص٧٩، ط٢، ١٩٩٤م، الرياض، الدار العالمية للكتاب الإسلامي والمعهد العالمي للفكر الإسلامي.

٨– انظر: المستصفى، الإمام أبو حامد الغزالي، ٤٧٨/٢ – ٤٨٥، تحقيق د. حمزة زهير حافظ. والسياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها، أستاذنا وشيخنا الجليل د. يوسف القرضاوي، ص٩٢، ط ١٩٩٨م، مكتبة وهبة.

٩– حوار في المقاصد – تعريفات رياض أدهمي، مجلة الرشاد، العدد ٢٠، صيف ١٩٩٦م.

١٠– انظر: نحو قراءة مقاصدية أصولية، د. محمد كمال إمام، مقال منشور على موقع إسلام أون لاين، ١٥/٦/٢٠٠٨م. والميزان بين السنة والبدعة، العلامة الإمام د. محمد عبدالله دراز، ص٥٥–٥٦–٥٩–٦٢، ط١، ٢٠٠٣م، دار القلم – القاهرة.

مفهوم جديد بها وهو مقاصد الشريعة.. لأن أصول الفقه – على حد تعبيره– ساهم في دعم الفكرة القائلة بأن الإنسان لا يحسم بنفسه أي شيء من الأشياء المتعلقة بوعي وسلوك الأفراد، وأن التاريخ الحاصل خارج الحدود المثبتة من قبل الله، يؤدي إلى انحطاط المجتمع الأولي الذي أسسه النبي».

وإلى مثل ذلك ينتهي «د. حسن حنفي» في كتابه «من الواقع إلى النص»، فهو يعتبر الأدلة النقلية كلها ظنية، لا تتحول إلى يقين إلا بالدليل العقلي، وهذه القراءة – كما يقول «حسن حنفي» نفسه– تعني الإبقاء على الروح مع تغيير البدن، والمحافظة على القصد مع تطور الوحي، وهكذا تتعدد القراءات لعلم الأصول عامة وللمقاصد خاصة، ولا توجد قراءة صحيحة وأخرى خاطئة، بل هي اجتهادات متعددة تنبع من طبيعة موقف القارئ ووضعه الثقافي والاجتماعي والسياسي والأخلاقي.

وما يقوله «حسن حنفي» يعني أن يوجد القارئ ويختفي المقروء، أن يحيا الواقع ويموت النص.. وهكذا يوجد عند هؤلاء «علم للمقاصد» ليكون بديلاً لعلم أصول الفقه – لا مكملاً معيناً له– ، وليحكم السلوك البشري بعيداً عن صيغة الأحكام الشرعية.. وهكذا يتم التحديث والتجديد – بزعمهم– بعيداً عن القرآن والسنة؛ استبدالاً للعقل بالشريعة، وللواقع بالنص، وللإنسان بالله:

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾

(الكهف: ٥)

والرأي عندي أن الشريعة تصبح بذلك – أي بهذا الفهم الأعور– مجموعة من الأضداد والمتناقضات؛ إذ سيكون الفعل الواحد حلالاً أو حراماً إن شئت، والرأي الواحد حقاً أو باطلا إن أردت، وبذلك تذهب منها وحدة الحق الذي لا يختلف، وتزول عنها هيمنة الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه؛ إذ كيف يرتفع الخلاف بما فيه اختلاف ؟!!

والفقيه الحق، والمقاصدي الحق، والمجدد الحق، هو من يقف بين لاءات ثلاثة؛ فهو:

١– «لا يستطيع» أن يحبس نظره على خصوص النصوص وصور الوقائع العينية، وإلا لبقيت الشريعة – بهذا المنهج غير السديد– ناقصة محتاجة إلى التكميل.

٢– «ولا يستطيع» أن يعتمد على المقاصد والكليات وحدها، وإلا خرج به ذلك إلى اللين الذي لا عزيمة فيه، والسعة التي لا حدود لها، حتى تصبح الشريعة بهذا المنهج غير السديد– (وضعاً عقلياً) لا (هدياً إلهياً)؛ ولأبطلنا إرسال الرسل وإنزال الكتب؛ بل لم الحاجة إذن إلى الاعتقاد بوجود إله !

٣– «ولا يستطيع» أن يأخذ بأي من هذين النظرين السابقين شاء (أي بلا ربط بينهما)، وإلا لتناقضت الأنظار وكانت

الفوضى والاضطراب في التشريع.. وكيف يجرؤ مسلم - صح إسلامه - على أن يهدر أحد جانبي الشريعة - النصوص ومقاصد تلك النصوص - وهي كل ما يتجزأ؟.. إذن لم يبق أمام طالب الهدى الإسلامي إلا أن يلتمس جادة يلتقي عندها هذان الجانبان.

وهذه الجادة هي (مقاصد الشريعة الجامعة بين الأصول الكلية والنصوص الجزئية)؛ إذ الشريعة ما وضعت الخصوص إلى جانب العموم، والنصوص إلى جانب المقاصد، إلا ليحتكم المسلم إليهما، ويلتمس الهدى فيهما، ويستخرج الحق من بينهما في كل مسألة. فلا غنى له عند النظر في القواعد والمقاصد، عن الاسترشاد بنماذجها من الجزئيات القولية والفعلية، لكيلا يذهب التأويل إلى ساحة الهوى والضلال البعيد.. ولا مناص له كذلك عند النظر في النصوص والوقائع الجزئية من الاستئناس بأسبابها وظروفها وغاياتها -إن كانت معللة؛ والشريعة كلها عبادات ومعاملات تقبل التعليل والتقصيد- لينزلها منازلها ويضع كل حكم في الموضع الذي يناسبه، وليعتبر بها في أمثالها من المسائل المتجددة، وأن يمتنع عن تطبيقها حرفيًا إذا اختلفت طبيعة الحوادث وتغير مناط الحكم فيها، وإلا لرجعت به المحافظة على ظواهر النصوص أحيانًا إلى حد الإخلال بمقاصد التشريع، وإيقاع الحرج في الدين وقد نفاه الله عنه.[16]

إذن لا بد من الجمع بين هذين الطرفين على وجه تتحقق به تلك «المرونة» التشريعية التي هي خاصة الدين الإسلامي.. وهي لا تعني معنى التساهل وقبول الامتداد مطلقا، ولكنها - أي «المرونة» - تؤدي في اللغة معنى مركبًا من معنيين، هما اللين والصلابة معا، وهذا هو المعنى الذي نقصد إليه، وهو الذي ينطبق تمام الانطباق على الشريعة الإسلامية؛ فهي قابلة للامتداد في الفهم والعمل إلى الحد الذي لو جاوزه المرء وأوغل فيه بغير رفق اشتدت عليه وغلبته وأفلت حبلها من يده وتركته بمكان قصيّ عنها، يقول ﷺ: «إن الدين يسر» (صحيح البخاري) ويقول: «إن هذا الدين متين» (مسند أحمد)، فذلك الوسط الذي لا إفراط فيه ولا تفريط هو الصراط المستقيم، وهو السنة - أعني النهج - الذي كان عليه رسولنا الأكرم الكريم ﷺ.

والأمانة - التي هي خطاب التكليف - لا تتجسد واقعًا إلا في حدود «الوسع».. وفكرة «الوسع» تجعل «خطاب التكليف» متعدد التطبيقات ومتجدد التلقي، وتجعل «قواعد فقه التنزيل» مغايرة لـ«قواعد فقه الخطاب»؛ لأن «التنزيل» يتقدمه الوعي بالتاريخ - ماضيه وحاضره - ، و«الخطاب» هو بطبيعته يتجاوز الزمان والمكان.. وهنا يمكن - بل يجب - القول بأن «الواقع التنزيلي» لا يتجرد من «الخطاب»، و«لا يمكنه أن يتفلت منه»، أي «لا يمكنه تعطيل النص».

نعم، (مقاصد الشريعة وكلياتها) «تغني» عن «حفظ التفاصيل والجزئيات» - وهي فوق ذلك ومعه بمنزلة «القطب من الرحى»، و«الأساس من المبنى»؛ فهي «منشأ التفاريع»، و«إليها انصراف الجميع» (أقصد جميع التشريعات) - ، ولكنها «لا تستغني» - بأي حال من الأحوال - عن التفاصيل والجزئيات في بناء عناصرها، ولا في «تنزيل» أوامر النص ونواهيه، وإلا فمن أين أتينا بهذه المقاصد وتلك الكليات؟!

فقه المقاصد منهج علمي استقرائي تحليلي استنباطي

أ - ينطلق من فلسفة هدتنا إليها نصوص الشرع؛ وهي أن جميع ما وردت به الشريعة الغراء معقول المعنى، وذو حكمة بالغة، سواء عقل المجتهدون كلهم تلك الحكمة، أو عقلها بعضهم وغفل عنها آخرون.. فكل حكم ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فهو مشتمل على حكمة معقولة المعنى، ظاهرة أو كامنة، تظهر بمزيد تدبر للنص، أو بسير في الأرض، أو بنظر في الوقائع.

ب - ويتغيا الربط بين الأحكام الجزئية؛ ليستخلص منها ويصوغ قانونا عاما دلت عليه تلك الأحكام.. ومن ثم يصبح هذا القانون الكلي مقصداً من مقاصد الشريعة، فيتحول إلى حاكم على الجزئيات قاض عليها (بمعنى وجوب أن تفهم تلك الجزئيات في ضوئه وعلى هدى منه.. واستحالة أن يأتي نص، أو أن يُفهم، بما يناقضه أو يتناقض معه) بعد أن كان يستمد وجوده منها.. فهو يشبه من هذا الجانب - كما عبر د/ طه العلواني في بعض ما كتب - القانون العلمي التجريبي الذي يستخلصه الباحث من استقراء الجزئيات، ثم يحكم به - فيما بعد - على كل مشابه لها - سواء شمله الاستقراء العلمي التجريبي أو لم يشمله، أو اكتُشف بعده، أو جدّ حدوثه مع تطور العلوم والمعارف - .

إن «مرونة النص» (أقصد القرآن والسنة) إنما تكون بأبعاده المقاصدية - المشار إليها آنفاً - التي تفتح الفضاء الواسع أمام «العقل الفقهي» للتجديد بغير «تقييد لحركة العقل» أو «تبديد لثروة النصوص»..

﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾

(المطففين: ٢٦)

الخاطرة الثالثة: في فقه المآلات

من جميل أقوال الشاطبي قوله: «النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعاً كانت الأفعال موافقة أو مخالفة؛ ذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل فقد يكون مشروعا لمصلحة فيه تستجلب أو لمفسدة تدرأ ولكن له

١٦- للتفصيل انظر: في فقه الاجتهاد والتجديد - دراسة تأصيلية تطبيقية، يحيى جاد، ص ٦٠٠-٦٦٩، ط٢، ٢٠١٠م، دار السلام - القاهرة.

مآل على خلاف ما قصد فيه وقد يكون غير مشروع لمفسدة تنشأ عنه أو مصلحة تندفع به ولكن له مآل على خلاف ذلك فإذا أطلق القول في الأول بالمشروعية فربما أدى استجلاب المصلحة فيه إلى مفسدة تساوى المصلحة أو تزيد عليها فيكون هذا مانعا من إطلاق القول بالمشروعية وكذلك إذا أطلق القول في الثانى بعدم المشروعية ربما أدى استدفاع المفسدة إلى مفسدة تساوى أو تزيد فلا يصح إطلاق القول بعدم المشروعية.. وهو مجال للمجتهد صعب المورد إلا أنه عذب المذاق محمود الغبّ جار على مقاصد الشريعة»[١٢].

وبرهان ذلك :

١ - قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(الأنعام : ١٠٨)

٢- وقول رسولنا الأكرم : «لولا أن قومك حديثو عهد بشرك، لهدمت الكعبة. فألزقتها بالأرض. وجعلت لها بابين بابا شرقيا وبابا غربيا. وزدت فيها ستة أذرع من الحجر. فإن قريشا اقتصرتها حيث بنت الكعبة» (أخرجه مسلم).. فها قد ترك رسولنا الأكرم بناء البيت على قواعد إبراهيم لحدثان عهد القوم بالكفر؛ لئلا يُفتنوا.

٣- وقوله ﷺ في تعليل انصرافه عن قتل المنافقين المشهود عليهم بالكفر: «دعه؛ لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه» (أخرجه البخارى). فها قد ترك رسولنا الأكرم قتل أهل النفاق المشهود عليهم بالكفر لما في ذلك من تنفير الناس من الإسلام؛ إذ لم يفارق هؤلاء (الجامع السياسى) لدولة النبى (ﷺ) وإن فارقوه في (الجامع العقدى) - وتفصيل الكلام في هذا الأمر له مقام آخر إن شاء الله-.

إذاً، فقه المآلات - والبعض يسميه بـ (فقه التوقع)، ولا مشاحة في الاصطلاح، وإن كان التعبير الأول أدق وأوضح وأكثر شيوعاً- نظرة عقلية تستشرف المستقبل قبل وقوعه، من خلال النظر في الواقع، بتوقع أبعاد الحكم كلها وجوانبه المختلفة من حيث ما يفضى إليه، وحال الناس في بيئاتهم المختلفة معه، وما سيؤول إليه الأمر في المستقبل القريب والبعيد.

إذاً، فقه المآلات فقهٌ واجب لا يستقيم الاجتهاد دونه، وعلى الفقيه تقليب نظره في مآلات اجتهاده، وأبعاد الحكم الذى يخرج به في ضوء نظرية المصالح والمفاسد بضوابطها الشرعية، فلابد أن يتوقع الفقيه - كما قلنا قبل سطور- أبعاد الحكم وجوانبه المختلفة وما يمكن أن يفضى إليه، وما سيؤول إليه الأمر في المستقبل، وينتج عن ذلك أن ما غلب على ظن الفقيه أنه سيؤدى مخالفة للأصول فلابد أن يُدفع باسم رعاية المصالح - الذى يستلزم في ذاته دفع المفاسد- والله أعلم.

١٢- الموافقات، الشاطبي، ٥/١٧٧-١٧٨، ط مشهور حسن آل سلمان.

معاجم المصطلحات الفقهية المعاصرة في العربيــــة

الأستاذ الدكتور/ خالد فهمى
كلية الآداب، جامعة المنوفية

لا ينكر أحد من دارسى الحضارة العربية في الميادين المختلفة ما أحدثه الإسلام من أثر جبار في ترقية الحياة العقلية والعلمية التى ظهرت آثارها باللسان العربى.

وكان مما استقر في باب الحقائق العلمية المتعلقة بدراسات الثروة اللفظية أن الإسلام أوجد تيارا كاملا مستقلا نما باللسان العربى في جانب الألفاظ حتى عرف باسم فريد هو: الكلمات العربية الإسلامية.

وقد فطن القدامى من اللسانيين العرب. فأفرد ابن فارس اللغوى ٣٩٥هـ بابا بعنوان الأسباب الإسلامية في كتابه الصاحبى في فقه اللغة ص ٧٨-٨٦ وهو ما زاده بسطا وتفصيلا السيوطى ٩١١هـ في كتابه المزهر في علوم اللغة ١/٢٩٨ .

وهو الأمر الذى فحص حديثا وثبت حقيقة متواترة عند اللسانيين المعاصرين على اختلاف توجهاتهم وتنوع اهتماماتهم.

ومن هذه الحقيقة نستطيع أن نقرر أن للإسلام أثرا في رقى النشاط العلمى في باب التصنيف المعجمى عموما و المختص خصوصا حتى يصح و لا يصح غيره أن نقول إن المعاجم التى اهتمت ببيان المصطلحات الفقهية لم تكن لتوجد لولا شريعة الإسلام العظيمة.

وقد اتسع باب التصنيف في المعاجم الفقهية في التراث العلمى عند المسلمين قديما اتساعا ظاهرا و يمكن رصد العلامات التالية في هذا السياق:

١- كانت العناية بالمصطلحات الفقهية في التصنيف المعجمى المختص أمراً ثابتا مستقراً منذ القرن الرابع الهجرى.

٢- مثلت المعاجم الفقهية القديمة المذاهب أو المسالك الفقهية المختلفة التى عرفها التاريخ العلمى عند المسلمين في هذا الباب.

فظهر من المعاجم الفقهية التى تشرح ألفاظ الفقه الحنفى: طلبة الطلبة في الاصطلاحات الفقهية على ألفاظ كتب الحنفية، للنسفى السمرقندى ٥٣٧هـ والمغرب في ترتيب المعرب، للمطرزى ٦١٠هـ والحدود الفقهية لمصنفك الحنفى ٨٧٥هـ وحدود الفقه لابن نجيم

المصري الحنفي ٩٧٠هـ و أنيس الفقهاء للقونوي ٩٧٨هـ.

كما ظهرت معاجم فقهية تشرح ألفاظ الفقه عند المالكية من مثل: لغات مختصر ابن الحاجب، للأموي المالكي ٨٠٦هـ و شرح حدود ابن عرفة للرصاع ٨٩٤هـ و شرح غريب ألفاظ المدونة للجبي، وغرر المقالة في شرح غريب الرسالة، للمغراوي.

كما ظهرت معاجم فقهية تعالجه من وجهة النظر الشافعي من مثل: الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي، للأزهري ٣٧١هـ وحلية الفقهاء لابن فارس ٣٩٥هـ وشرح ألفاظ المهذب لابن البرزي ٥٦٠هـ والنظم المستعذب في شرح غريب المهذب لابن بطال الركبي ٦٣٠هـ و اللفظ المستغرب للقلعي ٦٣٠هـ والمغني في الأنباء عن غريب المهذب لابن باطيش ٦٥٥هـ وتهذيب الأسماء واللغات للنووي ٦٧٦هـ وتحرير التنبيه للنووي ٦٧٦هـ أيضا و المصباح المنير للفيومي ٧٧٠هـ.

كما صنفت معاجم فقهية تشرح الألفاظ الفقهية عند الحنابلة من مثل: المطلع على أبواب المقنع للبعلي الحنبلي ٧٠٩هـ.

وكل تلك المعاجم الفقهية التراثية مما وصل إلينا و اعتنى بها تحقيقا و درسا[1] تمتعت بكثير من أصول صناعة المعجم كما يقررها المعاصرون.

١ - اتجاهات التصنيف المعاصر في معاجم المصطلحات الفقهية

وقد كان لثبات الشريعة و استمرارها وهما الخاصتان الملازمتان لها أثره في استمرار التصنيف في لغة الفقه في العصر الحديث، وبالإمكان تمييز ثلاثة اتجاهات أساسية حكمت مسارات التصنيف في معاجم المصطلحات الفقهية المعاصرة هي كما يلي:

أ- معاجم فقهية خاصة بباب فقهي معين.

ب- معاجم فقهية خاصة بمصطلحات مذهب أو مسلك فقهي مفرد.

ج- معاجم فقهية جمعت المصطلحات الفقهية كلها ومن دون تقيد بمذهب أو مسلك فقهي بعينه، أو بمجال فقهي معين.

وفيما يلي بيان بأشهر هذه المعجمات الفقهية موزعة على الترتيب الذي صنعناه:

معاجم المصطلحات الفقهية الخاصة بباب أو مجال فقهي معين.

وقد عرف التصنيف المعجمي المعاصر عددا من المعجمات التي اعتنت ببيان مصطلحات بعض الأبواب الفقهية من دون غيرها لأغراض تعبدية مخصوصة أو لأغراض علمية، من أمثلتها:

١ - قاموس الحج و العمرة من حجة النبي وعمره، لأحمد عبد الغفور عطار طبعة دار

١- انظر في توثيقها و طبعاتها و مناهجها كتاب: تراث المعاجم الفقهية في العربية: دراسة لغوية في ضوء أصول صناعة المعجم والمعجمية للدكتور خالد فهمي، مكتبة إيتراك، بالقاهرة سنة ٢٠٠٣م.

العلم للملايين بيروت ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٢ - قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، للدكتور محمد عمارة طبعة دار الشروق، القاهرة، بيروت سنة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٣ - معجم المصطلحات الاقتصادية في لغة الفقهاء للدكتور نزيه حماد طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن / فيرجينيا سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٤ - مصطلحات الفقه المالي المعاصر: معاملات السوق، تحرير وإشراف يوسف كمال محمد طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

ملاحظات على هذه القائمة

يتضح من تأمل عنوانات هذه المعاجم الفقهية اقتصارها على العناية بمصطلحات أجزاء معينة من لغة الفقهاء، و قد كان هذا الاجتزاء محكوما باعتبارات معينة منها ما هو تعبدي بالمعنى الخاص للتعبد على ما يظهر في مقدمة قاموس الحج والعمرة، يقول مصنفه ص٨ والذي حملني على تأليف هذا المعجم أني رأيته أسرع في الإجابة عن المناسك من الكتب المؤلفة فيها، فهو يجيب السائل عن مسألته وحدها، أو عن المسائل التي يريدها في إيجاز يغنيه عن الإسهاب.. وجعلته متوسط الحجم ليسهل حمله في اليد أو ليحمله المحرم في عيبته أي في الحقيبة الصغيرة التي يحملها و فيها احتياجاته الضرورية.

و هذا غرض نبيل لم يظهر في الأغراض التي صنف من أجلها معاجم الفقه قديما.

ومن الاعتبارات التي أظهرت هذا القسم من معجمات مصطلحات الفقه أيضا الاعتبار العلمي أو المعرفي بمعنى أنها ظهرت تلبية لمطالب ضبط مفاهيم طائفة من المصطلحات التي تعرضت للتشويه أو الاتهام أو الانتقاص لا سيما بعد أن اتسع استعمالها، وشغب ضد كثير منها المتمسون للفكر الغربي، فكان مثل قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية يهدف إلى الانتصاف للفكرة الإسلامية من خلال المعجمية التي تجمع مصطلحات الاقتصاد في هذه الحضارة المتميزة؛ لتواجه مخاطر الافتتان بالفكرة غير الإسلامية التي يروج لها من خلال ما يترجم من معاجم للمصطلحات الاقتصادية!

يقول الدكتور محمد عمارة في مقدمة قاموسه ص ١٦ إن الباحث في الميدان الاقتصادي وكذلك القارئ في هذا الميدان والذي لا يجد لديه سوى قاموس عربي قد ترجم إلى العربية لابد وأن يرى كل قضايا هذا العلم الاقتصادي وتطبيقاته بعيون المذهبية الاقتصادية الغربية التي تتميز عنها المذهبية الإسلامية في المنطلقات والمعايير والغايات.. وهنا تبرز الرسالة الفكرة والمهمة الحضارية لهذا القاموس الذي يتبنى الفكرة الاقتصادية المتلبسة بالإسلام. وهو ما يعود إلى تأكيده الدكتور طه جابر العلواني أيضا في تقديمه لمعجم الدكتور نزيه حماد.

ومن جانب كان ظهور هذا النوع من

المعاجم الفقهية الجزئية تيسيرا على الاقتصاديين المتعاملين مع الفقه الإسلامي، والفقهاء المتعاملين مع قضايا الاقتصاد إلى فهمها واستيعابها.

وربما تفسر كثرة المعاجم الفقهية في الجانب الاقتصادي بسبب من هجمة المفاهيم الاقتصادية الواردة من الغرب وتبني الأنظمة العربية لفلسفات الغرب الاقتصادية مما استشعر معه علماء الإسلام المعاصرون حاجة الثقافة الإسلامية المعاصرة إلى هذه المعاجم الفقهية الجزئية المعاصرة لتقاوم بها ما يمكن أن يظهر من مخاطر هذا الهجوم للمفاهيم الغربية في ميدان الاقتصاد في البلدان الإسلامية.

معاجم فقهية خاصة بمصطلحات مذهب فقهي بعينه

مثلما رأينا في مفتتح هذه المقالة توزع المعاجم الفقهية التراثية على المذاهب الفقهية المستقرة، وإن تفاوتت أعدادها من مذهب فقهي إلى غيره، انتصارا للمذهب الشافعي فقد امتد هذا التيار التراثي حتى العصر الحديث؛ إذ ظهرت معاجم تعنى بالمصطلحات الفقهية الخاصة بمذهب فقهي معين، ومن أشهر أمثلة هذا النوع:

١- معجم فقه ابن حزم الظاهري من إصدار لجنة موسوعة الفقه الإسلامي، بكلية الشريعة بجامعة دمشق، دمشق سنة ١٩٦٦م للمنتصر الكتاني.

٢- معجم الفقه الحنبلي، للدكتور محمد رواس القلعه جي طبعة موسوعة الفق الإسلامي، بالكويت سنة ١٣٩٣هـ وهم يعنيان بالمصطلحات مع المسائل.

٣- دليل السالك للمصطلحات والأسما في فقه الإمام مالك، للدكتور حمدي عبد المنعم شلبي طبعة مكتبة ابن سينا بالقاهرة، سنة ١٩٩٠م.

ملاحظات على هذه القائمة:

يتضح من عنوانات أمثلة هذا القسم من المعاجم الفقهية المعاصرة توجهها نحو تحقيق غايتين متداخلتين معا هما:

أ- الغاية التعليمية التي تسعى إلى التيسير على طالبي الفقه المذهبي، فتأتي هذه لنوعية من المعاجم الفقهية لتعين على تحقيق هذه الغاية.

ب- الغاية العلمية التي تتوجه إلى خدمة التراث الفقهي المنتمي إلى مذهب بعينه إما لفتور العناية به كما نرى في معجم فقه ابن حزم، و إما لتيسير الإفادة من تراث معرفي تراكم وامتد خلال العصور، ونتج عن هذا الامتداد تشعب معاني كثير من اصطلاحاته، أو بسبب من الإقبال على طلب مذهب بعينه؛ لأن نظاما معاصرا تبنى مقولاته الفقهية كما حدث مع المذهب الحنبلي.

معاجم فقهية جامعة

ويمثل هذا الاتجاه أقدم الاتجاهات الثلاثة التي رصدناها هنا إذ ظهرت منذ فترة سابقة على الاتجاهين السابقين. و أشهر أمثلة هذا الاتجاه ما يلي:

١- التعريفات الفقهية، للمفتي محمد السيد عميم الإحسان المجددي البركتي طبعة مدينة دكا وكراتشي، بباكستان الشرقية سنة ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م.

٢- القاموس الفقهي لغة و اصطلاحا، لسعدي أبو جيب طبعة دار الفكر، بدمشق، سنة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م

٣- معجم لغة الفقهاء محمد رواس قلعه جي والدكتور حامد صادق قنيبي طبعة دار النفائس، بيروت سنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٤- معجم المصطلحات و الألفاظ الفقهية، للدكتور محمود عبد الرحمن عبد المنعم دار الفضيلة، بالقاهرة سنة ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

ملاحظات على قائمة الاتجاه الثالث

يلاحظ على قائمة هذا الاتجاه سعيها إلى تحقيق الاستيعاب على مستوى جمع المصطلحات الفقهية من دون النظر إلى المذهب الفقهي من جانب، وعلى مستوى اعتبار التصانيف الفقهية في العصور الإسلامية المختلفة.

كما يلاحظ على معاجم هذا الاتجاه التوسع في ضم المصطلحات الفقهية التي تتعرض للمشغلة الأساسية لعلم الفقه باعتباره علما بالأحكام المالية أو الفرعية المستنبطة من أدلتها التفصيلية، مع العناية بعدد من المصطلحات الأصولية و الدينية العامة؛ بحيث نستطيع أن نقرر أن المعاجم الفقهية في هذا الاتجاه سعت نحو تحقيق الصبغة الموسوعية.

٢ -غلبة منهجية التيسير على مناهج ترتيب المصطلحات في المعاجم الفقهية المعاصرة

المتأمل للمناهج التي اتبعها مصنفو المعاجم الفقهية المعاصرة في اتجاهاتها الثلاثة يلاحظ توزعها على المدارس التصنيفية التالية:

أ - مدرسة الترتيب الهجائي الألفبائي وفق منطوق المصطلح في الاستعمال.

ب - مدرسة الترتيب الهجائي الألفبائي الجذري.

ج- مدرسة الترتيب الموضوعي.

ونستيق فنقرر أن القراءة الإحصائية لنماذج المعاجم الفقهية المعاصرة التي عينها البحث هنا دالة على رجحان كفة استعمال المنهجية التيسيرية على المستعملين، بمعنى أنه إذا كانت المعاجم الفقهية الموزعة على الاتجاهات الثلاثة يبلغ مجموع عددها أحد عشر معجما، فإن تسعة منها طبقت منهج الترتيب الألفبائي وفق منطوق المصطلح في الاستعمال من دون تجريد أو رد إلى الجذور أو الأصول، على حين طبق معجمان اثنان فقط منهج الترتيب الموضوعي في ترتيب المصطلحات أو الألفاظ الفقهية.

وكانت النسبة المئوية لتطبيق منهجية التيسير ٢٧,٧٪ تقريبا.

والنسبة المئوية لتطبيق منهجية الترتيب الموضوعي ١٨,٢٪ تقريبا.

والنسبة المئوية لتطبيق الترتيب الألفبائي الجذري ١٪ تقريبا.

منهج الترتيب الألفبائي وفق شكل استعمال المصطلح الفقهي.

رتب أصحاب المعاجم الفقهية المعاصرة المصطلحات فيها وفق الترتيب الهجائي الألفبائي المشرقي: أ/ب/ت/ث/ج/ح/خ....... على حسب الحرف الأول المكون للمصطلح من غير تجريد أو رد للجذور أو الأصول.

و قد سار على هذا المنهج من معاجم الاتجاه الأول:

١- قاموس الحج والعمرة، لأحمد عبد الغفور عطار

٢- قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، للدكتور محمد عمارة.

٣- قاموس المصطلحات الاقتصادية في لغة الفقهاء، للدكتور نزيه حماد.

وسار عليه من معاجم الاتجاه الثاني:

١- معجم فقه ابن حزم الظاهري.

٢- معجم الفقه الحنبلي.

وسار عليه من معاجم الاتجاه الأخير:

١- معجم التعريفات الفقهية، للمجددي.

٢-معجم لغة الفقهاء، للدكتور محمد رواس قلعه جي والدكتور حامد صادق قنيبي.

٣- معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، للدكتور محمود عبد الرحمن عبدالمنعم.

وقد فطن أصحاب هذه المعاجم جميعا إلى ما يحققه تطبيق هذا المنهج الترتيبي من تيسير على المستعملين، وعبروا عن هذا الوعي في مقدمات هذه المعاجم المختلفة، ومما يدل على ذلك قول أحمد عبد الغفور عطار ص٩ ورتبت كلمات المعجم حسب ترتيب حروف الهجاء، ولم أجرد الكلمة من المزيد ولم أعدها إلى أصلها بل أبقيت الكلمة كما تنطق؛ لأن تجريدها إلى الأصل.. قد يعسر على أكثر القراء وهو ما عبر عنه الدكتور محمد عمارة في ص٢١ حيث يقول: فلقد آثرنا ترتيب مواده على النحو الذي ييسر الاستفادة منه والانتفاع به لأوسع جمهور.

وهو ما نص عليه المجددي البركتي بقوله ص١٤٧: وبعد فهذا معجم يشرح الألفاظ المصطلح عليها بين الفقهاء.. مرتبة على الحروف الهجائية؛ ليسهل تناولها وتعاطيها.

وهو ما نص عليه الدكتور محمد رواس قلعه جي و الدكتور حامد صادق ص٦ والدكتور محمود عبدالرحمن عبد المنعم ص١٠.

منهج الترتيب الألفبائي الجذري التجريدي

رتب معجم واحد من المعاجم الفقهية المعاصرة التي رصدتها هذه المقالة المصطلحات الفقهية التي جمعها وفق مراعاة الأصول بعد تجريدها من الزيادات وردها إلى الأصول، وهو معجم القاموس الفقهي، لسعدي أبو جيب؛ يقول ص ٩ تتخلص خطة العمل فيما يأتي: تقديم الفعل الأصلي للكلمة. ولم يتضح السر وراء استعمال هذا المنهج ، و يبدو لنا

أنه أراد ألا يشعث مشتقات الأصل الواحد في مواضع متفرقة؛ طلبا لاجتماعها في حيز واحد، وهو بعض ما يحققه هذا المنهج الترتيبي التجريدي، بحيث تضمن اجتماع الكلمات التالية في حيز واحد وهي أبر / أبر بالتشديد / التأبير ومثل ذلك في أثم / وأثم بالتشديد / التأثيم / تأثم / آثام / الإثم / الأثيم / المأثم

وعلى الرغم من اشتراط هذا المعجم كما جاء في خطة العمل ص٩ تقديم الأفعال على الأسماء فإن ثمة فرقا وقع في تطبيق هذا المبدأ على ما نرى مثلا في وضع مصطلح التأثيم قبل تأثم.

منهج الترتيب الموضوعي

عرفنا فيما سبق أن ثمة معجمين طبقا ترتيب المصطلحات الفقهية الواردة فيهما وفق تجميع كل مجموعة يربطها رابط من معنى متحد في حيز واحد، وهو ما يسمى في التصنيف المعجمي بمنهج الترتيب الموضوعي الذي يراعي وضع كل مجموعة من الألفاظ يجمعها حقل معنى واحد في فصل مستقل، وهذان المعجمان هما:

- دليل السالك للمصطلحات والأسماء في فقه الإمام مالك.
- مصطلحات الفقه المالي المعاصر: معاملات السوق.

حيث رتب دليل السالك المصطلحات في أقسام ثلاثة هي:

١- المصطلحات الفقهية وضمن هذا القسم وزعت المصطلحات كما يلي المصطلحات العامة / مصطلحات الأبواب الفقهية / الألفاظ المتفقة المبنى المختلفة المعنى.

٢- المؤلفات وضمن هذا القسم وزعت المصطلحات كما يلي: الأمهات والدواوين / المتون والمختصرات وشروطها / المؤلفات الأخرى.

٣- الأعلام و ضمن هذا القسم توزعت مادته كما يلي: الأعلام التي تنطق مصحفة / الأسماء التي يختلط بينها / باقي الأعلام.

وواضح من هذا المنهج الترتيبي بروز غايتين أصليتين تقفان وراءه وهما الغاية التعليمية التي تتوخى خدمة طلاب الفقه المالكي والغاية العلمية البحثية التي تسعى نحو إزالة كثير من صور الالتباس التي تحيط بعدد من المصطلحات.

وقد أحسن الدكتور حمدي شلبي صانع هذا الدليل عندما صنع فهرسا هجائيا ألفبائيا غير تجريدي في آخره للتيسير على المستعملين.

أما مصطلحات الفقه المالي المعاصر فقد حدد محرره الغاية من ترتيبه موضوعيا بغاية علمية معرفية معتبرة بقوله ص ١٥: وخطتنا تعتمد في البداية على: تقديم المصطلحات من خلال هيكل النظام الاقتصادي الإسلامي لأن ذلك يبين بوضوح مكانها كجزء من خلال كل، فتظهر الصلة العضوية بينها وبين غيرها من المصطلحات ثم يقول ص١٧ وهدفنا تقديم معجم لمصطلحات الاقتصاد الإسلامي مرتب حسب الموضوع.

وقد توزعت مصطلحات هذا المعجم على أربعة أقسام كما يلي:

١- مصطلحات المشكلة الاقتصادية الموارد / الحاجات.

٢- مصطلحات الإعمار - الإنتاج المال / العمل.

٣- مصطلحات الرزق - توزيع الدخل الرزق المكتسب التوزيع الوظيفي / الرزق الحسن التوزيع الشخصي.

٤- مصطلحات السوق - نظرية القيمة.

ولم يغب عن ذهن محرر المعجم الغاية التيسيرية على المستعملين وهو ما تجلى في صناعة فهرس ألفبائي غير تجريدي في ختام المعجم، وهو وعي برز من بداية المعجم حيث تقول المقدمة ص١٧: ثم يرتب في الفهرسة مع الترتيب الموضوعي على أساس الحروف الأبجدية الألفبائية؛ فتيسر للباحث الحصول على المصطلح مباشرة في صفحته، و في نفس الوقت يستطيع إن أراد أن يتبين صلته بالموضوع ككل.

ولا يخفى ما في هذه الغايات جميعا من روح إسلامية أصيلة تسعى لتحقيق التيسير، وهو أصل حاكم في التصور الإسلامي، وتسعى كذلك لبناء هيكل مفاهيمي منضبط يمكن صاحبه من خدمة الفكرة الإسلامية ومقاومة غيرها.

٣- امتداد يعرف قيمة التراث ويرعى تواصل الأمة الحضاري والمعرفي.

من الملاحظات الأساسية على منهجيات ترتيب المصطلحات الفقهية في المعاجم الفقهية المعاصرة أنها جاءت امتدادا للمنهجيات التي اتبعتها المعجمية العربية العامة والمختصة على السواء، فاتجاه ترتيب المصطلحات وفق كل مصطلح من غير تجريد سبق استعماله وتطبيقه في المعجمية المختصة التراثية على ما نجد أمثلة عليه في التعريفات للجرجاني ٨١٦هـ والتعريفات والاصطلاحات لابن كمال باشا ٩٦٠هـ.

كما سبق استعماله في المعاجم الفقهية القديمة على ما نجد مثالا له في معجم لغات مختصر ابن الحاجب، للأموي ٨٠٦هـ.

صحيح أنه شاع استعماله حديثا بدرجة واضحة لاعتبارات العصر ولاعتبارات المبالغة في التيسير.

من جانب ثان فقد عرفت المعجمية القديمة تطبيق المنهج الألفبائي التجريدي منذ زمن مبكر جدا إلى أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجريين من أيام معجم الجيم لأبي عمرو الشيباني ٢٢٤هـ ثم تطويره على يد أبي عبيد الهروي صاحب الغريبين ٤٠١هـ والزمخشري في أساس البلاغة ٥٣٨هـ.

كما عرف تطبيقه في المعجمية المختصة كذلك منذ زمن مبكر جدا.

ومن جانب أخير فإن منهج الترتيب الموضوعي سبق استعماله في المعجمية المختصة قديما كما يظهر في مفاتيح العلوم للخوارزمي ٣٨٧هـ وفي المعاجم الفقهية التراثية كما عند الأزهري ٣٧٠هـ في الزاهر، وابن فارس ٣٩٥هـ في حلية الفقهاء، والنسفي ٣٧٠هـ وطلبة الطلبة، و غيرهم كثيرون.

ونحن نرى في هذا الامتداد أثرا مهما لتواصل الأمة الإسلامية معرفيا وحضاريا، ولتراكم التاريخ العلمي فيها، بسبب من خدمة الكتاب العزيز.

كما نرى في انتشار منهجية الترتيب الهجائي غير التجريدي ميلا ظاهرا إلى الإمعان في التيسير والمبالغة فيه، وهو استثمار جيد لأصل إسلامي عريق، نلمح آثار الصحوة الإسلامية في تفشيه وانتشاره المعاصر في الميدان العلمي عموما والمعجمي خصوصا.

٤- امتداد العناية بالمصطلحات الفقهية في غير المعاجم الفقهية في العصر الحديث

ولم يقف أمر العناية بالمصطلحات الفقهية جمعا وترتيبا وتعريفا عند حدود معاجم المصطلحات الفقهية المعاصرة باتجاهاتها المتنوعة، وإنما ظهرت تجليات أخرى لهذه العناية في ميدان قريب الصلة بالمعجمية، ونقصد به ميدان الموسوعات الفقهية المعاصرة ونمثل على هذه العناية بأشهر موسوعتين في العصر الحديث وهما:

١- موسوعة الفقه الإسلامي التي يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، بالقاهرة، الذي بدأ في إصدارها سنة ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.

وقد رتبت مداخلها هجائيا ألفبائيا من غير تجريد و اعتنت في مفتتح كل مدخل بتعريف المصطلح الفقهي عند المذاهب المختلفة.

ومن أمثلة ذلك تعريفها لمصطلح الآبق ٣ / ١ بعد مدخل الآبد، حيث عرفته لغويا ثم عرفته عند الحنفية بأنه انطلاق العبد تمردا أي خروجا عن الطاعة، ثم واصلت تعريفه عند المالكية والشافعية والحنابلة والظاهرية والشيعة والزيدية والإباضية ٤ - ٣ / ١.

٢- الموسوعة الفقهية التي أصدرتها وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

وقد رتبت مداخلها على الشائع من مناهج الترتيب المعاصر كسابقتها ففي باب الهمزة مثلا تتوالى المصطلحات كما يلي: (أئمة / آباء / آبار / آبد / آبق / آخر / آجن، إلخ والموسوعة حريصة في بداية كل مدخل على تعريف المصطلح لغة واصطلاحا، ومن أمثلة ذلك تعريفها لمدخل (الآجن ٩٤ / ١ بقولها و المراد به في الفقه ما تغير بعض أوصاف أو كلها تقصد الماء بسبب طول المكث.

إن هذه العناية بالاصطلاحات الفقهية في المعاجم الخاصة بها أو في غيرها من الموسوعات لتدل أكبر دلالة على ما يتمتع به علم الفقه من الأهمية التي تعكس حاجة المسلمين في كل عصر إليه. ومقصودنا هنا بيان العناية بمعاجم المصطلحات الفقهية المعاصرة وتلبيتها للحاجات المعرفية الطارئة، وهو المفهوم من العنوان السابق.

وتدل كذلك على نموه، والحاجة الماسة إلى تطويره، وتطوير خدمة مصطلحاته، وهو بعض ما تجلى في هذه القراءة للمعاجم الفقهية المعاصرة[٢].

٢- المقصود هو معاجم المصطلحات الفقهية، لا المعاجم الفقهية بمعنى المدونات الفقهية التي تجمع الآراء والمسائل لفقيه من الفقهاء أو لمذهب فقهي من المذاهب.

القرضاوى وفقه المعاصرة

بقلم: أ.د حلمى محمد القاعود

فى السبعينيات من القرن الماضى تعرفت على فكر الشيخ يوسف القرضاوى، بداية من كتابه «الحلال والحرام فى الإسلام»، فقد كانت دار الاعتصام التى كنت أتعاون معها، تسعى لطبع الكتاب مرة أخرى، وكانت هناك بعض الأطروحات بخصوص الكتاب الذى أحدث صدى كبيرا لدى القراء فى ذلك الحين.. رحت أتتبع ما يكتبه القرضاوى فى مجلات عربية، منها مجلة الأمة ومجلة الدوحة القطريتين، وكان لهما فى السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضى شهرة كبيرة بين القراء، وكان ما يكتبه القرضاوى يحظى باهتمام كبير، وخاصة لدى شباب الصحوة الإسلامية، الذين كانوا يتلقون كتاباته بوصفها توجيهات يجب تنفيذها أو مناقشتها لمعرفة ما ينبغى اتباعه أو تطويره.

ولا ريب أن العقود الثلاثة الأخيرة شهدت ازدهار الشيخ القرضاوى فى مجال الحركة الإسلامية، بوصفه حجة فى الفتوى، وموجها للحركة الإسلامية، وصاحب رأى فيما يجرى من أحداث عامة تخص الإسلام والمسلمين، وعزز ذلك عدم ارتباطه بنظام سياسى أو سلطة حكومية، تتدخل عادة فى الفتوى أو ترعى فريقا من علماء الدين، الذين أطلق عليهم فى مرحلة ما علماء السلطة وفقهاء الشرطة.

أضف إلى ذلك أن الشيخ القرضاوى بما يملك من قدرة على التعبير، ومخاطبة الجمهور بمستوياته المتعددة، جعله يصبح المرجعية شبه الوحيدة؛ خاصة بعد رحيل عدد من العلماء المرموقين أمثال الشيخ سيد سابق والشيخ الغزالى، والشيخ الشعراوى والشيخ عطية صقر وأمثالهم؛ وقد عزز ذلك ظهوره فى قناة الجزيرة.

القرضاوى يتميز بتكوينه الفكرى والثقافى الذى مكنه من رؤية العالم الإسلامى بصورة مغايرة من خلال الفقه الذى تخصص فيه، ليقوم بدوره فى خدمة العصر، أو ليقدم فقه المعاصرة، دون أن يكتفى بالوقوف على تخوم استعادة ما وصل إليه من علماء السلف الصالح خاصا بزمانهم ومكانهم، ويجتره فى برودة لا تبالى بما يجرى أو يحدث.

فالواقع العربى والإسلامى يمتلئ بكثير من القضايا والظواهر التى تحتاج إلى عقل جرىء، يناقش ويحلل، ويفكر ويقدر، ويقيس ويستنبط، ويواجه ما يجرى بروح الفقيه الأصولى الذى ينطلق من وعى عميق بعلم الأصول، ومواضعات الواقع بما فيه من تطورات وتغيرات تفرض أن تكون هناك إجابة واضحة تبين للناس كيف يتصرفون على ضوء عقيدتهم وإيمانهم.

لقد شهدت العقود الثلاثة الماضية كثيرا من الأحداث والظواهر والمواقف التى تفرض على المسلمين أن يلتمسوا الصواب فى الفتاوى وآراء الفقهاء كى يتأكدوا أنهم يسيرون على طريق الصواب، ويبتعدون عن الخطأ.

كانت هناك ثورة إيران الإسلامية، والاحتلال السوفيتى لأفغانستان، ومصرع الرئيس السادات، واحتلال اليهود الغزاة للبنان الذى كانت تعصف به الصراعات الدموية قتالا بين الطوائف، ومطاردة للمقاومة الفلسطينية، والحرب العراقية الإيرانية، واحتلال صدام للكويت وحرب القوات الأجنبية والعربية لتحريرها، ثم انتشار العنف بين بعض الجماعات الإسلامية والسلطات وصلت إلى حد الحرب الأهلية الدامية كما جرى فى الجزائر، وتفجيرات نيويورك، والحرب الأمريكية على أفغانستان والعراق، ثم ثورات الربيع العربى التى انطلقت مع نهايات العام ٢٠١٠م، ومازالت تهدر حتى كتابة هذه السطور.



د. يوسف القرضاوى

كانت هناك ظواهر أخرى عديدة اجتماعية واقتصادية، طفت على سطح الحياة العامة مثل ما يسمى بالتطرف أو التشدد، والزواج السرى أو العرفى، وما عرف بزواج المسيار، وقضايا الحج الصعبة مثل رمى الجمار، وذبح الأضاحى وتكدسها فى المشاعر المقدسة وعدم الاستفادة منها جيدا، وقضايا البنوك والفوائد والاستثمار، وأوضاع المسلمين فى الدول غير الإسلامية، وكيفية التعرف على أمور دينهم، والتوافق مع المجتمعات الأجنبية، والظروف المختلفة فى بعض بلدان العالم مثل طول النهار وقصر الليل، وعلاقة ذلك بفريضة الصوم.. وغير ذلك من أمور نشأت نتيجة لاختلاف الزمان والمكان.

وكان القرضاوى فى تلك المعمعة - إذا صح التعبير فارسا لا يشق له غبار، حيث تصدى للإجابة عن كثير من الأمور المتعلقة بهذه الأحداث والظواهر والأحوال منطلقا من وعيه بدور العالم الإسلامى فى زمانه،

ومن خلال توظيفه لعلمه وثقافته ليدلى بدلوه فى فقه المعاصرة قويا وراسخا ومقنعا، مما جعل لفتاوى الشيخ القرضاوى ومواقفه حضورا قويا فى وجدان الشعب المصرى، بل الشعوب العربية والإسلامية جميعا.

فقه المعاصرة الذى اتسم بالعلم العميق والشجاعة المسئولة، وجد مساندة من العلماء الأصلاء الذى لم يخضعوا لسلطة مستبدة أو حكومة ظالمة أو دولة ذليلة تابعة للغرب الاستعمارى وإرادته.

وهكذا يمكن القول إن القرضاوى سطع نجمه فى الواقع العربى الإسلامى، وتأهل ليكون قيادة فعالة فى صناعة الربيع العربى الذى بدأ بثورة تونس ثم مصر، وامتد إلى أقطار أخرى.

والسؤال الآن كيف صار القرضاوى عالما عاملا مؤثرا على هذا النحو؟

لقد تربى القرضاوى تربية ريفية تضع للدين مكانته العظمى فى المجتمع، وكان التعليم الأزهرى غاية يسعى إليها الناس فى زمانه بوصفه ميزة اجتماعية فضلا عن كونه انتماء دينيا تفاخر به الأسر والعائلات.. فمنذ ولد الشيخ الدكتور يوسف عبد الله القرضاوى فى قرية صفط تراب بالمحلة الكبرى غربية يوم ٩ / ٩ / ١٩٢٦م، ثم بدأ وعيه بالعالم من حوله؛ فقد اتجه إلى محفظ القرآن الكريم حيث حفظ القرآن وجوّده وهو دون العاشرة؛ ثم أتم تعليمه فى الأزهر الشريف.. وحصل على الشهادة العالية من كلية أصول الدين عام ١٩٥٣م، وعلى إجازة التدريس عام ١٩٥٤م، وكان ترتيبه الأول فى الشهادتين، وفى عام ١٩٦٠م حصل على الدراسة التمهيدية العليا المعادلة للماجستير فى شعبة علوم القرآن والسنة من كلية أصول الدين، ثم أحرز الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٧٣م.

وفى فترة التكوين تربى فى مدرسة الإخوان المسلمين، وتفتح أفقه الفكرى والثقافى، وسطعت مواهبه الأدبية فى الخطابة والشعر والكتابة، ثم اصطلى بنار الانتقام من النظام العسكرى الفاشى الذى طغى فى البلاد وأكثر فيها الفساد، وكان نصيب القرضاوى أن يعتقل مع إخوانه أكثر من مرة، ويعرف طريقه إلى معتقل الطور، ثم يلاحق ويحاصر مثل بقية الإسلاميين.

لقد ترك عمله فى مراقبة الشئون الدينية بالأوقاف، وإدارة الثقافة الإسلامية بالأزهر، وذهب إلى قطر ليعمل مديراً لمعهدها الدينى، فرئيساً مؤسساً لقسم الدراسات الإسلامية بكلية التربية، فعميدا مؤسساً لكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ومديراً لمركز بحوث السنة والسيرة الذى كلف بتأسيسه ولازال يديره، وكأن الله أراد له أن يجد مكانا أرحب ليمارس الدعوة على نطاق أوسع، على نطاق العالم كله فقد شارك فى المجامع الفقهية فى مكة والأردن وأكسفورد وباكستان والخرطوم، وشارك فى ندوات عديدة على مستوى العالم، وكان عضوا فاعلا فى مجال المصارف الإسلامية، وأخيرا صار رئيس الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين.

هذا النشاط المكثف للقرضاوى كان يصب فى خدمة الإسلام والمسلمين فى العصر الراهن على ضوء القضايا والأحداث المستجدة التى باتت تشغل الناس، وتحتاج إلى فقه يعى ما تريده الأمة، ويتطلب موقفا شرعيا تنطلق من خلاله إلى آفاق العمل والإنتاج والإبداع.

لقد استطاع القرضاوى أن يفيد من دراسته المتخصصة للفقه وأصوله، فى خدمة المسلمين من خلال ما أسميه فقه المعاصرة، وهو فقه يتجاوز ما عرفه الفقهاء من السلف الصالح واقتصر على قضايا العبادات، والمعاملات التى كانت ترتبط بالظروف المغايرة لزماننا؛ إلى القضايا المعاصرة بما فيها من مواقف وظروف مختلفة تماما عن المواقف والظروف التى عرفها القدماء، ولذا كان جل مؤلفاته وكتاباته وخطبه ومحاضراته وأحاديثه التلفزيونية وغيرها، تصب فى الأفق المعاصر بكل أطيافه المتباينة، ليؤصل الرؤية الإسلامية الدقيقة فى التعامل معها والحكم عليها.

إن نظرة عابرة إلى مؤلفات القرضاوى التى بلغت الثمانين أو تجاوزتها تشير إلى مدى اهتمامه وتركيزه على هموم المسلم المعاصر، ومشكلاته، والبحث عن حلول لها، وتيسير العبادات والمعاملات على المسلمين وفقا لوعى عميق بمقاصد الشريعة وأصول الفقه.

من أهم كتبه التى تناولت الحركة اليومية للمسلم فى تعاملاته وسلوكياته وعباداته: الحلال والحرام فى الإسلام، ومعها كتبه فى الإجابة عن أسئلة المسلمين حول الحج والعمرة والأضحية وتيسير الفقه للمسلم المعاصر وفقه الغناء والموسيقى وفقه اللهو والترويح وعوامل السعة والمرونة فى الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامى بين الأصالة والتجديد، والاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط.

ومن كتبه التى عالجت قضايا المال والفقر والاقتصاد بصفة عامة: مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام وبيع المرابحة للآمر بالشراء وفوائد البنوك هى الربا الحرام ودور القيم والأخلاق فى الاقتصاد الإسلامى ودور الزكاة فى علاج المشكلات الاقتصادية.

وقد اهتم اهتماما عظيما بحركة الصحوة الإسلامية وترشيدها خوفا عليها من يد البطش المتربص، فكتب:

الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والإسلامى، وأين الخلل؟، وأولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة، وفى فقه الأولويات، دراسة جديدة فى ضوء القرآن والسنة، الإسلام والعلمانية وجها لوجه، الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة

والمعاصرة، ملامح المجتمع المسلم الذى ننشد.. غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى، شريعة الإسلام صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان، الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد، التطرف العلمانى فى مواجهة الإسلام، من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا، أمتنا بين قرنين، ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق، تاريخنا المفترى عليه، الإسلام والعنف، نحن والغرب: أسئلة شائكة وأجوبة حاسمة، الدين والسياسة، الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم، درس النكبة الثانية، لقاءات ومحاورات حول قضايا (الإسلام والعصر) جزآن، قضايا معاصرة على بساط البحث، الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، الحل الإسلامى فريضة وضرورة، أعداء الحل الإسلامى.

ومع اهتمام القرضاوى بالقضايا المعاصرة، ومعالجتها فى أكثر من جانب، فإنه لم ينس أن يتناول العديد من القضايا الأخرى، فكتب فى الرقائق والتفسير، والمنتخبات من الكتب القديمة، والسنة النبوية الشريفة والتربية والعقيدة والسلوك والتراجم وغيرها، بالإضافة إلى جمع خطبه الكثيرة، ومعظمها ألقاه فى مسجده الذى يصلى فيه الجمعة بمدينة الدوحة بقطر.

ثم إن الرجل شاعر وأديب له أكثر من ديوان شعر يعبر من خلال شعره عن عواطفه ومشاعره تجاه الواقع والكون والأحداث والناس، كما خطا خطوة مقدمة حين صاغ بشعره المسرحية الشعرية، ثم خطا خطوة أخرى حين كتب السيرة الذاتية، وسجل فيها صفحات من حياته وتاريخ مصر، وجماعة الإخوان المسلمين التى انضم إليها فى شبابه.

وكل كتاباته وخطبه وأشعاره ومحاضراته تشعرك أن الرجل تفرغ للعلم والمعرفة والتعليم والكتابة، وكأنه لا يتحرك خارج غرفة مكتبه، وهذا من فضل الله عليه وعلى الناس، أن بارك له فى وقته ليستثمره هذا الاستثمار المفيد، وبهذه الطريقة التى لا يقدر عليها إلا بعض المؤسسات الكبيرة.

وقد جاءت ملاحظات باحث جاد تتبع إنتاج القرضاوى الفقهى والفكرى، لتؤكد رؤيته لفقه المعاصرة من خلال التصور الإسلامى، ولتصب فى خدمة المسلمين المعاصرين. لقد ألف وصفى عاشور أبو زيد كتابين، يتناول فيهما كتابات القرضاوى واجتهاداته الأول: رعاية المقاصد فى منهج القرضاوى.. رؤية استقرائية تحليلية تطبيقية، القاهرة، دار البصائر، ٢٠١١، ط ١، و«القرضاوى الإمام الثائر.. دراسة تحليلية أصولية فى معالم اجتهاده للثورة المصرية»: وصدر عن دار سلطان للنشر بالولايات المتحدة، ٢٠١١م.

فى الكتاب الأول؛ رعاية المقاصد فى منهج القرضاوى: رؤية استقرائية تحليلية

تطبيقية، ويمهد المؤلف لموضوعه بالحديث حول فكرة التعليل عند القرضاوى ثم يخصص الفصل الأول لتوضيح ماهية المقاصد عند القرضاوى: معناها، طرق الكشف عنها، ترتيبها، وأولوياتها مع التركيز على ترتيب المقاصد وأولوياتها، ويتناول فى الفصل الثانى ملامح التجديد المقاصدى عند القرضاوى، ويتضمن مراجعات فى الكليات ومراجعات فى المقاصد عامة، وفى الفصل الثالث، يتحدث عن مجالات التجديد وتفعيل المقاصد عند القرضاوى، مثل: المقاصد والقرآن الكريم والمقاصد والسنة النبوية والمقاصد ودارسو الشريعة، والمقاصد والاجتهاد، المقاصد والفقه، المقاصد والفتوى.

ويقرر المؤلف: أن تعليل الأحكام هو الأساس الذى تبنى عليه المقاصد الشرعية، يتأسس على إثباتها إثبات القول بالمقاصد الشرعية.. والتعليل المصاحب للأحكام هو المدخل المفتوح لقراءة وعى الشيخ بالمقاصد الشرعية، وهو الأمر الذى يستفيض استفاضة ظاهرة فى كتابات القرضاوى، وهى كتابات تعكس وعيه بتراث الأمة فى خدمة المقاصد، ويتمثل فى اقتباسات القرضاوى من مؤلفات الغزالى والشاطبى وابن القيم وغيرهم.

ويضاف إلى ذلك معايشة العلماء المعاصرين الذين اهتموا بفكرة المقاصد اهتماما واضحا من خلال معايشتهم قضايا الأمة المعاصرة وهمومها، ومنهم: محمد الغزالى، ومحمود شلتوت، ومحمد عبد الله دراز، ومحمد يوسف موسى، ومحمد المدنى، ومحمد أبو زهرة، وعلى الخفيف، ومحمد مصطفى شلبى، وعبد الوهاب خلاف، وعلى حسب الله، ومصطفى الزرقا، ومصطفى السباعى، والبهى الخولى، والسيد سابق!!

وتتشعب مباحث الكتاب، ولكن المؤلف يهتم بتقسيمات القرضاوى للمقاصد الشرعية وتوزيعها على: الضروريات، والحاجيات، والتحسينات، وهو التقسيم الذى أظهره الغزالى؛ ويتحول عند القرضاوى إلى ما يسمى «السلم المقاصدى» بحيث يكون أمر الضروريات متعلقا بما يرد من أحكام مشددة، وعقوبات مغلظة، ثم تنزل الحاجيات لتستوعب أحكام الوجوب والتحريم غير المغلظة، ثم تتراجع التحسينات لتتعلق بأحكام الندب والكراهة.

والكتاب حافل بالقضايا التى تشغل الفقيه المعاصر، ويظهر من خلالها جهده الفقهى والفكرى، خدمة الأمة والمجتمعات الإسلامية.

أما الكتاب الثانى «القرضاوى الإمام الثائر.. دراسة تحليلية أصولية فى معالم اجتهاده للثورة المصرية»، فهو يعالج دور القرضاوى وإسهاماته فى إنجاح الثورة المصرية التى اشتعلت فى يناير ٢٠١١، والكتاب يضم أربعة فصول، تناول الأول منها «المنطلقات الشرعية لخطاب القرضاوى

فى الثورة»، ويتضمن الفصل الثانى «القواعد الشرعية الحاكمة لخطاب القرضاوى فى الثورة»، متحدثا عن عشر قواعد: حق الأمة مقدم على حق الفرد.. لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة.. ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.. المشقة تجلب التيسير.. الأمور بمقاصدها.. حقوق الله مبنية على المسامحة والمساهلة، وحقوق العباد مبنية على المشاحة والمضايقة.. للوسائل أحكام المقاصد. تصرف الحاكم على الرعية منوط بالمصلحة.. كل ما خالف أصلا قطعيًا مردود.. درء أعظم المفاسد بارتكاب أخفها، وجلب أعظم المصالح بتفويت أدناها.

ويتضمن الفصل الثالث الخصائص العامة لخطاب القرضاوى فى الثورة، وهى ست خصائص: الربانية، الوسطية، المواكبة، الشمولية، الاستيعاب، البيان.

ويقدم الفصل الرابع الآثار الداخلية والخارجية لخطاب القرضاوى فى الثورة، من خلال المشهد وما قيل فى الصحف المحلية والعالمية، وجاء فى قسمين، الأول: التأثير الداخلى، الذى سلط الضوء على نواح خمسة، شملت: الثوار، والعلماء والدعاة، والجيش والمجلس الأعلى للقوات المسلحة، وناحية الإعلام والصحافة المصريين، والشعب المصرى كافة. بينما تناول القسم الثانى التأثير الخارجى، وجاء عرضه من خلال الإعلام المسموع والمقروء.

وقد تضمنت ملاحق الكتاب: بيانات القرضاوى، وتصريحاته للفضائيات، وخطبه بعد أن تم تفريغها وتحريرها، وتخريج آياتها وأحاديثها، والتعليق عليها.

ومن العناوين التى تناولت الثورة والقرضاوى: ثورة أذهلت العالم، ثورة ربانية، ثورة قدوة ومعلِّمة، ثورة أخلاقية سلوكية حضارية، ثورة وطنية شعبية حقيقية، ثورة من أجل المقاصد الإنسانية، ثورة أظهرت القدرة على التجديد والإبداع، ثورة حصاد عقود وإن أطلق شرارتها الشباب، ثورة ميزت مواقف الحكومات والعلماء.

والكتابان اللذان ألفهما وصفى أبو زيد يشيران بصورة قاطعة إلى الدور الجليل الذى يقوم به الشيخ القرضاوى فى خدمة الإسلام والأمة ومصر خاصة من خلال مفهومه الأصولى المتقدم للإسلام وغاياته، مما جعله يسبق غيره من العلماء الذين وقفوا عند حدود التاريخ، ولم يتجاوزوه إلى الواقع المعاصر. فضلا عن كونه قد كشف علماء السلاطين، الذين خذلوا الأمة فى وقت الحاجة، بل كانوا عونا للمستبدين والطغاة، بما قدموا من فتاوى غبية، أو فتاوى حرام!

ويمكن الآن أن نتعرف على بعض النماذج التى قدمها القرضاوى من أفكار تتسق مع فقه المعاصرة من خلال بعض كتبه، التى عالجت قضايا الأمة الحيوية برؤية ناضجة، وتصور متكامل.

- يتبع -

الفتح الإسلامى لمصر

٢



للأستاذ الدكتور/ محمد سليم العوا



د. محمد سليم العوا

القائد الفاتح

قائد الفتح الإسلامى لمصر هو عمرو بن العاص بن وائل السهمى، يقول عنه الإمام الذهبى: «داهية قريش، ورجل العالم، ومن يضرب به المثل فى الفطنة والدهاء والحزم»(١).

والتعرف على عمرو بن العاص ضرورى لمن أراد التعرف على حقيقة مسلكه في فتح مصر. وقد تذكر أن معركة فكرية/ تاريخية شغلت الناس فى مصر منذ سنوات قليلة عندما كتب بعض أهل الأدب والفن كلاماً غير صحيح، وغير حسن، عن عمرو بن العاص، ورد على ذلك عدد من المثقفين والمفكرين، ثم نسى الأمر كله. وليس من همنا استرجاع هذا الخلاف الفكرى الأدبى، لكن الذى يعنينا هنا هو الوقوف على طرف من أخبار عمرو دال على شخصيته، منبئ عن كفاءاته وقدراته التى أهلته للقيادة منذ أسلم إلى أن لقى ربه. وسوف نقف بهذه الأخبار إلى فتح مصر لأن لعمرو حياة حافلة بعد ذلك، لاسيما منذ صحب معاوية بن أبى سفيان وقاتل معه عليا - رضى الله عنه - وكان الحكم الذى فوّضه معاوية فى التحكيم بينه وبين على رضى الله عنهم أجمعين. ولكن موضع ذلك سيأتى عند درس الحضارة الإسلامية ومسيرتها، إن شاء الله(٢).

(١) الحافظ الذهبى، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، دمشق ١٤٠٢هـ=١٩٨٢م، ج٣ص٥٥.

(٢) أعنى عند إكمال سلسلة محاضراتنا المعنونة «النهضة الإسلامية.. حضارة تتجدد» التى بدأتها فى جمعية مصر للثقافة والحوار قبل هذه المحاضرات عن الفتح الإسلامى لمصر.

كان بيت عمرو بن العاص فى قريش من البيوتات العريقة، وأبوه العاص بن وائل كان من سادات قريش، وهذا الأب هو سبب عقد حلف الفضول الذى شهده رسول الله ﷺ قبل البعثة، وقال عنه: «لقد شهدت فى دار عبدالله بن جدعان حلفاً، ما أحب أن لى به من حُمر النعم، ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت»[3]؛ وذلك أن رجلا من زبيد قدم ببضاعته من بلاده «اليمن»، فاشتراها منه العاص بن وائل ثم لم يدفع ثمنها، فاستعان الرجل عليه برجال من بنى عبد الدار، ومخزوم، وجمح، وسهم «قبيلة العاص» وعدىّ بن كعب، فأبوا أن يعينوه على العاص بن وائل لقدره فى مكة وشرفه فيها. فصعد الرجل على جبل أبى قُبيس عند طلوع الشمس، وقال شعراً - كعادة العرب كلما حزب أحدهم أمر - عرّف فيه بظلمه:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته
ببطن مكة نائى الدار والنفر
إن الحرام لمن تمت كرامته
ولا حرام لثوب الفاجر الغدر[4]!

فقام الزبير بن عبد المطلب، من نادى قومه حول الكعبة، وقال: «ما لهذا مترك»[5]. واجتمعت هاشم وزُهرة وتيم بن مرة فى دار عبدالله بن جدعان وعقدوا حلف الفضول، تعاقدوا فيه على ألا يبيت بمكة مظلوم من أهلها أو غيرهم، وأنصفوا الزبيدى من العاص بن وائل.

وفى السيرة النبوية أن أصحاب النبى ﷺ لم ينكروا على الحسين بن على - رضى الله عنه - عندما دعا بحلف الفضول. تقول الرواية: إن رجلا ظلم الحسين بعض حقه فى أمر كان بينهما، فقال له الحسين: «لتنصفنى أو لأقومنّ فى مسجد رسول الله ﷺ، ثم لأدعون بحلف الفضول. فقال جمع من الصحابة والتابعين: «لنقومن معه فلننصفنه - أو حتى ينصف - أو نموت جميعاً»[6].

***

وعندما ظهرت دعوة الإسلام ببعثة النبى ﷺ كان العاص بن وائل، ممن ناصبوها العداء، وكان ممن خاطبوا أبا طالب - عم النبى ﷺ - فى أن يخلّى بينهم وبين ابن أخيه، وكان ممن عرضوا على النبى ﷺ أن يسودوه، أو يملكوه، عليهم على أن يرجع عن الإسلام والدعوة إليه فأبى ﷺ. والعاص بن وائل أحد الذين قالوا إن النبى ﷺ أبتر عندما مات له ولد ذكر، فنزل فيهم قوله تعالى:

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾

(الكوثر: ٣)[7].

وهو أحد المستهزئين الخمسة الذين نزل فيهم قول الله تعالى:

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾

(الحجر: ٩٤-٩٥)

والمستهزئون الخمسة هم: الأسود بن المطلب أبو زمعة؛ والأسود بن عبد يغوث ابن وهب؛ والوليد بن المغيرة؛ والعاص بن وائل؛ والحارث بن الطلاطلة بن الحارث بن ملكان[8].

وقد كُفى رسول الله ﷺ أذى العاص ابن وائل بطريقة عجيبة: كان العاص قد ضجر مما يجرى فى مكة من انتشار الدعوة الإسلامية، وضاق صدره بعجز المشركين عن الحيلولة بين المستضعفين وبين الدخول فى الإسلام، وعجزهم عن منع محمد ﷺ من الدعوة إليه، فخرج من مكة إلى الطائف يريد أرضاً له هناك، فبرك به حماره عند شجرة فى الطريق، ونزل العاص لمثل ما ينزل له الراكب، فأصابته شوكة فى مقدم قدمه فمات منها.

هذا هو أبو عمرو بن العاص مكانةً فى قريش وعداوةً للإسلام. فكيف كان الابن من هو بلاء فى الإسلام ونصراً للدين؟!

حدّث عمرو عن نفسه قال: «كنت للإسلام مجانباً معانداً، حضرت بدراً مع المشركين فنجوت، ثم حضرت أحداً فنجوت، ثم حضرت الخندق فنجوت، فقلت فى نفسى كم أوضع؟» أى كم أتأخر وأتمهل فى أمر نفسى فتزيد خسارتى؟» والله ليظهرن محمد على قريش. فلحقت بمالى بالوهط[9] وأقللت من الناس «أى من لقائهم» فلم أحضر الحديبية ولا صلحها وانصرف رسول الله ﷺ ورجعت قريش إلى مكة. فجعلت أقول: يدخل محمد قابلاً[10] مكة بأصحابه، ما مكة لنا بمنزل ولا الطائف، وما شىء خير من الخروج، وأنا بعد ناء عن الإسلام أرى أن لو أسلمت قريش كلها لم أسلم.. فقدمت مكة فقلت لرجال من قومى كانوا يرون رأيى ويسمعون منى ويقدموننى فيما نابهم، فقلت لهم.. أرى أن نلحق بالنجاشى فنكون عنده، فإن يظهر محمد كنا عند النجاشى، فنكون تحت يده أحب إلينا من

---

[3] ابن هشام، السيرة وبهامشها الروض الأنف للسهيلى، القاهرة ١٩١٤، ج١ ص٩٠، وأبو الحسن الندوى: السيرة النبوية، بيروت ١٩٨٦، ص١٢٧.

[4] الغدر هو الذى لا يفى بوعده، والغدر ضد الوفاء. انظر الفيروز أبادى: القاموس المحيط، مادة «غدر».

[5] أى لا يجوز لنا تركه وهو على هذه الحال.

[6] سيرة ابن هشام، الموضع السابق.

[7] تفسير ابن كثير، ص١٨٨٠، ط بيت الأفكار الدولية.

[8] ابن كثير، التفسير، السابق، ص ٩٥٧.

[9] قرية بالطائف كانت له.

[10] أى السنة القادمة.

أن نكون تحت يدى محمد، وإن تظهر قريش فنحن من عرفوا. قالوا: هذا الرأى»!.

فلما كانوا عند النجاشي قال لعمرو - بعد محاورة بينهما - إن رسول الله ﷺ يأتيه الناموس [11] الأكبر الذى كان يأتى موسى ويأتى عيسى بن مريم.

قال عمرو: وغيَّر الله قلبي عما كنت عليه، وقلت في نفسي: عرف هذا الحقَّ العربُ والعجم وتخالف أنت؟!

فقال للنجاشي: وتشهد بهذا أيها الملك؟ قال: نعم أشهد به عند الله يا عمرو، فأطعني واتبعه، والله إنه لعلى الحق وليظهرن على كل من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده.

فقال للنجاشي: فتبايعنى له على الإسلام؟

قال النجاشي نعم؛ فبسط يده فبايعته على الإسلام» [12]..

فلما خرج عمرو من عند النجاشي أدرك أصحابه ما أصابه من تغير عرفوه في وجهه. ذلك أن نور الإسلام لا يخفى، كان الرجل يدخل على رسول الله ﷺ بوجه - وهو مشرك - ويخرج من عنده - بعد إسلامه - بوجه آخر، يعرف الناس فيه شيئاً جديداً لم يألفوه قبل إسلامه. وقول العرب عرفت في وجهه ما لم أعرف كقولهم عهدت منه ما لم أعهد، كل منهما يدل على تغير: الأول معنوى والثاني مادى فلما أدرك أصحاب عمرو، الذين اتبعوه من مكة إلى الحبشة، أن التغير الذى أصاب وجهه معنوى ناتج من تقليب الله تعالى قلبه من الكفر إلى الإسلام، ضربوه وغمّوه بقطيفة ألقوها على رأسه، وسلبوا متاعه وثيابه، فرده إليه النجاشي، ولقى عند خروجه من مجلس النجاشي عمرو بن أمية الضمرى، كان النبى بعثه برسالة إلى النجاشي يدعوه إلى الإسلام وبرسالة أخرى أن يزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان. فأخبره عمرو بإسلامه فسُرَّ لذلك، ولقى - فى رواية أخرى - جعفر بن أبى طالب فأخبره بذلك فدعا له» [13].

وهكذا الإيمان يلقيه الله فى قلب عبده فى الوقت الذى قدَّره له، لا يتقدم ولا يتأخر»!.

***

ثم إن عمراً خرج من عند النجاشي فسافر عازماً على أن يأتى النبى فى المدينة فيعلن عنده إسلامه. فلما وصل إلى أرض الحجاز اشترى بعيراً، وتوجه نحو المدينة، فلما كان ببعض الطريق وجد رجلين يسبقانه غير بعيد كأنهما يريدان مكاناً ينزلان فيه، فإذا أحدهما خالد بن الوليد والثاني عثمان بن طلحة؛ فقال عمرو لخالد: أبا سليمان: أين تريد؟ قال: محمداً، دخل الناس فى الإسلام، إن الرجل لنبىٌّ ما أشك فيه فقال عمرو: وأنا والله»!» [14] وفى رواية أن خالداً قال لعمرو: «لم يبق أحد فيه مطمع إلا دخل فى دين الله، والله إن محمداً لرسول الله، وأنا أشهد بذلك» قال عمرو «على رسلك وأنا أيضاً أشهد بذلك»؛ كأنما هو يقول لخالد: إننى لست حديث عهد بالإسلام، لقد أسلمت قبلك، أسلمت عند النجاشي. وكان خالد، وعثمان بن طلحة، وهو أحد كبراء مكة وزعمائها الذين كانوا يؤذون النبى ﷺ ويعاندون الإسلام، قد قررا بعد الحديبية وما رأياه فيها من الآيات صدق محمد ﷺ فى نبوته، فأسلما سراً وخرجا من مكة يريدان أن يأتيا رسول الله ﷺ فى المدينة، وفى طريقهما إليه لقيهما عمرو بن العاص قادماً من الحبشة.

قدم عمرو وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة على رسول الله ﷺ فبايع خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة على الإسلام بلا تردد، لكن عمراً اشترط، فقال للنبى ﷺ: «على أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى!» «قال وتنسيت ما تأخر» فقال له النبى ﷺ: «بايع يا عمرو، إن الإسلام يجب - أو قال يحت - ما كان قبله» وفى روايات صحيحة «أما علمت يا عمرو أن الإسلام يجب ما كان قبله» [15]؟ وكان إسلامهم - لدى النبى - عام خيبر فى صفر سنة ثمان من الهجرة.

يقول عمرو: «ما عدل بى رسول الله ﷺ وبخالد منذ أسلمنا أحداً من أصحابه فى أمر حربه» [16].

***

وأمَّره النبى ﷺ على غزوة ذات السلاسل [17] وفى الجيش أبو بكر وعمر، فنهى عمرو الناس عن أن يوقدوا فى الليل ناراً، وكان الليل شديد البرد. فقال عمر لأبى بكر: ألا ترى إلى هذا ما صنع بالناس يمنعهم منافعهم؟ فقال أبو بكر:

---

[11] أى جبريل ملك الوحى، وهو أحد معنيى الناموس. فى لغة المسيحيين، ففى الكلام المنسوب عندهم إلى عيسى عليه السلام: «ما جئت لأنقض الناموس ولكن جئت لأتمم» والناموس هنا تعنى الشريعة القديمة أو السابقة. فالكلمة معنيان.

[12] قال الشيخ محمود البيلاوى بعد ذكر هذه القصة: «ومما تقدم يُعلم أن صحابياً أسلم على يد تابعي وفضل الله يؤتيه من يشاء، ومرادنه إثبات أن النجاشي أسلم على يد الصحابة ولم يرى النبى ﷺ فهو تابعي، وعمرو أسلم على يد النجاشي ورأى النبى ﷺ وعاش معه فهو صحابي» «راجع كتابه «تاريخ الهجرة النبوية وبدء الإسلام» مطبعة الاعتماد. القاهرة ١٩٢٧ ص٨٩.

[13] طبقات ابن سعد، ج٥ ص٤٧ وما يليها؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٣ ص٥٤ وما يليها.

[14] طبقات ابن سعد، السابق، ص٤٩؛ والذهبي، السابق، ص٦٠.

[15] طبقات ابن سعد، الموضع نفسه، والذهبي: السابق، الموضع نفسه؛ والحديث في مسند أحمد رقم ١٧٩٦٦ و١٧٨١٣؛ وفي صحيح مسلم برقم ١٢١ بلفظ: «... أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله...».

[16] الذهبي، السابق، ص٦٦.

[17] عين بأرض جُذَام تسمى السلاسل بها سميت الوقعة.

دعـه، فـإنما ولاه رسـول الله ﷺ علينا لعلمه بالحرب.

فلمـا قـدم الصـحـابة على النبي ﷺ شكوا له ذلك، فـقـال عمـرو: يا نبي الله كان بأصحابي قلة، فـخـشيت إن أوقـدوا النار أن يرى العدو قلتهم، ونهـيـتـهم أن يتبعوا العدو وراء الجبل مخافة أن يكون لهم من وراء الجبل كمين، فـأعـجب ذلك رسول الله ﷺ «١٨».

وفي هذه الغزوة أصاب عمراً - في ليلة شديدة البرد- ما يوجب الغسل، فتوضأ وصلى بالناس الصبح دون أن يغتسل، فقال الصحابة لرسول الله ﷺ عن عمرو خيراً، ثم أخبروه ذلك الخبر، فسأله عما كان فقال: كان البرد شديداً فخشيت أن أهلك وذكرت قول الله تعالى:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾

(النساء: ٢٩)

ولو اغتسلت مت. فضحك رسول الله ﷺ «١٩».

وقد أمر النبي ﷺ عمراً أن يقضي بين خصمين، فقال يارسول الله، أقضي وأنت حاضر؟ قال: «نعم، إن الحاكم إذا حكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر» «٢٠».

وقـال له رسـول الله ﷺ لما دعـاه إلى غزوة وبشره بالسلامة والغنيمة، فأجاب: ما أسلمت من أجل المال، ولكني أسلمت رغبة في الإسلام، ولأن أكون مع رسول الله ﷺ قال يا عمرو: «نعما بالمال الصالح للرجل الصالح» «٢١».

وكان رسول الله ﷺ في سرية فنعس، ثم استيقظ من نعاسه ثم قال: «رحم الله عمراً»، قالها ثلاثاً، فقيل من عمرو هذا؟ قال «عمرو بن العاص». قيل وما شأنه يا رسول الله؟ قال: «كنت إذا نديت الناس إلى الصدقة، جاء فأجزل منها، فأقول: يا عمرو! أنى لك هذا؟ فقال: من عند الله. قال: وصدق عمرو، إن له عند الله خيراً كثيراً» «٢٢».

***

يقول الحافظ الذهبي في عمرو: «كان من رجال قريش رأياً، ودهاء، وحزماً، وكفاءة، وبصراً بالحروب، ومن أشراف

«١٨» راجع المصدرين السابقين.

«١٩» حديث صحيح من رواية عمرو نفسه، علقه البخاري، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقواه الحافظ ابن حجر، وحسّنه المنذري، ورواه ابن قيم الجوزية في زاد المعاد. راجع الذهبي، السابق، ص٧٦هـ٣، «والهامش من كلام الشيخ شعيب الأرناؤوط».

«٢٠» البخاري ج«٧٣٥٢»، ومسلم ج«١٧١٦»، «والقصة في طبقات ابن سعد ص٤٧».

«٢١» رواه أحمد عن عمرو نفسه ج«١٧٩٥٥و١٧٩٦٢»، والبخاري في الأدب المفرد عنه برقم «٢٩٩» وهو حديث صحيح.

«٢٢» أخرجه الذهبي بسنده عن علقمة بن رمثة - رضي الله عنه - سير أعلام النبلاء، السابق، ج٣ ص٦٥.

ملوك العرب، ومن أعيان المهاجرين، والله يغفر له ويعفو عنه، ولولا حبه للدنيا ودخوله في أمور لصلح للخلافة، فإن له سابقة ليست لمعاوية، وقد تأمر على مثل أبي بكر وعمر لبصره بالأمور ودهائه» «٢٣».

وقد كان عمرو من أحسن الناس بياناً وأسرعهم بديهة، حتى كان عمر بن الخطاب إذا رأى الرجل يتلجلج في كلامه قال: «خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد» «٢٤».

روى عن النبي ﷺ نحو أربعين حديثاً بما في ذلك المكرر منها، وكان يقول عن نفسه «لا أملّ ثوبي ما وسعني، ولا أملّ زوجتي ما أحسنت عشرتي، ولا أملّ دابتي ما حملتني، إن الملال من سيئ الأخلاق» «٢٥».

وبعثه رسول الله ﷺ إلى جيفر وعبد ابني الجُلندى، وهما من الأزد الذين كانوا يحكمون عمان، وكان جيفر هو ملك عُمان وعبد هو أخوه المقرب منه، وكتب رسول الله ﷺ مع عمرو بن العاص كتاباً يدعوهما فيه إلى الإسلام، أملاه النبي ﷺ على أبي بن كعب فكتبه وختمه رسول الله ﷺ بخاتمه. فلما قدم عمرو إلى عُمان ذهب إلى عبد بن الجُلندى، يقول عمرو: وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقاً، فقال: إني رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك فقال له عبد: إن أخي هو المقدم عليّ بالسن والملك وأنا أوصلك إليه يقول عمرو: وهذا ما كنت أريد، أي إنه كان يريد صلة بينه وبين الملك تيسر له الدخول عليه، وتهيئ الملك لسماعه وقبول كلامه، وهذا من حسن كياسة عمرو ودهائه.

فلما دخل عمرو على جيفر دفع إليه الكتاب ففضه جيفر وقرأه إلى آخره ثم دفعه إلى أخيه فقرأه وقال لعمرو: يا عمرو أنت ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك فإن لنا فيه قدوة؟ قال عمرو: مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ، ووددت أنه كان أسلم وصدق به، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام.

قال جيفر: فمتى تبعته؟

قال عمرو: قريباً

قال جيفر: فأين كان إسلامك؟

قال عمرو: عند النجاشي وقد أسلم

قال جيفر: فكيف صنع قومه بملكه؟

قال عمرو: أقروه واتبعوه

قال جيفر: والأساقفة والرهبان تبعوه؟

قال عمرو: نعم

فأبى جيفر أن يسلم وأقام عمرو أياماً في عُمان ثم بعث إليه أنه خارج غداً، فلما

«٢٣» الذهبي، السير، السابق، ص٥٩.

«٢٤» السابق، ص٥٧. «٢٥» السابق، ص٥٧.

تيقن جيفر من ذلك أرسل إلى عمرو وأجاب هو وأخوه دعوة النبي ﷺ فأسلما جميعاً، وصدقا بالنبي ﷺ وتركا عمراً يبلغ الناس رسالة الإسلام ويجمع ممن أسلم الصدقة فأخذها من أغنيائهم وردها على فقرائهم، ولم يزل مقيما بعمان حتى بلغه نبأ وفاة رسول الله ﷺ.

وكان رجل من يهود عمان قد جاء إلى عمرو بن العاص وسأله عن رسول الله ﷺ وأخبره بوفاته عليه الصلاة والسلام في ذلك اليوم، فجمع عمرو أصحابه وأخبرهم بذلك وكتب اليوم الذي قال له فيه اليهودي ما قال. وخرج يريد المدينة، ومعه خفراء من الأزد ومن عبد القيس، فلما بلغ أرض بني حنيفة سمع به مسيلمة فخرج في رجال من قومه يريد أن ينال منه فهرب منه عمرو ومن معه إلا رجلين قتل مسيلمة أحدهما وحبس الآخر حتى فرّ ولحق بخالد بن الوليد وهو يقاتل أهل الردة[266].

وكان عمرو كلما مر على قوم أخذ منهم خفراء، وتعرف على أحوالهم وما هم عليه، وكانت أكثر قبائل هذا الطريق قد ارتدت عن الإسلام. فلما وصل عمرو إلى المدينة كان أول ما فعله هو التحقق من يوم وفاة رسول الله ﷺ فوجده كما قال اليهودي «!»، ثم أتى أبا بكر وقص عليه ما علم من أخبار المرتدين، وحدثه بما قال ذوو البأس منهم ممن لقيهم في طريقه إلى المدينة، وكان قرة بن هبيرة القشيري قد قال لعمرو كلاماً كرهه منه وعلم أنه ليس في قلبه للإسلام خير، فلما بعث أبو بكر خالد بن الوليد إلى المرتدين جاءه عمرو وجعل يقول له: يا أبا سليمان لا يفلتن منك قرة بن هبيرة.

وهكذا كان عمرو جندياً للإسلام وعيناً للمسلمين في أثناء إقامته بعمان وفي طريق عودته إلى المدينة، ولولا ما أخبر به أبا بكر - رضي الله عنه - مما عرفه عن قبائل المرتدين ما كان للمسلمين سبيل للعلم بذلك وهم على وشك الخروج لقتال أهل الردة[267].

وقد ولى أبو بكر - رضي الله عنه - عمرو بن العاص أول جيوش الشام إلى فلسطين «وكان قائداه الآخران شرحبيل ابن حسنة ويزيد بن أبي سفيان». وقال

[266] الرجلان هما: حبيب بن زيد بن عاصم، وعبدالله بن وهب الأسلمي، كانا في آخر الركب فأصابهما مسيلمة، وقال لهما أتشهدان أني رسول الله؟ فقال حبيب بن زيد لا أسمع فقال أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فقال نعم، فأمر به فقتل حرقاً بالنار، وأما عبدالله بن وهب فتقر له بما يريد: أنه رسول وأن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم رسول فحبسه في الحديد حتى لحق بخالد... راجع ابن سعد، الطبقات، السابق، جـ ٥ ص٩.

[267] ابن سعد، الطبقات، السابق، ج٣ ص٢٧: وفي استعمال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمرو على عمان وبقائه بها إلى أن توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، انظر: ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، بتحقيق محمد إبراهيم البنا وآخرين، ط كتاب الشعب، القاهرة «د.ت»، ج٤ ص٢٤٥؛ والذهبي، السير، السابق، ج٣ ص٦٩.

قبيصة بن جابر: «... وصحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلا أبين منه ولا أكرم جليساً، ولا أشبه سريرة بعلانية منه...»[268].

وسبّه المغيرة بن شعبة فقال بالهُضَيص[269]، أيسبني ابن شعبة! فقال له ابنه عبدالله: إنا لله[300]، دعوت بدعوى القبائل، وقد نُهي عنها. فأعتق عمرو ثلاثين رقبة تكفيراً عن هذه الكلمة «!» وهذا دليل على قوة إيمان عمرو، وخشيته من المعصية، لأن مثل هذه الكلمة ليس لها كفارة مقدرة، وإنما يكفرها الاستغفار منها، لكن عمراً أبى إلا أن يكفر بعتق هذه الرقاب طمعاً في ألا يؤاخذ يوم القيامة لأنه دعا بدعوى الجاهلية.

***

ولما حضرت عمراً الوفاة بكى طويلاً، وحول وجهه إلى الجدار. فجعل ابنه يقول: يا أبتاه أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا؟ أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا؟ قال: فأقبل بوجهه فقال: إن أفضل ما نعدّ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، إني كنت على أطباق ثلاث، لقد رأيتني وما أحدٌ أشد بغضاً لرسول الله ﷺ مني، ولا أحب إليّ أن أكون قد استمكنت منه فقتلته، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار. فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، فقبضت يدي. قال: «مالك يا عمرو» قلت: أردت أن أشترط. قال: «تشترط بماذا؟» قلت: أن يغفر لي. قال: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟»، وما كان أحد أحب إليّ من رسول الله ﷺ، ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالا له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت، لأني لم أكن أملأ عيني منه، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة. ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها. فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار، فإذا دفنتموني فشنوا على التراب شناً، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها. حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي»[310].

أعتق عمرو كل مملوك له قبل وفاته[320]، وكانت وفاته - رضي الله عنه - قبل صلاة الفجر من يوم عيد الفطر، فلم يبق أحد صلى العيد إلا صلى عليه، ودفنه ولده عبدالله في قبره المعروف في المقطم. هذا الصحابي الجليل هو الذي فتح بلادنا، ومكّن للإسلام أن يدخل بيوتنا، ولا مراء أنه له في رقبة كل مسلم مصري، بل ومسلم إفريقي، منة ينبغي أن تشكر بالدعاء له، لأنه ليس بعد الإسلام نعمة تساويه أو تدانيه.

- يتبع -

[268] الذهبي، تاريخ الإسلام، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت ٢٠٠٣، ج٢ ص٤٢٩.

[269] هذا استنصار بقومه على المغيرة بن شعبة، فإن عمرو هو ابن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد من بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب.

[300] هذا اختصار معهود لعبارة «إنا لله وإنا إليه راجعون».

[310] أخرجه مسلم ح١٢١، من حديث عبد الرحمن بن شماسة المهري، والجزور الواحد من الإبل يطلق على الذكر والأنثى.

[320] طبقات ابن سعد، السابق، ص٨٢.

المسألة القانونية بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي



طارق البشرى





للمستشار طارق البشرى

ثانيا: تغلغل التشريعات الغربية:

الحديث عما يسمى بحركة الإصلاح القانونى فى القرن التاسع عشر، هو فرع من الحديث عن حركة الإصلاح عامة فى هذه المرحلة، وهو أمر بالغ التشعب والتشابك. ولا يمكن الحديث عن ذلك فى هذا المقام إلا باختصار شديد. والاختصار يعنى التبسيط، ولا يخلو من المجازفة بالوقوع فى الخطأ. وكل ما يمكن إيراده هنا بعض الملامح التى تتعلق بالخيط الأساسى للدراسة، مع الاكتفاء بذكر السياق العام فى الدولة العثمانية وفى مصر التى بدأت تتميز بنظم داخلية خاصة.

ويمكن القول - من قبيل التبسيط - إن مشروع محمد على فى مصر لم يكن مشروع استقلال بهذا البلد، ولا مشروع بناء «إمبراطورية مصرية»، كما يحلو للبعض أن يقول، ولكنه كان مشروع إحياء عثمانى عام. وإن حرب الشام وما تلاها لم تكن حروبا خاضها مع الدولة العثمانية، بقدر ما كانت حروبا أهلية شنها مع السلطان. وإنه فى عام ١٨٣٩م قد شارف النجاح، بهزيمة جيش السلطان فى نزيب. وأفاده فى هذا: قيام انتفاضات شعبية جرت فى كثير من الولايات العثمانية ضد السلطان محمود الثانى، ورفض بعض المجندين بجيش السلطان قتال القوات المصرية التى اعتبروها «نصيرة الإسلام»، وانضمام فرقة عسكرية كاملة من جيش السلطان إلى قوات إبراهيم باشا فى الأناضول، ورحيل أسطول الدولة إلى الإسكندرية يقدم الولاء لمحمد على، بينما كان مندوبو محمد على يجوبون البلاد ليحثوا الناس على رفع السلاح ضد «حزب الكفار» فى الآستانة[1].

ولكن، تدخلت الدول الأوروبية - وبخاصة إنجلترا وفرنسا - على النحو المعروف، لتقف دون تحقق الآثار السياسية لنصر محمد على العسكرى، ونصروا السلطان، وأبقوا على محمد على فى مصر، على التفصيل الذى أوردته معاهدة لندن سنة ١٨٤٠. وبهذا الصنيع، أبقى على السلطنة الضعيفة ضعيفة، وهدت قوة محمد على فى مصر، وسلس قياد المضعفين فى أيدى الدول الأوروبية.

يذكر د. أحمد عبدالرحيم مصطفى أن الدولة العثمانية كانت فى ذلك الوقت بحاجة إلى المساندة الأوروبية ضد محمد على، وأن الدول العظمى سعت إلى إنقاذها من هذا الخطر (محمد على)، «فى نظير التدخل فى شئونها الداخلية طوال ما تبقى من القرن التاسع عشر»[2].. ومن هنا، أعلن السلطان عبدالمجيد «خط جولخانة» - الذى بدأ ما يعرف بعهد «التنظيمات» - فى نوفمبر عام ١٨٣٩م. ويذكر كرامرز فى دائرة المعارف الإسلامية، «أن خط جولخانة - الذى أعلن العديد من الضمانات للمواطنين، وإن اختلفت أديانهم - قد صدر إرضاء للدولة الأوروبية التى زاد على الأيام تدخلها فى شئون الدولة»، وأن النظم الجديدة قامت على أساس النظم الإدارية الأوروبية والفرنسية خاصة. ويذكر أن منح النصارى واليهود ما للمسلمين من حقوق «كان معناه تجريد النصارى من القسط الكبير من الحكم الذاتى الذى تمتعوا به فى عهد محمد الفاتح.. وسرعان ما تبين من ذلك أن هؤلاء لم يروا فى مساواتهم بالمسلمين نفعا كبيرا، بل زاد هذا فى العداوات والخلافات التى كانت قائمة بين طوائفهم المختلفة، وكانت هذه الخلافات فى الغالب أشد مما كانت بينهم وبين المسلمين». ثم يشير كرامرز بعد ذلك إلى الأجانب بوصفهم من استفاد من هذه الإجراءات وصار لهم - على قلة عددهم - الحريات والمزايا التى منحتهم إياها الامتيازات.. وأخذ هذا السلطان يقوى؛ لأن الدول الأجنبية عملت على استغلاله، لا لمصلحتهم الخاصة فحسب، ولكن لكى تصبح الدول أيضا حامية للرعايا غير المسلمين..»[3].



محمد على

وفى فترة «التنظيمات» التى امتدت على عهدى السلطانين عبدالمجيد وعبدالعزيز - انتهت حوالى عام ١٨٨٠م، بعد تولية عبدالحميد الثانى بنحو أربعة أعوام - فى هذه الفترة نشطت حركة التغريب فى الدولة العثمانية، سواء فى التعليم أو النظم، وعظم النفوذ السياسى والاقتصادى والثقافى للدولة الغربية.

وصدرت فى عام ١٨٤٠ مجموعة قوانين جنائية، وأنشئت محاكم نظامية سلخت الدعاوى الجزائية من القضاء الشرعى، وأنشئت محكمة تجارية مختلطة. ثم اطرد سلخ الدعاوى

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى، ص١٩٨-١٩٩.

(٢) المصدر نفسه، ص١٩٩-٢٠٠.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، إعداد وتحرير إبراهيم زكى خورشيد، وأحمد الشنتناوى، وعبدالحميد يونس (القاهرة: دار الشعب، د. ت.) جـ١، ص٧٨-٨٠.

المدنية من القضاء الشرعي، وأنشئت في عام ١٨٤٧م محاكم مدنية وجنائية مختلطة. ثم صدر في عام ١٨٥٠م تقنين تجاري مأخوذ عن القانون الفرنسي[٤].

وفي سنة ١٨٥٦، صدر خط همايوني - بضغط أجنبي - يعد بمساواة غير المسلمين بالمسلمين، وبإنشاء محاكم مختلطة للفصل بين المسلمين وغير المسلمين، ويعد بمنح الدول الأجنبية حق تملك الأراضي بالدولة العثمانية. وفي سنة ١٨٥٥م نشرت مجموعة قوانين خاصة بالأراضي، ومجموعة جنائية منقولة أصلا من القانون الفرنسي. وفي سنة ١٨٦١م صدر قانون للإجراءات التجارية. وفي سنة ١٨٦٣م صدرت مجموعة قوانين التجارة البحرية. وفي سنة ١٨٦٧م، منح الأجانب حق تملك العقارات. وفي سنة ١٨٦٩م، أعيد تنظيم المحاكم النظامية. وفي سنة ١٨٧١م، صدر قانون بإلغاء الأوقاف الدينية، ولكنه لم ينفذ. وفي سنة ١٨٧٩م، فصلت دعاوى الأراضي والحدود عن المحاكم الشرعية.

وهكذا، على مدى أربعين عاما، اطرد زحف التشريعات الغربية في نظم الدولة العثمانية، كما اطرد انحسار الشريعة الإسلامية. وهيمن التشريع الغربي على نظام القضاء، وعلى تنظيم التجارة، وتنظيم الأراضي، والتنظيم الجنائي. وإذا كان المعروف أن نظم التجارة تهيمن على علاقات التعامل، سواء التجارية بالمعنى الاقتصادي أو الصناعية (التحويلية)، فإن هذا النظام مع نظام الأراضي يشكلان الهيمنة الغالبة على النشاط الاقتصادي الإنتاجي والتبادل في المجتمع.

ولم يفلت من هذا الزحف التشريعي الأوروبي إلا نظام المعاملات المدنية غير التجارية، الذي دون له تقنين عرف باسم مجلة الأحكام العدلية، شكلت له لجنة برئاسة أحمد جودت باشا، وأنهته بعد سبعة أعوام، أي في عام ١٨٧٦م، وأخذت أحكامه من كتب ظاهر الرواية في المذهب الحنفي، إلا القليل أخذ فيه بأقوال بعض المتأخرين من الحنفية، مراعاة للأنسب والأنفع في تقرير الأحكام.

ومما تحسن ملاحظته، بالنسبة لمجلة الأحكام العدلية، أنه برغم ما وجه ويوجه إليها من انتقادات فنية عديدة، فقد ظلت برهانا قويا على ما لفقه الشريعة من مرونة، وتقبل للمعاصرة، وقابلية للتقنين. ومن جهة ثانية، فإن «المجلة» بوصفها عملا تقنيا (أي تجميع الأحكام، وتصنيفها، وترتيبها بتبويب منطقي علمي على هيئة مواد متتابعة)، كانت أكمل تقنين أخذ عن الفقه الإسلامي في ذلك الوقت، ولكنها لم تكن - في النشاط الفقهي الإسلامي - عملا غير مسبوق كلية. لقد سبقها على عهد سليمان القانوني في القرن السادس عشر الجهد التجميعي الذي قام به شيخ الإسلام أبو السعود بن مصطفى العماد، وكذلك الخلاصة التي صنفها في جزأين الشيخ إبراهيم الحلبي باسم ملتقى الأبحر. ثم جاء في القرن السابع عشر الجهد التجميعي الفذ الذي أعده فقهاء الهند في ستة مجلدات ضخمة بتكليف من السلطان محمد أورنكزيب عالمكير، واشتهرت باسم الفتاوى الهندية الشاملة للعبادات والمعاملات والعقوبات على مذهب أبي حنيفة، ثم هناك القوانين عامة التي كان سلاطين العثمانيين يصدرونها مشتملة على تنظيمات إدارية وجزائية.

كما يتعين ملاحظة أن انحصار «المجلة» في المعاملات المدنية، دون الأحكام التجارية وما يبتعد عن الشريعة من أحكام الأراضي، هذا الانحصار لا ينفي تأثير «المجلة» في صبغ العقلية القانونية بحسبان أن نظام المعاملات المدنية هو العمدة في النظام القانوني عامة. لذلك، كان وجود «المجلة» ركيزة مهمة للدفاع عن فقه الشريعة الإسلامية برغم الانحسار الحادث. غير أن وجود هذا النظام مع النظم القانونية الوافدة في القوانين ونظم المحاكم، كان مبعثا للانفصام في النظام القانوني ومنشأ الازدواجية فيه، مما كان له آثاره العميقة وقتها ومن بعد.

كان هذا هو ما تحقق عنه القرن التاسع عشر بالنسبة للوضع القانوني في الدولة العثمانية وما كان معها من ديار العرب. أما بالنسبة لمصر، فهي لم تسر عليها القوانين العثمانية الجديدة، ولا مجلة الأحكام العدلية، وذلك بسبب النظام السياسي الذي بدأت تتميز به منذ معاهدة عام ١٨٤٠م وتم هذا التميز فيما تلا ذلك من أعوام وعقود. ولعل هذا التميز هو ما عرضها للواقع الغزو الغربي الاقتصادي والفكري ثم العسكري، فصارت مصر - وقد تكاثفت عليها قوى الاستعمار في القرن التاسع عشر، وانفردت بها هذه القوى وحيدة - صارت رائدة النظم القانونية المغزوة، وخاصة في الثلث الأخير من ذلك القرن.

لقد بدأ التشريع الغربي يتسرب إلى النظام القانوني في مصر، بعد معاهدة لندن سنة ١٨٤٠م، وذلك من خلال أحكام التجارة ومجالس التجار، وبعد أن انفتحت السوق المصرية بموجب هذه المعاهدة. وعرف عهد سعيد، ثم عهد إسماعيل، توغل الأجانب حتى من المرابين والمغامرين وغيرهم، يحميهم جميعا - حتى في سلوكهم غير المشروع - نظام الامتيازات الأجنبية الذي يصد النظامين القانوني والقضائي المحليين عن الوصول للأجانب القاطنين في مصر، سواء في معاملاتهم المدنية والتجارية أو في سلوكهم القنصلي، فكان الأجانب - حتى في معاملاتهم مع المصريين، أو في جرائمهم - يخضعون لقضائهم القنصلي. وبلغ الأمر أن الأجانب - وعدتهم لا تزيد على ثمانين ألفا يتبعون سبع عشرة دولة - كانوا يخضعون، ويخضع المصريون معهم، لسبع عشرة محكمة قنصلية، ولسبعة عشر نظاما قانونيا، كل حسب جنسيته ولغته.

وقد سعى المصريون طوال أحد عشر عاما؛ لتحقيق أي نوع من النظام يضبط تلك الفوضى بأي ثمن، وقبلوا ما سعى إليه نوبار باشا لاستبدال المحكمة المختلطة بالمحاكم القنصلية المتعددة، وأن تشكل هذه المحكمة الواحدة - التي يخضع لها كل الأجانب - من قضاة الغلبة فيهم للأجانب، ولهم الرئاسة في الدوائر القضائية وفي النيابة العامة، وفيها تستعمل اللغتان

(٤) تضمن هذا التقنين أحكاما لا يمكن أن تطبق إلا في فرنسا، كأحكام حقوق الزوجة عند امتلاك زوجها، لأن الذمة المالية للزوجة منفصلة عن ذمة الزوج في الشريعة الإسلامية وفي النظام القانوني في الدولة العثمانية، ولا تعرف مجتمعاتنا نظام اشتراك الذمة المالية بين الزوجة والزوج.

الفرنسية والإيطالية، وتطبق تقنينات أخذت كلها عن فرنسا: المدني والتجاري، والتجاري البحري، والعقوبات، وإجراءات المرافعات، وتحقيق الجنايات. وتم ذلك كله في سنة ١٨٧٥م، إذ افتتحت خلالها المحاكم المختلطة.

ولم تمض خمس سنين، حتى شرعت الحكومة المصرية سنة ١٨٨٠م في إنشاء القضاء الأهلي والمحاكم الأهلية. وأنشئت فعلا في عام ١٨٨٣م بستة من التقنينات أخذت جميعها من القوانين المختلطة، بتعديلات طفيفة ويقال -عادة- إن اللجوء إلى القوانين الفرنسية كان بسبب جمود رجال الشريعة الإسلامية، ورفضهم تقنين أحكامها. ولكن التحقيق التاريخي يظهر أن هذا السبب غير سليم، أو أنه على الأقل لم يكن حاسما؛ لأن «المجلة» العثمانية كانت قائمة قبل هذا الوقت؛ ولأن محمد قدري باشا في مصر كان يقوم فعلا بتقنين الأحكام وقتها. وأن الوثائق التاريخية تكشف عن السبب الذي دعا المصريين إلى الأخذ بهذه التقنينات هو رغبتهم في أن يقدموا لدول الامتيازات نظاما قانونيا مصريا ينشأ على شاكلة ما ارتضته هذه الدول بالمحاكم، فترضى، من بعد خضوع رعاياها له، وتسترد مصر سيادتها التشريعية القضائية المنقوصة [٥]. ولكن ويل للمغلوب! إن سارم عطاء يأخذ، سلب عطاءه وجحد أخذه.

ويبدو أن هدف تحويل مصر إلى النظام القانوني الفرنسي قد بيت بليل، منذ منتصف الستينيات من القرن قبل الماضي، في براكير عهد الخديو إسماعيل، فقد صدر الأمر العالي الخديوي بتعريب مجموعات القوانين الفرنسية. وترجمت فعلا -بقلم التراجمة- «القوانين المدنية والدوائر البلدية والمحاكمات والمرافعات والحدود والجنايات»، وطبعت ما بين عامي ١٨٦٦م و١٨٦٨م. ثم إن إسماعيل استدعى من فرنسا، في عام ١٨٦٥م، مهندسا فرنسيا كان يعمل في سكة حديد أورليانس، واسمه «فيكتور فيدال»، وذلك لإعداد الشباب المصري لدراسة الهندسة. كان في الثانية والثلاثين عندما جاء إلى مصر، واتفق أنه كان حاصلا على ليسانس الحقوق سنة ١٨٦٠، فكلفه خديو بلد الأزهر والليث بن سعد بإعداد لائحة تأسيسية وقانون للإجراءات الجنائية وقوانين أخرى، وأن يدرس القانون الإداري لولي العهد. ثم أنشأ مدرسة سميت «مدرسة الإدارة والألسن» في تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٨٦٨م، قام منهجها على دراسة الشريعة الإسلامية، والقانون المدني للدول الأوروبية، والقانون الطبيعي الروماني، والقانون التجاري، وقانون التجارة البحري والمحاسبة التجارية، وقانون المرافعات المدنية والتجارية، وقانون العقوبات، وقانون تحقيق الجنايات، فضلا عن اللغات العربية والتركية والفارسية والفرنسية والإيطالية واللاتينية.

هي كلية للحقوق بالمعنى الكامل، أخفي معناها تحت اسم لم يكن لمنهاجها منه نصيب، وهو «مدرسة الإدارة..»، وحتى القانون الإداري

(٥) طارق البشري: «حول حركة التجديد في التشريع الإسلامي في مصر»، ورقة قدمت إلى: الجمعية التاريخية المصرية، ندوة «مصر في الربع الأول من القرن العشرين»، القاهرة، ٩ من إبريل عام ١٩٨٤م.

والقانون الدستوري لم يكونا من مواد التدريس بها، ولم يضافا إلى منهاجها، إلا بعد عشرين سنة من نشأتها، أي في عام ١٨٨٨م. وعلى الرغم مما أذيع عند إنشائها من أن الغرض هو تخريج موظفين للإدارة -وكان علما المالية العامة والاقتصاد هما أشد ما يحتاج إليه جهاز الإدارة وقتها- فإن هذين العلمين لم يكن لهما فيها أدنى نصيب. وكان المهندس فيدال هو مؤسس هذه المدرسة ومنظمها، وتولى نظارتها مدة أربع وعشرين سنة، حتى سنة ١٨٩٢م.

وإن دلالة هذا الأمر لا تتراءى فقط من إنشاء مدرسة تدرس مناهج القوانين الغربية، فقد يكفي تفسيرا لذلك ما كانت الحكومة تفكر فيه من إنشاء المحاكم المختلطة وإعداد من يساهم فيها من المصريين. ولكن تبقى دلالة أخرى تتراءى من التخفي الذي أنشئت به المدرسة، والذي يكشف عنه اسمها وهدفها الصوريان. وقد يصلح تفسيرا لذلك أن أنشئت المدرسة على هذه الصورة، استنباتا للفكر القانوني الغربي في البيئة المصرية، وحذرا في الوقت نفسه من أن تلقى المدرسة مقاومة الأزهر ورجال الشريعة.

في عام ١٩٠٨م، طبع حزب الإصلاح الدستوري كتابا مترجما، بعنوان «رسائل مصري لسياسي إنكليزي كبير في سنة ١٩٠٥م»، ضمنه أربع عشرة رسالة كتبها «المصري» بالإنكليزية، وعثر عليها في أوراق العضو الليبرالي في البرلمان الإنكليزي مستر روبرتسون.

ورد بالرسالة الخامسة أن النظام التشريعي القضائي الجديد نشأ «في مصر فجأة في يوم واحد وبالقوة القاهرة، وعلى يد أمة أجنبية، وجعلوا نظامه على نمط نظامات بلاد بعيدة، فرموا به شعبنا دون أن ينبهونا إليه، ولا راعوا عواطفنا وإرادتنا وأخلاقنا الوطنية وتقاليدنا القومية.»... «إنكم غذيتم المصريين بطعام لم يألفوه، ولا يستطيعون هضمه، فإذا زدتموهم منه تأصل الداء..»... «إن بناء القضاء يجب تجديد أساسه بمزيد من العناية، وجعل جدرانه من المادة الوطنية ما أمكن. بمعنى أن يكيف ذلك النظام القضائي على ما يوافق فطرة العقل الوطني الأصلية، وأن يعتمد على الوسائل الوطنية ما أمكن.»... «إن أفضل الشروط التشريعية تكون فائدتها لأولي الأمر قليلة، ولا يكون لها نفع مطلقا فيما بعد إلا إذا كانت موافقة لأميال الشعب الذي وضعت لأجله وعاداته وشعائره الدينية وتقاليده القديمة.»... «الحق يقال إن هذه البلاد المصرية ما زالت منذ زمن طويل ترزأ بالشرائع الأوروبية غير الموافقة ومن دون مراعاة عادات الوطنيين وتقاليدهم..». ثم استشهد بمقولة كرومر، المعتمد البريطاني في مصر وقتها: «ما فائدة القوانين حيث لا آداب؟!»، ويقول مونتسكيو: «عبثا نرجو صلاحا من نقل شرائع وقوانين أمة واحدة إلى أمة أخرى، تختلف عنها في جنسها وفي صفاتها العقلية والأدبية وسوابقها التاريخية وحالتها الطبيعية».

وأنهى رسالته بفقرة منها: «أقول الحق الذي لا نزاع فيه: إن تشعب غرس أجنبي سيئ التأثير والناسبة والحجم، قد أفسد وشوه تقليد هذه البلاد. وقد سدلت أغصانه الضخمة الممتدة ظلا مظلما على الشعب..».

- يتبع -

فتــاوى لهــا تاريــخ

لفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ/ محمد عبده

فى التأمين والأرباح

● سأل جناب مدير شركة «قمبانية، (متوال ليف) الأمريكانية، فى: رجل اتفق مع جماعة (قومبانية) على أن يعطيهم مبلغاً معلوماً، فى مدة معلومة، على أقساط معينة، للاتجار به فيما يبدو لهم فيه الحظ والمصلحة، وأنه إذا مضت المدة المذكورة، وكان حياً، يأخذ هذا المبلغ منهم مع ما ربحه من التجارة فى تلك المدة، وإن مات فى خلالها تأخذ ورثته أو من يطلق له حال حياته ولاية الأخذ المبلغ المذكور مع الربح الذى نتج مما دفعه. فهل ذلك يوافق شرعاً؟؟ أفيدوا الجواب.

●● **الجواب:** اتفاق هذا الرجل مع هؤلاء الجماعة على دفع ذلك المبلغ على وجه ما ذكر يكون من قبيل شركة المضاربة، وهى جائزة، ولا مانع للرجل من أخذ ماله مع ما أنتجه من الربح بعد العمل فيه بالتجارة، وإذا مات الرجل فى أثناء المدة، وكان الجماعة قد عملوا فيما دفعه، وقاموا بما التزموه من دفع المبلغ كله لورثته أو لمن يكون له حق التصرف بدل المتوفى بعد موته جاز للورثة أو من يكون له حق التصرف فى المال أن يأخذ المبلغ جميعه مع ما ربحه المدفوع منه بالتجارة على الوجه المذكور. والله أعلم[1].

تعاقد من قبيل المضاربة

● **السؤال:** سأل جناب الموسيو «هوصار» التاجر بمصر فى رجل تعاقد مع جماعة شركة على أن يدفع لهم مالاً معيناً من ماله، فى زمان معين، على أقساط معينة، ليعملوا فيه بالتجارة، واشترط معهم أنه إذا قام بما ذكر، وانتهى أن الاتفاق المعين بانتهاء الأقساط المعينة، وكانوا قد عملوا فى ذلك المال، وكان حياً، يأخذ ما يكون له من المال مع ما خصه فى الربح، وأنه إذا مات فى أثناء ذلك الأمد، وكان هؤلاء الجماعة قد عملوا فى ذلك المال الذى دفعه، كان لورثته أو لمن له ولاية ماله أخذ ما يكون له من المال مع ما خصه فى الربح.

فهل ليس فى ذلك ما يخالف الشرع، لكونه من قبيل شركة المضاربة؟ وهل إذا سمى هؤلاء الجماعة هذا التعاقد باسم آخر لا يضر ذلك الموضوع؟؟

●● **الجواب:** تعاقد هذا الرجل مع هؤلاء الجماعة على دفع ذلك المبلغ لهم من ماله للعمل فيه بالتجارة، على وجه ما ذكر، من قبيل المضاربة، وهى جائزة شرعاً، ويجوز له أخذ ما يكون له من المال مع ما أنتجه من الربح بسبب العمل فيه بالتجارة، ولو انتهى زمن ذلك الدفع، وكذا يجوز لوارثه أو لمن له ولاية التصرف فى ماله بعد موته أن يأخذ ما يكون له من المال مع ما خصه من الربح لو مات فى أثناء ذلك الزمان، وكان هؤلاء الجماعة قد عملوا فيه. ثم إن تسمية ذلك التعاقد باسم آخر غير شركة المضاربة لا يضر بذلك الموضوع. والله أعلم[2].

مواريث

● **السؤال:** سأل المسيو «هور روسل» فى رجل يريد أن يتعاقد مع جماعة (شركة الجريشام مثلاً) على أن يدفع لهم مالاً من ماله الخاص، على أقساط معينة، ليعملوا فيه بالتجارة، واشترط معهم أنه إذا قام بما ذكر، وانتهى أن الاتفاق المعين بانتهاء الأقساط المعينة، وكانوا قد عملوا فى ذلك المال، وكان حياً، فيأخذ ما يكون له من المال مع ما يخصه من الأرباح، وإذا مات فى أثناء تلك المدة فيكون لورثته أو لمن له حق الولاية فى ماله أن يأخذوا المبلغ تعلق موروثهم، مع الأرباح، فهل مثل هذا التعاقد، الذي يكون مفيداً لأربابه بما ينتجه لهم من الربح، جائز شرعاً؟ نرجو التكرم بالإفادة.

●● **الجواب:** لو صدر مثل هذا التعاقد بين ذلك الرجل وهؤلاء الجماعة، على الصيغة المذكورة، كان ذلك جائزاً شرعاً. ويجوز لذلك الرجل، بعد انتهاء الأقساط والعمل فى المال وحصول الربح، أن يأخذ - لو كان حياً - ما يكون له من المال، مع ما خصه فى الربح، وكذا يجوز لمن يوجد بعد موته من ورثته أو من له ولاية التصرف فى ماله بعد موته أن يأخذ ما يكون له من المال مع ما أنتجه من الربح. والله أعلم[3].

---

(١) تاريخ هذه الفتوى ١٠ صفر سنة ١٣١٩ هـ ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٣٣٦ وتقع فى ص ١٣٣ من هذا السجل. وانظر هذه الفتاوى فى الجزء الثانى من (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة - طبعة دار الشروق - القاهرة.

(٢) تاريخ هذه الفتوى ٢ ذى الحجة سنة ١٣٢٠ هـ ورقمها فى السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء ١٠٧ وتقع فى ص ١٨، ١٩.

(٣) تاريخ هذه الفتوى ٤ صفر سنة ١٣٢١ هـ ورقمها فى السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء ١٣٧ وتقع فى ص ٢٣.

ميراث المـــرأة

«الجزء الأخير»

للأستاذ الدكتور/ صلاح سلطان

المبحث الثالث: حالات ترث فيها المرأة أكثر من الرجل

يقوم نظام المواريث في الشريعة الإسلامية على طريقتين رئيسيتين هما:

١ ـ الميراث بالفرض وهو الوارد في القرآن الكريم والسنة النبوية[1] ومعناه أن يأخذ صاحب الفرض ما حدده النص من الثلثين أو الثلث أو السدس أو النصف أو الربع أو الثمن.

٢ ـ الميراث بالتعصيب وهو أن يرث ما بقي بعد أصحاب الفروض، فهم الوارثون بغير تقدير وهم العصبة بالنفس مثل الابن وابن الابن وإن نزل، والأب والجد وإن علا والأخ الشقيق ولأب وأولادهم، والعم الشقيق وأولادهم وإن نزلوا، وهناك عصبة بالغير وهي الأخت مع الأخ، والابن مع البنت وابن الابن مع بنت الابن وإن نزلوا، وهناك عصبة مع الغير وهي الأخت الشقيقة أو لأب مع البنت أو بنت الابن.

ويجرى نظام التوريث على أن يأخذ أصحاب الفروض ما فرض لهم أولاً، ثم يأخذ ذوو العصبات ما بقي بعد أصحاب الفروض أو كل التركة إن انفردوا بالتركة.

وقد ثبت بالاستقراء أن النساء يرثن أكثر بالفرض، وأن إرثهن بالفرض أحظى لهن من ميراثهن بالتعصيب في حالات كثيرة وهذا يبدو أولاً من الجدول التالي، ثم من الدراسة بعده.

الفروض الواردة فى القرآن والسنة ومستحقوها

٣/٢	٢/١	٣/١	٦/١	٤/١	٨/١
١ ـ البنتان فأكثر ٢ ـ بنتا الابن فأكثر ٣ ـ الأختان ش فأكثر ٤ ـ الأختان لأب فأكثر	١ ـ البنت الواحدة ٢ ـ بنت الابن الواحدة ٣ ـ الأخت ش الواحدة ٤ ـ الأخت لأب الواحدة ٥ ـ الزوج	١ ـ الأم ٢ ـ الأخت لأم ٣ ـ الأخ لأم لكل صاحب فرض شروط لا يتسع الجدول لسردها	١ ـ الأم ٢ ـ الجدة ٣ ـ بنت الابن ٤ ـ الأخت لأب ٥ ـ الأخت لأم ٦ ـ الأخ لأم ٧ ـ الأب ٨ ـ الجد	١ ـ الزوج ٢ ـ الزوجة	الزوجة

(١) وردت كل الفروض في القرآن الكريم ما عدا ميراث الجدة حيث وردت به السنة النبوية.

يبدو من هذا التقسيم ما يلي:

١ ـ أكبر الفروض في القرآن الكريم هو الثلثان، ولا يحظى به واحد من الرجال بل هو للنساء فقط.

٢ ـ النصف لا يأخذه من الرجال إلا الزوج عند عدم وجود فرع وارث وهو قليل الوقوع ويبقى النصف لأربع من النساء.

٣ ـ الثلث يأخذه اثنتان من النساء هما الأم عند عدم وجود فرع وارث أو عدم وجود الأخوين فأكثر، وتأخذه الأخوات لأم إذا لم يوجد أصل ولا فرع وارث اثنتان فأكثر بينما يأخذ الثلث الإخوة لأم بنفس الشروط أو لو وجد أخ لأم مع أخت لأم بالتساوي المشار إليه سابقاً.

٤ ـ السدس يأخذه ثمانية: خمسة من النساء وثلاثة من الرجال.

٥ ـ الربع يأخذه الزوج إذا وجد فرع وارث للزوجة، وتأخذه الزوجة إذا لم يوجد فرع وارث للزوج.

٦ ـ الثمن تأخذه الزوجة إذا وجد فرع وارث للزوج.. وسيتضح أن النص على قدر محدد للمرأة مفيد لها فترث بالفرض أكثر من حالات ميراث الرجال (١٧/٦).. فترث النساء في سبعة عشرة حالة بالفرض، بينما يرث الرجال في ست حالات بالفرض فقط. هذا التحديد مفيد للمرأة حقا وقد يجعلها ترث أكثر من الرجل ويبدو ذلك من المقابلات التالية:

أولاً: فرض الثلثين مفيد للمرأة عن التعصيب للرجل أحياناً:

(أ) إذا ماتت امرأة عن ستين فداناً والورثة[2]:

زوج	أب	أم	بنتان
٤/١	٦/١ + الباقي تعصيباً	٦/١	٣/٢
٣	٢+٠	٢	٨
١٢	٨	٨	٣٢

لكل بنت ١٦ فداناً

زوج	أب	أم	ابنان
٤/١	٦/١	٦/١	الباقي تعصيباً
٣	٢	٢	٥
١٥	١٠	١٠	٢٥

لكل ابن ٢/١ ١٢ فداناً

يتضح من هذه المقابلة أن فرض الثلثين للبنتين قد أتاح لهما فرصة في بعض المسائل أن تأخذ كل بنت أكثر من نظيرها إذا وجد ابنان مكان البنتين.

ولو جعلنا مكان البنتين بنتي الابن، وجعلنا مكان الابنين ابني ابن لكانت المسألة كما هي لأنهم ورثوا باعتبار البنوة وإن كانوا أبعد درجة.

(٢) في المسألة الأولى حول ابن زادت الأنصباء عن الواحد الصحيح فتقسم التركة على مجموع الأسهم أي ٦٠ / ١٥ = ٤ فدادين ويضرب في سهم كل وارث ليتحمل الجميع في النقص، على حين تقسم في المسألة الثانية ٦٠ / ١٢ = ٥ فدادين لأن مجموع الأسهم يساوي الواحد الصحيح.

(ب) لو ماتت امرأة عن تركة ٤٨ فداناً والورثة:

	زوج	أختان ش	أم
	١/٢	٢/٣	١/٦
فيها عول	٣	٤	١
٦ = ٤٨/٨	١٨	٢٤	٦

لكل أخت ١٢ فداناً

زوج	أم	أخوان ش
١/٢	١/٦	الباقي تعصيباً
٣	١	٨ = ٤٨/٦.٢
٢٤	٨	١٦

لكل أخ ٨ أفدنة

من الواضح أن فرض الثلثين أفاد الأختين فورثت كل واحدة (١٢ فداناً) فى مقابل الأخوين اللذين ورثا بالتعصيب فكان حظهما (١٦ فداناً) لكل واحد منهما (٨ أفدنة).

وهى نفس المسألة لو كانت الأختان لأب مع الأخوين لأب فى المقابلة مكان الأختين الشقيقتين والأخوين الشقيقين.

ثانياً: فرض النصف أفاد الإناث عن التعصيب للرجل أحياناً:

وهذا يبدو مما يلى:

(أ) لو ماتت امرأة تاركة (١٥٦ فداناً) وبقى من ورثتها:

	زوج	أب	أم	بنت
فيها عول	١/٤	١/٦+التعصيب	١/٦	١/٢
١٥٦/١٢	٣	٢ + ٠	٢	٦
=١٢ف	٣٦	٢٤	٢٤	٧٢

زوج	أب	أم	ابن
١/٤	١/٦	١/٦	الباقي تعصيباً
١	٢	٥	٦
٣٩	٢٦	٢٦	٦٥ ١٢/١٥٦ = ١٣ف

هنا أخذت البنت بالفرض (٧٢ فداناً) ونقص لحقها نصيب الزوج والأب والأم لأن فى المسألة عولاً، أما الابن الذى يرث بالتعصيب فقد كان نصيبه (٦٥ فداناً) لأنه الباقى بعد أصحاب الفروض وهو أقل من نصيب البنت.

ولا تفترق المسألة إذا كان مكان البنت بنت الابن، ومكان الابن ابن الابن:

(ب) ماتت امرأة عن (٤٨ فداناً) والورثة:

	زوج	أم	أخت ش
	١/٢	١/٣	١/٢
فيها عول	٣	٢	٣
٦ = ٤٨/٨	١٨	١٢	١٨

زوج	أم	أخ شقيق
١/٢	١/٣	الباقى تعصيبا
٣	٢	١
٢٤	١٦	٨

هنا فارق كبير جداً حيث أخذت الأخت الشقيقة أكثر من ضعف نظيرها وهو الأخ الشقيق الذى ورث (٨ف) بينما أخذت هى (١٨ف).

ثالثاً: فرض الثلث قد يكون أحظى للمرأة من التعصيب للرجل أحياناً:

ويبدو هذا مما يلى:

(أ)

	زوجة	أم	أختان لأم	أخوان شقيقان
	١/٤	١/٦	١/٣	الباقى تعصيباً
التركة ٤٨	٣	٢	٤	٣
٤ = ٤٨/١٢	١٢	٨	١٦	١٢

هنا أخذت كل واحدة من الأختين لأم (٨ف) وهما الأبعد قرابة على حين أخذ الأخوان الشقيقان (١٢ف) كل واحد (٦ف) وهو أقل من ميراث أختيهما مما يؤكد أن الميراث بالفرض قد يكون أحظى للمرأة أحياناً من الميراث بالتعصيب الذى يرث به الرجل.

(ب) وتوجد مسألة أكثر دلالة على أن فرض الثلث قد يكون أحظى للمرأة من التعصيب للرجل مثل:

زوج	أختان لأم	أخوان ش	التركة
١/٢	١/٣	الباقى تعصيباً	التركة ١٢٠ف
٣	٢	١	٢٠ = ١٢٠/٦
٦٠ف	٤٠ف	٢٠ف	

هنا أخذت كل أخت لأم ضعف نصيب الأخ الشقيق مع كونه أقرب إلى المتوفى.

(جـ) توجد مسألة اشتهر فيها الخلاف وكثر حولها الحوار بين فقهاء الأمة حول نصيب الأم إذا وجد

فى المسألة معها أب وزوج فلو أعطى الزوج النصف والأم الثلث يبقى للأب السدس بالتعصيب وهو نصف نصيب الأم فذهب سيدنا عمر وزيد إلى أن الأم تأخذ ثلث الباقى بعد نصيب الزوج ليظل الأب محتفظاً بأكثر من الأم، وظل ابن عباس يدافع عن اختياره عملاً بظاهر النصوص أن فرض الأم إذا لم يوجد الفرع الوارث أو أخوان فأكثر هو الثلث مهما زاد حظها عن الأب فيقول لسيدنا زيد: أتجد ثلث الباقى فى كتاب الله أو تقوله برأيك، قال: أقوله برأيى، لا أفضل أما على أب.

ولكى يتضح مدى الخلاف الذى مازال موجوداً فى كل كتب الفقه إلى الآن نعقد هذه المقابلة:

زوج	أم	أب
١/٢	١/٣	الباقى تعصيباً
٣	٢	١

مذهب ابن عباس

زوج	أم	أب
١/٢	١/٣ + الباقى بعد نصيب الزوج	الباقى تعصيباً
٣	١	٢

مذهب عمر وزيد

ولئن بدا أن اختيار سيدنا عمر وزيد هو الأرجح أخذاً بالقواعد العامة فيبقى اختيار ابن عباس رأياً فقهيا يوافقه ظاهر النص، ومن حق أية حكومة إسلامية أن تأخذ بأى من الرأيين فى أحكام المواريث.

رابعاً: فرض السدس قد يكون أحظى للمرأة من التعصيب للرجل أحياناً:

ويتضح ذلك فى مسائل منها:

(أ)

زوج	أم	أخت لأم	أخوان ش	التركة
١/٢	١/٦	١/٦	الباقى تعصيباً	٦٠ فداناً
٣٠ف	١٠ف	١٠ف	١٠ف	

هنا فرض السدس فقط للمرأة ضعف نصيب كل أخ شقيق، ولو زاد عدد الإخوة الأشقاء فسيظل نصيب الأخت لأم موفوراً ويتوزع السهم الواحد على أى عدد من الإخوة الأشقاء.

(ب)

زوجة	أب	أم	بنت	بنت ابن
١/٨	١/٦ + الباقى تعصيباً	١/٦	١/٢	١/٦
٣	٤	٤	١٢	٤
٧٢	٩٦	٩٦	٢٨٨	٩٦

زوجة	أب	أم	بنت	ابن ابن
١/٨	١/٦	١/٦	١/٢	الباقى تعصيباً
٣	٤	٤	١٢	١
٨١	١٠٨	١٠٨	٣٢٤	٢٧

هنا أخذت بنت الابن أربعة أسهم من المسألة لأن فرضها السدس، أما ابن الابن فله سهم واحد لأنه وارث بالتعصيب فيأخذ ما بقى ولم يبق له إلا سهم واحد.. فلو كانت التركة ٦٤٨[٣] فداناً لأخذت بنت الابن (٩٦ فداناً) ويأخذ ابن الابن ٢٧ فداناً فقط، والفارق كبير جداً كما لا يخفى.

(ج) فى حالات نادرة قد يكون السدس للأم أفضل من التعصيب للأب منها: إذا كانت التركة (٦٠ فداناً) فانظر إلى هذه المقابلة:

أم	أم أم	أم أب
١/٦ فرضاً + الباقى رداً	محجوبة بالأم	محجوبة بالأم
٦٠ فداناً	صفر	صفر

أب	أم أم	أم أب
الباقى تعصيباً	١/٦	محجوبة بالأب
٥٠ فداناً	١٠ف	

الأم هنا بالفرض ورثت السدس والباقى لأن لها قوة فى حجب الجدات أكثر من الأب حيث حجبت جميع الجدات الأبوية والأمية، على حين حجب الأب الجدة التى تدلى إلى الميت من جهته هو وهى أم الأب، ولم يحجب أم الأم، ولهذا أسباب أذكرها فى نهاية هذه الدراسة.. لكن النتيجة أن الأم هنا ورثت كل التركة (٦٠ف) ولم يرث الأب سوى (٥٠ف) لأن الجدة الأمية أخذت (١٠ف).

المبحث الرابع: حالات ترث فيها المرأة ولا يرث نظيرها من الرجال

هناك حالات ترث فيها المرأة ولا يرث نظيرها من الرجال منها ما يلى:

(أ) إذا كانت التركة (١٩٥ فداناً) ويوجد فى المسألة:

زوج	أب	أم	بنت	بنت ابن
١/٤	١/٦ + الباقى تعصيباً	١/٦	١/٢	١/٦
٣	٢	٢	٦	٢
٣٩	٢٦	٢٦	٧٨	٢٦

زوج	أب	أم	بنت	ابن ابن
١/٤	١/٦	١/٦	١/٢	الباقى تعصيباً
٣	٢	٢	٦	
٤٥	٣٠	٣٠	٩٠	صفر

(٣) فى المسألة الأولى عول فتقسم التركة على مجموع الأسهم ٢٧ أى ٦٤٨÷٢٧=٢٤، لكن المسألة الثانية ليس فيها عول لوجود العصبة فتقسم ٢٤ أى ٦٤٨÷٢٤=٢٧.

هنا أخذت بنت الابن بفرض السدس (٢٦ فدانا) ولم يأخذ ابن الابن شيئاً، وإذا قيل إن ابن الابن هنا له وصية واجبة فهذا ليس رأى الجمهور[4]، وكون واضعي القانون المصرى قد اختاروا في قانون الوصية رقم ٧١ لسنة ١٩٤٦ العمل بالوصية الواجبة فلاتزال موضع نقد ومناقشة من علماء الأمة ودارسى علم المواريث[5].

وعلى كل، هناك حالة أخرى تذكرها لا تدخل بأى حال فى الوصية الواجبة وفق تحديد المقنن المصرى لها هى:

(ب) لو كانت التركة ٨٤ فداناً ويوجد فى المسألة:

زوج	أخت ش	أخت لأب[6]
١/٢	١/٢	١/٦
٣	٣	١
٣٦ف	٣٦ف	١٢ف

زوج	أخت ش	أخ لأب
١/٢	١/٢	الباقى تعصيباً
١	١	صفر
٤٢ف	٤٢ف	لا شىء

هنا أخذت الأخت لأب بفرضها السدس (١٢ف) ولم يأخذ نظيرها وهو الأخ لأب ولا توجد وصية واجبة له لأنه ليس من فرع ولد الميت.

(جـ) ميراث الجدة: فكثيراً ما ترث ولا يرث نظيرها من الأجداد: وهذا يتضح من هذا الشكل.. ويجدر أن تذكر قاعدة ميراث الجد والجدة:

(١) الجد الصحيح أى الوارث هو الذى لا يدخل فى نسبته إلى الميت أم مثل أب الأب وأب أب الأب وإن علا، أما أب الأم أو أب أم الأم فهو جد فاسد أوجد غير وارث على خلاف فى اللفظ لدى الفقهاء.

(٢) الجدة الصحيحة هى التى لا يدخل فى نسبتها إلى الميت جد غير صحيح، أو هى كل جدة لا يدخل فى نسبتها إلى الميت أب بين أمين وعليه تكون أم أب الأم جدة فاسدة لكن أم الأم، وأم أم الأب جدات صحيحات ويرثن.

وبناء على ذلك يكون الأجداد الوارثون هم سالم وشاكر فقط والأجداد غير الوارثين هم جمال وهانى وخالد وسمير.

على حين ترث جميع الجدات فى الشكل ما عدا خالدة لأنها جدة غير صحيحة أو غير وارثة حيث تدلى إلى الميت عن طريق جد غير صحيح.

---

(٤) شرح النووى على صحيح مسلم (١١/٥٧).

(٥) راجع ما كتبه أ.د. مصطفى شلبى فى أحكام المواريث (ص٢٦٨)، وراجع مناقشتنا للمسألة فى محاضرات فى الميراث والوصية: صلاح الدين سلطان (ص٢٩١-٢٩٥).

(٦) فى المسألة عول فيكون السهم = ٧/٨٤ = ١٢ف.

أب أب
أب أب أب | أم أب أب | أب أم أب | أم أم أب
شاكر | شاكرة | هانى | هنية
ج ص | ج ص | ج ف | ج ص
أب أب | أم أب
سالم | سالمة
ج ص | ج ص
أب
حسن

أب أب
أب أب أم | أم أب أم | أب أم أم | أم أم أم
خالد | خالدة | سمير | سميرة
ج ف | ج ف | ج ف | ج ص
أب أم | أم أم
جمال | جميلة
ج ف | ج ص
أم
حسنية

زيد

الجدان الوارثان = سالم + شاكر.
الأجداد غير الوارثين = جمال + هانى + خالد + سمير
الجدات الوارثات = سالمة + شاكرة + هنية + جميلة + سميرة
الجدة غير الوارثة = خالدة فقط.

بعد ذلك نضع مسألتين يظهر منهما أن المرأة قد ترث ولا يرث نظيرها من الرجال مثل:

أب أم	أم أم
ممنوع لأنه جد غير وارث	١/٦ فرضاً + الباقى رداً عليها

أب أم أم	أم أم أم
ممنوع لأنه جد فاسد (غير وارث)	١/٦ + الباقى رداً عليها

الأجداد هنا من ذوى الأرحام لا يرثون بالفرض ولا بالرد، لكن الجدة التى تناظره بل قد تكون زوجته غالباً ترث وحدها التركة كلها وهو لا يرث شيئاً إلا إذا أعطى شيئاً عملاً بالآية:

﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾

(النساء: ٨)

بعد هذا الاستقراء الذى أورد أكثر من ثلاثين حالة تأخذ فيها المرأة مثل الرجل أو أكثر منه أو ترث هى ولا يرث نظيرها من الرجال، فى مقابلة أربع حالات محددة ترث فيها المرأة نصف الرجل لأسباب تتوافق مع الروافد الأخرى من الأحكام الشرعية التى تتكامل أجزاؤها فى توازن دقيق لا يند عنه شىء، ولا يظلم طرفاً لحساب آخر لأنها شريعة الله تعالى الحكيم العليم الخبير العدل.

في فقه التغيير

إن التأمل العميق في أوضاع الأمة العربية الإسلامية، وفي أوضاع العالم عموما، بل حتى نظرة سريعة إلى تلك الأوضاع، يجعل من المشروع الاستنتاج أن الأوضاع العربية والإسلامية والعالمية بحاجة إلى تغيير جذري، وهذا ما جعل علماء الأمة ومفكريها وسياسييها، والأمر كذلك بالنسبة إلى وضع العالم ككل، يسعون بهذا الشكل أو ذلك للإسهام في عملية التغيير المنشودة، بل هي في الحقيقة عملية إنقاذ من الكارثة فكانت هنالك اجتهادات واجتهادات وقامت حركات وأحزاب وجماعات، واحتدت نقاشات واندلعت صراعات.



للأستاذ / منير شفيق
للمفكر الإسلامي والباحث الاستراتيجي

ومازالت المعركة حول التغيير مستعرة أولاً بين الساعين إليه من جهة وبين معارضيه من قوى السيطرة العالمية أو من قوى حاكمة محلية من جهة أخرى، وثانياً فيما بين الساعين إليه بل حتى بين الفرد ونفسه، والحركة وذاتها، الأمر الذي يجعل البحث في موضوع التغيير ملحاً بالرغم من أنه مبحث طرق كثيراً وقتل بحثا ولكنه بقى كالأرض الصحراوية العطشى التي لا تروى من السقيا، فكلما سقيت طلبت المزيد وزادت عطشاً، وهذا الأمر مفهوم ما دام التغيير المنشود لم يتحقق.. وما دامت الحاجة إليه تزداد يوماً بعد يوم، وذلك مع تفاقم أوضاع العرب والمسلمين من حيث ازدياد التبعية الاقتصادية والسياسية والثقافية عموماً للدول الكبرى أو من حيث ازدياد حالة التجزئة والضعف والتخلف العلمي وازدياد مظاهر الشلل والانحطاط، ومع تدهور أوضاع العالم عموما من حيث ازدياد الظلم العالمي سياسياً واقتصاديا وعسكرياً، وازدياد التدهور الأخلاقي والقيمي، وازدياد المخاطر على الطبيعة والبيئة وحياة الإنسان والحيوان والنبات.

بكلمة أخرى مادامت المشاكل الأساسية التي يعاني منها العرب والمسلمون لم تجد لها حلولاً، أو في الأقل لم توضع على طريق الحل فالتغيير على أساس الحل الإسلامي سيظل موضوعا راهنا يتطلب، بدوره أن تبحث كيفية تحقيقه عمليا. فالعدو الصهيوني مازال يغتصب الأرض المباركة - فلسطين - والدول الكبرى مازالت تتحكم بمصائر الأمة في السياسة والاقتصاد والإعلام والثقافة والتسلح والصناعة والتقنية، ومشاكل التجزئة والانقسامات والفرقة تزداد حدة وعمقا، ثم لا تسل عن الاستبداد وألوان القمع وكم الأفواه وشراء الضمائر وإفساد النفوس، وتخريب العائلة، وتدمير الأخلاق وسرقة الأموال العامة، ورشوة النخب مما يزيد من البطالة والغلاء والنزول تحت هامش الفقر، أما هجرة العقول والأيدي الماهرة فقد راحت تزداد ازدياداً مريعاً. فهذه المشاكل تصرخ طلباً للحلول قطريا وإقليمياً وعالمياً، وإن الحلول المقدمة حتى الآن لم توقف ذلك الصراخ أي لم تثبت أن الحلول المنشودة وإن كان بعضها حقق إنجازاً ما في هذا المجال أو ذاك ولكن بقي متواضعاً إذا ما قيس بعظم تلك المشاكل وما هو مطلوب لحلها وهذا ما يجعل الساعين للتغيير يعانون من أزمة بدورهم، ذلك بسبب عدم نجاح مساعيهم، مما يفرض على أغلبهم أن يعيدوا النظر فيما انتهجوا من سبل لتحقيق الأهداف ليتأكدوا من أن ما طرحوه بالأمس وساروا عليه قد أثبت أنه متجه إلى تحقيق الأمل المنشود أم لا يبدو واعداً حتى في حدوده الدنيا، وهو ما ينبغي للمهتمين بمسائل التحرر والاستقلال والوحدة العربية والعدالة الاجتماعية والنهضة أن يفعلوه كذلك.

ومن هنا كان لا مفر من أن يطرق موضوع التغيير مجدداً. وإذا كان ثمة جوانب كثيرة تحتاج إلى معالجة فيما يتعلق بهذا الموضوع إلا أن هذا الكتاب سيتناول بعضاً من تلك الجوانب وهي المتعلقة بالشروط والأساليب الموصلة إلى الحل أو الهدف ولم يتطرق إلى تلك الجوانب، على أهميتها القصوى، والمتعلقة بالحلول نفسها أو الأهداف المراد تحقيقها.

كان هذا الموضوع محطاً لاهتمام المؤلف طوال الأربعين عاما الماضية، ولهذا فهو ثمرة، أو خلاصة، مجموعة من المجهودات والدراسات والترجمات السابقة، وهذا ما جعله يخرج على صورة خلاصات أكثر منه على صورة بحث أكاديمي للموضوع، فقد لوحظ أن ثمة مجموعة من القوانين أو الخلاصات المستنتجة من التجارب العالمية المعاصرة في التغيير هي في الواقع مسبوقة في السيرة النبوية الشريفة، وفي ما تلاها من تجارب تغييرية إسلامية طوال خمسة عشر قرناً، ولهذا فإن التأصيل في موضوع التغيير يشكل معاصرة حقيقة لإشكاليات الراهن وتحدياته، ولعله مثال صارخ للخلل الذي يرزح تحته المتغربون حيث يستقون دروسهم من تجارب أقل خصباً وثراء بينما يتركون وراءهم تلك الينابيع في القرآن والسنة والتجربة الإسلامية التاريخية.

تبقى مسألة تحتاج إلى تشديد عليها هنا، وهي ضرورة التعاطي وهذا الكتاب بروح نقدية لأن موضوع التغيير ذو أبعاد كثيرة ومتداخلة، ولا يمكن استهلاكها بكتيب

وإنما تحتاج إلى جهد متواصل وبحث دائم، والأهم يجب أن يظل حاضراً في الذهن بأن كل حالة تغيير، مهما كان شأنها، تحتاج دائماً إلى إبداع وتجديد في التقاط خصوصيتها، وما يحيطها من عوامل وظروف، وما تحتاج إليه من تحديد للهدف وأسلوب للمعالجة.

ثوابت التغيير ومتغيراته

إن نظرة متأملة في قصص الأنبياء والرسل عليهم السلام.. كما نزلها الرحمن في القرآن الكريم، ثم وقفة أمام سيرة خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ﷺ وهو يقود أعظم عملية تغيير في التاريخ الإنساني قديماً وحديثاً ومستقبلا، لتدلنا على عدد من الحقائق، أو السنن، المتعلقة بإحداث تغيير على أساس الإسلام، ولعل أولى تلك الحقائق، أو السنن، أن ثمة ما هو ثابت، وما هو متغير، في كل تغيير. فهنالك ما هو ثابت مشترك فيما بين جميع عمليات التغيير التي قادها أنبياء الله ورسله عليهم السلام، ومن ثم لابد من الأخذ به في كل تغيير يقوم على أساس الإسلام، وأن هنالك ما هو متغير فيما بين جميع تلك العمليات التغيرية، ومن ثم لابد من ملاحظته ومراعاته في كل تغيير يقوم على أساس الإسلام.

ويمكن أن نلحظ تلك الثوابت والمتغيرات في كثير من عمليات التغيير الإسلامية، عبر التاريخ الإسلامي طوال الخمسة عشر قرناً الماضية وسيكون الأمر كذلك اليوم وغداً.

عقيدة التوحيد

إن الثابت الأول المشترك في عمليات التغيير التي حمل لواءها الأنبياء والرسل عليهم السلام كان حمل عقيدة التوحيد.. الدعوة إلى الله تبارك وتعالى.. عبادة الله وحده لا شريك له.. عبادة خالصة، وتقوى الله، وإطاعة الله، والإيمان بقدرته ورحمته، واستغفاره، والإيمان بعقابه، وثوابه وجنته وناره، وبالغيب وبالرسل، والملائكة، وبالكتب المنزلة.. والانصياع لأوامر الله تبارك وتعالى حراماً وحلالاً، نهياً ووجوباً:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

(الشعراء: ١٣١)

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

(المؤمنون ٣٢)

﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(النور: ٤٥)

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾

(التوبة: ١١٦)

﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾

(الحج: ٧)

﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾

(غافر: ١٢)

وما إلى هنالك من ثوابت في أساسات عقيدة التوحيد.

محاربة الكفر والشرك ومواجهة العنف والإغراء

ثم تمضي دعوة التوحيد جنباً إلى جنب مع عملية محاربة الكفر والشرك، لاسيما الشرك بمختلف تجلياته أكان شركاً في العبادة أم في اتباع ألوان هوى النفس، أم شركاً عبر ارتكاب الكبائر والمظالم والفواحش، مما يتطلب أن يستمسك بالكتاب بقوة استمساكا بالثوابت والمبادئ.. وعدم الرضوخ لإرهاب وترغيب، أو دحض وتكذيب، أو تهجير وتعذيب:

﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾

(مريم: ١٢)

ويقول تعالى أيضا:

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

(غافر: ٥)

أي لا مفر لأعداء التغيير من مقاومته، سواء أكان التغيير إيماناً بالله وحده لاشريك له وبغيبه ورسله وكتبه وملائكته وجنته وناره أم كان إقامة لحكم الحق والعدل ورفع المظالم والاعتداء والاستغلال أم كان تحريراً للأمة، أم كان عوداً، أو تثبيتاً، للأخلاق الحميدة واتباع الحلال واجتناب الحرام ودفع الفساد والإفساد والانحلال والفاحشة، أي لا مفر لأعداء التغيير من استخدام العنف أسلوباً في القضاء على الدعوة، ومن ثم لا مفر من أن يتحلى أصحابها بالصبر واحتمال الأذى من إهانة، أو تعذيب، أو قطع أرزاق، أو نفي في الأرض، أو تقتيل. ولا مفر لأعداء التغيير من السعي لشراء الضمائر، وإفساد السرائر بالمغريات، سواء أكان سلطاناً وجاهاً أوحكماً، أو وظيفة، أو وزارة، أو سفارة، أو موقعاً علمياً، أم كان مالاً ورفاهاً، أم كان أمناً وسلامة وعيشاً في الوطن وبين الأهل، ومن ثم لا مفر لأصحاب التغيير من أن يرتفعوا على ذلك كله، ويركلوه بأقدامهم متحلين بأعلى درجات الثبات على العقيدة والمبدأ. ولابد من الصبر والصمود والإصرار، وذلك حتى تخذل كل أساليب أعداء التغيير.

وتعج آيات القرآن الكريم في قصص الأنبياء ومن خلال مخاطبة رسول الله ﷺ بتأكيد الثوابت التي تتطلبها كل عملية تغيير رسالية وهي تواجه واحداً من السنن التي لا مفر منها، وهي تعرض أهل التغيير الرسالي إلى الابتلاء والقمع والأذى، ومن ثم لابد من ثوابت التحصن ضد ذلك ومواجهته، وقد جاء بالقرآن الكريم:

﴿ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾

(آل عمران: ١٢٠)

﴿ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾

(العنكبوت: ٢٤)

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾

(الحجر: ٩٤)

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾

(آل عمران: ١٨٦)

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾

(البقرة: ٢١٤)

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾

(آل عمران: ١٤٦)

لقد أوذى الرسول ﷺ كما أوذى الأنبياء عليهم السلام، وأوذى أصحابه رضى الله عنهم، وعندما شكا خباب بن الأرت إلى رسول الله ما يلقاه من عذاب اكتوى به جسمه قال ﷺ: «لقد كان قبلكم ليمشط بمشاط الحديد دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه». (صحيح البخارى)

أما فى المقابل فلما عرض عتبة بن ربيعة على رسول الله ﷺ المال والجاه والسلطان على أن يترك ما جاء به، وكذلك اجتمعت كل أشراف قريش لتعرض المال والجاه والسلطان كان رده ﷺ: «ما بى ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً، وأنزل علىَّ كتاباً، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً...»[1].

بكلمة، إن الثابت الأول المشترك أو الثوابت المشتركة، هو التوحيد ومحاربة الكفر والشرك، ومن ثم الثبات فى وجه مختلف الضغوط والإغراءات، فالهدف الكلى المرجو تحقيقه هو أن كلمة الله هى العليا فى كل مناحى الحياة.

١- تهذيب سيرة ابن هشام - عبد السلام هارون - مؤسسة الرسالة - بيروت ص ٦٦.

لكل نبى عدو

وإن مما هو مشترك فى المتغير أو هو ثابت ـ متغير، فى آن واحد، أن كل نبى، أو رسول، واجه قومه بقضية أساسية سلط النار عليها وطالب بإصلاحها، أو قل: إن كل دعوة تغييرية واجهت نمطاً معيناً من أعداء الله، ونمطاً معيناً من الكفر والشرك والظالم، والفاسد، أى نحن هنا إزاء ثابت يحمل طبيعة متغيرة، ويقول الله تبارك وتعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾

(الفرقان: ٣١)

وكان هذا العدو يبرز دائماً بعد أن يبلغ بالرسالة ويدعى إليها فيأخذ على عاتقه محاربتها والكيد لصاحبها وأتباعها، فيكون هو دائماً البادئ بالحرب والعداوة وإغلاق باب الحوار والجدال الحسن ومنع الرسالة من أن تمضى سلمياً وتقنع الناس بالحسنى. فقد واجه أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام قومه بما يعبدون من أصنام جعلوها آلهة، فخاض معركة التوحيد جنباً إلى جنب مع تسليط النار ضد عبادة تلك الآلهة:

﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم ﴾

(الأنبياء: ٥٧)

أما لوط عليه السلام فركز فى نقد قومه على إتيانهم الفاحشة:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾

(الأعراف: ٨٠)

أما كليم الله موسى عليه السلام فواجه فرعون الطاغية الذى سمته الأساسية:

﴿ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾

(طه: ٢٤)

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

(الأعراف: ١٤١)

وواجه هود عليه السلام قومه عاد بجحودهم:

﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾

(هود: ٥٩)

وحاول صالح عليه السلم أن يذكر قوم ثمود الذين نسوا آلاء الله بعد أن بوأهم فى الأرض إثر عاد فاتخذوا من جبالها بيوتاً، ومن سهولها قصوراً، فعاثوا فى الأرض مفسدين:

﴿ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

(الأعراف: ٧٤)

وكانت دعوة شعيب عليه السلام إلى أهل مدين:

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾

(الشعراء: ١٧٧)

فراحوا يخسرون في الكيل ويظلمون الناس:

﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ۝ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۝ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

(الشعراء: ١٨١ - ١٨٣)

وبعث الله عيسى ابن مريم عليه السلام بعد أن اختلف أحبار إسرائيل وكهنتها في التوارة، وراحوا يحرفون الكلم عن مواضعه، ليصحح ويكمل ويهدى ويبشر ويردع الكهنة وينصر المستضعفين:

﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

(الزخرف: ٦٣)

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

(الصف: ٦)

أما خاتم النبيين والرسل عليه وعليهم الصلاة والسلم فقد واجهت دعوته للتوحيد ملاء قريش وأصنامها:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾

(المسد ١-٥)

ثم تكرر الأمر مع يهود في المدينة، ثم مع الجاهلية عموما ثم كانت المعركة مع أكبر دولتين عظميين.. دولة الروم ودولة الفرس، ويجب أن يشار هنا إلى أن عملية التغيير الإسلامي بقيادة محمد بن عبدالله ﷺ لاتشكل أعظم تغيير فحسب وإنما هي أشمل عمليات التغيير وأكملها وأغناها، وأكثرها توثيقاً من حيث التفاصيل.

نخلص مما تقدم إلى ملاحظة ثلاث سنن واجهت عمليات التغيير الرسالية:

الأولى وهي البدء بدعوة الجميع، وفي مقدمتهم أصحاب الأمر إلى قبول الرسالة وتبنيها، وقد اتسم الرسل والأنبياء عليهم السلام بالروح السمحة، وبحب هداية الجميع، وباستخدام الجدال الحسن، يقول الله تعالى:

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾

(غافر: ٣٨)

﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

(النحل: ١٢٥)

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾

(هود: ٣٢)

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

(العنكبوت: ٤٦)

أما في الثانية فيلحظ في المقابل أن الصراع في الميدان العقدي والفكري والثقافي لا مفر منه فالخصم لابد من أن يدعم دعواه بالحجج وبالتكذيب والتشهير، وهنا لابد من أن تحتدم المواجهة في هذه الميادين.

ويقول الله تبارك وتعالى:

﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾

(غافر: ٥)

﴿ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾

(الكهف: ٥٦)

وتأتي الملاحظة الثالثة ليشهد الابتلاء والقمع والإيذاء، فيغلق الطغيان ميادين الجدال الحسني، وليفرض الدخول في مستويات أخرى من الصراع، وهنا تتوزع خيارات وأساليب الرد ولكن مع الامتلاء حزنا وأسى لرفضهم الهداية، ويقول الله جل وعلا مخففاً من ذلك على قلوب الرسل والأنبياء والمؤمنين:

﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ﴾

(النحل: ٣٧)

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾

(غافر: ٢٨)

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

(الأحقاف: ١٠)

وكذلك بالنسبة إلى القوم الفاسقين وهكذا.

إنه لأمر مهم أن يلاحظ في هذا السياق أن المظلومين في الصراع هم دائما في جانب أهل التغيير الرسالي، أما الاعتداء فيه فهو دائما إلى جانب الطرف المقابل، وهو أمر له أبعاده الكثيرة المهمة على مستوى العقيدة والمبدأ «الدعوة بالتي هي أحسن وفتح باب الهداية للجميع»، كما على مستوى السياسة، (في عملية التعبئة وعزل الخصم) كما على مستوى تحمل المسئولية، والعواقب حين يدخل الصراع إلى تلك المستويات التي تتضمن الويلات والكوارث والقتل والتضحية بالأنفس والأموال والأهل والأمن.

وتبقى في هذا الصدد نقطة تحتاج إلى تأكيد وهو ضرورة التفريق بين كل ما يحمل سمة الثابت وما يحمل سمة المتغير، فكل ما يتعلق بالعقيدة والعبادات والمرجعية والحلال والحرام ومختلف التعاليم الأساسية يدخل ضمن الثوابت - المبادئ- أما يتعلق بخصوصية وضع ما في الزمان والمكان من جهة السلطة والعلاقات والتركيبات الاجتماعية وموازين القوى وأشكال الصراع فهذه كلها تدخل ضمن المتغيرات، لكن التعامل وإياها يجب أن يظل مرتبطا بالهدف الكلي وبالمرجعية الإسلامية، وهو ما يحسن معالجتها وإنزال النص على واقعها المتغير.

- يتبع -

عمر المختار (*)



لأمير الشعراء / أحمد شوقي

ركزوا رفاتك في الرمال لواء ... يستنهض الوادي صباح مساء(1)
يا ويحهم نصبوا مناراً من دم ... توحي إلى جيل الغد البغضاء(2)
ما ضر لو جعلوا العلاقة في غد ... بين الشعوب مودة وإخاء؟
جرح يصيح على المدى وضحية ... تتلمس الحرية الحمراء(3)
يا أيها السيف المجرد بالفلا ... يكسو السيوف على الزمان مضاء
تلك الصحارى غمد كل مهند ... أبلى فأحسن في العدو بلاء
وقبور موتى من شباب أمية ... وكهولهم لم يبرحوا أحياء
لو لاذ بالجوزاء منهم معقل ... دخلوا على أبراجها الجوزاء(4)

(*) شهيد المسلمين والعرب بطل طرابلس الخالد عمر المختار، هو من الأسرة السنوسية أصحاب الطريقة السنوسية ذات النفوذ الروحاني العظيم في كثير من أقطار الإسلام، ظل يقاتل الطليان في سبيل الذود عن وطنه وقومه، حتى قبضوا عليه وأعدموه شنقاً سنة ١٩٣١، واشيع وقتئذ انهم سلكوا في إعدامه سبلاً بشعة متوحشة، ولم يرحموا سنه التي نيفت على التسعين.

١ - ركز اللواء: غرزه في الأرض، وهذا استعمال لغوي مشتق من الركيزة، وهي قطع الفضة والذهب والمعادن. كان العرب في الجاهلية يحفرون لها في الأرض، ويسمونها الدفائن، فقوله «ركزوا رفاتك» استعمال أريد به الإشارة إلى أن هذا الرفات من النفائس والذخائر التي يضن بها ويحرص عليها.

٢ - المنار: موضع النور، وجعلها مناراً من دم: هو لون من التشبيه العجيب، كأنه يعجب كيف جعلوا موضع النور والاقتباس محلاً للتنفير والإزعاج.

٣ - الحرية الحمراء: هي المكتسبة بالدم، إشارة إلى قولهم: الحرية شجرة لا تنبت إلا بالدماء.

٤ - الجوزاء: نجم معروف في السماء.

فتحوا الشمال سهوله وجباله ... وتوغلوا فاستعمروا الخضراء
وبنوا حضارتهم فطاول ركنها ... (دار السلام)، (وجلق) الشماء(5)
خيرت فاخترت المبيت على الطوى ... لم تبن جاهاً أو تلم ثراء(6)
إن البطولة أن تموت من الظما ... ليس البطولة أن تعب الماء
إفريقيا مهد الأسود ولحدها ... ضجت عليك أراجلاً ونساء
والمسلمون على اختلاف ديارهم ... لا يملكون مع المصاب عزاء
والجاهلية من وراء قبورهم ... يبكون زيد الخيل والفلحاء(7)
في ذمة الله الكريم وحفظه ... جسد ببرقة وسد الصحراء(8)
لم تبق منه رحى الوقائع أعظماً ... تبلى ولم تبق الرماح دماء
كرفات نسر أو بقية ضيغم ... باتا وراء السافيات هباء(9)
بطل البداوة لم يكن يغزو على ... تنك ولم يك يركب الأجواء(10)
لكن أخو خيل حمى صهواتها ... وأدار من أعرافها الهيجاء
لبى قضاء الأرض أمس بمهجة ... لم تخش إلا للسماء قضاء
وافاه مرفوع الجبين كأنه ... سقراط جر إلى القضاة رداء
شيخ تمالك سنه لم ينفجر ... كالطفل من خوف العقاب بكاء
وأخو أمور عاش في سرائها ... فتغيرت فتوقع الضراء

٥ - دار السلام: بغداد، وجلق: دمشق.

٦ - اللم: الجمع. ٧ - الفلحاء: لقب عنترة العبسي، أما زيد الخيل فعلم على فارس بهذا الاسم.

٨ - برقة: هي المنطقة الشرقية من ليبيا، فتحها عمرو بن العاص سنة ٦٤١م، وسميت باسم عاصمتها القديمة وقد اشتهرت بوقائعها الحربية المتعددة التي حدثت بين العرب والطليان. ٩ - السافيات: الرياح.

١٠ - تنك: هي الدبابة المستعملة في الحروب.

الأُســـدُ تزأرُ في الحـــديد ولن ترى   في الـسجن ضرغاماً بكى استخذاء
وأتى الأســيرُ يجـرُّ ثقلَ حديده   أســدٌ يجــررُ حـيَّــة رقطاء
عـضّت بسـاقيه القيـودُ فلم ينُؤ   ومَـشَت بهيكله السنون فناء
تسعون لو ركبت مناكب شاهق   لترجّلت هضباته إعياء(١١)
خفيت عن القاضي وفات نصيبُها   من رفق جُند قـادة نُبلاء
والسنُّ تعصف كُلَّ قلب مُهذّب   عرف الجدود وأدرك الآباء
دفعوا إلى الجلاد أغلب ماجداً   يأسو الجراح ويُعتق الأسراء
ويُشاطر الأقران ذُخر سلاحه   ويصُفُّ حول خِوانه الأعداء(١٢)
وتخيّروا الحبل المهين منيّة   لليث يلفظ حوله الحوباء(١٣)
حرموا الممات على الصوارم والقنا   من كان يُعطي الطعنة النجلاء
إني رأيت يد الحضارة أولعت   بالحق هدماً تارة وبناء
شرعت حقوق الناس في أوطانهم   إلا أباة الضيم والضعفاء
يا أيها الشعب القريب أسامعٌ   فأصوغ في عُمر الشهيد رثاء
أم ألجمت فاك الخطوب وحرّمت   أذنيك حين تخاطب الإصغاء؟
ذهب الزعيم وأنت باقٍ خالدٌ   فانقد رجالك واختر الزعماء
وأرح شيوخك من تكاليف الوغى   واحمل على فتيانك الأعباء

***

١١ – الشاهق: الجبل. والتسعون: هي التسعون عاما التي يحدد بها عمر الزعيم حين قبضوا عليه ليعدموه.

١٢ – الخوان: مائدة الطعام.

١٣ – الحوباء: النفس.

بنو إسرائيل في الكتاب والسنة



للأستاذ الدكتور/
محمد سيد طنطاوى

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه وبعد: فإن القارئ للقرآن الكريم يجده قد فصل الحديث عن بني إسرائيل تفصيلا وافيا، ووصف أحوالهم وأخلاقهم ومواقفهم من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وصفا صادقا مستفيضا.

ففي الآيات والسور المكية تحدث القرآن الكريم عن قصصهم، وعن تعذيب فرعون لهم وعن أحوالهم المختلفة في العهود التي سبقت بعثة النبي صلى الله عليه وسلم.

أما في الآيات والسور المدنية فقد تحدث عن موقفهم من الدعوة الإسلامية، وعما أسبغه الله عليهم من نعم، وما أنزله بهم من نقم، جزاء فسقهم عن أمر ربهم، كما تحدث بالتفصيل عن أخلاقهم ورذائلهم ودعاواهم الباطلة وعن مسالكهم المتنوعة لكيد الإسلام والمسلمين.

والقرآن الكريم في حديثه عن بني إسرائيل، يربط ربطاً محكماً بين طباع وأخلاق المعاصرين منهم للنبي ﷺ وطباع وأخلاق آبائهم الأولين الذين عاصروا موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وذلك ليبين أن ما عليه الأبناء من فسوق وعصيان ومحاربة لدعوة الإسلام، إنما هو ميراث من الخلق السيء توارثه الخلف عن السلف وأخذه الأبناء عن الآباء.

ومن الأدلة على صدق القرآن الكريم أن ما وصفهم به من صفات تراها في كل زمان ومكان منطبقة عليهم، ولم تزدهم الأيام إلا رسوخاً فيها.

فمثلاً صفة الحرص على الحياة تراها متمثلة

فيهم في كل الأوقات والعصور.

ونحن المسلمين قد نالنا من اليهود أذى كثير.. فهم الذين حاربوا الدعوة الإسلامية بكل سلاح.. وهم الذين اغتصبوا - بمعاونة دول الكفر - بقعة من أرضنا المقدسة - وهي فلسطين - وأقاموا عليها دولة لهم في عام ١٩٤٨م.

وقد كتب الكاتبون - خصوصاً بعد هذا التاريخ - مئات الكتب والبحوث والمقالات عن اليهود وعن فلسطين، إلا أن معظم ما كتبوه ينصب على الجوانب السياسية والتاريخية، والاقتصادية والعسكرية.. أما الجانب الديني فمازال في حاجة إلى الكتابة العلمية الرصينة التي تستمد حديثها عن اليهود من كتاب الله تعالى، ومن سنة رسوله ﷺ.

الفصل الأول

تاريخ بني إسرائيل وأحوالهم في جزيرة العرب

كلامنا في هذا الفصل يتناول المباحث الرئيسية الآتية:

أولاً: لم سُمي اليهود بالعبريين. أو الإسرائيليين أو يهود؟.

ثانياً: نظرة مجملة في تاريخهم منذ نزوحهم إلى مصر بقيادة يعقوب - عليه السلام - حوالي سنة ١٩٠٠ ق.م إلى خراب (أورشليم) الثاني على يد (تيطس) الروماني سنة ٧٠ م.

ثالثاً: هجرتهم إلى جزيرة العرب، وبيان أحوالهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية فيها.

المبحث الأول

عن أشهر أسماء بني إسرائيل: العبريون، والإسرائيليون، ويهود أو اليهود، وقد اختلفت الآراء في سبب تسميتهم بالعبريين أو العبرانيين:

١ - فقيل: إنهم سموا بالعبريين نسبة إلى إبراهيم نفسه، فقد ذكر في سفر التكوين باسم (إبراهيم العبراني) لأنه عبر نهر الفرات وأنهاراً أخرى.

٢ - وقيل: إنهم سموا بالعبريين نسبة إلى (عَبَر) وهو الجد الخامس لإبراهيم - عليه السلام -.

٣ - وقد خالف الدكتور إسرائيل ولفنسون الرأيين السابقين، وأبدى رأياً ثالثاً في سبب هذه التسمية، فقال: «إن كلمة عبري ترجع إلى الوطن الأصلي لبني إسرائيل، وذلك أنهم كانوا في الأصل من الأمم البدوية الصحراوية التي لا تستقر في مكان، بل ترحل من بقعة إلى أخرى بإبلها وماشيتها للبحث عن الماء والمرعى، وكلمة عبري في الأصل مشتقة من الفعل الثلاثي عبر بمعنى: قطع مرحلة من الطريق، أو عبر الوادي أو النهر من عبره إلى عبره، أو عبر السبيل: شقها، وكل هذه المعاني موجودة في هذا الفعل سواء في العربية أو العبرية، وهي في مجملها تدل على التحول والتنقل، الذي هو من أخص ما يتصف به سكان الصحراء، وأهل البادية، فكلمة عبري مثل كلمة بدوي أي: ساكن الصحراء أو البادية، وقد كان الكنعانيون والمصريون والفلسطينيون يسمون بني إسرائيل: بالعبريين؛ لعلاقتهم بالصحراء، وليميزوهم عن أهل العمران، ولما استوطن بنو إسرائيل أرض كنعان وعرفوا المدنية والاستقرار صاروا ينفرون من كلمة عبري التي كانت تذكرهم بحياتهم الأولى حياة البداوة والخشونة، وأصبحوا يؤثرون أن يعرفوا ببني إسرائيل فقط[1]».

ومن كلام الدكتور ولفنسون نستخلص: أنه يرى أن تسمية بني إسرائيل بالعبريين ليس سببها حادثة بعينها، أو شخصاً بعينه، وإنما سببها معيشتهم في الصحراء، وعبورهم للرعي، والبحث عن وسائل العيش من مكان إلى آخر.

هذا وقد نشرت إحدى المجلات بحثاً[2] للأب (إسحاق ساكا) عنوانه: (معنى التسميات للشعوب السامية الثلاثة الكبرى..) رجح فيه الرأي الأول فقال: «وقد رجح العلماء الثقات - ومنها العالمان السريانيان ابن الصليبي المتوفى سنة ١١٧١ م، وابن العبري المتوفى سنة ١٢٨٦م - الرأي الأول، وهو: أن التسمية ناتجة عن عبور إبراهيم - عليه السلام - نهر الفرات، وأيد ابن العبري قوله بالترجمة اليونانية (أكويلا) التي تترجم (العبراني) بـ(المجتاز) أو العابر، وقد أخذ بهذا الرأي - أيضاً - الدكتور ليفن فقال: «إنه مشتق من فعل معناه عبور النهر»، وفي هذا إشارة إلى عبور إبراهيم نهر الفرات، وفي هذه الحالة يمكن أن تترجم الكلمة إلى (مهاجر) وهذه قد تظهر طريقة الكنعانيين في التحدث عن إبراهيم. ومما يؤكد هذا الرأي - أيضاً - ما جاء في سفر يشوع: «هكذا قال الرب إله إسرائيل في عَبْر النهر سكن آباؤكم منذ الدهر، تارح أبو إبراهيم وأبو ناحور، وعبدوا آلهة أخرى، فأخذت أباكم إبراهيم من عبر النهر، وسيرته في جميع أرض كنعان».

ثم تابع الأب (ساكا) كلامه فقال: «وإضافة إلى ذلك نقول: إن هذه اللفظة لم تظهر إلا بعد اجتياز إبراهيم نهر الفرات، هذا فضلاً عن أن الأخذ بهذا الرأي أقرب إلى الصحة من الرأيين الآخرين. كيف لا وهو رأي معظم العلماء وفحولهم؟».

وأما الرأي الثاني فالأخذ به صعب، أولاً: لأن بين إبراهيم - الذي كان أول من وصف بهذه التسمية - وبين عابر أو عَبَر مدة ستة أجيال متوالية، فلو شاء إبراهيم أن ينتسب إلى أحد أجداده لكان من البديهي أن يعزى إلى سام أشهر أجداده.

ثانياً: لو كانت النسبة إلى عابر فلم لم ترد في الكتاب طيلة ستمائة سنة؟ ولم يسم بها إبراهيم قبل عبوره نهر الفرات وهو بعد في أرضه وعشيرته؟ وما الحكمة في نسبته إلى عابر دون غيره؟ ولم لم ينوه كاتب التوراة بذلك؟ هذا كله يحملنا على استبعاد هذا الرأي من الأذهان.

أما الرأي الثالث - وهو رأي الدكتور ولفنسون - فلا يركن إليه؛ لأنه لو كانت التسمية متأتية من الهجرة والتنقل لكانت معظم الأمم السامية نعتت بها. أليس الدكتور ولفنسون نفسه عند

(١) تاريخ اللغات السامية ص ٧٧، الدكتور إسرائيل ولفنسون، الذي كان مدرساً للغات السامية بكلية دار العلوم، ثم هاجر إلى فلسطين ومات بها قبل أن تقوم دولة إسرائيل.

(٢) مجلة العربي الكويتية، العدد ٩١ يونيو (حزيران) سنة ١٩٦٦ ص ١٥١.

كلامه عن مهد الساميين الأصلى، والحركات عند أغلب الأمم السامية، كالبابليين، والآراميين، والإسرائيليين، والعرب يقول:

«يلاحظ فى مظاهر أغلب هذه الأمم أنها مظاهر تكاد تكون صحراوية فعواطف هذه الأمم وخيالها واتجاه أفكارها مما يشعرنا بروح الصحراء» فإذا كانت التسمية متأتية من التنقل، وحياة البداوة كقوله، فلم لم تدع بها كل الأمم السامية؟ ولم خصت بالإسرائيليين وقد كانوا ينفرون منها كما زعم هو نفسه؟، وإذا صح قول الدكتور إسرائيل ولفنسون: أن العبرانيين كانوا ينفرون من هذه التسمية، وبعد أن استقروا وتحضروا استبدلوها بالإسرائيلى. فلماذا لم يستبدلوا أيضا اسم لغتهم العبرانية بالإسرائيلية؟ فرأيه إذا لا يقوم على الدليل المقنع، وبالتالى يكون الرأى الأول هو المعقول، ويجب الأخذ به».

هذه بعض الآراء التى تعرضت لسبب تسمية بنى إسرائيل بالعبريين أو العبرانيين، ويبدو لنا أن أرجحها هو الرأى الأول؛ لأنه كما قال الأب إسحاق ساكا ـ هو رأى معظم العلماء وفحولهم.

ننتقل بعد ذلك إلى بيان سبب تسميتهم بالإسرائيليين، أو بنى إسرائيل فنقول: سموا بذلك نسبة إلى أبيهم إسرائيل، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وإسرائيل كلمة عبرانية مركبة من (إسرا) بمعنى: عبد أو صفوة، ومن (إيل) وهو الله، فيكون معنى الكلمة: عبد الله، أو صفوة الله.

وكان أولاد يعقوب الذكور اثنى عشر ولداً، وذلك أنه أعقب من زوجته (ليئة) ستة أولاد وهم: رأوبين ـ شمعون ـ لاوى ـ يهوذا ـ يساكر ـ زبولون.

وأعقب من زوجته (راحيل) اثنين هما: يوسف ـ بنيامين.

وأعقب من (زلفا) جارية (ليئة) اثنين هما: جاد ـ أشير.

وأعقب من (بلهها) جارية (راحيل) اثنين هما: دان ـ نفتالى.

ومن أبناء يعقوب ـ عليه السلام ـ وذرياتهم من بعدهم تكونت أمة بنى إسرائيل ونسبت إليه.

وقد جاء ذكر يعقوب ـ عليه السلام ـ فى آيات كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى:

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

(البقرة: ١٣٣)

ننتقل بعد ذلك إلى الكلام عن سبب تسميتهم بيهود فنقول:

١ ـ قيل إنهم سموا بذلك حين تابوا عن عبادة العجل، وقالوا: إنا هدنا إليك، أى: تبنا ورجعنا.

قال صاحب لسان العرب: «الهَوْد: التوبة، هاد يهود هودا: تاب ورجع إلى الحق فهو هائد، وفى التنزيل العزيز:

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾

(الأعراف: ١٥٦)

أى: تبنا ورجعنا إليك. وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وإبراهيم. ويهود اسم للقبيلة، وقالوا (اليهود) فأدخلوا الألف واللام فيها على إرادة النسب يريدون اليهوديين، وقوله تعالى:

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴾

معناه: دخلوا اليهودية. وهوَّد الرجل: حوله إلى اليهودية، وهاد ويهود إذا صار يهودياً. قال سيبويه: وفى الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه» معناه: أنهما يعلمانه دين اليهودية أو النصرانية ويدخلانه فيه»[٣].

٢ ـ وقيل إنهم سموا بذلك؛ لأنهم يتهوَّدون، أى: يتحركون عند قراءة التوراة.

٣ ـ وقيل: إنهم سموا يهوداً نسبة إلى (يهوذا) الابن الرابع ليعقوب ـ عليه السلام ـ.

وقد رجح بعض العلماء هذا القول واقتصر عليه. قال البيرونى مؤيداً هذا القول: «وإنما سموا باليهود نسبة إلى يهوذا أحد الأسباط، فإن الملك استقر فى ذريته، وأبدلت الذال المعجمية دالاً مهملة، لأن العرب كانوا إذا نقلوا أسماء أعجمية إلى لغتهم غيَّروا بعض حروفها»[٤].

وقد كان (يهوذا) هو الحاكم لسائر أبناء أبيه الأحد عشر بتقديم أبيه له. وظل كذلك حتى مات، وكان سبطه من بعده هو المقدم على سائر الأسباط الأخرى، إلى أن انقسمت مملكتهم بعد وفاة سليمان ـ عليه السلام ـ إلى قسمين:

مملكة يهوذا ومقرها (أورشليم)، وتتكون من سبطى يهوذا وبنيامين، ومملكة إسرائيل ومقرها (السامرة)، وتتكون من بقية الأسباط العشرة.

وبعد سقوط دولة إسرائيل على يد الآشوريين سنة ٧٢١ ق. م، دخل من بقى منهم تحت طاعة ملوك يهوذا، إلى أن سقطت مملكة يهوذا على يد بختنصر سنة ٥٨٦ ق. م، وساق الأحياء منهم أسارى إلى بابل، وعرفوا حينئذ ببنى يهوذا، وقيل للواحد منهم يهودى، ثم اتسعت هذه الكلمة فصارت تشمل جميع العبرانيين، وبنى إسرائيل ومن دخل فى اليهودية من الأجناس الأخرى.

يقول الدكتور جواد على: «ولفظة يهود أعم من لفظة عبرانيين وبنى إسرائيل، ذلك أن لفظة يهود تطلق على العبرانيين وعلى غيرهم ممن دخل فى دين يهود، وهو ليس منهم، وقد أطلق الإسرائيليون وأهل يهوذا لفظة يهود على أنفسهم وعلى كل من دخل فى ديانتهم؛ تمييزاً لهم عن غيرهم ممن لم يكن على هذا الدين، وهم الغرباء»[٥].

وإلى هنا نكون قد بينا: لم سمى اليهود بالعبرانيين، أو ببنى إسرائيل، أو بيهود.

(٣) لسان العرب لابن منظور جـ ١٥ ص ٤٣٩: طبعة دار صادر بيروت.

(٤) تاريخ الملل والنحل للمرحوم الأستاذ أمين الخولى جـ ٢ ص ٤.

(٥) تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد على جـ ٦ ص ٩٥: طبعة المجمع العلمى العراقى.

آدم عليه السلام

للعلامة الشيخ عبدالوهاب النجار

عبدالوهاب النجار

هو عبدالوهاب بن الشيخ سيد أحمد النجار (١٢٧٨ - ١٣٦٠هـ ١٨٦٢ - ١٩٤١م)

ولد بالقرشية. من قرى الغربية وتعلم بطنطا والقاهرة وتخرج من دار العلوم سنة ١٣١٥هـ - ١٨٩٧م.

واشتغل بالمحاماة وعمل أستاذا للأدب والشريعة والتاريخ بدار العلوم والجامعة المصرية وكلية أصول الدين، وكلية الخرطوم ومدرسة البوليس، وناظرا لمدرسة عثمان ماهر باشا.

ومن آثاره الفكرية، تاريخ الإسلام، و، تاريخ الخلفاء الراشدين، و، قصص الأنبياء، و، زهرة التاريخ، و، الأيام الحمراء،، وهى يوميات ثورة سنة ١٩١٩م و، مذكرات عن الهند،

ويعد كتابه، قصص الأنبياء، أحسن ما كتب فى موضوعه، انطلاقا من القرآن الكريم وصحيح السنة مع المقارنة بأسفار العهدين القديم والجديد ومصادر التاريخ والآثار.

ذكر اسم آدم فى القرآن الكريم خمسا وعشرين مرة فى خمس وعشرين آية.

وأول من قص الله تعالى علينا قصصهم فى القرآن الكريم من الأنبياء «آدم» أبو البشر عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام. وقد ذكرت قصته فى سورة البقرة، وفى سورة الأعراف، وفى سورة الإسراء، وفى سورة الكهف، وفى سورة «طه» باسمه وصفته، وفى سورة الحجر، وفى سورة «ص» بصفته فقط، وكلها بمعنى واحد ولكن بعبارات مختلفة اللفظ فقط. وذلك مما يدل على إعجاز القرآن الكريم، فإن أكتب الكاتبين وأبلغ البلغاء إذا كتب قصة مرة يستحيل عليه أن يكتبها مرة أخرى بألفاظ غير الأولى مع المحافظة على المتانة فى الأسلوب والبلاغة فى التعبير كما فى القرآن الكريم.

خلق آدم من طين

وأمر الملائكة بالسجود له وامتناع إبليس

عن السجود تكبرا

تتلخص قصة آدم في أن الله تعالى أخبر ملائكته أنه سيخلق بشرا من طين، وأمرهم إذا سواه ونفخ فيه من روحه أن يقعوا له ساجدين، سجود تكريم بالطبع لا سجود عبادة، لأن الله لا يأمر أحدا أن يتوجه بالعبادة إلى سواه. وبعبارة أخرى كان ذلك احتفالاً بتمام تكوين آدم بشراً سوياً.

سوّى الله تعالى آدم من طين من حمأ مسنون - متغير - حتى إذا صار ذلك الطين صلصالا - يصل إذا ضرب - كالفخار، نفخ فيه من روحه فإذا هو إنسان حي من لحم ودم وعظم وعصب يتحرك بإرادته ويدرك، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه، وأبى أن يسجد استكباراً، ونسب إلى الله الظلم فى أمره بالسجود لآدم وقال: أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين فطرده الله من الجنة. اقرأ قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ
فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾

(سورة البقرة الآية : ٣٤)

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ
اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾

(سورة الأعراف الآية : ١١)

والمعنى: خلقنا أصلكم الذى نسلكم وكنتم من أبنائه، فخلقنا له خلق لكم. وتصويرنا له تصوير لكم:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا
الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن
قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ۞ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا
مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ
مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۞ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ ۞ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾

(سورة الحجر الآيات : ٢٦ - ٣١)

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا
لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ
أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ
بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾

(سورة الكهف الآية : ٥) ٠

﴿ إِذْ قَالَ
رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ
فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۞ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ ۞ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾

(سورة ص الآيات : ٧١ - ٧٤)

محاجة إبليس لله

فى مخالفته عن أمره بالسجود

سأل الله تعالى إبليس - وهو أعلم - عن السبب الذى منعه من السجود إذ أمره، فاحتج بأنه أفضل من آدم الذى خلقه من طين من صلصال من حمأ مسنون، وأن من الظلم أن يخلق هو من عنصر النار

الذى هو أشرف من الطين ثم يؤمر بالسجود لتلك الكتلة، وتسب الله تعالى إلى الظلم وأبدى غاية التكبر، فأعلمه الله بأنه من أهل النار لاستكباره، وبأنه مطرود من الجنة لذلك السبب وهو الكبر ونسبة الظلم إلى الله.

إنظار إبليس إلى يوم الدين

طلب من الله تعالى أن ينظره إلى يوم الدين، وتوعد آدم الذى طرد بسببه من الجنة بأن يغوى ذريته ويقعدهم على الله، وأن يسعى فى أن يجعل أكثرهم غير شاكرين لله، إلا عباد الله المخلصين، فوعده الله هو وكل من أطاعه من ذرية آدم بالنار.

اقرأ قوله تعالى:

﴿ قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ۝ قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين ۝ قال أنظرني إلى يوم يبعثون ۝ قال إنك من المنظرين ۝ قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ۝ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ۝ قال اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾

(سورة الأعراف الآيات: ١٢ - ١٨)

﴿ قال يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين ۝ قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون ۝ قال فاخرج منها فإنك رجيم ۝ وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ۝ قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون ۝ قال فإنك من المنظرين ۝ إلى يوم الوقت المعلوم ۝ قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ۝ إلا عبادك منهم المخلصين ۝ قال هذا صراط علي مستقيم ۝ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ۝ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾

(سورة الحجر الآيات: ٣٢ - ٤٣)

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا ۝ قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا ۝ قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا ۝ واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ۝ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا ﴾

(سورة الإسراء الآيات: ٦١ - ٦٥)

﴿ قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين ۝ قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ۝ قال فاخرج منها فإنك رجيم ۝ وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين ۝ قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون ۝ قال فإنك من المنظرين ۝ إلى يوم الوقت المعلوم ۝ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ۝ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾

(سورة ص الآيات: ٧٥ - ٨٣)

استخلاف الله آدم فى الأرض

أخبر الله تعالى ملائكته أنه سيجعل آدم خليفة فى الأرض فقالوا:

﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾

(البقرة: ٣٠)

ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ولا نعصى أوامرك ولا نفعل شيئاً من نواهيك، فأخبرهم الله تعالى أنه يعلم فى هذا المخلوق من الأسرار ما لا يعلمون، ويعلم ما يبدون وما يكتمون، وأنهم غير عالمين بالسر فى استخلافه آدم، وأنه اختصه بعلم ما لا يعلمون.

ومعنى الخلافة عن الله فى الأرض: أنه سيكون له سلطان عليها متصرفاً فى موادها ليجعلها ملائمة لحاجاته:

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾

(سورة البقرة: الآية: ٣٠)

قد يظن القارئ لهذا السؤال أن الملائكة قاموا بمظاهرة أمام الله واحتجوا عليه لاستخلافه آدم فى الأرض فيقول: كيف يكون هذا منهم وهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون؟

والذى أفهمه أن شيئاً من ذلك لم يحصل ولكن خواطر خطرت بأنفسهم وهى تشوقهم لمعرفة الحكمة فى استخلاف ذلك المخلوق الذى من شأنه تلك الأشياء، ومعرفة السر فى تركهم من هذا الأمر وهم المجبولون على تسبيحه وتقديسه، فأراد الله أن يعلمهم بالعمل أنه أودع فيه من السر والقدرة على وضع أسماء الأشياء ما لم يودعه فيهم.

تعليم الله آدم أسماء المسميات

التى تقع تحت حسه

أراد الله أن يحقق للملائكة بالفعل ويكشف لهم بالعمل ما غاب عنهم، ويبين أن آدم الذى استحقره أولئك الملائكة محل لعناية الله وإيثاره بما لم يعطه لهم، فعلم الله آدم الأسماء كلها.

والذى أفهمه أنه علمه جميع الأشياء التى فى جنة عدن وألهمه وأقدره على وضع اسم لكل ما تقع عليه عينه هناك من زروع وأجزائها، وأشجار وثمار وفروع وورق ولب ونوى وجميع الأوعية والأدوات التى هناك، وجميع ما فيها من حيوان وأجزائه لاحتياجه إليها.

ومعلوم أن معرفة آدم لهذه الأشياء فى طعامه وشرابه وسائر ما يتلذذ به فى تلك الدار أمر طبيعى، بخلاف الملائكة فإنهم لا يحتاجون إلى شىء من ذلك لأنهم لا يحتاجون إلى طعام ولا إلى شراب ولا يباشرون شيئا من هذه الأشياء، فكان علمه بها أمراً معقولاً صحيحاً، إذ الحاجة تفتق الحيلة. ويشهد لما ذهبت إليه: قوله تعالى:

﴿ فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ﴾

(البقرة: ٣١)

والاشارة للمرئى الحاضر. وتكلف أنه صور له ما كان وما يكون وأشار إليه: تحميل للآية ما لا تحتمله. ثم أن الله تعالى عرض على الملائكة المسميات وطالبهم بأسمائهم، فلم يعلموا ما يجيبون وقالوا:

﴿ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ﴾

فقال تعالى:

﴿ يا آدم أنبئهم بأسمائهم ﴾

ففعل، وقال للملائكة:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

اقرأ قوله تعالى:

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

سورة البقرة (الآيات: ٣١ - ٣٣)

يبالغ بعض الناس فيزعم أن الله تعالى علم آدم كل شيء كان ويكون، وعرض صور هذه الأشياء ما كان موجوداً وما سيوجد، وأن آدم سمى كل شيء باسمه: وهذه مبالغة غير مقبولة لا أميل إليها، بل أميل إلى أنه سمى الأشياء التي وقع عليه حسه ومنها الطيور والبهائم وكل أنواع الحيوان الموجودة هناك.

ولا يخفى أن استخلاف آدم في الأرض يشتمل على معنى سام من الحكمة الإلهية التي خفيت عن الملائكة، فإن الله تعالى لو استخلف الملائكة في الأرض لما عرفت أسرار هذا الكون وما أودع فيه من الخواص والعلوم الغزيرة، فإن الملائكة ليسوا بحاجة إلى شيء مما في الأرض، إذ هم على وصف يخالف وصف الإنسان، فما كانت السفن لتصنع ولا تزرع الأرض بمختلف الزروع والغراس، وما وجد منها لا يهتم أحد بمعالجته واستخراج خباياه، فلا تعرف الأطياب ولا خواص الأشياء ولا المركبات الكيماوية ولا الفوائد الطبيعية ولا الفلكية ولا المستحدثات الطبية ولا الطبائع النفسية ولاشيء من هذه العلوم الكثيرة التي تفني السنون ولا يدرك الإنسان لعلم منها نهاية، فسبحانه وتعالى من عزيز حكيم.

سكنى آدم وزوجته الجنة

وخروجهما منها بسبب إغواء إبليس لهما

أمر الله آدم أن يسكن الجنة بعد أن خلق له حواء يسكن إليها، وأباح لهما كل شيء في الجنة إلا شجرة عينها لهما، ولكن إبليس وسوس لهما بالأكل منها وأغراهما بأنواع المغريات وقال لهما: إن ربكما لم ينهكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا لأن الأكل منها يجعلكما من الملائكة أو تكونان خالدين، ولا يقرب الموت والفناء ساحتكما، وقال لآدم:

﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾

(طه: ١٢٠)

﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾

(الأعراف: ٢١)

ولم يزل يفتله في الذروة والغارب ويمنيه معسول الأماني ويرفؤه بالقول اللين، حتى نسي آدم أنه عدوه الذي أبى السجود له، وأن الله حذره منه أشد الحذر بقوله:

﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾

(طه: ١١٧)

فأكل آدم وحواء من الشجرة:

﴿ فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾

(طه: ١٢١)

ليسترا عورتيهما ويجعلان ورق الشجر على هيئة الثوب الساتر، وعاتب الله آدم على مخالفته أمره والأكل من الشجرة، فندم آدم وأخذ يعتذر، فطرده هو وحواء من الجنة، وطرد إبليس قائلاً:

﴿ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾

(البقرة: ٣٦-٣٧)

وهداه واجتباه وبقي في الأرض هو وبنوه الذين أتى بهم من حواء في الأرض: اقرءوا قوله تعالى:

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۝ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(سورة البقرة: الآيات: ٣٥ - ٣٨)

﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۝ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ۝ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾

(سورة الأعراف الآيات: ١٩ - ٢٥)

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ۝ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ۝ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾

(سورة طه الآيات: ١١٥ - ١٢٣)

مسائل: نحب أن نعرض لها في هذه القصة ونجيب عنها

الأولى: أن إبليس لم يكن من الملائكة فهو غير مأمور بالسجود لآدم، فكيف يعاقب على مخالفته أمراً لم يوجه إليه؟

والجواب: أن إبليس لو لم يكن مأموراً لقال لله: إنك لم تأمرني حين قال الله له:

﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾

(الأعراف: ١٢)

ولكنه أظهر التكبر ولم ينف الأمر، ففهمنا أنه كان مأموراً، وأنه وإن كان من غير الملائكة ولكن الله تعالى كان قد أمر الشاهدين لنفخ الروح في آدم بالسجود وإبليس كان حاضراً، وإنما عبر الله تعالى بالملائكة لأنهم كانوا الجمهور الأعظم في الحاضرين. ووجود فرد من غيرهم لا يضر في صدور الأمر على هذه الصورة، فهو كان من الحاضرين المأمورين حقيقة وإن كان غير ملك، وليس لأحد أن يكون أقوم بحجة إبليس من إبليس نفسه. وهناك رأى آخر: وهو أن في الملائكة صنفاً يقال لهم الجن، فلفظ الملائكة يشمله.

الثانية: تعلم أن إبليس طرد من الجنة عقب إبائه السجود، فكيف وصل إلى آدم في الجنة حتى أغواه ودلاه وزوجه بغروره؟

والجواب: أن طرده من الجنة لا يجعل دخولها مستحيلاً عليه، وأنه قد دخلها عاصياً آثماً لإغواء من حسده من أول يوم. على أن إبليس تصل وسوسته إلى النفس وإن كان بعيداً، كما يصل تأثير السحر إلى الغائب والبعيد، وكما يصل صوت البعيد بوساطة التليفون اللاسلكي، فلا مانع من أن يصل تأثير وسوسته إلى آدم من خارج الجنة إلى داخلها. وإني أميل إلى أنه دخلها آثما وعاصياً أمر ربه، بدليل قوله تعالى:

﴿ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾

(البقرة: ٣٦)

الثالثة: من أي شيء خلقت حواء؟

والجواب: أن الله تعالى قال:

﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾

(النساء: ١)

هذه العبارة محتملة لأن يكون الله قد أخذ ضلعاً من أضلاع آدم وخلق من ذلك الضلع حواء، وقد قال بذلك كثير من العلماء وهي بعينها عبارة التكوين[1].

ومن الجائز أن يكون الله خلقها كما خلق آدم، وأن يكون قوله تعالى:

﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾

أي من جنسها وعلى صورتها، وحينئذ يكون المادة التي أخذت منها المرأة غير متعرض لها، والرأي الأول النفس إليه أميل.

أين توجد الجنة؟

الرابعة: أين توجد الجنة التي كان فيها آدم وطرد منها؟

والجواب: اختلف العلماء في الجنة التي أسكن الله بها آدم وحواء وأخرجهما الله منها، أهي جنة المأوى التي وعد الله المتقين أن يدخلوها في الآخرة؟ أم هي جنة من جنات الأرض؟ والجمهور على أنها جنة المأوى أخذاً بظواهر الآيات والأحاديث، كقوله تعالى:

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾

(البقرة: ٣٥)

وحديث مسلم عن أبي هريرة: (يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تزدلف لهم الجنة، فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم) قال ابن كثير في البداية والنهاية: وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة في الدلالة على أنها جنة المأوى. وليست تخلو عن نظر.

وقال فريق من العلماء: إن الجنة التي سكنها آدم وحواء كانت من جنات الدنيا لأنه كلف فيها ألا يأكل من الشجرة، ولأنه نام فيها وأخرج منها ودخل عليه إبليس فيها ووسوس إليه ولغا آدم وعصى ربه فيها، وهذا ينافي أنها جنة المأوى.

وقد حكى هذا القول عن أبيّ بن كعب وعبدالله بن عباس ووهب بن منبه وسفيان ابن عيينة، واختاره القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الجماعة في تفسيره وأفرد له مؤلفاً على حدة، وحكاه عن أبي حنيفة الإمام وأصحابه رضي الله عنهم، ونقله أبو عبدالله محمد بن عمر الرازي ابن خطيب الري في تفسيره عن أبي القاسم البلخي وأبي مسلم الأصبهاني، ونقله القرطبي في تفسيره عن المعتزلة والقدرية. وقد حكى الخلاف في هذه المسألة أبو محمد بن حزم في الملل والنحل وغيره.

وحاصل الخلاف فيها على أقوال:

١ - أنها جنة المأوى.

٢ - أنها جنة سوى جنة المأوى اخترعها لآدم وحواء.

٣ - أنها جنة من جنات الأرض.

٤ - التوقف في أمرها.

ومن أراد فضل بيان في هذا الموضع فليرجع إلى ص٧٥ وما بعدها ج١ من كتاب البداية والنهاية لابن كثير.

ومن رأيي تفويض أمر تلك الجنة إلى علم الله تعالى فهو الذي يعلم إن كانت في السماء أو في الأرض وهذا لا يمنعني أن أقول أني أميل إلى أنها من جنات الأرض.

نكتة طريفة

يعترض القائلون بأن الجنة التي وجد فيها آدم كانت من جنات الدنيا فيقولون: لو أن آدم كان في جنة الخلد فكيف يبحث عن شجرة الخلد ليأكل منها، وما فائدة ذلك؟

(١) فأوقع الإله الرب سباتا على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً (٢١) وبنى الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم (٢٢) فقال آدم هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي تدعى امرأة لأنها من امرئ أخذت. من الإصحاح الثاني تكوين

والآخرون يعارضونهم بالمثل قائلين: إذا كان آدم في جنة من جنات الدنيا كما تقولون فكيف يبحث عن شجرة الخلد في دار لا خلود فيها؟

وقال بعض المفسرين: ان الجنة التي كان فيها آدم هي جنة اخترعها الله في السماء فليست دار الخلد ولا جنة من جنات الدنيا.

يقول الباحثون في شأن البحار وأعماقها وما فيها من وهاد ونجاد وسلاسل وجبال: إن الجنة التي وجد فيها آدم كانت في قارة غير هذه القارات المعروفة الآن، بل هي قارة في جوف المحيط الآن ويسمونها قارة «مو» ويقولون إنها غرقت بحوادث زلزالية، واستقرت بسهولها وجبالها وما كان عليها من حيوان وشجر وزرع في أعماق المحيط الهندي، وقد مات بسبب غرقها نحو ٦٠ مليونا من الناس. وكل هذه أمور لا نقطع فيها بشيء.

وقد جاء وصف تلك الجنة في الإصحاح الثاني من سفر التكوين بما يفيد أنها عند منابع دجلة والفرات.

الخامسة: هل آدم نبي ورسول؟

والجواب: أن نبوة آدم قد أخذت دورا مهما من عدة سنوات إذ ظهر بمدينة «دمنهور» رجل أنكر أن يكون آدم نبيا، وقد رفعت عليه الدعوى بالمحكمة الشرعية وصدر الحكم عليه بالتفريق بينه وبين زوجته لردته بذلك الإنكار، ولما استأنف الحكم إلى محكمة الإسكندرية كان كلامه أمامها: أنه لم ير لفظا في القرآن يذكر آدم بالنبوة وأنه يعتقد نبوته، فصدر حكمها بإلغاء الحكم الأول وأعيدت إليه زوجته.

أقول أيضا: إن القرآن الكريم لم يذكر لفظ النبوة بإزاء آدم كما ذكر ذلك بإزاء غيره من الأنبياء كإسماعيل وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم، ولكن ذكر أنه خاطبه بلا واسطة وشرع له في ذلك الخطاب، فأمره ونهاه وأحل له وحرم عليه بدون أن يرسل إليه رسولا، وهذا هو كل معاني النبوة، فمن هذه الناحية نقول إنه نبي وتطمئن أنفسنا بذلك.

وأما رسالته فالأمر فيها مختلف فيه، وشأننا أن نفوض علم ذلك إلى الله تعالى. على أني رأيت في حديث أبي هريرة في الشفاعة الوارد في صحيح مسلم أن الناس يذهبون إلى نوح ويقولون له: أنت أول رسل الله إلى الأرض، فلو كان آدم رسولا لما ساغ هذا القول. والعلماء القائلون برسالة آدم يؤولون ذلك بأنه أول رسول بعد الطوفان، وهو تأويل متكلف.

السادسة: اذا كان نبيا فكيف عصى والأنبياء معصومون من المعصية؟

والجواب عن ذلك من وجوه:

(الأول) أن يكون ذلك منه على سبيل النسيان، وانما سمي ما أتاه ناسيا خطيئة ومعصية وغواية لأن النبي ﷺ لما كان ليس كأحد الناس وكان التنبه والحذر من مخالفة الله لازما له، فإذا نسي عدّ ذلك خطيئة في حقه وإن كان غير خطيئة إذا صدر من غيره، وحسنات الأبرار سيئات المقربين.

(الثاني) أنه تأول فيما فعل، إذ فهم أن الأمر والنهي ليسا جازمين بحيث يترتب على المخالفة الغضب والمجازاة، بل فهمه أمر إرشاد فقط ونهي إرشاد، وما كان من هذا القبيل لا يحرم مخالفته، كما حمل الفقهاء الأمر بكتابة الدين على أنه أمر إرشاد ولا إثم بتركه.

(الثالث) أن ما حصل من الذنب صغيرة وهذا لا يتأتى إلا على رأي من يقول: إن الأنبياء غير معصومين من الصغائر.

(الرابع) أن ذلك كان قبل النبوة المستلزمة للعصمة من المعصية، وهو جواب حسن لولا أنه وقع بعد صدور الأمر والنهي إليه بلا واسطة وهو ما جعلناه من أمارات نبوته.

(الخامس) أن آدم تأول في أكله من الشجرة، لأن الله أراه الشجرة التي نهاه عن الأكل منها فتأول أنه نهاه عن عينها ولم ينه عن جنسها، فأكل من شجرة أخرى من جنسها.

السابعة: هل آدم هذا هو أول البشر ولم يكن أحد قبله من جنسه؟

والجواب: أن العقل لا يجعل من المحال أن يكون الله خلق آدم غير آدم هذا، ولكن الله تعالى لم يذكر سوى آدم الذي نعرفه أبا البشر، فالقول بوجود غيره مجازفة بلا برهان، وقد وجد من البشر في الأزمان الغابرة والحاضرة من يدعون أن عمران بلادهم أقدم من خلق آدم كأهل الهند. وقد كانوا في الزمان السابق يدعون أن آدم كان عبدا من عبيدهم هرب إلى الغرب وجاء بأولاده، وإلى هذا يشير المعري بقوله:

تقولُ الهندُ آدمُ كان قنا … لنا فسعى إليه مخببوه

وإلى القول بوجود أوادم سوى آدم يشير بقوله:

جائز ان يكون آدمُ هذا … قبله آدم على إثر آدم

وقوله:

وما آدم في مذهب العقل واحدا … ولكنه عند القياس أوادم

ويقول:

قال قوم - ولا أدين بما قا … لوه - إن ابن آدم كابن عِرسِ

جهل الناس من أبوه على الدهـ … ـر ولكنه مسمى بحرس

في حديث رواه قوم لقوم … رهن طرس مستنسخ إثر طرس

ويقول:

قالوا: وآدم مثل أوبر وابنه … كبناته جهل امرؤ ما أوبر

وهناك فريق من الناس يرجح أنه ليس أول نوعه ويستأنسون لذلك بقول الملائكة:

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾

(البقرة: ٣٠)

ويقول: إن الملائكة لم يقولوا ذلك الا

لرؤيتهم من تقدموا آدم من الخلق الذين على صورته قد فعلوا ذلك، وأن آدم إنما كان خليفة عن بشر كانوا من جنسه وبادوا.

وكل هذه الأقوال لا تستند إلى نص قطعي الثبوت والدلالة.

إن الذين يقولون إن آدم ليس أول نوعه، بل وجدت قبله أوادم كثيرة سواه، ويستأنسون لذلك بقوله تعالى للملائكة:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

(البقرة: ٣٠)

يعتقدون أن آدم إنما خلف غيره وهم الأمة التي كانت تسكن الأرض قبله في عمران هذه الأرض، يعززون أقوالهم بما يراه علماء الجيولوجيا من وجود بقايا عظام لآدميين تخالف عظام الآدميين الموجودين الآن، ويرجع تاريخ وجودها إلى أزمان كثيرة تعد بعشرات الآلاف ومئات الآلاف من السنين.

والجيولوجيون يسمون الأمة التي كانت قبل هذا الجنس الآدمي مباشرة بالإنسان «لنياندرتالي» ويقولون: إنه كان موجودا من نحو ٣٠٠٠٠ ثلاثين ألف سنة وأن الجنس الآدمي الموجود اليوم لا يمت إليه بقرابة. وأن ذلك الجنس قد باد عن وجه الأرض - راجع مقالة بشأن هذا في البلاغ الخصوص ١٥ من مايو سنة ١٩٣٤.

وعلى أية حال فالمسألة لا تعنينا ولا يترتب عليها نفع ولا ضرر، والله لم ينص على شيء منها في الكتب السماوية فوجب السكوت عنها.

الثامنة: ظهر رأي في البلاد الأوروبية وقبله كثير من علمائهم: وهو أن الإنسان أصله قرد ترقى بسبب عوامل مجهولة حتى صار هذا الإنسان. وذلك يبطل أن يكون أصل الإنسان آدم، فما الرأي؟

والجواب: أن هذه النظرية لم تزل موضع بحث، للأخذ والرد فيها مجال، ولها أنصار مؤيدون كما أن لها خصوما يبطلونها. وعندنا القرآن الكريم يدل بنصوصه الظاهرة على أن أصل الإنسان آدم ولم يكن قردا تحول ولا شيئا آخر ترقى وهو النسقة، فإذا وصل أصحاب النظرية إلى الأدلة القاطعة التي تجعل هذه القضية بديهية تساوي في بداهتها «كل عدد زوجي ينقسم إلى قسمين متساويين» و«السماء فوقنا والأرض تحتنا» كان لزاما علينا أن نؤول القرآن ليوافق الواقع كما هي القاعدة القائلة: إن القرآن يؤخذ على ظاهره بدون تأويل إلا إذا منع من ذلك مانع فيعمد إلى تأويله.

ذلك أن القرآن إنما خاطب العقلاء بما عندهم من العقل ويلجأ إلى العقل فيما خالف الناس فيه مقاصد القرآن.

وقد ذكر العقل ومشتقاته في القرآن الكريم نحو «ما عقلوه.. ويعقلون.. وتعقلون.. لو كنا نسمع أو نعقل.. وما يعقلها إلا العالمون» تسعا وأربعين مرة.

فالدين الذي يعتمد على العقل في إقامة براهينه وبسط حججه لا يمكن أن يجانب العقل وينافيه، فإذا أثبت العلماء نظرياتهم إثباتا قاطعا وجب علينا أن نؤول ظاهر القرآن تأويلا يتفق مع ما أثبته العلم وقطع العقل بأنه الحق الذي لا محيص عنه.

أتذكر أنه قبيل الحرب العظمى كان أحد العلماء الأمريكان أرسل إلى الطبيب الذكر «جورجي زيدان بك» كتابا يرجوه فيه أن يأخذ جواب علماء المسلمين في مصر من الأزهر وغيره عن أسئلة وجه بها إليهم - منها:

ما هو رأي العلماء المسلمين في نظرية «دارون»؟ وهل تجد نجاحا؟ وما هو مقدار الإقبال عليها؟ وما رأي علماء الأزهر فيها؟

وقد كان ليّ الشرف بأن وجهت إليّ هذه الأسئلة كما وجهت إلى كثيرين غيري، لكن لم يجب عليها أحد سواي فيما أعلم، وجاءني خطاب شكر من السائل وأنه سينشر جوابي «مترجما بالإنجليزية طبعا» - وصورتي، وقد مرت الأعوام ولم ينشر الكتاب الذي كان يريد أن يجعله معرضا عاما لآراء العلماء في العالم في نظرية «دارون» وتوفي جورجي بك زيدان ولم أعلم بشيء عن هذا الشأن إلى اليوم.

وجوابي يتلخص في أن علماء الإسلام إنما يأخذون عقيدتهم عن العقل: يوجبون ما أوجبه ويحيلون ما أحاله ويجيزون ما أجاز. ومن صريح القرآن فيما لا يعارض العقل ولا يصادمه، فإذا كانت عبارة القرآن تخالف مقطوعا به عقلا وجب تأويل نص القرآن ليطابق العقل، وقد جاء القرآن بأن الله قد خلق شخصا اسمه «آدم» وزوجه «حواء» وأنهما أصل النوع الإنساني، وأنه خلق آدم من الطين ونفخ فيه من روحه وجعله بشرا، فهذا القول عندنا صريح لا يعدل عنه إلى تأويله إلا إذا قامت الأدلة التي لا ترد على نظرية «دارون» وأن الإنسان ليس أصلا بنفسه بل جنس أو نوع مشتق من غيره. إذا صرت أدلة «دارون» بديهية في حكم «السماء فوقنا والأرض تحتنا» وجب أن نسلم بها وأن نلجأ إلى تأويل نصوص القرآن بما لا يخالف الواقع.

ولكن نظرية «دارون» لم تبلغ من المتانة هذا الحد الذي يجعلها أمرا قطعيا:

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾

(فصلت: ٤٢)

والمسلم الحقيقي لا يترك الساق إلا ممسكا ساقا أقوى منها وأمتن. فليس من المعقول أن يترك الاعتقاد المتين الذي تلقاه من القرآن إلى نظرية لم تثبت [٢].

وقد كان علماء الأزهر في ذلك الحين

(٢) أنا لا أنكر على العلماء والباحثين جهودهم، بل أقبل ما قام البرهان القاطع على صحته، أحمد إليهم ما يبذلونه من جهود فعذرنا عنها، وهم في أبحاثهم قراء. صحيفة الكون.

بعيدين عن العناية بأمثال هذه المباحث، فلم يسمع لهم صوت فى هذا الأمر ولم يأبهوا بشىء من هذا، وهذه أمريكا عاقبت أحد المدرسين فى إحدى الجامعات، لأنه أظهر لطلبته صحة قول «دارون» وأتباعه وأبطل ما تضمنته التوراة فى شأن آدم. وأظن أن من الجرأة أن يكتب إنسان صكا على نفسه يقطع فيه بأن نساء الجنس البشرى قد أعقمن أن يلدن أعظم من «دارون» وأقدر على إثبات عكس نظريته.

بقى أن أقول لكم: إن عالما ألمانيا يقول: إن القرد إنسان متقهقر وليس الإنسان قردا مرتقيا، ونظريته التى يقول بها عكس نظرية «دارون» وأتباعه، وقد جعل أدلة دارون وبراهينه أدلة وبراهين على صحة نظريته.

وعلى الجملة فما دام الأمر نظرية مطروحة على مشرحة البحث والتنقيب فإنها لا تكون حجة ملزمة لأحد أصلا.

هبوا أن الطبيعة قد غضبت على هذه الأرض فهزتها هزا عنيفا بغير شفقة وزلزلتها زلزالا شديدا فدكت كل بناء شامخ، وانهار كل صرح باذخ، وألحقت القصور بالأكواخ، وأزالت معالم الناس ودورهم ومصانعهم وسككهم الحديدية وكل شىء للإنسان فيه صناعة، وعادت الأرض كما كانت قبل أن يسكنها هذا الجيل الذى يسمونه إنسانا.

فهل يتصور أن الغوريلا والشمبانزى وسائر الفصيلة القردية تهب لعمران الأرض كما عمرها الإنسان ويكون بينها المصلحون الدينيون والمخترعون والمبتدعون ويقوم من بينها أمثال أفلاطون وسقراط وابيكورس وبقراط وجاليتوس وأرسطوطاليس وأرشميدس وابن سينا والفارابى وابن رشد ونيوتن ولبلاس وغاليلى وكوبرنيق وبونزن ولوكلانش وواط واستيفن وزبلن وادسن ومركونى ومورس وهنرى مربون وكورى ومدام كورى، ويرسمون الكرة الأرضية مسطحة ومجسمة ويبينون فى الخرائط خطوط الطول وخطوط العرض وخط الاستواء ومدار السرطان ومدار الجدى وتيارات البحار ويبينون سببها ونتيجتها، ويخترعون الآلات الهندسية من النظارات والبلانشيطة والبلانومتر والمساطر التى تبين النسب، ويوجدون اللوغاريتمات والنسب والمتواليات العددية والهندسية وحساب المثلثات وقواعد الجبر، ويخترعون نظارة العيور والتيودوليت والنظارة النجمية والساعات على اختلاف أنواعها ودقة صنعها، يعرفون الصعود والمطالع المستقيمة والمزاول والتلسكوب والميكرسكوب والسموجراف والترمومتر والبارومتر والأريومتر والراديو والتليفون والتليفون اللاسلكى والتلفزيون «التليفون المصور» والطائرات والغواصات والمناطيد ويكتشفون القارات والعناصر الأولية للمادة والمركبات الدوائية وسائر ما تكلم عنه الإنسان فى المادة الطبية، ويسمون الكواكب الثابتة والسيارة، ويحللون ألوان الضوء ويعرفون الطيف ويستخدمون الأشعة المختلفة كأشعة رونتجن وأشعة إكس والأشعة الحمراء والبنفسجية وفوق البنفسجية وفوق الحمراء فى العلاجات، ويضعون لها الأسماء ويميزون الدائرة الكسوفية ومنطقة فلك البروج وغيرها.

ويعرفون أن النجم أوفا فى مجموعة قنطاريس أقرب الثوابت إلى الأرض وأن ضوءه يصل إلى الأرض فى سنتين ضوئيتين وأن يتاجس «باط الجوزاء» فى صورة الجبار عملاق النجوم وأن ضوءه يصل إلى الأرض فى مليونى سنة ضوئية، وأن الجدى فى الدب الأصغر غير الجدى الذى بين القوس والدلو ويسمون قيفاوس والمرأة المسلسلة وبرشاوش، ويفرقون بين الفرس الأكبر والفرس الأصغر، ويضعون أساطير لبروشاوش ورأس الغول والشعريين وسهيل والدبران والثريا، وكيف هم أريد أن ينهش الجبار فى رجله فرفعها جزعا، ويخترعون الصواريخ لمحاولة الخروج من جذب الأرض، ويعلمون أن الخسوف يحصل من دخول القمر فى المخروط الظلى للأرض وكسوف الشمس من توسط جرم القمر بينها وبين الأرض إلى غير ذلك أقول إنى كلما فكرت فى ذلك جزمت بأن ذلك محال، وقطعت بأن القرد لابد أن يبقى قردا مدى الدهر وأن القردة لا تلد إلا قردة.

قصة آدم فى سفر التكوين

وقد ذكرت قصة آدم فى الإصحاحين الثانى والثالث فى سفر التكوين وهى لا تخالف ما جاء فى القرآن إلا مخالفة بسيطة فإنها لم تذكر مسألة السجود لآدم ولا مخالفة إبليس وتكبره وطرده من الجنة ولم تذكر الحوار بين الله تعالى وملائكته، وجعلت المغرى لآدم وزوجه على الأكل من الشجرة «الحية».

بقى مسألتان: ـ

الأولى: من هم الملائكة؟

والجواب ـ أن الملائكة خلق من خلق الله تعالى لا نعلم حقيقتهم ولم نرهم واعتقاد وجودهم واجب وهو من الأمور السمعية التى لا يوجبها العقل ـ ولكن المعصوم ﷺ أخبر بوجودهم ـ وجاء فى الكتاب الكريم وفى الكتب السماوية أسماء بعضهم فوجب اعتقادنا وجودهم، لأنهم ذكروا بنص قاطع الثبوت والدلالة.

وأن المعصوم أخبر بوجودهم فأعلمنا بهم، وقد أخبر الله تعالى عنهم فى القرآن أنهم:

﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾

(الأنبياء: ٢٦، ٢٧)

وأنهم:

﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾

(التحريم: ٦)

ويفهم من فحوى الخطاب بينهم وبين الله تعالى أنهم مجبولون على الطاعة منزهون عن المعصية وذلك فى قوله تعالى حكاية عنهم:

﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾

وقد اختلفت كلمة العلماء فى شأنهم.

ففريق يقول: إنهم أفضل من البشر كما يدل عليه قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾

(الأعراف: ٢٠)

فإنه مناهما بالأكل من الشجرة أن يرتقيا إلى مرتبة أعلى وهى مرتبة الملائكة. وكما يدل عليه قوله تعالى عن صواحب يوسف:

﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾

(يوسف: ٣١)

وقال آخرون: إن النوع الآدمى أفضل من الملائكة، لأن إطاعة الملائكة بالجبلة ولم تركب فيهم الشهوة، فلا فضل لهم فى العصمة. وأما الآدمى فإنه يجاهد شهواته وميوله.

وقال آخرون: إن عموم الملك أفضل من عموم البشر، ولكن خواص البشر وهم الأنبياء أفضل من خواص الملائكة.

ومن رأيى أن الدخول فى مسألة التفضيل دخول فى مجهول وأن الأسلم الإمساك وأن وضع كل فى مرتبته بيد من يعلم سرهم ونجواهم.

وقد ذكر لفظ الملك والملائكة ٨٨ مرة فى ست وثمانين آية من القرآن الكريم.

وقد جاء ذكر الملائكة فى الكتب السماوية القديمة كثيرا.

الثانية: من هم الجن:

الجواب: أن الجن خلق من خلق الله لا نعلم حقيقتهم ولم نرهم، قال تعالى:

﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(الأعراف: ٢٧)

والاعتقاد بهم واجب وهو من الأمور السمعية التى أخبر بها المعصوم ﷺ بنص قاطع الثبوت والدلالة، ولولا أن الله ذكرهم فى القرآن ما علمنا بوجودهم ولا سلمنا.

وهم يتوالدون ويتناسلون، لقوله تعالى:

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾

(الكهف: ٥٠)

ومنهم البار والفاجر، لقوله تعالى حكاية عنهم:

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ﴾

(الجن: ١٤)

ولم يقل أحد إنهم أفضل من البشر.

وقد ذكر لفظ الجن والجان والجنة ٣٢ مرة فى إحدى وثلاثين آية من القرآن الكريم.

وقد ذكر الجن فى كتب الأنبياء. وفى الإنجيل بلفظ جن وجان وإبليس وشيطان وشياطين.

ينكر بعض الناس وجود أحياء من الملائكة والجن، فيؤول الكلمات الدالة على وجود هذين الصنفين من العوالم بأن الملائكة هى قوى النظام والنواميس الخاضع لها العالم، وأن الجن والشيطان وإبليس إنما تدل على الناس ذوى الشر المتمردين وروح الإفساد.

هذا الفريق من الناس يرى رأى الماديين الذين لا يثبتون إلا ما وقع تحت حسهم ولا يقرون بشىء وراء المادة. فحذا حذوهم ليقال:

إنه راق مثلهم وعمد إلى صريح القرآن يؤوله حتى يجمع بين الإيمان بالله والقرآن وجحد الملائكة والجن.

والذى أقوله: إن ذلك التأويل ليس ضروريا بل لا ينبغى، فإن الملائكة والجن ليس وجودهم من المستحيل فى شىء حتى يكون ذكرهم مضادا للعقل فنلجأ إلى التأويل حتى لا يتعارض المعقول والمنقول، بل وجودهم فى دائرة الإمكان العقلى وعدم رؤيتنا للفريقين لا يستلزم عدم وجودهما فقد كانت كل الميكروبات وسائر ما لا يرى إلا بالآلات المكبرة غائبة عن حس أهل هذا العالم زمنا طويلا فلم يوجب عدم رؤيتها الحكم بعدم وجودها، بل كانت فى كل هذه الآماد العظيمة موجودة تكبر وتنمو وتتكاثف ولا علم لنا بوجودها وأى مانع يمنع من القول بأن الله تعالى لو ركب حواسنا تركيبا آخر لانكشف لنا عالم الملائكة وعالم الجن وعوالم أخرى لم نخبر بها ولا خطر فى فكر أى إنسان هاجس عنها، فالالتجاء إلى تأويل لفظ الجن ولفظ الملائكة على النحو الذى ذهب إليه لا ضرورة إليه وما نجهل حقيقته كثير فى جنب ما نعلم.

توجد أمور كثيرة لا نراها ولا نعلم حقيقتها، وإنما نحس آثارها كالكهرباء والمغناطيسية والجاذبية والضوء، ومع ذلك فإننا نقول بها.

والطبيعة موجود فيها أمور كثيرة وقوى خاصة ربما أظهرها العلم فى المستقبل. فهل من حقنا أن ننكرها لأن أبصارنا وحواسنا لا تقع عليها؟ كلا، فإن الناس مع كثرة الاختراع والابتداع منذ وجد الناس إلى اليوم لم يقفوا من أسرار الكون على جزء من مليون:

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(الإسراء: ٨٥)

وقد يكون هؤلاء المنكرون للملائكة قد غرهم ما كتبه أستاذنا الإمام فى تفسيره من تأويل الملائكة على وجه لم ينكره الماديون ومن نزع منزعهم، فإن الإمام رحمه الله لم ينكر الملائكة كما ينكرون

وإنما يعمد إلى التأويل لمن ينكر عالم الغيب ويجحد الملائكة، وقد أورده على أنه مذهب آخر لبعض المفسرين فى فهم معنى الملائكة، وذلك لتقريب المعنى من أذهان الجاحدين من الماديين وغيرهم.

وعلى الجملة: فإنى أرى أن فهمهم على الوجه الذى بينت هو ما يجب على المؤمن اعتقاده، فإذا وجد منكر لهم قربنا له المعنى على الوجه الذى أورده الأستاذ الإمام رحمه الله «راجع ص٢٧٤ من الجزء الأول من تفسير المنار».

العظة فى قصة آدم

١- إن الله تعالى قد يحجب سر حكمته عن أقرب خلقه إليه كما حجب حكمة استخلاف آدم فى الأرض عن الملائكة حتى تحيروا واشتاقوا إلى معرفة الحكمة من هذا الاختيار.

٢- إن عناية الله تعالى إذا وجهت إلى الشيء الحقير خلعت عليه حلل البهاء والجلال وصيرته عظيما، كما توجهت عنايته تعالى إلى التراب الذى جبل منه آدم فصيرته بشرا سويا وجعلته مظهرا لأسرار قدرته وحكمته وعلمه الواسع، فأفاض عليه من العلم والمعرفة ما أقر الملائكة بالعجز عن إدراكه.

٣- إن الإنسان مهما أوتى من التجلة والكرامة ففى طبعه الضعف، فهو عرضة لأن ينسى ويأتى ما لا يتفق مع إجلال الله له كما فى نسيان آدم وصية الله تعالى، فأطاع إبليس الذى هو أعدى أعدائه وأصغى إليه وأكل من الشجرة التى نهى عن الأكل منها.

٤- إن رحمة الله تعالى لا ييأس منها من عصاه وخالف عن أمره، فإن آدم قد تاب الله عليه واجتباه مع ما فرط منه من النسيان ومخالفة وصية الله.

فعلى العبد إذا قارف معصية أن يلجأ إلى الله بالندم والاستغفار والإقلاع عن الذنب، كما قال تعالى:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

«الزمر: ٥٣»

قابيل وهابيل ولدى آدم

ذكرت قصة ابنى آدم فى القرآن الكريم دون أن يذكر فيها اسم كل منهما، وإنما ذكر اسمهما فى التوراة «قابيل، وهابيل»(٤).

قال الله تعالى:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۝ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ۝ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾

«المائدة: ٢٧ - ٣١»

ذكر السدى عن أبى مالك وأبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الآخر، وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل وكان أكبر من هابيل وأخت قابيل أحسن، فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى، فأمرهما أن يقربا قربانا، فقرب هابيل جذعة سمينة وكان صاحب غنم، وقرب قابيل حزمة من زرع من رديء زرعه، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل، فغضب وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختى فقال: إنما يتقبل الله من المتقين اهـ «من البداية والنهاية ببعض تصرف فى العبارة».

وقد اختلف فى كيفية قتله فقال بعضهم: ضربه بحديدة فقتله ـ ويرد عليه أن الحديد لم يكن معروفا فى الأزمان القديمة. وقال آخرون: رمى على رأسه صخرة وهو نائم فشدخته وقيل: بل كان يخنقه ويعضه إلى أن مات.

وقد روى الإمام أحمد بسنده إلى ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل»(٣).

وبجبل قاسيون شمالى دمشق مغارة الدم مشهورة بأنها المكان الذى قتل قابيل أخاه هابيل عندها.

وذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أحمد ابن كثير ـ غير الحافظ ـ أنه رأى النبى ﷺ وأبا بكر وعمر وهابيل، وأنه استحلف هابيل أن هذا دمه فحلف له، وذكر أنه سأل الله تعالى أن يجعل هذا المكان يستجاب عنده الدعاء فأجابه إلى ذلك وصدقه رسول الله ﷺ وقال: إنه وأبا بكر وعمر يزورون هذا المكان كل يوم خميس.

قال الحافظ ابن كثير فى تاريخه البداية والنهاية: وهذا منام لو صح عن أحمد بن كثير هذا لم يترتب عليه حكم شرعى، والله أعلم.

وقد ذكر أهل التواريخ والسير أن آدم حزن على هابيل حزنا شديدا وأنه قال شعرا، وقوله الشعر كلام غير مسلَّم وأما حزنه على ابنه فأمر طبيعى

❊❊❊

(٣) صحيح مسلم، باب بيان إثم من سن القتل.

(٤) قد ذكرت قصة قابيل وهابيل فى التوراة وهى لا تخالف ما جاء فى القرآن تقريبا.

وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا

قالوا عن القرآن

للدكتور / عماد الدين خليل

خليل أحمد (١)

(١)

«يرتبط هذا النبي ﷺ بإعجاز أبد الدهر بما يخبرنا به المسيح (عليه السلام) في قوله عنه: (ويخبركم بأمور آتية)، هذا الإعجاز هو القرآن الكريم معجزة الرسول الباقية ما بقي الزمان. فالقرآن الكريم يسبق العلم الحديث في كل مناحيه: من طب، وفلك، وجغرافيا، وجيولوجيا، وقانون، واجتماع، وتاريخ.. ففي أيامنا هذه استطاع العلم أن يرى ما سبق إليه القرآن بالبيان والتعريف...» (٢)

(٢)

«أعتقد يقيناً أني لو كنت إنساناً وجودياً.. لا يؤمن برسالة من الرسالات السماوية وجاءني نفر من الناس وحدثني بما سبق به القرآن العلم الحديث - في كل مناحيه - لآمنت برب العزة والجبروت، خالق السماوات والأرض ولن أشرك به أحداً..» (٣)

(٣)

«في هذا الظلام الدامس - أيها المسيحي - ينزل القرآن الكريم على رسول الله ليكشف لك عن الله عزوجل...» (٤)

(٤)

«للمسلم أن يعتز بقرآنه، فهو كالماء فيه حياة لكل من نهل منه» (٥)

أرنولد (٦)

(١)

«.. (إننا) نجد حتى من بين المسيحيين مثل ألفار Alvar (الإسباني) الذي عرف بتعصبه على الإسلام، يقرر أن القرآن قد صيغ في مثل

(١) إبراهيم خليل أحمد: قس مبشر من مواليد الإسكندرية عام ١٩١٩، يحمل شهادات عالية في علم اللاهوت من كلية اللاهوت المصرية، ومن جامعة برنستون الأمريكية. عمل أستاذاً بكلية اللاهوت بأسيوط، كما أرسل عام ١٩٥٤ إلى أسوان سكرتيراً عاماً للإرسالية الألمانية السويسرية، وكانت مهمته الحقيقية التبشير والعمل ضد الإسلام، لكن تعمقه في دراسة الإسلام قاده إلى الإيمان بهذا الدين وإشهار إسلامه رسمياً عام ١٩٥٩. كتب العديد من المؤلفات أبرزها ولا ريب (محمد في التوراة والإنجيل والقرآن)، (المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي)، و(تاريخ بني إسرائيل).

(٢) محمد في التوراة والإنجيل والقرآن، ص٤٧ - ٤٨. (٣) نفسه، ص٤٨.

(٤) نفسه، ص١٧٢. (٥) نفسه، ص٣٢.

(٦) سير توماس أرنولد (١٨٦٤ – ١٩٣٠): من كبار المستشرقين البريطانيين، صاحب فكرة كتاب (تراث الإسلام) الذي أسهم فيه عدد من مشاهير

هذا الأسلوب البليغ الجميل، حتى إن المسيحيين لم يسعهم إلا قراءته والإعجاب به..» (٧)

إيرفنج (٨)

(١)

«كانت التوراة في يوم ما هي مرشد الإنسان وأساس سلوكه. حتى إذا ظهر المسيح (عليه السلام) اتبع المسيحيون تعاليم الإنجيل، ثم حل القرآن مكانهما، فقد كان القرآن أكثر شمولاً وتفصيلاً من الكتابين السابقين، كما صحح القرآن ما قد أدخل على هذين الكتابين من تغيير وتبديل. حوى القرآن كل شيء، وحوى جميع القوانين، إذ أنه خاتم الكتب السماوية...» (٩)

(٢)

«يدعو القرآن إلى الرحمة والصفاء وإلى مذاهب أخلاقية سامية» (١٠).

بروز (١١)

(١)

«إنه ليس هناك شيء لا ديني في تزايد سيطرة الإنسان على القوى الطبيعية، هناك آية في القرآن يمكن أن يستنتج منها أنه لعل من أهداف خلق المجموعة الشمسية لفت نظر الإنسان لكي يدرس علم الفلك ويستخدمه في حياته:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾

(يونس: ٥)

وكثيراً ما يشير القرآن إلى إخضاع الطبيعة للإنسان باعتباره إحدى الآيات التي تبعث على الشكر والإيمان:

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾

(الزخرف: ١٢، ١٣)

ويذكر القرآن - لا تسخير الحيوان واستخدامه فحسب - ولكن يذكر السفن أيضاً.. فإذا كان الجمل والسفينة من نعم الله العظيمة، أفلا يصدق هذا أكثر على سكة الحديد والسيارة والطائرة؟» (١٢).

(٢)

«... إن أعظم نتائج العلم يمكن أن تستخدم في

البحث والاستشراق الغربي، وقد أشرف أرنولد على تنسيقه وإخراجه. تعلم في كمبردج وقضى عدة سنوات في الهند أستاذاً للفلسفة في كلية عليكرة الإسلامية، وهو أول من جلس على كرسي الأستاذية في قسم الدراسات العربية في مدرسة اللغات الشرقية بلندن. وصفه المستشرق البريطاني المعروف (جب) بأنه «عالم يدقق فيما يكتب، وإنه أقام طويلاً في الهند وتعرف إلى مسلميها، وإنه متعاطف مع الإسلام، وكل هذه أمور ترفع أقواله فوق مستوى الشبهات» (دراسات في حضارة الإسلام ص٢٤٤). ذاع صيته بكتابيه: (الدعوة إلى الإسلام) الذي ترجم إلى أكثر من لغة، و(الخلافة). كما أنه نشر عدة كتب قيمة عن الفن الإسلامي.

(٧) الدعوة إلى الإسلام (بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية)، ص١٦٦.

(٨) واشنجتون إيرفنج: مستشرق أمريكي، أولى اهتماماً كبيراً لتاريخ المسلمين في الأندلس. من آثاره (سيرة النبي العربي) مذيلة بخاتمة لقواعد الإسلام ومصادرها الدينية (١٨٤٩)، و(فتح غرناطة) (١٨٢٩)، وغيرها.

(٩) حياة محمد، ص٧٣. (١٠) نفسه، ص٣٠٤.

(١١) د. هيلر بروز: رئيس قسم لغات الشرق الأدنى وآدابه وأستاذ الفقه الديني الإنجيلي في جامعة (ييل)، وعمل أستاذاً بجامعة براون، وأستاذاً زائراً بالجامعة الأمريكية في بيروت، ومديراً للمدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية بالقدس.

(١٢) الثقافة الإسلامية ص٥١.

أعراض هدمية أو بنائية. وربما كان هذا هو المقصود بما ورد في القرآن خاصاً باستخدام الحديد:

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾

(الحديد: ٢٥)

وأظهر مثال من هذه الآية بالضرورة هو استخدام النشاط الذرى - الذى نشط بحوثه - لضرورة حربية..»(١٣).

بلاشير(١٤)

(١)

«.. إن الفضل بعد الله يعود إلى الخليفة عثمان بن عفان (رضى الله عنه) لإسهامه قبل سنة ٦٥٥هـ في إبعاد المخاطر الناشئة عن وجود نسخ عديدة من القرآن، وإليه وحده يدين المسلمون بفضل تثبيت نص كتابهم المنزل، على مدى الأجيال القادمة»(١٥).

(٢)

«لا جرم في أنه إذا كان ثمة شيء تعجز الترجمة عن أدائه فإنما هو الإعجاز البياني واللفظي والجرس الإيقاعي في الآيات المنزلة في ذلك العهد.. إن خصوم محمد (عليه الصلاة والسلام) قد أخطأوا عندما لم يشاءوا أن يروا في هذا إلا أغاني سحرية وتعويذية، وبالرغم من أننا على علم - استقرائياً فقط - بتنبؤات الكهان، فمن الجائز لنا الاعتقاد مع ذلك بخطل هذا الحكم وتهافته. فإن للآيات التي أعاد الرسول (عليه الصلاة والسلام) ذكرها في هذا السور اندفاعاً وألقاً وجلالة تخلف وراءها بعيداً أقوال فصحاء البشر كما يمكن استحضارها من خلال النصوص الموضوعة التي وصلتنا»(١٦).

(٣)

«.. إن القرآن ليس معجزة بمحتواه وتعليمه فقط، إنه أيضاً ويمكنه أن يكون قبل أي شيء آخر تحفة أدبية رائعة تسمو على جميع ما أقرته الإنسانية وبجلته من التحف.. إن الخليفة المقبل عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) المعارض الفظ في البداية للدين الجديد، قد غدا من أشد المتحمسين لنصرة الدين عقب سماعه لمقطع من القرآن. وسنورد الحديث فيما بعد عن مقدار الافتتان الشفهي بالنص القرآني بعد أن رتله المؤمنون»(١٧).

(٤)

«.. الإعجاز هو المعجزة المصدقة لدعوة محمد ﷺ الذى لم يرتفع في أحاديثه الدنيوية إلى مستوى الجلال القرآني..»(١٨).

(٥)

«.. في جميع المجالات التي أطللنا عليها من علم قواعد اللغة والمعجمية وعلم البيان، أثارت الواقعة القرآنية وغذت نشاطات علمية هي أقرب إلى حالة حضارية منها إلى المتطلبات التي فرضها إخراج الشريعة الإسلامية. وهناك مجالات أخرى تدخل فيها (الواقعة القرآنية) كعامل أساسي.. ولا تكون فاعليتها هنا فاعلية عنصر منبه فقط، بل فاعلية عنصر مبدع تتوطد قوته بنوعيته الذاتية..»(١٩).

بوازار(٢٠)

(١)

«لابد عند تعريف النص القدسي في الإسلام من ذكر عنصرين، الأول أنه كتاب منزل أزلي غير مخلوق، والثاني أنه (قرآن) أي كلام حي في قلب الجماعة.. وهو بين الله والإنسانية (الوسيط) الذى يجعل أي تنظيم كهنوتي غير ذي جدوى، لأنه مرضي به مرجعاً أصلياً، وينبوع إلهام أساسي.. ومازال حتى أيامنا هذه نموذجاً رفيعاً للأدب العربي تستحيل محاكاته إنه لا يمثل النموذج المحتذى للعمل الأدبي الأمثل وحسب، بل يمثل كذلك مصدر الأدب العربي والإسلامي الذى أبدعه لأن الدين الذى أوحي به هو في أساس عدد كبير من المناهج الفكرية التي سوف يشتهر بها الكتاب..»(٢١).

(٢)

«لقد أثبت التنزيل برفضه الفصل بين الروحي والزمني أنه دين ونظام اجتماعي ومن البديهي أن التنزيل والسبيل الذى ظن إمكان استخدامه فيه قد طبعا المجتمع بعمق..»(٢٢).

(٣)

«.. إن القرآن لم يقدّر قط لإصلاح أخلاق عرب الجاهلية، إنه على العكس يحمل الشريعة الخالدة والكاملة والمطابقة للحقائق البشرية، والحاجات الاجتماعية في كل الأزمنة»(٢٣).

(٤)

«يخلق الروح القرآني مناخ عيش ينتهي به الأمر إلى مناغمة التعبيرات الذهنية والمساواة بين العقليات والنظم الاجتماعية بأكثر مما تفترض التعريفات السياسية والطوابع الأيديولوجية التي تسند إلى الدول. ولا يكفي قط ما يتردد عن درجة تأثير القرآن الكبرى في (الذهنية الإسلامية) المعاصرة، فهو ما يزال مصدر الإلهام الفردي والجماعي الرئيسي، كما أنه ملجأ المسلمين وملاذهم الأخير»(٢٤).

(٥)

«..(إن) الأدوات التي يوفرها التنزيل القرآني قادرة ولا ريب على بناء مجتمع حديث..»(٢٥).

يتبع

(١٣) الثقافة الإسلامية، ص٤١.
(١٤) بلاشير - R.L. Blachere ولد بالقرب من باريس، وتلقى دروسه الثانوية في الدار البيضاء، وتخرج بالعربية في كلية الآداب بالجزائر (١٩٢٢) وعين أستاذاً لها في معهد مولاي يوسف بالرباط ثم انتقب مديراً لمعهد الدراسات المغربية العليا بالرباط (١٩٢٤ - ١٩٣٥)، واستدعته مدرسة اللغات الشرقية بباريس أستاذاً لكرسي الأدب العربي (١٩٣٥ - ١٩٥١)، ونال الدكتوراه (١٩٣٦)، وعين أستاذاً محاضراً في السوربون (١٩٣٨)، مشرفاً على مجلة (المعرفة)، التي ظهرت في باريس باللغتين العربية والفرنسية، من آثاره دراسات عديدة عن تاريخ الأدب العربي في أشهر المجلات الاستشراقية وكتاب (تاريخ الأدب العربي) (باريس ١٩٥٢)، وترجمة جديدة للقرآن الكريم في ثلاثة أجزاء (باريس ١٩٤٧ - ١٩٥٢)، وغيرها.
(١٥) تاريخ الأدب العربي ٢/٢٢.
(١٦) نفسه ٢/٣٦.
(١٧) القرآن الكريم، ص١٠٢ - ١٠٣.
(١٨) نفسه ص١٠٤ - ١٠٥.
(١٩) نفسه، ص١٠٤.
(٢٠) مارسيل بوازار: مفكر، وقانوني فرنسي معاصر، أولى اهتماماً كبيراً لمسألة العلاقات الدولية وحقوق الإنسان وكتب عدداً من الأبحاث للمؤتمرات والدوريات المعنية بهاتين المسألتين، يعتبر كتابه (إنسانية الإسلام)، الذى انبثق عن الاهتمام نفسه، علامة مضيئة في مجال الدراسات الغربية للإسلام بما تميز به من موضوعية، وعمق، وحرص على اعتماد المراجع التي لا يأسرها التحيز والهوى فضلاً عن الكتابات الإسلامية نفسها.
(٢١) إنسانية الإسلام، ص٥٢ - ٥٣.
(٢٢) نفسه، ص٢٠٦ - ٢٠٧.
(٢٣) نفسه، ص١٠٩.
(٢٤) نفسه، ص٣٤٢.
(٢٥) نفسه، ص٣١٤.

حِكَم ابن عطاء الله (٨٤٦هـ-٨٩٩هـ)

شرح العارف بالله:
الشيخ زروق

تحقيق: الإمام الأكبر/
عبدالحليم محمود
د. محمود بن شريف

التعريف بالمؤلف:

كتاب «الحكم العطائية» ألفه الإمام الجليل «ابن عطاء الله السكندري» المتوفى عام ٧٠٩هـ الموافق ١٣٠٩م، جمع بين رئاسة علوم الشريعة وعلماء الشريعة، ورئاسة علوم الحقيقة وعلماء الحقيقة، فكان عالما مستشرعا متحققا، بل رأس علماء التشريع وعلماء التحقيق. أخذ العهد على الإمام الكبير «أبي العباس المرسي» ذلك القطب الذي قال عنه «أبو الحسن الشاذلي» إنه أعلم بطرق السماء منه بطرق الأرض. ويقص «ابن عطاء» في كتابه القيم «لطائف المنن» قصة صلته «بأبي العباس» ولازمه، ثم كان من بعده شيخ الطريقة الشاذلي. و«ابن عطاء» كان له الفضل الكبير في بيان ما نعرفه الآن من آثار «أبي العباس المرسي»، وفي بيان الكثير أيضا عن القطب الكبير «أبي الحسن الشاذلي».

أما الشيخ «زروق» فإنه «أحمد بن أحمد بن محمد الفاسي» المعروف بـ«زروق»، قمة من قمم التصوف أيضا، وسار في الطريق الذي سار فيه «ابن عطاء» يقول «المناوي» عنه «عابد من بحر العبر يغترف، وعالم بالولاية متصف، وتحلى بعقود القناعة والعفاف، وبرع في معرفة الفقه والتصوف والأصول والخلاف، خطبته الدنيا فخطب سواها، وعرضت عليه المناصب فردها وأباها»، وولد في يوم الخميس الثامن عشر من المحرم سنة ست وأربعين وثمانمائة، ومات أبوه قبل تمام أسبوعه، فنشأ يتيما، وولد في «فاس» وحفظ بها القرآن، وكانت حياته دراسة وسياحة

وتجردا، أما التجرد فإنه يعني: أنه استخلص نفسه لله تعالى.

وأما السياحة فتعني: الأسفار المتلاحقة في طلب العلم، وللخلوة في العبادة، وكتب عن الحكم نيفا وثلاثين شرحا، وعلى القرطبية، وعلى رسالة «ابن زيدون القيرواني» عدة شروح كلها مفيدة، وشرح حزب البحر للشاذلي، وألف كتاب «قواعد التصوف»، وكانت وفاته سنة (٨٩٩هـ).

عرض الكتاب:

يقع الكتاب في (٦١٥) صفحة من القطع المتوسط ويشتمل الكتاب على مقدمة الناشر، والمحققين، ومقدمة الكتاب، ويحتوي أيضا على خمس وعشرين بابا بالإضافة للمكاتبات والمناجاة.

تناول في الباب الأول:

- من علامات الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل. الاعتماد: حصر القوة في الشيء، وهو باعث النفس لما تريد في تحصيل المقصود منه. وعلامة حصوله إيثار المعتمد والنظر إليه في الإقبال والإدبار.

وأوضح أن الناس ثلاثة: معتمد على عمله، وموقفه التقصير، وغايته التشمير، ومقامه الإسلام، لدورانه مع العمل رجاء أو خوفا. ومعتمد على فضل الله تعالى، وموقفه شهود المنة، وغايته التبري من الحول والقوة، ومقامه الإيمان، لدورانه مع القدرة في إقباله وإدباره. ومعتمد على سابق القسمة وماضي الحكم، وموقفه شهود التصريف، وغايته الفناء في التوحيد، ومقامه الإحسان لما شهد به حاله من المشاهدة والعيان، وقيامه بتصنيف الناس لثلاثة أنواع وهو ما يشير إلى مفهوم (التصنيف Classification) انظر (ص٣٥).

- إرادتك التجريد مع إقامة الله تعالى إياك في الأسباب من الشهوة الخفية. وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاط عن الهمة العلية. والناس ثلاثة: مقام في الأسباب، وحكمه: الرضا والصبر والاستسلام، وعلامته: استقامتها له بحصول فوائدها العادية، واستقامته فيها بالقيام بالحقوق الشرعية. ومقام في التجريد، وحكمه: الشكر والتشمير، وعدم الفترة والتقصير، وعلامته: القيام بالحقوق والإعراض عن كل مخلوق.

- سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار؛ بل هي تدور مع القدر كيفما دار، حسبما دلت عليه العقول وقضايا الشرع والنقول وأوضح أن الهمم ثلاثة: الهمم القواصر: وهي التي تقتضي العزم والحزم من غير فعل ولا انفعال. والهمم المتوسطة: وهي التي توجب مع العزم فعلا، ومع الحزم كمالا، سواء وقع انفعال أم لا. والهمم السوابق: وهي قوى النفس الفعال في الوجود بلا توقف. وهو ما يشير إلى مفهوم: (الدافعية Motivation) انظر (ص٣٩).

- أرح نفسك من التدبير، فما قام به غيرك لا تقم به لنفسك. والتدبير تقدير شئون تكون عليها في المستقبل مما يخاف

أو يرجى وهو ما يشير إلى مفهوم التخطيط (Plaining) انظر (ص٤١)، ويشير إبراهيم الخواص إلى أن «العلم كله فى كلمتين: لا تتكلف ما كفيت، ولا تضيع ما استكفيت». اجتهادك فيما ضمن لك، وتقصيرك فيما طلب منك، دليل على انطماس البصيرة منك عبر الاجتهاد، لأن الطلب دونه لا يقدح بل ربما كان مطلوبا، وبالضمان ليشعر بسبق القسمة، وبالتقصير؛ لأن الترك أعظم، وبالطلب ليشمل الواجب.

- لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح فى الدعاء موجبا ليأسك، فهو ضمن لك الإجابة فيما يختار لك، لا فيما تختار لنفسك، وفى الوقت الذى يريد، لا فى الوقت الذى تريد.

أى التكرار فى الدعاء لحاجة من وجه واحد على سبيل الطلب، وهو مطلوب فى الدعاء، والإجابة مضمونة بمطلق الدعاء. فإذا قمت بما طلب منك من الدعاء والإلحاح فيه فلا تيأس من الإجابة وهو ما يشير إلى مفهوم (المثابرة Persistence) انظر (ص٤٤).

- لا يشككنك فى الوعد عدم وقوع الموعود، وإن تعين زمنه؛ لئلا يكون ذلك قدحا فى بصيرتك، وإخمادا لنور سريرتك. يرى أن التشكك: التردد بين إيقاع الشك ونفيه لاضطراب النفس فى موجبه وهو ما يشير إلى مفهوم (عدم اليقين Uncertainty) انظر (ص٤٨).

- إذا فتح لك وجهة من التعرف فلا تبال معها أن قل عملك، فإنه ما فتحها لك إلا وهو يريد أن يتعرف إليك. ألم تعلم أن التعريف هو مورده عليك، والأعمال أنت مهديها إليه. وذلك مشاهد من حالها؛ إذ لم تأت إلا بالتعريف وهو بساط المعرفة التى لا تصل إليها إلا به ولا تبلغها إلا بمنته. والتعريف من عنده، وهو أورده، والوجهة بساطه. فإذا وجهها لك فقد وجه لك التعريف الذى تتضمنه وبه تصل للمعرفة التى هى غاية المطالب، ونهاية الآمال والمآرب.

- تنوعت أجناس الأعمال لتنوع واردات الأحوال. التنوع: التلون، والأعمال: عبارة عن الحركات الجسمانية، والأحوال: عبارة عن الحركات القلبية، فحركات الأجسام تبع لأحوال القلوب.

- الأعمال صور قائمة، وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها. والإخلاص حصن الأعمال فالخمول حصن الإخلاص وهو طرح النفس فيما يليق بها من النقص والدناءة وبحسب هذا فهو دفن لها.

- ادفن وجودك فى أرض الخمول، فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه، وكما لا يصح دفن الزرع فى أرض رديئة لا يصح الخمول بحالة غير مرضية، وهو ما كان محرما متفقا عليه؛ لأن ما كان ظلمة بالذات لا يصح أن يكون نورا بالعرض، فقياس الخمول بالمحرم بمن غصب لقمة لا يجد لها مساغا إلا بجرعة خمر لا يصح؛ لأن المحرم لا يباح لنفى مكروه ثم إن الموصل للإخلاص وتحقيق الخمول إنما هو العلم الوافى عن الفكر الصافى، ومقدمته إنما هى العزلة، ثم الخلوة فلذلك اتبعها به فقال:

- ما نفع القلب شىء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة. لأنه بالعزلة يسلم من الأغيار وبالفكرة يستجلى الأنوار وكل عزلة لا تصحبها فكرة فإلى الحمق مآلها، والفكرة لا تصح بدون العزلة، فالعزلة منزل الفكرة «وفى بيته يؤتى الحكم» وهو ما يشير إلى مفهوم أهمية (العزلة Isolation) انظر (ص٥٩) والناس ثلاثة: منفرد بقلبه لا بشخصه، وهذا كائن بائن، راحل قاطن، وحاله حال الأقوياء وأهل الكمال. ومنفرد بالشخص دون القلب، ومنفرد بهما وهو المتخلى وأنواعه ثلاثة: معتزل ليسلم، ومعتزل ليغنم، ومعتزل لينعم.

- كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته؟ أم كيف يرحل إلى الله، وهو مكبل بشهواته؟ أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله، وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار، وهو لم يتب من هفواته؟ قيل «للجنيد» -رحمه الله-: «كيف السبيل إلى الانقطاع إلى الله تعالى؟ قال: بتوبة تزيل الإصرار، وخوف يزيل التسويف، ورجاء يبعث على مسالك العمل وإهانة النفس بقربها من الأجل وبعدها من الأمل. قيل له: فبم يصل العبد إلى هذا؟ قال: بقلب مفرد، فيه توحيد مجرد.

- الكون كله ظلمة، وإنما أناره ظهور الحق فيه، فمن رأى الكون ولم يشهده فيه، أو عنده، أو قبله أو بعده فقد أعوزه وجود الأنوار، وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار.

شبه المعارف بالشموس؛ لأنها تذهب بكل ظلمة ونور، وتكشف عن حقائق الأمور مع علوها وارتفاعها وعموم النفع بها.

- مما يدلك على وجود قهره سبحانه، أن حجبك عنه بما ليس بموجود معه استدلال القوم مراد لتمكين الحقيقة من النفس، لا لطلق الإثبات وهو ما يشير إلى مفهوم (الاستدلال Reasoning) انظر (ص٧١).

- كيف يتصور أن يحجبه شىء، وهو الذى ظهر بكل شىء، وفى كل شىء، ولكل شىء، وهو الظاهر قبل وجود كل شىء، وهو أظهر من كل شىء، وهو الواحد الذى ليس معه شىء، وهو أقرب إليك من كل شىء، ولولاه ما كان وجود شىء؟

الباب الثانى:

- ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يحدث فى الوقت غير ما أظهره الله فيه. الوقت هنا هو الزمان وقال «أبو القاسم القشيرى» ومن كلامهم «الوقت كالسيف». أى كما أن السيف قاطع، فالوقت بما يقتضيه الحق تعالى ويجريه: حاكم. وقيل: «السيف لين مسه قاطع حده، فمن لا ينه سلم ومن خاشنه اصطلم»، كذلك الوقت من استسلم لحكمه نجا، ومن عارضه بترك الرضا انتكس وتردى. وهو ما يشير إلى مفهوم أهمية (إدارة الوقت Time Management) انظر (ص٨٠).

- إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفوس. الناس ثلاثة: رجل ساعده

القدر فعمل في فراغه وشغله. وهذا من الموفقين المغبوطين. ورجل وجد الفراغ ولم يعمل وهذا من البطالين المغبونين؛ إذ جاء «خصلتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ». ورجل: لم يجد الفراغ وجعله علة في التسويف فأحال عليه العمل، وهذا من المغترين.

- لا تطلب منه أن يخرجك من حالة؛ ليستعملك فيما سواها، فلو أرادك لاستعملك من غير إخراج.

- ما أرادت همة سالك أن تقف عند ما كشف لها إلا ونادته هواتف الحقيقة: الذى تطلب أمامك، ولا تبرجت له ظواهر المكونات إلا ونادته حقائقها:

﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾

(البقرة: ١٠٢)

- طلبك منه اتهام له، وطلبك له غيبة منك عنه، وطلبك لغيره لقلة حيائك منه، وطلبك من غيره لوجود بعدك عنه.

- ما من نفس تبديه، إلا وله قدر فيك يمضيه.

- لا تترقب فراغ الأغيار، فإن ذلك يقطعك عن وجود المراقبة له فيما هو مقيمك فيه. لا تنتظر بعملك فراغا من الأغيار والأفكار فإن ذلك التوقف قاطع لك عن عبودية الوقت وحكمه، ولكن قم له بما تقدر عليه كما أنت. ومترقب الفراغ للعمل كمن يقول: لا أتداوى حتى أجد الشفاء. فيقال له: لا تجد الشفاء حتى تتداوى، فلا يتداوى ولا يجد الشفاء كذلك هذا يقول: لا أعمل حتى أتفرغ، ولا يتفرغ حتى يعمل، فهو لا يعمل ولا يجد الفراغ.

- لاتستغرب وقوع الأكدار ما دمت في هذه الدار فإنها ما أبرزت إلا ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها.

- ما توقف مطلب أنت طالبه بربك، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك. الطلب بالله تعالى هو الاستناد إليه في تيسير المطلب وعلامته ثلاثة: التفويض في المراد، والتوكل في التحصيل، والاستقامة في التوجه، فإذا تمت هذه فالمطلب متيسر.

- من علامة النجاح في النهايات، الرجوع إلى الله في البدايات. من علامة الخسران إلى النهايات الرجوع إلى النفس في البدايات؛ لأنها إذا كانت البداية بالله تعالى كانت النهاية إلى الله تعالى.

- من أشرقت بدايته أشرقت نهايته. أى من أشرقت بدايته بالرجوع إلى الله أشرقت نهايته بالوصول إلى الله.

- ما استودع في غيب السرائر، ظهر في شهادة الظواهر. أى ما استودع في غيب السرائر من معرفة الله ظهر في شهادة الظواهر بالعمل على مقتضى ما هناك.

- شتان بين من يستدل به، ويستدل عليه، المستدل به عرف الحق لأهله؛ وأثبت الأمر من وجود أصله. والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه، وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه؟ ومتى بعد حتى تكون الآثار هي الموصلة إليه؟ وهو ما يشير إلى مفهوم (الاستدلال Reasoning) انظر (ص٩٩).

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾

(الطلاق: ٧)

الواصلون إليه، و

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾

(الطلاق: ٧)

السائرون إليه يقول العارفون وسعت عليهم أرزاق العلوم والمعارف فأنفقوا على مقدار ما وصل إليهم إذا استدلوا به.

- اهتدى الراحلون إليه بأنوار التوجه، والواصلون لهم أنوار المواجهة، فالأولون للأنوار، وهؤلاء الأنوار لهم؛ لأنهم لله لا لشيء دونه. فأنوار التوجه أنوار العمل، والمعاملة. وأنوار المواجهة: ما يرد من حقائق المواصلة. فمظاهر الأولى ثلاثة: الاستدلال للتوصل، والعمل للتوسل، والتعلق للتقرب. ومظاهر الأخرى ثلاثة: التوفيق للهداية، والإلهام للعناية، والتحقق للولاية.

الباب الثالث:

- تشوفك إلى ما بطن فيك من العيوب، خير لك من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب.

- الحق ليس بمحجوب، وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه؛ إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصرا، وكل حاصر لشيء فهو قاهر له.

- اخرج من أوصاف بشريتك، عن كل وصف مناقض لعبوديتك؛ لتكون لنداء الحق مجيبا، ومن حضرته قريبا، وأوصاف البشرية قسمان: أوصاف موافقة للعبودية، كالطاعة والعفة واليقظة، وأوصاف مناقضة للعبودية: كالمعصية، والشهوة، والغفلة، فالخروج من المناقضة بالعمل بالموافقة.

- أصل كل معصية وشهوة وغفلة الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة وعفة ويقظة عدم الرضا منك عنها، ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه، خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه، فأى علم لعالم يرضى عن نفسه؟ وأى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟ وهو ما يشير إلى مفهوم: (الرضا عن الذات Self Satisfaction) انظر (ص١١٥).

- شعاع البصيرة يشهدك قربة منه، وعين البصيرة تشهدك عدمك؛ لوجوده، وحق البصيرة يشهدك وجوده، لا عدمك ولا وجودك.

- كان الله ولا شيء معه، وهو الآن ما عليه كان.

الباب الرابع:

- لا تتعد نية همتك إلى غيره، فالكريم لا تتخطاه الآمال.

- لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك، فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعا؟ من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه، فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعا؟

- أن تحسن ظنك به لأجل جميل وصفه، حسن ظنك به لوجود معاملته معك، فهل

عودك إلا حسنا؟ وهل أسدى إليك إلا مننا؟

- عجبا ممن يهرب مما لا انفكاك له عنه، ويطلب ما لا بقاء معه

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾

(الحج: ٤٦)

- لا ترحل من كون إلى كون، فتكون كحمار الرحى يسير، والمكان الذى ارتحل إليه هو الذى ارتحل عنه، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون وانظر إلى قوله ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله،، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

الباب الخامس:

- لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله. ويقول أبوالحسن الشاذلي: «لا تصحب من يؤثر نفسه عليك، فإنه لئيم، ولا من يؤثرك على نفسه فإنه قل ما يدوم، واصحب من إذا ذكر ذكر الله، فالله يغنى به إذا شهد، وينوب عنه إذا فقد. ذكره نور القلوب، ومشاهدته مفاتيح الغيوب؛ وهو ما يشير إلى مفهوم شروط (الصداقة Friendship) انظر (ص١٣٩).

- ربما كنت مسيئا فأراك الإحسان منك صحبتك إلى من هو أسوأ حالا منك.

- ما قل عمل برز من قلب زاهد، ولا كثر عمل برز من قلب راغب.

- حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال، وحسن الأحوال من التحقيق فى مقامات الإنزال.

- لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه، فإن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك فى وجود ذكره، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة، إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة، إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور، إلى ذكر مع غيبة عما سوى المذكور.

الباب السادس:

- من علامات موت القلب عدم الحزن على ما فاتك من الموافقات، وترك الندم على ما فعلته من الزلات. وهو ما يشير إلى مفهوم الحالة الوجدانية (الحزن Sadness) انظر (ص١٥١).

- لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله، فإن من عرف ربه استصغر فى جنب كرمه ذنبه.

- لا صغيرة إذا قابلك عدله، ولا كبيرة إذا واجهك فضله.

- لا عمل أرجى للقبول من عمل يغيب عنك شهوده، ويحتقر عندك وجوده.

أورد عليك الوارد؛ لتكون به عليه واردا، وليتسلمك من يد الأغيار، ويحررك من رق الآثار، وليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك.

- الأنوار مطايا القلوب والأسرار، والنور جند القلب، كما أن للظلمة جند النفس.

فإذا أراد الله أن ينصر عبده أيده بجنود الأنوار، وقطع عنه مدد الظلم والأغيار.

- النور له الكشف، والبصيرة لها الحكم،

والقلب له الإدبار والإقبال. ولا تفرحك الطاعة؛ لأنها برزت منك، وافرح بها لأنها برزت من الله إليك. قطع السائرين له والواصلين إليه عن رؤية أعمالهم وشهود أحوالهم، أما السائرون؛ فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع الله فيها، وأما الواصلون؛ فلأنهم غيبهم بشهوده عنها.

الباب السابع:

- ما بسقت أغصان ذل إلا على بذر طمع. وما قادك شيء مثل الوهم.

- أنت حر مما أنت عنه آيس، وعبد لما أنت له طامع. ومن لم يقبل على الله بملاطفات الإحسان، قيد إليه بسلاسل الامتحان. ومن لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها، وخف من وجود إحسانه إليك، ودوام إساءتك معه، أن يكون ذلك استدراجا لك.

الباب الثامن:

- من رأيته مجيبا عن كل ما سئل، وذاكرا كل ما علم، ومعبرا عن كل ما شهد؛ فاستدل بذلك على وجود جهله. إنما جعل الدار الآخرة محلا لجزاء عباده المؤمنين؛ لأن هذه الدار لا تسع ما يريد أن يعطيهم، ولأنه أجل أقدارهم عن أن يجازيهم فى دار لا بقاء لها. ومن وجد ثمرة عمله عاجلا، فهو دليل على وجود القبول آجلا. ومتى رزقك الطاعة والغنى به عنها، فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة.

الباب التاسع:

- الحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض إليها من علامات الاغترار والحزن انقباض القلب لفوت محبوب أو خوف حصول مكروه فيهيجه حسرة خوف الفوات، وهو عذاب حاضر ونكد حاصل، لا فائدة له إلا التلهف على السالف، والتشمير فى المستأنف. وهو ما يشير إلى مفهوم (الحزن Sadness) انظر (ص٢٠٦).

- ما العارف من إذا أشار وجد الحق أقرب إليه من إشارته، بل العارف من لا إشارة له؛ لفنائه فى وجوده، وانطوائه فى شهوده.

- الرجاء ما قارنه عمل، وإلا فهو أمنية. مطلب العارفين من الله الصدق فى العبودية، والقيام بحقوق الربوبية. والعارفون إذا بسطو أخوف منهم إذا قبضوا، ولا يقف على حدود الأدب فى البسط إلا قليل. وربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك. الأكوان ظاهرها غرة، وباطنها عبرة، فالنفس تنظر إلى ظاهر غرتها والقلب ينظر إلى باطن عبرتها. والطى الحقيقى أن تطوى مسافة الدنيا عنك، حتى ترى الآخرة أقرب إليك منك. العطاء من الخلق حرمان، والمنع من الله عز وجل إحسان.

الباب العاشر:

- كفى من جزائه إياك على الطاعة أن رضيك لها أهلا. وكفى العاملين جزاء ما هو فاتحه على قلوبهم فى طاعته، وما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته. ومتى أعطاك أشهدك بره، ومتى منعك أشهدك قهره، فهو فى كل ذلك متعرف إليك، ومقبل بوجود لطفه عليك. وإنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه. وربما فتح لك باب الطاعة، وما فتح

لك باب القبول، وقضى عليك بالذنب، فكان سببا فى الوصول.

- معصية أورثت ذلا واحتقارا، خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا. فاقتك لك ذاتية، وورود الأسباب مذكرات لك بما خفى عليك منها، والفاقة الذاتية لا ترفعها العوارض، والفاقة شدة الاحتياج وهو ما يشير إلى مفهوم (الحاجات Needs) انظر (ص٢٤٤).

الباب الحادى عشر:

- يخفف ألم البلاء عنك علمك بأنه سبحانه وتعالى هو المبلى لك، فالذى واجهتك منه الأقدار، هو الذى عودك حسن الاختيار، ومن ظن انفكاك لطفه عن قدره، فذلك لقصور نظره، ولا يخاف عليك أن تلتبس الطريق عليك، وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك.

لا تطالب ربك بتأخير مطلبك، ولكن طالب نفسك بتأخير أدبك. ومتى جعلك فى الظاهر ممتثلا لأمره، ورزقك فى الباطن الاستسلام لقهره، فقد أعظم المنة عليك.

الباب الثانى عشر:

- ورود الإمداد بحسب الاستعداد، وشروق الأنوار على حسب صفاء الأسرار - الغافل إذا أصبح نظر فيما يفعل، والعاقل ينظر ماذا يفعل الله به - أمرك فى هذه الدار بالنظر فى مكوناته، وسيكشف لك فى تلك الدار عن كمال ذاته - علم منك أنك لا تصبر عنه، فأشهدك ما برز منه - الصلاة طهارة للقلوب، واستفتاح لباب الغيوب، ومحل المناجاة، ومعدن المصافاة، تتسع فيها ميادين الأسرار، وتشرق فيها شوارق الأنوار. علم وجود الضعف منك فقلل أعدادها، وعلم احتياجك إلى فضله فكثر أمدادها.

الباب الثالث عشر:

- كن بأوصاف ربوبيته متعلقا، وبأوصاف عبوديتك متحققا. وأوضح أن أوصاف الربوبية أربعة، هى: الغنى، والعز، والقدرة، والقوة، والتعلق بها أن تكون ناظرا إليها معتمدا عليها دون النظر إلى سواها. وأوصاف العبودية أربعة، هى: الفقر، والذل، والعجز، والضعف. والتحقق بها: أن تراها لازمة لك فلا تنفك عن النظر إليها فى حال من أحوالك.

الباب الرابع عشر:

- لولا جميل ستره لم يكن عمل أهلا للقبول - أنت إلى حلمه إذا أطعته أحوج منك إلى حلمه إذا عصيته - الستر على قسمين: ستر عن المعصية، وستر فيها؛ فالعامة يطلبون من الله تعالى الستر من الله فيها خشية سقوط مرتبتهم عند الخلق، والخاصة يطلبون الستر عنها خشية سقوطهم من نظر الملك الحق.

الباب الخامس عشر:

- الناس يمدحونك لما يظنون فيك، فكن أنت ذاما لنفسك؛ لما تعلمه - أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس - الزهاد إذا مدحوا انقبضوا؛ لشهودهم الثناء من الخلق، والعارفون إذا مدحوا انبسطوا؛ لشهودهم ذلك من الملك الحق.

الباب السادس عشر:

- إذا وقع منك ذنب فلا يكن سببا يؤيسك من حصول الاستقامة مع ربك، فقد يكون

ذلك آخر ذنب قدر عليك - مطالع الأنوار القلوب والأسرار - نور مستودع فى القلب، مدده النور الوارد من خزائن الغيوب.

الباب السابع عشر:

- من اطلع على أسرار العباد، ولم يتخلق بالرحمة الإلهية، كان اطلاعه فتنة عليه، وسببا لجر الوبال إليه.

- حظ النفس فى المعصية ظاهر جلى، وحظها فى الطاعة باطن خفى، ومداواة ما يخفى صعب علاجه.

- استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك فى عبوديتك.

- من عرف الحق شهده فى كل شىء، ومن فنى به غاب عن كل شىء، ومن أحبه لم يؤثر عليه شيئا.

الباب الثامن عشر:

- لا يكن طلبك تسببا إلى العطاء منه، فيقل فهمك عنه، وليكن طلبك؛ لإظهار العبودية، وقياما بحقوق الربوبية - إلى المشيئة يستند كل شىء، لأن وقوع ما لم يشأ محال، وليست تستند هى إلى شىء.

الباب التاسع عشر:

- إنما يذكر من يجوز عليه الإغفال، وينبه من يمكن منه الإهمال - تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه، تحقق بذلك يمدك بعزه، تحقق بعجزك يمدك بقدرته، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته.

الباب العشرون:

- تسبق أنوار الحكماء أقوالهم، فحيث صار التنوير وصل التعبير - من أذن له فى التعبير فهما فى مسامع الخلق عبارته، وجليت إليهم إشارته.

- عباراتهم إما لفيضان وجد، أو لقصد هداية مريد، فالأول: حال السالكين، والثانى: حال أرباب المكنة والمتحققين.

الباب الحادى والعشرون:

- إذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه، فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقا. قيد الطاعات بأنواع الأوقات كى لا يمنعك عنها وجود التسويف، ووسع الوقت عليك كى يبقى لك حصة فى الاختيار.

- من لم يعرف قدر النعم بوجدانها، عرفها بوجود فقدانها.

- لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق.

الباب الثانى والعشرون:

- فرغ قلبك من الأغيار، يملأه بالمعارف والأسرار - حقوق فى الأوقات يمكن قضاؤها، وحقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها، إنه ما من وقت يرد إلا ولله عليك فيه حق جديد وأمر أكيد. فكيف تقضى فيه حق غيره، وأنت لم تقض حق الله فيه؟! فالحقوق التى فى الأوقات: هى أنواع العبادات؛ كالصلاة والصوم وغيرهما مما يتسع زمانه فيمكن قضاؤه إن فات وقته. وحق الأوقات هى ما يلزم العبد من العبودية المترتبة على حركاتها وسكناتها وهى متابعة.

- ما فات من عمرك لا عوض له، وما حصل لك منه لا قيمة له - لا تنفعه طاعتك، ولا تضره معصيتك، وإنما أمرك

بهذه، ونهاك عن هذه؛ لما يعود عليك.

الباب الثالث والعشرون:

- لا تيأس من قبول عمل لم تجد فيه وجود الحضور. فربما قبل من العمل ما لم تدرك ثمرته عاجلا.

- لا تزكين واردا لا تعلم ثمرته، فليس المراد من السحابة وجود الإمطار، وإنما المراد منها وجود الإثمار.

الباب الرابع والعشرون:

- النعيم وإن تنوعت مظاهره إنما هو بشهوده واقترابه، والعذاب وإن تنوعت مظاهره إنما هو لوجود حجابه. فسبب العذاب وجود الحجاب، وتمام النعيم بالنظر إلى وجه الكريم.

- ما تجده القلوب من الهموم والأحزان؛ فلأجل ما منعت من وجود العيان - ومن تمام النعمة عليك، أن يرزقك ما يكفيك، ويمنعك ما يطغيك - إن أردت أن لا تعزل، فلا تتول ولاية لا تدوم لك.

- اعلم أن العلم النافع هو الذى ينبسط فى الصدر شعاعه، ويكشف عن القلب قناعه - وخير علم ما كانت الخشية معه - والعلم إن قارنته الخشية فلك، وإلا فعليك.

الباب الخامس والعشرون:

- من أثبت لنفسه تواضعا فهو المتكبر حقا؛ إذ ليس التواضع إلا عن رفعة، فمتى أثبت لنفسك تواضعا فأنت المتكبر، وليس المتواضع الذى إذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع، ولكن المتواضع الذى إذا تواضع رأى أنه دون ما صنع. والتواضع الحقيقى ما كان ناشئا عن شهود عظمته، وتجلى صفته. وهو ما يشير إلى مفهوم (التواضع Modesty) انظر (ص ٤٨٧).

المكاتبات:

- وذكر فيها بعض ما كتبه لبعض إخوانه منها: من أيقن أن الله يطلبه صدق الطلب إليه. ومن علم أن الأمور بيد الله انجمع إليه بالتوكل عليه.

المناجاة: وتناولها فى فصلين، وهى بعض الأدعية فى مناجاة مولاه وتضرعه بين يديه بما أولاه.

الخلاصة:

ورد فى هذا الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

- التصنيف Classification
- الدافعية Motivation
- التخطيط Plaining
- المثابرة Persistence
- عدم اليقين Uncertainty
- العزلة Isolation
- الاستدلال Reasoning
- إدارة الوقت Tim Management
- الرضا عن الذات Self Satisfaction
- الصداقة Friendship
- الحزن Sadness
- الحاجات Needs
- التواضع Modesty

القائم بالعرض:

د. أشرف على شلبى

بين الصحف و المجلات

إعداد

أ/ محمد جمعة

أ/ علا عبد الرحمن

وثيقة الأزهر الشريف

تحت هذا العنوان جاء مقال الدكتور/ عمرو حمزاوى المنشور بجريدة الشروق الصادرة فى: ٢٠١١/٦/٢٥م يقول فيه:

تحمل وثيقة الأزهر الشريف المعنونة بمستقبل مصر، الكثير من الأفكار والضامين الإيجابية فعندما يؤكد الأزهر على أن مستقبل مصر يرتبط ارتباطا وثيقا بتبنى دولة المواطنة والمساواة وسيادة القانون والديمقراطية، فهو بذلك يقدم الإسناد والشرعية الدينية لمطلب الدولة المدنية.

تدعو وثيقة مستقبل مصر أيضا إلى المساواة الكاملة فى الحقوق والواجبات بين المصريين بغض النظر عن الانتماء الدينى.

وثيقة الأزهر تقرر بلغة عصرية أن حقوق الإنسان الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ينبغى أن تحترم فى مصر - ما بعد - الثورة، مصر المستقبل الرائع فى هذا السياق هو الربط بين طبيعة هذه الحقوق الإلزامية، بما لا يتعارض مع المرجعية الدينية، وبين المصلحة العامة للوطن القاضية بضمان حقوق المواطنين لبناء مجتمع الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والحريات.

نحن أمام عودة رائعة للأزهر الشريف لموقعه التاريخى كقبلة الإسلام المستنير ومعبر عن الضمير الجمعى للمصريين، كل المصريين على اختلاف انتماءاتهم ومعتقداتهم.

عودة الأزهر الشريف واستعادة دوره المستنير سيستكملان بالانتصار لاستقلالية المؤسسة الدينية الأهم فى العالم الإسلامى.

المجتمع الإسلامى الهندى والسمات الطبقية

نشرت جريدة «الشرق الأوسط» بعددها الصادر فى ٢٠١١/٧/٥م تحقيقا للكاتب/ براكريتى غوبتا جاء فيه:

المجتمع الإسلامى الهندى لا يزال حافلا بالكثير من السمات الطبقية رغم حرص الإسلام على مبدأ المساواة والعدالة الاجتماعية بين الجميع ويتكون المجتمع الإسلامى

الهندى من ثلاث طبقات هم -الأشراف والأجلاف والأرذال- تشكل كل منها فئة مهنية بعينها يحتل المسلمون الذين ينحدرون من أصول أجنبية مثل السدة والشيوخ والموغاليين والباثانيين مكانة عليا كطبقة الأشراف أو النبلاء فيما تعتبر طبقة الأجلاف طبقة عليا من الهندوس الذين تحولوا إلى الإسلام ليهربوا من النظام الطبقى وينحدر غالبية المسلمين فى الهند من «الأطهار والفقراء» ويطلق عليهم اسم الأرذال.

ووفق ما ذكره يوغيندر سيكاند، الباحث الدينى: «إن المسلمين من العرب ووسط آسيا والإيرانيين والأفغان ينظرون إلى أنفسهم من الناحية الاجتماعية على أنهم أفضل من الهندوس المحليين الذين تحولوا للإسلام».

وقال فى ملاحظاته: إن الباحثين الأشراف الهنود فى القرون الوسطى كانوا قد كتبوا نصوصا كثيرة سعت إلى تفسير القرآن بصورة تناسب ادعاءاتهم، لإضافة شرعية مناسبة لهذه الادعاءات وبهذا يستطيعون إنكار رسالة القرآن التى تحث على المساواة الاجتماعية.

فى عام ٢٠٠٨ كتب مسعود عالام فلاحى خريج المدرسة ثم تلميذ جامعة دلهى عندما بلغ عمره ٢٨ عاما كتابا ضخما، نحو ٦٠٠ صفحة، بعنوان «النظام الطبقى بين المسلمين فى الهند» وحدد مسار أصل الممارسات الطبقية بين المسلمين وذكر أن النظام الطبقى ظهر بين المسلمين الهنود بعد أن أسس قطب الدين أيبك سلطنة دلهى فى القرن الثالث عشر وقسم دارسو السلطنة المسلمين إلى أشراف وأجلاف وبعد مرور مئات السنين، تم إضفاء مزيد من الشرعية على هذا التصنيف من قبل رجال الدين الموقرين فى القرن العشرين من بينهم الشيخ أشرف على ثانوى الذى أشاد بأفضلية طبقة السادة.

ويمزج هذا الكتاب بين مشاهد من العمل الميدانى والكتابات الرئيسية بواسطة باحثين مسلمين هنود بارزين من ضمنهم رجال دين مسلمون عن موضوع النظام الطبقى، لذا فهو يعد دراسة رائدة للنظام الطبقى المعتمد على التفرقة بين المسلمين الهنود والطبقة العليا للمسلمين المسيطرة باستمرار.

حقيقة الأمر أن التقسيم الطبقى ضارب بجذوره فى المجتمع المسلم دفعت العلامة إقبال الشاعر الوطنى الهندى إلى توبيخهم فى مقطع شعرى مؤلف من بيتين قائلا: «أنتم السادة وميرزا وأفغان - أنتم كل شىء فيما عدا أنكم مسلمون».

وقد أعلنت وسائل الإعلام أخيرا عن حادثة طلب فيها رجل دين مسلم من الهندوس التابعين للطبقة الدنيا فى ولاية أزامجارة الهندية التابعة لولاية أوتار براديش أن يعتنق الإسلام قبل عدة سنوات مضت «لأن كل شخص يعامل بمساواة فى ظل الإسلام» ولكن وقف رجل وقال: «من الممكن ألا يكون هناك طبقات فى الإسلام، ولكن هناك طبقات بين المسلمين فى الهند» ولم يجد المتحدث إجابة لذلك».

لماذا جنوب السودان وليس فلسطين؟

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ/ سميح صعب المنشور بجريدة النهار اللبنانية الصادرة فى ٢٠١١/٧/٩م يقول فيه:

إن الانفصال كان حدثاً يحصل للمرة الأولى فى العالم العربى منذ نيل الدول العربية استقلالها فى الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضى فهل الغرب الذى شجع على الانفصال فى السودان وضغط على الخرطوم كى لا تحول دون قيام دولة جنوبية، يمارس السياسة نفسها فى فلسطين، إذ يؤيد الخطوات التى يتخذها الفلسطينيون من أجل نيل استقلالهم وزوال الاحتلال الإسرائيلى لا يبدو أن ذلك يحدث إطلاقاً، فالغرب الذى بارك نشوء إسرائيل والذى يؤيدها ضد العرب لا يزال على موقفه وحتى الأمم المتحدة التى يفترض فيها أن تكون متوازنة فى قراراتها، ها هى تبارك الحصار الإسرائيلى لغزة وتعتبره قانونيا وتوجه اللوم إلى تركيا لإرسالها العام الماضى قافلة سفن لكسر الحصار الاقتصادى عن القطاع.

اليوم يبتهج الغرب بظهور دولة فى السودان، ويبذل المستحيل كى لا تقوم دولة فى فلسطين ليس هذا فحسب بل إن أمريكا وجدت ضالتها فى الاحتجاجات الجارية فى بعض الدول العربية كى تقول: إن المشكلة لا تكمن فى الاحتلال الإسرائيلى وإنما فى عدم تحرر الإنسان العربى وحصوله على الحد الأدنى من حقوقه ضمن بلدانه.

قد يكون ذلك صحيحاً ولكن منذ بدأت أمريكا ترعى الحراك السياسى فى العالم العربى، بدأ هذا الحراك يتخذ وجهة غير تلك التى قام من أجلها ألا يجدر النظر بإمعان إلى السودان اليوم!

الوطن لم يعد يتحمل

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ/ جلال دويدار بجريدة الأخبار الصادرة فى: ٢٠١١/٧/١٧م يقول:

هل ندرك حقيقة.. صالح هذا البلد وما يحتاجه للخروج من أزمته الحالية التى تتسم بعدم الاستقرار وعدم وضوح الرؤية من جانب القوى الموجودة على الساحة.

الشىء الوحيد الذى أصبح ملحوظاً هو أن كل ما يجرى من حولنا هو أن لا أحد يريد أن يرحم مصر ويتيح لها أن تلتقط أنفاسها وتتحول للإقلاع مستفيدة من روح ثورة ٢٥ يناير التى رفعت شعار الإصلاح والتغيير والتصدى للفساد.. وهو الأمر الذى يفتح الأبواب أمام النهوض والتقدم.

لبلوغ هذه الأهداف ولكى نقول: إن الثورة قد حققت طموحات وآمال الشعب من خلال طفرات وانطلاقات حقيقية فى كل مجالات الحياة.. فإنه لابد من أن يكون هناك انسجام وتجاوب بين من قاموا بهذه الثورة والقيادة التى أوكل لها إدارة الشئون والإبحار بسفينة الوطن إلى السلام السياسى.

لا يجب السماح بأن تفلت من أيدينا هذه الفرصة التى تسمح لنا بتوجيه كل جهودنا وحماس ثورتنا إلى إعادة بناء الوطن مطلوب منا فى هذه المرحلة التنبه إلى ما يحيط بنا من أخطار وتربص من جانب قوى متعددة تعمل على ألا يكون هناك استقرار وأن تفتقد مصر إلى الأمن والأمان. إنها ترى أن استمرار الفوضى وسيلة لشغلها عن الاضطلاع بدورها العربى والإفريقى والإقليمى والدولى.

لا يمكن لدولة كبيرة مثل مصر «٨٥ مليوناً» أن يكون مستقبلها وفرص بقائها كدولة تحت رحمة هذه المليونيات المتكررة لا جدال أن استمرار هذا الوضع يؤدى إلى وقف عجلة الحياة عن الدوران وإشاعة مناخ من الإحساس بعدم الاستقرار الذى تنعكس آثاره سلبا على أوضاعنا الاقتصادية.

حان الوقت لأن يدرك الجميع أنه لابد أن تكون هناك نهاية لما يجرى إن هذا الوطن لم يعد يستطيع أن يتحمل المزيد من هذه الممارسات التى تعطى إحساسا بأن هناك عدم مبالاة بالأخطار المحدقة وعمليات التربص التى لا تتوقف.

حرية الإعلام بين الالتزام والانفلات رؤيـــة إســـلاميـــة



للأستاذ الدكتور/ محمد الشحات الجندى
الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية

تمهيد:

يعيش الإنسان المعاصر لنهاية الألفية الثانية، ومستهل الألفية الثالثة حالة من الدهشة والترقب الدائم، بسبب ما تبثه وسائل الإعلام بتقنية مبهرة في الخبر والمعلومة ومتابعة الأحداث وإثارة الغرائز، واغتيال الثقافات، وبرمجة التفكير، وغسيل الأدمغة، فتصطك أسنانه، وتتسع عيونه، ويهتز وجدانه، من فرط ما يصل إلى مسامعه، وما تبصره عيناه، وما يطالعه ناظراه، وهذا هو بالضبط ما قصده القائمون على هذه الشبكات الإعلامية، فهم قد حددوا أهدافهم سلفاً، وخططوا بدقة لبلوغها، وهيأوا المناخ المواتي لإحداث أثرها، وبذلك الصنيع يسهل على هذه الأدوات الجهنمية اختراق الحصون المنيعة للعوالم الأخرى غير الأوربية، وزعزعة الهويات، والتشكيك في القيم الروحية والدينية.

وقد بات إنسان عالمنا العربي والإسلامي أمام هذه الصناعة الإعلامية الضخمة ما بين مبهور بها، مفتون بأفانينها، أو رافض لها ساخط عليها، وهو في الحالين فاقد التأثير، مسلوب الإرادة، منسحق تحت وطأة هذه التقنية الجبارة، مشتت الفكر، ما بين خصوصية ثقافته، وعولمة عصره، غارق في حيرته لايدرى كيف السبيل إلى التوفيق بين الإيدلوجيتين تتجاذبه الأطروحات المتباينة، منها التي تعتصم بدينها، وتستمسك بهويتها والأخرى التي ترفع لواء العولمة ومواكبة العصر والمعاصرة وعدم الانكفاء على الذات، والجمود على الموروث، سواء على مستوى الفكر أو على صعيد السلطة، أو عند العامة والدهماء، وهذا التشرزم في بنيان الأمة هو بلا ريب أحد إفرازات تلك الأبواق الإعلامية الجبارة، قد طلعت علينا هذه الشبكات وتلك المؤسسات الإعلامية، بسيل من الأفكار باعتبارها القطب الفاعل، والقوة الضاربة، والمدنية المتصدرة في عالم اليوم، والتي قدمت الديمقراطية وحقوق الإنسان وثقافة السلام، وحقوق الأقليات وغيرها بحسبانها إنجازاً غربياً خالصاً، ومن نتاج لقاح العقول الغربية وحدها، وأحد مظاهر الحضارة الغربية، وآية على الإبداع الغربي في النطاق السياسي والاجتماعي، فضلا عن المنجز الهائل في المجال التطبيقي والتقني، الذي انعقدت الريادة فيه للغرب بلا منازع.

ويبدو أنه قد وقر في الذهنية الغربية، التعامل من خلال هذه المنجزات، مع الآخر، وبخاصة العالم العربي والإسلامي، على أن العالم الغربي له الحق بل كل الحق في أن يوظف هذه العناوين البراقة، والمخترعات المبتكرة، لإعادة تشكيل العالم الآخر، وعالمنا العربي بالذات[1]، عامدة من وراء ذلك إلى تقويض الهوية، وخلخلة الذاتية المتفردة للأمة، وتحطيم المصدات التي تمثل الدرع الواقي ضد الهجمة على ثوابت الأمة، ومصالحها العليا.

وقد أحرزت وسائل الإعلام الغربية، بعض النجاحات في هذا المسعى الذي تبذل من أجله كل غال ونفيس، لكي تقتلع كل مظهر، وتشكك في كل رمز تلتف حول الأمة ومن ثم تجتاح عالمنا العربي والإسلامي وتطويه فكريا وأيدولوجيا ومدنيا، وتبتلعه لقمة سائغة فلا يبقى له وجود ويضحى شخوصا هامدة لا تقدر على حراك.

والغريب أن وسائل الإعلام في صنيعها ذاك ترفع راية الحرية، والسماوات المفتوحة، والقرية الواحدة ومادرت أن الترويج لكل الأفكار والمفاهيم التي تسبح في جنبات الكون، عبر وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، إنما تحمى حرية الإنسان الغربي، وتدافع عن صوالح الإنسان الغربي، وتسخر الآخرين لحسابه، وتسحق أبناء عالمنا وتصادر حرياتهم وتعصفت بحقوقهم، لا لشيء إلا لإرضاء نزوات الإنسان الغربي، وتزويده بأكبر قدر من الرفاهية والمتعة والإثراء على حساب الغير.

الحرية في الممارسة الإعلامية الغربية

إن الحرية منحة إلهية وفطرة إنسانية، وصناعة قانونية ينبغي أن تمارس بضوابط تمثل سياجا واقيا يحميها من الاشتطاط ويمنعها من التجاوز، بما يرشد مسيرتها، ويحفظ كرامة الإنسان، ويوازن بين الحريات جميعا، ويصون الحرمات، فمن المعلوم أن ممارسة الشخص لحريته ينبغي أن تنتهي عندما تبدأ حقوق الآخرين، فالفرد بذلك المسلك يكون قد التزم بحق الغير في الحرية، ومن ثم تحمى كل الحريات وتنطلق الملكات نحو الإبداع الخلاق.

(١) تنسلط هذه الورقة الاهتمام على العالم العربي والإسلامي، نظراً لطبيعة الدراسة.

والحرية في النظر الإسلامي هي حرية مسئولة منضبطة، يستوي في ذلك أن تكون حرية للفرد أو للجماعة، على المستوى الخاص في الشئون الفردية أو على المستوى العام في الشئون المتعلقة بالأمة، أيا كان ممارسها الفرد لتحقيق رغباته وللتعبير عن ذاته، وإنجاز مصالحه أو الدولة من خلال وسائلها الإعلامية من صحافة وإذاعة وتلفاز؛ ذلك أن الحرية المشروعة تلتزم الصدق، وتسعى إلى المصلحة، وهاك طرفا من ضمانات الحرية في إطارها الصحي الصحيح.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾

(التوبة / ١١٩)

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾

(الإسراء / ٣٦)

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

(النحل / ١٢٥)

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

(فصلت / ٣٣)

ويقول الرسول ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»
[مسند أحمد]

[صحيح البخاري]

وروى عنه - صلوات الله عليه - «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده».

ومن هنا ترتكز الحرية في الإسلام، على الالتزام بالصدق في الخبر والتوعية والتثقيف، وتسلك سبل الحكمة والإقناع السديد، والقول الرصين وبيان عاقبة السلوك الرشيد ومناقشة المخالفين والتحاور معهم، بأحسن السبل وأفضل المسالك، وهذا ترسيخ لثقافة التعايش والسلام مع الآخرين.

ثم إن الإسلام يقدم النموذج القويم للمساءلة عن سلوكيات الفرد في النطاق الشخصي والعام، فهو في ذاته ينبغي أن يكون قدوة، وفي أدائه لواجبه يكون على دراية وتبصر وعلم بما يقوله، ويدعو الناس إليه، وهو مأمور بالإعلام عن القيم الإيمانية والدينية، بالطريق الصحيح الذي يشوق الناس إلى الإيمان بالله، وهو في كل ذلك مسئول في كل أحواله، فلا يستخدم قدراته العضوية والذهنية إلا فيما ينفع ويبني وأن ينأى بأقواله وأفعاله عن أن يضر بالآخرين، أو يعتدي على حرماتهم أو يصادر حقوقهم.

وقد وعى الإسلام هذه الحقيقة منذ البدايات الأولى، إذا أنه بمقتضى نصوصه وغاياته، رسالة إعلامية للإنسان تدعو إلى عقيدة التوحيد والمثل الأخلاقية، فكان لابد من الالتحام بالناس لبيان الحقائق الإسلامية، عن طريق النفاذ إلى قلوب وعقول الجماهير، وتبصرتهم بما فيه سعادتهم في الدنيا، وخلاصهم في الآخرة، ونزل القرآن ليكون منهجا مجسداً العقيدة الربانية والحضارة الدينية، والمدنية الإنسانية وقانون التعامل وأخلاق المؤمن، لا بالقسر ولا الهدم أو التشويش، وإنما بقوله تعالى:

﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾

(البقرة / ٨٣)

وقوله جل شأنه:

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾

(يوسف / ١٠٨)

وقد التزم صاحب الرسالة إلى أقصى حدود الالتزام بالوسيلة والمنهج، وسار على نهجه الراشدون من بعده، فكان اتصالهم بالناس وتبليغهم الإسلام بالرفق واللين والهوادة، في غير ضعف ولا استكبار، موقنين بأن الله قضى بالاختلاف في الهوية والفكر والجنس واللون واللغة، فلكل فرد، ولكل جماعة أن تختار لنفسها، في ظل بيان الإسلام للناس، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وكل شخص مسئول عن اختياره، لا يصادر فكره، ولا يعتدى على حرمته، ولا تهدم عقيدته، ولا تسلب حقوقه، ولا يحرم من ممارسة حريته في ظل احترام القيم والمعتقدات السماوية، وهو ما تشهد مصادرته واحتوائه من جانب الإعلام الغربي.

فلسفة الخطاب الإعلامي الإسلامي

كان أكثر ما عنى به الإسلام في دعوته الإنسانية، وهو بناء الإنسان المسلم، المؤمن بربوبية الله، القائم على منهج الله في الكون، المحقق للرسالة الإسلامية في عمارة الأرض، الذي يتعايش مع الآخرين، ويتحاور معهم للوصول إلى النفع العام، والاجتماع على كلمة سواء، في ظل الاحتفاظ بالخصوصية والتنوع، والتعامل بالأخلاق الفاضلة، التي تشيع الأمن النفسي والاجتماعي بين بني الإنسان، وتعلي من قيم التعاون والتفاهم الذي ينبغي أن يسود بين من تجمعهم وحدة الأصل الإنساني، إعمالاً لقوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾

(الحجرات / ١٣)

وانطلاقا من هذه المظلة التي يستظل بظلها الناس جميعا على أساس من فلسفة الخطاب الإعلامي الإسلامي، كان الإعلام الإسلامي بمصطلح العصر، هو إعلام يبنى على التعددية وقيم الإسلام الحضارية المعبرة عن مثل الخير والتعاطف والتعاون والتساند والتسامح وهو الأمر الذي جعل من خاصية الإعلام الأساسية أنه إعلام بناء لا هدام وعطاء لا سلب، وتحاور لا إذعان، ولم يكن يعتمد فلسفة فرض النموذج الواحد، وإلغاء الخصوصيات، كما هو الشأن في الإعلام الغربي المعاصر، ومن ثم كان الإعلام الإسلامي إعلام تأثير هادف وليس إعلام إثارة ومادية نفعية وقولبة الآخرين، ومحو شخصيتهم والنعي على ثقافتهم بأنها ثقافة عدوان وعنف وتخلف.

الحاجة إلى فلسفة إعلامية جديدة

ونحن في هذا المضمار لا ندين الإعلام المعاصر من حيث هو إعلام، فلا جرم أنه ضرورة لازمة للتواصل الإنساني، وطاقة زاخرة لإشاعة الوعي والتثقيف، وتوجيه الفرد إلى وجوه من النفع لا تنكر، فهو يساعد على الاختيار، والانتفاع بما عند الآخرين، بجانب ما فيه من ترفيه وتسلية

تخفف على الناس معاناتهم، اليومية والإفادة بما توصلوا إليه من تقدم وارتقاء فى مجال التنظيمات والتقنيات فى العلوم الإنسانية والتطبيقية.

على أن المعضلة الإعلامية العصرية تكمن فى الوجوه المتعددة، والقناع التنكرى الذى يرتديه الإعلام المعاصر، فإن المتابع لفاعلياته يجد أنه يوظف الجانب الإيجابى فى بناء وإقامة صرح الكيان الحضارى للإنسان، جنباً إلى جنب الاستخدام السلبى حيث يقوم بهدم القيم الروحية واختزال الإنسان فى وثنية المال والبورصة بما يقترن بها من الابتزاز والانتهازية والأنا البغيضة، وتدمير الأخلاق وإنسانية الإنسان.

لقد كان المأمول بدلاً من تعظيم الجانب السلبى الهدام للإعلام الغربى، أن يوظف إمكانياته الهائلة، وتقنياته المبهرة فى الارتقاء بالجوانب الروحية جنباً إلى جنب مع إبراز الحافز إلى التقدم وإحراز الثروة، وبلوغ معدلات أعلى للتنمية، وأن تستلهم فلسفته التعامل مع الإنسان عقلاً ووجداناً وأن يكون معبراً أميناً عن المثل العليا، والضمير الإنسانى.

إن العالم يتطلع إلى نظام إعلامى يحقق طموحات وآمال الشعوب النامية، ويعترف بخصوصياتها، ويفتح الباب أمام ثقافتها لتشكل فلسفة النظام الإعلامى الجديد، ويستشعر آلامها، ويعزز من دورها فى النطاق الدولى، والمفارقة المثيرة للدهشة فى هذا الوضع، أن منظمة اليونسكو «منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة»، قد أرست العديد من الإعلانات التى تسير فى هذا الاتجاه، منحى الحرية المسئولة والمهمومة لبعض معاناة عالمنا العربى والإسلامى فى هذا الخصوص.

ومن ذلك الإعلام العالمى[2] الصادر فى نوفمبر ١٩٧٨م بشأن المبادئ الأساسية الخاصة بإسهام وسائل الإعلام فى دعم السلام والتفاهم الدولى، وتعزيز حقوق الإنسان، ومكافحة العنصرية والتحريض على الحرب.

ومن قبل أصدر المؤتمر العام لمنظمة اليونسكو قراراً عام ١٩٥٦م بوجوب إزالة المعوقات فيما يتعلق بتنقية تدفق الأنباء بحرية، وسياسات الاتصال لمساعدة البلدان النامية فى إنشاء وتدعيم أجهزتها الإعلامية بما يتفق مع حاجاتها وتحريرها من الاعتماد على البلدان المتقدمة بالنسبة لنظم الاتصال والإعلام الخاصة بها.

وقد خطت المنظمة خطوات إيجابية باستخدام وسائل الاتصال للنهوض بالتعليم وتقدم العلوم والثقافة، والدور الذى يجب أن يلعبه الاتصال فى زيادة الوعى بالمشكلات الرئيسية التى تواجه عالم اليوم.

كما أولت اليونسكو عنايتها بصيانة الذاتية الثقافية ضد الغزو الفكرى الأجنبى ووقاية مقومات أصالتها من مخاطر التيارات الثقافية الأجنبية التى تشوه طبيعتها وتضر بمستقبل الأمة، وقد أصدرت المنظمة لهذا الغرض إعلاناً عن مبادئ التعاون الثقافى الدولى فى نوفمبر ١٩٦٦ جاء فيه:

١ - لكل ثقافة كرامة وقيمة يجب احترامها والمحافظة عليها.

٢ - من حق كل شعب وواجبه أن ينمى ثقافته.

٣ - تشكل جميع الثقافات بما فيها من تنوع وخصوبة، وبما بينها من تباين وتأثير متبادل جزء من التراث الذى يشترك فى ملكيته البشر جميعاً.

«يتبـــع»

---

(٢) د. جعفر عبد السلام، الإطار التشريعى للنشاط الإعلامى ١٩٩٣، ص ١١٦ وما بعدها.







مصطلح تعارف الحضارات: رؤية إسلامية

حوار مع زكى الميلاد



د. محمد كمال إمام



للأستاذ الدكتور محمد كمال الدين إمام *

أستاذ الشريعة الإسلامية ـ كلية الحقوق ـ جامعة الإسكندرية

فى عصر "فوضى الكلمات" تحتاج الألفاظ إلى ضبط يحرر مفهومها الدلالى، ويفصح عن مضمونها المعرفى، بعد أن تخرج من رحم معجمها اللغوى، إلى زخم معجمها المصطلحى؛ أى من العموم إلى الخصوص، فالمصطلح - كما يقول بحق الشاهد البوشيخى - "هو كلمة تتميز بانتمائها إلى معجم خاص، ومن استعمالها من قبل المختصين فى ميدان معرفى محدد.

تفيد الخاصية الأولى: أن المصطلح كلمة تفقد بالتدريج انتماءها إلى اللغة العامة مكرسة انتماءها الجديد فى لغة خاصة بميدان معرفى محدد، وبفعل هذا الانتماء الجديد، يدخل المصطلح فى علاقة مع المصطلحات الأخرى فى الميدان ذاته، لتشكل فى مجموعها نسقا مصطلحيا متماسكا.

* محمد كمال إمام:

باحث أكاديمى، وفقيه أصولى مصرى، ولد عام ١٩٤٦م بالأقصر، حصل على ليسانس الحقوق من جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٨م، ودبلوم الدراسات العليا فى الشريعة الإسلامية ١٩٧٣م جامعة الإسكندرية، ودبلوم الدراسات العليا فى القانون العام ١٩٧٦م جامعة عين شمس، ودكتوراه فى القانون المقارن والقانون الجنائى ١٩٨٢م من جامعة الإسكندرية. أستاذ ورئيس قسم الشريعة بكلية الحقوق جامعة الإسكندرية. عضو بالعديد من الهيئات والمراكز والمجلات: كمركز الخبراء بمجلس دراسات المقاصد بلندن، واللجنة القومية للإصلاح التشريعى بمصر، وهيئة تحرير مجلة المسلم المعاصر، وهيئة تحرير مجلة العلوم الشرعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض. خبير بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. زار البلدان العربية كلها والعديد من الدول الإسلامية والأوربية وأمريكا. عضو مؤتمر القمة حوار الأديان. شارك فى العديد من المؤتمرات المحلية والإقليمية والدولية. له أكثر من ٣٠ كتابا فى الدراسات الشرعية والقانونية، منها: «تنظير القوة دراسة فى فقه العلاقات الدولية» و«الإسلام والدولة دراسة فى فقه تنظيم السياسة»، و«مقدمة لدراسة الفقه الإسلامى»، و«النظرة الإسلامية للإعلام»، و«أحكام الأسرة فى الإسلام»، و«الوصايا والأوقاف مقاصد وقواعد»، و«أصول الفقه الإسلامى».

وأكثر من مائة بحث فى عدد من المجلات العلمية العربية والأجنبية، وآخر ما صدر له: «الدليل الإرشادى إلى مقاصد الشريعة الإسلامية» (صدر منه ٦ مجلدات وترجم إلى اللغة الأردية).

وتفيد الخاصية الثانية: أن المصطلح يصبح استعماله مقصوراً على أهل الاختصاص، فهم حينما يستعملون مصطلحا ما يدركون المضمون نفسه بما أن استعماله مقصور عليهم. إلا أن المضمون الذى يحيل عليه المصطلح مخالف للمضمون الذى تحيل عليه الكلمة عادة؛ إذ قد يتغير مضمون الكلمة الواحدة بحسب سياق دورها وكيفيات استعمالها، حتى إن أحد فلاسفة اللغة قال: إن استعمال الكلمة هو الذى يحدد معناها، أما مضمون المصطلح - أى المفهوم - فيظل هو ذاته بغض النظر عن سياق وروده وكيفيات استعماله، وبهذا فإن وظيفة النسق المصطلحى هى أن يعكس نسق المفاهيم المحددة بدقة داخل حقل من حقول المعرفة، وحد المفهوم أنه تمثيل ذهنى لموضوع من الموضوعات قد يكون شيئا حسيا أو فكرة مجردة، ويتشكل هذا التمثيل الذهنى من سمات دلالية تحدد صورة الموضوع وطبيعته ووظيفته".

ومن هذا المنظور الدلالى أقرأ "تعارف الحضارات" باعتباره مصطلحاً فى معجم خاص، وليس مفردة فى "قاموس لغوى" وأقرأه من خلال "مفهوم" يتحدد من داخله بمكوناته، ويتحدد من خارجه بمقابلاته أى بالفروق والاختلافات وليس بالأشباه والنظائر.

أولا: صراع الحضارات والمركزية الأوروبية

لا أريد أن أتحدث عن "نهاية التاريخ" لفوكوياما ولا عن خلفياتها الفلسفية فهى نوع مما يسميه "أرنولد توينبى" سراب الخلود. وهى أطروحة لها جذورها فى فكر هيجل وماركس ونيتشه، ويكفينى ما قاله "صامويل هانتنجتون" فى كتابه



أرنولد توينبى هانتنجتون

"صراع الحضارات": إن المجتمعات التى تفترض أن تاريخها انتهى، هى دائما مجتمعات يكون تاريخها على حافة الانهيار".

ولا أريد أن أتحدث عن "حوار الحضارات"؛ لأنه خطاب غربى لم يجد صدى عند جمهوره؛ ولأنه جعل منظومة القيم المتعالية جميعها نسبية، الأمر الذى يجعل الحوار لونا من التهميش فى ظل هيمنة منشودة، وتكافؤ مفقود، بحيث يبدو الحوار دعوة رشيقة للاستسلام للآخر، إن كلمة الحوار فى مفهومها الفلسفى تعنى منهجية مثالية للحصول على الحقيقة، ولكن فى الحركة الواقعية لا يصير الحوار كما يقول - حامد ربيع بحق - لغة الوصول إلى الحقيقة وإنما وسيلة الحصول على تنازلات، أما "صراع الحضارات" فهو تمحور منتج حضارى حول الذات متجاوزا الإرث الإنسانى المشترك الذى هو "جوهر الحضارات" وفيه تتحول الثقافة الوطنية من رافد حضارى إلى نموذج مكتمل ينبغى فرضه "بالقوة" أو "بالحيلة" ولم تكن الثقافة بحاجة إلى "عسكرة الصراع"؛ لأن بلوغها سن الرشد، يعنى أنسنتها بالضرورة أى إحساسها بالمشترك الإنسانى العام؛ لأن الحضارة - كما يقول محمد عزيز الحبابى - تحيا مغامرتها

بالعناصر المتنوعة التي توفرها لها الثقافات القومية، الحضارة لا تؤلف كيانا ثابتا ومستقلا بذاته، بل إنها تسيج صيرورة تاريخ الثقافات الممتزجة فيها، وعندما تتمتع كل الثقافات بحق المواطنة في المجتمع الإنساني تكون الحضارة قد بلغت ذروتها وبدأت فاعليتها تتحرك إيجابا في المدينة الكونية.

إن معنى الحضارة له تجلياته في حضور الإنسان الحقيقي في قلب المعمورة، والإنسان الحقيقي جوهره دين متعقل، وعقل متدين، هكذا في وحدة عضوية وتناسق تام، فإذا خسر الإنسان دينه فلا ثقة في عقله، وإذا غاب عقله فلا فهم لدينه، وعندما تفقد حضارة ما في مرحلة من مراحل التطور، القدرة على التنسيق والتناسق، وتتقلص لديها القدرة على التربية النافعة، يعتريها انشقاق داخلي فتنزلق خطواتها نحو التيه – وهو ما يعانيه الغرب الآن.. أو نحو الجمود وهو ما يعانيه العالم الثالث ومنه العالم الإسلامي. وهذا يعني أن صراع الحضارات شعار كبير تختفي خلفه أزمة حضارات تتآكل من داخلها وتصارع الإيجابي في ذواتها حتى تصرعه. وهنا نحتاج إلى شعار جديد ربما هو ما أشار إليه «هادي المدرسي» قائلا: دعونا نتنافس في صنع الحضارات، وليس في إجهاض أجنتها"، إنها دعوة نعبر بها هوة الصراع على جسر التعارف الذي أمرنا به، وحان وقت استدعائه والتفاعل معه.

لأن الصراع ينطلق من حالة "نفي" والتعارف ينطلق من حالة "وعي"، وهذا يعني أن صراع الحضارات هو موقف استقطاب متجمد وتعارف الحضارات هو منهج استيعاب متجدد.

ثانيا: تعارف الحضارات

وهو يتحدث عن تعارف الحضارات فكراً وتطوراً ومصيراً، امتزج العام والخاص عند "زكي الميلاد"، وأصبحت الحضارة صفحة من ذكرياته، ثم تحولت إلى أكثر همومه الكبيرة حضوراً، إلى أن حملته الآية الثالثة عشر من سورة الحجرات إلى شاطئ الهدوء العلمي، فأثمر تأمله العميق لقول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾

إلى تبلور مفهوم "تعارف الحضارات"، وفي لحظة الاكتشاف المتوهج رأينا "زكي الميلاد" يمسك بوليده الفكري قائلا: «وترسخت قناعتي به، وبقيت متحمسا له، ومدافعا عنه، وسعيت للتعريف والتبشير به، من أجل اختباره، وجس النبض حوله، ومعرفة اتجاهات الرأي تجاهه».

وبالفعل سال مداد كثير حول المصطلح والمفهوم رصده زكي الميلاد بدقة، وتابع بشغف ما كتب حوله من أبحاث وندوات وآراء، واللافت للنظر تأرجح تعامله مع المصطلح بين الإجرائي والتأسيسي، فهو في حديث له في يناير عام ١٩٩٨م، في صحيفة الراية القطرية يقول: "إن العالم بحاجة إلى مرحلة ما قبل الحوار، وهي التي أعبر عنها بمقولة "تعارف الحضارات"، ثم يقول في ذات الحديث: إن مقولة تعارف الحضارات هي التي تعبر عن الرؤية الإسلامية في النظر إلى الحضارات، وفي

عام ٢٠٠٦م، عندما صدر كتاب من إعداد زكي الميلاد بعنوان «تعارف الحضارات» جمع فيه ما كتب حول أطروحته الجديدة معلناً أنها استقرت مفهوما تم صكه، واستوت على سوقها نظرية تم الاعتراف بها، وقال "أما اليوم – ٢٠٠٦م – فقد اكتسب مفهوم تعارف الحضارات قوة التماسك والتحديد، ودخل حيز المجال التداولي، وبات معروفا في مجال الدراسات الحضارية، وفي مجال الحديث عن العلاقات بين الحضارات بشكل خاص، ويجري الحديث عنه إلى جانب المفاهيم الأخرى، ويصنف باعتباره مفهوما ثالثا تارة، أو باعتباره نظرية ثالثة تارة أخرى إلى جانب مفهومي" أو نظريتي" حوار الحضارات وصدام الحضارات.

وهذا الحماس المفعم بجاذبية المصطلح الجديد، سرعان ما نكتشف أنه أقل من طموحاتنا لأن مفهوم التعارف بحاجة إلى تعريف، وسرعان ما يحتوينا قلق علمي عندما يحاول زكي الميلاد أن يوجد نسبا أو في القليل تجاوزاً بين مفهوم التعارف – الإسلامي المدرك والصياغة والمضمون – وبين مفهوم التواصل عند المفكر الألماني المعاصر "يورغن هابرماس" خاصة في كتابه "القول الفلسفي للحداثة"، وهي إشارة سبق إليها عبدالوهاب المسيري في حواره مع فتحي التريكي "حول الحداثة وما بعد الحداثة" وهو يؤصل لمفهومه حول التآنس حيث يقول: "فلسفة التآنس إذن هي إمكانية التفكير في الشروط الموضوعية والروحية للعيش معا في كنف السعادة، أساسه المحبة، وقد تظهر هذه الفلسفة في التصورات التي تحدد مفهوم الاتفاق كما نجده عند روالس، أو التواصل كما نجده عند "هابرماس"، والتآزر كما نجده عند "روتي"، والتحافز كما نجده عند "تايلور" أو الضيافة كما نجده عند "دريدا"، كل هذه المفاهيم هي تصورات تعالج وضعية الإنسان المزرية في عالم تسيطر عليه معقولية الهيمنة.



عبدالوهاب المسيري

إن التعارف في المفهوم الإسلامي ليس صيغة فلسفية مجردة ولا متعالية ولكنه كما يقول "طه عبد الرحمن" "هو مبدأ تواصلي جوهري يقره الإسلام، وهو "مبدأ التعارف" ومقتضاه الإجمالي أن التواصل السليم لا يكون إلا بكلام طيب بين متكلمين كرماء، وتفصيل ذلك في أصلين اثنين: الأصل الأول أنه لا تعارف بغير معروف: ذلك أن التعارف غير الاتصال المعلوماتي، فالاتصال تواصل خبري، لا اعتبار فيه للقيمة الخلقية، في حين أن التعارف تواصل خبري لا ينفك عن القيمة الخلقية المحمودة، فالتعارف يكون مبنيا أصلا على معرفة هي إدراك لمعروف معين..

أما الأصل الثاني: فهو أنه لا تعارف بغير اعتراف: لما كان الخبر الوارد في التعارف هو بمنزلة معروف ينفع المتلقي، اقتضى أن يبادله هذا المتلقي بمعروف مثله، وتكون المبادلة بأن يبدي إقراره بالمعروف الذي جاءه، وإقراره بفضل صاحبه عليه، ثم بأن يعمل على أن يزوده بمعروف مما عنده، وهذا يعني أن العلاقة بين الملقي والمتلقي علاقة أخلاقية لا غبار عليها، وحينئذ: ينفتح لهما طريق

المعاملة بالحسنى وتنشأ بينهما روابط الاحترام والانفتاح والتسامح والتعاون والتقارب، وقد يتناقشان في ذلك، حتى يفضل بعضهما بعضا؛ لأنه تنافس في التخلق، والتخلق ليس له حد يقف عنده، ثم متى اعترف المتلقي بفضل الملقي عليه من جهة تزويده بما لم يكن يعرفه، فإنه يكون قد أقر في ذات الوقت بأن هذا الملقي قد استقى خبره من مقام ليس كمقامه أو من سياق ليس كسياقه، ولو أنهما يشتركان في أمور غير قليلة، فضلا عن اشتراكهما في الأصل الإنساني الواحد، بحيث تكون فائدة الخبر على قدر هذا الاختلاف في المقام أو السياق، وإقرار المتلقي بهذا الاختلاف هو في نهاية المطاف إقرار بالتميز أو بالخصوصية الحضارية للملقي، وعلى قدر هذا التميز أو الخصوصية تكون حاجتهما إلى مزيد من التواصل والتعاون؛ حتى يتعرف كل منهما على ما عند الآخر مما ينفرد به دونه. وهكذا يظهر أن مبدأ التعارف الإسلامي يقر بالتفاوت الأخلاقي بين المتعارفين؛ لأن ثمرته التعاون على حفظ العلاقة الأخلاقية التي تجمعهما، كما يقر بالاختلاف الثقافي بين المتعارفين؛ لأنه سبب في توسيع دائرة معارفهما، بينما الاتصال المعلوماتي يلغي كليا عنصر الأخلاق في المعلومات ويعمل على محو هذا الخلاف لصالح المتلقي وحده".

فتعارف الحضارات بهذا المفهوم هو بنية أخلاقية تعطي الحياة المشتركة صبغة إنسانية كونية، إن فكرة صدام الحضارات تقوم على المغالبة حيث الدنيا لمن غلب، وفكرة تعارف الحضارات تقوم على المصاحبة حيث "الدين المعاملة".

وهكذا يؤسس الإسلام - "تعارف الحضارات" على قيمتين هما:

- واجب الاعتراف بأهمية الآخر.
- وحق الاختلاف عن هوية الآخر.

وهنا يصبح التعارف ليس مجرد اطلاع على ما عند الآخر، بل هو في جوهره اقتناع بعدم احتكار الحقيقة تأسيسا لمشروعية الأخذ والعطاء دون تكبر من المعطي، ودون تنكر من الآخذ، وفي هذا السياق يتأكد التفصيل لكلمة:

﴿ لِتَعَارَفُوٓا ﴾ الحجرات «الآية ١٣»

والتي هي عند "زكي الميلاد" "مصدر القيمة والفاعلية في مفهوم التعارف، فهو المفهوم الذي يؤسس لمفاهيم (الحوار، الوحدة، التعاون) ويحدد لها شكلها ودرجتها، وصورتها، وهو الذي يحافظ على فاعليتها وتطورها واستمرارها، هذا من جهة الإيجاب، أما من جهة السلب فإن التعارف كقاعدة وفاعلية بإمكانه أن يزيل مسببات النزاع والصدام".

والرأي عندي أن "تعارف الحضارات" بالمعنى الوظيفي يتحرك في مسارين:

* المسار الأول: تكويني وظيفته حفظ التنوع باعتباره سنة كونية، والسياق القرآني في قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا ﴾

الحجرات «الآية ١٣»

يدعم هذا التنوع لأن الخلق والجعل كلاهما يشير إلى الجبلة والفطرة.

* المسار الثاني: تكليفي؛ لأن كلمة

﴿ لِتَعَارَفُوٓا ﴾ ليست مجرد توصيف لواقع، بل هي تكليف بواجب، وعليه فإن أمة الإسلام مطالبة بأن تكون الأمة الوسط والأمة القدوة، والأمة المبادرة إلى تفعيل مبدأ تعارف الحضارات، وهذا التفعيل أيضا يتحرك في مسارين:

* المسار الأول: يوجب على المسلمين السعي إلى العلم النافع ونفي العلم الضار أي أنهم أمة حضارة بحكم إسلامهم، فتخلفهم إثم، وجمودهم معصية.

* المسار الثاني: يوجب على المسلمين ألا يحبسوا ثمار حضارتهم عليهم، فلا يكتموا علما، ولا يصادروا قلما أمينا، ولا يوصدوا أمام المعرفة بكل أشكالها بابا، وفي هذا يقول "طه عبدالرحمن" "فكما أننا نأخذ من ثقافة الآخرين ونحتاج إلى البقاء على الأخذ منهم، لا من جهة الاطلاع على أسباب المعرفة فحسب، بل أيضا من جهة تقوية العمل التعارفي الذي يرجع إليه كمال التخلق، فكذلك أن نعطيهم من ثقافتنا ما لا يقدرون على تحصيله بأنفسهم، في هذه الوظيفة المزدوجة تكمن أهمية تعارف الحضارات باعتباره أكبر من مفهوم لأنه في الفضاء الإسلامي العام يعد تأسيسا لمشروع حضاري يستهدف صحوة الأمة ونهضة العالم. وربما يصبح مبدأ تعارف الحضارات هو هديتنا للتاريخ العقلي المعاصر، ولكن ذلك الأمل لن يتحقق إلا بعدة شروط:

* الأول: ملكة شجاعة على نقد الذات؛ لأن قصورنا واضح، وتقصيرنا واقع، ولا يحول دون ذلك الأصول القرآنية لتعارف الحضارات.

* الثاني: إيمان لا يتزعزع بأننا أمة ذات رسالة، وينبغي أن يكون إيماننا أقوى من ضعفنا الذي نعانيه، والأمة ذات التاريخ تستفيد من هزائمها، كما تتعلم من انتصاراتها.

* الثالث: ألا يتملكنا الغرور القاتل، فنظن أننا نستغني بما عندنا روحيا وماديا عما يملكه غيرنا، فالعقل هو أعدل الأشياء قسمة بين البشر، والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها.

إن أول ما يوحي به مبدأ تعارف الحضارات أننا لن نكون وحدنا في هذا العالم، وأن حاجتنا لغيرنا، لن تقل عن حاجة غيرنا لنا، فلن نكتب تاريخنا بقلم واحد، وهو مهما كان ممتلئا فإن مداده إلى نفاد. وهذا يعني أن "تعارف الحضارات" ليس مقدمة نظرية، بل هو في الرؤية الإسلامية، سنة كونية، وفي ظل التفرقة التي ينبغي أن توجد بين النظام والأحكام، يصبح مبدأ تعارف الحضارات جزءا من نظام تأتي الأحكام الإسلامية كلها داعمة له.

إن «تعارف الحضارات» نظام «قبلي» تقرأ في ضوئه العلاقة بين الوظيفة الحضارية وغاياتها، وتقرأ في ضوئه العلاقة بين المعرفة باعتبارها نظرية في العلم والتعارف باعتباره واجبا إنسانيا عاما.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات..

الحضور المسيحى العربى

العمـــق والإشــــكاليات



سامح فوزى - مصر (*)

يعنى "تعارف الحضارات" - فى أبسط معانيه - التعريف والمعرفة بالحضارات فى إطار من الاحترام المتبادل. وتبرز فى العلاقة بين حضارة وأخرى أهمية عمق الفهم، أسس الالتقاء والتعايش، الاعتراف المتبادل ومسارات الحوار، خاصة بعد أن ظل العنوان الرئيسى للعلاقة بين الحضارات فى نهاية القرن العشرين هو الصراع أو الصدام.

وإذا كان التعارف بين الحضارات، فى هذا السياق يرمى إلى البحث فى علاقات المعرفة بين الحضارات المتنوعة، فإنه يعنى بالدرجة نفسها البحث عن مصادر التنوع والغنى فى ثنايا وروافد الحضارة الواحدة. وهو ما يعد ضرورة أساسية فى فهم الذات، وبالتالى العبور المعرفى إلى الآخر الحضارى.

الحضارة العربية غنية بتنوعها الثقافى، والدينى، والعرقى، والمذهبى. محيط حضارى حى، متفاعل، ثرى بمظاهر الاختلاف. التنوع علامة ثراء مميزة له، وإقصاء المختلف يشكل خطرا على مستقبله. ويمثل المسيحيون العرب أحد روافد التنوع فى الحضارة العربية، باختلاف معتقدهم الدينى عن معتقد الغالبية من السكان العرب المسلمين، وتنوعهم المذهبى، مما يشكل فى ذاته عنصرا مضافا للجدارية الدينية العربية، التى تعرف ألوانا من التنوع الأثنى والدينى والمذهبى.

المسيحيون العرب حاضرون فى الوطن العربى، كنيستهم هى كنيسة العرب شاهدة على تواصل الحضور المسيحى الكيانى دون انقطاع فى المنطقة التى بزغت فيها المسيحية. لاهوتهم له مسحة عربية، وثقافتهم عربية، وصلواتهم أصطبغت بطبائع الحياة فى المنطقة العربية[1].

البحث فى مسألة المسيحيين العرب مهمة من زاويتين أساسيتين: الأولى قياس منسوب التسامح فى الثقافة العربية المعاصرة، ومدى استعدادها، وتفهمها، وقدرتها على قبول المختلف دينيا. والثانى التفكير فى ملامح واشتراطات المشروع الذى يجمع المواطنين العرب، من أديان ومذاهب مختلفة حول مشروع نهضوى عربى فى لحظات التحول الجذرى التى تمر به المنطقة العربية.

(١) مقدمات أساسية

١- لم تكن المسيحية غريبة عن العرب، عرفوها مبكرا فى شبه الجزيرة العربية واليمن، ومع ظهور الإسلام، وبروز الصدام الحضارى الذى يغذيه الاختلاف الدينى بين "دولة الإسلام" فى مواجهة "الدولة البيزنطية" ظهر التباين بين موقف البيزنطيين من الإسلام، وموقف المسيحيين العرب، الذين كانوا يكنون بدورهم مشاعر سلبية تجاه البيزنطيين، وتربطهم علاقات بالمسلمين. فقد غلب على الكتابات البيزنطية الموقف القاسى من الإسلام، والنظرة الدونية للعرب، بما يصفه الدكتور طارق مترى بأنها "مرآة لكبرياء مجروحة على نحو مزدوج، فهى مستهدفة على الصعيد الدينى من ذوى ثقافة "بدائية" وعلى الصعيد القومى بفعل الهزائم العسكرية المتلاحقة. ويبدو لنا أن الغلو عند عدد من المفكرين البيزنطيين فى معرض الدفاع عن المسيحية عبر الهجوم على الإسلام، يوحى بأنهم يبحثون - فى المجال الدينى - عن سبيل للرد على خسارتهم فى المجال العسكرى...."[2]. لم يكن الحال كذلك بالنسبة للمسيحيين العرب، والذين كان موقفهم من الإسلام والمسلمين أكثر رحابة، وارتبطوا مع المسلمين فى حوار الحياة أكثر من حوار الأفكار.

٢- مرت العلاقة بين المسلمين والمسيحيين بمنعطفات عديدة، بعضها يجسد الانسجام والتعاون، وبعضها يعزز الشك والارتياب، ليس مجال تناولها الآن بالتفصيل، ولكن يمكن القول بصفه عامة أن العلاقة كانت تتأثر بالظرف التاريخى، وأنماط العلاقات السائدة على الصعيد الكونى بين المسلمين وغير المسلمين. فقد احتل المسيحيون العرب موقعا متميزا فى الدولة الأموية، فى الإدارة، والشعر، والحرف المختلفة، واستمر حضورهم الفكرى

(*) سامح فوزى: صحفى وباحث مصرى مسيحى، نائب مدير منتدى الحوار بمكتبة الإسكندرية له أبحاث عديدة منشورة أبرزها: "رؤى الحركات الإسلامية للأقباط"، و"المواطنة فى الدساتير الإسلامية".

(١) يشترك المسلمون والمسيحيون فى العالم العربى فى الثقافة بمعناها السيوسيولوجى الواسع، أى طريقة الحياة، والنظرة إلى الظواهر الاجتماعية المتعددة، ومن الملاحظ أن الطقوس الاجتماعية التى لها دلالات دينية تتشابه، فمثلا هناك أوجه تشابه فى مراسم الزواج رغم الاختلاف فى العقيدة من حيث اللغة المستخدمة فى الدعاء والصلوات، والتركيز على أركان أساسية هى الإشهار، وإعلان الزواج بإرادة العروسين، ثم دعاء الحاضرين لهما بالبركة.

June 2008 ، .Daily News Egypt .Muslims and Christians United in Weddings .Sameh Fawzy

(٢) طارق مترى، سطور مستقيمة بأحرف متعرجة عن المسيحيين الشرقيين والعلاقات بين المسيحيين والمسلمين، بيروت، دار النهار، طبعة ثانية، ٢٠٠٨م، ص ٤٨.

فى الدولة العباسية من خلال التعريف بالتراث اليونانى عن طريق الترجمة وتعاطى الفلسفة والعلوم، وبرغم ما عرف من رفض المسيحيين العرب لغزوات الفرنجة، التى سميت بالحروب الصليبية، إلا أن المواجهات بين المسلمين والفرنجة تركت تأثيرا سلبيا على العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين. وقد هيأت هذه الظروف مجالا لأحكام أهل الذمة، وممارسة التضييق على المسيحيين[3].

٣- فى ظل الدولة العثمانية لم تكن أوضاع المسيحيين فى مصر والمشرق العربى متشابهة، بل كان بينها اختلاف نتيجة تباين السياق السياسى والثقافى على الصعيد المحلى، إذ بينما عرفت الخبرة المشرقية نظام الطوائف والملل، لم تعرف مصر هذا النظام، وسارت فى مسار آخر أسقطت فيه الجزية رسميا عام ١٨٥٥م، والتحق الأقباط بمجلس شورى النواب عام ١٨٦٦م بالانتخاب، وأصبحوا جزءا فاعلا فى الطبقة السياسية التى تشكلت فى أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

٤- شارك المسيحيون العرب فى مشروع النهضة العربية الحديثة فى كافة المجالات، وهناك أسماء معروفة كانت لها بصمة فى الحياة العامة، وبصفة عامة لم يكن المسيحيون العرب لونا واحدا، بل كانت بينهم اختلافات فى زاوية الرؤية والموقف السياسى، وهذا التنوع لا يزال إلى وقتنا الحاضر بين المسيحيين هو ما يجعل اندماجهم فى المجتمع السياسى العام أكثر يسرا، دون وجود ثقافة "الجيتو" المغلقة. وقد لاحظ البعض أن مثقفى النهضة المسيحيين مارسوا قدرا لا يستهان به من نقد الخطابات الدينية فى عصرهم، شمل نقد المسلك الدينى، ونمط العلاقات فى المجتمع الدينى بما فى ذلك السائدة فى المجتمع المسيحى ذاته[4].

(٢) إشكاليات الحضور

فى الحقبة شبه الليبرالية التى امتدت منذ بدايات القرن العشرين حتى منتصفه ظهر الحضور المسيحى فى قلب مشروع النهضة العربى، إلا أنه ما لبث أن تراجع نتيجة عوامل كثيرة ظهرت فى النصف الثانى من القرن العشرين.

تفكك مشروع الدولة القومية

عرفت المنطقة العربية مشروع الدولة القومية التى ولدت من رحم الاستعمار الغربى، وتعلقت بها نخبها السياسية والثقافية فى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين على وجه الخصوص. وانخرط المسيحيون العرب، أسوة بشركائهم فى المواطنة من المسلمين، فى مشروع بناء الدولة على أساس من المواطنة المتساوية، وتقدير الكفاءات الفنية، وشيوع إيديولوجيات سياسية كبرى - قومية واشتراكية- شكلت وعاء لاستيعاب المختلفين دينيا فى إطار مشروع وطنى. هذه الدولة تعرضت لإخفاقات شديدة نتيجة الاستبداد السياسى، وظهور أنظمة سياسية عادت الديمقراطية، وجففت منابع التنوع السياسى والثقافى، وفرضت الأحادية الفكرية، مثل حزبى البعث فى العراق وسوريا، رافق ذلك إخفاق متزايد فى تحقيق التنمية، والعجز عن سد احتياجات السكان، واللجوء إلى التكوينات الأولية: الدينية والمذهبية والقبلية لسد هذه الاحتياجات، وتنامى معدلات الفساد الذى ينخر فى عظام الدولة، والتلكؤ فى الوفاء بالمطالب الديمقراطية، وأخيرا عودة الاستعمار الغربى إلى المنطقة، سواء بصورة سافرة كما هو الحال فى العراق، أو فى صورة أقل سفورا فى بقية الدول العربية. كل ذلك ساعد على تفكيك نموذج الدولة القومية الذى يقوم على المواطنة فى إطار المشروع الوطنى الجامع لحساب الكيانات الأولية التى تستند إلى سياسات الموالاة والخصوصية الاستبعادية فى مواجهة الآخرين. وقد لجأت النخب الحاكمة للتغلب على عجزها عن الإنجاز، وعدم قدرتها على الحفاظ على وحدة كيان الدولة القومية إلى وسائل عديدة من بينها القمع، وتوظيف "الدين" أو "المذهب" فى إنتاج "شرعية" تتقرب بها إلى الجماهير. ومن المعروف أن مصادر الشرعية تتنوع، أهمها الإنجاز، والذى يرتفع معه درجة القبول والرضا من جانب الجماهير، فإذا عجزت النخب الحاكمة عن بلوغه، لجأت إلى مصادر أخرى مثل "أحياء القبلية"، و"البحث عن المذهبية"، و"استنفار القومية الشوفينية"، إلخ. أدى ذلك إلى إذكاء "العصبية" بمعناها الشامل على حساب الاندماج القومى.

العجز عن إدارة التنوع

فى كثير من الأحيان عجزت النخب الحاكمة فى العالم العربى عن إدارة التنوع الدينى والمذهبى، نتيجة غياب منظومة الحكم الرشيد، والعجز عن تحقيق المشاركة والمساواة فى إدارة علاقاتها بالأقلية الدينية، فى الوقت الذى تتسم فيه علاقاتها بالمجموع الشعبى بالاستبداد والقهر والظلم. وعمدت الأنظمة الحاكمة إلى تصدير رسائل متباينة متناقضة أحدثت مساحة عريضة من التنافر بين أبناء المجتمعات العربية المختلفين فى الدين أو المذهب، فهى من ناحية أشعرت الأقلية أن الأمان يكون بالولاء الكامل للنظام، ومن ناحية أخرى خلقت شعورا لدى أبناء الأغلبية بأن الأقلية تلقى معاملة تفضيلية على حساب الأغلبية. الأمر الواقعى أن كلا الطرفين، الأقلية والأغلبية، يشعران بالظلم. وهى حالة يصفها الدكتور فريد الخازن بأن "المشكلات التى تعانى منها المجتمعات العربية يتأثر بها المسلمون والمسيحيون، ولكن هناك شعورا بقلق أكبر، وربما باستهداف يطال المسيحى أكثر من المسلم"[5].

وقد أسهمت السياسات العامة "الرديئة" فى إدارة التنوع الدينى والمذهبى فى شعور المسيحيين بالمواطنة المنقوصة، وتراكم مشاعر سلبية، وتنشئة أجيال على استعذاب فكرة الاضطهاد فى مواجهة النخب الحاكمة، وربما فى مواجهة أصحاب الأديان أو المذهب التى

---

(٣) طارق متري، مرجع سابق، ص ٣٢-٣٣.

(٤) الدكتور جيروم شاهين، المسيحية والعلمانية، بيروت: مختارات، ٢٠٠٦، ص ١٠١-١٢٤.

(٥) فضيل أبو النصر (محرر)، هواجس المسيحي اللبناني مقالات وحوارات، بيروت: بيسان للنشر والتوزيع، ٢٠٠١، ص ٩٤.

تأتى منها هذه النخب. هذه الظواهر ليست غريبة عن المحيط العربى، تعرفها من العراق إلى السودان. أدى ذلك تحمل الذاكرة التاريخية ما لا طاقة لها به، من أحداث وصور واتجاهات ملتبسة، عمقت من مشاعر الريبة فى العلاقات بين أهل المذاهب والأديان.

تقلص مساحات الالتقاء

العلاقة بين المسيحيين والمسلمين، وما يرتبط بها من وشائج اجتماعية وثقافية واقتصادية تتحقق فيما نطلق عليه "المجال العام" Public Sphere، وهو الفضاء الحيوى المتاح للأفراد كى يمارسون فيه حركتهم بحرية، يعلنون فيه عن برامجهم وتصوراتهم، ويلتقون فيه مع المختلفين فى الدين أو المذهب حول قضايا عامة تتجاوز الاستقطاب الدينى أو الانتماء الضيق للجماعات الأولية.

يعد «إليكس دى توكفيل» أحد الذين روجوا للمنظمات المدنية باعتبارها "مدارس لتعليم الثقافة الديمقراطية"، حيث يتعلم الشخص فى أروقتها النقاش الحر، والتفكير النقدى، والتداول السلمى للسلطة، وهكذا. هذه النظرية سيطرت على عقول المبشرين بالمجتمع المدنى مثل روبرت بوتنام، وفرنسيس فوكوياما، باعتبار أن وجود هذه المؤسسات المدنية، ورفع أية قيود قانونية أو سياسية على حركتها كفيل بأن يجعل منها واحة للممارسة الديمقراطية، وإيجاد روابط حديثة بين الأفراد المختلفين فى النوع أو العرق أو الدين(٦).

وتشير التجربة فى العالم العربى إلى أن المؤسسات المدنية لم تقم بالدور المنوط بها فى التنشئة الديمقراطية، وتحولت إلى كيانات مؤسسية، ينشئها ويديرها الأفراد على أسس استبدادية واستبعادية، لا تحكمها الثقافة الديمقراطية، وتتفشى فيها الثقافة التسلطية بكل معانى الكلمة. يكفى أن نتأمل أنماط الصراعات، ونوعية الخطابات، وأساليب إدارة المشكلات التى تنشب فى النقابات، والأحزاب، والأندية لنرى إلى أى حد أصبحت هذه التكوينات المدنية تفرز ممارسات، وتنتج ثقافة لا تمت بصلة إلى الحلم الثقافى الديمقراطى الذى تملك على «إليكس دى توكفيل»، ومن سار على دربه من

(٦) هناك عدد من الباحثين يرون أن المجتمع المدنى، أو المنظمات المدنية التى تقوم على أساس الثقة المتبادلة، هى التى يمكن أن تشكل مجالا حيويا للأفراد يتعلمون فى أروقتها التنوع، والديمقراطية، والمشاركة، والفعل السياسى الرشيد، راجع:

Princeton Civic Traditions in Modern Italy.Making Democracy Work .Robert Putnam1993-167 : PrincetonUniversity Press.

وهناك مدرسة مبكرة فى العلوم السياسية ترى أن الحياة المؤسسية Associational Life كفيلة بالتعبير عن آراء ومطالب الأفراد، وتحمى المجتمع من محنة التعبير العشوائى عن المطالب، ومن هنا فإنها أحد الأدوات الأساسية فى تحقيق المواطنة التى تقوم على المشاركة واحترام القانون. راجع:

1951 Alfred Knopf New York. the Governmental Process David Truman

1961 New Haven: Yale University Press- .Who Governs Robert Dahl

وأشار فى الاتجاه ذاته فرنسيس فوكوياما إلى أهمية أن ينتظم الأفراد معا فى روابط مؤسسية من أجل تحقيق أهداف مشتركة، وكيف أن مثل هذه الروابط تصب مباشرة فى تحقيق الديمقراطية.

Social Capital and Development: The Coming AgendaFrancis Fukuyama 29.p.(Spring 2003 Winter).1.No. XXII.Vol SAIS Review

مفكرين وباحثين، وتحولت هذه المؤسسات - عمليا- فى حالات كثيرة إلى عبء على المجتمع بما تنتجه من تعصب واحتقان، وأشكال من التراجع الثقافى، وحالات مزاجية سلبية لدى قطاعات واسعة من النخب المهنية والسياسية(٧).

من هنا فإن المجتمعات العربية لم تعرف الدولة الحديثة بمختلف مشتملاتها، عرفت فقط أبنية وهياكل الدولة، وظل باطن المجتمع تقليديا، عشائريا وقبليا، يقوم على الطائفية والاصطفاف الدينى والمذهبى. وتعثرت "مؤسسات المجتمع المدنى" التى تشكل مساحة لالتقاء الأفراد المختلفين على أساس "المصلحة" و"التعبير عن الرأى" أكثر من "الانتماء" إلى الطائفة أو الجماعة الدينية أو المذهبية. وبمرور الوقت، ازدادت الدولة ترهلا، وتطييفا، وظهر رأس المال الاجتماعى "الجامع" فى صورة تكوينات قبلية ودينية ومذهبية تنشىء أبناءها على الولاء لها، والارتباط بها على حساب المواطنة فى الدولة، وتراجع رأس المال الاجتماعى "العابر" الذى يقوم على تجميع الأفراد على أساس الإرادة الحرة الطوعية لخدمة قضايا عامة دون النظر إلى الاختلاف فى الانتماء القبلى أو الجهوى أو الدينى أو المذهبى(٨).

صعود خطابات "الأقليات"

أدى الفشل فى إدارة التنوع، وترهل الدولة القومية، وعدم قدرتها على تحقيق المواطنة لكل مواطنيها فى إطار مشروع وطنى، وهزائمها المتكررة أمام إسرائيل إلى اعتبار ملف الأقليات أحد مواطن الجرح فى الجسد العربى، التى يمكن اختراق العالم العربى من خلاله. هذا الخطاب له ما يغذيه، ويؤصل له، ويهبه المنطقية فى الطرح فى الدوائر البحثية والسياسية الإسرائيلية فى سياق مشروع متكامل لتفكيك المنطقة العربية.

بالطبع يوجد الكثير الذى كتب فى هذا المجال، ولكن يمكن التوقف- فى هذا السياق- أمام كتاب وضعه "موردخاى نيسان"، وهو أستاذ جامعى إسرائيلى، يدرس فى تل أبيب وبعض جامعات العالم الأخرى، له تشابكاته الأمنية والسياسية، واهتماماته البحثية التقليدية فى الأديان والجماعات الدينية. الظاهر من عنوان الكتاب أنه يتحدث عن الأقليات فى الشرق الأوسط، لكن الخوض فى باطنه، وما حمله من أطروحات وسيناريوهات، تعززها سياسات عامة رصدها الباحث، يحملنا إلى نتيجة

(٧) سامح فوزى، مشكلة ثقة أم أزمة مجتمع مدنى؟، جريدة الأهرام، ٢٨ نوفمبر ٢٠٠٢.

(٨) يفرق وول كوك بين نوعين من رأس المال الاجتماعى: الجامع والعابر. يعنى النوع الأول التماسك بين المتماثلين فى مواجهة المختلفين مثل الانتماء القبلى أو العشائرى أو الدينى، وهو يحفظ للمجتمع تماسكه لكنه يحد من تنوعه. أما النوع الثانى، أى العابر فهو على العكس يجمع بين مختلفين فى الرأى أو المعتقد أو الثقافة حول قضية عامة، مما يتيح تبادل الأفكار، والانفتاح على الآخر المختلف، ويوفر للمجتمع التعددية، والتنوع.

Toward a Theoretical 168 -pp161,1998 .2 No.27.Vol .Theory and Social Capital and Economic Development: .Woolcock .M

.Society Synthesis and Policy Framework

مفادها أن الكتاب ليس مجرد مؤلف علمي، لكنه مشروع دولة ومجتمع، يسخر فيه الباحث العلم فى خدمة السياسة بشكل فج، فاضح، ومباشر مما يندر وجوده، بهذه الكيفية، فى دراسات أخرى، مهما بلغ انحياز واضعوها[٩]. ينطلق الكتاب من أطروحة أساسية مبناها أن نشوء إسرائيل، بوصفها دولة يدين سكانها باليهودية، أدى إلى تغيير مسار التاريخ والجغرافيا فى الشرق الأوسط، ووضعت الجماعات الدينية المسيحية والمسلمة غير المنتمية إلى المجموع العربى السني، على طريق التحرر من الهيمنة والخضوع. وفى رأيه أن إسرائيل أحرزت-فى نشأتها- أمرين أساسيين: الانفصال الجغرافى وتكوين كيان مستقل، وتبنى لغة أخرى غير العربية. من هنا فإنه على الجماعات الدينية المسلمة والمسيحية السير على هذا النهج، من خلال تأكيد ذاتيتها، جغرافيا عبر الانفصال، ولغويا عبر إحياء لغات قديمة تعبر بها عن نفسها خارج اللغة العربية. والملفت أن الكتاب، الذى فى ظاهره يتناول مسألة الأقليات فى الشرق الأوسط، لم يلجأ إلى أنماط متعارف عليها فى تقسيم الأقليات، ما بين أقليات لغوية وعرقية ودينية. واعتمد فقط على تقسيم واحد هو التقسيم الدينى ألغى به كافة الهويات الأثنية واللغوية.

فى القسمين الأول والثانى من الكتاب يتناول "موردخاى نيسان" ما سماه الأقليات المسلمة وهى الأكراد والبربر والدروز والعلويين والجماعات العرقية على حدود باكستان وأفغانستان.

وفى القسم الثالث يتناول الأقليات المسيحية وهى الأقباط والأرمن والسريان والموارنة وقبائل جنوب السودان.

ويخصص القسم الرابع للحديث عن استراتيجيات إسرائيل للتعامل مع الأقليات الدينية المسلمة والمسيحية فى المنطقة.

هنا تثار تساؤلات كثيرة، أهمها الخاص بالتقسيم والتصنيف، وهو تساؤل محورى فى البحث الاجتماعى بوجه عام. فى هذا الكتاب يعتبر الكاتب المدخل الرئيسى فى العلاقة بين الأغلبية والأقلية هو التأكيد على الهوية الدينية أو المذهبية المنفصلة فى إطار علاقة مركبة تجمع ما بين كيان دينى يهودى، أى إسرائيل، وكيانات دينية فرعية مسلمة ومسيحية منفصلة. ويطالب "موردخاى نيسان" باستلهام روح إسرائيل فى إنشاء دولتها. وطرح مفهوما جديدا هو "الصهيونية الممتدة" Zionism – Ultra ويعنى إنشاء شبكة متكاملة من العلاقات تكون فيها إسرائيل هى المحور، والأقليات الأخرى هى الأطراف، بحيث يصبح هناك أكراد صهاينة، وموارنة صهاينة، وبربر صهاينة، إلخ، يحققون استقلالهم الجغرافى، أو اللغوى، أو كليهما بما يخدم تحالفهم مع إسرائيل. ويختتم موردخاى كتابه المثير للجدل، وهو ما يهمنا

(9) Mordechai Nisan :Minorities in the Middle East ,a History of Struggle and Self' 2002 Second Edition, Publishers, London: McFarland & Company Inc. Expression.

فى هذا السياق، بالتأكيد على أهمية الأنشطة، والمبادرات المشتركة التى تجمع ممثلى المجتمعات الدينية المتنوعة فى حصار الإرهاب، والهيمنة العربية الإسلامية فى المنطقة.

(٣) تقلص الحضور المسيحى العربى

ترتب على هذه الإشكاليات عدد من التداعيات أثرت سلبا على الحضور المسيحى فى المحيط العربى على عدة مستويات:

١- شيوع مناخ من عدم التسامح فى المنطقة العربية، والذى ارتبط بظهور تأويلات وتفسيرات دينية متشددة، تنفى عن الآخر حضوره، ومواطنته، وتعيد إنتاج التصورات القديمة التى تحكم علاقة المسلم بغير المسلم قبل نشوء الدولة الحديثة مثل الذمية. وبرغم أن هذه التصورات حدثت لها مراجعات جذرية على يد مفكرين إسلاميين معاصرين مثل الدكتور أحمد كمال أبو المجد، والدكتور محمد سليم العوا والمستشار طارق البشرى وغيرهم على خلفية انقضاء الدولة القديمة التى طبقت بها، ونشوء دولة حديثة صنعها المسلم وغير المسلم، ويتمتع كلاهما فيها بحقوق المواطنة كاملة غير منقوصة إلا أنه لا تزال هناك حركات إسلامية تؤمن بهذه التصورات، وترى أنها تصلح للتطبيق فى ظل الدولة القائمة.

٢- تفشى العنف الطائفى فى مواجهة المسيحيين، والذى بلغ أعلى صوره فى العراق فى ظل عمليات التفجير والقتل والاختطاف التى تعرض لها المسيحيون والكنائس والمؤسسات المسيحية، وتركزت الاعتداءات أساسا فى بغداد والموصل، مما أدى إلى موجات نزوح جماعية منهما، وكذلك البصرة، ويقدر تعداد المسيحيين الذى هاجروا إلى خارج العراق بنحو ٢٥٠ ألفا من أصل ٨٠٠ ألف مسيحى عشية اجتياح القوات الأمريكية للعراق عام ٢٠٠٣، ما يقرب من نصفهم كانوا يعيشون فى بغداد[١٠]. ويعرف المجتمع المصرى أحداثا متقطعة، ازدادت وتيرتها فى العقود الأخيرة من التوترات الدينية التى تخلف ضحايا، وتستهدف كنائس، وتتسبب فى تخريب منشآت ومبان، وبرغم وجود حالة رفض عام فى المجتمع المصرى لها إلا أن أحداث العنف ذات الوجوه الدينية تستمر على نحو مقلق.


د. أحمد كمال أبو المجد

٣- الانكفاء، حيث عمد المسيحيون على الانكفاء على الذات الخاصة، وشكلت المؤسسات الدينية الملاذ بالنسبة لهم، نظرا لأنها هى الوحيدة فى محيطهم الدينى التى تتمتع بالشرعية، والمصداقية، فى وقت لم توجد فيه مؤسسات مدنية تجمعهم بشركائهم فى المواطنة من المسلمين.

(١٠) أنطوان سعد، تراجع الدور المسيحى فى الشرق العربى، مشكلة عربية أم معضلة مسيحية، بيروت: مركز عصام فارس للشئون اللبنانية، ٢٠١٠، ص ٤٤-٤٥

٤- تراجع الحضور السياسي للمسيحيين، سواء في المؤسسات السياسية التي تتشكل بالانتخاب مثل البرلمان، أو في مواقع الإدارة العليا، أو في المجال العام من أحزاب ونقابات وخلافه، مما أشعرهم بالتهميش، ربما تكون الحالة الاستثنائية في ذلك الأردن التي يتمتع فيها المسيحيون بوضع خاص في ظل ارتباطهم بالنظام الملكي القائم.

٥- تزايد معدلات الهجرة المسيحية إلى الدول الغربية نتيجة عوامل عديدة اقتصادية، سياسية، ثقافية، ودينية أيضا مما أثر على تعداد المسيحيين العرب. وإذا كانت الهجرة العربية إلى الغرب ليست مسيحية فقط، بل أن هناك قطاعا عريضا من المسلمين هاجر بحثا عن حياة أفضل، فإن الوضع بالنسبة للمسيحيين أكثر تعقيدا حيث تؤثر الهجرة ليس فقط على الحضور العددي للمسيحيين في العالم العربي، ولكن أيضا على النظرة العامة لتحديات البقاء وسط غالبية السكان من المسلمين.

٦- شيوع لغة جديدة في المجال العام للتعبير عن العلاقات الإسلامية المسيحية، غير متعارف عليها، ولا تأخذ في اعتبارها العمق التاريخي، دينيا وثقافيا وتميل إلى التشدد، والخشونة، وتنزع إلى السجال الديني، والتشكيك في العقائد، والتعريض بخصوصيتهم الدينية.

٧- التغير في السيكولوجية الدينية، من الانفتاح إلى التقوقع، من الاندماج في المجتمع إلى الخوف منه، هيمن ذلك على الخطابات الدينية التي اتخذت موقف الدفاع عن العقيدة، والتركيز المفرط على ثقافة الاستشهاد في مواجهة مجتمع يعيد إنتاج أشكال التمييز الديني والثقافي في مواجهة المختلفين دينيا، فضلا عن التأكيد المستمر على "الخلاص الفردي للمؤمن" دون طرح تصورات لاهوتية حول دور الإيمان في تغيير المجتمع، والقضاء على الظلم، والفساد، والاستبداد. وهو ما أسهم بدوره في تغذية الانسحاب من المجتمع بتصورات دينية.

٨- ظهور ردة فعل معاكسة لدى بعض المسيحيين، من رفض وانسحاب وخوف على المصير، إلى احتجاج، ومقاومة، وتعصب. ويذهب جيروم شاهين إلى أن "العصبية هي شكل آخر من اليأس، فبدلا من الاستسلام يأسا، أو الانغلاق والانزواء، أو الهجرة تقود العصبية المسيحيين إلى سياسات "مقاومة"[11]. وقد لوحظ أن المقاومة تأخذ أحيانا "صورة سلبية" منقولة حرفيا لما تقوم به بعض جماعات الإسلام السياسي، مثلما ظهر في مصر في الآونة الأخيرة من احتجاجات متوالية على عمل فني أو رواية أدبية، وخلافه على خلفية رفض الطعن في العقيدة المسيحية.

(٤) الاستقلال الثاني: الفرص والتحديات

تشكل المرحلة الجديدة التي تمر بها الدول العربية، والتي تجسدت في الثورة التونسية،

(١١) الدكتور جيروم شاهين، المسيحيون العرب، التحديات الراهنة وخيارات المصير، بيروت: تعاونية النور الأرثوذكسية، ٢٠٠٨، ص ١٣٨.

ثم ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١، والتي أدت إلى إسقاط النظام، وفتحت المجال أمام مختلف القوى والتيارات كي تتخلص من إرث الماضي، وتعيد بناء مجتمع جديد ينطوي على علاقات أكثر انفتاحا وأقل توجسا، تقوم على المساواة والعدالة بين المسلمين والمسيحيين. ويعد الحصول على "الاستقلال الثاني" في الثورة الديمقراطية مدخلا جديدا لإعادة اندماج المسيحيين العرب في التيار الرئيسي للمجتمعات العربية المطالب بالحرية، والديمقراطية والعدالة الاجتماعية. في السابق واجه المسلمون والمسيحيون العرب الاستعمار الأجنبي، وحصلوا على الاستقلال الأول، وبعد عدة عقود عادوا إلى صفوف المواجهة معا، وحصلوا على الاستقلال الثاني من الاستعمار الداخلي.



الشيخ يوسف القرضاوي يخطب الجمعة في ميدان التحرير

اتجاهان أساسيان

١- الاتجاه الأول، هو اتجاه ثورة ٢٥ يناير الذي تبلور في ميدان التحرير في قلب القاهرة، من خلال مشاركة المسلمين والمسيحيين معا، وهو ما دعا الشيخ يوسف القرضاوي عقب زوال نظام مبارك إلى مخاطبة "أهل الميدان" مسلمين ومسيحيين في صلاة الجمعة في سابقة لم تحدث، وقد تثير امتعاض بعض المتشددين.

ثقافة "ميدان التحرير" تعني الكثير بالنسبة للعلاقات الإسلامية المسيحية:

* كسر حاجز اللقاء، والالتقاء حول أجندة سياسية تتعلق بتغيير المجتمع، تتجاوز الذهنية الطائفية.

* الفحص المباشر من خلال خبرة التعايش الميداني على مدار أيام من حيث اكتشاف الآخر على حقيقته دون افتعال أو تزييف أو الوقوع في أسر الصور النمطية الخاطئة.

* التضامن والتعاضد في محنة المواجهة مع عنف يرعاه بقايا نظام سابق، ومشاعر الخوف من المجهول القادم، والرجاء الذي يتلكأ في البزوغ.

وبينما كان المعتصمون في ميدان التحرير يدافعون عن الثورة، كانت "اللجان الشعبية" من المواطنين يدافعون عن مقدرات المجتمع: الأرواح والممتلكات. لم يمس مواطن مسيحي، أو كنيسة، أو منشأة دينية. باختصار هو "ميلاد جديد" لرأس مال

اجتماعي "عابر" يجمع بين المصريين المختلفين في النوع والدين والفكر والموقع الاجتماعي، لقاء ممتد على أساس من الثقة، والتضامن، والاحترام المتبادل. ثقافة "ميدان التحرير" لم تعرف الاستقطاب، ولم تسمح به، واستمدت روحها وزخمها من التوافق بين المختلفين، وكانت، ولا تزال من الممكن أن تلد نظاما جديدا يستوعب الكل، ولا يستبعد أحدا.

ثقافة "ميدان التحرير" تعني أن المسلمين والمسيحيين العرب بإمكانهم أن يعيدوا بناء نظام سياسي يحقق العدالة والمساواة، بعيدا عن إرث الطائفية والشك المتبادل والتمييز في إطار هوية اجتماعية جديدة.

٢- الاتجاه الثاني، هو اتجاه ما قبل ثورة ٢٥ يناير، يعيش على الاستقطاب، والتمييز، وتعطيل التوافق، وزرع مشاعر الارتياب بين المختلفين في النوع أو الدين أو المعتقد السياسي أو الفكري. باختصار هو يعمق من رأس المال الاجتماعي "الجامع"، الذي يعزز التضامن حول الصيغ التقليدية في العلاقات الاجتماعية، ويطورها إلى مواجهة مع الآخر المختلف.

وقد ترتب على هذا الاتجاه تداعيات كثيرة سلبية، أهمها:

* الاستقطاب الإسلامي العلماني، وهو ليس جديدا تعرفه في مساجلات ممتدة، واتهامات متواصلة بين هذا الطرف أو ذاك. تداعي الأنظمة المستبدة في المنطقة العربية في الثورات الشعبية التي حدثت في تونس، ثم مصر، وتشتعل الآن في ليبيا واليمن وسوريا ينعش هذا الاستقطاب، ويحوله من استقطاب فكري ممتد على مدار عقود لم يحدث مفعوله نظرا لاحتكار النخبة المهيمنة للسلطة، وتوظيفها لمثل هذا النوع من الاستقطاب، إلى استقطاب سياسي في الشارع على هوية المجتمع. المسيحيون العرب في قلب هذا الاستقطاب، فمن ناحية تنادي القوى العلمانية بدولة تقوم على المواطنة الكاملة دون أن يكون الدين سببا للتمييز بين المواطنين، ومن ناحية أخرى تطالب غالبية القوى الإسلامية بدولة حديثة تستند إلى حكم القانون والمؤسسات، ولكن على نحو يجعل الدين حاضرا في بنيتها السياسية والقانونية والاجتماعية. إذا كان هذا هو الحادث في مصر حاليا، ويشعر المسيحيون بأنهم بين هذا الطرف وذاك، فإن المسيحيين في لبنان يقعون بين شقي رحى أخرى هو الاستقطاب بين السنة والشيعة، أو الموالاة والمعارضة، وهو تناقض سياسي ومذهبي، تغذيه سياسات إقليمية ودولية.

* عودة التوترات الدينية، سواء في شكل تحرشات طائفية، أو مواجهات تدمر فيها كنائس، وتزهق أرواح مواطنين، مسلمين ومسيحيين، وتحطم فيها الممتلكات، ويزداد الشعور بالخوف، واليأس، ويعاد انتاج الإتهامات المتبادلة، وتبعث القصص والروايات القديمة في العلاقات بين الطرفين من مرقدها.

* تصاعد أصوات كانت خافتة في السابق، تطرح رؤى دينية شديدة التقوقع، تسلب الفقه المصري الرحب خصوصيته وتفرده، وتطرح أفكار تعمق مشاعر الارتياب، والخوف، وتولد ردة فعل عكسية غاضبة في وقت يعيد المجتمع فيه بناء ذاته.

* استمرار ذهنية إدارة الملف الديني كما كانت في النظام السابق من حيث تنحية القانون، والركون إلى الحلول العرفية، وعدم التعامل بشفافية مع التوترات الدينية، والاكتفاء بالحديث المبهم حول القلة أو الشرذمة التي تفتعل الفتنة، أو فلول النظام السابق، أو الأيادي الخارجية، وتمثل جميعها "إحالة" للمجهول، دون تحديد واضح للأطراف الضالعة في الإساءة إلى العلاقات الإسلامية المسيحية، على نحو يجعل المجتمع يبصر الأمر.

ورغم هذه المظاهر السلبية في التعامل مع الشأن الديني، فإن الأمر لا يخلو من إيجابيات يتعين التوقف أمامها:

* القضايا المتعلقة بالمواطنة، والعلاقات الإسلامية المسيحية أصبحت تداول على نطاق واسع، وبمساحة أكثر من الصراحة.

* تحول العلاقات الإسلامية المسيحية ربما للمرة الأولى منذ أكثر من ثلاثين سنة إلى شأن سياسي، تنظر في أمره مؤسسات سياسية، بعد أن ظل لسنوات طويلة رهنا للحل الأمني، والذي- للأسف- أساء توظيفه لصالح النظام السابق.

* تشكل منتديات ولجان كثيرة، من "بيت العائلة" التي يرعاها الأزهر الشريف، إلى لجنة "العدالة الوطنية" بمجلس الوزراء، وخلافه، كل ذلك يجعل هناك نقاط كثيرة للالتقاء



بيت العائلة المصرية في إحدى جلساته برئاسة الإمام الأكبر شيخ الأزهر أ. د. أحمد الطيب

على مستويات مختلفة للنقاش حول مشكلات حقيقية، بعد أن ظلت لسنوات مجرد مظاهر احتفالية.

من المتوقع أن يسود هذه المرحلة كثير من غلو أفراد وتيارات دينية كانت بعيدة عن الحياة المدنية، وتغلب على الساحة السياسية مواجهات بين رؤى متناقضة، ولكن هذه الحالة، رغم ما تثيره من مخاوف تبدو ضرورية لتصفية تناقضات نظام سابق، وبناء نظام جديد على أسس جديدة من العلاقات التي تقوم على الفهم، والاحترام المتبادل، وتطبيق القانون في دولة ديمقراطية، تسودها قيم العدالة والحرية والمساواة.

(٥) "الإسلام الحضاري"

مدخل جديد لعلاقة قديمة

في ضوء التحولات التي ألمت بالمجتمع المصري خاصة على مدار الأشهر الماضية، والتي تمثل في ذاتها نموذجا أساسيا لما يمكن أن تكون عليه التفاعلات بين المسيحيين والمسلمين في المنطقة العربية، يمكن القول بأن هناك منهجين للإسلام، أحدهما حضاري

رحب، يشعر الآخر بوجوده فيه بذاته، وعقيدته، وثقافته الفرعية، دون تناقض مع التصور العام السائد للإسلام. وهناك منهج آخر متشدد، مغلق، لا يعترف بالآخر المختلف دينيا، ويشكل رقيبا على ضمير المسلم. الأول يعبر عن الفقه المصرى الرحب، والآخر يمثل فقها آخر نشأ فى مجتمعات مغايرة، واكتسب منها خصائصه المتشددة.

الإسلام الحضارى هو الذى يجعل تقدم المجتمع مشروعا أساسيا له، وقائض التدين رافدا من روافد التنمية، والحرية الدينية والمساواة أساس العيش فيه، والفضاء الدنى مفتوح أمام كل الأفكار والتيارات دون وصاية، أو مصادرة فى ظل ثقافة تعلى من شأن التفكير النقدى، والحوار البناء، وتعرف أن مزايا الحرية مهما شهدت من تجاوزات أفضل بكثير من المصادرة الفكرية التى تأخذ فى طريقها عوامل التميز والاختلاف.

ومن الطبيعى أن يتلاقى المسلم العربى مع المسيحى العربى على أرضية الإسلام الحضارى، الذى يرفض الغلو والتطرف، ويصون الحرية الدينية، ويعلى من شأن الكفاءة فى شغل الوظائف العامة، ويجعل الإنجاز عنوان الحضور فى المجتمع، دون نظر إلى النوع أو المعتقد الدينى للأشخاص. الإسلام الحضارى هو "انتماء اجتماعى" جديد، يحفظ للثقافة العربية تنوعها ورحابتها. وقد عبر الدكتور "كمال صليبى" عن هذه الظاهرة بقوله "العرب المسيحيين الحلفاء الطبيعيين للإسلام الحضارى فى مواجهة قوى التخلف فى البلاد العربية"[12].

هذا الرأى أعاد التأكيد عليه الكاتب عبد الرحمن راشد بعبارة أخرى "فى بعض الحالات الإرهاب المتعمد ضد المسيحيين العرب حقيقى، فإنه جزء من محنة كل المنطقة، حيث إن التطرف الإسلامى الموجه ضد أبناء الإسلام أنفسهم أعظم..."[13].

فى الخبرة المصرية الآنية يبدو أن "الإسلام الحضارى" لديه فرصة حقيقية للتشكل فى إطار مؤسسة الأزهر، التى تحولت -واقعا- إلى كيان جامع تلتقى فيه التيارات الإسلامية المتنوعة، والقوى العلمانية، ويشعر المسيحيون بانتمائهم له، ويمكن من خلال الالتقاء فى رحابها الاتفاق على المبادئ الأساسية الحاكمة للعلاقة بين الدين والدولة، المقدس والنسبى، فى إطار رؤية أشمل لقضيات مجتمع يحبو ديمقراطيا، يريد أن يكون أكثر تسامحا، وأقل تعصبا.

هذه الصيغة ليست صعبة المنال، ويمكن تحقيقها فى ظل حوار حضارى ممتد، لا يعرف الاستقطاب، كما لا يعرف الخوف والارتياب، وهناك من الاجتهادات الإسلامية المعتبرة التى تشكل العمود الفقرى للإسلام الحضارى تعزز حقوق المواطنة للمختلف دينيا، وتحترم العقائد الدينية، وتصون الحرية الدينية، والحق فى شغل المناصب العامة فى الدولة من أعلاها إلى أدناها على أساس مبدأ الكفاءة، والنظر إلى التراث الحضارى المسيحى بوصفه جزءا أصيلا من الثقافة العربية، العرب أولى به من غيرهم، وكنيسة العرب الحية النابضة لا تخصم من الإسلام والمسلمين.

(١٢) الدكتور كمال الصليبى وآخرون، المسيحيون فى لبنان والشرق (رؤى مستقبلية)، بيروت: دير سيدة النصر نسبيه- غوسطا، ١٩٩٧، ص ٤١.

(١٣) عبد الرحمن الراشد، المسيحيون العرب والهروب من التطرف، جريدة الشرق الأوسط، السبت ٢٥ ديسمبر ٢٠١٠

المسلمون فى الكونغو على طريق النهضة



للأستاذ الدكتور/ عبد الله نجيب محمد
معهد البحوث والدراسات الأفريقية - جامعة القاهرة

الكونغو[1] هى إحدى دول حوض النيل، وتقع فى عمق القلب الأفريقى، وعاصمتها «كينشاسا»، ولغتها الرسمية الفرنسية وهى من أكبر الدول الأفريقية.. تبلغ مساحتها ٢,٣٤٥٠٠٠ كم وعدد سكانها حوالى ٣٠ مليون نسمة، منهم حوالى مليون مسلم بنسبة ٣٪ من جملة السكان، ومعظم السكان من «البانتو» بالإضافة إلى مجموعات قليلة من النيليين والأزاندى والأقزام علاوة على جماعات مهاجرة من شرق القارة، هى التى نقلت الإسلام إلى حوض الكونغو.

تعتبر الكونغو من أغنى البلاد الأفريقية نظراً لما فيها من معادن متنوعة، وخامات متعددة، ولكنها رغم ذلك تعتبر إحدى الدول الفقيرة، فعلى الرغم من وفرة مواردها، فإن مستوى المعيشة منخفض للغاية بسبب النهب المنظم لثروات البلاد، والممتد منذ سنوات عديدة، حيث تكالب المستعمرون المستغلون، وكذلك الشركات الأوروبية والمتعددة الجنسيات لنهب ثروات البلاد على مدار العقود الماضية.

دخل الإسلام إلى الكونغو من شرق أفريقيا السواحلية ومن «زنجبار» أساساً أيام ازدهارها، حيث امتد نشاط التجار المسلمين إلى داخل القارة، وأنشأوا مركزا تجاريا مهما فى مدينة «أوجيجى» على بحيرة «تنجانيقا»، ومن هذه المدينة انطلق التجار المسلمون إلى داخل الكونغو منذ القرن الثالث عشر الهجرى، ثم نشأت مدينتان إسلاميتان على نهر الكونغو هما مدينة «نيانجو» و«كاسونجو»[2] وأصبحتا مركزاً للإشعاع الحضارى والدعوة إلى الإسلام وسط الغابات الاستوائية.

(١) كانت تعرف باسم الكونغو البلجيكى ثم الكونغو زائير: راجع الخريطة.

(٢) شهد المستكشفون الأوروبيون بتقدم هذه المدينة وعظمتها.

وصل الإسلام أيضاً إلى شمال الكونغو عن طريق آخر هو السودان؛ حيث انتشر بين شعب «الزاندى» كما جاء من «مالى» و«السنغال» فى غرب القارة على أيدى بعض المهاجرين المسلمين، وفى عام ١٨٥٠م قام «أحمد بن محمد بن جمعة المرجبى» العمانى الأصل بتأسيس نواة لمملكة إسلامية فى وسط وشرق أفريقيا من منطقة «باتلا» بين نهرى «لولايا» و«لوماص» وكان لهذه المملكة دور بارز فى نشر الإسلام فى هذه المنطقة وظلت مزدهرة حتى فاجأها الاستعمار الأوروبى.



جاء الاستعمار البلجيكى إلى المنطقة، وأسقط المستعمرون البلجيك هذه المملكة الإسلامية عام ١٩٠٣م، وعمدوا منذ البداية إلى تشويه تاريخ المسلمين فى البلاد، واتهموهم وحدهم بتجارة الرقيق.

نشطت البعثات التنصيرية فى ظل الاستعمار البلجيكى وأرسل الملك ليوبولد الثانى بعثات تنصيرية بلجيكية وفى أعقابهم أرسل البروتستانت الإنجليز والأمريكان بعوثاً مماثلة منذ عام ١٨١٥م واستعانوا بالخدمة الطبية وإنشاء المستشفيات والعيادات، ومراكز المعونات التى عملت جميعها على تنمية العلاقات بين المنصرين والسكان.. وعمدت الكنائس إلى الإشراف على التعليم، وأنشأ المنصرون ما يقرب من عشرين ألف مدرسة تنصيرية فى المرحلة الابتدائية وحدها، وعلى مستوى التعليم العالى أشرف المنصرون عليه تماماً، وقد بلغ عدد البعثات التنصيرية نحو ١٥ ألف بعثة من مختلف الجنسيات الأوروبية والأمريكية، وقد ترك التعليم التنصيرى أثراً سيئاً فى الميدان الاجتماعي، فقد قطع صلة الناس بماضيهم، وحارب التقاليد الاجتماعية الراسخة؛ فاضطربت حياة الأسر وتعقدت مشاكلها الاجتماعية، كما وجد فى البلاد نشاط يهودى تجارى واسع النطاق، يعمل بكل الوسائل على السيطرة على موارد البلاد ونهب ثرواتها بشكل منظم، ويثيرون الفتن والقلاقل والحروب الأهلية لحرمان السكان من استغلال ثروات بلادهم.

عانى المسلمون فى هذه البلاد من الاستعمار البلجيكي والاستغلال اليهودى، حيث استبعد المسلمون وهمشوا سياسياً واجتماعياً، وعمد المستعمرون إلى الاستيلاء على كثير من أراضى المسلمين، وحرمانهم من مصادر عيشهم وتجارتهم، كما عانوا من النشاط التنصيرى الواسع المدى.

لم يستسلم المسلمون تماماً، بل قاوموا الاستعمار وقاموا بعدة ثورات فى محاولات مستمرة لتحسين أوضاعهم وظلوا يحافظون على ثقافتهم الإسلامية، صامدين أمام عمليات التنصير والتهميش والإبعاد، وينتشر الإسلام فى العصر الحاضر بالتدريج، وتتزايد ثقة المسلمين بأنفسهم، ويقومون ببناء المساجد فى كل المدن[٣].

أبرز مناطق المسلمين فى الوقت الراهن هى كاسونجو، وكيسنجانى ومعظم الحوض الأوسط من نهر الكونغو، كما يوجد لهم قطاع ممتد على نهر «لولابا» وفى مدينة كينشاسا العاصمة، وفى مناطق التعدين المتعددة.

وقد نالت الكونغو استقلالها عام ١٩٦٠م ضمن مجموعة كبيرة من الدول الأفريقية، وعقد المسلمون مؤتمراً كبيراً فى عام ١٩٦٤ فى مدينة «كاسونجو» كان الهدف الأساسى منه توحيد جهود المسلمين ومقاومة التهميش والإبعاد المتعمد.

يحاول المسلمون من خلال المنظمات الإسلامية، وعلى رأسها المؤتمر الإسلامى الزائيرى، والجمعية الخيرية الإسلامية يحاولون نشر المدارس الإسلامية الابتدائية فى مناطق المسلمين، وفى كينشاسا، وقد اعترفت الدولة رسمياً بالدين الإسلامى كأحد المصادر الرئيسية فى حياة الناس.

ومن الملاحظ أن أعداد المهتدين إلى الإسلام فى العصر الحاضر تتزايد بشكل ملحوظ، ومن المناطق الجديدة التى ينتشر فيها الإسلام منطقة «هيما» و«باركا» و«شابواندا» و«كيليمبى» و«كيفو».

هذا ويعمل زعماء القبائل المسلمة حالياً ـ بكل إخلاص ـ لخدمة المسلمين وقضايا السلام والتنمية فى البلاد، وعلى رأس هؤلاء «تداباغو مالالا» زعيم قبيلة «أفوليرو بابايو» الذى أعلن إسلامه مؤخراً، و«رجب رويعة» زعيم قبيلة «بنى مولونجى» الذى اعتنق الإسلام بدوره مؤخراً أيضاً، وبمجرد اعتناقه للإسلام عمل على إنهاء الحروب القبلية، وساهم بشكل مباشر فى نشر الإسلام وإطفاء نار الحروب بين القبائل ومما قاله: «إن ما توصلنا إليه بعد تعرفنا على الإسلام وتجربتنا الروحية فى رحابه، قد دعتنا إلى إرساء السلام الذى لن يكون ممكناً إلا إذا اعتقد الناس فى إله واحد» وأشار الزعيم «رجب رويعة» إلى أن عدداً من القبائل الكونغولية التى تعرف زعماؤها وأبناؤها على الإسلام، يحاولون الآن البدء فى نوع من التصالح والسلام؛ لأن الإسلام يجمع بينهم، وهم يتجاورون جغرافياً، ويجتمعون على لغة ونسب وتاريخ مشترك.

(٣) من أقدم المساجد الحديثة وأجملها مسجد «كاندتو» فى مدينة بوكافو فى حى كازالى الذى توطنه أغلبية من المسلمين.

وممن لهم دور رائد فى نشر الإسلام والمحبة والوئام بين مختلف القبائل الشيخ «عبدالله مقالا» مفتى مسلمى الكونغو ورئيس الجمعية الإسلامية الكونغولية «الكيميكو» وأيضاً «محمد خميس» رئيس جمعية الساعين من أجل السلام، إلى جانب أمين الزعيم «الملك» عثمان كاروتا وخالد كابيلا أمين رئيس جمعية الساعين من أجل السلام.. يرى هؤلاء أن الإسلام دين أفريقى غير دخيل لم يفرض على الشعب وإنما حمله أهل البلاد أنفسهم تجارا ومعلمين، فهو لم يكن غريباً أن يلقى قبولا من الناس، أشعرهم بالعزة والكرامة وقوى فيهم النزعة إلى الحرية والوحدة والعدالة، ولم يقض على نظمهم المحلية، وإنما أكسبها بالتدريج شكلا يتلاءم مع تقاليد الإسلام وشريعته السمحة البسيطة الملائمة لكل العصور والبيئات، فهو لا يعرف حواجز الطبقات أو الجنس أو اللون، والأمثلة الواقعية على ذلك كثيرة ومتعددة فى جميع جوانب الحياة الاجتماعية.

يشير هؤلاء إلى أن المشكلة الكبرى التى يواجهها المسلم الكونغولى هى أنه لا يعرف اللغة العربية، كما أن فرص تعلمها تبدو غير متاحة، كما أشاروا إلى أن المسلمين لا يتمتعون بحقوق سياسية متساوية مع المسيحيين، إذ لا يوجد وزراء ولا رجال دولة مسلمون، وعلى المستوى الاجتماعى تسربت بعض المؤثرات الغربية إلى أوساط المسلمين من خلال التعليم المدنى الذى يشرف عليه المنصرون، وكذلك من خلال بعض القوانين والعادات المنقولة.

هذا وقد عقد مؤخراً «المؤتمر العام السابع للدعوة الإسلامية» ودعا إلى ضرورة بناء العديد من المساجد والمدارس والمراكز الصحية لخدمة المسلمين ورعايتهم وتثقيفهم بالثقافة الإسلامية، ويعمل زعماء المسلمين الآن وبحماس شديد على نصرة الإسلام وإعلاء كلمة التوحيد، وهناك ترحيب بالغ ببرامج التثقيف والتوعية الإسلامية فى البلاد، ورغبة صادقة لدى عدد من المسئولين فى الحكومة الحالية للمشاركة فى هذه البرامج.. وتقوم جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بتسيير العديد من القوافل الطبية وقوافل المعونات إلى مختلف الجهات، ويرحب بها المسئولون والمواطنون، ويؤكد الشيخ «عبدالله مقالا» على أهمية العمل الدعوى والإنسانى فى المرحلة الحالية، وأهمية تدعيم المؤسسات الإسلامية وعلى رأسها المساجد والمدارس الإسلامية الكونغولية.

ويرى زعماء المسلمين ضرورة تعليم اللغة العربية فى البلاد وإنشاء جامعة تقوم بالملاءمة بين الشريعة والفكر والتجديد والدفاع عن الإسلام فى وجه التأثيرات الأوروبية والهجمات التنصيرية، وذلك بدراسة الأفكار الغربية والرد عليها وإحداث ثورة معرفية فى البلاد.

لقد بدأ المسلمون فى الكونغو فى السنوات الأخيرة يخرجون من عزلتهم ويقبلون على التعليم ويهتمون بالثقافة الإسلامية.

والمطلوب من أغنياء المسلمين الآن فى كل الدول العربية والإسلامية التوجه إلى الكونغو وإخراجها من عزلتها ودعم المسلمين فيها وفتح المدارس الإسلامية لأبنائها وإرسال المبعوثين من أبناء الكونغو إلى البلاد العربية لتلقى التعليم المناسب فى الجامعات العربية والإسلامية والمطلوب أيضاً تزويد الكونغوليين بالمدرسين والكتب والمراجع العربية الإسلامية.

وبالله التوفيق

فريضة الصيام ورحمة الله فى التشريع

للأستاذ الدكتور/ وصفى عاشور أبو زيد

من المعلوم شرعا وعقلا أن الله لا يفرض شيئا إلا وفيه مصالح العباد، ولا يحرم آخر إلا وفيه مفاسد، علمها من علمها وجهلها من جهلها، فكما لا تخلو أفعال الله تعالى من حكمة فيما خلق، فكذلك لا تخلو أحكامه من حكمة فيما شرع، فهو حكيم فى أمره، حكيم فى نهيه، لا يخلق شيئا باطلا، ولا يشرع شيئا عبثا.

ومن رحمة الله بنا - نحن المسلمين - أن شرع لنا الصيام، وهو من الشعائر الكبرى وأحد الأركان التى بنى عليها الإسلام، كما فى حديث ابن عمر: "بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان"[1].

رحمة فى الأمر والتكليف

ولما كان الله - تعالى - عليما بمن خلق، وخبيرا بطبيعة بنى آدم فى الجدل والتمرد لم يشرع الصيام مرة واحدة، إنما جعل ذلك على مراحل، وليست هذه طريقة الله فى الصيام فقط إنما هى طريقته فى كل أمر وفى كل نهى.

ففى تحريم الخمر نعلم المراحل التى مرت بها حتى كان آخرها:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾

(المائدة: ٩٠-٩١)

(١) متفق عليه من رواية ابن عمر، كما فى خلاصة البدر المنير لابن حجر: ١/ ٢٦٧ بتحقيق السيد عبد الله اليمانى. طبع المدينة المنورة ١٣٨٤هـ.

والصيام مر بمراحل ثلاث حتى انتهى إلى ما عليه المسلمون اليوم، كما قال ابن القيم: "وكان للصوم رتب ثلاث، إحداها: إيجابه بوصف التخيير، والثانية: تحتمه، لكن كان الصائم إذا نام قبل أن يطعم حرم عليه الطعام والشراب إلى الليلة القابلة، فنسخ ذلك بالرتبة الثالثة: وهي التي استقر عليها الشرع إلى يوم القيامة"[2].

فكان في البداية على وجه التخيير بينه وبين أن يطعم عن كل يوم مسكينا:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ (البقرة: ١٨٤)

ومعنى الإطاقة التحمل بشدة، ثم نقل من ذلك التخيير إلى تحتم الصوم:

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾

وجعل الإطعام للشيخ الكبير والمرأة إذا لم يطيقا الصيام فإنهما يفطران ويطعمان عن كل يوم مسكينا، ورخص للمريض والمسافر أن يفطرا ويقضيا، وللحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما كذلك، فإن خافتا على ولديهما زادتا مع القضاء إطعام مسكين لكل يوم، فإن فطرهما لم يكن خوف مرض، وإنما كان مع الصحة فجبر بإطعام المسكين كفطر الصحيح في أول الإسلام[3].

وكان الصائم إذا نام قبل أن يطعم حرم عليه الطعام والشراب إلى الليلة القابلة فنسخ ذلك بالرتبة الثالثة وهي التي استقر عليها الشرع إلى يوم القيامة كما قال ابن القيم.

ولم يكتف الشارع الحكيم سبحانه بأن مرحل الصيام على هذه المراحل الثلاث، إنما أحاط هذه المراحل وأحاط الفريضة كلها بتحبيبات وترغيبات ومحفزات حتى تتقبلها النفس البشرية بقبول حسن، وتقوم بها بحب واحتساب.

فمن التحبيبات التي اكتنفت المراحل

في المرحلة الأولى: كان الصيام على التخيير كما قلنا، لكن الله تعالى رفع راية الخيرية في أدائه، وحبب فعل الخير والزيادة فيه فقال:

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٨٤)

وفي هذا ما يؤهل النفس لاستقبال المرحلة الثانية: وهي التي تحتم فيها الصيام:

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾

مع بقاء الرخص قائمة لأصحاب الأعذار، ثم أتبع المرحلة الثالثة: التي استقرت عليها الفريضة بتوبته علينا وعفوه عنا:

﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٧)

(٢) زاد المعاد: ٢/٣٠ بتحقيق آل الأرناؤوط مؤسسة الرسالة بيروت ط الرابعة عشرة ١٤٠٧هـ، وراجع تفسير ابن كثير: ١/٢١٥ دار الفكر بيروت ١٤٠١هـ.

(٣) راجع زاد المعاد: ٢/٣٠-٣١.

ومن التحبيبات التي اكتنفت الأمر أثناء الحديث نداء الله الأول "يا أيها الذين آمنوا" وهو نداء حبيب إلى المؤمنين، مذكر لهم بحقيقتهم التي ينبغي أن يقوموا بمقتضاها، يقول ابن القيم: "وافتتح الآية بالنداء باسم الإيمان المشعر بأن المطلوب منهم من موجبات الاسم الذي نودوا به وخوطبوا به، كما يقال: يا من أنعم الله عليه وأغناه من فضله أحسن كما أحسن الله إليك، ويا أيها العالم علم الناس ما ينفعهم، ويا أيها الحاكم احكم بالحق، ونظائره.... ففي هذا إشارة إلى أنكم إن كنتم مؤمنين فالإيمان يقتضي منكم كذا وكذا، فإنه من موجبات الإيمان وتمامه"[4].

● ووضح الله تعالى أن هذه الفريضة لستم أنتم أيها المؤمنون أول من فرضت عليه، إنما فرضت على الذين من قبلكم "كما كتب على الذين من قبلكم"، وهذا فيه من التخفيف عليهم ما لا يخفى.

● ويقرر الحديث القرآني الغاية التي يتمنى كل مسلم أن يصل إليها: "لعلكم تتقون"، يقول صاحب الظلال: "والمخاطبون بهذا القرآن يعلمون مقام التقوى عند الله ووزنها في ميزانه، فهي غاية تتطلع إليها أرواحهم، وهذا الصوم أداة من أدواتها، وطريق موصل إليها، ومن ثم يرفعها السياق أمام عيونهم هدفا وضيئا يتجهون إليه عن طريق الصيام"[5].

› ثم ذكر الله تعالى أن هذه الفريضة ليست طول العمر إنما هي شهر واحد، وآثر القرآن ألا يصرح بكلمة "شهر" إنما قال "أياما معدودات" مهونا على النفس مبشرا لها.

› وترغيب آخر أن هذه الأيام المعدودات نزل فيها القرآن الكريم الذي يعتبر كتاب الأمة الخالد، والذي أحياها بعد موات، وبدلها من بعد الخوف أمنا، ومكن لها في الأرض، وأخرجها الله به من الظلمات إلى النور، فبدونه ليس لها قيمة في الأرض، ولا ذكر في السماء، وهذا يقتضي أن نشكر الله على هذه النعمة بأن نمتثل أمر الله ونصوم هذا الشهر الذي نزل فيه القرآن.

› ثم ذكر الله تعالى رحمته بالناس وإرادته الكلية في كل أمر وفي كل نهي:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وكل من تدبر الشرائع لا سيما شريعة محمد - صلى الله عليه وسلم - وجد هذا فيها أظهر من الشمس؛ ولهذا قال في آية الصيام:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة ١٨٥)

وقال في آية الطهارة:

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ (المائدة: ٦)

(٤) زاد المهاجر: ٣٩ مكتبة المدني مكة، بتحقيق محمد جميل غازي، بدون تاريخ.

(٥) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب: ١/١٦٨ دار الشروق ط السابعة عشرة ١٤١٠هـ.

وقال:

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾

(سورة الحج: ٧٨)

وفى الصحيحين عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: "إنما بُعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين" وهو سبحانه يسقط الواجبات إذا خشى المريض زيادة فى المرض أو تأخر البرء فيسقط القيام فى الصلاة والصيام فى شهره والطهارة بالماء كذلك، بل المسافر مع تمكنه من الصيام أسقطه عنه فى شهره، وقال:

﴿ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾

(سورة البقرة ١٨٥)

والشريعة طافحة بهذا وأمثاله [٦].

ولا شك أن الصوم بهذه الصورة نعمة تستحق التكبير والشكر ولذلك ختم الآية بقوله:

﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(البقرة: ١٨٥)

● بين الله تعالى فى هذا السياق شيئاً محبباً إلى النفس المؤمنة مرغوباً فيه، وهو القرب من الله واستجابته للدعاء:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾

(البقرة: ١٨٦)

وفى هذه اللحظات التى تشف فيها النفس وتتفجر فيها مكامن الحب لله والقرب منه بأمرها بالاستجابة إليه فى وقت مناسب ليكون فى ذلك رشدها وصلاحها فى الدارين:

﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾

(البقرة: ١٨٦)

"إنها آية عجيبة، آية تسكب فى قلب المؤمن النداوة الحلوة، والود المؤنس، والرضى المطمئن، والثقة واليقين، ويعيش المؤمن منها فى جناب رضىً، وقُربى ندية، وملاذ أمين وقرار مكين" [٧].

ويقف الإنسان مشدوهاً أمام هذا التشريع الفريد، وهذا اللطف الإلهى الدقيق الذى يتخلل مكنونات النفس وهواجسها الخفية، وذلك فى فريضة الصيام بل وكل الشرائع الإسلامية، يقول الأستاذ سيد قطب: "وهكذا تبدو منة الله فى هذا التكليف الذى يبدو شاقاً على الأبدان والنفوس، وتتجلى الغاية التربوية منه، والإعداد من ورائه للدور العظيم الذى أخرجت هذه الأمة لتؤديه، أداء تحرسه التقوى ورقابة الله وحساسية الضمير" [٨].

ومع تجزؤ الصيام فى تشريعه ومرحلته كما رأينا وتحميله بمجموعة من المرغبات والمحفزات، راعى الله قبل ذلك الوقت الذى فرضت فيه هذه الفريضة، فقد تم فرضها فى السنة الثانية من الهجرة، ويبين ابن القيم سر ذلك فيقول: "ولما كان فطم النفوس عن مألوفاتها وشهواتها من أشق الأمور وأصعبها تأخر فرضه إلى وسط الإسلام بعد الهجرة لما توطنت النفوس على التوحيد والصلاة، وألفت أوامر القرآن فنقلت إليه بالتدريج، وكان فرضه فى السنة الثانية من الهجرة، فتوفى رسول الله وقد صام تسع رمضانات [٩].

فهو سبحانه يراعى الوقت الذى تفرض فيه الفريضة، ويمرحلها عند فرضها، ويحفها بكثير من المحفزات والثواب المضاعف.

الحكمة فى التشديد ثم التيسير والعكس

وقد يبدأ الله فى مراحل فريضة معينة بالصعب ثم يثنى بالسهل أو يحدث العكس، وفى كلٍ حكمة.

وللإمام ابن القيم هنا كلمات نيرة ذكرها فى بدائعه، فقال: "تأمل الحكمة فى التشديد فى أول التكليف ثم التيسير فى آخره بعد توطين النفس على العزم والامتثال فيحصل للعبد الأمران: الأجر على عزمه، وتوطين نفسه على الامتثال والتيسير والسهولة بما خفف الله عنه".

ثم ذكر أمثلة لذلك مثل: فريضة الصلاة، أمر الله تعالى رسوله بخمسين صلاة ليلة الإسراء ثم خففها وتصدق بجعلها خمساً، ومن ذلك أنه حرم عليهم فى الصيام إذا نام أحدهم أن يأكل بعد ذلك أو يجامع ثم خفف عنهم، ومن ذلك أنه أوجب عليهم تقديم الصدقة بين يدى مناجاة رسوله فلما وطنوا له أنفسهم على ذلك خففه عنهم بإباحة ذلك إلى الفجر... إلخ.

ثم يقول رحمه الله: "وهذا كما قد يقع فى الابتلاء بالأوامر فقد يقع فى الابتلاء بالقضاء والقدر يشدد على العبد أولا ثم يخفف عنه، وحكمه تسهيل الثانى بالأول تلقى الثانى بالرضى وشهود المنة والرحمة .... ويقع فى الأمر والقضاء والقدر أيضا ضد هذا فينقل عباده بالتدريج من اليسير إلى ما هو أشد منه .... وهذا كتدريجهم فى الشرائع شيئا بعد شيء دون أن يؤمروا بها كلها وهلة واحدة، وكذلك المحرمات ..... وحكمة هذا التدريج التربية على قبول الأحكام والإذعان لها والانقياد لها شيئاً فشيئاً" [١٠].

رحمة فى البدن

هذا فيما يتصل برحمة الله فى الفرض ورحمته فى أمره عباده بالصيام، وكما ذكرنا فى البداية أن كل أمر وكل نهى فيه مصالح العباد فى الدنيا والآخرة، وهو ما تشهده فى هذه الفريضة العظيمة؛ ولهذا شرعها الله لعباده "والمقصود أن مصالح الصوم لما كانت

(٦) درء التعارض: ٨/ ٤٧٤-٤٧٥ تحقيق محمد رشاد سالم-دار الكنوز الأدبية. الرياض. ١٣٩١هـ وراجع مجموع الفتاوى: ٨/ ٤٣٨

(٧) فى ظلال القرآن: ١/ ١٧٢

(٨) فى ظلال القرآن: ١/ ١٧٣

(٩) زاد المعاد: ٢/ ٣

(١٠) بدائع الفوائد: ٣/ ١/ ٢٠١-٢٠٢ مكتبة نزار مصطفى الباز. مكة المكرمة. ط أولى ١٤١٦هـ

مشهودة بالعقول السليمة والفطر المستقيمة شرعه الله لعباده رحمة بهم وإحسانا إليهم وحمية لهم وجنة»[١١]

ولا تقتصر رحمة الله في أمره ونهيه فقط، إنما تتعدى إلى رحمته لعباده بهذه الفريضة، واحتوائها على فوائد بدنية وفوائد روحية.

فأما الفوائد البدنية: فقد ذكرها ابن القيم في الطب النبوى، فقال: "منافعه - يعني الصيام - تفوت الإحصاء، وله تأثير عجيب في حفظ الصحة وإذابة الفضلات وحبس النفس عن تناول مؤذياتها ولا سيما إذا كان باعتدال وقصد في أفضل أوقاته شرعًا، وحاجة البدن إليه طبعًا، ثم إن فيه من إراحة القوى والأعضاء ما يحفظ عليها قواها، وفيه خاصية تقتضي إيثاره وهي تفريحه للقلب عاجلا وآجلا، وهو أنفع شيء لأصحاب الأمزجة الباردة والرطبة، وله تأثير عظيم في حفظ صحتهم، وهو يدخل في الأدوية الروحانية والطبيعية، وإذا راعى الصائم فيه ما ينبغي مراعاته طبعًا وشرعًا عظم انتفاع قلبه وبدنه به، وحبس عنه المواد الغريبة الفاسدة التي هو مستعد لها وأزال المواد الرديئة الحاصلة بحسب كماله ونقصانه.... فأحد مقصودى الصيام: الجنة والوقاية وهي حمية عظيمة النفع، والمقصود الآخر: اجتماع القلب والهم على الله تعالى، وتوفير قوى النفس على محابه وطاعته[١٢]

وقال في الزاد: (وللصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة والقوى الباطنة، وحميتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التي إذا استولت عليها أفسدتها، واستفراغ المواد الرديئة المانعة لها من صحتها، فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها، ويعيد إليها ما استلبته منها أيدى الشهوات، فهو من أكبر العون على التقوى كما قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(البقرة: ١٨٣))[١٣]

وفوائد الصيام للبدن اتفق عليها العقلاء والأطباء والعلماء قديمًا وحديثًا، وهو مشاهد في الواقع، ومحسوس بالتجربة.

رحمة في القلب والروح

ومن ناحية الفوائد القلبية والروحية والنفسية فلا تقع تحت حصر، وحسبنا أن الإنسان يكون شبيهًا بالملائكة الذين لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون ولا يعصون الله ما أمرهم، كما يكون طليقًا من عالم الحيوان، حيث يتغلب فيه الجانب السماوى على الجانب الأرضي، وتتعالى فيه النفخة من روح الله على وطأة الحمأ المسنون.

والصيام مدرسة، يتعلم فيها المسلم قوة الإرادة وصلابة العزيمة، وطول التحمل والدربة على مقاومة وساوس النفس وإغواءات الشيطان، والتمرس على طول الوقوف بين يدى الله، فيصبح مرهف الحس قريب الدمعة، منشرح الصدر مطمئن النفس.

رحمة في الآخرة

وتتمثل رحمة الله أيضًا في تولي الله بذاته العلية مجازاة ابن آدم عليه، وفي الأجر المضاعف الذي أخفى الله مقداره وخروجه عن دائرة الحصر وبعده عن لغة الأرقام، حين روى النبي عن ربه قوله: "قال الله كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزى به"[١٤].

ومن هنا حبب الله الصيام إلى النفس «وأمرها بالصيام عن محارمه ليكون فطرها عنده يوم لقائه، وأخبرها أن معظم نهار الصيام قد ذهب، وأن عيد اللقاء قد اقترب، فلا يطول عليها الأمد باستبطائه كما قيل، فما هي إلا ساعة ثم تنقضي ويذهب هذا كله ويزول»[١٥].

وقد تعددت الأحاديث بالرحمة والمغفرة لمن صامه إيمانا واحتسابا، وأن له بابا مخصصا للصائمين يسمى باب الريان، وأنه من الأمور التي تشفع للعبد يوم القيامة، حتى هذه الرائحة التي يجدها الصائم في فيه قبل الإفطار يحبها الله تعالى: «وإن كانت تلك الرائحة كريهة للعباد، فرب مكروه عند الناس محبوب عند الله تعالى وبالعكس، فإن الناس يكرهونه لمنافرته طباعهم، والله تعالى يستطيبه ويحبه لموافقته أمره ورضاه ومحبته، فيكون عنده أطيب من ريح المسك عندنا، فإذا كان يوم القيامة ظهر هذا الطيب للعباد وصار علانية»[١٦]

وهكذا تبدو رحمة الله جلية ظاهرة أضوأ من الشمس، وأوضح من فلق الصبح، وأبين من غرة النهار في فريضة الصيام وتشريعه، وفي إرادة الله الخير للعباد في معاشهم ومعادهم، في أبدانهم وأرواحهم، في عاجلهم وآجلهم من خلال فريضة واحدة هي فريضة الصيام.

وأختم هنا بكلمة لشيخنا الجليل الدكتور يوسف القرضاوى مبينًا قيمة هذه الفريضة فيقول: "والحق أن صيام رمضان مدرسة متميزة، يفتحها الإسلام كل عام، للتربية العملية على أعظم القيم، وأرفع المعاني، فمن اغتنمها وتعرض لنفحات ربه فيها، فأحسن الصيام كما أمره الله، ثم أحسن القيام كما شرعه رسول الله، فقد نجح في الامتحان، وخرج من هذا الموسم العظيم رابح التجارة، مبارك الصفقة، وأى ربح أعظم من نوال المغفرة والعتق من النار؟"[١٧] ا.هـ.

---

(١١) زاد المعاد: ٣/ ٣٠.

(١٢) الطب النبوى ٢٨٨-٢٨٩، تحقيق عبد الغني عبد الخالق، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.

(١٣) زاد المعاد: ٢/ ٢٩-٣٠.

(١٤) أخرجاه في الصحيحين عن أبي هريرة: البخاري: ٢/ ٦٧٣، رقم: ١٨٠٤ باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم، ومسلم: ٢/ ٨٠٧، رقم: ١٨٠٥ باب هل يقول إني صائم إذا شتم.

(١٥) روضة المحبين: ص٩، دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٢هـ.

(١٦) الوابل الصيب لابن القيم: ص٤٨ تحقيق محمد عبد الرحمن عوض، دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٥هـ.

(١٧) فقه الصيام: ص ١٤، طبع دار الصحوة ودار الوفاء بالقاهرة، ط. ثانية ١٤١٢هـ.

تأملات فى شهر رمضان



للشيخ/ فوزى الزفزاف

عضو مجمع البحوث الإسلامية



أهلّ على المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها شهر رمضان المبارك، واستقبله المسلمون بالبشر والترحاب، يتبادلون التهنئات، مشرقة وجوههم، باسمة ثغورهم، منشرحة صدورهم، طيبة نفوسهم. وأننا إذا تأملنا هذا الشهر الكريم، وفكرنا بعمق نعمه وخيراته، وتعمقنا فى فهم مقاصده وغاياته، واستعرضنا وقائعه وأحداثه على مر التاريخ، وطبقنا توجيهاته وإرشاداته.. خرج المسلمون فى نهايته بررة أتقياء، ينصرهم الله بقوته، ويعزّهم بعزته.

لقد خلق الله الكون بمن فيه وما فيه وفق علمه وحكمته وهو العليم الحكيم، وشاءت إرادته أن يصطفى بعضا من خلقه فى الأشخاص وفى الأمكنة وفى الأزمنة تحقيقا لقوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾

(القصص: ٦٨)

فالبشر من عهد آدم لا يحصيهم العد، خلقهم الله جميعا، ولكنه اختار واصطفى منهم لقيادة الخلق من شاء، ويختار ويصطفى منهم إلى يوم القيامة من يشاء من العلماء والمصلحين والقادة وأولى الأمر.. اختار واصطفى منهم الأنبياء والمرسلين:

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾

(الأنعام: ١٢٤)

والأمكنة منذ خلق الله الأرض، وجعلها للناس مستقرا ومقاما، اختار الله واصطفى وميّز بعضها عن بعض، منها مهابط للوحى، ومنها مثابة التقديس والعبادة، اختارها واصطفاها على سائر الأماكن، وجعل أفئدة من الناس تهوى إليها:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾

(آل عمران: ٩٦، ٩٧)

والأزمنة منذ خلق الله الليل والنهار تتابع أياما إثر أيام، وشهورا إثر شهور، وأعواما إثر أعوام، وكلها متشابهة متناسقة، تطلع شمسها وتغيب، ويظهر قمرها ويختفى، ويتجلى نهارها، ويعيش ليلها.. ولكن الله اختار واصطفى منها مواسم لرحمته، وأياما وليالى لنعمه وأفضاله:

﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾

(القدر: ٣)

على هذه السنّة اختار الله شهر رمضان، واصطفاه على سائر الأزمان، وميزّه وكرمه على بقية الشهور.

>> إن مظاهر تكريم الله ـ تعالى ـ لشهر رمضان كثيرة جدا، فهو الشهر الوحيد الذى صرح باسمه فى القرآن الكريم، وهو الشهر الوحيد الذى أفاض الله فيه فى ذكر أكثر نعمه على عباده، وهى كتابه الذى أخرج الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم، هذا الكتاب الذى فك الله به عن العقل الإنسانى أغلال التقليد والجمود، ودفع به إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض، وحرضه على اقتحام الحجب، واكتناه الأسرار كى ينتفع الناس بما سخره الله لهم فى هذه الحياة، ويشعروا بسلطان العزة الفكرية التى كرّم الله بها الإنسان:

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

(الذاريات: ٢٠ ـ ٢١)

إن صوم رمضان عبادة تلتقى فى هدفها مع أهداف القرآن الكريم فى تربية العقول والأرواح وتنظيم الحياة.

ويرى كثير من الناس أن الصوم هو: الإمساك عن الطعام والشراب والشهوات فى فترة زمنية محددة من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، ويظنون أنهم إذا فعلوا ذلك فقد أدوا به الواجب، وخرجوا به من العهدة!! مع أن الصيام مع مظهره المادى الذى يبدو فى هذا الإمساك، هو عبادة روحية لها آثارها المعنوية.. فيضم إلى هذا الإمساك صوم الجوارح: صوم اليد والرجل واللسان والأذن والعين عن ارتكاب الآثام وتناول المحرمات، وفى ذلك يقول الرسول ﷺ: «الصوم جنة فإذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شتمه فليقل: إنى صائم»[1] وقد صامت امرأتان على عهد رسول الله ﷺ فأجهدهما الجوع والعطش من آخر النهار، حتى كادتا أن تهلكا، فبعثتا إلى رسول الله ﷺ تستأذنانه فى الإفطار، فأرسل إليهما قدحا وقال ﷺ قل لهما: قيئا فيه ما أكلتما، فقاءت إحداهما نصفه دما ولحما عبيطا، وقاءت الأخرى مثل ذلك حتى ملأتاه، فعجب الناس من ذلك، فقال ﷺ: هاتان صامتا عما أحل الله لهما، وأفطرتا على ما حرم الله تعالى عليهما، قعدت إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تغتابان الناس، فهذا ما أكلتاه من لحومهم!!

ويضم إلى ذلك أيضا صوم القلوب، وتطهيرها عن كل مالا يناسب الإيمان، ولا يلائم الإخلاص، مثل التفكير فى الخطايا وتدبير الفتن والتوجه إلى غير الله بالقصد والرجاء، والحسد والحقد وترك المعروف والسكوت عن المنكر، والتهاون فى رد المظالم إلخ، وقد روى جابر عن أنس ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «خمس يفطرن الصائم: الكذب والغيبة والنميمة واليمين الكاذبة والنظر بشهوة»[2] وصح عنه ﷺ أنه قال: «كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش».[3] ولهذه الآثار العظيمة المترتبة على أداء الصوم بمظهره المادى والروحى والمعنوى، الذى يربى النفوس، ويقوى القلوب، ويقرب العبد من الإله الخالق الصمد، نسبه ـ جل شأنه ـ من بين سائر العبادات إلى نفسه «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به»، ويفخر بعبده الذى يقوم بعبادة الصوم على وجهها الصحيح إيمانا واحتسابا فيقول: «يذر طعامه وشرابه وشهوته من أجلى».[4] فجدير بالمسلمين أن يستقبلوا رمضان بالبشر والذهاب، وأن تتفتح له قلوبهم، وتصغى إليه أفئدتهم، وأن يفقهوا إيحاءاته، وأن يعملوا بمقتضى عبادته المادية والروحية والمعنوية، عسى أن يستقيم لهم الحال، وأن تتوحد كلمتهم مثلما تتوحد فيه مظاهرهم فى بدء وقت الصيام، وفى بدء وقت الإفطار، وأن يستردوا عزتهم المفقودة وكرامتهم المسلوبة.

1- مسند أحمد.

2- تخريج أحاديث الإحياء العراقى.

3- تخريج أحاديث الإحياء العراقى.

4- سنن ابن ماجة.

﴿ فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهي:

من صام رمضان ولا يصلي!!

● ما الحكم فيمن صام رمضان ولكنه لا يصلي؟ هل ذلك يُفسد صيامه ولا ينال عليه أجراً؟

●● الجواب: لا يجوز لمسلم ترك الصلاة، وقد اشتد وعيد الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم لمن تركها وفرط في شأنها، حتى قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر» أخرجه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه، وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم، ومعنى «فقد كفر» في هذا الحديث الشريف وغيره من الأحاديث التي في معناه: أي أتى فعلاً كبيراً وشابه الكفار في عدم صلاتهم. فإن الكبائر من شُعَب الكُفر كما أن الطاعات من شُعَب الإيمان، لا أنه قد خرج بذلك عن ملة الإسلام - عياذاً بالله تعالى - فإن تارك الصلاة لا يكفر حتى يجحدها ويكذّب بها، ولكنه مع ذلك مرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب.

والمسلم مأمور بأداء كل عبادة شرعها الله تعالى من الصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها مما افترض الله عليه إن كان من أهل وجوبه، وعليه أن يلتزم بها جميعاً كما قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾

(البقرة: ٢٠٨)

وجاء في تفسيرها: أي التزموا بكل شرائع الإسلام وعباداته، ولا يجوز له أن يتخير بينها ويؤدي بعضاً ويترك بعضاً فيقع بذلك في قوله تعالى:

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾

(البقرة: ٨٥)

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور

علـــي جمعـــة

مفتي جمهورية مصر العربية

وكل عبادة من هذه العبادات المفروضة لها أركانها وشروطها الخاصة بها، ولا تعلُّق لهذه الأركان والشروط بأداء العبادات الأخرى، فإن أدَّاها المسلم على الوجه الصحيح مع تركه لغيرها من العبادات فقد أجزأه ذلك وبرئت ذمته من جهتها، ولكنه يأثم لتركه أداء العبادات الأخرى، فمن صام وهو لا يصلي فصومه صحيح غير فاسد، لأنه لا يُشترط لصحة الصوم إقامة الصلاة، ولكنه آثم شرعاً من جهة تركه للصلاة ومرتكب بذلك لكبيرة من كبائر الذنوب، ويجب عليه أن يبادر بالتوبة إلى الله تعالى.

أما مسألة الأجر فموكولة إلى الله تعالى، غير أن الصائم المصلي أرجى ثواباً وأجراً وقبولاً ممن لا يصلي.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

الصائم يفطر في الجو عندما تغيب الشمس

● جئنا من مصر على الطائرة المصرية إلى كندا، وأفتى لنا أحد العلماء بالصوم مع أن الطائرة سوف تحلق لمدة إحدى عشرة ساعة تقريباً، وركبنا من الساعة الواحدة ظهراً، وأفطرنا على توقيت مصر، ولكن المشكلة أننا أفطرنا والشمس مازالت ساطعة ولم تغرب إلا في آخر الرحلة، أي بعد إحدى عشرة ساعة، وقد وعدت أحد أفراد طاقم الطائرة أن أرد عليه من خلال فتواكم، فما رأيكم؟

●● الجواب: الصائم يفطر في الجو عندما تغيب الشمس عنده وفي النقطة التي هو فيها، ولا يفطر بتوقيت بلده أو البلد التي يمر عليها، بل عند غروب الشمس بكامل قرصها في عينه هو. فإذا شق عليه ذلك فليفطر، للمشقة الزائدة المركبة في السفر، وليس لانتهاء اليوم. فلو أفطر حينئذ فإنه يكون عليه أن يقضي يوماً مكان ما أفطر، وما يقوله قادة الطائرات من الإفطار على ميقات البلد الأصلي أو البلد الحالي دون مراعاة غياب الشمس أمامهم غير صحيح شرعاً.

وهناك حالة تغيب فيها الشمس ثم تخرج مرة أخرى من جهة المغرب لسرعة الطائرة، وهنا يُفطر الصائم ولا يلتفت لردها وعودتها.

والله سبحانه وتعالى أعلم

الأيام البيض

● ما أصل تسمية الأيام البيض بهذا الاسم؟ وهل منها الستة أيام من شوال كما يُشاع بين الناس؟

●● الجواب: الأيام البيض هي أيام الليالي التي يكتمل فيها جرم القمر ويكون بدراً، وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من وسط كل شهر عربي، سُمّيت بذلك لأن القمر يكون فيها في كامل استدارته وبياضه، فالبياض هنا وصف للياليها لا لأيامها، وإنما وُصفت الأيام بذلك مجازاً، وقد جاء تحديدها بذلك في الأحاديث النبوية الشريفة، منها: حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «صيام ثلاثة أيام من كل شهر صيام الدهر، وأيام البيض صبيحة ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة» رواه النسائي وإسناده صحيح كما قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري».

أما الأيام الستة من شهر شوال فهي تلك الأيام من شوال التي يُندب صيامها بعد شهر رمضان ويوم الفطر، لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من صام رمضان ثم أتبعه ستا من شوال كان كصيام الدهر» رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، لكن هذه الأيام لا تُعرف بالأيام البيض في الاصطلاح الفقهي ولا الشرعي، إلا أن هذا الإطلاق الشائع بين الناس له وجه صحيح من اللغة، فإن الغُرّة في الأصل: بياض في جبهة الفرس، فيجوز تسمية البياض غُرّة والغرة بياضا على جهة المجاز بعلاقة الحالّية والمحلية، وقد سمّى النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأيام البيض بالغُرّ فقال: «إن كنت صائما فصم الغر» أي البيض، رواه الإمام أحمد والنسائي وصححه ابن حبان، وسميت ليالي أول الشهر غُرراً لمعنى الأوليّة فيها، وقيل: لأولية بياض هلالها، كما أن الغرة هي البياض في أول الفرس، ولعل في تسميتها بالبيض إشارة إلى استحباب صومها في غُرَر شهر شوال بعد يوم الفطر مباشرة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

حكم الخطأ في الظن

● ما حكم الخطأ في ظن طلوع الفجر وغروب الشمس في الصيام؟

●● الجواب: من أكل بعد الفجر ظاناً عدم طلوعه أو أكل قبل غروب الشمس ظاناً غروبها ثم تبيّن له خطؤه فعليه القضاء كما هو مذهب جمهور الفقهاء، لأنه لا عبرة بالظن البيّن خطؤه.

وقد روى الإمام البيهقي في السنن الكبرى عن شُعَيب بن عمرو بن سليم الأنصاري قال: أفطرنا مع صهيب الخير أنا وأبي في شهر رمضان في يوم غيم وطَش، فبينا نحن نتعشى إذ طلعت الشمس، فقال صهيب: «طعمة الله، أتموا صيامكم إلى الليل واقضوا يوما مكانه».

والله سبحانه وتعالى أعلم

تقبيل الزوجة في رمضان

● ما حكم تقبيل الزوجة في الصيام؟

●● الجواب: تقبيل الزوجة بقصد اللذة مكروهٌ للصائم عند جمهور الفقهاء، لما قد يجر إليه من فساد الصوم، وتكون القبلة حراما إن غلب على ظنه أنه يُنزل بها، ولا يُكره التقبيل إن كان بغير قصد اللذة كقصد الرحمة أو الوداع إلا إن كان الصائم لا يملك نفسه، فإن ملك نفسه فلا حرج عليه، لحديث السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقبّل وهو صائم، ويباشر وهو صائم، ولكنه كان أملككم لإربه» متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن المباشرة للصائم، فرخص له، وأتاه آخر فسأله، فنهاه. فإذا الذي رخص له شيخ والذي نهاه شاب. رواه أبو داود.

والله سبحانه وتعالى أعلم

العقاقير لمنع الدورة!!

● هل يجوز للمرأة تناول العقاقير لمنع نزول الدورة الشهرية ليتسنّى لها الصيام في رمضان؟

●● الجواب: من الأحكام الثابتة في الشرع أن المسلمة يجب عليها الفطر في رمضان إذا جاءتها الدورة الشهرية، إذ الفطر هو الذي يناسبها في حالات الإعياء والاضطرابات الجسدية التي تصاحب الحيض، فلذلك أوجب الشرع عليها الإفطار، وهذا تخفيف من الله تعالى ورحمة منه سبحانه، وما يفعله كثير من النساء من أكل شيء قليل جداً أو شرب بعض السوائل ثم الإمساك بقية اليوم هو أمر مخالف لحكمة الشرع الشريف في التخفيف عليها والحفاظ على صحتها الجسدية والنفسية، والمطلوب منها أن تُفطر بشكل طبيعي في فترة حيضها ولا حرج ولا لوم عليها، لأنها ستقضي هذه الأيام، حسبما جاء في حديث السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «كان يصيبنا ذلك مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة» متفق عليه.

أما استعمال العقاقير والحبوب التي تؤخر الحيض إلى ما بعد رمضان والتي تتيح للنساء إتمام الشهر كله بغير انقطاع فلا مانع منه شرعا، ويصح منها الصوم، ويجوز لها اللجوء إلى هذه الوسيلة بشرط أن يقرر الأطباء أن استعمال هذه الحبوب لا يترتب عليه ما يضر بصحة المرأة عاجلاً أو آجلاً، فإن ترتب على استعمالها ضرر فهي حرام شرعا، لأن من المقرر شرعا أنه لا ضرر ولا ضرار، وحفظ الصحة مقصد ضروري من مقاصد الشريعة الإسلامية، ومع أن استخدام هذه الوسيلة جائز شرعا إلا أن وقوف المرأة المسلمة مع مراد الله تعالى وخضوعها لما قدّره الله عليها من الحيض ووجوب الإفطار أثناءه أثوب لها وأعظم أجرا.

والله سبحانه وتعالى أعلم

طرائف.. ومواقف



لفضيلة الشيخ/ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

حقـا

يا أيها الأمي قد علمتنا
وهديت فينا أنفسا وعقولا
شاء الإله لنا النجاة فخصنا
بك هاديا ومعلما ورسولا

«علية الجعار»

مباراة.. وصفية.. صوفية

دخل أربعة من الصالحين على أبي يزيد البسطامي، فقدم لهم قدحًا من عسل عليه شعرة.

فقال الأول: العقل أصفى من القدح، والعلم أحلى من العسل، والصدق أدق من الشعرة.

وقال الثاني: الجنة أصفى من القدح، ونعيمها أحلى من العسل، والصراط أدق من الشعرة.

وقال الثالث: قلب المؤمن أصفى من القدح، وكلام الله أحلى من العسل، والحق أدق من الشعرة.

وقال الرابع: الإسلام أصفى من القدح، وحلو الطاعة أحلى من العسل، والورع أدق من الشعرة.

وقال أبو يزيد البسطامي: المعرفة أصفى من القدح، ومحبة الله - تعالى - أحلى من العسل، وخوفه أدق من الشعرة.

سعة الصدر

هجا أبو عاصم محمد بن حمزة الأسلمي المدني الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو من هو علمًا وعملاً وشرفًا، فقال فيه:

له حق وليس عليه حق
ومهما قال فالحسن الجميل
وقد كان الرسول يرى حقوقًا
عليه لغيره وهو الرسول

فاتفق أن تولى الحسن المدينة، فأتاه أبو عاصم الأسلمي المذكور، متنكرًا في زي الأعراب، وأنشده قوله فيه:

ستأتي مدحتي الحسن بن زيد
وتشهد لي بصفين القبور
قبور لم تزل مذ غاب عنها
أبو حسن تعاديها الدهور
هما أبواك من وضعا فضعه
وأنت برفع من رفعا جدير

فقال له الحسن: من أنت؟ فأجابه: أنا الأسلمي.

فقال له الحسن: إذن حياك الله، وبسط له رداء، وأجلسه عليه، وأمر له بعشرة آلاف درهم، ولم يلمه بكلمة عما قال فيه.

أعرابي

ضل أعرابي الطريق، فمات جزعًا، وأيقن بالهلاك فلما طلع القمر اهتدى ووجد الطريق فرفع إليه رأسه ليشكره.

وقال له: والله ما أدري، ما أقول لك، ولا ما أقول فيك.

أقول: رفعك الله فالله قد رفعك.

أم أقول: نورك الله فالله قد نورك.

أم أقول: حسنك الله فالله قد حسنك

ولكن ما بقي إلا الدعاء أن ينسئ في أجلك، وأن يجعلني من السوء فداك.

لو كان لي دعوة مستجابة

قال العالم الزاهد الفضيل بن عياض، وكان في عهد بني أمية:

لو كان لي دعوة مستجابة، لم أجعلها إلا للإمام، لأن الله - تعالى - إذا أصلح الإمام أمن البلاد والعباد.

أتدري من أنا؟

خرج الحجاج مرة، فلقي أعرابيًا فقال له: كيف سيرة الحجاج فيكم؟ فشتمه أقبح شتم، فقال: أتدري من أنا؟ قال: ومن عسيت أن تكون؟ قال: أنا الحجاج، قال الأعرابي: أو تدري من أنا؟ قال: ومن أنت؟ قال: أنا مولى بني عامر أجن في الشهر مرتين هذه إحداهما، فضحك الحجاج وتركه.

حقيقة الكرم

قال حاتم الطائي:

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله
ويخصب عندي والمحل جديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى
ولكنما وجه الكريم خصيب

أحسن الله عزاءكم

دخلت عجوز على قوم تعزيهم في ميت لهم فرأت في الدار عليلاً، فرجعت وقالت: أنا والله يشق علي المشي، وأحسن الله عزاءكم في هذا العليل أيضا.

دعاء

اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى كلها ما علمت منها وما لم أعلم، وما أنت به أعلم أن ترفع الظلم عن المظلومين، وأن تخفف عن الفقراء والبائسين، والسائلين والمحرومين، فأنت الظاهر فوق عبادك، وأنت الفعال لما تريد وأنت المبدئ وأنت المعين.

قراءة إيمانية فى كتاب الكون والحياة



للأستاذ الدكتور/ أحمد فؤاد باشا
www.afbasha.com

تنوع السلالات البشرية

قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

(سورة الحجرات: ١٣)

تقرر هذه الآية القرآنية الكريمة أن التنوع فى السلالات البشرية من ذرية آدم عليه السلام دليل واضح من دلائل القدرة الإلهية، أوجده الله سبحانه وتعالى ليسير التعارف بين الناس. أما عامل التفضيل عند الله سبحانه فلا يكون إلا بالتقوى، فقد خلق الناس متساوين من أصل واحد هو آدم وحواء، وصيرهم بالتكاثر جموعاً وقبائل متعددة ليتم التعارف والتعاون بينهم، وإن أرفعهم منزلة عند الله فى الدنيا والآخرة أتقاهم له، إن الله محيط علمه بكل شئ، خبير لا تخفى عليه دقائق كل شأن.

ويؤكد القرآن الكريم فى مواضع أخرى هذه الحقيقة الهامة الماثلة أمام العيان ليل نهار، آية ناطقة بوحدانية الله وقدرته وجلاله، من ذلك قوله سبحانه

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

(سورة النساء: ١)

وقد جاء فى تفسير هذه الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى أوجد الناس من نفس واحدة، وأنشأ من هذه النفس زوجها، ومنها نشر فى كل الوجود رجالاً كثيراً ونساء، فالكل ينتهون إلى تلك النفس الواحدة، فاتقوا الله أيها الناس، اتقوا الله الذى تستعينون به فى كل ما تحتاجون، ويسأل باسمه بعضكم بعضا فيما تتبادلون من أمور، واتقوا الأرحام فلا تقطعوها، قريبها وبعيدها، إن الله دائم الرقابة على أنفسكم، لا تخفى عليه خافية من أموركم، ومجازيكم عليها.

وقد استحدث علم يبحث فى أصل الجنس البشرى وتطوره وأعراقه وعاداته وتقاليده ومعتقداته، يعرف بعلم الإنسان، أو الأنثروبولوجيا Anthropology، وقد استغلت بعض مباحث هذا العلم استغلالاً خاطئا فى العصر الحديث للتمييز بين الأجناس وتبرير هيمنة جنس معين والزعم بأحقيته فى الريادة والسيادة على حساب الجنسيات الأخرى.

وبعيداً عن هذه النزعات التعصبية والعرقية- وهى ليست من العلم فى شئ- يرى أهل الاختصاص أن تقسيم (تصنيف) السلالات البشرية المختلفة كان يعتمد قديماً على المظاهر الخارجية لهيئة أجزاء الجسم ولون الجلد وشكل الشعر، لكن التصنيف الحديث يعتمد على تردد الجينات (المورثات) Genes، وهى الوحدات الوراثية المسئولة عن الصفات الوراثية وانتقالها عبر الأنسال.

ويتخذ العلماء من العامل الجغرافى أساساً للتمييز بين السلالات المختلفة فى أشكالها الرئيسية المعروفة وهى: القوقازى والمغولى والاسترالى والزنجى "النجرو" والكابويد. وإن كان هذا لا يمنع من وجود سلالات محلية حسب تربية مجموعة من الناس، مثل تلك السلالات الموجودة فى وسط وجنوب أفريقيا. كذلك يمكن للعوامل الطبيعية أن تكون سبباً فى تحديد سلالة مجموعة من الناس تعيش فى منطقة جغرافية محددة، ويجمع بينها صفات مشتركة، مثل سكان شمال منطقة الصحارى (الصحراء الكبرى) فى أفريقيا، الذين يكونون جنساً مشابها لشعوب الشرق الأوسط وأوروبا فى حوض البحر الأبيض المتوسط.

وليس مهماً فى سلالة ما عدد أفرادها، فسلالة "البوشمان" - على سبيل المثال- شعباً من القناصة الرحل يعيشون فى جنوب أفريقيا، يبلغ عددهم حوالى (٢٥٠٠٠) خمسة وعشرين ألفا فقط، بينما زنوج أمريكا يزيد عددهم على عشرين مليوناً.

وقد لوحظ أن الامتزاج أو العزلة بين السلالات من العوامل التى تؤثر تأثيراً كبيراً على البناء الجسمى للإنسان، فمن الواضح أن الشعوب التى تعيش منعزلة عن بعضها تتغير ببطء شديد فى شكلها الجسمى، أما الجماعات التى تتصل مع شعوب كثيرة متباينة جسمانيا فيمكن أن يطرأ عليها تغيرات فى البناء الجسمى خلال فترة قصيرة نسبياً.

وهناك اعتقاد بأن تغير لون الجلد تبعاً للسلالة يعنى وجود علاقة بين لون الجلد وشدة الأشعة البنفسجية فى منطقة وجود السلالة، لكن هذه العلاقة غير ظاهرة حاليا بسبب الهجرة المتبادلة بين الشعوب والأجيال منذ آلاف السنين.

ومع هذا يكون اللون داكناً فى السودان واستراليا، مثلا، حيث تكون أشعة الشمس فى أشد حالاتها. ويعزى تغير لون الجلد من الناحية العلمية إلى تغير صبغة الجلد الموجودة فى بشرته والمعروفة باسم "الميلانين". كذلك

يختلف شكل الشعر حسب السلالات الجغرافية المختلفة، ولكنه غير مرتبط وراثيا بلون الجلد، كما أنه لا يتغير في تركيبه البيولوجي تبعاً للسلالة، فالشعر في الجنس المغولي مثلا يكون مستقيما مستدير المقطع، بينما في الجنس القوقازي يكون مموجا في أغلب الأحيان، وفي الزنجي "النجرو" يكون ملفوفاً وبيضاوي المقطع.

وهكذا نجد أن معجزات الخلق الإلهي في تنوع السلالات البشرية من الآيات البينات التي تذكر الإنسان بدلائل القدرة الإلهية القائمة بيننا، والواضحة تحت أبصارنا في كل حين. ويجمع بين هذا التنوع وحدة الأعضاء والتركيبات التي تؤدي وظيفة حيوية واحدة في جسم الإنسان أيا كان نوع جنسه. فجسم الإنسان يتركب من وحدات أساسية دقيقة للغاية يطلق على كل منها اسم "الخلية". والواقع أن خلايا الجسم ليست كلها على نمط واحد من حيث الشكل أو الحجم أو الوظيفة، كما أنها تتنوع بشكل يثير الدهشة والإعجاب.

وهذه الخلايا التي يتركب منها جسم الإنسان تعيش في تنظيمات متجانسة تسمى "النسيج" .Tissue والأنسجة بدورها تندرج في تنظيمات أكبر تسمى "الأعضاء" .Organs وتندمج الأعضاء والتركيبات في تنظيم أكبر يسمى "الجهاز" .System والأجهزة الموجودة في الإنسان - بصرف النظر عن جنسه - هي: الجهاز الجلدي، والجهاز الهضمي، والجهاز التنفسي، والجهاز الدوري، والجهاز العصبي، والجهاز الحسي، والجهاز الهيكلي، والجهاز العضلي، وجهاز الإفراز الداخلي المكون من الغدد الصماء.

ومن مجموعة هذه الأجهزة يتركب جسم الإنسان بسلالاته المختلفة... فتبارك الله الذي أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين. وصدق الله العظيم حيث يقول:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾

(سورة الروم: ٢٢)

تنوع عالم النبات

تتجلى قدرة الخالق سبحانه وتعالى فيما أودعه في النباتات من تحورات تتلاءم مع مختلف الظروف البيئية، فهناك النباتات المائية التي تعيش في المستنقعات والبحيرات العذبة، وفي الترع والمصارف، وعلى جوانب الأنهار بطيئة التيار، وفوق الأراضي المشبعة بالماء، وهي تختلف في تركيبها الداخلي وأشكالها الخارجية عن النباتات الأخرى، حيث إنها تستجيب لوفرة الماء، وتتحور سوقها وأوراقها مع نقص ملحوظ في مجموعها الجذري، وزيادة كبيرة في أجهزة التهوية لشدة افتقار الماء إلى الأكسجين اللازم للتنفس.

وهناك النباتات الصحراوية التي تتميز بوجودها في جفاف من التربة والجو، وأكثر أعضاء هذا النوع من النباتات تحوراً واستجابة لمقاومة الجفاف والرياح وارتفاع الحرارة هي الأوراق التي تحد من بخر الماء، وتختفي من شدة أشعة الشمس، وكثيرا ما تختزل الأوراق لتحل محلها السيقان من الناحية الوظيفية (الفسيولوجية)، بل إن هذه السيقان قد

تتعملق وتتشحم لاختزان الماء على نحو ما نجد في نبات التين الشوكي. وقد زود الله سبحانه وتعالى هذه النباتات بتحورات خاصة لتقيها من الضرر، فمنها ما يكون مغطى بالأشواك، ومنها ما يكون مغطى بأوبار صلبة، أو تتطاير منه زيوت طيارة، أو غير ذلك.

وهناك، من ناحية ثالثة، النباتات التي تشغل موقعاً بيئياً وسطاً بين النباتات المائية والنباتات الصحراوية، وتشمل هذه المجموعة غالبية نباتات الحاصلات، مثل الفول والبرسيم والقطن والقمح والذرة والشعير. وهناك أيضا النباتات الملحية التي تعيش في الأراضي الغنية بالأملاح، وتتميز بشدة ارتفاع تركيز محلولها الجذري. وهناك النباتات المتسلقة ضعيفة الساق، ومن حكمة الخالق جل وعلا أن أوجد لها من الدعائم ما يساعدها على الالتفاف حول ما تتسلق عليه.

وهناك نباتات الليل الطويل، وهي التي تزهر سريعاً، أو تزهر فقط عندما تكون فترة الإضاءة أقل من حد معين من الساعات لليوم الواحد. كذلك هناك نباتات النهار الطويل التي تزهر فقط، أو تزهر أسرع، عندما تتعرض للإضاءة فترة أطول من حد معين من الساعات في اليوم الواحد. ويقول علماء النبات إن فترة الإظلام أهم من فترة الإضاءة في إبداء عملية الإزهار، وإن الضوء له تأثير فعال في زيادة عدد الأزهار. وكما أن هناك تفاعلات تتم في الضوء، مثل عملية البناء الضوئي، فإن هناك تفاعلات لا تتم إلا في الظلام. والإزهار في النبات، وما يتبعه من إثمار، متوقف على الإضاءة التي يتعرض لها النبات، من حيث مدتها وقوتها وشدتها، ليكون مادة تسمى "هرمون الأزهار". فسبحان الذي جعل من تنوع النباتات دليلاً على ألوهيته ووحدانيته، فهو

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾

(سورة طه: ٥٣)

قال تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

(سورة الأنعام: ٩٩)

وتنبه هذه الآية الكريمة إلى صور التنوع المختلفة في عالم النبات الذي يزخر بما لا يحصى من الآيات الناطقة بعظمة الخالق وجلاله. ذلك أن النباتات جميعها تتغذى وتنمو في وجود مصادر واحدة تقريباً من الماء والضوء والحرارة والكربون والأكسجين والهيدروجين والنتروجين والفوسفور والكبريت والبوتاسيوم والكالسيوم والمغنسيوم والحديد.. ومع أن الغذاء بهذه المواد والعناصر واحد، إلا أن الأرض ينبت فيها آلاف الأنواع من النبات والثمار متعددة الأشكال والألوان والروائح والطعوم.

ومن عجائب التنوع فى عالم النبات نذكر على سبيل المثال ذلك النوع الذى يسميه العلماء "النباتات آكلة اللحوم" وهى نباتات تنمو فى أرض قليلة المواد العضوية، وتستوفى احتياجاتها من هذه المواد عن طريق آليات خاصة تعمل لاصطياد ما يقع على أوراقها من حيوانات صغيرة وحشرات، فتطويها بداخلها، ثم تصب عليها من الإنزيمات ما تعمل على تحليل أجسادها وتحرير ما بداخلها من مواد عضوية يمكن استغلالها، ثم تلفظ هذه المصايد النباتية إلى الخارج بعد ذلك ما تبقى منها. ويحصى العلماء حوالى خمسمائة نوع من هذه النباتات المفترسة فى مختلف أنحاء العالم. وأكثر ما يثير العجب من هذه الأنواع تلك النباتات التى تعمل كمصايد للإنسان بسبب غزارة نموها إلى الحد الذى يجعلها تخفى على الإنسان مدى تفكك التربة التى تتوسدها وتكسوها، فتبدو هذه التربة وكأنها بساط أخضر ممهد يغرى بالسير عليه، بينما هى فى حقيقة الأمر مقبرة تغوص فيها الأجساد.

ومن أمثلة هذا النوع نبات "ابن سينا" الذى يعيش فى بعض جزر البحر الأحمر بالمياه المصرية.

ويستدل العلماء من سلوك هذه النباتات الآكلة للحوم على احتمال وجود جهاز عصبى موضعى بها يستشعر الحافز لوجود الحشرات أو الحيوانات الدقيقة، ويحرك بعض أعضاء النباتات لاصطيادها واستخلاص ما تحتويه من مغذيات.

ويكون النبات فى هذه الحالة أشبه بإنسان مقيد إلى الأرض لا يستطيع الحراك، ولكن لديه القدرة على تحريك أحد أعضائه للحصول على ما يبتغيه من أشياء قريبة المنال. ولما كان من المعروف أن تحريك الإنسان لأحد أعضائه يعنى الاستجابة الحسية للجهاز العصبى الذى يستشعر الأهداف والحوافز، ويستجيب لها بالحركة الانعكاسية، فإنه من المحتمل أن يكون هناك جهاز عصبى موضعى فى النباتات آكلة اللحوم للقيام بمثل هذه الحركات الانعكاسية. من صاحب هذا الخلق المعجز؟

﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾

(سورة طه: ٥٠)

والحياة فى عالم النبات تبدأ كجنين صغير تحتضنه البذرة أو الحبة، وتختزن له من الغذاء ما يكفيه أثناء الإنبات والنمو، وتبقى الأجنة فى بادئ الأمر ساكنة هادئة حتى تضمها الأرض وتتهيأ لها الظروف المناسبة من حرارة وماء وجاذبية وغيرها، فينطلق الحب والنوى ويأخذ الجنين طريقه إلى النمو والكبر.

وإذا اكتمل نمو النبات ووصل به السن إلى "البلوغ" تفتحت أزهاره وأينعت ثماره، ويصنف العلم الحديث أزهار النباتات على اختلاف أنواعها إلى ثلاثة أقسام هى "الأزهار المذكرة، والأزهار المؤنثة، والأزهار الخنثى التى تجمع بين عضو التذكير وعضو التأنيث. ومن الأمثلة الموضحة لهذه الأقسام نبات النخيل، فمنه نوع مذكر وآخر مؤنث، أما نبات الذرة فيحمل أزهاراً مذكرة وأخرى مؤنثة فى آن معاً.

إنها بعض الأمثلة التى كشف العلم عنها فى حياة النبات، ليشهد إحكامها بجلال الله، ويدل على بديع صنعه.

قراءة فى كتاب



٢

للأستاذ/ عادل خفاجة

تحدث المؤلف فى الفصل السادس عن رسائل محمد ﷺ ونصوص معاهداته، فأوضح أن الدقة والإيجاز أهم سماتها وكذلك مراعاة مقتضى الحال فى التزام الواقع والبعد عن المجاز ما أمكن، حتى لا يقع الاختلاف أو اللبس عند التفسير والتأويل أو الترجمة، وضرب فضيلته العديد من الأمثلة ليبدد شبهة من ظنّ أن بها بعض الجفاف، لأن هذه المعاهدات والرسائل فى احترازها اللبق قد صادفت مقتضى الحال ولو مالت إلى الرونق البلاغى لفتحت باب اللجاج عند تطبيق النص الملزم، وهذا ما تحاشاه أبلغ الفصحاء ﷺ.

وجاء الفصل السابع ليتحدث عن «الأقصوصة فى أدب الرسول» فاختار منها بعض ما روته كتب السنة المطهرة، موضحاً خصائصه الأدبية من الاعتماد على الوحدة الفنية وانتقاء اللفظ الموحى مع الاستثارة الآخذة والتشويق الجاذب، مبينا كيف اعتمد الرسول على المناجاة فى بعض أقاصيصه وعلى الحوار فى بعضها الآخر، ومصوراً قدرته على رسم الحادثة، وتلوين الشخصية فى إطارها الخاص لتبلغ مبلغاً من السامعين.

أما الفصل الثامن فيتحدث فيه المؤلف عن «صور القيامة فى أدب محمد ـ ﷺ»، فأوضح كيف كان القرآن أول كتاب فى العربية رسم هذه المشاهد فى قوة تأثير، وكيف صدر عن محمد ﷺ فيما تحدث به من مشاهد الآخرة، فلوّن مواقف الصراط والميزان والحساب والجنة والنار تلويناً أخاذاً ترسّمه المبدعون من بعده شرقاً وغرباً.. وأفاض فى ذكر الأمثلة الدالة والشواهد الشارحة.

وخصص المؤلف الفصل التاسع للحديث عن «تأثير المعراج في الأدب العالمي شرقية وغربية»، امتدادا للحديث السابق من بعض وجوهه، لأن بعض مشاهد المعراج تشبه بعض مشاهد القيامة، وتقترب منها اقترابا قويا، ولكن الفصل التاسع قد اختصه المؤلف «بقضية التأثير النبوي في بعض الآثار الأوروبية والفارسية» فضلا عن الأدب العربي.

وما من شك أن هذه الفصول جميعاً مليئة بكل ما هو مهم ومفيد، غير أننا نتوقف بالقارئ عند هذا الادعاء بجفاف نصوص الرسائل النبوية لنخص هذا الفصل بالقراءة، فنقول: إن المؤلف قد استهل هذا الفصل بما يفيد أن بكتب السيرة والحديث والتاريخ أكثر من أربعين وثيقة نبوية ما بين رسالة إلى ملك أو أمير أو قائد وما بين معاهدة صلح أو أمان أو اتفاق على مسائل ينحسم بها النزاع.. وأن مواقف حياته ﷺ وظروف دعوته تؤيد هذه الرسائل، ويشير المؤلف إلى أن بعض النفوس التي تمكنت منها آفة الشك ارتابت في بعض هذه النصوص.. ويؤكد على احترامه لمبدأ الشك إذا جاء في إطار البحث العلمي، لكن تعمد الشك لوجه الشك دون مبرر قوي يحدث بلبلة خطيرة تكاد تعصف ببعض حقائق التاريخ.

وقد مهد المؤلف لدفاعه بحديث عن القبائل العربية وأماكن انتشارها وأن هذه الأماكن كانت معلومة ومحددة.. كما تحدث عن طرق التجارة وعن نشأة الكتابة قبل الإسلام، لأنها من ألزم الأمور للتجارة، ثم تكلم عن المعاهدات والمحالفات قبل الإسلام، ليخلص من ذلك إلى أن الكتابة كانت من الأشياء الشائعة في الحجاز ومكة كما استشهد على ذلك بأن أسرى بدر قد فدوا أنفسهم بأن يعلم كل أسير عشرة من أبناء الأنصار كيف يكتبون، واستشهد أيضا بقول الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾

(البقرة: ٢٨٢)

وإنما أمر بذلك لأن الكتابة من الذيوع واليسر بحيث تكون مجالاً ميسراً للتعاقد، فدعا إليها الإسلام.

وأن مؤرخي السيرة النبوية قد أحصوا كتاب الرسول فبلغوا بهم خمسة وأربعين كاتبا.

ويعقد المؤلف مقارنة بين ما أوردته نصوص مؤرخي السيرة وما شاءت الأقدار أن يسلم على مدى العصور، فيقول:

«لقد شاءت الأقدار أن يسلم على مدى العصور ثلاثة أصول خطية مما أرسله محمد ﷺ منها كتابه إلى «المقوقس» وقد وجده المستشرق الفرنسي «بارتلمي» في كنيسة قرب أخميم، وكتابه إلى «المنذر بن ساوى» وقد نشره المستشرق «بلا شير» وكتابه إلى «النجاشي» وقد نشره المستشرق «دنلوب».. وبمقارنة الأصول على ما روته كتب السيرة والحديث لم تر فارقاً جللاً يلتفت إليه، فنصوص الوثائق النبوية إذاً جهيرة ذائعة تعصف بما يخفت حولها من الشكوك، ولنا أن نتعرض إلى الحديث عن طابعها الأدبي مطمئنين».

وهكذا بعد أن اطمأن وجدان المؤلف إلى عدم وجود اختلاف بين النصوص التي أوردها المؤرخون والأصول، يقول: إذا نظرنا لما بقي بين أيدينا من رسائله ﷺ ومعاهداته، نجد أنه يتفق كل الاتفاق مع ما شاع من تعريف البلاغة بأنها: مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، فجل هذه النصوص بمثابة مواد قانونية أرسلت للفصل في أمر يجب الاتفاق عليه، فليس مجالها مجال أدب ترفده العاطفة ويوشيه الخيال، ولكنها شروط محددة تلتزم الدقة البالغة في التعبير ولا تسمح للفظ أن يتجاوز موضعه الحقيقي إلى صورة خيالية تكون فيما بعد مثاراً للخلاف، والذين يوازنون بين خطب الرسول وأحاديثه، وبين رسائله فيرون الثانية من حيث البهاء الجمالي في موضع أقل من سابقتيها فيأخذون ذلك عليها، يخطئون تقدير الأمر ومقتضيات الأحوال، لأن محمداً في خطبه أو أحاديثه يعمد إلى الإقناع بالفكرة الصائبة، والصورة الأدبية المطبوعة، فالمجال مجال أدب يرضي الوجدان والعقل معاً، ومن هنا ظهرت بدائع البيان الفني في الخطب والأحاديث، أما الرسائل والمعاهدات فجلها شروط سياسية رسمية تلتزم نصوصها، وتكون حجة لدى النزاع، فكل توشية خيالية فيها تنافي التحديد الواجب، وتحيد عن مقتضى الحال إلى غير مقتضى الحال، وبهذا الوضع الدقيق المجرد تقوم برسالتها المنشودة على نحو لا يقوم به سواها في شيء..

وليزيد المؤلف الصورة وضوحاً لقرائه يقدم هذا المثال، فيقول: «فنحن نرى الآن أساطين البلغاء من رجال القانون أو السياسة يجتمعون اليوم الطويل حول دائرة مستديرة، ليكتبوا نصا واحدا في معاهدة أو مادة في قانون، وهم فيما يكتبون حينئذ يحترزون عن كل لفظ يشم منه غير المقصود، ويتوهمون كل دلالة قريبة أو بعيدة لا يقصدونها، ويمكن أن تستنبط من بعض الألفاظ فيسارعون إلى استبدال غيرها بها، ليأتي الكلام دقيقاً لا تساهل معه، صريحاً لا شيء وراءه، فإذا كتبوا المادة القانونية أو النص السياسي في معاهدة، فلن يقال عنه إنه حقائق مجردة لا تترقرق في أعطافها صور البيان».

ويقدم المؤلف نص الرسائل الثلاثة ويشير إلى أنها كانت أنموذجاً للكتابة الديوانية وتتجلى فيها الدقة وإصابة الهدف مع الإيجاز والوضوح.. ويقوم بالرد على من يرى أنها كانت من الإيجاز بحيث لا تشرح قواعد الإسلام لقوم يجهلونه، حيث أوضح المؤلف أن النبي ﷺ كان يختار حامل الرسالة من صفوة أصحابه ليستطيع أن يفصح عن دينه بما عرف من نبيه.. وفي قصة إسلام النجاشي ما يشير إلى نقاش طويل بين النجاشي وجعفر ابن أبي طالب.

وينهي المؤلف هذا الفصل، قائلاً: «ولست أتحرج في شيء حين أستشف من هذه الرسائل حصافة الدبلوماسية المتزنة التي تجعل لكل حرف معناه. وأعني بالدبلوماسية: السلوك السياسي الصحيح الذي يؤمن على الكلمة

السياسى الصحيح الذى يؤتمن على الكلمة ائتماناً لا يتطرق إليه التزيد، وليس ما أعنيه ما شاع عن بعض أساليب الدبلوماسية من الاحتيال والدهاء والتربص، فذلك شىء تجحده الدبلوماسية النزيهة فى لبها الصميم. ومن المعروف أن رسل محمد قد عادوا سالمين دون أن يقتل منهم أحد، وأن هرقل والنجاشى والمقوقس قد ردوا رداً جميلاً، حتى توهم بعض المؤرخين أن هرقل قد أسلم وحسن إسلامه. أما الذى شذ وتكبر فكسرى إذ كان يعانى هزيمة أليمة بعد حرب طاحنة مع هرقل رجع منها بالخذلان، فمزق الخطاب وكلف عامله على اليمن بمعاقبة محمد.

إن أكثر المستشرقين فى دهشة من جرأة نبى الإسلام على مكاتبة رؤساء العالم دون تهيب، ويعدون ذلك مجازفة خطيرة كان من الممكن أن تتمخض عن أحداث جسام.

ولو علموا أن محمداً لا ينطق عن الهوى بل يسير بوحى من السماء لعرفوا مقدار ثقته فى ربه وفى نفسه. وإذ كانت رسائل محمد قد آتت أكلها حين أحسنت الأداء عن صاحبها، فإنها بإيجازها الدقيق تعد لا محالة ذات سداد مكين».

وفى حديثه عن المعاهدات وضرورة اختيار الألفاظ شديدة الإيجاز دقيقة الدلالة بعيدة عن الصور البيانية يقدم المؤلف معاهدة صلح الحديبية كمثال لأسلوب محمد ﷺ القانونى لأنها بتواترها الذائع تمحو كل شىء يهم باعتراضها.

وكان ما أملاه النبى بعد الصراع المتأزم ينحصر فى قوله: «هذا ما صالح عليه محمد ابن عبدالله وسهيل بن عمر اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه، وأن بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا إسلال ولا أغلال، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه».

يقول المؤلف تعليقاً على ألفاظ المعاهدة:

«فهذه معاهدات ذات مواد صريحة، وذات ألفاظ محددة ملتزمة، وليس بها من الخيال التصويرى غير قوله ﷺ: «إن بيننا عيبة مكفوفة»، والعيبة فى الأصل: زنبيل من أدم يجعل فيه الثياب، ومكفوفة مشرجة مشدودة على ما فيها، والعرب تشبه الصدور التى تضم القلوب بالعياب التى تشرج على حر الثياب وفاخر المتاع، فجعل عليه الصلاة والسلام العياب المشرجة على ما فيها مثلاً للقلوب تطوى على ما تعوهد عليه، مثل بها الذمة المحفوظة التى لا تنكث، وهذا رأى فى الصورة البلاغية، وهناك رأى آخر يقول: إن المراد أن الشريكين مكفوفاً بينهم كما تكف العياب إذا أشرجت على ما فيها من المتاع، وكذلك الذحول(1) التى كانت بينهم كما تكف العياب إذا اصطلحوا على ألا ينشروها بل عليهم أن يتناسوها كأنهم جعلوها فى وعاء وأشرجوا عليها. هذه صورة بلاغية واحدة اختلف البلاغيون فى مؤداها إلى رأيين، وكلاهما صحيح فى بابه ومتفق مع الظروف والملابسات المصاحبة للمعاهدة، وقد تعمدت تفصيل ذلك ليكون شاهداً قائماً على ما قررته أن أساليب البيان مما يفترق معه الرأى إذا حشدت فى المعاهدات والوثائق وأن مجافاتها ما أمكن سبيل الاتفاق واللقاء من طريق قريب. والصورة البلاغية على لسان بليغ عظيم كمحمد، لا تؤدى إلى خلاف ما كما ترى، ولكنها على يد غيره موضع المزلة لذلك كان اجتنابها أحزم.

ويختتم المؤلف هذا الفصل بالتأكيد على أن الرسائل النبوية تم صياغتها فى أناة وروعى فيها تجويد المعنى واختيار اللفظ، وبرغم أن هذا الأسلوب لا يثير اللذة عند القارئ السطحى، فإنها بلا شك تثير اللذة عند القارئ الناضج المدرك لملابسات الوثائق والمعاهدات الذى يعلم أن الإتيان بما يناسب المقام مصدر متعة وجمال.

ولم يترك المؤلف قلمه حتى قدم للقارئ رسالة النبى ﷺ معزياً بها معاذ بن جبل فى وفاة نجله فأى تعزية! وأى تأثير! وأى لذة مقنعة راضية صابرة يجدها القارئ فى قول النبى ﷺ:

«من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل. سلام عليك، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد، فعظم الله لك الأجر، وألهمك الصبر، ورزقنا وإياك الشكر، ثم إن أنفسنا وأهلينا وموالينا من مواهب الله السنية، وعواريه المستودعة، نتمتع بها إلى أجل معدود، وتقبض لوقت معلوم، ثم افترض علينا الشكر إذا أعطى، والصبر إذا ابتلى، وكان ابنك من مواهب الله الهنية، وعواريه المستودعة متعك به فى غبطة وسرور، وقبضه منك بأجر كثير: الصلاة والرحمة والهدى إن صبرت واحتسبت، فلا تجمعن عليك يامعاذ خصلتين، أن يحبط جزعك صبرك فتندم على ما فاتك، فلو قدمت على ثواب مصيبتك قد أطعت ربك وتنجزت موعوده، وعرفت أن المصيبة قد قصرت عنه، واعلم أن الجزع لا يرد ميتاً، ولا يدفع حزناً، فأحسن الجزاء، وتنجز الموعود، وليذهب أسفك ما هو نازل بك فكأن قد».

ويعقب المؤلف على أسلوب هذه الرسالة النبوية وما حواه من إبداع يقول: لا يستطيع ناقد منصف أن يجحد مواضع الإبداع فى قوة الإقناع، وصدق العاطفة وجميل العزاء، واطراد التعبير! وكل ذلك مصدر جمال وإمتاع، ولن ينتظر من رسائل قائد أعظم كنبى الإسلام، أن يكتبها فى غير ما يمت إلى ذلك النمط العاقل البديع أفينتظر من رسول الله أن يكتب رسالة فى الهجاء كابن زيدون، أو فى التهكم كالجاحظ أو فى المدح كبديع، أو فى الغزل كابن العميد؟ ليصبح بذلك صانعاً فناناً، تحوز كتابته ثناء الناقدين! هيهات هيهات.. لقد كتب الرسول البليغ ما يعقل أن يصدر عن نفسه الذكية العاقلة، وطابق بين الحال ومقتضاه، وبين القول، وصاحبه فجاء ما كتبه آية فى بابه على غير مباهاة بالقول أو تزيد بالحديث!!

(1) الذحول: جمع ذحل وهو الثأر.

أغنية فى حب مصر



كلمات الشاعر: د/ محمد إبراهيم العشماوى
مدرس الحديث وعلومه بكلية أصول الدين بطنطا،
جامعة الأزهر الشريف

الموجُ الهادرُ فى التحريرْ ... قد شقَّ إلى المجدِ طريقَهْ
والطفلُ الحالمُ بالتغييرْ ... اليومَ يرى الحُلْمَ حقيقَهْ
لم يبقَ فى الحبسِ أسيرْ ... فطيورٌ فى الجوِّ طليقَهْ
يا مصرُ بروحي أفديكْ ... وأزيدُكِ فى العُمْرِ وأنقصْ
أتهاوَى بين أياديكْ ... والفرحةُ فى عينيَّ ترقصْ
بدماءِ بنيكِ أُرويكْ ... أحمدُ أو يوسفُ أو مُرقصْ
نتعانقُ فى حبِّكِ دومَا ... ونذوقُ الحلوةَ والمُرَّةْ
لا نخشَى عَتْبًا أو لومَا ... بل نُفْنِي لتعيشي حُرَّةْ
ودَعْنا الراحةَ والنومَا ... وأقمْنا من أجلكِ ثورهْ!
هي ثورةُ شعبٍ قد ذابا ... فى حبكِ ذوبانَ السُّكَّرْ
يهواكِ شيوخًا وشبابا ... ويُغنّي للحبِّ الأكبرْ
إن قلتَ أحبُّ الأحبابا ... فمداهم فى حبكِ أكثرْ
يا أمَّ الشرقِ وأمَّ الغرْ ... بِ وأمَّ الكُرَةِ الأرضيهْ
اليومَ أؤدّى عنكِ الفرْ ... ضَ وأُهديكِ الروحَ هديَّهْ
وأقبّلُ بين يديكِ الأرْ ... ضَ أشمُّ أريجَ الحُريَّهْ!

فهبيني أمّي معذرةً ... قد كنتُ شريدًا وطريدَا
أخذوكِ مني جوهرةً ... ولبستُ قيودًا وحديدَا
واليومَ سأحفرُ مقبرةً ... فى حبّكِ لأكونَ شهيدَا!
قولي سامحتُكَ يا ولدي ... سامحتُكَ عن ذنبِ عقوقي
سامحتُكَ يا فلذةَ كبدي ... أدّيتَ لي اليومَ حقوقي
قد كدتُ أموتُ من الكمدِ ... واليومَ أرى شمسَ شروقي!
الشعبُ هُنا فى الميدانْ ... لن يرجعَ إلا برضاكْ
متفجّرٌ فى كلِّ مكانْ ... سهرانٌ من أجلِ هواكْ
من أجلكِ حملَ الأكفانْ ... ليبيتَ بها تحتَ ثراكْ
الوحشُ الكامنُ قد هاجا ... ليكسّرَ كلَّ الأغلالْ
والغضبُ الصامتُ يتناجَى ... يتحزّبُ مثلَ الزلزالْ
أمواجٌ تدفعُ أمواجا ... لتحطِّمَ هذا التمثالْ!
لتعودي يا مصرُ إلينا ... أُمًّا للدنيا ومنارهْ
لتجودي بالخيرِ علينا ... لتزيدي حُسْنًا ونضارهْ
لنؤدّي من حقّكِ دَيْنا ... لنشيّدَ فى الأرضِ حضارهْ!
يا أصلَ العشقِ المتناهي ... والحبُّ الساكنُ فى الأعماقْ
بكِ أفخرُ دومًا وأباهي ... وأطاولُ بالعنقِ الأعناقْ
أنا مصريٌّ إي واللهِ ... من أعلى الرأسِ لأدنى الساقْ
فى أرضكِ ينداحُ النيلْ ... كيديكِ يفيضُ بلا حصرِ
لكِ طبعٌ واللهِ أصيلْ ... حتى فى الثورةِ والنصرِ!
لا شيءَ على الأرضِ جميلْ ... إلا وينادي: أنا مصري!!

بين المجلة والقارئ

إعداد وتقديم

أحمد السيد تقي الدين

تهنئة واقتراح


د. عبدالعزيز التويجرى

تلقت مجلة الأزهر من الأستاذين الفاضلين: د. عبدالعزيز بن عثمان التويجرى، المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم، والأستاذ: عبدالقادر الإدريسى خطابين تضمنا تهنئة للأستاذ الدكتور محمد عمارة بمناسبة توليه رئاسة تحرير مجلة الأزهر وتضمنا عدة مقترحات تم تنفيذ بعضها فعلا وفيما يلى نص الخطابين:

الأخ الأستاذ الدكتور محمد عمارة، رئيس تحرير مجلة (الأزهر)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد،

فيسعدنى أن أهنئكم بتعيينكم رئيساً لتحرير مجلة (الأزهر) العريقة، متمنياً لكم كامل التوفيق ومزيداً من النجاح فى مهامكم الجديدة.

إن توليكم لرئاسة تحرير مجلة (الأزهر)، سيكون دافعاً قوياً لتطوير هذا المنبر الإعلامى المتميز فى الصحافة الإسلامية، الذى اعتلاه من قبلكم، الأساتذة الكبار الرواد: محمد فريد وجدى، ومحمد الخضر حسين، وأحمد حسن الزيات، والدكتور محمد رجب البيومى، وغيرهم من أعلام الفكر والثقافة الإسلامية وأرباب القلم والبيان من مشاهير الكتاب والمفكرين.

وتفضلوا، سعادة الأخ الكريم، بقبول فائق التقدير وبالغ الاحترام، مع خالص المودة.

المدير العام

د. عبدالعزيز بن عثمان التويجرى

أما الرسالة الثانية فجاءت من الأستاذ عبدالقادر الإدريسى:

الأخ العزيز الأستاذ الدكتور محمد عمارة، رئيس تحرير مجلة (الأزهر)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد،

فقد اطلعت أمس، على العدد الجديد من مجلة (الأزهر) الذى صدر برئاستكم، فوجدته جديداً شكلاً ومضموناً. وقرأت الافتتاحية فاستفدت منها. وكنتم قد تناولتم هذا الموضوع المهمّ فى أحد مؤلفاتكم.

ولدىّ ملاحظات فنية أسجلها باختصار فيما يلى:

١ ـ الترحم على الكتاب المتوفين، لا داعى له، خصوصاً إذا كان ذلك لا يشمل الجميع (مثلاً تنشر المجلة عبارة (رحمه الله) تحت اسم الدكتور طنطاوى، ولا تنشرها تحت اسم الدكتور محمد عبدالله دراز، والدكتور محمد يوسف موسى، والشاعر أحمد شوقى... إلخ).

٢ ـ أقترح أن ينشر فى الترويسة أن المجلة صدرت سنة ١٩٣١ تحت اسم (رسالة الإسلام) فى عهد الإمام الأكبر الشيخ...... وبرئاسة تحرير فلان........

٣ ـ الهوامش فى الافتتاحية غير مطلوبة، ويمكن إدخالها فى المتن (هذا لا يقلل إطلاقاً من الأهمية البالغة لافتتاحية هذا العدد).

٤ ـ التخفيف من الألوان فى الغلاف.. ولا داعى لنشر الآية القرآنية على الغلاف.

٥ ـ أقترح نشر تعريف بالكاتب فى الهامش (مثلا: الدكتور بن سعيد العلوى، قد لا يعرفه القارىء المصرى).

٦ ـ لا تنشر إطلاقاً أى مادة باسم (أبو فلان). فليس هذا من فنون الصحافة الحديثة.

٧ ـ أقترح نشر أحد مؤلفات الدكتور أحمد الطيب فى حلقات. وبحثه الذى ألقى بالنيابة فى مؤتمر تعارف الحضارات، سننشره فى (الإسلام اليوم) بإذن من فضيلته (أرسلنا له خطابا موقعا من طرف الدكتور التويجرى).

وفقكم الله وقواكم ومتعكم بالصحة والعافية.

ومع أطيب التحيات وخالص محبتى لكم.

عبدالقادر الإدريسى

ثقافة التسامح

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الشيخ مصطفى الأزهرى - إمام وخطيب مسجد سوق الحمام - السيدة عائشة - القاهرة:

سامح الله أياماً اضطر فيها الدعاة وأرباب الفكر الإسلامى يؤكدون للناس فى رائعة النهار أن «الشمس» طالعة!

أقول هذا لما يعتصر القلب بسببه من ألم وحرقة على الإسلام الذى عاش فى دنيا الناس حتى الآن قرابة خمس عشر قرناً من الزمان بسماحته ورحابته واتساع ساحته حتى للمخالفين له، بل

وحتى مع الذين بلغ بهم التطاول أن يسبوا رب العالمين، فإذا بالقرآن العظيم يأمر المؤمنين الكرام بقول الله تعالى:

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(الأنعام: ١٠٨)

يأتي منهج التسامح واستيعاب الآخر والعرض الجميل لعقيدة التوحيد في قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

وكم كتب علماؤنا ودعاة الإسلام يفندون بالأدلة العلمية القاطعة أكذوبة انتشار دعوة الإسلام بالسيف ليقولوا للعالم إن الإسلام دين عنف وإرهاب وإراقة الدماء.

أما عن سماحة النبي الكريم ﷺ وحبه للناس والخلائق أجمعين فاسأل «جبل أحد» الذي قال عنه رسول السماحة والسلام «أحد جبل يحبنا ونحبه»، واسألوا ـ كذلك ـ الحجر الذي كان بمكة والذي كان يسلم على الحبيب المصطفى ﷺ، كلما مر عليه ثم إن منطق الرسالة العالمية الخاتمة «رسالة الإسلام» ينفي أي زعم بأن هذه الدعوة دعوة عنف أو إكراه أو نفي للآخر!

فالله جل علاه قال لنبيه:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

(الأنبياء: ١٠٧)

وإذا كانت هنالك بعض التصرفات الغوغائية تصدر ممن ينتسبون لدعوة الإسلام السمحة باسم الإسلام والغيرة عليه، فإنه سيبوء بوزر من «صدهم عن السبيل» و«بغض إليهم دعوة الحق» ثم أي عنف وأية غلظة ومن أين أتت؟ ومن الذي جعل بين العنف والشدة والكراهية وبين الدين نسباً أليس كتاب الله تعالى هو الذي قال لرسول الله ﷺ:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾

(آل عمران: ١٥٩)

ما أحوجنا ـ نحن المسلمين ـ وأخص الدعاة والخطباء أن يجددوا ـ وبهدوء ـ الحديث عن سماحة الإسلام ورحابة صدر الشريعة في استيعاب حتى المخالفين لها، لأننا في أيام يكثر فيها الحديث عن الإسلام ودعوته بانفعال زائد وربما يتم التعامل معه بمنطق «الدبة التي قتلت صاحبها».. فاللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون

أستاذية الإسلام في تشريع الصيام.. إلى أين؟

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ/ عبدالواحد عبدالعزيز عبدالواحد محمد - معلم أول لغة عربية - كفر الولجا ـ كفر شكر ـ قليوبية

الحمد لله الذي شرّع الصيام ليتنافس فيه البشر جميعا يفوز فيه من يفوز بالخيرات ويتطلب ذلك طهارة القلب والضمير والنفس فهل أعددنا العدة لاستقبال تلك الرحمات للفوز بها؟

ولقد شملت أستاذية الصيام جميع مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والصحية والدينية..

ففي المجال الاجتماعي يشعر المسلمون بالأخوة والتعاون والتكافل بين الأغنياء والفقراء في رمضان ولذا قال ﷺ: (من فطّر صائما كان له مثل أجره غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيء) لأن هذا يؤلّف القلوب بين المسلمين ويزيد الود والتراحم بينهم ويدعم التكافل الاجتماعي حتى لا يبيت مسلم جوعانا ولا مسكين محروما ولا يتيم لا يجد طعاما كما أن هذه دعوة من الله تعالى إلى الصيام والمسارعة إلى الخيرات.

وفي المجال السياسي نجد الجميع على اختلاف انتماءاتهم يصومون لله رب العالمين فالكل سواء لا فرق بين أحد منهم.

وفي المجال الاقتصادي فلقد كان الصيام أستاذاً حينما دعا إلى الاقتصاد والتوفير حيث قال الله تعالى:

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

(الأعراف: ٣١)

ولذا يقول سيد الخلق مُحمَّد صلوات الله وسلامه عليه: (نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع وحسب ابن آدم لقيمات يقمن بها صلبه فإن كان ولابد فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه)

وفي الصحة وجدنا أستاذية الصيام في علاج كثير من الأمراض فلقد أثبت الطب الحديث أن الصوم يريح المعدة وينظم عمل الجهاز الهضمي ويخلص الجسم من الزوائد والسموم ولا يوجد أفضل من الصيام لعلاج السمنة وذلك لو اتبعنا السنة النبوية فأفطرنا على تمرات قليلة مع قليل من الماء وأخرنا الإفطار إلى ما بعد الصلاة.. كما أن الصيام يقوي جهاز المناعة فقراءة القرآن تؤدي إلى السكينة والهدوء وإزالة التوتر وتقليل الشعور بالإرهاق كما أنها تجدد حيوية العقل وتحثه على التفكير والتمييز قال تعالى:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾

(الرعد: ٢٨)

والشيء الذي كثيراً ما تنبه عليه الإنسان ذكراً أم أنثى أن يحتسب كل أعماله بنية صادقة إلى الله ـ عز وجل ـ قال تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

(الأنعام: ١٦٢)

وأخيرا من يجرؤ على الكلام؟!

فى مثل هذه الأيام المباركة نتذكر أحداثاً هامة مر بها تاريخ أمتنا الإسلامية.

أمة لا إله إلا الله.. محمد رسول الله.

أمة قامت دعائمها على الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر.. وأول دعائم الأمر بالمعروف شيدها رسول الله صلى الله عليكم منذ ألف وأربعمائة عامة.. شيدها بعفوه الكريم!!

أتذكرون يوم أحد.. غزوة أحد.. تلك الغزوة التى شهدت استشهاد سيد شهداء أهل الجنة.. حمزة بن عبدالمطلب الملقب بـ«أسد الله».. فى هذه المعركة كمن وحشى بن حرب لحمزة بن عبدالمطلب وهو يعلم جيدا أن نجاحه فى قتل هذا البطل الصنديد يترتب عليه حصوله على حريته وانعتاقه من ربقة الرق.

أصاب وحشى هدفه واخترقت حربته جسد البطل المغوار حمزة وذهب وحشى كما طلبت منه سيدته هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان بن حرب يشق بطن حمزة بالسكين ليستخرج كبده، ويقدمه لسيدته هند بنت عتبة كدليل على نجاحه فى مهمته.. وتلقفت هند كبد حمزة لتلوكه بأسنانها ثم تمنح وحشيا حريته!!

ما أبشع وأشنع هذا المشهد.. هل يمكن لأحد أن يتصوره.. ماذا تفعل لو كنت قائداً تأتمر الجيوش بأمرك وتعلم بهذا الفعل البشع؟! ثم هل يمكنك أن تتصور أثره على النبى ﷺ.؟

تمر الأيام ويتوب وحشى بن حرب لرشده.. ويؤمن بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبياً ورسولاً.. ويذهب مهاجرا لينطق بالشهادتين بين يدى رسول الله ﷺ الذى لم ينس لوحشى ما فعل.. ترى ماذا كان رد رسول الله ﷺ ماذا تتصور أن يكون رده فى هذا الموقف؟! قبل منه رسول الله ﷺ إسلامه وعهده وهجرته فى سبيل الله، ولكن كان عقابه لوحشى أن قال له: «نح عنا وجهك لا أرينك أبدا» فكان وحشى يتحاشى أن تقع عينا رسول الله ﷺ عليه هذا شأن وحشى قاتل عم النبى. فماذا كان شأن من حرضته ولاكت كبد حمزة بأسنانها؟!

فتح الله سبحانه وتعالى مكة على المسلمين ودخلها النبى ﷺ وقبل أن يدخلها منح أهلها الأمان بقوله: «من دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق عليه داره فهو آمن!! ومن دخل بيت أبى سفيان فهو آمن!!» تأمل معى: من دخل دار أبى سفيان.. أبوسفيان هو زوج هند بنت عتبة.. إذن فهند لن ينالها سوء على بشاعة فعلها!! ثم كان العفو الأكبر بقوله ﷺ مخاطبا أهل مكة: «يا أهل مكة ماذا تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء».

عفا رسول الله ﷺ عن قوم كذبوه، ونكلوا به وبأصحابه أشنع تنكيل، واضطروه للخروج من أحب أرض الله إليه وهى مكة، ثم حاربوه، وقتلوا خيرة أصحابه.. وفى النهاية يقول لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».. ما أحوجنا إلى تعاليم نبينا الكريم نتأسى بها فى حياتنا اليومية، وفيما تمر به من أحداث جسام!!

لم ولن تمر فى حياتنا أبدا بما مر به رسول الله ﷺ وأصحابه من تكذيب وبطش وقتل وتنكيل، ومن أراد أن يدرك حجم معاناة الرسول وصحبه فليرجع إلى كتب التاريخ ليرى كم كابدوا وقاسوا وصبروا إلى أن نجحوا فى إعلاء كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله، وشادوا بها دولة لم يسمع العالم بمثلها.

ترى من يجرؤ اليوم على الكلام متأسيا برسول الله ﷺ ليقول لمن أجرموا فى حق شعب مصر: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» لنبدأ جميعا صفحة جديدة فى إطار ضوابط قوية تضمن عودة الحقوق لأصحابها وفى مقدمتها حق الحياة فى آمن واستقرار؟!

أحمد السيد تقى الدين

أنباء مجمع البحوث الإسلامية

للأستاذين / عبدالموجود أمين - يحيى سليمان

الأزهر هو المرجعية الإسلامية الأولى فى العالم الإسلامى

توصية مجلس مجمع البحوث الإسلامية بجلسته بتاريخ ٧ / ٧ / ٢٠١١م

إن المرجعية الإسلامية فى العالم الإسلامى هى الأزهر الشريف وحده، وليس من حق أى هيئة أن تقدم نفسها بديلا أو متحدثا فى شئون الأزهر الشريف، حتى ولو كانت تضم بعضا ممن ينتسبون إليه.

الدكتور/ نصر فريد واصل:
دحض وتكذيب ورفض لما نشر إعلاميا ونسب إلينا بالموافقة عليه
فى صحيفة الأهرام عدد الجمعة ٢٠١١/٧/١م والمصرى اليوم عدد الاثنين ٢٠١١/٧/٤م

أولا: ما نشر فيهما وبخاصة فى المصرى اليوم يتعارض كليا مع إيماننا الكامل وعقيدتنا الراسخة بأن الأزهر الشريف بجميع هيئاته ومؤسساته العلمية والشرعية وعلى قمتها ورأسها مشيخته وإمامها الأكبر فضيلة شيخ الأزهر باسمه وصفته هو صاحب الكلمة العليا والفصل فى القضايا الشرعية والعمل داعما على وحدة الصف والهدف والغاية المشروعة للأمة العربية والإسلامية فى إطار الأخوة الإنسانية الدينية والدنيوية والوسطية الإسلامية التى تجمع بين خيرى الدين والدنيا معا لجميع العباد والبلاد وتحقيق السلام الاجتماعى والأمن والأمان لجميع المواطنين فى كل زمان وفى كل مكان.

ثانيا: ما نشر منسوبا إلينا وإلى الهيئة الشرعية للحقوق والإصلاح فى المصرى اليوم نقلا عن الدكتور محمد يسرى أمين الهيئة يتعارض تعارضا كليا مع أهداف الهيئة التى أسست من أجلها وهى الدعوة إلى وحدة الصف والعمل الاجتماعى الخيرى تحت راية الأزهر الشريف وقياداته الشرعية والعلمية بعيدا عن العمل السياسى والحزبى.

ثالثا: جاء فى ما نشر بالمصرى اليوم نقلا عن الدكتور محمد يسرى اتهام مؤسسة الأزهر الشريف بأنها مازالت تمارس الفساد فى موالاتها للدولة وتعمل على تفرقة التيار الإسلامى وتشتيته وإيجاد عداوة بين قياداته وأنها ترفض السلفية وأهل الحديث، وهذا تزييف وتحريف على الهيئة وفى حق الأزهر الشريف ورسالته العلمية والشرعية التى تقوم على الوسطية الإسلامية وتجمع ولا تفرق كما يعد جريمة كبرى ترتكب فى حقه بهذا المقال توجب المساءلة الشرعية والقانونية ونحن ننكرها ونديتها لإننى أحد أفراد هذه المؤسسة العلمية الرفيعة التى أتشرف بالانتساب إليها والانتماء فى كل مراحل حياتى العلمية والعملية تحت قياداتها العلمية والإدارية الحكيمة وعلى رأسها الآن العالم الجليل فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر الشريف الذى فى عهد إمامته للأزهر وقيادته الحكيمة تم بحمد الله جمع الصف

وروحدة الكلمة للعلماء وأهل الفكر والرأى للوطن فى وثيقة الأزهر الشريف التى أصبحت بذلك وثيقة عالمية لحقوق الإنسان فى كل شئون حياته الدينية والدنيوية.

رابعا: نشر بالمصرى اليوم عن أمين الهيئة الدكتور محمد يسرى: أن الهيئة تطالب بتطهير الأزهر من المفسدين الذين يعتبرون من فلول النظام السابق وأن الهيئة بدأت التنسيق مع الائتلافات الأخرى لتصحيح مسار الأزهر وهذا ما ننكره عليه ونكذبه فيما نسب إليه لأننا لم نصرح به ولا يمكن قبوله ضمن نشاط الهيئة لأنه منكر من القول وزور وبهتان عظيم لا يصح القول به مطلقا لأنه لو صح لدخلنا فى زمرته وهذا لا يمكن قبوله بحال من الأحوال ويتحمل بذلك أمين الهيئة مسئولية ما نشر ونسب إلينا وإلى الأزهر الشريف الذى أشرف بالانتساب إليه وإلى مؤسساته العلمية وقياداته من أخطاء وقعت فى حقنا يحاسب عليها القانون والشرع.

خامسا: نشر بالمصرى اليوم أن الهيئة تدعو إلى تطبيق الشريعة والعمل بالدستور الإسلامى الذى تم وضعه عام ١٩٧٧م على يد علماء الأزهر ولم يتم تفعيله، وهذا غير صحيح لأن الهيئة فى ندواتها العلمية والثقافية كانت توجيهية تدعو للعمل على أن يلتزم الدستور الجديد لمصر عند وضعه بمبادىء وأحكام الشريعة الإسلامية وأنها المصدر الرئيسى للتشريع وهذا مبدأ عام وهدف مقبول ومتفق عليه بين علماء الأزهر الشريف وغالب أطياف الشعب المصرى وهو ما ورد الاتفاق عليه فى وثيقة الأزهر العالمية التى صدرت عنه مؤخرا.

سادساً: جاء فيما نشر بالمصرى اليوم منسوباً إلى الهيئة نقلاً عن أمينها: أنها عزمت على دعم أحد المرشحين فى الانتخابات الرئاسية المقبلة ومرشحين فى انتخابات مجلس الشعب ممن ينادون بتطبيق الشريعة الإسلامية:

وهذا غير صحيح ولم نوافق عليه لأنه يتعارض مع هدف الهيئة الأساسى وهو العمل الخيرى والاجتماعى ونشر ثقافة العمل على وحدة الصف والكلمة بين علماء الأمة والبعد عن العمل السياسى والحزبى فى إطار سياسة الأزهر الشريف الحكيمة والذى ننتسب إليه والالتزام بالعمل تحت رايته وتوجيهاته العلمية والشرعية المتفق عليها فى مؤسساته البحثية وبما لا يتعارض معها أبدا، وهذا هو المبدأ الذى أدين لله به والذى وافقت على أساسه بالانتساب لهذه الهيئة بشرط الالتزام بتحقيق هذا الهدف الذى تمت الموافقة عليه بالفعل ،وبهذا التصريح - إن صح - عن أمين الهيئة تكون الهيئة قد نكصت على أعقابها وخرجت على أهدافها وأصولها الشرعية وقواعدها الصحيحة بما يهدد بنيانها الذى قامت عليه ولكنه وقع وانتكس.

سابعاً: جاء في ما نشر بالمصرى اليوم عن الهيئة نقلاً عن أمينها: اتهام من يهاجمون وصول الإسلاميين إلى الحكم بأنهم من أتباع النظام السابق وأن بعضهم يكفر بالمرجعية الإسلامية وآخرون لا يؤمنون بوجود الله.

وهذا أيضا خارج عن أهداف الهيئة الشرعية ولادخل لنشاطها الاجتماعى والثقافى به. ولأنه عمل لا يجوز شرعا لأن الحكم على الناس فى آرائهم السياسية وتصنيفهم بها بين الإيمان والكفر من المحظورات الشرعية التى لا تجوز بحال إلا بدليل قطعى الدلالة والثبوت من الشرع لا يقبل الشك أمام القضاء المختص لأن الإيمان علاقة بين العبد وربه ولاحكم لنا فيه إلا على الأعمال الظاهرة التى أذن لنا شرعا بالحكم عليها فقط وليس فى كل الأعمال والأحوال. ونحن مأمورون شرعا بالعمل والالتزام بقوله تعالى:

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥)

وقوله تعالى:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾

(القصص: ٥٦)

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۞ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾

(فصلت: ٣٣-٣٥)

لذلك وبناء على كل ما سبق أعلن انسحابى من عضوية الهيئة الشرعية للحقوق والإصلاح ومن رئاستها لأنها خرجت عن أهدافها المشروعة التى قامت من أجلها والتى على أساسها قبلت الاشتراك فى عضويتها وتأسيسها لخدمة العمل الاجتماعى الرشيد والخيرى لصالح الوطن والمواطنين جميعاً بما يتوافق مع عقيدتى العلمية والثقافية والأزهر الشريف ومؤسساته الشرعية والعلمية التى انتسبت اليها فى القول والعمل على هدى كتاب الله الحكيم وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبدالله عليه وعلى جميع الرسل والأنبياء أفضل الصلاة والتسليم.

والله يوفقنا جميعا إلى الحق وإلى الطريق المستقيم فى خدمة الدنيا والدين وعباد الله أجمعين.

دكتور نصر فريد محمد واصل عضو مجمع البحوث الإسلامية

ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين

صدر عن إدارة إحياء التراث كتاب ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين لفضيلة الشيخ عبدالجليل عيسى الذى تحدث فيه عن رسالة الأزهر الشريف -منذ إنشائه- نشر الوسطية والاعتدال، ومنهجه نبذ التعصب والاختلاف، وتشجيع مبادرات التقريب بين المذاهب والثقافات والتصدى للظواهر السلبية والتعصب، ومواجهة المتشددين، ورفع راية التنوير ضد الانقسام والفتنة.

و فضيلة الأستاذ الشيخ عبدالجليل عيسى من علماء الأزهر المعاصرين الذين وضعوا رسالة الأزهر نصب أعينهم، وكان عميدا لكليتى اللغة العربية وأصول الدين بجامعة الأزهر الأسبق فقد وضع كتابه بعنوان «ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين» إثر سماعه عن اختلاف بعض العلماء عن مكان جنازة الميت هل تكون أمام المشيعين أم خلفهم، وهل التكبير فى أول الأذان مرتان أو أربع فأمعن التفكير والنظر واطلع على كتب السلف ومكان وزمان إصداراتهم للكتب الفقهية والعقيدية والتفسير والحديث والمؤثرات التى سادت فى عصورهم وقد حرص الأزهر الشريف على إصدار هذا الكتاب ضمن سلسلة مجمع البحوث الإسلامية لما وجده من كثرة الحديث عن الإسلام وما أصاب المسلمين من اختراق نسيج الإسلام من المتشددين والمتعصبين والمشوهين لحقائق الإسلام ومكانته بعد أحداث الثورات فى بعض البلاد الإسلامية.

والكتاب فى مجمله تحدث فيه المؤلف رحمه الله تعالى عن الخلاف المعقول وغير المعقول وما يسوغ فيه الخلاف وما لا يسوغ بشرط عدم التعصب والتمسك بالرأى مشيراً إلى أخطر أنواع الخلاف وآثارها المحزنة، وموضحا فى كتابه أسباب هذا الخلاف.

أخبار العالم الإسلامى



إعداد الأستاذين / محمود الفقى - أحمد رضوان

دول مجلس التعاون الخليجى تواصل جهوداً ومشاورات مكثفة لحل الأزمة فى اليمن

فى سياق متصل أكد يوسف بن علوى بن عبدالله الوزير المسئول عن الشئون الخارجية فى سلطنة عُمان أن دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية ما زالت تبذل جهوداً مكثفة لحل الأزمة فى اليمن.. وقال إن دول الخليج "ما زالت تجرى مشاورات مستمرة مع الأطراف اليمنية لتجاوز الأزمة التى يمر بها اليمن. وأوضح فى تصريحات لوكالة فرانس برس أن المبادرة الخليجية لحل الأزمة اليمنية "ما زالت على الطاولة والاتصالات مستمرة مع الأطراف اليمنية سواء عن طريق الأمين العام لمجلس التعاون الخليجى، أو عن طريق الاتصالات الثنائية لمساعدة الأشقاء فى اليمن على تجاوز هذه الأزمة.. "وأعرب عن أمله" فى إحراز تقدم عن طريق تلك الاتصالات وأن تستطيع أن تتلمس طريقاً يؤدى إلى توافق بين المعارضة والحزب الحاكم".

احتضار "الأمن الدوائى" فى غزة

أعلنت منظمة التعاون الإسلامى فى تقريرها الشهرى الذى يستعرض الأوضاع الإنسانية فى قطاع غزة أن "الأمن الدوائى" فى القطاع يحتضر، وأنه وصل إلى أزمة هى الأخطر من نوعها على صعيد توافر الدواء وتلقى العلاج.

وبين التقرير أن المستشفيات والمراكز الصحية تعانى من نقص حاد فى الدواء والمستلزمات الطبية، لافتاً إلى أن هذا الأمر أدى إلى توقف عمليات العيون وجراحة الأطفال وقسطرة القلب

وعمليات الأورام، وأكد التقرير نفاذ جميع أنواع الحليب العلاجى للأطفال. وحثت مؤسسات الهلال الأحمر والمؤسسات الإنسانية فى الدول العربية والإسلامية على "توفير المستلزمات الطبية والأدوية" بشكل عاجل.

كما حذرت من خطورة الموقف، وقالت إن الأمر من شأنه أن يتسبب فى "أزمة صحية" قد تودى بحياة كثير من المرضى.

وكان الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامى أكمل الدين إحسان أوغلو وعد بدراسة زيارة قريبة لغزة فى ظل زيادة تدخل ونشاط المنظمة الإنسانى فى القطاع، ودعوة العديد من الجهات الإنسانية والرسمية له للزيارة.

الشيوخ الأمريكى يلوح بوقف المساعدات فى حالة الاعتراف بالدولة الفلسطينية

أدان د. نبيل شعث، عضو اللجنة المركزية لحركة فتح ومفوض العلاقات الخارجية، بشدة قرار مجلس الشيوخ الأمريكى الطالب من الرئيس باراك أوباما العمل ضد التوجه الفلسطينى إلى الأمم المتحدة ودراسة قطع المساعدات الأمريكية عن السلطة فى حال استمرار الفلسطينيين فى مسعاهم هذا.

وقال شعث: هذا القرار سيئ للغاية وهو مرفوض تماماً ولا يعطى الولايات المتحدة إلا صورة سلبية جداً فى الوطن العربى ككل وهو يحرم الولايات المتحدة من أى احترام كوسيط ويضعها فى صف واحد مع إسرائيل التى تحتل بلدنا وتقيم المستوطنات على أرضنا وتخالف القانون الدولى.

وأضاف: ندرك أنه ليس للكونجرس الأمريكى أية صلاحية تنفيذية ولكن فى الفترة ما قبل الانتخابات فإنه يتحرك لإرضاء اللوبى المؤيد لإسرائيل فى الولايات المتحدة كما يعتقد أنه بقرارات كهذه يسهل على أعضائه الحصول على مساعدات مالية.

إسرائيل تبدأ فى تهويد الأسماء العربية بالقدس

بدأت فرق عمل تابعة لبلدية الاحتلال الإسرائيلى فى القدس، بوضع لافتات بارزة وبلغات ثلاث تحمل أسماء يهودية لعدد من الشوارع مثل اسم شارع الصديق "الياهو" بدلاً من شارع السلطان سليمان، ومغارة الصديق "الياهو" بدلاً من مغارة سليمان، وذلك بالمنطقة التى تقع بين بابى العامود والساهرة من بوابات البلدة القديمة بمدينة القدس المحتلة.

كانت بلدية الاحتلال الإسرائيلى قد وضعت سياجاً حديدياً حول المنطقة المشار إليها منذ عدة أسابيع وتم خلالها إزالة العديد من معالم المنطقة بهدف إنشاء حدائق تلمودية ملاصقة للسور

منظمة التعاون الإسلامى تبدأ مشروعها الإغاثى فى الصومال

بدأت منظمة التعاون الإسلامى مشروع الإغاثة العاجلة للمتضررين فى الصومال، وذلك عبر مكتبها فى مقديشو الذى يستفيد منه عدد كبير من النازحين، وتأتى عملية توزيع المساعدات

كبداية للمرحلة الأولى من برنامج المنظمة في الصومال وكانت المنظمة قد عقدت من خلال مكتبها التنسيقي الإنساني في مقديشيو اجتماعا لتحالف المنظمات من أجل الصومال بمشاركة المنظمات الإسلامية الأعضاء في المكتب واتفق المجتمعون على أهمية تشكيل سكرتارية دائمة للتحالف بقيادة مكتب منظمة التعاون الإسلامي، بغية تحقيق التنسيق، وتبادل المعلومات بين الشركاء المحليين والدوليين وتخفيف الأوضاع الإنسانية المتأزمة.

د. التويجري يدعو إلى تنفيذ استراتيجيات العمل الإسلامي المشترك

دعا الدكتور عبدالعزيز بن عثمان التويجري، المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو ـ الدول الإسلامية إلى تنفيذ الاستراتيجيات العلمية للعمل الإسلامي من أجل تحقيق التنمية والتعاون المشترك.

وقال المدير العام للإيسيسكو: إن السبيل إلى بناء المجتمع القوي المستقر المتماسك المتضامن، يمر عبر التربية، والتعليم الجيد، والعلوم المتطورة، والتكنولوجيا المبتكرة، والثقافة الهادفة، وبناء مجتمع المعرفة.

الهيئة العالمية للتعريف بالرسول تطلق مشروعا لتيسير السيرة النبوية للناشئة في الغرب

أعدت الهيئة العالمية للتعريف بالرسول «ﷺ» التابعة لرابطة العالم الإسلامي مشروعا لتيسير السيرة النبوية للناشئة في الغرب وأوضح الأمين العام للهيئة الدكتور عادل بن علي الشدي أن المشروع يتألف من عشرين قصة باللغة الإنجليزية تلخص مراحل السيرة النبوية، تم إعدادها بطريقة شيقة وجذابة تركز على الناحية السلوكية وتبرز التعامل السمح والرحيم للنبي ﷺ. وأضاف أن هناك خطة عملية لنشر هذه القصص في المدارس في مختلف أنحاء بريطانيا بالتعاون مع شركاء محليين من أصحاب الخبرة والتخصص في هذا المجال.

نجل أول رئيس لجنوب السودان يشهر إسلامه

الإعلان رسميا عن ميلاد دولة جنوب السودان وانفصالها الرسمي عن الشمال، أشهر أحد أبناء سيلفا كير ميارديت ـ أول رئيس لهذه الدولة الوليدة ـ إسلامه، مؤكدا أنه سيعمل على نشر الإسلام في الجنوب.

وقال جون سلفا إنه جاء من الجنوب ليعلن إسلامه في الخرطوم، داعيا والده إلى الإسلام، ونقلت صحيفة «الانتباهة» السودانية الصادرة السبت ٩ يوليو ٢٠١١ عن جون قوله «لقد أسلمت لأنني أريد الجنة، وسأذهب إلى الجنوب وأعمل على نشر الإسلام هناك مع إخوتي المسلمين».

❁❁❁

The Holy Quran descended on the Prophet peace and blessings of Allah be upon him, when the Arabs used to live in a deep darkness stemmed from ignorance. They used to live as slaves of many myths, that Allah did not send down. They used to worship gods other than Allah, as well as, the unjustice and corruption spread between them.

Thus, the Holy Quran was a great victory of humankind and salvation from its troubles and serious diseases. This Holy book *No falsehood can approach it from before or behind it: it is sent down, by One Full of Wisdom, worthy of all Praise* because it is the straight path. the Prophet peace and blessings of Allah be upon him said about it (the book of Allah includes the news of what was before you, news of what is after you, judge between you, it is crucial not humor, who leaves it will be strongly punished by Allah, who seek guidance in any other thing than it Allah misguide him, it is the solid rope of Allah, the wise recall, the straight path, with passions don't deviate, tongues don't confuse with it, is tirelessness with frequent refutations , its wonders don't run out, scholars don't replete from it, opinions don't differ by it, who says by it is honest, who worked with it is rewarded, who judge by it is justice, who calls for it is guiding for a straight path).

The second memory is the great Badr combat in the 17th of Ramadan year two Hijri, where the Muslims scored their first victory against the tyranny. This combat was the first armed encounter between belief and atheism.

After the Prophet peace and blessings of Allah be upon him and the believers stayed in Mecca for 13 years, in patience on the Quraish disbelievers' hurts, the prophet (peace and blessings of Allah be upon him) and who were with him, immigrated to Al-Medina.

After two years of their stay, Allah supported them against their enemies who came with their army which reached 1000 horsemen. Their target was to eliminate Muslims and their religion.

Allah wanted his loyal believers to triumph, despite of their little number and defeat their enemies regardless to their big number, serving this meaning, Allah says in his Holy Quran:

" Call to mind when ye were a small (band), despised through the land, and afraid that men might despoil and kidnap you; but he provided a safe asylum for you, strengthened you with his aid, and gave you good things for sustenance: that ye might be grateful" (Al-Anfal: 26)

And Allah all mighty says: "Remember ye implored the assistance of Lord, and he answered you: I will assist you with a thousand of the angels, ranks on ranks" (Al-Anfal: 9)

And He all mighty says: "Remember thy Lord inspired the angels (with the message): I am with you: give firmness to the believers: I will instill terror into the hearts of the unbelievers: smite ye above their necks and smite all their finger tips off them" (Al-Anfal: 12)

Thus, we realize an important reality from this which is that the armies don't triumph depending on its number power and equipment only , but the major factor is it closure to Allah and asking Allah for support.

This is so clear in the verse which says:" when thou threwest (a handful of dust), it was not thy act, but God's: in order that he might test the believers by a gracious trial from himself: for God is he who heareth and knoweth (all things)" .(Al-Anfal: 17)

The third victory was in the 8th year after the Hijra (immigration), as Allah bestowed on his Prophet and who are with him by conquesting Mecca, the hometown and favorite place for the Prophet. While (big Badr combat) scored the first victory for Muslims, (Al-Fat'h combat) was the last triumph for Muslims.

When the conquesting of Mekka finished, without any resistance and Muslims controlled the most serious region in the Arabian Peninsula, in that day, there wasn't shedding of blood, the proud Quraish of its power got humiliated, idols used to be on the Ka'ba were destroyed and everything was under control of Muslims.

On this occasion, that year was called (year of delegations) because of the scramble of delegations of tribes on the Prophet peace and blessings of Allah be upon him for converting to Islam.

The fourth victory which Allah favored this month with is the Muslims victory leaded by Salah Al-Din Al-Ayouby against the crusader invaders in Hitting combat. He cleared Al-Sham from them and he turned Al Aqsa mosque back after they converted it into a church.

The fifth victory is the one achieved in Ein Galout combat in Ramadan 658 Hijri. It was a battle in Ein Galout in Palestine and it was between the Muslim Mamluks, leaded by the great commander Al-Muthafar Qotoz, and Mongol of barbarians' pagans. They distributed corruption in earth and planted fear and horror in Muslims after they destroyed, in their way, all Islamic capitals like, Baghdad. The commander breaks the barrier of fear and challenged the Mongols and destroyed their army and strongly defeated them in Ramadan in 658 Hijri in Ein Galout.

To end up the victory memories in Ramadan by the amazing victory that happened to Muslims in 10th of Ramadan 1393 Hijri in 1973 Gregorian against Israeli army the owners of the hollow false argument that it is unovercoming army.

[*]Islamic conquest of Egypt...!
By: Dr. Muhammad Seleim Al-`Awwa

- 1 -

The famous saying "Patriotism is part of belief" is a true saying. The homeland forms the entity of the human being, grants him the grace of belonging, creates a fixed relation with the others being implanted by the history of fathers and grandfathers and is extended in the sons and grandsons. Patriotism, in this form, is a reasonable feeling, which is produced by the frequent long meditation in the meanings of citizenship and the forms of participation in it. It is a continuous and non-severed feeling that cannot be changed, to the extent that it is true to say that the homeland is the coffer of the individual and collective feelings.

The love of time and place cannot be true or believed except by the love of the human being. Love among the human being is an emotion that is formed with no reason. If it is removed, love becomes replaced with hatred. Then, the heart is left void of hatred and enmity. Also, love is a reasonable feeling such as the love of the time and place, which is enhanced by science, and is rooted by the frequency of contemplation at the intellectual donations before the material donations. Of this kind is the love of the Egyptians to Egypt.

The Egyptian donated to the humanity the greatest invention in the history of humanity: writing. The people since the time of Adam were speaking and not writing. When the Egyptian invented writing, the languages, history, geography, chemistry, physics, medicine, engineering, astronomy, sports, music, arts, literature, industry, and all of the components of civilization. Without this writing, the memory of the human being would lose the knowledge he gains and nothing will remain except very few knowledge.[1]

The Egyptian should love this homeland, which granted the humanity the first step at the path of the science, civilization making and writing its aspects including the old and new ones. The love of the homeland encourages the person to protect it from evils, defend it at the time of crises, and strengthen the right and refuting null and void at the time of seditions. Homelands deserve sacrifice every precious matter for their sake. The patriotic cannot hesitate to sacrifice his life for the sake of his homeland. He cannot spare money his homeland needs it.

No one can do this except when he knows the history of his country, the phases of strength and weakness, and distinguishes between the pure and the strange. History is not merely a story, but it is a lesson that is transferred from a generation to another. If we failed to transfer these lessons well, we in this case wrong the homeland. If we keep them and present them to our sons and grandsons, we give our nation an important part of its right. If a person had sound information, his saying and deeds become sound. If it is disturbed, they become spoiled. Then, he will not be able to present any thing to his homeland to benefit it or to defend it.

If the incentive of this study is an intellectual and historical problem stirred by one of the heads of the orthodox Egyptian church by saying improper sayings spread to the people challenging Islam and the Muslims in an unprecedented way, the understanding of the relationship between the Christians and the Muslims in Egypt will not be fulfilled except if we study the aspects of the Islamic conquest of Egypt. Then, If we pass to the united life which is led by the Egyptians having different religions, not only Christianity and Islam, we will know until any time the united life continues and when the seditions started, we will know the factors on unity and the reasons for sedition and fighting it.

We should expose the inciters to the Egyptian nation to know their realities and to bring them to accounts to defend the homeland. "The person who observes the limitations set by Allah and the person who breaches it is like people who came to a ship, some of whom stayed at its top, and the others stayed at its bottom. When the people who stayed at its bottom wanted some water, they pass by the people who stayed at its top. They says: If we make a hole in our part and would not hurt the upper residents. If they left them to do what they thought about all of them will be perished and if they stopped them from doing so, they will all be saved."[2]

Those riot agitators or those who benefits out of them, they destroy their country either by mistake which is considered as a serious mistake that can not be forgiven, or by deliberately, which is considered as the worst type of crime. The person who commits it should be held severely into account, and concealing those people is no less a crime. Thus, they should be exposed, and the people should know the reality of their deeds.

If the responsible authorities should not neglect holding them into account, the homeland will be saved by distinguishing between the malicious and the good and exposing those who seek destroying it.

---

* An Article published in Arabic at Al Azhar Magazine.

1 Ahmed `Adel Kamal, Rosetta Stone and Hieroglyphics, Az-Zahra for Arab Media

2 Relaed by Al-Bukhary on the authority of Al-Nu`man Ibn Bashir (2493)

Egypt, about which we talk, extends from the West to the East from 25 GMT to 35 GMT, and from latitude 31 to latitude 22 at the north of the equator. Its area is 1,250,000 km2 and the occupied space is 45,000 km2, at the percentage of 3.6% in which the Egyptians live with their agriculture, industry and housing[3]

The fertility of its land and the water of the River Nile, which held the silt[4] throughout the ages permitted its people to make the human civilization. In this regard, the people of Egypt are like the people who live at the land extending from Tigris and Euphrates, and the people living in Indus valley in the Indian subcontinent. However, these civilizations appeared after the emergence of the Egyptian civilization, which created its scientific and urban inventions.

The ancient and modern people different with regard to the name "Egypt": it was said that it was called so because the first person who lived in it and constructed it is Masrayim Ibn Bisar Ibn Ham Ibn Nuh (May the peace of Allah be upon him)[5]. Al-Gaher said: "It was said so, due to the meeting of the people in it. This name has no plural."[6]

Al-Hafiz Abul-Khattab `Umar Ibn Dehiyyah: "When the word refers to the she-goat, it means that it produces milk. The word "Misr" means the abundance of goodness in it more than any place else. Its dwellers live always in prosperity such as the she-goat, all of which the person uses.[7]

Ibn Al-A`raby said: the word "Misr" is a vessel and the coffers of the earth. There is the saying of Yusouf"

{"[Yūsuf (Joseph)] said: "Set me over the store-houses of the land; I will indeed guard them with full knowledge" (as a minister of finance in Egypt).}

[Yusuf (Joseph): 55][8]

The linguists say: "The word "Misr" is the known city, which can be singular, plural and inflected."[9]

The Arabs knew Egypt from the earliest periods of history, then judged it at the time of Hyksos. There is agreement on their Kan`an[10] names though their origins may differ. Gorgy Zidan said that Hyksos is one of the Arab nations which was modern in the past. The Hyksos includes the Kings who invaded and ruled Egypt many centuries ago.

Canaanites are Arabs who dwelled in Palestine since 4500-4000 B.C and built Jerusalem in it in 3500 B. C. They invaded and ruled Egypt from 1650 to 1542 B.C. Only Ahmus, who caused them to escape to Plaestine, beat them. In this place, the borders of Egypt end and the borders of the Levant including Palestine, Lebanon, Syria, and Jordan. There is no doubt of the Arabism of the Canaanites. Thus, do not consider the writings of some of the historians who are doubtful of the fact that the Hyksos are Arab[11].

The Islamic conquest of Egypt started in 18 H – 639 A. D. The dweller of Egypt at that time were Romans, Greek, Copts, Jews and many Arab tribes that dwelled in Egypt throughout the immigrations from the Arabian Peninsula or trade[12]. It was usual that some of the merchants stay in the countries where they work and marry from its dwellers to the extent that they are regarded as its dwellers.[13]

The old commercial ties between the Arabs and Egypt are emphasized in details by the famous French historians (Jostave Le Bon) in his book "The Arab Civilization.

---

3 Ahmed Adel Kamal mentions in "The Islamic Conquest of Egypt" that the area of Egypt is 386000 square miles(1.001.000 km2). In Al-Mawrid Encyclopedia its area is 386,900 square miles (1.002.000km2, and in the Arabic Encyclopedia (1001449 km2) Allah know the best!

4 Gharin means silt, which is held by the water to the earth. See Al-Fairuz Abadi, Al-Muhit. Ibn Mandhur in Lisan Al-Arab mentions only the word "Gahrin". Refer to the word "Gheryan".

5 Al-Magqrizy, Al-Mawa`idh wal I`tibar fi Dhikr Al-Khatat wal Athar,report by Ayman Fu'ad Sayyid, Al-Furqan Institution got the Islamic heritage, London 2002, p1, p53, Al-Qalqashandy, Subh Al-A`sha, The General Authority of Culture Palaces (copied from the Khidival Library), Cairo 2004 Part 3, P, 338. Ibn `Abd Al-Hakam, the Invasion of Egyt report by Ali Muhammad `Umar, the Religious Culture Library, Port Said 1995, p.27 and the following paper, Yaqut Al-Hamawy , Mu`gam Al-Buldan, report by Farid Abdul Aziz Al-Gindy, Scientific library, Beirut 1990, part 5, p.16, number (11304).

6 Quoted from a book entitled "Madh Misr", Al-Magrizy, the previous , p. 55.

7 Quoted by Al-Magrizy, the Previous, p. 58, emphasizes that the soundness of the sayings of `Umar Ibn Dehiyyah that Egypt was and is still producing the wealth that entices the people to plunder although its wealth suffices its dwellers.

8 Al-Magrizy, the same place.

9 Al-Muhit Dictionary, Al-Taqadum printing office

10 Ahmed `Adel Kamal, the Islamic Conquest of Egypt, Cairo 1996, p3, P. 71.

11 Gorgy Zidan, the History of Islamic urbanization, Dar-Al-Helal, p1, p. 21, and refer to "The Pre-Islamic Arab History", Al-Helal Print Office Cairo, p. 52 and the next page.

12 Our honorable brother Ahed `Adel Kamal said after mentioning the difference among the historians concerning their origin "Allah knows best their origin", the previous source, p. 14.

13 Sayyidah Ismail Al-Kashef, Egypt at the Dawn of Islam, Al-Usra Library, Cairo 1999, p. 9.

It was considered along with egocentrism, which is the final stage. This is known as one of the stages of the psychological development of the child according to Fraud. It is one of the stages of degradation, as the child starts to realize the distinction from the world and the items existing around him. This egocentrism appears in the behavior of the child and has many expressions according to the forms of behavior. Sometimes it is considered as nombrilism, referring to the centre and joy of life.

In all cases, it is a trend that considers the ego as the centre, model and criterion. The person who indulges in egotism does not assess the mistake in his perspective, because he does not see except ego and European centralism, as it resembles sometimes unconsciously egotism in falling into the mistakes fallen into in the case of the later. Narcissism is the one that denotes it much, as Narcis looks and sees himself only.

European centralism is based on a selfish logic to the effect that the world is divided into two unequal parts, the first on which is Europe and the other is the whole world excluding Europe. They are contrasting parts.

The European centralism finds its first beginning in the birth of the modern philosophic thought in the seventeenth century. But it reached its climax of progress and completion in the nineteenth century. Europe became a colonist power that dominates many parts of the earth. European centralism coincidences with the beginning and developement of some social and economic sciences and the spread of many new theories such as the theories of the human genders, development and progress.

As we do not seek extending the subject, but we like summarizing and concentration for fear of getting away from the topic in spite of the great importance of the sciences, theories and ideas of the nineteenth century. It is sufficient to make few hints to matters such as the emergence of Golimeau theory in the human beings and difference between them. Also, there is the saying of the preference of the Arian race to the Samian race and the difference in the metaphysical and logical bases controlling the behavior and beliefs of each category. For example, there is the emergence of some theories such as "primitive mind" or "primitive people" who are the people of the black Africa and the inhabitants of the tropical forests as well as the inhabitants of many parts of Latin America.

This theory states that there are substantial differences in the way of thinking and realization between the primitive people, who remain primitive in the way that make them like the people living in the stone ages. Thus, it reveals that there is a difference between the logic mentality of the Europeans and the illogic or primitive mentality. Finally, we speak about the Greek miracle which is the basis of the European civilization. This miracle causes the beginning of sciences and knowledge and many technologies. The European centralism does not want paying attention to the old Egyptian basics of the mathematical theories on which the Greek rely. This depreciates the Arab contribution in the history of sciences and philosophy.

It is not strange that theories of civilization and history coming out in the ideology of the European centralism are attributed with selective features from one side and depreciating from the other side. It is not surprising that the theories of the French Ernest Renan in his book tackling Ibn Rushd and his theories spreading. Also, it is not surprising to find the writings of Hanuto about the Arian civilization from one side and the Samian civilization from the other side.

It is natural that the reforming and Islamic thought responds to the claims by considering the features of the reforming thinking such as the tendency to development that let it defend Islam, its thinking and the tendency to self-defense that colonism caused in the Islamic and Arab countries.

In this way we read the replies of Imam Muhammad `Abdo to Hanuto in the second volume of the complete works of Shaykh Muhammad `Abdo, issued by Ash-Shuruq House – pages 215-256. Also we find great enthusiasm in the replies of his student Mustafa Abdul razik refuting the theories of Rinan in his book "Preface to the History of Islamic Philosophy" – Al-Ma`arif House.

We know that the replies of Shaykh Muhammad `Abdo are famous such as the replies of Ali Farah Anton in "Islam and Christianity in the Battle of Knowledge and Urbanism". Thus, there is no need to review them once again. Similar to them is the views concerning "Preface to the History of the Islamic Philosophy". In general, it is permissible to say that the elementary defense attitude that dominated the Islamic and Arab thought throughout the first part of the twentieth century was natural and logical due to the distortion attempts occurred to the Islamic thought after the depreciating attitude adopted in chronicling the Islamic philosophy by the students of Ernest Rotan, and those affected by racism and the sublimity of the Arians spreading in the European thought in general throughout the nineteenth century.

Therefore, the normal reaction came in two attitudes: The first is defending the Islamic civilization and the Samian nations in general. The clear example of this attitude is that of Shaykh Muhammad Abdo in his replies to Hanuto as we saw. The other attitude is attacking and seeking the clarification of the antecedence of the Islamic civilization from the other side. The clear example of this is the replies of Shaykh Muhammad Abdo to Farah Anton and in some parts of refuting Hanuto's views.

The reason for this attacking attitude is the provocation nad tendency to depreciation from the side of the thinkers of the central European tendency. It is true to judge religions, we can say that there is no relation between Christianity and the current urbanism. "Replies to Hanuto – the complete works – the third volume – page 220 and the next one."

Also, we read "what is rooted in the souls of the Christians which is safety in abandoning the thought and relying on postulates. The people depend on ignorance or piety basis. I do not find in history any reference to knowledge and philosophy after the emergence of Christianity except in the religious disputes which were settled sometimes by the influence of kings or collections or shedding blood. Then, science's blaze is extinguished and pure religion attains victory "the complete works – 284 -286" in the replies to Farah Anton.

He sought antecedence in the fields of scientific and philosophic creativity and antecedence over Europe. The last course forms the general attribute of the Arab and national thought in the fifties and sixties of the last century in the way we find with Sati` Al-Husary.

The direct results of the European central tendency were not limited to the superiority of the good aspects in parts other than Europe. The attack does not include Islam and Arabs only, but it depreciates all the others such as the thoughts of India, China, Ancient Egypt, the civilizations of Alaska and the Negra in Black Africa. The results included the line adopted in chronicling the European Westerns thought. We previously pointed to the issue of "the Greek miracle" and the thought was directed to a deadlock and was against the liberal traditions stating the comprehensiveness of the human mind and its natural lights and eliminating the tribal rulings and the false belief.

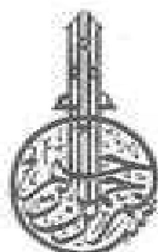
Therefore, the European centralism offended the Western thought in two times: First: It concentrated on the separations between civilization and thoughts, as it categorized the human civilization to lower and higher civilizations. Rather, it puts the European civilization against the other civilizations.

The second offense is that it plucked out of the Western civilization its best aspect, which is its critical spirit. Therefore, it shackled the European thought.

The matter is not related in criticizing the European centralism tendency with removing the idols and breaking the obstacles facing dialogue between the civilizations. Rather, it is far from this, as it aims at liberating the European thought from the shackles that encompassed it for long ages. Indeed, the contemporary critical philosophy in Western Europe in general and in the French school in particular passed a long way in this respect.

AL-AZHAR MAGAZINE

Ramadan, 1431 A. H.



ENGLISH SECTION

August, 2010

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."

(Al A'raf 43)

EDITOR : Dr. IBRAHIM AL-ASSIL,

Professor at the Faculty of Languages and Translation

Al-Azhar University

The Glorious Ramadan and the good tidings of Victory…!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

Glorious Ramadan is coming this year after the success of the national youth revolution, which was shortly preceded by the Tunisian one. It is expected, by the end of year 2011, that the Iraqi Republic get liberated from the awful colonial campaign, launched by George Bush, the son, against it and the Afghan Islamic state. The liberation will be happened after signing a convention on the withdrawal of foreign troops between the American and Iraqi leaderships.

After its people union by virtue of the new Egyptian Leaderships, State of Palestine is getting ready to the declaration of its Independent Country, in next September. If we override the Arabian countries and focused on their Islamic sisters, we will see the landslide victory achieved by the Turkish Justice and Development Party, in the recent elections. This victory is guaranteed, to continue in office for a third term, by the virtue of reforms policy, economic success and activation of tolerant principles of Islam, which the party adopted through the guided leader ship of. Its leader the great struggler, Rajap Tayyip Ardoghan. It is built on the principle of returning to Islamic countries and supporting their cases. Particularly the Palestinian case.

Don't forget, within, this felicitous transformation in the foreign policy in Arab Republic of Egypt towards the Islamic sister country, Islamic Republic of Iran. This transformation was expressed by the former foreign affairs Minister, Dr. Nabil Al-Araby, through his statement which reassured many of the jealous people about the elevation of Islam, that Islamic Republic of Iran is not an enemy. He promised to seek establishing complete diplomatic relations with it. Al-Araby statement was supported by the popular visit which the representatives of the revolution youth made, with some members of political parties, unions and Egyptian active organizations, to the sister Iran. He said: I am confident, by God willing, that this rapprochement will have a big and vital effect in the success of the Arabic Islamic efforts; represented by the Islamic conference, League of Arab States and in Iran turning the sister United Arab Emirates' islands back, as a part of Islamic states unity. Besides, working on stability of sister Bahrain Kingdom, removing the fog away from the relation between the Saudi Arabia Kingdom and Iran and bringing serenity between them; In order to block the path against the Islamic Nation enemies, who want it to be distracted and fragment to make it easy for them to control and humiliate it. This fast and sudden transformation promises by victory wind to eradicate the roots of corruption, dispersion and oppression which were there in the Islamic nation for a long period of time. Therefore, they will be replaced by the factors of unity, strength, and development progress. God willing, leading it to liberation of usurped Arab Land, dissemination of justice, dignity and well-being, and security in the united Islamic states' lands and to meet the promise of Allah almighty when he said: "surely, this nation of yours is one nation and I am your lord to worship me." (Al- Anbyaa': 92)

This, and there are still some of cultured youths ,who are impressed by the western civilization and charmed their minds by its fake, deny the obligation of fasting, but they ride roughshod over Islam, its obligations and principles; In the time when some of the western denials accept the contrary of it., as well as those who converted to Islam.

By the way, one of the Imams, who were sent by the Ministry of Endorsements (Awqaf) to guide Muslims who spread in Europe, visited me. And I knew from him that his work place is in Denmark, so I talked with him about the caricature drawer and the editor of the newspaper, which published offensive cartoons about the prophet of mercy and the savior of mankind, peace and blessings of Allah be upon him.

He rushed and said: Didn't you know what happened to them?

I said: no. he said: all of them converted to Islam, let their beards grow, exchanged their Frankish cloth by white robes, they regularly go to mosque to pray and seek more Islamic knowledge. I said: "(Sobhan Allah) Hymned beAllah, guides who he wills to a straight path".

This, and Allah have gifted Ramadan immortal memories regarding great events that had their weight and effect on the course of events and the events of history, until our time ; Since the beginning of Holy Quran descended, on the prophet peace and blessings of Allah be upon him, in a blessed night from this month. For this, whenever its days shade us, we yearn to what draw attention and sight from the news of these immortal memories that changed the face of history and reshape life according to a correct behavioral approach. So it corrected the path of the humans' march.

The Holy Quran is the constitution of Allah, Lord of the worlds. Holy Quran started to descended on the Prophet, peace and blessings of Allah be upon him, in the seventeenth of Ramadan, after 40 years of the birth of the Prophet peace and blessings of Allah be upon him. The first of what has descended on him was the Holy verses of Surat Al-Alaq, which says "Proclaim! (or Read!) In the name of thy Lord and Cherisher, who created(1) Created man, out of a (mere) clot (2) Proclaim! And thy Lord is Most Bountiful (3) He Who taught (the use of) the Pen (4) Taught man that which he knew not (5)" (Al-Alaq 1-5).

الفهـــرس

هدية العدد

الوثائق الدستورية في دولة النبوة والخلافة الراشدة

للأستاذ الدكتور محمد عمارة

في هذا العدد

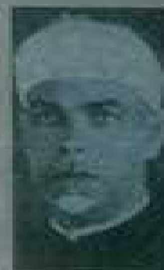
فرسان المراجعات العلمانية

القرضاوى وفقه المعاصرة

الإسلام فى أفريقيا

شهادة الغربيين للقرآن









AL AZHAR MAGAZINE

ترقب في العدد القادم

- الشيخ رشيد رضا والمعركة الأولى ضد العلمانية
  للأستاذ الدكتور / محمد عمارة
- التفسير للأستاذ الإمام محمد عبدة
- المسألة القانونية بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعى
  للمستشار طارق البشرى
- الفتح الإسلامى لمصر
  للأستاذ الدكتور / محمد سليم العوا
- هدية العدد القادم
  السياسة الشرعية
  للشيخ عبدالوهاب خلاف



بسم الله الرحمن الرحيم

داخل العدد



الأزهر

مجلة شهرية جامعة
يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف فى مطلع كل شهر عربى
صدر العدد الأول فى المحرم ١٣٤٩ هـ/ ١٩٣١م
وحمل اسم «نور الإسلام»
برئاسة تحرير فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين

رئيس التحرير
أ.د. محمد عمارة

مدير التحرير
عادل رفاعى خفاجة

سكرتير التحرير
أحمد السيد تقى الدين

الاشتراك السنوى
داخل مصر ١٨ جنيها مصريا
الدول العربية ٥٠ دولارا أمريكيا
أوربا وأمريكا ٨٥ دولارا أمريكيا
اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولارا أمريكيا
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٥٧٨٦٢٠٠

المراسلات باسم: مدير التحرير
مجمع البحوث الإسلامية - م. نصر
ت: ٢٢٦٢٨٥٩٩

فرســـــان المراجعـــات العلمانيـــــة

الدكتور محمد حسين هيـــكل بـاشـــا (*)



لفضيلة الأستاذ الدكتور / محمد عمارة

هناك نموذج ثالث لهذا الإياب الفكرى، نجده عند الدكتور محمد حسين هيكل باشا (١٣٠٥ ـ ١٣٧٦هـ ١٨٨٨ ـ ١٩٥٦م) الذى برع فى ميادين السياسة والتاريخ والأدب والتراجم والمقال الصحفى.. فلقد بدأ حياته الفكرية داعية لاستعارة النموذج الغربى فى التقدم والنهوض، لنتحرر به من الهيمنة والإذلال الأوروبى، ولنجدد به حياتنا بعد أن أصابها الجمود والتقليد بما يشبه الانحطاط.. فأخذ يبشر بهذا النموذج الغربى ـ القومى.. العلمانى ـ وكان رئيساً لتحرير صحيفة «السياسة» التى كانت منبر الدفاع عن كتاب (الإسلام وأصول الحكم) سنة ١٩٢٥م.

لكن الدكتور هيكل أخذ يكتشف عدم ملاءمة هذا النموذج الغربى لتاريخنا الفكرى، ومن ثم لتجديد واقعنا المعيش.. فانصرف يلتمس مقومات نهوضنا وتقدمنا فى التراث الفرعونى القديم.. لكنه سرعان ما اكتشف أن الحبال قد تقطعت فيما بين حاضرنا وبين الفرعونية القديمة.. فعاد الرجل ـ منذ إصداره كتابه (حياة محمد) سنة ١٩٣٠م ـ إلى التبشير بإسلامية نموذجنا فى التقدم والنهوض.

ولقد تحلى الدكتور هيكل بدرجة عالية من الإخلاص فى هذا التحول الفكرى، ومن ثم بقدر عال جداً من الشجاعة فى نقد مسيرته الفكرية.. وفى نقد النقد الذى وجهه إليه أصدقاؤه المتغربون عندما تحول عن مذهبهم إلى طريق الإصلاح بالإسلام.. لقد كتب هيكل باشا:

١ـ فى نقد الفكرة القومية الغربية ذات النزعة العنصرية:

التى بشر بها زمنا.. ثم اكتشف مجافاتها لفكرة الأمة الإسلامية الواحدة، المؤسسة على التوحيد الإسلامى.. فقال:

«إن الفكرة الإسلامية، المبنية على التوحيد، تخالف ما يدعو إليه عالمنا الحاضر من تقديس القوميات، وتصوير الأمم وحدات متنافسة، يحكم السيف وتحكم أسباب الدمار بينها فيما تتنافس عليه.

ولقد تأثرنا، معشر أمم الشرق، بهذه الفكرة القومية، واندفعنا ننفخ فيها روح القوة، نحسب أننا نستطيع أن نقف بها فى وجه الغرب الذى طغى علينا وأذلنا.. وخيل إلينا فى سذاجتنا أننا قادرون بها وحدها على أن نعيد مجد آبائنا، وأن نسترد ما غصب الغرب من حريتنا وأهدر من كرامتنا الإنسانية.

ولقد أنسانا بريق حضارة الغرب ما تنطوى هذه الفكرة القومية عليه من جرائيم فتاكة بالحضارة

(*) محمد حسين هيكل (١٣٠٥ ـ ١٣٧٦هـ ١٨٨٨ ـ ١٩٥٦م)

■ ولد بكفر غنام ـ محافظة الدقهلية ـ بدلتا مصر.

■ وتخرج بمدرسة الحقوق بالقاهرة. وحصل على الدكتوراة فى الحقوق من باريس. وعمل أستاذا بمدرسة الحقوق الفرنسية واشتغل بالمحاماة.. وبالصحافة وبالسياسة وبالترجمة والتأليف.

■ بدأ محرراً بصحيفة «الجريدة» لسان حال حزب الأمة الذى كان يرأسه أحمد لطفى السيد باشا.. ووصل إلى رئاسة تحرير صحيفة «السياسة» لسان حزب الأحرار الدستوريين. وانتخب رئيساً لهذا الحزب.. وتولى وزارة المعارف والشئون الاجتماعية.. ورئاسة مجلس الشيوخ.. وعين عضواً بالمجمع اللغوى.

■ وكان المتصدى لموجة التنصير التى اجتاحت مصر أوائل ثلاثينيات القرن العشرين المدخل الذى حوله للكتابة فى الإسلاميات.

■ من آثاره الفكرية «تراجم مصرية وغربية» و«زينب» و«فى أوقات الفراغ» و«ثورة الأدب» و«السياسة المصرية» و«جان جاك روسو» و«عشرة أيام فى السودان» و«حياة محمد» و«فى منزل الوحى» و«الإمبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة» و«الصديق أبو بكر» و«الفاروق عمر بن الخطاب» و«عثمان بن عفان».

التى تقوم على أساسها وحدها، وزادنا ما خيم علينا من سجف الجهل إمعانا فى هذا السبيل.


على عبد الرازق

على أن التوحيد الذى أضاء بنوره أرواح آبائنا، قد أورثنا من فضل الله سلامة فى الفطرة هدتنا إلى تصور الخطر فيما يدعو الغرب إليه، ولذلك لم يكن لنا مفر من العودة إلى تاريخنا نلتمس فيه مقومات الحياة المعنوية، لنخرج من جمودنا الذل، ولنتقى الخطر الذى دفعت الفكرة القومية الغرب إليه، فأدامت فيه الخصومة بسبب الحياة المادية التى جعلها الغرب إلهه».

٢- ونقد النزعة العلمانية:

التى طالما بشر بها، ودافع عنها، عندما كان «محامى» كتاب (الإسلام وأصول الحكم) - الذى ادعى أن رسول الإسلام لم ينشئ أمة ولا دولة ولا حكومة.. انتقد هيكل هذه النزعة العلمانية.. وكتب - فى مرحلة إيابه الفكرى - يقول:

«لقد أقام محمد دين الحق، ووضع أساس حضارة هى وحدها الكفيلة بسعادة العالم.. فبعد الهجرة إلى المدينة، بدأ طور جديد من أطوار حياة محمد، بدأ الطور السياسى الذى لم يسبقه إليه أحد من الأنبياء والرسل فلقد كان عيسى وكان موسى وكان من سبقهما من الأنبياء يقفون عند الدعوة الدينية، يبلغونها للناس عن طريق الجدل وعن طريق المعجزة، ثم يتركون لمن بعدهم من الساسة وذوى السلطان أن ينشروا هذه الدعوة.. فأما محمد، فقد أراد الله أن يتم نشر الإسلام وانتصار كلمة الحق على يديه، وأن يكون الرسول والسياسى والمجاهد والفاتح.. والدين والحضارة اللذان بلغهما محمد للناس بوحى من ربه يتزاوجان حتى لا انفصال بينهما.

وقد خلا تاريخ الإسلام من النزاع بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية، فأنجاه ذلك مما نزل هذا النزاع فى تفكير الغرب وتاريخه»[1]

٣- ونقد الانتماء للحضارة الفرعونية:

الذى بشر به بعد تحوله عن دعوة الانتماء للحضارة الغربية - وفى ذلك قال:

«ولقد انقلبت (أى بعد مرحلة الانبهار بالغرب) ألتمس فى تاريخنا البعيد، فى عهد الفراعين، موئلا لوحى هذا العصر، ينشأ فيه نشأة جديدة، فإذا الزمن وإذا الركود العقلى قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذرا لنهضة جديدة.

(١) د. محمد حسين هيكل «حياة محمد» ص٢٣٦، ٢٣٨، ٢٣٩، ٥١٦، ٥١٩: طبعة دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٨١م.

(٢) د. محمد حسين هيكل «فى منزل الوحى» ص٢٢ - ٢٦ طبعة القاهرة سنة ١٩٨١م.

ورؤآت (أى نظرت) فرأيت أن تاريخنا الإسلامى هو وحده البذر الذى ينبت ويثمر، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو، ولأبناء هذا الجيل فى الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتى ثمرها بعد حين»[2].

> وبعد هذه المسيرة الفكرية.. والمعاناة فى البحث عن الجذور والبذور والمنطلقات للمشروع الحضارى النهضوى.. وبعد هذا الإياب للنموذج الإسلامى.. تعرض الدكتور هيكل إلى غمز ولمز من زملاء الأمس.. الذين اتهموه بالرجعية بعد أن كان تقدميا!.. فعرج الرجل إلى الحوار مع هؤلاء الزملاء الناقدين، مقدما لنا صفحة من الحوار الودى المتحلى بالأدب الرفيع، قال فيها:

«.. وأقف هنا لأدفع زعماً حسب الذين زعموه أنه مغمز غمزونى به بعد تأليف كتابى (حياة محمد).

لقد حسب هؤلاء أننى انقلبت رجعياً، وكنت عندهم قبلها فى طليعة المجددين.. لكننى أسأل أصدقائى، أحرار الرأى، عن غايتنا جميعاً حين نتجه؟ ألسنا نبتغى التقدم خطوة جديدة فى سبيل الكمال؟

ولقد طالما التمسنا فى شرقنا أسباب النهوض بعلمنا، لنقف إلى جانب الإنسانية المهذبة، لا ينكس الخجل رءوسنا، ولا يحز فى نفوسنا ذلك الشعور الممض بأننا دون الغرب مكانا.

ولقد خيل إلىّ زمنا، كما لايزال يخيل إلى أصحابى، أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى هذا النهوض، وما أزال أشارك أصحابى فى أنا مانزال فى حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله.

ولكنى أصبحت أخالفهم فى أمر الحياة الروحية، وأرى أن ما فى الغرب منها غير صالح لأن ننقله، فتاريخنا الروحى غير تاريخ الغرب، وثقافتنا الروحية غير ثقافته.. خضع الغرب للتفكير الكنسى على ما أقرته «البابوية» المسيحية منذ عهدها الأول، وبقى الشرق بريئاً من الخضوع لهذا التفكير، بل حوربت المذاهب الإسلامية التى أرادت أن تقيم فى العالم الإسلامى نظاما كنسيا، أهول الحرب، فلم تقم لها فيه قائمة أبداً[3].

بذلك بقى الشرق مطهراً من الأسباب التى أدت إلى اضطراب الغرب الروحى وإلى ثوراته السياسية التى نشأت عن هذا الاضطراب.. وبقى المسيحيون المقيمون فى الشرق فى جوار المسلمين فى طمأنينة لا يصلون من نيران الثورات والحروب الأهلية ما كان يصلاه إخوانهم فى الغرب.

كان الخروج على الكنيسة المسيحية فى الغرب إعلاناً للثورة على السلطان، وكانت الثقافة الروحية لذلك فى قبضة رجال الدين، يبرمون من أمرها ما يشاءون إبرامه، وينقضون ما يشاءون نقضه.. أما والإسلام لا يعرف الكنيسة، وأقرب الناس فيه إلى الله أتقاهم، ولا فضل فيه لعربى على

(٣) الإشارة إلى الشيعة الإمامية.

عجمى إلا بالتقوى. فقد بقيت الثقافة الروحية فى الشرق حرة طليقة لم تقيد إلا حين قعد الجهل بالناس ففترت الأذهان وغمرت القرائح وجمدت القلوب.

لم تعرف عصور الازدهار الإسلامى قيدا لفكر ما كان صاحبه برىء القصد يبتغى برأيه سبيل الحق، ولم يعرف المسلمون من أن الذنوب يغفرها غير الله.

كيف نستطيع أن ننقل ثقافة الغرب الروحية لننهض بهذا الشرق، وبيننا وبين الغرب فى التاريخ وفى الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم؟

لا مفر إذاً من أن نلتمس فى تاريخنا وفى ثقافتنا وفى أعماق قلوبنا وفى أطواء ماضينا هذه الحياة الروحية، نحيى بها ما فتر من أذهاننا وخمد من قرائحنا وجمد من قلوبنا.

إن التوحيد الذى أضاء بنوره أرواح آبائنا، قد أورثنا من فضل الله سلامة فى الفطرة هدتنا إلى تصور الخطر فيما يدعو الغرب إليه، وإلى أن أمة لا يتصل حاضرها بماضيها خليقة أن تضل السبيل، وإلى أن الأمة التى لا ماضى لها لا مستقبل لها، ومن ثم كانت الهوة التى ازدادت عمقاً بين سواد الأمة فى الشرق والدعوة إلى إغفال ماضينا والتوجه وجهة الغرب بكل وجودنا، وكان النفور من جانب السواد عن الأخذ بحياة الغرب المعنوية، مع حرصه على نقل علومه وصناعاته، والحياة المعنوية هى قوام الوجود الإنسانى للأفراد والشعوب، ولذلك لم يكن لنا مفر من العودة إلى تاريخنا نلتمس فيه مقومات الحياة المعنوية.. ولم ألبث حين تبينت هذا الأمر أن دعوت إلى إحياء حضارتنا الشرقية.

فأين هذا من تملق الجمهور أو متابعته التماساً لرضاه - كما يزعم الذين يغمزون -؟!.

لقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتى ثقافة الغرب المعنوية والروحية، لنتخذها جميعاً هدى ونبراساً، ولكنى أدركت، بعد لأى، أننى أضع البذر فى غير منبته، فإذا الأرض تهضمه ولا تتمخض عنه، ولا تبعث الحياة.

هذا كلام واضح بيّن.. ومن عجب أن يخفى على أصحابى فلا يرونه، وأن يكون خفاؤه سبب تريبهم علىّ.

ولكن، لا عجب، فقد خفى هذا الكلام عنى سنوات، كما لايزال خفياً على كثيرين منهم»[4].

هكذا تحدث هيكل باشا، بهذا الصدق وهذا العمق، عن الانبهار «ببريق حضارة الغرب» الذى أنساه - مع عدد كبير من الصفوة والنخبة - ما بيننا وبين الغرب من خلاف عميق فى الحياة الروحية والمعنوية.. وعن إيابه إلى سبيل إحياء حضارتنا الشرقية، مع استلهام المشترك الإنسانى العام من الحضارة الغربية، متمثلاً فى العلوم والصناعات.

(4) فى منزل الوحى، ص٢٢ - ٢٦.


هيكل

● لقد بدأ الدكتور هيكل حياته الفكرية بالدفاع عن كتاب (الإسلام وأصول الحكم) - للشيخ على عبدالرازق (١٣٠٥ - ١٣٨٦هـ ١٨٨٧ - ١٩٦٦م) - الذى جاء فيه:

«إن رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم لم يكن إلا رسولاً لدعوة دينية خالصة للدين.. وأنه لم يقم دولة ولا حكومة ولا أمة بالمعنى السياسى.. ويا بعد ما بين السياسة والدين».

ثم انتهى - فى مرحلة نضجه الفكرى - إلى أن رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة - قد بدأ طورا جديدا - غير مسبوق فى تاريخ النبوات والرسالات - «فأصبح الرسول والسياسى والمجاهد والفاتح.. وبانى الدين والحضارة اللذان يبلغهما للناس بوحى من ربه، واللذان يتزاوجان حتى لا انفصال بينهما».

● وبدأ الدكتور هيكل حياته الفكرية مبشراً بتبنى الحياة الروحية والمعنوية للغرب.. ثم انتهى إلى التأكيد على تميز تاريخنا الحضارى عن تاريخ الغرب.. فلقد عاش الغرب حياة الكهانة الكنسية.. وبرئ تاريخنا منها.. وعاش الغرب الحروب الدينية - التى لم يعرفها تاريخنا - واتخذ الغرب الحياة المادية إلهه.. بينما ورثنا نحن عن آبائنا التوحيد الذى أضاء الأرواح وهدانا إلى سلامة الفطرة.

فلا تاريخ الغرب هو تاريخنا.. ولا الكهانة الكنسية الغربية هى ديننا.. ولا الفصل المسيحى بين ماللقيصر وبين مالله هو إسلامنا - الجامع بين الدين والدولة والسياسة والحضارة - دون انفصال.

ومن ثم فإن الحل القومى الغربى - العنصرى - ليس الطريق لإخراج أمتنا مما تعانيه.. وإنما الطريق للنهضة الشرقية هو العودة إلى تاريخنا الإسلامى نلتمس فيه مقومات إحياء حضارتنا الشرقية الإسلامية.

● وكما انتقد هيكل باشا التغريب، والتماهى مع النموذج الحضارى الغربى - القومى - الوضعى - العلمانى.. انتقد النزعة الفرعونية - بعد أن بشر بها زمنا - مؤكداً أن الزمن والركود العقلى قد قطعا ما بيننا وبين عهدها القديم من سبب قد يصلح بذرا لنهضة جديدة.

ومن ثم، انتهى الرجل إلى «أن تاريخنا الإسلامى هو وحده البذر الذى ينبت ويثمر، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو، ولأبناء هذا الجيل فى الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتى ثمرها بعد حين».

هكذا قاد الإخلاص فى البحث عن الحقيقة عقل الرجل وقلبه وقلمه من مرحلة الاجتهاد الخاطئ و«الانبهار ببريق حضارة الغرب» إلى مرحلة النضج.. والدعوة إلى التجديد الحضارى بنموذج الإسلام.

تفسير سورة الفاتحة



لفضيلة الأستاذ الأكبر الإمام الشيخ محمد عبده

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾
الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ
عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ ﴾

«نزلت بعد المدثر»

سميت الفاتحة فاتحة؛ لأنها أول القرآن فى هذا الترتيب.. وتسمى أم الكتاب، وقالوا: إن حديث النهى عن تسميتها هذا الاسم موضوع.

ويتكلمون عند الكلام عن السور على المكى والمدنى، وهو يفيد فى معرفة الناسخ والمنسوخ. وليس فى الفاتحة ناسخ ولا منسوخ. وهى مكية خلافاً لمجاهد، فالإجماع على أن الصلاة كانت بالفاتحة لأول فريضتها، ولا ريب أن ذلك كان فى مكة.

وقالوا: هى المراد بالسبع المثانى فى قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾

(الحجر: ٨٧)

وهو مكى بالنص.

وقال بعضهم: إنها نزلت مرتين، مرة بمكة عند فريضة الصلاة، وأخرى بالمدينة حين حولت القبلة. وكأن صاحب هذا القول أراد الجمع بين القولين، وليس بشىء.

وقال كثيرون: إنها أول سورة أنزلت بتمامها.

والراجح عندى، أنها أول ما نزل من القرآن على الإطلاق.. ولا أستثنى من ذلك قوله تعالى:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

(العلق: ١ ـ ٥)

ومن آية ذلك، أن السنة الإلهية فى هذا الكون؛ سواء كان كون إيجاد أو كون تشريع، أن يظهر سبحانه الشىء مجملاً، ثم يتبعه التفصيل بعد ذلك تدريجاً. وما مثل الهدايات الإلهية إلا مثل البذرة والشجرة العظيمة؛ فهى فى بدايتها مادة حياة تحتوى على جميع أصولها، ثم تنمو بالتدريج حتى تسبق فروعها، بعد أن تعظم دوحتها، ثم تجود عليكم بثمرها.

والفاتحة مشتملة على مجمل ما ورد فى القرآن. وكل ما فيه تفصيل للأصول التى وضعت فيها. ولست أعنى بهذا ما يعبرون عنه بالإشارة ودلالة الحروف، كقولهم: إن أسرار القرآن فى الفاتحة، وأسرار الفاتحة فى البسملة، وأسرار البسملة فى الباء، وأسرار الباء فى نقطتها؛ فإن هذا لم يثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه- عليهم الرضوان- ولا هو معقول فى نفسه؛ وإنما هو من مخترعات الغلاة الذين ذهب بهم الغلو إلى إعدام القرآن خاصيته، وهى البيان.

وبيان ما أريد، هو: أن ما نزل القرآن لأجله أمور:

أحدها: التوحيد؛ لأن الناس كانوا كلهم وثنين، وإن كان بعضهم يدعى التوحيد.

ثانيها: وعد من أخذ به وتبشيره بحسن المثوبة، ووعيد من لم يأخذ به وإنذاره بسوء العقوبة. والوعد يشمل ما للأمة وما للأفراد، فيعم نعم الدنيا والآخرة وسعادتهما، والوعيد كذلك يشمل نقمهما وشقاءهما. فقد وعد الله المؤمنين بالاستخلاف فى الأرض والعزة والسلطان والسيادة، وأوعد المخالفين بالخزى والشقاء فى الدنيا. كما وعد فى الآخرة بالجنة والنعيم، وأوعد بنار الجحيم.

ثالثها: العبادة التى تحيى التوحيد فى القلوب وتثبته فى النفوس.

رابعها: بيان سبيل السعادة، وكيفية السير فيه، الموصل إلى نعيم الدنيا والآخرة.

خامسها: قصص من وقف عند حدود الله تعالى، وأخذ بأحكام دينه، وأخبار الذين تعدوا حدوده، ونبذوا أحكام دينه ظهرياً؛ لأجل الاعتبار واختيار طريق المحسنين، ومعرفة سنن الله فى البشر.

هذه هى الأمور التى احتوى عليها القرآن، وفيها حياة الناس وسعادتهم الدنيوية والأخروية، والفاتحة مشتملة عليها إجمالاً بغير ما شك ولا ريب.

فأما التوحيد: ففى قوله تعالى:

﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾

لأنه ناطق بأن كل حمد وثناء يصدر عن نعمة ما، فهو له تعالى. ولا يصح ذلك إلا إذا كان سبحانه مصدر كل نعمة فى الكون تستوجب الحمد، ومنها نعمة الخلق والإيجاد والتربية والتنمية. ولم يكتف باستلزام العبارة لهذا المعنى، فصرح به بقوله: ﴿ رب العالمين ﴾

ولفظ ﴿ رب ﴾ ليس معناه المالك والسيد فقط، بل فيه معنى: التربية والإنماء، وهو صريح بأن كل نعمة يراها الإنسان فى نفسه وفى الآفاق، منه عز وجل فليس فى الكون متصرف بالإيجاد والإشقاء والإسعاد سواه.

التوحيد أهم ما جاء لأجله الدين، ولذلك لم يكتف فى الفاتحة بمجرد الإشارة إليه، بل استكمله بقوله:

﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾

فاجتث بذلك جذور الشرك والوثنية التى كانت فاشية فى جميع الأمم، وهى اتخاذ أولياء من دون الله يستعان بهم على قضاء الحوائج فى الدنيا، ويتقرب بهم إلى الله زلفى. وجميع ما فى القرآن من آيات التوحيد ومقارعة المشركين هو تفصيل لهذا الإجمال.

وأما الوعد والوعيد: فالأول منهما مطوى فى:

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

فذكر الرحمة فى أول الكتاب، وهى التى وسعت كل شىء، بالإحسان، لاسيما وقد كررها مرة ثانية، تنبيها لنا على أمره إيانا بتوحيده وعبادته، رحمة منه سبحانه بنا؛ لأنه لمصلحتنا ومنفعتنا.

وقوله تعالى:

﴿ مالك يوم الدين ﴾

يتضمن الوعد والوعيد معا؛ لأن معنى الدين الخضوع، أى إن له تعالى، فى ذلك اليوم، السلطان المطلق والسيادة التى لا نزاع فيها، لا حقيقة ولا ادعاء، وأن العالم كله يكون فيه خاضعا لعظمته ظاهرا وباطنا، يرجو رحمته ويخشى عذابه، وهذا يتضمن الوعد والوعيد. أو معنى ﴿ الدين ﴾: الجزاء، وهو إما ثواب للمحسن، وإما عقاب للمسىء، وذلك وعد ووعيد.. زد على ذلك أنه ذكر بعد ذلك:

﴿ الصراط المستقيم ﴾

وهو الذى من سلكه فاز ومن تنكبه هلك، وذلك يستلزم الوعد والوعيد.

وأما العبادة: فبعد أن ذكرت فى مقام التوحيد بقوله:

﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾

أوضح معناها بعض الإيضاح فى بيان الأمر الرابع الذى يشملها ويشمل أحكام المعاملات وسياسة الأمة بقوله تعالى:

﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾

أى إنه قد وضع لنا صراطا سيبينه ويحدده، وتكون السعادة فى الاستقامة عليه هى روح العبادة. ويشبه هذا قوله تعالى:

﴿ والعصر ۝ إن الإنسان لفى خسر ۝ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾

(العصر: ١ - ٣)

فالتواصى بالحق والصبر هو كمال العبادة بعد التوحيد.

والفاتحة بجملتها تنفخ روح العبادة فى المتدبر لها. وروح العبادة هى إشراب القلوب خشية الله وهيبته والرجاء لفضله، لا الأعمال المعروفة من فعل وكف وحركات اللسان والأعضاء.. فقد ذكرت العبادة فى الفاتحة، قبل ذكر الصلاة وأحكامها والصيام وأيامه. وكانت هذه الروح فى المسلمين قبل أن يكلفوا بهذه الأعمال البدنية، وقبل نزول أحكامها التى فصلت فى القرآن تفصيلا ما؛ وإنما الحركات والأعمال مما يتوسل به على حقيقة العبادة، ومخ العبادة والفكر والعبرة.

وأما الأخبار والقصص: ففى قوله تعالى:

﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾

تصريح بأن هنالك قوما تقدموا، وقد شرع الله شرائع لهدايتهم، وصائح يصيح ألا فانظروا فى الشئون العامة التى كانوا عليها واعتبروا بها، كما قال الله تعالى لنبيه يدعوه إلى الاقتداء بمن كان قبله من الأنبياء:

﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾

(الأنعام: ٩٠)

حيث بين أن القصص إنما هو للعظة والاعتبار.

وفى قوله تعالى:

﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾

تصريح بأن من دون المنعم عليهم فريقين: فريق ضل عن صراط الله، وفريق جاحده وعاند من يدعو إليه؛ فكان محقوقا بالغضب الإلهى والخزى فى الحياة الدنيا. وباقى القرآن يفصل لنا فى أخبار الأمم هذا الإجمال على الوجه الذى يفيد العبرة، فيشرح حال الظالمين الذين قاوموا الحق عنادا، والذين ضلوا فيه ضلالا، وحال الذين حافظوا عليه وصبروا على ما أصابهم فى سبيله.

فتبين من مجموع ما تقدم أن الفاتحة قد اشتملت إجمالا على الأصول التى يفصلها القرآن تفصيلا؛ فكان إنزالها أولا موافقا لسنة الله تعالى فى الإبداع. وعلى هذا تكون الفاتحة جديرة بأن تسمى «أم الكتاب»، كما تقول: إن النواة أم النخلة؛ فإن النواة مشتملة على شجرة النخلة كلها حقيقة، لا كما قال بعضهم: إن المعنى فى ذلك أن الأم تكون أولا ويأتى بعدها الأولاد.

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾(١)

إنها على كل حال من القرآن، فنتكلم عليها كسائر الآيات.

القرآن إمامنا وقدوتنا، فافتتاحه بهذه الكلمة إرشاد لنا بأن نفتتح أعمالنا بها. فما معنى هذا؟ ليس معناه أن نفتتح أعمالنا باسم من أسماء الله

---

(١) يذكر الشيخ رشيد رضا أن الأستاذ الإمام قد أوجز فى التفسير اللغوى للبسملة، وهو لا يذكر حديثه اللغوى الموجز فيها.

تعالى، بأن نذكره على سبيل التبرك أو الاستعانة به، بل أن نقول هذه العبارة:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

فإنها مطلوبة لذاتها.

عندما تقول: إننى أذكر اسم الله تعالى كالعزيز والحكيم، لا تعنى أنك تذكر لفظ «اسم». فلو كان قولهم: إن المراد من الابتداء بالكلمة «بسم الله» التبرك باسم الله هو الصواب، لكان ينبغى أن يكون قولك «بالله الرحمن الرحيم» مثل:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

وقوله تعالى

﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾

(هود: ٤١)

وقد قال بعضهم: إن الإضافة ها هنا للبيان، أى أفتتح كلامى باسم هو الله. ولكن هذا يقتضى أن يكون لفظ ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ واردًا على اللفظ، وهو غير صحيح، وإرادة أن الأسماء الثلاثة هى المبينة للفظ الاسم تمحل ظاهر، فما المقصود إذن من هذا التعبير؟

مثل هذا التعبير مألوف عند جميع الأمم، ومنهم العرب. وهو أن الواحد منهم، إذا أراد أن يفعل أمرا ما لأجل أمير أو عظيم، بحيث يكون متجردا من نسبته إليه ومنسلخا عنه، يقول: عمله باسم فلان ويذكر اسم ذلك الأمير أو السلطان؛ لأن اسم الشىء دليل وعنوان عليه.

فإذا كنت أعمل عملاً لا يكون له وجود ولا عنه أثر، لولا السلطان الذى به أمر، أقول: إن عملى هو باسم السلطان، أى إنه معنون باسمه، ولولاه لما عملته. فمعنى أبتدئ عملى

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

أننى أعمل بأمره وله لا لى، ولا أعمله باسمى مستقلا به على أننى فلان. فكأنى أقول: إن هذا العمل لله لا لحظ نفسى.

وفيه وجه آخر: وهو أن القدرة التى أنشأت بها العمل هى من الله تعالى، فلولا ما منحنى منها لم أعمل شيئا، فلم يصدر عنى هذا العمل إلا باسم الله، ولم يكن باسمى؛ إذ لولا ما آتانى من القوة عليه لم أستطع أن آتيه، وقد تم هذا المعنى بلفظ ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ كما هو ظاهر. وحاصل المعنى، أننى أعمل متبرئا من أن يكون باسمى، بل هو باسمه تعالى، لأننى أستمد القوة والعناية منه، وأرجو إحسانه عليه، فلولاه لم أقدر عليه ولم أعمله، بل وما كنت عاملا له على تقدير القدرة عليه لولا أمره ورجاء فضله.. فلفظ الاسم معناه مراد، ومعنى لفظ الجلالة مراد أيضاً، وكذلك كل من لفظ الرحمن والرحيم.

وهذا الاستعمال معروف مألوف فى كل اللغات، وأقربه إليكم اليوم ما ترون فى المحاكم النظامية؛ حيث يبتدئون الأحكام قولاً وكتابة باسم السلطان فلان أو الخديوى فلان.

ومعنى البسملة فى الفاتحة، أن جميع ما يقرر فى القرآن من الأحكام والآيات وغيرها هو لله ومنه، ليس لأحد غير الله فيه شىء.

﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

مشتقان من الرحمة، وهى معنى يلم بالقلب، فيبعث صاحبه ويحمله على الإحسان إلى غيره، وهو محال على الله تعالى بالمعنى المعروف عند البشر؛ لأنه فى البشر ألم فى النفس شفاؤه الإحسان، والله تعالى منزه عن الآلام والانفعالات؛ فالمعنى المقصود بالنسبة إليه من الرحمة أثرها وهو الإحسان.. وقد مشى «الجلال» فى تفسيره وقد تبعه «الصبان» على أن

﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

بمعنى واحد[٢]، وأن الثانى تأكيد للأول.. ومن العجيب أن يصدر مثل هذا القول عن عالم مسلم، وما هى إلا غفلة نسأل الله أن يسامح صاحبها.

وأنا لا أجيز لمسلم أن يقول فى نفسه أو بلسانه: إن فى القرآن كلمة تغاير أخرى، ثم تأتى لمجرد تأكيد غيرها، بدون أن يكون لها فى نفسها معنى تستقل به.. نعم.. قد يكون فى معنى الكلمة ما يزيد معنى الأخرى تقريراً أو إيضاحاً، ولكن الذى لا أجيزه هو أن يكون معنى الكلمة هو عين معنى الأخرى، بدون زيادة، ثم يؤتى بها لمجرد التأكيد لا غير، بحيث تكون مما يسمى بالمترادف فى عرف أهل اللغة؛ فإن ذلك لا يقع إلا فى كلام من يرمى فى لفظه إلى مجرد التنميق والتزويق، وفى العربية طرق للتأكيد ليس هذا منها.

وأما ما يسمونه بالحرف الزائد، الذى يأتى للتأكيد، فهو حرف وضع لذلك، ومعناه هو التأكيد، وليس معناه معنى الكلمة التى يؤكدها. فالباء فى قوله تعالى:

﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾

(الفتح: ٢٨)

تؤكد معنى اتصال الكفاية بجانب الله جل شأنه بذاتها ومعناها الذى وضعت له. ومعنى وصفها بالزيادة أنها كذلك فى الإعراب..

وكذلك معنى «من» فى قوله:

﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

(البقرة: ١٠٢)

ونحو ذلك.

أما التكرار للتأكيد أو التقريع أو التهويل، فأمر سائغ فى أبلغ الكلام، عندما يظهر ذلك القصد منه، كتكرارات جملة:

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[٣]

(الرحمن: ١٣)

ونحوها عقيب ذكر كل نعمة. وهى عند التأمل ليست مكررة؛ فإن معناها: أفبهذه النعمة تكذبان؟! وهكذا كل ما جاء فى القرآن على هذا النحو.

والجمهور على أن معنى ﴿ الرَّحْمَٰنِ ﴾

(٢) عبارة الجلال «الرحمن الرحيم» أى ذى الرحمة، وهى إرادة الخير لأهله. انظر تفسير الجلالين ص٥٥٥، طبعة دار الشعب، القاهرة سنة ١٩٧٠م.

(٣) الرحمن: ١٣، ١٦، ١٨، ٢١، ٢٣، ٢٥، ٢٨، ٣٠، ٣٢، ٣٤، ٣٦، ٣٨، ٤٠، ٤٢، ٤٥، ٤٧، ٤٩، ٥١، ٥٣، ٥٥، ٥٧، ٥٩، ٦١، ٦٣، ٦٥، ٦٧، ٦٩، ٧١، ٧٣، ٧٥، ٧٧.

المنعم بجلائل النعم، ومعنى ﴿الرَّحِيمِ﴾: المنعم بدقائقها. وبعضهم يقول: إن ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾، هو المنعم بنعم عامة تشمل الكافرين مع غيرهم، و﴿الرَّحِيمِ﴾: المنعم بالنعم الخاصة بالمؤمنين. وكل هذا تحكم في اللغة، مبني على أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى. ولكن الزيادة تدل على زيادة الوصل مطلقا. فصفة ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ تدل على كثرة الإحسان الذي يعطيه، سواء كان جليلاً أو دقيقاً. وأما كون أفراد الإحسان التي يدل عليها اللفظ الأكثر حروفا أعظم من أفراد الإحسان التي يدل عليها اللفظ الأقل حروفا، فهو غير معنى ولا مراد.

وقد قارب من قال: إن معنى ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾: المحسن بالإحسان العام، ولكنه أخطأ في تخصيص مدلول ﴿الرَّحِيمِ﴾ بالمؤمنين. ولعل الذي حمل من قال: إن الثاني مؤكد للأول على قوله هذا، هو عدم الاقتناع بما قالوه من التفرقة مع عدم التفطن لما هو أحسن منه.

والذي أقول: إن صيغة فعلان تدل على وصف فعلي فيه معنى المبالغة كفعال، وهو في استعمال اللغة للصفات العارضة، كعطشان وغرثان وغضبان. وأما صيغة فعيل، فإنها تدل في الاستعمال على المعاني الثابتة كالأخلاق والسجايا في الناس، كعليم وحكيم وجميل.

والقرآن لا يخرج عن الأسلوب العربي البليغ، في الحكاية عن صفات الله عز وجل، التي تعلو عن مماثلة صفات المخلوقين. فلفظ الرحمن، يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل، وهي إفاضة النعم والإحسان. ولفظ ﴿الرَّحِيمِ﴾، يدل على منشأ هذه الرحمة والإحسان، وعلى أنها من الصفات الثابتة الواجبة. وبهذا المعنى، لا يستغنى بأحد الوصفين عن الآخر، ولا يكون الثاني مؤكدا للأول.

فإذا سمع العربي وصف الله جل ثناؤه بالرحمن، وفهم منه أنه المفيض بالنعم فعلاً، لا يعتقد منه أن ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ من الصفات الواجبة له دائما لأن الفعل قد ينقطع إذا كان لم يكن عن صفة لازمة ثابتة، وإن كان كثيراً. فعندما يسمع لفظ ﴿الرَّحِيمِ﴾، يكمل اعتقاده على الوجه الذي يليق بالله تعالى، ويرضيه سبحانه، ويعلم أن لله صفة ثابتة هي صفة الرحمة التي عنها يكون أثرها، وإن كانت تلك الصفة على غير مثال صفات المخلوقين، ويكون ذكرها بعد ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ كذكر الدليل بعد المدلول ليقوم برهانا عليه(٤).

رسالة إلى أحد العلماء(٥)

حضرة الأستاذ الفاضل..

أثابك الله على صدق مودتك، ونفعني بإخلاص الصادقين من أمثالك، ووفقني الله وإياك للعمل فيما يفيد هذه الأمة، التي تهكتها البدع، وقتلها الزيغ عن الطريق المتبع. وإني أحمد الله على هذه البقية في المسلمين - بقية صالحة في نفوس مستعدة تنشد الحق وتتلمسه، فإذا عثرت عليه حنت إليه - أمدها الله بالسعي الدائب، والغذاء الصالح، حتى تنمو وتكون شجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. لا أزيدك وصية بمزاولة البحث فيما ينقي العقائد من شبهة الإشراك، وغرور اليأس والأمل، وجراثيم التواكل والكسل، ثم نشر ذلك بكل وسيلة تمكن منه، ثم بالصبر على ما يقول المقلدون، ويهذي به المتكبرون، ممن يلقبون «بالعلماء»، وهم لا يعلمون. ففي مثلهم يقول الله:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ﴾

(الأعراف: ١٤٦)

ولا يكون كبر في الأرض بغير الحق مثل هذا الكبر الذي ترتديه هذه النصب، وتظهر في سرابيله هذه التماثيل التي ينحلها الناس ما ليس لها، ويسمونها بأسماء لم ينزل الله بها من سلطان، وما هؤلاء القوم إلا أولئك السادات الذين سيقول المغترون بهم:

﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾

(الأحزاب: ٦٧)

أسأل الله أن يعينك على من يليك، ويوفقك لتأييد كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

أما مسألة التأكيد، فالأمر فيها سهل. وتعلم أنني ممن يكتب، ويقال: إن لي حظا من معرفة دقائق البلاغة، وإن كنت لا أحسب لنفسي في ذلك حسابا. ولا أزال أستعمل التوكيد في كلامي، وأذوق لذته، وأعرف موقعه من كلام غيري، وأنكر العبارة تخلو منه وهي محتاجة إليه، وهو معنى من المعاني المقصودة التي وضعت لها في اللغة ألفاظ خاصة كلفظ «إن» و«اللام» ونحوهما.

ثم من الألفاظ ما يكون فيه شيء من معنى الآخر، فيؤتى باللفظين ليؤكد أحدهما الآخر بما فيه من المعنى المشترك، ثم يزيد بما انفرد به، كالسيف وال[illegible]. كل هذا لا أنكر شيئاً منه. ولكني أنكر الذي يلجئون إليه بدون بيان صحيح، فيقال: كلمة كذا توكيد، بدون بيان وجه التوكيد، أو لفظ كذا زائد، كما يقول «الجلال»(٦) في قوله تعالى:

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا﴾

(البقرة: ١٣٧)

(٤) تضع في سياق تفسير الأستاذ الإمام لفاتحة الكتاب هنا، تلك الرسالة التي بعث بها إلى أحد العلماء، والتي دار معظمها حول تفسير اسمي الله (الرحمن الرحيم)، لما في هذه الرسالة من إضافة وتأكيد يجعل هذا المكان هو مكانها المناسب من أعماله في تفسير القرآن.

(٥) هي رسالة تتعلق برأي الأستاذ الإمام لفظ (الرحمن) في البسملة المفتتحة بها سور القرآن الكريم.. وهي رسالة جوابية على أحد العلماء.

(٦) هو جلال الدين السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ/١٤٤٥-١٥٠٥م)- صاحب «الإتقان في علوم القرآن»- وغيره من المؤلفات المتنوعة التي بلغت -فيما يقال- الخمسمائة. وهو من أبرز كتاب عصر المماليك.

إن لفظ «مثل» زائد، تعالى الكتاب عن ذلك[7]. «فالجلال» و«الصبان»[8] قالا: إن كلمة ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ توكيد، لظنهما أن لا معنى في ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ سوى ما في ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾. وإني أنزه القرآن عما ظنا، حتى لو قصد التوكيد فإنه يكون بمنزلة ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وإنما غاير اللفظ للتحلية، وهذا ما أبرئ القرآن منه. والذى صرحت به فى هذا المعنى، سبقنى إليه «ابن جرير الطبرى»[9].. فقد صرح بأنه لا يوجد فى القرآن كلمة زائدة لغير معنى مقصود، وهو الذى عنيته.

أما احتمال التوكيد، والوجه الذى ذكرته، فإنى لا أراه؛ لأنه لا علاقة بين التوحيد ومعنى الرحمة، ولو ذكر جميع الألفاظ المترادفة فى هذا المعنى لم يفد شيئا فى نفى التعدد.. ولم يسبق فى التاريخ أن أحدا ذهب إلى أن ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ معبود و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ معبود آخر حتى يرد عليه بأنهما شىء واحد، ولكن الذى عرف هو قول النصارى: فى ابتداء شئونهم: باسم الأب والابن والروح القدس، وهو فى زعمهم ثلاثة مختلفة الآحاد مع أنها واحد. فأراد الله أن يجعل للمسلمين فاتحة أعمال تحتوى على ثلاثة معان: الأول ذات، والآخران صفتان. فلفظ الجلالة هو الذات، وهو يقابل الأب عندهم. و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وصف الفعل المتجدد الصادر من فيض الكرم، وهو يقابل الابن، لزعمهم أنه منبثق من الذات. و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: يدل على الصفة الثابتة للذات الأقدس، وهى التى يرجع إليها الفعل المتجدد، وباعتبارها يصدر ويتجدد، وهو يقابل روح القدس، فإنه عندهم الصلة بين الأب والابن، وإن حاولوا ستر ذلك بضروب من العبارات. فأراد الكتاب أن يعلمنا كيف نضع التوحيد مكان التثليث، ونستبدل بألفاظ التشبيه خيرا منها من ألفاظ التنزيه، ولا يفوتنا المعنى الذى يحتج بقصده من الأب والابن والروح القدس، وهو معنى الرحمة وإفاضة النعمة. وهذا هو وجه تكرير هذه الفاتحة الكريمة فى كل سورة، والندب إلى الافتتاح بها فى كل عمل ذى بال. ولكن غفل كثير من المسلمين عن مرامى إشارات الكتاب، فأتوا من عند أنفسهم بما ليس من معناه فى شىء.

لا أجد وقتاً لإطالة البحث فيما ذكرت عن «السعد»[10] وغيره، وأظن أن فيما كتبته كفاية لذكر مثلك، وأرجو أن لا تنقطع عن مراسلتى، والسلام.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

(٧) انظر تفسير الجلالين: ص٢٣.

(٨) أحد علماء اللغة المشهورين.

(٩) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى- (٨٣٨- ٩٢٣م)- صاحب «تفسير الطبرى» للقرآن، وصاحب التاريخ المعروف بأخبار الرسل والملوك، والذى يعد أول تاريخ كامل فى اللغة العربية.

(١٠) هو السعد التفتازانى، عالم البلاغة المشهور.

.. قالوا: إن معنى ﴿ٱلْحَمْدُ﴾: الثناء باللسان، وقيدوه بالجميل؛ لأن كلمة «ثناء» تستعمل فى المدح والذم جميعاً. يقال: أثنى عليه شراً، كما يقال: أثنى عليه خيراً.. ويقولون: إن «ال» التى فى ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ هى للجنس فى أى فرد من أفراده، لا للاستغراق، ولا للعهد الخصوص؛ لأنه لا يصار إلى كل منهما فى فهم الكلام إلا بدليل، وهو غير موجود فى الآية. ومعنى كون الحمد لله تعالى بأى نوع من أنواعه، هو أن أى شىء يصح الحمد عليه فهو مصدره وإليه مرجعه، فالحمد لله على كل حال.

وهذه الجملة خبرية، ولكنها استعملت لإنشاء الحمد. فأما معنى الخبرية فهو إثبات أن الثناء الجميل فى أى أنواعه تحقق، فهو ثابت له تعالى وراجع إليه؛ لأنه متصف بكل ما يحمد عليه الحامدون، فصفاته أجمل الصفات، وإحسانه عم جميع الكائنات؛ ولأن جميع ما يصح أن يتوجه إليه الحمد مما سواه فهو منه جل ثناؤه، إذ هو مصدر الكون كله، فيكون له ذلك الحمد أولاً وبالذات.

والخلاصة: أن أى حمد يتوجه إلى محمود ما فهو لله تعالى، سواء لاحظه الحامد أو لم يلاحظه، وأما معنى الإنشائية فهو أن الحامد جعلها عبارة عما وجهه من الثناء إلى الله تعالى فى الحال.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

يشعر هذا الوصف ببيان وجه الثناء المطلق، ومعنى الرب: السيد المربى الذى يسوس مسوده ويربيه ويدبره، و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جمع عالم، جمعه جمع المذكر العاقل تغليبا، وأراد به جميع الكائنات الممكنة، أى إنه رب كل ما يدخل فى مفهوم لفظ العالم. وما جمعت العرب لفظ العالم هذا الجمع إلا لنكتة تلاحظها فيه، وهى أن هذا اللفظ لا يطلق عندهم على كل كائن وموجود كالحجر والتراب، وإنما يطلقونه على كل جملة متمايزة لأفرادها صفات تقربها من العاقل الذى جمعت جمعه إن لم تكن منه؛ فيقال: عالم الإنسان وعالم الحيوان، وعالم النبات. ونحن نرى أن هذه الأشياء هى التى يظهر فيها معنى التربية الذى يعطيه لفظ ﴿رَبِّ﴾؛ لأن فيها مبدأها، وهو الحياة والتغذى والتوالد، وهذا ظاهر فى الحيوان.

ولقد كان «السيد»[11] رحمه الله تعالى يقول: الحيوان شجرة قطعت رجلها من الأرض، فهى تمشى، والشجرة حيوان ساخت رجلاه فى الأرض، فهو قائم فى مكانه يأكل ويشرب وإن كان لا ينام ولا يعقل.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

.. تقدم معناهما، وبقى الكلام فى إعادتهما والنكتة فيها ظاهرة، وهى أن تربيته للعالمين ليست لحاجة به إليهم كجلب منفعة أو دفع مضرة وإنما هى لعموم رحمته وشمول إحسانه. ثم نكتة أخرى، وهى أن البعض

(١١) هو جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩-١٨٩٧م) وكان يطلق عليه لقب «السيد» فى كتابات عصره وعصر الأستاذ الإمام، لصلة النسب التى تصله بآل النبى عليه الصلاة والسلام.

يفهم من معنى «الرب» الجبروت والقهر فأراد الله تعالى أن يذكرهم برحمته وإحسانه ليجمعوا بين اعتقاد الجلال والجمال؛ فذكر الرحمن وهو المفيض للنعم بسعة وتجدد لا منتهى لهما، والرحيم الثابت له وصف الرحمة لا يزايله أبداً. فكأن الله تعالى أراد أن يتحبب إلى عباده فعرفهم أن ربوبيته ربوبية رحمة وإحسان ليعلموا أن هذه الصفة هى التى ربما يرجع إليها معنى الصفات، وليتعلقوا به ويقبلوا على اكتساب مرضاته منشرحة صدورهم مطمئنة قلوبهم.

ولا ينافى عموم الرحمة وسبقها ما شرعه الله من العقوبات فى الدنيا وما أعده من العذاب فى الآخرة للذين يتعدون الحدود وينتهكون الحرمات؛ فإنه وإن سمى قهراً بالنسبة لصورته ومظهره فهو فى حقيقته وغايته من الرحمة؛ لأن فيه تربية للناس وزجراً لهم عن الوقوع فيما يخرج عن حدود الشريعة الإلهية وفى الانحراف عنها شقاؤهم وبلاؤهم، وفى الوقوف عندها سعادتهم ونعيمهم، والوالد الرءوف يربى ولده بالترغيب فيما ينفعه والإحسان عليه إذا قام به وربما لجأ إلى الترهيب والعقوبة إذا اقتضت ذلك الحال. ولله المثل الأعلى لا إله إلا هو وإليه يرجعون.

﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾

.. قرأ عاصم والكسائى ويعقوب: ﴿ مَٰلِكِ ﴾ والباقون «ملك»، وعليها أهل الحجاز، والفرق بينهما أن المالك ذو المِلك (بكسر الميم) والملك ذو المُلك (بضمها)، والقرآن يشهد للأولى بمثل قوله:

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ﴾

(الانفطار: ١٩)

وللثانية بقوله:

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾

(غافر: ١٦)

قال بعضهم: إن قراءة ملك أبلغ، لأن هذا اللفظ يفهم منه معنى السلطان والقوة والتدبير، وقال آخرون: إن القراءة الأخرى أبلغ لأن المالك هو الذى يدبر أعمال رعيته العامة ولا تصرف له بشىء من شئونهم الخاصة، وإنما تظهر هذه التفرقة فى عبد مملوك فى مملكة لها سلطان، ولا ريب أن مالكه هو الذى يتولى جميع شئونه دون سلطانه.

و﴿ ٱلدِّينِ ﴾ يطلق فى اللغة على المكافأة وورد: «كما تدين تدان»، وقال الشاعر:

ولم يبق سوى العدوان
دناهم كما دانوا

وعلى الجزاء وهو قريب من معنى المكافأة، وعلى الطاعة وعلى الإخضاع وعلى السياسة، يقال دِين فلان فلاناً أى تولى سياسته، وهو قريب من معنى الإخضاع، وعلى الشريعة، وما يؤخذ العباد به من التكاليف.. والمناسب هنا من هذه المعانى الجزاء والخضوع، وإنما قال: ﴿ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ولم يقل: «الدين» لتعريفنا بأن للدين يوماً ممتازاً عن سائر الأيام وهو اليوم الذى يلقى فيه كل عامل عمله ويوفى جزاءه.

ولسائل أن يسأل: أليست كل الأيام أيام جزاء، وكل ما يلاقيه الناس فى هذه الحياة من البؤس هو جزاء على تفريطهم فى أداء الحقوق، والقيام بالواجبات عليهم؟

والجواب: بلى، إن أيامنا التى نحن فيها قد يقع فيها الجزاء على أعمالنا، ولكن ربما لا يظهر لأربابه إلا على بعضها دون جميعها. والجزاء على التفريط فى العمل الواجب إنما يظهر فى الدنيا ظهوراً تاماً بالنسبة لمجموع الأمة لا لكل فرد من الأفراد، فما من أمة انحرفت عن صراط الله المستقيم، ولم تراع سننه فى خليقته إلا وأحل بها العدل الإلهى ما تستحق من الجزاء، كالفقر والذل وفقد العزة والسلطة.. وأما الأفراد فإننا نرى كثيراً من المسرفين الظالمين يقضون أعمارهم منغمسين فى الشهوات واللذات، نعم إن ضمائرهم توبخهم أحياناً، وإنهم لا يسلمون من المنغصات، وقد يصيبهم النقص فى أموالهم وعافية أبدانهم وقوة عقولهم، ولكن هذا كله لم يقابل بعض أعمالهم القبيحة، لاسيما الملوك والأمراء الذين تشقى بأعمالهم السيئة أمم وشعوب. كذلك نرى من المحسنين فى أنفسهم وللناس من يبتلى بهضم الحقوق ولا ينال من الجزاء على عمله شيئاً مما يستحقه، وإن كان قد ينال من الجزاء رضى نفسه، وسلامة أخلاقه، وصحة ملكاته، ولكن ذلك ليس كل ما يستحق، وفى ذلك اليوم يوفى كل فرد من أفراد العالمين جزاءه كاملاً لا يظلم شيئاً منه، كما قال تعالى:

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾

(الزلزلة: ٧، ٨)

علمنا الله أنه رحمان رحيم، ليجذب قلوبنا إليه، ولكن.. هل يشعر كل عباده بهذه المنة فينجذبوا إليه الانجذاب المطلوب؟.. كلا..!!.. أليس فينا من يسلك كل سبيل؟ لا يبالى بمستقيم ومعوج؟.. بلى! ولهذا أعقب سبحانه ذكر الرحمة بذكر الدين، فعرفنا أنه يدين العباد ويجازيهم على أعمالهم. فكان من رحمته بعباده أن رباهم بنوعى التربية كليهما ـ الترغيب والترهيب ـ كما تشهد بذلك آيات القرآن الكثيرة:

﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾

(الحجر: ٤٩، ٥٠)



أقسام السنة النبوية عند الإمام ولى الله الدهلوى

(١١١٠ - ١١٧٦هـ / ١٦٩٩ - ١٧٦٢م)

التعريف به:

- هو أبو عبد العزيز، شاه ولى الله الدهلوى، أحمد بن عبد الرحيم الفاروقى.
- من أهل دهلى - بالهند - وفيها ولد ونشأ.
- فقيه حنفى.. من الأصوليين.. والمحدثين، والمفسرين.. والمؤرخين.
- نهض بدور الإمامة فى إحياء السنة النبوية بالهند.. ومثلت آثاره الفكرية المراجع فى هذا الإحياء.. ولقد شاركه فيه أولاده.. وأولاد ابنته.. وتلاميذهم.
- من آثاره الفكرية:

١ - (حجة الله البالغة) - فى مجلدين - وهو الذى عرض فيه لأقسام العلم النبوى - السنة الشريفة.

٢ - (الفوز الكبير فى أصول التفسير).

٣ - فتح الخبير بما لابد من حفظه فى علم التفسير.

٤ - (إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء).

٥ - (الارشاد إلى مهمات الإسناد).

٦ - (الانصاف فى أسباب الخلاف).

٧ - عقد الجيد فى أحكام الاجتهاد والتقليد.

٨ - (فتح الرحمن فى ترجمة القرآن) - وهو ترجمة لمعانى القرآن الكريم إلى الفارسية على شاكلة النظم العربى - والدهلوى هو أول من أتقن هذا الفن، ودوّن أصوله.[١]

(١) انظر: خير الدين الزركلى (الأعلام).

باب بيان أقسام علوم النبى ﷺ [٢]

أعلم أن ماروى عن النبى ﷺ ودوّن فى كتب الحديث على قسمين:

أحدهما: ما سبيله سبيل تبليغ الرسالة وفيه قوله تعالى:

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾

(الحشر: ٧)

منه علوم المعاد وعجائب الملكوت وهذا كله مستند إلى الوحى[٣] ومنه شرائع وضبط للعبادات والارتفاقات بوجوه الضبط المذكورة فيما سبق، وهذه بعضها مستند إلى الوحى وبعضها مستند إلى الاجتهاد، واجتهاده ﷺ بمنزلة الوحى؛ لأن الله تعالى عصمه من أن يتقرر رأيه على الخطأ، وليس يجب أن يكون اجتهاده استنباطاً من المنصوص كما يظن، بل أكثره أن يكون علّمه الله تعالى مقاصد الشرع وقانون التشريع والتيسير والأحكام فبين المقاصد المتلقاة بالوحى بذلك القانون، ومنه[٤] حكم مرسلة ومصالح مطلقة لم يوقتها ولم يبين حدوده كبيان الأخلاق الصالحة وأضدادها، ومستندها غالباً الاجتهاد؛ بمعنى أن الله تعالى علّمه قوانين الارتفاقات فاستنبط منها حكمة وجعل فيها كلية، ومنه فضائل الأعمال ومناقب العمال، وأرى أن بعضها مستند إلى الوحى وبعضها إلى الاجتهاد، وقد سبق بيان تلك القوانين، وهذا القسم هو الذى نقصد شرحه وبيان معانيه.

وثانيهما: ما ليس من باب تبليغ الرسالة وفيه قوله ﷺ: «إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر»، وقوله ﷺ فى قصة تأبير النخل: «فإنى إنما ظننت ظنا ولا تؤاخذونى بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فإنى لم أكذب على الله» فمنه الطب ومنه باب قوله ﷺ: «عليكم بالأدهم الأقرح»[٥] ومستنده التجربة، ومنه ما فعله النبى ﷺ على سبيل العادة دون العبادة وبحسب الاتفاق دون القصد، ومنه ما ذكره كما كان يذكر قومه؛ كحديث أم زرع وحديث خرافة وهو قول زيد بن ثابت حيث دخل عليه نفر فقالوا له: حدثنا أحاديث رسول الله ﷺ: قال «كنت جاره فكان إذا نزل عليه الوحى

(٢) (حجة الله البالغة) (ص١٢٨ - ١٣١) طبعة القاهرة - الأولى - سنة (١٣٥٢هـ).

(٣) أى ليس للاجتهاد فيه دخل. أ.هـ.

(٤) أى مما سبيله سبيل تبليغ الرسالة أ.هـ.

(٥) الأدهم من الخيل الذى يشتد سواده، والأقرح الذى فى جبهته بياض يسير دون الغرّة أ.هـ.

بعث إلي فكتبته له، فكان إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا، فكل هذا أحدثكم عن رسول الله ﷺ»[6]. ومنه ما قصد به مصلحة جزئية يومئذ وليس من الأمور اللازمة لجميع الأمة، وذلك مثل ما يأمر به الخليفة من تعبئة الجيوش وتعيين الشعار[7] وهو قول عمر رضي الله عنه: مالنا وللرمل كنا نتراءى[8] به قوماً قد أهلكهم الله، ثم خشي أن يكون له سبب آخر، وقد حُمل كثير من الأحكام عليه كقوله ﷺ: «من قتل قتيلا فله سلبه»[9] ومنه حكم وقضاء خاص وإنما كان يتبع فيه البينات والأيمان، وهو قوله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «الشاهد يرى مالا يراه الغائب».

باب

الفرق بين المصالح والشرائع

اعلم أن الشارع أفادنا نوعين من العلم متمايزين بأحكامهما متباينين في منازلهما:

• فأحد النوعين: علم المصالح والمفاسد أعني ما بينه من تهذيب النفس باكتساب الأخلاق النافعة في الدنيا أو في الآخرة وإزالة أضدادها ومن تدبير المنزل وآداب المعاش وسياسة المدينة غير مقدر لذلك بمقادير معينة ولا ضابط مبهمه بحدود مضبوطة ولا مميز لمشكله بأمارات معلومة، بل رغّب في المحامد وزهد في الرذائل تاركاً كلامه إلى ما يفهم منه أهل اللغة مديراً للطلب أو المنع على أنفس المصالح لا على مظان منصوبة لها وأمارات معرفة إياها كما مدح الكيس والشجاعة، وأمر بالرفق والتودد والقصد في المعيشة، ولم يبين أن الكيس مثلا ما حده الذي يدور عليه الطلب وما مظنته التي يؤاخذ الناس بها وكل مصلحة حثنا الشرع عليها وكل مفسدة ردعنا[10] عنها فإن ذلك لا يخلو من الرجوع إلى أحد أصول ثلاثة:

• أحدها: تهذيب النفس بالخصال الأربع النافعة في المعاد أو سائر الخصال النافعة في الدنيا.

• وثانيها: إعلاء كلمة الحق وتمكين الشرائع والسعي في إشاعتها.

• وثالثها: انتظام أمر الناس وإصلاح ارتفاقاتهم وتهذيب رسومهم.

ومعنى رجوعها إليها أن يكون للشيء دخل في تلك الأمور إثباتاً لها أو نفياً إياها بأن يكون شعبة من خصلة منها أو ضدا لشعبتها أو مظنة لوجودها أو عدمها أو متلازماً معها أو مع ضدها أو طريقاً إليها أو إلى الإعراض عنها، والرضا في الأصل إنما يتعلق بتلك المصالح، والسخط إنما يناط بتلك المفاسد قبل بعث الرسل وبعده سواء. ولولا تعلق الرضا والسخط بتينك القبيلتين لم يبعث الرسل؛ وذلك لأن الشرائع والحدود إنما كانت بعد بعث الرسل، فما كان في التكليف بها والمؤاخذة عليها ابتداء لُطف، ولكن المصالح والمفاسد كانت مؤثرة مقتضية لتهذيب النفس أو تلويثها أو انتظام أمورهم أو فسادها قبل بعث الرسل، فاقتضى لطف الله أن يخبروا بما يهمهم ويكلفوا بما لا بدل لهم منه، ولم يكن يتم ذلك إلا بمقادير وشرائع فاقتضى اللطف تلك القبيلة[11] بالعرض، وهذا النوع معقول المعنى، فمنه ما تستقل العقول العامية بفهمه، ومنه ما لا يفهمه إلا عقول الأذكياء الفائض عليهم الأنوار من قلوب الأنبياء، تبههم الشرع فتنبهوا، ولوّح لهم فتفطنوا، ومن أتقن الأصول التي ذكرناها لم يتوقف في شيء منها.

• والنوع الثاني: علم الشرائع والحدود والفرائض، أعني ما بيّن الشرع من المقادير، فنصب للمصالح مظان وأمارات مضبوطة معلومة، وأدار الحكم عليها، وكلف الناس بها، وضبط أنواع البر بتعيين الأركان والشروط والآداب، وجعل من كل نوع حداً يطلب منهم لا محالة، وحداً يندبون إليه من غير إيجاب، واختار من كل بر عدداً يوجب عليهم، وآخر يندبون إليه، فصار التكليف متوجهاً إلى أنفس تلك المظان، وصارت الأحكام دائرة على أنفس تلك الأمارات، ومرجع هذا النوع إلى قوانين السياسة الملية، وليس كل مظنة لمصلحة توجب عليهم، ولكن ما كان منها مضبوطاً أمراً محسوساً أو وصفاً ظاهراً يعلمه الخاصة والعامة، وربما يكون للإيجاب والتحريم أسباب طارئة يكتب لأجلها في الملأ الأعلى فيتحقق هنالك صورة الإيجاب والتحريم كسؤال سائل ورغبة قوم فيه أو إعراضهم عنه.

وكل ذلك غير معقول المعنى، بمعنى أنا وإن كنا نعلم قوانين التقدير والتشريع فلا نعلم وجود كتابته في الملأ الأعلى وتحقق صورة الوجوب في حظيرة القدس إلا بنص الشرع؛ فإنه من الأمور التي لا سبيل إلى إدراكها إلا بالإخبار الإلهي، مثل ذلك كمثل الجمد؛ نعلم أن سبب حدوثه برودة تضرب الماء ولا نعلم

---

(6) أي لا أستطيع أن أذكر كل هذه الأمور، فكل هذا – بمعنى أفكل هذا – يعني الاستفهام إنكاري. اهـ. (الحديث: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي).

(7) هو علامة تعين بين الأفواج ليعرف بها الموافق من المخالف. اهـ.

(8) أي نُظهر ونُري المشركين بالرمل أنا أقوياء. اهـ.

(9) مصنف ابن أبي شيبة.

(10) أي زجرنا. اهـ.

(11) أي تقدير المقادير.

أن ماء القعب في ساعتنا هذه صار جمداً أو لا إلا بالمشاهدة أو إخبار من شاهد، فعلى هذا القياس تعلم أنه لابد من تقدير النصاب في الزكاة، وتعلم أن مائتي درهم وخمسة أوساق قدر صالح للنصاب؛ لأنه يحصل بهما غنى معتد به، وهما أمران مضبوطان مستعملان عند القوم، ولا نعلم أن الله تعالى كتب علينا هذا النصاب وأدار الرضا والسخط عليه إلا بنص الشرع. كيف وكم من سبب له لا سبيل إلى معرفته إلا الخبر وهو قوله ﷺ: «أعظم المسلمين في المسلمين جرماً»[12] الحديث وقوله ﷺ: «خشيت أن يكتب عليكم».[13]

وقد اتفق من يعتد به من العلماء على أن القياس لا يجرى في باب المقادير وعلى أن حقيقة القياس تعدية حكم الأصل إلى الفرع لعلة مشتركة لا جعل مظنة مصلحة علة أو جعل شيء مناسب ركناً أو شرطاً، وعلى أنه لا يصلح القياس لوجود المصلحة ولكن لوجود علة مضبوطة أدير عليها الحكم، فلا يقاس مقيم به حرج على المسافر في رخص الصلاة والصوم فإن دفع الحرج مصلحة الترخيص لا علة القصر والإفطار وإنما العلة هي السفر.

فهذه المسائل لم يختلف فيها العلماء إجمالاً ولكن يحملها أكثرهم عند التفصيل، وذلك لأنه ربما تشتبه المصلحة بالعلة والتشريع، وبعض الفقهاء عندما خاضوا في القياس تحيروا فلجوا ببعض المقادير وأنكروا استبدالها بما يقرب منها وتسامحوا في بعضها فنصبوا أشياء مقامها، مثال ذلك: تقديرهم نصاب القطن بخمسة أحمال، ونصبهم ركوب السفينة مظنة لدوران الرأس، وإدارة رخصة القعود في الصلاة عليه، وتقدير الماء بالعشر في العشر، وكلما أفهم الشرع المصلحة في موضع فوجدنا تلك المصلحة في موضع آخر عرفنا أن الرضا يتعلق بهما بعينها لا بخصوص ذلك الموضع، بخلاف المقادير فإن الرضا يتعلق هناك بالمقادير أنفسها.

تفصيل ذلك أن من ترك صلاة وقت كان آثماً، وإن شغل ذلك الوقت بالذكر وسائر الطاعات، ومن ترك زكاة مفروضة وصرف أكثر من ذلك المال في وجوه الخير كان آثماً وكذلك إن لبس الحرير والذهب في الخلوة حيث لا يتصور كسر قلوب الفقراء وحمل الناس. على الإكثار من الدنيا ولم يقصد به الترفه كان آثماً، وكذلك إن شرب الخمر بنية التداوى ولم يكن هناك فساد ولا ترك صلاة كان آثماً؛ لأن الرضا والسخط متعلقان بأنفس هذه الأشياء وإن كان الغرض الأصلي كبحهم عن المفاسد وحملهم على المصالح، لكن الحق علم أن سياسة الأمة لا تمكن في هذا

(12) مسند البزار.

(13) انظر: صحيح وضعيف سنن النسائي للألباني.

الوقت إلا بإيجاب أنفس هذه الأشياء وتحريمها فتوجه الرضا والسخط إلى أنفسها وكتب ذلك في الملأ الأعلى، بخلاف ما إذا لبس الصوف الرفيع الذى هو أعلى وأغلى من الحرير واستعمل أوانى الياقوت فإنه لا يأثم بنفس هذا الفعل، ولكن إن تحقق كسر قلوب الفقراء وحمل الناس على فعل ذلك أو قصد الترفه بَعُد من الرحمة لأجل تلك المفاسد وإلا فلا.

وحيث وجدت الصحابة والتابعين فعلوا ما يشبه التقدير فإنما مرادهم بيان المصلحة والترغيب فيها والمفسدة والترهيب عنها، وإنما أخرجوا تلك الصورة مخرج المثل[14] لا يقصدون إليها بالخصوص وإنما يقصدون إلى المعاني وإن اشتبه الأمر بادى الرأى، وحيث جوز الشرع استبدال مقدار بقيمته كبنت المخاض بقيمتها على قول، فعلى التسليم هو أيضاً نوع من التقدير، وذلك لأن التقدير لا يمكن الاستقصاء فيه بحيث يفضى إلى التضييق، ولكن ربما يقدر بأمر ينطبق على أمور كثيرة كبنت المخاض نفسها، فإنها ربما كانت بنت مخاض أرفه من بنت مخاض، وربما كان التقدير بالقيمة تقديراً بحد معلوم في الجملة كتقدير نصاب القطع بما يكون قيمته ربع دينار أو ثلاثة دراهم.

واعلم أن الإيجاب والتحريم نوعان من التقدير، وذلك لأنه كثيراً ما تعن[15] مصلحة أو مفسدة لها صور كثيرة فتعين صورة للإيجاب أو التحريم؛ لأنها من الأمور المضبوطة أو لأنها مما عرفوا حالها في الملل السابقة، أو رغبوا فيها أكثر رغبة، ولذلك اعتذر النبى ﷺ وقال: «خشيت أن يكتب عليكم»، وقال: «لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك»[16] وإذا كان الأمر على ذلك لم يجز حمل غير المنصوص حكمه على المنصوص حكمه، أما الندب والكراهة ففيهما تفصيل، فأى مندوب أمر الشارع بعينه ونوه بأمره وسنّه للناس فحاله حال الواجب، وأى مندوب اقتصر الشارع على بيان مصلحته أو اختار العمل هو به من غير أن يسنّه وينوه بأمره فهو باقٍ على الحالة التى كانت قبل التشريع، وإنما نصاب الأجر فيه من قبل المصلحة التى وجدت معه لا باعتبار نفسه، وكذلك حال المكروه على هذا التفصيل وإذا تحققت هذه المقدمة اتضح عندك أن أكثر المقاييس التى يفتخر بها القوم ويتطاولون لأجلها على معشر أهل الحديث يعود وبالاً عليهم من حيث لا يعلمون.[17]

(14) كتقدير أربع برد حد السفر. أهـ

(15) إلى تظهر. أهـ

(16) مصنف ابن أبي شيبة.

(17) لمزيد من التفصيل انظر: د. محمد عمارة (حقائق وشبهات حول السنة النبوية) طبعة دار السلام - القاهرة سنة ١٤٣١هـ سنة ٢٠١٠م

ضـــرورة التجـديـد (*)



لفضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور

أحمد محمد الطيب

شيخ الأزهر



إن التأمل الهادئ في طبيعة رسالة الإسلام – كيان من الله للناس يتخطى حدود الزمان والمكان – يبرهن على أن قضية " التجديد " إن لم تكن هي والإسلام وجهين لعملة واحدة فإنها – بالتأكيد – إحدى مقوماته الذاتية، إذا تحققت تحقق الإسلام نظاماً فاعلاً في دنيا الناس، وإن تجمدت تجمد وانسحب من مسرح الحياة، واختزل في طقوس تؤدى في المساجد أو المقابر، وتمارس على استحياء في بعض المناسبات. بل يثبت التأمل أن تاريخ الإسلام – في أزهى عصوره – يشهد على علاقة وثقى لا تنفصم بين التجديد وحيوية الإسلام، كما يشهد على العلاقة ذاتها بين الجمود وانزواء الإسلام إلى ركن قصي عن الحياة وعن المجتمع.

ومن الغريب – حقاً – أن يظل مصطلح " التجديد " في الإسلام، في عهدنا هذا، من المصطلحات المحفوفة بالمخاطر والمحاذير، بسبب الاتهامات التي تكال جزافاً، – بحق أحياناً وبغير حق في معظم الأحايين – لكل من يحاول فتح هذا الملف الملغوم، وهو الأمر الذي يجسد لنا الأهمية البالغة لهذا المؤتمر الشجاع الذي اتخذ من التجديد وأهمية الإصلاح عنواناً لفعالياته ونشاطاته، وذلك على الرغم من الانتقادات التي توجهها بعض الأقلام لكل من يجرؤ على فك أغلال الجمود ومغالقه عن روح هذا الدين العظيم. وللأسف البالغ لا تزال بعض الكتابات المعاصرة تضع كل دعاة التجديد في سلة واحدة، وتدمغهم بالتلمذة على رائد أوحد في هذا المجال هو: " سير أحمد خان " [1].

أيها السادة العلماء!

يحدثنا التاريخ المنصف عن نزول رسالة الإسلام إلى مجال التطبيق الواقعي على الأرض، ونجاحها في هذا المجال، وأن شريعتها مثلت حجر

(*) بحث مقدم لمؤتمر اتجاهات التجديد والإصلاح في الفكر الإسلامي الحديث بمكتبة الإسكندرية في ١٨ يناير ٢٠٠٩ م.

١ – انظر على سبيل المثال: مفهوم تجديد الدين. دار الدعوة. الكويت ١٤٠٥هـ – ١٩٨٤م (رسالة ماجستير) حيث تبدو هذه الرسالة وكأنها محاولة مقصودة وموجهة – منذ البداية – لتطويق محاولات التجديد بالطعن في نوايا أنصاره والنادين به، وقد أهيل التراب – في هذه الرسالة – على كل دعاة التجديد على اختلاف مشاربهم وألوانهم.

الزاوية في بناء نظم حضارية طالت عنان السماء في زمن قياسي، ظل موضع دهشة عند علماء التاريخ والحضارة المعاصرين. ولم يكن نجاح هذه الرسالة رهناً ببيئة جغرافية معينة. فقد نجحت في مهدها الأول. كما نجحت – وبالقدر نفسه – في بيئات قصية بعيدة عنها، رغم اختلافها: لغة وجنساً وعرقاً وعقيدة وتاريخاً وحضارة. ويثبت التاريخ – أيضاً – أن هذه البيئات البعيدة لم تقبل شريعة الإسلام تقبل المغلوب حضارة الغالب، بل تلقفتها تلقف الغريق لطوق نجاة منقذ من دمار حضاري محقق [2].

ولو رحنا نتساءل عن السر في هذا النجاح الحضاري غير المسبوق، والذي أحرزته رسالة الإسلام بصورة تاريخية معجزة فإننا لن نعثر على إجابة أصدق من أن رسالتها صالحة لكل زمان ومكان، وأن صلاحيتها هذه فرع خصوصية أخرى هي: ((المرونة والحركة)) في نظرتها إلى طبيعة الإنسان: الروحية والمادية، وتفرقتها بين ما يكون ثابتاً على الزمان، لا يشكل للناس عنتاً ولا حرجاً إذا طولبوا به، وبين ما يتغير في حياتهم مما لا يستطيعون له رداً ولا يملكون له دفعاً.

والقدرة على التجديد أو التجدد الذاتي هو التعبير الدقيق عن خاصية " المرونة " هذه، وهو الوجه الآخر لمعنى صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان، ولولاه ما استطاعت هذه الرسالة أن تنشر أحكامها وأنظارها العلمية والعملية في الشرق والغرب بين أمم تتغاير فيما بينها تغايراً جذرياً في شتى مناحي الحياة.

ولو أن رسالة الإسلام صيغت في شكل بنود ومواد ثابتة لا تقبل التجديد لما كان لعموم الرسالة وديمومتها أي معنى محصل، اللهم إلا إذا افترضنا أنها رسالة تتضمن ثوابت فقط من أمور العقيدة والأخلاق، وحينئذ يؤول الإسلام إلى مجرد رسالة روحية لا شأن لها بمعاش الناس وحياتهم.

التجديد جوهر التراث (العقلي والنقلي)

على أن قانون التجدد أو الصيرورة أو التغير إنما هو في الأصل قانون قرآني، وهو سنة من سنن الكون التي لا تتبدل ولا تتحول، وقد وضعه الله شرطاً في كل تحول إلى الأفضل في نصوص قرآنية واضحة وضوح الشمس:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

(الرعد: ١١)

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

(الأنفال: ٥٣)

وكنا نظن أن فكرة تغير الوجود الطبيعي وصيرورته وتجدده لحظة بعد لحظة، من مقولات

٢ – يذكر محمد إقبال في كتابه تجديد الفكر الديني (ص ١٦٣ – ١٧٤ دار الهداية، القاهرة ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٠م) أن بعض المؤرخين الغربيين وصف حضارة العالم، وقت ظهور الإسلام، بأنها – رغم استمرارها أربعة آلاف سنة – كانت مشرفة على الزوال، وأن الجنس البشري كان على وشك العودة إلى حالة الهمجية، وبات العالم آنئذ " مفتقراً إلى ثقافة جديدة تحل محل ثقافة العرش ونظم الوحدة التي كانت تستند إلى قرابة الدم. ثم يقول المؤرخ الغربي: " وإنما يبعث على الدهشة أن تقوم ثقافة كهذه في جزيرة العرب في نفس الوقت الذي اشتدت فيه الحاجة إليها، ووجدت الثقافة الجديدة في مبدأ التوحيد أساساً لوحدة العالم كله ".

قدامى اليونان، أو من تأصيلات الفلاسفة الغربيين، وأنها غريبة عن فلسفة الإسلام وأدبياته، لكننا – ولفرط الدهشة – وجدناها في أمهات تراث المسلمين: فالأشاعرة من المتكلمين يقررون في مباحثهم الطبيعية أن "العرض" لا يبقى زمانين متتاليين، وأن وجود الأعراض إنما يكون بانقضائها وتجددها لحظة بعد أخرى، والنظّام والكعبي – من شيوخ المعتزلة – يرددان ذات المقولة، بل يخطو النظّام خطوة أبعد، يقرر فيها أن "الأجسام" مثل الأعراض غير مستقرة، وأنها تتجدد حالاً بعد حال، والنتيجة التي تنتهي إليها هذه الأنظار المعمّقة: أن الكون متجدد وصائر من حال إلى حال في كل لحظة، سواء كان تجدده بتبدل الأعراض المتغيرة على جواهرها الثابتة، فيما يقول الأشاعرة، أو بتجدد الأعراض والجواهر معاً فيما يقول النظّام.. ويعدّ الفيلسوف المسلم: صدر الدين الشيرازي (المتوفى ١٠٥٠هـ) فيلسوف الصيرورة قبل برجسون الفرنسي (١٨٥٩م – ١٩٤١م)، وقد تفرد – في تاريخ التفلسف العقلي – بالقول بوقوع الحركة في مقولة "الجوهر"، وأن الطبيعة الجوهرية غير قارة الذات، وكان الفلاسفة – قبله – يجترون نظرية أرسطو في ثبات الطبيعة في عالميها: السفلي والعلوي، ثم جاء هذا الفيلسوف المسلم فقلب هذه النظرية رأساً على عقب، وقال بتجدد الأجرام السفلية والعلوية معاً، وله في هذا المعنى تشبيه أخاذ يقول فيه: "إن حال الشمس والقمر كحال زيد وعمرو في تبدلهما وانقضائهما ودثورهما وفنائهما، من جهة اشتمالهما على الطبيعة الجرمية السيالة الزائلة وأن الحمل والثور والسنبلة في عالم السماء كالحمل والثور والسنبلة في عالم الأرض من حيث أن أشخاص الكل متجددة في كل حين"[٣].

٢– وينبغي أن نعلم أن فلاسفة "الصيرورة" والتجدد الدائم من مفكري المسلمين لم ينطلقوا في فلسفتهم هذه بتأثير من فلسفات خارجة أو مضادة لطبيعة الإسلام، فهم – أنفسهم – يلفتون أنظارنا إلى أن إشارات من القرآن الكريم ألهمتهم بهذه الأنظار المعمّقة وأن من اكتحلت عينه بنور الإيمان، وتنوّر قلبه بسطوع آيات القرآن – فيما يقول الشيرازي – يجد أعيان العالم متبدلة، وتعيّناتها المترادفة متزايلة، خلقاً من بعد خلق، وطوراً من بعد طور، سائرة، سائقة إلى طريق الآخرة، متوجهة إلى الله محشورة إليه[٤]، ويستند الشيرازي إلى آيات عديدة يستلهمها في نظريته في الكون المتجدد بالحركة الجوهرية، منها قوله تعالى:

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾

(النمل: ٨٨)

وأيضاً:

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

(ق: ١٥)

وهذه الآية الثانية ألهمت الشيخ الأكبر: محيي الدين بن عربي (٥٦٠ – ٦٣٨ –) بخيال خصيب في تجدد الكون في كل لحظة، يلخصه في عبارته الموجزة: "إن الوجود كله متحرك على الدوام دنيا وآخرى والعالم متبدل بتبدل الأنفاس)"[٥].

وقضية تغيّر العالم وتبدّله من حركة إلى سكون – وبالعكس – مرتكز أساس في باب الاستدلال على وجود الله – تعالى ! –، لا يخلو منها كتاب واحد من مئات كتب العقيدة عند متكلمي المسلمين، وكلها تذكر بأن "التغير" علة الحدوث، وأن الحدوث علة الاحتياج إلى المحدث... وهكذا نحفظ، وهكذا نردّد، وإن كنا ننسى بعد تمام الدليل أن "تغير العالم" مسلّمتنا الأولى، لولاها ما تم الدليل، بل وانهار من أساسه.

وما نقصده من هذا الاستطراد هو أن حديث "التجديد" ليس حديثاً غريباً أو طارئاً في تراث الإسلام، أو هو مجرد "آلة" ملصقة به من الخارج، وأن العكس هو الصحيح، فهو جوهر تراث الإسلام وروحه وطاقته التي تحركه.

٣– وما لنا نذهب بعيداً في تلمس الأشباه والنظائر لاكتشاف أصالة عنصر التجديد في الإسلام، وبين أيدينا نص قاطع من نصوص السنّة الصحيحة يؤكد – صراحة – على ضرورة التجديد في الدين بصورة منتظمة على أيدى النابهين من علماء هذه الأمة، يقول فيه النبي ﷺ (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)[٦]. وهذا الحديث تناوله الأقدمون بالبحث والتحليل، وكتبوا فيه رسائل مستقلة[٧]، أثاروا فيها مسائل وقضايا جديرة بالتقدير، مثل: تحديد رأس المائة وهل هو أولها أو آخرها؟ أو وسطها. وما المراد بالتجديد؟ ومن هم المجددون؟ وهل يكون المجدد واحداً أو أكثر؟... إلى أبحاث أخرى ذكروا فيها قوائم بأسماء المجددين بدءاً من المائة الأولى وحتى القرن التاسع في قائمة السيوطي أو القرن الرابع عشر في قائمة صاحب "وسيلة المجدّدين" وإن كنا نلاحظ أن مرادهم من التجديد لم يتجاوز دائرة "إحياء السنة ومحاربة البدعة". فلم يفسروا التجديد في الحديث الشريف بالمعنى المفهوم في عصرنا الآن، وهو: قراءة "النص الشرعي" قراءة جديدة من أجل تنزيله على الواقع والمصالح المتغيرة، وما كان لهم – في ظل مجتمع اسلامي، قوي ومستقر – أن

---

٣ – الأسفار الأربعة ١: ٣٣٤ – ٣٣٥ طهران بدون تاريخ.

٤ – مفاتيح الغيب، ٤٢٦، مع تعليقات ملّا على نوري، طهران ١٩٨٤ م.

٥ – نقلاً عن الأسفار الأربعة ٢: ١١٢–١١٣، وانظر تحليلاً دقيقاً لنظرية ابن عربي في تبدل العالم في كل نفس، في كتابه: فصوص الحكم (بشرح داود قيصري) ص ٦٩٠ – ٦٩٥، طهران ١٢٧٥هـ، والفتوحات المكية ٣: ٢٤٨ (ط بولاق). وانظر ما يشبه هذه الفكرة عند الكندي في رسالته إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى ص ٩٤–٩٦ تحقيق أحمد فؤاد الأهواني، القاهرة ١٩٤٨م هذا وينبغي أن نلفت النظر إلى أن الحركة التجددية تختلف – جذرياً – عن مثيلتها في الفلسفات الأخرى: المادية أو الروحية، فبينما يرجع التجدد الطبيعي في هذه الفلسفات إلى مبدأ داخل الطبيعة نفسها (الذرات أو التطور الخالق أو صراع الأضداد) فإن الفلسفة الإسلامية ترد التجدد في الطبيعة إلى مبدأ مفارق ومتعال على المادة هو الله تعالى، فالصيرورة مخلوقة لله تعالى، وهي في الوقت ذاته صائرة وراجعة إليه:

﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾ (الشورى: ٥٣)، **﴿لا إله إلا هو إليه المصير﴾** (غافر: ٣)

٦ – راجع في إثبات صحة الحديث: الدكتور يوسف القرضاوي، تجديد الدين في ضوء السنّة، مجلة مركز بحوث السيرة والسنة – قطر، عدد ٢، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، ص ٦١.

٧ – انظر على سبيل المثال: السيوطي، التنبئة بمن يبعث الله على رأس كل مائة، ط مكة المكرمة ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م. انظر أيضاً رسالة مخطوطة بدار الكتب المصرية (رقم ٤٩٣٠ تاريخ) بعنوان: وسيلة المجدّين في شرح التجديد وتراجم المجددين لحمد بن محمد الجرجاوي من علماء القرن الرابع عشر الهجري، وفي هذه الرسالة إحالات عديدة إلى مصنفات ورسائل كثيرة في موضوع التجديد والمجددين

يشعروا بحاجة إلى تفسير من هذا القبيل، غير أنهم تركوا لنا فى شروحهم - رغم خلافاتها - عناصر ايجابية يمكن أن نفيد منها فى حركة تجديد معاصر، من هذه العناصر:

- كلمة "من يجدد" فى الحديث تنطبق على أكثر من شخص، ويجوز- تبعاً لذلك - أن يتعدد المجددون فى العصر الواحد والبلد الواحد أيضاً، ويكون الحديث - بهذا المعنى - سنداً شرعياً لقيام مجامع علمية معاصرة تضطلع بحركة تجديد جماعى للفكر الإسلامى.

- لا يشترط أن يبلغ المجدد رتبة الاجتهاد فى العلم، وإن كان يشترط فيه العلم بالمجال الذى يجدد فيه.

لا يقتصر التجديد على علم الفقه، بل يجب أن يشمل التجديد كل ما يهم المسلمين من أمور الدنيا والدين، ويركزون فى هذا الصدد على قوانين الحروب والسياسة والعدل وحقن الدماء.

وأهم من كل ذلك رفض القضية الشهيرة بين الفقهاء، والتى تنادى بغلق باب الاجتهاد بعد القرن الخامس الهجرى، إذ هى قضية لا حجة لها ولا برهان عليها، ومواهب الله تعالى فياضة فى كل عصر وزمان، وجوده سبحانه وتعالى ممنوح غير ممنوع، وللسيوطى فى ذلك كتاب سماه: "الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض" ..

٤- وإذا كان التجديد بهذه الأهمية فى تراثنا العقلى والنقلى، فالسؤال الذى يفرض نفسه هو: لماذا الجمود إذن؟... لقد ذكر فى أسباب هذا الجمود عوامل عديدة، تقصاها بعض المعاصرين ورجعوا بها إلى عوامل سياسية واجتماعية، بعضهم عاد بها إلى النظام السياسى المستبد الذى ابتدعته الدولة الأموية، والذى أدى إلى تكريس حالة "انفصام" حاد بين العلوم الإسلامية وواقع المسلمين، فبدأ بتجمد الفقه السياسى والدستورى للدولة، ثم تجمد فقه العلاقات الاقتصادية والمالية وفقه العلاقات الدولية كذلك"، والتزم الأئمة الكبار "ناحية فروع الفقه"، كما التزم المحدثون رواية السنن"، "واكتفوا" بقبول الأمر الواقع، واستفاضوا فى شروح العبادات والمعاملات على النحو الذى وصل إلينا"[9]. وبعضهم يرصد بوادر هذه الأزمة فى ضعف الدولة العباسية، خاصة فى ظاهرة فوضى القضاء والإفتاء والاجتهاد، وجرأة غير المؤهلين - علمياً - على اقتحام هذه المراكز الحساسة، الأمر الذى حمل المخلصين من العلماء على التحوط للدين بقفل باب الاجتهاد منعاً للفساد وسداً لباب الفوضى"[10]، وربما لم يدر بخلدهم آنذاك أن الوسيلة التى لجأوا إليها ستنتهى - فيما بعد - إلى غاية أكثر فساداً وفوضى، إذ انتهى الأمر إلى تقليد ثم جمود ثم تعصب وهو الثالوث الذى ضرب خصوبة الفكر الإسلامى فى مقتل، وقد ظل المسلمون يعانون منه - حتى الآن - "أزمة مركبة" تتمثل فى أن الثقافة التى تجرى فى عروقهم لا تتناغم مع واقعهم العملى الذى يعيشون فيه

٨- انظر الباب الرابع عشر من: وسيلة المجتبى... - مصدر سابق.

٩- الأستاذ الشيخ محمد الغزالى، كيف نتعامل مع القرآن: ٧٥، المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

١٠- عبد الحميد متولى، أزمة الفكر السياسى الإسلامى فى العصر الحديث: ٣٥ - ٤٠، الطبعة الأولى، مصر ١٩٧٠م.

صباح مساء، أو بعبارة أدق: أصبح واقعهم لا ينسجم مع ثقافتهم، فهم يفكرون بثقافة ويعملون بثقافة مغايرة وحسبك بهذا التمزق صراعاً وتدميراً لكل إمكانات التنمية، فضلاً عن الانخراط فى أسباب التقدم والرفاهية.

من أزمات التجديد

ولكن إذا كانت هذه العوامل السياسية والاجتماعية السابقة عوامل متغيرة، وقد تغير أكثرها بالفعل فى عصرنا هذا، فلماذا ظلت محاولات التجديد الحديث كسيحة متعثرة؟ ولماذا أخفقت فى تجديد الفكر الإسلامى وتطويره وإعداده الإعداد المطلوب لمواجهة الفكر الغربى؟... فى سبيل الإجابة عن هذا السؤال تطرح عدة أسباب، شكلت ما يشبه الأزمة فى مسيرة التجديد بشكل عام، وأهم هذه الأسباب:

(أ-) عدم التفرقة - عملياً - بين ما هو ثابت فى الدين وما هو متغير، إذ من المسلم به عند المسلمين جميعاً إن الإسلام - بما هو دين الزمان والمكان - لابد أن يشتمل على ثوابت خالدة، وعلى متغيرات متحركة، وأنه فى مجال الثوابت جاء بضوابط قطعية خالدة لا تتأثر بتقلبات الزمان ولا بحركات التطور، وهى قابلة للتطبيق فى عصر الذرة وسفن الفضاء، مثلما كانت كذلك فى عصر الصحراء والإبل تماماً بتمام"[11] والأمر بالعكس فى مجال المتغيرات خوطب فيه الناس" بمبادئ عامة ومجملات مرنة، وظنيات واسعة، يمكن أن تنزل على الواقع بوجوه شتى، تبعاً لتطور ظروف الحياة وعلاقاتها، وعلم الإنسان وتجاربه"[12].

وقد ترتب على آفة الخلط بين ما هو ثابت ومتغير فى الدين آفة أخرى، هى الخلط بين ما يعد تشريعاً عاماً وما لا يعد كذلك. وقد فصل الفقهاء هذه المسألة بما لا يقبل المزيد، وبيّنوا أنها كانت من أسباب الاختلاف المشروع بين الأمة، وكانت مصدر رحمة ويسر فى الدين، إذ كانت هذه المسألة الواحدة يراها مجتهد شرعاً عاماً لا يتغير، بينما يراها مجتهد آخر حكماً مصلحياً يتغير بتغير المصلحة"[13]. وهنا يقول الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت: "ليس كل ما روى عن الرسول (وإرشاداته يعد تشريعاً ذا حجية ملزمة شرعاً للمسلمين"[14] ولنا أن نتصور القفزة الهائلة لتجديد الفكر الإسلامى فيما لو روعى هذا الجانب، وتمت عملية فرز دقيقة للعناصر التى يظن أنها ملزمة، بينما هى فى حقيقة الأمر ليست كذلك. وقد نعى الشيخ عبد الجليل عيسى على علمائنا المعاصرين "عدم عنايتهم بالتحرى عن ظروف كثير من أوامره (وإرشاداته: هل المراد منها أن تكون تشريعاً عاماً دائماً، أو خاصاً ببعض الناس دون بعض، أو ببعض الظروف دون بعض"[15].

١١- محمد باقر الصدر، موجز أصول الدين: ١٠١، ١٠٢.

١٢- حسن الترابى، قضايا التجديد، دار الهادى، بيروت ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

١٣- انظر كتاب: تعليل الأحكام للشيخ محمد مصطفى شلبى: ٣١٩، القاهرة ١٩٤٥م.

١٤- الإمام الأكبر الشيخ شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة: ٤٢٠، القاهرة ١٩٥٩م.

١٥- نقلاً عن عبد الحميد متولى، أزمة الفكر السياسى: ٧٤.

عدم التفرقة بين الشريعة وبين الفقه، وإضفاء الشريعة على آراء وفهوم بشرية، واعتبارها في رتبة النص المعصوم، فالشريعة يجب أن تتميز عن الفقه تميزاً حاسماً، وأن تنحصر - في المقام الأول - في نص القرآن والسنة الصحيحة، أما استنباطات العلماء من فقهاء وأصوليين ومفسرين ومحدثين ومتكلمين، فيجب أن ينظر إليها على أنها معارف بشرية، أو تراث يؤخذ منه ويترك، ولا ينبغي أن يفهم من ضرورة هذه التفرقة أننا نُدير ظهورنا لتراثنا الفقهي، أو نقلل من أقدار فقهائنا، أو أننا نستبدل به عناصر غريبة عنه تناقض طبيعته، ولكن هذا شئ، والنظر إليه بعين العصمة شئ آخر، فالتراث ليس كله مقبولاً، وليس كله مرفوضاً، وبتعبير أدق: ليس كله قادراً على مواجهة مشكلات العصر، وليس كله - أيضاً - بعاجز عن التعامل معها.

ومن المستغرب - فعلاً - أن تركن الأمة إلى التقليد في عصرنا هذا، وتتخذ منه ما يشبه المنهج الثابت في علاج قضايا العصر، وهي تقرأ فيما تقرأ من كلام أئمة الفقه تحذيراً واضحاً ونهياً صريحاً عن التقليد، باعتباره طريقاً يفضي - لا محالة - إلى الجمود وقتل ملكة التفكير وشل حركة التجديد والإبداع، تقرأ كل ذلك في عبارات لا تقبل التأويل، مثل قولهم: "لا تقلدني" وقولهم: "خذ من حيث أخذوا" وقولهم: "يتبع الرجل ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه، ثم هو من بعد، في التابعين، مخير". وهذه المأثورات تمثل مرويات صحيحة للإمام أبي حنيفة والإمام أحمد والإمام الشافعي، وقبل ذلك مرويات الإمام مالك وقد قال له المنصور: "اجعل العلم يا أبا عبد الله واحداً!" فقال الإمام: "إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا في البلاد فأفتى كلٌّ في مصره بما رأى، وأن لأهل البلد (مكة) قولاً، ولأهل المدينة قولاً تعدوا فيه طورهم"، ولما قال المنصور: "إنما العلم عند أهل المدينة" فضع للناس علماً" رد عليه الإمام: "إن أهل العراق لا يرضون علمنا، ولا يرون في علمهم رأينا"[66].

ضرورة التجديد المعاصر:

ولقد لمعت في سماء تاريخنا المعاصر فرصة لتجديد حقيقي يضع أقدامنا على طريق نهضة إسلامية حقيقية، اضطلع بها رعيل من المجددين المحدثين والمعاصرين، ممن حملوا شعلة التجديد الحديث - في طول العالم الإسلامي وعرضه؛ بدأها جمال الدين الأفغاني (١٨٩٧م) ومحمد عبده (١٨٤٩م - ١٩٠٥م)[67]، وسار في دربها مجددون في مصر، والهند وتركيا والعراق وإيران وسوريا وبلاد المغرب، ورغم أنها أحرزت نجاحات عديدة لا تنكر[68]، إلا أنها لم تنجح في تفعيل الفكر الإسلامي بحيث يواكب المستجدات العالمية، ويتعامل معها على قدم المساواة تأثيراً وتأثراً، بل صار إلى حالة من الوهن والضعف انعكست آثارها مؤخراً على كل بلاد الشرق الإسلامي، وعُدنا من جديد نعيش نفس الأزمة التي اختنقنا بها في القرن الماضي، وعادت أزمة اصطراع الثقافتين - في العقود الأخيرة أعنف أو أشرس مما كانت عليه من قبل؛ لأن الغزو الثقافي الغربي لم يكن في أوائل القرن الماضي - وحتى منتصفه تقريباً - بهذه الحدة التي نشهدها الآن، بل كان محصوراً في قنوات معينة، وغالباً ما كان يترك هامشاً آمناً لثقافة إسلامية تقليدية، يحتمي بها المجتمع أو يتحسسها كلما لاحت له في الأفق أشباح الضياع والاغتراب، وكانت عدوى التواصل قاصرة - في ذلك الوقت - على الوجهاء فقط، ولم تهبط إلى طبقة الجماهير العاجزة عن تكاليف هذا الاتصال، لأنه كان محصوراً إما في البعثات التعليمية القليلة العدد، أو النخب المرفهة من القادرين على قضاء أجازات الصيف على شواطئ أوروبا، في حركات الاستشراق أو فيما يترجم من نتاج الغربيين في العلم والأدب والثقافة، وفي كل الأحوال ظل الجمهور بمنأى عن أي احتكاك حضاري من هذا النوع الذي يمس الخصوصيات ويشوه ملامحها وقسماتها.

والآن، وبسبب الطفرة الهائلة في تكنولوجيا الاتصال، زال كثير من الحواجز، وسهل على الغرب أن يخترق بثقافته وسلوكياته المجتمع الشرقي والبيت الشرقي والأسرة الشرقية، وهو اختراق من نوع جديد، مدروس بفلسفة - استعمارية - جديدة، عبرت عن نفسها فيما يسمى الآن بالعولمة، وهو نظام يعني - فيما يعني - سيطرة دولة واحدة عسكرياً وسياسياً واقتصادياً على السوق العالمي"[69]، على أن جانب المال والثروة والصناعة والتجارة ليس هو كل ما في جعبة هذا النظام، بل هناك جانب العلوم والاتصالات والإعلام والثقافة. وقد بدأت العولمة زحفها على العالم الآخر، وأخذت خطوات عملية في هذا الطريق، تبلورت فيما يعرف بمنظمة التجارة العالمية، ومؤتمرات المناخ والسكان، فضلاً عن الصندوق والبنك الدوليين، وبالتوازي بدأ قلق الشعوب وثقافاتها وخصائص قومياتها، وأثار المسئولون في فرنسا إشكالية الخطر الذي تتعرض له الثقافة الفرنسية من الاكتساح الثقافي الأمريكي، في إشارة إلى الضغوط الأمريكية على فرنسا لرفع الحمايات، وجعل سوق الثقافة والفن والإعلام سوقاً حرة مفتوحة مستباحة"[70].

إن الانتشار الثقافي في هذا النظام مقصود، وهو في حد ذاته من أهداف وغايات الحداثة التي تقوم أساساً على نظام "المراكز والأطراف"، أو: المركز والمحيط التابع له، وهو نفس نظام الاستعمار والمستعمرات في القرن الماضي.

ولكن بفارق واحد هو أن استعمار القرن الماضي كان قسمة عادلة أو جائرة بين دول عديدة، كل منها يختص بحصة معينة من مستعمرات الشرق بينما هو في النظام الحالي استعمار ينقسم فيه العالم الرأسمالي إلى "مركز" للحضارة الغربية، وإلى أطراف تدور في فلكه وتخضع له

٦٦ - المصدر السابق، ٦٨-١٠١: كفانا تقليداً للفقه، مجلة الأزهر، شوال ١٣٧٢هـ يوليو ١٩٥٣م، ص ٦٧-١٠.

٦٧ - لمزيد من المعلومات حول ريادة الأفغاني ومحمد عبده لتجديد الفكر الإسلامي الحديث، والفرق بينهما وبين غيرهما من المجددين الحقيقيين أو الزيفيين، يراجع الدكتور محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ١٤٣-١٥١، مكتبة وهبة - القاهرة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٦٨ - السيد ياسين، رؤى إسلامية عن المواطنة، الأهرام، ٢٩ مارس ٢٠٠٦م.

٦٩ - منير شفيق، في الحداثة والخطاب الحداثي، ٧٤، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٩م.

٧٠ - السابق ١٠٤.

خضوع التابع للمتبوع.[٢١]

وهذه المواجهة الجديدة قد أحدثت مفارقات في النظام الاجتماعي الإسلامي لم يُحسب حسابها من قبل؛ لأن جانبا من ثقافتنا لم يكن مؤسسا على قيم أو أصول إسلامية محررة، تؤهلها للتعامل مع هذا الوافد المكتسح، بينما الجانب الآخر تمثل في أنماط متحررة ومنفلتة، وكانت القيم الإسلامية الأصيلة دائما هي الغائب المفتقد في هذا الخليط غير المتجانس، وكما كانت صدمة الغرب في القرن الماضي الشرارة التي أشعلت فتيل التجديد، أضحت العولمة الآن هي الصدمة الكهربائية التي وضعتنا في اختبار من نوع آخر، يستدعي رؤية مختلفة جديدة للبحث عن الهوية على أساس من العودة - الواعية الناقدة - إلى التراث، فالانطلاق من التراث شرط لا مفر منه لأية نهضة حقيقة تبقى فيها الأمة موجودة على قيد الحياة.

والذي يلقي نظرة سريعة على الساحة الثقافية - الآن - يظهر له بوضوح أنها بصورتها الراهنة غير مؤهلة لمواجهة الرياح العاتية التي تهب علينا من وراء البحار، فما تزال مشكلة اللب والقشور تعمل عملها في توجيه ثقافتنا، ولا تزال قائمة الأولويات منكسة على رأسها. ولا تزال المرأة - بعد أكثر من قرن ونصف من التجديد - تتساءل عن حكم خروجها من المنزل، وعن صوتها، وهل هو عورة؟ وعن تعدد الزوجات، هل هو الأصل والسنة؟... إلخ ما تطالعنا به وسائل الإعلام[٢٢]. ولا يزال الخلاف مستعرا بين فريق من علمائنا ومفكرينا حول مشروعية دخول المرأة مجالس الأمة والشورى، وهل يعد ذلك من الولاية العامة أو لا يعد!، بل لا تزال الكتب التي تتحدث عن الجن وعن عذاب القبر أكثر - بكثير - من تلك التي تحمل على عاتقها بيان المفاهيم الإسلامية التي يفتقر إليها الأحياء في البيوت وفي الشوارع وفي مكاتب العمل وغدنا - في هذا الوضع - في أمس الحاجة إلى تجديد يعيد إلى الأوراق المخلوطة شيئاً من النسق والترتيب.

والتجديد الذي ننتظره ينبغي - من وجهة نظري المتواضعة - أن يسير في خطين متوازيين:

١- تجديد الخطاب الإسلامي المعاصر، انطلاقا من القرآن والسنة أولاً، وبشكل أساسي، ثم مما يتناسب مع مفاهيم العصر من كنوز التراث بعد ذلك. وليس المطلوب - بطبيعة الحال - خطابا شمولياً خالياً من تعدد الآراء ووجهات النظر، فمثل هذا الخطاب لم يعرفه الإسلام في أي عصر من عصور الازدهار أو الضعف، وإنما المطلوب خطاب خال من "الصراع" ونفي الآخر واحتكار الحقيقة في مذهب، ومصادرتها لمذهب آخر مماثل.

٢- الانفتاح على الآخرين بهدف استكشاف عناصر النقاء يمكن توظيفها في تشكيل إطار ثقافي عام يفيد منه الإسلاميون وغير الإسلاميين في التغلب على المرض المزمن الذي يستنزف طاقة أي تجديد واعد، ويقف لنجاحه بالمرصاد، وأعني به: الانقسام التقليدي إزاء "التراث والحداثة" إلى: تيار متشبث بالتراث كما هو، وتيار متغرب يدير ظهره للتراث، ثم تيار إصلاحي خافت الصوت لا يكاد يبين. وهذا الانقسام - في حد ذاته - أمر طبيعي وظاهرة مقبولة، لكن غير المقبول وغير الطبيعي أن يتحول الموقف من مواجهة خارجية إلى صراع داخلي يترك الساحة خالية لفرسان أجانب يسحقون الجميع. وقد لاحظنا في تجربة القرن الماضي أن أصحاب التيار الأول كانوا يراهنون على أن "بالإمكان العيش في إطار التقليد الضيق، الموروث عمن سلفهم، بإيصاد الأبواب في وجه أمواج الحضارة الغربية وثقافتها المتدفقة[٢٣]" غير أن إصرارهم هذا لم يحقق لهم الأهداف المرجوة، وما لبثوا أن تراجعوا دون أن يهيئوا المجتمع لأن يتعامل مع المتغيرات العالمية بأسلوب مدروس. وكانت النتيجة أن أصبح المجتمع أعزل أمام ثقافة الغرب، والشيء نفسه يمكن أن يقال على "المتغربين"، الذين أداروا ظهورهم للتراث، ولم يجدوا حرجاً في الاستهزاء به والسخرية منه، وأعلنوا مقاطعة التراث شرطاً لا مفر منه في التجديد والإصلاح. وكانت النتيجة أن أدارت جماهير الأمة ظهورها لهم، بعد ما تأكدت أنهم لا يعبرون عن آلامهم وآمالهم، وكانوا - دائما - كمن يغرد وحده خارج السرب، هؤلاء خسروا المعركة أيضاً، ولم يحلوا مشكلة واحدة من مشكلات مجتمعنا، إن لم نقل: إنهم زادوا الأمور ظلاماً على ظلام[٢٤].

أما التيار الإصلاحي "الوسطي" فإننا نحسبه التيار المؤهل لحمل الأمانة، والجدير بمهمة "التجديد" الذي تتطلع إليه الأمة، وهو - وحده - القادر على تجديد الدين، لا تشويه الدين ولا إلغائه، ولكن بشرط أن يتفادى الصراع الذي يستنزف طاقاته من اليمين ومن اليسار.

وما أظن أنني بحاجة إلى التذكير - أخيراً - بأن هذه الورقة ليس من همها أن تتفاعل مع الغرب أو تتناغم مع ألحانه، فما تزال الحكمة القائلة بأن "الغرب غرب، والشرق شرق، ولن يلتقيا" تتمتع بقدر هائل من الصدق، والواقعية، ولكن همّ هذه الورقة - أولاً وأخيراً - هو: ضرورة التجديد، بحثاً عن: من نحن؟ ومن الآخر؟ وكيف نحاوره ولا نصارعه؟ ولعل مكتبة الإسكندرية تجد متسعاً في رحابها لانطلاقة موفقة في مجال التجديد تجسِّر بها الفجوة بين الإسلام والعصر، وبين الفكر الإسلامي وحضارات العصر المختلفة.

٢١ - السابق، ٣٠. وفي هذا السياق يضع "منير شفيق" أيدينا على فرق أساسي بين الانتشار الحضاري في الإسلام لنظام العولمة. ففي الحالة الأولى انمحت الأطراف في المركز، وتحولت إلى جزء أصيل فيه، فاختفت كلياً "إشكالات" التبعية والسيطرة، وفرض الأنماط الثقافية، بخلاف الحالة الثانية فإنها تقوم - أساساً - على الإخضاع والتسلط الأمر الذي يؤدي إلى حتمية الصراع، ثم حتمية الانفصال. ويستدل المؤلف على عنصر الانسجام بين الأطراف والمركز الإسلامي بأن المحاولات التاريخية التي ظهرت في شكل أطراف تابعة لمركز إسلامي انتهت إلى تفجير الوحدة الإسلامية، كما يضرب مثالاً للاندماج بنموذج الازدهار الحضاري الذي عرفته بخارى وطشقند وسمرقند، وصولاً إلى مراكز الفقه والثقافة والحضارة غرباً، وكان ذلك في حالة موازاة إن لم يتفوق على ما كان في المركز بغداد.

٢٢ - انظر - على سبيل المثال - الحوار الذي نشرته مؤخراً مجلة الأهرام العربي مع الدكتور يوسف القرضاوي، عدد ١٩٢، ١٩٤ - ٢، ٩ ديسمبر ٢٠٠١م.

٢٣ - محمد خاتمي، مطالعات في الدين والإسلام والعصر، ٥٥ - ٦٠، دار الجديد، بيروت ١٩٩٩م.

٢٤ - يتساءل أحد الممثلين لهذا الاتجاه عن سر التخوف من غزو العولمة قائلاً: "ولِمَ التشاكي والتباكي إزاء ثورة الاتصال، وتوغل الثقافة الغربية في عالمنا العربي الذي ظل قروناً طويلة مغلقاً على بلاياه وجموده وخرافاته وأمراضه القاتلة؟ (...) فليكن الغزو الثقافي الغربي الصدمة الكهربائية المنقذة من نهايتنا المحتومة، ولتهب علينا رياح الغرب من كل الجهات لتعرّينا ثقافته، ولتستفزنا قيمه، فربما كان في ذلك خلاصنا وينقذنا من سبات طال وطال حتى كاد الموت" في الحداثة والخطاب الحداثي (مصدر سابق)، ص ١٨٣، ١٨٦.





للأستاذ الدكتور/ محمد عبد الله دراز

ها هنا نوعان من الدراسة للصلة بين الدين والأخلاق: دراسة (نظرية، تجريدية) تنظر إلى الأشياء كما يمكن أو كما يجب أن تكون، ودراسة (واقعية، تاريخية) تنظر إليها كما كانت بالفعل.

(فمن الناحية التجريدية) يمكننا، بوجه من النظر، أن تجعل من هذين المعنيين حقيقتين متغايرتين، وبوجه آخر، أن تجعل منهما مفهومين متداخلين.

ذلك أننا إذا نظرنا إلى (الدين من حيث هو معرفة (الحق) الأعلى وتوقيره وإلى (الخلق) من حيث هو قوة النزوع إلى فعل (الخير) وضبط النفس عن الهوى، كان أمامنا حقيقتان مستقلتان، يمكن تصور إحداهما بدون الأخرى، فتختص أولاهما بالفضيلة النظرية، والأخرى بالفضيلة العملية.

علاقة الدين بالأخلاق من الوجهة النظرية

غير أنه لما كانت الفضيلة العملية يمكن أن تتناول حياة الإنسان فى نفسه، وفى مختلف علائقه مع الخلق، ومع الرب، كان القانون الأخلاقى الكامل هو الذي يرسم طريق المعاملة الإلهية، كما يرسم طريق المعاملة الإنسانية. وكذلك لما كانت الفكرة الدينية الناضجة هى التى لا تجعل من الألوهية مبدأ تدبير فعال فحسب، بل مصدر حكم وتشريع فى الوقت نفسه، كان القانون الدينى الكامل هو الذى لا يقف عنده وصف الحقائق العليا النظرية، وإغراء النفس بحبها وتقديسها، بل يمتد إلى وجوه النشاط المختلفة فى الحياة العملية، فيضع لها المنهاج السوى الذى يجب أن يسير عليه الفرد والجماعة. وهكذا يصل القانون الدينى - إذا استكمل عناصره - إلى بسط جناحيه على علم الأخلاق كله، بل على سائر القوانين المنظمة لعلاقات الأفراد والشعوب، بحيث يجعلهما جزءاً متمما حقيقته ويصبغ كل قواعدها بصبغة القدسية، فيصبح اتباع الفضائل الفردية والاجتماعية نوعا من الطاعة لأوامر الدين، وبابا من أبواب القربات والعبادات الإلهية؛ فضلا عن كونه تحقيقا لمبدأ العدالة الإنسانية، وتلبية لداعى الفطرة السليمة.

وخلاصة القول فى هذه الناحية التجريدية أن الدين والأخلاق فى أصلهما حقيقتان منفصلتا النزعة والموضوع، ولكنهما يلتقيان فى نهايتهما، فينظر كل منهما إلى موضوع الآخر من وجهة نظره الخاصة. كمثل شجرتين متجاورتين تمتد فروعهما، وتتعانق أغصانهما، حتى تظلل إحداهما الأخرى.

علاقة الدين بالأخلاق من الوجهة التاريخية:

(أما من الوجهة الواقعية) فإننا لا نرى الصلة بين الدين والأخلاق تبلغ دائما هذا الحد من التساند والتعانق، لا فى مبدأ نشأتهما فى نفس الفرد، ولا فى دور تكونهما وتركزهما فى قوانين وقواعد مقررة فى المجتمع. أما فى الحياة الفردية، فإن هذا الاتصال يبدو واضحا فى عهد الطفولة والصبا؛ فالشعور الأخلاقى أقدم وأرسخ فى نفس الطفل من الشعور الدينى. ولذلك نراه يبدأ فى سن مبكرة جدا باستحسان بعض الأفعال، واستنكار بعضها، والاستحياء من بعض آخر، ولا يشعر بالحاجة إلى تعليل ظواهر الكون وتقديس سر الوجود إلا فى دور ثان يكون فيه أنمى عقلا، وأهدأ بالا، وأشد تيقظا، وأدق ملاحظة. وأما فى المجتمع فإن امتزاج القوانين الدينية والقوانين الأخلاقية نراه لا يجرى على سنن واحدة فى العصور والبيئات المختلفة، فكثيرا ما ظهرت فى التاريخ نظم أخلاقية لا تعرض لواجب الآلهة قط، ولا تستقى تشريعها للفضائل الأخلاقية من وحى الدين، بل من قوانين العقل، أو وحى الضمير، أو سلطان المجتمع، أو حسب المصالح والمنافع، أو غير ذلك. كما ظهرت فى التاريخ مذاهب دينية لا تعنى هذه العناية بالناحية العملية الاجتماعية، بل كثيرا ما تجعل المتدين ينطوى على نفسه، متخذا مثله الأعلى فى العزلة والصمت والتأملات العميقة.

نعم إن معرفة الحق وتعظيمه لا يخلوان فى غالب الأمر عن مظهر يتمثلان فيه. ولذلك تكاد لا تخلو حقيقة التدين عن عنصر عملى يكون حلقة الاتصال بين الدين والأخلاق، ويتحقق ذلك على الأقل فى الجانب الإلهى من الواجبات الذى تسميه عبادة. لكن هذا المظهر نفسه قد تغمض معالمه، وتتضاءل صورته، حتى يصير كلمة تعبر عن العجز والحيرة فى التماس طريق التوجه إلى ذلك السر الهائل. وإن دين الحنفاء من العرب فى الجاهلية لهو أوضح مثال لهذه الحقيقة، فابن هشام يروى لنا عن أحد هؤلاء الحنفاء وهو زيد بن عمرو بن نفيل أنه كان يقول وهو مسند ظهره إلى الكعبة: «اللهم إنى لو كنت أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ولكنى لا أعلمه»[1].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ١٤٤.

معنى الدين والخلق

فى المحادثات العصرية:

بقى علينا أن نتساءل عن المعنى الذى يقصد إليه غالباً من كلمتى «الدين» و«الخُلق» فى محاورتنا العصرية. وهنا أيضاً نجد بين الكلمتين من المرونة فى التدخل تارة، والاستقلال تارة أخرى، ما يجعلهما دائماً شبه مد وجزر، ويجعل من العسير تحديد المراد من كلتيهما بصفة حاسمة إلا أنه يلوح لنا أن هاتين الكلمتين لاتزالان تخضعان فى استعمالنا للقاعدة المعروفة فى الكلمات العربية التى من أسرة واحدة، مثل «الرأفة والرحمة»، و«البر والتقوى»، و«الإيمان والإسلام»، وغير ذلك. وهى أن هذه الكلمات التوائم كلما اجتمعت فى العبارة افترقت فى المعنى وكلما افترقت فى العبارة اجتمعت أو مالت إلى الاجتماع فى المعنى بقدر الإمكان. فإذا قلنا: «فلان ذو دين وخلق»، وجب لكى تخلو العبارة من عيب التكرار واللغو أن تؤدى كل من الكلمتين معنى مستقلاً، منعزلاً عن الآخر انعزالاً كلياً، بحيث يختص الدين بالجانب الإلهى، والخلق بالجانب الإنسانى فيكون معنى الدين الإيمان أو التقوى الخاصة، أعنى القيام بفرائض العبادة: ويكون معنى الخلق التحلى بالفضائل والآداب الاجتماعية.

أما إذا اكتفينا بقولنا: «فلان ذو دين» وكان المفروض أن الدين الذى نشير إليه من الأديان الخلقية المعروفة، فإن كلمة الدين هنا تتسع لمعنى أختها المطلوبة أيضاً. وحينئذ يراد منها التقوى الشاملة الكاملة، أعنى القيام بالفروض الإلهية والإنسانية معاً.

وكذلك إذا اكتفينا بقولنا «فلان ذو خلق» وكان مفهوماً أن الأخلاق المتواضع عليها جامعة للحقوق الإلهية والإنسانية. ولا تفوتنا هنا الإشارة إلى أنه حتى فى هذه الحالة التى تأخذ فيها كلمة الخُلق أوسع معانيها، لا تصبح تلك الكلمة مرادفة تماماً لكلمة الدين، لأن هذه لاتزال تمتاز بعنصر نظرى جوهرى، لا يمكن سقوطه ولو ذهب غيره من الأجزاء، ذلك هو عنصر المعرفة بالإله والإيمان به، وهو عنصر لا يدخل فى طبيعة مفهوم الأخلاق، لأنها دائماً ذات طابع عملى، وما اعتمادها إن اعتمدت على وازع الدين والإيمان إلا اعتماد على دعامة ووسيلة، لا على جزء متمم لحقيقتها، وفى وسعها بعد أن تستغنى عن هذه الدعامة بباعث الوجدان أو غيره كما أسلفنا، فلا يكون بينهما وبين الدين العملى إلا تشابه موضوعى، مع اختلاف البواعث والأهداف.

الدين والفلسفة

وحدة الموضوع فيهما:

إذا نحن أحصينا ضروب المعرفة الإنسانية على كثرة اختلافها وفرط تنوعها، وجدنا من بينها ضرباً يجرى مع الأديان فى مجال، ويكاد يعد من عصبتها أو من ذوى رحمها الأقربين، ولا نجد ضرباً آخر يزاحمه أو يدانيه فى هذا النسب، ذلك هو ما اصطلح العلماء على تسميته باسم «العلم الأعلى» أو «الفلسفة العامة».

أليس موضوع الفلسفة هو نفسه موضوع الدين؟ أو ليست المشكلة التى تعالجها الفلسفة هى بعينها المشكلة التى انتدبت الأديان لحلها؟ فمطلب الفلسفة هو معرفة أصل الوجود وغايته، ومعرفة سبيل السعادة الإنسانية فى العاجل والآجل. هذان هما موضوعا الفلسفة بقسميها العلمى والعملى، وهما كذلك موضوعا الدين بمعناه الشامل للأصول والفروع.

الأصول العامة التى تنفصل فيها الفلسفات

المادية وبعض الفلسفات الروحية عن الأديان:

غير أن الاتحاد فى موضوع البحث لا يعنى دائماً الاتفاق على نتائجه. فكما أمكن أن تختلف الأديان (٢) فى تعيين الحلول لهذه المسائل الكبرى، اختلفت مذاهب الفلسفة فيما بينها اختلافاً كثيراً، بل قد يكون الاختلاف بين الفلسفة أشد تباعداً وأكثر تشعباً منه بين أهل الأديان.

وليس يعنينا هنا أن نبحث عن وجوه الاختلاف الداخلى بين أهل المعسكر الواحد من هذا الفريق أو ذاك، ولكن الذى يعنينا هو أن نعرف الوجوه التى فصلت بين هذين المعسكرين: الدينى، والفلسفى، حتى جعلت كل طائفة منهما ذات لقب خاص، لا يسوغ نقله إلى الطائفة المقابلة لها.

وإذ لا سبيل لنا إلى الفصل بين موضوعى الديانة والفلسفة، بعد أن تبينت وحدة هذا الموضوع، بقى أمامنا أن نبحث عن وجه اختلافهما فى النتائج التى وصل إليها كل منهما.

غير أننا لا نستطيع أن نصدر هاهنا حكماً عاماً شاملاً، يجمع بين الحقيقتين كلية، أو يفصل بينهما كلية، إذ أننا نجد كثيراً من المذاهب الفلسفية قد توصلت بمجهودها العقلى المستقل إلى تقرير المبادئ الأولية التى قررتها الأديان، بينما نجد بعضاً منها قد انفصل من أول الطريق أو من وسطه عن تلك المبادئ.

وأشد هذه المذاهب انفصالاً، وأكثرها بعداً، هى المذاهب المادية، التى لا تعترف بشىء فى الوجود وراء الحس والمشاهدة، فتنكر بذلك مبدأً رئيسياً مشتركاً، تقوم عليه جميع الأديان، وتقره سائر الفلسفات.

الفلسفات الروحية التى تتفق مع الأديان فى الأصول

العامة تختلف عنها وعن بعض الوجوه:

بل إن بعض الفلسفات الروحية، التى تتلاقى مع الديانات فى الاعتراف بأن للعالم صانعاً قديراً، قد فهمت الصلة بين هذا الإله وبين العالم على وجه يجعلها تتخلف عن ركب الأديان فى مرحلة أو أكثر، إذ تفقد به عنصراً آخر من عناصر الديانات وأهمها عنصران:

العنصر الأول: عنصر «بدء الخلق» أى إحداث المادة من العدم. وهو مبدء تعترف به

(٢) واضح أننا نعني الأديان في جملتها، لا خصوص الأديان السماوية، فهذه لم يكن بينها اختلاف البتة في المبادىء العامة والقواعد الأصلية، وما طرأ على بعضها من الاختلاف في ذلك فإنما هو ابتداع وانحراف.

جميع النحل الدينية. في حين أن بعض قدماء اليونان كان يرى أن الروح المدبر للعالم لم ينشىء هذا العالم إنشاء، بل إنه وجد أمامه المواد الكونية مبعثرة بغير نظام، فقام بتنسيقها على هذا الوجه الهندسي المتقن.

فالخالق في نظرهم ليس بارئاً، بل هو صانع ماهر demiurge [٣] ليس غير.

العنصر الثاني: عنصر «الربوبية» أو «العناية المستمرة»، فإن الأديان كلها قائمة على فكرة التمجيد لقوة لها صلة بالحوادث اليومية، ولها عناية دائمة بالكائنات، لا تنفك عن إمدادها وتدبيرها، وذلك هو أصل فكرة العبادة التي لا يتحقق اسم الديانة بدونها.

أما الفلسفات التي تؤمن بالألوهية فليست كلها تؤمن بهذه الربوبية، إذ أن بعضها كان يرى أن صلة الإله بالعالم إنما هي صلة العلة الأولى والسبب البعيد الذي أدى عمله، وانتهت مهمته، وأن مثله كمثل المهندس البنّاء حين يفرغ من رسم البيت وبنائه، ويصبح لا شأن له بسياسته وتدبيره، أو على الأقل لا صلة له بتدبير عالمنا الأرضي [٤].

والآن دع هذه الفصيلة من المذاهب الفلسفية، أعني فصيلة المذاهب المتخلفة عن قافلة الأديان، وخذ بنا في المقارنة بين الدين وبين الفلسفات التي تلتقي مع الديانات الأخرى، لا في موضوعها وحسب، بل في أصولها العامة التي أشرنا إليها. فهل ترى يصل أمر التقارب بينهما إلى حد الاتفاق في كل شيء، حتى يصبحا اسمين لمسمى واحد؟.

هيهات! فقد بقيت وستبقى بينهما فروق كثيرة، يراها بعض العلماء في الوسائل والمناهج، وبعضهم في المصادر والمنابع، وبعضهم في الظروف والملابسات؛ ونراها نحن في شيء أعمق من هذا كله، في العناصر المقومة لحقيقة، كل منهما.

فلنبدأ بعرض مقالات السابقين ونقدها، ثم نختم بما نراه نحن في هذه القضية:

(١) رأي الفارابي في كنه هذا الاختلاف:

يقول الفارابي نقلاً عن قدماء اليونان: إن اسم الفلسفة خاص عندهم بالعلم الذي تتعقل فيه حقائق الأشياء بذاتها، لا بمثالها، ويتوسل فيه إلى إثباتها بالبراهين اليقينية، لا بمجرد الإقناع. أما الملل والأديان فطريقها في التفهيم إقناعي، وتمثيلي.

نقول: إن صحت هذه التفرقة في بعض الأديان، فإنها لا تنطبق على جميعها. فهذا دين الإسلام مثلاً قد جمع في تعاليمه بين طريقتي اليقين والإقناع، وبين منهجي التحقيق والتمثيل. والفيلسوف ابن رشد يقرر لنا هذه الحقيقة بطريقة تطبيقية على كثير من المسائل والنصوص، في كتابه «فصل المقال، فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال». فبعد أن بيّن أن طباع الناس متفاضلة في التصديق؛ فمنهم من يصدق بالبرهان، ومنهم من يصدق بالأقاويل الجدلية تصديق صاحب البرهان؛ إذ ليس في طبيعته أكثر من ذلك، ومنهم من يصدق بالأقاويل الخطابية كتصديق صاحب البرهان بالأقاويل البرهانية، قال ما نصه: «ولما كانت شريعتنا هذه قد دعت الناس من هذه الطرق الثلاث، عم التصديق بها كل إنسان، إلا من يجحدها عناداً بلسانه أو لإغفاله ذلك من نفسه. ولذلك خص عليه الصلاة والسلام بالبعث إلى الأحمر والأسود، أعني لتضمن شريعته طرق الدعاء إلى الله تعالى. وذلك صريح في قوله تعالى:

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

(النحل: ١٢٥)

وقال في موضع آخر من هذا الكتاب: فإن الكتاب العزيز إذا تؤمل وجدت فيه الطرق الثلاثة، أعني الطريق الموجودة لجميع الناس، والطرق المشتركة لتعليم أكثر الناس، و(الطريق) الخاصة [٥]».

ليس لنا إذاً أن نقول إن الأديان كلها تقوم على الإقناع الخطابي والتمثيلي، لا على التحقيق واليقين.

ثم ليس من الصواب أن نقول من الجهة الأخرى إن التعليمات الفلسفية تستمد دائماً من نور العقل، وتستند إلى البراهين القطعية، إذ لو كانت كلها كذلك ما أمكن أن يحدث بينها هذا الاختلاف والتضارب، فإن الحق لا يعارض الحق ولا يكذبه، بل يسنده ويؤيده.

فهذا التعارض دليل واضح على أنه ليس كل واحد منها يمثل الحقيقة المطلقة أو يقول فيها الكلمة الأخيرة، بل من الجائز أن يكون كل منهما يمثل جانباً من حقيقة مركبة تتألف من مجموعها، ومن الجائز أن يكون الحق واحداً منها وسائرها باطلاً، أو يكون الحق وراء ذلك كله. ولابد لمعرفة أي ذلك هو الواقع، في موضوع ما، من إعادة النظر فيها بالفحص والمقارنة بين مذهب ومذهب، ودليل ودليل.

ونحن نعرف بالاستقراء والتجربة أن أكثر هذه النظريات الفلسفية المتضاربة فروض وتقديرات، تدور كلها في ذلك الإمكان والاحتمال، وتتفاوت فيما بينها بقدر ما فيها من حسن العرض وتناسق الوضع، لا اعتماداً على العقل الخالص ومتانة البرهان، بل على جودة الخيال وبراعة البيان. فهي لا تعدو أن تكون ضرباً من الشعر المنثور، يناجي العاطفة ويستهوي القلوب، من غير أن يكون في حجتها ما يشفي طالب اليقين، ولا في حكمها ما يحسم مادة النزاع بما فيه فصل الخطاب.

«يتبع»

(٣) هذا هو اسم الخالق في لسان أفلاطون والأفلاطونيين.

(٤) المشهور عن أبيقور Epicure أنه كان يزعم أن الآلهة تعيش مثالية في اللهو والنعيم، وأنها لا شأن لها بالعالم الأرضي حتى يرجو الناس خيرها، أو يخشوا غضبها. وقد عقد أفلاطون بحثاً في كتاب القوانين ذكر فيه أن الإلحاد نوعان: أحدهما إنكار الألوهية، والثاني الاعتراف بآلهة لا تعنى بشئون الإنسان، وأخذ يسرد الدلائل العقلية على بطلان هذا الرأي وفساده.
platon.les L. x. 900 et suiv

(٥) فصل المقال لابن رشد (ص ٨).

التشريع الإسلامي وأثره في الفقه الغربي

للدكتور محمد يوسف موسى

طبيعة التشريع وخصائصه

التشريع الإسلامي مستمد من كتاب الله وسنة رسوله، فهما أصلاه العظيمان المقدسان، ولذلك كانت له مزايا وخصائص عديدة تميزه عن سائر ضروب التشريعات التي عرفها الزمان. ومن هذه الخصائص ما يرجع إلى طبيعة هذا التشريع نفسها، ومنها ما يرجع إلى الطريق الذي سار فيه، ويجب أن يستمر سائراً فيه حتى يصل إلى الغاية التي يرضاها المشرع الحكيم للعالم كله.

وليس من الممكن، في هذا المقام المحدود، استيعاب هذه الخصائص التي جعلت التشريع الإسلامي منقطع النظير في العالم كله، ولذلك نجتزئ بالحديث عن بعضها، أعني عن هذه الخصائص:

١ - إن أسسه العامة من وحي الله تعالى.

٢ - التمهيد لأحكامه بوازع الدين والأخلاق.

٣ - نزعته الجماعية.

٤ - قبوله للتطور حسب الزمان والمكان.

أسسه العامة ووحيه:

عن الخاصة الأولى، نذكر أن الإسلام جاء بعد أن استنفد كل من الأديان السابقة أغراضه، وبعد أن صارت الإنسانية مستعدة لتقبله، وأحست بالحاجة الملحة لرسالة سماوية تكون خاتمة الرسالات جميعاً، وتشوقت لدين جديد يسير بها قدماً إلى حياة العز والكرامة والسعادة، لا فرق بين جنس وجنس، ولا بين أمة وأخرى، حتى لا يكون للناس جميعاً إلا إله واحد والعالم كله يعبده.

وكانت رسالة الإسلام، من أجل ذلك، بيان العقيدة الحقة، بعد أن اختلفت في ذلك الديانات السابقة اختلافاً كبيراً مزق العالم إلى فرق مختلفة، ووضع النظم والقوانين الصالحة لحياة الفرد والجماعة، وبخاصة وأن حظ ما سبقه من الأديان السماوية كان ضئيلاً في هذه الناحية. ومن هذه النظم والقوانين، ما نسميه اليوم بالفقه أو التشريع الإسلامي.

أساس هذا التشريع إذاً: هو وحي الله تعالى، هذا الوحي الذي نجده في كتابه الكريم وسنة رسوله العظيم الذي لا ينطق عن الهوى. ففي هذين المصدرين نجد

جماع ما نعرف اليوم من أقسام القانون الوضعي الحديث: المدني، والتجاري والجنائي والدستوري والإداري، والدولي، إلى آخر فروع القانون.

وكل فقيه مقيد بهذين المصدرين، أو الأصلين الأساسيين، ما ساعفته النصوص، وإلا فهو - في اجتهاده برأيه - مقيد كذلك باستلهام روح الشريعة ومبادئها ومقاصدها. وفي ذلك مجال - أي مجال! - للاجتهاد بلا ريب، ومن ثم كان تعدد المذاهب الفقهية واختلافها.

هذا، على حين أن القانون الوضعي من عمل الإنسان، على اختلافه باختلاف الأمم، وعلى اختلاف المذاهب في طبيعته وكيفية تكونه. ولهذه الخاصة التي يتميز بها التشريع الإسلامي «وهو أنه في أسسه من وحي الله تعالى»، نتائج ضخمة لها أثرها الكبير، ونشير من هذه النتائج إلى أن الأحكام الفقهية الإسلامية يكون لها من الاحترام مالا يكون للأحكام التي تصدر عن القانون الوضعي، وذلك لاختلاف مصدريهما. الوحي الإلهي من ناحية، وعمل الإنسان الذي يصيب ويخطئ من ناحية أخرى.

ومن ثم، تكتسب أحكام التشريع الإسلامي الاستقرار، ويعمل بها الذين توجه إليهم عن اقتناع داخلي ورضا نفسي، ما دامت ترجع في أصولها إلى الله العلي الحكيم، الذي لا يجيئ عنه إلا ما يحقق مصلحة الإنسان في جميع أحواله، والذي لا يأمر إلا بالمعروف، ولا ينهى إلا عن المنكر.

التمهيد لأحكامه

وفي ناحية التمهيد لأحكامه، نذكر أنه لا تتحقق الغاية المرجوة من أي قانون إلا بالتزامه، وتنفيذه ممن وضع لهم، على أن يكون هذا بوازع من أنفسهم وقلوبهم، لا خوفاً فقط من أحكامه الزاجرة وعيون الشرطة ورهبة القضاء. وهذا الوازع يكون على أتمه، إذا كان مبعثه الإيمان بعدالة القانون، وإذا رضي المخاطبون به واعتقدوا المثوبة من المشرع عند النزول على أحكامه وتشريعاته.

والتشريع الإسلامي، قد أوفى على الغاية والكمال من ذلك كله، إذ قام على اعتبارات من الدين والأخلاق، تجعل جميع أحكامه تبلغ غاية الرضا والإيمان ممن وجهت إليهم من المؤمنين جميعاً، لا فرق بين المسلمين وغير المسلمين، وحسبنا أن نشير من ذلك إلى ما يأتي:

(أ) لكل من الجارين على أخيه حقوق وواجبات، ومن هذه الحقوق من لا يرضى من هي عليه بالتسليم بها، فيضطر صاحبها للجوء إلى القضاء في سبيل اقتضائها، ومن ثم يجد كثير من المشاكل والقضايا التي يفصل القضاء فيها بأحكامه، ويكون تنفيذ هذه الأحكام بقوة القانون، على أن هذا لا يمنع من بقاء العداء بين المتقاضين.

لكن الله العليم الحكيم والمشرع الوحيد بحق، والذى يعلم ما طبعت عليه النفس الإنسانية من أنانية وأثرة، يؤكد حق الجار على جاره إلى درجة أنه قرنه بالأمر بعبادة الخالق وعدم الإشراك به، فقال:

﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب ﴾

ثم نرى الرسول ﷺ بعد ذلك يؤكد هذا المعنى النبيل في أحاديث كثيرة، نذكر منها قوله: «مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[1] وقوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره»[2] وقوله: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره».[3]

فمتى جاء فقهاء التشريع الإسلامي، بعد هذا وذاك، وبينوا هذه الحقوق التي للجار على جاره، لا يسع من يؤمن حقا بالله وكتابه ورسوله إلا المسارعة بأداء هذه الحقوق، مادام الدين يبلغ من ذلك إلى الأمر بإكرام الجار، لا بإعطائه حقوقه فحسب، وحينئذ لا يكون لنا من حاجة للقضاء، إلا لمعالجة من لم يخالط الإيمان قلوبهم، ومن فطرت نفوسهم على الشح ومنع الناس حقوقهم.

(ب) وفي الزكاة، نجد القرآن يمهد لفرضها بأن يغرس في نفس المؤمن به أن أداء هذه الزكاة، بل التصدق المندوب إليه بشيء مما يملك، خير للمتصدق والمزكي نفسه، فيقول:

﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾

ثم نجد بعد القرآن أحاديث كثيرة في الحث على الصدقة وتغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة، وتصوير هذه العقوبة بصور شنيعة. وبعد ذلك يؤكد للمتصدق أن الله سيعوضه عما ينفق خيراً كثيراً، فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفا».[4]

(ج) والذود عن الوطن والجهاد في سبيل الله من مقاصد الإسلام، ولهذا كتبه دفاعاً عن الحق ونشراً للدين، لكنه لم يأمر بذلك أمراً مجرداً فحسب، كما هو الأمر في القانون الوضعي.

إن الله العليم بالنفوس التي خلقها، والتي أودع فيها الغرائز المختلفة التي منها الضن بالنفس والمال، رغب في الجهاد بكثير من ضروب الترغيب، وبين أنه خير من الدنيا وما فيها، وأنه لا جزاء له في الدار الآخرة إلا الجنة. ولكل هذا ونحوه جاء كثير من الآيات والأحاديث.

لنسمع مثلا إلى قوله تعالى:

﴿ فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما ﴾

(1) مسند الإمام أحمد. (2) صحيح البخاري. (3) موطأ مالك. (4) صحيح البخاري.

وإلى قوله في سورة أخرى:

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله ﴾

ولنسمع بعد هذه الآيات إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «تكفل الله لمن جاهد في سبيله، لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله وتصديق بكلماته أن يدخله الجنة أو يرده إلى مسكنه الذي خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة»[5] وإلى قوله في حديث آخر: «الغدوة أو روحة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها».[6]

وقد كان لهذا النهج في التمهيد للجهاد وتحبيبه إلى النفوس والقلوب، أثره بلا ريب في مشاعر المؤمنين. فهذا سيدنا جابر بن عبدالله يحدث: أن رجلا قال للنبي ﷺ يوم أحد: أرأيت إن قتلت، فأين أنا؟ قال: «الجنة». فألقى تمرات كانت في يده ثم قاتل حتى قتل.

هذا، وقد كان في النية الإتيان بمثل أخرى رأيت بعد البحث والاستقراء أن تطبيق هذه الطريقة، طريقة التمهيد بالدين والأخلاق للتشريعات المختلفة ظاهراً فيها. وهذه المثل خاصة بتحريم الربا، وبتشاريع الطلاق والميراث والأمر بأداء الشهادة وعدم كتمانها، ونحو هذا وذاك كله. كانت النية على ذلك. ولكن رأيت الاكتفاء بما ذكرت، مادام في المثل التي جئنا بها ما يفي بتأكيد هذه الخاصة للفقه أو التشريع الإسلامي.

هذا هو الشأن في التشريع الإسلامي، أما في القوانين الوضعية فلا نجد لذلك مثيلا. حقيقة، إن كل قانون وضعي جديد يقدم له واضعه بمذكرة إيضاحية، يبين فيها السبب في وضعه والطرق التي سلكها فيه، والغاية منه، إلى آخر ما تعنى به أمثال هذه المذكرات لكل تشريع جديد.

لكن هذا شيء، وما انفردت به الشريعة الإسلامية (من التمهيد لكثير من أحكامها على الذي ذكرناه) شيء آخر. إنه بهذه التمهيدات التي تصادفها هنا وهناك في القرآن والسنة والآثار يقتنع المخاطب حقاً بأنه يدعى إلى التزام تشريع يحقق العدالة لا العدل فقط، وأن في هذا الالتزام والنزول على هذه التشريعات رضا الله ورسله، وثوابا للإنسان نفسه في هذه الدار الدنيا وفي الدار الأخرى، وليس بعد هذا ما يبعث على طاعة القانون.

نزعة التشريع الجماعية

وهذه ميزة أخرى للفقه الإسلامي نراها واضحة الظهور في الفقه الإسلامي منذ نشأته، أي منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، على حين لم نكد نلمحها في القوانين الوضعية إلا في القرن التاسع عشر، ونعني بها أن النزعة السائدة فيه هي النزعة الجماعية.

ذلك بأن التشريع الإسلامي، يرمي إلى إصلاح الفرد والمجتمع، فالنزعة التي تسوده هي النزعة الجماعية، ونقول «جماعية» لا «اشتراكية»؛ لأن هذه الكلمة أخذت في هذه الأيام معنى خاصا حددها، أو قصرها على الناحية المالية، ونحن نريد «بالجماعية» معنى أوسع، يتناول الناحية الاقتصادية وغيرها، حتى ليعم الحقوق والواجبات جميعاً.

وهذه النزعة نجدها واضحة فيما جاء به الإسلام من عبادات، كما هي واضحة فيما أتى به من أحكام

(5) موطأ مالك. (6) سنن ابن ماجه.

المعاملات التي نراها في الحياة العملية ، فكل التشريعات في هاتين الناحيتين ، تهدف إلى تهذيب الفرد ، وإلى صالحه والصالح العام للمجتمع بأسره ، والمثل لذلك كله واضحة ندركها بسهولة ويسر ، وتكفينا فيها الإشارة .

ونشير مثلا إلى حكمة شرعية الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وحل البيع وتحريم الربا ، والأمر برعاية الجار والوفاء بالعقود والعهود ، وإقامة الحدود صيانة للمجتمع ، إلى آخر ما نعرف من الأحكام التي جاءت بالأمر والنهي والحل والحرمة .

وبعد هذا التعميم لابد من التخصيص ، وذلك بالإتيان ببعض المثل المحدودة الواضحة الدلالة على ما نقول ، أي أن الطابع العام للفقه الإسلامي هو الطابع الجماعي .

(أ) فمن المعروف أن من حق الزوج أن تكون الزوجة في طاعته ؛ لتكون سكنا له ، وليثمر الزواج ثمراته المنشودة منه ، ولكن هذا الحق مقيد بألا يكون في استعماله ضرر غير مشروع للزوجة ، وإلا منع منه القاضي أو حد من استعماله ، حتى إنه ليكون للزوجة في بعض حالات الضرر أو المضارة طلب التطليق منه ، ومن ثم يقول الله تعالى :

﴿فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا﴾

(ب) ومن حق ولاة الأمر أن تسمع لهم الرعية ويطيعهم الشعب ماداموا يصدرون في سياستهم للأمة عن المصلحة العامة ، وفي هذا نسمع الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب أو كره مالم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[٢] وهذا ، كما نرى ، أصل من أصول الحكم له خطره الكبير ، إذ أنه يحدد في دقة تامة سلطان الحاكم وحقوق المحكوم ، وفي اتباعه مصلحة الأمة جميعا .

(ج) ثم يروى عن أبي عبيدة بن الجراح أن رجالا من أهل البادية سألوه أن يرزقهم من مال الأمة الذي تحت يده ، فقال : لا ، حتى أرزق أهل الحاضرة ، فمن أراد بحبحة الجنة فعليه بالجماعة ، وبمثل هذا كتب الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز إلى يزيد بن الحصين يقول : «مر للجند بالفريضة ، وعليك بأهل الحاضرة ، وإياك والأعراب ، فإنهم لا يحضرون محاضر المسلمين ، ولا يشهدون مشاهدهم» .

وهناك يقول راوي هذين الخبرين ، وهو أبو القاسم بن سلام المتوفى عام ٢٢٤هـ : بأنه ليس وجه هذا أنهم لم يكونوا يرون لأهل البادية حقا في الفيء ، ولكنهم أرادوا أنه لا فريضة لهم راتبة تجرى عليهم من المال كأهل الحاضرة ، الذين يجامعون المسلمين على أمورهم ، ويعينونهم على عدوهم بالنفس والمال ، مع معونتهم على إقامة الحدود وحضور الأعياد والجمع وتعليم الخير ، أما أهل البادية فلهم على الأمة المعونة في أوقات الشدة ، كما إذا أصابتهم جائحة في أرزاقهم أو دهمهم عدو .

(د) ويروى الإمام أبو يوسف ، في كتاب «الخراج» المعروف ، أنه لما فتح الله العراق والشام على المسلمين أيام الإمام عمر بن الخطاب ، أراد فريق كبير من الصحابة قسمة الأرض وما عليها بين أصحاب الحق من المسلمين الفاتحين ، لكن الخليفة العادل الحازم رأى أن يترك الأرض بأيدي ملاكها الأصلاء ، على أن يؤدوا الخراج والجزية للمصلحة

(٢) صحيح البخاري .

العامة للمسلمين جميعا طوال الأزمان . وكان هذا الرأي توفيقا من الله لعمر بن الخطاب ، كما عوده في كثير من الحالات .

إن التشريع الإسلامي يحتفظ بالحق لصاحبه بلا ريب ، ويبيح له استعماله على الوجوه التي يريدها ، ويحميه له من اعتداء الغير ، ولكن بجانب هذا كله ، يعمل هذا التشريع من ناحية أخرى على ألا يضار الغير باستعمال صاحب الحق حقه ضررا يكون أكبر من ضرر الحد من حرية صاحب الحق ، وذلك تطبيقا لقاعدة : لا ضرر ولا ضرار ، ودفعا لأكبر الضررين بالأخف منهما ، فهذه القاعدة تحكم استعمال الحقوق ، وفي تطبيقها صالح صاحب الحق وصالح الغير معا .

(هـ) وكذلك ، تطبيقا لهذه القاعدة ، يبيح التشريع السماوي للمرء أحيانا أن يحفر في أرض غيره مجرى ماء ؛ ليروي أرضه البعيدة عن مصدر الماء ، وهذه حالة معروفة جدا في الأرياف .

وفي هذا ، يروي يحيى بن آدم القرشي أنه كان للضحاك بن خليفة الأنصاري أرض لا يصل إليها الماء إلا إذا مر ببستان محمد بن مسلمة ، فأبى محمد هذا أن يدع الماء يمر بأرضه ، فأتى الضحاك عمر بن الخطاب ، فقال الخليفة لابن مسلمة : أعليك فيه ضرر ؟ قال : لا ، فقال له : والله لو لم أجد ممرا إلا على بطنك لأمررته .

وكان أن نفذ ماقضى به ، وكان في هذا مصلحة للاثنين معا ، فقد جاء في بعض الروايات أن الضحاك حين أبى عليه مسلمة أن يحفر الخليج بأرضه ، قال له : تشرب منه أولا وآخرا .

تلك المثل ، ولو شئنا لأتينا بأخرى كثيرة ، فيها الكفاية لإثبات الطابع الجماعي للشريعة الإسلامية ، هذا الطابع الذي نجد في القرآن وسنة الرسول وأحكام وآراء الجلة من الصحابة المصدر الأصيل له ، وذلك ، كما قلنا ؛ لأن الشريعة الإسلامية لم تأت لصالح الفرد وحده ، بل لصالح المجتمع كله في أوسع حدوده .

هذا هو شأن الشريعة الإسلامية في هذه الناحية ، أما القوانين التي هي من صنع البشر ، فلم تصدر عن هذه النظرة الجماعية أو الاجتماعية النبيلة السامية ، بل كانت تسودها الروح الفردية ، ولنأخذ مثلا لذلك القانون المدني الفرنسي الذي صدر عام ١٨٠٤ أي بعد مجيء الإسلام بأكثر من عشرة قرون .

لقد كان هذا القانون وليد الثورة الفرنسية التي كان هدفها الأول تحرير الفرد مما كان ينوء به من قيود وأثقال ، فجاءت لتقرر أن للإنسان ، باعتباره فردا ، حقوقا طبيعية بلغت من القداسة أنه لا يجوز العبث أو المساس بها ولو لصالح الغير .

ومن ثم - كما يقول أحد رجال القانون المصريين المعاصرين ، وكما هو معروف لكل رجال القانون - ساد هذا القانون روح فردي قوي يلتئم مع الروح الذي أملى إعلان حقوق الإنسان ، وهو تدعيم حقوق الأفراد وحمايتها ، وينظر إلى الفرد باعتباره الأهم في الحياة ، لا باعتباره جزءا من كل هو الجماعة . وقد كان من نتائج ذلك ، أن أتى وقت اعتبرت فيه الحقوق مطلقة المدى ، وأن صاحب الحق في استعماله سيد لا يسأل عما يترتب على هذا الاستعمال من الأضرار التي تحيق بغيره .

ومن الحق أن ما حدث فيما بعد من تطورات اجتماعية واسعة المدى والأهمية ، قد أدى إلى تطور مماثل في القوانين ، جعلها تنظر إلى الفرد وحقوقه باعتباره عضوا في الجماعة ، ومن ثم أخذت في الحد من حريته في استعمال حقوقه ، فنشأت فيما بعد نظرية سوء استعمال الحق المعروفة .

ولكنه مع ذلك بقى من الثابت الذى لا ريب فيه، أن نظرة التشريع الإسلامى لحقوق الأفراد وتقييدها، بما يحقق مصلحة الجماعة ولا يضر الفرد صاحب الحق، أوسع مدى وأبعد أثراً من نظرة القوانين الحديثة فى هذه الناحية.

ونعتقد أن هذه التفرقة الواضحة «بين التشريع الإسلامى وبين القانون الوضعى» ترجع إلى تفرقة أساسية فى أصل حقوق الفرد فى الشريعة وفى القانون.

إن القانون، في أول أمره «على الأقل» يعتبر حقوق الفرد حقوقا طبيعية له، فهو يملكها ويتصرف فيها حسب ما يرى، ومن ثم لا حرج عليه إن أساء استعمالها. أما الشريعة الإلهية، فترى أن الفرد نفسه، وكل ما يعتبر عادة من حقوق له، ملك لله تعالى وحده ومنحة منه لعبيده، ولا يمنح ما يمنح من حقوق للأفراد إلا لغرض حكيم هو تحقيق الخير للفرد والمجتمع معاً؛ ولهذا، نجد تقييد استعمال الحقوق، ورعاية مصلحة الغير ومصلحة الأمة فى استعمالها، مبدأ مقرراً وظاهراً فى الشريعة الإسلامية منذ وجودها.

قبول التشريع الإسلامى للتطور

كل ضرب من ضروب الفقه والقانون، يجب أن يكون فى طبيعته وأصوله وأدواته ما يجعله قابلا للتطور، حسب الزمان والمكان؛ وذلك ليكون صالحا للبقاء.

والشريعة الإسلامية لها من كل ما ذكرنا، ما جعلها خالدة، تتطور مع الزمن. والذين درسوا تاريخ الفقه الإسلامى، يعرفون أن هذا التطور بدأ أيام الخلفاء الراشدين أنفسهم. ولو أن رجال هذا الفقه قاموا عليه كما يجب ولم يجمدوا على القديم، لما كانت الأمة الإسلامية بحاجة مطلقا للجوء للفقه والقوانين الغربية الأجنبية عنا، تأخذ منها تشريعاتها وقوانينها.

وهكذا، صرنا إلى حالة مزلة من الأخذ عن الغرب للتشريع، كأننا أمة ليس لها مقوماتها الذاتية، وتقاليدها الطيبة وشريعتها التى لم يعرف العالم لها مثيلا وإننا بحمد الله تعالى، نرى الآن فجراً جديداً ليوم جديد نعمل فيه لاستقلالنا التام فى التشريع، وهذا يفضل الالتفات للشريعة الإسلامية والإفادة منها.

ووسائل تطور الفقه الإسلامى كثيرة، ولكن أهمها: الإجماع، والقياس، ومبدأ المصالح المرسلة، ووجوب رعاية العرف، بشروط خاصة. وقد قام كل من هذه المبادئ والأصول بدور هام فى التشريعات فى الأزمان الماضية، وهى حرية أن تقوم بمثل هذا الدور فى هذه الأيام إن وجدت من يعنى بها ويفيد منها، وبذلك يأخذ الفقه فى السير إلى الأمام بعد أن وقف زمناً طويلا.

وليس من الممكن أن نعرض هنا لمقدار ما يفيده الفقه وتطوره فى هذا العصر من كل من هذه المصادر والأصول، ولكن نرى أن نشير إلى واحد منها فقط وهو الإجماع، هذا المصدر الخصب الذى يمكننا به أن نجعل الفقه يتطور بوسائله الشرعية الخاصة، حتى يتناول جميع مسائل العصر ومشاكله بالبحث، لمعرفة حكم الله فيها.

وقديما كان يقال: إن إجماع الفقهاء المجتهدين على حكم مسألة من المسائل، لا يمكن تحققه عملياً؛ وذلك لتفرق هؤلاء الفقهاء فى الأقطار الإسلامية، وتعذر اجتماعهم للبحث وأخذ الرأى. كان يقال هذا، ولكن الزمن تغير، ووسائل المواصلات والاتصالات والاجتماعات قربت البعيد، وأصبح من اليسير اجتماع العلماء من جوانب العالم المختلفة لبحث المشاكل المختلفة، كما نراه فى كثير من المؤتمرات، واجتماعات المنظمات الدولية.

وجوب إنشاء مجمع للتشريع:

وهنا أود أن ألفت بقوة أنظار القائمين على الأزهر والمؤتمر الإسلامى، وغيرهما من الهيئات الرسمية، وغير الرسمية، التى تعنى بشئون العالم الإسلامى، إلى أنه قد آن الأوان ليكون لنا «مجمع للتشريع الإسلامى» بجانب «مجمع اللغة العربية».

فإن دراسة الفقه على النحو الذى نريد، وتحقيق الغاية من هذه الدراسة، أمر لا يمكن أن يتحقق على النحو الذى ينبغى إلا بإنشاء هذا المجمع الذى ندعو إليه جاهدين منذ سنوات.

ذلك بأنه إذا كانت العناية باللغة العربية لابد منها، باعتبارها لغة كتاب الله وسنة رسوله، فإن العناية بشريعة الله ورسوله يجب أن تكون أشد، ويجب أن تجد الاهتمام والعون والتأييد من الأفراد والجماعات والدولة معاً، فى مصر وغير مصر من البلاد الإسلامية.

وإنه لمن المخجل لنا، أن نجد الغربيين يعنون بهذا الفقه الخالد، فيقيمون له حلقات دورية للدراسة من المهتمين به فى الغرب والشرق، ثم توفد الحكومات والجامعات العربية الإسلامية ممثلين لها فى هذه الحلقات أو المؤتمرات، ثم لا نفكر نحن فى أن نكون البادئين المنشئين هذه الحلقات، وندعو لها الذين يعنون بهذا الفقه من الأجانب.

وإن هذا «المجمع» حين يتكون من علماء بالشريعة الإسلامية معترف لهم بالأمانة فى الفقه، ومن علماء بالقوانين الوضعية، يتميزون بالعاطفة الدينية والرغبة فى النهوض بهذا الفقه، يستطيع أن يقوم بكل ما نرجوه ويرجوه كل الراغبين فى جعل الفقه الإسلامى أساس قوانيننا الحديثة.

كما أنه يستطيع، بلاريب، أن يبحث جميع مسائل هذا العصر الذى نعيش فيه ومشاكله، مثل المصارف وأعمالها وما أكثرها، والشركات على تعددها وتعدد عملياتها، ومسائل التأمين على اختلاف ضروبه.

ونتيجة هذا كله أن يستطيع هذا «المجمع» العمل بجد على تطور هذا الفقه، وعلى جعله صالحا للتطبيق فى هذا العصر، على أن يكون هذا التطور فى محيط القرآن والسنة، ووفقاً لمبادئ الفقه وأصوله وبخاصة الإجماع. هذا الأصل العظيم الخصب الذى أدى ثمراته الطيبة، فى الأيام المجيدة الأولى، وهو حرى - حين يجد فقهاء حريين بهذا الوصف - بأن يؤتى مثل تلك الثمرات في هذا العصر وفى كل عصر.

وبعد!

لقد طال بنا الحديث، ومع هذا أحب أن أقرر: أنه لابد لنا، إن أردنا أن ننهض بالتشريع الإسلامى نهضة حقة، وأن نجعله المعين الأول لقوانيننا الحديثة، وأن نستقى منه الحلول لمشاكل هذا العصر وكل عصر - إن أردنا جادين هذا كله، فعلينا أن نرجع لفقه الصحابة والتابعين، وأن نرى كيف لم يكونوا يقفون جامدين أمام النصوص التشريعية التى تحتمل معانى وتفسيرات عديدة مختلفة، وهذا عامل معروف من عوامل اختلاف الفقهاء، وأن نسير سيرتهم فى فهم هذه النصوص فى الاستنباط منها.

إننا حين نلاحظ هذا ونفعله نكون حقاً سائرين على الجادة المستقيمة، ونصل إلى الغاية التى نريد، والله يهدينا سواء السبيل.

الوضع القانونى بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعى





للمستشار: طارق البشرى



ثالثاً: تقنينات عهد الاستقلال:

إن مصر استمرت فى العقود الأولى للقرن العشرين على الصورة السابقة فى عمومها. وإن البلاد العربية التى انسلخت عن الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى، استبقت فى الأساس الأوضاع التشريعية التى كانت قد آلت إليها من هذه الدولة. وزادت نزعة التغريب بما صنعه الاستعمار الفرنسى فى سوريا ولبنان والاستعمار الإنجليزى فى العراق والأردن وفلسطين، وقلمت أظراف «المجلة» فى عديد من المجالات، ولكنها بقيت فى هذه الديار تشكل - هى ومجال الأحوال الشخصية - ركائز الوجود التشريعى الإسلامى.

ثم تأتى المرحلة التالية، وهى مرحلة التقنينات فى عهد الاستقلال. وعند الحديث عن الاستقلال التشريعى، لابد من أن يرد الحديث عن عبدالرزاق السنهورى.

فى عام ١٩٣٤، كتب د. السنهورى يدعو لتمصير القانون. قال: «علينا أولاً أن نمصر الفقه، فنجعله فقهاً مصرياً خالصاً، نرى فيه طابع قوميتنا، ونحس أثر عقليتنا. ففقهنا حتى اليوم لايزال هو أيضاً، يحتله الأجنبى. والاحتلال هنا فرنسى، وهو احتلال ليس بأخف وطأة ولا بأقل عنتا من أى احتلال آخر. ولايزال الفقه المصرى يتلمس فى الفقه الفرنسى الهادى المرشد، لا يكاد يتزحزح عن أفقه أو ينحرف عن مساره، فهو ظله اللاصق وتابعه الأمين...». وذكر أن أهم الوسائل لذلك، العناية بالشريعة الإسلامية، «شريعة الشرق ووحى إلهامه وعصارة أذهان مفكريه، نبتت فى صحرائه وترعرعت فى سهوله ووديانه.. لو وطئت أكنافها وعبدت سبلها، لكان لنا من هذا التراث الجليل ما ينفخ روح الاستقلال فى فقهنا وقضائنا وفى تشريعنا..».

وعشية إلغاء الامتيازات الأجنبية فى مصر بمعاهدة منترو فى عام ١٩٣٧، شرع فى إعداد مشروع جديد للقانون المدنى. وكان للسنهورى السهم الغالب فى هذا الجهد الكبير، إذ أعد مسودته الأولى، وشارك بجهد كبير فى اللجان الفنية التى تداولته بالمناقشة والمراجعة. وكان هذا العمل الكبير يستهدف غاية ضخمة، هى تحقيق الاستقلال القانونى. وتوسل المشروع إلى ذلك بتوجهات عامة ثلاثة: أولاً، أن يستقى أحكامه من القانون المقارن، أى من سائر التشريعات فى العالم، دون أن ينحصر فى إطار القانون والفقه الفرنسيين. فيكسر بذلك رباط التبعية القانونية مع فرنسا. وأن تقتصر الاستفادة من القانون المقارن على الصياغات الفنية للنصوص والأحكام، مع فصم العلاقة بين النص المأخوذ فى المشروع وبين النظام القانونى الأجنبى المأخوذ عنه، فلا يلجأ من بعد فى تفسير هذا النص إلى الأصل المأخوذ عنه، ولا إلى ما يدور حوله فى بلد المصدر من تفسيرات وشروح وغيرها، وبذلك يخلى بين النص المأخوذ وبين البيئة التى سيطبق فيها، فيحيا حياة قومية خالصة، ويخضع لتفسيرات المحاكم والفقه من خلال تفاعله مع هذه البيئة القومية.

والتوجه الثانى، هو الأخذ عما استقرت عليه أحكام المحاكم المصرية وشروح الفقهاء المصريين، بحسبان هذا المصدر يمثل ما تمليه البيئة الواقعية من حيث وجوه التعامل وأنماط التفاعل مع الواقع المعيش، ومن حيث إن هذا المصدر يحقق للأحكام القانونية جريانها على المألوف من عادات الناس وطرائق عيشهم وأساليب تعاملهم.

والتوجه الثالث، هو الفقه الإسلامى، فيؤخذ من أحكامه فى حدود ما تصل إليه النهضة العلمية فى دراسة هذا الفقه، مع عدم التقيد بمذهب معين فيه، ومع مراعاة الانسجام فى ذلك مع الهيكل التشريعى العام.

والحق أن هذا القانون المدنى المصرى الجديد قد أخذ فى أحكامه أقداراً من المصادر الثلاثة السابقة، تتناسب مع الترتيب السابق إيراده لها. فكان المصدر الغالب هو القانون المقارن، ثم يليه التطبيقات المصرية، ثم يتلوها الفقه الإسلامى فى إطار جد محدود. وغلب على ما اختير من الفقه الإسلامى - وهو قليل - ما كان استبقاه القانون المدنى القديم (عام ١٨٨٣) من أحكام جد محدودة، أو ما وجد له مثيل فى التشريعات الغربية الحديثة، جرمانية أو سكسونية أو لاتينية. ثم إنه تعامل مع الفقه

الإسلامي تعامله مع القانون المقارن، من حيث إنه فصل بين النص ومصدره، فصار الحكم المأخوذ عن الشريعة حكماً وضعياً، قد انبترت صلته بقديمه، سواء كان المصدرين الرئيسين للشريعة، وهما القرآن والسنة، أو جهود فقهاء الإسلام السابقين بما تركوا من ثروة فقهية.

فدعوة الاستقلال قد تحققت هنا، لا بحسبانه استقلال «الذات» عن الغير فقط، ولكن بحسبانه أيضا استقلالاً عن «الذات»، أو بالأقل استقلالاً عن الذات التاريخية التي تشكل واحداً من المكونات الحالة في النفس الجماعية المعاصرة. ولا يسمح ضيق المجال بإيراد الأمثلة التطبيقية والفنية في هذا الشأن.

ومن جهة ثانية، حدد القانون المدني الجديد - في أولى مواده - مصادر القانون ورتبها حسب أولويتها، وهي أن نلجأ أولاً إلى «التشريع»، فإن لم نجد فيه حكماً لجأنا إلى «العرف»، فإن لم نجد فإلى «الشريعة الإسلامية»، ثم إلى «القانون الطبيعي وقواعد العدالة». وكان إدخال الشريعة كواحد من مصادر التشريع، والاعتراف رسمياً بإمكان رجوع القاضي إليها، كان هذا التقرير أمراً جديداً في سياق التاريخ المعاصر للقانون في مصر، إذ كان القانون المدني القديم يسقطها كلية من مصادره الرسمية. واعتبر ذلك خطوة تجددت بها آمال دعاة العودة لتطبيق الشريعة. كما ينبغي تقدير أنها كانت خطوة جسوراً، باعتبار أنها أتت مخالفة للسياق العام على مدى السبعين عاما السابقة، وللنظام القانوني في عمومه بالنسبة للتقنينات الأخرى. وما زاد من


السنهوري

أهميته أنه جاء اعترافاً «وتشريعياً رسمياً» وجاء في صدور تقنين يعتبر العمدة بالنسبة لغيره من التقنينات، وبالنسبة لأهل الصناعة والفن في هذا المجال.

ولكن وضع الشريعة في الترتيب الثالث من المصادر، وبعد «العرف»، قد يعكس نوعاً من عدم التحقق من أوضاع البيئة [1]. إن مثيل هذا النص نجده في القانون السويسري، يرتب المصادر القانونية على أساس التشريع ثم العرف ثم ما كان يسنه القاضي لو كان مشرعاً.. إلخ. فاستبدل النص المصري بهذا المصدر الأخير الشريعة الإسلامية، لاحقة للعرف. والعرف، كما هو مسلم به اصطلاحاً، هو مجموعة القواعد التي تنشأ من درج الناس عليها يتوارثونها جيلاً عن جيل، والتي لها جزاء قانوني كالقانون المسنون سواء بسواء، فهو عام قديم ثابت ملزم. وركن الإلزام هذا، هو ما به يصير العرف عرفاً بمعناه الاصطلاحي، هو ما

(١) «أحطت عبارتي بلفظي «قد» و«نوعا» لأننا في معرض مناقشة الأستاذ السنهوري. ونحن - أهل هذه الصنعة - نعلم أكثر من غيرنا مقدار علم الرجل وفقه، والدور البالغ الضخامة الذي قام به في حياته العريضة النافعة، ومدى ما تحلى به من سعة العلم وعمق الفكر والإدراك الجليل بأن نشاطه العلمي هو «رسالة» يؤديها لوطنه ولشعبه، والرحلة العلمية والفقهية الطويلة الشاقة التي قام بها، والتي أينعت طيب الثمار. جزاه الله عنا وعن أمته خير الجزاء.

يفرق بين «العرف»، و«العادة»، التي قد يتوافر لها القدم والثبات والعموم دون الإلزام. والمجتمع المصري - وإن وجد به كثير من العادات التي تعارف الناس عليها في معاملاتهم، وتصلح أداة تفسير لإرادات المتعاقدين - لا يكاد يعرف إلا القلة النادرة جداً مما يُعد عرفاً بالمعنى الإصطلاحي، إلا أن يكون حكماً تأتي من الشريعة الإسلامية، أو كان من أعراف البيئة واستوعبه فقه الشريعة بين اجتهادات فقهائها وتأصل بمصادرها.

إن المقارنة بين النص المصري والنص السويسري، يرد معها ظن أن الشريعة وضعت في النص المصري حيث وجد في النص السويسري نوع من الفراغ المتروك للقاضي، يعمل فيه حسه العلمي وذوقه القانوني المدرب. وأتت الشريعة بهذا الترتيب تالية لمصدر يكاد يكون لندرة وجوده أقرب إلى الصورية، وذلك اتباعاً لترتيب وجد في بيئة أجنبية تبرره هناك. وينبغي التنويه بأن أغلب ما يطلق عليه «عرف» في البيئة المصرية هو من قبيل «العادات» التي لا يتوافر لها إدراك المكلفين بلزوم الحكم أو ترتيب جزاء ما عليه.

في سبتمبر عام ١٩٦٢، كتب د. السنهوري عن «القانون المدني العربي» يقول: «يمكن القول في طمأنينة: إن القانون المصري الجديد (المدني) يمثل الثقافة المدنية الغربية أصدق تمثيل. يمثلها في أحدث صورة من صورها». ثم يؤكد هذا القول في سياق آخر بقوله: إنه «استخلاص ما وصلت إليه الثقافة المدنية الغربية في آخر تطوراتها، وهذا ما تحقق بالقانون المدني المصري..» [2].

إن الاستقلال القانوني - على الصورة التي تمثلت في القانون المدني المصري الجديد الذي صدر في عام ١٩٤٨، وعمل به اعتباراً من أكتوبر عام ١٩٤٩ - قد جاء متسقاً مع التصور العلماني للحركة الوطنية، الذي ظهر في بلادنا بعد الحرب العالمية الأولى خاصة، والذي أقام مشروع نهضته للمجتمع الوطني المستقل على صورة اقتبست من نماذج المجتمعات الغربية، سواء المجتمعات الرأسمالية أو الاشتراكية، ودل هذا فيما دل على الانفصام الحادث في الحركة الوطنية المصرية العربية بين تيار الإسلامية الوطنية وبين تيار العلمانية الوطنية، مما يمكن اتخاذه واحداً من معايير التصنيف للاتجاهات السياسية والاجتماعية في بلادنا منذ ذلك الوقت، ومما يضيق المقام الآن عن الاستطراد فيه. وهذا القانون المدني الجديد رحب به كثيرون، ولكن عارضه فريق كشف أيضاً، طالب بتطبيق الشريعة الإسلامية والتقنين عنها، وأعدوا مشروعات وزعوها في دوائر أهل الحل والعقد يثبتون بها إمكان ما يطلبون. ومن هؤلاء، فريق من محكمة النقض المصرية، مثل المرحوم المستشار محمد صادق فهمي.

ومع انتهاء الحرب العالمية الأولى، ما لبثت الدولة العثمانية أن صفيت، وخضعت تركيا لنظام أتاتورك الذي استأصل كل أثر لرابط

(٢) عبدالرزاق أحمد السنهوري: «القانون المدني العربي»، مجلة القضاء، (نقابة المحامين في العراق)، العددان ٣-١ (أيلول/سبتمبر، عام ١٩٦٢م).

إسلامي بتركيا نظاماً ومجتمعاً.

وأجريت حركة تقنين عامة، ألغيت فيها «المجلة»، واستعير بها القانون المدني السويسري، وقانون أصول المحاكمات نوشاتل (Neuchatel) وقانون العقوبات الإيطالي، وقانون التجارة الألماني، كل ذلك بلا تعديلات تذكر، إلا ما ندر. كما أقر نظاما للأحوال الشخصية بعيد عن أحكام الشريعة الإسلامية.

أما البلاد العربية، التي انفكت عن الدولة العثمانية بتصفيتها، فلم تخضع بطبيعة الحال لحركة أتاتورك، واستصحبت الوضع التشريعي الذي آل إليها من الدولة العثمانية. على أن سلطة الاحتلال الفرنسي عملت على تعديل التشريعات تدريجيا في لبنان وسوريا، وضيقت من مجال تطبيق «المجلة». وكذلك صنعت السلطة البريطانية في العراق على نحو أقل.

ومع حركة الاستقلال القانوني التي سلفت الاشارة إليها في مصر، قام في بلاد المشرق العربي بعد الحرب العالمية الثانية، نمطان للاختيار: القوانين الغربية، والشريعة الإسلامية. والحاصل، أن مجال الاختيار بين هذين النمطين انحصر في المعاملات المدنية فقط، دون مجال التجارة والعقوبات ونظام المحاكم. وثمة مثلان يمكن الإشارة إليهما في هذه العجالة. هما: سوريا والعراق.

أما سوريا، فقد نقلت القانون المصري الجديد نقلا، إلا بعض أحكام نقلتها عن قانون الموجبات اللبناني. وكان ذلك في مايو عام ١٩٤٩م على عهد انقلاب حسني الزعيم. فهو غربي المأخذ كله. وفي العهد نفسه، أخذت قانون العقوبات عن القانون اللبناني، وقانون التجارة عن قوانين العراق ومصر ولبنان، وهي غربية المأخذ أيضاً. وصدر كل ذلك بشكل يسميه د. صبحي محمصاني بالانقلاب التشريعي[٣].

وصدرت القوانين فجأة، ولقي القانون المدني خاصة مقاومة كبيرة.

أما العراق، فقد صدر قانونه المدني في سنة ١٩٥١. وكان السنهوري ممن شاركوا في وضعه، وجاء على خلاف القانون المصري -وبسبب موقف العراقيين- جاء مزيجاً من القانون المصري وأحكام الفقه الإسلامي المستخلصة من مجلة الأحكام العدلية.

والخلاصة السريعة لما آل إليه الوضع اليوم في غالب البلاد العربية، أن كل البلاد العربية تطبق قوانين مأخوذة من الشريعة الإسلامية في مجال الأحوال الشخصية. وفيما عدا هذا المجال، فإن أقطار الجزيرة العربية يغلب على قوانينها جميعاً الأخذ من الشريعة الإسلامية، وإذا كانت قوانين وضعية بدأت تصدر في بعض مجالات النشاط الحديث، فهي لاتزال تصدر في إطار الهيمنة العامة للشريعة الإسلامية.

وفيما عدا مجال الأحوال الشخصية -وفي غير أقطار الجزيرة العربية- نجد نوعاً من سيادة التشريعات الآخذة عن الغرب في مجال قانون العقوبات، وقانون التجارة، ونظم المحاكم. ويبقى -بعد ذلك- مجال القانون المدني في غير أقطار الجزيرة العربية، وهو ينقسم إلى قسمين: الأول، يصدر عن الثقافة المدنية الغربية، كمصر وسوريا ولبنان وليبيا (التي أخذت بالقوانين المصرية جلها بعد إعلان استقلالها في عام ١٩٥١). والثاني، زاوج بين الثقافة المدنية الغربية وبين مبادئ الشريعة الإسلامية. والتجربة الرائدة في هذا، هي تجربة العراق، ثم تجربة الأردن (مزاوجة بين القانون المصري و«المجلة»)، وكذلك تونس من طرق أخرى غير طريقي مصر و«المجلة».

وإذا كان د. السنهوري من أهم رجال القانون الذين ساهموا في حركة التقنين المدنية في مرحلة الاستقلال (أقصد الاستقلال السياسي والاستقلال القانوني)، ونجد له سهما شائعا ومؤثراً في غالب تقنينات هذه المرحلة -سواء مباشرة باشتراكه الفعلي، أو بطريق غير مباشر تأثراً بما أسهم فيه- في مصر وسوريا والعراق والأردن والكويت وليبيا، فإنه من المفيد إيضاح تطور موقفه في هذا الشأن.

كان الرجل منذ أوائل الثلاثينيات -مع دعوته للاستقلال القانوني والفقهي عن الغرب، حسبما سلفت الإشارة إليه من كتابته في عام ١٩٣٤- يشير إلى ما ينطوي عليه فقه الشريعة من إمكانات كبيرة ومن مرونة وقابلية للتطور وإن هذا المورد هو أحد عناصر مشروعة للقانون المستقل وقد ذكر هذا المعنى بعد ذلك في مجلة القضاء العراقية في آزار مارس عام ١٩٣٦ ومما قاله: «ففي هذه الشريعة، عناصر لو تولتهم يد الصياغة فأحسنت صياغتها، لصنعت منها نظريات ومبادئ لا تقل في الرقي والشمول، وفي مسايرة التطور، عن أخطر النظريات الفقهية التي نتلقاها اليوم عن الفقه الغربي الحديث».

ولكنه، عندما أعد القانون المصري، لم يستغل الامكانات المتاحة كلها، ولا تفتقت الامكانات المضمرة، فأتى القانون غربيا خالصا، كما وصفه هو بعد ذلك وتعرف له مواقف، قاوم فيها بإصرار مطالب المطالبين باستنباط المشروع من الشريعة وتفسيره لهذا الموقف، أن الدراسات لم تنضج في هذا الحقل بعد ويلحظ على كتبه وأبحاثه الفقهية حتى هذا الوقت، أنها كانت في الغالب الأعم تدور في نطاق الثقافة القانونية الغربية ويمكن القول بأنه -إلى هذا الحين- كانت الشريعة لاتزال لديه مجالا للدعوة، ولم تشارف عنده مرحلة الممارسة العملية أو التشريعية.

لا يعني هذا بالطبع نسبة نقص المعرفة إليه في هذا الشأن، فالرجل عالم وفقيه، ولكن ليس من قرأ كمن صنع وقد واتته فرصة «الصناعة»، عندما ذهب إلى العراق ومارس تجربة التقنين بالمزاوجة مع أحكام «المجلة» وفقه الشريعة عامة. ويبدو لي أن هذه التجربة كانت من أهم ما مر بعقل الرجل تأثيرا. كان فيها مشكلات الممارسة ودقائقها ومسالكها وأدواتها وانفتح له فقه الشريعة كما لم ينفتح له من قبل.

وخرج من هذه المرحلة يقول عن الفقه الإسلامي: إنه «لا تقل عراقته في ذلك عن عراقة القانون الروماني، وهو لا يقل عنه في دقة منطقه وفي متانة الصياغة وفي القابلية

(٣) صبحي محمصاني: فلسفة التشريع في الإسلام، ط ٥ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠م) ص١٦٣

للتطور وهو مثله صالح لأن يكون قانونا عالميا، بل كان بالفعل قانونا عالميا.. هذه هي عقيدتي في الفقه الإسلامي، تكونت لا من العاطفة والشعور فحسب، بل تضافر في تكوينها الشعور والعقل، ومكن لها شيء من الدرس، وأكثر ما كان درسا للفقه الإسلامي عند وضع القانون المدني العراقي.. فأتاح لي اطلاعي على نصوص الفقه الإسلامي - سواء كانت مقننة في «المجلة» و«مرشد الحيران»، أو كانت معروضة عرضا فقهيا في أمهات الكتب، وفي مختلف المذاهب - أن ألحظ مكانة هذا الفقه وحظه من الأصالة والابتداع وما يكمن فيه من حيوية وقابلية للتطور...»

وبعد هذه الممارسة التقنينية، خاض الممارسة الفقهية بكتابه المهم، ذي المجلدات الستة، الذي أعده عن مصادر الحق في الشريعة الإسلامية مقارنة بالقوانين الغربية وجاء هذا العمل من نوع الدراسات الفقهية النظرية المعمقة، التي يعتبرها السنهوري لازمة لتفتيح إمكانات هذا الفقه، والتي ظل يدعو لها دائما.

من هذا الموقع الجديد، نظر إلى القانون المصري الذي وضعه، باعتباره مرحلة يستخلص فيها العقل القانوني العربي ما وصلت إليه الثقافة القانونية الغربية. ونظر إلى القانون العراقي أيضا، باعتباره مرحلة ثانية، توضع فيها الثقافة المدنية الغربية بجانب الفقه الإسلامي ورأى المستقبل، لا في واحدة من هاتين المرحلتين، بل هو في تفاعل المرحلتين تفاعلا يفضي إلى تخطيهما معا، ودعا - تحقيقا لهذا التفاعل والتخطي - إلى الدراسة المقارنة العلمية لتاريخ الفقه وأصول الفقه، ومقارنة المذاهب «السني والشيعي والخارجي والظاهري»، ومقارنة الفقه الإسلامي بالقوانين الغربية ثم شدد في التنبيه إلى أن القانون المأمول يجب أن يكون في صياغته وأسلوبه إسلاميا، وليس تقليدا للقوانين الغربية ولا محاكاة لها: «إننا إذا اقتصرنا على تقليد هذه القوانين، على اعتبار أن هذه هي الغاية من تطور الفقه الإسلامي، لا نكون قد صنعنا شيئا ويكون الأولى أن نقتبس مباشرة من القوانين الغربية.. الواجب أن تدرس الشريعة الإسلامية دراسة علمية دقيقة وفقا لأصول صناعتها، ولا يجوز أن نخرج على هذه الأصول بدعوى أن التطور يقتضي هذا الخروج...»

ثم أشار إلى الإجماع كمصدر للشريعة، وما يحمل من خصوبة وأكد في النهاية أن القانون العراقي مزيج بين فقهين، وليس إسلاميا خالصا ولا غربيا محضا «والذي نبغيه من دراسة الفقه الإسلامي أن نبقيه فقها إسلاميا خالصا... (و) الهدف الذي نرمي إليه هو تطوير الفقه الإسلامي، وفقا لأصول صناعته، حتى نشتق منه قانونا حديثا يصلح للعصر الذي نحن فيه.. القانون النهائي الدائم لكل من مصر والعراق، بل ولجميع البلاد العربية. إنما هو القانون المدني العربي الذي نشتقه من الشريعة الإسلامية بعد تطورها»[1]. ولكن بقي الأمر لديه إلى النهاية، محددا في إطار الفقه الخالص المحض، دون اتصال لهذا الفقه بالدين ومصادره وأصوله في القرآن والسنة.

(1) السنهوري: «القانون المدني العربي».

الفقه الإسلامي ومدارسه







للأستاذ الدكتور/ مصطفى أحمد الزرقا

نشأة المدارس الفقهية وتكون المذاهب

- في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن لاختلاف اجتهادات الصحابة في تطبيق النصوص، وخاصة أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم ونواهيه، أثر يذكر؛ ذلك لأنهم كانوا متى رجعوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يصحح لهم إن أخطأوا الفهم السديد. لكن الأمر قد اختلف بعد وفاته صلى الله عليه وسلم حين انتقل الصحابة من طور الاعتماد على الرسول صلى الله عليه وسلم في كل فهم وتفسير وتنفيذ للأوامر والنواهي، إلى طور الاجتهاد حين واجهوا الأحداث في البلاد المفتوحة، ولم يبق لهم مرجع سوى أنفسهم، كما سبقت الإشارة إليه. وأن المتتبع للحركة الفقهية منذ عهد الخلفاء الراشدين يبدو له أن البذرة الأولى التي نبتت منها المدارس الفقهية ثم تكونت المذاهب كانت ظهور اتجاهين بين الصحابة في فهم النصوص التشريعية.

هذان الاتجاهان اللذان كانا هما النواة التي تكونت منها المدارس الفقهية الأولى ثم المذاهب ذات الأصول والفروع هما:

أ- الوقوف في فهم النص وتفسيره وتطبيقه عند حدوده المبينة فيه، دون تفكير ونظر في علته وبواعثه والظروف التي ورد فيها، ومعرفة غرض الشارع فيه، ولا سيما نصوص الحديث النبوي التي تناولت أموراً معينة بخصوصها ولم تقتصر على العموميات، بينما نصوص القرآن تغلب فيها العمومات الدستورية.

ب- أو النظر وإعمال الرأي والبحث عن علة النص، وغرض الشارع منه لتطبيقه بالصورة التي يتحقق فيها ذلك الغرض، في ظل المقاصد العامة للشريعة، باعتبار أن الشريعة إنما جاءت لإقامة مصالح الحياة البشرية على أكمل وجه، واجتناب مفاسدها، كما نبه إليه القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾

«البقرة: ٢٢٠»

فأحكامها - فيما سوى العبادات المحضة - من أوامر ونواهي، حتى في الجزئيات التفصيلية،

معللة بالمصالح والمفاسد، أما التعبديات المحضة مثل كون فريضة صلاة الصبح ركعتين، وصلاة الظهر أربع ركعات فلا مجال للبحث عن عللها.

فبعض الصحابة ظهر منهم الميل إلى الاتجاه الأول تحرجاً من أن يخطئوا تطبيق أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم ونواهيه - وبعض آخر - ولاسيما الذين عهد إليهم بحمل المسئوليات - ظهر منهم الميل إلى الاتجاه الثاني.

يقول الدكتور مصطفى سعيد الخن [1] في كتابه: «دراسة تاريخية للفقه وأصوله، والاتجاهات التي ظهرت فيهما»: «لقد كان الفقه زمن الصحابة يدور في البحث عن أحكامه على الكتاب ثم السنة، ثم إعمال الرأي إن لم يوجد في المسألة نص من كتاب أو سنة. ولقد كان المفتون في ذلك العصر على طرائق:

- فمنهم من كان يتوسع في الرأي، ويتعرف المصالح فيبني الأحكام عليها، كعمر بن الخطاب وعبدالله بن مسعود.

- ومنهم من كان يحمله التورع والاحتياط على الوقوف عند النصوص، والتمسك بالآثار، كالزبير، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عمرو ابن العاص.

فلما تفرق الصحابة في الأمصار «ليكونوا» قضاة ومفتين ومعلمين، نقلوا علمهم وطرائقهم في البحث والاستنباط إلى من خلفوهم في حمل لواء العلم.

ثم كان من التابعين وتابعيهم من يتحاشى القول بالرأي والاجتهاد. فقد ذكر الدارمي في سننه عن ابن سيرين: أنه كان لا يقول برأيه إلا شيئاً قد سمعه - وذكر عن عطاء: أنه سئل عن مسألة فقال لا أدري، فقيل له: ألا تقول فيها برأيك؟ قال: إني أستحيي من الله أن يدان في الأرض برأيي. وذكر عن الشعبي أيضاً أنه قال: «إياكم والمقايسة... ولكن ما بلغكم عمن حفظ من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فاعملوا به».

كذلك كان منهم من اشتهر بالقول بالرأي، كربيعة الرأي، وعلقمة بن قيس النخعي، وإبراهيم النخعي. فكان اتجاه هؤلاء وأولئك أول نبتة لما جاء فيما بعد من اختلاف المدارس الفقهية. ثم مع استمرار الزمن أخذ الخلاف يتعمق بين الاتجاهين، ولاسيما في القرن الثاني من الهجرة، حتى ظهر في إثر ذلك ما سمي بمدرسة الحديث ومدرسة الرأي، وتمت كل واحدة منهما نماء ظاهراً، وآتت ثمارها وخيراتها، وأضحى لكل مدرسة من هاتين المدرستين مميزات وخصائص» [2].

وقال العلامة الشيخ محمد الخضري بك في كتابه القيم «تاريخ التشريع الإسلامي تحت عنوان بدء النزاع بين الرأي والحديث»:

«إن كبار الصحابة كانوا في العصر الأول يستندون في فتاواهم إلى الكتاب ثم إلى السنة فإن أعجزهم ذلك أفتوا بالرأي وهو القياس بأوسع معانيه، ولم يكونوا يميلون إلى التوسع في الأخذ بالرأي؛ لذلك أثر عنهم ذم الرأي. وقد بينا فيما مضى: ما الرأي المعمول به، وما الرأي المذموم؟

ولما جاء هذا الخلف «من بعدهم» وجد منهم من يقف في الفتوى على الحديث ولا يتعداه، فيفتي في كل مسألة بما يجده من ذلك «في الحديث النبوي»، وليست هناك روابط تربط المسائل بعضها ببعض.

ووجد فريق آخر يرى أن الشريعة معقولة المعاني ولها أصول يرجع إليها، فكانوا لا يخالفون الأولين في العمل بالكتاب والسنة ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً. ولكنهم، لاقتناعهم بمعقولية الشريعة وابتنائها على أصول محكمة مفهومة من الكتاب والسنة، كانوا لا يحجمون عن الفتوى برأيهم فيما لم يجدوا فيه نصاً «كما كان يفعل الفريق الأول». وفوق ذلك كانوا يحبون معرفة العلل والغايات التي من أجلها شرعت الأحكام. وربما ردوا بعض أحاديث لمخالفتها أصول الشريعة، ولاسيما إذا عارضتها أحاديث نبوية أخرى.

وقد كان أكثر ظهور هذا المبدأ في أهل العراق، فكان أكثر فقهاء العراق أهل رأي، وكان أكثر أهل الحجاز أهل حديث» [3].

وهكذا ترى كيف تكونت مدرستا أهل الحديث وأهل الرأي، وتمركزت الأولى في الحجاز، والثانية في العراق، وبالتخصيص: في الكوفة «أهل الرأي»، وفي المدينة «أهل الحديث».

ملاحظة حول التفسير الجغرافي لنشوء المدرستين:

شاع بين من كتبوا في تاريخ الفقه الإسلامي تفسير جغرافي لتركز مدرسة أهل الرأي في العراق «وبخاصة في الكوفة»، ومدرسة أهل الحديث في الحجاز «وبخاصة في المدينة»، ولاختلاف المنهج بينهما. ومن المعتاد في هذا المقام أن يقال: إن التوسع في استعمال الرأي نشأ من قلة رواية الحديث النبوي في العراق بادئ الأمر، ولتعقد الحياة المدنية فيه، وتشعب الأفكار والأعراف، وكثرة الحوادث التي لم يعرف فيها نص صريح مما ألجأ إلى استعمال الرأي.

وكذلك من المعتاد أن يقال: بأن أهل الحديث قد سموا بذلك لكثرة رواية حديث الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم في الحجاز «وبخاصة في المدينة» حيث كانت حاجتهم إلى استعمال الرأي في الاجتهاد قليلة، لندرة الحوادث المدنية المعقدة لديهم.

هذا ما كنت قررته فعلاً في كتابي «المدخل الفقهي العام» جاريت فيه بعض من سبقني. لكن يبدو للمتأمل أن هذا التفسير لنشوء المدرستين وتوطنهما الجغرافي بادئ الأمر لا يتفق مع عدة حقائق تاريخية وفقهية مشهورة، منها:

أ- كان العراق من أسعد الأمصار حظاً بالصحابة، «وكانت الكوفة والبصرة قاعدة للجيوش الإسلامية.. ونزل بها أكثر علماء الصحابة» [4]، وكانت الكوفة مقر الخلافة زمن علي، وكان فيها قبله ابن مسعود، وسعد بن

(١) أستاذ في كلية الشريعة بجامعة دمشق.

(٢) كتاب دراسة تاريخية للفقه ص/٧٤-٧٥.

(٣) تاريخ التشريع الإسلامي للعلامة الخضري ص/١٠٧-١٠٨، ببعض اختصار.

(٤) تجاوز عدد من حل بالكوفة من الصحابة ثلاثمائة صحابي.

أبي وقاص، وعمار بن ياسر، وأبو موسى الأشعرى والمغيرة بن شعبة، وأنس بن مالك، وحذيفة بن اليمان، وعمران بن حصين، وكثير من الصحابة الذين كانوا من حزب على ومن معه كابن عباس. وهؤلاء هم حملة الحديث ورواته..»(٥).

وهذه الحقيقة تتنافى مع ظن قلة الحديث فى العراق.

ب- إن أشهر مجتهد فى الحجاز هو مالك بلا ريب، وهو يعد من مدرسة أهل الرأى، على الرغم من كثرة روايته للحديث وهذا ما يقرره العلامة محمد أبو زهرة فى كتابه «مالك».

ج- إذا كانت البيئة الاجتماعية فى العراق هى الداعية إلى اللجوء للرأى، فكيف أنجبت هذه البيئة نفسها إمام مدرسة أهل الحديث أحمد بن حنبل؟

د- وإذا نظرنا فى فقه الإمام الشافعى نراه أقرب إلى أهل الحديث، ولا يمكن أن ينسب هذا لبيئته، إذ قد عاش فى الحجاز واليمن والعراق ثم مصر، ودرس أقوال أهل الحديث وأهل الرأى قبل أن يبرز بمذهب متميز.

نتيجة

إن التفسير «الجغرافى» لنشأة مدرستى الرأى والحديث وتركزهما لا ينطبق على مذهب من المذاهب الأربعة. وأقرب ما ينطبق عليه هو مذهب الحنفية. لكن حتى هذا، يقدح فى انطباقها عليه ما قدمناه فى البند «أ» آنفا.


أبو زهرة

ويبدو لنا أن التفسير الأقرب للواقع والأبعد عن التكلف هو: أن اختلاف منهج مدرستى أهل الحديث وأهل الرأى هو مظهر لمنهجين أساسيين فى التعامل مع النصوص التشريعية عموماً. فلما تخلوا منهما بيئة إنسانية متحضرة: منهج شديد التمسك بظاهر النص، ومنهج يعطى وزناً أكبر للمقاصد العامة التى بنى عليها النص والحكمة المتوخاة منه.

وفى هذه المرحلة الأولى فى عصر التابعين لم تكن هناك قواعد مشهورة للمجتهدين القائمين بمهمة الفتوى؛ لأن الفقه إذ ذاك لم يكن قد أخذ حظه من التدوين والتأليف إلى تلك الدرجة التى أخذها على أيدى رجال المذاهب الفقهية التى تكونت بعد ذلك، وأيدى أتباعهم»(٦).

أمثلة من اختلاف أهل الحديث وأهل الرأى:

المسائل والأحكام التى اختلف فيها أهل الحديث وأهل الرأى كثيرة جداً فى أحكام العبادات والمعاملات والجنايات، لا مجال فى هذا البحث لعرض الكثير من أمثلتها. ولكننا سنكتفى بذكر مثلين اثنين أحدهما من العبادات فى صدقة الفطر.

(٥) تاريخ الفقه الإسلامي للأستاذ محمد علي السايس «دار المعارف - القاهرة» ص ٧٤.

(٦) ر. تاريخ التشريع الإسلامي للعلامة الخضري أيضاً ص/١١٠.

أ- صدقة الفطر:

ورد فى الحديث الصحيح الثبوت عن عدد من الصحابة ما يفيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوجب على المكلفين صدقة إلى الفقراء فى نهاية شهر الصيام وأول يوم الفطر مقدارها صاع من القمح أو من الشعير أو من التمر أو من الزبيب أو من الأقط(٧) يخرجها كل مكلف عن نفسه وعمن يتبعه ويعوله ذكورا وإناثا. وسميت هذه صدقة الفطر أو زكاة الفطر وهى عبادة مالية تقدم شكراً لله تعالى على ما يسر للمؤمنين من أداء فريضة الصيام، فيها معونة للفقراء بمناسبة انتهاء الصيام وحلول عيد الفطر.

فذهب أهل الحديث إلى أن هذه الصدقة يجب تقديمها إلى الفقراء عيناً من أحد هذه الأقوات التى وردت فى السنة النبوية، ولا يصح أداؤها ولا تبرأ الذمة بتأدية قيمة أحدها بالنقود؛ لأن نص الحديث النبوى قد عين هذه الأنواع.

وذهب أهل الرأى إلى أن المقصود بهذه الصدقة ليس هو هذه الأقوات بعينها فإن أنواعها ليست محلاً للتعبد، ولا يتعلق بأنواعها غرض شرعى، وإنما المقصود معونة الفقراء، وحاجتهم إلى الغذاء هم وعيالهم محققة، فورد الحديث على المعتاد الميسور للمكلفين من الأغذية الشائعة فى محيطهم؛ فالعبرة للمالية لا للنوعية، وهم أدرى بحاجتهم فى ذلك اليوم. فقد تكون حاجتهم إلى الكساء أشد ولا يجدون قيمته، والنقود صالحة لقضاء كل حاجة من أى نوع كانت. فلو أعطى المكلف نقودا تعادل قيمة أحد هذه الأنواع بمقدار الواجب صح منه ذلك.

ب- مسألة الشاة المصراة:

ورد أيضاً فى حديث رواه الصحابى أبو هريرة رضى الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن تصرية الإبل والغنم(٨) وقال:

«لا تصروا الإبل والغنم، فمن ابتاعها بعد فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها: إن شاء أمسك، وإن شاء ردها وصاعاً من تمر» «متفق عليه».

فأهل الحديث يقولون: يردها المشترى، وصاعاً من تمر بدلاً من اللبن الذى احتلبه منها؛ كما جاء فى هذا الحديث النبوى.

وأهل الرأى يقولون: إن قانون ضمان المتلفات فى الشريعة الإسلامية إنما هو أن يرد المثل فى إتلاف المثليات، أو يرد القيمة فى القيميات. وهذا الحديث بظاهره يجعل اللبن الذى استهلكه المشترى مقدراً بغير مثله ولا قيمته. واختلف رأيهم فى النتيجة. وأحسن آرائهم أنه يردها مع قيمة اللبن الذى احتلبه منها، وليس مع صاع من تمر؛ لأن هذا التمر قد يكون أكثر قيمة من اللبن المحلوب أو أقل. ويؤولون الحديث المذكور بأن النبى صلى الله عليه وسلم قدر أن اللبن المحلوب فى تلك الحال يكافئه صاع من تمر، والتمر هو المال الميسور لديهم جميعا إذ ذاك فقضى به.

(٧) الصاع مكيال يعادل ٢,٧٥ لتراً والأقط «بفتح فكسر» لبن محمض يجمد حتى يستحجر فيطبخ ويطبخ به.

(٨) التصرية: ربط ضرع الناقة أو الشاة «التي كانت حلوباً» عندما يريد صاحبها بيعها، حتى يختزن لبنها ويحفل ضرعها ثم يعرضها للبيع ليظن بأنها غزيرة اللبن، فبعد أن يحلبها مشتريها أول مرة لا يجتمع لها لبن جديد بالقدر المعتاد في الشاة الحلوب. وهو غش بالتغرير يوهم صفة كاذبة.

ولكن الأصل الواجب شرعاً في التعادل هو القيمة، فلا يفيد الحديث الوارد في الموضوع أنه حكم عام، وإنما لحادثة بعينها. أما الحكم العام فيرجع فيه إلى الأصل.

هذان مثالان نموذجيان لاختلاف أهل مدرسة الحديث ومدرسة الرأى، وهناك أمثلة فيها غلو صارخ من أهل الحديث لا يقبله الذوق الفقهي البصير بمقاصد الشريعة، كما أنه لم يخل أهل الرأى في بعض مسائلهم من غلو في تأويل بعض الأحاديث بما يخرج عن المعتاد في فهم الخطاب، ويظهر فيه التكلف أو التمحل.

ويبدو للمتأمل أن مدرسة أهل الحديث إنما كانت رد فعل حين فشا استعمال الرأى في مواجهة الأحداث والقضايا المستجدة. والمعتاد في ردود الفعل أنها تذهب بعيداً في الجهة المقابلة إلى أن يحصل التقارب فيما بعد لتضيق شقة الخلاف. وهذا ما حصل فعلاً في مرحلة لاحقة. يدل على ذلك أن تسمية «أهل الحديث» لم تظهر تاريخياً إلا بعد فشو استعمال الرأى بكثرة بطريق القياس والاستحسان والاستصلاح، في مستجدات الحياة بين المسلمين في البلاد المفتوحة.

وقبل ذلك في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وردت كلمة «الرأى» في الفتيا والقضاء، واستعمل الصحابة رضى الله عنهم آراءهم فيما لم يجدوا فيه نصاً في الكتاب ولا سمعوا من الرسول صلى الله عليه وسلم شيئاً فيه حين غيابهم عنه كما ورد في حديث معاذ بن جبل لما أوفده الرسول صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قاضياً ومعلماً «كما سبق ذكره في موضعه»، ولم يظهر إذ ذاك بين الصحابة تسمية «أهل رأى وأهل حديث». ولكن كثرة استعمال الرأى فيما بعد حين سكوت النصوص «وكان ذلك ليس تشهياً، بل بدافع الحاجة»، وكذا الخروج عن حرفية نص الحديث النبوى حين وجوده، والنظر في علة حكمه أو سبب وروده ومقاصد الشريعة، وتحكيم كل ذلك في فهمه، دعا المتمسكين بحرفية النص أو ظاهره إلى إنكار هذا التوسع تورعاً، وظهر عندئذ مصطلح «أهل الحديث وأهل الرأى». وأنكر أهل الحديث على أهل الرأى القياس والمقايسة «كما سبق نقله عن الشعبى» مع أن القياس أوصى به عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبا موسى الأشعرى حين ولاه القضاء.

وهنا يجدر التنبيه إلى ناحية مهمة، وهي أن المقصود بالرأى عندما نقول: «أهل الرأى وأهل الحديث» ليس هو تقرير الأحكام بالتشهي والهوى أو ما يختاره المفتي والقاضي بعقله المجرد دون تقيد بشيء من نصوص الشريعة ومقاصدها العامة التي سبق بيانها في القسم الأول من هذا البحث، كما قد يتوهمه من لا علم له. وإنما المراد بالرأى لدى أهل الرأى «عند سكوت النص، أو لأجل فهمه وتطبيقه» هو النظر في علة النص وغايته وسبب وروده لمعرفة المراد به من أجل حسن تطبيقه تطبيقاً صحيحاً. وفي حالة سكوت النص فإن المراد بالرأى الرجوع إلى مقاصد الشريعة وميزان المصالح والمفاسد بنظر الشارع «لا بنظر الشخص وهواه» مما تقدم بيانه.

فلو كان الحكم بالرأى يراد به معنى الهوى والتشهي لما أقر رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل حين أجابه معاذ رضى الله عنه بأنه سيجتهد برأيه فيما يقضي حين لا يجد نصاً في كتاب الله ولا في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكل تصور للمعنى المقصود بالرأى في هذا المقام خلاف ذلك هو جهل أو سوء قصد للتضليل والتشويه.

ومن ثم نصل إلى نتيجة مهمة هي أن الاختلاف بين مدرستي أهل الرأى وأهل الحديث ليس في أن أهل الرأى يرفضون العمل بالحديث النبوى إذا كان صحيح الثبوت، ويرجحون عليه العمل بالقياس، وأن أهل الحديث يعملون به فهذا التصور جهل بالحقائق. فمن المعروف الثابت لدى أهل العلم، والمسجل في المراجع أن كل واحد من الأئمة الأربعة قال ونقل عنه تلاميذه قوله: إذا صح الحديث فهو مذهبي.

ولكن قد يختلفون في صحة أحد الأحاديث وضعفه؛ لأن أنظار المجتهدين قد تختلف بالنسبة إلى سند الحديث «سلسلة رواته» كما قد تختلف في فهم نصه، مما سبق بيانه في هذا البحث.

فالخلاف الحقيقي بين أهل الرأى وأهل الحديث إنما هو في منهجية الاستدلال بالسنة النبوية:

- فأهل الحديث يرون وجوب الأخذ بظاهر الحديث والوقوف عند هذا الظاهر. وقد يتوقفون عن الفتوى عند عدم النص.

- وأهل الرأى يرون النظر في علة الحديث، ومدى التوافق أو التعارض بينه وبين غيره من النصوص الأخرى الثابتة في الكتاب أو السنة، والتوفيق بينها إن أمكن، والترجيح بينها إن لم يمكن التوفيق عند التعارض.

بدء استقلال علم الفقه وصيرورته اختصاصاً

في النصف الثاني من القرن الأول الهجرى ظهرت بادرة جديدة هي اعتزال بعض أهل العلم والفتوى الأتقياء الحياة العامة، وانصرافهم إلى الفقه تعلماً وتعليماً في بعض الأمصار.

قبل ذلك كان الفقه ورواية الحديث النبوى متداخلين متلازمين فالفقيه حامل حديث، وكثرة علمه وفقهه تأتي من كثرة ما يرويه من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وحامل الحديث النبوى متفقه يفتي الناس في مسائلهم بما عنده من الحديث الذي يرويه. لكن انحراف الخلفاء الأمويين عن سيرة الخلفاء الراشدين الأربعة الأولين في التزام المثل العليا الدينية والعملية، في النصف الثاني من القرن الأول، وما ظهر فيه من فتن وثورات داخلية، دفع فريقاً من أهل العلم والفتوى ذوى الإخلاص والتقوى إلى اعتزال الحياة العامة وصخبها السياسي والاجتماعي، فانصرفوا في عدد من المدن والأمصار إلى الفقه دراسة وتعليماً ينقدون الحكام أحياناً، وينشرون العلم، بين تلاميذهم الذين لازموهم.

وكان هذا بداية استقلال علم الفقه. ونعني باستقلاله أنه صار اختصاصاً ينصرف إليه راغبوه العاكفون عليه تعلماً وتعليماً وينضم إلى كل واحد من أقطاب الفقه جماعة يتلقون عنه علمه ومنهجه، وينشرونه بين الناس.

وفي النصف الثاني من القرن الأول كان التابعون الذين تلقوا عن الصحابة حين انتشروا في الأمصار كثيرين. وفي أوائل القرن الثاني كان تابعو التابعين كثيرين أيضاً. وكثير من هؤلاء وأولئك كان لكل منهم فتاواه وآراؤه الاجتهادية في المسائل والقضايا نقلت عنهم وسجلت بعدهم فيما نقله وسجله المؤلفون في اختلاف الفقهاء. ولكن الذين دونت لهم مذاهب كاملة، أي آراء وفتاوى في جميع أبواب الفقه وأقسامه، هم قلة، وهم الذين رزقوا تلاميذ نجباء فهماء نشيطين، نقلوا عنهم آراءهم وسجلوها، في مختلف

القضايا والمسائل، فتكون لكل منهم مذهب فقهي كامل شامل مختلف الفصول: من الأحكام والعبادات إلى المعاملات، فالجنايات، فشئون الأسرة «الأحوال الشخصية» فكان ما دونه أولئك التلاميذ الأوائل عن كل من أولئك الأئمة هو المرجع في معرفة مذهبه الذي نسب إليه، ومنهجه الفقهي وقواعده الأصولية التي اعتمدها.

ثم جاء تلاميذ طبقات لاحقة من فقهاء كل مذهب، فنقحوا وتوسعوا في التفريع والتخريج والتأليف في مذاهب أئمتهم حتى بلغت المؤلفات الفقهية في كل مذهب ما بين شروح وفتاوى، العشرات أو المئات، ما بين مختصرات ومطولات قد يبلغ أحدها ثلاثين مجلداً أو أكثر.

- فالمذاهب التي حالف أئمتها الحظ السعيد، فكان لهم تلاميذ نجباء نشيطون سجلوا آراءهم وخلدت مذاهبهم وخدمت بالشرح والتخريج والتفريع على أصول كل مذهب منها خلال العصور، هي ثلاث فئات:

الفئة الأولى: هي المذاهب الأربعة التي تمثل فقه أهل السنة: فمنها ما يغلب على فقهه طابع أهل الرأي، ومنها ما يغلب عليه طابع أهل الحديث. ومذاهبهم يتبعها إلى اليوم معظم المسلمين في العالم الإسلامي. وكل قطر أو بضعة الأقطار من العالم الإسلامي يسود فيه أحد هذه المذاهب الأربعة التي تمثل فقه أهل السنة. وهي بحسب الترتيب التاريخي لأئمتها: المذهب الحنفي، ثم المذهب المالكي، ثم المذهب الشافعي، ثم المذهب الحنبلي.

الفئة الثانية: هي المذهب الظاهري، وهذا يمكن تصنيفه مع مذاهب أهل السنة الأربعة؛ لأنه يعتمد مصادرهم نفسها، ولكنه يختلف في شدة تمسك إمامه وأصحابه بحرفية النص إلى درجة تخرج عن المعقول في بعض الأمور ويتبرو عنها المنطق التشريعي، ولا يقبلها أهل الحديث أنفسهم فضلا عن أهل الرأي؛ ولذلك مات مذهبهم فلم تكن له سيادة في قطر ما، وإنما تُعرض بعض آرائهم في دراسة الفقه المقارن اليوم؛ ولذلك رأينا أن نعتبره وحده فئة ثانية من المذاهب الفقهية.

الفئة الثالثة: هي مذاهب تمثل فقه فرق يختلف عن فقه الفئتين الأولى والثانية بأنه يرتبط ببعض أصول اعتقادية مخالفة لما عليه أهل السنة. وهذه الفئة هي المذاهب الأربعة الأخرى التالية:

١- المذهب الزيدي، نسبة إلى زيد بن علي من آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم «ت / ١٢١هـ» ويسود في اليمن جنوب شبه الجزيرة العربية، وهو أقرب من سواه إلى فقه أهل السنة.

٢- المذهب الإباضي، نسبة إلى إمامه عبدالله ابن إباض «ت / ٨٦هـ» الذي كان رأى رأي الخوارج ولكنه في الواقع لم يجر مع غلاتهم. ويسود في سلطنة عمان من بلاد الخليج العربي في شبه الجزيرة العربية، وله أتباع كثيرون موزعون في زنجبار وفي مناطق تونس من الشمال الأفريقي وفي جنوب الجزائر، وفيه مدونات فقهية واسعة.

٣- المذهب الشيعي الإمامي، وهو فقه الشيعة الإمامية الإثنى عشرية. وهم ينسبون أصوله إلى الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه «ت / ١٤٨هـ» وهو من آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم البارزين المتميزين بعلمهم ومكانتهم. وكان معاصراً لأبي حنيفة إمام المذهب الحنفي. وهذا المذهب يسود في إيران وفي مراكز الشيعة الإمامية من العراق، وحيث يوجدون في أي قطر، وفيه مؤلفات ضافية.

٤- المذهب الإسماعيلي: وهو الذي ساد في مصر في عهد الفاطميين.

لمحة عن المذاهب الأربعة الأولى:

قلنا آنفاً: إن المذاهب الأربعة الأولى تمثل فقه أهل السنة، وإنها الأكثر انتشاراً، ويتبعها معظم المسلمين في مختلف أقطار العالم الإسلامي، مع اختلاف في نسبة انتشارها وعدد أتباع كل منها ما بين قطر وآخر، وهي المذهب الحنفي، فالمالكي، فالشافعي، فالحنبلي.

أ- المذهب الحنفي: ينسب إلى إمامه أبي حنيفة النعمان بن ثابت، وهو فارسي الأصل، ويسمى: الإمام الأعظم. ولد سنة / ٨٠هـ وتوفي سنة / ١٥٠هـ وكان إمام العراقيين. وقد انتقلت زعامة أهل الرأي إليه، واستقرت عليه، ووطد طريقة الاستحسان، واشتهر بقوة الحجة وسرعة الجواب المفحم، وعبقرية الفهم والاستنباط. وأشهر تلاميذه اثنان:

الأول: أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الذي تولى سلطة القضاء في الدولة العباسية في عهد الرشيد، وألف له كتاب «الخراج».

والثاني: محمد بن الحسن الشيباني وهو من عباقرة الفقهاء الأذكياء، ومن أئمة اللغة أيضاً. وأبو يوسف ومحمد يلقبان «الصاحبين» وإليهما في الدرجة الأولى يعود الفضل في تدوين فقه أبي حنيفة ونشر مذهبه.

ب- والمذهب المالكي: ينسب إلى إمامه مالك بن أنس الأصبحي، وكان عالم المدينة وإمام الحجازيين. ولد سنة / ٩٣هـ وتوفي / ١٧٩هـ ويعتبر مذهبه وسطاً معتدلاً بين أهل الرأي والحديث، لكثرة استناده إلى الحديث؛ إذ كانت روايته قد انتشرت، ولاسيما في مدينة الرسول عليه السلام. على أن مالكا يعد إلى جانب أهل الرأي، ومذهبه وأصوله إلى الرأي أقرب نسباً. وأخذ بالاستحسان والاستصلاح «بناء الأحكام الفقهية في المسائل التي سكتت عنها النصوص والمسائل المستجدة على قاعدة المصالح المرسلة وموازينها». وقد استفاد من مركزه في المدينة الاتصال بعلماء الآفاق كلها في موسم الحج، واجتمع فيه بأبي حنيفة وناظره وقال عنه: «إنه لفقيه» «كتاب «مالك» للأستاذ الشيخ محمد أبي زهرة، ص / ١».

ج- والمذهب الشافعي: ينسب إلى إمامه محمد بن إدريس الشافعي القرشي وقد ولد سنة / ١٥٠هـ في غزة، وربي يتيماً، ورحل إلى العراق والحجاز، فأخذ عن أصحاب أبي حنيفة وعن مالك. ثم استقر في مصر وترك آراءه القديمة وأسس مذهبه الجديد، وتوفي سنة / ٢٠٤هـ بالفسطاط. وكان جم المواهب، ويعد مذهبه إلى أهل الحديث أقرب. وقد أنكر على شيخه مالك طريقة الاستحسان، وقال: «من استحسن فقد شرع».

د- والمذهب الحنبلي: ينسب إلى إمامه أحمد ابن حنبل الشيباني تلميذ الإمام الشافعي وقد ولد ببغداد سنة / ١٦٤هـ وعني بالحديث فبرع فيه واشتهر، ولذا كان مذهبه أكثر اصطباغاً بالحديث. توفي سنة ٢٤١هـ.

- أشرنا آنفاً إلى أنه وجد في هذه الحقبة مجتهدون آخرون كثيرون لم تدون مذاهبهم غير هؤلاء الأربعة.

الفتح الإسلامى لمصر



٣



للأستاذ الدكتور / محمد سليم العوا

المسير إلى الفتح

فى سنة ١٨هـ كان عمر بن الخطاب فى الجابية - من أرض الشام [١] - فاجتمع به عمرو بن العاص فى خلوة وقال له: «يا أمير المؤمنين ائذن لى أن أسير إلى مصر، وحرضه عليها، وقال له: «إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم، وهى أكثر الأرض أموالاً، وأضعفها عن القتال والحرب».

فأما أنها أكثر الأرض أموالا فقد كان عمرو يعرف مصر وأحوالها من زمن الجاهلية. وأما ضعفها عن القتال والحرب فبسبب الصراع الدامى فيها بين المحتل الرومانى وأهل البلاد، وهو صراع دام عقوداً ممتدة من السنين وأضعف البلاد عن الدفاع عن نفسها بغير جدال؛ وبسبب التمزق والضعف الذى كان قد أصاب الدولة الرومانية الشرقية «البيزنطية» من جراء الخلاف بين قادتها، وصراعهم على الملك، لاسيما بعد هزيمة المسلمين لجيوشها فى بلاد الشام، وتحريرها من الاحتلال الرومانى.

فلم تكن مصر آنئذ مستعدة للتضحية برجالها وشبابها فى سبيل نصرة المحتل الرومانى فى مواجهته مع جيش المسلمين. فلهذا قال عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب: «إنها أضعف البلاد عن القتال»، وهو قول لم يصدر - كما يفهم بعض المتعجلين - على سبيل الذم لمصر وأهلها، بل صدر من واقع خبرة عمرو بحال مصر، وحال الدولة الرومانية، من خلال رحلاته التجارية قبل الإسلام، ومن خلال خبرته العربية بالمنطقة كلها، وتأسيساً على تقدير عسكرى للواقع الرومانى والمصرى، أثبتت الأيام صوابه ودقته.

تخوف عمر بن الخطاب على المسلمين من مواجهة الرومان فى مصر، وكره ذلك. يقول ابن عبد الحكم - وهو ينقل بسنده فى رواية الفتح -: «فلم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر بن الخطاب، ويخبره بحالها، ويهون عليه فتحها حتى ركن إلى ذلك عمر [٢]، فعقد له على أربعة آلاف رجل كلهم من قبيلة عك، وقيل بل كانوا ثلاثة آلاف وخمسمائة، وقيل كان ثلثهم من غافق، وغافق بطن من عك».

وقال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص: «سر وأنا مستخير الله فى مسيرك، وسيأتيك كتابى سريعاً إن شاء الله، فإن أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها، أو شيئا من أرضها، فانصرف. وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك، واستعن بالله واستنصره» [٣].

فى ذلك الوقت «سنة ١٨هـ» كان فتح الشام قد تم، وكذلك فتح العراق، وسقطت مدائن كسرى فى أيدى المسلمين، وراحت جيوشهم هناك تتجه شرقا لفتح أقاليم فارس. ولم يكن متصوراً أن يفكر عمر بن الخطاب، أو يوافق، على فتح جبهة جديدة فى مصر إلا بعد أن تستقر له أحوال الشام والعراق، ويطمئن على مسيرة جيوشه فى فارس؛ ولم يكن معقولا أن يترك عمرو بن العاص الجيش الذى كان يتأمر عليه فى فتح الشام ليفكر فى مصر، لذلك فإن اجتماع عمرو بن العاص بعمر بن الخطاب فى الجابية، فى السنة «١٨ هـ»، هو أولى التواريخ بالقبول لهذه الواقعة. إن الرواية التى تقول إن ذلك الاجتماع بين الرجلين كان سنة «١٦هـ» لا تثبت من حيث السند، ورواية أن ذلك كان سنة «٢٠هـ» تبعد كثيراً عن التاريخ المستمر لسائر أحداث الفتح [٤].

وقبيلة عك مختلف فى نسبها، والراجح أنهم بنو عك بن عُدثان بن عبدالله بن الأزد، من العرب القحطانية. مواطنهم أصلا فى زبيد ونواحيها من أرض اليمن. وقد كانت القبائل القحطانية تمثل غالب جند فتوح العراق وفارس. فعمر بن الخطاب اختار فريقا متجانسا من جنود فتح الشام وأمّر عليهم عمرو بن العاص ليكونوا طليعة جيش الفتح الإسلامى لمصر. والتجانس فى الجيش أمر مهم. والانتماء القبلى يجعل الولاء فطرة أو غريزة فلا يخاف القائد غدراً أو خيانة. والوشائج النسبية بين القبائل أعون على الثبات عند القتال، وأدعى إلى عدم الفرار عند اشتداد البأس، فقد كان الفرار من المعركة منقصة تسير بذكرها الركبان، وتتوقاها القبائل حرصاً على سمعتها فى العرب، وهذا شعور قديم مستصحب منذ ما قبل الإسلام، وقد استثمره عمر - رضى

---

(١) قرية من أعمال دمشق من ناحية الجولان. وكان ذلك فى الزيارة الثانية لعمر - رضى الله عنه - للشام؛ فقد زارها أول مرة، وهو خليفة، عند فتح بيت المقدس سنة ١٧هـ، إذ أبى بطريرك بيت المقدس وأهلها أن يسلموا مفتاحها أو يعقدوا عقداً، إلا مع الخليفة نفسه، وهكذا كان. والعقد بينه وبينهم هو المعروف بعهد عمر إلى أهل إيلياء، وهى بيت المقدس. ثم كانت الزيارة الثانية سنة ١٨هـ.

(٢) ركن إلى الشىء أى مال إليه. وفى القرآن الكريم: ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا﴾ [الإسراء: ٧٤] أى تميل. وفيه كذلك ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾ [هود: ١١٣] أى لا تطمئنوا إلى الظالمين. هذا الوعيد على مجرد الاطمئنان إليهم، فما بالك بنصرتهم وخدمتهم والعمل لهم!!

(٣) ابن عبد الحكم، السابق، ص٧٧.

(٤) أحمد عادل كمال، السابق، ص٣٤٩ - ٣٥٢.

الله عنه – فجعل جيوشه دائماً متجانسة «٥».

والروايات عن اللقاء بين عمرو بن العاص وعمر بن الخطاب، في الجابية، تجمع كلها على أن عمراً خلا بعمر بن الخطاب. وتفسير هذه الخلوة في سبب من اثنين: فإما أن عمرو بن العاص أراد أن ينال موافقة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – على أمرين معاً: فتح مصر، وأن يقود هو جيش الفتح. فقد كان – رضي الله عنه – محباً للرئاسة ساعياً إليها، كيف لا وقد وصفه عمر بن الخطاب نفسه، وقد رآه يمشي في الناس، فقال: «ما ينبغي لأبي عبدالله أن يمشي على الأرض إلا أميراً» «٦»!!

وإما أن عمراً خشي لو كان مع عمر، وهو يحدثه، سائر قواد الجيوش، وكلهم من كبار الصحابة أن لا يكون رأيهم مثل رأي عمرو في شأن مصر فيميل إليهم عمر بن الخطاب ولا يجيب عمراً إلى طلبه.

على أي الأحوال، سار عمرو بجيشه «٣٥٠٠ مقاتل» متجهاً من الشام إلى مصر على طريق العريش، وعند منطقة تسمى «جبل الحلال» انضم إليه نحو خمسمائة رجل من قبائل راشدة ولخم «٧» الذين كانوا يقيمون في تلك المنطقة – وهي من أرض مصر بلا ريب – وبذلك أصبح جنده يبلغون أربعة آلاف رجل «٣٥٠٠» من عك وغافق «وغافق من عك» وخمسمائة من راشدة ولخم «وراشدة من لخم».

وكان عمرو قد سار ليلاً بجنوده، ولم يشعر به من كانوا حوله من جيوش فتح الشام، واستخار عمر بن الخطاب – بعد مسير عمرو بن العاص – في أمر فتح مصر، فكأنه تخوف، فكتب إلى عمرو بن العاص كتاباً فيه: «... أما بعد، فإن أدركك كتابي قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك «أي إلى أرض الشام» «٨» وإن كنت دخلت مصر فامض إلى وجهك»، ووصل هذا الكتاب إلى عمرو وهو برفح، فتخوف أن يأخذه من الرسول الذي جاء به فيجد فيه أمراً بالعودة من حيث جاء فأخذ يماطله في تسلمه، ويدافعه، وهو يسير بالجيش حتى نزل قرية بين رفح والعريش، فسأل عنها فقيل إنها من مصر، فدعا الرسول وتسلم منه الكتاب وقرأه على المسلمين، وقال لهم: «ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر؟». فقالوا: «بلى». قال: «فإن أمير المؤمنين عهد إليّ وأمرني إن لحقني كتابه ولم أدخل مصر أن أرجع؛ ولم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر، فسيروا، وامضوا على بركة الله» «٩».

«٥» نبه إلى هذا المعنى، ووفاه حقه من التدقيق والتحقيق، صديقنا العلامة الأستاذ أحمد عادل كمال في دراسته للفتوح الإسلامية وترتيب القبائل في كل جيش، راجع كتبه: فتوح الشام، وفتح المدائن، وسقوط المدائن، والقادسية، وفتح مصر.

«٦» الذهبي، السير، السابق، ج٣ ص٧٠، وله أيضاً: تاريخ الإسلام، السابق، ج٣ ص٤٣٧.

«٧» راشدة بطن من لخم.

«٨» كان عمرو قائد جيش المسلمين المرابط في قيسارية وهي من أعمال فلسطين، بينها وبين طبرية ٣ أيام، وكانت مدينة مزدهرة، وهي الآن أشبه بالقرى، يقول عنها ياقوت الحموي: «واسعة الرقعة طيبة البقعة كثيرة الأهل والخير وأما الآن فليست كذلك وهي بالقرى أشبه منها بالمدن». ياقوت، معجم البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت د.ت، رقم ١٠٠٤٧، ج٤ ص٤٧٨.

«٩» ابن عبد الحكم، السابق، ص٧٧، وأحمد عادل كمال، السابق، ص٢٥٣.

وفي رواية أن عثمان بن عفان – رضي الله عنه – دخل على عمر بن الخطاب بعد أن سار عمرو إلى مصر، فقال عثمان لعمر: «يا أمير المؤمنين إن عمراً مجرأ، وفيه إقدام وحب للإمارة، فأخشى أن يخرج في غير ثقة ولا جماعة، فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدري أتكون أم لا». فأشفق عمر من كلام عثمان وكتب إلى عمرو كتابه الذي ذكرناه «١٠».

وفي أمر عمر بن الخطاب عمرو بن العاص إذا أدركه كتابه وقد دخل مصر أو شيئاً من أرضها أن يستمر في مسيرته، وإن وصله كتابه قبل أن يدخلها أن يرجع، وفي إرسال الخطاب بعد الاستخارة مسائل:

● أولاها: اتباع عمر للسنة في الاستخارة، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمهم السورة من القرآن «١١». وكانت نتيجة تلك الاستخارة هي ما كتبه إلى عمرو بن العاص.

● ثانيتها: أن رجوع الجيش إذا كان لم يدخل مصر لا يؤثر على السمعة العسكرية للدولة في شيء، لأنه إن لم يدخل مصر يكون في أرض الشام فكأن الجيش قد سار من مكان إلى مكان في البلاد نفسها وهي كلها، يومئذ، في حكم المسلمين.

● ثالثتها: أن الجيش الذي يقوده عمرو إذا كان قد دخل مصر لم يكن رجوعه إلى الشام جائزاً، لأن هذا الرجوع يعني الخوف من الروم، أو عدم الإقبال على القتال، أو عدم إحكام التخطيط قبل إرسال الجيش، وهذا كله يعني ارتباك الدولة وهو أمر لم يكن عمر بن الخطاب – ولا غيره – يقبل أن يشيع عن الدولة الإسلامية في ذلك الوقت. إن أعظم ما يفت في عضد المحاربين أو المرابطين هو انسحاب جيش من مواقعه أو من الأماكن التي وصل إليها في مسيرته، فأبى عمر أن يصيب جيوشه في الشام والعراق بهذا الشعور الذي يؤدي إلى الوهن والتضعضع والفرقة.

وقد قال عمر في سياق كلامه لعمرو عندما أذن له بالخروج «واعلم أني ممدك، أي إذا احتجت إلى زيادة في عدد جيشك فأنا مرسلها إليك».

***

ولا عجب أن يتجه نظر عمرو بن العاص إلى فتح مصر، وأن يوافقه عمر بن الخطاب على ذلك فإنه ليس من حسن التدبير أن يحكم المسلمون الشام والعراق ثم تترك مصر – جنوب الشام – في أيدي الروم البيزنطيين، لأن ذلك يكون خطراً كبيراً على بلاد الشام إذا أراد الروم التحرك لاستردادها من أيدي المسلمين؛ ولم يكن ذلك ليغيب عن العقلية العسكرية لعمرو بن العاص، الذي يقول عنه نفسه: «لم أكن في شيء أنجز مني في الحرب» «١٢»؛ ولا عن حكمة الفاروق عمر الذي جعل الله الحق على لسانه وقلبه.

«١٠» ابن عبد الحكم، السابق، ص٧٨.

«١١» رواه البخاري عن جابر بن عبدالله – رضي الله عنه – ح٦٣٨٢، و٧٣٩٠.

«١٢» ابن عبد الحكم، السابق، ص٢٠٧ عن الليث بن سعد إمام أهل مصر.

وفي أثناء مسير عمرو بجيشه من الشام إلى مصر هلك جمل لرجل ممن خرجوا معه من الشام، فجاء إلى عمرو يطلب منه بعيراً يركبه، فقال عمرو: «تحمل مع أصحابك» أي اجعلهم يحملونك على ما معهم من خيل أو إبل، حتى تبلغ أوائل العامر(١٣)» فلما بلغوا العريش أتاه الرجل، فأمر له عمرو بجملين، وقال له: «لن تزالوا بخير ما رحمتكم أئمتكم، فإن لم يرحموكم هلكتم وهلكوا»(١٤).

***

وبلغ دخول عمرو وجيشه أرض مصر رجلين، كان لكل منهما موقف مناقض لموقف الآخر. فأما الرجل الأول فهو الأنبا بنيامين أسقف القبط بالإسكندرية(١٥) الذي كان مضطهداً، هو وقبط مصر، على يد سيروس «قيرس» المقوقس المعين من قبل هرقل بطريركا للإسكندرية وحاكماً على مصر «عين ٦٣١م» حتى إن بنيامين كان يفر من دير إلى دير في الصحراء مختبئاً عن أعين الرومان؛ أقول: لما بلغ خبر مجئ عمرو بن العاص الأنبا بنيامين كتب إلى القبط يبنهم أنه لا تكون للروم دولة، وأن ملكهم قد انقطع، ويأمرهم بتلقي عمرو بن العاص «أي حسن استقباله».

وأما الرجل الثاني فهو المقوقس، قيرس أو سيروس، الذي أرسل جيشاً من الروم لمواجهة تقدم عمرو بن العاص فالتقى الجمعان عند الفرما(١٦).

ويزعم بتلر في كتابه «فتح العرب لمصر» أن المقوقس لو أرسل عشرة آلاف جندي من الروم لهزموا عمراً والفئة القليلة الذين كانوا معه بين العريش والفرما، أو تحت حصن الفرما. ويخلص من ذلك إلى أن سيروس كان خائناً لدولته وأنه بدأ هذه الخيانة بالتواطؤ مع العرب الفاتحين، قال: «ولا نجد غير هذا الرأي ما نفسر به مسلكه...»(١٧).

وهذا الكلام لا أصل له في أي مصدر عربي، ولو كان صحيحاً لوجدت، ولو إشارة إليه، في المصادر العربية. وليس عجيباً أن يقول بتلر مثل هذا الكلام لأنه لا يعرف أن المسلمين يستمدون فيضاً هائلاً من القوة من مثل قول الله تعالى:

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

[البقرة: ٢٤٩]

(١٣) أصحابه أي قومه. وقد كانوا أشد يطلبون الصحراء، لذلك قال عمرو: حتى تبلغ أوائل العامر.

(١٤) ابن عبد الحكم، السابق، ص ٧٩.

(١٥) أي رأس الكنيسة المرقسية الأرثوذكسية، ما يطلقون عليه بعد ذلك: البطرك أو البطريرك أو البابا بعد أن تولى رئاستها الأنبا شنودة الثالث.

(١٦) مدينة كانت قائمة غرب العريش على نحو ١٥٠ كم منها، وكانت من أقدم مواضع الرباط المصرية على حدودها الشرقية، وهي حصن مصر الشرقي في مواجهة المغيرين عليها. وقد اندثرت الآن، وبقيت آثارها فيما يعرف بتل الفرما، بينه وبين ساحل البحر الأبيض المتوسط ثلاثة كم، وهي بين الإسماعيلية وبورسعيد على بعد نحو ٢٤ كم شرقي محطة الطينة على السكك الحديدية بين مصر والعريش.

(١٧) ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، تحقيق محمد فريد أبو حديد، مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٩، ص ١٨٨.

ومن مثل قوله تعالى:

﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾

[آل عمران: ١٢٥-١٢٦]

بل هو يظن أن العنصر البشري، من حيث عدده ومن حيث عدته، هو وحده الذي يحسم المعركة الحربية، وتاريخ حروب المسلمين يقطع بخطأ ذلك الظن.

على كل حال، مضى عمرو بجيشه حتى بلغ الفرما، وقوتل هناك قتالاً شديداً نحواً من شهر(١٨). وينبغي كي نعرف صمود المسلمين وثباتهم أن نتصور كيف كان القتال: كان الرومان داخل القلعة أو وراء جدر قرية الفرما، كما وصف سبحانه اليهود بقوله:

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾

[الحشر: ١٤]

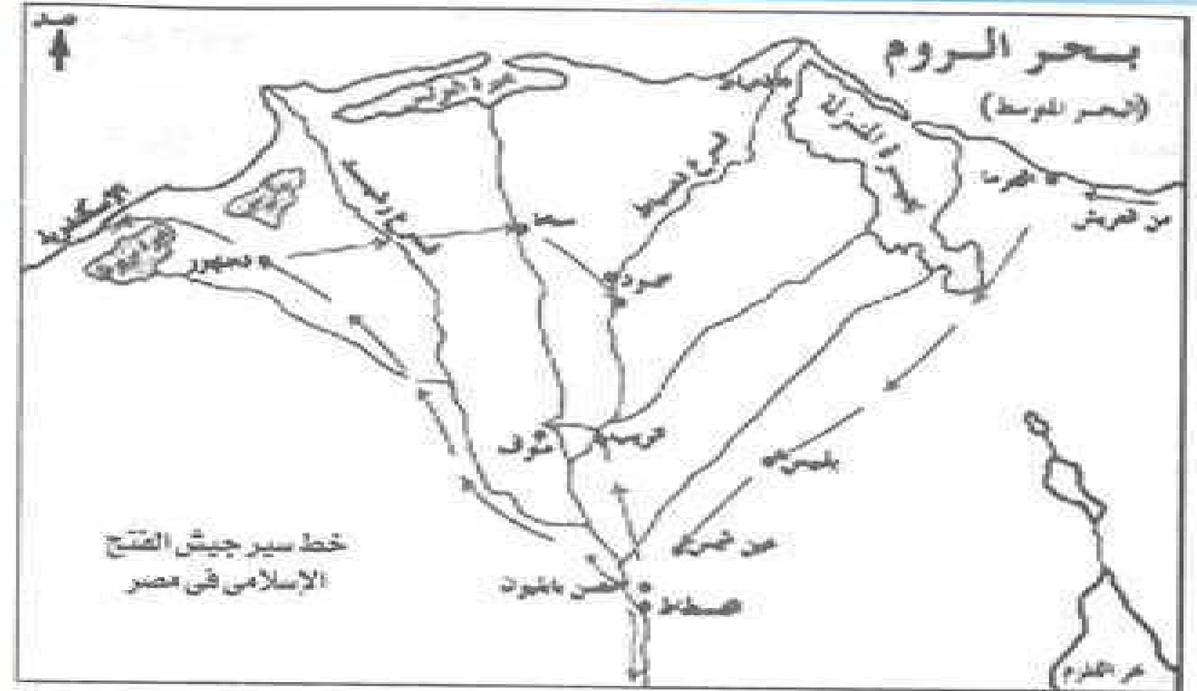
وكان المسلمون في الصحراء لا تظلهم إلا السماء إما فوق ظهور الخيل والإبل، وإما مشاة على الأرض في ظل ظروف جوية قاسية، في شهر يونيو أي في شدة حر الصحراء، ومع ذلك استطاع المسلمون أن يهزموا الرومان بعد هذا الشهر من القتال المستمر لحامية كانت مستعدة استعداداً جيداً للقتال. وما إن تحرر أهل الفرما من وجود عسكر الرومان فيها حتى أصبح القبط، أعواناً لعمرو وجيشه، كما يقول ابن عبد الحكم(١٩). لقد استجاب الأقباط لوصية زعيمهم الديني المضطهد الأنبا بنيامين، فلم يكن عونهم لعمرو بعد هزيمة الرومان في الفرما خوفاً منه أو من جيشه، فهو لم يقاتل القبط أصلا، ولا جاء لقتالهم، إنما كانت معونتهم له من تأثير رسالة أسقفهم الفار بدينه في الصحراء إلى أتباعه في مصر كلها. إن هذا الرجل وأمثاله من زعماء الصدق إذا تكلموا استمع الناس إليهم، وإذا أشاروا أو نصحوا أخذ الناس قولهم مأخذ الأمر الواجب تنفيذه؛ أما الزعماء المرفهون الذين يستحلون لأنفسهم طيب العيش ورغده، ويتركون مواطنيهم يعانون شدته وشظفه، فإن الناس يتخلون عنهم عند أول فرصة، ويتركونهم لمصائرهم عندما تلوح بوادر الهزيمة. الأولون يلتحمون برعيتهم فيكون وفاء الرعية لهم صادقاً، والآخرون ينفصلون عن الرعية فيكون ما يظهره بعضها من الولاء والوفاء نفاقاً وتقية.

وسار عمرو حتى بلغ قرية يقال لها القواصر(٢٠) فقوتل عندها «عند بلبيس» نحواً من شهر حتى فتح الله عليه، فسار حتى أتى أم

(١٨) قال اليعقوبي ثلاثة أشهر والأول أصح.

(١٩) المصدر السابق، ص ٨٠.

(٢٠) من أعمال مركز فاقوس قبل بلبيس، ويسميها عبد العزيز جمال الدين «الصالحية» القصاصين، تاريخ مصر من القرن الأول حتى نهاية القرن العشرين، المطبوع على هامش تاريخ البطاركة لساويرس بن المقفع، مكتبة مدبولي، القاهرة ٢٠٠٦، ج١ ص ٤٧٥.



دين(٢١)، وهناك وجد عمرو قتالاً من الروم أشد مما لقيه فى الفرما وبلبيس، وأبطأ عليه الفتح فكتب إلى عمر بن الخطاب يستمده، فأمده بأربعة آلاف، فأصبح عدد جيشه ثمانية آلاف مقاتل هم الذين استكمل بهم فتح مصر.

لقد كان هدف عمرو فى مصر هو مدينة الإسكندرية، عاصمة الروم بها، وهو قد زارها فى الجاهلية وحضر فيها عيداً من أعياد القبط(٢٢).

ولذلك لم يكن خافياً على عمرو، ولا غائباً عنه، أن حكم الرومان لا يزول تماماً عن مصر إلا إذا خرجوا من الإسكندرية، وأمنت البلاد عودتهم إليها من طريق البحر.

وكان أمام عمرو خياران: أن يخترق الدلتا بزروعها وأرضها الخصبة، التى يغطيها الفيضان أحياناً، أو أن يدور من حولها، من جنوبها إلى غربها ويمضى فى الصحراء حتى يصل إلى الإسكندرية.

وكان الخيار الثانى هو الأنسب للجندى العربى ولدواب الجيش، فالجند ودوابهم يعرفون الصحراء ويألفون السير فيها، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن هناك حصوناً للروم لابد من فتحها والسيطرة عليها قبل الوصول إلى الموقعة الفاصلة التى لابد أن تكون فى الإسكندرية.

ولذلك كان أول أهداف عمرو بن العاص هو حصن بابليون الحصين الذى كان يقع فيما يعرف الآن باسم «مصر القديمة».

---

(٢١) وهى اليوم من أجزاء مدينة القاهرة.

(٢٢) ابن عبد الحكم، السابق، ص٧٤، وراجع: أحمد عادل كمال، السابق، ص١٧٦.

قصص الأنبياء «٢»

إدريس عليه السلام



للعلامة الشيخ/ عبدالوهاب النجار

هو إدريس بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام واسمه فى التوراة العبرية «خنوخ» وفى الترجمة العربية «أخنوخ».

قال الله تعالى:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾

(مريم: ٥٦، ٥٧)

قال الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية: وكان أول بنى آدم أعطى النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام.

وذكر ابن اسحق أنه أول من خط بالقلم وقد أدرك من حياة آدم ثلثمائة سنة وثمان سنين. وقد قال طائفة من الناس: إنه المشار إليه فى حديث معاوية بن الحكم السلمى لما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخط بالرمل فقال: إنه كان نبى يخط فمن وافق خطه فذاك.

ويقول الحافظ بن كثير أيضا: ويزعم كثير من علماء التفسير والأحكام أنه أول من تكلم فى ذلك، ويسمونه، هرمس الهرامسة، ويكذبون عليه أشياء كثيرة كما كذبوا على غيره من الأنبياء والعلماء والحكماء والأولياء.

وقد جاء فى الصحيحين فى حديث الإسراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر به فى السماء الرابعة.

وروى ابن جرير الطبرى عن يونس بن عبدالأعلى عن ابن وهب عن جرير بن حازم عن الأعمش عن شمر بن عطية عن هلال بن يساف قال: سأل ابن عباس كعبا وأنا حاضر فقال له: ما قول الله تعالى فى إدريس:

﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾

(مريم: ٥٧)

فقال كعب: أما إدريس فإن الله أوحى إليه أنى أرفع لك كل يوم مثل جميع عمل بنى آدم، فأحب أن يزداد عملا، فأتاه خليل له من الملائكة فقال له: إن الله أوحى

إلى كذا وكذا فكلم ملك الموت حتى ازداد عملا، فحمله بين جناحيه ثم صعد به إلى السماء، فلما كان في السماء الرابعة تلقاه ملك الموت منحدرا، فكلم ملك الموت في الذي كلمه فيه إدريس، فقال: وأين إدريس؟ فقال: هو على ظهري، فقال ملك الموت: فالعجب، بعثت وقيل لي: اقبض روح إدريس في السماء الرابعة، فجعلت أقول كيف أقبض روحه في السماء الرابعة وهو في الأرض، فقبض روحه هناك فذلك قول الله عز وجل:

﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾

ورواه ابن أبي حاتم عند تفسيرها: وعنده فقال لذلك الملك: سل لي ملك الموت كم بقي من عمري؟ فسأله وهو معه: كم بقي من عمره؟ فقال: لا أدري حتى أنظر، فنظر فقال: إنك لتسألني عن رجل ما بقي من عمره إلا طرفة عين، فنظر الملك إلى تحت جناحه إلى إدريس فإذا هو قد قبض وهو لا يشعر. قال الحافظ بن كثير: وهذا من الإسرائيليات، وفي بعضه نكارة.

أقول: الأسلم تفويض علم ذلك إلى الله تعالى.

وقال البخاري: ويذكر عن ابن مسعود وابن عباس أن إلياس هو إدريس، واستأنسوا في ذلك بما جاء في حديث الزهري عن أنس في الإسراء: أنه لما مر به عليه السلام قال: مرحبا بالأخ الصالح ولم يقل كما قال آدم وإبراهيم: مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح، فلو كان في عمود نسبه لقال له كما قالا له. وقال الحافظ ابن كثير بعد أن نقل ذلك: وهذا لا يدل ولا يبدو؛ لأنه قد لا يكون الراوي حفظ جيدا، أو لعله قاله له على سبيل الهضم والتواضع ولم ينتسب له في مقام الأبوة كما انتسب لآدم أبي البشر وإبراهيم الذي هو خليل الرحمن وأكبر أولي العزم بعد محمد صلوات الله عليهم أجمعين.

ونقل ابن كثير: زعم بعضهم أن إدريس لم يكن قبل نوح بل في زمان بني إسرائيل، وقضية قوله «زعم بعضهم» أن هذا الزعم لا يعول عليه.

وأما عند أهل الكتاب فلا يوجد شيء سوى قولهم: «وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه» ص٥ : ٢٤ تكوين.

جاء في كتاب تاريخ الحكماء - وهو مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي ما نصه: إدريس - قد ذكر أهل التواريخ والقصص وأهل التفسير من أخباره ما أنا في غنى عن إعادته، وأنا ذاكر ما قاله الحكماء خاصة:

اختلف الحكماء في مولده ومنشئه وعمن أخذ العلم قبل النبوة فقالت فرقة: ولد بمصر وسموه هرمس الهرامسة، ومولده بمنف. وقالوا هو باليونانية «أرميس» وعرب بهرمس، ومعنى «أرميس» عطارد وقال آخرون: اسمه باليونانية «طرميس» وهو عند العبرانيين «خنوخ» وعرب «أخنوخ» وسماه الله عز وجل في كتابه العربي المبين «إدريس» وقال هؤلاء: إن معلمه اسمه «الغوثاذيمون»، وقيل اغثاذيمون المصري ولم يذكروا من كان هذا الرجل، إلا أنهم قالوا: كان أحد الأنبياء اليونانيين والمصريين، وسموه أيضا «أوزين الثاني» وإدريس عندهم «أوزين الثالث»، وتفسير «غوثاذيمون» السعيد الجد، وقالوا: وخرج هرمس من مصر وجاب الأرض كلها، ثم عاد إليها ورفعه الله إليه بها، وذلك بعد اثنتين وثمانين سنة من عمره.

وقالت فرقة أخرى: إن إدريس ولد ببابل وبها نشأ وأنه أخذ في أول عمره بعلم شيث بن آدم وهو جد جد أبيه لأنه إدريس بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث قال الشهرستاني: إن أغثاذيمون هو شيث ولما كبر إدريس آتاه الله النبوة فنهى المفسدين من بني آدم عن مخالفتهم شريعة آدم وشيث، فأطاعه أقلهم وخالفه جلهم، فنوى الرحلة عنهم وأمر من أطاعه منهم بذلك، فثقل عليهم الرحيل عن أوطانهم، فقالوا له: وأين نجد إذا رحلنا مثل بابل، وبابل بالسريانية النهر وكأنهم عنوا بذلك دجلة والفرات فقال: إذا هاجرنا لله رزقنا غيره، فخرج وخرجوا، وساروا إلى أن وافوا هذا الإقليم الذي سمي بابليون، فرأوا النيل ورأوه واديا خاليا من ساكن، فوقف على النيل وسبح لله وقال لجماعته بابليون، واختلف في تفسيره، فقيل: نهر كنهر، وقيل: نهر كنهركم، وقيل: نهر مبارك وقيل: إن يون في السريانية مثل أفعل التي للمبالغة في كلام العرب، وكان معناه «نهر أكبر» فسمي الإقليم عند جميع الأمم «بابليون» وسائر فرق الأمم على ذلك إلا العرب، فإنهم يسمونه إقليم مصر نسبة إلى مصر بن حام النازل به بعد الطوفان والله أعلم بكل ذلك.

وأقام إدريس ومن معه بمصر يدعو الخلائق إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الله عز وجل وتكلم الناس في أيامه باثنين وسبعين لسانا، وعلمه الله عز وجل منطقهم ليعلم كل فرقة منهم بلسانهم، ورسم لهم تمدين المدن، وجمع له طالبي العلم بكل مدينة، فعرفهم السياسة المدنية، وقرر لهم قواعدها، فبنت كل فرقة من الأمم مدنا في أرضها، فكانت عدة المدن التي أنشئت في زمانه مائة مدينة وثمانيا وثمانين، أصغرها الرها، وعلمهم العلوم وهو أول من استخرج الحكمة وعلم النجوم؛ فإن الله عز وجل أفهمه أسرار الفلك وتركيبه ونقط اجتماع الكواكب فيه وأفهمه عدد السنين والحساب، ولولا ذلك لم تصل الخواطر باستقرائها إلى ذلك، وأقام للأمم سننا في كل إقليم سنة تليق بأهله، وقسم الأرض أربعة أرباع، وجعل على كل ربع ملكا يسوس أمر المعمور من ذلك الربع، وتقدم إلى كل ملك بأن يلزم أهل كل ربع بشريعة سأذكر بعضها.

وأسماء أربعة الملوك الذين ملكوا: الأول «إيلاوس» وتفسيره الرحيم، والثاني «زوس»، والثالث «اسقليبوس»، والرابع «زوس أمون» وقيل: إيلاوس أمون، وقيل: «بسيلوخس» وهو أمون الملك.

ذكر بعض ما سنه لقومه المطيعين له

دعا إلى دين الله والقول بالتوحيد وعبادة الخالق وتخليص النفوس من العذاب في الآخرة بالعمل الصالح في الدنيا وحض على الزهد في الدنيا والعمل بالعدل وأمرهم بصلوات ذكرها لهم على صفات بينها وأمرهم بصيام أيام معروفة من كل شهر، وحثهم على الجهاد لأعداء دينهم، وأمرهم بزكاة الأموال معونة للضعفاء بها، وغلظ عليهم في الطهارة من الجنابة والحمار والكلب[1]. وحرم المسكر من كل شيء من المشروبات وشدد فيه أعظم تشديد، وجعل لهم أعيادا كثيرة في أوقات معروفة وقربانات: منها لدخول الشمس رءوس البروج ومنها لرؤية الهلال، وكلما صارت الكواكب في بيوتها وشرفها وناظرت كواكب أخر.

(١) لعلها: «الخنزير والكلب».

ذكر ما أمر به من القرابين

أمر بتقريب ثلاثة أشياء: البخور، والذبائح، والخمر، وتقريب كل باكورة، فمن الرياحين: الورد، ومن الحبوب: الحنطة، ومن الفواكه: العنب.

ووعد أهل ملته بأنبياء يأتون من بعده عدة، وعرفهم صفة النبي فقال: يكون بريئا من المذمات والآفات كلها، كاملا في الفضائل الممدوحات لا يقصر عن مسألة يسأل عنها مما في الأرض والسماء ومما فيه دواء وشفاء من كل ألم، وأن يكون مستجاب الدعوة في كل ما يطلبه، وأن يكون مذهبه ودعوته المذهب الذي يصلح به العالم.

ولما ملك إدريس الأرض رتب الناس ثلاث طبقات: كهنة وملوكا ورعية، وجعل مرتبة الكاهن فوق مرتبة الملك؛ لأن الكاهن يسأل الله في نفسه وفي الملك وفي الرعية. وليس للملك أن يسأل الله إلا في ملكه وفي الرعية، وماله أن يسأله في الكاهن؛ لأن الكاهن أقرب إلى الله منه، فقد نقصت منزلة الملك بهذا عن منزلة الكاهن، وليس للرعية أن تسأل الله في شيء إلا في أنفسها؛ لأن الملك أجل منزلة منها عند الله الذي ملكه على الرعية، فنقصوا بذلك مرتبة عن الملك، ومرتبتين عن الكاهن.

فلم يزالوا على هذه القاعدة من الفعل في العبادة وأدب الائتمار بهذه الشريعة إلى أن رفع الله إدريس إليه وخلفه أصحابه على شريعته.

وكان أقوى الملوك عزما من الأربعة «اسقليبوس» فإنه اجتهد بحفظ الكلمة وقوانين الشريعة الإدريسية وحزن لرفع إدريس من بين أظهرهم، وصور صورته في الهياكل وصورة رفعه.

وكان «اسقليبوس» ملكا في الجهة التي ملكتها يونان بعد الطوفان؛ فوجدوا صورة إدريس ورفعه، وعلموا على قدر اسقليبوس وتدوينه الحكم لهم في الهياكل التي يقصدها الطوفان، فظنوا أن اسقليبوس هو الذي ارتفع إلى السماء، وغلطوا في ذلك غلطا بينا؛ لأنهم أخذوه بالحد(٣).

وشريعته أعني إدريس في المملكة الحقيقية وتعرف في ملة الصابئين بالقيمة، وطبقت المعمور من الأرض، وكانت قبلته إلى حقيقة الجنوب على خط نصف النهار.

صورة هرمس الهرامسة وهو «إدريس»

قيل: إنه كان رجلا آدم تام القامة، أجلح، حسن الوجه، كث اللحية، مليح الشمائل والتخاطيط، تام الباع، عريض المنكبين، ضخم العظام، قليل اللحم، براق العينين أكحلهما، متأنيا في كلامه، كثير الصمت، ساكن الأعضاء، إذا مشى أكثر نظره إلى الأرض، كثير الفكرة، به عبسة، وإذا اغتاظ احتد، يحرك سبابته إذا تكلم.

وكانت مدة مقامه في الأرض اثنتين وثمانين سنة.

وكان على فص خاتمه: «الصبر مع الإيمان بالله يورث الظفر» وعلى المنطقة التي يلبسها «الأعياد في حفظ الفروض، والشريعة من تمام الدين. وتمام الدين كمال المروءة» وعلى المنطقة التي يلبسها وقت الصلاة على الميت «السعيد من نظر لنفسه، وشفاعته عند ربه أعماله الصالحة».

وكانت له مواعظ وآداب استخرجتها كل فرقة بلسانها تجرى مجرى الأمثال والرموز فأذكر بعضها إن شاء الله تعالى:

فمن ذلك قوله: «لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نعمه بمثل الإنعام على خلقه».

وقال: «من أراد بلوغ العلم وصالح العمل فليترك من يده أداة الجهل وسيىء العمل، كما ترى الصانع الذي يعرف الصنائع كلها إذا أراد الخياطة أخذ آلتها وترك آلة النجارة؛ فحب الدنيا وحب الآخرة لا يجتمعان في قلب أبدا».

وقال: «خير الدنيا حسرة وشرها ندم».

وقال: «إذا دعوتم الله سبحانه فأخلصوا النية. وكذا الصيام والصلوات فافعلوا».

وقال: «لا تحلفوا كاذبين، ولا تهجموا على الله سبحانه باليمين، ولا تحلفوا الكاذبين فتشاركوهم في الإثم».

وقال: «تجنبوا المكاسب الدنيئة».

وقال: «أطيعوا ملوككم، واخضعوا لأكابركم، واملأوا أفواهكم بحمد الله».

وقال: «حياة النفس الحكمة».

وقال: «لا تحسدوا الناس على مؤاتاة الحظ فإن استمتاعهم به قليل».

وقال: «من تجاوز الكفاف لم يغنه شيء».

وجاء في صفحة ٣٤٨ في ترجمة هرمس الثالث من كتاب تاريخ الحكماء ما يأتي:

وزعم جماعة من العلماء أن جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان إنما صدرت عن هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى، وهو الذي يسميه العبرانيون: خنوخ النبي ابن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم، وهو إدريس النبي صلى الله عليه وسلم على ما تقدم ذكره في أول الكتاب. وقالوا: إنه أول من تكلم في الجواهر العلوية والحركات النجومية. وأول من بنى الهياكل ومجد الله فيها. وأول من نظر في علم الطب. وألف لأهل زمانه قصائد موزونة في الأشياء الأرضية والسماوية. وقالوا: إنه أول من أنذر بالطوفان، ورأى أن آفة سماوية تلحق الأرض من الماء والنار فخاف ذهاب العلم ودروس الصنائع، فبنى الأهرام والبرابي في صعيد مصر الأعلى، وصور فيها جميع الصناعات والآلات، ورسم فيها صفات العلوم حرصا منه على تخليدها لمن بعده خيفة أن يذهب رسمها من العالم، والله أعلم.

فأنتم ترون أن ما جاء عن إدريس في ذلك الكتاب أخبار لم تؤيد بنقل صحيح ولم يعضدها نص قاطع نشهد به على الله تعالى أنه صنعه لعبده ونبيه إدريس عليه الصلاة والسلام، وكلها أقوال مما قمشت وضم حبل الحاطب، فهي أقوال لا بأس بالاطلاع عليها كما يطلع المرء على غيرها من السير التي هي أشبه بالخرافات. والباحثون في العاديات وأهل التاريخ القديم لا يجدون في بحوثهم ما يؤيد هذه الأخبار، بل هم يجدون ما يناقضها من العلم بأسماء بناة الأهرام والملوك الأولين الذين قاموا بالدولة في مصر من مينا وخوفو ومنقرع وغيرهم الذين شيدوا المعابد وحفروا البرابي ونقشوا عليها ما هو ماثل اليوم، وذلك كله بخطوط خاصة يقرءونها ويفسرونها.

أما أهل التوراة فليس عندهم من العلم بشأنه إلا أن خنوخ ولد له ولده وهو ابن خمس وستين سنة، وعاش بعد ذلك ثلثمائة سنة، ولم يوجد بعد لأن الله أخذه؛ فالله تعالى أعلم بشأنه.

(٣) لعلها: «بالحصر».

بنو إسرائيل فى الكتاب والسنة



٢



للأستاذ الدكتور / محمد سيد طنطاوى

(نظرة مجملة فى تاريخ بنى إسرائيل)

كلامنا فى هذا المبحث يتضمن بيانا إجماليا عن تاريخ بنى إسرائيل وأحوالهم منذ نزوحهم إلي مصر حوالى سنة ١٩٠٠ ق. م بقيادة يعقوب ـ عليه السلام ـ إلي خراب أورشليم الثانى على يد تيطس الرومانى سنة ٧٠ م.

وسيكون حديثنا ـ عن تاريخ بنى إسرائيل وأحوالهم في هذه الفترة التي تبلغ زهاء عشرين قرناً علي النحو التالى:

(أ) تاريخهم منذ نزوحهم إلى مصر حتى خروجهم منها خلال القرن الثالث عشر ق. م.

(ب) تاريخهم منذ خروجهم من مصر إلي تأسيس مملكتهم عل يد طالوت (شاول) حوالى سنة ١٩٠٥ ق. م.

(جـ) تاريخهم منذ تأسيس مملكتهم حتى انقسامها إلى مملكتى يهوذا وإسرائيل حوالى سنة ٩٧٥ ق. م.

(د) تاريخهم منذ انقسام المملكتين إلي خراب أورشليم الأول على يد (بختنصر) سنة ٥٨٦ ق. م.

(هـ) تاريخهم منذ خراب أورشليم الأول إلي خرابها الثانى على يد (تيطس الرومانى) سنة ٧٠ م.

وهاك الكلام مفصلا عن كل فترة من هذه الفترات الخمس:

(أ) يرى بعض المؤرخين أن يعقوب ـ عليه السلام ـ هاجر بأهله من فلسطين إلى مصر حوالى القرن التاسع عشر قبل الميلاد [١]. على أثر ما حاق بفلسطين من مجاعة، وما أصاب مراعيها من جدب وقحط وجفاف، وتفصيل ذلك أن أبناء يعقوب ـ عليهم السلام ـ كانوا فى هذه الفترة يترددون على مصر لقصد التجارة وطلب القوت، فتعرفوا على أخيهم يوسف ـ عليه السلام ـ الذى كان في ذلك الوقت أميناً على خزائن مصر ـ فأكرمهم، وطلب منهم أن يحضروا جميعا، ومعهم أبوهم يعقوب ـ عليه السلام ـ إلى أرض مصر؛ ليعيشوا فيها، ويهجروا فلسطين.. وقد لبى يعقوب طلب يوسف ـ عليه السلام ـ فحضروا إلى مصر وكان عددهم ستاً وستين نفساً سوى نسوة أولاده [٢].

وقد أكرم يوسف ـ عليه السلام ـ مثوى أبيه وإخوته. ورق عليهم قلب ملك مصر في ذلك الوقت. وطلب بنو إسرائيل من ملك مصر أن يسكنهم فى أرض جاسان [٣]. فاستجاب لهم، وقال ليوسف: «أبوك وإخوتك جاءوا إليك أرض مصر، ففى أفضل أرضها أسكن أباك وإخوتك ليكونوا في أرض جاسان.. فأسكن يوسف أباه وإخوته، وأعطاهم ملكاً فى أرض مصر فى أفضل الأرض، وعال يوسف أباه وإخوته وكل بيت أبيه بطعام على حسب الأولاد..» [٤].

هذا، وفى سورة يوسف تصوير رائع لما حصل بينه وبين إخوته من أحداث، وفيها كذلك إشارة إلى هجرة يعقوب ببنيه إلي مصر، فقد تضمنت فى نصفها الأول ما جرى بين يوسف وإخوته، من حسدهم له على منزلته عند أبيهم يعقوب ـ عليه السلام ـ ومن إلقائهم له فى الجب، ثم مجيئهم إلى أبيهم عشاء يبكون

﴿ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ۝ وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾

(يوسف: ١٧، ١٨)

ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن إنقاذ إحدى القوافل التجارية ليوسف من الجب، وبيعهم إياه لعزيز مصر بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين.

ثم حكت السورة ما جرى ليوسف ـ عليه السلام ـ مع امرأة العزيز، وكيف أنها هددته بالسجن إذا لم يستجب لرغباتها: فقد حكى القرآن الكريم عنها أنها قالت:

﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾

(يوسف: ٣٢)

---

(١) تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم للأستاذ محمد عزة دروزة ص ٤٠.

(٢) سفر التكوين: الإصحاح السادس والأربعون.

(٣) أرض جاسان يقال: إن مكانها الآن (بلدة صفط الحنة) بمحافظة الشرقية بمصر.

(٤) سفر التكوين: الإصحاح ٤٧.

أى: فامتنع عن الاستجابة لما أرادته منه،

﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾

(يوسف: ٣٢)

أى: ولئن لم يفعل ما آمره به مستقبلا ليسجنن وليكونن من الأذلة المقهورين.

وهنا لجأ يوسف إلي ربه راجياً معونته فقال:

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾

(يوسف: ٣٣)

من السوء والفحشاء

﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾

(يوسف: ٣٣)

بحولك وقوتك وتثبيتك لى على طاعتك:

﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾

(يوسف: ٣٣)

أى: أمل إليهن وأوافقهن على أهوائهن، وأكن من الجهلاء الذين تستخفهم الشهوات؛ لأنى لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً، إلا بحولك وقوتك ومعونتك.

ثم بين القرآن الكريم أن الله ـ تعالى ـ أجاب له دعاءه فقال:

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

(يوسف: ٣٤)

وفى هذا إرشاد إلى أنه ـ سبحانه ـ حرسه بعنايته فى جميع أطواره وشئونه، ورباه أكمل تربية.

ثم قال ـ تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾

قال الإمام ابن كثير: «يقول الله ـ تعالى ـ ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين، أى: إلى مدة، وذلك بعد ما عرفوا براءته، وظهرت الآيات وهى الأدلة على صدقه فى عفته ونزاهته، وكأنهم ـ والله أعلم ـ إنما سجنوه لما شاع الحديث، إيهاما أنه راودها عن نفسها، وأنهم سجنوه على ذلك. ولهذا لما طلبه الملك الكبير فى آخر المدة امتنع عن الخروج من السجن حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة، فلما تقرر ذلك خرج وهو نقى العرض ـ صلوات الله عليه وسلامه»(*).

ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن دخول يوسف السجن،، وعن تعليم الله إياه تعبير الرؤيا، وعن دعوته لرفيقيه فى السجن إلى التوحيد الخالص، عن تأويله لرؤيا الملك تأويلا صادقا ترتب عليه أن نجت مصر من مجاعة مهلكة وإن استدعاه الملك وعينه وزيرا له.

وقد ختمت هذه الأحداث التى حكتها الآيات ببيان سنة لا تتخلف من سنن الله، وهى أنه ـ سبحانه ـ لا يضيع أجر المحسنين، بل يمكن لهم فى الأرض، ويمنحهم الكثير من فضله ونعمه، قال تعالى:

(*) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٧٧. طبعة عيسى الحلبى.

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾

(يوسف: ٥٦)

أى: يتصرف فيها كيف يشاء:

﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾

(يوسف: ٥٦، ٥٧)

هذا ـ بإيجاز ـ عرض سريع لما تضمنته سورة يوسف ـ فى نصفها الأول ـ من أحداث وعبر وتوجيهات. أما نصفها الأخير فمعظمه يدور الحديث فيه حول قدوم إخوة يوسف إليه، وتعرفه عليهم، ومحاوراته معهم فى شأن شقيقه (بنيامين) الذى لم يحضر معهم، ثم احتجازه (بنيامين) عنده بعد أن أحضروه معهم بحجة أنه سارق.. ثم إخباره إياهم عن نفسه، ودعوته لهم أن يأتوه إلى مصر بأهليهم أجمعين، وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ۝ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ۝ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ۝ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

(يوسف: ٥٨ إلى ٦٢)

قال الإمام ابن كثير: «ذكر السدى، ومحمد ابن إسحاق وغيرهم من المفسرين، أن السبب الذى أقدم إخوة يوسف بلاد مصر، أن يوسف ـ عليه السلام ـ لما باشر الوزارة بمصر ومضت السبع سنين المخصبة ثم تلتها السبع سنين المجدبة، وعم القحط بلاد مصر بأكملها، ووصل إلي بلاد كنعان، وهى التى فيها يعقوب وأولاده، وحينئذ احتاط يوسف للناس فى غلاتهم، وجمعها أحسن جمع وورد عليه الناس من سائر الأقاليم، يمتارون لأنفسهم وعيالهم فكان لا يعطى الرجل أكثر من بعير، وكان عليه السلام ـ لا يشبع نفسه.. وكان فى جملة من ورد للميرة أخوة يوسف عن أمر أبيهم لهم في ذلك، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطى الناس الطعام بثمنه، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعاما، وركبوا عشرة نفر، واحتبس يعقوب عليه السلام عنده ابنه بنيامين شقيق يوسف، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف، فلما دخلوا علي يوسف وهو جالس فى أبهته ورياسته عرفهم حين نظر إليهم، وهم له منكرون، أى: لا يعرفونه؛ لأنهم فارقوه وهو صغير حدث، وباعوه للسيارة ولم يعرفوا أين ذهبوا به؟، ولا كانوا يظنون فى أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه، فلهذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم. فذكر السدى وغيره أنه شرع يخاطبهم، فقال لهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادى؟ فقالوا: أيها العزيز إنا قدمنا للميرة، قال: فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله، قال: فمن أين أنتم؟ قالوا من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبى الله، قال: وهل له أولاد غيركم؟ قالوا: نعم كنا اثنى عشر فذهب أصغرنا هلك فى البرية، وكان أحبنا إلى أبيه، وبقي شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه

فأمر بإنزالهم وإكرامهم [٦].

وبعد أن ذكرت الآيات ما دار بين يوسف وإخوته، وكيف أنه احتجز منهم أخاه (بنيامين) وأبقاه عنده: بينت أن يعقوب ـ عليه السلام ـ أمر أولاده أن يذهبوا إلى أرض مصر ليعرفوا أخبار يوسف وأخيه بنيامين، فقال تعالى حكاية عنه:

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾

أى: اذهبوا إلى أرض مصر وتعرفوا أخبار (يوسف وأخيه بنيامين) بحواسكم من سمع وبصر، حتى تكونوا على يقين من أمركم، ولا تقنطوا من فرج الله إنه لا ييأس من فرج الله وقدرته إلا القوم الكافرون، بسعة رحمته.

ثم بين القرآن الكريم ما جرى بين يوسف وإخوته فقال تعالى:

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾ (يوسف: ٨٨)

أى: بعد أن امتثلوا لأمر أبيهم حين قال لهم: اذهبوا فتحسسوا من أمر يوسف وأخيه، وعادوا إلى مصر ـ دخلوا على يوسف فقالوا له: يا أيها العزيز أصابنا الهزال والضعف بسبب المجاعة التى نحن فيها..

﴿ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ ﴾

أى: ببضاعة رديئة كاسدة

﴿ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ ﴾

كما عودتنا من كرمك

﴿ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (يوسف: ٨٨)

ثم حكى القرآن الكريم رد يوسف عليهم فقال:

﴿ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴾ (يوسف: ٨٩)

أى: فى وقت جهلكم بقبح ما فعلتم.

وعندئذ قالوا له متعجبين:

﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ ﴾

فأجابهم بقوله:

﴿ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ ﴾ (يوسف: ٩٠)

ـ بنيامين ـ

﴿ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ ﴾

فجمع بيننا بعد الفرقة

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

فأجابوه بقولهم:

﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا ﴾

(٦) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٨٣، طبعة عيسى الحلبي.

أى: فضلك الله علينا، وآثرك بالعلم والحلم والفضل

﴿ وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾

فى حقك ومسيئين التصرف معك.

فرد عليهم يوسف ـ عليه السلام ـ بقوله:

﴿ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ ﴾ (يوسف: ٩٢)

أى: لا لوم ولا عتاب عليكم اليوم عندى فيما صنعتم

﴿ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ ﴾

ما فعلتموه ويستره عليكم

﴿ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ (يوسف: ٩٢، ٩٣)

أى: أحضروا إلىّ فى مصر جميع أهلكم من الرجال والنساء والذرارى وغيرهم.

ثم بين القرآن الكريم بعد ذلك ما دار بين يوسف وأبيه وإخوته بعد أن وفدوا عليه بمصر من فلسطين فقال تعالى:

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ ﴾ (يوسف: ٩٩)

أى: اعتنقهما وضمهما،

﴿ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾ (يوسف: ٩٩، ١٠٠)

أى: أجلسهما على سريره معه،

﴿ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ ﴾

أى: سجد له أبواه وإخوته سجود تعظيم لا سجود عبادة، وكان هذا السجود جائزا في شريعتهم.

قال الإمام ابن كثير: «وقد كان هذا سائغاً فى شرائعهم، إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزا من لدن آدم إلى شريعة عيسى ـ عليه السلام ـ فحرم هذا فى هذه الملة الإسلامية وجعل السجود مختصاً بالرب ـ سبحانه». ا. هـ [٧]

﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ ﴾ (يوسف: ١٠٠)

أى: هذا السجود منكما ومن إخوتى الأحد عشر: هو المآل والعاقبة والتفسير لرؤياى التى رأيتها من قبل فى صغرى، كما جاء فى قوله تعالى حكاية عنه ـ عليه السلام:

﴿ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ (يوسف: ٤)

(٧) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٩١.

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

(يوسف: ١٠٠)

عن الحسن قال: ألقى يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، وكان بين فراق يوسف ويعقوب إلي أن التقيا ثمانون سنة، وعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة، فمات وله عشرون ومائة سنة[٨].

عاش بنو إسرائيل بعد ذلك في مصر، ودفعهم إلي المكث فيها ما اكتسبوه من خيرات وما نالوه من أمن واستقرار بعد طول ترحال ومجاعات حلت بهم قبل ذلك.

ولكن من الذى كان يحكم مصر عندما وصل إليها يعقوب وبنوه؟

يقول المؤرخون: إن الذى كان يحكم مصر عندما هاجر إليها يعقوب وذريته في حوالى القرن التاسع عشر ق. م، هم الهكسوس.

والهكسوس جماعات من الرعاة نشأوا في آسيا، ثم انحدروا إلي مصر على أثر المجاعات التي حلت ببلادهم، وانتهزوا فرصة انحلال الأسرة الثالثة عشرة الفرعونية، وكثرة الشقاق والنزاع بين الأمراء، فاستولوا على السلطة في مصر وكونوا لهم أربع أسر من الأسر القديمة التى حكمت مصر، واستمر حكمهم من حوالى سنة ٢٠٩٨ إلى سنة ١٥٨٧ ق. م.

وقد نعم بنو إسرائيل بحياة آمنة رخية طوال حكم الهكسوس الغرباء عن أرض مصر.

فلما تمكن (أحمس) من الانتصار على الهكسوس، وطردهم من مصر وأسس الأسرة الثامنة عشرة، في القرن السادس عشر ق. م، بدأت المخاوف تراود بنى إسرائيل من نظام الحكم الجديد، ثم لما قامت الأسرة التاسعة عشرة التى من بين ملوكها (رمسيس الثانى) جاهر المصريون بعداوتهم لبني إسرائيل، وأخذوا ينزلون بهم أشد الضربات، وألوان العقوبات، وذلك لأنهم شاهدوا منهم عزلة وغروراً، واستلابا لأموالهم بطرق خبيثة، ورأوا منهم ـ أيضا ـ تواطؤ مع الهكسوس ضد أبناء الأمة الأصليين ومحاولات لقلب نظام الحكم القائم.

قال صاحب (تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم): «والراجح أن حالة بني إسرائيل تبدلت بعد تقويض حكم الهكسوس في القرن السادس عشر ق. م، وقيام الامبراطورية المصرية، ويستدل من أوراق البردى المذكورة، أن تسخيرهم واضطهادهم قد بلغ الذروة في عهد رمسيس الثانى أعظم ملوك الأسرة التاسعة عشرة التي حكمت حسب تقدير المؤرخ (بريستيد) من سنة ١٣٥٠ إلى سنة ١٢٥٠ ق. م. وحسب تقدير المؤرخ (شارويبم) من سنة ١٤٦٢ إلى سنة ١٢٨٨ ق. م. وهناك قرائن تدل على أنه كان لبنى إسرائيل أثر في الانقلاب الدينى الذى قام به (اخناتون) أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة سنة ١٥٨٠ إلى

---

[٨] تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٩٢

سنة ١٣٥٠ ق. م، فقد هدف (اخناتون) في انقلابه إلي عبادة ما وراء الشمس، وسمى معبوده (آتون) الذى يظن أنه مقتبس من اسم (أدون) أو (أدوناى) العبرانى الذى كان العبرانيون يسمون به الرب[٩]. هـ.

ويصف الدكتور أحمد بدوى علاقة المصريين ببنى إسرائيل في تلك الفترة فيقول:

«من الثابت في تاريخ مصر ـ بناء على ما جاء في كتب السماء من ناحية، وما شهدت به آثار الفراعنة من ناحية أخرى ـ أن (العبرانيين) قد عرفوا مصر منذ أيام الدولة الوسطى على الأقل. يجيئونها أول الأمر لاجئين. يطلبون الرزق في أرضها، ويلتمسون فيها وسائل العيش الناعم والحياة السهلة الرضية بين أهلها الكرام. ثم يجيئونها أسارى في ركاب فرعون كلما عاد من حروبه في أقاليم الشرق ظافراً منصوراً. فينزلهم حول دور العبادة يخدمون في أعمال البناء، ويعبدون أربابهم أحراراً، لم يكرههم أحد على قبول مذهب، أو اعتناق دين، وتطيب لهم الإقامة في مصر، وتستقيم لهم فيها أمور الحياة ثم تنزل بالمصريين بعض الشدائد، وتحل بديارهم بعض المحن والنوائب، فيتنكر لهم بنو إسرائيل ويتربصون بهم الدوائر. ويعملون على إفقارهم، وإضعاف الروح المعنوية بين طبقات الشعب، ابتغاء السيطرة على وسائل العيش في هذا القطر، ليفرضوا عليه سلطانهم، تارة عن طريق الضغط الاقتصادى، وأخرى عن طريق الدين والعقيدة»[١٠].

هذا وقد حكى القرآن الكريم في كثير من آياته نماذج من العذاب الذى أنزله فرعون مصر وجنده ببنى إسرائيل، من ذلك قوله تعالى في سورة إبراهيم:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

وقوله تعالى في سورة القصص:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾

(القصص: ٤)

وقوله تعالى في سورة البقرة:

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

(البقرة: ٤٩)

وخلال تلك البلايا والمصائب التى كانت تنزل ببنى إسرائيل من فرعون وجنده، أراد الله ـ سبحانه ـ أن يمن عليهم، وأن ينقذهم مما هم فيه

---

(٩) تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم ص ٤١ للأستاذ محمد عزة دروزة

(١٠) في موكب الشمس جـ ٢ ص ٤٨٨، ص ٤٨٩ للدكتور أحمد بدوى.

من بلاء، فأرسل لإنقاذهم وهدايتهم رسوله موسى [11] ـ عليه السلام.

وقد حكى لنا القرآن الكريم في آيات كثيرة أن موسى ـ عليه السلام ـ طلب من فرعون أن يقلع عن إيذاء بني إسرائيل، وأن يترك الكفر والغرور ويعبد الله وحده لا شريك له. قال تعالى في سورة الأعراف:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

(الأعراف: ١٠٥)

أي قال موسى ملزماً فرعون الحجة: إني رسول من الله الذي هو خالق كل شيء وربه ومليكه، وإني جدير بأني لا أقول على الله سوى القول الحق الذي أمرني به،، أو حريص على أني لا أقول علي الله إلا القول الحق.

﴿ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

أي: أطلقهم من أسرك وقهرك واتركهم يعبدون الله ربهم، وخل سبيلهم ليرجعوا معي إلى بلاد الشام.

ثم حكى القرآن الكريم بعد ذلك: أن أشراف قوم فرعون، طلبوا منه أن يزيد في إيذاء بني إسرائيل، وأن يحملهم على عبادة آلهته فقال تعالى:

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾

(الأعراف: ١٢٧)

أي: قال الأشراف من قوم فرعون له. أتترك موسى وقومه ليفسدوا رعيتك بأن يحملوهم علي عبادة رب موسى ويرغبوهم في ذلك: وينهوهم عن عبادة آلهتك؟ فأجابهم فرعون بقوله: سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون، أي: غالبون مستعلون. عاملون علي قتل ذكورهم وإبقاء نسائهم.

وجمهور المفسرين علي أن معني قوله تعالى:

﴿ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾

أن فرعون كان قد صنع لقومه أصناما صغارا وأمرهم بعبادتها وسمي نفسه الرب الأعلى. كما جاء وصفه بذلك في قوله تعالى:

﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾

(النازعات: ٢٣، ٢٤)

وقال الحسن: إنه كان يعبد الكواكب ويعتقد أنها المربية للعالم السفلي كله وهو رب النوع الإنساني كله.

ثم بين القرآن الكريم ما وصى به موسى قومه فقال حكاية عنه:

(11) هو موسى بن عمران من نسل لاوي بن يعقوب ـ عليه السلام ـ ويرى بعض المؤرخين أن ولادة موسى ـ عليه السلام ـ كانت في حوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد ـ وأن بعثته كانت في عهد منفتاح بن رمسيس الثاني.

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

(الأعراف: ١٢٨)

أي: قال موسى لبني إسرائيل: استعينوا بالله على هذا الطاغية، واصبروا على إيذائه، فإن الأرض ليست ملكاً لفرعون وإنما هي ملك لله ـ تعالى ـ يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة الحسنة أعدها الله ـ تعالى ـ للذين يتقونه ويخشونه بأن يقيموا شرعه ويتجنبوا ما نهى عنه..

فماذا كان تأثير هذه الوصية في بني إسرائيل؟ وبماذا أجابوا نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ؟ إنهم لم يستفيدوا من هذه الوصية الغالية. بل ردوا علي نبيهم بجفاء وغلظة فقالوا:

﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾

يعنون: أنهم لم ينتفعوا من نبوته بشيء، فقد أصابهم الأذى من فرعون وقومه قبل رسالة موسى ـ عليه السلام ـ كما أنه استمر ذلك الأذى والهوان بعد رسالته. فهم في كلتا الحالتين في عذاب وامتهان.

فرد عليهم موسى ـ عليه السلام ـ رداً فيه رجاء وتنبيه فقال:

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

(الأعراف: ١٢٩)

أتشكرون النعمة أم تكفرونها؟ أتفسدون في الأرض أم تصلحون؟.

هذا ويرى بعض المؤرخين أن بني إسرائيل خرجوا من مصر بقيادة موسى ـ عليه السلام ـ في عهد «منفتاح بن رمسيس الثاني» حوالي سنة ١٢١٣ ق. م بعد أن طالبه موسى ـ عليه السلام ـ أكثر من مرة بأن يرسل معه بني إسرائيل ليخرجوا إلى أرض الشام.

وفي سفر العدد الإصحاح الأول: «أن موسى أحصى بني إسرائيل عند الخروج من مصر فوجد حملة السلاح منهم ـ أي: الذكور ابتداء من سن العشرين ـ يبلغون ٦٠٣٥٠٠ نسمة» ومعني هذا أن تعدادهم العام كان يزيد على المليون.

ويعلق أحد المؤرخين على قصة استلاب بني إسرائيل حلي المصريين عند خروجهم من مصر فيقول: «ويلفت النظر خاصة ما جاء في التوراة من سلب رجال ونساء بني إسرائيل أمتعة جيرانهم الذهبية والفضية بحيلة الاستعارة ونسبة ذلك إلى الله ـ تعالى ـ ومهما كان من أمر فإن تسجيل هذا الخبر بهذا الأسلوب، يدل على ما كان وظل يتحكم في نفوس بني إسرائيل من فكرة استحلال أموال الغير وسلبها بأية وسيلة، ولو لم تكن حالة حرب ودفاع عن النفس. كما أنه كان ذا أثر شديد ـ بدون ريب ـ في رسوخ هذا الخلق العجيب في ذراريهم. ثم من دخل في دينهم من غير جنسهم» [12].

وقد وردت قصة خروج بني إسرائيل من مصر

(12) تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم للأستاذ محمد عزة دروزة. ص ٤٢ وقد تعرضنا لقصة استعارتهم لحلي نساء مصر في فصل (رذائل اليهود) مبحث (عبادتهم العجل).

إلى أرض الشام في مواضع متعددة من القرآن الكريم. من ذلك قوله تعالى في سورة طه:

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ۞ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۞ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ۞ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ۞ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ۞ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾

(طه: ٧٧، ٨٢)

وقوله تعالى في سورة الشعراء:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾

أى: أوحينا إلي موسى أن سر بعبادي بني إسرائيل ليلاً أو في أول الليل تاركين مصر إلى الشام، لأن فرعون وجنده يتبعونكم ليوقعوا بكم الأذى.

قال الإمام ابن كثير: لما طال مقام موسى - عليه السلام - ببلاد مصر وأقام بها حجج الله وبراهينه علي فرعون وملئه، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال. فأمر الله موسى - عليه السلام - أن يخرج ببني إسرائيل ليلا من مصر. وأن يمضى بهم حيث يؤمر ففعل موسى - عليه السلام - ما أمره به ربه - عز وجل - وخرج بهم بعد ما استعاروا من قوم فرعون حليا كثيرا، وكان خروجه بهم - فيما ذكر غير واحد من المفسرين - وقت طلوع القمر. وذكر مجاهد أنه كسف القمر في تلك الليلة. فلما أصبح قوم فرعون وليس في ناديهم داع ولا مجيب. غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بنى إسرائيل لما يريد الله به من الدمار فأرسل سريعا في بلاده من يحشر الجند ويجمعهم للإيقاع ببنى إسرائيل[١٣].

وقد بيّن الله - تعالى - ذلك بقوله:

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾

أى: استصرخ فرعون قومه، واستغاث بعشيرته، وبعث إلي مدائن ملكه من يحشرون الناس ويجمعونهم حوله، ليكونوا تحت أمره.

ثم بين القرآن ما وصف به فرعون قوم موسى فقال:

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾

قال فرعون لقومه: إن هؤلاء وهم موسى وقومه الذين خرجوا من بلادنا «لشرذمة قليلون» طائفة قليلة من الناس بالنسبة إلى كثرة جيوشنا.

﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾

أى: في كل وقت يصلنا منهم ما يغيظنا، ويملأ قلوبنا كراهية لهم

﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾

أى: نحن في كل وقت نحذر غائلتهم

(١٣) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٣٣٥ طبعة عيسى الحلبي.

وشرورهم، ودائماً معدون أنفسنا لتأديبهم والإيقاع بهم واستئصال شأفتهم.

ثم بين الله - تعالى - ما حل بفرعون وجنده من سوء جزاء طغيانهم فقال تعالى:

﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۞ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

أى: أخرجنا بقدرتنا فرعون وجنده من هذا النعيم، الذى كانوا يعيشون فيه إلي الجحيم والعذاب، بسبب كفرهم وجحودهم. وأورثنا هذا النعيم من بعدهم لبنى إسرائيل.

ثم بين الله - تعالى - ما حصل لقوم موسى عندما أدركهم فرعون بجنده فقال تعالى:

﴿ فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾

أى: فلحق فرعون وجنده بموسى وقومه في وقت شروق الشمس «فلما تراءى الجمعان» تقاربا بحيث رأى كل من الفريقين صاحبه «قال أصحاب موسى إنا لمدركون أى قال أصحاب موسى له بخوف وفزع أن فرعون بجنده يوشك أن يلحق بنا ليسومنا سوء العذاب كعادته فأجابهم موسى - عليه السلام - بثقة وثبات:

﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

أى: لن يدرككهم فرعون فإن الله وعدكم بالخلاص منه، فلا تخافوا فإن معي ربى بالمعونة والتأييد، وسيرشدنى إلي ما فيه الخير والمنفعة لكم.

وعندئذ أوحى الله إلي موسى:

﴿ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾

﴿ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾

فضربه موسى فانفلق البحر فرقين:

﴿ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾

أى: كالجبل الثابت الكبير.

قال ابن عباس: صار البحر اثنى عشر طريقاً لكل سبط طريق.

ثم بين - سبحانه - ما حل بفرعون وجنده بعد ذلك فقال تعالى:

﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴾

أى: قربنا من البحر فرعون وجنوده، وأدنيناهم إليه، حتي دخلوا خلف بنى إسرائيل وساروا في الطريق الذى ساروا فيه بين فرقى البحر، فكانت النتيجة كما قال الله - تعالى - بعد ذلك:

﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ۞ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾

بأن أطبقنا عليهم البحر بعد عبور بني إسرائيل.

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ببيان أن فيها عبرة للمعتبرين فقال تعالى:

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة قد صورت أكمل تصوير وأبلغه قصة خروج بني إسرائيل من مصر، واتباع فرعون لهم، وغرقه في النهاية أمام أعينهم.

«يتبع»

فى فقه التغيير

٢

للمفكر الإسلامى والباحث الاستراتيجى
الأستاذ / منير شفيق

حول الأهداف الوسيطة

يلحظ من متابعة قصص الأنبياء عليهم السلام أن ثمة أهدافاً وسيطة فى كل حالة، وهذه الأهداف تأخذ شكل محاربة عدو بعينه، ومحاربة مظاهر شرك بعينها، ومحاربة ألوان محددة من المفاسد والمظالم، أو بعبارة أخرى واجهت كل دعوة رسالية نمطاً محدداً من العقبات التى كانت تحول دون تحقيق الهدف الكلى.. وهو هدف انتصار عقيدة التوحيد، وإنه هدف جعل كلمة الله هى العليا فى كل مناحى الحياة - أى الحكم بما أنزل الله، ومن ثم شكلت هذه العقبات أهدافاً وسيطة لابد من إزالتها حتى يكون بالإمكان العبور إلى تحقيق الهدف الكلى، فوجود أهداف وسيطة لتحطيم عدو بعينه أو إزالة فساد بعينه، أو رفع عقبة بعينها، يشكل ثابتاً فى كل عملية تغيير ولكنه ثابت يتجلى بألوان متعددة فى كل حالة، ومن ثم فهو متغير فى الآن نفسه. الأمر الذى يدرجه فى باب المتغير كذلك. مما يجعل كل عملية تغيير تحتاج إلى أن تحدد «الأهداف الوسيطة»، أو قل العدو الأول الذى يواجه عملية التغيير، أو الأوضاع الأكثر حاجة إلى كشفها وتسليط النار عليها حالة طغيان، أو حالة فساد أو فتنة، أو حالة انحراف عن الكتاب واختلاف فيه إلخ، ويمكن أن تكون فى زماننا تحريراً من استعمار أو استيطان واغتصاب، أو تحقيقاً لعدالة اقتصادية، أو تأميناً لحرية الرأى وحق الانتخاب والاحتكام لصناديق الاقتراع، وتنظيم الشورى، ويمكن أن يكون توحيداً لأمة مجزأة، أو تجديداً للفقه وتطويراً للفكر وإنهاضاً للأمة.

بكلمة أخرى، يمكن أن يسحب هذا المتغير فى العصر الراهن على نظام سياسى بعينه أو على التبعية لغرب أو شرق، أو تغريب وفساد، أو ضياع أرض من أراضى المسلمين كما هو حادث لفلسطين، أو رفع الاستبداد والمظالم ووقف الفساد وهدر الأموال.

يمكن أن تطرح هذه الإشكالية بكلمات أخرى، أى القول بضرورة التفريق بين تحديد الهدف الكلى وتحديد الأهداف الوسيطة:

فالهدف الكلى سهل التحديد لأنه ثابت فى القرآن والسنة، ولا تقوم خلافية حوله فيما بين المنطلقين من قاعدة الالتزام بالقرآن والسنة، ولكن تحديد الأهداف الوسيطة قد لا تكون مدعاة خلافية فى عموميتها كذلك، إلا أن تحديدها بدقة وتحديد الأولويات من بينها قد يتحول إلى تعدد فى الاجتهادات، وإذا ما وقعنا على خلافية فى هذا الصدد فسببها الاختلاف فى تحديد الأولويات فيما بين الأهداف الوسيطة، لأن كلا من الأهداف الوسيطة، وتحديد الأولويات من بينهما مصدرهما الواقع المحدد بينما الهدف الكلى مصدره النص المحكم.

فعلى سبيل المثال، إذا قلنا: إن الهدف الكلى هو جعل كلمة الله هى العليا فى حياة المسلمين على مستوى الأمة كلها، أو فى بلد بعينه، فهذا الهدف لا خلاف حوله بين الدعاة إلى الإسلام، ولكن إذا قلنا: إن الهدف هو محاربة «فرعون ما» فى بلد ما، أو تغيير نظام ما، أو الهدف التعاون مع الحكم واستخدام أسلوب النصح، أو الهدف بناء قواعد ومرتكزات اجتماعية، وثقافية واقتصادية إسلامية بعيداً عن التدخل بالسياسة، أو إذا طرح موضوع الوحدة بين دولتين أو أكثر، أو إذا اعتبرت السيطرة الخارجية وموالاة الأعداء، أو مقاتلة دولة الاغتصاب الصهيونى، أو مقاومة غزاة، أو إذا حدد الهدف تغيير حكم استبداد، أو جور، أو فساد، أو مواجهة علمنة معادية للإسلام، أو إذا كان المطلوب إيجاد حالة تعددية تحترم حرية الرأى والمعتقد، وتحتكم إلى صناديق الاقتراع، وتصون حقوق الإنسان. أو إذا قلنا: إن الأمة تعانى من انحطاط عام فى فهم عقيدتها والتمسك بها، أو فى أخلاقها، أو فى انتشار الفاحشة بألوانها المتعددة، أو من جمود فى فكرها وفقهها، فإن ذلك كله لا يعنى أن ثمة اتفاقاً حولها جميعاً، وتزيد الخلافية حين تُقوم أهمية كل هدف منها وخطورته. أما من جهة أخرى فإن كل ذلك يعنى أن غير الممكن تحقيق الهدف الكلى ما لم يعالج هذا الهدف أو ذاك، أو أكثر، من الأهداف الوسيطة، فإذا كانت الأمة فى حالة تجزئة إلى دول تقوم فيما بينها الأسوار العالية، وإذا كانت بعض ديار الأمة الإسلامية تابعة للدول الكبرى، أو إذا كانت ممزقة متحاربة تشل بعضها بعضاً، أو كانت بعض أقطارها تحت احتلال أجنبى، ولاسيما إذا كانت الأرض المباركة أرض الإسراء والمعراج تحت سيطرة دولة يهود، وإذا كانت أوضاع الأفراد فى حالة انحطاط عام فكيف يمكن أن يتحقق الهدف الكلى فى ظل كل هذا، ما يعنى أن هنالك عدداً لا يحصى من العقبات التى يجب أن تزال من الطريق وهنالك عدد من الأمور يجب أن تُصلح فى أوضاع الأمة حتى يكون بالإمكان تحقيق الهدف الكلى، فهل كان من الممكن أن يحدث التغيير الإسلامى مالم يسقط حكم قريش الجاهلى، وما لم تكسر شوكة يهود فى المدينة، ويشتد ساعد المسلمين ويدخل الناس فى دين الله أفواجا؟

اختيار الهدف ذى الأولوية

على أن مجموعة هذه الأهداف الوسيطة غير ممكنة التحقيق دفعة واحدة، ولا بأسلوب واحد، وليست هى نفسها بالحدة ذاتها على مستوى كل بلد وكل حالة، ومن ثم لا مفر من أن تحدد أولويات فى كل حالة وتعالج الأهداف المختلفة على مستويات مختلفة، وعلى أقدار مختلفة من حيث التركيز وأن هذا التحديد لا ينبع من أفضلية مبدئية لهدف على هدف لأنها جميعاً من ناحية المبدأ يجب أن تواجه وتعالج وتغير، ولكن الأفضلية تنبع من تحديد حجم كل عقبة ودورها فى الحالة المعينة، فعلى سبيل المثال وجود دولة الاغتصاب الصهيونى فى فلسطين لا يمكن أن يوضع بمستوى الصراع ضد هذا الجانب أو ذاك من الانحراف الداخلى. فالأولوية هنا لابد من أن تعطى لمحاربة العدو المجرم (العدو رقم ١) وتأتى معالجة القضايا الأخرى على مستويات متفاوتة دون إهمالها ولكن مواجهتها فى حدود وأحجام لا تتعارض ومحاربة العدو المحدد، ولهذا إذا قام أحد الدعاة واعتبر أن نشر الدعوة الإسلامية أو تصحيح العقيدة أو الفكر أو إصلاح الفرد يجب أن يكون شغله الشاغل ولم يلتفت إلى محاربة العدو فى فلسطين وجعله فى الحد الأدنى من مشاغله يكون قد قدم نظرية محددة فى تحديد الأولويات فيما بين تحقيق الأهداف الوسيطة ومن ثم فلابد من أن ينشأ هنا اجتهادان ينجم عن كل منهما اتجاه قائم بذاته، علماً أن الاتجاهين حين يركزان على عقبة محددة أكثر من غيرها لا ينكران، من حيث المبدأ، أو نظرياً، أهمية معالجة ما اعتبره كل منهما فى مستوى أدنى. أى الذى يعطى الأولوية للجهاد ضد العدو لا ينكر أهمية القيام بنشر الدعوة أو تصحيح العقيدة، أو الفكر أو إصلاح الفرد ولكنه يعالج ذلك ضمن حدود التركيز على أولويته، والاتجاه الذى يعطى الأولوية لتصحيح العقيدة لدى الناس لا ينكر ضرورة مواجهة العدو ولكنه يخضع ذلك لما حدده لنفسه من أولويات. ولكن فى الحالتين نكون أمام اتجاهين وأسلوبين مختلفين، ومن ثم أمام نتيجتين مختلفتين على أرض الواقع وإن مثل هذا الاختلاف فى تحديد أولوية الهدف الوسيط يحدث فى مواجهة عملية التغيير فى كل مكان.

ومن هنا لا تحدد الأولوية بمقياس التفضيل فيما بين الأهداف الوسيطة من الناحية الشرعية، أو المبدئية، ولا من ناحية الأهمية فى مجرى التغيير الشامل على الجملة، لأن جميع هذه الأهداف إسلامية وشرعية ولابد من إنجازها، ولهذا يأتى تحديد الأولوية مرتبطاً بحجم العقبة المعينة وخطورتها ودورها وأهميتها فى المكان والزمان والمعطيات المحددة.

الأهداف الوسيطة المعاصرة

وتتضح هذه الصورة أكثر لو وضعنا أمامنا قائمة بالأهداف الوسيطة التى لابد من تحقيقها أو العقبات التى لابد من تذليلها من أجل تحقيق الهدف الكلى: مثلاً عقبة السيطرة الأجنبية، وتجزئة الأمة، ووجود الكيان الصهيونى على أرض فلسطين، ونفوذ الدول الكبرى فى الديار العربية والإسلامية، والدور الأمريكى الأشد نهباً لبلاد العرب والمسلمين، والأشد دعماً للعدو الصهيونى، والأشد تدخلاً فى أوضاعنا الداخلية، أو عقبة تغلغل التغريب والعلمنة بأوساط أعداد المثقفين والحكام، وتعميم أنماط الحياة المتغربة، أو انتشار البدع والأفكار المضللة، والتقاليد البالية فى جوانب من حياة الأمة، وإفساد النفوس بالخنوع والكسل والجهل وعدم الأمانة والجشع، والشهوات، وانتشار أماكن الفحش والرذيلة أو مواجهة الموروث من عصور الانحطاط فى الفكر والفقه وأنظمة الحكم. وغير ذلك مما يصعب إحصاؤه حين نأتى للتفصيل، الأمر الذى يوجب أن يعرف من أين تبدأ فى إزالة العقبات وتحقيق الأهداف، وهذا يقود إلى تحديد سلم الأولويات، ومستويات المعالجة وأساليبها سواء أكان على مستوى الهدف ذى الأولوية، أو الأهداف والعقبات الأدنى فالأدنى من حيث الأولوية.

ولهذا فإن الخطأ فى تحديد الأولويات يقود إلى الدوران فى المكان لأن العلة الأساسية، أو الممسكة بالعلل كلها «العدو رقم ١» الفاحشة الأساسية، أو الممسكة بالوضع كله بقيت دون أن تمس، ومن ثم تهدم كل ما تبنى وتعود إلى إشاعة كل رذيلة، فإذا كان المسعى هو إصلاح أخلاق الفرد، أو نشر التعليم، واكتساب العلوم، أو تصحيح الفكر، أو العقيدة، أو الإنهاض الثقافى بينما بقى الممسك بالوضع فى مكانه أكان استعماراً، أو فرعوناً، أم حكماً عاتياً، أم نفوذاً أجنبياً، واستمر بإعادة إنتاج كل أسباب إفساد أخلاق الفرد من المدرسة إلى الإعلام إلى تشجيع أنماط حياة التغريب إلى حماية مصادر الفحش، وإذا استمر بتخريب التعليم وتسميمه، وبتهجير الأحرار والعقول، بسبب طغيان أو فساد داخلى أو إغراء خارجى. واستمر بمحاربة الصحوة الإسلامية وحركات التحرير والوحدة بكل أساليب القمع والترهيب والترغيب وتمكن من تحريك آلة إعلامه الجهنمية لتشويه الفكر والثقافة، وإفساد العقيدة وإذا أضيف التطبيع مع العدو الصهيونى إلى كل ذلك فكيف يمكن أن يكتب النجاح لتلك الأولوية التى هى فى الواقع، ليست بالأولوية ومن جهة دورها، لأن الشرط فى أن تحدد تحديداً صحيحاً هى أن تكون قادرة على تفكيك الحلقات الأخرى والإمساك بالوضع ككل، ومن ثم يصبح الانهاض الفكرى والثقافى، مثلاً، جزءاً من عملية أكبر هى إنجاز الهدف ذى الأولوية، لأن إنجازه يفتح الباب على مصراعيه للنجاح فى إنجاز الأهداف الوسيطة الأخرى مما يعنى تحقيق الهدف الكلى.

وبهذا نكون قد وجدنا الترجمة العملية لقوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾

(الفرقان: ٣١)

وحددنا الفاحشة التى سيركز عليها وهى فى العادة مرتبطة بذلك العدو ومحمية من قبله وتحت رعايته، فالطغيان وهو الفاحشة التى تحتاج

إلى تركيز أكبر حين يكون الوضع فى مواجهة الإفساد والفواحش مثلا. وهكذا بل إن الفواحش نفسها قد تقود إلى تحديد العدو حين يحدد حاميها الحرص عليها.

وأن الأمر لذلك حين تحدد عملية إحداث التغيير فى صفوف الناس المدعوين إلى مواجهة العدو رقم ١، والفاحشة التى تحتاج إلى تركيز أكبر عليها.. وهنا، وضمن هذا الإطار، يمكن أن تحدد أساسيات للتركيز مثل تصحيح العقيدة، أو محاربة الكسل والتواكل، أو الانقسامات والنزاعات الداخلية، والتحلى بالسمات المناسبة لأسلوب التغيير المحدد، فالأمر قد يحتاج أحياناً إلى التركيز على الصبر والشجاعة فى حالة مواجهة القهر والكبت، وقد يحتاج إلى التركيز على الأقدام والروح الهجومية فى حالة تبنى أسلوب صدامى، وقد يحتاج إلى رفع النشاطية والعمل الدءوب فى حالة تبنى أسلوب لا عنفى يعتمد على العلنية وكسب الرأى العام، وقد يكون المدخل لتعبئة الناس لنصرة التغيير هو مواجهتهم بالعقيدة إن كانوا مشركين أو مواجهتهم بتصحيح مفاهيمهم إن كانوا مسلمين.

وهكذا نلحظ أهمية تحديد الأهداف الوسيطة عموماً، ثم أهمية وضع سلم الأولويات على مستوى جبهة الأعداء، ونوع الفاحشة، وعلى مستوى جبهة الناس والعاملين النشيطين من أجل التغيير، ومن ثم نلحظ أن الخطأ فى ذلك أى فى تحديد الأولوية وفقاً لكل حالة لا يقود إلى الإمساك بالشروط الواجب توفيرها من أجل إحداث التغيير، وإنما قد يقود إلى التخبط، والدوران، فى المكان، وعدم إنجاز الأهداف.

بكلمة أخرى، لو عدنا إلى تجارب الأنبياء جميعا، وإلى تجارب التغيير المختلفة، لوجدنا تأكيداً على أن تحديد الهدف الوسيط سنة جارية. أما كيف يحدد، وكيف يكون الخطاب نحوه، وكيف يعامل، وكيف تراعى ثوابت الإعداد والتهيئة فى إطاره فذلك بابه مفتوح، بل أبوابه مشرعة، وليس له قالب واحد، ولا يقتحم من باب واحد بعينه فقط. والمهم حسن الاختيار وفقاً للظروف والزمان، والمكان ومن ثم يحكم على ذلك الاختيار من خلال نتائجه وثمراته وأكله.

على أن التوفيق فى تحديد سلم الأولويات من بين الأهداف الوسيطة يقود فوراً إلى إشكالية أخرى لا تقل أهمية، وهى كيفية تحقيق الهدف، أى كيفية مواجهة العدو وكيفية معالجة سلم الأولويات، بمعالجة كل هدف بما يستحقه وضمن حدوده، وحجمه، أى إشكالية أسلوب التغيير - الاستراتيجية والتكتيك.

تعدد الأساليب وتنوعها

أما الثابت - المتغير الآخر فهو اختلاف الأساليب أو تعدد الأساليب التى اتبعها الأنبياء والرسل عليهم السلام فى تحقيق الأهداف الوسيطة أو قل فى إصلاح بيت الداء أو إزالة العقبة، أو العقبات الكأداء. فكان لكل نبى أو رسول من الأنبياء أو الرسل عليهم السلام أسلوب خاص محدد فى إدارة الصراع ضد العدو الرئيسى، أو لإزالة مفسدة منتشرة، أو فى تصحيح

انحراف محدد وذلك وفقاً لظروف الزمان، والمكان، والمقصود هنا بالأسلوب هو ما يرادف بالمصطلح الغربى الذى أصبح مصطلحاً دارجا استخدمه كثير من الإسلاميين: «الاستراتيجية والتكتيك»، أى تعددت الاستراتيجيات ومن ثم التكتيكات التى استخدمت فى إدارة الصراع من حالة إلى أخرى، ومن مكان إلى آخر، ومن ظرف إلى آخر. فإذا كان الثابت المشترك فيما بين جميع أنبياء الله ورسله الدعوة للتوحيد ونبذ الكفر والشرك. وكان يستلزم ذلك مواجهة عدو بعينه فى كل حالة، وذلك من أجل إجلاء كلمة الحق، إلا أن الأساليب أو قل أشكال المواجهة وإدارة الصراع تعددت وتنوعت فأبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام حطم الأصنام خلسة ليكشف زيفها وعجزها عن الدفاع عن نفسها، وقد دعم بذلك موقفه وحجته فى مواجهة المشركين، ولكن أسلوبه فى المواجهة مال إلى التحدى المعنوى الكبير بتحطيم الرمز مستخدما طريقة غير عنيفة فى مواجهة قومه، حتى إنه اضطر إلى اعتزال قومه حين فرضوا المواجهة العنيفة وهاجر ليقيم حكم الله فى مكان بعيد عنهم، فقد جاء فى القرآن الكريم:

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ۝ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ۝ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

(مريم: ٤٦-٤٨)

أما لوط فكان أسلوبه الانسحاب من قريته بعد أن بلغ الرسالة، ولم تجد هناك إلا قلوباً غلفاً حتى امرأته:

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾

(الحجر: ٦٥).

وكان أسلوب نوح بناء الفلك، وهو عمل مادى تقنى:

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ۝ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾

(هود: ٣٧-٣٨).

أما قصة ذى القرنين فبليغة فى هذا المجال:

﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾

(الكهف: ٩٤-٩٦)

وكان من سمات ذى القرنين كما جاء فى التنزيل الحكيم:

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ (الكهف: ٨٥)

وتفسيرها اتبع سبب التمكين واتخذه موصلاً إلى مقصده: (تفسير الجلالين) أى

استخدم الآلة والتحصين في المواجهة العسكرية. أما يونس عليه السلام:

﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۝ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ۝ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۝ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

(الصافات: ١٤٠-١٤٨)

فيونس أبق إلى الفلك المشحون، ولقي الأهوال حتى خرج من بطن الحوت، بمكرمة إلهية ليجد نفسه عاريا وحيداً سقيماً.. ثم ذهب إلى قوم من مائة ألف أو يزيدون حيث نجحت دعوته هناك، فقد جمع أسلوبه بين الإعداد المادي، والصبر مع التسبيح عند الابتلاء الشديد، والمكرمة الإلهية وأخيرا الانتقال إلى أرض صالحة لتقبل الدعوة فبلغ فيها التمكين.

وما كان أمام أيوب عليه السلام غير الصبر على البلاء:

﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾

(سورة ص: ٤٤)

فالصبر هنا كان أسلوب أيوب عليه السلام فاستحق النصرة والإنقاذ.

ونال يوسف عليه السلام التمكين من خلال النشأة في بيت فرعون ثم بما أوتي من خلق وعلم حيث ارتفع بذلك من السجن إلى سدة فرعون حاكما ممكنا:

﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾

(يوسف: ٥٥)

إن أسلوب الاعتماد على العلم والإيجابية حتى المشاركة في الحكم مع الخصم من موقعه ذاك، أي العمل من أعلى هرم السلطة، أن يأتي بأهله إلى أرض مصر:

﴿ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ﴾

(يوسف: ١٠٠).

ويمكن بهذه المناسبة أن يلحظ أسلوب نبي الله يعقوب عليه السلام حين أرسل أولاده إلى مصر:

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

(يوسف: ٦٧)

إنه أسلوب متعدد الخيارات في آن واحد، ولكنها انتظمت في اتجاه واحد هو الذهاب إلى مصر. بل إلى نقطة واحدة فكان من الممكن أن تتعدد خيارات المحاولة حتى تصيب إحداها.

أما أسلوب موسى عليه السلام فقد بدأ بدعوة فرعون وآله إلى دين التوحيد، ولما لقي صدودا، ولما كان فرعون طاغية لا يستطيع المستضعفون قهره تحول الأسلوب (الاستراتيجية) إلى تدبير الانسحاب بقومه خلسة:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾

(سورة القصص: ٤)

بل ما كان هذا الأسلوب لينجح ضمن تلك الظروف لولا تدخل الغيب بمعجزة كبرى:

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾

(الشعراء: ٦٣)

فانشق البحر:

﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴾

(الشعراء: ٦٥)

وكان فرعون وجنده من المغرقين حين التأم شق البحر من جديد.

وكانت استراتيجية داوود عليه السلام هي ملاقاة جالوت وجنوده في ميدان القتال، إنه أسلوب العنف مقابل العنف:

﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ﴾

(البقرة: ٢٤٦)

وتحقق الهدف الوسيط بقتل جالوت وهزيمة جنده:

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾

(البقرة: ٢٥١)

وكان التحضير المسبق كله، بمختلف جزئياته (التكتيك) لخدمة هذه الاستراتيجية القتالية..

﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

(سبأ: ١٠، ١١)

أما سليمان عليه السلام فقد جاء ملكه بالوراثة وقال بدعوته التوحيدية من موقع الملك الذي يملك جيشا وسلطانا وعلما:

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾

(النمل: ١٦)

وعلى لسان سليمان:

﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾

(النمل: ٣٧)

إنه أسلوب من يملك الدولة والسلطان استراتيجية إعداد العدة وتجييش الجيوش والحرب.

وجاءت كلمة الله عيسى ابن مريم عليه السلام بالإنجيل مصدقاً ما بين يديه من التوراة وكان صدامه مع كهنة بني إسرائيل في ظل احتلال عسكري روماني فاتبع أسلوب الإقناع بالبينات والحجة القوية، وقد وهبه الله القدرة على إتيان المعجزات بمشيئته تعالى حتى إحياء الموتى وإشفاء المرضى:

﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾

(البقرة: ٨٧)

وقد اتجه بدعوته إلى العالمين بادئا بجمهور بني إسرائيل.

مما جعل الكهنة يكيدون له، ويحرضون الرومان عليه، فأحبط رب العالمين مسعاهم فلم يسمح بقتله وصلبه، فرفعه إليه:

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۞ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (آل عمران: ٥٤-٥٥).

وبهذا كانت دعوته ذات طابع لا عنفي متجهة إلى الجمهور، وقد نشرها بعد ذلك الحواريون من أصحابه

﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ (الحديد: ٢٧).

أما أسلوب العملية التغييرية العظمى التي قادها محمد بن عبدالله، المتحرك بالقرآن والوحي وخاتم النبيين والمرسلين صلى الله عليه وسلم، في إدارة الصراع ضد ملأ قريش وأصنامهم، وشركهم، ثم ضد شرك اليهود في المدينة، وضد الجاهلية العربية، ثم في فتح مكة، ثم في التوجه نحو العالم كله، فقد حمل أعلى درجات العمق والشمول، بل إن عملية استقصاء الدروس والعبر سواء أكان من القرآن الكريم، أم من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حول مسألة الثابت والمتغير في التغيير فذات ثراء لا ينضب لها معين، فنحن هنا أمام بينة يقينية تفصيلية حول ما جاء فيها، وإزاء تجربة مكتملة بما عرفته من اختلاف المراحل والأطوار التي مرت بها، وتعدد الحالات والظروف التي واجهتها، وقد قدمت لكل منها الحلول المناسبة، ففي هذه العملية الكبرى استخدمت عدة أساليب، أسلوب الدعوة والجدال بالتي هي أحسن وحتى احتمال الأذى والصبر والاضطرار إلى الهجرة، وكان ذلك هو الأسلوب الأنجح في إدارة الصراع في المرحلة المكية الأولى، ثم كان أسلوب الانتقال إلى بناء القاعدة الآمنة ونواة الدولة في المدينة حيث أذن بالقتال وارتفعت راية الجهاد بالسيف والسرايا والحسم في المعارك القتالية، بينما امتلأت هذه المرحلة بعقد تحالفات وانفراط تحالفات، وبمعارك جانبية غير المعركة الرئيسية مع الملأ القرشي في مكة كما حملت في طياتها كل شروط بناء الدولة في نواتها الأولى.. وعرفت هذه التجربة الانتصارات والهزائم في القتال.. وبلت الوفاء بالعهود كما بلت الغدر والخيانة، وعرفت حالات من الاستقامة والصدق غير المتناهين كما عرفت حالات النفاق والشقاق والنكوص على العقبين، ودخلت في مرحلة التوازن شبه الاستراتيجي الذي دشنه صلح الحديبية وما حمله من اتفاق، وهي مرحلة عليا في استراتيجيات الصراع يتقرر عادة في أثنائها النصر المبين أو الهزيمة التامة. وأن أسلوب العمل في هذه المرحلة شديد التعقيد في ظل الصلح والمهادنة وشروط الاتفاق.. فقد اعتمد على بذل أقصى الجهود في التعبئة العامة استعدادًا للجولة الحاسمة وتطلب أقصى درجات اليقظة تجاه تحركات العدو، وتحالفاته وسياساته وتعبئته العسكرية.. إنها مرحلة أسلوب التطويق والحصار المتبادلين بلا استخدام مباشر للقتال والجيوش.

ثم يتحول هذا الأسلوب في هذه المرحلة إلى ما يسمى اليوم استراتيجية الهجوم العام، فكان اكتساح الخصم اكتساحًا حتى دون أن يجرؤ على الدخول في معركة أمام الجحافل الزاحفة، فقد انهارت قواه من الداخل، وتشققت صفوفه، وازداد حصاره من الخارج، فبدأ بالتخبط ليسرع في إنهاء الالتزام ببنود صلح الحديبية، أي ليذهب بقدميه وبفعل يديه، نحو نهايته.

(يتبع)

القرضاوي وفقه المعاصرة





للأستاذ الدكتور/ حلمي محمد القاعود

نبدأ بموضوع العلاقة الملتبسة التي يتحدث عنها بعض الناس، وتثير غبارا حول الدين والسياسة، فيطرحون قضية العلمانية بوصفها تفصل بين الإسلام وممارسات السياسة على أرض الواقع، ولكن الشيخ القرضاوي يطرح المسألة طرحا علميا، مستمدا من أصول التشريع الإسلامي، موثقا ما يقول توثيقا دقيقا، لإقناع من لديه ولو ذرة من شك، حول ارتباط الدين بالسياسة، وغير السياسة في شئون الحياة والمجتمع، ولذا فقد ألف كتابه «الدين والسياسة تأصيل ورد شبهات».

والكتاب في الأصل كان بحثا كتبه المؤلف للمشاركة في ندوة للمجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث، ليفتتح به الندوة التي عقدها المجلس في دورته السادسة عشرة في أوائل يوليو ٢٠٠٦م حول (الفقه السياسي للأقليات المسلمة في أوربا).

وقد طال البحث حتى وصل إلى صورته التي يضمها الكتاب، ويعالج فصله الأخير موضوعا مستجدا معاصرا، وهو الفقه السياسي للأقليات في المجتمع الأوروبي. ولكن الكتاب في عمومه يعالج موضوعا قائما في العالم العربي والإسلامي طوال القرن العشرين، واشتد الإلحاح عليه في العقود الأخيرة حتى اليوم، ولذا فإن القرضاوي عالج في الباب الأول ما يتعلق بتحديد المفاهيم، عن الدين والسياسة لغة واصطلاحا، ومفهوم السياسة عند الفقهاء على اختلاف مذاهبهم، وعند المتكلمين والفلاسفة، ثم عند الغربيين.

وتناول في الباب الثاني: العلاقة بين الدين والسياسة بين الإسلاميين والعلمانيين، فالإسلاميون يرون ضرورة الارتباط بين الدين والسياسة، لأدلة شرعية وتاريخية لديهم، منها فكرة شمول الإسلام. والعلمانيون يرون ضرورة الفصل بينهما، ويرتبون على ذلك نتائج وآثارا مهمة، تغير في نظرهم بالمجتمع والأمة، وفي هذا الباب أصل القرضاوي

للأحكام والمبادئ الشرعية، ورد على الشبهات التي يثيرها العلمانيون.

أما الباب الثالث فخصصه للحديث عن العلاقة بين الدين والدولة، عند الإسلاميين والعلمانيين، وجعل الباب الرابع لتناول العلمانية: أهي الحل أم المشكلة؟ وناقش دعوى العلمانية الإسلامية المزعومة، وكان الباب الخامس قاصرا على تناول الأقليات الإسلامية والسياسة، كما سبقت الإشارة.

وكان القرضاوي في تناوله لقضية السياسة والدين داخل العالمين العربي والإسلامي أو أوروبا واضح المنهج لكل قرائه، فلا يلقي القول على عواهنه، ولا يقلد أحدا فيما يرى من رأي، لا من الأئمة الأقدمين، ولا ممن اتخذهم الناس أئمة في عصرنا من الغربيين الذين غزت حضارتهم العالم، ومنه عالمنا الإسلامي.

إنه منهج الاعتماد على النص الصحيح في ثبوته الصريح في دلالته، وربطه بالواقع المعيش - الواقع الحقيقي لا المتوهم - دون افتعال أو اعتساف، معتمدا أسلوب الموازنة والترجيح بالأدلة، رابطا النصوص الجزئية بالمقاصد الكلية للإسلام وشريعته.

ثم إنه - كما يقول - لم يعتمد فيما كتب إلا على آية محكمة، أو حديث صحيح، أو دليل شرعي معتبر، أو منطق عقلي سليم، مسترشدا بأقوال من يعتد بهم من العلماء، ليشدوا أزره، حتى لا يقف وحده، لا على أن أقوالهم في ذاتها حجة، فلا حجة في قول البشر إلا قول محمد صلى الله عليه وسلم الذي أرسله الله رحمة، ومنحه العصمة، وهدى به الأمة.


القرضاوي

وهو في كل الأحوال؛ كان يرنو إلى ما تطلبه الأمة من رأي في موضوع معاصر مهم، يكثر فيه التلاعب بالمصطلحات والمسميات بغرض التدليس على الناس، والتمويه لإخفاء أغراض معادية للإسلام، أو ساعية لإقصائه ومنعه من الحضور الفاعل في حركة المجتمعات والأمة الإسلامية.

إذا انتقلنا إلى مثال آخر، فإننا نتوقف عند موضوع الإسلام والفن، حيث يتم توجيه السهام إلى الإسلام والمسلمين، بأنهم ضد الفن والجمال والترويح، وضد البهجة والفرح والمتعة.

ويقدم القرضاوي لموضوعه بالإشارة إلى ما سبق أن أورده في كتابه «بينات الحل الإسلامي»، حيث قال:

لعل «الفن» هو أكثر ما يشغب به على دعاة «الحل الإسلامي» فهم يقولون: إنكم تدعون إلى حياة تحرم فيها البسمة على كل فم، والبهجة على أي قلب، والزينة في أي موقع، والإحساس بالجمال في أي صورة.

وأحب أن أقول: إن هذا الكلام لا أساس له من دين الله.. وإذا كان روح الفن هو شعور بالجمال، والتعبير عنه، فالإسلام أعظم دين - أو مذهب - غرس حب الجمال والشعور به في أعماق كل مسلم».

ويستطرد قائلا: «قارئ القرآن يلمس هذه الحقيقة بوضوح وجلاء وتوكيد، فهو يريد من المؤمنين أن ينظروا إلى الجمال مبثوثا في الكون كله، في لوحات ربانية رائعة الحسن، أبدعتها يد الخالق المصور، الذي أحسن خلق كل شيء، وأتقن تصوير كل شيء:

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴾

«السجدة - ٧»

﴿ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾

«الملك - ٣»

﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

«النمل - ٨٨»

ثم ترى القرآن الكريم يلفت الأنظار، وينبه العقول والقلوب، إلى الجمال الخاص لأجزاء الكون ومفرداته.

إن القرآن بهذا كله، وبغيره، يريد أن يوقظ الحس الإنساني، حتى يشعر بالجمال الذي أودعه الله فينا وفي الطبيعة من فوقنا، ومن تحتنا، ومن حولنا.. وأن نملأ عيوننا وقلوبنا من هذه البهجة، وهذا الحسن المبثوث في الكون كله.

وينبه القرضاوي إلى نقطة مهمة للغاية، وهي الفارق بين الإسلام الذي يوقظ الحس الإنساني بالجمال، والحضارات الأخرى التي تهتم بالشكل الخارجي المقلد فتنقل جمال الطبيعة على الحجر أو الورق، ولا تلتفت إلى سر الجمال الإلهي، ويتساءل:

أيهما أهم وأقوى تأثيراً في النفس البشرية: الأصل الطبيعي أم الصورة المقلدة؟

ثم يعود ليؤكد على أن الإسلام يحيي الشعور بالجمال، ويؤيد الفن الجميل، ولكن بشروط معينة، بحيث يصلح ولا يفسد، ويبني ولا يهدم وقد أحيا الإسلام ألواناً من الفنون، ازدهرت في حضارته وتميزت بها عن الحضارات الأخرى مثل فن الخط والزخرفة والنقوش: في المساجد، والمنازل، والسيوف، والأواني النحاسية والخشبية والخزفية وغيرها.

كما اهتم بالفنون الأدبية التي نبغ فيها العرب من قديم، وأضافوا إليها ما تعلموه من الأمم الأخرى، وجاء القرآن يمثل قمة الفن الأدبي، وقراءة القرآن وسماعه عند من عقل وتأمل؛ إنما هما غذاء للوجدان والروح لا يعدله ولا يدانيه غذاء، وليس هذا لمضمونه ومحتواه فقط، بل لطريقة أدائه أيضاً، وما يصحبها من ترتيل وتجويد وتحبير تستمتع به الآذان، وتطرب له القلوب، وخصوصاً إذا تلاه قارئ حسن الصوت، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي موسى: «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود» رواه البخاري والترمذي.

ويدرك القرضاوى قيمة الفن فى عصرنا، بل فى كل العصور، ويؤكد على أنه موضوع فى غاية الخطر والأهمية، لأنه يتصل بوجدان الشعوب و مشاعرها، و يعمل على تكوين ميولها وأذواقها، واتجاهاتها النفسية، بأدواته المتنوعة والمؤثرة، مما يسمع أو يقرأ، أو يرى أو يحس أو يتأمل.

ويرى أن الفن كالعلم، يمكن أن يستخدم فى الخير والبناء، أو فى الشر والهدم، وهنا خطورة تأثيره.

ولأن الفن وسيلة إلى مقصد، فحكمه حكم مقصده، فإن استخدم فى حلال فهو حلال، و إن استخدم فى حرام فهو حرام.

لقد سبق للشيخ أن عرض لموضوع «الفن» وموقف الإسلام منه، فى أكثر من كتاب له، منها «الحلال والحرام فى الإسلام» فى فصل «اللهو والترفيه فى حياة المسلم»، وفى الحديث عن الصور والتصوير، وفى مواضع أخرى.. وكتاب «فتاوى معاصرة» فى جزئه الأول، وجزئه الثانى، فى فتاوى متعددة حول التصوير والغناء، بآلة وبغير آلة، والدين والضحك، واللعب والشطرنج، وغيرها.

وقد توسع فى تناول الفنون المختلفة فى هذا الكتاب، المسموع منها والمشاهد، وألوان اللهو واللعب؛ ما يضحك وما يبكى، وذلك بوصفها ملمحاً بارزاً من «ملامح المجتمع المسلم الذى ننشده».

ولا ريب أن شجاعة القرضاوى فى تناول موضوع الفن، تحسب له، حيث تمثل الفنون المختلفة وسيلة فعالة فى التعبير عن الأفكار والتصورات فى عصرنا؛ بصورة أقوى وأشد تأثيرا من الكلام الوعظى المباشر الخالى من روح الإقناع والتوجيه، فضلا عن كون الفنون المختلفة يمكن أن تسهم إسهاما كبيرا فى خدمة الدعوة الإسلامية، والتعبير عن الحضارة الإسلامية العظيمة التى صنعها المسلمون؛ ومدى ما يمكن أن يقدمه المسلمون فى المستقبل إلى العالم والإنسانية من قيم ومثل عليا، وإمكانات وتوجيهات تفيد العالم بأسره.

***

وفى النموذج الثالث والأخير الذى نقدمه فى هذا السياق تعبيرا عن فقه المعاصرة؛ نتناول ما كتبه الشيخ القرضاوى ردا على بابا الفاتيكان «بندكيت السادس» الذى هاجم الإسلام دون مسوغ، ودون أن يستفزه أحد ليشن هذا الهجوم الغريب.

فى كتابه «البابا والإسلام» يفند الشيخ مزاعم البابا، بل مفترياته التى رأى فيها المسلمون أنها لم تكن مبررة، ولم يكن هناك ما يقتضيها إطلاقا، إذ لم يصدر من المسلمين شىء يوجب توجيه هذه الهجمة إلى الإسلام.

بل إن الواقع يؤكد أن المسلمين فى كل مكان، جاملوا البابا منذ تنصيبه على كرسى البابوية، وكان الشيخ القرضاوى نفسه ممن هنأ البابا على منصبه، وتلقى بسبب ذلك نقدا شديدا، بل هجوما صارخا من بعض المسلمين.

وقد جاءت كلمات الهجوم البابوية فى محاضرة علمية ألقاها فى جامعة غوتسبيرغ فى جنوب ألمانيا، وهى الجامعة التى كان يدرس فيها علم الأديان) من قبل - ووصل فيها إلى درجة الأستاذية، منذ سنة ١٩٦٩م إلى سنة ١٩٧٧م).

ويوضح الشيخ أن هذا الهجوم لم يكن حديثا إلى الجمهور، ولا حديثا ورطه فيه صحفى مشاغب، ولا حديثا عابرا مع زوار له، بل كان محاضرة معدة مدروسة، تلقى على أكاديميين معتبرين، فى جامعة محترمة، من أستاذ (بروفيسور) متخصص فى مادته، ممارس لها سنين عدة، فهو يعى ما يقول، ويعنى ما يقول.

وهو بوصفه (بابا)، تدقق كلماته، وتراجع فكرتها ومضامينها وأسلوبها، من قبل الأطر والأجهزة العلمية والفنية من حوله، حتى لا يكون فيها ما يقتضى الاعتذار، أو التراجع منه، وهو ما لا يليق بالبابا الذى يفترض فيه (العصمة) فى زعمهم.

ومع هذا كله وقع البابا فى ما وقع فيه، من أخطاء وتجاوزات، لا يعفيه من تبعتها وتحمل مسؤوليتها قوله: إن المسلمين لم يفهموا كلامه! أو إنه لم يقصد بها الإساءة إلى المسلمين. إذ الكلام الصريح لا يبحث فيه عن النية والقصد، فالنية والقصد ترجع إلى صاحبها، وهل يأثم عند الله أو لا؟ ولكن المؤاخذة تكون على مضمون الكلام، وما يتضمنه من صواب أو غلط، من قصد أو شطط.

ويشير الشيخ إلى أن كل الذين سمعوا كلام البابا من المسلمين أو من غير المسلمين: استنكروه واستشنعوه، لما فيه من تهجم مقبوح على الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام.

وليس معقولا أن كل هؤلاء من أهل الشرق وأهل الغرب، ومن المسلمين وغير المسلمين، لم يحسنوا فهم ما عناه البابا بكلامه. فالأصل فى الكلام أنه يقال ليفهم مضمونه، ويؤثر فى سامعه، وقد يتطلب منه عملا يقوم به، إيجابا أو سلبا. ولا سيما كلام رجل كالبابا له منزلته الدينية والعالمية، وخصوصا بين أتباعه من الكاثوليك، الذين يضفون عليه القداسة!

ويكشف السر فى اندفاعة البابا الغريبة للهجوم على الإسلام، وهو احتمال تأييده للرئيس بوش فى محاربة الإسلام والمسلمين، فيقول:

«أجل، لم يكن هناك أى توتر بين البابا وأى فئة من المسلمين، ولا وجد باعث ظاهر يدعو إلى رمى هذه القذائف، إلا أن يكون البابا قد أراد أن يهدى إلى الرئيس الأمريكى بوش - ومعه اليمين المسيحى المتعصبين - هدية تشد أزره فى محاربة الإسلام تحت عنوان (محاربة الإرهاب)

فأراد البابا أن يمنحه غطاء دينيا - وإن كان كاثوليكيا - يسنده ويبرر تصرفاته فى العراق وغيرها، ما دام يحارب الإسلام الذى يحمل بذور العنف فى تعاليمه، والذى لم يجئ نبيه إلا بالأشياء الشريرة، واللاإنسانية، ومنها نشر دينه بالسيف».

لقد اتهم البابا الإسلام بأنه بفرضه الجهاد - أو الحرب المقدسة كما سمّاها - ينافى العقل، كما ينافى الطبيعة الإلهية.

وزعم البابا فيما نقله نقل المقرّ له: أن المشيئة الإلهية عند المسلمين لا يحدُّها شيء، ولا يقيِّدها شيء، ولا بأىّ نوع من المعقولية.

واتكأ البابا على فقرة نقلها من كتاب للإمبراطور البيزنطى (الأرثوذكسى) مانويل الثانى الذى نشره رجل الدين الألمانى اللبنانى الأصل ثيودور خورى: (حوارات مع مسلم)، (المحاورة السابعة) وهى فقرة مسفّة غاية الإسفاف، تتسم بالجهل الفاضح، والتحامل الواضح على الإسلام.

وحين أظهر العالم الإسلامى غضبه على هذه الكلمات المسيئة، ومنها: ما أصدره الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين من بيانات، زعم البابا أنه ناقل، وكما يقول علماؤنا: ناقل الكفر ليس بكافر. ولكنه نقل هذا الكلام مستشهدا به، ولهذا لم يردّ عليه.

من هنا كان علينا نحن - يقول القرضاوى - أن نردّ على الكلمات المثيرة التى أساءت إلى عقيدة الإسلام، وإلى شريعة الإسلام، وإلى نبى الإسلام، وإلى كتاب الإسلام، وإلى حضارة الإسلام، وإلى أمة الإسلام.

ولم يمنع انتقاد القرضاوى الحاد لبابا الفاتيكان بالمنطق والحجة والدليل والبرهان أن يشير إلى بعض مواقف البابا الإيجابية، وذلك انطلاقا من منهج الإسلام الذى يفرض الإنصاف وقول الحق، ولو كان لصالح العدو ومن هذا المنطلق أشار القرضاوى إلى بعض الجوانب الإيجابية فى خطاب البابا الذى هاجم فيه الإسلام والمسلمين مثل تأكيده على ضرورة تعميق أطر الحوار بين العالمين المسيحى والإسلامى، معتبرا أن العالم الغربى، قد فقد الاعتقاد بالله فى خضم النفعية العملية، ودعوته الرئيس الألمانى (هورسف كولر) إلى ضرورة أن تعمل الدولة الألمانية على تحقيق اندماج أفضل للمسلمين المقيمين داخلها، محذّرا من الإفراط فى التعقيدات تجاه أبناء الأقلية المسلمة.

كما أشاد القرضاوى بموقف البابا المحافظ من التيارات الإباحية المنتشرة فى الغرب اليوم، والتى باركتها - للأسف - بعض الكنائس، مثل: الزواج المثلى، وإباحة الإجهاض بإطلاق، ونزع أيدى الوالدين من تربية أولادهما. وهو ما وقف فيه الأزهر والجهات الإسلامية المختلفة مع الفاتيكان فى موقف واحد، ضد هذه الاتجاهات المنحرفة، وذلك فى مؤتمر السكان فى القاهرة ١٩٩٤م. ومؤتمر المرأة فى بكين ١٩٩٥م، وغيرها.

XXX

وسوف نلاحظ أن القرضاوى فى فقه المعاصرة كان متواضعا تواضع العلماء الثقات، فقد كان يعرض اجتهاداته وآراءه على زملائه وأصدقائه من العلماء الموثوقين، وكان يقبل بملاحظاتهم المقنعة، ويعدل ويصحح ما ذهبوا إليه، ولا يستنكف أن يشير إلى ذلك فى مقدمات كتبه التى يطالعها الناس . لقد عافاه الله من مرض الكبر وتورم الذات الذى يصيب بعض الأشخاص الذين يعملون فى حقل الدعوة وغيره، فتظهر نرجسيتهم صارخة، وذاتهم متضخمة، وما بالك برجل يوقع كتبه بالفقير إلى عفو ربه، دون أن يذكر لقبا أو درجة علمية أو وظيفة إدارية أو دعوية؟

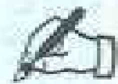
إنها أخلاق العلماء من أبناء الدين الحنيف!

إن موقف القرضاوى من قضايا العصر، وتأصيلها وفقا للثوابت ومنهج الاجتهاد الأصولى العلمى، وشجاعته فى مواجهة القوى الجائرة الظالمة أو الموالية لغير الإسلام قد عرضه لكثير من الغضب والحملات التشهيرية الرخيصة، وحرمانه أحيانا من دخول بعض العواصم العربية والغربية، ولكن ذلك لم يفت فى عضده، ولم يمنعه من الجهر بقول الحق، ومواجهة من يخشاهم الناس، فالرجل - ولا نزكيه على الله - لا يخشى إلا الله، وهو ما جعل قلوب الملايين من المسلمين، ومن المنصفين من غير المسلمين أن يلتفوا حوله، ويطوقوه بالمودة والحب، ويكفى ذلك الحب الغامر الذى لقيه الرجل فى جمعة الانتصار بميدان التحرير فى القاهرة عقب سقوط النظام الظالم فى مصر. لقد صلى الجمعة، بعد أن خطب خطبتها التى سمعتها الملايين فى أرجاء الأرض. والتفت الجماهير حوله حبا وعرفانا، وتقديرا لدوره الثورى الداعم للشعب المصرى فى مواجهة الطغاة القتلة!

ثم إن الرجل حظى بتقدير العديد من الجهات العلمية والمؤسسات الدعوية والخدمية، فى العالم العربى وخارجه؛ فقد شارك فى كثير من المنظمات الإسلامية والمؤسسات التى تخدم المجتمعات العربية والإسلامية، وحاضر فى العديد من الجامعات والمنتديات الثقافية؛ العربية والإسلامية والأجنبية، وقد منحته جهات عديدة جوائزها وشهاداتها التقديرية اعترافا بدوره وفضله فى خدمة الإسلام والدعوة الإسلامية.. ومنها جائزة البنك الإسلامى للتنمية فى الاقتصاد الإسلامى لعام ١٤١١هـ. وجائزة الملك فيصل العالمية بالاشتراك فى الدراسات الإسلامية لعام ١٤١٣هـ. وجائزة العطاء العلمى المتميز من رئيس الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا لعام ١٩٩٦م. وجائزة السلطان حسن البلقية (سلطان بروناى) فى الفقه الإسلامى لعام ١٩٩٧م.

لقد كان القرضاوى فى حياته العامة والعلمية منحازا إلى ربه ودينه وأمته.

فى رحلة استعادة الذات... فى أى سبيل نسير؟



الدكتور / خالد فهمى
كلية الآداب جامعة المنوفية مصر

لم يكن مدهشًا ولا مستغربًا ولا مثار تعجب لى، ولا لأحد فيما أحسب أن يقفز التركيب اللغوى الذى يقول : (البحث عن الذات) ليكون عنوانًا لبعض سير الزعماء والمفكرين فى العصر الحديث، على ما نجد أمثلة له فى كتاب محمد أنور السادات ؛ الذى هو قصة حياته.

والإنسان أراد أو لم يرد يسعى نحو ما يمكن تسميته بتحقيق ذاته، وصل إلى مراده وبغيته أو لم يصل، فإن كانت الأولى تبدى وجه الرضا لينطق بلسان الحمد لله تعالى، على ما نجد مثالاً يترجم عنها فى عنوان سيرة حياة الإمام الراحل عبد الحليم محمود - رحمه الله تعالى - (الحمد لله .. هذه حياتى).

يقول أنور السادات فى (البحث عن الذات .. قصة حياتى) ؛ ص ٧ من الطبعة الثالثة، المكتب المصرى الحديث، القاهرة سنة ١٩٧٩م؛ : "وحياتى مثل قصة حياة أى منا ليست فى الواقع إلا رحلة بحث عن الذات".

وضلال فرد فى رحلة البحث عن الذات مع تقدير خطره، وخطر مأساته تكاد تنصب آثاره ونتائجه على حياته هو ومصيره هو، وربما اتسعت دائرة هذه الآثار لتطول أسرته أو عائلته الصغيرة أو الكبيرة، على تقدير موقعه من هذه الأسرة أو تلك.

لكن ضلال أمة فى هذه الرحلة، ولا سيما فى أوقات الأزمات والضغوط ومراحل التحول الكبرى التى يعرفها التاريخ من حين لآخر على فترات متباعدة أمر آخر لا يمكن مقارنته فى الآثار والنتائج والمخاطر بتيه فرد أو ضلاله فى دروب الحياة ومساربها المختلفة.

(مخاطر التيه)

مقال فى شرعية طرح القضية

فى هذا السياق لا يستطيع العقل العربى أن ينحى عن ذاكرته مشهداً سبق فى أدبيات الحديث النبوى الشريف فى كثير من الأحيان محفوفًا بإطار تعليمى تربوى وفى أحيان أخرى فى مرتبة تالية يساق محفوفًا بسياق تحذيرى يسعى نحو إضاءة الطريق أمام الأمة، وتبصرة أبنائها بعوائل الانحراف والتفرق، ويقدم فى أحيان أقل للتدليل على نبوته فيما يعرف تحت عنوان جامع هو دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم. وهى جميعًا مسارات صالحة مقروءة فى سطور التفسير النبوى لقوله تعالى:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾

(سورة الأنعام: ١٥٣)

الذى ورد مفسراً فى قوله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه ابن ماجة فى سننه ٦ / ١ حديث رقم ١١ فيما يرويه جابر بن عبد الله قال : كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم فخط خطا، وخط خطين عن يمينه، وخط خطين عن يساره، ثم وضع يده فى الخط الأوسط فقال هذا سبيل الله، ثم تلا هذه الآية:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾



عبد الحليم محمود — أنور السادات

ومما هو جدير بالتأمل والفحص ما ترجم به ابن ماجة للباب الذى أورد فيه هذا الحديث الصحيح ؛ حيث عنون له ابن ماجة بعنوان مثير للانتباه هو باب اتباع النبى صلى الله عليه وسلم.

و مقولة الاتباع حاكمة فى سياق الحضارة العربية الإسلامية تخطت حدود الأفراد منذ البدايات الباكرة إلى التنظيم السياسى والاجتماعى للأمة الإسلامية عندما أعلنها الخليفة الأول الصديق أبو بكر - رضى الله عنه - دستوراً واستراتيجية مؤسسة لمسيرة حكمه خلفًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

ونستطيع متابعة لما ورد في أدبيات التفسير بالمأثور الذى مستنده النقل و الرواية عن النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم أن نقرر على هامش تفسير هذه الآية الكريمة ما يلى :

أولاً: السبيل واحد متسع، لكنه ليس متعدداً ولا متعرجاً.

ثانياً: السبيل المستقيم يصل الحياة الدنيا بالآخرة (الجنة).

ثالثاً: التحذير واضح صريح ماثل فى بنية النهى لا تتبعوا السبل.

رابعاً: حدود السبل المتفرقة المهلكة للأفراد كامنة فى الضلالات والبدع والشبهات.

خامساً: صناعة السبل المتفرقة جميعاً يقوم عليها الرمز المجسد للشر وهو إبليس يقول السيوطى فى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور طبعة (هجر، القاهرة سنة ٢٠٠٣م ٦/٢٥٩): إن "إبليس اشترع سبلاً متفرقة جماعها الضلالة ومصيرها النار".

ولكن الخطر فى فتح باب شرعية التعاطى مع سؤلات بيان الطريق فى هذه المرحلة الفارقة من عمر الدنيا من دون مبالغة - يكمن فى اختزال هذه العلامات والإضاءات فى حدود حماية الذات الفردية معزولة عن ذات الأمة، وشخصيتها وعقلها، ومستقبلها على هذه الأرض.

فى رحلة استعادة الذات فى مواجهة محاولات التذويب، ومحاولات المحو والاقتلاع تتجلى قيمة تمثل البيان النبوى البديع شاهد صدق على سحائب الرحمة الموصولة من السماء إلى الأرض عبر بوابة النبوة الطاهرة.

(أى الطريقين خطأ؟)

عرض كثير من أعلام الفكر العربى على امتداد ما يقرب من قرنين من الزمان لمداخل متنوعة على أوتار الإجابة عن هذا السؤال المصيرى الذى قفز عنوانا لهذه الورقة.

وصحيح - لا يشغب عليه أحد أن كثيراً من تنويعات هذا العزف انطفأت، وذهبت لا يستسيغها أحد، وصارت أفكاراً منخفية ربما - يخجل - من دون شبهة مجاز - أن يرصدها أساتذة تاريخ الأفكار، بسبب ما جرته على بقاع كثيرة من عالمنا العربى الإسلامى من خراب!

ولكن من الصحيح أيضاً أن ثمة طريقين بقيا حاكمين على كل أوراق الإجابة التى جمعت من أيدى المعنيين بهذا الطرح.

ونحن ندرك أن هذا التركيز لاتجاهات بيان طرق استعادة الذات العربية فى تيارين اثنين - إنما تفرضه طبيعة هذا الطرح الذى يبغى التركيز على علامات الاتقان، ورهان المقولات الأساسية مع كامل التقدير لاختلافات يمكن اعتبارها مؤقتاً هامشية ثانوية منضوية تحت هذين التيارين الذين هما:

أولاً: طريق استعادة الذات عن طريق تمثل الإسلام وإعادة إحيائه ومراجعة أصوله الكبرى فى تطبيقات المرحلة التى تسعى لتخطى العقبات عن طريقه.

ثانياً: طريق استعادة بناء الذات عن طريق الحج إلى الغرب الذى سيطرت أوروبا على دور البطولة فيه؛ ثم حلت الولايات المتحدة الأمريكية مكانها ثم جاءت الصين واليابان أخيراً لتظهر فى الصورة وتشغل حيزاً من زاوية الرؤية، وترتسم على جزء من الصورة.

و هذان الطريقان على تباين التيارات المنضوية تحت كل منهما يمثلان عمود الصورة فى سياق عمليات الابتعاث الحضارى فى الثقافات المختلفة، عرفتهما النهضة الأوروبية الحديثة عندما يممت وجهها وسارت فى طريق إعادة تمثل جذورها المعرفية التراثية التى ورثتها عن الحضارة الإغريقية، الجد الأعلى الذى والته وانتصرت له وانتصرت به، من جانب، الأمر الذى زامنه سير نحو الحج إلى الشرق يوم كان صاحب الصوت الحاسم حضارياً فقويت بتمثل بعض من عناصر قوته.

والذين يقرءون محاولات النخبة العربية عبر قرنين سابقين يرون انحيازاً يكاد يكون تاماً إلى طريق استعادة الذات عن طريق استثمار الجذور الإسلامية ليستمر اتصال الأمة معرفياً ووجدانياً، وهى فى هذا السعى مدعومة بعدد كبير من الأصول المرجحة لهذا التوجه منها:

١- ما سبق رصده من خلال التوجيه النبوى الكريم القاضى فى بعض قراءاته بضرورة الاتباع للنبى صلى الله عليه وسلم.

٢- اعتماده على سلسلة ذهبية من أئمة التجديد عبر تاريخ الأمة الطويل الموصول من لدن القرن الأول وبعد فترة من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، على ما نرى عند مؤرخى التجديد الإسلامى الذين يفتتحون قوائمه بعمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه.

٣- اتكاؤه على رصيد بالغ الغنى من الثقة بالنفس مستمد من الثقة فى طبيعة الطريق المسلوكة لتحقيق بناء ذات قوية قادرة على التغلب على آثار مراحل الضعف والوهن، وهو شعور لم يغب مطلقا عن مسارات أى حقبة تجديدية فى العالم الإسلامى إلا مع حركات الاحتلال والغزو الكافر للبلدان العربية والإسلامية.

لقد كان التيار الأول من مجددى الإسلام وباعثى نهضته فى بدايات العصر الحديث مصبوغا بالإسلام فى شمول عجيب يغطى مساحة الاهتمام الإنسانى كله (روحا / ومادة)، وتأمل أسماء من مثل الجبرتى الكبير، والزبيدى، والشوكانى وابن عبد الوهاب، وغيرهم فاض بهذا الذى نقول به، ونركن إليه.

واستمرت محاولات استعادة الذات إسلامية الوجه واليد واللسان عبر التيارات التالية لمجددى الأمة وباعثى نهضتها كما تتجلى فى مدرسة الأفغانى ثم امتداداتها على يد مدرسة محمد عبده ثم محمد رشيد رضا ثم جاء حسن البنا وعصب هذا الطريق كما نرى هو الإيمان المطلق بقدرة بناء الذات العربية بإعادة إحياء رصيدها المعرفى والوجدانى، وتغذية المراحل الحديثة به.

وفى المقابل ظهر تيار آخر يسعى إلى تحقيق مقولات التحديث واستعادة الذات عن طريق استلهام التجربة التحديثية الأوربية فيما سمى عرضا فى سطور سابقة باسم الحج إلى الغرب.. وقد كان من سابق أمره مشغولا بنقل التقنية، مشغولا بالعناصر المادية (التصنيعية) فقط محاطا برعاية وجدانية وعقلية تجلت فى إجراءات الإشراف المعرفى والوجدانى الذى ارتبط بإمام

البعثة والمشرف عليها على ما نرى في قوائم تشكيل البعثات الباكرة في عصر النهضة المعاصرة من لدن محمد علي على ما نرى في مصنف عمر طوسون عن البعثات العلمية الذي يؤرخ فيه لهذه البعثات من أيامها الأولى.

ثم تطورت حركة السير في الطريق الأوروبي تطورا رديئا فغاب هذا الوجه الحاني والمرشد للوجدان الإسلامي في رحلة الحج نحو الغرب التقني، ليقع عدد من رواد التحديث فريسة مخالب الفكرة الغربية في تشكلاتها النصرانية واليهودية والوثنية وبدأت مخايل السبل التي طالما حذر منها مقام النبوة الكريم تلوح في الأفق.

والحكم بأن السير في طريق الحج إلى الخارج/ الغربي كان هو الخيار الغلط - حكم ينبغي أن يظل خاصا بممارسة التوجه إلى الغرب على النحو الذي تم في العصر الحديث، واستفحل مع الأيام حتى اللحظة الراهنة.

وليس يصح بحال سحب هذا الحكم على مطلق الأخذ عن الآخر والإفادة من منجزه الحضاري. فهذا شطط لم تعرفه حركة التجديد الإسلامي في مسيرتها الطويلة، وهو شطط لا تدعمه الأصول العامة للفكرة الإسلامية المؤسسة على نصوص حاسمة ومركزية تدعو إلى الإفادة من المنجز الإنساني عموما بعد إجراء عملية تحاور إيجابي معه يمكن تلخيص مبادئها فيما يلي :

أ- اختبار المنجز الوافد على روح الإسلام وثوابته.

ب- اختبار المنجز الوافد في ضوء مقولات النفع وفي ضوء مقولة الإنسانية.

ومما يدعم قراءتنا هذه العدد الرهيب خالات التحول إلى الطريق الأول طريق السير في الاتجاه الصحيح نحو تحقيق الذات في مواجهة مرحلة العولمة التي لن ترضى بغير المحو والاقتلاع.

ورحلة التحول قديمة من لدن طه حسين إلى عبد الوهاب المسيري وهي شاهد حق على أن المراجعة المتأنية والخلصة قاضية بهذا الاختيار، اختيار طريق استعادة بناء الذات العربية بمكونات إسلامية وإنسانية غير مخاصمة.

وفي هذا الطريق تقابلنا قوانين من مثل: الهوية الواقية، وضرورة الاحتماء بها، ومن مثل مقاومة ما سمي في الغرب الإسلامي باسم مقاومة القابلية للاستعمار ومقاومة الاستعداد للاستعمار، مدعومة من الشرق الإسلامي في حدوده الطرفية في إيران وما وراءها بقوانين تعلن: الابتلاء بالتغرب كان خطرًا ماحقًا.

(الطريق الغلط.. الوجه الآخر)

وليس يصح أن يقال ولو من جانبنا أن تقرير الخطأ وإنزاله على استعادة الذات عن طريق إعادة استلهام التراث لم يكن موجودًا، بل قد كان!

لكن الحق قاض أن هذا الفريق الذي انحاز إلى هذا الحكم باستثناء أصوات قليلة جدًا كانت تنطق وتصدر عن روح موتورة تتلبسها روح انتقامية، تستشعر معها أنها أذرع طويلة للاحتلال الغربي، أو يد غليظة لأنظمة عسكرية مستبدة غاشمة.

على أنه من المفيد أن نقف أمام بعض الأصوات العلمية التي تتحرك من منطق معرفي في قراءة الطريق، من أبناء هذا الاتجاه، وهو الأستاذ شوقي جلال من خلال كتابه المهم (التراث والتاريخ) ،طبعة سينا للنشر سنة ١٩٩٥م؛

وهو يكاد يعلن عن موقفه من أول صفحة تقابلك في هذا الكتاب عندما يقرر (ص ٥) قائلا: البحث عن الذات في التراث والبداية خطأ. هكذا فيما يشبه المصادرة على المطلوب، وهو يقول: " قضية البحث عن الذات القومية استولت على اهتمام شعوب كثيرة إبان معاناتها لما عرف باسم صدمة الغرب، وإزاء الشعور بخطر إفناء الذات الذي يمثله الآخر الغازي أو المعتدي تباينت سبل الشعوب في مواجهة الخطر".

وعلى الرغم من هذه البداية التي تبدو محايدة باستثناء العنوان الكاشف يطلع الكتاب بما يعلن عن أن الطريق الغلط هو استلهام التراث، وهو الوجه الذي يقابلك في العبارات التالية : تيار الانسحاب للماضي، رده لمفهوم الوسطية والحكم عليه بأنه فكر غير مستقل للدرجة التي يقرر معها قائلاً (ص٢٥) : "نحن لا نجد في الوسطية بمعنى الاعتدال وعدم التطرف نهجًا محمودًا" !

وهو في رحلة تأسيسه للطريق الصحيح، وتجنب الطريق الخطأ يقرر أن العقلية الغيبية (المؤمنة بالغيب) لا تعتمد النهج النقدي التحليلي في معالجة الأمور (ص٤٥).

ولست أحب أن أفيض في هذه الطريق إلا بالقدر الذي يكشف عما نريد التنويه عليه، وفي هذا الذي نقلناه لك ما يفي الآن بالغرض.

إن طرحًا يتولى مهمة الحكم في هذا الطريق عبر ثنائية يقف في أحد طرفيها التراث والتاريخ وفي طرفها الآخر الرؤية المعاصرة لهذا التراث ولهذا التاريخ لا تفي باستجماع متطلبات إصدار الحكم حتى يستقر في ضمير القاضي صحة الحكم الصادر هو طرح ظالم وغير موضوعي يتعسف الطريق.

وهو بعض ما يصح وصف صوت هذا الفريق الذي ينطلق من رؤية تتخذ من مقولات النقد، وتداخل الحضارات أرضًا ثابتة لطرحه وحكمه.. والأستاذ شوقي جلال وتياره في حكمه على مفهوم الوسطية بأنه نهج غير محمود لا يراعي فكرة الخير المستقرة التي يترصدها الشر، وإسقاط مقولة الانتصار للحق والعدل أمر عجيب لا يصدر إلا عن عقل يتخذ موقفًا سلبيا من عصب روح الطريق الذي ظل مهيمنًا في مسيرة الأمة التي لم يكن كل تاريخها تناحرا وتمزقًا ولو على المستوى الشعبي.

ومن المدهش الذي يكشف عن حيثيات الحكم الذي يصدره هذا الفريق ممثلاً في صوت شوقي جلال - وصفه للعقلية المؤمنة بالغيب بما وصفها به من افتقارها إلى الروح النقدية المتشككة مع أن هذه الروح المؤمنة الغيبية هي التي قدمت أعلى نماذج في ما سمي بالنقد التاريخي (خارجيًا / وداخليا) وهي التي قدمت نماذج رائدة على طريق بناء العقل والوجدان عبر بوابة الشك المنهجي على ما ثبت من تأثيرات جبارة لمنهجية الشك عند الغزالي في منهجية الشك عند ديكارت. على أنه من المهم جدًا أن يستمر هذا السعي الدائم في طريق استعادة بناء الذات ومن المهم أن تتضافر الجهود لإعادة إحياء الأمة بكل خصائصها الرحيمة والإنسانية قبل فوات الأوان!

تهذيب الأخلاق

تأليف/
أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

عنى بنشره:
محمد كرد علي

دمشق، مطبعة البطريركية الأرثوذكسية (١٩٢٤م).

التعريف بالمؤلف:

الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر محبوب الكناني الليثي البصري (١٥٩-٢٥٥هـ) أديب عربي ومفكر من كبار أئمة الأدب في العصر العباسي، وُلد في البصرة وتوفي فيها. كانت ولادة الجاحظ في خلافة المهدي ثالث الخلفاء العباسيين، ووفاته في خلافة المهتدي بالله سنة (٢٥٥هـ). نشأ فقيراً، وطلب العلم في سن مبكرة، فقرأ القرآن ومبادىء اللغة على شيوخ بلده، ولكن اليتم والفقر حال دون تفرغه لطلب العلم، فصار يبيع السمك والخبز في النهار، ويكترى دكاكين الورّاقين في الليل فكان يقرأ منها ما يستطيع قراءته. أخذ علم اللغة العربية وآدابها على أبي عبيدة صاحب عيون الأخبار، والأصمعي الراوية المشهور صاحب الأصمعيات وأبي زيد الأنصاري، ودرس النحو، وعلم الكلام. وكان متصلا -بالإضافة لاتصاله بالثقافة العربية- بالثقافات غير العربية كالفارسية واليونانية والهندية، عن طريق قراءة أعمال مترجمة أو مناقشة المترجمين أنفسهم، كحنين بن إسحق وسلمويه. ولكن الجاحظ لم يقصر مصادر فكره ومعارفه على الكتب؛ إذ العلم الحق لا يؤخذ إلا عن مُعلم، فتتلمذ على أيدى كثير من المعلمين العلماء واغتنى فكره من اتصاله بهم. وتكوّنت لدى الجاحظ ثقافة هائلة ومعارف طائلة عن طريق التحاقه بحلقات العلم بالمسجد التي كانت تجتمع لمناقشة عدد كبير وواسع من الأسئلة، وبمتابعة محاضرات أكثر الرّجال علما في تلك الأيام، في فقه اللغة وفقه النحو والشعر. وسرعان ما حصل الأستاذية الحقيقية في اللغة العربية بوصفها ثقافة تقليدية، ومكنه ذكاؤه الحاد من ولوج حلقات المعتزلة حيث المناقشات الأكثر بريقا، والمهتمة بالمشكلات التي تواجه المسلمين، وبالوعي الإسلامي في ذلك الوقت.

وترك كتبا كثيرة يصعب حصرها، وإن كان البيان والتبيين، وكتاب الحيوان، والبخلاء أشهر هذه الكتب. وكتب في علم الكلام، والأدب، والسياسة، والتاريخ، والأخلاق، والنبات، والحيوان والصناعة، والنساء، وغيرها. وقد انتهج الجاحظ في كتبه ورسائله أسلوبا بحثيا أقل ما يقال فيه: إنه منهج بحث علمي مضبوط ودقيقٌ؛ يبدأ بالشك ليعرض على النقد، ويمر بالاستقراء على طريق التعميم والشمول بنزوع واقعي وعقلاني.

عرض الكتاب:

يقع الكتاب في (٦٠) صفحة. يستهل الكاتب الكتاب ببيان أهمية التحلي بمكارم الأخلاق. فيذكر الجاحظ: «أول ما اختاره الإنسان لنفسه، ولم يقف دون بلوغ غايته، ولم يرض بالتقصير عن نهاية تمامه وكماله؛ ومن تمام الإنسان وكماله: أن يكون مرتاضا بمكارم الأخلاق ومحاسنها، ومتنزها عن مساويها ومقابحها، آخذا في جميع أحواله ما بين الفضائل عادلا في كل أفعاله عن طرق الرذائل»(ص٦). ثم يبين ما الخُلق وما علته (ص٧ - ٩). الخُلق هو حال النفس التي بها يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختيار. والخُلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعا، وفي بعضهم لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد، كالسخاء قد يوجد في كثير من الناس من غير رياضة ولا تعمُّل، وكالشجاعة والحِلم، والعفة، والعدل وغير ذلك من الأخلاق المحمودة. ويوجد في كثير من الناس ذلك، فمنهم من يصير إليه بالرياضة، ومنهم من يبقى على عاداته، ويجرى على سيرته (ص٩).

وتكون الأخلاق إما مذمومة أو محمودة. فأما الأخلاق المذمومة فإنها موجودة في كثير من الناس كالبخل، والجُبن، والظلم، والتشرر، فإن هذه العادات غالبة على أكثر الناس، مالكة لهم، بل قلما يوجد في الناس من يخلو من خلق مكروه، ويسلم من جميع العيوب، ولكنهم يتفاضلون في ذلك (ص٩). وكذلك في الأخلاق المحمودة، قد يختلف الناس ويتفاضلون، إلا أن المجبولين على الأخلاق الجميلة قليلون جدا. فأما المجبولون على الأخلاق السيئة فأكثر الناس؛ لأن الغالب على طبيعة الإنسان الشر. وينبه الجاحظ إلى أن هناك فروقا فردية بين الناس في قابليتهم لتعديل أخلاقهم المكروهة، وفي النواتج المتوقعة من تعديل أخلاقهم، فيذكر: «فالأخلاق المكروهة في طباع الناس، إلا أن فيهم من يتظاهر بها، وينقاد لها. وهم شرار الناس. وفيهم من يُنبه بجودة الفكر، وقوة التمييز على قُبحها، فيأنف منها، ويتصنع لاجتنابها، وذلك يكون عن طبع كريم، ونفس شريفة.

وفيهم من لا ينتبه لذلك، إلا أنه إذا نُبه عليه أحس بقبحه، فربما حمد نفسه على تركه.

وفيهم من إذا تنبه لما فيه من النقائص، أو نبه عليها، ورام العدول عنها، تعذر عليه ذلك، ولم يُطاوعه طبعه، وإن كان مؤثرا للعدول عنها مجتهدا في ذلك. وهذه الطائفة تحتاج أن ترشد إلى طريق التدرب، والتعمل للعادات المحمودة، حتى تصير إليها على التدريج.

ومن الناس من ينتبه على الأخلاق الرديئة أو ينبه عليها فلا يحن إلى تجنبها، ولا تسمح نفسه لمفارقتها، بل يُؤثر الإصرار عليها مع علمه

برداءتها وقبحها. وهذه الطائفة ليس إلى تهذيب طريق إلا بالقهر، والتخويف، والعقوبة إن لم يردعها الترهيب. فأما الأخلاق المحمودة فإنها وإن كانت في بعض الناس غريزة، فليست في جميعهم، وإن الباقين قد يمكن أن يصيروا إليها بالتدرب والرياضة، ويترقوا إليها بالاعتياد، والإلف، ومع هذه الحال فقد يكون في الناس من لا يقبل طبعه العادات الحسنة، ولا الخُلق الجميل، وذلك لرداءة جوهره، وهذه الطائفة من جملة الأشرار الذين لا يرجى صلاحهم»(ص١٠، ١١).

ويفسر الجاحظ منشأ هذه الاختلافات بين الأفراد، فيعزوها إلى النفس «فأما العلة الموجبة لاختلاف الأخلاق فهي النفس»(ص١١). وللنفس ثلاث قوى وهي: النفس الشهوانية، والنفس الغضبية، والنفس الناطقة. وجميع الأخلاق تصدر عن هذه القوى.

فأما النفس الشهوانية فهي للإنسان ولسائر الحيوان وهي التي يكون بها جميع اللذات، والشهوات الجسمانية كالقرم (شدة الشهوة) إلى المآكل والمشارب والمباضعة. وهذه النفس قوية جدا متى لم يقهرها الإنسان ويؤدبها، ملكته واستولت عليه. فإذا تمكنت هذه النفس من الإنسان وملكته كان بالبهائم أشبه منه بالناس (ص١٢). واتسم بعدة خصال منها: يقل حياؤه، ويكثر خرقه، ويستوحش من أهل الفضل، ويميل إلى الخلوات، ويبغض أهل العلم، ويود أهل الفجور، ويستحب الفواحش، ويغلب عليه الهزل، وكثرة اللهو، وربما حملته نفسه على الغصب، والتلصص، والخيانة. ومن تنتهي به شهواته إلى هذا الحد، فهو أسوأ الناس حالا. وهو من الأشرار الذين يخاف خبثهم، ويستوحش منهم (ص١٢). وأما من ملك نفسه الشهوانية فيتسم بعدة خصال منها: أنه يكون ضابطا لنفسه، عفيفا في شهواته، محتشما من الفواحش، متوقيا من المحظورات، محمود الطريقة في جميع ما يتعلق باللذات (ص١٣).

فالعلة الموجبة لاختلاف عادات الناس في شهواتهم ولذاتهم، وعفة بعضهم، وفجور بعضهم هو اختلاف أحوال النفس الشهوانية (ص١٣).

وأما النفس الغضبية فيشترك فيها أيضا الإنسان وسائر الحيوان، وهي التي بها يكون الغضب، والجرأة، ومحبة الغلبة. وهذه النفس أقوى من النفس الشهوانية، وأضر لصاحبها إذا ملكته، وانقاد لها، فإن الإنسان إذا انقاد للنفس الغضبية كثر غضبه، وظهر خرقه، واشتد حقده، وعدم حلمه، وقويت جرأته، وتسرع عند الغضب إلى الانتقام، والإيقاع بمغضبه (ص١٣، ١٤). ويتسم من تملكه النفس الغضبية بعدة خصال منها: أن يكون بالسباع أشبه منه بالناس، ويكون مُحبا للغلبة، متوثبا على من آذاه، ويغلب على من هذه حاله الحسد، والقحة، واللجاج، والجور، واكتساب الأموال من غير وجهها. أما من ساس نفسه الغضبية، وأدبها فيكون حليما، وقورا، عادلا، محمود الطريقة (ص١٤، ١٥).

وأما النفس الناطقة فهي التي بها يتميز الإنسان من جميع الحيوان. وهي التي بها يكون الفكر، والفهم، وبها تُستحسن المحاسن، وتستقبح القبائح (ص١٥).

ويلفت الجاحظ الأذهان إلى أهمية السياق

الاجتماعي، والقدوة في اكتساب الأخلاق فيذكر «وقد يكتسب الناس جميع الأخلاق جميلها، وقبيحها اكتسابا، وذلك بحسب منشأ الإنسان، وأخلاق من يحيط به، ويشاهده، ويقرب منه، فالحدث والناشئ يكتسب الأخلاق ممن يكثر ملابسته، ومخالطته، ومن أبويه، وأهله، وعشيرته»(ص١٧).

أما أنواع الأخلاق وأقسامها، فمنها المستحسن ويعد فضائل، والمستقبح، ويعد رذائل. أما التي تعد فضائل فإن منها العفة، والتصون، والتحفظ من الابتذال، والحلم، والوقار، والرحمة، والوفاء، وكتمان السر (ص١٨ - ٢٤).

وقد ورد في هذا الجزء تعريف المفاهيم الآتية:

١ - العفة: ضبط النفس عن الشهوات، وقسرها على الاكتفاء بما يقيم أود الجسد، ويحفظ صحته فقط، واجتناب السرف، والتقصير في جميع اللذات، وقصد الاعتدال(ص١٨).

٢ - القناعة: الاقتصار على ما سنح من العيش، والرضا بما تسهل من المعاش، وترك الحرص على اكتساب الأموال، وطلب المراتب العالية مع الرغبة في جميع ذلك، وإيثاره، والميل إليه، وقهر النفس على ذلك، والتقنع باليسير منه(ص١٨).

٣ - التحفظ من التبذل: التحفظ من الهزل القبيح، ومخالطة أهله، وحضور مجالسه، وضبط اللسان من الفحش، وذكر الخنا، والسخف وخاصة في المحافل، ومجالس المحتشمين(ص١٩).

٤ - التصوُّن: الانقباض من أدنياء الناس، وأصاغرهم، ومصادقتهم، والتحرز من المعايش الزرية، واكتساب الأموال من الوجوه الخسيسة، والترفع عن مسألة الحاجات لئام الناس وسفلتهم، والتواضع لمن لا قدر له، والإقلال من البروز من غير حاجة، والتبذل بالجلوس في الأسواق، وقوارع الطريق من غير اضطرار (ص١٩).

٥ - الحِلم: ترك الانتقام عند شدة الغضب مع القدرة على ذلك (ص١٩).

٦ - الوقار: الإمساك عن فضول الكلام، والعبث، وكثرة الإشارة، والحركة، فيما يستغنى عن التحرك فيه، وقلة الغضب، والإصغاء عند الاستفهام، والتوقف عن الجواب، والتحفظ من التسرع، والمبادرة في جميع الأمور (ص١٩).

٧ - الحياء: غض الطرف، والانقباض عن الكلام حشمة للمستحيا منه (ص٢٠).

٨ - الود: المحبة المعتدلة من غير اتباع الشهوة ص (٢٠).

٩ - الرحمة: خُلق مركب من الود والجزع. والرحمة لاتكون إلا لمن تظهر منه لراحمه خلة مكروهة، إما لنقيصة في نفسه، وإما لمحنة عارضة. فالرحمة هي محبة للمرحوم، مع جزع من الحال التي من أجلها رُحم (ص٢٠).

١٠ - الوفاء: الصبر على مايبذله الإنسان من نفسه، ويرهن به لسانه، والخروج مما يضمنه وإن كان مجحفاً به، فليس يُعد وفيًا من لم تلحقه بوفائه أذية وإن قلت (ص٢٠).

١١ - أداء الأمانة: التعفف عما يتصرف الإنسان فيه من مال وغيره، ومايوثق به عليه من الأعراض، والحرم مع القدرة عليه، ورد ما

يستودع إلى مستودعه (ص٢١).

١٢- كتمان السر: خُلق مركب من الوقار وأداء الأمانة (ص٢١).

١٣- التواضع: ترك الترؤس، وإظهار الخمول، وكراهية التعظيم، والزيادة في الإكرام، وتجنب المُباهاة، والمفاخرة بالجاه والمال (ص٢١).

١٤- البشر: إظهار السرور بما يلقاه الإنسان من أخوانه وأصحابه، ومعارفه، والتبسم عند اللقاء (ص٢٢).

١٥- صدق اللَّهجة: الإخبار عن الشيء على ماهو به (ص٢٢).

١٦- سلامة النية: اعتقاد الخير لجميع الناس، وتنكب الخبث والغيلة، والمكر، والخديعة (ص٢٢).

١٧- السخاء: بذل المال من غير مسألة ولا استحقاق (ص٢٣).

١٨- الشجاعة: الإقدام على المكاره، والمهالك عند الحاجة إلى ذلك، وثبات الجأش عند المخاوف، والاستهانة بالموت (ص٢٣).

١٩- المنافسة: منازعة النفس إلى التشبه بالغير فيما يراه له، وهو يرغب فيه لنفسه، والاجتهاد في الترقي إلى درجة أعلى من درجته (ص٢٣).

٢٠- الصبر عند الشدائد: خُلق مركب من الوقار والشجاعة وهو مستحسن جداً مالم يكن الجزع نافعاً، ولا الحزن والقلق مُجدياً، ولا الحيلة والاجتهاد دافعة سورة تلك الشدائد (ص٢٣).

٢١- عظم الهمة (دافعية إنجاز): استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور، وطلب المراتب السامية، واستحقار مايجود به الإنسان عند العطية، والاستخفاف بأوساط الأمور، وطلب الغايات، والتهاون بما يملكه وبذل ما يمكنه لمن يسأله من غير امتنان، ولا اعتداد به (ص٢٤).

٢٢- العدل: القسط اللازم للاستواء، أي استعمال الأمور في مواضعها، وأوقاتها ووجوهها، ومقاديرها من غير سرف ولا تقصير أو تقديم وتأخير (ص٢٤).

وأما الأخلاق الرديئة التي تعد نقائص ومعايب فمنها الفجور، والشره، والتبذل، والخرق، والعشق، والخيانة، والنميمة، والكبر، والعبوس، والخُبث، والحسد، والجور (ص٢٤- ٣٠).

وقد ورد في هذا الجزء تعريف المفاهيم الآتية:

١- الشره: الحرص على اكتساب الأموال وجمعها، وطلبها من كل وجه وإن قبح التعسف في اكتسابها (ص٢٥).

٢- التبذل: إطراح الحشمة، وترك التحفظ، والإكثار من الهزل، ومخالطة السفهاء، وحضور مجالس اللَّهو، والتفوه بالخنا، وذكر الأعراض، والتكسب بالمعايش الزرية (ص٢٥).

٣- السَّفه: ضد الحلم، وهو سرعة الغضب والطيش من يسير الأمور، والمُبادرة في البطش، والإيقاع بالمؤذي، والسرف والعقوبة، وإظهار الجزع من أدنى ضرر والسب الفاحش (ص٢٥).

٤- الخرق: كثرة الكلام، والتحرك من غير حاجة، وشدة الضحك، والمبادرة إلى الأمور من غير توقف، وسرعة الجواب (ص٢٥).

٥- القحة: قلة الاحتشام لمن يجب احتشامه، والمجاهرة بالجوابات القطة المستشعة (ص٢٦).

٦- العشق: إفراط الحب والسرف فيه (ص٢٦).

٧- القساوة: خُلق مركب من البغض والشجاعة والقساوة. هو التهاون بما يلحق الغير من الألم والأذى (ص٢٦).

٨- الغدر: الرجوع عما يبذله الإنسان من نفسه ويضمن الوفاء به (ص٢٦).

٩- الخيانة: الاستبداد بما يؤتمن الإنسان عليه من الأمور والأعراض والحرم، وتملك مايستودع، ومجاحدة مودعه (ص٢٦).

١٠- إفشاء السر: هذا الخُلق مُركب من الخرق والخيانة (ص٣٧).

١١- النميمة: أن يبلغ إنساناً عن آخر قولاً مكروهاً (ص٢٧).

١٢- الكبر: استعظام الإنسان نفسه واستحسان مافيه من الفضائل، والاستهانة بالناس واستصغارهم، والترفع على من يجب التواضع له (ص٢٧).

١٣- العُبوس: التقطيب عند اللقاء وقلة التبسم، وإظهار الكراهية. وهذا الخُلق مُركب من الكبر، وغلظ الطبع (ص٢٨).

١٤- الكذب: الإخبار عن الشيء بخلاف ماهو به (ص٢٨).

١٥- الخُبث: إظمار الشر للغير، وإظهار الخير له، واستعماله الغيلة، والمكر، والخديعة في المعاملات (ص٢٨).

١٦- الحقد: إضمار الشر للجاني إذا لم يتمكن من الانتقام منه، وإخفاء ذلك الاعتقاد إلى أن تتاح الفرصة (ص٢٨).

١٧- البُخل: منع المسترفد (طالب العطاء) مع القدرة على رفده (عطائه) (ص٢٩).

١٨- الجُبن: الجزع عند المخاوف والإحجام عما تُحذر عاقبته أو لا تؤمن مغبته (ص٢٩).

١٩- الحسد: التألم بما يراه الإنسان لغيره من الخير، ومايجده فيه من الفضائل والاجتهاد في إعدام ذلك الغير ماهو له (ص٢٩).

٢٠- الجزع عند الشدة: هذا الخُلق مركب من الخرق والجبن (ص٢٩).

٢١- صغر الهمة: ضعف النفس عن طلب المراتب العالية، وقصور الأمل عن بلوغ الغايات، واستكثار اليسير من الفضائل، واستعظام القليل من العطايا، والاعتداد به، والرضى بأوساط الأمور وأصاغرها (ص٢٨).

٢٢- الجور: الخروج عن الاعتدال في جميع الأمور والسرف والتقصير، وأخذ الأموال من غير وجهها، والمطالبة بما لايجب من الحقوق الواجبة، وفعل الأشياء في غير مواضعها.

٢٣- حب الزينة: التصنع بحسن البزة والمركوب والآلات، وكثرة الخدم والحشم (ص٣٠).

٢٤- حب الكرامة أن يُسرَّ الإنسان بالتعظيم والتبجيل والمقابلة بالمدح والثناء الجميل (ص٣٠).

٢٥- الزُّهد: قلة الرغبة في الأموال، والأعراض، والادخار، وإيثاره القناعة بما يقيم الرمق، والاستخفاف بالدنيا ومحاسنها ولذاتها،

وقلة الاكتراث بالمراكب العالية، واستصغار الملوك وممالكهم وأرباب الأموال وأموالهم (ص٣٢).

ومن الأخلاق ماهو فى بعض الناس فضيلة، وفى بعضهم رذيلة، فحب الزينة مثلا مستحسن من الملوك، والعظماء، والأحداث الظرفاء، والمتنعمين، والنساء، ولكنه مستقبح من الرهبان، والزهاد، وأهل العلم (ص٣١).

ويوضح بعد ذلك كيفية رياضة النفس الشهوانية (ص٣٦-٣٩). يذكر الجاحظ عدة أساليب يمكن اتباعها لقمع النفس الشهوانية، فيذكر أنه ينبغى على من يرغب فى رياضتها أن:

١- يتذكر فى أوقات شهواته، أنه يريد تذليل نفسه الشهوانية؛ فيعدل عما تاقت إليه من الشهوة الرديئة إلى ماهو مستحسن من جنس تلك الشهوة (ص٣٦).

٢- يكثر من مجالسة الزهاد، والرهبان، والنساك، ويلازم مجالس الرؤساء، وأهل العلم (ص٣٦).

٣- يديم النظر فى كتب الأخلاق والسياسة، وأخبار الزهاد، وأهل الورع (ص٣٧).

٤- تجنب السكر، ومجالس المجاهرين بالشراب، والسكر، والخلاعة (ص٣٧).

٥- يرتدع عن القبائح بالعقل والتمييز (ص٣٧).

٦- يقل من استماع السماع، وخاصة النساء، والشابات (ص٣٨).

٧- يكون متيقظاً ذاكراً لما يلحق الفاجر، والنهم، والشره، والمتهتك من القباحة، والعار (ص٣٩).

ثم ينتقل الجاحظ بعد ذلك لبيان كيفية رياضة النفس الغضبية (ص٣٩-٤٢). ويذكر عدة أساليب يمكن اتباعها لقمع النفس الغضبية، فيذكر أنه ينبغى على من يرغب فى رياضتها أن:

١- يصرف همته إلى تفقد السفهاء الذين يسرع الغضب فى أوقات طيشهم، وحدتهم، وتسفههم على خصومهم، وعقوبتهم، لخدمهم وعبيدهم، فإنه يشاهد منظراً شنيعاً يأنف منه الخاصى والعامى (ص٤٠).

٢- يذكر فى أوقات غضبه على من يؤذيه، أو يجنى عليه، أنه لو كان هو الجانى، ماالذى كان يستحق أن يقابل على جنايته، فإنه بهذا الفعل يعتقد أن درك تلك الجناية، أو أرش ذلك الأذى يسير جداً (تمثل منظور الآخر)، فإذا اعتقد ذلك كانت مقابلته للجانى، والمؤذى بحسب اعتقاده، فلا يسرف فى الانتقام، ولايفحش فى الغضب (ص٤٠).

٣- يتجنب حمل السلاح (فى مجالس الشراب)، وحضور مواضع الحروب، ومقامات الفتن (ص٤٠).

٤- يتجنب مجالسة الأشرار، ومعاشرة السفهاء (ص٤٠).

٥- يتجنب المسكر من الشراب، فإن السكر يهيج النفس الغضبية (ص٤١).

٦- يستعمل فى جميع مايفعله الفكر، ولا يقدم على شىء إلا بعد أن يرو فيه، ويجعل الفكرة واتباع الرأى ديدنا، وعادة فإن الرأى، وجودة الفكرة يقبحان له السفه، وسرعة الغضب (ص٤١).

أما النفس الناطقة فإنها إذا كانت متمكنة من صاحبها أمكنه أن يسوس بها قوتيه الباقيتين، ويكف نفسه عن جميع القبائح، ويتبع أبداً محاسن الأخلاق. ولتقوية هذه النفس يذكر الجاحظ عدداً من الأساليب، منها:

١- تدقيق النظر فى العلوم العقلية (ص٤٢).

٢- دراسة كتب الأخلاق والسياسة، والمداومة عليها (ص٤٢).

٣- الارتياض بعلوم الحقائق، فإن أشرف ماتكون النفس إذا أدركت حقائق الأمور (ص٤٢).

٤- مجالسة أهل العلم، ومخالطتهم، والاقتداء بأخلاقهم وعاداتهم (ص٤٢).

٥- تدقيق الفكر، ومجاهدة النفس، وتمثيل مابين عاداته القبيحة والجميلة، وينظر أيها أجدى عليه، وأيها أنفع له (ص٤٣).

٦- أن يجعل غرضه من كل فضيلة غايتها، ولايقنع منها بما دونها (ص٤٥).

ثم يذكر أوصاف الإنسان التام «ص٤٥-٥٩». ينبغى أن يكون الإنسان التام أو الكامل:

١- متفقداً لجميع أحواله «ص٤٦».

٢- متيقظا لجميع معايبه «٤٦».

٣- متحرزاً من دخول نقص عليه «ص٤٦».

٤- مستعملاً لكل فضيلة «ص٤٦».

٥- مجتهداً فى بلوغ الغاية «ص٤٦».

٦- معتدلاً فى إشباع شهواته «ص٤٧».

٧- مستهيناً بالمال ويحتقره، وينظر إليه بالعين التى يستحقها «ص٤٩».

٨- محبا للناس أجمع، متودداً إليهم «ص٥٢».

٩- مسارعاً إلى فعل الخيرات مع جميع الناس «ص٥٤».

١٠- واسع الصدر، يتلقى من يهدى إليه شيئاً من عيوبه بالبشر والقبول «ص٥٨».

الخلاصة:

ورد فى هذا الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

- العفة Chastity.
- القناعة Conviction.
- الوقار Dignity.
- الود Friendly.
- كتمان السر Confident ality.
- التواضع Modesty.
- السخاء Generosity.
- المنافسة Competiton.
- عظم الهمة achivement motivated.
- السفه Foolishness.
- القساوة Cruelty.
- الجبن Cheese.
- الزهد Asceticism.
- الشره Greed.

القائم بالعرض

د. عبير محمد أنور

الستة من شوال ومنهج الإسلام فى بناء المسلم روحياً

للدكتور/ وصفى عاشور أبو زيد

إذا انقضى شهر رمضان، وفرغ المسلم من صيامه دخل فى عبادة أخرى، وهى نافلة صيام الستة أيام من شوال؛ امتثالا لما رواه الإمام مسلم فى صحيحه بسنده عن عمر بن ثابت بن الحارث الخزرجى عن أبى أيوب الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ أنه حدثه أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «من صام رمضان، ثم أتبعه ستا من شوال، كان كصيام الدهر»[1].

وهذا التتابع فى العبادة يلفت نظرنا إلى محاولة ملاحظة تتابعها فى العام كله. فى الصيام وغيره من الشعائر الكبرى؛ بحيث لا يكاد المسلم ينفك من عبادة إلا تلبس بعبادة أخرى، وقد قال الله تعالى:

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۞ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾

«سورة الشرح ٧ ـ ٨».

تتابع العبادات فى العام كله

ومع تتبُّع هذا التتابع ـ والتداخل أيضا ـ نجد أن الإنسان المسلم مغمور طوال العام فى عبادات متتالية ومتداخلة، يخرج من عبادة ليدخل فى أخرى، وينتهى من نافلة ليبدأ نافلة، ويودع فريضة ليستقبل نافلة، وهكذا العام كله.

الصلاة فريضة وتطوعاً:

فإذا نظرنا إلى الصلاة وحدها وجدناها تكفى المسلم لتجديد إيمانه وبنائه الروحى؛ فهى خمس صلوات تتوزع اليوم كله، وتتخلل أوقات اليوم، فعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: وفى حديث بكر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل

١. صحيح مسلم: كتاب الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال إتباعا لرمضان.

منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شىء؟ قالوا لا يبقى من درنه شىء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»[2]

وبالإضافة إلى هذه الفرائض هناك النوافل التى تحمى حمى الفرائض، وتحوطها، وتجبر خللها، وتكمل نقصها، وترد فقدها؛ فعن النعمان بن سالم عن عمرو بن أوس قال حدثنى عنبسة بن أبى سفيان فى مرضه الذى مات فيه بحديث يتسارُّ إليه قال سمعت أم حبيبة تقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من صلى اثنتى عشرة ركعة فى يوم وليلة بنى له بهن بيت فى الجنة»[3]

قالت أم حبيبة: فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال عنبسة: فما تركتهن منذ سمعتهن من أم حبيبة، وقال عمرو بن أوس: ما تركتهن منذ سمعتهن من عنبسة، وقال النعمان بن سالم: ما تركتهن منذ سمعتهن من عمرو بن أوس.

ومع ذلك نجد نوافل أخرى للصلوات، مثل: صلاة الاستخارة، وصلاة الاستسقاء، وصلاة سنة الوضوء، وصلاة الكسوف، وصلاة الضحى يومياً، وصلاة التسابيح ـ على الخلاف الذى فيها ـ بالإضافة إلى التطوع المطلق.

هذا هو توزيع فريضة واحدة مع نوافلها فى أوقاتها، فكيف نتصور أثرها فى البناء الروحى للمسلم، وهل تترك فرصة للمسلم للتلفت إلى مخالفة أو معصية؟.

الزكاة فريضة وتطوعاً:

وأما الزكاة فقد فرضها الله تعالى بشروطها وضوابطها المذكورة فى مطولات الفقه الإسلامى، وحبب إلى التطوع فيها بما أسماه الشرع الشريف: الصدقة، والتطوع، قال تعالى:

﴿ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة: ٢٨٠)

وقال:

﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

(البقرة: ٢٧١)

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الصدقة لتطفئ غضب الرب، وتدفع عن ميتة السوء»[4]

وإن كانت فريضة الزكاة تؤدى مرة فى العام الواحد لتطهير مال المسلم وتزكية نفسه، فإن صدقة التطوع مفتوحة فى كل وقت وفى كل حال، لا نصاب لها ولا مقادير، بل هى مفتوحة للمسلم آناء الليل وأطراف النهار.

٢. صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشى إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات.

٣. صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل السنن الراتبة قبل الفرائض وبعدهن وبيان عددهن.

٤. سنن الترمذى: كتاب الزكاة عن رسول الله، باب ما جاء فى فضل الصدقة، وقال أبو عيسى: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه».

الصيام فريضة وتطوعاً:

وأما الصيام فقد فرضه الله تعالى شهراً كاملاً، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾

سورة البقرة (١٨٣ - ١٨٤)

ويلاحظ في شهر رمضان التدرج في الحالة الإيمانية والروحية والنفسية للمسلم، فهو يبدأ صيام رمضان مع القيام والتطوع والتنفل من الصلاة والذكر والدعاء والتهليل والتكبير والاستغفار والتوبة، شيئاً فشيئاً، حتى تشف نفسه، وينشرح صدره، وتصفو سريرته، وتقترب دمعته، حتى إذا دخل العشر الأواخر - بما فيها ليلة القدر - دخل المسلم في «فرض» من العبادة مكثف؛ فيحدث نوع من التشكيل الجديد، والصفاء العجيب، والنقاء النادر، الذي يقترب به حال المسلم من حال الملائكة؛ حيث إنها تصوم ولا تفطر، وتقوم ولا تقعد، وتذكر وتهلل وتكبر، وتدعو وتبتهل، وتخاف وترجو، وتعبد الله تعالى ولا يفترون.

ثم - بالإضافة لهذا الزاد المستوى الكبير والعميق والمؤثر والمغير - يفتح النبي - صلى الله عليه وسلم - باب التطوع في الصيام حتى ليكاد صيام التطوع يستوعب المسلم أيام السنة كلها.

● فعن شهر الله المحرم - أول شهور السنة - ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»[٥].

● وعن شهر رجب جاء عن عثمان بن حكيم الأنصاري قال: سألت سعيد بن جبير عن صوم رجب - ونحن يومئذ في رجب - فقال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم»[٦].

● وعن شهر شعبان ورد عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم، وما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استكمل صيام شهر قط إلا رمضان، وما رأيته في شهر أكثر منه صياماً في شعبان»[٧].

> وعن الصيام في شهور السنة كلها جاء عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم شهرا كله؟ قالت: ما علمته صام شهراً كله إلا رمضان، ولا أفطره كله حتى يصوم منه؛ حتى مضى لسبيله صلى الله عليه وسلم[٨].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما صام رسول الله صلى الله عليه وسلم شهرا كاملا قط غير رمضان، وكان يصوم إذا صام حتى يقول القائل لا والله لا يفطر، ويفطر إذا أفطر حتى يقول القائل لا والله لا يصوم[٩].

● وعقد الإمام مسلم في كتاب الصيام بابا بعنوان: «استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس».

● وهذا صيام يوم وإفطار يوم لمن أطاقه في وصية النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: «صم يوما ولك أجر ما بقي» قال: إني أطيق أكثر من ذلك. قال: «صم يومين ولك أجر ما بقي». قال: إني أطيق أكثر من ذلك. قال: «صم ثلاثة أيام ولك أجر ما بقي». قال: إني أطيق أكثر من ذلك. قال: «صم أربعة أيام ولك أجر ما بقي». قال: إني أطيق أكثر من ذلك. قال: «صم أفضل الصيام عند الله صوم داود عليه السلام كان يصوم يوما ويفطر يوما»[١٠].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أحب الصيام إلى الله صيام داود، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوما ويفطر يوما»[١١].

> وفي شهر القرآن تحلو قراءة القرآن بما لا يجد المسلم حلاوته في غيره من الشهور؛ فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اقرأ القرآن في كل شهر». قال قلت: إني أجد قوة. قال: «فاقرأه في عشرين ليلة». قال قلت: إني أجد قوة. قال: «فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك»[١٢].

هل يتخيل المسلم حاله مع الصيام والصلاة فقط، إنْ قام بالفريضة منهما والتطوع؟ فماذا عن الحج والعمرة؟

---

٥. صحيح مسلم: كتاب الصيام، فضل صوم المحرم.

٦. صحيح مسلم: كتاب الصيام، باب صيام النبي صلى الله عليه وسلم في غير رمضان واستحباب أن لا يخلي شهرا عن صوم.

٧. صحيح مسلم: نفس الموضع، وعن أبي سلمة قال: سألت عائشة رضي الله عنها عن صيام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كان يصوم حتى نقول قد صام ويفطر حتى نقول قد أفطر ولم أره صائما من شهر قط أكثر من صيامه من شعبان كان يصوم شعبان كله كان يصوم شعبان إلا قليلا. صحيح مسلم: كتاب الصيام، باب صيام النبي صلى الله عليه وسلم في غير رمضان واستحباب أن لا يخلي شهرا عن صوم.

٨. صحيح مسلم: كتاب الصيام، باب صيام النبي صلى الله عليه وسلم في غير رمضان واستحباب أن لا يخلي شهرا عن صوم.

٩. صحيح مسلم: كتاب الصيام، باب صيام النبي صلى الله عليه وسلم في غير رمضان واستحباب أن لا يخلي شهرا عن صوم.

١٠. صحيح مسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقا أو لم يفطر العيدين والتشريق وبيان تفضيل صوم يوم وإفطار يوم.

١١. صحيح مسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقا أو لم يفطر العيدين والتشريق وبيان تفضيل صوم يوم وإفطار يوم.

١٢. صحيح مسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقا أو لم يفطر العيدين والتشريق وبيان تفضيل صوم يوم وإفطار يوم.

الحج والعمرة فريضة وتطوعاً:

أما الحج والعمرة، فقد فرض الله الحج - هذا المشهد الجامع والأعظم والأكبر للأمة كلها على مر العصور - مرة واحدة فى العمر، قال تعالى:

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾

سورة البقرة ١٩٦

ولا يخفى ما فى شعيرة الحج من مشاعر غامرة وأحاسيس تملأ نفس المسلم، ومعانى تحتشد فتستغرق قلبه وعقله، عبر رؤية الحشود الهائلة بملابسهم الواحدة؛ ذكرا، وتسبيحا، وتهليلاً، ودعاء، وسعيا، وطوافا، إلى أن تنتهى الفريضة بطواف الوداع.

فإذا انضاف إلى ذلك العمرة فى كل أوقات السنة، وحج التطوع بعد الفريضة، فلا شك أن ذلك يحدث أثرا كبيرا فى إيمان المسلم وروحه وقلبه وعقله، فعن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس للحجة المبرورة ثواب دون الجنة»(١٣)

دلالات هذا التتابع والتداخل

إننا حين نتأمل هذا التتابع فى العبادات - فرائض ونوافل - مع التداخل أيضا؛ حيث يصوم المسلم، ويصلى، ويزكى فى أيام واحدة - فإننا نقف على مدى الأثر الهائل الذى يحدثه الإسلام بهذا المنهج القويم فى نفس المسلم؛ قربا من الله، وضياء وجه، وصفاء نفس، ونقاء سريرة، وترشيد سلوك، وسمو ذوق، وبياض قلب، ونور وجدان.

وكذلك نقف على مدى الاستيعاب الروحى والإيمانى و«العبادى» الذى يحوطه الإسلام بالمسلم، ومدى قوة السياج الذى يحميه من الانحراف، و يمنعه من الوقوع فى براثن المعاصى ومخالفة الإسلام.

إن الإسلام وهو يأخذ بيد المسلم على الطريق القويم إلى بر الأمان يتدرج معه؛ فيخلّه، ويحلّيه، وينمّيه، ويرقّيه، ويجلّيه؛ حتى يصل به إلى درجة العبد الربانى، والملك النورانى الذى إذا أقسم على الله أبرّه، وإذا دعا الله لبّاه.

إن المسلم الذى يتأمل فى منهجية الإسلام وتشريعاته التى أكرمنا الله بها لا يملك إلا أن يعالج نفسه على هذا الشرع الشريف، ويحمل نفسه حملا على تكاليفه ومقتضياته؛ ليصل بنفسه إلى أعلى درجات الكمال الإنسانى، والصفاء الإيمانى، والنقاء الروحانى، كما لا يملك إلا أن يفاخر بأنه مسلم، وأنه ينتمى إلى هذا الدين العظيم:

﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

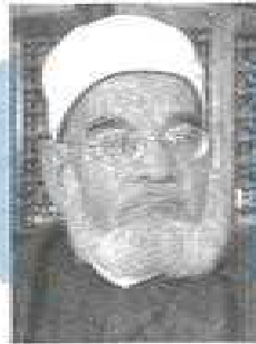
سورة يوسف: ٤٠

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾

سورة البقرة: ١٣٨

١٣ـ مسند الإمام أحمد: مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود. ج ١/ ٣٨٧ طبعة مؤسسة قرطبة. القاهرة، وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره وهذا إسناد حسن.

الجهد الدعوى فى سيرة الإمام أبى حنيفة النعمان



للأستاذ الدكتور/ محمد المختار محمد المهدى
الرئيس العام للجمعيات الشرعية
وعضو مجمع البحوث الإسلامية

كثرت البحوث والكتب التى تناولت سيرة الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان، وأشادت بعبقريته وفقهه، ولم أر من أفرد الجانب الدعوى له ببحث أو مقال مع أهمية الوقوف على جهده الرائع فى هذا المجال الخطير إذ ما تزال آثاره فى ثقافتنا الإسلامية وما يزال عطاؤه فيه رافدا رئيسا لكل من كتب عن ثقافة الداعية وعن منهج الدعوة والحكمة واختيار المدعوين الإيجابيين. ولهذا رأيت أن أسهم - بجهد المقل وبنان العاجز - فى بيان الجهد الدعوى لهذا الإمام الأعظم.

النشأة والثقافة

قبل أن نخوض فى فكر الرجل وجهده الدعوى ينبغى أن نقدم موجزا غير مخل عن التعريف به وبنشأته والعوامل التى أثرت فى اتجاهه ونبوغه؛ فلذلك أهمية بالغة فى استيعاب ما منحه الله من قدرة فائقة فى الفهم بعمق والغوص بمهارة فى كلا المنبعين الرئيسين: الوحى والعقل، وتوظيف ما آتاه الله من علم بهما فى التربية والدعوة والإصلاح.

إن اسمه على أرجح الروايات التاريخية - وعلى ما ارتضاه فضيلة الشيخ أبى زهرة - هو: النعمان بن ثابت، وأن جده كان له اسمان هما: النعمان، وزوطي، وقد كان هذا الجد من أهل كابل بأفغانستان وحين فتحت المدينة أسره بعض رجال (تيم) ثم أعتق حين عُرف أنه من عظماء المدينة، وبمقتضى هذا العتق صار ولاؤه لتلك القبيلة فنسب إليها وصار تيميا بالولاء فارسيا بالأصل، أما أبوه ثابت فقد كان من تجار الخز الأثرياء فى الكوفة، وقيل إنه التقى بسيدنا على بن أبى طالب ودعا له ولذريته.

وأما أبو حنيفة فقد ولد سنة ٨٠هـ بالكوفة فى عهد عبد الملك بن مروان، وإمارة الحجاج الثقفي، ونشأ بها فحفظ القرآن الكريم وتلقاه علي يد الإمام عاصم بن أبى النجود، وعاش أكثر حياته فيها متعلّما ومعلّما وداعيا، واشتهر بالصدق والأمانة والورع والكرم والعلم.. وقد بدأ حياته مساعدا لأبيه فى التجارة وبدت عليه

مخايل الذكاء والنجابة والصدق، حتى أطلق عليه: الفقيه الخزاز.. وفى أثناء تردده على السوق قابله الإمام الشعبى المحدث المعروف فنصحه بالنظر فى العلم ومجالسة العلماء إذ رأى فيه يقظة وحركة. فتأثر بالنصيحة وبدأ يدرس علم العقائد والجدل. وظل يتنقل بين البصرة والكوفة طلبًا لعلم الكلام كما قال عن نفسه: "وكنت أعطيت جدلًا فى الكلام، وأصحاب الأهواء فى البصرة كثير، فدخلتها نيفًا وعشرين مرة، وربما أقمت بها سنة أو أكثر أو أقل ظنًا أن علم الكلام أجل العلوم، فلما مضت مدة من عمرى تفكرت وقلت: السلف كانوا أعلم بالحقائق، ولم ينتصبوا مجادلين، وخاضوا فى علم الشريعة ورغبوا فيه، فتركت الكلام واشتغلت بالفقه".

ثم اختار أستاذه حماد بن سليمان الذى كان يعقد جلساته العلمية فى المسجد الجامع بالكوفة ولازم شيخه حماد الذى خلف إبراهيم النخعى تلميذ الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود، وكان يكثر السؤال ويلح فى الجدل حتى ليحمر وجه حماد لكن شيخه كان يقدره ويقول: "هذا على ما ترى منه يقوم الليل كله ويحييه". واستمر فى ملازمته عشر سنوات متتابعات يحظى من شيخه بقسط كبير من الرعاية وحين غاب حماد شهرين أناب عنه أبا حنيفة ليجلس مكانه. وفى هذه الفترة عرضت له مسائل لم يسمعها من شيخه فأخذ يجيب عنها ويدون إجاباته ليعرضها على أستاذه عند عودته فلما راجعها حماد أقر منها أربعين وأنكر عشرين فأحب أبو حنيفة التدوين منذ ذلك.

وكانت أول فتوى خالف فيها شيخه إجابة عن سؤال لرجل كان على دابة سيرو وغابت الشمس وليس على وضوء ويريد صلاة المغرب فقال له حماد: تيمم، فسئل فيها أبو حنيفة فقال: سر وانتظر غيبوبة الشفق فإذا خشيت ذلك فتيمم.

وحين بلغ أبو حنيفة سن الأربعين صعدت روح حماد إلى بارئها سنة ١٢٠هـ فوجد الناس عنده ما لم يجدوه عند غيره فلزموه وتركوا سواه حتى إن إسماعيل بن حماد نفسه وإخوانه جلسوا فى مجلس أبى حنيفة حتى صارت حلقته أعظم حلقة فى المسجد وكثر حساده.

وكان وفيًا لشيخه يدعو له مع والديه بل سمى ولده بحماد تخليدًا وحبًا لذكراه، ودامت حلقته ثلاثين عامًا. وذهب إلى الحج خمسًا وخمسين مرة يناظر ابن جريج فى مكة والأوزاعى فقيه الشام والليث بن سعد فقيه مصر، والإمام مالك فقيه المدينة وكان فى لقاءات هؤلاء العلماء فائدة كبيرة لأبى حنيفة إذ جمع منها خلاصات التفكير الإسلامى فى كل أرجاء العالم الإسلامي، مما جعله قديرًا فى الحوار بفهم ووعى.

وقد عرض عليه ابن هبيرة فى عصر الأمويين أن يعمل معه فامتنع فضربه ضربًا شديدًا حتى تورم رأسه ولم يضعف أمام جلاده ولم يتخذ التقية كغيره، بل فر من سجنه إلى مكة بعد أن مكنه الجلاد من ذلك واتخذ مكة مستقرًا ومقامًا من سنة ١٣٠هـ إلى أن استقام الأمر للعباسيين وعكف فيها على الحديث والفقه- بما ورثت مكة من علم ابن عباس- مدة ست سنوات، تثقف إذن أبو حنيفة بكل الثقافات الإسلامية فى عصره سواء كان ذلك فى الحديث والنحو والشعر والأدب والجدل ثم تخصص فى الفقه بدءًا من تلمذته على يد حماد بن سليمان مدة ١٨ سنة.

أقوال العلماء فيه

- قال عنه الإمام مالك: لو حدثك أبو حنيفة عن السارية أنها من ذهب لقام بحجته.
- قال عنه الإمام الشافعى: من أراد أن يعرف الفقه فليلزم أبا حنيفة وأصحابه فإن الناس كلهم عيال عليه فى الفقه.
- قال الإمام الذهبى: هو فقيه الملة وعالم العراق.
- قال عنه ابن المبارك: هو مخ العلم.
- قال أبو يوسف: كان أبو حنيفة أبصر بالحديث مني، وكان شديد الذب عن المحارم شديد الورع لا ينافس أهل الدنيا فيما بين أيديهم، طويل الصمت دائم الفكر مع علم واسع.
- قال الأوزاعى لابن المبارك: غبطت الرجل بكثرة حلمه ووفور عقله.
- كتب ابن حجر الهيثمى الشافعى رسالة سماها "الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان".
- كتب السيوطى الشافعى أيضًا رسالة سماها تبيين الصحيفة فى مناقب أبى حنيفة.

صفات الداعية وثقافته

من يتصفح ما كتب عن صفات أبى حنيفة فى هيئته وسلوكه وعلمه وذكائه ونشاطه وإخلاصه وورعه وكرمه وعزة نفسه وإبائه الضيم وغير ذلك ثم يقرأ ما سطره العلماء بعده عن صفات الداعية وثقافته التى تؤهله للقيام بمهمة الرسل وخلفائهم لابد له أن يعترف بأن لهذا الإمام الريادة فى الاتصاف بكل ما ذكروه وبأكثر مما ذكروه.

فالداعية إلى الإسلام هو العامل الأهم والعصب الحى فى منظومة الدعوة بل هو العمود الفقرى فى مجال التربية، هو الذى ينفخ فيها الروح ويجرى فى عروقها الدماء فكيف يقضى على الجهل وهو غير ضليع فى العلم؟ وكيف يقاوم الهوى والفساد والضلال وهو لم يتسلح بالإيمان والأخلاق؟

إن فاقد الشيء لا يعطيه كما هو مقرر فى العقل والفطرة.

ومن هنا كان على الداعية للإسلام أن يفقه الإسلام الذى يدعو إليه وأن يعرفه معرفة يقينية عميقة من مصادره الأصلية وينابيعه الصافية حتى يكون على بينة مما يدعو إليه وعلى بصيرة من منهج رسول الله فى الدعوة إليه

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

(يوسف: ١٠٨)

ومع هذه المعرفة لابد له من تشرب هذه المعرفة حتى تختلط بمشاعره وعواطفه بحيث يتبنى الفكرة ويعيش لها وبها فتصير له هدفًا وغاية، يحمل همها ويجهد نفسه فى اكتشاف أفضل الوسائل لتبليغها مع ضرورة أن يكون هو صورة عملية لما يدعو إليه فقد سئلت عائشة عن رسول الله ﷺ فقالت: "كان خلقه القرآن" فمن ينوب عن رسول الله فى تبليغ دعوته لابد أن يكون قرآنًا يمشى على الأرض فالقدوة العملية أقوى تأثيرًا من كثرة الكلام كما أن الكلام لابد أن يكون محكمًا يتسم بالإخلاص والصدق: وعن ذلك يقول الإمام

أبو حنيفة: "إن الكلام كثير ومحكمه يسير، وإن الكلام لا ينتهي حتى ينتهي عنه، وإن خير الكلام ما أريد به وجه الله" وينصح أحد تلاميذه بقوله: "لا تحدث بفقهك من لا يشتهيه، ومن ناقشك من العامة والسوقة فلا تناقشه فإنه يذهب ماء وجهك".

أما عما ينبغي أن يتحلى به الداعية والمعلم من الصفات الظاهرة التي لها تأثير ضخم على المستمعين فقد أجمعت المصادر على أنه كان طويل الصمت حسن الإلقاء سلس اللفظ متدفق العبارة جهير الصوت يصدع برأيه حيث تعترك الآراء وحينئذ يسيل كالسيل إذا اجتاح جنبات الوادي، مفتاح شخصيته التيسير والتسامح، حسن الوجه حسن اللحية حسن الهيئة والثياب حسن النعل حسن السمت شديد الكرم كثير التعطر يعرف بريح المسك.

وأما حلمه وذكاؤه وسرعة بديهته فحدث عن ذلك ولا حرج: وهذا مثال لضبط النفس عند الاستفزاز وما أكثر ما استفزه الحاقدون.. جاءه أحد هؤلاء وهو في مجلسه وحلقته فقال له: يا مبتدع يا زنديق فقال له: غفر الله لك، الله يعلم مني خلاف ذلك وإني ما عدلت به أحداً منذ عرفته. وعرضت له يوماً مسألة كان للحسن البصري فيها رأي فخطأه فقال له أحد المتعصبين: أنت تقول: أخطأ الحسن يا ابن الزانية؟ فما تغير وجهه ولا تلون ثم قال: والله أخطأ الحسن وأصاب ابن مسعود.

كان الإمام هيوبا مهابا لا يتكلم إلا جوابا ولا يخوض فيما لا يعنيه ولا يهتم بما يقوله عنه المتزمتون فقد كثرت الألسنة في قدحه ومعظم من ذمه لم تصل مداركهم إلى أفقه ولذلك لم يأبه بمناقشتهم أو الرد عليهم واثقاً أن الحقيقة ستظهر يوما ما:

﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾

(الرعد: ١٧)

وكان ما توقعه فبقيت أصوات الثناء تتجاوب في الأجيال تعطر سيرته.

وكان مع ذلك متواضعاً لا يدعي احتكار الصواب بل كان يقول كثيرا: «علمنا هذا رأي فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه» كما كان يقول: «رأينا هذا أحسن ما قدرنا عليه فمن جاءنا بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب» ومن هذا الخلق كان ينطلق بحثا عن الحقيقة، يناقشه أبو يوسف في مسألة واحدة بعد العشاء فما زالا يتجاريان ويتقاربان حتى طلع الفجر، يقول عنه تلميذه أبو يوسف كان إذا سئل عن مسألة كان له علم بها أجاب وكان لا يذكر الناس إلا بخير ومن تواضعه أنه كان يقول:

خلت الديار فسدت غير مسود
ومن الشقاء تفردي بالسودد

كان دائم النصيحة لتلاميذه الذين يرى فيهم نجابة ليخلفوه، ونصائحه في ذلك درة في جبين الحكمة، نصح مرة قاضي (مرو) فقال: «إذا أشكل عليك شيء من ذلك فارحل إلى الكتاب والسنة والإجماع فإن وجدت ذلك ظاهرا فاعمل به فإن لم تجده ظاهرا فرده إلى النظائر واستشهد عليه بالأصول، ثم اعمل بما كان إلى الأصول أقرب وبها أشبه» ومن كلماته: كل شيء تكلم به النبي عليه السلام فعلى الرأس والعين قد آمنا به وشهدنا بأنه كذلك ونشهد بأنه لم يأمر بشيء يخالف أمر الله ولم يقل غير ما قاله الله وما كان من المتكلفين:

﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾

(النساء: ٨٠)

وفي هذا رد مفحم على كل من اتهمه بأنه يقدم الرأي على النص وهكذا ينبغي أن يكون سبيل الدعاة.

كان سريع البديهة مفحما في حواره، مدافعا عن آرائه: دخل عليه الخوارج بسيوفهم يحتسبون الأجر عند الله بإغمادها في رقبته فقالوا: جنازتان بالباب إحداهما لرجل شرب الخمر فمات سكران، والأخرى لامرأة حملت من الزنا فماتت في ولادتها قبل التوبة.. أهما مؤمنان أو كافران فسألهم: من أي فرقة كانا؟ أمن اليهود؟ قالوا: لا قال: أمن النصارى؟ قالوا: لا قال: أمن المجوس؟ قالوا: لا قال فممن كانا؟ قالوا من المسلمين. قال: قد أجبتم. قالوا: أهما في الجنة أم في النار؟ قال: أقول فيهما ما قاله الخليل:

﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(إبراهيم: ٣٦)

وأقول كما قال عيسى:

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

(المائدة: ١١٨)

فنكسوا الرءوس وانصرفوا.

كان في وجهه أثر السجود، يقوم الليل ويحييه، يتزين للصلاة ولو كان وحده فالله أحق أن يتزين له. قيل إنه ختم القرآن سبعة آلاف مرة، وكان يتم في رمضان ستين ختمة: ختمة في بياض النهار وختمة في سواد الليل، وكان يصلي العشاء والفجر بوضوء واحد أربعين عاما.. وهذا مع ما فيه من المبالغة يدل على عبادة الرجل وتنسكه وكثرة تلاوته للقرآن وحرصه على قيام الليل، وهذا هو الزاد الضروري لكل الدعاة. فقد كان سيد الدعاة محمد ﷺ يصلي بالليل حتى تتورم قدماه، وطالبه ربه مرارا بذلك فقال:

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾

(الإسراء: ٧٩)

وقال له:

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾

(المزمل: ١ - ٤)

وعلل ذلك بقوله:

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾

(المزمل: ٥)

وبعد أن شهد الله له في قوله:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾

(المزمل: ٢٠)

نزلت عليه سورة المدثر تقول له:

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾

(المدثر: ١ - ٣)

وكان القرآن يشير بذلك إلى أن الدعوة لابد أن يسبقها تهيئة للداعية بقيام الليل والتهجد بالقرآن.

كان يتكسب من عمله في التجارة ولم يقبل على تدريسه ودعوته أجرا وهذا هو طبع الأنبياء والرسل حيث كانوا جميعا يرددون:

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

(الشعراء: ١٠٩)

فقد كان يبيع الحرير الخالص والمخلوط بالصوف وساعده ذلك على تجنبه السعي إلى الأمراء والأغنياء، بل إنه كان من أكبر تجار الكوفة في دار ابن حريث. وكان يتصدق من ربحه على الفقراء وطلبة العلم. وهذا ملمح دعوى رائع فالإنفاق على طلاب العلم يساعد على التعمق فيه وتشجيعهم على الاستمرار والصبر على مشقته وله مع ذلك أجر الصدقة الجارية والعلم الذى ينتفع به مع تواصل الأجيال في أداء تلك المهمة لنشر دين الله في الآفاق. ولم يكن أبو حنيفة في ذلك بدعا فمعظم الأئمة والعلماء كانوا يحترفون ما يغنيهم عن التكسب بالدعوة بل نسب كثير منهم إلى حرفته فهذا الإمام الخصاف كان يعيش على خصف النعال ويؤلف للمهتدى بالله كتاب الخراج. والقفال كان صانع الأقفال. والجصاص يعمل بالجص والصفار كان يبيع الأواني النحاسية. والإمام حمزة بن حبيب الزيات كان يحمل الزيت على كتفه من حلوان- مدينة بالعراق- إلى الكوفة.

لم يمنعه ولاؤه لبني تيم من أن يتصدر للفتيا وللتعليم وأن يتبوأ تلك المكانة العالية في تاريخ الأمة فما كان للعرب فضل بعروبتهم فقط ولكن الفضل كل الفضل في القيام بخدمة هذا الدين ونشره والإخلاص في ذلك. ولقد قال عمر: "لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا لوليته مكاني" وكان ينادى على أسامة بن زيد كلما لقيه: «السلام عليك أيها الأمير» ويقول: «إني لا أدعوك إلا به لأن النبي ﷺ مات وأنت على أمير» وهذا عكرمة مولى عبد الله بن عباس ظل رقيقا إلى أن مات سيده فأعتقه ابنه عليّ. والإمام نافع كان مولى لابن عمر. وابن سيرين كان مولى لأنس ابن مالك وغيرهم كثير.

كان مثلاً رائعا للورع والبعد عن الشبهات وقد تواترت الأنباء عن ذلك في تجارته. يقول شريكه بعد أن انقضت الشركة معه ثلاثين عاما: "جالست أنواع الناس من العلماء والفقهاء والزهاد والنساك وأهل الورع منهم فلم أر أحدا أجمع لهذه الخصال من أبي حنيفة كان إذا دخلت عليه شبهة من شيء. أخرج من قلبه ذلك ولو بجميع ماله فالشك عنده يزيل اليقين بخلاف القاعدة؟

كان لا يشترى بما يريد البائع ولكن بقيمة السلعة في الواقع. وكان يمقت المماكسة؟ فيطبق الفقه على التجارة بالصدق فربطت التجارة عنده بين دنيا الفقه ودنيا الناس.

جاء رجل يشترى ثوبا من خز فطلب من ابنه حماد أن يخرج له ثوبا فنشره وهو يقول: صلى الله على محمد. فقال أبوه: مه قد مدحته، ورفض بيعه بالرغم من إصرار المشترى على شرائه.

وبعث بصفقة ثياب إلى شريكه وأعلمه أن في ثوب منها عيبا وطلب منه أن يبينه للمشترى، فباع شريكه الصفقة ونسي أن يبين عيب الثوب واستوفى ثمن الجميع مع أن منه ثوبا غير كامل وكان الثمن ثلاثين ألفا فأمر شريكه أن يبحث عن المشترى ولكنه لم يهتد إليه فأبى أبو حنيفة إلا فصالا من شريكه وتاركا وتصدق بثمن الصفقة كلها.

وجاء رجل بثوب يبيعه. فقال بكم؟ قال: بكذا. قال إنه يستحق أكثر من ذلك ولم يزل يزيده حتى اشتراه بثمانية آلاف.

وجاءته امرأة بثوب وطلبت فيه مائة فقال لها هو خير من مائة. بكم تقولين فزادت مائة مائة حتى قالت: أربعمائة قال: هو خير من ذلك فقالت: أتهزأ بي؟ قال: هاتي رجلا يشتريه فاشتراه بخمسمائة درهم.

كان عصره يموج بالفتن والفرق- كما هو الآن- فاتخذ لنفسه موقف الحكم الذى لا ينحاز إلا إلى الحق وصحيح الدين وحين يضطر إلى الحوار مع مخالفيه كان يسعفه ذكاؤه وسرعة بديهته كما حدث منه مع الخوارج القائلين بكفر مرتكب الكبيرة، وقد سبق إيراد الحوار معهم وصرح في الفقه الأكبر بعقيدته الواضحة في قوله: "ولا نكفر مسلما بذنب من الذنوب وإن كان كبيرة إذا لم يستحلها، ولا نزيل عنه اسم الإيمان ونسميه مؤمنا حقيقة، ويجوز أن يكون مؤمنا فاسقا غير كافر".

ومن أوضح الأمثلة على عبقريته في الجدال مع مخالفيه حتى يفحمهم أنه كان على موعد مع الزنادقة الذين ينكرون وجود الله وتدبيره للكون فتأخر عن موعده عمدا وحين سئل عن ذلك قال: لم أجد مركبا يحملني عبر النهر فوقفت أنتظر فإذا بلوح من الخشب يظهر فجأة وإذا بلوح آخر ينضم إليه ويلتصق به وبلوح ثالث حتى صارت هذه الألواح سفينة وليس فيها أحد فركبتها وأتيت إليكم. فقالوا جميعا: إن هذا ليس من المعقول فقال: "أتتعجبون من صنع سفينة بلا صانع وتنكرون أن يكون لهذا الكون البديع خالق مدبر. ومثل هذا المنطق هو الذى يفحم العلمانيين والشيوعيين واللادينيين.

أما موقفه من صفات الله تعالى فقد كان هذا العصر مثل عصرنا الراهن تضطرب فيه الآراء حولها وقد سبق له أن تردد على علماء الكلام في البصرة ثم انصرف عن هذا المجال لما رأى فيه من مخالفة نهج السلف وقرر في الفقه الأكبر: "أن الله لا يشبهه شيء من خلقه ولا يشبه شيئا من خلقه لم يزل ولا يزال بأسمائه وصفاته الذاتية والفعلية أما الذاتية فالحياة والقدرة والعلم والكلام والسمع والبصر والإرادة وأما الفعلية فالتخليق والترزيق والإنشاء والإبداع والصنع وغير ذلك».

وما أحوج الداعية الآن إلى عدم الخوض في أسماء الله وصفاته وبخاصة أمام العامة كما قال

الإمام الغزالى بضرورة إلجام العوام عن علم الكلام وكما قال الفخر الرازى: "لقد تأملت المناهج الفلسفية والطرق الكلامية فلم أرها تشفى عليلا أو تنقع غليلا ورأيت خير الطرق طريقة القرآن أقرأ فى الإثبات:

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾

(طه: ٥)

واقرأ فى النفى:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾

(الشورى: ١١)

ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى".

هكذا سار العلماء الأفذاذ مسيرة الإمام الأعظم وهذا ما ينبغى للدعاة اليوم حتى تأتلف القلوب وتتجه الطاقات فى اتجاهها الصحيح تدك أعناق الملحدين وتصد الهجمة الشرسة على هذا الدين.

ونستطيع بعد هذا التطواف فى صفات الإمام ومواقفه وتطبيقاته العملية لما علم من شرع الله أن نقدم لدعاة الإسلام فى هذا العصر نصيحة تفقههم على طريق الإصلاح للأمول فعوامل النجاح والإخفاق من سنن الله التى لا تتبدل:

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

(الفتح: ٢٣)

وتتلخص النصيحة فى استعراض هذه النقاط التى برزت فى منهج الإمام من حيث الأسلوب والمظهر والأخلاق.

خير الكلام ما أريد به وجه الله- الكلام كثير ومحكمه يسير- طول الصمت أفضل من الثرثرة، سلامة اللفظ وتدفق العبارة يحتاج إلى معايشة لغة القرآن، حسن الهيئة والوجه الصبوح وسرعة البديهة من عوامل القبول لدى المدعوين، الحلم والصبر وعدم قابلية الاستفزاز، والتواضع وعدم الغرور، والعناية بالصف الثانى والثالث من الدعاة رعاية ونصحا، قيام الليل وترتيل القرآن وتدبر معانيه.

كل هذه الصفات من أهم ما ينبغى أن يحرص عليه الدعاة الآن.

التعفف عن تلقى الأجر أو طلبه من المدعوين ضرورة شرعية، فإذا أمكن للداعية أن يكون له عمل يتكسب منه كان تأثيره أكبر والإقبال عليه أكثر اقتداء بالرسل والعلماء، مكانة الداعى لا تخضع لأصله أو غناه ولكن لعلمه وخلقه وجهده، الورع والزهد فيما عند الناس والحرص على البعد عن الشبهات دليل الإخلاص والقرب من الله وعلامة على التقوى التى تخرج التقى من المأزق وتفتح له باب الرزق الواسع:

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾

(الطلاق: ٢، ٣)

عدم الخوض فى عالم الغيب وبخاصة ما يتعلق بالذات العلية يجنب الداعية الصدام مع المتزمتين.. والجدل مع العوام ويفسح المجال أمام البيان الواضح لعقيدة الإسلام.

يتبع

سعد باشا زغلول (*)



لأمير الشعراء/ أحمد شوقى

شَيَّعوا الشمسَ ومالوا بضحاها — وانحنى الشرقُ عليها فبكاها
ليتني في الركْبِ لمَّا أفَلَتْ — (يوشَعٌ)، همَّتْ، فنادى، فثناها[1]
جلَّلَ الصبحَ سواداً يومُها — فكأنَّ الأرضَ لم تخلعْ دُجاها[2]
انظروا تلقَوا عليها شفقاً — من جراحاتِ الضحايا ودماها
وتروا بين يديها عَبرةً — من شهيدٍ يقطُرُ الوردُ شذاها
آذنَ الحقُّ ضحاياها بها — ويحَهُ!! حتى إلى الموتى نعاها
كفَّنوها حُرَّةً عُلْوِيَّةً — كسَتِ الموتَ جلالاً وكساها
مصرُ في أكفانِها إلا الهُدى — لُحمةُ الأكفانِ حقٌّ وسُداها[3]
خطرَ النعشُ على الأرضِ بها — يحسِرُ الأبصارَ في النعشِ سناها[4]
جاءها الحقُّ ومن عاداتِها — تُؤثِرُ الحقَّ سبيلاً واتجاها[5]
ما درت مصرُ بدفنٍ صُبِّحَتْ — أم على البعثِ أفاقت من كَراها؟
صرخَتْ تحسبُها بنتَ الشرى — طلبَتْ من مخلبِ الموتِ أباها[6]

(*) زعيم مصر الخالد سعد باشا زغلول المتوفى سنة ١٩٢٧.

١- يوشع: أحد أنبياء بني إسرائيل، دعا الله أن يؤجل الغروب فأجابه وثنى الشمس عن غروبها.

٢- جلل الصبح: كساه وغطى ضوءه.

٣- اللحمة: ما سدي به الثوب، والسدى: ضد اللحمة.

٤- يحسر الأبصار: أي يردها كليلة ضعيفة.

٥- الحق الأول يقصد به الموت والحق الثاني يقصد به العدل.

٦- بنت الشرى: أنثى الأسد.

وكأنّ الناس لمّا نسلوا ... شعبُ السيل طغت في مُلتقاها
وضعوا الراح على النعش كما ... يلمسون الركن فارتدّت نَداها
خفضوا في يوم (سعد) هامهم ... (وبسعد) رفعوا أمس الجباها
سائلوا زحلة عن أعراسها ... هل مشى الناعي عليها فمحاها[7]
عطّل المصطاف من سُمّاره ... وجلا عن ضفّة الوادي دُماها[8]
فتح الأبواب ليلاً ديرُها ... وإلى الناقوس قامت بيعتاها
صدعَ البرقُ الدجى تنشره ... أرضُ سوريا وتطويه سَماها[9]
يحملُ الأنباء تسرى موهناً ... كعوادى الثُّكل في جنح سُراها[10]
عرض الشكُّ لها فاضطربت ... تطأ الآذانُ همساً والشفاها
قُلتُ يا قومُ اجمعوا أحلامكُم ... كُلُّ نفسٍ في وريديها رَداها[11]
يا عدوَّ القيد لم يلمح له ... شبحاً في خُطّةٍ إلّا أباها
لا يضق ذرعك بالقيد الذي ... حزّ في سوق الأوالي وبراها
وقع الرمل عليه والتوت ... أرجلُ الأحرار فيه فعفاها
يا رُفاتاً مثل ريحان الضحى ... كُلّلت عدنٌ بها هام رُباها[12]
وبقايا هيكلٍ من كرمٍ ... وحياة أترع الأرض حياها[13]
ودّع العدلُ بها أعلامه ... وبكت أنظمةُ الشورى صُواها[14]
حضنت نعشك والتفّت به ... رايةٌ كُنتَ من الذُّلِّ فداها
ضمّت الصدرَ الذي قد ضمّها ... وتلقّى السهمَ عنها فوقاها

٧- يشير البيت إلى أن أمير الشعراء وقت نعي الفقيد كان يصطاف في زحلة إحدى مصايف لبنان.

٨- السمار: جمع سامر، وهم إخوان الحديث في السهر. والضفة من النهر ومن الوادي: الجانب. الدمى: جمع دمية، وهي الصورة يمثلها التمثال من الرخام.

٩- صدع: شق وقطع.

١٠- الوهن: نصف الليل، أو بعده بنحو ساعة.

١١- الوريدان: مثنى الوريد، أحد شرايين الجسم.

١٢- عدن: الجنة. وهام رباها: أي رؤوس ربواتها. والربوات: الأمكنة المرتفعة فيها.

١٣- أترع: ملأ. والحيا: المطر.

١٤- الصوى: جمع صوة - بضم الصاد - وهي حجر يوضع في الطريق كعلامة يهتدى بها.

عجبي منها ومن قالدها! ... كيف يحمي الأعزلُ الشيخُ حِماها؟
منبرُ الوادي ذوت أعواده ... من أواسيها وجفّت من ذُراها
من رمى الفارس عن صهوتها ... ودها الفُصحى بما ألجم فاها؟
قدر بالمدن ألوى والقرى ... ودها الأجيالَ منه ما دهاها
غال بسطوراً وأردى عُصبة ... لمست جرثومةَ الموت يداها
طافت الكأسُ بساقي أمّةٍ ... من رحيق الوطنيّات سقاها
عطلت آذانُها من وتر ... ساحرٍ رنّ مليّاً فشجاها
أرغن هام به وجدانها ... وأذانٌ عشقته أذناها
كلَّ يوم خطبةٌ روحيّةٌ ... كالمزامير وأنغام لُغاها
دلّهت مصراً ولو أنّ بها ... فلواتٍ دلّهت وحش فلاها
ذائد الحقّ وحامي حوضه ... أنفذت فيه المقاديرُ مُناها
أخذت سعداً من البيت يدٌ ... تأخذ الآساد من أصل شراها
لو أصابت غير ذي روحٍ لما ... سلمت منها الثريّا وسُهاها
تتحدّى الطبَّ في قُفّازها ... علّة الدهر التي أعيا دواها
من وراء الإذن نالت ضيغماً ... لم ينل أقرانه إلا وجاها
لم تصارح أضرح الناس يداً ... ولساناً ورُقاداً وانتباها
هذه الأعوادُ من آدم لم ... يهدِ خُفّاها ولم يعرِ مطاها
نقلت خوفو ومالت بمنا ... لم يفت حيّاً نصيبٌ من خُطاها[15]
تخلط العمرين شيباً وصِباً ... والحياتين شقاءً ورفاها
زورقٌ في الدمع يطفو أبداً ... عرف الضفّة إلا ما تلاها
تهلعُ الثكلى على آثاره ... فإذا خفّ بها يوماً شفاها
تسكبُ الدمعَ على سعدٍ دماً ... أمّةٌ من صخرة الحق بناها
من لبانٍ هو في ينبوعها ... وإباءٍ هو في صمّ صفاها

١٥- خوفو، ومنا: من ملوك مصر الفراعنة.

لقي الحق عليه كهلها ... واستقى الإيمان بالحق فتاها
بذلت مالا وأمنا ودما ... وعلى قائدها ألقت رجاها
حملته ذمة أوفى بها ... وابتلته بحقوق فقضاها
ابن سبعين تلقى دونها ... غربة الأسر ووعثاء نواها[16]
سفر من عدن الأرض إلى ... منزل أقرب منه قطباها
قاهر ألقى به في صخرة ... دفع التيار إليها فأواها
كرهت منزلها في تاجه ... درة في البحر والبر نفاها
أسالوها وأسالوا شانئيها ... لم لم ينف من الدر سواها؟
ولد الثورة سعد حرة ... بحياتي ماجد حر نماها
ما تمنى غيرها نسلا ومن ... يلد الزهراء يزهد في سواها
سالت الغابة من أشبالها ... بين عينيه وماجت بلباها[17]
بارك الله لها في فرعها ... وقضى الخير لمصر في جناها
أو لم يكتب لها دستورها ... بالدم الحر ويرفع منتداها؟[18]
قد كتبناها فكانت صورة ... صدرها حق وحق منتهاها
رقد الثائر إلا ثورة ... في سبيل الحق لم تخمد جذاها
قد تولاها صبيا فكوت ... راحتيه وفتيا فرعاها[19]
جال فيها قلما مشتبها ... ولسانا كلما أعيت حداها[20]
ورمى بالنفس في بركانها ... فتلقى أول الناس لظاها
أعلمتم بعد (موسى) من يد ... قذفت في وجه (فرعون) عصاها؟[21]
وطئت نادية صارخة ... شاه وجه الرق يا قوم وشاها[22]

١٦- الوعثاء: الطريق العسر، أو المشقة.

١٧- اللبا: جمع لباة، كقطاة، وهي أنثى الأسد.

١٨- المنتدى: البرلمان.

١٩- يشير إلى عمل سعد باشا في الثورة العرابية وهو في مقتبل شبابه

٢٠- أعيت: تعبت. حداها: من قولهم حدا الإبل أي ساقها وزجرها.

٢١- إشارة إلى تحدي موسى لفرعون وسحرته بالعصا، فكانت كما ورد في القرآن: «تلقف ما يأفكون».

٢٢- شاه وجه الرق: أي قبح

ظفرت بالكبر من مستكبر ... ظافر الأيام منصور لواها
القنا الصم تشاوى حوله ... وسيوف الهند لم تصح ظباها
أين من عيني نفس حرة ... كنت بالأمس بعيني أراها
كلما أقبلت هزت نفسها ... وتواصى بشرها بي ونداها
وجرى الماضي فماذا ادكرت ... وادكار النفس شيء من وفاها
لمح الأيام فيها ورأى ... من وراء السن تمثال صباها
لست أدري حين تندى نضرة ... علت الشيب أم الشيب علاها
حلت السبعون في هيكلها ... فتداعى وهي موفور بناها
روعة النادي إذا جدت فإن ... مزحت لم يذهب المزح بهاها
يظفر العذر بأقصى سخطها ... وينال الود غايات رضاها
ولها صبر على حسادها ... يشبه الصفح وحلم عن عداها
لست أنسى صفحة ضاحكة ... تأخذ النفس وتجري في هواها
وحديثا كروايات الهوى ... جد للصب حنين فرواها
وقناة صعدة لو وهبت ... للسماك الأعزل اختال وتاها[23]
أين مني قلم كنت إذا ... سمته أن يرثي الشمس رثاها
خانني في يوم (سعد) وجرى ... في المراثي فكبا دون مداها
في نعيم الله نفس أوتيت ... أنعم الدنيا فلم تنس تقاها
لا الحجى لما تناهى غرها ... بالمقادير ولا العلم زهاها
ذهبت أوابة مؤمنة ... خالصا من حيرة الشك هداها
آنست خلقا ضعيفا ورأت ... من وراء العالم الفاني إلهها
ما دعاها الحق إلا سارعت ... لبيته يوم (وصيف) ما دعاها[24]

٢٣- القناة: الرمح، والصعدة: هي التي تنبت مستوية فلا تحتاج لتثقيف. والسماك: أحد كوكبين نيرين، يوصف أحدهما بالرامح، لأن أمامه كوكبا صغيرا يسمى رمح السماك ورايته، ويوصف الآخر بالأعزل، حيث لا يوجد أمامه شيء، يقول إن له قواما لو منح للسماك الأعزل في السماء لاختال به وتباهى على السماك الرامح.

٢٤- وصيف: يقصد مسجد وصيف، وهي القرية التي توجد فيه ممتلكات الزعيم، والتي قضى بها.

وسائل انتشار الإســـــلام فى إفريقيـــا



للأستاذة الدكتورة حورية توفيق مجاهد
أستاذ العلوم السياسية، جامعة القاهرة

يتميز انتشار الإسلام عامة بأنه جاء نتيجة الدعوة والإقناع وليس نتيجة القهر. فوسائل انتشاره جميعها تأتى كنتاج للدعوة والاعتبارات الاجتماعية بالدرجة الأولى. وقد تنوعت تلك الوسائل وتنوع الدعاة الذين انتموا أساساً للمناطق المحلية فى إفريقيا، ومن أهم رسل الدعوة التجار ورجال الطرق الصوفية والأئمة والوعاظ من دارسى الأزهر والجامعات فى شمال إفريقيا والمراكز الثقافية فى غربها وغيرها من مراكز الإشعاع الإسلامى فى القاهرة وخارجها.

وتتميز الدعوة الإسلامية[1] بالعالمية، فهى موجهة للناس كافة، ولم يعرف الإسلام مفهوم «شعب الله المختار»، فأساس الخيرية المذكور فى القرآن[2] هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع الإيمان بالله. كما أن المسلمين فى إفريقيا يعملون على أساس مبدأ أن كل فرد هو داعية لدينه. فلم تقم الدعوة الإسلامية على وجود مبشرين رسميين منظمين، وهذه النقطة بالذات كانت وراء انتشار الإسلام الذى لم ينتشر بجهود منظمة ولكنه تغلغل بين الشعوب الإفريقية بصورة استرعت الانتباه، وقد عبر عن هذا بوضوح الكونت دى كاسترى بقوله:

«إن الإسلام لم يكن له دعاة متخصصون للقيام بالدعوة إليه وتعليم مبادئه كما فى المسيحية، ولو أنه كان للإسلام أناس قوامون لسهل علينا معرفة السبب فى انتشاره السريع، فقد شاهدنا الملك شارلمان يستصحب معه على الدوام فى حروبه ركباً من القسس والرهبان ليباشروا فتح الضمائر والقلوب بعد أن يكون هو قد باشر فتح المدن والأقاليم بجيوشه التى يصلى بها الأمم حرباً لا هوادة فيها، ولكننا لا نعلم للإسلام مجمعاً دينياً يتبع الجيوش، فلم يكره أحد عليه بالسيف ولا باللسان»[3].

وقد ظهرت فى إفريقيا العديد من الزعامات الدينية ـ السياسية التى أسهمت فى تأسيس الدول الإفريقية على أساس من الإسلام. فقد كان كل من النماذج التى ازدهرت فى إفريقيا بطلاً وزعيماً جمع بين الدعوة والجهاد فى سبيل الإسلام ورفع رايته ليس فى منطقته المحلية فحسب، بل توسع نطاق الدعوة وتوسعت أرجاء الدولة التى قامت عليها باسم الإسلام.

أولاً: التجار والدعوة الإسلامية

من أهم رسل الدعوة الإسلامية فى إفريقيا التجار المسلمون من داخل القارة وخارجها. حيث وفد الكثيرون على مر العصور على أجزاء القارة المختلفة بهدف أصلى هو التجارة، وإن كان قد تبعه أثر مهم هو نشر الإسلام[4]. وقد عبر ترمنجهام عن هذه الصلة المهمة بقوله: «إن الإسلام والتجارة يرتبطان إلى حد كبير»[5].

وإفريقيا لم تكن بالقارة المعزولة فقد مرت عبر القارة، وعلى مدى قرون طويلة، ثلاثة محاور تجارية أدت لنشر الإسلام على طولها وعلى تفريعاتها وهى: شمال إفريقيا ـ وساحل البحر الأحمر ـ وموانئ المحيط الهندى.

ومن ثم فقد لعبت جماعات متعددة من خارج القارة وداخلها دوراً مهماً فى مجال التجارة، من ذلك الفرس والعرب وبعد ذلك الهنود فى ساحل شرق إفريقيا وجنوبها، والسوريون واللبنانيون فى غرب إفريقيا، والبربر والعرب فى شمال غرب افريقيا، والصوماليون والعفر فى الشمال الشرقى

1ـ لمزيد من المعلومات عن الدعوة الإسلامية عامة، انظر: سير توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن، وعبدالمجيد عابدين، وإسماعيل محمود النجراوى، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٧، حيث يتناول الدعوة الإسلامية من كافة جوانبها. انظر أيضاً: الألورى، الإسلام فى نيجيريا، مرجع سابق، والمؤلف من أهم الدعاة الإسلاميين فى غرب إفريقيا، ومدير مركز التعليم العربى الإسلامى بأغيغى، نيجيريا، والإمام محمد أبوزهرة، الدعوة إلى الإسلام، تاريخها فى عهد النبى والصحابة والتابعين والعهود المتلاحقة وما يجب الآن، القاهرة دار الفكر العربى، د.ت.

2ـ «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون»، «آل عمران: ١١٠».

3ـ انظر النص فى: د. عبدالرحمن زكى، مرجع سابق، ص ٥ ـ ٦.

4ـ لمزيد من المعلومات عن دور التجار فى نشر الدعوة الإسلامية راجع د. حسن إبراهيم حسن، مرجع سابق، ص٧٣ ـ ٧٥. انظر أيضاً: سير توماس أرنولد، المرجع السابق، ص٣٩١ ـ ٢. د. أحمد شلبى، مرجع سابق، ص ١٩٢ ـ ٢٠٨.

5- Spencer Trimingham, A History of Islam in west Africa, London: Oxford Univ..press,1962,p.31.

كما طور العديد من السكان الوطنيين منظمات تجارية عالية التخصص ساهمت فى نشر الإسلام من أهمها السواحيلية والكارمية فى الشرق، والديولا والهوسا فى الغرب (6).

والتجار الذين نشروا الإسلام فى غرب إفريقيا – مركز ثقل الإسلام جنوب الصحراء – كانوا من البربر، الليمتونا، من قبائل شمال إفريقيا الذين حملتهم القوافل عبر الصحراء والصحراء على اتساعها الشاسع إلا أنها ليست حائلاً بل كانت – تقليدياً – جسراً انتقل عبره الإسلام والثقافة والحضارة الإسلامية من الشمال إلى جنوب الصحراء مباشرة فى بدء الأمر فيما يطلق عليه حالياً منطقة الساحل «وهى تلك المناطق التى تجاور الصحراء فى منطقة شبه السافانا والسافانا التى تتدرج نحو الغابات الاستوائية»، والصحراء لم تكن أصلاً بهذا الجفاف والاتساع، فبحيرة تشاد كانت أكثر اتساعاً وكانت الصحراء تعرف الأمطار الغزيرة، وقد عرفت طرق القوافل بين الشمال عبر الصحراء للتجارة: تلك التجارة التى كانت الوحيدة والأساسية فى منطقة غرب إفريقيا وقد استمر الحال على هذا الوضع من ربط شمال إفريقيا بالمناطق جنوب الصحراء، ذلك الربط الذى كان له مغزاه ليس فقط التجارى ولكن فى الانتقال الثقافى والبشرى أيضاً – ويهمنا على وجه الخصوص انتقال الإسلام وانتشاره عبر الصحراء مقتفيا طرق تجارة القوافل التى وجدت قبل دخول الإسلام المنطقة – إلى أن جاء الأوروبيون للساحل الغربى لإفريقيا، فحولوا التجارة إلى مراكزهم الساحلية جنوباً «على سواحل غرب إفريقيا» بعد أن كانت تتجه تقليدياً نحو الشمال الذى كانت تتطلع إليه باعتباره العالم الوحيد المفتوح أمامها للتجارة والثقافة والمرجعية الدينية وعليه فقد أدى هذا التحول إلى انكماش تجارة القوافل – ولا نقول انتهاءها، حيث مازالت هناك تجارة قوافل وطرق قوافل عبر الصحراء تصل بين الشمال والجنوب وتشاهد باستمرار القوافل فى تمبكتو وجاو من مدن شمالى مالى وغيرها.

ومن أهم ما يلاحظ عن انتشار الإسلام فى إفريقيا أنه وإن كانت الدعوة للإسلام قد بدأت فى غرب إفريقيا على أيدى التجار من شمال إفريقيا إلا أن هؤلاء سلموا الدعوة وبطريقة تلقائية لشعوب المنطقة السودانية الذين قاموا هم بأنفسهم بحمل راية الإسلام متخذين فى ذلك وسائل متعددة وقد عبر عن هذا عبدالله الألورى بقوله: «وكلما اعتنقت الإسلام قبيلة تحملت لواء الدعوة الإسلامية إلى ما تليها من القبائل المجاورة هكذا فعل البرابرة والونغارة والفلانيون والهوسا، وفق ما كانت تفعل الصحابة» (7).

وعليه إذن فالشعوب فى الشمال حملت نشر الإسلام فى بداية الأمر وحملته منها الشعوب جنوب الصحراء ونقلته إلى منطقة السودان الغربى أولاً ثم إلى الجنوب وكان من أهم التجار فى غرب إفريقيا الديولا من قبائل الماندى والذين ذاع صيتهم فى غرب إفريقيا وكذلك الهوسا «أو الخوصا» فى نيجيريا وغرب إفريقيا.

وبالمثل فى شرق إفريقيا، حيث تم نفس النمط تقريباً إذ انتقل الإسلام مع التجار العرب فى شرق إفريقيا ثم على أيدى السواحليين – من المواطنين الإفريقيين – الذين أسلموا أولاً وتأثروا بالتراث الإسلامى والذين أصبحوا هم دعاة الإسلام للداخل (8).

فالباعة المتجولون والتجار المسلمون وفدوا للتجارة فى المناطق الإفريقية المختلفة ولم يستوطن إلا البعض منهم فى المناطق التى كانوا يتاجرون معها.

فقد كانوا يقومون بزيارات موسمية، ومع ذلك فقد أثاروا وأشاعوا الفضول عن الإسلام: من ناحية، فإن التجار المسلمين بالإضافة إلى ملابسهم الفضفاضة وغطاء الرأس المميز قد جذبوا الانتباه بفضل الأمانة التى تميزوا بها فى التعامل وفى البيع والشراء وكثيراً ما قدموا التيسيرات فى البيع ولا يتحصلون على باقى مستحقاتهم إلا فى الزيارات الموسمية التالية مما يدعم الرابطة بينهم وبين السكان المحليين ويخلق نوعاً من الألفة.

كما أثاروا الفضول من ناحية أخرى، بفضل تكرار تطهرهم ووضوئهم على مدار اليوم وقيامهم بالصلاة بما فيها من ركوع وسجود ومناجاة لله ودعاء ويحدثنا المؤرخون كما تذكر التقاليد الشفوية المتداولة والأقاصيص المتناقلة فى إفريقيا الإسلامية عن الممالك الإفريقية القديمة التى وجدت قبل مجىء الاستعمار الغربى وقبل انتشار الإسلام وعن نشاط التجار المسلمين فيها خاصة فى غرب إفريقيا وعن جاذبية مسلكهم ونمط حياتهم، حيثما حلوا، للإفريقيين فى المناطق المختلفة.

ويحضرنا فى هذا المجال ما ذكر عن الظروف التى أسلم فيها برمندانا كيتا أول ملك من ملوك مملكة مالى القديمة قبل توسعها لتصبح إمبراطورية مالى على يد سونديانا كيتا الذى تولى ١٢٣٠م (9). فيذكر المؤرخ البكرى كيف انتابت المنطقة حالة قحط شديد وجفاف كاد يؤدى إلى الهلاك التام فى المنطقة ولكن أحد التجار المسلمين، مرابو، من البربر الليمتونا طلب من الملك برمندانا كيتا أن يلجأ إلى الله طالبا بإخلاص هطول الأمطار لتخليص الدولة من الجفاف (صلاة استسقاء) وفى جو من اليأس تبع الملك التاجر إلى أحد التلال القريبة وقد توضأ مثله وحاكاه فى الصلاة طوال الليل والدعاء، وفى الصباح هطلت الأمطار مما كان له أثره فى أن أسلم على الفور أول ملك لمالى القديمة، وذهب للحج فى مكة عام ١٠٥٠م. ولازالت قصة إسلام أول ملوك مالى تتداول حتى الآن وتطبع فى الصحف والمجلات وعلى أغلفة الكتب المدرسية (10) فى جمهورية مالى كما يؤكد المؤرخون وتحدثنا الروايات المتداولة بأنه منذ ذلك الوقت أصبح حكام مالى مسلمين ثم تبعهم رجال البلاط والأرستقراطية المحيطة بالملك، وأصبح الإسلام سنداً لتميز هذه الطبقة ورفع صورتها فى أذهان الجماهير وتدعيم ذلك السمو ولكن

6- Lewis,op.cit.,pp.21-26

(7) الألورى، الإسلام فى نيجيريا، مرجع سابق، ص٣٧.

(8) انظر وللمزيد من المعلومات: سبنسر ترمنجهام، الإسلام فى شرق إفريقيا، ترجمة محمد عاطف النواوى، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٣ ص ٣١ – ٧١.

(9) انظر: البكرى، وصف إفريقيا.

El-Bekri, Description de Afrique Septentrionale (1068 - 9) Arabic Text with French translation by Salve, paris, 1895, N.R. de Slave. Algiers. 1913

(10) انظر وللمزيد من المعلومات: Megahed, Mali in Transition, op. cit. pp 253-4

تدريجيا انتشر الإسلام بين أفراد الشعب أنفسهم.

هذا مما جذب الإفريقيين أيضا ما يمارسه التجار المسلمون من الصوم أيام رمضان وما يتبعه من مآدب الطعام التى يتزاحمون عليها فى مشهد يجذب المراقبين من الإفريقيين، وليالى رمضان التى تكثر فيها الصلوات والأدعية وحلقات الوعظ وما يتلوه من الاحتفال بالعيد وارتداء الملابس الزاهية وتوزيع الصدقات كما ينجذب الإفريقيون لممارسات المسلمين فى عيد الأضحى حيث تنحر الذبائح وتوزع اللحوم على الفقراء(١١).

فنشر الدعوة بواسطة التجار جاء بطريقة تلقائية، فالتاجر حيثما حل يعمل كداعية سواء هدف لهذا كهدف ثانوى بجانب التجارة أو جاء ذلك تلقائيا، لمجرد اقتناع الأفراد بشخصيته وبمسلكه فيؤمنون بالدين الذى يتبعه نتيجة للصورة الجذابة التى يعطيها بمسلكه.

كما كان لانتشار الدعوة الإسلامية عن طريق التجارة مزايا خاصة حيث له أبعاده الاجتماعية: فالتاجر عامة فى الماضى والحاضر، يعيش مع الأهالى ويختلط بهم ومن ثم يتغلغل تدريجيا فى حياة المواطنين اليومية النمط الإسلامى للحياة الذى يمثله والذى يتحكم فى تصرفاته واتجاهاته الفكرية فالتجار من البربر أو العرب أو الهوسا أو الديولا أو السواحليين أو الهنود أو غيرهم كانوا ومازالوا حملة للإسلام ونشروا مع تجارتهم الدعوة الإسلامية.

بالإضافة إلى هذا، فإن مفهوم المساواة المطلقة الذى جاء به الإسلام لا يحول قط دون اختلاط المسلمين التجار فى حياتهم اليومية مع المواطنين الإفريقيين فى الأماكن التى يتنقلون فيها، بل لا يحول أيضا دون التزاوج من النساء فى تلك المناطق فالإسلام لا يعرف حاجز اللون وفى كثير من الأحيان استقر بعض التجار المسلمين- استقرارا دائما أو موسميا- فى المناطق التى زاروها وتزوجوا من نساء تلك المناطق وكونوا أسرا، وقد أتى انتشار الإسلام نتيجة للتزاوج والاختلاط.

وعادة ما كان التجار المسلمون يتزوجون من نساء من أسر رؤساء القبائل المحليين وذلك نظرا لقدرة التاجر المادية التى تميزه نسبيا عن الإفريقى العادى، مما أسهم بدوره فى نشر الإسلام بين أسر الزعماء التقليديين ومنها لبقية الإفراد. وقد أسهم تعدد الزوجات بالنسبة للتجار المسلمين فى تكثيف انتشار الإسلام عن طريق الزواج. كما ساعد اتباع نسب الأم المنتشر فى الكثير من المجتمعات الإفريقية على انتشار الإسلام وتدعيم نفوذ الأزواج المسلمين خاصة بانتمائهم لأسر الزعامات الحاكمة عن طريق المصاهرة.

وباختصار فإن سلوك التاجر المسلم ومظهره وتصرفاته كان فيها من الجاذبية للإفريقيين بشكل لا يقتصر على أن يبعث فيهم الشعور باحترامه فقط بل وأيضاً الإعجاب به إعجابا سرعان ما يتطور ويدفعهم لأن يتخذوه مثلاً أعلى لهم يقتدون به فيؤمنون بما أسبغ عليه هذا المظهر وتحكم فى سلوكه وتصرفاته وأظهرها بالمظهر الجذاب وما

(١١) لإعطاء صورة أوضح عن مدى انجذاب الإفريقيين للتجار المسلمين ودورهم كدعاة كما يوضحها داعية إفريقى، انظر: الألورى، الإسلام فى نيجيريا، مرجع سابق، ص ٤٠ ـ ٤١.

يلبث الأمر أن ينتهى إلى دخولهم الإسلام على يديه فى كثير من الأحيان.

ومن الجدير بالذكر فى هذا المجال مثل بارز على دور التجار والتجارة يمتد فى جذوره إلى مصر وهو دور طائفة الكارمية (١٢): وهى فئة من المسلمين نشأت بمدينة قوص بمصر من خليط من مهاجرى أهل التكرور بغرب إفريقيا وبعض الهنود والعرب. وقد أصبحت قوص المركز الرئيسى لتجارة الهند الشرقية وامتدت منها شبكة طرق قوافل ومواصلات لتقطع إفريقيا غربا إلى أن تصل إلى طرق القوافل القادمة من الشمال الإفريقى إلى غرب إفريقيا. كما امتدت إلى القاهرة ومنها إلى سواحل إفريقيا الشمالية إلى أوروبا (١٣). فقد عملت هذه الفئة بتجارة التوابل والسلع الثمينة من الهند وتميزت بجانب كبير من الورع والتقوى. وقد زاد نشاطهم فى العهد الفاطمى (خاصة فى عهد الخليفة المستنصر) لسببين: توقف اليهود عن مزاولة هذه التجارة تماما فانفرد تجار الكارم المسلمون بها. واهتمام الدولة الفاطمية بهذه التجارة لدعم اقتصادها الداخلى، ولنشر الدعوة الإسماعيلية ولغرض الولاء السياسى والمذهبى لها فى العالم الإسلامى لخدمة معركتها ضد العباسيين. ولم يكن دور التجار فى الحياة الثقافية أقل من دورهم فى الحياة الاقتصادية حيث اشتغلوا بالتدريس والفقه والإفتاء والتفسير... إلخ. وهكذا رغم عدم اشتغالهم بالدعوة إلا أنهم نشروا الإسلام فى الدول التى دخلوها وتاجروا فيها (١٤). ومن ضمن آثارهم بالنسبة لانتشار الإسلام هو تحريرهم للرقيق المصاحب لهم فى نهاية رحلة التجارة وإعادتهم لأوطانهم مما جعلهم نقلة للإسلام.

وقد دخل أفرادها الحبشة للتجارة حيث وجدوا من الحكام والأفراد ترحيبا كما وجدوا البلاد نفسها منقسمة إلى إمارات تكاد تكون مستقلة(١٥) تسودها الحرب الطائفية، وقد اختلطوا بالأهالى وعرفوا عاداتهم وتقاليدهم. وقد دفع كل ذلك الكثير من هؤلاء الأهالى وخاصة من الطبقات الفقيرة من المسيحيين المثقلين بالضرائب إلى إشهار إسلامهم.

وقد وصل تأثير هؤلاء التجار من طائفة الكارمية إلى ذروته خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر. فرغم محاولة الملوك المسيحيين فى الحبشة عزل المسلمين وإقصائهم عن

(١٢) لمزيد من المعلومات، راجع: عبدالرحمن زكى، مرجع سابق، ص ٥٠ ـ ٥١.

(١٣) وقد انتهج الفاطميون سياسة التسامح الدينى مما أدى بالتجار الأوروبيين خاصة فى المدن الإيطالية إلى التسابق إلى أسواق مصر، وإبرام المعاهدات معها للحصول على التسهيلات التجارية بمصر مما أسهم فى دعم التعامل مع تجار الكارم. ولمزيد من التفصيل انظر: د. محمد عبدالغنى الأشقر، تجار التوابل فى مصر فى العصر المملوكى، سلسلة تاريخ المصريين ١٣٧، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص ٣٨.

(١٤) المرجع السابق، ص ٤٧ ـ ٤٨، ١٩٧ ـ ١٩٨، ٣٨٢.

(١٥) يلاحظ فى هذا المجال أن الطبيعة الطوبوغرافية لأثيوبيا - الحبشة - كرست انقسامها إلى إمارات مستقلة حيث إنها مكونة من مجموعة هضاب مستوية السطح يعرف كل منها باسم لما يسيطر على كل منها أمير، ولذا فإن الإمبراطور السابق هيلاسلاسى عرف بملك الملوك.



الوظائف الرئيسية، إلا أن انتشار الإسلام على أيديهم لم يتوقف بل إنه تغلغل في صفوف الزعماء المحليين بل وفي صفوف المقربين للملك. ولعل إسلام «الرأس علي» لمثل حي على ذلك. فقد كان أحد نواب الملك في القرن التاسع عشر وأشهر إسلامه بعد ما وقف عليه من هؤلاء التجار عن الدين الإسلامي وتبعه في ذلك نصف أهالي الولايات الوسطى في الحبشة، فضلا عن تغلغل التعاليم الإسلامية في صفوف الزعماء من أهل الحبشة[١٦].

وهكذا لعب الإسلام دورا مهماً في توحيد الأفراد الذين ينتمون إلى العديد من الجماعات القبلية والإثنية حيث تخللها وتجاوز نطاقها كما كان للتجار دور أساسي في تجاوز تلك التعددية وإن كان من الملاحظ أن الهدف لم يكن أساسا نشر الإسلام ولا السيطرة على القبائل والجماعات الداخلية أو على السلطة القائمة بها من جانب التجار، حيث كان هدفهم الأساسي التجارة ولكن جاء انتشار الإسلام من خلالهم تلقائيا. وفي الوقت الذي استفاد فيه الحكام من دور التجار الوظيفي بالنسبة لسلطتهم استفاد التجار من نشر تجارتهم ومما حققه الحكام من أمن وتيسيرات يسرت سبل التجارة.. كما استفاد الحكام من الانفتاح على العالم الخارجي عن طريق التجارة[١٧].

يتبع

(١٦) عبد الرحمن زكي، مرجع سابق، ص٥٠ - ٥١.

(١٧) عز الدين عمر موسى، «انتشار الإسلام في غرب إفريقيا حتى القرن السادس عشر الميلادي» ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة العربية الإسلامية بالخرطوم ٢٨ - ٣٠ يوليو ١٩٨٣، معهد البحوث والدراسات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بغداد، ١٩٨٥، ص٥١.







الصورة الثقافية للآخر في إطار نظرية "تعارف الحضارات"



سارة حكيمي - تونس (*)

سجل المؤرخ والفيلسوف الأمريكي -ول ديورانت Will Durant - عدد سنوات الحرب التي خاضتها البشرية فوق هذه الأرض فوجدها ٣٤٢١ عاما. بينما لم تزد سنوات السلام والهدنة عن ٢٦٨ عاما. إذن لم تتمتع الإنسانية إلا بسنة واحدة سلاما كل اثنى عشر سنة حربا وصراعا.

والصراع هو لقاء تصادمي مع آخر اصطدم بإشكالية التواصل، التي ظلت تؤرق الحضارات وتحدد علاقاتها. طالما أن التنميط السلبي كان المفتاح الذي به وسمت به هذه العلاقات. وهو ما يجعل العلاقة بين الإنسانية باختلافاتها موضع خطر ويجعل الصورة الثقافية موضع مساءلة.

ولكن لماذا الصورة الثقافية تحديدا؟

طالما أن "التنوع البشري لا نهائي"، كما أقر هذه الحقيقة تودوروف Todorovوأثبتها الواقع بتنوعاته المختلفة، فنحن أمام إنسانية متعددة، تتحقق تاريخيا ضمن العلاقات البيذاتية، فالصورة الثقافية هي المفتاح لعلاقة الثقافات ببعضها البعض، إنها من يسم هذه العلاقات بالعدائية أو الحوار بالسلبية أو الإيجابية من خلال كيفية تمثل الآخر. هذا المفهوم (أي الصورة الثقافية) يمس جميع حقول المعرفة لأنه رحيق جميعها من علم التحليل النفسي والأنثروبولوجيا، وعلم الاجتماع والتاريخ وغيرهم، ولا مفر من استعمال هذا المفتاح في جميع الخطابات العلمية، التي تتكلم عن الماضي أو الحاضر.

و تعتبر الصورة الثقافية من أخطر الآليات في التأثير على العلاقات البين حضارية، فما يترسخ في المخيال الجمعي وما يصاغ من أفكار حول الآخر يظل مترسبا في ذاكرة الحضارات ويؤثر على المدى القريب والبعيد، بل من الصعوبة أن تمحى آثار الصور الثقافية عن الآخر خاصة إذا ما أصبحت صورا نمطية سلبية صاغها السياق التاريخي في ظل الأحداث والوقائع والسياق الثقافي في إطار التمثل والاستبطان.

فصورة الآخر نحن من يبنيها بناء على الانتقاء والعزل والتركيز على جانب من الجوانب الأخرى لحياة الشعوب، وكما وقع الغرب، في أكثر الحالات، في أسر فهمه النمطي والجامد للإسلام، فقد وقع المسلمون أيضا في أسر الفهم النمطي والجامد للغرب، ترسخت تلك الصورة بأن الإسلام دين العنف وظل الغرب في المتخيل الشرقي ذلك المعطى المادي البحت.

تنتج الصورة الثقافية النمطية رؤيا جامدة عن الآخر وفي أغلب الأحيان، إنها رؤيا مشوهة تؤدي إلى التصادم والصراع، فالمعدد هنا يصبح عدوا بفعل تمثلنا له، وما نراه من سوء فهم تحول إلى سوء تفاهم نتيجة الاحكام إلى مجموعة من الأحكام المسبقة وإنتاج صور ثقافية بناء على هذه الأحكام وبعيدا عن الواقع. وهو ما حرك الترسبات التاريخية في الذاكرة الجمعية وأنتج فهما سيئا، أدى بدوره إلى انعدام التفاهم بين الذات والآخر ورفض كل أشكال التواصل والحوار مع الخارج، فأصبح الحديث عن عدم اعتراف وإقصاء وتنازع ترجم ذلك ميدانيا في الحروب والصادمات والمشاحنات. والعداء غالبا ما يكون نتاجا لصور ثقافية نمطية سلبية بنيت على الجهل بالآخر وانطلاقا من المتخيل وبناء على ما نشره مفكر كل ثقافة، رغم أن معرفة كل طرف بالآخر لم تكن بالمعرفة المعمقة.



ول ديورانت

فهل المعرفة قادرة على تبديد غشاوة العداء؟ وكيف يمكن أن يلعب التعارف عموما وتعارف الحضارات أساسا دور الموجه الإيجابي للصورة الثقافية بين الثقافات؟

الصورة الثقافية:

بداية ما هو مفهوم الصورة الثقافية؟ إذ إن تحديد المفاهيم أمر أساسي. فقد سأل أحد ملوك الصين القدماء الفيلسوف الحكيم كونفوشيوس Confuciusقائلا: "أريد أن أصلح الدولة فبماذا أبدأ"؟ فأجابه كونفوشيوس: "إبدأ بإصلاح اللغة وتحديد المصطلحات".

١- مفهوم الصورة الثقافية:

الصورة الثقافية هي في الواقع ربط بين مفهوم الصورة ومفهوم الثقافة وما تنتجه من تمثل للآخر، فما هو مفهوم الثقافة؟ ثم ما هو مفهوم الصورة الثقافية؟

(*) باحثة تونسية، ولدت بمحافظة جندوبة بالشمال الغربي من البلاد التونسية عام ١٩٧٩، حصلت على الأستاذية في التنشيط الشبابي والثقافي ٢٠٠٢، وماجستير علوم ثقافية ٢٠٠٥، ودكتوراه علوم ثقافية من خلال أطروحة "الصور الثقافية المتبادلة بين العالم الإسلامي والعالم النصراني زمن الحروب الصليبية" ٢٠١١. تعمل حاليا منشطة تربوية بوزارة الشباب والرياضة التونسية. شاركت في العديد من التربصات والتبادلات الشبابية بالداخل والخارج (تونس-الجزائر- ليبيا- فرنسا) حول مواضيع مختلفة (ثقافية - شبابية). ورأست وفودا شبابية تونسية في الخارج، وقامت بالعديد من الدورات التدريبية في التنمية البشرية للشباب.

تتعدد مفاهيم الثقافة تعددا كبيرا، ولسنا هنا في موضع إحصاء لها بل سنعتمد المفهوم الذى نراه الأنسب في هذا السياق ومنه ما يعبر آدم كوبر عن الثقافة فى أدق تفاصيلها بقوله: "تأمل هؤلاء الناس، أسلوب حياتهم، عاداتهم، سلوكياتهم، نبرة أصواتهم، انظر إليهم بانتباه، تأمل الأدب الذى يقرءونه، الأمور التى تسعدهم، الكلمات التى تنطق بها أفواههم، الأفكار التى تشكل التراكيب فى عقولهم"[1].

ولعلى أميل إلى القول بأن الثقافة هى ما يكتسبه الإنسان ليكون به طريقة الحياة فى مجتمع ما، إنها تلك الرؤية أو القراءة القادرة على فك رموز العالم وهى تلك المرجعية الباعثة لسلوك ما والمحددة لردة الفعل.

أما الصورة، فهى مجموعة السمات الحقيقية أو المتخيلة عن ظاهرة ما فهى تعنى كيفية تصور لآخر قد يكون مجتمعا أو فردا أو شيئا، سواء تحكم بتصورنا لهذا الآخر معطيات إيديولوجية أو كان تصورا مماثلا للحقيقة بعيدا عن التشويه. وفى المعنى الفرنسى، تعنى كلمة صورة معنى التشابه قياسا إلى آخر، كمثال لذلك يقال (الابن صورة حية من والده)، كما تفيد معنى المرآة العاكسة، وتعنى كذلك الرمز أو التمثيل المادى لواقع مجرد، وهى تمثيل ذهنى لشخص أو شىء ما، وتفيد كذلك معنى الهيئة المتمثلة فى فكر الآخرين عن أمر ما[2].

ويرتبط إنتاج صورة معينة بمدى تمثل


نجيب محفوظ — المويلحى

معطيات محددة، ضُمّت ضمن سياق خاص. وبالتالى فالتصور يكون بناء على تفسير للأشياء باعتماد نمط معين من خلال إعادة إحضار للشىء مرة ثانية إلى مجال الوعى وهو رأى موسكوفيشى Moscovici فى تعريفه للتصور عموما. ويرى بياجيه Piaget بالدور الهام للتصور فى السيكولوجية التكوينية وخاصة فى سيكولوجيا الفعل، إذ هو الذى يحكم تصرفات الإنسان.

ورغم أن المفاهيم التى تمّ تناولها تبيّن مفهوم الصورة المتعلق بالفرد كحالة ذهنية للأشخاص، إلا أنها يمكن أن تمثل ظاهرة اجتماعية، إذا كانت جماعة تشترك فى حمل صورة واحدة أو أن مصادرها للصورة اجتماعية، إنه الاعتقاد بأن الآخرين يشتركون معنا فى الصورة نفسها عن العالم وعن الآخرين وهذا الاعتقاد هو جزء من صورتنا للعالم. وهو ما يبرر دراستها فى مجال علم الاجتماع بالذات وما يبرز أهميتها وتأثيرها.

هذه الصورة الذهنية ذات وظيفة رمزية تقدم

١- آدم كوبر، الثقافة: التفسير الأنثروبولوجي، ترجمة تراجي فتحي، سلسلة عالم المعرفة عدد ٣٤٩، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٠٨، ص ٢٤

٢- http://www.larousse.fr

رؤيا للعالم، وتسعى لحل رموزه من خلال تمثلنا لها باعتبار أن الثقافة هى التى توجه هذه التصورات الاجتماعية وفقا لأنساق محددة فى الخيال العام للفرد والمجموعة.

إذن يمكن القول أن الصورة الثقافية هى تمثّل نابع من الثقافة ومستقى من المتخيل الثقافى، الذى يعتبره الدكتور نادر كاظم "بمثابة الإطار المرجعى لهوية المجتمع الثقافية"، وأما العملية التى يتشكل المتخيل بواسطتها ويعزز بجهودها، فهى عملية تسمى "التمثيل" Représentation[3].

إنّ الحديث عن الصور الثقافية بين عالمين أو ثقافتين يحيلنا إلى الحديث عن التمثلات التى تنتج هذه الصورة، والتى بدورها ترسم معالم علاقة الأنا بالآخر. فالآخر هو كل مبدأ أو فكرة أو منهج أو حضارة سوى ما يدور فى ذهننا أو نعتقد. فما هو خارج الذات هو آخر.

من هنا يبدو لنا الآخر متعدد الدلالة وقابلا للفهم بأكثر من صيغة. نجده غربيا إذا كان الأنا شرقيا، ونجده ريفا إذا كان الأنا مدينة كما فعل إبراهيم عبد القادر المازنى فى (إبراهيم الكاتب)، وكذلك محمد حسين هيكل فى (زينب)، أما محمد المويلحى فى (حديث عيسى بن هشام) فيرى أن الأنا متخلف جاهل ظلامى مازال يعيش على نمط الأقدمين فى حين أن الآخر خطا خطوات جبارة فى شتى الميادين العلمية. وفى روايات نجيب محفوظ وخاصة (الحرافيش)، الأنا هو ساكن الحارة المركزية والآخر هو ساكن الحارات الأخرى. أما توفيق


المازنى — هيكل

عواد فى رواية (الرغيف) فيمثل الأنا العربى والآخر هو العثمانى.

إنها جدلية الأنا والآخر، فلا يمكن أن تتحقق أو تكتمل إنسانية الأنا إلا بعلاقة مع الغير الذى يمثل شرطا ضروريا ومكونا أساسيا للإنية والإنسانية. وليس وجوده عرضيا أو ضمن علاقة نفعية. فليس للأنا هوية مستقلة عن الغير ولا للغير وجودا منفصلا عن الأنا. فالإنسانية تتحقق تاريخيا ضمن العلاقات البينذاتية. وما أحمله عن هذا الآخر هو صورته الثقافية التى تحدد موقفى منه وبالتالى موقفه منى.

٢- إشكالية النمطية فى الصورة الثقافية:

التنميط فعل موجه نحو صياغة توجه محدد ومتكرر، ففى مفهوم الصورة النمطية نجد أنها تمثل مرحلة لاحقة للصورة الذهنية أو هى صورة ذهنية فى أقصى تطرفاتها. فالصورة الذهنية الاجتماعية متى تقولبت وجمدت وقادت إلى التعصب تصبح صورة نمطية تتميز بعنصرين هما:

أولا: التبسيط والتعميم فيحملها الناس عن جماعتهم أو عن جماعة أخرى.

3- نادر كاظم، تمثيلات الآخر: صورة السود فى المتخيل العربى الوسيط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت، ٢٠٠٤، ص٣٩

والعنصر الثاني: هو عنصر الثبات والتصلب يعني عدم قابلية الصورة على التغير. فهي تنطوي على أحكام قيمية وتكون مشحونة بالمشاعر الذاتية والعواطف الشخصية.

و في تعريف النمط نجد أنه الصنف أو الطراز، يطلق على النموذج المثالي الذي تجتمع فيه أكمل الصفات الذاتية لنوع من الأشياء ويرادفه المثال أو النموذج، ويطلق النمط في علم النفس التحليلي على الطريقة الأساسية التي يصطنعها المرء لتوجيه طاقته النفسية، تقول نمط الانطواء ونمط الانبساط، ويطلق النمط على الفرد الحقيقي أو الخيالي[٤].

و يرجع استخدام مصطلح الـ"stéréotype" ما نترجمه "بالنمطية" إلى عالم الطباعة، إذ تعني الصفيحة المعدنية المطبوعة التي تصب في قالب أو آلة سباكة طباعية. ويتمّ استخدام القالب في إنتاج السطور المطبوعة التي يمكن استخدامها آلاف المرات من دون الحاجة إلى إعادتها.

ويعتبر الصحفي الأمريكي والتر ليبمان -Wal

ter Lippmann أوّل من استخدم هذا المصطلح بوصفه مفهوما يراد به القول أن الشعور الوحيد الذي يحمله أي شخص حول حدث لم يجربه هو شعور تابع من تصوره الذهني للحدث وأن ما يقوم به لا يعتمد على معرفة معينة أو مباشرة بل على صورة صنعها أو أعطيت له.

والصورة النمطية هي صورة على طراز محدد، ويمكن أن تكون سلبية أو إيجابية، وعموما نجدها أكثر ما تكون سلبية لما تفرزه من ترسيخ لسلوك محدد مبني عن التصور للأفراد الآخرين الذين يجسدون موضوع الصورة ويقومون بتعليلها على نحو يتسق معها ويساعد على إثبات صحتها.

والنمط تنتجه آليات. تعمل على توجيه الصورة الثقافية نحو إيديولوجيات مرتبطة بعلاقة الأنا بالآخر. ويكمن دور الآليات في أنها الرحم التي تبلور العلاقات بين الثقافات والحضارات، نظرا للدور الريادي الذي تلعبه في صياغة متمثلنا عن الآخر.

فالخطاب بين الثقافات أو الحضارات يشتغل وفقا لآليات تبرز الأبعاد المتخيلة عن الآخر لأنها من تنتجها. وبقدر أهمية النظر في طبيعة الصورة الثقافية نرى بأهمية البحث في من كان وراء هذه الصورة الثقافية وكيفية تكونها على هذا النحو أو ذاك.

ولعل أخطر ما تقود إليه الصورة النمطية هو أنها تخلق واقعا خاصا بها يؤدي إلى توجيه عملية التفاعل بطريقة تدفع الشخص المصور ليسلك بطريقة تعزز الصورة النمطية السائدة عنها. فمن خلال الصورة يرى الناس جوانب من الحقيقة ويهملون أخرى لأنها لا تتناسب مع معتقداتهم.

زد على ذلك، أن الصورة النمطية تعمم صورة معينة على جماعة من الناس فتتجاهل الاختلافات والفروق الفردية بسبب التعميم، فيفترض تلقائيا أن ما ينطبق على الجماعة ككل ينطبق على كل فرد فيها دون اعتبار النسبية بين الأفراد، بغض النظر عن كونه فردا له سماته الشخصية الخاصة به. فهي لا تقوم بطمس الآخر فحسب بل هي تقوم بإيذاء الـ"النحن" أيضا، لأن أي تعبير عن الاختلاف

٤- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء٢، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢، ص ٥٠٧

داخل الوحدة لا يؤخذ بعين الاعتبار. فهي لا تعي الفروقات التي تخص الثقافات الفرعية، وهنا تطرح مسألة الأقليات الدينية ومنها العرقية وغيرها عموما بشدّة في العلاقات بين الحضارات، ومراعاة الثقافات للأقليات تعتبر مسألة مهمة في استقرار الحضارات وتماسكها. كما أن الصورة النمطية تؤدي للتمركز الإثني من خلال دعم المركزية الذاتية بغض النظر عن فكرة نسبية القيم.

و تبنى الصورة النمطية على الأحكام المسبقة، التي تكوّن محتوى الصورة وطبيعتها بالسلب أو الإيجاب، كأن نعتبر أن مجموعة ما تشترك في خاصية معينة بناء على تصور معين. هذا التصور قد يكون صوابا أو غير ذلك. هذه الأحكام هي في الواقع ما نتخيله حول أمر ما. وبالتالي فالمتخيل هو خلفية الصورة النمطية التي تشكل بدورها تمثّل الآخر في الثقافة.

لعلنا هنا نضرب مثالا لذلك الصورة الثقافية النمطية بين العالم الإسلامي والغرب. فكلاهما كناظر ومنظور إليه ظلا محكومين بالنمطية في أغلب الأوقات. فصورّ الإسلام كدين العنف والدموية منذ تشكل أول منظومة عنه، وصورته خلال القرون الأولى لظهوره، إذ كانت الأنباء ترصد ظهور دين جديد وانتشاره بسرعة كبيرة وهو ما أقلق الكنيسة. فحاولت السلطة الكنسية أن تبرز لرعاياها صورة هذا الدين الجديد كعارفة به ومحيطة بكل الشئون الدينية في العالم وخاصة مع الثقة المطلقة التي حظيت بها الكنيسة في تلك الحقبة. أنكب رجال الدين على التأليف حول الدين الجديد معتمدين في ذلك الخيلة والتصور، ومرجعهم تأويلاتهم من الكتاب المقدس. ومنذ البداية أغلقت الكنيسة الباب أمام كل معلومات معرفية عن هذا الدين بل دعمت الجهل به وتجاهله. ذلك أن "النصرانية الغربية كانت تجهل الشرق الإسلامي"[٥]. فإلى حدود منتصف القرن العاشر الميلادي ورغم تواجد النصارى في المشرق وفي إيطاليا وإسبانيا، "فنصارى الغرب لم يكن لديهم فكرة عن الآخر الإسلامي"[٦].

حتى أن جيبير النوجنتي اعترف بأنه لا يعتمد في كتاباته عن الإسلام على أية مصادر مكتوبة وأشار فقط إلى آراء العامة وأنه لا يوجد لديه أية وسيلة للتمييز بين الخطأ والصواب.

ساهم هذا الخيال في تمثل صورة مشوهة عن الإسلام ليس من باب المعرفة، بل بنيت على تصورات يعتبرها ألكسي جوراقسكي "في منتهى الخيالية "الفانتازيا" والتوهم"[٧]، وهو ما يفسر النزعة العدائية التطورية التي بنيت عن الإسلام منذ وجوده. وأوجد سيكولوجية شعبية عامة كارهة للإسلام ولأهله. وفي هذا الصدد يقرر البعض أنه بصفة عامة "تكونت في وعي الأوربيين في العصور الوسطى ملامح اللوحة التالية عن الإسلام: أنه عقيدة ابتدعها محمد

5- Cécile Morisson .Les Croisades .collection que sais-jeÀ .-Ed PUF٩ ème éd .Paris .٢٠٠٣ .P13

6- Pierre Guichard .Philippe Sénac .Les Relations des Pays d-Islam avec le Monde Latin. milieu X-milieu XIII .Ed CNED-Sedes .Paris .٢٠٠٠ .P16

٧- أليكسي جوراقسكي، الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، ترجمة خلف محمد الجراد، دار الفكر، دمشق، ط٢، ٢٠٠٠، ص ٦٦.

وهي تتسم بالكذب والتشويه المتعمد للحقائق، أنها دين الجبر والانحلال الأخلاقي والتساهل مع الملذات والشهوات الحسية، أنها ديانة العنف والقسوة"(٨). فقد استهدفت الكتابات اليونانية–البيزنطية المعادية للإسلام "تقوية عزائم المقاتلين وتشجيع سكان المناطق الحدودية على محاربة خصومهم المسلمين"(٩).

هذه الصورة التي باركتها أعلى هيئة دينية وأعلى هرم سلطوي وهو الكنيسة، ترسخت في الأذهان وتداولتها الأفكار وذاعت في جميع الأوساط النصرانية لتصبح خلفية المتخيل النصراني عن الإسلام وأرضية أي فعل أو ردة فعل مع المسلمين وتحدد طبيعة العلاقة بين العالمين النصراني والإسلامي.

هاهو الخيال بما ينسجه وما ينتجه من تمثلات للآخر يكون خلفية جميع العلاقات والخلافات، فشحن الذاكرة بصفة جماعية بصور نمطية سلبية يشوه التاريخ بأحداث دموية تظل نابضة، يعبر عنها ألكسي جوراڤسكي في عبارة تأليفية بقوله: "إن التصورات الغربية المعاصرة حول دين المسلمين لم تتكون وترتسم في صفحة بيضاء خالية وإنما انعكست في مرآة قديمة مشوهة"(١٠).

يشير ريتشارد سوذرن، وهو من الباحثين المتخصصين في العصور الوسطى، في كتابه (صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى) إلى أن المسلمين برأيه، بظهورهم التدرجي كمسلمين أوائل ومغول وعثمانيين كانوا في خانة التحدي للعالم الغربي الأوربي، فالصورة عنهم مضت دون تغيير وكانت المعلومات تتراكم في الغرب. لذلك لعب النهج التاريخي التطوري وتراكم المعلومات دورا هاما في الرؤية الأوربية، كما أن الظروف التاريخية صاغت بدورها هذه الرؤية بناء على معطيات براغماتية ظرفية.

و أوضح سوذرن في دراسته سابقة الذكر ذلك بقوله: "لا شك أنهم عندما وضعوا هذه الأساطير والأوهام كانوا يرون أنها تمثل الصورة الحقيقية إلى حد ما للواقع الذي تصفه ولكنها اتخذت بعد كتابتها طابعا أدبيا وهبها حياتها الخاصة. ولم تتغير كثيرا صورة محمد وأتباعه من أبناء الصحراء"(١١).

أنتجت المعطيات سابقة الذكر ما يسمى في العصر الراهن بالإسلاموفوبيا Islamophobia أو رهاب الإسلام، أو الخوف من الإسلام. والإسلاموفوبيا صورة ثقافية نمطية تراكمية عن الآخر الإسلامي، ناتجة عن الصراعات التاريخية للمسلمين مع أوروبا، وبالذات مع دخول الأندلس ثم الحروب الصليبية، فتحولت التراكمات بفعل الكنيسة الكاثوليكية إلى نوع ظاهر من العداء للإسلام وما ينتمي إليه من أفكار ومعتقدات حتى مؤلفات المفكرين الإسلاميين مثل ابن رشد التي كان يتم حرقها لو وجدوها

٨- نفس المرجع، ص ٧٣.

٩- كاهن (كلود)، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، سينا للنشر، ط١، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٣٦.

١٠- اليكسي جوراڤسكي، مرجع سابق، ص ٦٧.

١١- نقلا عن: كارين أرمسترونغ، سيرة النبي محمد، ترجمة فاطمة نصر ومحمد عناني، مؤسسة سطور، ط٢، بيروت، ١٩٩٨، ص ٣٩-٤٠.

ويحرقون معها من يقرأها وصل الأمر بعد ذلك أن مارتن لوثر Martin Luther منع أتباعه من شرب القهوة التركية لأنها حبوب الشيطان في رمزية لكراهية المسلمين ومن ينتمي إليهم فكرا وإنتاجا وبشرا. في تلك الفترة لم تتواجد الإسلاموفوبيا كحالة وإنما بدأت تتشكل دون ملمح واضح يميزها.

إن مسألة الخوف من الإسلام مسألة نفسية، تمس الجانب الانفعالي من الإنسان. وتنتج بناء على تاريخ مطول من الصدامات وأحداث دعمت هذا الخوف، فأصبح الترابط بين الآخر الإسلامي والإرهاب آليا في نفسية الفرد الغربي. فقد اقترنت في الخيال العام الغربي أن الإسلام والمسلمين معطيات سلبية ذات تسلسل تاريخي دموي يرتبط بالعنف والحرب.

و لا غرابة من أن تورث الصورة النمطية عن الإسلام في المناهج الأوربية، إذ تتوصل الدكتورة فوزية العشماوي، أستاذة الدراسات الإسلامية بالجامعة السويسرية، في بحث لها حول (صورة الآخر في كتب التاريخ والجغرافيا)، إلى أن المسلمين يصورون في كتب التاريخ والجغرافيا على أنهم برابرة ووحوش، سفاكي دماء. وأن معاملات العرب مع الآخر وحشية، مما يثبت في الأذهان الغربية صورة المسلم الغازي الدموي العنيف الذي يثير الرعب ويهدد الوجود.

و في الجانب المقابل، نجد أن التنميط أنتج تناظرا على مستوى الصور الثقافية السلبية. فلا مفر من تبادل الكره والعداء وإن اختلفت درجاتهما ليصبح التسلسل التاريخي فعلا وردة فعل من ذات النوع (السلب بالسلب والإيجاب بالإيجاب).

فالعالم الإسلامي ينظر إلى المجتمع الغربي كبيئة منحلة أخلاقيا، تغيب فيها القيم الاجتماعية وقيم الترابط الأسري، يغيب عنها الجانب الروحي الإنساني، مجتمع مادي بحت، ولكنه منظم ومتحضر، يبهر الآخرين. وعموما بقي السمو الروحي في الشرق بينما لا نجد في الغرب إلا ماديته المطلقة وحضارته المتفوقة. هذه الصورة أصبحت نمطية في الحديث عن الآخر الأوربي، وكأننا هنا بأسامة بن منقذ في حديثه عن الفرنج الأوربيين منذ عشر قرون يخبرنا بذات الشيء عندما أعجب بفروسية الغرب ولكنه لم ير فيهم غير الجانب المادي البحت.

لقد انطلق أسامة بن منقذ كما ننطلق نحن الآن من ثقافتنا الذاتية للحكم على الآخرين وعلى ما يبدو غرائبيا عجائبيا، على الرغم من أن مقاييس القيم بين الثقافات، وبالتالي بين الحضارات، تختلف وتتباين تباينا قد يوصلها إلى التناقض. فمما لاشك فيه أن الغرب ليس واحدا وليس مطلقا. فهو يمتاز بالتنوع والفروقات والتناقضات والصراعات. ومن شأن التفكير فيه كآخر لديه تجاربه الإنسانية والثقافية المتنوعة أن يقلص البعد الأسطوري الذي اتسمت به صور الغرب. فالمجتمعات الإسلامية تمتاز بدورها بالتنوع الثقافي والديني والاجتماعي. ولا يمكن بالتالي تحليل الصور المتكونة عن الغرب إلا انطلاقا من هذا التنوع.

وفي نفس البحث المذكور للدكتورة فوزية العشماوي، توصلت فيما يخص تناول المناهج الدراسية الإسلامية لمسألة الآخر الغربي إلى أن أول ملاحظة في المناهج الإسلامية تناولها موضوع النصرانية من وجهة النظر الإسلامية

فحسب، رغم أن الأجدى تناولها من وجهة نظر إسلامية ووجهة نظر نصرانية للوقوف على الخلفيات الثقافية والدينية للعديد من الأحداث التاريخية من وجهة النظر الغربية وفهم انطلاقة الآخر فى التفكير. فمن الضرورة بمكان تعليم الناشئة عرض وجهات النظر المختلفة لتهيئتها لقبول الآخر وليس السكوت عنها مما يكوّن شخصية أحادية الجانب فى المواقف والتنوع.

ولا يحضر الآخر الغربى فى كتب التاريخ الإسلامية إلا مفاجأة عندما يكون عدوا فى الفتوحات الإسلامية الأولى خاصة فتح مصر والشام وفلسطين، فيتم ذكر الروم البيزنطيين الذين كانوا يحتلون هذه البلاد ويسيئون معاملة أهلها قبل دخولها الإسلام.

ومن ثم يتعرف التلميذ المسلم لأول مرة على النصرانى الظالم، ثم مع تقدم منهج التاريخ يصبح الآخر هو الأوربى المستعمر حيث يتم تقديم الأوربيين على أنهم المستعمرون والمحتلون الذين جاءوا من أوروبا فى القرن التاسع عشر. وهكذا يرتبط فى فكر النشء المسلم العداء بأوروبا النصرانية، هذا الدين النصرانى لا يعرف عنه التلميذ المسلم إلا ما يراه فى وسائل الإعلام. ففى معظم الدول الإسلامية تعطى المناهج الدراسية اهتماما كبيرا للتاريخ الإسلامى، وعادة ما يبدأ منهج التاريخ بتاريخ البشرية أو بتاريخ آدم عليه السلام ثم تاريخ إبراهيم عليه السلام ثم ظهور وانتشار الإسلام متجاوزين اليهودية والنصرانية.

وهو ما يجعل صياغة الصورة الثقافية للآخر / النصرانى / الأوروبى / الغربى صورة نمطية فى الكتب المدرسية، تصور الأوربيين بصورة سلبية إما عدائية أو نفعية أو مادية، باعتبارهم يعيشون فى فراغ روحى ودينى، ومجتمعاتهم يتفشى فيها الفساد والانحلال والتفكك الأسرى والاجتماعى.

إن الصورة الثقافية هى التى تحدد موقف الأنا من الآخر وتضبط درجة التعاون والتواصل، وبقدر ما تكون الصورة الثقافية قريبة من الواقع بقدر ما يكون التواصل أجدى وأسلم وأنفع وهو ما تضمنه نظرية تعارف الحضارات.

الصورة الثقافية للآخر فى إطار نظرية تعارف الحضارات

إذا كانت صورة الآخر فى الأذهان تبنى على كيفية تمثلنا له، وهذا التمثل بدوره يكون نتيجة لما نعرفه عن هذا الآخر، فإن الصورة الثقافية ترتبط أساسا بمعرفة الآخر. إن المعرفة هى التى تحدد التمثل الصحيح للآخر وتنتج صورة ثقافية واقعية عنه بعيدة عن القولبة والتخيل.

إن أزمة الصورة الثقافية تتمثل فى ضرورة الخروج من دائرة النمطية، فالتعميم هو ما يوصل إلى السلبية. والحل يكمن فى تصحيح الصورة عن الآخر. وتعتبر نظرية تعارف الثقافات المخرج والحل الأجدى، لأنها تصحح أفكارنا عن الآخر وتنشئ صورا ثقافية جديدة مرتبطة بالواقع والمعرفة، فيمكن بالتالى تجاوز الخلاف إلى اختلاف أرحب فى إطار قبول المتعدد والتعايش معه.

ولعل الخوف من تكريس الصور الثقافية السلبية وتنميطها يطرح إشكالية كيفية الوصول إلى حوار حضارى بناء بين جميع الأطراف، وكيفية صياغة صور ثقافية تتسم بالإيجابية والتفاعل، لأن العنف الذى تواجهه المجتمعات الحديثة تمخض عن ظرفيات ماضية وعن أشكال من التفاعل السلبى بين الأنا والآخر، لأن الصور الثقافية تتوارث كما قال أبو حيان التوحيدى فى "الهوامل والشوامل": "ربما سرت العداوة فى الأولاد كأنها بعض الإرث وربما زادت على ما كانت بين الآباء".

والبحث عن البديل فى الصورة النمطية السلبية للآخر يستوجب البحث فى آليات إنتاج هذه الصورة وتعويضها بآليات جديدة قادرة على صياغة صور ثقافية إيجابية أو لنقل متعاونة ومتعايشة، لأن أزمة الصورة الثقافية النمطية عن الآخر هى المسئول الأساسى عن الصراعات والمعمق للهوة بين الأطراف بصفة عامة. والحديث عن آليات إنتاج الصورة الثقافية يقود إلى العلاقة التى يمكن أن تربط الحضارات وتجعلها فى تفاعل مما يبنى داخلها تمثُّل الآخر وهو ما يحدد مستقبل العلاقات بين الأمم والحضارات. فإن كان الآخر عدوا، وصيغت صورته بناء على هذا الأساس، فإن الاطلاع عليه لم يكن كافيا ولا شاملا، بل تكونت أحكام مسبقة حوله بناء على الخيال، فترسبت صور ثقافية سلبية.

إن المشكلة بين الثقافات ليست فى عدم وجود حوار بينها، وإنما فى عدم التعارف فيما بينها والانقطاع عن تكوين هذه المعرفة، وسيادة الجهل أو الفهم المنقوص، أو الصورة النمطية والسطحية فى المعرفة. لذلك، فإن كل حضارة غالبا ما تصور مشكلاتها مع الحضارات الأخرى على أساس عدم المعرفة السليمة أو الصحيحة بها، فيبقى جانب الصراع والتصادم هو الطاغى والأبرز.

وفى معنى التعارف، نجد أنه يعنى وجود طرفين غريبين يفترض بينهما اختلاف ولكنهما يتميزان بالرغبة فى كشف صورة الآخر من خلال المعرفة والتواصل. إذن فالرغبة فى معرفة الآخر هى أساس التعارف باعتبار أن النية من اللقاء أو التواصل ليست طمس الآخر ولا إبراز التعالى عليه ولا التصادم معه ولا استيطانه وإنما قبول الآخر كما هو من خلال التعرف عليه. فتقترن المعرفة بالقبول مبدئيا وبالابتعاد عن النمطية والأحكام المسبقة. لأن التعارف يفترض أن الأنا يجهل الآخر ولا يسقط عليه أحكاما، فيكون الخروج من دائرة الجهل والغموض إلى نور المعرفة والوضوح. فالتعارف هو الجسر الذى يربط بين الجماعات المتنوعة والمختلفة ولكن لا تعارف من دون معرفة. ولا يفترض مسبقا تجاوز الاختلاف بقدر ما يفترض قبوله كنتيجة حتمية للتعارف

يقول الإمام على رضى الله عنه: إن "الناس أعداء ما جهلوا"، فالإشكال فى العلاقة بالآخر ليس فى مستوى الحوار بقدر ما يكون فى ما لدى من رصيد معلوماتى حوله، لأن ما أعرفه عنه هو فى الواقع ما يشكل موقفى الأولى والأساسى منه، إن معرفة الآخر هى الأساس فى التقارب بين الشعوب، ذلك أن الصورة النمطية التى تظل راسخة فى الأذهان، والأحكام المسبقة التى تبنى عن الغير، لا يمكن أن يغيرها الحوار لأنها تظل خلفية الحوار ذاته، بل تبقى كترسبات ثابتة فى التكوين الثقافى للفرد وتصبح جزءا من أفكاره.

إن نظرية "تعارف الثقافات" برأينا هى الحل الأجدى فى تكوين صور ثقافية واقعية عن الذات والآخر وإتاحة الفرصة للتفاعل التلقائى والاختيار الواعى. فتبنى العلاقة مع الآخر على

أسس من التعارف والتفاعل والتعايش بعيدا عن الوهم والتراكم والجهل. وتقدم الحل للخروج من المأزق العالمية للصراعات وتقريب المسافات بين الأفراد والشعوب وإتاحة الفرصة لها لاختيار تمثلها للآخر بناء على معاييرها القيمية وبناء على معرفتها بالآخر ليصبح الاختيار هو عماد التفاعل والتلاقي والتلاقح بعيدا عن الإيديولوجية والبراغماتية.

فالتعارف بين الثقافات هو الذى يحدد مستويات الحوار والتعاون ويثريهما، ثم يثمرهما. فهو يمهد لمعرفة الآخر على حقيقته وتصحيح الصورة المسبقة عنه، إذ كثيرا ما رسمت الثقافات صورا نمطية لغيرها. لذلك كلما زادت قابلية التعارف في ثقافة ما وجدنا الحوار لديها أرقى وأجدى، وسهل التواصل معها.

و من أهمية التعارف أنها تجعل الصورة الثقافية للآخر مطابقة أو أنها قريبة من الواقع، إذ تكمن أهمية الصورة الثقافية عن الغير بغض النظر عن محتواها الذى يمرر للآخرين واقعا كان أو خياليا، فإنها تظل راسخة فى مخيلتنا ونستحضرها متى احتجنا إليها. فالتعارف يجنب الخطأ والتراكم. "لكى نتعامل مع أى شيء لابد أن نعرفه وإلا فلربما نقوم بتحطيمه ونحن نريد إصلاحه، أو ربما انفجر فينا ونحن نريد أن ينفجر فى عدونا"[١٢].

إن أول ما يتبادر إلى الأذهان عند الحديث عن "آخر"، هو البحث: من هو هذا الآخر؟ ماهيته؟ هويته؟ وبالتالي بحث لمعرفته وكشف ستار الغموض عنه، فلا تبحث بداية عن محاورته بقدر ما تكون حاجتنا لمعرفته، فأثناء التعارف يحمل كل طرف هويته معه.

فيمسّ تعارف الحضارات الهوية الثقافية، إنه إطلالة واعية بالهوية الذاتية على الهوية الآخروية. إنه لقاء بين كينونتين في إطار من التقارب تفرضه المعرفة بالآخر، فتتعرف الهويتين الثقافيتين للحضارتين اللتين التقيا في إطار من الندية، فالصدام أو الصراع هو في الواقع خوف من الطرفين على الهوية الثقافية، طرف يخاف تفوق الآخر فيحاول احتواء هويته وطرف يخشى أن تذوب هويته فى الآخر وهو ما يحدث الصدام لأن قوة الحضارة تكمن فى هويتها الثقافية.

إن نظرية تعارف الثقافات كأساس ومرجع لصياغة تمثلنا عن الآخر تعتبر النظرية الأجدى في إرساء الإنسانية باختلافاتها وتنوعها على بر من التعايش والتعاون، وتجنيبها الصدام والصراع. فالصورة الثقافية المنتجة على أساس التعارف هي الصورة الحقيقية لذواتنا وللآخر، لأنها نشأت بناء على معطيات تمثل في جوهرها قبول الآخر انطلاقا من احترام الهويات الثقافية. فمعرفة الآخر هي تعرّف على هويته، واعتراف ضمني بنسبية الثقافات واختلافها وابتعادها عن النظرات التفاضلية المركزية فكل حضارة كما أعطت وأضافت فقد أخذت من سابقاتها وبنت أساسها على أساس تواصلي. فالحضارات تتكامل ولا تتدافع، لأن مفهوم الحضارة فى ذاته يحمل معنى الرقى.

١٢- هادى الدرسى، لئلا يكون صدام حضارات: الطريق الثالث بين الإسلام والغرب، دار الجديد، ط١، بيروت، ١٩٩٦، ص٩٩

إن صدام الحضارات وصراعها وتدافعها العدائي واقع، لا نريد إنكاره ولكننا نريد أن نلون مستقبله بأمل مشرق في أن تتعارف الحضارات وتتحاور. فتتفاهم وتتعايش وتتكامل ولا تتصارع. ودور التعارف بين الحضارات دور ريادي بل دور مصيري للإنسانية لأنه الأساس السليم الذى يكوّن صورة عن ذواتنا وصورة عن الآخرين في إطار من المبادرة لمعرفة الآخر وليس لدحضه، فبفضل التعارف "لا يبقى الآخر مجهولاً، وبالتالي عدواً وعنصراً مسبباً للخوف. فنحن نخشى الآخر ما دمنا نجهله، فإذا ما عرفناه لم يعد كذلك. وإذا تحررنا من عقدة الخوف من الآخر أمكننا تقبل وجوده، بل قبول التعايش معه"[١٣]، فيكون التسامح معه، مع ذلك الذى لا نحبه، مع ذلك الذى لا نعتبره أبدا كأنفسنا"[١٤].

و رغم المعطيات الماضية والآنية في ما تحمله الأنا عن الآخر من عداء وسلبية أميل إلى القول بأن عصر الانفتاح الذى نعيشه في الزمن الراهن، سيفرز -بالرغم من كل الحروب والنزاعات- تكاملا حتميا بين الأنا والآخر، فبرغم أن التنوع الثقافي والحضاري بات مصدرا للشر فإنه سيصبح مصدرا للثراء، لأن الأفكار والتصورات المبنية على الرفض والنبذ، كانت بالأساس قائمة على رفض سببه الجهل بالآخر، والأمل في التعارف الذى يبدد غشاوة الجهل ويحول العنف إلى تعارف والتعارف إلى تعايش والتعايش إلى تفاعل وتناغم.

وبالتالي فإن وقع الصورة الثقافية عند توجيهها نحو الإيجابية يجعلنا نقول بأن الأجدى ملاقاة المتعدد (عقائديا أو فكريا أو حضاريا أو منهجيا أو لغويا......) وليس الحرب معه، لأن الأنا تزدهر مع الآخر وليس بدونه. وآلية ملاقاة المتعدد فى الاختلاف تتمثل في نظرية تعارف الثقافات التى تهيئ أرضية تلقائية غير مؤدلجة، بل ساعية إلى تجاوز الخلاف بملاقاة الاختلاف فى رحاب التناغم والتعارف والاكتشاف وتكوين صورة واعية وحقيقية عن الذات والآخر بعيدا عن التشويه.

ولعل التاريخ خير شاهد بنماذج مختلفة من تحوّل صورة الآخر من السلبية إلى الإيجابية بفضل التعارف الذى أفرز تعايشا فتفاعلا حضاريا. ونضرب من ذلك ما تلوّن به تاريخ الصور الثقافية الإسلامية النصرانية بفترات من التعايش والتفاعل أبرزها كان بين العالم الإسلامي والعالم النصراني الشرقي مع اعتبار فترات تعايش وجيزة مع نصارى الغرب باعتبار الاحتكاك الذى حدث أثناء الحروب الصليبية. فإمكانية التعايش الفعلي بين الإسلام والنصرانية موجودة كممارسة واقعية.

إن التعايش لا يكون إلا بالتعارف، فمما يذكره أسامة بن منقذ في مذكراته، أنه كانت تربطه بالصليبيين صداقة وودّ حتى إنهم ينادونه

١٣- زكي الميلاد، تعارف الحضارات، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٦، ص ١٤٧

١٤- سمير الخليل، توماس بالدوين، بيتر نيكولسون، كارل جبر، الفريد أيير، التسامح بين شرق وغرب، دراسات في التعايش والقبول بالآخر، ترجمة إبراهيم العريس، دار الساقي، ط١، بيروت، ١٩٩٢، ص٦٢

بعبارة "يا أخى"[١٥]. ويقول أيضا: "فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى وفيه (الداوية) وهم أصدقائى"[١٦]. فابن منقذ هنا يعترف صراحة بعلاقة الصداقة التى تربطه بالصليبين، وبلغت الصداقة الحميمة بينه وبين أحد الفرسان الصليبين أنه طلب من أسامة أن يرسل معه ابنه إلى أوروبا عند عودته وأن يتربى تحت رعايته، فرفض أسامة رده فى لطف متعللا بأن "جدته شديدة الكلف به"، كما أنه عبّر عن دهشته من طلب هذا الفارس الصليبى[١٧].

ويذكر ابن شداد أنه عندما طال أمد القتال بين الصليبيين والمسلمين أمام مدينة عكا عام ١١٩٠م، "أنس البعض بالبعض بحيث أن الطائفتين كانتا تتحدثان وتتركان القتال. وربما غنّى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة، ثم يرجعون للقتال بعد ساعة"[١٨].

و بالتالى فإمكانية الصورة الثقافية الإيجابية عن الآخر مطروحة، فإن كانت الحرب- بما يعنيه المصطلح من عداء ودحض- قد أشرقت منها حضارة وبزغت رغم الصراع علاقات ود وتعارف بين المسلمين والصليبيين، فكيف بنا زمن السلم؟ إن الحاجة إلى التعارف حاجة إنسانية طرحتها النظريات وتؤكدها الوقائع، فما الإسراع إلى الآخر الإسلامى وكذلك إلى الآخر الصليبى بعد انقضاء المعارك زمن الحملات الصليبية لتبادل الممارسات اليومية إلا عودة للأصل الإنسانى الذى يمد يد التواصل تلقائيا.

إجمالا، قدمنا هذا النموذج لإبراز أن ثمرة التعارف بين الثقافات تذيب الخلافات والصراعات لأن التعارف يجعل الأنساق الثقافية للآخر مقبولة فى ذواتنا وفى ثقافتنا. فرغم أن قبول الآخر فى المجال العقائدى "يكون أصعب منه فى مجال قبول الآخر بين الأسر المتجاورة أو القبائل المتناحرة، بل وحتى القوميات والسلالات المختلفة التى يجمعها وطن واحد.. و تكون نقطة البداية غالبا هى لقاء الآخر ثم الحوار معه ويتحول الحوار إلى فهم قبل أن تتحول المشاعر الإنسانية إلى "قبول"، وقد يمتد الأمر فتتحول المشاعر إلى وفاق وتعاون"[١٩].

إن إمكانية التفاعل الإيجابى بين الحضارات ممكنة يثبتها التاريخ كما تثبتها النظريات، وخاصة التعارف بين الحضارات كحل يمكن أن يقوم بمهمة تصحيح الصور الثقافية المشوهة عن الآخر التى تتوارث جيلا بعد جيل، وعن جهل بحقيقة الآخر ومفاهيمه، للتخلص من أثر الموروث التاريخى فى الوعى العام، وطرد الأنماط المتجمدة عن الآخر. فالتعارف هو الذى يمكن من تجاوز الإطار الثقافى المشحون برفض الآخر والخوف منه "كالإسلاموفوبيا" المنتشرة الآن فى أوروبا وأمريكا.

١٥- أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، تحرير فيليب حتى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت، ص١٣٢

١٦- نفس المرجع، ص١٣٤

١٧- نفس المرجع، ص١٣٢

١٨- بهاء الدين بن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية سيرة صلاح الدين، تحقيق جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجى، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤ص١٦٧

١٩- ميلاد حنا، قبول الآخر: فكر واقتناع وممارسة، دار الشروق، ط١، مصر، ١٩٩٨، ص ٣٧

وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا

قالوا عن القرآن



للدكتور/ عماد الدين خليل

بوتر[١]

(١) «.. عندما أكملت القرآن الكريم غمرنى شعور بأن هذا هو الحق الذى يشتمل على الإجابات الشافية حول مسائل الخلق وغيرها. وأنه يقدم لنا الأحداث بطريقة منطقية نجدها متناقضة مع بعضها فى غيره من الكتب الدينية. أما القرآن فيتحدث عنها فى نسق رائع وأسلوب قاطع لا يدع مجالا للشك بأن هذه هى الحقيقة وأن هذا الكلام هو من عند الله لا محالة»[٢].

(٢) «..إن المضمون الإلهى للقرآن الكريم هو المسئول عن النهوض بالإنسان وهدايته إلى معرفة الخلق، هذه المعرفة التى تنطبق على كل عصر..»[٣].

(٣) «..كيف استطاع محمد (صلى الله عليه وسلم) الرجل الأمى الذى نشأ فى بيئة جاهلية أن يعرف معجزات الكون التى وصفها القرآن الكريم، والتى لا يزال العلم الحديث حتى يومنا هذا يسعى لاكتشافها؟ لابد إذن أن يكون هذا الكلام هو كلام الله عزوجل»[٤].

بوكاى[٥]

(١) «لقد قمت أولا بدراسة القرآن الكريم، وذلك دون أى فكر مسبق وبموضوعية تامة باحثا عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث. وكنت أعرف، قبل هذه الدراسة، وعن طريق الترجمات، أن القرآن يذكر أنواعا

[١] أنيميرا بوتر، ولدت عام ١٩٥٤، بمدينة ترافيرز في ولاية متشيغان الأمريكية، وتخرجت من فرع الصحافة بجامعة متشيغان. اعتنقت الإسلام عام ١٩٨٠، بعد زواجها من أحد الدعاة الإسلاميين العاملين في أمريكا، بعد اقتناع عميق بأنه ليس ثمة من دين غير الإسلام يمكن أن يستجيب لمطالب الإنسان ذكراً كان أم أنثى.

[٢] رجال ونساء أسلموا، ١٠٠/٨. [٣] نفسه، ١٠٣/٨. [٤] نفسه، ١٠٩/٨.

[٥] د. موريس بوكاي الطبيب والعالم الفرنسي المعروف، كان كتابه (القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم) من أكثر المؤلفات التي عالجت موضوعاً كهذا، أصالة واستيعاباً وعمقاً. ويبدو أن عمله في هذا الكتاب القيم منحه قناعات مطلقة بصدق كتاب الله، وبالتالي صدق الدين الذي جاء به. دعي أكثر من مرة لحضور ملتقى الفكر الإسلامي الذي ينعقد في الجزائر صيف كل عام، وهناك أتيح له أن يطلع أكثر على الإسلام فكراً وحياة.

كثيرة من الظاهرات الطبيعية ولكن معرفتي كانت وجيزة. وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوى على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأناجيل [٦] أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول، أي سفر التكوين، فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخاً في عصرنا. وأما بالنسبة للأناجيل.. فإننا نجد نص انجيل متى يناقض بشكل جلي انجيل لوقا، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمراً لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض [٧].

(٢) «لقد أثارت الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة في البداية فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقته تماماً للمعارف العلمية الحديثة، وذلك في نص كتب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً. في البداية لم يكن لي أي إيمان بالإسلام. وقد طرقت دراسة هذه النصوص بروح متحررة من كل حكم مسبق وبموضوعية تامة..» [٨].

(٣) «..تناولت القرآن منتبهاً بشكل خاص إلى الوصف الذي يعطيه عن حشد كبير من الظاهرات الطبيعية. لقد أذهلتني دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظاهرات وهي تفاصيل لا يمكن أن تدرك إلا في النص الأصلي. أذهلتني مطابقتها للمفاهيم التي نملكها اليوم عن نفس هذه الظاهرات والتي لم يكن ممكناً لأي إنسان في عصر محمد صلى الله عليه وسلم أن يكون عنها أدنى فكرة..» [٩].

(٤) «..كيف يمكن لإنسان - كان في بداية أمره أمياً.. أن يصرح بحقائق ذات طابع علمي لم يكن في مقدور أي إنسان في ذلك العصر أن يكونها، وذلك دون أن يكشف تصريحه عن أقل خطأ من هذه الوجهة؟» [١٠].

بيكارد [١١]

(١) «..ابتعت نسخة من ترجمة سافاري الفرنسية لمعاني القرآن وهي أغلى ما أملك فلقيت من مطالعتها أعظم متعة وابتهجت بها كثيراً حتى غدوت وكأن شعاع الحقيقة الخالدة قد أشرق عليّ بنوره المبارك.» [١٢]

(٦) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ص١٣.
(٧) نفسه ص١٤٤.
(٨) نفسه ص١٤٥.
(٩) نفسه ص١٤٥.
(١٠) نفسه ص١٥٠.
(١١) وليم بيرشل بشير بيكارد إنجليزي، تخرج من كامبردج، مؤلف وكاتب مشهور، ومن بين مؤلفاته الأدبية بالإنجليزية (مغامرات القاسم) و(عالم جديد)، شارك في الحرب العالمية الأولى وأسر، عمل فترة من الوقت في أوغندا، أعلن إسلامه عام ١٩٢٢م.
(١٢) رجال ونساء أسلموا ٣/٨٦.

حتي [١٣]

(١) «إن الأسلوب القرآني مختلف عن غيره، ثم إنه لا يقبل المقارنة بأسلوب آخر، ولا يمكن أن يقلد. وهذا في أساسه، هو إعجاز القرآن.. فمن جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى» [١٤].

(٢) «...إن إعجاز القرآن لم يحل دون أن يكون أثره ظاهراً على الأدب العربي.. أما إذا نحن نظرنا إلى النسخة التي نقلت في عهد الملك جيمس من التوراة والإنجيل وجدنا أن الأثر الذي تركته على اللغة الإنجليزية ضئيل، بالإضافة إلى الأثر الذي تركه القرآن على اللغة العربية. إن القرآن هو الذي حفظ اللغة العربية وصانها من أن تتمزق لهجات» [١٥].

حنا [١٦]

(١) «إنه لابد من الإقرار بأن القرآن، فضلا عن كونه كتاب دين وتشريع، فهو أيضا كتاب لغة عربية فصحى.. وللغة القرآن الفضل الكبير في ازدهار اللغة، ولطالما يعود إليه أئمة اللغة، في بلاغة الكلمة وبيانها، سواء كان هؤلاء الأئمة مسلمين أم مسيحيين. وإذا كان المسلمون يعتبرون أن صوابية لغة القرآن هي نتيجة محتومة لكون القرآن منزلا ولا تحتمل التخطئة، فالمسيحيون يعترفون أيضا بهذه الصوابية، بقطع النظر عن كونه منزلا أو موضوعاً، ويرجعون إليه للاستشهاد بلغته الصحيحة، كلما استعصى عليهم أمرٌ من أمور اللغة» [١٧].

داود [١٨]

(١) «..تناولت نسخة من ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الإنجليزية، لأنني عرفت أن هذا هو الكتاب المقدس عند المسلمين، فشرعت في قراءته وتدبر معانيه. لقد استقطب جل اهتمامي، وكم كانت دهشتي عظيمة حين وجدت الإجابة المقنعة عن سؤالي المحيّر: (الهدف من الخلق) في الصفحات الأولى من القرآن الكريم.. لقد قرأت الآيات (٣٠ - ٣٩) من سورة البقرة.. وهي آيات توضح الحقيقة بجلاء لكل دارس منصف، إن هذه الآيات تخبرنا بكل وضوح وجلاء وبطريقة مقنعة عن قصة الخلق..» [١٩].

(٢) «..إن دراستي للقرآن الكريم وضحت أمام ناظري العديد من الإشكالات الفكرية وصححت الكثير من التناقضات التي طالعتها في الكتب السماوية السابقة» [٢٠].

(١٣) د. فيليب حتي، ولد عام ١٨٨٦م لبناني الأصل، أمريكي الجنسية، تخرج في الجامعة الأمريكية في بيروت (١٩٠٨م) ونال الدكتوراه من جامعة كولومبيا (١٩١٥م) وعين معيداً في قسمها الشرقي (١٩١٥ - ١٩١٩) وأستاذاً لتاريخ العرب في الجامعة الأمريكية ببيروت (١٩١٩ - ١٩٢٥) وأستاذاً مساعداً للآداب السامية في جامعة برنستون (١٩٢٦ - ١٩٢٩م)، وأستاذاً ثم أستاذ كرسي ثم رئيساً لقسم اللغات والآداب الشرقية (١٩٢٩ - ١٩٥٤م) حين أحيل إلى التقاعد، انتخب عضواً في جمعيات ومجامع عديدة، من آثاره: (أصول الدولة الإسلامية) (١٩١٦م)، (تاريخ العرب) ١٩٣٧م، (تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين) (١٩٥٢م)، (لبنان في التاريخ) (١٩٦١)، وغيرها.
(١٤) الإسلام منهج حياة، ص٦٦. (١٥) نفسه، ص٢٨٧ - ٢٨٨.
(١٦) الدكتور جورج حنا، مسيحي من لبنان، ينطلق في تفكيره من رؤية مادية طبيعية صرفة، كما هو واضح في كتابه المعروف (قصة الإنسان).
(١٧) قصة الإنسان، ص٧٩ - ٨٠.
(١٨) عامر علي داود، ينحدر من أسرة هندية برهمية، تنصرت على أيدي المبشرين الذين قدموا مع طلائع الاستعمار، كان كثير القراءة للكتب الدينية ولما أتيح له أن يطلع على القرآن الكريم كان الجواب هو اعتناقه للإسلام.
(١٩) رجال ونساء أسلموا ٧/١٦٦ - ١٦٨. (٢٠) نفسه، ٧/١٦٨.

فتاوى لها تاريخ





للإستاذ الإمام الشيخ/ محمد عبده

زى الكتابيين وذبائحهم

● سأل الحاج مصطفى الترنسفالى، فى: أنه يوجد أفراد في بلاد الترنسفال تلبس البرانيط لقضاء مصالحهم وعود الفوائد عليهم، هل يجوز ذلك ؟

هذا أولاً..

وثانياً: أن ذبحهم مخالف؛ لأنهم يضربون البقر بالبلط، وبعد ذلك يذبحون بغير تسمية، والغنم يذبحونها من غير تسمية، هل يجوز ذلك ؟

وثالثاً: إن الشافعية يصلون خلف الحنفية بدون تسمية، ويصلون خلفهم العيدين، ومن المعلوم أن هناك خلافاً بين الشافعية والحنفية فى فرضية التسمية وفى تكبيرات العيدين.. فهل تجوز صلاة كل خلف الآخر ؟

أفتونا فى ذلك.

●● (الجواب): أما لبس البرنيطة، إذا لم يقصد فاعله الخروج من الإسلام والدخول في دين غيره، فلا يعد مكفراً، وإذا كان اللبس لحاجة، من حجب شمس أو دفع مكروه أو تيسير مصلحة لم يكره ذلك، لزوال معنى التشبه بالمرة.

وأما الذبائح: فالذى أراه أن يأخذ المسلمون فى تلك الأطراف بنص كتاب الله تعالى فى قوله:

﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾

(المائدة: ٥)

وأن يعولوا على ما قاله الإمام الجليل أبو بكر بن العربى، المالكى، من أن المدار على أن يكون ما يذبح مأكول أهل الكتاب، قسيسهم وعامتهم، ويعد طعاماً لهم كافة، فمتى كانت العادة عندهم إزهاق روح الحيوان بأى طريقة كانت، وكان يأكل منه، بعد الذبح رؤساء دينهم؛ ساغ للمسلم أكله، لأنه يقال له طعام أهل الكتاب، متى كان الذبح جارياً على عادتهم المسلمة عند رؤساء دينهم، ومجئ الآية الكريمة:

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾

بعد آية تحريم الميتة وما أهل لغير الله به بمنزلة دفع ما يتوهم من تحريم طعام أهل الكتاب، لأنهم يعتقدون بألوهية عيسى؛ وكانوا كذلك كافة فى عهده عليه الصلاة والسلام، إلا من أسلم منهم. ولفظ أهل الكتاب مطلق لا يصح أن يحمل على هذا القليل النادر، فإذن تكون الآية كالصريحة فى حل طعامهم مطلقاً، متى كان يعتقدونه حلا فى دينهم، دفعاً للحرج فى معاشرتهم ومعاملتهم.

وأما صلاة الشافعى خلف الحنفى فلا ريب عندى فى صحتها، مادامت صلاة الحنفى صحيحة على مذهبه، فإن دين الإسلام واحد، وعلى الشافعى المأموم أن يعرف أن أمامه مسلم صحيح الصلاة، بدون تعصب منه لإمام. ومن طلب غير ذلك فقد عد الإسلام أدياناً لا ديناً واحداً، وهو مما لا يسوغ لعاقل أن يرمى إليه بين مسلمين قليلى العدد فى أرض كل أهلها من غير المسلمين إلا أولئك المساكين. والله أعلم[1].

ذبيحة الإسرائيليين!!

● سأل مخلوف الداودى حاخام سى لواء عكا، فى: ذبيحة الإسرائيليين الموسويين الذين يذكرون اسم الله تعالى قبل الذبح، هل يحل فى الديانة الإسلامية الأكل منها؟ أم لا ؟؟

●● (الجواب): ذبيحة الإسرائيليين يحل الأكل منها بنص الكتاب العزيز، كما قال الله تعالى:

﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾

(المائدة: ٥)

ولا أظن أحداً يؤمن بكتاب الله تعالى ويعقل منه ما أراد الله أن يفهم يخطر بباله تحريم ذبيحة الإسرائيليين الذين يؤمنون برسالة موسى عليه السلام[2].

الاعتراض على قانون ظالم

● وردت إفادة من نظارة الحربية لمشيخة الجامع الأزهر، مؤرخة فى ٢١ نوفمبر سنة ١٩٠٠ نمرة ٥٢٩ مضمونها: أن المادة الثانية من الأمر العالى الصادر فى ١٧ مايو سنة ١٨٨٧ بأن من يفر من العساكر يصير إشعار ضامنه، الذى هو رئيس العائلة، بالبحث عليه فى ميعاد ثلاث شهور من تاريخ وصول الإشعار إليه بذلك، وإن لم يستحضره فيها فيؤخذ «نفر» بدله من عائلته الذين فى سن القرعة، بمراعاة أولوية أخذ الأقرب فالأقرب.

وحيث إنه قد يتفق عدم وجود أقارب للهاربين إلا بدرجة بعيدة جداً، ولم تعلم الدرجة النهائية للقرابة من العصب ومن ذوى الأرحام الممكن الأخذ منها، فالأمل توضيحها بحسب درجاتها من الأقرب فما بعد.

وصارت إحالة هذه المكاتبة من المشيخة

---

(١) تاريخ هذه الفتوى ٦ من شعبان سنة ١٣٢١ هـ ورقمها فى السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء ١٩٠ وتقع فى النهر الأيسر من ص ٣١.

(٢) تاريخ هذه الفتوى ٨ من ذى الحجة سنة ١٣١٩ هـ، ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٤٤ وتقع فى ص ١٧٩، ١٨٠.

بإشارة منها فى ٥ شعبان سنة ١٣١٨ على إفتاء الديار المصرية ليتوضح منها عما ترغبه بالمكاتبة المذكورة نظارة الحربية، وتحرر من الإفتاء للمشيخة الإجابة الآتية:

●● (الجواب): أقرب قرابات الشخص عصبته: ابنه، ثم ابن أخيه، وإن نزل، ثم أبوه، ثم جده، أب أبيه، وإن علا، ثم بعد الأب والجد المذكور: الأخ لأب وأم، وهو الأخ الشقيق، ثم الأخ لأب، ثم بنو الأخ الشقيق، ثم بنو الأخ لأب، ثم بعد الأخ الشقيق والأخ لأب وأبنائهما: عمه أخ أبيه الشقيق، ثم عمه لأب، ثم أبناء العم الشقيق، ثم أبناء العم لأب وإن نزل كل من أبناء العمين، ثم عم أبيه الشقيق، ثم عم أبيه لأب، ثم بنو عم أبيه لأبوين، ثم بنو عم لأب، وإن نزل كل من أبناء العمين، ثم عم جده الصحيح لأب وأم، ثم عم جده لأب، ثم أبناء عم الجد لأب وأم، ثم أبناء عم الجد لأب، وإن نزل كل منهما، وهؤلاء مقدمون على ذوى الأرحام.

ثم أقرب القرابات إلى الشخص من ذوى الأرحام أبناء بناته، وإن نزلوا، ثم أبناء بنات أبنائه، وإن نزلوا، ثم أب أمه، ثم أب أب أمه، ثم أبناء الأخوات لأبوين، ثم لأب، ثم بنو الإخوة لأم، وإن نزلوا.

هذا ما قالوه فى الأقارب من العصبات وذوى الأرحام وترتيبهم، وهو ترتيب ما يدخل تحت اسم القريب عندما يتعلق به حكم من الأحكام الشرعية كالميراث والوقف ونحوهما.

ولا يخفى أنه لا يمكن تطبيق ما جاء فى الأمر العالى على هذا، لأنه لا يعقل أن يؤخذ أب الهارب أو جده بدله إن لم يوجد له ابن مثلاً، ثم إن الأمر العالى ينص على أن يؤخذ نفر بدله من عائلته الذين فى سن القرعة، ومن المعلوم أن اسم العائلة له معنى غير معنى القريب، فلا يدخل فى اسم العائلة كل ما يدخل فى اسم القريب، بل العائلة خاصة بطبقة من الأقارب مخصوصة، وهم الذين يعول بعضهم بعضاً عادة أو الذين من شأنهم ذلك، وذلك هو الابن فابن الابن ثم الأب فالجد ثم الأخ الشقيق فالأخ لأب ثم ابن الأخ الشقيق فابن الأخ لأب ثم العم الشقيق فالعم لأب ثم ابن العم الشقيق فابن العم لأب، أما الباقون من الطبقات فلا يدخلون مطلقاً مهما كانت درجة قربهم للهارب.

والغرض من «الدكريتو» هو حث من لهم صلة قربية بالهارب على أن يبحثوا عنه حتى يجدوه، فإن لم يجدوه عوقبوا بذلك العقاب، وهو أن يؤخذ واحد منهم بدله، فهو فى الحقيقة عقاب على الإهمال المتوهم، وهذه التبعة إنما تكون على الأقارب الذين ذكرناهم، لأن القرابة متى بعدت عن درجتين ضعفت صلتها، ولا يحمل أربابها تبعة ما يحصل من بعضهم فى مثل هذه المسألة.

على أن شأن العائلات قد تغير فى هذه السنين الأخيرة، فأصبح القريب أشد مقاطعة لقريبه من البعيد، وأصبحت روابط الأخوة لا قيمة لها فى الأغلب، بل الأبناء

قد خرجوا عن سلطة آبائهم. والهارب من العسكرية لا يبالى بأبيه ولا بأخيه ولا يدلهم على مكانه، فالأليق بالعدالة فى مثل هذه الأيام أن يعدل الأمر العالى المذكور وتلغى المادة الثانية، فإن ضمانة رئيس العائلة أصبحت فى هذا المعنى كعدمها، وتحمل الأقارب لتبعة من يفر منهم صارت لا معنى لها، وسلطة الحكومة أقوى من كل ذلك، فلا يليق بها أن تعاقب شخصاً بذنب آخر. فإن كان لابد من بقاء المادة على حالها فدرجة القرابة فى العائلة لا تعتبر إلا فى الدرجات التى ذكرناها فيما يدخل تحت اسم العائلة فقط، ولا ينظر إلى ما يدخل فى اسم القريب الذى يستعمل فى الشئون الشرعية، فإن الفرق ظاهر بين العائلة وبين الأقارب مطلقاً[٣].

تحديد أوائل الشهور العربية

● سئل (٤) بإفادة من جناب مدير عموم المساحة، مؤرخة فى ١٧ يونيه سنة ١٩٠٢م نمرة ٦٨٠٨ مضمونها:

أن هذه المصلحة أخذت من عهد قريب فى حساب النتيجة الميرية السنوية، ويهمها أن تكون هذه النتيجة غاية فى الضبط، ليصح التعويل عليها فى الأعمال الدينية والمدنية، وترغب المصلحة الإفادة عما إذا كان المعول عليه فى تعيين أوائل الشهور العربية بحسب الشرع الإسلامى هو الرؤية، كما فى رمضان؟ أو الحساب؟؟. وتنفرد بعض الشهور بالرؤيا، ويتحتم فيها ذلك كما يتحتم فى تعيين أول شهر الصوم؟؟ وعما إذا كانت، والحالة هذه، النتيجة الدينية المبنية على الرؤيا تنطبق على النتيجة المدنية المبنية على الحساب؟ أو بينهما فرق؟ مع الإشارة إلى المؤلفات العربية التى تفى العام حقه ويمكن التعويل عليها فى هذا الموضوع.

●● (الجواب): المقرر شرعاً أن أول الشهر إنما يعرف برؤية الهلال، ويثبت ذلك بالشهادة المعروفة عند أهل الشرع، لا فرق فى ذلك بين رمضان وشوال وغيرهما. أما العمل بالحساب ففيه خلاف بين علماء بعض المذاهب. والمعول عليه أنه لا يلتفت إلى الحساب، لأن أحكام الدين الإسلامى مبنية على الأسهل والأيسر للناس فى أى قطر كانوا وأى بقعة وجدوا.

وأما نطاق وجود هذا الحكم فهى أبواب الصوم فى جميع كتب الفقه المعتبرة. والله أعلم[٥].



(٣) تاريخ هذه الفتوى ٧ شعبان سنة ١٣١٨ هـ ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٢٤٣ وتقع فى ص ١٠٤، ١٠٥.

(٤) أى الأستاذ الإمام.

(٥) تاريخ هذه الفتوى ٢٠ من ربيع الأول سنة ١٣٢٠ هـ ورقمها فى السجل الثالث من سجلات دار الافتاء ١٣، وتقع فى الفهرس الأيسر من ص٢.

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر – المتضمن لبعض الأسئلة وهي:

حكم الحج مع وجود دين

● هل يجوز لي أن أحج من مالي الخاص مع وجود دين على زوجي؟ وهل يجوز أن أشترك في جمعية من هذا المال دون علمه؟

●● الجواب: من المقرر شرعاً أن كل واحد من الزوجين ذمته المالية مستقلة عن صاحبه، والزوج مكلف بالإنفاق على زوجته وإن كانت غنية، ويجوز للزوجة أن تبرم ما تشاء من تصرفات من مالها الخاص ما لم يترتب على ذلك مساس بحقوق زوجها وقوامته عليها وعلى البيت، ولا يجب على الزوجة إطلاع زوجها على مدخولاتها ومخرجاتها المالية، ولا تفاصيل تعاملاتها المالية، وليس أحد من الزوجين مكلفاً بدين الآخر.

وعليه فيجب على المرأة أن تحج إذا كانت قادرة حتى ولو كان زوجها مديناً؛ لأن الحج فرض يثبت بالاستطاعة، وقضاء دين الغير تبرع، والتبرع نفل، والفرض مقدم على النفل.

وعليه وفي واقعة السؤال: لا مانع من حجك مع وجود دينه، ولا مانع من اشتراكك في الجمعية دون علمه.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

حكم الرضاعة لغير الأبناء

● تقدمت لخطبة بنت خالتي، وسمعت من أمي تقول: إنها أرضعتها مع أختي الصغرى، ولا تذكر عدد الرضعات، وإنها رضعات غير مشبعة، ويسأل: هل يحرم عليَّ الزواج منها؟ وهل تحرم على جميع إخوتي؟

●● الجواب: المقرر شرعاً أنه يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب متى تم الرضاع في مدته الشرعية وهي سنتان قمريتان من تاريخ الولادة على المفتى به؛ إذ بالإرضاع تصير المرضعة أمًّا من الرضاع لمن أرضعته، ويصير جميع أولادها سواء من رضع معه أو قبله أو بعده إخوة وأخوات له رضاعاً، وقد اختلف الفقهاء في مقدار الرضاع المحرم فذهب أبو حنيفة ومالك ورواية عن الإمام أحمد إلى أن قليل الرضاع وكثيره سواء في التحريم، وذهب الإمام الشافعي وأظهر الروايات عن الإمام أحمد إلى أن الرضاع الموجب للتحريم هو ما بلغ خمس رضعات مشبعات متفرقات فأكثر في مدة الرضاع سالفة الذكر، فإذا وقع الشك في عدد مرات الرضاع هل هي أقل من خمس رضعات أو خمس فأكثر لم يثبت التحريم، لأن الأصل المتيقن عدم التحريم فلا يزول بالشك.

وعلى ذلك يجوز للسائل أن يتزوج بنت خالته على هذا المذهب وهو الأرفق فيما عمت به بلوى الرضاع.. ومما ذكر يعلم الجواب.

والله سبحانه وتعالى أعلم



يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور

علـــى جمعـــة

مفتى جمهورية مصر العربية

يجوز أن تتزوج ابنة عمك

● رضعت بنت عمي الكبيرة من والدتي، وأنا أريد أن أتزوج أختها الصغيرة، علماً بأنني وأختها الصغيرة لم نرضع من امرأة واحدة.. أرجو بيان حكم الشرع؟

●● الجواب: يجوز لك أن تتزوج من ابنة عمك الصغيرة هذه طالما أنك لم ترضع من والدتها، ولم ترضع هي من والدتك ولم ترضعا كلاكما من امرأة ثالثة، وأمر الحرمة هنا يتعلق بابنة عمك الكبيرة فقط فقد صارت هي بمفردها أختاً لك من الرضاع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

الغسل بعد الاستمناء

● هل يجب الغسل بعد الاستمناء؟

●● الجواب: العادة السرية من الأمور المذمومة التي تضر بالإنسان، لذا ذهب جمهور الفقهاء إلى حرمتها؛ لقوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾

«المؤمنون: ٥ - ٧»

والمستمني بيده قد ابتغى لشهوته وراء ذلك، وثبت فيما أخرجه الحسن بن عرفة في جزئه المشهور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه

قال: «سبعة لا يظلهم الله فى ظله يوم القيامة» ومنهم ناكح يده ـ أى المستمنى ـ وعلى الشاب أن يتبع حديث النبى صلى الله عليه وسلم حيث يقول: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج» رواه البخارى.

وبناء على ما سبق وفى واقعة السؤال: يجب على الشاب المسلم أن يتخلق بالصفات الحميدة ويبتعد عن الرذائل والعادات المذمومة، وإذا حدث استمناء باليد وخرج المنى عن طريق الشهوة وحدث إنزال فيجب عليه الغسل كاملاً.

ومما ذكر يعلم الجواب.

والله سبحانه وتعالى أعلم

حكم التبرع بالدم

● طلب إصدار فتوى تفيد بيان الحكم الشرعى التبرع بالدم؛ نظراً للاحتياج الشديد والتزايد لتوفير دم آمن للمرضى من خلال الاعتماد على التبرع الشرقى المنتظم بالدم بدون مقابل؟

●● الجواب: إن الله سبحانه وتعالى كرم الإنسان وفضله على كثير من خلقه، ونهى عن ابتذال ذاته ونفسه والتعدى على حرماته، وكان من مقاصد الشريعة الإسلامية حفظ النفس، يقول تعالى:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾

(الإسراء: ٧٠)

ومن مظاهر التكريم خلق الله الإنسان فى أحسن صورة وأجملها، واعتبار ذلك نعمة من الله على الإنسان، فيجب على الإنسان أن يشكر الله عليها، يقول تعالى:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾

(التين: ٤)

ومن مظاهر تكريم الله للإنسان أنه اعتبر جسده أمانة ائتمنه عليها، فلا يجوز لأحد أن يتصرف فيه بما يسوءه أو يرديه، حتى ولو كان هذا التصرف من صاحب هذا الجسم نفسه، ولذا حرمت الأديان السماوية والقوانين إتلاف البدن وإزهاق الروح عن طريق الانتحار أو ما يؤدى إليه، يقول تعالى:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾

(النساء: ٢٩)

ومن مظاهر تكريم الله للإنسان أنه أمره بالاهتمام بإصلاح جسده ظاهرا وباطنا، وأمره باستعمال كل وسائل العلاج التى تؤدى إلى شفائه من مرضه، فقد أخرج البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تداووا عباد الله؛ فإن الله سبحانه لم يضع داء إلا وضع معه شفاء، إلا الهرم» وفى رواية أخرى: «إلا السام» أى الموت. فالشريعة الإسلامية قد كرمت الإنسان تكريماً عظيماً، وأمرته بالمحافظة على نفسه وجسده من كل ما يهلكه أو يسوءه، ونهت عن قتله أو إنزال الأذى به، فلا يجوز له أن يتصرف فى جسده تصرفاً يؤدى إلى إهلاكه أو إتلافه؛ لأن كل إنسان ـ وإن كان صاحب إرادة فيما يتعلق بشخصه ـ إلا أنها مقيدة بالحدود التى شرعها الله تبارك وتعالى فى قوله:

﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(البقرة: ١٩٥)

وقوله سبحانه:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾

(النساء: ٢٩)

والإنسان مطالب بالمحافظة على بدنه وجميع أعضائه ومكوناته، ومنها الدم، والدم سائل حيوى من سوائل الجسم، وقد اقتضت طبيعته أن يكون عضواً سائلاً متحركاً، يجرى داخل أوردة الجسم وشعيراته. فلا يعرض نفسه لأى أذى بأى حال من الأحوال.

فالتبرع بالدم إن كان ينقذ إنساناً من هلاك محقق وأقر أهل الخبرة من الأطباء العدول أن ذلك لا يضر من تبرع ولا يؤثر على صحته وحياته وعلمه، فلا مانع من الترخيص فى ذلك إن خلا من الضرر، ويعد ذلك من باب إحياء النفس التى أمر الله بإحيائها، ومن باب التضحية والإيثار، وهو ما أمر به القرآن:

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾

(الحشر: ٩)

وقياس ذلك إنقاذ الغرقى والحرقى والهدمى مع احتمال الهلاك عند الإنقاذ، يقول تعالى:

﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾

(المائدة: ٢)

وبناء على ذلك وفى واقعة السؤال: فإن التبرع بالدم لا مانع منه شرعاً، خاصة وأن الدم عضو متجدد، بل دائم التجدد والتغير، وذلك بالضوابط والشروط الآتية:

١ ـ وجود ضرورة قصوى عند التبرع، كأن يكون بعض الناس أو الأفراد فى حاجة ماسة إلى كميات من الدم لإنقاذ حياتهم من الهلاك أو الإشراف على الهلاك، كالحوادث والكوارث والعمليات الجراحية.

٢ ـ أن يكون التبرع بالدم محققاً لمصلحة مؤكدة للإنسان من الوجهة الطبية، ويمنع عنه ضرراً مؤكداً.

٣ ـ أن لا يؤدى التبرع بالدم إلى ضرر على المتبرع كلياً وجزئياً، أو يمنعه من مزاولة عمله فى الحياة ماديا أو معنويا، أو يؤثر عليه سلبا فى الحال أو المآل بطرق مؤكدة من الناحية الطبية.

٤ ـ أن يتحقق بالطرق الطبية خلو المتبرع بالدم من الأمراض الضارة بصحة الإنسان؛ لأنه لا يجوز شرعاً دفع الضرر بالضرر.

٥ ـ أن يكون المتبرع بالدم إنساناً كامل الأهلية.

وأما عن ثواب المتبرع فإن القادر الصحيح إذا أعطى الدم لمريض فى حاجة ماسة إليه استحق من الله تعالى ثواب ما أعطى وجزاء ما قدم، بإنقاذه من مهلكة أو برفعة درجاته أو بحط سيئاته، قال تعالى:

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾

(الرحمن: ٦٠)

وقال صلى الله عليه وسلم: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة» رواه البخارى. وقال صلى الله عليه وسلم: «من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومن ستر على مسلم ستر الله عليه فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه» رواه أبو داود.

ومما ذكر يعلم الجواب.. والله سبحانه وتعالى أعلم

الإسلام يحترم شرائع غير المسلمين



للمستشار/ حسن حسن منصور
نائب رئيس محكمة النقض

فى الأيام القليلة الماضية، وبمناسبة التفاعل الفكرى المصاحب لعرض اقتراح التعديلات الدستورية الأخيرة على الاستفتاء العام، برزت على سطح المناقشة حولها دعاوى من بعض المشاركين فى هذا التفاعل، مفادها أن هناك تخوفاً من المساس بالمادة الثانية من الدستور، التى تقرر أن مبادئ الشريعة الإسلامية، هى المصدر الرئيسى للتشريع، رغم أن هذه التعديلات لم تشر لا من قريب ولا من بعيد إلى هذه المادة.

ومن خلال استقراء واقع التطبيق القانونى والقضائى، الذى نعايشه نظرياً وعملياً منذ أكثر من أربعين عاماً، يمكن القول وبكل تجرد وموضوعية: إن هذه الدعاوى تجافى حقيقة هذا الواقع، وتلك حجتنا على صدق ذلك، نسوقها متمثلة فى الآتى:

أولاً: بادئ ذى بدء، يمكن القول بأنه: إذا كان دستور سنة ١٩٢٣، هو الأصل الدستورى لجميع النصوص، التى رددتها الدساتير المصرية المتعاقبة، ومنها المادة ٤٦ من الدستور الدائم الحالى، الصادر عام ١٩٧١، التى تكفل حرية العقيدة وممارسة الشعائر الدينية، فإنه بالرجوع إلى الأعمال التحضيرية لهذه الدساتير، يتضح بجلاء أن الأديان السماوية المعترف بها دستورياً، هى الديانات الثلاث: الإسلام والمسيحية واليهودية، وهو ما قضت به المحكمة الإدارية العليا بتاريخ ١٦/١٢/٢٠٠٦، فى القضيتين رقمى ١٦٨٣٤، ١٨٩٧٢ لسنة ٥٢ ق. عليا، عندما عرض عليها النزاع، حول كتابة البهائية، فى خانة الديانة فى بطاقة تحقيق الشخصية.

ثانياً: من الأصول العامة المستقرة فى نظام الدولة الحديثة، أن الدستور وهو أعلى وثيقة تشريعية فيها، يخاطب المشرع القانونى، وليس القاضى، وطبقاً لهذا الأصل، فإن دساتير مصر المتعاقبة، ومنها الدستور الصادر عام ١٩٧١، عندما نص فى مادته الثانية، على: "الإسلام دين الدولة، واللغة العربية لغتها الرسمية، ومبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع"، فهى تطلب من المشرع مهما كانت صورته، عند إصدار أى تشريع، يجب عليه فى المقدمة أن يلتزم هذه المبادئ، حتى لا يأتى هذا التشريع مخالفاً للدستور، وكما هو معلوم أن سلطة التشريع، لا تقتصر على البرلمان بمختلف مجالسه (شعب أو شورى)، الذى يصدر القوانين، بل تمتد لتشمل كل من يصدر نصاً تشريعياً، أياً كانت درجة قوته، كالقرارات الجمهورية أو الوزارية، واللوائح التنظيمية وغير ذلك.

ويترتب على مراعاة هذا الأصل، أن القاضى فى أية درجة من درجات التقاضى، غير مخاطب بتطبيق نصوص الدستور مباشرة، على واقعات أى نزاع قضائى، أياً كانت صورته (مدنياً أو جنائياً أو تجارياً أو إدارياً أو غير ذلك)، لأن القاضى ملتزم بتطبيق نصوص القوانين المختلفة، وهى أدنى درجة من الدستور، ومنه تستمد شرعيتها، ومن ثم فإن القاضى الذى يطبق نصوص الدستور مباشرة على واقعات النزاع، دون نصوص القانون المنطبقة عليها، يكون حكمه باطلاً بطلاناً مطلقاً، ولا يصححه، إلا تطبيق القاضى لنصوص القانون المخاطب به، وليس نصوص الدستور، وعلى هذا إذا صدر حكم قضائى على هذا النحو من البطلان، فإنه لا يعول عليه، ولا يحتج به، فى أى مجال، لأنه هو والعدم سواء.

وهذا الحظر ينتظم جميع درجات التقاضى، بما فيها الدرجات العليا، كالنقض والإدارية العليا والدستورية العليا، لأن القاضى الدستورى يختص أساساً بمراقبة سلطة التشريع - أياً كان شكلها أو صورتها - فى إصدار تشريعات مطابقة للدستور، فإذا ثبت لديه أن أى تشريع منها صدر مخالفاً للدستور، قضى بعدم دستوريته، وبالتالى لا يعمل به، إلى أن تصدر هذه السلطة التشريع المتسق مع الدستور، ولا شأن للمحكمة الدستورية فى التدخل فى موضوع النزاع الأصلى، الذى يحكمه القانون الموافق للدستور.

ثالثاً: باستعراض نصوص قانون المرافعات، وهو يمثل القواعد العامة فى الإجراءات القضائية، يتضح بجلاء، أنه قد جاء خلواً، من ثمة إشارة إلى اعتبار الدين، كأحد البيانات الجوهرية أو حتى الثانوية، فى إجراءات التقاضى، بل إن المادة ١٧٨ منه، عندما أوردت ذكر البيانات، التى يجب على المحكمة إثباتها فى الحكم القضائى، لم تشر من قريب أو بعيد إلى بيان ديانة أطراف النزاع، فقد نصت على أنه: "يجب أن يبين فى الحكم المحكمة التى أصدرته، وتاريخ إصداره ومكانه......، وأسماء القضاة.....، وأسماء الخصوم وألقابهم وصفاتهم وموطن كل منهم، وحضورهم وغيابهم". وعلى هذا فإن المحامى عند تحريره صحيفة الدعوى، لا يضمنها أية بيانات تتعلق بديانة الخصوم

فيها، بل إن القاضي عند كتابة مسودة الحكم القضائي، لا يدون فيها أسماء الخصوم، ولكن يكتفي بإيراد صفة كل منهم (مدعي أو مدعى عليه أو متدخل وغير ذلك)، الأمر الذي لا يمكن معه القول بأن أي حكم قضائي، يمكن أن يتضمن ثمة إشارة إلى تمييز بين الخصوم فيه، على أساس الديانة التي ينتمي إليها أي واحد منهم.

رابعاً: حقيقة الواقع في النظام القانوني المعمول به في مصر، منذ دخول نظام التقنينات الحديثة، في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، على يد الخديوي إسماعيل، هي أن الغالبية العظمى من التقنينات في مختلف فروع القانون (الجنائي والمدني والتجاري وغيرها)، مصدرها التاريخي واحد، هو القانون الوضعي المأخوذ من النظام اللاتيني، الذي يرجع في أصوله للقانون الروماني، وليست له أية صلة بالأديان، وقد خلت هذه التقنينات من ثمة إشارة إلى اعتناق نصوصها لمبادئ دينية معينة، وإن كانت في مجملها لم تحمل ما يخالف الشرائع الدينية المعترف بها، وعلى رأسها الشريعة الإسلامية، ولكن بقي فرع واحد، بعيداً عن هذا المصدر، وهذا الفرع هو المتعلق بالأحوال الشخصية، الذي مصدرها الوحيد هو أحكام الشرائع الدينية، سواء كانت الشريعة الإسلامية، أو شرائع ولوائح طوائف وملل غير المسلمين، المستمدة من الكتب المقدسة.

وتطبيقاً لذلك في مجال احترام الشرائع الدينية، نذكر على سبيل المثال، النظام القانوني المستقر عليه العمل في مسائل الأحوال الشخصية، بالنسبة لإجراءات التقاضي في هذه المسائل، يسري على جميع المصريين، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، قانون واحد هو القانون رقم (١) لسنة ٢٠٠٠ ببعض أوضاع وإجراءات التقاضي في مسائل الأحوال الشخصية، عملاً بما نصت عليه المادة الأولى من مواد إصداره، وبالنسبة للمسائل الموضوعية في الأحوال الشخصية، فقد نصت المادة الثالثة من مواد إصدار هذا القانون، على أنه: "تصدر الأحكام طبقاً لقوانين الأحوال الشخصية الوقف المعمول بها، ويعمل فيما لم يرد بشأنه نص في تلك القوانين بأرجح الأقوال من مذهب الإمام أبو حنيفة. ومع ذلك تصدر الأحكام المتعلقة بالأحوال الشخصية بين المصريين غير المسلمين المتحدي الطائفة والملة، الذين كانت لهم جهات قضائية ملية منظمة حتى ١٣ ديسمبر ١٩٥٥ طبقاً لشريعتهم، فيما لا يخالف النظام العام".

وهذه المادة تقابل المادة السادسة من القانون رقم ٤٦٢ لسنة ١٩٥٥ بإلغاء المحاكم الشرعية والمجالس الملية، وهي تقرر قاعدة سريان القانون الواجب التطبيق، بالنسبة لغير المسلمين من المصريين، والتي من مقتضاها، أنه إذا كانوا مختلفي الديانة أو الملة أو الطائفة، فتطبق عليهم الشريعة الإسلامية كالمسلمين تماماً، ولكن إذا كانوا متحدي الديانة والملة والطائفة، فإن القواعد الموضوعية في شريعتهم الخاصة هي التي تطبق عليهم، ولكن بشروط ثلاثة هي:-

(١) أن تكون لهم جهة قضائية ملية منظمة حتى ٣١ / ١٢ / ١٩٥٥، وقت صدور القانون رقم ٤٦٢ لسنة ١٩٥٥ بإلغاء المحاكم الشرعية والمجالس الملية.

(٢) ألا تخالف القواعد الموضوعية في الشريعة الخاصة لغير المسلمين المتحدي الملة والطائفة النظام العام في مصر، ومثال ذلك: التبني الذي تجيزه بعض شرائع غير المسلمين، وهو مخالف للنظام العام باعتباره من محظورات الشريعة الإسلامية.

(٣) أن يكون غير المسلمين متحدي الديانة والملة والطائفة

وقد استقر قضاء محكمة النقض في ظل المادة السادسة من القانون رقم ٤٦٢ لسنة ١٩٥٥، بإلغاء المحاكم الشرعية والملية، والتي كانت تنص على أنه "بالنسبة للمنازعات المتعلقة بالأحوال الشخصية للمصريين غير المسلمين، والمتحدي الملة والطائفة، الذين لهم جهات قضائية منظمة وقت صدور هذا القانون، فتصدر الأحكام في نطاق النظام العام، طبقاً لشريعتهم.....". على أن لفظ: "شريعتهم"، الوارد في هذا النص، هو لفظ عام، لا يقتصر مدلوله على ما جاء بالكتب السماوية وحدها، بل ينصرف إلى ما كانت تطبقه جهات القضاء الملي قبل إلغائها، باعتبارها شريعة نافذة، إذ لم يكن يتيسر للمشرع حين إلغاء هذه الجهات، أن يقنن كافة القواعد الواجبة التطبيق في مسائل الأحوال الشخصية لغير المسلمين، لجميع الملل والطوائف في آن واحد، فاكتفى بتوحيد القضاء، تاركاً الوضع على ما كان عليه، بالنسبة للأحكام الموضوعية التي يتعين على المحاكم تطبيقها، وأحال إلى الشريعة التي كانت تطبق في تلك المسائل، أمام جهات القضاء الملي، ولم تكن هذه الشريعة التي جرى العمل على تطبيقها، تقتصر على ما جاء بالكتب السماوية، بل امتد إلى شروح وتأويلات بعض المجتهدين من رجال الكهنوت".

خامساً: من المعلوم في فقه القانون المقارن، أن الشريعة الإسلامية تطبق كنظام قانوني اجتماعي، وليس كعقيدة ودين، أي أن الذي يطبق من أحكام هذه الشريعة، هو جانب المعاملات المعلوم للكافة، ومن سماحة هذه الشريعة، أن القاضي يطبق هذا الجانب في إطار المبادئ المستقرة فيها، في شأن معاملة غير المسلمين، ومنها مبدأ: لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، ويضاف إليه التوصية القرآنية والنبوية بأهل الذمة خيراً، على نحو ما ورد فيما أخرجه الإمام السيوطي في الجامع الصغير، مما رواه الخطيب البغدادي في تاريخه، عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه، أن الرسول ﷺ، قال: "من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه، خصمته يوم القيامة"، وقال العلماء في بيان سبب

هذه الخاصمة: إن الإمام (ولى الأمر) ملزم بالدفاع عن الذمى، فإذا آذاه إنسان، فقد افتات على الإمام، وتعرض لمخاصمته، فصار خصمه.

وعلى هذا الأساس، فقد اعترفت الأمم المتحدة بالشريعة الإسلامية، كأحد الأنظمة القانونية العالمية، المعمول بها فى قضاء محكمة العدل الدولية.

وقد استقر قضاء محكمة النقض المصرية منذ أمد بعيد، على: أن أحكام الشريعة الإسلامية باعتبارها الشريعة العامة، هى الواجبة التطبيق فى منازعات الأحوال الشخصية، التى تقوم بين الزوجين المسيحيين، إذا اختلفا طائفة أو ملة، والمقصود بالخضوع للشريعة الإسلامية، أن تكون أحكامها الموضوعية و التى يخضع لها المسلم - دون أحكام الشريعة الخاصة - هى الواجبة التطبيق، لأنه من غير المتصور أن يكون تطبيق الشريعة العامة، يقصد به تطبيق قواعد الإسناد، التى تقضى بترك غير المسلمين وما يدينون، فى تنظيم أحوالهم الشخصية، وتكون الإحالة إلى الشريعة الإسلامية، منذ البداية لغواً، يتبغى أن يتنزه عنه المشرع، إلا أنه لا محل لإعمال هذه القواعد الموضوعية فى الشريعة العامة، والتى يتمتع بمقتضاها الزوج المسيحى، بنفس حقوق الزوج المسلم، إذا تصادمت بأحد المبادئ المتصلة بجوهر العقيدة المسيحية، والتى تعد مخالفة المسيحى لها، مروقاً من ديانته، وانحرافاً عن عقيدته، وخرقاً لمسيحيته، طالما لا تنطوى مبادئ الشريعة على ما يتجافى وقواعد النظام العام فى مصر، ومن قبيل هذه المبادئ التى لا تتعارض وقواعد النظام العام، وتعتبر من الأصول الأساسية فى الديانة المسيحية، مبدأ حظر تعدد الزوجات، إذ لا يجوز إعمال ما يناقضه، من الأحكام الموضوعية فى الشريعة الإسلامية. (نقض الطعنين رقمى ١٦، ٢٦ لسنة ٤٨ ق. "أحوال شخصية" جلسة ١٧ / ١ / ١٩٧٩)، وتعتبر من الأصول الأساسية فى الديانة المسيحية، خاصة الأرثوذكس، اعتبار الزواج من المقدسات، وأنه سر من أسرار الكنيسة.

سادساً: من تطبيقات القضاء المصرى، التى تؤكد احترام شرائع غير المسلمين، ما قضت به محكمة النقض المصرية، فى العديد من أحكامها الصادرة فى مسائل الأحوال الشخصية، ونسوق منها نموذجين على سبيل المثال، كالآتى:-

١- إن الإجماع أخذاً بروح الإنجيل، وفكرة الجسد الواحد، وعفة الزواج المسيحى، على أن الوحدة فى الزواج، تعتبر من المبادئ التى تمسكت بها المسيحية، من مستهل بزوغها، ومن خصائص الزواج المسيحى، أنه علاقة فردية، لا يمكن أن تنشأ إلا بين رجل واحد وامرأة واحدة، فلا يجوز للرجل أن يتزوج بأكثر من امرأة واحدة فى نفس الوقت، ولا يجوز للمرأة أن تجمع أكثر من زوج فى وقت واحد، وحظر تعدد الزوجات وتعدد الأزواج على سواء، يعد من المبادئ التى سادت المسيحية طوال العشرين قرناً الماضية، ولم تكن إطلاقاً موضع خلاف، على الرغم من انقسام الكنيسة، إلى شرقية وغربية، وإلى أرثوذكسية وكاثوليكية وبروتستانتية، حتى أصبحت شريعة الزوجة الواحدة، لها سمة وعليها علماً، مما مؤداه، أن هذا المبدأ يعتبر من القواعد الأصلية، فى المسيحية على اختلاف مللها ونحلها وطوائفها ومذاهبها، المتعلقة بصميم العقيدة الدينية، والواجبة الاحترام، والخليقة بالانصياع، فيما بين المسيحيين، بحيث يعتبر الزواج الثانى، المعقود حال الزوجية الأولى باطلاً، ولو رضى به الزوجان، ويكون لهما ولكل ذى شأن حق الطعن فيه.

٢- إن من المقرر وفقاً لنص الفقرة الأخيرة من المادة ١٧ من القانون رقم (١) لسنة ٢٠٠٠ ببعض أوضاع وإجراءات التقاضى فى مسائل الأحوال الشخصية، على أنه: "لا تقبل دعوى الطلاق، بين الزوجين متحدى الملة والطائفة، إلا إذا كانت شريعتهما تجيزه:، مؤداه - وعلى ما جرى به قضاء هذه المحكمة - أن المشرع قصد تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية و فى منازعات الأحوال الشخصية، التى تقوم بين زوجين غير مسلمين، إذا ما اختلفا طائفة أو ملة، وأن دعوى الطلاق لا تقبل من أحدهما على الآخر، إلا كانت شريعتهما تجيزه، أى أن يكون الطلاق مشروعاً فى ملة كل من الزوجين غير المسلمين، ولو توقف على حكم القاضى، وأن المشرع قصد من هذا النص التفرقة بين الطوائف التى تجيز شريعتها الطلاق، فأجاز قبول الدعوى به بالنسبة لها، دون الطوائف التى لا تجيزه شريعتها، فمنع من قبول دعوى الطلاق بين من ينتمون إليها، رفعاً للحرج والمشقة، وكان المذهب الوحيد فى المسيحية، الذى لا يجيز الطلاق و هو المذهب الكاثوليكى على اختلاف طوائفه.

وهذا المستقر عليه، فى قضاء محكمة النقض، هو المرجع الأساسى لواقع التطبيق القضائى فى مصر، لما تمثله هذه المحكمة من قيمة قانونية رفيعة، باعتبارها الدرجة العليا للتقاضى، ذات الإلزام الأدبى لما دونها من درجات، وهو ما يؤكد احترام شرائع غير المسلمين فى هذا الإطار، بما تزول معه ثمة شبهة دعوى التمييز بين أفراد المجتمع فى هذا المجال.

إن النص فى الدساتير المصرية المتعاقبة، على أن الإسلام دين الدولة، وأن مبادئ الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع، لا يعنى أن الدولة المصرية هى دولة دينية، بالمفهوم القائم فى أذهان البعض، غير المتخصص فى العلوم الشرعية والقانونية والدستورية، بل إن ذلك يعنى، تحديد هوية الغالبية العظمى لأبناء هذه الدولة، مع احترام غيرهم ممن لا يعتنق هذا الدين، ومن المعلوم أن مبادئ الشريعة الإسلامية فيها ما يكفل ذلك تماماً، وهذا ما يصدقه واقع الحياة المصرية منذ وضع هذا النص، بألا يقبل فى أى وقت المزايدة من أحد على المخلصين الشرفاء من أبناء هذا الوطن، أياً كان دينهم.

قراءتان واجبتان لبلوغ الإحسان



للأستاذ الدكتور/ أحمد فؤاد باشا

www.afbasha.com

إن القرآن الكريم هو الأصل الأول للثوابت الإسلامية، والمسلمون مطالبون فى كل زمان ومكان باستنهاض عزائمهم، وشحذ عقولهم، نحو فهم آياته الكريمة فهماً يغير من حياتهم إلى الأفضل دائماً، ويضعهم فى حال تمكنهم من نشر لواء الإسلام فى كل ربوع الأرض، باعتباره منهاجاً ربانياً متكاملاً يحمل للناس كل ما فيه فلاحهم فى الدنيا والآخرة.

وينبغى الترقى فى فهم آيات القرآن الكريم، وتدبر معانيها، واستقصاء دلالاتها حتى ندرك الحكمة وراءها. والترقى فى فهم آيات القرآن الكريم إلى درجة الفقه يتطلب فهماً أعمق لآيات الله الكونية المنبثة فى الآفاق وفى الأنفس، حتى تتجلى حقيقة الحقائق متمثلة فى الإيمان الخالص بالخالق الواحد - جل وعلا - على هدى وبصيرة، مصداقاً لقوله سبحانه:

﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾

(فصلت ٥٣)

وهنا يبرز لنا صدق الجهود المشكورة التى بذلها أسلافنا لاستجلاء بعض معانى آيات القرآن الكريم فى ضوء المعارف العلمية المتاحة فى عصورهم حتى يبلغ الفهم بهم درجة الإحسان فى قراءة الكتابين: المنظور والمسطور.

أما نهاية الإحسان فى قراءة آيات القرآن الكريم وتدبر معانيها، فتعنى تجاوز حدود الأصوات والألفاظ، واختراق حواجز الزمان والمكان، وصولاً إلى الاستمتاع من المتكلم الأزلى جل وعلا. فالنفس الشفافة، والإحساس المرهف، لهما أثر جلىّ فى قراءة القرآن وفهمه، وبذلك تتجلى أنوار القرآن على قلب القارئ أو السامع، ولهذا كانت نصيحة العارفين: «اقرأ القرآن كأنه يتنزل عليك».

وقد دعا الإمام الغزالى رحمه الله فى «إحياء علوم الدين» إلى الأخذ بهذا النهج فى قراءة القرآن، وذكر فى تعداده أعمال الباطن عند التلاوة: الترقى، وهو أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله، عز وجل، لا من نفسه، فدرجات القراءة ثلاث؛ أدناها أن يقدر العبد كأنه يقرأه على الله تعالى واقفاً بين يديه، والثانية: أن يشهد بقلبه كأن الله تعالى يراه ويخاطبه بألطافه، ويناجيه بإنعامه وإحسانه، والثالثة: أن يرى فى الكلام المتكلم، وفى الكلمات الصفات، فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته، بل يكون مقصور الهم على المتكلم، موقوف الفكر عليه، كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم، وهذه درجة المقربين.

وأما نهاية درجة الإحسان فى قراءة آيات الكون (كتاب الله المنظور)، فتعنى تجاوز حدود البحث العلمى الآلى، بعناصره ووسائله وأدواته، واختراق عالم النظريات والقوانين العلمية بصياغاتها اللفظية، وصولاً إلى إدراك أن كل علم من العلوم الباحثة فى ظواهر الكون والحياة، هو فى حقيقته علم يبحث بلغته الخاصة عن الله خالق الكون والحياة، ويستند فى غاية منتهاه إلى اسم من أسماء الله الحسنى.. فعلوم الطب والصيدلة تصل إلى كمالها، بعد أن تؤدى دورها فى صحة الأبدان بمشاهدة التجليات الرحيمة لاسم الله «الشافى» فى كل جرعة علاج أو حبة دواء، وعلوم الفيزياء والفلك والكيمياء والحيوان والنبات تبحث فى حقيقة الموجودات باستنادها إلى ما يناسبها من أسماء العليم الحكيم القادر الذى علم الأشياء قبل تكوينها.

بهذا تكون العلوم الطبيعية فى حقيقتها غير مقصودة لذاتها، وإنما هى ضرورات حيوية وحاجات معرفية وعقلية تحيط الهداية الإيمانية بأبعاد جديدة، وترى فى كل مشهد كونى آية ناطقة بقدرة الخالق ووحدانيته، ومظهراً معبراً عن مظاهر تجليات أفعال الله تعالى وأسمائه الحسنى. ذلك أن القليل من العلم الصحيح يقرّب إلى الله، والكثير منه يعمّق الإيمان بالله، ويرسخه على هدى وبصيرة.

وإن شئنا مثالاً يوضح أهمية التكامل بين «القراءتين» فى كتابىْ الوحى والكون، فلنتأمل ذلك التنوع المعجز فى خلق الكائنات، باعتباره دليلاً من دلائل القدرة الإلهية.

وقد أشار القرآن الكريم فى مواضع كثيرة إلى ضروب مختلفة من تنوع المخلوقات فى عالم الأحياء وعالم الجماد على حد سواء. من ذلك قوله تعالى:

﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾

(سورة الأنعام: ٣٨)

ويوافق هذه الآية الكريمة ما أكده أهل الاختصاص فى علوم الحيوان، الذين يدرسون كل ما يتعلق بالحياة الاجتماعية لكل حيوان يسعى فى الأرض، أو يطير فى السماء، من أن الكائنات الحية شعوب وقبائل وأمم تربطها صلات وعلاقات وثيقة، فهى لا تختلف فى أسلوب حياتها ونشاطها عن أمم الجنس البشرى الذى يعمر الأرض إلا بقدر ما يميزها عن باقى الأنواع فى عالم الأحياء.

وقد أثبتت جهود الباحثين على مر العصور، وفى مختلف بلدان العالم، أن دنيا الحيوان تزخر بما لا يحصى من الغرائب والعجائب، كما أن المجموعات الحيوانية التى تشارك الإنسان فى العيش على ظهر الأرض كثيرة ومتنوعة بدرجة تفوق كل خيال. ويحصى العلماء ما يقرب من مليون نوع من الحيوانات المختلفة التى توصل العلم إلى معرفتها حتى الآن، ولاشك أن هذا العدد الضخم من أنواع الحيوانات يحتاج فى دراسته العلمية المنهجية إلى ترتيب وتبويت، لذلك نشأ علم خاص بهذه الموضوعات التصنيفية أطلق عليه اسم «علم تصنيف الحيوان».

وكان لعلماء الحضارة الإسلامية دور رائد فى تأسيس هذا العلم، فصنفوا الحيوانات بحسب الأصوات التى تحدثها إلى: حيوانات ذوات الرئة، وهى التى تختلف أصواتها باختلاف أطوال أعناقها وسعة حلاقيمها وتركيب حناجرها وشدة استنشاقها الهواء وقوة دفع أنفاسها من أفواهها ومناخرها، وحيوانات ليس لها رئة، ولكن لها أجنحة كالزنابير، وهى التى تحدث الأصوات نتيجة لتحرك الهواء بالأجنحة، وحيوانات ليست لها رئة ولا أجنحة، كالديدان والسلاحف، وهى تسمى الحيوانات الخرس، وتختلف الأصوات التى تحدثها باختلاف يبسها وصلابتها.

وفى كتاب «الحيوان» صنّف الجاحظ الحيوانات بحسب أصواتها المعروفة فى اللغة العربية، فذكر أن من الحيوان الأعجم ما يرغو ويثغو وينهق ويصهل ويشحج ويخور ويبغم ويعوى وينبح ويزقو ويصفر ويهدر ويصوص ويقوق وينعب ويزأر ويبح. وفى كتاب «حياة الحيوان الكبرى» الذى يقع فى جزأين يسجل كمال الدين الدميرى أسماء الحيوانات مرتبة حسب حروف الهجاء.

وعرض ابن سينا فى الجزء الخاص بالطبيعيات من كتاب «الشفاء» لدراسة مختلف أنواع الحيوان والطير، واهتم كثيراً بالتشريح المقارن لمعرفة الأعضاء المتشابهة وغير المتشابهة فى الأجهزة العضلية والهضمية والدورية والتناسلية والتنفسية للعديد من أنواع الحيوان. وأصبح هذا الاتجاه العلمى القائم على التشريح المقارن من الأسس التى اعتمدها المحدثون من أهل الاختصاص فى «علم تصنيف الحيوان».

ويرتكز المفهوم الحديث لعلم تصنيف الحيوان بصورة عامة على أساس تقسيم الحيوانات المعروفة إلى مجموعات كبيرة تتشابه فى صفاتها الرئيسية، ويطلق عليها اسم «الشُعب»، وتضم الشعبة الواحدة عدة «طوائف»، وتحتوى كل طائفة على عدة «رتب»، وتنقسم الرتبة الواحدة إلى عدة «فصائل»، والفصيلة تشتمل على عدة «أجناس»، والجنس على عدة «أنواع». ويهتم الدارسون لهذا العلم بالتعرف على الأماكن المختلفة لوجود كل طبقة من هذه الطبقات الست، وما يميز أفرادها من حيث الشكل والحجم واللون والطبائع والسلوك فى الحياة، وما تمارسه من وسائل وأساليب للتفاهم أو الدفاع عن النفس. ويعزى إلى العالم السويدى «لينيوس» ابتكار نظام «التسمية الثنائية» لتصنيف الكائنات الحية، حيث يطلق على كل منها اسم مكون من شقين: يدل أولهما على «الجنس» والآخر على «النوع».

وتعتبر «شعبة الأوليات» أبسط أنواع الحيوانات تركيباً وأصغرها حجماً، إذ يتركب جسم كل منها من خلية واحدة لا يمكن التعرف عليها إلا بواسطة المجهر (الميكروسكوب)، ومع ذلك فهى تأكل وتتحرك وتتنفس وتنمو وتتكاثر بطريقتها البدائية، وتتساوى من حيث مقومات الحياة مع الحيوانات كبيرة الحجم التى تشاهدها فى حياتنا اليومية. يوجد من شعبة الأوليات ما يقرب من ثلاثين ألف نوع، ولها انتشار واسع فى مختلف البيئات الطبيعية.

أما شعبة «الجوفمعويات» فهى من أكبر شعب المملكة الحيوانية فى عدد الأنواع ومن أكثرها تنوعًا فى الشكل، ومعظمها يعيش مندمجاً فى مجموعات (أو مستعمرات) كبيرة تنمو وتتفرع كما تتفرع الأشجار، ويعتبر المرجان الأحمر من أبرز الأنواع التى تنتمى إلى هذه الشعبة.

وهناك شعب أخرى، مثل شعبة «المساميات» التى تحتوى على ما يقرب من ٤٥٠٠ نوع، وتعرف أيضًا بالحيوانات الأسفنجية، وشعب الديدان المفلطحة والخيطيّة والحلقية، وشعبة الحيوانات المفصلية مثل الجمبرى والجراد والعناكب، وشعبة الحيوانات الرخوة ذات الأجسام اللينة مثل المحار والقواقع، ويعتبر اللؤلؤ من أهم المنتجات الاقتصادية لهذه الشعبة. كذلك نجد فى تصنيف الحيوانات شعبة الحيوانات شوكية الجلد مثل قنافذ البحر، بالإضافة إلى شعبة الحيوانات الأكثر تقدماً وتضم الفقاريات التى تعيش فى جميع البيئات مثل الزواحف والأسماك والطيور والثدييات.

وقد صنف علماء الأحياء مؤلفات كثيرة تبين أن هذه الشعب وما يتفرع منها فى عالم الحيوان أمم مثل البشر، سواء فى السعى لطلب الغذاء، أو فى رعاية الصغار والضعفاء، أو فى ما تلجأ إليه من حيل للتغلب على ما يواجهها من مصاعب وأخطار، أو فى انقيادها لما هيأه لها الخالق العظيم من طبيعة تتلاءم مع تكوينها وبيئتها، وخصائص تساعدها على أداء مهمتها فى الحياة، وصدق القائل فى محكم التنزيل:

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

(سورة الجاثية: ٤)

إن منطق التوحيد فى الفكر العلمى يعنى البحث دائما عن الوحدة التى تؤلف بين الكثرة أيًا كان الموضوع، فيبحث عن محور الوحدانية فى الشخصية الإنسانية برغم اختلاف الجوانب الكثيرة فى حياة الفرد الواحد، واختلاف العلوم الباحثة فى تلك الجوانب. وكذلك يبحث عن محور الوحدانية فى الكون بأجمعه مجتمعاً فى وجود واحد. ومن كانت عقيدته هى التوحيد الإسلامى فإنه يجد فى نفسه دافعًا أقوى مما يجد سواه نحو البحث عن محور الوحدانية من خلال مظاهر التنوع والكثرة، إيمانًا منه بأن كل ما فى الكون من موجودات وسنن مستمد من إرادة الخالق الواحد ومتوقف عليها، ولنا فى قصة خلق السلالات البشرية من نفس واحدة أوضح برهان وأقوى دليل على قدرة الخالق ووحدانيته. قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

(سورة النساء: ١)

القصاص رحمة من الله



لفضيلة الشيخ/ فوزى الزفزاف

عضو مجمع البحوث الإسلامية



يقول الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(البقرة: ١٧٨ ، ١٧٩)

«القصاص»: العقوبة بالمثل من قتل أو جرح، «القتلى»: جمع قتيل، والقتيل من يقتله غيره من الناس.

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا فرض واجب عليكم القصاص بسبب القتل، بأن تقتلوا القاتل عقوبة له على جريمته، مع مراعاة المساواة التى قررها الشارع الحكيم فى القصاص، فلا يجوز لكم أن تقتلوا غير القاتل، كما لا يجوز لكم أن تسرفوا فى القتل بأن تقتلوا القاتل وغيره من أقاربه.

فمعنى القصاص هنا أن يقتل القاتل لأنه فى نظر الشريعة مساو للمقتول فيقتل به، وقد بين العلماء أن القصاص يفرض عند القتل الواقع على وجه التعمد والتعدى، وعند مطالبة أولياء القتيل، بالقود - أى القصاص - من القاتل.

وقد وجه - سبحانه - الخطاب إلى المؤمنين كافة مع أن تنفيذ الحدود من حق الحاكم وحده، لإشعارهم بأن عليهم جانبا من المسئولية والتبعة إذا أهمل الحكام تنفيذ هذه العقوبات التى شرعها الله، وإذا لم يقيموها بالطريقة التى بينتها شريعته، ولإشعارهم كذلك بأنهم مطالبون بعمل ما يساعد الحكام على تنفيذ الحدود بالعدل، وذلك بتسليم الجانى إلى المكلفين بحفظ الأمن، وأداء الشهادة عليه بالحق والعدل، وغير ذلك من وجوه المساعدة.. وذلك لسد أبواب الفتن والاضطرابات التى تحل عرى الألفة والمودة بينهم.

﴿ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى ﴾

بيان لمعنى المساواة فى القتل المشار إليها بلفظ القصاص، فالجملة تتمة لمعنى الجملة السابقة، ومفادها أنه لا يقتل فى مقابل المقتول سوى قاتله، لأن قتل غير الجانى ليس بقصاص، بل هو اعتداء يؤدى إلى فتنة فى الأرض وفساد كبير.

وقد يفهم من مقابلة:

﴿ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى ﴾

انه لا يقتل صنف بصنف اخر، وهذا الفهم غير مراد على إطلاقه، فقد جرى العمل منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتل الرجل بالمرأة، والمرأة بالرجل.

قال القرطبى - رحمه الله -: أجمع العلماء على قتل الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل[1]. والخلاف فى قتل الحر بالعبد، فبعض العلماء يرى قتل الحر بالعبد، وبعضهم لا يرى ذلك، ولكل فريق أدلته.. ومن أراد معرفة الأدلة فيمكن الرجوع إليها فى كتب الفقه.

والغرض الذى سيقت من أجله الآية الكريمة، إنما هو وجوب تنفيذ القصاص بالعدل والمساواة، وإبطال ما كان شائعاً فى الجاهلية من أن القبيلة القوية كانت إذا قتلت القبيلة الضعيفة منها شخصاً لا ترضى القبيلة القوية حتى تقتل فى مقابله من القبيلة الضعيفة أشخاصا، وإذا قتلت منها عبداً تقتل فى مقابله حراً أو أحرارا، وإذا قتلت منها أنثى قتلت فى نظيرها رجلا أو أكثر.. فيترتب على ذلك أن ينتشر القتل، ويشيع الفساد.. وقد روت كتب التاريخ كثيراً مما فعله الجاهليون فى هذا الشأن.

وللأسف فإن بعض هذه العادات السيئة، والتصرفات التى لا يقرها الدين، لاتزال شائعة حتى الآن فى بعض المجتمعات التى تصر على الأخذ بالثأر، ولا تقتل القاتل وإنما تقتل أكبر وأغنى رجل فى عائلة القاتل.

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾

تفتح الآية الكريمة باب التراضى بين القاتل وأولياء المقتول، بأن أباحت لهم أن يسقطوا عن القاتل القصاص إذا شاءوا ويأخذوا فى مقابل ذلك الدية، أى: أن القاتل عمداً إذا أسقط عنه أخوه «ولى دم القتيل» القصاص، راضياً أن يأخذ منه الدية بدل القصاص، فالآية توصى ولى الدم أن يتبع طريق العدل فى أخذ الدية من القاتل بحيث لا يطالبه بأكثر من حقه، وتوصى كذلك القاتل أن يدفع له الدية بالطريقة الحسنى؛ بحيث لا يماطله ولا يبخسه حقه.

وفى هذه الوصايا شفاء لما فى الصدور من آلام وأحزان، وتجميع النفوس على الإخاء والتعاطف والتسامح.. وسمى القرآن الكريم القاتل أخا لولى المقتول؛ تذكيراً بالأخوة الإنسانية والدينية التى تجمع بينهما، حتى يهز مشاعر عطف كل واحد منهما إلى الآخر، فيقع بينهم العفو، والاتباع بالمعروف، والأداء بإحسان.

﴿ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾

أى: ذلك الذى شرعناه لكم من تيسير أمر

---

(١) تفسير القرطبى.

القصاص بأداء الدية إلى ولى القتيل إذا رضى بذلك طائعاً مختاراً، أردنا منه التخفيف عليكم؛ إذ فى الدية تخفيف على القاتل بإبقاء حياته وإنقاذها من القتل قصاصاً، وفيها كذلك نفع لولى القتيل؛ إذ هذا المال الذى أخذه نظير عفوه يستطيع أن ينتفع به فى مطالب حياته.

وبهذا نرى أن الإسلام قد جمع فى تشريعه الحكيم لعقوبة القتل بين العدل والرحمة؛ إذ جعل القصاص حقاً لأولياء المقتول إذا طالبوا به لا ينازعهم فى ذلك منازع، وهذا عين الإنصاف والعدل.

وجعل الدية عوضاً عن القصاص إذا رضوا بها باختيارهم، وهذا عين الرحمة والتيسير، وبالعدالة والرحمة تسعد الأمم وتطمئن فى حياتها؛ إذ العدالة هى التى تكسر شدة النفوس، وتغسل غل الصدور، وتردع الجانى عن التمادى فى الاعتداء، لأنه يعلم علم اليقين أن من وراء الاعتداء قصاصاً عادلاً، والرحمة هى التى تفتح الطريق أمام القلوب لكى تلتئم بعد التصدع، وتتلاقى بعد التفرق، وتتواد بعد التعادى، وتتسامى عن الانتقام إلى ما هو أعلى منه وهو العفو. فما أروع هذا التشريع الإلهى الحكيم وما أحوج العالم إلى الأخذ به، والتمسك بتوجيهاته(٢)!.

﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

تحذير عنيف، ووعيد شديد لمن يتعدى حدود الله، ويتجاوز تشريعه، أى: فمن تجاوز حدوده بعد هذا التشريع الحكيم الذى شرعناه فى القصاص، بأن يقتل غير من يستحق القتل، أو بأن يقتل القاتل بعد قبول الدية منه، فله عذاب شديد الألم من الله ـ العلى القدير.

ثم بين ـ سبحانه ـ الحكمة فى مشروعية القصاص:

﴿ وَلَكُمۡ فِى ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾

أى: ولكم فى مشروعية القصاص حياة عظيمة لكم بالارتداع عن القتل، وامتناع من تسول له نفسه قتل غيره عن فعل ذلك، لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل؛ لأنه إذا هم بالقتل فعلم أنه يقتص منه ارتدع وامتنع، فسلم صاحبه من القتل، وسلم هو من القود؛ فكان القصاص سبب حياة نفسين.

وخص ـ تعالى ـ النداء بأولى الألباب. مع أن الخطاب ببيان مشروعية وحكمة القصاص شامل لهم ولغيرهم؛ لأن أصحاب العقول السليمة هم الذين يتدبرون عواقب الأمور، ويعرفون قيمة الحياة، ويقدرون حكمة التشريع.. وإن من ينكرون حكمة مشروعية القصاص وأثرها النافع فى تثبيت دعائم الأمن والأمان والاستقرار فى المجتمع هم الذين يعيشون بعقول غير سليمة.

﴿ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾

أى: شرعنا لكم هذه الأحكام الخاصة بأمر القصاص لتجتنبوا الاعتداء على النفس البشرية التى حرم الله قتلها حذراً من القصاص، ولتعيشوا آمنين مطمئنين؛ ومتوادين متحابين.

(٢) التفسير الوسيط ج ١ لفضيلة الإمام الأكبر أ.د. محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر.

تأملات فى السيرة



لفضيلة الشيخ/ الطاهر الحامدى

لا يخفى على أحد كما هو ثابت فى كتب السيرة والتاريخ أن من هاجر إلى المدينة لم يكن معه مال ولا زاد وإنما ترك كل ما يملك ابتغاء وجه الله، وخير دليل على هذا ما ورد فى القرآن الكريم عن سيدنا صهيب لما خرج من مكة مهاجراً يلحق بالرسول ﷺ فلقيه نفر من المشركين ليمنعوه وقالوا له جئتنا صعلوكاً لا تملك مالا والآن تريد أن تهاجر بعد أن صرت من الأغنياء قال لهم لو دللتكم على مالى لكنتم تاركى قالوا: نعم.. فدلهم على ماله فتركوه.. فقد اشترى نفسه بماله فنزل قول الله تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِى نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾

(البقرة: ٢٠٧)

ولما لقى النبى ﷺ فى المدينة قال له «ربح البيع يا صهيب» فكان من حكمة النبى ﷺ أن يرفق بالفقراء المهاجرين ومن هنا كانت المؤاخاة التى لم يعرف التاريخ لها نظيراً فكانت بين المهاجرين والأنصار وكان من عجائبها ببركة النبى ﷺ أن تلاحم المهاجرون والأنصار تلاحماً شديداً حتى إن الله سبحانه وتعالى أشرك المهاجرين والأنصار فى الميراث وظل الأمر على هذا حتى نزل قوله تعالى:

﴿ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾

(الأنفال: ٧٥)

وتروى كتب السنة عجائب فى هذه المؤاخاة منها تتبين أن المودة والإيثار عملة إسلامية مائة بالمائة وأن هؤلاء الناس المهاجرين والأنصار كان الدنيا وحطامها لم تمر بخلدهم قط ويمكنك أن تقول بكل ثقة إن مؤاخاة النبى ﷺ بين المهاجرين والأنصار خلقت مجتمعاً مثالياً نظيفاً نقياً من شوائب الأثرة والأنانية لم يعكر صفوتها إلا اليهود والمنافقون فى المدينة، ومما يروى أن الأنصارى كان يؤثر أخاه بطعامه والذى كان يشبع هو الأنصارى الذى آثر أخاه، تلك مزية لا يعقلها ولا يتصورها ولا يستسيغها فكر الغرب المادى ونحن نعذر هذه القلوب الصدئة فى إنكارهم وعدم تصديقهم هذا ولقد أرسل النبى ﷺ عدة بعوث وسرايا لم تكن فى حقيقتها إلا استطلاعاً عيوناً على قريش حيث أنه من الخطأ فى الرأى أن تترك الأمور، هكذا ويركن المسلمون للدعة والأمان الخادع وخلفهم عدوهم متربص حاقد، فكان من حكمة النبى ﷺ

أن أكثر هذه السرايا كانت من المهاجرين ولم يكن بينهم أنصارى «من أهل المدينة» قط كما أن أكثرهم كان من بنى هاشم أهل النبى وعشيرته ونكاد نجزم بأن كل قادة الألوية والسرايا كانوا من بنى هاشم وتلك حكمة القائد وخبرته بالنفوس حتى لا يعبث اليهود والمنافقون فى المدينة بخلد الأنصار ويصوروا المسألة على أنه ﷺ يؤثر أهل مكة قومه وعشيرته المهاجرين بالحياة ويزج بالأنصار إلى الهلكة فى الحروب.

وبعد أن يستقر الأمر وتؤتمن الفتن ولا يجد المنافقون واليهود مدخلا إلى قلوب الأنصار ويظهر فيهم «أى الأنصار» المقداد بن الأسود الذى قال للنبى ﷺ يستحث المجاهدين على البذل والفداء فقال المقداد " يا رسول الله إننا صُبّر فى الحرب صُدّق عند اللقاء والله لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته خضناه معك" وكان النبى ﷺ ينتظر هذه الوثبة الصادقة من رجل مخلص يمثل قوما مخلصين انفرجت أساريره ﷺ وعُرف البشر فى وجهه ﷺ.

ويروى أن النبى ﷺ أرسل من بين سراياه الاستطلاعية عبيدة بن الحارث بن المطلب فى ثمانين أو ستين راكبًا من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، فلقى جمعًا من قريش ولم يحدث بينهم قتال إلا أن سعد بن أبى وقّاص رمى يومئذ بسهم فكان أول سهم رمى به فى الإسلام، وكما يروى أن المؤاخاة وقعت مرتين، هذه التى كانت بين المهاجرين والأنصار، أما الأولى فكانت بين المهاجرين بعضهم بعضا قبل الهجرة، كانت مؤاخاة على الحق والمواساة كما يقول رواة التاريخ، ويجدر بنا أن نذكر حدثا مهماً وقع بالمدينة وهو تحويل القبلة، فيروى أن النبى ﷺ كان وهو بمكة يتجه بقلبه إلى الكعبة البيت الحرام فكان يجعل الكعبة حين يتجه فى صلاته إلى بيت المقدس يجعلها بينه وبين بيت المقدس فلما هاجر إلى المدينة لم يمكنه ذلك فاتجه طائعا أمر ربه إلى بيت المقدس لكنه كان يميل ويرغب أن يتجه إلى الكعبة ويروى أنه ﷺ قال لجبريل «وددت أن الله عز وجل صرفنى عن قبلة يهود إلى غيرها فقال جبريل عليه السلام إنما أنا عبد مثلك لا أملك لك شيئا إلا ما أمرت به فادع الله تعالى» فكان رسول الله ﷺ يدعو الله تعالى ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله تعالى وخرج رسول الله ﷺ زائرا أُمّ بشر بن البراء بن معرور فى بنى سلمة - بكسر اللام - فصنعت له طعاما وحانت صلاة الظهر فصلى رسول الله ﷺ بأصحابه فى مسجد هناك الظهر فلما صلى ركعتين نزل جبريل فأشار إليه أن صلِّ إلى البيت، وصلى جبريل إلى البيت فاستدار رسول الله ﷺ إلى الكعبة واستقبل الميزاب فتحول النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء فهى القبلة التى قال تعالى:

﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾

فسمى ذلك المسجد مسجد القبلتين وكان الظهر يومئذ أربعا اثنان إلى بيت المقدس واثنان إلى الكعبة فخرج عبّاد بن بشر رضى الله عنه وكان صلى مع رسول الله ﷺ فمر على قوم من الأنصار ببنى حارثة - بالحاء المهملة والثاء المثلثة - وهم راكعون فى صلاة العصر فقال «أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قِبَل البيت» فاستداروا.

أما تكرار قوله تعالى:

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ﴾

ثلاث مرات لأسباب واللافت للنظر أن ختام كل مرة مختلف والسبب فيما نعلم أن الآية الأولى نزلت والنبى ﷺ تلاها وهو على المنبر فى مسجده فى المدينة كما رواه أهل السنن وأبلغ بها قوما وهم يصلون فى مسجد بنى سلمة فكان هذا الختام:

﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾

حتى لا يعتقد أحد أن التحويل خاص بهذا المسجد أو أنه خاص بالوقت الذى نزلت فيه الآية ولذلك قال سبحانه وتعالى:

﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾

أما قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

لأن الثابت عند أهل الكتاب أن من علاماته أنه ﷺ رسول القبلتين فلو صلى إلى بيت المقدس فقط لما تحقق ذلك، فلما تم التحويل أخبر الله سبحانه وتعالى بأن هذا التحويل يوافق ما جاء من علاماته فى كتبهم أنه يصلى إلى قبلتين وأن اليهود هم الذين يعلمون أن أمر التحويل حق يوافق ما جاء فى كتبهم.

أما الآية الثانية فإنها كانت ردًا على المشككين فى تحويل القبلة لأن الاتجاه إلى المسجد الحرام طاعة لأمر الله، وما دام الله سبحانه وتعالى قد قال فعلينا أن نطيع طاعة إيمانية ومعنى أنها طاعة إيمانية أن المؤمن عندما يطيع أمر الله سبحانه وتعالى فإنه يستجيب للأمر وينفذ المطلوب دون حاجة إلى تعليل أو حكمة. نعم قد تكون هناك حكمة وأن يكون هناك تعليل. بالتأكيد قد يكون ذلك. لكن المؤمن ينفذ المطلوب دون بحث عن علة أو الجرى وراء حكمة لذلك لما بلغ النبى ﷺ أن المصلين فى بنى سلمة استجابوا للأمر وغيروا اتجاههم وهم يصلون قال ﷺ فيما روى عنه «أولئك قوم يؤمنون بالغيب».

وعلى كل فإن ما أمر الله به هو الحق الثابت فى كتب أهل الكتاب وأن الله سبحانه وتعالى يعلم مكرهم وخداعهم وتشكيكهم ولذلك ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله:

﴿ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

أما الآية الثالثة فهى تأكيد على تحويل القبلة ذلك لأن حكمة التكرار التوكيد لأن تحويل القبلة كان أول نسخ فى الإسلام - كما قال كثير من العلماء - فاقتضى ذلك تأكيده فى نفوس المؤمنين حتى يستقر فى مشاعرهم ويذهب ما يثار حولها أدراج الرياح ولأن الله سبحانه وتعالى أناط لكل واحد من هذه الأوامر الثلاثة ما لم ينط بالآخر من أحكام فاختلفت فوائدها، ولهذا فإنا نلمح من وراء هذا التكرار أنه كانت هناك حالة من اضطراب فى الصف الإسلامى تستدعى هذا التكرار وهذا التوكيد مما يشى بضخامة حملة الأضاليل والأباطيل التى يثيرها أهل الكتاب وأثاروها فى بعض القلوب والنفوس. هذا الأمر الذى قصد القرآن أن يعالجه بهذا التكرار وهذا التوكيد ويروى أن آية تحويل القبلة نزلت على النبى ﷺ فى مسجده ﷺ بالمدينة وهو على المنبر وصلى بالناس - صلاة الظهر - متجهاً إلى الكعبة فانصرف أناس من عنده إلى مسجد بنى حارثة فوجدوهم يصلون العصر وهم متجهين إلى بيت المقدس فأخبروهم بأنه تم تحويل القبلة إلى بيت الله الحرام وأنهم صلوا خلف رسول الله ﷺ إلى الكعبة فاستدار الناس إلى الكعبة وأكملوا صلاة العصر إلى الكعبة فأخبر النبى ﷺ بفعلهم فقال «أولئك أناس يؤمنون بالغيب».

طرائف.. ومواقف



عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

صبور على ريب الزمان صليب

يعجبني من كلام أمير المؤمنين علي ـ عليه السلام ـ في كلمة لأخيه عقيل: «وأما ما سألت عنه من رأيي في القتال فإن رأيي قتال المحلين حتى ألقى الله، لا يزيدني كثرة الناس حولي عزة، ولا تفرقهم عني وحشة، ولا تحسبن ابن أبيك، ولو أسلمه الناس، متضرعا متخشعا، ولا مقرا للضيم واهنا، ولا سلس الزمام للقائد، ولا وطيء الظهر للراكب؛ ولكن كما قال أخو سليم:

فإن تسأليني كيف أنت فإنني
صبور على ريب الزمان صليب
يعز على أن ترى بي كآبة
فيشمت عاد أو يساء حبيب

استغاثة أهل النار

قيل لبعضهم من أحب إليك، أخوك أم صديقك؟

فقال: لا أحب أخي إذا لم يكن صديقي.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الصديق أوكد من القريب، ألا ترى استغاثة الجهنميين حين قالوا:

﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾
(الشعراء ١٠٠، ١٠١)

ولم يستغيثوا بالآباء والأمهات.

لحن الأمير فلحنت

قال الحجاج للشعبي، وقد دخل عليه: كم عطاؤك يا شعبي؟

فقال الشعبي: ألفين يا أمير المؤمنين.

قال الحجاج: ويحك كم عطاؤك؟

فقال الشعبي: ألفان يا أمير المؤمنين.

قال الحجاج: فلم لحنت لأول مرة فيما لا يلحن فيه مثلك؟ فقلت: ألفين.

فقال الشعبي: لحن الأمير فلحنت، وأعرب فأعربت ولم أكن ليلحن الأمير فأعرب أنا عليه، فأكون كالمقرع له بلحنه، والمستطيل عليه بفضل القول قبله.

لا أراك الله مكروها

سمع حكيم رجلا يقول لآخر:

لا أراك الله مكروهاً

فقال له: كأنك دعوت عليه بالموت، فإن صاحب الدنيا لابد أن يرى مكروها.

ما بال فمك معوجا

وقف أعرابي مشوه الفم على أحد الولاة، وأنشده قصيدة في الثناء عليه التماساً للمكافأة، ولكن الوالي لم يأمر بأي مكافأة، ولم يكفه هذا، فسأله ما بال فمك معوجا؟

فقال الأعرابي: لعله عقاب من الله

فعاد الوالي يسأله: ولأي شيء عاقبك؟

فقال: لكثرة ما كذبت عليه بالثناء بالباطل على بعض الناس.

أفضل النساء

سئل أعرابي في النساء، وكان ذا تجربة وعلم بهن..

فقال: أفضل النساء أطولهن إذا قامت، وأعظمهن إذا قعدت، وأصدقهن إذا قالت؛ التي إذا غضبت حلمت، وإذا ضحكت تبسمت، وإذا صنعت شيئاً جودت، التي تطيع زوجها، وتلزم بيتها، العزيزة في قومها، الذليلة في نفسها، الودود الولود، وكل أمرها محمود.

كراهية الوقوف على الأبواب

كان الشيخ عزالدين بن عبدالسلام؛ إذا قرأ عليه الطالب بابا انتهى به الدرس، يقول: اقرأ سطرا من الباب الذي يليه؛ فإني لا أحب الوقوف على الأبواب!!

تكبرت.. فأذلني

قال بعض الصالحين: رأيت فتى مترفا يطوف بالكعبة المشرفة، وحوله خدم يمنعون الناس من الطواف حتى لا يزاحمه أحد.

ثم مرت سنون، فرأيته بجسر الرصافة يسأل الناس..

فسألته: ماذا جرى عليك؟

فقال: تكبرت في موضع يتواضع الناس فيه فأذلني في موضع يتكبر الناس فيه!!

الفصاحة

قال أبو وجرة السعدي يصف كلام رجل:

يكفي قليل كلامه وكثيره
ثبت إذا طال النضال مصيب

وأنشد أبوالعباس محمدبن يزيد المبرد ولم يسم قائله وهو مولد ولم ينقص توليده من حظ القديم شيئا:

طبيب بداء فنون الكلام
فلم يَعْيَ يوما ولم يهذر
فإن هو أطنب في خطبة
قضى للمطيل على المنذر
وإن هو أوجز في خطبة
قضى للمقل على المكثر

وقال شاعر آخر يصف خطيبا:

فإذا تكلم خلته متكلما
بجميع عدة ألسن الخطباء
فكأن آدم كان علمه الذي
قد كان عُلم من الأسماء

دعاء

اللهم إني أبرأ إليك من حولي وقوتي، وألجأ إلى حولك وقوتك، أحمدك إذ أوجدتنا من العدم، وفضلتنا على كثير من الأمم.

خاطـــرة

المضاجــــع

دكتور سيد دسوقي حسن
أستاذ الطيران بهندسة القاهرة

﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ۝ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون﴾

«السجدة: ١٥، ١٦»

ونبدأ بالحديث عن ما يقصده القرآن بلفظة «آيات الله» أو لفظة آية.

يستخدم القرآن لفظ آيات الله لتعني آيات الله في الكون وفي الاجتماع الإنساني وفي عوالم النفس البشرية كما يستخدمها بمعنى الجمل القرآنية التي تصف هذه العوالم جميعاً.

انظر مثلاً إلى قوله تعالى:

﴿لقد كان لسبإ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ۝ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ۝ ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور ۝ وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين ۝ فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ۝ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين ۝ وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربك على كل شيء حفيظ﴾

«سبأ: ١٥ - ٢١»

فهنا يتحدث القرآن عن قوم سبأ الذين قد منحهم الله جنتين عن يمين وشمال ولكنهم «أعرضوا» ولك أن تتخيل هذا الإعراض بكل أشكاله: إعراض أخلاقي، وإعراض تقني، وإعراض علمي، وإعراض سياسي، وإعراض اجتماعي.. كل هذا الإعراض أدى إلى دمار هذه البيئة الجميلة وتحويلها إلى بيئة سيئة ذات طعام سيئ مما اضطرهم للبحث عن الطعام الطيب في مدن بعيدة، وباعد بينهم وبين أسفارهم ومزقوا كل ممزق.. أحياناً أشعر وأنا أتدبر في قصة سبأ كأن القرآن يتحدث عن قصة المصريين مع أرضهم الزراعية.. تلك التي كانت في الأربعينيات جنات تجري من تحتها الأنهار، ثم آلت الآن إلى أرض تفترشها الحجارة الحمراء واختفت الجنات وأصبح الفلاحون يسعون في الأرض بعيداً عن موطنهم.. هذا إلى الشرق وذاك إلى الغرب ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ونعود إلى الآية «١٥» من سورة السجدة:

﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون﴾

فآيات الله في الكون تحتاج إلى «أهل الذكر» من العلماء الذين يتدبرونها ويستخرجون منها ما ينفع الناس في الأرض ثم يذكروا الناس بواجبهم الذي تمليه هذه الآيات عليهم فيقبلون على هذه الواجبات بكل إخلاص وهمة، وهذا معنى خروا سجدا، وفي هذا كله لا يكفون عن حمد ربهم الذي سخر لهم هذه الآيات وهم لا يستكبرون، إنما يعيدون دائماً الفضل لله وللعلماء الذين هداهم الله لفهم هذه الآيات والتفكير بها.. وهم في هذه الرحلة.

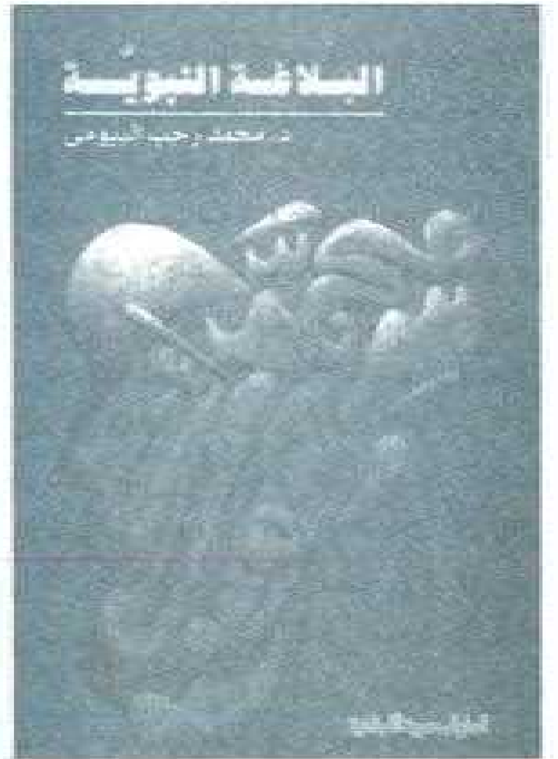
﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون﴾

ومضاجع الحياة كثيرة.. مضجع المال والثروة.. مضجع الجاه والقوة.. مضجع العلم والمعرفة.. مضجع الأسرة والقبيلة.. مضجع الأحزاب والسياسة.. مضجع العزلة الفردية والهروب الاجتماعي.. إلى غير ذلك من المضاجع.. والإنسان ليس مطلوب منه أن يفر من هذه المضاجع ولكن مطلوب منه أن يتجافى جنبه عن هذه المضاجع من وقت لآخر خوفاً أن يكون قد نسي واجباته في هذا المضجع وطمعا في أن يوفقه الله لأداء هذه الواجبات وأن ينظر إلى ما رزقه الله من خير في مضجعه فينفق منها في سبيل الله.. فالإنسان في حاجة أن يخلد إلى النوم [illegible] يومه ولكن مطلوب منه أن يتجافى جنبه عن مضجعه ليقوم على عمارة الأرض في بقية يومه.. وليحذر الإنسان وهو يسعى في عمارة الأرض أن يخلد إلى نوم معنوي في مضجع معنوي مما ذكرناه في هذه الخاطرة.

والله أعلم..

❖❖❖

قراءة فى كتاب



٣

للأستاذ/ عادل خفاجة

تحدث المؤلف فى الفصل العاشر عن «محمد الداعية» فحدد المقصود من الداعى، فارقا بينه وبين الخطيب، وقد أفاض فى تشريح ما اعتمد عليه الداعية الأعظم فى أسلوبه الإرشادى، من التكرار المعنوى، ومن لباقة العرض للموضوع الواحد فى صور مختلفة، من استثارة الوجدان الإنسانى بتقديم ما يمتعه ويقنعه ويرضيه.

وأما الفصل الحادى عشر فقد خصصه للحديث عن «محمد رائد الابتهال فى الأدب العربى» فاستعرض عددا من النماذج المختلفة لأدعيته النبوية وقد فصَّل أهدافها وشرح خصائصها، ثم أشار إلى ضرورة الاعتناء بها لدى مؤرخى الأدب العربى؛ باعتبارها فنًا جديداً قد احتفاه أساطين البلغاء على مر العصور دون أن يجد هذا الفن الرائع من يخصه بالبحث فى كتاب مستوعب كبعض الأغراض الهابطة من خمريات وهجاء ويتعجب المؤلف أن تملأ مثل هذه الأغراض الهابطة المؤلفات وتتخمها إتخاماً ويبقى الأدب الرفيع الرائع تحت الأطباق دفينا طريحاً.

ويشير المؤلف إلى أنه اعتمد على نفسه فقط فى الحديث عن الأقصوصة وعن مشاهد القيامة وعن محمد الداعية وعن رائد فن الابتهال؛ لأنه لم يجد من الكتاب من سبق له بعض القول فى ذلك ثم يشير إلى أن هذه الأبواب الجديدة تتطلب المعاودة والمراجعة شأنها شأن كل جديد.

أما الفصل الثانى عشر فقد تكلم فيه عن «سمات البيان النبوى» وقد نال هذا الفصل أهمية كبيرة حيث شرح المؤلف فيه خصائص الأدب المحمدى مقسما عناصر أسلوبه إلى أفكار، وصور، وتعبير ثم تحدث عن كل عنصر بما يبرز دقائقه مع التمثيل والتدليل، وقد اتسع المجال فى هذا الفصل للحديث عن أمور بيانية تندرج فى الصورة الفنية، فأوضح المراد من التشبيه فى البلاغة المعاصرة، كما بيَّن الصورة الجزئية، والصورة الكلية ومنزلتيهما فى الأسلوب البيانى، كما أوضح المراد من الموسيقى الخفية النثرية على نحو ما أسفرت عنه الدراسات المعاصرة، كل ذلك فى ظلال الاستشهاد بالحديث النبوى.

أما الفصل الثالث عشر فقد خصه بإيضاح «رسالة الأدب كما حققها نبى الإسلام» وقد بدأه بالإشارة إلى أن الأدب هو التعبير الجميل عن الخاطر الجميل، وقد كان تعبير رسول الله صلى الله عليه وسلم كخواطره الشريفة فى أرفع درجات الجمال.. ومن هذه المقدمات يصل المؤلف إلى نتيجة مفادها أن النبى صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار أديب لا محالة.

وقد أشار إلى التقاء الأدب الرفيع بالدين حين يصدر الأديب عن مثل رائعة ومبادئ نبيلة، وقد عرج على قضية الفن للفن ليرى مدى ما تنتهى إليه فى ظلال الحديث عن أدب نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم واستشهد بفقرات جميلة للأستاذ «دربى خشبة» عقدها فى الموازنة بين أثر الأدب النبوى فى إصلاح العالم.

أما الفصل الرابع عشر فقد تحدث فيه عن «تفسير النبى صلى الله عليه وسلم للقرآن» على أنه فى بعض وجوهه نص بيانى، فضرب الأمثلة الوافية لما كشف به النبى صلى الله عليه وسلم عن بعض المعانى المجهولة لألفاظ لا يوحى بها المنطوق.

وفى الفصل الخامس عشر الذى عنوانه «بين إعجاز القرآن وإبداع الحديث» ناقش المؤلف ما يقال عن الأسلوب المعجز والأسلوب المبدع، ليرد على من يزعمون أن القرآن من تأليف محمد ﷺ.

ليوضح أن ما بين الأسلوبين من اختلاف لا يشير أدنى إشارة إلى تأييد هذه الفرية.

وقد راعى المؤلف أن يكثر من الاستشهاد والنقل فى هذا الفصل عن كبار الكتاب والباحثين فعرض من أقوالهم ما يزيد الموضوع قوة وتأييدا، حيث يرى المؤلف أن أى كاتب ضعيف بنفسه، قوى بتأييد غيره وموافقته وأن الاستعانه بآراء أصحاب العقول القوية مما يعضد من موقف المؤلف فيما ذهب إليه.

ويختتم المؤلف كتابه بفصل تحدث فيه عن أهم ما قاله كبار النقاد فى القديم والحديث عن «البيان المحمدى».

ونتوقف مع القارئ فى قراءتنا عند «تفسير النبى ﷺ للقرآن» وبخاصة عند المعانى المجهولة لهذه الألفاظ التى لا يوحى بها المنطوق.

يشير المؤلف إلى أن أعباء الدعوة الإسلامية لم تترك للنبى ﷺ فراغاً يفسح مجال القول فى أدب السابقين ولكن المؤلف وجد ضالته فى الكثير الذى تركه النبى ﷺ من الحديث عن كتاب الله، وهو «أروع نص أدبى عرفته العربية فى القديم والحديث» فذهب يستنبط منه ما ينبئ عن حاسة التذوق الأدبى لدى رسول الله ﷺ حيث كان مذاقه الخاص لكتاب الله من السمو والروعة مما يحسب له فى مجال التقدير الأدبى.

ولقد كان النبى ﷺ أشد الناس تأثراً بمنطق القرآن، وكان يتلوه تلاوة تظهر معانيه ظهوراً رائعاً آخاذاً، قال جبير بن مطعم رضى الله عنه: سمعت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بـ «الطور» فلما بلغ هذه الآيات:

﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴾

(الطور: ٣٦ - ٣٧)

كاد قلبى أن يطير .. فهذا صحابى كريم كاد يطير قلبه من تأثير قراءة محمد ﷺ بعض آيات سورة الطور وبلاغة الترتيل لدى النبى ﷺ نابعة من قوة يقينه، وشدة إيمانه بما يقرأ، ولا ريب فى أنه ﷺ كان دائم التفكير فى هذا البيان المعجز الذى نزل على قلبه، وكان يزن كل آية بميزان دقيق بحيث تنكشف له عن دلائل عميقة لا يلمحها سواه.

ولأن حديث المؤلف عن الإبداع الأدبى والبلاغى عند رسول الله ﷺ فإنه يعلن صراحة أنه لن يتعرض لما ناقشه الأصوليون من اجتهاد الرسول ﷺ إذ ذهب فريق إلى أنه ليس له أن يجتهد بدليل قوله تعالى:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾

(النجم: ٣ - ٥)

كما ذهب الجمهور من العلماء إلى أن الاجتهاد من حقه ﷺ بدليل قوله تعالى:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾

(النساء: ١٠٥)

أى بما جعله لك رأياً كما قال أبو يوسف رحمة الله عليه، وينحاز المؤلف إلى رأى جمهور العلماء أن اجتهاد الرسول أوضح من أن يختلف فيه ويقدم عدداً من الأدلة منها أن القرآن كان يراجعه فى بعض ما اجتهد فيه، كموقفه من أسرى بدر ومن ابن أم مكتوم.. وبدليل أن القرآن جعل الاجتهاد من حق العلماء فى مثل قوله:

﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾

(الحشر: ٢)

فأولى أن يكون من حق الرسول.. وحتى يقلل من شقة الخلاف يقول المؤلف: والاجتهاد الصائب نوع من الإلهام الصادق.. غير أنه يعود لاحترازه مرة أخرى فيقول: على أننا لا نتحدث هنا عن التفسير النبوى، لنبحث الجانب الفقهى منه، أو التاريخى أو التوحيدى، فذلك ما تتكفل به كتب العلماء والمفسرين، ولكنا نذكر هنا نماذج من الشرح النبوى لنعرف كيف كان محمد ﷺ يفهم النص الأدبى فى أفصح كتاب يتلوه الناس.

فرسول الله ﷺ كان يتذكر من آيات القرآن فى كل موقف ما يند عن غيره مهما أمعن وتدبر وذلك لطول تأمله ومعاودته، وانطباق لبه على كلماته وحروفه فضلاً عن أغراضه، ولا ريب أنه فسر كثيراً من كلماته وكشف عن غوامضه.

تصديقاً لقول الله تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(النحل: ٤٤)

ولنتأمل تطبيقاً لهذا القول ما ذهب إليه المؤلف حيث قال:

«إن الذى يتأمل أقوال محمد ﷺ عن القرآن يدرك أنه كثيراً ما كان يقدر الوحدة الموضوعية للنص، فهو ينظر -عليه الصلاة والسلام- إلى السياق نظرة كلية متصلة، بحيث لا يقتصر على الكلمة الجزئية أو الآية الواحدة صارفاً النظر عما يحيط بها، كما تعودنا ذلك من بعض المفسرين، هذه النظرة الكلية يفصح عنها حديث أبى هريرة حين روى عن النبى ﷺ أنه قال: قال الله تعالى: «قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، ولعبدى ما سأل، فإذا قال: الحمد لله رب العالمين قال الله تعالى: حمدنى عبدى، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال: أثنى علىّ عبدى، فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين قال: هذا بينى وبين عبدى، ولعبدى ما سأل، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال: هذا لعبدى ولعبدى ما سأل.

فإن هذا الحديث ينبئ أن النبى محمد ﷺ كان ينظر إلى أم الكتاب نظرة كلية تعنى أن آياتها قد رتبت ترتيباً متماسكاً.. يسلم أوله إلى آخره.. هذه النظرة الصائبة تدل على بصر كامل بالبيان الرفيع، وتتخطى أزماناً كثيرة لتثبت أمام النقد المعاصر، أن ما يكثر الحديث عنه من وحدة الموضوع كان مفهوماً واضحاً لدى رسول الله ﷺ.

ويذهب بنا المؤلف إلى عهد رسول الله ﷺ ويلقى أضواء كاشفة لحال العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة فيقول:

«وقارئ النصوص التفسيرية المأثورة عن الرسول ﷺ يدرك أنها لم تكن فى أكثر حالاتها تفسيراً لغوياً؛ لأن القرآن قد خاطب العرب بما يفهمون، وما نفذ الذكر الحكيم إلى شغاف قلوبهم إلا لوضوحه فى عقولهم وتصوعه فى أذهانهم، وهم بعد أهل اللغة وخبراؤها الثقات.. إلا ما وجد من كلمات يسيرة، كانت تغيب معانيها عن فريق دون فريق مثل: «بضع»، و«مهل»، أما ما عدا ذلك وشبهه فليس بالتفسير اللغوى، بل بما توحى به الدلائل ويكشف عنه السياق.

ويقسم المؤلف الشواهد إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: هو ما يكشف عن المعانى المجهولة لألفاظ لا يوحى بها المنطوق.

والنوع الثانى: جاء تفسيره فى سياق إرشادى يمهد لمراميه ويكشف عن مدلوله.

والنوع الثالث: أوحى به المقام من توجيه سؤال أو واقع حال.

وكلها تصور وقوفه ﷺ على أسرار البيان الربانى.

وقد ساق المؤلف العديد من الأمثلة للدلالة على ما يقول نذكر منها من النوع الأول:

١- عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال لما نزلت:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

شق ذلك على المسلمين، فقالوا يا رسول الله وأينا لا يظلم نفسه قال: ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه:

﴿ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

فواضح من تفسير الرسول أنه يقرر أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، فقد جاء بالنص الثانى من سورة لقمان ليفسر معنى الظلم فى النص الأول من سورة الأنعام، وهى قاعدة أصبحت من المسلمات الآن. فأزال بذلك عناء مرهقاً للنفس المؤمنة، إذ لا يخلو أى إنسان من ظلم نفسه فأراح التفسير النبوى من هذا العناء.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾

قال أبوأمية الشعبانى: سألت أبا ثعلبة عن:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾

فقال: «أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت رسول الله ﷺ فقال: بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك».

فالتفسير المحمدي إذاً، لا يغفل الأهداف العريقة التي دعا إليها الإسلام من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد يظن بعض السذج أن قول الله عليكم أنفسكم مما يدعو إلى التفات المرء لنفسه دون غيره، بمعنى أنه لو رأى معصية ترتكب فلا ينهى عنها، مادام هو في ذاته لم يقارف إثماً، فجاء التفسير النبوي ليدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قدر الاستطاعة، حتى إذا ظهر اليأس من القدرة عن الإصلاح كان على المؤمن أن يتولى أمر نفسه، إذ لا يضره من ضل حين يلتزم جانب الهداية، وأكثر ما روى من تفسير رسول الله ﷺ لآيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤكد ذلك

ومن أمثلة النوع الثاني:

١- عن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر، وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك، فإيعاد بالخير، وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فيعلم أنه من الله فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فيتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، قال تعالى:

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

أما النوع الثالث من التفسير النبوي، وهو ما أوحى به المقام من توجيه سؤال أو واقع حال، نجده مما يدل على مهارة فائقة في الاستنباط والتخريج، لأن الصحابي العربي الذي يتقدم بسؤال عن آية من القرآن لا يكون سؤاله بدهياً هيناً، بل لابد أن يستعصى عليه وهو ابن اللغة وربيب الفصاحة، فيتطلب إجابة صائبة من ذي فكر أكبر يتمتع باليقظة والدراية والتقوب، وذلك بعض ما لدى محمد من مميزات، إذ إن إجابته على الأسئلة القرآنية كانت دائماً حسماً للخلاف وكشفاً عن الباطن المستور.

قالت عائشة رضي الله عنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس أحد يحاسب إلا هلك، قلت يا رسول الله، جعلني الله فداك، أليس يقول الله تعالى:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾

قال: ذلك العرض يعرضون، ومن نوقش الحساب هلك.

فسؤال عائشة في موضعه لدى من يفقون بآية:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾

وعند مدلول الحساب اللفظي، ولكن الرسول بإدراكه الكلي للقرآن علم أن الحساب هنا العرض، وفي موضع آخر يكون بمعنى المؤاخذة والمناقشة، وهنا مظنة الخطر وتوقعه.

وقد استشهد المؤلف بقول الأستاذ دريني خشبة رحمه الله:

«نحن لا نحصى أدباء العالم هنا لنوازن بين ما انتهى إليه أدبهم وما انتهى إليه أدب القرآن الكريم، نحن لا نغض من الآداب الرائعة التي لها قيمتها، ولها أثرها لنرفع أدب نبينا بغير حق، بل نوازن بين خير كثير أصاب الإنسانية على يد رجل واحد، وبين خير كثير أصابها على أيدى كثيرين، وشتان بين الأدبين».

ولم يترك المؤلف قلمه حتى أبان للقارئ أن محمداً ﷺ هو أعظم الأدباء على الاطلاق.

ثم نراه يقول: ولعل الذين يشكون بعد ذلك في أن محمداً كان أديباً عظيماً لا يجوز أن يقاس به سواه، يرون الضوء فيبصرون.

فى ندوة رابطة الجامعات الإسلامية
حول دور الإعلام فى مواجهة التحديات المعاصرة:

التأكيد على أهمية الإعلام الإسلامى وضرورة الالتزام بمنهجه



للأستاذ / عاطف مصطفى

فى إطار سلسلة ندوات الإصلاح فى مصر بعد ثورة ٢٥ يناير واصلت رابطة الجامعات الإسلامية بالتعاون مع جامعات الأزهر ومركز الاقتصاد الإسلامى بها عقد سلسلة الندوات المخصصة لدراسة الإصلاحات المنشودة لمصر فى شتى المجالات، الدستورية والتشريعية والسياسية والاقتصادية والإعلامية والتربوية والتكنولوجية والحضارية والاجتماعية، بهدف مواجهة تحديات المرحلة الراهنة، ووضع رؤية مستقبلية لمسيرة الإعلام الهادف البانى لنهضة مصر الحديثة.

واستكمالا لما قامت به الرابطة بالتعاون مع مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامى لتحقيق هذه الأهداف- حيث عقدت على مدار الشهرين الماضيين ثلاث ندوات عن «الإصلاحت الدستورية - والاقتصادية - والمالية والإدارية»- عقدت مؤخرا الندوة الرابعة بعنوان «دور الإعلام المصرى فى مواجهة التحديات المعاصرة.

لفت نظر حضور الندوة ما طرح حول الإعلام الإسلامى وأهمية الالتزام بمنهجه فى هذه الفترة الحاسمة فى تاريخ مصر،

وعلى ضوء ما شهدناه على مدى أكثر من ثلاثين عاماً من فساد فى الخطاب الإعلامى، وذلك يستلزم وضع ميثاق

شرف للأجهزة الإعلامية يحدد دورها ويكون هادفا لهؤلاء الإعلاميين الصادقين فى اصلاح صغار الإعلاميين الذين يمكن إنقاذهم من الظروف التى وضعهم فيها النظام السابق، أى أن يسايروا المناخ الصالح الذى ستعيش فيه الأجهزة الإعلامية فى ظل ما بعد ثورة ٢٥ يناير ويتحلون بالصدق المطلق، فالمسلم يمكن أن يقع فى الكثير من الأخطاء، الأخطاء واحد مرد عليه. الإعلام المصرى سابقا ألا وهو الكذب.

يقول د. يوسف إبراهيم مدير مركز صالح كامل الإسلامى مضيفا: بعد استكمال عملية إصلاح الأجهزة الإعلامية، تمارس دورها فى إصلاح بقية القطاعات، عندما تلتزم الصدق فتتحول إلى صوت الشعب، تعبر عن آماله وتطلعاته، كما ينشر الإعلام القيم الصحيحة بين الناس بشتى الوسائل بالحديث الإذاعى وبالمسلسل التليفزيونى وبالفيلم السينمائى وبالمقال الصحفى وبالخبر الصادق فى كل هذه القطاعات الإعلامية.

إقامة نظام إعلامى جيد

وفى كلمته الضافية فى بداية الندوة وهو يتناول بعض الملاحظات حول أداء الإعلام فى الفترة الماضية قال الدكتور جعفر عبد السلام الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية: هناك ملاحظة خاصة تتصل بنا نحن الأكاديميين – رجال العالم – وسيوجه بشكل عام لنا عن دور كليات الإعلام، وهل نجحت بالفعل فى إقامة نظام إعلامى جيد، وكونت رجالا ونساء يستطيعون أن يلبوا حاجات المجتمع، ووظيفة الإعلام كما تعلمون هى التعبير الموضوعى عن عقول وأفئدة الناس، بمعنى أنه لابد أن يكون الإعلام مرآة نستطيع أن نستطلع منها، وأن نعرف منها الرأى فى هذا المجتمع، فضلا عن توجيه الرأى العام وقيادته إذا قضية كليات الإعلام، وهذه تهمنا بالذات فى رابطة الجامعات الإسلامية، أن تناقش قضية البرامج التى يدرس بها الإعلام فى الجامعات وكيف ينبغى علينا أن نطورها.


د. جعفر عبدالسلام

ووجه حديثه لحضور الندوة من الإعلاميين قائلا: أريد من الجميع أن يسهم فى واقع التصور لدور الإعلام القادم، والتحديات الإعلامية العديدة التى تواجه بلادنا وثورتنا الآن وفى اعتقادى أنه يقدر ما يصلح الإعلام، بقدر ما يصلح المجتمع أيضا وبقدر ما أن يكون الإعلام قويا معبرا موضوعيا عن فكرنا وعن عقلنا وعن وجداننا أيضا، بقدر ما يسود المجتمع من أشياء جيدة والعكس صحيح.

أهمية الإعلام الإسلامى

وقد تحدث الدكتور إسماعيل شاهين نائب رئيس جامعة الأزهر عن الإعلام الفاسد فى المرحلة الماضية وكيف كانت صياغته لعقول الأمة صياغة غير صحيحة ونحن الآن ندفع ثمن ذلك. إن الإعلام له دور كبير فى صياغة عقول الأمة واستشهد بما قاله الإمام على كرم الله وجهه حين قال: لا تسألوا الجهلاء لم – لم يتعلموا قبل أن يسألوا العلماء لم لم يعلموا.. وليت ذلك يكون دستور للإعلام.

ومن أهم ما قاله الدكتور شاهين: ليت كل الأخوة الإعلاميين وإن كانوا أكاديميين أو مهنيين وتطبقيين أن يأخذوا من الإعلام الإسلام مثلنا ينطلقون منه خلاله إلى إعلام صحيح، لأن الإعلام الإسلامى هو إعلام فاضل يأخذ بالخلق قبل أن يأخذ بالماديات، فهو إعلام نظيف.

والقرآن الكريم عبر عن هذا الإعلام النظيف بقوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾

(الحجرات: ١٢)

لكى ننهى تماما إلصاق التهم بالآخرين أو الجرى وراء الشائعات.

أيضا الإعلام الإسلامى يقول:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾

(الحجرات: ١١)

كما أن الإعلام الإسلامى له دستور يقول:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾

(آل عمران: ١٠٤)

عقيدة الولاء لله

والإعلام الإسلامى يهدف إلى تنمية عقيدة الولاء لله سبحانه وتعالى حتى يشعر الفرد والمرء بمسئوليته أمام الله سبحانه وتعالى.

كما أنه يهتم بالنشاط الثقافى الإسلامى والفكرى ونشره، حتى يستطيع أن تكون الحياة المجتمعية، حياة لها مرجعية دينية تستند إلى فكر دينى يبعدها عن الهوى ويبعدها عن التشاحن.

وأشار الدكتور إسماعيل شاهين إلى مزايا الإعلام الإسلامى ومن أبرز مزاياه أنه تنمية للغة العربية وبالتالى فلابد أن يركز الإعلام الإسلامى على تنمية ثروة اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾

(يوسف: ٢)

وباعتبار أن اللغة العربية هى المنوط بها

ترجمة المصطلحات العلمية لكي تستفيد الأمة من هذه المصطلحات.

نبذ العنف والإرهاب

ودور الإعلام الإسلامي في الحقيقة - يتخطى مرحلة النصح ومرحلة الهداية ومرحلة التبشير ومرحلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في معالجة المشكلات الداخلية للمجتمع، من خلال الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، وصلاحية الشريعة الإسلامية في كل زمان ومكان من خلال مصادرها الرئيسية ألا وهي القرآن والسنة والإجماع والقياس والمصالح المرسلة.

ولا أخفي عليكم والحديث مازال للدكتور إسماعيل شاهين: أنني لست راضيا عن الإعلام الإسلامي، وأعتقد أنه حتى الآن لم يصل إلى الحس الإعلامي الذي يجعل له القدرة على مواكبة التطورات الحديثة، بل أقول أكثر من هذا إن البرامج الإذاعية، وكل الخطط التليفزيونية الإسلامية، تعتمد على مخططات مستوردة وبالتالي جاءت هذه البرامج وهذه الأفكار ممسوخة لا تفيد المجتمع، ولا تفيد الشباب في مجتمع الأمة الإسلامية.

لهذا فذلك يمثل إشكالية، وعلينا أن نخرج من مرحلة الخطابة الإسلامية، إلى مرحلة الناحية العملية، وإيجاد ثقافة واقعية تستطيع أن تثير المجتمع، يقودها الإعلام الإسلامي والإعلام الموضوعي والإعلام الأكاديمي، لأن الإعلام كما قلت له دور كبير ورائع ومازلت أقول أنه أخطر وسيلة تستطيع أن تقود الأمة نحو التقدم، وفي نفس الوقت فإنه أخطر وسيلة تستطيع أن تقود الأمة إلى التخلف وإلى التراجع عن التنمية وعن التقدم إلى الأمام.

التمسك بالقيم والمبادئ

وأشار الدكتور إسماعيل قائلا: لقد حرصت على التأكيد في كلمتي هذه على الإعلام الإسلامي، لأنه مستمد من الشريعة الخالدة التي جاءت عامة:

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾

(الأنعام: ٣٨)

والتي جاءت تقول: كلكم لآدم وآدم تراب لافضل لعربي على أعجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى» ٢١ سند أحمد «بلفظ مقارب»

هي شريعة خالدة تتمثل وتتمسك بالقيم والمبادئ الأخلاقية، وصدق الله إذ يقول:

﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

(الصف: ٣)

والحقيقة أن الشريعة الإسلامية والإعلام المعاصر، لابد أن يكون نوعا من الزواج وهنا نوع من التكامل بين الإثنين حتى تستطيع أن تخرج إعلاما متحضرا، وإعلاما معاصرا يواكب تطورات العصر، ويواكب التقدم العلمي، وخاصة في مجال التنمية الحضارية.

بين المجلة والقارئ

إعداد وتقديم

أحمد السيد تقي الدين

الثورة المظلومة

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الشيخ/ مصطفي الأزهري - خطيب مسجد سوق الحمام - السيدة عائشة - القاهرة:

كلما قرأت قوله تعالى

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

(الرعد: ١١)

● تجلت لي أحداث الثورة المصرية، وآثارها وتداعياتها على الفرد والمجتمع، ذلك لأن الحدث جلل وربما جاء بعد طول انتظار واحتقان وبشكل لم يخطر على بال كثير من الناس الذين كادوا أن يفقدوا الأمل في أي تغيير يطرأ على حياتهم السياسية والاجتماعية، لكن شاء الله - والأمر كله إليه - أن يحدث ما حدث ويدفع المجتمع ضريبة التغيير من دماء أبنائه الذين أصروا لآخر لحظة شعبا وجيشا أن تكون تلك الثورة ثورة سلمية لآخر نفس فيها، وتلك - بفضل الله - طبيعة الشعب المصري الطيب الصبور المسالم، الذي يتعامل مع مفردات حياته ببساطة متناهية بلا طمع ولا شره؛ بل هو (الستر) الذي هو غاية المنى للناس!

وانتصرت الثورة وحدثت أكبر مراحل التغيير بسقوط النظام السابق بما له وما عليه، وفرح الناس بنصر الله وتحقق الحلم الذي انتظره كل من ذاق مرارة الظلم والقهر والعوز والفقر وغياب العدالة وضياع الحقوق، لكن وبعد مرور شهور قليلة على الثورة وتداعيات الأحداث الجسام بما فيها غياب الأمن وحدوث حالة من الارتباك الاقتصادي والاجتماعي كنتيجة لتركة مثقلة بالمشاكل بل والمآسي - سامح الله من تسبب فيها - أضيف إلى ذلك حالة الكبت الذي عاشها الناس ردحا من الزمان يخافون من الجهر بمطلب حق أو شكوى من وضع، فرأينا حالة من الانفلات الأخلاقي الذي بدت مظاهرة للعيان في حالة من التردي الأخلاقي

من أبرز سماتها الميل للعنف، الفوضى، اللامبالاة، شيوع فكر الأنانية إلى آخر تلك المظاهر التى يراها ويشعر بها ويذوق مرارتها الجميع، مما جعل بعض الناس يعودون باللائمة على الثورة نفسها، معللين ذلك بأن شعبنا لا تسيره ولا تضبط أموره إلا «العصا الغليظة»! وهى فكرة خطيرة تهدم التغيير من أساسه، وتظلم الثورة التى صنعتها دماء الشهداء الزكية الذين خرجوا يهتفون: «سلمية سلمية»، فكيف يكون صناع الثورة «سلميون» مجتمع عنيف لا يوقر فيه صغير كبيراً، ولا يرحم كبير صغيراً؟!

إن الثورة المصرية ما قامت لتستبدل ظلماً بظلم، ولا عنفاً بعنف، ولابلطجة بأخرى، ولا سرقة بنهب، إنما قامت من أجل تحقيق العدالة ومن أجل إقرار الحق والعدل، وشاء الله - جلت حكمته - أن يكون الجيش المصرى البطل هو حامى هذه الثورة والقائم على حراسة المجتمع داخلياً وخارجياً حتى يتم تسليم السلطة لحاكم وطنى يختاره الشعب من خلال انتخابات حرة نزيهة تعبر بحق عن إرادة الشعب ليستأنف حياته السياسية والاجتماعية بلا صراع ولا فتن لو ترك لها المجال لباض فيها شياطين الإنس والجن وأفرخوا، أقول بكل وضوح وصراحة إن مجتمعنا المصرى فى أمس الحاجة إلى القيام بثورة أخرى تصون ثورته الأولى «٢٥ يناير» ثورة أخلاقية تعيد المجتمع إلى قيمه النبيلة وتجدد فيه روح السماحة التى عرف بها على مدار التاريخ، كما أنبه هنا إلى أن مجتمعنا بكل فئاته يحتاج إلى إعادة تأهيل نفسى ودينى واجتماعى لتقبل التغيير الذى حدث حتى تعود إليه ثقته فى نفسه بمحاولة تكريس فكرة التفكير الجمعى على قاعدة أخلاقية مستقاة من ديننا الحنيف ومن القيم النبيلة التى عرفتها الأجيال السابقة فى الزمن الجميل.. والله المستعان.

فلاحة الأرض وزراعتها من أفضل أعمال الإنسان

وتحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ / إبراهيم مسلم النجار - مدير عام تنظيم وإدارة سابق - سندنهور - قليوبية:

إن مهنة استزراع الأرض وفلاحتها هى مهنة طيبة وهى أول ما عرفه الإنسان وقد أشاد بفضلها الرسول ﷺ فى كثير من أحاديثه..

فالفلاح هو سيد أرضه بفأسه ومحراثه ثم بتكوير المحصول وتكويمه وما يخرجه عنه على سبيل الصدقة فهو صدقة متقبلة أمر بها الله ورسوله، وقد ورد عن أنس رضى الله عنه عن فضل الزراعة والزراع قول الرسول ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة» (رواه البخارى).

ويحكى لنا أبو هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان يوما يحدث - وعنده رجل من أهل البادية - أن رجلا من أهل الجنة استأذن ربه فى الزرع فقال له: ألست فيما شئت؟ قال: بلى ولكنى أحب أن أزرع قال: فبذر فبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده فكان أمثال الجبال فيقول الله تعالى: «دونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شىء» فقال الأعرابى: والله لا تجده إلا قرشيا أو أنصاريا فإنهم أصحاب زرع وأما نحن فلسنا بأصحاب زرع فضحك النبى ﷺ، (رواه البخارى).

وفى هذا الحديث يحرص النبى أن يذكر لأصحابه بعض أخبار أهل الجنة للعظة والاعتبار ويعنى أن رجلا من أهل الجنة طلب من الله أن يأذن له فى الزراعة فأذن له وبذر البذر فما كان بين البذر والحصد والتكوير والتكويم إلا لمح البصر - وذلك شأن كل عمل فى الجنة - كل شىء تتمناه أو تطلبه تجده تجاهك وأكل أهل الجنة ليس عن جوع أصلا فقد وصفهم الله جل وعلا بقوله:

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾

(طه ١١٨ - ١١٩)

وقد حث النبى ﷺ على فضل الزراعة والزراع حتى عند قيام الساعة فقال:

«إذا قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل» (رواه أحمد).

وهى كذلك من المهن أو الأعمال التى يجرى ثوابها بعد الموت حيث قال ﷺ:

«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو ولد صالح يدعو له أو علم ينتفع به من بعده» روى هذا الحديث «الإمام مسلم» وقد عد فيها أعمال الزراعة.

وفى القرآن الكريم يقول سبحانه فى سورة الملك آية ١٥:

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾

وبعد هذا الأمر بالسعى فى الأرض والبحث عن خيراتها ومن بينها الزراعة يرسم لنا القرآن مراحل إعداد الأرض وتهيئتها للزراعة ثم استخراج ما تنبته من أنواع شتى من الطعام للإنسان وللحيوان فيقول سبحانه:

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾

(سورة عبس ٢٤ - ٣٢)

وإذا كان شرف مهنة الزراعة أن لها فضل السعى فى الأرض وزراعتها واستخراج خيراتها إلا أننا غفلنا عن هذا الأمر حتى أصبح الفلاح فى حالة مزرية يرثى لها؛ لأن أنظمة الحكم تبخس ثمن جهده وعمله ولا تهتم بشأنه مثل باقى أنشطة الدولة وليتنا وقد قمنا بثورتنا فى ٢٥ يناير أن نهتم بتنظيم مهنة الزراعة ورعاية مصالح عمالها بعمل تنظيم نقابى يعنى بشئونهم الزراعية ومطالبهم الصحية والتأمينية فهم أصحاب مهنة بلدنا ونشاطها الزراعى طوال عهود التاريخ.

إن العمل حق وواجب وخير الأعمال هى إعمار الأرض وزراعتها اقتداء بما قال ﷺ :

«ما من مسلم يغرس غرسا إلا كان ما أكل منه له صدقة وما سُرق منه له صدقة ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة» (رواه مسلم) .

وقد نقل عن الطيبى : أن رجلا مر بأبى الدرداء وهو يغرس جوزة فقال : أتغرس هذا وأنت شيخ كبير؟ وهذه لا تطعم إلا فى كذا وكذا عاما فقال : ما علىَّ أن يكون لى أجرها ويأكل منها غيرى» .

من أمثالنا العربية

وتحت هذا العنوان جاءت كلمة الأستاذ/ محمد عباس محمد عرابى:

كثيرة هى أمثالنا العربية التى تستفيد منها الحكمة البليغة، والخلق الرفيع، ورغبة فى الاستفادة من هذه الأمثال فى حياتنا نذكر الأمثال التالية:

- من زرع المعروف حصد الشكر .
- من تأنى نال ما تمنى .
- أعقل الناس أعذرهم للناس .
- شر الأشرار من لا يقبل الأعذار .
- صاحب الحق سلطان .
- من عرف قيمة الحق عز عليه أن يراه مهضوماً .
- من قعد به حسبه ، نهض به أدبه .
- من زرع المعروف حصد الشكر .
- علم بلا فعل ، كسفينة بلا ملاح
- مجد التاجر فى كيسه ، ومجد العالم فى كراريسه .
- غبار العمل خير من زعفران البطالة .
- ليس كل ما يلمع ذهباً .
- وعد بلا وفاء ، عداوة بلا سبب .
- عدو عاقل ، خير من صديق جاهل .
- لا تقل ما لا تعلم ، ولا تقل كل ما تعلم .
- الحركة بركة .
- إذا شاورت العاقل صار عقله لك .
- الهزيمة مع السلامة غنيمة .
- حسب نواياكم ترزقون .
- الهم نصف الهرم .
- الغريب من لا أدب له .
- أدب المرء خير من ذهبه .
- الصديق عند الضيق .
- وحدة المرء خير من جليس السوء .
- لا كنز أنفع من العلم .
- لا شيء أربح من الأدب .
- لا قرين أزين من العقل .

بين الصحف و المجلات

إعداد

أ/ محمد جمعة

أ/ علا عبدالرحمن

نماذج التعايش مع الآخر

الإسلام ومنهجه فى الحفاظ على الإنسان

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ الدكتور/ على جمعة بجريدة الأهرام بعددها الصادر فى: ٢٠١١/٧/٢٤م يقول فيه:

منذ أن نزل الوحى على رسول الله ﷺ فى غار حراء ، كانت دعوته تعتمد السلام منهاجا ، والتسامح سلوكا ، فقد بدأ ﷺ دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة .. ولم يتخل يوما عن الرفق واللين فى القول والعمل ، وبهذا النهج الوسطى اليسير أسس الإسلام مبدأ التعايش بين جميع الأطياف والمذاهب المختلفة فى إطار العدل والمساواة والدعوة إلى التعارف والتعاون كما عمل على توطيد العلاقات السلمية بين الناس فى الداخل والخارج وحقق الإسلام قيم التسامح والسلام والرحمة بصورة واضحة فى التعايش بين الأديان والمذاهب المختلفة على أساس من حرية ممارسة الشعائر الدينية والتخلى عن التعصب الدينى والتمييز العنصرى ، بل نراه كيف منح الحرية فى الإبداع من خلال دائرة الاجتهاد القائمة إلى يوم الدين كذلك أكد الرسول ﷺ أن الإسلام يرسخ حقوق المواطنة فى دولته للمسلم وغيره ، فالجميع سواء من حيث الحقوق والواجبات ، وهو ما اتضح فى وثيقة المدينة التى عقدها بمجرد وصوله إليها وهى معاهدة تمثل دستورا شاملا يعالج قضايا التكامل الاجتماعى والاقتصادى والعلاقات القانونية داخل الدولة وخارجها والسيرة النبوية المشرفة تزخر بالأمثلة والروايات التى تؤكد أن الإسلام دين السلام والتعاون ؛ فالدولة الإسلامية فى عهد الرسول عملت على مد جسور الحوار البناء والتعايش السلمى داخل الدولة الإسلامية بين مواطنيها على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم ، وخارجها فى علاقاتها مع دول الجوار ، وذلك عبر توطيد العلاقات السلمية من خلال المعاهدات التى أبرمها الرسول ﷺ مع مختلف القبائل والدول المجاورة ، دون اعتبار لاختلاف الدين أو العرق أو اللون ؛ إذ هدف هذه الرسالة العالمية هو الحفاظ على بنية الإنسان جسمانيا وفكريا وروحيا ، واتضح ذلك من

خلال تكريم الله تعالى للإنسان وتسخير الكون له، وذلك بغية تحقيق سعادته فى الدنيا، وفوزه بالنعيم المقيم فى الآخرة ومن هنا جاء اهتمام الإسلام بالإنسان؛ فجعل مقاصد الشريعة تدور حوله وتحقق له والمال، سواء كان ذلك له أو لغيره ومن أجل الحفاظ على هذه المقاصد هذب وعالج الإسلام نزعة الحرب والاعتداء والانتقام فى نفس الإنسان المسلم، فنهى عن ترويع الآمنين وقتل المسالمين.

ولم يشرع الحرب إلا بغية الدفاع والذود عن حياض الدولة الإسلامية، فجاءت الحرب فى الإسلام -على خلاف ما يشاع حول الدولة الإسلامية؛ للحفاظ على الإنسان، والحد من إراقة الدماء وإزهاق الأرواح؛ فالإسلام لم يكن يوما دينا يهتم فقط ويختص به من أسلم وآمن بالله ورسوله.

ولكنه أيضا دولة تحافظ على الناس جميعهم، وختاما فإن الإسلام جاء للحفاظ على أمة الدعوة- وهى الإنسان فى كل زمان ومكان، فردا أو جماعة أو أمة- لأنها المحل الواسع للدعوة إلى الله تعالى ولأنها أصل أمة الإجابة، وأساس دعوة الإسلام.

دماء يجب حقنها

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ/ عبدالعزيز بن عثمان التويجرى- المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة- إيسيسكو- المنشور بجريدة الحياة بعددها الصادر فى: ٢٠١١/٨/١٠م يقول:

الدعوة إلى حقن دماء المواطنين التى تهدر فى ثلاث دول عربية واجب شرعى، ومسئولية مشتركة تقع على عاتق المسئولين كل فى موقعه، وتتحملها القيادات الدينية والشعبية، والنخب الفكرية والثقافية والإعلامية، بصورة عامة.

ولذلك فإن الدعوة إلى حقن الدماء وإنهاء الأزمة فى هذه الدول الثلاث، ليس من قبيل التدخل فى الشئون الداخلية الذى ترفضه القوانين الدولية، ولكنها واجب من الواجبات الشرعية فى المقام الأول، قبل أن تكون من الواجبات الإنسانية، إننا جميعا، حكومات وشعوبا، مسئولون أمام الله تعالى، ثم أمام أمتنا، عن استمرار هذه الأوضاع المتدهورة المنهارة الآخذة فى التأزم المنذر بسوء العاقبة وسنحاسب عن هذا التفريط فى القيام بالواجب تجاه الأشقاء، يوم نلقى الله، ما لم نبادر إلى القيام بما يجب، من خلال اتخاذ الإجراءات المناسبة وفى أسرع وقت، لوقف النزيف الدموى المنهمر وكبح جماح الدمار والخراب اللذين تفاقم أمرهما لدرجة مرعبة.. ولست أدرى ماذا يمنع من تحرك سريع تقوم به جامعة الدول العربية ومنظمة التعاون الإسلامى، من خلال إيفاد لجنة لتقصى الحقائق وإحقاق الحق وإقامة الحجة، إلى الدول العربية الثلاث التى ينزف فيها الدم العربى المسلم مدراراً دون توقف منذ شهور، أعرف أن اتخاذ مثل هذا القرار يتطلب عقد دورة استثنائية لوزراء الخارجية فى الجامعة والمنظمة فما يمنع من أن يدعو الأمينان العامان لجامعة الدول العربية ومنظمة التعاون الإسلامى، إلى عقد هذه الدورة العاجلة لتحمل هذه المهمة التى ترتقى فى أهميتها إلى مستوى الواجب الدينى الذى يوجب القيام به.

فهل السكوت عن الأحداث المرعبة والمتلاحقة التى تقع فى هذه الدول الثلاث، تحت دعوى «عدم التدخل فى الشئون الداخلية للدول»، منطقى، وقد ثبت بالأدلة القاطعة وجود تدخلات خارجية من هنا وهناك؟ وهل هذا الصمت الثقيل على النفس، بدافع «عدم التدخل فى الشئون الداخلية للدول» سلوك ايجابى، وسياسة «واقعية» وموقف «ملتزم بالقوانين» ومراع للمصالح العليا للأمة الإسلامية؟

إن العالم الإسلامى يمر فى هذه المرحلة بظروف عصيبة، فبينما تتوسع فى مناطق عديدة منه، كارثة المجاعة، وتتفاقم الأزمة الناشبة فى أفغانستان ويتسارع اضطراب الأوضاع فى العراق ويتزايد تهديد استقرار الدولة فى لبنان، وتتصاعد الأحداث المدمرة فى ثلاث دول عربية، تزيد حدة الحملات المعادية للإسلام وللمسلمين فى دول أوروبية تحت دعوى محاربة «التطرف الإسلامى»، أو الوقوف فى وجه ما أصبحوا يسمونه «أسلمة أوروبا»، وهى نذر حرب عنصرية دينية عدائية تتجمع فى الأفق، ففى هذه الظروف يكون من أوجب الواجبات الاهتمام بوقف النزيف قدر الإمكان، والسعى من أجل الاستقرار والأمن الأهلى والمحافظة على كيان الأمة، بحماية وجود دولها فى ظل حكم رشيد وعدالة اجتماعية ونبذ للطائفية والمخططات التوسعية المرتبطة بها.

اليمين المتطرف.. والعنصرية الأوروبية

تحت عنوان «الديمقراطية والحركات الإسلامية» كتب الأستاذ/ سلامة احمد سلامة مقاله المنشور بجريدة الشروق بعددها الصادر فى: ٢٠١١/٨/١م يقول فيه:

حاول الغرب أن ينكر الحقيقة التى كانت واضحة وضوح الشمس، وهى أن السفاح النرويجى بريفيك الذى ارتكب المذبحة المزدوجة فى أوسلو ليس مسلما، وأنه يعبر عن نزعة عنصرية كامنة فى صلب الحضارة الغربية تطفو على السطح بين حين وآخر. وتجد تعبيرا عن نفسها فى المشاعر العدوانية تجاه الأجانب والمهاجرين المسلمين.. الذين صورتهم وسائل الإعلام فى وعى الغرب باعتبارهم إرهابيين بالسليقة ومعادين للديمقراطية والمرأة وحقوق الإنسان.. أما الحركات المسيحية الأصولية المتطرفة فهى فى رأيهم مجرد تجمعات عشوائية للدفاع عن المسيحية والحيلولة دون أسلمة المجتمع وتغيير عاداته.. وبينما تشتد قوة الدفع فى معظم دول الغرب ضد المد الإسلامى بكل صوره، وتتشكل حركات شعبية وحزبية وسياسية مناهضة لوجود مهاجرين مسلمين، لم تكن النرويج غير آخر مثال عليها، وسبقتها فى ذلك الدانمارك والسويد وألمانيا وفرنسا.. التى واجهت دعوة التنوع الثقافى والتعدد الدينى بالتشكك والرفض، وجعلت من حوار الأديان والحضارات مجرد عنوان لتضليل المخدوعين فى المشرق العربى.

لا تريد السلطات النرويجية أن تعترف بأن اليمين المتطرف قد تغلغل فى نسيج الحياة وصبغ ميول الشباب بأفكار نازية. وهناك اقتناع جارف بأن العناصر المسلمة غير قابلة للاندماج فى المجتمع النرويجى وأن ثمة مؤامرة يسعى المسلمون من خلالها إلى السيطرة على أوروبا وحكمها وتنتشر هذه الأفكار بقوة بين كثير من فئات المجتمع. وتجعل اندماج المهاجرين المسلمين بالفعل عملية معقدة.

الصومال بين الاقتتال والموت جوعاً

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ/ محمد عبدالعزيز المنشور بجريدة الجمهورية بعددها الصادر فى: ٢٠١١/٨/١٠م يقول:

الصومال باتت ممزقة بين آتون حرب مستعرة تقودها حركة الشباب وبين مجاعة يتزايد ضحاياها يوما بعد يوم حتى أصبحت على أعتاب كارثة إنسانية تنتشر رويدا رويدا لتطال القرن الأفريقى بأكمله لولا أن يتم تداركها قبل فوات الأوان.

التقارير التى تخرج عن منظمات الإغاثة التابعة للأمم المتحدة تقول: إن أكثر من ٣ ملايين صومالى مهددون بالموت جوعاً بينما أفواج الجياع تتدفق إلى

خارج الأراضى الصومالية وإلى دول الجوار بحثا عن لقمة عيش تسد الرمق فى حال لو كتب لهؤلاء النجاح فى الوصول وهناك ينضم إلى معسكرات أعدت للاجئين تحتوى على مئات الآلاف من النازحين الذين ينتظرون من يجود عليهم بالطعام والشراب.

ورغم التحذيرات من تداعيات خطورة الموقف ومن صور الأطفال المتضررين جوعاً خاصة فى منطقة الجنوب الصومالى، لم يتحرك المجتمع الدولى بالسرعة الكافية لتقديم المساعدات اللازمة.

إذ لاتزال المجاعة تعصف بالمنطقة وتهدد حياة الملايين فى منطقة القرن الأفريقى كينيا وإثيوبيا وجيبوتى ولاسيما الصومال، حيث أودت بحياة نحو ٢٩ ألف طفل حتى الآن وتصف الأمم المتحدة الأزمة الحالية التى تمر بها الصومال بأنها «أسوأ أزمة إنسانية فى العالم» وأسوأ أزمة غذائية منذ المجاعة التى شهدتها الصومال فى ١٩٩١ - ١٩٩٢.. فالحرب والقتال الدائر فى الجنوب من جهة والجفاف وندرة المواد الغذائية من جهة أخرى ومع استمرار تقصير المنظمات الدولية فى إغاثة البلد تتزايد التحذيرات من اتساع خطر المجاعة ليشمل كافة أنحاء جنوب الصومال وزاد الأمر خطورة تجدد القتال العنيف بين قوات الحكومة الصومالية ومسلحى حركة الشباب فى مقديشيو وهو ما ينذر بسقوط المزيد من الضحايا.

انحطاط الأمم بانحطاط القلم

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ/ خالد القشطيني المنشور بجريدة الشرق الأوسط الصادرة فى: ٢٠١١/٨/٧م يقول:

مصير الأمم فى هذا العصر يتوقف بصورة أساسية على مجهودها الفكرى فى سائر الميادين، لا تملك اليابان أى مصدر للثروة غير السمك فى البحر، لكنها تعتبر الآن من أغنى دول العالم وأكثرها تقدما بعد أن كانت من أكثر دول العالم فقرا وتخلفا فى القرن التاسع عشر، وكله يعود لنشاطها الفكرى فى سائر الميادين امتدادا من العلوم والتكنولوجيا إلى السينما والموسيقى.

وعندما نفكر بتفوق إسرائيل علينا، ينبغى أن ندرك أنها تنفق على البحث العلمى ٣٢,٢٪ من الناتج القومى، فى حين أن ما ينفقه العالم العربى برمته لا يتجاوز ٠,٤٪ من الناتج القومى.

علينا أن نتذكر أن عدد الكتب المترجمة فى اليونان، هذا البلد الصغير يبلغ ٥ أضعاف ما يترجم فى العالم العربى كله، وترتفع النسبة إلى ٧ أضعاف عند المقارنة بإسبانيا.

وتذكر تقارير «اليونيسكو» ان نشر الكتب الجديدة فى العالم العربى ينحصر فى ٢٨ عنوان كتاب لكل مليون مواطن، مقابل ٦٠٠ عنوان لكل مليون مواطن فى أوروبا ولا يشكل إنتاج الكتب فى العالم العربى كله غير ١,١٪ من الإجمالى العالمى.

يعود ذلك - إلى حد كبير - لقلة المردود أو انعدامه من امتهان البحث والتأليف والكتابة، فلما تعثر على مواطن عربى يكرس حياته لهذه المهن الخاسرة، سيموت جوعا. لا يوجد حافز للعمل الخلاق والإبداع وهذا من أسرار انحطاطنا.

السبب الرئيس لهذا الفقر فى الكتابة والنشر هو نسبة الأمية العالية وقلة اهتمام المتعلمين بالقراءة واحترام الكتاب. قُدر معدل قراءة المواطن الغربى بأنه يساوى ٣٦٠ مرة معدل قراءة المواطن العربى، لا أدرى إن كانوا قد أدخلوا فى هذه النسبة قراءة الكتب الدينية.

أنباء مجمع البحوث الإسلامية

للأستاذ / عبدالموجود أمين

الموافقة على قيد طلبة جدد على منح الأزهر الشريف

قررت لجنة شئون الطلاب الوافدين الموافقة على قيد ٢٤٦ طالباً وطالبة على منح الأزهر الشريف العام الدراسى ٢٠١٠ / ٢٠١١م وذلك على النحو التالى:-

●● أولاً: أفريقيا: الموافقة على قيد ٧٣ طالباً وطالبة من المرحلتين الجامعية والثانوية من جميع دول أفريقيا فيما عدا أثيوبيا ورواندا فيتم قيد جميع الطلاب المتقدمين منهم على منح الأزهر.

●● ثانياً: آسيا

أ) الموافقة على قيد عدد ٣٤ طالباً وطالبة من الفرقة الرابعة والثالثة من المرحلة الجامعية لدولة تايلاند.

ب) الموافقة على قيد عدد ١١ طالباً من المرحلة الجامعية لدولة كمبوديا.

ج) الموافقة على قيد عدد ٢٥ طالباً وطالبة من المرحلة الجامعية والثانوية للدول الآتية: سيرلانكا ـ الهند ـ سنغافورة ـ باكستان ـ أفغانستان ـ الفلبين ـ فيما عدا دولتى الصين وبنجلاديش ـ فيتم قيد جميع الطلاب المتقدمين منهم على منح الأزهر.

● وبذلك يكون إجمالى المنح المخصصة لقارة آسيا ٧٠ منحة.

●● ثالثاً: أوروبا: الموافقة على قيد جميع طلاب وطالبات قارة أوروبا وعددهم ٢١ طالباً.

●● رابعاً: روسيا الاتحادية ودول الكومنولث: الموافقة على قيد جميع طلاب المرحلتين الجامعية والثانوية لروسيا الاتحادية ودول الكومنولث وعددهم ٧٩ طالباً وطالبة.

●● خامساً: الأمريكتين: الموافقة على قيد جميع الطلاب المتقدمين من الأمريكتين وعددهم ٣ طلاب.

●● يتم الصرف للطلاب المرشحين والمستوفين للشروط اعتبارا من الشهر التالى لاعتماد محضر لجنة شئون الطلاب الوافدين لتقديم المستندات والأوراق المطلوبة من كل طالب والتثبت من مدى أحقيته فى المنحة طبقا للقواعد واللوائح المعمول بها فى هذا الشأن.

●● كما تقرر مد العمل بالشهادات المعادلة للأزهر الشريف هذا العام كسنة انتقالية أخيرة ٢٠١١ / ٢٠١٢، وذلك حتى تتمكن المدارس

والمعاهد الأجنبية والعربية - التي كانت لها معادلة مع الأزهر الشريف - من إرسال الخطة والمنهج الدراسي لبحث المعادلة وذلك استجابة للالتماسات المقدمة إلى إدارة شئون الطلاب الوافدين من بعض السفارات.

مسابقة خدمة الدعوة والفقه الإسلامي

أعلن رئيس هيئة قضايا الدولة ناظر وقف المستشار الدكتور محمد شوقي الفنجري نتيجة مسابقة خدمة الدعوة والفقه الإسلامي لعام ٢٠١١ في موضوعي:

١ - التسامح والإخاء الإنساني في الإسلام.

٢ - الإسلام وتنمية المجتمع.

وتقدم لها عدد «١٩٧» باحثاً، وفاز بالجوائز الأصلية وقيمتها ٤٠٠٠٠جم (أربعون ألف جنيه) عدد «٢٠» باحثاً بحد أدنى ٢٠٠٠جم (ألفي جنيه) لكل منهم وبالجوائز التشجيعية وقيمتها ٢٠٠٠٠جم (عشرون ألف جنيه) عدد «٢٠» باحثاً في حدود ١٠٠٠جم (ألف جنيه) لكل منهم.

وقد تنوع الباحثون ما بين رجال ونساء، وما بين أساتذة جامعيين وطلاب وما بين رجال قضاء ودبلوماسيين، وما بين مدرسين وعلماء دين وصحفيين، ومهن أخرى من طبيب ومهندس ومحام وربة بيت.

وقال: إن اللجنة العليا المشكلة بموجب حجة وقف المستشار الدكتور محمد شوقي الفنجري لصالح جائزة خدمة الدعوة والفقه الإسلامي بجلستها المنعقدة في أول يناير ٢٠١١، قد قررت لمسابقة عام ٢٠١٢ ما يلي:-

أولاً: تخصيص مبلغ مقداره ١٠٠٠٠جم «عشرة آلاف جنيه» للجائزة الأولى المتميزة ويمكن أن تقسم إلى جائزتين كل منهما خمسة آلاف جنيه حسب تقييم البحوث المقدمة في أحد الموضوعات التالية:-

١ - منظومة القيم الإسلامية وأثرها في تأكيد التعايش في المجتمع المعاصر.

٢ - أزمة المياه.. المشكلة والحل.. من منظور إسلامي.

ثانياً: تخصيص مبلغ مقداره ٤٠٠٠٠جم (أربعون ألف جنيه) جوائز أصلية لأحسن البحوث في أحد الموضوعين سالفي الذكر (وذلك بحد أدنى ٢٠٠٠جم «ألفي جنيه» لكل فائز).

ثالثاً: تخصيص مبلغ مقداره ٢٠٠٠٠جم (عشرون ألف جنيه) جوائز تشجيعية للبحوث الجيدة غير الفائزة بالجوائز الأصلية في أحد الموضوعين سالفي الذكر، وذلك في حدود مبلغ ١٠٠٠جم (ألف جنيه) كحد أدنى لكل فائز.

ويقدم البحث بموجب إيصال في ميعاد غايته ٣١ مارس عام ٢٠١٢، إلى مكتب ناظر الوقف الأستاذ المستشار رئيس هيئة قضايا الدولة بالدور العاشر بمجمع التحرير بالقاهرة، وذلك من عدد ثلاث نسخ بما لا يقل عن مائة صفحة ولا يجاوز مائتين، مع ملخص له من عدد ٣ ثلاث نسخ بما لا يقل عن عشر صفحات ولا يجاوز عشرين صفحة.

ويشترط في البحث أن يكون معداً للمسابقة ولم يسبق نشره أو تقديمه لأية جهة أخري، وأن يكون متميزاً ويتضمن إضافات واجتهادات جديدة تنفع الإسلام والمسلمين، وألا يكون صاحبه قد سبق له الحصول على جائزة أصلية في المسابقة خلال ثلاث سنوات سابقة لإتاحة الفرصة لغيره.. وللجنة شئون الوقف طبع أي بحث فائز متى قررت ذلك دون أي حق قبلها.



أنباء العالم الإسلامي

إعداد الأستاذين/ محمود الفشني - أحمد رضوان

إطلاق أول موسوعة فقهية اقتصادية الكترونية

بدأت بمدينة جدة السعودية أعمال الدورة الـ ٣٢ لندوة الاقتصاد الإسلامي في بمشاركة كبار العلماء والخبراء في الاقتصاد الإسلامي ومسئولي البنوك المركزية بالدول الإسلامية والرؤساء التنفيذيين ومديري البنوك والمؤسسات المالية الإسلامية والمهتمين بقضاياه من مختلف أنحاء العالم. ودارت محاور الندوة في دورتها الحالية حول إصدار الصكوك بمراعاة المقاصد والمآلات وزكاة المال العام مع الأخذ في الاعتبار شرطي الملك والنماء والتأمين على الودائع والاستثمارات والصكوك والتعامل مع مؤسسات الضمان الحكومية والخاصة وتمويل العقارات بالتأجير لجهات غرضها مشروع مع ممارسة محرمة. وأعلن عدنان أحمد يوسف الرئيس التنفيذي لمجموعة البركة المصرفية عن طرح مشروع رائد يهدف إلى توسيع نطاق الاستفادة من توصيات وفتاوى ندوات البركة الاقتصادية وتيسير الوصول إليها من مصادرها بوسائل تقنية متطورة مشيراً إلى أن المشروع يتمثل في إصدار موسوعة فقهية اليكترونية تضم البحوث التي طرحت في ندوات البركة السابقة وما صدر عنها من فتاوى وتوصيات إضافة إلى ما صدر عن المجموعة من كتب ودراسات عن النظام الاقتصادي.

القدس الشرقية جزء لا يتجزأ من الأراضي الفلسطينية

أدان الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامي، البروفيسور أكمل الدين إحسان أوغلي، وبشدة قرار حكومة الاحتلال الإسرائيلي بالمصادقة على بناء آلاف الوحدات الاستيطانية الجديدة في القدس الشرقية

وحذر إحسان أوغلى من أن استمرار سياسة الاستيطان وفرض الحقائق على الأرض، فى تحد للإرادة الدولية، سيؤدى إلى زعزعة الاستقرار فى المنطقة.

وجدد الأمين العام تأكيده بأن القدس الشرقية جزء لا يتجزأ من الأراضى الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧م، وأن الإجراءات الإسرائيلية لتغيير طبيعتها الجغرافية والديموغرافية، وعزلها عن الضفة الغربية، تعتبر غير شرعية وتمثل خرقاً صارخاً للقانون الدولى واتفاقية جنيف الرابعة، وتمس بالحقوق الثابتة للشعب الفلسطينى ودعا الأمين العام مجدداً المجتمع الدولى إلى العمل على إلزام إسرائيل وقف كافة الانتهاكات التى تهدف إلى تهويد المدينة المقدسة وتغيير هويتها العربية والإسلامية.

منظمة الصحة العالمية تحذر من انتشار الكوليرا فى الصومال



حذرت منظمة الصحة العالمية من تفشى وباء الكوليرا فى الصومال، حيث تعانى البلاد من الجفاف والمجاعة، مع تسجيل أعداد من الإصابات بين النازحين فى العاصمة مقديشو ونقلت الـ (CNN) عن الدكتور ميشيل ياو أحد مندوبى المنظمة أن عدد حالات الإصابة أكبر بمرتين أو ثلاث مرات عما كان عليه العام الماضى، لذا يمكننا القول إن هناك وباء للكوليرا، وأضاف أنه تم تسجيل ٤٢٧٢ حالة إصابة بالإسهال الحاد حتى الآن هذا العام فى مستشفى «بنادير» فى العاصمة مقديشو، معظمها بين أطفال دون الخامسة من العمر. وذكر أن انتشار الكوليرا تأكد فى بعض المناطق، مشيرا إلى أن تحركات السكان تساعد على اتساع نطاق المرض يذكر أن الكوليرا مرض معوى يرتبط فى أكثر الأحيان بمياه الشرب الملوثة، ويسبب الإسهال الشديد والقىء ويترك الأطفال عرضة للموت بسبب الجفاف.

وفى إطار حملة جمع التبرعات لإنقاذ الصومال شهدت مملكة البحرين حملة ضخمة لجمع التبرعات حيث وصلت مبالغ التبرعات المقدمة من البحرينيين لمراكز التبرع المخصصة لمساعدة ضحايا المجاعة فى الصومال إلى أكثر من مليون دينار بحرينى (الدينار = ٢,٥ دولار) وذكرت وكالة الأنباء البحرينية أن هذا المبلغ تبرع به أكثر من ٤١ ألف مساهم وذكرت الوكالة أن هذا المبلغ تم جمعه حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وأن هناك إقبالا متزايدا للتبرع لصالح الصوماليين المتضررين من المجاعة. يذكر أن هذه المراكز نظمتها هيئة شئون الإعلام فى البحرين وتشهد إقبالا واسعا من قبل المواطنين والمقيمين.

مكتب الندوة العالمية بالفلبين ينفذ عددا من البرامج الدعوية

نفذ مكتب الندوة العالمية للشباب الإسلامى بالفلبين، منذ حلول شهر رمضان المبارك الحالى، فى مناطق جمهورية الفلبين أربعة برامج دعوية، شملت السجناء فى كغايان، بهدف تثقيف النزلاء، وإعادة تأهيلهم لعودتهم إلى مجتمعاتهم مواطنين صالحين، ودمجهم أعضاء فاعلين، وتعديل سلوكهم أما البرنامج الثانى فيتمثل فى إعداد البرامج الإذاعية والتوعوية والإسلامية الرمضانية بإذاعة ميلوتاج، بهدف الاستفادة من التقنية فى التعريف بالدين الإسلامى وتعاليمه وأخلاقه الفاضلة وإيصال رسالته إلى السكان.

وسعى البرنامج الثالث إلى تعليم المسلمين الجدد الأحكام والتعاليم الإسلامية وتسيير القوافل الدعوية إلى القرى والمناطق النائية لنشر الدين الإسلامى، ورفع مستوى الوعى الدينى والشرعى بين أوساط المسلمين من خلال إقامة المحاضرات فى المساجد والجامعات، للتعريف بالدين الإسلامى، ومبادئه وأخلاقه وقيمه السمحة، والتركيز على تصحيح العقيدة، والدعوة إلى ترك البدع والخرافات السائدة فى المجتمعات، وتصحيح بعض المفاهيم والتصورات الخاطئة أما البرنامج الرابع، فهو ندوة شهرية يقيمها المكتب شهريا حيث يحضرها عشرات المسلمين بهدف تصحيح المفاهيم الخاطئة عن الإسلام ونشر سماحة الإسلام.

الهيئة العالمية لتحفيظ القرآن تكرم الفائزين بجوائزها



عبدالله التركى

أقامت الهيئة العالمية لتحفيظ القرآن الكريم حفلها السنوى لإعلان الفائزين بجائزتها السنوية الرابعة فى خدمة القرآن الكريم، بحضور الأمين العام لرابطة العالم الإسلامى الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركى.

وقد أقيم حفل خطابى بهذه المناسبة بدء بتلاوة آيات من القرآن الكريم، ثم ألقى الأمين العام للهيئة الدكتور عبدالله بصفر كلمة أوضح فيها أن رعاية خادم الحرمين الشريفين، الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود لهذه الجائزة العالمية دليل على تواصل رعاية ولاة الأمر فى المملكة منذ عهد المؤسس الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن، إلى هذا العهد الزاهر لكتاب الله عز وجل حفظا وفهما وطباعة وتحكيما ودستورا وبين أن رابطة العالم الإسلامى، تبنت إنشاء الهيئة العالمية لتحفيظ القرآن الكريم وتوليها كل عناية ورعاية مشيرا إلى أن الهيئة العالمية تقيم هذه الجائزة العالمية لتكريم المتميزين الذين تركوا بصمات واضحة فى مجال تعليم القرآن الكريم بعد ذلك أعلنت أسماء المكرمين فى الجائزة فى فروعها

{Thus We have made you [true Muslims - real believers of Islamic Monotheism, true followers of Prophet Muhammad peace be upon him and his Sunnah (legal ways)], a just (and the best) nation, that you be witnesses over mankind} [Al-Baqarah (The Cow): 143]

Cyrus to whom the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) sent a message is not the one to whom Abu Bakr, `Umar sent a message and `Amr Ibn Aas. The first one is George Ibn Mina or Ibn Qurqub who was dismissed in 631 A.D. Then, another Cyrus (Kirs), who oppressed the Copts extremely. As for the first Cyrus, to whom the Prophet sent a message was the ruler of Egypt only, but he did not have a religious capacity, but the second was the ruler of Alexandria and the Patriarch of Alexandria as it was the capital.

It was usual that Qustantine sends a governor to Alexandrai (statesman) and a bishop (church representative) who would have the religious power not the political one. However, this Kirs gathered the political and religious one unlike his predecessors who were political governors only. These ties, which caused a great knowledge of Egypt, its wealth and civilization were not the only motive of directing the Islamic liberation to it. However, there was prophetic news of liberating Egypt: "You will liberate Egypt, which a land kirat is precious in it. When you liberate it, we advise you to treat the inhabitants well as they have non-Moslems but they are relatives in-law.

The Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: "If Allah caused you to liberate Egypt, take many soldiers from it, as their soldiers are the best soldiers on earth. Abu Bakr said: "Why, Messenger of Allah. He said: "Because they and their wives are tied until the Day of Judgment

The companions of the Prophet believed in the truthfulness of these good tidings, as they witnessed the Revelation, and saw the Messenger of Allah and got acquainted with his truthfulness. If we know now that Rome will be liberated by Islam in the way Qustantine was liberated, we believe that this religion will continue and enter every house. We believe that the earth will be encompassed by security and peace until the youth girl will travel alone from San`a to Mecca, fearing no one but Allah. The shepherd does not fear except Allah and wolf. We believe inevitably in all of these facts.

The belief of the companions of the Prophet had strong belief undoubtedly. They came out to liberate Egypt, being provided with belief in the good tidings and by the information known about Egypt throughout the years and the old relations between the Arab tribes and their branches which resided in all of the parts of Egypt as we will see later on.

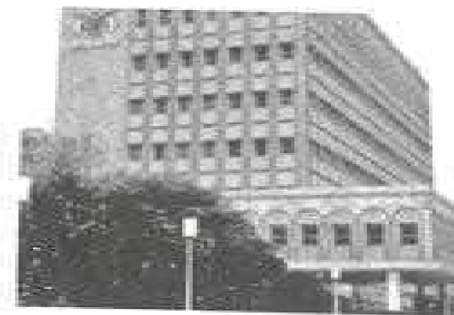
The Islamic liberation of Egypt came as a result of believing in these good tidings and from the messengers who came to it frequently.

التسعة حيث فاز فى الفرع الأول جائزة شخصية العام فى خدمة القرآن الكريم، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة الكويت والفرع الثانى أفضل كلية للقرآن الكريم فازت بها كلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية، والفرع الثالث أفضل مسابقة قرآنية فازت بها جائزة الدولية للقرآن الكريم، والفرع الرابع أفضل موقع إلكترونى قرآنى فاز به موقع نون للقرآن وعلومه، والفرع الخامس جائزة أكبر مشايخ القراء على مستوى العالم فاز بها الشيخ محمد عبدالحميد عبدالله شيخ القراء بالإسكندرية وفاز بجائزة الفرع السادس، لأفضل برنامج تليفزيونى قرآنى، برنامج تصحيح التلاوة على قناة المجد الفضائية، والفرع السابع أفضل جمعية تحفيظ للقرآن الكريم، فازت بجائزته جمعية المحافظة على القرآن الكريم بالأردن والفرع الثامن. أفضل معهد نموذجى لتحفيظ القرآن الكريم، فاز بجائزته معهد عبدالله بن عباس، بقيرغيزيا والفرع التاسع أفضل معلم لتحفيظ القرآن الكريم، وفاز بجائزته الشيخ محمد سعيد شريفوف، من طاجيكستان.

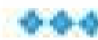
ثم ألقى الأمين العام للرابطة، كلمة أعرب فيها عن شكره وتقديره لخادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز، للخدمات التى يقدمها للإسلام والمسلمين وخدمته لكتاب الله الكريم ورعايته لحفل الجائزة العالمية لخدمة القرآن الكريم.. وقال: إن الجائزة أحد الأعمال التى تقدمها المملكة خدمة للقرآن الكريم، حيث اهتمت به فى كل المجالات حفظا وعملا وطباعة ونشرا.

بعد ذلك تم تكريم الفائزين وصغار الحفاظ وكذلك الداعمين للهيئة.

اليمن: انخفاض الميزانية الموحدة للبنوك التجارية والإسلامية



سجلت البنوك التجارية والإسلامية العاملة فى اليمن انخفاضا فى الميزانية الموحدة، إذا وصل إلى ١٠٧٣٣ تريليون ريال يمنى فى نهاية شهر مايو ٢٠١١م وأوضحت نشرة التطورات المصرفية والنقدية الصادرة عن البنك المركزى أن الميزانية سجلت انخفاضا مقداره ٨٠،٤ مليار أى ٢،٣ فى المائة مقابل انخفاض مقداره ٤٥ مليار فى شهر أبريل السابق.وأشارت إلى أن إجمالى الميزانية الموحدة لتلك البنوك بلغت ١،٨١٩،٧ تريليون ريال يمنى بنهاية شهر مارس الماضى مسجلة انخفاضا بنحو ٨٣،٧ فى المائة.



i.e., does he fight them because they oppose him? The question of Hatib is suitable because the followers of Muhammad are from the youth. Thus, it was natural that he asked whether the rest of the people fought the owner of this Da`wah or not.

Hatib said: Yes.

Cyrus said: Describe his for me, then Hatib said some of his attributes.

Cyrus said: There are still some attributes that you have not mentioned, and Cyrus mentioned some of the attributes about the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him)

Hatib said: This is one of his attributes!

Cyrus said: I know that there is still a prophet and thought that he will come from the Levant where other prophets came. Then, I see him now coming out of the Arabs whose land is known for hard work and suffering.

Cyrus asked for a writer to write in Arabic: "To Muhammad Ibn Abdullah from Cyrus, the Great of the Copts, peace be upon you. To proceed: I read and understood your message. I knew that there is still a prophet, and thought that he will come out of the Levant. I hosted your messenger well, and sent you two female slaves, who have a great status for the great Copts, attire and mule to ride. Peace be upon you."

It is noted in the message of Cyrus that he started it with the name of the addressee. This is one of the good habits in correspondences, as they raise the status of the addressee, as the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: "From Muhammad Ibn `Abdullah, and he wrote: "To Muhammad Ibn `Abdullah from Cyrus." This implies the good morals of Cyrus, as he knows the basics of political correspondences between the leaders and the kings.

Cyrus gave the message to Hatib, and ordered 100 dinars for him and five attires saying: "Come back to your companion, and do not let the Copts know anything about him, as they will not follow me in following him, and I do not like to be separated from my throne. Your companion will be known in the country, and his companions will come here. Thus, leave us!

The sayings of Cyrus were true, as the Copts will not obey him easily in abandoning their religion and following the new religion. He is Malakany and follows the doctrine of the two natures, but they are following the doctrine of one nature. They did not obey him in the doctrine, how would they obey him in abandoning it completely?!

He prevented Hercules from informing the Copts with the conversation that took place between them, because he disliked that they knew about the truth of the prophecy of Muhammad, and this would be a reason for stirring the anger of Hercules.

Hatib said: "I went away." When I went to the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "The malicious person feared for his throne which will not last. Hatib said: "He was generous with me and I stayed with him five days only. In other narration, there are gifts which Cyrus sent to the Prophet, and what we quoted may be the most correct.

The two female servants are Mariyah, the mother of his son Ibrahim (may Allah be pleased with him) and her sister Serin, Henna, or Qaisar. There is controversy over the person to whom the Prophet gave her. It was said that he gave her to Gahm Ibn Qays Al-`Abdary, or Muhammad Ibn Musalammah Al-Ansary, Khalifa Al-Kalby, or Hassan Ibn Thabit. Allah knows best to whom the Prophet gave the female servant.

The most important matter is to know that the Prophet did not take both of the sisters, as it is not permissible as marrying both of them is not permissible. It was said that when the Prophet looked at their faces, he found righteousness and kindness and said: "O Allah choose one for Your Prophet." He asked them: Will you embrace Islam? Maryah said: Yes, I testify that there is not God except Allah and you are the Messenger of Allah. However, her sister delayed some time, and the Prophet said: "Allah chose one for me." He took Mariyah, as she embraced Islam once he asked her. He granted the second one to one of his companions, and those who write about the two sisters say that they were righteous Muslims. Goodness only was known about them.

This was not the only contact between the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) and Cyrus or between the Islamic state and the Copts of Egypt.

The Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) sent to Egypt Sharhabeel Al-Kandy from Tabuk, and Abu Bakr sent Hatib once again to Cyrus. Umar Ibn Al-Khattab sent Ka`b Ibn `Uday Al-Tannukhy in 15 H, also he was sent by Abu Bakr in 13 H to Cyrus.

The Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) accepted the gift of Cyprus, as he did not send back anyone's gift. The gifts include two female servants, garments, a mule, and honey from Banha. The honey appealed to the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) and supplicated to Allah to bless it. Cyrus whose gifts were accepted by the Prophet was not a Muslim.

It was firmly established that the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) accepted gifts from the people of the Book and those of the disbelievers as long as they do not involve any suspicious element. At our time, those who refuse to take gifts from the non-Muslims are mistaken, as this prohibition has no basis in the Qur'an or the Sunnah and is not permissible.

The Prophet brought to us with tolerant religion, and inflexibility in religion is reprehensible as well as negligence. Also, they are reprehensible with regard to the human dignity. The people should behave in the way Allah revealed:

*Islamic conquest of Egypt...!

(2)

By: Dr. Muhammad Seleim Al-`Awwa

The Quran did not say: "bear witness that you are disbelievers or liars or the like" although it will be true if he refused the Da`wah. But these sayings do not suit the context of the Da`wah, as it includes insult to the people who are called to Islam. Thus, this saying is suitable, as he said: bear witness that we are Muslims. This Qur'anic text is an argument against them, as we informed them with the message of Islam.

When Hatib reached Alexandria, he found Cyrus setting in a place viewing the sea. He went to Cyrus and pointed to the message. Then, Cyrus ordered to get it and was read to him. Then, he put this message in an ivory box. Then, he sealed it and the copy of this message is in a book entitled "The Egyptian Invasion of Egypt" by Ahmed Adel Kamal. It is a very good writing and Cyrus should have tasted its style and content. The reason, appearance and intelligence of Hatib entitled him to be a good ambassador of the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him).

This prophetic book was kept in Egypt until it was found in one of the Churches in the Upper Egypt at the age of Sultan Abdul Majid who transferred it to Asatana, and ordered to be put in a golden box, and is still shown in one of the Museums located in Istanbul.

There was a conversation between Hatib and Cyrus that was related by the Islamic sources as follows: after Cyrus read the message, he said:

- What hinders Muhammad if he is really a prophet to invoke Allah to hurt me?

- Hatib said: What hinders Isa Ibn Mariam to invoke Allah for those who did not believe in him to be hurt?

Cyrus kept silence and repeated the same sentence and Hatib repeated the same answer. Then, he kept silence.

Hatib said: There was a man before you who claimed that he is a god (Phar`un), as he said: {Saying: "I am your lord, most high}

Allah took revenge from him. Thus, learn the lesson and do not let your religion except for what is better: Islam. Isa carried good tidings of Muhammad in the way Mosa carried good tidings of Isa. Our Da`wah for Qur'an is like the Da`wah of the people of Torah to Bible. We do not come to prevent you from embracing Christianity, but we command you to follow its instructions.

This is a series of prophets and their continuous ancestry, who believed in each other. The people who came after them should believe in Mosa, Isa, and Muhammad. If the followers of Isa call for believing in Mosa, then the following of Muhammad should believe in the previous prophets and messengers. Thus, Hatib told Cyrus: "We do not prevent you from your religion, but we call you to follow its instructions." This saying is quoted from the Qur'an referring to the believe of the Muslims :{"We make no distinction between one another of His Messengers"}[Al-Baqarah (The Cow): 285]

It is as if the command of Hatib with the religion of Christ comes within the context of the comprehensive belief in Islam, whose embracing does not become perfect except with the belief in all the Messengers and prophets. Then, Hatib waited for some days so that Cyrus replies to the message. At one night, Cyrus sent someone for Hatib to come to him. There was no one except a translator and said:

- I want to ask you about some matters, as I think your companion chose you to come to me.

- Hatib said: I will tell you the truth whenever you ask me.

- He said: What does Muhammad call to?

- Hatib said: To believe in Allah with no partner, and commands us with prayer.

Hatib referred to the prayer along with worshipping Allah alone, because prayer is a pillar of the religion. The person who observes it sets up the religion, and the person who leaves damages the religion. The thing that distinguishes the Muslims from others is prayer, and whoever abandons, denying its importance is regarded as a disbeliever. When the Companions of the Prophet informed the non-Muslims with the Da`wah for Islam, they stressed the basics of Islam, not to delude any of the people informed that they do not need to do anything except pronouncing the two testimonies of faith.

Cyrus asked: How many prayers do you offer?

Hatib said: Five prayers in the day and night, fasting in Ramadan (implying that Muhammad commands the Muslims of it), performing Hajj, keeping promises, and prevents us from eating the dead and blood.

The Christians pray and fast in their own way, and perform Hajj to Jerusalem in their own way. Keeping promises is a common matter in all of the heavenly religions. Prohibition of eating the dead bodies and blood is one of the matters observed by the people who worship Allah and is abandoned by those who disobey Allah. Mentioning all of these matters suit calling a Christian person to embrace Islam.

Cyrus said: Who are his followers?

Hatib said: Some of the youth of his people and others.

Cyrus said: Does he fight his people?

sure), this essential dispute between two civilizations will control the coming relation between two civilizations, and remained controlling the era for fourteen years" (p.232)

When we submit the previous five theses to criticism, we will find the dominance of a major ideology controlling the whole of Huntington. The first illusion is believing that the West is one Mass. This belief is very naïve, as the West is known for its variety. The first objection comes from the West itself and from its thinkers. Those thinkers see that the North America in general and the USA in particular are another West. As we mentioned before in this paper, they are considered as the West other than the European West.

The second illusion: It is the illusion in which the European centralism fell in the way we mentioned before and in terms of the existence of civilized people and primitive peoples. It states the existence of five major civilizations, which were originally mentioned in the article published in "foreign affairs". Believing in this illusion involves unconscious fall in the theory "pure race" and "lower race".

The third illusion is the ideological report of the necessity of the existence of a malicious enemy that seeks the downfall of the West, being represented in the USA naturally. In this respect, the extreme and terrorist Islam plays the role determined by the Eastern camp with the leadership of the Soviet Union.

We are pursuing a result that is not free from oddity: The new Western centralism theory follows the previous European centralism, as the incentives are the same and the ideological aims are the same. Also, the ideological, psychological and cognitive obstacles facing the proper scientific view are the same. If the matter is like that, the positive criticism that plays the role of purification and destroying the obstacles are useful. They involve liberating the Western mind from one side and clearing the obstacles in the way of a meaningful, quiet and constructive dialogue between the various cultures and civilizations from another side.

2- Positive Step in the Way of Civilizations Long Relations

We may unconsciously neglect an essential matter in our speech about acquaintance or exchanging emotions. Acquaintance requires desire or will to do that. This needs freedom, which means continual liberation. The will of gaining acquaintances means the ability to have dialogue. The first condition or prerequisite of dialogue is to have two different and contradicting parties. The second condition is that the two parties admit the existence of the other.

These prerequisites, in spite of their apparent simplicity, need becoming free from the illusions which Ghaston Bacheland revealed in the scientific thought, scientific spirit, subjective knowledge, and being free from illusions. In this regard, this means being free from the absolute binaries, the matter that requires abandoning the ego centralism and resorting to critical thought.

The view which we want to reveal in conclusion in the first temporary and fast formulation of the paper. It is based on the call to establish dialogue culture in terms of:

First: Admitting the existence of the other, who is contradicting and listening to him. We say that extracting the lesson of the state of the Islamic and Arab culture in the classic age is a positive step in this way. This refers to the entire stages of the formulation of the Arab culture.

We cannot limit this culture in a certain historical stage whatever the activity and giving are in this a stage. Even if the matter is related to writing age as long as many sciences were not completely clear in subject or accurate in method except in subsequent ages and in different places in the Islamic world such as Cairo, Qurtuba, Fas, Qairawan and others.

We may say that the classic age is flexible and changing, as it includes all the ages of theoretical production and does not exclude except the ages of degradation, the matter that distinguishes the Islamic Arab culture in the classical age. This culture depends on admitting the existence of the other, and admits the difference from one side. Also, it seeks having a dialogue with the other according to accurate rules and conditions from the other side.

If this is the matter with theology, it is also the matter with the debates and the major symbols of our Arab and Islamic cultures: Al-Gahiz, At-Tawhidy, theologians, Al-Marudy, Al-Ghazaly and the like. Our contribution in setting the call or idea of acquaintance of the civilizations depends on the dialogue dimension in our Arab and Islamic culture or to transfer the understanding of the Islamic and Arab culture in the classic age, regarding it as a culture of dialogue. The educator should be aware of this. Therefore, we can say that the first prerequisite or condition of the actual contribution in civilizations acquatiance is that, the Arabs, first, should have deep understanding of our Arab Islamic culture in the classical age.

We are required to make a comprehensive uprising to get free from three suffocating shackles. The culture of "degradation age" to which we still cling unconsciously, the culture of the reaction to the European centralism tendency, the matter that changes out position to defense from one side and glorification from the other side. In addition, there is a culture according to which we refuse criticism and self-criticism.

Consequently, we do not change the tribal customs from one side and imagine claimed enmity intending the West. This requires falling in what is called West Phobia in comparison with Islamic Phobia, as the West Phobia is contrary to the tendency to fear Islamic.

Civilization acquaintance is a huge project starting from criticism and accepting it. This can be reached by getting free from illusion and obstacles, in which we may be a party and we may defend it.

*The International Conference for Civilizations

(2)

By: Dr. Bensa`eed Al-Alawy

We say this bearing in mind the farfetched aim behind the works of Michel Foucault in his studies of the classical age, as he called it, i.e., the Western thought in the stages of foundation in the seventeenth century and Claud Levi-Strauss. It is worth mentioning that the later studied in the College de France and his study is published in his small and famous book entitled "Race et Histoire". In this interesting research, the French philosopher endeavored to defend two main issues: First: there is no race, people or human group in the human history that did not contribute in the civilization, as the human civilization is a human collective and integrated effort. Second: the least effective civilizations in the world express culture more than nature.

The European centralism tendency in the way criticized by the European anthropologists and philosophers revealed the sides of shallowness and deterioration of open human thinking that find its roots in the rationalism and liberalism and take its source from enlightened age.

1- The New Western Centralism

The new Western centralism, what I so call, is related to the state resulting from the collapse of bipolar and the emergence of the United States of America as one dominating polar. There are three directions that contributed in theorizing the new Western centralism: The new conservatives in the United States of America, Francis Vukwiya and his book "The End of History" and the famous American thinker, Samuel Huntington, in his book "the Clash of Civilizations."

We know the great dominance of the new conservatives in eth USA and their direct effect on the Presidency of Bush and George W. Bush. Also, their ideological effect did not disappear completely in the period of the reign of the democratic Bill Clinton.

There is no need to remind you of the major thesis of these conservatives, although they eliminate the claims of the creed basics of the Western thinking, which is based on the Christian-Jewish pillar of the Western Civilization. These theses are based on mistaken enmity to Islam, which is linked by these thesis with the reality causing the war of 1973, as well as the event of the American prisoners in the US Embassy in Tehran, and the terrorist acts committed by the Islamic groups in the USA, causing great damage to the US interests in various parts of the world.

* An article published in Arabic at Al Azhar magazine.

The higher theoretical formulation of the new conservative's thought and clear expression of what we call the European centralism tendency in its US translation or the new European centralism reaches its climax with Samuel Huntington. Although the theory of the clash of civilizations was widespread in the Arab and Universal for a in the different continents, there is nothing wrong with reminding you with the most important thesis in the theory, seeking the crystallization of the theory of the new Western centralism. There are five theses controlling the theory of the clash of civilizations, as presented by the professor of political sciences in Harvard University.

The first thesis is very clear and simple at the same time: hatred in history, i.e., a world without hared does never exist. Huntington restores the famous saying of the British philosopher Thomas Hobbes: A human being is like a wolf to the other human being. Huntington sees that politics, ideology and economy were controlling the world during long years of cold war, the matter that controls the world today is completely different: the deep relations and differences determining the interests and disputes among the countries. "Page 23 of the French text which we will refer to" Civilization and culture are the basics of the new world.

In a world in which the relations among the human beings are attributed with swing between violence and indifference, the intelligent analyzer in Huntington's point of view, should know the basic power in the dispute is religion. This is the second thesis.

As for the third thesis, it states that the major civilizations of the world are China, India, Japan, Islam, and the West. When contemplate deeply at this matter, we will find that the West divides the world into two parts: the West and parts other than the West. If the European centralism states that the world consists of the Europe and parts other than Europe, Huntington goes deeper than this. He says that there are many ways, by which the human being does not become western. If we consider the other four civilizations, we will see that difference does not become seep-rooted except when the matter is related to the West only. Consequently, we will find the West and the rest of the world.

As for the fourth thesis, it states that the West does not find at its cultural and real borders except two dangerous enemies: Islam from one side and China from the other side. The real enemy is the combination of both of them. "The interaction resulting from the mixture of the intolerance of Islam and aggression from the part of the Chinese" p. 199.

The fifth thesis is formulated as follows: "The downfall of communism removed the common enemy between Islam and the West. Therefore, each of these two parties became the enemy of the other. As for communism, the common enemy to Islam and the West, did not last for a long time, as it does not exceed the communist existence. However, enmity between Islam and the West lasted for 1400 years. Huntington said in a clear and transparent phrase: "Islam remained as it was (this is sure) and the West remained as it was (this is less

Apology to Dear Readers

The editor of the English section in Al-Azhar Magazine apologizes for the misprint occurred in the previous issue of the magazine (Ramadan Issue) for putting two pages inappropriately, thanks.

Feast Joy.....!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

The feast of breaking the fast was the earliest feast for the Muslims, as fast was enjoined before Hajj, which was enjoined in the ninth year of Hejira. The purpose of the feast of breaking the fast is celebrating the return of the normal aspects of life to the people, and coming back to the way of life preceding fast including permitting food, drink, and other lawful things after fasting, seeking the Great Pleasure of Allah.

Seeking Allah's Great Pleasure is one of the demands of the people pursuing reward from Allah of which Allah promised them. As for loving Allah seeking His Great Pleasure and Love without seeking His reward is the rank of the righteous people.

Islam attached spiritual importance to this feast, and urged the Muslims to welcome it. Thus, Allah enjoined the feast prayer which includes prayer, sermon, saying Allah is Great and there is no god but Allah. The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Decorate your feasts with Takbir (saying Allah is the Greatest)." In addition to the fact that Takbir is a way of glorifying Allah, it is a way of declaring the joy and the satisfaction of the souls. Also, it is a way of frightening the enemies and warning them of the Muslim's power, resorting to Allah, and request for His Satisfaction.

Allah enjoined in the feast of breaking fast paying Zakah (charity) and visits. This Zakah is calling the Zakah of breaking fast. It is more important than any voluntary charity. The obligatory Zakah is imposed only on the money, tame animals crops and trade that are owned to a person for a year, and is paid to certain people. However, the Zakah of Fast is imposed on every Muslim without necessitating a year to pass on the money, commodity, and merchandise. The Muslim pays it on behalf of himself and his dependents. It is paid to the poor without necessitating a certain percentage, but with the percentage sufficing the poor to celebrate the feast with the other Muslim.

In a Hadith related by Al-Nisa'y, the Mesenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) pointed out that: "Islam is the only religion in which fulfills Allah's (Glory be to Him) Will in His Saying:

{'And in their properties there was the right of the Sa'il (the beggar who asks) and the Mahrûm (the poor who does not ask others).}

[Al-Ma`arij (The Ascending Stairways): 24-25]

Islam did not prevent the Muslims while performing these obligations to create for them the atmosphere of joy after fasting. They meet with each other. The Wise Legislator is keen that the Islamic feasts should be within the limits of allowed entertainment. This is one of the privileges of Islam, which distinguishes Islam from the other nations, as there are no impermissible acts or deviation from the code of ethics.

Undoubtedly that the feast is affected by fasting in which Allah enjoined abstaining from food and drink, and made the person obey His Lord. Thus, it is not reasonable that the person return to impudence or extreme amusement, because the soul which abided by the Commands of Allah for a whole month will not enjoy deviating from them suddenly. Thus, the Islamic feast is attributed with sedateness so that the people do not deviate from solemnity.

Moreover, the joy fills the hearts of the poor Muslims due to the Zakah paid to them. Solidarity among the Muslims is revealed in food, drink, garments and the other aspects of happiness. All of these aspects are maintained by Islam. Ramadan is a grant mercy and blessing from Allah to the Muslims. Their hearts become pure at its end. The Hadith reports: "At the night of the feast of breaking the fast, Allah calls the angels: What is the reward of the laborer who achieves his work? The Angels say: He should be rewarded. He says: Witness that I forgive them.

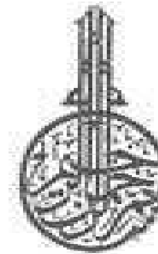
No doubt that the day in which the Muslims break their fast is a feast and reward for their achieved work. Thus, they deserve the whole of the reward. Thus, this day is called "the day of the reward".

While the feasts renew our lives, thus love, cordiality and purity prevail in these feasts and renew the links between the people. Also, they raise the barriers of extravagance and rid them of arrogance, enmity, and blights which afflict the scattering groups. Nothing causes fear such as disunion, separation and lack of security. Nothing achieves confidence and security like adhering to the Rope of Allah, feeling of brotherhood and good citizenship.

In these blessed days and atmospheres filled with worship and supplication, we should be submissive to Allah, renew our adherence to His Commands, and supplicate to Allah when the souls and hearts become pure. Then, we have a new beginning with new resolution, spirit, unity and compromise.

AL-AZHAR MAGAZINE

Shawwal, 1432 A. H.



ENGLISH SECTION

September, 2011

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾

الأعراف / ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."

(Al A'raf 43)

EDITOR : Dr. IBRAHIM AL-ASSIL,

Professor at the Faculty of Languages and Translation

Al-Azhar University

هدية العدد | السياسة الشرعية .. الشيخ عبد الوهاب خلاف

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
ذو القعدة ١٤٣٢ هـ * أكتوبر ٢٠١١ م الجزء "١١" السنة "٨٤"

الشيخ رشيد رضا | والمعركة الأولى ضد العلمانية
.. أ. د. محمد عمارة

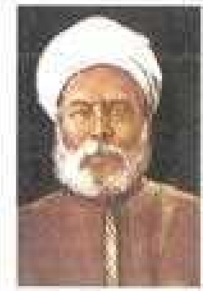
من فتاوى الحاخامات

التفسير | للأستاذ الإمام محمد عبده

المسألة القانونية | بين الشريعة والقانون الوضعي



اقرأ لهؤلاء



الإمام محمد عبده



د. محمد عبدالله دراز



زرقا

بسم الله الرحمن الرحيم



الأزهر

مجلة شهرية جامعة
يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف فى مطلع كل شهر عربى
صدر العدد الأول فى المحرم ١٣٤٩ هـ/ ١٩٣١م
وحمل اسم «نور الإسلام»
برئاسة تحرير فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين

رئيس التحرير
أ. د. محمد عمارة

مدير التحرير
عادل رفاعى خفاجة

سكرتير التحرير
أحمد السيد تقى الدين

الاشتراك السنوى
داخل مصر ١٨ جنيها مصريا
الدول العربية ٥٠ دولارا أمريكيا
أوربا وأمريكا ٨٥ دولارا أمريكيا
اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولارا أمريكيا
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٥٧٨٦٢٠٠

المراسلات باسم: مدير التحرير
مجمع البحوث الإسلامية - م. نصر
☎ ت: ٢٢٦٣٨٥٩٩

داخل العدد



الافتتاحيـــــة

الشيخ رشيد رضا (*) وأولى المعارك ضد العلمانية





لفضيلة الأستاذ الدكتور / محمد عمارة

قبل صدور «المنار» ـ أواخر القرن التاسع عشر الميلادى «سنة ١٨٩٨م» ـ كانت أوروبا الاستعمارية ـ ممثلة فى فرنسا ـ صاحبة العلمانية المتوحشة فى بلادها.. والنزعة الصليبية ضد الإسلام فى مستعمراتها المسلمة!!.. كانت قد نجحت فى جعل لبنان ـ بواسطة مدارس الإرساليات النصرانية الفرنسية ـ معمل تفريخ لكتيبة من المثقفين الموارنة، الذين ضربت عقولهم وصيغت وجداناتهم وفق المناهج التغريبية.. المعادية للحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامى.

فلقد كانت رسالة هذه المدارس الفرنسيين ـ بلبنان ـ وفق عبارات القناصل الفرنسيين فى بيروت هى: «تكوين جيش ـ «ثقافى» ـ متفان فى خدمة فرنسا والحضارة الأوروبية المسيحية.. وتأمين سيطرة فرنسا على منطقة خصبة ومنتجة ـ «المشرق العربى».. وجعل البربرية العربية ـ «هكذا» ـ تنحنى لا إراديا أمام الحضارة المسيحية لأوروبا!!»[1].

ولقد هاجر كثير من «جنرالات» هذا «الجيش الثقافى» إلى مصر.. فأصدروا الصحف والمجلات.. وأقاموا المؤسسات الصحفية والثقافية.. «وأصبحوا ـ بعبارة عبدالله النديم ـ «١٢٦١ ـ ١٣١٣هـ/ ١٨٤٥ ـ ١٨٩٦م» «لا شرقيين ولا غربيين، اتخذتهم أوروبا وسائل لتنفيذ آرائها ووصولها إلى مقاصدها من الشرق، وهى تحثهم على المثابرة على عملهم باسم المدنية..»[2].

وكانت مجلة «المقتطف» «١٢٩٣ ـ ١٣٧١هـ/ ١٨٧٦ ـ ١٩٥٢م» الساحة التى نصبت فيها أعلام نظريات التغريب الأوروبية.. حتى ليقول «النديم» عن أصحابها: «إنهم أعداء الله وأنبيائه، والأجَراءُ الذين أنشئوا لهم جريدة جعلوها خزانة لترجمة كلام من لا يدينون بدين، ممن ينسبون معجزات الأنبياء إلى الظواهر الطبيعية والتراكيب الكيماوية، ويرجعون بالمكونات إلى المادة والطبيعة، منكرين وجود الإله الحق، وقد ستروا هذه الأباطيل تحت اسم فصول علمية، وما هى إلا معاول يهدمون بها عموم الأديان»[3]!

* وعن أحد «جنرالات هذا الجيش الثقافى» ـ وهو أمين شميل «١٢٤٣ ـ ١٣١٥هـ/ ١٨٢٨ ـ١٨٩٧م» ـ صدرت أولى دعوات استخدام العاميات العربية بدلا من لغة الأمة.. لغة القرآن الكريم!

* وعن «جنرال» آخر صدرت أولى الدعوات إلى الداروينية ـ الملحدة ـ.. عن شبلى شميل «١٢٧٦ ـ ١٣٣٥هـ/ ١٨٦٠ ـ ١٩١٧م».

(*) هو «السيد» محمد رشيد رضا. ولد بالقلمون إحدي قري طرابلس الشام وتعلم في قريته وفي طرابلس وبيروت ونال العالمية علي منهاج مشابه لمنهاج الأزهر الشريف. وجمع في ثقافته بين السلفية والتصوف .. فلما قرأ بعض أعداد مجلة «العروة الوثقي» حدثت له هزة فكرية نقلته إلي منهاج الإصلاح الإسلامي الشامل لكل مناحي الحياة. ولقد هاجر إلي مصر ليكون أقرب تلاميذ الإمام محمد عبده إليه. وأصدر «المنار» التي حملت فكر مدرسة الإحياء والتجديد إلى كل أنحاء العالم الإسلامي علي امتداد أربعين عاما. وترك من التراث ما أهله ليكون أحد أعلام اليقظة الإسلامية الحديثة والمعاصرة.

(١) من محفوظات أرشيف الخارجية الفرنسية بباريس لسنوات ١٨٤٠ ـ ١٨٩٨م

(٢) مجلة «الأستاذ» العدد ٢٢ ص٥١٠.

(٣) المصدر السابق العدد ٣٩ ص٩٢٣ ، ٩٢٤.


عبدالله النديم

* وكانت الدعوة إلى إحلال العلمانية الغربية - وفصل الدين عن الدولة - محل الشريعة الإسلامية، وشمول الإسلام للدين والدولة.. كانت واحدة من أخطر دعوات هذا التغريب.. التى كان للشيخ رشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤ - ١٨٦٥ - ١٩٣٥م) و«المنار» - شرف التصدى لها فى العام التالى لصدور «المنار».. أى أن الشيخ رشيد كان أول من تصدى لدعاوى العلمانية والعلمانيين فى العالم الإسلامى على الإطلاق!..

* فعلى صفحات «المقطم» (١٣٠٦ - ١٣٧١هـ/ ١٨٨٩ - ١٩٥٢م) التى كانت لسان حال الاستعمار الإنجليزى بمصر.. والتى أنشأها هؤلاء الموارنة المتفرنسون «صحيفة إنجليزية ناطقة بالعربية» - على حد تعبير عبدالله النديم!!

على صفحات «المقطم» بدأ عدد من نصارى الموارنة الدعوة إلى العلمانية، وفصل الدين عن الدولة فى الشرق الإسلامى.

دعا إلى ذلك حنا الطرابلسى - فى ١٢ و١٧ أغسطس سنة ١٨٩٨م - وميشيل حكيم - فى ١٥ أغسطس سنة ١٨٩٩م - .. ثم جاء واحد منهم، مستترا تحت توقيع «مسلم حر الأفكار» ليدعو إلى ذلك فى ٣ أغسطس سنة ١٨٩٩م.. فكانت معركة الشيخ رشيد رضا - ضد هذه الدعوى - أولى معارك الإسلام ضد العلمانية فى ذلك التاريخ..

* وفى أثناء هذا الحوار بين الشيخ رشيد رضا وبين من يدعى أنه «مسلم حر الأفكار» كشفت «زلات القلم» عن أن هذا المدافع عن فصل الدين عن الدولة ليس مسلما بأى حال من الأحوال.

١- فلقد اعترف بأنه متخرج من مدارس الإرساليات النصرانية.. وأنه قد تربى وتعلم فيها.

٢- واستخدم مصطلحات لا يستخدمها عادة إلا الكتّاب النصارى.. من مثل «الدعوات الدينية المسكونية»!

٣- وجهر بما لا يقول به مسلم، من مثل اتهام الإسلام ودعاة الجامعة الإسلامية بأنهم يرون «أن الخطر لا يزول عن الإسلام إلا بتمزيق شمل النصارى، وأن عز الإسلام لا يكون إلا بذل النصارى»!!

* وفى هذا الحوار وضع الشيخ رشيد النقاط على الحروف، فيما يتعلق بموقف الإسلام من العلمانية وفصل الدين عن الدولة.. على النحو الذى يمكن إيجازه فى عدد من النقاط.. فهو:

أولا: كشف عن أن هذه الدعوى لا يقول بها إلا غير المسلمين، الذين تفتح لهم المنابر الصحفية النصرانية صفحاتها لينتقدوا الدعوة إلى الجامعة الإسلامية:


علي يوسف

«فـ«الأهرام» و«المقطم» متفقتان على أن الدعوة إلى الجامعة الإسلامية باسم الدين مضرة، وغير موصلة إلى الغاية، وأنه لا سبيل إلى ترقى الأمة الإسلامية إلا باتباع خطوات أوروبا - كما فعلت اليابان - و«المؤيد» - لصاحبها على يوسف (١٢٧٩ - ١٣٣١هـ/ ١٨٦٣ - ١٩١٣م) - رد عليهما قولهما الأول، ولم يبد رأيا جديدا، إلا أنه وافق على أن مسلك الكُتّاب المسلمين فى الدعوة الدينية مفيد، كما أن الأخذ بالفنون والصنائع الأوروبية مفيد مع ذلك»..

وثانيا: أن هذه الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة، التى ظهرت فى «المقطم» - ٣ أغسطس سنة ١٨٩٩م - لا يقول بها مسلم.

«فهو قول لم يتابع به قائله مسلما؛ ولن يتابعه عليه مسلم؛ لأنه ناسف لبناء الدين الإسلامى، ومقوض لعمود بنائه، وهو: زعم أن الدين والدولة أمران متباينان يجب أن ينفصل أحدهما عن الآخر.

ولقد وُجد للإسلام أعداء اجتهدوا فى كل عصر بمحوه أو إضعافه، منهم من حاول إفساد العقائد بالتأويل، ومنهم من وضع الأحاديث الكاذبة، ومنهم من سهل للملوك طريق الاستبداد، ومنهم ومنهم، ولكن مجموع مفاسدهم ومضراتهم لن تبلغ بعض ما يرمى إليه هذا القول الخبيث الذى لم يخطر فى بال إبليس، فهو أبلغ قول يشير إلى أحكم رأى نحو السلطة الإسلامية من لوح الوجود - قاتل الله قائله - ولا كثر فيمن يدّعون الإسلام من أمثاله»!

هكذا أعلن الشيخ رشيد رضا: أن الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة قد تفوقت - فى خطرها على الإسلام - على كل دعاوى المفسدين للإسلام عبر التاريخ.. بل وتفوقت على أحلام إبليس!.

وثالثا: مضى الشيخ رشيد ليؤكد على رفض الإسلام - بحكم طبيعته الشاملة - للعلمانية، فقال:

«لقد عرّف علماء المسلمين الدين بأنه: وضع إلهى سائق لذوى العقول باختيارهم إلى الصلاح فى الحال والفلاح فى المآل وإن شئت قلت: إلى سعادتهم الدنيوية والأخروية وقواعده عندهم ثلاث:

١- تصحيح العقائد.

٢- وتهذيب الأخلاق.

٣- وإحسان الأعمال.

والأعمال قسمان: عبادات، ومعاملات ومن الثانى: الأحكام بأنواعها - قضائية ومدنية

وسياسية وحربية ...».

ورابعاً: أشار الشيخ رشيد إلى مغايرة الإسلام - فى هذا الشمول - للنصرانية، التى لا علاقة لها بالدولة والسياسة.. فقال:

«أما الدين عند النصارى، فهو - «كما فى دائرة المعارف» - «عبارة عن مجموع النواميس الضابطة لنسبة الإنسان إلى الله، أو يبين صفات تلك النسبة».

وهو - كما ترى - لا علاقة له بالأمور الدنيوية ولا بالأحكام والسلطة، ومن المشهور أن الديانة النصرانية مبنية على الخضوع لأية سلطة حكمت أصحابها، لما فى الإنجيل من أن سلطة الملوك إنما هى على الأجسام الفانية، وأن سلطة الدين على الأرواح فقط، فيجب على كل متبع لهذا الدين أن يدين لكل سلطة، ويذعن لكل شريعة حكمته، بخلاف الدين الإسلامى، فإنه مبنى على السلطة والغلب..».

وخامسا: شرع الشيخ رشيد رضا يُفصّل فى تميز الإسلام - كدين ودولة - عن النصرانية، فقال:

«إن الدين الإسلامى جامع لمصالح المعاش والمعاد، ومبنى على أساس السلطتين الزمنية والروحية، وإن الديانة النصرانية على خلاف ذلك، وإن الخليفة هو رئيس المسلمين القائم على مصالحهم الدينية والدنيوية، وإن كل حكومة تخرج عن طاعته الشرعية فهى منحرفة عن صراط الإسلام، وإن القول بفصل الحكومة والدولة عن الدين.. هو قول بوجوب محو السلطة الإسلامية من الكون، ونسخ الشريعة الإسلامية من الوجود، وخضوع المسلمين إلى من ليس على صراط دينهم ممن يسمونهم فاسقين وظالمين وكافرين؛ فإن القرآن العزيز الذى هو أساس الدين يقرع دائما آذانهم، بل يناديهم من أعماق قلوبهم قائلا بلسان عربى مبين:

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

(المائدة: ٤٤)

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

(المائدة: ٤٥)

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

(المائدة: ٤٧)

ونحن نقول للذين يدعوننا إلى فصل الدين عن الدولة والتفريق بين السلطنة والخلافة، لأجل تأييد الجامعة الإسلامية:

إن كنتم تدعوننا هذه الدعوة جاهلين بمعنى هذه الألفاظ عندنا: فها نحن أولاء قد بيناها لكم

فارجعوا عن دعوتكم، فقد علمتم أن قياس الإسلام على النصرانية قياس مع الفارق، فإن فصل السلطة الروحية عن السلطة الزمنية هو أصل النصرانية، وقد كان رؤساء الدين تعدوا الحدود، وتسلقوا عروش السلاطين والملوك مخالفين لصاحب الدين الذى:

قد جاء لا سيف ولا رمح ولا
فرس ولا شىء يباع بدرهم
يساوى المغارة مثل راعى الضأن
راعى الممالك فى السرير الأعظم

فلا بدع إذا ترقى الدين بانصراف رؤسائه إلى خدمته وتركهم الاشتغال بما ليس منه فى شىء، ونحن والنصارى فى هذا الأمر على طرفى نقيض، فإننا إذا تلونا تلوهم فيه نكون قد تركنا نصف ديننا الذى هو السياج الحافظ للنصف الباقى.

كلا، إن الدين كله يكون بهذا العمل عرضة للاضمحلال ومهدداً بالزوال. لا جرم أن ما تدعوننا إليه هو أقرب طريق لإعدام «الجامعة الإسلامية»، فكيف جعلتموه طريق إيجادها؟! وهو أقوى على شقائها، فأنَّى تقنعوننا بأنه علة إسعادها»؟!

وسادسا: وبعد أن حسم الشيخ الرشيد الأمر على هذا النحو، الذى أكد فيه: أن فصل الدين الإسلامى عن الدولة إنما يعنى القضاء على نصف الإسلام، الذى هو سياج حفظه.. أى أن فى ذلك ضياع كامل الإسلام، ومحوه من الوجود.. شرع فى بيان خطأ «الحجة» الكبرى التى يثيرها دعاة العلمانية وفصل الدين عن الدولة.. وهى أن هذا الفصل هو الذى يحقق «الوفاق الوطنى» بين أهل الأديان المختلفة فى الدولة الواحدة.. فقال:

«ربما كان الحامل لبعض الكتاب المسيحيين على اقتراح ما ذكر - «فصل الدين عن الدولة» - هو اعتقادهم بأن زوال السلطة الشرعية الإسلامية هو الذى يساوى بين طائفتهم وبين المسلمين، ويخمد نيران الغلو فى التعصب، فيتفقون على إعلاء شأن الوطن، ويخدم كل دينه من الوجهة الروحية التى لا مثار فيها للتنافر والتفاخر».

وبعد عرض «حجتهم» هذه التى هى عمدة ما لدى العلمانيين حتى اليوم! - أخذ الشيخ رشيد يفند هذه «الحجة» فقال:

«ويسهل علينا أن نبين لهم خطأهم فى اعتقادهم هذا، فنقول:

١- إن بناء الشريعة الإسلامية قام على العدالة والمساواة بين المسلمين وغيرهم فى الأحكام والحقوق المعبر عنها بهذه الجملة التى يتناقلها الإسلام خلفا عن سلف، وهى: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا»، وقد دلنا التاريخ على أن الحكومات الإسلامية كانت تراعى هذه القاعدة بحسب تمسكها بالدين قوة وضعفا.

ومن قابل بين مساواة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الإمام عليا - صهر النبى وربيبه وابن عمه

ـ برجل من آحاد اليهود فى المحاكمة، وانتقاد علىّ عليه بقوله له: «يا أبا الحسن»، وعدّه التكنية إخلالا بالمساواة لما فيها من التعظيم، وبين ما هو جار اليوم فى فرنسا من التحامل على «دريفوس» (١٨٥٩ ـ ١٩٣٥م)، وهو من أكابر عظماء اليهود، حتى إنهم حاولوا قتل وكيله الذى يحامى عنه، وهم أصحاب القلم الذى ينطق بالحرية والعدالة والمساواة، يظهر له الفرق بين المسلمين فى بدايتهم، والأوروبيين فى نهاية مدنيتهم، فالشريعة فى نفسها عادلة، ولا يضر المسيحيين أن مواطنيهم المسلمين يعتقدون أنها سماوية، بل هو ينفعهم.. وهم لا فرق عندهم بين الشرائع؛ إذ دينهم يوجب عليهم اتباع أية شريعة حكموا بها.

٢ـ إن الترقى الدينى والمدنى الذى نقصده من إحياء «الجامعة الإسلامية» يتوقف على التهذيب وقيام الأفراد بما عليهم من الحقوق والواجبات لمن يعيشون معهم، وهذا القول لا يخالف فيه أحد.

ومعلوم أن المسلمين لا يعتقدون بحق ولا واجب، إلا إذا كان بيّنًا فى شريعتهم ومأخوذا من أصول دينهم، فإذا فصل بين الدين والدولة كان جميع ما تكلفهم به الدولة من الحقوق والواجبات غير واجب الاتباع فى اعتقادهم، فإذا أخذوا به فى العلانية لا يأخذون به فى السر، ولا يتم تهذيب الأمة ما لم يكن الوازع لها عن الشر والحامل لها على الخير ثابتا فى نفسها مقررا فى اعتقادها فخير للمسيحيين أن يُحكم المسلمون بشريعة ودولة توجب عليهم احترامهم والقيام بحقوقهم سرا وجهرا، وبدون هذا يتضرر المسيحيون ولا يرتقى المسلمون؛ بل يتدلون ويهبطون، كما علم بالاختبار والمشاهدة.

فقد أنبأنا التاريخ أن مبدأ الخلل والضعف الذى ألمّ بنا كان إهمال وظائف الخلافة، والخروج بها عن معناها الذى هو حراسة الدين وسياسة الدنيا.. ولن يعود للإسلام مجده، إلا بإحياء منصب الخلافة واتفاق المسلمين على إمام واحد يعتقدون وجوب الخضوع له سرا وجهرا، ولا إمام اليوم للمسلمين بهذا المعنى إلا القرآن الكريم فيجب على من يهمه ترقية شئونهم أن يدعوهم به إلى العلم والعمل، ونفض غبار الجهل والكسل، والقيام بمصالح المعاش والمعاد، على ما تقتضيه سنن الترقى والإسعاد فهو إمام كل إمام، وكما كان المبدأ فى ترقيهم كذلك يكون الختام»[٤].

هكذا خاض الشيخ رشيد رضا ـ على صفحات «المنار» ـ أولى معارك الفكر الإسلامى ضد العلمانية وفصل الدين عن الدولة فى العصر الحديث.. وأبرز:

* ريادة النصارى الموارنة ـ وصحفهم ومجلاتهم ـ فى التبشير بالعلمانية.
* ورفض المنابر الإسلامية لهذه الدعوى.

(٤) «المنار» السنة الثانية عدد ٢٥ ص٣٨٥ ـ ٣٩١ ـ ٢٦ ربيع الآخر سنة ١٣١٧هـ/٢ ديسمبر سنة ١٨٩٩م.


محمد رشيد رضا

* ورفض الإسلام ـ بطبيعته المتميزة عن النصرانية ـ وشمولية منهاجه للدين والدنيا أية دعوة لفصل الدين عن الدولة.
* وبيان أن شمولية الإسلام هذه للدين والدولة والسياسة والقانون هى الضمان للمساواة فى الحقوق والواجبات بين المسلمين وغير المسلمين فى الدولة الإسلامية.. وليس العكس ـ كما يدّعى العلمانيون.. فالشريعة الإسلامية هى الضامنة للمساواة بين المواطنين على اختلاف أديانهم ومللهم.. ولأن المسلمين لا يخضعون خضوعاً حقيقياً إلا لشريعتهم، فإن الاحتكام إليها هو الضمان لقيام المسلمين إزاء غيرهم بقواعد هذه المساواة وحقوقها.

وإذا لم يكن فى النصرانية شريعة للدولة والاجتماع، فسيّان عندهم أن تكون الشريعة التى تُطبقها الدولة دينية عند غيرهم أم غير دينية، فهى ـ بالنسبة لهم ـ وضعية فى كل الحالات.. وإذا كانت هذه الشريعة ـ الضامنة للمساواة ـ مقدسة عند المسلمين، كان ذلك أدعى لاحترام قواعد المساواة فيها من القوانين الوضعية، التى لا يكنّ لها المسلمون الاحترام!..

وبعبارة الشيخ رشيد رضا:

«.. فالشريعة فى نفسها عادلة ولا يضر المسيحيين أن مواطنيهم المسلمين يعتقدون أنها سماوية، بل هو ينفعهم.. وهم لا فرق عندهم بين الشرائع؛ إذ دينهم يوجب عليهم اتباع أية شريعة حُكموا بها.. فخير للمسيحيين أن يحكم المسلمون بشريعة ودولة توجب عليهم احترامهم والقيام بحقوقهم سراً وجهراً، وبدون هذا يتضرر المسيحيون ولا يرتقى المسلمون»!

نعم.. كانت تلك أولى معارك الفكر الإسلامى مع العلمانية، ودعوى فصل الدين عن الدولة.. وكان هذا هو قدر «المنار» وصاحبه فى الرد على العلمانيين بالمنطق «الشرعى» والبرهان «العقلى» على حدٍّ سواء!



تفسير سورة الفاتحة

٢



لفضيلة الأستاذ الأكبر الإمام الشيخ محمد عبده

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) ﴾

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

(الفاتحة: ٥)

ما هى العبادة؟ يقولون: هى الطاعة مع غاية الخضوع. وما كل عبارة تمثل المعنى تمام التمثيل، وتجليه للأفهام واضحاً لا يقبل التأويل، فكثيراً ما يفسرون الشيء ببعض لوازمه، ويعرفون الحقيقة برسومها، بل يكتفون أحيانا بالتعريف اللفظى ويبينون الكلمة بما يقرب من معناها، ومن ذلك هذه العبارة التى شرحوا بها معنى العبادة، فإن فيها إجمالا وتساهلا.

وإننا إذا تتبعنا آى القرآن وأساليب اللغة واستعمال العرب «لعبد» وما يماثلها.

ويقاربها فى المعنى كخضع وخنع وأطاع وذل، نجد أنه لا شيء من هذه الألفاظ يضاهى «عبد» ويحل محلها ويقع موقعها، ولذلك قالوا: إن لفظ «العباد» مأخوذ من «العبادة» فتكثر إضافته إلى الله تعالى ولفظ (العبيد) تكثر إضافته إلى غير الله تعالى؛ لأنه مأخوذ من العبودية بمعنى الرق، وفرق بين العبادة والعبودية بذلك المعنى. ومن هنا قال بعض العلماء: إن العبادة لا تكون فى اللغة إلا لله تعالى. ولكن استعمال القرآن يخالفه.

يغلو العاشق فى تعظيم معشوقه والخضوع له غلوا كبيرا حتى يفنى فى هواه وتذوب إرادته فى إرادته، ومع ذلك لا يسمى خضوعه هذا عبادة بالحقيقة، ويبالغ كثير من الناس فى تعظيم الرؤساء والملوك والأمراء، فترى من خضوعهم لهم وتحريهم مرضاتهم ما لا تراه من المتحنثين القانتين؛ فضلا عن سائر العابدين، ولم يكن العرب يسمون شيئا من هذا الخضوع عبادة. فما هى العبادة إذن؟

تدل الأساليب الصحيحة، والاستعمال العربى الصراح على أن العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية، ناشئ عن استشعار القلب عظمة للمعبود لا يعرف منشأها، واعتقاده بسلطة لا يدرك كنهها، وماهيتها، وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ولكنها فوق إدراكه، فمن ينتهى إلى أقصى الذل للملك من الملوك لا يقال إنه عبده، وإن قبل مواطئ أقدامه، مادام سبب الذل والخضوع معروفا وهو الخوف من ظلمه المعهود أو الرجاء بكرمه المحدود، اللهم إلا بالنسبة للذين يعتقدون أن المُلك قوة غيبية سماوية أفيضت على الملوك من الملأ الأعلى، واختارتهم للاستعلاء على سائر أهل الدنيا؛ لأنهم أطيب الناس عنصرا وأكرمهم جوهرا، وهؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الاعتقاد إلى الكفر والإلحاد، فاتخذوا الملوك آلهة وأربابا وعبدوهم عبادة حقيقية.

للعبادة صور كثيرة فى كل دين من الأديان، شرعت لتذكير الإنسان بذلك الشعور بالسلطان الإلهى الأعلى الذى هو روح العبادة وسرها، ولكل عبادة من العبادات الصحيحة أثر فى تقويم أخلاق القائم بها وتهذيب نفسه، والأثر إنما يكون على ذلك الروح والشعور الذى قلنا: إنه منشأ التعظيم والخضوع، فإذا وجدت صورة العبادة خالية من هذا المعنى لم تكن عبادة، كما أن صورة الإنسان وتمثاله ليس إنسانا.

خذ إليك عبادة الصلاة مثلا، وانظر كيف أمر الله بإقامتها دون مجرد الإتيان بها، وإقامة الشيء هى الإتيان به مقوما كاملا يصدر عن علته وتصدر عنه آثاره. وآثار الصلاة ونتائجها هى ما أنبأنا الله تعالى بها بقوله:

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾

(العنكبوت: ٤٥)

وقوله عز وجل:

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾

(المعارج: ١٩-٢٢)

وقد توعد الذين يأتون بصورة الصلاة من الحركات والألفاظ مع السهو عن معنى العبادة وسرها فيها، المؤدى إلى غايتها بقوله:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾

(الماعون: ٤-٧)

فسماهم مصلين؛ لأنهم أتوا بصورة الصلاة ووصفهم بالسهو عن الصلاة الحقيقية التى هى توجه القلب إلى الله تعالى المذكر بخشيته، والمشعر للقلوب بعظيم سلطانه، ثم وصفهم بأثر هذا السهو

وهو الرياء ومنع الماعون.

والرياء ضربان: رياء النفاق، وهو العمل لأجل رؤية الناس، ورياء العادة، وهو العمل بحكمها من غير ملاحظة معنى العمل وسره وفائدته وملاحظة من يعمل له ويتقرب إليه به. وهو ما عليه أكثر الناس فإن صلاة أحدهم فى طور الرشد والعقل هى عين ما كان يحاكى به أباه فى طور الطفولية عندما يراه يصلى يستمر على ذلك بحكم العادة من غير فهم ولا عقل وليس لله شيء فى هذه الصلاة: وقد ورد فى ذلك أحاديث كثيرة أن من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا، وإنها تلف كما يلف الثوب البالى ويضرب بها وجهه. وأما الماعون فهو المعونة والخير الذى تقدم فى الآية الأخرى أن من شأن الإنسان أن يكون منوعا له، إلا المصلين.

والاستعانة هى طلب المعونة، والمعونة هى سد العجز والمساعدة على إتمام العمل الذى يعجز عنه المستعين بنفسه. أمرنا الله تعالى بأن لا نعبد غيره؛ لأن السلطة الغيبية التى هى وراء الأسباب ليست إلا له، دون غيره، فلا يشاركه فيها أحد فيعظم تعظيم العبادة، وأمرنا بأن لا نستعين بغيره أيضا. وهذا يحتاج إلى البيان لأنه أمرنا أيضا فى آيات أخرى بالتعاون فقال:

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾

(المائدة: ٢)

فما معنى حصر الاستعانة به مع ذلك؟

الجواب: أن كل عمل يعمله الإنسان تتوقف ثمرته ونجاحه على حصول الأسباب التى اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون مؤدية إليه، وانتفاء الموانع التى من شأنها، بمقتضى الحكمة، أن تحول دونه، وقد مكن الله تعالى الإنسان بما أعطاه من العلم والقوة من دفع بعض الموانع وكسب بعض الأسباب وحجب عنه البعض الآخر، فيجب علينا أن نقوم بما فى استطاعتنا من ذلك ونبذل فى إتقان أعمالنا كل ما نستطيع من حول وقوة، وأن نتعاون، ويساعد بعضنا بعضا على ذلك، ونفوض الأمر فيما وراء كسبنا إلى القادر على كل شيء ونلجأ إليه وحده ونطلب المعونة المتممة للعمل والموصلة لثمرته منه سبحانه دون سواه، إذ لا يقدر على ما وراء الأسباب الممنوحة لكل البشر على السواء إلا مسبب الأسباب ورب الأرباب، فقوله تعالى:

﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

«الفاتحة: ٥»

متمم لمعنى قوله:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾

«الفاتحة: ٥»

لأن الاستعانة بهذا المعنى فزع من القلب إلى الله وتعلق من النفس به، وذلك من مخ العبادة، فإذا توجه العبد بها إلى غير الله تعالى كان ضربا من ضروب العبادة الوثنية التى كانت ذائعة فى زمن التنزيل وقبله وخصت بالذكر لئلا يتوهم الجهلاء أن الاستعانة بمن اتخذوه أولياء من دون الله واستعانوا بهم فيما وراء الأسباب المكتسبة لعامة الناس هى كالاستعانة بسائر الناس فى الأسباب العامة فأراد الحق جل شأنه أن يرفع هذا اللبس عن عباده ببيان أن الاستعانة فيما هو فى استطاعة الناس بالناس إنما هى ضرب من استعمال الأسباب المسنونة، وما منزلتها إلا كمنزلة الآلات فيما هى آلات له، بخلاف الاستعانة فى شئون تفوق القُدر والقوى المعروفة فى متناول الفهم، كالاستعانة على شفاء المرض بما وراءالدواء، وعلى غلبة العدو بما وراء العدد والعدة، فإن ذلك مما لايجوز الفزع به لغير الله تعالى صاحب السطان الأعظم على ما لا يصل إليه سلطان أحد من العالم.

فالزارع يبذل جهده فى الحرث والعذق وتسميد الأرض وريها ويستعين بالله تعالى على إتمام ذلك بمنع الآفات والجوائح السماوية أو الأرضية، والتاجر يحذق فى اختيار الأصناف، ويمهر فى صناعة الترويج، ثم يتكل على الله فيما بعد ذلك.

ومن هنا تعلمون أن الذين يستعينون بأصحاب الأضرحة والقبور على قضاء حوائجهم وتيسير أمورهم وشفاء أمراضهم ونماء حرثهم وزرعهم وهلاك أعدائهم وغير ذلك من المصالح، عن صراط التوحيد ناكبون، وعن ذكر الله معرضون.

أرشدتنا هذه الكلمة الوجيزة:

﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

«الفاتحة: ٥»

إلى أمرين عظيمين هما معراج السعادة فى الدنيا والآخرة:

أحدهما: أن نعمل الأعمال النافعة ونجتهد فى إتقانها ما استطعنا؛ لأن طلب المعونة لا يكون إلا على عمل بذل فيه المرء طاقته فلم يوفه حقه أو يخشى أن لا ينجح فيه، فطلب المعونة على إتمامه وكماله.

ومن وقع من يده القلم على المكتب لا يطلب المعونة من أحد على إمساكه، ومن وقع تحت عبء ثقيل يعجز عن النهوض به وحده يطلب المعونة من غيره على رفعه، بعد استفراغ القوة فى الاستقلال به، وهذا الأمر هو مرقاة السعادة الدنيوية وركن من أركان السعادة الأخروية.

وثانيهما: ما أفاده الحصر من وجوب تخصيص الاستعانة بالله تعالى وحده فيما وراء ذلك، وهو روح الدين وكمال التوحيد الخالص الذى يرفع نفوس معتقديه ويخلصها من رق الأغيار ويفك إرادتهم من أسر الرؤساء الروحانيين، والشيوخ الدجالين، ويطلق عزائمهم من قيد المهيمنين الكاذبين، من الأحياء والميتين، فيكون المؤمن مع الناس حرا خالصا وسيدا كريما، ومع الله عبدا خاضعا:

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

(الأحزاب: ٧١)

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

«الفاتحة: ٦»

الهداية فى اللغة: الدلالة بلطف على ما يوصل إلى المطلوب.

منح الله تعالى الإنسان أربع هدايات يتوصل بها إلى سعادته:

أولاها: هداية الوجدان الطبيعى والإلهام الفطرى، وتكون للأطفال منذ ولادتهم فإن الطفل بعدما يولد يشعر بألم الحاجة إلى الغذاء فيصرخ طالبا بفطرته وعندما يصل الثدى إلى فيه يلهم التقامه وامتصاصه.

الثانية: هداية الحواس والمشاعر، وهى متممة للهداية الأولى فى الحياة الحيوانية ويشارك الإنسان فيهما الحيوان الأعجم بل هو فيهما أكمل من الإنسان؛ فإن حواس الحيوان وإلهامه يكملان له بعد ولادته بقليل بخلاف الإنسان فإن ذلك يكمل فيه بالتدريج فى زمن غير قصير، ألا تراه عقب الولادة لا تظهر عليه علامات إدراك الأصوات والمرئيات،

ثم بعد مدة يبصر ولكنه لقصر نظره يجهل تحديد المسافات فيحسب البعيد قريبا فيمد يديه إليه ليتناوله وإن كان قمر السماء ولايزال يغلط حسه حتى فى طور الكمال؟

الثالثة: هداية العقل. خلق الإنسان ليعيش مجتمعا ولم يعط من الإلهام والوجدان ما يكفى مع الحس الظاهر لهذه الحياة الاجتماعية كما أعطى النحل والنمل، فإن الله قد منحها من الإلهام ما يكفيها لأن تعيش مجتمعة يؤدى كل واحد منها وظيفة العمل لجميعها، ويؤدى الجميع وظيفة العمل للواحد، وبذلك قامت حياة أنواعها كما هو مشاهد.

أما الإنسان فلم يكن من خاصة نوعه أن يتوفر له مثل ذلك الإلهام فحباه الله هداية هى أعلى من هداية الحس والإلهام وهى العقل الذى يصحح غلط الحواس والمشاعر ويبين أسبابه، وذلك أن البصر يرى الكبير على البعد صغيرا ويرى العود المستقيم فى الماء معوجا والصفراوى يذوق الحلو مرا والعقل هو الذى يحكم بفساد هذا الإدراك.

الرابعة: هداية الدين. يغلط العقل فى إدراكه كما تغلط الحواس وقد يهمل الإنسان استخدام حواسه وعقله فيما فيه سعادته الشخصية والنوعية، ويسلك بهذه الهدايات مسالك الضلال، فيجعلها مسخرة لشهواته ولذاته حتى تورده مورد الهلكة. فإذا وقعت المشاعر فى مزالق الذلل، واسترقت الحظوظ والأهواء العقل، فصار يستنبط لها ضروب الحيل، فكيف يتسنى للإنسان مع ذلك أن يعيش سعيدا؛ وهذه الحظوظ والأهواء ليس لها حد يقف الإنسان عنده، وما هو بعائش وحده، وكثيرا ما تتطاول به إلى ما فى يد غيره فهى لهذا تقضى أن يعدو بعض أفراده على بعض فيتنازعون ويتدافعون ويتجادلون ويتجالدون، ويتواثبون ويتناهبون، حتى يفنى بعضهم بعضا ولا تغنى عنهم تلك الهدايات شيئا، فاحتاجوا إلى هداية ترشدهم فى ظلمات أهوائهم، إذا هى غلبت على عقولهم، وتبين لهم حدود أعمالهم ليقفوا عندها، ويكفوا أيديهم عما وراءها.

ثم إن مما أودع فى غرائز الإنسان بسلطة غيبية متسلطة على الأكوان، ينسب إليها كل ما لا يعرف له سببا؛ لأنها هى الواهبة كل موجود ما به قوام وجوده، وبأن له حياة وراء هذه الحياة المحدودة. فهل يستطيع أن يصل بتلك الهدايات الثلاث إلى تحديد مايجب عليه لصاحب تلك السلطة الذى خلقه وسواه ووهبه هذه الهدايات وغيرها ومافيه سعادته فى تلك الحياة الثانية؟ كلا! إنه فى أشد الحاجة إلى هذه الهداية الرابعة ـ الدين ـ وقد منحه الله تعالى إياها.

أشار القرآن إلى أنواع الهداية التى وهبها الله تعالى للإنسان فى آيات كثيرة منها قوله تعالى:

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾

(البلد: ١٠)

أى طريق السعادة والشقاوة والخير والشر.. وهذه تشمل هداية الحواس الظاهرة والباطنة وهداية العقل وهداية الدين. ومنها قوله تعالى:

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾

(فصلت: ١٧)

أى دللناهم على طريق الخير والشر فسلكوا سبيل الشر المعبر عنه بالعمى.

ولكن.. بقى معنا هداية أخرى، وهى المعبر عنها بقوله تعالى:

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾

(الأنعام: ٩٠)

فليس المراد من هذه الهداية ما سبق ذكره؛ فالهداية فى الآيات السابقة بمعنى الدلالة، وهى بمنزلة إيقاف الإنسان على رأس الطريقين ـ المهلك والمنجى ـ مع بيان مايؤدى إليه كل منهما وهى ما تفضل الله به على جميع أفراد البشر. أما هذه الهداية فهى أخص من تلك، والمراد بها إعانتهم وتوفيقهم للسير فى طريق الخير والنجاة مع الدلالة، وهى لم تكن ممنوحة لكل أحد كالحواس والعقل وشرع الدين.

ولما كان الإنسان عرضة للخطأ والضلال فى فهم الدين وفى استعمال الحواس والعقل ـ على ماقدمنا ـ كان محتاجا إلى المعونة الخاصة فأمرنا الله بطلبها منه فى قوله:

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

(الفاتحة: ٦)

فمعنى

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

دلنا دلالة تصحبها معونة غيبية من لدنك تحفظنا بها من الضلال والخطأ. وما كان هذا أول دعاء علمنا الله تعالى إياه، إلا لأن حاجتنا إليه أشد من حاجتنا إلى كل شىء سواه.

والصراط: هو الطريق.. والمستقيم: هو ضد المعوج. وليس المراد بمقابل المستقيم المعوج ذا التمعج[1] والتعاريج، بل المراد كل ما فيه انحراف عن الغاية التى يجب أن ينتهى إليها، والمستقيم فى عرف الهندسة أقرب موصل بين طرفين، وهذا المعنى لازم للمعنى اللغوى، كما هو ظاهر بالبداهة، وإنما قلنا: إن المراد بمقابل المستقيم كل ما فيه انحراف لأن كل من يميل وينحرف عن الجادة يكون أضل عن الغاية ممن يسير عليها فى خط ذى تعاريج؛ لأن هذا الأخير قد يصل إلى الغاية بعد زمن طويل، ولكن الأول لايصل إليها قط، بل يزداد بعداً كلما أوغل فى السير وانهمك فيه، وقد قالوا: إن المراد بالصراط المستقيم: الدين أو الحق أو العدل والحدود. ونحن نقول: إن جملة مايوصلنا إلى سعادتى الدنيا والآخرة من عقائد وآداب وأحكام وتعاليم.

لم سمى الموصل إلى السعادة من ذلك صراطاً وطريقا؟.. خذ الحق مثلاً، وهو الاعتقاد الصحيح بالله وبالنبوة وبأحوال الكون والناس تر معنى الصراط فيه واضحاً؛ لأن السبيل أو الصراط هو ما أسلكه وأسير فيه لبلوغ الغاية التى أقصدها. كذلك الحق الذى يبين لى الواقع فى العقيدة الصحيحة هو كالجادة بين السبل المتفرقة المضلة، فالطريق الواضح للحس يشبهه الحق للعقل وللنفس، سير حسى، وسير معنوى، كذلك إذا اعتبرت المعنى فى الحدود والأحكام تجده واضحاً.. قسمت أحكام الأعمال إلى واجب ومندوب ومباح ومحرم ومكروه، فكان هذا مريحاً لنا من تمييز الخير من الشر بأنفسنا واجتهادنا؛ فبيان الأحكام بالهداية الكبرى وهى الدين كالطريق الواضح يسلك بالعمل. ومع هذا نجد الشهوات تتلاعب بالأحكام وترجعها إلى أهوائها كما يصرف السفهاء عقولهم وحواسهم

(١) الطريق المتمعج هو المتثنى والملتوى.

فيما يرديهم، وهذا التلاعب بالدين إنما يصدر من علمائه(٢).

واستحلال المحرمات بمثل هذا التأويل ليس بقليل، ولذلك كان الإنسان محتاجا أشد الاحتياج إلى العناية الإلهية الخاصة لأجل الاستقامة والسير فى تلك الهدايات الأربع سيراً مستقيماً يوصل إلى السعادة، لهذا نبهنا الله جل شأنه أن نلجأ إليه ونسأله الهداية ليكون عونا لنا ينصرنا على أهوائنا وشهواتنا وأن تكون استعانتنا فى ذلك به لا بسواه، بعد أن نبذل ما نستطيع من الفكر والجهاد فى معرفة ما أنزل إلينا من الشرعية والأحكام وأخذ أنفسنا بما نعلم من ذلك. وهذا أفضل ما نطلب فيه المعونة منه جل شأنه لاشتماله على خيرى الدنيا والآخرة، فهو بهذه الآية يعلمنا كيف نستعين بعد أن علمنا اختصاصه بالاستعانة فيقول: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾

«الفاتحة: ٧»

الصراط المستقيم: هو الموصل إلى الحق، ولكنه ما بينه بذلك كما بينه فى نحو سورة العصر، وإنما بينه بإضافته إلى من سلك هذا الصراط كما قال فى سورة الأنعام:

﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾

«الأنعام: ٩٠»

وقد قلنا: إن الفاتحة مشتملة على إجمال ما فصل فى القرآن حتى من الأخبار التى هى مثل الذكرى والاعتبار، وينبوع العظة والاستبصار، وأخبار القرآن كلها تطوى فى إجمال هذه الآية.

فسر بعضهم المنعم عليهم بالمسلمين والمغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى(٣). ونحن نقول: إن الفاتحة أول سورة نزلت، كما قال الإمام على رضى الله عنه وهو أعلم بهذا من غيره لأنه تربى فى حجر النبى صلى الله عليه وسلم، وأول من آمن به، وإن لم تكن أول سورة على الإطلاق، فلا خلاف فى أنها من أوائل السور.

ولم يكن المسلمون فى أول نزول الوحى بحيث يطلب الاهتداء بهداهم وما هداهم إلا من الوحى، ثم هم المأمورون بأن يسألوا الله أن يهديهم هذه السبيل، سبيل من أنعم الله عليهم فأولئك غيرهم، وإنما المراد بهذا ما جاء فى قوله تعالى:

﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾

وهم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من الأمم السالفة. فقد أحال على معلوم أجمله فى الفاتحة وفصله فى سائر القرآن بقدر الحاجة. فثلاثة أرباع القرآن تقريبا قصص وتوجيه للأنظار إلى الاعتبار بأحوال الأمم فى كفرهم وإيمانهم وشقاوتهم وسعادتهم، ولا شىء يهدى الإنسان كالمثلات والوقائع، فإذا امتثلنا الأمر والإرشاد ونظرنا فى أحوال الأمم السالفة وأسباب علمهم وجهلهم وقوتهم وضعفهم وعزهم وذلهم وغير ذلك مما يعرض للأمم كان لهذا النظر أثر فى نفوسنا يحملنا على حسن الأسوة والاقتداء بأخبار تلك الأمم فيما كان سبب

(٢) هنا ضرب الأستاذ الإمام مثلاً بأحد الشيوخ، سرق كتاباً من وقف أحد «الأروقة» بالأزهر، زاعماً أن وجوده عنده يحقق غرض الواقف من النفع بهذا الكتاب أكثر مما يتحقق ذلك ببقائه فى الرواق!!

(٣) فى هذا المعنى حديث رواه أحمد والترمذى، وحسنه، وابن حبان، وصححه. انظر تفسير المنار جـ ١ ص ٩٧ الطبعة الأولى.

السعادة والتمكن فى الأرض واجتناب ما كان سبب الشقاوة أو الهلاك والدمار.

ومن هنا يتجلى للعاقل شأن علم التاريخ وما فيه من الفوائد والثمرات، وتأخذه الدهشة والحيرة إذا سمع أن كثيرا من رجال الدين من أمة هذا كتابها يعادون التاريخ باسم الدين ويرغبون عنه ويقولون: إنه لا حاجة إليه ولا فائدة له. وكيف لا يدهش ويحار والقرآن ينادى بأن معرفة أحوال الأمم من أهم ما يدعو إليه هذا الدين؟

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ﴾ ،

وههنا سؤال، وهو كيف يأمرنا الله تعالى باتباع صراط من تقدمنا وعندنا أحكام وإرشادات لم تكن عندهم، وبذلك كانت شريعتنا أكمل من شرائعهم وأصلح لزماننا وما بعده؟ والقرآن يبين لنا الجواب وهو أنه يصرح بأن دين الله فى جميع الأمم واحد وإنما تختلف الأحكام بالفروع التى تختلف باختلاف الزمان وأما الأصول فلا خلاف فيها. قال تعالى:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾
(آل عمران: ٦٤)

الآية، وقال تعالى:

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾
(النساء: ١٦٣)

الآية، فالاعتقادات بالله وبالنبوة وبترك الشر وبعمل البر والتخلق بالأخلاق الفاضلة مستوفى الجميع، وقد أمرنا الله بالنظر فيما كانوا عليه والاعتبار بما صاروا إليه، فنقتدى بهم فى القيام على أصول الخير وهو أمر يتضمن الدليل على أن فى ذلك الخير والسعادة على حسب طريقة القرآن فى قرن الدليل بالمدلول والعلة بالمعلول والجمع بين السبب والمسبب.

وتفصيل الأحكام التى هذه كلياتها بالإجمال تعرفه من شرعنا ونبينا عليه الصلاة والسلام.

وأما قوله تعالى:

﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾

«الفاتحة: ٧»

فالمغضوب عليهم هم الذين خرجوا من الحق بعد علمهم به والذين بلغهم شرع الله تعالى ودينه فرفضوه ولم يتقبلوه انصرافا عن دليل، ورضوا بما ورثوه من القليل، ووقوفا عند التقليد وعكوفا على هوى غير رشيد، وغضب الله عقوبته وانتقامه.

وقوله:

﴿ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾

«الفاتحة: ٧»

قرن المعطوف فيه «بلا»، لما فى «غير» من معنى النفى، أو: غير الضالين، ففيه تأكيد للنفى، وهو يدل على أن الطوائف ثلاث: المنعم عليهم، والمغضوب عليهم، والضالون. ولا شك أن المغضوب عليهم ضالون أيضا؛ لأنهم بنبذهم الحق وراء ظهورهم قد استدبروا الغاية واستقبلوا غير وجهتها، فلا يصلون إلى مطلوب، ولا يهتدون إلى مرغوب، ولكن فرقا بين من عرف الحق فأعرض عنه على علم وبين من لم يظهر له الحق فهو تائه بين الطرق لا يهتدى إلى الجادة فيها وهم من لم تبلغهم الرسالة أو بلغتهم على وجه لم يتبين لهم فيه الحق، فهؤلاء هم أحق باسم الضالين، فإن الضال حقيقة هو التائه الواقع فى عماية لا يهتدى معها إلى المطلوب، والعماية فى الدين هى الشبهات التى تلبس الحق بالباطل وتشبه الصواب الخطأ.

الضالون على أقسام:

القسم الأول: من لم تبلغهم الدعوة إلى الرسالة أو بلغتهم على وجه لا يسوق إلى النظر؛ فهؤلاء لم يتوفر

لهم من أنواع الهداية سوى ما يحصل بالحس والعقل وحرموا رشد الدين فإن لم يضلوا فى شئونهم الدنيوية ضلوا لا محالة فيما تطلب به نجاة الأرواح وسعادتها فى الحياة الأخرى، على أن من شأن الدين الصحيح أن يفيض على أهله من روح الحياة ما به يسعدون فى الدنيا والآخرة معًا، فمن حرم الدين حرم السعادتين، وظهر أثر التخبط والاضطراب فى أعماله المعاشية، وحل به من الرزايا ما يتبع الضلال والخبط عادة، سنة الله فى هذا العالم ولن تجد لسنته تبديلاً. أما أمرهم فى الآخرة فعلى أنهم لن يساووا المهتدين فى منازلهم، وقد يعفو الله عنهم، وهو الفعال لما يريد.

وأزيد فى إيضاح هذا أن الذين حرموا هداية الدين لا يعقل أن يؤاخذوا فى الآخرة على ترك شيء مما يعرف بهذه الهداية، وهذا معنى كونهم غير مكلفين، وعليه جمهور المتكلمين، لقوله تعالى فى سورة الإسراء:

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

(الإسراء: ١٥)

ومن قال: إنهم مكلفون بالعقل لا يظهر وجه لقوله إلا إذا أراد أن حالهم فى الآخرة تكون على حسب ارتقاء أرواحهم بهداية العقل وسلامة الفطرة، إذ لا شك أن من لم يبعث فيهم رسول يتفاوتون فى إدراكهم بتفاوت استعدادهم الفطرى وما يصادفون من حسن التربية وقبحها. وبهذا يجمع بين القولين فى تكليفهم وعدمه أو يفصل بينهما، وما يعطيهم الله تعالى إياه فى الآخرة على حسب حالهم فى الخير والشر والفضيلة والرذيلة يكون جزاء عادلاً على أعمالهم الاختيارية ويزيدهم من فضله إن شاء.

القسم الثانى: من بلغته الدعوة على وجه يبعث على النظر فساق همته إليه، واستفرغ جهده فيه، ولكن لم يوفق إلى الاعتقاد بما دعى إليه، وانقضى عمره، وهو فى الطلب، وهذا القسم لا يكون إلا أفرادًا متفرقة فى الأمم ولا يعم حاله شعبًا من الشعوب فلا يظهر له أثر فى أحوالها العامة وما يكون لها من سعادة وشقاء فى حياتهم الدنيا. أما صاحب هذه الحالة فقد ذهب بعض الأشاعرة إلى أنه ممن ترجى له رحمة الله تعالى، وينقل صاحب هذا الرأى قوله عن أبى الحسن الأشعرى، وعلى رأى الجمهور فلا ريب أن مؤاخذته أخف من مؤاخذة الجاحد الذى استعصى على الدليل وكفر بنعمة العقل أو رضى بحظه من الجهل.

القسم الثالث: من بلغتهم الرسالة وصدقوا بها بدون نظر فى أدلتها ولا وقوف على أصولها، فاتبعوا أهواءهم فى فهم ما جاءت به من أصول العقائد، وهؤلاء هم المبتدعة فى كل دين، ومنهم المبتدعون فى دين الإسلام، وهم المنحرفون فى اعتقادهم عما تدل عليه جملة القرآن وما كان عليه السلف الصالح وأهل الصدر الأول، ففرقوا الأمة إلى مشارب، يغص بمائها الوارد، ولا يرتوى منها الشارب.

وإنى أشير إلى طرف من آثارهم فى الناس: يأتى الرجل دوائر القضاء فيستحلف بالله العلى العظيم أو بالمصحف الكريم، وهو كلام الله القديم، إنه ما فعل كذا، فيحلف، وعلامة الكذب بادية على وجهه، فيأتيه المستحلف من طريق آخر، ويحمله على الحلف بشيخ من المشايخ الذين يعتقد بهم الولاية، فيتغير لونه، وتضطرب أركانه، ثم يرجع فى أليته ويقول الحق ويقر بأنه فعل ما حلف عليه أولاً أنه لم يفعله، تكريمًا لاسم ذلك الشيخ وخوفًا منه أن يسلب عنه نعمة أو يحل به نقمة إذا حلف باسمه كاذبًا، فهذا ضلال فى أصول العقيدة يرجع إلى الضلال فى الاعتقاد بالله وما يجب له من الوحدانية فى الأفعال.

ولو أردنا أن نسرد ما وقع فيه المسلمون من الضلال فى العقائد الأصلية بسبب البدع التى عرضت على دين الإسلام لطال المقال، واحتيج إلى وضع مجلدات فى وجوه الضلال، ومن أشنعها أثرًا وأشدها ضررًا خوض رؤساء الفرق منهم فى مسائل القضاء والقدر، والاختيار والجبر، وتحقيق الوعد والوعيد، وتهوين مخالفة الله على نفوس العبيد.

إذا وزنا ما فى أدمغتنا من الاعتقادات بكتاب الله تعالى من غير أن ندخلها فيه أولاً يظهر لنا كوننا مهتدين أو ضالين، وأما إذا أدخلنا ما فى أدمغتنا فى القرآن، وحشرناها فيه أولاً، فلا يمكننا أن نعرف الهداية من الضلال، لاختلاط الموزون بالميزان، فلا يدرى ما هو الموزون من الموزون به.. أريد أنه يجب أن يكون القرآن أصلاً تحمل عليه المذاهب والآراء فى الدين، لا أن تكون المذاهب أصلاً والقرآن هو الذى يحمل عليها ويرجع بالتأويل أو التحريف إليها، كما جرى عليه المخذولون، وتاه فيه الضالون.

القسم الرابع: ضلال فى الأعمال وتحريف للأحكام عما وضعت له، كالخطأ فى فهم معنى الصلاة والصيام وجميع العبادات، والخطأ فى فهم الأحكام التى جاءت فى المعاملات. ولنضرب لذلك مثلاً: الاحتيال فى الزكاة بتحويل المال إلى ملك الغير قبل حول الحول ثم استرداده بعد مضى قليل من الحول الثانى، حتى لا تجب الزكاة فيه، ظن المحتال أنه بحيلته قد خلص من أداء الفريضة، ونجا من غضب من لا تخفى عليه خافية، ولا يعلم أنه بذلك قد هدم ركنًا من أهم أركان دينه، وجاء بعمل من يعتقد أن الله قد فرض فرضًا، وشرع بجانب ذلك الفرض ما يذهب به، ويمحو أثره، وهو محال عليه، جل شأنه.

ثلاثة أقسام من هذا الضلال: أولها، وثالثها، ورابعها يظهر أثرها فى الأمم فتختل قوى الإدراك فيها، وتفسد الأخلاق وتضطرب الأعمال، ويحل بها الشقاء، عقوبة من الله لابد من نزولها بهم. سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنته تحويلاً.

ويعد حلول الضعف ونزول البلاء بأمة من الأمم من العلامات والدلائل على غضب الله تعالى عليها لما أحدثته فى عقائدها وأعمالها مما يخالف سننه ولا يتبع فيه سننه. لهذا علمنا الله تعالى كيف ندعوه بأن يهدينا طريق الذين ظهرت نعمته عليهم بالوقوف عند حدوده، وتقويم العقول والأعمال بفهم ما هدانا إليه، وأن يجنبنا طرق الذين ظهرت فيهم آثار نعمته بالانحراف عن شرائعه، سواء كان ذلك عمدًا وعنادًا أو غواية وجهلاً.

إذا ضلت الأمة سبيل الحق، ولعب الباطل بأهوائها، فسدت أخلاقها واعتلت أعمالها، ووقعت فى الشقاء لا محالة، وسلط الله عليها من يستذلها ويستأثر بشئونها، ولا يؤخر لها العذاب إلى يوم الحساب- وإن كانت ستلاقى نصيبها منه أيضًا- فإذا تمادى بها الغى، وصل بها إلى الهلاك، ومحى أثرها من الوجود، لهذا علمنا الله تعالى كيف ننظر فى أحوال من سبقنا، ومن بقيت آثارهم بين أيدينا من الأمم. لنعتبر ونميز بين ما به تسعد الأقوام وما به تشقى. أما فى الأفراد فلم تجر سنة الله بلزوم العقوبة لكل ضال فى هذه الحياة الدنيا، فقد يستدرج الضال من حيث لا يعلم، ويدركه الموت قبل أن تزول النعمة عنه، وإنما يلقى جزاءه:

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾

(الانفطار: ١٩)

أقسام السنة النبوية عند الشيخ عبدالعزيز جاويش



(١٢٩٣-١٣٤٧هـ/ ١٨٧٦-١٩٢٩م)

التعريف به

● هو عبدالعزيز بن خليل بن حسن بن جاويش.

● ولد بالإسكندرية فى (١٢ شوال سنة ١٢٩٣هـ/ ٣١ أكتوبر سنة ١٨٧٦م) لأسرة تعمل بالتجارة.. نزحت من بنغازى بليبيا إلى الإسكندرية.. فاستوطنتها.

● ولقد اختصت الأسرة ابنها عبدالعزيز بسلوك طريق التعليم الدينى - حيث كان باقى إخوته يحترفون التجارة - فبعد مرحلة التعليم بمسجد الشيخ إبراهيم باشا، سافر إلى القاهرة للمجاورة بالأزهر الشريف سنة (١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م).

● ولقد سلك جاويش - فى الدراسة والفكر - طريق التجديد والمجددين.. مع الانخراط فى العمل السياسى - الوطنى والإسلامى - والجهاد الفكرى والعملى.. والإصلاح التربوى والاجتماعى.

ففى الدراسة، جمع بين الأزهر - الذى درس فيه لمدة عامين - وبين دار العلوم - التى تخرج فيها سنة (١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م).

● وبعد العمل بالتدريس - فى مدرسة الزراعة - لمدة قصيرة.. ابتعث الشيخ جاويش - لتفوقه فى درجات التخرج من دار العلوم - إلى إنجلترا، فدرس فيها ثلاث سنوات بجامعة «برودود»، ليعود منها سنة (١٣١٩هـ/ ١٩٠١م) مفتشا للكتاتيب بوزارة المعارف المصرية.

● وبعد عام من العمل فى التربية والتعليم - بوزارة المعارف - عاد الشيخ جاويش إلى لندن ليعمل مدرسا للغة العربية بجامعة «أكسفورد» سنة (١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م)، وذلك بتوصية من المستشرق الإنجليزى «مرجليوث» (١٨٥٨ - ١٩٤٠م).. وهناك قضى خمس سنوات، توثقت فيها علاقاته بطلاب العالم الإسلامى.. وزادت فيها خبرته بالسياسة الاستعمارية إزاء الدولة العثمانية والشرق الإسلامى، وما اشتهر يومئذ «بالمسألة الشرقية».. كما اطلع على الفكر الاستشراقى، وعلى مطاعن بعض المستشرقين ضد الإسلام وأمته وحضارته.

ولقد حضر جاويش - إبان هذه الفترة - مؤتمر المستشرقين بالجزائر سنة (١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م).. ودافع عن اللغة العربية الفصحى وعن القرآن الكريم ضد مطاعن بعض المستشرقين الألمان، الأمر الذى لفت إليه - وإلى منطقه وبلاغته - أنظار الكثيرين من حضور المؤتمر، ومنهم الزعيم الوطنى الإسلامى محمد بك فريد (١٢٨٤ - ١٣٣٨هـ/ ١٨٦٨ - ١٩١٩م)، الذى حدث الزعيم الوطنى مصطفى كامل باشا (١٢٩١ - ١٣٢٦هـ/ ١٨٧٤ - ١٩٠٨م) عن مواهب الشيخ جاويش.. فبدأت الصلات تتوثق بينه وبين تيار الوطنية والجامعة الإسلامية منذ ذلك التاريخ.

● وبعد عودة الشيخ جاويش من أكسفورد سنة (١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م) عمل مفتشا بوزارة المعارف.. فلما توفى مصطفى كامل باشا - فى (محرم سنة ١٣٢٦هـ/ فبراير سنة ١٩٠٨م) - استقال الشيخ جاويش من وزارة المعارف - أواخر أبريل من ذات العام - ليحل محل مصطفى كامل فى رئاسة تحرير صحيفة (اللواء) - لسان حال الحزب الوطنى المصرى.

● وفى خضم العمل السياسى - الوطنى والإسلامى - خاض الشيخ جاويش عشرات المعارك الفكرية ضد الاستعمار.. والاستبداد.. وضد النزعات الطائفية التى عمل الاستعمار على توظيفها ضد الإسلام وحركة التحرر الوطنى.. كما خاض العديد من المعارك الفكرية ضد الجمود والتقليد - من جانب - وضد مطاعن الاستشراق والزندقة - من جانب آخر - وفى سبيل التجديد الفكرى والإصلاح الدينى.

وبسبب هذه المعارك دخل السجن عدة مرات؛ إحداها سنة (١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م) بسبب مقال له فى ذكرى مذبحة «دنشواى».. وثانيها فى العام التالى، بسبب تقديمه لديوان (وطنيتى) للشيخ على الغاياتى (١٣٠٢ - ١٣٧٥هـ/ ١٨٨٥ - ١٩٥٦م) الذى قدم له - أيضا - وحوكم بسببه الزعيم محمد بك فريد.. ثم سجن مرة ثالثة - من (٩ سبتمبر إلى ١٧ أكتوبر سنة ١٩١٢م) - عندما سلمته الحكومة التركية إلى سلطات الاحتلال الإنجليزى لمصر. ومرة رابعة (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م).

● وكان الشيخ جاويش - فى خضم العمل الإسلامى - أحد الزعماء الذين دعموا الجهاد الليبى سنة (١٣٢٩هـ/ ١٩١١م) ضد الغزو الفاشى الإيطالى - بالمال والسلاح - الأمر الذى جعل سلطات الاحتلال الإنجليزى بمصر تضيق عليه الخناق، وتتجه إلى سجنه من جديد.. فهاجر من مصر - فى ربيع الأول سنة (١٣٣٠هـ) فبراير سنة (١٩١٢م) - إلى الآستانة - عاصمة الخلافة العثمانية - ليواصل هناك نشاطه السياسى والصحفى والفكرى من خلال الصحف والمجلات التى أصدرها هناك - (الهلال العثمانى) و(الهداية) و(العالم الإسلامى) -.. كما أسس هناك «جمعية خدام الكعبة» لمتابعة سياسات العالم الإسلامى.

● ووضع الأساس لجامعة المدينة المنورة فى (ربيع الأول ١٣٣٢هـ/ فبراير ١٩١٤م).

● وعندما انهزمت تركيا فى الحرب العالمية الأولى، فر الشيخ جاويش إلى ألمانيا؛ حيث عاش

هناك حياة قاسية.. ثم عاد إلى تركيا لمناصرة ثورتها ضد الزحف اليونانى عليها.. ثم اختلف مع مصطفى كمال باشا - أتاتورك - (١٢٩٨ - ١٣٥٧هـ/ ١٨٨١ - ١٩٣٨م) عندما اتجه إلى إلغاء الخلافة، وعلمنة الدولة والمجتمع، وسلخ تركيا عن تاريخها ومحيطها وهويتها.

● وأمام انسداد طرق الجهاد فى الساحة العثمانية، بعد إسقاط الخلافة، وانفراط عقدها.. عاد الشيخ جاويش - سراً - إلى مصر سنة (١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م) مجددا العهد على مواصلة الجهاد فى وادى النيل.. فعمل بالصحافة.. ورشح نفسه فى الانتخابات البرلمانية (١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م).. ثم عمل مديرا للتعليم الأولى.. وشارك فى تأسيس «جمعية الشبان المسلمين» سنة (١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م).. وانتخب وكيلا لها.. كما أسهم فى العمل النقابى.

● أما فى الميدان الفكرى، فلقد كان الشيخ جاويش أحد أعلام علماء مدرسة الإحياء والتجديد، التى ارتاد ميدانها جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ/ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م).. والتى أبدع معالم مشروعها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م).. فلقد حضر جاويش دروس الأستاذ الإمام لتفسير القرآن الكريم - بالرواق العباسى.. بالجامع الأزهر الشريف - كما حضر ندوة الأستاذ الإمام بمنزله - بضاحية عين شمس - وسار على منهاجه فى الاجتهاد والتجديد، كواحد من أنجب تلامذة الأستاذ الإمام - الذى كان يلقبه جاويش «بالحكيم» -.

وتميز جاويش - بين أعلام علماء الاجتهاد والتجديد - بجمعه بين «التجديد الفكرى» - الذى تخصص فيه الشيخ محمد عبده - وبين العمل السياسى الإسلامى - الذى قاد نشاطه الزعيم الوطنى الإسلامى مصطفى كامل باشا وحزبه الوطنى.. فكان علما من أعلام تيار الجامعة الإسلامية - فى الفكر.. والسياسة.. والصحافة.. والتربية.. والخطابة.. والجهاد فى معارك الشعوب الإسلامية فى ذلك التاريخ - وبرئ - بذلك - من الفصام النكد الذى وقع بين هذين الفصيلين من فصائل اليقظة الإسلامية الحديثة.

● وغير المقالات - السياسية والتربوية - فى الصحف التى كتب فيها الشيخ عبدالعزيز جاويش - مثل (اللواء) و(القلم) و(الشعب) و(الأخبار) و(الهلال العثمانى) و(الهداية) و(العالم الإسلامى) وغيرها - خلف لنا الشيخ جاويش كتبا خمسة، هى:

١ - (الإسلام دين الفطرة) - وهو من أبدع ما كتب فى تقديم حقائق الإسلام للعقل الحديث والمعاصر.

٢ - (إجابتى على الكنيسة الإنجليكية) الذى ألفه فى لندن.

٣ - (خواطر فى التربية والسياسة وأبحاث عن المرأة المصرية والشئون العامة) - وهو جمع لمقالاته حول هذه القضايا فى صحيفة (اللواء) سنتى (١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م و١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م).

٤ - (غُنية المؤدبين فى الطرق الحديثة للتربية والتعليم).

٥ - (مرشد المترجم).

● وبعد حياة حافلة بكل هذه الألوان من الجهاد الفكرى.. والوطنى.. والإسلامى.. صعدت روح الشيخ عبدالعزيز جاويش إلى بارئها فى فجر يوم

الجمعة (١٤ شعبان سنة ١٣٤٧هـ/ ٢٥ يناير سنة ١٩٢٩م) مخلفا ذكريات جهادية.. وصفحات نضالية.. وإسهامات فكرية خالدة لا تموت.

كان الشيخ جاويش واحدا من أنبغ تلاميذ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.. وكان يطلق على أستاذه لقب «الحكيم».

ومع أن الإمام محمد عبده لم يعرض - صراحة وتفصيلا - للتمييز بين السنة التشريعية - التى هى دين وبلاغ وبيان للوحى والرسالة - وغير التشريعية - التى هى رأى واجتهاد فى معايش الدنيا وشئونها - إلا أنه طرق جوهر هذا المبحث فى مواطن عدة.. ومناسبات مختلفة منها عند حديثه عن وظائف الرسل والأنبياء.. وكيف أنهم جاءوا للهداية الدينية.. وتحديد فلسفة التشريع للمعاملات الدنيوية - سياسية واجتماعية واقتصادية - أما تفاصيل المعايش الدنيوية، فإن آراءهم واجتهاداتهم فيها هى «رأى» بابه مفتوح للاجتهادات.. وليس «دينا» واجب الاتباع.. فالملزم فى هذه «الآراء والاجتهادات» النبوية، المتعلقة بجزئيات ومتغيرات المعاش الدنيوى هو «فلسفة التشريع.. ومنظومة القيم والأخلاق.. ومقاصد التشريع الإلهى».

ومن صياغات الأستاذ الإمام - المعبرة عن جوهر المبحث الذى طرقه الإمامان القرافى وولى الله الدهلوى - ما جاء فى (رسالة التوحيد) عن «وظيفة الرسل عليهم السلام».. حيث قال:

«ليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرسين ومعلمى الصناعات، فليس مما جاءوا له تعليم التاريخ، ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب، ولا بيان ما اختلف من حركاتها، ولا ما استكن من طبقات الأرض، ولا مقادير الطول فيها والعرض، ولا ما تحتاج إليه النباتات فى نموها، ولا ما تفتقر إليه الحيوانات فى بقاء أشخاصها وأنواعها، وغير ذلك مما وضعت له العلوم، وتسابقت فى الوصول إلى دقائقه الفهوم، فإن ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة، هدى الله إليه البشر بما أودع فيهم من الإدراك، يزيد فى سعادة المحصلين، ويقضى فيه بالنكد على المقصرين، ولكن كانت سنة الله فى ذلك أن يتبع طريقة التدرج فى الكمال، وقد جاءت شرائع الأنبياء بما يحمل على الإجمال فى السعى، وما يكفل التزامه بالوصول إلى ما أعد الله له الفطر الإنسانية من مراتب الارتقاء»[2].

«... إن بعثة الرسل هى حاجة من الحاجات الروحية للعقول البشرية.. أما تفاصيل طرق المعيشة، والحذق فى وجوه الكسب، وتطاول شهوات العقل إلى درك ما أعد للوصول إليه من أسرار العلم؛ فذلك مما لا دخل للرسالات فيه، إلا من وجهة العظة العامة، والإرشاد إلى الاعتدال فيه، وتقرير أن شرط ذلك كله أن لا يُحدث ريبا فى الاعتقاد بأن للكون إلها واحدا قادرا عليما حكيما متصفا بما أوجب الدليل أن يتصف به، وباستواء نسبة الكائنات إليه فى أنها مخلوقة له، وصنع قدرته، وإنما تفاوتها فيما اختص به بعضها

(١) انظر فى ترجمة حياته: خير الدين الزركلى (الأعلام) طبعة بيروت الثالثة. وتقديم الأستاذ فتحى رضوان لكتاب (الإسلام دين الفطرة) طبعة الزهراء - القاهرة سنة (١٩٨٧م).. ومجدى سعيد، مقدمة كتاب (الإسلام دين الفطرة) طبعة مكتبة الإسكندرية.

(٢) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) (٣/ ٤٢٢)، طبعة بيروت سنة (١٩٧٢م)، وطبعة دار الشروق - القاهرة سنة (١٩٩٣م و٢٠٠٦م).

هناك حياة قاسية.. ثم عاد إلى تركيا لمناصرة ثورتها ضد الزحف اليونانى عليها.. ثم اختلف مع مصطفى كمال باشا - أتاتورك - (١٢٩٨ - ١٣٥٧هـ/ ١٨٨١ - ١٩٣٨م) عندما اتجه إلى إلغاء الخلافة، وعلمنة الدولة والمجتمع، وسلخ تركيا عن تاريخها ومحيطها وهويتها.

● وأمام انسداد طرق الجهاد فى الساحة العثمانية، بعد إسقاط الخلافة، وانفراط عقدها.. عاد الشيخ جاويش - سراً - إلى مصر سنة (١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م) مجددا العهد على مواصلة الجهاد فى وادى النيل.. فعمل بالصحافة.. ورشح نفسه فى الانتخابات البرلمانية (١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م).. ثم عمل مديرا للتعليم الأولى.. وشارك فى تأسيس «جمعية الشبان المسلمين» سنة (١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م).. وانتخب وكيلا لها.. كما أسهم فى العمل النقابى.

● أما فى الميدان الفكرى، فلقد كان الشيخ جاويش أحد أعلام علماء مدرسة الإحياء والتجديد، التى ارتاد ميدانها جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ/ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م).. والتى أبدع معالم مشروعها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م).. فلقد حضر جاويش دروس الأستاذ الإمام لتفسير القرآن الكريم - بالرواق العباسى.. بالجامع الأزهر الشريف - كما حضر ندوة الأستاذ الإمام بمنزله - بضاحية عين شمس - وسار على منهاجه فى الاجتهاد والتجديد، كواحد من أنجب تلامذة الأستاذ الإمام - الذى كان يلقبه جاويش «بالحكيم» -

وتميز جاويش - بين أعلام علماء الاجتهاد والتجديد - بجمعه بين «التجديد الفكرى» - الذى تخصص فيه الشيخ محمد عبده - وبين العمل السياسى الإسلامى - الذى قاد نشاطه الزعيم الوطنى الإسلامى مصطفى كامل باشا وحزبه الوطنى.. فكان علما من أعلام تيار الجامعة الإسلامية - فى الفكر.. والسياسة.. والصحافة.. والتربية.. والخطابة.. والجهاد فى معارك الشعوب الإسلامية فى ذلك التاريخ - وبرئ - بذلك - من الفصام النكد الذى وقع بين هذين الفصيلين من فصائل اليقظة الإسلامية الحديثة.

● وغير المقالات - السياسية والتربوية - فى الصحف التى كتب فيها الشيخ عبدالعزيز جاويش - مثل (اللواء) و(القلم) و(الشعب) و(الأخبار) و(الهلال العثمانى) و(الهداية) و(العالم الإسلامى) وغيرها - خلف لنا الشيخ جاويش كتبا خمسة، هى:

١ - (الإسلام دين الفطرة) - وهو من أبدع ما كتب فى تقديم حقائق الإسلام للعقل الحديث والمعاصر.

٢ - (إجابتى على الكنيسة الإنجليكية) الذى ألفه فى لندن.

٣ - (خواطر فى التربية والسياسة وأبحاث عن المرأة المصرية والشئون العامة) - وهو جمع لمقالاته حول هذه القضايا فى صحيفة (اللواء) سنتى (١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م و١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م).

٤ - (غُنية المؤدبين فى الطرق الحديثة للتربية والتعليم).

٥ - (مرشد المترجم).

● وبعد حياة حافلة بكل هذه الألوان من الجهاد الفكرى.. والوطنى.. والإسلامى.. صعدت روح الشيخ عبدالعزيز جاويش إلى بارئها فى فجر يوم الجمعة (١٤ شعبان سنة ١٣٤٧هـ/ ٢٥ يناير سنة ١٩٢٩م) مخلفا ذكريات جهادية.. وصفحات نضالية.. وإسهامات فكرية خالدة لا تموت.

كان الشيخ جاويش واحدا من أنبغ تلاميذ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.. وكان يطلق على أستاذه لقب «الحكيم».

ومع أن الإمام محمد عبده لم يعرض - صراحة وتفصيلا - للتمييز بين السنة التشريعية - التى هى دين وبلاغ وبيان للوحى والرسالة - وغير التشريعية - التى هى رأى واجتهاد فى معايش الدنيا وشئونها - إلا أنه طرق جوهر هذا المبحث فى مواطن عدة.. ومناسبات مختلفة منها عند حديثه عن وظائف الرسل والأنبياء.. وكيف أنهم جاءوا للهداية الدينية.. وتحديد فلسفة التشريع للمعاملات الدنيوية - سياسية واجتماعية واقتصادية - أما تفاصيل المعايش الدنيوية، فإن آراءهم واجتهاداتهم فيها هى «رأى» بابه مفتوح للاجتهادات.. وليس «دينا» واجب الاتباع.. فالملزم فى هذه «الآراء والاجتهادات» النبوية، المتعلقة بجزئيات ومتغيرات المعاش الدنيوى هو «فلسفة التشريع.. ومنظومة القيم والأخلاق.. ومقاصد التشريع الإلهى».

ومن صياغات الأستاذ الإمام - المعبرة عن جوهر المبحث الذى طرقه الإمامان القرافى وولى الله الدهلوى - ما جاء فى (رسالة التوحيد) عن «وظيفة الرسل عليهم السلام».. حيث قال:

«ليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرسين ومعلمى الصناعات، فليس مما جاءوا له تعليم التاريخ، ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب، ولا بيان ما اختلف من حركاتها، ولا ما استكن من طبقات الأرض، ولا مقادير الطول فيها والعرض، ولا ما تحتاج إليه النباتات فى نموها، ولا ما تفتقر إليه الحيوانات فى بقاء أشخاصها وأنواعها، وغير ذلك مما وضعت له العلوم، وتسابقت فى الوصول إلى دقائقه الفهوم، فإن ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة، هدى الله إليه البشر بما أودع فيهم من الإدراك، يزيد فى سعادة المحصلين، ويقضى فيه بالنكد على المقصرين، ولكن كانت سنة الله فى ذلك أن يتبع طريقة التدرج فى الكمال، وقد جاءت شرائع الأنبياء بما يحمل على الإجمال فى السعى، وما يكفل التزامه بالوصول إلى ما أعد الله له الفطر الإنسانية من مراتب الارتقاء»[٢].

«... إن بعثة الرسل هى حاجة من الحاجات الروحية للعقول البشرية.. أما تفاصيل طرق المعيشة، والحذق فى وجوه الكسب، وتطاول شهوات العقل إلى درك ما أُعد للوصول إليه من أسرار العلم؛ فذلك مما لا دخل للرسالات فيه، إلا من وجهة العظة العامة، والإرشاد إلى الاعتدال فيه، وتقرير أن شرط ذلك كله أن لا يُحدث ريبا فى الاعتقاد بأن للكون إلها واحدا قادرا عليما حكيما متصفا بما أوجب الدليل أن يتصف به، وباستواء نسبة الكائنات إليه فى أنها مخلوقة له، وصنع قدرته، وإنما تفاوتها فيما اختص به بعضها

(١) انظر فى ترجمة حياته: خير الدين الزركلى (الأعلام) طبعة بيروت الثالثة. وتقديم الأستاذ فتحى رضوان لكتاب (الإسلام دين الفطرة) طبعة الزهراء - القاهرة سنة (١٩٨٧م). ومجدى سعيد، مقدمة كتاب (الإسلام دين الفطرة) طبعة مكتبة الإسكندرية.

(٢) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) (٣/٤٢٢)، طبعة بيروت سنة (١٩٧٢م)، وطبعة دار الشروق - القاهرة سنة (١٩٩٣م و٢٠٠٦م).

من الكمال، وشرطه أن لا ينال شيء من تلك الأعمال السابقة أحدا من الناس بشر في نفسه أو عرضه أو ماله بغير حق يقتضيه نظام عامة الأمة على ما حدد في شريعتها..»[٣].

وإذا جاز لنا أن نقول: إن الإمام محمد عبده قد كان أول من «أشار» إلى مبحث التمييز بين السنة التشريعية وغير التشريعية في عصرنا الحديث.. فإن تلميذه - الشيخ المجدد عبدالعزيز جاويش - قد كان أول من أفرد لهذا المبحث بابا جعله أصلا من أصول الإسلام.

لقد كان الشيخ جاويش - فيما نحسب - أول علماء عصرنا الحديث الذين أفردوا لهذا المبحث حيزا خاصا.. فعقد في كتابه الفذ (الإسلام دين الفطرة والحرية) فصلا عن «أصول الإسلام».. وفي هذا الفصل تحدث عن تقسيم السنة النبوية إلى ما هو دين وبلاغ.. وإلى ما هو من شئون الدنيا المتروكة «للرأي» و«الاجتهاد» و«الإبداع».. في إطار الهدى الإلهي، والمقاصد الشرعية، ومنظومة القيم والأخلاق.. ولقد كتب - في هذا المقام -:

«الأصل السابع - (من أصول الإسلام) -:

وجوب امتثال ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم شرعا دون ما ذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأي: إن وظيفة الرسل إرشاد العالم إلى طريق النجاح والاستقامة، وإقامة العدل فيهم، وتربيتهم على الأخلاق الفاضلة والشيم الكريمة.. وقد علمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نمتثل كل ما جاء به عن الله، وأنه لا يجب الأخذ بما ورد عنه في أمور الدنيا، ولنأتك بشيء مما ورد في ذلك:

روى مسلم عن موسى بن طلحة عن أبيه قال: مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوم على رءوس النخل، فقال: «ما يصنع هؤلاء؟» فقالوا: يلقحون، يجعلون الذكر في الأنثى، فتلقح، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أظن يغني ذلك شيئا» قالوا: فأخبروا بذلك، فتركوه، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال: «إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فإني إنما ظننت ظنا، فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به، فإني لن أكذب على الله عز وجل».

وروى مسلم أيضا عن رافع بن خديج قال: قدم رسول الله المدينة وهم يؤبرون النخل، فقال: «ما تصنعون؟» قالوا: كنا نلقحه قال: «لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا» فتركوه فنقصت، قال: فذكروا ذلك له، فقال: «إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر».

وروى أيضا عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقوم يلقحون، فقال: «لو لم تفعلوا لصلح».

قال: فخرج شيصا، فمر بهم فقال: «ما لنخلكم؟» قالوا: قلت كذا وكذا، قال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم».

كأني بك ترى ما حكم به النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه، وهو سيد المنصفين، صرح لك الرسول بأنه إنما هو بشر، وأن أهل كل حرفة أو صناعة أدرى بمسائلها وخفاياها من غيرهم، وأن عصمة الرسل إنما تجب فيما إذا بلغوا عن الله شيئا

(٣) المصدر السابق (٣/ ٤٢٠).

من شرائعه ونواهيه.

ومن هنا نعلم أنه لا يجب الأخذ بما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من أمور الدنيا وأحوالها وحرفها وطبها وصنائعها؛ لأن هذا ليس مما يوحى به إليه من الشرع»[٤].

«.. (لكن. لقد) غفل أكثر المفسرين، أو جهلوا الغرض الذي أنزل له هذا الكتاب الكريم، كما كلّت أفهامهم عن إدراك الآيات الناطقة مما يرمي إليه، فقالوا: إن القرآن لم يترك فنًا من الفنون العلمية إلا أتى بشيء من مسائله، فجعلوه كتاب جغرافيا وتاريخ وطبيعة ورياضة وهلم جرا، وادعوا أنه أتى من كل فن بطرف، فحمّلوه من التأويل ما ينبو عنه، ثم ذيلوا آياته بأشياء أملاها عليهم جهلهم، ووسوست لهم بها شياطينهم، فشوهوه وألبسوه غير لباسه، وصبغوه صبغة أبرزت القرآن والدين وصالح المسلمين بما هم براء منه، فكانوا أضر عليهم من العدو المبين...

أعرني سمعك أقص عليك أن المتدبر للقرآن يرى أن النبي صلى الله عليه وسلم ما سئل في شيء مما لم يُبعث لأجله إلا صرف السائل عن قصده، وتلقاه بغير ما يترقب، تنبيها إلى أنه الأولى والأليق بما هو من حدود الرسل ووظائفهم من الهداية والإرشاد وتبليغ الشرائع، ينوه إلى ذلك قوله تعالى:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(الإسراء: ٨٥)

وقوله:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾

(البقرة: ١٨٩)

وقوله:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾

(النازعات: ٤٢ - ٤٥)

فبين الله في هذه الآيات أن وظيفة الرسل الإنذار وتحذير العالم من تلك الساعة التي هي آتية لا ريب فيها، وليس من وظيفتهم تعيين وقتها.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾

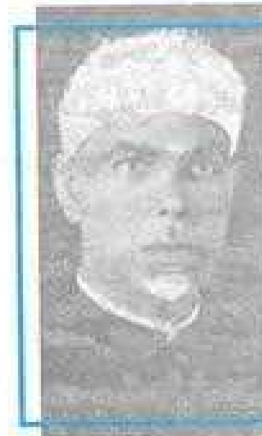
(طه: ١٠٥ - ١٠٧)

تدل هذه الآية - وما سبق - على ما قلناه لك آنفا من أن النبي صلى الله عليه وسلم في إجابته أمثال أولئك السائلين كان يعلمهم ألا يسألوا إلا عما هو من خصيصات الرسالة ومتعلقاتها، رجوعا بهم إلى السنة الفطرية»[٥]

(٤) عبدالعزيز جاويش (الإسلام دين الفطرة) (ص٩٢، ٩٣) تقديم: فتحي رضوان. طبعة الزهراء للإعلام القاهرة سنة (١٩٨٧م).

(٥) المصدر السابق (ص٧٠ - ٧٢). ولمزيد من التفصيل انظر: د. محمد عمارة (حقائق وشبهات السنة النبوية) طبعة دار السلام. القاهرة ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.





للأستاذ الدكتور/ محمد عبدالله دراز

(٢) رأى ابن سينا ونقده:

ننتقل إذن إلى فرق آخر :

يرى ابن سينا أن الدين والفلسفة، مع اشتراكهما فى تعريف «الحق» و«الخير» يختلفان فى مبلغ عنايتهما بهذين الأصلين، ويقول: إن الشريعة الإلهية يستفاد منها مبادىء الحكمة العملية وحدودها على الكمال. أما الحكمة النظرية فإن الشريعة تعنى بمبادئها فقط على سبيل التنبيه، تاركة للقوة العقلية أن تحصلها بالكمال على وجه الحجة(٦).

نقول: هذا الفرق، على عكس الفرق الذى حكاه الفارابى، ينطبق بوضوح على الشريعة الإسلامية، فإنها نبهت على مبادىء الحكمة النظرية تنبيهاً رقيقاً، وبينت الحكمة العملية بكمالها. ولكن هل ينطبق ذلك على سائر الشرائع الإلهية، فضلاً عن الديانات الأخرى؟ كل ما يمكن أن يقال هو أن عناية الأديان فى جملتها بالناحية العملية أشد منها بالناحية النظرية، ولكننا نعرف من مدارس الفلسفة أيضاً ما يغلب عليها ـ أو يكاد يستأثر بها ـ هذا العنصر العملى. فلا يصلح ذلك فارقاً كافياً لتمييز ماهية الدعوة الدينية عن التعاليم الفلسفية بصفة مطردة.

(٣) آراء علماء الغرب:

أما علماء الغرب اليوم فيرون الفرق بين الدين والفلسفة من الوجوه الآتية:

١ ـ مشاكل الفلسفة يُناط حلها بالأفذاذ من ذوى العقول الراجحة، بينما مسائل الدين ـ فى زعمهم ـ تحلها الشعوب والجماهير. قالوا: ولذلك كانت نشأة

(٦) رسالة الطبيعيات لابن سينا (ص ٢ ـ ٣).

الأديان، وحياة واضعيها، والظروف التى ألفت فيها كتبها، غامضة مدفونة فى ظلمات التاريخ، ولا كذلك الآثار الفلسفية.

٢ ـ الدين يرثه الشعب عن أسلافه، والفلسفة يستمدها الفيلسوف من عقله ومن ملاحظاته الشخصية، ولو خالفت العقائد الموروثة.

٣ ـ الفلسفة متجددة، والديانة تميل إلى الثبات وعدم التطور؛ لأن الجماعات لا تقبل أن تغير عقيدتها كل يوم، أو أن تعيد النظر فيها من جديد، ولاسيما إذا كان كتاب العقيدة مفروضاً فيه أنه كلام الرب المعبود.

٤ ـ الديانة لها فى المجمع مكان الصدارة؛ لأن لها الأسبقية وتقادم العهد، الذى مكن لها من الرسوخ فى القلوب، لأنها عقيدة الجمهور، وفى متناول عقليته.

٥ ـ الدين لا يستغنى عن مظهر اجتماعى، فى حفلات يومية، أو سنوية، أو موسمية، يوثق بها الأفراد أواصرهم الطائفية، كما أن الفكرة الدينية بحاجة إلى التجسد فى صُور معينة، ورسوم محددة، يجدّد بها المتدين عهده بعقيدته، التى هى دائماً عُرضة للنسيان، من جراء المشاغل الحيوية المادية، بينما الفلسفة لا حاجة بها إلى هذه المحافل، لأن عقيدة الفيلسوف حاضرة فى نفسه فى غالب الأمر. كما أنها لا يصح أن تتمثل فى رسوم عبادة معينة، لأنه لا شىء من تلك الصور المحددة يفرضه العقل فرضاً، بحيث يكون الخروج عنه شُذوذاً فى التفكير، ولو التزم الفيلسوف شيئاً من هذه الأوضاع الخاصة، وجعله شعاراً لفلسفته، لخرج إلى ضرب من الهزل والمجون، حرىٌ أن يسخر منه.

٦ ـ الديانة تعيش بسلطان ونفوذ كنفوذ الدولة، والفلسفة لا تعيش إلا فى جو الحرية.

(٤) مناقشة هذه الآراء:

الناظر فى هذه الفروق يرى أنها فى جملتها لا تصور الديانة والفلسفة فى كل الأدوار التى مرت بهما، بل تصفهما فى حالتهما الحاضرة، وفى أوروبا المسيحية على وجه أخص، فهى تصور لنا الأديان الموروثة عن السلف فى حالة استقرارها وثباتها، بعد أن أصبحت عقيدة للجمهور، وصارت جزءاً من تاريخه، يحف بها جلال الماضى، ويحوطها سلطان الكنيسة، وقد بعد عهدها بتاريخ نشأتها الغامض. ثم تصور لنا الفلسفة بازغة فى عقل الفيلسوف، مطبوعة بطابع عقله ونزعاته وأحاسيسه، طليقة من كل قيد، تستطيع أن تلبس كل يوم ثوبا جديداً.

ولا ريب أننا حين نعقد المقارنة هكذا فى ملابسات متباينة، نحصل على صورتين متفاوتتين: فالديانات تبدو لنا فى مظهرها الاجتماعى المستقر، والفلسفة فى طابعها الفردى الحر المتجدد. وهكذا يصدق القول بأن «الديانة» هى فلسفة الشعوب والجماهير وأن «الفلسفة هى ديانة الأفذاذ الممتازين».

أما إذا عدنا بالديانات إلى عصور نشأتها، أو عصور تجديدها وإصلاحها، فإنها تبدو لنا هى أيضا وهى تحمل أعلاماً شخصية: موسى، أو بوذا، أو عيسى، أو مانى، أو محمداً، أو لوثر، أو عبدالوهاب، أو غيرهم، حتى الديانات الوثنية لم تعدم زعماء وضعوا أساسها، أو وسعوا بنيانها، إما بالتفنن والاختراع، وإما بجلب «تماثيل الآلهة» من رحلاتهم فى مختلف الأقطار، كما يحدثنا التاريخ عن بعضهم.

وليس جهل الشعب بحياة مؤسس ديانته دليلاً على أن هذه الديانة فى نشأتها كانت من وضع الشعب فى الجيل نفسه أو فى جيل سابق. وكل ما فى الأمر أنها ميراث جهلوا مورثه. نعم إن هذه التركة قد يكون

أصابها على مر العصور شيء قليل أو كثير من التحول والتطور. حتي أصبحت في وضعها الأخير أثراً مشتركاً، وثوباً مرقعاً، ينتسب إلي أكثر من فرد واحد، وتقبله الشعب هكذا على علاته، ولكننا متى ارتقينا بهذا الميراث الشعبي من عصر إلي عصر، حتى نصل إلي عهد نشأته، لابد أن نصل إلي مبدأ لا يكون هو الشعب في جملته ولا جماعة من الشعب. وإلا فليجيئونا بمثال تاريخي واحد، اجتمع فيه شعب من الشعوب أو طائفة من رؤسائه، فتواضعوا فيما بينهم على ابتكار منظمة دينية جديدة، يخلقون عقائدها وعباداتها جملة وتفصيلا، من غير أن يكون بين أيديهم أثر يأثرونه عن سلفهم، ولا كتاب يدرسونه ويجتهدون في فهمه وتأويله، منسوب إلي فلان أو فلان.

على أن غموض تاريخ مؤسسي الديانات، وعدم تحديد العصور والملابسات التي ظهرت فيها كتبهم، ليس قاعدة عامة، فهذا تاريخ الإسلام ونبيه وكتابه غض طري، كأنه ولد أمس، وعلماء أوروبا يعترفون بذلك ويعلنونه في إنصاف وصراحة، غير أنهم يعدونه استثناء من قاعدة الأديان. لكن الحقيقة أن القدر الذي يصح عده استثنائياً في الإسلام من هذه الناحية هو درجة الوضوح التاريخي ومتانة الأسانيد المتصلة لكتابه في جملته وتفصيله. أما الوجود التاريخي لزعماء الأديان ومجمل دعوتهم، فهذا قدر مشترك بينه وبين كثير من الملل. حتى لو سلمنا أنه استثناء، فقد أصبح الفارق الذي يزعمونه بين نشأة الدين ونشأة الفلسفة غير صحيح على عمومه.

وكما أن الديانات بعد تأسيسها تميل إلي الثبات والاستقرار بين الشعوب حتى يكون فيها مجددون أو مصلحون، فكذلك تعليم الفلسفة، ومقررات العلوم، حتى الرياضيات والطبيعيات نفسها، مالت إلي الركود في كثير من القرون. والتجديد في كلا الميدانين يلاقي مناهضة شديدة. وكم من الاختراعات والاكتشافات الحديثة عدت جنوناً من مُدعيها حتى في الأوساط السياسية والعلمية.

أما حديث المظاهر الاجتماعية في شعائر العبادة، فإنه ينطبق حقيقة على الأديان العامة التي استكملت عناصرها وفروعها؛ ولكنه لا ينطبق على الأديان الفردية، التي لا تعدو أن تكون وجداناً غامضاً أو عقيدة مبهمة تتجمجم في الصدر، ولا يحسن صاحبها التعبير عنها بشعار خاص. وقد رأينا مثلاً من ذلك في أديان الحنفاء؛ ولانزال نري أمثالهم في كل أمة من ذوي الفطر السليمة، الذي لم تصل إليهم تعاليم الأديان الصحيحة، ولم يعجبهم ما في بيئتهم من العقائد الزائغة، والعوائد المنحرفة، ولكنهم في الوقت نفسه لم يصلوا إلي تحديد وضع معين يتخذونه شعارا لعقيدتهم. فهؤلاء غرباء في قومهم، لا يجد الواحد منهم في نفسه حافزاً على الاجتماع بغيره - لأن كل واحد منهم أمة وحده - فضلاً عن أن يتفقوا بعد ذلك علي نشيد واحد وحركات واحدة يجعلونها شعاراً ظاهراً لعقيدتهم. بل نقول إن حديث الشعائر والمظاهر لا ينطبق على كل الأديان الشعبية، فهذه البوذية الأولى يقولون إنها لم تكن تعرف إلا العزلة التامة والتفكير العميق، بعيداً عن كل الرسوم والأوضاع العملية. وعلى نقيض ذلك رأينا بعض الفلاسفة (مثل أوجست كونت). يجهزون مذاهبهم الفلسفية بكافة النظم والشعائر المعروفة في الديانة المعاصرة لهم. وهكذا نرى التفرقة المذكورة لا تستقيم طرداً ولا عكساً.

(٥) رأينا في حقيقة الفرق بين الدين والفلسفة:

بقيت التفرقة بين الدين والفلسفة بأن الفلسفة لا تعيش إلا في جو الحرية، وأن الدين لا يقوم إلا على السلطان والنفوذ. فهذا قول سديد في الجملة لا على الإطلاق؛ وهو، إذا استفصل عن معناه، يفتح أمامنا الباب لتقرير الفروق الصحيحة بين هاتين الحقيقتين:

ذلك أنه إن كان المقصود قيام الدين دائماً على سلطان الدولة ونفوذها، فهي دعوى باطلة، إذ أننا نعرف ديانات كثيرة عاشت ونمت في ظل الرفق والتسامح، بعيداً عن كل حكم وسيطرة. والبوذية أوضح مثال على ذلك، بل المسيحية والإسلام، في أول عهدهما على الأقل، قاما على احترام حرية الضمير، وعدم الإكراه في الدين. كما أننا نعرف عهوداً تطاولت فيها الفلسفة إلي مقام الحكم، وتسلحت لمطاردة أعدائها وإخضاعهم.

وإن كان المقصود اعتماد الدين على السلطان الأدبي للمجتمع، بمعنى أن الحياة الاجتماعية من شأنها أن تطبع الأفراد بطابع واحد، وأن تجعل منهم وحدة متجانسة التفكير، متشاكلة العوائد والعقائد، بحيث يعد الشاذ عنها مذموماً منبوذاً، فهذا إن صح، إلي حد ما، في الجماعات «البدائية» المحصورة في نطاق ضيق، لا يسري حكمه على سائر المجتمعات: فنحن نرى الأمم والشعوب في كل عصر تضم تحت أجنحتها العقائد المختلفة، والنظم المتفاوتة، ولا يحول ذلك دون تعاون الجميع في مرافق الحياة العامة، وتساندهم في الواجب الوطني المشترك.

أما إذا كان المقصود سلطان العقيدة علي نفوس معتنقيها أنفسهم، فلا ريب ان هذه ميزة تستأثر بها الديانات؛ وليس للفلسفة أن تطمح إلي نيلها، وإلا لجاوزت طورها، وتناقضت في نفسها، لأن حقيقة الفلسفة هي «محبة الحكمة» أو «الرغبة في المعرفة»، ووظيفتها البحث عن الحقيقة بقدر الطاقة البشرية، وعرض ما تظفر به من جوانب تلك الحقيقة، والفيلسوف هو أول من يعرف قُصور العقل البشري، وقُصور كل ما هو إنساني، عن درجة الكمال. ولذلك كان التسامح والتواضع العلمي من أظهر خصائصه، وهذا سقراط يضرب لنا أروع الأمثال في ذلك، حين يقول: «الشيء الذي لا أزال أعلمه جيداً هو أنني لست أعلم شيئاً» أما الفكرة الدينية فإنها، في مختلف مظاهرها ودرجاتها، تفترض أن ما تقرره في شأن من الشئون مستمد من سر الوجود، وأنه يمثل حقيقة الأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر. فهي بطبيعتها ملزمة، تقتضي من صاحبها الخضوع والتسليم ولا تقبل منه في حكمها جدالاً ولا مناقضة بل لا تبيح له في نفسها بحثاً ولا ترديداً. فإن فعل ذلك في مسألة ما، كان في هذه المسألة بعينها متفلسفاً غير متدين، حتى يستقر فيها على رأي معين ويدين به، فهنالك لا يقبل فيه مساومة ولا يستطيع منه تحللاً. إذ يصبح عقيدة يخلص لها إخلاصاً خارقاً للعادة، حتى لا يبالي أن يضحي في سبيلها بحياته. ولا نكاد نجد هذا السلطان على النفس لفكرة أخرى: علمية، أو سياسية، أو غيرها.

فإذا أردنا البحث عن السر في هذه الظاهرة العجيبة، فإننا نجده لو أمعنا النظر في الفرق بين حقيقة المعرفة وحقيقة الإيمان، وفي الفرق بين القوة النفسية التي تقوم بوظيفة المعرفة. والقوة النفسية التي تقوم بوظيفة الإيمان، فالواحد من الناس قد يدرك معنى الجوع والعطش، وهو غير محس بآلامها، وقد يفهم معنى الحب والشوق، وليس من أهلهما، وقد يرى الأثر الفني البارع فيفهم أسراره، ويقف علي دقائق صنعه، ولكنه لا يتذوقه، ولا يتملك قلبه الإعجاب به،

وقد يُعرف لفلان فضل عقل أو حزم، أو أدب أو سياسة، أو أولئك جميعاً. ولا يشعر نحوه بعاطفة ولاء، ولا رابطة مودة، بل يكاد يغص فؤاده بهذه الفضائل حقداً وحسداً، ويكاد ينكر قلبه ما تراه عيناه. هذه كلها ضُروب من العلم والمعرفة يهديها إلينا الحس، أو الفكر، أو البديهة، أو الحدس، فتلاحظها النفس وكأنها غريبة عنها، أو تمر بها عابرة فتمسها مساً جانبياً لا يبلغ إلى قراراتها، أو تختزنها وتدخرها، ولكنها لا تهضمها ولا تتمثلها، كل حالة نفسية تقف بالأفكار والمبادىء عند هذه المراحل ليست من الإيمان في قليل ولا كثير، الإيمان معرفة تتجاوب أصداؤها في أعماق الضمير، وتخلط مادتها بشغاف القلوب فلا يجد الصدر منها شيئاً من الضيق والحرج، بل تحس النفس فيها ببرد وثلج. إن الإيمان تذوق ووجدان يحمل الفكرة في سماء العقل إلي قرارة القلب، فيجعلها للنفس رِيا وغذاء يدخل في كيانها. ويصبح عنصراً من عناصر حياتها. فإذا كان موضوع الإيمان الحقيقة الكبرى، والمثل الأعلى، فهنالك تتحول الفكرة قوة دافعة، فعالة، خلاقة، ولا يقف في سبيلها شيء في الكون إلا استهانت به حتى تبلغ هدفها.

ذلك هو فصل ما بين الفلسفة والدين. غاية الفلسفة المعرفة؛ وغاية الدين الإيمان. مطلب الفلسفة فكرة جافة، ترتسم في صورة جامدة؛ ومطلب الدين روح وثابة، وقوة محركة.

لا نقول كما يقول كثير من الناس إن الفلسفة تخاطب العقول، وإن الدين يخاطب القلوب ويستوى المشاعر، غير مبال بمبادىء المنطق وقواعد العلم.

أو كما قال القديس أوغسطين st. Augustin: «أومن بهذا لأنه لا محال» (quia credo absurdom) فذلك وصف لا ينطبق على كل الأديان، ولكنا نقول إن الدين في كل أوضاعه لا يقنع بعمل العقل قليلاً أو كثيراً حتي يضم إليه رُكون القلب.

الفلسفة تعمل إذاً في جانب من جوانب النفس، والدين يستحوذ عليها في جملتها. الفلسفة ملاحظة، وتحليل، وتركيب، فهي صناعة تقطع أوصال الحقيقة وتزهق روحها، ثم تؤلف بينها لتعرضها من جديد في نسق صناعي على مرآة الفطنة، فتنطبع علي سطح النفس قشرة يابسة. أما الدين فهو حداء ونشيد يحمل الحقيقة جملة، فيعبر بها هذه القشرة السطحية، لينفذ منها إلى أعماق القلوب وأغوارها، فتعطيها النفس كليتها، وتملكها زمامها.

ومن هنا يستنبط فرق دقيق بين الفلسفة والدين:

ذلك أن غاية الفلسفة نظرية، حتى في قسمها العملي، وغاية الدين عملية، حتى في جانبه العلمي. فأقصى مطالب الفلسفة أن تعرفنا الحق والخير ما هما؟ وأين هما؟ ولا يعنيها بعد ذلك موقفنا من الحق الذى نعرفه، والخير الذى نحدده. أما الدين فيعرفنا الحق لا لنعرفه فحسب، بل لنؤمن به ونحبه ونمجده، ويعرفنا الواجب لنؤديه ونوفيه، ونكمل نفوسنا بتحقيقه.

وأول الآثار العملية للفكرة الدينية هو لفتها شعور المتدين إلي صلة بينه وبين الحقيقة العليا التي يدين لها، وهي صلة تقوم في جوهرها على معنى الإلزام والالتزام الأدبي بينهما. على حين أن الفلسفة من حيث هي فلسفة (أعني من حيث هى صناعة عقلية، مستقلة عن التصوف والمعاني الوجدانية) تستطيع أن تعيش من غير اعتراف بهذه الصلة. ذلك أن غاية الفيلسوف من ربطه المسببات بأسبابها هو فهمه للأشياء على وجه منطقي معقول، بحيث يأخذ كل حد منها موضعه اللائق به. فالقوة العليا التي يضعها الفيلسوف على رأس الحوادث الكونية يكفي فيها أن يكون شأنها في الكون شأن الصانع في تدبير صنعته، أو الربان في قيادة سفينته، وهي كما ترى صلة آلية خارجية، لا يتبادل فيها الخطاب، ولا تتناجى فيها الأرواح، ولا يتجه فيها العبد إلى الرب بالمحبة والتبجيل، والخشية والتأميل، وما إلى ذلك من المعاني التي لا يتحقق مفهوم الدين من دونها، إذ الدين ليس إيماناً ومعرفة فحسب، بل هو فوق تلك التفات روحي متبادل، هو رباط من الطاعة والولاء، ومن الحَدْب والرعاية، بين المتدين وبين الحقيقة العلوية التي يؤمن بها.

ومن هنا تعرف السر في اتفاق مؤرخي الأديان على أن المذهب الذى اشتهر في القرن الثامن عشر باسم «الديانة الطبيعية» والذى يتلخص في الاعتراف بثلاثة أركان: «وجود إله خالق، وخلود الروح، وسلطان الواجب الأخلاقي» ليس في الحقيقة ديناً. ولم يكن يوماً ما ديناً من الأديان، بل هو نوع من الفلسفة الجافة، ينقصه قيام هذه الصلة الروحية بين الخلق والخالق، ليستحق اسم الدين.

والمظهر الثاني من المظاهر العملية للفكرة الدينية هو ميلها إلى التدفق في الميدان الاجتماعي. ذلك أن طبيعة العقيدة كريمة فياضة، تنزع دائماً إلى الانتشار وطلب المشاركة، وتهز صاحبها إلى تحقيق أهدافها بالنشر والدعوة. بينما الفكرة العلمية أو الفلسفة تميل - ككل ثروة إنسانية - إلى الاحتجاز والاحتكار والاستئثار، أو على الأقل لا تسعى بطبعها لهذا التوسع، ولا يعنيها أن تصبح في متناول الجمهور، ولعلنا لا نسيء التعبير إذا قلنا إن الاختلاف بين هاتين الطبيعتين كالاختلاف بين الديمقراطية والأرستقراطية، فإذا رأينا فيلسوفاً يدعو إلى مذهبه، ويحمل الناس علي اعتناق رأيه، علمنا أن فكرته قد أصبحت إيماناً، وأنه قد خلع ثوب الفيلسوف ليحمل أعباء الأنبياء والمرسلين، وإذا رأينا متديناً ينطوى على نفسه، ولا يبالى بما يجرى حوله من ضلال في الرأى، أو فساد في العمل، كان لنا أن نحكم بأن نار إيمانه قد استحالت رماداً، أو أنها قد كمنت تحت أكداس من الرماد.

هذه كلها وجوه من النظر يستبين بها حدود ما بين الفلسفة وبين الأديان بوجه عام.

فإذا انتقلنا إلي المقارنة بين الفلسفة وبين الأديان السماوية بخصوصها، فإننا نظفر فوق ذلك كله بعنصر جديد، به يتم الفصل بين هاتين الحقيقتين.

ذلك أن الفلسفة في كل عصورها «عمل إنساني» يتحكم فيه كل ما في طبيعة الإنسان من قيود وحدود، وتدرج ببطء في الوصول إلى المجهول، وقابلية للتغير والتحول، وتقلب بين الهدى والضلال، واقتراب أو ابتعاد عن درجة الكمال.

أما الأديان السماوية فإنها «صنعة إلهية» لها كل ما للإلهيات من ثبات الحق الذى لا تبديل لكلماته، وصرامة الصدق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم هي فوق ذلك «منحة كريمة» تصل إلى حامليها وسفرائها عفواً بلا كدح ولا نصب، وتغمرهم بنورها في فترات خاطفة، كلمح البصر أو هو أقرب.

فإذا انفردت الفلسفة في حكم لم يؤمن عليها العثار، وإذا التقى العقل والوحي على أمر فقد اتصلت مشاعل الليل بضوء النهار

﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾

(النور: ٣٥)

يتبع

الوضع القانونى بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعى





للمستشار: طارق البشرى

٤

رابعا: القانون والمؤسسات الاجتماعية:

يذكر د. جمال مرسى بدر أن الشرق هرع فى القرن التاسع عشر إلى المدنية الغربية «يغرف منها بلا وعى..» وكان للقانون نصيب من ذلك وذكر أن «التنظيمات» كانت مجرد ثوب غربى مستعار على جسم دولة شرقية صميمة .

وفى ندوة سابقة، استوقفنا د. أحمد صدقى الدجانى، عند عبارة للدكتور أحمد عزت عبدالكريم، تشير إلى أن النظام الإدارى الدقيق الحديث فى مصر، قد أفقد المصريين شيئا ثمينا، هو تكتلهم فى طوائف وهيئات لها قدر من الحرية والحكم الذاتى والقدرة على الصمود لألوان العسف والإرهاق، وأنه لو كان التنظيم الحكومى الجديد قد أفسح لهذه التكتلات، «لكان من ذلك أساس طيب تبنى عليه الدولة نظام الحكم الذاتى والحياة النيابية الشورية لا يكون مستمدا من الغرب ونظمه، وإنما يجىء نابعا من كيان الشعب وتطوره التاريخى على نحو ما عرفته النظم الأوروبية فى نموها»(٢).

ويشير الأستاذ «هولتى» إلى الظاهرة نفسها فى الدولة العثمانية، فيقول: إن أثر التغيرات التى تراكمت فى الفترة من عام ١٨٢٦ ـ عندما صفيت الإنكشارية ـ إلى عام ١٨٧٦،

---

(١) جمال مرسى بدر: «عن توحيد القوانين العربية» ورقة قدمت إلى مؤتمر اتحاد المحامين العرب ٢ القاهرة، ٣ ـ ٨ من مارس عام ١٩٥٦ كتاب المؤتمر الثانى للمحامين العرب المنعقد فى القاهرة فى ٣ من مارس عام ١٩٥٦ ـ ٨ من مارس عام ١٩٥٦. القاهرة: نقابة المحامين عام ١٩٥٦.

(٢) أحمد صدقى الدجانى: «تطور مفاهيم الديمقراطية فى الفكر العربى الحديث» ورقة قدمت إلى: ندوة أزمة الديمقراطية فى الوطن العربى، ليماسول، ٢٦ ـ ٣٠ نوفمبر عام ١٩٨٣ شارك فيها سعد الدين إبراهيم.... (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، عام ١٩٨٤) انظر أيضا: عادل حسين: «المحددات التاريخية والاجتماعية للديمقراطية» ورقة قدمت إلى المصدر نفسه، وهى دراسة تتضمن أفكارا مهمة بالنسبة لهذه النقطة الواردة فى المتن، والخاصة بالتركيب والتوظيف الاجتماعى المتبادل للمؤسسات المختلفة وأرجو الرجوع إليها لأنه يصعب تلخيصها.

عندما تولى عبدالحميد الثانى الحكم، وهى فترة «التنظيمات»، جعل حكم السلطان أكثر انطلاقا مما كان حتى فى ذروة العهد التقليدى للإمبراطورية العثمانية، لأن إبادة الانكشارية قضت على جماعات القوى التى كانت تحد من استبداد السلطان، وضعف العلماء أزال الحدود المفروضة على سلطته(٣).

وإذا أمكننا تذكر أن بعضا من هذه التنظيمات إنما قصد به تقييد السلطة المطلقة للحكم، لانكشف أمامنا كيف يمكن أن يؤدى استيراد نمط تنظيمى أو فكرى من بيئة مختلفة إلى عكس النتائج المرجوة منه، والتى كانت مقصودة أصلا من استيراده وثمة أمثلة ـ يمنع من الإفاضة فيها ضيق المقام ـ تظهر أن بعض ما قصد باستيراده الإصلاح والقوة، قد آل فى التطبيق وفى تفاعله مع البيئة المغايرة إلى الفساد والضعف.

بين العقائد السائدة والأبنية التنظيمية ونظم تبادل الحقوق والواجبات وكان من الوحدات الاجتماعية ذات الوظائف المتبادلة فى هذا الميدان، الأسرة الممتدة والقرية والحارة والنقابة والحرفة والجامع والطريقة، وهى متدرجة بين العموم والخصوص أو الصعود والهبوط، وفقا لتصنيفات تقوم على أساس الوحدات القرابية والجغرافية والمهنية.

ولكل منها انعكاساته وترابطاته مع العلاقات القانونية والمراكز والأوضاع وعلى سبيل المثال، نجد أن أحكام الميراث تترابط مع علاقات التضامن فى الأسرة الممتدة، وكذلك الأوضاع الخاصة بنفقة الأقارب ونجد لعلاقة الجوار مثلا نوع أولوية حقوقية تتمثل فى الشفعة والارتفاقات، ثم نجد كل ذلك يترابط مع مجموعات من المبادئ والقيم السلوكية وهكذا.

ثم إن النظم الوافدة ـ ومنها التنظيمات القانونية والحقوقية ـ ساهمت فى تفكيك هذه

---

(3) Peter Malcom: Holy and the Fertile Crescent. 1516-1922: A Political History (24) London: longman 1966). p. 172

الأواصر، ونثرت الناس أفرادا، وضربت ما يمكن أن نسميه «بالجامعية»، وعملت على إذابة شعور كل من هذه الجماعات بذاتها، وشعور الفرد بارتباطه بها وانتمائه لها وكان ذلك بأسماء، منها: الحداثة، والترشيد، والديمقراطية. وكل هذه الأسماء ذات مدلولات صحيحة من حيث إنها كانت غايات يتعين أن نتغياها، ولكنها جاءت فى صورة مبتورة من بيئة أجنبية ومن سياق مختلف، ومفروضة فى هياكلها على أنساق غير متآلفة معها لا أنسى تصوير ستانلى لين بول لشارع القلعة فى كتابه قصة القاهرة شق الشارع فى عهد الخديو إسماعيل الطريق مستقيم يصل ميدان العتبة بميدان القلعة، فكان كالسكين المغمود فى الجسد، قطع البيوت والأبنية أنصافا وأثلاثا وأشطارا بغاية هى تجمل القاهرة. وهو الآن - بعد أكثر من قرن من الزمان - من أقبح ما تسقط عليه عين فى القاهرة، يمثل جرحا شائها وغائرا وشبيه بذلك - فى ظنى - ما أتت به النظم الوافدة من تشكيلات، جرت كطعنة السكين فى الجسم الاجتماعى الحى بما يشمل من مؤسسات وهيئات وعلاقات.

نمت السلطة المركزية، وتدعمت، وصارت طليقة مما كان من شأنه - لو أصلح - أن يحد من إطلاقها، من هيئات وكيانات جامعية متسلسلة ومتدرجة، تحوطها أنساق من القيم والقواعد القانونية والأخلاقية وعبثا نحاول - من عشرات السنين إلى اليوم - أن نبنى «جامعيات» ومحليات تحد من إطلاق السلطة المركزية، وتساعد فى حمل العبء الضخم الذى تنوء به. ولا أظن أن نجاحنا فى ذلك قد بلغ حد الاطمئنان إلى صواب ما نصنع، أو صار مدعاة للتفاؤل فمثلا، نحن بضيقنا تفتت الملكية الزراعية مما يعوق الإنتاج الزراعى، ويحد من إمكان استخدام الميكنة وفى بلادنا محاولات شتى للتجمع الزراعى والتسيير الذاتى لا إخال أنها نجحت، بل صادفت صدودا مبعثه الخوف من «الشيوعية» والخوف على «الملكية الفردية»، كما أنها زادت من نفوذ السلطة المركزية فى العملية الزراعية وكذلك الحركة التعاونية، صارت فى حقيقتها واجهات مؤسسات للسلطة المركزية، فزادتها قوة ونفوذا ويبدو لى أنه كان فى «الأسرة الممتدة» كوحدة اجتماعية، وفى الشيوع كنظام قانونى يتسق معها، كان فى ذلك ما يصلح أساسا لبلوغ ما يمكن أن يستهدف فى هذا المجال.

نحن اليوم لا نجد جامعا يجمع سكان العمارة برغم أن حائطا واحدا يضمهم جميعا، بمثل ما كان الجامع يقوم بين سكان الحارة برغم انفصال المساكن وهكذا، استحال الوضع إلى سلطة مركزية مفردة، ثم أفراد متناثرين وهذا كفيل بخفوت خاصة الرشد التى كانت متوخاة من الإصلاحات الوافدة ونحن لم ننجح إلى اليوم فى تكوين حركة نقابية عمالية قوية، يشعر عمال المهنة أو الحرفة بالانتماء لها والمحاولات ضعيفة، والنمو بطىء ومبتسر، ولا يقارن هذا الوضع بما كانت عليه الطوائف والنقابات القديمة من حيث الترابط والقدرة على التحريك كان ثمة ظلم واستغلال، ولكن الظلم والاستغلال

يواجهان بالثورة من أجل العدل، ولا يكون علاجهما أبدا بأن تصفى الجماعة كجماعة ثم، هل يمكننا - بعد تجارب عشرات السنين - أن نقول إننا بما صنعنا أو صنع معنا، قد أزحنا الظلم والاستغلال وأحللنا الأخوة والعدالة والمساواة محلهما؟! وحتى بالنسبة لرشد الإدارة، هل أقمناه حققناه؟! نحن نقر جميعا بما تنوء به السلطة المركزية من أعباء ثقال، ونقول إن الحل فى اللامركزية، فهل حققناها برغم كل الكيانات المحلية التى شيدت؟!

إن قيام السلطة المركزية كتنظيم شبه وحيد، سهل به على الحكم الأجنبى أن يسيطر على المجتمع، وأضعف ما تواجه سياسته من مقاومة وهذا أمر مفهوم ومقصود من السياسة الأجنبية، لدعم سيطرتها على المجتمعات المغزوة ولكنه من حيث الصالح الوطنى، قضى على كل المؤسسات والكيانات التى يمكن لدولة الاستقلال الوطنى من بعد أن تعتمد عليها فى انفاذ سياساتها فصار تحقيق أى مشروع للنهوض الوطنى - تجربه دول الاستقلال الوطنى - يستند فى تنفيذه إلى جهازها القابض المنفرد شبه الوحيد، سواء فى التعليم أو الصحة أو تسيير المرافق - أو التصنيع أو السياسات الزراعية وجهدت دول الاستقلال الوطنى فى إنشاء مؤسسات محلية أو شعبية معاونة، فلم تعد أن تكون بعضا من أجهزتها القابضة وراء تضخم العبء البيروقراطى، وامتدت فروعه فى كل مكان، وانعكس ذلك على التنظيمات القانونية فى كل المجالات.

وعلى سبيل المثال، فإن نظرة لمثل قوانين


الخديو إسماعيل

الضرائب والتأمينات الاجتماعية تكشف إلى أى حد جرت فى التعقيد والتشعب الإمعان فى تفصيل التفصيلات، لأن القانون صار موجها إلى جهاز واحد ينفذه، وعليه أن يضبط أحكامه من حيث الإمكانية المالية المقبوضة أو المصروفة، مع ملاحظة اعتبارات العدالة فى التوزيع بين أفراد تختلف أوضاعهم وظروفهم، ومع ملاحقة الوجوه المتنوعة للتهرب والتحايل على الجهاز الوحيد، فتزداد الأوضاع تعقيدا، وتوضع القواعد، ثم توضع الاستثناءات عليها، ثم ترد الإجراءات البالغة التعقيد. وكل ذلك تزيد به المنازعات، فتنشأ أجهزة للتظلم من الإجراءات، وتتعدد درجاتها، ثم تزداد المنازعات أمام المحاكم بدرجاتها المختلفة. ثم تتداعى التعديلات القانونية، لسد فجوة أو وقف تحايل أو تدارك خلل أو ظلم وقع بفئة شعبية، فتزداد النصوص تعقيدا وتشعبا وهكذا. ويزداد العبء على المحاكم، فيضعف نصيب كل حالة من الدراسة المتأنية، فيتعدل نظام المحاكم، وتتعدل القوانين.

صار القانون خارجيا تجربه سلطة وحيدة فى مواجهة أفراد، واغتربت السلطة عن الجمهور، فلم يعد قانونها نظاما وأحكاما ومعيشة يتحاكم الناس بها بين بعضهم وبعض من خلال علاقاتهم المباشرة وروابطهم الإنسانية الحية، وبواسطة الكيانات الجمعية

التى تضمهم بالشعور بالانتماء وبالترابط الإنسانى، بحيث لا يكون على السلطة المركزية إلا أن تقوم بضبط الإيقاع. وصارت علاقة الفرد بالفرد تتشكل من خلال أحكام مفروضة عليهما من خارجهما، وموكل مراقبة تنفيذها لأجهزة مضروبة عليهم من عل، لا يتعايشون معها بالإدراك الجمعى. إنه لا يكفى أن يسن القانون بطريقة ديمقراطية، أى بأسلوب جماعى أو نيابى، إنما يتعين أن يسرى بين الناس وفيهم مسرى العلاقات الحية التى تقوم بينهم. وهنا نلحظ ما يكون للقرارات التى تصدر بين المتنازعين فى «المجالس العرفية» (يسميها العامة فى مصر مجالس عرب، وتجرى أحيانا فى القرى) من قوة إلزام بين ذويها، برغم أنها لا تعتمد على سلطان الدولة القاهر، وتحقيق الأنزعة فيها يجرى بالتعامل المباشر مع العلاقات الحية، وإدراك الصواب بهذا يكون أيسر، وقوتها التنفيذية ترد من التوقير الذى يحوطها فى البيئة الاجتماعية، وبإملاء الضغوط الجمعية. وكل ذلك يجرى فى وقت أقل، وبنفقة أقل كثيرا مما تقوم به جهات الأحكام المركزية ، خاصة أن الأوضاع الحديثة ألقت على السلطة المركزية مزيداً من المسئوليات، كالتخطيط والتنمية وغيرهما. ولكن القصد أن هذه الكيانات المحلية كان من شأنها أن تخفف الكثير من مشكلات التنفيذ وإنشاء المرافق ووحدات الإنتاج والتوزيع المحلية.. إلخ.

خامساً: القانون والأخلاق:

والنقطة التالية تتعلق بصلة القانون بقواعد الأخلاق، إذ الحادث اليوم، أن ثمة انفصالا بين النظام القانونى وبين النسق الأخلاقى. والأول فى اسمه وضعى يعتمد على شرعية وافدة من الخارج، والثانى مستمر ومرتبط بالدين. وإن جزءا من الانفصال الحادث فى المجتمع والفرد اليوم، أن المرء يحتكم فى معاملاته إلى غير ما يحتكم إليه فى سلوكياته من حيث الأصل المرجوع إليه، ومن حيث معايير الشرعية والاحتكام، ووهنت العلائق بين ما هو محظور تعاملا وقانونا، وبين ما هو مشين سلوكًا وأخلاقًا.

ومن المعروف، أن دائرتى القانون والأخلاق غير متطابقتين، والتميز بينهما يرد من أن الجزاء القانونى يرجع إلى سلطان الدولة، بينما الجزاء الخلقى جزاء أدبى يتعلق بازدراء الجماعة للفعل المشين. ويغلب على المقاييس القانونية أنها ظاهرية تتعلق بالسلوك الخارجى فى الأساس، بينما يغلب على المقاييس الأخلاقية أنها باطنية تتعلق بالضمير وترجع للعقيدة الدينية، مع مراعاة أن ثمة تداخلا فى هذا الأمر، عندما يتصل الحكم القانونى على الفعل بعنصر «القصد والنية»، أو عندما يتصل الحكم الأخلاقى بالموقف العملى. وترد وجوه التميز بين الدائرتين من عدة وجوه، منها أن القانون يراعى فى النتائج التى يرتبها على الفعل جانبا آخر غير جانب

(٤) من البديهى أن الحديث السابق لا يعنى أن هذه المؤسسات المحلية او الثانوية هى البديل عن السلطة المركزية كسلطة تقرير وتوجيه.

الخطأ المرتكب، مثل استقرار المعاملات مثلا، أو حجم الضر الناتج عن الفعل. كما أن الجزاء القانونى المادى يوجب التحوط فى توقيعه، ويشترط لذلك ضبط الحكم بحسبان أن تبرئة المسئ أخف من مجازاة البرئ. ثم إن القانون قد يستحسن ترك بعض الأخطاء دون ترتيب جزاء مادى على ارتكابها، لما يقدره من أن الجزاء فى هذه الصورة قد يفضى إلى شرور أخرى يحسن تلافيها، بمعنى أنه قد يسكت على سوء أخلاقى، تفاديا لما قد يرتبه الجزاء من سوء أخلاقى آخر. وهناك جزاءات يرتبها القانون على أفعال إيجابية أو سلبية لا تمس دائرة الأخلاق، كالآثار القانونية التى يرتبها على فوات مواعيد معينة، أو على أفعال قد لا تمس المصالح العامة أو الخاصة إلا بطريق غير مباشر أو من باب سد الذرائع أو فتحها. كل هذا معروف.

ولكن المعروف أيضًا، أن دائرتى القانونى والأخلاق متداخلتان تداخلا كبيرا.

ويذكر الدكتور على بدوى - عميد الحقوق الأسبق (بجامعة القاهرة) - أن تشابههما يجئ مما يحدثه اتباعهما من النظام والاطراد فى الحياة الاجتماعية، وفيما تحويه قواعدهما من معنى السلطان على النفوس، وفيما يترتب على عصيانهما من حدوث جزاء ما، مادى أو معنوى، وفيما يرميان إليه من إقرار العدالة بين الناس وإسعادهم. والأمر هنا ليس أمر تشابه فقط، لأن قواعد القانون تقوم فى معظمها على أساس خلقى. ويشير العميد إلى ما يراه البعض من أن غاية القانون تحقيق المعانى الخلقية، وأن سلطانه يستند إلى اعتقاد الناس ذلك، وأنه إذا تضارب الحق الذى يؤيده القانون مع حكم الأخلاق، فإن الدولة نفسها تنقسم .

ويشير اللورد دينيس لويد إلى أنه إن كان عنصر الطاعة والخضوع عنصرا حاسما فى القانون، فإن فكرة القانون تشتمل على ما هو أكثر من ذلك، لأن الشعور بالتبعية الشرعية ذو أهمية قصوى فى القانون، وثمة التزام أدبى يشعر الملتزم بالخضوع لقرارات السلطة أو القاضى، وينتج عن الإحساس بأن القانون يمثل السلطة الشرعية، وتستمد السلطة الكثير من قوتها من ارتباطها بهذا الالتزام الأولى. وإن الإيمان بالشرعية هو أساس عمل الدولة الحديثة، ومن دون هذا الإيمان، لن يكون للسلطة القانونية غير الشخصية سند. ويذكر أنه إذا كان القسر عنصرا لازما للقانون، فإن التأكيد عليه فى إعمال القانون هو إساءة فهم تامة لدوره. لأن «الكثير من هالة الشرعية التى تحيط بسلطة القانون مرتبط بالاعتقاد بالتزام أخلاقى لطاعته». وإنه مع وجوب التمييز بين القانون والأخلاق من حيث النطاق، ومن حيث الطبيعة ونوع الآثار، فإنه فى العديد من مستويات السلوك يعزز القانون

(٥) على بدوى: «ابحاث فى اصول الشرائع»، مجلة القانون والاقتصاد (القاهرة)، السنة ٥، العددان ١ - ٢ (كانون الثانى/ يناير - شباط/ فبراير عام ١٩٥٢)، ص ١٦٥ - ١٦٦.

والأخلاق كل منهما الآخر كجزء من نسيج الحياة الاجتماعية، والاستهجان الأدبى يعزز قوة القانون الرادعة ويتعزز بها، والواجب الأخلاقى يلعب دورا بالغ الأهمية فى إرساء سلطة القانون وضمان الطاعة له، دون اللجوء فى الغالب لإجراءات قمعية. ثم يشير إلى أن صعوبة الاتفاق على قواعد الأخلاق أدت بالبعض إلى محاولة إبعاد الأحكام الأخلاقية عن قانون العقوبات، والتركيز على الأهداف الاجتماعية كحماية المجتمع وتقويم السجين وعلى الاعتبارات العقلانية. ويناقش هذه النظرة، فيقول: إن فكرة «الإجرام» كلها مرتبطة بالمسئولية الأخلاقية وتتعزز بها، وإن الظروف والأعذار المخففة للمسئولية الجنائية إنما ترد من الاعتبارات الأدبية المتصلة بجانب أخلاقى. ثم يتساءل: «كيف يمكن استبعاد فكرة المسئولية الأخلاقية عند مسألة الإجرام القانونى.. دون أن ننسف أسس المسئولية العقلية كلها؟!..»[6].

أتصور أنه بعد هذا العرض السريع، يمكن أن تتراءى مشكلة من مشكلات القانون الوافد الذى تدلى من أصول مرجعية ومن معايير للاحتكام والشرعية مغايرة للأصول والمعايير القائمة فى البيئة المنقول إليها، ومتضاربة معها فى بعض الأحايين. وإن التغذية المتبادلة بين القانون والأخلاق، قد حل محلها إضعاف متبادل، سواء لاحترام القانون أو للالتزام الخلقى. ثم إن القانون الوافد أخذ، مع الوقت، وبموجب حكمه للمعاملات والتصرفات، يعزز قواعد أخلاقية مستبتة. ولا تثريب بطبيعة الحال أن تتولد التزامات أخلاقية جديدة، وتضمر أخرى متى كانت مترابطة مع الوظائف الاجتماعية المتوخاة أو المأمولة، وشريطة أن يجرى ذلك انبثاقاً من أوضاع البيئة ومن الوعاء الفسيح لأصول الاحتكام والشرعية التى تسود فى هذه البيئة، وتحفظ على الجماعة وجودها واتساقها. ولكن الحادث أن الخلل حدث فى الأصول المرجعية ذاتها، وولد الاضطراب والتضارب، لا بين القانون والأخلاق فقط، لكن أيضاً بين نمطين أخلاقيين تنافرا، ولا يزالان متنافرين، ويدور الصراع سجالا بينهما فى مجتمعاتنا إلى اليوم، كما يدور الصراع سجالا بين شرعيتين. ولم يؤد هذا فقط إلى الوهن والضعف، ولم يؤد فقط إلى انفصام المجتمع وتصارع قواه بين بعضهما وبعض، إنما رتب أيضاً انفصاما داخل الفرد نفسه، واضطرابا بين النمطين الجاذبين فى المعاملات والسلوك، وتذبذبا بين الممنوع والمحرم، وبين المكروه والمشين، وبين الجائز والحلال، وبين المأمور به والمفروض. وبين هذه الأطراف المتجاذبة، فما أكثر من سقط فى وهاد اللاأدرية واللامبالاة، واتبع المسلك النفعى الحسى المحض. ويبدو لى أن هذا الوضع مسئول إلى حد بعيد عن تلك الظاهرة المرئية عيانا، ظاهرة المخالفة بين القول والفعل على المستوى الفردى، وبين الدعوة والسلوك على المستوى الجمعى.

(٦) دينيس لويد: فكرة القانون، ترجمة سليم الصويص (الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، عام ١٩٨١)، ص٣١ - ٨٥.

أصول التشريع وأسسه العامة «٤»

التشريع الإسلامى والقوانين الغربية



الدكتور/ محمد يوسف موسى

أولاً - القانون الرومانى

وضع المسألة:

تكلمنا عن أصول التشريع الإسلامى ومصادره، وكلها كما عرفنا، ترجع إلى أصل كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، كما تكلمنا عن طبيعة هذا التشريع وخصائصه، وهى - كما تبين لنا - أمور يمتاز بها من غيره من التشريعات القديمة والحديثة، وهى مع هذا تتفق وروح الإسلام ومقاصده وغايته.

وبعد هذا، هل تأثر هذا التشريع بالقانون الرومانى الذى التقى به الإسلام فى كثير من البلاد التى فتحها، وخاصة الشام والعراق؟ ما دمنا نرى بناء كثير من الأحكام الفقهية على العرف، وقد كان لهذه البلاد قوانينها وأعرافها بلا ريب.

أو هل تأثر به لهذا السبب؟ ولسبب آخر هو أنه يوجد تشابه بين بعض القواعد القانونية الرومانية وبعض القواعد الفقهية الإسلامية، وبخاصة أن القانون الرومانى كان أسبق فى الوجود، فإذا فرضنا أن تأثيره مفروض، فيكون الأول هو الذى أثر فى الثانى.

هذا هو وضع المسألة التى طال الكلام فيها قديماً وحديثاً، وكثر فيها كلام المستشرقين من الغربيين، ولاسيما بعض رجال الفقه والقانون منهم.

ونحن بما نتقدم به فى هذه المسألة التى اشتجر فيها الخلاف من قريب ومن بعيد، سنعرض لها من الناحية الموضوعية، غير متأثرين سلفاً بفكرة سابقة أو معتقد موروث، ولا غرض لنا إلا الوصول إلى الحقيقة التى يستريح إليها عقل الباحث، وضمير العالم الذى لا ينشد إلا الحق.

ولهذا، سنعرض أولا لما زعمه بعض الغربيين من القول: بتأثر التشريع الإسلامى بالقانون الرومانى، ونمتحن ما جعلوه أدلة لما ذهبوا إليه، ثم نعرض بعد ذلك ما رآه بعضهم من نفى التأثر مطلقاً، وننظر نظرة فاحصة لأدلتهم.

وأخيراً، نبين ما نرى أنه الحق فى هذه المشكلة، مقدمين بين يديه: أسسه وأدلته المادية والعقلية

المنطقية، هذه الأدلة التي تثبت للنقد وتدفع إلى التسليم.

وينبغي هنا أن نقدر أننا رأينا من الخير أن نتناول هذه المشكلة بشيء من التفصيل لأمرين:

الأول: هو أن كثيراً مما كتب فيها تعوزه الدقة والبناء على أسس علمية سليمة؛ ولأن غير قليل ممن تناولوا المسألة بالبحث لم يرتفعوا بأنفسهم عن الغرض والهوى، وليس كهذين مبعداً عن الدقة في الحكم والوصول إلى الحق!.

والثاني: أن فكرة تأثر التشريع الإسلامي بالقانون الروماني، قد وجدت سبيلها إلى بعض الكتب العربية هنا، وهي كتب قراؤها كثيرون، فرأينا من الواجب فحص الموضوع فحصاً علمياً دقيقاً حتى لا يبقى أثر لهذه الفكرة في قلب قارئ عربي مسلم أو في عقله، وذلك متى عرف أنها فكرة خاطئة ليس لها دليل أو أمارة من الواقع.

القول بالتأثر:

لقد قال بتأثر العرب والمسلمين في ناحية الفقه وغيرها من نواحي الحضارة والتفكير، كثير من المستشرقين الذين درسوا العقلية العربية وكتبوا فيها، وفي أسسها التي قامت عليها، وفيما نالها من ضروب التأثير المختلفة.

وقد أخذ بعض الكتاب العرب والمسلمين كثيرا من الآراء التي انتهى إليها المستشرقون عن تقليدهم تارة، أو اقتناع تارة أخرى.

على أننا لا نعرف أحدا من الكتاب العرب والمسلمين - مهما كان إعجابهم بالعقلية الغربية وفتنتهم بها - غلا كما غلا بعض المستشرقين إلى درجة جعل القانون الروماني مصدرا من مصادر الفقه الإسلامي، وذلك عن غير بينة أو دليل، بل عن عدم فهم للفقه وأصوله.

ومن المستشرقين الذين قالوا بالتأثير والتأثر في اعتدال، «جولد تسيهر» المجري، و«دي بور» الهولاندي الذي يقول في كتابه تاريخ الفلسفة في الإسلام:

بعد أن فتح المسلمون بلادا ذات مدنيات قديمة، نشأت حاجات لم يكن للإسلام بها عهد، وحلت محل شئون الحياة العربية البسيطة عادات وأنظمة لم يرشد الشرع الإسلامي إرشادا دقيقا إلى وجه الحق فيها، ولم يرد في السنة بالنص ولا بالتأويل ما يبين الطريق إلى معالجتها.

ثم أخذ عدد الوقائع الجزئية يزداد كل يوم، وهي وقائع لم ترد نصوص فيها، ولم يكن للمسلمين بد من الحكم فيها، إما بما يتفق مع العرف، وإما بما يهديهم إليه إدراكهم لمعنى الخير.

ولابد أن يكون القانون الروماني قد ظل زمنا طويلا يؤثر تأثيرا كبيرا في هذا الاتجاه في الشام والعراق، وهما من ولايات الإمبراطورية الرومانية القديمة.

ومن الذين غلوا غلّوا كبيرا في هذه الناحية، إلى درجة تدعو إلى الزراية والاستخفاف بآرائهم، المجردة من الدليل العلمي الصحيح، الذي يتطلب هذا البحث التاريخي، المستشرق «إيموس»، فقد زعم «بأن الشرع المحمدي ليس إلا القانون الروماني للإمبراطورية الشرقية، معدلا وفق الأحوال السياسية للبلاد العربية».

وهذا رأي عجيب حقا! وهو لا يصدر عن عالم يعرف شيئاً من التاريخ، أو يملك قدرا - مهما يكن محدودا - من البصر والفهم للعقلية العربية الإسلامية، أو إدراكا - أي إدراك - لما أحدثه القرآن

والسنة في التشريع الإسلامي والحضارة الإسلامية في مختلف نواحيها وضروب الفكر فيها!

نقد هذه الآراء:

إن الذين ذهبوا إلى هذه الفكرة الخاطئة لا يستندون إلا إلى ما رأوه من الشبه بين بعض أحكام التشريع الإسلامي والقانون الروماني، ثم إلى ما يحدثه، بلا ريب، التقاء الحضارات والعادات والأعراف القانونية بعضها ببعض.

ولكن، هل هذا التشابه، إذا كان موجودا (إلى حد غير قليل) يدل على التأثر الذي يزعمون؟ أو على أن الفقه الإسلامي ليس إلا القانون الروماني، مع شيء من التعديل في بعض النواحي، كما يزعم «إيموس» في جرأة عجيبة على العلم والتاريخ؟

وإن الإجابة عن هذين السؤالين هي النفي بلا ريب؛ فإن الوضع الصحيح، الذي يقرره علم الاجتماع، ويؤيده الواقع فعلا، هو أنه متى التقت حضارتان لأمة غالبة وأمة مغلوبة كان التقليد - حين يوجد - يكون من الأمة ذات الحضارة المغلوبة؛ لأن المغلوب مولع أبدا بتقليد الغالب، كما يقرر العلامة ابن خلدون أبو علم الاجتماع في «مقدمته» المعروفة.

ثم إن هذا التشابه في الأحكام القانونية، أو في غير ذلك من نواحي الفكر المختلفة، أمر طبيعي بين الأمم جميعا، لا فرق بين العرب والرومان أو غيرهم من الأمم والشعوب المختلفة، ونجده ماثلا في الفلسفة، ومناحي التفكير عامة.

ولا نستطيع لمجرد هذا «التشابه» الحكم بأن هذه الأمة هي التي أخذت عن تلك وليس العكس، بل قد يكون مرجعه إلى ما هو معروف من أن العقل الإنساني السليم يتشابه في كثير من ألوان التفكير ونتائجه، دون حاجة إلى تفسير هذه الظاهرة بالأخذ والتقليد، ونعتقد أن هذه كلها أمور بدهية لا يحتاج الإنسان في فهمها وقبولها إلى أي عناء في التفكير.

وبعد ذلك، هل عرف المسلمون القانون الروماني كما عرفوا فلسفة اليونان؟ الجواب بالنفي بلا ريب؛ فإن المسلمين نقلوا للعربية فلسفة اليونان وأفادوا منها بيقين، وهم يفخرون بذلك وبجهودهم الفلسفية التي أضافوها إلى جهود فلاسفة اليونان، وغيروا كثيرا من نظريات أولئك الفلاسفة القدامى وآرائهم، وقد فعلوا ذلك لحاجتهم إلى تلك الفلسفة.

أما في ناحية الفقه والتشريع فلم يجدوا حاجة مطلقا للأخذ عن غيرهم؛ لأن لديهم من كتاب الله وسنة رسوله وتراث الصحابة والتابعين ما يغنيهم عن الاستعانة بغيرهم في هذه الناحية، والأمر معروف غير منكور من أحد من العلماء.

ولو كان الأمر على غير هذا، لحفظ لنا التاريخ كتابا واحدا أو رسالة واحدة نقلوها إلى اللغة العربية من قانون الرومان، أو لرأينا ولو مصطلحا واحدا من مصطلحات هذا القانون في كتب الفقه والتشريع وما أكثرها، كما بقي لنا الكثير مما نقلوه عن تراث الفرس الأدبي والعلمي بجانب ما نقلوه من تراث اليونان العلمي والفلسفي.

بل، إن التشريع الروماني - على العكس - قد تأثر بالفقه الإسلامي وأفاد منه، فيما زيد عليه أيام النهضة الأوروبية، وذلك عن طريق الثقافة والعلوم العربية الإسلامية التي كانت من عوامل هذه النهضة كما هو معروف، وسنذكر لذلك مثلا غير قليلة فيما يأتي.

وأخيراً، نستطيع أن نقرر بأن اتصال العرب والمسلمين بغيرهم من الأمم والشعوب المختلفة فى البلاد التى فتحوها، كان له بلا شك أثره حين وجدوا أنفسهم فى بيئات وبلاد جديدة لها عاداتها وتقاليدها وأعرافها القانونية.

إلا أن هذا الأثر لا يتجاوز أن يكون إثارة كثير من الوقائع والمسائل والمشاكل القانونية، وكان أن أخذوا فى حل هذه المسائل والمشاكل وإيجاد أحكام شرعية لها، مستندين دائما إلى تشريعهم الأصيل وأصوله الصحيحة، هذا التشريع وتلك الأصول التى تتسع بالتطبيقات والتفريعات لكل الحوادث والنوازل التى تتجدد وتختلف باختلاف الزمان والمكان.

نفى التأثر:

هنا نجد مجال القول ذا سعة؛ لأننا لا نستند إلى فروض وظنون، بل إلى الواقع الذى يؤخذ من صميم القانون الرومانى والتشريع الإسلامى أنفسهما، وفى هذا ما يرينا بوضوح سطحية أولئك الذين ذهبوا إلى الرأى الأول، من غير بينة يصح الاستدلال بها.

وقد ذهب إلى هذا الرأى، الذى يقول بعدم التأثر، بعد أناة وطول بحث، جمهرة رجال القانون المصريين من المسلمين وغير المسلمين، ثم بعض المستشرقين الذين هدوا إلى الحق بعد البحث عنه وطلبه خالصا، بعد التجرد من الغرض والهوى.

فمن المصريين الأعلام فى القانون، الأستاذ الدكتور على بدوى فى بحث له نشر بمجلة القانون والاقتصاد «العدد الخامس من السنة الأولى الصادر فى نوفمبر سنة ١٩٣١»، وهو بعنوان: «أبحاث فى تاريخ الشرائع».

وهو يرى بحق أن التشريع الإسلامى بلغ الذروة من البحث وعمق التفكير، فكان أن استباح بعض علماء الغرب لأنفسهم أن يزعموا أن هذا التشريع مستمد من القانون الرومانى، مع أنه مستقل عنه كل الاستقلال، سواء فى هذا ناحيته المدنية وناحيته الجنائية، ومن الأدلة على ذلك ما يأتى:

١- وجود نظم فى القانون الرومانى لا أثر لها فى التشريع الإسلامى، مثل نظام السلطة الأبوية، والسيادة الزوجية، ونظام التبنى لولد معروف نسبه، والوصاية على المرأة حتى لا تستطيع إلا بإذن صاحب الوصاية عليها.

٢- وجود نظم فى التشريع الإسلامى لا أصل لها فى القانون الرومانى، مثل الوقف، والشفعة، وموانع الزواج بسبب الرضاع.

٣- اختلاف، بل تضارب، قواعد كثير من النظم المشتركة بين التشريعين، مثل نظام الزواج، وهو فردى عند الرومان ومتعدد فى الإسلام، ونظام الميراث، فللمرأة مثل ما للرجل عند الرومان، ونصف نصيبه فى الإسلام، ونظام الطلاق، وهو من حق الزوجين عند الرومان ومن حق الزوج وحده فى التشريع الإسلامى.

وكذلك فى ناحية القانون الجنائى، يتبين لنا استقلال التشريع الإسلامى، بل تفوقه أيضاً على غيره من التشريعات القديمة والحديثة، وذلك فى مواضع عدة نذكر منها:

١- نظام الحسبة، وهى وظيفة اجتماعية جاء بها التشريع الإسلامى منذ أول أزمانه، وهى تقابل وظيفة النيابة العمومية فى العصر الحديث.

٢- نظام العقاب بالتعزير، وهو أن يترك تحديد العقوبة نوعا ومقدارا إلى القاضى، فيحكم بما يراه تبعاً لما يظهر له من ظروف كل جريمة، وحالة المتهم ونفسيته، ودرجة ميله إلى الإجرام وهو نظام يمتاز به التشريع الإسلامى وحده، وينادى به اليوم كبار العلماء الجنائيين فى هذا العصر الحديث الذى نعيش فيه، وذلك حتى تكون العقوبة محققة للغاية من تشريعها.

ومن المقابلة فى هاتين الناحيتين المدنية والجنائية، نستطيع أن نقرر هاتين النتيجتين:

الأولى: إنه يتحتم القول: بأن الشريعة الإسلامية أخذت نشأة خاصة وكيانا مستقلا عن القانون الرومانى، وأن ما زعمه بعض علماء الغرب من نسبة قواعدها إلى مصدر رومانى إنما هو وهم واهم. بل يصح القول بأن الشريعة الإسلامية، بدأت بما لم يصل إليه القانون الرومانى إلا بعد انقراض دولة الرومان ذاتها، وبعد أن مر قانونهم فى أزمان غير أزمانهم، وعملت فيه عقول غير عقولهم.

والثانية: هى أن الشريعة الإسلامية تشمل من مبادئ العقوبة ونظمها ما لا يقل، فى سعة النطاق، وتهذيب الفكرة، عن أحدث المبادئ والنظم الوضعية، ومنه ما لم يكن له مثيل فى نظم العقوبة الرومانية.

هذا، ولنا أن نضيف إلى ذلك: أن التشريع الإسلامى قد سبق التشريع الرومانى فى كثير من المبادئ والأصول القانونية العظيمة، مثل مبدأ انتقال الملكية بمجرد الرضا والاتفاق من المتعاقدين، بلا حاجة لإجراءات رسمية أو شكلية يوجبها القانون الرومانى، ومبدأ سلطان إرادة المتعاقدين فيما يتفقان عليه من عقود وشروط، ومبدأ جواز نيابة إنسان عن غيره بطريق الوكالة أو الفضالة.

ومبدأ النيابة هذا، لم يصل إليه القانون الرومانى إلا بعد زمن طويل وجهاد عنيف، كما بقى مجهولا من التشريع الفرنسى القديم. أما التشريع الإسلامى، فقد قال بالنيابة التامة منذ ظهر، وأجازها إلى حدود بعيدة جدا.

ولذلك يكون من الحق أن نلاحظ - كما يذكر الدكتور شفيق شحاتة فى كتابه: «النظرية للالتزامات فى الشريعة الإسلامية» وهو من رجال القانون المصريين المسيحيين - خيبة المحاولات التى ظهرت قديما وحديثا لإثبات استمداد التشريع الإسلامى من القانون الرومانى.

بحث مستشرق منصف:

وبعد ذلك كله، كان يمكن أن نقف عند هذا الحد، بعد أن بان الحق الذى هدينا إليه فى هذه المشكلة التى اشتجر فيها الخلاف قديماً وحديثا، وهو أن التشريع الإسلامى لم يتأثر مطلقا بالقانون الرومانى، بل هو مستقل تمام الاستقلال عنه وعن كل تشريع أو قانون آخر.

كان يمكن هذا، وفيه الكفاية لبيان ما أردنا، والاستدلال له بالأدلة القاطعة، لولا أننا رأينا أن نختم البحث فيها بذكر رأى أحد العلماء الغربيين أنفسهم، وهو رأى عالم متخصص يتفق مع ما انتهينا إليه، وكفى به شاهدا!

وذلك؛ بأن الأستاذ (فتز جيرالد - S.V.Fitz gerald) نشر حديثاً بحثا قيما بالإنجليزية فى هذه المسألة، فى يناير عام ١٩٥١، فى مجلة علمية معروفة وهو بحث يقوم على الطريقة التاريخية المقارنة الموضوعية.

هذه الطريقة التى لابد من انتهاجها للوصول إلى

الحق في مثل هذه المسائل التي تتطلب الأناة في البحث، كما تتطلب اصطناع المنهج العلمي الصحيح بكل دقة فيها، وعنوان هذا البحث هو: الدين المزعوم للقانون الروماني على القانون الإسلامي.

وهذا البحث الطويل، تناول فيه كاتبه آراء كل من «إيموس»، و«جولد تسيهر» وغيرهما من الذين قالوا بتأثر التشريع الإسلامي بالقانون الروماني، كما استعرض الأدلة التي استند إليها كل منهم، ورد على كل منها بالتفصيل ردوداً قاطعة. كما أبان سطحية الأول منهم بصفة خاصة في تفكيره واستدلاله بما لا يصح مطلقاً أن يكون دليلا.

كما ذكر عن آخر منهم أنه كان ذا عقلية غير علمية ولا دقيقة، وأنه كان يعمل في ميدان يكاد يجهله جهلاً تاماً، وأنه كان مدفوعاً في كتاباته بغرض سياسي خاص، وهو إظهار أن التشريع الإسلامي كان دائماً قابلا للمؤثرات الغربية، كما يود الكاتب نفسه أن يكون.

وبعد هذا، ذكر أنه من المعروف أنه إذا أخذت فكرة عند شعب إلى شعب آخر، ظهر في لغة وكتابات الشعب الآخر أثر لهذه الفكرة.

وهذا واضح مثلا فيما أخذ عن اليونان في القانون الروماني، كما هو واضح كذلك في شريعة «التلمود» اليهودية المليئة بالكلمات والمصطلحات اليونانية واللاتينية.

أما في الإسلام، فإنه لا يوجد لفظ واحد مستعار من اللغة اللاتينية أو اليونانية في جميع القاموس الضخم للفقه الإسلامي وتشريعه. كما لا يوجد في جميع المؤلفات الفقهية الإسلامية أدنى ذكر لمصدر روماني علمي، وهذا أيضاً وحده مما ينفي فكرة كل استعارة من القانون الروماني.

ولذلك كله نرى أنه لا داعي مطلقاً لافتراض أن مصادر هذا التشريع كانت شيئاً آخر غير ما قاله الكتاب المسلمون أنفسهم، والقول بغير هذا يكون افتراضاً لا حقيقة له، وقولا بغير علم ودليل، ومن ثم يجب رفضه وعدم الاعتداد به.

وأخيراً، يذكر هذا الباحث المنصف أننا نرى بالدليل القاطع أن التشريع الإسلامي يختلف أساسياً في طابعه ومقصده عن القانون الروماني، هذا القانون الذي هو وضع رجال حذقوا لغة القانون الذي هو وضع رجال حذقوا لغة القانون ومصطلحاته.

أما الشريعة الإسلامية، فهي نظام من المسائل الفقهية الدقيقة، وقد نُظر إليها من حيث علاقة الإنسان بالله أولا، ولهذا تشمل ما يسمى «بالعبادات» من صلاة وصوم وزكاة وحج وغير ذلك، وحتى عندما تعالج المسائل المدنية، كالبيع والرهن مثلا، نجد فيها أثر الدين واضحا.

وهذا، بالإضافة إلى ما سبق، يقطع، كما ذكرنا مراراً - هكذا يقول الباحث المسيحي الغربي - ينفي الأخذ أو الاستمداد من القانون الروماني كما زعم كثير من الباحثين بغير سند أو دليل مقبول.

ونحن من جانبنا نعتقد، بعدما تقدم، أنه قد وضح بالأدلة التاريخية والموضوعية أن التشريع الإسلامي مستقل تماماً في نشأته وأصوله، وأنه لم يكن محتاجاً للأخذ أو الاستمداد عن الرومان أو غير الرومان.

وذلك برغم ما قد يوجد من تشابه في بعض القواعد الأصولية أو الأحكام الفقهية، هذا التشابه الذي يفسره تشابه العقل الإنساني، رغم اختلاف بيئات الزمان والمكان.

ثانيا - التشريع الإسلامي والقانون الفرنسي

الإسلام بأوروبا:

قد عرفنا أن التشريع الإسلامي لم يأخذ شيئا عن القانون الروماني أو غيره من القوانين الوضعية الغربية، وأنه لم يكن بحاجة مطلقا لشيء من هذا؛ لأنه غني بكتاب الله وسنة رسوله واجتهاد أئمته الأعلام المعروفين.

بقي أن نبحث مسألة أخرى، وهي صلة القانون المدني الفرنسي الذي له شهرته في الغرب والشرق معا، بالتشريع والفقه الإسلامي، بمعنى هل تأثر هذا القانون بالفقه الإسلامي وأفاد منه وأخذ عنه كثيرا أو قليلا من أحكامه؟

هنا، يجب أن نشير أولا إلى ما هو معروف تاريخيا من أن الإسلام دخل أوروبا في أواخر القرن الأول الهجري؛ إذ فتح المسلمون الأندلس عام ٩٣ هـ - ٧١١م، ثم دخل بعد ذلك جنوب فرنسا، واستمر هناك بضعة قرون كانت الشريعة الإسلامية هي المعمول بها بلا ريب؛ إذ كان الحكم لرجالها العرب والمسلمين.

وكان من نتائج ذلك أن التشريع الإسلامي عرف في تلك البلاد، وأنه صار له عرق وجذور وطيدة فيها، وتولد عن ذلك عرف وعادات قانونية تأصلت في تلك الأقطار التي يحكمها المسلمون.

وليس من المقبول عقلا أن يذهب ذلك كله بخروج العرب من تلك البلاد، بعد القرون الطويلة التي قضوها فيها حاكمين بتشريعهم، بل الواقع أن أثر هذا التشريع ظل قائما بعد ذهاب الحكم الإسلامي، وكان هذا الأثر قويا وواضحا بشهادة التاريخ والواقع.

وبخاصة، أنه لم يكن لتلك البلاد قانون يرجع إلى الدين حتى يشتدوا في مقاومة التشريع العادل الذي دخل إليهم، بل كان قانونهم الذي يتحاكمون إليه قانونا وضعيا يرجع إلى القانون الروماني، بل كان مستمدا منه بوضوح، إن لم يكن هو نفسه بشئ من التعديل.

وظل الأمر كذلك حتى جاء «نابليون» وصار إمبراطورا لفرنسا، ورأى إصدار قانون مدني مكتوب يتحاكمون إليه، فلجأ إلى ما كان معروفا عندهم ومعمولا به من القانون الروماني، وإلى الأعراف والعادات القانونية التي تأصلت في البلاد، وجعل من مجموع هذا وذاك قانونه المعروف باسمه حتى اليوم، وقد صدر سنة ١٨٠٤م.

مذهب مالك وقانون نابليون:

ومن المعروف أن مذهب الإمام مالك - رضي الله عنه - هو الذي كان معمولا به في بلدان شمال إفريقية، ولا يزال الأمر كذلك حتى اليوم في تلك البلاد، وقد انتقل مع العرب الفاتحين إلى الأندلس والأقطار التي فتحوها وأقاموا بها من فرنسا.

ومن ذلك يكون من الراجح «إن لم نقل من المقطوع به» أن كثيرا جدا من الأحكام التشريعية المأخوذة من هذا المذهب قد دخلت

فى قانون نابليون بعد أن رسخت فى تلك البلاد، وتولد منها عادات وأعراف قانونية دخلت بهذا «الوصف» فى ذلك القانون.

وهذا ما لا ينكره إلا من لا يعرف شيئا من التاريخ الإسلامى، أو يعرف ولكنه مكابر ينكر الحق الذى يؤيده الواقع، والمقارنة بين التشريعين: الفرنسى والإسلامى المأخوذ من مذهب الإمام مالك بصفة خاصة.

ولعل هذا مما يفسر عناية الفرنسيين، قديما بمذهب مالك بصفة خاصة، ونشر كثير من كتبه وترجمة أخرى منها للفرنسية، وما تزال هذه العناية معروفة إلى هذه الأيام.

بحث عالم منصف

وهذا رجل عالم من علماء الأزهر درس القانون بفرنسا، وهو الأستاذ سيد عبد الله حسين، فراعه التشابه الشديد بين كثير من أحكامه فى الناحية المدنية وبين مذهب الإمام مالك الذى درسه بالأزهر، فكان أن عنى بوضع كتاب ضخم يقارن فيه بين التشريعين فى تفصيل، وهو كتاب «المقارنات التشريعية» الذى ظهرت طبعته الأولى بالقاهرة سنة ١٩٤٧.

وهو يذكر فى مقدمة هذا الكتاب - بعد أن استعرض تاريخ هذين التشريعين الإسلامى والفرنسى - أنه من هذه الحوادث التاريخية القاطعة، يتبين أنه كان للشريعة الإسلامية عموما ولمذهب مالك بن أنس خصوصا دخل فى التشريع الوضعى بأوربا، ولا ينكر هذا إلا كل مكابر لا يريد أن يتبع الحق، ولا يعرف شيئا من التاريخ.

ولكن الحقيقة المرة المخفية عندهم إجماعا، هى أن مذهب مالك مدون عندهم، ومعمول به علما وعملا منذ قرون بلا نزاع، ولهم أن يقولوا: قانون العوائد أو غيره.

ثم، بعد أن أشار إلى كتابه هذا «المقارنات» الذى يتقدم به، قال. وهذا دليلى العلمى والعملى على أن القانون المدنى الفرنسى مأخوذ جله من مذهب مالك، وفى هذا الكتاب ما يغنى عن الجدل، والله خير الشاهدين.

أمثلة ومقارنات

ليس من شأننا هنا أن نطيل فى هذه الأمثلة والمقارنات، ويكفى أن نشير إلى البعض منها ليظهر مبلغ ما فى هذين التشريعين الفرنسى والإسلامى من تشابه فى كثير من النواحى، وهو تشابه ينم عن أخذ الثانى من الأول، فى شكل عادات وأعراف تأصلت فى فرنسا أيام وجود المسلمين فيها وفى غيرها من بلاد أوربا:

١- ففى العقد مثلا نجد أن ما جاء فيه فى القانون الفرنسى من انعقاده ولزومه بالإيجاب والقبول من المتعاقدين، وشروط صحة العقد بصفة عامة، عيوب العقد، وحرية المتعاقدين، وأن انتقال الملكية للموكل يتم بمجرد تعاقد الوكيل عنه... كل ذلك نجده فى فقه الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه، على غير ما هو معروف فى القانون الرومانى.

ونجد هذا الاتفاق أيضا فى الحجر وأسبابه ونتائجه، وعدم أهلية المحجور عليه، وانتهاء هذا الحجر وأسبابه.

٣- وكذلك الأمر فى الملكية ودليلها وتثبيتها، وحكم وضع اليد وشروطه ونتائجه، وأن وضع اليد على المنقول يعادل حجة الملكية، وجواز نزع الملكية للمنفعة العامة، وأحكام الملكية المشتركة، وتحديد ملكية المناجم، وطرق نقل الملكية فى المنقول والعقار، وسقوط الحق بمضى المدة.

٤- ويتفقان أيضاً فى عقد الإيجار وكثير من أحكامه، مثل: التزامات المؤجر، الخسارة فى العين المؤجرة، ضمانها، التنازل عن عقد الإيجار، التأجير من الباطن، نهاية عقد الإيجار؛ إيجار العمل، إيجار؛ الخدمة، مدة الإجارة...

هذه قطرة من بحر فيما يتفق فيه التشريعان، وهناك نواح كثيرة أخرى هى موضع اتفاق بينهما فيما يختص بالتركة وتقسيمها بين الورثة، والوصية والهبة وأحكام كل منهما، وفى غير ذلك كله مما يتناوله القانون المدنى من سائر العقود والتصرفات.

والنتيجة:

إن بعض الباحثين ذهب، كما رأينا، إلى أن هذا الاتفاق فى التشريعين الفرنسى والإسلامى فى أكثر أحكامهما لم يأت إلا بطريق أخذ الأول من الثانى ونقله عنه، ولكنا نحن نكتفى بالقول: بأنه يدل - على الأقل - على أن من الراجح جداً استمداد أحدهما من الآخر، والمتأخر زمناً هو الذى يفيد من المتقدم عليه وهو الفقه الإسلامى.

ومن الحق أن الاتفاق أو التشابه فى بعض الأحكام، أو فى الكثير منها، بين تشريع سابق وآخر لاحق له لا يدل بيقين على أخذ اللاحق من السابق، وذلك لما قلناه فى بحث صلة التشريع الإسلامى بالقانون الرومانى، من أن هذا قد يكون مرجعه إلى تشابه العقول السليمة فى التفكير.

ولكن هناك فرق كبير فى الحالتين ينبغى أن نلاحظه، وهو أن التشريع الإسلامى لم يكن بحاجة مطلقا للأخذ عن القانون الرومانى، وذلك بسبب مرجعيه الكبيرين المقدسين وهما: كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وفيهما غُنية فى كل نواحى التشريع.

على حين أن فرنسا لم يكن لها فى زمن «نابليون» قانون خاص بها ينبع من الدين أو غيره من مقومات الأمة، فمن المعقول أن العلماء الذين وضعوا القانون المدنى الذى يقترن باسم «نابليون» قد رحبوا بما وجدوه موافقا لهم فى أى تشريع آخر يعرفونه.

وهناك فرق آخر فى الحالتين من ناحية أخرى، وهو أنه لم يثبت مطلقاً أن الفقهاء المسلمين قد عرفوا القانون الرومانى ولا لغته ولا شيئاً من مصطلحاته الفنية، على حين أن الأوروبيين، وبخاصة فرنسا، كانوا يعرفون التشريع الإسلامى لشيوعه بينهم والعمل به فى بعض تلك البلاد قرونا طويلة.

وإذاً، بعد هذا أو ذاك كله، نقرر أنه من الراجح جداً أن يكون القانون الفرنسى قد أفاد من التشريع الإسلامى، ممثلا فى المذهب المالكى الذى كان الفرنسيون يعرفونه ونقلوا إلى لغتهم كثيراً من كتبه، ونشروا بينهم بالعربية شيئاً آخر منها.

والعلم اليقينى عند الله وحده.

لكن الأتباع من الطبقات اللاحقة، الذين اتبع كل فريق منهم أحد المذاهب نشأ عند كل منهم من العصبية لمذهبه ما لم يكن عند الأئمة أنفسهم وتلاميذهم. وقد عرف التاريخ الإسلامي مشاحنات ومشاغبات مؤسفة بين أتباع المذاهب المختلفة، ولا سيما بين الحنابلة والشافعية في بغداد، متجاهلين ما كان بين إماميها من مودة وتقدير. وقد كان سبب تلك المواجهات والمصادمات جهل الأتباع، وعدم إدراكهم لمزايا اختلاف الاجتهادات، وما تنتجه من فقه غزير مفيد في ظل الشريعة نفسها، ويوسع على الأمة بدلاً من أن يحشرها في حدود مذهب واحد قد يضيق بها وبحاجات حياتها المتجددة المتطورة.

هل من المفضل توحيد الفقه الإسلامي؟

هذا السؤال طرحه بعض الكتاب المعاصرين، ويدل على تصوره بأن اختلاف المذاهب الاجتهادية في الفقه الإسلامي هو عيب يحسن التخلص منه بتوحيدها إن كان ممكنا!! كما يدل على أن كثيراً من الناس لا يميزون بين الاختلاف الفقهي الذي تكونت منه المذاهب الفقهية الاجتهادية ومدارسها التي تحدثنا عنها، وبين الاختلاف العقائدي الذي تكونت منه الفرق والنحل المختلفة في أمور اعتقادية، كالخوارج والشيعة بمختلف فروعهما، والمعتزلة والجبرية وو... في مقابل أهل السنة والجماعة. فشتان ما بين النوعين من الاختلاف:

- فالاختلاف العقائدي الذي تكونت منه الفرق، ونبتت منه المآسي السياسية في التاريخ الإسلامي، ولا تزال، هو المصيبة والبلية، ويُتمنى لو يزول وتجتمع كلمة الجميع على الأصول الثابتة في الإسلام من القرآن والسنة النبوية الصحيحة.

- أما الاختلاف الفقهي في استنباط الأحكام من أدلتها ويتألف منه النظام القانوني العملي في الإسلام،، وتكونت فيه المذاهب والمدارس الفقهية المشار إليها، فهو ثروة تشريعية، وهو مزية وليس بلية يُتمنّى زوالها بتوحيد الفقه إن أمكن.

مزايا تعدد الاجتهادات والمدارس الفقهية:

والحق أن هذا الاختلاف في الفهم والاستنتاج من النصوص يوجد في الأمة ثروة من الفكر التشريعي هي محل اعتزاز وامتياز للأمة، ويوجد لديها من مختلف المبادئ والقواعد والأنظار الفقهية والنظريات الحقوقية أسساً صالحة لحل المشكلات العارضة باختلاف الظروف، ويفتح مجالاً واسعاً لاختيار الحلول الأفضل كلما دعت الحاجة وأظهر التطبيق بعض المشكلات، أو كشف عن بعض الفجوات التي تحتاج إلى ملء بأحكام مناسبة مستمدة من روح النصوص وغرض الشارع.

التمييز بين توحيد الاجتهادات وتوحيد الحكم القضائي

وهنا يجب الانتباه إلى أمر عظيم الأهمية، وهو التمييز بين توحيد الفقه وتوحيد الحكم القضائي، فإذا كان توحيد الفقه مستحيلاً، وليس من مصلحة الأمة فإن توحيد الحكم القضائي فيها ضروري.

ونعني بتوحيد الحكم القضائي وحدة التقنين من الفقه، وذلك بأن يختار في كل مسألة من

مسائل المعاملات، من بين الآراء الفقهية فيها- إذا كانت متعددة- ما هو أصلح أو أعدل أو أوجه دليلاً أو أيسر تطبيقاً، فتقنه السلطة المختصة حتى يكون هو وحده النافذ المعمول به في القضاء. فهذا التدبير النظامي في أحكام المعاملات بغية توحيد الحكم القضائي فيها واجب في طريق إقامة النظام وتحقيق العدل، ولا يتنافى مع تعدد الآراء والمذاهب الفقهية مهما كثرت واختلفت. وذلك كما حصل في وضع مجلة الأحكام العدلية في أواخر عهد الدولة العثمانية، حيث اختير أحسن الآراء الفقهية المختلفة من المذهب الحنفي، وصيغت في مواد بأرقام متسلسلة، وأصدرت سنة ١٢٩٣هـ. فكانت أول قانون مدني مستمد من الفقه الحنفي، وأصبح بها القضاة والمتقاضون جميعاً في الدولة أمام حكم إلزامي واحد في كل مسألة من المسائل والقضايا التي تناولتها المجلة بالتقنين مهما كانت الآراء في مصادرها الفقهية متعددة ومختلفة.

فلا يجوز أن يترك القاضي لاجتهاده بين الآراء الفقهية المختلفة ليختار هو منها ما يقضي به، لأن هذا الإطلاق يتنافى مع مبدأ علنية التشريع الذي يوجب أن يكون المكلف في كل مجتمع نظامي (دولة) على علم مسبق بمصير أعماله وتصرفاته في حكم النظام الذي سيقضي به القاضي له أو عليه، وإلا كان القضاء فوضى، والمكلف لا يعرف كيف يتصرف مطيعاً للنظام؛ لأنه لا يستطيع أن يتنبأ مسبقاً بموقف القضاء من تصرفاته مادام القاضي سيقضي باجتهاده هو واختياره، وليس بحكم معلن معروف. فإذا كان اختلاف الفقهاء رحمة ونعمة وثروة ومزية، فإن عدم توحيد الحكم القضائي مصيبة وبلية!!

هذا، وإن اختيار بعض الآراء الفقهية في وقت ما لتقنينه وتوحيد الحكم القضائي عليه لا يمنع تغيير هذا الاختيار، واستبدال غيره به من الآراء الفقهية الأخرى كلما تبدلت الظروف والحاجة، أو رؤي أن غيره أصلح منه.

وهكذا تتحقق للأمة مصلحتان: توحيد الحكم القضائي وهو أمر ضروري، والاستفادة من جميع المذاهب الفقهية.

التوزيع الجغرافي للمذاهب في الماضي والحاضر

أ- توزعها في الماضي:

في عهد كل إمام من الأئمة كانت آراؤه الفقهية التي يتكون منها مذهبه تنتشر في بيئته على يد تلاميذه الذين يتلقون منه. ثم يمتد هذا الانتشار بما يحملون من علمه إلى مناطق أخرى في أسفارهم وحجهم، بمن يمر ببلد الإمام من أبناء بلد آخر ويجتمع به أو ببعض تلاميذه ويأخذ عنهم.

ثم تأتي طبقة تلاميذ التلاميذ وقد يكونون من بلاد شتى، فإن شد الرحال والترحال في طلب الحديث والفقه خاصة، وسائر علوم الشريعة عامة للتلقي من مشاهير العلماء هو الطريق الطبيعي لمن يريدون تحصيل العلم فلم يكن أحد من الطموحين يكتفي بالأخذ عمن يجدهم في بلده. فبقدر أسفار طالب العلم، وكثرة لقائه بعلماء الأقطار تكون سعة أفقه العلمي فقهاً وحديثاً وغيرهما.

فتلاميذ تلاميذ الأئمة كانوا ينقلون فقههم إلى بلادهم المختلفة. وهكذا كان فقه أحد الأئمة يشيع أولاً في بلده ثم ينتشر دون أن يكون انتشاره امتداداً إلى ما يجاوره بسبب المجاورة في

البيئة بل قد يقفز انتشاره من بلده إلى بلاد نائية لأن بعض تلاميذ [illegible]ام من الغرباء عادوا إلى بلادهم فنقلوا مذهبه إليها .

فأبو حنيفة مثلاً إمام المذهب الحنفي أقدم المذاهب الأربعة قد نبت مذهبه في الكوفة موطن الإمام، ثم انتشر في بغداد وسائر بلاد العراق، ثم قفز إلى بلاد بعيدة ومدن عديدة كبلاد مصر والروم وبلخ وبخارى وفرغانة وبلاد فارس وأكثر الهند والسند وبعض بلاد اليمن وغيرها (ر : نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة وانتشارها للعلامة أحمد تيمور باشا ص٨ ط السلفية، ومراجعه) .

ومالك بن أنس إمام المذهب المالكي، وثاني الأربعة تاريخيا نبت مذهبه في المدينة المنورة موطن الإمام، وانتشر في الحجاز، ثم قفز إلى البصرة فبغداد، ثم إلى مصر وما والاها من بلاد أفريقية، فالأندلس وصقلية والمغرب الأقصى، ثم إلى من أسلم من السودان (ر : المرجع السابق ص / ١٩ ، ومراجعه) .

ومحمد بن إدريس الشافعي إمام المذهب الشافعي القرشي إمام المذهب الشافعي، وثالث الأربعة تاريخيا، والمولود في غزة، ظهر مذهبه وآراؤه أولاً في مصر، ثم سرى إلى العراق فخراسان وتوران والشام واليمن والحجاز ثم إلى بلاد ما وراء النهر وفارس وبعض بلاد الهند وأفريقية والأندلس بعد سنة ٣٠٠هـ (المرجع السابق ص / ٢٩ ومراجعه) .

وأحمد بن حنبل الشيباني، إمام المذهب الحنبلي، ورابع الأربعة تاريخيا (مولود ببغداد وتوفى فيها) ظهر مذهبه أولاً ببغداد، ثم انتشر في كثير من بلاد الشام وسرى إلى مصر في القرن السابع الهجري، ووصل في القرن الرابع إلى إقليم أقور والديلم والرحاب وبالسوس (المرجع السابق ص / ١٩ ، ومراجعه .. وجاء فيه أنه أقل المذاهب الأربعة اتباعا وانتشارا) .

ويبدو لنا أن قفزات المذاهب إلى بلاد بعيدة عن مواطن أئمتها كان له عاملان :

الأول : الحج الذي كان ملتقى جامعًا سنويًا للمسلمين من مختلف الأقطار مهما تناءت .

الثاني : القضاء والحكم الإداري، فقد كان تولية قاض من أحد المذاهب، أو تولية أمير حاكم على أحد الأقاليم، سببا في نشر مذهبه الذي ينتمي إليه، وقد أورد العلامة أحمد تيمور أمثلة كثيرة لهذا التأثير في انتشار المذاهب .

لكن هذا الانتشار لم يكن دائما يعقبه استقرار فقد ينتشر أحد المذاهب أولاً في قطر ثم يغلب على ذلك القطر مذهب آخر .

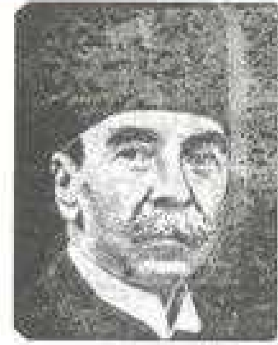
فقد دخل المذهب الحنفي إفريقية وغلب على أهلها لما ولي قضاءها أسد بن الفرات بن سنان الذي أخذ عن أصحاب أبي حنيفة وعن مالك، واستمر مذهب أبي حنيفة غالبا على إفريقية (بما يشمل طرابلس وتونس والجزائر) حتى حمل المعز بن باديس أهلها على مذهب مالك .

والمذهب الشافعي ظهر في العراق، وغلب على بغداد وكثير من بلاد خراسان والشام وما وراء النهر وبلاد فارس، ثم عاد فغلب عليها المذهب الحنفي .

وكان الغالب على أهل مصر المذهبان الحنفي والمالكي، ثم زاحمهما المذهب الشافعي فصار مقلدوه فيها- كما يقول ابن خلدون أكثر (المرجع السابق ص / ١١ و٢٨ و٢٩) .

وقال العلامة أحمد تيمور باشا أيضا : (لما قام هارون الرشيد في الخلافة، وولي القضاء أبا يوسف صاحب أبي حنيفة بعد سنة سبعين ومائة، أصبحت تولية القضاء بيده، فلم يكن يولي ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر إلى أقصى عمل إفريقية إلا من أشار به، وكان لا يولي إلا أصحابه والمنتسبين إلى مذهبه، فاضطر العامة إلى أحكامهم وفتاواهم وفشا المذهب (الحنفي) في هذه البلاد فشوا عظيما، كما فشا المالكي بالأندلس بسبب تمكن يحيى بن يحيى بن كثير من الحكم المنتصر، حتى قال ابن حزم «مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرئاسة والسلطان : الحنفي بالمشرق، والمالكي بالأندلس»، (المرجع السابق ص (٩) نقلاً عن المقريزي، ونفح الطيب، وبغية الملتمس) ثم قال : «ولم يزل هذا المذهب (الحنفي) غالبا على هذه البلاد (المذكورة) لإيثار الخلفاء العباسيين الحنفية بالقضاء حتى تبدلت الأحوال، وزاحمته المذاهب الثلاثة» (ص / ٩) .

ثم ذكر أن المذهب الحنفي فشا وشاع في مصر «مدة تمكن العباسيين، إلا أن القضاء بها لم يكن مقصورا على الحنفية، بل كان يتولاه الحنفيون تارة، والمالكيون أ و الشافعيون أخرى، إلى أن استولى الفاطميون على مصر، فأظهروا مذهب الشيعة الإسماعيلية، وولوا القضاة منهم فقوى هذا المذهب بالدولة وعمل بأحكامه، إلا أنه لم يقض على المذاهب السنية في العبادات» (ص / ١٣- ١٤)، إلى أن قال نقلاً عن المقريزي :


أحمد تيمور

«ثم لما قامت الدولة الأيوبية بمصر، وكان سلاطينها شافعية، قضوا على التشيع فيها وأنشئوا المدارس للفقهاء الشافعية، وكان نور الدين الشهيد حنفيا فنشر مذهبه ببلاد الشام، ومنها كثرت الحنفية بمصر، وقدم إليها أيضا عدة في بلاد المشرق، فبنى لهم صلاح الدين الأيوبي المدرسة السيوفية بالقاهرة، ومازال مذهبهم (الحنفي) ينتشر ويقوى، وفقاؤهم تكثر بمصر والشام من حينئذ ولكن لم يبلغ المذهب مبلغه في القوة والكثرة بمصر إلا في آخر هذه الدولة» .

وأول من رتب دروسا أربعة للمذاهب الأربعة في مدرسة واحدة الصالح نجم الدين أيوب في مدرسته الصالحية بالقاهرة سنة ٦٤١هـ. ثم كثر هذا النوع من المدارس في الدولتين التركية والجركسية. وحدث في الأولى (الدولة التركية) جعل القضاة أربعة، فعاد الحنفية إلى القضاء بعد انقطاعهم عنه مدة الفاطميين. .ثم لما استولى العثمانيون على مصر حصروا القضاء في الحنفية، وأصبح المذهب الحنفي مذهب أمراء الدولة وخاصتها، ورغب كثير من أهل العلم فيه لتولي القضاء. إلا أنه لم ينتشر بين أهل الريف والصعيد انتشاره في المدن، ولم يزل كذلك إلى اليوم (ص / ١٥-١٦) .

أقول : وهكذا نرى أن كل مذهب من هذه المذاهب الأربعة قد كان يعترى انتشاره في بعض الأقطار مد وجزر، ببعض العوامل المؤثرة .

ويبدو لنا أنه منذ قيام الدولة العثمانية واستقرار سلطانها استقر كل مذهب فى البيئة التى انتهى إليها فى المشارق والمغارب، ووقف المد والجزر بين المذاهب، ولا سيما فى أمور العبادات. فلكل فرد أو أسرة الحرية المطلقة فى اختيار المذهب الذى يتعبد به ربه.

أما القضاء فإنه فى جميع البلاد التى دخلت تحت سلطان الدولة العثمانية أصبح يجرى على المذهب الحنفى، وفى غيرها يجرى غالبًا على المذهب السائد فيها، ففى المغرب مثلاً يجرى القضاء على المذهب المالكى.

والقضاء المذكور حين يجرى على أحد هذه المذاهب قد كان يتناول جميع المسائل والقضايا من أى نوع كانت: فى المعاملات والجنايات، وشئون الأسرة (الأحوال الشخصية) من نكاح وطلاق وما إليهما ووصايا وميراث.

ولكن فى عهود الاستعمار الأجنبى الأوروبى للبلاد الإسلامية فى القرن الماضى فى القارتين آسيا وإفريقية قصر القضاء الشرعى وفقًا للمذهب السائد فى البلد على شئون الأسرة فقط، وجعل للقضايا الأخرى محاكم نظامية أقامها المستعمرون تقضى بقوانين وضعية فرضوها على أهل البلاد.

وكذلك فى آخر عهد الدولة العثمانية لما بدأت فى إصدار قوانين وضعية تجارية وجنائية، وأنشأت المصارف (البنوك) ووضعت لها الأنظمة، قسمت المحاكم نوعين: محاكم شرعية، ومحاكم نظامية، وقصرت اختصاص المحاكم الشرعية على شئون الأسرة (الأحوال الشخصية) وشئون الأوقاف. ففى هذا النطاق يقضى القاضى الشرعى وفقًا للمذهب الحنفى.

على أن المحاكم النظامية أيضًا فى الدولة العثمانية ملزمة أن تقضى بالمذهب الحنفى أيضًا فى كل مالا تتناوله نصوص القوانين الخاصة الوضعية.

ومنذ صدور مجلة الأحكام العدلية سنة/ ١٢٩٣هـ (وهى قانون مدنى للمعاملات مستمد من المذهب الحنفى) كانت جميع محاكم الدولة ملزمة بتطبيقها فى كل قضية ليس عليها نص فى قانون خاص.

واستمر هذا الترتيب فى البلاد العربية التى انفصلت عن الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى (سورية، لبنان، العراق، الأردن) إلى أن أصدرت فى هذه البلاد قوانين للأحوال الشخصية مستمدة أساسًا من المذهب الحنفى، وفى بعض الشئون من المذاهب الأخرى ابتغاء بعض إصلاحات فى شئون الأسرة. فأصبحت مهمة المحاكم الشرعية فى هذه البلاد مقصورة على قانون الأحوال الشخصية الشرعى الصادر فيها. وماسكت عنه القانون تطبق فيه نصوص فقهاء المذهب السائد فى البلد.

ب- التوزيع الجغرافى للمذاهب الفقهية فى العصر الحاضر:

حينما يقال إن مذهبًا ما يسود فى أحد الأقطار فإنما المراد منه مذهب أغلبية شعبه، وإلا فإن كل قطر يسود فيه مذهب ما لا يخلو من وجود قلة هم أتباع لمذاهب أخرى.

إن المذاهب الأربعة التى تمثل فقه أهل السنة والجماعة أصبحت فى العصر الحاضر منتشرة فى أقطار العالم الإسلامى: وقد يسود فى أحدها أحد المذاهب، وقد يتوزع الناس فى بعضها على أكثر من مذهب، ويمكن مسح هذا التوزيع كما يلى:

١- يسود فى المملكة المغربية المذهب المالكى، وهو الغالب أيضًا على الجزائر وتونس وطرابلس الغرب، وقلما يوجد فيها غيره سوى المذهب الحنفى على قلة فى أتباعه الذين من بقايا الأسر التركية، وأكثرهم فى تونس.

٢- وفى مصر يغلب المذهبان الشافعى والمالكى ثم الحنفى، وهذا الأخير هو مذهب الدولة المتبع فى الفتوى والقضاء.

٣- وفى السودان يغلب المذهب المالكى وعليه القضاء.

٤- فى بلاد الشام والعراق يغلب المذهب الحنفى.

٥- وفى بلاد فلسطين يغلب المذهب الشافعى.

٦- وفى تركيا والألبان وبلاد البلقان يسود المذهب الحنفى.

٧- وفى بلاد الأكراد وأرمينية يغلب المذهب الشافعى.

٨- وأهل السنة فى إيران أغلبهم شافعية، وقليل منهم حنفية أما غالبية شعبها فهم شيعة إمامية.

٩- وفى بلاد الأفغان يسود المذهب الحنفى وكذلك فى تركستان الغربية، ومنها بخارى وخيوة، أما تركستان الشرقية (الصينية) فيغلب فيها حاليا المذهب الحنفى بعد أن كان قبلاً أغلب شعبها شافعيون.

١٠- وبلاد القوقاز يغلب فيها المذهب الحنفى.

١١- وفى بلاد الهند وباكستان يغلب المذهب الحنفى، وقليل منهم شافعية، ويكثر فيها أهل الحديث.

١٢- وفى إندونيسيا وماليزيا وسريلانكا (سيلان سابقا) وجزائر الفلبين وما جاورها يغلب المذهب الشافعى.

١٣- وفى البرازيل عشرات الألوف من المسلمين حنفية.

١٤- وفى المملكة العربية السعودية توجد المذاهب الأربعة بنسب متفاوتة فالمذهب الحنبلى (وعليه الفتوى والقضاء فى المملكة كلها)، هو مذهب أهل نجد كلهم. وأهل عسير يغلب فيهم المذهب الشافعى، وكذا الحجاز وفيه حنفية ومالكية وحنابلة فى المدن.

١٥- وفى سلطنة عُمان يوجد شافعية وحنابلة ولكن الغالب على أهلها المذهب الإباضى وهو مذهب الدولة.

١٦- وفى قطر والبحرين والكويت يغلب المذهب المالكى وفيهما حنابلة.

١٧- وفى اليمن يوجد شافعية كثيرة وحنفية أقل، لكن غالبية شعبها بقسميه الشمالى والجنوبى هم على المذهب الزيدى من الشيعة المعتدلين. وهو أقرب مذاهب الشيعة إلى فقه أهل السنة، ولا سيما إلى المذهب الحنفى، كما سبقت الإشارة إليه[٢].

(٢) اعتمدت فى بيان هذا التوزيع الجغرافى فى العصر الحاضر على معلوماتى الشخصية، وعلى ما أورده العلامة أحمد تيمور باشا فى خاتمة رسالته عن المذاهب وانتشارها.

الفتح الإسلامى لمصر



٤  للأستاذ الدكتور / محمد سليم العوا

واحد بألف

في كتاب تاريخ البطاركة لساويرس بن المقفع، أسقف الأشمونين أن عمرو بن العاص «كان محباً للبرية فأخذوا الخيل للجبل حتى وصلوا إلى قصر مبنى بالحجارة بين الصعيد والريف يسمّى بابليون فضربوا خيامهم هناك حتى ترتبوا لمقاتلة الروم ومحاربتهم»(٢).

عندما وصل عمرو بن العاص إلى حصن بابليون، الذى كان يقع فيما يعرف اليوم بمصر القديمة، وجده غاصاً بأعظم أبطال الروم وأجنادهم، فنزل أمامه بعسكره وحاصره وضيّق على من فيه، واستمر الحصار سبعة أشهر(٣). كان الحصن إذن مستعداً لقتال جيش المسلمين بقواد الروم الكبار، وجنودهم المدربين، وليس كما يقول بعض من يريدون التهوين من فتح المسلمين له إنه كان خالياً إلا من بعض الأقباط الهاربين من الريف. ولو كان هذا القول صحيحاً ما كان الحصن يقتضى من عمرو وجيشه حصار سبعة أشهر، وما كان جنود عمرو يعجزون عن فتحه حتى يأتيهم المدد من المدينة.

(١) أصبح اسمها أسيوط منذ سنة ١٨٢٦. وكتابه مطبوع بعناية عبدالعزيز جمال الدين باعتباره متناً لكتاب ساويرس بن المقفع السابقة الإشارة إليه، وكل إحالة ترد إلى ساويرس بن المقفع، أو تاريخ البطاركة، فهى إلى هذا النص.

(٢) ساويرس بن المقفع، تاريخ البطاركة، مكتبة مدبولي، القاهرة ٢٠٠٦، ج ١ ص ٥٧٨. وفى بعض نسخه يأتى ذكر أن العرب كانت أمة محبة للبرية... راجع: أحمد عادل كمال، السابق، ص ٢٦٥.

(٣) يعقوب نخلة روفيلة، تاريخ الأمة القبطية، ط ٢، مطبعة متروبول، القاهرة ٢٠٠٠، ص ٤٠.

كان الحصن على مرتفع من الأرض، وكان يطل على نهر النيل. وكان الروم قد حفروا خندقاً حول الحصن وجعلوا فيه قطع الحديد، أو سكك الحديد، كما جعلوها أمام أبواب الحصن لتكون موانع أمام الخيل وأمام المشاة من الجند. كان القصد من وضع قطع الحديد في الخندق حول الحصن أنه إذا غامر فارس أو راجل فأراد عبور الخندق أو اقتحام باب من الأبواب جرحته، أو جرحت فرسه، هذه القطع الحديدية فمنعته من تحقيق هدفه.

وكان جيش عمرو قليل الجند (نحو أربعة آلاف) فكان يقسم أصحابه ليوهم الروم أن جنده أكثر عدداً مما هم عليه في الحقيقة، فلما بلغ الخندق ذات يوم نادى عليه الروم فقالوا: إنا قد رأينا ما صنعت، وإنما معك من أصحابك كذا وكذا، فلم يخطئوا العدد الصحيح(٤). لم يردُّ عمرو بن العاص على هذا القول، وظل يكرر صنيعه نفسه كل يوم ليبدو للروم كما لو كان المسلمون على أهبة عبور الخندق فى أية لحظة.

فأقام عمرو على ذلك زمناً، يقاتل الروم قتالاً شديداً، يغدو فى السحر فيصفُّ طائفة من أصحابه عليهم السلاح على أفواه الخندق ويقاتل بالآخرين الفصائل الرومية التى تخرج من الحصن للقتال. ولم يستطع الروم أن يردوا عمراً وجيشه عن محاصرة الحصن، ولم يستطع عمرو وجنوده أن يحرزوا نصراً حاسماً على الروم فيقتحموا الحصن ويلحقوا بمن فيه هزيمة كاملة(٥). يقول أحمد عادل كمال: «وهذا يعنى أن المسلمين كانوا يتفوقون فى تلك الاشتباكات الجزئية وإلا لأزاحهم الروم عن حصنهم»(٦).

كان عمرو بن العاص قد كتب فى أثناء حصار أم دنين إلى الخليفة عمر بن الخطاب ـ كما أشرنا من قبل ـ يستعجل المدد الذى وعده عمر به عندما خرج من الشام إلى مصر، فأمده عمر بأربعة آلاف مقاتل جعل على كل ألف منهم قائداً عَيَّنَهُ بنفسه وكتب إلى عمرو: «إنى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل علي كل ألف منهم رجل بمقام الألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، عبادة بن الصامت، ومَسْلَمَةُ بن مُخَلَّد (وقيل بل خارجة بن حذافة العدوى)، فاعلم أن معك اثنى عشر ألفاً ولا يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة»(٧).

ونحن فى هذا الزمان نحتاج إلى الرجل بمائة، والرجل بعشرة، والرجل بخمسة، بل

(٤) ابن عبدالحكم، السابق، ص ٨٣؛ وأحمد عادل كمال، السابق، ص ٢٧٦.

(٥) ابن عبدالحكم، الموضع نفسه.

(٦) أحمد عادل كمال، الموضع نفسه.

(٧) ابن عبدالحكم، الموضع السابق؛ أحمد عادل كمال، الموضع السابق، ص ٢٧٧. وعبارة «ولا يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة» جزء من حديث مروى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى مسند أحمد وغيره عن عبدالله بن عباس، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط فى رواية المسند: رجاله ثقات رجال الشيخين وقد اختلف فى وصله وإرساله. مسند أحمد، ط مؤسسة الرسالة، تحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط، ح (٢٦٨٢).

لعلنا نحتاج إلى الرجل تتمثل فيه معاني الرجولة الحقة، والشجاعة الفاعلة، والإقدام بلا تهيُّب، كما كان كل جندي من جنود المسلمين في ذلك الزمان. ولن نبلغ من ذلك شيئاً حتى نربي الأبناء والبنات على هذه المعاني السامية، فكلما نجحنا في غرسها فيهم كلما أدركنا ما نريد، وبقدر ما نخفق في ذلك بقدر ما نبتعد عن الوصف الذي نستحقه بقول الله تعالى:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

(آل عمران: ١١٠)

إن هذا الدرس المستفاد من كون رجل بألف مما ينبغي أن يذكر فلا ينسى، ويعمل من أجل الوصول إليه، في كل جيل من أجيال المسلمين، فلا يهمل.

قال الإمام الليث بن سعد، إمام أهل مصر: «بلغني عن كسرى أنه كان له رجال إذا بعث أحدهم في جيش وَضَعَ (أي أنقص) من عدة الجيش ألفاً مكانه، لإجزاء ذلك الرجل في الحرب، وإذا احتاج إلى أحدهم فكان في جيش فحبسه (أي منعه من الخروج مع الجيش) لحاجته إليه، زادهم ألف رجل». قال الليث: «فأنزلت الذي صنع عمر بن الخطاب.. نحو ما كان يصنع كسرى»[٨].

فكان الجيش الذي فتح مصر ثمانية آلاف رجل معدودين على أنهم اثنى عشر ألفاً، لمكان هؤلاء الأربعة: الزبير بن العوام، المقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومَسْلمة بن مُخَلَّد (أو خارجة بن حذافة العدوي).

ولكن روايات أخرى تقول إن عمر بن الخطاب أرسل الزبير في اثنى عشر ألفاً وصلوا على دفعات، فشهد الزبير الفتح مع عمرو بن العاص. وتقول الروايات المسندة إن الزبير بن العوام كان يستعد للحاق بجيش المسلمين في أنطاكية، فقال له عمر بن الخطاب: «يا أبا عبدالله هل لك في ولاية مصر؟»، قال الزبير: «لا حاجة لي فيها، ولكني أخرج مجاهداً، وللمسلمين معاوناً، فإن وجدت عمراً قد فتحها لم أعرض لعمله، وقصدت إلى بعض السواحل فرابطت به. وإن وجدته في جهاد كنت معه» فسار من المدينة على ذلك[٩].

والزبير بن العوام كان يلقب بحواريّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو صحابي جليل، شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان على ميمنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر على فرس وله سبع عشرة سنة، وكان على الميسرة على فرس آخر المقداد بن الأسود[١٠].

ولما قدم الزبير بن العوام في المدد الذي بعثه عمر بن الخطاب إلى مصر، لم يلبث إلا يسيراً حتى ركب وطاف بالخندق، ثم فرّق الرجال حوله، فأصبح الروم فوجدوا الجنود حول الخندق أضعاف ما كانوا يعرفونه قبل أن يأتي المدد، ومع ذلك فقد بقي المسلمون أياماً على خطة عمرو بن العاص الأصلية: يصفّون الرجال في السحر ويقاتلون في النهار من يخرج من الروم من الحصن، ولا مراء في أن عيون الروم قد شاهدوا معسكر المسلمين يعمل، كخلية النحل، بدأب ونظام: فهم يعدون نبالهم وحرابهم وسهامهم، ويحدّون سيوفهم بعد الرحلة الطويلة في الصحراء، ويعالجون إبلهم وخيولهم ترقباً ليوم اللقاء مع جند الروم. ومن الملاحظ في حوادث هذه المرحلة من مراحل الفتح أن عمرو بن العاص قد استجاب استجابة كاملة إلي مقترحات الزبير بن العوام العسكرية دون أن يجادله أو يشعر أن في شيء مما يعمله الزبير منافسة له أو منازعة في قيادته، إذ كان الأمر أمر مواجهة وشيكة مع العدو لا تحتمل إلا قبول أحسن الرأيين[١١].

وجاء خارجة بن حذافة العدوي إلى عمرو ابن العاص ذات يوم وقال له: «اندب معي خيلا حتى آتيهم من ورائهم عند القتال»، فأخرج معه عمرو خمسمائة فارس فساروا من وراء الجبل قبيل الصبح، فلما خرج الروم ـ كما تعودوا كل يوم ـ ليقاتلوا الجنود المنتشرين حول الخندق، خرجت هذه الخيل، وعليها خارجة بن حذافة، ففاجأت الروم من ورائهم فانهزموا ورجعوا فارين إلى الحصن[١٢].

وكان جيش المسلمين قد أحاط بالحصن من الجهتين هما: الشمال الشرقي والجنوب الشرقي، وكان الحصن من جهة الغرب يطل على النيل فكان الزبير بمن معه من الجند في شمال الحصن وشماله الشرقي، وكان عمرو بن العاص في جنوب الحصن وجنوبه الشرقي. فلما طالت أيام الحصار، والقتال غير الحاسم للموقف قال الزبير لعمرو: «إني أهب نفسي لله تعالى، أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين»، فصنع سلماً ووضعه إلى جانب الحصن وصعد عليه، وأمر المسلمين إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعاً؛ ونصب شُرحبيل بن حُجَيَّة المرادي سلماً من الناحية الأخرى[١٣] (قطاع عمرو بن العاص) وارتقى الرجلان حتى كانا فوق الحصن معاً فكبر الزبير، وكبر المسلمون بتكبيره، وكان الزبير فدائيا لا يهاب

(٨) ابن عبدالحكم، الموضع السابق، أحمد عادل كمال، الموضع السابق.

(٩) البلاذري، فتوح البلدان، مؤسسة المعارف، بيروت ١٩٨٧، ص ٢٥٠.

(١٠) ترجمة الزبير بن العوام في أسد الغابة رقم ١٧٣٢ ج ٢، وسير أعلام النبلاء، رقم ٤١ ج ١، وغيرهما من كتب تراجم الصحابة، وستأتي ترجمته بصورة أوفى فيما بعد، كما ستأتي ترجمة المقداد بن الأسود.

(١١) يقف قارىء التاريخ أمام هذا الموقف من عمرو في فتح مصر ليقارن بينه وبين موقفه في غزوة ذات السلاسل عندما أمده رسول الله صلى الله عليه وسلم بمدد فيه أبو بكر وعمر ونفر من المهاجرين الأولين، ويقوده أبو عبيدة بن الجراح، فأبى عمرو إلا أن يكون أمير الجميع بمن فيهم أبو عبيدة نفسه الذي سلم له كراهة الاختلاف بينهما: أسد الغابة، السابق، ج ٤ ص ٢٤٥. إن ذات السلاسل لم يكن فيها قتال مع عدو، ولا معاناة حصار طويل، فساغ هناك الحرص على الإمارة والانفراد بها؛ لكن حصن بابليون كان قتالا حقيقيا أعقب حصاراً طويلاً لابد أنه أرهق جيش المسلمين فكان التعاون كاملاً بين عمرو وبين قائد المدد الذي جاءه من المدينة.

(١٢) أشار يوحنا النقيوسي إلي هذه الواقعة لكنه خلط في مكانها فجعلها في هليوبوليس، وقد علق على ذلك منتقداً خلط يوحنا المترجم الفرنسي الذي ترجم كتابه من الحبشية إلي الفرنسية، تاريخ يوحنا النقيوسي، ط القمص بيشوي عبدالمسيح، ص ٢٠٧؛ وط عمر صابر عبدالجليل، ص ١٩٣.

(١٣) ليس فيما بين أيدينا من الروايات ما يذكر إن كان الرجلان قد اتفقا على ذلك، وهو ما نظنه، أم أن كل واحد منهما صنعه من تلقاء نفسه، وهو بعيد، لاتفاقهما في يوم الصعود على السلم، إلى ظَهْر الحصن، ووقته؛ وراجع ابن عبدالحكم، السابق، ص ٨٥ ـ ٨٦.

شيئاً، وهو - قطعاً - لم يكن يدرى ما كان سيجده فوق الحصن، ولا خلف سوره العتيد. وقد فوجىء الروم بصعود الزبير وشرحبيل بن حجية إلى سطح الحصن، وتسارع المسلمون خلفهما حتى نهاهم عمرو مخافة أن يكسروا السلم (أو السلمين).

ونزل الرجلان ومن معهما من المسلمين الذين تبعوهما إلى داخل الحصن، وأصاب الروم الرعب من هول المفاجأة، فهربوا من أمام المسلمين وعمد الزبير إلى باب من أبواب الحصن مغلق من الداخل، ففتحه واقتحم المسلمون الحصن من الخارج، وسرعان ما أصبح حصن بابليون، وهو أحصن ما كان بيد الروم فى قلب مصر، تحت سيطرة المسلمين. وأظهر سقوط الحصن بهذه الطريقة حرج الموقف العسكرى للروم أمام جيش الفتح.

* * *

كان المقوقس ميالاً إلى مصالحة عمرو بن العاص، وقد جرت الرسل بينهما، وكان رسل عمرو يعرضون إحدى ثلاث خصال: الإسلام، أو الجزية، أو القتال حتى يفتح الله بين الفريقين.

وكان المقوقس يقول للروم: أما الإسلام فلا تتركوا دينكم، وأما القتال فإن هؤلاء القوم لا يقوم لهم شيء، ولكن اقبلوا تركهم ينتشرون فى الأرض وأدوا إليهم الجزية. فأبى الروم ذلك. وكان فتح الحصن قاصمة الظهر بالنسبة إلى عسكر الروم، فهربوا من الحصن إلى جزيرة الروضة عبر النيل، وإلى أماكن أخرى، ولم يلبثوا طويل زمان حتى انهزموا فى الإسكندرية وقبلوا صلح المنهزم.

فلم تم فتح حصن بابليون وهرب من كان فيه من الروم، كتب المقوقس إلى عمرو بن العاص يقول له: «إنى لم أزل حريصاً على إجابتك إلى خصلة من تلك الخصال التى أرسلت بها إلى، فأبى الروم ذلك، ولم يكن لى أن أفتات عليهم فى أموالهم. وقد علموا الآن نصحى لهم، وحبى صلاحهم، ورجعوا إلى قولى، فأعطنى أماناً أجتمع أنا وأنت فى نفر من أصحابى ونفر من أصحابك فإن استقام الأمر بيننا تم ذلك لنا جميعاً، وإن لم يتم رجعنا إلى ما كنا عليه»[١٤]. فاستشار عمرو أصحابه فقالوا له: «لا تجبهم إلى شيء من الصلح أو الجزية حتى يفتح الله علينا وتصير الأرض كلها لنا فيئاً وغنيمة كما صار القصر وما فيه»!

فقال عمرو لأصحابه: «قد علمتم ما عهد إلى أمير المؤمنين فى عهده، فإن أجابوا إلى خصلة من الخصال الثلاث أجبتهم إليها وقبلت منهم»، فسلم أصحاب عمرو لهذا القول طاعة لأمير المؤمنين واتباعاً لعهده إلى قائد الجيش. وكان هذا القول مما فتح الله به على عمرو من الحجة - بدلاً من الدخول فى جدال غير مجد مع أصحابه - فحفظ به وحدة الجيش ومنع الخلاف فى مسألة لو اختلفوا فيها لفت ذلك فى عضدهم وفرق رأيهم الذى كان مجتمعاً على قتال الروم. ولا ريب أن هذا من حسن قيادة عمرو وبصره بأمور الحرب وما يجب فيها على القائد نحو حفظ وحدة جنده.

وكذلك كان؛ فقد اجتمع عمرو والمقوقس واصطلحا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران على كل نفس، ممن بلغ الحُلُم، شريفهم ووضيعهم، وأنه ليس على الشيخ كبير السن، ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحُلُم، ولا على النساء شيء، وأن للمسلمين على القبط حق الضيافة إذا نزلوا بلادهم وأقصى هذه الضيافة ثلاثة أيام، وأن للقبط أرضهم وأموالهم لا يعرض المسلمون لهم فى شيء منها. قبل ذلك المقوقس ومن معه عن جميع القبط، وعلق قبول الروم له على موافقة الإمبراطور البيزنطى، فلم يقبله بالنسبة إلى الروم، وأرسل خطاباً ينتقد فيه ما صنعه المقوقس ويأمره، وقادة الروم العسكريين، بقتال المسلمين وأنه يمدهم بما لا يستطيع المسلمون مقاومته من العدد والعدة[١٥].

فأتى المقوقس عمرو بن العاص وسأله أن يبرم معه اتفاقاً خاصاً يسرى على المقوقس فقط دون سائر الروم فى مصر. طلب المقوقس من عمرو بن العاص أن يعامله معاملة القبط لا معاملة الروم، فيأخذ منه الجزية على نحو ما يأخذها من القبط. وطلب منه أن يتركه يعيش فى مصر إلى آخر عمره. وطلب أن يدفن عند موته فى الإسكندرية بجوار قبر رجل يقال له أبو يوحنس. قال له عمرو: هذه أهونها على، أى وافقه عليها؛ أما الطلبان الأولان فشاور عمرو فيهما أصحابه ولباهما له، وعاش الرجل فى مصر إلى أن مات ودفن فى الإسكندرية حيث أراد.

وبعد أن استقر أمر القاهرة لعمرو بن العاص، كان عليه أن يستكمل الفتح الإسلامى لمصر بالمسير إلى الإسكندرية.



(١٤) ابن عبدالحكم، السابق، ص ٩٢؛ وأحمد عادل كمال، السابق، ص ٢٩٩.

(١٥) ابن عبدالحكم، السابق، ص ٩٢ - ٩٣.

قصص الأنبياء

نوح عليه السلام

للعلامة الشيخ/ عبد الوهاب النجار

هو النبي الثاني ممن ذكروا بعد آدم عليه السلام والأول بعد آدم هو جده الأكبر إدريس عليه الصلاة والسلام وهو أول الرسل كما في حديث الشفاعة عن أبي هريرة في صحيح مسلم: «يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض» وبعضهم يؤول هذا الحديث ويقول برسالة آدم وإدريس.

وهو نوح بن لامك بن متوشالح بن أخنوخ: وهو إدريس بن يارد ابن مهلئيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر.

هذا هو الذي ورد في كتب التاريخ وفي التوراة في سفر التكوين وإن كنت أشك كثيرا في نسق هذا النسب لأني أعتقد أن بين نوح وآدم أكثر من ذلك واعلموا أنه يوجد تفاوت بين ترجمة التوراة العبرية والتوراة السامرية وترجمة التوراة اليونانية، فليرجع إليها من شاء في كتاب «إظهار الحق» للشيخ رحمة الله أفندي الهندي.

ذكرت قصة نوح مفصلة في القرآن الكريم في سورة الأعراف وسورة هود وسورة المؤمنون وسورة الشعراء وسورة القمر وسورة نوح وهي مختلفة اللفظ بحسب ما تكون العناية الموجهة نحوه من البيان.

وهي تتلخص بحسب نصوص القرآن فيما يأتي:

(١) قوم نوح

كان قوم نوح قد عكفوا على عبادة غير الله تعالى واتخذوا لهم أصناما يعبدونها من دونه

(٢) إرسال الله نوحا إلى قومه

اختار الله تعالى نوحا من بين أولئك القوم لينذرهم عذاب الله إذا تمادوا في غيهم وضلالهم، فعتوا عن أمر ربهم، واجتمع ملأ قومه وكبراؤهم وأهل الثراء منهم على تكذيبه واحتقاره هو ومن اتبعه، واستبعدوا أن يكون واحد منهم ـ لا يمتاز عليهم بالغنى والثراء ـ يأتي لهدايتهم دون أن يكون ملكاً أو يمتاز عليهم بفضل من الغنى والثروة، وأنفوا أن يكونوا مثل الذين اتبعوا نوحا من الضعفاء وزعموا أنهم إنما اتبعوه من غير روية ولا إحكام رأي، وطلبوا إليه أن يطرد الذين آمنوا به تقززا من أن يجتمعوا معهم في دين، فأبى عليهم خوفا من الله تعالى وبين لهم أنه إذا طردهم لا يجد ناصرا يدفع عنه عقاب الله تعالى وبين لهم أنه إنما جاءهم بالهداية ولم يكن رجل مال قد مكنه الله من خزائنه وأطلعه على غيبه فهو حفي بعلم الغيب.

ـ ولم يدع أنه ملك وإنما هو بشر اختاره الله تعالى لدعوتهم وتبليغهم أمر الله تعالى، وأن أتباعه من المؤمنين الذين تزدريهم أعينهم ويدعون أنهم لا يمكن أن يدركوا خيرا أو يحصلوا على سعادة: أمرهم إلى الله الذي هو أعلم بسرائرهم، لأن إدراك السعادة والهداية إلى الحق لا يكونان بالبزة والرواء الرائق للعيون، وإنما يكون ذلك باطمئنان النفس وركونها إلى الهدى مع استيقانه والرضا به وبين أنه لا يطلب بدعوته إياهم أجرا من جاه أو مال، وإنما يطلب أجره من الله تعالى، وهذا كله معنى قوله تعالى في سورة هود:

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا
وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ
وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧)
قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ
عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨)
وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا
بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا
تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا
أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي
أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي
إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

(٣) اجتهاد نوح في دعوته

بذل نوح منتهى وسعه واجتهد بغاية إمكانه أن يتبعه قومه في الإيمان بالله تعالى وأن يقلعوا عن عبادة تلك الأصنام وطال الزمن وهو يغاديهم بالنصح ويراوحهم بالعظة سرا وعلانية وهم لا يزدادون إلا إعراضا ونأيا عن طريقته مع بيان المسرات المترتبة على الإيمان والنعم التي تنتظرهم في عاجل حياتهم من إرسال المطر لسقياهم وسقيا أرضهم ووفرة الأموال وكثرة الذرية.

ويضرب لهم الأمثال ويوجه نظرهم إلى صنع الله تعالى بخلقهم أطوارا مختلفة وعنايته بهم في أدوار حياتهم الجنينية وحياتهم في الدنيا وخلقه السماوات والأرض وأن من بدأهم قادر على إعادتهم ذلك أن من خلق لهم الأرض ومتعهم بما خلق فيها قادر على إعادتهم ومجازاتهم.

وكانوا يتبرمون به وينالونه بالأذى، فعصوه واتبعوا بعض كبرائهم الذين لا يزيدونهم إلا خسارا ومكروا فيما بينهم مكرا عظيما إلى أن نفدت حيلته ويئس من صلاحهم وبيتوا فيما بينهم ألا يذروا عبادة: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر وقالوا في تبرم وأنفة: إنك قد أكثرت الجدل، وإنا لن نترك ما نحن عليه، فأتنا بالعذاب الذي تخوفنا نزوله بنا فرد عليهم بأن أمر عذابهم بيد الله الذي أرسله لا بيده.

اقرءوا إن شئتم قوله تعالى في سورة نوح:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا
اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ
إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤)

قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا ﴿٥﴾ فلم يزدهم دعائي إلا
فرارا ﴿٦﴾ وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في
آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا
﴿٧﴾ ثم إني دعوتهم جهارا ﴿٨﴾ ثم إني أعلنت لهم وأسررت
لهم إسرارا ﴿٩﴾ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ﴿١٠﴾
يرسل السماء عليكم مدرارا ﴿١١﴾ ويمددكم بأموال وبنين ويجعل
لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴿١٢﴾ ما لكم لا ترجون لله وقارا ﴿١٣﴾
وقد خلقكم أطوارا ﴿١٤﴾ ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات
طباقا ﴿١٥﴾ وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ﴿١٦﴾
والله أنبتكم من الأرض نباتا ﴿١٧﴾ ثم يعيدكم فيها ويخرجكم
إخراجا ﴿١٨﴾ والله جعل لكم الأرض بساطا ﴿١٩﴾ لتسلكوا منها
سبلا فجاجا ﴿٢٠﴾ قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده
ماله وولده إلا خسارا ﴿٢١﴾ ومكروا مكرا كبارا ﴿٢٢﴾ وقالوا
لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق
ونسرا ﴿٢٣﴾ وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا ﴾

وفي عجبهم أن يكون الرسول بشراً منهم: نزل قوله تعالى في سورة الأعراف:

﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ﴾

ومن حمقهم وتبرمهم بنوح وبعدهم عن استعمال العقل وارتياد ما هو أنفع لهم أنهم:

﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾

فرد عليهم نوح بما قصه الله تعالى في قوله:

﴿ قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ﴿٣٣﴾ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون ﴾

(٤) يأس نوح من هداية قومه

ولما بلغ نوح درجة اليأس من إيمان قومه بعد خمسين وتسعمائة سنة ـ على ما نصه القرآن ـ أقامها فيهم يدعوهم ولا يألوهم نصحا: كان ما قصه الله بقوله:

﴿ وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾

(هود: ٣٦)

وتوجه إلى ربه بالدعاء عليهم فقال:

﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴿٢٦﴾ إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ﴾

(نوح: ٢٦ : ٢٧)

(٥) نوح يصنع السفينة

أمره الله تعالى بعمل الفلك لتكون أداة لنجاته ومن معه من الغرق العتيد أن يأتي على القوم، فصاروا إذا مروا عليه سخروا منه ومن عمله، ولعل أشد ما أثار سخريتهم منه أن علموا أنه يعمل تلك السفينة لينجو بها ومن معه من العذاب النازل بهم استعدادا منهم لوقوعه، فكان هو أيضا يسخر منهم ومن غفلتهم عن الحق وبلادتهم عن أخذ الحيطة لأنفسهم باتباعه بإحسان وتنجية أنفسهم، وصار يتهددهم بذلك العذاب.

«٦» إتمام نوح سفينته

فلما أتم نوح عدته وجاء الموعد ورأى الأمارة التي بينه وبين ربه على ابتداء أمر الطوفان وهو أن يفور تنور أهله الذي يعملون فيه الخبز بأن ينبثق الماء فيه أمره الله تعالى أن يحمل في السفينة أهله ويدخل فيها من كل حيوان وطير ووحش زوجين اثنين وأهله إلا زوجه وأن يأخذ معه من آمن من قومه وكانوا قليلا، قيل كانوا ستة وقال بعضهم: كانوا أربعين رجلا وامرأة، فلما استووا على ظهر السفينة حلت عزاليها السماء، وانفجرت عيون الأرض، وحملت المياه السفينة ومن فيها، ومكثت ما شاء الله أن تمكث إلى أن غرق كل ما على الأرض من إنسان وحيوان، ثم استقرت السفينة على الجودي من جبال أراراط.

ولما أراد نوح دخول السفينة نادى ابنه وكان في معزل عنه وقال:

﴿ يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ﴾

فأبى أن يلبي نداء والده المشفق لأنه لا يثق بصدق والده من أن كل من كان خارجا عن السفينة هالك:

﴿ قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ﴾

فهلك ذلك الولد.

«٧» استشفاع نوح في ابنه

وأراد نوح أن يستنجز وعد الله بنجاة أهله فقال:

﴿ رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ﴾

فرد الله عليه بأنه ليس من أهله وعاتبه في أن يسأله ما ليس له به علم إذ كان من حق نوح أن يعلم أن من كان خارج السفينة فليس ممن وعده الله بنجاتهم، فاعتذر نوح عن ذلك وطلب المغفرة والرحمة على ما فرط منه إلى أن تمت المدة التي لم يكن للسفينة أن تقر فيها على الأرض، واستوت السفينة على جبل الجودي من «ديار بكر» وخرج من في السفينة وبارك الله فيهم فكثروا وملأوا الأرض ولم ينسل من كان مع نوح من غير أبنائه.

قال الله تعالى:

﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾

اقرءوا قوله تعالى في سورة هود:

﴿ واصنع الفلك بأعيننا
ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴿٣٧﴾
ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه
قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون
﴿٣٨﴾ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب
مقيم ﴿٣٩﴾ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها
من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول
ومن آمن وما آمن معه إلا قليل ﴿٤٠﴾ وقال اركبوا
فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم
﴿٤١﴾ وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه
وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ﴿٤٢﴾
قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم
من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من
المغرقين ﴿٤٣﴾ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي
وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل
بعدا للقوم الظالمين ﴿٤٤﴾ ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني
من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ﴿٤٥﴾

﴿ قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴿٤٦﴾ قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ﴿٤٧﴾ قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾

مسائل

الأولى: هل عم طوفان نوح الكرة الأرضية

والجواب: أن بعض العلماء يميل إلى عمومه ويقول بعض علماء الجيولوجيا: إننا كلما بحثنا في أعالي الجبال وجدنا بقايا حيوانية من الأحياء التي لا تعيش إلا في الماء: وهذا يستدعي وجود طوفان على هذه الجبال بل عدد من الطوفانات لوجود الاختلاف في عمر هذه البقايا، فلا مانع من أن يكون طوفان نوح أحدها ويكون قد عم ويستأنس لذلك بقوله تعالى:

﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾

ويميل فريق إلى أن الطوفان لم يكن عاما بل طغيان الماء كان على الجهة التي كان يسكنها نوح وقومه وأما بقية بقاع الأرض فلم يعمها هذا الطوفان، ويستأنس لذلك بأن الهند كانوا يزعمون أن عمران بلادهم يمتد في الماضي إلى تاريخ أبعد من الذي قدرته التوراة لنوح وطوفانه وأن عمرانهم متصل من أعمق أجيال التاريخ إلى اليوم وأنتم تعلمون أني غير واثق من التاريخ الذي تقدره التوراة؛ فربما كان نوح أبعد من ذلك بعدا يشمل ما يدعيه أهل الهند.

وعلى كل حال فالمسألة ليس فيها نص من القرآن، بل كل ما فيه من هذه الناحية أن قوم نوح كفروا وعصوا الرسول فأغرقهم الله بالطوفان، ونجى نوحا ومن معه في الفلك وجعل ذريته الباقين؛ فالعموم محتمل والخصوص محتمل.

والذي أميل إليه أن يكون خاصا وأن النوع الإنساني لم يكن منتشرا في جميع الكرة بل كانوا متحصرين في الناحية التي عمها الطوفان، وأنهم قد هلكوا وبقي نوح وذريته.

الثانية: ما ذنب الأطفال من قوم نوح حتى هلكوا مع الآثمين من آبائهم وأمهاتهم.

والجواب: أن الله سبحانه وتعالى جرت عادته بأن النقمة لا تصيب الذين ظلموا خاصة وفي علم الظالمين بهلاك أولادهم معهم زيادة تعذيب ونكال لهم؛ على أننا في كل يوم نرى الأطفال يهلكون بمختلف الأمراض وليس ذلك عقابا للأطفال على ذنوب ارتكبوها أو آثام اقترفوها ولكن ذلك من باب وجود المسبب عند وجود سببه وتلك الأسباب هي الأمراض والعلل التي هي جند الله

﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾

وبهذا لا نحتاج إلى ما تكلفه بعض العلماء والمفسرين من أن الله تعالى أعقم أرحام نساء قوم نوح قبل الطوفان بأربعين سنة فلم يولد لهم في تلك المدة مولود، وبذلك اشترك جميع قومه في الإثم وهم مكلفون فحق عليهم العذاب وحاق بهم الهلاك.

على أننا نرى الزلازل تعمل عملها في الناس بلا تمييز بين البار والفاجر وتخسف الأرض بسكانها كما حصل في سان فرنسيسكو بأمريكا في زلزالها المشهور وقد وقع في زماننا وكما حصل في زلزال اليابان سنة ١٩٢٣ وهو قريب العهد منا جدا وكما يحصل في إيطاليا بسبب بركان «فيزوف» فقد تطغى حممه فتغطي البلاد القريبة منه فلا يشعر أهل القرية إلا بالحمم البركانية يسيل سيلها في طرق بلدهم فيهلكهم وتغطيها وهذا حاصل كثيرا.

وهذه الطيارات التي تسقط من الجو بأسباب مختلفة لا يهلك من هلك فيها بآثامهم ولا ينجو فيها الناجون ببرهم ولكن أحاط قسمت وجدود وما حادثة المنطاد الانجليزي «ر١٠١» سنة ١٩٣٠ منا ببعيدة، وكذلك البواخر الجبارة العظيمة الحجم والقوة «كتايتانك» التي غرقت والباخرة الانجليزية «لوزيتانيا» التي غرقت في أيام الحرب العظمى وكان في كلتيهما من العلماء والكتاب والأغنياء والمهندسين والمخترعين عدد عظيم، فقد هلكوا بآجالهم:

﴿ إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾

الثالثة: أين جبل الجودي الذي استوت عليه سفينة نوح؟

والجواب: جبل الجودي في نواحي ديار بكر من بلاد الجزيرة، وهو يتصل بجبال أرمينية وقال في القاموس المحيط: والجودي جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام، ويسمى في التوراة «أراراط».

الرابعة: ما حجم سفينة نوح؟

والجواب: أن حجمها وأبعادها لم ينص عليها في القرآن، وإنما وصفت بأنها «الفلك المشحون» وبأنها «ذات ألواح ودسر» أي مسامير.

وإنما ذكر حجمها في التوراة.

الخامسة: ما هي مسألة نوح في ابنه وهل كان ابنه حقيقة؟

والجواب: أما كونه ابنه فظاهر القرآن انه ابنه حقيقة، وإنما نفى كونه من أهل نوح لأن النجاة إنما تكون للمؤمن، فأخذ نوح بظاهر قوله تعالى:

﴿ إنا منجوك وأهلك ﴾

وغفل عن شرط النجاة وهو الإيمان بنبوة نوح وما جاء به من الحق، وأن الأهلية الحقيقية تكون معدومة الثمرة مع الكفر ومجانبة الإيمان ومخالفة الداعي إليه؛ فهي وسيلة لاغية وسبب منقضب، وهو الرأي الذي أميل إليه.

وقال آخرون: إنه كان ابن امرأته من غيره ولم يكن ابنا حقيقيا له، بل كان ربيبا نشأ على أن يناديه نوح بلفظ ابنه وكان كافرا وظن نوح أن وجوده في حجره يدخله في أهله الذين وعد من الله بنجاتهم.

وقال غيرهم: انه كان من الزنا ونوح لا يعلم بذلك، ويستأنسون لذلك بقوله تعالى:

﴿ إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ﴾

وبقوله تعالى:

﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾

(التحريم: ١٠)

والذين يخالفونهم يستبعدونه ويعدون كبيرا أن تكون امرأة أحد الأنبياء زانية؛ لما في ذلك من الهجنة على النبي وقد فات هؤلاء أن الكفر أشد ذنبا من الزنا وامرأة نوح قد ضربها الله مثلا في الكفر؛ ومن أتى الذنب الأكبر يهون عليه أن يأتي بما هو أصغر منه وإن كنت لا أقول إنه من الزنا، وإنما أنا

أناقش مبدأ عصمة نساء الأنبياء فقط وما كان منا لأمر فالمناقشة غير مجدية ولا نخلص منها إلى رأى قاطع فى الموضوع، وإنما هى احتمالات وقد علمتم ميلى إلى الرأى الأول وهو انه ابنه حقيقة.

ولعل الذين يريدون إبعاد ابن نوح الهالك عنه يرون عظيماً أن يكون ابن النبى المرسل كافرا؛ فهم يريدون إبعاده عنه بكل وسيلة أما أنا فلا أرى بعدا فى ذلك ولا غضاضة منه على النبى وأى فرق بين أن يكون ابنه كافرا وبين أن يكون أبوه كافرا وقد كان إبراهيم نبيا مرسلا وأبوه كافرا يعبد الأصنام وينحتها ويبيعها.

وهؤلاء اليهود أبناء يعقوب بن اسحاق ابن ابراهيم قد كفر بعضهم ولعنهم الله وهم بنو الأنبياء

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾

ذكرت قصة نوح وطوفانه فى التوراة بعبارة واسعة، وهى تخالف ما جاء فى القرآن الكريم مخالفة سلبية، بمعنى أنها سكتت عن بعض الأشياء المذكورة فى القرآن فلم تتعرض لها، وهى:

(١) مسألة ابن نوح واسمه «كنعان» كما يقول بعض المفسرين، فان القرآن تعرض لها وذكرها، والتوراة لم تذكر أنه كان له من الأولاد سوى: سام، وحام، ويافث.

(٢) مسألة زوج نوح: لم تذكر أن نوحا كانت زوجته كافرة وهلكت مع قومه الهالكين، بل ذكرت أنه أمر أن يدخل زوجته السفينة مع من دخلها من المؤمنين، فدخلت ونجت، وهذا ليس دليلاً على أن نوحا لم تكن له زوجة كافرة، لاحتمال أنه كان له زوجتان: إحداهما كافرة هلكت، والأخرى كانت مؤمنة نجت.

(٣) بقيت مسألة ثالثة: وهى أن القرآن لم يتعرض لعموم كل الأرض بالطوفان، والتوراة تعرض لذلك ونصت على أن الأرض قد علاها الماء خمس عشرة ذراعا، وباد كل ذى حياة من إنسان ووحش وطير ودبابات على وجه الأرض، والقرآن لم يذكر الا إغراق قوم نوح وامرأته.

وأنه جعل ذريته هم الباقين، ولم يذكر عموم الأرض ولا ارتفاع الماء خمسة عشر ذراعا فوق الجبال، وهذه الآيات التى ذكرت فى التوراة.

ملاحظة

يميل بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى (وفار التنور) يشير إلى أن سفينة نوح كانت بخارية مستدلاً بقوله (وفار التنور). وأن قوم نوح كانوا قد بلغوا فى المدنية شأوا بعيداً فاستخدموا البخار وأجروا به السفن. ولست أميل إلى هذا لأنه يقتضى أن التنور يفور من نفسه، بل الذى أفهمه أن الأرض لما هيأ الله الطوفان كانت ممتلئة بالماء من تحتها إشارة إلى قربه، ففار تنور أهله الذى يخبزون فيه.

تنبيه

وإلى القراء مسألة لم أر لأحد من المفسرين كلاماً فى شأنها: ذلك أن المتأمل فى الكتاب الكريم يرى أن ابن نوح قد هلك بدعوة أبيه نوح عليه السلام، فإنه لما دعا على قومه بقوله:

﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾

لم يستثن ابنه وقد كان كافراً، فدخل فى عموم من دعا عليهم نوح بالهلاك: هذا أولاً.

وثانياً: أن نوحا دعا ربه فقال

﴿ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾

لم تشمل هذه الدعوة ابن نوح، فإنه وإن كان قد دخل بيته فلم يكن مؤمنا: فكأنه مستثنى من هذه الدعوة.

ثالثاً: أنه قال بعد ذلك

﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾

فكان ابنه داخلاً فى عداد الظالمين؟ لأنه كان كافراً والظلم هو الكفر.

عمر نوح

ذكر الكتاب الكريم أن نوحا مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما وذكرت التوراة أن آدم عمر ثلاثين وتسعمائة سنة وذكرت أيضا أن الطوفان ابتدأ فى السنة الأولى بعد ستمائة من ولادة نوح عليه السلام وذكرت كثيرا من الأنبياء وغيرهم وأنهم عمروا عمراً طويلاً ـ ونحن لا نجد معمراً يعمر مثل هذا العمر أو نصفه أو ربعه من زمن طويل، وهؤلاء الفراعنة فى مصر نجد أجسامهم كأجسام أهل هذه الأيام، وأعمارهم لا تختلف عن أعمارنا، وقد مر لهم أربعون قرنا أو أكثر، فكيف يكون ذلك؟

والذى أراه أنه لا مانع من أن يعمر آدم ومن قرب منه أعماراً طويلة، لأن النوع الإنسانى كان فى بدء نشأته لم يحمل هموماً ولم تعتوره الأمراض المختلفة ولم تنهك قوته الأطعمة التى لا يقدر على هضمها، فكان من المعقول أن يعيش طويلاً. وأما نحن وأمثالنا ممن كانوا قبل أربعين قرنا فقد جئنا بعد أن أنهكت النوع الإنسانى الأمراض وطحنته الأدواء؛ فالواحد منا عصارة لآلاف الأمراض التى انتابت آباءه وأمهاته، فلم تعد قوانا تتحمل العمر الطويل.

وعند العلماء بالطب والأحوال الاجتماعية أن الإنسان قواه محدودة والحياة العريضة تستنفدها بسرعة بخلاف الحياة الضيقة، فإنها تكون طويلة لقلة ما يستنفد من قوى الأجسام بتلك الحياة؛ فنحن الآن لا نعيش عيشة البساطة التى كان يعيشها آدم ومن قرب منه، بل نتفنن. فى أنواع الطعام ولذائذ المعيشة بما ينهك قوانا، فلا غرابة أن تكون أعمارنا قصيرة، وقد اجتمعت عليها الأمراض المتوارثة والتبسط فى العيش. ويقول بعض الأطباء الألمان: إن إنسان هذا الزمان يمكن أن يعيش ثلاثمائة سنة إذا اتبع نظاماً خاصاً.

وهنا رأى آخر: وهو أن الأقوام الأولين كانوا يعدون كل شهر عاماً، فإذا قالوا ألفا ومائتى سنة فإنما يعنون مائة عام من أعوامنا. وقد أشار إلى ذلك المعرى بقوله:

ورووا للمعمرين امورا
لست ادرى ما هن فى المشهور
اتراهم فيما تقضى من الأيام
عدوا سنيهم بالشهور
كلما لاح للعيون هلال
كان عاماً لديهمو فى الدهور
هكذا ينبغى وإلا فإن الـ
عقل يثنى فى حالة المبهور

ولكنى متمسك برأيى وهو الأول وإن كان بعض الأطباء يرى الإصابة بالأمراض تورث نسلهم مناعة.

بنو إسرائيل فى الكتاب والسنة



٣



للأستاذ الدكتور/ محمد سيد طنطاوى

تاريخهم منذ الخروج من مصر

بعد أن تتبعنا أحوال بنى إسرائيل منذ هجرتهم إلى مصر على يد يعقوب ـ عليه السلام ـ إلى خروجهم منها على يد موسى ـ عليه السلام ـ فلنبدأ الحديث عن مرحلة أخرى من مراحل تاريخهم وهى:

تاريخهم منذ خروجهم من مصر إلى تأسيس مملكتهم حوالى سنة ١٠٩٥ ق. م.

كان خروج بنى إسرائيل من مصر حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وبعد أن رأوا غرق فرعون بأعينهم سار بهم موسى ـ عليه السلام ـ إلى أرض فلسطين بالشام، مؤملاً أن يصبحوا أمة قوية بإيمانها وصالح أعمالها. فقد ترتب على خروجهم من مصر وهلاك فرعون أمام أعينهم أن أصبحوا أحراراً فى شئونهم وأحوالهم، بعد أن كانوا يذوقون فى مصر سوء العذاب على أيدى فرعون وجنده.

يقول صاحب تاريخ الإسرائيليين «وقد كان تاريخهم إلي وقت خروجهم من مصر، تاريخ أسرة صغيرة أخذت تنمو وتزداد حتى صارت قبيلة كبيرة لا كيان لها ولا حكومة منها، ولا شارع أو وازع فيها ينظر في أمورها ويرد قويها عن ضعيفها، متفرقة فى أرض مصر عرضة للعبودية والسخرة والاستبداد والإهانة، أما بعد الخروج فإنهم تألفوا شعباً واحداً وأمة واحدة لها قائدها من بنيها، وجيش يقوم على حمايتها، وحاكم يتولى أمورها وشئونها وأخذت تبدو فيها صفات الأمة المستقلة، فإنها لم تكد تغادر مصر، حتى بدأ الشارع في سن النواميس والقوانين، والشرائع الدينية والأدبية والمدنية! كما تكون فى الأمة المستقلة القائمة بنفسها، وعليه فتاريخ الإسرائيليين لا يبتدئ إلا بعد خروجهم من مصر، وتاريخهم هذا يستغرق قروناً عديدة، اتفق لهم فى خلالها كثير من الحوادث العادية من حروب وتقدم وانحطاط..[1]».

ولكن بنى إسرائيل لم يقدروا نعمة الحرية، ولم يشكروا الله على إنجائه لهم من عدوهم، ولم يطيعوا نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ الذى جاء لهدايتهم وإصلاحهم والدفاع عنهم، بل آذوه إيذاء شديداً؛ وهذه بعض القبائح التي صدرت عنهم وهم فى طريقهم معه إلى أرض الشام.

١ ـ بعد أن سار بهم موسى ـ عليه السلام ـ فى أرض سيناء فترة من الوقت، جاعلاً وجهته أرض فلسطين من بلاد الشام، ثاروا عليه وعلى أخيه هارون ـ عليهما السلام ـ وقالوا لموسى وهارون ـ كما تحكي التوراة عنهم:

«ليتنا متنا فى مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزا للشبع فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكى تميتا كل هذا الجمهور بالجوع.. لماذا أصعدتمانا من مصر؟ أمن أجل أن نموت نحن وأولادنا ومواشينا بالعطش[2]...؟».

وتحكى التوراة أن موسى ـ عليه السلام ـ ضاق بهم ذرعاً لكثرة جهالاتهم وسوء أعمالهم، وأنه تضرع إلى الله قائلاً: «رب، لم ابتليت عبدك ووضعت أثقال هذا الشعب علىّ؟ وهل أنا الذى ولدتهم حتى تقول لى: احملهم فى حجرك كما تحمل الحاضن الرضيع، وإنى لست طائقاً حمله وحدى؛ لأنه ثقيل علىّ وإلا فاقتلنى ولا أرى بليتى..[3]».

٢ ـ بعد أن رأى بنو إسرائيل غرق فرعون بأعينهم، وساروا مع موسى ـ عليه السلام ـ إلى بلاد الشام، شاهدوا قوماً[4] يعبدون أصناما لهم، فما لبث بنو إسرائيل بعد مشاهدتهم لهؤلاء الوثنيين إلا أن قالوا لنبيهم موسى ـ عليه السلام ـ اجعل لنا أصناماً نعبدها، كما أن لهؤلاء أصناماً يعبدونها وذلك لأن الوثنية التى عاشوا فيها فى مصر كانت مازالت عالقة بنفوسهم الضعيفة، وقد حكى القرآن الكريم عنهم هذه الرذيلة فقال تعالى:

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۞ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۞ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

«الأعراف: ١٣٨-١٤١»

---

(١) تاريخ الإسرائيليين لشاهين مكاريوس ص ١٥ (طبعة المقتطف سنة ١٩٠٤).

(٢) سفر الخروج/ الإصحاح السادس عشر.

(٣) سفر الخروج الإصحاح الحادى عشر.

(٤) قيل: إن هؤلاء القوم كانوا من الكنعانيين، وقيل كانوا من لخم.

٣ ـ خلال سير موسى ـ بقومه في صحراء سيناء إلى بلاد الشام، واعدا الله ـ تعالى ـ موسى أن يعطيه التوراة لتكون هدى لبني إسرائيل، بعد أربعين يوماً يصومها، فلما حل الموعد ترك موسى بني إسرائيل مستخلفاً عليهم أخاه هارون وذهب إلى الطور لتلقى التوراة وقد حكى القرآن الكريم عنهم ذلك فقال تعالى:

﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

«الاعراف :١٤٣»

قال الإمام ابن كثير: «يقول ـ تعالى ـ ممتناً على بني إسرائيل بما حصل لهم من الهداية بتكليمه موسى ـ عليه السلام ـ وإعطائه التوراة، وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم، فذكر ـ تعالى ـ أنه واعد موسى ثلاثين ليلة، قال المفسرون: فصامها موسى ـ عليه السلام ـ فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة، فأمره الله ـ تعالى ـ أن يكمل بعشر أربعين، وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي؟ فالأكثرون على أن الثلاثين هي ذو القعدة والعشر عشر ذي الحجة، قاله مجاهد ومسروق وابن جريج. وروى عن ابن عباس وغيره، فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر وحصل فيه التكليم لموسى ـ عليه السلام ـ فلما تم الميقات وعزم موسى على الذهاب إلى الطور كما قال تعالى:

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾

فحينئذ استخلف موسى على بني إسرائيل أخاه هارون ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد، وهذا تنبيه وتذكير وإلا فهارون ـ عليه السلام ـ نبي شريف كريم على الله، له وجاهة وجلالة ـ صلوات الله عليه وعلى سائر الأنبياء (٥).

لكن ماذا حصل من بني إسرائيل بعد أن تركهم موسى لتلقى التوراة؟

لقد حصل منهم أنهم انتهزوا لين جانب هارون ـ عليه السلام ـ معهم، فعبدوا عجلاً جسداً له خوار، صنعه لهم السامرى من حلي نسائهم التى استعاروها من قبط مصر، وحاول هارون أن يصدهم عما ترددوا فيه من ضلال وكفر، ولكنهم أعرضوا عنه قائلين ـ كما حكى القرآن الكريم عنهم في سورة طه

﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾

فلما اشتد عليهم في النهي عن عبادة العجل، تطاولوا عليه وكادوا يقتلونه.

وأعلم الله ـ تعالى ـ موسى أن قومه قد فتنهم السامرى بعبادة العجل فعاد إليهم مغضباً حزيناً، وأخذ يوبخهم بقوارص الكلم، وينذرهم بسوء المصير فاعتذروا إليه بأن السامرى هو الذى أضلهم.

وظن موسى ـ عليه السلام ـ أن أخاه هارون قد قصر معهم، فعاتبه ولامه على ذلك، فأخبره هارون ـ عليه السلام ـ بأنه لم يقصر في نصيحتهم وزجرهم عن عبادة غير الله، ولكنهم لم يستجيبوا له، بل آذوه وكادوا يقتلونه.

ثم صب موسى ـ عليه السلام ـ جامُ غضبه على السامرى ـ رأس الفتنة ومدبرها ـ فقال له بعد أن سمع كلامه ودفاعه الواهي عن نفسه:

﴿ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ۞ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾

وعلى مشهد من بني إسرائيل نفذ موسى ـ عليه السلام ـ ما توعد به السامرى، فأحرق العجل، وأثبت للجميع أن المستحق للعبادة إنما هو الله ـ تعالى ـ وأن العجل الذي عبدوه ـ بجهلهم وغبائهم لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً.

وقد قص القرآن الكريم قصة عبادة بني إسرائيل للعجل في آيات طويلة من سورة الأعراف وسورة طه، وقد فسرناها بإسهاب في غير هذا الموضع [٦].

ثم أوحى الله ـ تعالى ـ إلي موسى بعد ذلك أن توبة عابدي العجل من قومه لن تكون مقبولة منهم، إلا بقتلهم لأنفسهم، ، فلما نفذوا ما كلفوا به قبل الله ـ تعالى ـ توبتهم، وعفا عنهم، لعلهم يشكرونه على نعمه.

قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

ومعنى الآية الكريمة إجمالا: واذكروا يا بني إسرائيل ـ لتنتفعوا وتعتبروا ـ وقت أن قال موسى ـ عليه السلام ـ لقومه الذين عبدوا العجل حين كان يناجي ربه بعيداً عنهم يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم بعبادتكم غير الله.. فإذا أردتم التكفير عن خطاياكم، فتوبوا إلى بارئكم وخالقكم توبة صادقة، واقتلوا أنفسكم تكفيرا عن خطيئتكم، أو فليقتل من لم يعبد العجل منكم عابديه، ذلكم ـ وهو قتلكم لأنفسكم أو لمن عبد العجل منكم ـ خير لكم عند بارئكم، ففعلتم ذلك فقبل توبتكم

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [٧].

٤ ـ بعد كل هذه الأحداث والإساءات من بني إسرائيل «واصل بهم موسى ـ عليه السلام ـ سيره إلى أرض الشام، وقبل أن يصل بهم إلى الأرض المقدسة التي كان يسكنها الكنعانيون الجبابرة ـ أمرهم أن يعدوا أنفسهم لدخولها، وأن يوطنوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله، واختار منهم اثنى عشر نقيبا، أمرهم أن يتقدموه في دخول الأرض المقدسة ليعرفوا أحوالها وأحوال سكانها ونفذ النقباء ما كلفهم به موسى ـ عليه السلام ـ ثم عادوا بعد تعرفهم على أحوالهم وأحوال سكانها، ليقولوا له: إن الأرض المقدسة تدر لبناً وعسلاً، إلا أن سكانها من الجبارين، وأخذ كل نقيب

---

(٥) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٤٣.

(٦) راجع فصل (رذائل بني إسرائيل) مبحث (عكوفهم على عبادة العجل).

(٧) فسرنا هذه الآية بالتفصيل في فصل (نعم الله على بني إسرائيل وموقفهم منها). مبحث (نعمة إرشادهم إلى ما به يتخلصون من ذنوبهم).

يخذل جماعته عن دخولها، إلا رجلين منهم فإنهما أمرا بني إسرائيل بأن يطيعوا نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ وأن يصمموا على دخول الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم، وبشراهم بالنصر إذا هم اعتمدوا على الله ـ تعالى ـ أخلصوا النية للجهاد، ولكن بني إسرائيل عصوا نصيحة الرجلين الناصحين لهم، كما عصوا نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ فكانت نتيجة جبنهم وعصيانهم، أن ابتلاهم الله ـ تعالى ـ بالتيه أربعين سنة.

وقد حكى القرآن الكريم بأسلوبه البليغ هذه القصة في سورة المائدة[8] فقال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾

هذا وبعد وفاة موسى وهارون عليهما السلام ـ تولى (يوشع بن نون)[9] رئاسة بني إسرائيل وكانوا في ذلك الوقت قد هلك منهم ذلك الجيل الذي تربى على الذل والعبودية، والذي قال لموسى:

﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾

ونشأ منهم جيل آخر تربى خلال مدة التيه على الخشونة وحرية البداوة. فقاده (يوشع بن نون) لدخول الأرض المقدسة.

وتحكي التوراة أن (يوشع) عبر ببني إسرائيل نهر الأردن إلى الأرض المقدسة وأن أول مدينة استطاع (يوشع) ومن معه أن يدخلوها هي مدينة (أريحا) ثم زحف على مدينة (العي) ـ التي هي بين نابلس والقدس من ناحية الشرق ـ وأن بني إسرائيل بعد أن دخلوا هاتين المدينتين قتلوا معظم سكانهما ثم صلبوا ملك (العي) على باب المدينة. ثم حكت التوراة بعد ذلك قصة انتصار (يوشع) ومن معه من بني إسرائيل على الكنعانيين ـ الذين كانوا يسكنون فلسطين في ذلك الوقت ـ وكيف أن بني إسرائيل كانوا يقتلون رجال ونساء وأطفال المدينة التي تقع في أيديهم بأمر الرب.

ففي الإصحاح العاشر من سفر يشوع هذه العبارة «أن يسوع ضرب جميع أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وجميع ملوكها

(٨) فسرنا هذه الآيات في فصل (رذائل اليهود) مبحث (جبنهم عن الجهاد).

(٩) يوشع بن نون أحد أتباع موسى ـ عليه السلام ـ المخلصين، وكان يوشع أحد الرجلين اللذين حرضا بني إسرائيل على طاعة نبيهم موسى في دخول الأرض المقدسة.

وأيسل ـ أهلك ـ كل نسمة كما أمر الرب، ولم يبق باقية منهم فضربهم من (قادش) إلى (غزة) وانتصر عليهم لأن الرب كان يحارب مع إسرائيل»[10].

والذي نأخذه من هذه النصوص أن بني إسرائيل بعد انتصارهم بقيادة (يوشع بن نون) على الكنعانيين أعملوا فيهم السيف، وحرقوا بلادهم، وخربوا ديارهم، ولم ينج من أيديهم إلا من فر من وجوههم..

ويصف صاحب (قصة الحضارة) ما فعله بنو إسرائيل بالكنعانيين فيقول: «كانت هزيمة العبرانيين للكنعانيين مثلاً واضحا لانقضاض جموع جياع على جماعة مستقرين آمنين، وقد قتل العبرانيون من الكنعانيين أكثر من استطاعوا قتلهم منهم، وسبوا من بقي من نسائهم، وجرت دماء القتلى أنهارا وكان هذا القتل ـ كما تقول نصوص الكتاب المقدس ـ فريضة الشريعة التي أمر بها الرب موسى، وزكاة للرب، ولما استولوا على إحدى المدن قتلوا من أهلها اثنى عشر ألفا وأحرقوها وصلبوا حاكمها. ولسنا نعرف في تاريخ الحروب مثل هذا الإسراف في القتل والاستمتاع به.. وقد أقام يوشع حكمه على قانون الطبيعة الذي يقول: «إن أكثر الناس قتلاً هو الذي يبقى حيا» وبهذه الطريقة التي لا أثر فيها للعواطف استولى اليهود على الأرض الموعودة»[11].

«وقد قسم يوشع الأرض التي استولى عليها من الكنعانيين بين الأسباط، واحتوت الإصحاحات من الثالث عشر إلى التاسع عشر من سفر (يوشع) أسماء المدن والحدود التي كانت من نصيب كل سبط، على أن الإصحاحات تفيد أن مناطق ومدنا قد بقيت في حوزة سكانها ولم يستول عليها بنو إسرائيل إلا بعد موت يوشع، بل ومنها من لم يستول عليه بنو إسرائيل، ولم يصبح موطنا لهم قط، كالجزء الجنوبي من فلسطين.

وقد جاء في الإصحاح الرابع والعشرين من سفر (يوشع) أنه مات بعد أن بلغ من العمر مائة وعشر سنين، ودفن في أرض ميراثه في جبل إفرائيم ـ قرب نابلس اليوم[12].

ويصف الدكتور علي عبدالواحد وافي: كيف دخل بنو إسرائيل فلسطين بقيادة (يوشع) وكيف عاشوا فيها فيقول: «وحوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد أغار بنو إسرائيل بقيادة (يوشع) خليفة موسى ـ عليه السلام ـ بعد وفاته، على بلاد كنعان ـ فلسطين وما إليها وهي الأرض المقدسة التي وعدهم الله بها ـ واحتلوها واستولوا على جميع ما فيها من خيرات وثروات، بعد أن أبادوا معظم أهلها، واستعبدوا من أبقوا عليه منهم، فانتهت لديهم بذلك حياة الخشونة والبداوة والتنقل، وافتتحوا عهد الدعة والحضارة والاستقرار، وسكنوا المدن والقرى والمنازل والقصور التي ورثوها عن الكنعانيين، وأخذت مزاولتهم

(١٠) سفر يسوع الإصحاح الأول والسابع والثامن والعاشر.

(١١) قصة الحضارة جـ ٢ ص ٣٢٦.

(١٢) عن تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ـ بتصرف ـ ص ٧٧

لشئون دينهم تسير على طريق منظم تحت إشراف أحبارهم وربانييهم وفقهائهم وسدنة مساجدهم ومذابحهم، وكان معظم هؤلاء يتألفون من نسل لاوى أحد أبناء يعقوب وهم رهط موسى وهارون» (١٣).

وقصة دخول بنى إسرائيل بقيادة (يوشع) الأرض المقدسة قد أشار إليها القرآن الكريم فى آيات متعددة منها قوله تعالى فى سورة البقرة (١٤):

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ۝ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

قال الإمام ابن كثير: «وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع (يوشع بن نون) وفتحها الله عليهم عشية جمعة وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلا حتى أمكن الفتح، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا باب البلد سجداً، شكراً لله تعالى على ما أنعم عليهم به من الفتح والنصر، وإنقاذهم من التيه والضلال» (١٥).

ولكنهم لم يفعلوا فأنزل الله عليهم عذابا من السماء بسبب فسقهم وظلمهم هذا، وأعقب موت (يوشع بن نون) عهد عرف بعهد القضاة، لأن الزعماء والقواد الذين تزعموا، أو قادوا بنى إسرائيل بعد (يوشع) سموا قضاة، وعهدهم امتد إلى أن قامت مملكة بنى إسرائيل على يد (طالوت) المعروف فى التوراة باسم (شاول).

ويبلغ عدد القضاة الذين تولوا حكم بني إسرائيل فى هذه الفترة حوالى خمسة عشر قاضيا، من بينهم (عثنائيل) و(صموئيل) و(هود) و(شمجو) و(باراق) و(يفتاح) و(جدعون) و(شمشون الجبار)..... إلخ.

يقول صاحب (تاريخ الإسرائيلين) فى وصف عهد القضاة «كانت البلاد فى عهد القضاة أشبه شيء بولايات متحدة في كل ولاية سبط من الأسباط الإثنى عشر يحكمه كبار العشائر فيه، وهذه الأسباط جميعاً مرتبطة برباط واحد.. وكانوا يشتركون في الحفلات الدينية الكبرى، على أنهم كثيرا ما ارتدوا عن عبادة الله إلي عبادة الأصنام وفي التوراة «أن ذلك كان سبباً فى تسلط الأجانب عليهم، فكان لهم من قضاتهم هؤلاء قواد يلمون شعثهم ويجمعون شملهم، ولم يكن لهؤلاء القضاة شيء من امتيازات الملوك ولا أبهتهم.. ومن القضاة من انحصر عمله فى رد غارة أو دفع عدو، ومنهم من تولى الحكم طول حياته لحكمته وخبرته»(١٦).

وقد سطر (سفر القضاة) سيرتهم وأحوالهم، وما أصابهم من نكبات خلال مدة حكمهم التي يقدرها السفر المذكور بأربعمائة سنة، ويقدرها بعض المؤرخين المحدثين بمائة سنة.

(١٣) عن كتاب الأسفار المقدسة ص ٨ للدكتور على عبدالواحد وافى، طبع مكتبة نهضة مصر.

(١٤) فسرنا هاتين الآيتين فى فصل (نعم الله على بنى إسرائيل) مبحث نعمة تمكينهم من دخول الأرض المقدسة.

(١٥) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٩٨. (١٦) تاريخ الإسرائيليين ص ١٩.

يقول الأستاذ محمد عزة دروزة:: «وحساب سفر القضاة يجعل حقبة القضاة نحو أربعمائة سنة مع أنها قد لا تزيد على المائة، إذا ما لاحظنا أن الملك الرسمى لبنى إسرائيل قام فى أواسط القرن الحادى عشر (حوالى سنة ١٠٣٠ ق. م)، وأن بنى إسرائيل خرجوا من مصر فى أواخر القرن الثالث عشر (حوالى ٣٢١٠ ق. م)، وأن زعامة موسى ويشوع من بعده استمرت نحو ثمانين سنة، وهذا الرقم ـ وهو الأربعمائة سنة ـ من مبالغات سفر القضاة، شأنه شأن الأسفار الأخرى فى الأرقام» (١٧).

والذى يقرأ (سفر القضاة) يستخلص منه: أن عهد القضاة من أسوأ عهود بنى إسرائيل، ففيه انتشرت بينهم شتى الرذائل والمنكرات، إذ عبدوا الأصنام، وقتلوا المصلحين، وفشا فيهم الزنا.. وقد ترتب على ذلك أن تعرضوا خلال عهد حكم القضاة، لنكبات وغارات عليهم من غيرهم، وكان من بين من غزاهم فى هذه الفترة واستعبدهم (شعنائيم ملك النهرين، وحجلون ملك مؤاب، ويابين ملك حاصور) الكنعانى... وغيرهم.

ويسوق الإصحاح الثانى من سفر القضاة عرضاً إجمالياً لسيرة بني إسرائيل فى عهد القضاة فيقول: «ونشأ من بعدهم ـ أى من بعد يوشع بن نون وأتباعه ـ جيل آخر لا يعرف الرب، ولا ما صنع لإسرائيل. ففعل بنو إسرائيل الشر فى أعين الرب، وعبدوا البعليم، وتركوا الرب إله آبائهم الذى أخرجهم من أرض مصر وتبعوا آلهة أخرى من آلهة الشعوب التي حولهم وسجدوا لها وأسخطوا الرب.. فغضب الرب على إسرائيل فدفعهم إلى أيدى المنتهبين فانتهبوهم، وباعهم إلي أيدى أعدائهم الذين حولهم ولم يقدروا بعد أن يثبتوا فى وجوه أعدائهم. فكانوا حيثما خرجوا تكون يد الرب عليهم للشر كما قال الرب وكما أقسم فضاق بهم الأمر..» (١٨).

وكان آخر قضاة بنى إسرائيل فى هذه الفترة هو (صموئيل) الذى كثرت فى عهده الفوضى والمفاسد، وذلك أنه بعد أن شاخ كان يوكل أبناءه بدله في القيام بشئون القضاء، ولكن أولئك الأبناء كانوا يأخذون الرشوة، ويجورون فى الحكم. فقام بنو إسرائيل بثورة ضده وضد أبنائه، انتهت بزوال عهد القضاة، وحلول عهد الملوك.



(١٧) تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم ص ٨٢.

(١٨) سفر القضاة، الإصحاح الثانى.

من فتاوى الحاخامات(*)



عنوان الفتوى: ضبط الساعة بالاستعانة بساعة الكنيسة
مصدر الفتوى: WWW.MORIYA.ORG.IL. ديسمبر ٢٠٠٥
فتوى من: الحاخام موشيه عمينيل

● معذرة إذا كان هذا السؤال غريباً لكنى أريد أن أسأل هل يجوز أن أضبط الساعة مستعينا بساعة الكنيسة ؟

هل هناك مشكلة فى ذلك تتعلق بالأغيار ؟

●● جواب : حرام ! فأى منفعة من عبادة الأوثان حرام.

والمسيحية توصف بأنها عبادة وثنية ، ولذلك فإن كل ما يتعلق بالديانة المسيحية محرَّم باعتبارها عبادة أوثان ، وأى منفعة منها حرام . . وسوف أذكر لك حقيقة . . فقد روت لى امرأة محافظة على الفرائض الدينية أنها سمعت قبل الغروب صوت «المؤذن» فى المسجد وفكرت فى أن تتحقق من وقت الغروب بمساعدة الأذان للقيام بالطهارة الشخصية ، لكنها شعرت بإحساس رهيب بداخلها فامتنعت والحمد لله عن ذلك .

وهذه بالتأكيد حقيقة صحيحة ، فلا تلتفت لهذه الأصوات الخرمة سواء للتحقق من الوقت أو لأى غرض آخر .

(*) د. منصور عبدالوهاب، فتاوى الحاخامات، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١٠

معركة الهوية بين الأمس واليوم

للدكتور/ حمدى فتوح والى

أسمع نشرات الأخبار وما تحمله من احصاءات وارقام ترصد مايملكه الكيان الصهيونى من تجهيزات عسكرية وقوة تدميرية فلا أشعر بالخوف ولا ينتابنى القلق لكن الذى يشعرنى بالقلق إلى حد الاضطراب ويملؤنى بالخوف إلى درجة الرعب، أن أرى طوابير المنهزمين ثقافيا وأخلاقيا، والمسارعين إلى الانبطاح والانسحاق تحت أقدام أسيادهم من سدنة الفكر الغربى، يبتغون عندهم العزة، ويستمدون منهم القوة، ويحاولون من خلال المؤتمرات واللقاءات والندوات أن يسمعوا أصواتهم لسادتهم، وأن يُظهروا شدة ولائهم وعمق انتمائهم، لكل ما هو أمريكى أو غربى.

وبالرغم من أن ظاهرة المسارعين فيهم ، والمنبطحين تحت أرجلهم ليست جديدة ولا مستحدثة ، فإن الخطير فى هذه الظاهرة هو فى الطريقة التى أصبحت تتم بها فى هذه الأيام . فمن قبل كان هؤلاء المنافقون يُلبسون نفاقهم أقنعة يتسترون خلفها ، ويمنعهم الخجل أو الجبن أو الخوف من الرأى العام أن يصرحوا بولائهم ، أو يجاهروا بانتمائهم ، لكن الجديد المرعب هو ما نراه من كلاحة هذه الوجوه ، وصفاقتها ومجاهرتها بالعمالة ، وترويجهم للهزيمة ، ودفاعهم عن الاستسلام والانبطاح وهى حالة رأينا لها شبها فى تاريخنا المعاصر عندما تمكن الاستعمار البريطانى من زمام الأمور فى مصر ، وبلغ من النفوذ والتأثير حدا جعله يكون أحزابا ، ويؤلف حكومات ، ويفرضها على الشعب كما يشاء ، عند ذلك رأينا قطيعا من المثقفين ، وأصحاب الوجاهة ، ممن كبروا تحت عباءته وفى ظلال نعمته ، ممن أغدق عليهم أسيادهم الانجليز ألقاب الباشوات والأعيان ، ويقودون الأمة إلى هذا النوع من الثقافة اللقيطة ، ويكرسون لديهم الشعور بالتبعية ، ويحاولون أن يقنعوا أبناءهم بأن الانقياد للغرب حكمة ، والانتماء إليه حضارة ، وسلوك سبيله مدنية ، واتباع منهجه قدر لامفر منه . حتى رأينا واحدا من صنعائهم يقول بالحرف الواحد فى كتابه «مستقبل الثقافة فى مصر» : إن سبيل النهضة واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء ،

وهي: أن نسير سيرة الأوربيين، ونسلك طريقهم. لنكون لهم أندادا ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب[1].

بل إن الرجل ليذهب في الدعوة إلى قطع مصر عن جذورها وأصولها حداً بعيداً فيقول مستهزئا بدعاة الأصالة والمحافظة على شخصية مصر الإسلامية:

وإني لأتخيل داعيا يدعو المصريين إلى أن يعودوا إلى حياتهم القديمة التي ورثوها عن آبائهم في عهد الفراعنة في عهد الرومان واليونان أو في عصرها الإسلامي. أتخيل هذا الداعي وأسأل نفسي: أتراه يجد من يسمع له.؟.. فلا أرى إلا جوابا واحداً يتمثل أمامي، بل يصدر من أعماق نفسي، وهو أن هذا الداعي إن وجد لم يلق بين المصريين إلا من يسخر منه ويهزأ به[2].

ولم يكن طه حسين وحده هو فارس هذا الميدان وإنما شاركه آخرون، كانوا لايقلون عنه جرأة في الدعوة إلى اتباع سبيل الغرب، وضرورة المسارعة إلى تبني ثقافته، والانصباغ بصبغته وإن اقتضت إرادة أسيادهم من المستعمرين أن تنظم جهودهم. وتوظف طاقاتهم تبعا لتخصصاتهم. فهذا طه حسين في مجال الثقافة والفكر. وهذا أحمد لطفي السيد في مجال السياسة والفلسفة. وهذا جورجي زيدان يتخصص للطعن في تاريخ الإسلام بسلسلة رواياته التي أسماها «روايات تاريخ الإسلام» وفي مجال الدراسات الاجتماعية جاء شبلي شميل، وسلامة موسى وفي مجال مهاجمة الإسلام والدولة الإسلامية جاء سليم سركيس وفرج أنطون، وسليم نقاش. وفي الطعن في ثوابت الإسلام الأساسية جاء علي عبدالرازق. ليهاجم نظام الإسلام السياسي ممثلا في الخلافة. وإذا كان الانصاف يقتضينا أن نثبت لطه حسين رجوعه عن كثير من هذه الأفكار في أواخر حياته، فإن هذا ماناأمله لأحبتنا من العلمانيين اليوم.

ولم يكن من قبيل المصادفة أن تنهض الصحافة في مصرورقتها نهوضا مفاجئاً وقويا ومؤثراً في وقت واحد فقد نشأت هذه الصحف بتنسيق مباشر بين منشئيها وبين المستشرق الانجليزي هاملتون جب الذي كان يعمل مستشاراً لوزير الخارجية الانجليزي في ذلك الوقت.

وقدأدرك «جب» الأثر الخطير للصحافة والتعليم وعبر عن ذلك في الكتاب الذي أشرف على جمعه وتأليفه والتقديم له والتعقيب عليه، والذي اشترك في تأليفه جماعة من المستشرقين المختلفي الأجناس وهو كتاب «إلى أين يتجه الإسلام» فيقول بعد أن بين ضرورة أن يجرى التعليم على الأسلوب الغربي، وعلى المبادئ الغربية وعلى التفكير الغربي: «.. يجب أن لا ينحصر الأمر في الاعتماد على التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية، بل يجب أن يكون الاهتمام الأكبر على الصحافة.. إلى أن يقول: إن الصحافة هي أقوى الأدوات الأوربية وأعظمها نفوذا في العالم الإسلامي[3].

وإذا استعرضنا أسماء الصحف التي استماتت في خدمة الاستعمار الانجليزي وأدت له أجل الخدمات، وفعلت بالعقلية المصرية المسلمة مالم تفعله الجيوش الصليبية على مدى تاريخها كله وجدنا من أبرزها:

«المقتطف» التي أصدرها يعقوب صروف و فؤاد صروف و«المقطم» التي أصدرها فارس نمر، «وهؤلاء كانوا من أولياء الاستعمار البريطاني ومن أخلص خدامه في مصر، وقال عنهم اللورد كرومر: إنهم هبة السماء له[4]:

ويضاف إلى هؤلاء فريق آخر من الصحفين أمثال .آل سركيس ومكاريوس وسليم تكلا وبشارة تكلا وآخرون.

إن من يراجع أحداث الفترة في بدايات القرن العشرين سيرى تنسيقا محكما. ودقيقاً، ومتكاملاً في منظومة التغريب من خلال التعليم والصحافة والثقافة والفكر والأدب ونظريات الاجتماع، وسيجد أن الساحة قد خلت من أسماء الأعلام المسلمين، واتسعت لأعلام الفكر الغربي من أمثال «دور كايم» في الاجتماع، «وفرويد» في علم النفس ونظريات التربية. و«دارون» في مجال علوم الإنسان من حيث التطور والثبات. و«ماركس» في الاقتصاد. وظهرت الدعوة إلى السفور ونبذ الحجاب بحجة تحرير المرأة.

وكما نهض نصارى الشام بدورهم في مجال الصحافة. كان منهم فريق آخر قد تخصص في إشاعة ثقافة الغرب وأخلاقه ومبادئه عن طريق «المسرح» من أمثال «يعقوب صنوع» و«جورج أبيض» و«سليم نقاش» و«مارون نقاش» وغيرهم.

وبينما هؤلاء جميعا يعملون كل في ميدانه كان رجل الدين النصراني «دنلوب» يتولى بنفسه وضع الخريطة الذهنية لعقول أبناء مصر عن طريق سيطرته وإشرافه على وضع مناهج التعليم في مصر، ولم يكتف باستقدام المعلمين من أوروبا ليصنعوا لمصر عقلية أبنائها، وإنما انتقى من أبناء العائلات المصرية المعروفة، خيرة أبنائها وأذكاهم، وأرسلهم في بعثات تعليمية إلى أوروبا، وهناك تلقفتهم أيدى المبشرين، ليعودوا جنوداً مخلصين لفكر الغرب وثقافته. وما نراه اليوم من قوافل المنبطحين والمنهزمين. والراغبين في تبجح وفجور إلى اتباع الغرب والمسارعة إلى إظهار الولاء وشدة الانتماء إليهم، هم أبناء وأحفاد هؤلاء المارقين. الذين باعوا أنفسهم لشياطين الغرب على مدى سنوات القرن العشرين.

وإذا كانت تلك الهجمة الشرسة منذ بدايات القرن الماضي، قد وجدت لها رجالاً صادقين وجنوداً مخلصين، حملوا راية القرآن، واستماتوا تحتها حتى لاتسقط، واستطاعوا أن يكشفوا

(١) مستقبل الثقافة في مصر - طه حسين - فقرة ٩ ص٤١

(٢) المصدر نفسه

(٣) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر جـ٢ د / محمدمحمد حسين ص٢١٧ مؤسسة الرسالة

(٤) صفات من تراث الإسلام - أنور الجندي - والاعتصام

بأضواء القرآن الباهرة أباطيل هؤلاء المنهزمين فإن الميدان اليوم ينشد ربانه، ويستنفر فرسانه، ويستنهض همة المخلصين من أبناء الأمة، لكى يؤدوا واجبهم دفاعا عن دينهم، وصيانة لعقيدتهم، وحراسة لأطفال هذه الأمة العظيمة.

لقد وجدت الموجة الأولى التى بدأت مع أواسط القرن التاسع عشر وبلغت ذروتها فى بدايات القرن العشرين، رجالا أفذاذا واجهوا الباطل بشمم ولطموا وجهه القبيح بقوة، ونظروا إلى الساقطين فى وحله نظرة ازدراء واحتقار. ومن هؤلاء الشوامخ الأفذاذ : الإمام أحمد بن عرفان وحفيده أبو الحسن الندوى فى الهند. والإمام أبو الأعلى المودودى فى باكستان. والإمام سعيد النورسى فى تركيا. والإمام أحمد بن عبدالله المهدى فى السودان. والإمام محمد بن عبدالوهاب فى الجزيرة العربية. والإمام السنوسى فى ليبيا وتلميذه المجاهد البطل عمر المختار. والإمام حسن البنا فى مصر، وتلاميذه الأعلام الذين حملوا راية الجهاد، وأعادوا للإسلام عزته، ورفعوا فى أرجاء الأرض رايته من أمثال الشيخ محمد الغزالى فى مصر. والدكتور مصطفى السباعى فى سوريا والشيخ محمد محمود الصواف فى العراق، والشهيد محمد محمود الزبيدى فى اليمن والشيخ أحمد ياسين فى فلسطين.

كما قام فى مصر رجال أفذاذ خدموا الإسلام فى صمت، وقدموا له أغلى ما يملكون، من أمثال: أحمد تيمور باشا. الذى استطاع بنفوذه وجاهه، أن يُعين على إنشاء الجمعيات الإسلامية التى قاومت التبشير والاستشراق ووقفت بقوة أمام نفوذ التغريب والغزو الثقافى بعد سقوط الخلافة فى مصر، واستطاع أن يمكن السيد محب الدين الخطيب فى إصدار مجلة «الفتح» الأسبوعية فى وقت لم يكن ذلك ميسورا، فى نفس الوقت الذى استطال فيه دعاة التغريب، وظهر كتاب «الشعر الجاهلى» لـ «طه حسين» والإسلام وأصول الحكم - لعلى عبدالرازق. وفتحت صفحات جريدة «السياسة» ومجلة الهلال والمصور لسلامة موسى ومحمود عزمى، واسماعيل مظهر وغيرهم. للدعوة للبهائيين وتيسير السبل للتغريب، ومحاربة اللغة العربية والإسلام، ولولا ما بذله الرجل من جهد ما وجد أمثال مصطفى صادق الرافعى، والخضر حسين، وعبدالعزيز جاويش وغيرهم من المجاهدين المخلصين مجالا للدفاع عن الإسلام

لقد قام كل مخلص بدوره فى مواجهة الهجمة الأولى. فمن لهجمة اليوم ؟ وهى أشد شراسة، وأعتى أسلحة، وأعمق أثراً. وأخطر أسلحتها جميعا حالة الخواء الروحى. والفراغ الدينى. والغياب الفكرى والثقافى. الذى يتيح لباطلهم المزخرف أن يمتد فى فراغنا، وأن يتمكن من قلوب شبابنا وبناتنا، على أيدى زمرة المستغربين الذين ما كان لهم أن يوجدوا إلا فى غياب المؤمنين الصادقين.

وإذا كان الأستاذ «فهمى هويدى» قد أطلق على هؤلاء الخائنين لتراثهم وأمتهم وصف «طوابير المنهزمين» وأسماهم غيره «أصحاب ثقافة الاستسلام» فإن الله سبحانه وتعالى قد أسماهم " المنافقين" وحدد أوصافهم بقوله

﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾

لقد حددت الآية الكريمة ملامحهم، وأظهرت حقيقتهم، وفضحت أسرارهم وكشفت مقاصدهم وأهدافهم، وسخرت من هذا الهدف الذليل الدنىء فى استفهام تهكمى ساخر

﴿ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾

إن المسارعة إلى الأعداء رغبة فيهم أو رهبة منهم، لاتصدر إلا عن قلب مريض خال من الإيمان بالله، والثقة فيه وحب التوكل عليه.

﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾

إنه مرض يصيب النفس فيفقدها مقومات المروءة والرجولة، تلك المقومات التى تمنع صاحبها من أن يسعى فى تحقير أصله ووطنه، ويعلى من شأن أعدائه وقاتليه «ولو أنه وثق بنفسه، واعتز بشخصيته، وأخذ ما تعلمه مأخذ الناقد الممحص، لاستبانت له الحقائق، ولأهدى لأمته خيراً كثيراً، ولكنه ألقى بكل ذلك عن كاهله، وألغى وجوده وإرادته، وأسلم نفسه لسادته يملأونها بما يشاؤون. ويفرغون منها ما يريدون... وهذا شر أنواع الاستعباد لأنه الفناء التام للشخصية، ومن هنا تجد صاحب الثقافة الأمريكية يغنى بأمريكيته، وصاحب الفرنسية يمجد فرنسيته، ومن تعلم فى انجلترا يجعل الانجليز مثله الأعلى وهكذا.. وحسبك من هؤلاء جهلا وضلالة، بل عمى وبلادة - أن أحدهم لايشرع قلماً يعيب به على سادته أنهم يستذلون الضعفاء، ويحتلو ن أوطانهم، ويستأثرون بثرواتهم، بل أنه لا يكف عن التغنى بما يتوهم لهم من مزايا ومآثر (*).

إن مثل هؤلاء الكتاب. الذين عميت بصائرهم وانتكست فطرتهم وفسدت ضمائرهم وقلوبهم، لن يجدى معهم التناصح وبيان الحق

﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۝ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

وإنما لابد من مواجهتهم والتصدى لعمالتهم، ومحاصرة سمومهم، حتى لا يخلصوا إلى قلوب العامة، فيفسدوا فيهم اعتزازهم بدينهم، وثقتهم فى خالقهم، ويقينهم بربهم سبحانه وتعالى.

إن الهجمة شرسة والمعركة حامية، وهى معركة ولاء لله وبراء من أعدائه، ولن يصمد فيها إلا المخلصون الصادقون، فانظر أين مكانك فى كتائب المجاهدين الصادقين.

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(*) تذكرة الدعاة – الخولى – ص ٣٨ مكتبة الفلاح

فى فقه التغيير





للمفكر الإسلامى والباحث الإستراتيجى
الأستاذ/ منير شفيق

فى الثابت والمتغير

حملت طريق التغيير فى رسالات التوحيد جميعاً، كما لاحظنا، ثوابت مشتركة لكنها حملت فى الوقت نفسه، خصوصيات - متغيرات وتعدداً - وفقاً لكل حالة وتبعاً لزمانها ومكانها وظروفها. فالهدف الكلى واحد، الدعوة لله وحده لا شريك له وثمة مبادئ وثوابت أخرى تعتبر من الثوابت.. وسيأتى ذكر بعضها لاحقاً أما الأهداف الوسيطة، أو نقاط التركيز فى التحريض ضد العدو فتختلف باختلاف الوضع المعطى والعدو المحدد، كما أن الأسلوب المسمى فى الغرب «الاستراتيجية والتكتيك» أى أسلوب الوصول إلى تحقيق الهدف، فقد اختلف أيضا وفقاً لكل حالة تبعاً للزمان والمكان والظروف، ومن ثم فإن إدراك هذه الموضوعات يساعد العقل الساعى إلى التغيير فى زماننا هذا على أن يميز بين ما هو ثابت، ما هو متغير، فلا يتمسك بالثابت غير مراع للمتغير، لا يجعل من متغير ثابتاً فيقع فى التقليد البليد، والقياس الغلط.

كما يساعد ذلك على عدم الوقوع فى براثن المتغير وما يقتضيه من مراعاة الظروف والزمان والمكان متخلياً عن الثوابت، مما يقود إلى التمييع بحجة التجديد فى مراعاة المتغير وتكون النتيجة ابتعاداً عن تحقيق التغيير المنشود حين يفقد ثوابته فتضل بوصلته.

ثوابت الأعداد والتهيئة والأولوية

لا يعنى إبراز الثابت الأول وهو الخاص بعقيدة التوحيد.. الدعوة لله تبارك وتعالى وحده وعبادته وحده.. والإيمان بملائكته وكتبه ورسله، وغيبه، وجنته وناره، وقدرته الخالقة المتحكمة المقررة، وإطاعة أوامره ونواهيه، وحلاله وحرامه، وفى المقابل محاربة الكفر والشرك والاستعاذة من الشيطان الرجيم إذ ثمة ثوابت ومبادئ أخرى، ولاسيما فى كل دعوة هى أيضا من ثوابت الدين لا متغيراته حتى لو اختلفت فى بعض النواحى من رسالة إلى رسالة مثل الحلال والحرام أو الحدود، فقد أخطأ على سبيل المثال، الأستاذ محمد أبو القاسم الحاج حمد حين اعتبر «أن الثابت فى التشريع هو مبدأ العقوبة أو الجزاء

أما الأشكال التطبيقية لهذا المبدأ فموكولة لكل عصر على حسب أوضاعه وأعرافه وقيمه، وبهذا يستوعب القرآن متغيرات العصور ويبقى كما أراد صالحاً لكل زمان ومكان، ، ويرجع السبب فى هذا الخطأ حين استنتج من اختلاف بعض الحدود فيما بين بعض الرسالات أن الثابت هو مبدأ العقاب لا نوعه دون أن يلحظ أن القرآن والسنة ختما مسيرة الرسالات والأنبياء وقررا عدداً من الثوابت، ومنها الحدود. ومن ثم يصبح التعطيل هنا إبطالاً وتحويرا فى نص محكم، فالقرآن الكريم والسنة يمكنهما أن ينسخا أحكاماً سابقة ولكن أحكامهما غير قابلة للنسخ وينطبق هذا على مختلف ما انتهى الإسلام إليه من أركان الدين والعبادة والأخلاق والأحكام، فهذه كلها ثوابت لا ينسحب عليه ما نتناوله هنا من المتغيرات.

على أن ثمة ثوابت أخرى يجب أن يلقى الضوء عليها هنا بسبب ارتباطها بعملية التهيئة لأحداث التغيير، أو لكونها شروطاً من شروط التغيير، وتدخل فى هذه الثوابت المبادئ، أو المنطلقات أو المسلمات الإسلامية التى ترد باستمرار فى كتابات الساعين إلى التغيير وحواراتهم مثل لا تغيير دون الإيمان بالله تبارك وتعالى والاتكال والاعتماد عليه وطلب رضاه والعمل خالصاً لوجهه وفى سبيله، والتقيد الصارم بأوامره فى شئون المعاملات والأخلاق كما فى شئون العبادة، أو مثل ليس هناك من حل جذرى إذا لم يتخذ القرآن والسنة المصدرين المرجعين الأساسيين فى إقامة الحكم وفى تكوين الفكر والنظر إلى الحياة والإنسان وشئون السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة، بل لا تغيير ولا نهضة ولا ثورة إذا اختلط ذلك بأفكار التغريب ومعاييره وأخلاقياته اختلاط الحابل بالنابل، أو مثل لا تغيير إلا تحت قيادة إسلامية حقيقة يتصف بالصفات التى يجب توفرها فى القيادة الإسلامية من سلامة فى العقيدة والتقوى والإيمان ومن خلوص فى النية لله، والصلابة فى التمسك بثوابت الدين، فضلاً عن تحليها بالسمات المطلوبة كالقدرة على إنزال النص إلى الواقع والتجديد فى الاجتهاد فى معالجة المستجدات كحسن إدارة الصراع والارتفاع إلى مستوى التحديات التى تواجه الأمة، أى لا بد لها إلى جانب حسن الفقه من أن تتحلى بحسن إدارة الصراع ضد الأعداء بكل ما يتطلبه ذلك من فهم لشئون العصر من سياسة وثقافة وإعلام وأحوال اجتماع وعمران وموازين قوى وألوان المكائد والمؤامرات، وإن من بين تلك الثوابت القول أن لا تغيير من دون القيام بنشر الدعوة والتوعية وإيصال فكر التغيير وبرنامجه إلى الناس، ولا تغيير من دون الاهتمام بشئون التعليم والتربية والناشئة، ولا تغيير من غير توفير القدرة على بناء المسلم الذى يعكس الإسلام عملاً فى كل مناحى حياته، أو تربى صفوة من المؤمنين تقدر على تحمل مسئولية التغيير وأعبائه، وهكذا ثمة الكثير من الثوابت التى تعتبر شروطاً لا مفر منها لكل تغيير يقوم على أساس الإسلام.

(١) «العالمية الإسلامية الثانية» دار المسيرة، بيروت، ١٣٩٩ هـ ، ١٩٧٩ م ، ص٢٧٩.

الثابت واختلاف المسارات

ولهذا ترى العاملين فى حقل التغيير الإسلامى لا يختلفون عند الحديث العام عن الثوابت لأن ما من ثابت منها إلا وله مرجعه فى القرآن أو السنة، أو الفقه الإسلامى، والتجارب الإسلامية فيما بعد، ولكنهم يختلفون فيما بينهم، أو يتمايزون بعضهم عن بعض فى مدى التركيز على هذا الثابت أو ذاك من مجموعة تلك الثوابت الإسلامية، فترى عالماً من العلماء، أو حركة من الحركات، أو جماعة من الجماعات، يركز على ثابت أكثر مما يركز على ثابت آخر، فيفرع عنه، ويفصل فيه ويصبح مركز تشكيل الجماعة وبنائها، فعلى سبيل المثال كان يركز على فهم العقيدة بصورة خاصة ويقلل إلى هذا الحد أو ذاك فى الاهتمام أو التركيز على الثوابت الأخرى أو يركز على التربية الشمولية للفرد أكثر من سواها، أو يركز على تصحيح الأفكار والمفاهيم أو على الجوانب الثقافية، أو على التعليم وامتلاك العلوم، أو على شئون الحكم والسياسة، وإن هذا الاختلاف فى التركيز أو فى إعطاء الأولوية لجانب أكثر من سواه يؤدى إلى تمايز فى البناء العام للجماعة وفى إعطاء الأولوية لجانب أكثر من سواه يؤدى إلى تمايز فى البناء العام للجماعة وفى كيفية تعاطيها فى إدارة الصراع وشئون العصر، فعلى سبيل المثال إن التركيز على جانب الإحسان فى الإسلام تركيزاً مكثفاً قاد عند البعض إلى سلوك طريق الصوفية وفلسفتها، وإن التركيز على جانب تنقية العقيدة من الانحراف والبدع تركيزاً مكثفاً قاد إلى نشوء المدرسة السلفية، وأن التركيز على شئون التربية أو الشمول فى التعامل مع هذه الثوابت فى بناء الفرد قاد إلى نشوء المدرسة الإخوانية، كما أن التركيز على الدعوة إلى الإسلام ونشره بالقدوة والوعظ والإقناع قاد إلى نشوء حركة التبليغ والدعوة، كما أن التركيز على شئون السياسة أو الثقافة قاد ويقود إلى نشوء حركات أو مدارس لكل منها طابع معين كذلك، وهكذا، بالنسبة إلى الجهاد والقتال، أو بالنسبة إلى نشوء اتجاهات تكفير المجتمع واللجوء إلى العنف والهجرة أو المفاصلة.

إن هذا كله أمر طبيعى فى التعاطى ومسألة التغيير على أساس الإسلام، لأن اختلال وضع الأمة، أو وضع الإسلام فى الأمة، وصولاً إلى ما وصل إليه الوضع الآن يجعل من المشروع البحث عن سبب الداء أو الخلل. ويجعل من المشروع الإمساك بثابت من ثوابت الدين واعتبار فقدانه أو نقصه، أو عدم سيادته فى حياة الأمة، يشكل السبب الرئيسى فى عدم قدرتها على النهوض، أو على معالجة أمراضها، أو فيما حل بها من خلل، فكل ثابت من هذه الثوابت من القوة إلى حد يسمح بأن يأتى من يعتبر الافتقار إليه يشكل السبب الأساسى للعلة، وإن الإمساك به يفتح باب التغيير، وأن من الممكن أن تعزز أية وجهة نظر حول كل ثابت من هذه الثوابت بالكثير من النصوص فى القرآن والسنة وبناء الجماعة الإسلامية الأولى وفى الفقه الإسلامى والتجربة التاريخية الإسلامية، ومن شواهد الواقع الراهن والتجربة المعاصرة، كما أن من الممكن القول، افتراضاً لو أن جميع المسلمين اتسموا بذلك الثابت لتغير الحال وحل الأشكال، أى لو أمكن تصحيح عقيدة جميع المسلمين أو إعادة تربيتهم أو تصحيح أفكارهم، أما من جهة أخرى، وكما مر سابقا فإن تركيز كل طرف على أى ثابت لا ينكر عموماً، أهمية الثوابت الأخرى أو فى الأقل من ناحية الإقرار النظرى، مما يزيد من الاقناع به، فالتركيز على تصحيح العقيدة، مثلاً، سيقدم باعتباره غير مهمل للبناء الروحى إلى حد الإحسان والتقوى، وينطبق هذا على كل مدرسة حين تهتم بتركيز على جانب وإهمال الجوانب الأخرى، ولا يشذ عن ذلك إلا من بلغوا حد الغلو والانحراف، الأمر الذى يسمح بالقول أن الإمساك بثابت من الثوابت واعتباره مفتاح القضية مسألة مدعومة بالنص المحكم ومدعومة بعدم التنكر للثوابت الأخرى، ومدعومة بالفرضية الحسابية التبسيطية القائلة أن تحلى الأمة كلها به سيغير الأحوال.

التغيير والتركيز على الثابت

١ - إذا كان هذا الثابت أو ذاك، مما مر ذكره، يشكل شرطاً ضرورياً لا مفر منه فى إحداث التغيير، فهذا لا يعنى أنه وحده يفى بكل الشروط الواجب توفيرها من أجل التغير المنشود، أو بكلمة أخرى إن كان هذا الثابت أو ذاك يشكل ضرورة فيجب ألا ينفى ذلك ضرورة توفير شروط أخرى أو حتميتها كذلك، كما لا يضعه تلقائياً فى موضع الأولوية، فثمة شروط عدة لا بد من أن تتكامل حتى يحدث التغيير، فالذين لا يلحظون هذه النقطة يؤسسون جل عملهم على ثابت أو أكثر، بل ربما عليها مجتمعة فيحسبون أنهم سائرون على طريق التغيير بينما تكون سنن التغيير التى وضعها رب العالمين فى المجتمع تتطلب شروطاً أخرى إضافة إلى ما اعتبر ثابتاً من ثوابت التغيير الإسلامى، وذلك مثل ضرورة توفير بعض الشروط المتعلقة بما سمى بالمتغير أو الثابت - المتغير، الأمر الذى يؤدى بهم والحالة هذه إلى أن يستنفذوا عمراً أو أجيالاً دون أن يقتربوا من لحظة أحداث التغيير الإسلامى على مستوى الأمة، أو حتى على مستوى قطر واحد، لأن التغيير لا يقوم على الثوابت فقط لأن هناك متغيرات أو ثوابت - متغيرة كحسن تحديد الأهداف الوسيطة، وتنوع العقبات، أو تحديد الأسلوب المناسب للتغيير.

إن ما يجب أن يلحظ هنا هو القوة الهائلة التى تتمتع بها الثوابت مجتمعة ومنفردة فى الإقناع بحسميتها فى الوصول إلى التغيير، ذلك بأنها مجتمعة ومنفردة، صحيحة فى الإقناع بأهميتها فى الوصول إلى التغيير، وضرورية وحتمية بلا ريب ويمكن الاستشهاد على ذلك بآيات من القرآن الكريم أو أحاديث من السنة أو أحداث من السنة أو الفقه والتجارب الإسلامية، ولهذا يمكن أن تقوم دائماً، نظرية كاملة حول ثابت أو أكثر من تلك الثوابت لتتشكل وراءها حركة دعوة كبيرة، ويعمل على أساسها عشرات السنين دون أن تختل تلك النظرية حتى لو تتالى الفشل إثر الفشل، لأن الثابت أو الثوابت التى ركز عليها، وأغفل ما عداها، هى دائماً صحيحة ولا يمكن أن يثبت خلاف ذلك، ولكن لا يلحظ أن الفشل تتالى أثر الفشل لا بسببها وإنما لعدم

توفر شروط أخرى، والمقصود بالفشل هنا عدم تحقيق الهدف الكلى، أو الهدف الوسيط، أما أن يقتصر التغيير على عدد محدد من الناس ذلك لا يحل المشكلة الأساسية لأن ذلك العدد من الناس سيظل جزءاً صغيراً بالنسبة إلى الأمة مهما كبر، وسيظل عرضة للتضاؤل وذهاب ريحه إن بقى فى حالة الاستضعاف.

٢ - إن سنن الله سبحانه وتعالى فى إحداث التغيير فى الإنسان والمجتمعات لا سيما مع تكاثر الناس وتعاظم تدافعهم وازدياد تشابك مختلف مجالات حياتهم العقدية والفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية، لا يمكن أن تفهم من خلال جانب واحد من جوانبها، ولا يمكن أن تفهم إلا فهماً مركباً شمولياً، أى أنها سنن على درجة عالية من التعقيد والتشابك والتداخل والاختلاط ولا يمكن فك رموزها إلا من خلال فهم متعمق للقرآن والسنة من جهة أخرى.

فعلى سبيل المثال عندما نقول إن الأمة لا تنهض إلا إذا آمنت بالله واتكلت عليه نكون قد أكدنا ثابتاً لا بديلاً عنه فالإيمان بالله والاتكال عليه تبارك وتعالى ركنان أساسيان من أركان التحرك باتجاه التغيير الإسلامى، وإذا قلنا إن النهضة لا تكون إلا باعتماد الإسلام أساساً مرجعياً للفكر والعمل والأخلاق والمعاملات والسياسة، وإذا قلنا إن النهضة لا تكون إلا بتصحيح الفكر والتجديد الفقه أو بنبذ التغريب الفكرى والحضارى، أو إذا قلنا إن النهضة أو التغيير لا يكونان إلا بقيادة إسلامية حقيقة مؤمنة مجاهدة خالصة النية لله، سليمة العقيدة، أو إذا قلنا لا بد من أن يتشكل وراء تلك القيادة تنظيم، أو جماعة طليعية، أو تيار مجاهد، فإننا لا نكون قد أمنا كل الشروط التى تؤدى إلى التغيير وإنما بعضها.. بل إذا أحسنا التعامل وكل ثوابت الإعداد والتهيئة فإننا لا نكون قد أمنا كل شروط التغيير وإنما القسم الأساسى والأولى منها فقط، أو نكون قد أسسنا عملنا بداية، على أساس سليم وأركان متينة، ولكن ذلك إذا لم يكمل بتوفير شروط أخرى للتغير، وعلى التحديد تلك التى لها علاقة بما نوه عنه سابقاً.

«أ» تحديد الهدف الوسيط.

«ب» تحديد الأسلوب «نظرية التغيير الاستراتيجية والتكتيك».

فالإنجاز يبقى محصوراً فى جوانب معينة فى العملية التغييرية وهى بناء جماعة أو تنظيم أو تيار، وهو أمر يجب ألا يقلل من شأنه، ولكنها جوانب تظل دون مستوى التغيير المنشود، أى جعل كلمة الله هى العليا فى حياة الأمة، أو قبل ذلك تحقيق الأهداف الوسيطة، بإزالة العقبات، التى تحول دون تحقيق الهدف الكلى.. أى إزالة عقبات السيطرة الخارجية، والطغيان والتجزئةوالتبعية، والتخلف والتآكل الداخلى، فالذين يحصرون نشاطهم فى الدعوة لله ونشرها، أو تصحيح العقيدة أو الفكر، أو فى تعميم مكارم الأخلاق، على سبيل المثال يؤدون إنجازات جليلة ولا ريب فيها إلا إنها لا تحقق ذلك الهدف الكلى ولا هدفاً واحداً من الأهداف الوسيطة لأن المطلوب هو إحداث التغيير على مستوى القطر وعلى مستوى الأمة وليس على مستوى جزء من الناس هنا وهنا، أى التغيير الذى يمس كل مناحى الحياة من الدولة إلى المؤسسات والجماعات وصولاً إلى الأفراد.. ومن هذا البلد وإلى الأمة وإلى العالم.

ويمكن أن يلحظ هنا أن عشرات المحاولات التى تشكلت عبرها جماعات وحركات إسلامية خلال المائة سنة الماضية، وعلى طول الديار الإسلامية قد أسست عملها تركيزاً على هذا الثابت أو ذاك، أو على الثوابت عموماً دون أن تلتفت إلى ما هو متغير وتعطيه نصيبه من الدراسة والتمحيص ولابد من استثناء بعض المحاولات التى تنبهت إلى هذا الأخير أيضاً، وربما يلحظ المرء أن كثيراً من النقد الذى توجهه جماعة إلى أخرى يمس، فى أغلبه «إغفال هذا الثابت أو ذاك فى عملها أو عدم التركيز على هذا الثابت أو ذاك، فإذا كان من المشروع التصحيح الذاتى من خلال ثوابت التهيئة والإعداد وإذا كان من المشروع أن تتعدد الاجتهادات من حيث التركيز الذى يعطى لهذا الثابت أو ذاك، فإن من الضرورى الانتباه إلى أن أمر التغيير لا ينحصر باستيفاء شروط الثابت دون استيفاء شروط المتغير أى تحديد الهدف الوسيط، والأسلوب فى التغيير وبلوغ التمكين، وهو ما ينبغى أن يسلط عليه قدر أكبر من الضوء، طبعاً ثمة عدد من علماء الأمة ومفكريها. وثمة بعض الجماعات، لم يغفلوا تناول موضوع هذا المتغير أيضاً، بل هناك عدد من الذين تعاطوا وهذا الأمر ضمن الوعى الكامل له إلا أن الحاجة ما زالت ماسة إلى تحويل المزيد من الانتباه إليه، وهذا ما يسوغ ما تقدم من بحث حول موضوع الثابت من أجل الوصول إلى اهتمام أكبر بالمتغير كذلك، وهذا أمر طبيعى ما دامت المشاكلات الأساسية التى تواجه المشروع التغييرى الإسلامى المعاصر لم تحل بعد.. بل ربما مازالت متفاقمة وتزداد تفاقماً، كأن العمل الإسلامى ينحت فى جبال من الصخر، الأمر الذى يتطلب التركيز على الثوابت من جهة ولكن يتطلب من جهة أخرى العودة إلى هذا الواقع المعاصر المستعصى من أجل فهمه جيداً، وإدراكه بكل أبعاده، فيفهم فهماً عميقاً ودقيقاً حتى يحدد المتغير الذى يؤدى إلى تكامل عملية الإعداد والعمل بالثوابت وصولاً إلى التغيير المنشود، ولعل من غير الممكن التحرك بالإسلام فى سبيل الله ما لم نمسك بسنن التغيير فى الواقع الذى نعيشه فى عصرنا هذا فنميز بين الثوابت الإسلامية الصالحة لكل زمان ومكان ولكل الحالات كالإيمان بالله والاتكال عليه والعمل بتعاليم القرآن والسنة أحسن العمل من جهة، أما من جهة أخرى فلا بد من أن يفهم الواقع على مستوى كل بلد إسلامى وعلى مستوى الأمة الإسلامية كما على مستوى العالم، فهماً عميقاً ودقيقاً وصحيحاً، ومن ثم معرفة سنن التغيير المناسبة لمعطيات هذا العصر بما تحمله من متغيرات ومن سمات خاصة أو خصوصية، وأن أول خطوة فى هذا الطريق تتطلب ألا نجعل من ثوابت التصحيح الذاتى أو البناء الذاتى كل الحل، وإن كانت أولى شروط الحل، فالاستمساك بها أعظم استمساك ضرورة قصوى، ولكن مع ذلك لابد من إدراك الحاجة الماسة إلى معرفة الواقع المحلى والإسلامى والعالمى معرفة دقيقة لنعرف نتحرك بالثوابت والمتغيرات فى هذا العصر، وكيف نوفر أو نراعى الشروط الضرورية لإحداث التغيير فى ذلك الواقع وفقاً لظروف كل بلد، وكل حالة وفقاً للظرف الإسلامى العام.

يتبع

قراءة فى أبعاد العلاقة بين الهوية والمصطلح



أ.د. خالد فهمى
كلية الآداب/ جامعة المنوفية

(١) الهوية والمصطلح: مدخل فى المفهوم

من المهم جدا أن ندخل إلى قراءة أبعاد العلاقة بين الهوية والمصطلح بما هى ترجمة أو تفسير لما يمكن أن يكون رباطا جامعا بين المئذنة بما تحمله اللفظة/ الرمز من دلالات، والمعرفة ببيان موجز لمفهوم الهوية والمصطلح معا.

ومن الممكن أن نعبر عن الهوية بالماهية، فهوية أى شخص هى مجموع أمرين يميزانه عن غيره هما: اسمه، وعمقه معا.

يقول المعجم الفلسفى فى شرحه مصطلح الهوية «ص ٢٠٨ / ١٠٨٤» إنه: «حقيقة الشىء من حيث تميزه عن غيره».

وهو ما يدعمه جون جوزيف فى «اللغة والهوية ص ١٨ ترجمة الدكتور عبد النور خرافى، عالم المعرفة، الكويت ٢٠٠٧م / ع ٣٤٢٩» قائلا: «يوجد مظهران أساسيان لهوية شخص ما، أولهما: اسمه الذى يميزه عن غيره من الناس، وثانيهما: ذاك الشئ غير الملموس والأكثر تعقيدا وعمقا الذى يشكل فى الحقيقة ماهية المرء».

ومن هذا المعجون المعقد يجد المصطلح مساحة له ليظهر على خريطة هذه الهوية، ذلك أن المصطلح: لفظ حامل لمعنى ناتج حقل بعينه.

ويتجلى الرابط بين الهوية والمصطلح فى هذا الذى يقرره الدكتور عبد السلام المسدى فى «قاموس اللسانيات ص ١١ الدار العربية للكتاب، تونس» قائلا: «مفاتيح العلوم ومصطلحاتها، ومصطلحات العلوم ثمارها القصوى، فهى مجمع حقائقها المعرفية، وعنوان ما به يتميز كل واحد منها عما سواه».

ومن هنا فإن هذا المدخل نحو تحرير مفهومى الهوية والمصطلح يشير إلى أن الهوية بما هى عمق الإنسان وما به يتميز عن غيره، ويشير إلى المصطلح هو مجمع حقائق المعارف والعلوم، وهو ما يجعله المادة الأساس فى بناء كيان الهويات والأعماق للإنسان والوطن معا.

(٢) المئذنة والمعرفة

البدايات الأولى الدالة

إن تأمل تاريخ الإسلام يقود إلى استنتاج أولى ظاهر يقرر أن الإسلام بما هو رؤية متمايز للكون والحياة أنتج منظومة لغوية اصطلاحية موجهة لهذه الرؤية، ومؤسسة لها معا.

وهذا الذى نقرره أمر مستقر فى بنية الأدبيات العلمية فى مجال اللسانيات أو فقه اللغة فى نسخته التراثية العربية، وهو ما يبدو واضحا فى الباب الذى عقده ابن فارس اللغوى فى كتابه «الصاحبى فى فقه العربية وسنن العرب فى فهارسها، ص ٧٨ تحقيق السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى البابى الحلبى، القاهرة ١٩٧٧م» بعنوان: الأسباب الإسلامية: «كانت العرب فى جاهليتها على إرث من إرث آبائهم فى لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم، فلما جاء الله جل ثناؤه بالإسلام حالت أحوال، ونسخت ديانات، وأبطلت أمور، ونقلت من اللغة ألفاظ عن مواضع إلى مواضع أخر بزيادات زيدت، وشرائع شرعت، وشرائط شرطت».

ويزيد ابن فارس الأمر وضوحا عندما يقرر أن التصور الجديد الذى أوجده الإسلام ظاهره وصاحبه جهاز اصطلاحى كاشف عن حقيقته، فيقول «ص ٨٣»: «فكان مما جاء فى الإسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق، وأن العرب إنما عرفت المؤمن من الأمان والإيمان؛ وهو التصديق ثم زادت الشريعة شرائط وأوصاف بها سمى المؤمن بالإطلاق مؤمنا، وكذلك الإسلام والمسلم، إنما عرفت منه إسلام الشئ، ثم جاء الشرع من أوصافه ما جاء... ولم يعرفوا فى الفسق إلا قولهم: «فسقت الرطبة»، إذا خرجت من قشرها، وجاء الشرع بأن الفسق: الإفحاش فى الخروج عن طاعة الله جل ثناؤه» وهكذا.

وهذا الذى أطلنا نقله من ابن فارس اللغوى السنى ليس صوتا فريدا فى تاريخ فقه اللغة العربية التراثية، وإنما هو صوت متواتر ممتد يشكل اتجاها وحقيقة قائمة راسخة وقف أمامها أبو حاتم الرازى فى كتابه «الزينة فى الكلمات

الإسلامية»، والسيوطى فى كتابه «المزهر فى علوم اللغة»، وغيرهما.

واستقرت حقيقة علمية فى اللسانيات المعاصرة فى دراسات الدارسين والمؤرخين للعربية من العرب وغير العرب، ومن المسلمين وغير المسلمين، بحيث يصح من جانبنا أن نقرر أن ثمة إجماعا على أثر الإسلام فى تأسيس قائمة طويلة من المصطلحات الكاشفة عن رؤيته للحياة والكون، عرفت باسم جامع فى هذا الحقل العلمى باسم الكلمات الإسلامية العربية استقرت فى بنية معجمه، وعرفت طريقها إلى معاجم الشعوب الإسلامية غير العربية.

وهذا التنبه إلى أثر التصور الإسلامى على المعجم المختص فى اللسان العربى هو ما يترجم توجيه المئذنة لتاريخ المعرفة فى الحضارة العربية.

(٣) الوعى بالعلاقة بين الهوية والمصطلح فى تراث المعجمية الاصطلاحية العربية

عرف تاريخ المعجمية الاصطلاحية عدداً كبيراً من المعاجم المختصة فى المجالات المعرفية المختلفة تبرهن على الجهد العلمى الضخم الذى بذله العلماء المسلمون، وتوالى ظهور معاجم المصطلحات المتعددة العلوم فى تاريخ العلم عند العرب من القرن الرابع الهجرى.

وقد وصل إلينا من هذه المعجمات التى جمعت مصطلحات العلوم المتنوعة التى عرفتها الحضارة العربية الإسلامية منذ ذلك التاريخ الباكر ما يلى:

١- مفاتيح العلوم، للخوارزمى الكاتب، ت ٣٨٧هـ.

٢- الحدود والفروق، لابن هبة الله الطبيب، ت ٤٩٥هـ.

٣- التعريفات، للجرجانى، ت ٨١٦هـ.

٤- مقاليد العلوم فى الحدود والرسوم، المنسوب للسيوطى، ت ٩١١هـ.

٥- التعريفات والاصطلاحات، لابن كمال باشا، ت ٩٤٠هـ.

٦- التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوى، ت ١٠٣١هـ.

٧- الكليات، للكفوى، ت ١٠٩٤هـ.

٨- كشاف اصطلاحات الفنون، للتهانوى ١١٥٨هـ.

٩- جامع العلوم فى اصطلاحات الفنون - دستور العلماء، للأحمد نكرى، ت ١١٧٣هـ.

وقد اتضح من تأمل مادة هذه المعجمات جميعا وعى أصحابها بأن ما تضمنته معاجمهم من مصطلحات يعد بمثابة مفاتيح لفهم ما جاءت به الشريعة الإسلامية، وهو ما صرح به غير واحد من هؤلاء فى مقدمات هذه المعجمات على ما نرى ذلك صريحا فى مقدمة المناوى لمعجمه التوقيف على مهمات التعاريف.

ويظهر من مجموع المصطلحات التى ضمنتها هذه المعجمات وتوزعها على ما يلى:

١- حقل مصطلحات العلوم الشرعية.

٢- حقل مصطلحات العلوم العربية.

٣- حقل مصطلحات العلوم الحكمية «التجريبية أو الأجنبية».

الوعى بهيمنة الشريعة الإسلامية وتوجهها للجهاز الاصطلاحى للعلوم فى الحضارة العربية

الإسلامية، والنظر إلى العلوم العربية والحكمية باعتبارها علوم وسائل وآلات للتمكين لتنفيذ الشريعة والقيام بها.

وهذا الذى نقرره من أمر ظهور العلاقة بين الهوية المؤسسة على التصور الإسلامى للكون والحياة وبين المصطلح الناطق بهذا التصور جاء الاعتراف به نظريا فى الأدبيات اللسانية التراثية كما مر بنا هنا، وجاء البناء عليه تطبيقا فى المعجمات الاصطلاحية المتعددة العلوم.

وقد تجلى أمر توجيه الإسلام للمصطلح فى اللسان العربى من الناحية التطبيقية فى معجمات المصطلحات المتعددة العلوم التى رتبت مداخلها موضوعيا أو علميا، حيث افتتحت هذه المعاجم جميعا بأبواب لشرح معانى مصطلحات العلوم الشرعية أولا بما هى غاية ثم توالت بشرح معانى مصطلحات العلوم الأخرى عربية وحكمية بما هى وسيلة وآلة وهذا الذى نقرره ظاهر فى ترتيب المعاجم التالية:

أ- مفاتيح العلوم للخوارزمى.

ب- مقاليد العلوم فى الحدود والرسوم، والمنسوب للسيوطى، حيث رتبا معجميهما مبتدئين بتعريف مجموعة المصطلحات المنتمية للعلوم الشرعية من فقه وتفسير وحديث وغيرها.

وهى العلامة التطبيقية الدالة على هيمنة الشريعة وتوجيهها لحركة المصطلحات فى اللغة العربية.

(٤) تنامى الوعى بالعلاقة بين الهوية والمصطلح فى العصر الحديث

والمتابع لحركة المجتمعات العربية المعاصرة يقف على عدد من العلامات الدالة على تنامى الوعى بالعلاقة بين الهوية والمصطلح بما هو مخزن للمفاهيم فى العصر الحديث.

وقد اتخذ هذا الوعى مسارات متعددة يمكن إجمال أهمها فيما يلى:

أولًا: حرص حركات التحرر الوطنى جميعا على امتداد خريطة الوطن العربى على تعريب لغة الحياة، وتعريب لغة العلم.

ثانيًا: الحرص على النص فى دساتير الدول العربية على عروبة لسانها بما هو أحد أهم مقومات هويتها.

ثالثًا: ظهور حرص الرواد من العلماء فى مجال العلوم التجريبية والتقنية على التأليف والتدريس بالعربية بما هو ملمح من ملامح مقاومة آثار الاحتلال الأجنبى، وبما هو إيمان على أن الشخصية الوطنية لا تستكمل ملامح هويتها من دون التفكير باللسان القومى؛ وهو الأمر الذى لا يحصل من غير تعلم بهذا اللسان.

رابعًا: إلحاح مفكرى النهضة فى المشرق والمغرب العربى جميعا على الدعوة إلى تعريب المصطلح، توصلا إلى تحقيق الذات فى مواجهة ما كان من تيارات جارفة سعت إلى استلاب العقل والوجدان العربيين زمنا طويلا.

وقد تبدت العلامات الوطنية فى التعامل مع مصطلحات العلوم الحديثة منذ وقت مبكر من عمر النهضة العربية الحديثة، ولعل أهم هذه العلامات تمثلت فى العودة إلى مخزون اللغة العربية الوفير، وإعادة إحياء عدد من ألفاظه بعد تحميلها بالدلالات الجديدة المستحدثة، وهو ما يؤكده محمد سواعى فى كتابه «أزمة المصطلح العربى فى

القرن التاسع عشر: مقدمة تاريخية عامة» دار الغرب الإسلامى، بيروت ١٩٩٩م، ص ١٣١»: «وتشمل الآليات التى استعملها الطهطاوى لاستنباط مفردات تعبر عن مواد وأفكار طارئة على المجتمع العربى فى فترته وإحياء المفردات العربية القديمة للدلالة على معان جديدة».

وهذه العودة إلى اللغة العربية معناه فى النظر الواضح استبقاء الروح العربية حية بخصائصها النفسية والروحية والعقلية من خلال إعادة إحياء الألفاظ القديمة بعد تطويرها دلاليا.

وهذا الإحياء استبقى عددا من ملامح الحياة العربية المسكونة بالتصور الإسلامى للكون والحياة فى الإدارة والتعليم، وسلوك الناس ومفاهيم التواصل إلخ.

وقد وصل الأمر بعدد من الدراسين إلى أن يقرروا أن الثورة اللغوية المعاصرة فى ميدان إغناء العربية بمصطلحات جديدة تحمل أفكارا ومفاهيم حضارية تولى التأسيس لها رفاعة الطهطاوى وغيره هى أقرب إلى الثورة اللغوية التى أحدثها الإسلام قديما وكان من نتائجها إغناء اللغة العربية بعدد وافر من المصطلحات بما ارتبط بها من مفاهيم جديدة ترسخ للقيم الروحية والوجدانية والعقلية والإنسانية التى أرساها الدين الجديد يومها.

وهو الأمر الذى يؤكده مرة أخرى محمد سواعى قائلا «ص ١٣١»: «ولعلنا لا نكون بعيدين عن الصحة إن زعمنا أن فترة الطهطاوى تمكن مقارنتها.. فى تاريخ اللغة العربية بالثورة الإسلامية فى القرن السابع الميلادى التى أدخلت مفردات كثيرة إلى اللغة العربية أو حددت معانى مفردات كانت تستعمل بمعان خاصة ومعينة فى فترة ما قبل الإسلام ليصبح استعمالها لدلالات معينة جديدة فى الفترة الإسلامية».

وهذه الثورة الاصطلاحية المعاصرة المرتبطة بعمل الطهطاوى لا يمكن تصور مداها من دون تصور الأصول الفكرية والأجنبية التى سكنت عقل الرجل موصولة النسب بالإسلام وحضارته وتصوراته للحياة والكون معا.

(٥) المخاطر على الهوية تبدأ من العبث بأبنية المصطلحات

إن هذا الذى ظهر هنا عنوانا جانبيا يدرك ما يقوله عندما يقول: إن المخاطر المحدقة بالهوية تبدأ تنزلاتها على أرض الواقع من نقطة العبث بخريطة المصطلح.

وفى هذا السبيل يصح أن نتأمل صنيع حركات الاحتلال الأجنبى للعالم العربى الإسلامى فى مواجهة ملامح المقاومة لصنيعه بآليات ظاهرة تمثلت فى واحد من أظهر أشكالها فى تبديل المصطلحات العسكرية، فلقد ظلت الحياة العربية فى مفتتح عصر النهضة الحديثة محافظة على ما ورثته من مصطلحات عسكرية من مثل:

- الجهاد / والجهادية
- المجاهد
- المرشد، والشيخ «إلى غير ذلك من مصطلحات هذا المجال الحيوى الخطير»

وقد وقف أكثر من رائد من رواد النهضة والإصلاح المعاصر أمام المخاطر الوافدة من هذا الباب.

وقد كان مالك بن نبى «ت ١٩٧٣م» واحدا من أكثر مفكرى النهضة العربية المعاصرين إدراكا للمخاطر المترتبة على تفريغ عدد من المصطلحات من شحناتها العاطفية والحضارية التى تراكمت حول معانيها خلال قرون متطاولة كانت الفكرة الإسلامية هى الحاكمة والموجهة، ويركز على المخاطر هذه من خلال ما يتعلق بعدد من الاصطلاحات المؤثرة فيقول فى كتابه «مشكلة الأفكار ص ١٤٢»: «وهكذا تحدث الناس بالتدرج عن «الجندى» الذى كان فيما مضى المجاهد».

والتوقف أمام الكلمتين وتحليل دلالة كل منهما يدرك أن الجندى وترسيخها كان عملا من ترسيخ الفرنسية فى الجزائر والإنجليزية فى مصر بعد الاحتلال، والكلمة التى تم إهدارها واغتيالها وهى «المجاهد» ارتبطت خلال تاريخها الطويل باستحداداها شحنات متدفقة من القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، فتراث الأمة المسلمة فى مواجهة العدو الغازى، فضلا عن الرصيد الدلالى الهائل الذى جمعته اللفظة المصطلح من دلالات الشرعية والقبول والتعاطف والتراحم مع من يمثلها بالإضافة إلى الجزاء الأخروى والكرامة الدنيوية لمن يقوم بمعناها، كل تلك الشحنات الدلالية ثم اغتيالها عندما أزاحتها المفردة المترجمة «الجندى».

ومثل ذلك يمكن ملاحظته فيما بين مصطلحى «المرشد أو الشيخ» فى المجال الدلالى نفسه، وبين كلمة «كولونيل» بما هى نبت غريب الوجه واليد واللسان عن حضارتنا وديننا.

ومن الحق أن الحضارة الحديثة فى الميدان العسكرى فى مصر تعيينا كانت بارة عندما أعادت وضع المصطلح العسكرى، وتأمل باب ألقاب الرتب العسكرية لأفراد جيشها دال على حسن وعى جيل الرواد من قادة العسكرية المصرية بضرورة الوعى بعلاقة الهوية بالمصطلح، وهو الأمر الذى انعكس مع عدد كبير من مصطلحات ألقاب رجال الجيش المصرى وتكويناته لنلمح فيها المصطلحات التالية:

١- النقيب. ٢- الرائد. ٣- المقدم
٤- السرية. ٥- اللواء.

وهذه المصطلحات العسكرية التى أوردها الدكتور خالد فهمى فى كتابه «كل رجال الباشا: محمد على وجيشه وبناء مصر الحديثة، دار الشروق، القاهرة سنة ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م ترجمة: شريف يونس، ص ١٥» تظهر عليها فكرة إعادة إحياء ألفاظ إسلامية ضاربة بعمق فى السيرة النبوية تعيينا، فالنقيب لقب تعود أصوله الأولى فى الاستعمال لبيعة العقبة، والرائد تعود جذوره واستعمالاته لواحد من وظائف النبوة فيما ظهر من أن النبى صلى الله عليه وسلم رائد، لا يكذب أهله، والمقدم بما هو لفظ يتعلق بطبيعة التكوين والتشكيل للأفراد على الأرض، وبما هى رتبة دالة على شجاعة افتتاح المعارك.

وتأتى السرية علما ظاهر الاستعمال قديما فيما كان يعده النبى صلى الله عليه وسلم من تكتلات وتجمعات لأهداف جهادية إلخ.

ومن كل هذا ندرك إدراكا جليا وظاهرا أن الحضارة المعاصرة فى هذه اللحظة الحرجة من تاريخ الأمة العربية، ولا سيما وهى تفتتح صفحة جديدة من عمرها يلزمها أن تنتج مصطلحاتها الحاملة لمفاهيم الوجود، ومعانى العلم، ودلالات المعرفة- من رحم المئذنة لتستقيم لها هويتها وماهيتها.

بعض شبهات العلمانيين حول دعوى الدولة الدينية



للأستاذ الدكتور القصبي زلط

عضو مجمع البحوث الإسلامية

يتهم العلمانيون الإسلاميين بأنهم يريدون إقامة دولة دينية، ويقوم اتهامهم على أساس: أن الإسلاميين يجعلون الحاكمية لله والحاكمية لله تعني الحكم بالحق الإلهي، والحاكم في الدولة الدينية نائب عن الله، وهذه مغالطة، فالحاكمية لله بهذا المعنى لا تنفي أن يكون للبشر قدر من التشريع أذن به الله لهم، إنما هي تمنع أن يكون لهم استقلال بالتشريع غير مأذون به من الله وذلك مثل التشريع الديني المحض، كالتشريع في أمر العبادات بإنشاء عبادات وشعائر من عند أنفسهم، أو بالزيادة فيما شرع لهم باتباع الهوى، أو بالنقص منه كما أو كيفا، أو بالتحريف والتبديل فيه زمانا أو مكانا أو صورة، ومثل ذلك التشريع في أمر الحلال والحرام، كأن يحلوا ما حرم الله، أو يحرموا ما أحل الله، وهو ما اعتبره النبي ﷺ نوعا من «الربوبية» وفسر به قوله تعالى في شأن أهل الكتاب:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]

وكذلك التشريع فيما يصادم النصوص الصحيحة الصريحة، كالقوانين التي تقر المنكرات، أو تشيع الفواحش ما ظهر منها وما بطن، أو تعطل الفرائض المحتمة، أو تلغي العقوبات اللازمة، أو تتعدى حدود الله المعلومة.

أما فيما عدا ذلك فمن حق المسلمين أن يشرعوا لأنفسهم، وذلك في دائرة ما لا نص فيه أصلاً وهو كثير، وهو المسكوت عنه الذي جاء فيه حديث «وما سكت عنه فهو عفو» وهو يشمل منطقة فسيحة من حياة الناس.

(١) رواه الحاكم من حديث أبي الدرداء، وصححه ووافقه الذهبي.

ومثل ذلك ما نص فيه على المبادئ والقواعد العامة دون الأحكام الجزئية والتفصيلية كما في قضية «الشورى».

ومن ثم يستطيع المسلمون أن يشرعوا لأنفسهم بإذن من دينهم في مناطق واسعة من حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، غير مقيدين إلا بمقاصد الشريعة الكلية، وقواعدها العامة، وكلها تراعي جلب المصالح، ودرء المفاسد، ورعاية حاجات الناس أفراداً وجماعات.

وكثير من القوانين التفصيلية المعاصرة لا تتنافى مع الشريعة في مقاصدها الكلية، ولا أحكامها الجزئية، لأنها قامت على جلب المنفعة، ودفع المضرة ورعاية الأعراف السائدة، وذلك مثل قوانين المرور أو الملاحة أو الطيران، أو العمل والعمال، أو الصحة أو الزراعة أو غير ذلك مما يدخل في باب السياسة الشرعية، وهو باب واسع.

ومن ذلك تقييد المباحات تقييداً جزئيا ومؤقتا، كما منع سيدنا عمر الذبح في بعض الأيام، وكما كره لبعض الصحابة الزواج من غير المسلمات حتى لا يقتدي بهم الناس، ويكون في ذلك فتنة على المسلمات.

كما يؤيدون وجهة نظرهم بكلمة قالها عثمان أثناء حصاره عندما طلب منه الثائرون أن يعتزل الخلافة قال: (لا والله، إني لن أنزع رداء سربلنيه الله) وهي العبارة التي وضعت الفكر السياسي الإسلامي كله عند مفترق طرق، بين أغلبية تأخذ برأي عثمان رضي الله عنه في أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يولي الخليفة، ومن ثم فلا حق للرعية في نزع الإمام من مكان رفعه الله إليه، وأقلية ترى أن الأمة مصدر السلطات، هي التي تولي وهي التي تعزل، وهو الرأي الذي تبناه المعتزلة فيما بعد ولعل في تسميتهم بالمعتزلة دليلاً على موقف الدولة الإسلامية منهم وموقفهم منها.

ويرد على هذا: بأن عثمان ﷺ لم يزعم يوماً من الأيام أنه يحكم بحق إلهي والثابت أنه بويع من المسلمين على أن يحكم بكتاب الله وسنة رسوله، وأن يسير سيرة الشيخين قبله.

وليس في سيرته رضي الله عنه، ولا في أقواله ما يؤيد دعوى أنه كان يحكم في الأرض باسم السماء، بل روى عنه قوله: «أمري لأمركم تبع».

وحين ثار عليه من ثار من الغاضبين والطائشين، وأنكروا عليه بعض أمور من سيرته في الرعية– أشاعها من أشاعها من أعداء الإسلام، وصدقها من صدقها من المغرر بهم من المسلمين– لم يقل لهم: إن معي حقا إلهيا أحكم به، فليس لكم إلا أن تذعنوا، بل دافع عن نفسه وعن تصرفاته دفاعا مجيداً، بالمنطق العلمي والموضوعي، لا بأي دعوى أخرى.

وأما تعبير «قميص سربلنيه الله لا أخلعه» فقد قيل: إنما قال ذلك؛ لأن النبي ﷺ أوصاه بذلك في نبوءة من نبوءات الغيب، حيث قال له: «إن الله لعله يقمصك قميصا، فإن أرادك أحد على خلعه، فلا تخلعه» (ثلاث مرات) وهنا

(٢) انظر كتابنا: شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان.

(٣) رواه الإمام أحمد والترمذي وحسنه.

يكون موقفه موقف امتثال وتنفيذ لوصية النبى ﷺ وتوجيهه له.

وإذا لم يصح ذلك- عند بعض الناس- فهو إنما يقصد بكلمته ألا تصبح الخلافة ألعوبة فى يد الطائشين والمتعجلين، الذين تحركهم قوى خفية، تستغل حماسهم وهم لا يشعرون.

ومن المعلوم الذى لا شك فيه أن الذين طالبوه بالتخلى عن منصبه ليسوا هم أهل الحل والعقد، الذين هم أولو الأمر، وأصحاب الشأن فى هذه القضية، حتى يسلم الخليفة لهم، وينزل على رأيهم .

* * * * *

ويظهر الدكتور كمال أبو المجد أن منطق العلمانية فى أى دولة مسلمة مرفوض فيقول: «إن الغرب نادى بالعلمانية ليواجه بها كهنوت الكنيسة الغربية التى وقفت مع الجمود ضد الفكر، ومع الجهل ضد العلم، ومع الملوك ضد الشعوب ومع الأغنياء والإقطاعيين ضد الفقراء والكادحين».

ونحن لا توجد لدينا بابوية ولا كهنوت، ولا «رجال دين» ما حلوه فى الأرض فهو محلول فى السماء، وما عقدوه هنا فهو معقود هناك.

لقد بينت فى دراسة لى أن العلمانية فى الغرب لها ما يبررها من فكرها الفلسفى منذ عهد أرسطو الذى يرى أن الله لا علاقة له بالعالم، لا يعلم فيه شيئا، ولا يدبر فيه أمراً، ومن فكرها الدينى الذى يذكر ظاهر نصه مؤكدا قسمة الحياة بين الله وقيصر، وترك ما لقيصر لقيصر، وما لله لله!

أما العلمانية عندنا فهى ضد الدين، وضد فكر الأمة، وضد مصلحتها، وهى تجرد الأمة من طاقات هائلة كان يمكن أن تفجرها العقيدة والشريعة، لو كانت العقيدة هى الموجهة، والشريعة هى الحاكمة.


أحمد كمال أبو المجد

وقد جربت بعض البلاد الإسلامية العلمانية، وقهرت شعوبها على الخنوع لها بسيف الجبروت وسوط العذاب، بدعوى اللحاق بالغرب المتقدم، والعالم المتطور، فهل تقدمت وتطورت حقا؟

إن أبرز مثل لذلك هو تركيا أتاتورك، التى قلدت الغرب فى كل شىء حتى فى لبس القبعة، وتحريم الطربوش، ومنع الحجاب، وعطلت أحكام الشريعة القطعية حتى فى الزواج والطلاق والميراث وشئون الأسرة، وعزلت الأجيال عن تراثها تماما حتى ألغت الحرف العربى وفرضت الحرف اللاتينى، وقطعت الصلة بالعالم الإسلامى عامة، وبالعرب والعروبة خاصة، حتى اعتبرت الأذان بالعربية جريمة.. فماذا كانت النتيجة؟

لم تستطع أن تقتلع جذور الإسلام برغم حذفه من التعليم والثقافة والإعلام، وعاش معظم الشعب فى صراع بين السطوح والأعماق، وبين الجذور والأوراق، وبين الماضى والحاضر، بين العقيدة والواقع.

وانتهت تركيا العلمانية إلى ما عبرت عنه كاتبة تركيا بقولها: كنا أول دولة فى الشرق، فأصبحنا آخر دولة فى الغرب!

بل أن الغرب نفسه- برغم تهالك الدولة التركية على الارتماء فى أحضانه والانتماء إليه- لم يعترف بتركية عضوا فى جسمه، وجزءا من حضارته، ولهذا لم يقبلها فى السوق الأوروبية المشتركة، وقال فى ذلك المستشار الألمانى بصراحة: إن تركيا تنتمى إلى حضارة غير حضارتنا!

وبذلك جسدت تركيا العلمانية قصة الغرب الذى حاول أن يقلد النسر، فلم يفلح أن يكون نسراً، ولم يصلح أن يعود غرابا!!

وقد يقول قائل:

هناك بعض الأحاديث التى تفيد فصل الدين عن الدولة مثل حديث تأبير النخل الذى أشار فيه الرسول على الصحابة بعدم التأبير فخرج شيصا، وقال الرسول ﷺ بعد ذلك: «أنتم أعلم بشئون دنياكم».

ويجاب بأن هذا الحديث وأمثاله يفيد أن الرسول ﷺ لم يرسل ليبين للناس كيف وفى أى وقت يزرعون؟ أو متى يؤبرون النخل أو لا يؤبرونه إلى غير ذلك من الأمور التى يعرفها الناس بالتجربة.

وقد بين ذلك المحدثون فقالوا:

إن ما صدر عن رسول الله ﷺ بمقتضى الخبرة الإنسانية والحذق والتجارب فى الشئون الدنيوية من اتجار أو زراعة أو تنظيم جيش، أو تدبير حربى أو أمثال هذا، فليس تشريعا؛ لأنه ليس صادرا عن رسالته، وإنما هو صادر عن خبرته الدنيوية، وتقديره الشخصى، ثم ساقوا قصة الخباب بن المنذر ومشورته على رسول الله ﷺ فى غزوة بدر، كما ساقوا حديث تأبير النخل، فكل ما يتعلق بالأمور الدنيوية ينطبق عليه قول رسول الله ﷺ فى تأبير النخل: «إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر».

فهذا الحديث وأمثاله لا يمكن أن يفهم منه فصل الدين عن الدولة، فالإسلام الذى شرعه الله إذا فصل عن الدولة لا يمكن أن يكون إسلاماً؛ لأن الإسلام ليس مجرد علاقة بين الإنسان وربه، ثم ينتهى دوره وينسحب من الحياة.

فالإسلام منهج حياة كامل بما وضع من مبادىء، وما أصل من قواعد، وما سن من تشريعات تتصل بحياة الفرد وشئون الأسرة، وأوضاع المجتمع وأسس الدولة.

إن الإسلام له قواعده وأحكامه وتوجيهاته فى سياسة التعليم، وسياسة الإعلام وسياسة التشريع، وسياسة الحكم، وسياسة المال، وسياسة السلم، وسياسة الحرب وكل ما يؤثر فى الحياة، ولا يقبل أن يكون صفراً على الشمال، أو يكون خادماً لفلسفات أو أيديولوجيات أخرى، بل يأبى إلا أن يكون هو السيد والقائد والمتبوع والمخدوم.

بل هو لا يقبل أن تقسم الحياة بينه وبين سيد آخر، يقاسمه التوجيه أو التشريع، ولا يرضى المقولة التى تنسب إلى المسيح - عليه السلام -: «اعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله!» فإن فلسفته تقوم على أن قيصر وما لقيصر لله الواحد الأحد الذى له من فى السموات ومن فى الأرض، وما فى السموات وما فى الأرض: مُلكاً وملكاً.

(٤) انظر: من فقه الدولة فى الإسلام للدكتور القرضاوى ص٦٤- ٦٦.

المنهاج في ترتيب الحجاج

تأليف:
الباجي أبو الوليد
(٤٠٣هـ - ٤٧٤هـ)
• تحقيق/ عبد المجيد تركي
• لبنان: دار الغرب الإسلامي

التعريف بالمؤلف:

هو أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث الباجي. ولد سنة (٤٠٣هـ) في قرطبة، في عائلة أصلها من بطليوس، انتقلت منها إلى باجة بالأندلس، أي البرتغال اليوم، قبل أن تستقر نهائياً في قرطبة. وفي العاصمة الأموية تلقى أبو الوليد دروسه الأولى، ثم واصل تعلمه في شرق الأندلس قبل أن يسافر إلى المشرق سنة (٤٢٦هـ) ويقيم بحواضره طيلة ثلاث عشرة سنة للأخذ عن علمائها في الأندلس. ثم عاد إلى بلده وقد أكمل زاده العلمي، واستعد لفن جديد في علم الكلام، وكذلك في علم الأصول الفقهية. ويذكر المؤرخون أن الباجي أقام أولا ببغداد ثلاث سنوات اتصل فيها بأهم فقهاء الطبقة المالكية وفي الحجاز اتصل الباجي بالمحدث أبي ذر الهروي، وخدمه وأخذ عنه علم الحديث، وشهد ضبطه الشديد في نقل الحديث. وكذلك كان الباجي حريصاً على معاشرة غير المالكية من أصحاب المذاهب الثلاثة الأخرى، والذين تغلب عليهم صبغة الحديث كأبي عبدالله الصوري. وتتلمذ الباجي على محدثين آخرين نذكر منهم أبا القاسم التنوخي، وأبا بكر الخطيب البغدادي. وألف أبو الوليد في مختلف العلوم والفنون، وبعضها ألف فيه أكثر من ألف كتاب، فألف في العقيدة: التسديد إلى معرفة طريق التوحيد.. وفي الفقه: المقتبس من علم مالك بن أنس، وفي التفسير والحديث: المنتقى في شرح الموطأ، والتجريح لمن خرج عنه البخاري في الصحيح. وفي الزهد: السنن في الرقائق والزهد. وفي علم الكلام: السراج في علم الحجاج، وفي الفرق: فرق الفقهاء. وفوق كل ذلك، كان أبو الوليد شاعراً مجيداً له النظم الرائق في المديح. وبعد حياة حافلة بالعلم والعطاء توفي أبو الوليد سنة (٤٧٤هـ).

التعريف بالكتاب:

كتاب المنهاج في ترتيب الحُجاج كتاب في صناعة الجدل يهدف إلى بيان أبوابها إجمالا، ثم أقسامها تفريعا، ثم أسئلتها تفصيلا. وهو يناصر فيه المالكية في مقابل المذاهب الثلاثة الكبرى الأخرى، يقع الكتاب في (٢٨٥) صفحة. ويتكون من تسعة أجزاء رئيسة؛ المدخل وثمانية أبواب.

يتناول المدخل (ص٧: ١٤) الغرض من تأليف هذا الكتاب. حيث يذكر الباجي: «فإني لما رأيت بعض أهل عصرنا عن سبيل المناظرة ناكبين، وعن سنن المجادلين عادلين، خائضين فيما لم يبلغهم علمه، ولم يحصل لهم فهمه، مرتبكين ارتباك الطالب لأمر لا يدرى تحقيقه، والقاصد إلى نهج لا يهتدى طريقه، أزمعت على أن أجمع كتابا في الجدل يشتمل على جمل أبوابه، وفروع أقسامه، وضروب أسئلته وأنواع أجوبته». (ص٧).

ثم يتناول الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها المناظر، من أهمها: ينبغي على المناظر أن يتقي الله، ويصلي على رسوله صلى الله عليه وسلم، ويتوقر في جلوسه، ولا يعبث بيده ولحيته، ولا يكثر الصياح حتى لا يشق على نفسه، ويُقبل على خصمه، ويُحسن الاستماع إلى كلامه، ولا يناظر في حال الجوع والعطش، ولا في حال الخوف والغضب (ص٩، ١٠).

وورد في هذا الجزء الإشارة إلى المفاهيم الآتية:

١ - الحد: اللفظ الجامع، ومعناه الذي يجمع المحدود على جنسه، ويحصره، ويمنع ما ليس منه أن يدخل فيه، وما هو منه أن يخرج عنه (ص١١).

٢ - العلم: معرفة المعلوم على ما هو به (ص١١).

٣ - العلم الضروري: ما لزم نفس المخلوق لزوماً لا يمكنه الانفكاك عنه ولا الخروج منه ولا التشكيك فيه (ص١١).

٤ - العلم النظري: ما احتاج إلى تقديم النظر والاستدلال ووقع عقيبه بلا فصل (ص١١).

٥ - الجهل: اعتقاد المعتقد على ما ليس به (ص١١).

٦ - الشك: تجويز أمرين فزائداً لا مزية لأحدهما على سائرهما (ص١١).

٧ - الظن: تجويز أمرين فزائداً أحدهما أظهر من الآخر (ص١١).

٨ - غلبة الظن: زيادة قوة أحد المجوزات (ص١١).

٩ - العقل: بعض العلوم الضرورية ومحله القلب (ص١١).

١٠ - الفقه: معرفة الأحكام الشرعية (ص١١).

١١ - أصول الفقه: ما انبنت عليه الأحكام الشرعية (ص١١).

١٢ - الجدل: تردد الكلام بين اثنين قصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول صاحبه (ص١١).

١٣ - النظر والاستدلال: تفكر الناظر في

حال المنظور فيه طلباً للعلم بما هو ناظر فيه، أو لغلبة الظن، إن كان مما طريقه غلبة الظن (ص١١).

١٤ – الدليل: ما صح أن يرشد إلى المطلوب، وهو الحجة والبرهان والسلطة (ص١١).

١٥ – الدلالة: الدليل (ص١١).

١٦ – الدال: الناصب للدليل (ص١١).

١٧ – المستدل: الطالب للدليل وقد يكون المحتج بالدليل (ص١١).

١٨ – المستدَل عليه: الحكم وقد يكون المحتج عليه (ص١٢).

١٩ – المستدَل له: يقع على الحكم؛ لأن الدليل يطلب له، وقد يقع على السائل (ص١٢).

٢٠ – النص: ما رفع في بيانه إلى أبعد غاياته (ص١٢ – ١٥).

٢١ – الظاهر: ما سبق إلى فهم سامعه معناه من لفظه، ولم يمنعه من الفهم له من جهة اللفظ مانع (ص١٢ – ١٥).

٢٢ – العموم: استغراق ما تناوله اللفظ (ص١٢).

٢٣ – المُجمل: ما لا يُفهم معناه من لفظه ويفتقر في بيانه إلى غيره (١٢).

٢٤ – المُفسر: ما فُهم المراد به من لفظه، ولم يفتقر في بيانه إلى غيره (ص١٢).

٢٥ – المُحكم: يستعمل في المُفسر، ويستعمل في الذي لم يُنسخ (ص١٢).

٢٦ – المتشابه: المُشكل الذي يُحتاج في فهم المراد به إلى تفكر وتأمل (ص١٢).

٢٧ – المطلق: هو اللفظ الواقع على صفات لم يُقيد ببعضها (ص١٢).

٢٨ – المقيد: هو الذي قُيد ببعض صفاته (ص١٢).

٢٩ – التخصيص: إفراد بعض الجملة بالذكر (ص١٢).

٣٠ – تخصيص العموم: هو إخراج بعض ما تناوله اللفظ العام (ص١٢).

٣١ – التأويل: صرف الكلام عن ظاهره إلى وجه يحتمله (ص١٢).

٣٢ – النسخ: إزالة الحكم الثابت بالشرع المتقدم بشرع متأخر عنه على وجه لولاه لكان ثابتاً (ص١٢).

٣٣ – دليل الخطاب: تعليق الحكم بمعنى في بعض الجنس، اسما كان أو صفة (ص١٢).

٣٤ – لحن الخطاب: ما فُهم من قصد المتكلم مالم يُوضع له لفظه، وقيل: قصر حكم المنطوق به على بعض ما تناوله والحكم للمسكوت عنه بما يخالفه، وقيل: هو الضمير الذي لا يتم الكلام إلا به (ص١٢).

٣٥ – فحوى الخطاب: تنبيه اللفظ على ماهو أبلغ منه (ص١٢).

٣٦ – الحقيقة: تستعمل في الحد وتستعمل في ضد المجاز، وهو كل لفظ بقي على موضوعه (ص١٢).

٣٧ – المجاز: كل لفظ تجوز به عن موضوعه (ص١٢).

٣٨ – الأمر: اقتضاء الفعل المأمور به على وجه الاستعلاء والقهر (ص١٢).

٣٩ – الواجب: هو ما كان في تركه عقاب، من حيث هو ترك له على وجه ما (ص١٢).

٤٠ – الفرض: هو الواجب، وهو المكتوب؛ وقد عبر بعض أصحابنا عن مؤكد السنن بالواجب، وهذا تجوز في العبارة (ص١٢).

٤١ – المندوب إليه: هو المأمور به الذي في فعله ثواب، وليس في تركه عقاب من حيث هو ترك له على وجه ما (ص١٣).

٤٢ – المباح: ما أعلم الفاعل من جهة الشرع أنه لا ثواب في فعله ولا عقاب في تركه من حيث هو تركٌ له على وجه ما (ص١٣).

٤٣ – السنة: ما رُسم ليُحتذى (ص١٣).

٤٤ – العبادة: هي الطاعة والتذلل لله بامتثال أمره (ص١٣).

٤٥ – الطاعة: امتثال الأمر (ص١٣).

٤٦ – المعصية: مخالفة الأمر (ص١٣).

٤٧ – الحسن: ما أمرنا بمدح فاعله (ص١٣).

٤٨ – القبيح: ما أمرنا بذم فاعله (ص١٣).

٤٩ – الظلم: التعدي (ص١٣).

٥٠ – الجور: العدول عن الحق (ص١٣).

٥١ – الجائز: يستعمل فما لا إثم فيه، وحده ماوافق الشرع، ويستعمل في العقود التي لا تلزم، وحده كل عقد للعاقد فسخه (ص١٣).

٥٢ – الصحيح: ما اعتد به (ص١٣).

٥٣ – الفاسد: ما لا يعتد به (ص١٣).

٥٤ – الشرط: ما يعدم الحكم بعدمه ويوجد بوجوده (ص١٣).

٥٥ – الخبر: الوصف للمخبر عنه على ما هو به (ص١٣).

٥٦ – الصدق: الوصف للمخبر عنه على ما هو به (ص١٣).

٥٧ – الكذب: الوصف للمخبر عنه على ما ليس به (ص١٣).

٥٨ – التواتر: كل خبر وقع العلم بمخبره ضرورة من جهة الخبر (ص١٣).

٥٩ – الآحاد: ما قصر عن التواتر (ص١٣).

٦٠ – المرسل: ما انقطع إسناده (ص١٣).

٦١ – الموقوف: ما وقف على صحابي أو تابعي ولم يبلغ به الرسول صلى الله عليه وسلم (ص١٣).

٦٢ – المسند: ما اتصل إسناده (ص١٣).

٦٣ – الصحابي: من صحب الرسول صلى الله عليه وسلم (ص١٣)

٦٤ – التابعي: من تبع الصحابي (ص١٣).

٦٥ – الإجماع: اتفاق علماء العصر على حكم الحادثة (ص١٣).

٦٦ – التقليد: التزام قول المقلد من غير دليل (ص١٣).

٦٧ – الاجتهاد: بذل الوسع في بلوغ الغرض (ص١٣).

٦٨ – الرأي: إدراك صواب حكم لم ينص عليه، وقيل: استخراج صواب العاقبة (ص١٣).

٦٩ – القياس: حمل أحد المعلومين على الآخر في إثبات الحكم أو إسقاطه بأمر جامع بينهما (ص١٣).

٧٠ – الأصل «عند الفقهاء»: ما قيس عليه الفرع بعلة مستخرجة منه (ص١٣).

٧١ – الفرع: ما حمل على الأصل بعلة مستنبطة منه (ص١٣).

٧٢ – المعلول: هو الحكم عند بعض أصحابنا، ومنهم من قال: هو العين التي يثبت فيها الحكم (ص١٤).

٧٣ – الحكم: هو وصف ثابت للأمر المحكوم فيه عقلياً كان أو شرعياً (ص١٤).

٧٤ – المعتل: هو المستدل بالعلة وهو المعلل؛ ومن أهل الجدل من قال: هو الناصب للعلة (ص١٤).

٧٥ – العلة: هي الوصف الجالب للحكم (ص١٤).

٧٦ – العلة المتعدية: هي التي تعدت الأصل إلى فرع (ص١٤).

٧٧ – العلة الواقفة: هي التي لم تتعد الأصل (ص١٤).

٧٨ – الطرد: وجود الحكم لوجود العلة (ص١٤).

٧٩ – العكس: عدم الحكم لعدم العلة (ص١٤).

٨٠ – التأثير: زوال الحكم لزوال العلة في موضع ما (ص١٤).

٨١ – النقض: وجود العلة مع عدم الحكم (ص١٤).

٨٢ – الكسر: وجود معنى العلة مع عدم الحكم (١٤).

٨٣ – القلب: مشاركة الخصم المستدل في دليله (ص١٤).

٨٤ – المعارضة: مقابلة السائل المستدل بمثل دليله أو ماهو أقوى منه (ص١٤).

٨٥ – الترجيح: بيان مزية لإحدى الدلالتين على الأخرى (ص١٤).

٨٦ – الانقطاع: هو العجز عن نصرة الدليل (ص١٤).

ثم يتناول في الباب الأول أقسام أدلة الشرع (ص١٥ – ٣٣). يقسم أدلة الشرع إلى ثلاثة أقسام: أصل، ومعقول أصل، واستصحاب أصل. فأما الأصل: فالكتاب والسنة وإجماع الأمة. ومعقول الأصل فيتضمن: لحن الخطاب، وفحوى الخطاب، ومعنى الخطاب. واستصحاب الحال وينقسم إلى قسمين: أحدهما: استصحاب الحال في براءة الذمة وخلو الساحة، وعدم الشرع الموجب لاشتغال الذمة. والثاني: الاتفاق على مقدار ما من حق ثابت في الذمة والاختلاف فيما زاد عليه، ويورد عدداً من الأمثلة التوضيحية.

وورد في هذا الباب الإشارة إلى المفاهيم الآتية:

١ – الظاهر بالوضع: كل لفظ وضع في اللغة بمعنى واستعمل فيه على حسب ما وضع له كأوامر الشرع ونواهيه (ص١٦).

٢ – الظاهر بعرف اللغة: هي الألفاظ التي هي في أصل اللغة موضوعة بجنس من الأجناس، ثم وردت في الشرع لمعنى من ذلك الجنس بعينه (ص١٦).

٣ – الظاهر بالدلالة: هو أن يكون اللفظ موضوعاً لمعنى إلا أن الدليل قد قام على أنه أريد به غير ذلك المعنى (ص١٧).

٤ – قياس العلة: هو أن يحمل الفرع على الأصل بعلة شرعية (ص٢٦).

٥ – قياس العلة الواضح: ما ثبت بضرب من الظاهر، وقد يكون ذلك الظاهر صفة وعموماً (٢٦).

ويتناول الباب الثاني أقسام السؤال والجواب (ص٣٤ – ٤١) يذكر أنها تكون على خمسة أضرب هي:

١ – السؤال عن إثبات مذهب المسئول.

٢ – السؤال عن ماهية مذهبه.

٣ – السؤال عن دليل المذهب.

٥ – السؤال عن وجه القدح في الدليل.

ثم يتناول كل قسم بالتفصيل والإيضاح.

وورد في هذا الباب الإشارة إلى المفاهيم الآتية:

١ – المطالبة: هي المطالبة بتصحيح الأخبار، وإثبات أسانيدها، والمطالبة بتصحيح الإجماع وإثباته، والمطالبة بإيجاد العلة وتصحيحها وغير ذلك من وجوه المطالبات؛ فيتوجه على المسئول تصحيح ذلك على ما أبينه في مواضعه (ص٤١).

٢ – الاعتراض: الاعتراض في نفس الدليل بما يبطله؛ وذلك مثل الطعن في أسانيد الحديث بتضعيف ناقله، أو الطعن في الإجماع ببيان الخلاف، أو الطعن في العلة بالنقض والكسر وغير ذلك؛ فيلزم المسئول إسقاط السؤال ودفعه بما يوقفه ليسلم له الدليل (ص٤١).

٣ – المعارضة: هو أن يقابل دليله بمثله أو بما هو أقوى منه؛ فيجيب المسئول عنه بكل ما يورده السائل على دليل المسئول من المطالبات والاعتراضات أو يرجح ذكره من الدليل على ما عورض به (ص٤١).

ثم يتناول الباب الثالث «بيان وجوه الاعتراض على الاستدلال بالكتاب» (ص٤٢ – ٧٥). يذكر أنواع الاعتراض على الاستدلال بالكتاب وهي سبعة أوجه، نذكر منها: الاعتراض عليه بأن المستدل لايقول به، والقول بموجبه والمنازعة بمقتضاه، والاعتراض عليه بدعوى النسخ، وباختلاف القراءة. ويذكر أمثلة توضيحية لكل وجه من هذه الوجوه السبعة.

وورد في هذا الجزء الإشارة إلى المفهومين الآتيين:

١ – المشاركة بالاستدلال بالكتاب: هو أن يجعل السائل ما استدلّ به المستدلّ دليلاً له في المسألة التي سأل عنها (ص٥٨).

٢ – تأويل الظاهر: يكون على وجهين: أحدهما: أن يستعمل اللفظ فيما يستعمل فيه كثيراً، والثاني: أن يتأول اللفظ ويحمله على ما لا يستعمل فيه كثيراً (ص٦٧).

ثم يتناول الباب الرابع الاعتراض على الاستدلال بالسنة (ص٧٦–١٣٧). يذكر الاعتراض على الاستدلال بالسنة من جهة الإسناد، وهو يكون على ضربين: تواتر وآحاد (ص٧٦–٩٠). ثم يتناول الاعتراض على متن السُّنة وهو يكون على سبعة أوجه، نذكر منها: الاعتراض عليه بالمشاركة في الدليل، والاعتراض عليه باختلاف الرواية، والاعتراض عليه من جهة التأويل (ص٩٠–١٣٧).

وورد في هذا الباب الإشارة إلى المفهومين الآتيين:

١ – التواتر على اللفظ: هو أن تنقل الجماعة لفظاً واحداً ومعنى واحداً وذلك مثل استدلال المالكي بنقل أهل المدينة للصاع (ص٧٦).

٢ – التواتر على المعنى: مثل أن تنقل جماعة أخباراً مختلفة تنفرد كل طائفة بخبر، وتتفق الأخبار كلها في معنى من المعاني؛ ويقصد المستدل

بها إثبات ذلك المعنى الذى اتفقت الأخبار عليه؛ فإن ذلك يكون تواترا من جهة المعنى (ص٧٦).

ثم يتناول الباب الخامس وجوه الاعتراض على الاستدلال بالإجماع (ص١٣٨-١٤٤). تصنف وجوه الاعتراض على الاستدلال بالإجماع إلى صنفين: صنف يُعرف بالاتفاق، وصنف يعرف بالاختلاف. ويقع الاعتراض على الاستدلال بالاتفاق على ثلاثة أوجه هى: المطالبة بتصحيح الإجماع وظهوره، ونقل الخلاف، وأن يتكلم على ما نقل منه (ص١٣٧-١٤٢). أما الاعتراض بالاختلاف فهو يتعلق باختلاف الأمة على قولين ومايتنتج عن ذلك، ويخصص فصلين أحدهما لتناول الاعتراض على الاستدلال بإجماع أهل المدينة، والثانى للاعتراض على الاستدلال بقول الواحد من الصحابة إذا لم يظهروا (ص١٤٢-١٤٤).

ثم يتناول الباب السادس «الكلام على معقول الأصل» (ص١٤٥-٢١٨). وهو يكون على أربعة أضرب: الاعتراض على لحن الخطاب، وفحوى الخطاب، والحصر، ومعنى الخطاب، يتناولها الكتاب تفصيلاً ويورد العديد من الأمثلة على كل نوع منها.

وورد فى هذا الباب الإشارة إلى المفاهيم الآتية:

١- فساد الاعتبار: أن يعتبر الشىء بما لا يقتضى اعتباره به (ص١٧٨).

٢- عدم التأثير: هو ألا يعدم الحكم لعدم العلة فى موضع من المواضع؛ والتأثير عندنا دليل على صحة العلّة، وليس عدمه دليلاً على فسادها، إذا دلّ على صحتها دليل آخر (ص١٩٦).

٣- النقض: هو أن يبين له فى الأصول خلاف ما ادّعى، فيكون ذلك معنى لما ادعاه من الأصول، ونقضا لما أورده من الدليل (ص٢١٧).

٤- الفرق: أن يبين أن هذا الموضع مخالف لسائر الأصول من جهة المعنى، فلهذا خالفها فى الحكم (ص٢١٨).

ثم يتناول الباب السابع «الكلام على استصحاب الحال» (ص٢١٩، ٢٢٠)، يعترض على استصحاب الحال من وجهين: أحدهما أن يعارضه بمثله، والثانى أن ينقله عن حال بديل، ويقدم أمثلة توضيحية لكلا الوجهين.

ثم يتناول الباب الثامن «الكلام على الترجيحات» (ص٢٢١-٢٤٠). يذكر أن الترجيح طريق لتقديم أحد الدليلين على الآخر، وهو قد يقع فى الظواهر، وقد يقع فى المعانى، ويوضح كلا النوعين من خلال الأمثلة التوضيحية.

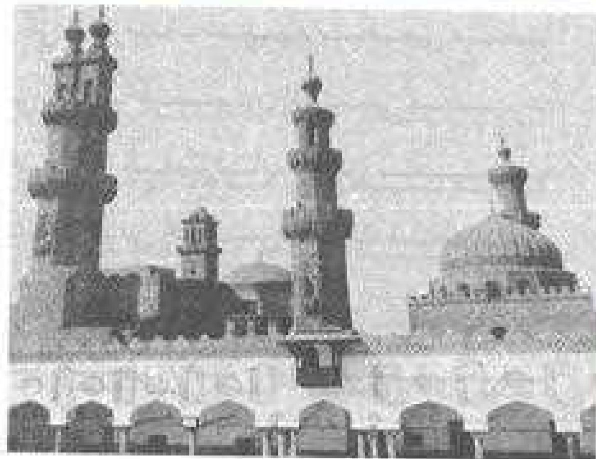
الخلاصة:

ورد فى هذا الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

- الجدل Controversy.
- الاستدلال Reasoning.
- الدليل Evidence.
- التقليد Imitation.
- الرأى Opnnion.
- القياس Measurement.
- الحكم Judgement.
- التأثير Effect.
- الترجيح Probability.

د. عبير محمد أنور

الأزهر(*)





لأمير الشعراء/أحمد شوقى

قم فى فم الدنيا وحىّ الأزهرا ... وانثر على سمع الزمان الجوهرا
واجعل مكان الدرّ - إن فصّلته ... فى مدحه - خرز السماء النيّرا
واذكره بعد المسجدين، معظّما ... لمساجد الله الثلاثة مُكبِرا(1)
واخشع مليّا، واقض حقّ أئمة ... طلعوا به زُهرا، وماجوا أبحرا
كانوا أجلّ من الملوك جلالة ... وأعزّ سلطانا، وأفخم مظهرا
زمن المخاوف كان فيه جنابهم ... حرم الأمان، وكان ظلّهم الذرا(2)
من كل بحر فى الشريعة زاخر ... ويريكه الخُلُق العظيم غضنفرا
لا تحذ حذو عصابة مفتونة ... يجدون كل قديم شىء منكرا
ولو استطاعوا فى المجامع أنكروا ... من مات من آبائهم أو عُمّرا
من كل ماض فى القديم وهدمه ... وإذا تقدّم للبناية قصّرا
وأتى الحضارة بالصناعة رثّة ... والعلم نزرا، والبيان مثرثرا(3)

يا معهدا أفنى القرون جداره ... وطوى الليالى ركنه والأعصرا
ومشى على يبس المشارق نوره ... وأضاء أبيض لجّها والأحمرا

(*) قيلت هذه القصيدة بمناسبة إصلاح الأزهر الشريف والبدء فيه فى سنة ١٩٢٤.

(1) المسجدان: المسجد الحرام والمسجد الأقصى.

(2) الذرا: الملجأ.

(3) النزر: القليل، والمثرثر: المخلط.

وأتى الزمانُ عليه يحمي سُنةً　　ويذودُ عن نُسُك، ويمنع مَشْعَرا(٤)
في الفاطميين انتمى ينبوعُه　　عذب الأصول كجدِّهم متفجِّرا(٥)
عينٌ من الفرقان فاض نميرُها　　وحيًا من الفصحى جرى وتحدّرا(٦)
ماضرّني أن ليس أُفقُك مطلعي　　وعلى كواكبه تعلمتُ السُّرى
لا والذى وكَل البيان إليك، لم　　أكُ دون غايات البيان مُقصِّرا
لما جرى الإصلاحُ قمت مُهنِّئا　　باسم الحنيفة بالمزيد مُبشِّرا(٧)
نبأ سرى، فكسا المنارة حَبْرةً　　وزها المُصلَّى، واستخفَّ المنبرا(٨)
وسما بأروقة الهُدى، فأحلَّها　　فرعَ الثُّريَّا، وهي في أصل الثرى
ومشى إلى الحلقات، فانفرجتْ له　　حلقًا كهالات السماء مُنوَّرا
حتى ظننّا الشافعيَّ، ومالكًا　　وأبا حنيفة، وابن حنبل حُضَّرا
إنّ الذى جعل العتيق مثابةً　　جعل الكنانيَّ المباركَ كوثرا(٩)
العلمُ فيه مناهلاً ومجانيًا　　يأتي له النُّزّاعُ يبغون القِرى(١٠)

❖❖❖

يا فتيةَ المعمور، سار حديثُكم　　ندًا بأفواه الركاب وعنبرا(١١)
المعهدُ القدسيُّ كان نديَّه　　قُطبًا لدائرة البلاد ومِحْورا
وُلدتْ قضيَّتُها على محرابه　　وحَبَتْ به طفلاً، وشبَّتْ مُعصِرا(١٢)
وتقدمت تُزجي الصفوفَ، كأنها　　(جاندَرْكُ) في يدها اللواءُ مُظفَّرا

(٤) النسك: العبادة، والمشعر: موضع من مناسك الحج.
(٥) جد الفاطميين: أمير المؤمنين على بن أبى طالب، وقد كان مضرب المثل فى التبحر فى العلوم.
(٦) الفرقان: القرآن، والحيا: المطر، والفصحى: اللغة العربية.
(٧) الحنيفة: الشريعة.
(٨) المنارة: المئذنة، والحبرة: السرور.
(٩) العتيق: المسجد الحرام، والمثابة: مجمع الزمر.
(١٠) النزاع: القصاد، والقرى: الضيافة.
(١١) المعمور: الأزهر.
(١٢) طفلا: أى طفلة، والمعصر: الفتاة المدركة.

❖❖❖

هُزُّوا القُرى من كهفها ورقيمها　　أنتم - لعَمْرُ الله - أعصابُ القرى
الغافلُ الأُمِّيُّ ينطقُ عندكم　　كالببغاء، مردِّدًا، ومُكرِّرا
يُمسي ويصبحُ فى أوامر دينه　　وأمور دنياه بكم مُستبصِرا
لو قلتم: اختر للنيابة جاهلاً　　أو للخطابة باقلاً، لتخيَّرا(١٣)
ذُكرَ الرجالُ له، فآله عصبة　　منهم، وفسَّق آخرين، وكفَّرا(١٤)
آباؤكم قرءوا عليه، ورتَّلوا　　بالأمس تاريخَ الرِّجال مُزوَّرا
حتى تلفَّتَ عن محاجر رومة　　فرأى (عرابى) فى المواكب قيصرا
ودعا لمخلوقٍ، وألَّه زائلاً　　وارتدّ فى ظُلَم العصور القهقرى
وتفيَّئوا الدستورَ تحت ظلاله　　كنفًا أهشَّ من الرياض وأنضرا
لا تجعلوه هوًى، وخُلْقًا بينكم　　ومَجَرَّ دنيا للنفوس، ومَتجَرا
اليوم صرَّحت الأمورُ، فأظهرت　　ما كان من خُدَع السياسة مُضمرا
قد كان وجهُ الرأى أن نبقى يدًا　　ونرى وراءَ جنودها إنكلترا
فإذا أتتنا بالصفوف كثيرةً　　جئنا بصفٍّ واحدٍ لن يُكسَرا
غضبتْ، فغضَّ الطرفَ كلُّ مُكابر　　يلقاكَ بالخدِّ اللطيم مُصعِّرا
لم تلقَ إصلاحًا يُهابُ، ولم تجد　　من كُتلةٍ ما كان أعيا مِلْنرا(١٥)
حظٌّ رجونا الخيرَ من إقباله　　عاثَ المُفرِّقُ فيه حتى أدبرا
دار النيابة هيئتْ درجاتُها　　فليرقَ فى الدرج الذوائبُ والذُّرا(١٦)
الصارخون إذا أُسيءَ إلى الحمى　　والزائرون إذا أُغيرَ على الشرى
لا الجاهلون العاجزون، ولا الأُلى　　يمشون فى ذهب القيود تبخترا

(١٣) باقل: عربى يضرب به المثل فى العى والفهاهة.
(١٤) فسقه: رماه بالفسق، وكفره: نسبه إلى الكفر.
(١٥) المراد بالكتلة: الأمة مجتمعة، واللورد ملنر: هو أحد الوزراء الإنجليز، وكان قدم إلى مصر فى جماعة من قومه سنة ١٩٢٠ ليتقصوا رغائبها وآمالها، فقاطعتهم البلاد وأحالتهم على الوفد المصرى الذى كانت وكلته فى الدفاع عن حقها إذ ذاك.
(١٦) المراد بالذوائب والذرا: علية القوم وأكفاؤهم

صاحب المنار والبعث الإسلامي


رشيد رضا

للأستاذ الدكتور/ حلمي محمد القاعود

-١-

هذا رجل من أولى العزم من الرجال، قام بدور مهم فى مطالع القرن العشرين، وأثر فى الأمة شرقا وغربا بمواقفه وكتاباته وإصداراته، ويمكن القول إنه واحد من القلائل الذين أسهموا فى بعث الأمة وهيأوا لها سبل العمل من أجل الاستقلال والبناء، وضحى بماله وجهده ووقته من أجل الخدمة العامة التى يقررها الإسلام فى مفهوم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فأعطى خلاصة علمه وكل عمله لخدمة هذا المفهوم، وهو ما جعل كبار الكتاب والمفكرين فى زمانه وبعد زمانه يكتبون عنه، ويتناولون جوانب حياته المختلفة بالدراسة والبحث والتقدير والإشادة، وما فعلوا ذلك إلا إيمانا بدوره العظيم فى نهضة الإسلام مطالع القرن العشرين، وتحريك المسلمين لفهم دينهم وتطبيقه فى حياتهم تطبيقا صحيحا، والعمل على رفض التبعية للاستعمار الغربى ونبذ الجانب السلبى فى ثقافته، وممن كتبوا عنه: أحمد أمين، أنور الجندى، جرجى زيدان، جمال الدين الأفغانى، جمال الدين الشيال، سامى الدهان، شكيب أرسلان، عبد القادر المغربى، عبد المتعال الصعيدى، عبود مارون، عثمان أمين، محمد البهى، وغيرهم..

والرجل منذ نشأته فى قرية «القلمون» تقع على شاطئ البحر المتوسط من جبل لبنان وتبعد عن طرابلس الشام بنحو ثلاثة أميال - حيث ولد فى السابع والعشرين من جمادى الأولى ١٢٨٢هـ- الثالث والعشرين من سبتمبر ١٨٦٥م، إلى أن توفى بمصر فى الثالث والعشرين من جمادى الأولى ١٣٥٤هـ- الثانى والعشرين من أغسطس ١٩٣٥م، وهو يؤدى دوره المميز فى خدمة الإسلام والمسلمين.

لقد رباه أبوه "على رضا" - وكان شيخا للقلمون وإماما لمسجدها - تربية إسلامية طيبة حيث حفظ القرآن الكريم وتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب، ثم انتقل إلى طرابلس، فدخل المدرسة الرشيدية الابتدائية، ثم المدرسة الوطنية الإسلامية بطرابلس التى أسسها ورعاها الشيخ حسين الجسر، وكانت تهتم بتدريس اللغة العربية والعلوم العربية والشرعية والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية، وكان يرى أنه من الضرورة لرقى الأمة الجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا على الطريقة الأوروبية الحديثة مع التربية الإسلامية الوطنية. وقد توثقت صلة رشيد رضا بالشيخ الجسر، واتصل بحلقاته ودروسه، بعد أن أغلقت المدرسة، وأحاطه الشيخ الجسر برعايته، ثم أجازه سنة ١٨٩٧م؛ لتدريس العلوم الشرعية والعقلية والعربية، وفى الوقت نفسه درس «رشيد رضا» الحديث على يد الشيخ «محمود نشابة» وأجازه أيضاً لرواية الحديث، كما واظب على حضور دروس نفر من علماء طرابلس مثل: الشيخ عبد الغنى الرافعى، ومحمد القاوجى، ومحمد الحسينى، وغيرهم. وعندما نفى الشيخ محمد عبده بعد الثورة العرابية وذهب إلى بيروت للإقامة بها، كان رشيد رضا يتلقى دروسه فى طرابلس، ولكنه لم يستطع أن يلتقى بالشيخ مباشرة طوال إقامته فى لبنان.

لقد كان محمد عبده يدرس فى المدرسة السلطانية ببيروت، ويلقى دروسه التى حققت له شهرة فائقة وجذبت إليه طلبة العلم بما لديه من أفكار جديدة ولمحات ذكية وآراء جيدة مقنعة، خاصة بعد أن ترك العمل فى السياسة، وآثر أن يركز جهوده فى الناحية التربوية والتعليمية بوصف ذلك سبيل الإصلاح وطريق الرقى. وقد تركت شهرة الشيخ لدى محمد رشيد رضا إعجابا كبيرا به، ورغبة قوية فى متابعته والسير على نهجه التربوى الإصلاحى، فاغتنم بعدئذ فرصة زيارة الشيخ إلى طرابلس تلبية لدعوة كبار رجالها، وتوثقت الصلة بين الرجلين، وازداد تعلق رشيد رضا بأستاذه، وقوى إيمانه به وبقدرته على أنه خير من يخلف «جمال الدين الأفغانى» فى ميدان الإصلاح وإيقاظ الشرق


الأفغانى


محمد عبده

من سباته.

وإذا كان رشيد رضا قد حقق أمنيته بلقاء الأستاذ الإمام، فإن حلمه بلقاء جمال الدين الأفغانى مفجر الثورات وأستاذ محمد عبده والتلمذة على يديه لم يتحقق، واكتفى بتبادل الرسائل معه وإبداء الإعجاب به، فقد كان جمال الدين فى الآستانة يومئذ محاصرا وعين الدولة عليه لا تفارقه، ثم إنه هناك فقد ذراعه اليمنى التى كانت تساعده وتحركه أعنى محمد عبده. ولم يلبث حتى انتقل إلى رحاب مولاه عام (١٤١٣هـ- ١٨٩٧م).

وكان لقاء طرابلس بالإمام محمد عبده بداية لعلاقة قوية فيما بعد نمت وتطورت على أرض مصر حين انتقل إليها محمد رشيد رضا.

-٢-

بيد أن تكوينه العلمى والفكرى كان مستمدا بصفة عامة من كتب التراث الإسلامى، فضلا عن القرآن الكريم الذى حفظه وكان لا يكف عن تلاوته، والحديث الشريف الذى كان يدرسه ويوثقه وفقا لمنهج علماء الحديث، وقد نال إجازة فيه عن أستاذه محمود نشابة الذى سبقت الإشارة إليه، حتى صارت له مكانة عالية

فى علم الحديث؛ ولقبه أحدهم باسم «فولتير المسلمين»، وقد شهد له أساتذته بصواب الرأى ورجاحة العقل فيما يعرض له من مسائل فى الفقه أو الحديث.

لقد كان رشيد رضا متأثرا بالإمام الغزالى فى تلقيه العلم، وكان يضع نصب عينيه نصيحته التى ذكرها فى الفرق بين «العلم الذى يصل إلى القلب أو النفس عن طريق الحواس، والعلم الذى يتفجر منه بتطهيره من الصفات المذمومة والأفكار الرديئة، حتى يكون كالمرآة الصقيلة، بأن مثل الأول كالماء الذى يجرى بين السواقى المحفورة على حفرة أو بئر، يجتمع فيها مع كل ما يحمله فى طريقه من الغثاء والوحل، ومثل الثانى كماء الينبوع الذى يتفجر من الصخر النظيف».

ويوضح محمد رشيد رضا ذلك فى مذكراته بقوله: «فقد كنت أتحرى أن يكون قلبى طاهرا ونفسى زكية لأكون مستعدا للعلم الإلهامى، ولتكون مرآة نفسى صقيلة ينطبع فيها ما تتوجه إليه من المعلومات الكسبية (المكتسبة) على اختلاف أنواعها» (انظر: إبراهيم أحمد العدوى، رشيد رضا: الإمام المجاهد، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، القاهرة، ١٩٦٤م، ص ٣١- ٣٢».

وكان إخلاصه للعلم وانقطاعه له، ينطلق من حب للتقوى والعبادة، وميل فطرى للتنسك والزهد والتقشف وكبح جماح النفس ومقاومة الهوى مذ كان شابا صغيرا. ويروى أنه جاءته إحدى الفتيات البارعات الجمال، وقالت له: يا سيدى، صدرى ضيق حط إيدك المباركة عليه.

فقال لها: إن اليد التى توضع على صدر أجنبية مثلك، يد نجسة لا مباركة، لأن هذه معصية. اذهبى وأنا أدعو الله أن يشرح صدرك ويزيل ضيقه.

لقد كان رشيد رضا يضع نصب عينيه ما يحدث لعلماء الدين والنساك من فساد لافتتانهم بالحسان والخضوع لهن، وقد ظل الرجل يأخذ نفسه بطاعة الله والتمسك بتعاليم الدين الحنيف، وكان الفضل فى ذلك يرجع إلى شدة تأثره بكتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالى (انظر: السابق، ص ٣٦- ٤٠).

وإلى جانب الثقافة الإسلامية، فقد اطلع محمد رشيد رضا على كتب الأدب واللغة، فاكتسب منها القدرة على التعبير الجيد، وتفتحت موهبته الشعرية منذ بداياته التعليمية، فنظم كثيرا من القصائد الرقيقة فى مناسبات مختلفة تدل على حرصه الواضح على الزهد وترك المظاهر الدنيوية الخادعة وتذكر الموت والآخرة..وقد هيأ له إخلاصه للعلم وانقطاعه للبحث والقراءة أن يقدم إنتاجا فكريا ضخما تمثل فى كتاباته التى سطرها على صفحات المنار أو الكتب التى ألفها لبيان جوانب إسلامية أو رد شبهات يلهج بها خصوم الإسلام. لقد كان تراثه العلمى الذى خلفه وراءه تراثا علميا رائعا، لا ينهض به إلا رجل من أولى العزم من الرجال؛ يعيش عيشة الصالحين المنقطعين للعبادة عن طريق العمل، ويتضح من سرد أسماء تلك الأعمال العلمية أن صاحبها لم يعرف فى حياته لغوا ولا لهوا، وإنما استهدف الجد والنفع العظيم، ومنها:

١- الحكمة الشرعية فى محاكمة القادرية والرفاعية، وهى أول مؤلفات رشيد رضا، دوّنه فى أثناء طلبه للعلم بالشام، واستهدف به الرد على أبى الهدى الصيادى الذى عرض للشيخ الصوفى السيد عبد القادر الجيلانى. وانتهى رشيد رضا فى هذا الكتاب إلى تحقيق مسائل فى الإصلاح الإسلامى نشر بعضها فيما بعد فى المنار.

٢- مجلة المنار، وصدر الجزء الأول منها سنة ١٣١٥هـ- ١٨٩٨م أى عقب هجرته مباشرة إلى مصر، وآخر ما طبع فيها الجزء الثانى من المجلد الخامس والثلاثين، فى ٢٩ ربيع الثانى سنة ١٣٥٤هـ- ١٩٣٥م. ضمت ١٦٠ ألف صفحة، وتلك المجموعة من مجلة المنار هى المعلمة الإسلامية الكبرى والكنز الذى احتوى ثمار تجارب رشيد رضا وآرائه فى الإصلاح الدينى والسياسى. فضلاً عن رحلاته التى قام بها إلى أوروبا والآستانة والهند والحجاز، ومشاركته فى ميادين أخرى من ميادين العمل الإسلامى.

وتعد المؤلفات الأخرى التى وضعها رشيد رضا فيما بعد فروعا لدوحة المنار، أو شرحا لآراء سبق أن أشار إليها فى المنار، أو دراسات جمعها فى وحدة واحدة بعد أن كانت شذرات مبعثرة فى المنار، ومن تلك المؤلفات:

٣- تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وما جرى بمصر فى عصره.

٤- نداء للجنس اللطيف (حقوق النساء فى الإسلام).

٥- الوحى المحمدى.

٦- المنار والأزهر.

٧- ذكرى المولد النبوى.

٨- الوحدة الإسلامية.

٩- يسر الإسلام وأصول التشريع العام.

١٠- الخلافة أو الإمامة العظمى.

١١- الوهابيون والحجاز.

١٢- السنة والشيعة.

١٣- مناسك الحج؛ أحكامه وحكمه.

١٤- تفسير القرآن الكريم، المعروف بتفسير المنار.

١٥- حقيقة الربا.

١٦- مساواة الرجل بالمرأة.

١٧- رسالة فى حجة الإسلام الغزالى.

١٨- المقصورة الرشيدية.

وقد استطاع رشيد رضا بهذه المؤلفات أن يكون فى صدره علماء عصره وعظمائه المصلحين، كما استطاع أن ينتصر على خصومه بما كشفت عنه هذه المؤلفات من رسوخ فى العلم وإيمان بالعقيدة وثبات على المبدأ. وأن ينزع منهم عصا التمرد، ويحملهم على الاعتراف بزعامته (انظر: السابق أيضا ص٢٦٩-٢٧١).

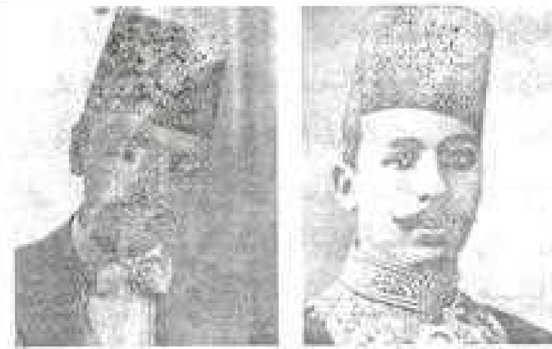
-٣-

بدأ الشيخ رشيد رضا دعوته على أرض قريته الصغيرة، فكانت القرية ميدانا لدعوته الإصلاحية بعد أن تزود بالعلم وتسلح بالمعرفة، وصفت نفسه بالمجاهدات والرياضات الروحية ومحاسبة نفسه وتخليص قلبه من الغفلة وحب

الدنيا، وراح يلقى الدروس والخطب فى المسجد بطريقة سهلة بعيدة عن السجع الذى كان يشيع فى الخطب المنبرية آنذاك، ويختار آيات من القرآن يحسن عرضها على جمهوره، ويبسط لهم مسائل الفقه، ويحارب البدع التى كانت شائعة بين أهل قريته.

ولم يكتف الشيخ رضا بمن يحضر دروسه فى المسجد، فذهب هو إلى الناس فى تجمعاتهم فى المقاهى التى اعتادوا على الجلوس فيها لشرب القهوة والنارجيلة، ولم يخجل من جلوسه معهم يعظهم ويحثهم على الصلاة، وقد أثمرت هذه السياسة المبتكرة، فأقبل كثير منهم على أداء الفروض والالتزام بالشرع والتوبة والإقبال على الله (ويلاحظ أن الإمام الشهيد حسن البنا سار فى دعوته على نهج رشيد رضا الذى تأثر به كثيرا، وذهب مثله إلى الناس فى المقاهى وصنع منهم أصحاب دعوة)، وبعث رشيد رضا إلى نساء القرية من دعاهن إلى درس خاص بهن، وجعل مقر التدريس فى دار الأسرة، وألقى عليهن دروسا فى الطهارة والعبادات والأخلاق، وشيئا من العقائد فى أسلوب سهل يسير.

ويبدو أن ميدان الدعوة فى القرية أو فى لبنان لم يكن مرضيا له، وخاصة بعد ما كان من احتكاكات بين أهل الشام والولاة العثمانيين دفعت كثيرا من الشوام إلى الهجرة إلى مصر أو الأمريكيتين، فبحث عن ميدان أوسع وأرحب يساعد على الحركة الطليقة، فهاجر إلى مصر ليعمل أستاذه وحبيبه الإمام مع محمد عبده تلميذ الأفغانى، فهاجر إلى مصر، ونزل الإسكندرية فى مساء الجمعة (الثامن من رجب ١٣١٥ هـ- الثالث من يناير ١٨٩٨م)، وبعد أيام قضاها فى زيارة بعض مدن الوجه البحرى توجه إلى القاهرة واتصل على الفور بالأستاذ الإمام، وبدأت رحلة جديدة لرشيد رضا كانت أكثر إنتاجا وتأثيرا فى تفكيره ومنهجه الإصلاحى.



مصطفى كامل — فريد وجدى

- ٤ -

لم يكد يمضى شهر على نزوله القاهرة حتى صارح شيخه بأنه ينوى أن يجعل من الصحافة ميدانا للعمل الإصلاحى، ودارت مناقشات طويلة بين الإمامين الجليلين حول سياسة الصحف وأثرها فى المجتمع، انتهت بالاتفاق على تأسيس المنار حيث أقنع التلميذ شيخه بأن الهدف من إنشائه صحيفة هو التربية والتعليم، ونقل الأفكار الصحيحة لمقاومة الجهل والخرافات والبدع، وأنه مستعد للإنفاق عليها سنة أو سنتين دون انتظار ربح منها.

وكانت هناك صحف فى أواخر القرن التاسع عشر وصدر القرن العشرين تهتم إلى حد كبير بقضايا العالم الإسلامى، ومن أبرزها: المؤيد (على يوسف) وصدرت فى أواخر ١٨٨٩، وكان محمد رشيد رضا يراها المجلة

الإسلامية اليومية الأولى فى زمنها، ثم صدرت المنار (محمد رشيد رضا) فى ١٨٩٨، واستمرت حتى وفاة صاحبها، وتعد من أطول المجلات الإسلامية عمرا، والحياة (محمد فريد وجدى)، وصدرت فى ١٨٩٩ وتوقفت بعد صدورها بوقت قصير، ثم اللواء (مصطفى كامل) وصدرت فى أوائل ١٩٠٠ وأصدر مصطفى كامل بعدها مجلة العلم الإسلامى عام ١٩٠٥ وتوقفت ١٩٠٧، وأصدر عبد العزيز جاويش مجلة الهداية ولم تعمر طويلا، ولكنه أصدر بعدها حين هاجر إلى تركيا مجلة العالم الإسلامى عام ١٩١٦- ١٩١٧، وفى هذه المرحلة صدرت مجلات إسلامية عديدة مثل مجلة « مكارم الأخلاق الإسلامية» ومجلة جمعية الملاجئ، ومجلة الأزهر(*) التى استأجرها ويليم ويلكوكس لنشر دعوته إلى العامية.. وكانت هناك مجلات لها طابع إسلامى، ولكنها ليست إسلامية خالصة، ومنها مجلة «مرآة الشرق (١٨٨٣)» ومصباح الشرق (١٨٩٨) ومجلة المجلات العربية (١٩٠٨).

وكانت مجلة العروة الوثقى «قبل ذلك (١٨٨٣م) قد صدرت شهرية فى باريس بمعرفة جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده، وهما منفيان، وصدر منها ستة عشر عددا ثم توقفت. وكانت أشهر المجلات الإسلامية الشهرية فى وقتها، وتأثر بها محمد رشيد رضا تأثرا كبيرا، ولذا ارتبطت المنار بالعروة الوثقى ارتباطا وثيقا بحكم العلاقة بين صاحبى العروة ومحرر المنار، الذى كان تلميذا مخلصا لأفكارهما ومنهجهما، وكان محمد عبده بمثابة المشرف على المنار، ويرى محمد رشيد رضا أن المنار امتداد للعروة إلا فى مسائل السياسة، فقد كانت العروة الوثقى قذيفة نارية على الاستعمار البريطانى، بينما كان محمد رشيد رضا يتجنب معارضة النفوذ البريطانى. وسوف نلاحظ تشابها كبيرا بين منهجى العروة الوثقى والمنار فى الأهداف والغايات والأسلوب، وأن كثيرا من الكتاب البارزين فى تلك الفترة التى شهدت وجود العروة والمنار وكتبوا فيهما أو تتلمذوا على فكر جمال الدين ومحمد عبده؛ كانوا يسيرون وفق تصورات مشتركة غالبا.. فمنهج العروة الوثقى يشير إلى تبنى قضية الوحدة الإسلامية وتحرير الأوطان الإسلامية من النفوذ الأجنبى من خلال:

١- إيقاظ الروح الكامنة فى النفس الشرقية ومحاربة اليأس ومواجهة النفوذ الأجنبى الزاحف.

٢- التماس منهج القرآن فى بناء الأفراد والمجتمعات بوصفه المنقذ الوحيد للمسلمين.

٣- تنبيه الأمة إلى ذاتيتها الأصيلة التى أنشأت الحضارة الزاهرة.

٤- محاربة الاستعمار بكل الوسائل من خلال مفهوم الجهاد.

٥- الدعوة إلى امتلاك أسباب القوة والتقدم والعلم والتمدن؛ دون التخلى عن الجذور الإسلامية.

(*) وهي مجلة حملت اسم الأزهر وليس للأزهر الشريف بها أي صلة، وقد صدرت قبل صدور «مجلة الأزهر» الحالية. إدارة التحرير.

٦ - مقاومة التبعية والذوبان فى الآخر (انظر : أنور الجندى ، الصحافة الإسلامية ، توزيع دار الأنصار، القاهرة، د.ت ، ١٩ / ١)

لقد دخلت العروة الوثقى بالصحافة الإسلامية إلى إطار الإسلام السياسى والحضارى والاجتماعى، بعد أن كانت تقف عند الكتابات الخاصة بالعقائد والعبادات فحسب .

أما المنار فقد أعلنت عن غاياتها باختصار شديد فى العدد الأول، وإن كانت قد وسعت عمليا دائرة هذه الغايات فى أعدادها اللاحقة بما نشرته من موضوعات تتفق مع غايات العروة الوثقى . ففى العدد الأول من المنار أعلنت أهدافها وغاياتها متمثلة فيما يلى:

- الإصلاح الدينى والاجتماعى لأمتنا الإسلامية .
- اتفاق الإسلام مع العلم والعقل وموافقه لصالح البشر فى كل قطر وكل عصر.
- إبطال ما يورد من الشبهات عليه ، وتفنيد ما يعزى من الخرافات إليه.

وقد قارن محمد رشيد رضا بين العروة الوثقى والمنار؛ فأشار إلى دور العروة الوثقى التى صدر منها ثمانية عشر عددا هزت القلوب، وأيقظت العقول ، وكان الغرض من إنشائها : إثارة العالم الإسلامى، وجمع كلمته لدفع عبودية الاستعمار الأوربى، وتجديد دولة إسلامية عزيزة تتولى فى ظل حريتها ما يجب من الإصلاح الدينى والدنيوى.

أما غرض المنار؛ فهو إعداد الأمة لهذا التجديد، وأول رسائله بيان أمراض الأمة، وأسبابها، ووصف علاجها، وتأليف الجماعات للتعاون فى المعالجة المطلوبة ... ((انظر: السابق : ص ٢٥)، وكأن رشيد رضا يريد أن يقول إن المنار تتكامل مع العروة الوثقى، وإن كانت تتبنى الدعوة إلى بناء الإنسان المسلم أولا ليحقق ذاته واستقلاله ومستقبله .

وقد أحصى الشيخ أحمد الشرباصى فى كتابه (مدرسة الأستاذ الإمام وأثرها فى اللغة والأدب)تلامذة العروة الوثقى والمنار، ممن جمعهم تصور إسلامى مشترك، عبروا عنه فى كتاباتهم، وآرائهم فذكر :

سعد زغلول حفنى ناصف، محمد المهدى، مصطفى لطفى المنفلوطى، على يوسف، محمد رشيد رضا، شكيب أرسلان، عبد القادر المغربى، عبد الرحمن البرقوقى، أحمد لطفى السيد، مصطفى عبد الرازق، أحمد تيمور، محمد مصطفى المراغى، أحمد فتحى زغلول، إبراهيم اللقانى، عبدالكريم سلمان، إبراهيم الهلباوى، عبدالعزيز جاويش، حافظ إبراهيم، إسماعيل صبرى، رفيق العظم، أحمد إبراهيم، حسن منصور، عبد الوهاب النجار، مصطفى العنانى....

وكما نرى فهؤلاء أعلام فى السياسة والأدب والشعر، والتعليم والصحافة والتحقيق والمحاماة والتأريخ كتب معظمهم فى المنار، وساروا على نهج منشئها وصاحبها ، وعالجوا القضايا التى هدف إليها..

يتبـــــع

قصة العدد

قصة الحجاج السلمى



للدكتور/ محمد رجب البيومى

رجعت قريش بعد صلح الحديبية غير مستريحة لشأنها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد تأكدت أن نبى الإسلام فى منعة من المسلمين، وأن أمره إلى ازدياد، وهو بعد أحد، يسير من نصر إلى نصر، فما قام فى وجهه أحد، حتى الجموع الغفيرة التى احتشدت يوم الأحزاب، وضمت مختلف القبائل المتنافرة التى لم تجمعها غير عداوة محمد، هذه الجموع قد هلعت وفزعت حين رأت الريح والبرق، وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا شيئاً.

لذلك ظلت تتحسس الأنباء عسى الأيام تسعفها ببعض ما تريد، وقد جاءها العباس بن مرداس السلمى يعلن فى فرحة - ولم يكن قد أسلم بعد - أن محمداً قد ذهب لقتال خيبر، وأنه لن يفلت من الهلاك، حين خاطر بنفسه وبجيشه، فاعتسف الصحراء إلى حصونهم المنيعة، وآطامهم العالية، وقد أعدوا السلاح المبيد، وبحثوا فى شراء المنجنيق والدروع والنصال والسيوف، وفيهم قائدهم (مرحب) ذو البأس، ولن يؤوب المسلمون بغير الخيبة المحققة، إذ ظنوا فى أنفسهم القوة أمام خيبر، وهم شراذم مستهلكون.

ما كاد العباس بن مرداس يذيع ذلك، حتى دبت الفرحة فى قلوب المشركين ولعب الشيطان بعقولهم، فتأكدوا أن الهزيمة واقعة بالمسلمين، وفيهم من تحمس للرهان حين قال العباس بن مرداس :من شاء راهنته على أن محمداً لن يفلت من القوم، فقال صفوان بن أمية، ونوفل بن معاوية: نحن معك ياعباس! وقام حويطب بن عبدالعزى مع ملأ من بنى هاشم يعلنون أنهم يراهنون واثقين بنصر محمد، وانعقد الرهان على مائة بعير يدفعها حويطب وحزبه إن انهزم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويدفع مثلها العباس وصفوان ونوفل إذا انتصر! وتحمس القوم ينتظرون نتائج المعركة فى قلق، وكأنها معركة مكة لا معركة خيبر، وحين طال الأمد على المنتظرين بعض الوقت أخذوا يرسلون الطلائع، ليسألوا من يعتسف الطريق من القبائل الراحلة هل سمعوا شيئاً عن أمر خيبر، وكل فريق من المتراهنين يحسب حساباً وينتظر يوماً مشهوداً.

علم الحجاج بن علاط السلمى بما كان من أمر

الرهان، وكان قد نوى الإسلام عن قلب صادق، ويقين حازم، وهو تاجر ثرى، وله أمواله وجواهره لدى القرشيين بمكة، فانضم إلى الجيش الإسلامى بخيبر حتى وآتاه الله النصر، فتقدم إلى رسول الله قائلا: يا نبى الله، لقد تزوجت امرأة بمكة، لديها ودائعى الكثيرة، وللكفار من المشركين هناك تربص بى إذا أسلمت حيث يمتنعون عن سداد ديونهم، وهى من الكثرة بحيث يحزننى أن ينتهبها الأعداء، أفتأذن لى أن آتى مكة، وهم يتربصون النبأ هناك، فأعلمهم كذبا بانهزام المسلمين، وأجمع أموالى بحجة أنى سأتاجر فى ما يعرض من غنائم المسلمين، وأعود إليهم بالغنيمة، والخير والرخاء! أفتأذن لى يا رسول الله؟ وهم يجهلون أنى مسلم، فأحتال لنفسى وأرجع بالمال، وقد عرف الرسول فيه صدق القول، فأذن له أن يقول ما يشاء حتى يعود.

وطار الحجاج حتى أتى مكة، فوجد أهلها على مثل الجمر ترقبا لنتيجة خيبر، فصاح بالقوم يعلن هزيمة المسلمين، ويزيد فيقول: إن يهود خيبر قد أسرت محمداً، ولم تشأ أن تقتله حتى تفد به أسيراً إلى مكة، فتسلمه إليكم حيث شرد أمتكم، وقتل وجوهكم.

ثم قال الحجاج: لم يلق محمد وأصحابه قوماً يحسنون القتال كما لقى من أهل خيبر، لقد ساروا فى العرب يجمعون الجموع حتى رصدوا له عشرة آلاف بطل مدججين بالسلاح، ويصممون على النصر، آخذين بثأر بنى قريظة والنضير، وقينقاع! وقد حفظوا كرامتكم إذ قدروا أن تكونوا قتلته نكاية فيه، وما هى إلا أيام يفرغ فيها القوم من أمرهم، ويأتون إليكم بالأسير!! وهأنذا قد بشرتكم، فأعينونى على جمع مالى لأصيب من غنائم محمد قبل أن تسبقنى التجار إلى ما هناك.

ثم انكفأ إلى داره، فقابل زوجته، وكانت شرسة عنيدة تكره المسلمين كراهة مفرطة؛ لأن والدها سدان الكعبة وخادم الأصنام، وقد جاء الإسلام ليحطم الشرك ويمحق الأوثان، فكيف ترجو نصر محمد صلى الله عليه وسلم.. والحجاج يعلم أنها لو عرفت إسلامه لمنعته أن يأخذ ما لديها من الجواهر والحلى، ولأظهرت أمره فى الناس، فقال لها: يا أم شيبة، أريد أن أدلج على خيبر قبل أن يسبقنى التجار إلى شراء الغنائم، فهاتى كل ما عندك، فسأربح أعظم ربح، ولك أن أضع فى يدك حين أعود جميع ما أملك فأنت ذخرى وأهلى، فنهضت نشيطة تقدم كل ما تحرز، وتستعجله أن ينهض سريعاً كيلا يتقدم سواه.

فشا الأمر فى مكة، وأظهر المسلمون انكساراً أليماً، وسمع العباس بن عبدالمطلب بما كان، فجعل يقوم ويقعد متألماً، وقد حضر إليه الناس بين كافر شامت، ومسلم يظهر الكفر ويبطن الإسلام، فأظهر التجلد، ولزم جانب الحزم فى إظهار نفسه على طبيعته دون تغيير، ثم دعا أحد أعوانه، فقال له: اذهب إلى الحجاج فقل له يقول لك العباس: الله أرأف بمحمد صلى الله عليه وسلم وصحابته أن يحدث ما ذكرت وأن يكون الذى جئت به حقاً، فنكس الحجاج رأسه وقال للغلام: اقرأ على أبى الفضل السلام، وليخل لى فى بعض بيوته لأعلمه بما يسر، فطار الغلام وكأنه يسابق الريح، وقال: أبشر يا أبا الفضل، فوثب العباس من فوره، وأعتق غلامه وكان يسمى أبا زبيبة، ثم قال: لله على عتق عشر رقاب من بعد! فلما حانت الظهيرة قدم الحاج على العباس، فقال له: لتكتمن الأمر يوماً وليلة حتى أكون فى مأمن من القوم بعد الرحيل، مطمئناً على حياتى ومالى، فإنى أسلمت، وقد احتلت لأجمع المال من قوم نكداء وامرأة شرسة، لقد تركت رسول الله وقد جرت السهام بنصره ففتح خيبر، وانتثل ما فيها، وعرس بصفية بنت حى بن أخطب، وقد صدقتك الحديث ثم ودعه معانقاً.

انتظر العباس حتى تأكد من أن الرحلة قد بعدت بالحجاج، وليس فى طوق قريش أن يلحقوه، فتزيى بأجمل ملبس، وحمل عصاه، وتخلق بخلوق، ثم أقبل يخطر حتى أتى دار الحجاج بن علاط، فقرع الباب، فقالت زوجته شامتة: هيا أبا الفضل تفضل، لا يحزنك الله، لقد شق علينا ما بلغك، فقال العباس فى تؤدة: لن يحزننى الله أبداً، لم ينزل بمحمد إلا ما يسر ويزين، فقد فتح الله عليه خيبر، واصطفى بنت رئيسها زوجة لنفسه، وقد أسلم زوجك، وأخذ ماله، فإذا كان لك رغبة فى الإسلام فالحقى به!

فوجمت أم شيبة، وسألت فى فزع: من أخبرك يا ابن العم! قال العباس: أخبرنى بنفسه، وما جاء إلا ليحرز ماله ويسير، ثم انطلق فى أكمل لباسه، وأجمل زينته إلى المسجد، فلما رآه المشركون تغامزوا متضاحكين، وانهالوا سباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وصاح به صائحهم: علام الزينة يا أبا الفضل، وابن أخيك أسير اليوم، وقتيل الغد! فصاح العباس: إلىّ أيها القوم، إلىّ أيها القوم، ليس الأمر كما تزعمون، لقد زارنى الحجاج، وأعلن إسلامه، وقال إنها حيلة ليجمع أمواله من أيديكم، أما الذى لا شك فيه فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد انتصر على خيبر، وقتل المسلمون أشراف اليهود وزعماءهم وملكوا أرضهم، وسبوا نساءهم، فهاج القوم مذعورين وفيهم من تطاول على العباس مكذبا شاتماً، ونفر حويطب بن عبدالعزى إلى صفوان ونوفل يطلب الرهان، إذ كان غير ما يظنان!

وتجمع المكيون ما بين مصدق ومكذب، وهم فى هرج ومرج، لا يكاد أحد منهم يجزم بشىء، حتى اهتدى بعض ذوى الرأى إلى سؤال جيران العباس: هل شاهدوا الحجاج يزوره فى منزله، فقالوا: نعم، قالوا، وهل ودعه العباس، قالوا: كان سعيداً مبتهجاً، وغلامه يثب من الفرح، ويصيح: لقد أعتقنى سيدى!

قال قائلهم: وكيف لا نعلم ذلك، قال الجار المتحدث: ظننا العتق دفعاً لمظنة الحزن، وإظهار عدم الاكتراث أمام الداهية النكراء؛ لأن العباس يريد أن يعلن أن الحزن لم ينله، وأن قتل محمد وبقاءه، سيان!

قال الراوى: وتسرع بعض من ركبوا النجائب للحاق بالحجاج، وجعلوا يسألون زوجته: أين توجه؟ فصاحت مولولة: أخذ كل ما عندى، وما أظن حديث العباس إلا صحيحاً؛ لأنى تبينت لديه حرصاً على جمع الضئيل والحقير، وما يفعل ذلك من يريد أن يعود.

قال قائل: وكيف خفى عليك ذلك:

فصاحت متحسرة: كما خفى عليكم جميعاً، وقد أعطيتموه كل ما أراد، أما لو كان لدى أحدكم بقية من عقله، لاستشار ودقق، ثم جمعتم من رجالكم من يصحبه فى طريقه حتى إذا كان الأمر على غير ما أعلن عدتم به أسيراً ذليلا ليلقى جزاء الخادع الكذوب!

وأقبل الليل فكان أشد ظلاماً على مكة، وأبعث هولاً، فالوجوه عابسة والقلوب مكتئبة، ونجا الحجاج بما ادخر من المال، وجمع من القلائد، غصة فى كل قلب، وشجى فى كل حلق.

أما المسلمون المستترون فما أبهج ما سعدوا، وما أسرع ما هرعوا إلى منزل العباس فرحين مغتبطين.

وسائل انتشار الإسـلام فى إفريقيا (٢)



للأستاذة الدكتورة حورية توفيق مجاهد
أستاذ العلوم السياسية.جامعة القاهرة

ثانيا: الطرق الصوفية [١٨]:

وهى واسعة الانتشار فى المناطق الإسلامية فى إفريقيا عامة سواء فى الشمال أو الغرب أو الشرق.. وهى أوسع انتشاراً وأكثر تأثيراً فى إفريقيا جنوب الصحراء عنها فى الشمال [١٩].. وإن كان من الملاحظ أن نشاطها فى نشر الدعوة قد بدأ متأخرا ولم يتبلور إلا فى القرن التاسع عشر.

ويثير انتشار الطرق الصوفية كثيراً من الجدل ويتطلب الأمر تحديد مفهوم الصوفية والطريقة لغويا وحركيا.. فهناك عدة جهود لتفسير مفهوم الصوفية [٢٠]: حيث يشتق البعض معناها إما من الصفة وهى فناء ملحق بمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة أوى إليه بعض الفقراء من المسلمين وكانوا يلبسون الصوف.. أو الصوفة وهم سدنة الكعبة فى الجاهلية، والبعض يستبعد هذا المصدر حيث من غير المنطقى نسبتهم إلى

(١٨) لمزيد من المعلومات عن الصوفية، انظر: الفكر الصوفى فى ضوء الكتاب والسنة، الطبعة الرابعة، القاهرة: دار الحرمين للطباعة، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

وعن الطرق الصوفية عامة، انظر: ص٥٣٩ ـ ٥٩٦.

وعن موقف الإمام ابن تيمية والأئمة عامة من الصوفية والتصوف، انظر: ص٥٩٧ ـ ٦٤٦ و٦٨٣ ـ ٧٢٨.

وعن مضمون الصوفية وتعاليمها انظر، حسن كامل الملطاوى، الصوفية فى إلهامهم، القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وزارة الأوقاف، جزءين، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

(١٩) وإن كانت دول المغرب العربى أكثر تأثرا من دول المشرق العربى حيث انتشرت بها شبكات الطرق الصوفية وتواجد أجيال من الشيوخ ارتبطت بالزوايا ومنها زاوية عبدالقادر قرب مدينة المعسكر غرب الجزائر.. والزوايا السنوسية وكانت تدير مدارس التعليم الابتدائى أو تعليم العلوم الإسلامية والمذهب المالكى.. وإذا كانت الطرق الصوفية فى الدول الإسلامية فى الشرق قد تركز دورها على التوجيه الدينى والمساعدة الطبية وحلقات الذكر والحاضرة فإن نظيرتها فى المغرب العربى تعدته إلى الدور السياسى حيث تولى قادتها البلاد خاصة بعد فشل القيادات السياسية فى مواجهة الغزو الإسبانى والبرتغالى حيث تحول الشعب إلى مشايخ الطرق الصوفية والمرابو الذين تولوا أدوارا سياسية وعسكرية فى ظل زعامتهم الشعبية.
Martin, op. cit. p.48

(٢٠) د. أسعد السحمرانى، التصوف: منشؤه ومصطلحاته، بيروت: دار النفائس، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م، ص١٥ ـ ٢٥.

أصول الروحانية والبعد عن المادية من خلال التصوف.. وبحلول منتصف القرن الثامن ظهرت الزوايا وكانت أهم مبادئها (المعرفة، والتوحيد، والمحبة) [٢١].

وبدأت الصوفية تتحول إلى ممارسة جماعية بعد أن كانت فردية، ومثل القرن ١٢م بداية تأسيس النظام الصوفى [٢٢] وعادة ما تأخذ الطرق الصوفية أسماءها من أسماء مؤسسيها.

وقد واجهت الطرق الصوفية العديد من الصعاب فكان من داخلها الانشقاق بين الطرق الصوفية الأصلية (الأم) و(فروعها) من طرق صوفية جديدة متفرعة عنها.. وكان الخلاف نتيجة أن الطرق الثانية كانت أكثر تساهلا فيما يتعلق بالتقاليد والممارسات الشعبية بينما قيادات الأولى (نظرا لاتباعها التعاليم الإسلامية الصحيحة) كانت تملك وضعا ومكانة اجتماعية دينية أعلى، وبالتالى تملك قدرا أكبر من القوة السياسية.. وهكذا لم تستطع أن تتوحد فى شكل طريقة واحدة حتى فى المنطقة المحلية الواحدة.. ومن ناحية أخرى نظرا لدور هذه الطرق فى الحياة السياسية فى مواجهة الاستعمار الغربى وجهت الإدارات الاستعمارية هجومها ضدها خاصة فى ظل سعى تلك القوى الاستعمارية لدعم التبشير المسيحى.. وإن كانت تلك الإدارات الاستعمارية فى بعض الحالات قد اضطرت لمهادنة البعض من الزعامات الإسلامية فى محاولة لكسب شعوبها..

ومن ناحية ثالثة ظهرت الصراعات بين شيوخ الطرق الصوفية والمرابو المحليين وبين القيادات المحلية على النفوذ مما كان له أثره على الحكومة المحلية فى إفريقيا.. وأخيراً فإن ظهور الاتجاهات الأصولية فى السنوات الأخيرة وما عرف بالإسلام السياسى جعل تلك الحركات الصوفية موضع هجوم شديد، وذلك للنظر إليها على أنها من البدع التى لا يقرها الإسلام.. كما تحملها الحكومات الإسلامية العصرية الباحث عن التطور والتكنولوجيا فى البلاد المتقدمة

(٢١) ولقد تطورت من خلال اتجاهين فكريين: الاتجاه الغربى فى الدول الإسلامية ركز على الشريعة، وإن الفرد تواجد فى البداية فى الله وإرادة الله هى التى سمحت له بالتواجد المنفصل.. والاتجاه الشرقى فى الدول الإسلامية فى آسيا تأثر بالبوذية والهندوسية. انظر: على عبدالحليم محمود، مرجع سابق، ص٢٥ ـ ٣٩.

(٢٢) L.P.Elwell-sutton, sufism & pseudo - sufism, in Denis mac Eoin & Ahmed Al Shahi (eds), Islam in the modern world, London & canberra, croom Helm, 1983, p. 49-56.

الذنب فى تشجيع طرق الحياة السلبية وتدهور الشعوب الإسلامية [٢٣].

وعلى الرغم من كثرة ما وجه ويوجه للطرق الصوفية من نقد يدور أساسا حول اعتبارها تشوه بساطة الإسلام وصورته [٢٤] وقد يعطى البعض للمشايخ نوعا من القداسة لا يقرها الإسلام إلا إنها لعبت وتلعب دورا مهما فى نشر الإسلام [٢٥] وإذا كان الفرد المسلم فى دول إسلامية قديمة العهد بالإسلام قد ينتقدها، إلا أن الإفريقى خاصة حديث الدخول فى الإسلام أو حتى المراقب للإسلام والمقيم له دون أن يدخله أو قبل أن يدخله، يجد فيها جاذبية خاصة فالالتفاف حول الشيخ والاشتراك فى حلقات الذكر أو ما يسمى الحضرة يملأ الفراغ الروحى عند الإفريقيين ويحتل جزءا من وقت فراغهم خاصة فى المساء حيث الإنشاد الدينى والحركات الإيقاعية فى الذكر تستهوى الإفريقيين الذين تعودوا على التعبير بالرقص فى كافة أوجه حياتهم بما فيها الدينية [٢٦].

والطرق الصوفية تنتشر فى القرى والنجوع - فلم تتبع مسارات الطرق التجارية التقليدية - وتقوم بأنشطتها فى الليل على وجه الخصوص حيث يكسو ممارستها لأنشطتها الجلال، وتمثل نقطة جذب وعاملا فى التقارب الاجتماعى والتجمع والتعارف [٢٧]، كما أن الالتفاف حول الشيخ يتيح للشخص العادى أن يلتمس منه البركة، وأن يحصل على التعاويذ والأحجبة الواقية وغيرها - ولا ننسى هنا ما تعود عليه الفرد تقليديا من الإيمان بعالم الغيبات والسحر والشعوذة - فعلى الأقل قضى على السحر الأسود، وأصبح يلتجىء إلى الروحانيات للتغلب على العالم غير المرئى والسحر.

وأهم إنجازات الطرق الصوفية هو أن التحول للإسلام انتقل على أيديها من حالات فردية إلى حالات جماعية [٢٨]، وهى تمثل عامة خطوة فى تدعيم الإسلام فى نفوس الإفريقيين [٢٩] والمعروف أن كثيرا من الساسة الإفريقيين ينشدون بركة

(23) NIMTZ, OP. CIT, P. 73-85.

(٢٤) انظر ولمزيد من المعلومات عن هذا الرأى: محمد أمان بن محمد الجامى أستاذ الشريعة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الإسلام فى إفريقيا، القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٧٦، ص ٢٥ و٢٩، انظر أيضا:
Elwell - Sutton, op. cit.. pp.49-56

(٢٥) لمزيد من المعلومات انظر: الألورى: الإسلام فى نيجيريا مرجع سابق، ص ٤١ - ٤٦.

(٢٦) وإن كان يوجه لها نقد أساسى من أن النشوة الناتجة عن حلقات الذكر (ترديد اسم الله وآيات القرآن) هى النهاية بدلا من الطريقة للوصول إلى غاية أسمى وأعمق.
لمزيد من المعلومات انظر: Elwell- Sutton, op. cit..p. 49-56

(٢٧) لمزيد من المعلومات، راجع شلبى، مرجع سابق، ص ٢٠٩ - ٢١٩. (٢٨) المرجع السابق: ص٢١٩

(٢٩) خاصة أنها أكثر تسامحا مع العادات المحلية، وساهمت فى تنمية المجتمعات الإفريقية بشكل مستقل عن المجتمعات العربية، وتعبئة الشعب فى الكفاح ضد المستعمر وحول الأحزاب السياسية، وأن القيادة فيها كانت إفريقية وليست «أجنبية» على الرغم من تأثرهم بالثقافة العربية إلا أن الهوية ظلت إفريقية ومن الجدير بالذكر أن الإسلام وإن وجد قبل نشأة الطرق الصوفية إلا أنها ساعدت على تعميق التزام المسلمين بدينهم وسهلت اندماج المسلمين الجدد والعبيد. Nimtz, op. cit. p.p. 55 -57,65

المشايخ العارفين بأمور الدين والفقه ولهم عندهم حظوة - وإن كانت لا تصل إلى مثل ما لرجال الدين المسيحى من قداسة خاصة فى الكنائس القديمة الذين يعتبرون فى نظر المسيحيين واسطة طبيعية بين الفرد والرب - فى مجتمع تمارس فيه تقليديا الجزاءات الدينية من جانب رجال الديانة التقليدية ومن الطبيعى إذن فى ظل هذه الرؤية التقليدية أن يكون لمشايخ الطرق الصوفية مكانة خاصة.

وأهم الطرق الصوفية الموجودة فى إفريقيا هى: القادرية والتيجانية والسنوسية. كذلك العلوية وأسسها الشيخ محمد بن على وتوجد فى حضرموت وهيمنت فى كينيا وترتبط عضويتها بالروابط العشائرية وليس بالعلم كما أن الطريقة الأحمدية «وتختلف عن السنوسية الأحمدية» لها دور مهم فى شرق إفريقيا وإن كان يوجه إليها هجوم الدول الإسلامية فى شمال إفريقيا والدول العربية عامة، نظرا لأنها مثلها مثل البهائية [٣٠] والبابية [٣١] والقاديانية [٣٢] لها نزعات تتنافى مع تعاليم الدين الإسلامى والتى لا تمثل طرقا

(٣٠) أما البهائية مؤسسها الباب حسين بن الميرزا عباس بزرك المازندرانى النورى الذى ولد فى ١٢٣٣هـ فى طهران ومات فى ١٨٩٢م ودعا إلى نبذ الروابط مع الإسلام ونادى تارة بمسيحية البهاء، وتارة أخرى بألوهيته أو بتثليثه (هو، وابنه، والباب وهم المعبر عنهم بالثالوث فى المسيحية وباسم الله الرحمن الرحيم فى الإسلام) وآمن بنفس فكرة البابية عن اليوم الآخر والثواب والعقاب، وجعل الزواج باثنتين دون وجود شهور عدة، ولا صلاة للجماعة إلا فى الجنازة، والقبلة للبيت الذى يقيم فيه وتتغير مع تغير البيت، وأبقوا على الطهارة التى دعا إليها الإسلام، وألغى كل ما أحل وحرم الإسلام فى البيع والأطعمة وغيرها.
آمنة محمد نصير، أضواء وحقائق على البابية، البهائية، القاديانية، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٤، ص ٤٦ - ٦٣(متفرقة).

(٣١) ومؤسسها هو «الباب الميرزا على محمد بن الميرزا رضا الشيرازى من شيراز فى إيران، ولد عام ١٢٣٥هـ/ ١٨١٩م (وكلمة باب تعنى الشخص الواسطة بين الشيعة والإمام المهدى الغائب) وأعلن أنه المهدى المنتظر عندما كان فى ٢٥ من عمره وانتشرت دعوته بين السذج والبسطاء، حيث يعتقد أنه المهدى المنتظر وزعم أن الحقيقة الروحية المنبعثة من الله قد حلت فى شخصه ماديا وجسمانيا وإنه مجل
لظهور جميع الأنبياء، حيث من خلاله يعودون إلى الدنيا، وبالتالى تتجمع كل الأديان عنده ويرى البعض أن أصل فكرة المهدية تعود إلى مصادر خارجية (المسيحية واليهودية اللتان تعتقدان بعودة النبى لتخليص العالم سواء، كان النبى إيليا أو المسيح) والبعض يرى مصدرها فى الظروف السياسية و الاجتماعية والظلم والاضطهاد الذى يعانى منه الشيعة فدفعهم إلى ابتداع هذه الفكرة الخيالية، والبابية لا تعتقد فى اليوم الآخر والجنة والنار، ولكن بحياة متجددة تنتقل فيها الروح من عالم إلى آخر حتى تتطهر. كما فرضت نظاما خاصا فى العبادات (فالصلاة ركعتان فى الصبح فقط، والصوم من ١١ سنة حتى ٤٢ ولمدة ١١ يوما تنتهى بعيد النيروز عيد المجوس، والوضوء بماء الورد، والأذان خمس مرات ولكن بعبارات مختلفة، والحج إلى بيته وللرجال فقط وأوصى بهدم البيت الحرام عند ظهور رجل مقتدر من أمته، حتى دفن الميت ففى صندوق وبصلاة جنازة مختلفة، والزواج من اثنتين فقط والطلاق ١٩ مرة والردة فى خلال سنة، والمرأة مثل الرجل فى الميراث). وأدت هذه التعاليم بالعلماء، والشاه ناصر الدين إلى الأمر بإعدامه فى ١٨٤٩م. المرجع السابق، ص ١١ - ٤٢.

(٣٢) ولد غلام أحمد القاديانى عام ١٨٤٠م (وفى رواية أخرى ١٨٣٥م) وظهر فى ١٨٨٠ كأحد الدعاة إلى الإسلام . وفى عام ١٨٨٨م نادى ودعا إلى مبايعته وكان يدعى كونه مجدد العصر «ومأمورا من الله»، وفى ١٨٩١م ادعى أنه المسيح الموعود والمهدى المنتظر، وفى ١٩٠٠م بدأ أتباعه يلقبونه بالنبى صراحة، ويدعى أتباعه أن ربهم ليس رب المسلمين وإسلامهم غير إسلام المسلمين وكذلك صلاتهم وقرآنهم وصومهم. بل ذهب البعض لا دعاء أنه أفضل من بعض أولى العزم من الرسل. انظر. المرجع السابق، ص٦٦ - ٧٧.

صوفية إسلامية بقدر ما تمثل طوائف خارجة على تعاليم الإسلام السنى السائد فى إفريقيا.

القادرية [٣٣]:

وهى واسعة الانتشار فى غرب افريقيا بل إنها تعد أقوى الفرق فى تلك المنطقة، وتعرف بالمريدية فى السنغال. وهى منتشرة وقوية أيضاً فى شرق إفريقيا ولكن الشاذلية مسيطرة فى زنزبار وكلوة. وقد أسسها الشيخ عبدالقادر الجيلانى الذى ولد عام ١٠٧٧م والذى تتلمذ فى بغداد على يد كبار الشيوخ، وقد عرف بالزهد والتسامح وسار على نهجه مريدوه وأتباعه مما أسهم فى انتشار الطريقة القادرية. وقد توفى عام (١١٦٦م/ ٥٦١ هـ). وقد انتشرت الطريقة القادرية فى العراق ـ حيث مركزها الأصلى بغداد ـ ومنها إلى مصر والمغرب والصومال واليمن والهند وتركيا وغرب إفريقيا ووسطها. وقد دخلت القادرية إلى غرب إفريقيا فى القرن الخامس عشر الميلادى على يد بعض المهاجرين الذين اتخذوا من واحة توات فى النصف الغربى من الصحراء) مستقرا لهم لفترة قبل أن ينتقلوا إلى «ولاته» ثم إلى «تمبكتو» فى شمال مالي اللتين كانتا مراكز إسلامية مهمة. وقد اتخذوا من «ولاته» مركزا للدعوة للطريقة القادرية.

وبالإضافة إلى الأوراد وحلقات الذكر والإنشاد الدينى المعروفة عن الطرق الصوفية فإن دعاة القادرية قاموا بنشر تعاليم الدين وعملوا كمعلمين للصبية وأصبح بعضهم علماء بعد تفقههم فى الدين. كما اتجه البعض إلى كتابة التعاويذ والأحجبة وهى واسعة الانتشار فى إفريقيا قديمًا وحديثا. كما قام بعض الأغنياء من أتباع القادرية بإرسال الطلبة للدراسة فى المراكز الإسلامية فى الشمال ليعودوا دعاة وطنيين للإسلام. «ولما جاء القرن التاسع عشر كانت السيطرة الروحية والفكرية تامة لجماعات القادرية فى أكثر نواحى إفريقية الغربية» [٣٤].

ومن أهم زعماء القادرية فى القرن الثامن عشر عثمان بن فوديو فى نيجيريا الذى قاد جهاد الفولانى ومؤسس دولتهم والذى أنشأ طريقة منسوبة إليه هى الطريقة الفودية كفرع من القادرية [٣٥].

التيجانية [٣٦]:

وهى منتشرة فى شمال وغرب إفريقيا ومؤسسها هو أبو العباس بن محمد بن المختار التيجانى وهو مغربى الأصلى وإن كان قد ولد

(٣٣) انظر: حسن إبراهيم حسن، مرجع سابق، ص٤٣ ـ ٤٤.

(٣٤) د. أحمد شلبى، مرجع سابق، ص٢١٢.

(٣٥) ويوضح عثمان بن فوديو فى رسالته التى أسماها: «ولما بلغت ستا وثلاثين» بيان الجذب الإلهى الذى حصل له، وبيان تلقيه الورد الخاص به. وهو ورد بسيط وقصير قوامه أن يقال: «الحمد لله رب العالمين عشر مرات، واللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم عشر مرات واستغفر الله العظيم عشر مرات، وذلك مرة واحدة فى اليوم. كما يوضح السلطان محمد بللو ـ ابن عثمان بن فوديو ـ بيان تلك الجذب وما رواه له والده فى شبابه، وذلك فى كتابه «إنفاق الميسور» لمزيد من المعلومات انظر: آدم عبدالله الألورى، الإسلام فى نيجيريا.. مرجع سابق، ص٩٥، ٩٩ على التوالى.

(٣٦) هناك من يطلق عليها التيجانية مع تشديد التاء وكسرها.

بالجزائر (١١٥٠ هـ/ ١٧٣٧م) وتفقه فى الدين فى فاس ثم خرج إلى الحجاز عام ١٧٦٨ للحج وفى رحلة العودة أمضى فترة بالقاهرة. وقد جذبته فيها طريقة صوفية هى الخلوتية [٣٧]، وإن كان قد اتخذ لنفسه اتجاها جديدا متفرعا عنها. وقد اتخذ التيجانى من فاس مقرا له وجذب حوله الأتباع والمريدين الذين أطلق عليهم الأحباب.

وعند وفاته عام ١٨١٨ كانت الطريقة التيجانية قد استقرت وعلا شأنها فى بلاد المغرب ومنها بدأت تنتشر من الصحراء إلى وسط وغرب إفريقيا عن طريق موريتانيا. وقد تبنى الدعوة بعده ولداه. وأصبح للتيجانية كتنظيم صوفى جديد شعبية شديدة فى غرب إفريقيا بسبب نظرتها الإصلاحية ولأنها لم تكن محافظة كالقادرية، إلى حد أن البعض يطلق على التيجانية اسم الصوفية الجديدة «Neo-Sufism» [٣٨].

والتيجانية ـ وهى متأثرة كثيرا بالتعاليم الوهابية؛ السلفية ـ تختلف عن القادرية التى عرفت بتسامحها، حيث إن أتباع الأولى لجأوا إلى السلاح والعنف للدفاع عن أنفسهم أولاً ضد حملات الأمير عبدالقادر الجزائرى ـ الذى ثار من رفضهم المشاركة معه فى مواجهة الاستعمار الفرنسى عند استيلائه على الجزائر سنة ١٨٣٠ على أساس رغبتهم فى الاكتفاء بالشئون الدينية ـ ثم ثانيا فى نشر الدعوة الإسلامية بين الإفريقيين الذين نظروا إليهم كوثنيين وهدفوا لإنقاذهم من الضلال [٣٩].

ومن أهم زعماء التيجانية الحاج عمر التل الذى دعا إلى العودة لتعاليم الإسلام مهاجماً ما اعتبره تساهل القادرية والذى أسس أمبراطورية ضخمة فى غرب إفريقيا وقاد اتباعه فى واحدة من أهم الحركات الحربية التى رفع فيها راية الإسلام. وقد حالفه الحظ وحقق الكثير من النجاح الدينى والسياسى فاصبح يحكم إمبراطورية واسعة تمتد من تمبكتو إلى المحيط الأطلسى وظلت تدين له بالولاء طيلة أربعين عاماً وكانت الطريقة التيجانية هى الطريقة الرسمية فى تلك الإمبراطورية. ولم تستطع قوات الغزو الفرنسى أن تدعم نفسها فى المنطقة إلا بعد إسقاط إمبراطورية الحاج عمر وإحباط محاولات ابنيه أحمد وشيخو من بعده لتوسيع فتوحاته.

(٣٧) وتنسب إلى كريم الدين الخلوتى وهو مصرى وتوفى عام ١٥٧٨.

(٣٨) وهو الاتجاه الذى يرفض اتحاد الصوفى الدينى مع الله الذى تنادى به الصوفية التقليدية ولكن سعى لوحدة مع الرسول محمد بدلا من ذلك. وكان أول من علم هذا الاتجاه فى التيجانية هو عبدالكريم بن أحمد الناجل من تميو ـ من فوتا جالون ـ حيث كانت مقراً لإمامة إسلامية مهمة ومركزا للإسلام فى أقصى الغرب فى إفريقيا قرب فوتا تورو وهى تكرور التى كتب عنها الكتاب العرب فى القرون الوسطى.

(٣٩) انظر ولمزيد من المعلومات، د. أحمد شلبى، مرجع سابق، ص٢١٤. ولمزيد من المعلومات عن الأمير عبدالقادر الجزائرى انظر: د. أحمد كمال الجزار، المفاخر فى معارف الأمير الجزائرى عبدالقادر والسادة الأولياء الأكابر، القاهرة: مطبعة العمرانية، ١٩٩٧.

السنوسية: بين الإدريسية والختمية والرشيدية:

ومؤسسها محمد بن على بن السنوسى بن العربى الذى ينتمى إلى الأدارسة[٤٠] وهو أهم أتباع السيد أحمد بن إدريس الفاسى منشئ الطريقة الإدريسية التى عرفت أيضا بالأحمدية[٤١] وتعتبر السنوسية أكبر الحركات الثلاث التى انقسمت إليها الإدريسية، بالإضافة إلى الميرغنية (أو الختمية) والرشيدية. وقد ولد السنوسى - المعروف بالسنوسى الكبير - فى بلدة مستخام بالجزائر ودرس بجامعة القرويين بفاس ثم بالأزهر حيث تعلم وعلم ثم سافر إلى الحجاز حيث استفاد من كبار المشايخ الذين التقى بهم، وأدرك ضرورة إصلاح الدعوة الإسلامية.. وكرس جهده لذلك. وفى دعوته رأى أن الحدود السياسية فى العالم الإسلامى حدود مصطنعة وأنه يجب قيام حركة إصلاحية على مستوى ذلك العالم الإسلامى أجمع فى محاولة للقضاء على البدع والانحراف والعودة للبساطة واليسر والتمسك بالكتاب والسنة ومحاربة عناصر الخمول والاستجداء التى ميزت الطرق الصوفية عامة ومحاربة التضرع للأولياء والتبرك بقبورهم. وكانت بداية نشر آرائه فى الحجاز.

وقد اعتمدت السنوسية فى نشر الدعوة على نظام الزوايا فى محاولة لتحقيق الأهداف المذكورة - وقد أنشأ السنوسى أول زاوية فى أبى قبيس بالقرب من مكة المكرمة. ثم اتبعها بزوايا أخرى بالقرب من الطائف والمدينة المنورة وبدر وينبع وجدة حتى بلغت ١٢ زاوية ولكنه شعر أن إفريقيا أولى بدعوته فانتقل إلى مصر ثم إلى طرابلس وأنشأ سنة ١٨٤٣ الزاوية البيضاء فى الجبل الأخضر ثم نقل دعوته إلى واحة الجغبوب سنة ١٨٥٦ وقد أضاف بعدا جديدا لدعوته وهو نشر الإسلام بين الإفريقيين الذين يدينون بالديانة التقليدية لهدايتهم إلى الخير من جهة، ولمواجهة حركة التبشير المسيحى التى كانت تغزو إفريقيا آنذاك من جهة أخرى.

والزوايا كانت مراكز للتعليم ولنشر

(٤٠) المرجع السابق، ص ٢١٦ ـ ٢١٩.

(٤١) والطريقة تعرف أيضا بالأحمدية نسبة إلى مؤسسها وإن كانت أصبحت أكثر معرفة بالسنوسية نسبة لمن خلف الشيخ أحمد الإدريسى. وهناك من أثار خلطاً واضحاً بين هذه الطريقة الإدريسية أو الأحمدية وهى إحدى الطرق الصوفية وبين القاديانية التى أسسها ميرزا غلام أحمد فى الباكستان وانتقلت أيضا لإفريقيا، وأطلق عليها البعض الأحمدية مما جعل المفاهيم والحركات تتداخل أو تختلط وممن وقع فى هذا الخلط منتلسون، مرجع سابق ص ١٢٠ ـ ١٢٣.

ولمزيد من المعلومات عن القاديانية ومدى انحرافها حيث ارتبطت بالاستعمار البريطانى منذ مجيئها لإفريقيا فى عشرينيات القرن العشرين وقام روادها بطبع القرآن مترجما للسواحيلية فى شرق إفريقيا وبالحرف اللاتينى فى إفريقيا الناطقة بالفرنسية مع تعليقات باللغة الفرنسية ومع تحريف ما أرادوا مؤكدين على تعطيل الجهاد وإنكار ختم النبوة. وقد ارتبطت فى نشاطها مع البهائية التى ساندتها الصهيونية والدول الاستعمارية أيضا فى انحرافها ومناداتها بتوحيد الأديان.

انظر: النحوى، مرجع سابق، ص ١٣٢ ـ ١٣٤.

وانظر عن علاقة القاديانية بالاستعمار: عبدالله سلوم السامرائى، علاقة القاديانية بالاستعمار، بغداد: منشورات وزارة الإعلام بالعراق، ١٩٨١. انظر أيضاً: القاديانية، مجموعة علماء، مكة المكرمة، رابطة العالم الإسلامى، د. ت. وإحسان إلهى ظهير، القاديانية، الرياض، د. ن. ١٤٠٤هـ. ١٩٨٤م.

الهداية الإسلامية وبذر بذور الإسلام خصوصا بين الزنوج فى أواسط إفريقيا ولذلك فقد كانت أولى ثمار هذه الزوايا ذيوع الدين الإسلامى فى قلب القارة المظلمة بل وبحث دعوة السنوسيين فى هذه الجهات لدرجة أن صارت جمعيات المبشرين الأوروبية المنبثة فى القارة الإفريقية كلها تجد فى الدعوة السنوسية خصما عنيدا[٤٢].

بل ولم تكتف بالدعوة والإصلاح من النواحى الدينية بل ركزت على العمل والإنتاج وبالتالى فقد كانت «الزوايا مراكز حركة ونشاط وعمل منتج».

وجذبت الزوايا المنتشرة الآلاف من الأتباع إليها وانتقلت السنوسية من حركة إصلاحية خاصة بممارسة الدين الإسلامى، إلى حركة دعوة للدخول فى الدين فاستطاعت تدعيم أسس الإسلام بين بعض من كانوا مسلمين اسما، كما استطاعت نشر الإسلام بين قبائل لم تعرفه من قبل وانتشرت السنوسية على وجه الخصوص بين ساحل البحر المتوسط وحوض النيجر حيث انتشرت الزوايا العديدة التى تتبعها.

ومن ناحية أخرى، فقد انبثق عن الإدريسية - الطريقة الأم للسنوسية - الطريقة الختمية أو الميرغنية[٤٣] فى السودان التى تزعمها السيد محمد عثمان الميرغنى (١٧٩٣ - ١٨٥٢) الذى أوفده السيد أحمد بن إدريس الفاسى مؤسس الطريقة الأم إلى السودان فى بداية القرن التاسع عشر داعيا للطريقة خاصة بين بنى عامر فى أريتريا ولكنه بعد وفاة أستاذه انفصل عن الطريقة الأم وعمل على نشر طريقته.

وتعتبر كسلا أهم مراكز الختمية فى شرقى إفريقيا، وبنفس المثل انبثقت الطريقة الرشيدية عن الإدريسية أيضا - حيث كان مؤسسها الشيخ إبراهيم بن رشيد الدويرى أحد تلامذة الشيخ بن إدريس الفاسى وعن الرشيدية نشأت الصالحية فى الصومال التى أسسها الشيخ محمد بن صالح الرشيدى.

يتبع

❖❖❖

(٤٢) د. محمد فؤاد شكرى، السنوسية دين ودولة، القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٨٤، ص٥٩.

(٤٣) يذكر البعض أن الختمية أو الميرغنية انبثقت عن السنوسية التى تعتبر الطريقة الأم بالنسبة لها ولكن هذا الرأى يرد على بأن كلا من السنوسية والميرغنية انبثق عن الإدريسية التى كانت الأم بالنسبة لكليهما عن هذا الرأى انظر:

عبدالرحمن زكى، الإسلام والمسلمون فى شرق إفريقيا، مرجع سابق، ص١٢.

حرية الإعلام بين الالتزام والانفلات

رؤيــــة إســـلاميـــة





٢

للأستاذ الدكتور/ محمد الشحات الجندى
عضو مجمع البحوث الإسلامية

التوجهات المشبوهة للفكر الغربى تجاه الإسلام

لقـــد كـــان حـــريا بمخططى وصناع السياسات الإعلامية فى الغرب أن يحققوا متطلبات الإعلانات العالمية. النابعة من الضمـيـر العــالمى. والمعبـرة عن الارادة الأممية. لكن شتان ما بين المثال والواقع، فإن المفكرين الغربيين لا يفتأون أن يرددوا بعض المقـولات التى تناقض التـقــارب والتواصل العالمى مثل مقولة، كيبلينج «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا».

ومقولة ما كسيم رودنسون: ان العالم المسيحى الغربى فهم العالم الاسلامى ضمنا كخطر قبل زمن طويل من البدء برؤيته كمشكلة حقيقية.

ويعتـــرف بعض المفكرين الغربيــين بالوصــاية الإعلامية الغربية على العقل العربى المسلم، فيقول برنارد لويس: «لقد خلق تأثير الغرب فى أرض العرب مشاكل حقيقية، وذلك باقتلاعهم من قواعدهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وبإثارته لمركب النقص الثقافى فيهم».

وقد وصل هذا الاتجاه أمدا بعيداً، بنظرية صدام الحـــضـــارات للكاتب الأمـــريكى صـــمـــويل هانتنجتـــون[١]، وتصويره الإسلام كـمكمن للخطورة على الحضارة الأمريكية الغربية، حيث يعتبر الدين أكثر من الاثنية فى إيجاد التفرقة الحادة بين الناس، ويعتقد أن التفاعل بين الإسلام والغرب سيكون من خلال التصادم الحضارى، وهو منطق يؤصل ردة حــضــارية، ويعكس فكراً مــغلوطاً، يزكى الصــراعــات ويثيــر الإحن والعداوات، وينسف الجهود العالمية فى التفاهم

(1) The Clash of civilization Samuel p. Huntington.pp2732 Aforeign Affairs Reader.

والتعاون. بما يتضمنه من تخصيم الحضارات والثقافات الأخرى لمجرد أنها لا تنضوى تحت لواء الحضارة الغربية ولا تخرج من عباءتها، وتقدم للعالم رؤية وفكرا مغايرا لتلك التى تفردها الثقافة الغربية على العالم باسم العولمة.

ومــــثل هذا الموقف، يكشف عن زيف الشعارات التى يتشدق بها الغرب عن السلام والديمقراطية وحقوق الإنسان، وقد يؤكد هذا المنحى ما ذكره فواز جرجس فى كتابه: «أمريكا والإسلام السياسى، صراع حضارات أم صراع مصالح» طبعة ١٩٩٨، بقوله: لا يزال الإسلام فى نظر كثير من الأمريكيين ثقافة عدائية وخطرا على مصالحهم وقيمهم الثقافية، وتتجذر معظم آراء الأمريكيين عن المسلمين إلى حد ما فى الأصـول الدينيـة للولايات المتحدة، ولربما تعــزى هذه الآراء أيضـــاً إلى نزاع تاريخى بين المسيحيين والمسلمين، أى إلى مجابهة تنتقل عبر الأجيال بواسطة الآثار الأوربيـة وبمأثورات شعبيـة، ووسائل الإعلام الجماهيرية واللغة الأكاديمية المرعية».

أن خطورة هذه التوجهات المنحازه، أنها تعكس صورة ذهنيـة مغلوطة، وواقع إعلامى غربى جاهل بالشخصية المسلمة، ينظر إلى المسلم نظرة جاهلية وإلى العالم الإسـلامى كبؤرة للإرهاب والقســوة والبداوة وامتهان النساء.

ولقد وصل الأمر لدرجة اعتبار الغرب أن الثورة الإيرانيـة، ما هى إلا مجرد إحياء للقيم التقليدية العفنة، وأنها تتشابه أكثر من أن يكون سطحيا مع النازية الأوربيـة، إلى هذا الحد بات الإسلام صورة كريهة ومظهراً لقيم بالية، تجاوزها الزمن، وأصبحت



برنارد لويس — هانتنجتون

فى عداد الماضى البغيض الذى يحمل فكر التخلف والبداوة والرجعية الممقوتة، بما يمثله من خطر على الحضارة والمدنية، لما يحتوى عليه من همجية وبربرية كتلك التى فجع بها هتلر النازى العالم، وكان عنوانا على حركة مضادة لمسيرة التاريخ.

وهكذا فإن أعين الغرب على الإسلام، حتى فى الدول التى لم يصل فيـهـا الإسلام إلى السلطة بشكل مباشر، فإن الإسلام -فى رأى الغرب- يشكل خطراً على الديمقراطية فى هذه الدول، بل إن الإسلام يشكل أحد عناصر تحدى العراق للغرب، حيث يجد الغرب صعوبة فى تخيل عالم أفضل بكثير من عالمه أو تخيل مستقبل ليس ديمقراطياً ورأسمالياً[٢] وفق نموذجه الأثير، الذى يفرضه على الآخرين فرضاً.

وبرغم أهمية الصورة الذهنية خاصة إذا تكرر الإلحاح عليها، وتحولت إلى صورة منطبعة، إلا أن هذا لا يعفى الغرب من التحيز المسبق مع سبق الإصرار والترصد ضد المسلمين، خاصة فى ظل انفجار المعلومات أو فيضان المعلومات واتساع النشاط الإنسانى[٣].

وتمضى هذه الصورة الخاطئة للتآمر على

(٢) فوكوياما، نهاية التاريخ وخاتم البشر، ط، ترجمة حسين أحمد أمين، القاهرة، ١٩٩٣، ص، ٢١٠، ٥٧.

الإسلام، ورسم صورة مرعبة لأتباعه حتى تصاب الشخصية المسلمة فى أعماق الصميم، وينهار كيانها، ويذهب ريحها، ويغدو الإسلام شبحاً فى كهف التاريخ، وعلى هذا الخطط يتحالف الغرب مع الصهيونية العالمية ودولتها إسرائيل وفقا لخطة مدروسة وبرامج معدة بإتقان وإبهار لإنجاز الغاية المرجوة:

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾

[الأنفال: ٣٠]

إن تابع فصول حلقات هذا المسلسل التآمرى، يوقن بأن توالى صور الإساءة والمهانة والتشوية ضد الإسلام، ومن يحمل جنسيته من المسلمين، ليس وليد الصدفة، ولاجاء عفو الخاطر، فهاهو الكاتب الإنجليزى من أصل هندى سلمان رشدى فى روايته: آيات شيطانية والذى يسيئ إلى الرسول وزوجاته، أبلغ إساءة، فالإسلام عنده دين الخنوع وهو دين السلب والنهب، إذ الغاية تبرر الوسيلة، وهو دين البداوة والخرافات والفحش الداعر ومع ذلك وجد الحفاوة والتكريم بسبب إبداعه المزعوم، وتجنيد بريطانيا كلها لحمياتها ضد ما أسمته بالتطرف الإسلامى، وتزييفها للوعى العالمى بأنها تحمى الإبداع الفكرى وحرية التعبير، لهو تأصيل مكين للحقد الدفين على الإسلام والمسلمين بعد أن تجاوز الكاتب كل الخطوط الحمراء، وطعن الإسلام وهو جماع الأديان السماوية بطعنة نجلاء فى القلب، وتكمل المأساة حلقاتها، بمنح الكاتب جائزة فرنسية بسبب إبداعه الأدبى عن هذه الرواية الشوهاء.



جارودى

وتلمس على الجانب الآخر، الوجه الحقيقى لفرنسا كتعبير عن النموذج الغربى، فى محاكمتها لجارودى الفرنسى المسلم بسبب ما أسمته بالتشكيك فى أعداد اليهود الذين اكتووا بنار المحرقة النازية، هذا وذاك يحدث فى عاصمة النور والجمال فى باريس الحسناء إن هذا وغيره كثير يجرى باسم المدنية والحضارة وسيادة القانون والضمير الإنسانى والاستنارة وهو ما يرسخ المعيار المزدوج، فى التعامل الغربى تجاه الثقافة الإسلامية ومناهضة كل ما يمس الأسطورة اليهودية وهو جلى فى اعتبار آيات شيطانية إبداع يستأهل المكافأة وكبت التشهير بالأساطير الإسرائيلية وإدانة صاحبها، وهو المعيار المنحاز بل المتعصب ضد كل ما هو إسلامى، والمحتضن لكل ما هو غربى والذى يجعل من المستساغ مكافأة سلمان رشدى لتدميره الإسلام وإدانة جارودى للتشكيك فى عدد اليهود الذين راحوا ضحية محرقة النازية فأيهما أكثر قداسة وأوجب بالحماية، حرمة الإسلام والأديان أم المطلب اليهودى ومنشؤه اللوبى الصهيونى اليهودى.

لقد عاصر ظهور النفط فى البلدان العربية، تزايد الاهتمام بتحليل الشخصية العربية، ورصد سلوكياتها، ومتابعة التطورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى صاحبت ظهور هذه القوة على الساحة، ووضع الغرب نصب عينيه ابتزاز هذه الثروة بالتعرف على نمط الشخصية العربية، والتعامل معها من نقطة الضعف التى تمكن الغرب من الإفادة من ثرواتها بل وإحكام السيطرة عليها برسم سياسة إعلامية تهيء المناخ الملائم لسحقها، الأمر الذى نجح فيه هذا الإعلام إلى حد بعيد.

وقد سخر الغرب كل طاقاته الإعلامية، لتحقير العرب، والتنفير من الإسلام، وكان المخطط حصار العربى والمسلم، وقد عقد من أجل ذلك المؤتمر الدولى السادس حول الإعلام العربى والأوروبى، الإعلام والحوار من أجل المستقبل، استضافته البحرين فى الفترة من ٢٢ : ٢٥ فبراير ١٩٩٨ وقد ضم هذا المؤتمر شخصيات غربية مهمة شاركت فى مؤتمرات متعددة عن الصورة الذهنية والحوار العربى الأوروبى، وكما يقول مرعى مدكور(٤) مما يجعل بعض الأفكار المطروحة تتمة لمؤتمرات ولقاءات سابقة حول الموضوع نفسه، ومنها ندوة الصحافة الدولية المنعقدة فى لندن ١٩٧٩.

وفى ورقته إلى المؤتمر يعترف البريطانى سير سيريل تاونسيند أن الصحافة الغربية بمثابة مشروعات تجارية تجرى وراء الأخبار السيئة طبقا للقاعدة الذهبية لدى أغلبها Bad news is good news، كما تجرى وراء المآسى والفضائح والقصص الرخيصة وغير الأخلاقية أكثر من اهتمامها بقضايا التدهور البيئى والنمو السكانى والآثار النفسية لأى صراع.

ومن هنا فقد أصبحت الآراء المقبولة عن العرب والمسلمين ظاهرة فى الإعلام الغربى على الدوام، ولاتزال كما هى فى الوقت الحالى على الرغم من تقلص شيوع بعض التصورات السلبية مثل(٥):

- الوحشية الموجودة داخل الثياب الطويلة المتدلية.
- شيوخ النفط الأغنياء السمان المسرفين.
- أن العرب غير أكفاء، وأرهابيون.

ومن البدهى تقديم الإسلام والشخصية العربية مقترنان ومتلازمان، فى الإعلام الغربى، فكلاهما وجهان لعملة واحدة، وإضفاء المهانة على العربى ينسحب بالضرورة فى التصور الغربى إلى الإسلام، بافتراض أن الإسلام هو الذى صنع الشخصية العربية، من الشيوقراطية والاستبداد السياسى، وتعدد الزوجات، وامتهان المرأة والتخلف، وضيق الأفق والتعصب.. وإلخ هذه النعوت الموسومة فى الشخصية العربية.

وقد ترتب على ذلك وصم الإسلام بأنه الدين المجسد للعنف والقسوة، واستعداء الآخرين ورفض التعايش معهم، وشاع لدى الغرب مصطلح Islamophobia الخوف من الإسلام، بمفهوم أن هذا الدين لا يناسب وضعية العصر، ولا يواكب أحداثه ولا يصلح للمشاركة فى صنع حضارته، فهو دين رجعى، معطل لحركة التاريخ، وللمدنية الغربية المعاصرة.

(٣) فاروق أبو زيد، الإعلام الدولى وتطوير تكنولوجيا الاتصال والمعلومات، مجلة الدراسات الدبلوماسية، العدد الثامن ص ١٨٣ط ١٩٩١ مشار إليه لدى د. مرعى مدكور، بحث: بحث الاتجاهات الحديثة فى بحوث الصورة الذهنية للعالم الإسلامى عند الغربيين، مؤتمر رابطة الجامعات الإسلامية.

(٤) المرجع السابق ص ١٥.

(5) Sir cyril Townsend, Media coverage of Arabs in Europe, The sixth international conference on Euro Arab Media, Dialogue For the Future, Baahrain, Fob. 1998 P.1-3r

الجهد الدعوى فى سيرة الإمام أبى حنيفة النعمان (٢)

للأستاذ الدكتور/ محمد المختار محمد المهدى
الرئيس العام للجمعيات الشرعية
وعضو مجمع البحوث الإسلامية



كثرت البحوث والكتب التى تناولت سيرة الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان، وأشادت بعبقريته وفقهه، ولم أر من أفرد الجانب الدعوى له ببحث أو مقال مع أهمية الوقوف على جهده الرائع فى هذا المجال الخطير إذ ما تزال آثاره فى ثقافتنا الإسلامية وما يزال عطاؤه فيه رافدا رئيسا لكل من كتب عن ثقافة الداعية وعن منهج الدعوة والحكمة واختيار المدعوين الإيجابيين. ولهذا رأيت أن أسهم - بجهد المقل وبنان العاجز - فى بيان الجهد الدعوى لهذا الإمام الأعظم.

طبيعة المدعوين

يتفرد الإسلام من بين الرسالات السماوية والأنظمة الوضعية بأنه دين عالمى الدعوة ختم الله به رسالاته ورضيه للناس دينا يتسق مع الفطرة التى فطرهم عليها بلا فرق بين جنس ولون وعرق ولسان.. وكلف بتبليغه كل من سمع عنه أو آمن به وخص العرب بمسئولية خاصة تجاه ذلك من حيث إن الوحى الخاتم نزل بلغتهم فكان فى ذلك شرف لهم يترتب عليه عبء الدعوة إليه من منطلق فهمهم لمراد الله ومنهم رسول الله فقال سبحانه:

﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾

(الزخرف: ٤٣، ٤٤)

وقال النبى ﷺ: "بلغوا عنى ولو آية" (صحيح البخاري)، وقال: "ليبلغ الشاهد منكم الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع" (صحيح البخاري). وقال: "تسمعون ويسمع منكم ويسمع ممن سمع منكم" (سنن أبى داود).

لهذا وجب على كل مسلم أن يدعو إلى الله بالمنهج الذى رسمه الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن

إما على سبيل الوجوب العينى وذلك فى نطاق ما علم من الدين بالضرورة وهو ما يسمى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى هو صفة المجتمع الإسلامى وهو مناط خيريته على الأمم:

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(التوبة: ٧١)

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

(آل عمران: ١١٠)

وإما على سبيل الوجوب الكفائى لمن يتفقه فى الدين ويتعمق فى إدراك مراد الله من العلماء الذين يفرض الله على الأمة أن تتبنى تعليمهم وأن تخرج من كل فرقة طائفة منها تتفقه فى دين الله وتحرس الدين، وتحذر من الانحراف وذلك:

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾

(التوبة: ١٢٢)

وقول رسول الله: "من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين" (صحيح البخاري). وقوله: "طلب العلم فريضة على كل مسلم" (سنن ابن ماجة).

على أن من يتولى الدعوة لابد أن يكون على بصيرة مما يدعو إليه، وأن يكون على بصيرة أيضا من أحوال من يدعوهم ومن لغتهم ومن طرق توصيل المعلومة إليهم كما قال تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

(إبراهيم: ٤)

ولأن الدعاة نواب هؤلاء الرسل لابد من الإلمام بلسان من يدعونهم إلى الله ولذلك كان من مستلزمات القيام بهذا الواجب أن يتعلم الدعاة لغة من يرسلون إليهم، بمعنى أن يخصص لكل دولة مجموعة من الدعاة تتقن وسائل توصيل الدعوة إليهم وهذه هى الفكرة الأساسية لإنشاء كلية اللغات والترجمة بجامعة الأزهر.

وليست اللغة وحدها بكافية لفهم واقع المجتمع الذى يتكلم بها معه. فلابد من دراسة البيئة دراسة عميقة.. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى المنهج الذى وضعه لنبيه محمد ﷺ فى قوله:

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

(الجمعة: ٢)

وفي آية أخرى:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

(آل عمران: ١٦٤)

ذلك أنه حين يكون الداعي ممن يقيم مع المدعوين يدرك ما يشغلهم فيقدم الأهم على المهم ويحدد المداخل إلى قلوبهم وعقولهم والوسائل التي تصلح معهم، وقد يكون ذلك مما دعا كثيرا من الفقهاء إلى أن يشترطوا في خطيب الجمعة أن يكون مقيما بالبلد مدة.. ثم على الداعي أيضا أن ينوع خطابه حسب أوضاع الفئة التي يدعوها فما يصلح للحضر ربما لا يصلح للبدو، وما يخاطب به المثقفون غير ما يخاطب به العوام، وما يصلح للصغار ربما لا يصلح للكبار، وهكذا.

فكر الإمام

من هذه الحقائق الدعوية ندلف إلى فكر إمامنا الأعظم لنتعرف على طبيعة من اختارهم لدعوته وكيف تعامل مع كل فئة بما يلائمها.. وبما هو على استعداد للخوض فيه معهم.. فليست الدعوة خاصة بالمنبر ويوم الجمعة.. وقد رأينا في سيرته أنه قد اختار مخاطبة العامة بالأسلوب العملي بمعنى أنه كان حريصا على أن يقدم الإسلام لهم في صورة عملية.. فحال الداعية أفضل من لسانه وبلاغته، والمدعوون في أشد الحاجة إلى القدوة.. ولولا ما كان يتميز به المصطفى ﷺ من خلق فاضل أثنى به عليه ربه في مثل:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

(القلم: ٤)

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾

(آل عمران: ١٥٩)

وفي مثل وصف أقرب الناس إليه حين نزول الوحي عليه حيث قالت له السيدة خديجة: "إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق" (صحيح البخاري) لولا ذلك لما نجحت دعوته ولما أقبل الناس عليه.

من هنا وجدنا الإمام أبا حنيفة لا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله، إذا سمع اللغو أعرض عنه، يجهر بالحق حين يصمت أولو النهى، يتكسب من عمله ليحافظ على كرامته، تظهر آثار النعمة عليه في ملبسه وعطره وأناقته، يتخذ الوقار رداء له فلا يتكلم إلا جوابا يقاوم طغيان الأمير في زمن الأمويين والخليفة في زمن العباسيين ويصبر على التعذيب من كليهما، يصارع أهل التعصب للتقاليد والمذهبية، يجالس الصالحين أصحاب القلوب الرقيقة وينفر من المتكلمين أصحاب الأفئدة الغليظة كما عبر عنهم، يلازم القرآن وقيام الليل، يحسن إلى المكروبين، لا يرد سؤال السائلين،

يتحاشى الشبهات ويلزم الورع.. يشفع لجار سكير أخذته الشرطة فيتوب الرجل عن شرب الخمر ويجتهد في طلب العلم حتى صار من العلماء.. يشترى الخبز يوميا يوزعه على جيرانه وعلى كل من يختلف إلى بابه، وكان يقول: "ما ملكت أكثر من أربعة آلاف درهم منذ أكثر من أربعين سنة إلا أخرجته، ولولا أني أخاف أن الجأ إلى هؤلاء ما تركت منها درهما واحدا".. رفض مقولة الكذب المباح..

هذه الأخلاق المستقاة من سيرة خير الدعاة جعلت أثره في العامة أفضل من أي خطيب، إذ تميز بصفات كانت من أسباب ثقة الناس فيه وحبهم له.

مجال التعليم

أما الجانب الآخر من دعوته فقد اختار مجال التدريس لطلاب العلم وإكرامهم ورعايتهم فتكونت على يده مدرسة الفقه التي وصفها الإمام الشافعي: "بأن كل الناس عيال على فقه أبي حنيفة". ذلك أنه كان يترك لتلاميذه الحرية في نقده وتخطئته أحيانا ويظل يتناقش معهم بالساعات الطوال، ويتدارس معهم مسائل الفقه بالمعقول والمنقول.

ولقد كان في ذلك بعيد النظر مستشرفا للمستقبل الذي جدت فيه أحداث ووقائع لم يكن ممكنا أن يستوعبها الفكر التقليدي لدى المتزمتين في عصره والذين تعجز ملكاتهم عن الفهم الواعي للنصوص، والذين اتهموه بأنه يقدم الرأي على النص وكذبوا، فقد كان ثقة في الحديث وعالما بالجرح والتعديل ولم يرد إلا الحديث الشاذ، بل كان يقدم الحديث الضعيف على رأيه.. ويكفيه أنه كان من التابعين فقد اتفق المؤرخون على أنه رأى أنس بن مالك بالكوفة بل ذهب ابن حجر إلى أنه رأى أربعة من الصحابة غير أنس هم: عبد الله بن أبي أوفى، وسهل بن سعد، وعبيد الله بن أنيس، وعمرو بن حريث. كما يكفيه موقفه من علم الكلام وتفضيله لما كان عليه المتقدمون من أصحاب رسول الله.

بهذا المنهج وبتلك الثقافة وبهذه العقلية المتحررة ناظر أعلام الفقهاء في عصره وربى تلامذته، على أن العمل المستقيم لابد أن ينبني على فكر مستقيم وعلم مقرر ثابت وأن المعلم يجب ألا يكون فيه تردد في مسائل العقيدة والإيمان. أما ما يتعلق بالعمل فيكتفي في إثباته بالأدلة الظنية وفي مثل هذا لا يجزم الشخص ببطلان قول مخالفه بل يرجح قول نفسه ويقول إنه صواب يحتمل الخطأ وقول غيري خطأ يحتمل الصواب.

نصائحه لتلاميذه

بل كان ينصح تلاميذه بدرر غالية مثل قوله لتلميذه يوسف بن خالد البستي: "متى أحسنت عشرة قوم ليسوا لك بأقرباء صاروا لك أمهات وآباء. أنزل كل رجل منزلته، وأكرم أهل الشرف وعظم أهل العلم ووقر الشيوخ ولاطف الأحداث وتقرب من العامة واصحب الأخيار ولا تخادن خسيسا ولا وضيعا وابذل طعامك فإنه ما ساد بخيل قط، وأحسن إلى من يحسن إليك ومن يسيء، وتغافل عما لا يعنيك وأفش السلام ولو على

قوم لئام، وأعط كل من يختلف إليك نوعا من العلم ينظرون فيه، وبالمودة تستديم مواظبة الطالب على العلم، وارض لهم ما رضوا لأنفسهم وقدم إليهم حسن النية واطرح الكبر.

هكذا كان ينصح تلاميذه بما صار له خلقا ومنهجًا وكان له معوانًا على تبوئه مركز الإمامة.

ومن كلماته التوجيهية والدعوية لتلاميذه ما يأتي:

١ - من تكلم في شيء من العلم ونقده وهو يظن أن الله تعالى لا يسأله عنه: كيف أفتيت في ديني، فقد سهلت عليه نفسه ودينه.

٢ - من طلب الرياسة في غير حينه لم يزل في ذل ما بقي.

٣ - أقبل على متفقهيك كأنك اتخذت كل واحد منهم ابنا وولدًا لتزيدهم رغبة في العلم.

٤ - اعلم أن العمل تبع للعلم كما أن الأعضاء تبع للبصر، والعلم مع العمل اليسير أنفع من الجهل مع العمل الكثير، ومثل ذلك الزاد القليل الذي لابد منه في المفازة مع الهداية أنفع من الجهالة مع الزاد الكثير.

٥ - لا يحل لمن يفتي من كتبي أن يفتي حتى يعلم من أين قلت.

٦ - من يطلب الفقه ولا يتفقه مثل الصيدلاني يجمع الأدوية ولا يدري لأي داء هي حتى يجيء الطبيب، كذلك طالب الحديث لا يعرف وجه حديثه حتى يجيء الفقيه.

٧ - كن من السلطان كما أنت من النار تنتفع منها وتتباعد عنها ولا تدن منها فإنك تحترق.

٨ - أنتم مسرات قلبي وجلاء حزني قد أسرجت لكم الفقه وألجمته.. فسألتكم بالله بقدر ما وهب لكم من جلالة العلم لما صنتموه عن ذل الاستئمار (أي طلب الإمارة بالعلم).

هكذا يحثهم على التحري والدقة عند الكلام في العلم أو نقد العلماء استحضارًا لمساءلة الله عند لقائه، ويحذرهم من السعي إلى الرياسة فهي حسرة وندامة، ويناشدهم أن يحرصوا على معرفة الشرع حتى ينبني العمل على تلك المعرفة، فمهما كثر العمل مع الجهل لا فائدة منه، وألا يكتفوا برواية النصوص دون التعمق في مدلولها وجمع الأشباه والنظائر والتوفيق بين ما يبدو عليه التناقض.. وألا يعتمدوا على ما يقرأونه في الكتب حتى يعرفوا دليل ما في هذه الكتب وأن يحذروا القرب من السلطان وطلب الإمارة بالعلم أو الدنيا بالدين، وينصحهم حين يتبوأون مقعد التدريس أن يتعاملوا مع الطلاب على أنهم أبناؤهم فيتعاملون معهم بالحب والود والصبر والمتابعة لأحوالهم، وبهذا يسبق الإمام كل نظريات التربية والتعليم بأكثر من ألف عام.

مواقفه التربوية مع طلابه ومدعويه

١ - وجه ولده حماد إلى دراسة علم الكلام فترة، ثم أمره بالانصراف عنه، فجادله ولده قائلا: ألست كنت تأمرني به؟ قال: بلى، وأنا اليوم أنهاك عنه قال: ولم؟ قال: يا بني، إن هؤلاء المختلفين في أبواب علم الكلام كانوا على قول واحد ودين واحد حتى نزغ الشيطان بينهم فالقى بينهم العداوة والاختلاف وهمة أحدهم أن يظفر من صاحبه بشنعة يشنع بها عليه، فإذا بلغ الكلام هذا الحد فتركه خير.

٢ - أدب تلاميذه بأربع وسائل: بالعلم، والقدوة، والإقناع، وتقديم العلم في وعاء من الحب.

٣ - رفض أن يتكلم في عرض من تكلم في عرضه، قال له قائل: يتكلمون فيك ولا تتكلم في أحد؟ قال: هو فضل الله يؤتيه من يشاء، عفا الله عمن قال فينا مكروهًا.. تفقهوا في دين الله وذروا الناس وما اختاروا لأنفسهم.

٤ - من شدة حرصه على التطهر في الجسد والثوب والمكان خالف سفيان الثوري في جواز الوضوء بماء توضأ به الغير، وطبق أتباعه ذلك عمليًا فاتخذوا للوضوء حياضًا ذات صنابير تمنع استعمال الغير لهذا الماء غير المطهر عند أبي حنيفة فنسبت إليهم هذه الصنابير وسميت بالحنفيات، فالحنفية التي نستعملها الآن صباح مساء تذكرنا بهذه الحلقة المباركة لأبي حنيفة وطلابه.

٥ - كان صبورًا معهم لدرجة إرهاق جسده من السهر: خرج ذات ليلة من المسجد بعد صلاة العشاء فسأله تلميذه (زفر) في مسألة فتجاريا يتقايسان حتى نودي لصلاة الفجر وهما قائمان أمام المسجد فرجعا إلى صلاة الفجر ثم رجعا إلى المسألة حتى استقرت على قول أبي حنيفة.. وحدث ذلك أيضًا مع أبي يوسف.

٦ - كان حين تشكل عليه مسألة يقول: ما هذا إلا لذنب جنيته، فيستغفر الله ويتوضأ ويصلي ركعتين فيمن الله عليه بحل المشكلة.

٧ - اقتحم الخوارج المسجد وأبو حنيفة وأصحابه جلوس، فقال لأصحابه: لا تبرحوا مكانكم، فجاء إليهم الخوارج يريدون الفتك بهم، فقالوا: ما أنتم؟ فردّ أبو حنيفة عليهم: نحن مستجيرون. قال أميرهم: دعوهم وأبلغوهم مأمنهم واقرأوا عليهم القرآن، فسلمت المدرسة من الإبادة بسرعة بديهته.

٨ - يدخل عليه غلام فيسأله مسألة فيجيب عنها أبو حنيفة، فيقول الغلام له: أخطأت، ويعرض عليه مسألة أخرى، فيقول له: أخطأت، فيتأذى بعض الحاضرين من جرأة الغلام على أبي حنيفة، فيقول له الشيخ: دعهم فإني قد عودتهم هذا من نفسي.

هكذا يتضح من هذه المواقف رفضه للخوض في علم الكلام والخلاف الذي لا يؤدي إلا إلى العداوة وضياع الوقت والجهد فيما لا يفيد، وكأني به ينصحنا الآن بذلك بعد أن فشا في شبابنا هذا الداء الوبيل.. ورفضه للغيبة حتى فيمن يغتابه، وصبره على طلابه ولو نسبوا إليه الخطأ ولو أسهروه الليل كله، فقد كان يوقن أن كل ذلك جهاد في سبيل الله، كما رأينا سرعة بديهته وإدراكه لمعتقدات الخوارج واستخدام الحيلة في نجاته ومن معه.

تربية الدعاة تربية أمة

إن من يعني بتربية الدعاة والقضاة وأهل العلم يكون قد ربى بهم أمة فمهما بلغ الداعية من نبوغ وتوفيق فإن أثره سيكون في سامعيه فقط أما من ربى الدعاة فإن مساحة التأثير ستتسع بانتشار هؤلاء الدعاة يحملون فكر الإمام. وهو

في كل نصائحه يتوخى ما كان عليه سلفه الصالح وأولهم صاحب الخلق العظيم.

وباختيار الإمام لمدعويه ولطريقة دعوتهم سواء كانوا من العامة أو من طلاب العلم نراه قد استوفى الجانبين النظرى والعملى مع الطلاب، واكتفى بالعملى مع العامة.

وهذا من توفيق الله وعونه جزاء إخلاصه وعبادته وجهاده وأخلاقه.

تلاميذ الإمام وأقرانه

وكان من تلاميذه من تسنم عرش العلم والفتيا والقضاء، وكان منهم من تنسك وزهد وتورع عن قبول الرياسة.. فمنهم عبد الله بن المبارك، وأبو يوسف، ومحمد بن الحسن الشيباني- وهما صاحباه وناقلا مذهبه ومنهم زفر بن الهذيل الذى تولى الحلقة بعده، والقاسم بن معن حفيد عبد الله بن مسعود.. وكان من أقرانه الذين تركوا حلقاتهم وأبوا إلا أن يحضروا حلقته متلقين: إسماعيل بن شيخه حماد بن سليمان، وأبو بكر النهشلي، وأبو بردة الضبي، ومسعر بن كدام، والحسن بن عمارة، والوليد بن أبان، وأسد بن عمرو البجلي، والفضيل بن عياض، ووكيع بن الجراح شيخ الشافعي، وحفص بن غياث، ويحيى بن زكريا، والمغيرة بن حمزة..

لقد أربت حلقته على أربعين طالبًا صاروا جميعًا أئمة أعلامًا تواصل بهم فقه الشريعة الغراء، ويكفى أن نعلم أن تلميذه محمد بن الحسن الشيبانى هو الذى دون وألف ورحل إلى المدينة فروى الموطأ عن الإمام مالك وتتلمذ عليه الإمام الشافعي وتتلمذ الإمام أحمد على الشافعي، أما أبو يوسف فتولى القضاء للخلفاء الثلاثة: المهدي، والهادي، والرشيد الذى عينه قاضى القضاء وألف له كتاب الخراج.

وفاته

سطر الإمام أبو حنيفة فى أيامه الأخيرة حروفًا من نور لا يمحوها الزمن، فقد اتفق المؤرخون على أن المنصور طلبه للقضاء فامتنع تطبيقًا لمذهبه فى عدم القرب من السلطان، وخشية من الوقوع فى الظلم بتأثير المجاملات أو النفاق.. وحلف المنصور ليفعلن فهو الأجدر بهذا المنصب، فحلف أبو حنيفة ألا يفعل فأمر بسجنه وضيق عليه، فلم يهتم، فأمر بضربه كل يوم عشرة أسواط، فلم يؤثر عليه ذلك، وما حزن إلا لحزن أمه، واستمر على موقفه إلى أن صعدت روحه الزكية سنة ١٥٠هـ وخرجت المدينة عن بكرة أبيها فى جنازته حتى إنهم أعادوا الصلاة عليه مرارًا، وكان يسمع ضجيج الناس وبكاؤهم لمسافة أميال، وبكاه العلماء والشعراء، وبقى ذكره فى التاريخ شهيد العلماء وعالم الشهداء. رضى الله عنه وألحقنا به فى الصالحين.

مراجع البحث الأساسية

- أبو حنيفة، حياته وعصره وآراؤه وفقهه، لفضيلة الإمام الشيخ محمد أبو زهرة.
- مكانة الإمام أبى حنيفة بين المحدثين للدكتور محمد قاسم عبده الحارثي.
- أبو حنيفة، بطل الحرية والتسامح لعبد الحليم الجندى

قالوا عن القرآن



للدكتور / عماد الدين خليل

سيديو[١]

[١] «لا تجد فى القرآن آية إلا توحى بمحبة شديدة لله.. وفيه حث كبير على الفضيلة خلال تلك القواعد الخاصة بالسلوك الخلقى.. وفيه دعوة كبيرة إلى تبادل العواطف وحسن المقاصد والصفح عن الشتائم، وفيه مقت للعجب والغضب، وفيه إشارة إلى أن الذنب قد يكون بالفكر والنظر، وفيه حض على الإيفاء بالعهود حتى مع الكافرين، وتحريض على خفض الجناح والتواضع، وعلى استغفار الناس لمن يسيئون إليهم، لا لعنهم ويكفي جميع تلك الأقول الجامعة المملوءة حكمة ورشدا لاثبات صفاء قواعد الأخلاق فى القرآن.. أنه أبصر كل شيء..»[١].

[٢] «.. صلح القرآن ليكون نموذجاً للأسلوب وقواعد النحو.. فأوجب ذلك نشوء علم اللغة، فظهور علم البيان الذى درس فيه تركيب الكلام ومقتضى الحال والبديع وأوجه البلاغة، وأضحى لصناعة قراءة القرآن وتفسيره أكثر من مئة فرع، فأدى هذا إلى ما لا حصر له من التأليف فى كل منها، واغتنت اللغة العربية بتعابير جديدة كثيرة بعيدة من الفساد بمخالطة اللغات الأخرى..»[٢].

[٣] «ومما يجدر ذكره أن يكون القرآن، بين مختلف اللغات التى يتكلم بها مختلف الشعوب الإسلامية فى آسيا حتى الهند، وفى أفريقية حتى السودان، كتاباً يفهمه الجميع، وأن يربط القرآن هذه الشعوب المتباينة الطبائع برابط اللغة والمشاعر..»[٣].

لويس سيديو (١٨٠٨ – ١٨٧٦) مستشرق فرنسى عكف على نشر مؤلفات أبيه (جان جاك سيديو) الذى توفى عام ١٨٣٢ قبل أن تتاح له فرصة إخراج كافة أعماله فى تاريخ العلوم الإسلامية. وقد عين لويس أمينا لمدرسة اللغات الشرقية (١٨٣١) وصنف كتابا بعنوان (خلاصة تاريخ العرب) فضلا عن: (تاريخ العرب العام) وكتب العديد من الأبحاث والدراسات فى المجلات المعروفة.

[١] تاريخ العرب العام، ص٨٩و٩٨-٩٩، ١٠٠، ١١٧.

[٢] نفسه، ص٤٥٨.

[٣] نفسه، ص٤٥٨.

سيرويا (٤)

«.. القرآن من الله بأسلوب سام رفيع لا يدانيه أسلوب البشر، وهو فى الوقت عينه، «ثورة عقيدية، هذه الثورة العقيدية لا تعترف – لا بالبابا ولا أى مجمع لعلماء الكهنوت والقساوسة»، حيث لم يشعر الإسلام يوما بالخشية والهلع من قيام مبدأ التحكيم العقلى الفلسفى فإذا قارنا الإسلام باليهودية والمسيحية نجد بعض الخطوط المميزة والتى لا تبدو مطابقة تماماً خاصة مع المسيحية.. فالنظام المسيحى اليهودى يخالف الإسلام حيث لا يوجد فراغ بين الخالق والخلق البشرى، هذا الفراغ لدى اليهود والمسيحيين ملىء بالواسطة.. ولا شىء من هذا يتفق مع الإسلام فمحمد صلى الله عليه وسلم مع كونه مبعوثا ورسولاً من لدن الله لم يتظاهر بإنكار دعوات كل من موسى وعيسى، كل مجهوده انحصر فى تنقيتهما على ما جاء فى القرآن، الذى وضع فى العام الأول مهاجمة مبدأ الثلاثية منبها إلى أن عيسى ليس سوى رجل ابن مريم وليس بابن الله والقول بأن الله له ولد، هذا شرك كبير تنشق له السماء وتنفتح له الأرض وتنسحق له الجبال. أما روح القدس فما هو إلا بمثابة ملك مثل جبريل دوره هو أن ينقل إلى عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم الدعوة المقدسة. أما مريم فهى مريم العذراء وليست بأم الله..» (٥).

شاد (٦)

[١] «.. عندما آمنت بالتوحيد بدأت أبحث عن الحجج والبراهين التى تثبت أن القرآن هو كتاب الله تعالى وأنه آخر الكتب السماوية وخاتمها وإننى أحمد الله إذ مكننى من حل هذه المسألة فالقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذى يعترف بكافة الكتب السماوية الأخرى، بينما نجد أنها جميعاً يرفض بعضها بعضا.. وهذه فى الحقيقة هى إحدى خصائص ومميزات القرآن الكريم، آخر الكتب السماوية وخاتمها» (٧).

[٢] «.. إن القرآن الكريم هو الكتاب السماوى الوحيد الذى يحفظه عن ظهر قلب ألوف مؤلفة من البشر فى مختلف بقاع الأرض،

(٤) هنرى سيرويا H.serouya مستشرق فرنسى، من آثاره «موسى بن ميمون: ترجمته وآثاره وفلسفته» ١٩٢١، «الصوفية والمسيحية واليهودية»، «فلسفة الفكر الإسلامى».

(٥) فلسفة الفكر الإسلامى، ص٢٢ – ٢٣.

(٦) بشير احمد شاد Basheer A. shad

ولد عام ١٩٢٨، لأسرة نصرانية هندية بقرية ديان جالو الهندية، كان أبوه ماتياس مبشراً نصرانياً ولذا حرص على تنشئة ابنه على ذات الطريق، فى عام ١٩٤٧ أكمل دراسته وبدأ يعمل مبشراً فى لاهور، لكنه مثل كثيرين غيره ما لبث أن فقد قناعاته – كلية – بالنصرانية وانتهى به الأمر بعد عشرين سنة من البحث والمعاناة إلى إعلان إسلامه، «حزيران عام ١٩٦٨».

(٧) رجال ونساء أسلموا، ص ٧/١٩–٢٠.

بينما نجد أن الكتب المقدسة الأخرى محفوظة بالخط المطبوع فقط. ومن هنا لو حدث لسبب أو لآخر أن اختفت الكتب المطبوعة يظل القرآن هو كتاب الله الوحيد المحفوظ فى الصدور وهكذا يحق له أن يتباهى بأنه ظل فى مأمن من التحريف لم ينقص منه حرف واحد ولم يزد فيه حرف واحد منذ أن نزل به الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فليست هناك أية تناقضات ولا أخطاء من أى نوع فى القرآن الكريم، هذا فى الوقت الذى تعانى فيه الكتب السماوية الأخرى فى نسختها الحالية من الكثير من التغيير والتبديل وهذا سبب آخر جعلنى أؤمن بالإسلام» (٨).

فاغليرى (٩)

[١] «إن معجزة الإسلام العظمى هى القرآن الذى تنقل إلينا الرواية الراسخة غير المنقطعة، من خلاله، أنباء تتصف بيقين مطلق إنه كتاب لا سبيل إلى محاكاته إن كلا من تعبيراته شامل جامع، ومع ذلك فهو ذو حجم مناسب، ليس بالطويل أكثر مما ينبغى، وليس بالقصير أكثر مما ينبغى أما أسلوبه فأصيل فريد وليس ثمة أيما نمط لهذا الأسلوب فى الأدب العربى تحدر إلينا من العصور التى سبقته والأثر الذى يحدثه فى النفس البشرية إنما يتم من غير أيما عون عرضى أو إضافى من خلال سموه السليقى إن آياته كلها على مستوى واحد من البلاغة، حتى عندما تعالج موضوعات لابد أن تؤثر فى نفسها وجرسها كموضوع الوصايا والنواهى وما إليها إنه يكرر قصص الأنبياء [عليهم السلام] وأوصاف بدء العالم ونهايته، وصفات الله وتفسيرها، ولكن يكررها على نحو مثير إلى درجة لا تضعف من أثرها وهو ينتقل من موضوع إلى موضوع من غير أن يفقد قوته إننا نقع هنا على العمق والعذرية معا– وهما صفتان لا تجتمعان عادة – حيث نجد كل صورة بلاغية تطبيقاً كاملاً فكيف يمكن أن يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد ﷺ وهو العربى الأمى الذى لم ينظم طوال حياته غير بيتين أو ثلاثة أبيات لا ينم أى منها عن أدنى موهبة شعرية؟» (١٠).

[٢] «لا يزال لدينا برهان آخر على مصدر القرآن الإلهى فى هذه الحقيقة: وهى أن نصه ظل صافياً غير محرف طوال القرون التى تراخت ما بين تنزيله ويوم الناس هذا، وأن نصه سوف يظل على حاله تلك من الصفاء وعدم التحريف، بإذن الله، ما دام الكون».(١١).

«يتبع»

(٨) نفسه، ص ٧/٢٠.

(٩) لورا فيشيا فاغليرى L.. veccia vaglieri باحثة إيطالية معاصرة انصرفت إلى التاريخ الإسلامى قديماً وحديثاً، وإلى فقه العربية وآدابها. من آثارها «قواعد العربية، فى جزئين» ١٩٣٧ – ١٩٤١»، و«الإسلام» ١٩٤٦»، و«دفاع عن الإسلام» ١٩٥٢»، والعديد من الدراسات فى المجلات الاستشراقية المعروفة.

(١٠) دفاع عن الإسلام، ص ٥٦–٥٧.

(١١) نفسه، ص٥٨–٥٩.

فتاوى لها تاريخ



للأستاذ الإمام الشيخ/ محمد عبده

بدع طرأت على الإسلام

● سئل(١) بإفادة من مديرية المنوفية مؤرخة فى ٢٤ مايو سنة ١٩٠٤ نمرة ٧٦٥ مضمونها: أنه مرسل معها عريضة مقدمة للمديرية من مصطفى عبدالوهاب ورفقائه من ناحية أبوسنيطة، المسجلة تحت نمرة ٩٣٧، والورقتان معها بأمل الاطلاع والإفادة بما يرى نحو ما اشتملت عليه.

والذى اشتملت عليه ست مسائل، وهى المرغوب الاستفهام عما يرى فيها:

الأولى: ما اعتيد من قراءة فقيه سورة الكهف جهراً يوم الجمعة، لأجل عدم غوغاء الفلاحين بالكلام الدنيوى.

الثانية: ما اشتهر من الترقية قبل الخطبة، مع مراعاة الأدب فى الإلقاء، وحديث: «إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب.. إلخ».

الثالثة: ما يحصل من الأذان قبل الوقت يوم الجمعة بما يشتمل على الاستغاثات وصلوات على النبى صلى الله عليه وسلم، لتنبيه الفلاحين الموجودين بالغيطان الغافلين عن مكان الجمعة.

الرابعة: الأذان داخل المسجد بين يدى الخطيب.

الخامسة: ما اشتهر من الصلاة والسلام على النبى صلى الله عليه وسلم عقب الأذان فى الأوقات الخمس، إلا المغرب.

السادسة: الذكر جهراً أمام الجنازة، بكيفية معتدلة، خالية عن التلحين. هل ذلك كله جار على السنن القويم؟ أو فيه إخلال بالدين؟

الجواب:

اطلعت على رقيم سعادتكم المؤرخ ٢٤ مايو الماضى، نمرة ٧٦٥، وعلى ما معه من الأوراق. وأفيد سعادتكم:

إن كل عبادة لم يرد بها نص عن النبى صلى الله عليه وسلم، ولم تأت فى عمله صلى الله

(١) أى الأستاذ الإمام.

عليه وسلم، ولا فى عمل أصحابه، اقتداء به، وإن لم نعرف وجه الاقتداء، فهى بدعة. وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار. فهى ممقوتة للشارع، يجب منعها.

وهذه الأمور، التى جاءت فى العرائض المقدمة لسعادتكم، جميعها، ما عدا الأذان بين يدى الخطيب، صور عبادات مستحدثة، لم تكن على عهد النبى صلى الله عليه وسلم، ولا أصحابه، ولا التابعين ولا تابعيهم ولا يعرف بالتحقيق من أحدثها. وما ينقل عن بعض العلماء فى الترقية، مثلا، من أنها بدعة مستحسنة، لا يصح التعويل عليها؛ لأنه لم يفرق بين ما يستحدث فى العادات، كالأكل والشرب واللباس والمسكن، وما يستحدث فى العبادات، فكل ما يحدث فى النوع الأول، مما لا ضرر فيه بالدين ولا بالبدن، وكان مما يخفف مشقة أو يدفع أذى أو يفيد منفعة فهو مستحسن، ولا مانع منه إذا لم يكن ممنوعا بالنص، كاستعمال الذهب والفضة والحرير للرجال، ونحو ذلك.

وأما ما يحدث من القسم الثانى، أعنى قسم العبادات، فالحديث فيه على عمومه، أعنى: كل ما حدث منه بدعة، والبدعة ضلالة، والضلالة فى النار، بلا شبهة.

وقد ذكر فى (البحر) – من كتب الحنفية: إن ما تعورف من أن المرقى للخطيب يقرأ الحديث النبوى، وأن المؤذنين يؤمنون عند الدعاء، ويدعون للصحابة بالرضاء ونحو ذلك، فكله حرام، على مذهب أبى حنيفة، رحمه الله.

وما قاله بعضهم: من حمل الترقية على الكلام بأخروى، عند محمد(٢)، لا يصح الالتفات إليه؛ لأن الترقية عمل وقت بوقت مخصوص، يؤدى على نحو مخصوص، فهو ليس من قبيل الكلام الذى يعرض لقائه فى أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله، خصوصاً والترقية من التلحين والتغنى، ولو زعم السائلون أنه لا يلحن فيها؛ لأنها لم تخترع إلا للتلحين، فإذا ذهب منها لم تعد تسمى ترقية، ولم يبق لهم بها حاجة. فالصواب منعها على كل حال؛ لأنها بدعة سيئة.

أما الأذان فقد جاء فى (الخانية) أنه ليس يقر المكتوبات، وأنه خمس عشرة كلمة، وآخره عندنا: (لا إله إلا الله)، وما يذكر بعده وقبله كله من المحدثات المبتدعة، ابتدعت للتلحين، لا لشيء آخر، ولا يقول أحد بجواز هذا التلحين، ولا عبرة بقول من قال: إن شيئا من ذلك بدعة حسنة؛ لأن كل بدعة فى العبادات، على هذا النحو، فهى سيئة، ومن ادعى أن ذلك ليس فيه تلحين فهو كاذب.

وقراءة سورة الكهف يوم الجمعة، جاء فى عبارة (الأشباه) عند تعداد المكروهات ما نصه: ويكره إفراده بالصوم، وإفراد ليلته بالقيام، وقراءة الكهف فيه، خصوصاً وهى لا تقرأ إلا بالتلحين، وأهل المسجد يلغون ويتحدثون، ولا ينصتون. ثم إن القارئ كثيرا

(٢) أحد علماء مذهب أبى حنيفة.

ما يشوش على المصلين بصوته وتلحينه. فقراءتها، على هذا الوجه، محظورة.

أما الذكر، جهراً، أمام الجنازة، ففى (الفتح) و(الأنقروية) من باب الجنائز: يكره للماشى أمام الجنازة رفع الصوت بالذكر، فإن أراد أن يذكر - الله فليذكره فى نفسه.

وعلى ذلك فجميع الأشياء التى سألتم عنها مما يلزم منعه، ما عدا الأذان الثانى وحده، وهو الأذان بين يدى الخطيب، فإنه هو الباقى من سنة النبى صلى الله عليه وسلم من بين السنن، وما عداه، مما ذكر، لا يصح الإبقاء عليه؛ لأن جميعه من مخترعات العامة، ولا يتمسك به إلا جهالهم، وليس من الجائز أن يؤخذ فى الدين بشىء لم تتقدم فيه أسوة حسنة معروفة ولا سنة مقررة منقولة، وكيف يجوز اتباع مخترعين مجهولين لا تمكن الثقة بهم فى غير عبادة الله، فضلا عن شىء فى دين الله؟!.. والله أعلم(٣). معه أربع ورقات.

● سأل محمد محمد حسن، التاجر فى الغلال، بمصر، فى: أهل بلدة بنوا مسجداً، وأذن بإقامة الجمعة فيه، ثم تخرب ولم يوجد من يصلحه، فقام رجل وأنفق عليه من ماله وأصلحه، فهل يجوز له أن يتخذ فيه قبوراً؟؟ أفيدوا الجواب.

الجواب:

حيث كان هذا المسجد قد بنى فى أول أمره مسجداً؛ فحكمه حكم المسجد؛ لا يجوز اتخاذ القبور فيه؛ فلا حق لمن أصلح ما تخرب منه، تبرعاً من جهته، أن يتخذ فيه تلك القبور، لبقاء حكم المسجدية المانع من ذلك. والله أعلم(٤).

● وردت إفادة من مدير عموم الحسابات المالية مؤرخة فى ٤ نوفمبر سنة ١٩٠٠ نمرة ١٨١ ومعها سؤال يتضمن فى أن فاطمة أمينة هانم، زوجة حضرة رشيد بك زهدى كانت ناظرة ومستحقة فى وقف المرحوم حسن كاشف نور الدين، وسبق وفاتها عن زوجها المذكور وجهة الحكومة، وما كانت تترك كلياً سوى ملبوس بدنها البالغ ثمنه ستة (٦) جنيه ومؤخر صداقها خمسة جنيهات وقيمة استحقاقها فى ريع الوقف المذكور البالغ قدره (١٢٣٣) جنيه وكسور، منه مبلغ (١٠٩٤) جنيه وكسور طرف الزوج، ومدعى بأنه صرف منه مبلغ (٧٥٣) جنيه قال: إن بعضه استلمه نقدية فى حال حياتها بغير سندات وبعضه مصروفات أخرى، ومنظور لذلك قضية بالمحكمة الأهلية ومحالة على التحقيق، ولكن من ضمن المصروفات المذكورة مبلغ (١٥٧) جنيه يقول: إنه صرفه فى ميتم المتوفية المذكورة، ولضرورة العلم بما يقتضيه النص الشرعى فى قدر ما يجوز شرعاً احتسابه على الميتم المذكور بحسب حالة المتوفية وتركتها، وعلى من يكون احتسابه، والرجا من حضرة مفتى الديار المصرية الإفتاء بما يقتضى لذلك شرعاً.

وتوضح بتلك الإفادة طلب الاطلاع على هذا السؤال والفتوى عليه بما يقتضيه الوجه الشرعى.

الجواب:

المصرح به فى كتب المذهب أن أحد الورثة إذا أنفق للمأتم وشراء الشمع ونحوه بلا وصية ولا إذن من باقى الورثة فإنه يحسب من نصيبه، ولو كان ذلك من مال نفسه يكون متبرعاً فيه. وعلى ذلك فما أنفقه هذا الزوج للمأتم، إن كان بغير وصية من زوجته، وبدون إذن من بيت المال، يحسب من نصيبه من التركه، حيث كان ما أنفقه منها، ولا يحسب منه على بيت المال شىء. والله أعلم(٥).

● سأل محمد بيك نافع، مأمور قسم أول أوقاف، بمصر، فى: ضريح قديم عليه قبة فى شارع مطروق ليلا ونهارا، معرضة للبول والأقذار، وبجوار هذا الضريح مسجد منسوب لصاحبه، وفى هذا المسجد باب لذلك الضريح، فهل يجوز هدم القبة ونقل الضريح إلى داخل المسجد أو يبقى فى محله؟؟ أفيدوا الجواب.

الجواب:

المروى عن الإمام أبى حنيفة أن بناء بيت أو قبة على القبر مكروه، وهو يدل على أن لا بأس بهدم القبة المذكورة، بل إنه الأولى، فإذا كانت تجتمع حولها القاذورات، واعترضت فى الطريق تأكدت الأولوية. أما موضع القبة، وهو الضريح، فيسوى بأرض الشارع، لأنه لو فرض أن تحته ميت مدفون فقد بلى، فيجوز استعمال أرضه فى غير الدفن. والله أعلم(٦).

● سئل(٧) بإفادة من عموم الأوقاف، مؤرخة فى ١٥ محرم سنة ١٣٢٠ نمرة ١١٧٧، مضمونها: أن الأوراق المرفقة بهذا، وقدرها عدد ١١ بحافظة، تتعلق بطلب مدير الفيوم نقل ضريح الشيخ سالم، بالفيوم، نظارة ديوان الأوقاف، من محله الحالى إلى زاوية أخرى أو تصغيره فى محله إذا كان لا يمكن نقله إلى تلك الزاوية، ولازال هذا المدير يبدى رغبته واهتمامه بتنجيز هذه المسألة، ولذلك رأينا استفتاء فضيلتكم فيها، فالمرجو الإفادة بما يقتضيه الحكم الشرعى.

الجواب:

المعروف فى كتب الفقه كراهة البناء على القبر. وهو يدل على لا بأس بإزالة بناء الضريح المذكور، والميت الذى تحت تسوى عليه الأرض، ويجعل عليها علامة تدل على وجوده حفظاً له من أن يداس عليه، مع تحويطها بما يمنع من إلقاء القاذورات حوله والله أعلم(٨). وطيه الأوراق عدد ١١ أفندم.

---

(٣) تاريخ هذه الفتوى ٢٢ ربيع أول سنة ١٣٢٢هـ، ورقمها فى السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء ٣١١ وتقع فى النهر الأيسر من ص٥٤ والنهر الأيمن من ص٥٥.

(٤) تاريخ هذه الفتوى ٢ ذى الحجة سنة ١٣٢٠هـ، ورقمها فى السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء ١٠٦ وتقع فى النهر الأيسر من ص١٨.

(٥) تاريخ هذه الفتوى ١٤ رجب سنة ١٣١٨هـ، ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٢٢٦ وتقع فى ص٩٨.

(٦) تاريخ هذه الفتوى ٢٨ ذى الحجة سنة ١٣١٩هـ، ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٥٢ وتقع فى ص١٨٣.

(٧) أى الأستاذ الإمام.

(٨) تاريخ هذه الفتوى ١٧ محرم سنة ١٣٢٠هـ، ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٦٨ وتقع فى ص١٨٨.

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء



يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور على جمعة مفتى جمهورية مصر العربية

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهى:

تحفيظ القرآن للفتيات

• يدعى بعض الناس فى قريتنا أن تحفيظ القرآن للفتيات بعد سن البلوغ على يد محفظ من الرجال مع عدد من الحفظة من غير خلوة لا يجوز.. فما حكم الشرع فى ذلك؟

•• الجواب: كون الرجال يتعلمون من المرأة وكون النساء يتعلمن من الرجل مما لا مانع منه شرعاً؛ فالذى عليه عمل المسلمين سلفاً وخلفاً أن مجرد وجود النساء مع الرجال فى مكان واحد ليس حراماً فى ذاته، وأن الحرمة إنما هى فى الهيئة الاجتماعية إذا كانت مخالفة للشرع الشريف؛ كأن يظهر النساء ما لا يحل لهن إظهاره شرعاً، أو يكون الاجتماع على منكر أو لمنكر، أو يكون فيه خلوة محرمة.. ونص أهل العلم على أن الاختلاط المحرم فى ذاته إنما هو التلاصق والتلامس لا مجرد اجتماع الرجال مع النساء فى مكان واحد.

وعلى ذلك دلت السنة النبوية الشريفة:

ففى الصحيحين عن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه قال: «لما عرس أبو أسيد الساعدى دعا النبى صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه، فما صنع لهم طعاماً ولا قربه إليهم إلا امرأته أم أسيد»، وترجم له الإمام البخارى بقوله: «باب قيام المرأة على الرجال فى العرس وخدمتهم بالنفس» اهـ.

قال الإمام القرطبى فى التفسير: «قال علماؤنا: فيه جواز خدمة العروس زوجها وأصحابه فى عرسها» اهـ.

وقال الإمام ابن بطال فى شرحه على البخارى: «وفيه أن الحجاب (أى انفصال النساء عن الرجال فى المكان أو فى التعامل المباشر) ليس بفرض على نساء المؤمنين، وإنما هو خاص لأزواج النبى صلى الله عليه وسلم وآله وسلم، كذلك ذكره الله فى كتابه بقوله:

﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ (الأحزاب: ٥٣)

وقال الإمام الحافظ ابن حجر فى «فتح البارى»: وفى الحديث جواز خدمة المرأة زوجها ومن يدعوه، ولا يخفى أن محل ذلك عند أمن الفتنة ومراعاة ما يجب عليها من الستر، وجواز استخدام الرجل امرأته فى مثل ذلك»اهـ.

وفى الصحيحين أيضاً عن أبى هريرة رضى الله عنه فى قصة أبى طلحة الأنصارى فى إطعامه الضيف: أنهما جعلا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، وفى رواية ابن أبى الدنيا فى «قرى الضيف» من حديث أنس رضى الله عنه: أن الرجل قال لزوجته: أثردى هذا القرص وآدميه بسمن ثم قربيه، ومرى الخادم يطفئ السراج، وجعلت تتلمظ هى وهو حتى رأى الضيف أنهما يأكلان اهـ.. وظاهره أنهم اجتمعوا على طبق واحد.

وقد قال له النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة»، ونزل فيهما قوله تعالى:

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر: ٩)

وفى صحيح البخارى عن أبى جحيفة رضى الله عنه قال: آخى النبى صلى الله عليه وآله وسلم بين سلمان وأبى الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا.. فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً.. إلى آخر الحديث.

قال الحافظ ابن حجر فى «فتح البارى»: «وفى هذا الحديث من الفوائد.. جواز مخاطبة الأجنبية والسؤال عما يترتب عليه المصلحة» اهـ.

وأما بخصوص تلقى الرجال للعلم الشرعى والموعظة من المرأة العالمة فقد كان أزواج النبى صلى الله عليه وآله وسلم يبلغن العلم وينشرن الدين، وهذه دواوين السنة فى الرواية عنهن بل وعن الطبقات من النساء بعدهن ممن روى عنهن

الرجال وحملوا عنهن العلم، وقد ترجم الحافظ ابن حجر العسقلانى فى كتابه «الإصابة فى تمييز الصحابة» وحده لثلاث وأربعين وخمسمائة وألف «١٥٤٣» امرأة منهن الفقيهات والمحدثات والأديبات.

وكانت المرأة المسلمة تشارك الرجال فى الحياة الاجتماعية العامة مع التزامها بلبسها الشرعى ومحافظتها على حدود الإسلام وآدابه، حتى إن من النساء الصحابيات من تولت الحسبة، ومن ذلك ما رواه الطبرانى فى «المعجم الكبير» بسند رجاله ثقات عن أبى بلج يحيى بن أبى سليم قال: «رأيت سمراء بنت نهيك ـ وكانت قد أدركت النبى صلى الله عليه وآله وسلم ـ عليها درع غليظ وخمار غليظ بيدها سوط تؤدب الناس وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر».

وعلى ذلك فلا مانع فى الشرع من أن يكون الرجل محفظاً للنساء ما دام أنه ليست هناك خلوة بينه وبين امرأة أجنبية، ولا يسع أحداً أن ينكر هذا الواقع الثابت فى السنة النبوية الشريفة والتاريخ الإسلامى، ولا يصح جعل التقاليد والعادات الموروثة فى زمان أو مكان معين حاكمة على الدين والشرع، بل الشرع يعلو ولا يُعلى عليه، ولا يجوز لمن سلك طريقة فى الورع أن يُلزم الناس بها أو يحملهم عليها أو يشدد ويضيق فيما جعل الله لهم فيه يُسراً وسعة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

حكم سفر المرأة للحج أو العمرة

• هل يجوز للمرأة السفر للحج أو العمرة بصحبة ابن الزوج، وهل يعد مَحرماً؟

•• الجواب: قال ابن قُدامة فى «المغنى»: «فتحرُمُ على الرجل امرأةُ أبيه، قريباً كان أو بعيداً، وارثاً كان أو غير وارث، من نَسب أو رضاع، لقوله تعالى:

﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾

وقال البراء بن عازب: (لقيت خالى ومعه الراية، فقلت: أين تريد؟ قال: أرسلنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده أن أضرب عنقه ـ أو: أقتله) رواه النسائى.. وفى رواية قال: لَقيتُ عمى الحارث بن عمرو ومعه الراية، فذكر الخبر كذلك.. رواه سعيد وغيره.. وسواء فى هذا امرأة أبيه أو امرأة جده لأبيه وجده لأمه، قَرُب أم بَعُد، وليس فى هذا بين أهل العلم خلاف علمناه)اهـ.

فعُلم مما سبق أن زوجة الأب محرمة على التأبيد، وأن ذلك محل إجماع من العلماء.

وعليه فابن الزوج مَحرمٌ لزوجة أبيه، ويجوز لها السفر معه.

والله سبحانه وتعالى أعلم

قراءة القرآن بغير وضوء

• هل يجوز قراءة القرآن للتعبد بدون وضوء أم لا يجوز؟

ويطلب السائل بيان الحكم الشرعى؟

•• الجواب: يجب على من أراد تلاوة القرآن من المصحف أن يكون على طهارة تامة من الحدثين الأصغر والأكبر لحديث على رضى الله عنه: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم

توضأ ثم قرأ شيئاً من القرآن ثم قال: هكذا لمن ليس بجنب فأما الجنب فلا ولا آية».

أما إذا كان القارئ حافظاً للقرآن أو لجزء منه ويتلوه بغير مس للمصحف فلا مانع من ذلك شرعاً.

ومما ذكر يعلم الجواب عما جاء بالسؤال.

والله سبحانه وتعالى أعلم

مصافحة المصلين بعد الصلاة

• ما حكم مصافحة المصلين بعضهم لبعض عقب انتهاء الصلاة مباشرة؟

•• الجواب: المصافحة عقب الصلاة مشروعة، وهى دائرة بين الإباحة والاستحباب؛ لأنها داخلة فى عموم استحباب التصافح بين المسلمين، وهو ما يكون سببا لرضا الله تعالى عنهم، وزوال ما فى صدورهم من ضيق وغلّ، وتساقط ذنوبهم من بين أكفهم مع التصافح، ففى الحديث: «إذا التقى المسلمان فتصافحا وحمدا الله واستغفراه غفر الله لهما» رواه أبو داود وغيره عن البراء بن عازب رضى الله تعالى عنه.

واختار الإمام النووى «ت ٦٧٦ هـ» فى «المجموع» أن مصافحة من كان معه قبل الصلاة مباحة، ومصافحة من لم يكن معه قبل الصلاة سُنَّة، وقال فى «الأذكار»: (واعلم أن هذه المصافحة مستحبة عند كل لقاء، وأما ما اعتاده الناس من المصافحة بعد صلاتى الصبح والعصر فلا أصل له فى الشرع على هذا الوجه، ولكن لا بأس به، فإن أصل المصافحة سُنّة، وكونهم حافظوا عليها فى بعض الأحوال وفرطوا فيها فى كثير من الأحوال أو أكثرها لا يُخرجُ ذلك البعض عن كونه من المصافحة التى ورد الشرع بأصلها)اهـ، ثم نقل عن الإمام العز بن عبدالسلام «ت ٦٦٠هـ» أن المصافحة عقيب الصبح والعصر من البدع المباحة.

وقد شُرع لنا السلام بعد انتهاء الصلاة عن اليمين والشمال، يقول العلماء: (ينوى السلام على من التفت إليه من ملائكة ومؤمنى إنس وجن إلى مُنقطع الدنيا، وينوى الردّ أيضا على من سلم عليه من إمام ومأموم) «حاشية البيجورى على شرح ابن قاسم على متن أبى شجاع».

وقال السفارينى فى «غذاء الألباب شرح منظومة الآداب»: (ظاهر كلام العز بن عبدالسلام من الشافعية أنها بدعة مباحة، وظاهر كلام الإمام النووى أنها سنة.. قال الحافظ ابن حجر فى شرح البخارى: قال النووى: وأصل المصافحة سنة، وكونهم حافظوا عليها فى بعض الأحوال لا يخرج ذلك عن أصل السنة)اهـ.

وفى فتاوى الرملى الشافعى: (سُئل) عما يَفعلُه الناس من المصافحة بعد الصلاة هل هو سنة أو لا؟ (فأجاب) بأن ما يفعله الناس من المصافحة بعد الصلاة لا أصل لها، ولكن لا بأس بها. اهـ.

وأما ما ذهب إليه بعض العلماء من القول بكراهة المصافحة عقب الصلاة فإنهم نظروا فيه إلى أن المواظبة عليها قد تؤدى بالجاهل إلى اعتقاد أنها من تمام الصلاة أو سننها المأثورة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، فقالوا

بالكراهة سداً لذريعة هذا الاعتقاد، ومنهم من استدل بترك النبى صلى الله عليه وآله وسلم لهذا الفعل على عدم مشروعيته، ومع قول هؤلاء بكراهتها فإنهم نصّوا ـ كما ذكر القارئ فى «مرقاة المفاتيح» ـ على أنه إذا مد مسلم يده إليه ليصافحه فلا ينبغى الإعراض عنه بجذب اليد، لما يترتب عليه من أذى بكسر خواطر المسلمين وجرح مشاعرهم، وذلك على سبيل «المجابرة»، ودفع ذلك بجبر الخواطر مقدم على مراعاة الأدب بتجنب الشىء المكروه عندهم، إذ من المقرر شرعاً أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح.. على أن جمهور العلماء ومحققيهم على ترك التوسع فى باب سد الذرائع، لما يجر إليه من التضييق على الخلق وإيقاعهم فى الحرج، والاستدلال بترك النبى صلى الله عليه وآله وسلم لذلك على عدم المشروعية موضع نظر عند الأصوليين؛ لأن الأصل فى الأفعال الإباحة، هذا مع أنه قد ثبت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم مصافحة الصحابة الكرام له وأخذهم بيديه الشريفتين بعد الصلاة فى بعض الوقائع، ففى صحيح الإمام البخارى عن أبى جحيفة رضى الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالهاجرة إلى البطحاء، فتوضأ، ثم صلى الظهر ركعتين والعصر ركعتين وبين يديه عنزة، وقام الناس فجعلوا يأخذون يديه فيمسحون بها وجوههم.. قال أبو جحيفة: فأخذت بيده فوضعتها على وجهى فإذا هى أبرد من الثلج وأطيب رائحة من المسك.

قال المحب الطبرى «ت. ٦٩٤هـ»: (ويُسْتأنسُ بذلك لما تطابق عليه الناس من المصافحة بعد الصلوات فى الجماعات، لاسيما فى العصر والمغرب، إذا اقترن به قصد صالح، من تبرك أو تودد أو نحوه)اهـ.

وعموم مشروعية المصافحة فى مثل قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا التقى المسلمان فتصافحا وحمدا الله عز وجل واستغفراه غفر لهما» لا يجوز تخصيصه بوقت دون وقت إلا بدليل، و«إذا» ظرف لكل ما يستقبل من الزمان، فدعوى أنها مخصوصة بغير أدبار الصلوات المكتوبات دعوى لا دليل عليها، بل ورد فى السنة النبوية الصحيحة ما يردها.

وعلى ذلك: فإن المصافحة مشرعة بأصلها فى الشرع الشريف، وإيقاعها عقب الصلاة لا يخرجها من هذه المشروعية، فهى مباحة أو مندوب إليها ـ على أحد قولى العلماء، أو على التفصيل الوارد عن الإمام النووى فى ذلك ـ مع ملاحظة أنها ليست من تمام الصلاة ولا من السنن التى نقل عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم المداومة عليها بعد الصلاة، وعلى من قلد القول بالكراهة أن يراعى أدب الخلاف فى هذه المسألة ويتجنب إثارة الفتنة وبث الفُرقة والشحناء بين المسلمين بامتناعه من مصافحة مَن مدَّ إليه يده من المصلين عقب الصلاة، وليَعلم أن جبر الخواطر وبثّ الألفة وجمع الشمل أحبُّ إلى الله تعالى من مراعاة تجنب فعلٍ نُقلت كراهته عن بعض العلماء فى حين إن جمهورهم والمحققين منهم قالوا بإباحته أو استحبابه.

والله سبحانه وتعالى أعلم

المقاصد التربوية للعبادات

للأستاذ الدكتور/ صلاح سلطان

المقصد التربوى للعبادات فى الجانب الروحى للفرد المسلم

المقصد التربوى للطهارة فى الجانب الروحى للفرد المسلم

أولاً: من روائع الإسلام أنه جعل الطهارة من الحدث والخبث فرضاً ليصل المسلم إلى طهارة الجوهر مع طهارة المظهر، ولذا يقول حجّة الإسلام الغزالى: إن أهم الأمور تطهير السرائر إذ يبعد أن يكون المراد بقوله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان» (١) عمارة الظاهر بالتنظيف بإفاضة الماء وإلقائه، وتخريب الباطن، وإبقائه مشحونا بالأخباث والأقذار..» وذكر أن للطهارة مراتب أربعة هى: تطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث، ثم تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام، ثم تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة ثم تطهير السر عما سوى الله تعالى وهى طهارة الأنبياء والصديقين (٢).

ثانياً: من أجل هذه الطهارة الظاهرة والباطنة يستحق هؤلاء المتطهرون حب الله جلّ وعلا. يقول سبحانه:

﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾

(التوبة:١٠٨)

وهذا الحب من الله تعالى لعبده يجلب للروح نقاء وشفافية تشرح الصدر وترضى النفس وتُسعد القلب.

ثالثاً: الوضوء يعيد للنفس نقاءها من الذنوب والمعاصى التى يرتكبها وذلك لما رواه مالك والنسائى وابن ماجة بسندهم عن عبدالله الصنابحى أن رسول الله ﷺ قال:

(١) «صحيح مسلم» من حديث أبى مالك الأشعرى فى أول كتاب الطهارة ـ باب فضل الوضوء.

(٢) «إحياء علوم الدين» للغزالى (١/١٢٥، ١٢٦).

بالكراهة سداً لذريعة هذا الاعتقاد، ومنهم من استدل بترك النبى صلى الله عليه وآله وسلم لهذا الفعل على عدم مشروعيته، ومع قول هؤلاء بكراهتها فإنهم نصّوا ـ كما ذكر القارئ فى «مرقاة المفاتيح» ـ على أنه إذا مد مسلم يده إليه ليصافحه فلا ينبغى الإعراض عنه بجذب اليد، لما يترتب عليه من أذى بكسر خواطر المسلمين وجرح مشاعرهم، وذلك على سبيل «المجابرة»، ودفع ذلك بجبر الخواطر مقدم على مراعاة الأدب بتجنب الشىء المكروه عندهم، إذ من المقرر شرعاً أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح.. على أن جمهور العلماء ومحققيهم على ترك التوسع فى باب سد الذرائع، لما يجر إليه من التضييق على الخلق وإيقاعهم فى الحرج، والاستدلال بترك النبى صلى الله عليه وآله وسلم لذلك على عدم المشروعية موضع نظر عند الأصوليين؛ لأن الأصل فى الأفعال الإباحة، هذا مع أنه قد ثبت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم مصافحة الصحابة الكرام له وأخذهم بيديه الشريفتين بعد الصلاة فى بعض الوقائع، ففى صحيح الإمام البخارى عن أبى جحيفة رضى الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالهاجرة إلى البطحاء، فتوضأ، ثم صلى الظهر ركعتين والعصر ركعتين وبين يديه عنزة، وقام الناس فجعلوا يأخذون يديه فيمسحون بها وجوههم.. قال أبو جحيفة: فأخذت بيده فوضعتها على وجهى فإذا هى أبرد من الثلج وأطيب رائحة من المسك.

قال المحب الطبرى «ت.٦٩٤هـ»: (ويستأنس بذلك لما تطابق عليه الناس من المصافحة بعد الصلوات فى الجماعات، لاسيما فى العصر والمغرب، إذا اقترن به قصد صالح، من تبرك أو تودد أو نحوه)اهـ.

وعموم مشروعية المصافحة فى مثل قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا التقى المسلمان فتصافحا وحمدا الله عز وجل واستغفراه غفر لهما» لا يجوز تخصيصه بوقت دون وقت إلا بدليل، و«إذا» ظرف لكل ما يستقبل من الزمان، فدعوى أنها مخصوصة بغير أدبار الصلوات المكتوبات دعوى لا دليل عليها، بل ورد فى السنة النبوية الصحيحة ما يردها.

وعلى ذلك: فإن المصافحة مشرعة بأصلها فى الشرع الشريف، وإيقاعها عقب الصلاة لا يخرجها من هذه المشروعية، فهى مباحة أو مندوب إليها ـ على أحد قولى العلماء، أو على التفصيل الوارد عن الإمام النووى فى ذلك ـ مع ملاحظة أنها ليست من تمام الصلاة ولا من السنن التى نقل عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم المداومة عليها بعد الصلاة، وعلى من قلد القول بالكراهة أن يراعى أدب الخلاف فى هذه المسألة ويتجنب إثارة الفتنة وبث الفُرقة والشحناء بين المسلمين بامتناعه من مصافحة مَن مدّ إليه يده من المصلين عقب الصلاة، وليَعلم أن جبر الخواطر وبثّ الألفة وجَمع الشمل أحبُ إلى الله تعالى من مراعاة تجنب فعل نُقلت كراهته عن بعض العلماء فى حين إن جمهورهم والمحققين منهم قالوا بإباحته أو استحبابه.

والله سبحانه وتعالى أعلم

المقاصد التربوية للعبادات

للأستاذ الدكتور/ صلاح سلطان

المقصد التربوى للعبادات فى الجانب الروحى للفرد المسلم

المقصد التربوى للطهارة فى الجانب الروحى للفرد المسلم

أولاً: من روائع الإسلام أنه جعل الطهارة من الحدث والخبث فرضاً ليصل المسلم إلى طهارة الجوهر مع طهارة المظهر، ولذا يقول حجة الإسلام الغزالى: إن أهم الأمور تطهير السرائر إذ يبعد أن يكون المراد بقوله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان»(1) عمارة الظاهر بالتنظيف بإفاضة الماء وإلقائه، وتخريب الباطن، وإبقائه مشحونا بالأخباث والأقذار..» وذكر أن للطهارة مراتب أربعة هى: تطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث، ثم تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام، ثم تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة ثم تطهير السر عما سوى الله تعالى وهى طهارة الأنبياء والصديقين(2).

ثانياً: من أجل هذه الطهارة الظاهرة والباطنة يستحق هؤلاء المتطهرون حب الله جلّ وعلا. يقول سبحانه:

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾

(التوبة:١٠٨)

وهذا الحب من الله تعالى لعبده يجلب للروح نقاء وشفافية تشرح الصدر وترضى النفس وتُسعد القلب.

ثالثاً: الوضوء يعيد للنفس نقاءها من الذنوب والمعاصى التى يرتكبها وذلك لما رواه مالك والنسائى وابن ماجة بسندهم عن عبدالله الصنابحى أن رسول الله ﷺ قال:

(1) «صحيح مسلم» من حديث أبى مالك الأشعرى فى أول كتاب الطهارة ـ باب فضل الوضوء.

(2) «إحياء علوم الدين» للغزالى (١/ ١٢٥، ١٢٦).

«إذا توضأ العبد المؤمن فتمضمض خرجت الخطايا من فيه، وإذا استنثر خرجت الخطايا من أنفه، فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشفار عينيه، فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت أظفار يديه، فإذا مسح برأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من أذنيه، فإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من تحت أظفار رجليه، قال: ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة له»(٣). وروى البخارى ومسلم بسندهما عن عثمان بن عفان أن رسول الله ﷺ قال: «لا يتوضأ رجل مسلم فيحسن الوضوء فيصلى صلاة إلا غُفر له ما بينه وبين الصلاة التى تليها» (٤).

بهذا يكون الوضوء سبباً فى عودة الروح إلى صفائها مثلما يعود الثوب الأبيض الملوث إلى نقائه بعد غسله وتنظيفه.

رابعاً: ربط أعمال الطهارة بالذكر الذى يطمئن القلب ويشرح النفس يتضح فى كثير من الأحاديث منها ما يلى:

أ ـ روى مسلم بسنده عن أنس أن النبي ﷺ كان إذا دخل الكنيف قال: «اللهم إنى أعوذ بك من الخبث والخبائث» (٥).

وإذا خرج من الخلاء بادر إلى ذكر الله تعالى: غفرانك أو الحمد لله الذى أذهب عنى الأذى وعافانى.

ب ـ ما رواه أحمد وابن ماجه بسندهما عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «لا صلاة لمن لا وضوء له، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه»(٦).

جـ ـ ما رواه مسلم بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ـ إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»(٧).

هذا الثواب الجزيل لهذه الأذكار يعتبر غنيمة باردة ينبغى للعاقل أن يشتد حرصه عليها، ولا يكون ذلك للغافل الذى يُنسيه الشيطان ذكر ربه فيقسو قلبه، وترهق روحه، فيمتلىء صدره شغلاً وهماً وغماً ويتحول من السعادة إلى الضنك، ولا مخرج له مهما توفرت له أسباب الدنيا إلا بالعودة إلى الله تعالى ذاكراً إياه بقلبه ووجدانه وجوارحه ولسانه.

خامساً: الطهارة من علامات الإيمان التى

(٣) «الموطأ» ـ كتاب الطهارة ـ باب جامع الوضوء ص (٣١/١)، و«سنن النسائى» ـ كتاب الطهارة ـ باب مسح الأذنين مع الرأس.

(٤) «صحيح البخارى» ـ كتاب الوضوء ـ باب الوضوء ثلاثاً ثلاثاً، و«مسلم» ـ كتاب الطهارة ـ باب فضل الوضوء والصلاة عقبه.

(٥) «صحيح مسلم» ـ كتاب الحيض ـ باب ما يقوله إذا أراد أن يدخل الخلاء.

(٦) «سنن ابن ماجة» ـ كتاب الطهارة ـ باب ما جاء فى التسمية فى الوضوء رقم (٣٩٠).

(٧) «صحيح مسلم» ـ كتاب الطهارة ـ باب الذكر المستحب عقب الوضوء.

وزاد الترمذى: «اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين».

يعرف بها المؤمنون يوم القيامة، فلولاها لكان المؤمنون والكافرون فى الهيئة يوم القيامة سواء ولكن الغسل والوضوء والطهارة والنقاء يبعث فى الوجه نوراً، وفى اليدين والرجلين ضياء يعرف به الصالحون من الكالحين وفى ذلك يروى البخارى ومسلم أن النبى ﷺ قال: «أنتم الغرُّ المحجلون يوم القيامة من إسباغ الوضوء، فمن استطاع منكم فليطل غرّته وتحجيله» (٨). فإطالة الغرة فى الوجه والتحجيل فى اليدين والرجلين هما من العلامات المضيئة التى تشع النور يوم القيامة وبهذا ينال شفاعة النبى ﷺ يوم القيامة.

سادساً: من أكبر الأدلة على صلة الطهارة الحسية بطهارة الروح أن ذلك التطهير لا يقتصر على الأحياء بل يُغسَّلُ الأموات وجوباً. يقول الكاسانى: هذا واجب من لدن سيدنا آدم عليه السلام إلى يومنا هذا (٩)، ويقول ابن حزم: وغسل كل ميت من المسلمين فرض ولابد، فإن دُفن بغير غسل أخرج ولابد(١٠). ذلك لأنه قادم على الله تعالى وهذا يقين لا يخرج عنه مسلم فمن ثم وجب القدوم عليه فى أحسن هيئة وأنقى طهارة، لكن هناك منزلة سامية يكون التطهر فيها بالعمل لا بالماء، بالتضحية لا بالغسل وهى منزلة الشهيد ذلك الذى قدم روحه خالصة لله تعالى راغباً فى الشهادة، طامعاً فى رحمة الله وجنته ورضوانه، فإن هذا الشهيد وإن سالت منه الدماء وهى فى أصلها نجسة، لكن ذلك كله يتضاءل أمام هذه الطهارة المعنوية الروحية التى قدم فيها على ربه ومن ثم فإنه لا يحتاج إلى تغسيل ويكفن على حالته التى قُتل عليها(١١) ليلقى ربه اللون لون الدم والريح ريحُ المسك ويفاخر الله عباده أن هذا هو الشهيد الذى قدّم لله تعالى نفسه وماله.

سابعاً: فى كثير من أحكام الطهارة ما يصدر عن تسليم لأمر الله دون تردد، وإن غابت الحكمة التى يدركها العقل أسلم القلب بأن هذا هو الحق والخير فمن لم يجد الماء تيمّم وهى طهارة حقيقية وإن كان ظاهرها مس التراب والمسح على بعض أعضاء الوضوء دون بعضها، وهى تغنى عن الغسل، ولذا لما عرض سيدنا عمار بن ياسر الأمر على عقله فى أمر التيمم من الجنابة تقلّب فتمرّغ فى التراب، لكن الأمر كله تعبدىّ، يعنى مطلق التسليم لأمر الله تعالى، وهذا يعبر عن ثقة ويقين وسلامة الصدر من وساوس الشيطان أن العبد لا يطيق إلا ما يعقله عقله ويطمئن إليه فؤاده، ومنه أيضًا المسح على ظاهر الخفين دون باطنهما، وطهارة ماء دون ماء، والوضوء من ريح الدبر والبول والغائط والمذى والودى،

(٨) نفسه باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل

(٩) «بدائع الصنائع» للكاسانى (٢٩٩/١)، وراجع: شرح كتاب النيل محمد بن يوسف أطفيش (٢١٧/٢)، «الفقه» للسيد محمد الحسينى الشيرازى (٢٩٩/١٢) وقد حكى الإجماع المستفيض عليه سواء كان اثنى عشريا أم غيره.

(١٠) «المحلى» لابن حزم (٢٢/٢).

(١١) «الكافى» لابن قدامة (٢٤٧/١، ٢٥٣)، «شرح كتاب النيل» أطفيش (٢١٩/٢).

والغسل من نزول المنى بشهوة. والمنىّ أقل نجاسة من الغائط، لكن هذا يرجع إلى علم الله سبحانه والمسلم يصل من اليقين العقلى إلى التسليم القلبى، فعن طريق النظر فى ملكوت الله تعالى ودقة صنعه، وبديع خلقه، والنظر فى آيات القرآن وإعجازه يدرك أن كل حكم ورد بنص صحيح ثبوتاً واجب الاعتقاد والعمل به.

المقصد التربوى للصلاة فى الجانب الروحى للفرد المسلم

للصلاة أثر قوى وفعال فى شفافية الروح ونقائها من كدر المعاصى، وشوائب الذنوب، وتفتح طريقًا معبّدًا لمناجاة الله تعالى، وحسن الصلة به سبحانه ويتضح ذلك من الجوانب التالية:

أولاً: الصلاة رياضة روحية للفرد، فلا تقر عينه ولا ينشرح له فؤاد وهو يشبع الجسد دون الروح، والحضارة المادية الحديثة ذللت للجسد كل شىء، ووفرت له أسباب الراحة والمتعة والزينة، ولكنها خلّفت وراءها قوماً ضيقى الصدور، عليلى النفوس، أفئدتهم هواء، هاجت أرواحهم، وضاقت عليهم أنفسهم بسبب هذا الاختلال بين إشباع الجسد وإهمال الروح، ولذا انتشرت الأمراض العصبية والعقد النفسية، فاندفع الكثير إلى الانتحار الفردى والجماعى وبقى من عاش بلا قلب ولا هدف ولا معنى، لكن الصلاة تجعل للمسلم قلباً مطمئناً، وروحا ذكية، ونفسا سوية، تمسح الصلاة على علل النفوس فتبرأ بفضل الله تعالى، وفى هذا يروى الإمام أحمد فى مسنده عن عبدالله بن محمد بن الحنفية قال: «دخلت مع أبى بكر على صهر لنا من الأنصار، فحضرت الصلاة، فقال: يا جارية ائتينى بوضوء لعلّى أصلى فأستريح، فرآنا أنكرنا ذلك عليه فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قم يا بلال فأرحنا بالصلاة»(١٢) وروى أيضًا بسنده عن حذيفة بن اليمان قال: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى(١٣).

وعليه تكون الصلاة لكل مسلم هى الواحة الغناء التى يجد فيها المسلم راحته ومتعته لما يراه ويمتلىء قلبه من برد محبته سبحانه، ما يجعله واثقًا من عدله، طامعًا فى فضله، آملاً فى رحمته، غير آيس من عفوه ومنه ولذا يقول سبحانه:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾

(الرعد: ٢٨)

ثانياً: إذا حافظ المسلم على صلواته تعلق قلبه بالوقوف بين يدى ربه، وتصير الصلاة له ملاذاً حقيقياً تجعله يقيم الفرائض ويديم على النوافل، ويظل خشوعه وقنوته وتذوقه لحلاوة الإيمان، حتى يتحول حب القنوت والقيام فى الليل، وهو نافلة إلى قوة دافعة إلى تجافى المضاجع، وكراهية للغفلة عن التهجد بالليل وهى أرقى صورة لحياة القلب، وصفاء الروح، وفيها يقول سبحانه:

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(السجدة: ١٦-١٧)

ومن هذا المحراب فى الصلاة تطيب النفس، وتستجلب سعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

ثالثًا: تحفظ الصلاة النفس من التشتت، والقلب من التمزق بين نوازع الأرض وقيم السماء، فهو يخلص فى الصلاة نيته، ويحدد فى دعاء الافتتاح وجهته بقوله: وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفًا مسلمًا وما أنا من المشركين.

فإذا ركع ذكر عن دعاء النبى ﷺ: «اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت، خشع لك سمعى وبصرى ومخى وعظمى ودمى وما استقلت به قدمى لله رب العالمين»، وإذا سجد كان دعاؤه «سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق فيه سمعه وبصره، فتبارك الله أحسن الخالقين» هذه كلمات لو تفاعل بها القلب، وانشغل بها العقل لكانت أجمع شىء للنفس من الأهواء والفتن التى تعترى القلوب فيصير صاحبها كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أهداف سفلية، ومآرب أرضية، إن وصل إلى بعضها فقد جنى السراب، وإن فاته حظ منها فهو فى ضيق واضطراب، وذلك هو التمزق النفسى وفيه يقول سبحانه:

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

(الأنفال: ٢٤)

وهى تحكى واقعًا مرًا لملايين البشر ولن تجمع نفوسهم إلا الصلاة بين يدى ربهم سبحانه.

رابعًا: تتحول الصلاة بعد تذوق معانيها، ومعايشة آثارها إلى منهج حياة فمن حزبه أمر صلى، ومن احتار فى قضية حسمها بصلاة الاستخارة ليمضى واثق اليقين من حسن اختيار الله له، ومن اشتد به كرب هرع إلى صلاة الحاجة، وفيها يروى الإمام الترمزى بسنده عن عبدالرحمن بن عبدالله بن أبى أوفى قال: «قال رسول الله ﷺ: من كانت له حاجة إلى الله أو إلى أحد من بنى آدم، فليتوضأ وليحسن الوضوء، ثم ليصل ركعتين، ثم ليثن على الله تعالى، وليصل على النبى ﷺ ثم ليقل: «لا إله إلا الله العليم الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، أسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كل بر، والسلامة من كل إثم، لا تدع لى ذنبا إلا غفرته، ولا هما إلا فرجته ولا حاجة هى لك رضا إلا قضيتها يا أرحم الراحمين»(١٤).. هذا

(١٣) «المسند» (٥/٣٧١).

(١٣) «المسند» (٥/٣٨٨).

(١٤) «سنن الترمذى» - باب ما جاء فى صلاة الحاجة من أبواب الوتر - رقم (٤٧٧).

الدعاء القانت يسرى عن النفس كربها، ويزيل همها، ويشرح صدرها، فإذا اعتاد الفساق أن يهرعوا إذا اشتد بهم الضيق إلى التدخين، أو المشروبات، التى يسمونها بالروحية، أو المخدرات، فهى هلاكهم روحياً وجسدياً، تؤدى إلى انحطاطهم سلوكياً وأخلاقياً، فإذا الدواء هو الداء، وتتضاعف الهموم، وتتراكم الأحزان، لكن الصلاة منهج حياة القلب وشفافية الروح، حتى لو ارتكب المسلم جرماً، أو قارف إثماً يهرع إلى صلاة خاشعة تزيل هذه النكتة السوداء عن القلب، فى صلاة تعرف فى فقهنا الإسلامى بصلاة التوبة، وفيها يروى الإمام ابن ماجه بسنده عن عبدالله بن مسعود: أن رجلاً أصاب من امرأة، يعنى الفاحشة - فلا أدرى ما بلغ غير أنه دون الزنا - فأتى النبى ﷺ فذكر ذلك له، فأنزل الله تعالى:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾

(هود: ١١٤)

فقال: يا رسول الله: ألى هذه؟ قال: لمن أخذ بها»(١٥)، ويروى ابن ماجه أيضاً بسنده عن سيدنا على بن أبى طالب - رضى الله عنه - أن أبا بكر رضى الله عنه حدثه أن النبى ﷺ قال: «ما من مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ، فيحسن الوضوء، ثم يصلى ركعتين ويستغفر ربه إلا غفر الله له»(١٦).

الصلاة إذن مطهرة للقلب، تضمن إعادة الفطرة إلى نقائها، والنفس إلى صفائها، فإن أصابها كدر المعصية، أو ثقل الهموم، أو حيرة التردد كانت الصلاة هى المقوم لهذا الاعوجاج، والمصلح لهذا الفساد، ولعل أصدق تشبيه لها هو ما جاء فى حديث البخارى ومسلم أنها مثل النهر الذى يغتسل فيه المسلم كل يوم خمس مرات فلا يبقى من درنه شئ.

هذه القوة الخفية للصلاة دفعت بالطبيب الدكتور «الكسيس كاريل» إلى أن يقول: لعل الصلاة هى أعظم طاقة مولدة لنشاط عرفت إلى يومنا هذا، وقد رأيت بوصفى طبيباً كثيراً من المرضى فشلت العقاقير فى علاجهم، فلما رفع الطب يديه عجزاً وتسليماً، تدخلت الصلاة فأبرأتهم من عللهم، إن الصلاة كمعدن «الراديوم» مصدر الإشعاع، ومولد ذاتى للنشاط، وبالصلاة يسعى الناس إلى استزادة نشاطهم المحدود، حين يخاطبون القوة التى لا يفنى نشاطها، إننا نربط أنفسنا حين نصلى بالقوة العظمى التى تهيمنا على الكون، نسألها ضارعين أن تمنحنا قبساً منها نستعين به على معاناة الحياة، بل إن الضراعة وحدها كفيلة بأن تزيد قوتنا ونشاطنا، ولن نجد أحداً ضرع إلى الله مرة إلا عادت عليه الضراعة بأحسن النتائج.(١٧)

يتبع

---

(١٥) «سنن ابن ماجة» كتاب إقامة الصلاة - باب ما جاء فى أن الصلاة كفارة رقم (٣٩٨).

(١٦) نفسه رقم (٣٩٥).

(١٧) «العبادة فى الإسلام» د. يوسف القرضاوى (٢٣٢)، و«الإعجاز العلمى فى الإسلام» محمد كامل عبدالصمد (٢٥).

من سنن التنوع فى إطار الوحدة

للأستاذ الدكتور/ أحمد فؤاد باشا
www.afbasha.com

١- التنوع فى حركة المخلوقات

يقول الله تعالى فى قرآنه الكريم:

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

«سور النور: ٤٥»

والمعنى أن الله خالق كل شىء بإرادته المطلقة وخلق كل حىّ يدبّ من أصل مشترك هو الماء، لذلك لا يخلو الحى منه، ثم يخالف بينها فى الأنواع والاستعدادات ووجوه الاختلاف الأخرى. ويرى الخبراء أن الماء فى الآية الكريمة هو ماء التناسل، أى المشتمل على الحيوانات المنوية، والآية الكريمة لم تسبق فقط ركب العلم فى بيان نشوء الإنسان من النطفة، كما جاء فى قوله تعالى:

﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾

«سورة الطارق: ٥ - ٦»

بل سبقته كذلك فى بيان نشوء الإنسان وكل دابة تدب على الأرض بطريق التناسل من الحيوانات المنوية، وإن اختلفت أشكال هذه الحيوانات المنوية وخصائصها فى كل نوع من أنواع هذه الدواب.

ومما تحتمله آية سورة النور من معان علمية أن الماء قوام تكوين كل كائن حى، فمثلا يحتوى جسم الإنسان على نحو ٧٠٪ من وزنه ماء، أى أن الشخص الذى يزن مائة كيلو جرام يكون فى جسمه نحو ٧٠ كيلو جرام ماء، ولم يكن تكوين الجسم واحتواؤه هذه الكمية الكبيرة من الماء معروفا مطلقا قبل نزول القرآن الكريم.

ونجد أن آية سورة النور تشير إلى التنوع الواضح فيما يتعلق بحركة الدواب التى تشمل كل ما يدب على الأرض من مخلوقات، ابتداء من النملة الصغيرة إلى أضخم الكائنات التى تعيش فى العصر الحاضر، أو التى كانت تعيش فيما مضى من الزمن. والمعروف أن الحركة الانتقالية هى إحدى مميزات تلك الدواب، حيث

إنها لا تبقى ساكنة فى مكانها، كما هو الحال مع النباتات التى تمتد جذورها فى باطن الأرض، بل هى دائماً فى حركة مستمرة بحثاً عن الغذاء أو الماء اللازمين لبقائها على قيد الحياة، أو هرباً من كائنات أخرى تتربص بها وتحاول افتراسها لتتخذ من لحومها طعاماً لها، أو هى تتحرك للبحث عن مناطق جديدة تصلح لسكناها وتكون أكثر ملائمة لحياتها، من حيث الضوء أو الحرارة أو الرطوبة أو غيرها من العوامل الطبيعية، أو هى تنتقل للبحث عن النصف الآخر حتى لا تتوقف عمليات التكاثر لإنتاج أنسال جديدة من أجل تحقيق بقاء تلك الأنواع على الأرض.

ولقد حددت الآية الكريمة ثلاثة أنماط رئيسية تمارسها الدواب عند تحركها من مكان إلى مكان على سطح الأرض، وهذا فى حد ذاته يعتبر تصنيفاً علمياً لعالم الدواب على أساس حركتها: أما النمط الأول فيشمل الدواب التى «تمشى على بطنها»، وهى الزواحف على اختلاف أنواعها، ويلاحظ أن التسمية القرآنية مطابقة تماما لمعنى المصطلح الأجنبى المقابل لها

Reptilian المشتق من الكلمة اللاتينية Repto ومعناها «يزحف»، وأما النمط الثانى فيشمل الدواب التى «تمشى على رجلين»، والإنسان هو أهم وأشهر تلك المخلوقات على الإطلاق. ويرى علماء الأحياء أن الطيور على اختلاف أنواعها - الطائرة منها والجارية - هى مجموعة تنتمى إلى الفقاريات «رباعية الأرجل»، ولكن الرجلين الأماميتين فيها تحورتا إلى جناحين تطير بهما فى أجواء الفضاء، وبقيت الرجلان الخلفيتان على صورتهما الأصلية لاستخدامهما فى عملية المشى على سطح الأرض.

وأما النمط الثالث الذى أشارت إليه الآية القرآنية الكريمة الخامسة والأربعين من سورة النور، فيتعلق بنوع «الدواب التى تمشى على أربع»، وهو الأكثر انتشاراً لأن كثيرا من دواب هذا النوع قد استأنست وأصبحت تتعايش مع الإنسان فى كل من الريف والحضر والبادية، ومنها دواب الحمل التى ذكرها القرآن الكريم فى قوله تعالى:

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

«سورة النحل: ٨»

ومنها أيضاً الأبقار والجمال والأغنام، وغيرها من الأنعام التى أشار القرآن الكريم إلى فوائدها للإنسان فى قوله تعالى:

﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾

«سورة النحل: ٥»

وعند استعراض أنواع الدواب «التى تمشى على بطنها»، يكون أول ما يتبادر إلى الذهن أنها عديمة الأرجل، أو أن أرجلها ضعيفة لا تقوى على حمل أجسامها بعيداً عن سطح الأرض. والواقع أن طائفة الزواحف من الحيوانات هى خير ما تتمثل فيها تلك الصفات، فالبعض منها - كالحيات والأفاعى والثعابين - ليست لها أرجل على الإطلاق، ومع ذلك فهى قادرة تماما على الحركة السريعة والانتقال المباشر من مكان إلى مكان بفضل عضلاتها البطنية القوية والضلوع الكثيرة التى تمتد من كل فقرات الجسم ماعدا الذنب، وتقوم تلك العضلات بتحريك الضلوع فتصبح وكأنها أرجل داخلية تدفع الجسم بسرعة إلى الأمام.

والبعض الآخر من الزواحف مزوّد بزوجين من الأرجل، كما هو الحال فى الفقاريات «رباعية الأرجل»، وهى المجموعة التصنيفية التى تنتمى إليها كل الزواحف. ولكن القاعدة العامة فى أرجل هذه الزواحف أنها أرجل ضعيفة لا تستطيع فى كثير من الحالات حمل الجسم بعيداً عن سطح الأرض. ومن أمثلة هذه الزواحف العظاءات (السحالى) على اختلاف أنواعها، والسلاحف الأرضية. أما السلاحف المائية فقد تحوّرت أرجلها الأربعة إلى «مجاديف» تسبح بها سباحة سريعة فى الأوساط المائية، ولكنها عندما تصعد إلى سطح الأرض فى موسم التكاثر يكون حالها كحال السلاحف الأرضية، من حيث الحركة البطيئة وملامسة بطنها لسطح الأرض، وتكون عندئذ متشابهة تماماً للزواحف الأرضية النموذجية.

وتجدر الإشارة إلى أن الزواحف عديمة الأرجل ـ كالثعابين والحيات - لا تعتمد فى انتقالها من مكان إلى مكان على تلك الحركات النموذجية المعروفة فقط، بل إنها أيضاً قادرة على القفز أو التسلق أو السباحة، ففى أحوال عديدة يلف الثعبان جسمه فى لفات عديدة متقاربة بعضها فوق بعض، ثم يندفع بقوة عضلاته الجسدية فى قفزة كبيرة يقطع فيها عدة أمتار، لينقضّ على فريسة، أو ليبتعد عن خطر يحدق به، وقد يعمد إلى عديد من مثل هذه القفزات المتتالية واحدة بعد الأخرى حتى يبتعد تماماً عن الخطر.

ويذكر أحد المراجع فى هذا الصدد معنى علمياً يتعلق بالإشارة إلى «عصا موسى» فى موضع من القرآن الكريم بأنها تحولت إلى حية تسعى، قال تعالى:

﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾

«سورة طه: ٢٠»

والإشارة إليها فى موضعين آخرين بأنها تحولت إلى ثعبان مبين، قال تعالى:

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾

«سورة الأعراف: ١٠٧»

وقال سبحانه:

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾

«سورة الشعراء: ٣٢»

ذلك أن «الثعبان» هو الاسم العام لمجموعة من الزواحف المعروفة لكل إنسان، فى حين أن «الحية» نوع خاص من تلك الثعابين، ولها صفات خاصة تميزها عن بقية أنواع الثعابين، ولكنها جميعاً تشترك فى خاصية الزحف بأجسامها الطويلة على سطح الأرض فى حركات تموجية لا تشاهد فى غيرها من الحيوانات الأرضية. وكان تحوّل «عصا موسى» فى الحالتين إلى «حَيَّةٌ تَسْعَى» و«ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ» تأكيداً للمعجزة الإلهية التى اختص الله تعالى بها نبيه موسى عليه السلام، وخرّ سحرة فرعون على إثرها ساجدين لرب العالمين. قال تعالى:

﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ۝ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾

«سورة الشعراء : ٤٥ - ٤٨»

٢- التنوع فى أصوات الكائنات

من آيات الله البينات الدالة على مطلق قدرته سبحانه ظاهرة التنوع فى أصوات المخلوقات، وهى ظاهرة تستوجب التأمل والتفكر وإعمال العقل فى حكمها وأسرارها. فهناك العديد من الأصوات المتباينة التى تطرق أسماعنا فى حياتنا اليومية ليلاً ونهاراً، وهى تنتقل إلينا على شكل تموجات تضاغطية تنشأ عن اهتزاز الأجسام المسببة لها، على نحو ما نجد فى وتر العود أو الكمان، أو فى الأوتار الصوتية عند الإنسان. ويلزم لانتشار الطاقة الصوتية وجود وسط مادى تستقل خلاله إلى أن تصل إلى الأذن ويحدث الإحساس بالسمع. فوتر العود، مثلاً، لا نسمع له صوتاً إذا اهتز فى الفراغ، لأن التموجات الصوتية لا تجد الوسط المادى الذى تنتقل خلاله إلى طبلة الأذن.

والتجربة العملية البسيطة التى يجريها طلاب المدارس فى المعمل للتأكد من صحة هذه الحقيقة العلمية تتم بتفريغ الهواء داخل ناقوس زجاجى موضوع فوق «منبه» به جرس يدق، ثم السماح بدخول الهواء تحت الناقوس مرة أخرى، فيلاحظ أن صوت دقات الجرس يخفت رويداً رويداً أثناء تفريغ الناقوس من الهواء، ثم يشتد الصوت عندما يدخل الهواء فى الناقوس.

ونحن نعلم اليوم أن القمر ليس له غلاف هوائى مثل الغلاف الجوى للأرض، ولهذا فإن رواد الفضاء على سطحه يتبادلون الحديث بواسطة الراديو (اللاسلكى)، حيث يمكن للموجات الكهرومغناطيسية، ومنها موجات الراديو والضوء، أن تنتقل خلال الفراغ، على عكس موجات الصوت التى يلزم لانتقالها وسط مادى.

والناس يتفاوتون فى مقدرتهم على سماع الأصوات، لكنهم يتفقون فى الإحساس بشدة الصوت الذى يسمع بالكاد، وكذلك فى الإحساس بجهارة الصوت الذى يسبب الألم، ومن ثم أمكن تحديد مدى الاستجابة الترددية للأذن البشرية العادية، أو المدى المسموع للترددات فيما بين ٢٠ و ٢٠٠٠٠ هرتز. والهرتز وحدة تستخدم لقياس التردد الموجى تخليداً لذكرى العالم الفيزيائى «هرتز» الذى اشتهر بأبحاثه فى دراسة الأمواج الكهرومغناطيسية. وعادة ما نسمع عن البث الإذاعى بوحدات أكبر لقياس التردد، أو عدد الذبذبات فى الثانية، مثل الكيلو هرتز الذى يساوى ألف هرتز، والميجا هرتز أو الميجا سيكل الذى يساوى مليون ذبذبة فى الثانية.

والمدى السمعى يختلف من شخص لآخر، فهو يتراوح عند الشبان البالغين مثلاً بين ١٦ و ١٥٠٠٠ هرتز، بينما يستطيع الأطفال سماع ترددات تصل إلى ٢٠٠٠٠ هرتز أو أكثر. أما كبار السن فإنهم لا يستطيعون سماع الأصوات التى يزيد ترددها على ٣٠٠٠ هرتز. وفى جميع الأحوال تقل القدرة على سماع الأصوات ذات الترددات العالية مع تقدم العمر، نتيجة التعرض المستمر للضجيج والضوضاء فى المساكن وأماكن العمل.

وعندما تقع التموجات الصوتية على «طبلة الأذن» فإنها تؤدى إلى اهتزازها، ويكون الإنسان قادراً على سماعها والتمييز بينها إذا كان تردد ذبذباتها فى حدود المدى المسموح للإحساس العادى بالسمع وهو يتراوح ما بين ٢٠ و ٢٠٠٠٠ هرتز. أما الأصوات ذات الترددات الأعلى من ٢٠ ألف هرتز، وتعرف بالموجات فوق السمعية، وكذا الأصوات ذات التردد الأقل من ٢٠ هرتز، وتعرف بالموجات تحت السمعية، فإن الأذن البشرية لا تستطيع سماعها على الإطلاق.

وهذا يماثل إلى درجة كبيرة إحساس العين بالتموجات الضوئية، فنحن نستطيع رؤية جميع درجات ألوان الطيف التى تصل إلى أعيننا، ونميز منها الأشعة الحمراء والصفراء والبرتقالية والخضراء والزرقاء والنيلية والبنفسجية، وهى ألوان «قوس قزح» السبعة التى نراها عادة فى الأفق بعد سطوع الشمس فى يوم مطير. أما الأشعة تحت الحمراء والأشعة فوق البنفسجية فلا يمكن للعين البشرية رؤيتها، مع أنها موجودة فعلاً مع الأشعة المكونة لألوان الطيف المرئى. وذلك لأن تردداتها تقع خارج حدود المدى المسموح للإحساس بالرؤية.

وهكذا يتضح لنا أن هناك أصواتاً مسموعة وأصواتاً أخرى غير مسموعة، مثلما أن هناك ألواناً مرئية وألواناً أخرى غير مرئية. وقد تكون الأصوات المسموعة جيدة يطرب لها الإنسان، مثل صوت العود والكمان والناى، وغيرها من الآلات الموسيقية، ومثل صوت البلبل والكروان وغيرهما من الطيور المغردة، أو تكون هناك أصوات قبيحة ومنفرة تتأذى الأذن من سماعها، على نحو ما نجد فى «عواء الذئب» أو «نباح الكلب» أو «نهيق الحمار» الذى وصفه القرآن الكريم بأنه أنكر الأصوات على الإطلاق، وذلك فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾

«سورة لقمان : ١٩»

وفى معظم الحيوانات الثديية الكبيرة، كالأسود والخيول والأغنام، تصدر الأصوات المميزة لكل منها عن طريق «عضو الصوت» الذى يشبه إلى حدٍّ ما حنجرة الإنسان، وهو يوجد فى مقدمة القصبة الهوائية بعد تجويف الفم مباشرة، ويحتوى على «الأوتار الصوتية» التى تنتج عن اهتزازها موجات الصوت. أما الطيور على اختلاف أنواعها فقد أمدها الله سبحانه وتعالى بحنجرة مميزة تقع عند الجزء الأسفل من القصبة الهوائية بالقرب من الرئتين، وينتج عن وجودها فى هذا المكان العميق داخل الصدر أن الأصوات التى تصدر عنها تمرّ قبل انطلاقها إلى الخارج عبر القصبة الهوائية بأكملها، مما يجعلها أكثر بهاء وقوة. وبالنسبة للحشرات، كالذباب والبعوض والجراد، فلا توجد حنجرة على الإطلاق، ومع ذلك فإن لكل منها صوتاً مميزاً ينتج فى أغلب الأحيان عن طريق حكّ الأرجل الخلفية بالأجنحة.

وهكذا يجد المتأمل فى تنوع أصوات الكائنات دليلاً واضحاً على قدرة الله الخالق الواحد سبحانه وتعالى.

حرية التعبير فى الإسلام



للأستاذ الدكتور/ أحمد الريسونى

منذ عدة سنوات بدأت أرى واقتنع - أكثر فأكثر - أن هناك عددا من القضايا، تحتاج منا إلى جهاد كبير - علمى وفكرى وتربوى - من أجل العودة بها إلى الوراء، وإلى أقصى وراء...

لا أعنى بالوراء لا القرون الوسطى، ولا ما بعدها ولا ما قبلها، ولا بعد الميلاد ولا قبل الميلاد.

أعنى بالوراء: الرجوع إلى البداية: إلى الفطرة السليمة والبداهة القويمة

﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾

[الروم ٣٠]

والإسلام دين الفطرة والبداهة .ولذلك فهو دين الرجوع إلى الوراء فى القضايا الفطرية والبدهية.

وفى تراثنا العلمى الإسلامية، هناك شئ جميل ينبغى الانتباه إليه والاستفادة منه، وهو ما يحظى به "المتقدمون" من الاعتبار والأولوية فى القضايا والأصول الدينية . فحينما يقال : ذهب المتقدمون، أو الأقدمون، إلى كذا....، وذهب المتأخرون، أو بعض المتأخرين، إلى كذا ....، فإن هذا - فى الغالب - يعنى التزكية والمصداقية للقول الأول، والتضعيف والانتقاص للقول الثانى.

وما زلت أحفظ الوصية التى نقلها الإمام الشاطبى عن أحد شيوخه، حين أوصاه باجتناب التعويل على كتب المتأخرين، وقال: إنهم أفسدوا الفقه.

وليس هذا راجعا إلى أفضلية زمن على زمن، ولا أفضلية ناس على ناس، ولا لأن القدرة العلمية والفكرية للمتقدمين، هى أعلى وأرقى منها عند المتأخرين، لا ليس هذا. وإنما لأن المتقدمين أقرب للفطرة وأتبع لها، وأيضا لأنهم حازوا "النسخة الأصلية" للدين والتدين، علما وعملا، ثم حازوا - على التوالى - النسخ الأكثر قربا والأشد شبها بالنسخة الأصلية .بينما ظل كثير من اللاحقين - إلى اليوم - ينسخ بعضهم عن نسخة بعض . ومن حين لآخر، يقع - أو يمكن أن

يقع - شئ من الخدش أو الخلل فى عملية الاستنساخ والتلقى... ولذلك يجب الرجوع دائما إلى الوراء ؛ إلى "نسخة المتقدمين"، للأخذ عنها، أو المقابلة عليها والتصحيح منها...

هذا فى الأمور الدينية والأصول الدينية، وفى الخصائص الجوهرية والأصول الفطرية للإنسان وليس فى التجارب البشرية النامية والمتطورة.

وأنا لا أفهم التجديد الدينى والإصلاح الدينى، إلا على هذا الأساس ومن هذا المنطلق؛ أى إعادة التأسيس وإعادة الانطلاق، من الأصول الأولى ومن المنطلقات الأولى .

حينما هممت بكتابة هذا الموضوع (حرية التعبير فى الإسلام)، وجدتنى أرجع إلى الوراء، ثم إلى الوراء ... حتى لم يبق هناك وراء.

- رجعت إلى البدء، فوجدت أن أول تعليم علمه الله تعالى لآدم عليه السلام، هو الكلام والتعبير

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾

[البقرة ٣١]

نعم علمه الأسماء كلها، ليقول كل ما يريد، ويعبر عن كل ما يريد، وليسمى الأشياء كلها بأسمائها، بينما نرى اليوم أن تسمية الأشياء بأسمائها، قد تكون لها تبعات وتجر إلى مشكلات ...

- وفى البدء أيضا، وجدت الله سبحانه يقول:

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾

[الرحمن ١ / - ٤]

فلم يكن أول شئ علمه الله لآدم: هو أداء صلاته، أو كسب قوته، أو ستر عورته، بل أول شئ علَّمَهُ إياه بعد خلقه، أومع خلقه، هو: البيان، والأسماء المحتاج إليها لأجل البيان .

- وفى البدء أيضا وجدت الله تعالى يقول عن الإنسان :

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾

[البلد : ٨، ٩]

ومعلوم أن أكبر وظيفة للسان والشفتين، هى وظيفة التعبير والبيان .

وعلى العكس من هذا نجد نبى الله إبراهيم عليه السلام يعرِّض بالأصنام وعجزها وتفاهتها، بكونها لاتقدر على النطق قالوا

﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾

[الأنبياء: ٦٢، ٦٣]

فالذى لاينطق ولا يعبر، إنما هو تمثال لإنسان لا إنسان.

﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾

[البقرة ١٨]

وقديما حينما أراد الفلاسفة تعريف الإنسان وتمييزه عن غيره من الكائنات، قالوا: الإنسان حيوان ناطق.

ومعنى هذا كله أن وظيفة التعبير والبيان، هى من أعظم الخصائص والمواهب الفطرية التى ميز الله بها الجنس البشرى، وجعلها فى مُكْنته من أول أمره . فهى تشكل جزءا من هوية الإنسان وماهيته. وهذا يدل على الأهمية البالغة التى

تكتسبها وظيفة البيان فى حياة الإنسان وفى حياة الجماعة البشرية.

ولا شك أن البيان الذى يشكل جزءاً من فطرة الإنسان وهويته، إنما يتجسد فى التعبير الصادق الصريح عما فى النفس وما فى العقل وما فى القلب. وأما الذين:

﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾

(الفتح/ ١١)

والذين:

﴿ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾

(آل عمران/ ١٥٤)

فإنما هم منافقون، أى زائفون مزيفون. ففطرة الإنسان وأصالته تتمثل فى تسميته الأشياء بأسمائها الحقيقية، أى فى تعبيره الصادق والمطابق عما فى قلبه وضميره.

ومما يؤكد فطرية هذا السلوك وانحراف مخالفته عن هدى الفطرة، هو كون الناس جميعا يحبون الإفصاح والصراحة، ويحبون الإنسان الصريح، ويحبون من يقول الحقيقة، ويكرهون من يخفون الحقيقة، ويكرهون أكثر من يزيفون الحقيقة.

وليست الصراحة المحبوبة فطريا، سوى التعبير الصادق السوى عما فى القلب، حينما يتطلبه المقام. وضدها يكون إما بعدم التعبير عما فى النفس، أو التعبير بخلاف ما فى النفس، كما جاء فى الآيتين الكريمتين.

وقد نص عدد من العلماء على أن المعيار الذى تُميَّز به الخصال الفطرية للإنسان عن غيرها من الخصال الطارئة عليه، هو ما يشترك عامة الناس فى حبه أو كراهيته، بصورة طبيعية تلقائية. ومن هذا القبيل نجد أن جميع الناس لديهم محبة وانشراح للصراحة والصرحاء، وكراهية ونفور من ذوى الانطواء والالتواء فى الكلام والبيان.

ويؤكد العلامة ابن عاشور أن صفة الحرية كلها - وضمنها حرية القول - هى صفة فطرية وضرورية لكل تقدم بشرى. قال رحمه الله: "إن الحرية خاطر غريزى فى النفوس البشرية، فيها نماء القوى الإنسانية، من تفكير وقول وعمل، وبها تنطلق المواهب العقلية متسابقة فى ميادين الابتكار والتدقيق. فلا يحق أن تسام بقيد إلا قيداً يُدفع به عن صاحبها ضر ثابت أو يجلب به نفع"

وإذا ثبت واتضح أن خاصية البيان والتعبير، هى صفة فطرية خلقية فى الإنسان، فمعناه أنها تفوق درجة (الحقوق المكتسبة)، وترتقى إلى درجة (الحقوق الطبيعية)، أو لنقل: إنها ليست فقط حقا من حقوق الإنسان، بل هى صفة من صفات الإنسان. وفرق كبير بين أن يُجرَّد الإنسان - أو يُنتقص - من بعض حقوقه، وأن يجرد - أو ينتقص - من بعض صفاته الذاتية. ففى هذه الحالة الثانية يصاب الإنسان فى صميم إنسانيته، وليس فقط فى حق من حقوقه. ولذلك يرى ابن عاشور "أن موقف تحديد الحرية موقف صعب و حرج ودقيق، على المشرع غير المعصوم. فواجب ولاة الأمور التريث وعدم التعجل، لأن ما زاد على ما يقتضيه درء المفاسد و جلب المصالح الحاجية، من تحديد الحرية، يعد ظلما" و قال فى موضع آخر "و اعلم أن الاعتداء على الحرية نوع من أنواع الظلم"

وإن الناظر الباحث عن موقع حرية التعبير فى القرآن الكريم، والسنة النبوية، ليندهش لهذا الإطلاق والتوسيع لها، حتى ليكاد أن يقول إنها حرية بلا حدود، لولا أن بعض الحدود على جميع الحريات تعد من البدهيات. لكن فى القرآن والسنة، لا نكاد نرى إلا حرية مطلقة للقول والتعبير.

لقد نقل إلينا القرآن الكريم أقوالا وتعبيرات من جميع الأصناف، من أقوال إبليس المعروفة، إلى أقوال فرعون، من مثل قوله:

﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

[القصص٣٨]

إلى الأقوال المقيتة لبعض سفهاء بنى اسرائيل

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾

[آل عمران١٨١]

وقولهم لموسى عليه السلام

﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾

[البقرة٥٥]

إلى أقوال المعاصرين للرسالة المحمدية، من مشركين ومنافقين وغيرهم، وهى كثيرة لا أطيل بها.

وأما النبى الكريم - عليه الصلاة والتسليم - فقد سمح لكل من شاء أن يقول ما شاء، سواء من المؤمنين به، أو من المكذبين له. ولم يزجر ولم يعاقب أحدا على رأى عبر عنه، أو على اعتراض تقدم به. والسيرة النبوية مليئة بالاعتراضات التى صدرت - بالحق أو بالباطل - على مواقف وتدابير ارتآها أو أمضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان بعضها أحيانا يتسم بالخشونة وقلة الأدب. ولم يكن عليه السلام يواجهها إلا بالرفق والصفح وسعة الصدر. ومن يقرأ بداية سورة الحجرات يجد ذلك صريحا.

وحتى زوجاته فى بيته، كان لهن معه آراء واعتراضات ومراجعات. وفى حديث لعمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: "... والله إنْ كُنَّا فى الْجَاهِلِيَّةِ ما نَعُدُّ لِلنِّسَاءِ أمْراً، حتَّى أنْزَلَ اللَّهُ فِيهِنَّ ما أنْزَلَ وقَسَمَ لهنَّ ما قَسَمَ. قالَ: فَبيْنَا أنَا فى أمْرٍ أتَأَمَّرُهُ إذْ قالَتِ امْرَأَتِي: لو صَنَعْتَ كَذَا وكَذَا - قالَ - فَقُلتُ لَهَا: ما لَكِ ولِمَا هَا هُنَا فِيما تَكَلُّفُكِ فى أمْرٍ أُرِيدُهُ؟ فَقالَتْ لِي: عَجَبًا لكَ يا ابْنَ الخَطَّابِ ما تُرِيدُ أنْ تُرَاجَعَ أنْتَ، وإنَّ ابْنَتَكَ لَتُرَاجِعُ رَسولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - حتَّى يَظَلَّ يَوْمَهُ غَضْبَانَ. فَقَامَ عُمَرُ فأخَذَ رِدَاءَهُ مَكَانَهُ حتَّى دَخَلَ علَى حَفْصَةَ فَقالَ لَهَا: يا بُنَيَّةُ إنَّكِ لَتُرَاجِعِينَ رَسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حتَّى يَظَلَّ يَوْمَهُ غَضْبَانَ؟. فَقالَتْ حَفْصَةُ: واللَّهِ إنَّا لَنُرَاجِعُهُ..."

إذا نحن قارنا هذا - ومثله فى السنة والسيرة، وسيرة الخلفاء الراشدين كثير - مع ما أصبحنا عليه من منع الناس من الكلام، ومعاقبتهم على مجرد الاعتراض بالرأى، سندرك أى هوة سحيقة بيننا وبين ما جاء به الإسلام. بل لقد دخلنا اليوم - أو قبل اليوم - فى نظرية العصمة، التى كانت من قبل خاصة بالشيعة، وباثنى عشر إماما لهم. لقد أضفيت العصمة على كثير من الملوك والرؤساء، بل حتى على بعض الشيوخ والزعماء السياسيين والدينيين، فلا يمكن أن يعترض عليهم أحد، ولا يمكن أن ينسب لهم خطأ ولا خلل!!

طرائف.. ومواقف



لفضيلة الشيخ/ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

كيف أحصى خلقه ﷺ

سئل الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ عن خُلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال للسائل: هل تستطيع إحصاء نعم الله ـ تعالى ـ فى الحياة الدنيا قال: لا!!

قال: فكيف أحصى خلقه صلى الله عليه وسلم وقد قال الله ـ عز وجل ـ:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: ٤)

بينما قال عن الدنيا:

﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (النساء: ٧٧)

كلمتان لأبى بكر وعلى

كان من دعاء خليفة رسول الله أبى بكر الصديق إذا مدحه الناس أن يقول:

«اللهم أنت أعلم بى من نفسى، وأنا أعلم بنفسى منهم. اللهم اجعلنى خيراً مما يحسبون، واغفر لى واجعلنى خيراً مما يعلمون، ولا تؤاخذنى بما يقولون».

وكان أمير المؤمنين على يقول لمن يتملقه مغالياً فى مدحه: «أنا دون ما تقول، وفوق ما فى نفسك».

هل يصلح العطار؟

من الشعر الطريف وصف شاعر لزوجته التى رغم وضوح كبر سنها إلا أنها تصر على أنها لازالت صبية شابة:

عجوز ترجى أن تكون فتية ... وقد نحل الجنبان واحدودب الظهر

تدس إلى العطار سلعة بيتها ... وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر

الاتباع والابتداع

من خطبة لأمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز على منبر مسجد بنى أمية فى دمشق:

«أيها الناس، ليس بعد نبيكم نبى، وليس بعد الكتاب الذى أنزل عليه كتاب، فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة، وما حرم الله على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة».

«ألا إنى لست بقاض، وإنما أنا منفذ. ولست بمبتدع، ولكن متبع. ولست بخيركم، وإنما أنا رجل منكم، إلا أنى أثقلكم حملا. ألا لا سلامة لامرئ فى خلاف السنة، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق».

آداب الرعية مع السلطان

قلة الغشيان لبابه، وترك الاستعانة به إلا بشىء يلزم أمره، ودوام الهيبة له؛ وإن كان ذا رفق، وترك الجرأة عليه؛ وإن كان ذا لين، وقلة السؤال وإن كان مجيباً، والدعاء له.

شمم العرب

دخل عمارة بن حمزة على أمير المؤمنين المنصور وقعد فى مجلسه ـ وكان ذا عزة وثروة ونفس أبية ـ فقام رجل وقال:

● مظلوم يا أمير المؤمنين!

●● قال المنصور: ومن ظلمك؟

● قال: عمارة بن حمزة غصبنى ضيعتى.

●● فقال المنصور: يا عمارة، قم فاقعد مع خصمك.

● فقال عمارة: يا أمير المؤمنين ما هو لى بخصم. إن كانت الضيعة له فلست أنازعه فيها، وإن كانت لى فقد وهبتها له، ولا أنزل عن مقام شرفنى به أمير المؤمنين لأجل ضيعة.

علو الهمة من الإيمان

● قال ابن المقفع: أمران يحتاج إليهما كل من يحتاج إلى الحياة: المال والأدب.

● وقال شوقى:

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم ... لم يبن ملك على جهل وإقلال

إلى بيتنا يذهبون

قال عثمان بن دراج الطفيلى، رت بنا جنازة يوماً ومعى ابنى، ومع الجنازة امرأة تبكى وتقول: الآن يذهبون بك إلى بيت لا فراش فيه، ولا غطاء، ولا وطاء، ولا خبز ولا ماء،

فقال ابنى: يا أبت إلى بيتنا والله يذهبون.

أخلاق أمراء الصحابة

لما تم الصلح بين أمير جيوش المسلمين فى فتح الشام وبين أحد قواد الروم، جاءه أمير الروم بطعام فاخر وقال له: ـ هذا طعام الأمير.

فقال له أبو عبيدة: وأطعمتم الجند مثل هذا الطعام؟.

قال: لم يتيسر مثله للجند.

فقال أبو عبيدة: لا حاجة لنا فيما يقتصر علينا وحدنا من ألوان الطعام. وبئس المرء أبو عبيدة إن صحب جنداً من بلادهم أهرقوا دماءهم دونه أو لم يهرقوا فاستأثر عليهم بشىء يصيبه. لا والله لا نأكل إلا مما يأكلون.

كيف تعامل الناس؟

لا تعامل الناس على أنهم ملائكة فتعيش مغفلاً، ولا تعاملهم على أنهم شياطين فتعيش شيطاناً، ولكن عاملهم على أن فيهم بعض أخلاق الملائكة، وكثيرا من أخلاق الشياطين.

دعـــاء

● اللهم لك الحمد كالذى نقول وخيراً مما نقول.

● اللهم لك صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى، وإليك مآبى.

● اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ووسوسة الصدر وشتات الأمر.

● اللهم إنى أعوذ بك من شر ما تهب به الريح.

● لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون.

قضايا أدبية في ديوان «من نبع القرآن» للدكتور/ محمد رجب البيومي



٢
لفضيلة الشيخ صديق بكر عيطة
من علماء الأزهر الشريف

قضايا الإبداع

لكل إنسان رؤيته الخاصة فيما يجرى حوله، وفى تحليله وتعليله: فرؤية العالم غير رؤية الأديب، ورؤية الطبيب غير رؤية الشاعر أو الناقد.. والحقيقة أن «المهمة اللائقة بالشعر، وواجبه أيضاً، هى ألا يُعامل الأشياء كما هى، بل كما تبدو، وألا يعاملها كما توجد فى ذاتها، بل كما تبدو أنها توجد للحواس والعواطف».

وشاعرنا ـ الدكتور رجب البيومى رحمه الله ـ رجلٌ يتميز بحسه المرهف، وثقافته الواسعة، ورجوعه الدائم إلى كتاب الله، يستلهمه الرشد والتبصرة بحقائق العلل فيما يعن للبشر من ويلات ونكبات، أو ما يحققه من إنجازات وانتصارات.. وهو يرى المستمسكين بالحق يعضون عليه بالنواجذ مهما لحقهم

من أذى فى سبيل الدعوة إلى الحق والفضيلة، ويرى الشر وقد كشر عن أنيابه الحادة فى كثير من ميادين الصراع فى غير وازع من ضمير، أو رادع من بقية حياء..

الشاعر هنا يرى الرذيلة، وقد كشفت عن وجهها الكالح، وساقها القبيح فى غير ما خجل أو مواربة، وكأنها تتهيأ فى كل لحظة لمنازلة الفضيلة.

يرى الشاعر دعاة الحق بين رجلين: رجل قد زُجّ به فى غياهب السجون، وسُلطت عليه كل كلاليب جهنم، فى قسوة ووحشية لم يشهدها التاريخ لانتزاع اعترافات لا أساس لها من واقع.. ورجل لم يُدفع به إلى السجن بعد.. وإنما هو محاصر فى دعوته ريثما تحين الفرصة للانقضاض عليه..

صراع رهيب بين الحق والباطل، يؤكد حقيقة كبرى من حقائق الحياة: أن القابض على دينه كالقابض على الجمر، بل أشد..!!

وهنا تطوف به ربة الشعر سماء القرآن الكريم، لتحط على فنن رطيب من أفنانه، وتغرد بأعذب الألحان، وقد اختارت هذه المرة «أحسن القصص»: قصة يوسف ـ عليه السلام ـ ولكنها كعادتها لا تروى قصة وانتهى الأمر؛

فهذه مسألة تكفل كتاب الله العزيز، ومن ورائه علماء التفسير وكتاب قصص الأنبياء.. وإنما التقطت من القصة هذا الموقف المتميز، وهو الموقف الذى تجمعت فيه كل خيوط القصة المباركة أو معظمها، وهو من وجه آخر يُعد منطلقا لكل موقف وكل لقطة من لقطات هذه الدراما الإنسانية العظيمة، ذات الأبعاد المترامية، هذا الموقف يتمثل فى قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾

(يوسف: ٣٠ ـ ٣٢)

يقول الشاعر ـ رحمه الله ـ عن واحدة من أشد ألوان المحن التى تعرض لها يوسف ـ عليه السلام ـ ليخرج منها رافعا رأسه إلى السماء، وقد تأبى على كل مغريات الفاحشة:

سقطت من جفونها دمعةُ الشو
ق، فصاحت مذعورةً ويلتاه
فزعت كالذى على جُرفِ ها
رٍ، فزلت من رعْدة قدماه
لم تظن المأساة تسقط ومع
عين هَوْلاً، فحلُ ما تخشاه
اهيام بيوسف وهو فى القصر
فتى بات زوجها مولاه!!

وهنا تُطل فتنةٌ أخرى بوجهها، لتحيط بهذه الإرادة القوية الطاهرة ـ أقصد فتنة نسوة المدينة:

وسرى فى القصور هَمْسٌ مُريب
عن غرام فى القصر شاع صداه
ألسن الشائعات عند الغوانى
قد تطلين ما يقلنْ فها هو
ربة القصر اغْرمتْ بفتاها
كلما راودته ابدى قِلاه

وهنا تتصادم مكائد النساء: ربة القصر بدهائها وكبريائها الذى أوشك على أن يسقط تحت أقدام يوسف ـ عليه السلام ـ لتشمت بها نسوة القصور، ونسوة القصور.. اللائى دفعهن الفضول وحب الشماتة فى امرأة العزيز، أو مشاركتها فى «الغنيمة» إن أمكن.. فلمن ستكون الغلبة يا ترى؟

سمعت كيدهن، ثم ارادت
عملاً خابياً يُغلُّ شباه
قد تكلمن، فلْيرَيْن، وحتم
لازم أن يهولَهُن سناه
ستُشقُ القلوب من فتنة الحسن
وتجثو على التراب الجباه
مشهد ما رأته أنثى فصارت
ذات عقل يقضى عليها نهاه
وتطلعن فاضطربن كمن فى
زورق تعتلى به الأمواه
مشهد للفتون لم يرزق الريث
على سحره صبُور رآه
كل عقل بسحره مستطارٌ
كلُ قلب بوجده أواه
فقطعن الايدى باعنف سكين
وعضّت بالسِّنّ ضيعا شفاه
ربة القصر لم تعد وحدها الآن
فكلٌ عراه ما قد عراه
لا تَلُمْ غادةٌ وتنس سواها
هُنْ فى حومة الهوى اشباه

وهنا تنتصر مكيدة امرأة العزيز، وتتوالى الأحداث، ويدخل نبى الله يوسف عليه السلام السجن.. وهو عنده أحبُ مما يدعونه إيه، غير أنه يتحول رى صومعة يتعبَّد فيها هذا النبى الطاهر النقى، ويدعو إلى الله عز وجل.. فمن من الدعاة بعد ذلك يأسى لما يصيبه فى سبيل دعوة الحق؟!

ووعى السجن غَمْغمات سؤال
عن فتىً حلّ دون ذنب جناه
تلك رائع البهاء جميل
ليس فى عالم الورى تأواه
شفّ طهرا ورفّ نورا فما
تُبصر إلا مهابة تغشاه
طاهر ابيض الجنان شريف
قد حماه من السقوط الله

إنه أسعد سجن فى التاريخ؛ يضُم بين جنباته الطهر والعفاف والجمال الشفيف والحلم والعلم.. بل الوحى الذى يصل الأرض بالسماء.

ذو بيان يسطو بمنطقة الجزل
وللحق منطقٌ تياه
يا بنى السجن تشركون برب
هو فوق الارباب فَذٌّ إله
يا بنى السجن ما ترون. أارباب
كثير؟ ام واحد نخشاه؟!!

وهنا تبلغ الشاعرية مداها لتصل بالتجربة إلى أعماق مُتلقيها، وكأنها تفتح فى كل نفس باباً من أبواب الشاعرية الشفيفة، تهبُّ منه ريح باردة رقيقة تمنح الطمأنينة والسكينة لكل من يُعانى من بطش يد الغشوم الظلوم فى معترك الفكر ومعترك الحياة.

يا لرؤيا تكشفت دون لَبْس
كل رمز بها له معناه
اطلعته إذ حصحص الحق فانجا
ب عن الخابط الشديد عماه
إتهام!! براءة!! هكذا الناس
مع الدهر، غفوة وانتباه

نعم، نعم، كل رمز بها له معناه، ومغزاه..!! وقبل أن تشدنا الحكمة، فى الديوان بكل مغرياتها، ومشهياتها نمسك عنها الآن لنعود إليها فى حينها من هذه الدراسة.. إن شاء الله تعالى.. وإلى قضية أخرى هى قضية القيم الشعورية.

◎◎◎

عن تكامل المعرفة



للدكتور/ محمد منصور عبدالرؤوف الدفراوى
كلية التربية/ جامعة عمر المختار - ليبيا

توارثت البشرية نظاماً معرفياً لاءم تطورها البدائي ومراحلها الفكرية عبر العصور واقتضى النظام توصل العقل إلى علم يلبي حاجاته حتى إذا استقر عليه زمناً، دفعته رغباته وحاجاته إلى البحث عن علم آخر.

هذا الموروث سيطر على المؤسسات التعليمية والمعرفية، فحرصت على (التعلم المرحلي ثم التخصص)، بيد أن بعضنا وهب عقلاً كالجسد لا يكتمل نضجه إلا إذا تنوع وتكامل غذاؤه، بحيث تقدم له المعرفة على هيئة كتل متماسكة الأطراف ومترابطة الأجزاء، فذاع صيتهم وطبقت شهرتهم الآفاق.

فالمعارف في الذهن كائنات حية، إذا تقاربت ضمرت، وضعفت أنسابها، وإذا اغتربت صحت واشتدت أصلابها وكثر نتاجها، فروافد المعرفة تجدد الدم في شرايين الفكر، بينما القصر والحصر بالتخصص يصيب الفكر بالضمور وضيق الأفق ومحدودية النظرة، فلم يعد دور المعرفة قاصراً على توصيل ونقل الأفكار بل ثمة مجال لتشقيق المعاني وتوليدها وإعادة إنتاجها في حقول أخرى، فالكرة كالبذرة الخصبة تصح ويزيد محصولها في غير تربتها الأصلية.. فبين العلوم والمعارف تشابك متين وعرى وثيقة بشكل لا يمكن بتره أو فصله، فالمعرفة مركب ذهني معقد والمعرفة البتراء كالعقل الناقص شر من الجهل.

وقد نبه عبدالحميد الكاتب الأموي على من يتصدى للعلم أن يتمتع بغزارة العقل وسعة المعرفة فقال: (إذا نظر في كل صنف من صنوف العلم فأحكمه، فإن لم يحكمه شدا شدوا يكتفي به ويعد لكل أمر عدته ويهيئ لكل أمر أهبته)..

فالعلم بنيان معماري يشد بعضه بعضاً، لكن هذا النمط الواعي من تكامل المعرفة يتطلب استشعارا بتسارع إيقاع العلم وتلاحق نتائجه، ودفع العقل المنتج إلى الأمام وحاجة كل علم إلى بقية العلوم.. فمن يشتغل بالطب متخصصاً يحتاج إلى شيء من الأدب واللغة والتاريخ يهذب وجدانه ويصفي روحه ويمكنه من امتلاك وسائل التعبير، فيسيطر على زمام الحياة.

كذا عالم الأدب يحتاج إلى شيء من الطب والكيمياء والرياضيات ليتسنى له فهم تكوينه الجسمي:

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

(الذاريات: ٢١)

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

(فصلت: ٥٣)

قربى إلى الله ووعى بمواطن الألم والذات ورصد الأبعاد والأطول والأعراض وفهم القياسات والأوزان وعليها تقوم حياته.

وعالم الكيمياء يحتاج إلى شيء من نتائج التربية والاجتماع ليتعرف السلوك وطرائق تعديله والمتغيرات في المجتمع، والعجيب أنه كلما تكاملت المعرفة في عقل بشر، اتسعت معارفه وتفتحت مداركه وصار أقرب دقة في الفهم، فتتعدد زوايا الرؤيا بتعدد جوانب المعرفة لديه، وكذا إمكانية النقد والمتابعة والتعليق وتتحقق شمولية المعرفة لولا يظن أحد أن تكامل المعرفة ليس ممكنا بحجة اتساع رقعتها إلى الحد الذي لا يطيق معه العقل تحصيلا، فطاقات العقل وقدراته لا حدود لها، ويمكنه من أخذ نتف ونبغات طائر من كل علم بشكل متدرج وتربوي.

ولعله من نافلة القول ذكر أن الشركات عابرة القارات تقبل الآن على (موسوعي الثقافة والمعرفة)، لأنه أقدر على فهم آليات السوق ومتغيرات السياسة واستيعاب الجديد ونظراته متوثبة، فيضمن نجاح مهمته.

وفي تاريخ البشرية - أرباب دوائر معارف حية - قفزت بها قفزات، كأرسطو وابن رشد وابن سينا والجاحظ والسيوطي وكامل حسين والعقاد وغيره كثر، فأضافوا بسعة معارفهم وتنوع مصادرها بصمات وبصمات واستغلوا طاقاتهم وفتحوا آفاقاً وجددوا فكراً، فكان لهم المكان الرفيع.



بين الصحف و المجلات

إعداد

أ/ محمد جمعة

أ/ علا عبدالرحمن

الدور التركى المزدوج


أردوغان

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ/ سميح صعب بجريدة النهار اللبنانية الصادرة بتاريخ: ١٠/ ٩/ ٢٠١١م يقول فيه:

عام ١٩٦١، نشرت الولايات المتحدة أسلحة نووية فى تركيا للضغط على روسيا كى تسحب صواريخها من كوبا، وقبل أيام أعلنت تركيا موافقتها على نشر رادار للإنذار المبكر فى أراضيها فى إطار الدرع الصاروخية التى قرر حلف شمال الأطلسى اعتمادها للرد على احتمال تعرض الدول الأعضاء فيه لصواريخ بعيدة المدى مصدرها إيران.

وسارعت طهران إلى إبداء تحفظها على القرار التركى، الذى لن يسعد بطبيعة الحال روسيا، تلك التى لم تقتنع يوماً بالحجج الأمريكية القائلة بأن الدرع الصاروخية المقرر نشرها فى دول أوروبية أو فى البحر هدفها إيران وحدها!! ومما يزيد المخاوف، أن الخطوة التركية أتت فى سياق إقليمى مضطرب، ووقت تبحث فيه تركيا عن دور إقليمى واسع يمتد من البلقان إلى آسيا الوسطى إلى الشرق الأوسط، لكن أكثر ما يسترعى الانتباه اليوم هو الاهتمام التركى بالشرق الأوسط من «بوابتين: الأولى الموضوع الفلسطينى والثانية: الربيع العربى..»

وكل الأدوار التى يطمح أردوغان إلى الاضطلاع بها تحظى بتأييد أمريكى ولا سيما من حيث بروز تركيا كقوة منافسة لإيران، ودولة يحكمها حزب إسلامى معتدل يمكن أن يشكل نموذجاً لأحزاب إسلامية تطمح إلى الوصول إلى السلطة فى مصر وتونس وليبيا، ويمكن أن تشكل امتصاصاً لتنظيمات إسلامية متشددة تنسج على منوال «القاعدة»، وتالياً تجد الولايات المتحدة فى الإسلام التركى مخرجاً من مأزقها مع التنظيمات الإسلامية المتطرفة.

والتحفظ الوحيد الذى تبديه أمريكا على تركيا، يتعلق بخلافها المستجد مع إسرائيل، لأن مزيداً من تدهور العلاقات بين الحليفين السابقين - كما تجلى فى الأيام الأخيرة - يهدد ركيزة أساسية من الركائز التى تقوم عليها السياسة الأمريكية منذ عقود فى المنطقة.

ولكن لولا الخلاف مع إسرائيل، لما كان أردوغان يجد تعاطفاً من شعوب الشرق الأوسط، وعلى هذا التعاطف بنت تركيا دورها المستجد فى المنطقة، فى حين أن أمريكا تريد من أنقرة أن تكون لاعباً فى مواجهة إيران وعامل ضغط على سوريا وليس قوة مواجهة لإسرائيل.

وربما فسّر التناقض فى المطالب الأمريكية بعض الازدواجية فى الدور التركى: رفع لسقف الخلاف مع إسرائيل، ونشر رادار الدرع الصاروخية فى مواجهة إيران.

كيف وُلد الربيع العربى؟

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ سلامة أحمد سلامة بجريدة الشروق بعددها الصادر فى ١٢/ ٩/ ٢٠١١م يقول فيه:

عشر سنوات مضت منذ وقعت هجمات سبتمبر عام ٢٠٠١ على نيويورك وواشنطن، ووضعت أمريكا والعالم على حافة مرحلة فارقة فى التاريخ المعاصر.. قد يشعر العرب الغارقون فى «ثورات الربيع العربى» بمدى ما أحدثته أو تسببت فيه هذه الأحداث من ثورات، أطاحت ببعض الأنظمة وأسقطت عروش الاستبداد التى صنعتها أمريكا ورعتها. وفجرت بينها وبين العالم الإسلامى والعربى بحوراً من الكراهية والضغائن.. وضعتها فى حالة حرب مستمرة لم تخرج منها حتى الآن. معظم الكتابات والتعليقات اهتمت فى هذه الذكرى بما لحق بأمريكا من خسائر وكوارث، فى أرواح جنودها وأبنائها فى أنحاء متفرقة من العالم امتدت إلى اليمن وباكستان ودول أفريقية.. فضلا عما أصاب اقتصادها من ضربات موجعة، أثرت على الدولار وعلى مكانتها الاقتصادية والسياسية ونفوذها الدولى.

وكانت سبباً فى صعود اليمين المتطرف الذى نجحت إدارة الرئيس السابق جورج بوش فى صياغة سياساته اليمينية المحافظة المتحالفة مع الصهيونية، فأحدثت شرخاً عميقاً فى علاقاتها بشعوب العالم وبما كانت تمثله أمريكا كرمز للحرية والتحرر والدفاع عن حقوق الشعوب فى الاستقلال والكرامة، لم تعد أمريكا هى أمريكا التى قادت حركة التحرر فى النصف الثانى من القرن العشرين، بل استخدمت نفوذها الاقتصادى والعسكرى فى فرض هيمنتها على الدول الضعيفة وكانت الدول العربية هى الضحية الأولى التى انصاعت للسياسات الأمريكية فى بداية العقد المنصرم، كان السؤال الملح الذى يطرحه الغرب - عن وعى أو عن غباء - هو: لماذا يكرهوننا؟ والآن وبعد أن أسقطت الشعوب قلاع الاستبداد فى مصر وتونس وليبيا، صرنا نحن نتساءل: لماذا هم يكرهوننا ولماذا لا يتركوننا فى حالنا؟

لم يكن ما أقدم عليه الاستعمار من مؤامرات لزرع إسرائيل فى قلب العالم العربى ضرباً من الوهم أو عبثاً فى فراغ.. بل نحن نرى الآن بأعيننا حقيقة الدور المنوط بإسرائيل فى الشرق الأوسط، ولحساب من؟!

معركة مصر المؤجلة

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ فهمى هويدى المنشور بجريدة الشرق القطرية الصادرة بتاريخ: ٣٠/٨/٢٠١١م يقول فيه:

«.. الموقع جنى علينا وأغرى بنا الاستعمار والأطماع الإمبريالية، هذه العبارة أوردها الدكتور جمال حمدان فى الجزء الثانى من كتابه عن «شخصية مصر» الذى تعرض فيه لما سماه «جناية الموقع»، وفيه قرر أن خطورة موقعنا وأهميته أخرت من استقلالنا وقدرتنا على التحرر نسبياً.

وأنه بقدر أهمية الموقع، بقدر ما كانت شراسة الاستعمار فى التمسك به والاستماتة من أجله.

مضيفاً أنه بسبب فرادة الموقع فإن نحو ٤٠ أمة تطلعت إليه وسيطرت عليه خلال عمره المديد، كما يقدر بعض الباحثين.

وإذا كانت استراتيجية الموقع سبباً لشراسة الاستعمار فى تمسكه ببسط هيمنته على مصر على مدى التاريخ.. لم يعد سراً أن الضغوط الأمريكية والغربية عموماً والإسرائيلية ضمنها بطبيعة الحال، وكذلك التمويل الغربى لمنظمات المجتمع المدنى فى مصر، تستهدف إلى جانب ثبات مرتكزات السياسة الخارجية، ضمان أمرين:

أولهما: علمانية النظام الجديد.

وثانيهما: تقليص فرص التيار الإسلامى فى التأثير على القرار السياسى.

بالتالى فهم يريدون لمصر ديمقراطية تتحرك تحت هذا السقف، لكن تلك مغامرة غير مأمونة العاقبة، لأن الآلية الديمقراطية إذا استخدمت بنزاهة فقد تسمح للوطنية المصرية - وليس الإسلاميون وحدهم - بالوصول إلى السلطة والتأثير فى القرار السياسى.

وإذا ما تحقق ذلك فإن المطالبة بالتخلص من التبعية ستفرض نفسها على رأس أولويات العمل الوطنى.. وهنا يصبح الاشتباك السياسى ضروريا ولا بديل عنه.

أدرى أن ترتيب البيت من الداخل وتثبيت أركانه من الشروط الضرورية، التى توفر للنظام العافية.

وأفهم ترتيب البيت بحسبانه فتح الأبواب للممارسة الديمقراطية وتنشيط مؤسسات المجتمع المدنى، بما يمهد الطريق للنهوض على الصعيدين السياسى والاقتصادى، وإذا ما تحقق ذلك الترتيب فإنه يصبح بمقدور مصر أن تتحرى مصالحها العليا فيما تقدم عليه من خطوات، بحيث تستطيع أن تخوض بجدارة معركتها السياسية، وتقول «لا» لكل ما تراه متعارضا مع تلك المصالح أو مع مسئولياتها الوطنية والقومية.. لذلك قلت: إنها معركة مؤجلة».

١١ سبتمبر.. بعد ١٠ سنوات

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ/ محمد أبو الحديد بجريدة الجمهورية الصادرة فى ٨/٩/٢٠١١م يقول:

عشر سنوات كاملة تمر على أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ التى تعرضت لها أمريكا فى بداية فترة الولاية الأولى للرئيس السابق جورج بوش الابن.

ورغم هذه السنوات، فمازال العالم كله يعيش آثار هذه الأحداث وتداعياتها فى حروب ومواجهات مختلفة امتدت إلى كل أرجاء المعمورة، ونالت منطقتنا - الشرق الأوسط - النصيب الأكبر منها.



ومازال السؤال الذى يتردد بين الأمريكيين أنفسهم، وفى أنحاء العالم هو:

- هل أصبحت أمريكا والعالم أكثر أمناً بعد عقد كامل من الحرب المتصلة ضد الإرهاب الدولى؟!

وهل مازال هناك أمل فى مستقبل أكثر أمناً لنا ولأولادنا من بعدنا؟!

النجاحان الوحيدان الكبيران اللذان يمكن لأمريكا أن تقول إنها حققتهما خلال هذه السنوات العشر هما:

نجاحها فى منع تكرار تعرض شعبها وأراضيها لهجمات أخرى فى حجم هجمات الحادى عشر من سبتمبر.. ثم نجاحها أخيراً، وفى شهر مايو ٢٠١١ فقط، فى اصطياد أسامة بن لادن زعيم تنظيم القاعدة الذى دبر هذه الأحداث وقتله، ومن قبله القبض على الرئيس العراقى السابق صدام حسين ومحاكمته وإعدامه، باعتباره - من وجهة نظر أمريكا - لا يقل خطراً على الأمن القومى الأمريكى عن بن لادن نفسه.

ماذا عن الوضع الحالى الذى تدخل به أمريكا عقداً جديداً آخر بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١؟!

الوضع يمكن تلخيصه فى عدة مؤشرات سريعة:

أولاً: الاقتصاد الأمريكى يتعرض مع أوروبا لأسوأ أزمة اقتصادية تضعه على شفا الإفلاس، ودفعت بتصنيفه الائتمانى لدى مؤسسات الإقراض العالمية إلى الهبوط بسبب الديون الباهظة التى عليه وليس فى قدرته سدادها.

وأزمة الاقتصاد الأمريكى الحالية أسوأ من

تلك التى بدأت عام ٢٠٠٨ بانهيار «وول ستريت»، وتصادف وقتها أن كانت بدايتها فى سبتمبر من ذلك العام، ولذلك أطلق عليها المحللون الاقتصاديون اسم «سبتمبر ٢٠٠٨ الاقتصادية».

ورغم ذلك، تضطر أمريكا أن ترصد فى ميزانيتها الجديدة التى يبدأ العمل بها من أول يناير ٢٠١٢م ١١٨ مليار دولار لنفقات قواتها فى العراق وأفغانستان رغم قرب موعد بداية الانسحاب التدريجى منهما.. وتنفق ٢ مليون دولار يوميا على دورها فى حملة حلف الأطلنطى على ليبيا.

ثانياً: عسكرياً، تبدأ أمريكا العقد الثانى بعد هجمات سبتمبر ٢٠٠١ بتغييرات وتبديلات فى قياداتها العسكرية والمخابراتية.

● نقلت «ليون بانيتا» من منصبه كمدير لوكالة المخابرات المركزية، ليتولى منصب وزير الدفاع اعتباراً من أول يوليو ٢٠١١ وكان أول تصريح له فى منصبه الجديد هو أن أمريكا فى حالة حرب، ولابد لها أن تهزم أعداءها.

● جاءت بـ «ديفيد بترايوس» من قيادة القوات الدولية فى أفغانستان ليحل محل ليون بانيتا فى رئاسة وكالة المخابرات المركزية، وقبل أن يغادر أفغانستان ودعه تنظيم القاعدة وحركة طالبان بإسقاط مروحيتين أمريكيتين، كان على إحداهما ٣١ من عناصر القوات الخاصة الأمريكية التابعة للوحدة العسكرية التى اغتالت بن لادن، وقتلوا جميعاً فى الحادث.

كما ودعته أيضاً باغتيال أكثر الشخصيات قرباً من الرئيس الأفغانى حامد كرزاى وهما أخوه غير الشقيق «أحمد والى كرزاى» ومستشاره «جان محمد خان».

● عين الرئيس أوباما الأدميرال «مايك مولن» رئيساً جديداً لهيئة الأركان المشتركة، وهو أعلى منصب عسكرى فى أمريكا، وكان أول تصريح له فور توليه أن «المنطقة الحدودية بين أفغانستان وباكستان، هى مركز الإرهاب، ومازالت أخطر منطقة فى العالم».

ثالثاً: سياسياً.. لم تغير أمريكا نظرتها للعالم، ولم تستوعب درس الحادى عشر من سبتمبر، ولا المتغيرات الجديدة التى يموج بها العالم.

مازالت سياستها تتصف بأكبر قدر من الأنانية، إذ عملت طوال السنوات العشر الماضية على أن تجعل شعوب العالم كلها تدفع ثمن تمتع الشعب الأمريكى وحده بالأمن، فغزت، واحتلت، وطاردت، ونشرت القوات والقواعد العسكرية، وأقامت السجون السرية ومارست تعذيب المعتقلين، وتعاملت مع كل مسافر يريد دخول أراضيها على أنه «إرهابى محتمل» حتى يثبت العكس.

مازالت أمريكا لم تستوعب حقيقة أن سياسة الكيل بمكيالين، والانحياز للطرف المعتدى، وتوجيه كل الضغوط للشعوب المجنى عليها، لا يمكنها أن تنتج أمناً وسلاماً، لا لأمريكا ولا لأى منطقة فى العالم تطبق فيها هذه السياسة.

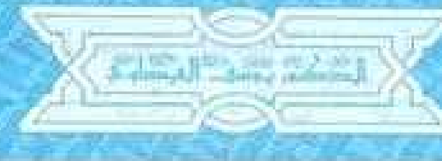
مازالت أمريكا تحاول فرض قيمها وأنظمتها السياسية على العالم، وتستخدم سلاح المعونات الاقتصادية لتحقيق أغراض سياسية، وتعمل على التدخل فى الشئون الداخلية للدول بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة.

إن مسببات هجمات الحادى عشر من سبتمبر لم يتم القضاء عليها بعد.. داخل أمريكا نفسها.

قراءة فى كتاب



الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا





للأستاذ/ عادل خفاجة

إن المستقرئ للصراع الدائر فى العالم، وللأزمة الروحية والنفسية التى يمر بها، والتخبط الاجتماعى الذى يرزح تحته، والتحلل الخلقى الذى يشكو منه عقلاؤه، يهتدى إلى أن الاتجاه الذى لابد أن يسود العالم هو الإسلام.

العالم اليوم فى حاجة إلى رسالة جديدة، تحمل حضارة جديدة، حضارة عالمية إنسانية، أخلاقية ربانية، حضارة تجمع بين الإيمان والعلم وتمزج بين المادة والروح وتوفق بين حرية الفرد ومصلحة المجتمع. وليس فى الغرب من يحمل هذه الرسالة ويؤدى الأمانة.

إنما صاحب هذه الحضارة المنشودة، وهذه الرسالة الموعودة هو الإسلام.. الإسلام الذى أنشأ من قبل خير أمة أخرجت للناس، وصنع أمثل حضارة عرفها التاريخ.

● مؤلف الكتاب: هو الدكتور يوسف القرضاوى.

● ولد ونشأ فى مصر، وحفظ القرآن الكريم وجوده وهو دون العاشرة وأتم تعليمه فى الأزهر الشريف.

● حصل على الشهادة العالية من كلية أصول الدين عام ١٩٥٣م، وعلى إجازة التدريس عام ١٩٥٤م، وكان ترتيبه الأول فى كلتيهما، كما حصل على الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٧٣م.

● عمل بعد تخرجه فى الوظائف التالية: مراقبة الشئون الدينية بالأوقاف المصرية، وإدارة الثقافة الإسلامية بالأزهر، ثم مديراً

للمعهد الدينى فى قطر، فرئيساً لقسم الدراسات الإسلامية بكليتى التربية والشريعة ثم عميداً لكلية الشريعة، ومديراً لمركز بحوث السنة والسيرة فى قطر، ثم أعير إلى الجزائر لرئاسة المجالس العلمية لجامعتها ومعاهدها الإسلامية.

• اشتغل بالدعوة منذ فجر شبابه وشارك فى الحركة الإسلامية، وأوذى فى سبيلها بالاعتقال عام ١٩٤٩ فى عهد الملك فاروق وعام ٥٤ ـ ١٩٥٦ فى عهد عبدالناصر، وتنوع عطاؤه بتنوع مواهبه، فهو خطيب مؤثر، يقنع العقل ويهز القلب، وكاتب أصيل لا يكرر نفسه ولا يقلد غيره، وعالم متمكن فى شتى العلوم الإسلامية بحيث لا يستطيع قارئه وسامعه إلا أن ينسبه إليها كلها.. وشاعر حفظ شعره الشباب الإسلامى وتغنى به فى المشرق والمغرب.

• من الشخصيات التى أثرت كثيراً فى حياته: شخصية الإمام الشهيد حسن البنا، فيصفه قائلاً: «إن أعظم الشخصيات أثراً فى حياتى الفكرية والروحية هى شخصية الشهيد العظيم حسن البنا مؤسس كبرى الحركات الإسلامية الحديثة».

• قاربت مؤلفاته الخمسين، وقد لقيت قبولاً عاماً فى العالم الإسلامى، وطبع بعضها عشرات المرات، وترجم عدد كبير منها إلى اللغات الإسلامية، واللغات العالمية.

• وصفه الذين كتبوا عنه بأنه من المفكرين الإسلاميين القلائل الذين يجمعون بين محكمات الشرع ومقتضيات العصر،



حسن البنا — يوسف القرضاوى

وبأن كتاباته تميزت بما فيها من دقة الفقيه، وإشراقة الأديب، ونظرة المجدد، وحرارة الداعية.

• من أهم العلماء المعاصرين الذين تابعوا الاقتصاد الإسلامى فى قطاع المصارف الإسلامية وأثر فى مسارها العلمى منذ نشأتها بالمشاركة فى إدارة بعضها وفى هيئات الرقابة الشرعية لكثير منها.

• عضو فى عدة مجامع ومؤسسات علمية ودعوية، منها: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف والمجمع الفقهى لرابطة العالم الإسلامى بمكة، والمجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن، ومركز الدراسات الإسلامية بأكسفورد، ومجلس أمناء الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد، ومنظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم.. ورئيس لهيئة الرقابة الشرعية فى عدد من المصارف الإسلامية.

• زار عدداً كبيراً من الأقطار الإسلامية فى آسيا وأفريقيا، والتجمعات والأقليات الإسلامية فى سائر القارات، ودعى إلى المحاضرة فى عدد من الجامعات الإسلامية والعالمية. كما شارك فى عدد كبير من المؤتمرات

والندوات العلمية داخل العالم الإسلامى وخارجه.

• من دعاة الوسطية الإسلامية التى تجمع بين السلفية والتجديد، أو الأصالة والمعاصرة، وتوازن بين الثوابت والمتغيرات، ولا تنسى الماضى ولا تنعزل عن الحاضر، ولا تغفل المستقبل.

• **من مؤلفاته:**

١ ـ الحلال والحرام فى الإسلام.

٢ ـ الإيمان والحياة.

٣ ـ الخصائص العامة للإسلام.

٤ ـ العبادة فى الإسلام.

٥ ـ ثقافة الداعية.

٦ ـ فقه الزكاة (جزءان).

٧ ـ «الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا» الذى نقدم قراءة فيه.

٨ ـ «الحل الإسلامى.. فريضة وضرورة».

٩ ـ «بينات الحل الإسلامى.. وشبهات العلمانيين والمتغربين».

١٠ ـ «أولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة».

١١ ـ بيع المرابحة للآمر بالشراء.. كما تجريه المصارف الإسلامية.

١٣ ـ الصبر فى القرآن الكريم.

١٤ ـ غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى.

١٥ ـ التربية الإسلامية، ومدرسة حسن البنا.

١٦ ـ رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد.

١٧ ـ جيل النصر المنشود.

١٨ ـ وجود الله.

١٩ ـ حقيقة التوحيد.

٢٠ ـ نساء مؤمنات.

٢١ ـ ظاهرة الغلو فى التكفير.

٢٢ ـ الناس والحق.

٣٩ ـ الفتوى بين الانضباط والتسيب.

٤٠ ـ من أجل صحوة راشدة.

٤١ ـ الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه.

٤٢ ـ الدين فى عصر العلم.

٤٣ ـ فوائد البنوك هى الربا المحرم.

٤٤ ـ كيف نتعامل مع السنة.

٤٥ ـ الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم.

٤٦ ـ تيسير الفقه.. فقه الصيام.

الكتاب:

يقع الكتاب فى ثلاثمائة وثمانٍ وستين صفحة من قطع ١٧× ٢٤ سم.

الناشر: بنك التقوى.

والكتاب محاولة لبيان جناية الحلول المستوردة ـ الليبرالية الثورية ـ على أمتنا وكيف عوّقت نهضتها، وسارت بها فى غير الاتجاه الصحيح.. كما يبين ضرورة الاتجاه إلى الحل الإسلامى باعتباره الحل الوحيد لانقاذ هذه الأمة والحفاظ على وجودها وقد ألقى المؤلف فى هذا الكتاب الضوء على

معالم الحل، ومزاياه وثمراته وشروطه والسبيل إلى تحقيقه، ثم دفع شبهات المرتابين والمشككين فيه.. ثم بيان من هم أعداء الحل الإسلامي وما دوافعهم وموقف المسلمين منهم.

ويتكون الكتاب من مقدمة وخاتمة بينهما خمسة عشر فصلاً وهي:

- كيف عزل الإسلام عن قيادة المجتمع؟
- فشل الحل الليبرالي الديمقراطي في بلادنا.
- لماذا فشلت الليبرالية الديمقراطية عندنا؟
- فشل الحل الاشتراكي الثوري.
- مصير الحرية في عهد الاشتراكية الثورية.
- الاشتراكية ومجتمع الكفاية والعدل.
- الاشتراكية الثورية وتحرير فلسطين.
- فشلهم في ميدان الأخلاق.
- لماذا فشلت الاشتراكية الثورية العربية؟
- لماذا فشل الثوريون الاشتراكيون في تحقيق الوحدة؟
- ولماذا فشلوا في تحقيق الحرية.
- لماذا فشلوا في تحقيق الكفاية والعدل؟
- لماذا فشلوا في حرب ١٩٦٧؟
- لماذا فشلوا في مجال الأخلاق؟
- كيف وجدت الاشتراكية لها سوقاً؟

وقد ناقش المؤلف في الفصل الأول عدة نقاط منها: المشكلات المزمنة التي تحتاج العالم الإسلامي كله.. وتساءل عن الحل وطرح عدداً من الحلول وخلص إلى أن الحل الأصيل هو النابع من ضمير الأمة وعقيدتها وتراثها وهو الحل الإسلامي.

وكيف لا؟ وكل مسلم يعتقد أن «الحل الإسلامي» لمشكلات الحياة هو الحل الفذ الناجع لأنه حل وضعه الله لعباده ورضيه لهم وهو بهم عليم خبير.

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾

(الملك/ ١٤)

ثم تناول وسائل التأثير الغربي في الشرق الإسلامي وأن الغرب المستعمر الزاحف قد اتخذ من التربية والتعليم وسيلته الأولى فركز على البعثات إلى الغرب والمدارس التبشيرية والأجنبية بالإضافة إلى المدارس الحديثة التي تقوم فيها الدراسة على أسس غربية خالصة، والتي أخذ الاستعمار يوجهها ويراقبها، ويضع لها أهدافها ومناهجها التي يرضى عنها والمعلم الذي يتمثلها وينقلها من السطور إلى الصدور.

ويشير المؤلف إلى أن هذه المدارس المدنية قد حازت رضا المبشرين وتأييدهم خفية وجهراً، برغم ما لها من طابع علماني.

ولعل المؤلف قد أصاب كبد الحقيقة حيث قال: «إن غاية هؤلاء المبشرين ليست دينية خالصة كما يظن بعض الناس، وأنهم لا يرجون بعلمهم هذا الله والدار الآخرة، فلو كان هذا هو هدفهم لاتجهوا أول ما اتجهوا إلى الملحدين والماديين الذين يكونون معظم السكان في أوروبا، أو اتجهوا إلى الشعوب

الوثنية، بدل أن يتجهوا إلى أعظم أمة مؤمنة موحدة في الأرض، وهي أمة الإسلام.

أما الوسيلة الثانية التي اتخذها المستعمر لتحقيق أغراضه فهي «الصحافة والإعلام» ويشير المؤلف إلى خطر هذه الوسيلة لأنها «وسيلة شعبية ناجحة تستطيع أن تغير بموضوعاتها وأساليبها العقول والأفكار، والقيم والموازين، وأن توجه الرأي العام إلى ما تريد من مفاهيم جديدة، وأن تضعها في الإطار المشوق وتحتال على الناس بتثبيتها في فكر القارئ وقلبه بالمقالة حيناً، وبالخبر أحياناً، وبالصورة تارة، وبالقصة تارة أخرى، وباللقاءات والتحقيقات الصحفية، وبغير ذلك من الأساليب التي احترفها المحترفون المهرة في التضليل والتدجيل».

أما الوسيلة الثالثة التي يرصدها المؤلف فهي: «الغزو الاجتماعي» وذلك بإدخال العادات والتقاليد الغربية والأذواق الغربية في حياة الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم، وإضفاء نعوت الرقي والتمدن على كل من ينسلخون عن شخصيتهم الدينية والقومية ويمشون في ركاب غاصبيهم.

ويسوق المؤلف من كتابات الغربيين بعضاً من الأمثلة الدالة على تأثير الغرب في العالم الإسلامي، من هذه الكتابات ما قاله البروفسور «جب»، «الواقع أننا إذا أردنا أن نعرف المقياس الحقيقي للنفوذ الغربي، ولمدى تغلغل الثقافة الغربية في الإسلام، كان علينا أن ننظر إلى ماوراء المظاهر السطحية، علينا أن نبحث عن الآراء الجديدة، والحركات المستحدثة التي ابتكرت بدافع من التأثر بالأساليب الغربية بعد أن تهضم وتصبح جزءاً حقيقياً من كيان هذه الدول الإسلامية فتتخذ شكلاً يلائم ظروفها».

وكذلك قوله «والسبيل الحقيقي للحكم على مدى التغريب هو أن نتبيّن إلى أي مدى يجري التعليم على الأسلوب الغربي وعلى المبادئ الغربية وعلى التفكير الغربي وأن هذا هو الأساس وهو السبيل ولا سبيل غيره».

ويشير البحث إلى ما أحدثته الحضارة الغربية بين المسلمين في روسيا والهند واندونيسيا وأفريقيا وأن نجاح التطور يتوقف إلى حد بعيد على القادة والزعماء في العالم الإسلامي وعلى الشباب منهم خاصة.

ويشير المؤلف إلى بروز أناس يدعون إلى اتباع الغرب في كل شأن من شئون حياته الفردية والأسرية والاجتماعية المادية والروحية والثقافية، ويقدم المؤلف بعضاً من هذه النماذج منها: «ضياء كوك ألب» الأديب التركي الذي يعتبر أحد المؤسسين الفكريين لتركيا الحديثة، ويتعجب المؤلف منه حيث يقول: «علينا أن نختار إحدى الطريقتين: إما أن نتقبل الحضارة الغربية، أو نظل مستعبدين لقوى الغرب، لابد أن نختار أحد الأمرين».

ولنا أن نتعجب مع المؤلف من هذا المنطق الذي يقول للأمة: انسلخي من دينك وتاريخك وشخصيتك حتى لا تستعبدي للأجنبي.. وأي استعباد أشد وأدهى من

انسلاخها من ذاتيتها.. غافلا عن قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

(البقرة: ١٣٥)

فشل الحل الليبرالى الديمقراطى فى بلادنا

فى هذا الفصل الثانى من الكتاب الذى تناول فيه المؤلف فشل الحل الليبرالى الديمقراطى فى بلادنا يقدم المؤلف لمحة تاريخية عن الأسباب التى أدت إلى انتشار الاتجاه الليبرالى الديمقراطى فى بلاد المسلمين وأرجع ذلك إلى سيطرة الاستعمار الغربى على البلاد الإسلامية كما أشار إلى آثار هذا الاتجاه فى الحياة الإسلامية.

ثم ذكر أهم عناصر ومقومات ذلك الاتجاه وهى:

- **العلمانية:**

وهى أول عناصر الاتجاه الليبرالى الذى ساد حياة المسلمين بتأثير الاستعمار وكان ذلك أخطر النتائج، وأعمق الآثار التى حفرها الاستعمار وخلفها من بعده: عزل الإسلام عن الدولة أى العمل على سيادة المفهوم الغربى لما يسمى دينا، وما يسمى دولة. وتأكيد الفصل بينهما.

- **النزعة الوطنية والقومية:**

ولا يعنى بها أن يحب الإنسان وطنه ويهتم بأمره، أو يحب قومه، ويعنى بأمرهم، فهذا لا حرج فيه، بل هو محمود ديانة ولكن يعنى أن يصبح ولاء المسلم لرقعة معينة من الأرض أو الجنس وعنصر خاص من الناس. ومقتضى هذا أن يقدم الرابطة الطينية والعنصرية (أى الوطنية والقومية) على الرابطة الدينية والإسلامية.

- **ثم أوضح أن الليبرالية كان لها أثر واضح فى المجال الاقتصادى حيث أدى إلى:**

- تمكين الأجانب من اغتصاب الثروة القومية.
- تسخير المسلمين فى تنمية رءوس الأموال الأجنبية مقابل أجور زهيدة.
- استنزاف الدخل القومى.
- رهن الأراضى بالفائدة المركبة.

- **وكان من آثرها فى الحياة الاجتماعية:**

أن شاع شرب الخمر ولعب الميسر وأصبح فى المجتمع الإسلامى حانات وأندية يمارس فيها هذا الرجس من عمل الشيطان.

ولا غرابة كذلك إذا شاعت الفاحشة، وانتشر وباء الزنى سراً وعلانية، وصار فى بلاد الإسلام مراقص وكباريهات قائمة لتسهيل العبث والفجور، وعملت المؤسسات المشبوهة المخربة عملها فى التهوين من فضيلة العفاف، وفى التحريض على التحلل من عرا الأخلاق، وفى تيسير كل السبل للشهوات والغرائز الحيوانية، واستخدمت كل الوسائل من الصورة والخبر، والأغنية والقصة والتمثيلية، والزى المغرى، والسهرات المختلطة.. إلخ.

وأصبحت القيم الإسلامية الأصيلة، والعقائد الإسلامية العريقة، تواجه محنة آخذة بالخناق، فقد صارت (مودة) قديمة، وأصبح المتمسكون بها «رجعيين» متخلفين، وتكاتفت الصحافة والخيالة «السينما» والمسرح والإذاعة والكتاب، بل المدرسة والجامعة، وكل المؤسسات التوجيهية والإعلامية، والتثقيفية والترفيهية، على السير فى هذا الاتجاه إغراء الرجال بالمجون والفجور، وإغراء المرأة بأن تتمرد على فطرتها الأنثوية، وتتشبه بالجنس الآخر وتنافسه، وأن تلبس ما يجذب إليها أنظار الرجال، لا ما يغطى مفاتن الجسد ويستر العورات عن أعين الأجانب.

والعجب أن يتم كل هذا الفساد العريض تحت عنوان براق مضلل هو «الحرية الشخصية» بمفهومها الغربى الذى لم تعرفه هذه الأمة، التى فرض الله عليها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وجعل بعضها أولياء بعض، وحذرها نبيها من ترك المنكر يفشو دون أن يأخذوا على يد صاحبه، أو يعمهم الله بعقاب من عنده.

- **سيادة القوانين الوضعية:**

وكان من مخلفات الاستعمار وآثاره، التى أقرتها وباركتها الليبرالية الديمقراطية وجود «قوانين وضعية» تحكم بها «محاكم مدنية» وهى قوانين تنتظم معظم شئون الحياة والعلاقات، المدنية والتجارية والجنائية والإدارية والدولية.

أما الشريعة الإسلامية التى حكمت ديار الإسلام ثلاثة عشر قرناً، فقد زحزحت عن مكانها، وحصرت فى ركن ضيق تنظمه وتقضى فيه، وهو ما يتعلق بشئون الأسرة أو ما يسمى «الأحوال الشخصية» التى تنظر فيها «المحاكم الشرعية».

الحياة النيابية

ويشير المؤلف إلى الجانب الإيجابى فى هذا العنصر ويعتبر أن أفضل جوانب الليبرالية الديمقراطية هو الجانب السياسى لأنه يتمثل فى إقامة حياة نيابية يتمكن فيها الشعب من اختيار ممثليه الذين تتكون منهم «السلطة التشريعية» فى البرلمان.. وفى المجلس الواحد أو المجلسين.

وهذا الانتخاب إنما يتم عن طريق الانتخاب الحر العام لمن ينال أغلب الأصوات من المرشحين وبهذه السلطة المنتخبة يكون أمر الشعب فى يد نفسه وتصبح الأمة مصدر السلطات.. غير أنه يمر على هذه الصورة ليبين بعض مساوئها حين يتكلم عن الصفات التى يجب توافرها فيمن يمثل الأمة فيقول:

إن هناك صفتين يشترطهما الإسلام لكل من يلى عملاً.

الأولى: الكفاية للقيام بهذا العمل والخبرة به.

والثانية: الأمانة التى بها يصان هذا العمل، ويتقى الله فيه، وهذا ما عبر عنه القرآن على لسان يوسف بقوله:

﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾

(يوسف: ٥٥)

وفى قصة موسى على لسان ابنة الشيخ الكبير:

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾
(القصص: ٢٦)

فالقوة والعلم تمثل الجانب الذهنى والعملى المشروط للعمل، والحفظ والأمانة تمثل الجانب الخلقى والنفسى المطلوب لنجاحه أيضاً.

ولكن قوانين الانتخاب المستوردة من الغرب الديمقراطى، لم تشترط شيئاً من ذلك فى المرشح إلا دفع «تأمين» مالى، يعجز عنه الفقراء من أبناء الشعب، فضلاً عن نفقات الدعاية الانتخابية التى لم يوضع لها أى حدود.

ويخلص المؤلف إلى القول بفشل الحياة النيابية وأن لهذا الفشل أسباباً عديدة منها:

- قصور النظام الليبرالى الديموقراطى كله، وما فيه من عيوب ذاتية.
- فساد الأنظمة الانتخابية التى لم تضع أى شروط للمرشح غير الشرط المالى، وخلو صحيفته من سوابق الجرائم المخلة بالشرف، ونحو ذلك من الأمور السلبية.. وعدم تقييد الدعاية الانتخابية بأى قيد.
- عدم إيمان الكثيرين بجدوى الانتخابات وعدم الثقة بنتائجها، لاعتقادهم أن ما تريده الحكومة سينفذ.

ويختتم المؤلف هذا الفصل بحديث عن فشل الليبرالية فى تركيا إذ يقول:

وكما أثبتت التجربة الليبرالية الغربية الديمقراطية فشلها فى البلاد العربية، أثبتت فشلها كذلك فى البلاد الإسلامية الأخرى.


مصطفى كمال أتاتورك

وأوضح مثل لهذا الفشل هو تجربة تركية الحديثة، تركية «أتاتورك» التى أخذت التجربة الليبرالية الغربية بحذافيرها، وغاصت فيها إلى أذقانها، وحاولت أن تخلق من الشعب الشرقى المسلم شعباً غربياً فى كل شئ.

لقد اصطدمت هذه المحاولة الجريئة المحمومة بطبيعة الشعب بعقيدته وشريعته، بمقدساته، بمفاهيمه، بمشاعره، بأنظمته، بتراثه، بتقاليده، بكل ما يعتز به ويحرص عليه، ولكن قائد هذه التجربة ومن وراءه لم يبالوا بتحطيم أى شئ فى سبيل غرضهم.

فماذا حققت هذه التجربة من منافع للشعب التركى الباسل؟ وماذا قدمت من ثمرات؟ وماذا خلفت من آثار؟

لقد كان الذى تنشده «تركية» هو التقدم، هو التكنولوجيا، هو العلم الذى تعمر به أرضها، وتطور به اقتصادها، وتسلح به جيوشها، ويخرجها من الضعف إلى القوة، ومن الاعتماد على الزراعة إلى تطور صناعى يليق بها.

ولكن المؤسف أن هذا كله لم يتحقق برغم الثمن الباهظ الذى دفعه الشعب التركى المسلم وبرغم مرور نحو نصف قرن على التجربة الكمالية.

«يتبع»

بين المجلة و القارئ

إعداد وتقديم
أحمد السيد تقى الدين

على طريق التواصل

من الأستاذ عبدالقادر الإدريسى وللمرة الثانية وردت هذه الرسالة تحمل مقترحات جديدة تم تنفيذ بعضها، والباقى تحت الدراسة، والمجلة ترحب بمقترحات القراء وتعتبرها إضافة هامة على طريق التواصل البناء.

وفيما يلى نص الرسالة:

الأخ العزيز الأستاذ الدكتور محمد عمارة، رئيس تحرير (مجلة الأزهر) - القاهرة - السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد،

فلقد اطلعت على العدد الجديد من شهر سبتمبر من (مجلة الأزهر) العريقة، وأعجبت بالتطور الشامل الذى تعرفه هذه المجلة فى عهدكم، وحمدت لكم العمل بما كنت قد اقترحته عليكم من نشر بحوث فضيلة الدكتور أحمد الطيب، الإمام الكبير شيخ الأزهر الشريف، ومختارات من تراث الأستاذ الإمام محمد عبده، وبحوث الدكتور محمد عبدالله دراز، فهذا اختيار موفق ومناسب جدا، وجاء فى وقته تماماً، لأنه ليس فى إمكان أى قارئ، الوصول إلى هذا الإنتاج الراقى فى مظلة من الكتب.

الصور الثلاث المنشورة على الغلاف، كان ينبغى وضع أسماء أصحابها تحتها.

لا أرتاح إلى وضع الاسمين تحت (أبناء العالم الإسلامى).

لفت نظرى فى الترجمة التى نشرتها المجلة للدكتور محمد حسين هيكل باشا، أن من آثاره الفكرية (السياسة المصرية). ولعل المقصود هو كتابه الحافل الجامع (مذكراتى فى السياسة المصرية) الصادر فى ثلاثة أجزاء عن دار المعارف.

اقترح نشر فى ملحق العدد القادم، نص وثيقة الأزهر، مع المناقشات والحوارات التى دارت حولها، لأهميتها البالغة.

ملحق هذا العدد مفيد جداً، وعلى درجة كبيرة من الأهمية.

وفقكم الله وقواكم، وحفظكم لنا أخا عزيزاً، وصديقا كريمًا، وأستاذًا نعتز به ونتعلم منه ونأخذ عنه.

ومع أطيب التحيات لكم منى ومن أسرتى الكريمة، وخالص المحبة.

عبدالقادر الادريسى

من مظاهر يسر الشريعة فى الحج

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الشيخ فتحى موسى محمود موسى مدرس الحديث وعلومه بالأزهر - سوهاج - طهطا - شطورة.

من مقاصد الحج تربية النفس على ترك الترفه والاقتصاد فى المباحات، ولذا نرى الحاج يتخفف من ثيابه، إلا ثياب النسك، إزار ورداء مجردان، ليس فيهما زينة ولا تكلف. وهو تذكير بالفقر المطلق للعبد، وخروجه من الدنيا كما دخلها أول مرة، بما يدعوه إلى الاستعداد للقاء ربه.

ومع هذا جعل الله فى الحج سعة لا توجد فى غيره من العبادات، عن عبدالله بن عمرو قال رأيت النبى ﷺ عند الجمرة وهو يسأل فقال رجل: يا رسول الله نحرت قبل أن أرمى قال: «ارم ولا حرج» قال آخر: يا رسول الله حلقت قبل أن أنحر. قال «أنحر ولا حرج» فما سئل عن شىء قدم ولا أخر إلا قال: «أفعل ولا حرج» (البخارى: ١ / ١٢٩) وهكذا يحسن أن يكون شعار المفتى فيما لا نص فيه، أو فى جنس ما أفتى به النبى ﷺ: «أفعل ولا حرج».

والسنة النبوية تجمع التيسيرات التى تفرقت فى كتب الفقه، فإن من العلماء من يأخذ بهذه الرخصة ولا يأخذ بالأخرى، ومنهم من يأخذ بغيرها ويدع هذه، بينما السنة وسعت ذلك كله. وينفرد الحج عن غيره من العبادات بكثير من التيسيرات، فمن ذلك أن من قدم أو أخر فى أعمال يوم النحر فلا حرج عليه. وهذا لا يوجد فى غيره من العبادات، فلو قدم الركوع على السجود، أو القعود على القيام فى الصلاة بطلت صلاته. ومثله ما يتعلق بالنية، وهى من أعظم شروط العبادة. فالحاج ينويه نافلة فينقلب فريضة، كمن قال: سأحج هذا العام نفلاً، وأجعل فرضى عاماً آخر، فيقع حجه فرضاً، ولا عبرة بنيته. قال النووى: لو كان عليه حجة واجبة فنوى حجة تطوع فإنها تقع واجبة. (المنهاج شرح صحيح مسلم ٨ / ٢١٨) وقد ينوى الحج عن غيره فيقع عنه هو، عن ابن عباس أن النبى ﷺ سمع رجلاً يقول لبيك عن شبرمة. قال: «من شبرمة». قال: أخ لى أو قريب لى. قال: «أحججت عن نفسك»؟ قال: لا. قال: «حج عن نفسك ثم حج عن شبرمة» (سنن أبى داود ٢ / ٩٧) وهذه بعض مظاهر يسر الشريعة فى أداء فريضة الحج.

التيسير فى محظورات الحج:

١- التوسعة فى حلق الرأس: حلق الرأس محظور فى الحج، لكنه إذا احتاج إليه حلق وفدى، عن عبد الله بن معقل قال جلست إلى كعب من عجرة فسألته عن الفدية فقال نزلت فىَّ خاصة وهى لكم عامة حُملت إلى رسول الله ﷺ والقمل يتناثر على وجهى فقال: ما كنت أرى الوجع بلغ بك ما أرى أو ما كنت أرى الجهد بلغ بك ما أرى تجد شاة؟ فقلت: لا فقال: «فصم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع» (البخارى: ٤ / ٤٤٦).

٢- التوسعة فى لبس الإزار ولو كان مخيطاً، لكن ليس على هيئة السراويل، بل تخاط تكة ويرسل، دون أن يفصل منه كم على آخر، عن ابن عمر عن النبى ﷺ أن رجلا سأله ما يلبس المحرم فقال: «لا يلبس القميص ولا العمامة ولا السراويل ولا البرنس ولا ثوباً مسه الورس أو الزعفران فإن لم يجد النعلين فليلبس الخفين وليقطعهما حتى يكونا تحت الكعبين» (البخارى: ١ / ١٣٩).

التيسير فى أركان الحج:

١- الوقوف بعرفة: لو دفع من عرفة قبل الغروب أجزاه عند الأئمة، خلافا لمالك. وبعضهم قال: عليه دم. والأقرب أن لا شىء عليه. لحديث عروة بن مضرس الطائى قال أتيت رسول الله ﷺ: بالموقف - يعنى بجمع قلت جئت يا رسول الله من جبل طيئ أكللت مطيتى وأتعبت نفسى والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه فهل لى من حج فقال رسول الله ﷺ: «من أدرك معنا هذه الصلاة وأتى عرفات قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه وقضى تفثه». (سنن أبى داود ٢ / ١٤٢).

وإن أخطأ الناس العدد فوقفوا فى غير يوم عرفة على سبيل الخطأ والغلط أجزاهم ذلك إذا اتفقوا وأطبقوا عليه. عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «وفطركم يوم تفطرون وأضحاكم يوم تضحون وكل عرفة موقف وكل منى منحر وكل فجاج مكة منحر وكل جمع موقف». (سنن أبى داود ٢ / ٢٦٩).

٢- طواف الإفاضة: ويسمى طواف الحج والزيارة، ولا يكون إلا بعد الوقوف بعرفة والمبيت بمزدلفة، قال تعالى:

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾

الحج: ٢٩

ويبدأ وقت الطواف بعد نصف الليل (ليلة المزدلفة) باعتبار المعذورين للدفع منها من الضعفة والنساء ومن فى حكمهم. وهل يبدأ بعد الفجر أو بعد نصف الليل؟ قولان للعلماء. ويمكن تأخير الطواف ليكون هو وطواف الوداع شيئاً واحداً، ويمكن تأخيره إلى نهاية ذى الحجة، ولو فعله بعد الشهر أجزأه. قال النووى: وطواف الإفاضة يستحب فعله يوم النحر بعد الرمى والنحر والحلق فإن أخره عنه وفعله فى أيام التشريق أجزأه ولا دم عليه بالإجماع فإن آخره إلى ما بعد أيام التشريق وأتى به بعدها أجزأه ولا شىء عليه عندنا وبه قال جمهور العلماء وقال مالك وأبو حنيفة إذا تطاول لزمه معه دم. ويسقط طواف الوداع عن الحائض، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت إلا أنه خفف عن الحائض. (البخارى ٤ / ٣٥٧).

يوم سرقت غرناطة!!

وتحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ: المتشاوي الورداني - مترجم بالتليفزيون المصري:

فى أوائل القرن السابع الهجرى «الثالث عشر الميلادى» وفى الوقت الذى سقطت قواعد العرب فى أسبانيا مثل قرطبة وأشبيلية وبلنسية ومرسية تحدثت أنباء عن قيام مملكة غرناطة الإسلامية الصغيرة على أنقاض الأندلس الكبرى، وذلك فى الركن الجنوبى من شبه الجزيرة الأسبانية، فيما بين نهر الوادى الكبير والبحر على مقربة من العدوة المغربية لتكون ملاذها وقت الخطر الداهم وشاء القدر أن تنهض هذه الأندلس الصغرى وأن تستطيع إعادة دولة الحضارة مرة أخرى.. كما شاء القدر أن ينطفيء نور هذه الحضارة حينما أعلن الملكان الكاثوليكيان «فرناندو» و«إيزابيلا» ملكا أسبانيا المتحدة - حربهما المدمرة للقضاء على مملكة غرناطة وسرقة معالم هذه الحضارة.

وقد كشف الدكتور «خوسيه غوميث سولينيو» عن عثوره على وثيقة إنجليزية تؤكد أن سقوط غرناطة الإسلامية والحصار الذى عانت منه المدينة كان أكثر شراسة مما هو معروف حتى الآن.

ومؤلف وثيقة «سقوط غرناطة» شخص إنجليزى متخصص بقوانين الكنيسة ويدعى «ويليام ويدمونهام» وكان أحد المدعوين لحضور الصلاة والاحتفال فى كنيسة «سان بابلو» بمناسبة سقوط غرناطة الإسلامية.

وتتحدث الوثيقة عن حجم الأسلحة التى كانت بحوزة الغرناطيين ومدى الترف والأبهة التى تميزت بها القصور الغرناطية والبلاط الملكى، وأثر الحصار الذى فرضته القوات الأسبانية على أهالى مدينة غرناطة، حتى اضطرتهم إلى أكل الكلاب والقطط ويخلص إلى أن العرب دفعوا ثمناً باهظاً للغاية بسقوط آخر جوهرة لهم فى أوروبا.

ويذكر المؤلف أن القوات التى حاصرت غرناطة كان أكبر بكثير من عدد القوات الغرناطية مخالفاً بذلك الرواية المتوترة من أن جيش غرناطة كان كثيراً وتؤكد الوثيقة أن أهالى غرناطة مروا بمعاناة قاسية خلال أعوام الحصار، وقامت القوات الأسبانية بتحطيم وحرق الحقول المجاورة للمدينة، مما تسبب فى مجاعة رهيبة بين سكان غرناطة، ولهذا السبب أكلوا الخيول والكلاب والقطط.

وتتعرض الوثيقة أيضاً للكنوز الهائلة التى سرقها الأسبان بعد انتصارهم، ففى مسجد غرناطة كان هناك ٣٠٠ مصباح من الذهب والفضة.. وعثر ملك أسبانيا على كميات هائلة من الذهب، وبها بنى الكنيسة مكان المسجد، ويذكر المؤلف أيضا أن جدران أحد القصور كانت مبنية من البازلت ومرصعة بالأحجار الكريمة لذلك تم الاستيلاء على كميات هائلة من تلك الجواهر والأحجار الكريمة فى قصور غرناطة.

ويذكر المؤلف الانجليزى أن الملك فرناندو لم يسمح للمسلمين إلا بما يستطيع كل واحد منهم أن يحمله على ظهره من حاجات، ما عدا الذهب والفضة والسلاح ولهذا فإن الجيش الأسبانى وجد عند دخوله المدينة الآلاف من الأسلحة من سيوف ودروع ومنجنيق.

وحسب الوثيقة تم الاستيلاء على «٢٢٠٠٠٠» سيف منها «١٠٠٠٠» مطلية بالذهب من الطرفين.

ويشير الدكتور غوميث سولينيو إلى أن الوثيقة تذكر أن سقوط غرناطة تم عام ١٤٩١، والصحيح هو ١٤٩٢، والسبب هو أن السنة الجديدة لدى الانجليز كانت تبدأ فى ٢٥ مارس / آذار، وليس الأول من شهر / كانون الثانى ويذكر الدكتور غوميث سولينيو ملاحظة أخرى وهى أن الوثيقة تشير إلى أن سقوط غرناطة تم يوم ١ / كانون الثانى والصحيح هو يوم ٢ أى فى اليوم التالى، ويعلل ذلك بأن الملك «فرناندو» كان قد أعلم قواته المرابطة فى مدينة «سانتافى» القريبة من غرناطة يوم ١ - كانون الثانى بأن اتفاق الاستسلام قد تم، وأنه سيدخل المدينة فى اليوم التالى، أى ٢ / كانون الثانى.

ثم يتساءل الدكتور غوميث سولينيو: «كيف يمكن لشخص إنجليزى أن يعطى أخبار حرب غرناطة؟» إن السبب فى ذلك هو أن الملك «فرناندو» والملكة «ايزابيل» كانا قد سعيا إلى الحصول على موافقة من البابا بإعلان الحرب الصليبية على غرناطة، وما أن أعلن البابا هذه الحرب حتى هب ملوك أوروبا لمساعدة الجيش الأسبانى بإرسالهم الفرق العسكرية، ومنها فرقة كبيرة شارك فيها أحد أقرباء هنرى السابع ملك انجلترا، وكان هؤلاء يعدون الخطط لمهاجمة غرناطة مع الملك فرناندو.

وعندما غدت بقايا الأمة الأندلسية العظيمة كالعبيد فى ظل الحكم الأسبانى، لم يكن يدور بخلدهم شيئا مما دبرته السياسة الأسبانية، من مشاريع بعيدة المدى، للقضاء على وطنهم ودينهم وتراثهم، وكل مقوماتهم الحضارية والروحية وبدأت السياسة الأسبانية بفرض التنصير المغصوب على أبناء الأمة المغلوبة.

ثم قرن الكاردنيال (خمنيس) منقذ هذه السياسة، عمله بإجراء مدمر آخر، هو أنه أمر بجمع كل ما يستطيع جمعه من الكتب العربية، من أهالى غرناطة وأرباضها، ونظمت أكواما هائلة فى ميدان باب الرملة، أعظم ساحات المدينة، ومنها كثير من المصاحف البديعة الزخرف، وآلاف من كتب الآداب والعلوم، وأضرمت فيها النار جميعاً، ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة من كتب الطب والعلوم، حملت إلى الجامعة التى أنشأها فى قلعة (هنارس) وذهب ضحية هذا الإجراء الهمجى عشرات الألوف من الكتب العربية هى خلاصة ما تبقى من التفكير الإسلامى فى الأندلس.

واستمرت مطاردة السياسة الأسبانية للكتب العربية بعد فعلة خمنيس، فجمعت منها خلال النصف الأول من القرن السادس عشر مقادير عظيمة أخرى، من غرناطة ومن مختلف القواعد الأندلسية القديمة، ولاسيما بلنسية ومرسية، حيث كانت لدى الموريكسون والعرب المتنصرين منها مجموعات كبيرة، ولكنها لم تعدم ولم تحرق هذه المرة، بل لقيت سبيلها إلى المكتبة الملكية فى الاسكوريال أيام فيليب الثانى.

وفى سنة ١٦١٢م وقع حادث ترتب عليه أن ضوعفت المجموعة العربية بالمكتبة الملكية، وذلك أن أسطولاً أسبانيا بقيادة (دون بيدرو دى لارا)، وكان يجوس خلال المياه المغربية تجاه ثغر اسفى، ففاجأ قافلة من السفن المغربية كانت تصحب ملك المغرب مولاى زيدان الحسنى، وكانت من بينها سفينة مشحونة بالتحف، وبها نحو ثلاثة آلاف سفر من كتب الفلسفة والأدب والدين، فاستولى عليها الأسبان، وكانت هذه الكتب من محتويات المكتبة الزيدانية الشهيرة.

وكان مولاى زيدان قد اضطر تحت ضغط خصومه أن يغادر عاصمة مراكش، وأن يحمل معه تحفه وكتبه، فاستلبها الأسبان على هذا النحو،

وحملت غنيمة إلى قصر الاسكوريال، وبذلك بلغت المجموعة العربية فى الاسكوريال فى أوائل القرن السابع عشر نحو عشرة آلاف مجلد.

وبقيت هذه الآلاف العشرة من المخطوطات الأندلسية والمغربية فى قصر الاسكوريال زهاء نصف قرن، وكانت أغنى وأنفس مجموعة من نوعها فى أسبانيا، وفى أوروبا كلها، ولكن محنة جديدة أصابت هذه البقية الباقية من تراث الأندلس الفكرى، ففى سنة ١٦٧١ شبت النار فى قصر الاسكوريال والتهمت معظم هذا الكنز الفريد، ولم ينقذ منه سوى زهاء ألفين هى التى تثوى اليوم فى أقبية الاسكوريال.

ويذكر الدكتور محمد عبدالله عنان فى كتابه عن نهاية دولة الأندلس أن محاولات عديدة بذلت من ملوك المغرب لاسترداد تراث العرب من الأندلس بعد فراقها ولكنها كانت دون جدوى.

وإحساساً بعظم النكبة التى حدثت للمسلمين فى الأندلس قام العلامة اللغوى حسن الكومى بإنجاز عمل موسوعى ضخم كتبه (هنرى تشارلزلى) بعنوان «محاكم التفتيش فى أسبانيا».

وقال إن من دوافعه لترجمة الكتاب عدم وجود بحث تاريخى عن العرب والمسلمين فى أسبانيا بعد سقوط غرناطة.. موضحاً ان «ما جرى للعرب والمسلمين من اضطهاد وقهر وانتزاع أملاك وأموال وسرقة وطرد وتشريد وغير ذلك.. يشبه ما جرى ويجرى لعرب فلسطين بالاحتلال الإسرائيلى لبلدهم وإنشاء دولة إسرائيل فيه، كما يشبه ما حدث من فوضى وسرقات من جانب قوات الاحتلال الأمريكى بعد سقوط بغداد.

أزمتنا فى عصر العولمة

وتحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ/ محمد عباس محمد عرابى:

إن المتأمل فى واقعنا قبل الثورة وبعدها يتبين له أننا نعانى من أزمة، وأزمتنا أزمة عقل قبل أن تكون أزمة وضع (أى تكون أو لا تكون فى ظل العولمة)، وبدون صلاح الأول لا يمكن للثانى أن يستقيم والاعتراف بالمرض أول خطوات الشفاء.

فهل نستطيع بعد الثورة ان نصوغ عقلانية إسلامية معاصرة تعمل على استنهاض مصرنا فى ضوء أهداف الثورة، وفى ضوء المتغيرات العلمية والتقنية المعاصرة؟

إن خير وسيلة للتواجد فى عصر العولمة والاندماج فيه، ومواجهة المتغيرات والتحولات العامية وفهمها بعقلية جديدة هى صياغة استراتيجية ومنهجية معرفية جديدة تكون بمثابة القلب المحرك لفكرنا.

إن مصر بعد الثورة مطالبة باستعادة مكانتها وريادتها للأمة فى شتى المجالات وهذا يفرض علينا تحرير الفكر وتأجيج الروح النقدية وبالتالى العقلية الإبداعية لنتمكن من صياغة وبناء استراتيجية معرفية لفكرنا العربى الإسلامى فى عصر العولمة.

ويمكن القول: إن شيوع مفاهيم النقد البناء فى المحيط الاجتماعى، يبدد الجمود وينهى الرتابة، ويبث الحيوية والحياة فى أرجاء المجتمع، ويزيد من مستوى المسئولية العامة، ويساهم فى بلورة قوى اجتماعية جديدة وإنضاجها حتى تأخذ على عاتقها دور التجديد والتطوير فى المحيط الاجتماعى.

أنباء مكتب الإمام الأكبر



إعداد الأستاذ/ محمد عبدالمجيد حسن
مدير عام العلاقات العامة بمكتب الإمام الأكبر شيخ الأزهر

تخصيص مجموعة من تأشيرات الحج للأزهر الشريف



د. أحمد الطيب — الملك عبدالله بن عبدالعزيز

تقديراً من خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز للدور الريادى للأزهر وشيخه فضيلة الإمام الأكبر أحمد الطيب، أمر الملك عبد الله بن عبد العزيز عاهل المملكة العربية السعودية بتخصيص مجموعة من تأشيرات الحج للأزهر الشريف.

وفضيلة الإمام الأكبر يشكر خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز على هذه اللفتة الكريمة وما تتضمنه من معنى روحى سام، كما يقدر لجلالته تثمينه لدور الأزهر الذى يؤديه نحو كل المسلمين إيماناً بواجبه العلمى والدينى والحضارى تجاه الأمة.

بيان من الأزهر الشريف بشأن سوريا

يهيب الأزهر الشريف بإخوتنا فى الشام المبارك أن يتداركوا الدماء المسفوكة، والأسر المشتتة، والمصائر المهدَّدة، ومواجهة الشعب الأعزل بالرصاص الحي وبالحديد والنار، دُون جدوى، وعلى مدى شهور عدّة، أهدرت فيها أرواح وانتهكت حرمات وأعراض.

والأزهر الشريف الذى صبر طويلاً وتجنب الحديث عن الحالة السورية نظراً لحساسيتها فى الحراك العربى الراهن، يشعر بأن من حق الشعب السورى عليه أن يعلن الأزهر وبكل وضوح أن الأمر قد جاوز الحدُّ وأنه لا مفرَّ من وضع حدٍّ لهذه المأساة العربية الإسلامية.

ويناشد الأزهر المسئولين فى سوريا الشقيقة - كل المسئولين - أن يرعوا هذا الشعب الأبى ويؤكد ما سبق أن قاله فى بيان له فى بداية الأزمة من أن الشعب السورى وما يتعرض له من قمع واسع، ومن استعمال لأقصى درجات العنف، و اعتقال وترويع، وأن كل ذلك يمثل مأساة إنسانية لا يمكن قبولها ولا يجوز شرعاً السكوت عنها، ومعلوم أن الدم لا يزيد الثورات إلا اشتعالاً، ومن هنا فإن الأزهر الشريف يؤكد ضرورة احترام حقوق الشعب السورى وحرياته وصيانة دمائه، فإنه يطالب القيادة السورية بأن تعمل فوراً على وقف إراقة الدماء وعلى الاستجابة للمطالب المشروعة للجماهير السورية، استجابة صادقة واضحة ناضرة، حفظ الله الشعب السورى آمناً حراً عزيزاً كريماً، صامداً شامخاً، يرد كيد العدو ويشد أزر الصديق.

ويؤكد الأزهر أن سرعة استجابة السلطة السورية لإرادة الشعب وحقن دماء المواطنين سوف يفوت الفرصة على أى مخططات تعمل الآن على تفجير الشام المبارك من أقصاه إلى أقصاه.

هذا ولله الأمر من قبل ومن بعد، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

القاهرة: ٨ من رمضان سنة ١٤٣٢ هـ

٨ من أغسطس سنة ٢٠١١م

شيخ الأزهر

أ. د/ أحمد الطيب

نداء إلى الشعب الليبى

يهيب الأزهر الشريف بالشعب الليبى وثورته التى تمر بهذه اللحظة التاريخية أن ينتبه إلى بناء ليبيا المستقبل الحرة الديمقراطية فى ظل الإسلام السمح، وأن يحرص على الوفاق الوطنى بين جميع مكوناته، وأن يتجنب الولوغ فى الدماء، فكفاه ما تم من إزهاق الأرواح وإراقة الدماء، فالمصالحة الوطنية وحفظ السلم الاجتماعى والأهلى أهم واجبات المرحلة الحالية، وأن محاسبة من أخطأ تكون وفق إجراءات قانونية عادلة.

مشيخة الأزهر

فى ٢٥ من رمضان سنة ١٤٣٢ هـ

الموافق ٢٥ من أغسطس سنة ٢٠١١ م

شيخ الأزهر

أ. د/ أحمد الطيب

الأزهر الشريف والحراك العربى

فى هذه الظروف الدقيقة، التى تمر بها شعوبنا العربية فى مرحلتها الجديدة وتكتبُ فيها صفحةً حرةً من تاريخها الممتد وتستأنف بها فى هذه المنطقة المركزية من العالم دوراً جديداً لحضارتها العريقة، فى هذه الظروف:

أ- يتوجه الأزهر الشريف - مرة أخرى - وانطلاقاً من واجبه الإسلامى والقومى والوطنى. إلى الحُكّام العرب بالنصيحة التى أمرنا بها النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله الشريف: «الدين النصيحة» قلنا: لمن؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم» ويطالبهم بأن يستجيبوا لإرادة شعوبهم فى الحصول على حقوقهم المشروعة، وأن يتذكر حكامنا أن كل قطرة دم تُراق، هى أغلى من كل مناصب الدنيا وسلطاتها، وأن كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه) كما قال الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم، كما يُذكّرُهم الأزهر بموقفهم بين يدى رب العالمين ومحاسبتهم عن شعوبهم فرداً فرداً:

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

(الشعراء: ٨٨ - ٨٩)

ب- ويناشد الأزهر شعوب العالم العربى، وبخاصة فى اليمن وسورية، - وهى تطالب بحقوقها فى حراكها الراهن - ألا تخرج عن نهجها السلمى الذى بهر العالم وأثمر ثمرته الطيبة فى مصر وتونس (والله - تعالى- يعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف) كما جاء فى الحديث الصحيح أيضاً.

ويناشد الأزهر شعوبنا العربية أن يعملوا - جاهدين - على الحفاظ على وحدة النسيج الاجتماعى لأوطانهم ويضربوا المثل فى مراعاة العدل والإنصاف وسيادة القانون، بما يتفق مع حضارتهم ومع روح الإسلام الحنيف، وألا يمكنوا المترصدين من أعداء العروبة والإسلام من اختراقهم والعبث بمقدراتهم ومواردهم؛ فما وجدتم ولا وجدنا من هؤلاء الأعداء - إلا الأنانية والاستغلال.

جـ- وينصح الأزهر الشريف أولى الأمر فى البلاد العربية والإسلامية أن يفطنوا إلى أن شعوبهم اليوم إنما تطلب الكرامة، والمساواة، والديمقراطية والشورى فى تقرير المصائر، ومحاسبة المسئولين وضبط الموازنات، وفى هذا رحمة بالجميع، وحفاظ على السلم الاجتماعى، ونهوض بالإصلاح ورعاية لحقوق الحاكم والمحكوم، وقضاء على التدخلات الأجنبية المغرضة. والحكيمُ من قام بالإصلاح دون أن يطالبه به أحد.

إنها منعطفات تاريخية تستوجب اليقظة والحذر، والإخلاص والتجرد، والإفادة من التجارب، والنظرة المستقبلية البعيدة لهموم الأمة وقضاياها الكبرى، ومصائرها التاريخية المهددة. وأمتنا - أيها الأخوة - فى حاجة إلى جهد كل فرد من أبنائها فى صراعها التاريخى ضد أعدائها فى الداخل والخارج.

ولا يفوت الأزهر - بعد الأحداث الأخيرة على الحدود المصرية - أن يُحذر المعتدين من غضبة الشعب المصرى الأبى، الذى فاض به الكيل من تصرفات العدو الذى لا يراعي العهود ولا المواثيق،

وينذره بيوم الحساب على ما اقترف من جرائم فى الماضى والحاضر، ويحيى القوات المسلحة وقوات الشرطة ويشد على أيديهم ويترحم على شهداء الوطن ويتقدم بالعزاء لأهلهم وذويهم.

كما يحيى شباب مصر الثائر الذين انتفضوا لكرامة وطنهم، ودماء إخوانهم، وأبدوا من الوعى الحضارى فى رفضهم للتصرفات الهمجية العدوانية ما لفت أنظار العالم إلى روح مصر الجديدة الثائرة، والتى سوف تضطر المعتدين إلى أن يحسبوا لها ألف حساب.

﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾

الشعراء: ٢٢٧

وإنى على ثقة أن مصر بكل أطيافها، وفصائلها، وأحزابها وائتلافاتها تجتمع الآن يداً واحدة، وصفاً واحداً ضد الصلف الكريه الممقوت، والعدوان الجائر الظالم. وتقول لهؤلاء ـ اللاعبين بالنار: إن مصر اليوم غيرها بالأمس، وإنها تقف لهم - بكل قواها شعباً وقادة - بالمرصاد، ليدركوا أن الدم المصرى والعربى أغلى من أن يذهب هدراً بلا قصاص.

أيها الأخوة المتطلعون إلى المستقبل، لقد أصدر الأزهر الشريف وثيقة لبناء المستقبل، على أسس شرعية تراعى ظروف مصر الراهنة، وهى - فى الوقت نفسه - تحوى أصولاً عامة، وقيما مشتركة، تصلح للاستهداء بها فى بناء المستقبل المشترك الذى ننشده جميعاً ونسعى إليه بكل عزم وتصميم، وإذا صدق العزم فقد وضح السبيل.

أيها الأخوة: لقد أقلعت سفينة النهضة العربية وعلى كل المخلصين أن يبلغوا بها بر الأمان، لنستأنف - متساندين متعاضدين - مرحلة جديدة من حضارتنا العريقة بإذن الله.

ولا ننسى أن نهنئ إخوتنا فى ليبيا على ما كتبه الله لهم من نصر وتأييد ومستقبل زاهر بالحرية والعدالة والديمقراطية

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾

(آل عمران: ١٢٦)

اللهم إنا نسألك رحمة تهدى بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وترد بها الشر عنا وأن تنصر أولياءك المؤمنين وتخذل أعداءك المعتدين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مشيخة الأزهر فى: ٢٤ من رمضان ١٤٣٢ هـ

الموافق: ٢٤ من أغسطس ٢٠١١

شيخ الأزهر

أ.د/ أحمد الطيب

الإمام الأكبر يستقبل الدكتور محمد البرادعى



محمد البرادعى

استقبل فضيلة الإمام الأكبر أ.د / أحمد الطيب شيخ الأزهر السيد الدكتور / محمد البرادعى المرشح المحتمل لرئاسة الجمهورية، وقد تطرق الحديث إلى البحث فى الشأن العام وقد أوضح الإمام الأكبر أن الأزهر الشريف هو بيت للمصريين جميعاً وهو مؤسسة وطنية جامعة تؤكد على روابط الأخوة بين المصريين جميعاً، وتسعى للتقريب بين مختلف المذاهب الإسلامية على منهج وسط قويم وتعمل لتحقيق السلام بين الأديان والأجناس على مستوى العالم كله.

وقد استعرض فضيلة الإمام الأكبر فى عجالة تاريخ النضال الوطنى للأزهر منذ ثورات القاهرة ضد الفرنسيين وإلى ثورة ١٩١٩، وصولاً إلى ما يقوم به اليوم من جهود لتعزيز الوحدة الوطنية والوفاق الوطنى مشيراً إلى بيت العائلة المصرية ووثيقة الأزهر حول مستقبل مصر، ودار حوار حول الإرادة الشعبية. وقال الدكتور البرادعى: إن الأزهر هو الذى يقود ويقوم بدور الريادة ويلتفت إليه الجميع ويلتف حوله الشعب، وأشاد بوثيقة الأزهر التى يتحدث عنها العالم كله، لأنها لبت كل رغبات الشعب فى دولة وطنية ديمقراطية دستورية حديثة.

وأكد البرادعى على ضرورة الاسترشاد بوثيقة الأزهر ووضعها فى الحسبان أثناء صياغة الدستور ووضعها ضمن المعايير العامة التى يبنى عليها الدستور وبخاصة فى تكوين اللجنة التى تشرف على الدستور.

وأخيراً: كما أوضح فضيلته أن علماء الأزهر الشريف رواد لكل حركات الإصلاح والاستنارة فى مصر والعالم العربى والإسلامى.

وقد استعرض فضيلة الإمام الأكبر مع الدكتور محمد البرادعى دور الأزهر أثناء الثورة والذى كان متبنياً لمطالبها، داعماً لها، بل ومشاركاً فيها عبر مشاركة العديد من علمائه وطلابه.

وأخيراً فقد أكد فضيلة الإمام الأكبر أن الحرية مقصد أساسى من مقاصد الشريعة، وأن الأزهر الشريف يرى أن الشورى ملزمة، ومن هنا فإن الأزهر الشريف يحرص كل الحرص على إتمام المسيرة الديمقراطية حتى يتسنى للشعب المصرى الكريم أن يعبر عن إرادته الحرة فى اختيار ممثليه وحكامه، وحتى يختار بحرية نظامه الدستورى ونهجه السياسى.

..ويستقبل الدكتور عبد الله الأشعل


عبد الله الأشعل

استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور/ أحمد محمد الطيب شيخ الأزهر الشريف يوم الإثنين الموافق ١٥/٨/٢٠١١م الدكتور / عبد الله الأشعل المرشح المحتمل لرئاسة الجمهورية .

وصرح الدكتور الأشعل بأن الأزهر في عهد فضيلة الإمام الأكبر يستعيد مكانته وسط بيئة مصرية متناقضة .كما أن الأزهر يمثل قوة الاعتدال في مصر ومصداقية الأزهر سوف تقضي على الكثير من السلبيات التي يعاني منها المجتمع في مصر .

وأضاف سيادته بأننا سوف نساند فضيلة الإمام الأكبر في دوره لتتخطى ما تواجهه الأمة من عقبات، كما أشاد سيادته بالوثيقة التي تبناها الأزهر الشريف، وأوضح بأنه لا ينبغي أن تتمحور مصر حول مجموعة من المفاهيم التي ليس لها معنى، وأن لدينا أولويات أولها التطهير والعدالة الاجتماعية وبناء النظام السياسي الجديد.

الإمام الأكبر يطالب رئيس الجهاز المركزي للتنظيم والإدارة بالانتهاء من تثبيت متعاقدي الأزهر


صفوت النحاس

استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور/ أحمد محمد الطيب- شيخ الأزهر- بمكتبه صباح يوم الأحد: ٢٨/٨/٢٠١١م الدكتور صفوت النحاس رئيس الجهاز المركزي للتنظيم والإدارة وذلك لبحث آخر المستجدات بالنسبة لتثبيت المتعاقدين بالأزهر الشريف

حيث شدد فضيلة الإمام الأكبر خلال اللقاء على ضرورة الانتهاء من تثبيت المتعاقدين الأزهريين في أقرب وقت، لأنه حق لهم.

ومن جانبه عرض الدكتور صفوت النحاس على فضيلة الإمام الأكبر ما تم الانتهاء إليه بالنسبة لتثبيت المتعاقدين بالأزهر ممن مر عليهم ثلاث سنوات فأكثر كما يقضي الكتاب الدوري رقم (٢) لسنة ٢٠١١م الصادر عن الجهاز المركزي للتنظيم والإدارة حيث تم الانتهاء من تثبيت ١٩ ألف متعاقد من الأزهر يمثلون ٨ مناطق أزهرية بالإضافة إلى الإدارات المركزية بالديوان العام.

وقال: إنه تم إعداد جدول زمني لتثبيت باقي المتعاقدين وعددهم ٥٠ ألف متعاقد بحيث يتم الانتهاء من مراجعة ١٠ آلاف كل أسبوع.

جدير بالذكر أن الجهاز المركزي للتنظيم والإدارة وافق على تثبيت العاملين بعدد ٨ مناطق أزهرية وهي (المنوفية، والسويس، وشمال سيناء، والقليوبية، والإسكندرية، وجنوب سيناء، والأقصر، والجيزة) بالإضافة إلى عدد (٧) إدارات مركزية وهي (الإدارة الهندسية، مجمع البحوث الإسلامية، مدينة البعوث الإسلامية، الشئون الإدارية، مكتبة الأزهر، رعاية الطلاب، المطبعة).

وصرح يس الشيخ رئيس الإدارة المركزية للشئون الإدارية والأفراد بالأزهر بأن الجهاز المركزي يقوم حاليا باتخاذ الإجراءات الخاصة بمراجعة الأوراق الخاصة بتثبيت العمالة بباقي المناطق الأزهرية في ضوء الإجراءات المعمول بها في هذا الشأن وسيتم تباعا إعلان المناطق التي يتم الانتهاء منها.

زويعة أمينا عاما للمجلس الأعلى للأزهر


زويعة

أصدر فضيلة الإمام الأكبر الدكتور/ أحمد محمد الطيب-شيخ الأزهر - قرارا بندب فضيلة الشيخ/ عثمان إسماعيل محمد زويعة رئيس الإدارة المركزية لمكتب وكيل الأزهر للقيام بعمل الأمين العام للمجلس الأعلى للأزهر

فتح باب القبول للتقدم للشعبة الإسلامية

وافق فضيلة الإمام الأكبر الدكتور/ أحمد محمد الطيب- شيخ الأزهر - على فتح الباب لقبول دفعة جديدة بالصف الأول الثانوي بالشعبة الإسلامية للعام الدراسي الجديد ٢٠١١/٢٠١٢ .

وصرح محمد إبراهيم المشرف على الشعبة أنه تقرر فتح باب القبول للدراسة بالشعبة لمدة عشرة أيام تنتهي يوم: ٢٦/١١/٢٠٠٨ وسيتم قبول الطلاب للدراسة وفقا للشروط الآتية:

أن يكون المجموع الحاصل عليه الطالب في الشهادة الإعدادية الأزهرية ٧٠٪ والنجاح في اختبار لحفظ القرآن الكريم (١٨ جزءا) واجتياز الاختبارات التحريرية والشفوية التي ستعقد للقبول، بالإضافة إلى المقابلة الشخصية

وأضاف أنه تم مخاطبة المناطق الأزهرية لقبول أوراق الطلاب وترتيبها وفقا للمجموع

وعلى من يرغب في الالتحاق بالشعبة من الحاصلين على الشهادة الإعدادية الأزهرية التقدم بأوراقه إلى المنطقة التابع لها في الموعد المحدد.

الأزهر يحتفل بإنجاز وتسليم مشروع محمد بن راشد لحفظ ونشر مخطوطات الأزهر الكترونيًا



متابعة الأستاذين:
عبدالموجود أمين - يحيى سليمان

أكد المشاركون فى احتفال الأزهر الشريف بإنجاز وتسليم مشروع محمد بن راشد لحفظ ونشر مخطوطات الأزهر الكترونيًا بالدور الذى يقوم به الأزهر فى الحفاظ على التراث العلمى الإسلامى وخدمة أبناء العالم الإسلامى ورعايته واحتضانه لهم وكذلك دوره فى الحفاظ على وسطية الإسلام.

وأشاد المشاركون بالدور الذى قام به سمو الشيخ محمد بن راشد نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء وحاكم دبى بتقديمه الدعم الكامل لإنجاز وإنجاح المشروع الذى تكلف أكثر من ٣٨ مليون جنيه ورعايته الكاملة لحفظ التراث العلمى الإسلامى ونشره لجميع المهتمين من جميع أنحاء العالم ورعايته للتواصل الحضارى والثقافى بين الشعوب والذى يتيح للجميع الاطلاع على سماحة الدين الإسلامى وعلى الحضارة الإسلامية التى قامت على العلم والعلماء.

كما أشاد المشاركون فى الاحتفالية التى نظمها الأزهر الشريف بمناسبة إنجاز المشروع والذى حضره فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر، ومحمد عبدالله القرقاوى وزير شئون مجلس الوزراء فى الإمارات، والدكتور عماد أبو غازى وزير الثقافة، وعدد من كبار المسئولين فى دولة الإمارات العربية المتحدة وجمهورية مصر العربية بالتقنية التى تم استخدامها فى المشروع والتى من خلالها ستتيح لجميع الباحثين والدارسين فى العالم الاطلاع على المخطوطات الإسلامية النادرة التى تضمها مكتبة الأزهر والتى تحفظ فى طياتها سماحة ووسطية الإسلام.

وأكد الدكتور عصام شرف رئيس مجلس الوزراء، خلال الكلمة التى ألقاها نيابة عنه وزير الثقافة الدكتور عماد أبوغازى، أن هذا المشروع يعتبرا مشروعاً رائداً ويمثل إحدى المحطات فى مسيرة طويلة من التعاون والعمل المشترك بين دولة الإمارات العربية المتحدة وجمهورية مصر العربية لما فيه خير الشعبين الشقيقين والأمة الإسلامية.

وفى كلمته وجه فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب ـ شيخ الأزهر: الشكر لصاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم على إطلاقه وتمويله لهذا المشروع.

وقال: إننا فى الأزهر نعتبر المشروع هدية غالية للأمة الإسلامية، حيث سيوفر هذا المشروع التقنى المتطور القدرة للأزهر للوصول إلى أكبر عدد ممكن من طلبة العلم والباحثين والدارسين الراغبين فى الاستفادة من مراجع الأزهر فى أى مكان فى العالم، حيث إن المعاهد الأزهرية وحدها يصل عددها لأكثر من ٩ آلاف معهد، بالاضافة إلى جامعة الأزهر التى تضم أكثر من ٧٠ كلية يدرس بها أكثر من ٢,٥ مليون طالب من جميع دول العالم.

وقد تسلمت مشيخة الأزهر المشروع والذى يتضمن توثيق وحفظ مخطوطات الأزهر التى يصل عددها لـ ٥٠ ألف مخطوط تضم أكثر من ٨ ملايين ورقة تغطى ٦٣ فرعاً فى شتى



د. عصام شرف



د. أحمد الطيب

العلوم والفنون يرجع بعضها لـ «القرون الإسلامية الأولى».

وفى كلمته أكد صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم أن حفظ التراث العلمى الإسلامى ونشره لجميع المهتمين من جميع أنحاء العالم يمثل تواصلا حضاريًا وثقافيًا يتيح للجميع الاطلاع على سماحة الدين الإسلامى وعلى الحضارة الإسلامية التى قامت على العلم والعلماء، وأنه بالعلم أيضا يمكن أن تستعيد الأمة العربية والإسلامية دورها الحضارى والإنسانى العالمى.

وعبر صاحب السمو عن سعادته بإنجاز هذا



العمل مؤكداً أن هذا المشروع هو مساهمة بسيطة في تخليد العلم والعلماء وحفظ تراث الأزهر الشريف الذى كان وسيبقى منارة للعلم وقبلة للمتعلمين ومرجعاً للمسلمين فى جميع أنحاء العالم.

وقال معالى محمد عبدالله القرقاوى وزير شئون مجلس الوزراء فى الإمارات: إن فكرة المشروع جاءت خلال زيارة صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد للأزهر الشريف قبل عشر سنوات واطلاعه على المخطوطات وأمهات الكتب المحفوظة فى الأرشيف، حيث دفعه ذلك للبحث مع الإمام الأكبر شيخ الأزهر حينها فى كيفية إتاحة الفرصة أمام جميع المسلمين للاستفادة من هذا الإرث الفكرى الإسلامى القيم والكبير خدمة لطلاب العلم والعلماء وجميع المهتمين.

وأشار إلى أن المشروع لا يقتصر على أرشفة المخطوطات، بل يتضمن تخزين أكثر من ١٢٥ ألف مرجع آخر وتوفيرها الكترونيا عبر الموقع، بالإضافة إلى إنشاء شبكة اتصالات داخلية للربط بين المعاهد الأزهرية الرئيسية وبإطلاق الأزهر (أول جامعة فى العالم)، موقع المكتبة الالكترونى وبما تحفظه من أمهات الكتب ومراجع علمية قيمة عبر موقعها على الإنترنت www.alazharlibrary.gov.eg فإنها تفتح بذلك زراعيها للباحثين وطلبة العلم فى العالم أجمع لتصفح قرون من الإنتاج العلمى والفكرى الإسلامى، حيث تضم مكتبة الأزهر أكثر من ٥٠ ألف مخطوط تقع فى ٨ ملايين ورقة يرجع تاريخ بعضها لأكثر من ١٠٠٠ سنة، بالإضافة إلى ٣٧ ألفا من أمهات الكتب وأوائل المطبوعات طبع أحدثها قبل ٦٠ عاماً.

وأضاف أن المشروع انطلق العمل به بهدف حفظ وأرشفة مخطوطات الأزهر ونشرها عبر الإنترنت بمكرمة من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم إثر لقائه بفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الراحل الدكتور محمد سيد طنطاوى. حيث تهدف المبادرة إلى الحفاظ على كنوز الثقافة الإسلامية والإرث العلمى لجامعة الأزهر باستخدام أحدث التقنيات التكنولوجية المتطورة، بما يسمح بالاحتفاظ بمحتوى تلك المخطوطات النادرة والقيمة لقرون مقبلة دون تلف، كما يهدف المشروع، الذى شمل وضع مكتبة الأزهر الشريف على شبكة الإنترنت، توفير تلك المادة العلمية، التى لا تقدر بثمن، إلى أكبر شريحة ممكنة من المتخصصين والباحثين فى الدراسات الإسلامية وجعلها متاحة حول العالم.

وأوضح القرقاوى أن القائمين على تنفيذ المشروع أولوا اهتماماً بالغاً بمعايير أمن المعلومات والمحافظة على خصوصية المخطوطات وحقوق الأزهر.

وأكد جمال بن حويرب ـ المشرف العام على المشروع على حرص فريق العمل بالمشروع على توفير أعلى معايير الأمان والحماية لهذه المخطوطات فتم تركيب كامل التجهيزات والمعدات داخل المبنى الأساسى بما فى ذلك أجهزة الخادم والتى عادة ما يتم استضافتها فى مناطق أخرى كأوروبا والولايات المتحدة.

وأضاف بن حويرب أنه تم تدريب فريق من الأزهر على مهمة تغذية الموقع بالمعلومات باستمرار وإجراء الصيانة اللازمة بالإشراف والمتابعة، وقد تم التعاقد مع شركة متخصصة للقيام بمهام الحماية والحفاظ على محتويات الموقع، وقبل كل ذلك فإن هناك نظاماً أمنياً كبيراً يتم اتباعه خلال عملية البرمجة وإدخال





المعلومات من حيث جلب المخطوط والمحافظة عليه أثناء تصويره.

وأشار إلى أنه لضمان أعلى المعايير العالمية فى حفظ المخطوطات وأرشفتها وتبويبها فقد تم التعاقد مع شركة IBM لإنجاز البنية التقنية للمشروع وتوفير أحدث التجهيزات والتقنيات المتطورة ووقع الاختيار على IBM نظراً لخبرتها فى هذا المجال وعملها على مشاريع كبرى مشابهة حول العالم مثل مشروع أرشيف الفاتيكان ومكتبة الكونجرس.

وقال مهدى شلتوت - رئيس الإدارة المركزية لمكتبة الأزهر: إن مراحل المشروع المختلفة تضمنت إعداد مبنى خاص لاستقبال أجهزة المسح الضوئى وهى أجهزة متخصصة لمثل هذا العمل عالية الوضوح وفائقة الحساسية، والأجهزة الخادمة لحفظ البيانات (سيرفرات) وقد تم تجهيز الطابق الخامس فى مبنى مكتبة الأزهر، ثم بدأ العمل على تدريب الكوادر فى الأزهر للقيام بمهام النسخ الضوئى وحفظ المخطوطات وتحويلها للأرشيف الإلكترونى تمهيداً لتوفيرها عبر الإنترنت، وقد تم نسخ أكثر من ١٦ ألف مخطوط حتى الآن ولا يزال العمل جارياً لاستكمال نسخ وحفظ باقى المخطوطات.

وأضاف شلتوت - بأنه يتم العمل بمشروع سمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم لحفظ مخطوطات مكتبة الأزهر ونشرها على شبكة الإنترنت وفقاً لدورة عمل مميكنة تتيح متابعة المخطوطات منذ استدعائها من أماكن تخزينها إلى أماكن العمل على تحويلها من الشكل الورقى إلى الشكل الرقمى ثم عودتها لأماكن حفظها مرة أخرى.

أنباء العالم الإسلامى



إعداد الأستاذين/ محمود الفشنى - أحمد رضوان

جسر جوى لنقل مساعدات إغاثة إنسانية عاجلة من سلطنة عُمان الى اليمن

قررت سلطنة عُمان تقديم مساعدات إغاثة إنسانية عاجلة عبر جسر جوى يمتد من السلطنة إلى مطار عدن الدولى جنوب اليمن لدعم اليمنيين النازحين من محافظة أبين بسبب المواجهات الدامية. تشمل المساعدات مواد غذائية ومستلزمات طبية وأدوية، والمولدات الكهربائية إلى جانب مساعدات إيوائية سيتم توزيعها بالتنسيق مع الوحدة التنفيذية اليمنية، وتشرف الهيئة العمانية للأعمال الخيرية على نقلها على دفعات.

وتقرر أن يتولى فريق الإغاثة العمانى توزيع تلك المساعدات بالتعاون مع القنصلية العامة للسلطنة والهلال الأحمر اليمنى ولجنة النازحين والهيئات والجمعيات الأهلية المحلية فى ثلاث محافظات هى عدن وأبين ولحج. وقد تجاوز حجم الدفعة الأولى من المساعدات ١٠٥٠ طناً، إضافة إلى كميات إضافية تم شراؤها من عدن تنفيذاً لتوجيهات السلطان قابوس بن سعيد وتقرر أن تشارك فى الجسر الجوى خمس طائرات.

سفير طاجيكستان: نعتز بعلاقاتنا مع مصر

أقامت سفارة طاجيكستان حفلاً بمناسبة ذكرى عيد استقلالها فى الثامن من شهر سبتمبر حيث ألقى السفير الطاجيكى كلمة بهذه المناسبة قال فيها:

إن طاجيكستان تنتهج سياسة الانفتاح، وتبنى علاقات ودية متوازنة مع جميع دول العالم - القريبة منها والبعيدة، الكبيرة منها والصغيرة - وتسعى إلى إقامة تعاون إيجابى وحوار حضارى بناء مع عالمها

الخارجى.. وترفض العدوان والكراهية فى العلاقات الدولية.. وتحب لغيرها ما تحب لنفسها.

وفى هذا السياق تقوم علاقاتها مع جمهورية مصر العربية والتى أرست قاعدتها الصلبة الزيارة الرسمية التاريخية التى قام بها إلى مصر فخامة الرئيس إمام على رحمان رئيس جمهورية طاجيكستان فى شهر فبراير ٢٠٠٧م.

نحن فى طاجيكستان نعتز بعلاقاتنا مع مصر التى كانت من أوائل الدول التى اعترفت بسيادة طاجيكستان الحديثة وأقامت معها العلاقات الدبلوماسية وأتاحت لها فرصة الانتفاع من خبراتها وتجاربها الرائدة فى مختلف المجالات.

ونحن نريد كل الخير لمصر.. ولشعب مصر.. نتمنى لها العافية والاستقرار والتوفيق فى إطلالة عهدها الجديد، كما لا يفوتنا أن نحيى من هذا المقام ثورة شبابها فى ٢٥ يناير التى أعادت مصر إلى مسارها السليم.. ومنهجها القويم.. لتتبوأ مقعدها الذى تستحقه فى المحافل الدولية.. والله خيراً حافظاً.

اجتماع اللجنة التنفيذية لهيئة الإغاثة الإسلامية

عقدت اللجنة التنفيذية لهيئة الإغاثة الإسلامية العالمية لرابطة العالم الإسلامى اجتماعها الـ ١٥ فى مقر الأمانة العامة للهيئة. وبحث أعضاء اللجنة خلال الاجتماع حزمة من المواضيع من ضمنها ما قدمته إدارة الهيئة من أوراق عمل تختص بتطوير بعض السلوكيات الإدارية والفنية والمالية للهيئة، إضافة إلى مذكرات إنشاء بعض الوحدات الجديدة، مثل وحدة النظم والسياسات ووحدة الجمعية العامة ومجلس الإدارة ولجانه، والتوصيف الوظيفى المقترح لمدراء المكاتب الخارجية.. كما ناقشت اللجنة مشروع التعاون بين الهيئة ومركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز لرعاية الأطفال المعاقين بجدة.. ومشروع اتفاقية التعاون بين الهيئة واللجنة الوطنية لرعاية السجناء.

منظمة التعاون الإسلامى تكثف اتصالاتها الأوروبية والدولية لحشد التأييد لدولة فلسطين

كثف الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامى، البروفيسور أكمل الدين إحسان أوغلى خلال الأيام القلائل الماضية اتصالاته مع عدة أطراف أوروبية ودولية لحشد الدعم لحق فلسطين فى نيل الاعتراف الدولى وعضوية الأمم المتحدة.

وقال بيان صادر عن المنظمة: إن إحسان أوغلى أجرى اتصالات مع رئيس المفوضية الأوروبية، ومفوضة العلاقات الخارجية فى الاتحاد الأوروبى، ورئيس المجلس الأوروبى بحث خلالها حق فلسطين فى نيل الاعتراف الدولى كدولة حرة ومستقلة على حدود عام ١٩٦٧.

وأشار إحسان أوغلى إلى أنه فى ظل تعثر مفاوضات السلام الفلسطينية - الإسرائيلية نتيجة الخروقات الإسرائيلية، أصبح من الضرورى الآن أكثر من أى وقت مضى، أن يكون للمجتمع الدولى دور حقيقى وثابت فى الاعتراف بالحدود الفلسطينية.

كما شاركت منظمة التعاون الإسلامى فى اجتماع المنظمات الإقليمية الذى عقد فى القاهرة، بهدف تنسيق الجهود لدعم حق فلسطين فى نيل الاعتراف الدولى وعضوية الأمم المتحدة وكان الأمين العام قد أجرى نهاية الأسبوع الماضى، اتصالات مع السلطة الفلسطينية لتنسيق الجهود نحو دعم حق فلسطين فى نيل الاعتراف الدولى وعضوية الأمم المتحدة، وجاءت آخر الاتصالات مع مبعوث الرئيس الفلسطينى الدكتور نبيل شعث، الذى زار أنقرة أخيرا للتنسيق مع الجانب التركى بشأن موضوع عضوية فلسطين فى الأمم المتحدة، وكيفية متابعة قضية أسطول الحرية.

دورة لتأهيل ٢٥ مدرساً للتربية الإسلامية فى هولندا

عقدت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) بالتعاون مع مؤسسة غرناطة للنشر والخدمات التربوية، وبالتنسيق مع جمعية التآلف الإسلامية فى هولندا، دورة لتأهيل مدرسى التربية الإسلامية فى مدينة بورمرنت الهولندية، خلال الفترة من ٢٢ إلى ٢٥ سبتمبر الماضى، وشارك فى الدورة ٢٥ مدرساً.

وكان هدف المنظمة من عقد هذه الدورة التدريبية تأهيل مدرسى التربية الإسلامية وإكسابهم الخبرات والمهارات الضرورية المتطورة فى المجال التربوى، وتحديث طرائق تدريس مادة التربية الإسلامية، والوقوف على معوقات تطوير تدريس التربية الإسلامية بما يواكب العصر وفق ثقافة الأمة وخصوصيتها، وتنمية المهارات التواصلية والمنهجية للمشاركين، وتشجيع التواصل بين المهتمين والمختصين فى هذا المجال، وتبادل الخبرات والتجارب.

تزايد عدد المسلمين فى أيرلندا

كشف المكتب المركز للاحصاء فى أيرلندا أن ٣٢٥٣٩ من المقيمين على أراضيها يدينون بالإسلام حيث بلغت نسبة الذكور منهم ٥٩،٥٣٪ والإناث ٤٠،٤٦٪، مما يعنى أن ارتفاعا ملحوظا قد سجل مقارنة مع معطيات العام ٢٠٠٣ إذ قفز مجموع عدد المسلمين بنسبة ٦٩،٩ بالمائة.

وكان المكتب قد أجرى إحصائية رسمية شملت سكان البلاد، أكدت نتائجها أن المسلمين أصبحوا يشكلون الدين الثالث فى البلاد بعد الكاثوليك وأتباع كنيسة أيرلندا وذلك حسب وكالة «آكى للأنباء» وحسب أرقام المكتب الإحصائى ومقره دبلن فإن أكثر من نصف المسلمين فى الجمهورية ينحدرون من أصول آسيوية وإفريقية، بينما يشكل حملة الجنسية الأيرلندية منهم قرابة الثلث.

هذا ويظل الكاثوليك أكبر تجمع دينى فى الجمهورية الأيرلندية إذ بلغ عددهم ثلاثة ملايين و٦٨١ ألف نسمة بينما حل أتباع كنيسة أيرلندا الأنجليكانية فى المركز الثانى بواقع ١٢٥ ألف نسمة وذلك من أصل العدد الإجمالى للسكان والبالغ أربعة ملايين و٢٣٩ ألف نسمة.

ووزير الخارجية الإسباني يعلن: مسلمو أوروبا لا غنى عنهم


التويجرى

أوضح وزير الخارجية الإسبانى «ميجل أنخل موراتينوس» أهمية إثبات دور المسلمين في الدول والمجتمعات الأوروبية، مبرزا أن هناك الكثير من القيم المشتركة بين الجانبين الأوروبى والإسلامى ودعا وزير الخارجية فى خطاب أرسله إلى رئيس المنظمة الإسلامية للتربية ووالعلوم والثقافة «إيسيسكو»، عبدالعزيز عثمان التويجرى إلى العمل المشترك من أجل مكافحة التمييز والعنصرية وقال موراتينوس، بحسب وكالة الأنباء الإسلامية إن هناك الملايين من المسلمين الذين يعيشون كمواطنين فى الدول الأوروبيةوهم يقومون بأعمال لا غنى عنها فى هذه المجتمعات ويأتى هذا الخطاب ردا على خطاب مماثل كان التويجرى قد أرسله لوزير الخارجية الإسبانى فى شهر أكتوبر الماضي أبدى فيه تعليقا على مقال كتبه موراتينوس فى الصحافة الإسبانية يحث فيه على نشر التسامح ونبذ التميز والعنصرية الى تمارس ضد المسلمين فى أوروبا.

«التعاون الإسلامى» تتعهد بتقديم ٣٥٠ مليون دولار لمساعدة الصومال

تعهد أعضاء منظمة التعاون الإسلامى فى أسطنبول بتقديم ٣٥٠ مليون دولار للشعب الصومالى الذى تتفشى فيه المجاعة، وذلك خلال اجتماع طارىء عقد فى تركيا.. وقال الأمين العام للمنظمة أكمل الدين إحسان أغلى: أعلنا أننا نرغب فى جمع ٥٠٠ مليون دولار، ونحن نتعهد أن نقدم هبة بقيمة ٣٥٠ مليون دولار كانت تركيا قد جمعتها لتقديم المساعدة إلى ضحايا التصحر فى الصومال.

بالإضافة إلى مبالغ وعدت بتقديمها أيضا السعودية والسودان والجابون وقطر والبحرين والجزائر وإيران ومصر وكازاخستان وماليزيا والسنغال، بحسب ما جاء فى المشروع البيان الختامى للاجتماع الذى استضافته اسطنبول لبحث سبل إغاثة الصومال.

هيلارى: المسلمون أسهموا بشكل كبير فى تقدم الولايات المتحدة

اعترفت وزيرة الخارجية الأمريكى هيلارى كلينتون أن المسلمين أسهموا بشكل كبير فى تقدم الولايات المتحدة، وأكدت كلينتون فى كلمة لها خلال حفل فى وزارة الخارجية الأمريكية بمناسبة عيد الفطر المبارك «الماضى» بأن الأمريكيين توحدوا بعد أحداث ١١ سبتمبر.

كما أكدت كلينتون أن الولايات المتحدة لديها القدرة على رعاية التسامح الدينى، مضيفة: أنا فخورة جدا بأنه على الرغم من التحديات فإن بلدنا لديه القدرة على رعاية الحرية الدينية.

رابطة الجامعات الإسلامية تناقش الإصلاح السياسى فى مصر


جعفر عبدالسلام

نظمت رابطة الجامعات الإسلامية، بمقرها بالقاهرة، ندوة علمية حول مستقبل الإصلاح السياسى فى مصر، بالتعاون مع مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامى.

وقال الدكتور جعفر عبدالسلام الأمين العام للرابطة فى تصريح له: إن الندوة تأتى فى إطار سلسلة الندوات المخصصة لدراسة الإصلاحات المنشودة لمستقبل مصر فى شتى المجالات الدستورية والتشريعية والسياسية والاقتصادية والإعلامية والتربوية والتكنولوجية والحضارية والاجتماعية، بهدف مواجهة تحديات المرحلة الراهنة، ووضع رؤى مستقبلية للحياة السياسية لمصر بعد الثورة.

شارك فى الندوة لفيف من كبار السياسيين والأكاديميين والمثقفين.. منهم د. حسن نافعة رئيس قسم العلوم السياسية سابقا بجامعة القاهرة، ود. محمد إبراهيم منصور مدير مركز الدراسات المستقبلية التابع لمجلس الوزراء، والسفير نورى بيت المال مساعد الأمين العام لجامعة الدول العربية.. سابقا.

تحويل بعض ثكنات الجيش الفرنسى إلى مساجد

قررت الحكومة الفرنسية تحويل بعض الثكنات العسكرية التى كان يستخدمها الجيش الفرنسى فى السابق إلى مساجد مؤقتة حتى يتم التوصل إلى حل نهائى لمشكلة إغلاق المصلين لبعض الشوارع الباريسية لأداء الصلاة.

وأوضح وزير الداخلية الفرنسى كلود جيون، أنه تم اتخاذ كافة التدابير اللازمة لتحويل إحدى الثكنات التى كان قد أخلاها الجيش فى حى «كليبيوكور» الذى يتواجد فيه المسلمون بكثرة إلى مسجد، وذلك للحد من ظاهرة اضطرار المصلين لإغلاق بعض شوارع الحى لأداء الصلاة.

يذكر أن الإسلام أصبح الديانة الثانية فى فرنسا بعد الكاثوليكية، ورغم عدم وجود تعداد رسمى دقيق لمعرفة عدد المسلمين فى فرنسا، لتعارض إجراء الإحصاءات على أساس دينى مع قانون العلمانية، إلا أن البعض يقدر عدد المسلمين فى فرنسا ما بين ٦ إلى ٨ ملايين مسلم من إجمالى الشعب الفرنسى البالغ تعداده ٦٣ مليون نسمة.



inheritance according to its recognition of the polygamy. It seems that the Islamic Shari`ah attracted many British people, as it is evident in the call of "Rowan Williams", the Archbishop of Canterbury to apply many of the aspects of the Islamic Shari`ah, regarding it as a matter that cannot be avoided. He said in the BBC broadcasts in February 2008: "The application of the Islamic Shari`ah is inescapable to attain the benefit of the coherence of the British society."

It is worth mentioning in this regard that the British House of Commons refused the issuance of a resolution prohibiting wearing the face veil, keeping pace with France.

One of the good tidings that pleases us about the number of the embracers of Islam, according to the German statistics in 2006, 2007, and 2008, that a new Muslim embraces Islam every two hours. This means that throughout one year, more than 4000 Muslims embrace Islam. The source, which brought to us, as this is the statistics of the German government and the Islamic centers state that number of the individuals may be much more than this, because the embracers of Islam may not go to the official bodies to register that they embraced Islam.

The story published by Wikipedia states that there are more than 2500 mosques in Germany according to the official statistics. The same site states from a study published by the French Ministry of Interior that 3600 French citizens embrace Islam per year. The study asserted that the French Muslims are very religiously committed and crime decreases among them. It states that there are 2300 mosques in France, so that Islam is ranked the second religion after Christianity there. The prospects of this study state that the Muslims will form the quarter of the world inhabitants by 2025.

A study conducted by "La Libre Belgique", a Belgian newspaper, states that approximately the third of the inhabitants of Brussels are now Muslims. The name "Muhammad" became at the top of the names of the newborn babies in 2001. The studies conducted by official bodies in Belgium states that in 2025 Islam will be the first religion in Belgium.

As for Denmark, whose newspapers republished on 13th of February, 2008 the offensive caricatures of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him), the Danish "Politicians" Newspaper asserted the number

of the Danish who embrace Islam increase day by day, and there is one Danish citizen daily at least embraces Islam .

Also, the number of the Danish citizens who embraced Islam after publishing the offensive caricature reached 5000 at the same year. As for Netherlands, the libraries of Amsterdam witnessed great demand on buying the translated electronic newspaper, the matter that caused its quantity to run out after publishing the offensive caricature. On the other hand, Geert Wilders, the racial MR, was disappointed after three months of displaying a film, that offend Islam, called Sedition, as many Dutch people declared being Muslims during a week of the film.

In an unprecedented event, a group of Muslim Swedish youth reaching 15000 persons declared their being Muslims. Their ages range between 20 and 40 years. This event occurred in Stockholm, the Swedish capital after the crisis of the caricature offending the Messenger of Allah.

The report declared that Islam became in Sweden the second religion after Christianity. This led to being recognized by the Swedish government officially. This increasing dedication to Islam occurs in spite of the absence of the efficient propaganda and in spite of the increase of the anti-propaganda. This following verse carried good tidings to us:

{And, verily, Our Word has gone forth of old for Our slaves, the Messengers, That they verily would be made triumphant, 'And that Our hosts! they verily would be the victors.} [As-Safat (Those who set the ranks): 171-173]

{But Allâh will bring His Light to perfection even though the disbelievers hate (it).} [As-Saf (The Ranks): 8]

The state of the man who escaped from capitalism to communism asking for his happiness is like the one who asks for `Arm's help, about whom the poet said:

The one who calls for `Amr's help at the time of distress

Is like the one who calls for fire at the hot weather.

"The physical hunger should be satisfied first – and this should be taken for granted – but when it becomes satisfied, the human being has another desire that is met fulfilled by food, drink, or clothes. Also, the pleasures and desires of the body does not satisfy it, as it is different and has a human aim that transcends the physical pleasures, environment, creed, and growing future that has no limits."

This is what the people who resorted to Communism did not find, as they escaped from the physical hunger only to find the physical and spiritual hunger. The humanity found how communism collapsed in such a speed that the humanity has not ever faced in the collapse of the nations and civilizations.

Against the collapse of Communism to which the Western man escaped from the hell of capitalism, the Islamic nation faces a great duty awaiting it. It is our duty towards the humanity, as it should save it. It is in a dire need, and it is ready to accept Islam more than before, and since the whole universe became like a small village whose parts communicate with each other via the internet.

This is the great duty, which our nation undertakes to save the humanity at the most critical time. This will not take place by presenting theories of the past of our predecessors at the time of saving the world when we were the best nation. This duty should represent a human society, which should translate our ideas and creeds. Our social system should translate our ideas and beliefs to be a real rescue for the humanity.

The humanity today is extremely adapted to welcome Islam as a creed, Shari`ah, and life system. But the obstacle hindering that is the absence of Islam in this perfect image from the nations and countries adopting it. These obstacles become more severe when the countries of the Muslims become a permanent place for poverty, ignorance, backwardness, and diseases. This gives the European person – who wants to embrace Islam in general, message stating that if Islam is that perfect and great, why the Muslims did not make use of it.

This charges the Muslims with a crime against their religion twice: the first time when they left a creed, Shari`ah, and life system, and therefore became a prey to the political tyranny, cultural backwardness, economic downfall, social disintegration, and moral decay. The second time, when they became in this way an obstacle preventing the people's acceptance of it in spite of their yearning and dire need for it.

Also, there is a serious human crime committed by the people from the East and the West, when they try to keep us away from our origins to indulge in the desperate materialism in it last days. Their crime is represented when they and the whole world know that their act does not only hurt us, but they hurt the whole humanity, as they deprive it from that which fulfills their needs.

They argue that they fear for their industrial civilization which is established by their materialism to go back to people who may destroy the factories and labs and get away from the towns seeking caves or riding elephants or camels. This is funny naivety, and it would have been sufficient to us to laugh at it except for bad faith and corruption of conscience.

If these obstacles represent in the past centuries a real barrier, being represented in the absence of the Islamic system and the dominance of the intellectually defeatists over the cultural and educational life, these two obstacles no more have great effect, after the inhabitants of earth realized the great difference between Islam as a creed, Shari`ah, and way of life and the reality of the life of the Muslims after they abandoned its creed, Shari`ah and way of life.

We are now in front of a reality that receives Islam from its sources and recognizes it via the behaviors of some of the religiously committed persons, who are truthful and full the sides of Europe. They lead the scientists, writers, mathematicians, and astrologists. I was greatly surprised when I found among the British House of Commons seven Islamic personalities, five of whom are males and 2 are females.

You can imagine the people and party support wined by those members in Britain to reach this dignitary and to take part in making decisions in one of the oldest European country, Great Britain.

Britain cancelled the term "Islamic terrorism, and referring to it as a violent terrorism. Also, it responded to the instructions of Islam, amended the laws of

way the serious scientific culture becomes an active factor within the frame of comprehensive culture of the society.

One of the bounties granted by Allah to the Islamic and Arab nation is that He gave us a sound Islamic and commanded us to seek science, its understanding, and criticism without any restraint. Then, we should adapt it to our values and requirements. Thus, we will have opinion and choice thereafter in the light of the instructions of the Islamic Shari`a. According to the Qur'an and Sunnah, seeking science is obligatory, and wisdom should be sought by the believer.

In this way, religion can, along with culture civilization, perform a very important role in urging the people to seek science and to work properly from the cradle to the grave. Islam and the civilization coming from it stressed that the world should be understood by studying it and conclude its laws that are created for the use of the human being in being successors on earth on all of the fields.

If the meaning of "culture" is represented in the account of the human activities highlighted in the spiritual and scientific behavior, our Islamic culture can present more than its material and intellectual elements to build a balanced society whose citizens tend with enthusiasm to creation and production with resolution and belief for their confidence in the ability of this society to adopt the sound ideas, caring for them, and investing them with regard to civilization.

Will we get the lesson of history, which is the history of science and civilization in linking science and its method to the development of the scientific culture in the Arab and Islamic societies, and this line becomes essential to stirring the desire of the people in seeking knowledge paving the way for implanting and excelling in it.

I hope that my nation understand that.

*Islam and the Good Tidings of Victory

By: Dr. Hamdy Fattouh Waly

We do not have doubt in one moment in the leadership of the humanity stemming from Islam, because If Islam was not present, humanity would have searched for it and the created a system resembling it after the retreat of the two previous tendencies which were contradictory to each other. The materialistic Western tendency which Europe and America inherited from the old Raman state. It is the natural end of a civilization void of spirit, good pattern, and the dreams seen in the capitalist civilization.

As the human being since his creation is need for creed to enlighten his heart, interprets life, and links him to values transcending his person, the white man looked around searching for a creed, but his misfortune caused him to fall in the traps of communism. It has a strong effect at that time and represented the natural extension of the materialistic idea of life adopted by the Western man since the establishment of his civilization on the basis of the materialistic Roman civilization.

Difference between the Communism and the ideas spreading in the West is not difference in the way of thinking, but it is difference in the extent of thinking and the way of organization. The materialistic view of life is the same in communism and capitalism. But the difference is between the absolute freedom of investment and in along with the possession of everything, and the absence of the freedom of investment as in Russia.

In this way, the while many felt disappointed when he found that communism to which he escaped does not hold an aim further than crushing the bourgeoisies to dominate the workers class. At the same time, it erased all the dreams of the human spirit and cuts all of its relations with the universe and life and fights the religious spirit in the way it fights drugs.

* An article published in Arabic at Al Azhar magazine.

way the serious scientific culture becomes an active factor within the frame of comprehensive culture of the society.

One of the bounties granted by Allah to the Islamic and Arab nation is that He gave us a sound Islamic and commanded us to seek science, its understanding, and criticism without any restraint. Then, we should adapt it to our values and requirements. Thus, we will have opinion and choice thereafter in the light of the instructions of the Islamic Shari`a. According to the Qur'an and Sunnah, seeking science is obligatory, and wisdom should be sought by the believer.

In this way, religion can, along with culture civilization, perform a very important role in urging the people to seek science and to work properly from the cradle to the grave. Islam and the civilization coming from it stressed that the world should be understood by studying it and conclude its laws that are created for the use of the human being in being successors on earth on all of the fields.

If the meaning of "culture" is represented in the account of the human activities highlighted in the spiritual and scientific behavior, our Islamic culture can present more than its material and intellectual elements to build a balanced society whose citizens tend with enthusiasm to creation and production with resolution and belief for their confidence in the ability of this society to adopt the sound ideas, caring for them, and investing them with regard to civilization.

Will we get the lesson of history, which is the history of science and civilization in linking science and its method to the development of the scientific culture in the Arab and Islamic societies, and this line becomes essential to stirring the desire of the people in seeking knowledge paving the way for implanting and excelling in it.

I hope that my nation understand that.

*Islam and the Good Tidings of Victory

By: Dr. Hamdy Fattouh Waly

We do not have doubt in one moment in the leadership of the humanity stemming from Islam, because If Islam was not present, humanity would have searched for it and the created a system resembling it after the retreat of the two previous tendencies which were contradictory to each other. The materialistic Western tendency which Europe and America inherited from the old Raman state. It is the natural end of a civilization void of spirit, good pattern, and the dreams seen in the capitalist civilization.

As the human being since his creation is need for creed to enlighten his heart, interprets life, and links him to values transcending his person, the white man looked around searching for a creed, but his misfortune caused him to fall in the traps of communism. It has a strong effect at that time and represented the natural extension of the materialistic idea of life adopted by the Western man since the establishment of his civilization on the basis of the materialistic Roman civilization.

Difference between the Communism and the ideas spreading in the West is not difference in the way of thinking, but it is difference in the extent of thinking and the way of organization. The materialistic view of life is the same in communism and capitalism. But the difference is between the absolute freedom of investment and in along with the possession of everything, and the absence of the freedom of investment as in Russia.

In this way, the while many felt disappointed when he found that communism to which he escaped does not hold an aim further than crushing the bourgeoisies to dominate the workers class. At the same time, it erased all the dreams of the human spirit and cuts all of its relations with the universe and life and fights the religious spirit in the way it fights drugs.

* An article published in Arabic at Al Azhar magazine.

The twentieth century was said to be the century of the basic sciences, as the first half of it witnessed very important and effective scientific revolutions in the use of different contemporary technologies. This is to attaching great care to teaching the basic sciences in the schools and universities of the developed countries. However, these sciences in the developing countries are far from the focus of attention. They believed that they can live on what others produce.

This negligence gradually led to the graduation of generation not qualified enough to deal with the developed technologies that need deep knowledge of theories based on them. This caused – together with the great increase of the amount of knowledge "cognitive accumulation" – the existence of burdens and requirements added to knowledge. This caused the abstention of increasing number of students from studying sciences in some countries. It is dangerous to deal with technology without knowledge.

In Egypt we need to attach importance to the issue of teaching the basic sciences and taking care of the talented in the schools and universities according to integral and accurate plan aiming at stirring the desire of the students for knowledge from an early age in the way Japan did in 1999 in performing a program whose duration was three years intending to increase awareness.

This was done Japanese Agency for Science and Technology to enlighten the common people with the importance of the scientific and technological progress. This program includes any activities, among which is the scientific festivals for youth and Olympiad of robots, the establishment of scientific and technical video libraries, and the building of a new scientific museum "the world of sciences" and others.

It may be important in the context through which we assert the role of social culture in confronting the obstacles hindering the progress to remember the considerable retreat of the USA in teaching mathematics. This caused Ronald Rigan, the former President of the USA to issue the statement no 5461 in April, 1986 which includes:

"Since the beginning of math in Egypt and the country beyond the river since 5000 years, progress in understanding math was the main element of progress, science, trade and arts. We have taken great attention of the theories of Pythagoras until the theory of George Cantor about "the group". The

knowledge of maths and scientiofoc thinking in the age of computer became essential more than any time else for our world which has increasingly technical nature. In spite of the increasing importance of math for the progress of our economy and society, the affiliation of the students to the math programs is contradictory in the American educational system. However, the application of math in the different fields such as medicine, computer sciences and astronomy as well as the professions requiring skills, work, defense and government is indispensable. In order to encourage the study and application of math, it is suitable to remind the Americans of the importance of this principal branch of science to our lives.

The congress – according to the resolution no 261 issued by it and the Senate – called the week from 14^{th} to 20^{th} of April, 1986 the National Week of Math Awareness). It delegated the President and asked him to issue a statement in this regard. According to this statement, I, Ronald Rigan, the President of the USA declare the week from 14^{th} to 20^{th} of April as a national week of math, and I urge all of the Americans to participate in suitable rituals and activities proving the importance of math and its education to the USA. My signature of the statement today, the 17^{th} of April, 1986 and the 210 anniversary of the USA.

Thus, we call in this essay – as we called previously in various occasions – to the necessity of revising the scientific discourse at the national level and perfecting its wording starting from the deep-rooted belief in the importance of science and technology as a basis for survival before being the basis of any developmental project. Science shold be directed to spreading the scientific spirit among all of the categories of the society so that the scientific thinking should be life style. It calls for the formation of a scientific basis until it reaches its critical size with its human resources and its infrastructure, taking into consideration the requirements of this formation such as wise .planning at the long term, experienced self-administration, and extreme care for all of the capable and continuous reform for all of the cases.

Moreover, the scientific discourse should defy all of the details of the scientific and technical case with regard to education, culture, and application as if it warns to the errors afflicting the scientific discourse such as scientific terms. Also, it warns against apparent danger which is the abstention of the students from the scientific section in the secondary stage or whatever. In this

*Stirring desire in learning.....!

By: Dr. Ahmad Fouad Basha

Education with all of its levels is regarded as a productive process responsible for developing the human energies, which ensures the growth of talents and national abilities. No doubt that reforming education is regarded as one of the challenges that need direct confrontation, taking into consideration the nature and value of the society and its amount of civilization. This is in addition to seeking the guidance of the successful models in the developed countries or the countries that sought and still seek progress.

Moreover, the fundamental development of education needs continuous follow-up of the programs of reform and improvement and accurate review of the relations which combine different practical factors: organizational, administrative, programming…etc.

All of this needs special cognitive, intellectual, and field knowledge whose basics are known by specialists and experts of the scientists, teachers and educators. One of the lamentable and remarkable aspects is the transfer of two thirds of the students from the scientific section to the literary section.

The experts and analyzers agreed unanimously that this change is strange and rare in the whole world, which should be studied to realize its real reasons and avoiding its harmful effects on the scientific research path. This phenomenon reflects an important fact, which is that in spite of the exerted efforts, we have not reached the ideal method of dealing with the education of young people in this phase especially regarding the "art" of teaching sciences and preparing the scientific researcher as a basis of a wide scientific base which provides the society with the most efficient skills qualifying to research and development in different fields.

The importance of this issue comes from the importance of education and scientific research in the way that they are regarded as dire security necessity for meeting the requirements of the society and guaranteeing its comprehensive national security depending basically on excellence and distinctiveness in sciences and techniques known for governing the relations

*An article published in Arabic at Al Azhar magazine.

among the international powers and directing the movement of life on earth in the present time and future.

The developed countries followed the principle of direct linkage between the issues of educations and scientific research from one side and the requirements of the comprehensive national security from the other side. They knew, at the same time, how to make real scientists throughout excellence centers for taking care of the talented and creative persons in the different phases of education, being selected and prepared with extreme care to make a remarkable research and educational organization.

As for the majority of the developing countries, they are up to now at the beginning of the path to realizing the stance of science and technology in our life and the priority of attaching importance to it at all the levels and to the furthest extent, as they are the real criterion that distinguishes the north and the south, or the developed and the underdeveloped. Life standards in any society depend on sciences and its technologies. The widening gap between the countries of the north and those of the south in varying degrees is indeed scientific and technological gap primarily. All the forms of disputes on earth will not be determined except by technological excellence stemming from the developed researches in the organization of the governing sciences, ending with inventions that are able to act as protective deterrent when necessary.

Different international forums and future studies asserted that science and technology will form competitive ability of the countries and territorial groups in the twenty first century.

One of the necessary admitted facts which is not borne in the minds of many persons concerned with the educational and research process and is not regarded as a clear sign in the culture of the society. The path leading to a remarkable scientific boom starts with directing attention to the "art" of the basic sciences "math, physics, chemistry, and biology." Direction should be stirred by the scientific curiosity and developing the skill of understanding and to work proficiently, planting the guiding values leading to education along life. Good education guides the student to the keys of this path, as it teaches him the research method and sound scientific thinking. Also, it causes the freedom of criticism and expressing opinions.

Moreover, it presents to him the continuous value and everything that enlightens his insight and stirs his appetite for asking for more knowledge.

When Allah Commands the Muslims to do a certain thing or to abstain from it, He intends only to make them happy. He is the All-Rich, and does not need anything from His Servants. However, He wants this people to be up to the standard of being His successors on earth.

{ 'And (remember) when We showed Ibrâhîm (Abraham) the site of the (Sacred) House (the Ka'bah at Makkah) (saying): "Associate not anything (in worship) with Me, [Lâ ilâha illâllâh (none has the right to be worshipped but Allâh) — Islâmic Monotheism], and sanctify My House for those who circumambulate it, and those who stand up (for prayer), and those who bow (submit themselves with humility and obedience to Allâh), and make prostration (in prayer);" 'And proclaim to mankind the Hajj (pilgrimage). They will come to you on foot and on every lean camel; they will come from every deep and distant (wide) mountain highway (to perform Hajj). 'That they may witness things that are of benefit to them (i.e. reward of Hajj in the Hereafter, and also some worldly gain from trade), and mention the Name of Allâh on appointed days (the days of Dhul-Hijjah), over the beast of cattle that He has provided for them (for sacrifice), [at the time of their slaughtering by saying: (Bismillah, Wallâhu-Akbar, Allâhumma Minka wa Ilaik)]. Then eat thereof and feed therewith the poor having a hard time. 'That (Manâsik — prescribed duties of Hajj is the obligation that mankind owes to Allâh), and whoever honours the sacred things of Allâh, then that is better for him with his Lord. The cattle are lawful to you, except those (that will be) mentioned to you (as exceptions).

So shun the abomination (worshipping) of idol, and shun lying speech (false statements) — 'Hunafâ' Lillâh (i.e. worshiping none but Allâh), not associating partners (in worship) to Him; and whoever assigns partners to Allâh, it is as if he had fallen from the sky, and the birds had snatched him, or the wind had thrown him to a far off place. 'Thus it is [what has been mentioned in the above said Verses (, , , ,) is an obligation that mankind owes to Allâh] and whosoever honours the Symbols of Allâh, then it is truly from the piety of the hearts. In them (cattle offered for sacrifice) are benefits for you for an appointed term, and afterwards they are brought for sacrifice to the ancient House (the Haram — sacred territory of Makkah). [Al-Hajj (Pilgrimage): 26-32]

content what I leave with you, for those who came before you were destroyed because they asked too many questions and argued with their Prophets. If I tell you to do something then do as much of it as you can, and if I tell you not to do something then abstain from it."

The writers of the biography of the Prophet agreed unanimously that the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) visited Mecca in the seventh year after Hijira, intending to perform `Umrah, and liberated Mecca in the eighth year. He sent Abu Bakr to offer Hajj with the people in the ninth year, and the Prophet offered Hajj in the tenth year. Thus, Hajj was enjoined in the ninth year.

One of the merits of Hajj and `Umrah, Abu Hurayrah (may Allah be pleased with him) said that: He heard the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) saying: "Whoever performs Hajj and did not insult and does not commit any obscenity [rafath] or commit any evil will go back (free of) sin as on the day his mother delivered him."

It was narrated on his authority that the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: "The best deeds before Allah is undoubted faith, invasion without malignance, and an accepted Hajj."

One of the most important pillars of Hajj is standing on Arafat, in which the blessings of Allah are manifested, as the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "The best day before Allah is Arafat, as Allah (Glory be to Him) descends to the lowest heaven and expresses His pride to His angels at the time of 'Ishaa' on the Day of 'Arafat, about the people of 'Arafat. He says, 'Look at My slaves who have come unkempt and dusty. They seek My Mercy and do not experience My torment."

Al-Walid ibn Muslim said that Abu Bakr ibn Mariyam informed me on the authority of Al-Ashiyakh jurists that the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Allah (Glory be to Him) descends to the lowest heaven and comes top the angels expressing His pride to His angels at the time of 'Ishaa' on the Day of 'Arafat, about the people of 'Arafat. He says, 'Look at My slaves who have come unkempt and dusty. Every delegation will get a reward and they are My delegations Give them what they ask for, and give them back more than what they spent. At the sunset, Allah comes to them saying: I forgive you."

Hajj is an Islamic Assembly and International Conference...!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

Allah, who created the earth, chose in it Mecca, a pure place, to which sight and hearts yearn and prospect cling. This is the good place, around which everything is blessed. Allah praised it in the Qur'an saying: {'And (remember) when Ibrâhîm (Abraham) said, "My Lord, make this city (Makkah) a place of security and provide its people with fruits, such of them as believe in Allâh and the Last Day." He (Allâh) answered: "As for him who disbelieves, I shall leave him in contentment for a while, then I shall compel him to the torment of the Fire, and worst indeed is that destination!"}[Al-Baqarah (The Cow): 126]

Allah, the All-Strong and All-Mighty, in Whose Hands is the sovereignty of the heavens and earth, made the mosques His Houses, so that His Names are mentioned and calls for His path spreads from them. He chose a big mosque, so that the people travel to it to enjoy seeingt it. It is the oldest mosque on earth. It is the Sacred House, about which Allah (Glory be to Him) says: {'Verily, the first House (of worshiping) appointed for mankind was that at Bakkah (Makkah), full of blessing, and a guidance for the 'Alamîn (mankind and jinn). 'In it are manifest signs (for example), the Maqâm (place) of Ibrâhîm (Abraham); whosoever enters it, he attains security. And Hajj (pilgrimage to Makkah) to the House (Ka'bah) is a duty that mankind owes to Allâh, those who can afford the expenses (for one's conveyance, provision and residence); and whoever disbelieves [i.e. denies Hajj (pilgrimage to Makkah) as a doty then he is a disbeliever of Allâh], then Allâh stands not in need of any of the 'Alamîn (mankind, jinn and all that exists).} [Al-Imran (The Household of Imran): 97]

The books of the biography of the Prophets (May the blessings and peace of Allah be upon them) and references say that Adam is the one who started to build this Sacred Mosque. It was mentioned in the signs of prophecy by Al-Bayhaqy a Hadith narrated by `Abdullah ibn `Omar (may Allah be pleased with them) that: the Messenger of Allah (may the blessings

and peace of Allah be upon him) said that; Allah (Glory be to Him) sent down Jibril to Adam and Hawwa' and told them to build to Him a new house.

Jibril showed them the place and Adam dug the place and Hawwa' transported the dust until he reaches the water. He was called from underneath: O Adam, that is it. When they build it, Allah (Glory be to Him) inspired him to circumambulate it. It was said that Adam is the first human being, and this House is the first House. Then, the centuries passed until Nuh performed Hajj there. Then, Ibrahim raised the foundations of the House. Allah, Glory be to Him, says:

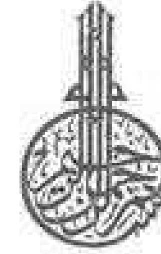
{And (remember) when Ibrâhîm (Abraham) and (his son) Ismâ'îl (Ishmael) were raising the foundations of the House (the Ka'bah at Makkah), (saying), "Our Lord! Accept (this service) from us. Verily, You are the All-Hearer, the All-Knower."} [Al-Baqarah (The Cow): 127]

Islam is based on five pillars: Testifying that Allah is the only god and that Muhammad is the Messenger of Allah, offering prayer (Salah), paying Zakah (obligatory charity), and performing Hajj by whoever is able to perform it. Therefore, hajj is a basic pillar of Islam and an obligatory duty enjoined on the people who are able to perform it. The evidence on this is the saying of Allah (Glory be to Him):

{And Hajj (pilgrimage to Makkah) to the House (Ka'bah) is a duty that mankind owes to Allâh, those who can afford the expenses (for one's conveyance, provision and residence); and whoever disbelieves [i.e. denies Hajj (pilgrimage to Makkah), then he is a disbeliever of Allâh], then Allâh stands not in need of any of the 'Alamîn (mankind, jinn and all that exists).}[Al-Imran (The Household of Imran): 97]

It is enjoined on every male or female Muslim, who is adult, free, and able to perform this obligatory duty once in his lifetime. If he performs it more than once, it is regarded as voluntary. There are many Hadiths about Hajj. It was narrated on the authority of Abu Hurayrah (may Allah be pleased with him) that he said: "The Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: "O people, Allah has enjoined Hajj on you, so perform Hajj." A man said: "Is it every year, O Messenger of Allah?" He remained silent until (the man) said it three times. Then the Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) said: "If I said yes it would be obligatory and you would not be able to do it." Then he said: "Be

AL-AZHAR MAGAZINE
Dhul-Qaedah, 1432 A. H.



ENGLISH SECTION
October, 2011

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾

الأعراف / ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."

(Al A'raf 43)

EDITOR : Dr. IBRAHIM AL-ASSIL,
Professor at the Faculty of Languages and Translation
Al-Azhar University

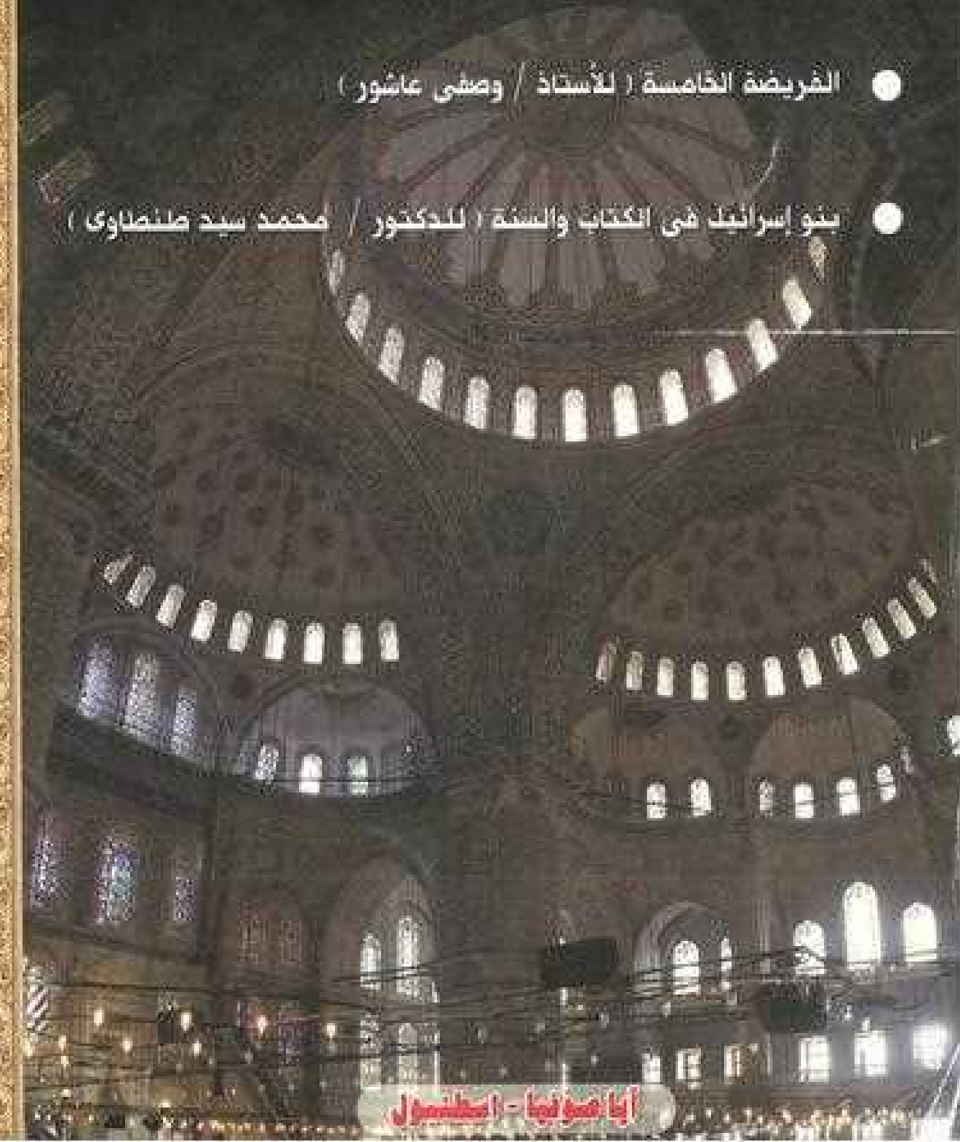
AL AZHAR
MAGAZINE

ترقب في العدد القادم

هدية العدد القادم :

طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد (للعلامة / عبد الرحمن الكواكبي)

- لماذا كان حجنا إلى البيت العتيق ؟ (للدكتور / محمد عمارة)
- التفسير .. (للإمام محمد عبده)
- الفريضة الخامسة (للأستاذ / وصفي عاشور)
- بنو إسرائيل في الكتاب والسنة (للدكتور / محمد سيد طنطاوي)



آيا صوفيا - اسطنبول

الثمن ١٥٠ قرشا

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
ذو الحجة ١٤٣٢هـ نوفمبر ٢٠١١م - الجزء ١٢ السنة ٨٤

أماذا كان حجنا إلى البيت العتيق
.. أ. د. محمد عمارة

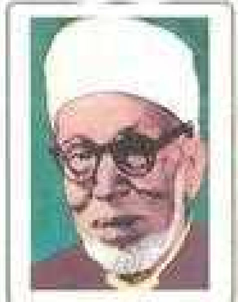
العلمانية تتاجر بخوف الإنسان
.. أ. محمد شعبان

هدية العدد طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد
للعلامة الشيخ عبد الرحمن الكواكبي - دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة

الفتح الإسلامي لمصر
.. أ. د. محمد سليم العوا

تقنين الشريعة الإسلامية
.. د. إبراهيم البيومي غانم

اقرأ لهؤلاء


محمد الخضر حسين


د. طارق البشري





بسم الله الرحمن الرحيم



الأزهر

مجلة شهرية جامعة
يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف فى مطلع كل شهر عربى
صدر العدد الأول فى المحرم ١٣٤٩ هـ/ ١٩٣١م
وحمل اسم «نور الإسلام»
برئاسة تحرير فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين

رئيس التحرير
أ.د. محمد عمارة

مدير التحرير
عادل رفاعى خفاجة

سكرتير التحرير
أحمد السيد تقى الدين

الاشتراك السنوى
داخل مصر ١٨ جنيها مصريا
الدول العربية ٥٠ دولارا أمريكيا
أوربا وأمريكا ٨٥ دولارا أمريكيا
اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولارا أمريكيا
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٥٧٨٦٢٠٠

المراسلات باسم: مدير التحرير
مجمع البحوث الإسلامية - م. نصر
ت: ٢٢٦٢٨٥٩٩

داخل العدد

الافتتاحية

لماذا كان حجنا إلى البيت العتيق؟!



لفضيلة الأستاذ الدكتور / محمد عمارة

عندما كتب حجة الإسلام أبوحامد الغزالى (٤٥٠ - ٥٠٥هـ ١٠٥٨ - ١١١١م) كتابه الفذ (إحياء علوم الدين) كان إعلاناً عن ضرورة «الثورة الثقافية التصحيحية» لما أصاب الجوانب الكثيرة من ثقافتنا الفقهية يومئذ من «جفاف.. وشكلية، يهددانها بالموات.. فهذا الكتاب - بعنوانه ومضمونه - دعوة «لإحياء» علوم الدين، الإحياء الذى يعيد تزامل «القلب» مع «العقل» فى اكتشاف أبعادها ومقاصدها، وذلك بعد أن وقفت الكثير من تآليفها عند «أشكال.. وحركات.. ومظاهر» كثير من الشعائر والمناسك والعبادات.. وإذا شئنا أن نضرب أمثال على ضرورة هذا «الإحياء» لفقه المناسك الإسلامية - الذى لا نزال فى أمس الحاجة إليه - فإنا واجدون الكثير والكثير:

١ - ففى القرآن الكريم ذُكر وصف للعلاقة الزوجية «بالميثاق الغليظ» الذى أقامته وعقدته الفطرة الإلهية بين الرجل وزوجه:

﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾

(النساء: ٢١)

وهذا الميثاق الفطرى هو الذى يجعل الزوجة تفضى إلى الزوج - وهى حديثة عهد بمعرفته - بما لا تفضى به إلى أهلها الذين نشأت وتربت فى كنفهم وأحضانهم، بل وتكشف له وتسر إلى بما تضن به على أقرب الأقربين من أولى الأرحام!

بل إن التعبير القرآنى ليصل، فى وصف رباط الزوجية وميثاقها، إلى الوصف الذى لو أفاض فيه كل شعراء الدنيا وبلغائها لما استطاعوا الاقتراب من عمقه وسموه وجمال دلالاته.. وصف «السكن» و«السكينة» التى تمثلها الزوجة بالنسبة لزوجها، الذى يسكن إليها!.. فهى له سكن يسكن فى مودته ورحمته.. يعبر القرآن الكريم عن هذا المستوى السامق للعلاقة الزوجية، تلك التى جعلها الله سبحانه وتعالى، آية من آياته فى بناء أولى لبنات الاجتماع البشرى - الأسرة - فيقول:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(الروم: ٢١)

فماذا صنعت كتب الفقه بهذه المعانى الجميلة والعظيمة والعميقة التى تتحدى لغة البشر أن تبلغ سماء دلالاتها؟ لقد عرف الفقهاء عقد الزواج - هذا الميثاق الإلهى الغليظ.. وهذه الفطرة المنشئة للمودة والرحمة والسكن والسكينة - بأنه: «عقد تمليك منفعة بضع الزوجة»!!.. فقتلوا روح هذه العلاقة السامية، عندما اختزلوها فى البعد «الغرائزى» للزواج، ولذلك كانت دعوة الغزالى إلى «إحياء» علوم الدين، بعد أن أصابها الموات!..

٢ - والصلاة، التى هى عماد الدين.. نجد القرآن الكريم لا يستخدم فى التعبير عنها مصطلح «الأداء»؛ لأنه يقف بالدلالة عند «الشكل.. والحركات.. والسكنات».. ويستخدم - بدلا من

ذلك – فى التعبير عنها مصطلح «الإقامة» لما يعنيه ويتطلبه من «الحضور» عندما يكون العبد فى لقاء مع مولاه

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾

(البقرة: ٤٣)

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾

(الأعراف: ٢٩)

ففى «الإقامة» استقامة وحضور.. بينما «الأداء» أشكال وحركات ورياضات للأبدان!

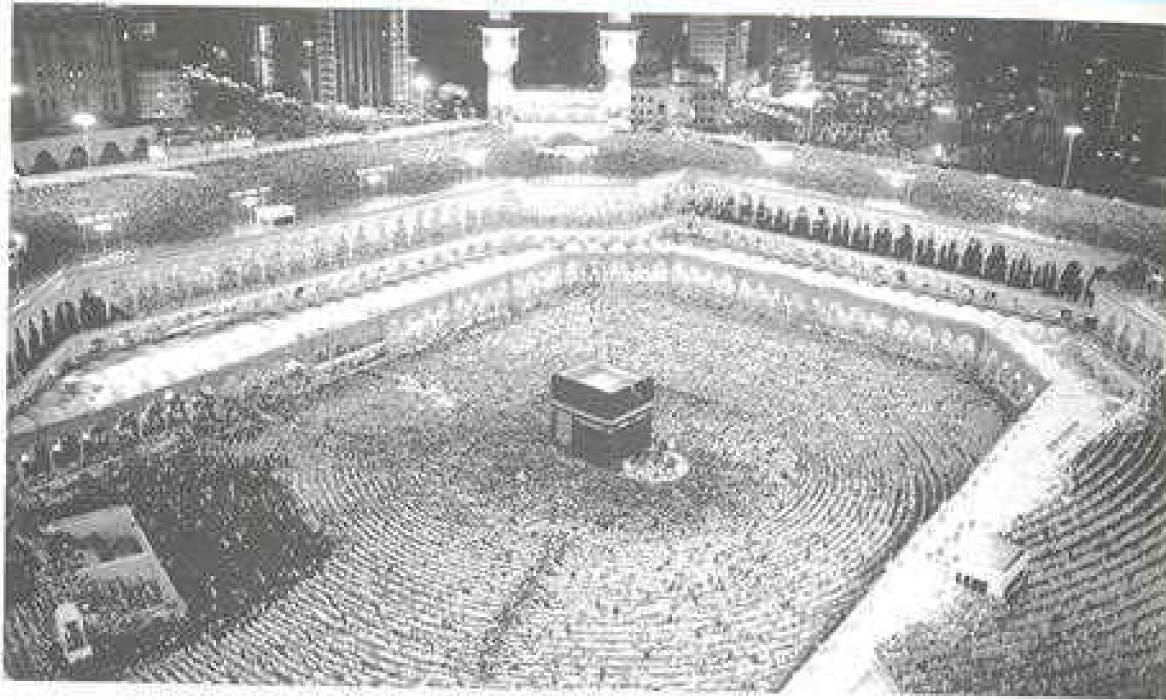
وإذا كانت الصلاة عماد الدين، فإن السجود فيها هو القمة التى يكون العبد فيه أقرب ما يكون إلى الله.. إنه قمة الحضور للمصلى بين يدى الله.. لذلك، نعجب من الفقه عندما وقف فى تعريفه للسجود، عند شكل الحركات، فغاب عنه – وغيَّب – المقصد واللب والمضمون.. فجاء تعريف السجود فى كثير من كتب الفقه بأنه «اطمئنان الأعضاء» حتى لكأنه تمرين رياضى، وليست الدرجة العليا فى سلم الحضور بين يدى الله!..

لذلك – أيضاً – كانت ضرورة دعوة أبى حامد الغزالى إلى «إحياء علوم الدين».

***

وإذا نحن طالعنا جميع أبواب الحج، فى أغلب كتب الفقه – فى سائر المذاهب الإسلامية – أو قرأنا آلاف الكتيبات التى يتداولها الحجاج إلى بيت الله الحرام، والتى تتبع تفاصيل التفاصيل فى مناسك الحج والعمرة – والمطبوعة بكل لغات الدنيا – فسنفاجأ بأننا أمام سرد لكيفية «أداء» المناسك، هو أقرب ما يكون إلى «خرائط وأدلة» السياح، منه إلى روح العبادة، ومقاصد المناسك، والمعانى العظمى التى وقف فوق ووراء أماكن وأشكال ومواقيت مناسك الحج إلى بيت الله الحرام.. الأمر الذى يدعو إلى فقه جديد يعيد «الروح» إلى المناسك التى وقف الناس ويقفون عند «أشكالها» ويذكّر «بالمعانى» التى نسيها الناس للأماكن التى يترددون عليها، ويستدعى «المقاصد» التى ما شرعت الشعائر إلا للاقتراب منها.

إننا فى حاجة إلى «إحياء» لفقه الحج إلى بيت الله الحرام، حتى يصبح الحج قصداً إلى المعانى والمقاصد والدلالات العظمى لهذا المنسك العظيم، وليس مجرد سياحة نزور فيها الأماكن



و«نؤدى» فيها الواجبات والفرائض والأركان.. وعلى سبيل المثال:

١ – فنحن فى حاجة إلى «الوعى» بحكمة جعل الله، سبحانه وتعالى، حج أمتنا الإسلامية إلى بيت الله الحرام، وليس إلى مكان آخر سواه؟

وفى فقه هذه الحكمة ووعيها يمكن أن يقال الكثير.

لقد شاء الله أن يكون حج الأمة الخاتمة لرسالات السماء – أمة الإسلام – إلى البيت الحرام؛ لأن هذا البيت هو أول بيت عُبد الله فيه على هذه الأرض.. ففيه بدأ الدين، وإليه يكون حج الأمة الخاتمة، رمزاً وتجسيداً لوحدة دين الله – من آدم إلى محمد – صلى الله عليه وسلم ورمزاً وتجسيداً – كذلك – لاكتمال لبنات هذا الدين الواحد بشريعة الإسلام، ورسالة محمد بن عبدالله – عليه الصلاة والسلام – وهو أيضاً تكريم لهذه الأمة، عندما جمع الله لها طرفى المجد الدينى، فكانت قبلتها، وكان حجها إلى أول بيت وضع للناس فى الأرض التى هى دار الأمانة والتكليف والاستخلاف.

ولما كان أبو الأنبياء إبراهيم الخليل، وابنه إسماعيل – عليهما السلام – قد أقاما قواعد هذا البيت العتيق، فلقد شاء الله أن يكون إليه حج أمة خاتم الأنبياء، الذى أحيت شريعته ملة إبراهيم.. والذى تعيد أمته – فى مناسك حجها – مناسك إبراهيم وإسماعيل وهاجر، مجسدة بهذا الإحياء وحدة دين الله.

﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا
وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي
بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ
إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ
مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾

(آل عمران: ٩٥ - ٩٧)

فإلى أول بيت تحج الأمة الخاتمة، فتحيى أمة خاتم الأنبياء مناسك ملة أبى الأنبياء.

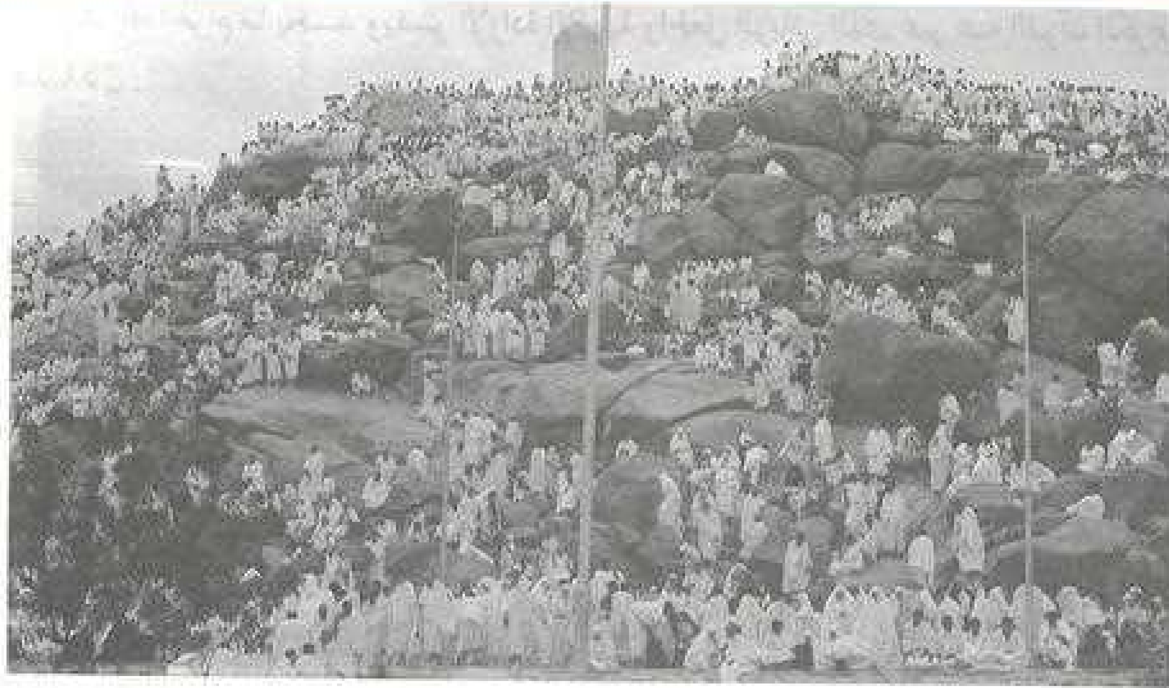
٢ - ونحن فى حاجة إلى فقه الإعجاز الخالد الذى يشعر به ويعيشه كل من حج إلى بيت الله الحرام.. فلقد دعا إبراهيم الخليل ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوى إلى بيته الحرام، فتجسدت الإجابة فى هذا الحج، الذى ربط القلوب - وليس الأجساد - بهذا البيت العتيق.. بل وليس مطلق القلوب؛ لأن «الأفئدة» هى «القلوب المتوقدة» بالأشواق.. وهى «تهوى» إلى هذا المكان اشتياق النفس إلى ما تشتهيه [١]!.. لقد تجسدت معجزة الإجابة الإلهية لدعوة أبى الأنبياء فى حجيج أمة محمد - خاتم الأنبياء - تجسدت آية من آيات الله المبثوثة فى النفوس والأفئدة المتوقدة شوقاً إلى بيت الله الحرام، توقداً دائماً، وشوقاً خالداً، عند كل مؤمن، وعلى مر سنوات عمره، وعبر القرون، والقارات، وفى كل القبائل والشعوب.

﴿ رَّبَّنَا
إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ
الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ
تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

(إبراهيم: ٣٧)

٣ - ونحن فى حاجة إلى فقه الحكمة التى جعلت من حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة ١٠هـ لحظة اكتمال الدين، فعندما أتم الرسول المؤمنون مناسك الحج، ووقفوا بعرفة، وأعلن خاتم الأنبياء فى العالمين ميثاق حقوق الله وحقوق الإنسان المستخلف عن الله، نزل الروح الأمين بوحى الله الذى يقول:

(١) الراغب الأصفهانى (مفردات غريب القرآن) - مادة «فأد» - طبعة دار التحرير القاهرة.



﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا
تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ
نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾

(المائدة: ٣)

فعندما أقام النبى الخاتم والأمة الخاتمة مناسك حج ملة إبراهيم - أبى الأنبياء - مثل ذلك اكتمال أركان الإسلام، واكتمال هذا الإسلام، الذى هو دين الله الواحد عبر كل رسالات السماء

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾

(آل عمران: ١٩)

وليس المراد باكتمال الدين هنا اكتمال الوحى القرآنى، أو الشريعة المحمدية، فبعد هذه الآية نزلت آيات وتشريعات - من مثل آيات الربا والكلالة.. وغيرها.

٤ - ونحن فى حاجة إلى فقه سر معجزة الأمن والأمان، الذى يغمر المؤمن فى بيت الله الحرام، حتى ليزيد هذا الأمن على ما يشعر به الإنسان فى مسكنه الخاص. فبصرف النظر عن جغرافية الأوطان، واختلاف الألوان، وتعدد اللغات وتنوع الشعوب والأمم، يجد الحاج من الأمن والأمان

فى بيت الله الحرام ما يجسد ويفسر الإرادة الإلهية والجعل الربانى الذى عبر عنه القرآن الكريم عندما قال :

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ
وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ
(١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ
مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾

(البقرة : ١٢٥ - ١٢٦)

وحتى يكون هذا البيت آمنا، ومحققا قمة الأمن والأمان للطائفين والعاكفين والركع السجود، منذ أن وضع للناس فى الأرض، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فلقد شاء له الله أن يتفرد بالحرية والتحرر من استعباد الجبارين والمستعمرين عبر قرون التاريخ، فلم يخضع لجبار ولا لمستعمر، وكان الناس من حوله تتخطفهم مخاطر الاستبداد والاستعباد، وهو آمن أبداً.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ
حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾

(العنكبوت : ٦٧)

ولأنه كان الحرم الآمن، الذى حفظه الله من الاستعباد والاستبداد، سماه الله - فى كتابه - «البيت العتيق»، أى الحر الذى انعتق وتحرر من كل ألوان الاسترقاق..

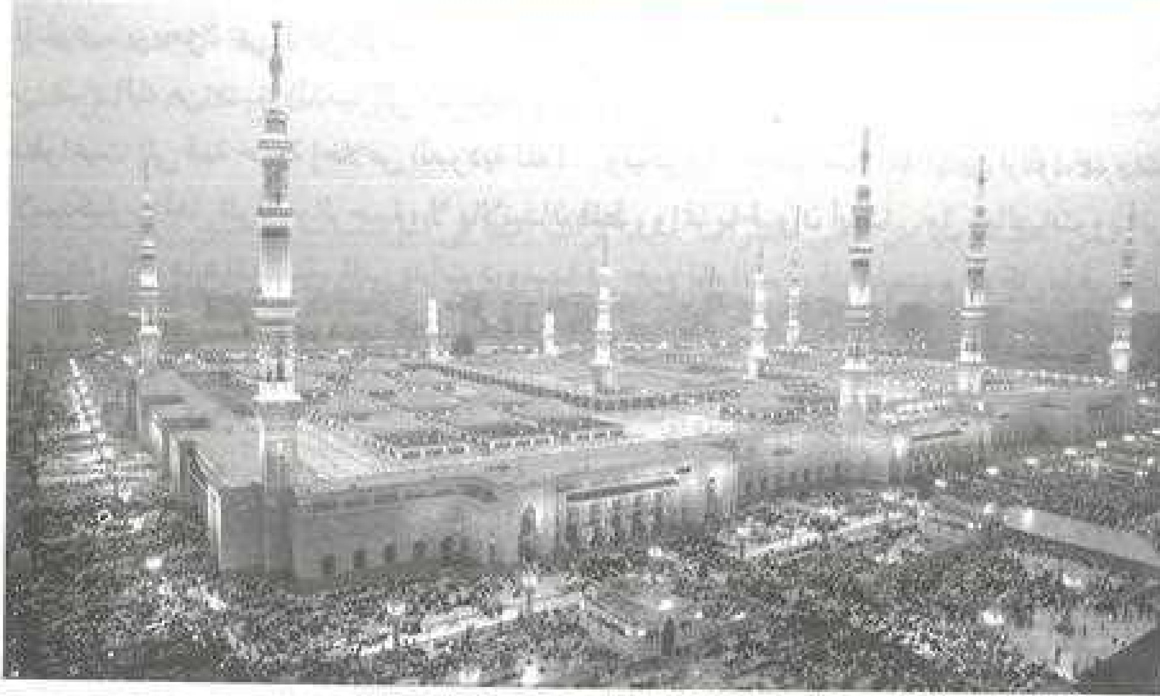
﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ
وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾

(الحج : ٢٩)

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢)
لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾

(الحج : ٣٣)

فهو الحر - دائماً وأبداً - حتى يكون حرماً آمنا - دائما وأبداً.. وعندما هددت غزوة الفيل حرية هذا الحرم الآمن، لم يخالج الشك أهل مكة يومئذ فى انتصار البيت العتيق على هذا



التهديد، فكانت ثقة عبدالمطلب بأن «للبيت رباً يحميه»!.

وجاء الإعجاز الإلهى «طيراً أبابيل» تحيل مصادر التهديد وقوى الاستعباد إلى «عصف مأكول».

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ
كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣)
تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾

(الفيل : ١ - ٥)

فهناك حاجة إلى فقه معجزة «الأمن».. فى هذا البيت «العتيق».

٥ - ونحن فى حاجة إلى أن يفقه الحاج إلى بيت الله الحرام ما يمكن أن نسميه بـ«أبعاد فلسفة المكان ورسالته الخالدة».. فحول هذه الكعبة نزلت كلمات الله على خاتم الرسل والأنبياء.. وبهذه الكلمات تمت فى مدرسة النبوة إعادة صياغة الجاهليين - أسرى الحمية الجاهلية وعبدة الأوثان - حتى غدوا الجيل الفريد الذى غيّر مجرى الدنيا والحضارة وأمسك بدفة سفينة التاريخ.. فدخل دار الأرقم بن أبى الأرقم أعراب حفاة غلاظ جفاة ليخرجوا منها وقلوبهم تفيض

بالتقوى، يزيحون عن كاهل الإنسانية جبروت الكسروية واستبداد القياصرة، ليخرجوا من شاء من عباد الله من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن العبودية للطواغيت إلى قمة حرية إخلاص العبودية لله!.. وليكونوا - وهم أسد الله الذين أزالوا جبروت الاستكبار - أهل الرفق والرحمة، لا بالإنسان فقط، وإنما بالحيوان أيضاً.. بل وبالنبات وسائر الطبيعة؛ لأن هذه المدرسة، التى بدأت دروسها فى حرم لله الآمن، قد علمتهم أن كل ما فى هذا الكون حى يلهج - على طريقته - بتسبيح الحى القيوم

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن
لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾

(الإسراء: ٤٤)

فنحن نحج إلى المكان الذى بدأت فيه «النعمة» التى هى أعظم نعم الله على المؤمنين.. «نعمة الإسلام».. وأعظم بها من نعمة تعطى هذا المكان خصوصية فى فلسفة المكان.. وفى رسالة المكان.

٦ - ونحن بحاجة إلى أن يتذكر الحاج - وهو ذاهب ليرمى جمرة العقبة - ما هو أكثر من رمى الجمرات!.. ففى هذا المكان - العقبة - عقدت «الجمعية التأسيسية» التى تعاقدت وتعاهدت على إقامة الدولة الأولى فى تاريخ الإسلام والمسلمين، الدولة التى غيرت الواقع، وجيشت الجيوش، وحولت مسار التاريخ وجعلت المستضعفين فى الأرض الأئمة والوارثين لمواريث النبوات والحضارات، وذلك عندما بايع الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقامة الدولة، بعد أن سبق لهم بيعته على إقامة الدين.. فولدت فى العقبة الدولة التى حرست الدين، والتى ساست الاجتماع والعمران بشريعة هذا الدين.

٧ - ونحن بحاجة إلى أن يتذكر الحاج - وهو بالعقبة أيضاً - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أراد تأسيس الدولة الإسلامية الأولى على البيعة والشورى والاختيار، فعندما همّ الأنصار بمبايعته على إقامة الدولة، وحماية قائدها مما يحمون منه أنفسهم ونساءهم وذراريهم، رغب إليهم أن تتم البيعة بواسطة «مؤسسة دستورية» تنشأ بالاختيار والانتخاب، فقال لهم: «اختاروا منكم اثنى عشر نقيباً».. فولدت - بالشورى والاختيار والانتخاب - أولى المؤسسات الدستورية فى الدولة الإسلامية.. وهى التى نهضت بمسئوليات «الوزارة.. والمؤازرة»، مع مؤسسة «المهاجرين الأولين» - التى نهضت فى دولة الخلافة بمسئوليات الإمارة - وتوزعت بينهما الاختصاصات يوم «السقيفة»، عندما قال أبوبكر الصديق - باسم المهاجرين الأولين - لممثلى النقباء الاثنى عشر: «منا الأمراء ومنكم الوزراء».

فمن العقبة - يا من ترمى الجمرات - بدأ تراث أمتنا فى المؤسسات الدستورية، القائمة على الشورى والاختيار والانتخاب - بمشاركة الرجال والنساء - قبل أن تعرف الأمم والحضارات لها تراثاً فى هذه المؤسسات!..

٨ - ونحن فى حاجة إلى أن يتأمل الحاج - وهو فى «منى» هذه «الغابة» من الجبال السوداء الكاحلة التى تحيط بمنزل الوحى وبيت الله الحرام.. ففى هذا المنظر الموحش لهذه الجبال السوداء معجزة من معجزات إلهية وصدق القرآن الكريم، ونبينا - عليه الصلاة والسلام -.

لقد اتفق البشر - من كل الفلسفات والثقافات والحضارات - على العلاقة الجدلية بين «المكان» وبين «الفكر» الذى يولد وينمو فى «المكان».. وإذا كان واقع «المكان المكى» هو هذه الجبال الكالحة السواد، فأنى هذا «الواقع» أن يثمر «فكراً» يستحق مضمون هذا الاصطلاح؟! وذلك فضلا عن أن تكون «الثمرة» هى هذا القرآن المعجز الذى تحدى - ولايزال - أساطين البلاغة والفكر عبر الزمان والمكان والفلسفات والثقافات والحضارات.. إنها شهادة على صدق النبوة والرسالة، شاء الله أن ينطق بها هذا المكان الموحش.. فعجزه عن إبداع «الفكر» شاهد على أن هذا الذى جاء به محمد بن عبدالله إنما هو نبأ السماء العظيم!

* * * *

إنها نماذج لخواطر - مجرد نماذج لخواطر - تدعو إلى أن نفكر ونجتهد لفقه جديد - هو فقه المقاصد والمعانى والدلالات والمعانى والدلالات - لتعود به «الحياة الحقة» و«الإحياء الحقيقى» لمناسك الحج إلى بيت الله الحرام.. إحياء لعلوم الدين.. وإنقاذاً لكتب الحج من جفاف وشكلية «الخرائط» التى يستخدمها السائحون.

إن مناسك الحج إنما تبتغى «تقوى القلوب»

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ (الحج: ٣٢)

وحرام أن نختزلها فى الحركات والسكنات أو نغرق مقاصدها الروحية السامية فى التفريعات والجزئيات.

تفسير سورة البقرة



لفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

﴿ الٓمٓ ① ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ② ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ③ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ④ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ⑤ ﴾

(البقرة: ١-٥)

﴿ الٓمٓ ① ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾

«البقرة : ١ ، ٢»

﴿ الٓمٓ ﴾ هو وأمثاله أسماء للسور المبتدأة به، ولا يضر وضع الاسم الواحد مثل : (الم) لعدة سور لأنه من المشترك الذى يعين معناه اتصاله بمسماه. وحكمة التسمية والاختلاف فى ﴿ الٓمٓ ﴾ و﴿ الٓمٓصٓ ﴾ نفوض الأمر فيها إلى المسمى سبحانه وتعالى. ويسعنا فى ذلك ما صنع صحابة رسول الله ﷺ وتابعوهم، وليس من الدين فى شيء أن يتنطع متنطع فيخترع ما يشاء من العلل، التى قلما يسلم مخترعها من الزلل.

﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ الكتاب بمعنى المكتوب وهو اسم جنس لما يكتب والمراد بالكتاب هذه الرقوم والنقوش ذات المعانى. والإشارة تفيد التعيين الشخصى أو النوعى. وليس المراد هنا نوعاً من أنواع الكتب بل المراد كتاب معروف معهود للنبى ﷺ بوصفه. وكأن ذلك العهد مبنى على صدق الوعد من الله بأنه يبعثه ويؤيده بكتاب تام كامل كافل لطلاب الحق بالهداية والإرشاد، فى جميع شئون المعاش والمعاد. فأشار «بذلك» إليه، ولا يضر أنه لم يكن موجوداً كله وقت نزول أمثال هذه الإشارة، فقد يكفى فى صحتها وجود البعض. وقد كان نزل من القرآن جملة عظيمة قبل نزول أول هذه السورة وأمر النبى ﷺ بكتابتها فكتبت وحفظت، فالإشارة إليها إشارة إليه. بل يكفى فى صحة الإشارة أن يشار إلى سورة البقرة نفسها لأنه يصح فيها وصف :

﴿ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾

والأول أشبه، والإشارة إلى الكتاب كله عند نزول بعضه إشارة إلى أن الله تعالى منجز وعده للنبى ﷺ بإكمال الكتاب كله.

ومن حكمة الإشارة إليه بهذا الكتاب، أى المكتوب المرقوم، أن النبى ﷺ أمر بكتابته دون غيره، فهو الكتاب وحده، ولا يضر أنه عند النزول لم يكن مكتوباً بالفعل لأنك تقول أنا أملى كتاباً أو هلم أمل عليك كتاباً.. والإشارة البعيدة بالكاف يراد بها بُعْد مرتبته فى الكمال، وعلوها عن متناول قريحة شاعر أو مقول خطيب قوال، والبعد والقرب فى الخطاب الإلهى إنما هو بالنسبة إلى المخلوقين، ولا يقال إن شيئا بعيداً عنه تعالى أو قريباً منه فى المكان الحسى لأن كل الأشياء بالنسبة إليه تعالى سواء. وإنما القرب منه والبعد عنه تعالى معنوى وهو أقرب إلينا من أنفسنا بعمله.

﴿ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى ﴾ الريب والريبة الشك والظنة (التهمة) والمعنى أن ذلك الكتاب مبرأ من وصمات العيب، فلا شك فيه، ولا ريبة تعتريه، لا من جهة كونه*من عند الله تعالى، ولا فى كونه هاديا مرشدا، ويصح أن يقال إنه فى قوة آياته، ونصوع بيناته، بحيث لا يرتاب عاقل منصف، غير متعنت ولا متعسف، فى كونه هداية مفاضة من سماء الحق، مهداة إلى الخلق، على لسان أمى لم يسبق له قبله الاشتغال بشيء من علومه، ولا الإتيان بكلام يقرب منه فى بلاغته، ولا فى أسلوبه حتى بعد نبوته ـ ولهذا قال فيما يأتى قريباً

﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ ﴾

«البقرة : ٢٣»

وحاصله إنه كذلك فى كل من نظمه وأسلوبه وبلاغته، ومن معانيه وعلومه وتأثيره؛ والمتبادر فى المعنى أنه لا يمكن أن تتوجه إليه الشبهة، أو تحوم حوله الريبة فى كونه هاديا من الله تعالى، سواء أشك فى ذلك أحد أم لا.

﴿ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾

خبر بعد خبر، والهدى مصدر فى الأصل كالتُقى والسُرى. والمراد بالهداية هنا الدلالة على الصراط المستقيم مع المعونة الخاصة والأخذ باليد، على ما تقدم فى تفسير المراد من:

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ﴾

لأن كونه هادياً للمتقين بالفعل غير كونه هادياً ـ دالاً ـ لسائر الناس من غير مراعاة أخذهم

بدلالته، واستقامتهم على طريقته، وكلمة «المتقين» من الاتقاء، والاسم التقوى، وأصل المادة: وقى يقى. والوقاية معروفة المعنى. وهو البعد أو التباعد عن المضر أو مدافعته، ولكن نجد هذا الحرف مستعملاً بالنسبة إلى الله تعالى كقوله:

﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾

«البقرة: ٤١»

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾

(١٩٤، ١٩٦، ٢٠٣، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٨٢، النساء: ١، المائدة: ٤، ٧، ٨، ١١، ٥٧، ٩٦، ١٠٨، الحجرات: ١، الحشر: ١٨)

﴿ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

«البقرة: ١٩٧»

فمعنى اتقاء الله اتقاء عذابه وعقابه، وإنما تضاف التقوى إلى الله تعالى تعظيما لأمر عذابه وعقابه، وإلا فلا يمكن لأحد أن يتقي ذات الله تعالى ولا تأثير قدرته، ولا الخضوع الفطري لمشيئته.

ومدافعة عذاب الله تعالى تكون باجتناب ما نهى واتباع ما أمر، وذلك يحصل بالخوف من العذاب ومن المعذِّب، فالخوف يكون ابتداء من العذاب وفي الحقيقة من مصدره، فالمتقي هو من يحمي نفسه من العقاب ولابد في ذلك أن يكون عنده نظر ورشد يعرف بهما أسباب العقاب والآلام فيتقيها.

كان من الجاهليين من مقت عبادة الأصنام وأدرك أن فاطر السموات والأرض لا يرتضيه الخضوع لهما، وأن الإله الحق يحب الخير، ويبغض الشر، فكان منهم من اعتزل الناس لذلك.. وكانوا لا يعرفون من عبادة الله إلا الالتجاء والابتهال وتعظيم جانب الربوبية، وذلك ما كان يسمى صلاة في لسانهم ـ وبعض الخيرات البديهية التي يهتدي إليها العقل في معاملات الخلق.

وكان من أهل الكتاب من وصفهم الله تعالى بمثل قوله:

﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

«آل عمران: ١١٣، ١١٤»

وبقوله:

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

«المائدة: ٨٢، ٨٣»

فأمثال هؤلاء من الفريقين هم المراد بالمتقين.

ولا حاجة إلى تخصيص ما جاء في وصفهم بالمؤمنين منهم بعد الإسلام أو بالمسلمين، بل أولئك هم الذين كان في قلوبهم اشمئزاز مما عليه أقوامهم، وفي نفوسهم شيء من التشوف إلى هداية يهتدون بها، ويشعرون باستعدادهم لها، إذا جاءهم شيء من عند الله تعالى. فالمتقون في هذه الآية إذن هم الذين سلمت فطرتهم فأصابت عقولهم ضرباً من الرشاد ووجد في أنفسهم شيء من الاستعداد لتلقي نور الحق يحملهم على توقي سخط الله تعالى والسعي في مرضاته، بحسب ما وصل إليه علمهم، وأداهم إليه نظرهم واجتهادهم.

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

الإيمان هو التصديق الجازم المقترن بإذعان النفس وقبولها واستسلامها، وآيته العمل بما يقتضيه الإيمان عند عدم الصارف الذي يختلف باختلاف درجات المؤمنين في اليقين. والغيب ما غاب علمه عنه.

الناس قسمان: مادي لا يؤمن إلا بالحسيات، وغير مادي يؤمن بما لا يدركه الحس، أي بما غاب عن المشاعر متى أرشد إليه الدليل أو الوجدان السليم، ولا شك أن الإيمان بالله وملائكته ـ وهي جنود غائبة لها مزايا وخواص يعلمها سبحانه وتعالى ـ وباليوم الآخر إيمان بالغيب. ومن لا يؤمن بالله لا يمكن أن يهتدي بالقرآن، ومن يتصدى لهدايته لابد له أن يقيم الحجة العقلية على أن لهذا العالم إلهاً متصفاً بصفات الكمال التي لا تتحقق الألوهية إلا بها ثم يقنعه بأن هذا القرآن هداية من لدنه تعالى.

لذلك وصف الله المتقين الذين يهتدون بالقرآن بقوله:

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾

والإيمان بالغيب هو الاعتقاد بموجود وراء المحسوس.

وصاحب هذا الاعتقاد، واقف على طريق الرشاد، وقائم على أول النهج لا يحتاج إلا إلى من يدله على المسلك ويأخذ بيده إلى الغاية، فإن من يعتقد بأن وراء المحسوسات موجودات يصدق بها العقل، وإن كانت لا يأتي عليها الحس، إذا أقمت له الدليل على وجود فاطر السموات والأرض المستعلي عن المادة ولواحقها، المتصف بما وصف به نفسه على ألسنة رسله، سهل عليه التصديق وخف عليه النظر في جلي المقدمات وخفيها، وإذا جاء الرسول بوصف اليوم الآخر أو بذكر عالم من العوالم التي استأثر الله بعلمها، كعالم الملائكة مثلا، لم يشق على نفسه تصديق ما جاء به الخبر بعد ثبوت النبوة.. لهذا جعل الله سبحانه هذا الوصف في مقدمة أوصاف المتقين الذين يجدون في القرآن هدى لهم.

وأما من لا يعرف من الموجود إلا المحسوس، ويظن أن لا شيء وراء المحسوسات وما اشتملت عليه، فنفسه تنفر من ذكر ما وراء مشهوده أو ما يشبه مشهوده، وقلما تجد السبيل إلى قلبه إذا بدأته بدعواك، نعم قد توصلك المجاهدة بعد مرور الزمان في إيراد المقدمات البعيدة، والأخذ به في الطرق المختلفة، إلى تقريبه مما تطلب، ولكن هيهات أن ينصرك الصبر، أو يخضعك القهر، حتى يتم لك منه الأمر، فمثل هذا إذا عرض عليه

القرآن نبأ عنه سمعه، ولم يحمل من نفسه وقعه، فكيف يجد فيه هداية، أو منقذاً من غواية؟

ولما كان الإيمان بالغيب يطلق عند الناس على ذلك الاستسلام التقليدى الذى لم يأخذ من النفس إلا ما أخذ اللفظ من اللسان، وليس له أثر فى الأفعال، لأنه لم يقع تحت نظر العقل، ولم يلحظه وجدان القلب، بل أغلقت عليه خزانة الوهم، ومثل هذا الذى يسمونه إيماناً لا يفيد فى إعداد القلب للاهتداء بالقرآن - لما كان هذا شأنهم منّ الله علينا ببيان بشعر بحقيقة ما أراده تعالى من معنى الإيمان، فذكر علامات المؤمنين بالغيب الذين ينتفعون بهداية القرآن بالجمل الآتية، قال:

﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾

الصلاة إظهار الحاجة والافتقار إلى المعبود بالقول أو العمل أو كليهما وهو المراد بقولهم: «الصلاة معناها الدعاء» لأن إظهار الحاجة إلى العظيم الكريم، ولو بالفعل فقط، التماس للحاجة واستدرار للنعمة، أو طلب لدفع النقمة. أرأيتم أولئك الذين يقفون بين أيدى الملوك ناكسى رءوسهم حانى ظهورهم، وتارة يقعون على أقدامهم يقبلونها، أليس الباعث على هذا العمل إما خوف من عقوبة يطلبون به دفعها، وإما حذر على نعمة يتوقون سلبها ورفعها، فيلتمسون بقاءها، ويرجون زيادتها ونماءها؟!

هذه الصلاة كانت توجد عند بعض الجاهليين وهم الذين كانوا يعرفون بالحنيفيين والحنفاء، وعند بعض أهل الكتاب بالمعنى الذى يأتى ذكره.. والصلاة بالمعنى الذى ذكرناه قد ظهر فى الإسلام فى أفضل أشكاله، وهو تلك الصلاة التى فرضها الله على المسلمين، فإن هذه الأقوال والأفعال المفتتحة بالتكبير المختتمة بالتسليم على النحو الذى جاءت به السنة المتواترة من أفضل ما يعبر به عن الإحساس بالحاجة إلى المعبود، وشعور الأنفس بعظمته، لو أقامها المصلون وأتوا بها على وجهها، ولذلك قال:

﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾

ولم يقل يصلون، وفرق بينهما، فإن الصلاة متى حددت بكيفية مخصوصة يقال لمن يؤديها بتلك الكيفية إنه صلى وإن كان عمله هذا خلواً من معنى الصلاة وقوامها المقصود من الهيئة الظاهرة، فاحتيج إلى لفظ يدل على هذا المعنى الذى به قوام الصلاة، وهو ما عبر عنه القرآن بلفظ الإقامة. وقد قالوا إن إقامة الصلاة عبارة عن الإتيان بجميع حقوقها من كمال الطهارة واستيفاء الأركان والسنن، وهو لا يعدو وصف الصورة الظاهرة، وإنما قوام الصلاة الذى يحصل بالإقامة هو التوجه إلى الله تعالى والخشوع الحقيقى له، والإحساس بالحاجة إليه تعالى.

فإذا خلت صورة الصلاة من هذا المعنى لم يصدق على المصلى أنه أقام الصلاة، فإنه قد هدمها بإخلائها من عمادها، وقتلها بسلبها روحها، ومن غريب مزاعم من يسمون أنفسهم بالمسلمين: أن حضور القلب فى جميع أجزاء الصلاة واستشعار الخشية من أصعب ما تتجشمه النفس، بل يكاد يكون مستحيلاً لغلبة الخواطر على ذهن المصلى.. هذا وأخشى أن يكون هذا جحوداً لمعنى الصلاة، وإنما عرض لهم هذا الوهم الباطل من شدة الغفلة، واستحكام العلة، وإنى أدلهم على طريقة لو أخذوا بها لشغلوا بمعنى الصلاة حتى عن الصلاة نفسها، تلك الطريقة هى أن لا ينطق المصلى بلفظ إلا وهو يستورد معناه على ذهنه، فإذا قال:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

يستحضر معنى الحمد وإضافته إلى ذات الله تعالى مع وصفه بالربوبية، لجميع الأكوان العلوية والسفلية، وإذا قال مثلا:

﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾

تصور معنى الملك وتعلقه بذلك اليوم يوم الجزاء، وهكذا فإذا أخذ المصلى على نفسه أن يتصور المعانى من ألفاظها التى ينطق بها فقد أقام الصلاة، أما وهو ينطق ولا يفقه ولا يلحظ بذهنه معنى لفظ ما يقول فكيف يزعم أنه يصلى فضلاً عن أنه يقيم الصلاة؟!

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

هذا الوصف من أقوى أمارات الإيمان بالغيب، لأن كثيراً من الناس يأتون بضروب العبادات البدنية كالصلاة والصوم، ومتى عرض لهم ما يقتضى بذل شىء من المال لله تعالى يمسكون ولا تسمح أنفسهم بالبذل، وليس المراد بالإنفاق هنا ما يكون على الأهل والولد، ولا ما يسمونه بالجود والكرم، كقرى الضيوف ابتغاء عرض كالشهرة والجاه، أو الأنس بالأصحاب، لأن هذا ليس من آثار الإيمان بالغيب، وإنما هو الإنفاق الناشئ عن شعور بأن الله تعالى هو الذى رزقه وأنعم عليه به، وأن الفقير المحروم عبدالله مثله، وأنه حرم من سعة العيش لضعف أو حرمان من الأسباب التى توصل إلى الرزق، أو عن إحساس بأن مصلحة من مصالح المسلمين ومنفعة من منافعهم العامة لا تقوم أو لا تصل إليهم إلا ببذل المال، وقد أوجب الله على من أوتى المال أن ينفق منه فى ذلك السبيل وهو أفضل سبل الله، فمن يجد من نفسه داعية لبذل أحب الأشياء إليه وهو ما له ابتغاء مرضاة الله تعالى وقياماً بشكره، ورحمة لأهل العوز والبائسين من خلقه، فهو لا شك مستعد لقبول هداية القرآن أتم الاستعداد، حتى إذا ما دعى إليه لبى وأجاب وأسلم إلى الله تعالى وأناب.

فهذا بيان حال الفرقة الأولى ممن يهتدى بالقرآن فعلاً ويشملها لفظ المتقين بالمعنى السابق، وكان منهم بعض العرب الحنفاء، وبعض أهل الكتاب الصلحاء، كما سبق بيانه.. والمراد من كون القرآن هدى لهذه الفرقة أنها مستعدة لقبوله، ومهيأة للاسترشاد به، لأن الإيمان الإجمالى بالله وبحياة أخرى بعد هذه الحياة يوفى الناس فيها أجورهم بحسب أعمالهم البدنية والنفسية، واتقاء ما يحول دون السعادة فى هذه الحياة بحسب الاجتهاد الناقص والتعليم الذى لم يقتنع به العقل، ولم تسكن إليه النفس، قد هيأهم لقبول القرآن، وأن يقتبسوا من نوره ما يذهب بظلمات الجهل والحيرة، ويمنح الأرواح ما تشوف إليه بمقتضى الفطرة.

وبعد أن بين حال هذه الفرقة التى يكون الكتاب هدى لها، يخرجها من ظلمات الشك إلى نور اليقين، وينكب بها عن مهاب رياح الفكر إلى مستقر السكينة، ومستكن الطمأنينة، بما تتعرفه النفس من جانب القدس، عطف عليها بيان حال الفرقة التى اهتدت به فعلاً، وصار إماماً

لها تتبعه في جميع أعمالها، دون أن تغمض عينها عنه.. بعد أن أضاء لها ما أضاء منه، فقال عز من قائل:

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾

هذه هي الطبقة الثانية من المتقين وأعيد لفظ «الذين» لتحقيق التمايز بين الطبقتين.. وهذه الطبقة أرقى من الطبقة الأولى لأن أوصافها تقتضي الأوصاف التي أجريت على تلك وزيادة، فالقرآن يكون هدى لها بالأولى، ومعنى كونه هدى لها أنه يكون إمامها في أعمالها وأحوالها، لا تحيد عن النهج الذي ينهجه لها، كما ذكرنا.

ما كل من أظهر الإيمان بما ذكر مهتد بالقرآن.. فالمؤمنون بالقرآن على ضروب شتى، ونرى بيننا كثيرين ممن إذا سئل عن القرآن قال: هو كلام الله ولا شك، ولكن إذا عرضت أعمالها وأحوالها على القرآن نراها مباينة له كل المباينة. القرآن ينهى عن الغيبة والنميمة والكذب، وهو يغتاب ويسعى بالنميمة ولا يتأثم من الكذب. القرآن يأمر بالفكر والتدبر وهو كما وصف القرآن المكذبين بقوله تعالى فيهم:

﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾

«الذاريات: ١١»

لا يفكر في مستقبله ولا مستقبل أمته، ولا يتدبر الآيات والنذر، ولا الحوادث والعبر.

إن المؤمن الموقن المذكور في الآية الكريمة هو الذي يزين أعماله وأخلاقه باستكمال ما هدى إليه القرآن دائماً، ويجعله معياراً يعرض عليه تلك الأعمال والأخلاق ليتبين هل هو مهتد به أم لا؟

مثال ذلك الصلاة يصفها القرآن بأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وقال في المصلين:

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾

«المعارج: ١٩ - ٢٢»

فبين أن الصلاة تقتلع الصفات الذميمة الراسخة التي تكاد تكون فطرية، فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، ولم تقتلع من نفسه جذور الجبن والهلع، وتصطلم جراثيم البخل والطمع، فليعلم أنه ليس مصلياً في عرف القرآن، ولا مستحقاً لما وعد عباده الرحمن.

أما لفظ الإنزال: فالمراد به ما ورد من جانب الربوبية الرفيع الأعلى، وأوحى إلى العباد من الإرشاد الإلهي الأسمى، وسمي إنزالاً لما في جانب الألوهية من ذلك العلو: علو الرب على المربوب، والخالق على المخلوقين، الذين لا يخرجون بالتكريم والاصطفاء عن كونهم عبيداً خاضعين، وقد سمى القرآن غير الوحي من إسداء النعم الإلهية إنزالاً فقال:

﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾

«الحديد: ٢٥»

فنكتفي بهذا من معنى الإنزال، وهو ما يفهمه كل عربي، من حاضر وبدوي، عما أطال به المفسرون وندع الخلافات للمختلفين.

ثم قال تعالى:

﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾

أما لفظ (الآخرة) فقد ورد في القرآن كثيراً والمراد به الحياة الآخرة حيث الجزاء على الأعمال.

وأما اليقين: فهو الاعتقاد المطابق للواقع الذي لا يقبل الشك ولا الزوال، فهو اعتقادان: اعتقاد أن الشيء كذا، واعتقاد أنه لا يمكن أن يكون إلا كذا.

..وصفهم بأنهم موقنون بالآخرة لأنهم مؤمنون بالقرآن ولم يصف بهذا الوصف الطائفة الأولى لأنها وإن كانت تؤمن بالغيب وتتوجه إلى الله تعالى بالصلاة المخصوصة بها وتنفق مما رزقها الله، فذلك لا ينافي أنها في حيرة من أمر البعث والجزاء، وكذلك كانت قبل الإيمان بالقرآن وكان من هداية القرآن لها أن خرج بها من غمرات تلك الحيرة.

لا يعتد بما دون اليقين في الإيمان، وقد قال الله تعالى في اعتقاد قوم:

﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾

«النجم: ٢٨»

وإذا لم يكن الظان موقناً وعلى نور من ربه في اعتقاده فما حال من هو دونه من الشاكين والمرتابين؟ ويعرف اليقين في الإيمان بالله واليوم الآخر بآثاره في الأعمال.

إننا نرى الرجل يأتي إلى المحكمة بدعوى زور يريد أن يأكل بها حق أخيه بالباطل أو يجامل آخر بشهادة زور، أو ينتقم بها من ثالث، وهو يعلم أنه مزور ومبطل فيقال له: اتق الله إن أمامك يوما

﴿ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ﴾

«الفرقان: ٢٧»

فيقول أعوذ بالله أنا أعلم أن أمامي يوماً، وأن أمامي شبراً من الأرض - «يعني القبر» - والدنيا لا تغني عن الآخرة. ويحلف اليمين الغموس(١) باسم الله تعالى أنه محق في دعواه أو في شهادته، ثم يظهر التحقيق أنه مزور، ويضطره إلى الاعتراف والإقرار بذلك. فكأن الإيمان بالله واليوم الآخر عنده خيال يلوح في ذهنه عندما يريد الخلابة والخداع لأجل أكل الحقوق أو إرضاء الهوى، ولا يظهر له أثر في أعماله وأحواله.

فمثل هذا الإيمان - وإن تعارف الناس على تسميته تلك - ليس من الإيمان الذي يقوم على ذلك المعنى من الإيقان، ويظهر أثره في الجوارح والأركان.

اليقين: إيمانك واعتقادك بالشيء والإحساس به من طريق وجدانك كأنك تراه، بأن يكون قد بلغ بك العلم به أن صار مالكاً لنفسك مصرفاً لها في أعمالها، ولا يكون العلم محققاً للإيمان على هذا الوجه حتى تكون قد أصبته من إحدى طريقتين:

«الأولى»: النظر الصحيح فيما يحتاج فيه إلى النظر، كالإيقان بوجود الله ورسالة الرسل،

(١) اليمين الغموس هي الكاذبة التي تعمد صاحبها الكذب فيها.

وذلك بتخليص المقدمات، والوصول بها إلى حد الضروريات، فأنت بعد الوصول إلى ما وصلت إليه كأنك راء ما استقر رأيك عليه.

«والطريق الأخرى»: خبر الصادق المعصوم بعد أن قامت الدلائل على صدقه وعصمته عندك، ولا يكون الخبر طريقاً لليقين حتى تكون سمعت الخبر من نفس المعصوم ﷺ، أو جاءك عنه من طريق لا تحتمل الريب، وهى طريق التواتر دون سواها، فلا ينبوع لليقين بعد طول الزمن بيننا وبين النبوة إلا سبيل المتواترات التى لم يختلف أحد فى وقعها، فالإيقان بالمغيبات كالآخرة وأحوالها والملأ الأعلى وأوصافه، وصفات الله التى لا يهتدى إليها النظر لا يمكن تحصيله إلا من الكتاب العزيز، وهو الحق الذى جاءنا من الله لا ريب فيه، فعلينا أن نقف عندما أتيا به من غير خلط ولا زيادة ولا قياس.

وأكد الإيقان بالآخرة بقوله: ﴿ هُمْ ﴾ اهتماماً بشأنه وليبين أن الإيقان بالآخرة خاصة من خواص الذين آمنوا بالقرآن وبما أنزل قبله من الكتب لا يشركهم فيه سواهم. وقد علمت أنه لابد أن يكون الموقن به من أحوال الآخرة قطعياً.. هذه الإضافات التى أضافوها على أخبار الغيب وخلقوا لها الأحاديث، بل أضافوا إليها أيضاً أقوال أهل الكتاب وأشياء أخرى نسبوها إلى السلف، وبعض غرائب جاءت على لسان المتسبين للتصوف، لا تدخل فيما يتعلق به اليقين، بل الجهل بالكثير منها خير من العلم به، فإنما الوصف الذى يمتاز به أهل القرآن هو اليقين، ولا يكون اليقين إلا حيث يكون القطع وأما الظن فهو وصف من عابهم القرآن وأزرى بهم فلا علاقة له بأحوالهم.

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

ههنا إشارتان، والمشار إليه عند الجمهور واحد، وهو ما فى الآيتين السابقتين من المؤمنين، من غير أهل الكتاب والمؤمنين منهم، وكرر الإشارة للإسلام بأنه لابد من تحقق الوصفين لتحقق الحكم بأنهم على هدى وأنهم هم المفلحون. كذا قال بعضهم، وهو تكلف ظاهر وكذا قولهم: إن تنكير هدى هنا للتعظيم. وأنا أرى أن الإشارتين هما لنوعى المؤمنين المذكورين فى الآية السابقة بأسلوب اللف والنشر المرتب.

إن الإشارة الأولى:

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ ﴾

فى هذه الآية للفرقة الأولى: وهم الذين ينتظرون الحق لأنهم على شىء منه ـ كما يدل عليه تنكير ﴿ هُدًى ﴾ الدال على النوع ـ وينتظرون بياناً من الله تعالى ليأخذوا به، ولذلك تقبلوه عندما جاءهم. فقد أشعر الله قلوبهم الهداية بما آمنوا به من الغيب، وأقاموا الصلاة بالمعنى الذى سبق، وأنفقوا مما رزقهم الله، وأما الفرقة الثانية: وهم المؤمنون بما جاء به محمد ﷺ فعلى هدى تشترك فيه تلك الفرقة الأولى، لكن على وجه أكمل، لأنها مؤمنة بالقرآن وعاملة به. وقوله (على هدى) تعبير يفيد التمكن من الشىء كتمكن المستقر عليه كقولهم «ركب هواه» ولقد كان أفراد تلك الفرقة «أى الأولى» على بصيرة وتمكن من نوع الهدى الذى كانوا عليه، فإن كان هذا غير كاف لإسعادهم وفلاحهم، فهو كاف لإعدادهم وتأهيلهم لهما بالإيمان التفصيلى المنزل ولذلك قبلوه عندما بلغتهم دعوته.

وإلى الفرقة الثانية وقعت الإشارة الثانية

﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

كما هو ظاهر، وهم المفلحون بالفعل لاتصافهم بالإيمان الكامل بالقرآن وبما تقدمه من الكتب السماوية واليقين بالآخرة ـ لا مطلق الإيمان بالغيب إجمالاً ـ ويرشد إلى التغاير بين مرجع الإشارتين ترك ضمير الفصل «هم» فى الأولى وذكره فى الثانية. ولو كان المشار إليه واحداً لذكر الفصل فى الأولى، لأن المؤمنين بالقرآن هم الذين على الهدى الصحيح التام، فهو خاص بهم دون سواهم، لكنه اكتفى عن التنصيص على تمكنهم من الهدى بحصر الفلاح فيهم. ومادة «الفلح» تفيد فى الأصل معنى الشق والقطع، ومثلها مادة «الفلج» بالجيم و«الفلخ» بالخاء و«الفلذ» و«الفلع» و«الفلغ» و«الفلق» و«الفل» و«الفلم». ويطلق الفلاح والفلح على الفوز بالمطلوب، ولكن لا يقال أفلح الرجل إذا فاز بمرغوبه عفواً من غير تعب ولا معاناة، بل لابد فى تحقيق المعنى اللغوى لهذه المادة من السعى إلى الرغيبة والاجتهاد لإدراكها. فهؤلاء ما كانوا مفلحين إلا بالإيمان بما أنزل إلى النبى ﷺ وما أنزل من قبله. وباتباع هذا الإيمان بامتثال الأوامر واجتناب النواهى التى نيط بها الوعد والوعيد فيما أنزل إليه ﷺ مع اليقين بالجزاء على جميع ذلك فى الآخرة، ويدخل فى هذا كله الكذب والزور وتزكية النفس من سائر الرذائل كالشره والطمع والجبن والهلع والبخل والجور والقسوة وما ينشأ عن هذه الصفات من الأفعال الذميمة، وارتكاب الفواحش والمنكرات والانغماس فى ضروب اللذات. كما يدخل فيه الفضائل التى هى أضداد هذه الرذائل المتروكة، وجميع ما سماه القرآن عملاً صالحاً من العبادات وحسن المعاملة مع الناس والسعى فى توفير منافعهم العامة والخاصة مع التزام العدل والوقوف عند ما حدده الشرع القويم، والاستقامة على صراطه المستقيم.

وجملة القول إن الإيمان بما أنزل إلى النبى ﷺ وهو الإيمان بالدين الإسلامى جملة وتفصيلاً، فما علم من ذلك بالضرورة ولم يخالف فيه مخالف يعتد به فلا يسع أحداً جهله، فالإيمان به إيمان، والإسلام لله إسلام، وإنكاره خروج من الإسلام، وهو الذى يجب أن يكون معقد الارتباط الإسلامى وواسطة الوحدة الإسلامية، وما كان دون ذلك فى الثبوت ودرجة العلم فموكول إلى اجتهاد المجتهدين، أو ذوق العارفين أو ثقة الناقلين بمن نقلوا عنه ليكون معتمدهم فيما يعتقدون بعد التحرى والتمحيص.. وليس لهؤلاء أن يلزموا غيرهم ما ثبت عندهم، فإن ثقة الناقل بمن ينقل عنه حالة خاصة به لا يمكن لغيره أن يشعر بها حتى يكون له مع المنقول عنه فى الحال مثل ما للناقل معه، فلابد أن يكون عارفاً بأحواله وأخلاقه ودخائل نفسه، ونحو ذلك مما يطول شرحه ويحصل الثقة للنفس بما يقول القائل. ولا يصح أن يكون شىء من ذلك مثار اختلاف فى الدين.



أقسام السنة النبوية عند الإمام محمد الخضر حسين

(١٢٩٣-١٣٧٧هـ/ ١٨٧٦-١٩٥٨م)

التعريف به

• ولد بمدينة «نفطة»، بجنوب القطر التونسي.. وفيها نشأ، متأثراً بأبيه.. وبخاله السيد محمد المكي بن عزوز - الذي كان من كبار العلماء-.

• وفي «نفطة» حفظ القرآن الكريم.. وألمّ بجانب من العلوم العربية.. والشرعية.. والأدب.

• وفي سنة (١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م) التحق «بجامع الزيتونة» - المناظر للأزهر - بالعاصمة تونس.. حيث تجلى نبوغه في علوم العربية.. والعلوم الشرعية.. وفي التذوق الأدبي والإبداع في الأدب والشعر.

• ومن «الزيتونة» تخرج، ونال العالمية سنة (١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م).. وأصبح من علمائها.

• وفي نفس عام تخرجه، أصدر مجلة [السعادة العظمى]، التي كانت رائدة المجلات العلمية والأدبية في بلاد الشمال الإفريقي.

• وبعد عامين - سنة (١٣٢٤هـ/ ١٩٠٥م) - تولى الشيخ الخضر قضاء مدينة «بنزرت»، إلى جانب الخطابة والتدريس بجامعها الكبير..

• وفي نفس العام ألقى محاضرة عن «الحرية في الإسلام» - بنادي خريجي المدرسة الصادقية - كشفت عن موقفه إزاء الاستعمار الفرنسي، الذي كان يحتل تونس منذ عقود.

• ثم استقال من القضاء.. واشتغل بالتدريس بالمدرسة الصادقية أولاً، ثم بجامع الزيتونة.

• وعندما احتلت إيطاليا الفاشية «طرابلس» و«بنغازي» - في ليبيا - سنة (١٣٢٩هـ/ ١٩١١م) إبان حربها مع الدولة العثمانية، سخر الشيخ الخضر علمه ومجلته [السعادة العظمى] للجهاد ضد الاستعمار الإيطالي.. الأمر الذي دفع السلطات الفرنسية الحاكمة لتونس إلى أن توجه - في نفس العام - إلى الشيخ الخضر تهمة «بث روح العداء للغرب، وبخاصة لسلطة الحماية الفرنسية بتونس».

فلما استشعر الخطر على حياته، غادر تونس إلى الآستانة - عبر القاهرة، ودمشق-.. وفي القاهرة تعرف على كوكبة من العلماء والقادة والمجاهدين ضد الاستعمار.

• وفي دمشق اشتغل بالتدريس.. وزار العديد من المدن الإسلامية.. ثم استقر بالآستانة محرراً عربياً بوزارة الحربية العثمانية.. كما قام بالسفارة لوزارة الحربية في العاصمة الألمانية برلين سنة (١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م) - إبان الحرب العالمية الأولى- وتحالف تركيا مع ألمانيا - ولقد اجتهد خلال هذه السفارة أن يتعلم اللغة الألمانية.

• ثم غادر الآستانة إلى دمشق، وفيها اعتقله الأتراك سنة (١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م) - إبان النزاع بينهم وبين التيار القومي العربي - وبعد عدة أشهر قضاها في الاعتقال، أفرج عنه بوساطة أنور باشا وزير الحربية العثماني.. فغادر دمشق إلى الآستانة، حيث أوفده أنور باشا إلى برلين، فالتقى فيها بزعماء الحركات الإسلامية، الذين كانوا يعيشون فيها.. ثم عاد من برلين إلى الآستانة.. ليغادرها - مرة أخرى- إلى دمشق، حيث مارس التدريس - من جديد - في المدرسة السلطانية.

• وبعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى.. واحتلال فرنسا لدمشق.. رحل الشيخ الخضر إلى القاهرة سنة (١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م).. وفيها استقر.. وألقى عصا الترحال الطويل..

• وفي القاهرة مارس الكتابة الوطنية.. والإصلاحية.. وعمل في تحقيق الكتب التراثية بدار الكتب المصرية.. وتجنس بالجنسية المصرية.. وتقدم لامتحان العالمية الأزهرية، فحصل عليها.. وأصبح من علماء الأزهر الشريف.



طه حسين — علي عبد الرازق

• ولم ينس الشيخ الخضر وطنه المحتل - تونس - وبلاد الشمال الإفريقي التي ترزح تحت نير الاحتلال الفرنسي والإيطالي.. فأسس سنة (١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م) [جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية] لتنسيق العمل على تحرير بلاد الشمال الإفريقي.

• وفي القاهرة تجلت فروسية الشيخ الخضر العلمية والفكرية - عندما خاض أشهر المعارك الفكرية التي استقطبت العالم الإسلامي في عشرينيات القرن العشرين.. إذ رد على كتاب [الإسلام وأصول الحكم] - للشيخ علي عبد الرازق (١٣٠٥ - ١٣٨٦هـ/ ١٨٨٧-١٩٦٦م) - سنة (١٩٢٥م) - بكتابه [نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم].. وفي العام التالي - سنة (١٩٢٦م)- رد على كتاب الدكتور طه حسين (١٣٠٦-١٣٩٣هـ/ ١٨٨٩-١٩٧٣م) [في الشعر الجاهلي] بكتابه [نقض كتاب في الشعر الجاهلي]..

ولقد تميزت ردود الشيخ الخضر بالمنطق

والفلسفة، فلفت إليه أنظار العلماء والباحثين والقراء.

● وفى سنة (١٣٥٤هـ/١٩٢٧م) اشترك مع طليعة العلماء والمفكرين والساسة المسلمين فى تأسيس [جمعية الشبان المسلمين] لمواجهة المخاطر التى تزايدت ضد الإسلام والمسلمين بعد إلغاء الخلافة الإسلامية سنة (١٩٢٤م).. ولقد رأس أول اجتماع تحضيرى لتأسيس [جمعية الشبان المسلمين]..

● وفى القاهرة أسس [جمعية الهداية الإسلامية]- التى امتدت فروعها إلى بعض الأقاليم - وأصدر لها مجلة [الهداية الإسلامية].. فكانت منبراً للدعوة الإصلاحية للواقع الإسلامى، ولمناهج الفكر الإسلامية.

● وفى (١٣٤٩هـ ١٩٣٠م) رأس تحرير مجلة [نور الإسلام] لسان حال الأزهر الشريف.. وعمل بالتدريس بكلية أصول الدين.

● وكان واحداً من العشرين الذين تكون منهم [مجمع اللغة العربية] سنة (١٣٥١هـ/١٩٣٢م).. وفى المجمع شارك بالعديد من اللجان.. ونشرت له مجلة المجمع العديد من الأبحاث اللغوية والأدبية الرصينة.

● وفى سنة (١٣٦٦هـ/١٩٤٧م) رأس تحرير مجلة [لواء الإسلام].. وبدأ تفسيره للقرآن الكريم.

● وفى سنة (١٣٧٠هـ ١٩٥١م) نال عضوية [هيئة كبار العلماء] بالأزهر الشريف.. وفى العام التالى أصبح شيخاً للأزهر - بعد قيام ثورة يوليو سنة (١٩٥٢م)-.

● وعندما أحس بضغوط حكومية على إدارته للأزهر، قدم استقالته فى (٢ جمادى الأولى سنة ١٣٧٣هـ)، (٧يناير سنة ١٩٥٤م).. قائلاً:

«إن الأزهر أمانة فى عنقى، أسلمها - حين أسلمها - موفورة كاملة. وإذا لم يتأت أن يحصل للأزهر مزيد من الازدهار على يدى فلا أقل من أن لا يحصل له نقص.. أما أنا، فيكفينى كوب لبن وكسرة خبز، وعلى الدنيا بعدهما العفاء»!

● ومنذ ذلك التاريخ، تفرغ للبحث والكتابة والمحاضرة، حتى وافاه الأجل فى (١٣رجب سنة ١٣٧٧هـ)، (٣ فبراير سنة ١٩٥٨م) فدفن - حسب وصيته - مع صديقه العلامة أحمد تيمور باشا.

● ومن آثاره الفكرية - غير أبحاثه بمجمع اللغة العربية-:

١- [نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم].

٢- [نقض كتاب فى الشعر الجاهلى].

٣- [السنة والبدعة] - وفيه عرض لأقسام السنة النبوية-..

٤- [الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان].

٥- [القياس فى اللغة العربية].

٦- [الخيال فى الشعر العربى].

٧- [آداب الحرب فى الإسلام].

٨- [تعليقات على كتاب «الموافقات» - للشاطبى].

٩- [خواطر الحياة] - وهو ديوان أشعاره[1].

(١) انظر: د. محمد عمارة [مسلمون ثوار] (ص ٢٩٣ - ٢٤٦) - طبعة دار الشروق - القاهرة سنة (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م).

السنة والبدعة

شرع الله الدين الحنيف فى سماحة وحكمة، فلم يأت بما فيه حرج، أو بما ينبو العقل السليم عن قبوله، وكانت هذه السماحة والحكمة من أسباب انتشاره فى المعمورة وظهوره على الأديان كلها فى أعوام معدودة، وحيث بلى بعض الشرائع من قبل فدخلها فساد التبديل والتأويل.

اشتدت عناية الشارع بتحذير الناس من أن يحدثوا فى الإسلام ما ليس منه. قال ﷺ: «من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» وقال: «كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»[2].

ولم يخلص الدين - مع هذه الزواجر - من طوائف يلصقون به ما ينافى سماحته، أو ما يشوه وجه حكمته. وقد كثرت هذه البدع حتى حجبت جانباً من محاسنه، وكان لها أثر فى تنكر بعض القلوب لهدايته، وهذا ما حمل كثيراً من أهل العلم على أن يتناولوا البدع بالتأليف خاصة، كما فعل أبو بكر الطرطوشى[3] وأبو إسحاق الشاطبى[4] وغيرهما من رجال الدين.

وللبحث فى البدع مجال واسع، ونحن نلم فى هذا المقال بالقدر الكافى لإجابة رسائل اقترح أصحابها على المجلة[5] بيان ما هو سنة وما هو بدعة، وفى الفرق بين السنة والبدعة، وتمييز البدعى من السنى إصلاح كبير.

السنة

معنى السنة فى أصل اللغة: الطريقة، حسنة كانت أم سيئة. وقد تطلق على ما يقابل القرآن فيراد بها قول النبى ﷺ وفعله وتقريره. ويطلقها الفقهاء على ما يثاب على فعله ولا يعاقب على تركه مما فعله النبى ﷺ وواظب عليه. وتطلق على ما يقابل البدعة فيراد بها ما وافق القرآن أو حديث النبى عليه الصلاة والسلام من قول أو فعل أو تقرير، وسواء كانت دلالة القرآن أو الحديث على طلب الفعل مباشرة أو بوسيلة القواعد المأخوذة منهما.

وينتظم فى هذا السلك عمل الخلفاء الراشدين والصحابة الأكرمين للثقة بأنهم لا يعملون إلا على بينة من أمر دينهم. قال عمر بن عبد العزيز: «سن رسول الله ﷺ وولاة الأمور بعده سنناً، الأخذ بها تصديق لكتاب الله واستكمال لطاعة الله وقوة على دين الله، من عمل بها مهتد، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين».

وأما دلالة القرآن أوقول الرسول ﷺ على أن

(٢) صحيح الإمام البخارى.

(٣) أبو بكر الطرطوشى، محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشى، الأندلسى (٤٥١ - ٥٢٠هـ/ ١٠٥٩- ١١٢٦م) من فقهاء المالكية بالأندلس، ومن الحفاظ والأدباء.. سكن الإسكندرية، بعد رحلة إلى المشرق، وتولى التدريس فيها إلى أن توفى بها.

(٤) الشاطبى، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمى، (٧٩٠هـ/١٣٨٨م) من أبرز علماء الأصول، ومن الحفاظ.. ويعد كتابه (الموافقات) رائداً فى فن مقاصد الشريعة الإسلامية.

(٥) المجلة - التى يشير إليها المؤلف - هى [الهداية الإسلامية] التى أصدرها الشيخ الخضر، بالقاهرة، فى عشرينيات القرن العشرين - لسان حال للجمعية التى أسسها، بنفس الاسم، وكتابه [رسائل الإصلاح] بأجزائه الثلاثة عبارة عن المقالات التى نشرها فى هذه المجلة.

الأمر مشروع فواضحة، ولا شأن للمجتهد فى صيغ الأوامر إلا أن يتفقه فيها حتى يحملها على الوجوب أو الندب ويتدبر أمرها فيما إذا عارضها دليل آخر ليقضى بترجيح أحدهما على الآخر أو يفصل فى أن هذا ناسخ لذاك. وطرق الترجيح أو الحكم بالنسخ مقررة فى كتب الأحكام.

والذى يستدعيه البحث فى هذا المقال أن نحدثك عن فعله عليه الصلاة والسلام وإقراره حتى تعلم الضرب الذى كان لنا فيه أسوة حسنة وسنة قائمة:

فعله

من أفعاله عليه الصلاة والسلام ما يصدر عن وجه - الجبلة - أو العادة، كالقيام والقعود والاضطجاع والأكل والشرب واللبس، وهذا الضرب غير داخل فيما يطلب فيه التأسى، وغاية ما يفيده فعله عليه الصلاة والسلام لمثل هذه الأشياء الإباحة، فإذا جلس رسول الله ﷺ أو قام فى مكان أو زمان أو ركب نوعًا من الدواب أو تناول لونًا من الأطعمة أو لبس صنفًا من الثياب فلا يقال فيمن لم يفعل شيئًا من ذلك إنه تارك للسنة.

ومن أفعاله عليه الصلاة والسلام ما علم اختصاصه به، كالوصال فى الصوم والزيادة فى النكاح على أربع، ولا نزاع فى أن مثل هذا ليس محلًا للتأسى، وما كان لأحد أن يقتدى به فيما هو من خصائصه.

ومنها ما عرف كونه بيانًا للقرآن كقطعه يد السارق من الكوع بيانًا لقوله تعالى:

﴿ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾

[المائدة: ٣٨]

وحكم الاقتداء به فى هذا حكم المبين من وجوب أو استحباب.

ومنها ما لم يكن جبليا ولا خصوصية ولا بيانًا، وهذا إذا علمت صفته فى حقه عليه الصلاة والسلام من وجوب أو ندب أو إباحة، فأمته تابعة له فى الحكم، إذ الأصل تساوى المكلفين فى الأحكام.

فإن فعل ﷺ أمرًا ولم يقل دليل خاص على أنه فعله على سبيل الوجوب أو الندب أو الإباحة، فهذا إما أن يظهر فيه معنى القربة؛ كافتتاحه الرسائل بكلمة «بسم الله الرحمن الرحيم» فيحمل على أقل مراتب القرب وهو الندب، وإما أن لا يظهر فيه معنى القربة فيدل على أنه مأذون فيه، ومن أهل العلم من يذهب به مذهب المندوب إليه نظرًا إلى أنه عليه الصلاة والسلام مشرع، فالأصل فى أفعاله التشريع، ومثال هذا إرساله عليه الصلاة والسلام شعر رأسه الشريف إلى شحمة الأذن، وهو علم لا يظهر فيه معنى القربة، ولكن بعض أهل العلم كالقاضى أبى بكر بن العربى [٦] وأبى بكر الطرطوشى جعلوه من مواضع الاقتداء، ورأى آخرون أن هذا محمول على العادة، فإذا جرت عادة قوم بنحر الحلق، فلا يوصفون بأنهم تركوا ما هو سنة.

٦، القاضى ابو بكر بن العربى، محمد بن عبد الله بن محمد المعافرى (٤٦٨ - ٥٤٣هـ/١٠٧٦ - ١١٤٨م) مجتهد وفقيه مالكى وحافظ وأديب.

وما يشبه إرسال الشعر إلى الأذن إرساله عليه الصلاة والسلام ذؤابة من العمامة وهى المسماة «العذبة»، وقد ورد فى حديث عمر بن حريث فى فتح مكة: «كأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ وعليه عمامة سوداء قد أرخى طرفها بين كتفيه» [٧] وحديث ابن عمرو «كان رسول الله ﷺ إذا اعتم سدل عمامته بين كتفيه» [٨].

وإذا كان إرسال ذؤابة من العمامة مما لا يظهر فيه معنى القربة، يكون موضعًا لاختلاف أهل العلم: فمنهم من يجعله من قبيل ما يتأسى به، وإلى هذا يجنح أبو بكر بن العربى، وقد روى الترمذى عن ابن عمر [٩] وسالم [١٠] والقاسم [١١] أنهم كانوا يفعلونه.

ومنهم من يراه من قبيل العادة فلا يعد المتعمم من غير عذبة تاركًا لسنة، وهذه وجهة نظر من لم يكن يرسل العذبة من السلف، قال الإمام مالك: إنه لم ير أحدًا يفعله إلا عامر ابن عبدالله بن الزبير [١٢].

وقد يتقارب الحال فى بعض الأفعال، فلا يظهر جليًا أهو عادة أم شريعة؟ فتتردد فيه أنظار المجتهدين، نحو جلسة الاستراحة عند قيامه للثانية أو الرابعة، فذهب بعضهم إلى أنه لم يفعلها على وجه القربة فلا تدخل فى قبيل السنة، وعدها طائفة فيما يستحب من أعمال الصلاة.

ومما لم يظهر فيه معنى القربة تقديم اسمه عليه الصلاة والسلام فى الرسائل على اسم المرسل إليه؛ ولهذا لم يحافظ عليه بعض السلف محافظتهم على ما يفهمون فيه معنى القربة، فأجازوا تأخير اسم المرسل على اسم المرسل إليه، وسئل الإمام مالك عن ذلك فقال: لا بأس به، بل روى أن ابن عمر - وهو من أشد الناس محافظة على السنة - قد كتب إلى معاوية، ثم إلى عبد الملك بن مروان، وقدم اسميهما على اسمه [١٣].

تركه

وكذلك يفصل القول فى تركه عليه الصلاة والسلام لبعض الأشياء، فما يتركه من أجل كراهته له جبلة، كما امتنع من أكل الضب، ولما قال له خالد بن الوليد: أحرام هو يا رسول الله؟ قال: «لا ولكنه لم يكن بأرض قومى فأجدنى أعافه» [١٤] وليس تركه ﷺ للشئ على هذا الوجه من مواضع التأسى، وشاهده أن خالدًا رضى الله عنه سمع هذا

٧، أخرجه مسلم.

٨، أخرجه الترمذى والنسائى.

٩، عبدالله بن عمر بن الخطاب (١٠ق هـ - ٧٣هـ/ ٦١٣ - ٦٩٢م) صحابى جليل، هاجر مع أبيه عمر بن الخطاب من مكة إلى المدينة، وشهد فتح مكة، وهو من رواة أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

١٠، سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، أبو عمرو (١٠٦هـ/٧٢٥م) من التابعين، وأحد الفقهاء السبعة فى المدينة المنورة على عصره.

١١، القاسم، مولى ابى بكر الصديق، له صحبة، ورواية.

١٢، باب العمائم من فتح البارى.

١٣، رواه البخارى فى الأدب المفرد بسند صحيح.

١٤، رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه والدارمى ومالك والإمام أحمد.

الجواب وما لبث أن جر إليه الضب فأكله.

ويجرى على هذا النحو ما تركه ﷺ لتحريم يختص به كتركه أكل الثوم وما شاكله من كل ذى رائحة كريهة، فلغيره من المسلمين تناوله، ولا يكون بتناوله هذا خارجًا عن حدود قوله تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]

فإن لم يكن تركه عليه الصلاة والسلام من ناحية الجبلة، ولم يثبت أنه كان لمنع يختص به، فإن علم حكم هذا الترك فى حقه من حرمة أو كراهة، كانت الحرمة أو الكراهة شاملة لأمته بحجة أن الأصل عدم الخصوصية، فإن ترك عليه الصلاة والسلام أمرًا ولم يعلم حكم هذا الترك، دل على عدم الإذن فى الفعل، وأقل مراتب عدم الإذن الكراهة، فيحمل عليها حتى يقوم الدليل على ما فوقها وهو التحريم.

وإذا ترك ﷺ الأمر لمانع من الفعل يصرح به أو يفهمه المجتهد بطريق الاستنباط، ثم يزول هذا المانع؛ فإنه يصح النظر بعد فى أمر المتروك ويجرى حكمه على ما تقتضيه أصول الشريعة، كما ترك ﷺ صلاة القيام فى رمضان جماعة، وذكر أن المانع من استمراره عليها خوف افتراضها عليهم، ولما انقطع الوحى بانتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ارتفع المانع من صلاة التراويح جماعة؛ وهو خوف الافتراض فلم يبق فى تركها موضعًا للتأسى، ولذلك رجع بها عمر بن الخطاب ؓ إلى الأصل الذى هو فعل النبى ﷺ لها فى جماعة.

ومن هذا الباب تركه ﷺ لقتل حاطب بن أبى بلتعة [١٥] حين اطلع له على كتاب أرسله إلى قريش يخبرهم فيه ببعض أمر رسول الله ﷺ، وقال- ردًا على عمر بن الخطاب إذ قال له: دعني أضرب عنق هذا المنافق-: «إنه قد شهد بدرًا وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرًا فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» [١٦] ففى ظاهر الحديث تعليل عدم قتله بشهوده واقعة بدر.

فمن لم تتحقق فيه هذه المزية ممن يتجسسون على المسلمين ويبلغون أخبارهم للمحاربين يبقى أمره موكولاً لاجتهاد الإمام، ليجازيه بما تقتضيه المصلحة ولو بالإعدام، وهذا ما يقوله إمام دار الهجرة مالك بن أنس [١٧] رحمه الله.

وإذا ترك ﷺ أمرًا لم يظهر فى عهده ما يقتضى فعله ثم طرأ حال يجعل المصلحة فى الفعل، ارتفع طلب التأسى فى الترك، وأصبح ذلك الأمر مجالاً لنظر المجتهد، حتى يفصل له حكمًا على قدر المصلحة الداعية إلى فعله. ومثال هذا أن الرسول عليه الصلاة والسلام

(١٥) حاطب بن أبي بلتعة اللخمي (٣٥ق هـ - ٣٠هـ/٥٨٦-٦٥٠م) ممن شهد الوقائع كلها مع رسول الله، وكان من أشد الرماة، وهو الذى حمل رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس عظيم القبط بمصر.

(١٦) صحيح الإمام البخاري.

(١٧) مالك بن أنس (٩٤- ١٧٩هـ/٧١٢-٧٩٥م) إمام دار الهجرة، وصاحب المذهب الفقهي المشهور، والذى كان لا يستفتى أحد وهو بالمدينة.

لم يجمع القرآن فى مصحف، إذ لم يظهر فى عهده ما يدعو إلى هذا الجمع، ولكن كثرة من قتل فى حرب أهل الردة من القراء أثارت الخوف على القرآن من الضياع، ورأى الخليفة الأول صحة الجمع لهذا المقتضى الذى لم يكن فى عهد الوحى قائمًا.

ولا يدخل فى الترك الذى نتحدث عنه عدم فعله ﷺ لأمور لم تكن وسائلها قد تهيأت، ولا الفنون التى يتوقف عليها إنشاؤها قد ظهرت، فلا يخطر على البال أن نمنع من وضع آلات تعرف بها الأوقات فى المساجد، وتستند فى هذا المنع إلى أن النبى ﷺ لم يفعل هذا فى مسجده الشريف. وليس من الفقه أن نرد الخبر بثبوت شهر رمضان يأتى على طريق البرق أو المسرة، بدعوى أن الأخذ به مخالف للسنة إذ لم يأخذ النبى ﷺ فى إثبات الشهر إلا بشهادة يؤديها من فى حضرته. وإنما يعد مثل هذا من قبيل المسكوت عنه، فلأهل العلم أن يتناولوه بالاجتهاد ويلحقوه بالأصل الذى يصح تطبيقه عليه.

والترك الذى يدل على عدم الإذن هو ما يروى فى لفظ صريح، كتركه عليه الصلاة والسلام الأذان والإقامة ليوم العيد، وتركه غسل شهداء أحد والصلاة عليهم. ويلحق بهذا تركه الذى لم ينقل بلفظ صريح ولكنه يفهم من عدم نقلهم للفعل الذى شأنه أن تتوفر الدواعى على نقله لو وقع فيصح لنا أن نقول: من السنة ترك رفع الأصوات بالذكر أمام الجنازة، ويكفى فى الاستشهاد على أن السنة ترك هذا الرفع عدم نقلهم لفعله، وهو من الأمور التى لو فعلت لتوفرت الدواعى على نقلها.

وقد وردت أحاديث دلت على أن الصحابة رضى الله عنهم ـ كانوا يتركون الأمر لمجرد ترك النبى ﷺ له، كما ورد أنه عليه الصلاة والسلام خلع نعله فى صلاة فخلعوا نعالهم حتى أخبرهم بعد بأنه علم من طريق الوحى أن بالنعل نجاسة [١٨].

ومن شواهده أنه كان عليه الصلاة والسلام اتخذ خاتمًا من ذهب، فاتخذوا خواتيم من ذهب. ثم نبذه، وقال ﷺ: «إنى لن ألبسه أبدًا» فنبذوا خواتيمهم [١٩].

ومن عرف مسابقة الصحابة رضى الله عنه ـ إلى الاقتداء برسول الله ﷺ حتى فى ترك المكروه، لم يجد فى أمثال هذا الحديث دليلاً كافيًا على أن تركه عليه الصلاة والسلام للشئ، يحمل على أشد مراتب النهى وهو التحريم. وحرمة استعمال خاتم الذهب مأخوذة من الأحاديث الدالة على حرمة استعمال الذهب زينة للرجال [٢٠].

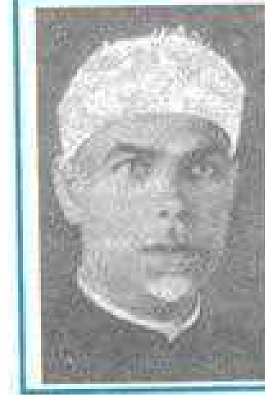
«يتبع»

(١٨) رواه الإمام أحمد وابن داود.

(١٩) صحيح الإمام البخاري.

(٢٠) وفى ذلك أحاديث كثيرة، ومنها «حرم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتى». انظر هذه الأحاديث فى البخارى وأبى داود وابن ماجه والإمام أحمد.

الديـن ٥



للأستاذ الدكتور/ محمد عبدالله دراز

ينابيع النزعة الدينية فى النفس البشرية

نزعة التدين امتداد لقوى النفس الثلاث:

ما هذه إذاً تلك القوة الغلابة، التى لا تزيدها المقاومة إلا عنفاً واشتعالاً، والتى تقهر فى النهاية أنصارها وأعداءها على السواء؟ أليست هى قوة الفطرة التى إن تورق وتثمر كلما عاودها الربيع فبلل ثراها. وسقى أصولها؟ بلى! وإن هذا الربيع قد تكفى منه قطرة، وربما تبلور فى نظرة. فما هى إلا طُرفة من تأمل الفكر، أو لحظة من يقظة الوجدان، أو أزمة من صدمات العزم. فإذا أنت تسبح بخيالك فى عالم الغيب الذى منه خرجت، أو فى عالم الغيب الذى إليه تصير.

(١) قوة الفكر فى التطلع إلى الأسباب الأولى:

لو كانت نزعة الإيمان بالغيب والتطلع إليه من ناحية طرفيه: الماضى والآتى، عنصراً من عناصر الفكرة الدينية وحدها، لكان الإنكار لما وراء الحس إلحاداً فحسب؛ ولو كانت هى النتيجة الختامية لتقدم العلوم واتساع أفقها كما رأينا، لكان هذا الإنكار نقصاً فى العلم وقصراً فى النظر وكفى، أما وتلك النزعة بنت الغريزة والجبلة، فإن الأمر أعظم من ذلك وأخطر: إنه نكسة فى فطرة الإنسان ترده إلى مستوى الحيوان الأعجم، ولا نقول إلى مستوى الطفولة الغافلة؛ فإن كثيراً من الأطفال ذوى الفطر السليمة لا يقنعون بالأمر الواقع المشاهد، ولا يقفون فى تعليله عند حلقة من حلقات أسبابه وغاياته القريبة، بل يصعدون دائماً إلى أسبابه الأولى، ويسترسلون فى تعرف نتائجه الأخيرة، فهذه صورة مصغرة من تلك النزعة الفكرية الإنسانية التى هى أبداً فى حركة وتقدم يأبيان الوقوف والجمود.

إن غريزة التطلع هذه هى مبدأ العلم والإيمان معاً. وإن الذى يقف بها عند حدود الواقع الحاضر فى الحس ليصد الإنسانية عن سبيل الكمال، ويحرم العالم من خير كثير؛ فضلاً عن أنه بذلك يقاوم طبيعة الأشياء. ويحاول تبديل الفطرة التى فطر الله الناس عليها..

غير أن العقول حين تنفذ بنورها من نطاق هذا العالم الحسى. سعياً إلى الاطلاع على مبدئه ومصدره، وعلى مصيره وغايته. ليست على درجة واحدة فى هذا السعى؛ (فأما) العقل القانع المتعجل فإنه يقف عند أدنى مبادىء الغيب وأقرب غاياته؛ مكتفياً فى كل فصيلة من الظواهر الكونية المتشابهة بأن يلمح من ورائها مبدأ يدفعها وينظمها، ومن أمامها قبلة معينة تتجه نحوها؛ وقلما يعود إلى السؤال عن منشأ كل واحد من المبادىء ومآله. أو إلى السؤال عن مبدأ الكائنات جملة أو عن وجهتها الكلية من حيث هى كتلة واحدة، ذات وظائف متساندة. وهكذا تتعدد فى نظره القُوى المدبرة، أو الآلهة المقدرة: فللريح إله، وللخصب إله. وللحياة إله، وللموت إله، وللشعر إله.. (وأما) العقول الواعية، الطليقة، المتسامية، التى تسعى إلى هدفها على بصيرة فيما تطلب، وفيما تأخذ أو تدع، غير متعرجة فى السير، ولا متناقضة فى الحكم،، فإنها من جهة ترى أن مطلبها أسمى من أن تحده حدود المكان، أو تقيده قيود الزمان... حتى إنه لو أحصى لها العادّون ما جمعته البشرية وما ستجمعه من علوم وفنون، ومتع بدنية وعقلية. لبقى أمامها فى طرفى الوجود شىء لا تفسره العلوم، ولا تحققه الفنون. ولظل فيها فراغٌ عميق لا يملؤه الماضى ولا الحاضر، ولا المستقبل القريب ولا البعيد.. ولن يتوقف منها هذا التطلع والتسامى، ولن يستقر فيها هذا القلق والاضطراب، ولن ينحسم عنها هذا اللجاج فى الطلب.. إلا بحقيقة هى اللبنة الأولى واللبنة الأخيرة لكل الحقائق، حقيقة تأبى طبيعتها الأفول فى أفق الحدوث والإمكان، ولا تدع مجالاً للسؤال عن قبل أو بعد فى الزمان أو المكان. ومن جهة أخرى فإن هذه العقول الفسيحة الأفق تطلب دائماً تحت كل اختلاف ائتلافاً، ومن وراء كل كثرة وحدة؛ ولذلك تأبى الوقوف عند المقاييس النسبية، والتفسيرات الجزئية، ولا ترضى بآحاد القوانين حتى تسمو إلى قانون القوانين؛ بل إنها لتستشرف إلى اليد التى جمعت تلك القوانين ونسقتها، وجعلتها تتعاون على أداء الوظيفة المشتركة لهذا البنيان الكونى. يا سبحان الله! أليست وحدة النظام بين هذه الكتائب المختلفة الطبيعة، المتنوعة العمل، من الكائنات السماوية والأرضية، آية على وحدة القيادة العامة التى تُشرف عليها، وعلى وحدة الخطة المرسومة التى يسير على هداها كل جهاز من أجهزة هذه الآلة الكبرى؟ وجملة القول إن العقول السامية تشرئب دائماً من وراء الحقائق الجزئية الحائلة الزائلة، إلى حقيقة كلية أزلية أبدية، حقيقة لا يحويها شىء من العلوم والمعارف، ولكنها تشوف إليها كل العلوم والمعارف وتلك هى الحقيقة التى تفردها الأديان العليا بالتقديس، ولا تنكرها سائر الأديان وإن أشركت معها فى هذا التقديس بعض الحقائق الجزئية الفانية.

إن هذا الشوق الغريزى إلى الأزلى الأبدى، وهذا الطلب الحثيث للكلى اللا نهائى، له دلالتان عميقتان: إحداهما دلالته على مطلوبه، لا كدلالة

الحركة القسرية على مصدر جاذبيتها كما يقول أرسطو، بل كدلالة الأثر على صانعه، أو الخاتم على طابعه (حسب تعبير ديكارت). وثانيهما دلالته على أن في الإنسان عنصراً نبيلاً سماوياً خلق للبقاء والخلود، وإن تناساه الإنسان وتلهى عنه حيناً، قانعاً بالدون من الحياة الجثمانية المتحطمة.

التدين إذاً - ولا سيما في أديان التوحيد والخلود - عنصر ضرورى لتكميل القوة النظرية في الإنسان؛ فبه وحده يجد العقل ما يشبع نهمته، ومن دونه لا يحقق مطامحه العليا.

(٢) قوة الوجدان في إشباع العواطف النبيلة:

ثم هو فوق ذلك عنصر ضرورى لتكميل قوة الوجدان؛ فالعواطف النبيلة من الحب، والشوق، والشكر، والتواضع، والحياء، والأمل، وغيرها، إذا لم تجد ضالتها المنشودة في الأشياء ولا في الناس، وإذا جفت ينابيعها في هذا العالم المتبدل المتبدد، وجدت في موضوع الدين مجالاً لا تدرك غايته، ومنهلاً لا ينفد معينه.

(٣) قوة الإرادة لتكوين البواعث والدوافع:

وأخيراً هو عنصر ضرورى لتكميل قوة الإرادة يمدها بأعظم البواعث والدوافع، ويدرّعها بأكبر وسائل المقاومة لعوامل اليأس والقنوط.

وهكذا نرى الفكرة الدينية تعبر عن حاجات النفس الإنسانية في مختلف ملكاتها ومظاهرها، حتى إنه كما صح أن يعرّف الإنسان بأنه «حيوان مفكر» أو بأنه «حيوان مدنى بطبعه» يسوغ لنا كذلك أن نعرفه بأنه «حيوان متدين بفطرته».

وظيفة الأديان في المجتمع

التدين أقوى كفالة لاحترام القانون:

عرفنا أن الفكرة الدينية هى الغذاء الوافى لقوى النفس المختلفة، والمداد الخالد لحيويتها. ونزيد الآن بأن للأديان وراء هذه الوظائف النفسية الفردية وظائف أخرى اجتماعية، ليست بأقل من أختها خطراً.

لا حاجة بنا إلى التنبيه على أن الحياة في الجماعة لا قيام لها إلا «بالتعاون» بين أعضائها؛ وأن هذا التعاون إنما يتم «بقانون» ينظم علاقاته، ويحدد حقوقه وواجباته، وأن هذا القانون لا غنى له عن «سلطان» نازع وازع، يكفل مهابته في النفوس ويمنع انتهاك حرماته.

تلك كلها مبادىء مقررة، والحديث فيها معاد مملول.

وإنما الشأن كل الشأن في هذا السلطان النازع الوازع: ما هو؟

فالذى نريد أن نثبته في هذه الحلقة من البحث هو أنه ليس على وجه الأرض قوة تكافيء قوة التدين أو تدانيها في كفالة احترام القانون، وضمان تماسك المجتمع واستقرار نظامه، والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه.

الإنسان أسير فكرة وعقيدة لا كما يزعم كارل ماركس:

السر في ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الكائنات الحية بأن حركاته وتصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها شيء لا يقع عليه سمعه ولا بصره، ولا يوضع في يده ولا عنقه، ولا يجرى في دمه، ولا يسرى في عضلاته وأعصابه، وإنما هو معنى إنسانى روحانى، اسمه الفكرة والعقيدة. ولقد ضل قوم قلبوا هذا الوضع وحسبوا أن الفكر والضمير لا يؤثران في الحياة المادية والاقتصادية. بل يتأثران بها. هذا الرأى الماركسى هو قبل كل شيء نزول بالإنسان عن عرش كرامته، ورجوع به القهقرى إلى مستوى البهيمية.. ثم هو تصوير مقلوب للحقائق الثابتة المشاهدة في سلوك الأفراد والجماعات في كل عصر. لكي يختار الناس أن يحيوا حياة مادية لا نصيب فيها للقلب ولا للروح، لابد أن يقنعوا أنفسهم بادىء ذى بدء بأن سعادتهم هي في هذا النوع من الحياة فالإنسان مقود أبدا بفكرة صحيحة أو فاسدة. فإذا صلحت عقيدته صلح فيه كل شيء؛ وإن فسدت فسد كل شيء.

أجل إن الإنسان ينساق من باطنه لا من ظاهره، وليست قوانين الجماعات ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة تحترم فيها الحقوق، وتؤدى الواجبات على وجهها الكامل؛ فإن الذى يؤدى واجبه رهبة من السوط أو السجن أو العقوبة المالية، لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون.

ليس في العلوم والثقافات وحدها ضمان للسلام (العلم سلاح ذو حدين):

ومن الخطأ البيّن أن نظن أن في نشر العلوم والثقافات وحدها ضماناً للسلام والرخاء، وعوضاً عن التربية والتهذيب الديني والخلقي، ذلك أن العلم سلاح ذو حدّين: يصلح للهدم والتدمير، كما يصلح للبناء والتعمير، ولابد في حسن استخدامه من رقيب أخلاقي يوجهه لخير الإنسانية وعمارة الأرض.. لا إلى نشر الشر والفساد.

ذلكم الرقيب هو العقيدة والإيمان.

غير أن الإيمان على ضربين: «إيمان» بقيمة الفضيلة، وكرامة الإنسانية، وما إلى ذلك من المعانى المجردة. التى تستحى النفوس العالية من مخالفة دواعيها، ولو أعفيت من التبعات الخارجية والأجزية المادية «وإيمان» بذات علوية، رقيبة على السرائر، يستمد القانون سلطانه الأدبى من أمرها ونهيها، وتلتهب المشاعر بالحياء منها، أو بمحبتها، أو بخشيتها. ولا ريب أن هذا الضرب هو أقوى الضربين سلطاناً على النفس الإنسانية، وهو أشدهما مقاومة لأعاصير الهوى وتقلبات العواطف، وأسرعهما نفاذاً في قلوب الخاصة والعامة.

حاجة المجتمع إلى الدين والأخلاق:

ومن أجل ذلك كان التدين خير ضمان لقيام التعامل بين الناس على قواعد العدالة والنصفة؛ وكان لذلك ضرورة اجتماعية، كما هو فطرة إنسانية.

وأنت فهل عسيت أن يخالجك شيء من الشك في مدى حاجة الجماعة في مختلف الأمم والشعوب إلى ازدهار هذا الروح الديني فيها؟ وهل غرّك أن دولاً كبيرة أسست نهضتها في عصرنا هذا على غير الدين، وقد استتب النظام فيها ومكن لها في الأرض؟.

شهادة العلماء والساسة والقواد:

إننا لا نريد أن نسبق الحوادث، وأن نتنبأ

بمصير هذا البنيان الذى أسس على غير تقوى من الله ورضوان. ولكننا نحب أن نقدم لك نموذجاً، لا من أقوال رجال الدين، بل من أقوال أقطاب العلم، وزعماء السياسة، وقوّاد الحرب، وفى تلك الدول نفسها. فاستمع إلى قول روبرت ميلليكان ROBERT MILLQKAN العالم الطبيعى الأمريكى: «إن أهم أمر فى الحياة هو الإيمان بحقيقة المعنويات وقيمة الأخلاق. ولقد كان زوال هذا الإيمان سبباً للحرب العامة وإذا لم نجتهد الآن لاكتسابه أو لتقويته فلن يبقى للعلم قيمة، بل يصير العلم نكبة على البشرية» (١).

وقول الدكتور ويلسون Le president Wilson الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية: «وخلاصة المسألة أن حضارتنا إن لم تُنقذ بالمعنويات، فلن تستطيع المثابرة على البقاء بماديتها؛ وأنها لا يمكن أن تنجو إلا إذا سرى الروح الدينى فى جميع مسامها.. ذلك هو الأمر الذى يجب أن تتنافس فيه معابدنا، ومنظماتنا السياسية، وأصحاب رءوس أموالنا؛ وكل فرد خائفٌ من الله محب لبلده» (٢).

وقول الماريشال بيتان Le Marechal philppe petain عاهل الدولة الفرنسية فى خاتمة خطابه الذى أذاعه على أمته فى يوم ٢٥ يونيو ١٩٤٠ عقب توقيع الهدنة التى التمسها من زعيم ألمانيا المنتصرة: «إننى أدعوكم أول كل شىء إلى نهوض أخلاقى»، وقول المارشال مونتجومرى Montgomery فى خطبته أمام الجيش الثامن يوم ٤ مارس ١٩٥١: «إن أهم عوامل الانتصار فى الحرب هو العامل الأخلاقى؛ ولا يمكن لقائد أن يدفع جنوده إلى بذل أقصى جهودهم فى العمل إلا إذا كانت ضمائرهم مرتاحة إلى ما يعملونه، ويقينى أن الجيش إذا سار على غير مرضاة الله سار على غير هدى.

إن خطر الانحطاط الخلقى فى أفراد الجيش أعظم من خطر العدو، ولذلك لا نستطيع أن ننتصر فى معركة، إلا إذا انتصرنا على أنفسنا قبل كل شىء».

الرباط الروحى وتماسك المجتمع:

أن الخدمة الجليلة التى تؤديها الأديان للجماعة لا تقف عند هذا الحدّ، فليست كل مهمتها أنها المبعث القوى لتهذيب السلوك، وتصحيح المعاملة، وتطبيق قواعد العدل، ومقاومة الفوضى والفساد؛ بل إن لها وظيفة إيجابية أعمق أثراً فى كيان الجماعة. ذلك أنها تربط بين قلوب معتنقيها برباط من المحبة والتراحم، لا يعدله رباط آخر من الجنس، أو اللغة، أو الجوار، أو المصالحة المشتركة.

بل إن هذه العلائق مجتمعة، مهما يكن أثرها الظاهرى من كف الأذى وبذل المعروف المتبادل، تظل روابط سطحية تضم الأفراد كما تضم الأعواد فى ضغث، ولاتزال تتخللها الفجوات والثغرات والحواجز النفسية.. حتى تشدها رابطة الأخوة فى العقيدة، والمشاركة فى المثل العليا، فهنالك تعود الكثرة وحدة، وتصبح النفوس كالمرايا المتقابلة، تنعكس صور بعضها فى بعض.

(١) كتاب «الدين والعلم» للمشير أحمد عزت باشا ص ١٧٣.

(٢) المصدر السابق.

بل كثيراً ما تستغنى هذه الوحدة الروحية عن سائر الوحدات الأخرى.. فتنعقد بها أقوى الوشائج وأدومها بين أفراد اختلفت أجناسهم، وتباينت لهجاتهم، وتباعدت ديارهم، وتفاوتت مصالحهم. وكثيراً ما نرى الدول التى تقوم على قاعدة المصالح المشتركة فى الوطن بين ملل مختلفة تضطر إلى الاستنجاد بما فى هذه الأديان كلها من مبدأ التعاون على الخير، والتناصر على دفع عدوان المغيرين.

ولذلك قيل بحق: إن الوطنية التى لا تعتمد على باعثة من الخلق والدين إنما هى حصن متداع يُوشك أن ينهار.

وجملة القول أن الأديان تحل من الجماعات محل القلب من الجسد، وأن الذى يؤرخ الديانات كأنما يؤرخ حياة الشعوب، وأطوار المدنيات.

نشأة العقيدة الإلهية

العوامل الأولى لإيقاظها فى النفوس ودعائمها فى العقل الغريزى

قانونا السببية والغائية:

أشرنا فيما سبق إلى أن ظاهرة التدين تستند فى أصلها إلى مبدأين مرتكزين فى بداهة العقول، وهما قانونا «السببية والغائية».. ونبادر الآن فنكرر أن هذين القانونين متى فُهما على كمالهما انتهيا إلى أسمى العقائد الدينية: عقيدتى التوحيد والخلود؛ وأن عقائد الشرك والوثنية والفناء إنما هى وليدة ضرب من الغفلة أو الكسل العقلى يقف بها فى بعض الطريق.

أما قانون السببية فيقرر أن شيئاً من (الممكنات) (٣) «لا يحدث بنفسه من غير شىء»؛ لأنه لا يحمل فى طبيعته السبب الكافى لوجوده، «ولا يستقل بإحداث شىء»، لأنه لا يستطيع أن يمنح غيره شيئاً لا يملكه هو، كما أن الصفر لا يمكن أن يتولد عنه عدد إيجابى، فلابد له فى وجوده وفى تأثيره من سببٍ خارجى. وهذا السبب الخارجي إن لم يكن موجوداً بنفسه احتاج إلى غيره. فلا مفر من الانتهاء إلى سبب ضرورى الوجود يكون هو سبب الأسباب.

وأما قانون الغائية فمن موجبه أن كل نظام مركب متناسق مستقر لا يمكن أن يحدث عن غير قصد، وأن كل قصد لابد أن يهدف إلى غاية، وأن هذه الغاية، إذا لم تحقق إلا مطلبا جزئياً إضافيا منقطعاً، تشوفت النفس من ورائها إلى غاية أخرى.. حتى تنتهى إلى غاية كلية ثابتة هى غاية الغايات.

نعم إن طاقة البشر، وطبيعة المخلوق، أعجز من أن تحصى مراحل الأسباب والغايات مرحلة

(٣) التعبير المشهور هو أن شيئاً لا يحدث من لا شىء، وقد أضفنا عبارة: «من الممكنات» تحديداً للمجال الحقيقى الذى يطلق فيه هذا المبدأ، ودفعاً للخطأ الذى ينجم من أخذه على إطلاقه. ذلك أن الأمور «الضرورية الوجود» ككون الكل أكبر من جزئه، وكون الشىء عين نفسه، وأن ضم الواحد إلى الواحد ينشأ عنه اثنان وضم الصفر إلى الصفر لا يخرج منه عدد إيجابى. إلى غير ذلك من أحكام قانون العينية - تحمل فى طبيعة مفهومها سبب وجودها، فهى موجودة بنفسها لا بسبب خارجى. والأمور «المستحيلة» ككون الجزء أكبر من كله، وكون الشىء غير نفسه، أو عين غيره، إلى أشباه ذلك من أحكام قانون التناقض - تحمل فى نفسها سبب عدمها؛ فلا تقبل الوجود بنفسها ولا بغيرها. أما «الممكنات» التى تقبل الوجود والعدم ولا تقتضى طبيعتها واحداً منها، فإن وجودها إنما يرد إليها من سبب خارج عنها حتماً. إذ لو وجدت بنفسها لكانت واجبة الوجود، وهو خلاف المفروض.

مرحلة، وتتابع سلسلتها حلقة حلقة، حتى تشهد بداية العالم ونهايته. ولذلك يئست العلوم التجريبية من معرفة أصول الأشياء وغاياتها الأخيرة، وأعلنت عدولها عن هذه المحاولة، وكان قصاراها أن تخطو خطوات معدودة إلي الأمام أو إلي الوراء، تاركة ما بعد ذلك إلى ساحة الغيب التى يستوى في الوقوف دونها العلماء والجهلاء.

ولكن هذا اليأس الإنسانى من معرفة أطوار الكائنات تفصيلاً في ماضيها ومستقبلها، يقابله يقين إجمالى ينطوى كل عقل على الاعتراف به طوعاً أو كرهاً، وهو أنه مهما طالت سلسلة الأسباب الممكنة والغايات الجزئية، وسواء أفرضت متناهية، أو غير متناهية، فإنه لابد لتفسيرها وفهمها ومعقولية وجودها من إثبات شئ آخر يحمل فى نفسه سبب وجوده وبقائه، بحيث يكون هو الأول الحقيقى الذى ليس قبله شئ، والغاية الحقيقية التى ليس بعدها شئ، وإلا لبقيت كل هذه الممكنات في طي الكتمان والعدم، (إن لم يكن لها مبدأ ذو وجود مستقل)، أو لبقيت لغزاً وعبثاً غير معقول، (إن لم تكن لها غاية تامة تنقطع بها لحاجة النفس ويستقر مضطربها).

نقول: إن وجود هذه الحقيقة الأولى والأخيرة ضرورة عقلية لا مناص من التسليم بها، ولا مجال لأحد أن يكابر فيها متى فكر قليلاً فى الوضع الذى يؤول إليه إنكارها. اللهم إلا إذا فرضناه كائناً أخرق، لا يذعن لقواعد المنطق والحساب، ولا يبالي أن يبطل كل شئ فى الأذهان.

عواملها فى الوعى المتيقظ والشعور المتوقد

ما الأسباب المباشرة التى أيقظتها فى النفوس؟

فإذا سألنا هنا عن نشأة العقيدة الإلهية، فليس سؤالنا منشأ هذه الضرورة الكامنة فى العقل الباطن، والتى هى من الأوليات التى لا يسأل عن مصدرها. وإنما السؤال عن العوامل والملابسات التى تكون قد رفعت هذه الحقيقة إلى مستوى الوعي المتيقظ، ثم لم تكتف بإبرازها أمام العقل قضية نظرية، بل حولتها إلى فكرة حية ملهبة للمشاعر، وطبعت موضوعها بطابع خاص يجعله ذاتاً علوية تتوجه إليها القلوب بالرغبة والرهبة، والدعاء والخضوع.

جمهور الباحثين فى هذه المسألة لا يطلبون من بحثهم الوقوف على الأسباب العامة التي تيسر دراستها ويمكن التحقق من وجودها فى كل عصر، والتي يعقل أنها هى التى أيقظت ولاتزال توقظ الحاسة الدينية في الإنسان، بل يفهمون من كلمة «نشأة الدين» بالصورة التي ظهرت فيها الأديان أول ما ظهرت في الوجود. فالأولية التي يريدون تقريرها ليست أولية فى الترتيب المنطقى فحسب (كتقدم المقدمات على النتائج) وليست أولية تاريخية نسبية (أعنى بالإضافة إلى العصور المعروفة) بل هى أولية زمانية مطلقة، تقترن بظهور الإنسان على هذا الكوكب.

والمنهج الذى يسلكونه للوصول إلى هذا المطلب هو التنقيب عن أديان الأمم القديمة، أو

أديان الأمم المعاصرة غير المتحضرة، حتى إذا ما انتهى بهم السير في تلك العصور المظلمة، أو تلك الأقطار المنعزلة، إلى أقدم مظهر معروف من مظاهر التفكير الدينى، اعتبروه صورة مطابقة لما كان عليه الإنسان الأول.

ولما كانت المرحلة النهائية فى نظر باحث معين لا تنطبق دائماً على المرحلة الأخيرة التى يصل إليها باحث آخر، انقسم الباحثون فى الموضوع إلى شعبتين عظيمتين، تسيران فى خطين متعاكسين:

«ففريق منهم» يذهب إلى أن الدين بدأ فى صورة الخرافة والوثنية، وأن الإنسان أخذ يترقى فى دينه على مدى الأجيال حتى وصل إلى الكمال فيه بالتوحيد، كما تدرج نحو الكمال فى علومه وصناعاته، حتى زعم بعضهم أن عقيدة «الإله الأحد» عقيدة جد حديثة، وأنها وليدة عقلية خاصة بالجنس السامى.

هذه النظرية نادى بها أنصار مذهب «التطور التقدمى، أو التصاعدى» Evolutionnisme progressisie ou ascendent، الذى ساد فى أوروبا فى القرن التاسع عشر، فى أكثر من فرع من فروع العلوم، وحاول تطبيقه على تاريخ الأديان عدد من العلماء منهم سبنسر Spencer، وتيلور Tylor، وفريزر Frazer، ودوركايم Durkheim، وغيرهم، وإن اختلفت وجهات نظرهم فى تحديد صورة العبادة الأولى وموضوعها.

«وفريق آخر» يقرر بالطرق العلمية بطلان هذا المذهب، ويثبت بالعكس أن عقيدة الخالق الأكبر هى أقدم ديانة ظهرت فى البشر، مستدلاً بأنها لم تنفك عنها أمة من الأمم في القديم والحديث. فتكون الوثنيات إن هى إلا أعراض طارئة، أو أمراض متطفلة، بجانب هذه العقيدة العالمية الخالدة.

وهذه هى نظرية «فطرية التوحيد وأصالته»، التى انتصر لها جمهور من علماء الأجناس، وعلماء الإنسان، وعلماء النفس. ومن أشهر مشاهيرهم لانج Lang الذى أثبت وجود عقيدة «الإله الأعلى» عند القبائل الهمجية فى أستراليا، وإفريقيا، وأمريكا. ومنهم شريدر sheroeder الذى أثبتها عند الأجناس الآرية القديمة؛ وبروكلمان Brockelman الذى وجدها عند الساميين قبل الإسلام، ولرواه La Roy وكاترفاج Quatrefages عند أقزام أواسط إفريقيا، وشميدت Schmidt عند الأقزام وعند سكان أوستراليا الجنوبية الشرقية. وقد انتهى بحث شميدت هذا إلى فكرة «الإله الأعظم» توجد عند جميع الشعوب الذين يعدو من أقدم الأجناس الإنسانية»(٤).

غير أنه مهما تتفاوت النتائج فى نظر المذهبين: «التطورى والفطرى» فإنهما متفقان على موضوع البحث، وهو تحديد صورة العقيدة «البدائية» الحقيقية، وعلى منهاجه، وهو دراسة الشعوب المتأخرة والأمم الغابرة.

«يتبع»

(٤) schmidh, ouv, cit, p. 30

الوضع القانونى بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعى



٥



للمستشار: طارق البشرى

سادسا: القانون والدين الإسلامى:

يلاحظ الأستاذ على بدوى سرعة انتشار الدين الإسلامى والشريعة الإسلامية من الهند إلى الأندلس. سادت فى المنطقة كلها أحكام الشريعة، لأن القانون والدين فى الإسلام من أصل واحد. «لذلك، كان نشر الدين نشرا فى الوقت ذاته للشريعة، وأينما تخلى الدين الإسلامى عن ميدان من الميادين، زال نفوذ الشريعة الإسلامية منه، كما حدث فى إسبانيا وفى صقلية. كذلك، لم يكن للشريعة نصيب وافر فى البلاد التى لم يسلم فيها إلا القليل، كما كان الأمر فى اليونان والبلقان..». ثم يتكلم عن الحاضر فيقول: «لم تبق إلى الآن الشريعة العامة حيثما كان الإسلام دينا عاما، إلا فى بلاد محدودة، مثل بلاد الملك ابن سعود وبلاد الأفغان..»[(١)].

وتشير هذه الملاحظة المستقاة من الواقع التاريخى إلى الصلة بين الدين الإسلامى حيثما كان دينا عاما، وبين الشريعة الإسلامية، لأن تشريع أى أمة ذات حضارة يتصل بخصائصها الحضارية، ويرتبط بأنساقها الأخلاقية وتقاليدها، ومن دون أن يخل هذا بقابلية التشريع للتطور والتجدد وبقابلية تلك الخصائص الحضارية والأنساق الأخلاقية للتطور والتجدد أيضاً، ومن دون الإخلال بإمكان الاستعانة بالتشريعات الأجنبية لسد نقص يستدعيه تطور ما أو ضرورة عملية جرت. ولكن ذلك يجرى بالاستفادة من المعالجة الأجنبية لمشكلة ما، مع تمثل هذه المعالجة وهضمها ووصلها بأصول الشرعية والأحكام السائدة على نحو ما كان رفاعة رافع الطهطاوى يصنع بالنسبة لبعض المفهومات، أو ما كان الشيخ محمد عبده يصنع فى تجديداته الفقهية، فيرتبط الحكم الجديد بالمكونات الدينية والعقائدية والثقافية، وبالأنساق الأخلاقية السائدة فى المجتمع. ولكن الذى حدث عندنا لم يكن تجديدا، بل كان تغييرا، ولم يكن معالجة بل كان بترا.

إن الشيخ محمد عبده يحدد أهم أركان الإسلام فى ثلاثة، أولها: توحيد الله وتنزيهه. وثانيها: أحوال النفس بعد الموت.

وثالثها: «تقرير الحدود العامة للأعمال ببيان الصالحات وما يقابلها، وذلك هو الشريعة»[(٢)]. ويذكر فتحى رضوان «أن دنيا المسلمين ليست خارج الدين، ولا تقع بعيدة عن أحكامه، ولا هى كيان قائم بذاته..». ويقول: «لم يبق للشرع الإسلامى إلا الأخلاق والضمير، والارتقاء به إلى مستوى القانون والسلطان، وجعله واعيا لطيفا..»[(٣)]. ويذكر علال الفاسى قوله: «أما عندنا، فقد نسينا مدلول الدين بالمعنى الإسلامى، وهو مجرد تشريع.. وأصبحنا نفكر فى أمور الدين بما يفكر فيه الغرب وما نقرؤه من آدابه الموجهة قبل كل شىء لنقد مجتمع قام على تحكم الكنيسة.. وهكذا وجد عندنا مشكلة فصل الدين عن الدولة مثلا، فالدين بالمعنى الغربى لا وجود له عندنا. والدولة والدين شىء واحد لأن الدولة والدين لا بد أن يقوما على عقيدة وخلق..»[(٤)].

هناك إذن صلة ارتكان بين الدين والدولة والقانون فى الإسلام، وجحد هذه الصلة يبتعد بالجماهير عن الصواب فى فهم الإسلام والشريعة، وفى إدراك حقائق التاريخ.

وامتزاج الدين بالأخلاق وبالقانون ـ حسبما يذهب عبدالرحمن البزاز[(٥)] ـ هو من خصائص الفكر الإسلامى.

وكما أن انتشار الإسلام أفاد باللزوم انتشار الشريعة، وانحساره أفاد انحسارها، فإنه بالمثل كان إقصاء الشريعة من شأنه أن يصيب الدين الإسلامى فى بعض أركانه، ويوهن من عزيمته بوصفه مرجع الشرعية، وأصل الاحتكام فى المجتمعات التى يدين

---

(١) بدوى: (أبحاث فى أصول الشرائع)، ص ٢٠١.

(٢) محمد عبده: تفسير جزء عم (القاهرة: المطبعة الأميرية، عام ١٣٢٢ هـ)، ص ١٧٦.

(٣) فتحى رضوان: الإسلام والمسلمون (بيروت: دار الشروق، عام ١٩٨٢)، ص٤٦ ـ ٤٧، ٢٨٢.

(٤) فهمى جدعان: أسس التقدم عند مفكرى الإسلام فى العالم العربى الحديث (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عام ١٩٧٩)، ص٣٥٧.

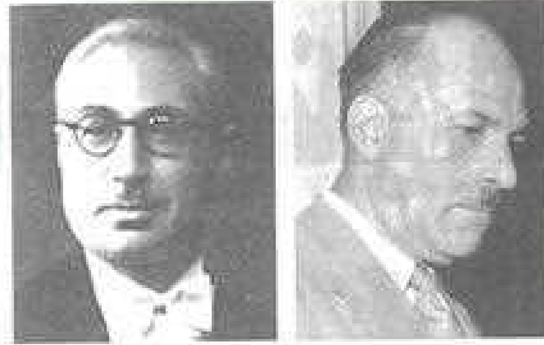
(٥) المصدر نفسه، ص٣٥٧ ـ ٣٦٢.

غالبها بالإسلام.. وكان هذا من الأهداف الظاهرة للنشاط التبشيرى والتغريبى فى بلادنا من خواتيم القرن الماضى ومطلع هذا القرن.

إن د. فهمى جدعان يفصح عن هذا الأمر فى دراسة قيمة، ويعلق على الوجه التغريبى لحركة إقصاء الشريعة، قائلاً: «إن هذا الوجه للحركة التغريبية، الذى يتخطى فى خطورته ونتائجه السياسية والاجتماعية كل الحدود، وينطوى على قلب شامل للصورة التاريخية للإسلام وللمجتمع، يتمثل فى هذه النزعة التى أراد أصحابها أن يجعلوا من الإسلام مجرد (دين) فحسب، بالمعنى الغربى الحديث لهذه الكلمة، أى باعتباره منظومة روحية من العقائد....».. ويقول: إن هذه النزعة اتخذت طريقين:

أولهما: استبدال القانون الوضعى بالشريعة باسم التوحيد بينهما..

وثانيهما: ـ وهو الأخطر ـ استبعاد الإسلام من حقل التدبير السياسى والاجتماعى للدولة والمجتمع.. ثم يعلق على كتاب الشيخ على عبدالرازق، بقوله: «لا شك فى أن ما لاحظه محمد بخيت المطيعى والطاهر بن عاشور ومحمد الخضر حسين، وما أكده محمد البهى، من القول بأن دعوة عبدالرازق تؤدى إلى محو شخصية الجماعة الإسلامية وإلى إسقاط سلسلة من الأحكام الخلقية والعلمية والقضائية والدولية التى تضمنتها الشريعة الإسلامية، هو أمر لا مجال لإنكاره»(٦).


فتحى رضوان — د. محمد حسين هيكل

وأتصور أن من يجحد هذه الدعوى يقبل حكم د. محمد حسين هيكل فيها، عندما لخص أهداف التغريب بأنها قطع «الشرق» بماضيه، وقطع صلة العقيدة والتفكير بين الماضى والحاضر، وصبغ ماضى الشرق بلون قاتم يرى أهله فيه عاراً، وأن يصبحوا عيالا على الغرب: يتطلعون إليه فى إعجاب وتقديس، ويرون فى خضوعهم له شرفا كبيرا(٧).. وهنا، وفى إطار الفكر القانونى، نذكر ملاحظة الأستاذ السنهورى التى أثبتها فى سنة ١٩٥٣ بعد سبعين عاماً من إدخال التقنينات الغربية.. يقول: «الفقه المصرى ليس له طابع شخصى، ويكاد يكون تقليداً محضا للفقه الفرنسى، على وفرة المؤلفات الفقهية والرسائل والمجلدات فى القانون المصرى فى جميع فروعه، وعلى اختلاف المؤلفين من مصريين وأجانب»(٨).. أليست هذه الشهادة، بعد هذا الزمن ومن هذا الرجل، ومن واحد من الأعلام المشهود لهم، أليست تصدم الرءوس، وبخاصة من ظلوا ينشدون على مدار العقود أن عيب الشريعة فى فقهائها، وعيبهم أنهم مقلدون؟! ثم لو أن كل هذه

(٦) المصدر نفسه، ص٣٢٦ ـ ٣٢٩ و٣٤٣

(٧) المصدر نفسه.

(٨) عبدالرزاق أحمد السنهورى وحشمت أبو ستيت: أصول القانون أو المدخل لدراسة القانون (القاهرة: دار الفكر العربى، عام ١٩٥٢)، ص١٤٩.

العقول والجهود التى بذلها فقهاء القانون الحديث ومفكروهم والقضاة والمفتون، لو أنها صبت عبر هذا الزمن فى وعاء الشريعة، أما كنا نجد اليوم الغرس نباتا، والنبات زهرا وثمرا، مع ما يكون فيه من وصل بين القانون وأخلاق الأمة وعقائدها وماضيها ووجدانها؟! أليس هذا هو التجديد المطلوب؟! أليس هو التجديد المهجور؟! أليس جهد النقل والتقليد عن فرنسا هو الطاقة المهدرة، كالنفط المسكوب ماء وأموالا فى أوعية الغرب أهدرناه، لا إبداعا وابتكارا من أى منبت، ولكن «تقليداً محضاً»، كما يقول السنهورى؟!

سابعاً: حول التجديد:

لا أرى غناء فى الحديث عن التجديد والمجددين فى الإسلام، إثباتا لوجود هذا الأمر.. فما أكثر ما أريق من المداد فى هذا الشأن، دعوة له، وممارسة فعلية له، وكشفاً لمواضعه.. ومن طلب المعرفة وجدها فى العديد من أعمال العلماء والفقهاء، وفى الرسائل والبحوث والتفاسير والشروح، سواء فى الحديث منها أو فى القديم.. إنما أود الإشارة السريعة إلى بعض نقاط حول هذا الموضوع.

ينبغى التفرقة بين الشريعة والفقه.. الشريعة، هى الأحكام التى وضعها الله سبحانه وتعالى لعباده، ومصدرها الرئيس هو القرآن والسنة.. وهى وضع إلهى لا يتغير.

والفقه، هو معرفة الأحكام الشرعية التى تتعلق بأفعال العباد، أو هو استخلاص الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية عن طريق الاستدلال والاستنباط والاجتهاد، وهو بهذا لابد أن يساير مقتضيات الحياة المتغيرة، ويتمشى مع الحاجة البشرية فى إطار الدين.


السنهورى

والتغير هنا لا يعنى تغيرا لأصل الحكم المرجوع إليه، إنما يعنى تغيراً لدلالة الحكم مطبقا على حالات متغيرة أو فى ظروف مختلفة.. هذا المنهج لا يصدق بالنسبة للشريعة فقط، ولكنه يصدق فى تفسير أى نص قانونى.. لأن التفسير ليس مجرد بيان لمعانى الكلمات والعبارات، ولكنه فى جوهره ـ ومن الناحية الفنية البحتة ـ هو وصل النص بالواقع، هو إدراك حكم النص متحركاً فى إطار الواقع المطروح.. لذلك، فإن النص وهو ثابت (ولو كان نصاً وضعياً) لا تتناهى تفسيراته، لأنه ينطبق على واقع غير متناه.. والاجتهاد، هو سبيل التفسير المتجدد للنص الثابت على الوقائع المتغيرة.

هذا الفارق بين الشريعة والفقه، يتعين أن يكون واضحاً لدى من يذودون عن الشريعة، فلا يسبغون وضعها الإلهى الثابت على آراء للفقهاء جرت فى ظرف مغاير.

كما يتعين أن يكون واضحا لدى من ينقد آراء قديمة فى الفقه، ألا يبسط نقده على ما يمس الأصل المرجعى الثابت فى القرآن والسنة، أى الشريعة.. هذا ما يتعين أن يكون عليه التوجه العام لمراعاة الفروق بين الشريعة والفقه.. ثم بعد ذلك، ترد المسائل الفنية الخاصة بإجراء هذه التفرقة مما لا يتسع المجال للتفصيل فيه.

ثم إنه يمكن الإشارة إلى أن غلق باب الاجتهاد الذى عانى منه الفقه الإسلامى من وجوه عديدة، لم يكن هكذا صاعقة تخلف

فهي ضربت على العقول والأمخاخ، إنما تمثل فيه أحياناً نوع من المقاومة السلبية لدى جمهرة من القائمين على هذا الأمر، امتناعاً عما يقسرهم عليه السلطان أو يغريهم به.. هو موقف محافظ، ولكن للمحافظة في ظروف معينة وظيفة مقاومة.. وما أكثر ما كانت دعوة التجديد تظهر إذا جدت ظروف موجبة، كما حدث من ابن تيمية، ثم ابن عبدالوهاب، ثم من نعرف في القرنين الأخيرين.

كما أن الالتزام بمذهب واحد، لم يكن محض عصبية عمياء، ولم يكن عيباً جميعه.. إنما كان له وجه نظر رشيد بالنسبة لإلزام القاضي بمذهب بعينه.

وهو يماثل اليوم إلزام القاضي بأن يقضي وفق القانون الصادر، وإلزام المحاكم الأدنى بأن تقضي وفق ما تستقر عليه مبادئ المحكمة العليا.

كل ذلك مقصود به ألا يكون اختلاف الاجتهادات موقعا في الفوضى، أو مربكا للناس في اقتضاء حقوقهم وفي السير في معاملاتهم وفق ما يعرفونه سلفا من أحكام تفصيلية تنظم هذه المعاملات.

كما أنه بالنسبة للطرق الصوفية ـ فإنه مع إدراكنا لسلبيات ممارساتها، وما كان يشيعه بعضها من توسل بالأولياء وطواف بالقبور ونحوه ـ يتعين ألا يغيب عنا الوظائف الشتى التي قامت بها هذه الحركة في عمومها في مراحل كثيرة، من حيث نشر الإسلام في المناطق النائية، ومن حيث توثيق العرى بين أعضائها، ودعم روح التضامن الاجتماعي بين أفرادها، وإشاعة قدر ـ قل أو كثر ـ من التعليم بين جماعات أمية تتلقى جوانب من المعرفة بالتلقين الشفهي، ثم مساهماتها في الحركات الشعبية السياسية في فترات عديدة.

هذه أمثلة أذكرها، لا دفاعاً ضريراً عن أوضاع خلت، ولكن لأنبه إلى أن البحث العلمي الصحيح يوجب النظر إلى أي ظاهرة فكرية أو مؤسسية في إطار الأوضاع الاجتماعية العامة التي عاشتها، ثم تستخرج الدلالات والوظائف الملموسة لها في الظروف الملموسة، ثم يبحث تغير الوظائف مع تغير الظروف وهكذا.. أما الأحكام المعماة، التي تطلق على المفاهيم المصمتة، وتستند بشاهد من هنا وحكاية من هناك، فهذا ليس من البحث العلمي في شيء.

وإذا كان التجديد مقصوداً به إدراك الوضعية الفاعلة في الظروف الملموسة المناسبة، فأكاد أقول: إن تلك الظواهر المشار إليها، في حدود دواعيها الإيجابية، لم تكن تخلو من نزعة تجديدية. ولا يعني هذا مطلقاً أن الظاهرة تستصحب هذا التقويم من هذا الجانب في ظروف أخرى متغيرة.

نقطة أخرى أدركتها بالمعايشة.. إن الإسلام في قلب المؤمن به جديد جدة نفسه وجدة حياته وحاضره.. ومتى أمن عليه من الغوائل، وأمن على أصوله وثوابته، صار إسلامه عنده وكأنه أبلغ إليه في هذه الساعة متفاعلا بأصوله وأركانه وقيمه مع حاضره وما يرنو إليه من مستقبل.. ذلك أن الإسلام معتقد معقود في نفس المؤمن به، والمؤمن حاضر وحي وجديد.. وهو مخاطب بأحكام الإسلام، قرآناً وسنة، في يومه هذا.. وهذا مفاد كون نصوصه غير تاريخية.

هذا بخلاف ما يمكن أن نسميه بالنظرة «الأثرية» للإسلام، التي تراه آثاراً، أو حتى لو كانت تحن إليه، فكما يحن الشاعر إلى مرابط قومه القديمة يستنشق عبيرها ويستحضرها في ذاكرته ساعة ثم يمضي.

بهذا الإدراك لجدة الإسلام بوصفه معتقداً، نفهم كيف هدم الوهابيون الأوائل كثيراً من المزارات، وكيف قرر الأصوليون أن «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»، لأن النص إلهي، وهو غير تاريخي.. أما الفقه، فهو الوضع التاريخي، نأخذ منه ونترك وفقا لما ندركه من جدة أصول الإسلام في نفوسنا، ومع تقديرنا أن الفقه هو الخبرة التاريخية التي يلزم استطلاعها، وهو تجارب الماضي التي نسترشد بها.

ثامناً: الشريعة والجماعة السياسية:

بقيت نقطة تتعلق بصلة الشريعة الإسلامية بالجماعة السياسية، باعتبار أن التشريع الآخذ من الشريعة يمكن أن يكون من عوامل التوحيد العربي.. وقد ظهر ونما غالب الفقه الإسلامي في هذه البيئة العربية، وظهرت مدارس في العراق والحجاز والشام ومصر.. وهو، على هذا الأساس، الفقه المرشح لأن ينمو منه التشريع الحاكم للعرب.. وقد سبقت الإشارة إلى توجه السنهوري إلى هذه الوجهة في مقاله الذي سلفت الإشارة إليه بعنوان «القانون المدني العربي».. وهو الفقه الذي درجت عليه الأقطار العربية وألفته مجتمعاتها قرونا، فصار من العناصر التي توفر التجمع العربي والاتصال التاريخي.. ويذكر أستاذ القانون المدني د. شفيق شحاتة في سنة ١٩٦٠، أن «البلاد العربية في إبان حضارتها حكمها قانون ينبعث من صميم عقيدتها، يتمثل في الشريعة الإسلامية.. والشريعة الإسلامية ظلت مطبقة تطبيقا شاملا مختلف نواحي الحياة العربية، وذلك على مدى قرون طويلة.. فإذا أردنا الآن الرجوع بالبلاد العربية إلى مقوماتها الأصيلة، تعين علينا الرجوع إلى هذا الينبوع لنغترف منه أنظمة تتسق وحاجات العصر»(٩).

ثم إن المصادر القانونية لتشريعات البلاد العربية اليوم على قدر من التنوع يصعب معه إجراء التوحيد أو التفضيل، منها التشريعات الآخذة عن الفقه اللاتيني كمصر وسوريا ولبنان، والتشريعات الآخذة عن الفقه السكسوني كالسودان وبعض قوانين العراق، ومنها الآخذة عن الشريعة كالسعودية واليمن.. ومنها ما مزج التشريع الإسلامي بالتشريعات الغربية كالقانون المدني العراقي.

ومن جهة أخرى، فالتشريع الإسلامي يصلح عنصرا جامعاً بين العرب والأقليات غير العربية في الوطن العربي بجامع الإسلام لدى الأكراد والبربر مثلاً.

وبالنسبة لأوضاع غير المسلمين في الأقطار العربية، فقد تعرضت لهذا الموضوع الحيوي في دراسة أخرى، ولا أجد متسعا من الوقت والمساحة في هذه الدراسة لتكرار القول فيها(١٠)

- يتبع -

(٩) شفيق شحاتة: الاتجاهات التشريعية في قوانين البلاد العربية (القاهرة- جامعة الدول العربية: معهد الدراسات العربية العالية، عام ١٩٦٠م)، ص٥ ـ ٦.

(١٠) طارق البشري: المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام ١٩٨٠).

تقنين الشريعة بين المجتمع والدولة



للأستاذ الدكتور / ابراهيم البيومى غانم

«تاقت النفوس من أبناء شعب مصر العظيم منذ فترة طويلة إلى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، كما تطلعت إلى اليوم الذى يكون فيه مرد الأمر إلى أحكام الله تبارك وتعالى، التى فطرت عليها طبيعة هذا الشعب».

بالكلمات السابقة، استهل مجلس الشعب المصرى الكتاب الذى أصدره سنة ١٩٨٣ بعنوان «تقنين الشريعة الإسلامية فى مجلس الشعب».

ثم استطرد الكتاب نفسه فى سرد فصول من قصة المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية فى مصر، والجهود التى بذلتها المؤسسات الرسمية للدولة المصرية، إلى جانب جهود الفقهاء المجتهدين، وأعلام القانون والقضاة البارزين، من أجل بلوغ هذه الغاية التى تاقت إليها النفوس من أبناء شعب مصر العظيم.

ولاتزال نفوس أبناء الشعب المصرى العظيم تتوق إلى تطبيق جميع أحكام الشريعة الغراء، لأن فيها ـ وحدها ـ صلاح أحوالهم فى حاضرهم، وفى مستقبلهم ومستقبل الأجيال التى تأتى من بعدهم.

ونحن نقدم فى هذا الكتاب لأبناء الجيل الحالى ـ وللأجيال المقبلة من بعدنا ـ وقائع عملية «تقنين الشريعة الإسلامية فى مجلس الشعب» منذ بدأت بالمطالبة الشعبية بضرورة تطبيق أحكام الشريعة، إلى أن تم فى منتصف سنة ١٩٨٢ الانتهاء من إعداد خمسة مشروعات قوانين طبقاً لأحكام الشريعة الإسلامية، هى: مشروع قانون المعاملات المدنية (١١٣٦ مادة)، ومشروع قانون إجراءات التقاضى والإثبات (١٨١ مادة)، ومشروع قانون العقوبات (٦٣٠ مادة)، ومشروع قانون التجارة (٧٧٦ مادة)، ومشروع قانون التجارة البحرية (٤٤٣ مادة). وقد وافق مجلس الشعب بجلسة ١ / ٧ / ١٩٨٢ على تقارير اللجان الخمس التى اختصت كل لجنة منها بأحد تلك القوانين الخمسة، وذلك بعد أن اكتملت صياغتها تمهيداً لعرضها على المجلس آنذاك.

وكان من المفترض أن يبدأ المجلس مناقشتها فى جلسته بتاريخ أول يوليو ١٩٨٢، أى وقبل فض دورته البرلمانية ١٩٨٢ / ١٩٨٣. وكانت خطة العمل التى أعلنها الدكتور صوفى أبوطالب ـ رئيس المجلس آنذاك ـ تتضمن أن تقوم اللجنة الخاصة المكلفة بتقنين الشريعة بإحالة مشروعات التقنين التى اكتملت إلى اللجنة التشريعية بالمجلس، ثم تقوم اللجنة التشريعية بعرضها على المجلس ومناقشة كل قانون مادة مادة، ثم تقوم اللجنة ذاتها ـ بعد فض الدورة البرلمانية ـ بعقد جلسات استطلاع رأى، على أوسع مجال للوقوف على رأى المواطنين فيه.

ولكن، فجأة توقف كل شيء، ولم يحدث من تلك الخطة أى شيء فى سبيل إكمال مشروع التقنين ووضعه موضع التنفيذ كما كان مقررا عن البدء فيه!!.. لقد دخلت تقنينات الشريعة ـ منذ ذلك التاريخ ـ أدراج المجلس ولم تخرج للعرض عليه، كى يناقشها ويصدرها، ولاتزال حبيسة الأدراج، وقد مضى عليها فى أدراجه مايقرب من ثلاثة عقود (يوليو ١٩٨٢ ـ ٢٠١١) وبالرغم من مضى كل هذه المدة، لايزال الأمل يحدو المصريين نحو بلوغ الهدف العظيم الذى تاقت إليه نفوسهم، وناضلت أجيالهم جيلا بعد جيل للوصول إلى منذ ما يزيد على قرن من الزمان.

وبعد نجاح ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ غدت كل الدلائل تؤكد أن هذا النضال ماض فى طريقه، وأنه سيصل إلى غايته، وغايته ـ التى هى «سيادة الشريعة» ـ هى التى سترسم بسماحتها ملامح المستقبل الواعد الذى يتطلع إليه المصريون.



صوفى ابو طالب

نقول ذلك ونحن نعلم أنه حدث «شبه انقطاع» أو تعطيل لكثير من مبادئ الشريعة وأحكامها نتيجة لوقوع بلادنا ـ منذ قرنين تقريبا ـ تحت الاحتلال الأوروبى واستيراد القوانين الأجنبية. إلا أن هذا الانقطاع وإن طال فمآله إلى الزوال، وهذا التعطيل وإن دام حقبة فى الماضى فلن يدوم فى المستقبل، وهذا لأسباب كثيرة، أهمها على الإطلاق هو أن «الشريعة» تشكل جوهر «هوية» الشعب المصرى، وأى نقص يحدث بسبب تعطيلها أو انقطاعها يساويه نقص فى هوية هذا الشعب، أما الانقطاع التام أو التعطيل الكامل للشريعة فيعنى فقدان هويته إلى الأبد.. وكل هذه الاحتمالات غير واردة بالنسبة للأمم العريقة فى التاريخ والحضارة مثل الأمة

الإسلامية بشعوبها ومجتمعاتها المتنوعة، وفي القلب منها مجتمعنا المصرى.

صحيح أنه كثيراً ما راحت بعض الأمم والشعوب - قديمًا وحديثًا - ضحية للحظات الضعف، أولدوامات المحن والأزمات والتحديات التى تحدث وجودها، ونالت من هويتها. ولكن الأمم العريقة - وحدها - هي التى استنهضتها المحن والتحديات، فنهضت أقوى مما كانت عليه على مر التاريخ. وتدلنا تجارب نجاح الشعوب والأمم العريقة في تخطي لحظات الضعف وقهر التحديات على أن أحد أهم عوامل نهوضها هو استعصامها بأصول هويتها، وتشبثها بالعوامل الرئيسية التى تكون معادلة لذاتها، وفي مقدمتها: اللغة القومية، والدين، والشريعة، والفنون والآداب. هذه العوامل تكتسب أهمية كبيرة في لحظات الضعف وتكاثر التحديات لشدة ما تتعرض له من أخطار، ولدورها الكبير في صون هوية الأمة. وتدلنا تجارب الشعوب والأمم أيضًا على أن «الهوية» تصبح فى أزمة عندما تنقسم جماعتها على نفسها، وتتشرذم نخبتها ولا تكون لها مرجعية معرفية متجانسة من جهة، وعندما تفقد الأمة استقلالها، أو يصيب هذا الاستقلال النقص بوقوعها تحت سيطرة قوة أجنبية غازية من جهة أخرى. تنشأ أزمة الهوية نتيجة إحدى هاتين الحالتين، أو نتيجة لهما معا.

وبالرغم من أن عوامل تكوين الهوية تعمل مجتمعة، ولا تعمل كل منها منفردة أو بمعزل عن الأخرى، فإن هذه العوامل ليست متساوية فى أهميتها، فاللغة والدين عقيدة وشريعة تفوق في أهميتها - ولا تلغي - أهمية الفنون والآداب والتقاليد والأعراف. وتعلو أهمية العقيدة والشريعة عندما تتأزم الهوية مقارنة بأهمية اللغة والتاريخ، ولا تلغى أيًا منهما أيضًا، وهكذا. ولسنا فى مجال بيان كيفية إسهام كل عامل فى تكوين «الهوية»، فقط نركز هنا على دور «العقيدة»، و«الشريعة»، سواء فى تكوين هوية الأمة، وتوحيد أصول هذه الهوية، أو فى تشخيصها والتعبير عنها وصونها وحمايتها.

لقد جاء الإسلام عقيدة وشريعة، لا يختلف على ذلك اثنان، ولا يتضارب في التسليم به قولان، وهذا هو ما قصده علماء السلف عندما عرفوا الدين بأنه «وضع إلهي، سائق لذوى العقول السليمة باختيارهم إلى الفلاح فى المعاش والمعاد». فلنبين دور العقيدة في بناء الهوية أولا، ثم نبين دور الشريعة فى بنائها بعد ذلك.

إن أساس العقيدة الإسلامية هو التوحيد والإيمان بالغيب، وهذه العقيدة ذاتها هى التى قررت «وحدة الدين» فى أصوله العامة، ونبذت الفرقة فيه، وأدانت الخصومة باسمه. ومما يؤكد ذلك أن «الإسلام» - في لغة القرآن الكريم - ليس اسمًا لدين خاص، وإنما هو اسم للدين الذى نادى به كل الأنبياء والمرسلين، يقول الله تعالى:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾

(الشورى: ١٣)

ويقول الله تعالى مخاطبًا النبى محمداً ﷺ:

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾

(الشورى: ١٥)

وللنبى ﷺ تصوير بليغ لهذا المعنى حيث يقول: «مثلى ومثل الأنبياء قبلى، كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون هلا وُضعت هذه اللبنة! فأنا تلكم اللبنة وأنا خاتم النبيين» (رواه البخارى ومسلم).

يتبين مما قلناه حتى الآن أن لمبدأ وحدة الدين أهمية بالغة في العقيدة الإسلامية من حيث دوره فى بناء هوية الأمة - بمختلف تكويناتها الاجتماعية والعقائدية - وتوحيد أساسها المعرفي، ومن حيث انعكاس هذه الوحدة أيضًا على منظومة القيم العليا الحاكمة للعلاقات بين الأمم والشعوب المختلفة، وليس فقط بين مجموعات الأمة الواحدة أو الشعب الواحد.

إن آيات القرآن الكريم تنص صراحة على وحدة الدين، وتأمر النبى وأصحابه بأن يكونوا أول المؤمنين بهذه الوحدة، فالمسلم يجب عليه ان يؤمن بكل نبى سبق، ويصدق بكل كتاب نزل، ويحترم كل شريعة مضت، ويثنى بالخير على كل أمة من المؤمنين خلت، قال تعالى:

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

(البقرة: ١٣٦)

ثم يقفى على ذلك بأن هذه هى سبيل الوحدة، وأن أهل الأديان الأخرى إذا آمنوا كهذا الإيمان فقد اهتدوا إليها، وإن لم يؤمنوا به فسيظلون فى شقاق، وأن أمرهم بعد ذلك إلى الله فيقول:

﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

(البقرة: ١٣٧)

عقيدة الإسلام تجمع ولا تفرق. تؤلف ولا تشتت. وتزيل كل شبهة يمكن أن تؤدى إلى جعل تعدد الرسالات السماوية مصدرًا للصراع أو الحرب باسم الدين. وقد نص القرآن على ذلك بالتأكيد على أن ملة إبراهيم عليه السلام هي أساس للدين ومرجع الأنبياء الثلاثة الذين عرفت رسالتهم وهم: موسى وعيسى ومحمد عليهم جميعًا السلام. كما حضت آيات الكتاب العزيز على تجريد الدين من أغراض البشر وأهوائهم والارتفاع بنسبته إلى الله وحده.

وحبُّ حصيد التأمل فى «وحدة الدين» بالمعنى العقيدى السالف بيانه، هو أن الحوار، أو الجدال بالتى هى أحسن هو الوسيلة المثلى للتفاهم بشأن قضايا الإيمان والعقيدة. قال تعالى:

﴿ وَلَا تُجَادِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

(العنكبوت: ٤٦)

وإذا كان الحوار هو الوسيلة المعتمدة في مثل هذه القضايا على خطورتها وأهميتها، فإنه يكون أولى بالتطبق فيما دونها من القضايا والمشكلات الإنسانية والاجتماعية والسياسية، وما سوى ذلك من قضايا ومشكلات.

إذا تصورنا أمة من الأمم، التقت جماعاتها بمختلف تكويناتها العرقية، والدينية، والمذهبية، والثقافية على قاعدة «العقيدة» الإسلامية بمعناها السابق، الذى يوحد، ولا يفرق، ويستوعب ولا يقصى أو يستبعد، فإن هذه الأمة تكون قد أرست أقوى دعائم بناء هويتها الذاتية، وهو «التوحد» فى المرجعية العليا للعقيدة.

هذا عن «العقيدة»، أما شريعة الإسلام، فقد جاءت لتنظيم أداء العبادات وترتيب إجراء المعاملات والعلاقات بين الأفراد والمجموعات والكيانات المختلفة، وضبط العادات والتقاليد والأعراف، وتحديد الجزاءات التى تكفل سلامة النظام العام، أو كما قال الإمام محمد عبده إن الشريعة هى التى تقرر «الحدود العامة للأعمال بيان الصالحات وما يقابلها».

ومن أهم سمات هذه الشريعة «المرونة»، إذ لم ترد مبادئها أو أحكامها على نمط واحد، وإنما تنوعت بين التفصيل كما فى الأحوال الشخصية، والإجمال كما فى المعاملات المدنية والجوانب الاقتصادية و الدستورية. وتارة يأتى المبدأ أو الحكم الشرعى بدلالة اللفظ، وأحياناً بفحواه وروحه. وتأتى تلك المبادئ والأحكام معللة، وتأتى عامة مطلقة وهكذا، ليتهيأ للشريعة البقاء والاستمرار عبر الدهور، ولتكون صالحة لكل زمان ومكان.

ومن أكثر مبادئ الشريعة إسهاماً فى إرساء أصول الهوية الواحدة للأمة ـ بجماعاتها وأعراقها وعقائدها الدينية المتعددة ـ أمرها بتنظيم المعاملات بين المسلمين وغير المسلمين على أساس المصلحة والخير الإنسانى، فالتعامل بين المسلمين وغيرهم من أهل العقائد والأديان إنما يقوم على أساس المصلحة الاجتماعية والخير الإنسانى، يقول الله تعالى:

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

(الممتحنة: ٨ ـ ٩)

ومعنى هذا أن الرابطة التى تربط الجميع بالدولة هى رابطة تعاقدية / إنسانية، أو قل ان شئت: هى رابطة المواطنة التى تسوى بين الكل، ولا تميز أحداً على آخر لأى سبب كان.

إذا تصورنا الآن أمة توحدها عقيدة جامعة، وتسوى بين أفرادها وجماعاتها وتكويناتها المختلفة، وتقيم العلاقات بينهم على أساس «المصلحة» المشتركة والخير الإنسانى، فإن هذه الأمة تكون قد استكملت أهم دعائم بناء

هويتها الذاتية، وأضحت فى مأمن من خطر التفكك، أو الذوبان فى هوية «ذات» أخرى معادية لها.

«العقيدة الجامعة»، و«الشريعة التى تحقق المصلحة المشتركة والخير الإنسانى»، هما ركنا «الهوية الذاتية» التى تميز أمة عن غيرها، وتأتى بقية عوامل تكوين الهوية من لغة وتاريخ وفنون وآداب لتعبر عن هذين الركنين، وتحيل مضامينهما النظرية المجردة إلى أعمال ومشروعات وممارسات اجتماعية، جماعية وفردية، رسمية وغير رسمية.

وعلى أساس ركنى «العقيدة»، و«الشريعة» ـ بالمعنى السابق ـ يتكون «النظام العام» الذى يرتكز عليه أى نظام قانونى، إذ يقوم «النظام العام» بضبط الإرادات الفردية والجماعية، فيحد الإرادة الفردية كما يحد الإرادات الجماعية بما فيها إرادة الدولة ذاتها، وإرادة السلطة التى تتحدث باسمها. كما يسهم «النظام العام» فى صوغ «العقل الجمعى» فى المجتمع، ويساعد الدولة فى الحفاظ على الأنساق القيمية المتبناة من قبلها فى مواجهة كل دعاوى التغيير (١)، وعلى وجه الخصوص تلك الدعاوى التى تستهدف النيل من ثوابت الأمة المستمدة من عقيدتها وشريعتها.

ويستقيم «النظام العام» وتقوى فعاليته بقوة بنيته المعنوية والأخلاقية القائمة على مبادىء الحق، والعدالة، والمساواة، والإنصاف كما يستقيم هذا النظام العام ويقوى كلما قوى حضور تلك المبادىء فى الوعى الاجتماعى العام ذلك لأنها هى المعايير التى تحدد الصواب من الخطأ، وتميز بين النفع والضرر وتحكم على الفعل بالحل أو بالحرمة، وترسى قواعد السلم الأهلى.

لقد ظلت منظومة «العقيدة» و«الشريعة» و«الهوية» و«النظام العام» متماسكة، وتغذى بعضها بعضاً، وتؤدى وظائفها فى الواقع الاجتماعى المصرى بدرجات متفاوتة من النجاح والإخفاق عبر المراحل التاريخية المختلفة، ولم يصبها خلل حاد إلا بوقوع مجتمعاتنا تحت الاحتلال الأجنبى خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، وما نجم عنه من سلبيات مدمرة، وانقسامات متعددة بين أبناء المجتمع الواحد وقد تجلى خطر هذه الانقسامات فى فقدان التجانس فى المرجعية العامة والعليا التى تستند إليها النخب القيادية، كما تجلى أيضاً فى ظهور نزعة التمايز والعزلة بين الأقليات والأغلبيات على أساس دينى / طائفى. أما عندما كانت النخبة ذات مرجعية واحدة فقد كانت الشريعة الإسلامية هى النهر الذى ارتوت منه جميع عناصر الهوية الذاتية للمجتمع وفى مقدمة هذه العناصر التشريعات الناظمة لحركة الحياة وعلاقات الأفراد والجماعات واللغة العربية، والثقافة العامة السائدة، والعادات والأعراف والسلوكيات، ونمط الحياة الذى يندرج فيه

(١) لمزيد من التفصيل حول وظيفة النظام العام كفكرة قانونية فى الاجتماع القانونى والسياسى انظر: عماد طارق البشرى، فكرة النظام العام فى النظرية والتطبيق (بيروت: المكتب الإسلامى للطباعة والنشر، ٢٠٠٥).

أغلب أبناء المجتمع على اختلاف انتماءاتهم وتعدد معتقداتهم ومذاهبهم.

قبل الاحتلال الأجنبى كانت مجتمعاتنا الإسلامية بما فيها المجتمع المصرى تعانى مشكلات كثيرة أدت إلى تدهورها وضعفها، ولكنها لم تشعر بأزمة فى «هويتها» إلا بعد أن بدأت تقتحمها القوانين والثقافات الأجنبية فى ركاب الاحتلال، وما ترتب على ذلك من إقصاء تدريجي للشريعة ومرجعيتها العليا عن مؤسسات الدولة ونظم الحكم والإدارة، إلى جانب ما ترتب على الاقتحام الأجنبى أيضاً من تراجع الأنظمة القانونية والمؤسسات القضائية الموروثة عن أداء مهماتها، أو إزاحتها وتقليص اختصاصاتها تحت وطأة الامتيازات الأجنبية لصالح قضاء المحاكم القنصلية تارة، وقضاء المحاكم المختلطة «الأجنبية/ الأهلية» تارة أخرى.

أصبحت مصر بكل ما سبق ابتداء من الحملة الفرنسية، مروراً بتغلغل النفوذ الأجنبى ووقوعها تحت الاحتلال البريطانى سنة ١٨٨٢ وكانت القيود التى فرضها الاحتلال على النظام التشريعي والقضائى هى أبشع صور العدوان الاستعمارى على سيادة البلاد، وعلى هوية المجتمع، وعلى «النظام العام» الذى يربط بين مختلف التكوينات الاجتماعية ومنذ اللحظات الأولى لنهضة الحركة الوطنية المصرية أدركت هذه الحركة بجميع قادتها وعلى رأسهم علماء الأزهر، ورجال القانون والقضاء، وقيادات مسيحية وطنية - أن استعادة الشريعة الإسلامية لموقع السيادة فى التشريعات والقوانين المصرية هدف وطنى يقع فى صلب النضال للتحرر من الاستعمار، وأن استعادة سيادة الشريعة يجب أن يكون هو أساس استرداد الهوية والسيادة الوطنية والاستقلال ولهذا فإن الحركة الوطنية المصرية بكل أطيافها التى قاومت الاحتلال، وخاصة فى ثورة ١٩١٩ سارعت إلى وضع هذا الهدف التشريعي/ الاستقلالى فى صلب دستور سنة ١٩٢٣ بالنص على أن «الإسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية».

يقول طارق البشرى: «إن لجنة الثلاثين التى وضعت دستور ١٩٢٣ ضمت ممثلين للأقليات، فكانت فيها من القبط الأنبا يؤانس مطران الإسكندرية، وقلينى فهمى، وإلياس عوض، وتوفيق دوس، ومن عرب البدو صالح لملوم، ومن الإسرائيليين يوسف أصلان قطاوى، ومن السوريين يوسف سابا»(٢). وأولئك كانوا «جماعة من خير مفكرى البلد لم يستطع أحدهم أن يعارض فى لجنة الدستور اقتراح النص على دين رسمى للدولة.. وقد حدث أن «قدم الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية وقتها وعضو لجنة الدستور، اقتراحاً إلى هذه اللجنة بالنص فى الدستور على أن يكون دين الدولة هو الإسلام، ووافقت اللجنة على هذا النص، ولم يستطع

(٢) انظر: طارق البشرى، المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية «بيروت: دار الوحدة، ١٩٨٢» ص١٦٥ والمقصود بالإسرائيليين «اليهود» الذين كانوا يعيشون فى مصر آنذاك.

ذوو الاتجاه العلمانى من أعضائها أن يعارضوه، وصدر به الدستور فعلاً»(٣).

كان النص على دين الدولة الإسلام محل إجماع من كافة اتجاهات الجماعة الوطنية المصرية، وكان هذا الإجماع أوضح صور التعبير عن مركزية الموقع الذى يحتله الدين فى عملية النضال من أجل الاستقلال، وإنجاز مهمة التحرر الوطنى، واستعادة الهوية المستلبة ومن هنا أضحت المطالبة بتقنين الشريعة وتطبيق أحكامها جزءاً لا يتجزأ من حركة التحرر الوطنى فى مصر وفى غيرها من البلدان الإسلامية.

استعادت الجماعة الوطنية رمز هويتها بالنص فى دستور ١٩٢٣ على أن «دين الدولة الإسلام» ولكن الشريعة ظلت مستبعدة من أغلب مجالات الحياة، ومن ثم ظل الخلل قائماً؛ إذ لم توضع منظومة «العقيدة، والشريعة، والهوية والنظام العام» موضع التطبيق وثابر المصريون عقوداً طويلة من الزمن على المطالبة الشعبية من أجل إصلاح هذا الخلل، وتطبيق الشريعة الإسلامية، واستكمال أركان الاستقلال بإنجاز مهمة «الاستقلال التشريعي»؛ الذى سلبه الاحتلال، وأعانته على ذلك النخب المحلية المتغربة، خاصة أنها استولت على مقاليد السلطة، وتمكنت من مفاصل الحكم والإدارة، واحتكرت مواقع صنع القرار واتخاذه.

أخذت المطالبة الشعبية المصرية باستعادة الشريعة إلى واقع الحياة صوراً شتى وشاركت فى هذه المطالبة: جمعيات، وجماعات، وحركات إصلاح، وعلماء مجتهدون وكان لكل هذه الجهود صدى واسع عند وضع الدستور الدائم سنة ١٩٧١؛ إذ نص فى مادته الثانية على أن «مبادىء الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للتشريع» وكان وضع هذا النص إعلاناً صريحاً بأن مصر غدت فى طريقها للتحرر نهائياً من الوصاية التشريعية التى فرضتها عليها الدول الأجنبية فى عهود الاحتلال كما كان هذا النص نفسه تعبيراً صريحاً عن طموح الشعب المصرى فى بلوغ أقصى درجات الاستقلال التشريعي واقتضى هذا - فيما اقتضى - العمل الدءوب لإصلاح ما اعترى التشريعات المصرية من نقص وعيب، وتعديل النصوص التى تخالف أحكام الشريعة الإسلامية وقد بدأت الجهود الرسمية بالفعل لبلوغ هذا الأمل فى سنة ١٩٧١ بقيام مجمع البحوث الإسلامية وغيره من الهيئات العلمية بإجراء الدراسات القانونية والفقهية، والإطلاع على أمهات الكتب فى المذاهب الإسلامية المتعددة.

وحدثت النقلة النوعية الأساسية فى مسار هذه الجهود عقب انتخاب المرحوم الأستاذ الدكتور صوفى أبو طالب رئيساً لمجلس الشعب سنة ١٩٧٨ فقد أعلن فى بيان ألقاه على أعضاء المجلس بتاريخ ٤ نوفمبر سنة ١٩٧٨ «أنه قد آن الأوان لإعمال نص المادة الثانية من

(٣) المرجع السابق: ص ١٧٢، وص١٩٢ - ١٩٣.

الدستور التى تقضى بأن مبادىء الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للتشريع؛ بحيث لا يقتصر الأمر على عدم إصدار تشريعات مخالفة لهذا النص، بل يتعداه إلى مراجعة كل قوانيننا السابقة على تاريخ العمل بالدستور، وتعديلها بالاعتماد على الشريعة الغراء»(٤).

وفى ١٧ ديسمبر ١٩٧٨ وافق مجلس الشعب على قرار تشكيل لجنة خاصة تتولى دراسة كل الاقتراحات بمشروعات قوانين تطبيق الشريعة الإسلامية، على أن تستعين اللجنة بالدراسات والتقنيات والقوانين الخاصة بتطبيق الشريعة الإسلامية، سواء فى مصر أو فى الخارج واستناداً إلى ذلك القرار، ضمت اللجنة بعض أعلام رجال القضاء، وعدداً من جهابذة أساتذة الشريعة الإسلامية والقانون وعقدت اللجنة أول اجتماعاتها يوم ٢٠ / ١٢ / ١٩٧٨ برئاسة المرحوم الدكتور صوفى أبو طالب.

وبحلول يوليو من سنة ١٩٨٢؛ أى بعد حوالى ثلاث سنوات فقط من تشكيل لجنة التقنين، كانت هذه اللجنة قد أنجزت معظم أعمالها وفى يوم ٢٢ / ٩ / ١٩٨٢ أعلن فضيلة الشيخ إبراهيم الدسوقى، وزير الأوقاف آنذاك أنه تم الانتهاء من إعداد ٩٥٪ من قوانين الشريعة الإسلامية، وأنه يجرى تطويع النسبة القليلة الباقية وفقًا لأحكام الشريعة للبدء فى تطبيق ما تم تقنينه فى أقرب فرصة»(٥) وإلى اليوم، ورغم مضى ما يقرب من ثلاثة عقود على ذلك الإعلان، فإنه لم تأت «أقرب فرصة» التى تحدث عنها الشيخ، كما لم يتم إنجاز الخمسة فى المائة المتبقية، وأغلبها متعلق بالحدود الشرعية ومع ذلك لم ينقطع الأمل، ولم يتوقف فى سبيله الجهد والعمل وقد بقى ما أنجزته لجان التقنين - خمس تقنينات كاملة - شاهدا على لحظة صدق للدولة المصرية مع نفسها، ونزعتها الأصيلة كى تتطابق مع إرادة مجتمعها، وتتصالح مع أصل أصول هويتها ونظامها العام؛ وهى الشريعة الإسلامية. الشريعة الإسلامية بهذا المعنى هى من الأصول المعادلة للذات المصرية، ولهوية المصريين.


إبراهيم الدسوقى

سنبدأ فى العدد القادم بعد هذه المقدمة بتعريف مفهوم «التقنين» وبيان أهميته فى مجال الأحكام الشرعية، وآراء المؤيدين والمعارضين لعملية التقنين، وأدلة كل فريق، وأى الرأيين أرجح من الآخر ثم خلفية تاريخية عامة حول جهود التقنين والمحاولات التى بذلت فى عدد كبير من البلدان الإسلامية على مدى القرنين الماضيين ثم نركز على بعض تجارب تقنين الشريعة وما دار حولها من جدل، وما أسفر عنه الجدل من نتائج، وما ترتب عليه من آثار، وبالله التوفيق.

«يتبع»

(٤) انظر: تقنين الشريعة الإسلامية فى مجلس الشعب (القاهرة: مطبعة مجلس الشعب، ١٩٨٢)، ص٣.

(٥) انظر: تقنين الشريعة، المرجع السابق، ص٤.

كيف نحقق الأمان؟!





للأستاذ الدكتور/ أحمد عمر هاشم
عضو مجمع البحوث الإسلامية

إن نعمة الأمان من أعظم النعم التى وعد الله تعالى بها المؤمنين الذين استجابوا لله ولرسوله حيث قال الله تعالى:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ (النور: ٥٥)

وهذا وعد من الله تعالى لعباده المؤمنين الصالحين، والله سبحانه لا يخلف الميعاد، فإذا أردنا أن يحقق الله الأمن لنا، فعلينا أن نوثق صلتنا بالله سبحانه وأن نؤكد إيماننا وأن يكون عملنا صالحاً، وذلك بالتوبة إلى الله والرجوع إليه والصدق فى عبادته، لأنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ولا يكشف إلا بتوبة.

وبهذا لا يخاف الإنسان أو المجتمع بل يكون آمناً، ولا يخاف ظلما ولا هضما كما قال الله سبحانه:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾

وبالإيمان يتحقق الأمان، وبغير الإيمان لا يكون الأمان.

إذا الإيمان ضاع فلا أمان
ولا دنيا لمن لم يحى دينا

بل إن الأمان يتحقق للمؤمنين فى الدنيا وفى الآخرة إذا هم أكدوا إيمانهم، وحققوا

العدل فلم يظلموا، قال الله تعالى:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

إنهم حققوا الإيمان فآمنوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولا وحققوا «العدل» فلم يلبسوا إيمانهم بظلم.

ومما لا شك فيه أن الأمان لا يتحقق إلا بالإيمان والعمل الصالح وإقامة العدل بين العباد وعدم الظلم.

ولطالما حث الإسلام على العدل وأكد عليه قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾

(النحل: ٩٠)

وقال الله سبحانه:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾

(النساء: ٥٨)

وفى الحديث القدسى يوضح رب العزة سبحانه أنه حرم الظلم على نفسه وجعله محرماً بين العباد فينهاهم عن الظلم: «ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا».

ونهى الرسول ﷺ عن الظلم وأمرنا أن نجعل بيننا وبينه وقاية، ووضح أنه ظلمات يوم القيامة، فقال ﷺ: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة....».

واستجاب المسلمون الأوائل والخلفاء وأصحاب رسول الله ﷺ إلى العدل فتحقق الأمان، فها هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما طبَّق العدل انتشر الأمان، فرأيناه عندما جاءه صاحب كسرى وسأل عنه، ووجده أمام البيت نائماً فى أمان قال له مقالته المأثورة:

«حكمتَ فعدلت فأمنت فنمت يا عمر»

ولا يكمل الإيمان، ولا العدالة إلا بمحبة الإنسان لأخيه لقول الرسول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

وإذا ما تحققت محبة الإنسان لأخيه لا يظلمه ولا يخذله، كما قال رسول الله ﷺ:

«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله ولا يحقره، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه».

والذى يحب الله يرضى عنه الله ويوضع له القبول فى الأرض، كما قال رسول الله ﷺ: «إذا أحب الله عبداً نادى جبريل إنى أحب فلاناً فيحبه جبريل ثم ينادى جبريل فى الملائكة إن الله يحب فلاناً فأحبوه فتحبه الملائكة ثم يوضع له القبول فى الأرض».

وفى جو الحب والتواد والتآلف يحيا الناس آمنين مطمئنين.

فحيث تحقق الإيمان والعمل الصالح ومحبة الناس بعضهم لبعض يتحقق الأمان الذى وعدهم الله تعالى به.

ولقد وعد رسول الله ﷺ بنعمة الأمان أصحابه حين قال لعدىّ بن حاتم حين وفد عليه: «أتعرف الحيرة. قال: لم أعرفها ولكن سمعت بها، قال: فوالذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد، ولتفتحنّ كنوز كسرى بن هرمز، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: نعم، وليُبْذلنّ المال حتى لا يقبله أحد». قال عدىّ بن حاتم فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت فى غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة؛ لأن رسول الله ﷺ قد قالها.

وهكذا تحقق الأمن كما وعد رسول الله ﷺ، وجاء ثمرة مترتبة على الإيمان بالله وتوثيق الصلة به، وعمل الصالحات.

وكما أن الأمن ثمرة الإيمان والعمل الصالح فهو أيضا سمة المؤمن الصادق فى إيمانه، فإذا صدق إيمان الإنسان وصدق إيمان المجتمع عاش الناس حياتهم آمنين لا يخافون ولا يفزعون، ولا يخيفون أحدا ولا يروّعون أحدا، بل إن الناس يلجأون للمؤمنين الصادقين، ويأمنونهم على دمائهم وأموالهم.

ولقد وضح رسول الله ﷺ سمة من سمات المؤمن وهى أن يأمنه الناس على دمائهم وأموالهم، فقال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: «والمؤمن مَن أمنه الناس على دمائهم وأموالهم»، رواه الترمذى.

وتركيزاً على الأمن كعلامة مميزة للمجتمع وسمة ملازمة للمؤمنين نرى أن رسول الله ﷺ ينظر إلى من يُرجى منه الخير ولا يخاف أحد منه ولا يتأتى من جانبه شر هو خير الناس، فقال رسول الله ﷺ: «خيركم من يُرجى خيره ويؤمن شره»، رواه الترمذى.

وقد وضح القرآن الكريم أروع صور الأمن والأمان التى هيأها الله سبحانه وتعالى للمؤمنين المخلصين فى أعمالهم، وأنه سبحانه قد مكّن للناس حرماً آمناً فى مكة المكرمة، ولكن فريقاً من المشركين المقيمين هناك تذرعوا بأسباب واهية، وتعللوا بعلل لا أساس لها من الصحة، واحتجوا لعدم اتباع الهدى والدخول فى الإسلام بأنهم يخافون على أنفسهم ولا يأمنون من أعدائهم، فهم يخشون إن اتبعوا رسول الله ﷺ أن يتخطفهم المشركون الذين يجاورونهم، فردّ الله سبحانه وتعالى عليهم تلك العلة الواهية، ووضح لهم أنه جعل لهم حرماً آمناً ورزقهم من كل شىء، فكيف نسوا أنه حرم آمن لهم فى وقتهم الحاضر؟ وكيف لا يكون أمناً لهم وسلاماً بعد أن يدخلوا فى دين الله؟.

فقال الله سبحانه:

﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(سورة القصص: ٥٧)

وهكذا نرى فى اتباع الإسلام وتطبيق المنهج النبوى تحقيق الأمان وأنه بالإيمان والعمل الصالح واتباع الهدى وتعاون الأمة يكون الأمان:

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾

(قريش: ٣-٤)

التشريع الإسلامى وأثره فى الفقه الغربى



للأستاذ الدكتور/ محمد يوسف موسى

مستقبل التشريع الإسلامى

فى هذا الجزء الأخير من البحث ينبغى أن نتساءل: ماذا نريد من هذا التشريع الخالد؟ وما هو حاله بالأمس القريب؟ وما هو حاله اليوم؟ وكيف نصل إلى ما نريد؟ وهل أصبح الاجتهاد ضروريا؟

تلك طائفة من الأسئلة ينبغى أن نلتمس لكل منها جوابا، ومن الله العون والتوفيق.

ماذا نريد منه؟

ما الذى نريد حقا من هذا التشريع الخالد الذى عرفنا أصوله وخصائصه وغير ذلك مما يتصل به، والذى صلحت به أمة عظيمة سادت العالم قرونا طويلة؟ إننا لا نريد إلا شيئا واحدا، لنا كل الحق فى أن نريده، بل يجب علينا أن نريده ونعمل ونجاهد فى سبيله.

وهو أن يكون المصدر الأول لتشريعاتنا الحديثة ولكل ما تؤخذ به الأمة من قوانين، فى كل البلاد العربية والإسلامية.

ولا علينا مع هذا أن نفيد من كل خير نجده فى التفكير القانونى لأى أمة أخرى من الأمم الغربية، بل لعل هذا يكون واجبا، فما كانت أمة قادرة على أن تستغنى عن غيرها فى كل شئونها.

وإنا لنعلم يقينا أن هذا الذى نريد لن يتحقق مرة واحدة، وفى زمن قريب، فقد نما زمنا طويلا ركد فيه الفقه الإسلامى وجمد على حالة واحدة، فلابد من زمن نفيق فيه من هذا النوم الذى طال أمده، ولا مناص من الانتظار زمنا يتطور فيه هذا الفقه، وذلك حتى نستطيع أن نأخذ منه حلولا لكل مشاكل العصر التى تجد وتتغير من حين إلى حين، وهذا ما يحتاج منا إلى عمل جاد متواصل.

وما ينبغى لنا أن نجبن أمام ما يقتضيه تحقق ما نريد من جهد شاق وعمل ضخم، ولا أن

نيأس إن طال بنا الزمن فى جهادنا هذا، وإن نظرة إلى ما كان عليه هذا الفقه أو التشريع الإسلامى بالنسبة للقانون الوضعى بالأمس القريب، ثم إلى ما صار عليه اليوم بفضل تنبه الوعى القومى، وجهد بعض العلماء المخلصين؛ إن نظرة كافية لإقناعنا بما نقول، وتجعلنا نسير مطمئنين إلى أن ما نرجوه سيكون بفضل الله تعالى.

حالة بالأمس القريب:

حال هذا التشريع بالأمس لايزال ماثلا أمام أعيننا بواقعه وآثاره، فقد أبعد - بسبب الاستعمار البغيض المجرم الذى انتهى بحمد الله بفضل الثورة المصرية المباركة - عن الحكم والقضاء، اللهم إلا فى الأحوال الشخصية من الزواج والطلاق والوصية والميراث.

فكان من ذلك أن انزوى بين جدران الأزهر والمعاهد التى تفرعت منه، وصار لا يعنى أحد بدراسته دراسة جدية علمية صحيحة، مادام لا حاجة إلى تطبيقه رسميا إلا فى النواحى القليلة التى ذكرناها.

وكان هذا بعد أن ملنا للقوانين الفرنسية وجعلناها المصدر الأول لما سميناه القوانين الأهلية. وحدث هذا فى أواخر القرن التاسع عشر، فقد صدرت «المجموعة الأهلية» عام ١٨٨٣م، وقد سنت على نسق «المجموعة المختلطة» وجاء فيها أكثر أحكامها.

لقد صرنا إذا، فى هذه الفترة الماضية، لا نعنى إلا بفقه أجنبى دخيل، بعد أن تركنا تشريعنا الإسلامى الأصيل، وهو فقه يحتله الأجنبى إذا أردنا التخفيف من الواقع الذى كان، واصطنعنا تعبير الأستاذ الدكتور السنهورى الذى كتب منذ أكثر من عشرين عاما يقول: «علينا أولا أن نمصر الفقه، فنجعله فقها مصريا خالصا نرى فيه طابع قوميتنا، ونحس أثر عقليتنا، ففقهنا اليوم لايزال هو أيضا يحتله الأجنبى، والاحتلال هنا فرنسى، وهو احتلال ليس بأخف وطأة ولا أقل عنتا من أى احتلال آخر. لايزال الفقه المصرى يتلمس فى الفقه الفرنسى الهادى المرشد لا يكاد يتزحزح عن أفقه أو ينحرف عن مسراه، فهو ظله اللاصق وتابعه الأمين».

حالة اليوم:

ذلك ما كان عليه التشريع الإسلامى بالأمس كما ذكرنا، أما اليوم فترانا قد خطونا خطوة كبيرة فى سبيل الغرض الذى نقصد؛ ولهذه النقلة أسبابها كما لها مظاهرها، وسنتناول كلا من هذه الأسباب والمظاهر بكلمة موجزة.

أحست الأمة إحساسا شديدا بشدة الاحتلال الأجنبى ومعرته سواء فى هذا ما كان منه عسكريا وما كان فكريا، فهبت جميعا تطلب الاستقلال فى كل شىء، وطالبت بهذا بكل الوسائل، وعملت له بما تملك من قوى.

ونبغ من رجال القانون من رأى أنه قد آن للقانون الذى نحكم به أن يكون قانونا عربيا يتفق مع ماضينا المجيد وديننا وتقاليدنا الطيبة، وعملوا لهذا الاستقلال بالطرق التى رأوها صالحة ناجعة فى رأيهم.

وصحب هذا، أن وجد وعى قومى، أخذ يشتد من يوم إلى آخر، كما أخذ يطالب بقوة

بضرورة الرجوع فى قوانيننا إلى شريعة العروبة والإسلام، شريعة الله ورسوله ﷺ، مادام من الممكن أن يؤخذ من هذه الشريعة القوانين الصالحة لحكم الجماعة الإنسانية فى مختلف شئونها.

وهناك بعد هذين السببين سبب ثالث نعتقد أنه قد دفع بعض رجال القانون فى البلاد العربية والإسلامية إلى إكبار التشريع الإسلامى، وإلى العناية بفقهه والإفادة منه، ونعنى به اهتمام كثير من رجال القانون الوضعى بهذا الفقه والإشادة به فى كثير من مؤتمراتهم، فى «لاهاى» و«نيس» و«باريس» مثلا.

واهتمام الغربيين بالتراث العربى الإسلامى المجيد يرجع إلى العصور الوسطى، وذلك حين أرادوا الوقوف على عوامل مجد العرب والمسلمين ووصولهم إلى مركز القيادة فى العالم الذى كان معروفا حين ذلك، فأقبلوا على هذا التراث دراسة واستفادة وترجمة ونشرا لكثير من عيون مراجعه الأصيلة.

وكان من آثار هذا الاهتمام الذى مايزال مستمرا حتى اليوم أن ظفر قراء العربية بكثير من هذه المراجع منشورة بعناية هؤلاء المستشرقين، وأن ظفر العلم أيضا بكثير من مؤلفات المخلصين منهم ودراساتهم الخاصة القيمة فى الفقه وغير الفقه من جوانب ثقافة العرب وحضارتهم.

إننا بهذا نريد أن نقول: بأن هذه العناية من جانب الغربيين الذين تخصصوا فى الفقه الإسلامى، وقصروا جهودهم أو جانباً كبيرا منها عليه، وبان ما كان منهم من إشادة بهذا التشريع، باعتباره تشريعا أصيلاً حياً وقابلاً للتطور ومسايرة الحياة الحاضرة، كل ذلك فى رأينا، قد دفع الكثير من رجال القانون عندنا للإيمان بهذا التشريع وللإقبال على دراسته والانتفاع به.

تلك هى جماع الأسباب التى أدت إلى أن خطونا منذ سنين خطوات واسعة مباركة فى سبيل تحقيق الغرض المنشود، وهو العناية بالتشريع الإسلامى والانتفاع به فى قوانيننا الحديثة، تحقيقاً للاستقلال التشريعى والقانونى الذى نحرص عليه الحرص كله.

أما مظاهر هذه الخطوات، أو الانتقال من حال إلى حال، فإننا نستطيع أن نجملها فى هذه الأمور:

اتجاه غير قليل من رجال القانون إلى كتابة بحوث ورسائل دكتوراه فى موضوعات من الفقه الإسلامى، أو من القانون الوضعى المقارن بالفقه الإسلامى.

أمثال الدكتور شفيق شحاته فى «نظرية الالتزامات فى الشريعة الإسلامية»، والدكتور السعيد مصطفى السعيد فى «مدى استعمال حقوق الزوجية وما تتقيد به فى الشريعة الإسلامية والقانون المصرى الحديث»، والدكتور صبحى محمصانى «من لبنان» فى «النظرية العامة للموجبات (أى الالتزامات) والعقود فى الشريعة الإسلامية»، والدكتور محمد زكى عبدالبر فى «تحمل التبعة فى الفقه الإسلامى»، والدكتور عبدالعزيز عامر فى «التعزير فى الشريعة الإسلامية».

ويجىء مظهر آخر بعد ذاك، وهو جعل الشريعة الإسلامية مصدراً رسميا من مصادر القانون المدنى الجديد، ولهذا الأمر أثره الطيب بلا ريب من ناحيتين: التوسّع فى الأخذ منه، وكون دراسته أصبحت واجبة على رجال القانون والقضاء.

فمن الناحية الأولى، يقول الدكتور السنهورى بعد أن أشار إلى ما استبقاه القانون الجديد، مما كان قد أخذه القانون القديم من الفقه الإسلامى:

وقد استحدث التقنين الجديد أحكاماً أخرى استمدها من الفقه الإسلامى، وبعض هذه الأحكام الجديدة هى مبادئ عامة، وبعضها مسائل تفصيلية. فمن المبادئ العامة التى أخذ بها: النزعة الموضوعية التى نراها تتخلل كثيراً من نصوصه، وهذه هى نزعة الفقه الإسلامى والقوانين الجرمانية، آثرها التقنين الجديد على النزعة الذاتية التى هى طابع القوانين اللاتينية، وجعل الفقه الإسلامى عمدته فى الترجيح.

ومن هذه المبادئ أيضاً، نظرية «التعسف فى استعمال الحق»، لم يأخذها التقنين الجديد عن القوانين الغربية فحسب، بل استمدها كذلك من أحكام الفقه الإسلامى، ولم يقتصر فيها على المعيار الشخصى الذى اقتصرت عليه أكثر القوانين، بل ضم إليها معياراً موضوعياً فى الفقه الإسلامى، يقيد استعمال الحق بالمصالح المشروعة، ويتوقى الضرر الجسيم الذى قد يصيب الغير من استعماله.

وكذلك الأمر فى حوالة الدين، أغفلتها القوانين اللاتينية، ونظمتها القوانين الجرمانية متفقة فى ذلك مع الفقه الإسلامى، فأخذ بها التقنين الجديد. ومبدأ الحوادث الطارئة أخذ به بعض القوانين الحديثة، فرجّح التقنين الجديد الأخذ به استناداً إلى نظرية الضرورة ونظرية العذر فى الفقه الإسلامى.

ومن الأحكام التى استحدثها التقنين الجديد مسائل تفصيلية كما قدمنا، وقد اقتبسها من الفقه الإسلامى. ومن هذه المسائل الأحكام الخاصة بمجلس العقد، وبإيجار الوقف، وبالحكر، وبإيجار الأراضى الزراعية، وبهلاك الزرع فى العين المؤجرة، وبانقضاء عقد الإيجار بموت المستأجر وفسخه للعذر، وبوقوع الإبراء من الدين بإرادة الدائن وحده.

وعن الناحية الثانية، وهى: ناحية ضرورة التوسع فى دراسة الفقه الإسلامى بعد أن صار من المصادر الرسمية للقانون الجديد، نرى الأستاذ السنهورى أيضاً يقول:

ولا شك أن ذلك يزيد كثيراً فى أهمية الشريعة الإسلامية، ويجعل دراستها دراسة علمية فى ضوء القانون المقارن أمراً ضرورياً، لا من الناحية النظرية الفقهية فحسب، بل كذلك من الناحية العملية التطبيقية. فكل من الفقيه والقاضى أصبح الآن مطالباً أن يستكمل أحكام القانون المدنى، فيما لم يرد فيه نص ولم يقطع فيه عُرف، بالرجوع إلى أحكام الفقه الإسلامى.

ويجب عليه أن يرجع إلى هذه الأحكام قبل أن يرجع إلى مبادئ القانون الطبيعى وقواعد العدالة، بل لعل أحكام الشريعة الإسلامية -

وهي أدق تحديدا وأكثر انضباطا من مبادئ القانون الطبيعي، ومبادئ العدالة - هي التي تحل محل هذه المبادئ والقواعد، فتغنينا عنها في كثير من المواطن.

وأخيراً، نذكر من تلك المظاهر أن فكرة أن يكون الفقه الإسلامي هو الأساس الأول لكل قوانيننا وتشريعاتنا الحديثة قد «تبلورت» في أذهان كبار رجال القانون، وأخذت مكانها اللائق بها في تفكيرهم وكتاباتهم. وكان من هذا أن رأينا الدكتور السنهوري يقول في بحث آخر له، وهو هذا الذي ننقله حرفيا عنه.

وذلك بعد أن قرر أن الفقه الإسلامي لا تقل عراقة عن عراقة القانون الروماني، وأنه لا يقل عنه في دقة المنطق ومتانة الصياغة والقابلية للتطور، وهو مثله صالح لأن يكون قانونا عالميا، بل كان بالفعل قانونا عالميا يوم امتدت دولة الإسلام من أقاصي البلاد الآسيوية إلى ضفاف المحيط الأطلسي.

وهذا الفقه الإسلامي، إذا أحييت دراسته وانفتح باب الاجتهاد فيه، قمين أن ينبت قانونا حديثا لا يقل في الجدة ومسايرة روح العصر عن القوانين اللاتينية والجرمانية.

إنه بعد أن قرر هذا كله يقول ما نصه: «والهدف الذي نرمي إليه هو تطوير الفقه الإسلامي - وفقا لأصول صناعته - حتى نشتق منه قانونا حديثا يصلح للعصر الذي نعيش فيه... وليس القانون المصري الجديد، أو القانون العراقي الجديد، إلا قانونا مناسبا لكل من مصر والعراق.

والقانون النهائي الدائم لكل من مصر والعراق، بل لجميع البلاد العربية. إنما هو «القانون المدني» الذي نشتقه من الشريعة الإسلامية بعد أن يتم تطورها.

وقد تكون البلاد العربية عند ظهور هذا القانون قد توحدت، فيأتي القانون ليدعم وحدتها، وقد تكون في طريقها إلى التوحد، فيأتي القانون عاملا من عوامل توحيدها، ويبقى على كل حال رمزاً لهذه الوحدة».

كيف نصل إلى ما نريد؟

إن من الأقوال المأثورة أنه ليس كل ما يتمنى المرء يدركه، وأن نيل الأماني ليس بالتمني وحده، ولكن يجب أن تشتد الأمنية فتصير رغبة، وأن تشتد هذه الرغبة بالعزم الصادق عليها فتصير إرادة. ولا يصل الإنسان إلى أن يريد شيئا إلا إن فكر فيه ووجده ممكنا، ثم أجمع أمره عليه، وأخذ في تذليل ما يعترضه من صعاب أو عقبات.

وهنا، نحن نريد أن يكون التشريع الإسلامي في مستقبل الأيام الأساس الأول لتشريعاتنا الحديثة، وأن يكون منه قانون عام للبلاد العربية والإسلامية كلها. وهذا الذي نريده أمر عظيم دونه صعاب، وهو يتطلب منا عملا جادا دائبا، فما ينبغي لنا إذاً أن نخدع أنفسنا بأن نزعم أننا نريد، ثم لا نعمل ما يجب أن يعمل، ليكون ما نريده أمرا واقعا في مستقبل الأيام.

إن هذه الغاية الجليلة، التي يرجو كل عربي ومسلم الوصول إليها، تلقي علينا - معشر رجال الفقه والقانون - تبعات ثقالا، وتتطلب منا جميعاً أن نقوم بواجبنا كاملا في هذا السبيل، وبتضافر الجهود الصادقة يتم لنا ما نريد بفضل الله تعالى.

إن علينا، معشر المعنيين بالشريعة الإسلامية، بيان هذا التشريع في مراجعة الأصيلة الأولى، وهذا لا يأتي إلا بنشر هذه المراجع نشرا علميا ييسرها للباحثين.

ثم علينا بعد ذلك، نشر أمهات الكتب الفقهية الأخرى التي جاءت في العصور التالية للعصور الأولى، فلا نقتصر منها على المؤلفات في مذهب واحد، ولا على المؤلفات في المذاهب الأربعة وحدها.

بل علينا أيضا عرض المذاهب الأخرى، مثل مذهب الزيدية ومذهب الإمامية من مذاهب الشيعة، والمذهب الظاهري، فإن في هذه المذاهب الأخرى كثيرا جدا من الثروة الفقهية، ومن هذه الثروة ما ينفعنا في نهضتنا التشريعية والاجتماعية، وما يعلي منزلة التشريع الإسلامي في العالم كله من جديد.

وفي هذا يقول الدكتور السنهوري: «ومن أهم الوسائل للوصول إلى ذلك، العناية بالشريعة الإسلامية، شريعة الشرق ووحي إلهامه وعصارة أذهان مفكريه، نبتت في صحرائه وترعرعت في سهوله ووديانه، فهي قبس من روح الشرق، ومشكاة من نور الإسلام، يلتقي عندها الشرق والإسلام، فيضيء ذاك بنور هذا، ويسري في هذا روح ذاك، حتى ليمتزجا ويصيرا شيئاً واحدا.

هذه هي الشريعة الإسلامية، لو وطئت أكنافها وعبدت سبلها، لكان لنا في هذا التراث الجليل ما ينفخ روح الاستقلال في فقهنا وقضائنا وتشريعنا، ثم لأشرفنا نطالع العالم بهذا النور الجديد، فنضئ به جانباً من جوانب الثقافة العالمية في القانون».

وهو لعمري قول حق، وفي العمل به كل الخير.

ومتى تم لنا معرفة الفقه الإسلامي في مختلف مذاهبه، علينا أن ندرسه على نحو جديد غير النحو الذي يدرس عليه الفقه في الأزهر، أي ندرسه دراسة تاريخية مقارنة بين بعض مذاهبه وبعضها من ناحية، وبينه وبين ضروب الفقه والقوانين الحديثة من ناحية أخرى.

إن هذه الدراسة الشاملة والعلمية الصحيحة - كما قلنا من قبل في بعض ما كتبناه - تساعدنا على التحرر من ربقة التقليد الذي أخذ منا بالخناق، وتجعلنا نعرف يقينا أن الله تعالى لم يخص بالحق كله فقيها واحدا أو مذهبا واحدا بعينه، وتقدم مادة خصبة للذين يقومون بوضع القوانين الحديثة، وذلك ما يعرفهم بما للفقه الإسلام من منزلة كبرى، فيفيدون منه أجل فائدة حتى يكون المصدر الرسمي الأول لما يضعون من قوانين.

وذلك كله فضلا عن أن هذا النوع من الدراسة يرسم لنا لوحة أمينة دقيقة لجهود العقل الإنساني في هذه الناحية، ولتطور الفكر العالمي فيما يختص بالتشريع والتقنين ليتناسب مع ما يجد للناس من مشاكل الحياة العملية وشئونها العديدة المختلفة، سواء في هذا جهود الفقهاء في الشرق والغرب من المسلمين وغير المسلمين.

هذا ما قلناه منذ بضعة أعوام، ونزيد عليه اليوم أن على رجال القانون واجبا آخر لا يقل جهدا ولا خطرا عما على رجال الفقه الإسلامي؛ إن عليهم أن يعاونوا زملاءهم في دراسة هذا الفقه في سائر نواحيه، ومن المعروف أنه يشمل كل أقسام القانون الوضعي وفروعه.

وبذلك التعاون والدراسة المشتركة، يبين للمشتغلين بالقانون أن في التراث التشريعي الإسلامي ما يغنينا في نواح كثيرة عن الأخذ عن فقه الغربيين وقوانينهم، وأنه من الميسور أن نأخذ من هذا التراث قانونا صالحاً لكل البلاد العربية والإسلامية.

وإننا نعتقد أن هذا ما سيكون في يوم ليس بعيداً بفضل الله تعالى، ما دمنا نطلبه ونريده، ونعمل له متعاونين بكل سبيل.

لابد من الاجتهاد:

ومع هذا وذلك كله، لابد من فتح باب الاجتهاد في الفقه للقادر عليه الذي اجتمعت له مؤهلاته التي نعرفها، فإنه ما تخلف التشريع الإسلامي إلا بسبب سد هذا الباب منذ قرون.

نقول هذا، ونحن نعلم أن الاعتزاز بتراث الماضين من الأسلاف أمر طبيعي وغريزي في الإنسان، وأنه من العبث والحمق أن نحاول التنكر لهذا التراث المجيد والاستغناء عنه، وأنه من المستحيل أن نقيم علما من العلوم دون أن نفيد من جهود الماضين وثمار تفكيرهم في دائرة هذا العالم.

ولكننا نعلم أيضاً مع هذا أن الجمود من سمات الموت، وأن الحركة هي الخاصة الأولى للحياة، وأن القرآن العظيم نعى بشدة في كثير من آياته على التقليد والمقلدين، كما نهى الأئمة أنفسهم - رضوان الله عليهم - عن تقليدهم بلا حق، وقد نقل هذا النهي عن أبي حنيفة وغيره.

ومن ذلك قول الشافعي: مثل الذي يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليل، يحمل حزمة من حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لا يدري! ويذكر إسماعيل بن يحيى المزني في أول مختصره في الفقه، أنه اختصره من علم الشافعي ليقربه على من أراده، مع إعلامية نهيه عن تقليده وتقليد غيره.

وليس لأحد منا أن يخلط بين هذا التقليد المنهي عنه، وبين الاتباع الذي أثنى الله عليه بقوله:

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

فيقول بأن في التقليد اتباعا يرضاه الله جل ثناؤه.

نعم! ليس لنا أن نلجأ إلى مثل هذا القول؛ فإن اتباع الأجلاء من المهاجرين والأنصار، في هذه الناحية، هو احتذاؤهم في طرق استدلالهم واستنباطهم الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة، وما أعظم الفرق بين هذا وبين التقليد!

وقد ذكر أبو داود أنه سمع الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه يقول: «الاتباع هو أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم هو بعدُ في التابعين مخير».

كما روى أنه قال أيضاً: «لا تقلدني، ولا تقلد مالكا ولا الثوري ولا الأوزاعي، وخذ من حيث أخذوا، أي من الكتاب والسنة.

فأين هذا مما نحن عليه اليوم من تقليدنا غير قليل من الفقهاء المتأخرين زمنا، وجعل آرائهم شرعة واجبة الاتباع!

على أن للمسألة وجهاً آخر يوجب الاجتهاد على القادر عليه، وإلا كنا آثمين في حق شريعة الله ورسوله والأمة. إن فقهاءنا الماضين، رضي الله عنهم وأثابهم خيراً كثيراً، قد نظروا لدينهم وأمتهم وأنفسهم، وبحثوا عن حكم الله في كل ما كان في أزمانهم من حوادث ونوازل ومسائل ومشاكل، فما جبنوا عن مواجهة شيء منها، ولا قصروا في بيان حكم الله ورسوله فيها.

ولكن الزمن يتغير، والمعاملات تجد وتتطور، فكان أن وجد اليوم منها ما لم يكن موجودا بالأمس، فليس لنا أن نمسك عن بيان حكم الشرع في كل منها متعللين بأن الفقهاء الماضين لم يتكلموا فيها.

بل، إن الواجب علينا أن نجتهد في ذلك كله مستفيدين من جهود الماضين، ومعتمدين قبل كل شيء على كتاب الله المحكم وسُنة رسوله الصحيحة، بخاصة أن المجتهد له أجران إن أصاب، وأجر واحد إن أخطأ.

إن رحمة الله واسعة تسع كل الناس في كل عصر، وإن الله لا يخلي أمة الإسلام في كل عصر من بعض من يمكن أن يكونوا أئمة في الشريعة باجتهادهم متى كانوا أهلاً له، وإن تاريخ الفقه الإسلامي ليؤكد لنا جميعاً أن كثيراً من آراء الفقهاء القدامى قد تغيرت بتغير بيئات المكان والزمان، فما بالنا نرضى بالجمود الذي ثقل على القلوب والصدور مع شديد الحاجة إلى الاجتهاد.

ولو أن للإسلام فقهاء من الطراز الذي نرجوه؛ فقهاء يجتهدون فيصيبون أو يخطئون، ولو لم نقف حتى اليوم على التقليد، لرأينا حكم الشريعة الإسلامية في كل مشكلة من مشاكل هذا العصر الذي نعيش فيه، هذه المشاكل التي نراها في كل ميادين الحياة العملية، هذه الحياة التي لا تعرف الجمود والوقوف.

إن علينا إذاً، أن نجتهد في بيان حكم الشريعة الإسلامية في هذه المسائل ونحوها: المعاملات التي جدت في سوق العقود، بخاصة ما يتصل منها بالقطن وغيره، من المحاصيل الزراعية المهمة، والعمليات التي تقوم بها البنوك العادية، مثل الخصم وتحصيل الأوراق التجارية وفتح الاعتمادات.

وكذلك عمليات بنوك التسليف الزراعي والصناعي، وعمليات الجمعيات التعاونية التي لا يستغني عنها مجتمع في هذه الأيام، وكذلك أيضاً عمليات الشركات بأنواعها المختلفة، بخاصة شركات التأمين بمختلف ضروبه وأنواعه.

إننا حين نعمل ما تكلمنا عنه، من دراسة الفقه الإسلامي، دراسة علمية صحيحة متعاونين مع رجال القانون، وحين نجتهد في بيان حكم هذا الفقه في المعاملات التي تجري بيننا، نصل بالفقه الإسلامي إلى أن يكون هو الأساس الأول لتشريعاتنا وقوانيننا الحديثة، ومن الله العون والتوفيق والسداد.

الفقه الإسلامي ومدارسه





للأستاذ الدكتور/ مصطفى أحمد الزرقا



رابعاً - إقفال باب الاجتهاد وأسبابه

مر الفقه الإسلامي في أدوار انتقل فيها من طور إلى طور اتسم في كل منها بسمة متميزة، أو حدث له شيء جديد، سواء أكان في التطبيق أو تأليف الكتب المذهبية وأسلوبها، أو في القضاء وأحكامه، أو عقد المناظرات بين أتباع المذاهب واحتجاج كل منهم لمذهب إمامه، وغير ذلك مما كان له تأثير في حيوية الفقه وغزارة مسائله.

وقد قسم الباحثون المعاصرون هذه الأدوار الفقهية إلى سبعة أدوار، كان للفقه في كل منها طابعه الخاص المتميز، أولها عصر الرسول «ﷺ»، وسابعها منذ أن وضعت الدولة العثمانية مجلة الأحكام العدلية حتى يومنا هذا.. وقد ألفت لوضعها جمعية «لجنة» من علماء الدولة البارزين من أتراك وعرب، عملت في وضعها لمدة عشر سنوات (١٢٨٣ - ١٢٩٢هـ) بصياغة حديثة في مواد بالأرقام المتسلسلة بلغت (١٨٥١) مادة، في أبواب وفصول متناسقة على غرار القوانين المدنية الحديثة مستمدة كلها من المذهب الحنفي، وأصدرتها بإرادة سنية سلطانية «الخط الهمايوني» سنة ١٢٩٢هـ وكان صدور هذه المجلة حدثاً عظيما في تاريخ الفقه الإسلامي يسرت على القضاة مهمتهم في مراجعة النصوص الفقهية في كتب المذهب الكثيرة تيسيراً كبيراً.

ولا يتسع نطاق هذا البحث للكلام عن أطوار الفقه وخصائصه في كل دور من تلك الأدوار السبعة، وما طرأ عليه في كل منها من ازدهار وتألق ونمو، أو من ركود وجمود، وقد تكفلت المراجع المختصة بتفصيل ذلك (١).

لكن يجب هنا أن نشير إلى حدث كان كبير الأثر في تاريخ الفقه الإسلامي، وقد وقع في أحد هذه الأدوار التي مر بها الفقه ألا وهو: إقفال باب الاجتهاد.

ومعنى إقفال باب الاجتهاد أنه لا يقبل من أحد من العلماء بعد هذا الإقفال دعوى أن يستنبط الأحكام الشرعية للمسائل بنفسه من أدلتها الشرعية بنظره الخاص في الأدلة النصية أو القياسية، وإنما على كل إنسان يريد أن يعرف الحكم الشرعي في مسألة ما أن يرجع إلى أحد المذاهب الأربعة لأهل السنة وما قالوه فيها، وعلى كل متفقه أن يقلد مذهباً منها في حياته، فيطبق ما قاله إمام ذلك المذهب وشرحه فقهاؤه في كتبه، كما لا يقبل من عالم أن يفتي الناس بغير ما فيها، ولا أن يقضي باجتهاده إن كان قاضياً في قضية رفعت إليه، بل عليه أن يقضي ويفتي بما قرره فقهاء المذهب الذي عين للقضاء أو الفتوى به.

(١) ينظر في ذلك كتابي: المدخل الفقهي العام (ج١ ص/١٩٢ - ٢١٠/ الفقرات/ ٤٤ - ٨٤).

وقد كان هذا الإقفال لباب الاجتهاد بفتاوى توارد عليها واتفقت آراء فقهاء المذاهب الأربعة في القرن الخامس للهجرة، وأعلنوا أنه لا يقبل من أحد اجتهاد جديد بعد انقضاء القرن الرابع.

الأسباب التي دعت إلى هذا التدبير الوقائي:

كان هذا الإقفال تدبيراً وقائياً حين لحظ فقهاء المذاهب الأربعة أن بعض المتعاملين أو المغرورين بأنفسهم، أو بعض العلماء غير الأتقياء قد سخروا علمهم للارتزاق لإرضاء الحكام الإداريين فيما يصدرونه لهم من فتاوى توافق رغباتهم.. فقد لحظوا ضعف الوازع الديني لدى بعض العلماء أو المتعاملين، وانفصال العلم عن تقوى الله تعالى، وصيرورة العلم أداة لكسب المنافع الدنيوية، ورغبة الحكام والأمراء في تقريب هذه الفئة واستغلالها، وتسرب الفساد إلى الأخلاق إذ قلت الأمانة بوجه عام بين الناس، وفقدت الأمانة العلمية لدى بعض العلماء، مما عبروا عنه بفساد الزمان، فخشي فقهاء المذاهب أن تشوه أحكام الشريعة وفقهها بما يصدر عن أمثال هؤلاء من آراء أو فتاوى، قد تُدخل في الدين ما ليس منه تحت ستار الاجتهاد. فأفتوا بعدم جواز الاجتهاد من أحد بعد القرن الرابع الهجري، وهذا ما سمي بإقفال باب الاجتهاد.


محمد أبو زهرة

وقد ذكر الأستاذ العلامة الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله في كتابه «الملكية ونظرية العقد في الشريعة الإسلامية - ص/ ٣٨ - ٣٩» ثلاثة أمور سهلت على فقهاء المذاهب هذه الفتوى بمنع الاجتهاد، وهي:

١ - التعصب المذهبي:

فبعد أن رسخت وتمركزت المذاهب الأربعة كل في الجهات والبلاد التي امتد إليها، أخذ أتباع كل مذهب يتعصبون لمذهب إمامهم ويضيقون ذرعاً بغيرهم، معتقدين أن مذهبهم هو الوحيد الذي يمثل الأحكام الصحيحة في الشريعة، وفقدت رحابة الصدر التي كانت عند أئمتهم تجاه من يرى خلاف رأيهم من أهل العلم.

٢ - ولاية القضاء:

فقد كان الخلفاء الأوائل يختارون القضاة أول الأمر من المجتهدين.. ولكن الخلفاء والأمراء فيما بعد أصبحوا يختارونهم من المقلدين الأتباع لأحد المذاهب، لكي يقيدوهم بالحكم بمذهب معين، فيكونون ممنوعين من الحكم بغيره.. فكان تقيد القاضي بمذهب يرتضيه الخليفة سبباً في اكتفاء الناس به وإقبالهم على دراسته ومعرفة أحكامه.

٣ـ تدوين المذاهب:

فإن تدوينها على يد تلاميذ الأئمة، وأتباعهم الذين فرعوا الفروع وفصلوا في المسائل تفصيلاً واستيعاباً، وقاموا بتخريج الحوادث الواقعة، ودونوا فيها الفتاوى وافترضوا المسائل التي لم تقع وأجابوا عنها، ووجد في كل مذهب كتب كثيرة من مطولات ومختصرات، هذا الموجود قد أحدث شعوراً بالكفاية، وسهل على طلاب العلم معرفة الأحكام التي يحتاجون إليها.

وقد كان الدافع إلى الاجتهاد في السابق ضرورة ملجئة إلى معرفة أحكام حوادث وشئون جديدة لا يعرفون حكمها الشرعي، فأصبح في المذاهب المدونة في نظرهم كفاية تغني عن بذل الجهد للاستنباط بطريق الاجتهاد وقد ساعد على هذا الاكتفاء ما للأئمة الأقدمين من موقع علمي كبير ومن تقدير.

والجدير بالذكر أن الاجتهاد لا يملك أحد حق وقفه أو إغلاق بابه، ولكن أتباع المذاهب الذين أوجبوا على كل مكلف أن يتبع أحد المذاهب الأربعة يعللون هذا الحجر بأن المؤهلات من العلم والتقوى والصلاح أصبحت مفقودة، فللاجتهاد شروط لم تعد متوافرة. وهم مع ذلك يؤكدون بأنه إذا وجد من تتوافر فيه تلك الشروط لا يجوز له أن يقلد مذهب غيره، بل يجب عليه شرعاً أن يجتهد لنفسه.

نتائج وقف الاجتهاد وانعكاساته على الفقه:

لقد كان لوقف الاجتهاد نتائج سلبية قطعاً بالنسبة إلى الفقه، فقد أدى ذلك إلى ركوده وجموده، والوقوف به حيث وقف الألوان، فأصبحت مستجدات الحياة ومشكلاتها لا تجد حلولاً على يد فقهاء الشريعة، مما صار يوحي بضيق الشريعة عن أن تستطيع تلبية الحاجات المستجدة بالأحكام المناسبة.

وقد كان ذلك سبباً في أن يلجأ الأمراء والحكام الإداريون إلى إصدار أوامر إلزامية في بعض الشئون «بمثابة القوانين والأنظمة اليوم» بدافع الحاجة لأنهم لم يجدوا لدى فقهاء عصرهم تلبية لحاجاتهم وحلولاً لمشكلاتهم الإدارية من فقه الشريعة.

إن ابن القيم رحمه الله له كلام نفيس ينتقد به علماء زمانه، ويصفهم بضيق الفكر نتيجة التقليد الأعمى كل واحد في مذهبه، وعدم النظر في التماس الحلول المناسبة للمستجدات الزمنية في ظل مقاصد الشريعة التي وسعت كل شيء، مما أحوج حكام زمانهم إلى أن يظنوا أن الفقه الشرعي لا يفي بالحاجة، فصاروا يصدرون «قوانين سياسية» من عند أنفسهم سواء أكانت مقبولة بالنظر الشرعي أم لا، ويحمل فقهاء زمانه مسئولية ذلك، لأنهم بضيق أفكارهم، وقصور علمهم دفعوا الحكام إلى هذا السلوك، وكان في فقه الشريعة متسع كاف لكل حاجة حقيقية وتدبير حكيم [٢].

(٢) كلام ابن القيم ـ رحمه الله ـ في هذا الشأن «إعلام الموقعين ٣/٥٤٣ والطرق الحكمية ١٢ - ١٥» هو أول كلام لأحد من فقهائنا السابقين وجدت فيه استعمال كلمة قوانين بمعناها الاصطلاحي في التقنين الوضعي، وهو إصدار أوامر وقواعد إلزامية في التعامل من سلطة حاكمة.

أما ابن جُزى المالكي الذي سمى كتابه «القوانين الفقهية» فقد استعمل كلمة «القوانين» في عنوان كتابه بمعنى الفقه الشرعي لا بمعناها الاصطلاحي في عرف النظم الوضعية.

فمصر أخذت في القرن الماضي القانون المدني الفرنسي والسودان أجرى عليها الانجليز المستعمرون قوانينهم في التجارة والعقود ومثل ذلك في الهند.

وفي الجزائر وتونس فرض الفرنسيون قوانينهم، والدولة العثمانية استمدت قانون العقوبات وقانون التجارة من الفرنسيين وغيرهم مع أنها لم تكن مستعمرة.

وهكذا لم يبق للفقه مجال تطبيقي في معظم البلاد الإسلامية إلا في نطاق الأحوال الشخصية وقليل سواها.

ثم لما أخذ الاستعمار الأجنبي بالانحسار في أعقاب الحرب العالمية الثانية، أصبح التغيير صعباً عسيراً ولاسيما مع نشوء جيل غذاه الغزو الفكري الأجنبي، وفقد الإحساس بأصالته.

موقف الفقه الإسلامي من هذه التقنيات:

إن الشريعة الإسلامية تعطي ولي الأمر الشرعي، وهو إمام المسلمين أو الخليفة المؤهل الذي تولى سلطته بطريقة أصولية «إرادة الأمة ومبايعة أهل الحل والعقد فيها» سلطة إصدار الأوامر التنظيمية في سائر الشئون بحسب الحاجة، لكن ليس كما يشاء هو ويريد بل كما يقتضيه ويستلزمه تنفيذ شريعة الله في كتابه «القرآن الكريم» وسنة رسوله محمد ﷺ فالشارع في الإسلام هو الله سبحانه وتعالى ورسوله المبلغ عنه بوحي من الله

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾

«النجم: ٣ - ٤»

ومن ثم كان للأحكام الفقهية تلك الحرمة التي سبقت الإشارة إليها في أوائل هذا البحث فيطيع المؤمن أحكام الإسلام التي يمثلها الفقه سراً وعلنا ولا يستبيح انتهاكها ولو أمن طائلة الحكام، ولا يستبيح الاحتيال عليها لو لم يطله القضاء مما هو مفقود في القانون الوضعي.

ففي الإسلام، الحاكم والرعية «المواطنون» مكلفون جميعا على حد سواء بتنفيذ شرع الله، وليس لهم تبديله، ومن هنا الفارق الكبير بين الإسلام والديمقراطية بمفهومها العلمي، حيث يعتبر فيها الحكم للشعب بحسب إرادته بواسطة ممثليه، فله أن يضع نظامه ومبادئه العامة كما يشاء، وأن يغير ويبدل فيها «ولو من الشيء إلى ضده» كما يشاء، تلك الديمقراطية شعارها «حكم الشعب، بالشعب، للشعب».

أما الإسلام فيقول في كتابه الدستوري وهو القرآن:

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾

«يوسف: ٤٠»

فلا استبداد لولي الأمر، بل شورى، وهو والأمة مكلفون لتنفيذ حكم الله، وليس لهم تبديله، وإنما لولي الأمر إصدار أوامر تنظيمية لحسن تنفيذه بطريق الشورى، وتجب حينئذ طاعتها. فليس لرئيس الدولة الحاكم في الإسلام، ولا للشعب أو الأمة أن يسقطوا الزكاة مثلاً عن المكلفين في أموالهم، أو أن يبيحوا لهم الخمر أو الزنى، بينما يجوز ذلك في قواعد الديمقراطية التي يعتبر فيها الشعب هو المشرع لنفسه بإرادته الحرة، كما أنه هو حاكم نفسه بواسطة ممثليه الذين يختارهم هو بأكثرية أفراده المؤهلين.

«يتبع»

حول أساليب التغيير



للمفكر الإسلامى والباحث الإستراتيجى
الأستاذ/ منير شفيق

من القصص القرآنى

عندما تدقق بالأسلوب الذى اتبعه إبراهيم عليه السلام سنجده ينبع من حالة وضع محدد يتمثل بقوم عددهم محدود، وسيدهم والد إبراهيم عليه السلام، وهم لا يخالفون له أمراً وغير قابلين، بأغلبيتهم لأن يحرضوا ضده أو يثوروا عليه، لهذا اعتمد الأسلوب الرسالى هنا، على المواجهة الفردية الشجاعة بتحطيم الأصنام والاستمساك بوحدانية خالق الكون والدعوة إلى عبادته وطاعته، أما بعد ذلك فكان طريقه مسدودا أمام الدعوة بالنسبة إلى خصوصية الحالة التى واجهتها الرسالة لدى أولئك القوم، فكان الحل هو الهجرة بمن آمنوا معه وبناء خط جديد أو شق طريق جديد تتفرع من أصله رسالات السماء.

أما لوط عليه السلام فقد كان حال قومه مستعصياً على الدعوة كذلك فقد انتشرت الفاحشة فيهم وحق عليهم التحول ليصبحوا من الهالكين، فكان الأسلوب هنا بعد دعوتهم وإعطائهم فرصة النجاة هو الهجرة بمن آمن معه لشق طريق جديد مستقل، وهو أسلوب حكمته محدودية القوم حجماً وعدداً وأثرت فيه حاليهم التى استشرت فيها الفاحشة، وكان الأفق مفتوحا لبداية مستقلة جديدة.

من هنا يمكن القول إن فى هذه الحالات - حالة إبراهيم ولوط عليهما السلام كان التغيير من داخل القوم ومن خلالهم محالاً ولا مجال لمسيرة عنفية أو لا عنفية من أجل أحداث التغيير فيهم، فالمطلوب تبليغ الرسالة والتحذير من الشرك المستشرى، وإنقاذ من يمكن إنقاذهم ولو كانوا قلة، ثم ترك الساحة وهجرتها بمن آمن لفتح طريق جديد ولتشكيل أمة جديدة.

أما أسلوب النبى موسى عليه السلام فقد نبع بدوره من خصوصيات حالة أخرى، تتمثل بوجود بنى إسرائيل مستضعفين فى مصر تحت سلطة حكم فرعون وطغيانه، فكان لابد من حوار فرعون ومساجلة سحرته، أى محاولة معالجة الوضع من فوق لتحقيق تغيير أشمل، لكن سرعان ما تبين أن الجدار الفرعونى لا يخترق ولا يستمال ولا يحيد ولا يكسب، حتى بعد أن كسب المعركة عقدياً وفكرياً وسياسياً حين لقفت عصاه عصى السحرة فكان لابد من الخروج ببنى

إسرائيل خلسة، وباستخدام تكتيكات التمويه حتى يكسب بعض الوقت قبل اكتشاف أثرهم واللحاق بهم فالمواجهة كانت تعنى الهلاك بل فشل الفرار كان يعنى الهلاك كذلك.

وكان لابد من التوجه نحو الصحراء حتى تمنع اللحاق بهم وتتيح الوصول إلى أرض فلسطين لتبنى فيها الرسالة، بل إن كان هذه الاستراتيجية ما كانت لتنجح لولا معجزة شق البحر وإنزال الكارثة المائية بفرعون وجنوده وهم يكادون يمسكون بالهاربين.

أما أسلوب عيسى بن مريم عليهما السلام فقد حكمه حال بنى إسرائيل فى فلسطين وسط أقوام آخرين والأهم تحت حكم رومانى مباشر متمكن وكان أحبار بنى إسرائيل قد حرفوا الكلم عن مواضعه، وتمادوا فى التسلط على رقاب الناس وكانت أفعالهم مما يندى له الجبين.

لقد كان الطريق الوحيد هو اتباع أسلوب سلمى فى الدعوة يعلن نبذه للعنف ويبعد عنه بكل سبيل وكان لابد من الاتعاظ بأمثلة كثيرة سبقت فى حينه حاولت التمرد على الرومان إما بالسلاح، وإما بالكلام الشديد فانتهت بالسحق ولم تجد آذاناً صاغية لدعواها، ولم تستطع أن تكسب حتى بعض الوقت وما كانت تجربة يحيى عليه السلام ببعيدة عهد.

لكن على الرغم من كل هذه الاحتياطات التى استخدمها هذا الأسلوب سرعان ما وجد نفسه فى صدام مع كهنة بنى إسرائيل ووجد الرومان يتربصون به الدوائر على الرغم من محاولة تجنبهم وعدم التعرض لسلطانهم، بل تأكيد دفع الجزية للقيصر، لكن استمر أحبار بنى إسرائيل يقاومونه بكل وسيلة بما فى ذلك تحريض الحاكم الرومانى على قتله.

لقد كان طريق الانتصار مسدوداً ضمن تلك المعادلة، بل كان الوقت المتاح للدعوة محدوداً جداً، وما كان هناك من سبيل بتبنى أسلوب الهجرة أما كسب جمهور الناس فمهما بلغ به النجاح، ما كان من الممكن أن يحسم الصراع فى مواجهة كهنة بنى إسرائيل لأن فلسطين كانت مستعمرة للرومان وحسم الصراع لا يكون والحالة هذه إلا بالعمالة للرومان، أو بالحرب ضد الرومان وهزيمتهم، فكانت الاستراتيجية هنا تقضى بإرساء القواعد للدعوة الرسالية، وكسب قاعدة شعبية لها وبناء نواة من الحواريين «التلاميذ» لحمل الرسالة والانتشار بها بعد أن تكون قد تعززت بما قدمه المسيح عليه السلام من معجزات وما أعطى من قدوة.

ولهذا حين أزفت لحظة رفع المسيح إلى الله كانت تلك الاستراتيجية التى لم يتح لها العمل إلا لسنوات قليلة جداً، قد حققت ذلك الهدف المتواضع وهو بالنسبة إلى أسلوب التغيير الإسلامى على سبيل المثال، لا يتعدى المرحلة المكية الأولى أو حتى بعضاً منها، ومن ثم كان انتشار الدعوة مرهوناً بحملها إلى الأمم كافة خارج فلسطين وتخليصها من ذلك الطريق المسدود ضمن تلك المعطيات أى كهنة إسرائيل وأتباعهم والحكم الرومانى الخانق والأرض الصغيرة الضعيفة بسكانها.

على أن هذا الانتشار نفسه تم بتنوع فى الأساليب كذلك وفقاً للبلدان والأعصر فمنه ما تم بتغيير قاعدى، ومنه ما تم بتغيير فوقى من خلال رأس السلطة مثلا تبنى هيلانة وابنها الأمبراطور الرومانى

قسطنطين للمسيحية فى أوائل القرن الرابع وتحويلها إلى دين رسمى للأمبراطورية بعد تطويعها وفقاً للروح الرومانية.

من السيرة

أما التجربة الإسلامية التى قادها الرسول - صلى الله عليه وسلام - فهى المثل الأكبر دقة وغنى وخصباً فى إعطاء الدليل على هذا التغيير أى الأسلوب - الاستراتيجية والتكتيك - ومدى تأثره فى المعطيات المتعلقة بالزمان والمكان والعدو والناس وموازين القوى والظروف الأولى وهكذا.

لقد شاءت الإرادة الربانية أن ينزل القرآن على النبى محمد صلى الله عليه وسلم وأن تكون أرض الدعوة وفضاؤها، بادئ ذى بدء هى شبه الجزيرة العربية. فكانت تلك الأرض من ناحية تكوينها الداخلى مشكّلة من قبائل وأعراق عربية توزعت فى بعض المدن فى البادية من حول الشريط الحضرى إلى جانب الأعراب الذين راحوا ينتقلون فى قلب الصحراء، وكانت هنالك القبائل المحاذية للدول الرومانية - الغساسنة مثلاً - عقدوا معها تحالفات، وأخرى محاذية للدولة الفارسية - المناذرة - مثلاً - وعقدوا معها تحالفات.

وكانت مكة ويثرب والطائف والقبائل عموماً فى حالة من الاستقلالية وفى منأى عن التدخل الفارسى أو الرومانى (تدخل الدول الكبرى) وكانت بلاد الحبشة فى الجنوب نقطة صراع رومانى - فارسى تتطلع إلى صداقة شبه الجزيرة العربية.

وكانت طريق التجارة الدولية تمر من بلاد المشرق عبر الجزيرة العربية إلى الهند وإفريقيا والعكس، وهذا ما جعل تجارة مكة والمدينة وأهل الجزيرة العربية عموما على اتصال حضارى دقيق بالحضارات المختلفة والسياسات الدولية المختلفة، وكان اتصالهم بالمسيحية واليهودية عن قرب، بل كانت هنالك قبائل عربية مسيحية أو يهودية كذلك، ولهذا يخطئ من يفهم من كلمة الجاهلية نقيضاً لامتلاك المعارف السياسية وفنون القتال، أو أحوال الأمم أو شئون الاقتصاد العالمى (التجارة الدولية أساساً).. فالجاهلية هى وصف ينطبق على حالة الشرك فى العقيدة وعلى حالة العصبية القبلية المقيتة، وعلى بعض التقاليد والعادات وعلى الظلم، والفاحشة. بكلمات أخرى كانت هنالك جملة سمات تميّز الوضع فى الجزيرة العربية من حيث تركيبته السكانية وتقسيماته الجهوية ومعارفه وأخلاقه وموازين قواه الداخلية اللامركزية، ومن حيث علاقاته الدولية ودوره فى الاقتصاد العالمى والصراع الدولى.

وكان هذا كله يعنى أن الرسالة الربانية هنا يمكن أن تنجح تحت قيادة حاملها عليه الصلاة والسلام أى إقامة الدولة وتوحيد الأمة والانطلاق إلى العالمية بالفتح ونشر الدعوة، كما بنشر الدعوة بلا فتح عسكرى كذلك.

أسلوب المرحلة المكية

ومن هنا كانت شروط التغيير المنشود متوفرة أولاً مع توفر الوحى ونزول الرسالة وثانيا من حيث العوامل الموضوعية والذاتية على مستوى شبه الجزيرة العربية وعلى مستوى المحيط من حولها ثم العالم.

وقد حدد الهدف الوسيط بتحطيم أوثان مكة وإسقاط الشرك وإقامة الدولة وتوحيد الأمة ومن ثم الإطاحة بالدولتين العظميين والانتقال إلى موقع السيادة العالمية أى تحقيق العزة للإسلام فى العالمين.

أما الأسلوب - الاستراتيجية والتكتيك - فقد جاء مراعياً لمعادلة النفوذ فيما بين القبائل عموماً، كما راعى بادئ ذى بدء معادلة النفوذ وميزان القوى الداخلى فى مكة فيما بين أفخاذ قريش.

لقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجهز بالدعوة ويتحدى ملأ قريش ودينهم وكان آمناً أن ما من أحد يستطيع أن يقتله أو يقدمه إلى محاكمة، فبعد رعاية الله كان من ورائه عزوة تحميه حتى لو لم توافقه، وكان على الآخرين احترام ذلك وكانت من أخلاق قريش وقبائل العرب عموماً أن يقبلوا الاستجارة ويحموا صاحبها، وقد أفاد أسلوب الرسول منه فى المرحلة المكية، كما سنرى فيما بعد تحت عنوان التحالف فى السيرة. فأسلوب المواجهة فى مكة حمل كلٍ بصمات مجتمعها والوضع المحيط بها. وقدم نموذجا حياً لكيفية التعاطى وواقع محدد ووفقا لسماته ومراعاة لها. هذا من ناحية الحمايات الأولى التى توفرت للدعوة، بعد رعاية الله تبارك وتعالى، وهى ما زالت غضّة طرية، أو ضعيفة ومستضعفة، لكن كان لهذه الحاميات سقف وهو السماح بالأذى لكن دون القتل، وكان السماح لكل أشكال التحريض المتبادل لكن ضمن سقف كذلك، أى مضى الأسلوب هنا ضمن معادلة معينة فى الصراع.

على أن هذه المرحلة أخذت تبلغ نهاياتها عندما لم يعد بالإمكان أن يؤخذ من مكة أكثر مما أخذ أى تحدد السقف الذى يمكن أن تبلغه الدعوة فى نموها فيها، ومن هنا بدأ نشاط الرسول عليه الصلاة والسلام يصبح حثيثا بطلب النصرة ودعوة مراكز قوى أخرى منافسة لقريش من أجل تبنّى الدعوة أو التحوّل إلى قاعدة آمنة تحميها، وقد تأكدت حدود السقف المكى عندما قررت قيادة قريش أن تهدر دم النبى صلى الله عليه وسلم وتخرج على قانونها، أو عرفها السابق. بل حتى مع هذا القرار كان عليها أن تفرّق دمه الطاهر فيما بين سيوف أفخاذها كافة تقريباً.

هنا نضجت شروط الهجرة من مكة إلى يثرب وقد عاهدت الرسول صلى الله عليه وسلم على النصرة. ولعل هذا العهد كان سبباً مهماً من أسباب أخذ قريش لقرار القتل، والإسراع به.

لو توقفنا لتأمل أسلوب التغيير فى المرحلة المكية فى مختلف مراحله سنجد أننا أمام أسلوب جاء نتاج جملة من الشروط المعقدة والمركبة اتسمت بها أوضاع مكة الداخلية والأوضاع العربية والدولية من حولها، وإن فى مقدمة ما يجب أن يلاحظ سمة اللامركزية فى توزّع النفوذ والسلطة وفى اتخاذ القرار ضمن معادلة معينة لا يوجد فيها حاكم فرد أو جيش تحت قيادة واحدة. وهذا كان ينطبق على مكة نفسها كما ينطبق على شبه الجزيرة العربية كلها.

أما المسرح فكان مستقلاً عموماً عن التدخل الدولى المباشر أى كان دور العامل الداخلى فى تقرير ميزان القوى حاسماً.

ولهذا إن التعامل والمرحلة المكية وما أتبع فيها من أسلوب فى التغيير يتطلب رؤية ذلك ضمن مجموعة المعادلات السابقة: نوع السلطة وزشكال تركيبتها مثل استقلالية المدن والقبائل، وإلى جانبها سمات العقلية السائدة والأعراف المساعدة والمكونة لعلاقات البشر فيما بينهم ولأشكال الصراع. فعلى سبيل المثال، هل يمكن فى ظرف آخر ومكان آخر أن يطبّق أسلوب الاستجارة فى تأمين الحماية بينما ليس للاستجارة فيه مكان الأمر الذى يتطلب أن يحمل أسلوب التغيير فى مرحلته الأولى سمات مختلفة حتماً، غير تلك التى عرفها أسلوب الرسول عليه

الصلاة والسلام وذلك بسبب المتغير في المعطيات.. فالتأسي بالسنة هنا يكون بالتقاط الجوهر لا الشكل، أي التقاط كيفية التعاطي والعوامل الذاتية والموضوعية ـ الداخلية والخارجية للبلد المعني.. فعندما يحدد أسلوب تغيير ويقسم إلى مراحل، وتسمى المرحلة الأولى المرحلة المكية، يجب أن يؤخذ ذلك بالمعنى الرمزي والعام ويفهم في الجوهر ولا يؤخذ بالمعنى الحرفي والخاص أو يقلد في الأشكال.

الأسلوب في مرحلة المدينة

ويمكن أن يفهم المقصد هنا فهمًا أعمق حين نتابع أسلوب الرسول صلى الله عليه وسلم في مرحلة المدينة، أو مرحلة نواة الدولة أو مشروع الدولة، أو القاعدة المحررة، والتي واجهت الحصار وصدت محاولات الإبادة، ونشطت في الغزوات وعقد التحالفات وصولاً إلى صلح الحديبية الذي مثل شبه التوازن الاستراتيجي، ومنه الانتقال إلى مرحلة الإعداد لبدء الهجوم العام مرحلة فتح مكة. سنجد في هذه المرحلة أن أسلوب التغيير على مستواه الاستراتيجي العام أو تكتيكه اليومي ومعالجاته التفصيلية قد تعامل والظروف المحددة في يثرب تعاملاً دقيقًا بل في منتهى الدقة، وهذا ما عكسته صحيفة المدينة ومن بعد ذلك جملة الغزوات والمعارك التي عرفت منذ الهجرة حتى صلح الحديبية، ومن ضمن ذلك ما جرى من تحالفات وصراعات وما ووجه من صعوبات. إنها مرحلة شديدة الغنى والتنوع إلى حد يسمح للمرء بالقول إنها احتوت كل ما يمكن أن تحتويه أساليب التغيير من قوانين ـ طبعًا لا من جهة الشكل وإنما من حيث الجوهر. وإذا بدت هنالك حالات قريبة من بعضها بعضًا في تجربتين فإنه من الضروري أن تلاحظ الفروق بين شكلين متشابهين طبقًا على واقعين مختلفين زمانًا ومكانًا ومعطيات وظروفًا. إن وجود حالة الاستقلالية للمدن والقبائل في شبه الجزيرة العربية، أو عدم وجود حكم مركزي، وجيش مركزي، مع اتساع في الرقعة الجغرافية، وابتعاد عن التدخل الدولي هو ما أثر في تحديد أسلوب كل من المرحلة المكية ومرحلة المدينة والفتح، وكان وراء ظواهر النصرة والهجرة وبناء نواة الدولة ـ والانطلاق ـ لاستكمال عملية نشر الدعوة والتحرر، ثم الفتح عالميًا.

في اختيار أسلوب التغيير

أما من جهة أخرى فإن من الممكن أن يفهم من قصص الأنبياء عليهم السلام كما من التغيير الإسلامي الأول أن أساليب التغيير تعددت في تحقيق الأهداف الوسيطة، وذلك وفقًا لكل حالة بعينها ولما يحيط بها من ظروف ومعطيات، وهذا يعني أن اختيار أسلوب التغيير له علاقة مباشرة، وحية، بالهدف المحدد الذي يراد تحقيقه فأسلوب مواجهة طاغية كفرعون غيره في مواجهة كهنة إسرائيل في ظل احتلال الرومان لفلسطين، وهذا وذاك غيرهما في مواجهة مشركي قريش. فالعدو المجرم في كل حالة له سمات محددة من حيث سماته وسلطانه وقوته، ومن حيث طروحاته وحلفائه، ومن حيث ظروف الزمان والمكان والمعطيات المختلفة بما في ذلك اختلاف سمات المخاطبين لحمل رسالة التغيير، من ثم كان على أسلوب المواجهة أن يأخذ كل ذلك بعين الاعتبار حتى يختار الأسلوب الأنسب والأكثر نجاعة من أجل إحداث التغيير. وهذا ما يسمح بفهم أعمق لماذا اختلفت الأساليب في التغير

في نهج الأنبياء والرسل وفقًا لمعطيات كل حالة. أي يجب أن نبحث عن المنطق في اتباع كل أسلوب هنا في دراسة الظروف المحيطة بالرسالة في حينه عدوًا، وفاحشة، وشعبًا، ومكانًا، وزمانًا، وظروفًا محلية وإقليمية ودولية.

أما الأسلوب الذي يستخدمه العدو رقم ١ في مواجهة التغيير فلابد من أن يترك بصماته على أسلوب التغيير نفسه، فإن ترك الأمر يمضي بالحسنى فسيحكم ذلك أسلوب التغيير باختيار الحسنى قطعًا، علمًا أن هذا خياره الأول أصلاً، ولكن إذا فتح الباب أمام أسلوب العنف والقمع والإيذاء الشديد فيستخلف هذا بصماته على أسلوب التغيير، لكن ليس بالضرورة أن يكون رد افعل من جنس الفعل نفسه، فأحيانًا يكون على النقيض كمثل ما حدث في المواجهة بين إبني آدم

﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (المائدة: ٢٨)

أما في حالة أخرى:

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ (المزمل ١٠)

ويكون رد الفعل أحيانًا من جنس الفعل على قاعدة «السن بالسن والعين بالعين» أو وفقًا لقوله تعالى:

﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (البقرة: ١٩٤)

وأحيانًا:

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٠)

أما في ظروف أخرى:

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾ (المائدة: ٨)

وهكذا يترك العدوان بصماته ولكن تتعدد أشكال ردود الفعل وأساليب المواجهة تعددًا يكاد لا يحصر بسبب تعدد الحالات وصعوبة حصرها، فهي متطاولة الامتداد عمقًا وسطحًا، طولاً وعرضًا، وزمانًا ومكانًا، وبشرًا وجغرافية وبيئة ومحيطًا.

ومن هنا يمكن القول إذا كان حال العدو وسياساته مؤثرين في اختيار الأسلوب الذي سيواجه به إلا أن ثمة عوامل أخرى، هي في الغالب أكثر تأثيرًا في تحديد أسلوب التغيير واختياره. فهي تمتد من المكان وحجمه وطبيعته الجغرافية ومن الناس وحالهم وعددهم وظروفهم الاقتصادية والاجتماعية وتقسيماتهم الداخلية، إلى موازين القوى المحلية والإقليمية والدولية، وإلى الظروف الخاصة العامة عند لحظة التغيير، بل ثمة عوامل أخرى كذلك.

ومن هنا فإن المسألة شديدة التعقيد والتركيب وتحتاج إلى درجة عالية من الدقة في حساب العوامل المختلفة وتوزينها عند اختيار الأسلوب الأنسب في التغير، وهذا ما يفترض التعمق في مراجعة الأساليب التي استخدمها الأنبياء والرسل عليهم السلام، لاسيما ما تجلى منها في التجربة الإسلامية الأولى بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم.

«يتبع»

الفتح الإسلامى لمصر



٥



للأستاذ الدكتور / محمد سليم العوا

الطريق إلى الإسكندرية

بعد أن دان حصن بابليون وما حوله لعمرو بن العاص عزم عمرو على المسير إلى الإسكندرية [١]. فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأمره فى ذلك فأمره به[٢]. فى هذا الموضع طلب عمرو بن العاص أمراً من عمر بن الخطاب بالمسير إلى الإسكندرية لكنه عندما كان يرغب فى فتح مصر استأذن فى ذلك عمر، ولم يزل به حتى أذن له.

والفرق بين طلب الإذن وطلب الأمر أن المرء يستأذن فى شىء يريد هو فعله فإذا أذن له فإن التبعة عليه إن أخفق، والمجد له إن نجح فيما يريد. أما طلب الأمر فيقدم عليه المرء فى الأمور الجليلة الخطيرة، فإذا وفق ونجح فهو ومن أمره شركاء فى المجد، وإن كانت الأخرى فالوزر على الآمر لا على طالب الأمر. وقد كان من ذكاء عمرو، وهو يعلم ما الإسكندرية وكيفية تحصينها، ويقدر تقديراً صحيحاً ما سيلقاه من الروم بها، أن يطلب من عمر أمراً يصدره إليه بالمسير إلى الإسكندرية لا مجرد إذن بذلك (!) إنه لولا فتح الإسكندرية لما تمتعت مصر كلها - آنئذ - بالحرية الدينية التى كفلها الإسلام للناس، ولما استطاع أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، ومن كان معهم من التابعين، أن يدعوا الناس إلى الإسلام وهو مطمئنون من كيد الروم. وقد كان تحرير مصر من حكم الرومان هدفاً دائماً لعمرو بن العاص منذ فكر فى دخول مصر إلى أن استكمل فتحها كلها.

(١) الكندى، ولاة مصر، ط الذخائر، القاهرة ٢٠٠٧، ص٣٣.

(٢) البلاذرى، المرجع السابق، ص٣٠٩.

جهز عمرو من سيخرجون معه إلى الإسكندرية واستخلف على ما تحت يده من الأرض خارجة بن حذافة السهمى [٣]. ونلاحظ فى روايات الفتوح الإسلامية كلها أن المسلمين كانوا يُأمَّرون على الجيوش، ويولون على البلدان، عند الحاجة إلى ذلك، أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم؛ لأن إيمان المسلمين بفضيلة الصحابة وأولّيتهم كان إيماناً راسخاً لم تعبث به الأهواء أو الأفكار المستحدثة أو المستوردة، وكان التابعون يعرفون فضل هؤلاء الصحابة وينقادون لهم عن رضاء واقتناع. وهكذا صنع عمرو بن العاص.

أمر عمرو عندما تهيأ للمسير بنقض فسطاطه الذى كان يقيم فيه أمام حصن بابليون، فلما شرعوا فى ذلك وجدوا عليه عش يمامة قد باضت فيه، فقال لهم عمرو: (لقد تحرمت هذه اليمامة بجوارنا، أقروا الفسطاط حتى تنقُض (أى يفقس البيض) وتطير فراخها) وأمر باليمامة ألا تهاج فى عشها، فتركوه على حاله، ومن هنا سميت الفسطاط فسطاطاً [٤].

ويقول بتلر: (إنا لنتبين فى تلك الرواية صورة الحقيقة والصدق، فقد كان الجوار والاعتصام مقدساً عند المسلمين ولو كان المستجير عدواً)[٥].

وخرج عمرو بالمسلمين، وخرج معه جماعة من رؤساء القبط وقد أصلحوا لهم الطرق وأقاموا لهم الجسور والأسواق، وصارت لهم القبط أعواناً على ما أرادوا من قتال الروم[٦].

وسمعت الروم بمسير المسلمين، ومن معهم من القبط إلى الإسكندرية، فتهيأوا للقتال، وطلبوا المدد من القسطنطينية فقدمت عليهم سفن كثيرة تحمل الرجال والعتاد والسلاح[٧].

وكان أول لقاء بين جيش المسلمين وجنود الروم عند مدينة يقال لها (ترنوط) [٨]، وكان القتال عند ترنوط قتالا خفيفاً هزمت

(٣) البلاذرى، الموضع السابق نفسه.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ط الذخائر، القاهرة ١٩٩٨، ج١ ص١٠٣؛ وأحمد عادل كمال السابق، ص٣٠٧، وكلاهما ينقل عن ابن عبد الحكم ص ١١٥ مقرأ له؛ وكذلك الفريد بتلر، السابق، ص٢٤٥.

(٥) ينقل عن ياقوت فى معجم البلدان والخبر فيه ج٤ ص ٢٩٩ ومنه نقلنا النص: الفريد بتلر، الموضع السابق نفسه، هامش ٢، وهو بذلك يشير إلى قول الله تعالى (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلم الله ثم ابلغه مأمنه) [التوبة:٦].

(٦) عبارة (أصلحوا لهم الطرق... الأسواق)، تحتمل أن يكون المسلمون قد أصلحوا الطرق والجسور وأمنوا الأسواق للقبط بما تحقق من أمان فى المدة التى أقاموها فى مصر بعد فتح الحصن، وتحتمل أن يكون القبط هم الذين صنعوا ذلك للمسلمين. ولم أجد فى المصادر التى تحت يدى ما يرجح أحد الأمرين، وكنت فى كتابى: أيام من رمضان (دار الشروق، ٢٠١٠، ص٤٣) قد ذهبت إلى الأول، وأنا اليوم إلى الثانى أميل؛ والله أعلم أى الأمرين أصح. وراجع: السيوطى، حسن المحاضرة، تحقيق على محمد عمر، ط الخانجى، القاهرة ٢٠٠٧ ص ١٠٧.

(٧) المقريزى، السابق، ج١ ص ٤٢٢.

(٨) مدينة على الضفة الغربية لفرع رشيد من نهر النيل، فى مواجهة مدينة نقيوس التى أصبحت تعرف باسم شبشير، وترنوط شمال غرب مدينة منوف الحالية، ونقيوس/شبشير فى شمالها الشرقى.

فيه الروم، واستمر المسلمون في مسيرتهم نحو الإسكندرية.

وكان اللقاء الثاني بين الروم والمسلمين عند كوم شريك (٩)، [وهناك] ألجأ الروم شريك ابن سُمَيّ الغطيفي ومن معه من طليعة جيش عمرو بن العاص إلى كوم (مرتفع عن الأرض) وتكاثروا حوله فلما خشي ألا يصمد لهم بمن معه من الجند أرسل مالك بن ناعمة (أبا ناعمة) الصدفي إلى عمرو ليخبره، وكان لمالك فرس أشقر لا يجارى في سرعته فنزل من الكوم ملتفاً حول الروم، الذين حاولوا إدراكه فلم يستطيعوا، وأتى عمراً فأخبره الخبر. فأقبل عمرو متوجهاً إلى الروم، فلما سمعوا بذلك انصرفوا فراراً من المواجهة (١٠). ومنذئذ سمي ذلك الكوم (كوم شريك) ولا يزال يسمى كذلك.

ثم كانت الوقعة الثالثة، في الطريق إلى الإسكندرية، عند مدينة يقال لها (سُلْطَيْس) (١١).

وكان القتال في سلطيس قتالاً شديداً انهزمت الروم في نهايته ولم يستطيعوا الوقوف في وجه جيش المسلمين الذين استمروا يسوقونهم أمامهم حتى بلغوا حصن كريون بعد مسيرة بضعة وعشرين ميلاً (٤٠ كم) من سلطيس، وكان حصن كريون آخر سلسلة الحصون المنيعة بين حصن بابليون ومدينة الإسكندرية (١٢). وكان جنود الروم أكثر عدداً من جنود عمرو بن العاص، وأتى إلى الروم المدد من الإسكندرية ومن سائر المدن التي كانت بيد الروم، وكان على مقدمة جيش المسلمين الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص، وكان حامل الراية مولى لعمرو بن العاص اسمه وردان، كان ذا بأس شديد في القتال، فكأن عمرو ولى على أمر القتال في هذه الوقعة أقرب رجلين إليه، ابنه ومولاه (!)

أصيب عبد الله بن عمرو بجراحات كثيرة، فقال لوردان لو تأخرت قليلا نصيب الرَّوح (١٣) (=نأخذ نفسنا) فقال له وردان: تريد الرَّوح؟ الروح أمامك لا خلفك (!) لم يمنع وردان كونه مولى لأبيه عمرو بن العاص أن يزجره ناصحاً، ويقول له: إن السعة والاستراحة في الإقدام لا في الإحجام، وهذا دليل على شجاعة وردان نفسه. فتقدم عبدالله وقاتل قتال الأبطال الشجعان حتى انجلت المعركة ذلك اليوم وجسده مثخن بالجراح، وأرسل عمرو إليه رسولا يسأل عن حاله،

(٩) سميت باسم أحد قواد جيش المسلمين الذي كان على رأس القوة التي قاتلت هناك؛ وهي تقع شمال ترنوط.

(١٠) المقريزي، السابق، ص٤٤٣؛ وأحمد عادل كمال، السابق، ص٢٠٨؛ والفريد بتلر، السابق، ص ٢٥٠.

(١١) يسميها بتلر (سنطيس)، قال ياقوت في معجم البلدان، السابق، ج ٣ص ٢٦٧ رقم ٦٥٣١: من قرى مصر القديمة كان أهلها أعانوا على عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية فسباهم... ثم ردهم عمر بن الخطاب إلى القرية

(١٢) الفريد بتلر، السابق، ص٢٥١.

(١٣) الرَّوح الراحة ونسيم الهواء والسعة والاستراحة. الفيروز أبادي، القاموس المحيط مادة روح.

فقال له عبدالله متمثلا بقول عمرو بن الإطنابة (١٤):

أقول لها إذا جشأت وجاشت
رويدك تحمدي أو تستريحي

والبيت عند ابن عبد الحكم:

أقول إذا ما جاشت النفس اصبري
فعما قليل تحمدي أو تلامي (١٥)

فلما بلغ ذلك عمراً قال: هو ابني حقاً (!)

كان عبد الله بن عمرو بن العاص صحابياً جليلاً

كان عبدالله بن عمرو بن العاص صحابياً جليلاً، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أذن له أن يكتب ما يقول، وعندما نهاه بعض الصحابة عن ذلك قائلين: (إنك تكتب كل ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو بشر يتكلم في الغضب والرضا، فانظر ماذا تكتب) فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك قال عبد الله بن عمرو: (فأومى إلى شفتيه فقال: والذي نفسي بيده ما يخرج مما بينهما إلا حق) (١٦). وكان عبدالله بن عمرو من كتبة الوحي، وكان من صناديد أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، له بلاء حسن في فتوح الشام ومصر.

وعندما اشتد القتال عند حصن الكريون صلى عمرو بن العاص بالناس صلاة الخوف، صلى بكل جماعة ركعة وسجدتين. وصلاة الخوف ليست مجرد تخفيف عن المقاتلين بإنقاص ركعة من الصلاة، ولكنها تؤدي مهمتين جليلتين في أثناء القتال، المهمة الأولى: تتجه إلى المصلين أنفسهم فتشعرهم بأن الذي يواجهونه أمر جلل تختصر من أجله الصلاة، وأن أهميته ليست أقل من أهمية الصلاة نفسها، وكفى بذلك عاملاً أساسياً في رفع الروح المعنوية للمجاهدين؛ المهمة الثانية: أن صلاة الخوف تشعر من يشاهد المسلمين من أعدائهم أنهم قد اتخذوا قرار خوض الحرب بأقصى ما يستطيعون من قوة، إذ ليس في دين الإسلام أمر أهم من الصلاة، فإذا رأى جيش عدوهم أن صلاتهم تُخفَّف عليهم من أجل القتال علموا أنهم مستميتون في هذا القتال لا محالة، وليس أفعل من ذلك في إلقاء الرعب من المسلمين في نفوس جيش عدوهم (١٧).

حمل المسلمون مرة بعد مرة على جموع

(١٤) المقريزي، السابق، ص٤٣٣، وابن الإطنابة هو: عمرو بن عامر بن زيد مناة بن عامر الأنصاري، والإطنابة أمه، وهي بنت شهاب بن زبّان من بني القين بن جسر.

(١٥) راجع: ص٩٧.

(١٦) أخرجه الحاكم في المستدرك، ج (٣٦٠) وقال هذا حديث صحيح الإسناد أصل في نسخ الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووافقه الذهبي على صحته. الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت ٢٠٠٢، ج١ ص٢٠٥.

(١٧) كانت أول صلاة خوف صلاها المسلمون في الحديبية، وقد كان لهذه الصلاة أثر كبير في مشركي مكة، بل كان أداء النبي صلى الله عليه وسلم لصلاة الخوف سبب إسلام خالد بن الوليد - رضي الله عنه - رضي الله عنه. محمد سليم العوا، الحديبية، مكتبة وهبة، القاهرة ٢٠٠٧، ص ٦٠-٦١.

الروم، في حصن كريون، ولكن الفتح أبطأ عليهم بضعة عشر يوماً [18]. كانت أعداد الروم تفوق أعداد المسلمين بزيادة هائلة، ولكن صبر المسلمين واستماتتهم في القتال مكنتهم من فتح مدينة كريون وحصنها وأجلوا الروم عنها إلى الإسكندرية. وتقول رواية [19]: إن من القبط أعداداً كانت تقاتل مع الروم، ولكن الرواية نفسها تحمل دليل بطلانها؛ إذ تمضي قائلة: إلا أن القبط في ذلك كانوا يحبون الموادعة[20]. ويستنتج أحمد عادل كمال من هذا النص أن القبط كانوا قد حشدوا - إن صح وجودهم - على غير إرادتهم، أو أن من كان منهم مع الروم كانوا مخالفين لإرادة عامة القبط[21] وهو استنتاج ظاهر الصحة.

أخذ المسلمون يطاردون الروم حتى وصلوا بهم إلى الإسكندرية، وعليها يومئذ حصون لا ترام [22].

يصف بتلر الإسكندرية فيقول: (لابد أن كثيرين ممن كانوا في جيش العرب عند ذلك رأوا أجمل المدائن في فلسطين والشام.... لكن ذلك كله لم يكن شيئاً إذا قيس بعظمة المدينة التي تبدت لهم عند ذاك... فقد كانت الإسكندرية حتى القرن السابع الميلادي أجمل مدائن العالم وأبهاها، فلم تبدع يد البناء قبلها ولا بعدها شيئاً يعدلها اللهم إلا رومة وقرطاجنة [23] القديمتين... وقد بقيت بعد ذلك قروناً وهي مثار إعجاب من رآها من أهل الأسفار...) [24]. وهذا يقطع بأن المسلمين عندما دخلوا الإسكندرية لم يدمروها، ولم يهدموا مبانيها، ولم يجلوا أهلها عنها، إنما تركوا كل شيء على ما كان عليه حتى بقيت المدينة قروناً تثير إعجاب زائريها.

وكانت حامية المدينة نحواً من خمسين ألف جندي، وكانت الأقوات وفيرة فيها؛ إذ هي على البحر، ولم يكن للمسلمين فيه ولا سفينة واحدة تُنقص من سلطان الروم عليه، وكانت الآلات الحربية بالإسكندرية قوية تحميها من عدوها، وأسوارها منيعة [25].

ولذلك استمر حصار المدينة نحو ثلاثة أشهر[26]، وكان عمرو يعلم أن عتاد قواته لا

(18) عند مؤرخي المسلمين: ابن عبد الحكم والمقريزي وغيرهما، أو عشرة أيام عند بتلر وغيره من مؤرخي الفرنجة.

(19) البلاذري، السابق، 309، والفريد بتلر، السابق، ص249.

(20) البلاذري، الموضع السابق نفسه، ولم يذكر ذلك بتلر.

(21) أحمد عادل كمال، السابق، ص 312.

(22) لا يوصل إلى فتحها.

(23) في إفريقية التي هي تونس الآن. ويقال: إن مدينة تونس كلها بنيت من هدم أحجار قرطاجنة، وبقي من أحجارها ورخامها ما يبني مدينة أخرى أو أكثر.

(24) الفريد بتلر، المرجع السابق، ص 254.

(25) الفريد بتلر، السابق، ص255.

(26) أحمد عادل كمال، السابق، ص313.

يقوى على اقتحام المدينة، لكنه كان واثقاً أن الروم إذا خرجوا إلى أصحابه وناجزوهم القتال فإن أصحابه سيثبتون والروم سينهزمون[27].

وتحكي كتب التاريخ حكايات لا تصح عما جرى بين المسلمين والروم في أثناء حصار الإسكندرية أعرضنا عن الإشارة إلى شيء منها؛ لأنها وردت بأسانيد لا يعول عليها. وعندنا أن ذكر ما لا يصح من الوقائع يضر بعلم التاريخ ولا ينفعه.

والمؤرخون متفقون على أن حصار الإسكندرية دام ثلاثة أشهر، وأن فتحها كان بعد فتح حصن بابليون بتسعة أشهر. فيكون وصول المسلمين إلى الإسكندرية في حدود 19 جمادى الآخرة سنة 21هـ=23 مايو 642م. ويكون فتح الإسكندرية في نحو 19 رمضان سنة 21 هـ= 19 أغسطس 642م. وهذا هو الذي قاله خليفة بن خياط (ت 240هـ)[28].

عندما طال الحصار على الإسكندرية أرسل حاكمها إلى عمرو بن العاص يسأله الصلح والمهادنة إلى مدة فأبى عمرو ذلك [29]، وكان مع المسلمين رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة.

وكان عمرو بن العاص قد أقبل على الإسكندرية من جهة يقول لها المؤرخون (الحلوة).

الراجح أنها كانت بشرق الإسكندرية في الحي المسمى الآن سيدي جابر/ اسبورتنج[30]، ومن هناك بدأ عمرو حصاره لها لكنه كان حصاراً غير مجد، وتبين لعمرو أن دخول المدينة من هذه الجهة غير ممكن؛ لذلك تحول إلى المكس بغرب الإسكندرية (=المقس)، وهناك خرجت عليهم خيل من خيل الروم وقاتلوهم فقتل يومئذ من المسلمين اثنا عشر رجلاً، وكانت سفن الروم تأتيهم بالمدد والمؤن والعتاد من قسطنطينية، وكان ملك الروم يقول: (لئن ظهرت العرب على الإسكندرية، إن ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم؛ لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية، وكان عيد الروم حين غلب المسلمون على الشام يقام بالإسكندرية، وقال الملك: لئن غلبونا على الإسكندرية هلكت الروم وانقطع ملكها. فأمر بتجهيز قوات يخرج هو على رأسها ليباشر القتال بنفسه، ولكنه مات في أثناء ذلك ورجعت جموع كثيرة، ممن كانوا قد توجهوا للإسكندرية من الروم، إلى القسطنطينية [31].

وقد استبطأ عمر بن الخطاب - رضي الله

(27) الفريد بتلر، السابق، ص 257.

(28) تاريخ خليفة بن خياط، ط المجمع العلمي العراقي، بتحقيق أكرم ضياء العمري، النجف الأشرف 1967، ج1 ص 123، وخليفة ابن خياط ممن روى لهم البخاري في صحيحه.

(29) البلاذري، السابق، ص 309.

(30) هذا هو ما يرجحه أحمد عادل كمال، السابق، ص316.

(31) المقريزي، السابق، ص 444، وابن إياس، السابق، ص99، ويوحنا النقيوسي، ط بيشوي عبد المسيح، ص 203.

عنه - فتح الإسكندرية فكتب إلى عمرو بن العاص كتاباً جاء فيه: (أما بعد، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر (=الإسكندرية= استكمال الفتح).... وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نياتهم، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر وأعلمتك أن الرجل منهم بمقام ألف رجل على ما كنت أعرف إلا أن يكونوا غيّرهم ما غيّر غيرهم.

فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم ورغبهم في الصبر والنية، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس، ومر الناس جميعاً أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال من يوم الجمعة فإنها ساعة تنزل الرحمة ووقت الإجابة)[٣٢].

والرجال الأربعة هم: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مُخلَّد[٣٣]، كما ذكرنا من قبل.

فجمع عمرو الناس وقرأ عليهم كتاب عمر، ودعا أولئك النفر الأربعة فقدمهم أمام الناس، وأمر الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين ثم يرغبوا إلى الله ويسألوه النصر، ففعلوا، ففتح الله عليهم، وسقطت الإسكندرية في أيدي المسلمين.

قبل بدء القتال استشار عمرو مسلمة بن مخلد فيما يفعل، فدار بينهما الحوار التالي:

قال عمرو: إني رأيت أن هذا الأمر لا يُصلح آخره إلا من أصلح أوله.

قال مسلمة: تعني الأنصار؟.

قال عمرو: نعم

قال مسلمة: أرى أن تنظر إلى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتعقد له على الناس (أي تجعله قائداً لهذه المعركة) فيكون هو الذي يباشر القتال ويكفيك.

قال له عمرو: ومن ذلك؟

قال مسلمة: عبادة بن الصامت: فدعاه عمرو، وعقد له اللواء وولاه قتال الروم، فتقدم وصاف الروم، وقاتلهم قتالاً شديداً ففتح الله على المسلمين[٣٤].

ومن العجيب أن كتب التاريخ العربية والأجنبية لا تقص علينا شيئاً من تفاصيل المعركة التي قادها عبادة بن الصامت وانتهت بسقوط الإسكندرية، ولم يذكر أي كتاب مما رجعنا إليه كيف كانت (صدمة الرجل الواحد) التي لابد أن يكون قد نتج عنها شهداء، ولابد أن يكون قد قُتل فيها بعض قواد الروم، كل ذلك لا نعرفه، كأن المؤرخين وقفوا عند الأمر المهم وهو استكمال فتح مصر بفتح الإسكندرية. اهتموا بالفتح نفسه ولم يهتموا بعنصرية: الفاتحين المنتصرين، والمحتلين المنهزمين(!!)

أراد عمرو بن العاص إرسال معاوية بن حديج إلى عمر بن الخطاب يبشره بفتح الإسكندرية، فقال له معاوية: ألا تكتب لي كتاباً لأمير المؤمنين؟ قال عمرو: وما حاجتك إلى الكتاب ألست امرؤاً عربياً حضرت وشاهدت، وتعرف كيف تصف ما كان[٣٥]؟!

وصل معاوية إلى المدينة وقت الظهيرة، وفيه ينام الناس نومة القيلولة، فدخل المسجد وقعد فيه، فرأته جارية فسألته من هو فأخبرها، فأتت عمر بن الخطاب، وأخبرته بقدوم رسول من عند عمرو بن العاص، فدعاه وعرف منه الخبر، فأمر أن يؤذن في الناس أن الصلاة جامعة، فاجتمع أهل المدينة في المسجد وأخذ عمر بيد معاوية بن حديج وقال: له أخبر المسلمين بما أخبرتني به. فقص عليهم معاوية ما كان قد قاله لعمر من قبل.

دعا عمر بن الخطاب معاوية بن حديج إلى الغداء معه، يقول معاوية: فقال لجاريته هات الطعام، فجاءت بطبق فيه زيت وخل وطبق فيه كسر خبز، قال معاوية: فأكلت على استحياء، فجعل عمر يقول له: كل إن المسافر يحتاج إلى الأكل! فلو كنت آكلاً لأكلت معك، قال معاوية: قلت له: الحمد لله، فنادى جاريته وقال لها: هل من تمر؟ فأتت بتمر في طبق، فقال عمر: كل، قال معاوية: فأكلت على استحياء. ثم سأل عمر معاوية: ما قلت يا معاوية حين أتيت المسجد؟ قال: قلت أمير المؤمنين قائل (أي نائم). قال عمر: بئس ما ظننت (!) لئن نمت النهار لأضيعن الرعية، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية[٣٦]؟!

وأراد عمرو أن يتخذ الإسكندرية مقراً له، إذ رأى مساكنها فأعجبته، وقال لأصحابه: هذه مساكن كفيناها! فكتب إلى عمر يستأذنه في ذلك، فسأل عمر رسول عمرو إليه هل يحول بيني وبينكم ماء؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل (المقصود الفيضان في الغالب) فكتب عمر إلى عمرو (إني لا أحب أن تنزل المسلمين منزل يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف) فتحول عمرو إلى الفسطاط[٣٧].

ويقول أحمد عادل كمال: تلك كانت خطة عمر مع جميع عماله، كتب إلى سعد بن أبي قاص وهو نازل بمدائن كسرى، وإلى عامله بالبصرة عتبة بن غزوان[٣٨] (لا تجعلوا بيني وبينكم ماء، متى أردت أن أركب إليكم راحلتي حتى آتيكم فعلت). فتحول سعد من المدائن إلى الكوفة سنة ١٧هـ، وتحول عتبة من المكان الذي كان فيه فنزل البصرة. وهكذا فعل عمرو ابن العاص فنزل الفسطاط (!)

(يتبع)

(٣٢) ابن عبد الحكم، السابق، ص ١٠٢؛ المقريزي، السابق، ص ٤٤٦؛ أحمد عادل كمال، ص ٣٢٠.

(٣٣) ولا يصح أن يذكر هنا خارجة بن حذافة، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً؛ لأن الثابت أن عمرو بن العاص ولاه على ما كان تحت يده من أرض مصر عند مسيره إلى الإسكندرية، فهو لم يشهد فتح الإسكندرية أصلاً.

(٣٤) ابن عبد الحكم، السابق، ص ١٠٣.

(٣٥) ابن عبد الحكم، السابق، ص ١٠٥.

(٣٦) ابن عبد الحكم، المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٣٧) ابن عبد الحكم، السابق، ص١١٥؛ وأحمد عادل كمال، السابق، ص ٣٢٠.

(٣٨) عتبة بن غزوان صحابي جليل من السابقين الأولين، ومن الرماة المعدودين، شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من قادة جيوش الفتوح الإسلامية، وهو الذي اختط مدينة البصرة وأنشأها، توفي سنة ١٧هـ في طريقه من البصرة إلى المدينة، وقيل في طريقه من مكة إلى البصرة راجعاً إليها. راجع: الذهبي، السير، السابق، الترجمة رقم ٦١، ج١ ص ٣٠٤؛ وابن الأثير، أسد الغابة، السابق، الترجمة رقم ٣٥٥٠، ج٣ ص ٥٦٥. وستأتي ترجمة سعد بن أبي وقاص.

بنو إسرائيل في الكتاب والسنة



٤



للأستاذ الدكتور/ محمد سيد طنطاوى

تاريخ بنى إسرائيل منذ تأسيس مملكتهم سنة ١٠٩٥ ق.م إلى انقسامها سنة ٩٧٥ ق.م.

ملوك هذه الفترة من تاريخ بنى إسرائيل هم طالوت، وداود، وسليمان عليهم السلام.

وسيرتهم مذكورة فى الإصحاحات الحادى عشر فما بعد من سفر صموئيل الأول، وفى سفر صموئيل الثانى، ثم فى الإصحاحات الأول إلى الثانى عشر، من سفر الملوك الأول، وفى سفر أخبار الأيام الأول، والإصحاحات الأولى إلى العاشرة من أخبار الأيام الثانى.

وقد تأسست المملكة اليهودية حوالى سنة ١٠٩٥ ق.م، وكان أول ملك عليهم (طالوت) ويسمى عهده وعهد داود وسليمان - عليهما السلام - بعهد الملوك الأول الذى انتهى بوفاة سليمان - عليه السلام - حوالى سنة ٩٧٥ ق.م، أما ما تلا عهد سليمان - عليه السلام - إلى زوال مملكة بنى إسرائيل على يد بختنصر سنة ٥٨٦ ق.م، فيسمى بعهد الملوك الثانى.

وخلال حكم طالوت لبنى إسرائيل قادهم بشجاعة إلى كثير من المعارك التى دارت بينهم وبين الأمم الأخرى، فقد زحف بهم على الهمونيين الذين كانوا يسكنون فى شرق الأردن وانتصر عليهم.

ومن أشهر المعارك التى خاضها طالوت المعركة التى دارت بين بنى إسرائيل بقيادته وبين الفلسطينيين بقيادة (جليات) الذى يسميه القرآن الكريم (جالوت) وقد اشترك فى هذه المعركة داود - عليه السلام - وتولى بنفسه قتل جالوت.

وملخص هذه المعركة - كما جاءت فى الإصحاح السابع عشر من سفر صموئيل الأول - : «أن الفلسطينيين تجمعوا للأخذ بثأرهم من بنى إسرائيل: فتصدى لهم طالوت بجنوده، وبرز من بين الفلسطينيين (جالوت) وتحدى بنى إسرائيل أن يبازله أحد منهم وقال لهم: إن قدر أحد منكم أن يقتلنى يصير الفلسطينيون لكم عبيداً، وإن أنا قتلته تصيرون أنتم عبيداً لنا وارتاع (شاؤل) وبنو إسرائيل من هذا التحدى وانكمشوا عن الفارس الفلسطينى.. فبرز داود بعصاه ومقلاعه.. ورماه من مقلاعه بحجر فسقط (جالوت) على وجهه فسارع داود إليه وأخذ سيفه واحتز رأسه به.. ورأى الفلسطينيون أن جبارهم قد مات، فهربوا ولحقهم بنو إسرائيل ففتكوا بهم ونهبوا معسكرهم..»[1]

هذا، وفى صورة البقرة آيات كريمة، أشارت إلى قصة اختيار طالوت ملكاً على بنى إسرائيل، وإلى المعركة التى دارت بينهم وبين جالوت وجنوده وهذه الآيات هى قوله تعالى:

﴿ألم تر إلى الملإ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين﴾

ومعنى الآية الكريمة: قد علمت - يامحمد - علماً يقيناً خبر أولئك الملأ من بنى إسرائيل، الذين كان وجودهم بعد زمان موسى - عليه السلام - فإنهم قد اجتمعوا بعد أن تفككت وحدتهم، وتفرقت كلمتهم وقالوا لنبى لهم:

﴿ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله﴾ حتى ترد لنا عزتنا المسلوبة وأرضنا المغصوبة.. ولكن نبيهم الذى جربهم وعرف ضعفهم وخورهم، خالجه شعور الشك فى صدق قولهم فأجابهم بقوله - كما حكى القرآن الكريم عنه:

﴿قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا﴾ أى: هل الأمر كما أتوقعه منكم من أنكم تجبنون عن القتال معه؟ فالاستفهام لتقرير أن المتوقع كائن.

قال صاحب الكشاف: «والمعنى: هل قاربتم ألا تقاتلوا، يعنى: هل الأمر كما أتوقعه من أنكم لا تقاتلون، أراد أن يقول عسيتم ألا تقاتلوا بمعنى أتوقع جبنكم عن القتال فأدخل هل مستفهما عما هو متوقع عنده ومظنون، وأراد بالاستفهام التقرير وتثبيت أن المتوقع كائن، وأنه صائب فى توقعه»[2]

ثم حكى القرآن الكريم جوابهم على نبيهم فقال:

﴿قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾

أى: قال بنو إسرائيل لنبيهم نافين ما توقعه منهم من عدم القتال عند توجبه: وأى داع لنا إلى ترك القتال والحال أننا قد طردنا من ديارنا، وحيل بيننا وبين أبنائنا؟ ثم أخبر القرآن الكريم بعد ذلك أن نبيهم كان صادقاً فيما توقعه منهم من جبن وضعف، وأن الكلام الذى قالوه بألسنتهم لم تطبقه قلوبهم؛ لأنهم حين وجب عليهم القتال فروا منه، ولم يثبت مع قائدهم إلا القليل، قال تعالى:

(١) سفر صموئيل الأول الإصحاح السابع عشر، وقد ضربنا صفحاً عما ذكرته الأسفار عن هذه المعركة من خيالات.

(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص٢٩٢، طبعة دار الكتاب العربى - بيروت.

﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾

ثم حكى القرآن الكريم قصة اختيار طالوت ملكاً عليهم، واعتراضهم على ذلك فقال تعالى:

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾

أى: أن نبيهم أخبرهم بأن العليم الخبير بأحوالهم هو الذى اختار طالوت ليكون ملكاً عليهم فماذا كان موقفهم من هذا الاختيار؟ كان موقفهم كما حكى القرآن عنهم أنهم قالوا:

﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ﴾

أى قال بنو إسرائيل لنبيهم منكرين ومستبعدين اختيار طالوت ملكا عليهم: كيف يكون ملكاً علينا، والحال أننا أحق بالملك منه لأننا أشرف منه نسباً، وفضلا عن هذا فهو فقير لا يملك ما نملك من المال؟! فهم لانعدام المقاييس الصحيحة عندهم، ظنوا أن سبب الملك، النسب وكثرة المال بصرف النظر عن الكفاءة العقلية، والقوة البدنية.

قال الإمام ابن كثير[3]: «كان طالوت رجلا من أجنادهم، ولم يكن من بيت الملك فيهم؛ لأن الملك كان فى سبط يهوذا، ولم يكن طالوت من ذلك السبط فلهذا قالوا:

﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾

وقد رد عليهم نبيهم - كما حكى القرآن عنه - رداً قويا حازما فقال لهم:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

أى. أن الله هو الذى اختاره لكم واختيار الله لا يجوز الاعتراض عليه، ومع هذا فقد زاده الله - تعالى - عليكم سعة فى العلم والجسم، فهو أعظمكم جميعا من حيث سعة العلم، وقوة الجسم، ومن توفر فيه ذلك فهو أولى الناس بأعلى المناصب من صاحب النسب أو المال دون أن يكون عنده سعة فى العلم أو قوة فى البدن.

ثم ختمت الآية ببيان أن الأمور كلها بيد الله وأن كل شيء فى الوجود تحت سلطانه، فقال:

﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

ثم حكى القرآن الكريم[4] - أن نبيهم أخبرهم بأن طالوت سيأتيهم بعلامة تدل على صلاحيته للملك، لكى تثبت نفوسهم، وتطمئن قلوبهم فقال تعالى:

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

أى: قال لهم نبيهم - ليقنعهم بأن طالوت جدير

(٣) تفسير ابن كثير جـ١ ص١ ٣٠١ طبعة عيسى الحلبى.

(٤) التابوت صندوق التوراة، من التوب وهو الرجوع، وتاؤه مزيدة لغير التأنيث كجبروت. السكينة: من السكون وهو ثبوت الشىء بعد التحرك، أو من السكن - بالتحريك - وهو كل ما سكنت إليه النفس.

بالملك عليهم - أن علامة بركة ملك طالوت عليكم

﴿ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ ﴾

أى أن يرد عليكم التابوت - وهو صندوق التوراة الذى كان أخذ منكم:

﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

أى: فى إتيانه إليكم ورده عليكم سكون لكم وطمأنينة ورحمة لكم من ربكم، أو المعنى: فى التابوت ذاته وبداخله ما تسكنون إليه وتطمئنون وهو التوراة.

﴿ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ ﴾

أى: ويأتيكم ببعض الأشياء التى تركها آل موسى وآل هارون.

قال صاحب الكشاف: (وبقية) هى رضاض الألواح وعصا موسى وثيابه وشىء من التوراة، وكان رفعه الله - تعالى - بعد موسى - عليه السلام - فنزلت به الملائكة تحمله وهم ينظرون إليه، فكان ذلك آية لاصطفاء الله طالوت، وقيل: كان مع موسى ومع أنبياء بنى إسرائيل بعده يستفتحون به، فلما غيرت بنو إسرائيل غلبهم عليه الكفار فكان فى أرض جالوت، فلما أراد الله أن يملك طالوت أصاب جالوت وقومه ببلاء حتى هلكت خمس مدائن فقالوا هذا سبب التابوت بين أظهرنا، فوضعوه على ثورين فساقتهما الملائكة إلى طالوت، فإن قلت: من:

﴿ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ ﴾

قلت: الأنبياء من بنى يعقوب بعدهما لأن عمران - والد موسى - هو ابن فاهث بن لاوى بن يعقوب. فكان أولاد يعقوب آلهما. ويجوز أن يراد مما تركه موسى وهارون والآل مقحم لتفخيم شأنهما»[5].

﴿ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾

قال ابن جريج، قال ابن عباس: «جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدى طالوت والناس ينظرون[6]».

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾

الذى يأتيكم به طالوت

﴿ لَآيَةً ﴾

لدلالة وعلامة على صدقه فيما أخبرتكم به:

﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

واليوم الآخر.

ثم بين - سبحانه - مادار بين طالوت وجنوده بعد أن خرج بهم للقتال[7] فقال تعالى:

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ ﴾

أى: انفصل عن المكان الذى كان يقيم فيه مع بنى إسرائيل، وخرج بهم من بيت المقدس لقتال جالوت وجنوده.

﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ ﴾

أى: مختبركم وممتحنكم بنهر فى طريقكم لقتال أعدائكم.

(٥) تفسير الكشاف جـ١ ص٢٩٣، طبعة دار الكتاب العربى ببيروت.

(٦) تفسير ابن كثير جـ١ ص١ ٣٠، طبعة عيس الحلبى.

(٧) فصل عن موضع كذا إذا انفصل عنه وجاوزه، وأصله فصل نفسه ثم كثر محذوف المفعول حتى صار فى حكم غير المتعدى كانفصل إفادة صاحب الكشاف جـ١ ص٢٩٤.

﴿ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ ﴾

أى: من هذا النهر

﴿ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾

أى: ليس من شيعتى، فعليه أن يتركنى ولا يصاحبنى فى خوض هذه المعركة.

﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾

أى: ومن لم يذقه أصلا ولم يكرع منه فإنه من شيعتى وحزبى الذين يكونون معى فى قتال جالوت وجنوده.

﴿ إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾

فلا بأس عليه من ذلك فإنه مرخص لكم فى الأخذ باليد دون الكرع.

فماذا كان من موقف بنى إسرائيل من هذا الأمر الذى كلفهم به قائدهم؟ كان موقفهم أن الكثيرين منهم خالفوا أمر قائدهم، وكرعوا من النهر حتى امتلأت بطونهم وفى ذلك يقول الله تعالى:

﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

لم يشربوا طاعة لقائدهم.

ثم بين - سبحانه - ما أصاب الذين كانوا مع طالوت من فزع عندما شاهدوا جالوت وجنوده وما قاله لهم المخلصون منهم فقال تعالى:

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

أى: فلما جاوز طالوت ومن معه النهر، وشاهدوا كثرة جند جالوت، قال من مع طالوت لبعضهم، لا قدرة لنا اليوم على قتال جالوت وقومه، ولكن المؤمنين المخلصين منهم الذين تيقنوا لقاء الله وتوقعوا ثوابه قالوا لهم - مشجعين ومثبتين - لا تخافوا ولا تجزعوا فكم من جماعة صغيرة غلبت أخرى كبيرة بإذن الله، والله مع الصابرين يؤيدهم بنصره، ويجعل العاقبة لهم رغم كثرة أعدائهم.

ثم بين - سبحانه - ما قاله المؤمنون المخلصون عند لقائهم لأعدائهم فقال تعالى:

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾

أى أفض علينا صبراً وأنزله علينا من عندك

﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾

أى: وامنحنا الثبات عند لقاء أعدائنا وأعدائك، وجنبنا الفرار والعجز وانصرنا على القوم الكافرين.

فماذا كانت ثمرة هذه الدعوات المخلصة؟ كانت ثمرتها أن نصر الله القلة المؤمنة بقيادة طالوت، على الكثرة الكافرة بقيادة جالوت، وفى هذا يقول الله تعالى:

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

أى فغلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم:

﴿ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾

أى، وآتى الله داود مُلك بنى إسرائيل، وآتاه الحكمة أى النبوة، وعلمه مما يشاء من أنواع العلوم المختلفة؛ لأن قوله تعالى:

﴿ مِمَّا يَشَاءُ ﴾

يشير إلى سعة العلم الذى منحه الله لداود - عليه السلام - وأنه كثير متشعب لا تحده إلا مشيئة الله وإرادته.

ثم قال تعالى:

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾

أى: لولا أن الله - تعالى - يدفع بعض الناس ببعضهم، وينصر المسلمين على الكفار، ويكف بهم فسادهم، لفسدت الأرض؛ لأن الأشرار إن تركوا يعيثون فى الأرض فسادا عم الشؤم والدمار، ولذا لم يتركهم يعيثون فى الأرض، بل أخذهم فى الوقت الذى يشاؤه أخذ عزيز مقتدر.

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الهادية لكل متبصر معتبر، ببيان أنها من عند الله، وإنه - سبحانه - أنزلها بالحق الكامل، على محمد صلى الله عليه وسلم رسوله ونبيه، فقال تعالى:

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾

أى: هذه آيات الله التى قصصناها عليك - يامحمد - فى شأن بنى إسرائيل وأحوالهم نتلوها عليك بالحق الذى لا باطل معه، لكى يفيء الضالون إلى الرشاد والفلاح، فيتبعوك ويصدقوك، وإنك - يامحمد - لمن المرسلين، الذين أرسلهم الله لإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

هذه هى قصة تولية طالوت الملك، على بنى إسرائيل، وحربهم لجالوت وجنوده، ساقها القرآن الكريم بأسلوبه البليغ وأن فيها لعبراً كثيرة (فهى تشير إلى الشدة كيف تصهر النفوس فتجعلها تتجه إلى المعالى فتطلبها، وكيف يكون الدين أساس العزة لمن غلبت عليهم الشقوة، وإنه لا سلطان من غير إمرة يعمل تحت سلطانها البر ويزجر بها الفاجر، وأن الأمير يجب أن يكون له من قوة العقل، وقوة الجسم، وسعة العلم وكمال التجربة ما يقود به الشعب إلى صالح الأمور، وأن أساس الانتصار السيطرة على النفس فلا يغلب خصمه من لا يغلب نفسه، ولا يقمع عدوه من لا يقمع شهوته، وأنه بعد أخذ الأهبة يفوض المجاهد أمره إلى الله - تعالى - ويتوكل عليه)(٨).

ننتقل بعد ذلك إلى الكلام عما حصل بين طالوت وداود - عليه السلام - بعد تلك المعركة التى قتل فيها داود جالوت فنقول:

تذكر بعض أسفار التوراة أن داود - عليه السلام - بعد قتله لجالوت ملأ أعين الناس وأذهانهم وقلوبهم، وأخذوا يتقربون منه، وأن طالوت زوجه ابنته (ميكال) وجعله قائدا لرجال حربه، وأن صداقة قوية ربطت بين داود - عليه السلام - وبين (يوناثان) ابن طالوت. ثم تذكر بعد ذلك أن نزاعا وقع بين طالوت وداود، أدى هذا النزاع إلى أن داود - عليه السلام - ترك طالوت وهاجر إلى أرض الفلسطينيين.. ثم تذكر أن الفلسطينيين انتهزوا فرصة عدم وجود داود بجانب طالوت، فعاودوا الغارات على بنى إسرائيل، وانتهت هذه الغارات بمقتل طالوت ومقتل بعض أبنائه، وهزيمة الإسرائيليين شر هزيمة(٩).

وبقى - طالوت - ملكا إلى يوم قتله، فحكمه

(٨) مقتبس من تفسير الآيات الكريمة لفضيلة أستاذنا الشيخ محمد أبى زهرة بمجلة لواء الإسلام، العدد الثانى، السنة السابعة.

(٩) سفر صموئيل الأول من الإصحاح الثامن عشر إلى الإصحاح السادس والعشرين، وقد ذكرت هذه الإصحاحات حكايات عن حقد طالوت على داود عليه السلام - ومحاولته قتله أكثر من مرة. وقد رأينا أن نترك هذه الخيالات لإيماننا بأنها لا تليق أن يتصف بها رجل نعته الله - تعالى - بأنه اصطفاه على بنى إسرائيل وزاده بسطة فى العلم والجسم.

منفرداً دام سنتين فقط.(١٠)

وبعد موت طالوت تولى ملك بني إسرائيل داود(١١) - عليه السلام - وقد دام ملكه عليهم حوالى أربعين سنة، في السبعة الأولى منها كانت عاصمة ملكه (حبرون)(١٢)، أما في المدة الباقية فكانت عاصمة ملكه (أورشليم).(١٣)

وفي عهد داود - عليه السلام - قامت حروب كثيرة بين بني إسرائيل وغيرهم من الأمم، ومن بين الأمم التي حاربوها اليبوسيون الذين كانوا يسكنون مدينة القدس (أورشليم) فقد حاربهم داود - عليه السلام - وطردهم منها وجعلها عاصمة ملكه. وتمكن من السيطرة على - حصن صهيون وسماه باسمه، فأطلق عليه (حصن داود) وكان هذا الحصن عبارة عن قلعة قائمة على تلال أو ربوة عالية وسط أورشليم.(١٤)

وفي عهد داود - عليه السلام - عم الرخاء مملكته، واتسع نشاطها الاقتصادي مع الأمم الأخرى، وكانت لها الغلبة على ما حولها من الشعوب والممالك في شرق الأردن وغربه.

ويرى بعض الكاتبين «أن عهد داود - عليه السلام - قد تقلب على حالات متنوعة فكان مضطربا في أوله ثم استقام، واستطاع داود - عليه السلام - التغلب على ما حوله من الشعوب.. ، ثم عاد فاضطرب وظل مضطرباً إلى آخر أيامه. وقد تمكن الفلسطينيون في حقبة الوهن والاضطراب من التفلت من سيادة داود - عليه السلام - واستؤنف القتال بينهم وبين بني إسرائيل وإن لم يصل إلى نتيجة حاسمة.(١٥)

وقد تولى ملك بني إسرائيل بعد داود، ابنه سليمان(١٦) - عليهما السلام - ودام ملكه زهاء أربعين سنة، وكان عهده يمتاز بالاستقرار والرخاء.

ويصف صاحب تاريخ الإسرائيليين عهد سليمان - عليه السلام - فيقول:

(وفي عصره اعتز شأن الإسرائيليين.. وهابتهم الأمم المجاورة لهم، وتزوج سليمان - عليه السلام - ابنة فرعون، وعقد معاهدة مع حيرام ملك صور، وبنى هيكله المشهور فاستجلب مشاهير الصناع والبنائين والنحاتين، وأرسل سفنه في الآفاق تجوب البحار فبلغت جنوب أسبانيا. وانتشر صيت سليمان في جميع الممالك والبلدان وسارت بحكمته الركبان. وجاءته ملكة سبأ من أقاصي اليمن لتختبر حكمته - فرأت منه ما أذهلها.. وكانت مدة حكمه أربعين سنة، ذاق فيها الإسرائيليون الهناء والرخاء.. ورزقوا السعد، حتى إن عصره ليحسب العصر الذهبي لأمتهم.. وتقدمت الصناعات تقدماً عظيماً بما شاد سليمان من المباني الفاخرة، كالهيكل والقصر والمدن الكثيرة، والمعاقل والحصون..»(١٧)

(١٠) تاريخ الإسرائيليين لشاهين مكاريوس ص٣١ طبعة دار المقتطف سنة ١٩٠٤.

(١١) هو داود بن يسى ولد ببيت لحم حوالى سنة ١٠٨٥ق.م وتوفى بأورشليم سنة ١٠١٥ق.م.

(١٢) حبرون: هي مدينة الخليل الآن.

(١٣) أورشليم: هي القدس ومعناها مدينة السلام.

(١٤) عن الصهيونية العالمية وأرض الميعاد للأستاذ علي إمام عطية ص٦٤.

(١٥) تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم للأستاذ محمد عزة دروزة ص١١٢.

(١٦) ولد سليمان في أورشليم حوالى سنة ١٠٤٣ق.م وتوفى حوالى سنة ٩٧٥ق.م.

(١٧) تاريخ الإسرائيليين لشاهين مكاريوس ص٢٥.

ومع أن صاحب تاريخ الإسرائيليين يصف عهد سليمان - عليه السلام - هذا الوصف، فإننا نجد أسفار التوراة تلصق بسليمان - عليه السلام - كثيراً من الأعمال التي ننزهه عنها، فمثلا يذكر الإصحاح الثاني من سفر الملوك الأول: «أن سليمان افتتح حكمه بقتل أخيه (أدونيا) بحجة طلبه الزواج من سرية أبيه، ثم قتل (يؤاب) رئيس جيش أبيه، وعزل (أبياثار) الكاهن الأكبر لتحزبهما..»(١٨)

ونجد الأستاذ محمد عزة دروزة يقول: «وإذا أردنا كذلك أن نجمل عهد سليمان - عليه السلام - بكلمة، فمن الحق أن نقول: إن سلطانه لم يتجاوز أرض كنعان - غرب الأردن - وأن عهده كان أكثر استقراراً وهدوءاً وأقل مشاكل من عهد أبيه، وإن لم يخل هو الآخر من مشاكل ومزعجات داخلية وخارجية»(١٩)

ونجد صاحب كتاب (معالم تاريخ الإنسانية) يقول: «إن قصة ملك سليمان وحكمته التي أوردها الكتاب المقدس، تعرضت لحشو وإضافات على نطاق واسع. وقد أسهب سفر الملوك الأول في تصوير مجد سليمان وأبهته وفخامته، ولكن الحق إذا قيست منشآت سليمان بمنشآت (تحتمس الثالث)، أو (رمسيس الثاني) أو (نبوخذ نصر)، فإن منشآت سليمان تبدو من التوافه والهينات، وكانت مملكة سليمان رهينة تتجاذبها مصر وفينيقيا»(٢٠)



غوستاف لوبون

ونجد (غوستاف لوبون) يقول: «لا ينبغي لنا أن نتحدث عن وجود شيء من فن النحت أو التصوير لدى بني إسرائيل، وقل مثل هذا عن فن البناء عندهم، فانظر إلى هيكلهم المشهور (هيكل سليمان) الذي نشر حوله كثير من الأبحاث المملة، نجده بناء أقيم على الطراز الآشوري المصري من قبل بنائين من الأجانب كما تدل عليه التوراة، ولم تكن قصور سليمان غير نسخ رديئة للقصور المصرية أو الآشورية»(٢١)

والذي نراه بعد سردنا لهذه النصوص أن عهد داود وسليمان - عليهما السلام - يعتبر العهد الذهبي لبني إسرائيل، وأنهم في عهدهما تمتعوا بالرخاء والاستقرار وعلو الشأن.. وتاريخهم سوى هذا العهد يعتبر سلسلة من المآسي والنكبات والضربات التي نزلت بهم من الأمم الأخرى بسبب إفسادهم في الأرض، ونحن ننزه داود وسليمان - عليهما السلام - عن كل ما نسبته أسفار التوراة أو كتب التاريخ إليهما من جور أو ظلم.

فهما نبيان كريمان معصومان من ارتكاب ما نهى الله عنه.

هذا، وقد ورد ذكر داود وسليمان - عليهما السلام - في آيات كثيرة من القرآن الكريم، ومعظم

(١٨) سفر الملوك الأول/ الإصحاح الثاني.

(١٩) تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم للأستاذ محمد عزة دروزة ص١٢٣.

(٢٠) كتاب (معالم تاريخ الإنسانية) للكاتب (ولز) نقلا عن كتاب (اليهودية) للدكتور أحمد شلبي ص٥٩.

(٢١) عن كتاب (اليهود في الحضارات الأولى) لغوستاف لوبون ص٤٥.

هذه الآيات يصور وافر النعم التى أسبغها الله عليهما، ومن ذلك قوله تعالى فى سورة الأنبياء:

﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾

ومعنى الآيات الكريمة: واذكر - يامحمد - للناس قصة داود وسليمان - عليهما السلام:

﴿ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ ﴾

أى: إذ يحكمان فى الزرع. قيل كان عنبا قد تدلت عناقيده.

﴿ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ﴾

أى تفرقت وانتشرت فيه ليلا بلا راع فرعته وأفسدته، يقال: نفشت الغنم والإبل، أى رعت ليلا بلا راع.

﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾

مطلعين على حكمهم

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾

أى: ففهمنا سليمان الحكومة.

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات ما ملخصه:

«إن غنما لبعض الناس رعت زرعا لأناس آخرين فأعطى داود - عليه السلام - رقاب الغنم لأصحاب الزرع، فخرجوا من عنده ومروا بسليمان فقال لهم: كيف قضى بينكم؟ فأخبروه بكيفية قضائه بينهم، فقال سليمان: لو وليت أمركما لقضيت بغير هذا، أو قال غير هذا أرفق بالفريقين فبلغ ذلك داود - عليه السلام - فدعاه وقال له: كيف تقضى؟ قال: أدفع الغنم إلى صاحب الحرث ينتفع بدرها ونسلها وصوفها ومنافعها، ويزرع صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه، فإذا صار الحرث كهيئته يوم أكل دفع إلى صاحبه وأخذ صاحب الغنم غنمه، فقال داود: القضاء ما قضيت وحكم بذلك»[٢٢]

ولما كان قوله تعالى:

﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾

قد يسىء السامع فهمه ويخطىء فيه وجه الصواب، فيظن أن داود - عليه السلام - لم يكن عنده الاستعداد الكامل للحكم عقبه بقوله:

﴿ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾

أى: كلا من داود وسليمان أعطاه الله - تعالى - مقدرة على الحكم بين الناس، وعلماً يرشده إلى طريقه الصحيح.

ثم قال تعالى:

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾

(٢٢) تفسير ابن كثير جـ٣ ص١٨٦ طبعة الحلبى.


حسنين مخلوف

أى: وسخرنا مع داود الجبال والطير يقدسن الله - تعالى - معه، إما بصوت الحال أو بصوت يتمثل له، أو يخلق الله - تعالى - فيه الكلام بحيث يفهمه داود وحده.

قال فضيلة الشيخ حسنين مخلوف: وهو من المعجزات، كما سبح الحصا فى كف رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعه الناس معجزة له وهو كقوله تعالى:

﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾

وقوله تعالى:

﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾

معناه: كنا فاعلين لذلك التسخير، فليس ببدع ولا عجيب، وإن كان عجباً عندكم.

ثم بين الله - تعالى - نعماً أخرى أفاضها على داود - عليه السلام - فقال تعالى:

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ ﴾

أى: علمناه عمل الدروع وأصل اللبوس كل ما يلبس.

ثم بين - سبحانه - الغاية من هذا التعليم فقال:

﴿ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾

أى: لتحفظكم اللبوس من بأسكم إذا وقعتم فى حرب:

﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾

فضل الله عليكم بهذا التعليم؟ والمراد بالاستفهام هنا الأمر أى اشكروا الله على هذه النعم، وسيق فى صورة الاستفهام للمبالغة فى الحث على الشكر.

ثم بين - سبحانه - بعض ما أنعم به على سليمان فقال تعالى:

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾

أى: شديده الهبوب

﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ ﴾

كما يريد على قوتها وشدتها

﴿ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾

وهى أرض الشام.

﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾

بصحة التدبير فيه، فنجريه على ما تقضيه حكمتنا وإرادتنا.

﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ ﴾

أى: ومن الشياطين من يغصون لسليمان فى البحر لاستخراج اللؤلؤ والمرجان

﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ﴾

أى: ويعملون له أعمالا أخرى سوى الغوص فى البحار، كبناء المحاريب والتماثيل والقصور والقدور

﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾

عن أن يزيغوا عن أمره ويخرجوا عن طاعته.

هذه بعض الآيات التى تحدثت عن النعم التى أنعم الله بها على داود وسليمان - عليهما السلام - ذكرناها بمناسبة حديثنا عن عهدهما الذى يعتبر العهد الذهبى لبنى إسرائيل، وفى القرآن الكريم آيات أخرى كثيرة تحدثت عما أفاضه الله من نعم على هذين النبيين الكريمين.

من فتاوى الحاخامات (*)



عنوان الفتوى:

هل يمكن أن تكون هناك نفس يهودية؟

مصدر الفتوى: WWW.daatermet.org.il، ٢٠٠٦/٧/٢٦.

فتوى من: هيئة تحرير الموقع

سؤال:

مؤخراً، بعد عودة أحد أصدقائى للدين «توبته»، وجدت الكثير من الاختلافات الروحانية المذهلة بين اليهود وسائر البشر، ومن الاختلافات الشائعة أن اليهود يتمتعون بخصوصية النفس.

وبعد ذلك جالت فى خاطرى بضعة تساؤلات.

ما معنى أن لليهودى نفساً وللأغيار روحاً فقط ؟

هل يعنى ذلك «اقتراباً» روحانياً للرب ؟

هل هذه إضافة للمقولة الدينية: على صورة الرب خلقه وبهذا يستبدلون خلق الإنسان بخلق اليهودى ؟ ما المصدر الذى استمدوا منه أن اليهود وحدهم هم الذين يتمتعون بخصوصية النفس؟

جواب:

النظرية الرئيسية والأساسية التى تستند إليها اليهودية الدينية هى: حادثة تجلى الرب للشعب اليهودى «المختار» فوق جبل سيناء، ومن هذه العقيدة تنبع نظرية أن الشعب اليهودى يختلف عن باقى البشر، ولذلك، لماذا يتجلى الرب لليهود فقط لو لم يكونوا مختلفين عن باقى البشر؟

ومن هذا المنطلق، توصل الحاخام شمعون بار يوحاى إلى الاستنتاج العنصرى الآتى:

أنتم (أيها اليهود) تسمون بشراً أما الأغيار فلا يسمون بشراً. (أحكام الزواج ١ / ١).

للاستزادة راجع مقالاتنا: الشعب اليهودى هو الشعب المختار وللتخفيف على القراء نأتى ببضعة اقتباسات من المقال: النظرية التى تقول بأن الشعب اليهودى هو الشعب المختار أخذ بها كل الحاخامات، كما ورد فى الكتب المقدسة بشكل عام والتوراة بشكل خاص. هذه العقيدة تؤدى إلى استنتاج واحد ووحيد، وهو أن الشعب اليهودى أفضل وأسمى من سائر أمم العالم وهو استنتاج عنصرى يثير كل نفس متزنة ويصطدم بأنصار المساواة.

ولذلك لا تتعجب عندما تقرأ الأقوال العنصرية التى تثير الغضب للحاخام.

يهودا هاليفى فى كتابه «الخزرى» (مقال ٥ / ٢٠): الشىء الأدنى فى البهيمة أعلى درجة من الشىء السامى فى النبات، والشئ الأدنى فى الإنسان أعلى درجة من الشىء السامى فى البهيمة، وكذلك الشىء الأدنى فى أبناء توراة الرب (اليهود) أعلى درجة من الشىء السامى عند الشعوب (الأغيار) التى ليس لديها توراة الرب، لأن التوراة التى أعطاها الرب تمنح الأنفس عادات الملائكة وصفاتهم.

ويضاف إلى ذلك أقوال الحاخام أفراهام يتسحاق كوك فى كتاب «أضواء إسرائيل» (٥ / ١٠): الفرق بين النفس اليهودية، وبين أنفس الأغيار جميعاً، على اختلاف مستوياتهم، أعظم وأعمق من الفرق بين النفس البشرية والنفس الحيوانية، لأنه لا يوجد بين الإنسان والبهيمة إلا فرق كمى، ولكن بين اليهود والأغيار يسود فرق ذاتى ونوعى، وهناك الكثير من مثل هذه الأقوال فى الأدب الدينى.

تصل الأمور إلى حد أنه من الضرورى تسجيل الفرق الجوهرى بين اليهود والأغيار على أجسادهم منذ ولادتهم وهم أطفال رضع، وفقاً لوجهة نظر رجال الدين اليهودى، وقد ورد فى كتاب التعليم، الوصية الثانية، فى تفسير وصية الختان: من جذور هذه الوصية كما أراد الله تبارك اسمه أن يضع علامة على أجساد الشعب الذى يسمى باسمه، لتمييزهم عن باقى الشعوب من حيث شكل الجسد، بنفس تميزهم عنهم من حيث النفس والأصل والمنبع وأهم اختلاف هو (العضو الذكرى) الذى يعتبر سبب وجود الجنس البشرى.. فضلاً عن أنه يكمل شكل الجسد، كما أسلفنا، والرب تبارك اسمه يرغب فى أن تكون كل صفات الشعب المختار كاملة.

أنت ترى أن النظرية الحاخامية هى نظرية عنصرية شديدة الخطورة، حيث يختلف الشعب المختار عن باقى شعوب العالم بواسطة وضع علامة فى جسده «لاختلاف الأصل والمنبع» عن باقى الشعوب وذلك لاكتمال صفاته وكماله الجسدى.

(*) د. منصور عبدالوهاب، فتاوى الحاخامات، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١٠

قصص الأنبياء

هود عليه السلام
وشأنه مع قبيلة عاد

للعلامة الشيخ/ عبدالوهاب النجار

ذكر هود فى القرآن الكريم سبع مرات. فذكر فى سورة الأعراف فى الآية ٦٥ وفى سورة هود فى الآيات ٥٠، ٥٣، ٥٨،، ٦٠، ٨٩ وفى سورة الشعراء فى الآية ١٢٤.

واعلموا - وفقنى الله وإياكم - أن عاداً لم تذكر فى كتاب من الكتب المقدسة سوى القرآن الكريم؛ وليس بيد أحد من الناس من أخبارهم ما يوثق به ويصح التعويل عليه، سوى القرآن وحده، فقد ذكر مساكنهم وأحوالهم وجسامة أجسامهم وقوتهم وما كانوا ناعمين فيه من خصب ورغد عيش، وما استمسكوا به من الكفر والأوثان وعتوهم وفسادهم فى الأرض وتماديهم فى الاستمساك بعباداتهم الباطلة وما بذل هود فى سبيل هدايتهم وردهم عن فاسد اعتقادهم، وما قابلوه به من العناد والسخرية والاستهزاء إلى أن تأذن الله بهلاكهم.

فعلى ضوء ما جاء فى القرآن الكريم نقص قصصهم مع هود رسول الله صلى الله عليه وسلم. وما جاء فى أثناء القصة مما لا يدل عليه القرآن الكريم فليس يبلغ الشىء القطعى ولا الشىء المؤرخ المأخوذ عن المصادر ذات القيمة التى سجلها التاريخ؛ وإنما هى آثار أثرت عن بعض أهل العلم. هى دون التاريخ.

أما «عاد» فهو اسم لأبى القبيلة وقد اشتهر أنه اسم عربى، ويقول سيبويه: إنه أعجمى، إذ يقال إن أول من نطق بالعربية «يعرب». وعن ابن عباس أن هوداً أول من نطق بالعربية؛ ولكنا إذا قدرنا صحة ما يقال من أن العرب إنما سموا عرباً لأنهم سكنوا غربى الفرات، فكانوا بادية الآراميين، وأن الأمم التى أطلقت عليها اسم «عرب» إنما تنطق الغين المعجمة عينا مهملة، وأن قبيلة عاد وغيرهم من العمالقة وسواهم هم الذين ينطبق عليهم هذا الاسم حكمنا بأنه عربى كما هو المشهور(١).

ويقال إن هوداً هو ابن شالح بن ارفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، وعلى هذا الرأى محمد بن اسحاق وبعض القائلين بهذا يقولون إن هود ابن عم أبى عاد، وقيل ابن عوص ابن أرم بن سام بن نوح، وقيل عبدالله بن رباح بن الخلود بن عوص بن أرم بن سام.

وهاكم عمود النسب لكل من هود وإبراهيم عليهما السلام.

	نوح	
أرم	سام	ارفخشذ
عوص		شالح
عاد		عابر
الخلود		فالج
رباح		رعو
عبدالله		سروج
هود		ناحور
		تارح
		إبراهيم

وإذا قارنا بين نسب هود وإبراهيم عليهما السلام وجدنا هذا النسب أقرب إلى القبول من غيره؛ إذ بين هود وسام ستة أشخاص على عمود النسب، وبين إبراهيم وسام ثمانية أشخاص على عمود النسب. والمشهور من أقوال من يعرضون للكلام عن عاد أنهم بادوا بعد وجود إبراهيم وبناء البيت بمكة. ومن المحتمل أن عاداً كانوا أطول أعماراً كما كانوا أكبر أجساما. وأما من يقول إن هوداً هو ابن عوص بن أرم فقد أبعد فى الشطط؛ إذ فى هذه الفترة القصيرة من الزمن يعد كل البعد أن يتوالد لأرم قبيلة كبيرة ضخمة تعمر الأرض وتعتز بقوتها بالحال التى كانت عليها عاد؛ فقد كانوا أهل زرع وضرع وعمروا البلاد وأذلوا العباد؛ كما يشهد بذلك قول هود لهم:

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾

(الشعراء: ١٢٨-١٣٤)

مساكن عاد

كانت مساكن عاد فى أرض الأحقاف، وهى تقع فى شمال حضر موت، وفى شمالها الربع الخالى، وفى شرقها عمان، وموضع بلادهم اليوم رمال ليس بها أنيس بعد ذلك العمران والنعيم المقيم، ولم يعرض أحد من الأوروبيين الباحثين والمنقبين إلى الكشف عن بلادهم والتنقيب فى أرضهم؛ ولعل تحت الرمال من الثروة العلمية ما لو كشف لكان عظيم القيمة فى عالم الآثار وأبان عن مدينة عظيمة مطمورة تحت تلك الكثبان وقد أخبرنى السيد عبدالله بن أحمد بن عمر بن يحيى العلوى من أهل حضرموت أنه قام فى جماعة إلى إحدى المدن البائدة فى شمال حضرموت ونقب

(١) يرى صاحبنا الدكتور اسرائيل ولفنسون أن لفظ عبرى وعربى شىء واحد من العبور وهو الارتحال، حصل فيه قلب مكانى فصار لفظ عبرى عربى.

فيها وعثر على بعض الآنية من المرمر عليها كتابة بالخط المسمارى؛ ثم ترك التنقيب لمضايقة البدو له وإثقال كاهله بالمطالب المالية.

عبادتهم

كان قوم هود أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله تعالى: ضاهوا فى عبادتها قوم نوح حين عبدوا ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا. وفى أثر مروى عن ابن عباس أنهم اتخذوا صنماً يقال له صمود وصنما يقال له الهتار؛ فبعث الله إليهم هوداً. وكان هود من قبيلة يقال لها الخلود، وكان من أوسطهم نسباً وأصبحهم وجهاً، وكان فى مثل أجسادهم أبيض بادى العنفقة طويل اللحية، فدعاهم إلى عبادة الله وأمرهم أن يوحدوه وأن يكفوا عن ظلم الناس فأبوا ذلك وكذبوه وقالوا: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾

٤٩٧ ج ٨ تفسير المنار.

كان هود عليه الصلاة والسلام ينذر قومه ويحذرهم بأس الله ويضرب لهم المثل بقوم نوح ويذكرهم بنعم الله تعالى عليهم: إذ زادهم فى الخلق بسطة وجعلهم خلفاء من بعد قوم نوح، وبوأهم أرضاً تدر عليهم الخير وتخرج لهم الزرع الذى يعيشون منه، وتنبت الكلأ الذى ترعى فيه ماشيتهم، وأن عليهم أن يستعملوا عقولهم ليتبينوا أن ما يعبدون من دون الله لا يضرهم ولا ينفعهم، وأن الذى يضر وينفع إنما هو الله تعالى الذى أغدق عليهم نعمه، وهو الذى خلقهم وبيده مماتهم؛ وأن الواجب عليهم أن يتقوه ويتوبوا إليه، وأن يستغفروه لما فرط منهم من إشراك غيره معه فى العبادة، وأنهم إذا تابوا إليه واستغفروه لما أسلفوا من آثام فإنه يرسل المطر عليهم متتابعاً من غير أن يصحب نزوله ضرر، ويزيدهم عزاً إلى عزهم.

وكان هود يبين لهم أنه لا يطلب على نصيحته لهم أجراً يأخذه منهم، أو رياسة يتزعم بها بينهم، وأنه لا يطلب الأجر على ذلك إلا من الله تعالى. ومن كان كذلك يكون أبعد عن التهمة، إذ هو لا يجر لنفسه من وراء ذلك نفعاً ولا يبغى لها فائدة من أتاوة يفرضها أو زعامة يتولاها.

كان فى ملأ عاد ناس قد عتوا ورأوا كبيرا على أنفسهم أن يصدوا عن أى مراد يريدونه، كما كان منهم مؤمنون، إلا أن شقوة أهل الكفر والعتو قد غلبت عليهم وكانوا الجمهور الأعظم، فسفهوا هوداً وكذبوه، وتجاهلوا الحجج الناصعة والبراهين القاطعة التى أقامها على صدقه. وقالوا له:

﴿ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

إنك مرسل من الله وأن آلهتنا التى تنهانا عن عبادتها لا تشفع لنا عند الله، ورموه بالسفاهة والخروج عن السبيل السوى بابتداع ما ابتدع من الدعوة إلى ترك الأصنام وإفراد الله تعالى بالعبادة، وذلك غير ما ورثوه عن الآباء من عبادتها والاستشفاع بها.

راجعهم هود بأنه ليس به سفاهة ولكنه رسول من رب العالمين ليبلغهم رسالة ربهم، وما كان الله ليرسل إلى عباده بسفيه يكون الضرر برسالته أكبر وأعظم من النفع بها. وهو أعلم حيث يجعل رسالته.

ترقى قوم هود فى تكذيبه واتهموه فى عقله وقالوا: إنا لا نقول إلا أنك لما عبت آلهتنا وحاولت صرفنا عن عبادتها، قد اعتراك بعضها بسوء فألحق بك الخبال والجنون، فأنت عندنا فى حكم أهل العته والجنون. وقد ظنوا أنهم باتهامهم إياه عليه السلام بالجنون ينصرف الناس عن الإصغاء إليه والاعتداد بكلامه.

سمع هود ذلك فأشهد الله تعالى وأشهدهم أنه

برىء، من تلك الآلهة التى يزعمون لها القدرة على أن تمسه بسوء؛ وتحداهم وآلهتهم أن يكيدوه إذا كان ذلك فى قدرتهم وأن يسرعوا إلى ذلك مبادرين دون أن ينظروه؛ فإنه واثق من إلهه الذى بيده نواصى كل ما على الأرض من دابة أنه سينصره ويمنعه أن يصلوا إلى مسه بأذى. وإنما خص الناصية لأن الحيوان إذا أمسك بشعر ناصيته إنقاد وصار الممسك بناصيته مسيطراً عليه، وكانت العرب تجز ناصية الأسير ليعلم أن ناصيته ملكت وجزت.

وأعلنهم هود عليه السلام بأنهم إذا تولوا معرضين عن قوله ولم يستمعوا لنصيحته؛ فإنه قد قام بواجبه الذى كلف به من ربه وأن الله تعالى سيبيدهم ويستخلف قوماً غيرهم، وأن هذا لا يضر الله شيئاً لأنه حافظ ومستول على كل شىء وكل شىء فى قبضة قدرته.

لم يزل هود يمحضهم النصح ويعلمهم أنه ناصح لهم خالص النية فى العمل بكل ما ينفعهم، أمين على ما يقوله لهم عن الله تعالى، فهو لا يدعوهم إلا إلى ما فيه سعادتهم وحسن حالهم، وأنه لا ينبغى لهم أن يعجبوا لأنه جاءهم رجل منهم لينذرهم، لأن ذلك من سنة الله تعالى أن يجعل الرسول إلى القوم منهم ليكونوا أشد فهماً لما يلقيه إليهم ولأنهم أعلم بحقيقته وأمانته وما هو عليه من خلق حسن.

راجعه قومه متعجبين مما يطلبه منهم من عبادة الله وحده وترك ما وجدوا آباءهم يعبدونه من الأصنام؛ إذ فى ذلك تحقير للآباء وامتهانهم برميهم بالكفر؛ وفيه أيضا تحقير أوليائهم وشفعائهم عند الله بترك التوجه بهم إليه تعالى وهم وسيلتهم إليه وهم المقصودون بالتعظيم لصورهم وتماثيلهم؛ ثم ترقوا إلى تحديه قائلين:

﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

فى إنذارك بقولك:

﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

حينئذ أنذرهم هود بأن الله تعالى سيحل بهم عذاباً قريبا بقوله:

﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾

أى عذاب وغضب، ومعنى ذلك أنه قد قرب الانتقام المحتم، وإنما عبر بـ ﴿ وَقَعَ ﴾ لأنه محقق الوقوع، ثم وبخهم قائلاً:

﴿ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾

ثم قال لهم: انتظروا حلول العذاب بكم، إنى معكم من المنتظرين.

فلما عتا قوم هود على ربهم وعصوا رسوله وكذبوه وجحدوا بآيات الله التى أقامها هود على صدقه فى أنه مرسل من ربه واتبعوا أمر كل جبار عنيد من ملأ قومهم ولم تبق فائدة فى إنذارهم. أحل الله تعالى بهم نقمته فى الدنيا بأن أمسك الله عنهم المطر حتى جهدوا، وكان كلما نزل بهم الجهد ذكرهم هود بدعوته وأنه لا ينجيهم من البلاء سوى الاستماع له والعمل بنصائحه، فكان ذلك يزيدهم عتوا إلى أن أرسل الله عليهم الريح العقيم: سلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما، فأهلكهم الله وأبادهم وصارت أجسامهم كأنها أعجاز نخل منقعر، وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة. ونجى الله تعالى هوداً والذين آمنوا معه برحمته من ذلك العذاب الغليظ.

وقوم عاد الذين هلكوا هم عاد الأولى. وأما عاد

الثانية فهم سكان اليمن من قحطان وسبأ وتلك الفروع. وقيل: هم ثمود.

ويقول أهل حضرموت: إن هوداً عليه الصلاة والسلام سكن بلاد حضر موت بعد هلاك عاد إلى أن مات ودفن في شرقي بلادهم على نحو مرحلتين من مدينة تريم قرب وادي برهوت. وقد أثر عن علي - كرم الله وجهه - أنه مدفون في كثيب أحمر وعند رأسه سمرة في حضرموت. وأهل فلسطين يدعون أنه دفن عندهم وقد بنوا له قبر ويعملون له في كل سنة مولدا. وقول أهل حضرموت أقرب إلى المعقول لأنها متاخمة لبلاد عاد وهي الأحقاف دون فلسطين.

وفي تفسير الألوسي: قيل كانوا أربعة آلاف، وقيل ثلاثة آلاف.

اقرءوا هذه الآيات:

سورة الأعراف:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

إلى قوله تعالى:

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾

وفي سورة هود:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾

إلى قوله تعالى:

﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾

وفي سورة المؤمنون:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾

إلى قوله تعالى:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾

وفي سورة الشعراء:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾

إلى قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

وفي سورة فصلت:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾

وفي سورة الأحقاف:

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾

إلى قوله تعالى:

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

وفي سورة الذاريات:

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾

وفي سورة القمر:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾

وفي سورة الحاقة:

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾

وفي سورة الفجر:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾

العبرة من قصة هود مع قوم عاد

القارئ لقصة هود - عليه السلام - مع قومه يخيل إليه أنه يرى إنساناً وقوراً رزيناً يزن الكلام قبل إلقائه يتجلى الإخلاص وحسن النية على قسمات وجهه، وهو:

١ - لا يقابل الشر بمثله بل لا يفارقه استعمال اللين في كلامه مع قومه.

انظروا إلى قولهم له:

﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾

ثم ماذا كان جوابه؟ كان جوابه أن قال لهم:

﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾

فمن تأمل في هذا الجواب وجده غاية في دماثة الأخلاق والتلطف في إسداء النصيحة الخالصة من شوائب جر أية منفعة.

٢ - تلطفه بذكر نعم الله تعالى عليهم وترغيبهم في الإيمان وبيان أن ذلك يحفظ عليهم حسن حالهم وتذكيرهم بما أنعم الله عليهم به من أموال وبنين وجنات وعيون وأنه زادهم في الخلق بسطة وجعلهم خلفاء الأرض من بعد قوم نوح وأن إيمانهم يستتبع رضا الله تعالى فيرسل السماء عليهم مدراراً لسقى زرعهم وإنبات الكلأ لماشيتهم وأنه تعالى يزيدهم عزاً إلى عزهم.

فكان جواب قومه له التعجب من شأنه وشأن رسالته إذ جاءهم ليعبدوا الله وحده وأن يذروا ما كان يعبد آباؤهم من قبلهم، واتهموه بأن بعض آلهتهم مسه بالجنون الذي أفقده صوابه عقاباً له على الخوض في حقهم والتقليل من سلطتهم.

أقول: ولقد جاء سقراط إلى قومه بدون ما أتى به هود، إذ أراد التقليل من سلطة الآلهة فحكم عليه أن يتجرع السم بيده ونفذ الحكم.

٣ - أنه مع مشاكستهم له وافترائهم عليه ورميهم له بالجنون الذي اعتراه به بعض آلهتهم لأكلهم لم يزد في جوابه على أن يقال لهم:

﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

٤ - أن الذي يتولى عظة الناس وإرشادهم والنصح لهم ينبغي أن يكون آخذاً أخذ هود عليه السلام في سعة الصدر وعدم مقابلة الشر بمثله ويحتمل صلف المدعوين وسوء ردهم عليه رجاء أن يظفر ببغيته منهم ويفوز بهدايتهم أو هداية بعض منهم، وأن يكون جوابه عند اليأس بعد بذل الجهد واستنفاد أساليب الترغيب ما قاله هود عليه السلام:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾

المواقف في علم الكلام

تأليف:
الإيجي عبدالرحمن بن أحمد
القاهرة:
مكتبة المتنبي، غير موضح سنة النشر

التعريف بالمؤلف:

المؤلف هو عبدالرحمن بن أحمد بن عبدالغفار بن أحمد الإيجي الشيرازي. ويذكر أنه من نسل أبي بكر الصديق رضي الله عنه لقبه عضد الدين، وقاضي القضاة، وشيخ العلماء، وشيخ الشافعية ببلاده ولد بإيج من نواحي شيراز سنة «٦٨٠هـ» وكانت أكثر إقامته بمدينة سلطانية. وفي عهد أبي سعيد ولي قضاء المماليك، ثم انتقل إلى إيج واتخذها مقره الدائم ووقع بينه وبين الأبهري منازعات ومجريات كثيرة أدت إلى غضب صاحب كرمان عليه، فحبسه بقلعة دريميان، وبقي مسجوناً بها إلى أن مات سنة «٧٥٦هـ» وكان الإيجي إماماً في المعقولات، محققاً مدققاً، عارفاً بالأصلين - الكلام وأصول الفقه - والمعاني، والبيان، والنحو، مشاركاً في الفقه والفنون وأخذ عن مشايخ عصره، ولازم الشيخ زين الدين أوتاج الدين الهنكي تلميذ القاضي ناصر الدين البيضاوي ومن أهم مؤلفاته: الجواهر في مختصر المواقف، والعقائد والعضدية، وشرح مختصر ابن الحاجب، وكتاب الفوائد الغياثية، وأدب البحث والمناظرة.

عرض الكتاب:

يقع الكتاب في «٤٣٠» صفحة ويقسمه المؤلف إلى ستة مواقف.

يتناول الموقف الأول: المقدمات المرتبطة بموضوع علم الكلام «ص٧ - ٤٠» ويتكون من ستة مراصد يتناول المرصد الأول: ما يجب تقديمه في كل علم فيعرف علم الكلام في البداية «ص٤»، ويوضح موضوعه وفائدته ومرتبته وتسميته ويتناول المرصد الثاني: تعريف مطلق العلم «ص٩ - ١١» ويتناول

المرصد الثالث: أقسام العلم «ص١١ - ١٤» ويتناول المرصد الرابع: إثبات العلوم الضرورية «ص١٤ - ٢١».

ويتناول المرصد الخامس: النظر «ص٢١ - ٣٤» حيث يذكر أقسامه ويتناول النظر الصحيح المفيد للعلم «ص٢٣ - ٢٧» وشرط النظر «٢٨» ويتناول المرصد السادس: الطريق «٣٤ - ٤٠» ويقصد به ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى مطلوب «ص٣٤» ويحدده ويذكر أقسامه.

وورد في الموقف الأول المفاهيم الآتية:

١- علم الكلام: هو العلم المتكفل بإثبات الصانع وتوحيده وتنزيهه عن مشابهة الأجسام، واتصافه بصفات الجلال والإكرام، وإثبات النبوة التي هي أساس الإسلام وعليه مبنى الشرائع والأحكام وبه يترقى في الإيمان باليوم الآخر من درجة التقليد إلى درجة الإيقان «ص٤» وهو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه «ص٧».

٢- العلم الضروري: هو الذي يلزم نفس المخلوق لزوماً لا يجد إلى الانفكاك عنه سبيلاً وأورد عليه جواز زواله بأضداده كالنوم والغفلة، وأنه قد يفقد قبل الحس والوجدان، ولا يرد، إذ عبارته مشعرة بالقدرة، فإن قيل فكذا النظري بعد حصوله، قلنا: لا يلزم من عدم القدرة بعد حصوله عدم القدرة مطلقاً، ونقول: هو ما لا يكون تحصيله مقدوراً للمخلوق «ص١١».

٣- العلم البديهي: ما يثبته مجرد العقل «ص١١».

٤- العلم النظري: هو ما يتضمن النظر الصحيح (ص ١١).

٥- النظر: هو الفكر الذي يطلب به علم أو غلبة ظن «ص٢١».

٦- القياس: الاستدلال بالكلي على الجزئي، وهو قول مؤلف من قضايا متى سلمت لزم عنه لذاته قول آخر «ص٣٥».

٧- الاستقراء: الاستدلال بالجزئي على الكلي وهو إثبات الحكم الكلي لثبوته في جزئياته «ص٣٥».

٨- المشاهدات: ما يحكم به العقل بمجرد الحس «ص٣٨».

٩- المجربات: ما يحكم بها العقل بواسطة الحس مع التكرار «ص٣٨».

١٠- المتواترات: ما يحكم بها بمجرد خبر جماعة يمتنع تواطؤهم على الكذب «ص٣٨».

ويتناول الموقف الثاني: الأمور العامة «ص٤١ - ٩٥» ويتكون من خمسة مراصد.

يتناول المرصد الأول: الوجود والعدم «ص٤٣ - ٥٩» ويتناول المرصد الثاني: الماهية «ص٥٩ - ٦٨» فيميزها عما عداها ويتناول أقسامها، ويتناول المرصد الثالث: الوجوب والإمكان والامتناع «ص٦٨ - ٧٨» ويتناول المرصد الرابع: الوحدة والكثرة «ص٧٨ - ٨٤» ويتناول المرصد الخامس: العلة والمعلول «ص٨٥ - ٩٥».

وورد في الموقف الثاني المفاهيم الآتية:

١- الواجب: ما يمتنع عدمه، أو ما لا يمكن عدمه (ص ٦٨).

٢- الممتنع: ما يجب عدمه، أو ما لا يمكن وجوده (ص ٦٨).

٣- الممكن: ما لا يجب وجوده أو عدمه، أو ما

لا يمتنع وجوده ولا عدمه (ص ٦٨).

ويتناول الموقف الثالث: الأعراض (ص ٩٦ - ١٨١)، ويتكون من ثلاثة مراصد، يتناول المرصد الأول: الأعراض (ص ٩٦ - ١٠٤)، حيث يتناول أقسامه (ص ٩٧ - ٩٩)، وإثباته (ص ٩٩)، وعدم انتقاله من محل إلى آخر (ص١٠٠)، ويتناول المرصد الثاني: الكم (ص ١٠٤ - ١٢٠)، حيث يتناول موضوعات مثل: خواص الكم (ص ١٠٤)، وأقسامه ص (١٠٥)، وإنكار الزمان (ص ١٠٨ - ١١٠)، وحقيقة الزمان (ص ١١٠ - ١١٢)، والمكان (ص١١٣ - ١١٩)، ويتناول المرصد الثالث: الكيفيات (ص ١٢٠ - ١٦١).. حيث يتناول موضوعات عديدة مثل: الكيفيات المحسوسة وأنواعها (ص ١٢٢ - ١٣٩)، والمبصرات (ص١٣١ - ١٣٥)، والمسموعات (ص ١٣٥ - ١٣٧)، والكيفيات النفسانية، وأنواعها (ص١٣٩ - ١٦٠)، وتعريف العلم وأقسامه (ص١٤٠ - ١٤٨)، والحركة وأنواعها (ص١٦٧ - ١٧٧).

وورد في الموقف الثالث المفاهيم الآتية:

١- الصفة الثبوتية: تنقسم إلى نفسية ومعنوية «ص٩٦».

٢- الصفة النفسية: هي التي تدل على الذات دون معنى زائد، ككونها جوهراً أو موجوداً أو ذاتاً وهي ما لا يصح توهم ارتفاعه عن الذات وقال الجبائي: هي أخص وصف للنفس التي بها يقع التماثل والتخالف «ص٩٦».

٣- الصفة المعنوية: هي التي تدل على معنى زائد على الذات كالتحيز، والحدوث، وقبول الأعراض وهي التابعة للحدوث ولا تأثير للفاعل فيها، فمنها واجبة كالتحيز وقبول الأعراض للجوهر، ومنها ممكنة تابعة للإرادة، ككون الفعل طاعة أو معصية، وغيرها «ص١١٠، ١١١».

٤- الزمان: جوهر مجرد لا يقبل العدم لذاته؛ إذ لو عدم لكان عدمه بعد وجوده بعدية لا يجامع فيها البعد القبل، وهو مقدار حركة الفلك الأعظم «ص١١٠، ١١١».

٥- الكيفيات: عرض لا يقتضي القسمة واللا قسمة اقتضاءً أولياً، ولا يكون معناه معقولاً بالقياس إلى الغير، وهذا رسم ناقص، وهو الغاية في الأجناس العالية، ويجوز بالأمور الوجودية والعدمية؛ بشرط أن تكون أجلى، فلا يصح أن يقال: الجوهر ما ليس بعرض، والكم ما ليس بكيف ولا أين، إلى آخر المقولات «ص١٢٠، ١٢١».

٦- الكيفيات المحسوسة: إن كانت راسخة سميت انفعاليات، وإلا فانفعالات. وسميت انفعاليات لوجهين هما: أنها محسوسة والإحساس انفعال للحاسة، وأنها تابعة للمزاج، إما بشخصها كحلاوة العسل أو بنوعها كحرارة النار، فإنها وإن كانت ثابتة لبسيط فقد توجد في بعض المركبات تابعة للمزاج كالعسل. ثم إنهم سموا القسم الثاني انفعالات، لأنها لسرعة زوالها أشبهت الانفعاليات، فسميت بها تمييزاً لها «ص١٢٢».

٧- الاعتماد: ما يوجب للجسم المدافعة لما يمنعه الحركة إلى جهة ما. وقيل هو نفس المدافعة «ص١٢٥» ويسمي الحكيم الاعتماد ميلاً، ويقسمه إلى ثلاثة أقسام: طبيعي وقسري ونفساني؛ لأنه إما بسبب خارج عن المحل وهو القسري، أو لا فإما مقرون بالشعور وهو النفساني، أو لا، وهو الطبيعي «١٢٧».

٨- المدافعة: غير الحركة لأنها توجد عند السكون؛ فإنا نجد في الحجر المسكن في الهواء قسراً مدافعة نازلة، وفي الزق المنفوخ فيه المسكن في الماء قسراً مدافعة صاعدة «ص١٢٥».

٩- الحرف: عرفه ابن سينا بأنه كيفية تُعرض للصوت، بها يمتاز عن مثله في الخدة والثقل تميزاً في المسموع «ص١٣٧».

١٠- الكيفيات النفسانية: إن كانت راسخة سميت ملكة، وإلا سميت حالاً، والاختلاف بينهما بعارض، فإن الحال بعينها تصير ملكة بالتدريج «ص١٣٩».

١١- الحياة: قوة تتبع اعتدال النوع، ويفيض منها سائر القوى «ص١٣٩».

١٢- الموت: عدم الحياة عما من شأنه أن يكون حياً وقيل: كيفية وجودية يخلقها الله تعالى في الحي فهو ضدها لقوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾

«الملك: ٢»

والخلق لا يتصور إلا فيما له وجود «ص١٤٠».

١٣- الجهل المركب: عبارة عن اعتقاد جازم غير مطابق، وهو ضد العلم «ص١٤٢».

١٤- الجهل البسيط: عدم العلم عما من شأنه أن يكون عالماً، فلا يكون ضداً، ويقرب منه السهو؛ وكأنه جهل سببه عدم استثبات التصور، حتى إذا نبه تنبه، وكذا الغفلة، ويفهم منها عدم التصور، وكذلك الذهول «ص١٤٣».

١٥- النسيان: الجهل بعد العلم «ص١٤٣».

١٦- العلم: ينقسم إلى تفصيلي وهو أن ينظر إلى أجزائه ومراتبه. وإجمالي: كمن يعلم مسألة فيسأل عنها فإنه يحضر الجواب في ذهنه دفعة، وهو متصور للجواب عالم بأنه قادر عليه، ثم يأخذ في تقريره فيلاحظ تفصيله؛ ففي ذهنه أمر بسيط هو مبدأ التفاصيل «ص١٤٤».

والعلم إما فعلي؛ كما نتصور أمراً ثم نوجده، أو انفعالي كما يوجد أمر ثم نتصوره فالفعلي قبل الكثرة والانفعالي بعدها «ص١٤٥».

١٧- مراتب العقل: مراتب العقل أربع هي: العقل الهيولاني وهو الاستعداد المحض، وهو قوة خالية عن الفعل كما للأطفال. والعقل بالملكة: وهو العلم بالضرورات، وإنه حادث، فله شرط حادث وما هو إلا الإحساس بالجزئيات، ولا نريد بذلك العلم بجميع الضروريات فإن الضروريات قد تُفقد لفقد شرط، للتصور، كحس ووجدان، كالأكمه والعنين لا يتصوران ماهية اللون ولذة الجماع، أو للتصديق، كأحدهما في القضايا الحسية أو الوجدانية، وكتصور الطرفين والنسبة في البديهيات. والعقل بالفعل: وهو ملكة استنباط النظريات من الضروريات، بحيث متى شاء استحضر الضروريات، واستنتج منها النظريات وقيل: بل حصول النظريات، بحيث يستحضرها متى شاء بلا روية- والعقل المستفاد: وهو أن يحضر عنده النظريات، بحيث لا تغيب عنه، وهل يمكن ذلك والإنسان في جلباب من بدنه أم لا؟ فيه تردد «ص١٤٥».

١٨- الإرادة: اعتقاد النفع أو ظنه وقيل: ميل يتبع ذلك، فإنا نجد من أنفسنا بعد اعتقاد أن الفعل الفلاني فيه جلب نفع أو ضر ميلاً إليه وهو مغاير للعلم والإرادة مغايرة للشهوة لوجهين؛ الأول: أن الإرادة قد تتعلق بنفسها دون الشهوة والثاني: أن

الإنسان قد يريد شراب دواء كريه فيشربه ولا يشتهيه بل ينفر عنه «ص١٤٨، ١٤٩».

١٩- القدرة: هي صفة تؤثر وفق الإرادة، فخرج ما لا يؤثر كالعلم، وما يؤثر لا على وفق الإرادة كالطبيعة «ص١٥٠».

٢٠- الخلق: ملكة تصدر عنها الأفعال بلا روية، كمن يكتب شيئاً من غير أن يروى في حرف حرف أو يضرب الطنبور من غير أن يفكر في نغمة نغمة. والخلق مغاير للقدرة؛ لاسيما إن جعل نسبة القدرة إلى الطرفين على السواء «ص١٥٧».

٢١- العفة: هيئة للقوة الشهوية بين الفجور والخمود «ص١٥٧».

٢٢- الحكمة: هيئة للقوة العقلية بين الجربزة والبلاهة «ص١٥٧».

٢٣- المحبة: هي الإرادة. فمحبة الله لنا إرادته لكرامتنا، ومحبتنا لله إرادتنا لطاعته «ص١٥٧».

٢٤- الرضا: عند المعتزلة هو الإرادة. ويرى المؤلف أنها ترك الاعتراض «ص١٥٧».

٢٥- الترك: عدم فعل المقدور، وقيل: إن كان قصداً؛ ولذلك يتعلق به الذم، وقيل: إنه من أفعال القلوب، وقيل: هو فعل الضد؛ لأنه مقدور والعدم مستمر، فلا يصلح أثراً للقدرة «ص١٥٧».

٢٦- العزم: (*) هو جزم الإرادة بعد التردد، وهذا كله إنما يصح إذا لم نفسرها بالصفة المخصصة؛ بل بالميل «ص١٥٧».

٢٧- اللذة: إدراك الملائم من حيث هو ملائم، والملائم هو كمال الشيء الخاص به، كالتكيف بالحلاوة والدسومة للذائقة، والجاه والتغلب للغضبية، وقولنا من حيث هو ملائم؛ لأن الشيء قد يلائم من وجه دون وجه كالدواء الكريه إذا علم أن فيه نجاة من العطب، وذلك لم يثبت؛ فإنا ندرك حالة هي لذة ونعلم أن ثمة إدراكاً للملائم «ص١٥٨».

٢٨- الكيفيات الاستعدادية: وهي إما تكون نحو القبول ويسمى ضعفاً، وإما نحو

اللاقبول ويسمى قوة لا ضعفاً «ص١٦١».

٢٩- الأبوة: هي المعقولة بالقياس إلى الغير، ولا حقيقة لها إلا ذلك، وهي الإضافة التي تعد من المقولات، وتسمى مضافاً حقيقياً، ويقال لذات الأب المعروضة لهذا العارض إضافة، وكذا للمعروض مع العارض، وهذان يسميان مضافاً مشهوريا «ص١٧٧».

ويتناول الموقف الرابع: الجوهر «ص١٨٢ - ٢٦٥» ويتكون من أربعة مراصد.

يتناول المرصد الأول: الجسم «ص١٨٣ - ٢٤٤» ويتناول موضوعات عديدة مثل:

حد الجسم «ص١٨٣»، وأقسامه وأحكام كل منها «ص١٩٩ - ٢٢٩»، ويتناول المرصد الثاني: عوارض الأجسام «ص٢٤٤ - ٢٥٦» ويتناول المرصد الثالث: النفس «ص٢٥٧ - ٢٦١» ويتناول موضوعات مثل: النفوس الفلكية، وتعلق النفس بالبدن ويتناول المرصد الرابع: العقل «ص٢٦٢ - ٢٦٥» حيث يتناول قضايا إثبات وجوده «ص٢٦٢، ٢٦٣» وترتيب الموجدات «ص٢٦٣»، وأحكام العقول «ص٢٦٣ - ٢٦٥».

وورد في الموقف الرابع المفاهيم الآتية:

١- الجوهر: إن كان حالاً فصورة، وإن كان محلاً لها فهيولي، وإن كان مركباً منهما فجسم، وإلا فإن كان متعلقا بالجسم تعلق التدبير والتصرف فنفس، وإلا فعقل، وهذا بناء على نفي الجوهر الفرد «ص١٨٢».

٢- الجسم: جوهر يمكن أن يفرض فيه أبعاد ثلاثة متقاطعة على زوايا قائمة «١٨٣».

٣- حد المزاج: كيفية متشابهة تحصل من تفاعل عناصر متصغرة الأجزاء بحيث تكثر صورة كل سورة كيفية الآخر «ص٢٢٥».

٤- اللطف: هو الذي يقرب العبد إلى الطاعة، ويبعده عن المعصية، كبعثة الأنبياء يكون الناس معها أقرب إلى الطاعة وأبعد عن المعصية «ص٢٢٨».

٥- النفس: كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يتغذى وينمو أو يحس ويتحرك بالإرادة، أو يعقل الكليات ويستنبط بالرأي، وقد يعبر عنها بلازم واحد وهو من حيث إنه ذو حياة بالقوة «ص٢٢٩».

٦- النفس النباتية: كمال أول لجسم طبيعي آلي من حيث يتغذى وينمو. فالكمال جنس وبأول: يخرج الكمالات النباتية كتوابع الأول من العلم والقدرة، وبالجسم: يخرج كمال المجردات، وبالطبيعي: يخرج الصناعي كالسرير والكرسي، وبالآلي: العناصر؛ إذ لا يصدر عنها أفعالاً بواسطة الآلات. وقواها تسمى طبيعية. وهي أربع اثنتان يحتاج إليهما لبقاء الشخص وهي الغاذية والنامية، ومنهما اثنتان يحتاج إليهما لبقاء النوع وهما المولدة والمصورة. وهذه الأربع تخدمها أربعة أخرى هي: الجاذبة والهاضمة والماسكة والدافعة «ص٢٢٩ - ٢٣٥» وسنعرف كلاً منها.

٧- النفس النباتية الغاذية: تشبه الغذاء بالمتغذى أي تحيل جسما آخر إلى مشاكلة الجسم الذي تغذوه بدلاً لما يتحلل عنه، وقد يثبت وقوفها ضرورة الموت بأن القوى الجسمانية متناهية «ص٢٣٠».

٨- النفس النباتية النامية: تُداخل الغذاء بين الأجزاء فتضمه إليها فتزيد في الأقطار الثلاثة بنسبة طبيعية إلى غاية ما، ثم تقف لا كالورم والسمن؛ وذلك أنه لما كان البدن متولداً من الدم والمني فهو في الأول رطب ثم يجف يسيراً يسيراً ونفوذ الغذاء لا يكون إلا بتمدد الأعضاء، فإذا جفت لم تقبل ذلك فوقفت ضرورة «ص٢٣١».

٩- النفس النباتية المولدة: تفصل من الغذاء ما يصلح أن يكون مادة للمثل، وهي في كل البدن «ص٢٣١».

١٠- النفس النباتية المصورة: توجد في الرحم خاصة تفيد تلك الأجزاء الصور، والقوى التي بها تصير مثلاً بالفعل.

١١- النفس النباتية الجاذبة: هي التي تجذب المحتاج إليها «ص٢٣١».

١٢- النفس النباتية الهاضمة: هي تعد الغذاء لأن يصير جزءاً بالفعل «ص٢٣٢».

١٣- النفس النباتية الماسكة: هي التي تمسك الغذاء ريثما تفعل فيه الهاضمة فعلها «ص٢٣٣».

١٤- النفس النباتية الدافعة: إما للغذاء المهيأ للعضو إليه، وإما للفضل عنه ويجده كل أحد من نفسه عند التبرز، كأن معدته وأمعاءه تنتزع، ويدل عليه القيء من غير اختيار «ص٢٣٤».

(*) العزم: إرادة يقطع بها المريد رويته في الإقدام على الفعل أو الإحجام عنه. والنية: إرادة متقدمة للفعل بأوقات. والعزم قد يكون متقدما للمعزوم عليه بأوقات أو بوقت.

١٥- النفس الحيوانية: كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما، يحس ويتحرك بالإرادة «ص٢٢٩» وتسمى قواها نفسانية، وهي إما مدركة وإما محركة، والمدركة إما ظاهرة وإما باطنة «ص٢٣٥».

ويتناول الموقف الخامس: الإلهيات «ص٢٦٦ - ٣٣٦» ويتكون من سبعة مراصد يتناول المرصد الأول الذات الإلهية «ص٢٦٦ - ٢٧٠»، ويتناول المرصد الثاني تنزيه الله - تعالى - عن الصفات السلبية «ص٢٧٠ - ٢٧٨» ويتناول المرصد الثالث توحيده تعالى «ص٢٧٨ - ٢٧٩» ويتناول المرصد الرابع الصفات الوجودية للذات الإلهية «ص٢٧٩ - ٢٩٩»، ويختص المرصد الخامس فيما يجوز عليه - تعالى - ويتناول تحديدا الرؤية والكلام «ص٢٩٩ - ٣١١»، ويتناول المرصد السادس أفعاله تعالى «ص٣١١ - ٣٣٢»، ويتناول المرصد السابع أسماء الله تعالى «ص٣٣٣ - ٣٣٦».

ويتناول الموقف السادس السمعيات «ص٣٣٧ - ٤٣٠» ويتكون من أربعة مراصد. يتناول المرصد الأول النبوات «ص٣٣٧ - ٣٧٠» ويتناول موضوعات من قبيل: حقيقة المعجزة «ص٣٣٩ - ٣٤٢» وإمكان البعثة «ص٣٤٢ - ٣٤٩» وعصمة الأنبياء «ص٣٥٨ - ٣٦٦» وحقيقة العصمة «ص٣٦٦» وأفضلية الأنبياء على الملائكة «ص٣٦٧ - ٣٧٠» وجواز وجود كرامة للأولياء «ص٣٧٠» ويتناول المرصد الثاني المعاد «ص٣٧١ - ٣٨٤» ويتناول موضوعات مثل: إعادة المعاد «ص٣٧١ - ٣٧٢» وحشر الأجساد «ص٣٧٣ - ٣٧٤»، والجنة والنار: هل هما مخلوقتان «ص٣٧٤ - ٣٧٦»، والتوبة «ص٣٨٠ - ٣٨٢» ويتناول المرصد الثالث الأسماء والأحكام «ص٣٨٤ - ٣٩٥» ويجيب عن أسئلة مهمة مرتبطة بالإيمان والكفر مثل: هل الإيمان يزيد أو ينقص «ص٣٨٨»، وهل مرتكب الكبيرة من أهل الصلاة مؤمن «ص٣٨٩ - ٣٩٢» ويتناول المرصد الرابع الإمامة «ص٣٩٥ - ٤١٤» ويتناول موضوعات مثل: شروط الإمامة «ص٣٩٨ - ٣٩٩»، وأفضل الناس بعد رسول الله ﷺ «ص٤٠٧ - ٤١٢»، ووجوب تعظيم الصحابة، والكف عن القدح فيهم «ص٤١٣ - ٤١٤».

وقد ورد في الموقف السادس المفاهيم الآتية:

١- النبي: لفظ منقول في العرف عن مسماه اللغوي فقيل: هو المنبيء من النبأ، لإنبائه عن الله تعالى، وقيل من النبوة وهو الارتفاع لعلو شأنه، وقيل: من النبي وهو الطريق.

٢- الإيمان: في اللغة التصديق. وأما في الشرع فهو التصديق للرسول ﷺ فيما علم مجيئه به ضرورة، فتفصيلاً فيما علم تفصيلاً، وإجمالاً فيما علم إجمالاً «ص٣٨٤».

٣- الكفر: عدم تصديق الرسول ﷺ في بعض ما علم مجيئه به ضرورة «ص٣٨٨».

٤- الإمامة: رياسة عامة في أمور الدين والدنيا، ونقض بالنبوة وهي خلافة الرسول ﷺ في إقامة الدين بحيث يجب اتباعه على كافة الأمة «ص٣٩٥».

٥- البصر: إنما يحصل بانعكاس صورة المرئي بتوسط الهواء المشف إلى الرطوبة الجليدية وانطباعها في جزء منه، وذلك الجزء زاوية مخروط قاعدته سطح المرئي؛ ولذلك يرى القريب أعظم؛ لأن الوتر الواحد كلما قرب كان أقصر ساقاً، فأوتر زاوية أعظم، وكلما بعد كان أطول ساقا فأوتر زاوية أصغر، والنفس إنما تدرك الصغر والكبر باعتبار تلك الزاوية ويخرج من العين جسم شعاعي على هيئة مخروط رأسه يلي العين وقاعدته تلي المبصر، والإدراك التام إنما يحصل من الموضع الذي هو موضع سهم المخروط «ص٢٣٥ - ٢٣٦».

٦- السمع: إنما يحصل بوصول الهواء المنضغط بين القارع والمقروع إلى الصماخ، لقوة حاصلة في العصبة المفروشة في مؤخره التي فيها هواء محتقن كالطبل، فإذا انحرفت تلك المعصمة أو بطل حسها بطل السمع «ص٢٣٦».

٧- الشم: قوة مستودعة في زائدتين في مقدم الدماغ، وزعم بعضهم أن الرائحة تتأدى إليه بتحلل أجزاء من الجسم ذي الرائحة وتبخره ومخالطته للمتوسط «ص٢٣٦».

٨- الذوق: قوة منبثة في العصب المفروش على جرم اللسان، وإنما تدرك بواسطة الرطوبة العذبة المخالطة للمذوق، فإذا كانت الرطوبة عديمة الطعم أدت الطعوم بصحة، وإن خالطها طعم لم تؤدها بصحة كما للمرضى؛ ولذلك كان الممرور يجد الماء والسكر مراً «ص٢٣٧».

٩- اللمس: قوة مبثوثة في العصب الخالط لأكثر البدن سيما الجلد، ومن الأعضاء ما ليس فيه قوة لامسة كالكلية فإنها ممر الفضلات الحادة، فاقتضت الحكمة أن لا يكون لها حس؛ لئلا تتأذى بمرورها عليها، وكذلك العظم؛ لأنه أساس البدن وعليه أثقاله «ص٢٣٧».

١٠- الحس المشترك: القوة التي ترتسم فيها صور الجزئيات المحسوسة بالحواس الخمس فتطالعها النفس ثم تدركها «ص٢٣٨».

١١- الخيال: يحفظ الصور المرتسمة في الحس المشترك كالخزانة له، وبه يعرف من يرى ثم يغيب ثم يحضر، ولولا هذه القوة لامتنع معرفته واختل النظام «ص٢٣٩».

١٢- القوة الوهمية: تدرك المعاني الجزئية كالعداوة التي تدركها الشاة من الذئب، والمحبة التي تدركها السخلة من أمها، وهي التي تحكم بأن هذا الأصفر هذا الحلو «ص٢٤٠».

١٣- القوة الحافظة: هي الحافظة للمعاني التي تدركها الوهمية كالخزانة لها، ونسبتها إلى الوهمية نسبة الخيال إلى الحس المشترك «ص٢٤٠».

١٤- المتخيلة: تتصرف في الصور المحسوسة والمعاني بالتركيب والتفصيل مثل إنسان ذي رأسين، وإنسان عديم الرأس، وحيوان نصفه إنسان ونصفه فرس، وهذه القوة إذا استعملها العقل سميت مفكرة «ص٢٤٠».

الخلاصة:

ورد في هذا الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

- الرضا satisfction
- النفس psycho
- القياس asurement
- الاستقراء Induction
- النسيان forgetting
- الإرادة willing
- القدرة ability
- العفة chastity
- الشجاعة courage
- الحكمة wisdom
- اللطف kindness
- الحس المشترك common sense
- الخيال Imagination

القائم بالعرض: د. عبير محمد أنور

المقاصد التربوية للعبادات

٢



للأستاذ الدكتور/ صلاح سلطان

المقصد التربوى للزكاة فى الجانب الروحى للفرد المسلم

للزكاة آثار وقائية علاجية للجوانب الروحية للفرد المسلم تتجلى فيما يلى:

أولاً: خلق الله تعالى الإنسان فى أحسن تقويم، وبوأه أرفع المنازل وجعل تكريمه فى أرفع الدرجات، لكن الإنسان قد يرتد إلى أسفل سافلين فينسى دوره، ويضيع أمانته، ويكون أول عوامل الانحطاط هو الغلو فى حب المال، ذلك الحب الفطرى المعتدل الذى يعتبر من نعم الله على الإنسان حتى تعمر الأرض فقال سبحانه:

﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾

(العاديات: ٨)

لكن الغلو يدفع إلى الاكتساب وعدم الإنفاق على المحرومين، وبهذا يتحول من عبد ربانى إلى أسير للدنيا، عبد للهوى، وفيه يروى البخارى، وابن ماجه أن النبى ﷺ دعا على مثله فقال: «تعس عبد الدنيا، تعس عبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطى رضى وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش»(١).

هذه التعاسة هى شقاء الروح وظلام القلب عندما يحل حب المال محل حب الله - تعالى - وتتحول الوسائل إلى رضا الله إلى أهداف بذاتها، فالمال جعل وسيلة إلى التعايش فى الدنيا لإعمارها، وإرضاء الله فى كل جنباتها، لكن عندما تتحول هذه الوسائل إلى جمع المال وعده هدفاً بذاته فإنه يستحق قوله تعالى:

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ۝ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾

(الهمزة: ١:٤)

من هنا تأتى الزكاة لتقى النفس من غلواء

(١) «سنن ابن ماجه» - كتاب الزهد - باب فى المكثرين رقم (٤١٣٦).

حب المال، وطلب الاستحواذ عليه من الحرام أو الحلال، ولذا كان من أعظم أهداف الزكاة ما ذكره الله تعالى فى قوله:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾

(التوبة: ١٠٣)

إذن فالزكاة تنقل الإنسان من دنس العبودية للمال إلى طهارة عباد الله الأتقياء الأتقياء، الذين يحوزون الدنيا وتبقى ملك يمينهم لا تنفذ إلى أعماق قلوبهم فيبذلونها سخية بها نفوسهم فتنطبق عليهم الصورة المثلى للمسلم الشاكر المحتسب التى رواها الإمام أحمد فى مسنده عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نعم المال الصالح للعبد الصالح»(٢).

ثانياً: يقول الكاسانى الحنفى عن أثر الزكاة على النفس البشرية: «وهى تطهير النفس من انحباس الذنوب، وتزكى أخلاقه بتخلق الجود والكرم وترك الشح والضن بالمال، فيتعود السماحة، وترتاض لأداء الأمانات وإيصالها إلى مستحقيها، كما أنها شكر لله على ما أنعم به على الأغنياء من مال»(٣).

ثالثاً: فى هذا الإطار الوقائى من داء الشح يقول سبحانه:

﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

(التغابن: ١٦)

فالفلاح إذن معلق على التخلص من داء الشح، والزكاة على الأموال المكنوزة والسائلة والحصاد والسوائم والتجارات وغيرها تجعل معالم البذل فى كل رزق يساق للإنسان حصناً قوياً من تسرب أدواء الشح إلى النفس التى تحرم المسلم من حب الناس ورضا الله، بل تحرمه أيضاً سعادة الآخرة.

فالبخل والشح يجلبان غضب الله تعالى وسخط النار والطرد من الجنة، وتتحول الأموال التى كان يجب أن تكون وسائل للسعادة فى الدنيا والآخرة إلى شقاء الدنيا فى النهم على تحصيلها والمبالغة فى حفظها والتردد على عدها، وفى الآخرة فى تحولها إلى صفائح من نار، أو شجاعاً أقرع كما جاء فى حديث البخارى(٤) أن النبى ﷺ قال: «من آتاه الله مالاً، فلم تؤد زكاته مثل له ماله شجاعاً أقرع له زبيبتان، يطوقه يوم القيامة يأخذ بلهزمتيه - يعنى شدقيه - يقول: أنا مالك، أنا كنزك. ثم تلا هذه الآية:

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

(آل عمران: ١٨٠)

(٢) «مسند الإمام أحمد» (١٩٧/٤).
(٣) «بدائع الصنائع» للكاسانى (٣/٢).
(٤) «صحيح البخارى» - باب التفسير - باب «ولا يحسبن الذين يبخلون...» الحديث رقم (٤٥٦٥)، ومثله رقم (١٤٠٣).

ومنها ما رواه البخاري ومسلم بسندهما أن رسول الله ﷺ قال: «ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدى زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم مما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها، وتطؤه بأخفافها كلما نفدت أخراها عادت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس»(٥).

رابعاً: هذه الصورة المظلمة لمانع الزكاة يقابلها صورة مشرقة تغمر الروح والقلب سعادة بفضل الله تعالى إذا أدى الزكاة، وأنفق من ماله وذلك لقوله تعالى:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة: ١٠٤)

ولما رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل»(٦).

ولا شك أن الشعور برحمة الله تعالى أن سرى به عن المكروبين، وأزال حرمان المحرومين، وأعطى ما يسد رمق الجوعى والزمنى، ولذلك عندما أدرك أصحاب النبي ﷺ أن قيمة المال في بذله لله تعالى سخية بها نفوسهم ابتغاء رضا ربهم كانوا يسارعون للبذل في كل وجوه الخير، ومن ذلك ما رواه الواقدي وابن سعد وابن كثير من تسابق الصحابة إلى البذل للجهاد في سبيل الله تعالى في غزوة تبوك فكان أول من حمل مالاً كثيراً استغرق ماله كله أبو بكر وجاء عمر بنصف ماله وحمل العباس مالاً، وحمل طلحة ابن عبيد الله مالا، وحمل محمد بن مسلمة مالاً، وحمل عبد الرحمن ابن عوف مائتي أوقية، وحمل سعد بن عبادة مالاً، وتصدق عاصم بن عدى بتسعين وسقاً تمراً، وجهز عثمان ثلث الجيش فكان أكثرهم نفقة حتى كفي ذلك الجيش مؤنتهم، وكان الرجل يأتي بالبعير فيدفعه بين الرجلين ويقول: هذا بينكما فتعاقبانه، حتى إنه كانت النساء يتصدقن بكل ما قدرن عليه حتى امتلأ ثوب بين يدي رسول الله ﷺ من حليهن وخلاخيلهن وخواتمهن»(٧).

(٥) نفسه.

(٦) «صحيح البخاري» - كتاب الزكاة - باب الصدقة من كسب طيب رقم (١٤١٠)

والفلو وهو المهر لأنه يفلى أى يفطم. وقيل: هو كل فطيم من ذات حافر والجمع أفلاء مثل عدو وأعداء. راجع «فتح الباري» لابن حجر (٣/٢٧٩).

(٧) «المغازى» للواقدى (٣/٩٩١، ٩٩٢). الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/٢٣٨). البداية والنهاية لابن كثير (٥/٤)، «سيرة الخلفاء» للسيوطي (٢٣٤)، «صفة الصفوة» لابن الجوزى (١/١١٦).

وروى السيوطي عن عائشة وعروة بن الزبير أن أبا بكر أسلم يوم أسلم وله أربعون ألف دينار، فأنفقها على رسول الله ﷺ، حتى إنه دخل المسجد، فوجد سائلاً يسأل، فدخل إلى بيته فوجد كسرة في يد ولده عبد الرحمن فانتزعها منه فدفعها إليه(٨).

وروى ابن الجوزى(٩) أن أبا بكر الدحداح تصدق بحائط فيه ستمائة نخلة وهو أحسن ما عنده عندما سمع قوله تعالى:

﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ (المزمل: ٢٠)

هذه صورة من مجتمع الصحابة كان يسارع كل صحابي إلى بذل الفضل وليس الفرض فقط، وذلك راجع إلى صدق الإيمان، وسيطرة حب الله على القلب حتى صار حب المال في أفضل درجات الاعتدال، وهي الصورة التي يجب أن يتحلى بها المسلم في حياته.

خامساً: في زكاة الفطر معنى من أسمى المعاني الروحية، يشير إليه حديث ابن ماجه أن النبي ﷺ «فرض زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، وطعمة للمساكين»(١٠) وعليه تكون زكاة الفطر طهرة للكبير والصغير، الغني والفقير، الرجل والمرأة، لأنها لازمة في حق الجميع، وقد يبذلون المال لأفقر منهم فتطهر هذه الزكاة نفوسهم، ولا شك أن الطهارة هنا ليست حسية للجسد بل معنوية للروح.

المقصد التربوي للصيام

المقصد التربوي للصيام في الجانب الروحي للفرد المسلم الصيام من أكثر العبادات تأثيراً حسناً في الجانب الروحي للفرد المسلم، يتضح ذلك من جوانب كثيرة أهمها:

أولاً: الصيام بآدابه وأركانه مؤدٍّ إلى التقوى، والتقوى هي عماد إصلاح النفس، فإذا تحققت فإن النتيجة هي السعادة التي تنتفي معها الأحزان والهموم والخوف والفزع لقوله تعالى:

﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأعراف: ٣٥)

والمعلوم أن الخوف والحزن هما عماد اضطراب النفس، والتقوى والإصلاح ينفيان كل صور الحزن والخوف من المستقبل أو الحزن على الماضي، وذلك لأن التقوى توجد الميزان الذي يهتدى به المسلم في الظلمات وينجو به

(٨) «تاريخ الخلفاء» للسيوطي (٧٧).

(٩) «صفة الصفوة» لابن الجوزى (٢/٢٥٢، ٢٥٣).

(١٠) «سنن ابن ماجه» - كتاب الزكاة - باب صدقة الفطر رقم (١٨٢٧) من حديث ابن عباس.

من النوائب لقوله تعالى:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾

(الطلاق: ١-٢)

ويظل المسلم في دائرة الولاية لله تعالى ما دام تقيا ورعاً لقوله سبحانه:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

[يونس: ٦٢)

أما عن آثار التقوى في سعادة المسلم في آخرته فيكفيه رضا وراحة نفس وطمأنينة قلب أن يوقن بقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾

(الدخان: ٥١-٥٦)

ثانياً: المسلم الذي يحب الله تعالى يداوم على الصيام فهو ينتظر شهر رمضان ليغسل نفسه غسلاً كاملاً من الذنوب والآثام، ويطهر نفسه من المعاصي وهذا يزيل الران عن القلب وذلك لما رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»(١١) فإذا ما انتهى رمضان صار الصوم له إلفا، ومصدر سعادة قلبية لانشراحه برحمة الله وفضله فهو يصوم الأيام البيض من شوال ويصوم العشر الأوائل من ذي الحجة ويحرص على صيام عرفة ولا يفوته صيام التاسع والعاشر من المحرم «عاشوراء»، ويكثر من الصيام في شعبان، ويحرص طوال العام على صيام الاثنين والخميس، أو يصوم يوماً ويفطر يوماً إن قدر عليه، ولا يقل عن صيام ثلاثة أيام كل شهر، وبهذا يظل المسلم والمسلمة في طهارة من الذنوب دائمة، ولعل هذا ما جعل الإمام مسلم يترجم في كتاب الصيام باباً بعنوان: صيام النبي ﷺ واستحباب ألا يخلي شهراً عن صوم.. ويكفي المؤمن شرفا أن يصوم وهو يستحضر حديث النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «الصوم لي وأنا أجزي به، يدعُ شهوته وطعامه من أجلي، للصائم فرحتان، فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه»(١٢). فهو صيام يختص به الله تعالى، ويعود فضله على العبد فرحة في الدنيا برحمة الله، وفرحة في الآخرة بنعيم الله تعالى، والنجاة من النار لما رواه مسلم بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن

(١١) «صحيح البخاري» كتاب الصوم، باب من صام إيمانًا واحتسابًا رقم (١٩٠١).

(١٢) «صحيح البخاري» كتاب الصوم، باب: هل يقول إني صائم إذا شتم رقم (١٩٠٤).

رسول الله ﷺ قال: «من صام يوماً في سبيل الله باعد الله بينه وبين النار سبعين خريفًا»(١٣).

ثالثًا: المسلم يجد نشاطًا روحيًا خاصاً في شهر رمضان وذلك لأن الله تعالى يقيد مردة الشياطين ويرسل ملائكة تنادي: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أدبر، وشعور العبد أن الفريضة في رمضان تعدل سبعين فريضة فيما سواه، وأن النافلة مثل ثواب الفريضة، وأنه شهر العتق من النار، والعودة إلى الله، وتحري ليلة القدر، والاعتكاف في العشر الأواخر، يمثل هذا جرعة روحية كبيرة لا تكاد تعدلها جرعة أخرى طوال العام اللهم إلا جرعة الحج ابتغاء وجه الله تعالى.

رابعاً: إذا كان المسلم في رمضان يجد نشاطاً روحياً بالنهار؛ لأنه يدع شهوته لله تعالى، فإنه بالليل ينعم أيضاً بهذا النشاط الروحي بقيام الليل في صلاة التراويح كل ليلة، ولعل القليل هو الذي يجد نشاطًا روحيًا طوال العام ليقوم كل ليلة بثماني ركعات يطيل فيها القراءة، ولكن الكثير جداً يهرع إلى صلاة التراويح، ومن فاته منها شيء أكمله في مصلاه أو مسجده وكذا القيام للسحور قبل الفجر والدعاء لله تعالى، حتى يحظى المسلم بدعاء الله والملائكة له وهو يتسحر وذلك للحديث الذي رواه أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: السحور كله بركة، فلا تدعوه ولو أن يتجرع أحدكم جرعة من ماء فإن الله وملائكته يصلون على المتسحرين»(١٤).

خامساً: من المنح الروحية في الصيام أن للصائم دعوة ما ترد وذلك لما رواه ابن ماجة بسنده عن عبدالله بن عمر أن النبي ﷺ قال: «إن للصائم عند فطره لدعوة ما تُردّ»(١٥). هذه الدعوة مفتاح خير إلى سعادة المرء في الدنيا والآخرة حيث يلحف في المسألة لله تعالى أن يصلح له دنياه، وينعم آخرته بالفردوس الأعلى من الجنة.

سادساً: يظل المسلم والمسلمة ينتقل من خير إلى خير، فيزداد تعلق القلب بالله تعالى، ويقل تعلقه بالدنيا فيشعر أنه بحاجة إلى خلوة مع ربه جل وعلا، فيلجأ إلى الاعتكاف آخر الشهر في العشر الأواخر ليزيد حبال المودة بالرغبة والرهبة والخوف والرجاء، ويندو اللسان في الليل والنهار بقراءة القرآن، ويشنف الآذان بالاستماع إليه، ويعمل فكره

(١٣) صحيح مسلم ـ كتاب الصيام ـ باب فضل الصوم (٤٦٥/١) وابن ماجة رقم (٦٣٨).

(١٤) «صحيح مسلم» كتاب الصيام، باب فضل الصوم (٤٦٦/١).

(١٥) «سنن ابن ماجة» كتاب الصيام، باب في الصائم لا ترد دعوته رقم (١٧٥٣).

فى بديع خلق الله وكثرة نعمه على خلقه فتبكى العين خوفًا وفرقًا من عذاب الله، ويطمئن الفؤاد طمعًا وأملا فى رحمة الله، ويكثر القيام والقعود بين يدى رب الوجود سبحانه وتعالى فيفيض هذا على القلب ريًا وعلى النفس رضًا، وعلى الجسم حيوية، وعلى الخلق رقيًا، وكلما ذاق حلاوة الوصل واصل التراويح بالتهجد والذكر بالدعاء، والاستغفار بالثناء، والتضرع بالبكاء، والحب بالخوف، حتى لا يحرم خيرها إلا شقى، ولا يصيبه إلى تقى، فتشبع النفس من هذا الهدير الذى يمسح على القلب، ويظل فى بوتقة الحب حتى إذا جاء يوم العيد قام إليه يتلقى جائزته، ويصافح ملائكته، ويخالط الخلق بأخلاق الحق، يحنو على فقيرهم، ويقيل من مسيئهم فيستغفر لذنبهم، ويستحث مدبرها، فيكون قد صنع على عين الله، وحمل أخلاق الإسلام وآدابه بعد هذه الخلوة التى تعيد الإنسان إلى الفطرة السليمة، وهكذا تبقى الروح فى نضارتها وطهارتها فيسعد صاحبها فى الدارين.

سابعًا: الاعتكاف فى العشر الأواخر من السنن المستحبة فى العشر الأواخر فى رمضان لما أورده البخارى ومسلم بسندهما عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان إذا دخل العشر شدّ مئزره وأحيا ليله، وأيقظ أهله[16].

هذا الاعتكاف جولة روحية راقية فيها تركيز عال لنقاء الروح وصفاء النفس من كل أدرانها؛ لأن الاعتكاف كما قال الأستاذ أحمد غراب ليس هروبًا ولا رهبانية وإنما هو وقفة قصيرة فى رحلة الحياة يلقى خلالها نظرة شاملة على ما قطع من الطريق، وما بقى منه ويحاسب نفسه فى خلوة العابد المتبتل على ما فرط فى جنب الله تعالى.

إن الاعتكاف حبس النفس على منهج الله تعالى وجولة فى عالم الخوف والرجاء، ورحلة إلى الله تعالى بزاد التقوى، وسبحة للنفس لاستنهاض كامن الخير فيها، ومجاهدة نوازع الشر التى تنساق إليها، إن الصلوات بالليل وقراءة القرآن ومداومة الذكر، وزيادة النوافل، وتعود الخشوع فى الصلاة وتعميق المؤاخاة فى الله من خلال المسجد، هذا مع الصيام وفضله كل ذلك يقوى كوامن الخير وصنائع المعروف فى الفرد المسلم.

(16) «صحيح البخارى» كتاب فضل ليلة القدر - باب العمل فى العشر الأواخر من رمضان رقم (2024)، و«صحيح مسلم» كتاب الصيام باب اجتهاده فى العشر الأواخر من رمضان (1/480)، وشدّ مئزره كناية عن اعتزال النساء، وقيل معناه التشمير للعبادة، راجع: «فتح البارى» لابن حجر (4/316).

من سنن التنوع فى إطار الوحدة





بقلم أ.د. أحمد فؤاد باشا

www.afbasha.com



٣- تنوُّع لغة التخاطب:

يقول الله تعالى فى قرآنه الكريم:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾

«سورة الروم: ٢٢»

والمعنى أن من الدلائل على كمال قدرته وحكمته خلق السموات والأرض على هذا النظام البديع، واختلاف ألسنتكم فى اللغات واللهجات، وتباين ألوانكم فى السواد والبياض وغيرهما، إن فى ذلك لدلائل ينتفع بها أهل العلم والفهم.

والآية القرآنية الكريمة تنبهنا فى بعض إشاراتها إلى تعددية لغة التخاطب عند البشر، وهو ما نلمسه ونراه واضحاً أمام ناظرينا، ومن خلال تعاملاتنا وحواراتنا مع بنى جنسنا. كذلك أخبرنا القرآن الكريم عن لغة التخاطب فى عالم الحيوان عندما تكلم نبى الله سليمان عليه السلام مع الهدهد، وعلِّم منطق الطير، وفهم لغة النمل. قال تعالى:

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾

«سورة النمل: ١٦ - ٢٢»

والحديث عن لغة التخاطب فى عالم الحيوانات ليس غريباً لدرجة يستحيل معها

تصديقه، فقد أثبت العلم الحديث أن العديد من أنواع الحيوانات تتفاهم بوسائل مختلفة ذات دلالات خاصة، وليس بالضرورة أن يتم التخاطب عن طريق الصوت، وإنما يمكن أن يكون عن طريق حركات معينة، أو إصدار إشارات ضوئية أو روائح مميزة، وتظهر هذه الحقيقة واضحة جلية في عالم الحشرات على وجه الخصوص.

فعلى سبيل المثال، كشف علماء الحشرات عن أكثر من ألفي (٢٠٠٠) نوع من «صراصير الغيط»، لكل منها صوت لا يفهمه أفراد الأنواع الأخرى، وتلبي الأنثى نداء الذكر عندما تسمع الصوت الذي يصدره على بعد كيلومترين. وهناك نوع من الصراصير لا يكفّ عن إصدار أصواته طوال ليالي الصيف، حيث يكون النهار بمثابة فترة راحة له. ومن الإعجاز الإلهي الواضح في خلق هذا النوع أنه يتمتع بأجنحة قوية تتحمل الاحتكاك لآلاف المرات لإصدار الصوت الخاص بها.

كذلك لاحظ الباحثون في سلوك الحشرات أن جنود النمل الأبيض تضرب برؤوسها الكبيرة جدران الأنفاق إذا شعرت بهجوم على عشها، أو أي خطر يتهددها، فيفهم هذا التحذير باقي أفراد النوع، ويأخذ كل حذره من الخطر المحدق به.

وهناك حشرات من رتبة الخنافس تسمى «ذباب النار» تعيش في أواسط أفريقيا وأمريكا - لها القدرة على إصدار ضوء قوي عبر غدد تقع في الحلقات الخلفية من بطنها، ويمكن رؤية هذا الضوء من مسافات بعيدة، فهي أشبه ببطاريات صغيرة تتحكم الأنثى في إضاءتها وإطفائها عن طريق أحبال عصبية كلما شاءت، فتأتي إليها الذكور. وفي بعض الأحيان يوجد لدى الذكر بطارية حية في بطنه ليعلن للأنثى عن مكانه، ولا يحدث هذا النوع من التخاطب إلا بين الإناث والذكور التابعة لنفس النوع من الحشرات. فسبحان الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وتبدو الحاجة إلى لغة للتخاطب ضرورية في عالم الحشرات ذات المعيشة الاجتماعية، مثل النمل والنحل، والتي تعتبر أرقى أنواع الحشرات في نظم المعيشة. فخلية النحل أو النمل تتكون من عدد هائل من الأفراد الموزعة إلى مجموعات عمل لكل منها وظيفة محددة، وتحكم هذه الخلية ملكة واحدة تصدر معلوماتها للمجموعات المختلفة لتنظيم العمل بينها.

ولعل أكثر اللغات شيوعاً في عالم الحشرات هي اللغة الكيميائية التي يتم التحكم فيها بواسطة أجهزة إرسال واستقبال متقدمة تماثل عملية نقل وتبادل المعلومات عن طريق الترميز (أو الشفرة).. أما أجهزة الإرسال فهي مكونة من غدد متخصصة على جسم الحشرات لإفراز مركبات كيميائية متطايرة متنوعة التركيب ومختلفة الأغراض، ولكل منها مغزى معين لدى أفراد النوع الواحد. ويتم استقبال هذه المواد المتطايرة بواسطة جهاز مكون من شعيرات حسية متصلة بالجهاز العصبي للحشرة، حيث يتم ترجمة الإشارات الكيميائية وتحديد الغرض

منها، ونوع الاستجابة المطلوبة.

ومن المركبات الكيميائية المعروفة التي تستخدمها الحشرات كلغة للتخاطب فيما بينها مواد تسمى «الفرومونات الجنسية»، تفرزها الأنثى لتدل الذكر على مكانها والاتجاه نحوها دون أن يخطئها إلى غيرها حتى في الظلام، بل إن إناث الحشرات تفرز أيضا مواد أخرى لتنشيط الذكر وإثارته عند اقترابه منها. وقد لوحظ أن بعض الفراشات تصدر رائحة مميزة تجذب الذكور من مسافات بعيدة تصل إلى خمسة كيلومترات، ومن العجيب أن تفقد الأنثى القدرة على اجتذاب الذكور عندما يتم التلقيح، وتتميز بهذه الخاصية "فراشات الإمبراطور" وأنواع أخرى.

والنحل الذي يهاجم من يقترب من خليته يفرز مادة متطايرة في مكان اللدغ على جسم الإنسان، لتمييز الشخص الذي تم مهاجمته، فتطارده باقي أفراد الخلية، كما أن لكل خلية رائحة مميزة لها فلا تضل عنها الشغالات عند خروجها لجلب الغذاء، وعندما تعود إلى الخلية فإنها ترقص رقصات خاصة لتدل زميلاتها على مكان الغذاء

وقد شرح هذه الرقصات بالتفصيل عالم ألماني ضمنها كتابه المسمى «حياة النحل الراقص»، بعد دراسات استمرت نحواً من ستين عاماً، نال بسببها جائزة نوبل العالمية عام ١٩٧٣م. فقد تبين لهذا العالم أن للنحلة الشغالة في جسمها من الأجهزة ما يجعلها تستطيع قياس المسافات والأبعاد والزوايا بين قرص الشمس والخلية، ثم إنها تستخدم لغة سرية في التخاطب عن طريق رقصات خاصة معبرة، تنبئ بها أخواتها عن وجود الرحيق الحلو، وتحدد لهن موضعه تحديداً دقيقا من حيث زاوية الاتجاه إليه وبعده عنها.

فمثلاً، الرقص الدائري يعني وجود مكان غني بحبوب اللقاح يقع بالقرب من موقع خلية النحل، بينما يعني الرقص المتعرج الاهتزازي أن مركز الخلية بعيد عن موقع الرحيق.

وجماعات النمل أيضاً تحدد مسارها الطويل ذهاباً وإياباً بواسطة إفرازات مميزة، كما أن بعض أفراد النمل تفرز رائحة خاصة لتحذير باقي الأفراد من وجود خطر في الطريق.

وقد كشف العلماء أن أسراب الجراد التي تهاجر من بلد لآخر في أعداد هائلة تبلغ عدة ملايين، منتظمة المسار، ومحددة الاتجاه والمأوى، تتبادل الإشارات الكيميائية مع تجمعات الجراد التي هبطت على الأرض، لتتسق معها مكان الغذاء والمزروعات، وتستدل منها على إمكانية الهبوط. وقد توصل الباحثون حديثاً إلى تصنيع بعض المركبات التي تفرزها الحشرات لاستخدامها في «التشويش» على اتصالها مع بعضها حتى يمكن تضليلها والقضاء عليها بدلاً من استعمال المبيدات السامة.

وليس هناك في شك من أن كل هذه الحقائق العلمية تؤكد لنا وجود لغات مختلفة للتخاطب في عالم الحيوانات، وتدلنا على وحدانية الخالق وقدرته.

يتبع.

في أخطر "ملحمة فكرية" تعيد تفكيك الغرب

فيلسوف بولندى: الحداثة إبادة للآخر.. والعلمانية تتاجر بخوف الإنسان



للأستاذ/ محمد شعبان

في ظل الجدل المحتدم الذى تشهده ساحة الفكر العربى المعاصر حول الموقف من الغرب وحضارته وقيمه ومفاهيمه، وذلك بين تيارين أحدهما: يرى أن الغرب هو الأول والآخر والمبدأ والمنتهى لنهضة الأمة وتقدمها فى حين يرى التيار الثانى :أن العودة للأصول الحضارية للأمة والاستئناس بماضيها هو أساس النهضة ونقطة الانطلاق. فى ظل هذا الجدل، تكتسب آراء "المفكر الغربى" فى هذه القضايا قيمة جوهرية وأهمية عظمى فى حسم الخلاف أو وضع الأمور فى نصابها، لأننا بهذه الآراء سنكون بصدد أنباء من خبير وشهادة "شاهد من أهلها".

المفكر الغربى الذى سنحتكم إليه فى هذا السياق هو عالم الاجتماع والفيلسوف البولندى المعاصر زيجمونت باومان (١٩٢٥م) الأستاذ السابق بجامعة ليدز الإنجليزية وذلك عبر قراءة فى كتابيه "ولكم فى الاستهلاك حياة" و"حياة بلا روابط" الصادرين عن دار سطور الجديدة بترجمة متميزة للدكتورة فاطمة نصر فضلاً عن مطالعة بعض المقالات على صفحته بالفيس بوك.

تفكيك الغرب

تعد قراءة وتفكيك الحضارة الغربية ومفرداتها هى جوهر المشروع الفكرى لباومان وإذا أردنا الدقة هى "ملحمة فكرية" مكتملة لم تغادر صغيرة ولا كبيرة فى المشروع الغربى إلا وكشفت النقاب عنها وعن مضارها بل وكوارثها فى أحيان كثيرة.

ثمة ملحوظة بالغة الخطورة فى مشروع باومان الناقض للحضارة الغربية وهى تقاربه الكبير مع روح الحضارة الإسلامية وليس فى الأمر أى مبالغة يكفى أن تطالع فى كتابه "حياة بلا روابط" فصلاً كاملاً عن حب الجار، واصفاً هذا الحب "بميلاد البشرية"، كما رصد كيف قضت الحداثة الغربية على هذه القيمة الإنسانية.. وغنى عن البيان أهمية ومكانة حب الجار فى الإسلام، فضلاً عن تطابق كثير من رؤاه مع اجتهادات لأعلام فى الحضارة الإسلامية مثل عمرو بن عبيد زعيم المعتزلة وبعض المتصوفة.. لكن ليس معنى ذلك أننا أمام اجتهاد إسلامى؛ لأن ما يقدمه عالم الاجتماع البولندى مجرد تصور أخلاقى إنسانى يقترب كثيراً مع الإسلام، لأنه دين الفطرة السوية.

لعل الجديد الذى تضيفه هذه الملحمة ويجعلها مختلفة عن مثيلتها أنها لم تسرد بانتقائية أخطاء التجربة الغربية المعروفة والتى قتلت بحثاً وتكرار شرقاً وغرباً كالحديث عن الحروب التى أشعلها الغرب أو الاستعمار أو العنصرية التى مارستها هذه الحضارة رغم خطورتها، بل كشف باومان عن طبيعة القيم



باومان

والتصورات اللاإنسانية قام عليها بالأساس المشروع الغربى وامتدت لأمور يعتقد الجميع أنها مفيدة، بل ومن ثوابت الحضارة ويجب الأخذ بها لتقدمنا ونهضتنا كالعلم والديموقراطية وحقوق الإنسان.. لكن باومان يكشف عن تلوث هذه القيم بالروح الغربية الداروينية.

نقطة أخيرة ننوه القارئ إليها، وهى ضرورة تخليه عن تصورات وشروح المثقفين العرب لمفاهيم الحضارة الغربية ومتابعة ما يقوله باومان عن هذه المفاهيم لسبب بديهى وهو أن" أهل مكة أدرى بشعابها"، فضلا عن الفارق بين المبدع والناقل، وجل المثقفين العرب مجرد نقلة من الغرب أضف لذلك أننا نقف أمام رائد من رواد العلوم الإنسانية فى الغرب.

الحداثة

يقدم الحداثيون العرب الحداثة وكأنها الطريق الوحيد للحضارة للدرجة التى أصبحت معها الكلمة فى تصور الكثيرين مرادفاً للإبداع والحرية والانفتاح على الآخر لكن يصدم المرء ويعرف كم الزيف والتضليل الذى يمارسه هؤلاء الحداثيون العرب تجاه القارئ فبماذا عرف باومان الحداثة؟ وما هى أبرز تجلياتها فى الغرب؟

الإجابة كما يخبرنا بها عالم الاجتماع أن الحداثة ليست سوى خلق صورة أو رؤية محددة

للعالم والمجتمع من خلال عملية إبادة للمختلف عن تلك الرؤية للوصول إلى هذه الصورة الواحدة أو النمط الوحيد فى العالم وفق تصور الأقوى وهو الغرب فى لحظتنا الراهنة.

وبنص وصف الرجل للتوجه الحداثى "أسميت هذا التوجه الحديث "توجه الجنايينة :حيث يقوم الجناينية وقد تسلحوا برؤية للتناغم الكامل بفصل بعض النباتات وعزلها بصفتها حشائش ضارة ، ضيوفاً غير مدعوة وغير مرحب بها ، تدمر التناغم وتشوه المشهد. يقتضى تنفيذ الخطة أو التصميم إقامة النظام الذى خطط له، اقتلاع الأعشاب من جذورها وتسميمها بحيث تزدهر النباتات النافعة أو المحببة جمالياً" ويمضى باومان فى وصف هذه الروح العداونية "إنها الحل الأمثل التى يمكن برمجة المجتمع للوصول إليها من أجل أن يظل باقيا إلى الأبد فيما يتم إبادة جميع القوى المضادة نهائيا وعلى وجه حاسم والقضاء على جميع أعراض الانشقاق والمعارضة فى مهدها" هذا هو جوهر الحداثة، كما يصورها مفكر غربى فهى ليست سوى "تسميم" و"تدمير" وإبادة للقوى المضادة على وجه حاسم" للمختلف ووفق هذه الرؤية ينظر للاختلاف كأنه مجرد "حشائش ضارة" يجب التخلص منها..

لذا يرى باومان أن عملية التطهير العرقى التى مارسها الهلوكوست النازى ليست سوى تطبيق عملى لما هو مدون فى سفر الحداثة من إعادة ترتيب العالم وفق منطق "الجنايني" ليس هذا هو المثال الحداثى الوحيد، بل يحشد باومان العديد من الأمثلة كالاستعمار الغربى وإبادة الهنود الحمر والحروب العالمية التى خاضها الغرب فى بلدان العالم فضلاً عن التطهير العرقى فى البوسنة ومذابح الهوتو والتوتسى وغيرها.. ومن هنا يلخص باومان مسيرة الحداثة بقوله "أنتجت الحداثة منذ بدايتها كما هائلا من النفايات البشرية ومازالت تنتجها".

النقطة المهمة فى هذا السياق أن عالم الاجتماع الغربى لا يرى هذه الأحداث أمورا استثنائية أو عرضية بل ثاوية ومستقرة فى رؤية الحداثة.

لذلك ليس غريباً، بل منطقياً، أن تكون بداية معرفة عالمنا العربى والإسلامى بالحداثة مع الحملة الفرنسية الغازية التى احتفل بها الحداثيون.

العلمانية

أى محاولة لقراءة الحضارة الغربية الحديثة، فضلاً عن فهم أطرها وأسسها الفكرية لابد أن تنطلق من العلمانية.

دعاة الفكر الغربى يروجون للعلمانية على أنها المخلص والمنقذ لإخراج الفكر البشرى من منطق الوصاية لحالة الحرية والإبداع بلا حدود.

لكن باومان يقدم تصوراً مختلفاً للعلمانية فلا توجد فروق كبيرة من وجهة نظره بين سياسة العصور الوسطى فى فترة الدولة الدينية وبين السياسة العلمانية كيف ذلك؟ يرى باومان أن فكرة "الخوف" أو "عدم اليقين" ملازمة للطبيعة البشرية والشيء الوحيد الذى يهدئ من تأثير هذه الصفة هو وجود قوة فوق بشرية يلجأ إليها

الإنسان ومن ثم يرى باومان أن العلمانية لم تفعل سوى نقل هذه المرجعية من "الله" إلى الأحزاب والزعماء والقادة والأمم.. بمعنى آخر لم يتحرر الإنسان من اللاهوت السماوى، بل أصبح خاضعاً للاهوت آخر إنسانى وهو العلمانية..

وكما يقول مفكرنا "الحالة المؤبدة من عدم اليقين تفرز باستمرار طلباً هائلاً لا يمكن إشباعه لوجود قوة -أى نوع من القوة- يمكن أن تكون محل ثقة لمعرفة ما لا يعرفه ولا يستطيع الأناس العاديون الذين يعذبهم يومياً إدراكهم الكابوسى ومشاعر عدم الأمان أن يعرفوه "ويوضح طبيعة هذه القوة قائلاً" لابد أن تكون تلك القوة التى يحلم بها الناس ويسعون إليها "فوق بشرية" بمعنى ما غير محررة من جميع أنواع الضعف الإنسانى المستعصية، وأيضا محصنة ضد النقد البشرى والمقاومة البشرية.. ويضيف "بالإمكان أن يكون حاكماً كاريزميا يعلن أن لديه خطة صادقت عليها السماء ويملك خطاً مباشراً مع الإله القدير" ويوضح أكثر "قد تكون تلك القوة كياناً جمعياً مثل الكنيسة أو الحزب يلوح بسلطة المدعى العام التى وقعها على بياض الإله الحق" أى أنه لا فرق بين إدارة الكنيسة لأمور البشر وبين إدارة الحزب.

الجميع يقول تصريحاً أو تلميحاً أن لديه الحل السحرى أو الحق المطلق..لذا فالعلمانية إذن ليست متاجرة بخوف الإنسان.

ويضرب باومان مثالا لتحول العلمانية إلى خطر أكبر من الأصولية الدينية ملمحاً إلى سياسات الولايات المتحدة فى العالم اليوم قائلاً: "تستخدم الأصوليات السياسية (التى تزعم أنها علمانية) فى غالبية الأحيان اللغة الدينية التقليدية، لغة المواجهة الحتمية بين الخير والشر" وفى سياق آخر يقول "يكثر الحديث عن تسييس الدين لكن لا يوجد سوى أقل القليل من الاهتمام بـ"تديين السياسة" وهو أمر يمكن القول أنه كثيراً ما تكون تبعاته أكثر دموية".

الدين

موقف باومان من العلمانية يقودنا لعرض موقفه من الدين. . ابتداء يرفض الرجل تصور كل من ماركس وفرويد للدين فكلاهما يرى الدين" وهم" لكن الأول يراه وهما تاريخياً والآخر يراه وهما غريزياً وهو يرفض ذلك لأننا ليس لدينا تجربة واقعية تثبت أى من الحكمين فيقول: "بما أن الفرضيات المؤسسة لحكم كل من فرويد وماركس لم تخضع لمستهلها إلى الاختبارات الإمبريقية (التجريبية) أرى أن نؤجل إصدار الحكم النهائى عليها حتى يتم ذلك".

ثم يعرض لموقفه من الدين الذى يقترب كثيراً جداً من التصور الصوفى فى الفكر الإنسانى فالناس محتاجون للدين لعدم كفاية العقل البشرى وعجزه عن إدراك اللاعقلانيات التى اكتشفها الإنسان فى العالم، فضلاً عن القوى الرهيبة فاقدة الحس البكماء العمياء التى لا يمكن استيعابها فيقول ""بإيجاز البشر بحاجة إلى رب عليم قدير بصير لتفسير علة كل تلك القوى الرهيبة التى تبدو فاقدة الحس بكماء عمياء والتى لا يستطيع استيعاب البشر

وقدرتهم على الفعل والوصول إليها وتفسيرها وربما ترويضها وتدجينها".

لكنه يرفض الاعتماد على العقل والبرهان فى الاستدلال على الله، كما كان يقول أهل التصوف قديماً، ومن هنا يقول "علماء اللاهوت أضروا بالدين أكثر من نفعهم إياه حينما حاولوا الإتيان ببرهان منطقى على وجود الله" ويضيف "يحتاج البشر إلى الله لمعجزاته وليس لاتباع قوانين المنطق".

العقلانية والداروينية

يربط باومان بطريقة رائعة بين العقلانية الغربية والداروينية الاجتماعية المتوحشة كآلية للهيمنة والقضاء على الآخر، فيوضح أن العصر الحديث بدأ بنزع القداسة عن الطبيعة، كما يقول ماكس فيبر ومن ثم تم التمهيد لتأليه البشر بدلاً من الله من أجل إخضاع الحياة لإرادة الإنسان فغابت الأخلاق باعتبارها أحد التصورات الدينية الغيبية.. لكن ما الذى حل محل الأخلاق؟

الإجابة كما يقدمها باومان أنه عالم دارون الكئيب و يعبر عن ذلك بقوله": إذا لم تكن أكثر قسوة وانعداما للضمير من غيرك سيهزمونك دون شعور بأى ندم وأحياناً مع الشعور به هنا نعود إلى حقيقة عالم دارون الكئيبة: البقاء للأصلح على الدوام. أو الأحرى، فإن البقاء هو البرهان على الصلاحية".

وبلغة مؤلمة يصف هذه الروح "أكثر دروس الهلوكست بشاعة هو حق الأقوى الأكثر دهاء الأكثر مكراً وحيلة فى فعل ما بوسعهم التخطيط له كى يبقوا أطول من الأضعف عديمى الحيلة.

درس دموى مخيف لكن يتم تعلمه وتبنيه وحفظه وتطبيقه بحماس لذات السبب لابد وأن يفرغ هذا الدرس تماماً من كل الدلالات الأخلاقية حتى نخاع لعبة البقاء ذات الحاصل الصفرى كى يكون صالحاً للتبنى. الحياة تعنى البقاء يبقى من يوجه الضربة الأولى وطالما أنك الأقوى فستفلت دون أى عقاب من أى شىء ترتكبه ضد الضعفاء"... هذا هو عالم العقلانية الموعود

الديموقراطية

لم تحظ فكرة فى الحضارة الغربية بقداسة مثلما تحظى الديمقراطية التى تصور على أنها أنبل فكرة إنسانية فى المجال السياسى خصوصاً فى عالمنا العربى، بل إن الكثيرين يرون الديموقراطية امتدادا لفكرة الشورى الإسلامية ورغم خطأ وخطل هذه الفكرة إلا إنها مازالت تتردد بثقة مدهشة لكن ما هى مشكلات أو أخطاء الديمقراطية كما يصورها باومان؟

الفكرة الجوهرية التى يضعها الرجل فى سياق مناقشته لهذه القضية هى أن الديمقراطية لم يتخذها الغرب اتجاهاً له عن اقتناع أو إيماناً بإنسانيتها أو؛ لأنها رؤية متكاملة بل الأمر كله كان نتاج عوامل اقتصادية اقتضتها ظروف القرن التاسع عشر والعشرين وتطلب وجود هذا الشكل السياسى -الديموقراطية- وفق النهج الحداثى الذى يزيل ما يعوق رؤيته للعالم.

يقول باومان: "نشأت الديموقراطية الحديثة عن احتياجات مجتمع من المنتجين وطموحاته صنعت الأفكار عن تقرير المصير والحكم الذاتى على مقاس مهارات المنتجين وممارسات الإنتاج"

ثم يطرح تساؤلاً عن مدى ملائمة هذه الفكرة للعصر الحاضر قائلاً" أعتقد أن السؤال الكبير هو ما إن كان بإمكان مثل هذه الأفكار البقاء بعد تحول المجتمع من مجتمع منتجين إلى مجتمع مستهلكين؟"

ومن ثم يتساءل عن إمكانية تواجد الديموقراطية فى ظل تزايد الروح الفردية الأنانية فى مجتمعنا المعاصر؟

ثم يوجه الفيلسوف البولندى أخطر طلقة وجهت للديموقراطية الغربية على الإطلاق وهو أن نظام السوق الحر سيطر على فضاء المجتمع وحول المواطنين إلى رعايا مستهلكين ومن ثم غابت الروح النقدية اللازمة للمقارنة والاختيار كما تطلب اللعبة الديمقراطية وبنص كلامه "فى ظل حكم أصولية السوق الحر وسعت علاقات السوق من سيطرتها على الفضاء العام وعرفت الناس بتزايد، إما على أنهم رعايا مستهلكين أو سلع وبذلك قيدت فرصتهم لتعلم كيفية تطوير المدى الكامل لقدراتهم العقلية والعاطفية كى يصبحوا مواطنين ناقدين".

كما يوضح باومان أن الديمقراطية كآلية سياسية للحكم الذاتى تطلب معتقدات وقيم لاعتناق المساواة والتعاون والحرية وهو الأمر الذى يصعب وجوده فى ظل وجود سيطرة الرأسمالية أيضاً.

حقوق الإنسان

لا يكف الغرب -وخدمه فى عالمنا العربى- عن الحديث عن مبادئ حقوق الإنسان التى أرساها الغرب وذلك كدليل على أن العقل الإنسانى يمكنه إيجاد تصورات إنسانية بدون حاجة للدين، ولكن إذا سألت أحد المدافعين عن الغرب بأن حقوق الإنسان لا تطبقها القوى الكبرى سوى على مواطنيها يجيبك بعبارة متكررة مفادها أن العيب ليس فى النظرية لكن فى التطبيق الذى يخضع للكيل بمكيالين.. لكن باومان يقدم حقائق مدهشة ومذهلة عن فكرة "حقوق الإنسان" منذ نشأتها للدرجة التى تعلم بها تماما أن الغرب لا يكيل بمكيالين وأن ما يحدث فى أبى غريب وجوانتامو وما أسموه الحرب على الإرهاب مطابق تماماً لفكرة حقوق الإنسان.. أى والله هذا ما يكشف عنه مفكرنا الكبير من خلال فصل كامل ومواضع أخرى متفرقة فعن أى أسرار كشف هذا الرجل؟

يسجل باومان عدد من الملاحظات الغائبة عن الكثيرين بخصوص حقوق الإنسان أول هذه الملاحظات أن "الإعلان العالمى لحقوق الإنسان" ظهر بعد الحرب العالمية الثانية ديسمبر ١٩٤٨ م، وكان الهدف كما يوضح باومان هو تثبيت الوضع القائم وعدم نشوب أى منازعات بين الدول مرة أخرى ومن ثم صاحب الاعتراف بحقوق الإنسان الاعتراف بسيادة الدولة

نقطة أخرى بالغة الخطورة يلاحظها عالم الاجتماع البولندى أن حقوق الإنسان استندت لوثيقة وضعها الفيلسوف الألمانى «كانط» بعنوان "حقوق الإنسان والمواطن" ومن ثم ينقلنا باومان لفكرة أن المواطنة كانت متضمنة أو مفسرة للفظة إنسان بمعنى آخر أن المقصود بالإعلان ليس حق الإنسان كإنسان لكن حق الإنسان المواطن المنتمى لكيان الدولة حيث يقول: وثيقة حقوق الإنسان والمواطن" علق عليها جورجيور آجامبن لاحقا بعد أن أفاد من خبرة قرنين قبله. قائلاً: إنها لم توضح

إذا كان التعبيران «الإنسان والمواطن» هما مسميان لواقعين متمايزين أم أنه بدلا من ذلك فقد قصد دائما أن يكون التعبير الأول مضمرا في الثاني أي أن حامل الحقوق هو الإنسان الذي هو أيضا مواطن أو بقدر ما هو مواطن " ويقول في موضع آخر: "كان مفهوم حقوق الإنسان في فترة عصبة الأمم مصطلحا عقيما بلا معنى سوى ذاك الذي يشير إلى الحقوق التي تمنحها الدولة ذات السيادة" ومن ثم يتحدث باومان عن الانتهاكات الرهيبة لحقوق الإنسان لكن في إطار خارج المواطنة، كما في حالات ما يسمى "الحرب على الإرهاب" ومعسكرات الاعتقال والتعذيب المختفية التي لايعلم مكانها بمعنى أنها بعيدة تماما عن سيادة الدولة لذلك فهي ليست مخالفة لحقوق الإنسان بل تجسيد لفكرة ذاتها.

الزيادة السكانية

لا تتوقف الولايات المتحدة والدول الغربية عموما ومنظماتهم المسماة دولية عن مطالبة الدول العربية والإسلامية ودول العالم النامي جميعا بتحديد النسل واستخدام وسائل منع الحمل وذلك بحجة أن موارد هذه الدول لا تتناسب مع الزيادة السكانية.

لكن عندما سئل باومان عن السبب في دعوة بوش الدول الأفريقية استخدام وسائل منع الحمل والإجهاض ورفضه القاطع تطبيق ذلك في الولايات المتحدة كشف عن أسرار هذه الدعوة وبالأرقام الصلبة التي تؤكد مدى طمع هذه الدول والمنظمات الكاذبة في ثروات العالم النامي، حيث يوضح الفيلسوف البولندى أن الدعوة لزيادة أعداد السكان في أمريكا وأوروبا فقط يرجع إلى استفادة الشركات الكبرى من مثل هذه الزيادة السكانية من خلال ضمان مستهلكين أكثر بخلاف الإنسان الذي يعيش في العالم الثالث بدخل متواضع هذا أن وجد دخلا، ومن ثم يصبح هذا الإنسان الإفريقي كيان لا قيمة له ولا استفادة منه بالنسبة للمؤسسات الصناعية الكبرى في الغرب.

ثم يدلل باومان بالأرقام فيوضح أن الكثافة السكانية في أفريقيا ٥٥ شخصا في كل ميل مربع أما في أوروبا ٢٦١ شخص لكل ميل مربع وفي اليابان ٨٥٧ وفي هولندا ١١٠٠ وفي تايوان ١٦٠٤ وفي هونج كونج ١٤٢١٨ ويوضح "على الرغم من ذلك فإن القليلين هم من يعتبرون هولندا مكتظة بالسكان فيما تسمع إنذارات لا تنتهي عن الاكتظاظ السكاني في أفريقيا وجميع أنحاء آسيا باستثناء نمور المحيط الهادى".. ويضيف باومان "التفسير الذي يقدم لهذا التناقض الأخير هو أنه ليس ثمة رابطة كبيرة بين كثافة الاستيطان واكتظاظ السكان حيث يقاس الاكتظاظ السكاني وفقا لأعداد الناس الذين يجب إمدادهم باحتياجاتهم من خلال الموارد التي يمتلكها البلد وقدرة بيئتهم ومحيطهم على الحفاظ على الحياة البشرية".. ويكمل فكرته "باستطاعة الأمم الثرية أن يكون لديها كثافة سكانية عالية لأنها مراكز أنتروبيا مرتفعة تجتذب الموارد وبخاصة مصادر الطاقة من بقية أنحاء العالم وتعيد بدلها نفايات ملوثة للبيئة وسمية في كثير من الأحيان بعد عملية المعالجة الصناعية واستنفاد موارد الطاقة في أنحاء العالم وتدميرها" فالقضية إذن ليست ارتفاع عدد السكان، بل الخوف على نقص الموارد الواردة من أفريقيا للغرب.

ثم ينقل ما كتبه الألماني بول أرليخ في مؤتمر السكان بالقاهرة عام ١٩٩٤م، حيث قال: "لا يتقرر تأثير البشر على نظام دعم الحياة على الأرض بعدد الناس الذين يعيشون على الكوكب فقط، بل يعتمد -أيضا- على الأسلوب الذى يتصرف به هؤلاء الناس. وحينما نأخذ هذا في الاعتبار تبدى لنا صورة مختلفة تماما: تكمن مشكلة السكان الرئيسية في البلدان الثرية في الواقع فإن ثمة عددا من الأثرياء أكثر مما يجب"

المدينة

تعد المدينة-مقابل القرية- من أبرز نماذج إبداع الحضارة الغربية بعمرانها وما خلقته من قيم وأفكار ومفاهيم مختلفة عن العصور السابقة لذلك يصعب على أى متحدث عن الحضارة الغربية تجاهل هذا الجانب المهم.

قد يكون ما أورده باومان في هذا السياق من أخطر المعلومات التي تؤكد بجلاء منقطع النظير على أن الحضارة الغربية ما قامت إلا على أسس غير إنسانية وإلا فكيف يمكن فهم ما قاله باومان نقلا عن المعمارى فلاستى " الاختراعات المعمارية / الحضرية فنيا معادلات محدثة للخنادق المائية وأبراج الهجوم وجدران المدن القديمة ذات فتحات إطلاق النيران" ويضيف "لكن بدلا من الدفاع عن المدينة وكل قاطنيها ضد العدو الخارجي، كما كان الحال قديما فالإبداعات المعاصرة تقام كي ترسخ سكان المدينة وتبقى عليهم منفصلين وتدافع عنهم ضد بعضهم، ضد هؤلاء الذين يطرحون الآن بصفتهم أعداء" فليست المدينة إذن في تصويرها المعماري سوى تجسيد عملي وواقعي لمنطق هنتنجتون وفوكوياما، بل والحضارة الغربية كلها القائم على الصراع والقتال مع الآخر.. هكذا وصلت النزعة الصراعية الغربية للمسكن وللأفراد الذين يعيشون في مكان واحد.


هنتنجتون

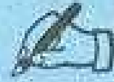
نقطة أخرى لا تقل خطورة عن سابقتها يرصدها باومان وهي أن المدينة ترتبط أساسا بالأغراب القادمين من أماكن متفرقة بحثا عن حياة أفضل ومن ثم تتكون المدينة من أغراب لا تجمعهم أى صلات أو قرابة

ما يسجله باومان في هذا الجانب هو أن المدن الحداثية بفضل ما تحويه من وسائل اتصال وطبيعة تأسيسها جعلت الأغراب "أغراب دائما" فليست ثمة إمكانية للتعرف فيما بينهم بشكل شخصي، كما كان يحدث في المدن ما قبل الحداثية وذلك حتى تكتمل حلقة الخوف التي تقوم عليها السياسة العلمانية الغربية في إدارة الدولة.

استمرار روح الغربة كان له تأثير بالغ الخطورة على مستوى آخر وهو خلق حالة من القلق وعدم اليقين الدائم.. مصدر القلق هم الأغراب مكمن العداونية التي لا تنتهي ولن تنتهي.

بعد هذا العرض الموجز والمبسط نوعا ما لفكر زيجمونت باومان اعتقد أننا جميعا مدعوون لإعادة النظر في كل مفردات الحضارة الغربية حتى لا نسقط في شراك الوهم والانبهار الكاذبين بمزايا هذه الحضارة.

وسائل انتشار الإســـلام فى إفريقيا (٣)



للأستاذة الدكتورة حورية توفيق مجاهد
أستاذ العلوم السياسية، جامعة القاهرة

ثالثا، المشايخ: المرابو أو الملا:

من الظواهر واسعة الانتشار فى إفريقيا وجود المشايخ الذين يطلق عليهم أسماء عدة أشهرها «المرابو» فى غرب إفريقيا والملا (١) أو المعلم فى شرق إفريقيا وقد اكتسب المرابو خاصة فى غرب إفريقيا أهمية خاصة حيث لعبوا ومازالوا يلعبون دورا أساسيا فى نشر الإسلام وهو دور يتميز بتعدد أبعاده ونسلط التركيز على المرابو ودورهم فى وجه الخصوص لأهميته وتبلوره.

وكلمة مرابو الواسعة الانتشار تبدو غريبة على العربية فهى كلمة فرنسية «MARABOUT» (٢)، ولكنها فى حقيقتها مستمدة مباشرة من العربية من كلمة مرابط وهذا التعبير يأتى من كلمة رباط ويرجع انتشار الكلمة فى غرب إفريقيا إلى الرباط الذى أنشىء فى السنغال بأبعاده الدينية والعسكرية وإن كانت الكلمة أصبحت تعنى وجود أحد المشايخ وحوله مريدوه أو طلبته دون الارتباط بالانتماء إلى رباط بالمعنى المذكور من قبل(٣).

والمرابو أقدم تاريخيا فى إفريقيا من الصوفية التى تبلورت بها فى نهاية القرن التاسع عشر، وإن كان ظهورها قد أمدهم بدفعة قوية نتيجة الانجذاب إليها حيث ازداد عددهم وتحدد نظامهم وتبلورت المؤسسية وأصبحت لهم هيراركية فى تنظيمهم الداخلى، هذا فضلا عن ازدياد قوتهم فى المجال السياسى - الاجتماعى، مما أكسبهم المزايا الاقتصادية التى كرست قوتهم ونفوذهم وقد أسهم المرابو فى نشر الدين الإسلامى الذى استطاع بواسطتهم الوصول إلى الوجود الشخصى والاجتماعى للفرد استنادا على القرآن أساسا كمصدر للوعظ والإرشاد وقد اعتمد المرابو على ما

(١) MULLAH وتعنى الشيخ أو الفقيه الشرعى «الولى».

(٢) وجمعها أيضا مرابو «MARBOUTS».

(٣) انظر ص٣٢ - ٣٣ من هذا المؤلف ولمزيد من المعلومات عن المرابو، انظر:
Christian coulon, le marabout et le prince: lslam et pouvoir au senegal, paris: Apedone, 1981.

يتمتعون به من كاريزمية وقدرة على بسط النفوذ على شعوبهم استنادا على تفوقهم الدينى والفكرى(٤) والأهم الإيمان من جانب شعوبهم، بذلك التفوق والتميز.

وعليه فإن انتشار الإسلام فى العديد من المناطق الإفريقية يرتبط بالانتماء لأحد هؤلاء المشايخ أو المرابو بحيث إن الكثير من الإفريقيين يتفاخرون بانتمائهم هذا بل إن البعض لا يفهم الإسلام إلا فى شكل هذا الانتماء(٥).

وعادة ما يجمع المرابو أتباعه فيما يعرف بالديرة(٦) التى تقوم على أساس جغرافى أو على أساس مواقع العمل بحيث تسهم فى التلاحم الشخصى بين المشاركين فيها عن طريق ما تؤديه من دور مزدوج - بالإضافة بالطبع لدورها الدينى الأساسى - حيث تحقق الترابط الاجتماعى والتكافل بما يقدم فيها من مساعدات اجتماعية ومالية للمحتاجين، كما تمثل الخلية الحقيقية لتحريك الأتباع نحو الأهداف السياسية والاقتصادية وغيرها.. وعادة ما تقوم بتطوير المزارع الجماعية بما يكرس مكانتها الاقتصادية ومن ثم الاجتماعية والسياسية مما يجعلها تجمعات «شبه إقطاعية»(٧) . الأمر الذى يكسب رأسها المحرك - المرابو - مكانة خاصة ليس فقط بين أتباعه ولكن فى مواجهة السلطة السياسية القائمة سواء محليا أو على المستوى القومى وسواء فى ظل الحكم الاستعمارى أو الحكومات الوطنية.

وقد استطاع المرابو أن يلعبوا أدوارا عدة وأن يطوروا أنفسهم مع تطور المجتمعات: فقيامهم

(٤) انظر لمزيد من المعلومات:
Moreau, op. cit, pp. 242-256

(٥) J.ki-zerbo, Le monde Africain Noir, Histoire et civilisation, paris: Hatier 1963, p. 66

(٦) coulon, op. cit, pp. 135-6.

(٧) Ibid, p. 140.

بدور شخصى واجتماعى فى مناطقهم المحلية ـ حيث التلاحم مباشر مع أتباعهم ـ أكسبهم دورهم الاقتصادى والسياسى المتميز.(٨)

فالمرابو يقوم بتحفيظ الأطفال القرآن ويوفر العون والملجأ للفقراء والعجزة، مع جمع وتوزيع أموال الزكاة(٩).. ونظرا لما يتميز به المرابو من المعرفة الدينية فقد اكتسبوا تبجيلا قد يصل إلى حد القدسية بين شعوبهم، وقد كرس هذا قيام المرابو بكتابة الأحجبة والتعاويذ المتضمنة لبعض فقرات من الآيات القرآنية والرموز العربية وفك أعمال السحر.. وبالتالى فهو يقوم بدور المداوى (المبرئ) يحل فى ذلك محل الشفاء التقليدى القائم على السحر والأطباء السحرة ـ فضلا عن استمداد البركة منهم(١٠).. كما أن البعض من المرابو يعمل بالتنجيم، والكثير منهم ينجح فى الاستسقاء عن طريق الصلاة.

مما يسهم فى دعم صورته فى جماعته المحلية على أنه ليس فقط رجل معرفة بل صانع المعجزات التى تخدم جماعته، فضلا عن هذا فإن لهم دورهم فى التلقين والتدريب بالنسبة لشعوبهم والانتقال بالأجيال من مرحلة إلى أخرى، وهو أمر تعرفه المجتمعات الإفريقية على وجه الخصوص حيث هناك طقوس ومراسم تتبع فى الانتقال عبر المراحل العمرية، ومن الأدوار المهمة التى قام بها المرابو هو الوساطة والتحكيم فى المنازعات بين القبائل، والقضاء والفصل فى المنازعات القبائل والقضاء والفصل فى المنازعات بين الأفراد من جهة، وتنمية التجارة والتبادل والتعاون بين أعضاء القبائل من جهة أخرى(١١)، وقدم قام العديد منهم بدور المجاهدين سواء فى وجه الاستعمار أو فى وجه من يدينون بالديانة التقليدية ـ دين الأجداد ـ كما اكتسب الكثير منهم النفوذ والسلطة أثناء الحكم الاستعمارى الذى استخدم العديد منهم كوكلاء للإدارة الاستعمارية ـ فضلا عن تمثيلهم لشعوبهم ـ وذلك استنادا لنفوذهم بين تلك الشعوب، ذلك النفوذ الذى يبدو واضحا فى قدرة بعض زعامات المرابو فى السيطرة على آلاف الأصوات من أتباعهم، وبالتالى التأثير على نتائج الانتخابات سواء فى الفترة الاستعمارية قبل رحيل الاستعمار أو بعد الاستقلال والمثل واضح فى السنغال حيث تلعب المريدية دورا مهما فى الحياة

(٨) Moreau, op. cit, p. 245.

(٩) Monteil, op. cit, p. 159.

(١٠) يوضح الدكتور على مزروعى أن المداوين المسلمين اكتسبوا شهرة كبيرة فى مجال قدرتهم على الشفاء وأن الكثير من مرضاهم من غير المسلمين بما فيهم المسيحيين، وأنهم يستخدمون آيات من القرآن وكذلك ما هو شائع فى إفريقيا من الكتابة بالحبر القابل للغسل على لوحة من الأردواز وغسلها بالماء، ويقوم الشخص بشرب ما أطلق عليه «الآيات المقدسة»، وتجدر الإشارة إلى التداوى بالأعشاب واستخدامه فى هذا المجال.

انظر:
Mazrui, Islam in Sub-Saharan Africa cit. p.263.

(١١) Monteil, op.cit,p. 157-159.

السياسية(١٢).

كما أن العديد من المرابو استطاعوا أن يواكبوا التطور الاقتصادى ليصبحوا من التجار أو من رجال الأعمال ويثروا من هذا النشاط ذلك فضلا عما يتكسبونه من الأتباع.

بل أن التطورات الأخيرة فى شمال إفريقيا وخاصة الجزائر ومصر والسودان التى شهدت نشاط الجماعات الإسلامية والنشاط السياسى باسم الدين الإسلامى وجدت صداها فى جنوب الصحراء، وفى ظل هذه التطورات عمل المرابو على مواكبتها بالقيام بدور الترشيد والتحريك حول طبيعة الإسلام القائم أساسا على الوسطية والبعد عن التطرف.

وعليه فإن المرابو ليس مجرد رمز اجتماعى ولكنه يؤدى دورا وظيفيا متعدد الأبعاد فى حياة المجتمعات الإفريقية.

رابعا: المعلمون والدعاة المحليون:

إذا كانت هناك العديد من التحفظات حول مدى نقاء الإسلام الذى يتم على يد الكثير من أتباع الطرق الصوفية وما أدخلوه من شوائب على بساطة الدين الإسلامى وتعاليمه، إلا أن هناك دورا آخر يقوم به المعلمون وعلماء الدين خاصة المحليون من تعميق إسلام الإفريقيين، حيث أكملوا عمل التجار وقاموا بتدعيم عملية التحول للإسلام، فكلما تطور مجتمع إسلامى احتاج الأمر لوجود المعلمين وعلماء الدين لتعليم الأفراد مبادئ الدين الجديد، بل أن البعض من علماء الدين من الإفريقيين أسهم إسهاما كبيرا فى إثراء الحضارة العربية الإسلامية، ليس فقط على مستوى إفريقيا وحدها ولكن فى البلاد الإسلامية الأخرى حيث قام بعضهم بالتدريس فى الجامعات والمراكز الإسلامية المختلفة كما أصبح الكثير من مؤلفاتهم يدرس بها(١٣).

ومن الظواهر الجديرة بالملاحظة فى إفريقيا وجود دعاة مجهولين متطوعين لنشر الإسلام والتنقل من مكان لآخر للعمل لهذه المهمة تطوعا فيما يطلق عليه «السياحة»، وهم بذلك يعدون بمثابة الجنود المجهولين فى الدعوة الإسلامية، وهم يختلطون بالأهالى حيث إنهم فى معظم الأحوال منهم ويعقدون حلقات النقاش والتفسير، ويجذبون حولهم الكثيرين ويسهمون فى تعميق فهم الأفراد للإسلام، وقد تفقه العديد من هؤلاء فى أمر الدين، وفى التبحر فى اللغة العربية وهم فى معظمهم من نتاج مدارس وجامعات شمال إفريقيا، ويلعب الأزهر وشقيقاه الزيتونة والقيروانة وغيرهما دوراً أساسياً فى تفريخ أجيال من العلماء ودارسى أصول الدين المحليين الذين أسهموا فى تدعيم وتوثيق جذور الإسلام

(١٢) لمزيد من المعلومات انظر: د. إجلال محمود رافت، «الدور السياسى للإسلام فى السنغال: دراسة تحليلية للطريقة المريدية، سلسلة بحوث سياسية، رقم ٢٩ مركز البحوث والدراسات السياسية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، ١٩٨٩م.

(١٣) لمزيد من المعلومات انظر: د. أحمد إبراهيم دياب، «علماء بلاد السودان الغربى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وآثارهم العلمية، فى: ندوة العلماء الأفارقة مرجع سابق، ص ١٤٥ ـ ١٥٧، انظر أيضا: بدرود كاتيريغا «علماء شرق إفريقيا وإسهاماتهم فى الثقافة والحضارة الإسلامية ـ العربية فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، فى ندوة العلماء الأفارقة..، مرجع سابق ص ٢٦٣ - ٢٨٤.

مع محاولة تخليصه مما قد يكون قد لحق بفهم العامة عنه من شوائب، وقد نجح الكثير من هؤلاء الدعاة فى إدخال آلاف من الإفريقيين فى الإسلام، بل هناك قرى بأكملها تنضم إليه بجهودهم، ويتحول على يديهم الأفراد ليس فقط من الديانة التقليدية بل من المسيحية، وهم يجمعون فى نشاطهم بين تحفيظ القرآن، وتفسير الأحاديث، والدعوة لمكارم الأخلاق وفقا لتعاليم الإسلام أى يتناولون جوانب العبادات والمعاملات فى الإسلام، وعادة ما يتلون القرآن بالعربية ويفسرون ويعظون باللغات المحلية.

ولقد ازدهرت مراكز علوم إسلامية بفضل وصول المعلمين وعلماء الدين من الحجاز وشمال إفريقيا لنشر تعاليم الإسلام ومن أهمها مركز جينى (أو جنة)، وتمبكتو فى الغرب وهرر فى الشرق، وكان لهم دور مهم فى تحقيق الاندماج والتماسك، كما قاموا بالوساطة الداخلية بين القبائل والعشائر فى المجتمعات غير المركزية، فضلا عن الوساطة الخارجية، كمبعوثين، لمعرفتهم باللغة العربية ودرايتهم بالشريعة الإسلامية، كما تولوا تدوين دفاتر الحسابات وتسجيل قضايا المحاكم وعملوا كمستشارين للحكام وكحرس خاص للحكام[١٤].

ومن الأمور الملاحظة فى إفريقيا استخدام المديح والمداحين «Griots» أو ما يعرفه البعض بالأدب الشفاهى [١٥]، ونشاطهم فى نقل الروايات والأحاديث ودورهم فى جذب الأفراد للإسلام عن طريق قرض الشعر والزجل والتقاليد الشفهية والتواتر عن آبائهم وأجدادهم.

ومن الظواهر الجديدة / القديمة فى مجال الدعوة فى إفريقيا، إيفاد دعاة رسميين من جانب الدول الإسلامية، وعادة ما يكون هذا بناء على طلب الدول الإفريقية استجابة لشعوبها، ومن ذلك ما يقوم به الأزهر وبعثاته وكذلك إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية ومنظمة الدعوة الإسلامية العالمية بليبيا وغيرها، وفى هذا المجال يلاحظ إنشاء العديد من معاهد الدعوة المتخصصة لتخريج دعاة مؤهلين للمناطق المختلفة والهدف الأساسى ليس الإدخال فى الدين ـ وإن كان هذا يتحقق تلقائيا ـ بقدر تعميق فهم الدين. وعادة ما تنشط الزيارات فى المواسم الدينية، خاصة فى شهر رمضان والأعياد الدينية.

خامسا: المسلمون من ذوى الأصل الآسيوى: حالة جنوب إفريقيا

لعبت التحركات السكانية من جانب المسلمين دورها المهم فى نشر الإسلام، ويعتبر انتشار القبائل العربية مثل بنى هلال فى شمال

(١٤) Lewis, op.cit,p. 28-31.

(١٥) وفى هذا المجال يوضح أمباى لويشير بأن «أقدم ملحمة شعرية وأوثقها ضمن المأثورات الحية فى الثقافة الإفريقية هى تلك التى يتوارثها أساتذة الكلمة «بلان تيغى» من شعراء الماندنج فى غرب إفريقيا على مر الأجيال، وكانت نشيد الشرف فى بلاط الملك سنختاكيتا «سوندياتاكيتا» إمبراطور مالى الكبير وهى تزيد عبقرية وشجاعة وإسلام مجتمعة فى حياة هذا الرجل العظيم».

انظر: أمباى لويشير، قضايا اللغة والدين فى الأدب الإفريقى، القاهرة: مركز دراسات المستقبل الإفريقى، ١٩٩٦، ص ١٠٥.

إفريقيا من بوابتها الشمالية الشرقية فى مصر المثل الأكبر على دور هذا العامل فى انتشار الإسلام فى القارة، وبنفس المثل الانتقال البشرى والاستقرار من جانب بعض العناصر المسلمة العربية ـ خاصة من عمان ومسقط ـ أو الإيرانية ـ الشيرازية ـ فى شرق إفريقيا.

فمن عوامل انتشار الإسلام فى إفريقيا وجود المستوطنين من ذوى الأصول الآسيوية سواء من الملايو فى جنوب إفريقيا والهنود المسلمين فى شرق القارة ووسطها وجنوبها، واللبنانيين فى غرب إفريقيا، وقد عملوا جميعا كمراكز إشعاع رئيسى للإسلام حيثما وجدوا، وقد جاء هؤلاء لأسباب مختلفة واستقروا وعملوا أساسا بالتجارة والخدمات والزراعة، وكونوا جماعات مميزة تقع فى الهيراركية الاجتماعية فى إفريقيا بعد الأوروبيين وقبل الإفريقيين، وقد لعب هؤلاء دورا مهما فى انتشار الإسلام فى المناطق التى استوطنوا بها.

وسنركز على وجه الخصوص على حالة جنوب إفريقيا [١٦] حيث كثيرا ما يتساءل البعض عن أسباب انتشار الإسلام فى تلك المنطقة النائية فى أقصى القارة بعيدا عن مراكز انتشاره وتمركزه سواء فى شمال القارة وغربها أو على سواحلها الشرقية، ومن الجدير بالذكر فى هذا المجال أن المسلمين فى جنوب إفريقيا قاوموا الطرق الصوفية التى تخلط بين الإسلام والأفكار الدخيلة عليه مثل الأحمدية على خلاف ما تم فى شرق إفريقيا خاصة[١٧].

وترجع جذور الإسلام فى جنوب إفريقيا إلى أكثر من ثلاثمائة وخمسين عاما مضت مرتبطا بحدث خارج عن القارة نفسها وبعيدا عن الإسلام وهو قيام شركة الهند الشرقية بإنشاء محطة التموين سفنها فى طريقها لجزر الهند الشرقية، حيث واجه الاستعمار الهولندى لمنطقة إندونيسيا وجزر الملايو ثورة إسلامية قوية ـ وهو ما عرفه المد الاستعمارى بعد ذلك فى الدول الإفريقية أيضا ـ قامت معها الشركة بنفى زعماء تلك الثورة الإسلامية مع أسرهم إلى جنوب إفريقيا حيث استقروا ممثلين المكانة التالية للملونين [١٨] ـ الذين جاء ترتيبهم التالى للبيض الذين يحتلون القمة ـ وقبل الإفريقيين فى القاع، وقد عمل المسلمون الأول من الملايو بالحرف والمهن الصناعية[١٩].

وإن كانوا لم يستطيعوا الحصول على الجنسية وخضعوا للعمل الجبرى وتصاريح المرور مثل الإفريقيين كما طبقت عليهم نفس الإجراءات القهرية من التفتيش دون أذن قضائى والزج فى السجن دون محاكمة،

(١٦) د. السيد على أحمد فليفل، الدولة العثمانية والمسلمون فى جنوب إفريقيا: دراسة وثائقية للفترة من ١٨٥٦ ـ ١٨٧٨م، أوراق إفريقية ٣، القاهرة، مركز دراسات المستقبل الإفريقى، ٢٠٠٠م.

(١٧) P. M. Holt & others (eds.),the Cambridge History of Islam Vol.2: The Further Islamic Lands, Islamic Society and Civilization, Cambridge University press 1970,p.405.

(١٨) ويقصد بهم فى جنوب إفريقيا ذوى الأصل المختلط من عناصر مختلفة من البيض والسود، أو الآسيويين والبيض ويعرف ذوو الأصل المختلط عامة باسم المتيس Mitis أو الملاتيس Mulattoes.

(١٩) السيد فليفل، مرجع سابق، ص ٢٥.

وكذلك خضعوا لضرائب أعلى من تلك المفروضة على الأوروبيين، وقد حرص زعماء المسلمين (٢٠) من الرعيل الأول منذ قدومهم على المحافظة على هويتهم الإسلامية، وممارسة شعائرهم مع دعوة غير المسلمين من الأفارقة إلى الإسلام مما أدى إلى بداية انتشار الإسلام خارج مستعمرة الكاب، وقد حرص مسلمو الملايو على تعليم أبنائهم فى الكتاتيب التى أنشئوها لهذا الهدف محافظة على التعاليم الإسلامية والهوية، وما لبث أن جاءت أفواج من العرب للتجارة حاملة الكتب الدينية والمصاحف وأقام بعض العلماء العرب بينهم لنشر التعاليم الإسلامية بعد أن سمعوا بأمرهم وجودهم فى المحافظة على هويتهم مع مقاومتهم للتبشير المسيحى خاصة بعد استعمار بريطانيا للمنطقة وبصفة خاصة بعد عام ١٨٠٦.

وقد كان لهؤلاء المهاجرين من ذوى الأصل الآسيوى من الملايو مميزات دعمت من تماسكه فهناك العقيدة والزعامة التى يلتف حولها الأفراد كما أنهم لم يكونوا أقلية فى العاصمة كيب تاون بل مثلوا نحو نصف سكانها(٢١)، مما مكنهم من الصمود فى وجه ضغوط الحكومة البريطانية وسلطاتها الاستعمارية والتى اضطرت فى النهاية إلى بحث مسألة مسلمى الكاب فى إطار بحث مشكلة المساواة بين الأجناس، الأمر الذى انتهى بالسماح بممارسة العقيدة الإسلامية علنا عند إصدار القانون رقم ٥٠ الذى نص على المساواة بين الجميع بغض النظر عن اللون أو الجنس مما مكن المسلمين من الحصول على المساواة وحق المواطنة، وبالتالى أسهم فى زيادة أعداد الوافدين الجدد وإطلاق طاقاتهم فى التنمية فى المجتمع وفى النشاط الثقافى الأمر الذى أدى بالحكومة البريطانية إلى التأكيد على دورهم الإيجابى والإشادة بأن «طبقة المسلمين جميعها تعتبر إضافة قيمة»(٢٢).

وقد دعم المسلمون من ذوى الأصل الملاوى مكانتهم بالاشتراك فى الدفاع عن الكاب كلما تعرضت لغزو عسكرى وقد تم ذلك فى مواجهة الأنجليز ثم القبائل الداخلية الإفريقية، وقد ساعدهم فى التفوق العسكرى الذى شهدت به الحكومة البريطانية تماسكهم وقوة عقيدتهم ورغبتهم فى إثبات ذاتهم وتميزهم، ومن الجدير بالذكر أنه رغم هذا التميز العسكرى إلا أنهم لم يمارسوا الجهاد ضد السلطات الاستعمارية البريطانية أو البوير المستوطنين البيض ربما لمعرفتهم مسبقا بأن الناحية العددية ليست فى صالحهم.

أما الرعيل الثانى من المستوطنين المسلمين ذوو الأصل الأسيوى فيتمثل فى الهنود الذين أتوا بعد قيام ثورة فى الهند عام ١٨٥٧م ضد السيطرة الاستعمارية البريطانية، قامت على أثرها بريطانيا بنفى زعمائها إلى جنوب إفريقيا - أقليم الناتال كما فعلت من قبل مع زعامات ثورة الملايو، كما قامت بالتعاقد مع العمال الهنود للعمل فى مزارع قصب السكر، والقطن

(٢٠) انظر لمزيد من المعلومات، المرجع السابق، ص ٢٧ - ٣٩.

(٢١) المرجع السابق، ص ٣٣.

(٢٢) المرجع السابق، ص ٣١.

فى جنوب إفريقيا والصناعات القائمة عليها، حيث لم تستطع توفير العمالة من الإفريقيين الزولو الذين قاوموا العمل فى مزارع البيض ومصانعهم (٢٣).

وقد دعم من وضع المسلمين فى الناتال والترنسفال قيام التجار المسلمين من الهنود بالتجارة مع جنوب إفريقيا واختيارهم وكلاء لهم من المسلمين المقيمين، ومن ثم كان توجه هؤلاء إلى الهند وارتباطهم بها - حيث عادة ما يرسلون أبناءهم لاستكمال تعليمهم بها، ويرسلون أموالهم المدخرة إليها، كما يدفنون رفات أمواتهم فيها فى النهاية، وقد زاد عدد المهاجرين الهنود للعمل فى جنوب إفريقيا بعد عام ١٨٦٠، ولعب التجار المسلمون الهنود دوراً مهما فى نشر الإسلام بين الإفريقيين(٢٤).

فمن المعروف عن الهنود مهاراتهم كتجار وأسلوبهم فى جذب المتعاملين معهم بالبيع بالأجل والتسهيلات التى يقدمونها والروابط المباشرة التى يقيمونها مع الأهالى حيثما حلوا: فقد كانوا حملة ليس فقط للتجارة بل للإسلام فى تلك المنطقة النائية من إفريقيا، وقد نشط مسلمو الكاب وامتد تنظيمهم الاجتماعى إلى كافة مسلمى جنوب إفريقيا والمناطق الأخرى فى جنوبى القارة تحت الحكم البريطانى (٢٥)، وقد دعمهم فى موقفهم شخصية لامعة أصبحت من أشهر البرلمانيين فى مستعمرة الكاب وهو دى روبيه الذى أخذ على عاتقه بجديه الدفاع عن المسألة الإسلامية والوساطة بين مسلمى جنوب إفريقيا خاصة أتباع الطرق الصوفية وأهل السنة الذين قاوموا بدع الأول وسعوا لتنقية الممارسات الإسلامية من الشوائب، ومن الجدير بالذكر أن دى روبيه وهو فرنسى الأصل لم يكن مسلما وإن كان قد لعب دورا قياديا مهما بين المسلمين دفاعا عنهم وعن مصالحهم ونشاطهم، وقد استطاع إقامة علاقات وطيدة مع الدولة العثمانية من أجل هذا الهدف واستطاع بهذا تدعيم نشاط المسلمين فى إصلاح المساجد وبناء المدارس والمستشفيات، ومع محدودية الرعاية التى قدمتها الدولة العثمانية لهم إلا أنها كانت إيجابية فى ازدهار مصالح مسلمى الكاب وجنوب إفريقيا عامة على الرغم من خضوعهم للحكم الاستعمارى

(٢٣) انظر لمزيد من المعلومات، المرجع السابق، ص ٤٨.

(٢٤) لمزيد من المعلومات انظر المرجع السابق، ص ٤٨ وما بعدها.

وعن وضع الهنود ونشاطهم بعد تلك الثورة، انظر شاء متيز صادق «الهنود فى جنوب إفريقيا: ١٨٦٠ - ١٩٢٧»، رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة: معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة ١٩٩٣، ولمزيد من المعلومات عن الجالية المسلمة فى جنوب إفريقيا وزعاماتها وممارساتها للدين انظر:

Abdulkader Tayob, islam in South Africa, Gainesville florida: University Press of Florida 1999.

(٢٥) د. سيد فليفل، مرجع سابق ص ٦١.

للبيض[٢٦]، وقد حقق المسلمون فى الكيب وناتال نجاحاً فى شأن الاعتراف الرسمى بالزواج فى إطار الشريعة الإسلامية - فى شأن تعدد الزوجات - أو كما تمت الإشارة إليها: «طبقاً للعادات والأعراف المحمدية»[٢٧].

ومن أهم مظاهر رعاية واهتمام الدولة العثمانية بمسلمى جنوب إفريقيا إرسال وفد رفيع المستوى من علماء الدين - من قبل السلطان عبدالعزيز بعد توليه عام ١٨٦١م - للتعرف على أحوال هؤلاء المسلمين فى أقصى جنوب القارة وتحديد احتياجاتهم والمصالحة بين أتباع الطرق الصوفية وأهل السنة منهم، كما قدمت للمسلمين الهنود فى ناتال المساعدات من جانب الباب العالى فى مواجهة أزمة الجفاف التى مرت بها البلاد والكساد الناتج عنها والذى أفقدهم أعمالهم ومصادر رزقهم.

وقد عين دى روبيه قنصلا عاما للدولة العثمانية فى جنوب إفريقيا ومقره كيب تاون الأمر الذى وافقت عليه الحكومة البريطانية عام ١٨٦٣[٢٨]، مما يدل على اهتمام الدولة العثمانية، مقر الخلافة الإسلامية فى ذلك الوقت بمسلمى جنوب إفريقيا، كما يدل أيضا على نشاط هؤلاء، وعلى ما بذل دى روبيه نفسه من نشاط وجهد فى رعايتهم والدفاع عن مصالحهم، وبزيارته للقسطنطينية بهذه الصفة شرح دى روبيه أوضاع المسلمين واحتياجاتهم كذلك وضع المسلمين من الهنود فى ناتال، وبناء عليه تم تأسيس عدد من المساجد على نفقة الدولة العثمانية والتقريب بين أتباع الطرق الصوفية والسلفيين من أهل السنة، وقد خصصت الحكومة العثمانية مبلغا من المال لقنصلها العام دى روبيه للإنفاق على بناء وإصلاح المساجد ومساعدة المسلمين الهنود فى ناتال، وقد عبر مسلمو الكيب وناتال عن الامتنان للسلطان العثمانى بالاحتفال بعيد ميلاده.

وكان لتماسك المسلمين وتمسكهم بشدة بموقفهم الرافض لشرط تعليم العقيدة المسيحية فى المدارس مع جهود القنصل العام ودعم الدولة العثمانية أثره فى استثناء المسلمين من هذا الشرط خلال الدورة البرلمانية لعام ١٧٦٧، الذى يعد إنجازاً كبيراً، وما لبث أن نظمت رحلات الحج للأماكن المقدسة فى الحجاز، وبدأ تعليم اللغة العربية فى المدارس بالنسبة للمسلمين مع إرسال البعض للدراسة فى الأزهر فى مصر، وقد تدعمت العلاقة بين مصر وجنوب القارة فى عهد الخديوى إسماعيل وازدادت رعاية الوافدين من الجنوب فازداد عدد الدارسين بالأزهر، بل قام أحد علماء

(٢٦) المرجع السابق، ص ٦٢.

ومن مظاهر اهتمام الدولة العثمانية بمسلمى الكيب زيارة باخرة عثمانية - بروما - بقيادة ربان تركى فى سبتمبر ١٨٥٩م لميناء سيمونز تاون، التى كانت فرصة لإظهار مسلمى الكاب مشاعرهم نحو إخوانهم فى الدين وممثلى دولة الخلافة الإسلامية.

(٢٧) المرجع السابق، ص ٦٤.

(٢٨) المرجع السابق ص ٦٧.

الأزهر بالدعوة بنشاط بين مسلمى الملايو، وقام بتأسيس مدرسة الأزهر فى كيب تاون مما ساعد على نشر الدعوة الإسلامية بين الإفريقيين فى تلك المنطقة النائية، وقد كانت الدروس الدينية وخطب الجمعة فى المساجد تلقى باللغة العربية، كما قامت وزارة التعليم بالحكومة العثمانية بجهود من الأزهر[٢٩] فى عام ١٨٧٧ بإصدار كتاب بلغة أهل الملايو فى الكتاب خاصا بمبادئ الدين الإسلامى فى جوانب العبادات والمعاملات وأرسل إلى جنوب إفريقيا.

وباختصار فإن وجود المسلمين من ذوى الأصل الأسيوى فى جنوب إفريقيا كان العامل الأساسى فى انتشار الإسلام فى تلك المنطقة النائية فى القارة، وعلى الرغم من نسبتهم المحدودة، إلا أنهم كانوا نقلة للإسلام الذى فتح لهم الباب على العالم الخارجى غير الأوروبى الغربى الذى جاء به المستعمر والمستوطن الأبيض والذين عانوا من وجهيه، حقيقة أن المسلمين من هؤلاء المستوطنين - سواء جاءوا من الملايو أو الهند، وسواء كان مجيئهم جبرا مثل الزعماء المنفيين المناهضين للاستعمار فى موطنهم الأصلى، أو إراديا للعمل والتجارة - مثلوا طبقة متميزة نسبيا بين الإفريقيين، إلا أنهم سعوا لنشر الإسلام بينهم حيث جمعتهم جميعا المعاناة من المجتمع القائم على سياسة الأبرتهايت أو الفصل العنصرى ومن ثم شاركوا فى الكفاح ضد تلك السياسة، الأمر الذى زاد من مكانتهم وأسهم فى انفتاح الإفريقيين على الإسلام، ومن الجدير بالذكر أن أول من نبه إلى مساوئ التفرقة العنصرية فى جنوب إفريقيا - كما طبقتها حكومة البوير رسميا بعد مجيئها للسلطة عام ١٩٤٨ - ومعاناة غير البيض منها كان الزعيم غاندى، الذى عمل لفترة محاميا فى جنوب إفريقيا، وذلك فيما رفعه للأمم المتحدة بهذا الشأن عام ١٩٥٢، والذى مثل أول معول فى هدم سياسة الأبارتهايت فى جنوب إفريقيا وتولى الأغلبية السوداء الحكم فى ظل الزعيم نلسون مانديلا عام ١٩٩٤، الأمر الذى فتح الباب لمزيد من نشاط المسلمين من ذوى الأصل الآسيوى فى التعامل مع الإفريقيين ونشر الإسلام بينهم، وامتداد نشاطهم إلى الدول المجاورة فى زيمبابوى وزامبيا وموزمبيق وناميبيا مما يسهم فى تفسير زيادة نسب المسلمين بها فى السنوات الأخيرة[٣٠].


نلسون مانديلا

«يتبع»

(٢٩) المرجع السابق ص ٧١ - ٧٢.

(٣٠) ومن الجدير بالملاحظة فى هذا المجال أن واحدة من أكبر المبانى فى مدينة دربان بجنوب إفريقيا مكتوب عليها «مرحبا بكم فى الإسلام Welcome To Islam» بحجم المبنى، ولا ننسى فى هذا المجال جهود الداعية أحمد ديدات ومناظراته حول الإسلام التى اكتسبت شهرة واسعة فى كافة أنحاء العالم، والذى أنشأ بها جامعا ومركزا إسلاميا كبيرا.

الفريضة الخامسة في فكر الشيخ محمد الغزالى





للدكتور/ وصفى عاشور أبو زيد

الحج هو الشعيرة الخامسة من شعائر الإسلام الكبرى، رحلة يطوى فيها المسلم بعده عن البيت العتيق؛ ليتفقد سيرة أبيه إبراهيم، ورسوله الكريم، يحدوه فيها الشوق والوجد، وتغمره خلالها مشاعر الرضا والفرحة، ويستشعر فيها ضعفه وحاجته، ويتجسد أمامه ضعف العبودية، ويرى بعين قلبه عظمة الربوبية، تاركا وطنه وأهله وماله، متوجها بقلبه وجسده وعقله إلى الله، طالبا منه العفو والصفح والقبول دون سواه.

ولقد تحدث الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالى - يرحمه الله - عن هذه الشعيرة العظيمة حديثا لا تكاد تجده على هذا النحو عند أحد من علمائنا رضى الله عنهم وقدم فيه أفكارا جديدة، وأشار إلى لفتات إيمانية وروحية، ووضع أيدينا على جوانب اجتماعية وسياسية لا يسعنا إلا أن نقف أمامها نأخذ الموعظة البليغة والعبرة النافعة من هذه النظرة الفريدة التى تمثلت فى العناوين الآتية:

- الحج نداء قديم جديد.
- الحج طاعة مطلقة وانقياد تام وتناغم كامل.
- أفعال الحج ترتبط بأحكام لا ينكرها العقل.
- الحج وفاء وتلبية وإخلاص.
- الحج وحدة وتجرد.
- الحج ثقة فى الله وتوكل عليه.
- الحج يجمع بين العقل والعاطفة.
- ذكر الله أساس فى مناسك الحج.
- الحج اهتمام بالجانب السياسى فى الأمة.

أولا: الحج نداء قديم جديد:

فى زحمة الحياة ومعركة الخبز التى تسود الأرجاء وترهق الأعصاب، وفى زحام الحياة والناس يلهثون وراء مآربهم القريبة والبعيدة، كان هناك أشخاص آخرون يخلصون بأنفسهم بعيدا، ويصغون إلى نداء آخر يجىء من وراء القرون، ويتردد صداه على اختلاف الليل والنهار، هو فى نظر الشيخ نداء قديم جديد.

قديم لأن أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام أول من أعلنه، وصدع بأمر الله حين قال له:

﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾

(الحج: ٢٧)

وجديد لأن خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ندب إليه وقاد قوافله ووضع مناسكه وبين ما رصد الله له من جوائز وربط به من منافع، وكان آخر عهده بالجماهير الحاشدة وهى تصيح إليه فى حجة الوداع يزودهم بآخر وصاياه وأحفلها بالخير والبر[1].

ثانيا: الحج طاعة مطلقة وانقياد تام وتناغم كامل:

والحج فى فكر الشيخ الغزالى يرحمه الله طاعة مطلقة لله تعالى، وانقياد لأمره، وتناغم بين الحجيج والملكوت والكائنات جميعا، فوفود الحج وهى تنطلق صوب البيت العتيق مخلفة وراءها مشاغل الدنيا، وهاتفة بأصواتها خاشعة: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك»، إن هذه الوفود تؤكد ما يجب على الناس جميعا لله سبحانه وتعالى من طاعة مطلقة، وانقياد تام، وذكر وشكر، وتوحيد وتمجيد.

ويتساءل الشيخ فى هذا الصدد قائلا: هل العالم يتذوق هذه المعانى؟ ويستشعر حلاوتها؟ كلا، فما أكثر التائهين عن الله، والمتمردين على حقوقه، ما أكثر العابدين بغير ما شرع، والحاكمين بغير ما أنزل، إن هؤلاء العاصين نغمة شاذة فى كون يسبح بحمد ربه:

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾

(آل عمران: ٨٣)

دع عنك هؤلاء التائهين، وارمق الوفود المنطلقة صوب مكة تجأر بالتلبية، ويسير بها البر والبحر والجو، إن جؤارها بالتلبية يصدقه كل شىء فى البر والبحر والجو، فالملبى حين يرفع عقيرته مناجيا ربه ومصدقا أخاه، ومقررا أشرف حقيقة فى الوجود يتجاوب معه الملكوت الساجد طوعا وكرها، أو يتجاوب معه الملكوت الذى يبارك رحلته ويحترم حجته، فلا عجب أن يتجانس الكون المسبح بحمد الله مع إنسان انخلع عن نفسه، وانطلق فى سفر صالح يبتغى مرضاة الله.

وفى هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (ما من مسلم يلبى إلا لبى من عن يمينه أو عن شماله من حجر أو شجر أو مدر حتى تنقطع الأرض من هاهنا وها هنا)[2].

إنه هتاف ينفرد به أتباع محمد صلى الله عليه وسلم وحملة راية التوحيد، أما غيرهم فهم بين

(١) علل وأدوية: ١٥٢ طبعة دار الكتب الإسلامية. القاهرة. ط أولى. ١٩٨٤م.

(٢) رواه الترمذى عن سهل بن سعد: كتاب الحج عن رسول الله. باب ما جاء فى فضل التلبية والنحر، وقال الحافظ المنذرى: "رواه الترمذى وابن ماجة والبيهقى، كلهم من رواية إسماعيل بن عياش عن عمارة بن غزية عن أبى حازم عن سهل، ورواه ابن خزيمة فى صحيحه عن عبيدة يعنى ابن حميد حدثنى عمارة بن غزية عن أبى حازم عن سهل، ورواه الحاكم وقال: صحيح على شرطهما". الترغيب والترهيب: ٢/ ١١٩ دار الكتب العلمية. بيروت. ط أولى. ١٤١٧هـ. وصححه الألبانى: انظر صحيح الجامع: حديث رقم ٥٧٧٠.

معطل ومشرك وجاحد ومنحرف، إن لهم هتافا آخر يمثل عبوديتهم للتراب ولما فوق التراب من دنايا وخزعبلات(٣).

ثالثا: أفعال الحج ترتبط بأحكام لا ينكرها العقل:

وإذا كان الحج طاعة مطلقة وانقيادا تامًا فليس معنى ذلك أن العقل ليس له مدخل في شعائره ومناسكه يتذوقها ويقف على الحكم المستفادة منها، فكثير من الناس يظن أن أفعال الحج ومناسكه مبهمة وغامضة، وأن الله جل شأنه اختبر الناس بما يعقلون فسمعوا وأطاعوا، فاختبرهم بما لا يعقلون حتى يتبين له كيف يسمعون وكيف يطيعون.

ويؤكد الشيخ الغزالي أن هذا كلام بعيد عن الصحة؛ إذ الواقع أن أعمال الحج لها حكم معقولة، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها، وينبغي أن تدرس هذه الحكم بأناة، وأن تعرف حقائقها حتى يدرك الناس أن الإسلام ليس دين أوهام أو أضغاث أحلام، هذا دينٌ كلُّ شيء فيه له حكمته وله معناه.

فمن مناسك الحج الطواف بالبيت، هل له حكم معقولة؟ ويذكر الشيخ الغزالي أربع نقاط في هذا المنسك توضح معقوليته والحكمة منه:

الأولى: أن هذا البيت هو أول بيت وضع للناس، وزاده الله تشريفا، فمن حق أول بيت أقيم ليكون قلعة التوحيد، ومثابة للموحدين، وملتقى للمؤمنين المخلصين، من حقه أن تكون له مكانة خاصة؛ ولهذا يجيئه الرواد من كل أفق، والحجاج من كل فج، يطيرون إليه كما تطير الحمائم إلى أوكارها، في أفئدتهم حنين، وفي قلوبهم مشاعر ملتاعة.

الثانية: أن المسلمين في المشارق والمغارب في الشمال والجنوب يولون وجوههم شطر هذا المسجد في كل صلاة تقام في القارات كلها، ومن حق الذين اتخذوا المسجد قبلة لهم أن يبعثوا كل عام منهم الوفد المستطيع لكي يرى قبلته، كي يحج إليها ويزورها.

الثالثة: أن هذه الأمة الإسلامية إنما ولدت في التاريخ إثر دعوة صالحة مستجابة للأنبياء الذين وضعوا حجر الأساس في هذا البيت العتيق ونهضوا به وأعلوا دعائمه:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

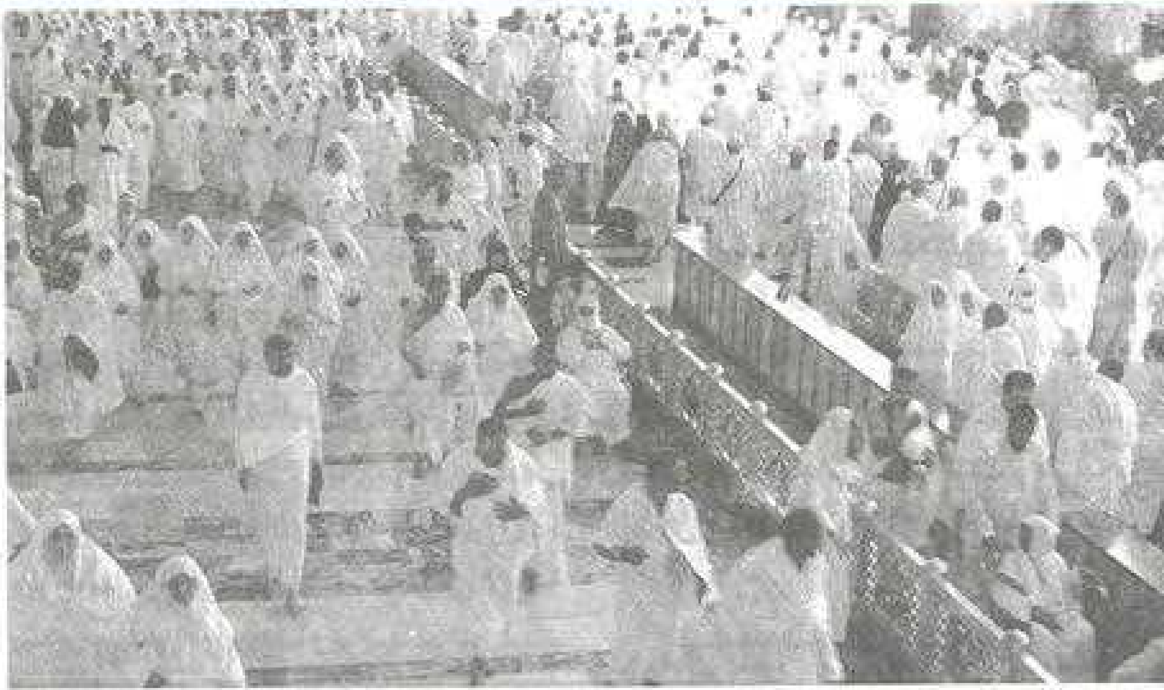
البقرة: (١٢٧-١٢٩)

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾

(البقرة: ١٢٨)

هي أمتنا،

(٣) علل وأدوية: ١٥٣، ١٥٢ وانظر: خطب الشيخ الغزالي: ١/ ٢٢٩ طبعة دار الاعتصام، وفن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء: ١٠٩ طبع دار الاعتصام، والحق المر: ١٢٢ مكتبة التراث الإسلامي.



﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾

(البقرة: ١٢٩)

هو رسولنا صلى الله عليه وسلم صاحب الإمامة العامة في محراب العبادة لخلق الله كلهم، فمن حقنا، ونبينا وأمتنا وتاريخنا نتيجة دعوة في بناء هذا البيت، أن نزور هذا البيت، وإذا لم يحج المسلمون إلى البيت الذي بدأ عنده تاريخهم فأين يحجون؟ وإذا لم يقصدوا البيت الذي كان نبيهم دعوة مخبوءة في ضمير عند بنائه استجابها الله وباركها، فأين يقصدون؟.

الرابعة: أن الله عز وجل أراد أن يكرم الأمة العربية، فكرمه بأنه حمل الرسالة الخاتمة، وعندما أمر الناس أن يتوجهوا لهذا البيت العتيق قال لنا نحن الذين نقرأ القرآن وننطق باللغة العربية أنا فعلت هذا تشريفا لكم، وإتماما للنعمة عليكم، كما شرفناكم بابتعاث النبي الخاتم منكم عليه الصلاة والسلام(٤) وقد قال الله تعالى:

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة: ١٥١)

على أن من يزور البيت لا يعبد البيت إنما يعبد رب البيت، والطواف كما أجمع العلماء صلاة لابد لها من طهارة البدن، ولابد فيها من خلوص القلب لله، ومن زعم أن الكعبة كلها أو بعضها يضر أو ينفع فهو خارج عن الإسلام، ومن هنا نفهم ما جاء عن عمر رضي الله عنه أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبّله،

(٤) راجع: مائة سؤال عن الإسلام: ٨٢، ٨٣ دار ثابت، القاهرة، ط الخامسة: ١٤١٧هـ ١٩٩٦م، وخطب الشيخ الغزالي: ١/ ٢٢٠ و٣/ ١١٨، ١١٩، وفن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء: ١٠٨، ١٠٦.

فقال: إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك[٥].

وإذا كان بعض الغافلين يزعم أن تقبيل الحجر الأسود نوع من الوثنية فليكن تقبيل الملوك والرؤساء لأعلام دولهم نوعا أيضا من الوثنية ومن عبادة الأقمشة!! من قال هذا؟! إذا كان الأمر لا يعدو ترجمة لمشاعر الولاء لله فليس فى هذا شىء، ونحن فى هذا نلتزم ما ورد[٦].

ومن حق رب البيت أن يضع طريقا لزيارة بيته، فإذا جعلها طوافا من سبعة أشواط فليس فى الأمر ما يستغرب، ففى طول الدنيا وعرضها توضع طرائق شتى للاستقبالات والاستعراضات[٧].

ومن مناسك الحج التى يظنها كثير من الناس غير معقولة: السعى بين الصفا والمروة وفى بيان الحكمة منه يقول الشيخ: إن الإنسان مادى حسى، والأسباب الحسية هى التى تملكه أو هى التى تحكمه، يوم يكون فى يده مال يقول: مالى فى يدى، فهو يعتز به، لكن يوم يكون المال وعدا فى الغيوب، وأملا فى المستقبل، ورجاء عند الله، فإن قلبه يضطرب، ويقول ليس معى شىء.

والحق أن الرزق غيب، ولا يؤمن برزق الله إلا أصحاب الإيمان الراسخ، والنصر غيب، ولا يؤمن بنصر الله إلا أصحاب الإيمان الراسخ... هذا النوع من الإيمان قلما يوجد، لكنه عدة المصلحين، كلما أظلم الليل عليهم ولم يجدوا بصيصا من نور اطمأنوا إلى أن فجرا سيجىء فهم ينتظرون بريقه بثقة.

يشير الشيخ بهذا إلى موقف هاجر عندما تركها زوجها إبراهيم صلوات الله عليه مع ابنها فى وادى مكة المجدب والموحش حيث لا أنيس ولا جليس ولا زاد، وليس هناك إلا القدر المرهوب، وقالت له الزوجة الصالحة: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. فقالت: إذن لا يضيعنا.

وبدأ الرضيع يتلوى جوعا وعطشا، وبدأت الأم تهرول يمينا وشمالا، ثم جاء الملك وغمز بجناحه الأرض فتفجرت زمزم، وشرب الرضيع، وشربت الأم، وبدأ الخير.

أكانت هذه المرأة تدرك أن ابنها هذا سيكون من ذريته نبى خاتم؟ سيكون من ذريته شعب كبير؟ سيكون من أثره حضارة تظلل الأرض برحمتها وسناها؟!!

من هنا يجىء الاختبار، فإذا كُلف الناس أن يفعلوا ما فعلت أم إسماعيل فلكى تتجدد فى مسالكهم عواطف الاتكال على الله، الثقة فى الله، الإيمان بأن ما عنده أهم مما عندى، ما عندى قد يحرق، قد يسرق، لكن ما عنده لا حرق ولا سرق[٨].

وقس على ذلك باقى المناسك، فالحج عبادة رقيقة محبوبة أساسها الوقوف بعرفة، والطواف حول البيت، وبعض شعائر أخرى يمكن استيعابها بيسر دون قلق أو حرج، وعند التأمل فى أصل المنسك وما يتركه فى القلب من مشاعر، وما يستودعه العقل من

(٥) انظر صحيح البخارى: كتاب الحج، باب ما ذكر فى الحجر الأسود.

(٦) الخطب: ٣/١٢١. (٧) مائة سؤال عن الإسلام: ٨٣.

(٨) خطب الشيخ الغزالى: ١/٢٣٥، ٢٣٦ وفن الذكر والدعاء: ١٠٩.

دلالات نقف على الحكم المتعددة التى تستفاد من كل منسك.

رابعا: الحج وفاء وتلبية وإخلاص:

فالحج وفاء لنداء إبراهيم عليه السلام، وتلبية لأوامر الله تعالى، وتجرد وإخلاص لا شرك فيه، إنهم يجيئون ليترجموا عن وفائهم ويقينهم، ولتبقى دورات التاريخ متصلة المبنى والمعنى، لا يمر عام إلا أقبلت الوفود من كل فج كأنها الحمائم تنطلق من أوكارها، يحثها الشوق إلى مهاد التوحيد وحصنه:

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾

(الحج: ٣٢)

وليس للطائفين نجوى إلا مع الله وحده، شغلهم الشاغل ترديد الباقيات الصالحات، والتقدم بضعف العبيد إلى القوى الكبير أن يجيب سؤالهم ويحقق رجاءهم، ماذا يقولون؟ سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ثم يدعون:

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

(البقرة: ٢٠١)

إن الوفود القادمة من القارات الخمس على اختلاف لغاتها وألوانها وأحوالها يجمعها شعور واحد، وتنتظمها عاطفة دينية مشبوبة، وهى تترجم عن ذات نفسها بتلبية تهز الأودية!

ويتحول ما أضمرته من إخلاص إلى هتاف بسم الله وحده، لا ذكر هنا إلا لله، ولا جؤار إلا باسمه! ولا تعظيم إلا له! ولا أمل إلا فيه! ولا تعويل إلا عليه.

إن المسافات تقاربت بل انعدمت، بين ذكر لله يمر بالفؤاد كأنه خاطرة عابرة، وبين ذكر لله يدوى كالرعد القاصف من أفواج تتدافع إلى غايتها لا تلوى على شىء، ولا يعنيها إلا إعلان ولائها لله الذى جاءت لتزور بيته[٩].

إن الإنسانية واحدة من آدم إلى إبراهيم إلى محمد، شرفها فى معرفتها لله وولائها له وحده، وجهد الشيطان تعكير هذه المعرفة وتقطيع ذلك الولاء، وقد كان إبراهيم نموذجا للنبوات الأولى فى حرب الأوثان ومطاردة الشيطان، وقد بنى فى مكة هذا البيت الخالد شعارا للتوحيد، ومنارا للعبادة المجردة، ثم جاء خاتم المرسلين فأرسى القواعد لألوف مؤلفة من المساجد التى تتبعه فى الوسيلة والهدف، فلا غرابة إذا ارتبطت به وجاء أهلوها فى كل عام يجددون العهد[١٠].

ولا يقال بحال من الأحوال إن بعض الطقوس والمناسك فيها نوع من الشرك أو الوثنية، كالطواف بالبيت، أو تقبيل الحجر، أو غير ذلك؛ لما تقدم، ولأننا نلتزم فى ذلك كله أمر الله وأمر رسوله صلوات الله عليه، بل كل لمحة من لمحات الحج تشى بالتوجه الصادق والتوحيد الخالص والإخلاص الكامل.

(٩) علل وأدوية: ١٥٥، ١٥٤.

(١٠) الحق المر: ١٢٣ مكتبة التراث الإسلامى.

خامسا: الحج وحدة وتجرد:

ليست هنالك شعيرة من شعائر الإسلام يتمثل فيها معنى الوحدة كما يتمثل فى شعيرة الحج، حيث القبلة الواحدة والزى الواحد والرب الواحد والهتاف الواحد، والتجمع الرهيب المهيب يوم عرفة.

يقول الشيخ: إن مناسك الحج تنمية لعواطف المسلمين نحو ربهم ودينهم، وماضيهم وحاضرهم، ويكفى أنها تجمعهم من أطراف الأرض شعثا غبرا لا تفريق بين ملك وسوقة، ولا بين جنس وجنس، ليقفوا فى ساحة عرفة فى تظاهرة هائلة، الهُتافُ فيها لله وحده، والرجاء فى ذاته، والتكبير لاسمه، والضراعة بين يديه، فقر العبودية ظاهر، وغنى الربوبية باهر، ومن قبل الشروق إلى ما بعد الغروب لا ذكر إلا لله، ولا طلب إلا منه سبحانه[11]

إن هذه الحشود المتكاثفة يمكن أن تكون مظاهرة متلاطمة الأمواج، الهتاف فيها ليس لبشر، إنما الهتاف فيها لرب الأرض والسماء، لا يملأ أذنيك إلا طنينٌ ضخم من كل ناحية بين تلبية وتكبير وتقديس وتمجيد، الحناجر تنشق بالهتاف لله وحده طلبا لرضاه، وانتظارا لجداه، ورغبة فى ثوابه، ورهبة من عقابه[12]

وفى موسم الحج تلتقى مكة بالوفود المقبلة من كل فج عميق، تلتقى بأفراد الإنسانية الموحدة المهتدية المحبة لله وللمسجد الأول أبى المساجد فى القارات كلها تتصافح الوجوه وتتعارف النفوس على تلبية النداء الصادر بحج البيت، النداء الذى صدر من قديم، وزاده الإسلام قوة ووحدة[13]

ويوم عرفة فريد فى معناه ومظهره، لا تسمع فيه إلا تأوهات التائبين، وأنين الخاشعين، وضراعة المفتقرين، إنها الإنسانية المستجيرة بربها، النازلة بساحته مؤملة فى خزائن لا تنفد، وعطف لا يغيض[14]

وذلك أن الحاج إنسان متبتل إلى الله، متلهف على رضاه، متطلع إلى مثوبته، متخوف من عقوبته، يتحرك كل شىء فى بدنه بمشاعر الشوق والرغبة والحب، ولا أعرف تجمعا أهلا لرحمة الله ومغفرته كهذا التجمع الكريم[15]

سادسا: الحج ثقة فى الله وتوكل عليه:

إن التوكل شعور نفيس غريب، وهو أغلى من أن يخامر أى قلب، إنه ما يستطيعه إلا امرؤ وثيق العلاقة بالله، حساس بالاستناد إليه والاستمداد منه، وعندما ينقطع عون البشر، وتتلاشى الأسباب المرجوة، وتغزو الوحشة أقطار النفس، فهلا يردها إلا هذا الأمل الباقى فى جنب الله، عندئذ ينهض التوكل برد الوساوس وتسكين الهواجس[16]

وإن أبرز شىء فى الحج نأخذ منه هذا الدرس هى قصة هاجر زوج إبراهيم وأم إسماعيل كما نقلنا عنها سابقا قولها لزوجها: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. فقالت: إذن لا يضيعنا.

يقول الشيخ معقبا على هذا القول: ماذا نفهم من هذا؟ نفهم من هذا أن الإنسان عندما يعتمد على ربه فإنه يعتمد على مصدر القوى ومنبع الخير وسائق الفضل، وأن الإنسان إذا صدق إيمانه ربا توكله، وازدادت بالله ثقته، وضعفت علاقاته بالماديات[17]

وليس معنى انقطاع الإنسان عن كل ما سوى الله أن يتواكل ويستكين، كلا. كلا، إن المرأة لما قالت: لا يضيعنا. ما استكانت ولا ركنت إلى غير الأخذ بالأسباب بل أخذت تهرول وتسعى حتى ساق الله لها الرزق، وأجرى لها الخير.

فتدخلت السماء وتفجرت زمزم وغنى الوادى بعد وحشة، وصار الرضيع المحرج أمة كبيرة العدد عظيمة الغناء، ومن نسله صاحب الرسالة العظمى، ومن شعائر الله هذا التحرك بين الصفا والمروة تقليدا لأم إسماعيل، وهى ترمق الغيب بأمل لا يغيب. فما أحوج أصحاب المثل إلى عاطفة التوكل، إنها وحدها تكثرهم من قلة، وتعزهم من ذلة، وتجعل من تعلقهم بالله حقيقة محترمة[18]

وكذلك زوجها وهو رجل واحد توكل على الله فنصره وجعل قُوى الشر تتهاوى أمامه، وتتدحرج تحت أقدامه، فاستطاع أن يقيم دعوة التوحيد وينشر رسالته الكبرى.

يقول الشيخ فى نظرة إلى حال العرب معقبا على هذا المشهد: التوكل على الله شىء خطير، ولو أن العرب أهل إيمان، ولو أنهم فعلا يئسوا من الخلق واعتمدوا على الخالق لنصرهم كما نصر نبيهم صلى الله عليه وسلم ولسقاهم كما سقى امرأة فى صحراء لا تجد هى ولا رضيعها شيئا. إن التوكل على الله شىء خطير، وعندما تساق الأمة إلى مكان نبع الماء فيه من صحراء لا ماء فيها ولا زرع ولا ضرع يعرف الناس أن الانقطاع عن الله جريمة، وأن الانقطاع إليه هو الاتصال كله وهو الخير كله[19]

سابعا: الحج يجمع بين العقل والعاطفة:

وهذه ليس صفة خاصة بالحج فقط، إنما يستمدها الحج من المنهج الشامل للإسلام ذاته الذى يجمع بين الجسم والروح فى نظام الإنسان، وبين السماء والأرض فى نظام الكون، وبين الدنيا والآخرة فى نظام الدين، ويسلك بها جميعا طريقا واحدا، ويصبغها صبغة واحدة:

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾

(البقرة: ١٣٨)

فكما أن الإسلام منهج عقلانى عاطفى، فهو نظام مثالى واقعى ونظرى تطبيقى سواء بسواء.

يقول الشيخ فى هذا المعنى عن الحج: المقصود من هذه الرحلة أمور عقلية وعاطفية معا، فإن الإنسان لا يعيش بالفكر النظرى وحده، ولكن مشاعره وعواطفه شديدة السيطرة عليه، والإسلام يجتهد فى تحويل الإيمان من صورة عقلية تسكن الرأس إلى معانٍ عاطفية تغمر القلب، وتتشبث بالفؤاد، وينفعل الإنسان بها، ويحيا طول عمره وَفقها....

والإسلام عندما شرع مناسك الحج أراد أن يحول فعلا الإيمان من معانٍ نظرية درست فى

---

(11) مائة سؤال: ٨٥.

(12) فن الذكر والدعاء: ١١٢.

(13) الخطب: ١/٢٢٩.

(14) علل وأدوية: ١٥٦.

(15) فن الذكر والدعاء: ١٠٩.

(16) فن الذكر والدعاء: ١٠٩.

(17) الخطب: ٣/١٢١.

(18) فن الذكر والدعاء: ١١٠ وراجع مائة سؤال: ٨٥، ٨٤.

(19) الخطب: ٣/١٢٢، وانظر ١/٢٣٥.

الكتب، وتلقاها الناس حقائق مقررة إلى معان عاطفية تربط الإنسان بنشأة الإسلام ونشأة المكافحين من أجل ظهوره، وتجعل الإنسان يرتبط بالمواطن الأولى للوحي، وبسير الدعاة والرعاة الذين حملوا هذه الأمانات وعاشوا بها وعاشوا من أجلها، حتى قدموها للناس ناضجة مستوية...

والله عز وجل أراد أن يجعل المؤمنين على اختلاف الزمان والمكان يرتبطون بالدين الذي اعتنقوه، وهو دين التوحيد، ويريد أن يكلف القادرين منهم على أن يجيئوا للأماكن التي بدأت فيها معالم دينه تظهر كي يرتبطوا نفسيا بها(٢٠)

وإذا كان القرآن قد بين العلة من فريضة الحج فقال:

﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾

(الحج: ٢٨)

وقد جاءت كلمة "منافع" منكرة لتفيد العموم والشمول، سواء كانت منافع مادية أو معنوية فإن الجانب الروحي في الحج ظاهر كل الظهور في شعائر كثيرة من شعائره؛ ولهذا يقول الشيخ: إن إثراء الجانب الروحي هدف ظاهر من أعمال الحج وأقواله حتى تعود وفود الرحمن جياشة العواطف بحب الله وخشيته، متواصية على تنفيذ وصاياه وإعظام حقوقه(٢١)

والدين كله يقوم على صدق الإخلاص ونضج الأخلاق، وحسن العلاقة بالله وبعباده... وهذه الرحلة بين الأماكن المقدسة تصقل الطبع، وتزكي القلب، وتنمي مشاعر الحب لله ولرسوله وجماعة المسلمين(٢٢)

ثامنا: ذكر الله أساس في مناسك الحج:

وذلك أن أي منسك في المناسك لا يخلو من ذكر، ولم لا، والحج كله تلبية لأمر الله، وترك لكل شيء فرارا إلى الله تعالى؟! حتى جعل الله الذكر من علل الحج فقال:

﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ﴾

(الحج: ٢٧-٢٨)

وإذا تأملنا بعض آيات القرآن التي تتحدث عن الحج أدركنا هذه الحقيقة، وعلمنا أن ذكر الله هو أساس شعائر الحج، قال تعالى:

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ۝ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۝ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

(البقرة: ١٩٨-٢٠٢)

(٢٠) الخطب: ٣/١١٧
(٢١) علل وأدوية: ١٥٦
(٢٢) فن الذكر والدعاء: ١١٢

ومن الملاحظ أن التعبير عن مناسك الحج في الآيات السابقة أخذ كلمة "الذكر" دائما، حتى رمي الجمرات أسماه القرآن ذكرا:

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾

(البقرة: ٢٠٣)

وهي أيام التشريق، ورمي جمرة العقبة في العيد، فكأن المقصود من الموضوع هو الذكر الجهير لله تعالى، وما رمي الجمرات إلا رمز.

ثم قال جل ذكره:

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ﴾

(الحج: ٣٤-٣٦)

يقول الشيخ الغزالي: ذكر الله هو الأساس في هذه المناسك كلها يتحول المعنى الصامت المستكين في الضمير إلى هتاف عال... كأن كل شيء يتحول إلى كون يسبح بحمد الله ويذكره(٢٣)

وقال: يخيل إلي أن المناسك كلها أشكال غير مقصودة لذاتها، إنما قصدت لذكر الله عندها...

فذكر الله والهتاف باسمه غاية وعمل، ووسيلة وهدف، وفي هذه المظاهرة التي جعلها الله ركنا في الإسلام، وقرن بها من الفوائد النفسية والخلقية ما لا يحصى(٢٤)

والحق أن الحج كله هو هذا الهدير الموصول بذكر الله من أمواج بشرية متصلة، لا شغل لها إلا الجؤار بالتلبية والهتاف بالتسبيح(٢٥)

تاسعا: الحج اهتمام بالجانب السياسي في الأمة:

إذا كان ذكر الله تعالى مقصدا مؤكدا في كل مناسك الحج، والوحدة والقوة والتجرد والإخلاص من مقاصده الكبرى، فإن هناك غاية عظمى أيضا لا يجوز إغفالها خاصة في هذا العصر الذي يوجب على المسلمين السعي نحو القوة والتوحد، ألا وهو أنه يجب على المسلمين أن يستغلوا هذا المؤتمر العالمي غير المسبوق ولا الملحوق في معالجة ما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم.

إن الحج من الناحية الروحية إذكاء مشاعر، وتجديد عاطفة، ومن الناحية الاجتماعية فرصة ثمينة للتوجيهات الجامعة التي تكفل مصلحة المسلمين العليا.

ولكي ندرك ذلك ندرس كيف حج المسلمون في السنة التاسعة والسنة العاشرة للهجرة.

في السنة التاسعة رجع الحجاج وقد تلقوا

(٢٣) الخطب: ٣/١٢٣
(٢٤) تأملات في الدين والحياة: ١٧٤، ١٧٥ دار الدعوة، الإسكندرية، ط أولى ١٤١٠هـ-١٩٩٠م
(٢٥) فن الذكر والدعاء: ١١٣

تعليمات بقطع علاقاتهم مع العابثين بمعاهداتهم ومعاملتهم بالشدة بعدما فشل اللطف معهم.

وفى السنة العاشرة وضعت تقاليد إنسانية وآداب عامة تضمنتها الخطبة الجليلة التى ألقاها الرسول صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع[٣٦]

واقتداء بما فعله الرسول وخلفاؤه لا يمكن إهمال الجانب السياسى من الحج أبدا؛ إذ ما يصنع الحجيج بعدما يعودون إلى بلاد اعتدى عليها المجرمون واستباحوا حرماتها؟ أو عندما يعودون إلى بلاد كثرت فيها الفتن وماج خلالها المستضعفون؟....

نعم، لا يجوز أن تترك هذه الحشود الهائلة يوم الحج الأكبر دون توجيه جامع تلقى به خصومها، صحيح أنهم فى محاريب ذكر، وساحات تسبيح وتحميد، وأوقات تبتل إلى الله ونشدان لرضاه، لكن من قال: إن كسر العدو ليس عبادة؟ والسهر على هزيمتهم ليس تهجدا؟ إن صيحة الله أكبر تفتتح بها الصلاة لينأى بها المؤمنون عن مشاغل الدنيا، ويفتتح بها الجهاد لتكون كلمة الله هى العليا، ولتجف دموع البائسين وآلام المستضعفين، ومن هنا نفهم قول الله سبحانه للمحتشدين فى عرفات، ولمن وراءهم من جماهير المؤمنين فى كل مكان:

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ (التوبة: ١٤-١٥)

فالحج عبادة تقيمها قلوب ساجدة وأيد مجاهدة[٣٧]

ثم يهيب الشيخ بأمته قائلا: يا قومنا، إن الحج ليس لقاء أجساد، ولا شراء هدايا، ولا حمل ألقاب، اجعلوا الموسم الجامع فرصة إعداد، وموطن دراسة علية وعملية، ورسم خطة لإنقاذ أنفسكم من طوفان مقبل[٣٨]

إن الحج ليس رحلة ميتة، إن ناسا يذهبون إلى الحج الآن ثم يعودون مكتفين بأن حملوا لقبا، هل درست قضاياهم؟ لا. هل عادوا من موسم الحج بتحالف على محاربة الفساد الداخلى والغزو الخارجى؟ لا. إن الحج ليس عبادة فردية، لا فى ديننا ولا فى تاريخنا. فيجب أن نعلم ديننا وكفانا جهلا حتى لا نستيقظ على الويل والثبور وعظائم الأمور[٣٩]

وبهذا الفكر السامق والنظر العميق والتفكر الدقيق فهم شيخنا الغزالى يرحمه الله هذه الشعيرة الكبرى، التى جعلها الله تعالى حماية للإسلام أن يندرس، ووقاية للمسلمين أن ينتهوا ويتفتتوا، ومكانا يفيء إليه المسلمون، ويتلاقى فيه المؤمنون، ويعالج فيه المجاهدون مشكلات أمتهم، فيستهدون علاجها من كتاب الله وسنة رسوله.

(٣٦) مائة سؤال: ٨٦، ٨٥، وانظر الحق المر ٩٢، ٩٣ مكتبة التراث، والخطب ١/٢٣٨، ٢٤٠ و١٢٦

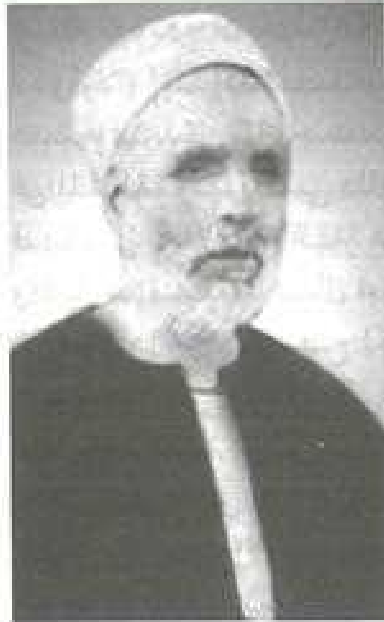
(٣٧) علل وأدوية: ١٥٦، ١٥٨

(٣٨) الحق المر: ٩٣ مكتبة التراث

(٣٩) الخطب: ٣/١٢٨

فتاوى لها تاريخ

فتوى العلامة الشيخ يوسف الدجوى حول القراءة على الميت



السؤال: كتب السائل كثيراً نقتصر منه على المهم، والكاتب يرى أن القراءة بدعة لا فائدة فيها للميت.

قال العلامة ابن عابدين فى شفاء العليل: «وظهر فى هذه السنة الإيصاء بدراهم تدفع لقراءة الصمدية» وتاريخ الفراغ من تأليف هذه الرسالة سنة ١٢٢٩، أى أنها بدعة منذ ١٢٠ سنة.

وقال العلامة النووى فى شرحه لصحيح مسلم: «وأما قراءة القرآن وجعل ثوابها للميت، فذهب الشافعى - رحمه الله - إلى أنها لا تلحق بالميت، وقال الإمام البركوى فى خطبة له: «والصلاة والسلام على حبيبه الذى نهى أمته عن الأكل بالقرآن والدين» وقال الإمام الفيروزابادى: «ولم يكن من عادة السلف أن يجتمعوا للميت ويقرءوا له القرآن».. إلخ

ثم قال السائل مفرعاً على ذلك: «فكل ما لم يكن مشروعاً منع التعبد به، وهو مردود على صاحبه، وإذا كان كذلك فما وجه التعب فيما لا فائدة فيه للميت؟! ويستفاد من ذلك أن قراءة القرآن لم تشرع للأموات، وسواء كانت القراءة بسورة (الإخلاص) أو غيرها من القرآن فلم تشرع ألبتة، وأما حديث «اقرءوا على موتاكم يس» فقد نقل عن الدارقطنى أنه قال: «هذا حديث مضطرب الإسناد مجهول المتن ولا يصح»، ووافق على ذلك الإمام الرازى فى شرحه للجامع الصغير، هذه عيون ما كتب السائل فى موضوع القراءة.

الجواب: ونحن نقول له:

(أولاً) إننا إذا كتبنا عن شيء سئلنا عنه، فإنما نذكر ما نرجحه من آراء العلماء في المسألة، وليس معنى ذلك أنه لا خلاف فيها، بل معناه أن المختار هو ما نذكره، وقلما تجد مسألة مما يسأل عنه السائلون لا خلاف فيها، ولهذا ننصح لكل مشفق على دينه محتاط في أمره أن يكون أحد رجلين: فإما باحثاً منقباً عن كل ما قال العلماء غير مقتصر على بعض الآراء، ولا مغتر بما يزينه كثير من أرباب الأهواء، ويكون مع ذلك فيه أهلية المقارنة بين الأقوال، والموازنة بين الأدلة، قد جرد نفسه من النزعات الخفية قدر الاستطاعة بحيث يكون متهماً لنفسه غير مسارع للحكم بما يراه أول وهلة؛ شأن أئمة الهدى وعلماء السلف الذين كانوا يحتاطون لدينهم ويخافون على أنفسهم، وسيرتهم في ذلك معروفة مشهورة. هذا أحد الرجلين.

أما الرجل الثاني فهو رجل نظر لنفسه بالإنصاف فرآها قاصرة على بلوغ ذلك المدى، ورأى الأدلة متشعبة والأمر واسعاً يحتاج إلى فهم دقيق وعلم غزير يحيط بالأدلة وما يعارضها، وبالعمومات وما يخصصها، وبالمطلقات وما يقيدها، وبالنصوص وما ينسخها، وبالظواهر وما يقدم عليها، وبالضعيف وما يرجح عليه.. إلى آخر ذلك البحر الزخار، فعرف قدره، ولم يتعد طوره، فاختار ما عليه السواد الأعظم من المسلمين، ولم يشذ عنهم في قليل ولا كثير، عالماً أن الذئب إنما يأخذ الشاة القاصية.

ويكفي أن نستشهد في هذا الموضوع بأن الكاتب حفظه الله نظر في كتب أعرفها أنا ويعرفها هو، فخرج منها بعقيدة أن الله في السماء، وسنفيض القول فيها.

ولنرجع إلى مناقشة الأستاذ في بعض ما قال فنقول:

إن الذي نقله عن ابن عابدين إنما يفيد كون الإيصاء هو الذي حدث في السنة التي ذكرها للقراءة التي هي محل النزاع، ثم ليسمح لنا أن نسائله: لماذا لم ينقل عن الرسالة المذكورة إلا هذه العبارة، وفيها كثير مما يؤيد رأينا من وصول القراءة للأموات؟! وكذا عبارة صاحب القاموس لا تفيد غير أن الاجتماع للقراءة على نحو مخصوص بدعة، وليس هذا محل النزاع، على أن في «سفر السعادة» أشياء كثيرة أخذت عليه.

أما عبارة البركوي فهي ناطقة بأن النهي إنما هو عن الأكل بالقرآن والدين، وأين هذا مما نحن فيه؟! والعجب كل العجب بعد ذلك من نتيجتك التي استخلصتها من تلك النصوص حيث تقول: فالقراءة على الأموات لم تشرع ألبتة، وقد أغفلت آراء محترمة لعلماء محترمين من أئمة الهدى لم تقم لها وزناً، وليس هذا من شأن من خلا من العصبية وتجرد عن الأهواء، ودعا للحق والهدى بنزاهة وإخلاص.

ولا أدل على أن هناك شهوة خفية مما ذكرته حضرتك في حديث «اقرءوا يس على موتاكم» عن الدارقطني، وكان الواجب أن تذكر ما قاله غيره في الحديث أيضاً: قال في (نيل الأوطار الجزء الرابع ص ٥٢): اقرءوا يس على موتاكم»[١] أخرجه أبو داود وأحمد في مسنده والنسائي وابن حبان وصححه.

وقال أحمد في المسند: حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان أن المشيخة كانوا يقولون إذا قرأت - يعني «يس» - لميت خففت عنه بها[٢] وأسنده صاحب مسند الفردوس، وقال الطبري في الحديث: «إن المراد الميت الذي فارقته روحه، وحمله على المحتضر قول بلا دليل»، أو نقول: مجاز بلا قرينة. وقد ذكر شراح الكنز في مذهب الحنفية أن كل عمل صالح يصل ثوابه إلى الميت سواء كان قراءة أو غيرها، فلينظر حضرة الكاتب هذا مع ما استنبطه من عبارة ابن عابدين الحنفي.

وأما ما نقله عن الإمام النووي في شرح مسلم فلا أجد عنه جواباً أحسن من أن أنقل لك نصوص الشافعية أنفسهم:

قال في (شرح الروض في كتاب الإجارة): فرع الإجارة للقراءة على القبر مدة معلومة أو قدراً معلوماً جائزة للانتفاع بنزول الرحمة حيث يقرأ القرآن، كالاستئجار للأذان وتعليم القرآن، ويكون الميت كالحي الحاضر، سواء أعقب القراءة بالدعاء أو جعل أجر قراءته له أم لا، فتعود منفعة القراءة إلى الميت في ذلك، ولأن الدعاء يلحقه، وهو بعدها أقرب إجابة وأكثر بركة، ولأنه إذا جعل أجره الحاصل بقراءته للميت فهو دعاء بحصول الأجر له فينتفع به، فقول الشافعي: «إن القراءة لا تصل إليه» محمول على غير ذلك.

بل قال السبكي تبعاً لابن الرفعة بعد حمله كلامهم على ما إذا نوى القارئ أن يكون ثواب قراءته للميت بغير دعاء: على أن الذي دل عليه الخبر بالاستنباط أن القرآن إذا قصد به نفع الميت نفعه، إذ قد ثبت أن القارئ لما قصد بقراءته نفع الملدوغ نفعته، وأقر النبي ﷺ ذلك بقوله: «وما يدريك أنها رقية»[٣] وإذا نفعت الحي بالقصد كان نفع الميت بها أولى؛ لأنه يقع عنه من العبادات بغير إذنه ما لا يقع عن الحي. وفي (الرملي على المنهاج) في باب الوصايا أن الدعاء بوصول ثواب القراءة

(١) رواه أبو داود (٣/١٩١، رقم ٣١٢١)، وابن ماجه (١/٤٦٦، رقم ١٤٤٨)، وأحمد (٥/٢٦، ٢٧)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢/٤٤٥، رقم ١٠٨٥٣)، وابن حبان (٧/٢٦٩، رقم ٣٠٠٢)، والنسائي في الكبرى (٦/٢٦٥، رقم ١٠٩١٣)، والحاكم في المستدرك (١/٧٥٣، رقم ٢٠٧٤)، والبيهقي (٣/٣٨٣، رقم ٦٣٩٢) كلهم من طريق سليمان التيمي عن أبي عثمان - وليس بالنهدي - عن أبيه عن معقل بن يسار مرفوعاً به. والراوي عن معقل مجهول. قال ابن حجر في التلخيص الحبير (٢/١٠٤، رقم ٧٣٤): وأعله ابن القطان بالاضطراب وبالوقف، وبجهالة حال أبي عثمان وأبيه. ونقل أبو بكر بن العربي عن الدارقطني أنه قال: هذا حديث ضعيف الإسناد، مجهول المتن، ولا يصح في الباب حديث.

(٢) المسند (٤/١٠٥).

(٣) أخرجه البخاري (٢/٧٩٥، رقم ٢١٥٦) من طريق أبي المتوكل عن أبي سعيد به مطولاً، وفيه قصة.

للميت مقبول قطعاً؛ فإنه إذا كان مقبولاً بما لا حق فيه للداعى فكيف بما له فيه حق وعمل. أى فهو مقبول من باب أولى.

وقال ابن الصلاح: وينبغى الجزم بنفع قوله: اللهم أوصل ثواب ما قرأناه؛ لأنه إذا نفعه الدعاء بما ليس للداعى فما له أولى، ويجرى هذا فى سائر الأعمال.

وقال الشبراملسى على الرملى: إنه إن نوى ثواب قراءته أو دعا عقبها بحصول ثوابها للميت أو قرأ عند قبره حصل له مثل ثواب قراءته وحصل للقارئ أيضاً الثواب، فإذا سقط ثواب القارئ لمسقط كأن غلب الباعث الدينوى، فينبغى ألا يسقط مثله بالنسبة للميت فيما إذا كانت القراءة بأجرة، وينبغى أن تكفى نية القارئ الثواب للميت ولو لم يدع، واختار السبكى وابن حجر والرملى وغيرهم جواز ثواب القراءة للنبى ﷺ قياساً على الصلاة عليه.

نصوص المالكية:

قال فى الشرح الكبير: إن قراءة القرآن على الموتى ليست من عمل السلف الصالح، لكن المتأخرون على أنه لا بأس بقراءة القرآن والذكر وجعل ثوابه للميت، ويحصل له الأجر إن شاء الله، وهو مذهب الصالحين من أهل الكشف. وقال فى التوضيح فى باب الحج: والمذهب أن القراءة لا تصل للميت، حكاه القرافى فى قواعده والشيخ ابن حمزة، وفيها ثلاثة أقوال: تصل مطلقاً، لا تصل مطلقاً، والثالث: إن كانت عند القبر وصلت وإلا فلا.

وفى آخر نوازل ابن رشد فى السؤال عن قوله تعالى:

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾

[سورة النجم: ٣٩]

قال: وأن قرأ الرجل وأهدى ثواب قراءته للميت جاز ذلك وحصل للميت أجره. وقال ابن هلال فى نوازله: الذى أفتى به ابن رشد وذهب إليه غير واحد من أئمتنا بالأندلس أن الميت ينتفع بقراءة القرآن ويصل إليه نفعه، ويحصل له أجره إذا وهب القارئ ثوابه له، وبه جرى عمل المسلمين شرقاً وغرباً، ووقفوا على ذلك أوقافاً، واستمر عليه الأمر منذ أزمنة سالفة.

ومن اللطائف أن عز الدين بن عبد السلام الشافعى رئى فى المنام بعد موته فقيل له: ما تقول فيما كنت تنكر من وصول ما يهدى من قراءة القرآن للموتى؟

فقال: هيهات، وجدت الأمر على خلاف ما كنت أظن.

وفى الحطاب والخرشى أجازها ابن حبيب لخبر «اقرءوا يس على موتاكم»، وهذا مقابل لقول مالك بعدم الوصول، ولعل ذلك لم يصح عن مالك، سلمنا صحته فتحمل الكراهة على فعله استناناً. ونقل ابن الفرات فى باب الحج عن القرافى: الذى يتجه أنه يحصل لهم بركة القرآن كما يحصل لهم بركة الرجل الصالح يدفن

عندهم، والقراءة للميت وإن حصل الخلاف فيها لا ينبغى إهمالها فلعل الحق الوصول، فإن هذه الأمور مغيبة عنا، وليس الخلاف فى حكم شرعى إنما هو فى أمر هل يقع كذلك، وكذا عادة التهليل اليوم، ويعتمد فى ذلك على فضل الله تعالى.

وقال فى المدخل: [من أراد ثواب وصول القراءة فلا نزاع](٤)، فليجعل ذلك دعاء بأن يقول: اللهم أوصل ثواب ما أقرؤه إلى والدى مثلاً، وفى مجموع الأمر ما يؤيد ذلك.

هذه نصوص العلماء سردناها عليك، ووكلنا الحكم فيها إليك، فكيف يحل مع هذه النصوص أن تقطع بعدم نفع الميت بالقراءة (ألبتة)؟!

هذا، ومعلوم أن الحديث الضعيف يعمل به فى فضائل الأعمال، مع أن فى الباب غير الضعيف كما بيناه فى كتابتنا الأولى، وقد قلنا: إن الضعيف إذا عمل به المسلمون التحق بالصحيح؛ لأنه يصير كالمجمع عليه، ولا فرق بين الإجماع القولى والإجماع العملى، وقلنا أيضاً: إن القياس يقتضيه، وقد وردت الأحاديث التى لا شك فيها بوصول ثواب غيرها من الصدقة والصوم والحج، فكيف القطع بعد ذلك بأنه لا فائدة فيها للميت ألبتة؟!

إنى أحب من أهل الدين والعلم أن يعلموا أن من أدلة الدين شيئاً غير ما يتشبثون به من النصوص التى جمدوا عليها يسمى القياس، وهناك أنواع أخرى من الاستدلال عول عليها العلماء فى كثير من المسائل، ويعجبنى فى هذا الموضوع قول من قال من المالكية: لا ينبغى ترك القراءة للأموات فإنه خلاف فى الواقع المغيب عنا، فلعل الواقع الوصول، وغير خاف عليك بعد ذلك أن مسائل الفقه ظنية، ولعلنا نحرم الميت من ثواب كثير بترك القراءة له، هذا ما نراه ولا نفتى بغيره، ويكفى هذا فى موضوع القراءة.

أما ما ذكر السائل من كون الله فى السماء تلك العقيدة التى تصادم البراهين العقلية كل المصادمة فنرجئ الكلام فيه لعدد آخر فإن الكلام فى ذلك طويل وجليل(٥).



(٤) كذا في أصل المجلة، والعبارة غير مستقيمة، وفى الفواكه الدوانى للنفراوى المالكى (١/٢٨٤): وذكر صاحب المدخل أن من أراد حصول بركة قراءته وثوابها للميت بلا خلاف فليجعل.. إلى آخره.

(٥) تقدم فى (مقالات التوحيد والعقائد) ذلك ببسط وتفصيل.

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور
علـــى جمعــة
مفتى جمهورية مصر العربية



(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى اله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهى:

الحلق أو التقصير

● هل يجوز للمعتمر والحاج بعد انتهاء المناسك أن يحلقا لأنفسهما أو لغيرهما من المعتمرين والحجيج؟

●● لا يوجد ما يمنع من قيام المعتمر بعد انتهاء سعيه والحاج بعد دفعه من مزدلفة إلى منى أن يقوم كل منهما بالحلق أو التقصير لأنفسهما أو لغيرهما ممن هو مثلهما متأهل للحلق أو التقصير، بل إنه مأمور بأن يحلق أو يقصر بعمومات النصوص، من مثل قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ ﴾

(الحج: ٢٩)

وقوله سبحانه:

﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾

(الفتح: ٢٧)

وقول النبي ﷺ: «رحم الله المحلقين، رحم الله المحلقين، رحم الله المحلقين والمقصرين» مختصر بتصرف من رواية الحديث في الصحيحين عن عبدالله بن عمر - رضى الله تعالى عنهما - ولأننا لو لم نقل بجواز ذلك وألزمنا أمثال هؤلاء العمار والحجاج أن يعتمدوا على الحلال - أى غير المحرم - في الحلق والتقصير لجعلنا الحاج والمعتمر لا ينفك عن الاحتياج لغيره فى أداء العبادة له، وهذا مما لا مثيل له في العبادات، فإن المصلى لا يحتاج لغيره لتأدية الصلاة، وكذلك الصائم والمزكي، ونُقول العلماء خالية من إلزام قيام الحلال بهذه الشعيرة، ولو كان هذا شرطا لنصوا علي ذلك، ولا نص؛ فدل ذلك على عدم لزومه، بل المطلوب هو حصوله بالنفس أو بالغير، والغير إما حلال أو مُحرم.

وسواء أقلنا إن الحلق والتقصير نسك أو استباحة محظور على قولى الشافعية، فإن الحكم سواء؛ وهو أنه يجوز للمُحرم أن يحلق لنفسه أو لغيره من المحرمين عند هذا الحد من مناسكه ومناسكهم، وكل ذلك مبنى على كون الحلق أو التقصير صار فى هذا الموضوع من المناسك جائزا بعد أن كان محظورا، فهو يقدم على عمل مباح كما لو حلق لحلال، وقد قال النووى فى روضة الطالبين: «للمحرم حلق شعر الحلال» ولعل من يتوهم عدم جواز قيام المعتمر والحاج بذلك أنه من المعلوم أن الأخذ من شعر الجسم من محظورات الإحرام، وهذا صحيح، ولكن هذا المحظور يظل قائما إلى أن تبلغ المناسك حدا معينا، ويتعين على المحرم وقتها أن يتحلل بالحلق أو التقصير ليستبيح كل شيء كان ممنوعا منه بعد الإحرام - إن كان تحلل العمرة أو التحلل الأصغر فى الحج - أو معظم الأشياء - إن كان التحلل الأكبر فى الحج -.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

حكم الذبح للحاج

● سوف أقوم بأداء فريضة الحج هذا العام إن شاء الله تعالي. فهل أكتفى بالذبح هناك، أم على أهل بيتى الموجودين هنا أن يذبحوا أيضا؟

●● إن كنت ستحج متمعًا أو قارنًا فعليك دم واجب تذبحه هناك فى الحرم الشريف: مكة أو منى أو مزدلفة أو كل ما يسمى حرما، وهذا من ناحية ما يجب عليك، أما ما يسن ولا يجب - بمعنى إذا فعلته أثبت وإذا لم تفعله فلا شئ عليك - فهو أن تهدى لفقراء الحرم الشريف ومجاوريه؛ بأن تذبح ما تشاء من النعم هدية لفقراء الحرم. كما أنه يسن التضحية؛ لأن الأضاحى سنة فى حق الحاج وغيره، وهذا عند جمهور الفقهاء، ولكنها غير مرتبطة بالحرم، فيمكنك أن تذبح فى الحرم أو فى مصر فى أى مكان فيه مجاعات للمسلمين؛ كفلسطين والصومال وغيرهما.

شروط الحج

● هل يصح الحج لمن يعمل بعقد عمل فى السعودية فى موسم الحج؟

●● فرق بين صحة الحج وجوازه، فإذا اكتملت أركان الحج وواجباته فالحج صحيح يسقط الفرض إن كان حجة الإسلام، ويحسب نفلا إن لم حجة الإسلام، وأما جوازه فشئ آخر؛ فإذا كان - مثلا - عقد العمل لا يسمح لك بالحج، فخالفت وحججت فهذا إثم؛ لمخالفة شرط العقد، وما يترتب على ذلك من الضرر الذى يلحق بك وبالآخرين، مع كون الحج صحيحاً إذا استوفى أركانه وشروطه.

معنى الإفراد والقران والتمتع فى الحج

● ما معنى الإفراد والقران والتمتع فى الحج؟ وما أفضلها؟

●● للحج أنساك ثلاثة، أى ثلاثة طرق لتأدية مناسكه: الإفراد والقران والتمتع.

فالإفراد عند بعض العلماء - كالشافعية - هو تقديم الحج على العمرة؛ بأن يحرم أولا بالحج من ميقاته، ويفرغ منه، ثم يخرج من مكة إلى أدنى الحل فيحرم بالعمرة، ويأتى بعملها، ومن العلماء من لا يشترط العمرة بعد الحج، ويجعل القيام بأعمال الحج وحده دون العمرة هو الإفراد.

وأما القران فهو أن يُحرم بهما معاً، أو بالعمرة ثم يُدخل عليها الحج قبل شروعه فى أعمالها، ثم يعمل عمل الحج فى الصورتين، فيحصلان.

وأما التمتع فهو أن يقدم العمرة على الحج ويتحلل بينهما، ويسمى الآتى بهذا النسك متمتعا؛ لتمتعه بمحظورات الإحرام بين النسكين.

ولا يجوز إدخال العمرة على الحج، وذلك بأن يحرم بالحج ثم يدخل عليه العمرة؛ لأنه لا يستفيد به شيئا، بخلاف عكسه - وهو القران - حيث يستفيد بإدخال الحج على العمرة الوقوف بعرفة والرمى والمبيت.

وليس على المفرد دم واجب، بل إن شاء ذبح تطوعاً منه، وإن شاء لم يذبح، ولكن المتمتع عليه دم واجب؛ وسبب الوجوب هو ترك الإحرام بالحج من ميقات بلده؛ فإن المتمتع يحرم بالحج من مكة، ولو أفرد لأحرم بالحج من ميقات بلده.

ويشترط لوجوب هدى التمتع ألا يكون الحاج من حاضرى الحرم، وهم من مساكنهم دون مرحلتين منه - أى حوالى أربعة وثمانين كيلو مترا -، ويشترط أيضا - على المختار للفتوى - لثبوت الهدى الواجب فى حقه أن يحرم بالعمرة فى أشهر الحج، وأن يحج فى عامه، وألا يعود إلى الميقات الذى أحرم منه بالعمرة ليحرم منه بالحج إن لم يكن أحرم به أو محرماً إن كان أحرم به، ولا إلى ميقات آخر ولو أقرب إلى مكة من ميقات عمرته أو إلى مثل مسافة ميقاتها، فإذا عاد إليه وأحرم منه بالحج لم يلزمه الدم؛ لأن المقتضى لإيجاب الدم وهو ربح الميقات قد زال بعوده إليه، ومثل ذلك ما ذكر؛ لأن المقصود قطع تلك المسافة محرماً. كما أنه يجب على القارن هدى سببه ترك الإحرام بالعمرة من ميقاتها لو أفرد؛ فإن القارن يحرم بالحج والعمرة معا من ميقات واحد.

وأما عن أفضلها فهو محل خلاف بين العلماء: فأفضلها عند المالكية والشافعية الإفراد، ولكن المالكية قالوا بأنه يليه فى الأفضلية القران فالتمتع، بينما يرى الشافعية أن الذى يليه فى الأفضلية هو التمتع فالقران، وعند الحنيفة الأفضل من الأنساك الثلاثة هو القران فالتمتع فالإفراد، ويرى الحنابلة أن التمتع أفضل فالإفراد فالقران. وفى مثل هذه الأمور اختلف فيها بين العلماء لك أن تأخذى ما تشائين. والنصيحة فى مثل هذا الموقف خاصة أن تأخذى الأيسر عليك؛ لأن الحج شاق، وكلما خففت على نفسك بالأمور المشروعة وفرت طاقتك البدنية والنفسية لأداء المناسك على أفضل ما يمكنك.

استخدام الصابون المعطر أثناء الإحرام

● هل استخدام الصابون المعطر أثناء الإحرام ممنوع؟

●● يحرم استخدام العطر فى البدن أو الثياب أو الطعام لمن تلبس بالإحرام، فهو من محظوراته. ولكن هل الصابون المعطر من العطر؟ خلاف بين العلماء: فمنهم من يرى أنه من العطر، ومنهم من يرى أنه ليس من العطر، والاحتياط أحسن.

حج الصبى

● أخذت ابنى الصبى معى فى الحج. فهل يصح حجه؟ وهل يغنى عن حج الفريضة؟

●● عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - عن النبى - ﷺ -: «أنه لقى ركبا بالروحاء فقال: من القوم؟ قالوا: المسلمون. فقالوا: من أنت؟ قال: رسول الله. فرفعت إليه امرأة صبيا فقالت: ألهذا حج؟ قال: نعم، ولك أجر» رواه مسلم. وعلى ذلك يصح حج ابنك الصبى مادمت ستستكمل له أركان حجه وواجباته ويحسب له حسناته كحج نافلة، ولذا لا يغنى عن حج الفريضة؛ لأن شرط العبادة المفروضة التكليف، والصبى غير مكلف.

الحج بالوكالة

● أمتلك مالا يكفى للحج، ولكن صحتى لا تمكننى من أدائه بنفسى. فهل لى أن أوكل من يحج عنى؟

●● عن عبدالله بن عباس - رضى الله تعالى عنهما - قال: «كان الفضل بن عباس رديف رسول الله - ﷺ - فجاءت امرأة من خثعم فقالت: يارسول الله، إن فريضة الله على عباده فى الحج أدركت أبى شيخا كبيرا لا يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: نعم». وذلك فى حجة الوداع رواه البخارى ومسلم. وهذا الذى لا يستطيع أن يثبت على الراحلة يعرف فى الفقه بـ«المعضوب»، وعليه فلك أن توكلى من يحج عنك.

● ما الحكم فيما لو أحرمت من المدينة متمتعا ثم جاءنى المرض فخلعت ملابس الإحرام قبل أداء العمرة؟

●● إن كنت تخشى أن يفجأك المرض بعد تلبسك بالإحرام بحيث يصعب عليك إكمال مناسك الحج فننصحك بأن تنوى الاستثناء عند نية الإحرام؛ بأن تعقد قلبك وتقول بلسانك أيضا: نويت العمرة أو الحج - بحسب حالك - فإن حبسنى حابس فمحلى حيث حبستنى، فإنك إن فعلت هذا ثم فجأك العذر يمكنك التحلل حيث أنت بدون الحاجة أن تذهب للحرم لإكمال النسك، ولا للتحلل فيه، بل يكفى تحللك فى مكانك، وذلك بأن تذبح هديا من النعم تفرقه على الفقراء فى مكان الإحصار، ويجوز إرساله إلى الحرم إن أمكن، ثم تحلق رأسك أو تقصر. فقد جاء فى الصحيحين عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: «دخل رسول الله - ﷺ - على ضباعة بنت الزبير، فقال لها: أردت الحج؟ قالت: والله ما أجدنى إلا وجعة. فقال لها: حجى واشترطى وقولى: اللهم محلى حيث حبستنى». ولابد من نية التحلل عند الذبح، ولابد من كون الحلق أو التقصير بعد الذبح؛ لقوله تعالى:

﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾

(البقرة: ١٩٦)

أما إن كنت تقصد أنك إذا مرضت خلعت لباس الإحرام مع بقائك محرما وإكمالك للمناسك فذلك جائز، ولكن عليك هدى جبران مما يجزئ فى الأضحية أو صيام ثلاثة أيام أو التصدق بثلاثة آصع من طعام يجزئ فى زكاة الفطر، وذلك على ستة مساكين أو فقراء، فيكون لكل واحد منهم نصف صاع. فقد روى الشيخان عن كعب بن عجزة - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ - قال له فى الحج: «لعلك آذاك هوامك! احلق رأسك وصم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين أو انسك شاة». وذلك أخذا من قوله تعالى:

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾

(البقرة: ١٩٦)

مشاعر وأحاسيس حول الفريضة الخاتمة



لفضيلة الشيخ/ معوض عوض ابراهيم

منذ أدى سيدنا محمد ﷺ رسالة الإسلام توحيداً لله، عز وجل، وتوكيداً لحقه تبارك وتعالى فى أن يطاع فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى وأن يشكر على أنعمه التى يقول عنها المولى عز وجل:

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

«النحل: ١٨»

عرف الناس نعمة الأمن واليُمن والسلام، بعدما كانوا فى طوفان من الشرك، وضلال وغفلة وفساد فى الطباع، وبُعد عن السلوك الراشد والمنهج السديد الذى قال الله -عز وجل- فيه:

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

«الإسراء: ٩ - ١٠»

والمؤمنون بخير ما عرفوا الله -عز وجل- واحداً أحداً، فرداً صمداً، له الخلق وحده وبيده الأمر كله دون سواه، أنهم لا يكادون أن ينتهوا من عبادة إلا إلى عبادة ومن طاعة إلا إلى طاعة، ومن أنس بالله، عز وجل، إلا إلى سكينة نفس وطمأنينة بال وقرة أعين على نحو يستوجبون به من الله نصره وتأييده وحفظه ومنعته من أن يقهرهم جبار أو يكدر صفوهم ظالم من ذات أنفسهم أو من غيرهم ممن قال الله فيهم:

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾

«البقرة: ٢١٧»

وفى هذه الأيام المباركة، نجد أنسام الشهر الكريم والعبادة الخاصة التى نسبها الله، عز وجل، لنفسه - وكل العبادات لله - فقال:

(الصوم لى وأنا أجزى به)

ولم يطلع الحق عليه ملكاً ولا شيطاناً.

فنرانا فى أنسام فريضة الحج التى حدد الله، عز وجل، ميقاتها الزمنى فقال:

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾

«البقرة: ١٩٧»

هى: شوال وذو القعدة وعشر ذى الحجة أو الشهر كله على نحو ما قال بعض العلماء ونرى القرآن الكريم يذكر فريضة الحج مقرونة بالعمرة فى قوله تعالى:

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾

«البقرة: ١٩٦»

ونراه، عز وجل، يفرد الحج فى آيات ذوات عدد من كتابه فيقول تعالى:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

«آل عمران: ٩٧»

ويبسط الله تعالى القول فيما ينبغى أن يكون من حال ضيوف الرحمن ووفده إلى أكرم البقاع وخير المنازل فيقول الله تعالى:

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾

«البقرة: ١٩٧»

ويفتح الله سبحانه أبواب رحمته على الحجيج فيقول:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ۝ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

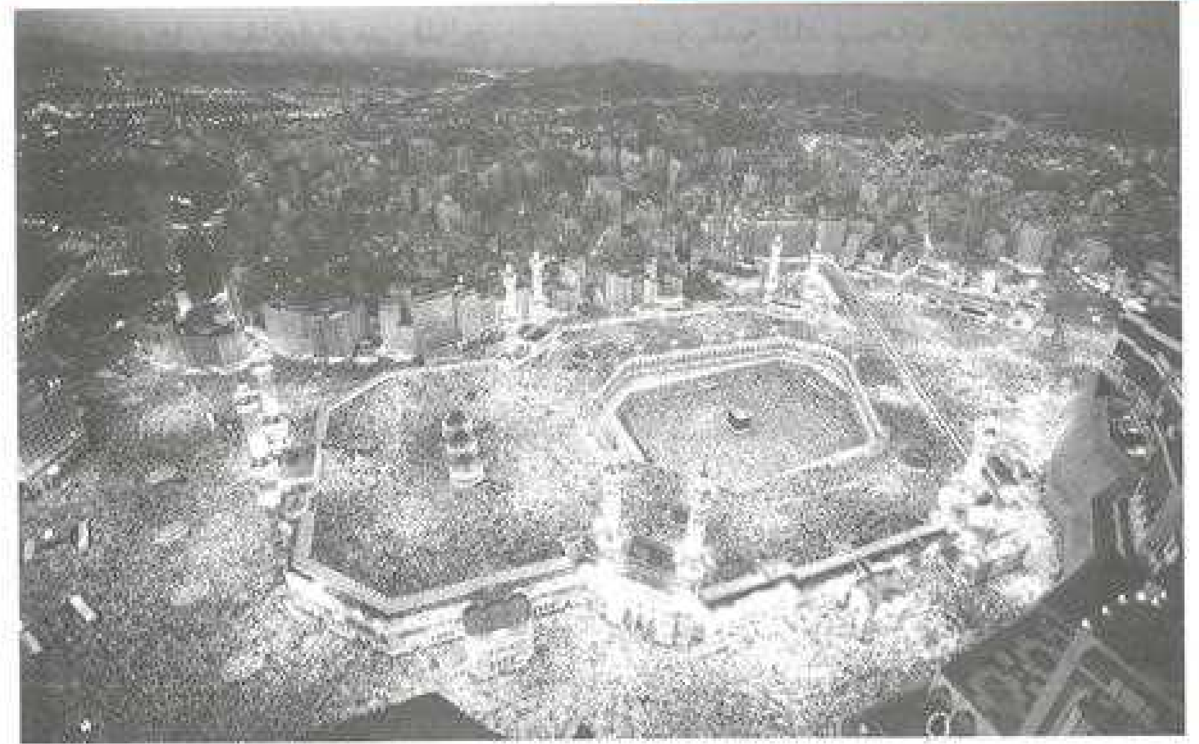
«البقرة: ١٩٨ - ١٩٩»

والآيات من أجمع ما ذكر الله، عز وجل، فى الحجيج إلى أول بيت وضع للناس خالصاً له تبارك وتعالى وهو يقول:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

«آل عمران: ٩٦ - ٩٧»

والدنيا كلها تقوم وتقعد وتموج بالفتن والحروب وبكيد البشر بعضهم لبعض ويبقى لبلد الله الحرام مكة ومهاجر الرسول ﷺ فى المدينة المنورة مثوى رسول الله ﷺ ودار الذين آووا ونصروا من هاجروا إليها وجل الله الذى يقول:



﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾

«سورة قريش»

إن مكة أم القرى وفيها بيت الله الحرام قال تعالى:

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾

«المائدة ٩٧»

كلما مرت الأيام نزداد أملاً في أن تلتمس فيه -في يوم الحج الأكبر- وحدة الكلمة وقيام أمر المسلمين على دعائم البر والتقوى والإخاء الصادق وتبادل المنافع فيما يقوم به أمر الناس بهذه الفضائل التى لا توجد إلا فى دين الله الذى يقول الله فيه:

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

«آل عمران: ٨٥»

ويوحى إلي نبيه ﷺ فى حجة الوداع التى ما حج صلوات الله عليه وسلامه سواها قوله:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾

«المائدة: ٣»

وهى آخر آية فى الأحكام فى كتاب الله. وعلى قدر ما لمكة من مكانة ومنزلة بما فيها من مشاهد وآيات، فقد ذكر ابن القيم فى كتابه: (إغاثة اللهفان) ج ٣، قول أحدهم لشيخه: أيهما أفضل الكعبة المشرفة أم الروضة الشريفة؟ فقال ما ملخصه: الكعبة جليلة لكن العرش والكرسى لا يوضعان فى كفة ميزان أمام مكان ضم جثمان النبى ﷺ، واذكر أن الدكتور طه حسين، غفر الله لنا وله، جاء مكة معتمراً فصحبه من جدة شباب ورجال منهم ابننا وأخونا الدكتور مجد مكى الحلبى -المقيم الآن مع الدكتور القرضاوى وما أكرمها من إقامة.

قال لى الدكتور مجد فى إحدى زياراته لى بالقاهرة، لقد وصلنا لمنطقة الحديبية، فلما عرف الدكتور طه أننا فى ثرى الحديبية أمر بإيقاف الركب فنزل ومرغ وجهه فى تراب الحديبية وهو يبكى ويتضرع لله -عز وجل- أن يغفر الذنوب ويعفو عن السيئات وهو يجهش بالبكاء، فلما جاء مكة وبلغ الحجر الأسود استلمه وظل يقبله وهو يبكى وهى دموع لها عند الله وزنها ورحم الله الذى قال:

بكت عينه لما بكت عين قلبه
ولولا دموع العين لم يدر ما به

وصلوات الله وسلامه على خيرته من خلقه فهو يقول:

(عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس فى سبيل الله) صحيح مسلم والترمذى.



طه حسين

وذكر من السبعة من الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله: (ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه).

أماكن ومنازل تثير الأشواق وتكاد الأرواح تقفز من جوانحنا كلما ذكرناها أو ذكرت لنا، أو ما سمعتم قول الذى قال وهو على قيد منازل من مكة:

أبطحاء مكة هذى التى
أراها عيانا وهذا أنا؟

وذلك الذى قال:

لما سمعت مناديهم الم بنا
شمرت مئزر إحرامى ولبيت
وقلت للنفس طيبى اليوم واجتهدى
وساعدينى فهذا ما تمنيت
لو جئتكم حافيًا امشى على بصرى
لم اقض حقًا وبعض الحق اديت

هذا غيض من فيض الحج وأسراره ومراد الله، عز وجل، منه.

أسأل الله الكريم كما دعا إليه وفوده فى الفريضة الخاتمة، فأتوه يركبون الشوق أن يجمع كلمة المسلمين من شتات ويعز أقدارهم من فرقة ويظفرهم بأعدائه وأعدائهم وهو حسبنا ونعم الوكيل.



إلى عرفات الله



لأمير الشعراء/ أحمد شوقى

إلى عَرَفاتِ اللهِ يا خيرَ زائرٍ ... عليكَ سلامُ اللهِ في عَرَفاتِ(١)
ويومَ تُولّى وُجهةَ البيتِ ناضراً ... وَسيمَ مَجالي البِشرِ والقَسَماتِ(٢)
على كُلِّ أُفقٍ بالحِجازِ مَلائِكٌ ... تَزُفُّ تَحايا اللهِ والبَرَكاتِ(٣)
إذا حُدِيَت عيسُ المُلوكِ فإنَّهُم ... لِعيسِكَ في البيداءِ خيرُ حُداةِ(٤)
لَدى البابِ جِبريلُ الأمينُ بِراحِهِ ... رَسائِلُ رَحمانيَّةُ النَّفَحاتِ(٥)
وفي الكَعبةِ الغَرّاءِ رُكنٌ مُرَحِّبٌ ... بِكَعبةِ قُصّادٍ ورُكنِ عُفاةِ(٦)
وما سَكَبَ الميزابُ ماءً وإنَّما ... أفاضَ عليكَ الأجرَ والرَّحَماتِ(٧)

١ ـ عرفات: اسم موضع وقوف الحاج، على مقربة من مكة، وهو اسم واحد في صورة الجمع.

٢ ـ تولى وجهة البيت: تستقبلها، والوجهة المكان الذي يستقبله الإنسان. ناضرا من النضرة وهي الحسن. وسيم: جميل مجالي البشر والمراد الوجه. والبشر: طلاقة الوجه. القسمات: جمع قسمة وهي الوجه، وقيل ما بين الوجنتين والأنف.

٣ ـ الأفق: الناحية، ملائك: جمع ملك. التحايا: جمع تحية.

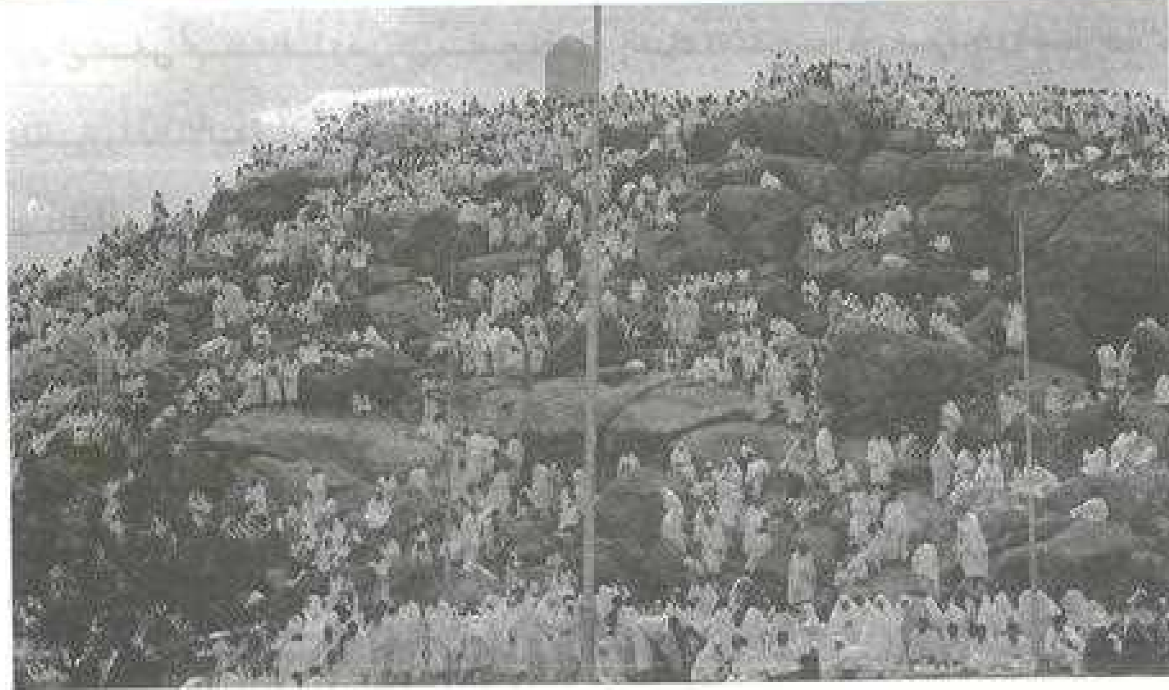
٤ ـ حديت: من الحداء، وهو سوق الإبل والغناء لها. والعيس: الإبل البيض التي يخالط بياضها شيء من الشقرة. والبيداء: المفازة. الحداة: جمع حادٍ.

٥ ـ جبريل: هو أمين الوحي، والراح: جمع راحة، وهي الكف.

٦ ـ مرحب: من رحب به: قال له: مرحبا. وقصاد: جمع قاصد

وعفاة: جمع عافٍ. وهو طالب المعروف.

٧ ـ سكب الماء: صبه. الميزاب، ويقال له متراب ومرزاب ومزراب: ما يسيل منه الماء من مكان عالٍ. قالوا: ومنه ميزاب الكعبة أي مصب ماء المطر من فوقها. وهو المراد هنا: أفاض: أفرغ.



وزَمزَمُ تَجري بَينَ عَينَيكَ أعيُناً ... مِنَ الكَوثَرِ المَعسولِ مُنفَجِراتِ(٨)
ويَرمونَ إبليسَ الرَّجيمَ فَيَصطَلي ... وشانيكَ نيراناً مِنَ الجَمَراتِ(٩)
يُحَيّيكَ طَهَ في مَضاجِعِ طُهرِهِ ... ويَعلَمُ ما عالَجتَ مِن عَقَباتِ(١٠)
ويُثني عليكَ الراشِدونَ بِصالِحٍ ... ورُبَّ ثَناءٍ مِن لِسانِ رُفاتِ(١١)
لَكَ الدِّينُ يا رَبَّ الحَجيجِ جَمَعتَهُم ... لِبَيتٍ طَهورِ السّاحِ والعَرَصاتِ(١٢)

٨ ـ زمزم: بئر عند الكعبة، والكوثر: نهر في الجنة، والكثير من الماء، والمعسول: الحلو.

٩ ـ إبليس: علم جنس للشيطان، والرجيم: هو المطرود، والملعون، والمرجوم بالحجارة. ويصطلي نيرانا: يحترق بها.

والشاني: المبغض. والجمرات: الحصيات، واحدتها جمرة.

١٠ ـ يحييك من حياه إذا قال له: حياك الله، أي أطال عمرك. وطه: اسم النبي عليه الصلاة والسلام. ومضاجع: جمع مضجع. وهو مكان الاضطجاع. العقبات واحدتها عقبة: وهي الطريق الصعب في أعلى الجبل والمراد هنا صعاب الأمور.

١١ ـ يثني عليك الراشدون: يذكرونك بخير، والراشدون: الخلفاء الأربعة بعد النبي، وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي. والرفات: ما بلي من جسم الإنسان بعد موته.

١٢ ـ الحجيج: جمع حاج وهم الحجاج. والساح: جمع ساحة، وهي ساحة الدار.

والعرصات: جمع عرصة وهي البقعة من بين الدور ليس فيها بناء.

أرى الناسَ أصنافاً ومن كلِّ بقعةٍ … إليكَ انتهَوا من غُربةٍ وشتاتِ(١٣)
تساوَوا فلا الأنسابُ فيها تفاوتٌ … لديكَ ولا الأقدارُ مختلفاتِ
عنَتْ لكَ في التُّربِ المقدَّسِ جبهةٌ … يدينُ لها العاتي من الجبهاتِ(١٤)
منوَّرةٌ كالبدرِ شمّاءُ كالسُّها … وتُخفَضُ في حقٍّ وعند صلاةِ(١٥)
ويا ربِّ لو سخَّرتَ ناقةَ صالحٍ … لعبدِكَ ما كانت من السَّلِساتِ(١٦)
ويا ربِّ هل سيّارةٌ أو مطارةٌ … فيدنو بعيدُ البيدِ والفلواتِ؟(١٧)
ويا ربِّ هل تُغني عن العبدِ حجّةٌ … وفي العمرِ ما فيه من الهفواتِ(١٨)
وتشهدُ ما آذيتُ نفساً ولم أضرْ … ولم أبغِ في جهري ولا خطراتي(١٩)
ولا غلبتني شقوةٌ أو سعادةٌ … على حكمةٍ آتيتَني وأناةِ(٢٠)
ولا جالَ إلا الخيرُ بين سرائري … لدى سُدَّةٍ خيريَّةِ الرغباتِ(٢١)

١٣ ـ الأصناف: الأنواع. والغربة: الاغتراب. والشتات: التفرق.

١٤ـ عنت لك: خضعت وذلت. والترب: التراب. ويدين لها: يطيعها.

والعاتي من الجبهات: أي الجبهة العاتية التي تجاوزت الحد في الاستكبار والجبروت والخطاب لله تعالى. يريد أن جبهة الممدوح عنت لله، وهي التي أطاعها العتاة المتكبرون.

١٥ ـ منورة: صفة للجبهة في البيت السابق. وشماء: مرتفعة، صفة للجبهة أيضاً. والسها: كوكب من بنات نعش الصغرى.

وتخفض: من الخفض ضد الرفع.

١٦ ـ سخرت: من التسخير، وهو تذليل الدابة وركوبها بغير أجرة. والسلسات: جمع سلسلة، وهي المنقادة.

١٧ ـ السيارة: صيغة مبالغة من السير، جعله المتأدبون اسماً ((للأوتوموبيل)). المطارة: سمى بها المركبة التي تطير في الجو بالوسائل الصناعية. يدنو: يقرب. والبيد، والفلوات: جمع بيداء، وفلاة.

١٨ ـ هل تغنى عن العبد حجة: أي هل تنفعه حجة في مهم أمره عند الله.

والهفوات: الزلات.

١٩ ـ وتشهد أنت يارب ما آذيت نفساً: أي لم أصل إليها بأذى، ولم أضر: لم أفعل ما يضر. ولم أبغ: لم أرتكب البغي. والجهر: العلانية.

والخطرات: واحدتها خطرة، وهي ما يلوح للإنسان في فكره.

٢٠ ـ الشقوة: ضد السعادة، والحكمة العدل، والعلم، والحلم. وقيل: ما يمنع الجهل وقيل: هي كل كلام وافق الحق. وقيل: هي وضع الشيء في موضعه وصواب الأمر وسداده. والأناة: الحلم.

٢١ ـ جال: طاف غير مستقر. والسرائر: جمع سريرة، وهي ما أسره الإنسان من أمره. والسدة: الباب.

ولا بتُّ إلا كابنِ مريمَ مشفقاً … على حُسَّدي مستغفراً لعداتي(٢٢)
ولا حُمِّلت نفسٌ هوىً لبلادِها … كنفسي في فعلي وفي نفثاتي(٢٣)
وإني ولا مَنٌّ عليكَ بطاعةٍ … أُجِلُّ وأُغلي في الفروضِ زكاتي(٢٤)
أبالغُ فيها وهي عدلٌ ورحمةٌ … ويتركُها النُّسّاكُ في الخلواتِ(٢٥)
وأنتَ وليُّ العفوِ فامحُ بناصعٍ … من الصفحِ ما سوَّدتُ من صفحاتي(٢٦)
ومن تضحكِ الدنيا إليه فيغترِرْ … يمُتْ كقتيلِ الغيدِ بالبسماتِ(٢٧)
وركبٍ كإقبالِ الزمانِ محجَّلٍ … كريمِ الحواشي كابرِ الخطواتِ(٢٨)
يسيرُ بأرضٍ أخرجتْ خيرَ أمّةٍ … وتحتَ سماءِ الوحيِ والسُّوراتِ(٢٩)
يُفيضُ عليها اليُمنَ في غدواتِه … ويُضفي عليها الأمنَ في الرَّوحاتِ(٣٠)
إذا زُرتَ يا مولايَ قبرَ محمدٍ … وقبَّلتَ مثوى الأعظمِ العطراتِ(٣١)

٢٢ ـ ابن مريم: عيسى عليه السلام. ومشفقاً على حسدى: حريصاً على صلاحهم. والحسد: جمع حاسد. مستغفراً لعداتي: طالباً لهم المغفرة. والعداة: جمع عدو.

٢٣ ـ الهوى: الحب. والنفثات: جمع نفثة: تطلق على الشعر مجازاً، فيقال: ما أحسن نفثات فلان، أي ما أحسن شعره.

٢٤ ـ المن: الامتنان بتعداد الصنائع. وأجل زكاتي: أعظمها. وأغليها: أجعلها غالية. والفروض: ما فرضه الله من العبادات الخمس، والزكاة أحد هذه الفروض.

٢٥ ـ أبالغ فيها: من بالغ في الأمر اجتهد فيه ولم يقصر. والنساك: جمع ناسك، وهو العابد المتزهد في الخلوات: متعلق بالنساك.

٢٦ ـ ولي العفو: أي متوليه وصاحبه. والعفو: ترك العقوبة والإعراض عن المؤاخذة. امح: أزل. الناصع: الخالص الصافي.

والصفح: ترك الشيء، والإعراض عنه.

٢٧ ـ يغتر: يخدع بالشيء، ويظن به الأمن فلا يتحفظ. والغيد: جمع غيداء، وهي المرأة الطويلة العنق. والتي تنثني ليناً، والتي لطفت بشرتها وكما حسنها. والبسمات: واحدتها بسمة، وهي الضحكة من غير صوت.

٢٨ ـ المحجل من الخيل: ما في قوائمه بياض. والمعنى: ركب مطاياه محجلة. أو هو محجل، ويكون المراد مشرق مضيء، على سبيل المجاز، كقولهم: يوم أغر محجل والحواشي: الجوانب والنواحي. والكابر: رفيع الشأن.

٢٩ ـ يسير بأرض: يريد أرض الحجاز، ويريد بخير أمة العرب خاصة والمسلمين عامة. والوحي: أصله كل ما ألقيته إلى غيرك، ثم غلب على ما يلقى للأنبياء من عند الله. والسورات: هي سورات القرآن: جمع سورة.

٣٠ ـ يفيض: يسيل. واليمن: الخير والبركة. والغدوات: جمع غدوة، وهي المرة من الغدو. ويضفى عليها الأمن: يسبغه عليها. والروحات: جمع روحة، وهي المرة من الرواح. والغدو والرواح على إطلاقهما: الذهاب والمجيء في أي وقت وضمير «عليها» للأرض في البيت السابق.

٣١ ـ إذا زرت يا مولاى: الخطاب للخديو. والمثوى: المقام. والأعظم: جمع عظم. والعطرة: المتطيبات بالعطر.

وفَـاضَتْ مَعَ الـدمعِ الـعُيـونُ مَـهـابَـةً ... لـأحـمـدَ بـينَ الـسّتـرِ والـحُجُـراتِ(٣٢)

وَأشْـرَقَ نُـورٌ تَـحتَ كُلِّ ثَـنـيَّـةٍ ... وَضَـاعَ أريجٌ تَـحتَ كُلِّ حَـصَـاةِ(٣٣)

لِـمُـظْـهِـرِ دينِ اللـهِ فَـوقَ تَـنُـوفَـةٍ ... وبَـاني صُـرُوحِ المَـجْـدِ فَـوقَ فَلاةِ(٣٤)

فَـقُلْ لِـرَسُـولِ اللـهِ يَـا خَـيـرَ مُـرسَلٍ ... أَبُـثُّكَ مَـا تَـدرى مِنَ الحَـسَـرَاتِ(٣٥)

شُـعُـوبُكَ فى شَـرقِ الـبِلادِ وَغَـربِـهـا ... كَأَصْـحَابِ كَـهفٍ فى عَـمِيقِ سُبَـاتِ(٣٦)

بِـأَيْمَانِـهِم نُـورانِ ذِكْـرٌ وَسُـنَّـةٌ ... فَـمَـا بَـالُـهُم فى حَـالِكِ الـظُّـلُـمَـاتِ(٣٧)

وَذَلِكَ مَـاضِى مَـجْـدِهِم وَفَـخَـارِهِم ... فَـمَـا ضَـرَّهُم لَـو يَـعـمَـلُـونَ لآتِى(٣٨)

وَهَـذَا زَمَـانٌ أرضُهُ وَسَـمَـاؤُهُ ... مَـجَـالٌ لِـمِـقْـدَامٍ كَـبِـيرِ حَـيَـاةِ(٣٩)

مَشَى فِـيهِ قَـومٌ فى الـسَّمَـاءِ وَأَنْـشَـئُوا ... بَـوَارِجَ فى الأبـرَاجِ مُـمْـتَـنِـعَـاتِ(٤٠)

فَـقُلْ رَبِّ وَفِّقْ لِـلـعَـظَـائِمِ أُمَّـتى ... وَزَيِّنْ لَـهَـا الأَفْـعَـالَ وَالـعَـزَمَـاتِ(٤١)

---

٣٢ ـ فاضت: سال ماؤها، والمهابة: الخوف والتوقير. وأحمد: اسم النبى أيضا. الستر: ما يستتر به. والحجرات: جمع حجرة، وهى البيت الصغير فى الدار.

٣٣ ـ الثنية: طريق العقبة. وضاع: فاح. والأريج: الرائحة الطيبة.

٣٤ ـ مظهر دين الله: معلنه والجاهر به ـ والتنوفة: المفازة وهى الأرض الواسعة البعيدة الأطراف والصروح: جمع صرح، وهو القصر، وكل بناء عال. والفلاة: أى الصحراء القفر الواسعة.

٣٥ ـ أبثك: أطلعك. وما تدرى: ما تعلم. والحسرات: جمع حسرة. وهى أشد التلهف على الفائت.

٣٦ ـ شعوبك: جمع شعب، وهو القبيلة العظيمة من الناس. والكهف: البيت الواسع المنقور فى الجبل. والعميق: البعيد الغور. والسبات: النوم.

٣٧ ـ إيمانهم: جمع يمين، وهى الجهة المضادة لليسار، والجارحة أيضاً، وهى المرادة هنا. والمعنى معهم نوران.. الخ. والذكر: القرآن والسنة. الشريعة، وقد تطلق عند الفقهاء على جملة أحاديث النبى ﷺ. والبال: الحال والشأن: أى ماذا غيّر حالهم حتى صاروا فى الظلمات الحالكة؟ والحالك: الشديد السواد. والظلمات: جمع ظلمة، وهى ذهاب النور.

٣٨ ـ المجد: العز والرفعة. والفخار: المباهاة بالمناقب والمكارم.

٣٩ ـ المجال: مكان الجولان، وهو الطوف فى غير استقرار. المقدام: أصله الكثير الإقدام على العدو، والمراد هنا الكثير الإقدام على عظائم الأمور.

٤٠ ـ مشى فيه: أى فى هذا الزمان. وانشأوا: أحدثوا. وبوارج: جمع بارجة، وهى سفينة كبيرة للقتال. والأبراج: جمع برج، وهو فى السماء بابها، وقيل منزلة القمر. وقيل الكوكب العظيم. وممتنعات: محتميات. والمعنى: أن قوما بلغوا من العزة فى هذا الزمان أن مشوا فى جو السماء، يريد طاروا فيه وأنشأوا طيارات ترتفع حتى تكاد تصل إلى السماء.

٤١ ـ وفق للعظائم أمتى: ألهمها إياها، والعظائم: جمع عظيمة، وهى ما عظم من الأمور. وزين لها الأفعال: اجعلها زينة عندها، أى غير مشينة. والعزمات: جمع عزمة، وهى الثبات والصبر فيما يعزم عليه.

بين الصحف و المجلات

إعداد

أ/ محمد جمعة

أ/ علاء عبد الرحمن

شهادات قبطية للمرجعية الإسلامية

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ الدكتور محمد عمارة المنشور بجريدة الأهرام بعددها الصادر بتاريخ ٥ / ١٠ / ٢٠١١م يقول:

كانت ثورة ١٩١٩م لحظة تاريخية ارتبط فيها طلب الاستقلال الوطنى بالتأكيد على تلاحم النسيج الوطنى للشعب المصرى، بمكوناته الدينية المتعددة، تحت مظلة مرجعية العروبة والإسلام.

ففى أعقاب هذه الثورة، اجتمعت لجنة وضع دستور ١٩٢٣م، التى ضمت ممثلين عن المكونات الاجتماعية والدينية لمصر - وفى مقدمتهم هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف.. والكنيسة الوطنية.. وحاخامية اليهود المصريين - واتفقوا جميعا على أن يتضمن الدستور المصرى النص على أن العروبة والإسلام هى هوية مصر - الدولة والمجتمع - فنص الدستور على أن اللغة العربية هى اللغة القومية لمصر، وأن دين الدولة المصرية هو الإسلام.. ومنذ ذلك التاريخ أصبحت هذه القسمة من قسمات العقد الاجتماعى لمصر والمصريين موضع إجماع، لا يخرج عنه إلا قلة من أهل الشذوذ الفكرى، أو اللقطاء الذين يريدون استبدال الهوية الغربية بهوية العروبة والإسلام.

وعلى امتداد عقود القرن العشرين، توالت شهادات الإعلام من عقلاء الأقباط - العلمانيين منهم والأكليروس - التى تؤكد أن الهوية العربية الإسلامية هى الهوية الحضارية الجامعة لكل المصريين.. وعلى سبيل المثال:

- فالزعيم الوطنى الكبير مكرم عبيد باشا ١٣٠٧ - ١٣٨٠ هـ ١٨٨٩ - ١٩٦١م يكتب ويعلن:

«إن المصريين عرب.. والوحدة العربية هى أعظم الأركان التى يجب أن تقوم عليها النهضة الحديثة فى الشرق العربى.. ونحن مسلمون وطنا، ونصارى دينا.. اللهم اجعلنا نحن المسلمين لك، وللوطن أنصارا.. واللهم اجعلنا نحن نصارى لك، وللوطن مسلمين»


أنور عبد الملك

● والمفكر الحضارى البارز، وفيلسوف الوطنية المصرية الدكتور أنور عبد الملك، يكتب فيقول:

«إن أى إنسان عاقل يدرك أن مصر هى أقدم أمة وحضارة فى التاريخ قاطبة ومنذ الفتح العربى لمصر دخلنا بالتدريج فى إطار دائرة أسميناها الدائرة العربية، ولكنها فى الواقع وهى دائرة الحضارة الإسلامية والتى تتمركز حول مبدأ واحد هو التوحيد، الذى يتفق بشكل مطلق مع خصوصية مصر؛ فالحياة العامة فى مصر بها قبول بالسليقة للتوحيد، ناتج من وحدة الأمة المصرية منذ ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة، وبالتالى فالإطار الحضارى للإسلام يشمل المرحلة القبطية، أى المسيحية المصرية، كما أن لغتنا هى العربية، لغة القرآن».

● والدكتور غالى شكرى ١٩٣٥ - ١٩٩٨م يكتب فيقول:

«إن الحضارة الإسلامية هى الانتماء الأساس لأقباط مصر.. وعلى الشباب القبطى أن يدرك جيدا أن هذه الحضارة العربية الإسلامية هى حضارته الأساسية.. إنها الانتماء الأساسى لجميع المواطنين.. صحيح أن لدينا حضارات عديدة من الفرعونية إلى اليوم ولكن الحضارة العربية الإسلامية قد ورثت كل ما سبقها من حضارات، وأصبحت هى الانتماء الأساسى، والذى بدونه يصبح المواطن فى ضياع، إننا ننتمى كعرب من مصر - إلى الإسلام الحضارى


غالى شكرى


مكرم عبيد

والثقافى، وبدون هذا الانتماء نصبح فى ضياع مطلق وهذا الانتماء لا يتعارض مطلقا مع العقيدة الدينية.. بالعكس.. لماذا؟

لأن الإسلام وحد العرب، وكان عاملا توحيديا للشعوب والقبائل والمذاهب والعقائد».

● والمفكر الحضارى والمناضل السياسى والاجتماعى الدكتور رءوف نظمى يفصل الحديث عن المرجعية الإسلامية لكل الأمة، فيقول:

«إذا كان هناك خلاف بين الإسلاميين والعلمانيين حول المرجعية، فهو خلاف بين النخبة، أما الأمة فمرجعيتها واحدة وهى الإسلام بما له من تراث وعقائد وأصول، والأساس هو أن يكون للأمة مرجعية واحدة، فإذا كانت الأمة إسلامية فمرجعيتها الإسلام، وإذا كانت كونفوشيوسية فمرجعيتها الكونفوشيوسية.. ومهما قالت أوروبا عن مرجعيتها أنها علمانية، فهى مسيحية، حتى الفلسفة الماركسية صدرت من تحت عباءة الفلسفة المسيحية، وبالنسبة لنا، المطلوب أن نعود إلى مرجعيتنا والنداء ليس موجها إلى النخبة لنتناقش فى حكاية المرجعية: إسلام أو لا إسلام؟ إن أغلبية الأمة مسلمون، والمطلوب هو توجيه الجهود للعمل مع الأغلبية التى لا تزال على مرجعيتها التاريخية، على تراثها الحضارى، وعلى عقيدتها، نحن لدينا دستور يقول: إن دين الدولة هو الإسلام، وجميع مواد القانون فى حدود الشريعة، والمطلوب فقط ترويج هذا الفهم لإطلاق طاقات الإبداع فى المشروع الحضارى.. وإذا كانت المرجعية الإسلامية هى مرجعية الجميع، تنتهى المشكلة، فالمطلوب أن يكون مشروعنا حضاريا، من حضارتنا وحضارتنا إسلامية، فالمطلوب أن يكون الإسلام هو المرجعية العامة للجميع».

● ومع هؤلاء القادة والمفكرين الأقباط - العلمانيين - وقف العقلاء من رجال الأكليروس، فالأنبا يوحنا قلته - نائب البطرك الكاثوليكى يعلن:

«أوافق تماما أن أكون مصريا مسيحيا، تحت حضارة إسلامية.. أنا مسلم ثقافة مائة فى المائة.. أنا عضو فى الحضارة الإسلامية كما تعلمتها فى الجامعة المصرية تعلمت أن النبى صلى الله عليه وسلم سمح لمسيحيى اليمن أن يصلوا صلاة الفصح فى مسجد المدينة.. وإذا كانت الحضارة الإسلامية تجعل الدولة الإسلامية تحارب لتحرير الأسير المسيحى، وتعلى من قيمة الإنسان كخليفة لله فى الأرض، فكلنا مسلمون حضارة وثقافة وإنه ليشرفنى وأفخر أننى مسيحى عربى أعيش فى حضارة إسلامية، وفى بلد إسلامى، وأساهم وأبنى، مع جميع المواطنين هذه الحضارة الرائعة».

● وفى المقدمة من رجال الأكليروس، الذين أكدوا على الهوية العربية الإسلامية لكل المصريين، يأتى الأنبا موسى عضو المجمع المقدس بالكنيسة الأرثوذكسية، وأسقف الشباب الذى أعلن:

«نحن مصريون عرقا، لا فرق بيننا وبين إخواننا المسلمين كلنا أقباط يجرى فينا دم واحد من أيام الفراعنة.. والثقافة الإسلامية هى السائدة الآن.. وأى قبطى يحمل فى الكثير من حديثه تعبيرات إسلامية، يتحدث بها ببساطة ودون شعور بأنها دخيلة، بل هى جزء من مكوناته، ونحن نحيا العربية؛ لأنها هويتنا الثقافية.. ومصر دائما دولة مسلمة ومتدينة، ولكن بدون تطرف، ولو عشنا كأقباط ومسلمين فى إطار الصحوة الدينية المصحوبة بصحوة وطنية فسيكون المستقبل أكثر من مشرق».


البابا شنودة

● وفى عقد الثمانينيات من القرن العشرين، عندما وافق ٦٣٪ من الأقباط - فى استطلاع الرأى الذى أجراه المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية - على تطبيق الشريعة الإسلامية بمصر.. علق البابا شنودة على ذلك - فى الأهرام بتاريخ ٦ مارس سنة ١٩٨٥م فقال:

«إن الأقباط فى ظل حكم الشريعة الإسلامية يكونون أسعد حالا وأكثر أمنا ولقد كانوا كذلك فى الماضى، حينما كان حكم الشريعة هو السائد.. نحن نتوق إلى أن نعيش فى ظل لهم ما لنا وعليهم ما علينا.. إن مصر تجلب القوانين من الخارج حتى الآن، وتطبقها علينا ونحن ليس عندنا ما فى الإسلام من قوانين مفصلة، فكيف نرضى بالقوانين المجلوبة ولا نرضى بقوانين الإسلام؟».

تلك نماذج - مجرد نماذج - من الشهادات القبطية، التى شهد بها مفكرون أقباط بارزون -

من العلمانيين والأكليروس - للمرجعية الإسلامية، والهوية العربية الإسلامية للمصريين جميعا.. فهى العقد الاجتماعى الذى ارتضاه المصريون والذى ضمن لهم العيش المشترك كنسيج وطنى واحد عبر تاريخنا الطويل! فهل نبرز شهادات العقلاء لنواجه بها جهالات الدهماء والعملاء؟

التحقيق العادل.. والمصارحة.. والشفافية

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ جلاء جاب الله بجريدة الجمهورية الصادرة فى ١٣ / ١٠ / ٢٠١١م يقول:

● قضية ماسبيرو وما حدث فيها و قبلها وبعدها لا يحتاج لجانا وزارية أو شعبية.. لأننا تعودنا على وقف القضايا الشائكة فى دهاليز اللجان.. المطلوب هو التحقيق العادل فى كل ملابسات الأحداث.. والمصارحة فى كل شىء حتى نبحث عن حلول جذرية بدلا من مسكنات وقتية.

لابد أن نواجه أنفسنا بأنفسنا فالقضية لا تمس مسيحيا أو مسلما.. ولا تتعلق بكنيسة فى أسوان أو فى أى مكان.. بل تتعلق بالأمة.. بمصر الحاضر والمستقبل.. تتعلق بالمصير الواحد والغد القادم.

المطلوب المصارحة والمكاشفة.

ومن مبدأ المصارحة والمكاشفة أود أن أسجل عدة ملاحظات لعلها تفيد أو تهدى من يريد البحث عن حل:

● مشكلات المسيحيين فى مصر ليست جديدة كما أن مشكلات مصر كلها مسلمين ومسيحيين ليست جديدة بل هى معروفة.. وبعضها ترسخ طوال الأعوام الماضية.. فهل المطلوب علاجها فورا.. والآن الآن وليس غدا وفى ظل أوضاع كلنا نلمسها ونعيشها ألا يمكن تأجيلها لحين وجود حكومة منتخبة ورئيس جديد منتخب؟

● هل المطلوب الضغط الآن وبكل قوة لتحقيق مكاسب فى ظل الأحوال العامة المتردية حاليا واستغلال هذه الأحوال لتحقيق ما فشل البعض فى تحقيقه فى سنوات؟

● سياسة فرض الأمر الواقع هل تصلح لحل أزمة متراكمة فى مصر باسم قانون بناء دور العبادة؟ أم أنه لابد من مواجهة الخطأ وإيقاف المخالفة أولا حتى لا تكون منهجا ووسيلة تعامل مع كل القضايا المماثلة انتظاراً للحلول الجذرية للمشكلات المعلقة؟.

● هل كانت مصادفة أن يتحرك المسيحيون فى كل المحافظات فى توقيت واحد ويتم تجييش الشباب وتهييج وإثارة مشاعرهم فى كل مكان بكل هذا الاتساع أم أنه مخطط ومدبر.

● هؤلاء الذين يثيرون الفتن فى مصر من خلال القنوات السامة المسمومة التى تثير الفتنة بكل الأشكال والأساليب ألا يستحقون المساءلة والتحقيق معهم؟ ثم ما هو الموقف إزاء تلك الفضائيات حتى ولو لم تكن تبث على أقمارنا الصناعية؟

● ما حدث بداية من أسوان وحتى يوم الأحد الدامى لم يكن فتنة طائفية.. بل فتنة فئوية؛ لأنه لم يكن خلافا بين مسلم ومسيحى.. بل خلاف بين بعض المسيحيين والجهة الإدارية محليا على بناء مضيفة أو كنيسة.. وبترتيب غريب - بل ومريب - تحولت إلى قضية عامة ثم إثارة للفتنة ومحاولات لزج بعض المسلمين المتشددين ودفعهم لإثارة المشكلات والدخول فى معركة طائفية لا مبرر لها.. ألا يستحق ذلك كله تحقيقاً موسعاً؟

● لا يستطيع أحد أن ينكر أن هناك مظالم ومطالب عادلة للمسيحيين.. ولكن هناك أيضا مظالم ومطالب عديدة لكل المصريين ليس هذا وقت الحديث عنها والمطالبة بها فى ظل ظروف مصر الحالية.. ولن يضير أحد الانتظار لما بعد الانتخابات والاستقرار.

● انسياق بعض المسلمين المتطرفين أو غير المتطرفين لمحاولات إثارتهم أمر مرفوض ويتنافى مع الدين الإسلامى وضد الشريعة.. وضد مصالح الوطن.

اشتدى يا أزمة

تحت هذا العنوان كتب المستشار حسن منصور مقالاً نشر بجريدة اللواء الإسلامى الصادرة بتاريخ: ١٣ / ١٠ / ٢٠١١م يقول:

إذا كان من مقتضى وصف الحياة التى نعيش أيامها على الأرض بأنها دنيا، فهى تتقلب بين الخير والشر، والقوة والضعف، والصحة والمرض والسعادة والشقاء، وبصفة عامة، لا تسير هذه الحياة على وتيرة واحدة، بل إن من هوان الدنيا على الله تعالى، أن جعلها دار ابتلاء، فما أكثر مصائبها، ومن كثرة وتزاحم هذه المصائب على الإنسان فقد تضمنت الشريعة الغراء من الأحكام ما يساعده على مواجهتها، وقد اهتم فقهاء هذه الشريعة ببيان هذه الأحكام وجعلوا لها نصيبا من فقههم، تحت باب ما يسمى فقه النوازل أى الأمور التى تنزل على الإنسان، دون أن يكون له يد فى وقوعها، أو قدرة على ردها عن نفسه أو غيره.

وفى أيامنا المعاصرة أصبح يطلق على هذه النوازل تعبير الأزمات وهى من الكثرة والتنوع بما يستعصى على الحصر، فقد ضربت بأطنابها جوانب حياتنا اليومية، حتى صار هذا العصر يوصف بعصر الأزمات، ولم يسلم منها حتى ما هو ضرورى لحياة الفرد والمجتمع وقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أمثلة من هذه الأزمات ومسبباتها فعن ابن عمر رضى الله عنهما، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «يا معشر المهاجرين خصال خمس إذا ابتليتم بهن، ونزلن بكم وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة فى قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع، التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ولن ينقضوا عهد الله وعهد رسوله، إلا سلط الله عليهم عدوهم ثم غزوهم وأخذوا بعض ما كان فى أيديهم، وما لم يحكموا بكتاب الله إلا جعل الله بأسهم بينهم» المعجم الأوسط للطبرانى.

ولكن من عظمة الإسلام، أنه يفتح باب الأمل والرجاء، فى القضاء على أية أزمة، قد تعترض مسيرة الإنسان فى هذه الحياة، حتى فى أحلك الظروف، بل وعندما تبلغ الأزمة ذروة الشدة، فقد روى القضاعى فى الفردوس عن الإمام على كرم الله وجهه، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «اشتدى أزمة تفرجى» مصداقا لقول الحق تعالى:

﴿ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ﴾

الاستقطاب السياسى حول القيادات الناجحة بين الإسلاميين والعلمانيين

أردوغان نموذجاً


للأستاذ الدكتور/ أيمن الغايش
جامعة القاهرة



على هامش الزيارة التاريخية لأردوغان إلى مصر بعد ثورة ٢٥ يناير والتى تمت فى سبتمبر ٢٠١١م أجرت الإعلامية منى الشاذلى حديثاً أجاب فيه أردوغان عن عدة أسئلة منها تعامله مع إشكالية العلمانية والإسلام. وبمجرد أن تحدث الرجل تحولت كلماته ثم التعليقات على كلماته - والتى لم تخلو بعضها من تحريف - إلى مادة الشد والجذب بين الإسلاميين والعلمانيين.

بدأ العلمانيون تفسير كلامه عن العلمانية ونشره - على الرغم من أن هذا الكلام لم يكن جديداً فى محتواه وقد سبقه به الكثير من المفكرين الإسلاميين فى هذا التناول - بل إن بعضهم وصل به الخيال أن يقول: إن النجاح الذى أحدثه أردوغان فى تركيا يرجع إلى علمانية الدولة وليست إلى إسلامية الرجل.

على الرغم من أن العلمانية كانت راسخة فى كل شىء فى تركيا منذ عشرات السنين ولم نر ثمارها الطيبة إلا فى عهده. وقد وصل هذا الأسلوب من التعامل غير الموضوعى مع كلمات أردوغان حتى إننى سمعت أحد ضيوف البرامج الإذاعية يتهكم مع المذيع قائلاً: لقد كان الإسلاميون يحجون إلى تركيا حتى فضحهم أردوغان فانقلبوا عليه. وفى نفس الوقت أسرع العديد من المتدينين إلى طرد أردوغان من المعسكر الإسلامى وتسليمه على طبق من ذهب إلى العلمانيين.

وأريد هنا أن أذكر ما قاله أردوغان بالنص فى هذا الحوار حتى لا نسير فى نفس الطريق الذى أحاول أن أنتقده فى هذه الرسالة:

سألت الأستاذة منى الشاذلى عن إشكالية العلمانية والإسلام، فرد عليها قائلاً بالنص:

«إن مفهوم العلمانية ليس مفهوماً رياضياً فكما تعلمون فى الرياضيات أن ٢×٢ = ٤ ولكن فى المفاهيم الاجتماعية فإن الأمر يختلف وعندما تعرف هذه المفاهيم ستدرك أنها مختلفة لأن العلمانية فى المجتمع الأنجلوساكسونى مختلفة عن بقية أوروبا وكذلك تختلف عن تركيا.

ففى تركيا تعرف العلمانية بشكل مختلف وبالطبع فقد دفعنا ثمناً باهظاً من أجل هذا المفهوم المتميز للعلمانية فى تركيا.

فنحن تجربتنا فى تركيا والتى ظهرت فى دستور ١٩٨٢م فى قرار التعريف بالعلمانية هى أن الدولة العلمانية على مسافة متساوية مع جميع الأديان. فالأشخاص ليسوا علمانيين ولكن الدولة هى التى كانت علمانية. فالأشخاص يمكن أن يكونوا متدينين أو غير متدينين أو من دين آخر غير هذا أو ذاك. مثلاً فى مصر هناك مسلمون وغير مسلمين من الأقباط واليهود.

وكذلك فى تركيا فإن سكانها ٩٩٪ من المسلمين والباقى مسيحيون ويهود بالإضافة إلى أديان أخرى. ولكن الدولة تتعامل مع كل هذه الفئات معاملة عادلة، فالمسلم يعيش ديانته والمسيحيون واليهود يمارسون شعائرهم الدينية وكذلك كل الفئات يمكنهم أن يمارسوا شعائرهم بحرية وتحت ضمان الدولة.

وعندما ننظر إلى حضارتنا الإسلامية نرى هذه الأمثلة كثيرة.

وفى هذه الفترة الانتقالية فى مصر سوف يتم تقييم هذا الموضوع بكل جدية خاصة ما يتعلق بالمسيرة الديمقراطية. فالدولة العلمانية ليس من حقها أن تنشر اللادينية ولكنها تحترم كل الأديان وتؤمن لكل فرد أن يطبق شعائره. يجب على الجميع أن يفهم هذا الأمر وأنه ليس مدعاة للقلق لأى من أهل الأديان.

والذين سيقومون بتجهيز الدستور يجب عليهم أن يتذكروا أن الدولة تحترم كل الأديان ونحن على مسافة متساوية معهم. فالدولة يجب أن تعطى ضماناً لكل الأديان

وإذا بدأت دولة ما بهذا الشكل فإن المجتمع كله سيكون آمناً سواء من المسلمين أو الأقباط أو حتى اللادينين.

فالدولة ينبغى عليها أن تحترمه، لأن هذا هو تعريف الدولة العلمانية كما نفهمها. أما الأشخاص فهم ليسوا علمانيين.

أنا رجب طيب أردوغان لست علمانياً أنا مسلم ولكنى رئيس وزراء لدولة علمانية بهذا المفهوم الذى ذكرته لك. هل استطعت أن أنقل هذا المفهوم؟؟

وخلاصة هذا الرد هى:

١- إن العلمانية ليست شيئاً واحداً فى العالم وأن تعريفها وتطبيقها يختلف من دولة إلى دولة.

٢- إن نموذج العلمانية التركية يعنى أن النظام السياسى على مسافة متساوية بين جميع أصحاب المعتقدات.

٣- إن أردوغان نفسه رجل مسلم ولكنه لا يجد فى هذا المفهوم من العلمانية الذى هو أشبه بالعدالة وتحقيق مبدأ المواطنة أكثر من كونه نبذاً للدين أو فصله عن حياة الأشخاص.

وهناك نص آخر لأردوغان عندما كان عمدة أسطنبول يوضح فيه رأيه فى هذه المسألة فقد قال بالنص:

مصطلح العلمانية هو مصطلح مشكل وعندما تسأل عنه فإن العديد لا يتمكنون من تفسيره بوضوح. وأريد أن أؤكد أنه لا يمكن أن يكون الإنسان مسلماً وعلمانياً فى نفس الوقت. إنه كما تحاول أن تقارب بين قطبين مغناطيسيين متنافرين. وعندما أرادوا أن يكتبوا الدستور قالوا: نريد أن نضيف فقرة فى الدستور تنص على أن السلطة المطلقة للشعب؟! ويا لها من كذبة؟! فقلت لهم: أريد أن أضيف كلمة على هذه الجملة فقالوا: وما هى؟ قلت: السلطة المطلقة للشعب مرة واحدة كل خمس سنوات وهى عندما يذهب الشعب إلى صندوق الانتخابات. فقالوا: إن هذه الإضافة ليست عملية.

قلت لهم: إذن فلا تكتبوها لأن السلطة المطلقة لا تكون إلا لله.

ولدى بعض الملاحظات على التعليقات التى تلت رأى أردوغان فى العلمانية وهى:

١- من الواضح أن جماعة العلمانيين فى بلادنا بعدما سيطروا على النسبة الأكبر من أجهزة الإعلام - ولم يستطيعوا أن يسيطروا على قناعة الغالبية العظمى من الشعب - من الواضح أنهم لا يألون جهداً فى البحث عن أى إثبات يقدمونه على أنهم يمتلكون الحقيقة.

٢- من الواضح -أيضاً- أن مسألة إعمال العقل وحرية الاعتقاد كأنها أصبحت بضاعة علمانية صرفة فما أن يتكلم عنها أحد حتى يوصم بأنه علمانى وقد خسر بذلك الإسلاميون العديد من عموم المجتمع.

٣- من الواضح -أيضاً- أن هناك خلطاً متعمداً بين العلمانية والديمقراطية، والهدف من ذلك هو أن يظهر العلمانيون أن المكاسب التى أقامها أردوغان هى بسبب

العلمانية وليست الديمقراطية والتى مازال يخاف منها العديد من العلمانيين فى مصر كما أن العديد من الإسلاميين لم يفهمونها أو يرضوا بها بالقدر الكافى.

٤- إن أردوغان نفسه نموذج إسلامى فريد فهو تلميذ للثقافة الإسلامية وهو رئيس الوزراء الوحيد فى أوروبا بل ربما فى العالم والذى تظهر زوجته مرتدية الحجاب وهو فخور دائماً بولائه لهذا الدين وأنه يحكم شعباً مسلماً. بل إن ابنته اضطرت للسفر للدراسة فى أمريكا لأنها لم تتمكن من دخول الجامعة التركية مرتدية الحجاب.

٥- من الواضح أن العديد من المتدينين لم يتدربوا بعد على الاستماع الجيد ولا على تحليل الكلمات بدقة وما زال العديد منهم أسرى للنقل غير الدقيق وأسرى للالتزام الحرفى بأسماء المصطلحات دون المسميات والمقاصد.

٦- من الواضح -أيضاً- أن العديد من المتدينين يتسرعون فى التفريط بسهولة فى النماذج الإسلامية بدعوى الفتنة أو الانقلاب على المنهاج تحت شعار «الحق أحب إلينا من الخلق».

لم يكن حديث أردوغان وحده تعبيراً عن هذه الظاهرة من الاستقطاب ولكن حدث نفس السيناريو مع بعض المفكرين مثل الأفغانى ومحمد عبده والعديد من المجددين الإسلاميين.

فقد سلم الكثير من المتدينين تراثهم الفكرى ودورهم الريادى إلى العلمانيين. ولا يزال العديد من المتدينين فى حاجة ماسة إلى مهارة إعادة المصطلحات إلى معانيها المحلية والإقليمية وإلى إرجاع ما أشكل من كلام أى أحد إلى ما اتضح من كلامه حتى لا يتم أخذ الكلمات بطريقة انطباعية أو اجتزائها أو نشرها دون تثبت. كما أنه من الأهمية بمكان أن نتعلم منهجية تقبل الأخطاء من الآخرين وتعدد التطبيقات.

وخلاصة القول: إن أردوغان ليس علمانياً وأن العلمانية التى يتكلم عن تطبيقاتها فى تركيا الآن ليست تلك العلمانية التى طبقها أتاتورك وأتباعه بغلق المساجد وحصار التدين، وليست تلك التى ينادى بها العديد من الإعلاميين المصريين من التكبر على النصوص الدينية والاستهزاء بالمتمسكين بها.

ولذا ينبغى على العلمانيين أن يقدموا نموذجاً فى احترام الدين والمتدينين بدلاً من التهكم والاتهام.

كما ينبغى على عموم المتدينين أن يكونوا أكثر تعقلاً ودقة وألا تشغلهم العناوين والمصطلحات عن المسميات وألا يفرطوا فى قيادات أثرت فى العالم الإسلامى بكل هذه السهولة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه ولا ينزع عن شىء إلا شانه.



طرائف.. ومواقف



لفضيلة الشيخ/ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما فى تفسير قول الله ـ تعالى ـ:

﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾

يجمع المال من سخط الله، ويتباهى به على أولياء الله، ويصرفه فى مساخط الله، فهو ظلمات بعضها فوق بعض.

ولاة الإسلام معلمون

خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى موسم الحج فقال:

«إنى والله ما أبعث إليكم عمالى ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكنى أبعثهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلىّ، فوالذى نفسى بيده لأقصنه منه».

الدين والوطن

من لا خير فيه لدينه، لا خير فيه لوطنه. لأنه إن كان ينقضه عهد الوطنية غادرا فاجرا، فهو بنقضه عهد الله وميثاقه أغدر وأفجر. وإن الفضيلة للإنسان أفضل الأوطان فمن لم يحرص عليها فأحر به أن لا يحرص على وطن السقوف والجدران.

(المنفلوطى)

وأنا ضيفك

دعا أعرابى عند الملتزم، فقال:

اللهم إن لك علىّ حقوقا فتصدق بها علىّ، وللناس قبلى تبعات فتحملها عنى، وقد أوجبت لكل ضيف قرى، وأنا ضيفك فاجعل قراى الجنة.

التهنئة أولى من التعزية

قال الأصمعى: عزى صالح المرى رجلا بابنه، فقال: «إن كانت مصيبتك لم تحدث لك موعظة، فمصيبتك أعظم من مصيبتك بابنك، واعلم أن التهنئة على آجل الثواب أولى من التعزية على عاجل المصيبة».

حكم عربية

• إن عليك من الله عيونا تراك.

«أبوبكر الصديق ـ رضى الله عنه»

• ما عاقبت من عصى الله فيك، بمثل أن تطيع الله فيه.

«عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه»

• قال لى أبى: يا بنى لا تردن على أحمق خطأ، فإنه يستفيد منك علما، ويتخذك عدوا.

«أبوعبيدة معمر بن المثنى»

• ما تكلمت بكلمة فى الغضب ندمت عليها فى الرضا.

«مؤرق العجلى»

• كل شىء يبدو صغيرا ثم يكبر إلا المصيبة فإنها تبدو كبيرة ثم تصغر. وكل شىء إذا كثر يرخص إلا الأدب فإنه إذا كثر غلا.

«نصر بن سيار»

• الأعمى من يرى بغير عينه، والأصم من يسمع بغير أذنه.

«شوقى»

ترجمان الشافعى

لما مرض الإمام محمد بن إدريس الشافعى (رحمه الله) مرضه الذى مات فيه، قال لمن كان عنده:

«إذا أنا مت، فقولوا لفلان يغسلنى»..

فلما توفى وأبلغوا كلمة الشافعى إلى ذلك الرجل قال: ائتونى بتذكرته، فجىء بها فوجد فيها على الشافعى سبعين ألف درهم دينا لفلان وفلان، فكتبها الرجل على نفسه وقال: «هذا هو الغسل الذى أراده».

هذا.. الحجيج

قال الشاعر:

هذا الحجيج إليك يهفو
بدعائه، فعساك تعفو
كدر الحياة إذا رضيت
فإنه برضاك يصفو
إنا نمزق فى الرداء
الذى نسجت.. وانت ترفو

سلوا القاضى

شوهد مؤذن يؤذن من ورقة فى يديه، فقيل له: أما تحفظ الأذان؟

قال: سلوا القاضى!!

فأتوه، فقالوا: السلام عليكم، فأخرج دفترا وتصفحه ثم قال: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته!!



اللهم لك الحمد على ما أنعمت به علينا من نعمك العظيمة، وآلائك الجسيمة حيث أنزلت علينا خير كتبك، وأرسلت إلينا أفضل رسلك وشرعت لنا أفضل شرائع دينك، وجعلتنا خير أمة أخرجت للناس، تقبل منا يامن تقبل من المتقين.

الإسلام يحرم كل ما يسىء إلى الإنسان والبيئة



للأستاذ / عاطف مصطفى

يشهد العالم الآن تطورا كبيرا فى جميع مناحى الحياة، وخاصة فى المجال الصناعى، حيث نشهد تلك المصانع العملاقة تنتشر فى كل مكان تنبعث منها الأبخرة والغازات الضارة، والتى نتج عنها ظهور الكثير من المشكلات البيئية، كان من أبرزها مشكلة التلوث البيئى والتغير المناخى، وتسببت فى ظهور العديد من الأمراض المزمنة والخطيرة، فضلا عن بروز مشكلات عالمية خطيرة،صاحبت التغير المناخى الذى يتزايد بشكل كبير ولما كان الإسلام هو الدستور الذى ارتضاه الله عز وجل دستورا للبشرية، فقد اهتم بموضوع البيئة، وأكد على المحافظة على مكوناتها.

وقد عقدت مؤتمرات عديدة، تناول فيها علماء المسلمين قضايا البيئة التى نشهدها فى الوقت الحاضر، لمناقشة أسباب التدهور البيئى، ويأتى فى مقدمتها سرعة التغيرات التى تحدث فى الكون وكيفية مواجهتها،كما تناولوا من خلال بحوثهم المتنوعة المشكلات المستحدثة فى الحياة، وعرضوها على أحكام الشريعة الاسلامية ومصادرها وأدلتها التى اتفق عليها علماء أصول الفقه، وخلصوا إلى أحكامها الشرعية عن طريق الاجتهاد.

حق الحياة فى بيئة صحية مناسبة

ومن بين البحوث المهمة التى نتوقف عندها فى مجال الحفاظ على البيئة فى منظور الاسلام بحث مهم للأستاذ الدكتور جعفر عبدالسلام الأمين العام لرابطة الجامعات الاسلامية بعنوان «حق الإنسان فى بيئة صحية مناسبة» يتناول فيه القانون الدولى للبيئة بقوله: «إن التطورات التى جرت فى مجال البيئة وتلويثها قد أظهرت بوضوح أهمية إقرار هذا الحق، حق الحياة فى بيئة صحية مناسبة بشكل قوى، حتى أن فرعا جديداً من فروع القانون الدولى تم تكوينه، أطلق عليه القانون الدولى للبيئة، وهو يستهدف مجموعة من القواعد والمبادىء الملزمة للدول والأفراد، لتجنب تلوث البيئة بعناصرها الثلاثة: الأرض والهواء والمياه، وهى تنظر بعين الاعتبار إلى اتساع ثقب الأوزون، بسبب الغازات التى تصل إليه، من الاستخدامات الصناعية للغازات السامة، وبأسباب تلويث البحار بالزيت، ووضع مواد عضوية فى المياه، وغير ذلك من وسائل.

موقف الإسلام من البيئة

وحينما يتحدث الدكتور جعفر عن حق الإنسان فى بيئة صحية مناسبة فى الشريعة الإسلامية يقول: «موقف الإسلام من البيئة بين كيف حرصت الشريعة الإسلامية على أن يحيا الإنسان فى بيئة صحية مناسبة ووضعت العديد من القواعد والمبادئ التى تكفل سلامة البيئة وحمايتها من العبث.

١- فمن ناحية خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان فى أحسن تقويم وزوده بقدرات فائقة على الحياة السليمة، وكرمه على سائر المخلوقات.

ولا شك أن ذلك يقتضى من الإنسان الرشيد أن يحافظ على ما أعطاه الله حتى يعيش سليما معافى، قادرا على العمل وعلى الإنتاج، ولن يتحقق له ذلك إلا بالحفاظ على البيئة التى يعيش فيها، وبوقاية نفسه من أية أضرار تحدث فيها، وكذا بالمسارعة بالعلاج كلما اقتضى الأمر ذلك.

٢- ولقد أشار القرآن الكريم إلى التوازن البيئى وإلى خلق الكون بشكل هندسى رائع وسليم قال تعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾

«الملك ٣ - ٤»

ويتضمن القرآن الكريم آيات كلها تؤكد أن ما خلقت عليه الأرض من توازن دقيق يجعلها صالحة تماما لحياة الإنسان كما يحميها هى نفسها ولصالح الإنسان، والكائنات التى تعيش فيها، من فقدان اتزانها، فقد أرسى الله فيها الجبال أوتادا ثوابت تحمى توازنها، وتحمى مناخها الطبيعى ليستمر صالحا للحياة.

يقول تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ۝ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾

«الحجر ١٩ - ٢٠»

الفساد بأيدى الناس

وينبهنا القرآن الكريم إلى أن الفساد سيعم الأرض بما كسبت أيدى الناس، يقول الحق تبارك وتعالى فى سورة الروم:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

«الروم ٤١»

كما تناول البحث الحديث عن الطهارة بقوله: إذا كانت عناصر البيئة هى المياه والهواء والأرض فإن معالجة الإسلام للمياه لتدلنا على الأهمية البالغة للبيئة فى الفكر والفقه الإسلامى على السواء.

وحرصا على صحة الإنسان وتحقيقا لنظافته الكاملة، نجد الفقهاء يتحدثون كثيرا عن المياه من خلال كتاب الطهارة الذى نجده فى مقدمة كافة كتب الفقه الإسلامى.

والطهارة عند الفقهاء قسمان: طهارة من الحدث وهى تختص بالبدن والثوب والمكان.

ويلحق بكتاب الطهارة عند الفقهاء أبواب الأضحية والذبائح وما يحل من الطعام والشراب واللباس وما لا يحل ورغم دخول هذه الأحكام فى باب العبادات إلا أن الإسلام لم يحرم إلا ما يسىء إلى الإنسان والبيئة، وجعل الأصل فى الأشياء الإباحه، يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ (الأنعام ١٤٥)

لذلك فكل ما يسيء بطبيعته إلى صحة الإنسان من الأطعمة هو حرام بلا جدال، لأن الإسلام يمنع دائماً أى شيء يضر بالإنسان.. وإذا كان الإسلام قد حرم الخمر بآيات من القرآن الكريم، فقد ثبت ضرره على صحة الإنسان، خاصة الكبد.

وقد قاس علماء المسلمين عليها المخدرات، وهى اجتهادات لها قيمتها فى الوقت الحاضر، الذى ثار فيه ما يستنبط من الأغذية والمشروبات من مضار، وتقلب تركيز الدهون فى بعض أنواع الجبن وشراب الكولا ومشتقاتها.

وهناك المكون الثانى المهم للبيئة وهو الهواء، وللأسف فقد أدى التقدم الصناعى إلى تلويث الهواء، إلى جانب تلويث الماء والتربة.

ولاشك أن أخطر أنواع تلوث الهواء، هو ذلك التلوث الناتج عن الإشعاعات الذرية، وعن اتساع ثقب الأوزون، الذى ينتج عن الاستخدامات السيئة لغازات معينة يستخدمها الإنسان.

الشريعة الإسلامية

تمنع جميع أنواع التلوث

وإذا كانت أحكام القانون الدولى غير حاسمة فى منع جميع أنواع تلوث الهواء حتى الآن، إلا أن الشريعة الإسلامية تمنع هذا التلوث لسببين:

الأول: أنه إفساد فى الأرض وقد نهى الله سبحانه وتعالى عنه بقوله:

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ (الأعراف ٥٦)

والثانى: الضرر الناتج عن هذا التلوث.

وقد استخدم الفقه الإسلامى هذه الوسائل لمنع تلوث الهواء، وتوجد كتابات فى الفقه المالكى عن منع التلوث الذى ينتج عن دخان الأفران إذا كان قريباً من الناس.

ويؤكد هذا البحث المهم أن التربة أحد العناصر الرئيسية للبيئة، ولوحظ أن الإنسان قام بتلويثها بشكل كبير، ومن صور الإساءة: قطع أشجار الغابات، وحرق الحشائش، ومن هنا فإن الكساء الخضرى ينقرض ويتلاشى بالتدريج، فضلا عن الاستخدام السيئ للمبيدات الحشرية والكيماوية فى الأرض ونزول الأمطار الحمضية التى تضر ضرراً بليغاً بالتربة وينقل الأمراض للإنسان.

وكل ما يسيئ إلى التربة وإلى الإنسان يعد ضررا ممنوعاً وفقاً لقاعدة «لا ضرر ولا ضرار».

وبنظرة أستاذ القانون الدولى وأستاذ الشريعة الإسلامية يؤكد الدكتور جعفر أن الحق يستند إلى مصلحة مؤكدة، وهى ضرورة أن يعيش الإنسان فى بيئة صحية، وهذه الضرورة كما بينا تساندها نصوص القرآن والسنة. والحماية الشرعية للمصلحة تقوم على أن أحكام الشريعة ملزمة ويكفل الإمام تنفيذها بكافة الطرق، كما أن عليه مجازاة كل من يعتدى على المصلحة، إما بتطبيق الحد، إن تعلق الأمر بارتكاب حد توافرت شروطه، ومثال ذلك يمكن أن يؤدى التسرب الإشعاعى إلى تلويث المياه عمداً، فهو السم المؤدى إلى الوفاة، فيجب إقامة الحد، ولكن يطبق التعزير فى الحالات الأخرى.

قراءة فى كتاب



الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا



٢

للأستاذ/ عادل خفاجة

لماذا فشلت الليبرالية الديمقراطية عندنا؟

بعد أن أثبت المؤلف فشل الليبرالية الديمقراطية فى تركيا يتحول لإثبات فشلها فى العالم العربى، فنراه يتساءل فى هذا الفصل عن الأسباب التى أدت إلى هذا الفشل فيشير أولاً إلى أن هناك خطأ فى الاتجاه حيث يقول:

إن أكبر عيوب الليبرالية الديمقراطية العلمانية هو: خلوها من العنصر الروحى، بل إغفالها له إغفالا مقصودا، بإعراضها عن الله، ورفضها الاهتداء بهداه.

وقد أثبتت التجارب أن «الدين» هو أهم شيء، فى وجود الإنسان - وأن تأثيره الفكرى والسلوكى لا يجحد. وأن النظريات «الأيديولوجية» أو السياسات العملية، التى تهمل الدين، تعيش على هامش الحياة، ولا تنفذ إلى صلبها، ولا تمس قلب الإنسان ونفسه التى بين جنبيه التى هى أصل كل تغيير وإصلاح.

وهذا ما أدركه كثير من المفكرين والمصلحين فى كل العصور.

يقول ابن خلدون: وتزداد الحاجة إلى الدين بين أمم الشرق خاصة، من العرب والترك والبربر وغيرهم؛ لغلبة تأثير الدين عليهم وقوة دفعه لهم.

لهذا يرى المؤلف أن: الخطأ الأكبر هو فى الاتجاه: اتجاه طائفة من العرب المسلمين شطر الغرب، ليستوردوا منه لأوطانهم وأقوامهم نظام حياة، وفلسفة حياة «ايديولوجية» مع أنهم يملكون أكمل نظام للحياة. وأمثل فلسفة لتفسير الوجود.

لقد كان هذا الاتجاه دليلا على أن الذين تبنوه وقادوه ودعوا إليه قد اتخذوا هذا الاتجاه نتيجة «انفعال» وتأثر عاطفي بتفوق الغرب، وإعجاباً بحضارته المعاصرة.

ولم يكن نتيجة «وعي» وفهم عميق لما هو واقع، ولما يجب أن يكون.

لقد أخطأ هؤلاء تحديد الهدف، كما أخطأوا تحديد الطريق إليه.

الليبرالية وليدة ظروف الغرب وحده

ثم ينتقل المؤلف إلى لب المشكلة حيث يقول:

لقد فشلت الليبرالية الديمقراطية في أوطاننا - وحق لها أن تفشل - لأنها بذر وضع في غير تربته، وفي غير مناخه الملائم له.

إن الليبرالية هي بنت الغرب المسيحي الكنسي، ووليدة ظروفه وتاريخه ومشكلاته الخاصة به وبأهله.

لقد كانت ردة فعل لطغيان الكنيسة الغربية في العصور الوسطى الأوروبية، وتسلطها على الرقاب، وتجميدها للعلم، وإرهابها للفكر، واضطهادها للعلماء والمفكرين - كل ذلك باسم الدين، وباسم الله، وباسم المسيح والإنجيل، والكتاب المقدس.

كان الفرد شيئا تافها لا قيمة له ولا حرية له، في ذلك المجتمع الطبقي الإقطاعي الغشوم، وكانت الكنيسة في روما تستغل دعوى العالمية في المسيحية لتفرض سلطانها على كل المسيحيين في أوروبا، بغض النظر عن اختلاف الأوطان والعناصر.

فلما أفل نجم الكنيسة، وبزغ عصر «التنوير» وبدأ الفكر الأوروبي يتخذ اتجاها آخر، لم تعد السيادة فيه «للنص» المقدس، بل «للعقل» الحر. ولم يعد صاحب الكلمة هو الكاهن أو القسيس، بل العالم أو المفكر. ومن هنا ظهرت «العقلانية».


يوسف القرضاوي

وفر المجتمع الغربي من الدين. كما يفر السجين إلى الفضاء الطليق. وكان فراره من «سجن الدين» إلى «باحة العلم».

فالعلم عنده مقابل للدين.

و«العلمانية» - وهي لفظة منسوبة إلى العلم على غير قياس - تعني في الغرب «اللادينية» بناء على هذا الأساس. والحقيقة أنه لم يفر من «الله»، وإنما فر من «الكاهن»، ولم يهرب من «الدين» وإنما هرب من «الكنيسة».

ولهذا يرجع المؤلف هذا الفشل لأن المسلمين لا يؤمنون بشرعيتها، بل يؤمنون بأنها نظام قاصر مثل كل الأنظمة التي وضعها البشر ينقصها هدى الله ونوره.

ثم يتضح قصورها حينما نرى انصراف أهلها عنها بعد أن قاموا بتعديلها، بل وزهدهم فيها لتحولهم إلى أيديولوجية أخرى!

ولتتضح الصورة أكثر يشير المؤلف إلى «العلمانية»، بوصفها عنصرا من عناصر الحياة الليبرالية، وأنه إذا كان يمكن قبولها في المجتمع المسيحي فإنه لا يمكن قبولها بأي شكل في المجتمع الإسلامي، حيث إن المسيحية لا تشتمل على شريعة أو نظام للحياة يوجب على المؤمن بها التزاما خاصا بهذا النظام أو تلك الشريعة.

بل إن الإنجيل نفسه قبل تقسيم الحياة إلى شطرين: أحدهما لله أو للدين، والآخر لقيصر، أو للدولة. فقال: اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

وبهذا يستطيع المسيحي أن يعيش في ظل حكم علماني وهو مطمئن الضمير، غير مخدوش العقيدة.

كما أن الغربيين من المسيحيين - خاصة - لهم عذرهم في الهروب من «الحكم الديني» إلى الحكم العلماني. فالحكم الديني - كما عرفوه وجربوه - يعني حكم الكهنوت، وسلطة الكنيسة، وما يتبعها من قرارات الحرمان، وصكوك الغفران!

أما إذا نظرنا إلى المجتمع المسلم وجدنا قبول «العلمانية» لديه يعني شيئا آخر: فإن الإسلام عقيدة وشريعة، ونظام كامل للحياة، وبهذا يعني قبوله «العلمانية» اطراح شريعة الله، ورفض أحكام الله، واتهام هذه الشريعة بأنها لا تصلح لهذا الزمن، واتخاذ البشر شرائع لأنفسهم من وضع عقولهم، كأنما يفضلون عقولهم على علم الله، وتجاربهم القاصرة على هداية الله:

﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾

لهذا كانت الدعوة إلى العلمانية بين المسلمين معناها الإلحاد والمروق من الإسلام، وكان قبول العلمانية أساساً للحكم بدلاً من الشريعة الإسلامية، ردة صريحة عن الدين الذي ارتضاه الله لها وأمرهم بالحكم بما أنزل فيه.


برنارد لويس

ويقدم المؤلف في هذا الفصل عدداً من الشهادات الغربية التي تؤيد كلامه منها شهادة الأستاذ برنارد لويس حيث يقول: «إن أخذ أي نظام سياسي جاهز ليس فقط من بلد مختلف، بل من حضارة مختلفة، وفرضه بواسطة الغربيين والحكام المتغربين في الشرق - من فوق مجتمع الشرق الأوسط ومن خارجه - عمل خاطئ ولا يمكن لهذه العملية أبداً أن تناسب حاجات ومتطلبات وآمال الشرق الأوسط الإسلامي، فلقد فرضت الديمقراطية بأوامر وفرمانات الحاكم المطلق.... وكان مجموع الشعب يراقبها بخيبة أمل، فكانت النتيجة قيام نظام سياسي لا صلة له بماضي أو بحاضر البلد، ولا صلة له بحاجات مستقبلة».

ويخلص المؤلف في نهاية هذا الفصل إلى أن الليبراليين أساءوا إلى أنفسهم وإلى أمتهم باتجاههم الخاطئ إلى استيراد أيديولوجية دخيلة لا حاجة إليها.

فشل الحل الاشتراكي الثوري

فشلت الليبرالية، ولابد من البحث عن بديل وبرغم وجود البديل الإسلامي فلم يجد المفكرون ضالتهم إلا في الفرار إلى الحل

الاشتراكى حيث الاشتراكية الثورية الممزوجة بفكرة «القومية العربية».

وكان بجوار هذه الدعوة الإقليمية دعوة أخرى هى «الجامعة الإسلامية».

ولكن عوامل شتى داخلية وخارجية جعلت فكرة القومية تنتقل من أوروبا إلى الأتراك أولاً، ومنهم تسربت إلى العرب.

لأجل ذلك يشير المؤلف إلى أن هناك وقائع تدلنا على وجود مؤامرات دولية: صليبية صهيونية ماسونية كانت تعمل بتخطيط وإحكام لتدمير الدولة الإسلامية الكبرى وتفتيتها والاجهاز على «الرجل المريض» ليقتسم المتربصون تركته.

ويذهب المؤلف إلى أنه كان يمكن أن تؤدى فكرة القومية العربية إلى عمل مشترك من أجل تحرر الأمة ونهوضها ولكن الذى يؤسف له أن الجو الذى نشأت فيه فكرة القومية العربية من البداية لم يفارقها.

وهو الجو الذى يريد أن يتخذ منها تكأة لضرب الفكرة الإسلامية والوحدة الإسلامية.

ثم ارتفعت موجة القومية حين اتخذت منها حكومة الثورة فى مصر شعاراً لها. وهنا تلاقى كل دعاة القومية العربية على تفريغها من كل معنى إسلامى، وإفراغها فى قالب علمانى صرف، بل ليجعلوا منها عقيدة.

ويستشهد المؤلف للتدليل على منحاه بقول الأستاذ على ناصر الدين الذى يقول: «العروبة نفسها دين، نحن المؤمنين العريقين من مسلمين ومسيحيين، لأنها وجدت قبل الإسلام وقبل المسيحية فى هذه الحياة الدنيا، مع دعوتها إلى أسمى ما فى الأديان السماوية من أخلاق ومعاملات وفضائل وحسنات».

هكذا يوضح المؤلف نظرة القوميين إلى الإسلام: أنه كان رسالة العرب فى الماضى فقط، كما يوضح أن القوميين يزيفون التاريخ ليوافق هواهم، فهم يحيلون الثقافة الإسلامية ثقافة عربية، والفتوحات الإسلامية فتوحات عربية وأبطال المسلمين أبطال العرب وهذا تحريف للواقع التاريخى، كما يشير المؤلف إلى لون آخر من التحريف عمد إليه القوميون وهو تسميتهم حكم العثمانيين «استعماراً» للبلاد العربية، وتسمية الأتراك «أجانب»، وهى مفاهيم دخيلة مزورة على تاريخ المنطقة؛ فلم يكن العرب ينظرون قط إلى الحكم العثمانى وإلى الأتراك هذه النظرة.

ثم يتحدث المؤلف عن الاشتراكية وهى العنصر الثانى للاتجاه الثورى فيوضح أنها تمثل النزعة الجماعية فى مقابل النزعة الفردية فى الليبرالية. وأن الاشتراكية تدعو إلى رفع الظلم الاجتماعى عن كاهل الفئات الفقيرة والضعيفة. وهو موضع الإغراء فيها وموضع لقائها مع الإسلام، كما أنها تؤيد تدخل الدولة لتغيير حرية التملك والتصرف فى المال بما يمنع الاحتكار والاستغلال وهذا يؤيده الإسلام فى حدود.

غير أن المؤلف يعود ليؤكد أن الاشتراكية ليست واحدة بل متعددة: فبعضها قريب إلى الاعتدال وبعضها قريب إلى التطرف وبعضها الآخر شديد التطرف.

وهى ككل المذاهب البشرية ينقصها

الاعتدال والتوازن. ويكتفى المؤلف بذكر أشهرها وهى: الاشتراكية الديمقراطية أو الدستورية، والاشتراكية الثورية، والاشتركية العلمية لمذهب كارل ماركس.

ويرى المؤلف أنه لولا تبنى مصر للاشتراكية وتجنيدها قواها وأجهزتها للدعوة إليها، والتبشير بها لظلت الاشتراكية ضعيفة الأثر إلى زمن غير قليل.

وبعد أن عرض المؤلف العلاقة بين الاشتراكية والقومية يقول:

«إن الاشتركية العربية، وخاصة فى مصر وسوريا والعراق واليمن الجنوبية ـ على درجات متفاوتة بينها ـ لم تعد مجرد إصلاحات جزئية تهدف إلى إقامة عدالة اجتماعية، أو تقليل الفوارق الاقتصادية، أو إنصاف العمال والفلاحين أو إصلاح ما أفسدته الليبرالية. ونحو ذلك من المطالب الإصلاحية المثالية. إنما أصبحت «مذهبا» فكريا، أو «أيديولوجية» متكاملة، لها نظرتها الخاصة للكون، وللتاريخ، وللحياة والإنسان! وبعبارة أخرى: أصبحت عقيدة. وإن شئنا قلنا: أصبحت ديناً جديدا له كتبه ومصادره المقدسة مثل: رأس المال، والبيان الشيوعى وغيرهما. وله أنبياؤه «المعصومون» الملهمون مثل: ماركس ولينين وماو. وله فلسفته وأيديولوجيته الخاصة. وله مفاهيمه وأفكاره عن الوجود والتاريخ والإنسان والمجتمع. وله قيمه وقواعده ووسائله المتميزة التى تستوحى من التجارب الاشتراكية وحدها. ولهذا نجد هذا التعبير «العقيدة الاشتراكية» سائداً عند الاشتراكيين العرب قاطبة. كما نجد معها عبارات «القيم الاشتراكية»، و«الخلق الاشتراكى»، و«السلوك الاشتراكى»، و«الفهم الاشتراكى» عناوين بارزة فى قاموس الاشتراكيين.


توينبى

وقد يغيرون كلمة الاشتراكية بكلمة أخرى تلازمها وتكملها وهى: «الثورية». فهناك «إيمان ثورى» و«نظام ثورى» و«فكر ثورى» و«تصرف ثورى» و«مفاهيم ثورية» و«أخلاق ثورية» و«حياة ثورية» و«كل شىء» ثورى!

ويتضح قلق المؤلف من هذه الفوضى الأيديولوجية حيث يقول:

لا عجب أن سمى «أرنولد توينبى» فى كتابه «العادة والتغيير» هذه المذاهب الفكرية أو «الأيديولوجيات» الحديثة «الأديان البديلة» التى ظهرت لتطرد الأديان القديمة وتحل محلها. كما ألف فيها «جوليان هكسلى» كتابه الذى سماه اسما معبرا عن حقيقتها «أديان بغير وحى».

ثم يوضح الخطر من هذه الأيديولوجية فيقول:

وهذا – فى الواقع – هو أخطر ما فى الاتجاه الاشتراكى الثورى إنه اتجاه لا يرضى أن يعيش على هامش الحياة أو على حافة المجتمع إنه يأبى إلا أن يدخل فى صلب الحياة ويغوص فى أعماق المجتمع، ويوجه تفكيره ومشاعره

وسلوكه فمن السمات المشتركة لهذه الأيديولوجيات الانقلابية أنها كلية عامة لا تقنع بجزء من الحياة دون جزء ولا بقطاع من المجتمع دون آخر.

بل لابد أن تفرض سيطرتها على الحياة كلها ولا تقبل الشركة أو المعايشة مع أيديولوجية أخرى - إلا لمرحلة وعلى سبيل الضرورة كما صرح ذلك صاحب «الأيديولوجية الانقلابية».

ثم يستخلص عدداً من الشواهد من أقوال قادة «البعث» نذكر منها:

● «إن فهم الاشتراكية على أنها نظام اقتصادي فحسب. هو فهم خاطئ فالاشتراكية تقدم حلولا اقتصادية لمسائل كثيرة. ولكن هذه الحلول جميعا ليست إلا ناحية واحدة من نواحي الاشتراكية وفهمها على أساس هذه الناحية الواحدة فهم خاطئ لا ينفذ إلى الأعماق ولا يتعرف إلى الأسس التي تقوم عليها الاشتراكية ولا يتطلع إلى الآمال البعيدة التي تذهب إليها الاشتراكية»..

ومنها أيضا:

● «.. الاشتراكية مذهب للحياة. لا مذهب للاقتصاد، مذهب يمتد فيما يمتد إلى الاقتصاد والسياسة والتربية والتعليم والاجتماع والأخلاق والأدب.

والعلم والتاريخ، وإلى كل أوجه الحياة، كبيرها وصغيرها، وأن تكون اشتراكيا يعني أن يكون لك فهم اشتراكي، لكل هذا الذي ذكرت، وأن يكون لك كفاح اشتراكي يضم كل هذا الذي ذكرت.

ثم يتساءل المؤلف: هل حقق الاتجاه العربي الثوري الأهداف التي تبناها؟ فضلاً عن آمال الأمة كلها، برغم ما وضع بين يديه من طاقات وإمكانات كبرى؟ هل حقق الوحدة والحرية والاشتراكية (بمعنى الكفاية والعدل) والتقدم العلمي؟ وهل حرر فلسطين وأعاد أهلها إليها؟

ثم يقوم بسرد الإخفاقات فيتكلم عن فشل الوحدة بين مصر وسوريا، وخيبة الأمل في وحدة وادي النيل، وإخفاق شعار وحدة الهدف، ثم فشل الوحدة الثلاثية بين مصر والعراق وسوريا.

ثم يعرض بعض آراء الثوريين في بعضهم، وإن كان ما نقله غير قليل إلا أنه يحيل القارئ إلى كتاب (وثائق النكسة).

وينهي المؤلف هذا الفصل مقرراً أن العرب، على المستوى الرسمي، غير جادين فيما يعلنونه للملأ ولشعوبهم بوجه خاص.

مصير الحرية
في عهد الاشتراكية الثورية

يستهل المؤلف هذا الفصل بسؤال:

هل حققت الاشتراكية الثورية حرية الوطن وحرية المواطن؟

ثم يقول:

لقد قاتل الأمير عبدالقادر في الجزائر، وعمر المختار في ليبيا، وعبدالكريم الخطابي في المغرب، وثار الشعب المصري كله سنة ١٩١٩، وقاتل سنة ١٩٥١، وثار الشعب الفلسطيني عن بكرة أبيه سنة ١٩٣٦، وقبلها وبعدها، وقاومت كل الشعوب العربية، في المشرق والمغرب، الاستعمار الغربي بكل ما استطاعت، ولم يستسلم بلد واحد للاحتلال الغاشم.

لقد تعلموا من دينهم أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأن الاستسلام للغازي الكافر كفر، وأن الجهاد لدفع العدو المهاجم فرض عين، وأن الموت في سبيل الله عين الحياة، وأن المقاتل المسلم ضامن لإحدى الحسنيين.

ثم يستعرض المؤلف جدول العلاقات المصرية - السوفيتية منذ ١٩٥٥ حتى ١٩٦٧، ويستنتج أن العلاقات وصلت إلى حد التبعية، بل وخضعت مصر للكرملين في أمر من أهم الأمور الحياتية وهو التغذية.

ثم يتساءل المؤلف: إذا لم يكن تم للوطن العربي التحرر العسكري والسياسي والاقتصادي.. فهل تم له التحرر الثقافي؟!

ولا يرى المؤلف أن هذا التحرر الثقافي قد تم؛ لأن الفكر الغربي بما يحمله من فلسفة للحياة والكون، ونظرة إلى الدين والدنيا وإلى الله والإنسان، لا يزال هو المسيطر المؤثر في أكثر جامعاتنا ومؤسساتنا الثقافية.

ثم يقدم شهادات الثوريين على وأد الحرية وكثير منها يندى لها الجبين.

ويرى المؤلف أن وجود أحزاب متعددة فاسدة أفضل من وجود الحزب الواحد فيقول:

لقد كنا في مصر نشكو من فساد الأحزاب، ومضار الحزبية، وما جرته على البلاد من صراع وانقسام وتناحر لا ينتهي، ولكننا الآن، والحق يقال، بتنا نترحم على عهد الأحزاب، على الرغم من سوءاتها ومفاسدها.


عبدالقادر الجزائري

فإن عدة أحزاب فاسدة ينقد بعضها بعضا، ويعارض بعضها بعضا، خير من حزب، أو تنظيم سياسي واحد، تشكله الحكومة، ليتبنى اتجاهها السياسي الخاص، كالاشتراكية، ويؤيد سياسة معينة، سياسة مركز القوة الغالب، ولا يسمح لأي فئة من الناس أن تعارض هذا التنظيم أو تكون تنظيماً آخر.

ويلخص المؤلف من هذا الفصل إلى القول:

إن شر الأنظمة هو الذي يسلب الناس نعمة الأمن، وسعادة الطمأنينة، فيصبح فيه الإنسان وهو لا يدري أين يمسي.. ويمسي ولا يدري أين يصبح، ففي أي لحظة من ليل أو نهار، تستطيع كلاب الصيد أن تخطفه من بين أهله وأولاده، ويلقى به في مكان غير معلوم، وإلى أمد غير محدود، وبسبب غير معروف، وقد يمكث السنين في مكان لا يعرفه هو، وقد لا يسأله أحد مجرد سؤال يعرف به ماهية الجريمة التي ارتكبها، ومقدار العقوبة التي يستحقها!!

(يتبع)

بين المجلة و القارئ

إعداد وتقديم

أحمد السيد تقي الدين

المؤمن مرآة أخيه

ويستمر تواصل الأستاذ عبدالقادر الإدريسي من خلال رسائله مع المجلة، والتي توضح بجلاء حرصه على متابعة كل ما ينشر بالمجلة بشكل دقيق، والمجلة تشكر له هذا، ونستميحه ونستميح قراءنا الأعزاء عذراً من أوجه القصور التي أوردها برسالته، ونعده، ونعد قراءنا الأعزاء بتلافيها مستقبلا، ونناشد أستاذنا الفاضل (عبدالقادر الإدريسي) أن يستمر في تواصله معنا وأن يهدي إلينا عيوبنا حتى نستطيع الوصول إلى أفضل صورة ننشدها لمجلة الأزهر - المجلة التي يصدرها الأزهر الشريف، المرجعية الإسلامية الأولى للمسلمين السنة في العالم.

وفيما يلي نص رسالة الأستاذ الفاضل عبدالقادر الإدريسي:

الأخ العزيز الأستاذ الدكتور محمد عمارة

رئيس تحرير مجلة (الأزهر) القاهرة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد،

فأسأل الله تعالى أن تكونوا بخير...

وقد اطلعت على العدد الجديد من (مجلة الأزهر)، وقرأت بإعجاب كبير، افتتاحيتكم الرائعة عن رشيد رضا، وحمدت لكم هذا الاهتمام بنشر مختارات من تراث أعلام اليقظة والانبعاث، وعلى رأسهم الإمام محمد عبده، والشيخ عبد العزيز جاويش، وأحمد شوقي، والدكتور محمد عبدالله دراز، والدكتور محمد يوسف موسى، والشيخ عبد الوهاب النجار.

وهو اختيار موفق تماماً.

أما اختياركم مختارات من كتاب (السياسة الشرعية) للشيخ عبد الوهاب خلاف، لتكون مع دراستكم وتقديمكم لها وتحقيقكم، هدية العدد، فهو نهج جديد تتميز به المجلة في عهدكم.

وبذلك تتيحون للجمهور العريض من القراء، الذين هم ليسوا جميعهم من العلماء وكبار المثقفين، فرصة للاطلاع على تراث عزيز علينا كان أساساً للنهضة الفكرية، عليه نشأنا، وبه تربينا، ولله الحمد والمنة.

● نشرت المجلة في ركن (أنباء العالم الإسلامي) - الذي يحرر أستاذان؟ - خبراً قديما مضى على توزيعه ونشره أكثر من ثلاث سنوات، عن (وزير الخارجية الإسباني يعلن: مسلمو أوروبا لا غنى عنهم) - الصفحة ١٩٩٨. ويلاحظ أيضاً أن الأخبار التي تنشر في هذا الركن، تخلو من أهم عنصر من عناصر الخبر الصحافي، وهو (متى؟)، أي زمن وقوع الحدث.

لعل الأستاذين المشرفين على الركن، لا خبرة صحافية مهنية لهما.

وفقكم الله وقواكم وأدام عليكم نعمة الصحة والعافية.

عبدالقادر الإدريسي

الحج.. وفقه الحركة

وتحت هذا العنوان جاءت رسالة الشيخ/ مصطفى الأزهري - خطيب مسجد سوق الحمام - السيدة عائشة - القاهرة:

من يتأمل في تعاليم الإسلام ويتدبر فرائضه وتكاليفه الشرعية لأتباعه يجد حركة فوارة وناشطاً لا يتوقف، يبدأ ببعث الهمة في نفوس المؤمنين لحركة المغادرة من مستنقع العصيان، إلى نهر الإيمان وزينته وطهارته وحركته النافعة والمطهرة من أدران الأرض وأوشابها، سعيا نحو عالم الخير والإيمان كما قال تعالي:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾

(الأحزاب: ٤٣)

فإذا تأملنا في أركان الإسلام الخمسة فسنجد أن أول حركة يقوم بها الداخل في الإسلام هي النطق بالشهادتين وهي حركة لسانية مقصود بها مغادرة دنيا الظلمات إلى عالم الأنوار ثم الاغتسال كشرط وكحركة نفسية إيذانا بولادة جديدة للجسد والروح معاً، ثم تأتي الصلاة وهي فريضة مفعمة بالحركات ما بين قيام وركوع ورفع وسجود وتكبير وتسليم، ثم الزكاة وهي حركة تطهير وتزكية للمال في كل صوره ليعود على فقراء المجتمع ومحتاجيه، ويأتي صوم رمضان كحركة ترويض للنفس وتدريبها على الالتزام بالصراط المستقيم وتفجير ينابيع وطاقات الخير فيها، إلى أن تأتي فريضة الحج.

● وتأتي فريضة الحج لترسم صورة مصغرة لأمة التوحيد وهي تتحرك إلى ربها رغبة ورهبة إليه - سبحانه - فترى هفو القلوب الملتاعة من الشوق للحرم، وترى بذل المال وهي حركة مقاومة لشح النفس وأثرتها، فأنت لا تدفع الآلاف لتشتري أياما من التعب والإرهاق والعرق وقلة النوم وربما

التعرض للموت، في حركة موارة لا تنقطع سعياً إلى نيل مرضاة الله، وهذا أمر يدعو إلى التأمل، لأن الإنسان بطبعه «كنود» قال عنه المولى عز وجل:

﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾

(الفجر: ٢٠)

فكيف هذبه الإسلام وحوله من لاهث وراء الدنيا إلى باذل للنفس والمال طلباً للأجر والمثوبة؟!

يعلمنا الحج التوقف عند حدود الله وتعظيم شعائره كما قال تعالى:

﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾

(الحج: ٣٢)

فليس باستطاعة مسلم أن يحج إلى مكان آخر ولا بقعة أخرى غير البيت الحرام في مكة المكرمة، كما وأن لكل بلد ميقات يحرم الحاج من عنده، ثم هناك ما يسمى طواف القدوم، والطواف سبعة أشواط في حركة دائرية حول الكعبة بدعاء وخشوع، ثم حركة الذهاب والمجيء بين الصفا والمروة أيضاً سبعة أشواط لا يجوز لحاج أو معتمر تجاوز العدد فيها، ثم المبيت بمنى، وصعود الجبل للوقوف بعرفة إلى آخر مناسك الحج، حركة لا تنقطع في خطوط محددة مرسومة يتعبد بها الناس ويضرعون إلى الله تعالى طلبا لمغفرته.

إن من أراد أن يرى أمتنا المسلمة في مشهد التجرد والمساواة والزهد والعبودية والافتقار إلى الله تعالى فلينظر إلى مشهد الحجيج وليتأمل حركة مناسكهم وهم يطوفون ويسعون ويصعدون ويحلقون رءوسهم أو يقصرون، وهم يذبحون الهدى تقربا إلى الله ليحصلوا على رضوان الله تعالى وهو أمل كل ناسك.

اللهم تقبل من الحجيج وأرزقنا صالح دعواتهم يارب البيت الحرام.

حرمة نهب المال العام والتوبة من الاعتداء عليه

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ/ إبراهيم مسلم إبراهيم النجار - سندنهور - قليوبية:

مع بداية الثورة في ٢٥ يناير ٢٠١١ اندلع زلزال الغضب والاحتجاج ليهز جوانب ميدان التحرير بالقاهرة وامتد إلى مدينتي الإسكندرية والسويس وأغلب مدن وعواصم محافظات مصر.. وقد صاحب ذلك أحداث دنيئة من بعض ضعاف النفوس الذين تمادوا في إجرامهم بالاعتداء على ممتلكات الدولة بالنهب والسلب والسرقة وإتلاف ما لم تصل إليه أيديهم بحجة أنهم كثيرا ما عانوا من الاعتداء والظلم ونهب ممتلكاتهم، فهم يردون على ما فعل بهم!! ولكن هذه الحجج لا تعفيهم من مسئوليتهم عن ترويع الآمنين والاعتداء عليهم وعلى أموالهم، وهم

بذلك يقعون تحت طائلة حكم القرآن العزيز بقوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(المائدة ٣٣)

وإذا كان الاعتداء على الممتلكات الخاصة جريمة وإثما لا يغتفر فيكون الاعتداء على المال العام أشد جرما وأكبر إثما كما يقول علماء الرأي والفتيا في ديننا الحنيف لقوله صلى الله عليه وسلم: «والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حقه إلا لقى الله تعالى يوم القيامة وهو يحمله» «رواه البخاري ومسلم».

وقوله صلى الله عليه وسلم أيضا عن نهب المال العام: «إن رجالا يتخوضون في مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة» «رواه البخاري ومسلم» كذلك روى البخاري في صحيحه أنه كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم رجل يقال له «كركرة» فمات، فقال رسول صلى الله عليه وسلم «هو في النار» فذهب الصحابة ينظرون فوجدوا عباءة قد غلها «سرقها».

إن على هؤلاء الذين تورطوا في الاعتداء على المال العام بالنهب والسلب أن يعلموا أن باب التوبة مفتوح دائما ويمكنهم رد ما سلبوه تطهيرا وتزكية لأنفسهم وليتداركوا خطأهم لتبرئة ذمتهم مما وقعوا فيه علما بأن التوبة من نهب المال العام هي واجبة مثل أي ذنب، فالله سبحانه وتعالى يفرح بتوبة عبده ولا يرد من جاء إليه تائبا نادما فهو القائل في كتابه العزيز:

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾

«الشورى ٢٥»

أما في الحديث الشريف فيقول صلى الله عليه وسلم: «والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة» «متفق عليه».

كما روى مسلم في صحيحه أنه صلى الله عليه وسلم قال: «من تاب تاب الله عليه».

ولكي تكون التوبة من نهب المال العام مقبولة يهمنا أن ننبه أنه لا يكفي الندم والعزم على عدم الرجوع إلى المعصية، ولكن لابد من رد هذا المال بعينه إن كان قائما، أو رد قيمته إن كان قد استهلك فالمغفرة للذنوب لما يكون منها مختصا بما بين العبد وربه.. أما فيما يتعلق بحقوق العباد فلا سبيل إلى مغفرة هذه الذنوب إلا برد الحقوق إلى أصحابها، فحقوق الله تعالى مبنية على المسامحة والعفو إذا تاب الإنسان من تضييعها.. وأما حقوق العباد فهي مبنية على المطالبة ولا تبرأ ولا تسقط إلا بأدائها إلى أصحابها.

وفيما يتعلق بخشية افتضاح الأمر فيجب أن لا يكون حائلا عن التوبة، فالفضيحة في الدنيا أهون من الفضيحة بين يدي الله عز وجل على رءوس الأشهاد يوم القيامة:

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

(الشعراء ٨٨-٨٩)

والله هو الهادي إلى سواء السبيل.

الواقعية فى تنشئة الشباب سياسياً

وتحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ/ محمد عباس محمد عرابى:

التنشئة السياسية عملية اجتماعية تربوية لا تقتصر على مرحلة سنية معينة، ولا ترتبط بمستوى دراسى أو تعليمى محدد، وهى عملية اطرادية متواصلة يخضع لها الإنسان طوال حياته، وتتأثر بها شخصيته، وتنعكس آياتها على سلوكه الاجتماعى والسياسى على حد سواء.

وإن الفترة الراهنة التى تمر بها بلادنا تستدعى حسن تنشئة الشباب سياسيا، وهذا يتطلب إعادة صياغة الشباب من خلال عودة الشباب إلى الواقع بكل إيجابياته وسلبياته وتدريبهم على فلسفة التعامل مع الواقع لتغيير كل ما يمكن تغييره وتقبل كل ما لا يمكن تغييره والتعايش معه حتى يمكن تغيره، وتتطلب الواقعية الارتفاع بقيمة المنهج العلمى فى المحتوى الثقافى للمجتمع إلى القدر الذى يحافظ على فعالية الإنسان رغم ضغوط الواقع، وانحراف بعض قيمه عن المبادىء الفطرية، ويعتبر المنهج العلمى أفضل المناهج فى غرس القيم فى نفوس الشباب، وذلك لأنه المنهج الذى يجنب الشباب حدة الاصطدام بضغوط وسلبيات الحياة.

وفى ظل التغيرات واسعة النطاق التى يشهدها المجتمع، فإنه يجب على مؤسسات المجتمع العمل على مساعدة الشباب على اكتشاف دورهم فى البيئة المحيطة بهم، ويجب تقديم الأسس المدروسة للشباب التى يستطيعون وفقا لها أن يتخذوا ما هو ملائم ومناسب من القررات خلال حياتهم اليومية.

سيرة التقى الورع عمر بن عبدالعزيز!!

وتحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ/ أحمد عبدالمحسن على محمد - مدرسة الأورمان الثانوية النموذجية بنين - إدارة الدقى التعليمية - الجيزة:

● كان سيدنا عمر بن عبدالعزيز رجلا صالحًا، تقيًا، ورعًا، زاهدًا، وكان إماما عادلا، محبًا للرعية، محسنًا إليها، أمينًا على أموالها، لم تشغله عبادة ربه عن النظر فى شئون رعيته.

فكان رضى الله عنه يصرف النهار وبعض الليل فيما يعود على الأمة بالخيرات فإذا ما فرغ من ذلك، إذ (هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه).

● وإذا كان العلم كما يقال بالتعلم، والحلق بالتخلق، كان حقا على كل منا أن يقرأ سيرة هذا الخليفة الصالح، لما فيها من مكارم الأخلاق ومحاسن العظات.

● فإن كان حاكمًا تعلم منها العدل وسياسة الرعية، فيكون له من حب الأمة وانقيادها له ما يتمتع بأثره فى حياته، ثم يجد حين ينقلب إلى ربه حُسن ثوابه.

● وإن كان عالمًا تعلم منها ما يجب على العلماء من حُسن المنطق والعمل بالعلم وإظهارهم ما يبدو لهم من خطل أو زلل، حتى يؤدوا ما بأعناقهم من حق الله وحق العلم، ويقوموا بما أمر الله به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وبث العلم بين الناس.

● وإذا كان غنيا تعلم منها كيف يستثمر ما أعطاه الله من ثروة فى الخير، وكيف يضع المال فى مواضعه، فيجود به على الفقراء الذين لا يستطيعون ضربا فى الأرض وينفقه فى سبيل الله وعمل البر، فيدرك خير الدارين.

● وإن كان ممن أصابهم الدهر بشىء من نكباته يكون الصبر على المصائب، والرضا بالقضاء، فيستشعر قلبه برد الراحة واليقين.

● وإن كان من أهل الخصاصة تعلم منها القناعة والعفاف، والرضا بالقليل فلم تذهب نفسه حسرات على الغنى، ويظفر حين يرجع إلى الله بأجر الأتقياء.

● وإن كان من غير أولئك وهؤلاء، فهو لابد أن يجد فى سيرة هذا الإمام الكريم، والرجل التقى، ما يصلحه فى الحياة، وينفعه بعد الممات.

الإســلام والآخــر

وتحت هذا العنوان كتب الأستاذ محمد صلاح الطهطاوى - اجازة عالية فى الشريعة والقانون - جيزة - عمرانية غربية:

لقد ساءنى ما نسمعه ونشاهده فى وسائل الإعلام المختلفة وخصوصا شبكة الإنترنت وما يسجله عليها الأفراد من تعليقات واتهامات باطلة ينسبها البعض إلى الإسلام كذبًا وبهتانا وذلك إما لكراهية ذلك الدين القيم وإما لأغراض خبيثة، والعجيب فى ذلك أن هؤلاء المبطلين يسوقون الحجج والبراهين على ما يدعون كذبًا وافتراء على دين الإسلام الذى يتهمونه بأنه لم يُسوِ بين المسلمين وغيرهم مستدلين على ذلك بأدلة منها على سبيل المثال لا الحصر:

(١) أن الإسلام يمنع زواج المسلمة بغير المسلم وعلى النقيض من ذلك فإنه يبيح زواج المسلم من غير المسلمة «الكتابية».

(٢) كما أن الإسلام يأمر أتباعه بعدم ود ومحبة أهل الأديان الأخرى ويبدو ذلك - كما يدعون - واضحا من آية سورة المائدة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾

(المائدة: ٥١)

والرد على هذه الافتراءات وغيرها أمر يسير، فنقول بعون الله:

أولاً: بالنسبة لمسألة الزواج فنجد المسلمين يؤمنون بجميع الأنبياء والرسل ويؤمنون بجميع الكتب والرسالات السماوية فلو تزوج المسلم بالكتابية فإنه يحترم مشاعرها ولا يصدر منه ما يهين عقيدتها ومن ثم تعيش فى كنفه حياة هادئة سعيدة لذلك أباح الإسلام لأتباعه الزواج من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، أما غير المسلم فنجده لا يؤمن برسول الإسلام محمد ﷺ وبالتالى لا يؤمن بالكتاب الذى أنزل عليه «القرآن الكريم» لذلك منع الإسلام أن يتزوج غير المسلم بالمسلمة حتى لا تتعرض الزوجة المسلمة فى حياتها مع غير المسلم لإنكار وإهانة عقيدتها وخصوصاً بما للزوج من ولاية على الزوجة مما يتصور معه فتنتها فى دينها وإكراهها على ترك عقيدتها، فإن قيل بأن الزوج المسلم له ولاية أيضاً على زوجته الغير مسلمة نقول بأن دينه قد أمره بعدم إكراه أحد على اعتناقه، قال تعالى:

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾
(البقرة: ٢٥٦)

ليس هذا فحسب بل ونهى عن سب وقذف الكفار حتى لا يسبوا الذات الإلهية، قال تعالى:

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾
(الأنعام: ١٠٨)

بل واحترام كافة المعتقدات التي يدين بها الناس وأوكل حسابهم على الله يوم القيامة قال تعالى:

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾
(الكافرون: ٦)

وبعد ذلك كله ألا يكون الإسلام قد أنصف الآخرين من غير أتباعه، هذه واحدة، أما الادعاء الآخر المتعلق بآية سورة المائدة نقول بعون الله لابد أن نعلم بأن آية سورة المائدة نهت عن الموالاة والقرب من أهل الكتاب على حساب المسلمين بأن يكون ذلك بطلب النجدة والنصرة منهم على المسلمين بما يفوت على المسلمين حقوقهم وهذا شيء طبيعي، فكما نعلم أن المسلم فضلا عن حق المواطنة له حق الإسلام.. أما الذمي فله حق المواطنة، ومن ذلك يتضح لنا معنى الموالاة لغير المسلمين المنهي عنها أما البر بأهل الكتاب، والعدل معهم ومعاملتهم بالمعروف فهذا شيء طبيعي في شريعة الإسلام ولا أدل على ذلك من أن الله قد أباح للمسلمين طعامهم والتزوج من نسائهم، قال تعالى:

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾
(المائدة: ٥)

فهل هناك مودة أعظم من ذلك وهل هناك معاملة طيبة كالتي علمها الإسلام أبناءه، ولنبدأ من القمة وتحديدا رسول الإسلام محمد ﷺ كان يقول للسيدة عائشة أم المؤمنين «رضي الله عنها» وهي توزع الهدايا: «ابدءوا بجارنا اليهودي» وكان ذلك ترجمة عملية لحسن الجوار ومن ثم حسن المعاملة، ألم يرد عن رسول الله ﷺ قوله: «الله.. الله في أهل الكتاب فإن لهم نسبا وصهرا»، وعلى نفس المنوال والهدى سار خلفاؤه وصحابته من بعده فضربوا أروع الأمثلة في العدالة والمساواة فالكل سواء أمام شرع الله، وكلنا يعلم قصة المصري القبطي لما استبق مع ابن عمرو بن العاص وما كان من ابن عمرو إلا أن ضربه فشكا المصري إلى عمر بن الخطاب فما كان من سيدنا عمر إلا أن أمر بإحضار الابن وأبيه فلما حضرا أمام القبطي وتأكد عمر من صحة ما حدث بين المصري وابن عمرو أعطى للقبطي حقه وقال قولته التي يتغنى الآن بها الساسة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا»، فهل بعد عدالة الإسلام عدالة وهل بعد مساواة الإسلام مساواة ؟!

تنويه

تلفت عناية السادة القراء إلى أن المجلة ستقوم بنشر الفهرس السنوي لعام ١٤٣٢هـ بعدد شهر المحرم ١٤٣٣هـ.

أنباء مكتب الإمام الأكبر

إعداد الأستاذ/ محمد عبد المجيد حسن
مدير عام العلاقات العامة بمكتب الإمام الأكبر شيخ الأزهر

الإمام الأكبر يهنئ سيادة المشير بمناسبة ذكرى انتصارات أكتوبر

أرسل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد محمد الطيب شيخ الأزهر يوم الأربعاء الموافق: ٥/١٠/٢٠١١م خطاب تهنئة إلى سيادة المشير محمد حسين طنطاوي – رئيس المجلس العسكري ووزير الدفاع بمناسبة ذكرى انتصارات أكتوبر المجيدة وهذا نصها:


د. أحمد الطيب


المشير طنطاوي

«بمناسبة ذكرى انتصارات أكتوبر وفي هذا اليوم المجيد يسعدني أن أبعث إلى سيادتكم أخلص التهاني وأطيب الأمنيات بهذه المناسبة التاريخية كما يسعد الأزهر الشريف أن يحيي رجال القوات المسلحة على الحدود وفي أنحاء الوطن، قادة، وضباطا وجنودا، ويقدر تفانيهم في حماية الأوطان والشعوب في مصر وفي منطقتنا العربية؛ وأدعو الله سبحانه وتعالى أن يعيد على سيادتكم أمثال هذه الأيام المباركة بالخير والبركات وأن ينعم على مصرنا الغالية بمزيد من التقدم والازدهار في كافة المجالات».

بيان من الأزهر الشريف

يدين الأزهر الشريف – وبقوة – كل محاولات الفتنة الطائفية التي تثيرها بعض الجهات المشبوهة بين الحين والآخر، ويدعو الأزهر العقلاء من أبناء الأمة المصرية الواحدة أن يتمسكوا بوحدتهم الوطنية وأخوتهم المصرية وأن يحبطوا الخطط الجهنمية التي تتربص بوحدة المسلمين والأقباط وتحاول زرع الفتن بين أبناء الشعب الواحد، خدمة لمخططات أعداء مصر والمصريين في الداخل والخارج.

ويطالب الأزهر بتطبيق العدالة وإعمال القانون على كل من يثبت تورطه في هذه الفتن الكريهة، وأن توقع أقصى العقوبات على كل من شارك ودعا وشجع على هذا الأمر الذي رفضه الجميع.. حمى الله مصر وشعبها من كيد الكائدين وحقد المتربصين.

شيخ الأزهر، أحمد محمد الطيب



أردوغان فى زيارة استثنائية لمشيخة الأزهر

زيارة استثنائية أقل ما يمكن أن توصف به زيارة الدكتور رجب طيب أردوغان رئيس الوزراء التركى لمشيخة الأزهر الشريف بدأت مراسم الزيارة بتجمع مجموعة من طلاب الأزهر لتحية رئيس الوزراء التركى ردا على موقفه الأخير تجاه إسرائيل، كما عبر معظمهم عن سعادتهم بذلك الموقف وهتف الطلاب (أردوغان يا حبيب بكرة هندخل تل أبيب - أردوغان يا حبيبنا أنت خلاص دخلت قلوبنا - من القاهرة لاسطنبول الشعب المصرى معاك على طول) وبدخول أردوغان لمشيخة الأزهر بدأت مراسم الاستقبال فكان فى استقباله كل من فضيلة الدكتور محمد عبد الفضيل القوصى، والدكتور أسامة العبد رئيس جامعة الأزهر، والدكتور على جمعة مفتى الجمهورية، وكانت بداية اللقاء تتسم بالحرارة لكنه كان أشد عمقا وتأثيراً بلقائه بفضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر حيث بدأت جلسة العمل والتى استمرت ٤٥ دقيقة، وبعد انتهاء الزيارة اصطحب فضيلة الإمام الأكبر رئيس الوزراء التركى حتى باب الخروج.

وعند خروج رئيس الوزراء التركى من المشيخة قام بالنزول إلى البوابة التى اصطف حولها الطلاب وقام بتحيتهم وقال لهم: «مصر وتركيا يد واحدة» مما جعل الطلاب يلتفون حول سيارته عند خروجه واستمروا بالهتاف لموكبه حتى رحيله.

الدكتور أسامة العبد رئيس جامعة الأزهر وصف أحداث الزيارة بأنها مهمه للغاية مكررا ذلك ثلاث مرات مستدلا بالعلاقة التاريخية التى تربط بين البلدين فكلا الدولتين (مصر وتركيا) تستطيعان أن تفعلا أى شيء من أجل الإسلام الوسطى المعتدل الذى لا تشدد فيه ولا إفراط فتاريخ الدولتين معروف.

وقال: إن فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر ركز على ضرورة التعاون الثقافى والعلمى بين البلدين وتعميقه فى الفترة القادمة، كما طالب أردوغان بحل مشكلة الشهادات الأزهرية للطلاب الأتراك والاعتراف بها ومعادلتها، مشيدا بالتواصل الإسلامى الكبير بين مصر وتركيا. وأشار إلى أن الأزهر يحرص على تعميق العلاقات الثقافية والعلمية بين البلدين، على أن تعقد مؤتمرات علمية لتبادل الثقافة فى كل المجالات.

ومن جانبه أشاد رئيس وزراء تركيا رجب طيب أردوغان بالثورة المصرية وما حققته من نتائج فى هذه المرحلة مطالبا بالحفاظ على هذه المكاسب والنتائج، مع التأكيد على مرجعية الأزهر الشريف الذى يمثل الإسلام الوسطى المعتدل، ووعد أردوغان بحل مشكلة الطلاب الأتراك الذين يحصلون على الشهادات الأزهرية ولا يتم الاعتراف بها ومعادلتها فى تركيا، مؤكدا أنه سيتم حل هذا المشكلة فور عودته. ووجه أردوغان الدعوة إلى شيخ الأزهر لزيارة تركيا، كما أشاد بوثيقة الأزهر وأكد أنه سيتم ترجمتها للغة التركية.

وفى لفتة طيبة تؤكد عمق التقارب الإسلامى قام كل من فضيلة الإمام الأكبر ورئيس وزراء تركيا بتبادل المصحف الشريف هدية تذكارية.

الإمام الأكبر: سنقف بقوة وراء إعلان الدولة الفلسطينية

استقبل فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب شيخ الأزهر يوم الثلاثاء الموافق: ١٣/ ٩/ ٢٠١١م الرئيس الفلسطينى محمود عباس أبو مازن، جاءت الزيارة كما أعلن فضيلة الإمام الأكبر للتأكيد على أهمية دعم الأزهر لإعلان دولة فلسطين، كما أكد فضيلته أن الأزهر الشريف سيقف بكل قوة وراء إعلان دولة فلسطين، وأنه ينبغى على الدول العربية والإسلامية استخدام أوراق الضغط التى لديها لاجبار أمريكا وإسرائيل على الاعتراف بحق الشعب الفلسطينى بأن تكون لهم دولة مستقلة.

وشدد الإمام الأكبر على رفضه للتهديد الأمريكى باستخدام الفيتو لمنع إعلان الدولة الفلسطينية، وأن الأزهر سيقف بكل قوة وراء الدعوة لإعلان دولة فلسطين من خلال البيانات الصريحة لذلك؛ لأنه مطلب عادل وحق للشعب. وأضاف فضيلته أن الأمم المتحدة إن كانت حقا منظمة لحماية حقوق الشعوب وحقوق الإنسانية وحقوق الدول فعليها بألا تتردد لحظة واحدة لاعطاء الحقوق كاملة للشعب الفلسطينى؛ لأن مصادرة حق من هذه الحقوق يخل بقيمة هذه المنظمة.



وناشد شيخ الأزهر العالم العربى والإسلامى التحرك بقوة لإعلان دولة فلسطين، وهو يملك القدرة والكثير من أوراق الضغط على الولايات المتحدة والنظام الأمريكى المؤيد لإسرائيل وأنه يمكن لقادتنا استخدام هذه الأوراق.

وأوضح أنه لا يوجد مبرر لمنع إعلان دولة فلسطين حيث إن شعب فلسطين ينوى أن يكون دولة سلام وجوار مثله مثل أى شعب.

الإمام الأكبر يستقبل سفيرة الولايات المتحدة الأمريكية

استقبل فضيلة الإمام الأكبر بمكتبه السفيرة آن بترسن - سفيرة الولايات المتحدة الأمريكية بالقاهرة، وقد ذكر فضيلة الإمام أن الأزهر جامعا وجامعة هو ملك للعالم العربى والإسلامى، وهو ضمير الأمة العربية والإسلامية، ولهذا السبب فلم يشأ الإمام الخوض فى قضايا السياسة الداخلية بمصر، وإنما اهتم بطرح قضايا العرب والمسلمين فى العالم. وعبر لها عن ألمه واستيائه عن بعض التصرفات المسيئة للمواطنين الأمريكيين المسلمين بأمريكا، وهذا يضاد التنوع والديمقراطية فى المجتمعات الحرة. كما تطرق إلى الإسلاموفوبيا، هذا الوهم الكريه الذى لا يتفق مع التقاليد الديمقراطية التى من المفروض أن تسود فى المجتمعات الحديثة.

كما أكد على أن الثورات هى من إرادات الشعوب، وفعاليتها فعالية داخلية ذاتية، بالرغم من الأموال والأدوات التى رصدت من الغرب بعامة ومن أمريكا بخاصة لإحداث التحول الديمقراطى فى المنطقة إلا أنها لم تكن ذات أثر، فمن المهم أن ندرك أن هذه الشعوب تتحرك وفق منطقها الذاتى ومواريثها الحضارية وبما يمثل خصوصياتها التى يجب أن تُحترم، ووثيقة الأزهر أنموذج لهذه الخصوصية.

كما أكد لها أن شعوبنا شعوب راشدة تعى مصلحتها وعلاقاتها المعقدة مع العالم، ومن هذا المنطلق نرفض رفضاً تاماً وقاطعاً كل الشروط والإملاءات التى تأتينا من الغرب وأمريكا، وعندما أقول نرفض إنما أعبر عن نبض الشعوب العربية والإسلامية التى يعتبر الأزهر ضميرها الحى، نعم للعلاقات الطبيعية التى تقوم على المصالح المشتركة ولما فيه خير الجميع.

كما أكد فضيلة الإمام بأن الربيع العربى وهذه الثورات كانت تعبيراً وتجسيداً لمجموعة من القيم: المواطنة - الحرية - العدالة - الكرامة - عدم الإقصاء، وهذه القيم وإن كانت قيماً عالمية إلا أن الأزهر يسهم فى إثرائها عبر حراك داخلى يُدرك خصوصيات كل مجتمع قطرى داخل المجتمع العربى والإسلامى الكبير، ويسعى الأزهر لتجسيد هذه القيم فى إطار مؤسسى، وسيسعى الأزهر بما يملكه من تاريخ ورمزية إلى تحويل هذه القيم لمشروع ثقافى شامل سعياً إلى إحداث التغيير والنهضة فى العالمين العربى والإسلامى، وما وثيقة الأزهر إلا بداية فى هذا الطريق.

كما أكد فضيلة الإمام الأكبر أن الانحياز الكامل الأمريكى - فى أم القضايا وهى القضية الفلسطينية - للكيان الصهيونى، هذا أمر يزيد من حالة الكره واليأس من عدالة الإدارة الأمريكية، وسيزيد من إصرار الأزهر على مناصرة ومساندة الشعب الفلسطينى لقيام دولته المستقلة وعاصمتها القدس الشريف.

وأكد فضيلته أيضاً رفضه التام للدعم السخى من الاتحاد الأوروبى وأمريكا الذى يخصص لبعض الجمعيات التى تهتم بتوافه الأمور، بينما تهمل المساعدات الجادة للتعليم ومحاربة الفقر والأمراض.

وقال فضيلة الإمام: لا مشكلة للشعوب العربية والإسلامية مع الشعب الأمريكى، وإنما المشكلة مع سياسات الإدارات الأمريكية المتعاقبة مع مختلف القضايا الإسلامية.

ويرى الإمام الأكبر أن الديمقراطية الأمريكية ليست أنموذجاً يحتذى به، وإنما الديمقراطية هى التى تنبع من الشعب وتعبر عن اختيار الشعب وأصالته.

وذكر لها الإمام أن التدخل الأمريكى فى العالم الإسلامى خلق نوعاً من ردود الفعل العنيفة جداً، وخلق الكراهية التى نراها اليوم، فعلى الإدارة الأمريكية أن تعود إلى رشدها وتزن الأمور بموازين العدل والحق، وفى غياب هذه النظرة المتزنة، فالكل سيخسر، والدماء ستسيل فى الشرق والغرب على السواء، وهذا ما لا نرتضيه. كما تطرق فضيلة الإمام إلى خطأ غزو العراق وما جره من ويلات على الجميع. وأكد فضيلة الإمام أن السياسة الأمريكية -مع الأسف- سياسة منحازة للكيان الصهيونى، ومنطق التاريخ يحكم بفشل مثل هذه السياسات الظالمة، وهذا يسىء إلى أمريكا وتاريخ أمريكا. كما أكد فضيلة الإمام الأكبر استعداده للتعاون المشترك فى مجالات البحث العلمى، بشرط عدم التدخل فى شئون الأزهر لا من بعيد ولا من قريب.

كما جدد الإمام الأكبر مطالبته الإدارة الأمريكية بالنظر فى إعادة الشيخ الضرير الأستاذ الدكتور/ عمر عبدالرحمن إلى وطنه وأسرته.



الإمام الأكبر يستقبل وفداً أفغانياً

استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد محمد الطيب شيخ الأزهر وفداً أفغانياً موسعاً يضم مجموعة من المثقفين: عميد كلية الشريعة بجامعة كابول وعميد جامعة البيرونى وعميد كلية الشريعة بقندهار، إضافة إلى السفير الأفغاني بالقاهرة، وسفير مصر بأفغانستان وقد طلب الوفد إحياء التبادل الثقافى بين الأزهر وجامعات أفغانستان، كما طالبوا الأزهر بإعطاء منح دراسية على كل المستويات.

وذكر فضيلة الإمام الأكبر أن الأزهر الشريف يتابع بأسف وألم ما يدور فى أفغانستان من صراع دموى لا يستفيد منه إلا أعداء الأمة الإسلامية، ودعا عقلاء الطرفين الحكومة وجماعة طالبان إلى فتح حوار جدى ومخلص وفورى للخروج من هذا النفق المظلم.

كما طالب الشعب الأفغانى إلى العمل سوياً لإنجاح هذا الحوار، والابتعاد عن العصبيات الاثنية واللغوية والطائفية، والعودة بأفغانستان إلى دورها الريادى الذى عهدناه فى تاريخنا الإسلامى المجيد.

الإمام الأكبر يحذر من مخططات تقسيم العالم العربى

استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب – شيخ الأزهر وفداً كردياً عراقياً يمثل وزارة الأوقاف الكردية العراقية، وقد شكر الوفد جهود الإمام فى خدمة الإسلام والمسلمين كما ثمنوا جهود الرابطة العالمية لخريجى الأزهر.. ووجههم الإمام الأكبر إلى ضرورة أن تسموا فوق القوميات وتتكلم عن العالم العربى وعن العالم الإسلامى بشكل عام، فلا ينبغى الوقوع فى براثن الاثنية البغيضة، فالعراق يحتاج إلى عنوان واحد، ولا يحتاج إلى عناوين شتى الشيعى، والكردى، والسنى، وغير ذلك.



كما وجه نصائحه للوفد قائلاً: ينبغى أن تركزوا على الوحدة لا على الفرقة، وأنا أنكرت تقسيم المسلمين إلى أشراف وغير أشراف، أرفض بشدة هذا التقسيم فالمهم العمل، والتقوى هى مقياس التفاضل.

وقال: لقد أصبحت مثل هذه الدعوات وسائل للتفريق بين الشعب الواحد ودغدغة العواطف بحب آل البيت للوصول إلى سب الصحابة، وهذا مرفوض قطعاً فى شريعة الإسلام وعند أحرار الناس. وحذر فضيلة الإمام الأكبر من خطورة تقسيم العالم العربى فالأمر ماثل للعيان وعلى العلماء أن يجتمعوا تحت لافتة الإسلام، فهى اللافتة التى تقف بالمرصاد ضد كل من يعزف على الاثنية والقومية البغيضة، وهى التى تثبت أقدام المسلمين فى بلادهم وتصون حرياتهم وتحمى وطنيتهم ومواطنيهم وينبغى أن تتأكدوا بأن الغرب لا يعمل لمصالحنا، ولا يعنيهم إلا احتلال بلادنا ونهب ثرواتنا.

فأهلاً بكم بصفتكم علماء الإسلام، لا بصفتكم الاثنية، فالمطلوب التركيز والاعتزاز بالإسلام والإسلام وحده، أما الدعوات الجاهلية فينبغى أن ندوس عليها بالأقدام.

..ويطالب علماء العراق بتوحيد صفوفهم

كما استقبل فضيلة الإمام الأكبر وفداً ممثلاً للوقف السنى بجمهورية العراق، وذكر لهم أن أولى الأولويات فى العراق الآن هى: ترتيب البيت الداخلى السنى. ووجه الدعوة لرئاسة الوقف السنى وعلى رأسها الدكتور/ أحمد عبدالغفور السمرائى، هيئة العلماء المسلمين فى العراق وعلى رأسها الدكتور/ حارث الضارى للبدء فى حوار جدى من أجل توحيد الكلمة والعمل على إنقاذ أهل السنة والجماعة فى العراق الأبى.



الإمام الأكبر يستقبل الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي

استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور/ أحمد محمد الطيب ـ شيخ الأزهر الشريف ظهر يوم الاثنين الموافق ٣ / ١٠ / ٢٠١١م السيد/ أكمل الدين إحسان أوغلو الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي حيث اتفقا الجانبان على ضرورة تدعيم دور الأزهر ومرجعيته العالمية خاصة بعد جهود الأزهر الوطنية والإسلامية التي لمسها الجميع في الآونة الأخيرة.

كما اتفقا على ضرورة وحدة العالم الإسلامي ووجوب التعاون بين المؤسسات الدينية في تركيا والأزهر الشريف وكذلك تفعيل دور الأزهر العالمي بما يمثله من وسطية واعتدال وثقة لدى جماهير المسلمين.

اجتماع المجلس الأعلى للأزهر

في جلسة المجلس الأعلى للأزهر المنعقدة يوم الاثنين الموافق: ٣ / ١٠ / ٢٠١١م تمت الموافقة على افتتاح العديد من المعاهد الأزهرية التي تم الانتهاء من إنشائها بمحافظات: الأسكندرية، الدقهلية، الغربية، أسيوط، الجيزة، بني سويف، وذلك لدعم عدد المعاهد الأزهرية. وقد وافق المجلس الأعلى للأزهر على ما يلي:

- إنشاء عدد من المعاهد الأزهرية في محافظات الشرقية، بني سويف، دمياط، غربية، قليوبية، سوهاج.
- مذكرة التفاهم بين جامعة الأزهر وجامعة بصراوي الدولية للعلوم الطبية بدولة ماليزيا.
- إنشاء كلية الهندسة الزراعية ببنين جامعة الأزهر.
- إنشاء الموقع الالكتروني الرسمي لمشيخة الأزهر.



أنباء العالم الإسلامي

إعداد الأستاذين/ محمود الفشني - أحمد رضوان

ختام الملتقى التربوي لحفظة القرآن الكريم بتايلاند

شهدت جامعة جالا الإسلامية بتايلاند في الفترة من ١٠ ـ ١٣ أكتوبر ٢٠١١ أعمال الملتقى التربوي لحفظة القرآن الكريم لدول جنوبي شرقي آسيا والذي تعقده المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو بالتعاون مع الهيئة العالمية لتحفيظ القرآن الكريم التابعة لرابطة العالم الإسلامي وبالتنسيق مع جامعة جالا الإسلامية بتايلاند.

عقد المؤتمر في إطار برنامج التعاون المشترك مع الهيئة العالمية لتحفيظ القرآن الكريم الذي يهدف إلى الارتقاء بمستوى الدرس القراني من خلال التنظيم والتخطيط والتطوير والمتابعة والتقويم للمؤسسات التعليمية القرآنية في الدول المشاركة في هذا المؤتمر.

وشارك في الملتقى ممثلو دول أندونيسيا وسنغافورة وسلطنة بروناي والفلبين وكمبوديا ولاووس وفيتنام وميتمار وتايلند، وناقش المشاركون قضايا تربوية تتعلق بحفظ القرآن الكريم والنظريات المعاصرة في مجال تعليم القرآن وحفظه والتي من شأنها تطوير خبراتهم وتعزيز كفاءاتهم. وتشجيع التواصل بين المهتمين والمختصين في مجال تعليم وحفظ القرآن الكريم وتبادل الخبرات والتجارب فيما بين المشاركين في المؤتمر.

محكمة فرنسية تفرض غرامة مالية على مسلمتين لارتدائهما النقاب

قضت محكمة فرنسية بفرض غرامة مالية على فرنسيتين مسلمتين لارتدائهما النقاب في أول حكم من نوعه منذ تنفيذ قانون منع النقاب الصادر في إبريل الماضي بفرنسا وقد حكمت

المحكمة بغرامة مالية قدرها ١٢٠ يورو على (زهند اماس) ٢٢ عاما و٨٠ يورو علي (نجاة نعيت عليس) ٢٦ عاما بعد توقيفهما وهما ترتديان النقاب في مكان عام خارج مبنى المجلس المحلى شرقي العاصمة الفرنسية باريس مؤخرا ووجهت لهما تهمة خرق القانون الفرنسي بإصرارهما على ارتداء النقاب. من جانبهم قال ناشطون حقوقيون: إنهم سيستأنفون الحكم ويتابعون الأمر حتى ولو وصلت القضية إلى المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان، ومن المتوقع أن يتابع مجريات المحاكمة كثيرون لا في فرنسا فحسب بل ربما في جميع أنحاء أوروبا.

يذكر أن حظر النقاب مفروض أيضا ويخطط لفرضه في كل من بلجيكا وإيطاليا والدانمارك وهولندا وسويسرا.

انعقاد مؤتمر فلسطين للأوقاف الإسلامية في بيروت



انطلقت فعاليات مؤتمر فلسطين الدولي للأوقاف الإسلامية في العاصمة اللبنانية بيروت بالتعاون بين هيئة علماء فلسطين في الخارج ومؤسسة القدس الدولية ودار الفتوى، وأقيم المؤتمر برعاية رئيس الوزراء اللبناني نجيب ميقاتي وحضور عدد من العلماء والدعاة والنخب السياسية والاجتماعية اللبنانية والإسلامية.

ألقى الدكتور محمد عثمان شبير نائب رئيس الهيئة كلمة اللجنة التنظيمية العليا للمؤتمر، رحب فيها بالحضور الكريم، وذكر فيها أن الغاية من هذا المؤتمر التعريف بالأوقاف الإسلامية في فلسطين، وفضح تهويدها وسرقتها، وتسليط الضوء على دور الأوقاف في الحفاظ على الهوية الفلسطينية، وقال: إن الاستعداد لهذا المؤتمر استمر سنتين كاملتين، قدمت خلالهما عشرات البحوث العلمية، وبعد التحكيم العلمي تم اختيار ٢٥ بحثا للمشاركة في المؤتمر.

وبعده ألقى أمين دار الفتوى الشيخ أمين الكردي كلمة تحدث فيها عن أهمية الأوقاف في حياة المسلمين، خاصة في فلسطين.. ثم ألقى الدكتور محمد أكرم العدلوني كلمة مؤسسة القدس الدولية أشاد فيها بالأسرى، خاصة الأسرى المحررين ومنهم ٤٥ مقدسياً، وقال: إن الأوقاف الإسلامية في فلسطين شكلت رافعة اجتماعية واقتصادية لأهل فلسطين وللوافدين عليها، لذلك اهتمت الحركة الصهيونية بها واستولت عليها تحت مسمى قانون أملاك الغائبين ونحوه، وما هدم حارة المغاربة التي أوقفها المسلمون فحولها الصهاينة لساحة "المبكى" إلا دليل على هذا، ثم وجه الأنظار إلى أن ٦٥ بالمائة من المقدسيين يعيشون تحت خط الفقر!! وقارن بين إنفاقنا على القدس وبين إنفاق اليهود قائلاً: ما ينفقه الفلسطينيون والعرب والمسلمون على القدس ٢٥ مليون دولار، بينما ما ينفقه اليهود ١٥٠ مليون دولار وما تنفقه بلدية القدس لتهويدها مليار دولار.

وألقى الدكتور عبدالغني التميمي، رئيس هيئة علماء فلسطين في الخارج كلمة حذر فيها من تجرؤ الصهاينة على الأوقاف الإسلامية بما فيها المساجد والمقابر، مؤكدا على خطورة محاولات تهويد القدس عمرانياً وسكانياً وإنسانياً وثقافياً، وقال ندعو بكل صدق وأمانة الأمة جميعها، حكاماً ومحكومين، ونحملهم الأمانة في نصرة إخوانهم في فلسطين، والوقوف إلى جانب المجاهدين، والاندماج في حملة الربيع العربي لحماية المقدسات والأرض العربية المسلوبة.

ندوة دولية بجنيف توصي بإقامة شراكة مجتمعية لمقاومة الإسلاموفوبيا



في توصية نادت بها ندوة ثقافية دولية عقدتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة في قصر الأمم المتحدة بجنيف بإطلاق المشروع المجتمعي للمواطنة تحت شعار «أوروبا الجديدة» من أجل العيش المشترك لجميع المواطنين كما أوصت الندوة التي نظمت بالتعاون بين الإيسيسكو والكوجيب (مجلس التعاون متعدد الثقافات) بمحاربة الإسلاموفوبيا وجميع أنواع التمييز والعنصرية ضد المواطنين الأوروبيين من أصول عربية إسلامية.

ودعت الندوة الثقافية الدولية التي عقدت تحت شعار: (الاندماج في أوروبا الجديدة) في

ختام أعمالها (الجمعيات الإسلامية العاملة فى إطار المجتمع المدنى فى أوروبا) إلى الالتحاق بمشروع (أوروبا الجديدة). والتكتل ضمن شبكة المنظمات الإسلامية الأوروبية غير الحكومية وأكدت الندوة التى شارك فيها ممثلو الهيئات والمنظمات الدولية ومن بينها مجلس أوروبا، والإيسيسكو ونخبة من المثقفين المسلمين الأوروبيين تهتم بقضايا التماسك الاجتماعي ومندوبية منظمة التعاون الإسلامى فى جنيف على ضرورة إقامة شراكة مجتمعية لمقاومة الإسلاموفوبيا وجميع أنواع التمييز.

وأوصت بمواصلة التعريف بمشروع (أوروبا الجديدة) عبر مشاورات موسعة فى العواصم الأوروبية ولدى الهيئات والمنظمات الدولية وبعقد اجتماع فى البرلمان الأوروبى لتقديم المشروع.

المؤتمر الإسلامى لوزراء التعليم العالى يدعو لتفعيل التعاون العلمى



فى ختام دورته الاستثنائية فى العاصمة السعودية الرياض فى الفترة من ٤ إلى ٥ أكتوبر دعا المؤتمر الإسلامى لوزراء التعليم العالى والبحث العلمى إلى بناء قاعدة علمية متينة للدول الإسلامية وتفعيل التعاون العلمى المشترك.

وقال الدكتور عبدالعزيز بن عثمان التويجرى المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) فى الجلسة الختامية: إننا نقف اليوم على رأس مرحلة مهمة من مراحل التطوير المعرفى فى اتجاه المستقبل، وأوضح أن تحسين الجودة للتعليم العالى وفقا للمعايير الدولية المعتمدة هو الشرط الموضوعى للدخول إلى عالم الأقوياء بالعلم الذى يبنى الحضارة والوقوف مع صفوف القادرين بقوة المعرفة التى تصنع التقدم.


عثمان التويجرى

وقال: إن المؤتمر نجح فى تحقيق أهدافه باعتماده الوثيقة التأسيسية الاستراتيجية حول مؤشرات الأداء الرئيسية: دليل استرشادى لتقويم جامعات العالم الإسلامى وتحسين جودتها التى قال إنها ستفتح أمامنا آفاقا واسعة رحبة ممتدة للنهوض بالتعليم العالى فى جميع مراحله للارتقاء بمستوى جامعات العالم الإسلامى إلى ذروة العالمية عن جدارة علمية هى أهل لها، وعن استحقاق معرفى هى جديرة به.

ثم أشار الدكتور التويجرى إلى نهضة العالم الإسلامى فقال: إن هذه النهضة لن تقوم إلا على هذا الأساس المتين الذى وضعنا لبناته الأولى فى الرياض فى المؤتمر الإسلامى الأول لوزراء التعليم العالى والبحث العلمى والذى أرسينا إحدى قواعده الراسخة فى هذه الدورة الاستثنائية، التى تأمل أن تكون فاتحة عهد جديد من التعاون المثمر وتضافر الجهود بين الدول الأعضاء من أجل بناء القاعدة المتينة للتقدم العلمى، والرقى المعرفى، والازدهار الاقتصادى القائم على المعرفة التى تصنع الجامعات.

جمعية أردنية تنتج تفسيرا متلفزا للقرآن الكريم بلغة الإشارة

تمكنت جمعية المحافظة على القرآن الكريم فى الأردن من إنتاج مشروع متلفز لتفسير القرآن كاملاً بلغة الإشارة للصم هو الأول من نوعه.

ونقلت صحيفة الدستور الأردنية عن مسئول العلاقات العامة فى الجمعية حسام الحيارى قوله: إن المنتج الجديد هو الأول من نوعه على مستوى العالم وفى تاريخ الإسلام، وهو إنجاز أردنى ١٠٠٪، موضحاً أن المنتج يتكون من ٦٠ ساعة، حيث تم اعتماد التفسير الميسر الذى صدر عن مجموعة من علماء السعودية وتفسير DVDتلفزيونية مسجلة على أقراص.. ولفت إلى أنه يتم عرض الآية القرآنية بالرسم العثمانى وبصوت قارئ متقن ويقوم المترجم بشرح معنى الآية وتفسيرها بلغة الإشارة، مشيراً إلى أن العمل فيه امتد نحو ٥ سنوات وتمت إجازته من قبل وزارة الأوقاف والشئون والمقدسات الإسلامية الأردنية.

وذكر الحيارى: أن الإعاقة السمعية تعتبر من أصعب أنواع الإعاقة، وتشير الإحصاءات إلى أنه يوجد فى العالم أكثر من ٦ ملايين أصم، فيما يتجاوز عددهم فى الأردن ١٧ ألفاً تصل نسبة الذين لا يعرفون القراءة والكتابة بينهم إلى ٩٥٪.. لافتا إلى أن الشخص الذى أدى لغة الإشارة فى هذا التفسير مترجم لغة الإشارة فى التلفزيون الأردنى حسين العورتانى والذى لديه خبرة بهذا المجال تمتد لنحو ٢٥ عاماً.

بث مباشر للدروس الدينية من الحرمين الشريفين

أطلقت الرئاسة العامة لشئون المسجد الحرام والمسجد النبوى من خلال موقعها على الشبكة العالمية للمعلومات خدمة تطبيق الهاتف النقال وتوفر هذه الخدمة عدداً من الخدمات من البث المباشر للدروس الدينية.

وأوضح مدير العلاقات العامة بالرئاسة أحمد المنصورى أن التقنية الجديدة تحتوى على عدد من التطبيقات، منها البث المباشر من الحرمين الشريفين وعدد كبير من الدروس لأصحاب الفضيلة مدرسى الحرمين الشريفين والخطب نصاً وصوتاً وصورة وتلاوات أئمة الحرمين الشريفين ومجموعة من الخطب والأدعية لموسمى رمضان والحج وأدعية وتلاوات وخطب وآذان وذلك بجانب أرقام للتواصل مع الرئاسة العامة لشئون المسجد الحرام والمسجد النبوى لتتيح التواصل بين المستفيدين من هذه الخدمات ورواد الحرمين الشريفين والرئاسة العامة لإيصال الاقتراحات والملاحظات.

تأسيس أول جامعة إسلامية لحاملى شهادات المدارس العربية فى نيجيريا

قرر مجلس القيادة العامة فى جماعة تعاون المسلمين بنيجيريا تكوين لجنة خاصة بتأسيس أول جامعة إسلامية عربية تقبل الطلبة الحاملين لشهادات المدارس العربية والإسلامية بدون الحاجة إلى الشهادات الإنجليزية للمدارس الحكومية.

ويعود قرار تأسيس الجامعة الإسلامية العربية إلى محاولة جماعة تعاون المسلمين لإنقاذ اللغة العربية من النسيان والتجاهل والتعطيل ومؤامرات إلغائها وتصفية المدارس والمراكز التى تهتم باللغة العربية والثقافة الإسلامية لاسيما فى منطقة الجنوب، كما تسعى الجمعية إلى إعداد جيل نموذجى.

وقد وضع مجلس القيادة العامة فى الجماعة عدة أسس لتأسيس الجامعة وهى أن تكون الجماعة إسلامية تحترم القوانين الإسلامية وأن تكون الجامعة ذات الجناحين جناح إسلامى تطبق مناهج الجامعات العربية الإسلامية فى الدول العربية وبكل كلياتها مثل كلية الشريعة وكلية القرآن وكلية الحديث وكلية اللغة العربية فى العالم الإسلامى، وكذلك جناح العلوم المعاصرة وأن يضاف إلى برنامج الجامعة دورات تدريبية فى اللغة العربية لغير الناطقين بها وأخرى إنجليزية لغير الناطقين بها.

تأسيس مسجد فى كوبنهاجن بعد ٢٥ عاماً فى دهاليز الحكومة

وافق مجلس مدينة كوبنهاجن على خطة توسعة مسجد الإمام على فى كوبنهاجن عاصمة الدانمارك، وسينفذ المشروع على الطريقة الإسلامية التقليدية مع قبة زرقاء بارتفاع ٢٤ متراً ومئذنتين بارتفاع ٣٢ متراً بعد الحصول على جميع الموافقات الرسمية والأقوال المطلوبة وتقدر تكلفة توسعة المسجد على أرض بمساحة ٢٠٠٠ متر مربع بحوالى خمسين مليون كرونا تم جمعها من المتبرعين خلال عدة سنوات ويحتوى المشروع أيضاً على مركز ثقافى إسلامى وموقف داخلى خاص للسيارات؛ يشار إلى أن الموافقة جاءت بعد مشقة كبيرة وجهد بالغ بذله القائمون على المشروع.

مفتى السعودية: مستبيحو الدماء فى البلدان العربية «شياطين»

أبدى مفتى عام السعودية الشيخ عبدالعزيز آل الشيخ، استياءه مما يحدث فى بعض البلدان العربية من سفك للدماء واعتداء على الأعراض، وقال: ما يحدث فى بعض بلاد المسلمين من فوضى وسفك دماء وتدمير واستباحة أعراض وخسران مبين، كان بفعل المجرمين وشياطين الإنس الذين تسلطوا وأجرموا وخربوا الديار.

كما ساند دعوات الجمعيات الخيرية إلى تنظيم إخراج الزكوات من الأفراد لتذهب إلى الأسر المستحقة بدلا من توزيعها العشوائى، محذراً من إعطاء الزكاة للمتسولين.

موسوعة جديدة لمعانى ألفاظ القرآن

صدر ضمن منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو ـ كتاب جديد بعنوان: «موسوعة معانى ألفاظ القرآن الكريم» لمؤلفه الباحث العراقى المقيم فى لندن الدكتور هادى حسن حمودى، فى جزءين، يقع الجزء الأول فى ٥٨٥ صفحة، والجزء الثانى فى ٥٤٥ صفحة.

وكتب التقديم لهذه الموسوعة القرآنية الجديدة، الدكتور عبدالعزيز بن عثمان التويجرى، المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الذى أبرز أن ألفاظ القرآن الكريم حظيت بعناية خاصة فى التراث الإسلامى عبر العصور، وذلك للحاجة الماسة إلى فهم هذه الألفاظ من نواح عديدة، كالتعبد فى قراءتها وفهمها وتطبيقها، والكشف عن أسرار إعجازها اللغوى والبلاغى والعلمى، ودراسة محتواها العقدى والشرعى والتاريخى، وغير

ذلك من المضامين الكثيرة التى تحملها تلك الألفاظ الشريفة وتشتمل الموسوعة على نظرات فى معانى القرآن الكريم أراد لها مؤلفها أن تجمع ما تفرق من ألفاظ الكتاب العزيز فى كتب التفسير ومعاجم الألفاظ، وما آنس إليه من رؤى لفهم ألفاظ القرآن، مبتدئاً بذكر الجذر اللغوى للفظ القرآنى، ثم المعنى اللغوى العام للجذر، وأخيراً الاستعمال القرآنى له، ومرتباً ذلك بحسب الترتيب الهجائى لتكون الموسوعة سهلة الاستعمال والكشف.

استياء إسلامى لاستخدام رئيس الوزراء الكندى مصطلح «الإرهاب الإسلامى»

أعربت الأمانة العامة لمنظمة التعاون الإسلامى، بأن المنظمة تعرب عن دهشتها إزاء تصريحات رئيس الوزراء الكندى، ستيفن هاربر فى مقابلة مع القناة التليفزيونية CBS بخصوص إحياء ذكرى الهجوم الإرهابى فى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، التى اعتبر فيها ما وصفه بـ «التيار الإسلامى» أو «الإرهاب الإسلامى» بأنه التهديد الرئيسى للأمن العالمى.. وأضافت المنظمة أنه من المؤسف أن تصدر مثل هذه العبارات المضللة من رئيس حكومة دولة ذات سيادة، وهى العبارات التى يمكن أن تثير البلبلة، مشيراً إلى أن استخدام مصطلح «الإرهاب الإسلامى» خاطئ، مثلما هو خاطئ عن «الإرهاب المسيحى» أو «الإرهاب اليهودى».

وأن تصريحات رئيس الوزراء هاربر لن تؤدى إلا إلى تفاقم سوء الفهم والشكوك بين الغرب والعالم الإسلامى وتعرقل عمل الهدف الجماعى للمجتمع الدولى للتصدى للتعصب والكراهية بين الأديان والثقافات المختلفة.

وقال المتحدث باسم المنظمة: إن الإسلام هو دين السلام والرحمة، مجدداً الموقف المبدئى للمنظمة فى مكافحة الإرهاب والتطرف بجميع أشكاله ومظاهره، وهو موقف مستلهم من تعاليم الإسلام الرافضة للإرهاب والعنف، وأكد كذلك أن بلدان المنظمة قد دفعت ثمناً باهظاً فى مكافحة الإرهاب من حيث الأرواح البشرية والإضرار بالحياة لموقفها الحازم ضد الإرهاب والتطرف على حد سواء.



and ignore heritage completely. Also, there is reformation trend, which can hardly be clear.

This split is natural and an accepted phenomenon, but it is not accepted that this struggle turns to be a place for internal struggle. We noticed in the experiment of last century that the supporters of the first trend can live within the framework of the limited heritage and tradition, closing the doors in front of the Western civilization[20] . This insistence did not achieve their goals they retreated quickly without adapting the society to tackle the changing matters in a studied manner.

The result was that the society was unarmed in front of the Western culture. The same thing is true to the people who ignored heritage. They mocked at it and announced that boycotting the heritage is inevitable for the sake of innovation. This resulted in the majority of the inhabitants boycotting them when they felt that they do not express their pain and hopes. They lost this battle and did not solve any of the problems of our society and increased the darkness in which our society lives.[21]

We regard the reformation trend as the qualified trend for holding this trust and deserves the mission of innovation which the nation seeks. This is the only one that can innovate religion, not distorting the religion, on the condition that it avoids the struggle, which exhausts its energy.

I do not think that I need remind you that this paper is not concerned with interaction with the West. There is piece of wisdom "The West is West and the East is East, and will never meet each other." There is great deal of truthfulness and reality. This paper is concerned with the necessity of innovation and searching for our entity and the other. How can we get in interview with it? Alexandria library has this ability to do this to bridge the gap between Islam and the present age, and the Islamic thinking and different civilizations.

[20] Muhammad Khatemy, Opinions in religion, politics and the age, pp. 55 and 60, Dar Al-Gadid, Beirut, 1999.

[21] One of the supporters of this trend wonders about the reason for fearing the globalization saying: Who do we complaint in front of the revolution of communication and the penetration of the Western culture in our Arab world, which was based on freezing and superstitions. The Cultural Western invasion is the electric shock saves our end. The wind of the West should come from every direction to invade our culture. This may save us. It is death in innovation and modern discourse (the previous source), pp. 183 and 186

While the other side represents free types. The Islamic values were missed in this non-homogenous mixture. As the West was shocked in the last century in a way that caused innovation, globalization is considered as the electric shock which put us in a test of another type to search for an entity on the basis of return to the heritage. Beginning from heritage is inevitable for a real renaissance, so that the nation becomes alive.

Whoever looks quickly at the cultural area now will find that it is not qualified enough for the strong winds coming from overseas. The list of priorities is still upside down. Woman is still – after the passing of one century and a half of innovation – is asking about the ruling of her coming out of home and her voice and about the multiplicity of wives, Is it Sunna? This is in addition to the information spread by the media[19]. There is still fear amongst our thinkers and scholars of the existence of women in the Consultancy Assembly and the parliament. The books that tackle the Jinn and the torment of grave are more than those tackling the Islamic conceptions, which the houses and streets now lack. We are in dire need for innovation, which regains coordination and order.

This innovation should – from my humble point of view – take two directions:

1- Innovating the contemporary Islamic speech, stemming from the Qur'an and the Sunnah mainly, and in a way that suits the contemporary conceptions from the treasury of the heritage. A comprehensive speech, which is free from opinions, is not required. This kind of speech was not known by Islam in any age of flourishing or weakness. But what is required is a speech free from struggle and denying the other.

2- Openness to others to explore communication factors that can be employed in forming general cultural framework, from which the Muslims and non-Muslims can benefit in overcoming this chronic disease, exhausting the energy of any innovation: the traditional split between heritage and innovation. There is a trend holding fast to the heritage as it is, and another one which holds fast to the West

[19] See for example the dialogue published by Al-Ahram Al-'Araby Magazine lately with Dr. Yusuf Al-Qarnawy, issues 193 and 194, 9th of December, 2001.

West to penetrate with its culture and behavior the Eastern society, house, and family. This is a new way of penetration, which is studied with a colonist philosophy. This expresses itself in the form of globalization. This means the control of only one country over the world market militarily, politically, and economically[17].

Although money, wealth, industry, and trade are not everything in this system, there is the side of sciences, communications, information, and culture. Globalization started its march towards the other countries and took practical steps, in for of the international trade and the conferences of climate and population, in addition to the international Fund and bank. Parallel to this, the worry of the peoples, in relation to their cultures and civilizations. The responsible people in France spoke about the danger coming from the American culture, with reference to the American pressures and making the atmosphere of culture and media open.

Cultural spread in this system is intended, and is one of the aims of innovation, which is based on centers or the center and the surrounding area. This is the same system of colonialism and colonies in the last century.

The only difference is that the colonialism in the previous century was permissible in many countries. Every one of it has a certain share of the Eastern colonies, but in the current system, the capitalist world is divided into a center of the Western civilization and the other countries which should submit to it[18]

This new confrontation caused paradoxes in the Islamic social system, which has not ever been taken into consideration, because our culture was not based on free Islamic values, qualifying them to face this invasion.

[17] For more information about the leadership of Jamal Al-Din Al-Afghany and Muhammad 'Abdo about the innovation of the modern Islamic thinking and the difference between them and the real innovators, see Modern Islamic Fiqh and its relation to the Western colonization, pp. 143 and 151: Wahbah library, Cairo, 1401 A H - 1981

[18] The previous reference, p. 30 in this context, Munir Shafiq reveals to us the main difference in the cultural spread in Islam of globalization. In the first case, the parties mixed with the center. Thus, submission disappeared. Apart from the second case, it is based on submission, which leads to struggle. The authors prove that harmony between the parties and the Islamic center by saying that the historic attempts that appeared in the form of parties following the Islamic center resulted in exploding the Islamic unity. He gave an example of the mixture of the cultural flourish known in Bukhara, Tasqand, and Samarqand, them the centers of Fiqh and culture at the West. This was in parallel and was not more successful than the center in Baghdad.

get if this side was taken into consideration. A process of classification for the binding elements should be occurred, may be some of them are not binding in fact.

Sheikh `Abdul Jalil Eissa blamed the contemporary scholars for not differentiate many circumstances from its commands and instructions. By inspecting them to know if they are a part of the compulsory or not.[15]

The non differentiation between Shari`ah and Fiqh, and adding to the Shari`ah human and opinions and conceptions and regarding it as an infallible text. Shari`ah should be differentiated from Fiqh. It should be limited to the Qur'an and Sunnah. As for the conclusion of the scholars, whether they are: jurisprudents, Usulists, Interpreters, Traditionists or Theologicals they should be considered as human knowledge and heritage, that may be taken or left.

It should not be understood that we should ignore the juristic heritage or to belittle our scholars. We also should not replace it with strange Jurisprudence, that contradicts with its nature. We should not neglect our juristic heritages. Not consider all of it is capable of facing the problems of the age or incapable of facing them.

It is strange that the nation resorts to imitation in our present age and to take it as a system to be followed in the issues of the age. While it gets from the scholars a warning and a prohibition of imitation, as it leads inevitably to stagnation. The principal jurists always saying: Do not imitate them, but take from what they took. They said, any person should follow the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) and his companions but can follow the followers or not. These sayings are authentically narrated from the Imam Abu Hanifah, and Imam Ahmad.

Before this are the narrations of Imam Malik to whom Al-Mansur said: "Let the source of knowledge become one source, Abu `Abdullah." Imam Malik said: "The Companions of the Messenger of Allah (may the

[15] Taken from book of Prof. Abul-Hamid Mutwally "the crisis of political thinking.

blessings and peace of Allah be upon him) spread in every place saying their opinions. The people of Mecca have an opinion and the people of Medina have another. When Al-Mansur said: "Knowledge is found at the people of Medina. Imam replied to him: "The people of Iraq are not satisfied with our knowledge, and do not see in our knowledge our opinion."

The necessity of the contemporary innovation:

There was a chance in our contemporary history for a real innovation that will achieve to us a real Islamic renaissance, undertaken by modernizers and contemporary scholars in the Islamic world. This renaissance was started by Sheikh Jamal Al-Din Al-Afghany (1897) and Sheikh Muhammad `Abdu (1849-1905)[16]. Also, it was followed by some innovators from Egypt, India, Turkey, Iraq, Syria, and North Africa. Although it achieved undeniable successes, it did not activate the Islamic thinking to go along with the world and treat it equally.

It became weak and its effects were reflected on the Islamic East. Then, we started to live again in the same crisis that suffocated us. The crisis of the conflict occurring in the two cultures in the last decades which became more violent and fierce. The Western cultural invasion was not from the beginning of the last century until its middle violent, but was limited to certain channels and left a way for the traditional Islamic heritage, to which the society resort at the time of loss and estrangement.

Communication at that time was limited to the notables not the majority of the people who could not afford for the costs of communication. This was limited to scholarships. Also, some of the elite spent summer vacations at the coasts of Europe, and got in touch with the movements of the orientalists and the science, literature, and culture produced by the West. In all cases, the majority was far from any cultural friction from this type that spoils it.

Now due to the great leap that occurred in the technology of communications, many obstacles were removed, and it was easy for the

[16] The previous reference, p. 1068, Kafana Taqlidan, Al-Azhar Magazine, Shawwal, 1372, June, 1953, p. 1067.

-It is not stipulated that the innovator reaches the rank of Ijtihad in science, but knowledge of the field is conditioned.

Innovation is not limited to jurisprudence, but it should include all of the matters that concern the matters of life and religion. They focus in this regard on the laws of wars, politics, justice, and preventing bloodshed.

The most important matter is refusing the famous case of jurisprudents, which call for forgetting all about Ijtihad after the fifth century of Hijirah. This case has no proof, and the skills granted by Allah are many in every time and place. As-Siuty wrote a book in this regard called "Responding to whoever ignore Ijtihad in every time and place.

4- If innovation in this way of importance in our mental and traditional heritage, the question that imposes itself is: what is the reason for inactivity. It mentioned many reasons for this inactivity studied by the contemporary people and rendered it to political and social factors. Some of them rendered it to the tyrannical political system, which is established by the Umayyad State, which causes separation between the Islamic sciences and the reality of the Msulims.

The jurisprudence of the economic and financial relations and that of the international relations have been frozen. The great Imams adhered to the branches of jurisprudence and the contemporary people took care of narrating the Sunan. They took care of accepting the facto and gave us details about the explanations of worship and transactions in the way that reached us.[10] Some of them follow the beginning of this crisis in the weakness of the `Abbasia state especially in the mess that occurred in judiciary, Ifta'a and Ijtihad and the courage of the non-qualified persons in science to get into the sensitive positions. This caused the faithful scholars to resort to close the Ijtihad gate to prevent mess[11].

They did not get at this time that their method ended in more mess and corruption. The whole matter ended in traditions, inactivity, fanaticism, which killed the Islamic thinking, as the Muslims continued to suffer from until now. This is represented in the fact that their culture does not

[10] The previous refernce.

[11] Al-Sayyid Yasin: Islamic opinions about citizenship, Al-Ahram, 29th of March, 20001.

suite their practical fact, or more accurately, their reality does not harmonize with their culture. They think at a culture and think of another culture. This causes destruction to the development capabilities, in addition to preventing indulging in the reasons for progress and welfare.

Some of the Crisis of Innovation:

If the previous political and social factors are changingable, most of which have changed in our age really , why do the modern innovation trials stumble? Why do they fail in developing and renewing the Islamic thought and preparing it in a way by which they can face the Western thinking? To answer these questions, we will display many reasons which causes the crisis facing the way of innovation, the most important of which:

1- Non-differentiating practically between the fixed and changing matters in religion. It is taken for granted that Islam is the religion of every time and place, and it should include eternal fixed matters and moving changes one. With regard to fixed matters, it came with eternal matters that are not affected with the fluctuations in time. It can be improved at the time of atom and spaceships as it was at the age of desert and camels. In the field of changeable matters, the people were addressed with general principles and flexible matters, which have different fields according to the progress of the circumstances of life, and the knowledge and experiments of the human being.[12]

Mixing the fixed and changeable matters in religion caused mixing the legislated and non-legislated matters. The religious scholars separated the legislated and non-legislated matters. They revealed that this was one of the reasons for lawful difference in the nation, and it was a source of mercy and simplicity in religion. If this matter is considered by a Mujtahid as a general legislation that does not change, it may be considered by another as a changing matter[13]. The grand Imam Sheikh Mahmoud Shaltout says: "Not all of the narrations about the Messenger and his instructions are binding to the Muslims[14]. We should imagine the huge jump of innovating the Islamic thinking will

[12] Muhammad Paqer Al-Sadr, Mugaz Usul-Ad-Din, pp. 101-102.

[13] Hasan Al-Turaby: the Issue of innovation, Dar Al-Huda, Beirut, 1431 A.H. – 2000.

[14] See Ta'lil Al-Ahkam, Sheikh Muhammad Mustafa Shalaby, 319, Cairo 1945.

2- We should know that the Muslim philosophers supporting continuing innovation did not start their ideas from the effect of external philosophies contrary to the nature of Islam. They draw our attention to the fact that there are some Qur'anic verses inspired them with these ideas. Al-Shirazy, who was a true believer, saw the world changing a generation after another until the Day of Judgment.[6] Al-Shirazy quoted many Qur'anic verses which inspired him with these theories, including the Saying of Allah (Glory be to Him): {And you will see the mountains and think them solid, but they shall pass away as the passing away of the clouds} [Al-Naml (Ants): 88]

Also :{Were We then tired with the first creation? Nay, they are in confused doubt about a new creation (i.e. Resurrection).}[Qaf: 15]

The second verse inspired the Grand Sheikh Muhiey Ad-Din ibn `Araby (560-638) with imagination about the innovation of the universe at every moment, summarizing this point saying: "The whole universe moves continuously."[7] The present life thereafter and the world is changing exactly like breathing.

The matter of the innovation and change occurring in the universe, which is based on the idea of the conclusion of the Existence of Allah (Glory be to Him), is found in all of the books of creed of the Muslim theologians. They all say that change is the reason for existence, which is the reason for the need of the One who causes change. In this way we take for granted that the world changes.

[6] Mafatih Al-Gahyb 426 along with the comments of Mulla `Ali Nury, Tehran, 1984.
[7] Quoted from the four books 3: 112-113. See a detailed analysis of the theory of Ibn Al- Araby in the change of the world. In his book "Fusus Al-Hikam" "in the explanation of Dawud Qaisary, p. 790-795, Tehran, 1375 A.H. and "Al-Futuhat Al-Makkiyah, vol. 3, p. 348 (ed. Bulaq). See the like of this idea in his message to Al-Mu`tasim bi-Allah in the first philosophy pp. 94-96, verified by Ahmad Fu'ad Al-Ahwany, Cairo, 1948. This should draw our attention to the fact that innovation movement differs radically from the other material and spiritual philosophies. While natural innovation backs to a principle inside nature: atoms, evolution, or the struggle of the paradoxes, the Islamic philosophy renders change to Allah, as everything goes back to Allah"
{Verily, all matters at the end go to Allâh (for decision).}
[Al-Shura (Consultancy): 53]
{Lâ ilâha illâ Huwa (none has the right to be worshipped but He), to Him is the final return.}
[Ghafir (Forgiver): 3]

We mean by speaking about the subject of innovation not a strange or abrupt subject in the heritage of Islam, but it is the core, spirit, and energy of the heritage of Islam.

3- We should not go far to explore things while we have decisive texts of Sunnah, emphasizing the necessity of innovation by the eminent scholars. The Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) says in this regard: "Allah sends down to this nation after a hundred of years someone who renews its religion."[8] This Hadith was tackled by the predecessors, who wrote about it separate messages[9], in which they stirred valuable matters such as fixing the beginning, middle and end of the hundred years. What is meant by innovation? Is there only one person responsible for innovation or more than one.

Also, they mentioned other researches in which they stated the names of the scholars who carry out the task of innovation starting from the first hundred years until the ninth century in the list of As-Siuty or the fourteenth century in the list of the one who has the "method of innovation". We notice that their purpose of innovation does not transcend the circle of "reviving the Sunnah and fighting the Bid`ah". They did not explain innovation in the Hadith in the meaning understood in our age now, which is: "reading the Sharia text in a new reading for the sake of applying it to reality. They need not – in a strong and stable Islamic society – to explain such a matter. They left for us in their explanations – in spite of their controversies – positive elements, from which we can benefit in a contemporary renewing movement, some of these elements are:

-The word of "innovator" in the Hadith refers to more than one. Thus, there may be many innovators in the same age, and the Hadith becomes – in this meaning – a Shari`a proof of the establishment of contemporary scholarly academies responsible for innovation.

[8] Refer in proving that the Hadith is Sahih: Dr. Youssef Al-Qaradawy, Renewing religion in the light of Sunnah, the Center of the Researches of Biography and Sunnah Magazine – Qatar, issue 2, 1047 A.H. 1987, p.11.
[9] See for example As-Siuty: Prediction of the person whom Allah sends at the beginning of every hundred years, ed. Mecca 1410 A.H.-1990. See manuscript in the Egyptian Books House, no. 4930, entitled: Wasilat Al-Mugadidin fi Sharh Al-Tajdid, along with the interpretation of the innovators by Majd ibn Muhammad Al-Girgawy, one of the scholars of the fourteenth century A.H. There are many references in this message to many messages in he subject of innovation and innovators.

contemporary history and civilization. The success of this message does not depend on a certain geographic environment, as it succeeded in its beginning in the same way it succeeded in environments far from it in spite of its difference in race, creed, language, history and civilization. History proves also that these far environments did not accept the Islamic Shari`ah against their own will, but they regarded it as the means of their rescue[34].

If we ask ourselves about the reason for this unprecedented cultural success which is achieved by the message of Islam, we will not find a more valid answer than that our message is valid for every time and place, the validity which is caused by other things special about its: flexibility and movement in its consideration of the physical and spiritual nature of the human being. Also it differentiates between what is fixed along with time, which does not cause embarrassment if they are asked about it, and the changing matter, which they cannot refute.

The capability of innovation or self innovation implies this flexibility, which is the other side of the validity of Islam to every time and place. Without it, this message could not spread its instructions and scientific and practical views in the East and the West among nations that change radically in different fields of life.

If the message of Islam takes the form of fixed items and articles that do not accept innovation, its message would not have continued, apart from the fixed matters concerning creed and morals. In this way, Islam becomes merely spiritual message which has nothing to do with the life of the human beings.

Innovation is the core of (mental and traditional) heritage:

The law of innovation is basis of a Qur'anic rule and a law of the universe which does not change. Allah made it a condition in every change to the better in the Qur'anic verses

[3] Muhammad Iqbal mentions in his book : the innovation of the religious thinking (pp. 173 and 175) – Dar Al-Hidayah – Cairo 1421 A.H. – 2000. Some historians said that the civilizations of the world will end soon – in spite of its continuance for four thousand years, and that the human beings will return to savagery. The world misses a new culture replacing the culture of throne and unity systems . The Arab historian says: "It surprised me that the Arabian Peninsula had a new culture based on the basis of unity and unified the whole world at the time when the whole world needed it.

[4]

{Verily, Allâh will not change the (good) condition of a people as long as they do not change their state (of goodness) themselves (by committing sins and by being ungrateful and disobedient to Allâh).}

[Al-Ra'd (Thunder): 11]

{'That is so because Allâh will never change a grace which He has bestowed on a people until they change what is in their ownselves. And verily, Allâh is All-Hearer, All-Knower.} [Al-Anfal (The Sopils): 53]

We thought that the idea of the change of the world every moment is said by the Greek and the Western philosophers, and that it is strange from the philosophy of Islam.

To our surprise, we found it in the great books of the heritage of the Muslims: Al-Ashaerah stated in their researches that "The outer forms does not remain two successive times, and they get renewed a moment after moment. Al – Mu'atazelah Sheikhs repeat this saying. An-Nazzam and Al-Ka'aby the two Mu'atazeli sheikhs, stating that the bodies are not settled and they are renewed continually. The conclusion is that the universe changes from a state to another every moment, whether its innovation occurs throughout changing the accidents on their essentials as Al-Ashaerah say or by changing of the accidents and essentials together as An-Nazzam says.

The Muslim philosopher Sadrudl-Din Al-Shirzy (who died in 1050 A.H) supported the idea of changing before Bergeson, the French philosopher (1859-1941). He was the unique philosopher during the mental philosophy history who supported the idea of changing of the essential things. He said the core of things is not fixed. The previous philosophers supported the theory of Aristotle of the fixation of the nature with its higher and lower worlds. Then, the Muslim philosopher refuted this saying. He said: "The state of the sun and the moon resembles that of Zayd and `Amr in their liability to perishing. Also components of heaven resembles the components of the earth, as all of them can be renewed.[5]

[5] The four books 1: 234-235 without date.

"O People, listen to me in earnest, worship Allah, Perform your five daily prayers (Salah), fast during the month of Ramadan, and give your wealth in Zakat. Perform Hajj if you can afford to. You know that every Muslim is the brother of another Muslim. You are all equal. Nobody has superiority over other except by piety and good action.

Remember, one day you will appear before Allah and answer for your deeds. So beware, do not astray from the path of righteousness after my going. O People, no prophet or apostle will come after me and no new faith will be born. Reason well, therefore, O People, and understand my words, which I convey to you. I leave behind me two things, the Qur'an and my example, (the Sunnah) and if you follow these you will never go astray. All those who listen to me shall pass on my words to others and those to others again; and may the last ones understand my words better than those who listen to me directly. Be my witness of Allah that I have conveyed your message to your people.

This was an eternal historical situation and a wonderful awesome scene. It was one of the sacred days, in the purified area of `Arafat, and in the farewell Hajj. The Messenger of Allah rode his she-camel, Al-Qaswa'a, all of the people surrounding him cried while he was telling informing them with the revelation and telling them of the life constitution in the last meeting with the biggest crowd of believers. He (May the blessings and peace of Allah be upon him) was keen to advise them all, as he may not meet them in the following year, as he mentioned. He called them to propagate virtue, while believing in the monotheism of Allah, and to prevent vice, preaching them that they may remember.

In fact, the Messenger of Allah was preaching them from the highest pulpit, saying the most eloquent words directed to the human conscience, so that all of the world may be guided.

The Messenger of Allah was keen that his words reach everyone. He asked one of his companions to repeat what he says, so that all of the crowd may hear. The Messenger of Allah said: Tell them, you know which month is this? They said: An inviolable month. Which country is this? They said: It is an inviolable country. Which day is this? They said: Hajj day. He stressed the things that Allah regards as sacred: "Just as you regard this month, this day, this city as Sacred, so regard the life and property of every Muslim as a sacred trust."

This sermon contained the basics of religion, rules of benevolence, and behavior. Also, it organized the relation of the human being to His Lord, his own self, and the society where he lives. It set the ways and limits set by Allah. {And whoever transgresses the limits ordained by Allâh, then such are the Zâlimûn (wrong-doers).} [Al-Baqarah (The Cow): 229]

*The Necessity of Innovation[1]...!

By: The Grand Imam Prof. Dr. Ahmad Muhammad At-Tayyib Al-Azhar Sheikh

Quite contemplation at the nature of the message of Islam – as a statement from Allah to the people transcending the limits of time and place – proves that Islam and innovation are two sides of the same coin, as innovation is of course one of the subjective elements. If it takes place, Islam becomes an effective system in the worldly life. If it freezes, it withdraws from life and it is limited to the religious rituals performed in the mosques and graves or practiced timidly in some circumstances.

Contemplation proves that the history of Islam – in the most flourishing ages – witnesses a strong relation that cannot be separated: the relation between innovation and the vitality of Islam. Also, it witnesses the relation between freezing and seclusion of Islam to a separate part of life and the society.

It is really strange that the expression "innovation" in Islam remains surrounded by risks due to the accusations faced by anyone who tries to address it without any right in most cases. This embodies the importance of the courageous conference which is concerned with innovation and reform. This is in spite of the criticism faced by anyone who tries to release this great religion from freezing. Unfortunately, all of the contemporary writings regard the callers to innovation as one whole and describe them as students of one pioneer in this regard: "Sir Ahmad Khan".[2]

O Scholars, the just history tells us about applying Islam to different fields of life, and the success of Shari`ah in this regard. Its Shari`ah represented the cornerstone in building cultural systems that become very successful in a very short time, the matter that astonished the scholars of

* An article by the Grand Imam published in Arabic at Al - Azhar magazine.

[1] A research presented to the conference of the attitudes of innovation and reformation in the modern Islamic thinking hold at Alexandria on January, 18, 2009.

[2] See for example: The conception of innovation of religion – Dar Al-Da`wah – Kuwait 1405 A.H. – 1984 (Masters). This masters seems an intended attempt – from the very beginning – to the attempts of innovation refuting the intentions of its callers. The callers for innovation were severely criticized

Hajj is an Islamic Assembly and International Conference...!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

(2)

Hajj is a great Islamic conference attended by all the Muslims who are able to perform it, coming from every part of the earth. They are all equal, brothers, and cooperative. There is no difference between the rich and the poor, the strong and the weak. The distances became closer. Thus, there is no sovereign, follower, prince, or mean. They are all the Servants of Allah, seeking His mercy and His Great Pleasure. Their hearts gathered to do good and to seek it for the sake of the individuals and the Muslims in general.

This should become preponderant over the personal interests and the private benefits. There is no doubt that these hearts, which come to the Hajj conference, are at the top of faith. The Muslims gather at that place from the East and the West, having only submission and obedience to Allah in their hearts as well as the true desire in the Forgiveness and Mercy of Allah. There is no competence in this place over the worldly interests; neither are there cooperation in delusion, slander, or submission to desire. In this meeting, there is no difference between the old and young, the rich and the poor, the superior and the subordinate. Also, the whole worldly life becomes worthless. And the value of prestige becomes trivial.

In 'Arafat, one should say a lot of Talbiyyah and make supplications. Allah looks at the people standing on 'Arafat from seven heavens, and expresses pride to the angels, saying: "My Servants come from every deep and distant mountain highway unkempt. My angels, witness, that I forgave them."

There will be great bounties. Allah (Glory be to Him) says: {There is no sin on you if you seek the Bounty of your Lord (during pilgrimage by trading). Then when you leave 'Arafât, remember Allâh (by glorifying His Praises, i.e. prayers and invocations) at Al-Mash'ar-il-Harâm. And remember Him (by invoking Allâh for all good.) as He has guided you, and verily, you were, before, of those who were astray.} [Al-Baqarah (The Cow): 198]

This presents to the pilgrims a depiction of the Day of Judgment in its greatness and submission. There are people from every category, language, and race. They may not speak to each other well, but their hearts sympathize with each other. Whereupon, monotheism revives in the souls, and the people make sure that no one will save them except that which is closer to then than their vein.

Do the Muslims realize the wisdom behind this great gathering in 'Arafat in a wide place? They realize that it is the gathering in which they should discuss their important issues. It is the yearly meeting, in which they exchange private and public benefits.

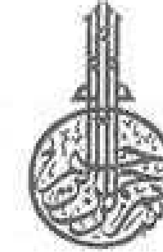
Do they realize this and act according to it? They make use of the chance, coming out of it in cooperation. They made it a season in which they prepare themselves to face their enemies while they are united believers.

The Messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him) delivered a speech in 'Arafat in the tenth year of Hijirah. He said: Praise be to Allah, we seek His help, Forgiveness, and Repentance. We seek refuge with Allah from the evils of our souls and the sins of our deeds. Whomever Allah guides will not go astray, and whoever goes astray, you will not find a guide to Him. I bear witness that there is no god but Allah with no partner, and I bear witness that Muhammad is the Servant and the Messenger of Allah. I advise you to fear and obey Allah.

People, lend me an attentive ear, for I don't know whether, after this year, I shall ever be amongst you again. Therefore, listen to what I am saying to you carefully and take these words to those who could not be present here today. "O People, just as you regard this month, this day, this city as Sacred, so regard the life and property of every Muslim as a sacred trust.

Return the goods entrusted to you to their rightful owners. Hurt no one so that no one may hurt you. Remember that you will indeed meet your Lord, and that He will indeed reckon your deeds. Allah has forbidden you to take usury (Interest), therefore all interest obligation shall henceforth be waived. Beware of Satan, for your safety of your religion. He has lost all hope that he will ever be able to lead you astray in big things, so beware of following him in small things. "O People, it is true that you have certain rights with regard to your women, but they also have rights over you. If they abide by your rights then to them belongs the right to be fed and clothed in kindness. Do treat your women well and be kind to them for they are your partners and committed helpers. And it is your right that they do not make friends with any one of whom you do not approve, as well as never to commit adultery.

AL-AZHAR MAGAZINE
Dhul-Hejjah, 1432 A. H.



ENGLISH SECTION
November, 2011

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾

الأعراف / ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."

(Al A'raf 43)

EDITOR : Dr. IBRAHIM AL-ASSIL,
Professor at the Faculty of Languages and Translation
Al-Azhar University

ترقب في العدد القادم

AL AZHAR
MAGAZINE

هدية العدد القادم :

طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، للعلامة الكواكبي (الجزء الثاني)

- ثقافة الشهادة والاستشهاد (أ. د. محمد عمارة)
- التفسير .. (للإمام محمد عبده)
- أقسام السنة النبوية.. (للإمام محمد الخضر حسين)
- من فتاوى الحاخامات
- من عيون التراث الإسلامي

الثمن ١٥٠ قرشا